

المحذر الوجيز

في
تفسير الكتاب العزيز
للإمام أبي محمد عبد المجيد بن غالب بن عطية الأندلسي
المتوفى سنة ٥٤٦ هـ

تحقيق
عبد السلام عبد الشافي محمد

طبعة محققة عن نسخة آيا صوفيا - استانبول ، رقم (١١٩).
المحفظة صورتها في مكتبة مرعشي نجفي - قم

الجزء الأول

منشورات
مجمع أبي بصير
لنشر كتب السنة وأحكامها
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



جميع الحقوق محفوظة

Copyright ©
All rights reserved
Tous droits réservés

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة
لدار الكتب العلمية - بيروت - لبنان
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة
تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على
أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو
برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة
الناشر خطياً.

Exclusive Rights by

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Droits Exclusifs à

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beyrouth - Liban

Il est interdit à toute personne individuelle ou morale d'éditer, de traduire, de photocopier, d'enregistrer sur cassette, disquette, C.D, ordinateur toute production écrite, entière ou partielle, sans l'autorisation signée de l'éditeur.

الطبعة الأولى

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

رمل الظريف، شارع البحري، بناية ملكارت
هاتف وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٣٧٨٥٤٢ (٩٦١ ١)
صندوق بريد : ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Beirut - Lebanon

Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Beyrouth - Liban

Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ère Étage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3211-3



9 782745 132116

<http://www.al-ilmiyah.com/>

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة «المحرر الوجيز» لابن عطية

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، والصلاة والسلام على النبي المصطفى. وبعد -
فقد قال ربنا جل شأنه ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾ [ص: ٢٩]
وقال سبحانه: ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون. قرآناً عربياً غير ذي عوج
لعلهم يتقون﴾ [الزمر: ٢٧، ٢٨].

وقال عز من قائل: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ [محمد: ٢٤]
وقال عز شأنه: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ [القمر: ١٧]
وقال عبد الله بن مسعود: من أراد العلم فليثور القرآن^(١).
وفي رواية أخرى أثيروا القرآن فإن فيه خير الأولين والآخرين.
وتثوير القرآن: مناقشته ومدارسته والبحث فيه. وهو ما يعرف به.

علم التفسير

وهو في اللغة: مصدر فُسِّرَ.. بمعنى الإيضاح والتبيين. قال تعالى: ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جنتاك
بالحق وأحسن تفسيراً﴾ [الفرقان: ٣٣] أي بياناً وتفصيلاً.
والفُسْر: البيان وكشف المغطى.
قال أبو حيان: ويطلق التفسير أيضاً على التعرية للانطلاق، يقال: فُسِّرَت الفرس: عُرِيَتْ لينطلق،
وهو راجع لمعنى الكشف، فكانه كشف ظهره لهذا الذي يريد منه من الجري.

أما في الاصطلاح

فقد عرف بعدة تعريفات منها:

هو: علم يبحث عن كيفية النطق بالفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها
التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمت ذلك^(٢).

(٢) هكذا عرفه أبو حيان في مقدمة البحر المحيط (١٣/١٠).

(١) من رفعه وهم، انظر مجمع الزوائد (١٦٥/٧).

- وقال الزركشي^(١):

هو علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من: علم اللغة، والنحو، والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ.

- وقال السيوطي^(٢):

هو علم نزول الآيات وشؤونها، وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيتها ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها، وحلالها وحرامها، ووعدا ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمثالها، وهذا التعريف أتم في الدلالة من تعريف أبي حيان والزركشي.

- وقيل^(٣):

هو: علم يبحث فيه عن أحوال القرآن المجيد من حيث دلالاته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية.

- وقيل^(٤):

هو: اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن وما يستفاد منها باختصار أو توسع. ومن عدّ التفسير علماً تسامح^(٥).

التأويل

وقد عرفنا معنى التفسير لغة واصطلاحاً فما معنى التأويل؟

هو في اللغة: من الإيالة وهي السياسة، فكان المؤول يسوس الكلام ويضعه في موضعه.

وقيل: من الأول وهو الرجوع، فكان المؤول أرجع الكلام إلى ما يحتمله من المعاني.

وأول الكلام وتأوله: دبره وقدره. وأوله وتأوله: فسر^(٦).

في الاصطلاح

أولاً: في الاصطلاح:

شدد السلف:

أ - تفسير الكلام وبيان معناه، سواء وافق ظاهره أم خالفه. وعليه فيكون التأويل والتفسير مترادفين.

(٤) الإمام الطاهرين عاشور - في مقدمة تفسيره التحرير والتنوير ص ١١.

(١) البرهان، (٣٣/١).

(٥) راجع المصدر السابق ص ١٢.

(٢) الاتفاق. ١٧٤/٢.

(٦) اللسان. أول، وأساس البلاغة: الأول.

(٣) منهج الفرقان/ محمد سلامة ٦/٢.

ب - نفس المراد بالكلام؛ فإن كان الكلام طلباً كان تأويله نفس الفعل المطلوب. وإن كان خبراً كان تأويله نفس الشيء المخبر به، وبين هذا المعنى والذي قبله فرق ظاهر^(١). . .

ثانياً: عند الخلف: هو صرف اللفظ عن المعنى الراجع إلى المعنى المرجوح للدليل يقترب به^(٢).

الفرق بين التفسير والتأويل

اختلف العلماء في بيان الفرق بين التفسير والتأويل:

- فقد ذهب بعضهم إلى أن التفسير والتأويل بمعنى واحد. وهؤلاء يمثلهم أبو عبيدة وطائفة معه.

- وقيل: التفسير أعم من التأويل، وأكثر ما يستعمل التفسير في الألفاظ، والتأويل في المعاني، كتأويل الرؤيا. والتأويل يستعمل أكثره في الكتب الإلهية. والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها.

وقيل غير ذلك^(٣).

والراجع: أن التفسير ما كان راجعاً إلى الرواية، والتأويل: ما كان راجعاً إلى الدراية، وذلك: لأن التفسير معناه: الكشف والبيان، والكشف عن مراد الله تعالى لا نجزم به إلا إذا ورد بطريق مأثور.

والتأويل: ملحوظ فيه ترجيح أحد احتمالات اللفظ بالدليل، والترجيح يعتمد على الاجتهاد^(٤).

أقسام التفسير^(٥)

أولاً: التفسير بالمأثور. أي المتقول، ويشمل:

- ١ - تفسير القرآن بالقرآن.
 - ٢ - تفسير الرسول للقرآن.
 - ٣ - تفسير الصحابة للقرآن.
 - ٤ - تفسير التابعين للقرآن.
- ولنعرف كل نوع من هذه الأنواع.

١ - تفسير القرآن بالقرآن

اشتمل القرآن الكريم على الإيجاز والإطناب، وعلى الإجمال والتبيين، وعلى الإطلاق والتقييد، وعلى العموم والخصوص.

(١) راجع: التفسير والمفسرون ١٩/١، ورقائق التفسير لابن تيمية ١٤٤/١.

(٢) راجع التفسير والمفسرون ٢٠/١.

(٣) راجع: الاتقان ١٧٣/٢، رقائق التفسير ١٤١/١ وما بعدها، تفسير البغوي ١٨/١، مقدمة التفسير للراغب ص ٤٠٢ - ٤٠٣، التفسير والمفسرون ٢٠/١ وما بعدها.

(٤) التفسير والمفسرون (بتصرف وإيجاز) ص ٢٣.

(٥) ينقسم التفسير إلى أقسام متعددة باعتبارات مختلفة. . . ولكننا نقصد هنا التقسيم من حيث الاتجاه العلمي ومصدر التفسير. . .

وما أوجز في موضع بسط في موضع آخر.

وما أجمل في مكان بين في آخر.

وما جاء مطلقاً في آية قد يلحقه التقييد في أخرى.

وما كان عاماً في مكان قد يدخله التخصيص في مكان آخر.

من هنا: كان على من يفسر القرآن الكريم أن يرجع إلى القرآن أولاً، يبحث فيه عن تفسير ما يريد، فيقابل الآيات بعضها ببعض، ويستعين بما جاء مسهباً ليعرف به ما جاء موجزاً، وبالمبين ليفهم به المجمل، ويحمل المطلق على المقيد، والعام على الخاص.

ولا يجوز لأحد - كائناً من كان - أن يتخطى هذا التفسير القرآني.

أمثلة لتفسير القرآن بالقرآن.

أ - حمل المجمل على المبين ليبين به:

- قال تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾ [البقرة: ٢٧].

فسرته آية الأعراف (٢٣) ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾

وقال تعالى في سورة المائدة [آية: ١]: ﴿أحلّت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم...﴾ فسرته

[آية: ٣] من السورة نفسها: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير...﴾ الآية.

ب - حمل المطلق على المقيد:

- وقد مثلوا لذلك بآية الوضوء والتميم، فإن الأيدي مقيدة في الوضوء بالغاية في قوله تعالى:

﴿فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق﴾ [المائدة: ٦] ومطلقة في التيمم في قوله تعالى - في الآية

نفسها - ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه...﴾ فقيدت في التيمم بالمرافق أيضاً.

- ومنه في كفارة الظهار ﴿فتحرير رقبة...﴾ [المجادلة: ٣].

وفي كفارة القتل ﴿فتحرير رقبة مؤمنة﴾ فيحمل المطلق في الأولى على المقيد في الثانية.

ت - حمل العام على الخاص:

- ومنه: نفي الخلعة والشفاعة على جهة العموم في قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم

من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة...﴾ [البقرة: ٢٥٤].

فقد استثنى الله المتقين من نفي الخلعة في قوله ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾

[الزخرف: ٦٧].

واستثنى ما أذن فيه من الشفاعة بقوله ﴿وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد

أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ [النجم: ٢٦].

- وقال تعالى ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ [النساء: ٢٣].

خصص بمثل قوله ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ [الشورى: ٣٠].

ث - ومن تفسير القرآن بالقرآن:

الجمع بين ما يتوهم أنه مختلف لخلق آدم من تراب في بعض الآيات، ومن طين في غيرها، ومن حمأ مسنون في ثالثة، ومن صلصال... فإن هذا ذكر للأطوار التي مر بها آدم من مبدأ خلقه إلى نفخ الروح فيه.

ج - التفصيل بعد الإجمال:

كقوله تعالى ﴿وكنتم أزواجاً ثلاثة...﴾ الآيات، فقد فصلت بقوله سبحانه: ﴿فأصحاب الميمنة... وأصحاب المشأمة... وأصحاب الشمال...﴾. وهناك غير ذلك كثير.

٢ - تفسير الرسول للقرآن

قال عز من قائل: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه﴾.

قال ابن عباس في قوله تعالى ﴿ثم إن علينا بيانه﴾. تبين حلاله وحرامه.

وقد ثبت أن جبريل كان ينزل على الرسول صلى الله عليه وسلم في رمضان فيتدارسان القرآن، وعندما نزل عليه قوله سبحانه ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾. قال: ما هذا يا جبريل؟ قال: إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك.

وقال ربنا لرسوله: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾ [النحل: ٤٤].

وعن المقدم بن معديكرب: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ألا إنني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان متكئ على أريكته، يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السباع، ولا لُقْطَة معاهد. إلا أن يستغني عنها صاحبها... الحديث».

وروى ابن المبارك عن الصحابي الجليل عمران بن حصين أنه قال لرجل: إنك رجل أحمق، أتجد الظهر في كتاب الله أربعاً لا يُجهر فيها بالقراءة؟ ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا، ثم قال: أتجده في كتاب الله مفسراً؟ إن كتاب الله أبهم هذا، وإن السنة تفسر هذا.

وعلى ذلك: فإذا لم نجد تفسير ما نريد من الآيات في القرآن فعلياً أن نلجأ إلى السنة ففيها: -

أ - بيان المجمل وتفصيله:

مثل: - بيان الرسول صلى الله عليه وسلم لمواقيت الصلاة، وعددها، وعدد ركعاتها، وكيفيتها.

- بيانه صلى الله عليه وسلم لمقادير الزكاة، وأوقاتها وأنواعها، وبيان مناسك الحج.

إذ قال عليه الصلاة والسلام: «صلوا كما رأيتموني أصلي» وقال «خذوا عني مناسككم».

ب - توضيح المشكل:

من ذلك تفسيره صلى الله عليه وسلم للخيط الأبيض والخيط الأسود في قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ...﴾ فقد فسره صلى الله عليه وسلم بأنه: بياض النهار، وسواد الليل.

ومنه: تفسيره صلى الله عليه وسلم للقوة الواردة في قوله سبحانه ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ...﴾ فقد روي مسلم وغيره عن عقبه بن عامر قال:

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول - وهو على المنبر - «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة» ألا وإن القوة الرمي. ألا وإن القوة الرمي. ألا وإن القوة الرمي.

ت - تخصيص العام:

- ومن تخصيصه صلى الله عليه وسلم الظلم في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ...﴾ الآية حين فهم بعض الصحابة بأن المراد بالظلم العموم فقالوا: وأينا لم يظلم نفسه؟.

فخصه صلى الله عليه وسلم بقوله «ليس بذلك، إنما هو الشرك» - ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾.

- ومنه تخصيصه صلى الله عليه وسلم المورث بغير الأنبياء بقوله «نحن معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة» وفي حديث آخر «إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذه بحظّ وافر...».

ث - تقييد المطلق:

- كما في قوله تعالى: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما...﴾ إذ قيدت باليمين. وقد جيء إليه صلى الله عليه وسلم بسارق فأمر بقطع يمينه.

- وكما في حديث «سعد» في الوصية - مما جاء في الصحيحين وغيرهما - عن سعد بن أبي وقاص قال:

«مرضت عام الفتح مرضاً أشفيت منه على الموت، فأتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودني فقلت: يا رسول الله إن لي مالاً كثيراً، وليس يرثني إلا ابنتي، أفأوصي بمالي كله؟ قال: لا. قلت: فثلثي مالي؟ قال: لا. قلت: فالشطر؟ قال: لا. قلت: فالثلث؟ قال: الثلث، والثلث كثير، إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالةً يتكففون الناس... الحديث».

ج - تأكيد ما جاء في القرآن:

مثال ذلك: قوله صلى الله عليه وسلم: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه» فهو موافق

لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ...﴾.

ح - بيان معنى لفظ أو متعلقه :

مثال ذلك تفسير ﴿المغضوب عليهم﴾ و ﴿الضالين﴾ .

فقد أخرج أحمد والترمذي - وحسنه - وابن حبان في صحيحه عن عدي بن حاتم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن المغضوب عليهم هم اليهود، وإن الضالين هم النصارى» .

خ - بيان أحكام زائدة على ما جاء في القرآن :

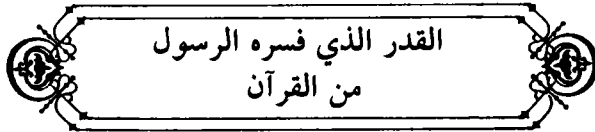
فقد أورد القرآن - مثلاً - المحرمات في قوله تعالى : ﴿ولا تنكحوا ما نكح آبؤكم . . . حرمت عليكم أمهاتكم . . .﴾ الآيات . فأنشئت الأحاديث زيادة على ذلك مثلاً : الجمع بين المرأة وعمتها، والجمع بين المرأة وخالتها .

وهناك أنواع أخرى من تفسير الرسول صلى الله عليه وسلم للقرآن .

يقول الطبري : «إن مما أنزل الله في القرآن على نبيه صلى الله عليه وسلم ما لا يوصل إلى علم تأويله إلا ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك تأويل جميع ما فيه من وجوه أمره ونهيه، وندبه وإرشاده . . . الخ» .

وقال أبو حيان : - في معرض حديثه عما يحتاج إليه المفسر :

الوجه الرابع : تعيين مبهم، وتبيين مجمل، وسبب نزول، ونسخ، ويؤخذ ذلك من النقل الصحيح عن الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك من علم الحديث .



الرأي الأول : اختلف العلماء في ذلك، فقال بعضهم : كله، وقال بعضهم : بعضه . فمن الذين قالوا : كله، ابن تيمية . . يقول - ومن ذهب مذهبه - : إن النبي صلى الله عليه وسلم يبين لأصحابه كل معاني القرآن الكريم، كما بين لهم ألفاظه، فلم يترك فيه جزءاً يحتاج إلى بيان إلا بينه وفسره .

وقد استدلوا على ذلك بما يأتي

١ - قوله تعالى : ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾ فالبيان في الآية يتناول بيان معاني القرآن كله، وبيان معاني ألفاظه .

٢ - ما روي عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن كعثمان بن عفان وابن مسعود - وغيرهما رضي الله عنهم أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً .

وذكر الإمام مالك في الموطأ : أن ابن عمر أقام على حفظ سورة البقرة ثمان سنوات .

٣ - إن العادة تمنع قوماً أن يقرؤوا كتاباً ولا يستفسروه، فكيف بالقرآن كتاب الله الذي به نجاتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

٤ - ما أخرجه الإمام أحمد - في مسنده - وابن ماجة عن عمر من أن الرسول صلى الله عليه وسلم قبض قبل أن يفسر آية الربا . .

قالوا: فحوى ذلك: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يفسر كل ما نزل من القرآن ولم يفسر هذه الآية .

وقد ردّ عليه بما يلي:

١ - إنه لا دليل في آية سورة النحل على أن الرسول فسر القرآن كله، وإنما البيان والتبيين لا يكون إلا لما أشكل فهمه .

ثم إن الآية نفسها تبين أن المطلوب من المسلمين أن يتفكروا في آيات القرآن . .

٢ - ولا دليل في ما رواه أبو عبد الرحمن السلمي - أيضاً - لأنهم لم يحددوا الزمن الذي كانوا يحفظون فيه العشر آيات . . ثم إنهم كانوا يعلمون كثيراً منه مما لا يحتاج إلى بيان فهم أهل اللسان الأول، والبيان والفصاحة .

٣ - استدلالهم بأن الرسول صلى الله عليه وسلم توفي قبل تفسير آية الربا لا يدل على ما أرادوا - وإنما هو دليل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يبين لهم كل معاني القرآن .

ثم إن ابن تيمية نفسه يقول في أحسن طرق التفسير:

الأول: إن أصح الطرق تفسير القرآن بالقرآن .

الثاني: فإن أعيانك ذلك فعليك بالسنة .

الثالث: إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدركوا الناس بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها .

الرابع: إذا لم نجد في القرآن ولا في السنة ولا عند الصحابة ما نزيد رجعنا إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر إلخ .

معنى ذلك أن الرسول لم يفسر القرآن الكريم كله .

الرأي الثاني: وهو للسيوطي وغيره، الذين ذهبوا إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يبين لأصحابه معاني القرآن كله، وإنما بين القليل النادر، واستدلوا على ذلك ب:

١ - حديث روي عن السيدة عائشة - رواه البزار: عن عائشة قالت: ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسر شيئاً من القرآن إلا آياً بعدد، علمه إياهن جبريل .

٢ - بيان الرسول لكل معاني القرآن متعذر .

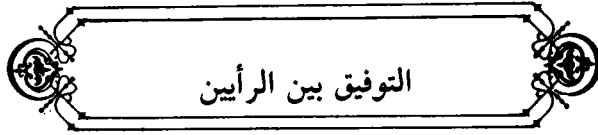
٣ - لو فسر الرسول القرآن كله ما دعا لابن عباس قائلًا: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» .

الرد عليهم :

١ - أما الحديث الذي استدلوا به فهو حديث منكر غريب ؛ لأنه من رواية محمد بن جعفر الزبيري ، وهو مطعون فيه .

٢ - وأما الدليل الثاني فلا بد أيضاً على ندرة ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في التفسير ، إذ إن دعوة إمكان التفسير بالنسبة لآيات قلائل ، وتعذره للكل غير مسلمة .

٣ - لو سلمنا أن الدليل الثالث يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يفسر كل معاني القرآن ، فلا نسلم أنه يدل على أنه فسر النادر منه كما هو المدعى .



التوفيق بين الرأيين

روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس قال^(١) :

التفسير على أربعة أوجه :

- * وجه تعرفه العرب من كلامها .
- * وتفسير لا يعذر أحد بجهالته .
- * وتفسير يعلمه العلماء .
- * وتفسير لا يعلمه إلا الله .

ولم يفسر الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه ما يرجع فهمه إلى معرفة كلام العرب ؛ لأن القرآن نزل بلغتهم ، ولم يفسر لهم ما تتبادر الأفهام إلى معرفته وهو الذي لا يعذر أحد بجهله ؛ لأنه لا يخفى على أحد ، ولم يفسر لهم ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة . . .

ولأنما فسر لهم الرسول صلى الله عليه وسلم بعض المغيبات التي أخفاها الله عنهم . . . وفسر لهم أيضاً كثيراً مما يندرج تحت القسم الثالث وهو ما يعلمه العلماء ويرجع إلى اجتهادهم ، كبيان المجمل ، وتخصيص العام ، وتوضيح المشكل ، وما إلى ذلك مما خفي معناه ، والتبس به المراد^(٢) .

٣ - تفسير الصحابة للقرآن

إذا لم نجد في القرآن ولا في السنة والأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم رجعتنا في ذلك إلى ما صح وثبت عن الصحابة .

ذلك : أنهم أدركوا منا بالقرآن ، فقد بين لهم الرسول معانيه ، وأزال مشكله ، وشرح مجمله . وهم أعلم بتفسيره منا لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي أحاطت بتزول القرآن الكريم ، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح ، والعمل الصالح ، والقلب المستضيء ، والعقل الذكي ، ولا سيما كبراءهم وعلماءهم كالخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وأبي ، وزيد بن ثابت ، وابن عباس ، وأمثالهم .

(١) تفسير الطبري ٢٥/١ .

(٢) التفسير والمفسرون ٥٥/١ .

عن عبد الله بن مسعود قال: «من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنهم كانوا أبرّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً، اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم». وقال الإمام الشافعي عنهم: «هم فوقنا في كل علم واجتهاد، وورع، وعقل، وأمر استدرك به علم، واستنبط به، وآراؤهم لنا أحمد، وأولى بنا من آرائنا عندنا لأنفسنا».

أدوات الاجتهاد في التفسير عند الصحابة

أ - معرفة أوضاع اللغة العربية وأسرارها، فإن ذلك يعين على فهم الآيات التي لا يتوقف فهمها على غير لغة العرب.

«فقد ورد أن عمر بن الخطاب قال: عليكم بديوانكم لا تضلوا، قالوا وما ديواننا؟ قال: شعر العرب، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم».

ب - معرفة عادات العرب في أقوالها وأفعالها... في عصر التنزيل. فذلك مما يعين على فهم القرآن ويبعد من الوقوع في الشبه.

فمن عرف منهم أن خزاعة عبدت «الشعري» ولم يعبد العرب كوكباً سواها عرف سر تخصيصها بالذكر في قوله تعالى ﴿وأنه هورب الشعري﴾.

ت - معرفة أسباب النزول وما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات فإنها قرائن تعين على الفهم. يقول الواحدي^(١): لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان سبب نزولها.

وفي جواب ابن عباس لعمر بن الخطاب ما يبين أهمية معرفة سبب النزول:

إذ سأله عمر بن الخطاب عن سر اختلاف الأمة، فقال له: كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد وقبلتها واحدة؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنا أنزل علينا القرآن فقرأناه، وعلمنا فيم نزل، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن ولا يدرون فيم نزل، فيكون لهم فيه رأي، فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اختلفوا^(٢).

ث - معرفة أحوال اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقت نزول القرآن، إذ تعين على فهم الآيات التي تتحدث عنهم أو ترد عليهم.

ح - قوة الفهم وسعة الإدراك.

ويدهي أنهم قد تفاوتوا في ذلك، وقد كان ابن عباس صاحب النصيب الأوفر في ذلك، بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم له.

أشهر مفسري القرآن من الصحابة

اشتهر من الصحابة بتفسير القرآن الكريم: الخلفاء الأربعة - عبد الله بن مسعود - أبي بن كعب - زيد بن ثابت - الزبير بن العوام - عبد الله بن عباس .
علي بن أبي طالب :

ومعظم ما روي من التفسير عن الخلفاء الراشدين هو عن عليّ كرم الله وجهه، وذلك لبعده عن مهام الخلافة إلى نهاية خلافة عثمان .

ثم إنه نشأ في بيت النبوة، وترعرع في كنف رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهل من علمه، ثم زوجه صلى الله عليه وسلم ابنته فاطمة الزهراء .

وقد دخل على تفسيره الشيء الكثير مما لم يقل به ولم يعلمه، إنما نسبه إليه غلاة الشيعة . فإذا ما ثبت عنه قول صحيح النسبة إليه - كما يقول سعيد بن جبير . (. . . .) لم نعد إلى غيره) وقد قال عليّ عن نفسه وهو يخطب^(١):

سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به، وسلوني عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليلاً نزلت أم بنهار أم في سهل أم في جبل .
وقال - فيما رواه ابن سعد - :

«والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت، وأين نزلت، وعلام نزلت، إن ربي وهب لي قلباً عقولاً، ولساناً ناطقاً» .

وقال أبو عبد الرحمن السلمي :
«ما رأيت ابن أنثى أقرأ لكتاب الله من علي» .
عبد الله بن مسعود :

كان من أعلم الناس بالتفسير - يقول عن نفسه^(٢) :
والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته .

وقد زكاه عليّ - كرم الله وجهه - وشهد له بسعة علمه وعلو كعبه في ذلك، فقد قالوا لعليّ : أخبرنا عن ابن مسعود، قال :

«علم القرآن والسنة ثم انتهى، وكفى بذلك علماً» .

(٢) الإتيان ١٨٧/٢ ، مقدمة في أصول التفسير/ ابن نيمية ٢٥ - ٢٦ .

(١) أسد الغابة ٢٣/٤ .

روى البخاري عن مسروق قال: ذكر عبد الله بن مسعود عن عبد الله بن عمرو - يعني: ابن العاص، فقال: لا أزال أحبه بعدما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأبي بن كعب».

أبي بن كعب:

أحد المشهورين بحفظ القرآن، العالمين بقراءته، وأحد كتاب الوحي للرسول صلى الله عليه وسلم. قال فيه عمر بن الخطاب: «أبي أقرؤنا». رواه البخاري.

قال له النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لم يكن الذين كفروا...﴾. قال: وسماني؟ قال «نعم» فبكى.

وفي رواية أخرى: قال صلى الله عليه وسلم:

إني أمرت أن أعرض عليك القرآن، فقال أبي: بالله آمنت، وعلى يدك أسلمت، ومنك تعلمت، قال: فرد النبي صلى الله عليه وسلم القول، فقال: يا رسول الله: وذكرت هناك؟ قال: نعم، باسمك ونسبك في الملاء الأعلى، قال: فاقرأ إذن يا رسول الله.

وفرّج أبي فرحة غامرة، صرح بها حين سئل: وفرحت بذلك؟ فأجابه: وما يمنعني وهو يقول: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾.

وقال صلى الله عليه وسلم: «استقرئوا القرآن من أربعة: عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب»^(١).

يقول عبد الله بن عباس^(٢):

«كنت ألزم الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار، فأسألهم عن مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما نزل من القرآن في ذلك، وكنت لا آتي أحداً إلا سرّ بإتياني؛ لقربي من رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعلت أسأل أبي بن كعب يوماً عما نزل من القرآن بالمدينة فقال: نزل بها سبع وعشرون سورة، وسائرهما بمكة».

زيد بن ثابت:

كان من كتاب الوحي، ذا بصيرة نافذة، وعقل واع، ويديه حاضرة، ولذلك أمره صلى الله عليه وسلم أن يتعلم السريانية والعبرانية حتى لا يزيدوا في رسائله صلى الله عليه وسلم.

قال زيد: فتعلمت السريانية في خمسة عشر يوماً - والعبرانية في خمسة عشر يوماً^(٣).

(١) طبقات القراء ٦/٦٢٩، عمدة القاري ٢/٢٤. باب القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

(٢) طبقات ابن سعد ٣٧١/٢.

(٣) وقيل سبعة عشر يوماً من خلاصة تاريخ التشريع. عبد الوهاب خلاف ٢٩٤.

هو: أعلم الناس بالفرائض - قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «أفرض أمتي زيد بن ثابت»^(١).

وقال سليمان بن يسار^(٢):

«ما كان عمر ولا عثمان يقدمان على زيد بن ثابت أحداً في القضاء، والفتوى، والفرائض، والقراءة».

عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن:

هو أكثر الصحابة تفسيراً للقرآن، سماه ابن مسعود: ترجمان القرآن، وكان يقول: نعم ترجمان القرآن ابن عباس.

تردد ابن عباس كثيراً على بيت النبوة، إذ فيه خالته «ميمونة» زوج الرسول صلى الله عليه وسلم. فكانت تؤنس وتلاطفه، وكان صلى الله عليه وسلم ينظر إليه نظرة إعجاب، وتوسم فيه الخير الكثير، ودعا له بقوله: اللهم آتِه الحكمة.

ودعا له صلى الله عليه وسلم قائلاً: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل. ورآه جبريل عند الرسول صلى الله عليه وسلم فأوصاه به وقال: إنه كائن حبر هذه الأمة فاستوص به خيراً وقد نهل من مادبة الرسول العلمية والخلقية فهو الذي قال له صلى الله عليه وسلم:

يا غلام: «إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»^(٣).

ولما توفي الرسول صلى الله عليه وسلم واصل ابن عباس رحلة العلم، فتتلمذ على كبار الصحابة، فكان كثيراً ما يجلس على باب أحدهم وهو قائل - أي وقت القيلولة - فيتوسد رداءه، وتسفي عليه الريح التراب، حتى يخرج الصحابي فيراه فيقول له:

يا ابن عم رسول الله: ما جاء بك؟ ألا أرسلت إليّ فأتيتك؟

فيجيب حبر الأمة: لا، أنا أحق أن أتيتك، ثم يسأله عما يحتاج إليه من العلم.

وفي خلافة عمر بن الخطاب ظهر نبوغه الشديد فكان عمر يدينه من مجلسه، ويعدده للمعضلات، وإذا أشكلت عليه قضية دعاه، فقال له: أنت لها ولأمثالها، ثم يأخذ بقوله، ولا يدعوا لذلك أحداً^(٤).

وأحب عمر فيه - مع علمه - جرأته رغم حداثة سنه. قال عمر يوماً لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: فيمن ترون نزلت هذه الآية ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب...﴾ الآية؟ قالوا: الله أعلم. فغضب عمر وقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم.

(١) الاستيعاب ٢٣/٢، صفة الصفوة ١/٢٩٥.

(٢) رواه الإمام أحمد والترمذي.

(٣) أسد الغابة ٣/١٩٣.

(٤) تاريخ الإسلام للذهبي ٢/٢٢٥.

وهنا برزت جرأة ابن عباس فقال بكل أدب وتوقير لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: في نفسي منها شيء. فقال عمر: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك.

قال: ضُربت مثلاً لعمل، فقال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: رجل غني يعمل بطاعة الله، ثم بعث له الشيطان، فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله^(١).

قال عطاء: ما رأيت أكرم من مجلس ابن عباس: أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشعر عنده.

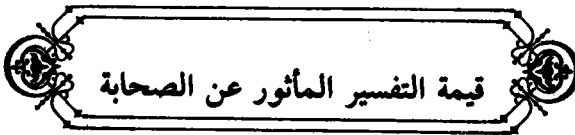
وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: كان ابن عباس قد فات الناس بخصال: بعلم ما سبقه، وفقه فيما احتيج إليه من رأيه، وحلم، ونسب، وتأويل؛ وما رأيت أحداً كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم منه؛ ولا بقضاء أبي بكر وعمر وعثمان منه؛ ولا أفقه في رأي، ولا أثقب رأياً فيما احتيج إليه منه. ولقد كان يجلس يوماً ولا يذكر فيه إلا الفقه، ويوماً التأويل، ويوماً المغازي، ويوماً الشعر، ويوماً أيام العرب، ولا رأيت عالماً قط جلس إليه إلا خضع له، وما رأيت سائلاً قط مسألة إلا وجد عنده علماً.

وقيل لطاوس:

لزمتم هذا الغلام - يعني ابن عباس - وتركت الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم!! قال: إني رأيت سبعين رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تدارؤوا في أمر صاروا إلى قول ابن عباس.

قيمة تفسيره:

يقول علي كرم الله وجهه عن تفسيره: «كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق». وقال ابن عمر: ابن عباس أعلم أمة محمد بما نزل على محمد. وقال تلميذه مجاهد عنه: إنه إذا فسر الشيء رأيت عليه النور.



قيمة التفسير المأثور عن الصحابة

قال العلماء:

- إن التفسير المأثور عن الصحابة له حكم المرفوع إذا كان مما يرجع إلى أسباب النزول وما ليس للصحابي فيه رأي.

- أما ما يكون للرأي فيه مجال فهو موقوف عليه ما دام لم يسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- وما حكم عليه بأنه من قبيل المرفوع لا يجوز رده اتفاقاً، بل يأخذه المفسر ولا يعدل عنه إلى غيره بأية حال.

- وما حكم عليه بالوقف اختلف العلماء فيه:

* قال بعضهم: لا يجب الأخذ به؛ لأن الصحابي مجتهد والمجتهد قد يخطئ وقد يصيب.

* وقال بعضهم: يجب الأخذ به لظن سماعهم من الرسول صلى الله عليه وسلم، ولأنهم حتى مع تفسيرهم القرآن برأيهم فهم أصوب لدرايتهم بكتاب الله، إذ هم أهل اللسان، ولبركة صحبتهم للرسول صلى الله عليه وسلم، والتخلق بأخلاقه صلى الله عليه وسلم ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح ولا سيما علماؤهم الكبار كابن مسعود وابن عباس.

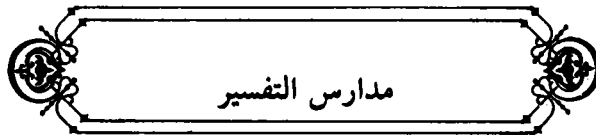
قال ابن كثير:

«... وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى الناس بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح...».

وقال الزركشي:

«اعلم أن القرآن قسمان: قسم ورد تفسيره بالنقل وقسم لم يرد.

والأول: إما أن يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم أو الصحابة، أو رؤوس التابعين، فالأول يبحث فيه عن صحة السند. والثاني ينظر في تفسير الصحابي، فإن فسره من حيث اللغة فهم أهل اللسان فلا شك في اعتماده، أو مما شاهدوه من الأسباب والقرائن فلا شك فيه».



١ - مدرسة مكة

قامت مدرسة التفسير في مكة على يدي عبد الله بن عباس، فهو مؤسسها وأستاذها. فكان يجلس لأصحابه من التابعين يفسر لهم كتاب الله تعالى، ويوضح لهم ما خفي من معانيه وقد كانت هذه المدرسة أهم المدارس نظراً لـ:

- مركز مكة الروحي لدى المسلمين جميعاً.

- لأن أستاذها ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن.

يقول ابن تيمية: أعلم الناس بالتفسير أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد، وعطاء بن أبي رباح. وعكرمة مولى ابن عباس، وطاوس، وسعيد بن جبير، وأمثالهم.

وتتميز هذه المدرسة بنهج المنهج اللغوي في تفسير القرآن، ولا عجب فأستاذها ابن عباس وهو من

هو في حفظ الشعر العربي، ومسائل نافع بن الأزرق وأجوبة ابن عباس عليها تدل على مدى تبحره في ذلك..

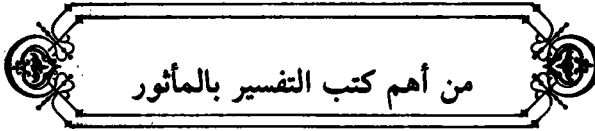
٢ - مدرسة المدينة

قامت هذه المدرسة على يدي أبي بن كعب رضي الله عنه، ولأن المدينة كانت دار الإسلام وقطب رحاه في حياة النبي صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة، وكانت مقر الخلافة الراشدة - كانت لها مكانتها عند المسلمين ولا زالت، ومن هنا كانت مركزاً علمياً مهماً - ومن أشهر من تتلمذ على يدي أبي في هذه المدرسة: زيد بن أسلم، أبو العالية، محمد بن كعب القرظي...

مدرسة العراق

وقد قامت هذه المدرسة على يدي الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود، فهو أستاذها الأول، ذلك أن عمر بن الخطاب لما ولي عمار بن ياسر على الكوفة سیر معه عبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً. ويمتاز أهل العراق بأنهم أهل الرأي. وهذه ظاهرة نجدها بكثرة في مسائل الخلاف. وأشهر رجال هذه المدرسة: علقمة بن قيس، مسروق، الأسود بن يزيد، مرة الهمداني، عامر الشعبي، الحسن البصري، قتادة.

وهؤلاء الذين تخرجوا في تلك المدارس هم مفسرو التابعين للقرآن الكريم.



- ١ - جامع البيان في تفسير القرآن للطبري.
- ٢ - بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي انظر الكلام مفصلاً في تحقيقنا لدار الكتب العلمية.
- ٣ - معالم التنزيل للبغوي.
- ٤ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية وهو الذي نحن بصده.
- ٥ - تفسير القرآن العظيم للمحافظ ابن كثير.
- ٦ - الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي.

ثانياً: التفسير بالرأي

والمراد بالرأي: الاجتهاد.. فالتفسير بالرأي: هو تفسير القرآن بالاجتهاد بعد مغفرة المفسر لكلام العرب ومفاهيمهم في القول، ومعرفته للألفاظ ووجوه دلالتها، واستعانتة في ذلك بالشعر الجاهلي، ووقوفه على أسباب النزول، ومعرفته بالناسخ والمنسوخ من آيات القرآن، وغير ذلك من الأدوات التي يحتاج إليها المفسر.

وقد اختلف العلماء في جواز التفسير بالرأي اختلافاً كبيراً لا داعي للخوض فيه فعليك بمقدمه البحر المحيط واللباب في علوم الكتاب وبحر العلوم فقد فصلنا القول فيه وفي مذاهب أهل العلم في حكم التفسير بالرأي .

من أشهر كتب التفسير بالرأي

- ١ - مفاتيح الغيب للإمام الفخر الرازي .
- ٢ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي .
- ٣ - مدارك التنزيل وحقائق التأويل للفتي .
- ٤ - لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن
- ٥ - البحر المحيط لأبي حيان . .

منهج ابن عطية في التفسير

لقد سلك ابن عطية في تأليف كتابه «المحرر الوجيز» مسالك المفسرين فجاء كتابه جامعاً بين المأثور والمعقول فمن أهم الأسس التي قام عليها منهجه في تفسيره:

١ - الجانب الأثري

يذكر ابن عطية دائماً ما روي عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما روي عن الصحابة والتابعين في تفسير القرآن ولكن دون ذكر أسانيد المرويات وكثيراً لا يذكر تخريج الحديث ويكتفي أحياناً بذكر الصحابي الراوي للحديث وكان ينقل عن ابن جرير الطبري كثيراً ويناقش رأيه ويرد عليه أحياناً .

٢ - جانب الرأي عند ابن عطية

كان ابن عطية رحمه الله يكثر في تفسيره من ذكر وجوه الاحتمالات التي يمكن حمل الآية عليها ناقلاً ذلك عن المفسرين وغيرهم فيقوم بتفسير الآية بعبارات عذبة سهلة - مناقشاً ما ينقله من آراء وكان كثير الاستشهاد بالشعر العربي ، فعني بالشواهد الأدبية للعبارة كما أنه يحتكم إلى اللغة العربية عندما يوجه بعض المعاني ، وهو كثير الاهتمام بالصناعة النحوية كما أنه يتعرض كثيراً للقراءات وتوجيهها في آيات الذكر الحكيم .

قال أبو حيان في مقدمة تفسيره في صدد المقارنة بين ابن عطية والزمخشري : «وكتاب ابن عطية أنقل ، وأجمع ، وأخلص ، وكتاب الزمخشري ألخص ، وأغوص» .

مصادر ابن عطية

لا شك أن المصادر تعتبر النواة الأولى للمفسر سواء كانت هذه المصادر تلقى عن الشيوخ أو متمثلة في الكتب التي استفاد منها في كتابة التفسير فيمكن أن نقسم المصادر إلى نوعين: المصدر الأول وهو شيوخه وقد تقدم الكلام عليهم والمصدر الثاني وهو الكتب التي استفاد منها في كتابة التفسير فنقول والله الحمد والمنة: فكان من أهم الكتب التي تأثر بها التفسير القيم المسمى بـ:

١ - «جامع البيان في تفسير القرآن»:

وتفسير ابن جرير هو لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري ولد سنة أربع وعشرين ومائتين وتوفي سنة عشر وثلاثمائة وكان حافظاً لكتاب الله ومحيطاً بالآيات ناسخها ومنسوخها وبطرق الرواية صحيحها وسقيمها وبأحوال الصحابة ولذلك كان تفسيره من أجل التفاسير بالمأثور وأصحبها وأجمعها.

قال النووي في تهذيب الأسماء واللغات: كتاب ابن جرير في التفسير لم يصنف أحد مثله^(١).

ومع جلال قدر الإمام الطبري عند أهل العلم وخاصة الإمام ابن عطية الغرناطي لم يكن موقف ابن عطية موقف المتأثر^(٢) دائماً الذي ينقل أقوال الطبري ويوافقه في جميع ما ذهب إليه، بل كان ابن عطية كثيراً ما يناقش الإمام الطبري فيما ذهب إليه وهنا تتضح شخصية الإمام ابن عطية في نظر الباحثين.

٢ - «شفاء الصدور»:

لأبي بكر محمد بن الحسن بن زياد الموصلي المعروف بالنقاش المقرئ المفسر، كان إمام أهل العراق في القراءات والتفسير قرأ القرآن على هارون بن موسى الأخفش، وابن أبي مهران وجماعة وقرأ عليه خلائق وروى الحديث عن أبي مسلم الكجّي ومطين والحسن بن سفيان وآخرين، وروى عنه الدارقطني وابن شاهين وأبو علي بن شاذان وجماعة.

ضعفه جماعة قال البرقاني: كل حديث النقاش منكر، فقال الخطيب: في حديثه مناكير بأسانيد مشهورة، وقال الذهبي: ليس بثقة على جلالته ونبله^(٣). ولضعف هذا الرجل كان نقل الإمام ابن عطية عنه على حذر وخيفة فكان ينظر إلى كلامه بعين الناقد البصير فإن كان ضعيفاً نبه عليه وعبر عنه بأنه وهم.

٣ - «التحصيل لفوائد كتاب التفصيل الجامع لعلوم التنزيل»:

وهو لأبي العباس أحمد بن عمار المهدي التميمي مقرئ أندلسي أصله من المهديّة بالقيروان وكان

(١) طبقات المفسرين للدودي (١٠٦/٢) غاية النهاية (١٠٦/٢) ابن السبكي (١٢٠/٣) شذرات الذهب (٢٦٠/٢) طبقات القراء للذهبي (٢١٣/١) البداية والنهاية (١٤٥/١١) الوافي بالوفيات (٢٨٤/٢) وفیات الاعیان (٣٣٢/٣).

(٢) منهج ابن عطية ٩٥.

(٣) تذكرة الحفاظ (٩٠٨/٣) ميزان الاعتدال (٥٢٠/٣) طبقات المفسرين للدودي (١٣١/٢).

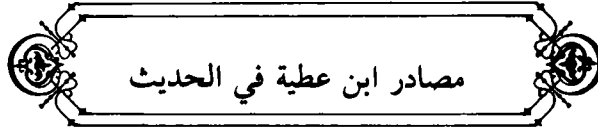
مقدماً في القراءات والعربية ومات في حدود سنة ثلاثين وأربعمائة^(١). والمهدوي: نسبة إلى المهدية، بينها وبين القيروان مرحلتان بناها أحمد بن إسماعيل المهدي على ساحل البحر^(٢).

يقول شيخنا الأستاذ الدكتور عبد الوهاب فايد: وكان موقف ابن عطية من هذا المصدر أننا نجده أحياناً يستشهد بكلام المهدي دون أن يعقب عليه وكأنه بذلك يشير إلى أن كلامه محتمل في معنى الآية وفي كثير من الأحيان ينقل كلام المهدي في الآية ثم يردفه بالتعقيب عليه^(٣).

٤ - «الهداية إلى بلوغ النهاية»:

هو لمكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار أبو محمد القيسي، كان من أهل التبصر في علوم القرآن والعربية.

وكان موقف ابن عطية من هذا التفسير مشابهاً إلى حد كبير تفسير الإمام المهدي^(٤).



السنة النبوية الشريفة تعتبر أصلاً من أصول التشريع الإسلامي فهي شارحة للقرآن الكريم مفصلة لمجمله، مقيدة لمطلقه مخصصة لعامة مبينة لمبهمه مظهرة لأسراره^(٥) فكان ابن عطية ينهل من الكتاب الكريم فإن لم يجد أخذ من السنة الصحيحة فكان من أهم المصادر التي استفاد منها في كتابه أولاً:

١ - صحيح البخاري المسمى بالجامع الصحيح.
وهو لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري المتوفى سنة ٢٥٦ هـ وقد خرج الإمام ابن عطية عنه كثيراً.

٢ - المسند الصحيح للإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري المتوفى سنة ٢٦١ هـ وهو من المصادر الهامة لابن عطية قد خرج عنه كثيراً.

٣ - سنن أبي داود.
وهو سليمان بن الأشعث بن شداد بن عمرو بن عامر المتوفى سنة ٢٧٥ هـ.^(٦)

(١) غاية النهاية (٩٢/١) طبقات المفسرين للداودي (٥٦/١) انباه الرواة (٩١/١) مفتاح السعادة (٨٤/٢).

(٢) انظر معجم البلدان (٦٩٤/٤).

(٣) منهج ابن عطية (١٠٥).

(٤) منهج ابن عطية (١٠٦).

(٥) انظر مقدمتنا على كتاب فتح العلام للشيخ زكريا الأنصاري.

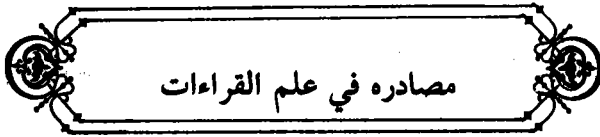
(٦) الجرح والتعديل (١٨٢/٨) تاريخ بغداد (١٠٠/١٣) تذكرة الحفاظ (٥٨٨/٢).

(٧) الجرح والتعديل (١٠١/٤) تاريخ بغداد (٥٥/٩) وفيات الأعيان (٤٠٤/٢).

٤ - الجامع الصحيح المسمى بسنن الترمذي .
وهو للإمام أبي عيسى بن محمد بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمي البوغي الترمذي الضرير،
توفي سنة ٢٧٩ هـ وقيل غير ذلك^(١) .

٥ - سنن النسائي
للإمام أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار الخراساني توفي في شعبان سنة ثلاث
وثلاثمائة «٣٠٣» هـ^(٢) .

وغير ذلك من المصادر التي ستقف عليها من خلال قراءتك في الكتاب .



١ - القراءات علم بكيفيات أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقله . . . والمقري: العالم بها رواها مشافهة، فلو حفظ التيسير مثلاً ليس له أن يقرء، بما فيه إن لم يشافهه من شوفه به مسلسلاً، لأن في القراءات أشياء لا تحكم إلا بالسمع والمشافهة .

وكان تفسير ابن عطية مملوءاً بالقراءات مستعملها وشاذها فكان اعتماده على مصادر كثيرة من أبرزها:

١ - «المحتسب»

وهو كتاب متداول بين أهل العلم مطبوع في مجلدين وهو لأبي الفتح عثمان بن جني - بسكون الياء
معرب - من حذاق أهل الأدب وأعلمهم بالنحو والتصريف، توفي سنة ٣٩٢ هـ^(٣) .

قلت: وقد أكثر النقل عنه بخاصة في توجيه القراءات الشاذة .

٢ - «نحجة في علل القراءات السبع»

لأبي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن محمد بن سليمان الإمام أبي علي الفارسي توفي ببغداد سنة
٣٧٧ هـ^(٤) .

يقول الأستاذ عبد الوهاب: «وقد لاحظت أن ابن عطية في بعض نقوله عن أبي علي الفارسي كانت له
شخصيته الناقدة وعقليته الفاحصة، حيث كان أحياناً يناقش الفارسي ويتعقبه في أقواله وآرائه» . . . وذكر
لذلك أمثلة . . .

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي (١٨٧/٢) ميزان الاعتدال (١١٧/٣)

(٣) دمية القصر (٢٩٧) بغية الوعاة (١٣٢/٢)

التهذيب (٣٨٧/٩)

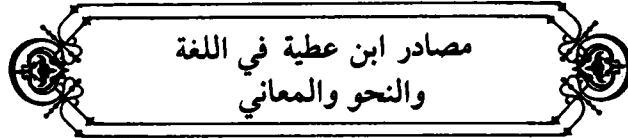
(٤) بغية الوعاة (٤٩٦/١)

(٢) وفيات الأعيان (٧٧/١) العبر (١٢٣/٢) الإسنوي (٢٦٨/٢)

٣ - التيسير

لأبي عمرو بن عثمان بن سعيد بن عثمان، أبي عمرو الداني ويقال له ابن الصيرفي من موالى بني أمية: أحد حفاظ الحديث، توفي سنة ٤٤٤ هـ^(١).

وكان ابن عطية ينقل منه كثير وهذا يتضح لقارئ الكتاب.



١ - معاني القرآن للفراء

وهو لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء كان من أعلام أهل الكوفة بالنحو بعد أستاذه الكسائي وقال فيه أبو العباس ثعلب: لولا الفراء ما كانت عربية، لأنه خلصها وضبطها، ولولا الفراء لسقطت العربية لأنها كانت تتنازع ويدعيها كل من أراد، توفي سنة ٢١٧ هـ^(٢).

٢ - معاني القرآن للزجاج

لأبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري الزجاج، أحد أئمة أهل العربية وأقدم أصحاب المبرد توفي سنة ٣١١ هـ.

٣ - «الاغفال فيما أغفله الزجاج من المعاني»

وهو لأبي علي الفارسي.

٤ - معارج القرآن

لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري.

كان من أعلم الناس بالعربية وأخبار العرب توفي سنة ٢٠٩ هـ.

٥ - «الكتاب»

لسيبويه أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر إمام البصريين ويقال له أبو الحسن مولى بني الحارث بن كعب ولقب بسيبويه ومعناه رائحة التفاح توفي سنة ١٨٠ هـ وقيل غير ذلك^(٣).

٦ - المقتضب

لأبي العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي البصري أبي العباس المبرد إمام العربية في زمانه توفي سنة ٢٨٥ هـ^(٤).

(١) النجوم الزاهرة (٥٤/٥) نفع الطب (٣٩٢/١) غاية النهاية (٥٠٣/١) وهناك مصادر أخرى ونحن لم نرد حصرها والله الموفق.

(٢) طبقات النحويين واللغويين (١٣٢/١). (٣) وغير ذلك كثير والله الحمد والمنة. (٤) البغية ٢/٢٦٩.

٧ - العين

للخليل بن أحمد الفراهيدي، سيد أهل الأدب قاطبة في علمه وزهده، والغاية في تصحيح القياس، واستخراج مسائل النحو وتعليقه، توفي سنة ١٧٠ هـ^(١).

٨ - إصلاح المنطق

ليعقوب بن إسحاق بن السكيت أبي يوسف من أكابر أهل اللغة قال المبرد عن كتابه: ما رأيت للبغداديين كتاباً خيراً من كتاب يعقوب بن السكيت في المنطق، توفي سنة ٢٤٤ هـ^(٢).

٩ - الفصح

لأبي العباس أحمد بن يحيى بن يسار الشيباني مولا هم البغدادى الإمام أبى العباس ثعلب إمام الكوفيين فى النحو واللغة، توفي سنة ٢٩١ هـ^(٣).

١٠ - «المجمل فى اللغة»

لأحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب أبى الحسين اللغوى القزوينى، توفي سنة ٣٩٥ هـ بالري^(٤).

١٠ - المخصص

لعلى بن أحمد بن سيده اللغوى النحوى الأندلسى أبى الحسن الضرير صاحب المحكم والمحيط توفي سنة ٤٥٨ هـ^(٥).

مصادر ابن عطية فى الفقه

والفقه هو العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية^(٦) وعرفه ابن خلدون فى مقدمته فقال: الفقه معرفة أحكام الله تعالى فى أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهة والإباحة وهى متلقة من الكتاب وما نصه الشارع لمعرفته من الأدلة فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه.

فالفقه فى تفسير ابن عطية متلقى من كتب المذاهب المختلفة خاصة المذهب المالكي حيث إنه السائد آنذاك فمن أهم المصادر:

(٤) بغية الوعاة (١/٣٥٢).

(٥) بغية الوعاة (٢/١٤٣).

(٦) المستصفى (٤/١) شرح الكوكب المنير (١/٤٠).

(١) بغية الوعاة (١/٥٥٧).

(٢) بغية الوعاة (٢/٣٤٩).

(٣) البغية (١/٣٩٦).

١ - الموطأ

وهو لإمام دار الهجرة مالك بن أنس وهو أحد أعلام الإسلام وإمام دار الهجرة، توفي سنة ١٧٩ هـ ودفن بالبقيع^(١).

٢ - المختصر

لعبد الله بن عبد الحكم بن أعين كان من أعلم أصحاب مالك بمختلف قوله، وأفضت إليه الرياسة بعد أشهب، توفي سنة ٢١٤ هـ^(٢).

٣ - المدونة

وهي أصل المذهب المالكي وعمدته قال سحنون: إنما المدونة من العلم بمنزلة أم القرآن من القرآن تجزي في الصلاة عن غيرها ولا يجزي غيرها عنها.

وأصل المدونة أسئلة أسد بن الفرات علي بن عبد الرحمن بن القاسم بعد وفاة مالك فأجابه ابن القاسم بنص قول مالك مما سمعه منه أو بلغه عنه أو قاسه على قوله ورحل بها أسد إلى القيروان فكانت تسمى «الأسدية» و«كتاب أسد» و«مسائل ابن القاسم» ثم طلبها سحنون من أسد فمنعه إياها فتلطف به سحنون حتى وصلت إليه فرحل بها سحنون إلى ابن القاسم فسمعها منه وأصلح فيها أشياء كثيرة رجع ابن القاسم عنها ثم كتب ابن القاسم إلى أسد أن يعرض كتابه على سحنون ويصلحه منها فأنف عن ذلك فرتبها سحنون فأصبحت المدونة المشهورة بين الخلائق^(٣).

٤ - الواضحة

لعبد الملك بن حبيب السلمي فقيه أهل الأندلس، توفي سنة ١٨٣ هـ^(٤).

٥ - التفريع

لأبي القاسم بن الجلاب المتوفى سنة ٣٧٨ هـ^(٤).

٦ - «الإشراف على مذاهب أهل العلم»

لأبي بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري المتوفى سنة ٣٠٩ هـ^(٥).

(١) الخلاصة (٣/٣).

(٢) المدارك (٥٢٣/٢) وفيات الأعيان (٢٣٩/٢).

(٣) انظر مواهب الجليل (٣٣/١) كارل بروكلمان (٢٨١/٣).

(٤) المدارك (٣٠/٣).

(٥) أما مصادره في علم التوحيد والتاريخ والسير فلم يكن يختص كتاباً دون آخر بل كان ينقل عن أئمة هذا الشأن فمثلاً في التوحيد ينقل عن إمام أهل السنة والجماعة «أبي الحسن الأشعري» وأبي الطيب الباقلاني وإمام الحرمين أبي المعالي الجويني وغيرهم وكذلك الأمر في التاريخ والسير.

الترجمة

اسمه ومولده

القاضي أبو محمد: عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن عبد الرؤوف بن تمام بن عبد الله بن تمام بن عطية بن خالد بن عطية المحاربي الداخلى^(١).

ولد سنة ثمانين وأربعمائة واعتنى به والده ولحق به الكبار وطلب العلم وهو مراهق وكان يتوقد ذكاءً.

شيوخه

١ - والده الحافظ الناقد المجود أبو بكر غالب بن عبد الرحمن. وكان والده يعتبر اللبنة الأولى له في تلقينه للعلوم والمعارف لا سيما وهو إمام جليل قال عنه ابن بشكوال كان حافظاً للحديث وطرقه وعلمه عارفاً بالرجال ذاكرًا لمتونه ومعانيه وكان أديباً شاعراً لغوياً ديناً فاضلاً توفي سنة ثمان عشرة وخمسمائة من جمادى الآخرة وله سبع وسبعون سنة.^(٢)

٢ - الحافظ الحسين بن محمد بن أحمد أبو علي الغساني محدث الأندلس، كان بصيراً بالعربية واللغة والشعر والأنساب وتصدر بجامع قرطبة وأخذ عنه الأعلام وكان مما أخذ عنه الإمام ابن عطية رحمهما الله. وتوفي سنة ٤٩٨ هـ.^(٣)

٣ - الحافظ أبو علي الحسين بن محمد بن سكرة الصدي. كان عالماً بالحديث وطرقه، عارفاً بالقراءات وله الباع الطويل في الرجال والعلل والأسماء والجرح والتعديل وكان حسن الخط جيد الضبط توفي سنة ٥١٤ هـ.^(٤)

٤ - الإمام أبو الحسن علي بن أحمد بن خلف الأنصاري المعروف بابن الباذش كانت له الإمامة بالأندلس في صناعة العربية وإقراء القرآن توفي سنة ٥٢٨ هـ.^(٥)

(١) انظر ترجمته في الصلة (٣٨٦/٢) معجم ابن الأبار (٢٦٩ - ٢٧٣) بغية الملتبس (٣٧٦) اللديج المذهب (٥٧/٢) بغية الوعاة

(٢) طبقات المفسرين (١٧/١٦) الداودي (٢٦٠/١) فجع الطيب (٦٧٩/١) سير أعلام النبلاء (٥٨٧/١٩) شجرة النور

الزكية (١٢٩/١) هدية العارفين (٥٠٢) كشف الظنون (٤٣٩، ١٦١٣).

(٢) الفهرست لابن عطية (٤١) الصلة (٤٥٧/٢) سير أعلام النبلاء (٥٨٦/١٩).

(٣) تذكرة الحفاظ (١٢٣٣/٤) الصلة (١٤٢).

(٤) فهرست ابن عطية (٣١) تذكرة الحفاظ (١٢٥٣/٤).

(٥) المعجم في أصحاب أبي علي الصدي (٣١).

٥ - الفقيه أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن عتاب القرطبي وصفه ابن بشكوال بقوله «آخر الشيوخ الجلة الأكابر بالأندلس في علو الإسناد وسعة الرواية»^(١) توفي سنة ٥٢٠ هـ.

٦ - الفقيه أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد العزيز بن حمدين التغلبي أجل رجال الأندلس وزعيمها في وقته ومقدمها جلاله ووجاهة وفهماً ونباهة، مع النظر الصحيح في الفقه والأدب البارع والتقدم في النثر والنظم توفي سنة ٥٠٨ هـ^(٢).

٧ - الفقيه أبو بحر سفيان بن العاصي بن أحمد الأسدي من جلة العلماء وكبار الأدباء ضابطاً لكتبه صدوقاً في روايته من أهل الرواية والدراية توفي سنة ٥٢٠ هـ^(٣).

تلاميذه

لقد فاق الإمام ابن عطية الغرناطي في كثير من العلوم والمعارف فكان من الطبيعي أن ينهل منه ويتلمذ عليه فقد درس عليه كثير من رواد العلم فمن أشهرهم:

١ - الإمام الحافظ الثقة أبو بكر محمد بن خير بن عمر الإشبيلي المتوفى سنة ٥٧٥ هـ.

٢ - الإمام الفقيه أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الملك بن أبي جمرة المرسي المتوفى سنة ٥٩٩ هـ.

٣ - الإمام الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري المشهور بابن حبيش المتوفى سنة ٥٨٤ هـ.

٤ - الإمام الفيلسوف أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي المتوفى سنة ٥٨١ هـ.

٥ - الإمام العالم الثقة أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مضاء اللخمي القرطبي توفي سنة ٥٩٢ هـ.

(١) الصلة (٣٣٢).

(٢) مشيخة عياض (١٧) وانظر منهج ابن عطية (٤٦).

(٣) الصلة (٢٢٥) وبهذا القدر من الشيوخ نكتفي فإننا أوردنا هذا القدر على سبيل المثال لا الحصر.

مصنفاته

ساهم ابن عطية رحمه الله في إثراء المكتبة الإسلامية بالذخائر والنفائس فكان من أشهر هذه النفائس .

التفسير .

وهو يعد من أشهر كتب التفسير بالمأثور فهو جليل الفائدة عظيم النفع، وكان الباعث^(١) على وضع هذا التفسير هو التقرب إلى الله تعالى فقال في مقدمة تفسيره إنه أراد أن يختار لنفسه وينظر في علم يعد أنواره لظلم رسمه، فعلم أن شرف العلم على قدر شرف المعلوم ووجد أن علم كتاب الله هو أمتن العلوم حبلاً وأرسخها جبلاً وأجملها آثاراً وأسطقها أنواراً، وأيقن أنه أعظم العلوم تقريباً إلى الله تعالى وتخليصاً للنيات، ونهياً عن الباطل وحضاً على الصالحات ورجاً من وراء اشتغاله بهذا العلم - أن الله تعالى يحرم على النار فكراً عمرته أكثر عمره معانيه، ولساناً مرن على آياته ومثانيه، ونفساً ميزت براعة رصفه ومبانيه، وجالت سوامها في ميادينه ومغانيه ومن أجل هذا كله ثنى إلى هذا العلم عنان النظر وأقطع جانب الفكر وجعله فائدة العمر .

هل وضع له اسماً؟

يرى الدكتور عبد الوهاب فائد مع جمع من المؤرخين أن ابن عطية لم يضع لتفسيره اسماً خاصاً به فقد ذكره ابن عميرة الضبي^(٢) فقال : ألف ابن عطية تفسيراً ضخماً أربى فيه على كل متقدم وذكر أيضاً لسان الدين بن الخطيب وهو من علماء القرن الثامن الهجري أنه ألف كتاباً في التفسير يسمى بالوجيز فأحسن فيه وأبدع - وطار - لحسن نيته - كل مطار وأما من أطلق عليه اسمه المعروف الآن وهو المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز . فهو ملا كاتب حلبى المتوفى سنة ١٠٦٧ هـ فهو الذي أطلق عليه ومن ثم نستطيع أن نقول إن هذا الاسم لم يكن من وضع ابن عطية^(٣) .

الفهرست

وقد كتبه سنة (٥٣٣) وهو محفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم (٢٦٤٩١) ب.

(١) منهج ابن عطية (٨٣).

(٢) بغية الملتبس (٣٧٦).

(٣) منهج ابن عطية (٨٢).

ثناء العلماء عليه

قال الذهبي في السير^(١): الإمام العلامة شيخ المفسرين كان إماماً في الفقه وفي التفسير وفي العربية قويّ المشاركة، ذكياً فطناً مدركاً من أوعية العلم.

وقال ابن الزبير: كان فقيهاً جليلاً عارفاً بالأحكام والحديث والتفسير، نحوياً لغوياً أديباً، بارعاً شاعراً مفيداً، ضابطاً سنياً فاضلاً من بيت علم وجلالة، غاية في توقد الذهن وحسن الفهم وجلالة التصرف^(٢).

وقال ابن فرحون^(٣): كان فقيهاً عالماً بالتفسير، والأحكام والحديث والفقه والنحو واللغة والأدب مقيداً حسن التقييد.

وقال الداودي كما قال ابن فرحون وبهذا نكون قد علمنا أن كتب التراجم والسير أجمعت على توثيقه وسعة علمه، وتفسيره خير شاهد على ثقته وأمانته.

ولله الحمد والمنة

وفاته

في ليلة خامس عشر رمضان سنة اثنتين - وقيل إحدى، وقيل ست - وأربعين وخمسمائة توفي هذا الإمام الجليل بلورقة عليه هواطل رحمة الغفور المنان.

(١) السير (١٩/٥٨٨).

(٢) بغية الوعاة (١/٧٣).

(٣) الديباج المذهب (٢/٥٧).

كتابتها به يوم عي آيت الله العظمى
مرعشي النجفي . قم

ويصل التأويل الى اكد ويظهر الصبر ويصبر قال ابن
ابن بفسال السعدي خزن من اك ما قسري ثم راي ان
الوجه على من احسن وحسن في العلم والحي الى العبد على
علمه على اكد فيستند به في العلم والحي الى العبد على
تقواه ويصبر على كونه في العلم والحي الى العبد على
دفعه في العلم والحي الى العبد على كونه في العلم والحي
المستند الى الخراج المستند الى الخراج المستند الى الخراج
فلا اذت الخراج المستند الى الخراج المستند الى الخراج
بالنوع والقسم وعلا ان في العلم والحي الى العبد على
استنهاج الاقارب والاحباب الى العلم والحي الى العبد على
كتاب السط في علمه وقدرته في العلم والحي الى العبد على
من به علمه ولا من علمه في العلم والحي الى العبد على
بالسنة والقرن في العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على
جعل الشرع واما واستغنى بالمعارف في العلم والحي الى العبد على
مباديها وبعده في العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على
ودع هو عظمها في العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على
اد اعظم العلوم في العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على
من العلم وحسن على الصالحات في العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على
حامله من العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على
العلم في العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على
ولسانا من العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على
وجا لتعرفها في ما دونه ومعانيه في العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على
حائب لفكر وجعلته فاده العلم واما في العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على

تفسير شريف

الحمد لله الذي برأ السموات والارض وعظمته وصلى الله عليه
قال الفقيه الحافظ القاضي ابو محمد عبد الله بن
الفقيه الحافظ الامام الذي برأ السموات والارض وعظمته وصلى الله عليه
الحمد لله الذي برأ السموات والارض وعظمته وصلى الله عليه
يخرج فوجده وعباده اليه مسددة الغزاة الفاضلة والقدرة والالا
الظاهرة والذرية اصفوا اعمالهم وحاصلنا الدنيا والوسطى
الاحمر فوجدها عوارف لا تخفى وكلها مشرعة تربت بامر من
ضربا الي العجز الانقضى نزل الدنيا القل والبر وعباده و
واوعد حاد وعزى امر واخر فيه الدين وجعله النبيلة
الناجحة والعباد التي ونسب في الارض وظهور غابر الالهة
للصغير في فضاء عارفي مستل في العصور ونجبه فابطل
العلم في دعوتنا ملته في فضاء عارفي مستل في العصور ونجبه فابطل
والخير من النفا وشره في العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على
اللاهوت في العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على
السكر صفة من العباد وشره في العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على
المعز في العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على
والخصم في العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على
اله صلة مستمرة في العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على
ارشدنا الله وآياته في العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على
المعارف في العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على
مناجات حسنة في العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على
وعز على الوصول الى العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على
مع ذلك العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على العلم والحي الى العبد على

السي عليه السلام انه قال من قرأ الايتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاره
 من قيام الليل قال علي بن ابي طالب رضي الله عنه ما اظن احدا عطل وادرك
 الاسلام بتمام حتى يعقلها فيراها وروى ابن السني عليه السلام قال اوتيت ههنا
 الايات من آخر سورة البقرة من كذا تحت العرش لم تؤت بها احد قبلي

للسبح الفقيه الامام العالم الحافظ الفاضل ابو محمد عبد الحفيظ الفقيه
 الحافظ الامام ابو بكر بن عطية احد شيوخ البركة رضي الله عنهم اجمعين
 واتخذ به جملوا في نفسه وكان فريده
 والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
 وكان المدخل من تعليقه في اليوم السابع
 من شعبان المكرم سنة تسع وسبع مائة
 الهجرة النبوية على صاحبها افضل
 الصلاة والسلام سلوة في الجرد الثاني
 سورة العنكبوت ودنه محمد بن علي
 عفا الله عنه واخوته

في آيات الله العظمى

كتابخانه

مجموعه - قم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والحمد لله الملك العظيم

وصلى الله على سيدنا محمد الكريم وعلى آله

قال الشيخ الإمام، الفقيه الأجل، الحافظ الأكمل، القاضي الأعدل، أبو محمد عبد الحق، ابن الفقيه الإمام الحافظ أبي بكر غالب، بن عبد الرحمن، بن غالب، بن عبد الرؤوف، بن تمام، بن عبد الله، بن تمام، بن عطية، بن خالد، بن عطية، وهو الداخلى إلى الأندلس، ابن خالد، بن خفاف، بن أسلم، بن مكرم المحاربي من ولد زيد، بن محارب، بن خصفة، بن قيس عيلان^(١) من أهل غرناطة^(٢)، رحمه الله وفعه والمسلمين بما دون.

● الحمد لله الذي برأ النسم، وأفاض النعم، ومنح القسم، وسنى من توحيده وعبادته العصم، ذي العزة القاهرة، والقدرة الباهرة، والالاء المتظاهرة، الذي أوجدنا بعد العدم، وجعلنا الخيار الوسط من الأمم، وخولنا عوارف لا تحصى، وهادانا شرعة رمت بنا من رضوانه إلى الغرض الأقصى، أنزل إلينا القرآن العزيز، وعد فيه وبشر وأوعد وحذر، ونهى وأمر، وأكمل فيه الدين، وجعله الوسيلة الناجحة والحبيل المتين، ويسره للذكر، وخلده غابر الدهر، عصمة للمعتصمين، ونوراً صادعاً في مشكلات المختصمين، وحجة قائمة على العالم، ودعوة شاملة لفرق بني آدم، كلامه الذي أعجز الفصحاء، وأخرس البلغاء، وشرف العلماء، له الحمد دائماً، والشكر واصباً، لا إله إلا هو رب العرش العظيم، وأفضل الصلاة والتسليم، على محمد رسوله الكريم، صفوته من العباد، وشفيع الخلائق في المعاد، صاحب المقام المحمود، والحوض المورود، الناهض بأعباء الرسالة والتبليغ الأعصم، والمخصوص بشرف السعاية في الصلاح الأعظم، صلى الله عليه وعلى آله صلاة مستمرة الدوام، جديدة على مر الليالي والأيام.

وبعد، أرشدني الله وإياك، فإني لما رأيت العلوم فنوناً، وحديث المعارف شجوناً، وسلكت فإذا هي أودية، وفي كل للسلف مقامات حسان وأندية، رأيت أن الوجه لمن تشزن للتحصيل، وعزم على الوصول، أن يأخذ من كل علم طرفاً خياراً، ولن يذوق النوم مع ذلك إلا غراراً، ولن يرتقي هذا النجد، ويبلغ هذا المجد، حتى ينضي مطايا الاجتهاد، ويصل التأويب بالإسناد، ويطعم الصبر ويكتحل بالسهاد، فجريت في هذا المضمار صدر العمر طلقاً، وأدمنت حتى تفسخت أينا وتصببت عرقاً، إلى أن انتهج بفضل الله عملي، وحزت من ذلك ما قسم لي، ثم رأيت أن من الواجب على من احتبى، وتخير من العلوم واجتنبى، أن يعتمد على علم من علوم الشرع، يستنفد فيه غاية الوسع، يجوب آفاقه، ويتتبع أعماقه، ويضبط أصوله، ويحكم فصوله، ويلخص ما هو منه، أو يؤول إليه، ويعنى بدفع الاعتراضات عليه، حتى يكون لأهل ذلك العلم

كالحصن المشيد، والذخر العتيق، يستندون فيه إلى أقواله، ويحتذون على مثاله.

فلما أردت أن أختار لنفسي، وأنظر في علم أعد أنواره لظلم رمسي، سبرتها بالتنوع والتقسيم، وعلمت أن شرف العلم على قدر شرف المعلوم فوجدت أمتها جبلاً، وأرسخها جبلاً، وأجملها آثاراً، وأسطمعها أنواراً، علم كتاب الله جلت قدرته، وتقديست أسماؤه، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، الذي استقل بالسنة والفرض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض، هو العلم الذي جعل للشرع قواماً، واستعمل سائر المعارف خداماً منه تأخذ مبادئها، وبه تعتبر نواشئها، فما وافقه منها نصع وما خالفه رفض ودفع، فهو عنصرها النмир، وسراجها الوهاج، وقمرها المنير.

وأيقنت أنه أعظم العلوم تقريباً إلى الله تعالى، وتخليصاً للنيات، ونهياً عن الباطل، وحضاً على الصالحات، إذ ليس من علوم الدنيا فيختل حامله من منازلها صيداً، ويمشي في التلطف لها رويداً.

ورجوت أن الله تعالى يحرم على النار فكراً عمرته أكثر عمره معانيه، ولساناً مرن على آياته ومثانيه، ونفساً ميزت براعة رصفه ومبانيه، وجالت سومها في ميادينه ومغانيه، فثبتت إليه عنان النظر، وأقطعت جانب الفكر، وجعلته فائدة العمر، وما نيت - علم الله - إلا عن ضرورة بحسب ما يلزم في هذه الدار من شغوب، ويمس من لغوب، أو بحسب تعهد نصيب من سائر المعارف.

فلما سلكت سبله بفضل الله ذللاً، وبلغت من اطراد الفهم فيه أملاً، رأيت أن نكته وفوائده تغلب قوة الحفظ وتفدح، وتسنع لمن يروم تقييدها في فكره وتبرج، وأنها قد أخذت بحظها من الثقل، فهي تنفصى من الصدر تفصوي الإبل من العقل.

قال الله تعالى: ﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقیلاً﴾ [المزم: ٥].

قال المفسرون: أي علم معانيه والعمل بها، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «قيدوا العلم بالكتاب» ففزعت إلى تعليق ما يتخيل لي في المناظرة من علم التفسير وترتيب المعاني، وقصدت فيه أن يكون جامعاً وجيزاً محرراً، لا أذكر من القصص إلا ما لا تنفك الآية إلا به، وأثبت أقوال العلماء في المعاني منسوبة إليهم على ما تلقى السلف الصالح - رضوان الله عليهم - كتاب الله من مقاصده العربية السليمة من إلحاد أهل القول بالرموز، وأهل القول بعلم الباطن، وغيرهم، فمتى وقع لأحد من العلماء الذين قد حازوا حسن الظن بهم لفظ ينحو إلى شيء من أغراض الملحدين، نبهت عليه، وسردت التفسير في هذا التعليق بحسب رتبة ألفاظ الآية من حكم، أو نحو، أو لغة، أو معنى، أو قراءة، وقصدت تتبع الألفاظ حتى لا يقع طفر كما في كثير من كتب المفسرين، ورأيت أن تصنيف التفسير كما صنع المهدي - رحمه الله - مفرق للنظر، مشعب للفكر وقصدت إيراد جميع القراءات: مستعملها وشاذها، واعتمدت تبين المعاني وجميع احتمالات الألفاظ، كل ذلك بحسب جهدي وما انتهى إليه علمي، وعلى غاية من الإيجاز وحذف فضول القول.

وأنا أسأل الله جلت قدرته، أن يجعل ذلك كله لوجهه، وأن يبارك فيه وينفع به، وأنا وإن كنت من

المقصرين فقد ذكرت في هذا الكتاب كثيراً من علم التفسير، وحملت خواطري فيه على التعب الخطير، وعمرت به زماني، واستفرغت فيه مني، إذ كتاب الله تعالى لا يتفسر إلا بتصرف جميع العلوم فيه، وجعلته ثمرة وجودي، ونخبة مجهودي، فليستصوب للمرء اجتهاده، وليعذر في تقصيره وخطئه وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ولنقدم بين يدي القول في التفسير أشياء قد قدم أكثرها المفسرون، وأشياء ينبغي أن تكون راسخة في حفظ الناظر في هذا العلم مجتمعة لذهنه.

باب ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن الصحابة، وعن نهاء العلماء، في فضل القرآن المجيد وصورة الاعتصام به

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إنه ستكون فتن كقطع الليل المظلم، قيل: فما النجاة منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله تعالى، فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو فصل ليس بالهزل، من تركه تجبراً قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تشعب معه الآراء، ولا يشعب منه العلماء، ولا يمله الأتقياء، من علم علمه سبق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن اعتصم به فقد هدي إلى صراط مستقيم».

قال أنس بن مالك في تفسير قوله تعالى: ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ [البقرة: ٢٥٦، لقمان: ٢٢]. قال: هي القرآن.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن».

وقال عليه السلام: «اتلوا هذا القرآن، فإن الله يأجركم بالحرف منه عشر حسنات، أما إنني لا أقول «الم» حرف، ولكن الألف حرف، واللام حرف، والميم حرف».

وروي عنه عليه السلام أنه قال في آخر خطبة خطبها وهو مريض: «أيها الناس إنني تارك فيكم الثقلين، إنه لن تعمى أبصاركم، ولن تضل قلوبكم، ولن تزال أقدامكم، ولن تقصر أيديكم، كتاب الله سبب بينكم وبينه، طرفه بيده، وطرفه بأيديكم، فاعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وأحلوا حلاله، وحرّموا حرامه، ألا وعترتي، وأهل بيتي، هو الثقل الآخر، فلا تسبعوهم فتهلكوا».

وقيل لجعفر بن محمد الصادق: لم صار الشعر والخطب يمل ما أعيد منها، والقرآن لا يمل؟ فقال: لأن القرآن حجة على أهل الدهر الثاني، كما هو حجة على أهل الدهر الأول، فكل طائفة تتلقاه غضاً جديداً ولأن كل امرئ في نفسه متى أعاده وفكر فيه تلقى منه في كل مرة علوماً غضة، وليس هذا كله في الشعر والخطب.

وقيل لمحمد بن سعيد: ما هذا التردد للقصص في القرآن؟ فقال: ليكون لمن قرأ ما تيسر منه حظ في الاعتبار.

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من قرأ القرآن فرأى أن أحداً أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر ما عظم الله».

وقال عليه السلام: «ما من شفيع أفضل عند الله من القرآن، لا نبي ولا ملك».

وقال عليه السلام: «أفضل عبادة أمتي القرآن».

وقال عبد الله بن عمرو بن العاصي: «من قرأ القرآن فقد أدرجت النبوة بين جنبيه، إلا أنه لا يوحى إليه».

وحدث أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من قرأ مائة آية كتب من القانتين ومن قرأ مائتي آية لم يكتب من الغافلين، ومن قرأ ثلاثمائة آية لم يحاجه القرآن».

وروى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أشراف أمتي حملة القرآن».

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ [فاطر: ٣٢]. فقال: «سابقكم سابق، ومقتصدكم ناج، وظالمكم مغفور له».

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا إن أصفر البيوت بيت صفر من كتاب الله».

وروى أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «القرآن شافع، مشفع، وما حل مصدق من شفع له القرآن نجا، ومن محل به القرآن يوم القيامة كبه الله لوجهه في النار، وأحق من شفع له القرآن أهله وحملته، وأولى من محل به من عدل عنه وضيعه».

وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الذي يتعاهد هذا القرآن ويشتد عليه له أجران، والذي يقرأه وهو خفيف عليه مع السفرة الكرام البررة».

وقال ابن مسعود: مل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ملة فقالوا: يا رسول الله حدثنا، فأنزل الله تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم﴾ الآية [الزمر: ٢٣]، ثم ملوا ملة أخرى، فقالوا: قص علينا يا رسول الله، فأنزل الله تعالى: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾ [يوسف: ٣].

وروى عثمان بن عفان رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه».

وقال عبد الله بن مسعود: «إن كل مؤدب يحب أن يؤتى أدبه، وإن أدب الله القرآن».

ومر أعرابي على عبد الله بن مسعود وعنده قوم يقرؤون القرآن، فقال: ما يصنع هؤلاء؟ فقال له ابن مسعود: يقتسمون ميراث محمد صلى الله عليه وسلم.

ومرت امرأة على عيسى ابن مريم عليه السلام فقال: طوبى لبطن حملك، ولثديين رضعت منهما، فقال عيسى: طوبى لمن قرأ كتاب الله واتبع ما فيه.

وقال محمد بن كعب القرظي في قوله تعالى: ﴿ربنا إنا سئنا منادياً ينادي للإيمان﴾ [آل عمران: ١٩٣] قال: هو القرآن، ليس كلهم رأى النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال بعض العلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ [يونس: ٥٨] قال: «الإسلام والقرآن».

وقيل لعبد الله بن مسعود: إنك لتقل الصوم؟ فقال: «إنه يشغلني عن قراءة القرآن، وقراءة القرآن أحب إليّ منه».

وقال قوم من الأنصار للنبي صلى الله عليه وسلم: «ألم تر يا رسول الله ثابت بن قيس لم تزل داره البارحة يزهر فيها وحولها أمثال المصابيح فقال لهم: فلعله قرأ سورة البقرة، فسئل ثابت بن قيس، فقال: نعم قرأت سورة البقرة». وفي هذا المعنى حديث صحيح عن أسيد بن حضير في تنزل الملائكة في الظلة لصوته بقراءة سورة البقرة.

وذكر أبو عمرو الداني عن علي الأثرم قال: كنت أتكلم في الكسائي وأقع فيه، فرأيت في النوم وعليه ثياب بيض ووجهه كالقمر فقلت: يا أبا الحسن ما فعل الله بك؟ فقال: «غفر لي بالقرآن».

وقال عقبة بن عامر: «عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع فقال: عليكم بالقرآن».

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: إن من أشراط الساعة أن ييسط القول ويخزن الفعل ويرفع الأشرار ويوضع الأخيار وأن تقرأ المثناة على رؤوس الناس لا تغير، قيل وما المثناة؟ قال: ما استكتب من غير كتاب الله، قيل له: فكيف بما جاء من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: ما أخذتموه ممن تأمنونه على نفسه ودينه فاعقلوه، وعليكم بالقرآن فتعلموه وعلموه أبناءكم فإنكم عنه تسألون وبه تجزون، وكفى به واعظاً لمن عقل.

وقال رجل لأبي الدرداء: إن إخواناً لك من أهل الكوفة يقرئونك السلام ويأمرونك أن توصيهم، فقال: أقرئهم السلام، ومرهم فليعطوا القرآن بخزائهم فإنه يحملهم على القصد والسهولة، ويجنبهم الجور والحزونة.

وقال رجل لعبد الله بن مسعود: أوصني، فقال: إذا سمعت الله تعالى يقول يا أيها الذين آمنوا فأرעהما سمعك فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه.

وروى أبو هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن أحسن الناس قراءة أو صوتاً بالقرآن، فقال: «الذي إذا سمعته رأيته يخشى الله تعالى».

وقال عليه السلام: «اقرأوا القرآن قبل أن يجيء قوم يقيمونه كما يقام القدر ويضيعون معانيه يتعجلون أجره ولا يتأجلونه».

ويروى أن أهل اليمن لما قدموا أيام أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - سمعوا القرآن فجعلوا يبكون فقال أبو بكر: «هكذا كنا، ثم قست القلوب».

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ مرة: ﴿إن عذاب ربك لواقع، ما له من دافع﴾ [الطور: ٧] فَأَنَّ أُنْةَ عِيدٍ مِنْهَا عِشْرِينَ يَوْمًا.

وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل، وجعلتم الليل جملاً تركبونه، فتقطعون به المراحل، وإن من كان قبلكم رأوه رسائل إلههم من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، وينفذونها بالنهار.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: «أنزل عليهم القرآن ليعملوا به فاتخذوا درسه عملاً، إن أحدهم ليتلو القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفاً وقد أسقط العمل به».

قال القاضي عبد الحق رضي الله عنه: قال الله تعالى: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾.. [القمر: ١٧ - ٢٢، ٣٢ - ٤٠].

وقال تعالى: ﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقیلاً﴾ [المزمل: ٥] أي علم معانيه، والعمل به، والقيام بحقوقه ثقیل، فمال الناس إلى الميسر، وتركوا الثقیل، وهو المطلوب منهم.

وقيل ليوسف بن أسباط: بأي شيء تدعو إذا ختمت القرآن؟ قال: «أستغفر الله من تلاوتي لأنني إذا ختمته وتذكرت ما فيه من الأعمال خشيت المقت فأعدل إلى الاستغفار والتسبيح».

وقرأ رجل القرآن على بعض العلماء، قال: فلما ختمته أردت الرجوع من أوله فقال لي: اتخذت القراءة عليّ عملاً إذهب فاقراه على الله تعالى في ليالك وانظر ماذا يفهمك منه فاعمل به.

باب في فضل تفسير القرآن والكلام على لغته والنظر في إعرابه ودقائق معانيه

● روى ابن عباس أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أي علم القرآن أفضل؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «عربيته فالتمسوها في الشعر».

وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم: «أعربوا القرآن واثمسوا غرائبه فإن الله يحب أن يعرب».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: إعراب القرآن أصل في الشريعة، لأن بذلك تقوم معانيه التي هي الشرع.

وقال أبو العالية في تفسير قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ [البقرة: ٢٦٩]، قال: «الحكمة» الفهم في القرآن، وقال قتادة: «الحكمة» القرآن والفقه فيه، وقال غيره: «الحكمة» تفسير القرآن.

وذكر علي بن أبي طالب رضي الله عنه جابر بن عبد الله فوصفه بالعلم، فقال له رجل: جعلت فداك، تصف جابراً بالعلم وأنت أنت؟ فقال: إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ١٩٧].

وقال الشعبي: رحل مسروق إلى البصرة في تفسير آية، فقبل له: إن الذي يفسرها رحل إلى الشام، فتجهز ورحل إليه حتى علم تفسيرها.

وقال إياس بن معاوية: مثل الذين يقرؤون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلاً وليس عندهم مصباح فتدخلتهم روعة لا يدرون ما في الكتاب، ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرأوا ما في الكتاب.

وقال ابن عباس: «الذي يقرأ ولا يفسر كالأعرابي الذي يهذ الشعر».

وقال مجاهد: «أحب الخلق إلى الله أعلمهم بما أنزل».

وقال الحسن: «والله ما أنزل الله آية إلا أحب أن يعلم فيمن أنزلت وما يعني بها».

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة».

وقال الحسن: «أهلكتهم العجمة، يقرأ أحدهم الآية فيعني بوجوهها حتى يفترى على الله فيها».

وكان ابن عباس يبدأ في مجلسه بالقرآن ثم بالتفسير ثم بالحديث.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ما من شيء إلا وعلمه في القرآن ولكن رأي الرجل يعجز عنه».

باب ما قيل في الكلام في تفسير القرآن، والجراة عليه، ومراتب المفسرين

● روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسر من كتاب الله إلا آياً بعدد علمه إياهن جبريل».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: ومعنى هذا الحديث: في مغييات القرآن، وتفسير مجمله، ونحو هذا مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف من الله تعالى، ومن جملة مغيياته ما لم يعلم الله به كوقت قيام الساعة ونحوه، ومنها ما يُستقرأ من ألفاظه كعدد النفخات في الصور، وكرتبة خلق السماوات والأرض. ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: ومعنى هذا أن يسأل الرجل عن معنى في كتاب الله فيتسور عليه برأيه، دون نظر فيما قال العلماء، أو اقتضته قوانين العلوم كالنحو، والأصول، وليس يدخل في هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته، والنحاة نحوه، والفقهاء معانيه، ويقول كل واحد باجتهاده المبني على قوانين علم ونظر، فإن القائل على هذه الصفة ليس قائلًا بمجرد رأيه. وكان جلة من السلف كسعيد بن المسيب، وعامر الشعبي، وغيرهما، يعظمون تفسير القرآن، ويتوقفون عنه تورعاً واحتياطاً لأنفسهم، مع إدراكهم، وتقدمهم، وكان جلة من السلف كثير عددهم يفسرونه وهم أبقوا على المسلمين في ذلك رضي الله عنهم.

فأما صدر المفسرين والمؤيد فيهم فعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وتلوه عبد الله بن العباس رضي الله عنهما، وهو تجرد للأمر وكمله وتبعه، وتبعه العلماء عليه، كمجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهما، والمحفوظ عنه في ذلك أكثر من المحفوظ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقال ابن عباس: «ما أخذت من تفسير القرآن فمن علي بن أبي طالب».

وكان علي بن أبي طالب يثني على تفسير ابن عباس ويحث على الأخذ عنه.

وكان عبد الله بن مسعود يقول: «نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس»، وهو الذي يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم فقهه في الدين وحسبك بهذه الدعوة».

وقال عنه علي بن أبي طالب: «ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق»، وتلوه عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وكل ما أخذ عن الصحابة فحسن متقدم.

ومن الميرزين في التابعين الحسن بن أبي الحسن، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعلقمة.

قرأ مجاهد على ابن عباس قراءة تفهم ووقوف عند كل آية، ويتلوهم عكرمة، والضحاك بن مزاحم، وإن كان لم يلق ابن عباس، وإنما أخذ عن ابن جبير.

وأما السدي رحمه الله فكان عامر الشعبي يطعن عليه وعلى أبي صالح، لأنه كان يراهما مقصرين في النظر، ثم حمل تفسير كتاب الله تعالى عدول كل خلف، وألف الناس فيه كعبد الرزاق، والمفضل، وعلي بن أبي طلحة، والبخاري، وغيرهم.

ثم إن محمد بن جرير الطبري رحمه الله جمع على الناس أشتات التفسير، وقرب البعيد وشفى في الإسناد.

ومن الميرزين في المتأخرين أبو إسحاق الزجاج وأبو علي الفارسي فإن كلامهما منخول وأما أبو بكر النقاش، وأبو جعفر النحاس، فكثيراً ما استدرك الناس عليهما، وعلى سنتهما مكي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأبو العباس المهدوي رحمه الله متقن التأليف، وكلهم مجتهد مأجور رحمهم الله، ونضر وجوههم.

(باب معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم
«إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف
فاقرؤوا ما تيسر منه»

اختلف الناس في معنى هذا الحديث، اختلافًا شديدًا، فذهب فريق من العلماء إلى أن تلك الحروف السبعة هي فيما يتفق أن يقال على سبعة أوجه فما دونها، كتنعال، وأقيل، وإلي، ونحوي، وقصدي، واقرب، وجيء، وكاللغات التي في أف، وكالحروف التي في كتاب الله فيها قراءات كثيرة، وهذا قول ضعيف.

قال ابن شهاب في كتاب مسلم: «بلغني أن تلك السبعة الأحرف إنما هي في الأمر الذي يكون واحدًا لا يختلف في حلال ولا حرام».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وهذا كلام محتمل.

وقال فريق من العلماء: «إن المراد بالسبعة الأحرف معاني كتاب الله تعالى، وهي: أمر، ونهي، ووعد، ووعد، وقصص، ومجادلة، وأمثال. وهذا أيضًا ضعيف، لأن هذه لا تسمى أحرفًا، وأيضًا: فالإجماع أن التوسعة لم تقع في تحريم حلال، ولا في تحليل حرام، ولا في تغيير شيء من المعاني المذكورة.

وحكى صاحب الدلائل عن بعض العلماء، وقد حكى نحوه القاضي أبو بكر بن الطيب، قال: تدبرت وجوه الاختلاف في القراءة فوجدتها سبعة، منها ما تتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته، مثل: هن أظهر، وأظهر. ومنها ما لا تتغير صورته، ويتغير معناه بالإعراب، مثل: ربنا باعدْ وباعدْ. ومنها ما تبقى صورته ويتغير معناه باختلاف الحروف، مثل: ننشرها، وننشرها. ومنها ما تتغير صورته ويبقى معناه كقوله: ﴿كالمهن المنفوش﴾ [القارة: ٥]، وكالصوف المنفوش، ومنها ما تتغير صورته ومعناه، مثل: ﴿وطلع منضود﴾ [الواقعة: ٢٩] وطلع منضود، ومنها بالتقديم والتأخير كقوله: ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق﴾ [ق: ١٩]. وسكرة الحق بالموت. ومنها بالزيادة والنقصان كقوله: ﴿تسع وتسعون نعمة أنثى﴾.

وذكر القاضي أبو بكر بن الطيب في معنى هذه السبعة الأحرف حديثًا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن هذا القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف، نهي، وأمر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال، فأحلوا حلاله، وحرموا حرامه، واثتمروا، وانتهوا، واعتبروا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه».

قال القاضي أبو محمد: فهذا تفسير منه صلى الله عليه وسلم للأحرف السبعة، ولكن ليست هذه التي أجاز لهم القراءة بها على اختلافها، وإنما الحرف في هذه بمعنى الجهة والطريقة، ومنه قوله تعالى:

«ومن الناس من يعبد الله على حرف» [الحج: ١١] أي على وجه وطريقة، هي ريب وشك، فكَذلك معنى هذا الحديث على سبع طرائق، من تحليل، وتحريم، وغير ذلك.

وذكر القاضي أيضاً أن أبا رضي الله عنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يا أبا إني أُقرئت القرآن على حرف أو حرفين ثم زادني الملك حتى بلغ سبعة أحرف ليس منها إلا شافٍ وكافٍ إن قلت غفور رحيم، سميع عليم، أو عليم حكيم، وكذلك ما لم تختتم عذاباً برحمة، أو رحمة بعذاب».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق: وقد أسند ثابت بن قاسم نحو هذا الحديث عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر من كلام ابن مسعود نحوه.

قال القاضي ابن الطيب: «وهذه أيضاً سبعة غير السبعة التي هي وجوه وطرائق، وغير السبعة التي هي قراءات ووسع فيها، وإنما هي سبعة أوجه من أسماء الله تعالى».

وإذا ثبتت هذه الرواية حمل على أن هذا كان مطلقاً ثم نسخ، فلا يجوز للناس أن يبدلوا اسماً لله في موضعٍ بغيره مما يوافق معناه أو يخالفه.

قال القاضي: «وزعم قوم أن كل كلمة تختلف القراءة فيها فإنها على سبعة أوجه، وإلا بطل معنى الحديث».

قالوا: «وتعرف بعض الوجوه بمجيء الخبر به، ولا نعرف بعضها، إذا لم يأت به خبر».

قال: وقال قوم: ظاهر الحديث يوجب أن يوجد في القرآن كلمة أو كلمتان تقرأان على سبعة أوجه، فإذا حصل ذلك تم معنى الحديث».

قال القاضي أبو بكر بن الطيب: «وقد زعم قوم أن معنى الحديث أنه نزل على سبع لغات مختلفات وهذا باطل إلا أن يريد الوجوه المختلفة التي تستعمل في القصة الواحدة».

والدليل على ذلك أن لغة عمر بن الخطاب، وأبي بن كعب، وهشام بن حكيم، وابن مسعود، واحدة، وقراءتهم مختلفة، وخرجوا بها إلى المناكرة».

فأما الأحرف السبعة التي صوب رسول الله صلى الله عليه وسلم القراءة بجميعها - وهي التي راجع فيها فزاده وسهل عليه لعلمه تعالى بما هم عليه من اختلافهم في اللغات - فلها سبعة أوجه، وسبع قراءات مختلفات، وطرائق يقرأ بها على اختلافها في جميع القرآن أو معظمه، حسبما تقتضيه العبارة في قوله: «أنزل القرآن» فإنما يريد به الجميع أو المعظم، فجائز أن يقرأ بهذه الوجوه على اختلافها ويدل على ذلك قول الناس: حرف أبي وحرف ابن مسعود، ونقول في الجملة إن القرآن منزل على سبعة أحرف من اللغات، والإعراب، وتغيير الأسماء والصور، وإن ذلك مفترق في كتاب الله ليس بموجود في حرف واحد، وسورة واحدة، يقطع على اجتماع ذلك فيها.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: انتهى ما جمعت من كلام القاضي أبي بكر رضي الله عنه، وإطلاقة البطلان على القول الذي حكاه فيه نظر، لأن المذهب الصحيح الذي قرره آخراً من قوله

«ونقول في الجملة» إنما صح وترتب من جهة اختلاف لغات العرب الذين نزل القرآن بلسانهم، وهو اختلاف ليس بشديد التباين حتى يجهل بعضهم ما عند بعض في الأكثر، وإنما هو أن قریشاً استعملت في عباراتها شيئاً، واستعملت هذيل شيئاً غيره في ذلك المعنى، وسعد بن بكر غيره، والجميع كلامهم في الجملة ولغتهم.

واستدلال القاضي رضي الله عنه بأن لغة عمر وأبي وهشام وابن مسعود واحدة فيه نظر، لأن ما استعملته قریش في عبارتها ومنهم عمر وهشام، وما استعملته الأنصار ومنهم أبي وما استعملته هذيل ومنهم ابن مسعود، قد يختلف، ومن ذلك النحو من الاختلاف هو الاختلاف في كتاب الله سبحانه، فليست لغتهم واحدة في كل شيء، وأيضاً فلو كانت لغتهم واحدة بأن نفرضهم جميعاً من قبيلة واحدة، لما كان اختلافهم حجة على من قال: إن القرآن أنزل على سبع لغات لأن منكرتهم لم تكن لأن المنكر سمع ما ليس في لغته فأنكره، وإنما كانت لأنه سمع خلاف ما أقرأه النبي صلى الله عليه وسلم وعساه قد أقرأه ما ليس من لغته واستعمال قبيلته.

فكان القاضي رحمه الله، إنما أبطل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قصد في قوله: على سبعة أحرف عد اللغات التي تختلف بجمليتها وأن تكون سبعة متباينة لسبع قبائل تقرأ كل قبيلة القرآن كله بحرفها ولا تدخل عليها لغة غيرها، بل قصد النبي عليه السلام - عنده - عد الوجوه والطرائق المختلفة في كتاب الله مرة من جهة لغة، ومرة من جهة إعراب، وغير ذلك، ولا مرية أن هذه الوجوه والطرائق إنما اختلفت لاختلاف في العبارات بين الجملة التي نزل القرآن بلسانها وذلك يقال فيه اختلاف لغات.

وصحيح أن يقصد عليه السلام عد الأنحاء والوجوه التي اختلفت في القرآن، بسبب اختلاف عبارات اللغات.

وصحيح أن يقصد عد الجماهير والرؤوس من الجملة التي نزل القرآن بلسانها، وهي قبائل مضر فجعلها سبعة، وهذا أكثر توسعة للنبي عليه السلام، لأن الانحاء تبقى غير محصورة، ففسى أن الملك أقرأه بأكثر من سبعة طرائق ووجوه.

قال القاضي في كلامه المتقدم: «فجائز أن يقرأ بهذه الوجوه على اختلافها».

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه: والشرط الذي يصح به هذا القول هو أن تروى عن النبي عليه السلام، ومال كثير من أهل العلم كأبي عبيد، وغيره، إلى أن معنى الحديث المذكور أنه أنزل على سبع لغات لسبع قبائل اثبت فيه من كل لغة منها، وهذا القول هو المتقرر من كلام القاضي رضي الله عنه وقد ذكر بعضهم قبائل من العرب روماً منهم أن يعينوا السبع التي يحسن أن تكون مراده عليه السلام، نظروا في ذلك بحسب القطر ومن جاور منشأ النبي عليه السلام. واختلفوا في التسمية وأكثروا، وأنا ألخص الغرض جهدي بحول الله:

فأصل ذلك وقاعدته قریش، ثم بنو سعد بن بكر، لأن النبي عليه السلام قرشي، واسترضع في بني سعد، ونشأ فيهم، ثم ترعرع وعقت ثمائمته وهو يخالط في اللسان كنانة، وهذيل، وثقيف، وخزاعة،

وأسداً، وضبة، وألفافها لقربهم من مكة، وتكرارهم عليها، ثم بعد هذه تميماً، وقيساً، ومن انضاف إليهم وسط جزيرة العرب، فلما بعثه الله تعالى ويسر عليه أمر الأحرف أنزل عليه القرآن بلغة هذه الجملة المذكورة، وهي التي قسمها على سبعة لها السبعة الأحرف، وهي اختلافاتها في العبارات حسبما تقدم.

قال ثابت بن قاسم: «لو قلنا من هذه الأحرف لقريش، ومنها لكنانة، ومنها لأسد، ومنها لهذيل، ومنها لتميم، ومنها لضبة وألفافها، ومنها لقيس، لكان قد أتى على قبائل مضر في مراتب سبعة تستوعو اللغات التي نزل بها القرآن».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق: وهذا نحو ما ذكرناه، وهذه الجملة هي التي انتهت إليها الفصاحة، وسلمت لغاتها من الدخيل ويسرها الله لذلك ليظهر آية نبيه بعجزها عن معارضة ما أنزل عليه، وسبب سلامتها أنها في وسط جزيرة العرب في الحجاز ونجد وتهامة فلم تطرقها الأمم، فأما اليمن وهي جنوبي الجزيرة فأفسدت كلام عربيه خلطة الحبشة والهند، على أن أبا عبيد القاسم بن سلام، وأبا العباس المبرد، قد ذكرا أن عرب اليمن من القبائل التي نزل القرآن بلسانها.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق: وذلك عندي إنما هو فيما استعملته عرب الحجاز من لغة اليمن كالعرم والفتاح. فأما ما انفردوا به كالزخبي، والقلوبي، ونحوه، فليس في كتاب الله منه شيء.

وأما ما وإلى العراق من جزيرة العرب، وهي بلاد ربيعة، وشرقي الجزيرة، فأفسدت لغتها مخالطة الفرس، والنط، ونصارى الحيرة، وغير ذلك.

وأما الذي يلي الشام وهو شمالي الجزيرة وهي بلاد آل جفنة، وابن الرافلة، وغيرهم. فأفسدها مخالطة الروم، وكثير من بني إسرائيل.

وأما غربي الجزيرة فهي جبال تسكن بعضها هذيل وغيرهم وأكثرها غير معمور. فبقيت القبائل المذكورة سليمة اللغات لم تكدر صفو كلامها أمة من العجم، ويقوي هذا المنزع أنه لما اتسع نطاق الإسلام وداخلت الأمم العرب وتجرد أهل المصريين: البصرة، والكوفة، لحفظ لسان العرب، وكتب لغتها لم يأخذوا إلا عن هذه القبائل الوسيطة المذكورة، ومن كان معها، وتجنبوا اليمن، والعراق، والشام، فلم يكتب عنهم حرف واحد. وكذلك تجنبوا حواضر الحجاز مكة، والمدينة، والطائف. لأن السبي والتجار من الأمم كثروا فيها فأفسدوا اللغة. وكانت هذه الحواضر في مدة النبي صلى الله عليه وسلم سليمة لقلة المخالطة.

فمعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» أي فيه عبارات سبع قبائل بلغة جملتها نزل القرآن فيعبر عن المعنى فيه مرة بعبارة قريش، ومرة بعبارة هذيل، ومرة بغير ذلك بحسب الأوضح والأوجز في اللفظة. ألا ترى أن فطر معناها عند غير قريش ابتداء خلق الشيء وعمله فجاءت في القرآن فلم تتجه لابن عباس حتى اختصم إليه أعرباين في بئر فقال أحدهما: «أنا فطرتها» قال ابن عباس: «ففهمتم حينئذ موقع قوله تعالى: ﴿فاطر السماوات والأرض﴾ [فاطر: ١، الزمر: ٤٦].»

وقال أيضاً: «ما كنت أدري معنى قوله: ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾ [الأعراف: ٨٩] حتى سمعت بنت ذي يزن تقول لزوجها: تعال أفاتحك أي أحاكمك».

وكذلك قال عمر بن الخطاب، وكان لا يفهم معنى قوله تعالى: ﴿أو يأخذهم على تخوف﴾ [النحل: ٤٧] فوقف به فتى فقال: «إن أبي يتخوفني حقي» فقال عمر: «الله أكبر، أو يأخذهم على تخوف أي على تنقص لهم».

وكذلك اتفق لقطة بن مالك إذ سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الصلاة: ﴿والنخل باسقات﴾ [ق: ١٠]، ذكره مسلم في باب القراءة في صلاة الفجر، إلى غير هذا من الأمثلة.

فأباح الله تعالى لنبيه هذه الحروف السبعة وعارضه بها جبريل في عرضاته على الوجه الذي فيه الإعجاز وجودة الوصف، ولم تقع الإباحة في قوله عليه السلام: «فاقرؤوا ما تيسر منه» بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يبدل اللفظة من بعض هذه اللغات جعلها من تلقاء نفسه. ولو كان هذا لذهب إعجاز القرآن وكان معرضاً أن يبدل هذا وهذا حتى يكون غير الذي نزل من عند الله وإنما وقعت الإباحة في الحروف السبعة للنبي عليه السلام ليوسع بها على أمته، فقرأ مرة لأبيّ بما عارضه به جبريل صلوات الله عليهما، ومرة لابن مسعود بما عارضه به أيضاً.

وفي صحيح البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أقرأني جبريل على حرف، فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف».

وعلى هذا تجيء قراءة عمر بن الخطاب لسورة الفرقان وقراءة هشام بن حكيم لها، وإلا فكيف يستقيم أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم في قراءة كل منهما - وقد اختلفتا - : هكذا أقرأني جبريل؟ هل ذلك إلا لأنه أقرأه بهذه مرة وبهذه مرة. وعلى هذا يحمل قول أنس بن مالك حين قرأ ﴿إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأصوب قبلاً﴾ [المزمل: ٦]، فقليل له: إنما تقرأ وأقوم، فقال أنس: «أصوب وأقوم وأهياً واحداً». فإنما معنى هذا أنها مروية عن النبي صلى الله عليه وسلم، وإلا فلو كان هذا لأحد من الناس أن يضعه لبطل معنى قول الله تعالى: ﴿إننا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون﴾ [الحجر: ٩].

ثم إن هذه الروايات الكثيرة لما انتشرت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وافترق الصحابة في البلدان، وجاء الخلف وقرأ القرآن كثير من غير العرب، وقع بين أهل الشام والعراق ما ذكر حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وذلك أنهم لما اجتمعوا في غزوة أرمينية، فقرأت كل طائفة بما روي لها، فاختلفوا وتنازعوا حتى قال بعضهم لبعض: «أنا كافر بما تقرأ به» فأشفق حذيفة مما رأى منهم. فلما قدم حذيفة المدينة فيما ذكر البخاري وغيره دخل إلى عثمان بن عفان قبل أن يدخل بيته، فقال: أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك، قال: فيماذا؟ قال: في كتاب الله، إني حضرت هذه الغزوة وجمعت ناساً من العراق، ومن الشام، ومن الحجاز، فوصف له ما تقدم وقال: إني أخشى عليهم أن يختلفوا في كتابهم كما اختلفت اليهود والنصارى، قال عثمان رضي الله عنه: أفعل، فتجرد للأمر، واستتاب الكُفء العلماء الفصحاء في أن يكتبوا القرآن ويجعلوا ما اختلفت القراءة فيه على أشهر الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفصح

اللغات، وقال لهم: «إذا اختلفتم في شيء فاكتبوه بلسان قريش».

فمعنى هذا إذا اختلفتم فيما روي، وإلا فمحال أن يحيلهم على اختلاف من قبلهم، لأنه وضع قرآن فكتبوا في القرآن من كل اللغات السبع، مرة من هذه، ومرة من هذه، وذلك مقيد بأن الجميع مما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم وقرئ عليه، واستمر الناس على هذا المصحف المتخير وترك ما خرج عنه مما كان كتب سداً للذريعة وتغليفاً لمصلحة الألفه وهي المصاحف التي أمر عثمان بن عفان رضي الله عنه أن تحرق أو تحرق.

فأما ابن مسعود فأبى أن يزال مصحفه فترك، ولكن أبى العلماء قراءته سداً للذريعة، ولأنه روي أنه كتب فيه أشياء على جهة التفسير فظنوها قوم من التلاوة فتخلط الأمر فيه ولم يسقط فيما ترك معنى من معاني القرآن لأن المعنى جزء من الشريعة، وإنما تركت ألفاظ معانيها موجودة في الذي أثبت.

ثم إن القراء في الأمصار تتبعوا ما روي لهم من اختلافات لاسيما فيما وافق خط المصحف، فقرؤوا بذلك حسب اجتهاداتهم، فلذلك ترتب أمر القراء السبعة وغيرهم رحمهم الله ومضت الأعصار والأمصار على قراءة السبعة وبها يصلى لأنها ثبتت بالإجماع.

وأما شاذ القراءات فلا يصلى به، وذلك لأنه لم يجمع الناس عليه. أما أن المروي منه عن الصحابة رضي الله عنهم وعن علماء التابعين لا يعتد فيه إلا أنهم روه.

وأما ما يؤثر عن أبي السمال ومن قاربه فلا يوثق به وإنما أذكره في هذا الكتاب لئلا يجهل والله المستعان.

وكان المصحف غير مشكول ولا منقوط، وقد وقع لبعض الناس خلاف في بعض ما ذكرته في هذا الباب ومنازعات اختصرت ذلك كراهة التطويل وعولت على الأسلوب الواضح الصحيح، والله المرشد للصواب برحمته.

(باب ذكر جمع القرآن وشكله ونقطه وتحزيبه وتعشيره)

كان القرآن في مدة رسول الله صلى الله عليه وسلم متفرقاً في صدور الرجال، وقد كتب الناس منه في صحف، وفي جريد، وظهر وفي لخاف وفي خزف وغير ذلك، فلما استحرّ القتل بالقراء يوم اليمامة أشار عمر بن الخطاب على أبي بكر الصديق رضي الله عنهما بجمع القرآن، مخافة أن يموت أشياخ القراءة كأيّ زید وابن مسعود فيذهب، فندبا إلى ذلك زيد بن ثابت فجعله غير مرتب السور بعد تعب شديد منه رضي الله عنه.

وروي أن في هذا الجمع سقطت الآية من آخر براءة حتى وجدها عند خزيمه بن ثابت. وحكى الطبري أنه إنما سقطت له في الجمع الأخير، والأول أصح. وهو الذي حكى البخاري إلا أنه قال فيه مع أبي خزيمه الأنصاري، وقال: إن في الجمع الثاني فقد زيد آية من سورة الأحزاب ﴿من المؤمنين رجال﴾ [الأحزاب: ٣٣] فوجدها مع خزيمه بن ثابت، وبقيت الصحف عند أبي بكر، ثم عند عمر بن الخطاب بعده، ثم عند حفصة بنته في خلافة عثمان، وانتشرت في خلال ذلك صحف في الآفاق كتبت عن الصحابة كمصحف ابن مسعود وما كتب عن الصحابة بالشام ومصحف أبي وغير ذلك، وكان في ذلك اختلاف حسب السبعة الأحرف التي أنزل القرآن عليها.

فلما قدم حذيفة من غزوة أرمينية حسبما قد ذكرناه انتدب عثمان لجمع المصحف وأمر زيد بن ثابت بجمعه، وقرن يزيد فيما ذكر البخاري ثلاثة من قريش: سعيد بن العاصي، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وعبد الله بن الزبير، وكذلك ذكر الترمذي وغيرهما.

وقال الطبري فيما روي: إنه قرن يزيد أبان بن سعيد بن العاصي وحده، وهذا ضعيف.

وقال الطبري أيضاً: إن الصحف التي كانت عند حفصة جعلت إماماً في هذا الجمع الأخير. وروي أن عثمان رضي الله عنه قال لهم: «إذا اختلفتم في شيء فاجعلوه بـلغة قريش»، فاختلفوا في التابوه والتابوت، قرأه زيد بن ثابت بالهاء والقريشون بالتاء، فأثبتته بالتاء، وكتب المصحف على ما هو عليه غابر الدهر ونسخ عثمان منه نسخاً ووجه بها إلى الآفاق، وأمر بما سواها من المصاحف أن تحرق أو تخرق، وتروى بالحاء غير منقوطة وتروى بالحاء على معنى: ثم تدفن. ورواية الحاء غير منقوطة أحسن.

قال القاضي أبو بكر بن الطيب: وترتيب السور اليوم هو من تلقاء زيد ومن كان معه مع مشاركة من عثمان رضي الله عنه في ذلك وقد ذكر ذلك مكي رحمه الله في تفسير سورة «براءة». وذكر أن ترتيب الآيات

في السور ووضع البسملة في الأوائل هو من النبي صلى الله عليه وسلم، ولما لم يأمر بذلك في أول براءة تركت بلا بسملة.

هذا أحد ما قيل في براءة، وذلك مستقصى في موضعه موفى إن شاء الله تعالى. وظاهر الآثار أن السبع الطول والحواميم والمفصل كان مرتباً في زمن النبي عليه السلام، وكان في السور ما لم يرتب، فذلك هو الذي رتب وقت الكتب.

وأما شكل المصحف ونقطه فروي أن عبد الملك بن مروان أمر به وعمله فتجرد لذلك الحجاج بواسط وجد فيه وزاد تحزيه وأمر وهو والي العراق الحسن ويحيى بن يعمر بذلك، وألف إثر ذلك بواسط كتاب في القراءات، جمع فيه ما روي من اختلاف الناس فيما وافق الخط، ومشى الناس على ذلك زماناً طويلاً إلى أن ألف ابن مجاهد كتابه في القراءات. وأسند الزبيدي في كتاب الطبقات إلى المبرد أن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلي وذكر أيضاً أن ابن سيرين كان له مصحف نقطه له يحيى بن يعمر.

وذكر أبو الفرج أن زياد بن أبي سفيان أمر أبا الأسود بنقط المصاحف.

وذكر الجاحظ في كتاب الأمصار أن نصر بن عاصم أول من نقط المصاحف وكان يقال له نصر الحروف.

وأما وضع الأعشار فيه فمر بي في بعض التواريخ أن المأمون العباسي أمر بذلك وقيل إن الحجاج فعل ذلك.

وذكر أبو عمرو الداني عن قتادة أنه قال: بدؤوا فنقطوا ثم خمسوا ثم عشروا، وهذا كالإنكار.

(باب في ذكر الألفاظ التي في كتاب الله وللغات المعجم بها تعلق)

● اختلف الناس في هذه المسألة، فقال أبو عبيدة وغيره: إن في كتاب الله تعالى من كل لغة، وذهب الطبري وغيره إلى أن القرآن ليس فيه لفظة إلا وهي عربية صريحة وأن الأمثلة والحروف التي تنسب إلى سائر اللغات إنما اتفق فيها أن تواردت اللغتان فتكلمت بها العرب والفرس أو الحبشة بلفظ واحد، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿إِنْ نَاشِئَةُ اللَّيْلِ﴾ [المزمل: ٦] قال ابن عباس: نشأ بلغة الحبشة قام من الليل، ومنه قوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كُفْلِينَ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الحديد: ٢٨].

قال أبو موسى الأشعري: كفلان ضعفان من الأجر بلسان الحبشة وكذلك قال ابن عباس في القسورة إنها الأسد بلغة الحبشة إلى غير هذا من الأمثلة.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: والذي أقوله إن القاعدة والعقيدة هي أن القرآن نزل بلسان عربي مبين، فليس فيه لفظة تخرج عن كلام العرب فلا تفهمها إلا من لسان آخر، فأما هذه الألفاظ وما جرى مجراها فإنه قد كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلسانها بعض مخالطة لسائر الألسنة بتجارات وبرحلتى قريش، وكسفر مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس إلى الشام، وسفر عمر بن الخطاب، وكسفر عمرو بن العاصي وعمارة بن الوليد إلى أرض الحبشة، وكسفر الأعشى إلى الحيرة وصحبته لنصاراها مع كونه حجة في اللغة، فعلمت العرب بهذا كله ألفاظاً أعجمية غيرت بعضها بالنقص من حروفها، وجرت إلى تخفيف ثقل العجمة، واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها حتى جرت مجرى العربي الصريح، ووقع بها البيان، وعلى هذا الحد نزل بها القرآن، فإن جهلها عربي ما فكجهله الصريح بما في لغة غيره، كما لم يعرف ابن عباس معنى «فاطر» إلى غير ذلك فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها في الأصل أعجمية، لكن استعملتها العرب وعربتها فهي عربية بهذا الوجه، وما ذهب إليه الطبري من أن اللغتين اتفقتا في لفظة فذلك بعيد، بل إحداهما أصل، والأخرى فرع في الأكثر، لانا لا ندفع أيضاً جواز الاتفاق قليلاً شاذاً.

نبذة مما قال العلماء في إعجاز القرآن

● اختلف الناس في إعجاز القرآن بم هو؟ فقال قوم: «إن التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات، وإن العرب كلفت في ذلك ما لا يطاق، وفيه وقع عجزها».

وقال قوم: «إن التحدي وقع بما في كتاب الله تعالى من الأنباء الصادقة، والغيوب المسرودة». وهذان القولان إنما يرى العجز فيهما من قد تقررت الشريعة ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم في نفسه. وأما من هو في ظلمة كفره فإنما يتحدى فيما يبين له بينه وبين نفسه عجزه عنه، وأن البشر لا يأتي بمثله ويتحقق مجيئه من قبل المتحدي، وكفار العرب لم يمكنهم قط أن ينكروا أن رصف القرآن ونظمه وفصاحته متلقى من قبل محمد صلى الله عليه وسلم. فإذا تحدثت إلى ذلك وعجزت فيه علم كل فصيح ضرورة أن هذا نبي يأتي بما ليس في قدرة البشر الإتيان به، إلا أن يخص الله تعالى من يشاء من عباده. وهذا هو القول الذي عليه الجمهور والحقاق وهو الصحيح في نفسه أن التحدي إنما وقع بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه.

ووجه إعجازه أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً، وأحاط بالكلام كله علماً، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل، والنسيان، والذهول، ومعلوم ضرورة أن بشراً لم يكن قط محيطاً.

فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة، وبهذا النظر يبطل قول من قال: «إن العرب كان من قدرتها أن تأتي بمثل القرآن فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم صرفوا عن ذلك وعجزوا عنه».

والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم يصنع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده، ثم لا يزال ينقحها حولاً كاملاً، ثم تعطى لآخر نظيره فيأخذها بقريحة جامدة فيبدل فيها وينقح ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل، كتاب الله لو نزعته منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد. ونحن تبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وميز الكلام.

ألا ترى ميز الجارية نفس الأعشى وميز الفرزدق نفس جرير من نفس ذي الرمة ونظر الأعرابي في قوله: «عز فحكم فقطع» إلى كثير من الأمثلة اكتفيت بالإشارة إليها اختصاراً.

فصورة قيام الحجّة بالقرآن على العرب أنه لما جاء محمد صلى الله عليه وسلم به وقال: ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾ [البقرة: ٢٣] قال كل فصيح في نفسه: وما بال هذا الكلام حتى لا آتي بمثله؟ فلما تأمله وتدبره، ميز منه ما ميز الوليد بن المغيرة حين قال: «والله ما هو بالشعر ولا هو بالكهانة ولا بالجنون» وعرف كل فصيح بينه وبين نفسه أنه لا يقدر بشر على مثله، فصح عنده أنه من عند الله تعالى.

فمنهم من آمن وأذعن، ومنهم من حسد كأبي جهل وغيره ففر إلى القتال، ورضي بسفك الدم عجزاً عن المعارضة، حتى أظهر الله دينه، ودخل جميعهم فيه، ولم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي الأرض قبيل من العرب يعلن كفره. وقامت الحجّة على العالم بالعرب إذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة، كما قامت الحجّة في معجزة عيسى بالأطباء، وفي معجزة موسى بالسحرة فإن الله تعالى إنما جعل معجزات الأنبياء بالوجه الشهير أبرع ما يكون في زمن النبي الذي أراد إظهاره، فكان السحر في مدة موسى قد انتهى إلى غايته، وكذلك الطب في زمن عيسى، والفصاحة في مدة محمد عليهم الصلاة والسلام.

باب في الألفاظ التي يقتضي الإيجاز استعمالها في تفسير كتاب الله تعالى

● اعلم أن القصد إلى إيجاز العبارة قد يسوق المتكلم في التفسير إلى أن يقول: خاطب الله بهذه الآية المؤمنين وشرف الله بالذكر الرجل المؤمن من آل فرعون، وحكى الله تعالى عن أم موسى أنها قالت: «قصيه» ووقف الله ذرية آدم على ربوبيته بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ونحو هذا من إسناد أفعال إلى الله تعالى لم يأت إسنادها بتوقيف من الشرع.

وقد استعمل هذه الطريقة المفسرون والمحدثون والفقهاء، واستعملها أبو المعالي في الإرشاد، وذكر بعض الأصوليين أنه لا يجوز أن يقال: حكى الله ولا ما جرى مجراه.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق: وهذا على تقرير هذه الصفة له وثبوتها مستعملة كسائر أوصافه تبارك وتعالى، وأما إذا استعمل ذلك في سياق الكلام والمراد منه حكى الآية أو اللفظ فذلك استعمال عربي شائع وعليه مشى الناس، وأنا أتحفظ منه في هذا التعليق جهدي، لكنني قدمت هذا الباب لما عسى أن أقع فيه نادراً، واعتذاراً عما وقع فيه المفسرون من ذلك.

وقد استعملت العرب أشياء في ذكر الله تعالى تنحمل على مجاز كلامها، فمن ذلك قول أبي عامر يرتجز بالنبي صلى الله عليه وسلم: «فاغفر فداء لك ما اقتفينا». وقول أم سلمة: فعزم الله لي في الحديث في موت أبي سلمة وإبدال الله لها منه رسول الله. ومن ذلك قولهم: الله يدري كذا وكذا والدراية إنما هي التأتى للعلم بالشئ حتى يتيسر ذلك.

قال أبو علي: «واحتج بعض أهل النظر على جواز هذا الإطلاق بقول الشاعر الجوهري: [الرجز].

لأهْمُ لا أدري وأنت الداري

قال أبو علي: «وهذا لا ثبت فيه لأنه يجوز أن يكون من غلط الاعراب».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وكذلك أقول إن الطريقة كلها عربية لا يثبت للنظر المنخول شيء منها. وقد أنشد بعض البغداديين: [الرجز].

لا هَمَّ إن كنتَ الذي بعهدي ولم تغيركُ الأمور بعدي

وقد قال العجاج: فارتاح ربي وأراد رحمتي.

وقال الآخر: قد يصيحُ اللهُ إمام الساري.

وقال الآخر:

يا فقعي لم أكلته لِمَه لو خافَكَ الله عليه حرْمَه

وقال أوس:

أُبَيِّنِي لُبِّيْنِي لَا أَحْبُبُكُمْ وَجَدَ الْإِلَهَ بِكُمْ كَمَا أَجِدُ

وقال الآخر:

وَإِنَّ اللَّهَ ذَاقَ عَقُولَ تَيْمٍ فَلَمَّا رَأَى خَفَّتْهَا قَلَاهَا

ومن هذا الاستعمال الذي يبنى الباب عليه قول سعد بن معاذ: «عَرَّقَ اللهُ وجهك في النار» يقول هذا للرامي الذي رماه، وقال: «خذها وأنا ابن العرقة».

وفي هذه الأمثلة كفاية فيما نحوناه إذ النظير لذلك كثير موجود، وإن خرج شيء من هذه على حذف مضاف فذلك متوجه في الاستعمال الذي قصدنا الاعتذار عنه والله المستعان.

باب في تفسير أسماء القرآن وذكر السورة والآية

هو القرآن، وهو الكتاب، وهو الفرقان، وهو الذكر، فالقرآن مصدر من قولك: قرأ الرجل إذا تلا يقرأ قرآنًا وقراءة، وحكى أبو زيد الأنصاري: وقرأ. وقال قتادة: «القرآن معناه التأليف قرأ الرجل إذا جمع وألف قولاً» وبهذا فسر قتادة قول الله تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْنَا جُمُوعُهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٧] أي تأليفه، وهذا نحو قول الشاعر عمرو بن كلثوم: [الوافر]

ذراعِي بِكَرَّةٍ أَدْمَاءُ بِكُرٍ هجان اللون لم تقرأ جنيْنَا

أي لم تجمع في بطنها ولدًا فهو أفره لها، والقول الأول أقوى إن القرآن مصدر من قرأ إذا تلا، ومنه قول حسان بن ثابت يرثي عثمان بن عفان رضي الله عنه: [البسيط].

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يُقَطِّعُ الليلَ تسبيحاً وقرآنًا

أي قراءة.

وأما الكتاب فهو مصدر من كتب إذا جمع. ومنه قيل كتيبة لاجتماعها. ومنه قول الشاعر: «واكتبها بأسيار» أي اجمعها.

وأما الفرقان أيضاً فهو مصدر لأنه فرق بين الحق والباطل، والمؤمن والكافر، فرقاً وفرقاناً.

وأما الذكر فسمي به لأنه ذكر به الناس آخرتهم وإلههم وما كانوا في غفلة عنه فهو ذكر لهم، وقيل سمي بذلك لأنه فيه ذكر الأمم الماضية والأنبياء، وقيل: سمي بذلك لأنه ذكر وشرف لمحمد صلى الله عليه وسلم وقومه وسائر العلماء به.

وأما السورة فإن قريشاً كلها ومن جاورها من قبائل العرب كهذيل، وسعد بن بكر، وكنانة، يقولون: سورة بغير همز، وتميم كلها وغيرهم أيضاً يهزمون فيقولون: سؤر وسؤرة.

فأما من همز فهي عنده كالبقية من الشيء والقطعة منه التي هي سؤر وسؤرة من أسار إذا أبقى. ومنه «سؤر الشراب» ومنه قول الأعشى - وهو ميمون بن قيس - : [المتقارب]

فبانَتْ وقد أسارتْ في الفؤا دِ صَدْعاً على نأبِها مُسْتَطِيراً

أي أبقت فيه.

وأما من لا يهمز فمنهم من يراها من المعنى المتقدم إلا أنها سهلت همزتها. ومنهم من يراها مشبهة

بسورة البناء أي القطعة منه، لأن كل بناء فإنما يبنى قطعة بعد قطعة، وكل قطعة منها سورة، وجمع سورة القرآن سور بفتح الواو، وجمع سورة البناء سور بسكونها.

قال أبو عبيدة: «إنما اختلفا في هذا فكأن سور القرآن هي قطعة بعد قطعة حتى كمل منها القرآن». ويقال أيضاً للرتبة الرفيعة من المجد والملك سورة. ومنه قول النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر: [الطويل].

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سَوْرَةً تَرَى كُلَّ مَلَكٍ دُونَهَا يَتَذَبَذَّبُ
فَكَانَ الرُّتْبَةُ انْبَنَتْ حَتَّى كَمَلَتْ.

وأما الآية فهي العلامة في كلام العرب. ومنه قول الأسير الموصي إلى قومه باللُّغز: «بآية ما أكلت معكم حيساً».

فلما كانت الجملة التامة من القرآن علامة على صدق الآتي بها وعلى عجز المتحدى بها سُمِيَتْ آية. هذا قول بعضهم، وقيل سميت آية لما كانت جملة وجماعة كلام كما تقول العرب: «جئنا بآيتنا» أي بجماعتنا. وقيل: لما كانت علامة للفصل بين ما قبلها وما بعدها سميت آية. ووزن آية عند سيبويه فعلة بفتح العين أصلها آيية تحركت الياء الأولى وما قبلها مفتوح فجاءت آية.

وقال الكسائي: «أصل آية آيية على وزن فاعلة، حذفت الياء الأولى مخافة أن يلتزم فيها من الإدغام ما لزم في دابة».

وقال مكِّي في تعليل هذا الوجه: «سُكِّنَت الأولى وأدغمت فجاءت آية على وزن دابة، ثم سهلت الياء المثقلة»، وقيل: أصلها آية على وزن فعلة بسكون العين، أبدلت الياء الساكنة ألفاً استثقلاً للتضعيف، قاله الفراء، وحكاه أبو علي عن سيبويه في ترجمة ﴿وَكَايْنٍ مِنْ نَبِيِّ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وقال بعض الكوفيين: «أصلها آيية على وزن فعلة بكسر العين أبدلت الياء الأولى ألفاً لثقل الكسر عليها وانفتاح ما قبلها».

باب القول في الاستعاذة

قال الله عز وجل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

معناه: إذا أردت أن تقرأ وشرعت فأوقع الماضي موقع المستقبل لثبوته. وأجمع العلماء على أن قول القارئ: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ليس بآية من كتاب الله. وأجمعوا على استحسان ذلك والتزامه في كل قراءة في غير صلاة، واختلفوا في التعوذ في الصلاة، فابن سيرين، وإبراهيم النخعي، وقوم، يتعوذون في الصلاة في كل ركعة، ويمثلون أمر الله بالاستعاذة على العموم في كل قراءة، وأبو حنيفة، والشافعي، يتعوذان في الركعة الأولى من الصلاة، ويريان أن قراءة الصلاة كلها كقراءة واحدة. ومالك رحمه الله لا يرى التعوذ في الصلاة المفروضة، ويراه في قيام رمضان. ولم يحفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه تعوذ في صلاة.

وحكى الزهري عن الحسن أنه قال: «نزلت الآية في الصلاة، وندبنا إلى الاستعاذة في غير الصلاة وليس بفرض».

قال غيره: «كانت فرضاً على النبي صلى الله عليه وسلم وحده، ثم تأسينا به».

وأما لفظ الاستعاذة فالذي عليه جمهور الناس هو لفظ كتاب الله تعالى «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

وروي عن ابن عباس أنه قال: «أول ما نزل جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم قال له: قل يا محمد: أستعِذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قال: قل: بسم الله الرحمن الرحيم».

وروي سليمان بن سالم عن ابن القاسم رحمه الله: أن الاستعاذة «أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم بسم الله الرحمن الرحيم».

وأما المقرئون فأكثرهم في هذا من تبديل الصفة في اسم الله تعالى وفي الجهة الأخرى كقول بعضهم: «أعوذ بالله المجيد من الشيطان المريد». ونحو هذا مما لا أقول فيه نعمت البدعة ولا أقول إنه لا يجوز.

ومعنى الاستعاذة: الاستجارة، والتحيز إلى الشيء على معنى الامتناع به من المكروه، والكلام على المكتوبة يجيء في بسم الله فذلك الموضع أولى به.

وأما الشيطان فاختلف الناس في اشتقاقه، فقال الحذاق: «هو فيعال من شطن إذا بعد لأنه بعد عن الخير ورحمة الله». ومن اللفظة قولهم: نوى شطون، أي بعيدة. قال الأعشى: [الوافر].

نَأَتْ بِسَعَادَ عَنْكَ نَوَى شَطُونُ فَبَانَتْ وَالْفَوَادُ بِهَا رَهِيْنُ

ومنه قيل للجلب شطن، لبعد طرفيه وامتداده، وقال قوم: إن شيطاناً مأخوذ من شاط يشيط إذا هاج وأحرق ونحوه، إذ هذه أفعاله، فهو فعلان.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: ويرد على هذه الفرقة أن سيبويه حكى أن العرب تقول تشيطن فلان إذا فعل أفاعيل الشياطين، فهذا بين أنه تفعيل من شطن، ولو كان من شاط لقالوا تشيط. ويرد أيضاً عليهم بيت أمية بن أبي الصلت: [الخفيف].

أَيُّمَا شَاطِنٍ عَصَاهُ عَكَاهُ ثُمَّ يُلْقَى فِي السَّجَنِ وَالْأَكْبَالِ

فهذا شاطن من شطن لا شك فيه.

وأما الرجيم فهو فعيل بمعنى مفعول، كقتيل وجريح ونحوه، ومعناه أنه رجم باللعنة، والمقت، وعدم الرحمة.

قال المهدوي رحمه الله: «أجمع القراء على إظهار الاستعاذة في أول قراءة سورة الحمد إلا حمزة فإنه أسرها».

وروى المسيب عن أهل المدينة أنهم كانوا يفتحون القراءة بالبسملة.

(القول في تفسير بسم الله الرحمن الرحيم)

● روي عن جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه أنه قال: «البسملة تيجان السور».

وروي أن رجلاً قال بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم: تعس الشيطان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تقل ذلك، فإنه يتعاضم عنده، ولكن قل: «بسم الله الرحمن الرحيم» فإنه يصغر حتى يصير أقل من ذباب».

وقال علي بن الحسين رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦] قال: «معناه إذا قلت: «بسم الله الرحمن الرحيم».

وروي عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: «كيف تفتتح الصلاة يا جابر؟ قلت: بالحمد لله رب العالمين. قال: قل: بسم الله الرحمن الرحيم».

وروي أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أتاني جبريل فعلمني الصلاة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم يجهر بها».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وهذان الحديثان يقتضيان أنها آية من الحمد، ويرد ذلك حديث أبي بن كعب الصحيح إذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم: «هل لك ألا تخرج من المسجد حتى تعلم سورة ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلها»، قال: فجعلت أبطىء في المشي رجاء ذلك، فقال لي: كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة؟ قال: فقرأت الحمد لله رب العالمين حتى أتيت على آخرها.

ويرده الحديث الصحيح بقوله عز وجل: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي، يقول العبد الحمد لله رب العالمين».

ويرده أنه لم يحفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا عن أبي بكر، ولا عن عمر، ولا عثمان، رضي الله عنهم أنهم قرؤوا في صلاتهم: «بسم الله الرحمن الرحيم».

ويرده عدد آيات السورة لأن الإجماع أنها سبع آيات، إلا ما روي عن حسين الجعفي أنها ست آيات، وهذا شاذ لا يعول عليه وكذلك روي عن عمرو بن عبيد أنه جعل ﴿إياك نعبد﴾ [الفاتحة: ٥] آية، فهي على عده ثماني آيات، وهذا أيضاً شاذ. وقول الله تعالى: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني﴾ [الحجر: ٨٧] هو الفصل في

ذلك. والشافعي - رحمه الله - يعد «بسم الله الرحمن الرحيم» آية من الحمد، وكثير من قراء مكة والكوفة لا يعدون ﴿أنعمت عليهم﴾ [الفاتحة: ٧]. ومالك - رحمه الله -، وأبو حنيفة، وجهور الفقهاء، والقراء، لا يعدون البسملة آية. والذي يحتمله عندي حديث جابر، وأبي هريرة - إذا صحَّ - أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى قراءة جابر وحكايته أمر الصلاة قراءة في غير صلاة على جهة التعلم فأمره بالبسملة لهذا لا لأنها آية. وكذلك في حديث أبي هريرة رآها قراءة تعليم، ولم يفعل ذلك مع أبي لأنها قصد تخصيص السورة ووسمها من الفضل بما لها، فلم يدخل معها ما ليس منها، وليس هذا القصد في حديث جابر وأبي هريرة، والله أعلم.

وقال ابن المبارك: «إن البسملة آية في كل سورة»، وهذا قول شاذ رد الناس عليه. وروى الشعبي والأعمش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكتب «باسمك اللهم»، حتى أمر أن يكتب «بسم الله» فكتبها. فلما نزلت ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾ [الإسراء: ١١٠] كتب: «بسم الله الرحمن». فلما نزلت: ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾ [النمل: ٣٠] كتبها.

وروى عمرو بن شرحبيل: أن جبريل أول ما جاء النبي عليه السلام قال له: قل: «بسم الله الرحمن الرحيم».

وروي عن ابن عباس: أن أول ما نزل به جبريل: «بسم الله الرحمن الرحيم». وفي بعض طرق حديث خديجة وحملها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ورقة، أن جبريل قال للنبي عليهما السلام: قل: «بسم الله الرحمن الرحيم» فقالها: فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ... الحديث.

والبسملة تسعة عشر حرفاً. فقال بعض الناس: إن رواية بلغتهم أن ملائكة النار الذين قال الله فيهم ﴿عليها تسعة عشر﴾ [المثدر: ٣٠] إنما ترتب عددهم على حروف بسم الله الرحمن الرحيم، لكل حرف ملك، وهم يقولون في كل أفعالهم: «بسم الله الرحمن الرحيم» فمن هنالك هي قوتهم، وباسم الله استضلعوا.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وهذه من ملح التفسير، وليست من متين العلم، وهي نظير قولهم في ليلة القدر: «إنها ليلة سبع وعشرين»، مراعاة للفظه هي في كلمات سورة ﴿إنا أنزلناه﴾ [القدر: ١]. ونظير قولهم في عدد الملائكة الذين ابتدروا قول القائل: «ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه»، فإنها بضعة وثلاثون حرفاً، قالوا: فلذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم يكتبها أول». والباء في: بسم الله متعلقة عند نحاة البصرة باسم تقديره ابتداء مستقر أو ثابت بسم الله وعند نحاة الكوفة بفعل تقديره ابتدأت بسم الله، فبسم الله في موضع رفع على مذهب البصريين، وفي موضع نصب على مذهب الكوفيين، كذا أطلق القول قوم، والظاهر من مذهب سيبويه أن الباء متعلقة باسم كما تقدم، وبسم الله في موضع نصب تعلقاً بثابت أو مستقر بمنزلة: في الدار من قولك زيد في الدار، وكسرت باء الجر ليناسب لفظها عملها، أو لكونها لا تدخل إلا على الأسماء فخضت بالخفض الذي

لا يكون إلا في الأسماء، أو ليفرق بينها وبين ما قد يكون من الحروف اسماً. نحو الكاف في قول الأعشى:
[البسيط].

أَتَنْتَهُونَ وَلَا يَنْهَى ذَوِي شَطَطٍ كَالطَّعْنِ يَذْهَبُ فِيهِ الزَيْتُ وَالْفَتْلُ

وحذفت الألف من بسم الله في الخط اختصاراً وتخفيفاً لكثرة الاستعمال. واختلف النحاة إذا كتب «باسم الرحمن وباسم القاهر» فقال الكسائي وسعيد الأخفش: «يحذف الألف». وقال يحيى بن زياد: «لا تحذف إلا مع بسم الله فقط، لأن الاستعمال إنما كثر فيه».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: فأما في غير اسم الله تعالى فلا خلاف في ثبوت الألف.

واسم أصله سمو بكسر السين أو سمو بضمها، وهو عند البصريين مشتق من السمو. يقال: سما سمو، فعلى هذا تضم السين في قولك سمو ويقال: سمي يسمى فعلى هذا تكسر، وحذفت الواو من سمو، وكسرت السين من سم، كما قال الشاعر: [الرجز].

باسم الذي في كل سورة سمة

وسكنت السين من بسم اعتلالاً على غير قياس، وإنما استدل على هذا الأصل الذي ذكرناه بقولهم في التصغير سمي، وفي الجمع أسماء، وفي جمع الجمع أسامي.

وقال الكوفيون: أصل اسم وسم من السمة، وهي العلامة. لأن الاسم علامة لمن وضع له، وحذفت فائه اعتلالاً على غير قياس، والتصغير والجمع المذكوران يردان هذا المذهب الكوفي. وأما المعنى فيه فجيد لولا ما يلزمهم من أن يقال في التصغير وسيم، وفي الجمع أوسام، لأن التصغير والجمع يردان الأشياء إلى أصولها. وقد ذكر بعض المفسرين في هذا الموضع الاسم والمسمى هل هما واحد؟

وقال الطبري رحمه الله: إنه ليس بموضع للمسألة، وأنحى في خطبته على المتكلمين في هذه المسألة ونحوها، ولكن بحسب ما قد تدوول القول فيها، فلنقل إن الاسم كزيد وأسد وفرس قد يرد في الكلام ويراد به الذات، كقولك زيد قائم والأسد شجاع، وقد يراد به التسمية ذاتها، كقولك أسد ثلاثة أحرف، ففي الأول يقال الاسم هو المسمى بمعنى يراد به المسمى وفي الثاني لا يراد به المسمى. ومن ورود الأول قولك يا رحمن اغفر لي، وقوله تعالى: ﴿الرحمن علم القرآن﴾ [الرحمن: ١] ومن ورود الثاني قولك: الرحمن وصف لله تعالى. وأما اسم الذي هو ألف وسين وميم، فقد يجري في لغة العرب مجرى الذات. يقال: ذات، ونفس، واسم، وعين، بمعنى. وعلى هذا حمل أكثر أهل العلم قوله تعالى: ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ [الأعلى: ١] وقوله تعالى: ﴿تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾ [الرحمن: ٧٨]. وقوله تعالى: ﴿ما تعبدون من دون إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم﴾ [يوسف: ٤٠]. وعضدوا ذلك بقول لبيد: [الطويل].

إلى الحول ثم اسمُ السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

وقالوا: إن لبيدأ أراد التحية، وقد يجري «اسم» في اللغة مجرى ذات العبارة، وهو الأكثر من استعمالها، فمنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] على أشهر التأويلات فيه. ومنه قول النبي عليه السلام: «إن الله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة»، وعلى هذا النحو استعمل النحويون الاسم في تصريف أقوالهم فالذي يتنخل من هذا: أن الأسماء قد تجيء يراد بها ذوات المسميات، وفي هذا يقال الاسم هو المسمى، وقد تجيء يراد بها ذواتها نفسها لا مسمياتها. ومربي أن مالكاً رحمه الله سئل عن الاسم أهو المسمى؟ فقال: «ليس به ولا هو غيره»، يريد دائماً في كل موضع، وهذا موافق لما قلناه، والمكتوبة التي لفظها الله أبهر أسماء الله تعالى وأكثرها استعمالاً، وهو المتقدم لسائرهما في الأغلب، وإنما تجيء الآخر أوصافاً، واختلف الناس في اشتقاقه، فقالت فرقة من أهل العلم: «هو اسم مرتجل، لا اشتقاق له من فعل، وإنما هو اسم موضوع له تبارك وتعالى، والألف واللام لازمة له لا لتعريف ولا لغيره، بل هكذا وضع الاسم». وذهب كثير من أهل العلم إلى أنه مشتق من أله الرجل إذا عبد، وتأله إذا تنسك. ومن ذلك قول رؤية بن العجاج: [الرجز]

لله در الغانيات المده سبَّحْنَ واستَرْجَعْنَ مِنْ تَأْلِهِي

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَيَذُرْكُمُ الْهَيْكَلُ﴾ [الأعراف: ١٢٧] على هذه القراءة فإن ابن عباس وغيره قال: وعبادتك، قالوا: فاسم الله مشتق من هذا الفعل، لأنه الذي يألوه كل خلق ويعبده، حكاه النقاش في صدر سورة آل عمران فلاه فعال من هذا.

واختلف كيف تعلل إله حتى جاء الله، فقيل: حذفت الهمزة حذفاً على غير قياس ودخلت الألف واللام للتعظيم على لاه، وقيل بل دخلتا على اله ثم نقلت حركة الهمزة إلى اللام فجاء اللاه ثم أدغمت اللام في اللام. وقيل إن أصل الكلمة لاه، وعليه دخلت الألف واللام، والأول أقوى.

وروي عن الخليل أن أصل إله ولاه وأن الهمزة مبدلة من واو كما هي في إشاح ووشاح وإسادة ووسادة، وقيل إن أصل الكلمة ولاه كما قال الخليل إلا أنها مأخوذة من وله الرجل إذا تحير، لأنه - تعالى - تحير الألباب في حقائق صفاته، والفكر في المعرفة به، وحذفت الألف الأخيرة من «الله» لثلاثي بخت اللات، وقيل طرحت تخفيفاً، وقيل هي لغة فاستعملت في الخط ومنها قول الشاعر ابن الأعرابي: [الرجز]

أقبل سيل جاء من أمر الله يحردُ حَرْدُ الجَنَّةِ المغلَّةِ

والرحمن صفة مبالغة من الرحمة، ومعناها أنه انتهى إلى غاية الرحمة كما يدل على الانتهاء سكران وغضبان، وهي صفة تختص بالله ولا تطلق على البشر، وهي أبلى من فعيل، وفعيل أبلى من فاعل، لأن راحماً يقال لمن رحم ولو مرة واحدة، ورحيماً يقال لمن كثر منه ذلك، والرحمن النهاية في الرحمة. وقال بعض الناس: «الرحمن الرحيم» بمعنى واحد، كالندمان والنديم، وزعم أنهما من فعل واحد، ولكن أحدهما أبلى من الآخر. وأما المفسرون فعبروا عن «الرحمن الرحيم» بعبارات، فمنها أن العرزمي قال: «معناه: الرحمن بجميع خلقه في الأمطار، ونعم الحواس، والنعم العامة، الرحيم بالمؤمنين في الهداية لهم، واللطف بهم» ومنها أن أبا سعيد الخدري وابن مسعود رويا: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«الرحمن رحمن الدنيا والآخرة، والرحيم رحيم الآخرة».

وقال أبو علي الفارسي: الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى، والرحيم إنما هو في جهة المؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] وهذه كلها أقوال تتعاضد. وقال عطاء الخراساني: «كان الرحمن فلما اختزل وسمي به مسيلمة الكذاب قال الله - سبحانه - لنفسه: «الرحمن الرحيم» فهذا الاقتران بين الصفتين ليس لأحد إلا لله تعالى» وهذا قول ضعيف، لأن بسم الله الرحمن الرحيم كان قبل أن ينجم أمر مسيلمة. وأيضاً فتسمي مسيلمة بهذا لم يكن مما تأصل وثبت. وقال قوم: إن العرب كانت لا تعرف لفظة الرحمن، ولا كانت في لغتها، واستدلوا على ذلك بقول العرب: «وما الرحمن؟ أنسجد لما تأمرنا» وهذا القول ضعيف، وإنما وقفت العرب على تعيين الإله الذي أمروا بالسجود له، لا على نفس اللفظة.

واختلف في وصل الرحيم بالحمد، فروي عن أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم الرحيم الحمد تسكن الميم ويوقف عليها ويبتدأ بألف مقطوعة، وقرأ به قوم من الكوفيين، وقرأ جمهور الناس الرحيم الحمد يعرب الرحيم بالخفض، وتوصل الألف من الحمد، ومن شاء أن يقدر أنه أسكن الميم ثم لما وصل حركها للالتقاء ولم يعتد بألف الوصل فذلك سائغ، والأول أخصر.

وحكى الكسائي عن بعض العرب أنها تقرأ الرحيم الحمد بفتح الميم وصلة الألف كأنها سكنت الميم وقطعت الألف، ثم ألقيت حركتها على الميم وحذفت، ولم ترو هذه قراءة عن أحد فيما علمت، وهذا هو نظر يحيى بن زياد في قوله تعالى: ﴿الم الله﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٤﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٥﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ
غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٦﴾

● قال ابن عباس، وموسى بن جعفر عن أبيه، وعلي بن الحسين، وقتادة، وأبو العالية، ومحمد بن يحيى بن حبان: إنها مكية، ويؤيد هذا أن في سورة الحجر ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني﴾ [الحجر: ٨٧] والحجر مكية بإجماع. وفي حديث أبي بن كعب أنها السبع المثاني، والسبع الطول نزلت بعد الحجر بمدد، ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة، وما حفظ أنها كانت قط في الإسلام صلاة بغير الحمد لله رب العالمين.

وروي عن عطاء بن يسار، وسودة بن زياد، والزهري محمد بن مسلم، وعبد الله بن عبيد بن عمير أن سورة الحمد مدنية.

وأما أسماؤها فلا خلاف أنها يقال لها فاتحة الكتاب، لأن موضعها يعطي ذلك، واختلف هل يقال لها أم الكتاب، فكره الحسن بن أبي الحسن ذلك وقال: «أم الكتاب والحلال والحرام». قال الله تعالى: ﴿آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾ [آل عمران: ٧].

وقال ابن عباس وغيره: «يقال لها أم الكتاب».

وقال البخاري: سميت أم الكتاب لأنها يبدأ بكتابتها في المصحف وبقراءتها في الصلاة، وفي تسميتها بأم الكتاب حديث رواه أبو هريرة رضي الله عنه، واختلف هل يقال لها أم القرآن؟ فكره ذلك ابن سيرين وجوزة جمهور العلماء.

قال يحيى بن يعمر: «أم القرى مكة، وأم خراسان مرو، وأم القرآن سورة الحمد».

وقال الحسن بن أبي الحسن: اسمها أم القرآن. وأما المثاني فقليل سميت بذلك لأنها تنثني في كل ركعة وقيل سميت بذلك لأنها استثنيت لهذه الأمة فلم تنزل على أحد قبلها ذخراً لها.

وأما فضل هذه السورة فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث أبي بن كعب «إنها لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلها». ويروى أنها تعدل ثلثي القرآن، وهذا العدل إما أن يكون في المعاني، وإما أن يكون تفضيلاً من الله تعالى لا يعمل، وكذلك يجيء عدل ﴿قل هو الله أحد﴾ [الإخلاص: ١] وعدل ﴿زلزلت﴾ [الزلزلة: ١].

وروى أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الحمد لله رب العالمين فضل ثلاثين حسنة على سائر الكلام». وورد حديث آخر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من قال لا إله إلا الله كتبت له عشرون حسنة، ومن قال الحمد لله رب العالمين كتبت له ثلاثون حسنة».

وهذا الحديث هو في الذي يقولها من المؤمنين مؤتجراً طالب ثواب، لأن قوله الحمد لله في ضمنها التوحيد الذي هو معنى لا إله إلا الله، ففي قوله توحيد وحمد، وفي قول لا إله إلا الله توحيد فقط. فأما إذا أخذنا بموضعهما من شرع الملة ومحلها من رفع الكفر والإشراك فلا إله إلا الله أفضل، والحاكم بذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله».

﴿الحمد﴾ معناه الثناء الكامل، والألف واللام فيه لاستغراق الجنس من المحامد، وهو أعم من الشكر، لأن الشكر إنما يكون على فعل جميل يسدى إلى الشاكر، وشكره حمد ما، والحمد المجرد هو ثناء بصفات المحمود من غير أن يسدي شيئاً، فالحامد من الناس قسمان: الشاكر والمثني بالصفات.

وذهب الطبري إلى أن الحمد والشكر بمعنى واحد، وذلك غير مرضي.

وحكي عن بعض الناس أنه قال: «الشكر ثناء على الله بأفعاله وأنعامه، والحمد ثناء بأوصافه».

قال القاضي أبو محمد: وهذا أصح معنى من أنهما بمعنى واحد. واستدل الطبري على أنهما بمعنى بصحة قولك الحمد لله شكراً. وهو في الحقيقة دليل على خلاف ما ذهب إليه. لأن قولك شكراً إنما خصصت به الحمد أنه على نعمة من النعم. وأجمع السبعة وجمهور الناس على رفع الدال من «الحمد لله».

وروي عن سفيان بن عيينة ورؤية بن العجاج «الحمد لله» بفتح الدال وهذا على إضمار فعل.

وروي عن الحسن بن أبي الحسن وزيد بن علي: «الحمد لله»، بكسر الدال على إتباع الأول

الثاني.

وروي عن ابن أبي عتبة: «الحمد لله»، بضم الدال واللام، على إتباع الثاني والأول.

قال الطبري: ﴿الحمد لله﴾ ثناء أثني به على نفسه، وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا به عليه، فكأنه قال:

«قولوا الحمد لله وعلى هذا يجيء «قولوا إياك» قال: وهذا من حذف العرب ما يدل ظاهر الكلام عليه، كما

قال الشاعر:

وأعلمُ أنني سأكونُ رمساً إذا سار النواعيجُ لا يسيرُ
فقال السائلونَ لمنْ حفرْتُم فقال القائلونَ لهمْ وزيرُ

المعنى المحفور له وزير، فحذف لدلالة ظاهر الكلام عليه، وهذا كثير.

وقرأت طائفة «رب» بالنصب.

فقال بعضهم: «هو نصب على المدح».

وقال بعضهم: «هو على النداء، وعليه يجيء ﴿إياك﴾».

والرب في اللغة: المعبود، والسيد المالك، والقائم بالأمور المصلح لما يفسد منها، والملك، - تأتي اللفظة لهذه المعاني -.

فمما جاء بمعنى المعبود قول الشاعر [غاوي بن عبد العزى]:

أربّ يبول الثعلبان برأسه لقد هان من بالّت عليه الثعلبُ

ومما جاء بمعنى السيد المالك قولهم: رب العبيد والممالك.

ومما جاء بمعنى القائم بالأمور الرئيس فيها قول لبيد:

وأهلكن يوماً ربّ كندة وابنه وربّ معدّ بين خبّتٍ وعَرَعرٍ

ومما جاء بمعنى الملك قوله النابغة:

تخبّ إلى النعمان حتّى تنالهُ فدى لك من ربّ طريفي وتالدي

ومن معنى الإصلاح قولهم: أديم مربوب، أي مصلح، قال الشاعر الفرزدق: [البسيط].

كانوا كسائكةٍ حمقاء إذ حقنّت سلاءها في أديمٍ غير مرْبُوبٍ

ومن معنى الملك قول صفوان بن أمية لأخيه يوم حنين: «لأن يربني رجل من قريش خير من أن يربني رجل من هوازن».

ومنه قول ابن عباس في شأن عبد الله بن الزبير، وعبد الملك بن مروان: «وإن كان لا بد لأن يربني رجل من بني عمي أحبّ إليّ من أن يربني غيرهم». ذكره البخاري في تفسير سورة براءة. ومن ذلك قول الشاعر علقمة بن عبدة: [الطويل].

وكنّت امرأً أفضت إليك ربابتي ومن قبل ربّتي فضعت ربوبُ

وهذه الاستعمالات قد تتداخل، فالرب على الإطلاق الذي هو رب الأرباب على كل جهة هو الله تعالى.

و﴿العالمين﴾ جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله تعالى، يقال لجملته عالم، ولأجزائه من الإنس والجن وغير ذلك عالم، وبحسب ذلك يجمع على العالمين، ومن حيث عالم الزمان متبدل في زمان آخر حسن جمعها، ولفظة العالم جمع لا واحد له من لفظه وهو مأخوذ من العلم والعلامة لأنه يدل على موجد، كذا قال الزجاج. وقد تقدم القول في «الرحمن الرحيم».

واختلف القراء في قوله تعالى : ﴿ملك يوم الدين﴾ .

فقرأ عاصم والكسائي «مالك يوم الدين» .

قال الفارسي : «وكذلك قرأها قتادة والأعمش» .

قال مكّي : «وروى الزهري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأها كذلك بالالف، وكذلك قرأها أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وابن مسعود، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وطلحة، والزبير، رضي الله عنهم» .

وقرأ بقية السبعة «ملك يوم الدين»، وأبو عمرو منهم يسكن اللام فيقرأ «مَلِك يوم الدين» . هذه رواية عبد الوارث عنه .

وروي عن نافع إشباع الكسرة من الكاف في ملك فيقرأ «ملكي» وهي لغة للعرب ذكرها المهدوي .

وقرأ أبو حيوة «مِلِك» بفتح الكاف وكسر اللام .

وقرأ ابن السميّغ، وعمر بن عبد العزيز، والأعمش، وأبو صالح السمان، وأبو عبد الملك الشامي «مَالِك» بفتح الكاف . وهذا على النداء ليكون ذلك توطئة لقوله ﴿إياك﴾ .

ورد الطبري على هذا وقال : «إن معنى السورة: قولوا الحمد لله، وعلى ذلك يجيء ﴿إياك﴾ و ﴿اهدنا﴾» .

وذكر أيضاً أن من فصيح كلام العرب الخروج من الغيبة إلى الخطاب، وبالعكس، كقول أبي كبير الهذلي : [الكامل] .

يا ويح نفسي كان جلدة خالد وبياض وجهك للتراب الأعفر
وكما قال لبید : [البسيط] .

قامت تشكّى إلى النفس مجهشة وقد حملتُك سبعا بعد سبعينا

وكقول الله تعالى : ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم﴾ [يونس : ٢٢] .

وقرأ يحيى بن يعمر والحسن بن أبي الحسن، وعلي بن أبي طالب «ملك يوم الدين» على أنه فعل ماض .

وقرأ أبو هريرة «ملك» بالياء وكسر الكاف .

قال أبو علي : ولم يعل أحد من القراء ألف «مالك»، وذلك جائز، إلا أنه لا يقرأ بما يجوز، إلا أن يأتي بذلك أثر مستفيض، و «المَلِك» و «المَلِك» بضم الميم وكسرهما وما تصرف منهما راجع كله إلى ملك بمعنى شد وضبط، ثم يختص كل تصريح من اللفظة بنوع من المعنى، يدلك على الأصل في ملك قول الشاعر قيس بن الخطيم : [الطويل] :

ملكْتُ بها كَفَي فَأَنهَرْتُ فَتَقَّها

وهذا يصف طعنة فأراد شددت، ومن ذلك قول أوس بن حجر: [الطويل].

فمَلَّكٌ بالليط تحتَ قشرِها كغرقىء بيضٍ كُنَّ القيضُ من علٍ

أراد شدد، وهذا يصف صانع قوس ترك من قشرها ما يحفظ قلب القوس، والذي مفعول وليس بصفة لليط، ومن ذلك قولهم: إملاك المرأة وإملاك فلان إنما هو ربط النكاح، كما قالوا: عقدة النكاح، إذ النكاح موضع شد وربط، فالمالك للشيء شادٌ عليه ضابط له، وكذلك الملك، واحتج من قرأ «ملك» بأن لفظة «ملك» أعم من لفظة «مالك»، إذ كل ملك مالك وليس كل مالك ملكاً. والملك الذي يدبر المالك في ملكه حتى لا يتصرف إلا عن تدبير الملك. وتتابع المفسرون على سرد هذه الحجة وهي عندي غير لازمة، لأنهم أخذوا اللفظتين مطلقتين لا بنسبة إلى ما هو المملوك وفيه الملك. فأما إذا كانت نسبة الملك هي نسبة المالك فالمالك أبلغ، مثال ذلك أن نقدر مدينة أهلة عظيمة ثم نقدر لها رجلاً يملكها أجمع أو رجلاً هو ملكها فقط إنما يملك التدبير والاحكام، فلا شك أن المالك أبلغ تصرفاً وأعظم، إذ إليه إجراء قوانين الشرع فيها، كما لكل أحد في ملكه، ثم عنده زيادة التملك، وملك الله تعالى ليوم الدين هو على هذا الحد، فهو ماله وملكه، والقراءتان حسنتان.

وحكى أبو علي في حجة من قرأ «مالك يوم الدين» أن أول من قرأ «ملك يوم الدين» مروان بن الحكم وأنه قد يدخل في المالك ما لا يدخل في الملك فيقال مالك الدنانير، والدرهم، والظير، والبهايم، ولا يقال ملكها، ومالك في صفة الله تعالى يعم ملك أعيان الأشياء وملك الحكم فيها، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦].

قال أبو بكر: «الأخبار الواردة تبطل أن أول من قرأ «ملك يوم الدين» مروان بن الحكم بل القراءة بذلك أوسع ولعل قائل ذلك أراد أنه أول من قرأ في ذلك العصر أو البلد ونحوه».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وفي الترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر رضي الله عنهما قرؤوا «ملك يوم الدين» بغير ألف، وفيه أيضاً أنهم قرؤوا «مالك يوم الدين» بألف.

قال أبو بكر: والاختيار عندي «ملك يوم الدين» لأن «الملك» و«الملك» يجمعهما معنى واحد وهو الشد والربط كما قالوا ملكت العجين أي شددته إلى غير ذلك من الأمثلة، والملك أفخم وأدخل في المدح، والآية إنما نزلت بالثناء والمدح لله سبحانه، فالمعنى أنه ملك الملوك في ذلك اليوم، لا ملك لغيره.

قال: والوجه لمن قرأ «مالك» أن يقول: إن المعنى أن الله تعالى يملك ذلك اليوم أن يأتي به كما يملك سائر الأيام لكن خصّصه بالذكر لعظمه في جمعه وحوادثه.

قال أبو الحسن الأخفش: «يقال «ملك» بين الملك، بضم الميم، ومالك بين «الملك» و«الملك» بفتح الميم وكسرهما، وزعموا أن ضم الميم لغة في هذا المعنى، وروى بعض البغداديين لي في هذا الوادي «مَلَك» و«مَلِك» و«مِلِك» بمعنى واحد».

قال أبو علي: «حكى أبو بكر بن السراج عن بعض من اختار القراءة بـ «ملك» أن الله سبحانه قد وصف نفسه بأنه مالك كل شيء بقوله (رب العالمين) فلا فائدة في قراءة من قرأ مالك لأنها تكرير».

قال أبو علي ولا حجة في هذا، لأن في التنزيل أشياء على هذه الصورة، تقدم العام ثم ذكر الخاص، كقوله تعالى: ﴿هو الله الخالق الباري المصور﴾ [الحشر: ٢٤] فـ ﴿الخالق﴾ يعم وذكر ﴿المصور﴾ لما في ذلك من التنبيه على الصنعة ووجوه الحكمة، وكما قال تعالى: ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ [البقرة: ٤] بعد قوله: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ [البقرة: ٣] والغيب يعم الآخرة وغيرها ولكن ذكرها لعظمها، والتنبيه على وجوب اعتقادها، والرد على الكفرة الجاحدين لها، وكما قال تعالى: ﴿الرحمن الرحيم﴾ فذكر الرحمن الذي هو عام، وذكر الرحيم بعده لتخصيص المؤمنين به في قوله تعالى: ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ [الأحزاب: ٤٣].

قال القاضي أبو محمد عبد الحق: وأيضاً: فإن الرب يتصرف في كلام العرب بمعنى الملك كقوله:

[الطويل]

(ومن قبل ربتي فضعت ربوب)

وغير ذلك من الشواهد، فتعكس الحجة على من قرأ «مالك يوم الدين» والجر في «ملك» أو «مالك» على كلتا القراءتين هو على الصفة للاسم المجرور قبله، والصفات تجري على موصوفها إذا لم تقطع عنهم لزم أو مدح، والإضافة إلى «يوم الدين» في كلتا القراءتين من باب يا سارق الليلة أهل الدار، اتسع في الظرف فنصب نصب المفعول به، ثم وقعت الإضافة إليه على هذا الحد، وليس هذا كإضافة قوله تعالى: ﴿وعنده علم الساعة﴾ [الزخرف: ٨٥]، لأن الساعة مفعول بها على الحقيقة، أي إنه يعلم الساعة وحقيقتها، فليس أمرها على ما الكفار عليه من إنكارها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأما على المعنى الذي قاله ابن السراج من أن معنى «مالك يوم الدين» أنه يملك مجيئه ووقوعه، فإن الإضافة إلى اليوم كإضافة المصدر إلى الساعة، لأن اليوم على قوله مفعول به على الحقيقة، وليس ظرفاً اتسع فيه.

قال أبو علي: ومن قرأ «مالك يوم الدين» فأضاف اسم الفاعل إلى الظرف المتسع فيه فإنه حذف المفعول من الكلام للدلالة عليه تقديره مالك يوم الدين الاحكام، ومثل هذه الآية في حذف المفعول به مع الظرف قوله تعالى: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ [البقرة: ١٨٥] فنصب ﴿الشهر﴾ على أنه ظرف والتقدير فمن شهد منكم المصر في الشهر، ولو كان الشهر مفعولاً للزم الصوم للمسافر، لأن شهادته للشهر كشهادة المقيم، وشهد يتعدى إلى مفعول يدل على ذلك قول الشاعر: [الطويل].

ويوماً شهدناه سليماً وعامراً

والدين لفظ يجيء في كلام العرب على أنحاء، منها الملة. قال الله تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ [آل عمران: ١٩] إلى كثير من الشواهد في هذا المعنى، وسمي حظ الرجل منها في أقواله وأعماله واعتقاداته ديناً، فيقال فلان حسن الدين، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في رؤياه في قميص

عمر الذي رآه يجره: «قيل: فما أولته يا رسول الله؟ قال: الدين» وقال علي بن أبي طالب: «محبة العلماء دين يدان به». ومن أنحاء اللفظة الدين بمعنى العادة. فمنه قول العرب في الريح: «عادت هيف لأديانها». ومنه قول امرئ القيس: [الطويل]

كدينك من أم الحويرث قبلها

ومنه قول الشاعر: [المثقب العبدى] [الوافر]:

أهذا دينه أبداً وديني

إلى غير ذلك من الشواهد، يقال دين ودينه أي عادة، ومن أنحاء اللفظة: الدين سيرة الملك وملكته، ومنه قول زهير: [البيسط].

لئن حَلَلْتَ بجَوْ في بني أسد في دين عمرو وحالتَ بَيْنَنَا فَذُكْ

أراد في موضع طاعة عمرو وسيرته، وهذه الأنحاء الثلاثة لا يفسر بها قوله ﴿ملك يوم الدين﴾. ومن أنحاء اللفظة الدين الجزاء، فمن ذلك قول الفند الزماني: [شهل بن شيان] [الهزج].

ولم يبق سوى العدو ن دناهم كما دانوا
أي جازيناهم. ومنه قول كعب بن جعيل: [المتقارب].

إذا ما رمونا رميناهم ودناهم مثل ما يقرضونا
ومنه قول الآخر:

واعلم يقيناً أن ملكك زائل واعلم بأن كما تدين تدان

وهذا النحو من المعنى هو الذي يصلح لتفسير قوله تعالى: ﴿ملك يوم الدين﴾ أي يوم الجزاء على الأعمال والحساب بها، كذلك قال ابن عباس، وابن مسعود، وابن جريج، وقادة وغيرهم.

قال أبو علي: يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت﴾ [غافر: ١٧]، و﴿اليوم تجزون ما كنتم تعملون﴾ [الجاثية: ٢٨]. وحكى أهل اللغة: دنته بفعله ديناً بفتح الدال وديناً بكسرها جزيته، وقيل الدين المصدر والدين بكسر الهمزة.

وقال مجاهد: ﴿ملك يوم الدين﴾ أي يوم الحساب، مدينين محاسبين وهذا عندي يرجع إلى معنى الجزاء. ومن أنحاء اللفظة الدين الذل، والمدين العبد، والمدينة الأمة، ومنه قول الأخطل:

رَبْتُ وَرَبِّا فِي جِجْرِهَا ابْنُ مَدِينَةٍ تَرَاهُ عَلَى مِسْحَاتِهِ يَتَرَكُّلُ

أي ابن أمة، وقيل بل أراد ابن مدينة من المدن، الميم أصيلة، ونسبه إليها كما يقال ابن ماء وغيره. وهذا البيت في صفة كرمه فأراد أن أهل المدن أعلم بفلاحة الكرم من أهل بادية العرب. ومن أنحاء اللفظة الدين السياسة، والديان السائس، ومنه قول ذي الأصبغ الحدثان بن الحارث: [البيسط].

لاهِ ابْنِ عَمِّكَ لَا أَفْضَلْتَ فِي حِسْبٍ يَوْمًا وَلَا أَنْتَ دِيَانِي فَتُخْزُونِي

ومن أنحاء اللفظة الدين الحال.

قال النضر بن شميل: «سألت أعرابياً عن شيء فقال لي لو لقيتني على دين غير هذه لأخبرتك». ومن أنحاء اللفظة الدين الداء، عن اللحياني وأنشد: [البسيط]

ما دين قلبك من سلمى وقد دينا

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: أما هذا الشاهد فقد يتأول على غير هذا النحو، فلم يبق إلا قول اللحياني.

وقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

نطق المؤمن به إقرار بالربوبية وتذلل وتحقيق لعبادة الله، إذ سائر الناس يعبدون سواه من أصنام وغير ذلك، وقدم المفعول على الفعل اهتماماً، وشأن العرب تقديم الأهم.

ويذكر أن أعرابياً سب آخر فأعرض المسبوب عنه، فقال له الساب: «إِيَّاكَ أَعْنِي» فقال الآخر: «وَعَنكَ أَعْرَضُ» فقدما الأهم.

وقرأ الفضل الرقاشي: «أِيَّاكَ» بفتح الهمزة، وهي لغة مشهورة وقرأ عمرو بن فائد: «إِيَّاكَ» بكسر الهمزة وتخفيف الياء، وذاك أنه كره تضعيف الياء لثقلها وكون الكسرة قبلها، وهذا كتخفيف «رَبِّ» و«إِنْ» وقرأ أبو السوار الغنوي: «هِيَّاكَ نَعْبُدُ وَهِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» بالهاء، وهي لغة. واختلف النحويون في ﴿إِيَّاكَ﴾ فقال الخليل: إِيَّا اسم مضمّر أضيف إلى ما بعده للبيان لا للتعريف، وحكي عن العرب إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب. وقال المبرد: إِيَّا اسم مبهم أضيف للتخصيص لا للتعريف، وحكى ابن كيسان عن بعض الكوفيين أن ﴿إِيَّاكَ﴾ بكماله اسم مضمّر، ولا يعرف اسم مضمّر يتغير آخره غيره، وحكي عن بعضهم أنه قال: الكاف والهاء والياء هي الاسم المضمّر، لكنها لا تقوم بأنفسها ولا تكون إلا متصلات، فإذا تقدمت الأفعال جعل «إِيَّا» عماداً لها. فيقال «إِيَّاكَ» و«إِيَاء» و«إِيَّاي»، وإذا تأخرت اتصلت بالأفعال واستغني عن «إِيَاء». وحكي عن بعضهم أن أيأ اسم مبهم يكتى به عن المنصوب، وزيدت الكاف والياء والهاء تفرقة بين المخاطب والغائب والمتكلم، ولا موضع لها من الإعراب فهي كالکاف في ذلك وفي رأيك زيداً ما فعل.

و﴿نَعْبُدُ﴾ معناه نقيم الشرع والأوامر مع تذلل واستكانة، والطريق المذلل يقال له معبد، وكذلك البعير. وقال طرفة: [الطويل].

تباري عتاق الناجيات وأتبعن وظيفاً وظيفاً فوق مور معبد

وتكررت ﴿إِيَّاكَ﴾ بحسب اختلاف الفعلين، فاحتاج كل واحد منهما إلى تأكيد واهتمام.

و﴿نَسْتَعِينُ﴾ معناه نطلب العون منك في جميع أمورنا، وهذا كله تبرؤ من الأصنام. وقرأ الأعمش وابن وثاب والنخعي: «ونستعين» بكسر النون، وهي لغة لبعض قریش في النون والتاء والهمزة ولا يقولونها في ياء الغائب وإنما ذلك في كل فعل سمي فاعله فيه زوائد أو فيما يأتي من الثلاثي على فعل يفعل

بكسر العين في الماضي وفتحها في المستقبل نحو علم وشرب، وكذلك فيما جاء معتل العين نحو خال يخال، فإنهم يقولون تخال وأخال.

و ﴿نستعين﴾ أصله نستعون نقلت حركة الواو إلى العين وقلبت ياء لانكسار ما قبلها، والمصدر استعانة أصله استعاوناً نقلت حركة الواو إلى العين فلما انفتح ما قبلها وهي في نية الحركة انقلبت ألفاً، فوجب حذف أحد الألفين الساكنين، فقليل حذفت الأولى لأن الثانية مجلوبة لمعنى، فهي أولى بالبقاء، وقيل حذفت الثانية لأن الأولى أصلية فهي أولى بالبقاء، ثم لزم التاء عوضاً من المحذوف، وقوله تعالى: ﴿اهدنا﴾ رغبة لأنها من المربوب إلى الرب، وهكذا صيغة الأمر كلها، فإذا كانت من الأعلى فهي أمر، والهداية في اللغة الإرشاد، لكنها تنصرف على وجه يعبر عنها المفسرون بغير لفظ الإرشاد، وكلها إذا تؤولت رجعت إلى الإرشاد، فالهedy يحيى بمعنى خلق الإيمان في القلب، ومنه قوله تعالى: ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ [البقرة: ٥] وقوله تعالى: ﴿والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ [يونس: ٢٥] وقوله تعالى: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ [القصص: ٥٦] وقوله تعالى: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ [الأنعام: ١٢٥].

قال أبو المعالي: فهذه آية لا يتجه حملها إلا على خلق الإيمان في القلب، وهو محض الإرشاد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد جاء الهدى بمعنى الدعاء، من ذلك قوله تعالى: ﴿ولكل قوم هاد﴾ [الرعد: ٧] أي داع وقوله تعالى: ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ [الشورى: ٥٢] وهذا أيضاً يبين فيه الإرشاد، لأنه ابتداء إرشاد، أجاب المدعو أو لم يجب، وقد جاء الهدى بمعنى الإلهام، من ذلك قوله تعالى: ﴿أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ [طه: ٥].

قال المفسرون: معناه «ألهم الحيوانات كلها إلى منافعها». وهذا أيضاً بين فيه معنى الإرشاد، وقد جاء الهدى بمعنى البيان، من ذلك قوله تعالى: ﴿وأما ثمود فهديناهم﴾ [فصلت: ١٧].

قال المفسرون: «معناه بينا لهم». قال أبو المعالي: معناه دعوانهم ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إن علينا للهدى﴾ [الليل: ١٢] أي علينا أن نبين، وفي هذا كله معنى الإرشاد.

قال أبو المعالي: وقد ترد الهداية والمراد بها إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطرق المفضية إليها، من ذلك قوله تعالى في صفة المجاهدين: ﴿فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم﴾ [محمد: ٥] ومنه قوله تعالى: ﴿فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾ [الصفات: ٢٣] معناه فاسلكوهم إليها.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وهذه الهداية بعينها هي التي تقال في طرق الدنيا، وهي ضد الضلال وهي الواقعة في قوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ على صحيح التأويل، وذلك بين من لفظ ﴿الصراط﴾، والهدى لفظ مؤنث، وقال اللحياني: «هو مذكر» قال ابن سيده: «والهدى اسم من أسماء النهار» قال ابن مقبل: [البسيط].

حتى استبنت الهدى والبيد هاجمة يخشعن في الآل غلفاً أو يصلينا

و﴿الصراط﴾ في اللغة الطريق الواضح فمن ذلك قول جرير: [الوافر].

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم
ومنه قول الآخر: فصد عن نهج الصراط الواضح.
وحكى النقاش: «الصراط الطريق بلغة الروم».

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف جداً. واختلف القراء في ﴿الصراط﴾ فقرأ ابن كثير وجماعة من العلماء: «السطر» بالسين، وهذا هو أصل اللفظة.

قال الفارسي: «ورويت عن ابن كثير بالصاد». وقرأ باقي السبعة غير حمزة بصاد خالصة وهذا بدل السين بالصاد لتناسبها مع الطاء في الاطباق فيحسنان في السمع، وحكاها سيويه لغة.

قال أبو علي: روي عن أبي عمرو السين والصاد، والمضاربة بين الصاد والزاي، رواه عنه العريان بن أبي سفيان. وروى الأصمعي عن أبي عمرو أنه قرأها بزاي خالصة.

قال بعض اللغويين: «ما حكاه الأصمعي من هذه القراءة خطأ منه، إنما سمع أبا عمرو يقرأ بالمضاربة فتوهمها زايًا، ولم يكن الأصمعي نحوياً فيؤمن على هذا».

قال القاضي أبو محمد: وحكى هذا الكلام أبو علي عن أبي بكر بن مجاهد. وقرأ حمزة بين الصاد والزاي. وروي أيضاً عنه أنه إنما يلتزم ذلك في المعرفة دون النكرة.

قال ابن مجاهد: «وهذه القراءة تكلف حرف بين حرفين، وذلك أصعب على اللسان، وليس بحرف يبنى عليه الكلام ولا هو من حروف المعجم، ولست أدفع أنه من كلام فصحاء العرب، إلا أن الصاد أفصح وأوسع».

وقرأ الحسن والضحاك: «اهدنا صراطاً مستقيماً» دون تعريف وقرأ جعفر بن محمد الصادق: «اهدنا صراطاً المستقيم» بالإضافة وقرأ ثابت البناني: «بصرنا الصراط». واختلف المفسرون في المعنى الذي استعير له ﴿الصراط﴾ في هذا الموضع وما المراد به، فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «﴿الصراط المستقيم﴾ هنا القرآن» وقال جابر: «هو الإسلام» يعني الحنيفية. وقال: سعت ما بين السماء والأرض. وقال محمد بن الحنفية: «هو دين الله الذي لا يقبل من العباد غيره» وقال أبو العالية: «هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر وعمر». وذكر ذلك للحسن بن أبي الحسن، فقال: صدق أبو العالية ونصح.

قال القاضي أبو محمد: ويجتمع من هذه الأقوال كلها أن الدعوة إنما هي في أن يكون الداعي على سنن المنعم عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين في معتقداته، وفي التزامه لأحكام شرعه، وذلك هو مقتضى القرآن والإسلام، وهو حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه، وهذا الدعاء إنما أمر به المؤمنون عندهم المعتقدات وعند كل واحد بعض الأعمال، فمعنى قولهم ﴿اهدنا﴾ فيما هو حاصل عندهم طلب الثبوت والدوام، وفيما ليس بحاصل إما من جهة الجهل به أو التقصير في المحافظة عليه طلب الإرشاد إليه. وأقول إن كل داع به فإنما يريد ﴿الصراط﴾ بكماله في أقواله وأفعاله ومعتقداته، فيحسن على هذا أن يدعو في الصراط على الكمال من عنده بعضه ولا يتجه أن يراد بـ ﴿اهدنا﴾ في

هذه الآية اخلق الإيمان في قلوبنا، لأنها هداية مقيدة إلى صراط ولا أن يراد بها ادعنا، وسائر وجوه الهداية يتجه، و﴿الصراط﴾ نصب على المفعول الثاني، و﴿المستقيم﴾ الذي لا عوج فيه ولا انحراف، والمراد أنه استقام على الحق وإلى غاية الفلاح، ودخول الجنة، وإعلال ﴿مستقيم﴾ أن أصله مستقوم نقلت الحركة إلى القاف وانقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، وصراط الذين بدل من الأول.

وقرأ عمر بن الخطاب، وابن الزبير: «صراط من أنعمت عليهم».

و﴿الذين﴾ جمع الذي، وأصله «لذ»، حذف منه الياء للتنوين كما تحذف من عم، وقاضٍ، فلما دخلته الألف واللام ثبتت الياء. و«الذي» اسم مبهم ناقص محتاج إلى صلة وعائد، وهو مبني في إفراجه وجمعه معرب في تثنيته. ومن العرب من يعرب جمعه، فيقول في الرفع للذون، وكتب الذي بلام واحدة في الأفراد والجمع تخفيفاً لكثرة الاستعمال، واختلف الناس في المشار إليهم بأنه أنعم عليهم.

فقال ابن عباس وجمهور من المفسرين: إنه أراد صراط النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وانتزعوا ذلك من قوله تعالى: ﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً، وإذا لآتيناهم من لدنّا أجراً عظيماً ولهديناهم صراطاً مستقيماً ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٩] فالآية تقتضي أن هؤلاء على صراط مستقيم، وهو المطلوب في آية الحمد.

وقال ابن عباس أيضاً: «المنعم عليهم هم المؤمنون».

وقال الحسن بن أبي الحسن: «المنعم عليهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم».

وحكى مكي وغيره عن فرقة من المفسرين أن المنعم عليهم مؤمنو بني إسرائيل، بدليل قوله تعالى: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ [البقرة: ٤٠، ٤٧، ١٢٢].

وقال ابن عباس: «المنعم عليهم أصحاب موسى قبل أن يبدلوا».

قال القاضي أبو محمد: وهذا والذي قبله سواء.

وقال قتادة بن دعامة: «المنعم عليهم الأنبياء خاصة».

وحكى مكي عن أبي العالية أنه قال: «المنعم عليهم محمد صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد تقدم ما حكاه عنه الطبري من أنه فسر ﴿الصراط المستقيم﴾ بذلك، وعلى ما حكى مكي ينتقض الأول ويكون ﴿الصراط المستقيم﴾ طريق محمد صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما. وهذا أقوى في المعنى، لأن تسمية أشخاصهم طريقاً تجوز، واختلف القراء في الهاء من ﴿عليهم﴾، فقرأ حمزة «عليهم» بضم الهاء وإسكان الميم، وكذلك لديهم وإليهم. قرأ الباكون في جميعها بكسر الهاء واختلفوا في الميم.

فروي عن نافع التخيير بين ضمها وسكونها. وروي عنه أنه كان لا يعيب ضم الميم، فدل ذلك على أن قراءته كانت بالإسكان.

وكان عبد الله بن كثير يصل الميم بواو انضمت الهاء قبلها أو انكسرت فيقرأ «عليهم وقلوبهمو» وسمعهمو وأبصارهمو».

وقرأ ورش الهاء مكسورة والميم موقوفة، إلا أن تلقى الميم ألفاً أصلية فيلحق في اللفظ واواً مثل قوله: ﴿سواء عليهم أنذرتهم﴾ [البقرة: ٦].

وكان أبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، والكسائي، يكسرون، ويسكنون الميم، فإذا لقي الميم حرف ساكن اختلفوا فكان عاصم، وابن كثير، ونافع يمشون على كسر الهاء وضم الميم، مثل قوله تعالى: ﴿عليهم الذلة﴾ [البقرة: ٦١، آل عمران: ١١٢] و﴿من دونهم امرأتين﴾ [القصص: ٢٣] وما أشبه ذلك، وكان أبو عمرو يكسر الهاء والميم فيقول: ﴿عليهم الذلة﴾ و﴿إليهم اثنتين﴾ [يس: ١٤] وما أشبه ذلك. وكان الكسائي يضم الهاء والميم معاً، فيقرأ ﴿عليهم الذلة﴾ و﴿من دونهم امرأتين﴾.

قال أبو بكر أحمد بن موسى: وكل هذا الاختلاف في كسر الهاء وضمها إنما هو في الهاء التي قبلها كسرة أو ياء ساكنة، فإذا جاوزت هذين لم يكن في الهاء إلا الضم، فإذا لم يكن قبل الميم هاء قبلها كسرة أو ياء ساكنة لم يجز في الميم إلا الضم والتسكين في مثل قوله تعالى: منكم وأنتم.

قال القاضي أبو محمد: وحكى صاحب الدلائل قال: «قرأ بعضهم عليهم بواو وضمتين، وبعضهم بضميتين وألغى الواو، وبعضهم بكسرتين وألحق الياء، وبعضهم بكسرتين وألغى الياء، وبعضهم بكسر الهاء وضم الميم».

قال: «وذلك مروى عن الأئمة ورؤساء اللغة». قال ابن جني: «حكى أحمد بن موسى عليهم وعليهم بضم الميم من غير إشباع إلى الواو، وعليهم بسكون الميم».

وقرأ الحسن وعمرو بن فائد «عليهمي». وقرأ «عليهم» بكسر الميم دون إشباع إلى الياء. وقرأ الأعرج: «عليهم» بكسر الياء وضم الميم من غير إشباع.

وهذه القراءات كلها بضم الهاء إلا الأخيرة وبإزاء كل واحدة منها قراءة بكسر الهاء فيجاء في الجميع عشر قراءات.

وقوله تعالى: ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾.

اختلف القراء في الراء من غير، فقرأ نافع وعاصم وأبو عمرو وابن عامر وحزمة والكسائي بخفض الراء، وقرأ ابن كثير بالنصب، وروي عنه الخفض.

قال أبو علي: «الخفض على ضربين: على البدل، من ﴿الذين﴾، أو على الصفة للنكرة، كما تقول مررت برجل غيرك، وإنما وقع هنا صفة لـ ﴿الذين﴾ لأن ﴿الذين﴾ هنا ليس بمقصود قصدهم، فالكلام بمنزلة قولك إني لأمر بالرجل مثلك فأكرمه».

قال: «والنصب في الرأى على ضربين: على الحال كأنك قلت أنعمت عليهم لا مغضوباً عليهم، أو على الاستثناء كأنك قلت إلا المغضوب عليهم، ويجوز النصب على أعني». وحكي نحو هذا عن الخليل. ومما يحتج به لمن ينصب أن ﴿غير﴾ نكرة فكره أن يوصف بها المعرفة، والاختيار الذي لا خفاء به الكسر. وقد روي عن ابن كثير، فأولى القولين ما لم يخرج عن إجماع قراء الأمصار.

قال أبو بكر بن السراج: «والذي عندي أن ﴿غير﴾ في هذا الموضع مع ما أضيف إليه معرفة، وهذا شيء فيه نظر ولبس، فليفهم عني ما أقول: اعلم أن حكم كل مضاف إلى معرفة أن يكون معرفة، وإنما تنكرت غير ومثل مع إضافتهما إلى المعارف من أجل معنهما، وذلك إذا قلت رأيت غيرك فكل شيء سوى المخاطب فهو غيره، وكذلك إذا قلت رأيت مثلك فما هو مثله لا يحصى لكثرة وجوه المماثلة، وإنما صارنا نكرتين من أجل المعنى فأما إذا كان شيء معرفة له ضد واحد وأردت إثباته، ونفي ضده، وعلم ذلك السامع فوصفته بغير وأضفت غير إلى ضده فهو معرفة، وذلك كقولك عليك بالحركة غير السكون، وكذلك قولك غير المغضوب لأن من أنعم عليه لا يعاقبه إلا من غضب عليه، ومن لم يغضب عليه فهو الذي أنعم عليه، فمتى كانت غير على هذه الصفة وقصد بها هذا المقصد فهي معرفة».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: أبقي أبو بكر ﴿الذين﴾ على حد التعريف، وجوز نعتها بـ ﴿غير﴾ لما بينه من تعرف غير في هذا الموضع، وغير أبي بكر وقف مع تنكر غير، وذهب إلى تقريب ﴿الذين﴾ من النكرة إذ هو اسم شائع لا يختص به معين، وعلى هذا جوز نعتها بالنكرة، و﴿المغضوب عليهم﴾ اليهود، والضالون النصارى. وهكذا قال ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، والسدي، وابن زيد، وروي ذلك عدي بن حاتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك بين من كتاب الله تعالى، لأن ذكر غضب الله على اليهود متكرر فيه كقوله: ﴿وباؤوا بغضب من الله﴾ [البقرة: ٦١، آل عمران: ١١٢]، وكقوله تعالى: ﴿قل أؤنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير﴾ [المائدة: ٦٠] فهو لأ اليهود، بدلالة قوله تعالى بعده: ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ [البقرة: ٦٥] والغضب عليهم هو من الله تعالى، وغضب الله تعالى عبارة عن إظهاره عليهم محناً وعقوبات وذلة ونحو ذلك، مما يدل على أنه قد أبعدهم عن رحمته بعداً مؤكداً مبالغاً فيه، والنصارى كان محققوهم على شرعة قبل ورود شرع محمد صلى الله عليه وسلم، فلما ورد ضلوا، وأما غير محققهم فضلالهم متقرر منذ تفرقت أقوالهم في عيسى عليه السلام. وقد قال الله تعالى فيهم: ﴿ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل﴾ [المائدة: ٧٧].

قال مكي رحمه الله حكاية: دخلت ﴿لا﴾ في قوله ﴿ولا الضالين﴾ لثلاثتهم أن ﴿الضالين﴾ عطف على ﴿الذين﴾.

قال: «وقيل هي مؤكدة بمعنى غير».

وحكى الطبري أن ﴿لا﴾ زائدة، وقال: هي هنا على نحو ما هي عليه في قول الراجز:

فما ألوم البيض ألا تسخرا - أراد أن تسخر -

وفي قول الأحوص: [الطويل]

ويلحيني في اللهو أن لا أحبه وللهو داعٍ دائبٌ غيرُ غافلٍ

وقال الطبري: يريد: ويلحيني في اللهو أن أحبه».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وبیت الأحوص إنما معناه إرادة أن لا أحبه فـ «لا» فيه متمكنة.

قال الطبري: ومنه قوله تعالى: ﴿ما منعك أن لا تسجد﴾ [الأعراف: ١٢] وإنما جاز أن تكون لا بمعنى الحذف، ولأنها تقدمها الجحد في صدر الكلام، فسبق الكلام الآخر مناسباً للأول، كما قال الشاعر:

ما كان يرضي رسول الله فعلهم والطيبان أبو بكر ولا عمر

وقرأ عمر بن الخطاب وأبي بن كعب: «غير المغضوب عليهم وغير الضالين».

وروي عنهما في الرءاء النصب والخفض في الحرفين.

قال الطبري: «فإن قال قائل أليس الضلال من صفة اليهود، كما أن النصارى عليهم غضب فلم خص كل فريق بذكر شيء مفرد؟ قيل: هم كذلك ولكن وسم الله لعباده كل فريق بما قد تكررت العبارة عنه به وفهم به أمره».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق: وهذا غير شاف، والقول في ذلك أن أفاعيل اليهود من اعتدائهم، وتعتتهم، وكفرهم مع رؤيتهم الآيات، وقتلهم الأنبياء أمور توجب الغضب في عرفنا، فسمى تعالى ما أحل بهم غضباً، والنصارى لم يقع لهم شيء من ذلك، إنما ضلوا من أول كفرهم دون أن يقع منهم ما يوجب غضباً خاصاً بأفاعيلهم، بل هو الذي يعم كل كافر وإن اجتهد، فلهذا تقرر العبارة عن الطائفتين بما ذكر، وليس في العبارة بـ «الضالين» تعلق للقدرية في أنهم أضلوا أنفسهم لأن هذا إنما هو كقولهم تهدم الجدار وتحركت الشجرة والهادم والمحرك غيرهما، وكذلك النصارى خلق الله الضلال فيهم وضلوا هم بتكسبهم.

وقرأ أيوب السخيتاني: «الضالين» بهمزة غير ممدودة كأنه فر من التقاء الساكنين، وهي لغة.

حكى أبو زيد قال: سمعت عمرو بن عبيد يقرأ: «فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان» فظننته قد لحن حتى سمعت من العرب دابة وشأبة.

قال أبو الفتح: وعلى هذه اللغة قول كثير [الطويل].

إذا ما العوالي بالعبيط أحمأرت

وقول الآخر: [الطويل].

وللأرض أما سودها فتجللت بياضاً وأما بيضها فادهأمت

وأجمع الناس على أن عدد آي سورة الحمد سبع آيات: «العالمين» آية، «الرحيم» آية، «الدين» آية، «نستعين» آية، «المستقيم» آية، «أنعمت عليهم» آية، «ولا الضالين» آية. وقد ذكرنا في تفسير بسم الله الرحمن الرحيم ما ورد من خلاف ضعيف في ذلك.

القول في آمين

روى أبو هريرة وغيره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: إذا قال الإمام: ﴿ولا الضالين﴾ [الفاتحة: ٧] فقولوا آمين. فإن الملائكة في السماء تقول آمين، فمن وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه.

وروي أن جبريل عليه السلام لما علم النبي عليه السلام فاتحة الكتاب وقت نزولها فقرأها قال له: «قل آمين».

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «آمين خاتم رب العالمين، يختم بها دعاء عبده المؤمن». وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يدعو فقال: «أوجب إن ختم. فقال له رجل بأي شيء يختم يا رسول الله؟ قال: «بآمين».

ومعنى «آمين» عند أكثر أهل العلم: اللهم استجب، أو أجب يا رب، ونحو هذا. قاله الحسن بن أبي الحسن وغيره، ونص عليه أحمد بن يحيى ثعلب وغيره.

وقال قوم: «هو اسم من أسماء الله تعالى»، روي ذلك عن جعفر بن محمد ومجاهد وهلال بن يساف، وقد روي أن «آمين» اسم خاتم يطبع به كتب أهل الجنة التي تؤخذ بالإيمان.

قال القاضي أبو محمد: فمقتضى هذه الآثار أن كل داعٍ ينبغي له في آخر دعائه أن يقول: «آمين» وكذلك كل قارئٍ للحمد في غير صلاة، لكن ليس بجهر الترتيل. وأما في الصلاة فقال بعض العلماء: «يقولها كل مصلٍّ من إمام وفذ ومأموم قرأها أو سمعها».

وقال مالك في المدونة: «لا يقول الإمام «آمين» ولكن يقولها من خلفه ويخفون، ويقولها الفذ».

وقد روي عن مالك رضي الله عنه: أن الإمام يقولها أسرَّ أم جَهَرَ.

وروي عنه: «الإمام لا يؤمن في الجهر».

وقال ابن حبيب: «يؤمن».

وقال ابن بكير: «هو مخير».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: فهذا الخلاف إنما هو في الإمام، ولم يختلف في

الفذ ولا في المأموم إلا ابن نافع. قال في كتاب ابن حارث: «لا يقولها المأموم إلا إن سمع الإمام يقول ﴿ولا الضالين﴾ [الفاتحة: ٧]، وإذا كان بعيد لا يسمعه فلا يقل».

وقال ابن عبدوس: «يتحرى قدر القراءة ويقول آمين». وهي لفظة مبنية على الفتح لالتقاء الساكنين، وكأن الفتح مع الياء أخف من سائر الحركات، ومن العرب من يقول «آمين» فيمده، ومنه قول الشاعر:

[البسيط]

آمين آمين لا أرضى بواحدة حتى أبلغها ألفين آمينا

ومن العرب من يقول «آمين» بالقصر، ومنه قول الشاعر: [جبير بن الأصبط].

تباعد مني فطَحَلْ إذ رأيته آمين فزاد الله ما بيننا بعدا

واختلف الناس في معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة» ف قيل في الإجابة، وقيل في خلوص النية، وقيل في الوقت، والذي يرجح أن المعنى فمن وافق في الوقت مع خلوص النية، والإقبال على الرغبة إلى الله تعالى بقلب سليم، والإجابة تتبع حينئذ، لأن من هذه حاله فهو على الصراط المستقيم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

هذه السورة مدنية، نزلت في مُدَدِ شَتَّى، وفيها آخر آية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠]. ويقال لسورة البقرة: «فسطاط القرآن» وذلك لعظمها وبهائها وما تضمنت من الأحكام والمواظ. وتعلمها عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بفقهما وجميع ما تحتوي عليه من العلوم في ثمانية أعوام، وفيها خمسمائة حكم، وخمسة عشر مثلاً.

وروى الحسن بن أبي الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أي القرآن أفضل؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «سورة البقرة» ثم قال: «وأيهما أفضل؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «آية الكرسي».

ويقال إن آيات الرحمة والرجاء والعذاب تنتهي فيها معانيها إلى ثلاثمائة وستين معنى. وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أُعْطِيَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ مِنَ الذِّكْرِ الْأَوَّلِ، وَأُعْطِيَتْ طَه وَالطَّوْسِينَ مِنَ الْوَحْيِ مُوسَى. وَأُعْطِيَتْ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ». وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «تَجِيءُ الْبَقَرَةُ وَآلُ عِمْرَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَانَهُمَا غَيَاتَانِ بَيْنَهُمَا شَرْفٌ، أَوْ غَمَامَتَانِ سَوْدَاوَانِ، أَوْ كَانَهُمَا ظِلَّةٌ مِنْ طَيْرِ صَوَافٍ تَجَادِلَانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا». وفي البخاري أنه عليه الصلاة والسلام قال: «مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةِ كَفْتَاهُ». وروى أبو هريرة عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الْبَيْتُ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ لَا يَدْخُلُهُ الشَّيْطَانُ».

وروي عنه عليه السلام أنه قال: «لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامٌ وَسَنَامُ الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، فِيهَا آيَةٌ هِيَ سَيِّدَةُ أَيِّ الْقُرْآنِ هِيَ آيَةُ الْكَرْسِيِّ».

وعدد أي سورة البقرة مائتان وخمس وثمانون آية، وقيل: ست وثمانون، وقيل سبع وثمانون. قوله تعالى:

الْم

اختلف في الحروف التي في أوائل السور على قولين:

قال الشعبي عامر بن شراحيل وسفيان الثوري وجماعة من المحدثين: «هي سرّ الله في القرآن، وهي من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه؛ ولا يجب أن يتكلم فيها، ولكن يؤمن بها وتُمرّ كما جاءت».

وقال الجمهور من العلماء: «بل يجب أن يُتكلم فيها وتُلمس الفوائد التي تحتها والمعاني التي تتخرج عليها» واختلفوا في ذلك على اثني عشر قولاً:

فقال علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهما: «الحروف المقطعة في القرآن هي اسم الله الأعظم، إلا أنا لا نعرف تأليفه منها».

وقال ابن عباس أيضاً: «هي أسماء الله أقسم بها».

وقال زيد بن أسلم: «هي أسماء للسور».

وقال قتادة: «هي أسماء للقرآن كالفرقان والذكر».

وقال مجاهد: «هي فواتح للسور».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: كما يقولون في أول الإنشاد لشهير القصائد: «بل» و«لا بل». نحا هذا النحو أبو عبيدة والأخفش.

وقال قوم: «هي حساب أبي جاد لتدل على مدة ملة محمد صلى الله عليه وسلم كما ورد في حديث حيي بن أخطب» وهو قول أبي العالية رفيع وغيره.

وقال قطرب وغيره: «هي إشارة إلى حروف المعجم، كأنه يقول للعرب: إنما تحديتكم بنظم من هذه الحروف التي عرفتم، فقلوه ﴿آلَمْ﴾ بمنزلة قولك أ، ب، ت، ث، لتدل بها على التسعة والعشرين حرفاً».

وقال قوم: «هي أمانة قد كان الله تعالى جعلها لأهل الكتاب أنه سينزل على محمد كتاباً في أول سور منه حروف مقطعة».

وقال ابن عباس: «هي حروف تدل على: أنا الله أعلم، أنا الله أرى، أنا الله أفصل».

وقال ابن جبير عن ابن عباس: «هي حروف كل واحد منها إما أن يكون من اسم من أسماء الله، وإما من نعمة من نعمه، وإما من اسم ملك من ملائكته، أو نبي من أنبيائه».

وقال قوم: «هي تنبيه كـ «يا» في النداء».

وقال قوم: «روي أن المشركين لما أعرضوا عن سماع القرآن بمكة نزلت ليستغربوها فيفتحوا لها أسماعهم فيسمعون القرآن بعدها فتجب عليهم الحجة».

قال القاضي أبو محمد: والصواب ما قاله الجمهور أن تفسر هذه الحروف ويلتمس لها التأويل، لأننا نجد العرب قد تكلمت بالحروف المقطعة نظماً لها ووضعاً بدل الكلمات التي الحروف منها، كقول الشاعر: [الواليد بن المغيرة] [الرجز].

قلنا لها قفي فقالت قاف

أراد قالت: وقفت. وكقول القائل: [زهير بن أبي سلمى] [الرجز].

بالخير خيرات وإن شرّاً فإلا أريد الشر إلا أن تا

أراد: وإن شرّاً فشر، وأراد: إلا أن تشاء. والشواهد في هذا كثيرة، فليس كونها في القرآن مما تنكره العرب في لغتها، فينبغي إذا كان من معهود كلام العرب أن يطلب تأويله ويلتمس وجهه، والوقف على هذه الحروف على السكون لنقصانها إلا إذا أُخبرَتْ عنها أو عطفَتْها فإنك تُعزبها.

وموضع ﴿الْم﴾ من الإعراب رفع على أنه خبر ابتداء مضمّر، أو على أنه ابتداء، أو نصب بإضمار فعل، أو خفض بالقسم، وهذا الإعراب يتجه الرفع منه في بعض الأقوال المتقدمة في الحروف، والنصب في بعض، والخفض في قول ابن عباس رضي الله عنه أنها أسماء لله أقسم بها.

قوله عز وجل:

ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾

الاسم من ﴿ذلك﴾ الذال والألف، وقيل الذال وحدها، والألف تقوية، واللام لبعد المشار إليه وللتأكيد، والكاف للخطاب، وموضع ﴿ذلك﴾ رفع كأنه خبر ابتداء، أو ابتداء وخبره بعده، واختلف في ﴿ذلك﴾ هنا فقيل: هو بمعنى «هذا»، وتكون الإشارة إلى هذه الحروف من القرآن.

قال القاضي أبو محمد: وذلك أنه قد يشار بـ «ذلك» إلى حاضر تعلق به بعض الغيبة وبـ «هذا» إلى غائب هو من الثبوت والحضور بمنزلة وقُرب. وقيل: هو على بابه إشارة إلى غائب، واختلف في ذلك الغائب، فقيل: ما قد كان نزل من القرآن، وقيل: التوراة والإنجيل، وقيل: اللوح المحفوظ؛ أي الكتاب الذي هو القدر وقيل: إن الله قد كان وعد نبيه أن ينزل عليه كتاباً لا يمحوه الماء، فأشار إلى ذلك الوعد.

وقال الكسائي: «﴿ذلك﴾ إشارة إلى القرآن الذي في السماء لم ينزل بعد». وقيل: إن الله قد كان وعد أهل الكتاب أن ينزل على محمد كتاباً، فالإشارة إلى ذلك الوعد. وقيل: إن الإشارة إلى حروف المعجم في قول من قال ﴿الْم﴾ حروف المعجم التي تحدّثكم بالنظم منها.

ولفظ ﴿الكتاب﴾ مأخوذ من «كتب الشيء» إذا جمعته وضممت بعضه إلى بعض ككتب الخرز بضم الكاف وفتح التاء وكتب الناقة.

ورفع ﴿الكتاب﴾ يتوجه على البدل أو على خبر الابتداء أو على عطف البيان. و﴿لا ريب فيه﴾ معناه: لا شك فيه ولا ارتياب به؛ والمعنى أنه في ذاته لا ريب فيه وإن وقع ريب للكفار.

وقال قوم: لفظ قوله ﴿لا ريب﴾ فيه لفظ الخبر ومعناه النهي.

وقال قوم: هو عموم يراد به الخصوص؛ أي عند المؤمنين.

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف.

وقرأ الزهري، وابن محيصن، ومسلم بن جندب، وعبيد بن عمير: «فيه» بضم الهاء؛ وكذلك «إليه» و«عليه» و«به» و«نُصِّلُهُ» ونولُهُ وما أشبه ذلك حيث وقع على الأصل. وقرأ ابن إسحاق: «فيهو» ضم الهاء ووصلها بواو.

و﴿هدى﴾ معناه رشاد وبيان، وموضعه، من الإعراب رفع على أنه خبر ﴿ذلك﴾، أو خبر ابتداء مضمّر، أو ابتداء وخبره في المجرور قبله، ويصح أن يكون موضعه نصباً على الحال من ذلك، أو من الكتاب، ويكون العامل فيه معنى الإشارة، أو من الضمير في ﴿فيه﴾، والعامل معنى الاستقرار؛ وفي هذا القول ضعف.

وقوله ﴿للمتقين﴾ اللفظ مأخوذ من وقى، وفعله أتقى، على وزن افتعل، وأصله «للموتقين» استثقلت الكسرة على الياء فسكنت وحذفت للالتقاء، وأبدلت الواو تاءً على أصلهم في اجتماع الواو والتاء، وأدغمت التاء في التاء فصار ﴿للمتقين﴾. والمعنى: الذين يتقون الله تعالى بامثال أوامره واجتناب معاصيه، كان ذلك وقاية بينهم وبين عذاب الله.

قوله عز وجل:

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾

﴿يؤمنون﴾ معناه يصدقون ويتعدى بالباء، وقد يتعدى باللام كما قال تعالى: ﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾ [آل عمران: ٧٣] وكما قال: ﴿فما آمن لموسى﴾ [يونس: ٨٣] وبين التعديتين فرق، وذلك أن التعدية باللام في ضمنها تعدُّ بالباء يفهم من المعنى. واختلف القراء في همز ﴿يؤمنون﴾ فكان ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي يهزمون «يؤمنون» وما أشبهه، مثل يأكلون، ويأمرون، ويؤتون؛ وكذلك مع تحرك الهمزة مثل «يؤخركم» و«يؤوده» إلا أن حمزة كان يستحب ترك الهمز إذا وقف، والباقيون يقفون بالهمز.

وروي ورش عن نافع ترك الهمز في جميع ذلك. وقد روي عن عاصم أنه لم يكن يهزم الهمزة الساكنة. وكان أبو عمرو إذا أدرج القراءة أو قرأ في الصلاة لم يهزم كل همزة ساكنة، إلا أنه كان يهزم حروفاً من السواكن بأعيانها ستذكر في مواضعها إن شاء الله. وإذا كان سكون الهمزة علامة للجزم لم يترك همزها مثل ﴿نساءها﴾ [البقرة: ١٠٥] ﴿وهيئ لنا﴾ [الكهف: ٨] وما أشبهه.

وقوله: ﴿بالغيب﴾ قالت طائفة: معناه يصدقون إذا غابوا وخلوا، لا كالمنافقين الذين يؤمنون إذا حضروا ويكفرون إذا غابوا. وقال آخرون: معناه يصدقون بما غاب عنهم مما أخبرت به الشرائع. واختلفت عبارة المفسرين في تمثيل ذلك، فقالت فرقة: «الغيب في هذه الآية هو الله عز وجل» وقال آخرون: «القضاء والقدر» وقال آخرون: «القرآن وما فيه من الغيوب» وقال آخرون: «الحشر والصراف والميزان والجنة والنار».

قال القاضي أبو محمد: وهذه الأقوال لا تتعارض، بل يقع الغيب على جميعها، والغيب في اللغة: ما غاب عنك من أمر، ومن مطمئن الأرض الذي يغيب فيه داخله.

وقوله: ﴿يَقِيمُونَ﴾ معناه يظهرونها ويثبتونها، كما يقال: أقيمت السوق، وهذا تشبيه بالقيام من حالة خفاء، قعود أو غيره، ومنه قول الشاعر: [الكامل].

وَإِذَا يُقَالُ أُتِيتُمْ لَمْ يَبْرَحُوا حَتَّى تَقِيمَ الْخَيْلُ سَوْقَ طِعَانٍ
ومنه قول الشاعر: [المتقارب]

أَقِمْنَا لِأَهْلِ الْعِرَاقِينَ سَوْقَ الطِّ طِعَانٍ فَخَامُوا وَوَلَّوْا جَمِيعَا
وأصل ﴿يَقِيمُونَ﴾ يقومون، نقلت حركة الواو إلى القاف فانقلبت ياء لكون الكسرة قبلها. و ﴿الصلاة﴾ مأخوذة من صلى يصلي إذا دعا، كما قال الشاعر: [البسيط]

عَلَيْكَ مِثْلَ الَّذِي صَلَّيْتُ فَاعْتَمِضِي يَوْمًا فَإِنَّ لَجْنِبَ الْمَرْءِ مُضْطَجَعَا

ومنه قول الآخر: [الطويل]

لَهَا حَارِسٌ لَا يَبْرَحُ الدَّهْرَ بَيْتَهَا وَإِنْ ذَبَحْتَ صَلَّى عَلَيْهَا وَزَمَزَمَا
فلما كانت الصلاة في الشرع دعاء انضاف إليه هيئات وقراءة سمي جميع ذلك باسم الدعاء. وقال قوم: هي مأخوذة من الصَّلَا وهو عَرَقَ في وسط الظهر ويفترق عند العجب فيكتنفه، ومنه أخذ المصلي في سبق الخيل، لأنه يأتي مع صَلَوِي السابق، فاشتقت الصلاة منه، إما لأنها جاءت ثانية للإيمان فشبهت بالمصلي من الخيل، وإما لأن الراكع والساجد صَلَّوَاهُ.

قال القاضي أبو محمد: والقول إنها من الدعاء أحسن.

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ كتبت «مما» متصلة «وما» بمعنى «الذي» فحقها أن تكون منفصلة، إلا أن الجار والمجرور كشيء واحد، وأيضاً فلما خفيت نون «من» في اللفظ حذفت في الخط. والرزق عند أهل السنة. ما صح الانتفاع به حلالاً كان أو حراماً، بخلاف قول المعتزلة إن الحرام ليس برزق. و ﴿ينفقون﴾ معناه هنا يؤتون ما ألزمهم الشرع من زكاة وما ندبهم إليه من غير ذلك.

قال ابن عباس: ﴿ينفقون﴾ يؤتون الزكاة احتساباً لها.

قال غيره: «الآية في النفقة في الجهاد».

قال الضحاك: «هي نفقة كانوا يتقربون بها إلى الله عز وجل على قدر يُسرهم».

قال ابن مسعود وابن عباس أيضاً: «هي نفقة الرجل على أهله».

قال القاضي أبو محمد: والآية تعم الجميع. وهذه الأقوال تمثيل لا خلاف.

قوله عز وجل:

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

اختلف المتأولون فيمن المراد بهذه الآية وبألي قبلها.

فقال قوم: «الآيتان جميعاً في جميع المؤمنين».
وقال آخرون: «هما في مؤمني أهل الكتاب».

وقال آخرون: «الآية الأولى في مؤمني العرب، والثانية في مؤمني أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، وفيه نزلت».

قال القاضي أبو محمد: فمن جعل الآيتين في صنف واحد فأعراب ﴿والذين﴾ خفض على العطف، ويصح أن يكون رفعاً على الاستئناف، «أي وهم الذين» ومن جعل الآيتين في صنفين، فأعراب ﴿الذين﴾ رفع على الابتداء، وخبره ﴿أولئك على هدى﴾ ويحتمل أن يكون عطفاً.

وقوله: ﴿بما أنزل إليك﴾ يعني القرآن ﴿وما أنزل من قبلك﴾ يعني الكتب السالفة. وقرأ أبو حيوه ويزيد بن قطيب: «بما أنزل... وما أنزل» بفتح الهمزة فيهما خاصة. والفعل على هذا يحتمل أن يستند إلى الله تعالى، ويحتمل إلى جبريل، والأول أظهر وألزم. ﴿وبالآخرة﴾ قيل معناه بالدار الآخرة، وقيل بالنشأة الآخرة.

و﴿يوقنون﴾ معناه يعلمون علماً متمكناً في نفوسهم. واليقين أعلى درجات العلم، وهو الذي لا يمكن أن يدخله شك وبوجه وقول مالك رحمه الله: «فيحلف على يقينه ثم يخرج الأمر على خلاف ذلك» تجوز منه في العبارة على عرف تجوز العرب، ولم يقصد تحرير الكلام في اليقين.

وقوله تعالى: ﴿أولئك﴾ إشارة إلى المذكورين، و﴿أولاء﴾ جمع «ذا»، وهو مبني على الكسر لأنه ضَعُفَ لإبهامه عن قوة الأسماء، وكان أصل البناء السكون فحرك لالتقاء الساكنين، والكاف للخطاب، و«الهدى» هنا الإرشاد. و﴿أولئك﴾ الثاني ابتداء، و﴿المفلحون﴾ خبره، و﴿هم﴾ فصل، لأنه وقع بين معرفتين ويصح أن يكون ﴿هم﴾ ابتداء، و﴿المفلحون﴾ خبره، والجملة خبر ﴿أولئك﴾، والفلاح الظفر بالبغية وإدراك الأمل ومنه قول لبيد: [الرملة].

اعقلي إن كنت لمّا تعقلي ولقد أفلح من كان عقلٌ

وقد وردت للعرب أشعار فيها الفلاح بمعنى البقاء، كقوله: [الطويل]

ونرجو الفلاحَ بَعْدَ عادٍ وحميرٍ

وقول الأصبط: [المنسرح]

لِكُلِّ هَمٍّ من الهمومِ سَعَةٌ والصُّبْحُ والمسي لا فلاح معه

والبقاء يعمه إدراك الأمل والظفر بالبغية، إذ هو رأس ذلك وملاكه وحكى الخليل الفلاح على المعنيين.

قوله عز وجل:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ

وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غَشَوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

معنى الكفر مأخوذ من قولهم كفر إذا غطى وستر، ومنه قول الشاعر لبيد بن ربيعة: [الكامل]

في ليلة كفر النجوم غمامها

أي سترها ومنه سمي الليل كافراً لأنه يغطي كل شيء بسواده قال الشاعر: [ثعلبة بن صغيرة]:
[الكامل].

فتذكر ثقلًا رثيداً بعدما ألفت ذكاء يمينها في كافر

ومنه قبل للزراع كفار، لأنهم يغطون الحب، ف «كفر» في الدين معناه غطى قلبه بالرئين عن الإيمان أو غطى الحق بأقواله وأفعاله.

واختلف فيمن نزلت هذه الآية بعد الاتفاق على أنها غير عامة لوجود الكفار قد أسلموا بعدها.

فقال قوم: «هي فيمن سبق في علم الله أنه لا يؤمن أراد الله تعالى أن يعلم أن في الناس من هذه حالة دون أن يعين أحد».

وقال ابن عباس: «نزلت هذه الآية في حيي بن أخطب، وأبي ياسر وابن الأشرف ونظرائهم» وقال الربيع بن أنس: «نزلت في قادة الأحزاب وهم أهل القليب بيدر».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: هكذا حكى هذا القول، وهو خطأ، لأن قادة الأحزاب قد أسلم كثير منهم، وإنما ترتيب الآية في أصحاب القليب، والقول الأول مما حكيناه هو المعتمد عليه، وكل من عين أحداً فإنما مثل بمن كشف الغيب بموته على الكفر أنه في ضمن الآية. وقوله: ﴿سواء عليهم﴾ معناه معتدل عندهم، ومنه قول الشاعر: [أعشى قيس]: [الطويل]

وليل يقول الناس من ظلماته سواء صحباحات العيون وعورها

قال أبو علي: في اللفظة أربع لغات: سوى بكسر السين، وسواء بفتحها والمد، وهاتان لغتان معروفتان، ومن العرب من يكسر السين ويمد، ومنهم من يضم أوله ويقصره، وهاتان اللغتان أقل من تينك. ويقال سي بمعنى سواء كما قالوا: «قي، وقواء»، و «سواء» رفع على خبر «إن»، أو رفع على الابتداء وخبره فيما بعده، والجملة خبر «إن»، ويصح أن يكون خبر «إن» «لا يؤمنون».

وقرأ أبو عمرو وابن كثير ونافع: «أنذرتهم» بهمزة مطولة، وكذلك ما أشبه ذلك في جميع القرآن، وكذلك كانت قراءة الكسائي إذا خفف، غير أن مد أبي عمرو أطول من مد ابن كثير، لأنه يدخل بين الهمزتين ألفاً، وابن كثير لا يفعل ذلك. وروى قالون وإسماعيل بن جعفر عن نافع إدخال الألف بين الهمزتين مع تخفيف الثانية. وروى عنه ورش تخفيف الثانية بين بين دون إدخال ألف بين الهمزتين، فأما عاصم وحمزة والكسائي إذا حقق وابن عامر: فبالهمزتين «أنذرتهم»، وما كان مثله في كل القرآن.

وقرأ ابن عباس وابن أبي إسحاق بتحقيق الهمزتين وإدخال ألف بينهما.

وقرأ الزهري وابن محيصن «أنذرتهم» بحذف الهمزة الأولى، وتدل ﴿أم﴾ على الألف المحذوفة، وكثر مكى في هذه الآية بذكر جائزات لم يقرأ بها، وحكاية مثل ذلك في كتب التفسير عناء. والإنذار إعلام بتخويف، هذا حده، وأنذرت فعل يتعدى إلى مفعولين.

قال الله عز وجل: ﴿فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ [فصلت: ١٣] وقال: ﴿إنا أنذرناكم عذاباً قريباً﴾ [النساء: ٤٠] وأحد المفعولين في هذه الآية محذوف لدلالة المعنى عليه.

وقوله تعالى: ﴿أنذرتهم أم لم تنذرهم﴾ لفظه لفظ الاستفهام، ومعناه الخبر، وإنما جرى عليه لفظ الاستفهام لأن فيه التسوية التي هي في الاستفهام، ألا ترى أنك إذا قلت مخبراً سواء عليّ أقعدت أم ذهبت، وإذا قلت مستفهماً أخرج زيد أم قام، فقد استوى الأمران عندك، هذان في الخبر، وهذان في الاستفهام وعدم علم أحدهما بعينه، فلما عمتها التسوية جرى على هذا الخبر لفظ الاستفهام لمشاركته إياه في الإيهام، وكل استفهام تسوية، وإن لم تكن كل تسوية استفهاماً.

وقوله تعالى: ﴿ختم الله﴾ مأخوذ من الختم وهو الطبع، والخاتم الطابع، وذهبت طائفة من المتأولين إلى أن ذلك على الحقيقة، وأن القلب على هيئة الكف ينقبض مع زيادة الضلال والإعراض إصباعاً إصباعاً. وقال آخرون: ذلك على المجاز، وإن ما اخترع له في قلوبهم من الكفر والضلال والإعراض عن الإيمان سماه ختماً.

وقال آخرون ممن حمله على المجاز: «الختم هنا أسند إلى الله تعالى لما كفر الكافرون به وأعرضوا عن عبادته وتوحيده، كما يقال أهلك المال فلاناً وإنما أهلكه سوء تصرفه فيه».

وقرأ الجمهور: ﴿وعلى سمعهم﴾.

وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿وعلى أسماعهم﴾، وهو في قراءة الجمهور مصدر يقع للقليل والكثير، وأيضاً فلما أضيف إلى ضمير جماعة دل المضاف إليه على المراد، ويحتمل أن يريد على مواضع سمعهم فحذف وأقام المضاف إليه مقامه.

والغشاوة الغطاء المغشي الساتر، ومنه قول النابغة: [البسيط]

هلا سألت بني ذبيان ما حسبي إذا الدخان تغشى الأشمط البرما

وقال الآخر: [الحارث بن خالد المخزومي]: [الطويل]

تبعتك إذ عيني عليها غشاوة فلما انجلت قطعت نفسي ألومها
ورفع غشاوة على الابتداء وما قبله خبره.

وقرأ عاصم فيما روى المفضل الضبي عنه «غشاوة» بالنصب على تقدير وجعل على أبصارهم غشاوة، والختم على هذا التقدير في القلوب والأسماع، والغشاوة على الأبصار، والوقف على قوله ﴿وعلى سمعهم﴾.

وقرأ الباقون «غشاوة» بالرفع .

قال أبو علي : «وقراءة الرفع أولى لأن النصب إما أن تحمله على ختم الظاهر فيعترض في ذلك أنك حلت بين حرف العطف والمعطوف به» وهذا عندنا إنما يجوز في الشعر، وإما أن تحمله على فعل يدل عليه ﴿ختم﴾ تقديره وجعل على أبصارهم، فيجيء الكلام من باب : «متقلداً سيفاً ورمحاً» وقول الآخر : [الرجز]:

علفتها تبناً وماءً بارداً

ولا تكاد تجد هذا الاستعمال في حال سعة واختيار. فقراءة الرفع أحسن، وتكون الواو عاطفة جملة على جملة».

قال : «ولم أسمع من الغشاوة فعلاً مصرفاً بالواو، فإذا لم يوجد ذلك وكان معناها معنى ما اللام منه الياء من غشي يغشى بدلالة قولهم الغشيان فالغشاوة من غشي كالجباوة من جبيت في أن الواو كأنها بدل من الياء، إذ لم يصرف منه فعل كما لم يصرف من الجباوة».

وقال بعض المفسرين : الغشاوة على الأسماع والأبصار، والوقف في قوله ﴿على قلوبهم﴾.

وقال آخرون : «الختم في الجميع، والغشاوة هي الخاتم».

قال القاضي أبو محمد : وقد ذكرنا اعتراض أبي علي هذا القول.

وقرأ أبو حيوة «عشوة»، بفتح الغين والرفع، وهي قراءة الأعمش.

وقال الثوري : «كان أصحاب عبد الله يقرؤونها «عشية» بفتح الغين والياء والرفع».

وقرأ الحسن : «غشاوة» بضم الغين، وقرئت «عشاوة» بفتح الغين، وأصوب هذه القراءات المقروء بها ما عليه السبعة من كسر الغين على وزن عمامة والأشياء التي هي أبداً مشتملة، فهكذا يجيء وزنها بالضمة والعمامة والكتابة والعصابة والربابة وغير ذلك.

وقوله تعالى : ﴿وله عذاب عظيم﴾ معناه بمخالفتك يا محمد وكفرهم بالله استوجبوا ذلك، و﴿عظيم﴾ معناه بالإضافة إلى عذاب دونه يتخلله فتور، وبهذا التخلل المتصور يصح أن يتفاضل العرضان كسوادين أحدهما أشبع من الآخر، إذ قد تخلل الآخر ما ليس بسواد.

قوله عز وجل :

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَذِّعُونَ اللَّهَ وَلَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْذَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

كان أصل النون أن تكسر لالتقاء الساكنين، لكنها تفتح مع الألف واللام. ومن قال : استثقلت كسرتان تتوالى في كلمة على حرفين فمعترض بقولهم من ابنك ومن اسمك وما أشبهه.

واختلف النحويون في لفظة ﴿الناس﴾ فقال قوم: «هي من نسي فأصل ناس نسي قلب فجاء نيس تحركت الياء وانفتح ما قبلها فانقلبت ألفاً فقليل ناس، ثم دخلت الألف واللام».

وقال آخرون: ناس اسم من أسماء الجموع دون هذا التعليل، دخلت عليه الألف واللام.

وقال آخرون: «أصل ناس أناس دخلت الألف واللام فجاء الأناس، حذفت الهمزة فجاء الناس أدغمت اللام في النون لقرب المخارج». وهذه الآية نزلت في المنافقين.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ رجع من لفظ الواحد إلى لفظ الجمع بحسب لفظ ﴿مَنْ﴾ ومعناها، وحسن ذلك لأن الواحد قبل الجمع في الرتبة، ولا يجوز أن يرجع متكلم من لفظ جمع إلى توحيد، لو قلت ومن الناس من يقولون ويتكلم لم يجز.

وسمى الله تعالى يوم القيامة ﴿اليوم الآخر﴾ لأنه لا ليل بعده، ولا يقال يوم إلا لما تقدمه ليل، ثم نفى تعالى الإيمان عن المنافقين، وفي ذلك رد على الكرامية في قولهم إن الإيمان قول باللسان وإن لم يعتقد بالقلب.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿يَخَادِعُونَ اللَّهَ﴾.

فقال الحسن بن أبي الحسن: «المعنى يخادعون رسول الله فأضاف الأمر إلى الله تجوزاً لتعلق رسوله به، ومخادعتهم هي تحيلهم في أن يفشي رسول الله والمؤمنون لهم أسرارهم فيحفظون مما يكرهونه ويتنبهون من ضرر المؤمنين على ما يحبونه».

وقال جماعة من المتأولين: «بل يخادعون الله والمؤمنين، وذلك بأن يظهروا من الإيمان خلاف ما أبطنوا من الكفر ليحققوا دماءهم ويحرزوا أموالهم ويظنون أنهم قد نجوا وخدعوا وفازوا، وإنما خدعوا أنفسهم لحصولهم في العذاب وما شعروا لذلك».

واختلف القراء في يخادعون الثاني.

فقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: «يخادعون».

وقرأ عاصم وابن عامر وحزمة والكسائي: «وما يخدعون».

وقرأ أبو طالب عبد السلام بن شداد والجارود بن أبي سبرة: «يُخَدَّعون» بضم الياء.

وقرأ قتادة ومورق العجلي: «يُخَدَّعون» بضم الياء وفتح الخاء وكسر الدال وشدّها. فوجه قراءة ابن كثير ومن ذكر إحراز تناسب اللفظ، وأن يسمى الفعل الثاني باسم الفعل الأول المسبب له ويجيء ذلك كما قال الشاعر: [عمرو بن كلثوم]: [الوافر].

أَلَا لَا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

فجعل انتصاره جهلاً، ويؤيد هذا المتزع في هذه الآية أن فاعل قد تجيء من واحد كعاقبت اللص وطارت النعل. وتتجه أيضاً هذه القراءة بأن ينزل ما يخطر ببالهم ويهجن في خواطرهم من الدخول في

الدين والنفاق فيه والكفر في الأمر وضده في هذا المعنى بمنزلة مجاورة أجنبيين فيكون الفعل كأنه من اثنين. وقد قال الشاعر: [الكميت] [الطويل].

تذكر من أني ومن أين شربه يؤامر نفسه كذي الهجمة الأبل

وأشد ابن الأعرابي: [المنسرح]

لم تدر ما لا ولست قائلها عمرك ما عشت آخر الأبد

ولم تؤامر نفسك ممترياً فيه لها وفي أختها ولم تكذ

وقال الآخر:

يؤامر نفسه وفي العيش فسحة أيستوتغ الذويان أم لا يطورها

وأشد ثعلب عن ابن الأعرابي: [الطويل]

وكنّت كذات الضنء لم تدر إذ بعت تؤامر نفسها أسترّق أم تزني

ووجه قراءة عاصم ومن ذكر، أن ذلك الفعل هو خدع لأنفسهم يمضي عليها، تقول: «خادعت الرجل» بمعنى أعملت التحيل عليه، فخدعته بمعنى تمت عليه الحيلة ونفذ فيه المراد، والمصدر «خدع» بكسر الخاء وخديعة، حكى ذلك أبو زيد. فمعنى الآية وما ينفذون السوء إلا على أنفسهم وفيها. ووجه قراءة أبي طالوت أحد أمرين إما أن يقدر الكلام وما يخدعون إلا عن أنفسهم فحذف حرف الجر ووصل الفعل كما قال تعالى: ﴿واختار موسى قومه﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي من قومه وإما أن يكون «يخدعون» أعمل عمل ينتقصون لما كان المعنى وما ينقصون ويستلبون إلا أنفسهم، ونحوه قول الله تعالى: ﴿ليلة الصيام الرفت إلى نسائكم﴾ [البقرة: ١٨٧] ولا تقول رفثت إلى المرأة ولكن لما كان بمعنى الإفضاء ساغ ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿هل لك إلى أن تزكى﴾ [النازعات: ١٨] وإنما يقال هل لك في كذا، ولكن لما كان المعنى أجد بك إلى أن تزكى ساغ ذلك وحسن، وهو باب سني من فصاحة الكلام، ومنه قول الفرزدق: [الرجز].

كيف تراني قالباً مجني قد قتل الله زياداً عني

لما كانت قتل قد دخلها معنى صرف. ومنه قول الآخر: [نحيف العامري]: [الوافر]

إذا رضيت علي بنو قشير لعمر الله أعجني رضاها

لما كانت رضيت قد تضمنت معنى أقبلت علي.

وأما الكسائي فقال في هذا البيت: «وصل رضي بوصل نقيضه وهو سخط وقد تجرى أمور في اللسان مجرى نقائضها».

ووجه قراءة قتادة المبالغة في الخدع، إذ هو مصير إلى عذاب الله.

قال الخليل: «يقال خادع من واحد لأن في المخادعة مهلة، كما يقال عالجت المريض لمكان المهلة».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وهذا من دقيق نظره وكأنه يرد فاعل إلى الاثنين، ولا بد من حيث ما فيه مهلة ومدافعة ومماثلة، فكأنه يقاوم في المعنى الذي تجيء فيه فاعل.

وقوله تعالى: ﴿وما يشعرون﴾ معناه وما يعلمون علم تفتن وتهذ، وهي لفظة مأخوذة من الشعار كأن الشيء المتفتن له شعار للنفس، والشعار الثوب الذي يلي جسد الإنسان، وهو مأخوذ من الشعر، والشاعر المتفتن لغريب المعاني.

وقولهم: «ليت شعري» معناه ليت فطنتي تدرك، ومن هذا المعنى قول الشاعر: [المنخل الهذلي].

عقوا بسهم فلم يشعرو به أحد ثم استفأوا وقالوا حبذا الوضح

واختلف ما الذي نفى الله عنهم أن يشعروا له. فقالت طائفة: «وما يشعرون أن ضرر تلك المخادعة راجع عليهم لخلودهم في النار».

وقال آخرون: «وما يشعرون أن الله يكشف لك سرهم ومخادعتهم في قولهم آمنة».

قوله عز وجل:

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾

المرض عبارة مستعارة للفساد الذي في عقائد هؤلاء المنافقين وذلك إما أن يكون شكاً، وإما جحداً بسبب حسدهم مع علمهم بصحة ما يجحدون، وينحو هذا فسر المتأولون.

وقال قوم: «المرض غمهم بظهور أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم».

وقرأ الأصمعي عن أبي عمر: «مرض» بسكون الراء وهي لغة في المصدر قال أبو الفتح: «وليس بتخفيف».

واختلف المتأولون في معنى قوله ﴿فزادهم الله مرضاً﴾ فقيل هو دعاء عليهم، وقيل هو خبر أن الله قد فعل بهم ذلك، وهذه الزيادة هي بما ينزل من الوحي ويظهر من البراهين، فهي على هؤلاء المنافقين عمى وكلما كذبوا زاد المرض.

وقرأ حمزة: «فزادهم» بكسر الزاي، وكذلك ابن عامر. وكان نافع يشم الزاي إلى الكسر، وفتح الباقون. و﴿أليم﴾ معناه مؤلم كما قال الشاعر وهو عمرو بن معدي كرب: [الوافر].

أمن ريحانة الداعي السميع

بمعنى: مسمع.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر «يُكْذِبُونَ» بضم الياء وتشديد الذال.

وقرأ الباقون بفتح الياء وتخفيف الذال. فالقراءة بالثقل تؤيدها قوله تعالى قبل ﴿وما هم بمؤمنين﴾

فهذا إخبار بأنهم يكذبون. والقراءة بالتخفيف يؤديها أن سياق الآيات إنما هي إخبار بكذبهم، والتوعد بالعذاب الأليم، متوجه على التكذيب، وعلى الكذب في مثل هذه النازلة، إذ هو منطوق على الكفر، وقراءة التثنية أرجح. و﴿إِذَا﴾ ظرف زمان، وحكي عن المبرد أنها في قولك في المفاجأة خرجت فإذا زيد ظرف مكان، لأنها تضمنت جثة، وهذا مردود لأن المعنى «خرجت فإذا حضور زيد» فإنما تضمنت المصدر، كما يقتضيه سائر ظروف الزمان، ومنه قولهم: «اليوم خمر، وغداً أمر» فمعناه وجود خمر ووقوع أمر، والعامل في ﴿إِذَا﴾ في هذه الآية ﴿قَالُوا﴾. وأصل ﴿قِيلَ﴾ قول نقلت حركة الواو إلى القاف فقلبت ياء لانكسار ما قبلها.

وقرأ الكسائي: «قِيلَ وَغِيضَ وَسِيءٌ وَسِيئٌ وَحِيلَ وَسُبِقَ وَجِيءٌ» بضم أوائل ذلك كله. وروي مثل ذلك عن ابن عامر. وروي أيضاً عنه أنه كسر «غِيضَ وَقِيلَ وَجِيءٌ»، الغين والقاف والجيم حيث وقع من القرآن وضم نافع من ذلك كله حرفين «سِيءٌ وَسِيئٌ» وكسر ما بقي. وكان ابن كثير وعاصم وأبو عمرو وحزمة يكسرون أوائل هذه الحروف كلها، والضمير في ﴿لَهُمْ﴾ هو عائذ إلى المنافقين المشار إليهم قبل.

وقال بعض الناس: «الإشارة هنا هي إلى منافقي اليهود».

وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه في تفسير هذه الآية: لم يجيء هؤلاء بعد ومعنى قوله: لم ينقرضوا بل هم يجيئون في كل زمان.

و﴿لَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ معناه بالكفر وموالاته الكفرة، و﴿نَحْنُ﴾ اسم من ضمائر المرفوع مبني على الضم، إذ كان اسماً قوياً يقع للواحد المعظم والاثنين والجماعة، فأعطي أسنى الحركات.

وأيضاً فلما كان في الأغلب ضمير جماعة، وضمير الجماعة في الأسماء الظاهرة الواو أعطي الضمة إذ هي أخت الواو، ولقول المنافقين: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ثلاث تأويلات:

أحدها: جحد أنهم مفسدون وهذا استمرار منهم على النفاق.

والثاني: أن يقرؤا بموالاته الكفار ويدعون أنها صلاح من حيث هم قرابة توصل.

والثالث: أنهم مصلحون بين الكفار والمؤمنين، فلذلك يداخلون الكفار. و﴿أَلَا﴾ استفتاح كلام، و﴿إِنْ﴾ بكسر الألف استئناف، و﴿هُمْ﴾ الثاني رفع بالابتداء، و﴿الْمُفْسِدُونَ﴾ خبره والجملة خبر «إِنْ»، ويحتمل أن يكون فصلاً ويسميه الكوفيون: «العماد» ويكون «الْمُفْسِدُونَ» خبر «إِنْ»، فعلى هذا لا موضع لـ ﴿هُمْ﴾ من الإعراب، ويحتمل أن يكون تأكيداً للضمير في أنهم فموضعه نصب، ودخلت الألف واللام في قوله: ﴿الْمُفْسِدُونَ﴾ لما تقدم ذكر اللفظة في قوله: ﴿لَا تَفْسُدُوا﴾ فكأنه ضرب من العهد، ولو جاء الخبر عنهم ولم يتقدم من اللفظة ذكر لكان ألا إنهم مفسدون. قاله الجرجاني.

قال القاضي أبو محمد: وهذه الألف واللام تتضمن المبالغة كما تقول زيد هو الرجل أي حق الرجل، فقد تستغني عن مقدمة تقتضي عهداً، و﴿لَكِنْ﴾ بجملة حرف استدراك، ويحتمل أن يراد هنا لا يشعرون بهم مفسدون، ويحتمل أن يراد لا يشعرون أن الله يفضحهم، وهذا مع أن يكون قولهم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ تحذراً محضاً للإفساد. والاحتمال الأول هو بأن يكون قولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ اعتقاداً منهم أنه

صلاح في صلة القرابة، أو إصلاح بين المؤمنين والكافرين.

قوله عز وجل:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لِلَّذِينَ ءَامِنُوا قَالُوا ءَامِنُوا إِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾

المعنى صدقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وشرعه، مثل ما صدقه المهاجرون والمحققون من أهل يثرب، قالوا: أنكون كالذين خفت عقولهم؟ والسفه الخفة والرقعة الداعية إلى الخفة يقال «ثوب سفه» إذا كان رقيقاً مهلهل النسيج، ومنه قول ذي الرمة: [الطويل]

مشين كما اهتزت رماح تسفحت أعاليها مرّ الرياح النواسم

وهذا القول إنما كانوا يقولونه في خفاء فأطلع الله عليه نبيه والمؤمنين، وقرر أن السفه ورقة الحلوم وفساد البصائر إنما هو في حيزهم وصفة لهم، وأخبر أنهم لا يعلمون أنهم السفهاء للرئين الذي على قلوبهم.

وقال قوم: «الآية نزلت في منافقي اليهود، والمراد بالناس عبد الله بن سلام ومن أسلم من بني إسرائيل».

قال القاضي أبو محمد: وهذا تخصيص لا دليل عليه.

و«لقوا» أصله لقوا استثقلت الضمة على الياء فسكنت فاجتمع الساكنان فحذفت الياء. وقرأ ابن السميع «لاقوا الذين». وهذه كانت حال المنافقين إظهار الإيمان للمؤمنين وإظهار الكفر في خلواتهم بعضهم مع بعض، وكان المؤمنون يلبسونهم على ذلك لموضع القرابة فلم تلتصق عليهم الشهادات ولا تقرر تعينهم في النفاق تقررأ يوجب لوضوحه الحكم بقتلهم وكان ما يظهره من الإيمان يحقن دماءهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض عنهم ويدعهم في غمرة الاشتباه مخافة أن يتحدث عنه أنه يقتل أصحابه فينفر الناس حسبما قال عليه السلام لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال له في وقت قول عبد الله بن أبي ابن سلول: «لئن رجعنا إلى المدينة لبيخرجن الأعز منها الأذل» القصة: «دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق» فقال: «دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه».

فهذه طريقة أصحاب مالك رضي الله عنه في كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين مع علمه بكفرهم في الجملة. نص على هذا محمد بن الجهم وإسماعيل القاضي والأهري وابن الماجشون واحتج بقوله تعالى: «لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً» [الأحزاب: ٦٠ - ٦١]. قال قتادة: «معناه إذا هم أعلنوا النفاق».

قال مالك رحمه الله: «النفاق في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الزندقة فينا اليوم، فيقتل الزنديق إذا شهد عليه بها دون استتابة، لأنه لا يظهر ما يستتاب منه، وإنما كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ليسن لأمتهم أن الحاكم لا يحكم بعلمه إذ لم يشهد على المنافقين».

قال القاضي إسماعيل: «لم يشهد على عبد الله بن أبي إلا زيد بن أرقم وحده، ولا على الجلاس بن سويد إلا عمير بن سعد ربيبه وحده، ولو شهد على أحد منهم رجلان بكفره ونفاقه لقتل».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: أقوى من انفراد زيد وغيره أن اللفظ ليس بصريح كفر وإنما يفهم من قوته الكفر.

قال الشافعي رحمه الله: «السنة فيمن شهد عليه بالزندقة فجحد وأعلن بالإيمان وتبرأ من كل دين سوى الإسلام أن ذلك يمنع من إراقة دمه». وبه قال أصحاب الرأي والطبري وغيرهم.

قال الشافعي وأصحابه: «وإنما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام بألسنتهم مع العلم بنفاقهم لأن ما يظهرونه يجب ما قبله فمن قال إن عقوبة الزنادقة أشد من عقوبة الكفار فقد خالف معنى الكتاب والسنة وجعل شهادة الشهود على الزنديق فوق شهادة الله على المنافقين».

قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾. [المنافقون: ١].

قال الشافعي وأبو حنيفة وابن حنبل وأهل الحديث: فالمعنى الموجب لكفر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل المنافقين مع العلم بهم أن الله تعالى نهاه عن قتلهم إذا أظهروا الإيمان وصلوا فكذلك هو الزنديق.

واحتج ابن حنبل بحديث عبيد الله بن عدي بن الخيار عن رجل من الأنصار في الذي شهد عليه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنفاق فقال: «أليس يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟ قالوا بلى ولا شهادة له، قال: أليس يصلي؟ قالوا بلى ولا صلاة له، قال: أولئك الذين نهاني الله عنهم».

وذكر أيضاً أهل الحديث ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فيهم: «لعل الله سيخرج من أصلابهم من يؤمن بالله ويصدق المرسلين ويخلص العبادات لرب العالمين».

قال أبو جعفر الطبري في كتاب اللطيف في باب المرتد: «إن الله تعالى قد جعل الأحكام بين عباده على الظاهر وتولى الحكم في سرائرهم دون أحد من خلقه فليس لأحد أن يحكم بخلاف ما ظهر لأنه حكم الظنون، ولو كان ذلك لأحد كان أولى الناس به رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد حكم للمنافقين بحكم لمسلمين بما أظهروا ووكّل سرائرهم إلى الله وقد كذب الله ظاهرهم في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ مُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: ينفصل المالكيون عما ألزموه من هذه الآية بأنها لم

تعين أشخاصهم وإنما جاء فيها توبيخ لكل مغموض عليه بالنفاق وبقي لكل واحد منهم أن يقول لم أرد بها ولا أنا إلا مؤمن ولو عين أحد لما جب كذبه شيئاً.

وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ وصلت ﴿خلوا﴾ بـ ﴿إلى﴾ وعرفها أن توصل بالباء فتقول خلوت بفلان من حيث نزلت ﴿خلوا﴾ في هذا الموضع منزلة ذهبوا وانصرفوا، إذ هو فعل معادل لقوله ﴿لقوا﴾، وهذا مثل ما تقدم من قول الفرزدق : [الرجز]

كيف تراني قالباً مَجْنِي فقد قتل الله زياداً عني

لما أنزله منزلة صرف ورد.

قال مكي : «يقال خلوت بفلان بمعنى سخرت به فجاءت إلى في الآية زوالاً عن الاشتراك في الباء». وقال قوم : ﴿إلى﴾ بمعنى مع ، وفي هذا ضعف ويأتي بيانه إن شاء الله في قوله تعالى : ﴿من أنصاري إلى الله﴾. [آل عمران : ٥٢ ، الصف : ١٤].

وقال قوم : ﴿إلى﴾ بمعنى الباء إذ حروف المعاني يدل بعضها من بعض . وهذا ضعيف يأباه الخليل وسيبويه وغيرهما.

واختلف المفسرون في المراد بالشياطين فقال ابن عباس رضي الله عنه : «هم رؤساء الكفر». وقال ابن الكلبي وغيره : «هم شياطين الجن».

قال القاضي أبو محمد : وهذا في الموضع بعيد.

وقال جمع من المفسرين : «هم الكهان». ولفظ الشيطنة الذي معناه البعد عن الإيمان والخير يعم جميع من ذكر والمنافقين حتى يقدر كل واحد شيطان غيره، فمنهم الخالون، ومنهم الشياطين.

و﴿مستهزئون﴾ معناه تتخذ هؤلاء الذين نصانعهم بإظهار الإيمان هزواً ونستخف بهم.

ومذهب سيبويه رحمه الله أن تكون الهمزة مضمومة على الواو في ﴿مستهزئون﴾. وحكى عنه أبو علي أنها تخفف بين بين.

ومذهب أبي الحسن الأخفش أن تقلب الهمزة ياء قلباً صحيحاً فيقرأ «مستهزِئون».

قال ابن جني : «حمل الياء الضمة تذكراً لحال الهمزة المضمومة والعرب تعاف ياء مضمومة قبلها كسرة».

وأكثر القراء على ما ذهب إليه سيبويه، ويقال «هزىء واستهزأ» بمعنى، فهو «كعجب واستعجب»، ومنه قول الشاعر [أوس بن حجر] : [الطويل]

ومستعجب مما يرى من أناتنا ولو زبنته الحرب لم يترمرم

قوله عز وجل:

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

اختلف المفسرون في هذا الاستهزاء فقال جمهور العلماء: «هي تسمية العقوبة باسم الذنب». والعرب تستعمل ذلك كثيراً، ومنه قول الشاعر [عمرو بن كلثوم]: [الوافر].

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقال قوم: إن الله تعالى يفعل بهم أفعالاً هي في تأمل البشر هزو حسبما يروى أن النار تجمد كما تجمد الإهالة فيمشون عليها ويظنونها منجاة فتخسف بهم، وما يروى أن أبواب النار تفتح لهم فيذهبون إلى الخروج، نحا هذا المنحى ابن عباس والحسن، وقال قوم: استهزاؤه بهم هو استدراجهم من حيث لا يعلمون، وذلك أنهم بدرور نعم الله الدنيوية عليهم يظنون أنه راض عنهم وهو تعالى قد حتم عذابهم، فهذا على تأمل البشر كأنه استهزاء.

﴿ويمدهم﴾ معناه يزيدهم في الطغيان. وقال مجاهد: «معناه يملي لهم»، قال يونس بن حبيب: «يقال مد في الشر وأمد في الخير» وقال غيره: «مد الشيء ومده ما كان مثله ومن جنسه، وأمده ما كان مغايراً له، تقول: مدّ النهر ومده نهر آخر، ويقال أمده».

قال اللحياني: «يقال لكل شيء دخل فيه مثله فكثره مده يمده مدّاً، وفي التنزيل: ﴿والبحر يمده من بعده سبعة أبحر﴾ [لقمان: ٢٧]. ومادة الشيء ما يمده دخلت فيه الهاء للمبالغة».

قال ابن قتيبة وغيره: «مدّدت الدواء وأمددتها بمعنى».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: يشبه أن يكون «مددتها» جعلت إلى مدادها آخر، و«أمددتها» جعلتها ذات مداد، مثل «قبر» وأقبر، وحصر، وأحصر، ومددنا القوم صرنا لهم أنصاراً، وأمددناهم بغيرنا. وحكى اللحياني أيضاً أمدّ الأمير جنده بالخيّل، وفي التنزيل: ﴿وأمددناكم بأموال وبنين﴾ [الإسراء: ٦].

قال بعض اللغويين: ﴿ويمدهم في طغيانهم﴾ يمهلهم ويلجهم.

قال القاضي أبو محمد: فتحتمل اللفظة أن تكون من المد الذي هو المطل والتطويل، كما فسر في: ﴿عمد ممددة﴾ [الهمزة: ٩]. ويحتمل أن تكون من معنى الزيادة في نفس الطغيان، والطغيان الغلو وتعدي الحد كما يقال: «طغا الماء وطغت النار». وروي عن الكسائي إمالة طغيانهم.

و﴿يعمّهون﴾ يترددون حيرة، والعمه الحيرة من جهة النظر، والعامه الذي كأنه لا يبصر من التحير في ظلام أو فلاة أو هم.

وقوله: ﴿أولئك﴾ إشارة إلى المتقدم ذكرهم، وهو رفع بالابتداء و﴿الذين﴾ خبره، و﴿اشترُوا﴾

صلة لـ ﴿الذين﴾، وأصله اشتريوا تحركت الياء وانفتح ما قبلها فانقلبت ألفاً فحذفت لالتقاء الساكنين، وقيل استثقلت الضمة على الياء فسكنت وحذفت لالتقاء وحركت الواو بعد ذلك لالتقاء الساكن بعدها، وخصت بالضم لوجوه منها أن الضمة أخت الواو وأخف الحركات عليها، ومنها أنه لما كانت واو جماعة ضمت كما فعل بالنون في «نحن». ومنها أنها ضمت إتباعاً لحركة الياء المحذوفة قبلها.

قال أبو علي: «صار الضم فيها أولى ليفصل بينها وبين واو «أو» و «لو» إذ هذان يحركان بالكسر». وقرأ أبو السمال قعنب العدوي بفتح الواو في: «اشترُوا الضلالة».

وقرأها يحيى بن يعمر بكسر الواو. والضلالة والضلال: التلف نقيض الهدى الذي هو الرشاد إلى المقصد.

واختلفت عبارة المفسرين عن معنى قوله: ﴿اشترُوا الضلالة بالهدى﴾ فقال قوم: «أخذوا الضلالة وتركوا الهدى».

وقال آخرون: استحبوا الضلالة وتجنبوا الهدى كما قال تعالى: ﴿فاستحبوا العمى على الهدى﴾ [فصلت: ١٧].

وقال آخرون: الشراء هنا استعارة وتشبيه، لما تركوا الهدى وهو معرض لهم ووقعوا بدله في الضلالة واختاروها شبهوا بمن اشترى فكأنهم دفعوا في الضلالة هداهم إذ كان لهم أخذه.

وبهذا المعنى تعلق مالك رحمه الله في منع أن يشتري الرجل على أن يتخير في كل ما تختلف آحاد جنسه ولا يجوز فيه التفاضل.

وقال قوم: الآية فيمن كان آمن من المنافقين ثم ارتد في باطنه وعقده ويقرب الشراء من الحقيقة على هذا.

وقوله تعالى: ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ ختم للمثل بما يشبه مبدأه في لفظة الشراء، وأسند الربح إلى التجارة كما قالوا: «ليل قائم ونهار صائم». والمعنى فما ربحوا في تجارتهم.

وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة «فما ربحت تجارتهم» بالجمع.

وقوله تعالى: ﴿وما كانوا مهتدين﴾ قيل المعنى في شرائهم هذا، وقيل على الإطلاق، وقيل في سابق علم الله، وكل هذا يحتمله اللفظ.

قوله عز وجل:

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّ بَكُمْ عُمْى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾

«المَثَلُ والمَثَلُ والمَثَلُ» واحد، معناه الشبه، هكذا نص أهل اللغة والمتماثلان المتشابهان، وقد يكون مثل الشيء جرمًا مثله، وقد يكون ما تعقل النفس وتوهمه من الشيء مثلاً له، فقوله تعالى: ﴿مثلهم

كمثل ﴿معناه أن الذي يتحصل في نفس الناظر في أمرهم كمثل الذي يتحصل في نفس الناظر في أمر المستوقد، وبهذا يزول الإشكال الذي في تفسير قوله تعالى: ﴿مثل الجنة﴾ [الرعد: ٣٥، محمد: ١٥] وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾ [الشورى: ١١] لأن ما يتحصل للعقل من وحدانيته وأزليته ونفي ما لا يجوز عليه ليس يماثله فيه شيء، وذلك المتحصل هو المثل الأعلى الذي في قوله عز وجل: ﴿ولله المثل الأعلى﴾ [النحل: ٦]. وقد جاء في تفسيره أنه لا إله إلا الله ففسر بجهة الوجدانية.

وقوله: ﴿مثلهم﴾ رفع بالابتداء والخبر في الكاف، وهي على هذا اسم كما هي في قول الأعشى: [البسيط].

أنتهون ولا ينهى ذوي شطط كاطعن يذهب فيه الزيت والقتل

ويجوز أن يكون الخبر محذوفاً تقديره مثلهم مستقر كمثل، فالكاف على هذا حرف، ولا يجوز ذلك في بيت الأعشى لأن المحذوف فاعل تقديره شيء كاطعن، والفاعل لا يجوز حذفه عند جمهور البصريين، ويجوز حذف خبر الابتداء إذا كان الكلام دالاً عليه، وجوز الأخفش حذف الفاعل، وأن يكون الكاف في بيت الأعشى حرفاً ووحد الذي لأنه لم يقصد تشبيه الجماعة بالجماعة، وإنما المقصد أن كل واحد من المنافقين فعله كفعل المستوقد، و﴿الذي﴾ أيضاً ليس بإشارة إلى واحد ولا بد، بل إلى هذا الفعل: وقع من واحد أو من جماعة.

قال النحويون: الذي اسم مبهم يقع للواحد والجميع. و﴿استوقد﴾ قيل معناه أوقد، فذلك بمنزلة عجب واستعجب بمعنى.

قال أبو علي: وبمنزلة هزيء واستهزاء وسخر واستسخر، وقر واستقر وعلا قرنه واستعلاه، وقد جاء استفعل بمعنى أفعال أجاب واستجاب ومنه قول الشاعر [كعب بن سعد الغنوي]: [الطويل].

فلم يستجبه عند ذاك مجيب

وأخلف لأهله واستخلف إذا جلب لهم الماء، ومنه قول الشاعر: [الطويل]

ومستخلفات من بلاد تنوفة لمصفرة الأشداق حمر الحواصل

ومنه قول الآخر: [الطويل]

سقاها فرواها من الماء مخلف

ومنه أوقد واستوقد قاله أبو زيد، وقيل استوقد يراد به طلب من غيره أن يوقد له على المشهور من باب استفعل، وذلك يقتضي حاجته إلى النار، فانطفاؤها مع حاجته إليها أنكى له. واختلف في ﴿أضاءت﴾ فقيل يتعدى لأنه نقل بالهمزة من ضاء، ومنه قول العباس بن عبد المطلب في النبي صلى الله عليه وسلم: [المنسرح]

وأنت لما ولدت أشرقيت الـ أرض وضاءت بنورك الطرق

وعلى هذا، فـ (ما) في قوله: ﴿ما حوله﴾ مفعولة، وقيل (أضاءت) لا تتعدى، لأنه يقال ضاء وأضاء بمعنى، فـ (ما) زائدة، وحوله ظرف. واختلف المتأولون في فعل المنافقين الذي يشبه فعل (الذي استوقد ناراً).

فقال طائفة: هي فيمن آمن ثم كفر بالنفاق، فإيمانه بمنزلة النار إذا أضاءت، وكفره بعد بمنزلة انطفائها وذهاب النور.

وقال الحسن بن أبي الحسن وغيره: «إن ما يظهر المنافق في الدنيا من الإيمان فيحقق به دمه ويحرز ماله وينأج ويخالط كالنار التي أضاءت ما حوله، فإذا مات صار إلى العذاب الأليم، فذلك بمنزلة انطفائها وبقائه في الظلمات».

وقالت فرقة: إن إقبال المنافقين إلى المسلمين وكلامهم معهم كالنار وانصرافهم إلى مردتهم وارتكاسهم عندهم كذهابها.

وقالت فرقة: إن المنافقين كانوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في منزلة بما أظهره، فلما فضحهم الله وأعلم بنفاقهم سقطت المنزلة، فكان ذلك كله بمنزلة النار وانطفائها.

وقالت فرقة منهم قتادة: نطقهم بـ «لا إله إلا الله» والقرآن كإضاءة النار، واعتقادهم الكفر بقلوبهم كانطفائها.

قال جمهور النحاة: جواب «لما» ذهب، ويعود الضمير من «نورهم» في هذا القول على (الذي)، ويصح شبه الآية بقول الشاعر: [الأشهب بن رميلة]: [الطويل].

وإن الذي حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد

وعلى هذا القول يتم تمثيل المنافق بالمستوقد، لأن بقاء المستوقد في ظلمات لا يبصر كبقاء المنافق على الاختلاف المتقدم.

وقال قوم: جواب «لما» مضمّر، وهو طفئت، والضمير في «نورهم» على هذا للمنافقين والإخبار بهذا هو عن حال تكون في الآخرة وهو قوله تعالى: ﴿فصرب بينهم بسور له باب﴾ [الحديد: ١٣].

قال القاضي أبو محمد: وهذا القول غير قوي، وقرأ الحسن بن أبي الحسن وأبو السمال «في ظلمات» بسكون اللام، وقرأ قوم «ظلمات» بفتح اللام.

قال أبو الفتح: في ظلمات وكسرات ثلاث لغات: اتباع الضم الضم والكسر الكسر أو التخفيف بأن يعدل إلى الفتح في الثاني أو التخفيف بأن يسكن الثاني، وكل ذلك جائز حسن، فأما فعلة بالفتح فلا بد فيه من الثقيل إتباعاً فتقول ثمرة وثمرات.

قال القاضي أبو محمد: وذهب قوم في «ظلمات» بفتح اللام إلى أنه جمع ظلم فهو جمع الجمع، والأصم الذي لا يسمع، والأبكم الذي لا ينطق ولا يفهم، فإذا فهم فهو الأخرس، وقيل الأبكم والأخرس واحد،

ووصفهم بهذه الصفات إذ أعمالهم من الخطأ وقلة الإجابة كأعمال من هذه صفته، وصم رفع على خبر ابتداء فإما أن يكون ذلك على تقدير تكرار أولئك، وإما على إضمار هم.

وقرأ عبد الله بن مسعود وحفصة أم المؤمنين رضي الله عنهما. «صمًا، بكمًا، عميًا» بالنصب، ونصبه على الحال من الضمير في ﴿مهتدين﴾، وقيل هو نصب على الذم، وفيه ضعف، وأما من جعل الضمير في «نورهم» للمنافقين لا للمستوقدين فنصب هذه الصفات على قوله على الحال من الضمير في ﴿تركهم﴾. قال بعض المفسرين قوله تعالى ﴿فهم لا يرجعون﴾ إخبار منه تعالى أنهم لا يؤمنون بوجه.

قال القاضي أبو محمد: وإنما كان يصح هذا إن لو كانت الآية في معنيين، وقال غيره: معناه ﴿فهم لا يرجعون﴾ ما داموا على الحال التي وصفهم بها، وهذا هو الصحيح، لأن الآية لم تعين، وكلهم معرض للرجوع مدعو إليه. قوله عز وجل:

أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْـِٔعَهُمْ فِيءَ إِذْ أَنهٖم مِّنَ الصَّـِٔوْعِ حَذَرًا لِّمَوْتٍ
وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشْـِٔوُا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ
قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

﴿أو﴾ للتخيير، معناه مثلوهم بهذا أو بهذا، لا على الاختصار على أحد الأمرين، وقوله: ﴿أو كصيب﴾ معطوف على ﴿كمثل الذي﴾. وقال الطبري: ﴿أو﴾ بمعنى الواو.

قال القاضي أبو محمد: وهذه عجمة، والصيب المطر من صاب يصوب إذا انحط من علو إلى سفلى، ومنه قول علقمة بن عبدة: [الطويل]

كأنهم: صابت عليهم سحابة صواعقها لطيرهن ديب

وقول الآخر: [الطويل]

فلست لإنسي ولكن لملاك تنزل من جو السماء يصوب

وأصل صيب صَيَّبَ اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت، كما فعل في سَيِّد ومَيِّت.

وقال بعض الكوفيين: أصل صَيَّبَ صَوَّبَ على مثال فعيل وكان يلزمه أن لا يعمل كما لم يعمل طويل، فبهذا يضعف هذا القول.

وقوله تعالى: ﴿ظلمات﴾ بالجمع، إشارة إلى ظلمة الليل وظلمة الدجن ومن حيث تتراكب وتزايد جمعت، وكون الدجن مظلمًا هول وغم للنفس، بخلاف السحاب وانمطر إذا انجلى دجنه، فإنه سار جميل، ومنه قول قيس بن الخطيم: [المقارب]

فَمَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْقَطَا كَأَنَّ الْمَصَابِيحَ حَوْدَانَهَا
بِأَحْسَنَ مِنْهَا وَلَا مَزْنَةً دَلُوحٌ تَكْشِفُ أَدْجَانَهَا

واختلف العلماء في الرعد: فقال ابن عباس ومجاهد وشهر بن حوشب وغيرهم: هو ملك يزجر السحاب بهذا الصوت المسموع كلما خالفت سحابة صباح بها، فإذا اشتد غضبه طار النار من فيه، فهي ﴿الصواعق﴾، واسم هذا الملك الرعد، وقيل الرعد ملك، وهذا الصوت تسبيحه، وقيل الرعد اسم الصوت المسموع، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهذا هو المعلوم في لغة العرب، وقد قال لبيد في جاهليته: [المنسرح]

فَجَعَنِي الرَّعْدُ وَالصَّوَاعِقُ بِالْ فِإِرسِ يَوْمِ الْكَرْبَةِ النَجْدِ

وروي عن ابن عباس أنه قال: «الرعد ريح تختلق بين السحاب فتصوت ذلك الصوت». وقيل: «الرعد اصطكاك أجرام السحاب». وأكثر العلماء على أن الرعد ملك، وذلك صوته يسبح ويزجر السحاب. واختلفوا في البرق:

فقال علي بن أبي طالب: «هو مخراق حديد بيد الملك يسوق به السحاب».

وقال ابن عباس: «هو سوط نور بيد الملك يزجي به السحاب».

وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أن البرق ملك يتراءى، وقال قوم: «البرق ماء»، وهذا قول ضعيف.

والصاعقة: قال الخليل: «هي الواقعة الشديدة من صوت الرعد يكون معها أحياناً نار، يقال إنها من المخراق الذي بيد الملك، وقيل في قطعة النار إنها ماء يخرج من فم الملك عند غضبه».

وحكى الخليل عن قوم من العرب «الصاعقة» بالسين.

وقال النقاش: «يقال صاعقة وصعقة وصاقعة بمعنى واحد».

وقرأ الحسن بن أبي الحسن «من الصواعق» بتقديم القاف. قال أبو عمرو: «وهي لغة تميم».

وقرأ الضحاك بن مزاحم «حذار الموت» بكسر الحاء وبألف. واختلف المتأولون في المقصد بهذا المثل وكيف تترتب أحوال المنافقين الموازنة لما في المثل من الظلمات والرعد والبرق والصواعق.

فقال جمهور المفسرين: «مثل الله تعالى القرآن بالصيب لما فيه من الإشكال عليهم. والعمى: هو الظلمات، وما فيه من الوعيد والزجر هو الرعد، وما فيه من النور والحجج الباهرة التي تكاد أن تبهرهم هو البرق وتخوفهم وروعهم وحذرهم هو جعل أصابعهم في آذانهم، وفضح نفاقهم، واشتهار كفرهم، وتكاليف الشرع التي يكرهونها من الجهاد والزكاة ونحوه هي الصواعق».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وهذا كله صحيح بين.

وروي عن ابن مسعود أنه قال: «إن رجلين من المنافقين هربا من النبي صلى الله عليه وسلم إلى

المشركين فأصابهما هذا المطر الذي ذكر الله وأيقنا بالهلاك، فقالا: ليتنا أصبحنا فأناتي محمداً ونضع أيدينا في يده، فأصبحا وأتياه وحسن إسلامهما، فضرب الله ما نزل بهما مثلاً للمنافقين».

وقال أيضاً ابن مسعود: «إن المنافقين في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يجعلون أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا القرآن، فضرب الله المثل لهم».

قال القاضي أبو محمد: وهذا وفاق لقول الجمهور الذي ذكرناه.

وقال قوم: «الرعد والبرق هما بمثابة زجر القرآن ووعيده».

و«محيط بالكافرين» معناه بعقابه وأخذه، يقال أحاط السلطان بفلان إذا أخذه أخذاً حاصراً من كل جهة، ومنه قوله تعالى: «وأحيط بشمره» [الكهف: ٤٢] ففي الكلام حذف مضاف، ويكاد فعل ينفي المعنى مع إيجابه ويوجب مع النفي، فهنا لم يخطف البرق الأبصار، والخطف الانتزاع بسرعة.

واختلفت القراءة في هذه اللفظة فقرأ جمهور الناس: «يَخْطَفُ أبصارهم» بفتح الياء والطاء وسكون الخاء، على قولهم في الماضي خطف بكسر الطاء وهي أفصح لغات العرب، وهي القرشية.

وقرأ علي بن الحسين ويحيى بن وثاب: «يَخْطَفُ» بفتح الياء وسكون الخاء وكسر الطاء على قول بعض العرب في الماضي «خَطف» بفتح الطاء، ونسب المهدوي هذه القراءة إلى الحسن وأبي رجاء، وذلك وهم.

وقرأ الحسن وأبو رجاء وعاصم الجحدري وقتادة: «يَخْطَفُ» بفتح الياء وكسر الخاء والطاء وتشديد الطاء، وهذه أصلها «يختطف» أدغمت التاء في الطاء وكسرت الخاء لالتقاء الساكنين.

وحكى ابن مجاهد قراءة لم ينسبها إلى أحد «يَخْطَفُ» بفتح الياء والخاء وتشديد الطاء المكسورة.

قال أبو الفتح: «أصلها يختطف نقلت حركة التاء إلى الخاء وأدغمت التاء في الطاء».

وحكى أبو عمرو الداني عن الحسن أيضاً، أنه قرأ «يَخْطَفُ» بفتح الياء والخاء والطاء وشدها.

وروي أيضاً عن الحسن والأعمش «يخطف» بكسر الثلاثة وشد الطاء منها. وهذه أيضاً أصلها يختطف أدغم وكسرت الخاء لالتقاء وكسرت الياء إبتاعاً.

وقال عبد الوارث: «رأيتها في مصحف أبي بن كعب «يَتَخَطَفُ» بالتاء بين الياء والخاء».

وقال الفراء: «قرأ بعض أهل المدينة بفتح الياء وسكون الخاء وشد الطاء مكسورة».

قال أبو الفتح: «إنما هو اختلاس وإخفاء فيلطف عندهم فيرون أنه إدغام، وذلك لا يجوز».

قال القاضي أبو محمد: لأنه جمع بين ساكنين دون عذر.

وحكى الفراء قراءة عن بعض الناس بضم الياء وفتح الخاء وشد الطاء مكسورة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كأنه تشديد مبالغة لا تشديد تعديّة.

ومعنى: ﴿يكاد البرق يخطف أبصارهم﴾ تكاد حجج القرآن وبراهينه وآياته الساطعة تبهرهم، ومن جعل ﴿البرق﴾ في المثل الزجر والوعيد قال يكاد ذلك يصيبهم.

و﴿كلما﴾ ظرف، والعامل فيه ﴿مشوا﴾ وهو أيضاً جواب ﴿كلما﴾، و﴿أضاء﴾ صلة ما، ومن جعل ﴿أضاء﴾ يتعدى قدر له مفعولاً، ومن جعله بمنزلة ضاء استغنى عن ذلك.

وقرأ ابن أبي عبلة: «أضالهم» بغير همز، وهي لغة.

وفي مصحف أبي بن كعب: «مروا فيه».

وفي قراءة ابن مسعود «مضوا فيه».

وقرأ الضحاك: «وإذا أظلم» بضم الهمزة وكسر اللام، و﴿قاموا﴾ معناه ثبتوا، لأنهم كانوا قياماً، ومنه قول الأعرابي: «وقد أقام الدهر صعري بعد أن أقمت صعره» يريد أثبت الدهر، ومعنى الآية فيما روي عن ابن عباس وغيره كلما سمع المنافقون القرآن وظهرت لهم الحجج أنسوا ومشوا معه، فإذا نزل من القرآن ما يعمون فيه ويضلون به أو يكلفونه قاموا أي ثبتوا على نفاقهم.

وروي عن ابن مسعود أن معنى الآية: كلما صلحت أحوالهم في زروعهم ومواشيهم وتوالت عليهم النعم قالوا دين محمد دين مبارك. وإذا نزلت بهم مصيبة أو أصابتهم شدة سخطوه وثبتوا في نفاقهم.

وقال قوم: معنى الآية: كلما خفي عليكم نفاقهم وظهر لكم منهم الإيمان مشوا فيه، فإذا افتضحوا عندكم قاموا، ووحد السمع لأنه مصدر يقع للواحد والجمع.

وحكى النقاش أن من العلماء من قرأ بأسماعهم.

وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة: «ولو شاء الله لأذهب أسماعهم وأبصارهم» وخص الأسماع والأبصار لتقدم ذكرها في الآية. ويشبه هذا المعنى في حال المنافقين أن الله لو شاء لأوقع بهم ما يتخوفونه من الزجر والوعيد أو لفضحهم عند المؤمنين وسلط المؤمنين عليهم، وبكل مذهب من هذين قال قوم.

وقوله تعالى: ﴿على كل شيء﴾ لفظه العموم ومعناه عند المتكلمين على كل شيء يجوز وصفه تعالى بالقدرة عليه و﴿قدير﴾ بمعنى قادر، وفيه مبالغة، وخص هنا صفته التي هي القدرة بالذكر لأنه قد تقدم ذكر فعل مضمने الوعيد والإخافة، فكان ذكر القدرة مناسباً لذلك.

قوله عز وجل:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَرَشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

«يا» حرف نداء، وفيه تنبيه، و«أي» هو المنادي.

قال أبو علي : «اجتلبت أي بعد حرف النداء فيما فيه الألف واللام لأن في حرف النداء تعريفاً فكان يجتمع تعريفاً ، و«ها» تنبيه وإشارة إلى المقصود ، وهي بمنزلة ذا في الواحد ، و«الناس» نعت لازم لأي» .

وقال مجاهد : ﴿يا أيها الناس﴾ حيث وقع في القرآن مكي ، و﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ مدني .

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه : قد تقدم في أول السورة أنها كلها مدنية ، وقد يجيء في المدني ﴿يا أيها الناس﴾ ، وأما قوله في ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فصحيح .

وقوله تعالى : ﴿اعبدوا ربكم﴾ معناه وحدوه وخصوه بالعبادة ، وذكر تعالى خلقه لهم من بين سائر صفاته إذ كانت العرب مقرة بأن الله خلقها ، فذكر ذلك حجة عليهم .

و«لعل» في هذه الآية قال فيها كثير من المفسرين هي بمعنى إيجاب التقوى وليست من الله تعالى بمعنى ترجّ وتوقع .

وقال سيويه ورؤساء اللسان : هي على بابها ، والترجي والتوقع إنما هو في حيز البشر ، أي إذا تأملتم حالكم مع عبادة ربكم رجوتم لأنفسكم التقوى ، و﴿لعلكم﴾ متعلقة بقوله : ﴿اعبدوا ربكم﴾ ، ويتجه تعلقها بخلقكم أي لما ولد كل مولود على الفطرة فهو إن تأمله متأمل توقع له ورجا أن يكون متقياً . و﴿تتقون﴾ مأخوذ من الوقاية ، وأصله «توتقيون» نقلت حركة الياء إلى القاف وحذفت للالتقاء مع الواو الساكنة وأدغمت الواو الأولى في التاء .

وقوله تعالى : ﴿الذي جعل﴾ نصب على إتباع الذي المتقدم ، ويصح أن يكون مرفوعاً على القطع . وما ذكر مكي من إضمار أعني أو مفعول بـ ﴿تتقون﴾ ضعيف .

وجعل بمعنى صير في هذه الآية لتعديها إلى مفعولين ، و﴿فراشاً﴾ معناه تفترشونها وتستقرون عليها ، وما في الأرض مما ليس بفراش كالجبال والبحار فهو من مصالح ما يفترش منها ، لأن الجبال كالأوتاد والبحار يركب فيها إلى سائر منافعها ، و﴿السماء﴾ قيل هو اسم مفرد جمعه «سماوات» ، وقيل هو جمع واحده «سماوة» ، وكل ما ارتفع عليك في الهواء فهو سماء ، والهواء نفسه علواً يقال له «سماء» ، ومنه الحديث : «خلق الله آدم طوله في السماء ستون ذراعاً» ، واللفظة من السمو وتصاريفه .

وقوله تعالى : ﴿بناء﴾ تشبيه بما يفهم ، كما قال تعالى : ﴿والسما بنيناها بأيد﴾ [الذاريات : ٤٧] .

وقال بعض الصحابة : «بناها على الأرض كالقبة» .

وقوله : ﴿وأنزل من السماء﴾ يريد السحاب ، سمي بذلك تجوزاً لما كان يلي السماء ويقاربها وقد سمو المطر سماء للمجاورة ، ومنه قول الشاعر : [الوافر] .

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

فتجوز أيضاً في رعيناه ، فبتوسط المطر جعل السماء عشباً ، وأصل ﴿ماء﴾ موه يدل على ذلك قولهم في

الجمع مياه وأمواه، وفي التصغير مويه، وانطلق اسم الرزق على ما يخرج من الثمرات قبل التملك، أي هي معدة أن يصح الانتفاع بها فهي رزق، ورد بهذه الآية بعض الناس قول المعتزلة إن الرزق ما يصح تملكه، وليس الحرام برزق، وواحد الأنداد ند، وهو المقاوم والمضاهي كان مثلاً أو خلافاً أو ضدّاً، ومن حيث قاوم وضاهى فقد حصلت مماثلة ما.

وقال أبو عبيدة معمر والمفضل: الضد الند، وهذا التخصيص منهما تمثيل لا حصر.

واختلف المتأولون من المخاطب بهذه الآية؟ فقالت جماعة من المفسرين: المخاطب جميع المشركين. فقوله على هذا: ﴿وأنتم تعلمون﴾ يريد العلم الخاص في أنه تعالى خلق وأنزل الماء وأخرج الرزق، ولم تنف الآية الجهالة عن الكفار، وقيل المراد كفار بني إسرائيل، فالمعنى تعلمون من الكتب التي عندكم، أن الله لا ند له.

وقال ابن فورك: «يحتمل أن تتناول الآية المؤمنين»، فالمعنى لا ترتدوا أيها المؤمنون، وتجعلوا الله أنداداً بعد علمكم الذي هو نفي الجهل بأن الله واحد. وهذه الآية تعطي أن الله تعالى أغنى الإنسان بنعمه هذه عن كل مخلوق، فمن أحوج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة في زخرف الدنيا، فقد أخذ بطرق من جعل لله نداً، عصمنا الله تعالى بفضله وقصر آمالنا عليه بمنه وطوله، لا رب غيره.

قوله عز وجل:

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ ۖ
 إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ
 أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

الريب الشك، وهذه الآية تقتضي أن الخطاب المتقدم إنما هو لجماعة المشركين الذين تحدوا، وتقدم تفسير لفظ سورة في صدر هذا التعليق. وقرأ يزيد بن قطيب: «أنزلنا» بالفتح.

واختلف المتأولون على من يعود الضمير في قوله ﴿مثلته﴾: فقال جمهور العلماء: هو عائد على القرآن ثم اختلفوا. فقال الأكثر من مثل نظمه ورصفه وفصاحه معانيه التي يعرفونها ولا يعجزهم إلا التأليف الذي خُصَّ به القرآن، وبه وقع الإعجاز على قول حذاق أهل النظر.

وقال بعضهم: ﴿من مثله﴾ في غيوبه وصدقه وقدمه، فالتحدي عند هؤلاء وقع بالقدم، والأول أبين و﴿من﴾ على هذا القول زائدة، أو لبيان الجنس، وعلى القول الأول هي للتبعية، أو لبيان الجنس.

وقالت فرقة: الضمير في قوله ﴿مثلته﴾ عائد على محمد صلى الله عليه وسلم، ثم اختلفوا.

فقال طائفة: من أمي صادق مثله.

وقالت طائفة: من ساحر أو كاهن أو شاعر مثله. على زعمكم أيها المشركون.

وقالت طائفة: الضمير في ﴿مثله﴾ عائد على الكتب القديمة التوراة والإنجيل والزبور.
 وقوله تعالى: ﴿وادعوا شهداءكم﴾ معناه دعاء استصراخ، والشهداء من شهدهم وحضرهم من عون ونصير، قاله ابن عباس. وقيل عن مجاهد: إن المعنى دعاء استحضار.
 والشهداء جمع شاهد، أي من يشهد لكم أنكم عارضتم، وهذا قول ضعيف.
 وقال الفراء: شهداؤهم يراد بهم آلهتهم.
 وقوله تعالى: ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي فيما قلتم من الريب. هذا قول بعض المفسرين.
 وقال غيره: فيما قلتم من أنكم تقدرون على المعارضة. ويؤيد هذا القول أنه قد حكى عنهم في آية أخرى: ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ [الأنفال: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿فإن لم تفعلوا﴾، دخلت «إن» على ﴿لم﴾ لأن ﴿لم تفعلوا﴾ معناه تركتم الفعل، فـ«إن» لا تؤثر كما لا تؤثر في الماضي من الأفعال، و﴿تفعلوا﴾ جزم بـ﴿لم﴾، وجزمت بـ﴿لم﴾ لأنها أشبهت «لا» في التبرية في أنهما ينفيان، فكما تحذف لا تنوين الاسم كذلك تحذف لم الحركة أو العلامة من الفعل.

وقوله: ﴿ولن تفعلوا﴾ نصبت ﴿لن﴾، ومن العرب من تجزم بها، ذكره أبو عبيدة، ومنه بيت النابغة على بعض الروايات: [البسيط]

فلن أعرضُ أبيت اللعن بالصفد

وفي الحديث في منامة عبد الله بن عمر فقيل لي: «لن ترع» هذا على تلك اللغة، وفي قوله: ﴿لن تفعلوا﴾ إثارة لهممهم وتحريك لنفوسهم، ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع، وهو أيضاً من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها.

وقوله تعالى: ﴿فاتقوا النار﴾، أمر بالإيمان وطاعة الله خرج في هذه الألفاظ المحذرة.

وقرأ الجمهور: «وقودها» بفتح الواو. وقرأ الحسن بن أبي الحسن ومجاهد وطلحة بن مصرف وأبو حيوة: «وقودها» بضم الواو في كل القرآن، إلا أن طلحة استثنى الحرف الذي في البروج، وفتح الواو هو الحطب وبضمها هو المصدر، وقد حكيا جميعاً في الحطب وقد حكيا في المصدر.

قال ابن جني: «من قرأ بضم الواو فهو على حذف مضاف تقديره ذو وقودها، لأن الوقود بالضم مصدر، وليس بالناس، وقد جاء عنهم الوقود بالفتح في المصدر، ومثله ولعت به «ولوعاً» بفتح الواو، وكله شاذ، والباب هو الضم».

وقوله: ﴿الناس﴾ عموم معناه الخصوص فيمن سبق عليه القضاء بدخولها.

وروي عن ابن مسعود في ﴿الحجارة﴾ أنها حجارة الكبريت وخصت بذلك لأنها تزيد على جميع الأحجار بخمسة أنواع من العذاب: سرعة الانتقاد، وتنن الرائحة، وكثرة الدخان، وشدة الالتصاق بالأبدان، وقوة حرها إذا حميت.

وفي قوله تعالى: ﴿أَعَدْتُ﴾ رد على من قال: إن النار لم تخلق حتى الآن، وهو القول الذي سقط فيه منذ بن سعيد البلوطي الأندلسي، وذهب بعض المتأولين إلى أن هذه النار المخصصة بالحجارة هي نار الكافرين خاصة، وأن غيرها هي للعصاة.

وقال الجمهور: بل الإشارة إلى جميع النار لا إلى نار مخصوصة، وإنما ذكر الكافرين ليحصل المخاطبون في الوعيد، إذ فعلهم كفر، فكأنه قال أعدت لمن فعل فعلكم، وليس يقتضي ذلك أنه لا يدخلها غيرهم.

وقرأ ابن أبي عبلة: «أَعَدُّهَا اللهُ لِلْكَافِرِينَ».

قوله عز وجل:

وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

﴿بشر﴾ مأخوذ من البشارة لأن ما يبشر به الإنسان من خير أو شر يظهر عنه أثر في بشرة الوجه، والأغلب استعمال البشارة في الخير، وقد تستعمل في الشر مقيدة به منصوفاً على الشر المبشر به، كما قال تعالى: ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ [آل عمران: ٢١، التوبة: ٣٤، الانشقاق: ٢٤] ومتى أطلق لفظ البشارة فإنما يحمل على الخير، وفي قوله تعالى: ﴿وعملوا الصالحات﴾ رد على من يقول إن لفظة الإيمان بمجردا تقتضي الطاعات لأنه لو كان ذلك ما أعادها.

و﴿أن﴾ في موضع نصب بـ ﴿بشر﴾ وقيل في موضع خفض على تقدير باء الجر و﴿جنان﴾ جمع جنة، وهي بستان الشجر والنخيل، وبستان الكرم يقال له الفردوس، وسميت جنة لأنها تجن من دخلها أي تستره، ومنه المجن والجنن وجن الليل. و﴿من تحتها﴾ معناه من تحت الأشجار التي يتضمنها ذكر الجنة وقيل قوله ﴿من تحتها﴾ معناه بإزائها كما تقول داري تحت دار فلان وهذا ضعيف، و﴿الأنهار﴾ المياه في مجاريها المتطاولة الواسعة، لأنها لفظة مأخوذة من أنهرت أي وسعت، ومنه قول قيس بن الخطيم: [الطويل].

ملكنت بها كفي فأنهَرتَ فتَقَّها يَرَى قَائِمٌ من دونها ما وراءها

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه» معناه ما وسع الذبح حتى جرى الدم كالنهر ونسب الجري إلى النهر وإنما يجري الماء وحده تجوزاً، كما قال ﴿واسأل القرية﴾ [يوسف: ٨٢] وكما قال الشاعر: [مهلهل أخو كليب] [الكامل]

نُبْتُ أن النارَ بعدك أوقدتُ واستبَّ بعدك يا كليبُ المجلسُ

وروي أن أنهار الجنة ليست في أحاديدها، إنما تجري على سطح أرض الجنة منضبطة. وقوله:

﴿كلما﴾ ظرف يقتضي الحصر وفي هذه الآية رد على من يقول: إن الرزق من شروطه التملك.

قال القاضي أبو محمد: ذكر هذا بعض الأصوليين وليس عندي بين، وقولهم ﴿هذا﴾ إشارة إلى الجنس أي: هذا من الجنس الذي رزقنا منه من قبل، والكلام يحتمل أن يكون تعجباً وهو قول ابن عباس، ويحتمل أن يكون خبراً من بعضهم لبعض، قاله جماعة من المفسرين.

وقال الحسن ومجاهد: «يرزقون الثمرة ثم يرزقون بعدها مثل صورتها والطعم مختلف فهم يتعجبون لذلك ويخبر بعضهم بعضاً».

وقال ابن عباس: «ليس في الجنة شيء مما في الدنيا سوى الأسماء، وأما الذوات فمتباينة».

وقال بعض المتأولين: «المعنى أنهم يرون الثمر فيميزون أجناسه حين أشبه منظره ما كان في الدنيا، فيقولون: ﴿هذا الذي رزقنا من قبل﴾ في الدنيا».

قال القاضي أبو محمد: وقول ابن عباس الذي قبل هذا يرد على هذا القول بعض الرد.

وقال بعض المفسرين: «المعنى هذا الذي وعدنا به في الدنيا فكأنهم قد رزقوه في الدنيا إذ وعد الله منتجز».

وقال قوم: إن ثمر الجنة إذا قطف منه شيء خرج في الحين في موضعه مثله فهذا إشارة إلى الخارج في موضع المجني.

وقرأ جمهور الناس: «وَأَتُوا» بضم الهمزة وضم التاء.

وقرأ هارون الأعور: «وَأَتُوا» بفتح الهمزة والتاء والفاعل على هذه القراءة الولدان والخدام، و«أَتُوا» على قراءة الجماعة أصله أتوا نقلت حركة الياء إلى التاء ثم حذفت الياء للالتقاء.

وقوله تعالى: ﴿مُتَشَابِهًا﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم: «معناه يشبه بعضه بعضاً في المنظر ويختلف في الطعم».

وقال عكرمة: «معناه يشبه ثمر الدنيا في المنظر ويباينه في جل الصفات».

وقوله تعالى: ﴿مُتَشَابِهًا﴾ معناه خيار لا رذل فيه، كقوله تعالى: ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ [الزمر: ٢٣].

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: كأنه يريد متناسباً في أن كل صنف هو أعلى جنسه فهذا تشابه ما، وقيل ﴿مُتَشَابِهًا﴾ أي مع ثمر الدنيا في الأسماء لا في غير ذلك من هيئة وطعم، و﴿أَزْوَاجٌ﴾ جمع زوج والمرأة زوج الرجل والمرأة ويقال في المرأة زوجة ومنه قول الفرزدق: [الطويل]

وإن الذي يسعى ليفسد زوجتي كساع إلى أسد الشرى يستبيلها

وقال عمار بن ياسر في شأن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: «والله إنني لأعلم أنها زوجته في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم». ذكر البخاري وغيره الحديث بطوله. و﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ أبلغ من طاهرة، ومعنى هذه الطهارة من الحيض والبزاق وسائر أقدار الأدميات، وقيل من الآثام. والخلود الدوام في الحياة أو

الملك ونحوه وخلد بالمكان إذا استمرت إقامته فيه، وقد يستعمل الخلود مجازاً فيما يطول، وأما هذا الذي في الآية فهو أبدي حقيقة.

قوله عز وجل:

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾

ذكر المفسرون أنه لما ضرب الله تعالى المثليين المتقدمين في هذه السورة قال الكفار: ما هذه الأمثال؟ الله عز وجل أجل من أن يضرب هذه أمثالا، فنزلت الآية.

وقال ابن قتيبة: «إنما نزلت لأن الكفار أنكروا ضرب المثل في غير هذه السورة بالذباب والعنكبوت».

وقال قوم: «هذه الآية مثل للدنيا».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف يأباه رصف الكلام واتساق المعنى. و«يستحيي» أصله يستحيي، عينه ولامه حرفا علة، أعلنت اللام منه بأن استثقلت الضمة على الياء فسكنت.

وقرأ ابن كثير في بعض الطرق عنه، وابن محيصن وغيرهما «يستحيي» بكسر الحاء، وهي لغة لتميم، نقلت حركة الياء الأولى إلى الحاء فسكنت ثم استثقلت الضمة على الياء الثانية فسكنت، فحذفت إحداهما للالتقاء.

واختلف التأولون في معنى: «يستحيي» في هذه الآية. فرجح الطبري أن معناه يخشى. وقال غيره:

معناه يترك وهذا هو الأولى. ومن قال يمتنع أو يمنع الحياء فهو يترك أو قريب منه. ولما كان الجليل القدر في الشاهد لا يمنعه من الخوض في نازل القول إلا الحياء من ذلك، رد الله بقوله: «إن الله لا يستحيي» على القائلين كيف يضرب الله مثلاً بالذباب ونحوه، أي إن هذه الأشياء ليست من نازل القول، إذ هي من الفصيح في المعنى المبلغ أغراض المتكلم إلى نفس السامع، فليست مما يستحيي منه.

وحكى المهدوي أن الاستحياء في هذه الآية راجع إلى الناس، وهذا غير مرضي.

وقوله تعالى: «أَنْ يَضْرِبَ»، «أَنْ» مع الفعل في موضع نصب، كأنها مصدر في موضع المفعول، ومعنى «يضرب مثلاً» يبين ضرباً من الأمثال أي نوعاً، كما تقول: هذا من ضرب هذا، والضرب المثل. ويحتمل أن يكون مثل ضرب البعث، وضرب الذلة، فيجئ المعنى أن يلزم الحجة بمثل، و«مثلاً» مفعول، فقل هو الأول، وقيل هو الثاني، قدم وهو في نية التأخير، لأن «ضرب» في هذا المعنى يتعدى إلى مفعولين.

واختلفوا في قوله: «مَا بَعُوضَةً» فقال قوم: «مَا» صلة زائدة لا تفيد إلا شيئاً من تأكيد. وقيل ما

نكرة في موضع نصب على البدل من قوله ﴿مَثَلًا﴾، و﴿بِعَوْضَةٍ﴾ نعت لـ ﴿مَا﴾، فوصفت ما بالجنس المنكر لإبهامها. حكى المهدوي هذا القول عن الفراء والزجاج وثعلب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقيل غير هذا مما هو تخليط دعا إليه الظن ﴿أَنْ يَضْرَبَ﴾ إنما يتعدى إلى مفعول واحد.

وقال بعض الكوفيين: نصب ﴿بِعَوْضَةٍ﴾ على تقدير إسقاط حرف الجر. والمعنى أن يضرب مثلاً ما من بعوضة.

وحكي عن العرب: «له عشرون ما ناقة فجملًا»، وأنكر أبو العباس هذا الوجه.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: والذي يرجح أن ﴿مَا﴾ صلة مخصصة كما تقول جئتكم في أمر ما فتفيد النكرة تخصيصاً وتقريباً، ومنه قول أمية بن أبي الصلت: [الخفيف]

سَلَعَ مَا وَمِثْلُهُ عَشْرَ مَا عَائِلَ مَا وَعَالَتُ الْبَيْقُورَا
وبعوضة على هذا مفعول ثان.

وقال قوم: ﴿مَا﴾ نكرة، كأنه قال شيئاً. والآية في هذا يشبهها قول حسان بن ثابت: [الكامل].

فكفَى بِنَا فَضْلًا عَلَى مَنْ غَيْرِنَا حُبُّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ إِيَّانَا

قال القاضي أبو محمد: وقد تقدم نظير هذا القول، والشبه بالبيت غير صحيح عندي، والبعوضة فعולה من بعض إذا قطع اللحم، يقال بضع وبعض بمعنى، وعلى هذا حملوا قول الشاعر: [الوافر].

لِنَعْمَ الْبَيْتُ بَيْتُ أَبِي دُثَارٍ إِذَا مَا خَافَ بَعْضُ الْقَوْمِ بَعْضَا

وقرأ الضحاك وإبراهيم بن أبي عبلة ورؤية بن العجاج: «بعوضة» بالرفع.

قال أبو الفتح: وجه ذلك أن «ما» اسم بمنزلة «الذي»، أي لا يستحي أن يضرب الذي هو بعوضة مثلاً، فحذف العائد على الموصول، وهو مبتدأ، ومثله قراءة بعضهم: «تماماً على الذي أحسن» أي على الذي هو أحسن.

وحكى سيبويه ما أنا بالذي قائل لك شيئاً، أي هو قائل.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ من جعل ﴿مَا﴾ الأولى صلة زائدة، فـ «ما» الثانية عطف على بعوضة، ومن جعل ﴿مَا﴾ اسماً فـ «ما» الثانية عطف عليها.

وقال الكسائي وأبو عبيدة وغيرهما: «المعنى فما فوقها في الصغر».

وقال قتادة وابن جريج وغيرهما: «المعنى في الكبر».

قال القاضي أبو محمد: والكل محتمل، والضمير في ﴿أَنَّهُ﴾، عائد على المثل.

واختلف النحويون في ﴿مَاذَا﴾: فقيل هي بمنزلة اسم واحد، بمعنى أي شيء أراد الله، وقيل «ما»

اسم «وذا» اسم آخر بمعنى الذي، فـ «ما» في موضع رفع بالابتداء، و «ذا» خبره، ومعنى كلامهم هذا الإنكار بلفظ الاستفهام.

وقوله: ﴿مثلاً﴾ نصب على التمييز، وقيل على الحال من «ذا» في ﴿بهذا﴾، والعامل فيه الإشارة والتنبيه.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ فقيل هو من قول الكافرين، أي ما مراد الله بهذا المثل الذي يفرق به الناس إلى ضلالة وإلى هدى؟ وقيل بل هو خبر من الله تعالى أنه يضل بالمثل الكفار الذين يعمون به، ويهدي به المؤمنين الذين يعلمون أنه الحق. وفي هذا رد على المعتزلة في قولهم: «إن الله لا يخلق الضلال» ولا خلاف أن قوله تعالى: ﴿وما يضلُّ به إلا الفاسقين﴾ من قول الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿ويهدي به كثيراً﴾ إلى آخر الآية رداً من الله تعالى على قول الكفار ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ والفسق الخروج عن الشيء. يقال فسقت الفارة إذا خرجت من جحرها، والرطبة إذا خرجت من قشرها، والفسق في عرف الاستعمال الشرعي الخروج من طاعة الله عز وجل، فقد يقع على من خرج بكفر وعلى من خرج بعصيان، وقراءة جمهور الأمة في هذه الآية: «يُضِلُّ» بضم الياء فيهما.

وروي عن إبراهيم بن أبي عبلة أنه قرأ «يُضِلُّ» بفتح الياء، «كثيراً» بالرفع «ويهدي به كثير». وما يضل به إلا الفاسقون» بالرفع.

قال أبو عمرو الداني: «هذه قراءة القدرية وابن أبي عبلة من ثقات الشاميين ومن أهل السنة، ولا تصح هذه القراءة عنه، مع أنها مخالفة خط المصحف».

وروي عن ابن مسعود أنه قرأ في الأولى: «يُضِلُّ» بضم الياء وفي الثانية «وما يضلُّ» بفتح الياء «به إلا الفاسقون».

قال القاضي أبو محمد: وهذه قراءة متجهة لولا مخالفتها خط المصحف المجمع عليه.

قوله عز وجل:

الَّذِينَ يَنْفُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

النقض رد ما أبرم على أوله غير مبرم، والعهد في هذه الآية التقدم في الشيء والوصاية به.

واختلف في تفسير هذا العهد: فقال بعض المتأولين: هو الذي أخذه الله على بني آدم حين استخرجهم من ظهر أبيهم آدم كالذر.

وقال آخرون: بل نصب الأدلة على وحدانية الله بالسموات والأرض وسائر الصنعة هو بمنزلة العهد.

وقال آخرون: بل هذا العهد هو الذي أخذه الله على عباده بواسطة رسله أن يوحده وأن لا يعبدوا غيره.

وقال آخرون: بل هذا العهد هو الذي أخذه الله تعالى على أتباع الرسل والكتب المنزلة أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأن لا يكتموا أمره.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: فالآية على هذا في أهل الكتاب، وظاهر ما قبل وبعد أنه في جميع الكفار.

وقال قتادة: «هذه الآية هي فيمن كان آمن بالنبي عليه السلام ثم كفر به فنقض العهد».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لم ينسب الطبري شيئاً من هذه الأقوال، وكل عهد جائز بين المسلمين فنقضه لا يحل بهذه الآية، والضمير في ﴿ميثاقه﴾ يحتمل العودة على العهد أو على اسم الله تعالى، وميثاق مفعول من الوثيقة، وهي الشد في العقد والربط ونحوه، وهو في هذه الآية اسم في موضع المصدر كما قال عمرو بن شبيب: [الوافر].

أَكْفَرًا بَعْدَ رَدِّ الْمَوْتِ عَنِّي وَبَعْدَ عَطَاكَ الْمَائَةَ الرَّئَاعَا؟

أراد بعد إعطائك.

وقوله تعالى: ﴿مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾، ﴿مَا﴾ في موضع نصب بـ ﴿يقطعون﴾ واختلف الشيء الذي أمر بوصله؟

فقال قتادة: «الأرحام عامة في الناس» وقال غيره: «خاصة فيمن آمن بمحمد، كان الكفار يقطعون أرحامهم». وقال جمهور أهل العلم: الإشارة في هذه الآية إلى دين الله وعبادته في الأرض، وإقامة شرائعه، وحفظ حدوده.

قال القاضي أبو محمد: وهذا هو الحق، والرحم جزء من هذا، و﴿أَنْ﴾ في موضع نصب بدل من ﴿مَا﴾، أو مفعول من أجله. وقيل ﴿أَنْ﴾ في موضع خفض بدل من الضمير في ﴿بِهِ﴾، وهذا متجه.

﴿ويفسدون في الأرض﴾ يعبدون غير الله ويجورون في الأفعال، إذ هي بحسب شهواتهم، والخاسر الذي نقص نفسه حظها من الفلاح والفوز، والخسران النقص كان في ميزان أو غيره.

وقوله تعالى: ﴿كيف تكفرون﴾ لفظه الاستفهام وليس به، بل هو تقرير وتوبيخ، أي كيف تكفرون بالله ونعمه عليكم وقدرته هذه؟ و﴿كيف﴾ في موضع نصب على الحال والعامل فيها ﴿تكفرون﴾، وتقديرها أجاحين تكفرون أنكرين تكفرون؟ و﴿كيف﴾ مبنية، وخصت بالفتح لحفته، ومن قال إن ﴿كيف﴾ تقرير

وتعجب فمعناه إن هذا الأمر إن عن فحقه أن يتعجب منه لغرابته وبعده عن المألوف من شكر المنعم، والواو في قوله ﴿وكنتم﴾ واو الحال، واختلف في ترتيب هاتين الموتيتين والحياتين: فقال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد: «فالمعنى كنتم أمواتاً معدومين قبل أن تخلقوا دارسين، كما يقال للشيء الدارس ميت، ثم خلقتهم وأخرجتم إلى الدنيا فأحياكم ثم أماتكم الموت المعهود، ثم يحييكم للبعث يوم القيامة».

وقال آخرون: «كنتم أمواتاً بكون آدم من طين ميتاً قبل أن يُحيى ثم نفخ فيه الروح فأحياكم بحياة آدم ثم يميتكم ثم يحييكم على ما تقدم».

وقال قتادة: «كنتم أمواتاً في أصلاب آبائكم فأخرجتم إلى الدنيا فأحياكم ثم كما تقدم».

وقال غيره: «كنتم أمواتاً في الأرحام قبل نفخ الروح ثم أحياكم بالإخراج إلى الدنيا ثم كما تقدم».

وقال ابن زيد: «إن الله تعالى أخرج نسمة بني آدم أمثال الذر ثم أماتهم بعد ذلك فهو قوله وكنتم أمواتاً، ثم أحياهم بالإخراج إلى الدنيا ثم كما تقدم».

وقال ابن عباس وأبو صالح: «كنتم أمواتاً بالموت المعهود ثم أحياكم للسؤال في القبور، ثم أماتكم فيها، ثم أحياكم للبعث».

وروي عن ابن عباس أيضاً أنه قال: «وكنتم أمواتاً بالخمول فأحياكم بأن ذكركم وشرفتم بهذا الدين والنبي الذي جاءكم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقول الأول هو أولى هذه الأقوال، لأنه الذي لا محيد للكفار عن الإقرار به في أول ترتيبه، ثم إن قوله أولاً ﴿كنتم أمواتاً﴾ وإسناده آخر الإماتة إليه تبارك وتعالى مما يقوي ذلك القول، وإذا أذعنت نفوس الكفار لكونهم أمواتاً معدومين ثم للإحياء في الدنيا ثم للإماتة فيها قوي عليهم لزوم الإحياء الآخر، وجاء جحدهم له دعوى لا حجة عليها، والضمير في ﴿إليه﴾ عائذ على الله تعالى أي إلى ثوابه أو عقابه، وقيل هو عائذ على الأحياء، والأول أظهر.

وقرأ جمهور الناس «تَرْجَعُونَ» بضم التاء وفتح الجيم.

وقرأ ابن أبي إسحاق وابن محيصن وابن يعمر وسلام والفياض بن غزوان ويعقوب الحضرمي: «يَرْجِع وَيَرْجَعُونَ وَتَرْجَعُونَ» بفتح الياء والتاء حيث وقع.

و﴿خلق﴾ معناه اخترع وأوجد بعد العدم، وقد يقال في الإنسان خلق بعد إنشائه شيئاً، ومنه قول الشاعر:

[زهير بن أبي سلمى] [الكامل]

ولأنت تفري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري
ومنه قول الآخر: [مجزوء الكامل]

من كان يخلق ما يقو ل فحياتي فيه قليله

و﴿لكم﴾: معناه للاعتبار، ويدل على ذلك ما قبله وما بعده من نصب العبر: الإحياء، والإماتة، والخلق، والاستواء إلى السماء وتسويتها.

وقال قوم: بل معنى ﴿لكم﴾ إباحة الأشياء وتمليكها، وهذا قول من يقول إن الأشياء قبل ورود السمع على الإباحة بينته هذه الآية، وخالفهم في هذا التأويل القائلون بالحرط، والقائلون بالوقف، وأكثر القائلين بالحرط استثنوا أشياء اقتضت حالها مع وجود الإنسان الإباحة كالتنفس والحركة ويرد على القائلين بالحرط كل حظر في القرآن وعلى القائلين بالإباحة كل تحليل في القرآن وإباحة، وترجح الوقف إذا قدرنا نازلة لا يوجد فيها سمع ولا تتعلق به.

ومعنى الوقف أنه استنفاد جهد الناظر فيما يحزب من النوازل.

وحكى ابن فورك عن ابن الصائغ أنه قال: «لم يخل العقل قط من السمع ولا نازلة إلا وفيها سمع أولها به تعلق أولها حال تستصحب». قال: «فينبغي أن يعتمد على هذا، وينبغي عن النظر في حظر وإباحة ووقف»، و﴿جميعاً﴾ نصب على الحال.

وقوله تعالى: ﴿ثم استوى﴾، ﴿ثم﴾ هنا هي لترتيب الأخبار لا لترتيب الأمر في نفسه، و﴿استوى﴾: قال قوم: «معناه علا دون تكيف ولا تحديد»، هذا اختيار الطبري، والتقدير علا أمره وقدرته وسلطانه.

وقال ابن كيسان: «معناه قصد إلى السماء».

قال القاضي أبو محمد: أي بخلقه واختراعه.

وقيل معناه كمل صنعه فيها كما تقول استوى الأمر.

قال القاضي أبو محمد: وهذا قلق.

وحكى الطبري عن قوم: أن المعنى أقبل، وضعفه.

وحكى عن قوم «المستوي» هو الدخان.

وهذا أيضاً ياباه رصف الكلام، وقيل المعنى استولى كما قال الشاعر الأخطل: [الرجز]

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهبraq

وهذا إنما يجيء في قوله تعالى: ﴿على العرش استوى﴾ [طه: ٥] والقاعدة في هذه الآية ونحوها منع النقلة وحلول الحوادث، ويبقى استواء القدرة والسلطان.

﴿فسواهن﴾ قيل المعنى جعلهن سواء، وقيل سوى سطوحها بالإملاس، و﴿سبع﴾ نصب على البدل من الضمير، أو على المفعول بـ «سوى»، بتقدير حذف الجار من الضمير، كأنه قال فسوى منهن سبع، وقيل نصب على الحال، وقال سواهن إما على أن السماء جمع، وإما على أنه مفرد اسم جنس، فهو دال على الجمع.

وقوله تعالى: ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ معناه بالموجودات وتحقق علمه بالمعدومات من آيات أخر، وهذه الآية تقتضي أن الأرض وما فيها خلق قبل السماء، وذلك صحيح، ثم دحيت الأرض بعد خلق السماء، وبهذا تتفق معاني الآيات: هذه والتي في سورة المؤمن وفي النازعات.

قوله عز وجل:

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾

قال معمر بن المثنى: «إذ زائدة، والتقدير وقال ربك».

قال أبو إسحاق الزجاج: «هذا اجترأ من أبي عبيدة».

قال القاضي أبو محمد: وكذلك رد عليه جميع المفسرين.

وقال الجمهور: ليست بزائدة وإنما هي معلقة بفعل مقدر تقديره واذكر إذ قال، وأيضاً فقوله: ﴿خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ الآية، يقتضي أن يكون التقدير وابتداء خلقكم إذ قال ربك للملائكة، وإضافة رب إلى محمد صلى الله عليه وسلم ومخاطبته بالكاف تشريف منه له، وإظهار اختصاصه به، والملائكة واحدها ملك أصله ملاك على وزن مفعول من لاك إذا أرسل، وجمعه ملائكة على وزن مفاعلة.

وقال قوم: أصل ملك مآلك، من ألك إذا أرسل، ومنه قول عدي بن زيد: [الرمل]

أبلغ النعمان عني مآلكاً أنه قد طال حبسي وانتظاري

واللغتان مسموعتان لأك وألك، قلبت فيه الهمزة بعد اللام فجاء وزنه معقل، وجمعه ملائكة، وزنه معافلة.

وقال ابن كيسان: «هو من ملك يملك، والهمزة فيه زائدة كما زيدت في شمال من شمل، فوزنه فعال، ووزن جمعه فعائلة» وقد يأتي في الشعر على أصله كما قال: [الطويل]

فلمست لأنسي ولكن لمألك تنزل من جو السماء يصبوب

وأما في الكلام فسهلت الهمزة وألقت حركتها على اللام أو على العين في قول ابن كيسان فقيل ملك، والهاء في ملائكة لتأنيث الجموع غير حقيقي، وقيل هي للمبالغة كعلامة ونسابة، والأول أبين.

وقال أبو عبيدة: «الهمزة في ملائكة مجتلبة لأن واحدها ملك».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: فهذا الذي نحا إليه ابن كيسان.

و﴿جاعل﴾ في هذه الآية بمعنى خالق، ذكره الطبري عن أبي روق، ويقضي بذلك تعديها إلى مفعول واحد.

وقال الحسن وقتادة: «جاعل بمعنى فاعل».

وقال ابن سابط عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الأرض هنا يعني بها مكة لأن الأرض دحيت من تحتها، ولأنها مقر من هلك قومه من الأنبياء، وإن قبر نوح وهود وصالح بين المقام والركن». و﴿خليفة﴾ معناه من يخلف.

قال ابن عباس: «كانت الجن قبل بني آدم في الأرض فأفسدوا وسفكوا الدماء فبعث الله إليهم قبلاً من الملائكة قتلهم وألحق فلهم جزائر البحار ورؤوس الجبال، وجعل آدم وذريته خليفة».

وقال الحسن: «إنما سمي الله بني آدم خليفة لأن كل قرن منهم يخلف الذي قبله، الجيل بعد الجيل».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: ففي هذا القول، يحتمل أن تكون بمعنى خالفة وبمعنى مخلوقة.

وقال ابن مسعود: «إنما معناه خليفة مني في الحكم بين عبادي بالحق وبأوامري» يعني بذلك آدم عليه السلام ومن قام مقامه بعده من ذريته. وقرأ زيد بن علي «خليفة» بالقاف.

وقوله تعالى: ﴿قالوا أتجعل فيها﴾ الآية، وقد علمنا قطعاً أن الملائكة لا تعلم الغيب ولا تسبق بالقول، وذلك عام في جميع الملائكة، لأن قوله: «لا يسبقونه بالقول» خرج على جهة المدح لهم.

قال القاضي أبو بكر بن الطيب: «فهذه قرينة العموم، فلا يصح مع هذين الشرطين إلا أن يكون عندهم من إفساد الخليفة في الأرض نبأ ومقدمة».

قال ابن زيد وغيره: إن الله تعالى أعلمهم أن الخليفة سيكون من ذريته قوم يفسدون ويسفكون الدماء، فقالوا لذلك هذه المقالة.

قال القاضي أبو محمد: فهذا إما على طريق التعجب من استخلاف الله من يعصيه، أو من عصيان من يستخلفه الله في أرضه وينعم عليه بذلك، وإما على طريق الاستعظام والإكبار للفصلين جميعاً، الاستخلاف، والعصيان.

وقال أحمد بن يحيى ثعلب وغيره: إنما كانت الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء في الأرض فجاء قولهم ﴿أتجعل فيها﴾ الآية، على جهة الاستفهام المحض، هل هذا الخليفة على طريقة من تقدم من الجن أم لا؟

وقال آخرون: كان الله تعالى قد أعلم الملائكة أنه يخلق في الأرض خلقاً يفسدون ويسفكون الدماء، فلما قال لهم بعد ذلك: ﴿إني جاعل﴾ ﴿قالوا أتجعل فيها﴾ الآية، على جهة الاسترشاد والاستعلام هل هذا الخليفة هو الذي كان أعلمهم به قبل أو غيره؟

والسفك صب الدم، هذا عرفه، وقد يقال سفك كلامه في كذا إذا سرد.

وقراءة الجمهور بكسر الفاء.

وقرأ أبو حيوة وابن أبي عجلة: «يسفك» بضم الفاء.

وقرأ ابن هرمز «ويسفك» بالنصب بواو الصرف كأنه قال: من يجمع أن يفسد وأن يسفك.

وقال المهدوي: هو نصب في جواب الاستفهام.

قال القاضي أبو محمد: والأول أحسن.

وقولهم: ﴿ونحن نسبح بحمدك﴾ قال بعض المتأولين: هو على جهة الاستفهام، كأنهم أرادوا

﴿ونحن نسبح بحمدك﴾ الآية، أم نتغير عن هذه الحال.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وهذا يحسن مع القول بالاستفهام المحض في

قولهم: ﴿أتجعل﴾؟.

وقال آخرون: معناه التمدح ووصف حالهم، وذلك جائز لهم كما قال يوسف عليه السلام: ﴿إني

حفيظ عليم﴾ [يوسف: ٥٥].

قال القاضي أبو محمد: وهذا يحسن مع التعجب والاستعظام لأن يستخلف الله من يعصيه في قولهم

﴿أتجعل﴾ وعلى هذا أدبهم بقوله تعالى: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾.

وقال قوم: معنى الآية ونحن لو جعلتنا في الأرض واستخلفتنا نسبح بحمدك. وهذا أيضاً حسن مع

التعجب والاستعظام في قولهم: ﴿أتجعل﴾.

ومعنى ﴿نسبح بحمدك﴾ ننزهك عما لا يليق بك وبصفاتك.

وقال ابن عباس وابن مسعود: «تسبيح الملائكة صلاتهم لله».

وقال قتادة: «تسبيح الملائكة قولهم سبحان الله علي عرفه في اللغة».

و﴿بحمدك﴾ معناه: نخلط التسبيح بالحمد ونصله به، ويحتمل أن يكون قوله ﴿بحمدك﴾ اعتراضاً بين

الكلامين، كأنهم قالوا ونحن نسبح ونقدس، ثم اعترضوا على جهة التسليم، أي وأنت المحمود في

الهداية إلى ذلك.

﴿ونقدس لك﴾ قال الضحاك وغيره: معناه نظهر أنفسنا لك ابتغاء مرضاتك، والتقديس التطهير بلا

خلاف، ومنه الأرض المقدسة أي المطهرة، ومنه بيت المقدس، ومنه القدس الذي يتطهر به.

وقال آخرون: ﴿ونقدس لك﴾ معناه ونقدسك أي نعظمك ونظهر ذكرك عما لا يليق به. قاله مجاهد

وأبو صالح وغيرهما.

وقال قوم: نقدس لك معناه نصلي لك.

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ الأظهر أن ﴿أعلم﴾ فعل مستقبل، و﴿ما﴾ في موضع نصب به،

وقيل ﴿أعلم﴾ اسم، و﴿ما﴾ في موضع خفض بالإضافة، ولا يصح الصرف فيه بإجماع من النحاة، وإنما الخلاف في أفعال إذا سمي به وكان نكرة، فسيبويه والخليل لا يصرفانه، والأخفش يصرفه.

واختلف أهل التأويل في المراد بقوله تعالى: ﴿ما لا تعلمون﴾ فقال ابن عباس: «كان إبليس - لعنه الله - قد أعجب ودخله الكبر لما جعله الله خازن السماء الدنيا وشرفه». وقيل: بل لما بعثه الله إلى قتل الجن الذين كانوا أفسدوا في الأرض فهزمهم وقتلهم بجنده، قاله ابن عباس أيضاً. واعتقد أن ذلك لمزية له واستحقاق الكفر والمعصية في جانب آدم عليه السلام.

قال: فلما قالت الملائكة ﴿ونحن نسبح بحمده ونقدس لك﴾ وهي لا تعلم أن في نفس إبليس خلاف ذلك. قال الله لهم ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ يعني ما في نفس إبليس.

وقال قتادة: لما قالت الملائكة ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ وقد علم الله تعالى أن فيمن يستخلف في الأرض أنبياء وفضلاء وأهل طاعة، قال لهم ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ يعني أفعال الفضلاء من بني آدم.

وقوله تعالى: ﴿وعلم﴾ معناه عرف وتعليم آدم هنا عند قوم إلهام علمه ضرورة.

وقال قوم: بل تعليم بقول، فإما بواسطة ملك، أو بتكليم قبل هبوطه الأرض، فلا يشارك موسى - عليه السلام - في خاصته.

وقرأ اليماني: «وَعُلِّمَ» بضم العين على بناء الفعل للمفعول، «آدم» مرفوعاً.

قال أبو الفتح: «وهي قراءة يزيد البربري»، و﴿آدم﴾ أفعال مشتق من الأدمة وهي حرة تميل إلى السواد، وجمعه آدم وأوادم كحمر وأحامر، ولا ينصرف بوجه، وقيل ﴿آدم﴾ وزنه فاعل مشتق من أديم الأرض، كأن الملك آدمها وجمعه آدمون وأوادم، ويلزم قائل هذه المقالة صرفه.

وقال الطبري: «آدم فعل رباعي سمي به»، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خلق الله آدم من أديم الأرض كلها فخرجت ذريته على نحو ذلك منهم الأبيض والأسود والأسمر والسهل والحزن والطيب والخبث».

واختلف المتأولون في قوله: ﴿الأسماء﴾ فقال جمهور الأمة: «علمه التسميات» وقال قوم: «عرض عليه الأشخاص».

قال القاضي أبو محمد: والأول أبين، ولفظة - علمه - تعطي ذلك.

ثم اختلف الجمهور في أي الأسماء علمه؟ فقال ابن عباس وقتادة ومجاهد: «علمه اسم كل شيء من جميع المخلوقات دقيقها وجليلها».

وقال حميد الشامي: «علمه أسماء النجوم فقط».

وقال الربيع بن خثيم: «علمه أسماء الملائكة فقط».

وقال عبد الرحمن بن زيد «علمه أسماء ذريته فقط».

وقال الطبري: «علمه أسماء ذريته والملائكة»، واختار هذا ورجحه بقوله تعالى: ﴿ثم عرضهم على الملائكة﴾.

وحكى النقاش عن ابن عباس أنه تعالى علمه كلمة واحدة عرف منها جميع الأسماء.

وقال آخرون: «علمه أسماء الأجناس، كالجبال والخيول والأودية ونحو ذلك، دون أن يعين ما سمته ذريته منها».

وقال ابن قتيبة: «علمه أسماء ما خلق في الأرض».

وقال قوم: علمه الأسماء بلغة واحدة، ثم وقع الاصطلاح من ذريته فيما سواها.

وقال بعضهم: «بل علمه الأسماء بكل لغة تكلمت بها ذريته»، وقد غلا قوم في هذا المعنى حتى حكى ابن جني عن أبي علي الفارسي أنه قال: «علم الله تعالى آدم كل شيء، حتى إنه كان يحسن من النحو مثل ما أحسن سيوبه»، ونحو هذا من القول الذي هو بين الخطأ من جهات. وقال أكثر العلماء: «علمه تعالى منافع كل شيء ولما يصلح».

وقال قوم: «عرض عليه الأشخاص عند التعليم».

وقال قوم: «بل وصفها له دون عرض أشخاص».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه كلها احتمالات، قال الناس بها.

وقرأ أبي بن كعب: «ثم عرضها».

وقرأ ابن مسعود: «ثم عرضهن» واختلف المتأولون هل عرض على الملائكة أشخاص الأسماء أو الأسماء دون الأشخاص؟ فقال ابن مسعود وغيره: عرض الأشخاص.

وقال ابن عباس وغيره: عرض الأسماء، فمن قال في الأسماء بعموم كل شيء قال عرضهم أمة أمة ونوعاً نوعاً، ومن قال في الأسماء إنها التسميات استقام على قراءة أبي: «عرضها»، ونقول في قراءة من قرأ «عرضهم»: إن لفظ الأسماء يدل على الأشخاص، فلذلك ساغ أن يقول للأسماء عرضهم.

و﴿أنبئوني﴾ معناه: أخبروني، والنبأ الخبر، ومنه النبيء.

وقال قوم: يخرج من هذا الأمر بالإنباء تكليف ما لا يطاق، ويتقرر جوازه، لأنه تعالى علم أنهم لا يعلمون.

وقال المحققون من أهل التأويل: ليس هذا على جهة التكليف وإنما هو على جهة التقرير والتوقيف.

وقوله تعالى: ﴿هؤلاء﴾ ظاهره حضور أشخاص، وذلك عند العرض على الملائكة.

وليس في هذه الآية ما يوجب أن الاسم أريد به المسمى كما ذهب إليه مكِّي والمهدوي، فمن قال إنه تعالى عرض على الملائكة أشخاصاً استقام له مع لفظ ﴿هؤلاء﴾، ومن قال إنه إنما عرض أسماء فقط

جعل الإشارة بـ ﴿هؤلاء﴾ إلى أشخاص الأسماء وهي غائبة، إذ قد حضر ما هو منها بسبب، وذلك أسماؤها، وكأنه قال لهم في كل اسم لأي شخص هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي يظهر أن الله تعالى علم آدم الأسماء وعرض مع ذلك عليه الأجناس أشخاصاً، ثم عرض تلك على الملائكة وسألهم عن تسمياتها التي قد تعلمها آدم، ثم إن آدم قال لهم هذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا، و﴿هؤلاء﴾ لفظ مبني على الكسر والقصر فيه لغة تميم وبعض قيس وأسد، قال الأعشى: [الخفيف].

هؤلاء ثم هؤلاء كلا أعطيت نعالاً محدودة بنعال

و﴿كنتم﴾ في موضع الجزم بالشرط، والجواب عند سيويه فيما قبله، وعند المبرد محذوف، والتقدير: إن كنتم صادقين فأنبئوني.

وقال ابن مسعود وابن عباس وناس من أصحاب النبي عليه السلام، معنى الآية: ﴿إن كنتم صادقين﴾ في أن الخليفة يفسد ويسفك.

وقال آخرون: ﴿صادقين﴾ في أني إن استخلفتكم سبحتم بحمدي وقدستم لي.

وقال الحسن وقتادة: روي أن الملائكة قالت حين خلق الله آدم: ليخلق ربنا ما شاء فلن يخلق خلقاً أعلم منا ولا أكرم عليه، فأراد الله تعالى أن يريهم من علم آدم وكرامته خلاف ما ظنوا فالمعنى إن كنتم صادقين في دعواكم العلم.

وقال قوم: معنى الآية ﴿إن كنتم صادقين﴾ في جواب السؤال عالين بالأساء. ﴿قالوا﴾: ولذلك لم يسغ للملائكة الاجتهاد وقالوا: ﴿سبحانك﴾ حكاه النقاش. قال: ولو لم يشترط عليهم الصدق في الإنباء لجاز لهم الاجتهاد كما جاز للذي أماته الله مائة عام حين قال له «كم لبثت؟» ولم يشترط عليه الإصابة. فقال، ولم يصب فلم يعنف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله محتمل.

وحكى الطبري أن بعض المفسرين قال: معنى ﴿إن كنتم﴾ «إذ كنتم».

قال الطبري: وهذا خطأ. وإن قال قائل ما الحكمة في قول الله تعالى للملائكة ﴿إني جاعل﴾ الآية، قيل: هذا منه امتحان لهم واختبار ليقع منهم ما وقع ويؤدبهم تعالى من تعليم آدم وتكريمه بما أدب.

و﴿سبحانك﴾ معناه: تنزيهاً لك وتبرئة أن يعلم أحد من علمك إلا ما علمته، و﴿سبحانك﴾ نصب على المصدر.

وقال الكسائي: «نصبه على أنه منادى مضاف».

قال الزهراوي: موضع ﴿ما﴾ من قولهم ﴿ما علمتنا﴾ نصب بـ ﴿علمتنا﴾، وخبر التبرئة في ﴿لنا﴾، ويحتمل أن يكون موضع ﴿ما﴾ رفعاً على أنه بدل من خبر التبرئة، كما تقول لا إله إلا الله أي لا إله في

الوجود إلا الله، و﴿أنت﴾ في موضع نصب تأكيد للضمير في ﴿إنك﴾، أو في موضع رفع على الابتداء.
و﴿العليم﴾ خبره، والجملة خبر ﴿إن﴾، أو فاصلة لا موضع لها من الإعراب. و﴿العليم﴾ معناه: العالم،
يزيد عليه معنى من المبالغة والتكثير من المعلومات في حق الله عز وجل.
و﴿الحكيم﴾ معناه الحاكم، وبينهما مزية المبالغة، وقيل: معناه المحكم كما قال عمرو بن
معديكرب: [الوافر].

أمن ريحانة الداعي السميع

أي السميع، ويجيء ﴿الحكيم﴾ على هذا من صفات الفعل.

وقال قوم: ﴿الحكيم﴾ المانع من الفساد، ومنه حكمة الفرس مانعته، ومنه قول جرير: [الكامل].

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم إني أخاف عليكم أن أغضبا

قوله عز وجل:

قَالَ يَتَدَأْمُ أُنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا
إِبْلِيسَ ابْنِي وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾

﴿أنبئهم﴾ معناه أخبرهم، وهو فعل يتعدى إلى مفعولين أحدهما بحرف جر وقد يحذف حرف الجر
أحيانا، تقول نبئت زيدا.

قال سيويه: معناه نبئت عن زيد. والضمير في ﴿أنبئهم﴾ عائذ على الملائكة بإجماع، والضمير في
أسمائهم مختلف فيه حسب الاختلاف في الأسماء التي علمها آدم.

قال أبو علي: «كلهم قرأ ﴿أنبئهم﴾ بالهمز وضم الهاء، إلا ما روي عن ابن عامر، «أنبئهم» بالهمز
وكسر الهاء، وكذلك روى بعض المكيين عن ابن كثير، وذلك على إتباع كسرة الهاء لكسرة الباء، وإن
حجز الساكن فحجزه لا يعتد به».

قال أبو عمرو الداني: «وقرأ الحسن والأعرج: «أنبيهم» بغير همز».

قال ابن جني: «وقرأ الحسن «أنبيهم»، على وزن «أعطهم»، وقد روي عنه، «أنبيهم» بغير همز».

قال أبو عمرو: «وقد روي مثل ذلك عن ابن كثير من طريق القواس».

قال أبو الفتح: أما قراءة الحسن، «أنبيهم» «كأعطهم»، فعلى إبدال الهمزة ياء، على أنك تقول
«أنبيت» كأعطيت، وهذا ضعيف في اللغة، لأنه بدل لا تخفيف والبدل عندنا لا يجوز إلا في ضرورة شعر.

قال بعض العلماء: إن في قوله تعالى: ﴿فلما أنبأهم﴾ نبوة لآدم عليه السلام، إذ أمره الله أن ينبيء
الملائكة بما ليس عندهم من علم الله عز وجل.

ويجوز فتح الياء من «إني» وتسكينها.

قال الكسائي: «رأيت العرب إذا لقيت عندهم الياء همزة فتحوها».

قال أبو علي: «كان أبو عمرو يفتح ياء الإضافة المكسور ما قبلها عند الهمزة المفتوحة والمكسورة، إذا كانت متصلة باسم، أو بفعل، ما لم يطل الحرف فإنه يثقل فتحها، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَفْتَنِي آلَ﴾ [التوبة: ٤٩] وقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، والذي يخف: ﴿لَإِنِّي أَرَى﴾ [الأنفال: ٤٨، يوسف: ٤٣، الصافات: ١٠٢] و﴿أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [يونس: ٧٢، هود: ٢٩، سبأ: ٤٧].

وقوله تعالى: ﴿أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ معناه: ما غاب عنكم، لأن الله لا غيب عنده من معلوماته وما في موضع نصب «بأعلم».

قال المهدوي: ويجوز أن يكون قوله ﴿أَعْلَمُ﴾ اسماً بمعنى التفضيل في العلم، فتكون ﴿مَا﴾ في موضع خفض بالإضافة.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: فإذا قدر الأول اسماً فلا بد بعده من إضمار فعل ينصب ﴿غَيْبَ﴾، تقديره إني أعلم من كل أعلم غيب، وكونها في الموضعين فعلاً مضارعاً أخصر وأبلغ.

واختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿مَا تَبْدُونَ﴾ وما كنتم تكتمون فقالت طائفة: ذلك على معنى العموم في معرفة أسرارهم وظواهرهم وبواطنهم أجمع.

وحكى مكي أن المراد بقول ﴿مَا تَبْدُونَ﴾ قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ الآية.

وحكى المهدوي أن ﴿مَا تَبْدُونَ﴾ قولهم: ليخلق ربنا ما شاء فلن يخلق أعلم منا ولا أكرم عليه، فجعل هذا مما أبدوه لما قالوه.

وقال الزهراوي: «ما أبدوه هو بدارهم بالسجود لآدم».

واختلف في المكتمون فقال ابن عباس وابن مسعود: المراد ما كتمه إبليس في نفسه من الكبر والكفر، ويتوجه قوله ﴿تَكْتُمُونَ﴾ للجماعة والكاظم واحد في هذا القول على تجوز العرب واتساعها، كما يقال لقوم قد جنى سفيه منهم: أنتم فعلتم كذا، أي منكم فاعله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مع قصد تعنيف، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ [الحجرات: ٤] وإنما ناداه منهم عيئة، وقيل الأقرع، وقال قتادة: المكتم هو ما أسره بعضهم إلى بعض من قولهم: ليخلق ربنا ما شاء، فجعل هذا فيما كتموه لما أسروه، - ﴿وَإِذْ﴾ من قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ معطوف على ﴿إِذْ﴾ المتقدمة.

وقول الله تعالى وخطابه للملائكة متقرر قديم في الأزل، بشرط وجودهم وفهمهم، وهذا هو الباب كله في أوامر الله سبحانه ونواهيهِ ومخاطباته و﴿قُلْنَا﴾ كناية العظم عن نفسه بلفظ الجمع، وقوله للملائكة عموم فيهم.

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: «للملائكة اسجدوا» برفع تاء للملائكة إتباعاً لضممة ثالث المستقبل.
قال أبو علي: «وهذا خطأ».

وقال الزجاج: «أبو جعفر من رؤساء القراءة ولكنه غلط في هذا».

قال أبو الفتح: لأن الملائكة في موضع جر فالتاء مكسورة كسرة إعراب، وهذا الذي ذهب إليه أبو جعفر إنما يجوز إذا كان ما قبل الهمزة حرفاً ساكناً صحيحاً، نحو قوله تعالى: ﴿وقالت اخرج عليهن﴾ [يوسف: ٣١] والسجود في كلام العرب الخضوع والتذلل، ومنه قول الشاعر [زيد الخيل]: [الطويل]

ترى الأكم فيه سجداً للحوافر

وغايته وضع الوجه بالأرض، والجمهور على أن سجود الملائكة لآدم إيماء وخضوع، ذكره النقاش وغيره، ولا تدفع الآية أن يكونوا بلغوا غاية السجود.

وقوله تعالى: ﴿فقعوا له ساجدين﴾ [الحجر: ٢٩] لا دليل فيه لأن الجائي على ركبتيه واقع.

واختلف في حال السجود لآدم، فقال ابن عباس: «تعبدهم الله بالسجود لآدم، والعبادة في ذلك لله».

وقال علي بن أبي طالب وابن مسعود وابن عباس: «إنما كان سجود تحية كسجود أبوي يوسف عليه السلام، لا سجود عبادة».

وقال الشعبي: «إنما كان آدم كالقبة، ومعنى لآدم إلى آدم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذه الوجوه كلها كرامة لآدم عليه السلام.

وحكى النقاش عن مقاتل: «أن الله إنما أمر الملائكة بالسجود لآدم قبل أن يخلقه».

قال: «والقرآن يرد على هذا القول».

وقال قوم: سجود الملائكة كان مرتين، والإجماع يرد هذا.

وقوله تعالى: ﴿إلا إبليس﴾ نصب على الاستثناء المتصل، لأنه من الملائكة على قول الجمهور، وهو ظاهر الآية، وكان خازناً وملكاً على سماء الدنيا والأرض، واسمه عزازيل، قاله ابن عباس.

وقال ابن زيد والحسن: «هو أبو الجن كما أن آدم أبو البشر، ولم يكن قط ملكاً».

وقد روي نحوه عن ابن عباس أيضاً، قال: «واسمه الحارث».

وقال شهر بن حوشب: كان من الجن الذين كانوا في الأرض وقاتلتهم الملائكة فسيبوه صغيراً، وتعبد وخوطب معها، وحكاها الطبري عن ابن مسعود. والاستثناء على هذه الأقوال منقطع، واحتج بعض أصحاب هذا القول بأن الله تعالى قال صفة للملائكة: «لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون».

ورجح الطبري قول من قال: «إن إبليس كان من الملائكة». وقال: «ليس في خلقه من نار ولا في

تركيب الشهوة والنسل فيه حين غضب عليه ما يدفع أنه كان من الملائكة».

وقوله عز وجل: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠] يتخرج على أنه عمل عملهم فكان منهم في هذا، أو على أن الملائكة قد تسمى جنّاً لاستتارها، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَبْأً﴾. [الصافات: ١٥٨]

وقال الأعشى في ذكر سليمان عليه السلام: [الطويل]

وسُخِّرَ من جن الملائك تسعة قياماً لديه يعملون بلا أجرٍ

أو على أن يكون نسبهم إلى الجنة كما ينسب إلى البصرة بصريّ، لما كان خازناً عليها، و﴿إبليس﴾ لا ينصرف لأنه اسم أعجميّ معروف.
قال الزجاج: «ووزنه فِعْلِيل».

وقال ابن عباس والسدي وأبو عبيدة وغيرهم: هو مشتق من أبلس إذا أبعد عن الخير، ووزنه على هذا إفعيل ولم تصرفه هذه الفرقة لشذوذه، وأجروه مجرى إسحاق من أسحقه الله، وأيوب من آب يؤوب، مثل قيوم من قام يقوم، ولما لم تصرف هذه - ولها وجه من الاشتقاق - كذلك لم يصرف هذا وإن توجه اشتقاقه لقلته وشذوذه، ومن هذا المعنى قول الشاعر العجاج: [الرجز].

يا صاح هل تعرف رسماً مكرساً قال نعم أعرفه وأبلساً

أي تغير وبعد عن العمار والإنس به ومثله قول الآخر: [الرجز]

وفي الوجوه صفرة وإبلاس

ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ مَبْلُوسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤] أي يائسون عن الخير مبعدون منه فيما يرون - و﴿أبى﴾ معناه امتنع من فعل ما أمر به، و﴿استكبر﴾ دخل في الكبرياء، والإبابة مقدمة على الاستكبار في ظهورهما عليه، والاستكبار والأنفة مقدمة في معتقده.

وروي ابن القاسم عن مالك أنه قال: بلغني أن أول معصية كانت الحسد والكبر والشح، حسد إبليس آدم وتكبر، وشح آدم في أكله من شجرة قد نهى عن قربها.

حكى المهدوي عن فرقة أن معنى ﴿وكان من الكافرين﴾: وصار من الكافرين.

وقال ابن فورك: «وهذا خطأ ترده الأصول».

وقالت فرقة: «قد كان تقدم قبل من الجن من كفر فشبهه الله بهم وجعله منهم، لما فعل في الكفر فعلهم».

وذكر الطبري عن أبي العالية أنه كان يقول: «وكان من الكافرين معناه: من العاصين».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وتلك معصية كفر لأنها عن معتقد فاسد صدرت.

وروي أن الله تعالى خلق خلقاً وأمرهم بالسجود لآدم فعصوا فأحرقهم بالنار، ثم خلق آخرين وأمرهم بذلك فعصوا فأحرقهم، ثم خلق الملائكة فأمرهم بذلك فسجدوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والإسناد في مثل هذا غير وثيق.

وقال جمهور المتأولين: معنى ﴿وكان من الكافرين﴾ أي في علم الله تعالى أنه سيكفر، لأن الكافر حقيقة والمؤمن حقيقة هو الذي قد علم الله منه الموافقة.

وذهب الطبري: إلى أن الله أراد بقصة إبليس تقريع أشباهه من بني آدم وهم اليهود الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم، مع علمهم بنبوته ومع تقدم نعم الله عليهم وعلى أسلافهم. واختلف هل كفر إبليس جهلاً أو عناداً على قولين بين أهل السنة، ولا خلاف أنه كان عالماً بالله قبل كفره، فمن قال إنه كفر جهلاً قال: «إنه سلب العلم عند كفره». ومن قال كفر عناداً قال: «كفر ومعه علمه»، قال: والكفر عناداً مع بقاء العلم مستبعد، إلا أنه عندي جائز لا يستحيل مع خذل الله لمن شاء. ولا خلاف أن الله تعالى أخرج إبليس عند كفره وأبعده عن الجنة، وبعد إخراجه قال لآدم اسكن.

قوله عز وجل:

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَى الْحِينِ ﴿٣٦﴾

﴿اسكن﴾ معناه لازم الإقامة، ولفظه لفظ الأمر ومعناه الإذن، و﴿أنت﴾ تأكيد للضمير الذي في ﴿اسكن﴾، و﴿وزوجك﴾ عطف عليه والزوج امرأة الرجل وهذا أشهر من زوجة، وقد تقدم، و﴿الجنة﴾ البستان عليه حظيرة، واختلف في الجنة التي أسكنها آدم، هل هي جنة الخلد أو جنة أعدت لهما؟ وذهب من لم يجعلها جنة الخلد إلى أن من دخل جنة الخلد لا يخرج منها، وهذا لا يمتنع، إلا أن السمع ورد أن من دخلها مثاباً لا يخرج منها، وأما من دخلها ابتداء كآدم فغير مستحيل ولا ورد سمع بأنه لا يخرج منها.

واختلف متى خلقت حواء من ضلع آدم عليه السلام؟ فقال ابن عباس «حين أنبا الملائكة بالأسماء وأسجدوا له ألقى عليه السنة وخلقت حواء، فاستيقظ وهي إلى جانبه» فقال فيما يزعمون: لحمي ودمي، وسكن إليها، فذهبت الملائكة لتجرب علمه، فقالوا له يا آدم ما اسمها؟ قال: حواء. قالوا: ولم؟ قال: لأنها خلقت من شيء حي، ثم قال الله له: ﴿اسكن أنت وزوجك الجنة﴾.

وقال ابن مسعود وابن عباس أيضاً: لما أسكن آدم الجنة مشى فيها مستوحشاً، فلما نام خلقت حواء من ضلعه القصيرى، ليسكن إليها ويستأنس بها، فلما انتبه رآها، فقال: من أنت؟ قالت: امرأة خلقت من ضلعك لتسكن إلي، وحذفت النون من ﴿كلا﴾ للأمر، والالف الأولى لحركة الكاف حين حذفت الثانية لاجتماع المثليين وهو حذف شاذ، ولفظ هذا الأمر بـ ﴿كلا﴾ معناه الإباحة، بقرينة قوله: ﴿حيث شئتما﴾ والضمير في ﴿منها﴾ عائد على ﴿الجنة﴾.

وقرأ ابن وثاب والنخعي «رَغْدًا» بسكون الغين، والجمهور على فتحها، والرغد العيش الدارّ الهنيّ الذي لا عناء فيه، ومنه قول امرئ القيس: [الرمّل].

بينما المرء تراه ناعماً يأمن الأحداث في عيشٍ رَغْدٍ

و«رَغْدًا» منصوب على الصفة لمصدر محذوف وقيل: هو نصب على المصدر في موضع الحال، و«حيث» مبنية على الضم، ومن العرب من يبينها على الفتح، ومن العرب من يعربها حسب موضعها بالرفع والنصب والخفض، كقوله سبحانه: «سنستدرجهم من حيث لا يعلمون» [الأعراف: ٨٢، القلم: ٤٤] ومن العرب من يقول «حوث»، و«شثما» أصله شيئاً حَوَّلَ إلى فعلتها تحركت ياؤه وانفتح ما قبلها جاء شثمتها، حذفت الألف الساكنة الممدودة للالتقاء وكسرت الشين لتدل على الياء فجاء شثمتا.

قال القاضي أبو محمد: هذا تعليل المبرد، فأما سيويه فالأصل عنده شيثمتا بكسر الياء، نقلت حركة الياء إلى الشين، وحذفت الياء بعد.

وقوله تعالى: «ولا تقربا هذه الشجرة» معناه لا تقرباها بأكل، لأن الإباحة فيه وقعت.

قال بعض الحذاق: «إن الله لما أراد النهي عن أكل الشجرة نهى عنه بلفظة تقتضي الأكل وما يدعو إليه وهو القرب».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وهذا مثال بين في سد الذرائع.

وقرأ ابن محيصن هذي على الأصل، والهاء في هذه بدل من الياء، وليس في الكلام هاء تأنيث مكسور ما قبلها غير هذه، وتحتمل هذه الإشارة أن تكون إلى شجرة معينة واحدة، أو إلى جنس.

وحكى هارون الأعور عن بعض العلماء قراءة «الشَّجرة» بكسر الشين و«الشجر» كل ما قام من النبات على ساق.

واختلف في هذه «الشجرة» التي نهى عنها ما هي؟

فقال ابن مسعود وابن عباس: «هي الكرّم ولذلك حرمت علينا الخمر».

وقال ابن جريج عن بعض الصحابة: «هي شجرة التين».

وقال ابن عباس أيضاً وأبو مالك وعطية وقتادة: «هي السنبلة وجبها ككلى البقر، أحلى من العسل، وألين من الزبد».

وروي عن ابن عباس أيضاً: «أنها شجرة العلم، فيها ثمر كل شيء».

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف لا يصح عن ابن عباس.

وحكى الطبري عن يعقوب بن عتبة: «أنها الشجرة التي كانت الملائكة تحنك بها للخلد».

قال القاضي أبو محمد: وهذا أيضاً ضعيف.

قال: «واليهود تزعم أنها الحنظلة، وتقول: إنها كانت حلوة ومُرّت من حينئذ».

قال القاضي أبو محمد: وليس في شيء من هذا التعيين ما يعضده خبر، وإنما الصواب أن يعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة فخالف هو إليها وعصى في الأكل منها، وفي حظره تعالى على آدم الشجرة ما يدل على أن سكناه في الجنة لا يدوم، لأن المخلد لا يحظر عليه شيء، ولا يؤمر ولا ينهى.

وقيل إن هذه الشجرة كانت خصت بأن تحوج أكلها إلى التبرز، فلذلك نهى عنها فلما أكل منها ولم تكن الجنة موضع تبرز أبط إلى الأرض.

وقوله ﴿فتكونا﴾ في موضع جزم على العطف على ﴿لا تقربا﴾، ويجوز فيه النصب على الجواب، والناصب عند الخليل وسيبويه «أن المضمرة»، وعند الجرمي الفاء، والظالم في اللغة الذي يضع الشيء غير موضعه، ومنه قولهم: «من أشبه أباه فما ظلم»، ومنه «المظلومة الجلد» لأن المطر لم يأتها في وقته، ومنه قول عمرو بن قمئة: [الكامل]

ظلم البطاح بها انهلالاً حريصةً فصفا النطافُ له بعيدَ المقلعِ

والظلم في أحكام الشرع على مراتب، أعلاها الشرك، ثم ظلم المعاصي وهي مراتب، وهو في هذه الآية يدل على أن قوله: ﴿ولا تقربا﴾ على جهة الوجوب، لا على الذنب، لأن من ترك المندوب لا يسمى ظالماً، فاقترنت لفظة الظلم قوة النهي، و«أزلهما» مأخوذ من الزلل، وهو في الآية مجاز، لأنه في الرأي والنظر، وإنما حقيقة الزلل في القدم.

قال أبو علي: ﴿فأزلهما﴾ يحتمل تأويلين، أحدهما، كسبهما الزلة، والآخر أن يكون من زل إذا عثر.

وقرأ حمزة: «فأزالهما»، مأخوذ من الزوال، كأنه المزيل لما كان إغواؤه مؤدياً إلى الزوال. وهي قراءة الحسن وأبي رجاء، ولا خلاف بين العلماء أن إبليس اللعين هو متولي إغواء آدم. واختلف في الكيفية، فقال ابن عباس وابن مسعود وجمهور العلماء: أغواهما مشافهة، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وقاسمهما﴾ والمقاسمة ظاهرها المشافهة.

وقال بعضهم: إن إبليس لما دخل إلى آدم كلمه في حاله، فقال: يا آدم ما أحسن هذا لو أن خلدأ كان، فوجد إبليس السبيل إلى إغوائه، فقال: هل أدلك على شجرة الخلد؟.

وقال بعضهم: دخل الجنة في فم الحية وهي ذات أربع كالبعثية، بعد أن عرض نفسه على كثير من الحيوان فلم تدخله إلا الحية، فخرج إلى حواء وأخذ شيئاً من الشجرة، وقال: انظري ما أحسن هذا فأغواها حتى أكلت، ثم أغوى آدم، وقالت له حواء: كل فأني قد أكلت فلم يضرني فأكل فبدت لهما سوءاتهما، وحصلا في حكم الذنب، ولعنن الحية وردت قوائمها في جوفها، وجعلت العداوة بينها وبين بني آدم، وقيل لحواء: كما أدميت الشجرة فكذلك يصيبك الدم في كل شهر، وكذلك تحملين كرهاً، وتضعين كرهاً، تشرفين به على الموت مراراً. زاد الطبري والنقاش: «وتكونين سفيهة، وقد كنت حليلة».

وقالت طائفة: إن إبليس لم يدخل الجنة إلى آدم بعد أن أخرج منها، وإنما أغوى آدم بشيطانه وسلطانه ووساوسه التي أعطاه الله تعالى، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم». والضمير في ﴿عنها﴾ عائذ على ﴿الشجرة﴾ في قراءة من قرأ «أزلهما»، ويحتمل أن يعود على ﴿الجنة﴾ فأما من قرأ «أزلهما» فإنه يعود على ﴿الجنة﴾ فقط، وهنا محذوف يدل عليه الظاهر، تقديره فأكلا من الشجرة.

وقال قوم: «أكلا من غير التي أشير إليها فلم يتأولا النهي واقعاً على جميع جنسها».

وقال آخرون: «تأولا النهي على الذنب».

وقال ابن المسيب: «إنما أكل آدم بعد أن سقته حواء الخمر فكان في غير عقله».

وقوله تعالى: ﴿فأخرجهما مما كانا فيه﴾ يحتمل وجوهاً، ف قيل أخرجهما من الطاعة إلى المعصية. وقيل: من نعمة الجنة إلى شقاء الدنيا. وقيل: من رفعة المنزلة إلى سفلى مكانة الذنب.

قال القاضي أبو محمد: وهذا كله يتقارب.

وقرأ أبو حيوة: «اهبطوا» بضم الباء. «ويفعُل» كثير في غير المتعدي وهبط غير متعدٍ. والهبوط النزول من علو إلى أسفل.

واختلف من المخاطب بالهبوط، فقال السدي وغيره: «آدم وحواء وإبليس والحية».

وقال الحسن: «آدم وحواء والوسوسة».

قال غيره: «والحية لأن إبليس قد كان أهبط قبل عند معصيته».

و ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ جملة في موضع الحال، وإفراد لفظ ﴿عدو﴾ من حيث لفظ ﴿بعض﴾، وبعض وكل تجري مجرى الواحد، ومن حيث لفظة ﴿عدو﴾ تقع للواحد والجمع، قال الله تعالى: ﴿هم العدو فاحذرهم﴾ [المنافقون: ٤] ﴿ولكم في الأرض مستقر﴾ أي موضع استقرار قاله أبو العالية وابن زيد.

وقال السدي: «المراد الاستقرار في القبور، والمتاع ما يستمتع به من أكل ولبس وحياة، وحديث، وأنس، وغير ذلك». وأنشد سليمان بن عبد الملك حين وقف على قبر ابنه أيوب إثر دفنه: [الطويل]

وقفتُ على قبرٍ غريبٍ بقفرة متاع قليل من حبيب مفارق

واختلف المتأولون في الحين هاهنا فقالت فرقة: إلى الموت، وهذا قول من يقول المستقر هو المقام في الدنيا، وقالت فرقة: ﴿إلى حين﴾ إلى يوم القيامة، وهذا قول من يقول: المستقر هو في القبور. ويترتب أيضاً على أن المستقر في الدنيا أن يراد بقوله: ﴿ولكم﴾، أي لأنواعكم في الدنيا استقرار ومتاع قرناً بعد قرن إلى يوم القيامة، والحين المدة الطويلة من الدهر، أقصرها في الأيمان والالتزامات سنة.

قال الله تعالى: ﴿تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها﴾ [إبراهيم: ٢٥] وقد قيل: أقصرها ستة أشهر، لأن من النخل ما يثمر في كل ستة أشهر، وقد يستعمل الحين في المحاورات في القليل من الزمن.

وفي قوله تعالى: ﴿إِلَى حِينٍ﴾ فائدة لآدم عليه السلام، ليعلم أنه غير باق فيها ومنتقل إلى الجنة التي وعد بالرجوع إليها، وهي لغير آدم دالة على المعاد.

وروي أن آدم نزل على جبل من جبال سرنديب وأن حواء نزلت بجدة، وأن الحية نزلت بأصبهان، وقيل بميسان، وأن إبليس نزل على الأبله.

قوله عز وجل:

فَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾

المعنى: فقال الكلمات فتاب الله عليه عند ذلك، و﴿آدم﴾ رفع بـ «تلقى»، و﴿كلمات﴾ نصب بها، والتلقي من آدم هو الإقبال عليها والقبول لها والفهم.

وحكى مكي قولاً: أنه ألهمها فانتفع بها.

وقرأ ابن كثير: «آدم» بالنصب. «من ربه كلمات» بالرفع، فالتلقي من الكلمات هو نيل آدم بسببها رحمة الله وتوبته.

واختلف المتأولون في الكلمات، فقال الحسن بن أبي الحسن: هي قوله تعالى: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ الآية [الأعراف: ٢٣].

وقال مجاهد: «هي أن آدم قال: سبحانك اللهم لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت التواب الرحيم».

وقال ابن عباس: «هي أن آدم قال: أي رب ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى، قال: أي رب ألم تنفخ في من روحك؟ قال بلى، قال: أي رب ألم تسكني جنتك؟ قال: بلى. قال: أرايت إن تبت وأطعت أراجعي أنت إلى الجنة؟ قال: نعم».

قال عبيد بن عمير: «إن آدم قال: أي رب أرايت ما عصيتك فيه شيء كتبه علي أم شيء ابتدعته؟ قال: بل شيء كتبه عليك. قال: أي رب كما كتبه علي فاغفر لي».

وقال قتادة: «الكلمات هي أن آدم قال: أي رب أرايت إن أنا تبت وأصلحت؟ قال: إذا أدخلك الجنة».

وقالت طائفة: إن المراد بالكلمات ندمه واستغفاره وحزنه، رسول الله «فتشفع بذلك، فهي الكلمات».

وقالت طائفة: «إن المراد بالكلمات ندمه واستغفاره وحزنه، وسماها كلمات مجازاً لما هي في خلقها

صادرة عن كلمات، وهي كن في كل واحدة منهن، وهذا قول يقتضي أن آدم لم يقل شيئاً إلا الاستغفار المعهود.

وسئل بعض سلف المسلمين عما ينبغي أن يقوله المذنب، فقال: يقول ما قال أبواه، ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾. وما قال موسى: ﴿رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي﴾. [القصص: ١٦]. وما قال يونس: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾. [الأنبياء: ٨٧].

و﴿تاب عليه﴾ معناه رجع به، والتوبة من الله تعالى الرجوع على عبده بالرحمة والتوفيق، والتوبة من العبد الرجوع عن المعصية والندم على الذنب مع تركه فيما يستأنف وإنما خص الله تعالى آدم بالذكر هنا في التلقي والتوبة، وحواء مشاركة له في ذلك بإجماع لأنه المخاطب في أول القصة بقوله: ﴿اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ فلذلك كملت القصة بذكره وحده، وأيضاً فلأن المرأة حرمة ومستورة فأراد الله الستر لها، ولذلك لم يذكرها في المعصية في قوله: ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ [طه: ١٢١].

وروي أن الله تعالى تاب على آدم في يوم عاشوراء.

وكنية آدم أبو محمد، وقيل أبو البشر.

وقرأ الجمهور: «إنه» بكسر الألف على القطع.

وقرأ ابن أبي عقرب: «أنه» بفتح الهمزة على معنى لأنه، وبنية ﴿التواب﴾ للمبالغة والتكثير، وفي قوله تعالى: ﴿إنه هو التواب الرحيم﴾ تأكيد فائدته أن التوبة على العبد إنما هي نعمة من الله، لا من العبد وحده لثلاث يعجب التائب، بل الواجب عليه شكر الله تعالى في توبته عليه، وكرر الأمر بالهبوط لما علق بكل أمر منهما حكماً غير حكم الآخر، فعلق بالأول العداوة، وعلق بالثاني إتيان الهدى. وقيل: كرر الأمر بالهبوط على جهة تغليظ الأمر وتأكيده، كما تقول لرجل قم قم.

وحكى النقاش: أن الهبوط الثاني إنما هو من الجنة إلى السماء، والأول في ترتيب الآية إنما هو إلى الأرض، وهو الآخر في الوقوع، فليس في الأمر تكرار على هذا، و﴿جميعاً﴾ حال من الضمير في ﴿اهبطوا﴾، وليس بمصدر ولا اسم فاعل، ولكنه عوض منها دال عليهما، كأنه قال هبوطاً جميعاً، أو هابطين جميعاً، واختلف في المقصود بهذا الخطاب، فقيل آدم وحواء وإبليس وذريتهم، وقيل ظاهره العموم ومعناه الخصوص في آدم وحواء، لأن إبليس لا يأتيه هدى، وخوطبوا بلفظ الجمع تشريفاً لهما، والأول أصح لأن إبليس مخاطب بالإيمان بإجماع، و﴿إن﴾ في قوله ﴿فإيماً﴾ هي للشرط دخلت ما عليها مؤكدة ليصح دخول النون المشددة، فهي بمثابة لام القسم التي تجيء لتجيء النون، وفي قوله تعالى: ﴿مني﴾ إشارة إلى أن أفعال العباد خلق الله تعالى. واختلف في معنى قوله ﴿هدى﴾، فقيل: بيان وإرشاد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصواب أن يقال: بيان ودعاء.

وقالت فرقة: الهدى الرسل، وهي إلى آدم من الملائكة وإلى بنيه من البشر: هو فمن بعده.

وقوله تعالى: ﴿فمن تبع هداي﴾ شرط جوابه فلا خوف عليهم.

قال سيويه: الشرط الثاني وجوابه هما جواب الأول في قوله: ﴿فَإِذَا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾.

وحكي عن الكسائي أن قوله: ﴿فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ﴾ جواب الشرطين جميعاً.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: حكي هذا وفيه نظر، ولا يتوجه أن يخالف سيويه هنا، وإنما الخلاف في نحو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا إِنَّ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ﴾ [الواقعة: ٨٩]. فيقول سيويه: «جواب أحد الشرطين محذوف لدلالة قوله: (فروح) عليه» ويقول الكوفيون: «فروح جواب الشرطين».

قال القاضي أبو محمد: وأما في هذه الآية فالمعنى يمنع أن يكون ﴿فَلَا خَوْفَ﴾ جواباً للشرطين.

وقرأ الجحدري وابن أبي إسحاق: ﴿هَدَى﴾ وهي لغة هذيل.

قال أبو ذؤيب يرثي بنه: [الكامل].

سبقوا هويًى وأعنقوا لهواهم فتخرموا، ولكل جنبٍ مصرع

وكذلك يقولون عصى وما أشبهه، وعلة هذه اللغة أن ياء الإضافة من شأنها أن يكسر ما قبلها، فلما لم يصح في هذا الوزن كسر الألف الساكنة أبدلت ياء وأدغمت.

وقرأ الزهري ويعقوب وعيسى الثقفي: «فلا خوف عليهم» نصب بالتبعية ووجهه أنه أعم وأبلغ في رفع الخوف، ووجه الرفع أنه أعدل في اللفظ لينعطف المرفوع من قولهم ﴿يَحْزَنُونَ﴾ على مرفوع، «ولا» في قراءة الرفع عاملة عمل ليس.

وقرأ ابن مجيبين باختلاف عنه «فلا خوف» بالرفع وترك التنوين وهي على أن تعمل «لا» عمل ليس، لكنه حذف التنوين تخفيفاً لكثرة الاستعمال، ويحتمل قوله تعالى: ﴿لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ﴾ أي فيما بين أيديهم من الدنيا، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم منها، ويحتمل أن ﴿لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ﴾ يوم القيامة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فيه، ويحتمل أن يريد أنه يدخلهم الجنة حيث لا خوف ولا حزن.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، عطف جملة مرفوعة على جملة مرفوعة، وقال ﴿وَكَذَبُوا﴾ وكان في الكفر كفاية لأن لفظة كفروا يشترك فيها كفر النعم وكفر المعاصي، ولا يجب بهذا خلود فبين أن الكفر هنا هو الشرك، بقوله ﴿وَكَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ والآية هنا يحتمل أن يريد المتلوة، ويحتمل أن يريد العلامة المنصوبة، وقد تقدم في صدر هذا الكتاب القول على لفظ آية، و﴿أُولَئِكَ﴾ رفع بالابتداء و﴿أَصْحَابُ﴾ خبره، والصحبة الاقتران بالشيء في حالة ما، في زمن ما، فإن كانت الملازمة والخلطة فهو كمال الصحة، وهكذا هي صحبة أهل النار لها، وبهذا القول ينفك الخلاف في تسمية الصحابة رضي الله عنهم إذ مراتبهم متباينة، أقلها الاقتران في الإسلام والزمن، وأكثرها الخلطة والملازمة، و﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، ابتداء وخبر في موضع الحال.

قوله عز وجل:

يَبْنَیْ اِسْرَءِیْلَ اَذْكُرُوْا نِعْمَتِیَ الَّتِیْ اَنْعَمْتُ عَلَیْكُمْ وَاَوْفُوا بِعَهْدِیْ اَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَاِیْنِیْ فَاَرْهَبُوْنَ ﴿١٠﴾

وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ ﴿٤١﴾

﴿يا﴾ حرف نداء مضمن معنى التنبيه.

قال الخليل: «والعامل في المنادى فعل مضمَر كأنه يقول: أريد أو أدعو».

وقال أبو علي الفارسي: العامل حرف النداء عصب به معنى الفعل المضمر فقوي فعمل، ويدل على ذلك أنه ليس في حروف المعاني ما يلتزم بانفراده مع الأسماء غير حرف النداء، و﴿بني﴾ منادى مضاف و﴿إسرائيل﴾ هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وهو اسم أعجمي يقال فيه إسرايل وإسرائيل وإسرائل، وتميم تقول إسرائيلين، وإسرا هو بالعبرانية عبد وإيل اسم الله تعالى فمعناه عبد الله.

وحكى المهدوي أن - إسرا - مأخوذ من الشدة في الأسر كأنه الذي شد الله أسره وقوى خلقته.

وروي عن نافع والحسن والزهري وابن أبي إسحاق ترك همز إسرائيل، والذكر في كلام العرب على أنحاء، وهذا منها ذكر القلب الذي هو ضد النسيان، والنعمة هنا اسم الجنس فهي مفردة بمعنى الجمع، وتحركت الياء من ﴿نعمتي﴾ لأنها لقيت الألف واللام، ويجوز تسكينها، وإذا سكنت حذفت للالتقاء وفتحها أحسن لزيادة حرف في كتاب الله تعالى، وخصص بعض العلماء النعمة في هذه الآية.

فقال الطبري: «بعثة الرسل منهم وإنزال المن والسلوى، وإنقاذهم من تعذيب آل فرعون، وتفجير الحجر».

وقال غيره: «النعمة هنا أن دركهم مدة محمد صلى الله عليه وسلم».

وقال آخرون: «هي أن منحهم علم التوراة وجعلهم أهله وحملته».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه أقوال على جهة المثال، والعموم في اللفظة هو الحسن.

وحكى مكي: أن المخاطب من بني إسرائيل بهذا الخطاب هم المؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم، لأن الكافر لا نعمة لله عليه.

وقال ابن عباس وجمهور العلماء: بل الخطاب لجميع بني إسرائيل في مدة النبي عليه السلام، مؤمنهم وكافرهم، والضمير في ﴿عليكم﴾ يراد به على آبائكم كما تقول العرب ألم نهزمكم يوم كذا لوقعة كانت بين الآباء والأجداد، ومن قال إنما خطب المؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم استقام الضمير في ﴿عليكم﴾ ويجيء كل ما توالى من الأوامر على جهة الاستدامة.

وقوله تعالى: ﴿وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾ أمر وجوابه.

فقال الخليل: «جزم الجواب في الأمر من معنى الشرط، والوفاء بالعهد هو التزام ما تضمن من فعل».

وقرأ الزهري: «أَوْفَ» بفتح الواو وشد الفاء للتكثير.

واختلف المتأولون في هذا العهد إليهم فقال الجمهور ذلك عام في جميع أوامره ونواهيه ووصاياه فيدخل في ذلك ذكر محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة، وقيل العهد قوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣، ٩٣]، وقال ابن جريج: العهد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [المائدة: ١٢]، وعهدهم هو أن يدخلهم الجنة، ووفأؤهم بعهد الله أمانة لوفاء الله تعالى لهم بعهدهم، لا علة له، لأن العلة لا تتقدم المعلول.

وقوله تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُون﴾ الاسم إيا والياء ضمير ككاف المخاطب، وقيل ﴿إِيَّايَ﴾ بجملته هو الاسم، وهو منصوب بإضمار فعل مؤخر، تقديره: وإيائي ارهبوا فارهبون، وامتنع أن يتقدم مقدماً لأن الفعل إذا تقدم لم يحسن أن يتصل به إلا ضمير خفيف، فكان يجيء وارهبون، والرهبة يتضمن الأمر بها معنى التهديد وسقطت الياء بعد النون لأنها رأس آية.

وقرأ ابن أبي إسحاق بالياء، ﴿وَأَمْنُوا﴾ معناه صدقوا، و﴿مُصَدِّقًا﴾ نصب على الحال من الضمير في ﴿أُنْزِلَتْ﴾، وقيل من «ما»، والعامل فيه ﴿أَمْنُوا﴾ وما أنزلت كناية عن القرآن، و﴿لَمَّا مَعَكُمْ﴾ يعني من التوراة وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ هذا من مفهوم الخطاب الذي: المذكور فيه والمسكوت عنه حكمهما واحد، فالأول والثاني وغيرهما داخل في النهي، ولكن حذروا البدار إلى الكفر به إذ على الأول كفل من فعل المقتدى به، ونصب أول على خبر كان.

قال سيبويه: ﴿أَوَّلَ﴾ أفعل لا فعل له لاعتلال فائه وعينه «قال غير سيبويه: «هو أوأل من وأل إذا نجا، خففت الهمزة وأبدلت واواً وأدغمت».

وقيل: إنه من آل فهو أول قلب فجاء وزنه أفعِل، وسهل وأبدل وأدغم، ووجد كافر وهو بنية الجمع لأن أفعل إذا أضيف إلى اسم متصرف من فعل جاز أفراد ذلك الاسم، والمراد به الجماعة.

قال الشاعر: [الكامل]

وَإِذَا هُمْ طَعَمُوا فَأَلَأْمُ طَاعِمٍ وَإِذَا هُمْ جَاعُوا فَشَرُّ جِيَاعٍ

وسيبويه يرى أنها نكرة مختصرة من معرفة كأنه قال ولا تكونوا أول كافرين به وقيل معناه: ولا تكونوا أول فريق كافر به.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وقد كان كفر قبلهم كفار قريش، فإنما معناه من أهل الكتاب، إذ هم منظور إليهم في مثل هذا، لأنهم حجة مظنون بهم علم، واختلف في الضمير في ﴿بِهِ﴾ على من يعود، فقيل على محمد عليه السلام، وقيل على التوراة إذ تضمنها قوله: ﴿لَمَّا مَعَكُمْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذا القول يجيء ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ مستقيماً على ظاهره في الأولية، وقيل الضمير في ﴿بِهِ﴾ عائد على القرآن، إذ تضمنه قوله ﴿بِمَا أُنْزِلَتْ﴾.

واختلف المتأولون في الثمن الذي نهوا أن يشتروه بالآيات، فقالت طائفة: إن الأحبار كانوا يعلمون

دينهم بالأجرة، فنهوا عن ذلك وفي كتبهم: علم مجاناً كما علمت مجاناً أي باطلاً بغير أجره.

وقال قوم: كانت للأخبار مأكلة يأكلونها على العلم كالراتب فنهوا عن ذلك.

وقال قوم: إن الأخبار أخذوا رشى على تغيير قصة محمد عليه السلام في التوراة، ففي ذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٤١، المائدة: ٤٤].

وقال قوم: معنى الآية ولا تشتروا بأوامري ونواهي وآياتي ثمنًا قليلًا، يعني الدنيا ومدتها والعيش الذي هو نزر لا خطر له، وقد تقدم نظير قوله ﴿وَأَيُّ فَاتِقُونَ﴾ وبين ﴿اتَّقُونَ﴾ و﴿ارْهَبُونَ﴾ فرق، إن الرهبة مقرون بها وعيد بالغ.

قوله عز وجل:

وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ وَالْأَنفُسِ وَتَنَسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوْنَ رَبَّهُمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾

المعنى ولا تخلطوا، يقال «لَبَسْتُ الأمر» بفتح الباء البسه، إذا خلطته ومزجت بينه بمشكله وحقه بباطله.

وأما قول الشاعر:

وكتيبة لبستها بكتيبة

فالظاهر أنه من هذا المعنى، ويحتمل أن يكون المعنى من اللباس، واختلف أهل التأويل في المراد بقوله: ﴿الحق بالباطل﴾.

فقال أبو العالية: «قالت اليهود: محمد نبي مبعوث، لكن إلى غيرنا، فإقراهم ببعثه حق وجحدهم أنه بعث إليهم باطل».

وقال الطبري: «كان من اليهود منافقون فما أظهروا من الإيمان حق، وما أبطنوا من الكفر باطل».

وقال مجاهد: «معناه لا تخلطوا اليهودية والنصرانية بالإسلام».

وقال ابن زيد: المراد ﴿بالحق﴾ التوراة، و﴿الباطل﴾ ما بدلوا فيها من ذكر محمد عليه السلام، و﴿تلبسوا﴾ جزم بالنهي، و﴿وتكتموا﴾ عطف عليه في موضع جزم، ويجوز أن يكون في موضع نصب بإضمار «أن»، وإذا قدرت «أن» كانت مع ﴿تكتموا﴾ بتأويل المصدر، وكانت الواو عاطفة على مصدر مقدر من ﴿تلبسوا﴾، كأن الكلام ولا يكن لبسكم الحق بالباطل وكتمانكم الحق.

وقال الكوفيون: ﴿تكتموا﴾ نصب بواو الصرف، و﴿الحق﴾ يعني به أمر محمد صلى الله عليه وسلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جملة في موضع الحال ولم يشهد لهم تعالى بعلم وإنما نهاهم عن كتمان ما علموا، ويحتمل أن تكون شهادة عليهم بعلم حق مخصوص في أمر محمد عليه السلام، ولم يشهد لهم بالعلم على الإطلاق ولا تكون الجملة على هذا في موضع الحال، وفي هذه الألفاظ دليل على تغليظ الذنب على من واقعه على علم، وأنه أعصى من الجاهل.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ معناه: أظهروا هيئتها وأديموها بشروطها، وذلك تشبيه بإقامة القاعد إلى حال ظهور، ومنه قول الشاعر: [الكامل]

وَإِذَا يُقَالُ أَتَيْتُمْ لَمْ يَبْرَحُوا حَتَّى تَقِيمَ الْخَيْلُ سَوْقَ طَعَانٍ

وقد تقدم القول في الصلاة، و﴿الزكاة﴾ في هذه الآية هي المفروضة بقرينة إجماع الأمة على وجوب الأمر بها، و﴿الزكاة﴾ مأخوذة من زكا الشيء إذا نما وزاد، وسمي الإخراج من المال زكاة وهو نقص منه من حيث ينمو بالبركة أو بالأجر الذي يثيب الله به المزكي وقيل ﴿الزكاة﴾ مأخوذة من التطهير، كما يقال زكا فلان أي طهر من دنس الجرحه أو الأغفال، فكأن الخارج من المال يطهره من تبعة الحق الذي جعل الله فيه للمساكين، ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم سمى في الموطأ ما يخرج في الزكاة أوساخ الناس.

وقوله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ قال قوم: جعل الركوع لما كان من أركان الصلاة عبارة عن الصلاة كلها.

وقال قوم: إنما خص الركوع بالذكر لأن بني إسرائيل لم يكن في صلاتهم ركوع.

وقالت فرقة: إنما قال ﴿مع﴾ لأن الأمر بالصلاة أولاً لم يقتض شهد الجماعة، فأمرهم بقوله ﴿مع﴾ بشهود الجماعة، والركوع في اللغة الانحناء بالشخص.

قال لبيد: [الطويل]

أَخْبَرَ أَخْبَارُ الْقُرُونِ الَّتِي مَضَتْ أَدْبُ كَأَنِّي كُلَّمَا قُمْتُ رَاكِعٌ

ويستعار أيضاً في الانحطاط في المنزلة، قال الأضبط بن قريع: [الخفيف]

لَا تَعَادُ الضَّعِيفُ عِلْكَ أَنْ تَرَى كَعِ يَوْمًا وَالْدَّهْرُ قَدْ رَفَعَهُ

وقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ﴾ خرج مخرج الاستفهام، ومعناه التوبيخ، و«البر» يجمع وجوه الخير والطاعات ويقع على كل واحد منها اسم بر، ﴿وتتسون﴾ بمعنى تتركون كما قال الله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

واختلف المتأولون في المقصود بهذه الآية، فقال ابن عباس: «كان الأحبار يأمرُونَ أتباعهم ومقلديهم باتباع التوراة، وكانوا هم يخالفونها في جحدهم منها صفة محمد صلى الله عليه وسلم».

وقالت فرقة: كان الأحبار إذا استرشدتهم أحد من العرب في اتباع محمد دلوه على ذلك، وهم لا يفعلونه.

وقال ابن جريج: «كان الأحبار يحضون الناس على طاعة الله، وكانوا هم يواقعون المعاصي». وقالت فرقة: كانوا يحضون على الصدقة ويخلون.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تُلُونُ﴾ معناه: تدرسون وتقرؤون، ويحتمل أن يكون المعنى تتبعون أي في الاقتداء به، و﴿الكتاب﴾ التوراة وهي تنهاهم عما هم عليه من هذه الصفة الذميمة.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ معناه: أفلا تمنعون أنفسكم من مواجهة هذه الحال المردية لكم؟ والعقل: الإدراك المانع من الخطأ مأخوذ منه عقل البعير، أي يمنعه من التصرف، ومنه المعقل أي موضع الامتناع.

وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ قال مقاتل: «معناه على طلب الآخرة».

وقال غيره: المعنى استعينوا بالصبر عن الطاعات وعن الشهوات على نيل رضوان الله، وبالصلاة على نيل الرضوان وحط الذنوب، وعلى مصائب الدهر أيضاً، ومنه الحديث: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كربه أمر فزع إلى الصلاة، ومنه ما روي أن عبد الله بن عباس نعي إليه أخوه قثم، وهو في سفر، فاسترجع وتنحى عن الطريق وصلى ثم انصرف إلى راحلته، وهو يقرأ ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾.

وقال مجاهد: الصبر في هذه الآية الصوم، ومنه قيل لرمضان شهر الصبر، وخص الصوم والصلاة على هذا القول بالذكر لتناسبهما في أن الصيام يمنع الشهوات ويزهد في الدنيا، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وتخضع. ويقرأ فيها القرآن الذي يذكر بالآخرة.

وقال قوم: «الصبر» على بابه، ﴿والصلاة﴾ الدعاء، ونحيى هذه الآية على هذا القول مشبهة لقوله تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [الأنفال: ٤٥] لأن الثبات هو الصبر، وذكر الله هو الدعاء.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَكَبِيرَةٌ﴾ على أي شيء يعود الضمير؟ فقيل على ﴿الصلاة﴾، وقيل على الاستعانة التي يقتضيها قوله ﴿وَاسْتَعِينُوا﴾، وقيل على العبادة التي يتضمنها بالمعنى ذكر الصبر والصلاة.

وقالت فرقة: على إجابة محمد صلى الله عليه وسلم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا ضعف، لأنه لا دليل له من الآية عليه.

وقيل: يعود الضمير على الكعبة، لأن الأمر بالصلاة إنما هو إليها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أضعف من الذي قبله.

و«كبيرة» معناه ثقيلة شاقة، والخاصعون المتواضعون المختبئون، والخشوع هيئة في النفس يظهر منها على الجوارح سكون وتواضع.

و﴿يظنون﴾ في هذه الآية قال الجمهور: معناه يوقنون.

وحكى المهدوي وغيره: أن الظن هنا يصح أن يكون على بابه، ويضم في الكلام بذنوبهم، فكأنهم يتوقعون لقاءه مذنبين.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وهذا تعسف، والظن في كلام العرب قاعدته الشك مع ميل إلى أحد معتقديه، وقد يوقع الظن موقع اليقين في الأمور المتحققة، لكنه لا يوقع فيما قد خرج إلى الحس، لا تقول العرب في رجل مرئي حاضر أظن هذا إنساناً وإنما تجد الاستعمال فيما لم يخرج إلى الحس بعد، كهذه الآية، وكقوله تعالى: ﴿فَظَنُوا أَنَّهُمْ مَوَاعِقُهُا﴾ [الكهف: ٥٣] وكقول دريد بن الصمة: [الطويل]

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج سراتهم بالفارسي المسرد

وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ مَلَاقُو رَبَّهُمْ﴾ أن وجملتها تسد مسد مفعولي الظن، والملاقاة هي للعقاب أو الثواب، ففي الكلام حذف مضاف، ويصح أن تكون الملاقاة هنا بالرؤية التي عليها أهل السنة، وورد بها متواتر الحديث.

وحكى المهدوي: أن الملاقاة هنا مفاعلة من واحد، مثل عافاك الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ضعيف، لأن لقي يتضمن معنى لاقى، وليست كذلك الأفعال كلها، بل فعل خلاف فاعل في المعنى.

﴿وملاقو﴾ أصله ملاقون، لأنه بمعنى الاستقبال فحذفت النون تخفيفاً، فلما حذفت تمكنت الإضافة لمناسبتها للأسماء، وهي إضافة غير محضة، لأنها لا تعرف.

وقال الكوفيون: ما في اسم الفاعل الذي هو بمعنى المجيء من معنى الفعل يقتضي إثبات النون وإعماله، وكونه وما بعده اسمين يقتضي حذف النون والإضافة.

و﴿راجعون﴾ قيل: نعناه بالموت وقيل بالحشر والخروج إلى الحساب والعرض، وتقوي هذا القول الآية المتقدمة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨، الحج: ٦٦، الروم: ٤٠] والضمير في ﴿إليه﴾ عائذ على الرب تعالى، وقيل على اللقاء الذي يتضمنه ﴿ملاقو﴾.

قوله عز وجل:

يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ بَخَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾

قد تكرر هذا النداء والتذكير بالنعمة، وفائدة ذلك أن الخطاب الأول يصح أن يكون للمؤمنين، ويصح أن يكون للكافرين منهم، وهذا المتكرر إنما هو للكافرين، بدلالة ما بعده، وأيضاً فإن فيه تقوية التوقيف وتأكيد الحض على ذكر أيادي الله وحسن خطابهم بقوله: ﴿فضلتكم على العالمين﴾ لأن تفضيل آبائهم وأسلافهم تفضيل لهم، وفي الكلام اتساع.

قال قتادة وابن زيد وابن جريج وغيرهم: المعنى على عالم زمانهم الذي كانت فيه النبوة المتكررة والملك، لأن الله تعالى يقول لأمة محمد صلى الله عليه وسلم: «كنتم خير أمة أخرجت للناس».

وقوله عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ نصب يومًا بـ ﴿اتَّقُوا﴾ على السعة، والتقدير عذاب يوم، أو هول يوم، ثم حذف ذلك وأقام اليوم مقامه، ويصح أن يكون نصبه على الظرف لا للتقوى، لأن يوم القيامة ليس بيوم عمل، ولكن معناه: جيئوا متقين يومًا. و﴿لا تجزي﴾ معناه: لا تغني.

وقال السدي: معناه لا تقضي، ويقويه قوله ﴿شيئًا﴾ وقيل المعنى: لا تكافيء، ويقال: جزي وأجزأ بمعنى واحد، وقد فرق بينهما قوم، فقالوا: جزي بمعنى: قضى وكافأ، وأجزأ بمعنى أغنى وكفى.

وقرأ أبو السمال «تجزيء» بضم التاء والهمز، وفي الكلام حذف.

وقال البصريون: التقدير لا تجزي فيه، ثم حذف فيه.

وقال غيرهم: حذف ضمير متصل بـ ﴿تجزي﴾ تقديره لا تجزيه، على أنه يقبح حذف هذا الضمير في الخبر، وإنما يحسن في الصلة.

وقال بعض البصريين: التقدير لا تجزي فيه، فحذف حرف الجر واتصل الضمير، ثم حذف الضمير بتدريج.

وقوله تعالى: ﴿ولا تقبل منها شفاعة﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: بالتاء، وقرأ الباقر: بالياء من تحت على المعنى إذ تأنيت الشفاعة ليس بحقيقي، والشفاعة مأخوذة من الشفع وهما الاثنان لأن الشافع والمشفع له شفع، وكذلك الشفع فيما لم يقسم.

وسبب هذه الآية أن بني إسرائيل قالوا: نحن أبناء الله وأبناء أنبيائه وسيشفع لنا آباؤنا، فأعلمهم الله تعالى عن يوم القيامة أنه لا تقبل فيه الشفاعة، و﴿لا تجزي نفس عن نفس﴾، وهذا إنما هو في الكافرين، للإجماع وتواتر الحديث بالشفاعة في المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿ولا يؤخذ منها عدل﴾، قال أبو العالية: «العدل الفدية».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وعدل الشيء هو الذي يساويه قيمة وقدراً وإن لم يكن من جنسه، «والعدل» بكسر العين هو الذي يساوي الشيء من جنسه وفي جرمه.

وحكى الطبري أن من العرب من يكسر العين من معنى الفدية، فأما واحد الأعدال فبالكسر لا غير، والضمير في قوله ﴿ولا هم﴾ عائد على الكافرين الذين اقتضتهم الآية، ويحتمل أن يعود على النفسين المتقدم ذكرهما، لأن اثنين جمع، أو لأن النفس للجنس وهو جمع، وحصرت هذه الآية المعاني التي اعتادها بنو آدم في الدنيا، فإن الواقع في شدة مع آدمي لا يتخلص إلا بأن يشفع له أو ينصر أو يفتدى.

وقوله تعالى: ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون﴾ أي خلصناكم، و﴿آل﴾ أصله أهل، قلبت الهاء ألفاً كما عمل في ماء، ولذلك ردها التصغير إلى الأصل، فقيل أهيل، مؤنثه، وقد قيل في ﴿آل﴾ إنه اسم غير أهل، أصله أول وتصغيره أويل، وإنما نسب الفعل إلى ﴿آل فرعون﴾ وهم إنما كانوا يفعلونه بأمره وسلطانهم لتوليهم ذلك بأنفسهم.

وقال الطبري رحمه الله: «ويقتضي هذا أن من أمره ظالم بقتل أحد فقتله المأمور فهو المأخوذ به، وآل الرجل قرابته وشيعته وأتباعه».

ومنه قول أراكة الثقفي: [الطويل]

فلا تبك ميتاً بعد ميتٍ أجنته عليّ وعباسٌ وآل أبي بكر

يعني المؤمنين الذين قبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم، والأشهر في ﴿آل﴾ أن يضاف إلى الأسماء لا إلى البقاع والبلاد، وقد يقال آل مكة، وآل المدينة، وفرعون اسم لكل من ملك من العمالة مصر، وفرعون موسى قيل اسمه مصعب بن الريان.

وقال ابن إسحاق: «اسمه الوليد بن مصعب».

وروي أنه كان من أهل اصطخر، ورد مصر فاتفق له فيها الملك، وكان أصل كون بني إسرائيل بمصر نزول إسرائيل بها زمن ابنه يوسف عليهما السلام.

و﴿يسومونكم﴾ معناه: يأخذونكم به ويلزمونكم إياه ومنه المساومة بالسلعة، وسامه خطة خسف و﴿يسومونكم﴾ إعرابه رفع على الاستئناف والجملة في موضع نصب على الحال، أي سائمين لكم سوء العذاب، ويجوز أن لا تقدر فيه الحال، ويكون وصف حال ماضية، و﴿سوء العذاب﴾ أشده وأصعبه.

قال السدي: «كان يصرفهم في الأعمال القذرة ويذبح الأبناء، ويستحيي النساء».

وقال غيره: صرفهم على الأعمال: الحرث والزراعة والبناء وغير ذلك، وكان قومه جنداً ملوكاً، وقرأ الجمهور «يذبحون» بشد الباء المكسورة على المبالغة، وقرأ ابن محيصن: «يذبحون» بالتخفيف، والأول أرجح إذ الذبح متكرر. كان فرعون على ما روي قد رأى في منامه ناراً خرجت من بيت المقدس فأحرقت بيوت مصر، فأولت له رؤياه أن مولوداً من بني إسرائيل ينشأ فيخرب ملك فرعون على يديه.

وقال ابن إسحاق وابن عباس وغيرهما: إن الكهنة والمنجمين قالوا لفرعون: قد أظلك زمن مولود من بني إسرائيل يخرب ملكك.

وقال ابن عباس أيضاً: إن فرعون وقومه تذكروا وعد الله لإبراهيم أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً، فأمر عند ذلك بذبح الذكور من المولودين في بني إسرائيل، وוכל بكل عشر نساء رجلاً يحفظ من يحمل منهن.

وقيل: «وكل بذلك القوابل».

وقالت طائفة: معنى «يذبحون أبناءكم» يذبحون الرجال ويسمون أبناء لما كانوا كذلك، واستدل هذا القائل بقوله تعالى: «نساءكم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصحيح من التأويل أن الأبناء هم الأطفال الذكور، والنساء هم الأطفال الإناث، وعبر عنهن باسم النساء بالمآل، وليذكرهن بالاسم الذي في وقته يستخدمن ويمتهن،

ونفس الاستحياء ليس بعذاب، لكن العذاب بسببه وقع الاستحياء، و﴿يذبحون﴾ بدل من «يسومون». وقوله تعالى: ﴿وفي ذلكم﴾ إشارة إلى جملة الأمر، إذ هو خير فهو كمفرد حاضر، و﴿بلاء﴾ معناه امتحان واختبار، ويكون ﴿البلاء﴾ في الخير والشر.

وقال قوم: الإشارة ﴿بذلكم﴾ إلى التنجية من بني إسرائيل، فيكون ﴿البلاء﴾ على هذا في الخير، أي وفي تنجيتكم نعمة من الله عليكم.

وقال جمهور الناس: الإشارة إلى الذبح ونحوه، و﴿البلاء﴾ هنا في الشر، والمعنى وفي الذبح مكروه وامتحان.

وحكى الطبري وغيره في كيفية نجاتهم: أن موسى عليه السلام أوحى إليه أن يسري من مصر ببني إسرائيل فأمرهم موسى أن يستعبروا الحلي والمتاع من القبط، وأحل الله ذلك لبني إسرائيل، فسرى بهم موسى من أول الليل، فأعلم فرعون فقال لا يتبعنهم أحد حتى تصيح الديكة، فلم يصح تلك الليلة بمصر ديك حتى أصبح، وأمات الله تلك الليلة كثيراً من أبناء القبط فاشتغلوا في الدفن وخرجوا في الأتباع مشرقين، وذهب موسى إلى ناحية البحر حتى بلغه، وكانت عدة بني إسرائيل نيفاً على ستمائة ألف، وكانت عدة فرعون ألف ومائتي ألف.

وحكي غير هذا مما اختصرته لقلة ثبوته، فلما لحق فرعون موسى ظن بنو إسرائيل أنهم غير ناجين، فقال يوشع بن نون لموسى أين أمرت؟ فقال هكذا وأشار إلى البحر فركض يوشع فرسه فيه حتى بلغ الغمر، ثم رجع فقال لموسى أين أمرت؟ فوالله ما كذبت ولا كذبت، فأشار إلى البحر، وأوحى الله تعالى إليه: ﴿أن اضرب بعصاك البحر﴾ [الشعراء: ٦٣]. وأوحى إلى البحر أن انفرق لموسى إذا ضربك، فبات البحر تلك الليلة يضطرب فحين أصبح ضرب موسى البحر، وكنه أبا خالد فانفرك وكان ذلك في يوم عاشوراء. قوله عز وجل:

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعَجَلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَقَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾

﴿فرقنا﴾ معناه: جعلناه فرقاً، وقرأ الزهري «فرقنا» بتشديد الراء، ومعنى ﴿بكم﴾ بسبيكم، وقيل لما كانوا بين الفرق وقت جوازهم فكأنه بهم فرق، وقيل معناه لكم، والباء عوض اللام وهذا ضعيف، و﴿البحر﴾ هو بحر القلزم، ولم يفرق البحر عرضاً جزعاً من ضفة إلى ضفة، وإنما فرق من موضع إلى موضع آخر في ضفة واحدة، وكان ذلك الفرق بقرب موضع النجاة، ولا يلحق في البر إلا في أيام كثيرة بسبب جبال وأوعار حائلة.

وذكر العامري أن موضع خروجهم من البحر كان قريباً من برية فلسطين وهي كانت طريقهم.

وقيل انفلق البحر عرضاً وانفرد البحر على اثني عشر طريقاً، طريق لكل سبط فلما دخلوها قالت كل طائفة غرق أصحابنا وجزعوا، فقال موسى: اللهم أعني على أخلاقهم السيئة، فأوحى الله إليه أن أدر عصاك على البحر، فأدارها فصار في الماء فتوح كالطاق يرى بعضهم بعضاً، وجازوا، وجبريل صلى الله عليه وسلم في ساقته على ماذيانة يحث بني إسرائيل ويقول لآل فرعون: مهلاً حتى يلحق آخركم أولكم، فلما وصل فرعون إلى البحر أراد الدخول فنفر فرسه فتعرض له جبريل بالرمكة فاتبعها الفرس، ودخل آل فرعون وميكائيل يحثهم، فلما لم يبق إلا ميكائيل في ساقته على الضفة وحده انطبق البحر عليهم فغرقوا.

و﴿تنظرون﴾ قيل معناه بأبصاركم، لقرب بعضهم من بعض.

وقيل معناه ببصائرهم للاعتبار لأنهم كانوا في شغل عن الوقوف والنظر بالأبصار.

وقيل: إن آل فرعون طفوا على الماء فنظروا إليهم.

وقيل المعنى وأنتم بحال من ينظر لو نظر، كما تقول: هذا الأمر منك بمراى ومسمع، أي بحال تراه وتسمعه إن شئت.

قال الطبري رحمه الله: وفي إخبار القرآن على لسان محمد صلى الله عليه وسلم بهذه المغيبات التي لم تكن من علم العرب ولا وقعت إلا في خفي علم بني إسرائيل، دليل واضح عند بني إسرائيل وقائم عليهم بنوة محمد صلى الله عليه وسلم.

وقرأ الجمهور «واعدنا».

وقرأ أبو عمرو. «وعدنا»، ورجحه أبو عبيد، وقال: إن المواعدة لا تكون إلا من البشر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس هذا بصحيح، لأن قبول موسى لوعده الله والتزامه وارتقابه يشبه المواعدة، و﴿موسى﴾ اسم أعجمي لا ينصرف للمعجمة والتعريف، والقبط على ما يروى يقولون للماء «مو»، وللشجر «سا»، فلما وُجد موسى في التابوت عند ماء وشجر سُمي «موسى».

قال ابن إسحاق: هو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، ونصب أربعين على المفعول الثاني، ولا يجوز نصبها على الظرف في هذا الموضع، وهي فيما روي ذو القعدة وعشر ذي الحجة، وخص الليالي دون الأيام بالذكر إذ الليلة أقدم من اليوم وقبله في الرتبة، ولذلك وقع بها التاريخ.

قال النقاش: «وفي ذلك إشارة إلى صلة الصوم، لأنه لو ذكر الأيام لأمكن أن يعتقد أنه كان يفطر بالليل، فلما نص على الليالي اقتضت قوة الكلام أنه عليه السلام واصل أربعين ليلة بأيامها».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: حدثني أبي رضي الله عنه قال: سمعت الشيخ الزاهد الإمام الواعظ أبا الفضل بن الجوهري رحمه الله يعظ الناس بهذا المعنى في الخلوة بالله والدنونه في الصلاة ونحوه، وأن ذلك يشغل عن كل طعام وشراب ويقول: أين حال موسى في القرب من الله ووصال ثمانين من الدهر من قوله حين سار إلى الخضر لفتاه في بعض يوم: «آتنا غداءنا؟» وكل المفسرين على أن الأربعين كلها ميعاد.

وقال بعض البصريين : وَعَدَهُ رَأْسَ الْأَرْبَعِينَ لَيْلَةً .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف : وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمْ﴾ . قرأ أكثر السبعة بالإدغام .
وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية حفص عنه بإظهار الذال و ﴿ثُمَّ﴾ للمهلة ، ولتدل على أن الاتخاذ بعد المواعدة ، واتخذ وزنه افعل من الأخذ .

قال أبو علي : «هو من اتخذ لا من أخذ» وأنشد [المخرق العبدى] : [الطويل]

وَقَدْ تَخَذْتُ رَجُلِي إِلَى جَنْبِ غَرْزِهَا نَسِيفاً كَأَفْحَوْصِ الْقَطَاةِ الْمَطْرَقِ

ونصب ﴿العجل﴾ بـ ﴿اتخذتم﴾ ، والمفعول الثاني محذوف ، تقديره اتخذتم العجل إلهاً ، واتخذ قد يتعدى إلى مفعول واحد ، كقوله تعالى : ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ [الفرقان : ٢٧] وقد يتعدى إلى مفعولين أحدهما هو الآخر في المعنى كقوله تعالى : ﴿اتَّخَذُوا إِيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ [المجادلة : ١٦ ، المنافقون : ٢] ، وكهذه الآية وغيرها . والضمير في ﴿بعده﴾ يعود على موسى .

وقيل : على انطلاقه للتكليم ، إذ المواعدة تقتضيه .

وقيل : على الوعد ، وقصص هذه الآية أن موسى صلى الله عليه وسلم لما خرج ببني إسرائيل من مصر ، قال لهم : إن الله تعالى سينجيكم من آل فرعون وينفلكم حليهم ومتاعهم الذي كان أمرهم باستعارته ، وروي أنهم استعاروه برأيهم ، فنفلهم الله ذلك بعد خروجهم ، وقال لهم موسى عن الله تعالى : إنه ينزل عليّ كتاباً فيه التحليل والتحريم والهدى لكم ، فلما جازوا البحر طالبوا موسى بما قال لهم من أمر الكتاب ، فخرج لميعاد ربه وحده ، وقد أعلمهم بالأربعين ليلة ، فعدوا عشرين يوماً بعشرين ليلة ، ثم قالوا هذه أربعون من الدهر ، وقد أخلفنا الموعد ، وبدا تعنتهم وخلافهم .

وكان السامري رجلاً من بني إسرائيل يسمى موسى بن ظفر ، وقيل لم يكن من بني إسرائيل بل كان غريباً فيهم ، وكان قد عرف جبريل عليه السلام وقت عبرهم البحر ، فقالت طائفة : أنكر هيئته فعرف أنه ملك .

وقال طائفة : كانت أم السامري ولدته عام الذبح فجعلته في غار وأطبقت عليه ، فكان جبريل صلى الله عليه وسلم يغذوه بأصابع نفسه فيجد في إصبع لبناً ، وفي إصبع عسلاً ، وفي إصبع سمناً ، فلما رآه وقت جواز البحر عرفه ، فأخذ من تحت حافر فرسه قبضة تراب ، وألقى في روعه أنه لن يلقئها على شيء ويقول له كن كذا إلا كان ، فلما خرج موسى لميعاده قال هارون لبني إسرائيل : إن ذلك الحلي والمتاع الذي استعرتم من القبط لا يحل لكم ، فجيئوا به حتى تأكله النار التي كانت العادة أن تنزل على القرابين .

وقيل : بل أوقد لهم ناراً وأمرهم بطرح جميع ذلك فيها ، فجعلوا يطرحون .

وقيل : بل أمرهم أن يضعوه في حفرة دون نار حتى يجيء موسى ، وجاء السامري فطرح القبضة ، وقال كن عجلاً .

وقيل: إن السامري كان في أصله من قوم يعبدون البقر، وكان يعجبه ذلك.

وقيل: بل كانت بنو إسرائيل قد مرت مع موسى على قوم يعبدون البقر ﴿قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾ [الأعراف: ١٣٨]، فوعاها السامري وعلم أن من تلك الجهة يفتنون، ففتنت بنو إسرائيل بالعجل، وظلت منهم طائفة يعبدونه، فاعتزلهم هارون بمن تبعه، فجاء موسى من ميغاده فغضب حسبما يأتي قصصه في مواضعه من القرآن إن شاء الله.

ثم أوحى الله إليه أنه لن يتوب على بني إسرائيل حتى يقتلوا أنفسهم، ففعلت بنو إسرائيل ذلك، فروي أنهم لبسوا السلاح، من عبد منهم ومن لم يعبد وألقى الله عليهم الظلام، فقتل بعضهم بعضاً يقتل الأب ابنه والأخ أخاه، فلما استحر فيهم القتل وبلغ سبعين ألفاً عفا الله عنهم وجعل من مات منهم شهيداً، وتاب على البقية، فذلك قوله: ﴿ثم عفونا عنكم﴾.

وقال بعض المفسرين: وقف الذين عبدوا العجل صفاً ودخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسلاح فقتلوه.

وقالت طائفة: جلس الذين عبدوا بالأفنية، وخرج يوشع بن نون ينادي: ملعون من حل حبوته، وجعل الذين لم يعبدوا يقتلونهم، وموسى في خلال ذلك يدعو لقومه ويرغب في العفو عنهم، وإنما عوقب الذين لم يعبدوا بقتل أنفسهم على أحد الأقوال أو بقتلهم قراياتهم على الأقوال الأخر لأنهم لم يغيروا المنكر حين عبدوا العجل، وإنما اعتزلوا وكان الواجب عليهم أن يقاتلوا من عبده، و﴿أنتم ظالمون﴾ مبتدأ وخبر في موضع الحال، وقد تقدم تفسير الظلم، والعفو تغطية الأثر وإذهاب الحال الأولى من الذنب أو غيره، ولا يستعمل العفو بمعنى الصفح إلا في الذنب وعفا عنهم عز وجل أي عمن بقي منهم لم يقتل، و﴿لعلكم﴾ ترج لهم في حقهم وتوقع منهم لا في حق الله عز وجل، لأنه كان يعلم ما يكون منهم.

وقوله تعالى: ﴿وإذ آتينا موسى الكتاب﴾، ﴿إذ﴾ عطف على ما ذكر من النعم، و﴿الكتاب﴾ هو التوراة بإجماع من المتأولين.

واختلف في ﴿الفرقان﴾ هنا فقال الزجاج وغيره هو التوراة أيضاً كرر المعنى لاختلاف اللفظ، ولأنه زاد معنى التفرقة بين الحق والباطل، ولفظة الكتاب لا تعطي ذلك.

وقال آخرون: ﴿الكتاب﴾ التوراة، و﴿الفرقان﴾ سائر الآيات التي أوتي موسى صلى الله عليه وسلم، لأنها فرقت بين الحق والباطل.

وقال آخرون: ﴿الفرقان﴾: النصر الذي فرق بين حالهم وحال آل فرعون بالنجاة والغرق.

وقال ابن زيد: «الفرقان انفراق البحر له حتى صار فرقاً».

وقال الفراء وقطرب: معنى هذه الآية: آتينا موسى الكتاب ومحمداً الفرقان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

و﴿لعلكم تهتدون﴾ ترج وتوقع مثل الأول.

قوله عز وجل:

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ
فَأَقْبِلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَثَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ
يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّيْقَةُ وَأَنْتُمْ تُنظَرُونَ ﴿٥٥﴾

هذا القول من موسى صلى الله عليه وسلم كان بأمر من الله تعالى، وحذفت الياء في «يا قومي» لأن النداء موضع حذف وتخفيف، والضمير في «اتخاذكم» في موضع خفض على اللفظ، وفي موضع رفع بالمعنى، و«العجل» لفظة عربية، اسم لولد البقرة.

وقال قوم: سمي عجلاً لأنه استعجل قبل مجيء موسى عليه السلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس هذا القول بشيء.

واختلف هل بقي العجل من ذهب؟ قال ذلك الجمهور وقال الحسن بن أبي الحسن: صار لحماً ودماً، والأول أصح.

و«توبوا»: معناه ارجعوا عن المعصية إلى الطاعة.

وقرأ الجمهور: «بارئكم» بإظهار الهمزة وكسرها.

وقرأ أبو عمرو: «بارئكم» بإسكان الهمزة.

وروي عن سيبويه اختلاس الحركة وهو أحسن، وهذا التسكين يحسن في توالي الحركات.

وقال المبرد: لا يجوز التسكين مع توالي الحركات في حرف الإعراب، وقراءة أبي عمرو «بارئكم» لحن.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رحمه الله: وقد روي عن العرب التسكين في حرف الأعراب، قال الشاعر: [الرجز]

إذا اعوججن قلت صاحب قوم

وقال امرؤ القيس: [السريع]

فاليوم أشرب غير مستحب إثمًا من الله ولا واغل

وقال آخر: [الرجز]

قالت سليمي اشتر لنا سويقا

وقال الآخر: [السريع]

وقد بدا هنك من المئزر

وقال جرير:

ونهر تيري فما تعرفكمُ العربُ

وقال وضاح اليمى: [الرجز]

إنما شعري شهد قد خلط بجلجلان

ومن أنكر التسكين في حرف الإعراب فحجته أن ذلك لا يجوز من حيث كان علماً للإعراب.

قال أبو علي: وأما حركة البناء فلم يختلف النحاة في جواز تسكينها مع توالي الحركات.

وقرأ الزهري «باريكم» بكسر الياء من غير همز، ورويت عن نافع.

وقرأ قتادة: «فاقتالوا أنفسكم»: وقال: «هي من الاستقالة».

قال أبو الفتح: «اقتال» هذه افتعل، ويحتمل أن يكون عينها واواً كاققادوا، ويحتمل أن يكون ياء «كاقتاس» والتصريف يضعف أن تكون من الاستقالة، ولكن قتادة رحمه الله ينبغي أن يحسن الظن به في أنه لم يورد ذلك إلا بحجة عنده.

وقوله تعالى: «فتاب عليكم» قبله محذوف تقديره ففعلتم.

وقوله «عليكم» معناه: على الباقيين، وجعل الله تعالى القتل لمن قتل شهادة وتاب على الباقيين وعفا عنهم.

قال بعض الناس: «فاقتلوا» في هذه الآية معناه بالتوبة وإماتة عوارض النفوس من شهوة وتعتت وغضب، واحتج بقوله عليه السلام في الثوم والبصل فلتمتهما طبعاً، وبقول حسان: قتلت قتلت فهاتها لم تقتل

وقوله تعالى: «وإذ قلتم يا موسى يريد السبعين الذين اختارهم موسى، واختلف في وقت اختيارهم.

فحكى أكثر المفسرين أن ذلك بعد عبادة العجل، اختارهم ليستغفروا لبني إسرائيل.

وحكى النقاش وغيره أنه اختارهم حين خرج من البحر وطلب بالميعاد، والأول أصح، وقصة السبعين أن موسى صلى الله عليه وسلم لما رجع من تكليم الله ووجد العجل قد عبد قالت له طائفة ممن لم يعبد العجل: نحن لم نكفر ونحن أصحابك، ولكن أسمعنا كلام ربك، فأوحى الله إليه أن اختر منهم سبعين شيخاً، فلم يجد إلا ستين، فأوحى الله إليه أن اختر من الشباب عشرة، ففعل، فأصبحوا شيوخاً، وكان قد اختار ستة من كل سبط فزادوا اثنين على السبعين، فتشاحوا فيمن يتأخر، فأوحى الله إليه أن من تأخر له مثل أجر من مضى، فتأخر يوشع بن نون وطالوت بن يوقنا وذهب موسى عليه السلام بالسبعين بعد أن أمرهم أن يتجنبوا النساء ثلاثاً ويغتسلوا في اليوم الثالث، واستخلف هارون على قومه، ومضى حتى أتى الجبل، فألقي عليهم الغمام.

قال النقاش وغيره: غشيتهم سحابة وحيل بينهم وبين موسى بالنور فوقوا سجوداً.

قال السدي وغيره: وسمعوا كلام الله يأمر وينهى، فلم يطيقوا سماعه، واختلطت أذهانهم، ورجبوا أن يكون موسى يسمع ويعبر لهم، ففعل، فلما فرغ وخرجوا بدلت منهم طائفة ما سمعت من كلام الله فذلك قوله تعالى: ﴿وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه﴾ [البقرة: ٧٥]، واضطرب إيمانهم وامتنحهم الله بذلك فقالوا: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ ولم يطلبوا من الرؤية محالاً، أما إنه عند أهل السنة ممتنع في الدنيا من طريق السمع، فأخذتهم حينئذ الصاعقة فاحترقوا وماتوا موت همود يعتبر به الغير.

وقال قتادة: «ماتوا وذهبت أرواحهم ثم ردوا لاستيفاء آجالهم، فحين حصلوا في ذلك الهمود جعل موسى يناشد ربه فيهم ويقول: أي رب، كيف أرجع إلى بني إسرائيل دونهم فيهلكون ولا يؤمنون بي أبداً، وقد خرجوا معي وهم الأخيار».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يعني وهم بحال الخير وقت الخروج.

وقال قوم: بل ظن موسى عليه السلام أن السبعين إنما عوقبوا بسبب عبادة العجل، فذلك قوله ﴿أتهلكنا﴾ يعني السبعين ﴿بما فعل السفهاء منا﴾ [الأعراف: ١٥٥] يعني عبدة العجل.

وقال ابن فورك: يحتمل أن تكون معاقبة السبعين لإخراجهم طلب الرؤية عن طريقه، بقولهم لموسى «أرنا» وليس ذلك من مقدور موسى صلى الله عليه وسلم، و﴿جهرة﴾ مصدر في موضع الحال، والأظهر أنها من الضمير في ﴿نرى﴾، وقيل من الضمير في ﴿نؤمن﴾، وقيل من الضمير في ﴿قلتم﴾، والجهرة العلانية، ومنه الجهر ضد السر، وجهر الرجل الأمر كشفه.

وقرأ سهل بن شعيب وحמיד بن قيس: «جَهْرَة» بفتح الهاء، وهي لغة مسموعة عند البصريين فيما فيه حرف الحلق ساكناً قد انفتح ما قبله، والكوفيون يجيزون فيه الفتح وإن لم يسمعه.

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل أن يكون ﴿جهرة﴾ جمع جاهر، أي حتى نرى الله كاشفين هذا الأمر.

وقرأ عمر وعلي رضي الله عنهما: «فأخذتكم الصعقة»، ومضى في صدر السورة معنى ﴿الصاعقة﴾، والصعقة ما يحدث بالإنسان عند الصاعقة.

وتنظرون معناه إلى حالكم.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رحمه الله: حتى أحالهم العذاب وأزال نظرهم.

قوله عز وجل:

ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ

قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾

أجاب الله تعالى فيهم رغبة موسى عليه السلام وأحياءهم من ذلك الهمود أو الموت، ليستوفوا أجالهم، وتاب عليهم، والبعث هنا الإثارة كما قال الله تعالى: ﴿من بعثنا من مرقدنا﴾ [يس: ٥٢].

وقال قوم: إنهم لما أحيوا وأنعم عليهم بالتوبة سألوا موسى عليه السلام أن يجعلهم الله أنبياء، فذلك قوله تعالى: ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ أي أنبياء ﴿لعلكم تشكرون﴾ أي على هذه النعمة، والترجي إنما هو في حق البشر، ونزلت الألواح بالتوراة على موسى في تلك المدة، وهذا قول جماعة، وقال آخرون: إن الألواح نزلت في ذهابه الأول وحده.

وذكر المفسرون في تظليل الغمام: أن بني إسرائيل لما كان من أمرهم ما كان من القتل وبقي منهم من بقي حصلوا في فحص التيه بين مصر والشام، فأمروا بقتال الجبارين فعصوا وقالوا: ﴿فأذهب أنت وربك فقاتلا﴾ [المائدة: ٢٤] فدعا موسى عليهم فعوقبوا بالبقاء في ذلك الفحص أربعين سنة يتيهون في مقدار خمسة فراسخ أو ستة، روي أنهم كانوا يمشون النهار كله وينزلون للمبيت فيصبحون حيث كانوا بكررة أمس، فندم موسى عليه السلام على دعائه عليهم، ف قيل له: ﴿فلا تأس على القوم الفاسقين﴾ [المائدة: ٢٦].

وروي أنهم ماتوا بأجمعهم في فحص التيه، ونشأ بنوهم على خير طاعة، فهم الذين خرجوا من فحص التيه وقاتلوا الجبارين، وإذا كان جميعهم في التيه قالوا لموسى: من لنا بالطعام؟ قال: الله، فأنزل الله عليهم المن والسلوى، قالوا: من لنا من حر الشمس؟ فظلل عليهم الغمام، قالوا: بم نستصح بالليل؟ فضرب لهم عمود نور في وسط محلتهم، وذكر مكي: عمود نار. فقالوا: من لنا بالماء؟ فأمر موسى بضرب الحجر، قالوا: من لنا باللباس؟ فأعطوا أن لا يبلى لهم ثوب ولا يخلق ولا يدرن، وأن تنمو صغارها حسب نمو الصبيان.

ومعنى ﴿ظللنا﴾ جعلناه ظلاً، و﴿الغمام﴾ السحاب لأنه يغم وجه السماء أي يستره. وقال مجاهد: «هو أبرد من السحاب وأرق وأصفى، وهو الذي يأتي الله فيه يوم القيامة». قال القاضي أبو محمد عبد الحق رحمه الله: يأتي أمره وسلطانه وقضاؤه. وقيل ﴿الغمام﴾ ما ابيض من السحاب.

و﴿المن﴾ صمغة حلوة، هذا قول فرقة، وقيل: هو غسل، وقيل: شراب حلو، وقيل: الذي ينزل اليوم على الشجر، وقيل: ﴿المن﴾ خبز الرقاق مثل النقي. وقيل: هو الترنجبين وقيل الزنجبيل، وفي بعض هذه الأقوال بعد. وقيل: ﴿المن﴾ مصدر يعني به جميع ما من الله به مجملًا. وقال النبي صلى الله عليه وسلم في كتاب مسلم: الكمأة مما من الله به على بني إسرائيل وماؤها شفاء للعين.

فقيل: أراد عليه السلام أن الكمأة نفسها مما أنزل نوعها على بني إسرائيل.

وقيل: أراد أنه لا تعب في الكمأة ولا جذاذ ولا حصاد، فهي مئة دون تكلف من جنس من بني إسرائيل في أنه كان دون تكلف.

وروي أن ﴿المن﴾ كان ينزل عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس كالثلج فيأخذ منه الرجل ما يكفيه ليومه، فإن ادخر فسد عليه إلا في يوم الجمعة فإنهم كانوا يدخرون ليوم السبت فلا يفسد عليهم، لأن يوم السبت يوم عبادة، و﴿المن﴾ هنا اسم جمع لا واحد له من لفظه، ﴿والسلوى﴾ طير بإجماع من المفسرين، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس وغيرهم.

قيل: هو السمانى بعينه. وقيل: طائر يميل إلى الحمرة مثل السمانى، وقيل: طائر مثل الحمام تحشره عليهم الجنوب.

قال الأخفش: «السلوى جمعه وواحد بلفظ واحد». قال الخليل: ﴿السلوى﴾ جمع واحدته سلواة. قال الكسائي: ﴿السلوى﴾ واحدة جمعها سلاوى، ﴿والسلوى﴾ اسم مقصور لا يظهر فيه الإعراب، لأن آخره ألف، والألف حرف هوائي أشبه الحركة فاستحالت حركته ولو حرك لرجع حرفاً آخر، وقد غلط الهذلي فقال: [الطويل]

وقاسمها بالله عهداً لأنتم ألدُّ من السلوى إذا ما نشورها

ظن السلوى العسل.

وقوله تعالى: ﴿كلوا﴾ الآية، معناه وقلنا كلوا، فحذف اختصاراً لدلالة الظاهر عليه، والطيبات هنا قد جمعت الحلال واللذيذ.

وقوله تعالى: ﴿وما ظلمونا﴾ يقدر قبله: فعصوا ولم يقابلوا النعم بالشكر، والمعنى وما وضعوا فعلهم في موضع مضرة لنا ولكن وضعوه في موضع مضرة لهم حيث لا يجب.

وقال بعض المفسرين: ﴿ما ظلمونا﴾ ما نقصونا، والمعنى يرجع إلى ما لخصناه، و﴿القرية﴾ المدينة تسمى بذلك لأنها تقرت أي اجتمعت، ومنه قرئت الماء في الحوض أي جمعته، والإشارة بهذه إلى بيت المقدس في قول الجمهور. وقيل إلى أريحا، وهي قريب من بيت المقدس.

قال عمر بن شبة: كانت قاعدة ومسكن ملوك، ولما خرج ذرية بني إسرائيل من التيه أمروا بدخول القرية المشار إليها، وأما الشيوخ فماتوا فيه، وروي أن موسى صلى الله عليه وسلم مات في التيه، وكذلك هارون عليه السلام.

وحكى الزجاج عن بعضهم أن موسى وهارون لم يكونا في التيه لأنه عذاب، والأول أكثر، و﴿كلوا﴾ إباحة، وقد تقدم معنى الرغد، وهي أرض مباركة عظيمة الغلة، فلذلك قال ﴿رغداً﴾.

و﴿الباب﴾ قال مجاهد: هو باب في مدينة بيت المقدس يعرف إلى اليوم بباب حطة، وقيل هو باب

القة التي كان يصلي إليها موسى صلى الله عليه وسلم .

وروي عن مجاهد أيضاً: أنه باب في الجبل الذي كلم عليه موسى كالفرصة .

و﴿سجداً﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه: معناه ركوعاً، وقيل متواضعين خضوعاً لا على هيئة معينة، والسجود يعم هذا كله لأنه التواضع، ومنه قول الشاعر: [الطويل]

تري الأكم فيه سُجْداً للحوافر

وروي أن الباب خفض لهم ليقصر ويدخلوا عليه متواضعين، و﴿حطة﴾ فعلة من حط يحط، ورفعته على خبر ابتداء، كأنهم قالوا سألنا حطة لذنوبنا، هذا تقدير الحسن بن أبي الحسن .

وقال الطبري: التقدير دخولنا الباب كما أمرنا حطة، وقيل أمروا أن يقولوا مرفوعة على هذا اللفظ .

وقال عكرمة وغيره: أمروا أن يقولوا لا إله إلا الله لتحط بها ذنوبهم .

وقال ابن عباس: قيل لهم استغفروا وقولوا ما يحط ذنوبكم .

وقال آخرون: قيل لهم أن يقولوا هذا الأمر حق كما أعلمنا . وهذه الأقوال الثلاثة تقتضي النصب .

وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة: «حطة» بالنصب .

وحكي عن ابن مسعود وغيره: أنهم أمروا بالسجود وأن يقولوا ﴿حطة﴾ فدخلوا يزحفون على أستاههم ويقولون حطة حبة حمراء في شعرة، ويروى غير هذا من الألفاظ .

وقرأ نافع: «يُغفر» بالياء من تحت مضمومة .

وقرأ ابن عامر: «تُغفر» بالتاء من فوق مضمومة .

وقرأ أبو بكر عن عاصم: «يَغفر» بفتح الياء على معنى يغفر الله .

وقرأ الباقون: «نغفر» بالنون .

وقرأت طائفة «تغفر» كان الحطة تكون سبب الغفران، والقراء السبعة على ﴿خطاياكم﴾، غير أن الكسائي كان يميلها .

وقرأ الجحدري: «تُغفر لكم خطيئُتُكم» بضم التاء من فوق ويرفع الخطيئة .

وقرأ الأعمش: «يغفر» بالياء من أسفل مفتوحة «خطيئُتُكم» نصباً .

وقرأ قتادة مثل الجحدري، وروي عنه أنه قرأ بالياء من أسفل مضمومة خطيئُتُكم رفعاً .

وقرأ الحسن البصري: «يغفر لكم خطيئَاتُكم» أي يغفر الله .

وقرأ أبو حيوة: «تغفر» بالتاء من فوق مرفوعة «خطيئَاتُكم» بالجمع ورفع التاء .

وحكى الأهوازي: أنه قرأ «خطاياكم» بهمز الألف الأولى وسكون الأخيرة . وحكى أيضاً أنه قرأ بسكون الأولى وهمز الأخيرة .

قال الفراء: خطايا جمع خطية بلا همز كهدية وهدايا، وركية وركايا.

وقال الخليل: هو جمع خطيئة بالهمز، وأصله خطايىء قدمت الهمزة على الياء فجاء خطائي أبدلت الياء ألفاً بدلاً لازماً فانفتحت الهمزة التي قبلها فجاء خطاء، همزة بين ألفين، وهي من قبيلهما فكانها ثلاث ألفات، فقلبت الهمزة ياء فجاء خطايا.

قال سيبويه: «أصله خطايىء همزت الياء كما فعل في مدائن وكتائب فاجتمعت همزتان فقلبت الثانية ياء، ثم أعلت على ما تقدم».

وقوله تعالى: ﴿وَسَيُزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ عدة، المعنى إذا غفرت الخطايا بدخولكم وقولكم زيد بعد ذلك لمن أحسن، وكان من بني إسرائيل من دخل كما أمر وقال لا إله إلا الله ف قيل هم المراد بـ ﴿المحسين﴾ هنا. قوله عز وجل:

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ
يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ
مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُتُوبًا وَأَشْرَبُوا مِنْ رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي
الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

روي أنهم لما جاؤوا الباب دخلوا من قبل أدبارهم القهقري، وفي الحديث أنهم دخلوا يزحفون على آسماهم، وبدلوا فقالوا حبة في شعرة، وقيل قالوا حنطة حبة حمراء فيها شعرة وقيل شعيرة. وحكى الطبري أنهم قالوا حطي شمعائا أزية، وتفسيره ما تقدم.

والرجز العذاب، وقال ابن زيد ومقاتل وغيرهما: «إن الله تعالى بعث على الذين بدلوا ودخلوا على غير ما أمروا الطاعون فأذهب منهم سبعين ألفاً»، وقال ابن عباس: «أما الله منهم في ساعة واحدة نيافاً على عشرين ألفاً».

وقرأ ابن محيصن «رُجْزاً» بضم الراء، وهي لغة في العذاب، والرجز أيضاً اسم صنم مشهور. والباء في قوله ﴿بِمَا﴾ متعلقة بـ ﴿أَنْزَلْنَا﴾، وهي باء السبب.

و﴿يَفْسُقُونَ﴾ معناه يخرجون عن طاعة الله، وقرأ النخعي وابن وثاب «يَفْسِقُونَ» بكسر السين، يقال فسق يفسق ويفسق بضم السين وكسرهما.

﴿وَإِذْ﴾ متعلقة بفعل مضمر تقديره اذكر، و﴿أَسْتَسْقَى﴾ معناه طلب السقيا، وعرف استفعل طلب الشيء، وقد جاء في غير ذلك كقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ [التغابن: ٦] بمعنى غني، وقولهم: استعجب بمعنى عجب، ومثل بعض الناس في هذا بقولهم استنسر البغاث، واستنوق الجمل، إذ هي بمعنى انتقل من حال إلى حال، وكان هذا الاستسقاء في فحص التيه، فأمره الله تعالى بضرب الحجر آية

منه، وكان الحجر من جبل الطور، على قدر رأس الشاة يلقي في كسر جوالق ويرحل به، فإذا نزلوا وضع في وسط محلثهم وضربه موسى عليه السلام، وذكر أنهم لم يكونوا يحملون الحجر لكنهم كانوا يجدونه في كل مرحلة في منزلته من المرحلة الأولى، وهذا أعظم في الآية، ولا خلاف أنه كان حجراً منفصلاً مربعاً تطرد من كل جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى صلى الله عليه وسلم، وإذا استغنوا عن الماء ورحلوا جفت العيون، وفي الكلام حذف تقديره فضربه ﴿فانفجرت﴾، والانفجار انصداع شيء عن شيء، ومنه الفجر، والانجاس في الماء أقل من الانفجار.

و﴿اثنتا﴾ معربة دون أخواتها لصحة معنى التثنية، وإنما بيني واحد مع واحد، وهذه إنما هي اثنان مع واحد، فلو بنيت لرد ثلاثة واحداً، وجاز اجتماع علامتي التأنيث في قوله ﴿اثنتا عشرة﴾ لبعد العلامة من العلامة، ولأنهما في شيئين، وإنما منع ذلك في شيء واحد، نحو مسلمات وغيره.

وقرأ ابن وثاب وابن أبي ليلى وغيرهما: «عشرة» بكسر الشين، وروي ذلك عن أبي عمرو، والأشهر عنه الإسكان، وهي لغة تميم، وهو نادر، لأنهم يخفون كثيراً، وثقلوا في هذه، وقرأ الأعمش «عشرة» بفتح الشين وهي لغة ضعيفة، وروي عنه كسرهما وتسكينها، والإسكان لغة الحجاز.

و﴿عينا﴾ نصب على التمييز، والعين اسم مشترك، وهي هنا منبع الماء.

و﴿أناس﴾ اسم جمع لا واحد له من لفظه، ومعناه هنا كل سبط، لأن الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب، وهم ذرية الاثني عشر أولاد يعقوب عليه السلام.

والمشرب المفعول موضع الشرب، كالمشرع موضع الشروع في الماء، وكان لكل سبط عين من تلك العيون لا يتعدها، وفي الكلام محذوف تقديره وقلنا لهم كلوا المن والسلوى واشربوا الماء المنفجر من الحجر المنفصل، وبهذه الأحوال حسنت إضافة الرزق إلى الله تعالى، وإلا فالجميع رزقه وإن كان فيه تكسب للعبد.

﴿ولا تعثوا﴾ معناه ولا تفرطوا في الفساد، يقال عثى الرجل يعثي وعثي يعثي عثياً إذا أفسد أشد فساد، والأولى هي لغة القرآن والثانية شاذة وتقول العرب عثا يعثو عثوا ولم يقرأ بهذه اللغة لأنها توجب ضم الثاء من ﴿تعثوا﴾، وتقول العرب عاث يعيث إذا أفسد، وعث يعث كذلك، ومنه عثة الصوف، وهي السوسة التي تلحسه.

و﴿مفسدين﴾ حال، وتكرر المعنى لاختلاف اللفظ، وفي هذه الكلمات إباحة النعم وتعدادها، والتقدم في المعاصي والنهي عنها.

قوله عز وجل:

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْتِجُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ

أَهْطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَآسًا لَّكُمْ وَعُزِّيَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُ وَيَغْضَبُ مِنْ
 اللَّهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بَغْيًا حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا
 وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

كان هذا القول منهم في التيه حين ملوا المن والسلوى، وتذكروا عيشهم الأول بمصر، وكنى عن
 المن والسلوى ﴿بطعام واحد﴾، وهما طعامان، لأنهما كانا يؤكلان في وقت واحد، ولتكرارهما سواء أبداً
 قيل لهما ﴿طعام واحد﴾، ولغة بني عامر «فادع» بكسر العين.

و﴿يخرج﴾: جزم بما تضمنه الأمر من معنى الجزاء، وبنفس الأمر على مذهب أبي عمر الجرمي
 والمفعول على مذهب سيبويه مضمّر تقديره مأكولاً مما تنبت الأرض، وقال الأخفش: «من» في قوله:
 ﴿مما﴾ زائدة «وما» مفعولة، وأبى سيبويه أن تكون «من» ملغاة في غير النفي، كقولهم: ما رأيت من أحد،
 و﴿من﴾ في قوله: ﴿من بقلها﴾ لبيان الجنس، و﴿بقلها﴾ بدل بإعادة الحرف، والبقل كل ما تنبت الأرض
 من النجم، والقثاء جمع قثاة.

وقرأ طلحة بن مصرف ويحيى بن وثاب: «قثائها»، بضم القاف.

وقال ابن عباس وأكثر المفسرين: «الفوم الحنطة».

وقال مجاهد: «الفوم الخبز».

وقال عطاء وقتادة: «الفوم جميع الحبوب التي يمكن أن تختبز كالحنطة والفول والعدس ونحوه».

وقال الضحاك: «الفوم الثوم»، وهي قراءة عبد الله بن مسعود بالثاء، وروي ذلك عن ابن عباس،
 والثاء تبدل من الفاء، كما قالوا، مغائير ومغافير، وجدث وجدف، ووقعوا في عاثور شر، وعافور شر، على
 أن البدل لا يقاس عليه، والأول أصح: أنها الحنطة، وأنشد ابن عباس قول أحيحة بن الجلاح: [الطويل]

قد كنت أغنى الناس شخصاً واجداً ورد المدينة عن زراعة فوم

يعني حنطة.

قال ابن دريد: «الفوم الزرع أو الحنطة»، وأزد السراة يسمون السنبل فوماً، والاستبدال طلب وضع
 الشيء موضع الآخر، و﴿أدنى﴾ مأخوذ عند أبي إسحاق الزجاج من الدنو أي القرب في القيمة.

وقال علي بن سليمان: «هو مهموز من الدنيء البين الدناءة، بمعنى الأخس، إلا أنه خفت همزته».

وقال غيره: «هو مأخوذ من الدون أي الأحط، فأصله أدون أفعل، قلب فجاء أفعل، وقلبت الواو ألفاً
 لتطرفها».

وقرأ زهير للكسائي: «أدناً»، ومعنى الآية: أtestبدلون البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل التي هي
 أدنى بالمن والسلوى الذي هو خير؟ والوجه الذي يوجب فضل المن والسلوى على الشيء الذي طلبوه،

يحتمل أن يكون تفاضلها في القيمة، لأن هذه البقول لا خطر لها، وهذا قول الزجاج، ويحتمل أن يفضل المن والسلوى لأنه الطعام الذي من الله به وأمرهم بأكله، وفي استدامة أمر الله تعالى وشكر نعمته أجر وذخر في الآخرة، والذي طلبوا عارٍ من هذه الخصال، فكان أدنى من هذا الوجه، ويحتمل أن يفضل في الطيب واللذة به، فالبقول لا محالة أدنى من هذا الوجه، ويحتمل أن يفضل في حسن الغذاء ونفقه، فالمن والسلوى خير لا محالة في هذا الوجه، ويحتمل أن يفضل من جهة أنه لا كلفة فيه ولا تعب، والذي طلبوا لا يبيء إلا بالحرث والزراعة والتعب، فهو ﴿أدنى﴾ في هذا الوجه، ويحتمل أن يفضل في أنه لا مزية في حله وخلوصه لنزوله من عند الله، والحبوب والأرض يتخللها البيوع والغصوب وتدخلها الشبه، فهي ﴿أدنى﴾ في هذا الوجه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويترتب الفضل للمن والسلوى بهذه الوجوه كلها، وفي الكلام حذف، تقديره: فدعا موسى ربه فأجابته، فقال لهم: ﴿اهبطوا﴾، وتقدم ذكر معنى الهبوط، وكان القادم على قطر منصب عليه، فهو من نحو الهبوط، وجهور الناس يقرؤون «مصرأ» بالتونين وهو خط المصحف، إلا ما حكى عن بعض مصاحف عثمان رضي الله عنه.

وقال مجاهد وغيره ممن صرفها: «أراد مصرأ من الأمصار غير معين»، واستدلوا بما اقتضاه القرآن من أمرهم بدخول القرية، وبما تظاهرت به الرواية أنهم سكنوا الشام بعد التيه.

وقالت طائفة ممن صرفها: أراد مصر فرعون بعينها، واستدلوا بما في القرآن من أن الله تعالى أورش بني إسرائيل ديار آل فرعون وآثارهم، وأجازوا صرفها.

قال الأخفش: «لخفتها وشبهها بهند ودعد». وسيبويه لا يجيز هذا.

وقال غير الأخفش: «أراد المكان فصرف».

وقرأ الحسن وأبان بن تغلب وغيرهما: «اهبطوا مصر» بترك الصرف، وكذلك هي في مصحف أبي بن كعب وقالوا: «هي مصر فرعون».

قال الأعمش: «هي مصر التي عليها صالح بن علي».

وقال أشهب: «قال لي مالك: هي عندي مصر قريتك مسكن فرعون».

وقوله تعالى: ﴿فإن لكم ما سألتكم﴾ يقتضي أنه وكلهم إلى أنفسهم.

وقرأ النخعي وابن وثاب «سألتم» بكسر السين وهي لغة، «وضربت عليهم الذلة والمسكنة» معناه ألزموها وقضي عليهم بها، كما يقال ضرب الأمير البعث، وكما قالت العرب ضربة لازب، أي إلزام ملزوم أو لازم، فيضاف المصدر إلى المفعول بالمعنى، وكما يقال ضرب الحاكم على اليد، أي حجر وألزم؛ ومنه ضرب الدهر ضرباته، أي ألزم إلزاماته، و«الذلة» فعلة من الذل كأنها الهيئة والحال، «والمسكنة» من المسكين، قال الزجاج: «هي مأخوذة من السكون وهي هنا: زي الفقر وخضوعه، وإن وجد يهودي غني فلا يخلو من زي الفقر ومهانته».

قال الحسن وقتادة: «المسكنة الخراج أي الجزية».

وقال أبو العالية: «المسكنة الفاقة والحاجة».

﴿وَبَاؤُوا بَغْضَ مِنَ اللَّهِ﴾ معناه: مروا متحملين له، تقول: بؤت بكذا إذا تحملته، ومنه قول مهلهل ليحيى بن الحارث بن عباد: «بؤ بشع نعل كليب».

والغضب بمعنى الإرادة صفة ذات، وبمعنى إظهاره على العبد بالمعاقبة صفة فعل، والإشارة بذلك إلى ضرب الذلة وما بعده، والباء في ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ باء السبب.

وقال المهدوي: «إن الباء بمعنى اللام» والمعنى: لأنهم، والآيات هنا تحتل أن يراد بها التسع وغيرها مما يخرق العادة، وهو علامة لصدق الآية به، ويحتمل أن يراد آيات التوراة التي هي كآيات القرآن.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن: «وتقتلون» بالتاء على الرجوع إلى خطابهم، وروي عنه أيضاً بالياء.

وقرأ نافع: بهمز «النبئين»، وكذلك حيث وقع في القرآن، إلا في موضعين: في سورة الأحزاب: «وَأَن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ [الأحزاب: ٥٠] بِلَامٍ وَلَا هَمْزٍ، ﴿وَلَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وإنما ترك همز هذين لاجتماع همزتين مكسورتين من جنس واحد، وترك الهمز في جميع ذلك الباقون، فأما من همز فهو عنده من «أنباء» إذا أخبر، واسم فاعله منبئ فقليل نبيء، بمعنى منبئ، كما قيل: سميع بمعنى مسمع، واستدلوا بما جاء من جمعه على نبأء. قال الشاعر: [الطويل]

يا خاتم النبأء إنك مرسل بالحق كل هدى الإله هداكا

فهذا كما يجمع فعيل في الصحيح «كظريف» وظرفاء وشبهه.

قال أبو علي: «زعم سيبويه أنهم يقولون في تحقير النبوة: كان مسيلمة نبوته نبيشة سوء، وكلهم يقولون تنبأ مسيلمة، فاتفقهم على ذلك دليل على أن اللام همزة»، واختلف القائلون بترك الهمز في نبيء، منهم من اشتق النبي من همز ثم سهل الهمز، ومنهم من قال: هو مشتق من نبا ينبو إذا ظهر، فالنبي للطريق الظاهر، وكان النبي من عند الله طريق الهدى والنجاة، وقال الشاعر: [البسيط].

لما وردنا نبياً واستتب بنا مسحنفر كخطوط السيج منسحل

واستدلوا بأن الأغلب في جمع أنبياء كفعيل في المعتل، نحو ولي وأولياء وصفني وأصفياء، وحكى زهراوي أنه يقال نبوء إذا ظهر فهو نبيء، والطريق الظاهر نبيء بالهمز، وروي أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم: السلام عليك يا نبيء الله، وهمز، فقال له النبي عليه السلام: لست بنبيء الله، وهمز، لكنني نبي الله، ولم يهمز.

قال أبو علي: «ضعف سند هذا الحديث، ومما يقوي ضعفه أنه صلى الله عليه وسلم، قد أنشده مادح يا خاتم النبأء ولم يؤثر في ذلك إنكار، والجمع كالواحد».

وقوله تعالى: ﴿بَغِيرِ الْحَقِّ﴾ تعظيم للشناعة والذنب الذي أتوه، ومعلوم أنه لا يقتل نبي بحق، ولكن من حيث قد يتخيل متخيل لذلك وجهاً، فصرح قوله: ﴿بَغِيرِ الْحَقِّ﴾ عن شناعة الذنب ووضوحه، ولم يحترم قط نبي ما يوجب قتله، وإنما أتاح الله تعالى من أتاح منهم. وسلط عليه، كرامة لهم، وزيادة في منازلهم، كمثل من يقتل في سبيل الله من المؤمنين، قال ابن عباس وغيره: «لم يقتل قط من الأنبياء إلا من لم يؤمر بقتال، وكل من أمر بقتال نصر».

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ رد على الأول وتأكيد للإشارة إليه، والباء في ﴿بِمَا﴾ باء السبب، و﴿يَعْتَقِدُونَ﴾ معناه: يتجاوزون الحدود، والاعتداء تجاوز الحد في كل شيء، وعرفه في الظلم والمعاصي.

قوله عز وجل:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ مِنَ الْآمَنِينَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾

اختلف المتأولون في المراد بـ ﴿الذين آمنوا﴾ في هذه الآية، فقال سفيان الثوري: هم المنافقون في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، كأنه قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في ظاهر أمرهم، وقرنهم باليهود والنصارى والصابئين، ثم بين حكم من آمن بالله واليوم الآخر من جميعهم، فمعنى قوله ﴿من آمن﴾ في المؤمنين المذكورين: من حقق وأخلص، وفي سائر الفرق المذكورة: من دخل في الإيمان. وقالت فرقة: ﴿الذين آمنوا﴾ هم المؤمنون حقاً بمحمد صلى الله عليه وسلم وقوله ﴿من آمن بالله﴾ يكون فيهم بمعنى من ثبت ودام، وفي سائر الفرق بمعنى من دخل فيه. وقال السدي: هم أهل الحنفية ممن لم يلحق بمحمد صلى الله عليه وسلم، كزيد بن عمرو بن نفيل، وقس بن ساعدة، وورقة بن نوفل، ﴿والذين هادوا﴾ كذلك ممن لم يلحق بمحمد صلى الله عليه وسلم، إلا من كفر بعبسى عليه السلام، ﴿والنصارى﴾ كذلك ممن لم يلحق بمحمد صلى الله عليه وسلم، ﴿والصابئين﴾ كذلك، قال: إنها نزلت في أصحاب سلمان الفارسي، وذكر له الطبري قصة طويلة، وحكاها أيضاً ابن إسحاق، مقتضاها أنه صحب عبداً من النصارى فقال له آخرهم: إن زمان نبي قد أطل، فإن لحقته فآمن به، ورأى منهم عبادة عظيمة، فلما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم ذكر له خبرهم، وسأله عنهم، فنزلت هذه الآية.

وروي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في أول الإسلام، وقرر الله بها أن من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ومن بقي على يهوديته ونصرانيته وصابئيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر فله أجره، ثم نسخ ما قرر من ذلك بقوله تعالى ﴿ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ [آل عمران: ٨٥] وردت الشرائع كلها إلى شريعة محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿والذين هادوا﴾ هم اليهود، وسموا بذلك لقولهم ﴿إنا هدنا إليك﴾ [الأعراف: ١٥٦] أي تبنا، فاسمهم على هذا من هاد يهود، وقال الشاعر: [السريع]

إني امرؤ من مدحتي هائد

أي تائب، وقيل: نسبوا إلى يهوذا بن يعقوب، فلما عرب الاسم لحقه التغيير، كما تغير العرب في بعض ما عربت من لغة غيرها، وحكى الزهراوي أن التهويد النطق في سكون ووقار ولين، وأنشد:

وخود من اللائي تسمعن بالضحي قريض الردافي بالغناء المهود

قال: ومن هذا سميت اليهود، وقرأ أبو السمال «هادوا» بفتح الدال.

﴿والنصارى﴾ لفظة مشتقة من النصر، إما لأن قريتهم تسمى ناصرة، ويقال نصريا ويقال نصرتا، وإما لأنهم تناصروا، وإما لقول عيسى عليه السلام ﴿من أنصاري إلى الله﴾ [آل عمران: ١٥٢، الصف: ٤] قال سيبويه: واحدهم نصران ونصرانة كندمان وندمانه وندامي، وأنشد: [أبو الأحرز الحماني]: [الطويل]

فكلتاها خرت وأسجد رأسها كما سجدت نصرانة لم تحف

وأنشد الطبري: [الطويل]

يظل إذا دار العشي محنفاً ويضحى لديها وهو نصران شامس

قال سيبويه: إلا أنه لا يستعمل في الكلام إلا بياء نسب، قال الخليل: واحد ﴿النصارى﴾ نصري كمهري ومهاري.

والصابىء في اللغة من خرج من دين إلى دين، ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم قد صبا، وقيل إنها ستمتهم بذلك لما أنكروا الآلهة تشبيهاً بالصابئين في الموصل الذين لم يكن لهم بر إلا قولهم لا إله إلا الله، وطائفة همزته وجعلته من صبات النجوم إذا طلعت، وصبات ثنية الغلام إذا خرجت، قال أبو علي: يقال صبات على القوم بمعنى طرأت، فالصابىء التارك لدينه الذي شرع له إلى دين غيره، كما أن الصابىء على القوم تارك لأرضه ومنتقل إلى سواها، وبالهزم قرأ القراء غير نافع فإنه لم يهزمه، ومن لم يهزم جعله من صبا يصبو إذا مال، أو يجعله على قلب الهمزة ياء، وسيبويه لا يجيزه إلا في الشعر.

وأما المشار إليهم في قوله تعالى ﴿والصابئين﴾ فقال السدي: هم فرقة من أهل الكتاب، وقال مجاهد: هم قوم لا دين لهم، ليسوا بيهود ولا نصارى، وقال ابن أبي نجيح: هم قوم تركب دينهم بين اليهودية والمجوسية، لا تؤكل ذبائحهم، وقال ابن زيد: هم قوم يقولون لا إله إلا الله وليس لهم عمل ولا كتاب، كانوا بجزيرة الموصل، وقال الحسن بن أبي الحسن وقتادة: هم قوم يعبدون الملائكة ويصلون إلى القبلة ويصلون الخمس ويقرؤون الزبور، رآهم زياد بن أبي سفيان فأراد وضع الجزية عنهم حتى عرف أنهم يعبدون الملائكة.

و﴿من﴾ في قوله ﴿من آمن بالله﴾ في موضع نصب بدل من ﴿الذين﴾، والفاء في قولهم ﴿فلهم﴾ داخله بسبب الإيهام الذي في ﴿من﴾ و﴿لهم أجرهم﴾ ابتداء وخبر في موضع خبر ﴿إن﴾، ويحتمل ويحسن أن تكون ﴿من﴾ في موضع رفع بالابتداء، ومعناها الشرط، والفاء في قوله ﴿فلهم﴾ موطئة أن تكون الجملة جوابها، و﴿لهم أجرهم﴾ خبر ﴿من﴾، والجملة كلها خبر ﴿إن﴾، والعائد على ﴿الذين﴾ محذوف لا بد من تقديره، وتقديره «من آمن منهم بالله».

وفي الإيمان باليوم الآخر اندرج الإيمان بالرسول والكتب، ومنه يتفهم، لأن البعث لم يعلم إلا بإخبار رسل الله عنه تبارك وتعالى، وجمع الضمير في قوله تعالى ﴿لهم أجرهم﴾ بعد أن وحده في ﴿آمن﴾ لأن ﴿من﴾ تقع على الواحد والثنية والجمع، فجائز أن يخرج ما بعدها مفرداً على لفظها، أو مثني أو مجموعاً على معناها، كما قال عز وجل ﴿ومنهم من يستمعون إليك﴾ [يونس: ٤٢] فجمع على المعنى، وكقوله ﴿ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات﴾ [النساء: ١٣] ثم قال ﴿خالدين فيها﴾ [النساء: ١٣] فجمع على المعنى، وقال الفرزدق: [الطويل]

تعشُ فإن عاهدتني لا تخونني نكنُ مثلَ مَنْ يا ذئبُ يصْططجبانِ

فثنى على المعنى، وإذا جرى ما بعد ﴿من﴾ على اللفظ فجائز أن يخالف به بعد على المعنى، وإذا جرى ما بعدها على المعنى فلم يستعمل أن يخالف به بعد على اللفظ، لأن الإلباس يدخل في الكلام. وقرأ الحسن «ولا خوف»، نصب على التبرية، وأما الرفع فعلى الابتداء، وقد تقدم القول في مثل هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾، ﴿إذ﴾ معطوفة على التي قبلها، والميثاق مفعول من وثق يثق، مثل ميزان من وزن يزن، و﴿الطور﴾ اسم الجبل الذي نوحى موسى عليه، قاله ابن عباس، وقال مجاهد وعكرمة وقتادة وغيرهم: ﴿الطور﴾ اسم لكل جبل، ويستدل على ذلك بقول العجاج: [الرجز]

داني جناحيه من الطور فمر تقضي البازي إذا البازي كسر

وقال ابن عباس أيضاً: ﴿الطور﴾ كل جبل ينبت، وكل جبل لا ينبت فليس بطور، قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله على أن اللفظة عربية، وقال أبو العالية ومجاهد: هي سريانية اسم لكل جبل.

وقصص هذه الآية أن موسى عليه السلام لما جاء إلى بني إسرائيل من عند الله تعالى بالألواح فيها التوراة، قال لهم: خذوها والتمزموها، فقالوا: لا إلا أن يكلمنا الله بها كما كلمك، فصعقوا، ثم أحيوا، فقال لهم: خذوها، فقالوا: لا، فأمر الله تعالى الملائكة فاقتلعت جبلاً من جبال فلسطين، طوله فرسخ في مثله، وكذلك كان عسكرهم، فجعل عليهم مثل الظلة، وأخرج الله تعالى البحر من ورائهم، وأضرهم ناراً بين أيديهم، فأحاط بهم غضبه، وقيل لهم خذوها وعليكم الميثاق ألا تضيعوها، وإلا سقط عليكم الجبل، وغرقكم البحر وأحرقتكم النار، فسجدوا توبة لله، وأخذوا التوراة بالميثاق، وقال الطبري رحمه الله عن بعض العلماء: لو أخذوها أول مرة لم يكن عليهم ميثاق، وكانت سجدتهم على شق، لأنهم كانوا يرقبون

الجبل خوفاً، فلما رحمهم الله قالوا لا سجدة أفضل من سجدة تقبلها الله ورحم بها، فأمرُوا سجودهم على شق واحد.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رحمه الله: والذي لا يصح سواه أن الله تعالى اخترع وقت سجودهم الإيمان في قلوبهم، لأنهم آمنوا كرهاً وقلوبهم غير مطمئنة، وقد اختصرت ما سرد في قصص هذه الآية، وقصدت أصحه الذي تقتضيه ألفاظ الآية، وخلط بعض الناس صعقة هذه القصة بصعقة السبعين.

وقوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ في الكلام حذف تقديره: وقلنا خذوا، و﴿آتَيْنَاكُمْ﴾ معناه أعطيناكم، و﴿بقوة﴾: قال ابن عباس: معناه بجد واجتهاد، وقيل: بكثرة درس، وقال ابن زيد: معناه بتصديق وتحقيق، وقال الربيع: معناه بطاعة الله.

﴿واذكروا ما فيه﴾ أي تدبروه واحفظوا أوامره ووعيده، ولا تنسوه وتضيعوه، والضمير عائد على ﴿ما آتَيْنَاكُمْ﴾ ويعني التوراة، وتقدير صلة ﴿ما﴾: واذكروا ما استقر فيه، و﴿لعلكم تتقون﴾ ترج في حق البشر. وقوله تعالى: ﴿ثم توليتم من بعد ذلك﴾ الآية. تولّى تفعل، وأصله الإعراض والإدبار عن الشيء بالجسم، ثم استعمل في الإعراض عن الأمور والأديان والمعتقدات اتساعاً ومجازاً، و﴿فضل الله﴾ رفع بالابتداء، والخبر مضمّر عند سيوييه لا يجوز إظهاره للاستغناء عنه، تقديره فلولا فضل الله عليكم تدارككم، و﴿ورحمته﴾ عطف على فضل، قال قتادة: فضل الله الإسلام، ورحمته القرآن. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على أن المخاطب بقوله: ﴿عليكم﴾ لفظاً ومعنى من كان في مدة محمد صلى الله عليه وسلم، والجمهور على أن المراد بالمعنى من سلف، و﴿لكنتم﴾ جواب ﴿لولا﴾، و﴿ومن الخاسرين﴾ خبر «كان». والخسران النقصان، وتوليهم من بعد ذلك: إما بالمعاصي، فكان فضل الله بالتوبة والإمهال إليها، وإما أن يكون توليهم بالكفر فكان فضل الله بأن لم يعاجلهم بالإهلاك ليكون من ذريتهم من يؤمن، أو يكون المراد من لحق محمداً صلى الله عليه وسلم، وقد قال ذلك قوم، وعليه يتجه قول قتادة: إن الفضل الإسلام، والرحمة القرآن، ويتجه أيضاً أن يراد بالفضل والرحمة إدراكهم مدة محمد صلى الله عليه وسلم. قوله عز وجل:

لَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنُخْذِنَا هَٰذَا وَقَالَ أَعُودُ بِاللَّهِ أَن أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾

﴿علمتم﴾ معناه: عرفتم، كما تقول: علمت زيداً بمعنى عرفته، فلا يتعدى العلم إلا إلى مفعول أحد، و﴿اعتدوا﴾ معناه تجاوزوا الحد، مصرف من الاعتداء، و﴿في السبت﴾ معناه في يوم السبت، يحتمل أن يريد في حكم السبت، و﴿السبت﴾ مأخوذ إما: من السبت الذي هو الراحة والدعة، وإما من

السبت وهو: القطع، لأن الأشياء فيه سبتت وتمت خلقتها.

وقصة اعتدائهم فيه، أن الله عز وجل أمر موسى عليه السلام بيوم الجمعة، وعرفه فضله، كما أمر به سائر الأنبياء، فذكر موسى عليه السلام ذلك لبني إسرائيل عن الله تعالى وأمرهم بالتشريع فيه، فأبوا وتعدوه إلى يوم السبت، فأوحى الله إلى موسى أن دعهم وما اختاروا من ذلك، وامتنحهم فيه بأن أمرهم بترك العمل وحرم عليهم صيد الحيتان، وشدد عليهم المحنة بأن كانت الحيتان تأتي يوم السبت حتى تخرج إلى الألفية. قاله الحسن بن أبي الحسن. وقيل حتى تخرج خراطيمها من الماء، وذلك إما بالإلهام من الله تعالى، أو بأمر لا يعلل، وإما بأن فهمها معنى الأمانة التي في اليوم مع تكراره حتى فهمت ذلك، ألا ترى أن الله تعالى قد ألهم الدواب معنى الخوف الذي في يوم الجمعة من أمر القيامة، يقضي بذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: «وما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة فرقاً من الساعة»، وحمām مكة قد فهم الأمانة، إما أنها متصلة بقرب فهمها.

وكان أمر بني إسرائيل بأيلة على البحر، فإذا ذهب السبت ذهبت الحيتان فلم تظهر إلى السبت الآخر، فبقوا على ذلك زماناً حتى اشتها الحوت، فعمد رجل يوم السبت فربط حوتاً بخزمة، وضرب له وتدّاً بالساحل، فلما ذهب السبت جاء وأخذه، فسمع قوم بفعله فصنعوا مثل ما صنع، وقيل بل حفر رجل في غير السبت حفيراً يخرج إليه البحر، فإذا كان يوم السبت خرج الحوت وحصل في الحفير، فإذا جزر البحر ذهب الماء من طريق الحفير وبقي الحوت، فجاء بعد السبت فأخذه، ففعل قوم مثل فعله، وكثر ذلك حتى صادوه يوم السبت علانية، وباعوه في الأسواق، فكان هذا من أعظم الاعتداء، وكانت من بني إسرائيل فرقة نهت عن ذلك فنجت من العقوبة، وكانت منهم فرقة لم تعص ولم تنه، فقبل نجت مع الناهين، وقيل هلكت مع العاصين.

و﴿كونوا﴾ لفظة أمر، وهو أمر التكوين، كقوله تعالى لكل شيء: ﴿كن فيكون﴾ [النحل: ٤٠]، مريم: ٣٥، يس: ٨٢، غافر: ٦٨]، ولم يؤمروا في المصير إلى حال المسخ بشيء يفعلونه ولا لهم فيه تكسب.

و﴿خاسئين﴾ معناه مبعدين أذلاء صاغرين، كما يقال للكلب وللمطروء خساً. تقول خسأته فحساً، وموضعه من الإعراب النصب على الحال أو على خبر بعد خبر.

وروي في قصصهم أن الله تعالى مسخ العاصين ﴿قردة﴾ بالليل فأصبح الناجون إلى مساجدهم ومجتمعاتهم، فلم يروا أحداً من الهالكين، فقالوا إن للناس لشأناً، ففتحوا عليهم الأبواب كما كانت مغلقة بالليل، فوجدوهم ﴿قردة﴾ يعرفون الرجل والمرأة، وقيل: إن الناجين كانوا قد قسموا بينهم وبين العاصين القرية بجدار، تبرئاً منهم، فأصبحوا ولم تفتح مدينة الهالكين، فتسوروا عليهم الجدار فإذا هم قردة، يثب بعضهم على بعض.

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم وثبت عنه أن الممسوخ لا ينسل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام؛ ووقع في كتاب مسلم عنه عليه السلام أن أمة من الأمم فقدت، وأراها الفأر، وظاهر

هذا أن الممسوخ ينسل، فإن كان أراد هذا فهو ظن منه عليه السلام في أمر لا مدخل له في التبليغ، ثم أوحى إليه بعد ذلك أن الممسوخ لا ينسل، ونظير ما قلناه نزوله عليه السلام على مياه بدر، وأمره باطراح تذكير النخل، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «إذا أخبرتكم برأي في أمور الدنيا فإنما أنا بشر».

وروي عن مجاهد في تفسير هذه الآية أنه إنما مسخت قلوبهم فقط وردت أفهامهم كأفهام القردة، والأول أقوى، والضمير في ﴿جعلناها﴾: يحتمل العود على المسخة والعقوبة، ويحتمل على الأمة التي مسخت، ويحتمل على القردة، ويحتمل على القرية إذ معنى الكلام يقتضيها، وقيل يعود على الحيتان، وفي هذا القول بعد.

والنكال: الزجر بالعقاب، والنكل والأنكال: قيود الحديد، فالنكال عقاب ينكل بسببه غير المعاقب عن أن يفعل مثل ذلك الفعل، قال السدي: ما بين يدي المسخة: ما قبلها من ذنوب القوم، ﴿وما خلفها﴾: لمن يذنب بعدها مثل تلك الذنوب، وهذا قول جيد، وقال غيره: «ما بين يديها» أي من حضرها من الناجين، ﴿وما خلفها﴾ أي لمن يجيء بعدها، وقال ابن عباس: ﴿لما بين يديها﴾: أي من بعدهم من الناس ليحذر ويتقي، ﴿وما خلفها﴾: لمن بقي منهم عبرة.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وما أراه يصح عن ابن عباس رضي الله عنه، لأن دلالة ما بين اليد ليست كما في القول، وقال ابن عباس أيضاً: ﴿لما بين يديها وما خلفها﴾، أي من القرى، فهذا ترتيب أجرام لا ترتيب في الزمان.

﴿وموعظة﴾ مفعلة من الاتعاض والازدجار، ﴿وللمتقين﴾ معناه للذين نهوا ونجوا، وقالت فرقة: معناه لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، واللفظ يعم كل متق من كل أمة.

وقوله تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه﴾ الآية: ﴿إذ﴾ عطف على ما تقدم، والمراد تذكيرهم بنقض سلفهم للميثاق، وقرأ أبو عمرو «يأمركم» بإسكان الراء، وروي عنه اختلاس الحركة، وقد تقدم القول في مثله في «بارئكم».

وسبب هذه الآية على ما روي، أن رجلاً من بني إسرائيل أسنّ وكان له مال، فاستبطن ابن أخيه موته، وقيل أخوه، وقيل ابنا عمه، وقيل ورثة كثير غير معينين، فقتله ليرثه وألقاه في سبط آخر غير سبطه، ليأخذ دية ويلطخهم بدمه، وقيل: كانت بنو إسرائيل في قريتين متجاورتين، فألقاه إلى باب إحدى المدينتين، وهي التي لم يقتل فيها، ثم جعل يطلبه هو وسبطه حتى وجده قتيلاً، فتعلق بالسبط أو بسكان المدينة التي وجد القتل عندها، فأنكروا قتله، فوقع بين بني إسرائيل في ذلك لحاء حتى دخلوا في السلاح، فقال أهل النهي منهم: أنقتل ورسول الله معنا؟ فذهبوا إلى موسى عليه السلام فقصوا عليه القصة، وسأله البيان، فأوحى الله إليه أن يذبحو بقرة فيضرب القتل ببعضها، فيحيى ويخبر بقاتله فقال لهم: ﴿إن الله يأمركم أن تذبحو بقرة﴾، فكان جوابهم أن قالوا: ﴿أنتخذنا هزواً﴾؟ قرأ الجحدري «أيتخذنا» بالياء، على معنى أيتخذنا الله، وقرأ حمزة: «هزواً» بإسكان الزاي والهمز، وهي لغة، وقرأ عاصم بضم الزاي والهاء والهمز، وقرأ أيضاً: دون همز «هزواً»، حكاه أبو علي، وقرأت طائفة من القراء بضم الهاء والزاي والهمزة

بين بين، وروي عن أبي جعفر وشيبة ضم الهاء وتشديد الزاي «هَزَأَ»، وهذا القول من بني إسرائيل ظاهره فساد اعتقاد ممن قاله، ولا يصح الإيمان ممن يقول لنبي قد ظهرت معجزاته، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، «أَتَتَّخِذُنَا هُزْوَاً»، ولو قال ذلك اليوم أحد عن بعض أقوال النبي صلى الله عليه وسلم لوجب تكفيره، وذهب قوم إلى أن ذلك منهم على جهة غلط الطبع والجفاء والمعصية، على نحو ما قال القائل للنبي صلى الله عليه وسلم في قسمة غنائم حنين: «إِنَّ هَذِهِ لَقِسْمَةٌ مَا أُرِيدُ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ»، وكما قال له الآخر: «اعْدِلْ يَا مُحَمَّد»، وكل محتمل، والله أعلم.

وقول موسى عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، يحتمل معنيين: أحدهما الاستعاذة من الجهل في أن يخبر عن الله تعالى مستهزئاً، والآخر من الجهل كما جهلوا في قولهم «أَتَتَّخِذُنَا هُزْوَاً» لمن يخبرهم عن الله تعالى.

قوله عز وجل:

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ فافْعَلُوا مَا تُؤْمُرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْ نُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾

هذا تعنت منهم وقلة طواعية، ولو امتثلوا الأمر فاستعرضوا بقرة فذبحوها لقضوا ما أمروا به، ولكن شددوا فشدد الله عليهم، قاله ابن عباس وأبو العالية وغيرهما. ولغة بني عامر «ادع» بكسر العين، و«ما» استفهام رفع بالابتداء، وهي خبره، ورفع «فارض» على النعت للبقرة على مذهب الأخفش، أو على خبر ابتداء مضمّر تقديره لا هي فارض، والفارض المسنة الهرمة التي لا تلد، قاله ابن عباس وقتادة ومجاهد وغيرهم، تقول فرضت تفرض بفتح العين في الماضي، فروضاً، ويقال فرضت بضم العين، ويقال لكل ما قدم وطال أمدّه فارض، وقال الشاعر [العجاج]: [الرجز]

يا رب ذي ضغن عليّ فارض له قروء كقروء الحائض

والبكر من البقر التي لم تلد من الصغر، وحكى ابن قتيبة أنها التي ولدت ولداً واحداً، والبكر من النساء التي لم يمسهما الرجل، والبكر من الأولاد الأول، ومن الحاجات الأولى، والعوان التي قد ولدت مرة بعد مرة، قاله مجاهد، وحكاها أهل اللغة، ومنه قول العرب: العوان لا تعلم الخمرة. وحرب عوان: قد قوتل فيها مرتين فما زاد، ورفعت «عوان» على خبر ابتداء مضمّر، تقديره هي عوان، وجمعها عون بسكون الواو، وسمع عون بتحريكها بالضم.

و«بين»، بابها أن تضاف إلى اثنتين، وأضيفت هنا إلى «ذلك»، إذ ذلك يشار به إلى الجملات، فذلك عند سيوبه منزلة ما ذكر، فهي إشارة إلى مفرد على بابه، وقد ذكر اثنان فجاءت أيضاً «بين» على بابها.

وقوله: ﴿فافعلوا ما تؤمرون﴾ تجديد للأمر وتأکید وتنبیه على ترك التعنت، فما تركوه، و﴿ما﴾ رفع بالابتداء، و﴿لونها﴾ خبره، وقال ابن زيد وجهور الناس في قوله ﴿صفراء﴾، إنها كانت كلها صفراء، قال مكي رحمه الله عن بعضهم: حتى القرن والظلف، وقال الحسن بن أبي الحسن وسعيد بن جبیر: كانت صفراء القرن والظلف فقط، وقال الحسن أيضاً: ﴿صفراء﴾ معناه سوداء، وهذا شاذ لا يستعمل مجازاً إلا في الإبل، وبه فسر قول الأعشى ميمون بن قيس: [الخفيف]

تلك خيلي منه وتلك ركابي هن صفر أولادها كالزبيب

والفقوع: نعت مختص بالصفرة، كما خص أحمر بقانيء، وأسود بحالك، وأبيض بناصع، وأخضر بناضر، و﴿لونها﴾ فاعل بـ﴿فافع﴾.

و﴿تسر الناظرين﴾ قال وهب بن منبه: كانت كأن شعاع الشمس يخرج من جلدها، فمعناه تعجب الناظرين، ولهذا قال ابن عباس وغيره: الصفرة تسر النفس، وحض ابن عباس على لباس النعال الصفرة، حكاه عنه النقاش، وحكي نهي ابن الزبير ويحيى بن أبي كثير عن لباس النعال السود، لأنها تهمّ، وقال أبو العالية والسدي: ﴿تسر الناظرين﴾ معناه في سمنها ومنظرها كله، وسألوه بعد هذا كله عما هي سؤال متحيرين قد أحسوا بمقت المعصية، و﴿البقر﴾ جمع بقرة، وتجمع أيضاً على باقر، وبه قرأ ابن يعمر وعكرمة، وتجمع على بقرير ويقور، ولم يقرأ بهما فيما علمت، وقرأ السبعة: «تَشَابَه» فعل ماض، وقرأ الحسن «تَشَابَهُ» بشد الشين وضم الهاء، أصله تتشابه، وهي قراءة يحيى بن يعمر، فأدغم، وقرأ أيضاً «تَشَابَهُ» بتخفيف الشين على حذف التاء الثانية، وقرأ ابن مسعود «يَشَابَهُ» بالياء وإدغام التاء، وحكى المهدى عن المعيطي «يَشَبَهُ» بتشديد الشين والباء دون ألف، وحكى أبو عمرو الداني قراءة «متشبه» اسم فاعل من تَشَبَّه، وحكى أيضاً «يتشابه».

وفي استثنائهم في هذا السؤال الأخير إنابة ما وانقياد ودليل ندم وحرص على موافقة الأمر، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لولا ما استثنوا ما اهتدوا إليها أبداً»، والضمير في ﴿إِنَّا﴾، هو اسم ﴿إِنْ﴾، و﴿مهتدون﴾ الخبر، واللام للتأكيد، والاستثناء اعتراض، قدم على ذكر الالتهاد، تهمأ به.

قوله عز وجل:

قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ أَذْلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا لَئِنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرَءِ ثُمَّ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

﴿ذُلُول﴾: مذلة بالعمل والرياضة، تقول بقرة مذلة بيَّنة الذلُّ بكسر الهمزة، ورجل ذلول بين الذلِّ بضم
الذال، و﴿ذُلُول﴾ نعت لـ ﴿بقرة﴾، أو على إضمار هي، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: «لا ذُلُول» بنصب اللام.

و﴿تثير الأرض﴾، معناه بالحرث، وهي عند قوم جملة في موضع رفع على صفة البقرة، أي لا ذلول

مثيرة، وقال قوم ﴿تثير﴾ فعل مستأنف، والمعنى إيجاب الحرث وأنها كانت تحرث ولا تسقي، ولا يجوز أن تكون هذه الجملة في موضع الحال، لأنها من نكرة، و﴿تسقي الحرث﴾ معناه بالسانية أو غيرها من الآلات، و﴿الحرث﴾ ما حرث وزرع.

و﴿مسلمة﴾ بناء مبالغة من السلامة، قال ابن عباس وقتادة وأبو العالية: معناه من العيوب، وقال مجاهد: معناه من الشيات والألوان، وقال قوم: معناه من العمل.

و﴿لا شية فيها﴾: أي لا خلاف في لونها هي صفراء كلها لا بياض فيها ولا حمرة ولا سواد قاله ابن زيد وغيره، والموشى المختلط الألوان، ومنه وشي الثوب، تزيينه بالألوان، ومنه الواشي لأنه يزين كذبه بالألوان من القول، والثور الأشيه الذي فيه بلقة، يقال فرس أبلق، وكبش أخرج، وتيس أبرق، وكلب أبقع، وثور أشيه، كل ذلك بمعنى البلقة.

وهذه الأوصاف في البقرة سببها أنهم شددوا فشد الله عليهم، ودين الله يُسرُّ، والتعمق في سؤال الأنبياء عليهم السلام مذموم.

وقصة وجود هذه البقرة على ما روي، أن رجلاً من بني إسرائيل ولد له ابن، وكانت له عجلة، فأرسلها في غيضة، وقال: اللهم إني قد استودعتك هذه العجلة لهذا الصبي، ومات الرجل، فلما كبر الصبي قالت له أمه: إن أباك قد استودع الله عجلة لك، فأذهب فخذها، فذهب فلما رآته البقرة جاءت إليه حتى أخذ بقرنيها، وكانت مستوحشة، فجعل يقودها نحو أمه، فلقية بنو إسرائيل، ووجدوا بقرته على الصفة التي أمروا بها، وروت طائفة أنه كان رجل من بني إسرائيل برأ بأبيه فنام أبوه يوماً وتحت رأسه مفاتيح مسكنهما، فمر به بائع جوهر فسامه فيه بستين ألفاً، فقال له ابن النائم: اصبر حتى ينتبه أبي، وأنا آخذه منك بسبعين ألفاً، فقال له صاحب الجواهر: نبي أباك وأنا أعطيكه بخمسين ألفاً، فداما كذلك حتى بلغه مائة ألف، وانحط صاحب الجواهر إلى ثلاثين ألفاً، فقال له ابن النائم: والله لا اشتريته منك بشيء برأ بأبيه، فعوضه الله منه أن وجدت البقرة عنده، وقال قوم: وجدت عند عجوز تعول يتامى كانت البقرة لهم، إلى غير ذلك من اختلاف في قصتها، هذا معناه، فلما وجدت البقرة ساموا صاحبها، فاشتط عليهم، وكانت قيمتها - على ما روي عن عكرمة - ثلاثة دنانير، فأتوا به موسى عليه السلام، وقالوا: إن هذا اشتط علينا، فقال لهم: أرضوه في ملكه، فاشتروها منه بوزنها مرة، قاله عبيدة السلماني، وقيل بوزنها مرتين، وقال السدي: بوزنها عشر مرات، وقال مجاهد: كانت لرجل يبر أمه، وأخذت منه بماء جلدها دنانير، وحكى مكي: أن هذه البقرة نزلت من السماء، ولم تكن من بقر الأرض، وحكى الطبري عن الحسن أنها كانت وحشية.

و﴿الآن﴾ مبني على الفتح ولم يتعرف بهذه الألف واللام، ألا ترى أنها لا تفارقه في الاستعمال، وإنما بني لأنه ضمن معنى حرف التعريف، ولأنه واقع موقع المبهم، إذ معناه هذا الوقت، هو عبارة عما بين الماضي والمستقبل، وقرئ «قالوا الآن» بسكون اللام وهمزة بعدها، «وقالوا الآن» بمدة على الواو وفتح اللام دون همز، «وقالوا الآن» بحذف الواو من اللفظ دون همز، «وقالوا الآن» بقطع الألف الأولى وإن كانت ألف وصل، كما تقول «يا الله».

و ﴿جُنْتُ بِالْحَقِّ﴾ معناه - عند من جعلهم عصاة - بينت لنا غاية البيان، و ﴿جُنْتُ بِالْحَقِّ﴾ الذي طلبناه، لا إنه كان يجيء قبل ذلك بغير حق، ومعناه عند ابن زيد - الذي حمل محاورتهم على الكفر - : الآن صدقت. وأذعنوا في هذه الحال حين بين لهم أنها سائمة، وقيل إنهم عَيَّنوها مع هذه الأوصاف، وقالوا: هذه بقرة فلان، وهذه الآية تعطي أن الذبيح أصل في البقر، وإن نحر أجزأت.

وقوله تعالى : ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ عبارة عن تثبطهم في ذبحها، وقلة مبادرتهم إلى أمر الله تعالى، وقال محمد بن كعب القرظي : كان ذلك منهم لغلاء البقرة وكثرة ثمنها، وقال غيره : كان ذلك خوف الفضيحة في أمر القاتل، وقيل : كان ذلك للمعهود من قلة انقيادهم وتعنتهم على الأنبياء، وقد تقدم قصص القتل الذي يراد بقوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾، والمعنى قلنا لهم اذكروا إذ قتلتم.

و «ادارأتم» أصله : تدارأتم، ثم أدغمت التاء في الدال فتعذر الابتداء بمدغم، فجلبت ألف الوصل، ومعناه تدافعتم أي دفع بعضكم قتل القتل إلى بعض، قال الشاعر : [الرجز]

صَادَفَ دَرءُ السَّيْلِ دَرءًا يَدْفَعُهُ

وقال الآخر [الخفيف]:

مَذْرَأُ يَدْرَأُ الْخُصُومُ بِقَوْلٍ مِثْلَ حَدِّ الصَّمْصَمَةِ الْهُنْدَوَانِي

والضمير في قوله : ﴿فِيهَا﴾ عائد على النفس وقيل على القتل، وقرأ أبو حيوية وأبو السوار الغنوي «وإذ قتلتم نسمة فادأرأتم»، وقرأت فرقة «فندارأتم» على الأصل، وموضع ﴿مَا﴾ نصب بمخرج، والمكتوم هو أمر المقتول.

وقوله : ﴿اضْرِبُوهُ بَعْضُهَا﴾ آية من الله تعالى على يدي موسى عليه السلام أن أمرهم أن يضربوا ببعض البقرة القاتل فيحیی ويخبر بقاتله، فقيل : ضربه، وقيل : ضربوا قبره، لأن ابن عباس ذكر أن أمر القاتل وقع قبل جواز البحر، وأنهم داموا في طلب البقرة أربعين سنة، وقال القرظي : لقد أمروا بطلبها وما هي في صلب ولا رحم بعد، وقال السدي : ضرب باللحمة التي بين الكتفين، وقال مجاهد وقادة وعبيدة السلماني : ضرب بالفخذ، وقيل : ضرب باللسان، وقيل : بالذنب، وقال أبو العالية : بعظم من عظامها.

وقوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ يَحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ الآية، الإشارة بـ ﴿كَذَلِكَ﴾ إلى الإحياء الذي تضمنه قصص الآية، إذ في الكلام حذف، تقديره : فضرِبوه فحيي، وفي هذه الآية حض على العبرة، ودلالة على البعث في الآخرة. وظاهرها أنها خطاب لبني إسرائيل، حينئذ حكى لمحمد صلى الله عليه وسلم ليعتبر به إلى يوم القيامة، وذهب الطبري إلى أنها خطاب لمعاصري محمد صلى الله عليه وسلم، وأنها مقطوعة من قوله تعالى : ﴿اضْرِبُوهُ بَعْضُهَا﴾، وروي أن هذا القاتل لما حيي وأخبر بقاتله عاد ميتاً كما كان، واستدل مالك رحمه الله بهذه النازلة على تجويز قول القاتل وأن تقع معه القسامة.

قوله عز وجل :

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ

الْأَنْهَرُوا إِنَّ مِنْهَا لِمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لِمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ أَفَنُظْمِعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

﴿قست﴾ أي صلبت وجفت، وهي عبارة عن خلوها من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى، وقال ابن عباس: المراد قلوب ورثة القتل، لأنهم حين حيي قال: إنهم قتلوه وعاد إلى حال موته أنكروا قتله، وقالوا: كذب بعدما رأوا هذه الآية العظمى، لكن نفذ حكم الله تعالى بقتلهم، قال عبيدة السلماني: ولم يرث قاتل من حينئذ.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: ويمثله جاء شرعنا، وحكى مالك رحمه الله في الموطأ، أن قصة أحيحة بن الجلاح في عمه هي التي كانت سبباً أن لا يرث قاتل، ثم ثبت ذلك الإسلام، كما ثبت كثيراً من نوازل الجاهلية، وقال أبو العالية وقتادة وغيرهما: إنما أراد الله قلوب بني إسرائيل جميعاً في معاصيهم وما ركبوه بعد ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فهي كالحجارة﴾ الآية، الكاف في موضع رفع خبر لـ «هي»، تقديره: فهي مثل الحجارة ﴿أو أشد﴾ مرتفع بالعطف على الكاف، ﴿أو﴾ على خبر ابتداء بتقدير تكرار هي، و﴿قسوة﴾ نصب على التمييز، والعرف في ﴿أو﴾ أنها للشك، وذلك لا يصح في هذه الآية، واختلف في معنى ﴿أو﴾ هنا، فقالت طائفة: هي بمعنى الواو، كما قال تعالى: ﴿آثماً أو كفوراً﴾ [الإنسان: ٢٤] أي وكفوراً، وكما قال الشاعر [جرير]: [البسيط]

نال الخلافة أو كانت له قدراً كما أتى ربُّه موسى على قَدَرٍ

أي وكانت له. وقالت طائفة هي بمعنى بل، كقوله تعالى: ﴿إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ [الصافات: ١٤٧] المعنى بل يزيدون، وقالت طائفة: معناها التخيير، أي: شبهوها بالحجارة تصيوا، أو بأشد من الحجارة تصيوا، وقالت فرقة: هي على بابها في الشك. ومعناه: عندكم أيها المخاطبون وفي نظركم، أن لو شاهدتم قسوتها لشككتهم أي كالحجارة أو أشد من الحجارة. وقالت فرقة: هي على جهة الإبهام على المخاطب، ومنه قول أبي الأسود الدؤلي:

أحب محمداً حباً شديداً وعباساً وحمزة أو علياً

ولم يشك أبو الأسود، وإنما قصد الإبهام على السامع، وقد عورض أبو الأسود في هذا، فاحتج بقول الله تعالى: ﴿وأنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ [سبأ: ٢٤]، وهذه الآية مفارقة لبنت أبي الأسود، ولا يتم معنى الآية إلا بـ «أو»، وقالت فرقة: إنما أراد الله تعالى أن فيهم من قلبه كالحجر، وفيهم من قلبه أشد من الحجر، فالمعنى فهي فرقتان كالحجارة أو أشد، ومثل هذا قولك: أطعمتك الحلو أو الحامض، تريد أنه لم يخرج ما أطعمته عن هذين، وقالت فرقة: إنما أراد عز وجل أنها كانت كالحجارة

يترجى لها الرجوع والإنابة، كما تنفجر الأنهار ويخرج الماء من الحجارة، ثم زادت قلوبهم بعد ذلك قسوة بأن صارت في حد من لا ترجى إنابته، فصارت أشد من الحجارة، فلم تخل أن كانت كالحجارة طوراً أو أشد طوراً، وقرأ أبو حية: «قساوة»، والمعنى واحد.

وقوله تعالى: ﴿وإن من الحجارة﴾ الآية، معذرة للحجارة وتفضيل لها على قلوبهم في معنى قلة القسوة، وقال قتادة: عذر الله تعالى الحجارة ولم يعذر شقي بني آدم، وقرأ قتادة: «وإن» مخففة من الثقيلة، وكذلك في الثانية والثالثة، وفرق بينها وبين النافية لام التأكيد، في ﴿لما﴾، وما في موضع نصب اسم لـ ﴿إن﴾، ودخلت اللام على اسم ﴿إن﴾ لما حال بينها المجرور، ولو اتصل الاسم بـ ﴿إن﴾ لم يصح دخول اللام لثقل اجتماع تأكيدين، وقرأ مالك بن دينار: «ينفجر» بالنون وباء من تحت قبلها وكسر الجيم، ووحد الضمير في ﴿منه﴾ حملاً على لفظ «ما»، وقرأ أبي بن كعب والضحاك «منها الأنهار»، حملاً على الحجارة، و﴿الأنهار﴾ جمع نهر وهو ما كثر ماؤه جرياً من الأخاديد، وقرأ طلحة بن مصرف: «لما» بتشديد الميم في الموضعين، وهي قراءة غير متجهة، ﴿ويشقق﴾ أصله يشقق أدغمت التاء في الشين، وهذه عبارة عن العيون التي لم تعظم حتى تكون أنهاراً، أو عن الحجارة التي تشقق وإن لم يجر ماء منسفع، وقرأ ابن مصرف يشقق بالنون، وقيل في هبوط الحجارة تفيؤ ظلالها، وقيل المراد: الجبل الذي جعله الله دكاً، وقيل: إن الله تعالى يخلق في بعض الأحجار خشية وحياة يهبطها من علو تواضعاً، ونظير هذه الحياة حياة الحجر المسلم على النبي صلى الله عليه وسلم، وحياة الجذع الذي أنفق النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل لفظه الهبوط مجاز لما كانت الحجارة يعتبر بخلقها ويخشع بعض مناظرها، أضيف تواضع الناظر إليها، كما قالت العرب: ناقة تاجرة أي: تبعث من يراها على شرائها، وقال مجاهد: ما تردى حجر من رأس جبل ولا تفجر نهر من حجر ولا خرج ماء منه إلا ﴿من خشية الله﴾، نزل بذلك القرآن، وقال مثله ابن جريج، وحكى الطبري عن فرقة أن الخشية للحجارة مستعارة كما استعيرت الإرادة للجدار في قوله تعالى ﴿يريد أن ينقض﴾ [الكهف: ٧٧]، وكما قال زيد الخيل: [الطويل]

بجمع تفضل البُلُق في حَجَرَاتِهِ ترى الأكَم فيه سجداً للحوافر

وكما قال جرير: والجبال الخشع، أي من رأى الحجر هابطاً تخيل فيه الخشية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ضعيف: لأن براءة معنى الآية تختل به، بل القوي أن الله تعالى يخلق للحجارة قدراً ما من الإدراك تقع به الخشية والحركة، و﴿بغافل﴾ في موضع نصب خبر ﴿ما﴾، لأنها الحجازية، يقوي ذلك دخول الباء في الخبر، وإن كانت الباء قد تجيء شاذة مع التميمية، وقرأ ابن كثير «يعملون» بالياء، والمخاطبة على هذا لمحمد صلى الله عليه وسلم.

وقوله تعالى: ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم﴾ الآية، الخطاب للمؤمنين من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك أن الأنصار كان لهم حرص على إسلام اليهود للحلف والجوار الذي كان بينهم، ومعنى هذا الخطاب: التقرير على أمر فيه بعد، إذ قد سلفت لأسلاف هؤلاء اليهود أفاعيل سوء، وهؤلاء على ذلك السنن، والفريق اسم جمع لا واحد له من لفظه كالحزب، وقال مجاهد والسدي: عني بالفريق هنا الأحزاب

الذين حرفوا التوراة في صفة محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل المراد كل من حرف في التوراة شيئاً حكماً أو غيره كفعلهم في آية الرجم ونحوها، وقال ابن إسحاق والربيع: عُني السبعون الذين سمعوا مع موسى صلى الله عليه وسلم ثم بدلوا بعد ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا القول ضعف، ومن قال إن السبعين سمعوا ما سمع موسى فقد أخطأ وأذهب فضيلة موسى عليه السلام واختصاصه بالتكليم، وقرأ الأعمش: «كَلِمَ الله»، وتحريف الشيء إحالته من حال إلى حال، وذهب ابن عباس رضي الله عنه إلى أن تحريفهم وتبديلهم إنما هو بالتأويل ولفظ التوراة باقٍ، وذهب جماعة من العلماء إلى أنهم بدلوا ألفاظاً من تلقائهم وأن ذلك ممكن في التوراة لأنهم است حفظوها، وغير ممكن في القرآن لأن الله تعالى ضمن حفظه. قوله عز وجل:

وَإِذْ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَقَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُّهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذُوا لَهُمْ سَمَاءً مِمَّا فُتِحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لِيُحَاجُّوكم بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يُظُنُّونَ ﴿٧٨﴾

المعنى: وهم أيضاً إذا لقوا يفعلون هذا، فكيف يطمع في إيمانهم؟ ويحتمل أن يكون هذا الكلام مستأنفاً مقطوعاً من معنى الطمع، فيه كشف سرائرهم.

ورود في التفسير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يدخلن علينا قصبة المدينة إلا مؤمن»، فقال كعب بن الأشرف ووهب بن يهودا وأشباههما: اذهبوا وتحسسوا أخبار من آمن بمحمد وقولوا لهم آمنا واكفروا إذا رجعت، فنزلت هذه الآية فيهم، وقال ابن عباس: نزلت في منافقين من اليهود، وروي عنه أيضاً أنها نزلت في قوم من اليهود قالوا لبعض المؤمنين نحن نؤمن أنه نبي ولكن ليس إلينا، وإنما هو إليكم خاصة، فلما خلوا قال بعضهم: لم تقرون بنبوته وقد كنا قبل نستفتح به؟ فهذا هو الذي فتح الله عليهم من علمه، وأصل ﴿خلا﴾ «خلو» تحرك الواو وانفتح ما قبلها فانقلبت ألفاً، وقال أبو العالية وقتادة: إن بعض اليهود تكلم بما في التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وسلم، فقال لهم كفرة الأخبار: اتحدثون ﴿بما فتح الله عليكم﴾ أي عرفكم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم فيحتاجون عليكم إذ تقرون به ولا تؤمنون به؟، وقال السدي: إن بعض اليهود حكى لبعض المسلمين ما عذب به أسلافهم، فقال بعض الأخبار: اتحدثونهم بما فتح الله عليكم من العذاب، فيحتاجون عليكم ويقولون نحن أكرم على الله حين لم يفعل بنا مثل هذا؟، وفتح على هذا التأويل بمعنى حكم، وقال مجاهد: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبني قريظة: يا إخوة الخنازير والقردة، فقال الأخبار لأتباعهم: ما عرف هذا إلا من عندكم، اتحدثونهم؟ وقال ابن زيد: كانوا إذا سئلوا عن شيء، قالوا في التوراة كذا وكذا، فكرهت الأخبار ذلك، ونهوا في الخلوة عنه، ففيه نزلت الآية.

والفتح في اللغة ينقسم أقساماً تجمعها بالمعنى التوسعة وإزالة الإبهام، وإلى هذا يرجع الحكم

وغيره، والفتاح هو القاضي بلغة اليمن، و﴿مُحَاجُّوكم﴾ من الحجة، وأصله من حج إذا قصد، لأن المتحاجين كل واحد منها يقصد غلبة الآخر، و﴿عند ربكم﴾ معناه في الآخرة، وقيل عند بمعنى في ربكم، أي فيكونون أحق به، وقيل: المعنى عند ذكر ربكم.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قيل: هو من قول الأخبار للأتباع، وقيل: هو خطاب من الله للمؤمنين، أي أفلا تعقلون أن بني إسرائيل لا يؤمنون وهم بهذه الأحوال. والعقل علوم ضرورية

وقرأ الجمهور «أولا يعلمون» بالياء من أسفل، وقرأ ابن محيصن «أولا تعلمون» بالتاء خطاباً للمؤمنين، والذي أسروه كفرهم، والذي أعلنوه قولهم آمنا، هذا في سائر اليهود، والذي أسره الأخبار صفة محمد صلى الله عليه وسلم والمعرفة به، والذي أعلنوه الجحد به، ولفظ الآية يعم الجميع.

و﴿أُمَيُّون﴾ هنا عبارة عن جهلة بالتوراة، قال أبو العالية ومجاهد وغيرهما: المعنى ومن هؤلاء اليهود المذكورين، فالآية منبهة على عامتهم وأتباعهم، أي إنهم ممن لا يطمع في إيمانهم لما غرهم من الضلال، وقيل: المراد هنا بالأميين قوم ذهب كتابهم لذنوب ركبوها فبقوا أميين، وقال عكرمة والضحاك: هم في الآية نصارى العرب، وقيل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه إنه قال: هم المجوس. والضمير إني ﴿منهم﴾ على هذه الأقوال هو للكفار أجمعين، قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقول أبي العالية ومجاهد أوجه هذه الأقوال، وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبيدة «أُمَيُّون» بتخفيف الميم، والأمي في اللغة الذي لا يكتب ولا يقرأ في كتاب، نسب إلى الأم: إما لأنه بحال أمه من عدم الكتاب لا بحال أبيه، إذ النساء ليس من شغلن الكتاب، قاله الطبري، وإما لأنه بحال ولدته أمه فيها لم ينتقل عنها، وقيل نسب إلى الأمة وهي القامة والخلقة، كأنه ليس له من الآدميين إلا ذلك، وقيل نسب إلى الأمة على سذاجتها قبل أن تعرف المعارف، فإنها لا تقرأ ولا تكتب، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم في العرب: «إنا أمة أمية لا نحسب ولا نكتب»، الحديث: والألف واللام في ﴿الكتاب﴾ للمعهد، ويعني به التوراة في قول أبي العالية ومجاهد. والأمايني جمع أُمَيَّة، وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع في بعض ما روي عنه «أمايني» بتخفيف الياء، وأصل أُمَيَّة أُمَيَّة على وزن أفعولة، ويجمع هذا الوزن على أفاعِل، وعلى هذا يجب تخفيف الياء، ويجمع على أفاعيل فعلى هذا يجيء أمايني أدغمت الياء في الياء فجاء «أمايني».

واختلف في معنى ﴿أمايني﴾، فقالت طائفة: هي هنا من تمنى الرجل إذا ترجى، فمعناه أن منهم من لا يكتب ولا يقرأ وإنما يقول بظنه شيئاً سمعه، فيتمنى أنه من الكتاب، وقال آخرون: هي من تمنى إذا تلا، ومنه قوله تعالى ﴿إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: ٥٢] ومنه قول الشاعر [كعب بن مالك]: [الطويل]

تمنى كتاب الله أول ليله وآخره لاقى حمام المقادير

فمعنى الآية أنهم لا يعلمون الكتاب إلا سماع شيء يتلى لا علم لهم بصحته، وقال الطبري: هي من تمنى الرجل إذا حدث بحديث مختلق كذب، وذكر أهل اللغة أن العرب تقول تمنى الرجل إذا كذب واختلق الحديث، ومنه قول عثمان رضي الله عنه: «ما تمنيت ولا تغنيت منذ أسلمت».

فمعنى الآية أن منهم أميين لا يعلمون الكتاب إلا أنهم يسمعون من الأحبار أشياء مختلفة يظنونها من الكتاب، وإن نافية بمعنى ما، والظن هنا على بابه في الميل إلى أحد الجائزين.
قوله عز وجل:

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا
مَقْدُودَةً قُلْ أَتُخَذُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ فَعُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ
﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَظَّتْ بِهِ ۖ حَظِيَّتُهُ ۖ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۖ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾

﴿الذين﴾ في هذه الآية يراد بهم الأحبار والرؤساء، قال الخليل: الويل شدة الشر، وقال الأصمعي: الويل القبح وهو مصدر لا فعل له، ويجمع على ويلات، والأحسن فيه إذا انفصل الرفع، لأنه يقتضي الوقوع، ويصح النصب على معنى الدعاء أي ألزمه الله ويلاً، وويل وويح وويس وويب تتقارب في المعنى، وقد فرق بينها قوم، وروى سفيان وعطاء بن يسار أن الويل في هذه الآية: واد يجري بفناء جهنم من صديد أهل النار، وروى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه واد في جهنم بين جبلين يهوي فيه الهاوي أربعين خريفاً، وقال أبو عياض: إنه صهرج في جهنم، وروى عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه جبل من جبال النار. وحكى الزهراوي عن آخرين أنه باب من أبواب جهنم، و﴿الذين يكتبون﴾: هم الأحبار الذين بدلوا التوراة.

وقوله تعالى: ﴿بأيديهم﴾ بيان لجرمهم وإثبات لمجاهرتهم الله، وفرق بين من كتب وبين من أمر، إذ المتولي للفعل أشد واقعة ممن لم يتوله، وإن كان رأياً له، وقال ابن السراج: هو كناية عن أنه من تلقائهم دون أن ينزل عليهم، وإن لم تكن حقيقة في كتب أيديهم، والذي بدلوا هو صفة النبي صلى الله عليه وسلم ليستديموا رياستهم ومكاسهم، وقال ابن إسحاق: كانت صفته في التوراة أسمر ربعة، فردوه آدم طويلاً، وذكر السدي أنهم كانوا يكتبون كتباً يبدلون فيها صفة النبي صلى الله عليه وسلم ويبيعونها من الأعراب ويبشونها في أتباعهم ويقولون هي من عند الله، وتناسق هذه الآية على التي قبلها يعطي أن هذا الكتب والتبديل إنما هو للأتباع الأميين الذين لا يعلمون إلا ما قرأ لهم.

والثمن قيل عرض الدنيا، وقيل الرشا والمآكل التي كانت لهم، ووصفه بالقلّة إما لفنائه وإما لكونه حراماً، وكرر الويل لتكرار الحالات التي استحقوه بها، و﴿يكسبون﴾ معناه من المعاصي والخطايا، وقيل من المال الذي تضمنه ذكر الثمن.

وقوله تعالى: ﴿وقالوا لن تمسنا النار﴾ الآية، روى ابن زيد وغيره أن سببها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لليهود: من أهل النار؟ فقالوا: نحن ثم تخلفونا أنتم، فقال لهم: كذبتم لقد علمتم أنا لا

نخلفكم، فنزلت هذه الآية، ويقال إن السبب أن اليهود قالت: إن الله تعالى أقسم أن يدخلهم النار أربعين يوماً عدد عبادتهم العجل، قاله ابن عباس وقتادة، وقالت طائفة: قالت اليهود إن في التوراة أن طول جهنم مسيرة أربعين سنة وأنهم يقطعون في كل يوم سنة حتى يكملوها وتذهب جهنم، وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد وابن جريج: إنهم قالوا إن مدة الدنيا سبعة آلاف سنة وإن الله تعالى يعذبهم بكل ألف سنة يوماً.

﴿اتخذتم﴾ أصله «اتخذتم»، وزنه افتعلتم من الأخذ، سهلت الهمزة الثانية لامتناع جمع همزتين فجاء «اتخذتم» فاضطربت الياء في التصريف فجاءت ألفاً في ياتخذوا وواواً في «موتخذ» فبدلت بحرف جلد ثابت وهو التاء وأدغمت، فلما دخلت في هذه الآية ألف التقرير استغني عن ألف الوصل، ومذهب أبي علي أن «اتخذتم» من «تخذ» لا من «أخذ» وقد تقدم ذكر ذلك.

وقال أهل التفسير: العهد من الله تعالى في هذه الآية الميثاق والوعد، وقال ابن عباس وغيره: معناه هل قلت لا إله إلا الله وآمنت وأطعتم فتدلون بذلك وتعلمون أنكم خارجون من النار؟، فعلى هذا التأويل الأول يجيء المعنى: هل عاهدكم الله على هذا الذي تدعون؟ وعلى التأويل الثاني يجيء: هل أسلفتم عند الله أعمالاً توجب ما تدعون؟، وقوله ﴿فلن يخلف الله عهده﴾ اعتراض أثناء الكلام.

و﴿بل﴾ رد بعد النفي بمنزلة نعم بعد الإيجاب، وقال الكوفيون: أصلها بل التي هل للإضراب عن الأول وزيدت عليها الياء ليحسن الوقف عليها وضمنت الياء معنى الإيجاب والإنعام بما يأتي بعدها، وقال سيبويه: هي حرف مثل بل وغيره، وهي في هذه الآية رد لقول بني إسرائيل ﴿لن تمسنا النار﴾ فرد الله عليهم وبين الخلود في النار والجنة بحسب الكفر والإيمان، و﴿من﴾ شرط في موضع رفع بالابتداء، و﴿أولئك﴾ ابتداء ثان، و﴿أصحاب﴾ خبره، والجملة خبر الأول، والفاء موطئة أن تكون الجملة جواب الشرط.

وقالت طائفة: السيئة الشرك كقوله تعالى ﴿ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار﴾ [النمل: ٩٠]، والخطيئات كبائر الذنوب، وقال قوم: «خطيئته» بالإنفراد، وقال قوم: السيئة هنا الكبائر، وأفردا وهي بمعنى الجمع لما كانت تدل على الجنس، كقوله تعالى ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والخطيئة الكفر، ولفظة الإحاطة تقوي هذا القول وهي مأخوذة من الحائض المحقق بالشيء، وقال الربيع بن خيثم والأعمش والسدي وغيرهم: معنى الآية مات بذنوب لم يتب منها، وقال الربيع أيضاً: المعنى مات على كفره، وقال الحسن بن أبي الحسن والسدي: المعنى كل ما توعد الله عليه بالنار فهي الخطيئة المحيطة، والخلود في هذه الآية على الإطلاق والتأييد في المشركين، ومستعار بمعنى الطول والدوام في العصاة وإن علم انقطاعه، كما يقال ملك خالد ويدعى للملك بالخلد.

وقوله تعالى: ﴿والذين آمنوا﴾ الآية. يدل هذا التقسيم على أن قوله ﴿من كسب سيئة﴾ الآية في الكفار لا في العصاة، ويدل على ذلك أيضاً قوله: ﴿أحاطت﴾ لأن العاصي مؤمن فلم تحط به خطيئته، ويدل على ذلك أيضاً أن الرد كان على كفار ادعوا أن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودة فهم المراد بالخلود، والله أعلم.

قوله عز وجل:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِأُولَئِكَ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ

وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْنَا مِثَقَلِكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾

المعنى: «واذكروا إذ أخذنا»، وقال مكي رحمه الله: «هذا هو الميثاق الذي أخذ عليهم حين أخرجوا من صلب آدم كالذر»، وهذا ضعيف، وإنما هو ميثاق أخذ عليهم وهم عقلاء في حياتهم على لسان موسى عليه السلام وغيره من أنبيائهم عليهم السلام، وأخذ الميثاق قول، فالمعنى قلنا لهم ﴿لا تعبدون﴾، وقرأ ابن كثير وحزمة والكسائي «لا يعبدون» بالياء من أسفل، وقرأ الباقون بالتاء من فوق، حكاية ما قيل لهم، وقرأ أبي بن كعب وابن مسعود «لا تعبدوا» على النهي. قال سيويه: ﴿لا تعبدون﴾ متعلق لقسم، والمعنى وإذا استخلفناكم والله لا تعبدون، وقالت طائفة: تقدير الكلام بأن لا تعبدوا إلا الله، ثم حذفت الباء ثم حذفت أن فارتفع الفعل لزوالها، ﴿فلا تعبدون﴾ على هذا معمول لحرف النصب، وحكي عن قطرب أن ﴿لا تعبدون إلا الله﴾ في موضع الحال أي أخذنا ميثاقهم موحدين، وهذا إنما يتجه على قراءة ابن كثير، ونظام الآية يدفعه مع كل قراءة، وقال قوم ﴿لا تعبدون إلا الله﴾ نهي في صيغة خبر، ويدل على ذلك أن في قراءة أبي لا تعبدوا.

والباء في قوله ﴿وبالوالدين﴾ قيل هي متعلقة بالميثاق عطفاً على الباء المقدرة أولاً على قول من قال التقدير بأن لا تعبدوا، وقيل: تتعلق بقوله و﴿إحساناً﴾ والتقدير قلنا لهم لا تعبدون إلا الله، وأحسنوا إحساناً بالوالدين ويعترض هذا القول بأن المصدر قد تقدم عليه ما هو معمول له، وقيل تتعلق الباء بأحسنوا المقدر والمعنى وأحسنوا بالوالدين إحساناً، وهذا قول حسن، وقدم اللفظ ﴿بالوالدين﴾ تهماً فهو نحو قوله تعالى ﴿إياك نعبد﴾ [الفاتحة: ٥] وفي الإحسان تدخل أنواع بر الوالدين كلها، ﴿وذى القربى﴾ عطف على الوالدين، و﴿القربى﴾ بمعنى القرابة، وهو مصدر كالرجعى والعقبى، وهذا يتضمن الأمر بصلة الرحم، ﴿واليتامى﴾: جمع يتيم كنديم وندامى، واليتيم في بني آدم فقد الأب، وفي البهائم فقد الأم، وقال عليه السلام: «لا يتم بعد بلوغ»، وحكى الماوردي أن اليتيم في بني آدم في فقد الأم، وهذا يتضمن الرأفة باليتامى وحيطة أمواهم، ﴿والمساكين﴾: جمع مسكين وهو الذي لا شيء له، لأنه مشتق من السكون وقد قيل: إن المسكين هو الذي له بلغة من العيش، وهو على هذا مشتق من السكن، وهذا يتضمن الحض على الصدقة والمواساة وتفقد أحوال المساكين.

وقوله تعالى: ﴿وقولوا للناس حسناً﴾، أمر عطف على ما تضمنه ﴿لا تعبدون إلا الله﴾ وما بعده من معنى الأمر والنهي، أو على أحسنوا المقدر في قوله ﴿وبالوالدين﴾، وقرأ حمزة والكسائي «حَسَنًا» بفتح الحاء والسين، قال الأخفش: هما بمعنى واحد كالبخل والبخل، قال الزجاج وغيره: بل المعنى في القراءتين وقولوا قولاً حسناً بفتح السين أو قولاً ذا «حُسْن» بضم الحاء، وقرأ قوم «حسنى» مثل فعلى، ورده سيويه لأن أفعَل وفعلى لا نجىء إلا معرفة إلا أن يزال عنها معنى التفضيل وتبقى مصدراً كالعقبى، فذلك جائز، وهو

وجه القراءة بها، وقرأ عيسى بن عمر وعطاء بن أبي رباح «حُسْنًا» بضم الحاء والسين، وقال ابن عباس: معنى الكلام قولوا لهم لا إله إلا الله ومروهم بها، وقال ابن جريج: قولوا لهم حسناً في الإعلام بما في كتابكم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم، وقال سفيان الثوري: معناه مروهم بالمعروف وانهموم عن المنكر، وقال أبو العالية: معناه قولوا لهم الطيب من القول وحاوروهم بأحسن ما تحبون أن تحاوروا به، وهذا حض على مكارم الأخلاق، وحكى المهدوي عن قتادة أن قوله تعالى ﴿وقولوا للناس حسناً﴾: منسوخ بآية السيف.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وهذا على أن هذه الأمة خوطبت بمثل هذا اللفظ في صدر الإسلام، وأما الخبر عن بني إسرائيل وما أمروا به فلا نسخ فيه، وقد تقدم القول في إقامة الصلاة، وزكاتهم هي التي كانوا يضعونها وتنزل النار على ما تقبل ولا تنزل على ما لم يتقبل، ولم تكن زكاة أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «الزكاة التي أمروا بها طاعة الله والإخلاص».

وقوله تعالى ﴿ثم توليتهم﴾ الآية خطاب لمعاصري محمد صلى الله عليه وسلم أسند إليهم تولي أسلافهم، إذ هم كلهم بتلك السبيل، قال نحوه ابن عباس وغيره، و﴿ثم﴾ مبنية على الفتح ولم تحر مجرى رد وشد لأنها لا تصرف، وضمت التاء الأخيرة من ﴿توليتهم﴾ لأن تاء المفرد أخذت الفتح وتاء المؤنث أخذت الكسر فلم يبق للثنائية والجمع إلا الضم، و﴿قليلاً﴾ نصب على الاستثناء قال سيويه: المستثنى منصوب على التشبيه بالمفعول به، قال المبرد: هو مفعول حقيقة لأن تقديره استثنيت كذا، والمراد بالقليل جميع مؤمنهم قديماً من أسلافهم وحديثاً كابن سلام وغيره، والقلة على هذا هي في عدد الأشخاص، ويحتمل أن تكون القلة في الإيمان أي لم يبق حين عصوا وكفر آخرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم إلا إيمان قليل، إذ لا ينفعهم، والأول أقوى، وقرأ قوم «إلا قليل» برفع القليل، ورويت عن أبي عمرو، وهذا على بدل قليل من الضمير في ﴿توليتهم﴾، وجاز ذلك مع أن الكلام لم يتقدم فيه نفي لأن ﴿توليتهم﴾ معناه النفي كأنه قال ثم لم تفوا بالميثاق إلا قليل، والسفك صب الدم وسرد الكلام، وقرأ طلحة بن مصرف وشعيب بن أبي حمزة «لا تسفكون» بضم الفاء، وقرأ أبو نهيك «تُسْفَكُون» بضم التاء وكسر الفاء وتضعيفها، وإعراب ﴿لا تسفكون﴾ كما تقدم في ﴿لا تعبدون﴾، و﴿دماءكم﴾ جمع دم، وهو اسم منقوص أصله دمي، وثنيت دميان، وقيل أصله دمي بسكون الميم، وحركت في الثنية لتدل الحركة على التغيير الذي في الواحد.

وقوله تعالى ﴿ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾ معناه ولا ينفي بعضكم بعضاً بالفتنة والبغي، ولما كانت ملتهم واحدة وأمرهم واحداً وكانوا في الأمم كالشخص الواحد، جعل قتل بعضهم لبعض ونفي بعضهم بعضاً قتلاً لأنفسهم ونفياً لها، وكذلك حكم كل جماعة تخاطب بهذا اللف في القول، وقيل ﴿لا تسفكون دماءكم﴾ أي لا يقتل أحد فيقتل قصاصاً، فكأنه سفك دم نفسه لما سبب ذلك ولا يفسد في الأرض فينفي فيكون قد أخرج نفسه من دياره، وهذا تأويل فيه تكلف، وإنما كان الأمر أن الله تعالى قد أخذ على بني إسرائيل في التوراة ميثاقاً أن لا يقتل بعضهم بعضاً ولا ينفيه ولا يسترقه ولا يدعه يسترق إلى غير ذلك من الطاعات.

وقوله تعالى ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ أي خلفاً بعد سلف أن هذا الميثاق أخذ عليكم والتزمتوه فيتجه في هذه اللفظة أن تكون من الإقرار الذي هو ضد الجحد وتتعدى بالباء، وأن تكون من الإقرار الذي هو إبقاء الأمر على حاله، أي أقررتم هذا الميثاق ملتزماً.

وقوله ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ قيل الخطاب يراد به من سلف منهم والمعنى وأنتم شهود أي حضور أخذ الميثاق والإقرار، وقيل إن المراد من كان في مدة محمد صلى الله عليه وسلم، والمعنى وأنتم شهداء أي بينة أن هذا الميثاق أخذ على أسلافكم فمن بعدهم.

قوله عز وجل:

ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنفُسُكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِآلَائِكُمْ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمُ أُسْكُرَىٰ تُفْئِدُوهُمْ وَهُمْ هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِّنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾

﴿هؤلاء﴾ دالة على أن المخاطبة للحاضرين لا تحتمل رداً إلى الأسلاف، قيل: تقدير الكلام يا هؤلاء، فحذف حرف النداء، ولا يحسن حذفه عند سيويه مع المبهمات، لا تقول هذا أقبل، وقيل تقديره أعني هؤلاء، وقيل ﴿هؤلاء﴾ بمعنى الذين، فالتقدير ثم أنتم الذين تقتلون، ف﴿تقتلون﴾ صلة ﴿لهؤلاء﴾، ونحوه قال يزيد بن مفرغ الحميري.

عدس ما لعباد عليك إمارة نجوت وهذا تحمليين طليق

وقال الأستاذ الأجل أبو الحسن بن أحمد شيخنا رضي الله عنه: ﴿هؤلاء﴾ رفع بالابتداء و﴿أنتم﴾ خبر مقدم، و﴿تقتلون﴾ حال، بها تم المعنى، وهي كانت المقصود فهي غير مستغنى عنها، وإنما جاءت بعد أن تم الكلام في المسند والمسند إليه، كما تقول هذا زيد منطلقاً، وأنت قد قصدت الإخبار بانطلاقه لا الإخبار بأن هذا هو زيد.

وهذه الآية خطاب لقريظة والنضير وبني قينقاع، وذلك أن النضير وقريظة حالفت الأوس، وبني قينقاع حالفت الخزرج، فكانوا إذا وقعت الحرب بين بني قيلة ذهب كل طائفة من بني إسرائيل مع أحلافها فقتل بعضهم بعضاً وأخرج بعضهم بعضاً من ديارهم، وكانوا مع ذلك يفدي بعضهم أسرى بعض اتباعاً لحكم التوراة وهم قد خالفوها بالقتال والإخراج، وقرأ الحسن بن أبي الحسن «تقتلون» بضم التاء الأولى وكسر الثانية وشدها على المبالغة، والديار مباني الإقامة، وقال الخليل: محلة القوم دارهم، وقرأ حمزة وعاصم والكسائي «تظاهرون» بتخفيف الظاء وهذا على حذف التاء الثانية من تظاهرون، وقرأ بقية السبعة «تظاهرون» بشد الظاء على إدغام التاء في الظاء، وقرأ أبو حية «تظَّهرون» بضم التاء وكسر الهاء، وقرأ مجاهد وقتادة «تَظْهَرُونَ» بفتح التاء وشد الظاء والهاء مفتوحة دون ألف، ورويت هذه عن أبي

عمرو، ومعنى ذلك على كل قراءة تتعاونون، وهو مأخوذ من الظهر، كأن المتظاهرين يسند كل واحد منهما ظهره إلى صاحبه، والإثم العهد الراتبه على العبد من المعاصي، والمعنى بمكتسبات الإثم، ﴿والعدوان﴾ تجاوز الحدود والظلم، وحسن لفظ الإتيان من حيث هو في مقابلة الإخراج فيظهر التضاد المقيح لفعلهم في الإخراج، وقرأ حمزة «أسرى تفدوهم»، وقرأ نافع وعاصم والكسائي «أسارى تفادوهم»، وقرأ أبو عمرو وابن عامر وابن كثير «أسارى تفدوهم»، وقرأ قوم «أسرى تفادوهم». و﴿أسارى﴾ جمع أسير، والأسير مأخوذ من الأسر وهو الشد، سمي بذلك لأنه يؤسر أي يشد وثاقاً، ثم كثر استعماله حتى لزم وإن لم يكن ثم ربط ولا شد، وأسير فعيل بمعنى مفعول، ولا يجمع بواو ونون وإنما يكسر على أسرى وأسارى، والأقيس فيه أسرى، لأن فعلاً بمعنى مفعول الأصل فيه أن يجمع على فعلى، كقتلى وجرحى، والأصل في إعلان أن يجمع على «فعالى» بفتح الفاء و«فعالى» بضمها كسكران وكسلان وسُكَّارى وكُسَّالى، قال سيبويه: فقالوا في جمع كسلان كسل، شبهوه بأسرى كما قالوا ﴿أسارى﴾ شبهوه بكسالى، ووجه الشبه أن الأسر يدخل على المرء مكرهاً كما يدخل الكسل، وفعالى إنما يجيء فيما كان آفة تدخل على المرء.

و﴿تفادوهم﴾ معناه في اللغة تطلقونهم بعد أن تأخذوا عنهم شيئاً، قاله أبو علي، قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفاديت نفسي إذا أطلقتها بعد أن دفعت شيئاً، فعلى هذا قد تجيء بمعنى فديت أي دفعت فيه من مال نفسي، ومنه قول العباس للنبي صلى الله عليه وسلم: أعطني فإنني فاديت نفسي، وفاديت عقيلاً، وهما فعلان يتعديان إلى مفعولين الثاني منهما بحرف جر، تقول: فديت زيداً بمال وفاديت بمال، وقال قوم: هي في قراءة تفادوهم مفاعلة في أسرى بأسرى، قال أبو علي: كل واحد من الفريقين فعل، الأسر دفع الأسير، والمأسور منه دفع أيضاً إما أسيراً وإما غيره، والمفعول الثاني محذوف.

وقوله تعالى: ﴿وهو محرم﴾ قيل في ﴿هو﴾ إنه ضمير الأمر، تقديره والأمر محرم عليكم، و﴿إخراجهم﴾ في هذا القول بدل من ﴿هو﴾، وقيل ﴿هو﴾ فاصلة، وهذا مذهب الكوفيين، وليست هنا بالتي هي عماد، و﴿محرم﴾ على هذا ابتداء، و﴿إخراجهم﴾ خبره، وقيل هو الضمير المقدر في ﴿محرم﴾ قدم وأظهر، وقيل هو ضمير الإخراج تقديره وإخراجهم محرم عليكم.

وقوله تعالى: ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب﴾ يعني التوراة، والذي آمنوا به فداء الأسارى، والذي كفروا به قتل بعضهم بعضاً وإخراجهم من ديارهم، وهذا توبيخ لهم، وبيان لقبح فعلهم.

وروي أن عبد الله بن سلام مرَّ على رأس الجالوت بالكوفة وهو يفادي من النساء من لم تقع عليه العرب ولا يفادي من وقع عليه، فقال له ابن سلام: أما إنه مكتوب عندك أن تفاديهن كلهن.

ثم توعدهم عز وجل. والخزي: الفضيحة والعقوبة، يقال: خزي الرجل يخزي خزيًا إذا ذل من الفضيحة، وخزي يخزي خزاية إذا ذل واستحيا. واختلف ما المراد بالخزي ها هنا ف قيل: القصاص فيمن قتل، وقيل ضرب الجزية عليهم غابر الدهر، وقيل قتل قريظة، وإجلاء النضير، وقيل: الخزي الذي توعد به الأمة وهو غلبة العدو. والدنيا مأخوذة من دنا يدنو، وأصل الياء فيها واو ولكن أبدلت فرقاً بين الأسماء والصفات. وأشد العذاب الخلود في جهنم، وقرأ الحسن وابن هرمز «تردون» بناء.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ﴾ الآية، قرأ نافع وابن كثير «يعملون» بياء على ذكر الغائب فالخطاب بالآية لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، والآية واعظة لهم بالمعنى إذ الله تعالى بالمرصاد لكل كافر وعاص، وقرأ الباقون بقاء على الخطاب المحتمل أن يكون في سرد الآية وهو الأظهر، ويحتمل أن يكون لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، فقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إن بني إسرائيل قد مضوا وأنتم الذين تعنون بهذا يا أمة محمد، يريد: وبما يجري مجراه.

قوله عز وجل:

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾
وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ
وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَبْتُمْ
وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

جعل الله ترك الآخرة وأخذ الدنيا مع قدرتهم على التمسك بالآخرة بمنزلة من أخذها ثم باعها بالدنيا. وهذه النزعة صرفها مالك رحمه الله في فقه البيوع، إذ لا يجوز الشراء على أن يختار المشتري في كل ما تختلف صفة أحاده، ولا يجوز فيه التفاضل كالحجل المذبوحة وغيرها، ولا يخفف عنهم العذاب في الآخرة، ولا ينصرون لا في الدنيا ولا في الآخرة، و﴿الكتاب﴾ التوراة، ونصبه على المفعول الثاني لـ ﴿آتينا﴾، و﴿وقفينا﴾ مأخوذ من القفا، تقول قفيت فلاناً بفلان إذا جئت به من قبل قفاه، ومنه قفا يقفو إذا تبع. وهذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿ثم أرسلنا رسلنا تترأ﴾ [المؤمنون: ١٤٤]، وكل رسول جاء بعد موسى عليه السلام فلانما جاء بإثبات التوراة والأمر بلزومها إلى عيسى عليه السلام، وقرأ الحسن ويحيى بن يعمر «بالرسل» ساكنة السين، ووافقهما أبو عمرو إذا انضاف ذلك إلى ضمير نحورسلنا ورسلمهم، و﴿البيّنات﴾ الحجج التي أعطاه الله عيسى، وقيل هي آياته من إحياء وإبراء وخلق طير، وقيل هي الإنجيل، والآية نعم جميع ذلك، و﴿أيدناه﴾ معناه قويناه، والأيد القوة، وقرأ ابن محيصن والأعرج وحמיד «أيدناه». وقرأ ابن كثير ومجاهد «روح القدس» بسكون الدال. وقرأ الجمهور بضم القاف والدال، وفيه لغة فتحهما، وقرأ أبو حية «بروح القدوس» بواو، وقال ابن عباس رضي الله عنه: «روح القدس هو الاسم الذي به كان يحيي الموتى»، وقال ابن زيد: «هو الإنجيل كما سمي الله تعالى القرآن روحاً»، وقال السدي والضحاك والربيع وقتادة: «روح القدس جبريل صلى الله عليه وسلم»، وهذا أصح الأقوال. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت: «اهج قريشاً وروح القدس معك»، ومرة قال له «وجبريل معك»، وقال الربيع ومجاهد: «القدس» اسم من أسماء الله تعالى كالقدوس، والإضافة على هذا إضافة الملك إلى المالك، وتوجهت لما كان جبريل عليه السلام من عباد الله تعالى، وقيل «القدس» الطهارة، وقيل «القدس» البركة.

وكلما ظرف، والعامل فيه «استكبرتم»، وظاهر الكلام الاستفهام، ومعناه التوبيخ والتقرير، ويتضمن أيضاً الخبر عنهم، والمراد بهذه الآية بنو إسرائيل.

ويروى أن بني إسرائيل كانوا يقتلون في اليوم ثلاثمائة نبي ثم تقوم سوقهم آخر النهار، وروي سبعين نبياً ثم تقوم سوق بقلهم آخر النهار، وفي ﴿فهوى﴾ ضمير من صلة ما لطول اللفظ، والهوى أكثر ما يستعمل فيما ليس بحق، وهذه الآية من ذلك، لأنهم إنما كانوا يهون الشهوات، وقد يستعمل في الحق، ومنه قول عمر رضي الله عنه في قصة أسرى بدر: «فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت»، و﴿استكبرتم﴾ من الكبر، و﴿وفريقاً﴾ مفعول مقدم.

وقرأ جمهور القراء «غلف» بإسكان اللام على أنه جمع أغلف مثل «حمر» و«صفر»، والمعنى قلوبنا عليها غلف وغشاوات فهي لا تفقه، قاله ابن عباس، وقال قتادة: «المعنى عليها طابع»، وقالت طائفة: غلف بسكون اللام جمع غلاف، أصله غلف بثقل اللام فخفف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قلما يستعمل إلا في الشعر. وقرأ الأعمش والأعرج وابن محيصن «غلف» بثقل اللام جمع غلاف، ورويت عن أبي عمرو، فالمعنى هي أوعية للعلم والمعارف بزعمهم، فهي لا تحتاج إلى علم محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: المعنى فكيف يعزب عنها علم محمد صلى الله عليه وسلم؟، فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾، و﴿بل﴾ في هذه الآية نقض للأول، وإضراب عنه، ثم بين تعالى أن السبب في نفورهم عن الإيمان إنما هو أنهم لعنوا بما تقدم من كفرهم واجترامهم، وهذا هو الجزاء على الذنب فالذنب أعظم منه، واللعن الإبعاد والطرده، و﴿قليلاً﴾ نعت لمصدر محذوف تقديره فإيماناً قليلاً ما يؤمنون، والضمير في ﴿يؤمنون﴾ لحاضري محمد صلى الله عليه وسلم، ويتجه قلة هذا الإيمان: إما لأن من آمن بمحمد منهم قليل فيقل لقلة الرجال، قال هذا المعنى قتادة، وإما لأن وقت إيمانهم عندما كانوا يستفتحون به قبل مبعثه قليل، إذ قد كفروا بعد ذلك، وإما لأنهم لم يبق لهم بعد كفرهم غير التوحيد على غير وجهه، إذ هم مجسمون فقد قللوه بجحدهم الرسل وتكذيبهم التوراة، فإنما يقل من حيث لا ينفهم كذلك، وعلى هذا التأويل يجيء التقدير فإيماناً قليلاً، وعلى الذي قبله فوقتاً قليلاً، وعلى الذي قبله فعددًا من الرجال قليلاً، و﴿ما﴾ في قوله: ﴿فقليلاً ما يؤمنون﴾ زائدة مؤكدة، و﴿قليلاً﴾ نصب بـ ﴿يؤمنون﴾.

قوله عز وجل:

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ يَتَسَاءَلُونَ أَشْتَرَاءً بِهٖ أَنفُسُهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءَ وَبِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَ ۚ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقُولُونَ أَنبِيَآءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾

الكتاب القرآن، و﴿مصدق لما معهم﴾ يعني التوراة، وروي أن في مصحف أبي بن كعب «مصدقاً» بالنصب.

و﴿يستفتحون﴾ معناه أن بني إسرائيل كانوا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم قد علموا خروجه بما عندهم من صفته وذكر وقته، وظنوا أنه منهم، فكانوا إذا حاربوا الأوس والخزرج فغلبتهم العرب قالوا لهم: لو قد خرج النبي الذي قد أظل وقته لقاتلناكم معه واستنصرنا عليكم به و﴿يستفتحون﴾ معناه يستنصرون، وفي الحديث: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح بصعاليك المهاجرين»، وروي أن قريظة والنضير وجميع يهود الحجاز في ذلك الوقت كانوا يستفتحون على سائر العرب، وبسبب خروج النبي المنتظر كانت نقلتهم إلى الحجاز وسكناهم به، فإنهم كانوا علموا صقع المبعث، وما عرفوا أنه محمد عليه السلام وشرعه، ويظهر من هذه الآيات العناد منهم، وأن كفرهم كان مع معرفة ومعاندة، «ولعنة الله»: معناه إبعاده لهم وخزيهم لذلك.

واختلفت النحاة في جواب ﴿لما﴾ و﴿لما﴾ الثانية في هذه الآية. فقال أبو العباس المبرد: جوابها في قوله: ﴿كفروا﴾، وأعيدت ﴿لما﴾ الثانية لطول الكلام، ويفيد ذلك تقريراً للذنب، وتأكيداً له، وقال الزجاج: ﴿لما﴾ الأولى لا جواب لها للاستغناء عن ذلك بدلالة الظاهر من الكلام عليه؟

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: فكأنه محذوف، وقال الفراء: جواب ﴿لما﴾ الأولى في الفاء وما بعدها، وجواب ﴿لما﴾ الثانية ﴿كفروا﴾.

«وبيس» أصله «بش» سهلت الهمزة ونقلت إلى الباء حركتها، ويقال في «بش» «بيس» اتباعاً للكسرة، وهي مستوفية للذم كما نعم مستوفية للمدح، واختلف النحويون في «بيسا» في هذا الموضع، فمذهب سيبويه أن «ما» فاعلة ببيس، ودخلت عليها بيس كما تدخل على أسماء الأجناس والتكرات لما أشبهتها «ما» في الإبهام، فالتقدير على هذا القول: بيس الذي «اشتروا به أنفسهم أن يكفروا»، كقولك: بيس الرجل زيد، و«ما» في هذا القول موصولة، وقال الأخفش: «ما» في موضع نصب على التمييز كقولك «بيس رجلاً زيد»، فالتقدير «بيس شيئاً أن يكفروا»، و«اشتروا به أنفسهم» في هذا القول صفة «ما»، وقال الفراء «بيسا بجملته شيء واحد ركب كجذا»، وفي هذا القول اعتراض لأنه فعل يبقى بلا فاعل، و«ما» إنما تكف أبداً حروفاً، وقال الكسائي: «ما»، و«اشتروا» بمنزلة اسم واحد قائم بنفسه، فالتقدير بيس اشتراؤهم أنفسهم أن يكفروا، وهذا أيضاً معترض لأن «بيس» لا تدخل على اسم معين متعرف بالإضافة إلى الضمير، وقال الكسائي أيضاً: إن «ما» في موضع نصب على التفسير وثم «ما» أخرى مضمرة، فالتقدير بيس شيئاً ما اشتروا به أنفسهم، و«أن يكفروا» في موضع خفض بدلاً من الضمير في «به»، وأما في القولين الأولين ف«أن» «يكفروا» ابتداء وخبره فيما قبله، و«اشتروا» بمعنى باعوا، يقال: شري واشترى بمعنى باع، وبمعنى ابتاع، و«بما أنزل الله» يعني به القرآن، ويحتمل أن يراد به التوراة لأنهم إذ كفروا بعبسى ومحمد عليهما السلام فقد كفروا بالتوراة، ويحتمل أن يراد به الجميع من توراة وإنجيل وقرآن، لأن الكفر بالبعث يلزم الكفر بالكل، و«بغياً» مفعول من أجله، وقيل نصب على المصدر، و«أن ينزل» نصب على المفعول من أجله أو في موضع خفض بتقدير بأن ينزل.

وقرأ أبو عمرو وابن كثير «أن ينزل» بالتخفيف في النون والزاي، و﴿من فضله﴾ يعني من النبوة والرسالة. و﴿من يشاء﴾ يعني به محمداً صلى الله عليه وسلم لأنهم حسدوه لما لم يكن منهم وكان من العرب. ويدخل في المعنى عيسى عليه السلام لأنهم قد كفروا به بغياً، والله قد تفضل عليه، و﴿باؤوا﴾ معناه: مضوا متحملين لما يذكر أنهم باؤوا به، و﴿يغضب﴾ معناه من الله تعالى لكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم على غضب متقدم من الله تعالى عليهم، قيل لعبادتهم العجل، وقيل لقولهم عزيز ابن الله، وقيل لكفرهم بعيسى عليه السلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالمعنى على غضب قد باء به أسلافهم حظ هؤلاء منه وافر بسبب رضاهم بتلك الأفعال وتصويبهم لها.

وقال قوم: المراد بقوله ﴿يغضب على غضب﴾ التأكيد وتشديد الحال عليهم لا أنه أراد غضبين معللين بقصتين، و﴿مهين﴾ مأخوذ من الهوان وهو ما اقتضى الخلود في النار لأن من لا يخلد من عصاة المسلمين إنما عذابه كعذاب الذي يقام عليه الحد لا هوان فيه بل هو تطهير له.

وقوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم﴾ يعني: اليهود أنهم إذا قيل لهم: آمنوا بالقرآن الذي أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم ﴿قالوا نؤمن بما أنزل علينا﴾ يعنون التوراة وما وراءه. قال قتادة: أي ما بعده، وقال الفراء: أي ما سواه ويعني به القرآن، وإذا تكلم رجل أو فعل فعلاً فأجاد يقال له ما وراء ما أتيت به شيء، أي ليس يأتي بعده. ووصف الله تعالى القرآن بأنه الحق، و﴿مصدقاً﴾ حال مؤكدة عند سيويه، وهي غير منتقلة، وقد تقدم معناها في الكلام ولم يبق لها هي إلا معنى التأكيد، وأنشد سيويه على الحال المؤكدة: [البسيط]:

أنا ابن دارة معروفاً بها حسي وهل لدارة يا للناس من عار

و﴿لما معهم﴾ يريد به التوراة.

وقوله تعالى: ﴿قل فلم تقتلون﴾ الآية رد من الله تعالى عليهم في أنهم آمنوا بما أنزل عليهم، وتكذيب منه لهم في ذلك، واحتجاج عليهم. ولا يجوز الوقف على ﴿فلم﴾ لنقصان الحرف الواحد إلا أن البزي وقف عليه بالهاء، وسائر القراء بسكون الميم. وخاطب الله من حضر محمداً صلى الله عليه وسلم من بني إسرائيل بأنهم قتلوا الأنبياء لما كان ذلك من فعل أسلافهم. وجاء ﴿تقتلون﴾ بلفظ الاستقبال وهو بمعنى الماضي لما ارتفع الإشكال بقوله ﴿من قبل﴾ وإذا لم يشكل فجائز سوق الماضي بمعنى المستقبل وسوق المستقبل بمعنى الماضي. قال الحطيفة [الكامل أخذ مضمراً].

شهد الحطيفة يوم يلقي ربه أن الوليد أحق بالعذر

وفائدة سوق الماضي في موضع المستقبل، الإشارة إلى أنه في الثبوت كالماضي الذي قد وقع. وفائدة سوق المستقبل في معنى الماضي الإعلام بأن الأمر مستمر. ألا ترى أن حاضري محمد صلى الله عليه وسلم لما كانوا راضين بفعل أسلافهم بقي لهم من قتل الأنبياء جزء، و﴿إن كنتم﴾ شرط والجواب متقدم، وقالت فرقة: ﴿إن﴾ نافية بمعنى ما.

قوله عز وجل:

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٥﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمَايَا مُّرْكُم بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٦﴾ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٧﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٨﴾

البيّنات التوراة والعصا وفرق البحر وغير ذلك من آيات موسى عليه السلام وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمْ﴾ تدلّ ثم على أنهم فعلوا ذلك بعد مهلة من النظر في الآيات، وذلك أعظم في دينهم^(١)، وقد تقدمت قصة اتخاذهم العجل، والضمير في قوله ﴿من بعده﴾ عائد على موسى عليه السلام، أي من بعده حين غاب عنكم في المناجاة، ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿بعده﴾ على المجيء. وهذه الآية رد عليهم في أن من آمن بما نزل عليه لا يتخذ العجل، وقد تقدم ذكر أخذ الميثاق ورفع الطور.

وقوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ يعني التوراة والشرع، و﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي بعزم ونشاط وجد. ﴿واسمعوا﴾ معناه هنا: وأطيعوا، وليس معناه الأمر بإدراك القول فقط.

وقالت طائفة من المفسرين: إنهم قالوا ﴿سمعنا وعصينا﴾. ونطقوا بهذه الألفاظ مبالغة في التعتن والمعصية. وقالت طائفة: ذلك مجاز ولم ينطقوا بـ ﴿سمعنا وعصينا﴾، ولكن فعلهم اقتضاه، كما قال الشاعر [الرجز]:

امتلاً الحوض وقال قطني

وهذا أيضاً احتجاج عليهم في كذب قولهم ﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾ [البقرة: ٩١]، وقوله تعالى: ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم﴾ التقدير حب العجل، والمعنى جعلت قلوبهم تشربه، وهذا تشبيه ومجاز، عبارة عن تمكن أمر العجل في قلوبهم، وقال قوم: إن معنى قوله ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾ شربهم الماء الذي ألقى فيه موسى برادة العجل، وذلك أنه برده بالمبرد ورماء في الماء، وقيل لبني إسرائيل: اشربوا من ذلك الماء فشرب جميعهم، فمن كان يحب العجل خرجت برادة الذهب على شفّيته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول يردّه قوله تعالى: ﴿في قلوبهم﴾، وروي أن الذين تبين فيهم حب العجل أصابهم من ذلك الماء الجبن، وقوله تعالى ﴿بكفرهم﴾ يحتمل أن تكون باء السبب، ويحتمل أن تكون بمعنى مع، وقوله تعالى: ﴿قل يسما﴾ الآية أمر لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يوبخهم بأنه بش هذه الأشياء التي فعلتم وأمركم بها إيمانكم الذي زعمتم في قولكم ﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾ [البقرة: ٩١]،

(١) في نسخة: وذلك أعظم لدينهم في دينهم.

و«ما» في موضع رفع والتقدير: بشئ قتل واتخاذ عجل وقول ﴿سمعنا وعصينا﴾، ويجوز أن تكون «ما» في موضع نصب، و﴿إن كنتم مؤمنين﴾ شرط. وقد يأتي الشرط والشارط يعلم أن الأمر على أحد الجهتين، كما قال الله تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿إن كنت قلته فقد علمته﴾ [المائدة: ١١٦]، وقد علم عيسى عليه السلام أنه لم يقله، وكذلك ﴿إن كنتم مؤمنين﴾، والقاتل يعلم أنهم غير مؤمنين، لكنه إقامة حجة بقياس بين، وقال قوم ﴿إن﴾ هنا نافية بمنزلة «ما» كالتي تقدمت، وقرأ الحسن ومسلم بن جندب: «يأمركم بهو إيمانكم» برفع الهاء.

وقوله تعالى: ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة﴾ الآية أمر لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يوبخهم، والمعنى: إن كان لكم نعيمها وحظوتها وخيرها فذلك يقتضي حرصكم على الوصول إليها ﴿فتمنوا الموت﴾، و﴿الدار﴾ اسم ﴿كانت﴾، و﴿خالصة﴾ خبرها، ويجوز أن يكون نصب ﴿خالصة﴾ على الحال، و﴿عند الله﴾ خبر كان، و﴿من دون الناس﴾: يحتمل أن يراد به ﴿الناس﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ومن تبعه، ويحتمل أن يراد العموم التام وهو قول اليهود فيما حفظ عنهم، وقرأ ابن أبي إسحاق بكسر الواو من «تمنوا» للالتقاء، وحكى الأهوازي عن أبي عمرو أنه قرأ «تمنوا الموت» بفتح الواو، وحكى عن غيره اختلاس الحركة في الرفع، وقراءة الجماعة بضم الواو. وهذه آية بينة أعطاها الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم لأن اليهود قالت: نحن أبناء الله وأحباؤه، وشبه ذلك من القول، فأمر الله نبيه أن يدعوهم إلى تمنى الموت، وأن يعلمهم أنه من تمناه منهم مات، ففعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، فعلم اليهود صدقه، فأحجموا عن تمنيه، فرقاً من الله لقيح أعمالهم ومعرفتهم بكذبهم في قولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه، وحرصاً منهم على الحياة.

وقيل إن الله تعالى منعهم من التمني وقصرهم على الإمساك عنه، لتظهر الآية لنبيه صلى الله عليه وسلم. والمراد بقوله «تمنوا» أريدوه بقلوبكم واسألوه، هذا قول جماعة من المفسرين، وقال ابن عباس: المراد فيه السؤال فقط وإن لم يكن بالقلب، وقال أيضاً هو وغيره: إنما أمروا بالدعاء بالموت على أردأ الحزبين من المؤمنين أو منهم، وذكر المهدي وغيره أن هذه الآية كانت مدة حياة النبي صلى الله عليه وسلم وارتفعت بموته. والصحيح أن هذه النازلة من موت من تمنى الموت إنما كانت أياماً كثيرة عند نزول الآية، وهي بمنزلة دعائه النصارى من أهل نجران إلى المباهلة، وقالت فرقة: إن سبب هذا الدعاء إلى تمنى الموت أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد به هلاك الفريق المكذب أو قطع حجتهم، لا أن علته قولهم نحن أبناء الله.

ثم أخبر تعالى عنهم بعجزهم وأنهم لا يتمنونه، و﴿أبدأ﴾ ظرف زمان وإذا كانت «ما» بمعنى الذي فتحتاج إلى عائد تقديره قدمته، وإذا كانت مع قدمت بمثابة المصدر غنيت عن الضمير، هذا قول سيبويه، والأخفش يرى الضمير في المصدرية، وأضاف ذنوبهم واجترأهم إلى الأيدي وأسند تقديمها إليها إذ الأكثر من كسب العبد الخير والشر إنما هو يديه، فحمل جميع الأشياء على ذلك.

وقوله تعالى: ﴿والله عليم بالظالمين﴾ ظاهرها الخير ومضمناها الوعيد، لأن الله عليم بالظالمين وغيرهم، ففائدة تخصيصهم حصول الوعيد.

قوله عز وجل:

وَلَنَجْذِثَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوَةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾

«وجد» في هذا المعنى تتعدى إلى مفعولين لأنها من أفعال النفس، ولذلك صح تعديها إلى ضمير المتكلم في قول الشاعر:

تَلَفْتُ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتَنِي وَجَعْتُ مِنَ الْإِصْغَاءِ لَيْتًا وَأَخْدَعَا

وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الضب: «إنه لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه»، وحرصهم على الحياة لمعرفةهم بذنوبهم وأن لا خير لهم عند الله تعالى.

وقوله تعالى: «ومن الذين أشركوا» قيل المعنى وأحرص من الذين أشركوا، لأن مشركي العرب لا يعرفون إلا هذه الحياة الدنيا، ألا ترى إلى قول امرئ القيس [الطويل]:

تمتّع من الدنيا فإنك فان

والضمير في «أحدهم» يعود في هذا القول على اليهود، وقيل إن الكلام تم في قوله «حياة»، ثم استؤنف الإخبار عن طائفة من المشركين أنهم «يود أحدهم» وهي المجوس، لأن تسميتهم للعاطس لفظ بلغتهم معناه «عش ألف سنة» فكان الكلام: ومن المشركين قوم «يود أحدهم»، وفي هذا القول تشبيه بني إسرائيل بهذه الفرقة من المشركين، وقصد «الألف» بالذكر لأنها نهاية العقد في الحساب.

زقوله تعالى: «وما هو بمزحزحه»: اختلف النحاة في «هو»، فقيل هو ضمير الأحد المتقدم الذكر، فالتقدير وما أحدهم بمزحزحه وخبر الابتداء في المجرور، و«أن يعمر» فاعل بمزحزح، وقالت فرقة هو ضمير التعمير، والتقدير وما التعمير بمزحزحه والخبر في المجرور، و«أن يعمر» بدل من التعمير في هذا القول، وقالت فرقة «هو» ضمير الأمر والشأن، وقد رد هذا القول بما حفظ عن النحاة من أن الأمر والشأن إنما يفسر بجملة سالمة من حرف جر، وقد جوز أبو علي ذلك في بعض مسائله الحلبيات، وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت هو عماد، وقيل «ما» عاملة حجازية و«هو» اسمها والخبر في «بمزحزحه»، والزحزحة الإبعاد والتنجية.

وفي قوله «والله بصير بما يعملون» وعيد، والجمهور على قراءة «يعملون» بالياء من أسفل، وقرأ قتادة والأعرج ويعقوب «تعملون» بالتاء من فوق، وهذا على الرجوع إلى خطاب المتوعددين من بني إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ الآية. نزل على سبب لم يتقدم له ذكر فيما مضى من الآيات، ولكن أجمع أهل التفسير أن اليهود قالت: جبريل عدونا، واختلفت في كيفية ذلك، فقيل إن يهود فذلك قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: نسألك عن أربعة أشياء فإن عرفتھا اتبعناك، فسألوه عما حرم إسرائيل على نفسه، فقال: لحوم الإبل وألبانها، وسألوه عن الشبه في الولد، فقال: أي ماء علا كأن الشبه له، وسألوه عن نومه، فقال: تنام عيني ولا ينام قلبي، وسألوه عن يجهته من الملائكة، فقال: جبريل، فلما ذكره قالوا ذاك عدونا، لأنه ملك الحرب والشدائد والجذب، ولو كان الذي يجهتك ميكائيل ملك الرحمة والخصب والأمطار لاتبعناك، وقيل إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يتكرر على بيت المدراس فاستحلفهم يوماً بالذي أنزل التوراة على موسى بطور سيناء أن تعلمون أن محمداً نبي؟ قالوا نعم، قال: فلم تهلكون في تكذيبه، قالوا: صاحبه جبريل وهو عدونا، وذكر أنهم قالوا سبب عداوتهم له أنه حمى بختنصر حين بعثوا إليه قبل أن يملك من يقتله، فنزلت هذه الآية لقولهم.

وفي جبريل لغات: «جَبْرِيل» بكسر الجيم والراء من غير همز، وبها قرأ نافع، و«جَبْرِيل» بفتح الجيم وكسر الراء من غير همز، وبها قرأ ابن كثير، وروي عنه أنه قال: «رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم وهو يقرأ جبريل وميكال فلا أزال أقرؤهما أبداً كذلك»، و«جَبْرِيل» بفتح الجيم والراء وهمزة بين الراء واللام وبها قرأ عاصم، و«جَبْرِيل» بفتح الجيم والراء وهمزة بعد الراء وياء بين الهمزة واللام، وبها قرأ حمزة والكسائي وحكاها الكسائي عن عاصم، و«جبرائيل» بفتح الجيم والراء وياء بين الهمزة واللام، وبها قرأ حمزة وبزيادة ياء بعد الهمزة، و«جبرائيل» بياءين وبها قرأ الأعشى، و«جَبْرِئِل» بفتح الجيم والراء وهمزة ولام مشددة، وبها قرأ يحيى بن يعمر، و«جبرال» لغة فيه، و«جبرين» بكسر الجيم والراء وياء ونون، قال الطبري: «هي لغة بني أسد» ولم يقرأ بها، و«جبريل» اسم أعجمي عربته العرب فلها فيه هذه اللغات، فبعضها هي موجودة في أبنية العرب، وتلك أدخل في التعريب كجبريل الذي هو كفتديل، وبعضها خارجة عن أبنية العرب فذلك كمثل ما عربته العرب ولم تدخله في بناء كإبريسم وفردن وأجر ونحوه.

وذكر ابن عباس رضي الله عنه وغيره أن «جبر» و«ميك» و«سراف» هي كلها بالأعجمية بمعنى عبد ومملوك، وإيل اسم الله تعالى، ويقال فيه إلّ، ومنه قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين سمع سجع مسيلمة: هذا كلام لم يخرج من إلّ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ نَزَلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ الضمير في ﴿فَإِنَّهُ﴾ عائذ على الله عز وجل، والضمير في ﴿نَزَلَهُ﴾ عائذ على جبريل صلى الله عليه وسلم، والمعنى بالقرآن وسائر الوحي، وقيل: الضمير في «إنه» عائذ على جبريل وفي ﴿نَزَلَهُ﴾ على القرآن، وخص القلب بالذكر لأنه موضع العقل والعلم وتلقي المعارف، وجاءت المخاطبة بالكاف في ﴿قَلْبِكَ﴾ اتساعاً في العبارة إذ ليس ثم من يخاطبه النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الكاف، وإنما يجيء قوله: ﴿فَإِنَّهُ نَزَلَهُ عَلَى قَلْبِي﴾، لكن حسن هذا إذ يحسن في كلام العرب أن تحرز اللفظ الذي يقوله المأمور بالقول ويحسن أن تقصد المعنى الذي يقوله فتسرده مخاطبة له، كما تقول لرجل: قل لقومك لا يهينوك، فذلك هي الآية، ونحو من هذا قول الفرزدق [الطويل]

ألم ترَ أَنِّي يومَ جو سويقةً بكيتَ فنادتني هنيئاً ما ليا

فأحرز المعنى ونكب عن نداء هنيئة «ما لك»، و﴿يَا ذُنَّ اللَّهِ﴾ معناه: بعلمه وتمكينه إياه من هذه المنزلة، و﴿مصدقاً﴾ حال من ضمير القرآن في ﴿نزلته﴾ و﴿ما بين يديه﴾: ما تقدمه من كتب الله تعالى، ﴿هَدَى﴾ إرشاد، والبشرى: أكثر استعمالها في الخير، ولا تجيء في الشر إلا مقيدة به، ومقصد هذه الآية: تشريف جبريل صلى الله عليه وسلم وذم معاديه.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ﴾ الآية وعيد وذم لمعادي جبريل عليه السلام، وإعلام أن عداوة البعض تقتضي عداوة الله لهم، وعداوة العبد لله هي معصيته واجتناب طاعته ومعاداة أوليائه، وعداوة الله للعبد تعذيبه وإظهار أثر العداوة عليه، وذكر جبريل وميكائيل وقد كان ذكر الملائكة عنهما تشريفاً لهما، وقيل خصاً لأن اليهود ذكروهما ونزلت الآية بسببهما، فذكرهما واجب لثلاث تقول اليهود إننا لم نعاد الله وجميع ملائكته، وقرأ نافع «ميكائيل» بهزمة دون ياء، وقرأ بها ابن كثير في بعض ما روي عنه، وقرأ ابن عامر وابن كثير أيضاً وحمة والكسائي، «ميكائيل» بياء بعد الهمزة، وقرأ أبو عمرو وعاصم «ميكال»، ورويت عن ابن كثير منذ رآها في النوم كما ذكرنا، وقرأ ابن محيصن «ميكثل» بهزمة دون ألف، وقرأ الأعمش «ميكائيل» بياءين، وظهر الاسم في قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ لثلاث يشكل عود الضمير، وجاءت العبارة بعموم الكافرين لأن عود الضمير على من يشكل سواء أفردته أو جمعته، ولو لم نبال بالاشكال وقلنا المعنى يدل السامع على المقصد للزم تعيين قوم بعداوة الله لهم، ويحتمل أن الله تعالى قد علم أن بعضهم يؤمن فلا ينبغي أن تطلق عليه عداوة الله للمال.

وروي أن رجلاً من اليهود لقي عمر بن الخطاب فقال له: أرايت جبريل الذي يزعم صاحبك أنه يجيئه ذلك عدونا، فقال له عمر رضي الله عنه: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ﴾ إلى آخر الآية، فنزلت على لسان عمر رضي الله عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الخبر يضعف من جهة معناه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾، ذكر الطبري أن ابن سوريا قال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا محمد ما جئت بآية بينة؟ فنزلت هذه الآية. و﴿الفاسقون﴾ هنا الخارجون عن الإيمان، فهو فسق الكفر، والتقدير: ﴿ما يكفر بها﴾ أحد ﴿إلا الفاسقون﴾، لأن الإيجاب لا يأتي إلا بعد تمام جملة النفي. قوله عز وجل:

أَوْ كَلِمَاتٍ عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ

قال سيويه: الواو واو العطف دخلت عليها ألف الاستفهام، وقال الأخفش: هي زائدة، وقال

الكسائي: هي «أو» وفتحت تسهيلاً، وقرأها قوم «أو» ساكنة الواو فتحيء بمعنى بل، وكما يقول القائل: لأضربنك فيقول المجيب: أو يكفي الله.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وهذا كله متكلف، وأو في هذا المثل متمكنة في التفسير، والصحيح قول سيويه وقرأ «عهدوا عهداً» وقرأ الحسن وأبو رجاء «عوهدوا» و«عهداً» مصدر، وقيل: مفعول بمعنى أعطوا عهداً، والنبد: الطرح والإلقاء، ومنه النبد والمنبذ، والفريق اسم جمع لا واحد له من لفظه، ويقع على السير والكثير من الجمع، ولذلك فسرت كثرة النابذين بقوله: «بل أكثرهم» لما احتمل الفريق أن يكون الأقل، و«لا يؤمنون» في هذا التأويل حال من الضمير في «أكثرهم»، ويحتمل الضمير العود على الفريق، ويحتمل العود على جميع بني إسرائيل وهو أذم لهم، والعهد الذي نبذوه هو ما أخذ عليهم في التوراة من أمر محمد صلى الله عليه وسلم، وفي مصحف ابن مسعود «نقضه فريق».

وقوله تعالى: «ولما جاءهم رسول من عند الله»، يعني به محمد صلى الله عليه وسلم، وما معهم هو التوراة، و«مصدق» نعت لـ «رسول»، وقرأ ابن أبي عتبة «مصدقاً» بالنصب، و«لما» يجب بها الشيء لوجوب غيره، وهي ظرف زمان، وجوابها «نبذ» الذي يجيء، و«الكتاب» الذي أوتوه: التوراة، و«كتاب الله» مفعول بـ «نبذ»، والمراد القرآن، لأن التكذيب به نبذ، وقيل المراد التوراة، لأن مخالفتها والكفر بما أخذ عليهم فيها نبذ، و«وراء ظهورهم» مثل لأن ما يجعل ظهرياً فقد زال النظر إليه جملة، والعرب تقول جعل هذا الأمر وراء ظهره ودبر أذنه، وقال الفرزدق:

تميم بن مرٍّ لا تكوننَّ حاجتي بظهرٍ فلا يعيى عليَّ جوابها

و«كأنهم لا يعلمون» تشبيه بمن لا يعلم، إذ فعلوا فعل الجاهل، فيجيء من اللفظ أنهم كفروا على علم.

وقوله تعالى: «واتبعوا ما تتلو الشياطين» الآية، يعني اليهود، قال ابن زيد والسدي: المراد من كان في عهد سليمان، وقال ابن عباس: المراد من كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل الجميع، و«تتلو» قال عطاء: معناه تقرأ من التلاوة، وقال ابن عباس: «تتلو» تتبع، كما تقول: جاء القوم يتلو بعضهم بعضاً، وتتلو بمعنى تلت، فالمستقبل وضع موضع الماضي، وقال الكوفيون: المعنى ما كانت تتلو، وقرأ الحسن والضحاك: «الشياطين» بالواو.

وقوله: «على ملك سليمان» أي على عهد ملك سليمان، وقيل المعنى في ملك سليمان بمعنى في قصصه وصفاته وأخباره، وقال الطبري: «اتبعوا» بمعنى فضلوا، و«على ملك سليمان» أي على شرعه ونبوته وحاله، والذي تلت الشياطين: قيل إنهم كانوا يلقون إلى الكهنة الكلمة من الحق معها المائة من الباطل حتى صار ذلك علمهم، فجمعه سليمان ودفنه تحت كرسيه، فلما مات قالت الشياطين: إن ذلك كان علم سليمان، وقيل: بل كان الذي تلت الشياطين سحراً وتعليماً فجمعه سليمان عليه السلام كما تقدم، وقيل إن سليمان عليه السلام كان يملي على كاتبه آصف بن برخيا علمه ويخترنه، فلما مات أخرجه الجن وكتبت بين كل سطرين سطراً من سحر ثم نسبت ذلك إلى سليمان، وقيل إن آصف تواطأ مع الشياطين على أن

يكتبوا سحراً وينسبوه إلى سليمان بعد موته، وقيل إن الجن كتبت ذلك بعد موت سليمان واختلقته ونسبته إليه، وقيل إن الجن والإنس حين زال ملك سليمان عنه اتخذ بعضهم السحر والكهانة علماً، فلما رجع سليمان إلى ملكه تتبع كتبهم في الآفاق ودفنها، فلما مات قال شيطان لبني إسرائيل: هل أدلكم على كنز سليمان الذي به سخرت له الجن والريح، هو هذا السحر، فاستخرجته بنو إسرائيل وابث فيهم، ونسبوا سليمان إلى السحر وكفروا في ذلك حتى برأه الله على لسان محمد صلى الله عليه وسلم، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ذكر سليمان في الأنبياء قال بعض اليهود: انظروا إلى محمد يذكر سليمان في الأنبياء وما كان إلا ساحراً.

وقوله تعالى: ﴿وما كفر سليمان﴾ تبرئة من الله تعالى لسليمان، ولم يتقدم في الآيات أن أحداً نسبته إلى الكفر، ولكنها آية نزلت في السبت المتقدم أن اليهود نسبته إلى السحر، والسحر والعمل به كفر، ويقتل الساحر عند مالك رضي الله عنه كفراً، ولا يستتاب كالزندق، وقال الشافعي: يسأل عن سحره فإن كان كفراً استتيب منه فإن تاب وإلا قتل، وقال مالك: فيمن يعقد الرجال عن النساء يعاقب ولا يقتل، واختلف في ساحر أهل الذمة فقيل: يقتل، وقال مالك: لا يقتل إلا إن قتل بسحره ويضمن ما جنى، ويقتل إن جاء منه بما لم يعاهد عليه، وقرأ نافع وعاصم وابن كثير وأبو عمرو بتشديد النون من «لكن» ونصب الشياطين، وقرأ حمزة والكسائي وابن عامر بتخفيف النون ورفع «الشياطين»، قال بعض الكوفيين: التشديد أحب إليّ إذا دخلت عليها الواو لأن المخففة بمنزلة بل، وبل لا تدخل عليها الواو، وقال أبو علي: لس دخول الواو عليها معنى يوجب التشديد، وهي مثقلة ومخففة بمعنى واحد إلا أنها لا تعمل إذا خففت، وكفر الشياطين إما بتعليمهم السحر، وإما بعلمهم به، وإما بتكفيرهم سليمان به، وكل ذلك كان، والناس المعلمون أتباع الشياطين من بني إسرائيل، و«السحر» مفعول ثان بـ «يعلمون»، وموضع «يعلمون» نصب على الحال، أو رفع على خبر ثان.

وقوله تعالى: ﴿وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت﴾: ﴿ما﴾ عطف على «السحر» فهي مفعولة، وهذا على القول بأن الله تعالى أنزل السحر على الملكين فتنه للناس ليكفر من اتبعه ويؤمن من تركه، أو على قول مجاهد وغيره: إن الله تعالى أنزل على الملكين الشيء الذي يفرق به بين المرء وزوجه دون السحر، أو على القول إنه تعالى أنزل السحر عليهما ليعلم على جهة التحذير منه والنهي عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والتعليم على هذا القول إنما هو تعريف يسير بمبادئه، وقيل إن ﴿ما﴾ عطف على «ما» في قوله: ﴿ما تتلو﴾، وقيل: ﴿ما﴾ نافية، رد على قوله: ﴿وما كفر سليمان﴾، وذلك أن اليهود قالوا: إن الله أنزل جبريل وميكائيل بالسحر فنفى الله ذلك، وقرأ ابن عباس والحسن والضحاك وابن أبيزى «الملكين» بكسر اللام، وقال ابن أبيزى: هما داود وسليمان، وعلى هذا القول أيضاً فـ ﴿ما﴾ نافية، وقال الحسن: هما عليجان كانا ببابل ملكين، ﴿فما﴾ على هذا القول غير نافية، وقرأها كذلك أبو الأسود الدؤلي، وقال: هما «هاروت وماروت»، فهذا كقول الحسن.

و«بابل» لا ينصرف للتأنيث والتعريف، وهي قطر من الأرض، واختلف أين هي؟ فقال قوم: هي

بالعراق وما والاها، وقال ابن مسعود لأهل الكوفة: أنتم بين الحيرة وبابل، وقال قتادة: هي من نصيبين إلى رأس العين، وقال قوم: هي بالمغرب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، وقال قوم: هي جبل دماوند، و﴿هاروت وماروت﴾ بدل من ﴿الملكين﴾ على قول من قال: هما ملكان، ومن قرأ ﴿ملكين﴾ بكسر اللام وجعلهما داود وسليمان أو جعل الملكين جبريل وميكائيل، جعل ﴿هاروت وماروت﴾ بدلاً من ﴿الشياطين﴾ في قوله ﴿ولكن الشياطين كفروا﴾، وقال هما شيطانان، ويجيء ﴿يعلمون﴾: إما على أن الاثنين جمع، وإما على تقدير أتباع لهذين الشيطانين اللذين هما الرأس، ومن قال كانا علجين قال: ﴿هاروت وماروت﴾ بدل من قوله ﴿الملكين﴾، وقيل هما بدل من ﴿الناس﴾ في قوله ﴿يعلمون الناس﴾، وقرأ الزهري ﴿هاروت وماروت﴾ بالرفع، ووجهه البديل من ﴿الشياطين﴾ في قوله ﴿تتلو الشياطين﴾ أو من ﴿الشياطين﴾ الثاني على قراءة من خفف «لكن» ورفع، أو على خبر ابتداء مضمّر تقديره هما ﴿هاروت وماروت﴾.

وروي من قال إنهما ملكان أن الملائكة مقتت حكام بني إسرائيل وزعمت أنها لو كانت بمشابتهم من البعد عن الله لأطاعت حق الطاعة، فقال الله لهم: اختاروا ملكين يحكمان بين الناس، فاختاروا هاروت وماروت، فكانا يحكمان، فاختصمت إليهما امرأة ففتنا بها فراوداها، فأبت حتى يشربا الخمر ويقتلا، ففعلا، وسألتهما عن الاسم الذي يصعدان به إلى السماء فعلماهما إياه، فتكلمت به فخرجت، فمسخت كوكباً فهي الزهرة، وكان ابن عمر يلعبان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله ضعيف وبعيد على ابن عمر رضي الله عنهما، وروي أن الزهرة نزلت إليهما في صورة امرأة من فارس فجرى لهما ما ذكر، فأطلع الله عز وجل الملائكة على ما كان من هاروت وماروت، فتعجبوا، وبقي في الأرض لأنهما خيراً بين عذاب الآخرة وعذاب الدنيا فاختارا عذاب الدنيا، فهما في سرب من الأرض معلقين يصفقان بأجنحتهما، وروت طائفة أنهما يعلمان السحر في موضعهما ذلك، وأخذ عليهما أن لا يعلما أحداً حتى يقولوا له: ﴿إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القصص يزيد في بعض الروايات وينقص في بعض، ولا يقطع منه شيء، فلذلك اختصرته.

ذكر ابن الأعرابي في الياقوتة أن ﴿يعلمان﴾ بمعنى يعلمان ويشعران كما قال كعب بن زهير [الطويل].

تَعَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ أَنتَ مَدْرِكِي وَأَنْ وَعِيداً مِنْكَ كَالْأَخِيذِ بِالْيَدِ

وحمل هذه الآية على أن الملكين إنما نزلا يعلمان الناس بالسحر وينهيان عنه، وقال الجمهور: بل التعليم على عرفه، و«لا تكفر» قالت فرقة: بتعلم السحر، وقالت فرقة: باستعماله، وحكى المهدوي إن قولهما: ﴿إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾ استهزاء، لأنهما إنما يقولانه لمن قد تحققوا ضلاله، و﴿من﴾ في قوله ﴿من أحد﴾ زائدة بعد النفي.

قوله عز وجل:

فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا
بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ
مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا
وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْكَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا
رَاعِنَا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا وَاسْمِعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾

وقوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾: قال سيبويه: التقدير فهم يتعلمون، وقيل هو معطوف على قوله ﴿يعلمون الناس﴾، ومنعه الزجاج، وقيل: هو معطوف على موضع ﴿وما يعلمان﴾ لأن قوله ﴿وما يعلمان﴾ وإن دخلت عليه ما النافية فمضمته الإيجاب في التعليم، وقيل التقدير فيأتون فيتعلمون، واختاره الزجاج، والضمير في ﴿يعلمان﴾ هو لهاروت وماروت الملكين أو الملكين العلجين على ما تقدم، والضمير في ﴿منهما﴾ قيل: هو عائذ عليهما، وقيل: على ﴿السحر﴾ وعلى الذي أنزل على الملكين، و﴿يفرقون﴾ معناه فرقة العصمة، وقيل معناه: يؤخذون الرجل عن المرأة حتى لا يقدر على وطئها فهي أيضاً فرقة.

وقرأ الحسن والزهري وقتادة «المراء» براء مكسورة خفيفة، وروي عن الزهري تشديد الراء، وقرأ ابن أبي إسحاق «المراء» بضم الميم وهمزة وهي لغة هذيل، وقرأ الأشهب العقيلي «البراء» بكسر الميم وهمزة، ورويت عن الحسن، وقرأ جمهور الناس «المراء» بفتح الميم وهمزة، والزوج هنا امرأة الرجل، وكل واحد منهما زوج الآخر، ويقال للمرأة زوجة قال الفرزدق. [الطويل]

وإن الذي يسعى ليفسد زوجتي كساع إلى أسد الشرى يستبيلها

وقرأ الجمهور «بضارين به»، وقرأ الأعمش «بضاري به من أحد» فقيل: حذفت النون تخفيفاً، وقيل: حذفت للإضافة إلى ﴿أحد﴾ وحيل بين المضاف والمضاف إليه بالمجرور، و﴿بإذن الله﴾ معناه بعلمه وتمكينه، و﴿يضرهم﴾ معناه في الآخرة ﴿ولا ينفعهم﴾ فيها أيضاً، وإن نفع في الدنيا بالمكاسب فالمراعى إنما هو أمر الآخرة، والضمير في ﴿علموا﴾ عائذ على بني إسرائيل حسب الضمائر المتقدمة، وقيل: على ﴿الشياطين﴾، وقيل على ﴿الملكين﴾ وهما جمع، وقال «اشترأ» لأنهم كانوا يعطون الأجرة على أن يعلموا، والخلاق النصيب والحظ، وهو هنا بمعنى الجاه والقدر، واللام في قوله ﴿لمن﴾ المتقدمة للقسم المؤذنة بأن الكلام قسم لا شرط، وتقدم القول في «بشما»، و﴿شروا﴾ معناه باعوا، وقد تقدم مثله، والضمير في ﴿يعلمون﴾ عائذ على بني إسرائيل باتفاق، ومن قال إن الضمير في ﴿علموا﴾ عائذ عليهم خرج هذا الثاني على المجاز، أي لما عملوا عمل من لا يعلم كانوا كأنهم لا يعلمون، ومن قال إن الضمير في ﴿علموا﴾ عائذ على ﴿الشياطين﴾ أو على ﴿الملكين﴾ قال: إن أولئك علموا أن لا خلاق

لمن اشتراه وهؤلاء لم يعلموا فهو على الحقيقة، وقال مكي: الضمير في ﴿علموا﴾ لعلماء أهل الكتاب، وفي قوله ﴿لو كانوا يعلمون﴾ للمتعلمين منهم.

وقوله تعالى: ﴿ولو أنهم آمنوا﴾: موضع «أن» رفع، المعنى لو وقع إيمانهم، ويعني الذين اشتروا السحر، ﴿ولو﴾ تقتضي جواباً، فقالت فرقة جوابها ﴿لمثوبة﴾، لأنها مصدر يقع للمضي والاستقبال، وجواب ﴿لو﴾ لا يكون إلا ماضياً أو بمعناه، وقال الأخفش: لا جواب لـ ﴿لو﴾ في هذه الآية مظهراً ولكنه مقدر، أي لو آمنوا لأثبوا.

وقرأ قتادة وأبو السمال وابن بريدة «لمثوبة» بسكون الثاء وفتح الواو، وهو مصدر أيضاً كمشورة ومشورة، ومثوبة رفع بالابتداء و﴿خير﴾ خبره والجملة خبران، والمثوبة عند جمهور الناس بمعنى الثواب والأجر، وهذا هو الصحيح، وقال قوم: معناه لرجعة إلى الله من ثاب يثوب إذا رجع، واللام فيها لام القسم لأن لام الابتداء مستغنى عنها، وهذه لا غنى عنها، وقوله تعالى: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ يحتمل نفي العلم عنهم، ويحتمل أن يراد: لو كانوا يعلمون علماً ينفع.

وقرأ جمهور الناس «راعنا» من المراعاة بمعنى فاعلنا أي أرعنا نرعك، وفي هذا جفاء أن يخاطب به أحد نبيه، وقد حض الله تعالى على خفض الصوت عنده وتعزيزه وتوقيره، فقال من ذهب إلى هذا المعنى إن الله تعالى نهى المؤمنين عنه لهذه العلة، ولا مدخل لليهود في هذه الآية على هذا التأويل، بل هو نهى عن كل مخاطبة فيها استواء مع النبي صلى الله عليه وسلم. وقالت طائفة: هي لغة كانت الأنصار تقولها، فقالها رفاعه بن زيد بن التابوت للنبي صلى الله عليه وسلم ليّاً بلسانه وطعناً كما كان يقول: اسمع غير مسمع، فنهى الله المؤمنين أن تقال هذه اللفظة.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: ووقف هذه اللغة على الأنصار تقصير، بل هي لغة لجميع العرب فاعل من المراعاة. فكانت اليهود تصرفها إلى الرعونة، يظهرون أنهم يريدون المراعاة ويبتغون أنهم يريدون الرعونة التي هي الجهل، وحكى المهدوي عن قوم أن هذه الآية على هذا التأويل ناسخة لفعل قد كان مباحاً؛ وليس في هذه الآية شروط النسخ لأن الأول لم يكن شرعاً مقررراً. وقرأ الحسن بن أبي الحسن وابن أبي ليلى وابن محيصن وأبو حيوة «راعنا» بالتثنية، وهذه من معنى الجهل، وهذا محمول على أن اليهود كانت تقوله فنهى الله تعالى المؤمنين عن القول المباح سد ذريعة لثلاث يتطرق منه اليهود إلى المحذور، إذ المؤمنون إنما كانوا يقولون «راعنا» دون تثنية، وفي مصحف ابن مسعود «راعونا»، وهي شاذة، ووجهها أنهم كانوا يخاطبون النبي صلى الله عليه وسلم كما تخاطب الجماعة، يظهرون بذلك إكباره وهم يريدون في الباطن فاعولاً من الرعونة.

و﴿انظرونا﴾ مضمومة الألف والطاء معناها انتظرونا وأمهل علينا، ويحتمل أن يكون المعنى نفقدنا من النظر، وهذه لفظة مخلصنة لتعظيم النبي صلى الله عليه وسلم على المعنيين، والظاهر عندي استدعاء نظر العين المقترن بتدبر الحال، وهذا هو معنى ﴿راعنا﴾، فبدلت للمؤمنين اللفظة ليزول تعلق اليهود، وقرأ الأعمش وغيره «انظرونا» بقطع الألف وكسر الطاء بمعنى أخرنا وأمهلنا حتى نفهم عنك ونتلقى منك. ولما نهى الله تعالى في هذه الآية وأمر، حض بعد على السمع الذي في ضمنه الطاعة، واعلم أن

لمن خالف أمره فكفر عذاباً أليماً، وهو المؤلم، ﴿واسمعوا﴾ معطوف على ﴿قولوا﴾ لا على معمولها.
قوله عز وجل:

مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِمَّا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾

التقدير ولا من المشركين. وعم الذين كفروا ثم بين أجناسهم من اليهود والنصارى وعبداء الأوثان ليعين في الألف واللام في ﴿الذين﴾ أنها ليست للعهد يراد بها معين، ومعنى الآية أن ما أمرناكم به من أن تعظموا نبيكم خير من الله منحكم إياه، وذلك لا يودّه الكفار. ثم يتناول اللفظ كل خير غير هذا، و﴿أن﴾ مع الفعل بتأويل المصدر، و﴿من﴾ زائدة في قول بعضهم. ولما كان ود نزول الخير متنياً، قام ذلك مقام الجحد الذي يلزم أن يتقدم ﴿من﴾ الزائدة على قول سيبويه والخليل. وأما الأخفش فيجيز زيادتها في الواجب، وقال قوم: ﴿من﴾ للتبعض؛ لأنهم يريدون أن لا ينزل على المؤمنين من الخير قليل ولا كثير، ولو زال معنى التبعض لساغ لقاتل أن يقول: نريد أن لا ينزل خير كامل ولا نكره أن ينزل بعض، فإذا نفى ود نزول البعض فذلك أحرى في نزول خير كامل، والرحمة في هذه الآية عامة لجميع أنواعها التي قد منحها الله عباده قديماً وحديثاً، وقال قوم: الرحمة هي القرآن، وقال قوم: نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وهذه أجزاء الرحمة العامة التي في لفظ الآية.

وقوله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها﴾ الآية، النسخ في كلام العرب على وجهين: أحدهما النقل كنقل كتاب من آخر، والثاني الإزالة، فأما الأول فلا مدخل له في هذه الآية، وورد في كتاب الله تعالى في قوله تعالى: ﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ [الجاثية: ٢٩]، وأما الثاني الذي هو الإزالة فهو الذي في هذه الآية، وهو منقسم في اللغة على ضربين: أحدهما يثبت النسخ بعد المنسوخ كقولهم نسخت الشمس الظل، والآخر لا يثبت كقولهم «نسخت الريح الأثر»، وورد النسخ في الشرع حسب هذين الضربين، والنسخ حقيقة هو الله تعالى، ويسمى الخطاب الشرعي ناسخاً إذ به يقع النسخ، وحد النسخ عند حذاق أهل السنة: الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت، بالخطاب المتقدم على وجه لولاه لكان ثابتاً مع تراخيه عنه.

والنسخ جائز على الله تعالى عقلاً لأنه ليس يلزم عنه محال ولا تغيير صفة من صفاته تعالى، وليست الأوامر متعلقة بالإرادة فيلزم من النسخ أن الإرادة تغيرت، ولا النسخ لطرؤ علم، بل الله تعالى يعلم إلى أي وقت ينتهي أمره بالحكم الأول ويعلم نسخه بالثاني. والبداء لا يجوز على الله تعالى لأنه لا يكون إلا لطرؤ علم أو لتغير إرادة، وذلك محال في جهة الله تعالى، وجعلت اليهود النسخ والبداء واحداً، ولذلك لم يجوزوه فضلاً.

والمنسوخ عند أئمتنا: الحكم الثابت نفسه، لا ما ذهب إليه المعتزلة، من أنه مثل الحكم الثابت

فيما يستقبل، والذي قادهم إلى ذلك مذهبهم في أن الأوامر مرادة، وأن الحسن صفة نفسية للحسن، ومراد الله تعالى حسن، وقد قامت الأدلة على أن الأوامر لا ترتبط بالإرادة، وعلى أن الحسن والقبح في الأحكام إنما هو من جهة الشرع لا بصفة نفسية.

والتخصيص من العموم يوم أنه نسخ وليس به، لأن المخصص لم يتناوله العموم قط، ولو ثبت قطعاً تناول العموم لشيء ما ثم أخرج ذلك الشيء عن العموم لكان نسخاً لا تخصيصاً. والنسخ لا يجوز في الإخبار، وإنما هو مختص بالأوامر والنواهي، وردّ بعض المعترضين الأمر خبراً بأن قال: أليس معناه: «واجب عليكم أن تفعلوا كذا؟ فهذا خبر، والجواب أن يقال: إن في ضمن المعنى إلا أن أنسخه عنكم وأرفعه، فكما تضمن لفظ الأمر ذلك الإخبار كذلك تضمن هذا الاستثناء.

وصور النسخ تختلف، فقد ينسخ الأثقل إلى الأخف كنسخ الثبوت لعشرة بالثبوت لاثنتين، وقد ينسخ الأخف إلى الأثقل كنسخ يوم عاشوراء والأيام المعدودة برمضان، وقد ينسخ المثل به مثله نقلاً وخفة كالقبلة، وقد ينسخ الشيء لا إلى بدل كصدقة النجوى، والنسخ التام أن تنسخ التلاوة والحكم وذلك كثير، ومنه قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: «كنا نقرأ لا نترغبوا عن آباءكم فإنه كفر»، وقد تنسخ التلاوة دون الحكم كآية الرجم، وقد ينسخ الحكم دون التلاوة كصدقة النجوى، وكقوله تعالى: ﴿وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتهم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا﴾ [الممتحنة: ١١]، والتلاوة والحكم حكمان، فجائز نسخ أحدهما دون الآخر.

وينسخ القرآن بالقرآن، والسنة بالسنة، وهذه العبارة يراد بها الخبر المتواتر القطعي، وينسخ خبر الواحد بخبر الواحد، وهذا كله متفق عليه، وحذاق الأئمة على أن القرآن ينسخ بالسنة، وذلك موجود في قوله صلى الله عليه وسلم: «لا وصية لوارث»، وهو ظاهر مسائل مالك رحمه الله، وأبى ذلك الشافعي رحمه الله، والحجة عليه من قوله إسقاطه الجلد في حد الزنى عن الثيب الذي يرجم، فإنه لا مسقط لذلك إلا السنة. فعل النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك حذاق الأئمة على أن السنة تنسخ بالقرآن، وذلك موجود في القبلة فإن الصلاة إلى الشام لم تكن قط في كتاب الله، وفي قوله تعالى: ﴿فلا ترجعوهن إلى الكفار﴾ [الممتحنة: ١٠]، فإن رجوعهن إنما كان يصلح النبي صلى الله عليه وسلم ولقريش، والحذاق على تجويز نسخ القرآن بخبر الواحد عقلاً، واختلفوا هل وقع شرعاً، فذهب أبو المعالي وغيره إلى وقوعه في نازلة مسجد قباء في التحول إلى القبلة، وأبى ذلك قوم، ولا يصح نسخ نص بقياس إذ من شروط القياس أن لا يخالف نصاً، وهذا كله في مدة النبي صلى الله عليه وسلم، وأما بعد موته واستقرار الشرع فأجمعت الأمة أنه لا نسخ. ولهذا كان الإجماع لا ينسخ ولا ينسخ لأنه إنما يتعقد بعد النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا وجدنا إجماعاً يخالف نصاً فنعلم أن الإجماع استند إلى نص ناسخ لا نعلمه نحن.

وقال بعض المتكلمين: «النسخ الثابت متقرر في جهة كل أحد علم الناسخ أو لم يعلمه»، والذي عليه الحذاق أنه من لم يبلغه الناسخ فهو متعبد بالحكم الأول، فإذا بلغه الناسخ طرأ عليه حكم النسخ، والحذاق على جواز نسخ الحكم قبل فعله، وهو موجود في كتاب الله تعالى في قصة الذبيح.

وقرأ جمهور الناس «ما نُنسخ» بفتح النون، من نسخ، وقرأت طائفة «نُنسخ»، بضم النون من «أنسخ»، وبها قرأ ابن عامر وحده من السبعة، قال أبو علي الفارسي: ليست لغة لأنه لا يقال نسخ وأنسخ بمعنى، ولا هي لتعدية لأن المعنى يجيء ما نكتب من آية أي ما ننزل فيجيء القرآن كله على هذا منسوخاً، وليس الأمر كذلك، فلم يبق إلا أن يكون المعنى ما نجده منسوخاً، كما تقول: أحمدت الرجل وأبخلته بمعنى وجدته محموداً أو بخيلاً، قال أبو علي: وليس نجده منسوخاً إلا بأن ننسخه فتتفق القراءتان في المعنى وإن اختلفتا في اللفظ.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رحمه الله: وقد خرج قراءة هذه القراءة المعنى على وجهين أحدهما أن يكون المعنى ما نكتب وننزل من اللوح المحفوظ، أو ما نؤخر فيه ونترك فلا ننزله أي ذلك فعلنا فإننا نأتي بخير من المؤخر المتروك أو بمثله، فيجيء الضميران في «منها» و«مثلها» عائدين على الضمير في «ننسخها»، والمعنى الآخر أن يكون «ننسخ» من النسخ بمعنى الإزالة ويكون التقدير ما ننسخك أي نبيح لك نسخه، كأنه لما نسخها الله أباح لنبه تركها بذلك النسخ، فسمى تلك الإباحة إنساخاً، و«ما» شرطية وهي مفعولة بـ «ننسخ»، و«ننسخ» جزم بالشرط.

واختلف القراء في قراءة قوله «ننسخها»، فقرأ نافع وحزمة والكسائي وعاصم وابن عامر وجمهور من الناس «نُنسخها» بضم النون الأولى وسكون الثانية وكسر السين وترك الهزمة، وهذه من أنسى المنقول من نسي، وقرأت ذلك فرقة كما تقدم إلا أنها همزت بعد السين، فهذه بمعنى التأخير، تقول العرب أنسأت الدين وغيره أنسؤه إنساء إذا أخرته، وقرأت طائفة «أو ننسخها» بفتح النون الأولى وسكون الثانية وفتح السين، وهذه بمعنى الترك، ذكرها مكّي ولم ينسبها، وذكرها أبو عبيد البكري في كتاب اللآلي عن سعد بن أبي وقاص، وأراه وهم، وقرأ سعد بن أبي وقاص «أو ننسخها» على مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم ونون بعدها ساكنة وفتح السين، هكذا قال أبو الفتح وأبو عمرو الداني، فقليل لسعد إن سعيد بن المسيب يقرأها بنون أولى مضمومة وسين مكسورة فقال: إن القرآن لم ينزل على المسيب ولا على آل المسيب، وتلا «سنقرئك فلا تنسى» [الأعلى: ٦]، «واذكر ربك إذا نسيت» [الكهف: ٢٤]، وقرأ سعيد بن المسيب فيما ذكر عنه أيضاً «أو ننسخها» بضم التاء أولاً وفتح السين وسكون النون بينهما، وهذه من النسيان، وقرأ الضحاك بن مزاحم وأبورجاء «نُنسخها» بضم النون الأولى وفتح الثانية وسين مكسورة مشددة، وهذه أيضاً من النسيان.

وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وابن عباس وإبراهيم النخعي وعطاء بن أبي رباح ومجاهد وعبيد ابن عمير وابن كثير وأبو عمرو «نُنسخها» بنون مفتوحة وأخرى بعدها ساكنة وسين مفتوحة وألف بعدها مهموزة، وهذه من التأخير، تقول العرب: نسأت الإبل عن الحوض أنسؤها نساً أي أخرتها، وكذلك يقال: أنسأ الإبل إذا زاد في ظمئها يوماً أو يومين أو أكثر من ذلك بمعنى أخرها عن الورد، وقرأت فرقة مثل هذه القراءة إلا أنها بتاء مفتوحة أولاً على مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم وإسناد الفعل إليه، وقرأ أبو حيوة مثل ذلك إلا أنه ضم التاء أولاً، وقرأ أبي بن كعب «أو ننسك» بضم النون الأولى وسكون الثانية وسين

مكسورة وكاف مخاطبة، وفي مصحف سالم مولى أبي حذيفة «أو ننسكها» مثل قراءة أبي إلا أنه زاد ضمير الآية.

وقرأ الأعمش «ما نسك من آية أو ننسخها نجىء بمثلها»، وهكذا ثبتت في مصحف عبد الله بن مسعود.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه القراءات لا تخلو كل واحدة منها أن تكون من النسء أو الإنشاء بمعنى التأخير، أو تكون من النسيان.

والنسيان في كلام العرب يجيء في الأغلب ضد الذكر، وقد يجيء بمعنى الترك، فالمعاني الثلاثة مقولة في هذه القراءات، فما كان منها يترتب في لفظة النسيان الذي هو ضد الذكر.

فمعنى الآية: ما ننسخ من آية أو نقدر نسيانك لها فتنساها حتى ترتفع جملة وتذهب فإنما تأتي بما هو خير منها لكم أو مثله في المنفعة.

وما كان من هذه القراءات يحمل على معنى الترك فإن الآية معه تترتب فيها أربعة معان:

أحدها: ما ننسخ على وجوه النسخ أو نترك غير منزل عليك فإنما لا بد أن تنزل رفقا بكم خيراً من ذلك أو مثله حتى لا ينقص الدين عن حد كماله.

والمعنى الثاني أو نترك تلاوته وإن رفعنا حكمه فيجيء النسخ على هذا رفع التلاوة والحكم.

والمعنى الثالث أو نترك حكمه وإن رفعنا تلاوته فالنسخ أيضاً على هذا رفع التلاوة والحكم.

والمعنى الرابع أو نتركها غير منسوخة الحكم ولا التلاوة، فالنسخ على هذا المعنى هو على جميع وجوهه، ويجيء الضميران في ﴿منها أو مثلها﴾ عائدين على المنسوخة فقط، وكان الكلام إن نسخنا أو أبقينا فإنما تأتي بخير من المنسوخة أو مثلها.

وما كان من هذه القراءات يحمل على معنى التأخير فإن الآية معه تترتب فيها المعاني الأربعة التي في الترك، أولها ما ننسخ أو نؤخر إنزاله، والثاني ما ننسخ النسخ الأكمل أو نؤخر حكمه وإن أبقينا تلاوته، والثالث ما ننسخ النسخ الأكمل أو نؤخر تلاوته وإن أبقينا حكمه، والرابع ما ننسخ أو نؤخره مثبتاً لا ننسخه، ويعود الضميران كما ذكرنا في الترك، وبعض هذه المعاني أقوى من بعض، لكن ذكرنا جميعها لأنها تحتمل، وقد قال «جميعها» العلماء إما نصاً وإما إشارة فكملناها.

وقال الزجاج: إن القراءة «أو ننسها» بضم النون وسكون الثانية وكسر السين لا يتوجه فيها معنى الترك لأنه لا يقال أنسا بمعنى ترك، وقال أبو علي وغيره: ذلك متجه لأنه بمعنى نجعلك تتركها، وكذلك ضعف الزجاج أن تحمل الآية على النسيان الذي هو ضد الذكر، وقال: إن هذا لم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم ولا نسي قرآناً، وقال أبو علي وغيره: ذلك جائز وقد وقع ولا فرق بين أن ترفع الآية بنسخ أو بتنسئة، واحتج الزجاج بقوله تعالى: ﴿ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك﴾ [الإسراء: ٨٦]، أي لم نفعل، قال أبو علي معناه لم نذهب بالجميع.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رحمه الله: على معنى إزالة النعمة كما توعده، وقد حكى الطبري القول عن أقدم من الزجاج، ورد عليه، والصحيح في هذا أن نسيان النبي صلى الله عليه وسلم لما أراد الله تعالى أن ينساه ولم يرد أن يثبت قرآنًا جائز.

فأما النسيان الذي هو آفة في البشر فالنبي صلى الله عليه وسلم معصوم منه قبل التبليغ وبعد التبليغ ما لم يحفظه أحد من أصحابه، وأما بعد أن يحفظ فجائز عليه ما يجوز على البشر لأنه قد بلغ وأدى الأمانة، ومنه الحديث حين أسقط آية، فلما فرغ من الصلاة قال: أفي القوم أبي؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: فلم لم تذكرني؟ قال: حسبت أنها رفعت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لم ترفع ولكني نسيتها.

ولفظه خير في الآية صفة تفضيل، والمعنى بأنفع لكم أيها الناس في عاجل إن كانت الناسخة أخف، وفي آجل إن كانت أثقل، وبمثلها إن كانت مستوية، وقال قوم «خير» في الآية مصدر و«من» لابتداء الغاية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويقلق هذا القول لقوله تعالى ﴿أو مثلها﴾ إلا أن يعطف المثل على الضمير في ﴿منها﴾ دون إعادة حرف الجر، وذلك معترض.

وقوله تعالى: ﴿ألم تعلم أن﴾ ظاهره الاستفهام ومعناه التقرير، والتقرير محتاج إلى معادل كالاستفهام المحض، فالمعادل هنا على قول جماعة ﴿أم تريدون﴾ [البقرة: ١٨]، وقال قوم ﴿أم﴾ هنا منقطعة، فالمعادل على قولهم محذوف تقديره أم علمتم، وهذا كله على أن القصد بمخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم مخاطبة أمته، وأما إن كان هو المخاطب وحده فالمعادل محذوف لا غير، وكلا القولين مروى.

ومعنى الآية أن الله تعالى ينسخ ما يشاء ويثبت ما يشاء ويفعل في أحكامه ما يشاء، هو تقدير على ذلك وعلى كل شيء، وهذا لإنكار اليهود النسخ.

وقوله تعالى ﴿على كل شيء﴾ لفظ عموم معناه الخصوص، إذ لم تدخل فيه الصفات القديمة بدلالة العقل ولا المحالات لأنها ليست بأشياء، والشئ في كلام العرب الوجود، و﴿قدير﴾ اسم فاعل على المبالغة من «قَدَر» بفتح العين «يَقْدِر» بكسرها. ومن العرب من يقول قَدِرَ بكسر العين يَقْدَرُ بفتحها.

قوله عز وجل:

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾
 أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِدِلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ
 فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَكَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ
 كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا ثَبَّتْنَ لَهُمُ الْحَقَّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ
 بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾

الملك السلطان ونفوذ الأمر والإرادة، وجمع الضمير في ﴿لكم﴾ دال على أن المراد بخطاب النبي

صلى الله عليه وسلم خطاب أمته، و«الولي» فعيل من ولي إذا جاور ولحق، فالناصر والمعين والقائم بالأمر والحافظ كلهم مجاور بوجه ما، و«النصير» فعيل من النصر، وهو أشد مبالغة من ناصر.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَرِيدُونَ﴾: قالت فرقة: ﴿أَمْ﴾ رد على الاستفهام الأول، فهي معادلته.

وقالت فرقة ﴿أَمْ﴾ استفهام مقطوع من الأول، كأنه قال: أتريدون، وهذا موجود في كلام العرب.

وقالت فرقة: ﴿أَمْ﴾ هنا بمعنى بل وألف الاستفهام، قال مكّي وغيره: وهذا يضعف لأن «أَمْ» لا تقع بمعنى بل إلا إذا اعترض المتكلم شك فيما يورده.

قال القاضي أبو محمد: وليس كما قال مكّي رحمه الله، لأن «بل» قد تكون للإضراب عن اللفظ الأول لا عن معناه، وإنما يلزم ما قال على أحد معنيي «بل» وهو الإضراب عن اللفظ والمعنى، ونعم ما قال سيبويه: بل هي لترك كلام وأخذ في غيره.

وقال أبو العالية: إن هذه الآية نزلت حين قال بعض الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم: ليت ذنوبنا جرت مجرى ذنوب بني إسرائيل بتعجيل العقوبة في الدنيا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قد أعطاكم الله خيراً مما أعطى بني إسرائيل. وتلا: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفوراً رحيماً﴾. [النساء: ١١٠].

قال القاضي أبو محمد: فتجيء إضافة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الأمة على هذا حسب الأمر في نفسه وحسب إقرارهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: إن رافع بن حريملة اليهودي سأل النبي صلى الله عليه وسلم تفجير عيون وغير ذلك، وقيل: إن كفار قريش سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بالله جهرة، وقيل: سألوه أن يأتي بالله والملائكة قبلاً، وقال مجاهد: سألوه أن يرد الصفا ذهباً، فقال لهم: خذوا ذلك كالمائدة لبني إسرائيل، فأبوا ونكصوا.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: فتجيء على هذه الأقوال إضافة الرسول إليهم حسب الأمر في نفسه، لا على إقرارهم، و﴿كما سئل موسى﴾ عليه السلام هو أن يرى الله جهرة. وقرأ الحسن بن أبي الحسن وغيره «سِيل» بكسر السين وياء وهي لغة، يقال: سلت أسال، ويحتمل أن يكون من همز أبدل الهمزة ياء على غير قياس ثم كسر السين من أجل الياء، وقرأ بعض القراء بتسهيل الهمزة بين الهمزة والياء مع ضم السين، وكني عن الإعراض عن الإيمان والإقبال على الكفر بالتبدل، وقال أبو العالية: «الكفر هنا الشدة، والإيمان الرخاء».

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف، إلا أن يريد هما مستعارتين، أي الشدة على نفسه والرخاء لها عبارة عن العذاب والتنعيم، وأما المتعارف من شدة أمور الدنيا ورخائها فلا تفسر الآية به، و﴿ضل﴾ أخطأ الطريق، و«السواء» من كل شيء الوسط والمعظم، ومنه قوله تعالى ﴿في سواء الجحيم﴾ [الصفات: ٥٥].

وقال عيسى بن عمر: كتبت حتى انقطع سوائي، وقال حسان بن ثابت في رثاء النبي صلى الله عليه وسلم على ما ذكر ابن إسحاق وغيره [الكامل]:

يا وريح أنصار النبي ورهطه بَعْدَ الْمَغِيبِ فِي سِوَاءِ الْمَلْحِدِ

وقال أبو عبيد: هو في عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو عندي وهم منه، و﴿السبيل﴾ عبارة عن الشريعة التي أنزلها الله لعباده، لما كانت كالسبب إلى نيل رحمته كانت كالسبيل إليها.

وقوله تعالى: ﴿وَد كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، ﴿كَثِيرٌ﴾ مرتفع بـ ﴿وَد﴾، وهو نعت لنكرة، وحذف الموصوف النكرة قلق، ولكن جاز هنا لأنها صفة متمكنة ترفع الإشكال بمنزلة فريق، قال الزهري عن بـ ﴿كَثِيرٌ﴾ واحد، وهو كعب بن الأشرف، وهذا تحامل، وقوله تعالى ﴿يُردونكم﴾ يرد عليه، وقال ابن عباس: المراد ابنا أنخطب، حيي وأبو ياسر.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وفي الضمن الاتباع، فتجيء العبارة متمكنة، و﴿الكتاب﴾ هنا التوراة، و﴿لو﴾ هنا بمنزلة «إن» لا تحتاج إلى جواب، وقيل يتقدر جوابها في ﴿وَد﴾، التقدير لو يردونكم لودوا ذلك.

قال القاضي أبو محمد: فـ ﴿وَد﴾ دالة على الجواب، لأن من شرطه أن يكون متأخراً عن ﴿لو﴾، و﴿كفاراً﴾ مفعول ثان، ويحتمل أن يكون حالاً، و﴿حسداً﴾ مفعول له، وقيل: هو مصدر في موضع الحال.

واختلف في تعلق قوله ﴿من عند أنفسهم﴾: فقيل يتعلق بـ ﴿وَد﴾ لأنه بمعنى ودوا، وقيل: يتعلق بقوله ﴿حسداً﴾ فالوقف على قوله ﴿كفاراً﴾، والمعنى على هذين القولين أنهم لم يجدوا ذلك في كتاب ولا أمروا به فهو من تلقائهم، ولفظة الحسد تعطي هذا، فجاء من عند أنفسهم تأكيداً وإلزاماً، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، و﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩]، ﴿وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقيل يتعلق بقوله ﴿يُردونكم﴾، فالمعنى أنهم ودوا الرد بزيادة أن يكون من تلقائهم أي يباغواهم وترينهم.

واختلف في سبب هذه الآية، فقيل: إن حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر أتيا بيت المدراس، فأراد اليهود صرفهم عن دينهم، فثبتا عليه ونزلت الآية، وقيل: إنما هذه الآية تابعة في المعنى لما تقدم من نهي الله عن متابعة أقوال اليهود في ﴿راعنا﴾ [البقرة: ١٠٤] وغيره، وأنهم لا يودون أن ينزل خير، ويودون أن يردوا المؤمنين كفاراً.

و﴿الحق﴾: المراد به في هذه الآية نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وصحة ما المسلمون عليه، وهذه الآية من الظواهر في صحة الكفر عناداً، واختلف أهل السنة في جواز ذلك، والصحيح عندي جوازه غفلاً وبعده وقوعاً، ويترتب في كل آية تقتضيه أن المعرفة تسلب في ثاني حال من العناد، والعفو ترك العقوبة وهو من «عفت الآثار»، والصفح الإعراض عن المذنب كأنه يولي صفحة العنق.

وقال ابن عباس هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] إلى قوله ﴿صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، وقيل: بقوله ﴿اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾، وقال قوم: ليس هذا حد المنسوخ، لأن هذا في نفس الأمر كان التوقيف على مدته.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وهذا على من يجعل الأمر المنتظر أوامر الشرع أو قتل قريظة وإجلاء النضير، وأم من يجعله آجال بني آدم فيترتب النسخ في هذه الآية بعينها، لأنه لا يختلف أن آيات المواعدة المطلقة قد نسخت كلها، والنسخ هو مجيء الأمر في هذه المقيدة، وقيل: مجيء الأمر هو فرض القتال، وقيل: قتل قريظة وإجلاء النضير، وقال أبو عبيدة في هذه الآية: إنها منسوخة بالقتال، لأن كل آية فيها ترك القتال فهي مكية منسوخة.

قال القاضي أبو محمد: وحكمه بأن هذه الآية مكية ضعيف، لأن معاندات اليهود إنما كانت بالمدينة، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مقتضاه في هذا الموضوع وعد للمؤمنين.

قوله عز وجل:

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ

قالت فرقة من الفقهاء: إن قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصلاة﴾ عموم، وقالت فرقة: هو من مجمل القرآن، والمرجح أن ذلك عموم من وجه ومجمل من وجه، فعموم من حيث الصلاة الدعاء، فحملة على مقتضاه ممكن، وخصصه الشرع بهيئات وأفعال وأقوال، ومجمل من حيث الأوقات، وعدد الركعات والسجادات لا يفهم من اللفظ، بل السامع فيه مفتقر إلى التفسير، وهذا كله في ﴿أَقِيمُوا الصلاة﴾، وأما الزكاة فمجملة لا غير.

قال الطبري: إنما أمر الله هنا بالصلاة والزكاة لتحط ما تقدم من ميلهم إلى أقوال اليهود ﴿راعنا﴾ [البقرة: ١٠٤]، لأن ذلك نهى عن نوعه، ثم أمر المؤمنين بما يحطه، والخير المقدم منقض لأنه فعل، فمعنى ﴿تجدوه﴾ تجددوا ثوابه جزاءه، وذلك بمنزلة وجوده.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ خبر في اللفظ معناه الوعد والوعيد.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ﴾ معناه قال اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، وقال النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، فجمع قولهم، ودل تفريق نوعيهم على تفرق قولهم، وهذا هو الإيجاز واللف، وهود جمع هائد، مثل عائد وعود، ومعناه التائب الراجع، ومثله في الجمع بازل وبزل وحائل وحول وبائر وبور، وقيل هو مصدر يوصف به الواحد والجمع كفظر وعدل ورضا، وقال الفراء: أصله يهودي حذفت ياءه على غير قياس.

وقرأ أبي بن كعب «إلا من كان يهودياً»، وكذبهم الله تعالى وجعل قولهم أمينة، وقد قطعوا قبل بقوله ﴿فتمنوا الموت﴾ [البقرة: ٩٤، الجمعة: ٦]، وأمر محمد صلى الله عليه وسلم بدعائهم إلى إظهار البرهان، وقيل: إن الهاء في ﴿هاتوا﴾ أصلية من هاتا يهاتي، وأميت تصريف هذه اللفظة كله إلا الأمر منه وقيل: هي عوض من همزة آتى، وقيل: ها تنبيه، وألزمت همزة آتى الحذف، والبرهان الدليل الذي يوقع اليقين، قال الطبري: طلب الدليل هنا يقضي بإثبات النظر ويرد على من ينفيه، وقول اليهود ﴿لن﴾ نفى حسنت بعده ﴿يلى﴾، إذ هي رد بالإيجاب في جواب النفي، حرف مرتجل لذلك، وقيل: هي «بل» زيدت عليها الياء لتزيلها على حد النسق الذي في «بل»، و﴿أسلم﴾ معناه استسلم وخضع ودان، ومنه قول زيد ابن عمرو بن نفيل: [المتقارب].

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له المزن تحمل عذبا زلالا

وخص الوجه بالذكر لكونه أشرف ما يرى من الإنسان وموضع الحواس وفيه يظهر العز والذل، ولذلك يقال وجه الأمر أي معظمه وأشرفه، قال الأعشى: [السريع]:

وأول الحكم على وجهه ليس قضائي بالهوى الجائر

ويصح أن يكون الوجه في هذه الآية المقصد، ﴿وهو محسن﴾ جملة في موضع الحال، وعاد الضمير في ﴿له﴾ على لفظ ﴿من﴾، وكذلك في قوله ﴿أجره﴾، وعاد في ﴿عليهم﴾ على المعنى، وكذلك في ﴿يحزنون﴾، وقرأ ابن محيصن «فلا خوف» دون تنوين في الفاء المرفوعة، فقيل: ذلك تخفيف، وقيل: المراد فلا خوف فحذفت الألف واللام، والخوف هو لما يتوقع، والحزن هو لما قد وقع.

وقوله تعالى: ﴿وقالت اليهود﴾ الآية، معناه ادعى كل فريق أنه أحق برحمة الله من الآخر.

وسبب الآية أن نصارى نجران اجتمعوا مع يهود المدينة عند النبي صلى الله عليه وسلم فسابوا، وكفر اليهود بعبسى وبمלתه وبالإنجيل، وكفر النصارى بموسى وبالتوراة.

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا من فعلهم كفر كل طائفة بكتائبها، لأن الإنجيل يتضمن صدق موسى وتقرير التوراة، والتوراة تتضمن التبشير بعبسى وصحة نبوته، وكلاهما تضمن صدق محمد صلى الله عليه وسلم، فغضبهم الله تعالى على كذبهم، وفي كتبهم خلاف ما قالوا.

وفي قوله تعالى: ﴿وهم يتلون الكتاب﴾ تنبيه لأمة محمد صلى الله عليه وسلم على ملازمة القرآن والوقوف عند حدوده، كما قال الحر بن قيس في عمر بن الخطاب، وكان وقافاً عند كتاب الله، و﴿الكتاب﴾ الذي يتلونه قيل: التوراة والإنجيل، فالألف واللام للجنس، وقيل: التوراة لأن النصارى تمثلها، فالألف واللام للعهد.

قوله عز وجل:

كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ

يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

اختلف من المراد بقوله ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، فقال الجمهور: عنى بذلك كفار العرب، لأنهم لا كتاب لهم، وقال عطاء: المراد أمم كانت قبل اليهود والنصارى، وقال قوم: المراد اليهود، وكأنه أعيد قولهم. قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف، وأخبر تعالى بأنه ﴿يُحْكَمُ بَيْنَهُمْ﴾، والمعنى بأن يثيب من كان على شيء، أي شيء حق، ويعاقب من كان على غير شيء، وقال الزجاج: المعنى يريهم عياناً من يدخل الجنة ومن يدخل النار و﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ سمي بقيام الناس من القبور، إذ ذلك مبدل لجميع مبدأ في اليوم وفي الاستمرار بعده، وقوله ﴿كَانُوا﴾ بصيغة الماضي حسن على مراعاة الحكم، وليس هذا من وضع الماضي موضع المستقبل لأن اختلافهم ليس في ذلك اليوم، بل في الدنيا.

وقوله تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الآية، ﴿مَنْ﴾ رفع بالابتداء، و﴿أَظْلَمُ﴾ خبره، والمعنى لا أحد أظلم.

واختلف في المشار إليه من هذا الصنف الظالم، فقال ابن عباس وغيره: المراد النصارى الذين كانوا يؤذون من يصلي بيت المقدس ويطرحون فيه الأقذار، وقال قتادة والسدي: المراد الروم الذين أعانوا بختنصر على تخريب بيت المقدس حين قتلت بنو إسرائيل يحيى بن زكرياء عليه السلام، وقيل: المعنى بختنصر، وقال ابن زيد: المراد كفار قريش حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام، وهذه الآية تتناول كل من منع من مسجد إلى يوم القيامة أو خرب مدينة إسلام، لأنها مساجد، وإن لم تكن موقوفة، إذ الأرض كلها مسجد لهذه الأمة، والمشهور مسجد بكسر الجيم، ومن العرب من يقول مسجد بفتحها، و﴿أَنْ يَذْكُرَ﴾ في موضع نصب: إما على تقدير حذف «مَنْ» وتسلط الفعل، وإما على البدل من المساجد، وهو بدل الاشتمال الذي شأن البدل فيه أن يتعلق بالمبدل منه ويختص به أو تقوم به صفة، ويجوز أن يكون مفعولاً من أجله، ويجوز أن تكون ﴿أَنْ﴾ في موضع خفض على إسقاط حرف الجر، ذكره سيويه، ومن قال من المفسرين إن الآية بسبب بيت المقدس جعل الخراب الحقيقي الموجود، ومن قال هي بسبب المسجد الحرام جعل منع عمارته خراباً، إذ هوداع إليه، ومن جعل الآية في النصارى روى أنه مر زمان بعد ذلك لا يدخل نصراني بيت المقدس إلا أوجع ضرباً، قاله قتادة والسدي، ومن جعلها في قريش قال كذلك نودي بأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يحج مشرك، و﴿خَائِفِينَ﴾ نصب على الحال، وهذه الآية ليست بأمر بين منعهم من المساجد، لكنها تطرق إلى ذلك وبدأة فيها وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين.

ومن جعل الآية في النصارى قال: الخزي قتل الحربي وجزية الذمي، وقيل: الفتوح الكائنة في الإسلام كعمورية وهرقلة وغير ذلك، ومن جعلها في قريش جعل الخزي غلبتهم في الفتح وقتلهم والعذاب في الآخرة لمن مات منهم كافراً، و﴿خِزْيٌ﴾ رفع بالابتداء وخبره في المجزوء.

و﴿الْمَشْرِقُ﴾ موضع الشروق، و﴿وَالْمَغْرِبُ﴾ موضع الغروب، أي هما له ملك وما بينهما من الجهات

والمخلوقات، وخصهما بالذكر وإن كانت جملة المخلوقات كذلك لأن سبب الآية اقتضى ذلك، و«أينما» شرط، و«تولوا» جزم به، والجواب في قوله «فثم»، والمعنى فأينما تولوا نحوه وإليه، لأن ولّى وإن كان غالب استعمالها أدبر فإنها تقتضي أنه يقبل إلى ناحية، تقول وليت عن كذا وإلى كذا، وقرأ الحسن «تولوا» بفتح التاء واللام، وثمّ مبنية على الفتح، وهي في موضع نصب على الظرف، و«وجه الله» معناه الذي وجهنا إليه، كما تقول سافرت في وجه كذا أي في جهة كذا.

واختلف الناس في تأويل الوجه الذي جاء مضافاً إلى الله تعالى في مواضع من القرآن، فقال الحذاق: ذلك راجع إلى الوجود، والعبارة عنه بالوجه من مجاز كلام العرب، إذ كان الوجه أظهر الأعضاء في الشاهد وأجلها قدراً، وقال بعض الأئمة: تلك صفة ثابتة بالسمع زائدة على ما توجه العقول من صفات القديم تعالى، وضعف أبو المعالي هذا القول، ويتجه في بعض المواضع كهذه الآية أن يراد بالوجه الجهة التي فيها رضاه وعليها ثوابه، كما تقول تصدقت لوجه الله تعالى، ويتجه في هذه الآية خاصة أن يراد بالوجه الجهة التي وجهنا إليها في القبلة حسبما يأتي في أحد الأقوال، وقال أبو منصور في المقنع: يحتمل أن يراد بالوجه هنا الجاه، كما تقول فلان وجه القوم أي موضع شرفهم، فالتقدير فثم جلال الله وعظمته.

واختلف المفسرون في سبب هذه الآية، فقال قتادة: أباح الله لنبيه صلى الله عليه وسلم بهذه الآية أن يصلي المسلمون حيث شاؤوا، فاختر النبي صلى الله عليه وسلم بيت المقدس حينئذ، ثم نسخ ذلك كله بالتحول إلى الكعبة، وقال مجاهد والضحاك: معناه إشارة إلى الكعبة، أي حيث كنتم من المشرق والمغرب فأنتم قادرون على التوجه إلى الكعبة التي هي وجه الله الذي وجهكم إليه.

قال القاضي أبو محمد: وعلى هذا فهي ناسخة لبيت المقدس، وقال ابن زيد: كانت اليهود قد استحسنت صلاة النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيت القدس، وقالوا: ما اهتدى إلا بنا، فلما حول إلى الكعبة قالت اليهود: ما ولاهم عن قبلتهم؟ فنزلت «ولله المشرق والمغرب» الآية، وقال ابن عمر: نزلت هذه الآية في صلاة النافلة في السفر حيث توجهت بالإنسان دابته، وقال النخعي: الآية عامة أينما تولوا في متصرفاتكم ومسايعكم «فثم وجه الله»، أي موضع رضاه وثوابه وجهة رحمة التي يوصل إليها بالطاعة، وقال عبد الله بن عامر بن ربيعة: نزلت فيمن اجتهد في القبلة فأخطأ، وورد في ذلك حديث رواه عامر بن ربيعة قال: «كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر في ليلة مظلمة، فتحرى قوم القبلة وأعلموا علامات، فلما أصبحوا رأوا أنهم قد أخطؤوها، فعرفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، فنزلت هذه الآية»، وذكر قوم هذا الحديث على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن مع القوم في السفر، وذلك خطأ، وقال قتادة أيضاً: نزلت هذه الآية في النجاشي، وذلك أنه لما مات دعا النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى الصلاة عليه، فقال قوم كيف نصلي على من لم يصل إلى القبلة قط؟، فنزلت هذه الآية، أي إن النجاشي كان يقصد وجه الله وإن لم يبلغه التوجه إلى القبلة، وقال ابن جبير: نزلت الآية في الدعاء لما نزلت «ادعوني استجب لكم» [غافر: ٦٠]، قال المسلمون: إلى أين ندعو، فنزلت «فأينما تولوا فثم وجه الله»، وقال المهدوي: وقيل هذه الآية منتظمة في معنى التي قبلها، أي لا يمنعكم تخريب مسجد من أداء العبادات، فإن المسجد المخصوص للصلاة إن خرب «فثم وجه الله» موجود حيث توليت.

وقال أيضاً: وقيل نزلت الآية حين صد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البيت، و﴿واسع﴾ معناه متسع الرحمة عليهم أين يضعها، وقيل ﴿واسع﴾ معناه هنا أنه يوسع على عباده في الحكم دينه يسر، ﴿عليم﴾ بالنيات التي هي ملاك العمل، وإن اختلفت ظواهره في قبلة وما أشبهها.
قوله عز وجل:

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَدِينٌ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَّهتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾

قرأ هذه الآية عامة القراء «وقالوا» بواو تربط الجملة بالجملة، أو تعطف على ﴿سعى﴾ [البقرة: ١١٤]، وقرأ ابن عامر وغيره «قالوا» بغير واو، وقال أبو علي: وكذلك هي في مصاحف أهل الشام، وحذف منه الواو يتجه من وجهين، أحدهما أن هذه الجملة مرتبطة في المعنى بالتي قبلها فذلك يغني عن الواو، والآخر أن تستأنف هذه الجملة ولا يراعى ارتباطها بما تقدم، واختلف على من يعود الضمير في ﴿قالوا﴾، ف قيل: على النصارى، لأنهم قالوا المسيح ابن الله.

قال القاضي أبو محمد: وذكرهم أشبه بسياق الآية، وقيل: على اليهود، لأنهم قالوا عزير ابن الله، وقيل: على كفر العرب لأنهم قالوا الملائكة بنات الله، و﴿سبحانه﴾ مصدر معناه تنزيهاً له وتبرئاً مما قالوا، و﴿ما﴾ رفع بالابتداء، والخبر في المجرور، أو في الاستقرار المقدر، أي كل ذلك له ملك، والذي ﴿قالوا اتخذ الله ولداً﴾ داخل في جملة ﴿ما في السماوات والأرض﴾ ولا يكون الولد إلا من جنس الوالد لا من المخلوقات المملوكات.

والقنوت في اللغة الطاعة، والقنوت طول القيام في عبادة، ومنه القنوت في الصلاة، فمعنى الآية أن المخلوقات كلها تقنت لله أي تخضع وتطيع، والكفار والجنادات قنوتهم في ظهور الصنعة عليهم وفيهم، وقيل: الكافر يسجد ظله وهو كاره.

و﴿بديع﴾ مصروف من مبدع كبصير من مبصر، ومثله قول عمرو بن معديكرب: [الوافر]:

أَمِنْ رِيحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ

يريد المسمع، والمبدع المخترع المنشئ، ومنه أصحاب البدع، ومنه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في صلاة رمضان: «نعمت البدعة هذه».

وخص ﴿السماوات والأرض﴾ بالذكر لأنها أعظم ما نرى من مخلوقاته جل وعلا، و﴿قضى﴾، معناه قدر، وقد يجيء بمعنى أمضى، ويتجه في هذه الآية المعنيان، فعلى مذهب أهل السنة قدر في الأزل

وأمضى فيه، وعلى مذهب المعتزلة أمضى عند الخلق والإيجاد.

والأمر واحد الأمور، وليس هنا بمصدر أمر يأمر، ويكون رفع على الاستئناف، قال سيبويه: «معناه فهو يكون»، قال غيره: «يكون» عطف على «يقول»، واختاره الطبري وقرره، وهو خطأ من جهة المعنى، لأنه يقتضي أن القول مع التكوين والوجود، وتكلم أبو علي الفارسي في هذه المسألة بما هو فاسد من جملة الاعتزال لا من جهة العربية.

وقرأ ابن عامر «فيكون» بالنصب، وضعفه أبو علي، ووجهه مع ضعفه على أن يشفع له شبه اللفظ، وقال أحمد بن موسى في قراءة ابن عامر: «هذا لحن».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: لأن الفاء لا تعمل في جواب الأمر إلا إذا كانا فعلين يطرد فيهما معنى الشرط، تقول أكرم زيداً فيكرمك، والمعنى إن تكرم زيداً يكرمك، وفي هذه الآية لا يتجه هذا، لأنه يجيء تقديره: إن تكن يكن، ولا معنى لهذا، والذي يطرد فيه معنى الشرط هو أن يختلف الفاعلان أو الفعلان فالأول أكرم زيداً فيكرمك والثاني أكرم زيداً فتسود.

وتلخيص المعتقد في هذه الآية، أن الله عز وجل لم يزل أمراً للمعدومات بشرط وجودها، قادراً مع تأخر المقدورات، عالماً مع تأخر وقوع المعلومات، فكل ما في الآية مما يقتضي الاستقبال، فهو بحسب المأمورات، إذ المحدثات تجيء بعد أن لم تكن، وكل ما يستند إلى الله تعالى من قدرة وعلم وأمر فهو قديم لم يزل، ومن جعل من المفسرين «قضى» بمعنى أمضى عند الخلق والإيجاد، فكأن إظهار المخترعات في أوقاتها المؤجلة قول لها «كن»، إذ التأمل يقتضي ذلك، على نحو قول الشاعر [أبو النجم المعجلي]: [الرجز]

وقالت الأقرب للبطن الحق

قال القاضي أبو محمد: وهذا كله يجري مع قول المعتزلة، والمعنى الذي تقتضيه عبارة «كن» هو قديم قائم بالذات، والوضوح التام في هذه المسألة يحتاج أكثر من هذا البسط.

وقوله تعالى: «وقال الذين لا يعلمون» الآية، قال الربيع والسدي: هم كفار العرب.

قال القاضي أبو محمد: وقد طلب عبد الله بن أبي أمية وغيره من النبي صلى الله عليه وسلم نحو هذا، فنفي عنهم العلم لأنهم لا كتاب عندهم ولا اتباع نبوة، وقال مجاهد: هم النصارى لأنهم المذكورون في الآية أولاً، ورجحه الطبري، وقال ابن عباس: المراد من كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليهود، لأن رافع بن حريملة قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أسمعنا كلام الله، وقيل: الإشارة بقوله «لا يعلمون» إلى جميع هذه الوظائف، لأن كلهم قال هذه المقالة أو نحوها، ويكون «الذين من قبلهم» قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، و«لولا» تحضيض بمعنى هلا، كما قال الأشهب بن ريملة^(١): [الطويل]

تَعْدُونَ عَقْرَ النَّبِّ أَفْضَلَ مَجْدِكُمْ بني صَوْطَرَى لَوْلَا الْكَمِّيَّ الْمُقْنَعَا

وليست هذه «لولا» التي تعطي منع الشيء لوجوب غيره، وفرق بينهما أنها في التحضيض لا يليها

(١) نسبة البيت للأشهب خطأ والصحيح أنه لجرير.

إلا الفعل مظهراً أو مقدراً، وعلى بابها في المنع للوجوب يليها الابتداء، وجرت العادة بحذف الخبر، والآية هنا العلامة الدالة، وقد تقدم القول في لفظها، و﴿الذين من قبلهم﴾ اليهود والنصارى في قول من جعل ﴿الذين لا يعلمون﴾ كفار العرب، وهم الأمم السالفة في قول من جعل ﴿الذين لا يعلمون﴾ النصارى، والكاف الأولى من ﴿كذلك﴾ نعت لمصدر مقدر، و﴿مثل﴾ نعت لمصدر محذوف، ويصح أن يعمل فيه، ﴿قال﴾: وتشابه القلوب هنا في طلب ما لا يصح أو في الكفر وإن اختلفت ظواهرهم، وقرأ ابن أبي إسحاق وأبو حيوة «تَشَابَهَتْ» بشد الشين، قال أبو عمرو الداني: وذلك غير جائز لأنه فعل ماض.

وقوله تعالى: ﴿قد بينا الآيات لقوم يوقنون﴾ لما تقدم ذكر الذين أضلهم الله حتى كفروا بالأنبياء وطلبوا ما لا يجوز لهم أتبع ذلك بذكر الذين بين لهم ما ينفع وتقوم به الحجة، لكن البيان وقع وتحصل للموقنين، فلذلك خصهم بالذكر، ويحتمل أن يكون المعنى قد بينا البيان الذي هو خلق الهدى، فكان الكلام قد هدينا من هدينا، واليقين إذا اتصف به العلم خصصه وبلغ به نهاية الوثاقة، وقوله تعالى ﴿بيننا﴾ قرينة تقتضي أن اليقين صفة لعلمهم، وقرينة أخرى، وهي أن الكلام مدح لهم، وأما اليقين في استعمال الفقهاء إذا لم يتصف به العلم فإنه أخط من العلم، لأن العلم عندهم معرفة المعلوم على ما هو به واليقين معتقد يقع للموقن في حقه والشيء على خلاف معتقده، ومثال ذلك تيقن المقادة ثبوت الصانع، ومنه قول مالك - رحمه الله - في «الموطأ» في مسألة الحالف على الشيء يتيقنه والشيء في نفسه على غير ذلك.

قال القاضي أبو محمد: وأما حقيقة الأمر فاليقين هو الأخص وهو ما علم على الوجه الذي لا يمكن أن يكون إلا عليه.

قوله عز وجل:

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ أَتَّبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾

المعنى ﴿بشيراً﴾ لمن آمن، و﴿ونذيراً﴾ لمن كفر، وقرأ نافع وحده «ولا تسأل» بالجزم على النهي، وفي ذلك معنيان: أحدهما لا تسأل على جهة التعظيم لحالهم من العذاب، كما تقول: فلان لا تسأل عنه، تعني أنه في نهاية شهره من خير أو شر، والمعنى الثاني روي فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ليت شعري ما فعل أبوي» فنزلت ﴿ولا تسأل﴾.

وحكى المهدوي رحمه الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ليت شعري أي أبوي أحدث موتاً»، فنزلت.

قال القاضي أبو محمد: وهذا خطأ ممن رواه أو ظنه لأن أباه مات وهو في بطن أمه، وقيل وهو ابن شهر، وقيل ابن شهرين، وماتت أمه بعد ذلك بخمس سنين منصرفة به من المدينة من زيارة أخواله، فهذا مما لا يتوهم أنه خفي عليه صلى الله عليه وسلم، وقرأ باقي السبعة «ولا تُسأل». بضم التاء واللام، وقرأ قوم «ولا تُسأل» بفتح التاء وضم اللام، ويتجه في هاتين القراءتين معنيان: أحدهما الخبر أنه لا يسأل عنهم، أو لا يسأل هو عنهم، والآخر أن يراد معنى الحال كأنه قال: وغير مسؤول أو غير سائل عنهم، عطفًا على قوله ﴿بشيراً ونذيراً﴾، وقرأ أبي بن كعب «وما تسأل»، وقرأ ابن مسعود «ولن تسأل»، وهاتان القراءتان تؤيدان معنى القطع والاستثنا في غيرهما، و﴿الجحيم﴾ إحدى طبقات النار.

ويقال: رضي يرضى رضى ورضاً ورضواناً، وحكي رضاءً ممدوداً، وقال: ﴿ملتهم﴾ وهما مختلفتان بمعنى لن ترضى اليهود حتى تتبع ملتهم ولن ترضى النصارى حتى تتبع ملتهم، فجمعهم إيجازاً، لأن ذلك مفهوم، والملة الطريقة، وقد اختصت اللفظة بالشرائع والدين، وطريق ممل أي قد أثر المشي فيه.

وروي أن سبب هذه الآية أن اليهود والنصارى طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم الهدنة، ووعدوه أن يتبعوه بعد مدة خداعاً منهم، فأعلمه الله تعالى أن إعطاء الهدنة لا ينفع عندهم، وأطلعهم على سر خداعهم.

وقوله تعالى: ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾ أي ما أنت عليه يا محمد من هدى الله الذي يضعه في قلب من يشاء هو الهدى الحقيقي، لا ما يدعيه هؤلاء.

ثم قال تعالى لنبيه ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ الآية، فهذا شرط خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم وأمته معه داخله فيه، و«أهواء» جمع هوى، ولما كانت مختلفة جمعت، ولو حل على أفراد الملة لقليل هواهم، والولي الذي يتولى الإصلاح والحيطة والنصر والمعونة، و﴿نصير﴾ بناء مبالغة في اسم الفاعل من نصر.

وقوله تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ الآية، ﴿الذين﴾ رفع بالابتداء، و﴿آتيناهم الكتاب﴾ صلة، وقال قتادة: المراد ب﴿الذين﴾ في هذا الموضع من أسلم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، و﴿الكتاب﴾ على هذا التأويل القرآن، وقال ابن زيد: المراد من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم من بني إسرائيل، و﴿الكتاب﴾ على هذا التأويل التوراة، و﴿آتيناهم﴾ معناه أعطيناهم، وقال قوم: هذا مخصوص في الأربعين الذين وردوا مع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في السفينة، فأثنى الله عليهم، ويحتمل أن يراد ب﴿الذين﴾ العموم في مؤمني بني إسرائيل والمؤمنين من العرب، ويكون ﴿الكتاب﴾ اسم الجنس، و﴿يتلون﴾ معناه يتبعونه حق اتباعه بامتثال الأمر والنهي، وقيل ﴿يتلون﴾ يقرؤونه حق قراءته، وهذا أيضاً يتضمن الاتباع والامتثال، و﴿يتلون﴾ إذا أريد ب﴿الذين﴾ الخصوص فيمن اهتدى يصح أن يكون خبر الابتداء ويصح أن يكون ﴿يتلون﴾ في موضع الحال والخبر ﴿أولئك﴾، وإذا أريد ب﴿الذين﴾ العموم لم يكن الخبر إلا ﴿أولئك﴾، و﴿يتلون﴾ حال لا يستغنى عنها وفيها الفائدة، لأنه لو كان الخبر في ﴿يتلون﴾ لوجب أن يكون كل مؤمن يتلو الكتاب ﴿حق تلاوته﴾، و﴿حق﴾ مصدر، والعامل فيه فعل مضمر، وهو بمعنى أفعّل، ولا يجوز إضافته إلى واحد

معرف، وإنما جازت هنا لأن تعرف التلاوة بإضافتها إلى الضمير ليس بتعرف محض، وإنما هو بمنزلة قولهم رجل واحد أمة، ونسج وحده، والضمير في ﴿به﴾ عائد على ﴿الكتاب﴾، وقيل: يعود على محمد صلى الله عليه وسلم، لأن متبعي التوراة يجدونه فيها فيؤمنون به.

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل عندي أن يعود الضمير على ﴿الهدى﴾ الذي تقدم، وذلك أنه ذكر كفار اليهود والنصارى في أول الآية وحذر رسوله من اتباع أهوائهم، وأعلمه بأن ﴿هدى الله هو الهدى﴾ الذي أعطاه وبعثه به، ثم ذكر له أن المؤمنين التالين لكتاب الله هم المؤمنون بذلك الهدى المقنون بأنواره، والضمير في ﴿يكفر به﴾ يحتمل من العود ما ذكر في الأول، و﴿فأولئك هم الخاسرون﴾ ابتداء وعماد وخبر، أو ابتداء وابتداء وخبر، والثاني وخبره خبر الأول، والخسران نقصان الحظ.

قوله عز وجل:

يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٣﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٥﴾

قرأ الحسن وغيره «نعمتي» بتسكين الياء تخفيفاً، لأن أصلها التحريك كتحرريك الضمائر لك وبك، ثم حذفها الحسن للالتقاء، وفي السبعة من يحرك الياء، ومنهم من يسكنها، وإن قدرنا فضيلة بني إسرائيل مخصوصة في كثرة الأنبياء وغير ذلك فالعالمون عموم مطلق، وإن قدرنا تفضيلهم على الإطلاق فالعالمون عالمو زمانهم، لأن أمة محمد صلى الله عليه وسلم أفضل منهم بالنص، وقد تقدم القول على مثل هذه الآية إلى قوله: ﴿ينصرون﴾ ومعنى ﴿لا تنفعها شفاعة﴾ أي ليست ثم، وليس المعنى أنه يشفع فيهم أحد فيرد، وإنما نفى أن تكون ثم شفاعة على حد ما هي في الدنيا، وأما الشفاعة التي هي في تعجيل الحساب فليست بنافعة لهؤلاء الكفرة في خاصتهم، وأما الأخيرة التي هي بإذن من الله تعالى في أهل المعاصي من المؤمنين فهي بعد أن أخذ العقاب حقه، وليس لهؤلاء المتوعدين من الكفار منها شيء.

والعامل في ﴿إذ﴾ فعل، تقديره: واذكر إذ، و﴿ابتلى﴾ معناه اختبر، و﴿إبراهيم﴾ يقال إن تفسيره بالعربية أب رحيم، وقرأ ابن عامر في جميع سورة البقرة: «أبراهام»، وقدم على الفاعل للاهتمام، إذ كون الرب مبتلياً معلوم، فإنما يهتم السامع بن ﴿ابتلى﴾، وكون ضمير المفعول متصلاً بالفاعل موجب تقديم المفعول، وإنما بني الكلام على هذا الاهتمام.

واختلف أهل التأويل في الكلمات، فقال ابن عباس: هي ثلاثون سهماً، هي الإسلام كله لم يتمه أحد كاملاً إلا إبراهيم صلوات الله عليه، عشرة منها في براءة ﴿التائبون العابدون﴾ [التوبة: ١١٢]، وعشرة في الأحزاب ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وعشرة في ﴿سأل سائل﴾ [المعارج: ١]، وقال ابن عباس أيضاً وقادة: الكلمات عشر خصال خمس منها في الرأس المضمضة والاستنشاق وقص الشارب والسواك وفرق الرأس، وقيل بدل فرق الرأس: إعفاء اللحية، وخمس في الجسد تقليم الظفر،

وحلق العانة، ونشف الإبط، والاستنجاء بالماء، والاختتان، وقال ابن عباس أيضاً: هي عشرة خصال، ست في البدن وأربع في الحج: الختان، وحلق العانة، ونشف الإبط، وتقليم الأظفار، وقص الشارب، والغسل يوم الجمعة، والطواف بالبيت، والسعي، ورمي الجمار، والإفاضة، وقال الحسن بن أبي الحسن: هي خلال الست التي امتحن بها، الكوكب، والقمر، والشمس، والنار، والهجرة، والختان، وقيل بدل الهجرة: الذبح، وقالت طائفة: هي مناسك الحج خاصة، وروي أن الله عز وجل أوحى إليه أن تطهر، فتمضمض، ثم أن تطهر فاستنشق، ثم أن تطهر فاستاك، ثم أن تطهر فأخذ من شاربته، ثم أن تطهر ففرق شعره، ثم أن تطهر فاستنجدى، ثم أن تطهر فحلق عانته، ثم أن تطهر فنتف إبطه، ثم أن تطهر فقلّم أظفاره، ثم أن تطهر فأقبل على جسده ينظر ما يصنع فاختنن بعد عشرين ومائة سنة.

قال القاضي أبو محمد: وفي البخاري أنه اختتن وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم.

وقال الراوي: فأوحى الله إليه ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾ يأتون بك في هذه الخصال، ويقتدي بك الصالحون.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وهذا أقوى الأقوال في تفسير هذه الآية، وعلى هذه الأقوال كلها إبراهيم عليه السلام هو الذي أتم.

وقال مجاهد وغيره: إن الكلمات هي أن الله عز وجل قال لإبراهيم: إني مبتليك بأمر فما هو؟ قال إبراهيم: تجعلني للناس إماماً، قال الله: نعم، قال إبراهيم: تجعل البيت مثابة، قال الله: نعم، قال إبراهيم وأمناً، قال الله: نعم، قال إبراهيم: وترينا مناسكنا وتتوب علينا، قال الله: نعم، قال إبراهيم: تجعل هذا البلد آمناً، قال الله: نعم، قال إبراهيم: وترزق أهله من الثمرات، قال الله: نعم.

قال القاضي أبو محمد: فعلى هذا القول فالله تعالى هو الذي أتم، وقد طول المفسرون في هذا، وذكروا أشياء فيها بعد فاختصرتها، وإنما سميت هذه الخصال كلمات، لأنها اقترنت بها أوامر هي كلمات، وروي أن إبراهيم صلى الله عليه وسلم لما أتم هذه الكلمات أو أتمها الله عليه كتب الله له البراءة من النار، فذلك قوله تعالى: ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ [النجم: ٣٧].

والإمام القدوة، ومنه قيل لخيط البناء: إمام، وهو هنا اسم مفرد، وقيل في غير هذا الموضع: هو جمع أم وزنه فاعل أصله آمم، فيجيء مثل قائم وقيام وجائع وجياح ونائم ونيام.

وجعل الله تعالى إبراهيم إماماً لأهل طاعته، فلذلك أجمعت الأمم على الدعوى فيه، وأعلم الله تعالى أنه كان حنيفاً، وقول إبراهيم عليه السلام: ﴿ومن ذريتي﴾، هو على جهة الدعاء والرغبة إلى الله، أي ومن ذريتي يا رب فاجعل، وقيل: هذا منه على جهة الاستفهام عنهم، أي ومن ذريتي يا رب ماذا يكون؟ والذرية مأخوذة من ذرا يذرو أو من ذرى يذري أو من ذرأ يذرأ، وهي أفعال تتقارب معانيها، وقد طول في تعليلها أبو الفتح وشفى.

وقوله تعالى: ﴿قال لا ينال عهدي﴾، أي قال الله، والعهد فيما قال مجاهد: الإمامة، وقال السدي:

النبوة، وقال قتادة: الأمان من عذاب الله، وقال الربيع والضحاك: العهد الدين: دين الله تعالى. وقال ابن عباس: معنى الآية لا عهد عليك لظالم أن تطيعه، ونصب ﴿الظالمين﴾ لأن العهد ينال كما ينال، وقرأ قتادة وأبو رجاء والأعمش «الظالمون» بالرفع، وإذا أولنا العهد الدين أو الأمان أو أن لا طاعة لظالم فالظلم في الآية ظلم الكفر، لأن العاصي المؤمن ينال الدين والأمان من عذاب الله وتلزم طاعته إذا كان ذا أمر، وإذا أولنا العهد النبوة أو الإمامة في الدين فالظلم ظلم المعاصي فما زاد قوله عز وجل:

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

قوله ﴿وَإِذْ﴾ عطف على ﴿إِذْ﴾ المتقدمة و﴿البيت﴾ الكعبة، و﴿مَثَابَةً﴾ يحتمل أن تكون من ثاب إذا رجع لأن الناس يشوبون إليها أي ينصرفون، ويحتمل أن تكون من الثواب أي يشابون هناك، قال الأخفش: دخلت الهاء فيها للمبالغة لكثرة من يشوب أي يرجع، لأنه قل ما يفارق أحد البيت إلا وهو يرى أنه لم يقض منه وطراً، فهي كنسابة وعلامة، وقال غيره: هي هاء تأنيث المصدر، فهي مفعلة أصلها ماثوبة نقلت حركة الواو إلى الثاء فانقلبت الواو ألفاً لانفتاح ما قبلها، وقيل: هو على تأنيث البقعة، كما يقال: مقام ومقامة، وقرأ الأعمش «مَثَابَات» على الجمع، وقال ورقة بن نوفل في الكعبة^(١): [الطويل]:

مَثَابَ لَأَفْنَاءِ الْقِبَائِلِ كُلِّهَا تَحْبُ إِلَىٰهَا الْيَعْمَلَاتُ الطَّلَائِحُ

و﴿أَمْنًا﴾ معناه أن الناس يغيرون ويقتتلون حول مكة وهي آمنة من ذلك، يلقي الرجل بها قاتل أبيه فلا يهيج، لأن الله تعالى جعل لها في النفوس حرمة وجعلها أمناً للناس والطير والوحوش، وخصص الشرع من ذلك الخمس الفواسق، على لسان النبي صلى الله عليه وسلم، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي وجمهور الناس «واتخذوا» بكسر الخاء على جهة الأمر، فقال أنس بن مالك وغيره: معنى ذلك ما روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: وافقت ربي في ثلاث، في الحجاب، وفي ﴿عسى ربه إن طلقكن﴾ [التحریم: ٥]، وقلت يا رسول الله: لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾.

قال القاضي أبو محمد: فهذا أمر لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، وقال المهدوي: وقيل ذلك عطف على قوله ﴿اذكروا﴾ فهذا أمر لبني إسرائيل، وقال الربيع بن أنس: ذلك أمر لإبراهيم ومتبعيه، فهي من الكلبات، كأنه قال: ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾ [البقرة: ١٢٤] ﴿واتخذوا﴾، وذكر المهدوي رحمه الله أن ذلك عطف على الأمر الذي يتضمنه قوله: ﴿جعلنا البيت مثابة﴾، لأن المعنى: توبوا، وقرأ نافع وابن عامر «واتخذوا»

(١) جاء في لسان العرب أن البيت لأبي طالب.

بفتح الخاء على جهة الخبر عمن اتخذه من متبعي إبراهيم، وذلك معطوف على قوله ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا﴾، كأنه قال: وإذ اتخذوا، وقيل هو معطوف على جعلنا دون تقدير إذ، فهي جملة واحدة، وعلى تقدير إذ فهي جملتان.

واختلف في ﴿مقام إبراهيم﴾، فقال ابن عباس وقتادة وغيرهما، وخرجه البخاري: إنه الحجر الذي ارتفع عليه إبراهيم حين ضعف عن رفع الحجارة التي كان إسماعيل يناوله إياها في بناء البيت وغرقت قدماه فيه.

وقال الربيع بن أنس: هو حجر ناولته إياه امرأته فاغتسل عليه وهو راكب، جاءت به من شق ثم من شق ففرقت رجلاه فيه حين اعتمد عليه، وقال فريق من العلماء: المقام المسجد الحرام، وقال عطاء بن أبي رباح: المقام عرفة والمزدلفة والجمار، وقال ابن عباس: مقامه مواقف الحج كلها، وقال مجاهد: مقامه الحرم كله.

و﴿مصلى﴾ موضع صلاة، هذا على قول من قال: المقام الحجر، ومن قال بغيره قال ﴿مصلى﴾ مدعى، على أصل الصلاة.

وقوله تعالى: ﴿وَعَهْدُنَا﴾ العهد في اللغة على أقسام، هذا منها الوصية بمعنى الأمر، و﴿أَنْ﴾ في موضع نصب على تقدير بأن وحذف الخافض، قال سيبويه: إنها بمعنى أي مفسرة، فلا موضع لها من الإعراب، و﴿طَهْرًا﴾ قيل معناه إبنياه وأسساه على طهارة ونية طهارة، فيجيء مثل قوله: ﴿أَسَّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾ [التوبة: ١٠٨] وقال مجاهد: هو أمر بالتطهير من عبادة الأوثان، وقيل: من الفرت والدم.

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف لا تعضده الأخبار، وقيل: من الشرك، وأضاف الله البيت إلى نفسه تشريفاً للبيت، وهي إضافة مخلوق إلى خالق ومملوك إلى مالك، و﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ ظاهره أهل الطواف، وقاله عطاء وغيره، وقال ابن جبير: معناه للغرباء الطائرين على مكة، و﴿الْعَاكِفِينَ﴾ قال ابن جبير: هم أهل البلد المقيمون، وقال عطاء: هم المجاورون بمكة، وقال ابن عباس: المصلون، وقال غيره: المعتكفون.

قال القاضي أبو محمد: والعكوف في اللغة اللزوم للشيء والإقامة عليه، كما قال الشاعر [العجاج]:

[الرجز]

عكف النبط يلعبون الفترجا

فمعناه لملازمي البيت إرادة وجه الله العظيم، و﴿الركع السجود﴾ المصلون، وخص الركوع والسجود بالذكر لأنهما أقرب أحوال المصلي إلى الله تعالى، وكل مقيم عند بيت الله إرادة ذات الله فلا يخلو من إحدى هذه الرتب الثلاث، إما أن يكون في صلاة أو في طواف فإن كان في شغل من دنياه فحال العكوف على مجاورة البيت لا يفارقه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ الآية، دعا إبراهيم عليه السلام لذريته وغيرهم بمكة بالأمن ورغد

العيش، و﴿اجعل﴾ لفظه الأمر وهو في حق الله تعالى رغبة ودعاء، و﴿آمناً﴾ معناه من الجبابة والمسلطين والعدو المستأصل والمثلثات التي تحل بالبلاد.

وكانت مكة وما يليها حين ذلك قفراً لا ماء فيه ولا نبات، فبارك الله فيما حولها كالطائف وغيره، ونبت فيها أنواع الثمرات.

وروي أن الله تعالى لما دعاه إبراهيم أمر جبريل صلوات الله عليه فاقتلع فلسطين، وقيل قطعة من الأردن فطاف بها حول البيت سبعاً وأنزلها بوج، فسميت الطائف بسبب ذلك الطواف.

واختلف في تحريم مكة متى كان؟ فقالت فرقة: جعلها الله حراماً يوم خلق السموات والأرض، وقالت فرقة: حرّمها إبراهيم.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: والأول قاله النبي صلى الله عليه وسلم في خطبته ثاني يوم الفتح، والثاني قاله أيضاً النبي صلى الله عليه وسلم، ففي الصحيح عنه: «اللهم إن إبراهيم حرم مكة، وإنني حرمت المدينة، ما بين لاتبها حرام»، ولا تعارض بين الحديتين، لأن الأول إخبار بسابق علم الله فيها وقضائه، وكون الحرمة مدة آدم وأوقات عمارة القطر بإيمان، والثاني إخبار بتجديد إبراهيم لحرمتها وإظهاره ذلك بعد الدثور، وكل مقال من هذين الإخبارين حسن في مقامه، عظم الحرمة ثاني يوم الفتح على المؤمنين بإسناد التحريم إلى الله تعالى، وذكر إبراهيم عند تحريره المدينة مثلاً لنفسه، ولا محالة أن تحريم المدينة هو أيضاً من قبل الله تعالى ومن نافذ قضائه وسابق علمه، و﴿من﴾ بدل من قوله ﴿أهله﴾، وخص إبراهيم المؤمنين بدعائه.

وقوله تعالى: ﴿ومن كفر﴾ الآية قال أبي بن كعب وابن إسحاق وغيرهما: هذا القول من الله عز وجل لإبراهيم، وقرؤوا «فأتمته» بضم الهمزة وفتح الميم وشد التاء، «ثم أضطره» بقطع الألف وضم الراء، وكذلك قرأ السبعة حاشا ابن عامر، فإنه قرأ «فأتمته» بضم الهمزة وسكون الميم وتخفيف التاء، «ثم أضطره» بقطع الألف، وقرأ يحيى بن وثاب «فأتمته» كما قرأ ابن عامر «ثم أضطره» بكسر الهمزة على لغة قريش في قولهم لا إخال، وقرأ أبي بن كعب «فتمته» «ثم نضطره»، و﴿من﴾ شرط والجواب في «فأتمته»، وموضع «من» رفع على الابتداء والخبر، ويصح أن يكون موضعها نصباً على تقدير وأرزق من كفر، فلا تكون شرطاً.

وقال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: هذا القول هو من إبراهيم صلى الله عليه وسلم، وقرؤوا «فأتمته» بفتح الهمزة وسكون الميم «ثم اضطره» بوصل الألف وفتح الراء، وقرئت بالكسر، ويجوز فيها الضم، وقرأ ابن محيصن «ثم أطره» بإدغام الضاد في الطاء، وقرأ يزيد بن أبي حبيب «ثم اضطره» بضم الطاء.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: فكأن إبراهيم عليه السلام دعا للمؤمنين وعلى الكافرين.

و﴿قليلاً﴾ معناه مدة العمر، لأن متاع الدنيا قليل، وهو نعت إما لمصدر كأنه قال: متاعاً قليلاً، وإما

لزمان، كأنه قال: وقتاً قليلاً أو زمناً قليلاً، و﴿المصير﴾ مفعل كموضع من صار يصير، و«يس» أصلها بس، وقد تقدمت في «بيسما»، وأمتعته معناه أخوله الدنيا وأبقية فيها بقاء قليلاً، لأنه فان منقضى، وأصل المتاع الزاد، ثم استعمل فيما يكون آخر أمر الإنسان أو عطائه أو أفعاله، قال الشاعر [سليمان بن عبد الملك]: [الطويل]

وَفَقْتُ عَلَى قَبْرِ غَرِيبٍ بِقَفْرَةٍ مَتَاعٌ قَلِيلٌ مِنْ جِيبٍ مَفَارِقِ
ومنه تمتع الزوجات، ويضطر الله الكافر إلى النار جزاء على كفره.

قوله عز وجل:

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا
وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

المعنى: واذكر إذ، و﴿القواعد﴾ جمع قاعدة وهي الأساس، وقال الفراء: «هي الجدر».

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا تجوز، والقواعد من النساء جمع قاعد وهي التي قعدت عن الولد، وحذفت تاء التانيث لأنه لا دخول للمذكر فيه، هذا قول بعض النحاة، وقد شذ حذفها مع اشتراك المذكر بقولهم ناقة ضامر، ومذهب الخليل أنه متى حذفت تاء التانيث زال الجري على الفعل وكان ذلك على النسب.

و﴿البيت﴾ هنا الكعبة بإجماع، واختلف بعض رواة القصص: فقيل إن آدم أمر ببنائه، فبناه، ثم دثر ودرس حتى دل عليه إبراهيم فرفع قواعده، وقيل: إن آدم هبط به من الجنة، وقيل: إنه لما استوحش في الأرض حين نقص طوله وفقد أصوات الملائكة أهبط إليه وهو كالدرة، وقيل: كالياقوتة، وقيل: إن البيت كان ربوة حمراء، وقيل بيضاء، ومن تحته دحيت الأرض، وإن إبراهيم ابتداءً ببناء بأمر الله ورفع قواعده.

والذي يصح من هذا كله أن الله أمر إبراهيم برفع قواعد البيت، وجائز قدمه وجائز أن يكون ذلك ابتداءً، ولا يرجح شيء من ذلك إلا بسند يقطع العذر، وقال عبيد بن عمير: رفعها إبراهيم وإسماعيل معاً، وقال ابن عباس: رفعها إبراهيم، وإسماعيل يناوله الحجارة، وقال علي بن أبي طالب: رفعها إبراهيم، وإسماعيل طفل صغير.

قال القاضي أبو محمد: ولا يصح هذا عن علي رضي الله عنه، لأن الآية والأثار ترد، و﴿إسماعيل﴾ عطف على ﴿إبراهيم﴾، وقيل هو مقطوع على الابتداء وخبره فيما بعد، قال الماوردي: ﴿إسماعيل﴾ أصله اسمع يا إيل.

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف، وتقدير الكلام: يقولان ربنا تقبل، وهي في قراءة أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود كذلك بثبوت «يقولان»، وقالت فرقة: التقدير وإسماعيل يقول ربنا، وحذف لدلالة الظاهر عليه، وكل هذا يدل على أن إسماعيل لم يكن طفلاً في ذلك الوقت، وخصاً هاتين الصفتين لتناسبهما مع حالهما، أي ﴿السميع﴾ لدعائنا و﴿العليم﴾ بنياتنا.

وقولهما ﴿اجعلنا﴾ بمعنى صيرنا تتعدى إلى مفعولين، و﴿مسلمين﴾ هو المفعول الثاني، وكذلك كانا، فإنما أرادا التثبيت والدوام، والإسلام في هذا الموضع الإيمان والأعمال جميعاً، وقرأ ابن عباس وعوف: «مسلمين» على الجمع، و﴿من﴾ في قوله ﴿ومن ذريتنا﴾ للتبعض، وخص من الذرية بعضاً لأن الله تعالى قد كان أعلمه أن منهم ظالمين، والأمة الجماعة، وحكى الطبري أنه أراد بذلك العرب خاصة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهو ضعيف، لأن دعوته ظهرت في العرب وفيمن آمن من غيرهم، وقرأ نافع وحزمة والكسائي، «أرنا» بكسر الراء، وقرأ ابن كثير «أرنا» بإسكان الراء، وقرأ أبو عمرو بين الإسكان والكسر اختلاصاً، والأصل أرئينا حذف الياء للجزم ونقل حركة الهمزة إلى الراء وحذف تخفيفاً، واستثقل بعد من سكن الراء الكسرة كما استثقلت في فخذ، وهنا من الإجحاف ما ليس في فخذ، وقالت طائفة: «أرنا» من رؤية البصر، وقالت طائفة: من رؤية القلب، وهو الأصح، ويلزم قائله أن يتعدى الفعل منه إلى ثلاثة مفعولين، وينفصل عنه بأنه يوجد معدى بالهمزة من رؤية القلب كغير المعدى.

قال حطائط بن يعفر أخو الأسود بن يعفر: [الطويل]

أرني جواداً ماتَ هزلاً لأنني أرى ما ترين أو بخيلاً مخلداً.

وقال قتادة: المناسك معالم الحج، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت ودعا بهذه الدعوة بعث الله إليه جبريل فحج به، وقال ابن جريج: المناسك المذابح أي مواضع الذبح، وقال فريق من العلماء: المناسك العبادات كلها، ومنه الناسك أي العابد، وفي قراءة ابن مسعود «وأرهم مناسكهم» كأنه يريد الذرية، والتوبة الرجوع، وعرفه شرعاً من الشر إلى الخير وتوبة الله على العبد رجوعه به وهدايته له.

واختلف في معنى طلبهم التوبة وهم أنبياء معصومون، فقالت طائفة: طلبا التثبيت والدوام، وقيل: أرادوا من بعدهما من الذرية كما تقول برني فلان وأكرمني وأنت تريد في ولدك وذريتك، وقيل وهو الأحسن عندي: إنهما لما عرفا المناسك وبنوا البيت وأطاعا أرادوا أن يسنا للناس أن ذلك الموقف وتلك المواضع مكان التنصل من الذنوب وطلب التوبة. وقال الطبري: إنه ليس أحد من خلق الله تعالى إلا وبينه وبين الله تعالى معانٍ يجب أن تكون أحسن مما هي.

وأجمعت الأمة على عصمة الأنبياء في معنى التبليغ ومن الكبار ومن الصغائر التي فيها رذيلة، واختلف في غير ذلك من الصغائر، والذي أقول به أنهم معصومون من الجميع، وأن قول النبي صلى الله عليه وسلم «إني لأتوب إلى الله في اليوم وأستغفره سبعين مرة» إنما هو رجوعه من حالة إلى أرفع منها لتزيد

علومه وإطلاعه على أمر الله، فهو يتوب من المنزلة الأولى إلى الأخرى، والتوبة هنا لغوية.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ الآية، هذا هو الذي أراد النبي صلى الله عليه وسلم بقوله «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى»، ومعنى ﴿منهم﴾ أن يعرفوه ويتحققوا فضله ويشفق عليهم ويحرص، و﴿يتلو﴾ في موضع نصب نعت لرسول أي تالياً عليهم، ويصح أن يكون في موضع الحال، والآيات آيات القرآن، و﴿الكتاب﴾ القرآن، ونسب التعليم إلى النبي صلى الله عليه وسلم من حيث هو يعطي الأمور التي ينظر فيها ويعلم طرق النظر بما يليق به الله إليه ويوحيه، وقال قتادة: ﴿الحكمة﴾ السنة وبيان النبي صلى الله عليه وسلم الشرائع، وروى ابن وهب عن مالك: أن الحكمة الفقه في الدين والفهم الذي هو سجية ونور من الله تعالى، و﴿يزكيهم﴾ معناه يطهرهم وينميهم بالخير، ومعنى الزكاة لا يخرج عن التطهير أو التنمية، و﴿العزیز﴾ الذي يغلب ويتم مراده ولا يرد، و﴿الحكيم﴾ المصيب مواقع الفعل المحكم لها.

قوله عز وجل:

وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾

﴿من﴾ استفهام في موضع رفع بالابتداء، و﴿يرغب﴾ خبره، والمعنى يزهد فيها ويربأ بنفسه عنها، والملة الشريعة والطريقة، و﴿سفه﴾ من السفه الذي معناه الرقة والخفة، واختلف في نصب ﴿نفسه﴾، فقال الزجاج: ﴿سفه﴾ بمعنى جهل وعداه بالمعنى، وقال غيره: ﴿سفه﴾ بمعنى أهلك، وحكى ثعلب والمبرد أن سفه بكسر الفاء يتعدى كسفه بفتح الفاء وشدها، وحكى عن أبي الخطاب أنها لغة، وقال الفراء نصبها على التمييز.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: لأن السفه يتعلق بالنفس والرأي والخلق، فكانه ميزها بين هذه ورأوا أن هذا التعريف ليس بمحض لأن الضمير فيه الإبهام الذي في ﴿من﴾، فكان الكلام: إلا من سفه نفساً، وقال البصريون: لا يجوز التمييز مع هذا التعريف، وإنما النصب على تقدير حذف «في»، فلما انحذف حرف الجر قوي الفعل، وهذا يجري على مذهب سيبويه فيما حكاه من قولهم ضرب فلان الظهر والبطن أي في الظهر والبطن، وحكى مكي أن التقدير ﴿إلا من سفه﴾ قوله ﴿نفسه﴾ على أن نفسه تأكيد حذف المؤكد وأقيم التوكيد مقامه قياساً على النعت والمنعوت.

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول متحامل، و«اصطفى» «افتعل» من الصفوة معناه تخير الأصفي، وأبدلت التاء طاء لتناسبها مع الصاد في الإطباق، ومعنى هذا الاصطفاء أنه نبأه واتخذة خليلاً، و﴿في الآخرة﴾ متعلق باسم فاعل مقدر من الصلاح، ولا يصلح تعلقه بـ ﴿الصالحين﴾ لأن الصلة لا تتقدم الموصول، هذا على أن تكون الألف واللام بمعنى الذي، وقال بعضهم: الألف واللام هنا للتعريف

ويستقيم الكلام، وقيل: المعنى أنه في عمل الآخرة ﴿لَمَنِ الصَّالِحِينَ﴾، فالكلام على حذف مضاف.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلَمْ﴾، العامل في ﴿إِذْ﴾ ﴿أَصْطَفَيْنَاهُ﴾، وكان هذا القول من الله حين ابتلاه بالكوكب والقمر والشمس. والإسلام هنا على أتم وجوهه، وقرأ نافع وابن عامر «وأوصى»، وقرأ الباقون «ووصى»، والمعنى واحد، إلا أن وصى يقتضي التكثير، والضمير في ﴿بِهَا﴾ عائذ على كلمته التي هي ﴿أَسْلَمْتُ لربِّ الْعَالَمِينَ﴾، وقيل: على الملة المتقدمة، والأول أصوب لأنه أقرب مذكور، وقرأ عمرو بن فائد الأسواري «ويعقوب» بالنصب على أن يعقوب داخل فيمن أوصى، واختلف في إعراب رفعه، فقال قوم من النحاة: التقدير ويعقوب أوصى بنيه أيضاً، فهو عطف على ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾، وقال بعضهم: هو مقطوع منفرد بقوله ﴿يَا بَنِي﴾، فتقدير الكلام ويعقوب قال يا بني، و﴿أَصْطَفَى﴾ هنا معناه تخير صفوة الأديان، والالف واللام في ﴿الدين﴾ للعهد، لأنهم قد كانوا عرفوه، وكسرت ﴿إِنْ﴾ بعد ﴿أَوْصَى﴾ لأنها بمعنى القول، ولذلك سقطت ﴿إِنْ﴾ التي تقتضيها «أوصى» في قوله «أَنْ يَا بَنِي»، وقرأ ابن مسعود والضحاك «أَنْ يَا بَنِي» بثبوت أن.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ إيجاز بليغ، وذلك أن المقصود منه أمرهم بالإسلام والدوام عليه، فأتى ذلك بلفظ موجز يقتضي المقصود ويتضمن وعظاً وتذكيراً بالموت، وذلك أن المرء يتحقق أنه يموت ولا يدري متى؟ فإذا أمر بأمر لا يأتيه الموت إلا وهو عليه، فقد توجه من وقت الأمر دائماً لازماً، وحكى سيبويه فيما يشبه هذا المعنى قولهم: لا أرينك ها هنا، وليس إلى المأمور أن يحجب إدراك الأمر عنه، فإنما المقصود: اذهب وزل عن هاهنا، فجاء بالمقصود بلفظ يزيد معنى الغضب والكراهية، و﴿أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ابتداء وخبر في موضع الحال.

قوله عز وجل:

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهِاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾

هذا الخطاب لليهود والنصارى الذين انتحلوا الأنبياء صلوات الله عليهم ونسبوهم إلى اليهودية والنصرانية، فرد الله تعالى عليهم وكذبهم، وأعلمهم أنهم كانوا على الحنيفة والإسلام، وقال لهم على جهة التقرير والتوبيخ: أشهدتم يعقوب وعلمتم بما أوصى فتدعون عن علم؟، أي لم تشهدوا بل أنتم تفترون، و﴿أَمْ﴾ تكون بمعنى ألف الاستفهام في صدر الكلام لغة يمانية، وحكى الطبري أن ﴿أَمْ﴾ يستفهم بها في وسط كلام قد تقدم صدره، وهذا منه، ومنه ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ [يونس: ٣٨، هود: ١٣، ٣٥، السجدة: ٣، الأحقاف: ٨]، وقال قوم: ﴿أَمْ﴾ بمعنى بل، والتدوير بل شهد أسلافكم يعقوب وعلمتم منهم ما أوصى به، ولكنكم كفرتم جحداً ونسبتموهم إلى غير الحنيفة عناداً، والأظهر أنها التي

بمعنى بل وألف الاستفهام معاً، و«شهداء» جمع شاهد أي حاضر، ومعنى الآية حضر يعقوب مقدمات الموت، وإلا فلو حضر الموت لما أمكن أن يقول شيئاً، وقدم يعقوب على جهة تقديم الأهم، والعامل في ﴿إِذْ﴾: «شهداء»، و﴿إِذْ قَالَ﴾ بدل من ﴿إِذْ﴾ الأولى، وعبر عن المعبود بما تجربة لهم، ولم يقل من لثلا يطرق لهم الاهتداء، وإنما أراد أن يختبرهم، وأيضاً فالمعبودات المتعارفة من دون الله تعالى جمادات كالأوثان والنار والشمس والحجارة فاستفهمهم عما يعبدون من هذه، و﴿من يعدي﴾ أي من بعد موتي، وحكي أن يعقوب عليه السلام حين خير كما يخير الأنبياء اختار الموت، وقال أمهلوني حتى أوصي بني وأهلي، فجمعهم وقال لهم هذا فاهتدوا وقالوا: «نعبد إلهك» الآية، فأروه ثبوتهم على الدين ومعرفتهم بالله تعالى، ودخل إسماعيل في الآباء لأنه عم.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في العباس: «ردوا علي أبي، إني أخاف أن تفعل به قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن مسعود».

وقال عنه في موطن آخر: «هذا بقية آبائي»، ومنه قوله عليه السلام: «أنا ابن الذبيحين» على القول الشهير في أن إسحاق هو الذبيح.

وقرأ الحسن وابن يعمر والجحدري وأبورجاء «والله أهلك»، واختلف بعد فقيل هو اسم مفرد أرادوا به إبراهيم وحده، وقال بعضهم: هو جمع سلامة، وحكى سيبويه أب وأبون وأبين. قال الشاعر: [زياد بن واصل السلمي]: [المتقارب]:

فَلَمَّا تَبَيَّنَ أَصْوَاتُنَا بِكَيْنَ وَقَدَّيْنِنَا بِالْأَيْنَا

وقال ابن زيد: يقال قدم إسماعيل لأنه أسن من إسحاق، و﴿إِلَهًا﴾ بدل من ﴿إِلَهْكَ﴾، وكرره لفائدة الصفة بالوحدانية، وقيل ﴿إِلَهًا﴾ حال، وهذا قول حسن، لأن الغرض إثبات حال الوحدانية، «نحن له مسلمون» ابتداء وخبر، أي كذلك كنا نحن ونكون، ويحتمل أن يكون في موضع الحال والعامل «نعبد»، والتأويل الأول أمدح.

وقوله تعالى: «قد خلت» في موضع رفع نعت لأمة، ومعناه ماتت وصارت إلى الخلاء من الأرض، ويعني بالأمة الأنبياء المذكورون، والمخاطب في هذه الآية اليهود والنصارى، أي أنتم أيها الناحلوهم اليهودية والنصرانية، ذلك لا ينفعكم، لأن كل نفس «لها ما كسبت» من خير وشر، فخيرهم لا ينفعكم إن كسبتم شراً، وفي هذه الآية رد على الجبرية القائلين لا اكتساب للعبد، «ولا تسألون عما كانوا يعملون» فتتحلوهم ديناً.

وقولهم: «كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا» نظير قولهم «لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى» [البقرة: ١١١]، ونصب «ملة» بإضمار فعل، أي بل نتبع ملة، وقيل نصبت على الإغراء، وقرأ الأعرج وابن أبي عبيدة «بل ملة» بالرفع والتقدير بل الهدى ملة، و«حنيفاً» حال، وقيل نصب بإضمار فعل، لأن الحال تعلق من المضاف إليه، والحنف الميل، ومنه الأحنف لمن مالت إحدى قدميه إلى الأخرى، والحنيف في الدين الذي مال عن الأديان المكروهة إلى الحق، وقال قوم: الحنف الاستقامة، وسمي المعوج القدمين أحنف تفاؤلاً كما قيل سليم ومفازة، ويحيى الحنيف في الدين المستقيم على جميع طاعات الله عز وجل، وقد

خصص بعض المفسرين، فقال قوم: الحنيف الحاج، وقال آخرون: المختن، وهذه أجزاء الحنف. ونفى عنه الإشراك فانتفت عبادة الأوثان واليهودية لقولهم عزير ابن الله، والنصرانية لقولهم المسيح ابن الله.

قوله عز وجل:

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنِ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ ﴿١٣٨﴾

هذا الخطاب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، علمهم الله الإيمان، و﴿ما أنزل إلينا﴾ يعني به القرآن، وصحت إضافة الإنزال إليهم من حيث هم المأمورون المنبيون فيه، و﴿إبراهيم وإسماعيل﴾ يجمعان إبراهيم وإسماعيل، هذا هو اختيار سيبويه والخليل، وقال قوم «براهم»، وقال الكوفيون: «براهمة وسباعلة»، وقال المبرد: «أباره وأسامع»، وأجاز ثعلب «براه» كما يقال في التصغير «بريه»، و﴿الأسباط﴾ هم ولد يعقوب، وهم روبيل وشمعون ولاوي ويهوذا وربالون ويشحر ودنية بنته وأمهم ليا، ثم خلف على أختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين، وولد له من سريتين دان وتفثالي وجاد وأشرو، والسبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيل، فسموا الأسباط لأنه كان من كل واحد منهم سبط، و﴿ما أوتي موسى﴾ هو التوراة وآياته، و﴿ما أوتي عيسى﴾ هو الإنجيل وآياته، فالمعنى أنا نؤمن بجميع الأنبياء لأن جميعهم جاء بالآيمان بالله، فدين الله واحد وإن اختلفت أحكام الشرائع، و﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾ أي لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما تفعلون، وفي الكلام حذف تقديره: بين أحد منهم وبين نظيره، فاختصر لفهم السامع، والضمير في ﴿له﴾ عائد على اسم الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به﴾ الآية، خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته.

والمعنى إن صدقوا تصديقاً مثل تصديقكم، فالمماثلة وقعت بين الإيمانيين، هذا قول بعض المتأولين، وقيل الباء زائدة مؤكدة، والتقدير آمنوا مثل، والضمير في ﴿به﴾ عائد كالضمير في ﴿له﴾، فكأن الكلام فإن آمنوا بالله مثل ما آمنتم به، ويظهر عود الضمير على ﴿ما﴾، وقيل ﴿مثل﴾ زائدة كما هي في قوله ﴿ليس كمثله شيء﴾ [الشورى: ١١]، وقالت فرقة: هذا من مجاز الكلام، تقول هذا أمر لا يفعله مثلك أي لا تفعله أنت، فالمعنى فإن آمنوا بالذي آمنتم به، هذا قول ابن عباس، وقد حكاه عنه الطبري قراءة، ثم أسند إليه أنه قال: «لا تقولوا فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به، فإنه لا مثل لله تعالى، ولكن قولوا فإن آمنوا بالذي آمنتم أو بما آمنتم به».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وهذا على جهة التفسير، أي هكذا فليتأول،

وحكاهما أبو عمرو الداني قراءتين عن ابن عباس فالله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا، يعني به اليهود والنصارى، والشقاق المشاقة والمحاداة والمخالفة، أي في شقاق لك هم في شق وأنت في شق، وقيل: شاق معناه شق كل واحد وصل ما بينه وبين صاحبه، ثم وعده تعالى أنه سيكفيه إياهم ويغلبه عليهم، فكان ذلك في قتل بني قينقاع وبني قريظة وإجلاء النضير.

وهذا الوعد وانتجازه من أعلام نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، و﴿السميع﴾ لقول كل قائل، ﴿العليم﴾ بما يجب أن ينفذ في عبادته.

و﴿صبغة الله﴾ شريعته وستته وفطرته، قال كثير من المفسرين: وذلك أن النصارى لهم ماء يصبغون فيه أولادهم، فهذا ينظر إلى ذلك: وقيل: سمي الدين ﴿صبغة﴾ استعارة من حيث تظهر أعماله وسمته على المتدين كما يظهر الصبغ في الثوب وغيره، ونصب الصبغة على الإغراء، وقيل بدل من ملة، وقيل نصب على المصدر المؤكد لأن ما قبله من قوله ﴿فقد اهتدوا﴾ هو في معنى يلبسون أو يتجلبلون صبغة الله، وقيل: التقدير ونحن له مسلمون صبغة الله، فهي متصلة بالآية المتقدمة، وقال الطبري من قرأ برفع «ملة» قرأ برفع «صبغة».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وقد ذكرتها عن الأعرج وابن أبي عبيدة. و﴿نحن له عابدون﴾ ابتداء وخبر.

قوله عز وجل:

قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَوْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

معنى الآية: ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى الذين زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وادعوا أنهم أولى بالله منكم لقدم أديانهم وكتبهم: ﴿أتحاجونا في الله؟﴾ أي أتجاذبوننا الحجة على دعواكم، والرب تعالى واحد وكل مجازى بعمله، فأى تأثير لقدم الدين؟، ثم وبخوا بقوله ﴿ونحن له مخلصون﴾ أي ولم تخلصوا أنفسكم، فكيف تدعون ما نحن أولى به منكم؟.

وقرأ ابن محيصن «أتحاجونا» بإدغام النون في النون، وخف الجمع بين ساكنين لأن الأول حرف مد ولين، فالمد كالحركة، ومن هذا الباب دابة وشابة، و﴿في الله﴾ معناه في دينه والقرب منه والحظوة لديه. وقوله تعالى: ﴿أم تقولون﴾ عطف على ألف الاستفهام المتقدمة، وهذه القراءة بالتاء من فوق قرأها

ابن عامر وحزمة والكسائي وحفص عن عاصم، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم «أم يقولون» بالياء من أسفل، و﴿أم﴾ على هذه القراءة مقطوعة، ذكره الطبري، وحكي عن بعض النحاة أنها ليست بمقطوعة لأنك إذا قلت أتقوم أم يقوم عمرو؟ فالمعنى أياكون هذا أم هذا؟.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وهذا المثال غير جيد، لأن القائل فيه واحد والمخاطب واحد، والقول في الآية من اثنين والمخاطب اثنان غيران، وإنما تتجه معادلة ﴿أم﴾ للألف على الحكم المعنوي كأن معنى ﴿قل أتحاجوننا﴾ أي أياحجون يا محمد أم يقولون، وقيل إن ﴿أم﴾ في هذا الموضع غير معادلة على القراءتين، وحجة ذلك اختلاف معنى الآيتين وإنهما ليسا قسمين، بل المحاجة موجودة في دعواهم الأنبياء عليهم السلام، ووقفهم تعالى على موضع الانقطاع في الحجة، لأنهم إن قالوا إن الأنبياء المذكورين على اليهودية والنصرانية كذبوا، لأنه قد علم أن هذين الدينين حدثا بعدهم، وإن قالوا لم يكونوا على اليهودية والنصرانية قيل لهم فهلما إلى دينهم إذ تقرون بالحق.

وقوله تعالى: ﴿قل أنتم أعلم أم الله﴾ تقرير على فساد دعواهم إذ لا جواب لمفطور إلا أن الله تعالى أعلم، و﴿من أظلم﴾ لفظه الاستفهام والمعنى لا أحد أظلم منهم، وإياهم أراد تعالى بكتمان الشهادة.

واختلف في الشهادة هنا ما هي؟ فقال مجاهد والحسن والربيع: هي ما في كتبهم من أن الأنبياء على الحنيفية لا على ما ادعواهم، وقال قتادة وابن زيد: هي ما عندهم من الأمر بتصديق محمد صلى الله عليه وسلم واتباعه، والأول أشبه بسياق معنى الآية، واستودعهم الله تعالى هذه الشهادة ولذلك قال: ﴿من الله﴾، ف﴿من﴾ على هذا متعلقة بـ ﴿عنده﴾، كأن المعنى شهادة تحصلت له من الله، ويحتمل أن تتعلق ﴿من﴾ بـ ﴿كنتم﴾، أي كتمها من الله.

وقوله تعالى: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾، وعيد وإعلام أنه لا يترك أمرهم سدى، وأن أعمالهم تحصل ويجازون عليها، والغافل الذي لا يفتن للأمور إهمالاً منه، مأخوذ من الأرض الغفل، وهي التي لا معلم بها.

وقوله تعالى: ﴿تلك أمة﴾ الآية، كررها عن قرب لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف، أي إذا كان أولئك الأنبياء على إمامتهم وفضلهم يجازون بكسبهم فأنتم أخرى، فوجب التأكيد، فلذلك كررها، ولترداد ذكرهم أيضاً في معنى غير الأول.

قوله عز وجل:

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضْيعَ إِيمَانَكُمْ

إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٢﴾

أعلم الله تعالى في هذه الآية أنهم سيقولون في شأن تحول المؤمنين من الشام إلى الكعبة: ﴿ما ولاهم﴾؟ و﴿السفهاء﴾ هم الخفاف الأحلام والعقول، والسفه الخفة والهلهلة، ثوب سفه أي غير متقن النسيج، ومنه قول ذي الرمة: [الطويل]

مشين كما اهتزت رماح تسفحت أعاليها مرُّ الرياحِ النواسمِ

أي استخففتها، وخص بقوله ﴿من الناس﴾، لأن السفه يكون في جمادات وحيوانات، والمراد بـ﴿السفهاء﴾ هنا جميع من قال ﴿ما ولاهم﴾، وقالها فِرَقٌ.

واختلف في تعيينهم، فقال ابن عباس: «قالها الأخبار منهم»، وذلك أنهم جاؤا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد ما ولاك عن قبلتنا؟ أرجع إليها ونؤمن بك، يريدون فتنه، وقال السدي: قالها بعض اليهود والمنافقون استهزاء، وذلك أنهم قالوا: اشتاق الرجل إلى وطنه، وقالت طائفة: قالها كفار قريش، لأنهم قالوا: ما ولاه عن قبلته؟ ما رجع إلينا إلا لعلمه أنا على الحق وسيرجع إلى ديننا كله، و﴿ولاهم﴾ معناه صرفهم، والقبلة فعلة هيئة المقابل للشيء، فهي كالقعدة والإزرة، وجعل المستقبل موضع الماضي في قوله ﴿سيقول﴾ دلالة على استدامة ذلك، وأنهم يستمرون على ذلك القول، ونص ابن عباس وغيره أن الآية نزلت بعد قولهم.

وقوله تعالى: ﴿قل لله المشرق والمغرب﴾ إقامة حجة، أي له ملك المشارق والمغارب وما بينهما، ويهدي من يشاء، إشارة إلى هداية الله تعالى هذه الأمة إلى قبلة إبراهيم، والصراط: الطريق.

واختلف العلماء هل كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس بأمر من الله تعالى في القرآن أو بوحى غير متلو؟، فذكر ابن فورك عن ابن عباس قال: أول ما نسخ من القرآن القبلة، وقال الجمهور: بل كان أمر قبلة بيت المقدس بوحى غير متلو، وقال الربيع: خيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم في النواحي فاختر بيت المقدس، ليستألف بها أهل الكتاب، ومن قال كان بوحى غير متلو قال: كان ذلك ليختبر الله تعالى من آمن من العرب، لأنهم كانوا يألفون الكعبة وينافرون بيت المقدس وغيره.

واختلف كم صلى إلى بيت المقدس، ففي البخاري: ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، وروي عن أنس بن مالك: تسعة أو عشرة أشهر، وروي عن غيره: ثلاثة عشر شهراً، وحكى مكى عن إبراهيم بن إسحاق أنه قال: أول أمر الصلاة أنها فرضت بمكة ركعتين في أول النهار وركعتين في آخره، ثم كان الإسراء ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الآخر، قبل الهجرة بسنة، ففرضت الخمس، وأُمِّ فيها جبريل عليه السلام، وكانت أول صلاة الظهر، وتوجه بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس، ثم هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة في ربيع الأول، وتمادى إلى بيت المقدس إلى رجب من سنة اثنتين، وقيل إلى جمادى، وقيل إلى نصف شعبان.

وقوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾، الكاف متعلقة بالمعنى الذي في قوله ﴿يهدي من

﴿يُشَاءُ﴾، أي كما هديناكم إلى قِبلَةِ إبراهيم وشريعته كذلك جعلناكم أمة وسطاً، و﴿أمة﴾ مفعول ثانٍ، و﴿وسطاً﴾ نعت، والأمة القرون من الناس، و﴿وسطاً﴾ معناه عدولاً، روي ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتظاهرت به عبارة المفسرين، والوسط الخيار والأعلى من الشيء، كما تقول وسط القوم، وواسطة القلادة أنفُس حِجر فيها، والأمير وسط الجيش، وكقوله تعالى ﴿قال أوسطهم﴾ [القلم: ٢٨]، والوسط بإسكان السين ظرف مبني على الفتح، وقد جاء متمكناً في بعض الروايات في بيت الفرزدق:

فجاءت بملجوم كأن جبينه صلاة ورس وسطها قد تفلقا

برفع الطاء والضمير عائد على الصلاة، وروي بفتح الطاء والضمير عائد على الجاثية، فإذا قلت حفرت وسط الدار أو وسط الدار فالمعنى مختلف.

قال بعض العلماء: أمة محمد صلى الله عليه وسلم لم تغل في الدين كما فعلت اليهود، ولا افترت كالنصارى، فهي متوسطة، فهي أعلاها وخيرها من هذه الجهة، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «خير الأمور أوسطها» أي خيارها، وقد يكون العلو والخير في الشيء لما بأنه أنفُس جنسه، وأما أن يكون بين الإفراط والتقصير فهو خيار من هذه الجهة و﴿شهداء﴾ جمع شاهد في هذا الموضع.

واختلف المفسرون في المراد ب﴿الناس﴾ في هذا الموضع، فقالت فرقة: هم جميع الجنس، وأمة محمد صلى الله عليه وسلم تشهد يوم القيامة للأنبياء على أمهم بالتبليغ، وذلك أن نوحاً تناكره أمته في التبليغ، فتقول له أمة محمد نحن نشهد لك، فيشهدون، فيقول الله لهم: كيف شهدتم على ما لم تحضروا؟، فيقولون: أي ربنا جاءنا رسولك ونزل إلينا كتابك فنحن نشهد بما عهدت إلينا وأعلمتنا به، فيقول الله تعالى: صدقتم، وروي في هذا المعنى حديث صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم، وروي منه أن أمته تشهد لكل نبي ناكه قومه، وقال مجاهد: معنى الآية تشهدون لمحمد صلى الله عليه وسلم أنه بلغ الناس في مدته من اليهود والنصارى والمجوس.

وقالت طائفة: معنى الآية يشهد بعضكم على بعض بعد الموت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مرت به جنازة فأثنى عليها بالخير، فقال: وجبت، ثم مر بأخرى، فأثنى عليها بشر، فقال: وجبت، يعني الجنة والنار، فسئل عن ذلك، فقال: «أنتم شهداء الله في الأرض»، وروي في بعض الطرق: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.

﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ قيل: معناه بأعمالكم يوم القيامة، وقيل: عليكم بمعنى لكم أي يشهد لكم بالإيمان، وقيل: أي يشهد عليكم بالتبليغ إليكم.

وقوله تعالى: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها﴾ الآية، قال قتادة والسدي وعطاء وغيرهم: القبلية بيت المقدس. والمعنى لم نجعلها حين أمرناك بها أولاً إلا فتنة لنعلم من يتبعك من العرب الذين إنما ففون مسجد مكة، أو من اليهود على ما قال الضحّاك من أن الأحبار قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: إن بيت المقدس هو قبله الأنبياء، فإن صليت إليه اتبعناك، فأمره الله بالصلاة إليه امتحاناً لهم فلم يؤمنوا، وقال

بعض من ذكر: القبلة بيت المقدس، والمعنى: وما جعلنا صرف القبلة التي كنت عليها وتحولها، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وقال ابن عباس: القبلة في الآية الكعبة، وكنت بمعنى أنت كقوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ [آل عمران: ١١٠] بمعنى أنتم، أي وما جعلناها وصرفناك إليها إلا فتنه، وروي في ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حول إلى الكعبة أكثر في ذلك اليهود والمنافقون وارتاب بعض المؤمنين حتى نزلت الآية، وقال ابن جريج: بلغني أن ناساً ممن كان أسلم رجعوا عن الإسلام، ومعنى قوله تعالى: ﴿لنعلم﴾ أي ليعلم رسولي والمؤمنون به، وجاء الإسناد بنون العظمة إذ هم حزبه وخالصته، وهذا شائع في كلام العرب كما تقول: فتح عمر العراق وجبى خراجها، وإنما فعل ذلك جنده وأتباعه، فهذا وجه التجوز إذا ورد علم الله تعالى بلفظ استقبال لأنه قديم لم يزل، ووجه آخر: وهو أن الله تعالى قد علم في الأزل من يتبع الرسول واستمر العلم حتى وقع حدوثهم واستمر في حين الاتباع والانقلاب ويستمر بعد ذلك، والله تعالى متصف في كل ذلك بأنه يعلم، فأراد بقوله ﴿لنعلم﴾ ذكر علمه وقت موافقتهم الطاعة والمعصية، إذ بذلك الوقت يتعلق الثواب والعقاب، فليس معنى ﴿لنعلم﴾ لنبتدئ العلم وإنما المعنى لنعلم ذلك موجوداً، وحكى ابن فورك أن معنى ﴿لنعلم﴾ لنشيب، فالمعنى لنعلمهم في حال استحقاقها فيها الثواب، وعلق العلم بأفعالهم لتقوى الحجة ويقع الثبوت فيما علمه لا مدافعة لهم فيه، وحكى ابن فورك أيضاً أن معنى ﴿لنعلم﴾ لنميز، وذكره الطبري عن ابن عباس، وحكى الطبري أيضاً أن معنى ﴿لنعلم﴾ لنرى.

قال القاضي أبو محمد: وهذا كله متقارب، والقاعدة نفي استقبال العلم بعد أن لم يكن، وقرأ الزهري ﴿ليعلم﴾ على ما لم يسم فاعله.

و﴿ينقلب على عقبيه﴾ عبارة عن المرتد الراجع عما كان فيه من إيمان أو شغل أو غير ذلك، والرجوع على العقب أسوأ حالات الراجع في مشيه عن وجهته، فلذلك شبه المرتد في الدين به، وظاهر التشبيه أنه بالمتفهم، وهي مشية الحيوان الفازع من شيء قد قرب منه، ويحتمل أن يكون هذا التشبيه بالذي رد ظهره ومشى أدراجه فإنه عند انقلابه إنما ينقلب على عقبيه.

وقوله تعالى: ﴿وإن كانت لكبيرة﴾ الآية، الضمير في ﴿كانت﴾ راجع إلى القبلة إلى بيت المقدس، أو إلى التحويلة إلى الكعبة حسب ما ذكرناه من الاختلاف في القبلة، وقال ابن زيد: «هو راجع إلى الصلاة التي صليت إلى بيت المقدس»، وشهد الله تعالى في هذه الآية للمتبعين بالهداية، و﴿كبيرة﴾ هنا معناه شاقة صعبة تكبر في الصدور، و﴿إن﴾ هي المخففة من الثقيلة، ولذلك لزمها اللام لتزيل اللبس الذي بينها وبين النافية، وإذا ظهر التثقيب في ﴿إن﴾ فلربما لزم اللام وربما لم تلزم، وقال الفراء: ﴿إن﴾ بمعنى ما واللام بمنزلة إلا.

ولما حولت القبلة كان من قول اليهود: يا محمد إن كانت الأولى حقاً فأنت الآن على باطل، وإن كانت هذه حقاً فكنت في الأولى على ضلال. فوجست نفوس بعض المؤمنين وأشفقوا على من مات قبل التحويل على صلاتهم السالفة، فنزلت ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾، وخاطب الحاضرين والمراد من

حضر ومن مات، لأن الحاضر يغلب، كما تقول العرب: ألم نقتلكم في موطن كذا؟، ومن خوطب لم يقتل ولكنه غلب لحضوره، وقرأ الضحاك ﴿لِيُضَيِّعَ﴾ بفتح الضاد وشد الياء، وقال ابن عباس والبراء بن عازب وقتادة والسدي والربيع وغيرهم: الإيمان هنا الصلاة. وسمى الصلاة إيماناً لما كانت صادرة عن الإيمان والتصديق في وقت بيت المقدس وفي وقت التحويل، ولما كان الإيمان قطباً عليه تدور الأعمال وكان ثابتاً في حال التوجه هنا وهنا ذكره، إذ هو الأصل الذي به يرجع في الصلاة وغيرها إلى الأمر والنهي، ولثلاً تندرج في اسم الصلاة صلاة المنافقين إلى بيت المقدس فذكر المعنى الذي هو ملاك الأمر، وأيضاً فسميت إيماناً إذ هي من شعب الإيمان، والرأفة أعلى منازل الرحمة، وقرأ قوم ﴿لِرُؤْفٍ﴾ على وزن فَعْلٍ، ومنه قول الوليد بن عقبة: [الطالبان]: [الوافر]

وشرُّ الطالبين فلا تكنهُ بقاتلِ عمِّه الرُّؤفِ الرحيم

تقول العرب: رؤف ورؤوف ورئف كحذر ورأف وقرأ أبو جعفر ابن القعقاع ﴿لِرُؤُوفٍ﴾ بغير همز، وكذلك سهل كل همزة في كتاب الله تعالى ساكنة كانت أو متحركة.
قوله عز وجل:

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِفَعْلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَاتَ بِعُورٍ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾

المقصد تقلب البصر، وذكر الوجه لأنه أعم وأشرف، وهو المستعمل في طلب الرغائب، تقول: بذلت وجهي في كذا، وفعلت لوجه فلان، ومنه قول الشاعر: [الطويل]

رَجَعْتُ بِمَا أَبْغَيْ وَوَجْهِي بِمَائِهِ

وأيضاً فالوجه يتقلب بتقلب البصر، وقال قتادة والسدي وغيرهما: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقلب وجهه في الدعاء إلى الله تعالى أن يحوله إلى قبلة مكة، وقيل كان يقلب ليؤذن له في الدعاء، ومعنى التقلب نحو السماء أن السماء جهة قد تعود العالم منها الرحمة كالمطر والأنوار والوحي فهم يجعلون رغبتهم حيث توالى النعم، و﴿ترضاها﴾ معناه تحبها وتقر بها عينك.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الكعبة والتحول عن بيت المقدس لوجوه ثلاثة رويت، فقال مجاهد: لقول اليهود ما علم محمد دينه حتى اتبعنا، وقال ابن عباس: وليصيب قبلة إبراهيم عليه السلام، وقال الربيع والسدي: وليستألف العرب لمحبتها في الكعبة، وقال عبد الله بن عمر: إنما وجه

رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته حيال ميزاب الكعبة، وقال ابن عباس وغيره: بل وجه إلى البيت كله.
قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: والميزاب هو قبلة المدينة والشام، وهنالك قبلة أهل الأندلس بلا ريب، ولا خلاف أن الكعبة قبلة من كل أقب، وقوله تعالى: ﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ﴾ الآية، أمر بالتحويل ونسخ لقبلة الشام، وقيل: نزل ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في صلاة الظهر بعد ركعتين منها فتحول في الصلاة، وذكر أبو الفرج أن عباد بن نهيك كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الصلاة، وقيل: إنما نزلت هذه الآية في غير صلاة وكانت أول صلاة إلى الكعبة العصر، و﴿شَطْرٌ﴾ نصب على الظرف ويشبه المفعول به لوقوع الفعل عليه ومعناه نحو وتلقاء، قال ابن أحمر: [البسيط]

تَعُدُّوْنا شَطْرَ نَجْدٍ وَهِيَ عَاقِدَةٌ قَدْ كَارَبَ الْعِقْدَ مِنْ إِيْفَادِهَا الْحَقْبَا
وقال غيره: [الوافر]

أَقُولُ لَأَمْ زَنْبَاعٍ أَقِيمِي صُدُورِ الْعَيْسِ شَطْرَ بَنِي تَمِيمٍ
وقال لقيط: [البسيط]

وَقَدْ أَظْلَكُكُمْ مِنْ شَطْرِ ثَغْرِكُمْ هَوُلٌ لَهُ ظُلْمٌ تَغْشَاكُمْ قِطْعَا
وقال غيره [خفاف بن عمير]: [الوافر]

أَلَا مَنْ مُبْلَغٌ عَمْرًا رَسُولًا وَمَا تُغْنِي الرِّسَالَةُ شَطْرَ عَمْرٍو

و﴿حيث ما كنتم فولوا﴾ أمر للأمة ناسخ، وقال داود بن أبي هند: إن في حرف ابن مسعود: ﴿فول وجهك تلقاء المسجد الحرام﴾، وقال محمد بن طلحة: إن فيه: فولوا وجوهكم قبله، وقرأ ابن أبي عتبة: ﴿فولوا وجوهكم تلقاء﴾، و﴿الذين أوتوا الكتاب﴾: اليهود والنصارى، وقال السدي: المراد اليهود.

قال القاضي أبو محمد: والأول أظهر، والمعنى أن اليهود والنصارى يعلمون أن الكعبة هي قبلة إبراهيم إمام الأمم، وأن استقبالها هو الحق الواجب على الجميع اتباعاً لمحمد صلى الله عليه وسلم الذي يجدونه في كتبهم، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي «عما تعملون» بقاء على المخاطبة، فإما على إرادة أهل الكتاب أو أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى الوجهين فهو إعلام بأن الله تعالى لا يهمل العباد ولا ينفل عنها، وضمنه الوعيد، وقرأ الباقر بالباء من تحت.

وقوله تعالى: ﴿وَلْتُن أَتَيْتُ﴾ الآية، أعلم الله تعالى نبيه حين قالت له اليهود: راجع بيت المقدس ونؤمن بك مخادعة منهم أنهم لا يتبعون له قبلة، يعني جعلتهم لأن البعض قد اتبع كعبد الله بن سلام وغيره وأنهم لا يدينون بدينه، أي فلا تصغ إليهم، والآية هنا: العلامة، وجاء جواب ﴿لتن﴾ كجواب «لو» وهي ضدها في أن «لو» تطلب الماضي والوقوع و«إن» تطلب الاستقبال لأنهما جميعاً يترتب قبلهما معنى القسم، فالجواب إنما هو للقسم، لا أن أحد الحرفين يقع موقع الآخر، هذا قول سيوييه.

وقوله تعالى جلت قدرته ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾ لفظ خبر يتضمن الأمر، أي فلا تترك إلى شيء من ذلك، وقوله تعالى: ﴿وما بعضهم﴾ الآية، قال السدي وابن زيد: المعنى ليست اليهود متبعة قبلة النصارى ولا النصارى متبعة قبلة اليهود، فهذا إعلام باختلافهم وتدابيرهم وضلالهم، وقال غيرهما: معنى الآية: وما من أسلم معك منهم بمتبع قبلة من لم يسلم، ولا من لم يسلم بمتبع قبلة من أسلم.

قال القاضي أبو محمد: والأول أظهر في الأبعاد، وقبلة النصارى مشرق الشمس وقبلة اليهود بيت المقدس.

وقوله تعالى: ﴿ولئن اتبعت﴾ الآية، خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته، وما ورد من هذا النوع الذي يوهم من النبي صلى الله عليه وسلم ظلماً متوقعاً فهو محمول على إرادة أمته لعصمة النبي صلى الله عليه وسلم وقطعنا أن ذلك لا يكون منه وإنما المراد من يمكن أن يقع ذلك منه، وخوطف النبي صلى الله عليه وسلم تعظيماً للأمر.

والأهواء جمع هوى، ولا يجمع على أهوية، على أنهم قد قالوا: ندى وأندية. قال الشاعر: [مرة بن محكان]: [البسيط]

في ليلةٍ مِنْ جُمادى ذاتِ أنديَةٍ لا يُبْصِرُ الْكَلْبُ فِي ظُلُمَائِهَا الطَّنْبَ

وهوى النفس إنما يستعمل في الأكثر: فيما لا خير فيه، وقد يستعمل في الخير مقيداً به، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أسرى بدر: فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر، و«إذا» حرف معناه أن تقرر ما ذكر.

قوله عز وجل:

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وُجْهٍ هُومٌ وَلَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾

﴿الذين﴾ في موضع رفع بالابتداء، والخبر ﴿يعرفونه﴾، ويصح أن يكون في موضع خفض نعتاً للظالمين و﴿يعرفونه﴾ في موضع الحال.

وخص الأبناء دون الأنفس وهي ألصق، لأن الإنسان يمر عليه من زمنه برهة لا يعرف فيها نفسه، ولا يمر عليه وقت لا يعرف فيه ابنه، والمراد هنا معرفة الوجه وميزه لا معرفة حقيقة النسب، ولعبد الله بن سلام رضي الله عنه في هذا الموضع كلام معترض يأتي موضعه إن شاء الله، والضمير في ﴿يعرفونه﴾ عائذ على الحق في القبلة والتحول بأمر الله إلى الكعبة، قاله ابن عباس وقتادة وابن جريج والربيع، وقال قتادة أيضاً

ومجاهد وغيرهما: هو عائذ على محمد صلى الله عليه وسلم، أي يعرفون صدقه ونبوته، والفريق الجماعة، وخص لأن منهم من أسلم ولم يكتف، والإشارة بالحق إلى ما تقدم من الخلاف في ضمير ﴿يعرفونه﴾، فعم الحق مبالغة في ذمهم، و﴿هم يعلمون﴾ ظاهر في صحة الكفر عناداً.

وقوله تعالى: ﴿الحق من ربك﴾، ﴿الحق﴾ رفع على إضمار الابتداء والتقدير هو الحق، ويصح أن يكون ابتداء والخبر مقدر بعده، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ﴿الحق﴾ بالنصب، على أن العامل فيه ﴿يعلمون﴾، ويصح نصبه على تقدير: ألزم الحق.

وقوله تعالى: ﴿فلا تكونن من الممترين﴾، الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته، وامترى في الشيء إذا شك فيه، ومنه المراء لأن هذا يشك في قول هذا، وأنشد الطبري - شاهداً على أن الممترين الشاكون - قول الأعشى: [المتقارب]

تدر على أسوق الممترين ركضاً إذا ما السراب ارجحن

ووهم في ذلك لأن أبا عبيدة وغيره قالوا: الممترون في البيت هم الذين يمرون الخيل بأرجلهم همزاً لتجري كأنهم يحتلبون الجري منها، فليس في البيت معنى من الشك كما قال الطبري.

وقوله تعالى: ﴿ولكل وجهة﴾ الآية، الوجهة: فعلة من المواجهة كالقابلة، وقوله: ﴿هو﴾ عائذ على اللفظ المفرد في ﴿كل﴾، والمراد به الجماعات.

المعنى: لكل صاحب ملة وجهة هو موليا نفسه، قاله الربيع وعطاء وابن عباس، وقرأ ابن عباس وابن عامر وحده من السبعة ﴿هو مولاها﴾، وقالت طائفة: الضمير في ﴿هو﴾ عائذ على الله تعالى، والمعنى: الله موليا إياهم، وقالت فرقة: المعنى في الآية أن لكل ديناً وشرعاً وهو دين الله وملة محمد وهو موليا إياهم اتبعها من اتبعها وتركها من تركها، وقال قتادة: المراد بالآية أن الصلاة إلى الشام ثم الصلاة إلى الكعبة لكل واحدة منهما وجهة الله موليا إياهم، وحكى الطبري أن قوماً قرؤوا ﴿ولكل وجهة﴾ بإضافة كل إلى وجهة، وخطأها الطبري.

قال القاضي أبو محمد: وهي متجهة، أي فاستبقوا الخيرات لكل وجهة ولاكموها، ولا تعترضوا فيما أركم من هذه وهذه، أي إنما عليكم الطاعة في الجميع، وقدم قوله: ﴿للكل وجهة﴾ على الأمر في قوله: ﴿فاستبقوا﴾ للاهتمام بالوجهة كما يقدم المفعول، وذكر أبو عمرو الداني هذه القراءة عن ابن عباس رضي الله عنه وسلمت الواو في وجهة ولم تجر كعدة وزنة لأن ﴿وجهة﴾ ظرف وتلك مصادر فسلمت للفرق، وأيضاً فليكمل بناء الهيئة كالجلسة، قال أبو علي: ذهب قوم إلى أنه مصدر شذ عن القياس فسلم، ومال قوم إلى أنه اسم ليس بمصدر.

قال غير أبي علي: وإذا أردت المصدر قلت جهة.

قال القاضي أبو محمد: وقد يقال الجهة في الظرف، وحكى الطبري عن منصور أنه قال: نحن نقروها «ولكل جعلنا قبله يرضونها».

ثم أمر تعالى عباده باستباق الخيرات والبدار إلى سبيل النجاة، ثم وعظهم بذكر الحشر موعظة تتضمن وعيداً وتحذيراً.

وقوله: ﴿يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً﴾ يعني به البعث من القبور، ثم اتصف الله تعالى بالقدوة على كل شيء مقدور عليه لتناسب الصفة مع ما ذكر من الإتيان بهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾، معناه حيث كنت وأنتى توجهت من مشارق الأرض ومغاربها، ثم تكررت هذه الآية تأكيداً من الله تعالى، لأن موقع التحويل كان صعباً في نفوسهم جداً فأكد الأمر ليرى الناس التهمم به فيخف عليهم وتسكن نفوسهم إليه.

قوله عز وجل:

وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ
لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمْنَعَتِ
عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا
وَيُزَكِّيْكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾

قوله تعالى: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ هو فرض استقبال القبلة على المصلين، وفرض المصلي ما دام يرى الكعبة أن يصادفها باستقباله، فإذا غابت عنه ففرضه الاجتهاد في مصادفتها، فإن اجتهد ثم كشف الغيب أنه أخطأ فلا شيء عليه عند كثير من العلماء، ورأى مالك رحمه الله أن يعيد في الوقت إحرازاً لفضيلة القبلة.

وقوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ الآية، قرأ نافع وحده بتسهيل الهمزة، وقرأ الباقون ﴿لئلا﴾ بالهمز، والمعنى: عرفتمكم وجه الصواب في قبلتكم والحجة في ذلك ﴿لئلا﴾، وقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ عموم في اليهود والعرب وغيرهم، وقيل: المراد بالناس اليهود ثم استثنى كفار العرب.

قال القاضي أبو محمد: وقوله ﴿مِنْهُمْ﴾ يرد هذا التأويل، وقالت فرقة ﴿إِلَّا الَّذِينَ﴾ استثناء متصل، وهذا مع عموم لفظة الناس، والمعنى أنه لا حجة لأحد عليكم إلا الحجة الداحضة للذين ظلموا، يعني اليهود وغيرهم من كل من تكلم في النازلة في قولهم ﴿مَا وَلَاهُمْ﴾ استهزاء، وفي قولهم: تحير محمد في دينه، وغير ذلك من الأقوال التي لم تنبعث إلا من عابد وثن أو من يهودي أو من منافق، وسماها تعالى حجة وحكم بفسادها حين كانت من ظلمة، وقالت طائفة ﴿إِلَّا الَّذِينَ﴾ استثناء منقطع وهذا مع كون الناس اليهود فقط، وقد ذكرنا ضعف هذا القول، والمعنى: لكن الذين ظلموا يعني كفار قريش في قولهم رجع محمد إلى قبلتنا وسيرجع إلى ديننا كله، ويدخل في ذلك كل من تكلم في النازلة من غير اليهود، وقرأ ابن عباس وزيد بن علي وابن زيد: «ألا» بفتح الهمزة وتخفيف اللام على معنى استفتاح لكلام، فيكون ﴿الَّذِينَ﴾ ابتداء، أو على معنى الإغراء بهم فيكون ﴿الَّذِينَ﴾ نصباً بفعل مقدر.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ الآية، تحقير لشأنهم وأمر باطراح أمرهم ومراعاة أمره، وقوله ﴿وَلَا تَمُوتُوا﴾ عطف على قوله ﴿لَتَلَذَّاتُنَّ﴾، وقيل: هو مقطوع في موضع رفع بالابتداء والخبر مضمَر بعد ذاك، والتقدير لأنتم نعمتي عليكم عرفتكم قبلتي ونحوه. و﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ترجُّح في حق البشر.

والكاف في قوله ﴿كَمَا﴾ رد على قوله ﴿لَا تَمُوتُوا﴾ أي إتماماً كما، وهذا أحسن الأقوال، أي لأنتم نعمتي عليكم في بيان سنة إبراهيم عليه السلام ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ﴾ إجابة لدعوته في قوله ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ الآية، وقيل: الكاف من ﴿كَمَا﴾ رد على ﴿تَهْتَدُونَ﴾، أي اهتداء كما، وقيل، هو في موضع نصب على الحال، وقيل: هو في معنى التأخير متعلق بقوله ﴿فَاذْكُرُونِي﴾، وهذه الآية خطاب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم وهو المعنى بقوله ﴿رَسُولاً مِنْكُمْ﴾، و﴿يَتْلُو﴾ في موضع نصب على الصفة، والآيات: القرآن، و﴿يُزَكِّيكُمْ﴾ يطهركم من الكفر وينميكم بالطاعة، و﴿الْكِتَابَ﴾ القرآن، و﴿الْحِكْمَةَ﴾ ما يتلقى عنه عليه السلام من سنة وفقه في دين، و﴿مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ قصص من سلف وقصص ما يأتي من الغيوب.

قوله عز وجل:

فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

قال سعيد بن جبیر: معنى الآية اذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة.

قال القاضي أبو محمد: أي اذكروني عند كل أموركم فيحملكم خوفي على الطاعة فأذكركم حينئذ بالثواب، وقال الربيع والسدي: المعنى اذكروني بالدعاء والتسبيح ونحوه.

وفي الحديث: إن الله تعالى يقول: «ابن آدم اذكرني في الرخاء أذكرك في الشدة»، وفي حديث آخر: إن الله تعالى يقول: «وإذا ذكرني عبدي في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم» وروي أن الكافر إذا ذكر الله ذكره الله باللعنة والخلود في النار، وكذلك العصاة يأخذون بحظ من هذا المعنى، وروي أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام «قل للعاصيين لا يذكروني».

و﴿اشْكُرُوا لِي﴾ واشكروني بمعنى واحد، و﴿لِي﴾ أشهر وأفصح مع الشكر، ومعناه نعمي وأيادي، وكذلك إذا قلت شكرتك فالمعنى شكرت صنيعك وذكرته، فحذف المضاف، إذ معنى الشكر ذكر اليد وذكر مسديها معاً، فما حذف من ذلك فهو اختصار للدلالة ما بقي على ما حذف، و﴿تَكْفُرُونَ﴾ أي نعمي

وأبيادي، وانحذفت نون الجماعة للجزم، وهذه نون المتكلم، وحذفت الياء التي بعدها تخفيفاً لأنها رأس آية، ولو كان نهياً عن الكفر ضد الإيمان لكان: ولا تكفروا، بغير النون.

و﴿يَا﴾ حرف نداء و﴿أَيَّ﴾ منادى و﴿ها﴾ تنبيه، وتجلب «أي» فيما فيه الألف واللام لأن في حرف النداء تعريفاً ما، فلو لم تجلب «أي» لاجتمع تعريفان، وقال قوم: ﴿الصبر﴾: الصوم، ومنه قيل لرمضان: شهر الصبر، وتقدم معنى الاستعانة بالصبر والصلاة، واختصاره أنهما رادعان عن المعاصي.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ معناه بمعونته وإنجاده، فهو على حذف مضاف، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت: «اهجهم وروح القدس معك»، وكما قال: «ارموا وأنا مع بني فلان»، الحديث.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ آمُوتَ﴾ الآية، سببها أن الناس قالوا فيمن قتل ببدر وأحد مات فلان ومات فلان، فكره الله أن تحط منزلة الشهداء إلى منزلة غيرهم، فنزلت هذه الآية، وأيضاً: فإن المؤمنين صعب عليهم فراق إخوانهم وقرباتهم فنزلت الآية مسلية لهم، تعظم منزلة الشهداء، وتخبر عن حقيقة حالهم، فصاروا مغبوطين لا محزوناً لهم، ويبين ذلك من حديث أم حارثة في السير، والفرق بين الشهيد وغيره إنما هو الرزق، وذلك أن الله تعالى فضلهم بدوام حالهم التي كانت في الدنيا فرزقهم.

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تعلق من ثمر الجنة، وروي أنهم في قبة خضراء، وروي أنهم في قناديل من ذهب، إلى كثير من هذا، ولا محالة أنها أحوال لطوائف أول للجميع في أوقات متغايرة، وجمهور العلماء على أنهم في الجنة، ويؤيده قول النبي صلى الله عليه وسلم لأم حارثة: إنه في الفردوس، وقال مجاهد: هم خارج الجنة ويلقون من شجرها، و﴿أموات﴾ رفع بإضمار الابتداء والتقدير هم أموات، ولا يجوز إعمال القول فيه لأنه ليس بينه وبينه تناسب كما يصح في قولك قلت كلاماً وحجة.

وقوله ﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي قبل أن نشعركم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنُبَلِّغُكُمْ﴾ الآية، أمر تعالى بالاستعانة بالصبر وأخبر أنه مع الصابرين، ثم اقتضت الآية بعدها من فضل الشهداء ما يقوي الصبر عليهم ويخفف المصيبة، ثم جاء بعد ذلك من هذه الأمور التي لا تتلقى إلا بالصبر أشياء تعلم أن الدنيا دار بلاء ومحن، أي فلا تنكروا فراق الإخوان والقربة، ثم وعد الصابرين أجراً، وقال عطاء والجمهور: إن الخطاب في هذه الآية لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: الخطاب لقريش وحل ذلك بهم فهي آية للنبي صلى الله عليه وسلم.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: والأول أظهر، ﴿وَلَنُبَلِّغُكُمْ بَشْيْءَ﴾ معناه لنمتحننكم، وحركت الواو لالتقاء الساكنين، وقيل: الفعل مبني وهو مع النون الثقيلة بمنزلة خمسة عشر، و﴿الخوف﴾ يعني من الأعداء في الحروب، و﴿الجوع﴾ الجذب والسنة، وأما الحاجة إلى الأكل فإنما اسمها الغرث، وقد استعمل فيه المحدثون الجوع اتساعاً، ونقص الأموال: بالجوائح والمصائب،

﴿وَالْأَنْفُسِ﴾: بالموت والقتل، ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾: بالعاهات ونزع البركة، فالمراد بشيء من هذا وشيء من هذا فاكنتي بالأول إيجازاً ولذلك وحد، وقرأ الضحاك ﴿بأشياء﴾ على الجمع، والمعنى قريب بعضه من بعض، وقال بعض العلماء: إنما المراد في هذه الآية مؤن الجهاد وكلفه، فالخوف من العدو والجوع به وبالأسفار إليه ونقص الأموال بالنفقات فيه والأنفس بالقتل والثمار بإصابة العدو لها أو بالغفلة عنها بسبب الجهاد.

ثم وصف تعالى الصابرين الذين بشرهم بقوله ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ الآية، وجعل هذه الكلمات ملجأً لذوي المصائب وعصمة للممتحنين لما جمعت من المعاني المباركة، وذلك توحيد الله والإقرار له بالعبودية والبعث من القبور واليقين بأن رجوع الأمر كله إليه كما هو له، وقال سعيد بن جبير: لم يعط هذه الكلمات نبي قبل نبينا، ولو عرفها يعقوب لما قال يا أسفا على يوسف.

وروي أن مصباح رسول الله صلى الله عليه وسلم انطفأ ذات ليلة فقال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، فقيل: أمصيبة هي يا رسول الله؟، فقال: «نعم كل ما آذى المؤمن فهي مصيبة».

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ الآية، نعم من الله على الصابرين المسترجعين، وصلوات الله على عبده: عفوه ورحمته وبركته وتشريفه إياه في الدنيا والآخرة، وكرر الرحمة لما اختلف اللفظ تأكيداً، وهي من أعظم أجزاء الصلاة منه تعالى، وشهد لهم بالاهتداء.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قرأ هذه الآية: «نعم العذلان ونعم العلاوة» أراد بالعدلين الصلاة والرحمة وبالعلاوة الاهتداء.

قوله عز وجل:

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاوْلَتِكَ أُنُوبٌ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾

﴿الصفا والمروة﴾: جيلان بمكة، و﴿الصفا﴾ جمع صفاة، وقيل: هو اسم مفرد جمعه صفي وأصفاء، وهي الصخرة العظيمة، قال الراجز: [الرجز]

مواقع الطَّيْرِ عَلَى الصَّفَى

وقيل: من شروط الصفا البياض والصلابة، و﴿المروة﴾ واحدة المرو، وهي الحجارة الصغار التي فيها لين، ومنه قول الذي أصاب شاته الموت من الصحابة «فذكرتها بمروة»، ومنه قيل الأمين: «أخرجني إلى أخي فإن قتلتني فمروة كسرت مروة، وصمصامة قطعت صمصامة»، وقد قيل في المرو: إنها الصلاب. قال الشاعر: [الوافر]

وَتَسَوَّلَى الْأَرْضَ خَفًّا ذَايِلًا فَإِذَا مَا صَادَفَ الْمَرَوْ رَضَخَ

والصحيح أن المرو الحجارة صليها ورخوها الذي يتشظى وترق حاشيته، وفي هذا يقال المرو أكثر، وقد يقال في الصليب، وتأمل قول أبي ذؤيب: [الكامل]

حتى كأني للحوادث مروة بصفا المشقر كل يوم تفرع

وجبيل ﴿الصفاء﴾ بمكة صليب، وجبيل ﴿المروة﴾ إلى اللين ماهق، فبذلك سميا، قال قوم: ذكر ﴿الصفاء﴾ لأن آدم وقف عليه، ووقفت حواء على المروة فأنثت لذلك.

وقال الشعبي: «كان على الصفا صنم يدعى إسافاً، وعلى المروة صنم يدعى نائلة»، فاطرد ذلك في التذكير والتأنيث وقدم المذكر، و﴿من شعائر الله﴾ معناه من معالمه ومواضع عبادته، وهي جمع شعيرة أو شعارة، وقال مجاهد: ذلك راجع إلى القول، أي مما أشعركم الله بفضله، مأخوذ من تشعرت إذا تحسست، وشعرت مأخوذ من الشعار وهو ما يلي الجسد من الثياب، والشعار مأخوذ من الشعر، ومن هذه اللفظة هو الشاعر، و﴿حج﴾ معناه قصد وتكرر، ومنه قول الشاعر: [الطويل]

وَأَشْهَدُ مِنْ عَوْفٍ حُلُولًا كَثِيرَةً يَحْجُونَ سَبَّ الزُّبْرِقَانِ الْمُزْعَفَرَا

ومنه قول الآخر: [البيسط]

يحج مأمومةً في فَعْرِهَا لِحْفُ

و﴿اعتمر﴾ زار وتكرر مأخوذ من عمرت الموضع، وال ﴿جناح﴾ الإثم والميل عن الحق والطاعة، ومن اللفظة الجناح لأنه في شق، ومنه قيل للخبا جناح لتمايله وكونه كذي أجنحة، ومنه: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ [الأنفال: ٦١]، و﴿يطوف﴾ أصله يتطوف سكنت التاء وأدغمت في الطاء.

وقرأ أبو السمال «أن يطاف» وأصله يطنوف تحركت الواو وانفتح ما قبلها فانقلبت ألفاً فجاء يطناف أدغمت التاء بعد الإسكان في الطاء على مذهب من أجاز إدغام الثاني في الأول، كما جاء في مذكر، ومن لم يجز ذلك قال قلبت التاء طاء ثم أدغمت الطاء في الطاء، وفي هذا نظر لأن الأصلي أدغم في الزائد وذلك ضعيف.

وروي عن ابن عباس وأنس بن مالك وشهر بن حوشب أنهم قرؤوا «أن لا يتطوف»، وكذلك في مصحف عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب «أن لا يطوف»، وقيل: «أن لا يطوف» بضم الطاء وسكون الواو.

وقوله تعالى: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ خبر يقتضي الأمر بما عهد من الطواف بهما.

وقوله ﴿فلا جناح﴾ ليس المقصد منه إباحة الطواف لمن شاء، لأن ذلك بعد الأمر لا يستقيم، وإنما المقصد منه رفع ما وقع في نفوس قوم من العرب من أن الطواف بينهما شيء حرج، وإعلامهم أن ما وقع في نفوسهم غير صواب، واختلف في كيفية ذلك فروي أن الجن كانت تعرف وتطوف بينهما في الجاهلية

فكانت طائفة من تهامة لا تطوف بينهما في الجاهلية لذلك، فلما جاء الإسلام تخرجوا من الطواف.

وروي عن عائشة رضي الله عنها أن ذلك في الانصرار وذلك أنهم كانوا يهلون لمناة التي كانت بالمشلل حذو قديد ويعظمونها فكانوا لا يطوفون بين إساف ونائلة إجلالاً لتلك، فلما جاء الإسلام تخرجوا فنزلت هذه الآية، وروي عن الشعبي أن العرب التي كانت تطوف هنالك كانت تعتقد ذلك السعي إجلالاً لإساف ونائلة، وكان الساعي يتمسح بإساف فإذا بلغ المروة تمسح بنائلة وكذلك حتى تتم أشواطه، فلما جاء الإسلام كرهوا السعي هنالك إذ كان بسبب الصنمين.

واختلف العلماء في السعي بين الصفا والمروة فمذهب مالك والشافعي أن ذلك فرض ركن من أركان الحج لا يجزي تاركه أو ناسيه إلا العودة، ومذهب الثوري وأصحاب الرأي أن الدم يجزيء تاركه وإن عاد فحسن، فهو عندهم ندب، وروي عن أبي حنيفة: إن ترك أكثر من ثلاثة أشواط فعليه دم، وإن ترك ثلاثة فأقل فعليه لكل شوط إطعام مسكين، وقال عطاء ليس على تاركه شيء لا دم ولا غيره، واحتج عطاء بما في مصحف ابن مسعود «أن لا يطوف بهما» وهي قراءة خالفت مصاحف الإسلام، وقد أنكرتها عائشة رضي الله عنها في قولها لعروة حين قال لها «أرأيت قول الله: ﴿فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾؟ فما نرى على أحد شيئاً ألا يطوف بهما» قالت: «يا عروة كلا لو كان ذلك لقال: فلا جناح عليه ألا يطوف بهما».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وأيضاً فإن ما في مصحف ابن مسعود يرجع إلى معنى أن يطوف وتكون «لا» زائدة صلة في الكلام، كقوله ﴿ما منعك ألا تسجد﴾ [الأعراف: ١٢]، وكقول الشاعر: [البسيط]

ما كان يرضى رسولُ اللهِ فَعَلَهُمْ والطَّيِّبانِ أبو بَكْرٍ ولا عمرُ

أي وعمر وكقول الآخر: [الرجز]

وما ألومُ البيضُ أن لا تَسَحَّرَا

ومذهب مالك وأصحابه في العمرة أنها سنة إلا ابن حبيب فإنه قال بوجوبها، وقرأ قوم من السبعة وغيرهم «ومن يطوع» بالياء من تحت على الاستقبال والشرط، والجواب في قوله ﴿فإن﴾، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم «تطوع» على بابهِ في الماضي، ف﴿من﴾ على هذه القراءة بمعنى الذي، ودخلت الفاء في قوله ﴿فإن﴾ للإيهام الذي في ﴿من﴾، حكاه مكِّي، وقال أبو علي: يحتمل «تطوع» أن يكون في موضع جزم و﴿من﴾ شرطية، ويحتمل أن تكون ﴿من﴾ بمعنى الذي والفعل صلة لا موضع له من الإعراب، والفاء مؤذنة أن الثاني وجب لوجوب الأول، ومن قال بوجوب السعي قال: معنى «تطوع» أي زاد برأ بعد الواجب، فجعله عاماً في الأعمال، وقال بعضهم: معناه من تطوع بحج أو عمرة بعد حجة الفريضة، ومن لم يوجب السعي قال: المعنى من تطوع بالسعي بينهما، وفي قراءة ابن مسعود «فمن تطوع بخير»، ومعنى «شاكراً» أي يبذل الثواب والجزاء، ﴿عليم﴾ بالنيات والأعمال لا يضيع معه لعامل بر ولا غيره عمل.

وقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ الآية، المراد بالذين أحبار اليهود ورجال النصارى الذين كتموا أمر محمد صلى الله عليه وسلم، قال الطبري: «وقد روي أن معينين منهم سألهم قوم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عما في كتبهم من أمره فكتموا فنزلت، وتناول الآية بعد كل من كتم علماً من دين الله يحتاج إلى به، وذلك مفسر في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار»، وهذا إذا كان لا يخاف ولا ضرر عليه في به.

وهذه الآية أراد أبو هريرة رضي الله عنه في قوله «لولا آية في كتاب الله ما حدثتكم حديثاً»، وقد ترك أبو هريرة ذلك حين خاف فقال «حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين: أما أحدهما فبثته وأما الآخر فلو بثته قطع هذا البلعوم».

وهذه الآية أراد عثمان رضي الله عنه في قوله: «لأحدثنكم حديثاً لولا آية في كتاب الله ما حدثتكموه»، ومن روى في كلام عثمان «لولا أنه في كتاب الله» فالمعنى غير هذا.

و﴿البيّنات والهدى﴾: أمر محمد صلى الله عليه وسلم، ثم يعم بعد كل ما يكتم من خير، وقرأ طلحة بن صرف «من بعد ما بينه» على الأفراد، و﴿في الكتاب﴾ يراد به التوراة والإنجيل بحكم سبب الآية وأنها في أمر محمد صلى الله عليه وسلم ثم يدخل القرآن مع تعميم الآية، وقد تقدم معنى اللغة.

واختلف في اللاعنين فقال قتادة والربيع: الملائكة والمؤمنون، وهذا ظاهر واضح جار على مقتضى الكلام، وقال مجاهد وعكرمة: هم الحشرات والبهائم يصيبهم الجذب بذنوب علماء السوء الكاتمين فيلعنونهم.

قال القاضي أبو محمد: وذكروا بالواو والنون كمن يعقل لأنهم أسند إليهم فعل من يعقل، كما قال ﴿رأيتهم لي ساجدين﴾ [يوسف: ٤]، وقال البراء بن عازب ﴿اللاعنون﴾ كل المخلوقات ما عدا الثقلين الجن والإنس، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الكافر إذا ضرب في قبره فصاح سمعه الكل إلا الثقلين فلعنه كل سامع»، وقال ابن مسعود: المراد بها ما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن كل متلاعنين إن استحقا اللعنة وإلا انصرفت على اليهود».

قال القاضي أبو محمد: وهذه الأقوال الثلاثة لا يقتضيها اللفظ ولا تثبت إلا بسند يقطع العذر، ثم استثنى الله تعالى التائبين وقد تقدم معنى التوبة، و﴿أصلحو﴾ أي في أعمالهم وأقوالهم، و﴿بينوا﴾ قال من فسر الآية على العموم: معناه بينوا توبتهم بمبرز العمل والبروع فيه، ومن فسرهما على أنها في كاتمي أمر محمد قال: المعنى بينوا أمر محمد صلى الله عليه وسلم فتجيء الآية فيمن أسلم من اليهود والنصارى، وقد تقدم معنى توبة الله على عبده وأنها رجوعه به عن المعصية إلى الطاعة.

قوله جلت قدرته:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا لَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَاللَّهُ كَرِيمٌ ﴿١٦٣﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ

الرَّحِيمِ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، محكمة في الذين وافوا على كفرهم، واختلف في معنى قوله ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وهم لا يلعونون أنفسهم، فقال قتادة والربيع: المراد ﴿بِالنَّاسِ﴾ المؤمنون خاصة، وقال أبو العالية: معنى ذلك في الآخرة، وذلك أن الكفرة يلعونون أنفسهم يوم القيامة، وقالت فرقة: معنى ذلك أن الكفرة يقولون في الدنيا: لعن الله الكافرين، فيلعنونون أنفسهم من حيث لا يشعرون، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: «والملائكة والناس أجمعون» بالرفع على تقدير أولئك يلعنهم الله، واللغة في هذه الآية تقتضي العذاب، فلذلك قال ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، والضمير عائد على اللعنة، وقيل على النار وإن كان لم يجر لها ذكر، لثبوتها في المعنى.

ثم اعلم تعالى برفع وجوه الرفق عنهم لأن العذاب إذا لم يخفف ولم يؤخر فهو النهاية، و﴿يَنْظُرُونَ﴾ معناه يؤخرون عن العذاب، ويحتمل أن يكون من النظر، نحو قوله تعالى ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٧٧]، والأول أظهر، لأن النظر بالعين إنما يعدى بالى إلا شاذاً في الشعر.

وقوله تعالى: ﴿وَالْهَيْكَلُ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية، إعلام بالوحدانية، و﴿وَاحِدٌ﴾ في صفة الله تعالى معناه نفي المثل والنظير والند، وقال أبو المعالي: هو نفي التبعض والانقسام، وقال عطاء: لما نزلت هذه الآية بالمدينة قال كفار قريش بمكة: ما الدليل على هذا؟ وما آيته وعلامته؟ وقال سعيد بن المسيب: قالوا: إن كان هذا يا محمد فائتنا بآية من عنده تكون علامة الصدق، حتى قالوا: اجعل لنا الصفا ذهباً، فقبل لهم: ذلك لكم، ولكن إن كفرتم بعد ذلك عذبتم، فأشفق رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: دعني أدهم يوماً بيوم، فنزل عند ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، الآية، ومعنى ﴿فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ﴾ في اختراعها وإنشائها، وقيل: المعنى أن في خلقه أي هيئة السموات والأرض، و﴿اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ معناه أن هذا يخلف هذا وهذا يخلف هذا فهما خلفه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ [الفرقان: ٦٢]، وكما قال زهير: [الطويل]

بِهَا الْعَيْنُ وَالْأَرَامُ يَمْسِينِ خِلْفَةً وَأَطْلَاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْتَمِعٍ

وقال الآخر: [المديد]

وَلَهَا بِالْمَاطُرُونَ إِذَا أَكَلَ النَّمْلُ الَّذِي جَمَعَا
خِلْفَةً حَتَّى إِذَا ارْتَبَعَتْ سَكَنْتُ مِنْ جُلُقٍ بِيَعَا

ويحتمل أيضاً الاختلاف في هذه الآية أن يراد به اختلاف الأوصاف، و﴿الليل﴾ جمع ليلة وتجمع

ليالي، وزيدت فيها الياء كما زيدت في كراهية وفراية، و﴿النهار﴾ يجمع نهراً وأنهرة، وهو من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، يقضي بذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم «إنما هو بياض النهار وسواد الليل»، وهذا هو مقتضى الفقه في الإيمان ونحوها، فأما على ظاهر اللغة وأخذ من السعة فهو من وقت الإسفار إذا اتسع وقت النهار كما قال: [الطويل]

ملكْتُ بها كفي فأنهَرْتُ فتَقَهَا يرى قائمٌ من دونها ما وراءها

وقال الزجاج في كتاب الأنواء: أول النهار ذرور الشمس قال: وزعم النضر بن شميل أن أول النهار ابتداء طلوع الشمس ولا يعد ما قبل ذلك من النهار.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وقول النبي صلى الله عليه وسلم هو الحكم، و﴿الفلك﴾ السفن، وإفراده وجمعه بلفظ واحد، وليست الحركات تلك بأعيانها، بل كأنه بنى الجمع بناء آخر، يدل على ذلك توسط التنبيه في قولهم فلكان، والفلك المفرد مذكر، قال الله تعالى: ﴿في الفلك المشحون﴾ [الشعراء: ١١٩].

و«ما ينفع الناس» هي التجارات وسائر المآرب التي يركب لها البحر من غزو وحج، والنعمة بالفلك هي إذا انتفع بها، فلذلك خص ذكر الانتفاع إذ قد تجري بما يضر، و﴿ما أنزل الله من السماء من ماء﴾ يعني به الأمطار التي بها إنعاش العالم وإخراج النبات والأرزاق، و﴿بث﴾ معناه فرق وبسط، و﴿دابة﴾ تجمع الحيوان كله، وقد أخرج بعض الناس الطير من الدواب، وهذا مردود، وقال الأعشى: [الطويل]

ذَيْبٌ قَطَا الْبَطْحَاءَ فِي كُلِّ مَنَهْلٍ

وقال علقمة بن عبدة: [الطويل]

صَوَّاعِقُهَا لَطِيرُهُنَّ ذَيْبٌ

و﴿تصريف الرياح﴾ إرسالها عقيماً ومقحة وصرأ ونصرأ وهلاكاً، ومنه إرسالها جنوباً وشمالاً وغير ذلك، و﴿الرياح﴾ جمع ريح، وجاءت في القرآن مجموعة مع الرحمة مفردة مع العذاب، إلا في يونس في قوله تعالى ﴿وجرين بهم بريح طيبة﴾ [يونس: ٢٢]، وهذا أغلب وقوعها في الكلام، وفي الحديث: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا هبت الريح يقول: اللهم اجعلها ريحاً ولا تجعلها ريحاً».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وذلك لأن ريح العذاب شديدة ملتزمة الأجزاء كأنها جسم واحد، وريح الرحمة لينة متقطعة فلذلك هي رياح وهو معنى «نشرأ»، وأفردت مع الفلك لأن ريح إجراء السفن إنما هي واحدة متصلة، ثم وصفت بالطيب فزال الاشتراك بينها وبين ريح العذاب، وهي لفظة من ذوات الواو، يقال ريح وأرواح، ولا يقال أرياح، وإنما قيل رياح من جهة الكسرة وطلب تناسب الياء معها، وقد لحن في هذه اللفظة عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير، فاستعمل الأرياح في شعره ولحن في ذلك، وقال له أبو حاتم: إن الأرياح لا تجوز، فقال: أما تسمع قولهم رياح؟ فقال أبو حاتم: هذا خلاف ذلك، فقال: صدقت ورجع، وأما القراء السبعة فاختلفوا فقرأ نافع ﴿الرياح﴾ في اثني عشر موضعاً: هنا

وفي الأعراف ﴿يرسل الرياح﴾ [الآية: ٥٧]، وفي إبراهيم ﴿اشتدت به الرياح﴾ [الآية: ٨]، وفي الحجر ﴿الرياح لواقع﴾ [الآية: ٢٢]، وفي الكهف ﴿تذرره الرياح﴾، وفي الفرقان ﴿أرسل الرياح﴾ [الآية: ٢٢]، وفي النمل ﴿ومن يرسل الرياح﴾ [الآية: ٦٣]، وفي الروم [الآيتان: ٤٦، ٤٨] في موضعين، وفي فاطر [الآية: ٩] وفي الجاثية [الآية: ٥] وفي حم عسق ﴿يسكن الرياح﴾ [الآية: ٣٣]، وقرأ أبو عمرو وعاصم وابن عامر موضعين من هذه بالإفراد: في إبراهيم وفي حم عسق، وقرأوا سائرهما كقراءة نافع، وقرأ ابن كثير بالجمع في خمسة مواضع: هنا وفي الحجر وفي الكهف وفي الروم الحرف الأول وفي الجاثية ﴿وتصريف الرياح﴾ وباقى ما في القرآن بالإفراد، وقرأ حمزة بالجمع في موضعين: في الفرقان وفي الروم الحرف الأول وأفرد سائر ما في القرآن، وقرأ الكسائي كحمزة وزاد عليه في الحجر ﴿الرياح لواقع﴾ [الآية: ٢٢]، ولم يختلفوا في توحيد ما ليس فيه ألف ولا ميم، و﴿السحاب﴾ جمع سحابة، سمي بذلك لأنه ينسحب، كما قالوا حباً لأنه يحبو، قاله أبو علي الفارسي، وتسخيره بعثه من مكان إلى آخر، فهذه آيات أن الصانع موجود. والدليل العقلي يقوم أن الصانع للعالم لا يمكن أن يكون إلا واحداً لجواز اختلاف الاثنين فصاعداً.

قوله عز وجل:

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَأَوَّاىَ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِكُهُمْ لَسَبَّحْنَاهُمْ هُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا وَمِنَّا كَذَلِكَ يَريهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

ذكر الله تعالى الوجدانية ثم الآيات الدالة على الصانع الذي لا يمكن أن يكون إلا واحداً، ثم ذكر في هذه الآية الجاحدين الضالين معجبا من سوء ضلالهم مع الآيات، لأن المعنى أن في هذه الأمور لآيات بينة، ومن الناس مع ذلك البيان من يتخذ، وخرج ﴿يتخذ﴾ موحداً على لفظ ﴿من﴾ والمعنى جمعه، و﴿من دون﴾ لفظ يعطي غيبة ما تضاف إليه ﴿دون﴾ عن القضية التي فيها الكلام، وتفسير ﴿دون﴾ بسوى أو بغير لا يطرده، والند النظر والمقاوم والموازي كان ضدّاً أو خلافاً أو مثلاً، إذا قاوم من جهة فهو منها ند، وقال مجاهد وقتادة: المراد بالأنداد الأوثان، وجاء ضميرها في ﴿يحبونهم﴾ ضمير من يعقل لما أنزلت بالعبادة منزلة من يعقل، وقال ابن عباس والسدي: المراد بالأنداد الرؤساء المتبعون بطيعونهم في معاصي الله تعالى، و﴿يحبونهم﴾ في موضع نصب نعت للأنداد، أو على الحال من المضمر في ﴿يتخذ﴾، أو يكون في موضع رفع نعت ﴿لمن﴾ وهذا على أن تكون ﴿من﴾ نكرة والكاف من ﴿كحب﴾ في موضع نصب نعت لمصدر محذوف، و﴿حب﴾ مصدر مضاف إلى المفعول في اللفظ وهو على التقدير مضاف إلى

الفاعل المضمَر، تقديره كحبكم الله أو كحبهم الله حسبما قدر كل وجه منها فرقة، ومعنى كحبهم أي يسوون بين محبة الله ومحبة الأوثان.

ثم أخبر أن المؤمنين ﴿أشد حبا لله﴾ لإخلاصهم وتيقنهم الحق.

وقوله تعالى: ﴿ولو ترى الذين ظلموا﴾ قرأ نافع وابن عامر «ترى» بالتاء من فوق، و «أن» بفتح الألف، و «أن» الأخرى كذلك عطف على الأولى، وتقدير ذلك: ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم للعذاب وفزعهم منه واستعظامهم له لأقروا أن القوة لله، فالجواب مضمَر على هذا النحو من المعنى، وهو العامل في «أن»، وتقدير آخر: ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم للعذاب وفزعهم منه لعلمت أن القوة لله جميعاً، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم علم ذلك، ولكن خوطب والمراد أمته، فإن فيهم من يحتاج إلى تقوية علمه بمشاهدة مثل هذا، وتقدير ثالث: ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم للعذاب لأن القوة لله لعلمت مبلغهم من النكال ولاستعظمت ما حل بهم، فاللام مضمرة قبل «أن»، فهي مفعول من أجله، والجواب محذوف مقدر بعد ذلك، وقد حذف جواب ﴿لو﴾ بمبالغة، لأنك تدع السامع يسمو به تخيله، ولو شرحت له لو طنت نفسه إلى ما شرحت، وقرأ الحسن وقتادة وشيبة وأبو جعفر «ترى» بالتاء من فوق وكسر الهمزة من «إن»، وتأويل ذلك: ولو ترى الذين ظلموا إذ يرون العذاب لاستعظمت ما حل بهم، ثم ابتداء الخبر بقوله «إن القوة لله»، وتأويل آخر: ولو ترى الذين ظلموا إذ يرون العذاب يقولون إن القوة لله جميعاً لاستعظمت حالهم. وقرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وعاضم وابن كثير «يرى» بالياء من أسفل، وفتح الألف من «أن»، وتأويله: ولو يرى في الدنيا الذين ظلموا حالهم في الآخرة إذ يرون العذاب لعلموا أن القوة لله جميعاً، وتأويل آخر روي عن المبرد والأخفش: ولو يرى بمعنى يعلم الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً لاستعظموا ما حل بهم، ف «يرى» عامل في «أن» وسدت مسد المفعولين.

وقال أبو علي: «الرؤية في هذه الآية رؤية البصر»، والتقدير في قراءة الياء: ولو يرى الذين ظلموا أن القوة لله جميعاً، وحذف جواب ﴿لو﴾ للمبالغة، ويعمل في «أن» الفعل الظاهر وهو أرجح من أن يكون العامل فيها مقدراً، ودخلت ﴿إذ﴾ وهي لما مضى في أثناء هذه المستقبلات تقريباً للأمر وتصحيحاً لوقوعه، كما يقع الماضي موقع المستقبل في قوله تعالى: ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة﴾ [الأعراف: ٥٠]، و ﴿أتى أمر الله﴾ [النحل: ١]، ومنه قول الأشر النخعي: [الكامل]

بقيت وفري وانحرفت عن العلا ولقيت أضيافي بوجه عبوس

وقرأت طائفة «يرى» بالياء من أسفل وكسر الألف من «إن»، وذلك إما على حذف الجواب وابتداء الخبر، وإما على تقدير لقالوا إن القوة لله جميعاً، وقرأ ابن عامر وحده «يُرون» بضم الياء والباقون بفتحها.

وثبتت بنص هذه الآية القوة لله بخلاف قول المعتزلة في نفهم معاني الصفات القديمة، وقالت

طائفة: ﴿الذين اتبعوا﴾: كل من عبد من دون الله، وقال قتادة: هم الشياطين المضلون، وقال الربيع وعطاء: هم رؤسائهم.

قال القاضي أبو محمد: ولفظ الآية يعم هذا كله، و﴿إذ﴾ يحتمل أن تكون متعلقة بـ﴿شديد العذاب﴾، ويحتمل أن يكون العامل فيها: اذكر، و﴿الذين اتبعوا﴾ بفتح الباء هم العبداء لغير الله، والضالون المقلدون لرؤسائهم أو للشياطين، وتبريرهم هو بأن قالوا إنا لم نضل هؤلاء بل كفروا بإرادتهم، وتعلق العقاب على المتبعين بكفرهم ولم يتأت ما حاولوه من تعليق ذنوبهم على المضلين، وقرأ مجاهد بتقديم الفعل المسند إلى المتبعين للرؤساء وتأخير المسند إلى المتبعين.

والسبب في اللغة: الحبل الرابط الموصل، فيقال في كل ما يتمسك به فيصل بين شيئين، وقال ابن عباس: ﴿الأسباب﴾ هنا الأرحام، وقال مجاهد: هي العهود، وقيل: المودات، وقيل: المنازل التي كانت لهم في الدنيا، وقال ابن زيد والسدي: هي الأعمال، إذ أعمال المؤمنين كالسبب في تنعيمهم فتقطعت بالظالمين أعمالهم.

وقوله تعالى: ﴿وقال الذين اتبعوا﴾ الآية، المعنى وقال الأتباع الذين تبرء منهم: لو رددنا إلى الدنيا حتى نعمل صالحاً ونتبرأ منهم، والكرة: العودة إلى حال قد كانت، ومنه قول جرير: [الكامل]

ولقد عطفن على فزارة عطفة كسر المنيع وجلن ثم مجالا

والمنيع هنا: أحد الأغفال من سهام الميسر، وذلك أنه إذا خرج من الرابة رد لفوره لأنه لا فرض فيه ولا حكم عنه، والكاف من قوله ﴿كما﴾ في موضع نصب على النعت إما لمصدر أو لحال تقديرها متبرئين كما، والكاف من قوله ﴿كذلك يريهم﴾ قيل: هي في موضع رفع على خبر ابتداء تقديره الأمر كذلك، وقيل: هي كاف تشبيه مجردة، والإشارة بذلك إلى حالهم وقت تمنيعهم الكرة.

والرؤية في الآية هي من رؤية البصر، ويحتمل أن تكون من رؤية القلب، و﴿أعمالهم﴾ قال الربيع وابن زيد المعنى: الفاسدة التي ارتكبوها فوجبت لهم بها النار، وقال ابن مسعود والسدي المعنى: الصالحة التي تركوها ففاتتهم الجنة، ورويت في هذا القول أحاديث، وأضيفت هذه الأعمال إليهم من حيث هم مأمورون بها، وأما إضافة الفاسدة إليهم فمن حيث عملوها، و﴿حسرات﴾ حال على أن تكون الرؤية بصرية، ومفعول على أن تكون قلبية، والحسرة أعلى درجات الندامة والهم بما فات، وهي مشتقة من الشيء الحسير الذي قد انقطع وذهبت قوته كالبعير والبصر، وقيل هي من حسر إذا كشف، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «يحسر الفرات عن جبل من ذهب».

قوله عز وجل:

يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا

مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنْتَعِمُ مَا آفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَٰئِكَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾

الخطاب عام و﴿ما﴾ بمعنى الذي، و﴿حلالاً﴾ حال من الضمير العائد على ﴿ما﴾، وقال مكي: نعت لمفعول محذوف تقديره شيئاً حلالاً.

قال القاضي أبو محمد: وهذا يبعد، وكذلك مقصد الكلام لا يعطي أن يكون ﴿حلالاً﴾ مفعولاً بـ﴿كلوا﴾ وتأمل، و﴿طيباً﴾ نعت، ويصح أن يكون ﴿طيباً﴾ حالاً من الضمير في ﴿كلوا﴾ تقديره مستطيين، والطيب عند مالك: الحلال، فهو هنا تأكيد لاختلاف اللفظ، وهو عند الشافعي: المستلد، ولذلك يمنع أكل الحيوان القذر وكل ما هو خبيث، و﴿خطوات﴾ جمع خطوة وهي ما بين القدمين في المشي، فالمعنى النهي عن اتباع الشيطان وسلوك سبله وطرائقه، قال ابن عباس: خطواته أعماله، قال غيره: آثاره، قال مجاهد: خطاياه، قال أبو مجلز: هي النذور والمعاصي، قال الحسن: نزلت فيما سنوه من البحيرة والسائبة ونحوه، قال النقاش: نزلت في ثقيف وخزاعة وبني الحارث بن كعب.

وقرأ ابن عامر والكسائي «خطوات» بضم الخاء والطاء، ورويت عن عاصم وابن كثير بخلاف، وقرأ الباقر بسكون الطاء، فإذا أرادوا ضم الخاء والطاء وخففوها إذ هو الباب في جمع فعلة كغرفة وغرفات، وإما أنهم تركوها في الجمع على سكونها في المفرد، وقرأ أبو السمال «خَطَوَات» بفتح الخاء والطاء وروي عن علي بن أبي طالب وقتادة والأعمش وسلام «خطَوَات» بضم الخاء والطاء وهمزة على الواو، وذهب بهذه القراءة إلى أنها جمع خطاة من الخطأ لا من الخطو. وكل ما عدا السنن والشرائع من البدع والمعاصي فهي خطوات الشيطان، و﴿عدو﴾ يقع للمفرد والثنية والجمع.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ﴾ الآية، ﴿إِنَّمَا﴾ تصلح للحصر، وقد تجيء غير حاصرة بل للمبالغة كقولك «إِنَّمَا الشجاع عترة»، كأنك تحاول الحصر أو توهمه، فإنما يعرف معنى ﴿إِنَّمَا﴾ بقرينة الكلام الذي هي فيه، فهي في هذه الآية حاصرة، وأمر الشيطان إما بقوله في زمن الكهنة وحيث يتصور، وإما بوسوسته، فإذا أطيع نفذ أمره.

و﴿السوء﴾ مصدر من ساء يسوء فهي المعاصي وما تسوء عاقبته، و﴿الفحشاء﴾ قال السدي: هي الزنا، وقيل: كل ما بلغ حداً من الحدود لأنه يتفاحش حينئذ، وقيل: ما تفاحش ذكره، وأصل الفحش قبح المنظر كما قال امرؤ القيس: [الطويل]

وجيدٌ كجيدِ الرُّثْمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ إِذَا هِيَ نَصَّتْهُ وَلَا بِمَعْطَلٍ

ثم استعملت اللفظة فيما يستقبح من المعاني، والشرع هو الذي يحسن ويقبح، فكل ما نهت عنه الشريعة فهو من الفحشاء، و﴿ما لا تعلمون﴾: قال الطبري: يريد به ما حرموا من البحيرة والسائبة ونحوها وجعلوه شرعاً.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ يعني كفار العرب، وقال ابن عباس: نزلت في اليهود، وقال الطبري: الضمير في ﴿لَهُمْ﴾ عائد على الناس من قوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا﴾، وقيل: هو عائد على ﴿مَنْ﴾ في قوله ﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ١٦٥]، و﴿اتَّبَعُوا﴾ معناه بالعمل والقبول، و﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ هو القرآن والشرع، و﴿أَلْفِينَا﴾ معناه وجدنا، قال الشاعر: [المتقارب]

فَالْفَيْتُهُ غَيْرُ مُسْتَعْتَبٍ وَلَا ذَاكَرُ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا

والألف في قوله ﴿أَوَّلُو﴾ للاستفهام، والواو لعطف جملة كلام على جملة، لأن غاية الفساد في الالتزام أن يقولوا نتبع آباءنا ولو كانوا لا يعقلون، فقرروا على التزامهم هذا إذ هذه حال آبائهم.

وقوة ألفاظ هذه الآية تعطي إبطال التقليد، وأجمعت الأمة على إبطاله في العقائد.

وقوله تعالى: ﴿وَمِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، المراد تشبيه واعظ الكافرين وداعيتهم والكافرين الموعوظين بالراعي الذي ينق بالغنم أو الإبل فلا تسمع إلا دعاءه ونداءه ولا تفقه ما يقول، هكذا فسر ابن عباس وعكرمة والسدي وسيبويه.

قال القاضي أبو محمد: فذكر بعض هذه الجملة وترك البعض، ودل المذكور على المحذوف وهذه نهاية الإيجاز.

والنعيق زجر الغنم والسياح بها، قال الأخطل: [الكامل]

انْعَقْ بِضَائِكَ يَا جَرِيرُ فَإِنَّمَا مَتَّتْ نَفْسُكَ فِي الْخَلَاءِ ضَلَالًا

وقال قوم: إنما وقع هذا التشبيه براعي الضأن لأنها من أبلد الحيوان، فهي تحمق راعيها، وفي المثل أحرق من راعي ضأن ثمانين، وقد قال دريد لمالك بن عوف في يوم هوازن «راعي ضأن والله»، وقال الشاعر: [البسيط]

أَصْبَحْتُ هُرَّاءَ لِرَاعِي الضَّأْنِ يَهْزَأُ بِي مَاذَا يَرِيكَ مِنِّي رَاعِي الضَّأْنِ

فمعنى الآية أن هؤلاء الكفرة يمر الدعاء على آذانهم صفحا يسمعون ولا يفقهونه إذ لا ينتفعون بفقهه، وقال ابن زيد: المعنى في الآية: ومثل الذين كفروا في اتباعهم آلهتهم وعبادتهم إياها كمثل الذي ينق بما لا يسمع منه شيئا إلا دويًا غير مفيد، يعني بذلك الصدى الذي يستجيب من الجبال، ووجه الطبري في الآية معنى آخر، وهو أن المراد: ومثل الكافرين في عبادتهم آلهتهم كمثل الذي ينق بشيء بعيد منه فهو لا يسمع من أجل البعد، فليس للناقص من ذلك إلا النداء الذي يتعبه ويصبه، وإنما شبه في هذين التأويلين الكفار بالناقص والأصنام بالمنعوق به، وشبهوا في الصمم والبكم والعمى بمن لا حاسة له لما لم ينتفعوا بحواسهم ولا صرفوها في إدراك ما ينبغي، ومنه قول الشاعر: [الرجز]

أَصَمَّ عَمَّا سَاءَ، سَمِيعٌ

ولما تقرر فقد هم لهذه الحواس قضى بأنهم ﴿لا يعقلون﴾ إذ العقل كما قال أبو المعالي وغيره: علوم

ضرورية تعطيتها هذه الحواس، أو لا بد في كسبها من الحواس، وتأمل.

قوله عز وجل:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾

الطيب هنا يجمع الحلال المستلذ، والآية تشير بتبعض ﴿من﴾ إلى الحرام رزق، وحض تعالى على الشكر والمعنى في كل حالة، و﴿إن﴾ شرط، والمراد بهذا الشرط التثيت وهز النفس، كما تقول افعل كذا إن كنت رجلاً.

وقوله تعالى: ﴿إنما حرم عليكم﴾ ﴿إنما﴾ هنا حاصرة، و﴿الميتة﴾ نصب بحرم، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع «الميتة» بالتشديد، وقال الطبري وجماعة من اللغويين: التشديد والتخفيف من «ميت» و«ميت» لغتان، وقال أبو حاتم وغيره: ما قد مات فيقالان فيه، وما لم يميت بعد فلا يقال فيه «ميت» بالتخفيف. قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: هكذا هو استعمال العرب ويشهد بذلك قول الشاعر:

[الخفيف]

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَحَ بِمَيْتٍ إِنَّمَا الْمَيْتُ مَيْتُ الْأَحْيَاءِ

استراح: من الراحة، وقيل: من الرائحة، ولم يقرأ أحد بالتخفيف فيما لم يميت إلا ما روى البري عن ابن كثير ﴿وما هو بميت﴾ [إبراهيم: ١٧]، والمشهور عنه الثقيل، وأما قول الشاعر: [الوافر]

إِذَا مَا مَاتَ مَيْتٌ مِّنْ تَمِيمٍ فَسَرَّكَ أَنْ يَعِيشَ فَجِيءٌ بِزَادٍ

فالأبلغ في الهجاء أن يريد الميت حقيقة، وقد ذهب بعض الناس إلى أنه أراد من شارف الموت والأول أشعر، وقرأ قوم «الميتة» بالرفع على أن تكون ﴿ما﴾ بمعنى الذي و﴿إن﴾ عاملة، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي «حُرْمٌ» على ما لم يسم فاعله ورفع ما ذكر تحريمه، فإن كانت ﴿ما﴾ كافة فالميتة مفعول لم يسم فاعله، وإن كانت بمعنى الذي فالميتة خبر.

ولفظ «الميتة» عموم والمعنى مخصص لأن الحوت والجراد لم يدخل قط في هذا العموم، و«الميتة»: ما مات دون ذكاة مما له نفس سائلة، والطافي من الحوت جوزه مالك وغيره ومنعه العراقيون، وفي الميت دون تسبب من الجراد خلاف، منعه مالك وجمهور أصحابه وجوزه ابن نافع وابن عبد الحكم، وقال ابن وهب: إن ضم في غرائر فضمه ذكاته، وقال ابن القاسم: لا، حتى يصنع به شيء يموت منه كقطع الرؤوس

والأجنحة والأرجل أو الطرح في الماء، وقال سحنون: لا يطرح في ماء بارد، وقال أشهب: إن مات من قطع رجل أو جناح لم يؤكل لأنها حالة قد يعيش بها وينسل.

و﴿الدم﴾ يراد به المسفوح لأن ما خالط اللحم فغير محرم بإجماع، وفي دم الحوت المزايل للحوت اختلاف، روي عن القاسبي أنه طاهر، ويلزم من طهارته أنه غير محرم، وخص ذكر اللحم من الخنزير ليدل على تحريم عينه ذكي أو لم يذك، وليعم الشحم وما هنالك من الغضاريف وغيرها، وأجمعت الأمة على تحريم شحمه، وفي خنزير الماء كراهية، أبي مالك أن يجيب فيه، وقال أنتم تقولون خنزيراً. وذهب أكثر اللغويين إلى أن لفظة الخنزير رباعية، وحكى ابن سيده عن بعضهم أنه مشتق من خزر العين لأنه كذلك ينظر، فاللفظة على هذا ثلاثية.

و﴿ما أھل به لغير الله﴾، قال ابن عباس وغيره: المراد ما ذبح للأنصاب والأوثان، و﴿أهل﴾ معناه صحيح، ومنه استهلال المولود، وجرت عادة العرب بالصياح باسم المقصود بالذبيحة، وغلب ذلك في استعمالهم حتى عبر به عن النية التي هي علة التحريم، ألا ترى أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه راعى النية في الإبل التي نحرها غالب أبو الفرزدق، فقال إنها مما أھل به لغير الله فتركها الناس، ورأيت في أخبار الحسن بن أبي الحسن أنه سئل عن امرأة مترفة صنعت للعبها عرساً فذبحت جزوراً، فقال الحسن: لا يحل أكلها فإنها إنما ذبحت لصنم، وفي ذبيحة المجوسي اختلاف ومالك لا يجيزها البتة، وذبيحة النصراني واليهودي جائزة.

واختلف فيما حرم عليهم كالطريف والشحم وغيره بالإجازة والمنع، وقال ابن حبيب ما حرم عليهم بالكتاب فلا يحل لنا من ذبحهم، وما حرموه باجتهادهم فذاك لنا حلال، وعند مالك كراهية فيما سمي عليه الكتابي المسيحي أو ذبحه لكنيسته ولا يبلغ بذلك التحريم، وقوله تعالى ﴿فمن اضطر﴾ الآية، ضمت النون للالتقاء إتباعاً للضمة في الطاء حسب قراءة الجمهور، وقرأ أبو جعفر وأبو السمال ﴿فمن اضطر﴾ بكسر الطاء، وأصله اضطر فلما أذغم نقلت حركة الراء إلى الطاء، وقرأ ابن محيصن ﴿فمن اطر﴾ بإدغام الضاد في الطاء، وكذلك حيث ما وقع في القرآن، ومعنى ﴿اضطر﴾: ضمه عدم وغرث، هذا هو الصحيح الذي عليه جمهور العلماء والفقهاء، وقيل معناه أكره وغلب على أكل هذه المحرمات، و﴿غير باغ﴾ في موضع نصب على الحال، والمعنى فيها قال قتادة والربيع وابن زيد وعكرمة وغيرهم غير قاصد فساد وتعدّ بأن يجد عن هذه المحرمات مندوحة ويأكلها، وهؤلاء يجيزون الأكل منها في كل سفر مع الضرورة، وقال مجاهد وابن جبير وغيرهما المعنى غير باغ على المسلمين وعاد عليهم، فيدخل في الباغي والعادي قطاع السبل، والخارج على السلطان، والمسافر في قطع الرحم والغارة على المسلمين وما شاكله، ولغير هؤلاء هي الرخصة، وقال السدي ﴿غير باغ﴾ أي غير متزيد على حد إمساك رمقه وإبقاء قوته، فيجوز أكله شهوة، ﴿ولا عاد﴾ أي متزود، وقال مالك رحمه الله: «يأكل المضطر شبعه»، وفي الموطأ - وهو لكثير من العلماء: أنه يتزود إذا خشى الضرورة فيما بين يديه من مفازة وقفر، وقيل: في ﴿عاد﴾ أن معناه عايد، فهو من المقلوب كشاكي السلاح أصله شايك وكهار أصله هايروكلات أصله لاث وباغ أصله بايغ، استقلت الكسرة على

الباء فسكنت، والتنوين ساكن فحذفت الباء والكسرة تدل عليها. ورفع الله تعالى الإثم لما أحل الميتة للمضطر لأن التحريم في الحقيقة متعلقة بالتصرف بالأكل لا عين المحرم، ويطلق التحريم على العين تجوزاً، ومنع قوم التزود من الميتة وقالوا لما استقلت قوة الأكل صار كمن لم تصبه ضرورة قبل.

ومن العلماء من يرى أن الميتة من ابن آدم والخنزير لا تكون فيها رخصة اضطرار، لأنهما لا تصح فيهما ذكاة بوجه، وإنما الرخصة فيما تصح الذكاة في نوعه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ الآية، قال ابن عباس وقتادة والربيع والسدي: المراد أحبار اليهود الذين كتموا أمر محمد صلى الله عليه وسلم، و﴿الكتاب﴾: التوراة والإنجيل، والضمير في ﴿به﴾ عائذ على ﴿الكتاب﴾، ويحتمل أن يعود على ﴿ما﴾ وهو جزء من الكتاب، فيه أمر محمد صلى الله عليه وسلم، وفيه وقع الكتم لا في جميع الكتاب، ويحتمل أن يعود على الكتمان، والثمن القليل: الدنيا والمكاسب، ووصف بالقلّة لانقضائه ونفاده، وهذه الآية وإن كانت نزلت في الأحبار فإنها تتناول من علماء المسلمين من كتم الحق مختاراً لذلك لسبب دنيا يصيبها.

وذكرت البطون في أكلهم المؤدي إلى النار دلالة على حقيقة الأكل، إذ قد يستعمل مجازاً في مثل أكل فلان أرضي ونحوه، وفي ذكر البطن أيضاً تنبيه على مذمتهم بأنهم باعوا آخرتهم بحظهم من المطعم الذي لا خطر له، وعلى هجنتهم بطونهم، وقال الربيع وغيره: سمي مأكلهم ناراً لأنه يؤول بهم إلى النار، وقيل: معنى الآية: أن الله تعالى يعاقبهم على كتمانهم بأكل النار في جهنم حقيقة، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْلَمُهُمْ﴾ قيل: هي عبارة عن الغضب عليهم وإزالة الرضى عنهم، إذ في غير موضع من القرآن ما ظاهره أن الله تعالى يكلم الكافرين، كقوله ﴿اخْسَوْا فِيهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، ونحوه، فتكون هذه الآية بمنزلة قولك: «فلان لا يكلمه السلطان ولا يلتفت إليه» وأنت إنما تعبر عن انحطاط منزلته لديه، وقال الطبري وغيره: المعنى ولا يكلمهم بما يحبون، وقيل: المعنى لا يرسل إليهم الملائكة بالتحية، ﴿وَلَا يَزْكِيهِمْ﴾ معناه: لا يطهرهم من موجبات العذاب، وقيل: المعنى لا يسميهم أركياء، و﴿أَلِيمٌ﴾ اسم فاعل بمعنى مؤلم.

قوله عز وجل:

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ ۖ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾
 ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾
 لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
 وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ
 وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا

عَهْدُهُمْ أَوْ الصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾
لما تركوا الهدى وأعرضوا عنه ولازموا الضلالة وتكسبوها مع أن الهدى ممكن لهم ميسر كان ذلك
كبيع وشراء، وقد تقدم إيعاب هذا المعنى، ولما كان العذاب تابِعاً للضلالة التي اشتروها وكانت المغفرة
تابعة للهدى الذي اطرحوه أدخلا في تجوز الشراء.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾، قال جمهور المفسرين: ﴿مَا﴾ تعجب، وهو في حيز
المخاطبين، أي هم أهل أن تعجبوا منهم، ومما يطول مكثهم في النار، وفي التنزيل: ﴿قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا
أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: ١٧]، و﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصُرْ﴾ [مريم: ٣٨]، وبهذا المعنى صدر أبو علي، وقال قتادة
والحسن وابن جبير والربيع: أظهر التعجب من صبرهم على النار لما عملوا عمل من وطن نفسه عليها،
وتقديره: ما أجزأهم على النار إذ يعملون عملاً يؤدي إليها، وقيل: ﴿مَا﴾ استفهام معناه أي شيء أصبرهم
على النار، ذهب إلى ذلك معمر بن المثنى، والأول أظهر، ومعنى ﴿أَصْبَرَهُمْ﴾ في اللغة أمرهم بالصبر،
ومعناه أيضاً جعلهم ذوي صبر، وكلا المعنيين متجه في الآية على القول بالاستفهام، وذهب المبرد في باب
التعجب من المقتضب إلى أن هذه الآية تقرير واستفهام لا تعجب، وأن لفظة ﴿أَصْبِرْ﴾ بمعنى اضطر
وحبس، كما تقول أصبرت زيدا على القتل، ومنه نهى النبي عليه السلام أن يصبر الروح، قال: ومثله قول
الشاعر: [السريع]

قُلْتُ لَهَا أَصْبُرُهَا دَائِباً أَمْثَالُ بَسْطَامِ بْنِ قَيْسٍ قَلِيلٌ

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: الضبط عند المبرد بضم الهمزة وكسر الباء، ورد عليه
في ذلك كله بأنه لا يعرف في اللغة أصبر بمعنى صبر وإنما البيت أصبُرُها بفتح الهمزة وضم الباء ماضيه
صبر، ومنه المصبورة، وإنما يرد قول أبي العباس على معنى اجعلها ذات صبر.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ الآية، المعنى ذلك الأمر أو الأمر ذلك بأن الله نزل
الكتاب بالحق فكفروا به، والإشارة على هذا إلى وجوب النار لهم، ويحتمل أن يقدر فعلنا ذلك، ويحتمل
أن يقدر وجب ذلك، ويكون ﴿الكتاب﴾ جملة القرآن على هذه التقديرات: وقيل: إن الإشارة بـ ﴿الكتاب﴾ إلى
قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ﴾ [البقرة: ٦]، أي وجبت لهم النار بما قد نزل الله في
الكتاب من الخبر به، والإشارة بذلك على هذا إلى اشتراطهم الضلالة بالهدى، أي ذلك بما سبق لهم في
علم الله وورود إخباره به، و﴿الحق﴾ معناه بالواجب، ويحتمل أن يراد بالأخبار الحق: أي الصادقة.

و﴿الذين اختلفوا في الكتاب﴾، قال السدي: «هم اليهود والنصارى لأن هؤلاء في شق وهؤلاء في
شق».

قال القاضي أبو محمد: ويظهر أن الشقاق سميت به المشارّة والمقاتلة ونحوه، لأن كل واحد يشق
الوصل الذي بينه وبين مشاقه، وقيل: إن المراد بـ ﴿الذين اختلفوا﴾ كفار العرب لقول بعضهم هو سحر،
وبعضهم هو أساطير، وبعضهم هو مفترى، إلى غير ذلك، وشقاق هذه الطوائف إنما هو مع الإسلام
وأهله، و﴿بعيد﴾ هنا معناه من الحق والاستقامة.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ﴾ الآية: قرأ أكثر السبعة برفع الراء، و«البر» اسم ليس، قال أبو علي: «ليس بمنزلة الفعل فالوجه أن يليها الفاعل ثم المفعول».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: مذهب أبي علي أن ﴿ليس﴾ حرف، والصواب الذي عليه الجمهور أنها فعل، وقرأ حمزة وعاصم في رواية حفص «ليس البر» بنصب الراء، جعل ﴿أن تولوا﴾ بمنزلة المضمر، إذ لا يوصف كما لا يوصف المضمر، والمضمر أولى أن يكون اسماً يخبر عنه، وفي مصحف أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود ﴿ليس البر بأن تولوا﴾، وقال الأعمش: إن في مصحف عبد الله: لا تحسن البر، وقال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: الخطاب بهذه الآية للمؤمنين، فالمعنى ليس البر الصلاة وحدها، وقال قتادة والربيع: الخطاب لليهود والنصارى لأنهم اختلفوا في التوجه والتولي، فاليهود إلى بيت المقدس والنصارى إلى مطلع الشمس، وتكلموا في تحويل القبلة وفضلت كل فرقة توليها، فقيل لهم ليس البر ما أتم فيه ولكن البر من آمن بالله. قرأ قوم «ولكن البر» بشد النون ونصب البر، وقرأ الجمهور «ولكن البر» والتقدير ولكن البر من، وقيل: التقدير ولكن ذو البر من، وقيل: ﴿البر﴾ بمنزلة اسم الفاعل تقديره ولكن البار من، والمصدر إذا أنزل منزلة اسم الفاعل فهو ولا بد محمول على حذف مضاف، كقولك رجل عدل ورضى.

والإيمان التصديق، أي صدق بالله تعالى وبهذه الأمور كلها حسب مخبرات الشرائع.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ الآية، هذه كلها حقوق في المال سوى الزكاة، وبها كمال البر، وقيل هي الزكاة، و﴿أتى﴾ معناه أعطى، والضمير في ﴿حبه﴾ عائد على ﴿المال﴾ فالمصدر مضاف إلى المفعول، ويجيء قوله ﴿على حبه﴾ اعتراضاً بليغاً أثناء القول، ويحتمل أن يعود الضمير على الإيتاء أي في وقت حاجة من الناس وفاقة، فإيتاء المال حبيب إليهم، ويحتمل أن يعود على اسم الله تعالى من قوله: ﴿من آمن بالله﴾ أي من تصدق محبة في الله تعالى وطاعته، ويحتمل أن يعود على الضمير المستكن في ﴿أتى﴾ أي على حبه المال، فالمصدر مضاف إلى الفاعل، والمعنى المقصود: أن يتصدق المرء في هذه الوجوه وهو شحيح صحيح يخشى الفقر ويأمل الغنى، كما قال صلى الله عليه وسلم.

قال القاضي أبو محمد: والشح في هذا الحديث هو الغريزي الذي في قوله تعالى: ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ [النساء: ١٢٨]، وليس المعنى أن يكون المتصدق متصفاً بالشح الذي هو البخل، و﴿ذوي القربى﴾ يراد به قرابة النسب.

واليتيم في الآدميين من قبل الأب قبل البلوغ، وقال مجاهد وغيره: ﴿ابن السبيل﴾ المسافر لملازمته السبيل.

قال القاضي أبو محمد: وهذا كما يقال ابن ماء للطائر الملازم للماء، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنة ابن زنى» أي الملازم له، وقيل: لما كانت السبيل تبرزه شبه ذلك بالولادة فنسب إليها، وقال قتادة: ﴿ابن السبيل﴾ الضيف، والأول أعم، و﴿في الرقاب﴾: يراد به العتق وفك الأسرى وإعطاء أواخر الكتابات، و﴿إقام الصلاة﴾ أتمها بشروطها، وذكر الزكاة هنا دليل على أن ما تقدم ليس

بالزكاة المفروضة، و﴿الموفون﴾ عطف على ﴿من﴾ في قوله: ﴿من آمن﴾، ويحتمل أن يقدر وهم الموفون، و﴿الصابرين﴾ نصب على المدح أو على إضمار فعل، وهذا مهيع في تكرار النعوت، وفي مصحف عبد الله بن مسعود «والموفين» على المدح أو على قطع النعوت، وقرأ يعقوب والأعمش والحسن «والموفون» «والصابرون»، وقرأ الجحدري «بعبودهم»، و﴿البأساء﴾ الفقر والفاقة، و﴿الضراء﴾ المرض ومصائب البدن، و﴿حين البأس﴾ وقت شدة القتال.

هذا قول المفسرين في الألفاظ الثلاثة، وتقول العرب: بش الرجل إذا افتقر، وبؤس إذا شجع. ثم وصف تعالى أهل هذه الأفعال البرة بالصدق في أمورهم أي هم عند الظن بهم والرجاء فيهم كما تقول: صدقني المال وصدقني الربح، ومنه عود صدق، وتحتمل اللفظة أيضاً صدق الإخبار، ووصفهم الله تعالى بالتقى، والمعنى هم الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية من العمل الصالح.

قوله عز وجل:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأِذَا بَاعَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّنْ عَبْدِي بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾

﴿كتب﴾ معناه فرض وأثبت، والكتب مستعمل في الأمور المخدلات الدائمة كثيراً، وقيل إن ﴿كتب﴾ في مثل هذا إخبار عما كتب في اللوح المحفوظ وسبق به القضاء، وصورة فرض القصاص هو أن القاتل فرض عليه إذا أراد الولي القتل الاستسلام لأمر الله والانقياد لقصاصه المشروع، وأن الولي فرض عليه الوقوف عند قتل قاتل ولية وترك التعدي على غيره كما كانت العرب تتعدى وتقتل بقتليها الرجل من قوم قاتله، وأن الحكام وأولي الأمر فرض عليهم النهوض بالقصاص وإقامة الحدود، وليس القصاص بلزام إنما اللزام أن لا يتجاوز القصاص إلى اعتداء، فأما إذا وقع الرضى بدون القصاص من دية أو عفو فذاك مباح، فالآية معلمة أن القصاص هو الغاية عند التشاح، و﴿القصاص﴾ مأخوذ من قص الأثر فكان القاتل سلك طريقاً من القتل فقصر أثره فيها ومشى على سبيله في ذلك، و﴿القتلى﴾ جمع قتيل، لفظ مؤنث تأنيث الجماعة وهو مما يدخل على الناس كرهاً فلذلك جاء على هذا البناء كجرحي وزمنى وحمقى وصرعى وغرقى.

واختلف في سبب هذه الآية، فقال الشعبي: إن العرب كان أهل العزة منهم والمنعة إذا قتل منهم عبد قتلوا به حراً، وإذا قتل امرأة قتلوا بها ذكراً، فنزلت الآية في ذلك ليعلم الله تعالى بالسوية ويذهب أمر الجاهلية، وحكي أن قوماً من العرب تقاتلوا قتال عمية ثم قال بعضهم: نقتل بعبيدنا أحراراً، فنزلت الآية،

وقيل: نزلت بسبب قتال وقع بين قبيلتين من الأنصار، وقيل: من غيرهم فقتل هؤلاء من هؤلاء رجالاً وعبيداً ونساء، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلح بينهم ويقاصهم بعضهم ببعض بالديات على استواء الأحرار بالأحرار والنساء بالنساء والعبيد بالعبيد، وروي عن ابن عباس أن الآية نزلت مقتضية أن لا يقتل الرجل بالمرأة ولا المرأة بالرجل ولا يدخل صنف على صنف ثم نسخت بآية المائدة أن النفس بالنفس.

قال القاضي أبو محمد: هكذا روي، وآية المائدة إنما هي إخبار عما كتب على بني إسرائيل، فلا يترتب النسخ إلا بما تلقى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن حكمنا في شرعنا مثل حكمهم، وروي عن ابن عباس فيما ذكر أبو عبيد وعن غيره أن هذه الآية محكمة وفيها إجمال فسرته آية المائدة، وأن قوله هنا ﴿الحر بالحر﴾ يعم الرجال والنساء، وقاله مجاهد.

وقال مالك رحمه الله: أحسن ما سمعت في هذه الآية أنه يراد بها الجنس الذكر والأنثى فيه سواء، وأعيد ذكر ﴿الأنثى﴾ تأكيداً وتهمماً بإذهاب أمر الجاهلية، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعن الحسن بن أبي الحسن أن الآية نزلت مبينة حكم المذكورين ليدل ذلك على الفرق بينهم وبين أن يقتل حر عبداً أو عبد حراً أو ذكر أنثى أو أنثى ذكراً، وقالوا: إنه إذا قتل رجل امرأة فإن أولياؤها قتلوا صاحبهم ووفوا أولياءه نصف الدية منه وإن أرادوا استحويه وأخذوا منه دية المرأة، وإذا قتلت المرأة رجلاً فإن أراد أولياؤه قتلوا وأخذوا نصف الدية وإلا أخذوا دية صاحبهم واستحيوها، وإذا قتل الحر العبد فإن أراد سيد العبد قتل وأعطى دية الحر إلا قيمة العبد وإن شاء استحيا وأخذ قيمة العبد، هذا مذكور عن علي رضي الله عنه وعن الحسن، وقد أنكر ذلك عنهما أيضاً، واجمعت الأمة على قتل الرجل بالمرأة والمرأة بالرجل، والجمهور لا يرون الرجوع بشيء، وفرقة ترى الاتباع بفضل الديات، قال مالك والشافعي: وكذلك القصاص بينهما فيما دون النفس، وقال أبو حنيفة: لا قصاص بينهما فيما دون النفس وإنما هو في النفس بالنفس، وقال النخعي وقتادة وسعيد بن المسيب والشعبي والثوري وأبو حنيفة ومحمد بن الحسن وأبو يوسف: يقتل الحر بالعبد، وقال مالك رحمه الله وجمهور من العلماء: لا يقتل الحر بالعبد، ودليلهم إجماع الأمة على أن العبد لا يقاوم الحر فيما دون النفس، فالنفس مقيسة على ذلك، وأيضاً فالإجماع فيمن قتل عبداً خطأ أنه ليس عليه إلا القيمة، فكما لم يشبه الحر في الخطأ لم يشبهه في العمد، وأيضاً فإن العبد سلعة من السلع يباع ويشترى، وإذا قتل الرجل ابنه فإن قصد إلى قتله مثل أن يضجعه ويذبحه أو يصبره مما لا عذر له فيه ولا شبهة في ادعاء الخطأ فإنه يقتل به قولاً واحداً في مذهب مالك، وإن قتله على حد ما يرمي أو يضرب فيقتله ففيه في المذهب قولان: يقتل به، ولا يقتل وتغلظ الدية.

وقوله تعالى: ﴿فمن عفى له من أخيه شيء﴾ فيه أربع تأويلات:

أحدها أن ﴿من﴾ يراد بها القاتل و﴿عفى﴾ يتضمن عافياً هو ولي الدم والأخ هو المقتول، ويصح أن يكون هو الولي على هذا التأويل، وهي أخوة الإسلام، و﴿شيء﴾ هو الدم الذي يعفى عنه ويرجع إلى أخذ الدية، هذا قول ابن عباس وجماعة من العلماء، والعفو في هذا القول على بابه والضميران راجعان على ﴿من﴾ في كل تأويل.

والتأويل الثاني وهو قول مالك: ان ﴿من﴾ يراد بها الولي، و﴿عفي﴾ بمعنى يسر لا على بابها في العفو، والأخ يراد به القاتل، و﴿شيء﴾ هي الدية، والأخوة على هذا أخوة الإسلام، ويحتمل أن يراد بالأخ على هذا التأويل المقتول أي يسر له من قبل أخيه المقتول وبسببه، فتكون الأخوة أخوة قرابة وإسلام، وعلى هذا التأويل قال مالك رحمه الله: إن الولي إذا جنح إلى العفو على أخذ الدية فإن القاتل مخير بين أن يعطيها أو يسلم نفسه فمرة تيسر ومرة لا تيسر، وغير مالك يقول: إذا رضي الأولياء بالدية فلا خيار للقاتل بل تلزمه، وقد روي أيضاً هذا القول عن مالك ورجحه كثير من أصحابه.

والتأويل الثالث أن هذه الألفاظ في المعنيين الذين نزلت فيهم الآية كلها وتساقطوا الديات فيما بينهم مقاصة حسبما ذكرناه آنفاً، فمعنى الآية فمن فضل له من الطائفتين على الأخرى شيء من تلك الديات، ويكون ﴿عفي﴾ بمعنى فضل من قولهم عفا الشيء إذا كثر أي أفضلت الحال له أو الحساب أو القدر.

والتأويل الرابع هو على قول علي رضي الله عنه والحسن بن أبي الحسن في الفضل بين دية المرأة والرجل والحر والعبد، أي من كان له ذلك الفضل فاتباع بالمعروف، و﴿عفي﴾ في هذا الموضع أيضاً بمعنى أفضل، وكان الآية من أولها بينت الحكم إذا لم تتداخل الأنواع ثم الحكم إذا تداخلت، و﴿شيء﴾ في هذه الآية مفعول لم يسم فاعله، وجاز ذلك و﴿عفي﴾ لا يتعدى الماضي الذي بنيت منه من حيث يقدر ﴿شيء﴾ تقدير المصدر، كأن الكلام: عفي له من أخيه عفو، و﴿شيء﴾ اسم عام لهذا وغيره، أو من حيث تقدر ﴿عفي﴾ بمعنى ترك فتعمل عملها، والأول أجود، وله نظائر في كتاب الله، منها قوله تعالى: ﴿ولا تضرونه شيئاً﴾ [هود: ٥٧]، قال الأخفش: التقدير لا تضرونه ضرراً، ومن ذلك قول أبي خراش: [الطويل]

فَعَاذَيْتُ شَيْئاً وَالدَّرِيسَ كَأَنَّمَا يُزْعِزُهُ وَرَدَّ مِنَ الْمَوْمِ مُرْدَمٌ

وقوله تعالى: ﴿فاتباع﴾ رفع على خبر ابتداء مضمرة تقديره فالواجب والحكم اتباع، وهذا سبيل الواجبات كقوله تعالى ﴿فإمسك بمعروف﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وأما المندوب إليه فيأتي منصوباً كقوله تعالى ﴿فضرب الرقاب﴾ [محمد: ٤]، وهذه الآية حض من الله تعالى على حسن الاقتضاء من الطالب وحسن القضاء من المؤدي، وقرأ ابن أبي عبيدة «فاتباعاً» بالنصب.

وقوله تعالى: ﴿ذاك تخفيف من ربكم﴾ إشارة إلى ما شرعه لهذه الأمة من أخذ الدية، وكانت بنو إسرائيل لا دية عندهم إنما هو القصاص فقط، والاعتداء المتوعد عليه في هذه الآية هو أن يأخذ الرجل دية وليه ثم يقتل القاتل بعد سقوط الدم واختلف في العذاب الأليم الذي يلحقه: فقال فريق من العلماء منهم مالك: هو كمن قتل ابتداء إن شاء الولي قتله وإن شاء عفا عنه، وعذابه في الآخرة، وقال قتادة وعكرمة والسدي وغيرهم: عذابه أن يقتل البتة ولا يمكن الحاكم الولي من العفو، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ينقسم أن لا يعفى عن رجل عفا عن الدم وأخذ الدية ثم عدا فقتل، وقال الحسن: عذابه أن يرد الدية فقط ويبقى إثمه إلى عذاب الآخرة، وقال عمر بن عبد العزيز أمره إلى الإمام يصنع فيه ما رأى.

وقوله تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ نحوه قول العرب في مثل: القتل أوقى للقتل، ويروى:

أبقى، بقاء وقاف، ويروى أنفى بنون وفاء، والمعنى أن القصاص إذا أقيم وتحقق الحكم به ازدجر من يريد قتل أحد مخافة أن يقتص منه فحياً بذلك معاً، وهذا الترتيب مما سبق لهما في الأزل، وأيضاً فكانت العرب إذا قتل الرجل الآخر حمي قبيلاهما وتقاتلوا وكان ذلك داعية إلى موت العدد الكثير، فلما شرع الله القصاص قنع الكل به ووقف عنده وتركوا الاقتتال، فلهم في ذلك حياة، وخص ﴿أولي الألباب﴾ بالذكر تنبيهاً عليهم، لأنهم العارفون القابلون للأوامر والنواهي، وغيرهم تبع لهم، و﴿تتقون﴾ معناه القتل فتسلمون من القصاص ثم يكون ذلك داعية لأنواع التقوى في غير ذلك فإن الله تعالى يثيب على الطاعة بالطاعة، وقرأ أبو الجوزاء أوس بن عبد الله الربيعي «ولكم في القصص» أي في كتاب الله الذي شرع فيه القصاص وحكمه، ويحتمل أن يكون مصدرأ كالقصاص، أي إنه قص أثر القاتل قصصاً فقتل كما قتل.

وقوله تعالى: ﴿كتب عليكم﴾ الآية، كأن الآية متصلة بقوله ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فلذلك سقطت واو العطف، و﴿كتب﴾ معناه فرض وأثبت، وقال بعض أهل العلم: الوصية فرض، وقال قوم: كانت فرضاً ونسخت، وقال فريق: هي مندوب إليها، و﴿كتب﴾ عامل في رفع ﴿الوصية﴾ على المفعول الذي لم يسم فاعله في بعض التقديرات، وسقطت علامة التأنيث من ﴿كتب﴾ لطول الكلام فحسن سقوطها، وقد حكى سيبويه: قام امرأة، ولكن حسن ذلك إنما هو مع طول الحائل، ولا يصح عند جمهور النحاة أن تعمل ﴿الوصية﴾ في ﴿إذا﴾ لأنها في حكم الصلة للمصدر الذي هو ﴿الوصية﴾، وقد تقدمت فلا يجوز أن يعمل فيها متقدمة، ويتجه في إعراب هذه الآية أن يكون ﴿كتب﴾ هو العامل في ﴿إذا﴾ والمعنى توجه إيجاب الله عليكم ومقتضى كتابه إذا حضر، فعبّر عن توجه الإيجاب بـ ﴿كتب﴾ لينتظم إلى هذا المعنى أنه مكتوب في الأزل، و﴿الوصية﴾ مفعول لم يسم فاعله بـ ﴿كتب﴾ وجواب الشرطين ﴿إذا﴾ و﴿إن﴾ مقدّر، يدل عليه ما تقدم من قوله ﴿كتب عليكم﴾، كما تقول شكرت فعلك إن جئتني إذا كان كذا، ويتجه في إعرابها أن يكون التقدير: كتب عليكم الإيضاء، ويكون هذا الإيضاء المقدّر الذي يدل عليه ذكر الوصية بعد هو العامل في ﴿إذا﴾، وترتفع ﴿الوصية﴾ بالابتداء وفيه جواب الشرطين على نحو ما أنشد سيبويه: [البسيط]

مَنْ يَفْعَلِ الصَّالِحَاتِ اللَّهُ يَحْفَظْهَا

أو يكون رفعها بالابتداء بتقدير: فعليه الوصية، أو بتقدير الفاء فقط، كأنه قيل: فالوصية للوالدين، ويتجه في إعرابها أن تكون ﴿الوصية﴾ مرتفعة بـ ﴿كتب﴾ على المفعول الذي لم يسم فاعله، وتكون ﴿الوصية﴾ هي العامل في ﴿إذا﴾، وهذا على مذهب أبي الحسن الأخفش فإنه يجيز أن يتقدم ما في الصلة الموصول بشرطين هما في هذه الآية، أحدهما أن يكون الموصول ليس بموصول محض بل يشبه الموصول، وذلك كالألف واللام حيث توصل، أو كالمصدر، وهذا في الآية مصدر وهو ﴿الوصية﴾، والشرط الثاني أن يكون المتقدم ظرفاً فإن في الظرف يسهل الاتساع، و﴿إذا﴾ ظرف وهذا هو رأي أبي الحسن في قول الشاعر:

[الطويل]

تَقُولُ وَصَّكَتُ وَجْهَهَا بِمِيزَانِهَا أَبْعَلِي هَذَا بِالرَّحَا الْمُتَقَاعِسِ

فإنه يرى أن «بالرحا» متعلق بقوله المتقاعس، كأنه قال: أبعلي هذا المتقاعس بالرحا، وجواب الشرطين في هذا القول كما ذكرناه في القول الأول، وفي قوله تعالى ﴿إِذَا حَضَرَ﴾ مجاز لأن المعنى إذا تخوف وحضرت علاماته، والخير في هذه الآية المال.

واختلف موجبو الوصية في القدر الذي تجب منه، فقال الزهري وغيره: تجب فيما قل وفيما كثر، وقال النخعي: تجب في خمسمائة درهم فصاعداً، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقتادة: في ألف فصاعداً.

واختلف العلماء في هذه الآية، فقال فريق: محكمة ظاهرها العموم ومعناها الخصوص في الوالدين اللذين لا يرثان كالكافرين والعبدین، وفي القرابة غير الوارثة، وقال ابن عباس والحسن وقتادة: الآية عامة وتقرر الحكم بها برهنة ونسخ منها كل من يرث بآية الفرائض، وفي هذه العبارة يدخل قول ابن عباس والحسن وغيرهما إنه نسخ منها الوالدان وثبت الأقربون الذين لا يرثون، وبين أن آية الفرائض في سورة النساء ناسخة، لهذا الحديث المتواتر: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث».

وقال ابن عمر وابن عباس أيضاً وابن زيد: الآية كلها منسوخة وبقيت الوصية ندباً، ونحو هذا قول مالك رحمه الله، وقال الربيع بن خثيم وغيره: لا وصية لوارث، وقال عروة بن ثابت للربيع بن خثيم: أوص لي بمصحفك، فنظر الربيع إلى ولده وقرأ: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦]، ونحو هذا صنع ابن عمر رضي الله عنه.

وقال بعض أهل العلم: إن الناسخ لهذه الآية هي السنة المتواترة في الحديث المذكور قبل، وقد تقدم توجيه نسخ السنة للكتاب في تفسير قوله تعالى ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾ [البقرة: ١٠٦].

وقال قوم من العلماء: الوصية للقرابة أولى فإن كانت لأجنبي فمعهم ولا تجوز لغيرهم مع تركهم.

وقال الناس حين مات أبو العالية: عجباً له أعتقته امرأة من رياح وأوصى بماله لبني هاشم.

وقال الشعبي: «لم يكن ذلك له ولا كرامة».

وقال طاوس: «إذا أوصى لغير قرابة ردت الوصية إلى قرابته ونقض فعله» وقاله جابر بن زيد.

وقال الحسن وجابر بن زيد أيضاً وعبد الملك بن يعلى: يبقى ثلث الوصية حيث جعلها ويرد ثلثاها إلى قرابته.

وقال مالك رحمه الله وجماعة من العلماء: الوصية ماضية حيث جعلها الميت، والأقربون: جمع أقرب، و﴿بالمعروف﴾ معناه بالقصد الذي تعرفه النفوس دون إضرار بالورثة ولا تبذير للوصية، و﴿حقاً﴾ مصدر مؤكد، وخص المتقون بالذكر تشريفاً للرتبة ليتبادر الناس إليها.

قوله عز وجل:

فَمَنْ بَدَلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَأَنَّهُ إِنَّمَا عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا

أَوْ إِنَّمَا فَاصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾

الضمير في ﴿بدله﴾ عائد على الإيصاء وأمر الميت وكذلك في ﴿سمعه﴾، ويحتمل أن يعود الذي في ﴿سمعه﴾ على أمر الله تعالى في هذه الآية، والقول الأول أسبق للناظر، لكن في ضمنه أن يكون المبدل عالماً بالنهي عامداً لخلافه، والضمير في ﴿إثم﴾ عائد على التبديل، و﴿سميع عليم﴾ صفتان لا يخفى معهما شيء من جنف الموصين وتبديل المتعدين، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم «من موصٍ» بفتح الواو وتشديد الصاد، وقرأ الباقون بسكون الواو، والجنف الميل، وقال الأعشى: [الطويل]

تَجَانِفُ عَنْ جَنْبِ الْيَمَامَةِ نَاقَتِي وَمَا قَصَدْتُ مِنْ أَهْلِهَا لِسَوَائِكَا

وقال عامر الرامي الحضرمي المحاربي: [الوافر]

هُمُ الْمَوْلَى وَقَدْ جَنَفُوا عَلَيْنَا وَإِنَّا مِنْ عَدَوَاتِهِمْ لَزُورُ

ومعنى الآية على ما قال مجاهد: من خشي أن يحيف الموصي ويقطع ميراث طائفة ويتعمد الإذابة أو يأتيها دون تعمد وذلك هو الجنف دون إثم وإذا تعمد فهو الجنف في إثم، فالمعنى: من وعظه في ذلك ورده عنه فاصلح بذلك ما بينه وبين ورثته وما بين الورثة في ذاتهم ﴿فلا إثم عليه﴾، إن الله غفور ﴿عن الموصي إذا عملت فيه الموعظة ورجع عما أراد من الإذابة﴾ ﴿رحيم﴾ به.

وقال ابن عباس رضي الله عنه وقتادة والربيع: معنى الآية: من خاف أي علم ورأى وأتى علمه عليه بعد موت الموصي أن الموصي خلف وجنف وتعمد إذابة بعض ورثته فأصلح ما وقع بين الورثة من الاضطراب والشقاق فلا إثم عليه، أي لا يلحقه إثم المبدل المذكور قبل وإن كان في فعله تبديل ما ولا بد، لكنه تبديل لمصلحة، والتبديل الذي فيه الإثم إنما هو تبديل الهوى. وقرأ عبد الله بن عمر رضي الله عنه: ﴿فلا إثم عليه﴾ بحذف الألف، و﴿كتب﴾: معناه فرض.

والصيام في اللغة الإمساك وترك التنقل من حالٍ إلى حالٍ، ومنه قول النابغة: [البسيط]

خَيْلٌ صِيَامٌ وَخَيْلٌ غَيْرُ صَائِمَةٍ تَحْتَ الْعَجَاجِ وَخَيْلٌ تَعْلُكُ اللَّجْمَا

أي خيل ثابتة ممسكة، ومنه قول الله تعالى: ﴿إني نذرت للرحمن صوماً﴾ [مريم: ٢٦] أي إمساكاً عن الكلام، ومنه قول امرئ القيس: [الطويل]

كَأَنَّ الثَّرِيًّا عُلِّقَتْ فِي مَصَامِهَا

أي في موضع ثبوتها وامتساكها، ومنه قوله: [الطويل]

فَدَعْ ذَا وَسَلْ أَلْهَمَ عَنْكَ بِجَسْرَةٍ ذَمُولٍ إِذَا صَامَ النَّهَارُ وَهَجَرًا

أي وقفت الشمس عن الانتقال وثبتت، والصيام في الشرع إمساك عن الطعام والشراب مقترنة به قرائن من مراعاة أوقات وغير ذلك، فهو من مجمل القرآن في قول الحذاق، والكاف من قوله ﴿كَمَا﴾ في موضع نصب على النعت، تقديره كتباً كما، أو صوماً كما، أو على الحال كأن الكلام: كتب عليكم الصيام مشبهاً ما كتب على الذين من قبلكم.

وقال بعض النحاة: الكاف في موضع رفع على النعت للصيام إذ ليس تعريفه بمحض لمكان الإجمال الذي فيه مما فسرتة الشريعة فلذلك جاز نعته بـ ﴿كَمَا﴾ إذ لا تنعت بها إلا النكرات فهو بمنزلة كتب عليكم صيام، وقد ضعف هذا القول.

واختلف المتأولون في موضع التشبيه، فقال الشعبي وغيره: المعنى كتب عليكم رمضان كما كتب على النصارى، قال: «فإنه كتب عليهم رمضان فبدلوه لأنهم احتاطوا له بزيادة يوم في أوله ويوم في آخره قرناً بعد قرن حتى بلغوه خمسين يوماً، فصعب عليهم في الحر فنقلوه إلى الفصل الشمسي».

قال النقاش: «وفي ذلك حديث عن دغفل بن حنظلة والحسن البصري والسدي»، وقيل: بل مرض ملك من ملوكهم فنذر إن برىء أن يزيد فيه عشرة أيام، ثم آخر سبعة، ثم آخر ثلاثة، ورأوا أن الزيادة فيه حسنة بإزاء الخطأ في نقله.

وقال السدي والربيع: التشبيه هو أن من الإفطار إلى مثله لا يأكل ولا يشرب ولا يطأ، فإذا حان الإفطار فلا يفعل هذه الأشياء من نام، وكذلك كان في النصارى أولاً، وكان في أول الإسلام، ثم نسخه الله بسبب عمر وقيس بن صرمة بما يأتي من الآيات في ذلك.

وقال عطاء: «التشبيه كتب عليكم الصيام ثلاثة أيام من كل شهر - قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وفي بعض الطرق: ويوم عاشوراء - كما كتب على الذين من قبلكم ثلاثة أيام من كل شهر ويوم عاشوراء، ثم نسخ هذا في هذه الأمة بشهر رمضان».

وقالت فرقة: التشبيه كتب عليكم كصيام بالإطلاق، أي قد تقدم في شرع غيركم، فـ ﴿الَّذِينَ﴾ عام في النصارى وغيرهم، وـ ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ترجّح في حقهم، وـ ﴿تَتَّقُونَ﴾ قال السدي: معناه تتقون الأكل والشرب والوطء بعد النوم على قول من تأول ذلك، وقيل: تتقون على العموم، لأن الصيام كما قال عليه السلام: «جنة» ووجاء وسبب تقوى، لأنه يمت الشهوات.

وـ ﴿أَيَّامًا﴾ مفعول ثان بـ ﴿كُتِبَ﴾، قاله الفراء، وقيل: هي نصب على الظرف، وقيل: نصبها بـ ﴿الصَّيَامِ﴾، وهذا لا يحسن إلا على أن يعمل الصيام في الكاف من ﴿كَمَا﴾ على قول من قدر: صوماً كما، وإذا لم يعمل في الكاف قبح الفصل بين المصدر وبين ما عمل فيه بما عمل فيه غيره، وذلك إذا كان العامل في الكاف ﴿كُتِبَ﴾، وجوز بعضهم أن يكون ﴿أَيَّامًا﴾ ظرفاً يعمل فيه ﴿الصَّيَامِ﴾، وـ ﴿مَعْدُودَاتٍ﴾، قيل: رمضان، وقيل: الثلاثة الأيام.

وقوله تعالى ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾، التقدير: فأفطر ﴿فعدة من أيامٍ آخر﴾، وهذا يسمونه فحوى الخطاب.

واختلف العلماء في حد المرض الذي يقع به الفطر: فقال قوم: متى حصل الإنسان في حال يستحق بها اسم المريض صح الفطر قياساً على المسافر أنه يفطر لعله السفر وإن لم تدعه إلى الفطر ضرورة، وقاله ابن سيرين.

وقال جمهور من العلماء: إذا كان به مرض يؤذيه ويؤلمه أو يخاف تماديه أو يخاف من الصوم تزيده صح له الفطر، وهذا مذهب حذاق أصحاب مالك رحمه الله، وبه يناظرون، وأما لفظ مالك فهو: المرض الذي يشق على المرء ويبلغ به.

وقال الحسن: «إذا لم يقدر من المرض على الصلاة قائماً أفطر». وقالت فرقة: لا يفطر بالمرض إلا من دعت ضرورة المرض نفسه إلى الفطر، ومتى احتمل الضرورة معه لم يفطر، وهذا قول الشافعي رحمه الله.

واختلف العلماء في الأفضل من الفطر أو الصوم في السفر، فقال قوم والشافعي ومالك في بعض ما روي عنه: الصوم أفضل لمن قوي، وجل مذهب مالك التخيير.

وقال ابن عباس وابن عمر وغيرهما: الفطر أفضل.

وقال مجاهد وعمر بن عبد العزيز وغيرهما: أيسرهما أفضلهما، وكره ابن حنبل وغيره الصوم في السفر.

وقال ابن عمر: من صام في السفر قضى في الحضر، وهو مذهب عمر رضي الله عنه، ومذهب مالك في استحبابه الصوم لمن قدر عليه. وتقصير الصلاة حسن، لأن الذمة تبرأ في رخصة الصلاة وهي مشغولة في أمر الصيام، والصواب المبادرة بالأعمال. وقال ابن عباس رضي الله عنه: «الفطر في السفر عزيمة»، وذهب أنس بن مالك إلى الصوم، وقال: إنما نزلت الرخصة ونحن جياع نروح إلى جوع، ونغدو إلى جوع، والسفر سفر الطاعة كالجهاد بإجماع، ويتصل بهذين سفر صلة الرحم وطلب المعاش الضروري. وأما سفر التجارة والمباحات فمختلف فيه بالمنع والجواز والقول بالجواز أرجح وأما سفر المعاصي فمختلف فيه بالجواز والمنع والقول بالمنع أرجح، ومسافة سفر الفطر عند مالك حيث تقصر الصلاة، واختلف في قدر ذلك، فقال مالك: يوم وليلة ثم رجع فقال: ثمانية وأربعون ميلاً، وروي عنه: بومان، وروي عنه في العتبية: خمسة وأربعون ميلاً، وفي المبسوط: أربعون ميلاً، وفي المذهب: ستة وثلاثون ميلاً، وفيه: ثلاثون.

وقال ابن عمر وابن عباس والثوري: الفطر في سفر ثلاثة أيام، وفي غير المذهب: يقصر في ثلاثة ميال فصاعداً.

وقوله تعالى: ﴿فعدة﴾ مرفوع على خبر الابتداء تقديره فالحكم أو فالواجب عدة، ويصح أن يرتفع

على ابتداء والخبر بعده والتقدير فعدة أمثل له، ويصح فعلية عدة، واختلف في وجوب متابعتها على قولين، و﴿آخر﴾ لا ينصرف عند سبويه لأنه معدول عن الألف واللام لأن هذا البناء إنما يأتي بالألف واللام كما تقول الفضل والكبر فاجتمع فيه العدل والصفة، وجاء في الآية ﴿آخر﴾ ولم يجيء أخرى لثلاثا تشكل بأنها صفة للعدة، والباب أن جمع ما لا يعقل يجري في مثل هذا مجرى الواحدة المؤنثة ومنه قوله تعالى ﴿يا جبال أوبي معه﴾ [سبا: ١٠]، إلى غير ذلك.

وقرأ جمهور الناس «يطيقونه» بكسر الطاء وسكون الياء والأصل «يطوقونه» نقلت حركة الواو إلى الطاء وقلبت ياء لانكسار ما قبلها، وقرأ حميد «يطوقونه» وذلك على الأصل، والقياس الإعلال.

وقرأ ابن عباس «يطوقونه» بمعنى يكلفونه.

وقرأت عائشة وطاوس وعمر بن دينار «يطوقونه» بفتح الياء وشد الطاء مفتوحة.

وقرأت فرقة «يطيقونه» بضم الياء وفتح الطاء وشد الياء المفتوحة.

وقرأ ابن عباس «يطيقونه» بفتح الياء وشد الطاء وشد الياء المفتوحة بمعنى يتكلفونه، وحكاها النقاش عن عكرمة، وتشديد الياء في هذه اللفظة ضعيف.

وقرأ نافع وابن عامر من طريق ابن ذكوان «فدية طعام مساكين» بإضافة الفدية.

وقرأ هاشم عن ابن عامر «فدية طعام مساكين» بتنوين الفدية.

وقرأ الباقر «فدية» بالتنوين «طعام مسكين» بالإنفراد، وهي قراءة حسنة لأنها بينت الحكم في اليوم، وجمع المساكين لا يدرى كم منهم في اليوم إلا من غير الآية.

قال أبو علي: «فإن قلت كيف أفردوا المساكين والمعنى على الكثرة لأن الذين يطيقونه جمع وكل واحد منهم يلزمه مسكين فكان الوجه أن يجمعوا كما جمع المطلقون؟، فالجواب أن الأفراد حسن لأنه يفهم بالمعنى أن لكل واحد مسكيناً، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة﴾ [النور: ٤] فليست الثمانون متفرقة في جميعهم بل لكل واحد ثمانون.

واختلف المتأولون في المراد بالآية فقال معاذ بن جبل وعلقمة والنخعي والحسن البصري وابن عمر والشعبي وسلمة بن الأكوع وابن شهاب: كان فرض الصيام هكذا على الناس من أراد صام ومن أراد أطعم مسكيناً وأفطر، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقالت فرقة: و﴿على الذين يطيقونه﴾ أي على الشيوخ والعجّز، الذين يطيقون، لكن بتكلف شديد فأباح الله لهم الفدية والفطر، وهي محكمة عند قائلها هذا القول. وعلى هذا التأويل تجيء قراءة ﴿يطوقونه﴾ و«يطوقونه».

وقال ابن عباس: «نزلت هذه الرخصة للشيوخ والعجّز خاصة إذا أفطروا وهم يطيقون الصوم ثم نسخت بقوله تعالى: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ [البقرة: ١٨٥]، فزالت الرخصة إلا لمن عجز منهم».

وقال السدي: ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ أي على الذين كانوا يطيقونه وهم بحالة الشباب ثم استحالوا بالشيخ فلا يستطيعون الصوم، وهي عنده محكمة، ويلزم الشيخ عنده الفدية إذا أفطروا، ونحوه عن ابن عباس.

وقال مالك: «لا أرى الفدية على الشيخ الضعيف واجبة، وتستحب لمن قدر عليها»، والآية عنده إنما هي فيمن يدرکه رمضان وعليه صوم من المتقدم فقد كان يطيق في تلك المدة الصوم فتركه فعليه الفدية.

وقال الشافعي وأبو حنيفة: على الشيخ العاجز الإطعام.

وحكى الطبري عن عكرمة أنه كان يقرؤها «وعلى الذين يَطِيقُونَهُ» فأفطر، ومذهب مالك رحمه الله وجماعة من العلماء أن قدر الدية مد لكل مسكين.

وقال قوم: قوت يوم، وقال قوم: عشاء وسحور.

وقال سفيان الثوري: نصف صاع من قمح أو صاع من تمر أو زبيب، والضمير في ﴿يطيقونه﴾ عائذ على ﴿الصيام﴾، وقيل على الطعام وهو قول ضعيف.

واختلف في الحامل فقال ابن عمر وابن عباس: تفدي وتفطر ولا قضاء عليها.

وقال الحسن وعطاء والضحاك والزهري وربيعة ومالك: تقضي الحامل إذا أفطرت ولا فدية عليها.

وقال الشافعي وأحمد بن حنبل ومجاهد: تقضي وتفدي إذا أفطرت، وكذلك قال مالك في المرضع إنها إذا أفطرت تقضي وتفدي، هذا هو المشهور عنه، وقال في مختصر ابن عبد الحكم: لا إطعام على المرضع.

وقوله تعالى: ﴿فمن تطوع خيراً فهو خير له﴾ الآية، قال ابن عباس وطاوس وعطاء والسدي: المراد من أطعم مسكينين فصاعداً.

وقال ابن شهاب: «من زاد الإطعام على الصوم» وقال مجاهد: «من زاد في الإطعام على المد»، و﴿خير﴾ الثاني صفة تفضيل، وكذلك الثالث، و﴿خير﴾ الأول قد نزل منزلة مالا أو نفعاً، وقرأ أبي بن كعب «والصوم خير لكم» بدل ﴿وأن تصوموا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إن كنتم تعلمون﴾ يقتضي الحض على الصوم أي فاعلموا ذلك وصوموا.

قوله عز وجل:

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ
فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ
يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى

مَا هَدَنَكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلَيْسَ سَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

الشهر مشتق من الاشتهار لأنه مشتهر لا يتعذر علمه على أحد يريده، ورمضان علقه الاسم من مدة كان فيها في الرمض وشدة الحر، وكان اسمه قبل ذلك ناثراً، كما سمي ربيع من مدة الربيع، وجمادى من مدة الجمود، وكره مجاهد أن يقال رمضان دون أن يقال ﴿شهر رمضان﴾ كما قال الله تعالى، وقال: لعل رمضان اسم من أسماء الله عز وجل.

وقرأ جمهور الناس «شهر» بالرفع، ووجهه خبر ابتداء أي ذلكم شهر، وقيل: بدل من الصيام، [البقرة: ١٨٣] وقيل: على الابتداء وخبره ﴿الذي أنزل فيه القرآن﴾، وقيل: ابتداء وخبره ﴿فمن شهد﴾، و﴿الذي أنزل﴾ نعت له، فمن قال إن ﴿الصيام﴾ في قوله ﴿كتب عليكم الصيام﴾ [البقرة: ١٨٣] هي ثلاثة أيام وعاشوراء قال هاهنا بالابتداء، ومن قال: إن ﴿الصيام﴾ هنالك هو رمضان وهو الأيام المعدودة قال هنا بخبر الابتداء أو بالبدل من الصيام، وقرأ مجاهد وشهرين حوشب «شهر» بالنصب، ورواه أبو عمارة عن حفص عن عاصم ورواه هارون عن أبي عمرو، وهي على الإغراء، وقيل: نصب بـ ﴿تصوموا﴾ [البقرة: ١٨٤] وقيل: نصب على الظرف، وقرأت فرقة بإدغام الراء في الراء وذلك لا تقتضيه الأصول لاجتماع الساكنين فيه.

واختلف في إنزال القرآن فيه: فقال الضحاك: أنزل في فرضه وتعظيمه والحض عليه، وقيل: بدئ بنزوله فيه على النبي صلى الله عليه وسلم، وقال ابن عباس فيما يؤثر: أنزل إلى السماء الدنيا جملة واحدة ليلة أربع وعشرين من رمضان ثم كان جبريل ينزله رسلاً رسلاً في الأوامر والنواهي والأسباب، وروي واثلة بن الأسقع عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «نزلت صحف إبراهيم أول ليلة من شهر رمضان والتوراة لست مضين منه والإنجيل لثلاث عشرة والقرآن لأربع وعشرين».

وترك ابن كثير همزة ﴿القرآن﴾ مع التعريف والتنكير حيث وقع، وقد قيل: إن اشتقاقه على هذه القراءة من قرن، وذلك ضعيف، و﴿هدى﴾ في موضع نصب على الحال من ﴿القرآن﴾، فالمراد أن القرآن بجملته من محكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ هدى، ثم شرف بالذكر والتخصيص البيئات منه يعني الحلال والحرام والمواعظ والمحكم كله، فالألف واللام في ﴿الهدى﴾ للعهد والمراد الأول، و﴿الفرقان﴾ المفرق بين الحق والباطل، و﴿شهد﴾ بمعنى حضر، و﴿الشهر﴾ نصب على الظرف، والتقدير: من حضر المصير في الشهر، وقرأ الحسن وعيسى الثقفي والزهري وأبو عبد الرحمن السلمي وأبو حية «فليصمه» بتحريك اللام، وكذلك قرؤوا لام الأمر في جميع القرآن على أصلها الذي هو الكسر، وقال علي بن أبي طالب وابن عباس وعبيدة السلماني: من شهد أي من حضر دخول الشهر وكان مقيماً في أوله فليكمل صيامه سافر بعد ذلك أو أقام وإنما يفطر في السفر من دخل عليه رمضان وهو في سفر، وقال جمهور الأمة: من شهد أول الشهر أو آخره فليصم ما دام مقيماً، وقال أبو حنيفة وأصحابه: من شهد الشهر بشروط التكليف غير مجنون ولا مغمى عليه فليصمه، ومن دخل عليه رمضان وهو مجنون وتمادى به طول الشهر فلا قضاء عليه لأنه لم

يشهد الشهر بصفة يجب بها الصيام، ومن جن أول الشهر أو آخره فإنه يقضي أيام جنونه، ونصب ﴿الشهر﴾ على هذا التأويل هو على المفعول الصريح بـ ﴿شهد﴾، وقوله تعالى: ﴿أو على سفر﴾ بمنزلة أو مسافراً فلذلك عطف على اسم، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع ويحيى بن وثاب وابن هرمز وعيسى بن عمر «اليسر» و«العسر» بضم السين، والجمهور: بسكونه، وقال مجاهد والضحاك بن مزاحم: اليسر الفطر في السفر و«العسر» الصوم في السفر، والوجه عموم اللفظ في جميع أمور الدين، وقد فسر ذلك النبي صلى الله عليه وسلم «دين الله يسر».

وقوله تعالى: ﴿وتكملوا العدة﴾ معناه وليكمل من أفطر في سفره أو في مرضه عدة الأيام التي أفطر فيها، وقرأ أبو بكر عن عاصم وأبو عمرو في بعض ما روي عنه «وتكملوا» بتشديد الميم، وقد روي عنهما التخفيف كالجماعة، وهذه اللام متعلقة إما بـ ﴿يريد﴾ فهي اللام الداخلة على المفعول، كالذي في قولك ضربت لزيد، المعنى ويريد إكمال العدة وهي مع الفعل مقدرة بأن، كأن الكلام: ويريد لأن تكملوا، هذا قول البصريين، ونحوه قول قيس كثير بن صخر: [الطويل]

أريدُ لأنسى ذكراً

وإما بفعل مضمر بعد، تقديره ولأن تكملوا العدة رخص لكم هذه الرخصة، وهذا قول بعض الكوفيين، ويحتمل أن تكون هذه اللام لام الأمر والواو عاطفة جملة كلام على جملة كلام.

وقوله: ﴿وتكبروا لله﴾ حض على التكبير في آخر رمضان، واختلف الناس في حده، فقال ابن عباس: «يكبر المرء من رؤية الهلال إلى انقضاء الخطبة، ويمسك وقت خروج الإمام ويكبر بتكبيره»، وقال قوم: يكبر من رؤية الهلال إلى خروج الإمام إلى الصلاة، وقال سفيان: «هو التكبير يوم الفطر»، وقال مالك: «هو من حين يخرج الرجل من منزله إلى أن يخرج الإمام»، ولفظه عند مالك وجماعة من العلماء: «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، ثلاثاً»، ومن العلماء من يكبر ثم يهلل ويسبح أثناء التكبير، ومنهم من يقول: «الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً». وقد قيل غير هذا، والجميع حسن واسع مع البداية بالتكبير.

و﴿هداكم﴾، قيل المراد لما ضل فيه النصارى من تبديل صيامهم، وتعميم الهدى جيد، و﴿لعلكم تشكرون﴾ ترجّ في حق البشر، أي على نعمة الله في الهدى.

وقوله تعالى: ﴿وإذا سألك عبادي عني﴾ الآية، قال الحسن بن أبي الحسن: سببها أن قوماً قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: أقرب ربنا فتناجيه أم بعيد فتناديه؟ فنزلت، وقال عطاء: لما نزلت ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ [غافر: ٦٠] قال قوم في أي ساعة ندعو؟ فنزلت ﴿وإذا سألك عبادي عني﴾، وقال مجاهد: بل قالوا إلى أين ندعو فنزلت هذه الآية، وقال قتادة بل قالوا: كيف ندعو؟ فنزلت ﴿وإذا سألك عبادي﴾، روي أن المشركين قالوا لما نزل ﴿فإني قريب﴾: كيف يكون قريباً وبيننا وبينه على قولك سبع سماوات في غلظ سمك كل واحدة خمسمائة عام وفيما بين كل سماء مثل ذلك؟ فنزلت: ﴿أجيب دعوة الداعي إذا دعان﴾ أي إني قريب بالإجابة والقدرة، وقال قوم: المعنى أجيب إن شئت، وقال قوم:

إن الله تعالى يجيب كل الدعاء: فإما أن تظهر الإجابة في الدنيا، وإما أن يكفر عنه، وإما أن يدخر له أجر في الآخرة، وهذا بحسب حديث الموطأ: «ما من داع يدعو إلا كان بين إحدى ثلاث»، الحديث، وهذا إذا كان الدعاء على ما يجب دون اعتداء، فإن الاعتداء في الدعاء ممنوع، قال الله تعالى: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين﴾ [الأعراف: ٥٥] قال المفسرون: أي في الدعاء.

والوصف بمجابه الدعوة: وصف بحسن النظر والبعد عن الاعتداء، والتوفيق من الله تعالى إلى الدعاء في مقدور. وانظر أن أفضل البشر المصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم قد دعا أن لا يجعل بأس أمته بينهم، الحديث، فمنعها، إذ كان القدر قد سبق بغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فليستجيبوا لي﴾ قال أبو رجاء الخراساني: «معناه فليدعوا لي».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: المعنى فليطلبوا أن أجيبهم، وهذا هو باب استعمل، أي طلب الشيء، إلا ما شذ، مثل. استغنى الله، وقال مجاهد وغيره: المعنى فليجيبوا لي فيما دعوتهم إليه من الإيمان، أي بالطاعة والعمل، ويقال: أجاب واستجاب بمعنى، ومنه قول الشاعر: [الطويل]

وداع دعا يا من يجيب إلى النداء فلم يستجبه عند ذاك مجيب

أي لم يجبه، وقوله تعالى: ﴿وليؤمنوا بي﴾، قال أبو رجاء: في أي أجيب دعاءهم، وقال غيره: بل ذلك دعاء إلى الإيمان بجملته. وقرأ الجمهور ﴿يرشدون﴾ بفتح الياء وضم الشين. وقرأ قوم بضم الياء وفتح الشين. وروى عن ابن أبي عبله وأبي حيوه فتح الياء وكسر الشين باختلاف عنهما قرأ هذه القراءة والتي قبلها.

قوله عز وجل:

أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لَبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَشِّرُوهُمْ وَأَبْغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

لفظة ﴿أحل﴾ تقتضي أنه كان محرماً قبل ذلك، و﴿ليلة﴾ نصب على الظرف، وهي اسم جنس فلذلك أفردت، ونحوه قول عامر الرامي الحضرمي المحاربي: [الوافر]

هُمُ الْمَوْلَى وَقَدْ جَفَّوْا عَلَيْنَا وَإِنَّا مِنْ عَدَوَاتِهِمْ لَزُورُ

و﴿الرفث﴾ كناية عن الجماع، لأن الله تعالى كريم يكني، قاله ابن عباس والسدي، وقرأ ابن

مسعود «الرفوث»، و«الرفث» في غير هذا ما فحش من القول، ومنه قول الشاعر: [الرجز]
عَنِ اللَّغَا وَرَفَثِ التَّكَلُّمِ

وقال أبو إسحاق: «الرفث كل ما يأتيه الرجل مع المرأة من قبل ولمس وجماع».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: أو كلام في هذه المعاني، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من خطايا كيوم ولدته أمه».

وسبب هذه الآية فيما قال ابن عباس وغيره أن جماعة من المسلمين اختانوا أنفسهم وأصابوا النساء بعد النوم، أو بعد صلاة العشاء، على الخلاف، منهم عمر بن الخطاب، جاء إلى امرأته فأرادها، فقالت له: قد نمت، فظن أنها تعتل، فوقع بها ثم تحقق أنها قد كانت نامت، وكان الوطء بعد نوم أحدهما ممنوعاً، وقال السدي: جرى له هذا في جارية له، قالوا: فذهب عمر فاعتذر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجرى نحوه هذا للكعب بن مالك الأنصاري، فنزل صدر الآية فيهم، فهي ناسخة للحكم المتقرر في منع الوطء بعد النوم، وحكى النحاس ومكي أن عمر نام ثم وقع بامرأته، وهذا عندي بعيد على عمر رضي الله عنه، وروي أن صرمة بن قيس، ويقال صرمة بن مالك، ويقال أبو أنس قيس بن صرمة، نام قبل الأكل فبقي كذلك دون أكل حتى غشي عليه في نهاره المقبل، فنزل فيه من قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾، واللباس أصله في الثياب ثم شبه التباس الرجل بالمرأة وامتزاجهما وتلازمهما بذلك، كما قال النابغة الجعدي: [المتقارب]

إِذَا مَا الضُّجِيعُ ثَنَى جِدَّهَا تَدَاعَتْ فَكَانَتْ عَلَيْهِ لِيَّاسَا

وقال النابغة أيضاً: [المتقارب]

لَيْسَتْ أَنْسَا فَأَفْنَيْتُهُمْ وَأَفْنَيْتَ بَعْدَ أَنْسٍ أَنْسَا

فشبه خلطته لهم باللباس، نحا هذا المنحى في تفسير اللباس الربيع وغيره، وقال مجاهد والسدي: ﴿لباس﴾: سكن، أي يسكن بعضهم إلى بعض، وإنما سميت هذه الأفعال اختياناً لعاقبة المعصية وجزائها، فراكبها يخون نفسه ويؤذيها، و﴿فتاب عليكم﴾ معناه من المعصية التي واقعتوها، و﴿عفا عنكم﴾ يحتمل أن يريد عن المعصية بعينها فيكون ذلك تأكيداً، وتأنيساً بزيادة على التوبة، ويحتمل أن يريد عفا عما كان ألزمتكم من اجتناب النساء فيما يؤتف، بمعنى تركه لكم، كما تقول شيء معفو عنه أي متروك.

قال ابن عباس وغيره: ﴿باشروهن﴾ كناية عن الجماع، مأخوذ من البشرة، وقد ذكرنا لفظة ﴿الآن﴾ في ماضي قصة البقرة. ﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾.

قال ابن عباس ومجاهد والحكم بن عتيبة وعكرمة والحسن والسدي والربيع والضحاك: معناه ابتغوا الولد.

وروي أيضاً عن ابن عباس وغيره أن المعنى ابتغوا ليلة القدر، وقيل: المعنى ابتغوا الرخصة

والتوسعة، قاله قتادة، وهو قول حسن، وقرأ الحسن فيما روي عنه ومعوية بن قرة «واتبعوا» من الاتباع، وجوزها ابن عباس، ورجح ﴿ابتغوا﴾ من الابتغاء.

﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين﴾ نزلت بسبب صرمة بن قيس، و﴿حتى﴾ غاية للتبين، ولا يصح أن يقع التبين لأحد ويحرم عليه الأكل إلا وقد مضى لطلوع الفجر قدر، و﴿الخيطة﴾ استعارة وتشبيه لركة البياض أولاً ورقة السواد الحاف به، ومن ذلك قول أبي داود:

فَلَمَّا بَصُرْنَ بِهِ غَدَوَةٌ وَلَاحَ مِنَ الْفَجْرِ خَيْطٌ أَنَارَا

ويروى فنارا، وقال بعض المفسرين: ﴿الخيطة﴾ اللون، وهذا لا يطرد لغة، والمراد فيما قال جميع العلماء بياض النهار وسواد الليل، وهو نص قول النبي صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم في حديثه المشهور، و﴿من﴾ الأولى لابتداء الغاية، والثانية للتبعيض، و﴿الفجر﴾ مأخوذ من تفجر الماء، لأنه يتفجر شيئاً بعد شيء، وروي عن سهل بن سعد وغيره من الصحابة أن الآية نزلت إلا قوله ﴿من الفجر﴾ فصنع بعض الناس خيطين أبيض وأسود، فنزل قوله تعالى: ﴿من الفجر﴾، وروي أنه كان بين طرفي المدة عام.

قال القاضي أبو محمد: من رمضان إلى رمضان، تأخر البيان إلى وقت الحاجة، وعدي بن حاتم جعل خيطين على وساده وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له: «إن سادك لعريض»، وروي أنه قال له: «إنك لعريض القفا»، ولهذه الألفاظ تأويلان، واختلف في الحد الذي بتبينه يجب الإمساك: فقال الجمهور وبه أخذ الناس ومضت عليه الأمصار والأعصار ووردت به الأحاديث الصحاح: ذلك الفجر المعترض الأخذ في الأفق يمناً ويسرة، فبطلوع أوله في الأفق يجب الإمساك، وهو مقتضى حديث ابن مسعود وسمرة بن جندب، وروي عن عثمان بن عفان وحذيفة بن اليمان وابن عباس وطلق بن علي وعطاء بن أبي رباح والأعمش وغيرهم أن الإمساك يجب بتبين الفجر في الطرق وعلى رؤوس الجبال، وذكر عن حذيفة أنه قال: «تسحرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو النهار، إلا أن الشمس لم تطلع»، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه صلى الصبح بالناس ثم قال: «الآن تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود».

قال الطبري: «ومما قادهم إلى هذا القول أنهم يرون أن الصوم إنما هو في النهار، والنهار عندهم من طلوع الشمس لأن آخره غروبها، فكذلك أوله طلوعها».

وحكى النقاش عن الخليل بن أحمد أن النهار من طلوع الفجر، ويدل على ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿أقم الصلاة طرفي النهار﴾ [هود: ١١٤]،

قال القاضي أبو محمد: والقول في نفسه صحيح، وقد ذكرت حجته في تفسير قوله تعالى: ﴿واختلف الليل والنهار﴾ [البقرة: ١٦٤، آل عمران: ١٩٠، الجاثية: ٥]، وفي الاستدلال بهذه الآية نظر، ومن أكل وهو يشك هل طلع الفجر أم لم يطلع فعليه عند مالك القضاء.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتَمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ أمر يقتضي الوجوب، و﴿إِلَى﴾ غاية، إذا كان ما بعدها من جنس ما قبلها فهو داخل في حكمه، كقولك اشتريت الفدان إلى حاشيته، وإذا كان من غير جنسه كما تقول اشتريت الفدان إلى الدار لم يدخل في المحدود ما بعد ﴿إِلَى﴾، ورأت عائشة رضي الله عنها أن قوله ﴿إِلَى اللَّيْلِ﴾ يقتضي النهي عن الوصال، وقد واصل النبي صلى الله عليه وسلم ونهى الناس عن الوصال، وقد واصل جماعة من العلماء وقد تقدم أن هذه الآية نسخت الحكم الذي في قوله ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣] على قول من رأى التشبيه في الامتناع من الوطء والأكل بعد النوم في قول بعضهم، وبعد صلاة العشاء في قول بعضهم، والليل الذي يتم به الصيام مغيب قرص الشمس، فمن أفطر وهو شاك هل غابت الشمس فالمشهور من المذهب أن عليه القضاء والكفارة.

وفي ثمانية أبي زيد: عليه القضاء فقط قياساً على الشك في الفجر، وهو قول جماعة من العلماء. وقال إسحاق والحسن: لا قضاء عليه كالناسي.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَاشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾، قالت فرقة: المعنى لا تجامعوهن. وقال الجمهور: ذلك يقع على الجماع فما دونه مما يتلذذ به من النساء، و﴿عَاكِفُونَ﴾ ملازمون، يقال عكف على الشيء إذا لازمه مقبلاً عليه، قال الرازي: [الرجز] عكف النبط يلعبون الفُرَجَا

وقال الشاعر: [الطويل]

وَطَلَّ بَنَاتُ اللَّيْلِ حَوْلِي عُكْفًا عُكُوفُ الْبُؤَاكِي بَيْنَهُنَّ صَرِيحُ

وقال أبو عمرو وأبو حاتم: قرأ قتادة «عكفون» بغير ألف، والاعتكاف سنة، وقرأ الأعمش «في المسجد» بالإنفراد، وقال: «وهو المسجد الحرام».

قال مالك رحمه الله وجماعة معه: لا اعتكاف إلا في مساجد الجمع، وروي عن مالك أيضاً أن ذلك في كل مسجد، ويخرج إلى الجمعة كما يخرج إلى ضروري أشغاله.

وقال قوم: لا اعتكاف إلا في أحد المساجد الثلاثة التي تشد المطي إليها حسب الحديث في ذلك. وقالت فرقة لا اعتكاف إلا في مسجد نبي.

وقال مالك: «لا يعتكف أقل من يوم وليلة، ومن نذر أحدهما لزمه الآخر».

وقال سحنون: «من نذر اعتكاف ليلة لم يلزمه شيء».

وقالت طائفة: أيهما نذر اعتكفه ولم يلزمه أكثر.

وقال مالك: «لا اعتكاف إلا بصوم».

وقال غيره: يعتكف بغير صوم، وروي عن عائشة أنه يعتكف في غير مسجد.

و﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى هذه الأوامر والنواهي، والحدود: الحواجز بين الإباحة والحظر، ومنه قيل

لللبواب حداد لأنه يمنع، ومنه الجاد وهي المرأة الممتعة من الزينة، والآيات: العلامات الهادية إلى الحق، و﴿لعلهم﴾ ترج في حقهم، وظاهر ذلك عموم ومعناه خصوص فيمن يسه الله للهدى بدلالة الآيات التي تتضمن أن الله يضل من يشاء.

قوله عز وجل:

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴿١٨٩﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَيِّجُّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٩٠﴾ وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩١﴾

الخطاب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، والمعنى لا يأكل بعضكم مال بعض، فأضيفت الأموال إلى ضمير المنهي لما كان كل واحد منهيًا عنه، وكما قال ﴿تقتلون أنفسكم﴾ [البقرة: ٨٥]، ويدخل في هذه الآية القمار والخداع والغصب وجحد الحقائق وغير ذلك، ولا يدخل فيه الغبن في البيع مع معرفة البائع بحقيقة ما يبيع لأن الغبن كأنه وبه.

وقال قوم: المراد بالآية ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ أي في الملاهي والقيان والشراب والبطالة، فتجيء على هذا إضافة المال إلى ضمير المالين.

وقوله تعالى: ﴿وتدلوها﴾ الآية، يقال أدلى الرجل بالحجة أو بالأمر الذي يرجو النجاح به تشبيهاً بالذي يرسل الدلو في البئر يرجو بها الماء.

قال قوم: معنى الآية تسارعون في الأموال إلى المخاصمة إذا علمتم أن الحجة تقوم لكم، إما بأن لا تكون على الجاحد بينة، أو يكون مال أمانة كاليتيم ونحوه مما يكون القول فيه قوله، فالباء في ﴿بها﴾ باء السبب، وقيل: معنى الآية ترشوا بها على أكل أكثر منها، فالباء إزاق مجرد، وهذا القول يترجح لأن الحكام مظنة الرشأ إلا من عصم وهو الأقل، وأيضاً فلإن اللفظتين متناسبتان، ﴿تدلوها﴾ من أرسل الدلو والرشوة من الرشأ، كأنها يمد بها لتقضى الحاجة، و﴿تدلوها﴾ في موضع جزم عطفاً على ﴿تأكلوها﴾، وفي مصحف أبي ﴿ولا تدلوها﴾ بتكرار حرف النهي، وهذه القراءة تؤيد جزم ﴿تدلوها﴾ في قراءة الجماعة، وقيل: ﴿تدلوها﴾ في موضع نصب على الظرف، وهذا مذهب كوفي أن معنى الظرف هو الناصب، والذي ينصب في مثل هذا عند سيبويه «أن» مضمرة، والفريق: القطعة والجزء، و﴿بالإثم﴾ معناه بالظلم والتعدي، وسمي ذلك إثمًا لما كان الإثم معنى يتعلق بفاعله، و﴿أنتم تعلمون﴾ أي إنكم مبطلون آثمون، وهذه مبالغة في المعصية والجرأة.

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ﴾ الآية، قال ابن عباس وقتادة والربيع وغيرهم: نزلت على سؤال قوم من المسلمين النبي صلى الله عليه وسلم عن الهلال وما فائدة محاقه وكماله ومخالفته لحال الشمس؟، وجمع ﴿الْأَهْلَةُ﴾ وهو واحد في الحقيقة من حيث كونه هلالاً في شهر غير كونه هلالاً في الآخر، فإنما جمع أحواله من الهلالية، والهلال ليلتان بلا خلاف ثم يقمر، وقيل ثلاث.

وقال الأصمعي: هو هلال حتى يحجر ويستدير له كالخيطة الرقيق، وقيل هو هلال حتى يبهز بضوئه السماء وذلك ليلة سبع.

وقوله: ﴿مَوَاقِيتُ﴾ معناه لمحل الديون وانقضاء العدد والأكرية وما أشبه هذا من مصالح العباد، ومواقيت الحج أيضاً يعرف بها وقته وأشهره، و﴿مَوَاقِيتُ﴾ لا ينصرف لأنه جمع لا نظير له في الأحاد، فهو جمع ونهاية إذ ليس يجمع، وقرأ ابن أبي إسحاق «والحج» بكسر الحاء في جميع القرآن، وفي قوله «حج البيت» في آل عمران.

قال سيويه: الحج كالرد والشد، والحج كالذكر، فهما مصدران بمعنى، وقيل: الفتح مصدر والكسر الاسم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ﴾ الآية، قال البراء بن عازب والزهري وقتادة: سببها أن الأنصار كانوا إذا حجوا أو اعتمرُوا يلتزمون تشريعاً أن لا يحول بينهم وبين السماء حائل، فكانوا يتسمنون ظهور بيوتهم على الجدران، وقيل: كانوا يجعلون في ظهور بيوتهم فتوحاً يدخلون منها ولا يدخلون من الأبواب، وقيل غير هذا مما يشبهه فاختصرته، فجاء رجل منهم فدخل من باب بيته فغير بذلك، فنزلت الآية فيه.

وقال إبراهيم: «كان يفعل ما ذكر قوم من أهل الحجاز».

وقال السدي: ناس من العرب، وهم الذين يسمون الحمس، قال: فدخل النبي صلى الله عليه وسلم باباً ومعه رجل منهم، فوقف ذلك الرجل وقال إني أحمس، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أحمس، ونزلت الآية.

وروى الربيع أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل وخلفه رجل أنصاري فدخل وخرق عادة قومه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: لم دخلت وأنت قد أحرمت؟، قال: دخلت أنت فدخلت بدخولك، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: إني أحمس، أي من قوم لا يدينون بذلك، فقال الرجل: وأنا ديني دينك، فنزلت الآية.

وقال أبو عبيدة: الآية ضرب مثل، المعنى: ليس البر أن تسألوا الجهال ولكن اتقوا واسألوا العلماء، فهذا كما يقال أتيت هذا الأمر من باب.

وقال غير أبي عبيدة: «المعنى ليس البر أن تشدوا في الأسئلة عن الأهلة وغيرها فتأتون الأمور على غير ما يجب».

قال القاضي أبو محمد: وهذا يحتمل والأول أسد، وأما ما حكاه المهدوي ومكي عن ابن الأنباري

من أن الآية مثل في جماع النساء فبعيد مغير نمط الكلام، وقرأ ابن كثير وابن عامر والكسائي ونافع بخلاف عنه «البيوت» بكسر الباء، وقرأ بعض القراء «ولكنَّ البر» بتشديد نون «لكنَّ» ونصب «البر»، وقد تقدم القول على ﴿من﴾ في قوله ﴿من آمن بالله﴾ [البقرة: ١٧٧]، ﴿واتقوا﴾ معناه اجعلوا بينكم وبين عقابه وقاية، و﴿لعلكم﴾ ترج في حق البشر، والفلاح درك البغية.

وقوله تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾ الآية، هي أول آية نزلت في الأمر بالقتال.

قال ابن زيد والربيع: معناها قاتلوا من قاتلكم وكفوا عمن كف عنكم، ولا تعتدوا في قتال من لم يقاتلكم، وهذه المودعة منسوخة بآية براءة، ويقول: ﴿قاتلوا المشركين كافة﴾ [التوبة: ٣٦].

وقال ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومجاهد: معنى الآية قاتلوا الذين هم بحالة من يقاتلكم، ولا تعتدوا في قتل النساء والصبيان والرهبان وشبههم، فهي محكمة على هذا القول، وقال قوم: المعنى لا تعتدوا في القتال لغير وجه الله كالحمية وكسب الذكر.

قوله عز وجل:

وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ يَقْفُضُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾

قال ابن إسحاق وغيره: نزلت هذه الآيات في شأن عمرو بن الحضرمي وواقده، وهي سرية عبد الله بن جحش، و﴿يقفضمهم﴾ معناه أحكمتم غلبهم ولقيتموهم قادرين عليهم، يقال رجل ثقف لقف إذا دان محكماً لما يتناولوه من الأمور، ﴿وأخرجوهم﴾.

قال الطبري: «الخطاب للمهاجرين، والضمير لكفار قريش».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: بل الخطاب لجميع المؤمنين، ويقال ﴿أخرجوكم﴾ إذا أخرجوا بعضهم الأجل قدراً وهم النبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرون، ﴿والفتنة أشد من القتل﴾ أي الفتنة التي حملوكم عليها وراموكم بها على الرجوع إلى الكفر أشد من القتل.

قال مجاهد: «أي من أن يقتل المؤمن، فالقتل أخف عليه من الفتنة».

قال غيره: بل المعنى الفتنة التي فعلوا أشد في هتك حرمة الحق من القتل الذي أبيح لكم أيها المؤمنون أن توقعوه بهم، ويحتمل أن يكون المعنى والفتنة أي الكفر والضلال الذي هم فيه أشد في الحرم وأعظم جرماً من القتل الذي عيروكم به في شأن ابن الحضرمي.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الآية، قال الجمهور: كان هذا ثم نسخ وأمر بالقتال في كل موضع.

قال الربيع: نسخه ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾.

وقال قتادة: نسخه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

وقال مجاهد: «الآية محكمة ولا يجوز قتال أحد في المسجد الحرام إلا بعد أن يقاتل».

وقرأ حمزة والكسائي والأعمش «وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ» بالقتل في الأربعة، ولا خلاف في الأخيرة أنها ﴿فَاقْتُلُوهُمْ﴾، والمعنى على قراءة حمزة والكسائي: فإن قتلوا منكم فاقتلوهم أيها الباقون، وذلك كقوله تعالى: ﴿قَتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا﴾ [آل عمران: ١٤٦] أي فما وهن الباقون، والانتفاء في هذه الآية هو الدخول في الإسلام، لأن غفران الله ورحمته إنما تكون مع ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ أمر بالقتال لكل مشرك في كل موضع على قول من رآها ناسخة، ومن رآها غير ناسخة قال: المعنى قاتلوا هؤلاء الذين قال الله فيهم ﴿فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ﴾، والأول أظهر، وهو أمر بقتال مطلق لا بشرط أن يبدأ الكفار، دليل ذلك قوله ﴿وَيَكُونُ الدِّينُ لِلَّهِ﴾، والفتنة هنا: الشرك وما تابعه من أذى المؤمنين، قاله ابن عباس وقتادة والربيع والسدي، و﴿الدِّينُ﴾ هنا الطاعة والشرع. وقال الأعشى ميمون بن قيس: [الخفيف]

هو دان الرباب إذ كرهوا الديـ من دراكاً بغزوةٍ وصيال

والانتفاء في هذا الموضع يصح مع عموم الآية في الكفار أن يكون الدخول في الإسلام، ويصح أن يكون أداء الجزية، وسمى ما يصنع بالظالمين عدواناً من حيث هو جزاء عدوان إذ الظلم يتضمن العدوان، والعقوبة تسمى باسم الذنب في غير ما موضع، والظالمون هم على أحد التأويلين: من بدأ بقتال، وعلى التأويل الآخر: من بقي على كفر وفتنة.

وقوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ الآية، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومقسم والسدي والربيع والضحاك وغيرهم: نزلت في عمرة القضاء وعام الحديبية، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج معتمراً حتى بلغ الحديبية سنة ست، فصدّه كفار قريش عن البيت، فانصرف ووعده الله أنه سيدخله عليهم، فدخله سنة سبع، فنزلت الآية في ذلك، أي الشهر الحرام الذي غلبكم الله فيه وأدخلكم الحرم عليهم بالشهر الحرام الذي صدوكم فيه، ومعنى ﴿الْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ على هذا التأويل: أي حرمة الشهر وحرمة البلد وحرمة المحرمين حين صددتم بحرمة البلد والشهر والقطان حين دخلتم.

وقال الحسن بن أبي الحسن: نزلت الآية في أن الكفار سألوا النبي صلى الله عليه وسلم هل يقاتل في الشهر الحرام؟ فأخبرهم أنه لا يقاتل فيه، فهموا بالهجوم عليه فيه وقتل من معه حين طمعوا أنه لا يدافع.

فيه، فنزلت: ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص﴾، أي هو عليكم في الامتناع من القتال أو الاستباحة بالشهر الحرام عليهم في الوجهين، فأية سلكوا فاسلكوا، و﴿الحرمات﴾ على هذا جمع حرمة عموماً: النفس والمال والعرض وغير ذلك، فأباح الله بالآية مدافعتهم. والقول الأول أكثر.

وقالت فرقة: قوله: ﴿والحرمات قصاص﴾ مقطوع مما قبله، وهو ابتداء أمر كان في أول الإسلام أن من انتهك حرمتك نلت منه مثل ما اعتدى عليك به، ثم نسخ ذلك بالقتال.

وقالت طائفة: ما تناول من الآية التعدي بين أمة محمد والجنائيات ونحوها لم ينسخ، وجائز لمن تعدي عليه في مال أو جرح أن يتعدى بمثل ما تعدي عليه به إذا خفي ذلك له، وليس بينه وبين الله في ذلك شيء، قاله الشافعي وغيره، وهي رواية في مذهب مالك.

وقالت طائفة منهم مالك: ليس ذلك له، وأمور القصاص وقف على الحكام، والأموال يتناولها قول النبي صلى الله عليه وسلم «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك». وقرأ الحسن بن أبي الحسن «والحرمات» بسكون الراء.

وقوله تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم﴾ الآية، اختلف في نسخ هذه الآية احسباً تقدم، وسمي الجزاء على العدوان عدواناً كما قال ﴿الله يستهزئ بهم﴾ [البقرة: ١٥] إلى غير ذلك، ﴿واتقوا الله﴾، قيل: معناه في أن لا تعتدوا، وقيل: في أن لا تزيدوا على المثل.

وقال ابن عباس: «نزلت هذه الآية وما هو في معناها بمكة والإسلام لم يعز، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعز دينه أمر المسلمون برفع أمورهم إلى حكامهم وأمروا بقتال الكفار». وقال مجاهد: «بل نزلت هذه الآية بالمدينة بعد عمرة القضاء، وهي من التدرج في الأمر بالقتال».

قوله عز وجل:

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِفُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ

﴿سبيل الله﴾ هنا الجهاد، واللفظ يتناول بعد جميع سبله.

وقال أبو عبيدة وقوم: الباء في قوله ﴿بأيديكم﴾ زائدة، التقدير تلقوا أيديكم.

وقال الجمهور: ذلك ضرب مثل، تقول ألقى فلان بيده في أمر كذا إذا استسلم، لأن المستسلم في القتال يلقي سلاحه بيده، فكذلك فعل كل عاجز في أي فعل كان، ومنه قول عبد المطلب: «والله إن إلقاءنا بأيدينا إلى الموت لعجز».

وقال قوم: التقدير لا تلقوا أنفسكم بأيديكم، كما نقول لا تفسد حالك برأيك، و «التهلكة» بضم اللام مصدر من هلك، وقرأ الخليل ﴿التهلكة﴾ بكسر اللام، وهي تفعله من «هَلَك» بشد اللام.

وروي عن أبي أيوب الأنصاري أنه كان على القسطنطينية، فحمل رجل على عسكر العدو، فقال قوملقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: لا إن هذه الآية نزلت في الأنصار حين أرادوا لما ظهر الإسلام أن يتركوا الجهاد ويعمروا أموالهم، وأما هذا فهو الذي قال الله فيه: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاه الله﴾ [البقرة: ٢٠٧].

وقال حذيفة بن اليمان وابن عباس والحسن وعطاء وعكرمة وجمهور الناس: المعنى لا تلقوا بأيديكم بأن تتركوا النفقة في سبيل الله وتخافوا العيلة، فيقول الرجل ليس عندي ما أنفق.

وقال قوم: المعنى لا تقنطوا من التوبة.

وقال البراء بن عازب وعبيدة السلماني: الآية في الرجل يقول قد بالغت في المعاصي فلا فائدة في التوبة فينهمك بعد ذلك، وقال زيد بن أسلم: المعنى لا تسافروا في الجهاد بغير زاد، وقد كان فعل ذلك قوم فاداهم ذلك إلى الانقطاع في الطريق أو الكون عالة على الناس، وقوله ﴿وأحسنوا﴾، قيل: معناه في أعمالكم بامثال الطاعات، وروي ذلك عن بعض الصحابة، وقيل: المعنى وأحسنوا في الإنفاق في سبيل الله وفي الصدقات، قاله زيد بن أسلم.

وقال عكرمة: المعنى وأحسنوا الظن بالله.

وقوله تعالى: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾، قال ابن زيد والشعبي وغيرهما: إتمامهما أن لا تفسخ وأن تتمهما إذا بدأت بهما.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إتمامهما أن تحرم بهما من ديرة أهلك، وفعله عمران بن حصين.

وقال سفيان الثوري: إتمامهما أن تخرج قاصداً لهما لا لتجارة ولا لغير ذلك، ويؤيد هذا قوله: ﴿الله﴾.

وقال قتادة والقاسم بن محمد: إتمامهما أن تحرم بالعمرة وتقضيها في غير أشهر الحج، وأن تتم الحج دون نقص ولا جبر بدم، وهذا مبني على أن الدم في الحج والعمرة جبر نقص، وهو قول مالك وجماعة من العلماء. وأبو حنيفة وأصحابه يرون أن كثرة الدم كمال وزيادة، وكلما كثر عندهم لزوم الدم فهو أفضل، واحتجوا بأنه قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: ما أفضل الحج؟ فقال: العج والثج، ومالك ومن قال بقوله يراه ثج التطوع.

وقالت فرقة: إتمامهما أن تفرد كل واحدة من حجة وعمرة ولا تقرن، وهذا على أن الأفراد أفضل.

وقالت فرقة: القرآن أفضل، وذلك هو الإتمام عندهم.

وقال ابن عباس وعلقمة وإبراهيم وغيرهم: إتمامهما أن تقضي مناسكهما كاملة بما كان فيها من دماء.

وفروض الحج: النية، والإحرام، والطواف المتصل بالسعي، والسعي بين الصفا والمروة عندنا خلافاً لأبي حنيفة، والوقوف بعرفة، والجمرة على قول ابن الماجشون، وأما أعمال العمرة فنية وإحرام، وطواف، وسعي.

اختلف في فرض العمرة فقال مالك رحمه الله: هي سنة واجبة لا ينبغي أن تترك كالوتر، وهي عندنا مرة واحدة في العام، وهذا قول جمهور أصحابه، وحكى ابن المنذر في الإشراف عن أصحاب الرأي أنها عندهم غير واجبة، وحكى بعض القرويين والبغداديين عن أبي حنيفة أنه يوجبها كالحج، وبأنها سنة.

قال ابن مسعود وجمهور من العلماء، وأسند الطبري النص على ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وروي عن علي بن أبي طالب وابن عباس وابن عمر والشافعي وأحمد وإسحاق والشعبي وجماعة تابعين: أنها واجبة كالفرض، وقاله ابن الجهم من المالكيين.

وقال مسروق: «الحج والعمرة فرض، نزلت العمرة من الحج منزلة الزكاة من الصلاة»، وقرأ الشعبي وأبو حيوة «والعمرة لله» برفع العمرة على القطع والابتداء، وقرأ ابن أبي إسحاق «الحج» بكسر الحاء، وفي مصحف ابن مسعود «وأتموا الحج والعمرة إلى البيت لله»، وروي عنه: «وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت»، وروي غير هذا مما هو كالتفسير.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾، قال علقمة وعروة بن الزبير وغيرهما: الآية فيمن أحصر بالمرض لا بالعدو.

وقال ابن عباس وغيره بعكس ذلك، والمشهور من اللغة أحصر بالمرض وحصر بالعدو، وفي المعجم لابن فارس حصر بالمرض وأحصر بالعدو.

وقال الفراء: «هما بمعنى واحد في المرض والعدو».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: والصحيح أن حصر إنما هي فيما أحاط وجاور فقد يحصر العدو والماء ونحوه ولا يحصر المرض، وأحصر معناه جعل الشيء ذا حصر كأقبر وأحمى وغير ذلك، فالمرض والماء والعدو وغير ذلك قد يكون محصراً لا حاصراً، ألا ترى أن العدو كان محصراً في عام الحديبية، وفي ذلك نزلت هذه الآية عند جمهور أهل التأويل، وأجمع جمهور الناس على أن المحصر بالعدو يحل حيث أحصر، وينحر هديه إن كان ثم هدي ويحلق رأسه.

وقال قتادة وإبراهيم: يبعث بهديه إن أمكنه فإذا بلغ محله صار حلالاً ولا قضاء عليه عند الجميع إلا أن يكون ضرورة فعليه حجة الإسلام.

وقال ابن الماجشون: «ليست عليه حجة الإسلام وقد قضاها حين أحصر».

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف لا وجه له.

وقال أشهب: «يهدى المحصر بعدو هدياً من أجل الحصر».

وقال ابن القاسم: «لا يهدي شيئاً إلا إن كان معه هدي فأراد نحره»، ذكره ابن أبي زيد.

وقال عطاء وغيره: المحصر بالمرض كالمحصر بالعدو.

وقال مالك رحمه الله وجمهور من العلماء: المحصر بالمرض لا يحله إلا البيت، ويقيم حتى يفيق، وإن أقام سنين، فإذا وصل البيت بعد فوت الحج قطع التلبية في أوائل الحرم وحل بعمرة، ثم تكون عليه حجة قضاء وفيها يكون الهدى، وقيل: إن الهدى يجب في وقت الحصر أولاً، ولم ير ابن عباس من أحصره المرض داخلاً في هذه الآية، وقال: إن المريض إن لم يكن معه هدي حل حيث حبس، وإن كان معه هدي لم يحل حتى يبلغ الهدى محله ثم لا قضاء عليه، قال: وإنما قال الله: ﴿فإذا أمتتم﴾ والأمن إنما هو من العدو فليس المريض في الآية.

و﴿ما﴾ في موضع رفع، أي فالواجب أو فعليكم ما استيسر، ويحتمل أن تكون في موضع نصب أي فانحروا أو فاهدوا، و﴿ما استيسر﴾ عند جمهور أهل العلم: شاة.

وقال ابن عمر وعروة بن الزبير ﴿ما استيسر﴾ جمل دون جمل وبقرة دون بقرة.

وقال الحسن: أعلى الهدى بدنة وأوسطه بقرة وأخسها شاة، و﴿الهدى﴾ جمع هدية كجدية السرج وهي البراد جمعها جدى، ويحتمل أن يكون ﴿الهدى﴾ مصدرأ سمي به كالرهن ونحوه فيقع للإفراد وللجمع.

وقال أبو عمرو بن العلاء: «لا أعرف لهذه اللفظة نظيراً».

وقوله تعالى: ﴿ولا تحلقوا رؤوسكم﴾ الآية، الخطاب لجميع الأمة محصر ومخلى، ومن العلماء من يراها للمحصرين خاصة، ومحل الهدى حيث يحل نحره، وذلك لمن لم يحصر بمنى ولمن أحصر بعدو حيث أحصر إذا لم يمكن إرساله، وأما المريض فإن كان له هدي فيرسله إلى محله.

والترتيب أن يرمي الحاج الجمرة ثم ينحر ثم يحلق ثم يطوف طواف الإفاضة، فإن نحر رجل قبل الرمي أو حلق قبل النحر فلا حرج حسب الحديث ولا دم.

وقال قوم: لا حرج في الحج ولكن يهرق دماً.

وقال عبد الملك بن الماجشون من أصحابنا: «إذا حلق قبل أن ينحر فليهد، وإن حلق رجل قبل أن يرمي فعليه دم قولاً واحداً في المذهب».

قال ابن المواز عن مالك: ويمر موسى على رأسه بعد الرمي، ولا دم في ذلك عند أبي حنيفة وجماعة معه.

وقرأ الزهري والأعرج وأبو حيوة «الهدى» بكسر الدال وشد الياء في الموضعين واحدته هدية، ورويت هذه القراءة عن عاصم.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا﴾ الآية، المعنى فحلق لإزالة الأذى ﴿فقدية﴾، وهذا هو فحوى الخطاب عند أكثر الأصوليين، ونزلت هذه الآية في كعب بن عجرة حين رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأسه يتناثر قملاً، فأمره بالهلاّق ونزلت الرخصة، و﴿قدية﴾ رفع على خبر الابتداء، والصيام عند مالك وعطاء ومجاهد وإبراهيم وغيرهم وجميع أصحاب مالك: ثلاثة أيام، والصدقة: ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع، وذلك مَدَان بَمَدّ النبي صلى الله عليه وسلم، والنسك: شاة بإجماع، ومن ذبح أفضل منها فهو أفضل.

وقال الحسن بن أبي الحسن وعكرمة: الصيام عشرة أيام، والإطعام عشرة مساكين.

وقرأ الزهري «أو نسك» بسكون السين.

وقال سعيد بن جبير ومجاهد: النسك شاة، فإن لم يجدها فقيمتها يشتري بها طعام فيطعم منه مَدَان لكل مسكين، فإن لم يجد القيمة عرفها وعرف ما يشتري بها من الطعام وصام عن كل مدين يوماً.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ذلك كله حيث شاء، وقاله إبراهيم وهو مذهب مالك وأصحابه إلا ابن الجهم، فإنه قال: لا يكون النسك إلا بمكة.

وقال عطاء في بعض ما روي عنه وأصحاب الرأي: النسك بمكة، والصيام والإطعام حيث شاء.

وقال الحسن بن أبي الحسن وطاوس وعطاء أيضاً ومجاهد والشافعي: النسك والإطعام بمكة، والصيام حيث شاء، والمفتدي مخير في أي هذه الثلاثة شاء، وكذلك قال مالك وغيره في كل ما في القرآن أو فإنه على التخيير.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُمْتُمْ﴾، قال علقمة وعروة: المعنى إذا برأتم من مرضكم. وقال ابن عباس وقتادة وغيرهما: إذا أمتتم من خوفكم من العدو المحصر، وهذا أشبه باللفظ إلا أن يتخيل الخوف من المرض فيكون الأمان منه.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعِمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ الآية، قال عبد الله بن الزبير وعلقمة وإبراهيم: الآية في المحصرين دون المخلى سبيلهم، وصورة المتمتع عند ابن الزبير أن يحصر الرجل حتى يفوته الحج ثم يصل إلى البيت فيحل بعمره ويقضي الحج من قابل، فهذا قد تمتع بما بين العمرة إلى حج القضاء، وصورة المتمتع المحصر عند غيره أن يحصر فيحل دون عمرة ويؤخرها حتى يأتي من قابل فيعتمر في أشهر الحج ويحج من عامه.

وقال ابن عباس وجماعة من العلماء: الآية في المحصرين وغيرهم ممن خلى سبيله، وصورة المتمتع أن تجتمع فيه ستة شروط: أن يكون معتمراً في أشهر الحج، وهو من غير حاضري المسجد الحرام، ويحل وينشئ الحج من عامه ذلك دون رجوع إلى وطنه أو ما سواه بعداً. هذا قول مالك وأصحابه، واختلف لم سمي متمتعاً، فقال ابن القاسم: لأنه تمتع بكل ما لا يجوز للمحرم فعله من وقت حله في العمرة إلى وقت إنشائه الحج، وقال غيره: سمي متمتعاً لأنه تمتع بإسقاط أحد السفرين، وذلك أن

حق العمرة أن تقصد بسفرة وحق الحج كذلك، فلما تمتع بإسقاط أحدهما ألزمه الله هدياً كالقارن الذي يجمع الحج والعمرة في سفر واحد.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: هذه شدة على القادم مكة من سائر الأقطار لما أسقط سفره، والمكي لا يقتضي حاله سفره في عمرة ولا حج لأنه في بقعة الحج فلم يلزم شيئاً لأنه لم يسقط شيئاً، ومن قال إن اسم التمتع وحكمه إنما هو من جهة التمتع بالنساء والطيب وغير ذلك فيرد عليه أنه يستغرق قوله: «فمن تمتع بالعمرة إلى الحج» المكي وغيره على السواء في القياس، فكيف يشتد مع ذلك على الغريب الذي هو أعذر ويلزم هدياً، ولا يفعل ذلك بالمكي، فيترجح بهذا النظر أن التمتع إنما هو من أجل إسقاط أحد السفرين، إلا أن أبا عبيد قال في كتاب الناسخ والمنسوخ له: إن العمرة في أشهر الحج ممنوعة للمكي لا تجوز له، ورخص الله تعالى للقادم لطول بقائه محرماً وقرن الرخصة بالهدي.

قال القاضي أبو محمد: فهذه شدة على أهل مكة، وبهذا النظر يحسن أن يكون التمتع من جهة استباحة ما لا يجوز للمحرم، لكنه قول شاذ لا يعول عليه، وجل الأمة على جواز العمرة في أشهر الحج للمكي ولا دم عليه، وذكر أبو عبيد القولين عن ابن عمر واستند إليه في الذي وافقه، وقد حكاه الطبري عن ابن عباس وقال: إنه قال يا أهل مكة لا متعة لكم، إن الله قد أحلها لأهل الآفاق وحرّمها عليكم، إنما يقطع أحدكم وادياً ثم يحرم بعمرة.

قال القاضي أبو محمد: فمعنى هذا أنهم متى أحرموا داموا إلى الحج، وقال السدي: المتمتع هو الذي يفسخ الحج في العمرة، وذلك لا يجوز عند مالك، وفي صحيح مسلم حديث سراقه بن مالك قال: قلت يا رسول الله: فسح الحج في العمرة ألنا خاصة أم للأبد؟ فقال: «بل لأبد أبداً، بل لأبد أبداً».

قال القاضي أبو محمد: وإنما شرط في المتمتع أن يحل في أشهر الحج لأنها مدة يملكها الحج فمن كان فيها محرماً فحقه أن يصل الإحرام إلى الحج، وفي كتاب مسلم إيعاب الأحاديث في هذا المعنى، ومذهب عمر وقول أبي ذر إن متعة النساء ومتعة الحج خاصتان لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وقال طاوس: «من اعتمر في غير أشهر الحج ثم أقام حتى حج من عامه فهو متمتع».

وقال الحسن بن أبي الحسن البصري «من اعتمر بعد يوم النحر في بقية العام فهو متمتع»، وهذان قولان شاذان لم يوافقهما أحد من العلماء، وتقدم القول فيما استيسر من الهدى.

قوله عز وجل:

فَمَنْ لَمْ يَحْذِفْ صَيَّامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ
فِيهِ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ
وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ

أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّاكِلِينَ ﴿١٩٨﴾

قوله: ﴿لم يجد﴾ إما بعدم المال وإما بعدم الحيوان، و﴿في الحج﴾ قال عكرمة وعطاء: له أن يصومها في أشهر الحج وإن كان لم يحرم بالحج.

وقال ابن عباس ومالك بن أنس: له أن يصومها منذ يحرم بالحج.

وقال عطاء أيضاً ومجاهد: لا يصومها إلا في عشر ذي الحجة.

وقال ابن عمر والحسن والحكم: يصوم يوماً قبل يوم التروية ويوم التروية ويوم عرفة، وكلهم يقول: لا يجوز تأخيرها عن عشر ذي الحجة لأن بانقضائه ينقضي الحج.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن عمر ومالك بن أنس وجماعة من أهل العلم: من فاته صيامها قبل يوم النحر فله صيامها في أيام التشريق، لأنها من أيام الحج.

وقال قوم: له ابتداء تأخيرها إلى أيام التشريق لأنه لا يجب عليه الصيام إلا بأن لا يجد يوم النحر.

وقوله تعالى: ﴿وسبعة إذا رجعت﴾ قال مجاهد وعطاء وإبراهيم: المعنى إذا رجعت من منى فمن بقي بمكة صامها، ومن نهض إلى بلده صامها في الطريق.

وقال قتادة والربيع: هذه رخصة من الله تعالى، والمعنى إذا رجعت إلى أوطانكم فلا يجب على أحد صوم السبعة إلا إذا وصل وطنه، إلا أن يتشدد أحد كما يفعل من يصوم في السفر في رمضان، وقرأ زيد بن علي «وسبعة» بالنصب، أي وصوموا سبعة، ولما جاز أن يتوهم متوهم التخيير بين ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع أزيل ذلك بالجملة من قوله تعالى: ﴿تلك عشرة كاملة﴾ قال الحسن بن أبي الحسن: المعنى كاملة في الثواب كمن أهدى، وقيل كاملة في الثواب كمن لم يتمتع، وهذا على أن الحج الذي لم تكثر فيه الدماء أخلص وأفضل خلافاً لأبي حنيفة، وقيل: ﴿كاملة﴾ تأكيد كما تقول كتبت بيدي، وكقوله تعالى: ﴿فخر عليهم السقف من فوقهم﴾ [النحل: ٦]، وقيل: لفظها الإخبار ومعناها الأمر أي أكملوها فذلك فرضها.

وقال الأستاذ الأجل أبو الحسن علي بن أحمد: المعنى تلك كاملة، وكرر الموصوف تأكيداً كما تقول زيد رجل عاقل.

وقوله تعالى: ﴿ذلك لمن لم يكن أهله﴾ الآية، الإشارة إلى التمتع وهديه وحكمه، وهذا على قول من يرى أن المكي لا تجوز له المتعة في أشهر الحج، فكان الكلام ذلك الترخيص، ويتأيد هذا بقوله ﴿لمن﴾، لأن اللام أبداً إنما تجيء مع الرخص، تقول لك إن تفعل كذا، وأما مع الشدة فالوجه أن تقول عليك، وأما من يرى أن المكي يعتمر ولا دم عليه لأنه لم يسقط سفره فالإشارة بذلك - على قوله - هي إلى الهدي، أي ذلك الاشتداد والإلزام.

واختلف الناس في ﴿حاضري المسجد الحرام﴾ بعد الإجماع على أهل مكة وما اتصل بها، وقال الطبري: بعد الإجماع على أهل الحرم، وليس كما قال: فقال بعض العلماء: من كان حيث تجب الجمعة عليه بمكة فهو حضري، ومن كان أبعد من ذلك فهو بدوي.

قال القاضي أبو محمد: فجعل اللفظة من الحضارة والبداءة، وقال بعضهم: من كان بحيث لا تقصر الصلاة إلى مكانه فهو حاضر أي شاهد، ومن كان أبعد من ذلك فهو غائب، وقال عطاء بن أبي رباح: مكة وضجنان وذو طوى وما أشبهها حاضرو المسجد الحرام.

وقال ابن عباس ومجاهد: أهل الحرم كله حاضرو المسجد الحرام، وقال مكحول وعطاء: من كان دون المواقيت من كل جهة حاضرو المسجد الحرام.

وقال الزهري: من كان على يوم أو يومين فهو من حاضري المسجد الحرام، ثم أمر تعالى بتقواه على العموم، وحذر من شديد عقابه.

وقوله تعالى: ﴿الحج أشهر معلومات﴾، في الكلام حذف تقديره: أشهر الحج أشهر، أو: وقت الحج أشهر، أو: وقت عمل الحج أشهر، والغرض إنما هو أن يكون الخبر عن الابتداء هو الابتداء نفسه، والحج ليس بالأشهر فاحتيج إلى هذه التقديرات، ومن قدر الكلام: الحج في أشهر، فيلزمه مع سقوط حرف الجر نصب الأشهر، ولم يقرأ بنصبها أحد.

وقال ابن مسعود وابن عمر وعطاء والربيع ومجاهد والزهري: أشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة كله.

وقال ابن عباس والشعبي والسدي وإبراهيم: هي شوال وذو القعدة وعشر ذي الحجة، والقولان لمالك رحمه الله، حكى الأخير ابن حبيب، وجمع على هذا القول الأخير الاثنان وبعض الثالث كما فعلوا في جمع عشر فقالوا عشرون وعشرين ويومين من الثالث، وكما قال امرؤ القيس: [الطويل]

ثلاثون شهراً في ثلاثة أحوال

فمن قال إن ذا الحجة كله من أشهر الحج لم ير دماً فيما يقع من الأعمال بعد يوم النحر لأنها في أشهر الحج، وعلى القول الآخر ينقضي الحج بيوم النحر ويلزم الدم فيما عمل بعد ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فمن فرض فيهن الحج﴾ أي من ألزمه نفسه، وأصل الفرض الحز الذي يكون في السهام والقسي وغيرها، ومنه فرضة النهر والجبل، فكان من التزم شيئاً وأثبت على نفسه قد فرضه، وفرض الحج هو بالنية والدخول في الإحرام، والتلبية تبع لذلك، و﴿من﴾ رفع بالابتداء، ومعناها الشرط، والخبر قوله ﴿فرض﴾ لأن ﴿من﴾ ليست بموصولة فكأنه قال فرجل فرض، وقوله ﴿فلا رفث﴾ يحتمل أن يكون الخبر، وتكون ﴿فرض﴾ صفة.

وقوله تعالى: ﴿فيهن﴾ ولم يجرىء الكلام فرض فيها: فقال قوم: هما سواء في الاستعمال.

وقال أبو عثمان المازني: «الجمع الكثير لما لا يعقل يأتي كالواحدة المؤنثة، والقليل ليس كذلك،

تقول الأجداع انكسرن والجدوع انكسرت»، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ عُدَّةَ الشُّهُورِ﴾ [التوبة: ٣٦]، ثم قال: ﴿منها﴾، وقرأ نافع «فلا رفث ولا فسوق ولا جدال» بنصب الجميع، وهي قراءة ابن عامر وعاصم وحزمة والكسائي، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «فلا رفث ولا فسوق ولا جدال» بالرفع في الاثنين ونصب الجدال، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع بالرفع في الثلاثة، ورويت عن عاصم في بعض الطرق، و﴿لا﴾ بمعنى ليس في قراءة الرفع وخبرها محذوف على قراءة أبي عمرو، و﴿في الحج﴾ خبر ﴿لا جدال﴾، وحذف الخبر هنا هو مذهب أبي علي، وقد خولف في ذلك، بل ﴿في الحج﴾ هو خبر الكل، إذ هو في موضع رفع في الوجهين، لأن ﴿لا﴾ إنما تعمل على بابها فيما يليها وخبرها مرفوع باق على حاله من خبر الابتداء، وظن أبو علي أنها بمنزلة ليس في نصب الخبر، وليس كذلك، بل هي والاسم في موضع الابتداء يطلبان الخبر، و﴿في الحج﴾ هو الخبر في قراءة كلها بالرفع وفي قراءتها بالنصب، والتحرير أن ﴿في الحج﴾ في موضع نصب بالخبر المقدر كأنك قلت موجود في الحج، ولا فرق بين الآية وبين قولك زيد في الدار.

وقال ابن عباس وابن جبير والسدي وقتادة ومالك ومجاهد وغيرهم: الرفث الجماع.

وقال عبد الله بن عمر وطاوس وعطاء وغيرهم: الرفث الإعراب والتعريب، وهو الإفحاش بأمر الجماع عند النساء خاصة، وهذا قول ابن عباس أيضاً، وأنشد وهو محرم:

وَهُنَّ يَمْشِينَ بِنَا هَمِيْسًا إِنْ تَصُدَّقِ الطَّيْرُ نَبْكَ لَمِيْسًا

ف قيل له: ترفث وأنت محرم؟ فقال: إنما الرفث ما كان عند النساء وقال قوم: الرفث الإفحاش بذكر النساء كان ذلك بحضرتهن أم لا، وقد قال ابن عمر للحادي: «لا تذكر النساء».

قال القاضي أبو محمد: وهذا يحتمل أن تحضر امرأة فلذلك نهاه، وإنما يقوي القول من جهة ما يلزم من توقيف الحج.

وقال أبو عبيدة: «الرفث اللغا من الكلام»، وأنشد:

وَرُبَّ أَسْرَابٍ حَجِيجٍ كُظْمٍ عَنِ اللَّغَا وَرَفَثٍ التُّكْلُمِ

قال القاضي أبو محمد: ولا حجة في البيت، وقرأ ابن مسعود «ولا رفوث».

وقال ابن عباس وعطاء والحسن وغيرهم: الفسوق المعاصي كلها لا يختص بها شيء دون شيء.

وقال ابن عمر وجماعة معه: الفسوق المعاصي في معنى الحج كقتل الصيد وغيره.

وقال ابن زيد ومالك: الفسوق الذبح للأصنام، ومنه قول الله تعالى: ﴿أَوْ فَسَقًا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

وقال الضحاك: الفسوق التنازع بالألقاب، ومنه قول الله تعالى: ﴿بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ﴾ [الحجرات: ١١].

وقال ابن عمر أيضاً ومجاهد وعطاء وإبراهيم: الفسوق السباب، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر».

قال القاضي أبو محمد: وعموم جميع المعاصي أولى الأقوال.

وقال قتادة وغيره: الجدل هنا السباب.

وقال ابن مسعود وابن عباس وعطاء ومجاهد: الجدل هنا أن تماري مسلماً حتى تغضبه.

وقال مالك وابن زيد: الجدل هنا أن يختلف الناس أيهم صادف موقف إبراهيم عليه السلام كما كانوا يفعلون في الجاهلية حين كانت قريش تقف في غير موقف سائر العرب ثم يتجادلون بعد ذلك.

وقال محمد بن كعب القرظي: الجدل أن تقول طائفة حجنا أبر من حجكم وتقول الأخرى مثل ذلك.

وقالت فرقة: الجدل هنا أن تقول طائفة: الحج اليوم وتقول طائفة بل الحج غداً، وقيل: الجدل كان في الفخر بالأباء.

وقال مجاهد وجماعة معه: الجدل أن تنسئ العرب الشهور حسبما كان النسيء عليه، فقرر الشرع وقت الحج وبينه، وأخبر أنه حتم لا جدال فيه، وهذا أصح الأقوال وأظهرها، والجدال مأخوذ من الجدل وهو الفتل، كأن كل مجادل يقاتل صاحبه في الكلام. وأما ما كان النسيء عليه فظاهر سير ابن إسحاق وغيرها من الدواوين أن الناسء كان يحل المحرم لثلاث تنوالت على العرب ثلاثة أشهر لا إغارة فيها، ويحرم صفر، وربما سموه المحرم، وتبقى سائر الأشهر بأسمائها حتى يأتي حجهم في ذي الحجة على الحقيقة، وأسند الطبري عن مجاهد أنه قال: كانوا يسقطون المحرم ثم يقولون صفران لصفر وشهر ربيع الأول، ثم كذلك ينقلون أسماء الشهور، ويتبدل وقت الحج في الحقيقة، لكنه يبقى في ذي الحجة بالتسمية لا في حقيقة الشهر، قال: فكان حج أبي بكر سنة تسع في ذي القعدة على الحقيقة ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة عشر في ذي الحجة على الحقيقة، وحينئذ قال: «إن الزمان قد استدار» الحديث، ونزلت ﴿ولا جدال في الحج﴾ أي قد تبين أمره فلا ينتقل شهر البتة أبداً.

وقوله تعالى: ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾ المعنى فيثيب عليه، وفي هذا تخصيص على فعل الخير.

وقوله تعالى: ﴿وتزودوا﴾ الآية، قال ابن عمر وعكرمة ومجاهد وقتادة وابن زيد: نزلت الآية في طائفة من العرب كانت تجيء إلى الحج بلا زاد ويقول بعضهم: نحن المتوكلون، ويقول بعضهم: كيف نحج بيت الله ولا يطعمنا، فكانوا يبقون عالة على الناس، فنهوا عن ذلك وأمروا بالتزود.

وقال بعض الناس: المعنى تزودوا الرفيق الصالح، وهذا تخصيص ضعيف، والأولى في معنى الآية: وتزودوا لمعادكم من الأعمال الصالحة، وفي قوله تعالى: ﴿فإن خير الزاد التقوى﴾ حض على التقوى، وخص أولو الألباب بالخطاب وإن كان الأمر يعم الكل لأنهم الذين قامت عليهم حجة الله وهم

قابلو أوامره والناهضون بها، وهذا على أن اللب لب التجارب وجودة النظر، وإن جعلناه لب التكليف فالنداء بـ ﴿أولي الألباب﴾ عام لجميع المكلفين، واللب العقل، تقول العرب لبّيت بضم الباء الأولى ألْب بضم اللام، حكاه سيبويه، وليس في الكلام فعل يفعل بضم العين فيهما غير هذه الكلمة.

وقوله تعالى: ﴿ليس عليكم جناح﴾ الآية، الجناح أعم من الإثم لأنه فيما يقتضي العقاب وفيما يقتضي العتاب والزجر، و﴿تبتغوا﴾ معناه تطلبون بمحاولتكم.

وقال ابن عمر وابن عباس ومجاهد وعطاء: إن الآية نزلت لأن العرب تخرجت لما جاء الإسلام أن يحضروا أسواق الجاهلية كعكاظ وذو المجاز ومجنة، فأباح الله تعالى ذلك، أي لا درك في أن تتجروا وتطلبوا الربح.

وقال مجاهد: «كان بعض العرب لا يتجرون مذ يحرمون، فنزلت الآية في إباحة ذلك».

وقال ابن عمر فيمن أكرى ليحج: «حجه تام ولا حرج عليه في ابتغاء الكراء»، وقرأ ابن عباس وابن مسعود وابن الزبير: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج».

وقوله تعالى: ﴿فإذا أفضتم من عرفات﴾ أجمع أهل العلم على تمام حج من وقف بعرفة بعد الزوال وأفاض نهاراً قبل الليل إلا مالك بن أنس، فإنه قال: «لا بد أن يأخذ من الليل شيئاً، وأما من وقف بعرفة بالليل فلا خلاف بين الأمة في تمام حجه» وأفاض القوم أو الجيش إذا اندفعوا جملة، ومنه أفاض الرجل في الكلام، ومنه فاض الإناء، وأفضته، ومنه المفيض في القداح، والتنوين في عرفات على حده في مسلمات، الكسرة مقابلة للياء في مسلمين والتنوين مقابل للنون، فإذا سميت به شخصاً ترك، وهو معرف على حده قبل أن تسمى به، فإن كان ﴿عرفات﴾ اسماً لتلك البقعة كلها فهو كما ذكرناه، وإن كان جمع عرفة فهو كمسلمات دون أن يسمى به، وحكى سيبويه كسر التاء من «عرفات» دون تنوين في حال النصب والخفض مع التعريف، وحكى الكوفيون فتحها في حال النصب والخفض تشبيهاً بتاء فاطمة وطلحة، وسميت تلك البقعة ﴿عرفات﴾ لأن إبراهيم عرفها حين رآها على ما وصفت له، قاله السدي.

وقال ابن عباس: «سميت بذلك لأن جبريل عليه السلام كان يقول لإبراهيم عليه السلام: هذا موضع كذا، فيقول قد عرفت»، وقيل: سميت بذلك لأن آدم عرف بها حواء حين لقيها هناك.

قال القاضي أبو محمد: والظاهر أنه اسم مرتجل كسائر أسماء البقاع، وعرفة هي نعمان الأراك، وفيها يقول الشاعر:

نزودت من نعمان عود أراكة لهند ولكن من يبلغه هنذا؟

و﴿المشعر الحرام﴾ جمع كله، وهو ما بين جبلي المزدلفة من حد مفضى مأزمي عرفة، قال ذلك ابن عباس وابن جبير والربيع وابن عمر ومجاهد، فهي كلها مشعر إلى بطن محسر، كما أن عرفة كلها موقف إلا بطن عُرنة، بفتح الراء وضمها، روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «عرفة كلها موقف إلا بطن عُرنة، والمزدلفة كلها مشعر، إلا وارتفعوا عن بطن محسر» وذكر هذا عبد الله بن الزبير في خطبته، وفي

المزدلفة قرن قرح الذي كانت قريش تقف عليه، وذكر الله تعالى عند المشعر الحرام ندب عند أهل العلم.

وقال مالك: «من مر به ولم ينزل فعليه دم».

وقال الشافعي: «من خرج من مزدلفة قبل نصف الليل فعليه دم، وإن كان بعد نصف الليل فلا شيء عليه؟»

وقال الشعبي والنخعي: من فاته الوقوف بمزدلفة فاتته الحج.

وقوله: ﴿واذكروه كما هداكم﴾ تعديد للنعمة وأمر بشكرها، ثم ذكرهم بحال ضلالهم ليظهر قدر الإنعام، والكاف في ﴿كما﴾ نعت لمصدر محذوف، و﴿إن﴾ مخففة من الثقيلة، ويدل على ذلك دخول اللام في الخبر، هذا قول سيبويه.

وقال الفراء: «هي النافية بمعنى ما، واللام بمعنى إلا»، والضمير في ﴿قبله﴾ عائذ على الهدى.

قوله عز وجل:

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾
فَإِذَا قُضِيَتْ مِنْكُمْ ذِكْرُكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا
فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾
وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ
﴿٢٠١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ
فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا
أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

قال ابن عباس وعائشة وعطاء وغيرهم: المخاطب بهذه الآية قريش ومن ولدت وهم الحمس، وذلك أنهم كانوا يقولون نحن قطين الله فينبغي لنا أن نعظم الحرم ولا نعظم شيئاً من الحل، فسنوا شق الثياب في الطواف إلى غير ذلك، وكانوا مع معرفتهم وإقرارهم أن عرفة هي موقف إبراهيم لا يخرجون من الحرم ويقفون بجمع ويفيضون منه، ويقف الناس بعرفة، ف قيل لهم أن يفيضوا مع الجملة، و﴿ثم﴾ ليست في هذه الآية للترتيب، إنما هي لعطف جملة كلام على جملة هي منها منقطعة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحمس، ولكنه كان يقف مذ كان بعرفة، هداية من الله.

وقال الضحاك: «المخاطب بالآية جملة الأمة»، والمراد بـ ﴿الناس﴾ إبراهيم عليه السلام كما قال: ﴿الذين قال لهم الناس﴾ [آل عمران: ١٧٣] وهو يريد واحداً، ويحتمل على هذا أن يؤمروا بالإفاضة من عرفة، ويحتمل أن تكون إفاضة أخرى وهي التي من المزدلفة فتجيء ﴿ثم﴾ على هذا الاحتمال على

بابها، وعلى هذا الاحتمال عول الطبري، وقرأ سعيد بن جبير «الناسي» وتأوله آدم عليه السلام، ويجوز عند بعضهم تخفيف الياء فيقول الناس كالقاض والهاد.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: أما جوازه في العربية فذكره سيبويه، وأما جوازه مقروءاً به فلا أحفظه، وأمر تعالى بالاستغفار لأنها مواطن ومظان القبول ومساقط الرحمة، وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب عشية عرفة فقال: «أيها الناس، إن الله عز وجل قد تناول عليكم في مقامكم هذا، فقبل من محسنكم ووهب مسيئكم لمحسنكم إلا التبعات فيما بينكم، أفيضوا على اسم الله»، فلما كان غداة جمع، خطب فقال: «أيها الناس إن الله تناول عليكم فعوض التبعات من عنده».

وقالت فرقة: المعنى واستغفروا الله من فعلكم الذي كان مخالفاً لسنة إبراهيم في وقوفكم بقروح من المزدلفة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ﴾ الآية، قال مجاهد: «المناسك الذبائح وهراقة الدماء»، والمناسك عندي العبادات في معالم الحج ومواضع النسك فيه، والمعنى إذا فرغتم من حجكم الذي هو الوقوف بعرفة فاذكروا الله بمحامده وأثنوا عليه بآلانه عندكم، وخص هذا الوقت بالقضاء لما يقضي الناس فيه مناسكهم في حين واحد، وما قبل وما بعد فهو على الافتراق: هذا في طواف وهذا في رمي وهذا في حلاق وغير ذلك، وكانت عادة العرب إذا قضت حجها تقف عند الجمرة تفتاخر بالآباء وتذكر أيام أسلافها من بسالة وكرم وغير ذلك، فنزلت الآية ليلزموا أنفسهم ذكر الله تعالى أكثر من التزامهم ذكر آبائهم بأيام الجاهلية، هذا قول جمهور المفسرين.

وقال ابن عباس وعطاء: معنى الآية اذكروا الله كذكر الأطفال آباءهم وأمهاتهم، أي فاستغيثوا به والجؤوا إليه كما كنتم تفعلون في حال صغرهم بآبائكم.

وقالت طائفة: معنى الآية اذكروا الله وعظموه وذبوا عن حرمه، وادفعوا من أراد الشرك والنقص في دينه ومشاعره، كما تذكرون آباءكم بالخير إذا غض أحد منهم وتحمون جوانبهم وتذبون عنهم، وقرأ محمد ابن كعب القرظي «كذكركم آبائكم» أي اهتملوا بذكره كما يهتمل المرء بذكر ابنه، فالمصدر على هذه القراءة مضاف إلى المفعول، و«أشد» في موضع خفض عطفاً على «ذكركم» ويجوز أن يكون في موضع نصب، التقدير أو اذكروه أشد ذكراً.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ﴾ الآية، قال أبو وائل والسدي وابن زيد: كانت عادتهم في الجاهلية أن يدعوا في مصالح الدنيا فقط إذ كانوا لا يعرفون الآخرة، فنهوا عن ذلك الدعاء المخصوص بأمر الدنيا، وجاء النهي في صيغة الخبر عنهم، والخلاق: النصيب والحظ، و«من» زائدة لأنها بعد النفي، فهي مستغرقة لجنس الحظوظ.

وقال قتادة: «حسنة الدنيا العافية في الصحة وكفاف المال».

وقال الحسن بن أبي الحسن: «حسنة الدنيا العلم والعبادة».

وقال السدي: «حسنة الدنيا المال»، وقيل: حسنة الدنيا المرأة الحسنة، واللفظة تقتضي هذا كله وجميع محاب الدنيا، وحسنة الآخرة الجنة بإجماع، و﴿قنا عذاب النار﴾ دعاء في أن لا يكون المرء ممن يدخلها بمعاصيه وتخرجه الشفاعة، ويحتمل أن يكون دعاء مؤكداً لطلب دخول الجنة، لتكون الرغبة في معنى النجاة والفوز من الطرفين، كما قال أحد الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم: «أنا إنما أقول في دعائي اللهم أدخلني الجنة وعافني من النار، ولا أدري ما دندنتك ولا دندنة معاذ»، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حولها ندندن».

وقوله تعالى: ﴿أولئك لهم نصيب مما كسبوا﴾ الآية، وعد على كسب الأعمال الصالحة في صيغة الإخبار المجرد، والرب تعالى سريع الحساب لأنه لا يحتاج إلى عقد ولا إلى إعمال فكر، وقيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: كيف يحاسب الله الخلائق في يوم؟ فقال «كما يرزقهم في يوم»، وقيل: الحساب هنا المجازاة، كأن المجازي يعد أجزاء العمل ثم يجازي بمثلها، وقيل معنى الآية سريع مجيء يوم الحساب، فالمقصد بالآية الإنذار بيوم القيامة، وأمر الله تعالى عباده بذكره في الأيام المعدودات، وهي الثلاثة التي بعد يوم النحر، وهي أيام التشريق، وليس يوم النحر من المعدودات، ودل على ذلك إجماع الناس على أنه لا ينفر أحد يوم القر وهو ثاني يوم النحر، فإن يوم النحر من المعلومات، ولو كان يوم النحر في المعدودات لساغ أن ينفر من شاء متعجلاً يوم القر، لأنه قد أخذ يومين من المعدودات، وحكى مكي والمهدوي عن ابن عباس أنه قال: «المعدودات هي أيام العشر»، وهذا إما أن يكون من تصحيف النسخة، وإما أن يريد العشر الذي بعد يوم النحر، وفي ذلك بعد، والأيام المعلومات هي يوم النحر ويومان بعده لإجماعهم على أنه لا ينحر أحد في اليوم الثالث، والذكر في المعلومات إنما هو على ما رزق الله من بهيمة الأنعام.

وقال ابن زيد: «المعلومات عشر ذي الحجة وأيام التشريق»، وفي هذا القول بعد، وجعل الله الأيام المعدودات أيام ذكر الله، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «هي أيام أكل وشرب وذكر لله».

ومن جملة الذكر التكبير في إثر الصلوات، واختلف في طرفي مدة التكبير: فقال عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وابن عباس: يكبر من صلاة الصبح من يوم عرفة إلى العصر من آخر أيام التشريق.

وقال ابن مسعود وأبو حنيفة: يكبر من غداة عرفة إلى صلاة العصر من يوم النحر.

وقال يحيى بن سعيد: يكبر من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الظهر من آخر يوم التشريق.

وقال مالك: يكبر من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق، وبه قال الشافعي.

وقال ابن شهاب: «يكبر من الظهر يوم النحر إلى العصر من آخر أيام التشريق».

وقال سعيد بن جبيرة: «يكبر من الظهر يوم عرفة إلى العصر من آخر أيام التشريق».

وقال الحسن بن أبي الحسن: «يكبر من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الظهر يوم النفر الأول».

وقال أبو وائل: «يكبر من صلاة الظهر يوم عرفة إلى صلاة الظهر يوم النحر».

ومشهور مذهب مالك أنه يكبر إثر كل صلاة ثلاث تكبيرات، وفي المذهب رواية أنه يقال بعد التكبيرات الثلاث: لا إله إلا الله والله أكبر والله الحمد.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، قال ابن عباس والحسن وعكرمة ومجاهد: المعنى من نفر في اليوم الثاني من الأيام المعدودات فلا حرج عليه، ومن تأخر إلى الثالث فلا حرج عليه، فمعنى الآية كل ذلك مباح، وعبر عنه بهذا التقسيم اهتماماً وتأكيذاً إذ كان من العرب من يذم المتعجل وبالعكس، فنزلت الآية رافعة للجناح في كل ذلك، ومن العلماء من رأى أن التعجل إنما أبيح لمن بعد قطره لا للمكي والقريب، إلا أن يكون له عذر، قاله مالك وغيره، ومنهم من رأى أن الناس كلهم مباح لهم ذلك، قاله عطاء وغيره.

وقال علي بن أبي طالب وابن مسعود وإبراهيم: معنى الآية من تعجل فقد غفر له ومن تأخر فقد غفر له، واحتجوا بقوله عليه السلام: «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من خطايا كيوم ولدته أمه»، فقوله تعالى: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ نفي عام وتبرئة مطلقة، وقال مجاهد أيضاً: معنى الآية من تعجل أو تأخر فلا إثم عليه إلى العام القابل، وأسند في هذا القول أثر.

وقال أبو العالية: المعنى في الآية لا إثم عليه لمن اتقى بقية عمره، والحاج مغفور له البتة.

وقال أبو صالح وغيره: معنى الآية لا إثم عليه لمن اتقى قتل الصيد وما يجب عليه تجنبه في الحج، وقال أيضاً: لمن اتقى في حجه فأتى به تاماً حتى كان مبروراً، واللام في قوله ﴿لَمَنْ اتَّقَى﴾ متعلقة إما بالغفران على بعض التأويلات، أو بارتفاع الإثم في الحج على بعضها، وقيل: بالذكر الذي دل عليه قوله ﴿وَاذْكُرُوا﴾، أي الذكر لمن اتقى، ويسقط رمي الجمرة الثالثة عن تعجل.

وقال ابن أبي زمنين: «يرميها في يوم النفر الأول حين يريد التعجل».

قال ابن المواز: «يرمي المتعجل في يومين بإحدى وعشرين حصاة، كل جمرة بسبع حصيات، فيصير جميع رمية بتسع وأربعين حصاة».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: لأنه قد رمى جمرة العقبة بسبع يوم النحر.

قال ابن المواز: «ويسقط رمي اليوم الثالث».

وقرأ سالم بن عبد الله ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ بوصل الألف، ثم أمر تعالى بالتقوى وذكر بالمشعر والوقوف

بين يديه.

قوله عز وجل:

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ
وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٤﴾

﴿٢٠٥﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾

قال السدي: «نزلت في الأخنس بن شريق، واسمه أبي، والأخنس لقب، وذلك أنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ف أظهر الإسلام، وقال: الله يعلم أنني صادق، ثم هرب بعد ذلك، فمر بقوم من المسلمين، فأحرق لهم زرعاً، وقتل حمراً، فنزلت فيه هذه الآيات».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: ما ثبت قط أن الأخنس أسلم.

وقال ابن عباس: نزلت في قوم من المنافقين تكلموا في الذين قتلوا في غزوة الرجيع عاصم بن ثابت وخبيب وابن الدثنة وغيرهم قالوا: ويح هؤلاء القوم لا هم قعدوا في بيوتهم ولا أدوا رسالة صاحبهم، فنزلت هذه الآيات في صفات المنافقين. ثم ذكر المستشهدين في غزوة الرجيع في قوله: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾ الآية، وقال قتادة ومجاهد وجماعة من العلماء: نزلت هذه الآيات في كل مبطن كفر أو نفاق أو كذب أو إضرار وهو يظهر بلسانه خلاف ذلك، فهي عامة، وهي تشبه ما ورد في الترمذي أن في بعض كتب الله تعالى: «أن من عباد الله قوماً ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين، يجترون الدنيا بالدين، يقول الله تعالى: أبي يغترون وعلي يجترون؟ حلفت لأسلطن عليهم فتنة تدع الحليم منهم حيران». ومعنى «ويشهد الله» أي يقول: الله يعلم أنني أقول حقاً، وقرأ أبو حيوة وابن محيصن «ويشهد الله» بإسناد الفعل إلى اسم الجلالة، المعنى يعجبك قوله والله يعلم منه خلاف ما قال، والقراءة التي للجماعة أبلغ في ذمه، لأنه قوى على نفسه التزام الكلام الحسن ثم ظهر من باطنه خلافه، و﴿ما في قلبه﴾ مختلف بحسب القراءتين، فعلى قراءة الجمهور هو الخير الذي يظهر، أي هو في قلبه بزعمه، وعلى قراءة ابن محيصن هو الشر الباطن، وقرأ ابن عباس «والله يشهد على ما في قلبه»، وقرأ أبي وابن مسعود «ويستشهد الله على ما في قلبه»، والألد: الشديد الخصومة الصعب الشكيمة الذي يلوي الحجاج في كل جانب، فيشبه انحرافه المشي في ليددي الوادي، ومنه لديد الفم، واللدد، ويقال منه: لديدت بكسر العين ألد، وهو ذم، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»، ويقال: لددته بفتح العين ألدّه بضمها إذا غلبته في الخصام، ومن اللفظة قول الشاعر: [الخفيف]

إِنَّ تَحْتَ الْأَحْبَارِ حَزْماً وَعَزْماً وَخَصِيماً أَلْدُ ذَا مِعْلَاقٍ

و «الخصام» في الآية مصدر خاصم، وقيل جمع خصم ككلب وكلاب، فكان الكلام وهو أشد الخصماء والدمم.

و ﴿تَوَلَّى﴾ و ﴿سَعَى﴾ تحتل جميعاً معنيين: أحدهما أن تكون فعل قلب فيجيء ﴿تَوَلَّى﴾ بمعنى ضل وغضب وأنف في نفسه فسعى بحيله وإرادته الدوائر على الإسلام، ومن هذا السعي قول الله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩]، ومنه ﴿وسعى لها سعيها﴾ [الإسراء: ١٩]. ومنه قول الشاعر: [الرجز]

أسعى على حيّ بني مالك كل امرئ في شأنه ساع

ونحا هذا المنحى في معنى الآية ابن جريج وغيره، والمعنى الثاني أن يكونا فعل شخص فيجيء ﴿تَوَلَّى﴾ بمعنى أدبر ونهض عنك يا محمد، و ﴿سَعَى﴾ يجيء معناها بقدمه فقطع الطريق وأفسدها، نحا هذا المنحى ابن عباس وغيره، وكلا السعيتين فساد.
وقوله تعالى: ﴿ويهلك الحرث والنسل﴾.

قال الطبري: «المراد الأخنس في إحراقه الزرع وقتله الحمر».
وقال مجاهد: «المراد أن الظالم يفسد في الأرض فيمسك الله المطر فيهلك الحرث والنسل»، وقيل: المراد أن المفسد يقتل الناس فينقطع عمار الزرع والمنسلون».
وقال الزجاج: «يحتمل أن يراد بالحرث النساء وبالنسل نسلهن».

قال القاضي أبو محمد: والظاهر أن الآية عبارة عن مبالغة في الإفساد، إذ كل فساد في أمور الدنيا، فعلى هذين الفصلين يدور، وأكثر القراء على ﴿يُهْلِكُ﴾ بضم الياء وكسر اللام وفتح الكاف عطفاً على ﴿ليفسد﴾، وفي مصحف أبي بن كعب «وليهلك»، وقرأ قوم «ويهلك» بضم الكاف، إما عطفاً على ﴿يعجبك﴾ وإما على ﴿سعى﴾، لأنها بمعنى الاستقبال، وإما على القطع والاستئناف، وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق وأبو حيوه وابن محيصن «ويهلك» بفتح الياء وكسر اللام وضم الكاف ورفع «الحرث» و «النسل»، وكذلك رواه ابن سلمة عن ابن كثير وعبد الوارث عن أبي عمرو، وحكى المهدوي أن الذي روى حماد بن سلمة عن ابن كثير إنما هو «ويهلك» بضم الياء والكاف «الحرث» بالنصب، وقرأ قوم «ويهلك» بفتح الياء واللام ورفع «الحرث» وهي لغة هلك يهلك، تلحق بالشواذ كركن يركن، و «الحرث» في اللغة شق الأرض للزراعة، ويسمى الزرع حرثاً للمجاورة والتناسب، ويدخل سائر الشجر والغراسات في ذلك حملاً على الزرع، ومنه قول عز وجل ﴿إذ يحكمنا في الحرث﴾ [الأنبياء: ٧٨]، وهو كرم على ما ورد في التفاسير، وسمي النساء حرثاً على التشبيه، و «النسل» مأخوذ من نسل ينسل إذا خرج متتابعاً، ومنه نسال الطائر ما تتابع سقوطه من ريشه، ومنه قوله تعالى: ﴿وهم من كل حذب ينسلون﴾ [الأنبياء: ٩٦]، ومنه قول امرئ القيس: [الطويل]

فَسُلِّي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسُلِ

و ﴿لا يحب﴾ معناه لا يحبه من أهل الصلاح، أي لا يحبه ديناً، وإلا فلا يقع إلا ما يحب الله تعالى وقوعه، والفساد واقع، وهذا على ما ذهب إليه المتكلمون من أن الحب بمعنى الإرادة.

قال القاضي أبو محمد: والحب له على الإرادة مزية إثارة، فلو قال أحد: إن الفساد المراد تنقصه مزية الإيثارة لصح ذلك، إذ الحب من الله تعالى إنما هو لما حسن من جميع جهاته.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ﴾ الآية، هذه صفة الكافر أو المنافق الذاهب بنفسه زهواً، ويكره للمؤمن أن يوقعه الحرج في نحو هذا.

وقال بعض العلماء: كفى بالمرء إثماً أن يقول له أخوه اتق الله فيقول له: عليك نفسك، مثلك يوصيني؟ والعزة هنا المنعة وشدة النفس، أي اعتر في نفسه وانتخى فأوقعته تلك العزة في الإثم حين أخذته به وألزمته أباه، ويحتمل لفظ الآية أن يكون أخذته العزة مع الإثم، فمعنى الباء يختلف بحسب التأويلين، و﴿حسبه﴾ أي كافيه معاقبة وجزاء، كما تقول للرجل كفأك ما حل بك، وأنت تستعظم وتعظم عليه ما حل به، و﴿المهاد﴾ ما مهد الرجل لنفسه كأنه الفراش، ومن هذا الباب قول الشاعر: [الوافر]

تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ الآية تتناول كل مجاهد في سبيل الله أو مستشهد في ذاته أو مغير منكر، والظاهر من هذا التقسيم أن تكون الآيات قبل هذه على العموم في الكافر بدليل الوعيد بالنار ويأخذ العصاة الذين فيهم شيء من هذا الخلق بحظهم من وعيد الآية، ومن قال إن الآيات المتقدمة هي في منافقين تكلموا في غزوة الرجيع قال: هذه الآية في شهداء غزوة الرجيع، ومن قال تلك في الأحنس قال: هذه في الأنصار والمهاجرين المبادرين إلى الإيمان.

وقال عكرمة وغيره: هذه في طائفة من المهاجرين، وذكرنا حديث صهيب أنه خرج من مكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاتبعته قريش لترده، فشر كنانته، وقال لهم: تعلمون والله إنني لمن أرماكم رجلاً، والله لأرميكنم ما بقي لي سهم، ثم لأضربن بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، فقالوا له: لا نتركك تذهب عنا غنياً وقد جئتنا صعلوكاً، ولكن دلنا على مالك ونتركك، فدلهم على ماله وتركوه، فهاجر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلما رآه قال له: «ريح البيع أبا يحيى»، فنزلت فيه هذه الآية، ومن قال قصد بالأول العموم قال في هذه كذلك بالعموم، و﴿يشري﴾ معناه يبيع، ومنه ﴿وشروه بثمان بخس﴾ [يوسف: ٢٠]، ومنه قول يزيد بن مفرغ الحميري: [مجزوء الكامل]

وَشَرَيْتُ بَرْدًا لَيْتَنِي مِنْ بَعْدِ بَرْدٍ كُنْتُ هَامَهُ

وقال الآخر: [الكامل]

يُعْطَى بِهَا ثَمناً فَيَمْنَعُهَا وَيَقُولُ صَاحِبُهُ أَلَا تَشْرِي

ومن هذا تسمى الشراة كأنهم الذين باعوا أنفسهم من الله تعالى، وحكى قوم أنه يقال شري بمعنى اشترى، ويحتاج إلى هذا من تأول الآية في صهيب، لأنه اشترى نفسه بماله ولم يبعها، اللهم إلا أن يقال إن عزم صهيب على قتالهم بيع لنفسه من الله تعالى فتستقيم اللفظة على معنى باع.

وتأول هذه الآية عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهم في مغيري

المنكر، ولذلك قال علي وابن عباس: اقتتل الرجلان، أي قال المغير للمفسد: اتق الله، فأبى المفسد وأخذته العزة، فشرى المغير نفسه من الله تعالى وقاتله فاقتلا.

وروي أن عمر بن الخطاب كان يجمع في يوم الجمعة شباباً من القراءة فيهم ابن عباس والحربن قيس وغيرهما فيقرؤون بين يديه ومعه، فسمع عمر ابن عباس رضي الله عنهم يقول: اقتتل الرجلان، حين قرأ هذه الآية، فسأله عما قال، ففسر له هذا التفسير، فقال له عمر: «الله تلادك يا ابن عباس».

وقال أبو هريرة وأبو أيوب حين حمل هشام بن عامر على الصف في القسطنطينية فقال قوم: ألقى بيده إلى التهلكة، ليس كما قالوا، بل هذا قول الله تعالى: ﴿ومن الناس من يشري نفسه﴾ الآية.

و﴿ابتغاء﴾ مفعول من أجله، ووقف حمزة على ﴿مرضاة﴾ بالتاء والباقون بالهاء. قال أبو علي: «وجه وقف حمزة بالتاء إما أنه على لغة من يقول طلحت وعلقت، ومنه قول الشاعر: [الرجز]

بل جوز تيهاء كظهر الحجفت

وإما أنه لما كان المضاف إليه في ضمن اللفظة ولا بد أثبت التاء كما تثبت في الوصل ليعلم أن المضاف إليه مراد.

وقوله تعالى: ﴿والله رؤوف بالعباد﴾ ترجية تقتضي الحض على امتثال ما وقع به المدح في الآية كما في قوله تعالى: ﴿فحسبه جهنم﴾ تخويف يقتضي التحذير مما وقع به الذم في الآية.

ثم أمر تعالى المؤمنين بالدخول في السلم، وقرأ ابن كثير ونافع والكسائي «السلم» بفتح السين، وقرأ الباقر بكسرها في هذا الموضع، فقليل: هما بمعنى واحد، يقعان للإسلام وللمسالمة.

وقال أبو عمرو بن العلاء: «السلم بكسر السين الإسلام، وبالفتح المسالمة»، وأنكر المبرد هذه التفرقة، ورجح الطبري حمل اللفظة على معنى الإسلام، لأن المؤمنين لم يؤمروا قط بالانتداب إلى الدخول في المسالمة، وإنما قيل للنبي صلى الله عليه وسلم أن يجنح للسلم إذا جنحوا لها، وأما أن يبتدىء بها فلا.

واختلف بعد حمل اللفظ على الإسلام من المخاطب؟ فقالت فرقة: جميع المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم، والمعنى أمرهم بالثبوت فيه والزيادة من التزام حدوده، ويستغرق ﴿كافة﴾ حينئذ المؤمنين وجميع أجزاء الشرع، فتكون الحال من شيئين، وذلك جائز، نحو قوله تعالى: ﴿فأنت به قومها تحمله﴾ [مريم: ٢٧]، إلى غير ذلك من الأمثلة.

وقال عكرمة: «بل المخاطب من آمن بالنبي من بني إسرائيل كعبد الله بن سلام وغيره». وذلك أنهم ذهبوا إلى تعظيم يوم السبت وكرهوا لحم الجمل وأرادوا استعمال شيء من أحكام التوراة وخلط ذلك بالإسلام فنزلت هذه الآية فيهم، فـ ﴿كافة﴾ على هذا لإجزاء الشرع فقط.

وقال ابن عباس: «نزلت الآية في أهل الكتاب»، والمعنى يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى ادخلوا في الإسلام بمحمد كافة، فـ ﴿كافة﴾ على هذا لإجزاء الشرع وللمخاطبين على من يرى السلم الإسلام، ومن

يراها المسالمة يقول: أمرهم بالدخول في أن يعطوا الجزية، و﴿كافة﴾ معناه جميعاً، والمراد بالكافة الجماعة التي تكف مخالفتها، وقيل: إن ﴿كافة﴾ نعت لمصدر محذوف، كأن الكلام: دخله كافة، فلما حذف المنعوت بقي النعت حالاً، وتقدم القول في ﴿خطوات﴾، والألف واللام في ﴿الشيطان﴾ للجنس، و﴿عدو﴾ يقع على الواحد والاثنين والجميع، و﴿مبين﴾ يحتمل أن يكون بمعنى أبان عداوته وأن يكون بمعنى بان في نفسه أنه عدو، لأن العرب تقول: بان الأمر وأبان بمعنى واحد.

قوله عز وجل:

فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلَبَنِي إِسْرَءِيلَ يَلَكَمُ أَتَيْنَهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَسَحَرُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾

قرأ جمهور الناس «زللتم» بفتح اللام، وقرأ أبو السمال «زللتم» بكسرهما، وأصل الزلل في القدم ثم يستعمل في الاعتقادات والآراء وغير ذلك، والمعنى ضللتهم وعجتم عن الحق، و﴿البيّنات﴾ محمد وآياته ومعجزاته إذا كان الخطاب أولاً لجماعة المؤمنين، وإذا كان الخطاب لأهل الكتابين، فالبيّنات ما ورد في شرائعهم من الإعلام بمحمد صلى الله عليه وسلم والتعريف به، و﴿عزيز﴾ صفة مقتضية أنه قادر عليكم لا تعجزونه، ولا تمتنعون منه، و﴿حكيم﴾ أي محكم فيما يعاقبكم به لزللكم.

وحكى النقاش أن كعب الأحبار لما أسلم كان يتعلم القرآن، فأقرأه الذي كان يعلمه: فاعلموا أن الله غفور رحيم، فقال كعب: إني لأستنكر أن يكون هكذا، ومر بهما رجل، فقال كعب: كيف تقرأ هذه الآية؟، فقرأ الرجل: ﴿فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾، فقال كعب: هكذا ينبغي.

وقوله تعالى: ﴿هل ينظرون﴾ الآية، الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، و﴿هل﴾ من حروف الابتداء كأما، و﴿ينظرون﴾ معناه ينتظرون. والمراد هؤلاء الذين يزلون، والظلل جمع ظلة وهي ما أظل من فوق، وقرأ قتادة والضحاك «في ظلال»، وكذلك روى هارون بن حاتم عن أبي بكر عن عاصم هنا، وفي الحرفين في الزمر. وقال عكرمة: ﴿ظلل﴾ طاقات، وقرأ الحسن ويزيد بن القعقاع وأبو حيوة «والملائكة» بالخفض عطفاً على ﴿الغمام﴾، وقرأ جمهور الناس بالرفع عطفاً على ﴿الله﴾، والمعنى يأتيهم حكم الله وأمره ونهيه وعقابه إياهم، وذهب ابن جريج وغيره إلى أن هذا التوعد هو بما يقع في الدنيا.

وقال قوم: بل هو توعد بيوم القيامة، وقال قوم: قوله ﴿إلا أن يأتيهم الله﴾ وعيد بيوم القيامة، وأما الملائكة فالوعيد هو بإتيانهم عند الموت، و﴿الغمام﴾ أرق السحاب وأصفاه وأحسنه، وهو الذي ظلل به بنو إسرائيل.

وقال النقاش: «هو ضباب أبيض»، وفي قراءة ابن مسعود «إلا أن يأتيهم الله والملائكة في ظلل من الغمام»، و«قضى الأمر» معناه وقع الجزاء وعذب أهل العصيان، وقرأ معاذ بن جبل «وقضاء الأمر»، وقرأ يحيى بن يعمر «وقضى الأمور» بالجمع، وقرأ ابن عامر وحمة والكسائي «تَرَجَعَ» على بناء الفعل للفاعل، وقرأ الباقون «تَرَجَعَ» على بنائه للمفعول، وهي راجعة إليه تعالى قبل وبعد، وإنما نبه بذكر ذلك في يوم القيامة على زوال ما كان منها إلى الملوك في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الآية، الخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم، وفيه إباحة السؤال لمن شاء من أمته، ومعنى الآية توبيخهم على عنادهم بعد الآيات البينة. وقرأ أبو عمرو في رواية عباس عنه «اسأل» على الأصل، وقرأ قوم «اسل» على نقل الحركة إلى السين وترك الاعتداد بذلك في إبقاء ألف الوصل على لغة من قال الحمر، ومن قرأ «سل» فإنه أزال ألف الوصل حين نقل واستغنى عنها. و﴿كم﴾ في موضع نصب إما بفعل مضمر بعدها لأن لها صدر الكلام، تقديره كم آتينا آتيناهم، وإما بـ ﴿آتيناهم﴾. وقوله: ﴿مَنْ آيَةٍ﴾ هو على التقدير الأول مفعول ثانٍ لـ ﴿آتيناهم﴾، وعلى الثاني في موضع التمييز. ويصح أن تكون ﴿كم﴾ في موضع رفع بالابتداء والخبر في ﴿آتيناهم﴾. ويصير فيه عائد على ﴿كم﴾ تقديره كم آتيناهم، والمراد بالآية: كم جاءهم في أمر محمد صلى الله عليه وسلم من آية معرفة به دالة عليه، و﴿نعمة الله﴾ لفظ عام لجميع أنعمائه، ولكن يقوي من حال النبي معهم أن المشار إليه هنا محمد صلى الله عليه وسلم، فالمعنى: ومن يبدل من بني إسرائيل صفة نعمة الله، ثم جاء اللفظ منسحباً على كل مبدل نعمة لله تعالى.

وقال الطبري: «النعمة هنا الإسلام»، وهذا قريب من الأول، ويدخل في اللفظ أيضاً كفار قريش الذين بعث محمد منهم نعمة عليهم، فبدلوا قبولها والشكر عليها كفراً، والتوراة أيضاً نعمة على بني إسرائيل أرشدتهم وهدتهم، فبدلوا بالتحريف لها وجحد أمر محمد صلى الله عليه وسلم، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ خبر يقتضي ويتضمن الوعيد، و﴿العقاب﴾ مأخوذ من العقب، كأن المعاقب يمشي بالمجازاة له في آثار عقبه، ومنه عقبه الراكب وعقبه القدر.

وقوله تعالى: ﴿زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ المزين هو خالقها ومخترعها وخالق الكفر، ويزينها أيضاً الشيطان بوسوسته وإغوائه، وقرأ مجاهد وحמיד بن قيس وأبو حيوة «زَيْن» على بناء الفعل للفاعل ونصب «الحياة»، وقرأ ابن أبي عبله «زينت» بإظهار العلامة، والقراءة دون علامة هي للحائل ولكون التأنيت غير حقيقي، وخص الذين كفروا الذكر لقبولهم التزيين وإقبالهم على الدنيا وإعراضهم عن الآخرة سببها، والتزيين من الله تعالى واقع للكل، وقد جعل الله ما على الأرض زينة لها ليلو الخلق أيهم أحسن عملاً، فالمؤمنون الذين هم على سنن الشرع لم تفتنهم الزينة، والكفار تملكتهم لأنهم لا يعتقدون غيرها، وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين قدم عليه بالمال: «اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينت لنا».

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ إشارة إلى كفار قريش لأنهم كانوا يعظمون حالهم من الدنيا ويعتبطون بها ويسخرون من أتباع النبي صلى الله عليه وسلم كبلال وصهيب وابن مسعود وغيرهم، فذكر الله قبيح فعلهم ونبه على خفض منزلتهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، ومعنى الفوق هنا في الدرجة

والقدر فهي تقتضي التفضيل وإن لم يكن للكفار من القدر نصيب، كما قال تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان: ٢٤]، وتحتمل الآية أن المتقين هم في الآخرة في التنعم والفوز بالرحمة فوق ما هم هؤلاء فيه في دنياهم، وكذلك خير مستقراً من هؤلاء في نعمة الدنيا، فعلى هذا الاحتمال وقع التفضيل في أمر فيه اشتراك، وتحتمل هذه الآية أن يراد بالفوق المكان من حيث الجنة في السماء والنار في أسفل السافلين، فيعلم من ترتيب الأمكنة أن هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار، وتحتمل الآيتان أن يكون التفضيل على ما يتضمنه زعم الكفار، فإنهم كانوا يقولون: وإن كان معاد فلنا فيه الحظ أكثر مما لكم، ومنه حديث خباب مع العاصي بن وائل، وهذا كله من التحييلات حفظ لمذهب سيئويه والخليل في أن التفضيل إنما يجيء فيما فيه شركة، والكوفيون يجيزونه حيث لا اشتراك.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يحتمل أن يكون المعنى: والله يرزق هؤلاء الكفرة في الدنيا فلا تستعظمو ذلك ولا تقيسوا عليه الآخرة، فإن الرزق ليس على قدر الكفر والإيمان بأن يحسب لهذا عمله ولهذا عمله فيرزقان بحساب ذلك، بل الرزق بغير حساب الأعمال، والأعمال ومجازاتها محاسبة ومعادة إذ أجزاء الجزاء تقابل أجزاء الفعل المجازي عليه، فالمعنى أن المؤمن وإن لم يرزق في الدنيا فهو فوق يوم القيامة، وتحتمل الآية أن يكون المعنى أن الله يرزق هؤلاء المستضعفين علو المنزلة بكونهم فوق، وما في ضمن ذلك من النعيم بغير حساب، فالآية تنبيه على عظم النعمة عليهم وجعل رزقهم بغير حساب، حيث هو دائم لا يتناهى، فهو لا ينفد، ويحتمل أن يكون ﴿بغير حساب﴾ صفة لرزق الله تعالى كيف تصرف، إذ هو جلت قدرته لا ينق بعد، ففضله كله بغير حساب، ويحتمل أن يكون المعنى في الآية من حيث لا يحتسب هذا الذي يشاؤه الله، كأنه قال بغير احتساب من المرزوقين، كما قال تعالى: ﴿وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣]، وإن اعترض معترض على هذه الآية بقوله تعالى: ﴿عَطَاءٌ حِسَاباً﴾ [النبا: ٣٦]، فالمعنى في ذلك محسباً، وأيضاً فلو كان عدأً لكان الحساب في الجزاء والمثوبة لأنها معادة وغير الحساب في التفضل والإنعام.

قوله عز وجل:

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣٦﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِكُمْ ۚ الْبَاسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَرَزِلْوْا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ

قَرِيبٌ ﴿١٣٧﴾

قال أبي بن كعب وابن زيد: المراد بـ ﴿الناس﴾ بنو آدم حين أخرجهم الله نسماً من ظهر آدم، أي كانوا على الفطرة.

وقال مجاهد: «الناس آدم وحده».

وقال قوم: «آدم وحواء».

وقال ابن عباس وقتادة: «الناس» القرون التي كانت بين آدم ونوح، وهي عشرة، كانوا على الحق حتى اختلفوا فبعث الله تعالى نوحاً فمن بعده.

وقال قوم: الناس نوح ومن في سفينته، كانوا مسلمين ثم بعد ذلك اختلفوا.

وقال ابن عباس أيضاً: كان الناس أمة واحدة كفاراً، يريد في مدة نوح حين بعثه الله، و«كان» على هذه الأقوال هي على بابها من المضي المنقضي، وتحتل الآية معنى سابعاً وهو أن يخبر عن الناس الذين هم الجنس كله أنهم أمة واحدة في خلوعهم عن الشرائع وجهلهم بالحقائق. لولا من الله عليهم وتفضله بالرسول إليهم، ف«كان» على هذا الثبوت لا تختص بالمضي فقط، وذلك كقوله تعالى: «وكان الله غفوراً رحيماً» [النساء: ٩٦-٩٩-١٠٠-١٥٢، الفرقان: ٧٠، الأحزاب: ٥-٥٩، الفتح: ١٤]، والأمة الجماعة على المقصد الواحد، ويسمى الواحد أمة إذا كان منفرداً بمقصد، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في قس بن ساعدة: «يحشر يوم القيامة أمة وحده»، وقرأ أبي بن كعب «كان البشر أمة واحدة»، وقرأ ابن مسعود «كان الناس أمة واحدة فاختلّفوا فبعث»، وكل من قدر «الناس» في الآية مؤمنين قدر في الكلام فاختلّفوا، وكل من قدرهم كفاراً كانت بعثة «النبیین» إليهم، وأول الرسل على ما ورد في الصحيح في حديث الشفاعة نوح، لأن الناس يقولون له: أنت أول الرسل، والمعنى إلى تقويم كفار وإلا فادم مرسل إلى بنيہ يعلمهم الدين والإيمان، و«مبشرين» معناه بالثواب على الطاعة، و«منذرين» معناه من العقاب على المعاصي، ونصب اللفظتين على الحال، و«الكتاب» اسم الجنس، والمعنى جميع الكتب.

وقال الطبري: «الألف واللام في الكتاب للعهد، والمراد التوراة»، و«ليحكم» مسند إلى الكتاب في قول الجمهور.

وقال قوم: المعنى ليحكم الله، وقرأ الجحدري «ليُحكم» على بناء الفعل للمفعول، وحكى عنه مكّي «لنحكم».

قال القاضي أبو محمد: وأظنه تصحيحاً لأنه لم يحك عنه البناء للمفعول كما حكى الناس، والضمير في «فيه» عائذ على «ما» من قوله: «فيما»، والضمير في «فيه» الثانية يحتمل العود على الكتاب ويحتمل على الضمير الذي قبله، والذين أوتوه أبواب العلم به والدراسة له، وخصهم بالذكر تنبيهاً منه تعالى على الشنعة في فعلهم والقبح الذي واقعوه. و«البيّنات» الدلالات والحجج، و«بغياً» منصوب على المفعول له، والبغى التعدي بالباطل، و«هدى» معناه أرشد، وذلك خلق الإيمان في قلوبهم، وقد تقدم ذكر وجوه الهدى في سورة الحمد، والمراد بـ «الذين آمنوا». من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم.

فالت طائفة: معنى الآية: أن الأمم كذب بعضهم كتاب بعض فهدى الله أمة محمد التصديق بجميعها.

وقالت طائفة: إن الله هدى المؤمنين للحق فيما اختلف فيه أهل الكتابين من قولهم: إن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً.

وقال ابن زيد: من قبلتهم، فإن قبله اليهود إلى بيت المقدس والنصارى إلى المشرق، ومن يوم الجمعة فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «هذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له، فلليهود غد، وللنصارى بعد غد»، ومن صيامهم وجميع ما اختلفوا فيه.

وقال الفراء: في الكلام قلب، واختاره الطبري، قال: وتقديره فهدى الله الذين آمنوا للحق مما اختلفوا فيه. ودعاه إلى هذا التقدير خوف أن يحتمل اللفظ أنهم اختلفوا في الحق فهدى الله المؤمنين لبعض ما اختلفوا فيه وعساه غير الحق في نفسه، نحا إلى هذا الطبري في حكايته عن الفراء.

قال القاضي أبو محمد: وادعاء القلب على لفظ كتاب الله دون ضرورة تدفع إلى ذلك عجز وسوء نظر، وذلك أن الكلام يتخرج على وجهه ورصفه، لأن قوله ﴿فهدي﴾ يقتضي أنهم أصابوا الحق، وتم المعنى في قوله ﴿فيه﴾، وتبين بقوله ﴿من الحق﴾ جنس ما وقع الخلاف فيه.

قال المهدوي: «وقدم لفظ الخلاف على لفظ الحق اهتماماً، إذ العناية إنما هي بذكر الاختلاف».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وليس هذا عندي بقوي، وفي قراءة عبد الله بن مسعود «لما اختلفوا عنه من الحق» أي عن الإسلام.

و﴿بإذنه﴾ قال الزجاج: معناه بعلمه، وقيل: بأمره، والإذن هو العلم والتمكين، فإن اقترن بذلك أمر صار أقوى من الإذن بمزية، وفي قوله تعالى: ﴿والله يهدي من يشاء﴾ رد على المعتزلة في قولهم إن العبد يستبد بهداية نفسه.

وقوله تعالى: ﴿أم حسبكم﴾ الآية، ﴿أم﴾ قد تجيء لابتداء كلام بعد كلام وإن لم يكن تقسيم ولا معادلة ألف استفهام، وحكى بعض اللغويين أنها قد تجيء بمشابة ألف الاستفهام يبتدأ بها، و﴿حسبكم﴾ تطلب مفعولين، فقال النحاة ﴿أن تدخلوا﴾ تسد مسد المفعولين لأن الجملة التي بعد ﴿أن﴾ مستوفاة المعنى، ويصح أن يكون المفعول الثاني محذوفاً، تقديره أحسبتم دخولكم الجنة واقعاً، و﴿لما﴾، ولا يظهر أن يتقدر المفعول الثاني في قوله ﴿ولمّا يأتكم﴾ بتقدير أحسبتم دخولكم الجنة خلواً من أن يصيبكم ما أصاب من قبلكم، لأن ﴿خلوا﴾ حال، والحال هنا إنما تأتي بعد توفية المفعولين، والمفعولان هما الابتداء والخبر قبل دخول حسب، و﴿بالأساء﴾: في المال، و﴿الضراء﴾: في البدن، و﴿خلوا﴾ معناه انقضوا، أي صاروا في خلاء من الأرض. وهذه الآية نزلت في قصة الأحزاب حين حصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في المدينة، هذا قول قتادة والسدي وأكثر المفسرين.

وقالت فرقة: نزلت الآية تسلية للمهاجرين الذين أصيبت أموالهم بعدهم في بلادهم وفتنوا هم قبل ذلك، و﴿مثل﴾ معناه شبه، فالتقدير شبه أتى الذين ﴿خلوا﴾، والزلزلة شدة التحريك، تكون في الأشخاص وفي الأحوال، ومذهب سيويه أن «زلزل» رباعي كـ «دحرج».

وقال الزجاج: «هو تضعيف في زل» فيجيء التضعيف على هذا في الفاء، وقرأ الأعمش «وزلزلوا ويقول الرسول» بالواو بدل حتى، وفي مصحف ابن مسعود «وزلزلوا ثم زلزلوا ويقول الرسول»، وقرأ نافع «يقول» بالرفع، وقرأ الباقون «يقول» بالنصب، ف«حتى» غاية مجردة تنصب الفعل بتقدير إلى أن، وعلى قراءة نافع كأنها اقترن بها تسبب فهي حرف ابتداء ترفع الفعل، وأكثر المتأولين على أن الكلام إلى آخر الآية من قول الرسول والمؤمنين، ويكون ذلك من قول الرسول على طلب استعجال النصر لا على شك ولا ارتياب، و«الرسول» اسم الجنس، وذكره الله تعظيماً للنازلة التي دعت الرسول إلى هذا القول، وقالت طائفة: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير حتى يقول الذين آمنوا متى نصر الله فيقول الرسول «ألا إن نصر الله قريب»، فقدم الرسول في الرتبة لمكانته ثم قدم قول المؤمنين لأنه المتقدم في الزمان.

قال القاضي أبو محمد: وهذا تحكم، وحمل الكلام على وجه غير متعذر، ويحتمل أن يكون «ألا» إن نصر الله قريب «إخباراً من الله تعالى مؤتلفاً بعد تمام ذكر القول.

قوله عز وجل:

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّهِ وَاللَّذِينَ وَأَلْقَرَبِينَ وَأَلْيَتَمَنَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدْعٌ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ

السائلون هم المؤمنون، والمعنى يسألونك ما هي الوجوه التي ينفقون فيها وأين يضعون ما لزم إنفاقه، و«ما» يصح أن تكون في موضع رفع على الابتداء، و«ذا» خبرها، فهي بمعنى الذي، و«ينفقون» صلة، وفيه عائد على «ذا» تقديره ينفقونه، ويصح أن تكون «ماذا» اسماً واحداً مركباً في موضع نصب بـ «ينفقون»، فيعربى من الضمير، ومتى كانت اسماً مركباً فهي في موضع نصب لا ما جاء من قول الشاعر: [الطويل].

وَمَاذَا عَسَى الْوَأَشُونَ أَنْ يَتَحَدَّثُوا سِوَى أَنْ يَقُولُوا إِنِّي لَكَ عَاشِقٌ

فإن عسى لا تعمل، فماذا في موضع رفع وهو مركب إذ لا صلة لذا.

قال قوم: هذه الآية في الزكاة المفروضة، وعلى هذا نسخ منها الوالدان ومن جرى مجراهما الأقرين.

وقال السدي: «نزلت هذه الآية قبل فرض الزكاة، ثم نسختها الزكاة المفروضة»، وهم المهدوي على السدي في هذا فنسب إليه أنه قال إن الآية في الزكاة المفروضة، ثم نسخ منها الوالدان، وقال ابن

جريح وغيره: هي نذب، والزكاة غير هذا الإنفاق، فعلى هذا لا نسخ فيها، واليتم فقد الأب قبل البلوغ، وتقدم القول في المسكين و﴿ابن السبيل﴾، و﴿ما تفعلوا﴾ جزم بالشرط، والجواب في الفاء، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «يفعلوا» بالياء على ذكر الغائب، وظاهر الآية الخبر، وهي تتضمن الوعد بالمجازاة، و﴿كتب﴾ معناه فرض، وقد تقدم مثله، وهذا هو فرض الجهاد، وقرأ قوم «كتب عليكم القتل».

وقال عطاء بن أبي رباح: «فرض القتال على أعيان أصحاب محمد، فلما استقر الشرع وقيم به صار على الكفاية»، وقال جمهور الأمة: أول فرضه إنما كان على الكفاية دون تعيين.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: واستمر الإجماع على أن الجهاد على أمة محمد فرض كفاية، فإذا قام به من قام من المسلمين سقط عن الباقي، إلا أن ينزل العدو بساحة للإسلام، فهو حينئذ فرض عين، وذكر المهدي وغيره عن الثوري أنه قال: الجهاد تطوع. وهذه العبارة عندي إنما هي على سؤال سائل وقد قيم بالجهاد. فقليل له: ذلك تطوع والـ ﴿كره﴾ بضم الكاف الاسم، وفتحها المصدر.

وقال قوم «الكره» بفتح الكاف ما أكره المرء عليه، و«الكره» ما كرهه هو.

وقال قوم: هما بمعنى واحد.

وقوله تعالى ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً﴾ الآية، قال قوم ﴿عسى﴾ من الله واجبة، والمعنى عسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقة وهو خير لكم ﴿في أنكم تغلبون وتظهرون وتغنمون وتؤجرون، ومن مات مات شهيداً، ﴿وعسى أن تحبوا﴾ الدعة وترك القتال وهو شر لكم ﴿في أنكم تغلبون وتذلون ويذهب أمركم، وفي قوله تعالى ﴿والله يعلم﴾ الآية قوة أمر.

وقوله تعالى ﴿يسألونك عن الشهر الحرام﴾ الآية، نزل في قصة عمرو بن الحضرمي، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية عليها عبد الله بن جحش الأسدي مقدمه من بدر الأولى، فلقوا عمرو بن الحضرمي ومعه عثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل المخزوميان والحكم بن كيسان في آخر يوم من رجب على ما ذكر ابن إسحاق، وفي آخر يوم من جمادى الآخرة على ما ذكره الطبري عن السدي وغيره. والأول أشهر، على أن ابن عباس قد ورد عنه أن ذاك كان في أول ليلة من رجب والمسلمون يظنونها من جمادى، وأن القتل في الشهر الحرام لم يقصده، وأما على قول ابن إسحاق فإنهم قالوا إن تركناهم اليوم دخلوا الحرم فآرمعوا قتالهم، فرمى واقد بن عبد الله عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، وأسر عثمان بن عبد الله والحكم، وفر نوفل فأعجزهم، واستسهل المسلمون هذا في الشهر الحرام خوف فوتهم، فقالت قريش: محمد قد استحل الأشهر الحرم، وعيروا بذلك، وتوقف النبي صلى الله عليه وسلم وقال: ما أمرتكم بقتال في الأشهر الحرم، فنزلت هذه الآية.

وذكر المهدي أن سبب هذه الآية أن عمرو بن أمية الضمري قتل رجلين من بني كلاب في رجب فنزلت، وهذا تخليط من المهدي. وصاحب عمرو كان عندهما عهد من النبي صلى الله عليه وسلم، وكان عمرو قد أفلت من قصة بئر معونة، وذكر صاحب بن عباد في رسالته المعروفة بالأسدية أن عبد الله بن

جحش سمي أمير المؤمنين في ذلك الوقت، لكونه مؤمراً على جماعة من المؤمنين، و﴿قتال﴾ بدل عند سيويه، وهو بدل الاشتمال.

وقال الفراء: هو خفض بتقدير عن.

وقال أبو عبيدة «هو خفض على الجوار»، وقوله هذا خطأ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود «يسألونك عن الشهر الحرام عن قتال فيه» بتكرير عن، وكذلك قرأها الربيع والأعمش، وقرأ عكرمة «عن الشهر الحرام قتل فيه قل قتل» دون ألف فيهما، و﴿الشهر﴾ في الآية اسم الجنس، وكانت العرب قد جعل الله لها ﴿الشهر الحرام﴾ قواماً تعتدل عنده، فكانت لا تسفك دمأ ولا تغير في الأشهر الحرم، وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، وروى جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يغزو فيها إلا أن يغزى، فذلك قوله تعالى ﴿قل قتال فيه كبير﴾، و﴿صد﴾ مبتدأ مقطوع مما قبله، والخبر ﴿أكبر﴾، و﴿المسجد﴾ معطوف على ﴿سبيل الله﴾، وهذا هو الصحيح.

وقال الفراء: ﴿صد﴾ عطف على ﴿كبير﴾، وذلك خطأ، لأن المعنى يسوق إلى أن قوله ﴿وكفر به﴾ عطف أيضاً على ﴿كبير﴾، ويجيء من ذلك أن إخراج أهل المسجد منه أكبر من الكفر عند الله، وهذا بين فساد، ومعنى الآية على قول الجمهور: إنكم يا كفار قريش تستعظمون علينا القتال في الشهر الحرام، وما تفعلون أنتم من الصد عن سبيل الله لمن أراد الإسلام ومن كفركم بالله وإخراجكم أهل المسجد عنه كما فعلوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أكبر جرماً عند الله.

وقال الزهري ومجاهد وغيرهما: قوله ﴿قل قتال فيه كبير﴾ منسوخ بقوله ﴿واقتلوا المشركين كافة﴾ [التوبة: ٣٦]، وبقوله: ﴿واقتلوا المشركين﴾ [التوبة: ٥].

وقال عطاء: «لم تنسخ، ولا ينبغي القتال في الأشهر الحرم»، وهذا ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿والفتنة أكبر من القتل﴾ المعنى عند جمهور المفسرين، والفتنة التي كنتم تفتنون المسلمين عن دينهم حتى يهلكوا أشد اجتراماً من قتلهم في الشهر الحرام، وقيل: المعنى والفتنة أشد من أن لو قتلوا ذلك المفتون، أي فعلكم على كل إنسان أشد من فعلنا.

وقال مجاهد وغيره: ﴿الفتنة﴾ هنا الكفر أي كفركم أشد من قتلنا أولئك.

قوله عز وجل:

وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ
فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ
يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ

كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مَنْ نَفَعَهُمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

قوله تعالى: ﴿ولا يزالون﴾ ابتداء خبر من الله - عز وجل - وتحذير منه للمؤمنين من شر الكفرة، و﴿يردوكم﴾ نصب بـ ﴿حتى﴾ لأنها غاية مجردة، وقوله تعالى ﴿ومن يرتدد﴾ [أي يرجع عن الإسلام إلى الكفر، قالت طائفة من العلماء: يستتاب المرتد فإن تاب وإلا قتل.

وقال عبيد بن عمير وطاوس والحسن - على خلاف عنه - والشافعي في أحد قوليه: يقتل دون أن يستتاب، وروي نحو هذا عن أبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل.

قال القاضي أبو محمد: ومقتضى قولهما إنه يقال له للحين: راجع، فإن أبى ذلك قتل، وقال عطاء ابن أبي رباح: «إن كان المرتد ابن مسلمين قتل دون استتابة وإن كان أسلم ثم ارتد استتيب»، وذلك لأنه يجهل من فضل الإسلام ما لا يجهل ابن المسلمين، واختلف القائلون بالاستتابة: فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستتاب ثلاثة أيام. وبه قال مالك وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأي والشافعي في أحد قوليه. وقال الزهري: «يدعى إلى الإسلام فإن تاب وإلا قتل».

وروي عن علي أبي طالب رضي الله عنه أنه استتاب مرتداً شهراً فأبى فقتله، وقال النخعي والثوري: يستتاب محبوساً أبداً، قال ابن المنذر: واختلفت الآثار عن عمر في هذا الباب.

قال القاضي أبو محمد: كان رضي الله عنه ينفذ بحسب جرم ذلك المرتد أو قلة جرمه المقترون بالردة، وحبط العمل إذا انفسد في آخر فبطل، وقرأ أبو السمال «حبطت» بفتح الباء في جميع القرآن.

وقال علي بن أبي طالب والحسن والشعبي والحكم والليث وأبو حنيفة وإسحاق بن راهويه: ميراث المرتد لورثته من المسلمين، وقال مالك وربيعة وابن أبي ليل والشافعي وأبو ثور: ميراثه في بيت المال، وأجمع الناس على أن ورثته من أهل الكفر لا يرثونه إلا شذوذاً، روي عن عمر بن عبد العزيز وعن قتادة، وروي عن عمر بن عبد العزيز خلافه.

وقوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا﴾ الآية، قال جندب بن عبد الله وعروة بن الزبير وغيرهما: لما قتل واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي في الشهر الحرام توقف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أخذ خمسه الذي وفق في فرضه له عبد الله بن جحش وفي الأسيرين، فعنف المسلمون عبد الله بن جحش وأصحابه حتى شق ذلك عليهم، فتلافاهم الله عز وجل بهذه الآية في الشهر الحرام، ثم بذكرهم والإشارة إليهم في قوله: ﴿إن الذين آمنوا﴾، ثم هي باقية في كل من فعل ما ذكر الله عز وجل، وهاجر الرجل إذا انتقل نقلة إقامة من موضع إلى موضع وقصد ترك الأول إثارةً للثاني، وهي مفاعلة من هجر، ومن قال المهاجرة الانتقال من البادية إلى الحاضرة فقد أوهم بسبب أن ذلك كان الأغلب في العرب، وليس أهل مكة مهاجرين على قوله، وجاهد مفاعلة من جهد إذا استخرج الجهد، ﴿ويرجون﴾

معناه يطمعون ويستقربون، والرجاء تنعم، والرجاء أبداً معه خوف ولا بد، كما أن الخوف معه رجاء، وقد يتجاوز أحياناً ويجيء الرجاء بمعنى ما يقارنه من الخوف، كما قال الهذلي: [الطويل]

إِذَا لَسَعْتُهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسَعَهَا وَحَالَفَهَا فِي بَيْتِ نَوْبِ عَوَامِلٍ

وقال الأصمعي: «إذا اقترن حرف النفي بالرجاء كان بمعنى الخوف»، كهذا البيت، وكقوله عز وجل: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ [سورة يونس: الآيات: ٧ - ١١ - ١٥، سورة الفرقان: الآية ٢١]، المعنى لا يخافون، وقد قيل: إن الرجاء في الآية على بابه، أي لا يرجون الثواب في لقائنا، وبإزاء ذلك خوف العقاب، وقال قوم: اللفظة من الأصداد دون تجوز في إحدى الجهتين، وليس هذا بجيد، وقال الجاحظ في كتاب البلدان: «إن معنى قوله لم يرج لسعها أي لم يرج براء لسعها وزواله، فهو يصبر عليه»، وباقي الآية وعد.

وقوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ الآية، السائلون هم المؤمنون، و ﴿الْخمر﴾ مأخوذة من خمر إذا ستر، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «خمروا الإناء»، ومنه خمار المرأة، والخمر ما وارك من شجر وغيره، ومنه قول الشاعر:

ألا يا زيد والضحاك سيرا فقد جاوزتما خمر الطريق

أي سيرا مدلين فقد جاوزتما الوهدة التي يستتر بها الذئب وغيره، ومنه قول العجاج:

فِي لَامِعِ الْعُقْبَانِ لَا يَمْشِي الْخَمْرُ

يصف جيشاً جاء برايات غير مستخف، ومنه قولهم دخل فلان في غمار الناس وخمارهم، أي هو بمكان خاف، فلما كانت الخمر تستر العقل وتغطي عليه سميت بذلك، والخمر ماء العنب الذي غلي ولم يطبخ أو طبخ طبخاً لم يكف غليانه، وما خامر العقل من غير ذلك فهو في حكمه. قال أبو حنيفة: قد تكون الخمر من الحبوب، قال ابن سيده: وأظنه تسفحاً منه، لأن حقيقة الخمر إنما هي ماء العنب دون سائر الأشياء، وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الخمر من هاتين الشجرتين: العنب والنخلة»، وحرمت الخمر بالمدينة يوم حرمت وهي من العسل والزبيب والتمر والشعير والقمح، ولم تكن عندهم خمر عنب، وأجمعت الأمة على خمر العنب إذا غلت ورمت بالزبد أنها حرام قليلها وكثيرها، وأن الحد واجب في القليل منها والكثير، وجمهور الأمة على أن ما أسكر كثيره من غير خمر العنب فمحرم قليله وكثيره. والحد في ذلك واجب. وقال أبو حنيفة وسفيان الثوري وابن أبي ليلى وابن شبرمة وجماعة من فقهاء الكوفة: ما أسكر كثيره من غير خمر العنب، فما لا يسكر منه حلال، وإذا سكر أحد منه دون أن يعتمد الوصول إلى حد السكر فلا حد عليه.

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول ضعيف يردّه النظر، وأبو بكر الصديق وعمر الفاروق والصحابه على خلافه، وروي أن النبي عليه السلام قال: «كل مسكر خمر، وكل خمر حرام، وما أسكر كثيره فقليله حرام»، قال ابن المنذر في الإشراف: «لم يبق هذا الخبر مقالة لقائل ولا حجة لمحتج»، وروي أن هذه الآية أول تطرق إلى تحريم الخمر، ثم بعده ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء: ٤٣]، ثم قوله

تعالى: ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾، [المائدة: ٩١]، ثم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠]، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حرمت الخمر»، ولم يحفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم في حد الخمر إلا أنه جلد أربعين، خرجه مسلم وأبو داود، وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه ضرب فيها ضرباً مشاعاً، وحزره أبو بكر أربعين سوطاً، وعمل بذلك هو ثم عمر، ثم تهافت الناس فيها فشدد عليهم الحد وجعله كأخف الحدود ثمانين، وبه قال مالك، وقال الشافعي بالأربعين، وضرب الخمر غير شديد عند جماعة من العلماء لا يبدو إبط الضارب، وقال مالك: «الضرب كله سواء لا يخفف ولا يبرح»، ويجتنب من المضروب الوجه والفرج والقلب والدماغ والخواصر بإجماع، وقالت طائفة: هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، يريد ما في قوله ﴿وَمَنْعًا لِلنَّاسِ﴾ من الإباحة والإشارة إلى الترخيص.

و ﴿الميسر﴾ مأخوذ من يسر إذا جزر، والياسر الجازر، ومنه قول الشاعر:

فَلَمْ يَزَلْ بِكَ وَاشِيَهُمْ وَمَكْرُهُمْ حَتَّى أَشَاطُوا بِغَيْبِ لَحْمٍ مَنْ يَسْرُوا
ومنه قول الآخر:

أَقُولُ لَهُمْ بِالشَّعْبِ إِذْ يَتَّسِرُونَ نِي أَلَمْ تَيَّاسُوا إِنِّي ابْنُ فَارِسٍ زَهْدِي؟

والجزور الذي يستهم عليه يسمى ميسراً لأنه موضع اليسر، ثم قيل للسهم ميسر للمجاورة. وقال الطبري: «الميسر مأخوذ من يسر لي هذا إذا وجب وتسنى»، ونسب القول إلى مجاهد، ثم جلب من نص كلام مجاهد ما هو خلاف لقوله، بل أراد مجاهد الجزر، واليسر: الذي يدخل في الضرب بالقдах، وجمعه أيسار وقيل يسر جمع ياسر، كحارس وحرس وأحراس، وسهام الميسر سبعة لها حظوظ وفيها فروض على عدة الحظوظ، وثلاثة لا حظوظ لها، ولا فروض فيها، وهي الفذ والثؤام والرقيب والحلس والنافس والمسيل والمعلی، والثلاثة التي لا حظوظ لها المنيج والسفيح والوغد، تزداد هذه الثلاثة لتكثر السهام وتختلط على الحرضة وهو الضارب بها، فلا يجد إلى الميل مع أحد سبيلاً، وكانت عادة العرب أن تضرب بهذه القдах في الشتوة وضيق الوقت وكلب البرد على الفقراء، تشتري الجزور ويضمن الأيسار ثمنها ثم تنحر وتقسم على عشرة أقسام، وأخطأ الأصمعي في قسمة الجزور، فذكر أنها كانت على قدر حظوظ السهام ثمانية وعشرين قسماً، وليس كذلك. ثم يضرب على العشرة الأقسام، فمن فاز سهمه بأن يخرج من الرباة متقدماً أخذ أنصابه وأعطاه الفقراء، وفي أحيان ربما تقامروا لأنفسهم ثم يغرم الثمن من لم يفز سهمه. ويعيش بهذه السيرة فقراء الحي، ومنه قول الأعشى: [السريع]

المطعمو الضيف إذا ما شتا والجاعلو القوت على الياسر

ومنه قول الآخر: [الطويل]

بأيديهم مَقْرُومَةٌ وَمَغَالِقُ يَعُودُ بِأَرْزَاقِ الْعُقَاةِ مَنِحُهَا

والمنيج في هذا البيت المستمنح، لأنهم كانوا يستعيرون السهم الذي قد أُمْلِسَ وكثر فوزه، فذلك

المنيع الممدوح، وأما المنيع الذي هو أحد الثلاثة الأغفال، فذلك إنما يوصف بالكر، وإياه أراد جرير بقوله: [الكامل]

وَلَقَدْ عَظَفْنَ عَلَى فَمَزَارَةٍ عَظْفَةً كَرَّ الْمَنِيعُ وَجُلْنَ ثُمَّ مَجَالًا

ومن الميسر قول لبيد:

[الطويل]

إِذَا يَسِرُّوا لَمْ يُورِثِ الْيُسْرُ بَيْنَهُمْ فَوَاجِشٌ يُنْعَى ذِكْرُهَا بِالْمَصَافِي

فهذا كله هو نفع الميسر، إلا أنه أكل المال بالباطل، ففيه إثم كبير، وقال محمد بن سيرين والحسن وابن عباس وابن المسيب وغيرهم: كل قمار ميسر من نرد وشطرنج ونحوه حتى لعب الصبيان بالجوز.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ الآية، قال ابن عباس والربيع: الإثم فيهما بعد التحريم، والمنفعة فيهما قبله، وقالت طائفة: الإثم في الخمر ذهاب العقل والسباب والافتراء والإذابة والتعدي الذي يكون من شاربها، والمنفعة اللذة بها كما قال حسان بن ثابت:

وَنَشْرِبُهَا فَتَتْرُكُنَا مَلُوكًا وَأُسْدًا مَا يُنْهِنُنَا اللَّقَاءَ

إلى غير ذلك من أفراحها، وقال مجاهد: «المنفعة بها كسب أثمانها»، ثم أعلم الله عز وجل أن الإثم أكبر من النفع وأعود بالضرر في الآخرة، فهذا هو التقدم للتحريم، وقرأ حمزة والكسائي «كثير» بالثاء المثناة، وحجتها أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن الخمر ولعن معها عشرة: بائعها، ومبتاعها، والمشتراة له، وعاصرها، والمعصورة له، وساقياها، وشاربها، وحاملها، والمحمولة إليه، وأكل ثمنها، فهذه آثام كثيرة، وأيضاً فجمع المنافع يحسن معه جمع الآثام، و«كثير» بالثاء المثناة يعطي ذلك، وقرأ باقي القراء وجمهور الناس «كبير» بالباء بواحدة، وحجتها أن الذنب في القمار وشرب الخمر من الكبائر فوصفه بالكبير أليق، وأيضاً فاتفاقهم على «أكبر» حجة لكبير بالباء بواحدة، وأجمعوا على رفض أكثر بالثاء مثناة، إلا ما في مصحف ابن مسعود فإن فيه «قل فيهما إثم كثير وإثمها أكثر» بالثاء مثناة في الحرفين، وقوله تعالى: «فيهما إثم» يحتمل مقصدين، أحدهما أن يراد في استعمالهما بعد النهي، والآخر أن يراد خلال السوء التي فيهما، وقال سعيد بن جبير: لما نزلت ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ كرهها قوم للإثم وشربها قوم للمنافع، فلما نزلت ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء: ٤٣] تجنبوها عند أوقات الصلوات الخمس، فلما نزلت ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠] قال عمر بن الخطاب: ضيعة لك اليوم قرنت بالميسر والأنصاب، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حرمت الخمر.

ولما سمع عمر بن الخطاب قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ [المائدة: ٩١] قال: «انتبهنا، انتبهنا»، قال الفارسي: وقال بعض أهل النظر: حرمت الخمر بهذه الآية لأن الله تعالى قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وأخبر في هذه الآية أن فيها إثمًا، فهي حرام.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: ليس هذا النظر بجيد لأن الإثم الذي فيها هو

الحرام، لا هي يعينها على ما يقتضيه هذا النظر. وقال قتادة: ذم الله الخمر بهذه الآية ولم يحرمها. وقوله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ قال قيس بن سعد: «هذه الزكاة المفروضة». وقال جمهور العلماء: بل هي نفقات التطوع. وقال بعضهم: نسخت بالزكاة. وقال آخرون: هي محكمة وفي المال حق سوى الزكاة. و﴿الْعَفْوَ﴾: هو ما ينفقه المرء دون أن يجهد نفسه وماله. ونحو هذا هي عبارة المفسرين، وهو مأخوذ من عفا الشيء إذا كثر، فالمعنى أنفقوا ما فضل عن حوائجكم ولم تؤذوا فيه أنفسكم فتكونوا عالة، وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم: قال: «من كان له فضل فلينفقه على نفسه، ثم على من يعول، فإن فضل شيء فليتصدق به»، وقال صلى الله عليه وسلم: «خير الصدقة ما أبقت غنى»، وفي حديث آخر: «ما كان عن ظهر غنى».

وقرأ جمهور الناس «الْعَفْوَ» بالنصب، وقرأ أبو عمرو وحده «الْعَفْوَ» بالرفع، واختلف عن ابن كثير، وهذا متركب على «ماذا»، فمن جعل «ما» ابتداء و«ذا» خبره بمعنى الذي وقدر الضمير في «ينفقونه» عائداً قرأ «الْعَفْوَ» بالرفع، لتصح مناسبة الجمل، ورفع على الابتداء تقديره العفو إنفاقكم، أو الذي تنفقون العفو، ومن جعل «ماذا» اسماً واحداً مفعولاً بـ «ينفقون»، قرأ «قل العفو» بالنصب بإضمار فعل، وصح له التناسب، ورفع «الْعَفْوَ» مع نصب «ما» جائز ضعيف، وكذلك نصبه مع رفعها.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ الإشارة إلى ما تقدم تبينه من أمر الخمر والميسر والإنفاق، وأخبر تعالى أنه يبين للمؤمنين الآيات التي تقودهم إلى الفكرة في الدنيا والآخرة، وذلك طريق النجاة لمن تنفعه فكرته، وقال مكي: «معنى الآية أنه يبين للمؤمنين آيات في الدنيا والآخرة تدل عليهما وعلى منزلتيهما لعلهم يتفكرون في تلك الآيات، فقوله ﴿في الدنيا﴾ متعلق على هذا التأويل بـ ﴿الآيات﴾، وعلى التأويل الأول وهو المشهور عن ابن عباس وغيره يتعلق ﴿في الدنيا﴾ بـ ﴿تتفكرون﴾. قوله عز وجل:

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي تَمَنَّى قُلِ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَاطَبُوا عَنْهَا فَأَعُوذُ بِاللَّهِ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ عَنْ اللَّهِ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ وَلَا أُمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

قوله قبل ﴿في الدنيا﴾ ابتداء آية، وقد تقدم تعلقه، وكون ﴿تتفكرون﴾ موقفاً يقوي تعلق ﴿في الدنيا﴾ بـ ﴿الآيات﴾، وقرأ طاوس «قل أصلح لهم خير»، وسبب الآية فيما قال السدي والضحاك أن العرب كانت عاداتهم أن يتجنبوا مال اليتيم ولا يخالطوه في مأكول ولا مشرب ولا شيء، فكانت تلك مشقة عليهم، فسألوا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال ابن عباس وسعيد بن المسيب: سببها أن المسلمين لما

نزلت ﴿ولا تقربوا مال اليتيم﴾ [الأنعام: ١٥٢] الآية ونزلت ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾ [النساء: ١٠] تجنبوا اليتامى وأموالهم وعزلوهم عن أنفسهم، فنزلت ﴿وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾ الآية، وقيل: إن السائل عبد الله بن رواحة، وأمر الله تعالى نبيه أن يجيب بأن من قصد الإصلاح في مال اليتيم فهو خير، وما فعل بعد هذا المقصد من مخالطة وانسباط بعوض منه فلا حرج، ورفع تعالى المشقة في تجنب اليتيم ومأكله ومشربه، وأباح الخلطة في ذلك إذا قصد الإصلاح ورفق اليتيم، مثال ذلك أن يكتفي اليتيم دون خلطة بقدر ما في الشهر، فإن دعت خلطة الولي إلى أن يزداد في ذلك القدر فهي مخالطة فساد، وإن دعت إلى الحط من ذلك القدر فهي مخالطة إصلاح، وقوله تعالى: ﴿فإخوانكم﴾ خبر ابتداء محذوف، وقوله ﴿والله يعلم المفسد من المصلح﴾ تحذير، والعنت المشقة، منه عنت العزة، وعقبة عنت أي شاقة، وعنت البعير إذا انكسر بعد جبر، فالمعنى: لأتعبكم في تجنب أمر اليتامى، ولكنه خفف عنكم، وقال ابن عباس: المعنى لأوبقكم بما سلف من نيلكم من أموال اليتامى، و﴿عزيز﴾ مقتضاه لا يرد أمره، و﴿حكيم﴾ أي محكم ما ينفذه.

وقوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾ الآية، قرأ جمهور الناس «تنكحوا» بفتح التاء، وقرئت في الشاذ بالضم كأن المتزوج لها أنكحها من نفسه، ونكح أصله الجماع، ويستعمل في التزوج تجوزاً واتساعاً، وقالت طائفة: «المشركات» هنا من يشرك مع الله إلهاً آخر، فلم تدخل اليهوديات ولا النصرانيات في لفظ هذه الآية، ولا في معناها، وسببها قصة أبي مرثد كنز بن حصين مع عناق التي كانت بمكة، وقال قتادة وسعيد بن جبير: لفظ الآية العموم في كل كافرة، والمراد بها الخصوص في الكتابيات، وبينت الخصوص آية المائدة ولم يتناول قط الكتابيات، وقال ابن عباس والحسن: تناولهن العموم ثم نسخت آية سورة المائدة بعض العموم في الكتابيات، وهذا مذهب مالك رحمه الله، ذكره ابن حبيب وقال: «ونكاح اليهودية والنصرانية وإن كان قد أحله الله مستثقل مذموم»، وكره مالك رحمه الله تزوج الحرييات لعله ترك الولد في دار الحرب ولتصرفها في الخمر والخزير، وأباح نكاح الكتابيات عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وجابر بن عبد الله وطلحة وعطاء بن أبي رباح وابن المسيب والحسن وطاوس وابن جبير والزهري والشافعي وعوام أهل المدينة والكوفة، ومنه مالك والشافعي وأبو حنيفة والأوزاعي وإسحاق نكاح المجوسية، وقال ابن حنبل: لا يعجبني، وروي أن حذيفة بن اليمان تزوج مجوسية، وقال ابن الفصار: «قال بعض أصحابنا: يجب - على أحد القولين أن لهم كتاباً - أن تجوز مناحتهم». وقال ابن عباس في بعض ما روي عنه إن الآية عامة في الوثنيات والمجوسيات والكتابيات، وكل من كان على غير الإسلام حرام.

قال القاضي أبو محمد: فعلى هذا هي ناسخة للآية التي في سورة المائدة، وينظر إلى هذا قول ابن عمر في الموطأ: «ولا أعلم إشراكاً أعظم من أن تقول المرأة: ربها عيسى»، وروي عن عمر أنه فرق بين طلحة بن عبيد الله وحذيفة بن اليمان وبين كتابيتين وقال: نطلق يا أمير المؤمنين ولا تغضب، فقال: لو جاز طلاقكما لجاز نكاحكما، ولكن أفرق بينكما صغرة قمأة.

قال القاضي أبو محمد: وهذا لا يستند جيداً، وأسند منه أن عمر أراد التفريق بينهما فقال له حذيفة: أترعّم أنها حرام فأخلي سبيلها يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا أزعّم أنها حرام، ولكني أخاف أن تعاطوا

المومسات منهم، وروي عن ابن عباس نحو هذا، وقوله تعالى: ﴿وَالْأَمَةُ مُؤْمِنَةٌ﴾ إخبار أن المؤمنة المملوكة خير من المشركة وإن كانت ذات الحسب والمال ولو أعجبتكم في الحسن وغير ذلك، هذا قول الطبري وغيره، وقال السدي: نزلت في عبد الله بن رواحة كانت له أمة سوداء فلطمها في غضب، ثم ندم فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره، وقال: هي تصوم وتصلي وتشهد الشهادتين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذه مؤمنة. فقال ابن رواحة: لأعتقنها ولأزوجنها، ففعل، فطعن عليه ناس فنزلت الآية فيه، ومالك رحمه الله لا يجوز عنده نكاح الأمة الكتابية، وقال أشهب في كتاب محمد فيمن أسلم وتحتة أمة كتابية: إنه لا يفرق بينهما، وروى ابن وهب وغيره عن مالك أن الأمة المجوسية لا يجوز أن توطأ بملك اليمين، وأبو حنيفة وأصحابه يجيزون نكاح الإماء الكتابيات.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكَحُوا الْمَشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ الآية، أجمعت الأمة على أن المشرك لا يطأ المؤمنة بوجه لما في ذلك من الغضاضة على دين الإسلام، والقراء على ضم الناء من ﴿تَنْكَحُوا﴾، وقال بعض العلماء: إن الولاية في النكاح نص في لفظ هذه الآية.

﴿ولعبد مؤمن﴾ مملوك ﴿خير من مشرك﴾ حسيب ولو أعجبك حسنه وماله حسبما تقدم، وليس التفضيل هنا بلفظة ﴿خير﴾ من جهة الإيمان فقط لأنه لا اشتراك من جهة الإيمان، لكن الاشتراك موجود في المعاشرة والصحبة وملك العصمة وغير شيء، وهذا النظر هو على مذهب سيبويه في أن لفظة «أفعل» التي هي للتفضيل لا تصح حيث لا اشتراك. كقولك «الثلج أبرد من النار»، والنور أضوأ من الظلمة»، وقال الفراء وجماعة من الكوفيين: تصح لفظة «أفعل» حيث الاشتراك وحيث لا اشتراك، وحكى مكي عن نبطويه أن لفظة التفضيل تجيء في كلام العرب إيجاباً للأول ونفيًا عن الثاني.

قال القاضي أبو محمد: وتحتل الآية عندي أن يكون ذكر العبد والأمة عبارة عن جميع الناس حرهم ومملوكهم، كما قال صلى الله عليه وسلم: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»، وكما نعتقد أن الكل عبيد الله، وكما قال تعالى: ﴿نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، فكأن الكلام في هذه الآية: ولا امرأة ولرجل.

وقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الإشارة إلى المشركات والمشركون، أي أن صحبتهم ومعاشرتهم توجب الانحطاط في كثير من هواهم مع تربيتهم النسل، فهذا كله دعاء إلى النار مع السلامة من أن يدعو إلى دينه نصاً من لفظه، والله تعالى يمن بالهداية ويبين الآيات ويحض على الطاعات التي هي كلها دواع إلى الجنة، وقرأ الحسن بن أبي الحسن «والمغفرة» بالرفع على الابتداء، والإذن العلم والتمكين، فإن انضاف إلى ذلك أمر فهو أقوى من الإذن، لأنك إذا قلت «أذنت كذا» فليس يلزمك أنك أمرت، و﴿لعلهم﴾ ترج في حق البشر، ومن تذكر عَمِلَ حسب التذكر فنجاً.

قوله عز وجل:

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاءُكُمْ

حَرِّثْ لَكُمْ فَأَتُوا حَرِّثَكُمْ أَنِّي شِئْتُمْ وَقَدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾

ذكر الطبري عن السدي أن السائل ثابت بن الدحداح، وقال قتادة وغيره: إنما سألوا لأن العرب في المدينة وما والاها كانوا قد استنوا بسنة بني إسرائيل في تجنب مؤاكلة الحائض ومساكتتها، فنزلت هذه الآية، وقال مجاهد: «كانوا يتجنبون النساء في الحيض ويأتونهن في أدبارهن فنزلت الآية في ذلك»، والمحيض مصدر كالحيض، ومثله المَقِيل من قال يقيل. قال الراعي: [الكامل].

بُنِيَتْ مَرَاْفِقُهُنَّ فَوْقَ مَزَلَّةٍ لَا يَسْتَطِيعُ بِهَا الْقِرَادُ مَقِيلًا

وقال الطبري: ﴿المحيض﴾ اسم الحيض، ومنه قول رؤبة في المعيش: [الرجز].

إِلَيْكَ أَشْكُو شِدَّةَ الْمَعِيشِ وَمَرَّ أَعْوَامٍ نَتَفَنَ رِيَشِي

و ﴿أذى﴾ لفظ جامع لأشياء تؤذي لأنه دم وقدر ومتن ومن سبيل البول، وهذه عبارة المفسرين للفظه، وقوله تعالى: ﴿فاعتزلوا﴾ يريد جماعهن بما فسر من ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن يشد الرجل إزار الحائض ثم شأنه بأعلاها، وهذا أصح ما ذهب إليه في الأمر، وبه قال ابن عباس وشریح وسعيد بن جبیر ومالك وجماعة عظيمة من العلماء، وروي عن مجاهد أنه قال: «الذي يجب اعتزاله من الحائض الفرج وحده»، وروي ذلك عن عائشة والشعبي وعكرمة، وروي أيضاً عن ابن عباس وعبيدة السلماني أنه يجب أن يعتزل الرجل فراش زوجته إذا حاضت، وهذا قول شاذ. وقد قفت ابن عباس عليه حالته ميمونة رضي الله عنهما، وقالت له: أرغبة عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

وقوله تعالى: ﴿ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية حفص عنه «يَطْهَرْنَ» بسكون الطاء وضم الهاء، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر والمفضل عنه «يَطْهَرْنَ» بتشديد الطاء والهاء وفتحهما، وفي مصحف أبي وعبد الله «حتى يتطهرن»، وفي مصحف أنس بن مالك «ولا تقربوا النساء في محيضهن، واعتزلوهن حتى يتطهرن»، ورجح الطبري قراءة تشديد الطاء وقال: هي بمعنى يغتسلن لإجماع الجميع على أن حراماً على الرجل أن يقرب امرأته بعد انقطاع الدم حتى تطهر، قال: وإنما الاختلاف في الطهر ما هو؟ فقال قوم: هو الاغتسال بالماء. وقال قوم: هو وضوء كوضوء الصلاة. وقال قوم: هو غسل الفرج وذلك يحلها لزوجها وإن لم تغتسل من الحيضة. ورجح أبو علي الفارسي قراءة تخفيف الطاء إذ هو ثلاثي مضاد لطمثت، وهو ثلاثي.

قال القاضي أبو محمد: وكل واحدة من القراءتين تحتل أن يراد بها الاغتسال بالماء وأن يراد بها انقطاع الدم وزوال أذاه، وما ذهب إليه الطبري من أن قراءة شد الطاء مضمناها الاغتسال وقراءة التخفيف مضمناها انقطاع الدم: أمر غير لازم، وكذلك ادعاؤه الإجماع، أما إنه لا خلاف في كراهية الوطء قبل

الاعتسال بالماء، وقال ابن عباس والأوزاعي: من فعله تصدق بنصف دينار، ومن وطئ في الدم تصدق بدينار، وأسند أبو داود عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم في الذي يأتي امرأته وهي حائض قال: «يتصدق بدينار أو بنصف دينار»، وقال ابن عباس: «الدينار في الدم، والنصف عند انقضائه»، ووردت في الشدة في هذا الفعل آثار، وجمهور العلماء على أنه ذنب عظيم يتاب منه ولا كفارة فيه بمال، وذهب مالك رحمه الله وجمهور العلماء إلى أن الطهر الذي يحل جماع الحائض التي يذهب عنها الدم هو تطهرها بالماء كطهور الجنب، ولا يجزي من ذلك تيمم ولا غيره، وقال يحيى بن بكير وابن القرظي: إذا طهرت الحائض وتيممت حيث لا ماء حلت لزوجها وإن لم تغتسل. وقال مجاهد وعكرمة وطاوس: انقطاع الدم يحلها لزوجها ولكن بأن تتوضأ. و﴿حتى﴾ غاية لا غير، و﴿تقربوهن﴾ يريد بجماع، وهذا من سد الذرائع، وقوله تعالى: ﴿فإذا تطهرن﴾ الآية، القراءة ﴿تَطْهَرْنَ﴾ بقاء مفتوحة وهاء مشددة، والخلاف في معناه كما تقدم من التطهير بالماء أو انقطاع الدم. ومجاهد وجماعة من العلماء يقولون هنا: إنه أريد الغسل بالماء، ولا بد بقرينة الأمر بالإتيان وإن كان قربهن قبل الغسل مباحاً، لكن لا تقع صيغة الأمر من الله تعالى إلا على الوجه الأكمل، و﴿فأتوهن﴾ إباحة، والمعنى ﴿من حيث أمركم الله﴾ باعتزالهن وهو الفرج أو من السرة إلى الركبتين. أو جميع الجسد، حسبما تقدم. هذا كله قول واحد، وقال ابن عباس وأبو رزين: المعنى من قبل الطهر لا من قبل الحيض، وقاله الضحاك. وقال محمد بن الحنفية: المعنى من قبل الحلال لا من قبل الزنا، وقيل: المعنى من قبل حال الإباحة، لا صائمات ولا محرمات ولا غير ذلك. والتوابون: الراجعون، وعرفه من الشر إلى الخير، والمتطهرون: قال عطاء وغيره: المعنى بالماء، وقال مجاهد وغيره: المعنى من الذنوب، وقال أيضاً مجاهد: المعنى من إتيان النساء في أدبارهن.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: كأنه نظر إلى قوله تعالى حكاية عن قوم لوط ﴿أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون﴾ [الأعراف: ٨٢]، وقرأ طلحة بن مصرف «المطهرين» بشد الطاء والهاء.

وقوله تعالى: ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ الآية، قال جابر بن عبد الله والربيع: سببها أن اليهود قالت: إن الرجل إذا أتى المرأة من دبرها في قبلها جاء الولد أحول، وعابت على العرب ذلك، فنزلت الآية تتضمن الرد على قولهم، وقالت أم سلمة وغيرها: سببها أن قريشاً كانوا يأتون النساء في الفرج على هيئات مختلفة، فلما قدموا المدينة وتزوجوا أنصاريات أرادوا ذلك، فلم ترده نساء المدينة إذ لم تكن عادة رجالهم إلا الإتيان على هيئة واحدة وهي الانبطاح، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، وانتشر كلام الناس في ذلك، فنزلت الآية مبيحة الهيئات كلها إذا كان الوطء في موضع الحرث، و﴿حرث﴾ تشبيهه، لأنهن مزدراع الذرية، فلفظة «الحرث» تعطي أن الإباحة لم تقع إلا في الفرج خاصة، إذ هو المزدرع، وقوله ﴿أنى شئتم﴾ معناه عند جمهور العلماء من صحابة وتابعين وائمة: من أي وجه شئتم مقبلة ومدبرة وعلى جنب، و﴿أنى﴾ إنما تجيء سؤالاً أو إخباراً عن أمر له جهات، فهي أعم في اللغة من كيف ومن أين ومن متى، هذا هو الاستعمال العربي، وقد فسر الناس ﴿أنى﴾ في هذه الآية بهذه الألفاظ. وفسرها سيبويه بـ «كيف» ومن أين باجتماعهما، وذهبت فرقة ممن فسرها بـ «أين» إلى أن الوطء في الدبر جائز، روي ذلك عن عبد الله بن عمر، وروي عنه خلافه وتكفير من فعله، وهذا هو اللائق به، ورويت الإباحة أيضاً

عن ابن أبي مليكة ومحمد بن المنكدر، ورواها مالك عن يزيد بن رومان عن سالم عن ابن عمر، وروى عن مالك شيء في نحوه، وهو الذي وقع في العنبة، وقد كذب ذلك على مالك، وروى بعضهم أن رجلاً فعل ذلك في عهد النبي صلى الله عليه وسلم فتكلم الناس فيه، فنزلت هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد: وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في مصنف التنائي وفي غيره أنه قال: «إتيان النساء في أدبارهن حرام»، وورد عنه فيه أنه قال: «ملعون من أتى امرأة في دبرها»، وورد عنه أنه قال: «من أتى امرأة في دبرها فقد كفر بما أنزل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم»، وهذا هو الحق المتبع، ولا ينبغي لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يعرج في هذه النازلة على زلة عالم بعد أن تصح عنه، والله المرشد لا رب غيره.

وقال السدي: معنى قوله تعالى: «وقدموا لأنفسكم» أي الأجر في تجنب ما نهيت عنه وامتنال ما أمرتم به، وقال ابن عباس: «هي إشارة إلى ذكر الله على الجماع»، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «لو أن أحداكم إذا أتى امرأته قال: اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقنا، ففضي بينهما ولد لم يضره»، وقيل: معنى «قدموا لأنفسكم» طلب الولد، «واتقوا الله» تحذير، «واعلموا أنكم ملاقوه» خبر يقتضي المبالغة في التحذير، أي فهو مجازيكم على البر والإثم، «وبشر المؤمنين» تأنيس لفاعلي البر ومتبعي سنن الهدى.

وقوله تعالى: «ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم» الآية، «عرضة» فعلة بناء للمفعول، أي كثيراً ما يتعرض بما ذكر، تقول «جمل عرضة للركوب» و«فرس عرضة للجري»، ومنه قول كعب بن زهير: [البسيط].

من كل نضاجة الذفرى إذا عرقت عرضتها طامس الاعلام مجهول

ومقصد الآية: ولا تعرضوا اسم الله تعالى للإيمان به، ولا تكثروا من الإيمان فإن الحث مع الإكثار، وفيه قلة رعي لحق الله تعالى، ثم اختلف المتأولون: فقال ابن عباس وإبراهيم النخعي ومجاهد والربيع وغيرهم: المعنى فيما تريدون الشدة فيه من ترك صلة الرحم والبر والإصلاح. قال الطبري: «التقدير لأن لا تبروا ولا تتقوا ولا تصلحوا»، وقدره المهدوي: كراهة أن تبروا، وقال بعض المتأولين: المعنى ولا تحلفوا بالله كاذبين إذا أردتم البر والتقوى والإصلاح، فلا يحتاج إلى تقدير «لا» بعد «أن»، ويحتمل أن يكون هذا التأويل في الذي يريد الإصلاح بين الناس، فيحلف حائثاً ليكمل غرضه، ويحتمل أن يكون على ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «نزلت في تكثير اليمين بالله نهياً أن يحلف الرجل به برأ فكيف فاجراً»، فالمعنى: إذا أردتم لأنفسكم البر وقال الزجاج وغيره: معنى الآية أن يكون الرجل إذا طلب منه فعل خير ونحوه اعتل بالله تعالى، فقال عليّ يمين، وهو لم يحلف، و«أن تبروا» مفعول من أجله، والبر جميع وجوه الخير. «بر الرجل» إذا تعلق به حكمها ونسبها كالحاج والمجاهد والعالم وغير ذلك. وهو مضاد للإثم، إذ هو الحكم اللاحق عن المعاصي. و«سميع» أي لأقوال العباد «عليهم» بنياتهم، وهو مجاز على الجميع.

وأما سبب الآية فقال ابن جريج: «نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه إذ حلف أن يقطع إنفاقه عن مسطح بن أثانة حين تكلم مسطح في حديث الإفك»، وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق مع ابنه عبد الرحمن في حديث الضيافة حين حلف أبو بكر أن لا يأكل الطعام، وقيل: نزلت في عبد الله بن رواحة مع بشير بن سعد حين حلف أن لا يكلمه، واليمين الحلف، وأصله أن العرب كانت إذا تحالفت أو تعاهدت أخذ الرجل يمين صاحبه بيمينه، ثم كثر ذلك حتى سمي الحلف والعهد نفسه يميناً.

قوله عز وجل:

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾
يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾

﴿اللغو﴾ سقط الكلام الذي لا حكم له، ويستعمل في الهجر والرفث وما لا حكم له من الأيمان، تشبيهاً بالسقط من القول، يقال منه لغا يلغو لغواً ولغى يلغي لغياً، ولغة القرآن بالواو، والمواخذة هي التناول بالعقوبة، واختلف العلماء في اليمين التي هي لغو، فقال ابن عباس وعائشة وعامر الشعبي وأبو صالح ومجاهد: لغو اليمين قول الرجل في درج كلامه واستعجاله في المحاورة: لا والله، وبلى والله، دون قصد لليمين، وروي أن قوماً تراجعوا القول بينهم وهم يرمون بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم، فحلف أحدهم: لقد أصبت وأخطأت يا فلان، فإذا الأمر بخلافه، فقال رجل: حنث يا رسول الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أيمان الرماة لغو لا إثم فيها ولا كفارة»، وقال أبو هريرة وابن عباس أيضاً والحسن ومالك بن أنس وجماعة من العلماء: لغو اليمين ما حلف به الرجل على يقينه فكشف الغيب خلاف ذلك.

قال القاضي أبو محمد: وهذا اليقين هو غلبة ظن أطلق الفقهاء عليه لفظة اليقين تجوزاً، قال مالك: «مثله أن يرى الرجل على بعد فيعتقد أنه فلان لا يشك، فيحلف، ثم يجيء غير المحلوف عليه»، وقال سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن وعبد الله وعروة ابنا الزبير: لغو اليمين الحلف في المعاصي كالذي يحلف ليشرب الخمر أو ليقطعن الرحم، فبه ترك ذلك الفعل ولا كفارة عليه، وقال سعيد بن جبيرة مثله، إلا أنه قال: يكفر، فأشبهه قوله بالكفارة قول من لا يراها لغواً، وقال ابن عباس أيضاً وطاوس: لغو اليمين الحلف في حال الغضب، وروي ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يمين في غضب»، وقال مكحول الدمشقي وجماعة من العلماء: لغو اليمين أن يحرم الرجل على نفسه ما أحل الله فيقول مالي عليّ حرام إن فعلت كذا، أو الحلال عليّ حرام، وقال بهذا القول مالك بن أنس إلا في الزوجة فإنه ألزم فيها التحريم إلا أن يخرجها الحالف بقلبه، وقال زيد بن أسلم وابنه: لغو اليمين دعاء الرجل على نفسه أعمى الله بصره، أذهب الله ماله، هو يهودي، هو مشرك، هو لغية إن فعل كذا، وقال ابن عباس أيضاً والضحك: لغو اليمين هو المكفرة، أي إذا كفرت اليمين فحيث سقطت وصارت لغواً، ولا يؤاخذ الله بتكفيرها والرجوع إلى الذي هو خير، وقال إبراهيم النخعي: «لغو اليمين ما حنث فيه الرجل ناسياً»، وحكى ابن عبد البر قولاً إن اللغو أيمان المكره.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وطريقة النظر أن يتأمل لفظة اللغو ولفظة الكسب، ويحكم موقعهما في اللغة، فكسب المرء ما قصده ونواه، واللغو ما لم يتعمده أو ما حقه لهجته أن يسقط، فيقوى على هذه الطريقة بعض الأقوال المتقدمة ويضعف بعضها، وقد رفع الله عز وجل المؤاخذة بالإطلاق في اللغو، فحقيقته ما لا إثم فيه ولا كفارة، والمؤاخذة في الإيمان هي بعقوبة الآخرة في الغموس المصبورة، وفيما ترك تكفيره مما فيه كفارة، وبعقوبة الدنيا في إلزام الكفارة، فيضعف القول بأنها اليمين المكفرة، لأن المؤاخذة قد وقعت فيها، وتخصيص المؤاخذة بأنها في الآخرة فقط تحكم.

وقوله تعالى: ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ قال ابن عباس والنخعي وغيرهما: ما كسب القلب هي اليمين الكاذبة الغموس، فهذه فيها المؤاخذة في الآخرة، والكفارة إنما هي فيما يكون لغواً إذا كفر، وقال مالك وجماعة من العلماء: الغموس لا تكفر، هي أعظم ذنباً من ذلك، وقال الشافعي وقتادة وعطاء والربيع: اليمين الغموس تكفر، والكفارة مؤاخذة، والغموس ما قصد الرجل في الحلف به الكذب، وكذلك اليمين المصبورة: المعنى فيهما واحد، ولكن الغموس سميت بذلك لأنها غمست صاحبها في الإثم، والمصبورة سميت بذلك لأنها صبرها مغالبة وقوة عليها، كما يصبر الحيوان للقتل والرمي، وقال زيد بن أسلم: قوله تعالى: ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ هو في الرجل يقول هو مشرك إن فعل، أي هذا لغو إلا أن يعقد الإشراك بقلبه ويسكبه، و﴿غفور حلیم﴾ صفتان لا تفتان بما ذكر من طرح المؤاخذة، إذ هو باب رفق وتوسعة.

وقوله تعالى: ﴿للذين يؤلون من نسائهم﴾ الآية، قرأ أبي بن كعب وابن عباس «للذين يقسمون»، و﴿يولون﴾ معناه يحلفون، يقال آلى الرجل يولي إيلاء، والآلية اليمين، ويقال فيها أيضاً آلوة بفتح الهمزة وبضمها وبكسرهما، والتربص التأني والتأخر، وكان من عادة العرب أن يحلف الرجل أن لا يطاء امرأته، يقصد بذلك الأذى عند المشاورة ونحوها، فجعل الله تعالى في ذلك هذا الحد لئلا يضر الرجال بالنساء، وبقي للحالف على هذا المعنى فسحة فيما دون الأربعة الأشهر، واختلف من المراد أن يلزمه حكم الإيلاء فقال مالك رحمه الله: «هو الرجل يفاضب امرأته فيحلف بيمين يلحق عن الحنث فيها حكم، أن لا يطاءها، ضرراً منه، أكثر من أربعة أشهر، لا يقصد بذلك إصلاح ولد رضيع ونحوه»، وقال به عطاء وغيره، وقال علي بن أبي طالب وابن عباس والحسن بن أبي الحسن: هو الرجل يحلف أن لا يطاء امرأته على وجه مغاضبة ومشاراة، وسواء كان في ضمن ذلك إصلاح ولد أو لم يكن، فإن لم يكن عن غضب فليس بإيلاء. وقال ابن عباس: «لا إيلاء إلا بغضب»، وقال ابن سيرين: «سواء كانت اليمين في غضب أو غير غضب هو إيلاء». وقاله ابن مسعود والثوري ومالك والشافعي وأهل العراق، إلا أن مالكاً قال: ما لم يرد إصلاح ولد. وقال الشعبي والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وابن المسيب: كل يمين حلفها الرجل أن لا يطاء امرأته أو أن لا يكلمها أو أن يضارها أو أن يفاضبها فذلك كله إيلاء، وقال ابن المسيب منهم: إلا أنه إن حلف أن لا يكلم وكان يطاء فليس بإيلاء، وإنما تكون اليمين على غير الوطء إيلاء إذا اقترن بذلك الامتناع من الموطء. قال القاضي أبو محمد: وأقوال من ذكرناه مع سعيد مسجلة محتملة ما قال سعيد ومختمة أن فساد العشرة إيلاء، وذهب إلى هذا الاحتمال الأخير الطبري، وقال ابن عباس أيضاً: لا يسمى مولياً إلا الذي

يحلِف أن لا يَطأ أبداً، حكاه ابن المنذر، وقال مالك والشافعي وأحمد وأبو ثور: لا يكون مولياً إلا إن زاد على الأربعة الأشهر، وقال عطاء والثوري وأصحاب الرأي: الإيلاء أن يحلف على أربعة أشهر فصاعداً، وقال قتادة والنخعي وحماد بن أبي سليمان وإسحاق وابن أبي ليلى: من حلف على قليل من الوقت أو كثير فتركها أربعة أشهر فهو مول. قال ابن المنذر: وأنكر هذا القول كثير من أهل العلم. وقوله تعالى ﴿من نسأهم﴾ يدخل فيه الحرائر والإماء إذا تزوجن، والعبد يلزمه الإيلاء من زوجته، وقال الشافعي وأحمد وأبو ثور: أجله أربعة أشهر، وقال مالك والزهري وعطاء بن أبي رباح وإسحاق: أجله شهران، وقال الحسن: أجله من حرة أربعة أشهر ومن أمة زوجة شهران، وقاله النخعي، وقال الشعبي: «الإيلاء من الأمة نصف الإيلاء من الحرة»، وقال مالك والشافعي وأصحاب الرأي والأوزاعي والنخعي وغيرهم: المدخول بها وغير المدخول بها سواء في لزوم الإيلاء فيهما، وقال الزهري وعطاء والثوري: لا إيلاء إلا بعد الدخول، قال مالك: «ولا إيلاء من صغيرة لم تبلغ، فإن آلى منها فبلغت لزمه الإيلاء من يوم بلوغها»، وقال عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وأبو الدرداء وابن عمر وابن المسيب ومجاهد وطاوس ومالك والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو عبيد: إذا انقضت الأربعة الأشهر وقف: فإما فاء، وإما طلق، وإلا طلق عليه، وقال ابن مسعود وابن عباس وعثمان وعلي أيضاً وزيد بن ثابت وجابر بن زيد والحسن ومسروق بانقضاء الأربعة الأشهر دخل عليه الطلاق دون توقيت، واختلف العلماء في الطلاق الداخل على المولي، فقال عثمان وعلي وابن عباس وابن مسعود وعطاء والنخعي والأوزاعي وغيرهم: هي طلقة بائنة لا رجعة له فيها، وقال سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن ومكحول والزهري ومالك: هي رجعية، ﴿فأؤاؤا﴾ معناه رجعوا، ومنه ﴿حتى تفيء إلى أمر الله﴾ [الحجرات: ٩]، والفيء الظل الراجع عشياً، وقال الحسن وإبراهيم: إذا فاء المولي ووطئ فلا كفارة عليه في يمينه، لقوله تعالى ﴿فإن فأؤوا فإن الله غفور رحيم﴾.

قال القاضي أبو محمد: وهذا متركب على أن لغو اليمين ما حلف في معصية، وترك وطء الزوجة معصية، وقال الجمهور: إذا فاء كفر، والفيء عند ابن المسيب وابن جبير لا يكون إلا بالجماع، وإن كان مسجوناً أو في سفر مضى عليه حكم الإيلاء إلا أن يَطأ ولا عذر له ولا فيء بقول، وقال مالك رحمه الله: «لا يكون الفيء إلا بالوطء أو بالتفكير في حال العذر كالفائب والمسجون»، قال ابن القاسم في المدونة: «إلا أن تكون يمينه مما لا يكفرها لأنها لا تقع عليه إلا بعد الحنث، فإن القول يكفيه ما دام معذوراً»، واختلف القول في المدونة في اليمين بالله تعالى هل يكتفى فيه بالفيء بالقول والعزم على التكفير أم لا بد من التفكير وإلا فلا فيء، وقال الحسن وعكرمة والنخعي وغيرهم: الفيء من غير المعذور الجماع ولا بد، ومن المعذور أن يشهد أنه قد فاء بقلبه، وقال النخعي أيضاً: يصح الفيء بالقول والإشهاد فقط، ويسقط حكم الإيلاء. أرايت إن لم ينتشر للوطء؟

وقال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: ويرجع في هذا القول إن لم يَطأ إلى باب الضرر، وقرأ أبي بن كعب «فإن فأؤوا فيهن» وروي عنه «فإن فأؤوا فيها».

وقوله تعالى: ﴿وإن عزموا الطلاق﴾ الآية، قال القائلون إن بمضي الأربعة أشهر يدخل الطلاق: عزيمة الطلاق هي ترك الفيء حتى تنصرم الأشهر، وقال القائلون لا بد من التوقيف بعد تمام الأشهر:

العزيمة هي التطبيق أو الإبانة وقت التوقيف حتى يطلق الحاكم، واستدل من قال بالتوقيف بقوله ﴿سَمِعَ﴾، لأن هذا الإدراك إنما هو في المقولات، وقرأ ابن عباس «وإن عزموا السراح».

قوله عز وجل:

وَالْمُطَلَقَاتُ يَرَيْبُنَّ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيُعْلِنْنَ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

قرأ جمهور الناس «قروء» على وزن فعول، اللام همزة، وروي عن نافع شد الواو دون همز، وقرأ الحسن «ثلاثة قُرُوءٍ» بفتح القاف وسكون الراء وتنوين الواو خفيفة، وحكم هذه الآية مقصده الاستبراء لا أنه عبادة، ولذلك خرجت منه من لم يبين بها. بخلاف عدة الوفاة التي هي عبادة، و﴿المطلقات﴾ لفظ عموم يراد به الخصوص في المدخول بهن، ولم تدخل في العموم المطلقة قبل البناء ولا الحامل ولا التي لم تحض ولا القاعد، وقال قوم: تناولهن العموم ثم نسخن، وهذا ضعيف فإنما الآية فيمن تحيض، وهو عرف النساء وعليه معظمهن، فأغنى ذلك عن النص عليه، والقرء في اللغة الوقت المعتاد تردده، وقرء النجم وقت طلوعه، وكذلك وقت أفوله وقرء الريح وقت هبوبها، ومنه قول الراجز: [الرجز]

يا رب ذي ضغن على فارض له قروء كقروء الحائض

أراد وقت غضبه، فالحيض على هذا يسمى قرءاً، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «اتركي الصلاة أيام اقرائك»، أي أيام حيضك، وكذلك على هذا النظر يسمى الطهر قرءاً، لأنه وقت معتاد تردده يعاقب الحيض، ومنه قول الأعشى:

أفي كل عام أنت جاشم غزوة تشد لأقصاها عزائمك
مورثة مالا وفي الحي رفعة بما ضاع فيها من قروء نسائك

أي من أطهارهن، وقال قوم: القرء مأخوذ من قرء الماء في الحوض، وهو جمعه، فكان الرحم تجمع الدم وقت الحيض والجسم يجمعه وقت الطهر، واختلف أيهما أراد الله تعالى بالثلاثة التي حددها للمطلقة، فقال أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وابن عباس والضحاك ومجاهد والربيع وقادة وأصحاب الرأي وجماعة كبيرة من أهل العلم: المراد الحيض، فإذا طلق الرجل امرأته في طهر لم يطأ فيه استقبلت حيضة ثم حيضة ثم حيضة فإذا اغتسلت من الثالثة خرجت من العدة، وقال بعض من يقول بالحيض إذا طهرت من الثالثة انقضت العدة قبل الغسل، هذا قول سعيد بن جبير وغيره، وقالت عائشة وابن عمر وجماعة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم منهم سليمان بن يسار ومالك: المراد الاطهار، فإذا طلق الرجل امرأته في طهر لم يطأ فيه اعتدت بما بقي منه ولو ساعة، ثم استقبلت طهراً ثانياً بعد حيضة ثم ثالثاً بعد حيضة ثانية، فإذا رأت الدم من الحيضة الثالثة حلت للأزواج وخرجت من

العدة، فإن طلق مطلق في طهر قد مس فيه لزمه الطلاق وقد أساء، واعتدت بما بقي من ذلك الطهر. وقول ابن القاسم ومالك: إن المطلقة إذا رأت أول نقطة من الحيضة الثالثة خرجت من العصمة. وهو مذهب زيد بن ثابت وغيره، وقال أشهب: لا تنقطع العصمة والميراث حتى يتحقق أنه دم حيض لثلا يكون دفعة دم من غير الحيض، واختلف المتأولون في المراد بقوله ﴿ما خلق﴾ فقال ابن عمر ومجاهد والربيع وابن زيد والضحاك هو الحيض والحبل جميعاً، ومعنى النهي عن الكتمان النهي عن الإضرار بالزوج وإذهاب حقه، فإذا قالت المطلقة حضت وهي لم تحض ذهبت بحقه من الارتجاع، وإذا قالت لم أحض وهي قد حاضت ألزمته من النفقة ما لم يلزمه، فأصرت به، أو تقصد بكذبها في نفي الحيض أن لا يرتجع حتى تتم العدة ويقطع الشرع حقه، وكذلك الحامل تكتم الحمل لينقطع حقه من الارتجاع، وقال قتادة: «كانت عادتتهن في الجاهلية أن يكتمن الحمل ليلحقن الولد بالزوج الجديد ففي ذلك نزلت الآية»، وقال السدي: «سبب الآية أن الرجل كان إذا أراد أن يطلق امرأته سألها أبها حمل؟ مخافة أن يضر بنفسه وولده في فراقها، فأمرهن الله بالصدق في ذلك». وقال إبراهيم النخعي وعكرمة: المراد بـ ﴿ما خلق﴾ الحيض، وروي عن عمر وابن عباس أن المراد الحبل، والعموم راجح، وفي قوله تعالى: ﴿ولا يحل لهن﴾ ما يقتضي أنهن مؤتمنات على ما ذكر، ولو كان الاستقصاء مباحاً لم يكن كتم، وقرأ مبشر بن عبيد «في أرحامهن» بضم الهاء، وقوله ﴿إن كان يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ الآية، أي حق الإيمان فإن ذلك يقتضي أن لا يكتمن الحق، وهذا كما تقول: إن كنت حراً فانتصر، وأنت تخاطب حراً، وقوله ﴿وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً﴾، البعل: الزوج، وجمعه على بعولة شاذ لا ينقاس. لكن هو المسموع. وقال قوم: الهاء فيه دالة على تأنيث الجماعة، وقيل: هي هاء تأنيث دخلت على بعول. وبعول لا شذوذ فيه. وقرأ ابن مسعود «بردتهن» بزيادة تاء، وقرأ مبشر بن عبيد «بردهن» بضم الهاء، ونص الله تعالى بهذه الآية على أن للزوج أن يرتجع امرأته المطلقة ما دامت في العدة، والإشارة بـ ﴿ذلك﴾ هي إلى المدة، ثم اقترن بما لهم من الرد شرط إرادة الإصلاح دون المضارة، كما تشدد على النساء في كتم ما في أرحامهن، وهذا بيان الأحكام التي بين الله تعالى وبين عباده في ترك النساء الكتمان وإرادة الرجال الإصلاح، فإن قصد أحد بعد هذا إفساداً أو كتمت امرأة ما في رحمها فأحكام الدنيا على الظاهر، والبواطن إلى الله تعالى يتولى جزاء كل ذي عمل.

وتضعف هذه الآية قول من قال في المولي: إن بانقضاء الأشهر الأربعة تزول العصمة بطلقة بائنة لا رجعة فيها، لأن أكثر ما تعطي ألفاظ القرآن أن ترك الفئي في الأشهر الأربعة هو عزم الطلاق، وإذا كان ذلك فالمرأة من المطلقات اللواتي يتربصن وبعولتهن أحق بردهن.

وقوله تعالى: ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾، قال ابن عباس: «ذلك في التزين والتصنع والمؤاتاة»، وقال الضحاك وابن زيد: ذلك في حسن العشرة وحفظ بعضهم لبعض وتقوى الله فيه، والآية تعم جميع حقوق الزوجية، وقوله ﴿وللرجال عليهن درجة﴾ قال مجاهد وقاتدة: ذلك تنبيه على فضل حظه على حظها في الجهاد والميراث وما أشبهه، وقال زيد بن أسلم وابنه: ذلك في الطاعة، عليها أن تطيعه وليس عليه أن يطيعها، وقال عامر الشعبي: «ذلك الصداق الذي يعطي الرجل، وأنه يلاعن إن قذف وتحذ

إن قذفت»، فقال ابن عباس: «تلك الدرجة إشارة إلى حض الرجال على حسن العشرة والتوسع للنساء في المال والخلق»، أي إن الأفضل ينبغي أن يتحامل على نفسه، وهذا قول حسن بارع، وقال ابن إسحاق: «الدرجة الإنفاق وأنه قوام عليها»، وقال ابن زيد: «الدرجة ملك العصمة وأن الطلاق بيده»، وقال حميد: «الدرجة اللحية».

وقال القاضي أبو محمد: وهذا إن صح عنه ضعيف لا يقتضيه لفظ الآية ولا معناها، وإذا تأملت هذه الوجوه التي ذكر المفسرون فيجيء من مجموعها درجة تقتضي التفضيل، و﴿عزيز﴾ لا يعجزه أحد، و﴿حكيم﴾ فيما ينفذه من الأحكام والأمور. قوله عز وجل:

أَطْلَقُ مَرَّتَانٍ فَاِمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِحْ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْدُوا وَهَآؤُمِنْ يَنْعَدُ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾

قال عروة بن الزبير وقتادة وابن زيد وغيرهم: نزلت هذه الآية بياناً لعدد الطلاق الذي للمرء فيه أن يرجع دون تجديد مهر وولي، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية يطلقون ويرجعون إلى غير غاية، فقال رجل لامراته على عهد النبي صلى الله عليه وسلم: لا أوويك ولا أدعك تحلين، قالت: وكيف؟ قال: أطلقك فإذا دنا مضي عدتك راجعتك، فشكت ذلك، فنزلت الآية. وقال ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وغيرهم: المراد بالآية التعريف بسنة الطلاق، أي من طلق اثنتين فليقت الله في الثالثة فلما تركها غير مظلومة شيئاً من حقها وإما أمسكها محسناً عشرتها.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: والآية تتضمن هذين المعنيين، والإمساك بالمعروف هو الارتجاع بعد الثانية إلى حسن العشرة والتزام حقوق الزوجية. والتسريح يحتمل لفظه معنيين: أحدهما تركها تتم العدة من الثانية وتكون أملك بنفسها، وهذا قول السدي والضحاك، والمعنى الآخر أن يطلقها ثالثة فيسرحها بذلك، وهذا قول مجاهد وعطاء وغيرهما، ويقوى عندي هذا القول من ثلاثة وجوه: أولها أنه روي أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله هذا ذكر الطلقتين فأين الثالثة؟، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هي قوله: ﴿أو تسريح بإحسان﴾، والوجه الثاني أن التسريح من ألفاظ الطلاق، ألا ترى أنه قد قرئ ﴿وإن عزموا السراح﴾ [البقرة: ٢٢٧]، والوجه الثالث أن فعل تفعيلاً بهذا التضعيف يعطي أنه أحدث فعلاً مكرراً على الطلقة الثانية، وليس في الترك إحداث فعل يعبر عنه بالتفعيل، و﴿إمساك﴾ مرتفع بالابتداء والخبر أمثل أو أحسن، ويصح أن يرتفع على خبر ابتداء تقديره فالواجب إمساك، وقوله ﴿بإحسان﴾ معناه أن لا يظلمها شيئاً من حقها ولا يتعدى في قول. وقوله تعالى: ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا﴾ الآية خطاب للأزواج، نهاهم به أن يأخذوا من أزواجهم شيئاً على وجه المضاربة، وهذا هو الخلع الذي لا يصح إلا بأن لا ينفرد الرجل بالضرر، وخص بالذكر ما أتى الأزواج نساءهم؛ لأن العرف من الناس أن يطلب الرجل عند الشقاق والفساد ما خرج عن يده، هذا وكدهم في الأغلب؛ فلذلك خص

بالذكر. وقرأ جميع السبعة إلا حمزة «يخافا» بفتح الياء على بناء الفعل للفاعل، فهذا باب خاف في التعدي إلى مفعول واحد وهو ﴿أَنْ﴾، وقرأ حمزة وحده «يُخافا» بضم الياء على بناء الفعل للمفعول، فهذا على تعدية خاف إلى مفعولين، أحدهما أسند الفعل إليه، والآخر ﴿أَنْ﴾ بتقدير حرف جر محذوف، فموضع ﴿أَنْ﴾: خفض بالجار المقدر عنه سيئونه والكسائي، ونصب عند غيرهما لأنه لما حذف الجار وصار الفعل إلى المفعول الثاني، مثل استغفر الله ذنباً، وأمرتكم الخير، وفي مصحف ابن مسعود «إلا أن يخافوا» بالياء وواو الجمع، والضمير على هذا للحكام ومتوسطي أمور الناس. وحرم الله - تعالى - على الزوج في هذه الآية أن يأخذ إلا بعد الخوف أن لا يقيما، وأكد التحريم بالوعيد لمن تعدى الحد، وأجمع عوام أهل العلم على تحظير أخذ مالها إلا أن يكون النشوز وفساد العشرة من قبلها. قال ابن المنذر: «روينا معنى ذلك عن ابن عباس والشعبي ومجاهد وعطاء والنخعي وابن سيرين والقاسم بن محمد وعروة بن الزبير والزهري وحמיד بن عبد الرحمن وقتادة وسفيان الثوري ومالك وإسحاق وأبي ثور»، وقال مالك - رحمه الله - والشعبي وجماعة معهما: فإن كان مع فساد الزوجة ونشوزها فساد من الزوج وتفاقم ما بينهما فالفدية جائزة للزوج.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: ومعنى ذلك أن يكون الزوج لو ترك فساد له لم يزل نشوزها هي، وأما إن انفرد الزوج بالفساد فلا أعلم أحداً يجيز له الفدية، إلا ما روي عن أبي حنيفة أنه قال: «إذا جاء الظلم والنشوز من قبله فخالعته فهو جائز ماض وهو آثم لا يحل ما صنع، ولا يرد ما أخذ»، قال ابن المنذر: «وهذا خلاف ظاهر كتاب الله، وخلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو قيل لأحد: اجهد نفسك في طلب الخطأ، ما وجد أمراً أعظم من أن ينطق القرآن بتحريم شيء فيحله هو ويحيزه»، و ﴿حدود الله﴾ في هذا الموضع هي ما يلزم الزوجين من حسن العشرة وحقوق العصمة.

ونازلة حبيبة بنت سهل - وقيل جميلة بنت أبي ابن سلول والأول أصح - مع ثابت بن قيس حين أباح له النبي صلى الله عليه وسلم أخذ الفدية منها إنما كان التعسف فيها من المرأة لأنها ذكرت عنه كل خير وأنها لا تحب البقاء معه، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَقيَما حدودَ اللَّهِ﴾ المخاطبة للحكام والمتوسطين لمثل هذا الأمر وإن لم يكن حاكماً، وترك إقامة حدود الله هو استخفاف المرأة بحق زوجها وسوء طاعتها إياه، قاله ابن عباس ومالك بن أنس وجمهور الفقهاء، وقال الحسن بن أبي الحسن وقوم معه: إذا قالت له: لا أطيع لك أمراً ولا أغسل لك من جنابة ولا أبر لك قسماً، حل الخلع، وقال الشعبي: ﴿ألا يقيما حدودَ اللَّهِ﴾: معناه أن لا يطيعا الله، وذلك أن المغاضبة تدعو إلى ترك الطاعة»، وقال عطاء بن أبي رباح: «يحل الخلع والأخذ أن تقول المرأة لزوجها إني لأكرهك ولا أحبُّك ونحو هذا».

وقوله تعالى: ﴿فَلا جناحَ عليهما فيما افدتا به﴾ إباحة للفدية، وشركهما في ارتفاع الجناح لأنها لا يجوز لها أن تعطيه مالها حيث لا يجوز له أخذه وهي تقدر على المخاصمة، فإذا كان الخوف المذكور جاز له أن يأخذ ولها أن تعطي، ومتى لم يقع الخوف فلا يجوز لها أن تعطي على طالب الفراق، وقال ابن عمر والنخعي وابن عباس ومجاهد وعثمان بن عفان رضي الله عنه ومالك والشافعي وأبو حنيفة وعكرمة وقبيصة بن ذؤيب وأبو ثور وغيرهم: مباح للزوج أن يأخذ من المرأة في الفدية جميع ما تملكه، وقضى

بذلك عمر بن الخطاب، وقال طاوس والزهري وعطاء وعمرو بن شعيب والحسن والشعبي والحكم وحماد وأحمد وإسحاق: لا يجوز له أن يزيد على المهر الذي أعطاه. وبه قال الربيع، وكان يقرأ هو والحسن بن أبي الحسن «فيما افتدت به منه» بزيادة «منه»، يعني مما آتيتموهن وهو المنهر. وحكى مكى هذا القول عن أبي حنيفة، وابن المنذر أثبت. وقال ابن المسيب: «لا أرى أن يأخذ منها كل مالها ولكن ليدع لها شيئاً». وقال بكر بن عبد الله المزني: «لا يجوز للرجل أن يأخذ من زوجته شيئاً خلعاً قليلاً ولا كثيراً»؛ قال: «وهذه الآية منسوخة بقوله عز وجل: ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطراً فلا تأخذوا منه شيئاً﴾ [النساء: ٢٠].

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف، لأن الأمة مجمعة على إجازة الفدية، ولأن المعنى المقترن بآية الفدية غير المعنى الذي في آية إرادة الاستبدال.

وقوله تعالى: ﴿تلك حدود الله﴾ الآية، أي هذه الأوامر والنواهي هي المعالم بين الحق والباطل والطاعة والمعصية فلا تتجاوزوها، ثم توعده تعالى - على تجاوز الحد ووصف المتعدي بالظلم وهو وضع الشيء في غير موضعه، والظلم معاقب صاحبه، وهو كما قال صلى الله عليه وسلم: «الظلم ظلمات يوم القيامة».

قوله عز وجل:

فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتِدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ

قال ابن عباس والضحاك وقتادة والسدي: هذا ابتداء الطلقة الثالثة.

قال القاضي أبو محمد: فيجيء التسريح المتقدم ترك المرأة تتم عدتها من الثانية، ومن قول ابن عباس رضي الله عنه: «إن الخلع فسخ عصمة وليس بطلاق»، واحتج من هذه الآية بذكر الله - تعالى - الطلاقين ثم ذكره الخلع ثم ذكره الثالثة بعد الطلاقين ولم يك للخلع حكم يعتد به، ذكر هذا ابن المنذر في «الإشراف» عنه وعن عكرمة وطاوس وأحمد وإسحاق وأبي ثور، وذكر عن الجمهور خلاف قولهم، وقال مجاهد: «هذه الآية بيان ما يلزم المسرح، والتسريح هو الطلقة الثالثة».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وقوله تعالى: ﴿أو تسريح﴾ يحتمل الوجهين: إما تركها تتم العدة، وإما إرداف الثالثة. ثم بين في هذه الآية حكم الاحتمال الواحد، إذ الاحتمال الثاني قد علم منه أنه لا حكم له عليها بعد انقضاء العدة. و﴿تسريح﴾ في اللغة جار على حقيقته في الوطء ومجاز في العقد، وأجمعت الأمة في هذه النازلة على اتباع الحديث الصحيح في بنت سموال امرأة رافعة حين تزوجها

عبد الرحمن بن الزبير وكان رفاعة قد طلقها ثلاثاً، فقالت للنبي صلى الله عليه وسلم: «إني لا أريد البقاء مع عبد الرحمن، ما معه إلا مثل الهدبة»، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لعلك أردت الرجوع إلى رفاعة، لا حتى يذوق عسيلتك وتدوقي عسيلته»، فرأى العلماء أن النكاح المحل إنما هو الدخول والوطء، وكلهم على أن مغيب الحشفة يحل إلا الحسن بن أبي الحسن فإنه قال: «لا يحل إلا الإنزال وهو فوق العسيلة»، وقال بعض الفقهاء: التقاء الختانين يحل.

قال القاضي أبو محمد: والمعنى واحد، إذ لا يلتقي الختانان إلا مع المغيب الذي عليه الجمهور، وروي عن سعيد بن المسيب أن العقد عليها يحلها للأول، وخطيء هذا القول لخلافه الحديث الصحيح، ويتأول على سعيد - رحمه الله - أن الحديث لم يبلغه، ولما رأى العقد عاملاً في منع الرجل نكاح امرأة قد عقد عليها أبوه قاس عليه عمل العقد في تحليل المطلقة.

قال القاضي أبو محمد: وتحليل المطلقة ترخيص فلا يتم إلا بالأوفى، ومنع الابن شدة تدخل بأرق الأسباب على أصلهم في البر والحنث. والذي يحل عند مالك - رحمه الله - النكاح الصحيح والوطء المباح، والمحلل إذا وافق المرأة: فلم تنكح زوجاً، ولا يحل ذلك، ولا أعلم في اتفاقه مع الزوجة خلافاً، وقال عثمان بن عفان: «إذا قصد المحلل التحليل وحده لم يحل، وكذلك إن قصده المرأة وحدها». ورخص فيه مع قصد المرأة وحدها إبراهيم والشعبي إذا لم يأمر به الزوج. وقال الحسن بن أبي الحسن: «إذا هم أحد الثلاثة بالتحليل لم تحل للأول»، وهذا شاذ، وقال سالم والقاسم: لا بأس أن يتزوجها ليحلها إذا لم يعلم الزوجان.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ الآية، المعنى إن طلقها المتزوج الثاني فلا جناح عليهما أي المرأة والزوج الأول، قاله ابن عباس، ولا خلاف فيه، والظن هنا على بابيه من تغليب أحد الجائزين، وقال أبو عبيدة: «المعنى أيقنا»، وقوله في ذلك ضعيف، و﴿حدود الله﴾ الأمور التي أمر أن لا تتعدى، وخص الذين يعلمون بالذكر تشريفاً لهم، وإذ هم الذين ينتفعون بما بين. أي نصب للعبارة من قول أوصنعة، وأما إن أردنا بالتبيين خلق البيان في القلب فذلك يوجب تخصيص الذين يعلمون بالذكر، لأن من طبع على قلبه لم يبين له شيء، وقرأ السبعة «يبينها» بالياء، وقرأ عاصم روي عنه «نبينها» بالنون.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ الآية خطاب للرجال لا يختص بحكمه إلا الأزواج، وذلك نهي للرجل أن يطول العدة على المرأة مضارةً منه لها، بأن يرتجع قرب انقضائها ثم يطلق بعد ذلك، قاله الضحاك وغيره، ولا خلاف فيه، ومعنى ﴿بلغنا أجلهن﴾ قارين، لأن المعنى يضطر إلى ذلك، لأنه بعد بلوغ الأجل لا خيار له في الإمساك، ومعنى ﴿أمسكوهن﴾ راجعوهن، و﴿بمعروف﴾ قيل هو الإشهاد، و﴿لا تمسكوهن﴾ أي لا تراجعوهن ضارراً، وباقي الآية بين.

قوله عز وجل:

وَلَا تَنْخِذُواْ أَمْوَالَ اللَّهِ الَّتِي هُزِّبَتْ لَهَا وَادْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ
يُعِظُكُمْ بِهِ وَآتُواْ اللَّهَ وَأَعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٍ عِلْمٌ ﴿٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا

تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ كَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

المراد آياته النازلة في الأوامر والنواهي، وقال الحسن: «نزلت هذه الآية فيمن طلق لاجباً أو هازلاً أو راجع كذلك»، وقالت عائشة، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاث جدهن جد وهزلهن جد: النكاح والطلاق والرجعة». ووقع هذا الحديث في المدونة من كلام ابن المسيب، النكاح والطلاق والعنق، ثم ذكر الله عباده بإياعامه عليهم بالقرآن والسنة، و﴿الحكمة﴾ هي السنة المبينة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم: مراد الله فيما لم ينص عليه في الكتاب، والوصف بـ﴿عليم﴾ يقتضيه ما تقدم من الأفعال التي ظاهرها خلاف النية فيها، كالمحلل والمرجع مضارة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُغْنِ أَجَلُهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ الآية خطاب للمؤمنين الذين منهم الأزواج ومنهم الأولياء، لأنهم المراد في ﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾، وبلوغ الأجل في هذا الموضع تناهيه، لأن المعنى يقتضي ذلك، وقد قال بعض الناس في هذا الموضع: إن المراد بـ﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾، الأزواج، وذلك بأن يكون الارتجاع مضارة عضلاً عن نكاح الغير، فقوله ﴿أَزْوَاجَهُنَّ﴾ على هذا يعني به الرجال، إذ منهم الأزواج، وعلى أن المراد بـ﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾ الأولياء فالأزواج هم الذين كن في عصمتهم، والعضل المنع من الزواج، وهو من معنى التضييق والتعسير، كما يقال أعضلت الدجاجة إذا عسر بيضها، والداء العضال العسير البرء، وقيل: نزلت هذه الآية في معقل بن يسار وأخته، وقيل: في جابر بن عبد الله، وذلك أن رجلاً طلق أخته، وقيل بنته، وتركها حتى تمت عدتها، ثم أراد ارتجاعها فغار جابر، وقال: «تركها وأنت أملك بها، لا زوجتكها أبداً»، فنزلت الآية، وهذه الآية تقتضي ثبوت حق الولي في إنكاح وليته، وأن النكاح يفتقر إلى ولي، خلاف قول أبي حنيفة إن الولي ليس من شروط النكاح، وقوله ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ معناه المهر والإشهاد.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ﴾ خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم: ثم رجوع إلى خطاب الجماعة، والإشارة في ﴿ذَلِكَ أَزْكَى﴾ إلى ترك العضل، و﴿أَزْكَى﴾ و﴿أَطْهَرُ﴾ معناه أطيب للنفس وأطهر للعرض والدين، بسبب العلاقات التي تكون بين الأزواج، وربما لم يعلمها الولي فيؤدي العضل إلى الفساد والمخالطة على ما لا ينبغي، والله - تعالى - يعلم من ذلك ما لا يعلم البشر.

قوله عز وجل:

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ

﴿يرضعن أولادهن﴾ خبر، معناه: الأمر على الوجوب لبعض الوالدات، والأمر على جهة التنبه والتخيير لبعضهن، فأما المرأة التي في العصمة فعليها الإرضاع، وهو عرف يلزم إذ قد صار كالشرط إلا أن تكون شريفة ذات تره فعرفها أن لا ترضع وذلك كالشرط، فإن مات الأب ولا مال للصبى فمذهب مالك في

المدونة أن الرضاع لازم للام، بخلاف النفقة، وفي كتاب ابن الجلاب: رضاعه في بيت المال، وقال عبد الوهاب: هو من فقراء المسلمين، وأما المطلقة طلاق بينونة فلا رضاع عليها، والرضاع على الزوج إلا أن تشاء هي، فهي أحق به بأجرة المثل. هذا مع يسر الزوج، فإن كان معدماً لم يلزمها الرضاع إلا أن يكون المولود لا يقبل غيرها فتجبر حينئذ على الإرضاع، ولها أجر مثلها في يسر الزوج، وكل ما يلزمها الإرضاع فإن أصابها عذر يمنعها منه عاد الإرضاع على الأب. وروي عن مالك أن الأب إذا كان معدماً ولا مال للصبي فإن الرضاع على الأم، فإن كان بها عذر ولها مال فالإرضاع عليها في مالها. وهذه الآية هي في المطلقات، قاله السدي والضحاك وغيرهما، جعلها الله حداً عند اختلاف الزوجين في مدة الرضاع فمن دعا منهما إلى إكمال الحولين فذلك له، وقال جمهور المفسرين: إن هذين الحولين لكل واحد، وروي عن ابن عباس أنه قال: «هي في الولد الذي يمكث في البطن ستة أشهر، فإن مكث سبعة أشهر فرضاعه ثلاثة وعشرون شهراً، فإن مكث ثمانية أشهر فرضاعه اثنان وعشرون شهراً، فإن مكث تسعة أشهر فرضاعه أحد وعشرون شهراً».

قال القاضي أبو محمد: كان هذا القول ابنى على قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفَصَالَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، لأن ذلك حكم على الإنسان عموماً، وسمي العام حوالاً لاستحالة الأمور فيه في الأغلب، ووصفهما ﴿بكاملين﴾ إذ ما قد اعتيد تجوزاً أن يقال في حول وبعض آخر حولين، وفي يوم وبعض آخر مشيت يومين وصبرت عليك في ديني يومين وشهرين. وقوله تعالى: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتِمَّ الرِّضَاعَةَ﴾ مبني على أن الحولين ليسا بفرض لا يتجاوز، وقرأ السبعة «أن يَتِمَّ الرِّضَاعَةَ» بضم الياء ونصب الرضاعة، وقرأ مجاهد وابن محيصن وحמיד والحسن وأبورجاء «تَتِمَّ الرِّضَاعَةُ» بفتح التاء الأولى ورفع الرضاعة على إسناد الفعل إليها، وقرأ أبو حيوة وابن أبي عتبة والجارود بن أبي سبرة كذلك، إلا أنهم كسروا الراء من الرضاعة، وهي لغة كالحضارة والحضارة، وغير ذلك. وروي عن مجاهد أنه قرأ «الرضعة» على وزن الفعل، وروي عن ابن عباس أنه قرأ «أن يكمل الرضاعة» بالياء المضمومة، وانتزع مالك رحمه الله وجماعة من العلماء من هذه الآية أن الرضاعة المحرمة الجارية مجرى النسب إنما هي ما كان في الحولين، لأن بانقضاء الحولين تمت الرضاعة فلا رضاعة، وروي عن قتادة أنه قال: «هذه الآية تضمنت فرض الإرضاع على الوالدات، ثم يسر ذلك وخفف بالتخير الذي في قوله: ﴿لَمَنْ أَرَادَ﴾».

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول متداع.

قوله عز وجل:

وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لِوَالِدِهِ عَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ

﴿المولود له﴾ اسم جنس وصنف من الرجال، والرزق في هذا الحكم الطعام الكافي، وقوله ﴿بالمعروف﴾ يجمع حسن القدر في الطعام وجودة الأداء له وحسن الاقتضاء من المرأة، ثم بين تعالى أن الإنفاق على قدر غنى الزوج ومنصبها بقوله: ﴿لا تكلف نفس إلا وسعها﴾، وقرأ جمهور الناس:

«تَكْلَفُ» بضم التاء «نَفْسُ» على ما لم يُسَمَّ فاعله، وقرأ أبو رجاء «تَكْلَفُ» بفتح التاء بمعنى تتكلف «نَفْسُ» فاعله، وروى عنه أبو الأشهب «لَا تَكْلَفُ» بالنون «نَفْسًا» بالنصب، وقرأ أبو عمرو وابن كثير وأبان عن عاصم «لَا تَضَارُّ وَالِدَةَ» بالرفع في الراء، وهو خبر معناه الأمر. ويحتمل أن يكون الأصل «تَضَارُّ» بكسر الراء الأولى فوالدة فاعل، ويحتمل أن يكون «تَضَارُّ» بفتح الراء الأولى فوالدة مفعول لم يسم فاعله، ويعطف مولود له على هذا الحد في الاحتمالين، وقرأ نافع وحزمة والكسائي وعاصم «لَا تَضَارُّ» بفتح الراء المشددة، وهذا على النهي، ويحتمل أصله ما ذكرنا في الأولى، ومعنى الآية في كل قراءة: النهي عن أن تضار الوالدة زوجها المطلق بسبب ولدها، وأن يضارها هو بسبب الولد، أو يضار الظئر، لأن لفظة نهيه تعم الظئر، وقد قال عكرمة في قوله: «لَا تَضَارُّ وَالِدَةَ»: معناه الظئر، ووجوه الضرر لا تنحصر، وكل ما ذكر منها في التفاسير فهو مثال. وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ «لَا تَضَارُّ» براءين الأولى مفتوحة. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع «لَا تَضَارُّ» بإسكان الراء وتخفيفها، وروى عنه الإسكان والتشديد، وروى عن ابن عباس «لَا تَضَارُّ» بكسر الراء الأولى.

واختلف العلماء في معنى قوله تعالى: «وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ». فقال قتادة والسدي والحسن وعمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيرهم: هو وارث الصبي إن لو مات، قال بعضهم: وارثه من الرجال خاصة يلزمه الإرضاع كما كان يلزم أبا الصبي لو كان حياً، وقاله مجاهد وعطاء، وقال قتادة أيضاً وغيره: هو وارث الصبي من كان من الرجال والنساء، ويلزمهم إرضاعه على قدر موارثهم منه. وحكى الطبري عن أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد بن الحسن أنهم قالوا: الوارث الذي يلزمه إرضاع المولود هو وليه ووارثه إذا كان ذا رحم محرم منه، فإن كان ابن عم وغيره وليس بذی رحم محرم فلا يلزمه شيء.

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا القول تحكم، وقال قبيصة بن ذؤيب والضحاك وبشير بن نصر قاضي عمر بن عبد العزيز: الوارث هو الصبي نفسه، أي عليه في ماله إذا ورث أباه إرضاع نفسه، وقال سفيان رحمه الله: «الوارث هو الباقي من والدي المولود بعد وفاة الآخر منهما»، ويرى مع ذلك إن كانت الوالدة هي الباقية أن يشاركها العاصب في إرضاع المولود على قدر حظه من الميراث. ونص هؤلاء الذين ذكرت أقوالهم على أن المراد بقوله تعالى: «مِثْلُ ذَلِكَ» الرزق والكسوة، وذكر ذلك أيضاً من العلماء إبراهيم النخعي وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود والشعبي والحسن وابن عباس وغيرهم. وقال مالك رحمه الله في المدونة وجميع أصحابه والشعبي أيضاً والزهري والضحاك وجماعة من العلماء: المراد بقوله «مِثْلُ ذَلِكَ» أن لا يضار، وأما الرزق والكسوة فلا شيء عليه منه، وروى ابن القاسم عن مالك أن الآية تضمنت أن الرزق والكسوة على الوارث ثم نسخ ذلك.

قال القاضي أبو محمد: فالإجماع من الأمة في أن لا يضار الوارث، والخلاف هل عليه رزق وكسوة أم لا؟، وقرأ يحيى بن يعمر «وَعَلَى الْوَرِثَةِ مِثْلُ ذَلِكَ» بالجمع.

قوله عز وجل:

فَإِنْ أَرَادَا فِصًى لَا عَنْ رَاضٍ مِنْهُمَا وَشَاوِرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوهُمَا أُولَدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ

عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَالْتَقُوا اللَّهَ وَعَالَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَمْتَعِلُونَ بِصِيرٍ ﴿٢٣٣﴾

الضمير في ﴿أراد﴾ للوالدين، و﴿فصلاً﴾ معناه «فطاماً» عن الرضاع، ولا يقع التشاور ولا يجوز التراضي إلا بما لا ضرر فيه على المولود، فإذا ظهر من حاله الاستغناء عن اللبن قبل تمام الحولين فلا جناح على الأبوين في فصله، هذا معنى الآية، وقاله مجاهد وقتادة وابن زيد وسفيان وغيرهم، وقال ابن عباس: «لا جناح مع التراضي في فصله قبل الحولين وبعدهما».

قال القاضي أبو محمد: وتحرير القول في هذا أن فصله قبل الحولين لا يصح إلا بتراضيهما وأن لا يكون على المولود ضرر، وأما بعد تمامهما فمن دعا إلى الفصل فذلك له إلا أن يكون في ذلك على الصبي ضرر، وقوله تعالى: ﴿وإن أردتم أن تسترضعوا﴾ مخاطبة لجميع الناس تجمع الآباء والأمهات، أي لهم اتخاذ الظئر مع الاتفاق على ذلك، وأما قوله تعالى: ﴿إذا أسلمتم﴾ فمخاطبة للرجال خاصة، إلا على أحد التأويلين في قراءة من قرأ «أيتيم»، وقرأ الستة من السبعة «أيتيم» بالمد، المعنى أعطيتهم، وقرأ ابن كثير «أيتيم» بمعنى ما جئتم وفعلتم كما قال زهير: [الطويل].

وما كان من خير أتوه فإنما توارثه آباء آبائهم قبل

قال أبو علي: «المعنى إذا سلمتم ما أيتيم نقده أو إعطاءه أو سيوقه، فحذف المضاف وأقيم الضمير مقامه فكان التقدير ما أيتيموه، ثم حذف الضمير من الصلة».

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل اللفظ معنى آخر قاله قتادة، وهو إذا سلمتم ما أيتيم من إرادة الاسترضاع، أي سلم كل واحد من الأبوين ورضي وكان ذلك عن اتفاق منهما وقصد خير وإرادة معروف من الأمر. وعلى هذا الاحتمال: فيدخل في الخطاب بـ «سلمتم» الرجال والنساء، وعلى التأويل الذي ذكره أبو علي وغيره: فالخطاب للرجال، لأنهم الذين يعطون أجر الرضاع، قال أبو علي: ويحتمل أن تكون «ما» مصدرية، أي إذا سلمتم الإتيان، والمعنى كالأول، لكن يستغنى عن الصنعة من حذف المضاف، ثم حذف الضمير، قال مجاهد: «المعنى إذا سلمتم إلى الأمهات أجرهن بحساب ما أرضعن إلى وقت إرادة الاسترضاع»، وقال سفيان: «المعنى إذا سلمتم إلى المسترضعة وهي الظئر أجرها بالمعروف». وباقي الآية أمر بالتقوى وتوقيف على أن الله تعالى بصير بكل عمل، وفي هذا وعيد وتحذير، أي فهو مجاز بحسب عملكم.

قوله عز وجل:

وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا

قال بعض نحاة الكوفيين: الخبر عن «الذين» متروك والقصد الإخبار عن أزواجهم بأنهن يتربصن، ومذهب نحاة البصرة أن خبر «الذين» مترتب بالمعنى، وذلك أن الكلام إنما تقديره يتربص أزواجهم، وإن شئت قدرته. وأزواج الذين يتوفون منكم يتربصن، فجاءت العبارة في غاية الإيجاز، وإعرابها مترتب على،

هذا المعنى المالك لها المتقرر فيها، وحكى المهدوي عن سيويه أن المعنى: وفيما يتلى عليكم الذين يتوفون، ولا أعرف هذا الذي حكاه لأن ذلك إنما يتجه إذا كان في الكلام لفظ أمر بعد. مثل قوله: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ [المائدة: ٣٨]، وهذه الآية فيها معنى الأمر لا لفظه فيحتاج مع هذا التقدير إلى تقدير آخر يستغنى عنه إذا حضر لفظ الأمر، وحسن مجيء الآية هكذا أنها توطئة لقوله: ﴿فلا جناح عليكم﴾، إذ القصد بالمخاطبة من أول الآية إلى آخرها الرجال الذين منهم الحكام والنظرة، وعبارة المبرد والأخفش ما ذكرناه، وهذه الآية هي في عدة المتوفى عنها زوجها، وظاهرها العموم ومعناها الخصوص في الحرائر غير الحوامل ولم تعن الآية لما يشذ من مرتابة ونحوها، وحكى المهدوي عن بعض العلماء أن الآية تناولت الحوامل ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿وأولات الأحمال﴾ [الطلاق: ٤]، وعدة الحامل وضع حملها عند جمهور العلماء، وروي عن علي بن أبي طالب وابن عباس وغيرهما أن تمام عدتها آخر الأجلين، والتربص الصبر والتأني بالشخص في مكان أو حال، وقد بين تعالى ذلك بقوله: ﴿بأنفسهن﴾، والأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: متظاهرة أن التربص بإحداد وهو الامتناع عن الزينة ولبس المصبوغ الجميل والطيب ونحوه، والتزام المبيت في مسكنها حيث كانت وقت وفاة الزوج. وهذا قول جمهور العلماء وهو قول مالك وأصحابه. وقال ابن عباس وأبو حنيفة فيما روي عنه وغيرهما: ليس المبيت بمراعى، تبیت حيث شاءت. وقال الحسن بن أبي الحسن: «ليس الإحداد بشيء، إنما تربص عن الزواج، ولها أن تتزين وتتطيب».

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف. وقرأ جمهور الناس «يتوفون» بضم الياء، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه «يتوفون» بفتح الياء، وكذلك روى المفضل عن عاصم، ومعناه يستوفون آجالهم، وجعل الله الأربعة الأشهر والعشر عبادة في العدة فيها استبراء للحمل، إذ فيها تكمل الأربعون والأربعون والأربعون، حسب الحديث الذي رواه ابن مسعود وغيره ثم ينفخ الروح، وجعل الله تعالى العشر تكملة إذ هي مظنة لظهور الحركة بالجنين وذلك لنقص الشهور أو كمالها ولسرعة حركة الجنين أو إبطائها، قاله سعيد بن المسيب وأبو العالية وغيرهما، وقال تعالى: ﴿عشراً﴾، ولم يقل عشرة تغلياً لحكم الليالي إذ الليلة أسبق من اليوم والأيام في ضمنها، وعشر أخف في اللفظ. قال جمهور أهل العلم: ويدخل في ذلك اليوم العاشر وهو من العدة لأن الأيام مع الليالي، وحكى منذر بن سعيد - وروي أيضاً عن الأوزاعي -: أن اليوم العاشر ليس من العدة بل انقضت بتمام عشر ليالٍ، قال المهدوي: «وقيل المعنى عشر مدد كل مدة من يوم وليلة»، وروي عن ابن عباس أنه قرأ «أربعة أشهر وعشر ليالٍ».

قوله عز وجل:

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ يَمَاعَزُ الْمُؤْمِنِينَ خَيْرٌ

أضاف تعالى الأجل إليهن إذ هو محدود مضروب في أمرهن، والمخاطبة بقوله ﴿فلا جناح عليكم﴾ عامة لجميع الناس، والتلبس بهذا الحكم هو للحكام والأولياء اللاصقين والنساء المعتدات، وقوله عز وجل ﴿فيما فعلن﴾ يريد به الزوج فما دونه من التزين واطراح الإحداد. قال مجاهد وابن شهاب وغيرهما: أراد

بما فعلن النكاح لمن أحبين إذا كان معروفاً غير منكر.

قال القاضي أبو محمد: ووجه المنكر في هذا كثيرة، وقال بعض المفسرين: ﴿بالمعروف﴾ معناه بالإشهاد، وقوله تعالى: ﴿والله بما تعملون خبير﴾ وعيد يتضمن التحذير. و﴿خبير﴾ اسم فاعل من خبر إذا تقصى علم الشيء.

قوله عز وجل:

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا

المخاطبة بهذه الآية لجميع الناس، والمباشر لحكمها هو الرجل الذي في نفسه تزويج معتدة، والتعريض هو الكلام الذي لا تصريح فيه كأنه يعرض لفكر المتكلم به، وأجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدة بما هو نص في تزويجها وتنبه عليه لا يجوز، وكذلك أجمعت على أن الكلام معها بما هو روث وذكر جماع أو تحريض عليه لا يجوز. وجوز ما عدا ذلك، ومن أعظمه قرباً إلى التصريح قول النبي صلى الله عليه وسلم لفاطمة بنت قيس: «كوني عند أم شريك ولا تسبقيني بنفسك». ومن المجوز قول الرجل: إنك لإلى خير، وإنك لمرغوب فيك، وإني لأرجو أن أتزوجك، وإن يقدر أمر يكن، هذا هو تمثيل مالك وابن شهاب وكثير من أهل العلم في هذا، وجائز أن يمدح نفسه ويذكر مآثره على جهة التعريض بالزواج، وقد فعله أبو جعفر محمد بن علي بن حسين، واحتج بأن النبي صلى الله عليه وسلم فعله مع أم سلمة، والهدية إلى المعتدة جائزة، وهي من التعريض، قاله سحنون وكثير من العلماء.

قال القاضي أبو محمد: وقد كره مجاهد أن يقول لا تسبقيني بنفسك، ورأه من المواعدة سرّاً، وهذا عندي على أن يتأول قول النبي صلى الله عليه وسلم لفاطمة بنت قيس إنه على جهة الرأي لها فيمن يتزوجها لا أنه أرادها لنفسه، وإلا فهو خلاف لقوله صلى الله عليه وسلم، والخطبة بكسر الخاء فعل الخاطب من كلام وقصد واستلطاف بفعل أو قول، يقال خطبها يخطبها خطباً وخطبة ورجل خطّاب كثير التصرف في الخطبة، ومنه قول الشاعر: [الرجز]

برح بالعينين خطّاب الكثب يقول إني خاطب وقد كذب

وإنما يخطب عساً من حلب

والخطبة «فِعْلَةٌ» كجلسة «وَقْعَةٌ»، والخطبة بضم الخاء هي الكلام الذي يقال في النكاح وغيره، ﴿أو أكننتم﴾ معناه سترتم وأخفيتن، تقول العرب: كننت الشيء من الأجرام، إذا سترته في بيت أو ثوب أو أرض ونحوه، وأكننت الأمر في نفسي، ولم يسمع من العرب كننته في نفسي، وتقول أكن البيت الإنسان ونحو هذا، فرفع الله الجناح عمن أراد تزوج المعتدة مع التعريض ومع الإكتمان، ونهى عن المواعدة التي هي تصريح بالتزويج وبناء عليه واتفق على وعد، فرخص لعلمه تعالى بغلبة النفوس وطمحانها وضعف البشر عن ملكها، وقوله تعالى ﴿ستذكرونهن﴾، قال الحسن: معناه ستخطبونهن.

قال القاضي أبو محمد: كأنه قال إن لم تنهوا، وقال غير الحسن: لمعناه علم الله أنكم ستذكرون النساء المعتدات في نفوسكم وبألسنتكم لمن يخف عنكم فنهى عن أن يوصل إلى التواعد معها لما في ذلك من هتك حرمة العدة، وقوله تعالى: ﴿ولكن لا تواعدوهن سرا﴾ ذهب ابن عباس وابن جبير ومالك وأصحابه والشعبي ومجاهد وعكرمة والسدي وجمهور أهل العلم إلى أن المعنى لا توافقوهن بالمواعدة والتوثق وأخذ العهد في استسار منكم وخفية، فـ ﴿سرا﴾ على هذا التأويل نصب على الحال أي مستترين. وقال جابر بن زيد وأبو مجلز لاحق بن حميد والحسن بن أبي الحسن والضحاك وإبراهيم النخعي: السر في هذه الآية الزنا أي لا تواعدوهن زنى.

قال القاضي أبو محمد: هكذا جاءت عبارة هؤلاء في تفسير السر وفي ذلك عندي نظر، وذلك أن السر في اللغة يقع على الوطء حلاله وحرامه، لكن معنى الكلام وقريته ترد إلى أحد الوجهين، فمن الشواهد قول الحطيئة: [الوافر]

وَيَحْرُمُ سِرَّ جَارَتِهِمْ عَلَيْهِمْ وَيَأْكُلُ جَارُهُمْ أَنْفَ الْقِصَاعِ

فقريته هذا البيت تعطي أن السر أراد به الوطء حراماً، وإلا فلو تزوجت الجارة كما يحسن لم يكن في ذلك عار، ومن الشواهد قول الآخر: [الطويل]

أَخَالَتْنَا سِرُّ النِّسَاءِ مُحَرَّمٌ عَلَيَّ، وَتَشْهَدُ النَّدَامَى مَعَ الْخَمْرِ
لَنْ لَمْ أَصْبَحُ دَاهِنًا وَلَفِيهَا وَنَاعَبَهَا يَوْمًا بِرَاغِيَةِ الْبُكَرِ

فقريته هذا الشعر تعطي أنه أراد تحريم جماع النساء عموماً في حرام وحلال حتى ينال ثاره، والآية تعطي النهي عن أن يواعد الرجل المعتدة أن يطأها بعد العدة بوجه التزويج، وأما المواعدة في الزنى فمحرم على المسلم مع معتدة وغيرها، وحكى مكي عن ابن جبير أنه قال: «سرا: نكاحاً»، وهذه عبارة مخصصة، وقال ابن زيد: «معنى قوله ﴿ولكن لا تواعدوهن سرا﴾ أي لا تنكحوهن وتكتمون ذلك فإذا حلت أظهرتموه ودخلتم بهن».

قال القاضي أبو محمد: فابن زيد في معنى السر مع القول الأول أي خفية، وإنما شذ في أن سمي العقد مواعدة، وذلك قلق لأن العقد متى وقع وإن تكتم به فإنما هو في عزم العقدة، وحكى مكي عنه أنه قال: «الآية منسوخة بقوله: ﴿ولا تعزموا عقدة النكاح﴾ وأجمعت الأمة على كراهية المواعدة في العدة للمرأة في نفسها، وللأب في ابنته البكر، وللسيد في أمته، قال ابن المواز: «فأما الولي الذي لا يملك الجبر فأكرهه، وإن نزل لم أفسخه»، وقال مالك رحمه الله فيمن يواعد في العدة ثم يتزوج بعدها: «فراقها أحب إليّ دَخَلَ بها أولم يدخل وتكون تطليقة واحدة، فإذا حلت خطبها مع الخطاب»، هذه رواية ابن وهب، وروى أشهب عن مالك أنه يفرق بينهما إيجاباً، وقاله ابن القاسم، وحكى ابن حارث مثله عن ابن الماجشون، وزاد ما يقتضي أن التحريم يتأبد، وقوله تعالى: ﴿إلا أن تقولوا قولاً معروفاً﴾ استثناء منقطع، والقول المعروف هو ما أبيح من التعريض، وقد ذكر الضحاك أن من القول المعروف أن يقول الرجل للمعتدة اجبسي عليّ نفسك فإن لي بك رغبة، فتقول هي وأنا مثل ذلك.

قال القاضي أبو محمد: وهذه عندي مواعدة، وإنما التعريض قول الرجل: إنكم لأكفاء كرام، وما قدر كان، وإنك لمعجبة، ونحو هذا.
قوله عز وجل:

وَلَا تَقْرَبُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجْلَهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾

عزم العقدة عقدها بالإشهاد والولي، وحينئذ تسمى ﴿عقدة﴾، وقوله تعالى: ﴿حتى يبلغ الكتاب أجله﴾ يريد تمام العدة، و﴿الكتاب﴾ هنا هو الحد الذي جعل والقدر الذي رسم من المدة، سماه كتاباً إذ قد حده وفرضه كتاب الله، كما قال: ﴿كتاب الله عليكم﴾ [النساء: ٢٤]، وكما قال: ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ [النساء: ١٠٣]، ولا يحتاج عندي في الكلام إلى حذف مضاف، وقد قدر أبو إسحاق في ذلك حذف مضاف أي فرض الكتاب، وهذا على أن جعل الكتاب القرآن، واختلف أهل العلم إن خالف أحد هذا النهي وعزم العقدة قبل بلوغ الأجل.

قال القاضي أبو محمد: وأنا أفصل المسألة إن شاء الله تعالى، أما إن عقد في العدة وعثر عليه ففسخ الحاكم نكاحه وذلك قبل الدخول: فقول عمر بن الخطاب وجماعة من العلماء إن ذلك لا يؤدي تحريماً، وقاله مالك وابن القاسم في المدونة في آخر الباب الذي يليه ضرب أجل امرأة المفقود، وقال الجميع: يكون خاطباً من الخطاب، وحكى ابن الجلاب عن مالك رواية أن التحريم يتأبد في العقد في العدة وإن فسخ قبل الدخول، وأما إن عقد في العدة ودخل بعد انقضائها فقال قوم من أهل العلم: ذلك كالدخول في العدة يتأبد التحريم بينهما، وقال قوم من أهل العلم: لا يتأبد بذلك تحريم، وقال مالك مرة: يتأبد التحريم، وقال مرة: وما التحريم بذلك بالبين، والقولان له في المدونة في طلاق السنة، وأما إن دخل في العدة فقول عمر بن الخطاب ومالك وجماعة من أصحابه والأوزاعي والليث وغيرهم من أهل العلم: إن التحريم يتأبد، وقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن مسعود وإبراهيم وأبي حنيفة والشافعي وجماعة من العلماء وعبد العزيز بن أبي سلمة: إن التحريم لا يتأبد وإن وطئ في العدة، بل يفسخ بينهما ثم تعتد منه ثم يكون خاطباً من الخطاب، قال أبو حنيفة والشافعي: تعتد من الأول فإذا انقضت العدة فلا بأس أن يتزوجها الآخر، وحكى ابن الجلاب رواية في المذهب أن التحريم لا يتأبد مع الدخول في العدة، ذكرها في العالم بالتحريم المجترى لأنه زان، وأما الجاهل فلا أعرف فيها خلافاً في المذهب.

حدثني أبو علي الحسين بن محمد الغساني منأولة، قال نا أبو عمر بن عبد البر، نا عبد الوارث بن سفيان، نا قاسم بن أصبغ، عن محمد بن إسماعيل، عن نعيم بن حماد، عن ابن المبارك، عن أشعث، عن الشعبي، عن مسروق، قال: بلغ عمر بن الخطاب أن امرأة من قريش تزوجها رجل من ثقيف في عدتها، فأرسل إليهما ففرق بينهما وعاقبهما، وقال: «لا تنكحها أبداً». وجعل صداقها في بيت المال، وفشا ذلك في الناس، فبلغ علياً فقال: «يرحم الله أمير المؤمنين، ما

بال الصداق وبيت المال؟ إنما جهلا فينبغي للإمام أن يردهما إلى السنة»، قيل: فما تقول أنت فيها؟ قال: لها الصداق بما استحل من فرجها، ويفرق بينهما، ولا حد عليهما، وتكمل عدتها من الأول، ثم تعتد من الثاني عدة كاملة ثلاثة أقراء، ثم يخطبها إن شاء»، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فخطب الناس فقال: «يا أيها الناس ردوا الجهالات إلى السنة»، وهذا قول الشافعي والليث في العدة من اثنتين، وقال مالك وأصحاب الرأي والأوزاعي والثوري: عدة واحدة تكفيهما جميعاً سواء كانت بالحمل أو بالإقراء أو بالأشهر، وروى المدنيون عن مالك مثل قول علي بن أبي طالب والشافعي في إكمال العدتين، واختلف قول مالك رحمه الله في الذي يدخل في العدة عالماً بالتحريم محترماً، فمرة قال: العالم والجاهل فيه سواء لا حد عليه، والصداق له لازم، والولد لاحق، ويعاقبان ولا يتناكحان أبداً، ومرة قال: العالم بالتحريم كالزاني يحد، ولا يلحق به الولد، وينكحها بعد الاستبراء، والقول الأول أشهر عن مالك رحمه الله.

وقوله تعالى ﴿واعلموا﴾ إلى آخر الآية: تحذير من الوقوع فيما نهى عنه، وتوقيف على غفره وحلمه في هذه الأحكام التي بين ووسّع فيها من إباحة التعريض ونحوه.
قوله عز وجل:

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ
وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدَرَهُ مَتَّعَاءً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾

هذا ابتداء إخبار برفع الجناح عن المطلق قبل البناء والجماع، فرض مهر أو لم يفرض، ولما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التزوج لمعنى الذوق وقضاء الشهوة وأمر بالتزوج طلباً للعصمة والتماس ثواب الله وقصد دوام الصحبة وقع في نفوس المؤمنين أن من طلق قبل البناء قد واقع جزءاً من هذا المكروه، فنزلت الآية رافعة للجناح في ذلك إذا كان أصل النكاح على المقصد الحسن، وقال قوم: ﴿لا جناح عليكم﴾ معناه لا طلب بجميع المهر بل عليكم نصف المفروض لمن فرض لها والمتعة لمن لم يفرض لها، وقال قوم: ﴿لا جناح عليكم﴾ معناه في أن ترسلوا الطلاق في وقت حيض بخلاف المدخول بها، وقال مكي: «المعنى لا جناح عليكم في الطلاق قبل البناء لأنه قد يقع الجناح على المطلق بعد أن كان قاصداً للذوق، وذلك مأمون قبل المسيس»، والخطاب بالآية لجميع الناس، وقرأ أبو عمرو وابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر «تمسوهن» بغير ألف، وقرأ الكسائي وحزمة «تماسوهن» بألف وضم التاء، وهذه القراءة الأخيرة تعطي المس من الزوجين، والقراءة الأولى تقتضي ذلك بالمعنى المفهوم من المس، ورجحها أبو علي لأن أفعال هذا المعنى جاءت ثلاثية على هذا الوزن: نكح وسفد وقرع وذقط وضرب الفحل، والقراءتان حستان، و﴿تفرضوا﴾ عطف على «تمسوا»، وفرض المهر إثباته وتحديده، وهذه الآية تعطي جواز العقد على التفويض لأنه نكاح مقرر في الآية مبين حكم الطلاق فيه، قاله مالك في المدونة، والفريضة الصداق، وقوله تعالى ﴿ومتعوهن﴾ معناه أعطوهن شيئاً يكون متاعاً لهن، وحمله ابن عمر وعلي بن أبي طالب والحسن بن أبي الحسن وسعيد بن جبير وأبو قلابة والزهري وقتادة والضحاك بن

مزاحم على الوجوب، وحمله أبو عبيد ومالك بن أنس وأصحابه وشريح وغيرهم على الندب، ثم اختلفوا في الضمير المتصل بـ «متعوا» من المراد به من النساء؟، فقال ابن عباس وابن عمر وعطاء وجابر بن زيد والحسن والشافعي وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأي: المتعة واجبة للمطلقة قبل البناء والفرص، ومندوبة في غيرها، وقال مالك وأصحابه: المتعة مندوب إليها في كل مطلقة وإن دخل بها إلا في التي لم يدخل بها وقد فرض لها، فحسبها ما فرض لها ولا متعة لها، وقال أبو ثور: لها المتعة ولكل مطلقة، وأجمع أهل العلم على أن التي لم يفرض لها ولم يدخل بها لا شيء لها غير المتعة، فقال الزهري: يقضي لها بها القاضي، وقال جمهور الناس: لا يقضي بها، قاله شريح، ويقال للزوج: إن كنت من المتقين والمحسنين فمتع ولم يقض عليه.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وهذا مع إطلاق لفظ الوجوب عند بعضهم، وأما ربط مذهب مالك فقال ابن شعبان: المتعة بإزاء غم الطلاق ولذلك ليس للمختلعة والمبارثة والملاعة متعة، وقال الترمذي وعطاء والنخعي: للمختلعة متعة، وقال أصحاب الرأي: للملاعة متعة، قال ابن القاسم: ولا متعة في نكاح مفسوخ، قال ابن المواز: ولا فيما يدخله الفسخ بعد صحة العقد مثل ملك أحد الزوجين صاحبه، وروى ابن وهب عن مالك أن المخيرة لها المتعة بخلاف الأمة تعتق تحت العبد فتختار، فهذه لا متعة لها، وأما الحرة تخير أو تملك أو يتزوج عليها أمة فتختار هي نفسها في ذاك كله فلها المتعة، لأن الزوج سبب الفراق، وعليها هي غضاضة في أن لا تختار نفسها.

واختلف الناس في مقدار المتعة، فقال ابن عمر: «أدنى ما يجزىء في المتعة ثلاثون درهماً أو شبهها»، وروي أن ابن حجرية كان يقضي على صاحب الديوان بثلاثة دنانير، وقال ابن عباس: «أرفع المتعة خادم ثم كسوة ثم نفقة»، وقال عطاء: «من أوسط ذلك درع وخمار وملحفة»، وقال الحسن: «يمتع كل على قدره: هذا بخادم، وهذا بأثواب، وهذا بثوب وهذا بنفقة»، وكذلك يقول مالك بن أنس، ومتع الحسن بن علي بعشرين ألفاً وزقاق من غسل، ومتع شريح بخمسمائة درهم، وقالت أم حميد بن عبد الرحمن بن عوف: «كأنني أنظر إلى خادم سوداء متع بها عبد الرحمن بن عوف زوجه أم أبي سلمة»، وقال أصحاب الرأي وغيرهم: متعة التي تطلق قبل الدخول والفرص نصف مهر مثلها لا غير، وقوله تعالى ﴿على الموسع قدره وعلى المقتر قدره﴾ دليل على رفض التحديد، وقرأ الجمهور «على الموسع» بسكون الواو وكسر السين بمعنى الذي أوسع أي اتسعت حاله، وقرأ أو حيوة: «الموسع» بفتح الواو وشد السين وفتحها، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر «قدره» بسكون الدال في الموضعين، وقرأ ابن عامر وحزمة والكسائي وعاصم في رواية حفص: «قدره» بفتح الدال فيهما، قال أبو الحسن الأخفش وغيره: هما بمعنى لغتان فصيحتان، وكذلك حكى أبو زيد، تقول: خذ قدر كذا وقدر كذا بمعنى، وقرأ في كتاب الله ﴿فسالت أودية بقدرها﴾ [الرعد: ١٧] وقدرها، وقال: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ [الأنعام: ٩١]، ولو حركت الدال لكان جائزاً، و﴿المقتر﴾: المقل القليل المال، و﴿متاعاً﴾ نصب على المصدر وقوله تعالى ﴿بالمعروف﴾ أي لا حمل فيه ولا تكلف على أحد الجانبين، فهو تأكيد لمعنى قوله ﴿على الموسع قدره وعلى المقتر قدره﴾، ثم أكد تعالى الندب بقوله ﴿حقاً على المحسنين﴾ أي في هذه

النازلة من التمتع هم محسنون، ومن قال بأن المتعة واجبة قال: هذا تأكيد الوجوب، أي على المحسنين بالإيمان والإسلام، فليس لأحد أن يقول لست بمحسن على هذا التأويل، و﴿حقاً﴾ صفة لقوله ﴿متاعاً﴾، أو نصب على المصدر وذلك أدخل في التأكيد للأمر.

قوله عز وجل:

وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

اختلف الناس في هذه الآية، فقالت فرقة فيها مالك وغيره: إنها مخرجة المطلقة بعد الفرض من حكم التمتع، إذ يتناولها قوله تعالى: ﴿ومتعوهن﴾، وقال ابن المسيب: نسخت هذه الآية التي في الأحزاب، لأن تلك تضمنت تمتع كل من لم يدخل بها. وقال قتادة: نسخت هذه الآية التي قبلها. وقال ابن القاسم في المدونة: كان المتاع لكل مطلقة بقوله تعالى ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف﴾ [البقرة: ٢٤١] ولغير المدخول بها بالآية التي في سورة الأحزاب، الآية: ٤٩ فاستثنى الله المفروض لها قبل الدخول بهذه الآية، وأثبت للمفروض لها نصف ما فرض فقط، وزعم زيد بن أسلم أنها منسوخة بهذه الآية، حكى ذلك في المدونة عن زيد بن أسلم زعماء، وقال ابن القاسم: إنه استثناء، والتحرير برد ذلك إلى النسخ الذي قال زيد، لأن ابن القاسم قال: إن قوله تعالى ﴿وللمطلقات متاع﴾ [البقرة: ٢٤١] عم الجميع، ثم استثنى الله منه هذه التي فرض لها قبل المسيس، وقال فريق من العلماء منهم أبو ثور: المتعة لكل مطلقة عموماً، وهذه الآية إنما بينت أن المفروض لها تأخذ نصف ما فرض، ولم تعن الآية لإسقاط تمتعها بل لها المتعة ونصف المفروض، وقرأ الجمهور «فنصف» بالرفع، والمعنى فالواجب نصف ما فرضتم، وقرأت فرقة «فنصف» بنصب الفاء، المعنى فادفعوا نصف، وقرأ علي بن أبي طالب وزيد بن ثابت «فنصف» بضم النون في جميع القرآن، وهي لغة، وكذلك روى الأصمعي قراءة عن أبي عمرو بن العلاء، وقوله تعالى ﴿إلا أن يعفون﴾ استثناء منقطع لأن عفوهن عن النصف ليس من جنس أخذهن، و﴿يعفون﴾ معناه يتركن ويصفحن، وزنه يفعلن، والمعنى إلا أن يتركن النصف الذي وجب لهن عند الزوج، والعافيات في هذه الآية كل امرأة تملك أمر نفسها. وقال ابن عباس وجماعة من الفقهاء والتابعين: ويجوز عفو البكر التي لا ولي لها، وحكاها سحنون في المدونة عن غير ابن القاسم بعد أن ذكر لابن القاسم أن وضعها نصف الصداق لا يجوز، وأما التي في حجر أب وصي فلا يجوز وضعها لنصف صداقها قولاً واحداً فيما أحفظ.

واختلف الناس في المراد بقوله تعالى ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ فقال ابن عباس وعلقمة وطاوس ومجاهد وشريح والحسن وإبراهيم والشعبي وأبو صالح وعكرمة والزهري ومالك وغيرهم: هو الولي الذي المرأة في حجره، فهو الأب في ابنته التي لم تملك أمرها، والسيد في أمته، وأما شريح فإنه

جوز عفو الأخ عن نصف المهر، وقال وأنا أعفو عن مهر بني مرة وإن كرهن، وكذلك قال عكرمة: يجوز عفو الذي عقد عقدة النكاح بينهما، كان عماً أو أختاً أو أباً وإن كرهت، وقالت فرقة من العلماء: الذي بيده عقدة النكاح الزوج، قاله علي بن أبي طالب وقاله ابن عباس أيضاً، وشريح أيضاً رجع إليه، وقاله سعيد ابن جبير وكثير من فقهاء الأمصار، فعلى القول الأول: النذب لهما هو في النصف الذي يجب للمرأة فإذا أن تعفو هي وإما أن يعفو وليها، وعلى القول الثاني: فالنذب في الجهتين إما أن تعفو هي عن نصفها فلا تأخذ من الزوج شيئاً، وإما أن يعفو الزوج عن النصف الذي يحيط فيؤدي جميع المهر، وهذا هو الفضل منهما، وبحسب حال الزوجين يحسن التحمل والتحمل، ويروى أن جبير بن مطعم دخل على سعد بن أبي وقاص فعرض عليه ابنة له فتزوجها، فلما خرج طلقها وبعث إليه بالصداق، فقيل له: لم تزوجتها؟، فقال: عرضها علي فكرهت رده، قيل: فلم تبعت بالصداق؟ قال: فأين الفضل؟

قال القاضي أبو محمد: ويحتج القائلون بأن الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج، بأن هذا الولي لا يجوز له ترك شيء من صداقها قبل الطلاق فلا فرق بعد الطلاق. وأيضاً فإنه لا يجوز له ترك شيء من مالها الذي ليس من الصداق فماله يترك نصف الصداق؟ وأيضاً فإنه إذا قيل إنه الولي فما الذي يخصص بعض الأولياء دون بعض وكلهم بيده عقدة النكاح وإن كان كافلاً أو وصياً أو الحاكم أو الرجل من العشيرة؟، ويحتج من يقول إنه الولي الحاجر بعبارة الآية، لأن قوله ﴿الذي بيده عقدة النكاح﴾ عبارة متمكنة في الولي، وهي في الزوج قلقة بعض القلق، وليس الأمر في ذلك كما قال الطبري ومكي من أن المطلق لا عقدة بيده بل نسبة العقدة إليه باقية من حيث كان عقدها قبل، وأيضاً فإن قوله ﴿إلا أن يعفون﴾ لا تدخل فيه من لا تملك أمرها لأنها لا عفو لها فكذلك لا يغيب النساء بعفو من يملك أمر التي لا تملك أمرها، وأيضاً فإن الآية إنما هي نذب إلى ترك شيء قد وجب في مال الزوج، يعطي ذلك لفظ العفو الذي هو الترك والاطراح وإعطاء الزوج المهر كاملاً لا يقال فيه عفو، إنما هو انتداب إلى فضل، اللهم إلا أن تقدر المرأة قد قبضته، وهذا طارٍ لا يعتد به، قال مكي: وأيضاً فقد ذكر الله الأزواج في قوله ﴿فنصف ما فرضتم﴾ ثم ذكر الزوجات بقوله ﴿يعفون﴾، فكيف يعبر عن الأزواج بعد بالذي بيده عقدة النكاح بل هي درجة ثالثة لم يبق لها إلا الولي.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وفي هذا نظر، وقرأ الجمهور «أو يعفو» بفتح الواو لأن الفعل منصوب، وقرأ الحسن بن أبي الحسن «أو يعفو الذي» بواو ساكنة، قال المهدوي: ذلك على التشبيه بالألف، ومنه قول عامر بن الطفيل: [الطويل]

فما سوّدتني عامر عن ورائتي أبى الله أن أسمو بأم ولا أب

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: والذي عندي أنه استثقل الفتحة على واو متطرفة قبلها متحرك لقلّة مجيئها في كلام العرب، وقد قال الخليل رحمه الله: لم يجيء في الكلام واو مفتوحة متطرفة قبلها فتحة إلا في قولهم عفوة وهو جمع عفو وهو ولد الحمار، وكذلك الحركة ما كانت قبل الواو المفتوحة فإنها ثقيلة، ثم خاطب تعالى الجميع نادياً بقوله ﴿وأن تعفو أقرب للتقوى﴾ أي يا جميع الناس، وهذه قراءة الجمهور بالتاء باثنتين من فوق، وقرأ أبو نهيك والشعبي «وأن يعفو» بالياء، وذلك راجع إلى

الذي بيده عقدة النكاح، وقرأ الجمهور «ولا تنسوا الفضل»، وقرأ علي بن أبي طالب ومجاهد وأبو حنيفة وابن أبي عتبة «ولا تناسوا الفضل»، وهي قراءة متمكنة المعنى لأنه موضع تناس لا نسيان إلا على التشبيه، وقوله تعالى ﴿ولا تنسوا الفضل﴾ ندب إلى المجاملة، قال مجاهد: الفضل إتمام الزوج الصداق كله أو ترك المرأة النصف الذي لها، وقوله ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾ خبر في ضمنه الوعد للمحسن والحرمان لغير المحسن.

قوله عز وجل:

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾

الخطاب لجميع الأمة، والآية أمر بالمحافظة على إقامة الصلوات في أوقاتها وبجميع شروطها، وذكر تعالى ﴿الصلاة الوسطى﴾ ثانية وقد دخلت قبل في عموم قوله ﴿الصلوات﴾ لأنه قصد تشريفها وإغراء المصلين بها، وقرأ أبو جعفر الرأسي «والصلاة الوسطى» بالنصب على الإغراء، وقرأ كذلك الحلواني.

واختلف الناس في أي صلاة هو هذا الوصف، فذهبت فرقة إلى أنها الصبح وأن لفظ ﴿وسطى﴾ يراد به الترتيب، لأنها قبلها صلاتا ليل يجهر فيهما، وبعدها صلاتا نهار يسر فيهما، قال هذا القول علي بن أبي طالب، وابن عباس، وصلى بالناس يوماً الصبح فقنت قبل الركوع فلما فرغ قال: «هذه الصلاة الوسطى التي أمرنا الله أن نقوم فيها قانتين»، وقاله أبو العالية ورواه عن جماعة من الصحابة، وقاله جابر بن عبد الله وعطاء بن أبي رباح وعكرمة ومجاهد وعبد الله بن شداد بن الهاد والربيع ومالك بن أنس. وقوى مالك ذلك بأن الصبح لا تجمع إلى غيرها، وصلاتا جمع قبلها وصلاتا جمع بعدها، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوأ»، وقال: «إنهما أشد الصلوات على المنافقين»، وفضل الصبح لأنها كقيام ليلة لمن شهدها والعتمة نصف ليلة، وقال الله تعالى ﴿إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ [الإسراء: ٧٨]، فيقوي هذا كله أمر الصبح.

وقالت فرقة: هي صلاة الظهر. قاله زيد بن ثابت ورفع فيه حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم. وقاله أبو سعيد الخدري وعبد الله بن عمر. واحتج قائلو هذه المقالة بأنها أول صلاة صليت في الإسلام، فهي وسطى بذلك، أي فضلى، فليس هذا التوسط في الترتيب، وأيضاً فروي أنها كانت أشق الصلوات على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لأنها كانت تجيء في الهاجرة، وهم قد نفعتهم أعمالهم في أموالهم، وأيضاً فبدل على ذلك ما قالت حفصة وعائشة حين أملت: حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر، فهذا اقتران الظهر والعصر.

وقالت فرقة: ﴿الصلاة الوسطى﴾ صلاة العصر لأنها قبلها صلاتا نهار وبعدها صلاتا ليل، وروي هذا القول أيضاً عن علي بن أبي طالب وابن عباس وأبي هريرة وابن عمر وأبي سعيد الخدري، وفي مصحف عائشة رضي الله عنها «والصلاة الوسطى وهي صلاة العصر»، وهو قولها المروي عنها. وقاله الحسن البصري وإبراهيم النخعي، وفي إملاء حفصة أيضاً «والصلاة الوسطى وهي صلاة العصر»، ومن روى

«وصلاة العصر» فيتناول أنه عطف إحدى الصفتين على الأخرى وهما لشيء واحد. كما تقول جاءني زيد الكريم والعاقل، وروي عن ابن عباس أنه قرأ «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر» على البدل، وروى هذا القول سمرة بن جندب عن النبي صلى الله عليه وسلم وتواتر الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يوم الأحزاب «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً»، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «كنا نرى أنها الصبح حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب: شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر. فعرفنا أنها العصر»، وقال البراء ابن عازب: «كنا نقرأ على عهد النبي صلى الله عليه وسلم: حافظوا على الصلوات وصلاة العصر. ثم نسخها الله، فقرأنا: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾. فقال له رجل: فهي العصر؟، قال: «قد أخبرتك كيف قرأناها وكيف نسخت»، والله أعلم. وروى أبو مالك الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الصلاة الوسطى صلاة العصر».

قال القاضي أبو محمد: وعلى هذا القول جمهور الناس وبه أقوال والله أعلم.

وقال قبيصة بن ذؤيب: «الصلاة الوسطى صلاة المغرب»، لأنها متوسطة في عدد الركعات ليست ثنائية ولا رباعية، وأيضاً فقبلها صلاتا سر وبعدها صلاتا جهر، وحكى أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر في شرح باب جامع الوقوت وغيره عن فرقة أن «الصلاة الوسطى» صلاة العشاء الآخرة، وذلك أنها تجيء في وقت نوم وهي أشد الصلوات على المنافقين، ويستحب تأخيرها وذلك شاق فوقع التأكيد في المحافظة عليها، وأيضاً فقبلها صلاتان وبعدها صلاتان.

وقالت فرقة: «الصلاة الوسطى» لم يعينها الله تعالى لنا، فهي في جملة الخمس غير معينة، كليلة القدر في ليالي العشر، فعَلَّ الله ذلك لتقع المحافظة على الجميع، قاله نافع عن ابن عمر وقاله الربيع بن خثيم. وقالت فرقة: «الصلاة الوسطى» هي صلاة الجمعة فإنها وسطى فضلى، لما خصت به من الجمع والخطبة وجعلت عيداً، ذكره ابن حبيب ومكي.

وقال بعض العلماء: «الصلاة الوسطى» المكتوبة الخمس، وقوله أولاً «على الصلوات» يعم النفل والفرض، ثم خص الفرض بالذكر، ويجري مع هذا التأويل قوله صلى الله عليه وسلم: «شغلونا عن الصلاة الوسطى».

وقوله تعالى «وقوموا لله قانتين» معناه في صلاتكم، واختلف الناس في معنى «قانتين»، فقال الشعبي: «معناه مطيعين»، وقاله جابر بن زيد وعطاء وسعيد بن جبير، وقال الضحاك: «كل قنوت في القرآن وإنما يعنى به الطاعة»، وقاله أبو سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم، وإن أهل كل دين فهم اليوم يقومون لله عاصمين، فقبل لهذه الأمة وقوموا لله مطيعين، وقال نحو هذا الحسن بن أبي الحسن وطاوس، وقال السدي: «قانتين معناه ساكتين»، وهذه الآية نزلت في المنع من الكلام في الصلاة وكان ذلك مباحاً في صدر الإسلام. وقال عبد الله بن مسعود: «كنا نتكلم في الصلاة ونرد السلام ويسأل الرجل صاحبه عن حاجته» قال: «ودخلت يوماً والنبي صلى الله عليه وسلم يصلي بالناس فسلمت فلم يرد عليّ أحد، فاشتد

ذلك عليّ، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إنه لم يمنعني أن أرد عليك إلا أنا أمرنا أن نقوم قانتين لا نتكلم في الصلاة»، والقنوت السكوت، وقاله زيد بن أرقم، وقال: «كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت: ﴿وقوموا لله قانتين﴾، فأمرنا بالسكوت»، وقال مجاهد: «معنى قانتين خاشعين، القنوت طول الركوع والخشوع وغض البصر وخفض الجناح».

قال القاضي أبو محمد: وإحضار الخشية والفكر في الوقوف بين يدي الله تعالى، وقال الربيع: «القنوت طول القيام وطول الركوع والانتصاب له»، وقال قوم: القنوت الدعاء، و﴿قانتين﴾ معناه داعين، روي معنى هذا عن ابن عباس، وفي الحديث: قنت رسول الله صلى الله عليه وسلم شهراً يدعو على رعل وذكوان، فقال قوم: معناه دعا، وقال قوم: معناه طَوَّلَ قيامه، ولا حجة في هذا الحديث لمعنى الدعاء. قوله عز وجل:

فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمْنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

أمر الله تعالى بالقيام له في الصلاة بحالة قنوت، وهو الوقار والسكينة وهدوء الجوارح، وهذا على الحالة الغالبة من الأمن والطمأنينة، ثم ذكر تعالى حالة الخوف الطارئة أحياناً، فرخص لعبده في الصلاة رجلاً متصرفين على الأقدام، و﴿ركبانا﴾ على الخيل والإبل، ونحوه إيماء وإشارة بالرأس حيث ما توجه، هذا قول جميع العلماء وهذه هي صلاة الفذ الذي قد ضايقه الخوف على نفسه في حال المسابقة أو من سبع يطلبه أو عدو يتبعه أو سيل يحمله، وبالجمل فكل أمر يخاف منه على روحه فهو مبيح ما تضمنته هذه الآية، وأما صلاة الخوف بالإمام وانقسام الناس فليس حكمها في هذه الآية، وفرق مالك رحمه الله بين خوف العدو والمقاتل وبين خوف السبع ونحوه بأن استحب في غير خوف العدو الإعادة في الوقت إن وقع الأمن، وأكثر فقهاء الأمصار على أن الأمر سواء، وقوله تعالى ﴿فرجالاً﴾ هو جمع راجل أو رجل من قولهم رجل الإنسان يرجل رجلاً إذا عدم المركب ومشى على قدميه فهو رجل ورجل ورجل بضم الجيم وهي لغة أهل الحجاز، يقولون مشى فلان إلى بيت الله حافياً رجلاً، حكاه الطبري وغيره ورجلان ورجيل، ورجل وأنشد ابن الأعرابي في «رجلان»: [الطويل]

عليّ إذا لاقيت ليلى بخلوة أن اذار بيت الله رجلاً حافياً

ويجمع على رجال ورجيلي ورجالي ورجالة ورجال ورجالي ورجلان ورجلة ورجلة ورجلة بفتح الجيم وأرجلة وأرجل وأرجيل، والرجل الذي هو اسم الجنس يجمع أيضاً على رجال، فهذه الآية وقوله تعالى: ﴿يأتوك رجالاً﴾ [الحج: ٢٧] هما من لفظ الرجل أي عدم المركب، وقوله تعالى ﴿شهداء من رجالكم﴾ [البقرة: ٢٨٢] فهو جمع اسم الجنس المعروف، وحكى المهدوي عن عكرمة وأبي مجلز أنهما قرأ «فرجالاً» بضم الراء وشد الجيم المفتوحة، وعن عكرمة أيضاً أنه قرأ «فرجالاً» بضم الراء وتخفيف الجيم، وحكى الطبري عن بعضهم أنه قرأ «فرجالاً» دون ألف على وزن فعل بضم الفاء وشد العين، وقرأ جمهور القراء «أوركبنا» وقرأ بديل بن ميسرة «فرجالاً فركبنا» بالفاء، والركبان جمع

راكب، وهذه الرخصة في ضمنها بإجماع من العلماء أن يكون الإنسان حيث ما توجه من السموت، ويتصرف بحسب نظره في نجاة نفسه. واختلف الناس كم يصلي من الركعات. فمالك رحمه الله وجماعة من العلماء لا يرون أن ينقص من عدد الركعات شيئاً، بل يصلي المسافر ركعتين ولا بد. وقال الحسن بن أبي الحسن وقتادة وغيرهما: يصلي ركعة إيماء. وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: «فرض الله الصلاة على لسان نبيكم في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين وفي الخوف ركعة». وقال الضحاك بن مزاحم: «يصلي صاحب خوف الموت في المسابقة وغيرها ركعة، فإن لم يقدر فليكبز تكبيرتين»، وقال إسحاق بن راهويه: «فإن لم يقدر إلا على تكبيرة واحدة أجزأت عنه»، ذكره ابن المنذر.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُمْتُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ﴾ الآية، فقالت فرقة: المعنى فإذا زال خوفكم الذي الجأكم إلى هذه الصلاة فادكروا الله بالشكر على هذه النعمة في تعليمكم هذه الصلاة التي وقع بها الإجزاء ولم تفتكم صلاة من الصلوات، وهذا هو الذي لم يكونوا يعلمونه، وقالت فرقة: المعنى فإذا كنتم آمنين قبل أو بعد، كأنه قال: فمتى كنتم على أمن فادكروا الله، أي صلوا الصلاة التي قد علمتموها، أي فصلوا كما علمكم صلاة تامة، حكاها النقاش وغيره.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وقوله على هذا التأويل ﴿ما لم تكونوا﴾ بدل من ﴿ما﴾ التي في قوله ﴿كما﴾، وإلا لم يتسق لفظ الآية، وعلى التأويل الأول ﴿ما﴾ مفعولة بـ ﴿علمكم﴾، وقال مجاهد: «معنى قوله ﴿فإذا أمتكم﴾، فإذا خرجتم من دار السفر إلى دار الإقامة»، ورد الطبري على هذا القول، وكذلك فيه تحويم على المعنى كثير، والكاف في قوله ﴿كما﴾ للتشبيه بين ذكر الإنسان لله ونعمة الله عليه في أن تعادلا، وكان الذكر شبيهاً بالنعمة في القدر وكفاء لها، ومن تأول ﴿ادكروا﴾ بمعنى صلوا على ما ذكرناه فالكاف للتشبيه بين صلاة العبد والهيئة التي علمه الله.

قوله عز وجل:

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لَّأَزْوَاجِهِمْ مَّتَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ
فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾

﴿الذين﴾ رفع بالابتداء، والخبر في الجملة التي هي «وصية لأزواجهم»، وقرأ ابن كثير ونافع والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر «وصية» بالرفع، وذلك على وجهين: أحدهما الابتداء والخبر في الظرف الذي هو قوله ﴿لأزواجهم﴾، ويحسن الابتداء بنكرة من حيث هو موضع تخصيص كما حسن أن يرتفع «سلام عليكم»، وخير بين يديك، وأمت في حجر لا فيك، لأنها مواضع دعاء، والوجه الآخر أن تضمر له خبراً تقدره، فعليهم وصية لأزواجهم، ويكون قوله ﴿لأزواجهم﴾ صفة. قال الطبري: «قال بعض النحاة: المعنى كتبت عليهم وصية»، قال: «وكذلك هي في قراءة عبد الله بن مسعود»، وقرأ أبو عمرو وحزمة وابن عامر «وصية» بالنصب، وذلك حمل على الفعل كأنه قال: ليوصوا وصية، و﴿لأزواجهم﴾

على هذه القراءة صفة أيضاً، قال هارون: «وفي حرف أبي بن كعب «وصية لأزواجهم متاعاً» بالرفع، وفي حرف ابن مسعود «الوصية لأزواجهم متاعاً»، وحكى الخفاف أن في حرف أبي «فمتاع لأزواجهم» بدل وصية.

ومعنى هذه الآية أن الرجل إذا مات كان لزوجته أن تقيم في منزله سنة وينفق عليها من ماله، وذلك وصية لها، واختلف العلماء ممن هي هذه الوصية، فقالت فرقة: كانت وصية من الله تعالى تجب بعد وفاة الزوج، قال قتادة: «كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها فلها السكنى والنفقة حولاً في مال زوجها ما لم تخرج برأيها، ثم نسخ ما في هذه الآية من النفقة بالربع أو بالثلث الذي في سورة النساء، ونسخ سكنى الحول بالأربعة الأشهر والعشر». وقال الربيع وابن عباس والضحاك وعطاء وابن زيد، وقالت فرقة: بل هذه الوصية هي من الزوج، كانوا ندبوا إلى أن يوصوا للزوجات بذلك فـ ﴿يتوفون﴾ على هذا القول معناه يقاربون الوفاة ويحتضرون، لأن الميت لا يوصي، قال هذا القول قتادة أيضاً والسدي. وعليه حمل الآية أبو علي الفارسي في الحجة، قال السدي: «إلا أن العدة كانت أربعة أشهر وعشراً، وكان الرجال يوصون بسكنى سنة ونفقتها ما لم تخرج. فلو خرجت بعد انقضاء العدة الأربعة الأشهر والعشر سقطت الوصية. ثم نسخ الله تعالى ذلك بنزول الفرائض. فأخذت ربعها أو ثمنها، ولم يكن لها سكنى ولا نفقة وصارت الوصايا لمن لا يرث، وقال الطبري عن مجاهد: «إن هذه الآية محكمة لا نسخ فيها، والعدة كانت قد ثبتت أربعة أشهر وعشراً، ثم جعل الله لهن وصية، منها سكنى سبعة أشهر وعشرين ليلة، فإن شاءت المرأة سكنت في وصيتها وإن شاءت خرجت، وهو قوله تعالى: ﴿غير إخراج، فإن خرجن فلا جناح عليكم﴾.

قال القاضي أبو محمد: وألفاظ مجاهد رحمه الله التي حكى عنها الطبري لا يلزم منها أن الآية محكمة، ولا نص مجاهد ذلك، بل يمكن أنه أراد ثم نسخ ذلك بعد بالميراث.

و﴿متاعاً﴾ نصب على المصدر، وكان هذا الأمر إلى الحول من حيث العام معلّم من معالم الزمان قد أخذ بحظ من الطول، وقوله تعالى: ﴿غير إخراج﴾ معناه ليس لأولياء الميت ووارثي المنزل إخراجها، و﴿غير﴾ نصب على المصدر عند الأخفش، كأنه قال: لا إخراجاً، وقيل: نصب على الحال من الموصين. وقيل: هي صفة لقوله ﴿متاعاً﴾، وقوله تعالى: ﴿فإن خرجن﴾ الآية، معناه أن الخروج إذا كان من تبيل الزوجة فلا جناح على أحد ولي أو حاكم أو غيره فيما فعلن في أنفسهن من تزويج وترك حداد وتزين إذا كان ذلك من المعروف الذي لا ينكر، وقوله تعالى: ﴿والله عزيز﴾ صفة تقتضي الوعيد بالنقمة لمن خالف الحد في هذه النازلة فأخرج المرأة وهي لا تريد الخروج. ﴿حكيم﴾ أي محكم لما يأمر به عباده، وهذا كله قد زال حكمه بالنسخ المتفق عليه إلا ما قوله الطبري مجاهداً رحمه الله، وفي ذلك نظر على الطبري رحمه الله.

قوله عز وجل:

وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

اختلف الناس في هذه الآية، فقال أبو ثور: «هي محكمة، والمتعة لكل مطلقة دخل بها أو لم

يدخل، فرض لها أو لم يفرض، بهذه الآية»، وقال الزهري: «لكل مطلقة متعة، وللأمة يطلقها زوجها». وقال سعيد بن جبير: «لكل مطلقة متعة». وقال ابن القاسم في إرخاء الستور من المدونة: «جعل الله تعالى المتاع لكل مطلقة بهذه الآية، ثم استثنى في الآية الأخرى التي قد فرض لها ولم يدخل بها فأخرجها من المتعة، وزعم زيد بن أسلم أنها نسختها».

قال القاضي أبو محمد: ففر ابن القاسم رحمه الله من لفظ النسخ إلى لفظ الاستثناء، والاستثناء لا يتجه في هذا الموضع، بل هو نسخ محض كما قال زيد بن أسلم. وإذا التزم ابن القاسم أن قوله ﴿وللمطلقات﴾ عم كل مطلقة لزمه القول بالنسخ ولا بد. وقال عطاء بن أبي رباح وغيره: هذه الآية في الثيب اللواتي قد جومعن إذ قد تقدم في غير هذه الآية ذكر المتعة للواتي لم يدخل بهن.

قال القاضي أبو محمد: فهذا قول بأن التي قد فرض لها قبل المسيس لم تدخل قط في هذا العموم. فهذا يجيء قوله على أن قوله تعالى: ﴿فإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن﴾ [البقرة: ٢٣٧] مخصصة لهذا الصنف من النساء، ومتى قيل إن العموم تناولها فذلك نسخ لا تخصيص، وقال ابن زيد: «هذه الآية نزلت مؤكدة لأمر المتعة، لأنه نزل قبل ﴿حقاً على المحسنين﴾ [البقرة: ٢٣٦] فقال رجل: فإن لم أرد أن أحسن لم أمتع، فنزلت: ﴿حقاً على المتقين﴾ فوجب ذلك عليهم».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: هذا الإيجاب هو من تقويل الطبري لا من لفظ ابن زيد.

وقوله تعالى: ﴿حقاً﴾ نصب على المصدر، و﴿المتقين﴾ هنا ظاهره أن المراد من تلبس بتقوى الله تعالى، والكاف في قوله ﴿كذلك﴾ للتشبيه، وذلك إشارة إلى هذا الشرع والتنوع الذي وقع في النساء وإلى إلزام المتعة لهن، أي كيان هذه القصة يبين سائر آياته، و﴿لعلكم﴾ ترج في حق البشر، أي من رأى هذا المبين له رجا أن يعقل ما يبين له.

قوله عز وجل:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾

هذه رؤية القلب بمعنى: ألم تعلم، والكلام عند سيبويه بمعنى تنبه إلى أمر الذين، ولا تحتاج هذه الرؤية إلى مفعولين، وقصة هؤلاء فيما قال الضحاك هي أنهم قوم من بني إسرائيل أمروا بالجهاد، فخافوا الموت بالقتل في الجهاد، فخرجوا من ديارهم فراراً من ذلك، فأماهم الله ليعرفهم أنه لا ينجيهم من الموت شيء، ثم أحياهم وأمرهم بالجهاد بقوله ﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾ [البقرة: ١٩٠ - ٢٤٤] الآية، وحكى قوم من اليهود لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أن جماعة من بني إسرائيل وقع فيهم الوباء، فخرجوا من ديارهم فراراً منه، فأماهم الله، فبنى عليهم سائر بني إسرائيل حائطاً، حتى إذا بليت عظامهم بعث الله حزقيل النبي عليه السلام، فدعا الله فأحياهم له، وقال السدي: «هم أمة كانت قبل واسط في قرية يقال لها

داوردان، وقع بها الطاعون فهربوا منه وهم بضعة وثلاثون ألفاً». في حديث طويل، ففيهم نزلت الآية. وقال إنهم فروا من الطاعون: الحسن وعمر بن دينار. وحكى النقاش أنهم فروا من الحمى. وحكى فيهم مجاهد أنهم لما أحيوا رجعوا إلى قومهم يعرفون. لكن سحنة الموت على وجوههم. ولا يلبس أحد منهم ثوباً إلا عاد كفناً دسماً حتى ماتوا لأجلهم التي كتبت لهم، وروى ابن جريج عن ابن عباس أنهم كانوا من بني إسرائيل، وأنهم كانوا أربعين ألفاً وثمانية آلاف، وأنهم أميتوا ثم أحيوا وبقيت الرائحة على ذلك السبط من بني إسرائيل إلى اليوم، فأمرهم الله بالجهاد ثانية فذلك قوله ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٠ - ٢٤٤].

قال القاضي أبو محمد: وهذا القصص كله لين الأسانيد، وإنما اللازم من الآية أن الله تعالى أخبر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أخباراً في عبارة التنبيه والتوقيف، عن قوم من البشر خرجوا من ديارهم فراراً من الموت، فأماهم الله تعالى ثم أحياهم، ليروا هم وكل من خلف بعدهم أن الإمامة إنما هي بيد الله لا بيد غيره، فلا معنى لخوف خائف ولا غترار مغتر، وجعل الله تعالى هذه الآية مقدمة بين يدي أمره المؤمنين من أمة محمد بالجهاد. هذا قول الطبري، وهو ظاهر رصف الآية، ولموردي القصص في هذه القصة زيادات اختصرتها لضعفها. واختلف الناس في لفظ ﴿ألوف﴾. فقال الجمهور: هي جمع ألف. وقال بعضهم: كانوا ثمانين ألفاً. وقال ابن عباس: «كانوا أربعين ألفاً». وقيل: كانوا ثلاثين ألفاً. وهذا كله يجري مع ﴿ألوف﴾ إذ هو جمع الكثير، وقال ابن عباس أيضاً: «كانوا ثمانية آلاف»، وقال أيضاً: أربعة آلاف، وهذا يضعفه لفظ ﴿ألوف﴾ لأنه جمع الكثير. وقال ابن زيد في لفظ ﴿ألوف﴾: «إنما معناها وهم مؤتلفون» أي لم تخرجهم فرقة قومهم ولا فتنة بينهم. إنما كانوا مؤتلفين، فخالفت هذه الفرقة فخرجت فراراً من الموت وابتغاء الحياة، فأماهم الله في مناجاهم بزعمهم.

وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مَاتُوا﴾ الآية، إنما هي مبالغة في العبارة عن فعله بهم. كأن ذلك الذي نزل بهم فعل من قيل له: مت، فمات، وحكي أن ملكين صاحبا بهم: مواتوا، فماتوا. فالمعنى قال لهم الله بواسطة الملكين. وهذا الموت ظاهر الآية، وما روي في قصصها أنه موت حقيقي فارقت فيه الأرواح الأجساد، وإذا كان ذلك فليس بموت آجالهم، بل جعله الله في هؤلاء كمرض حادث مما يحدث على البشر. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ الآية، تنبيه على فضل الله على هؤلاء القوم الذين تفضل عليهم بالنعم وأمرهم بالجهاد، وأمرهم بأن لا يجعلوا الحول والقوة إلا له، حسبما أمر جميع العالم بذلك، فلم يشكروا نعمته في جميع هذا، بل استبدوا وظنوا أن حولهم وسعيهم ينجيهم. وهذه الآية تحذير لسائر الناس من مثل هذا الفعل، أي فيجب أن يشكر الناس فضل الله في إيجاده لهم ورزقه إياهم وهدايته بالأوامر والنواهي، فيكون منهم الجري إلى امتثالها لا طلب الخروج عنها، وتخصيصه تعالى الأكثر دلالة على الأقل الشاكر.

قوله عز وجل:

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا

فِيضَعْفُهُ لَهٗ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْضِي وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

الواو في هذه الآية عاطفة جملة كلام على جملة ما تقدم، هذا قول الجمهور إن هذه الآية هي مخاطبة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم بالقتال في سبيل الله، وهو الذي ينوي به أن تكون كلمة الله هي العليا حسب الحديث، وقال ابن عباس والضحاك: الأمر بالقتال هو للذين أحيوا من بني إسرائيل، فالواو على هذا عاطفة على الأمر المتقدم، المعنى وقال لهم قاتلوا، قال الطبري رحمه الله: «ولا وجه لقول من قال إن الأمر بالقتال هو للذين أحيوا»، و﴿سميع﴾ معناه للأقوال، ﴿عليم﴾ بالنيات.

ثم قال تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله﴾ الآية، فدخل في ذلك المقاتل في سبيل الله فإنه يقرض رجاء الثواب، كما فعل عثمان رضي الله عنه في جيش العسرة، ويروى أن هذه الآية لما نزلت قال أبو الدحداح: «يا رسول الله أول إن الله يريد منا القرض؟» قال: «نعم، يا أبا الدحداح»، قال: «فإني قد أقرضت الله حائطي»: لحائط فيه ستمائة نخلة، ثم جاء الحائط وفيه أم الدحداح، فقال: اخرجني فإني قد أقرضت ربي حائطي هذا، قال: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «كم من عذق مذل لأبي الدحداح في الجنة».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: ويقال فيه ابن الدحداحة، واستدعاء القرض في هذه الآية إنما هو تأنيس وتقريب للناس بما يفهمونه من شبه القرض بالعمل للثواب، والله هو الغني الحميد، لكنه تعالى شبه عطاء المؤمن في الدنيا ما يرجو ثوابه في الآخرة بالقرض، كما شبه إعطاء النفوس والأموال في أخذ الجنة بالبيع والشراء، وقد ذهبت اليهود في مدة النبي صلى الله عليه وسلم إلى التخليط على المؤمنين بظاهر الاستقراض وقالوا إلهكم محتاج يستقرض، وهذا بين الفساد، وقوله ﴿حسناً﴾ معناه تطيب فيه النية، وشبه أيضاً أن تكون إشارة إلى كثرته وجودته، واختلف القراء في تشديد العين وتخفيفها ورفع الفاء ونصبها وإسقاط الألف وإثباتها من قوله تعالى: ﴿فِيضَاعَفْهُ﴾ فقرأ ابن كثير «فِيضَعْفُهُ» برفع الفاء من غير ألف وتشديد العين في جميع القرآن، وقرأ ابن عامر كذلك إلا أنه نصب الفاء في جميع القرآن، ووافقه عاصم على نصب الفاء إلا أنه أثبت الألف في «فِيضَاعَفْهُ» في جميع القرآن، وكان أبو عمرو لا يسقط الألف من ذلك كله إلا من سورة الأحزاب. قوله تعالى: ﴿يُضَعِفُ لَهَا الْعَذَابَ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، فإنه بغير ألف كان يقرأه، وقرأ حمزة والكسائي ونافع ذلك كله بالألف ورفع الفاء. فالرفع في الفاء يخرج على وجهين: أحدهما العطف على ما في الصلة. وهو يقرض، والآخر أن يستأنف الفعل ويقطعه، قال أبو علي: «والرفع في هذا الفعل أحسن».

قال القاضي أبو محمد: لأن النصب إنما هو بالفاء في جواب الاستفهام، وذلك إنما يترتب إذا كان الاستفهام عن نفس الفعل الأول ثم يجيء الثاني مخالفاً له. تقول: أنقرضني فأشكرك، وها هنا إنما الاستفهام عن الذي يقرض لا عن الإقراض، ولكن تحمل قراءة ابن عامر وعاصم في النصب على المعنى، لأنه لم يستفهم عن فاعل الإقراض إلا من أجل الإقراض، فكان الكلام أيقض أحد الله فيضاعفه له، ونظير هذا في الحمل على المعنى قراءة من قرأ ﴿من يضلل الله فلا هادي له ونذرهم﴾ [الأعراف: ١٧٩].

[١٨٦] بجزم ﴿نذرهم﴾، لما كان معنى قوله ﴿فلا هادي له﴾ [الأعراف: ١٨٦] فلا يهد وهذه الأضعاف الكثيرة هي إلى السبعمائة التي رويت ويعطيها مثال السنبلة، وقرأ ابن كثير ﴿يسط﴾ بالسين، ونافع بالصاد في المشهور عنه، وقال الحلواني عن قالون عن نافع: إنه لا ييالي كيف قرأ بسطة ويسط بالسين أو بالصاد، وروى أبو قرة عن نافع ﴿يسط﴾ بالسين، وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم طلب منه أن يسعر بسبب غلاء خيف على المدينة، فقال: «إن الله هو الباسط القابض، وإني لأرجو أن ألقى الله ولا يتبعني أحد بمظلمة في نفس ولا مال».

قوله عز وجل:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ أَهْبِثْ لَنَا مَلِكًا نَقْتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا

هذه الآية خبر عن قوم من بني إسرائيل نالتهم ذلة وغلبة عدو، فطلبوا الإذن في الجهاد وأن يؤمروا به، فلما أمروا كع أكثرهم وصبر الأقل، فنصرهم الله، وفي هذا كله مثال للمؤمنين يحذر المكروه منه ويقتدى بالحسن، و﴿الملاء﴾ في هذه الآية جميع القوم، لأن المعنى يقتضيه، وهذا هو أصل اللفظة. ويسمى الأشراف الملاء تشبيهاً، وقوله ﴿من بعد موسى﴾ معناه من بعد موته وانقضاء مدته، واختلف المتأولون في النبي الذي قيل له ﴿اهبث﴾، فقال ابن إسحاق وغيره عن وهب بن منبه: هو سمويل بن بلي. وقال السدي: هو شمعون وقال قتادة: هو يوشع بن نون.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وهذا قول ضعيف، لأن مدة داود هي بعد مدة موسى بقرون من الناس، ويوشع هو فتى موسى، وكانت بنو إسرائيل تغلب من حاربها، وروي أنها كانت تضع التابوت الذي فيه السكينة والبقية في مأزق الحرب، فلا تزال تغلب حتى عصوا وظهرت فيهم الأحداث. وخالف ملوكهم الأنبياء، واتبعوا الشهوات، وقد كان الله تعالى أقام أمورهم بأن يكون أنبيأؤهم يسدون ملوكهم، فلما فعلوا ما ذكرناه سلط الله عليهم أمماً من الكفرة فغلبوهم وأخذ لهم التابوت في بعض الحروب فذل أمرهم. وقال السدي: «كان الغالب لهم جالوت وهو من العمالقة، فلما رأوا أنه الاصطلام وذهاب الذكر أنف بعضهم وتكلموا في أمرهم. حتى اجتمع ملأهم على أن قالوا لنبي الوقت: ﴿اهبث لنا ملكاً﴾ الآية، وإنما طلبوا ملكاً يقوم بأمر القتال، وكانت المملكة في سبط من أسباط بني إسرائيل يقال لهم: «بنو يهوذا»، فعلم النبي بالوحي أنه ليس في بيت المملكة من يقوم بأمر الحرب، ويسر الله لذلك طالوت.

وقرأ جمهور الناس «نقاتل» بالنون وجزم اللام على جواب الأمر، وقرأ الضحاك وابن أبي عبيدة «يقاتل» بالياء ورفع الفعل، فهو في موضع الصفة للملك. وأراد النبي المذكور عليه السلام أن يتوكل منهم فوقهم على جهة التقرير وسبر ما عندهم بقوله ﴿هل عسيتم﴾ وقرأ نافع «عسيتم» بكسر العين في الموضعين، وفتح الباقون السين، قال أبو علي: «الأكثر فتح السين وهو المشهور»، ووجه الكسر قول

العرب هو عس بذلك مثل حر وشج، وقد جاء فعل وفعل في نحو نقم ونقم، فكذلك عسيت وعسيت، فإن أسند الفعل إلى ظاهر فقياس عسيتم أن يقال عسي زيد مثل رضي، فإن قيل فهو القياس، وإن لم يقل فسائق أن يأخذ باللغتين فيستعمل إحداهما في موضع الأخرى كما فعل ذلك في غيره، ومعنى هذه المقالة: هل أنتم قريب من التولي والفرار. إن كتب عليكم القتال؟.

قوله عز وجل:

قَالُوا وَمَالَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾

المعنى وأي شيء يجعلنا ألا نقاتل وقد وترنا وأخرجنا من ديارنا؟ وقالوا هذه المقالة وإن كان القاتل لم يخرج من حيث قد أخرج من هو مثله وفي حكمه، ثم أخبر الله تعالى عنهم أنهم لما فرض عليهم القتال ورأوا الحقيقة ورجعت أفكارهم إلى مباشرة الحرب تولوا، أي اضطربت نياتهم وفترت عزائمهم، وهذا شأن الأمم المتنعة المائلة إلى الدعة، تتمنى الحرب أوقات الأنفة، فإذا حضرت الحرب كعت وانقادت لطبعها، وعن هذا المعنى نهى النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاقبوا»، ثم أخبر الله تعالى عن قليل منهم أنهم ثبتوا على النية الأولى واستمرت عزيمتهم على القتال في سبيل الله، ثم تواعد الظالمين في لفظ الخبر الذي هو قوله ﴿والله عليم بالظالمين﴾، وقرأ أبي بن كعب «تولوا إلا أن يكون قليل منهم».

قوله عز وجل:

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ

قال وهب بن منبه: «إنه لما قال الملأ من بني إسرائيل لسمويل بن بالي ما قالوا، سأل الله تعالى أن يبعث لهم ملكاً ويدله عليه، فقال الله تعالى له: انظر إلى القرن الذي فيه الدهن في بيتك، فإذا دخل عليك رجل فنش الدهن الذي في القرن فهو ملك بني إسرائيل، فادهن رأسه منه وملكه عليهم، قال: وكان طالوت رجلاً دباغاً، وكان من سبط بنيامين بن يعقوب، وكان سبطاً لا نبوة فيه ولا ملك، فخرج طالوت في بغاء دابة له أضلها، فقصد سمويل عسى أن يدعوه في أمر الدابة أو يجد عنده فرجاً، فنش الدهن».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وهو دهن القدس فيما يزعمون، قال: فقام إليه سمويل فأخذه ودهن منه رأس طالوت، وقال له: أنت ملك بني إسرائيل الذي أمرني الله بتقديمه، ثم قال لبني إسرائيل «إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً»، و﴿طالوت﴾ اسم أعجمي معرب ولذلك لم يتصرف،

وقال السدي: «إن الله أرسل إلى شمعون عصاً وقال له: من دخل عليك من بني إسرائيل فكان على طول هذه العصا فهو ملكهم، فقيس بها بنو إسرائيل فكانت تطولهم حتى مر بهم طالوت في بغاء حمارة الذي كان يسقي عليه، وكان رجلاً سقاء، فدعوه فقاوسه بالعصا فكان مثلها، فقال لهم نبيهم ما قال، ثم إن بني إسرائيل تعنتوا وحادوا عن أمر الله تعالى، وجروا على سنتهم فقالوا: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمَلِكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمَلِكِ مِنْهُ﴾، أي لأنه ليس في بيت ملك ولا سبقت له فيه سابقة. ﴿وَلَمْ يَأْتِ﴾ مალأ واسعاً يجمع به نفوس الرجال حتى يغلب أهل الأنفة بماله.

قال القاضي أبو محمد: وترك القوم السبب الأقوى وهو قدر الله وقضاؤه السابق، وأنه مالك الملك، فاحتج عليهم نبيهم عليه السلام بالحجة القاطعة، وبيّن لهم مع ذلك تعليل اصطفاؤه طالوت، وأنه زاده بسطة في العلم وهو ملاك الإنسان، والجسم الذي هو معينه في الحرب وعدته عند اللقاء، قال ابن عباس: «كان في بني إسرائيل سبطان أحدهما للنبوّة والآخر للملك، فلا يبعث نبي إلا من الواحد ولا ملك إلا من الآخر، فلما بعث طالوت من غير ذلك قالوا مقاتلتهم»، قال مجاهد: معنى الملك في هذه الآية الإمرة على الجيش.

قال القاضي أبو محمد: ولكنهم قلقوا لأن من عادة من تولى الحرب وغلب أن يستمر ملكاً، و﴿اصطفى﴾ افتعل، مأخوذ من الصفوة، وقرأ نافع «بصطة» بالصاد، وقرأ أبو عمرو وابن كثير «بسطة» بالسين، والجمهور على أن العلم في هذه الآية يراد به العموم في المعارف، وقال بعض المتأولين: المراد علم الحرب، وأما جسمه فقال وهب بن منبه: إن أطول رجل في بني إسرائيل كان يبلغ منكب طالوت. قوله عز وجل:

وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ

لما علم نبيهم عليه السلام تعنتهم وجدالهم في الحجج تمم كلامه بالقطعي الذي لا اعتراض عليه، وهو قوله: ﴿والله يؤتي ملكه من يشاء﴾، وظاهر اللفظ أنه من قول النبي لهم، وقد ذهب بعض المتأولين إلى أنه من قول الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم، والأول أظهر، وأضيف ملك الدنيا إلى الله تعالى، إضافة مملوك إلى مالك، و﴿واسع﴾ معناه وسعت قدرته وعلمه كل شيء، وأما قول النبي لهم: ﴿إن آية ملكه﴾ فإن الطبري ذهب إلى أن بني إسرائيل تعنتوا وقالوا لنبيهم: وما آية ملك طالوت؟ وذلك على جهة سؤال الدلالة على صدقه في قوله إن الله قد بعث.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: ويحتمل أن نبيهم قال لهم ذلك على جهة التغييب والتنبية على هذه النعمة التي قرنها الله بملك طالوت وجعلها آية له دون أن تمن بني إسرائيل لتكذيب نبيهم، وهذا عندي أظهر من لفظ الآية، وتأويل الطبري أشبه بأخلاق بني إسرائيل الذميمة، فإنهم أهل تكذيب وتعنت واعوجاج، وقد حكى الطبري معناه عن ابن عباس وابن زيد والسدي.

واختلف المفسرون في كيفية إتيان ﴿التابوت﴾ وكيف كان بدء أمره، فقال وهب بن منبه: كان التابوت عند بني إسرائيل يغلبون به من قاتلهم حتى عصوا فغلبوا على التابوت، وصار التابوت عند القوم الذين غلبوا، فوضعوه في كنيسة لهم فيها أصنام، فكانت الأصنام تصبح منكسة، فجعلوه في قرية قوم فأصاب أولئك القوم أوجاع في أعناقهم، وقيل: جعل في مخرة قوم فكانوا يصيبهم الناسور، فلما عظم بلاؤهم كيف كان، قالوا: ما هذا إلا لهذا التابوت فلنرده إلى بلاد بني إسرائيل، فأخذوا عجلة فجعلوا التابوت عليها وربطوها ببقرتين فأرسلوهما في الأرض نحو بلاد بني إسرائيل، فبعث الله ملائكة تسوق البقرتين حتى دخلتا به على بني إسرائيل، وهم في أمر طالوت، فأيقنوا بالنصر. وهذا هو حمل الملائكة للتابوت في هذه الرواية. وقال قتادة والربيع: بل كان هذا التابوت مما تركه موسى عند يوشع بن نون، فجعله يوشع في البرية، ومرت عليه الدهور حتى جاء وقت طالوت. وكان أمر التابوت مشهوراً عندهم في تركه موسى، فجعل الله الإتيان به آية لملك طالوت، وبعث الله ملائكة حملته إلى بني إسرائيل، فيروى أنهم رأوا التابوت في الهواء يأتي حتى نزل بينهم، وروي أن الملائكة جاءت به تحمله حتى جعلته في دار طالوت، فاستوسقت بنو إسرائيل عند ذلك على طالوت، وقال وهب بن منبه: كان قدر التابوت نحواً من ثلاثة أذرع في ذراعين، وقرأ زيد بن ثابت «التابوه»، وهي لغته، والناس على قراءته بالتاء.

قال القاضي أبو محمد: وكثر الرواة في قصص التابوت وصورة حمله بما لم أر لإثباته وجهاً للين إسناده.

قوله عز وجل:

فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَعَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ
الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمۡ إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: السكينة ريح هفافة لها وجه كوجه الإنسان، وروي عنه أنه قال: هي ريح خجوج ولها رأسان، وقال مجاهد: السكينة لها رأس كراس الهرة وجناحان وذنب، وقال: أقبلت السكينة والصرد وجبريل مع إبراهيم من الشام. وقال وهب بن منبه عن بعض علماء بني إسرائيل: السكينة رأس هرة ميتة كانت إذا صرخت في التابوت بصراخ الهر أيقنوا بالنصر. وقال ابن عباس: السكينة طست من ذهب من الجنة كان يغسل فيه قلوب الأنبياء، وقاله السدي. وقال وهب بن منبه: السكينة روح من الله يتكلم إذا اختلفوا في شيء أخبرهم ببيان ما يريدون. وقال عطاء بن أبي رباح: السكينة ما يعرفون من الآيات فيسكنون إليها. وقال الربيع بن أنس: ﴿سكينة من ربكم﴾ أي رحمة من ربكم، وقال قتادة: ﴿سكينة من ربكم﴾ أي وقار لكم من ربكم.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: والصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم، فكانت النفوس تسكن إلى ذلك وتأنس به وتقوى، فالمعهود أن الله ينصر الحق والأمور الفاضلة عنده، والسكينة على هذا فعيلة مأخوذة من السكون، كما يقال عزم عزيمة وقطع قطيعة.

واختلف المفسرون في البقية ما هي؟ فقال ابن عباس: هي عصا موسى ورضاض الألواح، وقال الربيع: هي عصا موسى وأمور من التوراة. وقال عكرمة: هي التوراة والعصا ورضاض الألواح.

قال القاضي أبو محمد: ومعنى هذا ما روي من أن موسى عليه السلام لما جاء قومه بالألواح فوجدهم قد عبدوا العجل ألقى الألواح غضباً فتكسرت. فترع منها ما بقي صحيحاً وأخذ رضاض ما تكسر فجعل في التابوت. وقال أبو صالح: البقية عصا موسى وعصا هارون ولوحان من التوراة والمن. وقال عطية بن سعد: هي عصا موسى وعصا هارون وثيابهما ورضاض الألواح. وقال الثوري: من الناس من يقول البقية قفيز من رضاض الألواح. ومنهم من يقول: العصا والنعلان. وقال الضحّاك: البقية الجهاد وقتال الأعداء.

قال القاضي أبو محمد: أي الأمر بذلك في التابوت، إما أنه مكتوب فيه، وإما أن نفس الإتيان به هو كالأمر بذلك، وأسند الترك إلى آل موسى وهارون من حيث كان الأمر مندرجاً من قوم إلى قوم، وكلهم آل لموسى وهارون، وآل الرجل قرابته وأتباعه، وقال ابن عباس والسدي وابن زيد: حمل الملائكة هو سوقها التابوت دون شيء يحمله سواها حتى وضعته بين يدي بني إسرائيل وهم ينظرون إليه بين السماء والأرض، وقال وهب بن منبه والثوري عن بعض أشياخهم: حملها إياه هو سوقها الثورين أو البقرتين اللتين جرتا العجلة به، ثم قرر تعالى أن مجيء التابوت آية لهم إن كانوا ممن يؤمن ويصبر بعين حقيقة.

قوله عز وجل:

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ

قبل هذه الآية متروك من اللفظ يدل معنى ما ذكر عليه، وهو فاتفق بنو إسرائيل على طالوت ملكاً وأذعنوا وتهيؤوا لغزوهم عدوهم فلما فصل، و﴿فصل﴾ معناه خرج بهم من القطر، وفصل حال السفر من حال الإقامة، قال السدي وغيره: كانوا ثمانين ألفاً.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: ولا محالة أنهم كان فيهم المؤمن والمنافق والمجد والكسلان، وقال وهب بن منبه: لم يتخلف عنه إلا ذو عذر من صغر أو كبر أو مرض.

واختلف المفسرون في النهر، فقال وهب بن منبه: لما فصل طالوت قالوا له إن المياها لا تحملنا فادع الله يجر لنا نهراً، فقال لهم طالوت ﴿إن الله مبتليكم﴾ الآية، وقال قتادة: النهر الذي ابتلاههم الله به هو نهر بين الأردن وفلسطين، وقاله ابن عباس، وقال أيضاً هو والسدي: النهر نهر فلسطين، وقرأ جمهور القراء «بنهر» بفتح الهاء، وقرأ مجاهد وحמיד الأعرج وأبو السمال وغيرهم «بنهر» بإسكان الهاء في جميع القرآن، ومعنى هذا الابتلاء أنه اختبار لهم، فمن ظهرت طاعته في ترك الماء علم أنه يطيع فيما عدا ذلك، ومن غلب شهوته في الماء وعصى الأمر فهو بالعصيان في الشدائد أخرى، وروي أنهم أتوا النهر وهم قد نالهم عطش وهو في غاية العذوبة والحسن، ولذلك رخص للمطيعين في الغرقة ليرتفع عنهم أذى العطش بعض الارتفاع، وليكسروا نزاع النفس في هذه الحال إلى الاغتراف بالأيدي لنظافته وسهولته، وقد قال

علي بن أبي طالب رضي الله عنه : الأكف أنظف الآنية . ومنه قول الحسن رحمه الله : [البسيط].

لَا يَذْلِفُونَ إِلَى مَاءٍ بِأَنْيَةٍ إِلَّا اغْتَرَفًا مِنَ الْغُدْرَانِ بِالرَّاحِ

وظاهر قول طالوت ﴿إِنْ اللَّهُ مِثْلُكُمْ﴾ هو أن ذلك بوحى إلى النبي وإخبار من النبي لطالوت، ويحتمل أن يكون هذا مما ألهم الله طالوت إليه فجرب به جنده، وجعل الإلهام ابتلاء من الله لهم، وهذه النزعة واجب أن تقع من كل متولي حرب، فليس يحارب إلا بالجنود المطيع، ومنه قول معاوية : «علي في أخبث جند وأعصاه وأنا في أصح جند وأطوعه»، ومنه قول علي رضي الله عنه : «أفسدتم علي رأيي بالعصيان»، وبين أن الغرفة كافة ضرر العطش عند الحزمة الصابرين على شطف العيش الذين همهم في غير الرفاهية، كما قال عروة : [الطويل]

وَأَحْسَوْا قَرَاخَ الْمَاءِ وَالْمَاءُ بَارِدٌ

فيشبه أن طالوت أراد تجربة القوم، وقد ذهب قوم إلى أن عبد الله بن حذافة السهمي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما أمر أصحابه بإيقاد النار والدخول فيها تجربة لطاعتهم، لكنه حملة مزاحه على تخشين الأمر الذي كلفهم .

وقوله : ﴿فليس مني﴾ أي ليس من أصحابي في هذه الحرب، ولم يخرجهم بذلك عن الإيمان، ومثل هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم : «من غشنا فليس منا، ومن رمانا بالنبل فليس منا، وليس منا من شق الجيوب ولطم الخدود»، وفي قوله تعالى : ﴿ومن لم يطعمه﴾ سد للذرائع لأن أدنى الذوق يدخل في لفظ الطعم، فإذا وقع النهي عن الطعم فلا سبيل إلى وقوع الشرب ممن يتجنب الطعم . ولهذه المبالغات لم يأت الكلام، ومن لم يشرب منه . وقرأ أبو عمرو ونافع وابن كثير «غرفة» بفتح الغين . وهذا على تعدية الفعل إلى المصدر . والمفعول محذوف، والمعنى إلا من اغترف ماء غرفة، وقرأ الباقر «غرفة» بضم الغين وهذا على تعدية الفعل إلى المفعول به، لأن الغرفة هي العين المغترفة . فهذا بمنزلة إلا من اغترف ماء، وكان أبو علي يرجح ضم الغين، ورجحه الطبري أيضاً من جهة أن «غرفة» بالفتح إنما هو مصدر على غير اغتراف، ثم أخبر تعالى عنهم أن الأكثر شرب وخالف ما أريد منه، وروي عن ابن عباس وقتادة وغيرهما أن القوم شربوا على قدر يقينهم . فشرب الكفار شرب الهيم، وشرب العاصون دون ذلك، وانصرف من القوم ستة وسبعون ألفاً، وبقي بعض المؤمنين لم يشرب شيئاً، وأخذ بعضهم الغرفة، فأما من شرب فلم يرو، بل برّح به العطش، وأما من ترك الماء فحسنت حاله وكان أجلد ممن أخذ الغرفة .

قوله عز وجل :

فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ ۖ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ ۖ يَآذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾

«جاوز» فاعل من جاز يجوز . وهي مفاعلة من اثنين في كل موضع . لأن النهر وما أشبهه كأنه

يجاوز. واختلف الناس في ﴿الذين آمنوا معه﴾ كم كانوا؟ فقال البراء بن عازب: كنا نتحدث أن عدة أهل بدر كعدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، وفي رواية: وثلاثة عشر رجلاً، وما جاوز معه إلا مؤمن، وقال قتادة: ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوم بدر: «أنتم كعدة أصحاب طالوت»، وقال السدي وابن عباس: بل جاوز معه أربعة آلاف رجل، قال ابن عباس: فيهم من شرب، قالوا: فلما نظروا إلى جالوت وجنوده قالوا: لا طاقة لنا اليوم، ورجع منهم ثلاثة آلاف وستمائة وبضعة وثمانون، هذا نص قول السدي ومعنى قول ابن عباس، فعلى القول الأول قالت الجملة: ﴿لا طاقة لنا اليوم﴾، على جهة استكثار العدو. فقال أهل الصلابة منهم والتصميم والاستماتة: ﴿كم من فئة قليلة﴾ الآية، وظن لقاء الله على هذا القول يحسن أن يكون ظناً على بابه، أي يظنون أنهم يستشهدون في ذلك اليوم لعزمهم على صدق القتال، كما جرى لعبد الله بن حرام في يوم أحد، ولغيره، وعلى القول الثاني قال كثير من الأربعة الآلاف: لا طاقة لنا على جهة الفشل والفرع من الموت، وانصرفوا عن طالوت، فقال المؤمنون الموقنون بالبعث والرجوع إلى الله وهم عدة أهل بدر: ﴿كم من فئة قليلة﴾ والظن على هذا بمعنى اليقين، وهو فيما لم يقع بعد ولا خرج إلى الحس.

قال القاضي أبو محمد: وما روي عن ابن عباس من أن في الأربعة الآلاف من شرب يرد عليه قوله تعالى: ﴿هو والذين آمنوا معه﴾، وأكثر المفسرين على أنه إنما جاوز النهر من لم يشرب إلا غرفة ومن لم يشرب جملة، ثم كانت بصائر هؤلاء مختلفة، فبعض كع وقليل صمم، وقرأ أبي بن كعب «كأين من فئة»، والفئة الجماعة التي يرجع إليها في الشدائد، من قولهم: فاء يفيء إذا رجع، وقد يكون الرجل الواحد فئة تشبيهاً، والملك فئة الناس، والجبل فئة، والحصن، كل ذلك تشبيه، وفي قولهم رضي الله عنهم: ﴿كم من فئة﴾ الآية، تحريض بالمثال وحض واستشعار للصبر، واقتداء بمن صدق ربه، ﴿وإذن الله﴾ هنا تمكينه وعلمه، فمجموع ذلك هو الإذن، ﴿والله مع الصابرين﴾ بنصره وتأييده.

قوله عز وجل:

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا
وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ
وَأَتَتْهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ

﴿برزوا﴾ معناه: صاروا في البراز وهو الأفح من الأرض المتسع، و«جالوت» اسم أعجمي معرب، والإفراغ أعظم الصب، كأنه يتضمن عموم المفرغ عليه، والهزم أصله أن يضرب الشيء فيدخل بعضه في بعض، وكذلك الجيش الذي يرد يركب رده، ثم قيل في معنى الغلبة: هزم، وكان جالوت أمير العمالقة وملوكهم، وكان فيما روي في ثلاثمائة ألف فارس.

وروي في قصة داود وقته جالوت، أن أصحاب طالوت كان فيهم إخوة داود وهم بنو إيشى، وكان داود صغيراً يرعى غنماً لأبيه، فلما حضرت الحرب قال في نفسه: لأذهبن لرؤية هذه الحرب، فلما نهض

مر في طريقه بحجر فناداه: يا داود، خذني في تقتل جالوت، ثم ناداه حجر آخر، ثم آخر، ثم آخر فأخذهها وجعلها في مخلاته وسار، فلما حضر الناس، خرج جالوت يطلب مبارزاً فكع الناس عنه حتى قال طالوت: من يبرز له ويقتله فأنا أزوجه بنتي وأحكمه في مالي، فجاء داود، فقال: أنا أبرز له وأقتله، فقال له طالوت: فاركب فرسي، وخذ سلاحي، ففعل، وخرج في أحسن شكة فلما مشى قليلاً رجع. فقال الناس: جبن الفتى، فقال داود: إن الله إن لم يقتله لي ويعني عليه لم ينفعني هذا الفرس ولا هذا السلاح، ولكني أحب أن أقاتله على عادتي.

قال: وكان داود من أرمى الناس بالمقلاع، فنزل وأخذ مخلاته فتقلدها وأخذ مقلاعه، وخرج إلى جالوت وهو شاك في سلاحه، فقال له جالوت: أنت يا فتى تخرج إليّ، قال: نعم. قال: هكذا كما يخرج إلى الكلب. قال: نعم وأنت أهون. قال: لأطعمن اليوم لحكم الطير والسباع، ثم تدانيا فأدار داود مقلاعه، وأدخل يده إلى الحجارة فروي أنها الثأمت فصارت حجراً واحداً فأخذه فوضعه في المقلاع وسمى الله وأداره ورماه فأصاب به رأس جالوت فقتله، وحز رأسه وجعله في مخلاته واختلط الناس وحمل أصحاب طالوت وكانت الهزيمة، ثم إن داود جاء يطلب شرطه من طالوت، فقال له: إن بنات الملوك لهن غرائب من المهر، ولا بد لك من قتل مائتين من هؤلاء الجراجمة الذين يؤذون الناس، وتجيئني بغلفهم وطمع طالوت أن يعرض داود للقتل بهذه النزعة فقتل داود منهم مائتين، وجاء بذلك وطلب امرأته فدفعها إليه طالوت، وعظم أمر داود، فيروى أن طالوت تخلى له عن الملك وصار هو الملك، ويروى أن بني إسرائيل غلبت طالوت على ذلك بسبب أن داود قتل جالوت، وكان سبب الفتح، وروي أن طالوت أخاف داود حتى هرب منه فكان في جبل إلى أن مات طالوت فذهبت بنو إسرائيل إلى داود فملكته أمرها، وروي أن نبي الله سمویل أوحى الله إليه أن يذهب إلى إيشى ويسأله أن يعرض عليه بنيه فيدخن الذي يشار إليه بدخن القدس ويجعله ملك بني إسرائيل. والله أعلم أي ذلك كان، غير أنه يقطع من ألفاظ الآية على أن داود صار ملك بني إسرائيل. وقد روي في صدر هذه القصة: أن داود كان يسير في مطبخة طالوت ثم كلمه حجر فأخذه فكان ذلك سبب قتله جالوت ومملكته، وقد أكثر الناس في قصص هذه الآية، وذلك كله لين الأسانيد، فلذلك انتقيت منه ما تنفك به الآية وتعلم به مناقل النازلة واختصرت سائر ذلك، وأما الحكمة التي آتاه الله فهي النبوة والزبور وقال السدي: آتاه الله ملك طالوت ونبوة شمعون والذي علمه هي صنعة الدروع ومنطق الطير وغير ذلك من أنواع علمه صلى الله عليه وسلم.

قوله عز وجل:

وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لولا دفعه بالمؤمنين في صدور الكفرة على مر الدهر لفست

الأرض»، لأن الكفر كان يطبقها ويتمادى في جميع أقطارها، ولكنه تعالى لا يخلي الزمان من قائم بحق، وداع إلى الله ومقاتل عليه، إلى أن جعل ذلك في أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة، له الحمد كثيراً. قال مكي: وأكثر المفسرين على أن المعنى لولا أن الله يدفع بمن يصلي عمن لا يصلي وبمن يتقي عمن لا يتقي لأهلك الناس بذنوبهم.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وليس هذا معنى الآية ولا هي منه في ورد ولا صدر، والحديث الذي رواه ابن عمر صحيح، وما ذكر مكي من احتجاج ابن عمر عليه بالآية لا يصح عندي لأن ابن عمر من الفصحاء، وقرأ أبو عمرو وابن كثير: ﴿ولولا دفع الله﴾، وفي الحج ﴿إن الله يدفع﴾ [الآية: ٣٨]، وقرأ نافع: ﴿ولولا دفاع الله﴾، ﴿وإن الله يدافع﴾، وقرأ الباقون ﴿ولولا دفع الله﴾. وإن الله يدافع ففرقوا بينهما، والدفاع يحتمل أن يكون مصدر دفع ككتب كتاباً ولقي لقاء، ويحتمل أن يكون مصدر دافع كقاتل قتلاً، والإشارة بتلك إلى ما سلف من القصص والأنباء، وفي هذه القصة بجملتها مثال عظيم للمؤمنين ومعبر، وقد كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم معدين لحرب الكفار، فلهم في هذه النازلة معتبر يقتضي تقوية النفوس والثقة بالله وغير ذلك من وجوه العبرة.

قوله عز وجل:

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ

﴿تلك﴾ رفع بالابتداء، و﴿الرسول﴾ خبره، ويجوز أن يكون ﴿الرسول﴾ عطف بيان و﴿فضلنا﴾ الخبر، و﴿تلك﴾ إشارة إلى جماعة مؤنثة اللفظ، ونص الله في هذه الآية على تفضيل بعض الأنبياء على بعض وذلك في الجملة دون تعيين مفضل. وهكذا هي الأحاديث عن النبي عليه السلام. فإنه قال: «أنا سيد ولد آدم»، وقال: «لا تفضلوني على موسى»، وقال: «لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»، وفي هذا نهى شديد عن تعيين المفضل، لأن يونس عليه السلام كان شاباً وتفسخ تحت أعباء النبوة، فإذا كان هذا التوقف فيه لمحمد وإبراهيم ونوح فغيره أخرى، فربط الباب أن التفضيل فيهم على غير تعيين المفضل، وقد قال أبو هريرة: خير ولد آدم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وهم أولو العزم والمكلم موسى صلى الله عليه وسلم.

وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آدم أنبي مرسل هو؟ فقال نعم نبي مكلم، وقد تأول بعض الناس أن تكليم آدم كان في الجنة، فعلى هذا تبقى خاصة موسى، وقوله تعالى: ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ قال مجاهد وغيره: هي إشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم، لأنه بعث إلى الناس كافة وأعطى الخمس التي لم يعطها أحد قبله، وهو أعظم الناس أمة، وختم الله به النبوات إلى غير ذلك من الخلق العظيم الذي أعطاه الله، ومن معجزاته وباهر آياته، ويحتمل اللفظ أن يراد به محمد وغيره ممن عظمت آياته ويكون الكلام تأكيداً للأول، ويحتمل أن يريد رفع إدريس المكان العلي ومراتب الأنبياء في السماء فتكون

الدرجات في المسافة ويبقى التفضيل مذكوراً في صدر الآية فقط، وبينات عيسى عليه السلام هي إحياء الموتى، وإبراء الأكهم والأبرص، وخلق الطير من الطين، و«روح القدس» جبريل عليه السلام، وقد تقدم ما قال العلماء فيه.

قوله عز وجل:

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْتُمْ وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾

ظاهر اللفظ في قولهم: من بعدهم يعطي أنه أراد القوم الذين جاؤوا من بعد جميع الرسل، وليس كذلك المعنى، بل المراد ما اقتل الناس بعد كل نبي فلف الكلام لفاً يفهمه السامع، وهذا كما تقول: اشتريت خيلاً، ثم بعته، فجائزة لك هذه العبارة وأنت اشتريت فرساً ثم بعته، ثم آخر وبعته، ثم آخر وبعته، وكذلك هذه النوازل إنما اختلف الناس بعد كل نبي فمنهم من آمن ومنهم من كفر بغياً وحسداً، وعلى حطام الدنيا، وذلك كله بقضاء وقدر وإرادة من الله تعالى، ولو شاء خلاف ذلك لكان. ولكنه المستأثر بسر الحكمة في ذلك. الفعال لما يريد، فاقتتلوا بأن قاتل المؤمنون الكافرين على مر الدهر. وذلك هو دفع الله الناس بعضهم ببعض.

قوله عز وجل:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾

قال ابن جريج: هذه الآية تجمع الزكاة والتطوع، وهذا كلام صحيح فالزكاة واجبة والتطوع مندوب إليه، وظاهر هذه الآية أنها مراد بها جميع وجوه البر من سبيل وصلة رحم، ولكن ما تقدم من الآيات في ذكر القتال وأن الله يدفع بالمؤمنين في صدور الكافرين، يترجح منه أن هذا النذب إنما هو في سبيل الله، ويقوي ذلك قوله في آخر الآية: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، أي فكافحهم بالقتال بالأنفس وإنفاق الأموال، ونذب الله تعالى بهذه الآية، إلى إنفاق شيء مما أنعم به وهذه غاية التفضل فعلاً وقولاً، وحذر تعالى من الإمساك، إلى أن يجيء يوم لا يمكن فيه بيع ولا شراء ولا استدراك بنفقة في ذات الله، إذ هي مبايعة على ما قد فسرناه في قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله﴾ [البقرة: ٢٤٥]، أو إذ البيع فدية لأن المرء قد يشتري نفسه ومراده بماله، وكان معنى الآية معنى سائر الآي التي تتضمن إلا فدية يوم القيامة.

وأخبر الله تعالى بعدم الخلّة يوم القيامة، والمعنى: خلّة نافعة تقتضي المساهمة، كما كانت في الدنيا، وأهل التقوى بينهم في ذلك اليوم خلّة ولكنها غير محتاج إليها. وخلّة غيرهم لا تغني من الله شيئاً. وأخبر تعالى أن الشفاعة أيضاً معدومة في ذلك اليوم، فحمل الطبري ذلك على عموم اللفظ وخصوص المعنى، وأن المراد ﴿ولا شفاعة﴾ للكفار. وهذا لا يحتاج إليه. بل الشفاعة المعروفة في الدنيا وهي

انتداب الشافع وتحكمه على كره المشفوع عنده مرتفعة يوم القيامة البتة. وإنما توجد شفاعة بإذن الله تعالى. فحقيقتها رحمة من الله تعالى. لكنه شرف الذي أذن له في أن يشفع، وإنما المعدوم مثل حال الدنيا من البيع والخلة والشفاعة. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «لا يَبِّعُ فِيهِ وَلَا خَلَّةَ وَلَا شَفَاعَةَ» بالنصب في كل ذلك بلا تنوين، وكذلك في سورة إبراهيم ﴿لَا يَبِّعُ فِيهِ وَلَا خَلَالٌ﴾ [الآية: ٣١]، وفي الطور: ﴿لَا لُغُوفُ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ﴾ [الآية: ٢٣]، وقرأ الباقون جميع ذلك بالرفع والتنوين، و﴿الظالمون﴾ واضعو الشيء في غير موضعه. وقال عطاء بن دينار: الحمد لله الذي قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ولم يقل: الظالمون هم الكافرون.

قوله عز وجل:

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ

هذه سيدة آي القرآن، ورد ذلك في الحديث وورد أنها تعدل ثلث القرآن، وورد أن من قرأها أول ليله لم يقربه شيطان، وكذلك من قرأها أول نهاره. وهذه متضمنة التوحيد والصفات العلى، و﴿الله﴾ مبتدأ، و﴿لا إله إلا﴾ مبتدأ ثانٍ، وخبره محذوف تقديره معبود أو موجود، و﴿إلا﴾ هو بديل من موضع ﴿لا إله﴾، و﴿الحي﴾ صفة من صفات الله تعالى ذاتية، وذكر الطبري، عن قوم أنهم قالوا: الله تعالى حي لا بحية. وهذا قول المعتزلة وهو قول مرغوب عنه، وحكي عن قوم أنه حي بحية هي صفة له، وحكي عن قوم أنه يقال حي كما وصف نفسه، ويسلم ذلك دون أن ينظر فيه، و﴿القيوم﴾ فيعمل من القيام أصله قيووم اجتمعت الياء والواو وسبقت إحداهما بالسكون فأدغمت الأولى في الثانية بعد قلب الواو ياء، وقيوم بناء مبالغة أي: هو القائم على كل أمر بما يجب له، وبهذا المعنى فسر مجاهد والربيع والضحاك، وقرأ ابن مسعود وعلقمة وإبراهيم النخعي والأعمش: «الحي القيام» بالالف ثم نفى عز وجل أن تأخذه ﴿سنة﴾ أو ﴿نوم﴾، وفي لفظ الأخذ غلبة ما، فلذلك حسنت في هذا الموضع بالنفي، والسنة بدء النعاس، وهو فتور يعتري الإنسان وترنيق في عينيه، وليس يفقد معه كل ذهنه، والنوم هو المستقل الذي يزول معه الذهن، والمراد بهذه الآية أن الله تعالى لا تدركه آفة ولا يلحقه خلل بحال من الأحوال، فجعلت هذه مثلاً لذلك وأقيم هذا المذكور من الآفات مقام الجميع، وهذا هو مفهوم الخطاب كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَف﴾ [الإسراء: ٢٣]، ومما يفرق بين الوسن والنوم قول عدي بن الرقاع: [الكامل]

وَسَنَانٌ أَقْصَدُهُ النُّعَاسُ فَرَنْقَتْ فِي عَيْنِهِ سِنَّةٌ وَلَيْسَ بِنَائِمٍ

وبهذا المعنى في السنة فسر الضحاك والسدي، وقال ابن عباس وغيره: السنة النعاس، وقال ابن زيد: الوसन، الذي يقوم من النوم وهو لا يعقل حتى ربما جرد السيف على أهله.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وهذا الذي قال ابن زيد فيه نظر وليس ذلك بمفهوم من كلام العرب، وروى أبو هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي عن موسى على

المنبر قال: «وقع في نفس موسى هل ينام الله جل ثناؤه؟ فأرسل الله إليه ملكاً فأرقه ثلاثاً ثم أعطاه قارورتين في كل يد قارورة وأمره أن يحتفظ بهما، قال: فجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان، ثم يستيقظ فيحبس إحداهما عن الأخرى حتى نام نومة فاصطفقت فانكسرت القارورتان» قال: ضرب الله مثلاً أن لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض، وقوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي بالملك. فهو مالك الجميع وربّه، وجاءت العبارة بـ ﴿مَا﴾ وإن كان في الجملة من يعقل من حيث المراد الجملة والموجود، ثم قرر ووقف تعالى على من يتعاطى أن ﴿يشفع عنده﴾ أو يتعاطى ذلك فيه إلا أن يأذن هو في ذلك لا إله إلا هو وقال الطبري: هذه الآية نزلت لما قال الكفار: ما نعبد أو ثأناً هذه إلا ليقربونا إلى الله زلفى، فقال الله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية وتقرر في هذه الآية أن الله يأذن لمن يشاء في الشفاعة وهنا هم الأنبياء والعلماء وغيرهم، والإذن هنا راجع إلى الأمر فيما نص عليه، كمحمد صلى الله عليه وسلم إذا قيل له: واشفع تشفع وإلى العلم والتمكين إن شفع أحد من الأنبياء والعلماء قبل أن يؤمر، والذي يظهر أن العلماء والصالحين يشفعون فيمن لم يصل إلى النار، وهو بين المنزلتين أو وصل ولكن له أعمال صالحة. وفي البخاري، في باب بقية من باب الرؤية، أن المؤمنين يقولون: ربنا إخواننا كانوا يصلون معنا ويصومون معنا ويعملون معنا، فهذه شفاعة فيمن يقرب أمره، وكما يشفع الطفل المحبب على باب الجنة الحديث، وهذا إنما هو في قرابتهم ومعارفهم وأن الأنبياء يشفعون فيمن حصل في النار من عصاة أمهم بذنوب دون قربي ولا معرفة إلا بنفس الإيمان ثم تبقى شفاعة أرحم الراحمين في المستغفرين بالذنوب الذين لم تنلهم شفاعة الأنبياء.

وأما شفاعة محمد في تعجيل الحساب فخاصة له، وهي الخامسة التي في قوله: «وأعطيت الشفاعة» وهي عامة للناس، والقصد منها إراحة المؤمنين، ويتعجل للكفار منها المصير إلى العذاب، وكذلك إنما يطلبها إلى الأنبياء المؤمنون، والضميران في قوله: ﴿أَيُدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ عائدان على كل من يعقل ممن تضمنه قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، وقال مجاهد ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ الدنيا ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الآخرة، وهذا صحيح في نفسه عند موت الإنسان، لأن ما بين اليد هو كل ما تقدم الإنسان، وما خلفه هو كل ما يأتي بعده، وينحو قول مجاهد قاله السدي وغيره.

قوله عز وجل:

وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ معناه: من معلوماته، وهذا كقول الخضر لموسى عليهما السلام حين نقر العصفور من حرف السفينة: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر، فهذا وما شاكله راجع إلى المعلومات، لأن علم الله تعالى الذي هو صفة ذاته لا يتبعض، ومعنى الآية: لا معلوم لأحد إلا ما شاء الله أن يعلمه، واختلف الناس في الكرسي الذي وصفه الله

تعالى بأنه وسع السموات والأرض، فقال ابن عباس: ﴿كرسيه﴾ علمه، ورجحه الطبري: وقال: منه الكراسية للصحائف التي تضم العلم، ومنه قيل للعلماء الكراسي، لأنهم المعتمد عليهم، كما يقال: أوتاد الأرض، وهذه الألفاظ تعطي نقض ما ذهب إليه من أن الكرسي العلم، قال الطبري: ومنه قول الشاعر:

تحف بهم يبيض الوجوه وعصبة كراسي بالأحداث حين تنوب

يريد بذلك علماء بحوادث الأمور ونوازلها، وقال أبو موسى الأشعري: الكرسي موضع القدمين وله أطيط كأطيط الرحل، وقال السدي: هو موضع قدميه.

قال القاضي أبو محمد: وعبرة أبي موسى مخصصة لأنه يريد هو من عرش الرحمن كموضع القدمين في أسرة الملوك، وهو مخلوق عظيم بين يدي العرش نسبتبه إليه نسبة الكرسي إلى سرير الملك، والكرسي هو موضع القدمين، وأما عبارة السدي فقلقة، وقد مال إليها منذر البلوطي وتأولها بمعنى: ما قدم من المخلوقات على نحو ما تأول في قول النبي عليه السلام فيضع الجبار فيما قدمه. قال أبو محمد وهذا عندي عناء، لأن التأويل لا يضطر إليه إلا في ألفاظ النبي عليه السلام وفي كتاب الله، وأما في عبارة مفسر فلا، وقال الحسن بن أبي الحسن: الكرسي هو العرش نفسه.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: والذي تقتضيه الأحاديث أن الكرسي مخلوق عظيم بين يدي العرش، والعرش أعظم منه، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس، وقال أبو ذر: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت في فلاة من الأرض، وهذه الآية منبئة عن عظم مخلوقات الله تعالى، والمستفاد من ذلك عظم قدرته إذ ﴿لا يؤوده﴾ حفظ هذا الأمر العظيم، و﴿يؤوده﴾: معناه يثقله، يقال آدني الشيء بمعنى أثقلني وتحملت منه مشقة، وبهذا فسر اللفظة ابن عباس والحسن وقتادة وغيرهم، وروي عن الزهري وأبي جعفر والأعرج بخلاف عنهم، تخفيف الهمزة التي على الواو الأولى، جعلوها بين بين لا تخلص واواً مضمومة ولا همزة محققة، كما قيل في لؤم لوم، و﴿العلي﴾: يراد به علو القدر والمنزلة لا علو المكان، لأن الله منزّه عن التحيز، وحكى الطبري عن قوم أنهم قالوا: هو العلي عن خلته بارتفاع مكانه عن أماكن خلقه.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وهذا قول جهلة مجسمين، وكان الوجه أن لا يحكى وكذا ﴿العظيم﴾ هي صفة بمعنى عظم القدر والخطر، لا على معنى عظم الأجرام، وحكى الطبري عن قوم: أن ﴿العظيم﴾ معناه المعظم، كما يقال العتيق بمعنى المعتق وأنشد قول الأعشى:

وكان الخمر العتيق من الأسـ فخط ممزوجة بماء زلال

وذكر عن قوم أنهم أنكروا ذلك وقالوا: لو كان بمعنى معظم لوجب أن لا يكون عظيماً قبل أن يخلق الخلق وبعد فنائهم، إذ لا معظم له حينئذ.

قوله عز وجل:

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ

أَسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

﴿الدين﴾ في هذه الآية المعتقد والملة، بقرينة قوله ﴿قد تبين الرشد من الغي﴾، والإكراه الذي في الأحكام من الإيمان والبيع والهبات وغير ذلك ليس هذا موضعه وإنما يجيء في تفسير قوله تعالى : إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، فإذا تقرر أن الإكراه المنفي هنا هو في تفسير المعتقد من الملل والنحل فاختلف الناس في معنى الآية، فقال الزهري : سألت زيد بن أسلم عن قوله تعالى : ﴿لا إكراه في الدين﴾ فقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عشر سنين لا يكره أحداً في الدين، فأبى المشركون إلا أن يقاتلوهم، فاستأذن الله في قالتهم فأذن له، قال الطبري والآية منسوخة في هذا القول.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه : ويلزم على هذا، أن الآية مكية، وأنها من آيات المواعدة التي نسختها آية السيف، وقال قتادة والضحاك بن مزاحم : هذه الآية محكمة خاصة في أهل الكتاب الذين يبذلون الجزية ويؤدونها عن يد صغرة، قالوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقاتل العرب أهل الأوثان لا يقبل منهم إلا لا إله إلا الله أو السيف، ثم أمر فيمن سواهم أن يقبل الجزية، ونزلت فيهم ﴿لا إكراه في الدين﴾ .

قال القاضي أبو محمد : وعلى مذهب مالك في أن الجزية تقبل من كل كافر سوى قريش أي نوع كان، فتجيء الآية خاصة فيمن أعطى الجزية من الناس كلهم لا يقف ذلك على أهل الكتاب كما قال قتادة والضحاك . وقال ابن عباس وسعيد بن جبير : إنما نزلت هذه الآية في قوم من الأوس والخزرج كانت المرأة تكون مقلدة لا يعيش لها ولد، فكانت تجعل على نفسها إن جاءت بولد أن تهوده، فكان في بني النضير جماعة على هذا النحو، فلما أجلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بني النضير قالت الأنصار كيف نصنع بأبنائنا، إنما فعلنا ما فعلنا ونحن نرى أن دينهم أفضل مما نحن عليه، وأما إذ جاء الله بالإسلام فنكرهم عليه، فنزلت ﴿لا إكراه في الدين﴾ الآية، وقال بهذا القول عامر الشعبي ومجاهد، إلا أنه قال كان سبب كونهم في بني النضير الاسترضاع، وقال السدي نزلت الآية في رجل من الأنصار يقال له أبو حصين، كان له ابنان، فقدم تجار من الشام إلى المدينة يحملون الزيت، فلما أرادوا الرجوع أتاهم ابنا أبي حصين فدعوهما إلى النصرانية فتنصرا ومضيا معهم إلى الشام فأتى أبوهما رسول الله صلى الله عليه وسلم مشتكين أمرهما، ورجب في أن يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من يردهما، فنزلت ﴿لا إكراه في الدين﴾ ، ولم يؤمر يومئذ بقتال أهل الكتاب، وقال : أبعدهما الله هما أول من كفر، فوجد أبو الحصين في نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين لم يبعث في طلبهما، فأنزل الله جل ثناؤه ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ [النساء : ٦٥]، ثم إنه نسخ ﴿لا إكراه في الدين﴾، فأمر بقتال أهل الكتاب في سورة براءة.

قال القاضي أبو محمد : والصحيح في سبب قوله تعالى : ﴿فلا وربك لا يؤمنون﴾، حديث الزبير مع جاره الأنصاري في حديث السقي، وقوله تعالى : ﴿قد تبين الرشد من الغي﴾ معناه بنصب الأدلة ووجود الرسول الداعي إلى الله والآيات المنيرة، و﴿الرشد﴾ مصدر من قولك رَشِدَ بكسر الشين وضمها يرشد رُشداً

وَرَشَدًا وَرَشَادًا، و ﴿الغِي﴾ مصدر من غوى يغوي إذا ضل في معتقد أو رأي، ولا يقال الذي في الضلال على الإطلاق، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي «الرشاد» بالالف، وقرأ الحسن والشعبي ومجاهد «الرشد» بفتح الراء والشين. وروي عن الحسن «الرُّشد» بضم الراء والشين، و ﴿الطاغوت﴾ بناء مبالغة من طغى يطفى، وحكى الطبري «يطغوا» إذا جاوز الحد بزيادة عليه، وزنه فعلوت، ومذهب سيبويه أنه اسم مفرد كأنه اسم جنس يقع للكثير والقليل، ومذهب أبي على أنه مصدر كرهوت وجبروت وهو يوصف به الواحد والجمع، وقلبت لامه إلى موضع العين، وعينه موضع اللام فقليل: طاغوت، وقال المبرد: هو جمع، وذلك مردود.

واختلف المفسرون في معنى ﴿الطاغوت﴾، فقال عمر بن الخطاب ومجاهد والشعبي والضحاك وقتادة والسدي: ﴿الطاغوت﴾: الشيطان. وقال ابن سيرين وأبو العالية: ﴿الطاغوت﴾: الساحر، وقال سعيد بن جبير ورفيع وجابر بن عبد الله وابن جريج: ﴿الطاغوت﴾: الكاهن. قال أبو محمد: وبين أن هذه أمثلة في الطاغوت لأن كل واحد منها له طغيان، والشيطان أصل ذلك كله، وقال قوم: ﴿الطاغوت﴾: الأصنام، وقال بعض العلماء: كل ما عبد من دون الله فهو طاغوت.

قال القاضي أبو محمد: وهذه تسمية صحيحة في كل معبود يرضى ذلك كفرعون ونمرود ونحوه، وأما من لا يرضى ذلك كعزير وعيسى عليهما السلام ومن لا يعقل كالأوثان فسميت طاغوتاً في حق العبد، وذلك مجاز. إذ هي بسبب الطاغوت الذي يأمر بذلك ويحسنه وهو الشيطان، وقدم تعالى ذكر الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله ليظهر الاهتمام بوجوب الكفر بالطاغوت. و ﴿العروة﴾ في الأجرام وهي موضع الإمساك وشد الأيدي. و ﴿استمسك﴾ معناه قبض وشد يديه، و ﴿الوثقى﴾ فعلى من الوثاقة، وهذه الآية تشبيه، واختلفت عبارة المفسرين في الشيء المشبه ﴿بالعروة﴾، فقال مجاهد: العروة الإيمان. وقال السدي: الإسلام. وقال سعيد بن جبير والضحاك: العروة لا إله إلا الله.

قال القاضي أبو محمد: وهذه عبارات ترجع إلى معنى واحد، والانفصام: الانكسار من غير بينونة، وإذا نفى ذلك فلا بينونة بوجه، والفصم كسر بينونة، وقد يجيء الفصم بالفاء في معنى البينونة، ومن ذلك قول ذي الرمة: [البسيط]

كأنه دملج من فضة نبه في ملعب من عذارى الحي مفصوم

ولما كان الكفر بالطاغوت والإيمان بالله مما ينطق به اللسان ويعتقده القلب حسن في الصفات ﴿سميع﴾ من أجل النطق و ﴿عليم﴾ من أجل المعتقد. قوله عز وجل:

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ
يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

الـ ﴿ولي﴾ فعيل من ولي الشيء إذا جاوره ولزمه، فإذا لازم أحد أحداً بنصره ووده واهتباله فهو وليه،

هذا عرفه في اللغة . قال قتادة : ﴿الظلمات﴾ الضلالة . و ﴿النور﴾ الهدى . وبمعناه قال الضحاك والربيع . وقال مجاهد وعبد بن أبي لبابة إن قوله : ﴿الله ولي الذين آمنوا﴾ الآية نزلت في قوم آمنوا بعبسى فلما جاء محمد عليه السلام كفروا به فذلك إخراجهم من النور إلى الظلمات .

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه : فكان هذا القول أحرز نوراً في المعتقد خرج منه إلى ظلمات . ولفظ الآية مستغن عن هذا التخصيص . بل هو مترتب في كل أمة كافرة آمن بعضها كالعرب . ومترتب في الناس جميعاً . وذلك أن من آمن منهم فالله وليه أخرجه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان . ومن كفر بعد وجود الداعي النبي المرسل فشيطنه ومغويه كأنه أخرجه من الإيمان ، إذ هو معد وأهل للدخول فيه . وهذا كما تقول لمن منعك الدخول في أمر ما : أخرجتني يا فلان من هذا الأمر وإن كنت لم تدخل فيه البتة .

ولفظه ﴿الطاغوت﴾ في هذه الآية تقتضي أنه اسم جنس ، ولذلك قال ﴿أولياؤهم﴾ بالجمع ، إذ هي أنواع ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن ، أولياؤهم الطواغيت ، يعني الشياطين ، وحكم عليهم بالخلود في النار لكفرهم .

قوله عز وجل :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

﴿ألم تر﴾ تنبيه ، وهي رؤية القلب ، وقرأ علي بن أبي طالب «ألم تر» بجزم الراء ، و ﴿الذي حاج إبراهيم﴾ هو نمروذ بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح ملك زمانه وصاحب النار والبعوضة ، هذا قول مجاهد وقتادة والربيع والسدي وابن إسحاق وزيد بن أسلم وغيرهم . وقال ابن جريج : هو أول ملك في الأرض وهذا مردود . وقال قتادة : هو أول من تجبر وهو صاحب الصرح ببابل . وقيل : إنه ملك الدنيا بأجمعها ونفذت فيها طينته وهو أحد الكافرين . والآخر بخت نصر . وقيل : إن ﴿الذي حاج إبراهيم﴾ نمروذ بن فالخ بن عامر بن شالخب بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، وفي قصص هذه المحاجة روايتان إحداهما : ذكر زيد بن أسلم أن النمروذ هذا قعد يأمر للناس بالميرة فكلما جاء قوم قال : من ربكم وإلهمكم ؟ فيقولون : أنت ، فيقول : ميروهم وجاء إبراهيم عليه السلام يمتار ، فقال له من ربك وإلهك ؟ قال ﴿إبراهيم : ربي الذي يحيي ويميت﴾ ، فلما سمعها نمروذ قال : ﴿أنا أحيي وأميت﴾ ، فعارضه إبراهيم بأمر الشمس ، ﴿فبهت الذي كفر﴾ ، وقال : لا تميروه ، فرجع إبراهيم إلى أهله دون شيء ، فمر على كتيب من رمل كالدقيق ، فقال لو ملأت غرارتي من هذا فإذا دخلت به فرح الصبيان حتى أنظر لهما ، فذهب بذلك فلما بلغ منزله فرح الصبيان وجعلوا يلعبان فوق الغرارتين ونام هو من الإعياء ، فقالت امرأته : لو صنعت له طعاماً يجده حاضراً إذا انتبه ، ففتحت إحدى الغرارتين فوجدت أحسن ما يكون من الخواري فخبزته ، فلما

قام وضعته بين يديه فقال: من أين هذا؟ فقالت من الدقيق الذي سقت، فعلم إبراهيم أن الله تعالى يسر لهم ذلك، وقال الربيع وغيره في هذه القصص: ان النمرود لما قال: ﴿أنا أحبي وأميت﴾ أحضر رجلين فقتل أحدهما وأرسل الآخر وقال: قد أحيت هذا وأميت هذا، فلما رد عليه بأمر الشمس بهت، والرواية الأخرى ذكر السدي: أنه لما خرج إبراهيم من النار أدخلوه على الملك ولم يكن قبل ذلك دخل عليه، فكلمه وقال له: من ربك؟ قال: ربي الذي يحيي ويميت، قال نمرود: ﴿أنا أحبي وأميت﴾، أنا أخذ أربعة نفر فأدخلهم بيتاً ولا يطعمون شيئاً ولا يسقون، حتى إذا جاعوا أخرجتهم فأطعمت اثنين فحياً، وترك اثنين فماتا، فعارضه إبراهيم بالشمس فهبت. وذكر الأصوليون في هذه الآية: أن إبراهيم عليه السلام وصف ربه تعالى بما هو صفة له من الإحياء والإماتة، لكنه أمر له حقيقة ومجاز، قصد إبراهيم عليه السلام الحقيقة، ففرغ نمرود إلى المجاز وموه به على قومه، فسلم له إبراهيم تسليم الجدل، وانتقل معه من المثال، وجاءه بأمر لا مجاز فيه، ﴿فبهت الذي كفر﴾، ولم يمكنه أن يقول: أنا الآتي بها من المشرق، لأن ذوي الأسنان يكذبونه. وقوله ﴿حاج﴾ وزنه «فاعل» من الحجة أي جاذبه إياها والضمير في ﴿ربه﴾ يحتمل أن يعود على إبراهيم عليه السلام، ويحتمل أن يعود على ﴿الذي حاج﴾، و﴿أن﴾ مفعول من أجله والضمير في ﴿آتاه﴾ للنمرود، وهذا قول جمهور المفسرين، وقال المهدوي: يحتمل أن يعود الضمير على إبراهيم أن آتاه ملك النبوة، وهذا تحامل من التأويل، وقرأ جمهور القراء ﴿أن أحبي﴾ بطرح الألف التي بعد النون من ﴿أنا﴾ إذا وصلوا في كل القرآن غير نافع، فإن ورشاً وابن أبي أويس وقالون رأوا إثباتها في الوصل إذا لقيتها همزة في كل القرآن، مثل أنا أحبي أنا أحوك إلا في قوله تعالى: ﴿إن أنا إلا نذير﴾ [الأعراف: ١٨٨] [الشعراء: ١١٥] فإنه يطرحها في هذا الموضع مثل سائر القراء وتابع أصحابه في حذفها عند غير همزة، قال أبو علي: ضمير المتكلم الاسم فيه الهمزة والنون ثم إن الألف تلحق في الوقف كما تلحق الهاء أحياناً في الوقف فإذا اتصلت الكلمة التي هي فيها بشيء سقطت الهاء فكذلك الألف، وهي مثل ألف حيها.

قال القاضي أبو محمد: وهذا مثال الألف التي تلحق في القوافي، فتأمل. قال أبو علي: فإذا اتصلت الكلمة بشيء سقطت الألف، لأن الشيء الذي اتصل به الكلمة يقوم مقام الألف، وقد جاءت الألف مثبتة في الوصل في الشعر من ذلك قول الشاعر:

أنا شيخ العشيرة فاعرفوني حميداً قد تذريرت السنما

وقرأ الجمهور: «فَبُهِتَ» الذي بضم الباء وكسر الهاء، يقال بهت الرجل: إذا انقطع وقامت عليه الحجة. قال ابن سيده: ويقال في هذا المعنى: «بَهَتْ» بفتح الباء وكسر الهاء، «وَبَهَتْ» بفتح الباء وضم الهاء. قال الطبري: وحكي عن بعض العرب في هذا المعنى، «بَهَتْ» بفتح الباء والهاء.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: هكذا ضبطت اللفظة في نسخة ابن ملول دون تقييد بفتح الباء والهاء، قال ابن جني: قرأ أبو حيوة: «فَبُهِتَ» بفتح الباء وضم الهاء هي لغة في بهت بكسر الهاء، قال: وقرأ ابن السميع: «فَبَهَتْ» بفتح الباء والهاء على معنى فهت إبراهيم الذي كفر، فالذي في موضع

نصب، قال: وقد يجوز أن يكون «بَهَتْ» بفتحهما لغة في بهت. قال: وحكى أبو الحسن الأخفش قراءة «فبهت» بكسر الهاء كَحَرَقَ ودَهِش، قال: والأكثر بالضم في الهاء، قال ابن جني: يعني أن الضم يكون للمبالغة، قال الفقيه أبو محمد: وقد تأول قوم في قراءة من قرأ «فبهت» بفتحهما أنه بمعنى سب وقذف، وأن غرود هو الذي سب إبراهيم حين انقطع ولم تكن له حيلة، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، إخبار لمحمد عليه السلام وأمنه.

والمعنى: لا يرشدكم في حججهم على ظلمهم، لأنه لا هدى في الظلم، فظاهره العموم، ومعناه الخصوص، كما ذكرنا، لأن الله قد يهدي الظالمين بالتوبة والرجوع إلى الإيمان. ويحتمل أن يكون الخصوص فيمن يوافي ظالماً.

قوله عز وجل:

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ

عطف «أو» في هذه الآية على المعنى، لأن مقصد التعجيب في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ﴾ [الآية: ٢٥٨] يقتضي أن المعنى أرأيت كالذي حاج، ثم جاء قوله «أو كالذي»، عطفاً على ذلك المعنى، وقرأ أبو سفيان بن حسين «أو كالذي مر» بفتح الواو، وهي واو عطف دخل عليها ألف التقرير، قال سليمان بن بريدة وناجية بن كعب وقتادة وابن عباس والربيع وعكرمة والضحاك: الذي مر على القرية هو عزيز، وقال وهب بن منبه وعبد الله بن عبيد بن عمير وبكر بن مضر: هو أرمياء، وقال ابن إسحاق: أرمياء هو الخضر وحكاه النقاش عن وهب بن منبه، قال الفقيه أبو محمد: وهذا كما تراه، إلا أن يكون اسماً وافق اسماً؛ لأن الخضر معاصر لموسى، وهذا الذي مر على القرية هو بعده بزمان من سبط هارون فيما روى وهب بن منبه، وحكى مكى عن مجاهد أنه رجل من بني إسرائيل غير مسمى، قال النقاش: ويقال هو غلام لوط عليه السلام. قال أبو محمد: واختلف في القرية أيما هي؟ فحكى النقاش أن قوماً قالوا هي المؤتفكة. وقال ابن زيد: إن القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله: ﴿موتوا﴾ [البقرة: ٢٤٣] مرّ عليهم رجل وهم عظام تلوح، فوقف ينظر فقال: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ﴾، وترجم الطبري على هذا القصص بأنه قول بأن القرية التي مرّ عليها هي التي أهلك الله فيها الذين خرجوا من ديارهم.

قال القاضي أبو محمد: وقول ابن زيد لا يلائم الترجمة، لأن الإشارة بهذه على مقتضى الترجمة هي إلى المكان، وعلى نفس القول هي إلى العظام والأجساد. وهذا القول من ابن زيد مناقض لألفاظ الآية، إذ الآية إنما تضمنت قرية خاوية لا أنيس فيها. والإشارة بهذه إنما هي إلى القرية، وإحيائها إنما هو بالعمارة ووجود البناء والسكان. وقال وهب بن منبه وقتادة والضحاك وعكرمة والربيع: القرية بيت المقدس لما خربها بخت نصر البابلي في الحديث الطويل. حين أحدثت بنو إسرائيل الأحداث وقف أرمياء أو عزيز على لقرية وهي كاتل العظيم وسط بيت المقدس لأن بخت نصر أمر جنده بنقل التراب إليه حتى جعله

كالجبل، ورأى أرمياء البيوت قد سقطت حيطانها على سقفها، والعريش سقف البيت وكل ما يهباً ليظل أو يكن فهو عريش ومنه عريش الدالية والثمار، ومنه قوله تعالى: ﴿ومما يعرثون﴾، [النحل: ٦٨] قال السدي: يقول هي ساقطة على سقفها أي سقطت السقف ثم سقطت الحيطان عليها، وقال غير السدي: معناه خاوية من الناس على العروش أي على البيوت، وسقفها عليها لكنها خوت من الناس والبيوت قائمة، قال أبو محمد: وانظر استعمال العريش مع على، في الحديث في قوله، وكان المسجد يومئذ على عريش في أمر ليلة القدر، و﴿خاوية﴾ معناه خالية، يقال خوت الدار تخوي خواء وخوياً ويقال خويت قال الطبري: والأول أفصح وقوله: ﴿أنى يحيي هذه الله بعد موتها﴾ معناه من أي طريق وبأي سبب؟ وظاهر اللفظ السؤال عن إحياء القرية بعمارة وسكان كما يقال الآن في المدن الخربة التي يبعد أن تعمر وتسكن فكان هذا تلهف من الواقف المعبر على مدينته التي عهد فيها أهله وأحبته، وضرب له المثل في نفسه بما هو أعظم مما سأل عنه، والمثال الذي ضرب له في نفسه يحتمل أن يكون على أن سؤاله، إنما كان عن إحياء الموتى من بني آدم، أي أنى يحيي الله موتاهما، وقد حكى الطبري عن بعضهم أنه قال كان هذا القول شكاً في قدرة الله على الإحياء، فلذلك ضرب له المثل في نفسه.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وليس يدخل شك في قدرة الله على إحياء قرية بجلب العمرة إليها، وإنما يتصور الشك من جاهل في الوجه الآخر، والصواب أن لا يتأول في الآية شك، وروي في قصص هذه الآية أن بني إسرائيل لما أحدثوا الأحداث بعث الله عليهم بخت نصر البابلي فقتلهم وجلاهم من بيت المقدس فخره، فلما ذهب عنه جاء أرمياء فوقف على المدينة معتبراً فقال، ﴿أنى يحيي هذه الله بعد موتها﴾؟ قال: ﴿فأما الله﴾ تعالى وكان معه حمار قد ربطه بجبل جديد وكان معه سلة فيها تبن وهو طعامه، وقيل تبن وعنب، وكان معه ركوة من خمر، وقيل من عصير وقيل، قلة ماء هي شرابه، وبقي ميتاً مائة عام، فروي أنه بلي وتفرقت عظامه هو وحماره، وروي أنه بلي دون الحمار، وأن الحمار بقي حياً مربوطاً لم يمت ولا أكل شيئاً ولا بليت رمته، وروي أن الحمار بلي وتفرقت أوصاله دون عزيز، وروي أن الله بعث إلى تلك القرية من عمرها ورد إليها جماعة بني إسرائيل حيث كملت على رأس مائة سنة، وحيثئذ حيي عزيز، وروي أن الله رد عليه عينيه وخلق له حياة يرى بها كيف تعمر القرية ويحيى مدة من ثلاثين سنة تكمل المائة، لأنه بقي سبعين ميتاً كله، وهذا ضعيف ترد عليه ألفاظ الآية. وقوله تعالى: ﴿ثم بعثه﴾، معناه: أحياء وجعل له الحركة والانتقال، فسأله الله تعالى بواسطة الملك ﴿كم لبثت﴾؟ على جهة التقرير، و﴿كم﴾ في موضع نصب على الظرف، فقال: ﴿لبثت يوماً أو بعض يوم﴾، قال ابن جريج وقتادة والربيع: أماته الله غدوة يوم ثم بعث قبل الغروب، فظن هذا اليوم واحداً فقال ﴿لبثت يوماً﴾ ثم رأى بقية من الشمس فخشي أن يكون كاذباً فقال: ﴿أو بعض يوم﴾ فقليل له ﴿بل لبثت مائة عام﴾، ورأى من عمارة القرية وأشجارها ومبانيها ما دله على ذلك قال النقاش: العام مصدر كالعوم سمي به هذا القدر من الزمان لأنها عومة من الشمس في الفلك، والعوم كالسبح، وقال تعالى: ﴿وكل في فلك يسبحون﴾ [الأنبياء: ٣٣].

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: هذا معنى كلام النقاش. والعام على هذا كالقول والقال. وظاهر هذه الإمامة أنها بإخراج الروح من الجسد، وروي في قصص هذه الآية: أن الله بعث لها

ملكاً من الملوك يعمرها ويجد في ذلك حتى كان كمال عمارتها عند بعث القائل: ﴿أَنْتَ يَحْيَىٰ هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وقرأ ابن كثير وعاصم ونافع: ﴿لَبِثَ﴾ في كل القرآن بإظهار الراء وذلك لتباين الراء من مخرج الراء، وذلك أن الطاء والراء والذال من حيز، والظاء والذال والراء المثلثة من حيز، وقرأ أبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي، بالإدغام في كل القرآن، أجروهما مجرى المثلى من حيث اتفق الحرفان في أنهما من طرف اللسان وأصول الثنايا وفي أنهما مهموستان، قال أبو علي: ويقوي ذلك وقوع هذين الحرفين في «روي قصيدة واحدة».

قوله عز وجل:

فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ ۖ وَانْظُرْ إِلَىٰ الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

وقف في هذه الألفاظ على بقاء طعامه وشرابه على حاله لم يتغير، وعلى بقاء حماره حيّاً على مربطه. هذا على أحد التأويلين. وعلى التأويل الثاني، وقف على الحمار كيف يحيى وتجتمع عظامه. وقرأ ابن مسعود: «وهذا طعامك وشرابك لم يتسنه»، وقرأ طلحة بن مصرف وغيره: «وانظر إلى طعامك وشرابك لمائة سنة»، قال أبو علي: واختلفوا في إثبات الهاء في الفعل من قوله عز وجل: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ و﴿اقتده﴾ [الأنعام: ٩٠]، و﴿ما أغنى عني ماليه﴾ [الحاقة: ٢٨] و﴿سلطانيه﴾ [الحاقة: ٢٩] و﴿وما أدراك ماهيه﴾ [القارة: ١٠] وإسقاطها في الوصل، ولم يختلفوا في إثباتها في الوقف. فقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وابن عامر هذه الحروف كلها بإثبات الهاء في الوصل، وكان حمزة يحذفهن في الوصل، وكان الكسائي يحذفها في ﴿يَتَسَنَّهْ﴾، و﴿اقتده﴾، ويشبها في الباقي. ولم يختلفوا في ﴿حسابيه﴾ [الحاقة: ٢٠ - ٢٦] و﴿كتابه﴾ [الحاقة: ١٩ - ٢٥] أنهما بالهاء في الوقف والوصل، و﴿يَتَسَنَّهْ﴾ يحتمل أن يكون من تسنن الشيء إذا تغير وفسد، ومنه الحمأ المسنون في قول بعضهم. وقال الزجاج: ليس منه وإنما المسنون المصبوب على سنة الأرض، فإذا كان من تسنن فهو لم يتسنن. قلبت النون ياء كما فعل في تظننت، حتى قلت لم أنظنن، فيجيء تسنن تسنى. ثم تحذف الياء للجزم فيجيء المضارع لم يتسن. ومن قرأها بالهاء على هذا القول فهي هاء السكت. وعلى هذا يحسن حذفها في الوصل. ويحتمل ﴿يَتَسَنَّهْ﴾ أن يكون من السنة وهو الجذب. والقحط، وما أشبهه، يسمونه بذلك. وقد اشتق منه فعل فقيل: استنوا، وإذا كان هذا أو من السنة التي هي العام على قول من يجمعها سنوات فعلى هذا أيضاً الهاء هاء السكت، والمعنى لم تغير طعامك والقحوط والجذوب ونحوه، أو لم تغيره السنون والأعوام. وأما من قال في تصغير السنة سنيهة وفي الجمع سنهات، وقال أسنهت عند بني فلان وهي لغة الحجاز ومنها قول الشاعر:

وليست بسنهاء ولا رجبية ولكن عرايا في السنين الجوائح

فإن القراءة على هذه اللغة هي بإثبات الهاء ولا بد، وهي لام الفعل، وفيها ظهر الجزم بـ ﴿لَمْ﴾،

وعلى هذا هي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو، وقد ذكر . وقرأ طلحة بن مصرف «لم يسته» على الإدغام.

وقال النقاش : ﴿لم يسته﴾ معناه : لم يتغير من قوله تعالى : ﴿ماء غير آسن﴾ [محمد : ١٥] ، قال أبو محمد : ورد النحاة على هذا القول ، لأنه لو كان من آسن الماء لجاء لم يتأسن ، وأما قوله تعالى : ﴿وانظر إلى حمارك﴾ ، فقال وهب بن منبه وغيره : المعنى وانظر إلى اتصال عظامه وإحيائه جزءاً جزءاً . وروى أنه أحياه الله كذلك حتى صار عظماً ملتئمة ، ثم كساه لحماً حتى كمل حماراً ، ثم جاء ملك فنفخ في أنفه الروح ، فقام الحمار ينهق ، وروي عن الضحاك وهب بن منبه أيضاً أنهما قالاً : بل قيل له وانظر إلى حمارك قائماً في مربطه لم يصبه شيء مائة سنة ، قالاً : وإنما العظام التي نظر إليها عظام نفسه ، قالاً : وأعمى الله العيون عن أرمياء وحمارة طول هذه المدة .

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه : وكثر أهل القصص في صورة هذه النازلة تكثيراً اختصرت له عدم صحته ، وقوله تعالى : ﴿ولنجملك آية للناس﴾ معناه لهذا المقصد من أن تكون آية فعلنا بك هذا ، وقال الأعمش موضع كونه آية هو أنه جاء شاباً على حاله يوم مات ، فوجد الحفدة والأبناء شيوخواً ، وقال عكرمة : جاء وهو ابن أربعين سنة كما كان يوم مات ، ووجد بنيه قد نيفوا على مائة سنة ، وقال غير الأعمش : بل موضع كونه آية أنه جاء وقد هلك كل من يعرف ، فكان آية لمن كان حياً من قومه ، إذ كانوا موقنين بحاله سماعاً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله : وفي إمامته هذه المدة ، ثم إحيائه أعظم آية ، وأمره كله آية للناس غابر الدهر ، لا يحتاج إلى تخصيص بعض ذلك دون بعض . وأما العظام التي أمر بالنظر إليها فقد ذكرنا من قال : هي عظام نفسه ، ومن قال : هي عظام الحمار ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو : «نُشْرُها» بضم النون الأولى وبالراء ، وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي . «ننشزها» بالزاي ، وروى أبان عن عاصم «نُشْرُها» بفتح النون الأولى وضم الشين وبالراء ، وقرأها كذلك ابن عباس والحسن وأبو حيوة . فمن قرأها «نُشْرُها» بضم النون الأولى وبالراء فمعناه نحيتها . يقال أنشر الله الموق فنشروا ، قال الله تعالى : ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾ [عبس : ٢٢] .

وقال الأعشى : [السريع]

يَا عَجَبًا لِلْمَيِّتِ النَّاشِرِ

وقراءة عاصم : «نُشْرُها» بفتح النون الأولى يحتمل أن تكون لغة في الإحياء ، يقال : نشرت الميت وأنشرته فيجيء نشر الميت ونشرته ، كما يقال حسرت الدابة وحسرتها ، وغاض الماء وغضته ، ورجع زيد ورجعته . ويحتمل أن يراد بها ضد الطي ، كأن الموت طي للعظام والأعضاء ، وكأن الإحياء وجمع بعضها إلى بعض نشر . وأما من قرأ : «ننشزها» بالزاي فمعناه : نرفعها ، والنشز المرتفع من الأرض ، ومنه قول الشاعر :

تَرَى الثَّلْعَبَ الْحَوْلِيَّ فِيهَا كَأَنَّهُ إِذَا مَا عَلَا نَشَزَ جِصَّانَ مُجَلَّلٍ

قال أبو علي وغيره: فتقديره ننشزها برفع بعضها إلى بعض للإحياء، ومنه نشوز المرأة وقال الأعشى:

[الطويل]

قُضَاعِيَّةٌ تَأْتِي الْكُوَاهِنَ نَاشِزَا

يقال نشز وأنشزته.

قال القاضي أبو محمد: ويقلق عندي أن يكون معنى النشوز رفع العظام بعضها إلى بعض، وإنما النشوز الإرتفاع قليلاً قليلاً، فكأنه وقف على نبات العظام الرفات وخروج ما يوجد منها عند الاختراع، وقال النقاش: ننشزها معناه ننبتها، وانظر استعمال العرب تجده على ما ذكرت، من ذلك نشز ناب البعير، والنشز من الأرض على التشبيه بذلك، ونشزت المرأة كأنها فارقت الحال التي ينبغي أن تكون عليها، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوا﴾ [المجادلة: ١١] أي فارتفعوا شيئاً شيئاً كنشوز الناب. فبذلك تكون التوسعة، فكان النشوز ضرب من الارتفاع. ويبعد في الاستعمال أن يقال لمن ارتفع في حائط أو غرفة: نشز. وقرأ النخعي «نَنَشُزُهَا» بفتح النون وضم الشين والزاي، وروي ذلك عن ابن عباس وقتادة. وقرأ أبي بن كعب: «كيف نشيها» بالياء. والكسوة: ما وارى من الثياب، وشبه اللحم بها، وقد استعاره النابغة للإسلام فقال:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

وروي أنه كان يرى اللحم والعصب والعروق كيف تلتئم وتتواصل وقال الطبري: المعنى في قوله: ﴿فلما تبين له﴾ أي لما اتضح له عياناً ما كان مستنكراً في قدرة الله عنده قبل عيانه، ﴿قال أعلم﴾.

قال القاضي أبو محمد: وهذا خطأ لأنه ألزم ما لا يقتضيه اللفظ، وفسر على القول الشاذ والاحتمال الضعيف، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وابن عامر: «أعلم أن» مقطوعة الألف مضمومة الميم. وقرأ حمزة والكسائي: «قال اعلم أن الله». موصولة الألف ساكنة الميم. وقرأها أبو رجاء، وقرأ عبد الله بن مسعود والأعمش، «قيل أعلم».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: فأما هذه فبينة المعنى أي قال الملك له. والأولى بينة المعنى أي قال هو أنا أعلم أن الله على كل شيء قدير. وهذا عندي ليس بإقرار بما كان قبل ينكره كما زعم الطبري. بل هو قول بعثه الاعتبار كما يقول الإنسان المؤمن إذا رأى شيئاً غريباً من قدرة الله: الله لا إله إلا هو ونحو هذا. وقال أبو علي: معناه أعلم هذا الضرب من العلم الذي لم أكن علمته.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: يعني علم المعاينة، وأما قراءة حمزة والكسائي فتحتمل وجهين أحدهما، قال الملك له «اعلم»، والآخر أن ينزل نفسه منزلة المخاطب الأجنبي المنفصل، فالمعنى فلما تبين له قال لنفسه: «اعلم» وأنشد أبو علي في مثل هذا قول الأعشى: [البسيط]

وَدَعَ هُرَيْرَةً إِنَّ الرُّكْبَ مُرْتَحِلٌ

و- ألم تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةً أَرَمَدَا؟ [الطويل]

وأمثلة هذا كثيرة وتأنس أبو علي في هذا المعنى بقول الشاعر: [الطويل]
تَذَكَّرَ مِنْ أَنِّي وَمِنْ أَيْنَ شُرْبِهِ يُوَاسِرُ نَفْسِيهِ كَذِي الهَجْمَةِ الْأَبِلِ

قوله عز وجل:

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُ قَال بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي
قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ
يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمَنَّ أَن اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦١﴾

العامل في ﴿إِذ﴾ فعل مضمَر تقديره واذكر. واختلف الناس لم صدرت هذه المقالة عن إبراهيم عليه السلام؟ فقال الجمهور: إن إبراهيم عليه السلام لم يكن شاكاً في إحياء الله الموتى قط، وإنما طلب المعاينة. وترجم الطبري في تفسيره فقال: وقال آخرون سأل ذلك ربه لأنه شك في قدرة الله على إحياء الموتى وأدخل تحت الترجمة عن ابن عباس أنه قال: ما في القرآن آية أرجى عندي منها، وذكر عن عطاء بن أبي رباح أنه قال: دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس فقال: ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى؟﴾ وذكر حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: نحن أحق بالشك من إبراهيم. الحديث. ثم رجح الطبري هذا القول الذي يجري مع ظاهر الحديث. وقال: إن إبراهيم لما رأى الجيفة تأكل منها الحيتان ودواب البر ألقى الشيطان في نفسه فقال: متى يجمع الله هذه من بطون هؤلاء؟ وأما من قال: بأن إبراهيم لم يكن شاكاً، فاختلفوا في سبب سؤاله، فقال قتادة: إن إبراهيم رأى دابة قد توزعتها السباع فعجب وسأل هذا السؤال. وقال الضحاك: نحوه، قال: وقد علم عليه السلام أن الله قادر على إحياء الموتى، وقال ابن زيد: رأى الدابة تنقسمها السباع والحيتان لأنها كانت على حاشية البحر، وقال ابن إسحاق، بل سببها أنه لما فارق النمرود وقال له: أنا أحيي وأميت، فكر في تلك الحقيقة والمجاز، فسأل هذا السؤال. وقال السدي وسعيد بن جبير: بل سبب هذا السؤال أنه لما بشر بأن الله اتخذ خليلاً أراد أن يدل بهذا السؤال ليغرب صحة الخلّة، فإن الخليل يدل بما لا يدل به غيره، وقال سعيد بن جبير: ﴿ولكن ليطمئن قلبي﴾ يريد بالخلّة.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وما ترجم به الطبري عندي مردود، وما أدخل تحت الترجمة متأول، فأما قول ابن عباس: هي أرجى آية فمن حيث فيها الإدلال على الله تعالى وسؤال الإحياء في الدنيا، وليست مظنة ذلك، ويجوز أن يقول: هي أرجى آية لقوله، ﴿أو لم تؤمن؟﴾ أي إن الإيمان كاف لا يحتاج بعده إلى تنقيح وبحث، وأما قول عطاء بن أبي رباح: دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس فمعناه من حب المعاينة، وذلك أن النفوس مستشرقة إلى رؤية ما أخبرت به، ولهذا قال النبي عليه السلام: «ليس الخبر كالمعاينة»، وأما قول النبي عليه السلام نحن أحق بالشك من إبراهيم فمعناه: أنه لو كان شك لكنا نحن أحق به ونحن لا نشك، فإبراهيم عليه السلام أحرى أن لا يشك، فالحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم. والذي روي فيه عن النبي عليه السلام أنه قال: ذلك محض

الإيمان إنما هو في الخواطر الجارية التي لا تثبت، وأما الشك فهو توقف بين أمرين لا مزية لأحدهما على الآخر، وذلك هو المنفي عن الخليل عليه السلام. وإحياء الموتى إنما يثبت بالسمع، وقد كان إبراهيم عليه السلام أعلم به، يدلك على ذلك قوله: ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾ [البقرة: ٢٥٨] فالشك يبعد على من ثبتت قدمه في الإيمان فقط، فكيف بمرتبة النبوة والخلة، والأنبياء معصومون من الكبائر ومن الصغائر التي فيها رذيلة إجماعاً، وإذا تأملت سؤاله عليه السلام وسائر ألفاظ الآية لم تعط شكاً، وذلك أن الاستفهام بكيف إنما هو عن حال شيء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسؤول، نحو قولك: كيف علم زيد؟ وكيف نسج الثوب؟ ونحو هذا، ومتى قلت كيف ثوبك وكيف زيد فإنما السؤال عن حال من أحواله، وقد تكون ﴿كيف﴾ خبراً عن شيء شأنه أن يستفهم عنه، ﴿كيف﴾ نحو قولك: كيف شئت فكن، ونحو قول البخاري: كيف كان بدء الوحي، و﴿كيف﴾ في هذه الآية إنما هي استفهام عن هيئة الإحياء، والإحياء متقرر، ولكن لما وجدنا بعض المنكرين لوجود شيء قد يعبر عن إنكاره بالاستفهام عن حالة لذلك الشيء يعلم أنها لا تصح، فيلزم من ذلك أن الشيء في نفسه لا يصح، مثال ذلك أن يقول مدع: أنا أرفع هذا الجبل، فيقول له المكذب: أرني كيف ترفعه؟ فهذه طريقة مجاز في العبارة، ومعناها تسليم جدلي، كأنه يقول افرض أنك ترفعه أرني كيف؟ فلما كان في عبارة الخليل عليه السلام هذا الاشتراك المجازي، خلص الله له ذلك وحمله على أن يبين الحقيقة فقال له: ﴿أولم تؤمن قال بلى﴾، فأكمل الأمر وتخلص من كل شك، ثم علل عليه السلام سؤاله بالطمأنينة.

قال القاضي أبو محمد: وقوله تعالى: ﴿أولم تؤمن﴾ معناه إيماناً مطلقاً دخل فيه فصل إحياء الموتى، والواو واو حال دخلت عليها ألف التقرير، و﴿ليطمئن﴾ معناه ليسكن عن فكره، والطمأنينة اعتدال وسكون على ذلك الاعتدال فطمأنينة الأعضاء معروفة، كما قال عليه السلام: «ثم اركع حتى تطمئن رакماً»، الحديث، وطمأنينة القلب هي أن يسكن فكره في الشيء المعتقد. والفكر في صورة الإحياء غير محظورة، كما لنا نحن اليوم أن نفكر فيها، بل هي فكر فيها عبر، فأراد الخليل أن يعاين، فتذهب فكره في صورة الإحياء، إذ حركه إلى ذلك إما أمر الدابة المأكولة وإما قول النمرود: أنا أحيي وأميت، وقال الطبري: معنى ﴿ليطمئن﴾ ليوقن. وحكي نحو ذلك عن سعيد بن جبير، وحكي عنه ليزداد يقيناً. وقاله إبراهيم وقتادة. وقال بعضهم: لأزداد إيماناً مع إيماني.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: ولا زيادة في هذا المعنى تمكن إلا السكون عن الفكر، وإلا فاليقين لا يتبعض، وروي أن الأربعة التي أخذ إبراهيم هي الديك، والطاووس، والحمام، والغراب، ذكر ذلك ابن إسحاق عن بعض أهل العلم الأول، وقاله مجاهد وابن جريج وابن زيد، وقال ابن عباس: مكان الغراب الكركي.

وروي في قصص هذه الآية أن الخليل عليه السلام أخذ هذه الطير حسبما أمر وذكاها ثم قطعها قطعاً صغاراً وجمع ذلك مع الدم والريش، ثم جعل من ذلك المجموع المختلط جزءاً على كل جبل، ووقف هو من حيث يرى تلك الأجزاء، وأمسك رؤوس الطير في يده، ثم قال تعالين يا ذن الله، فتطايرت تلك الأجزاء

وطار الدم إلى الدم، والريش إلى الريش، حتى التامت كما كانت أولاً وبقيت بلا رؤوس، ثم كرر النداء فجاءته سعيّاً حتى وضعت أجسادها في رؤوسها، وطارت بإذن الله تعالى، وقرأ حمزة وحده: «فصرهن إليك» بكسر الصاد، وقرأ الباقر بضمها ويقال صرت الشيء أصوره بمعنى قطعته، ومنه قول ذي الرمة: [الرجز]

صِرْنَا بِهِ الْحُكْمَ وَعَنَّا الْحَكَمَا

ومنه قول الخنساء: [السريع]

فلو يلاقي الذي لاقيته حَضُنْ لَظَلَّتِ الشُّمُّ مِنْهُ وَهِيَ تَنْصَارُ

أي تنقطع ويقال أيضاً صرت الشيء بمعنى أملتته ومنه قول الشاعر: [الوافر]

يُصَوِّرُ عَنُقَهَا أَحْوَى زَنِيمٌ لَهُ صَخَبٌ كَمَا صَخِبَ الْغَرِيمُ

ومنه قول الأعرابي في صفة نساء هن إلى الصبا صور، وعن الخنا زور، فهذا كله في ضم الصاد. ويقال أيضاً في هذين المعنيين: القطع والإمالة. صرت الشيء بكسر الصاد أصيره، ومنه قول الشاعر: [الطويل]

وَفَرَعٌ يَصِيرُ الْجَيْدَ وَجَفَّ كَأَنَّهُ عَلَى اللَّيْلِ قِنَوَانُ الْكُرُومِ الدَّوَالِحِ

ففي اللفظة لغتان قرئ بهما، وقد قال ابن عباس ومجاهد في هذه الآية «صرهن» معناه: قطعهن، وقال عكرمة وابن عباس فيما في بعض ما روي عنه أنها لفظة بالنبطية معناها قطعهن، وقاله الضحاك، وقال أبو الأسود الدؤلي: هي بالسريانية، وقال قتادة: «صرهن» فصلهن، وقال ابن إسحاق: معناه قطعهن، وهو الصور في كلام العرب، وقال عطاء بن أبي رباح: «فصرهن» معناه اضممهن إليك. وقال ابن زيد معناه اجمعهن، وروي عن ابن عباس معناه أوثقهن.

قال القاضي أبو محمد: فقد تأول المفسرون اللفظة بمعنى التقطيع وبمعنى الإمالة. فقوله «إليك» على تأويل التقطيع متعلق بخذ. وعلى تأويل الإمالة والضم متعلق بـ «صرهن»، وفي الكلام متروك يدل عليه الظاهر تقديره فأملهن إليك فقطعهن. وقرأ قوم «فَصُرْهن» بضم الصاد وشد الراء المفتوحة كأنه يقول فشدهن. ومنه صرة الدنانير. وقرأ قوم «فَصِرْهن» بكسر الصاد وشد الراء المفتوحة ومعناه صبحهن من قولك صر الباب والقلم إذا صوّت، ذكره النقاش. قال ابن جني وهي قراءة غريبة وذلك أن يفعل بكسر العين في المضاعف المتعدي قليل، وإنما بابُه يفعل بضم العين كشد يشد ونحوه. لكن قد جاء منه نَمُ الحديث يَنْمُه ويُنَمُه وهر الحرب يَهْرها ويُهْرها ومنه قول الأعشى:

لَيَعْتَوِرَنَّكَ الْقَوْلُ حَتَّى تَهْرَهُ

إلى غير ذلك في حروف قليلة. قال ابن جني، وأما قراءة عكرمة بضم الصاد فيحتمل في الراء الضم والفتح والكسر كمد وشد والوجه ضم الراء من أجل ضمة الهاء من بعد قال المهدي وغيره وروي عن عكرمة فتح الصاد وشد الراء المكسورة.

قال القاضي أبو محمد: وهذه بمعنى فاحبسهن من قولهم صرى يصري إذا حبس، ومنه الشاة

المصرة، واختلف المتأولون في معنى قوله: ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْأً﴾، فروى أبو حمزة عن ابن عباس أن المعنى اجعل جزءاً على كل ربع من أرباع الدنيا كأن المعنى اجعلها في أركان الأرض الأربعة. وفي هذا القول بعد، وقال قتادة والربيع المعنى واجعل على أربعة أجبل على كل جبل جزءاً من ذلك المجموع المقطع، فكما يبعث الله هذه الطير من هذه الجبال فكذلك يبعث الخلق يوم القيامة من أرباع الدنيا وجميع أقطارها. وقرأ الجمهور: «جزءاً» بالهمز، وقرأ أبو جعفر «جزأً» بشد الزاي في جميع القرآن. وهي لغة في الوقف فأجرى أبو جعفر الوصل مجراه. وقال ابن جريج والسدي أمر أن يجعلها على الجبال التي كانت الطير والسباع حين تأكل الدابة تطير إليها وتسير نحوها وتتفرق فيها. قالوا: وكانت سبعة أجبل فكذلك جزأً ذلك المقطع من لحم الطير سبعة أجزاء. وقال مجاهد: بل أمر أن يجعل على كل جبل يليه جزءاً. قال الطبري معناه دون أن تحصر الجبال بعدد، بل هي التي كان يصل إبراهيم إليها وقت تكليف الله إياه تفريق ذلك فيها، لأن الكل لفظ يدل على الإحاطة.

قال القاضي أبو محمد: وبعيد أن يكلف جميع جبال الدنيا، فلن يحيط بذلك بصره، فيجيء ما ذهب إليه الطبري جيداً متمكناً. والله أعلم أي ذلك كان. ومعنى الآية أن إبراهيم عليه السلام كان بحيث يرى الأجزاء في مقامه، ويرى كيف التأمّت، وكذلك صحت له العبرة، وأمره بدعائهن وهن أموات إنما هو لتقرب الآية منه وتكون بسبب من حاله، ويرى أنه قصد بعرض ذلك عليه. ولذلك جعل الله تعالى سيرهن إليه «سعيّاً»، إذ هي مشية المجدّ الراغب فيما يمشي إليه، فكان من المبالغة أن رأى إبراهيم جدها في قصده وإجابة دعوته. ولو جاءت مشياً لزلّت هذه القرينة، ولو جاءت طيراناً لكان ذلك على عرف أمرها، فهذا أغرب منه. ثم وقف عليه السلام على العلم بالعزة التي في ضمنها القدرة وعلى الحكمة التي بها إتقان كل شيء.

قوله عز وجل:

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾

هذه الآية لفظها بيان مثل بشرف النفقة في سبيل الله وبحسنها، وضمنها التحريض على ذلك، وهذه الآية في نفقة التطوع، وسبل الله كثيرة، وهي جميع ما هو طاعة وعائد بمنفعة على المسلمين والملة، وأشهرها وأعظمها غناء الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا، والحبة اسم جنس لكل ما يزدريه ابن آدم ويقناته، وأشهر ذلك البر، وكثيراً ما يراد بالحب. ومنه قول المتلمس: [البسيط].

آليت حب العراق الدهر أطعمه والحب يأكله في القرية السوس

وقد يوجد في سنبل القمح ما فيه مائة حبة، وأما في سائر الحبوب فأكثر، ولكن المثال وقع بهذا القدر، وقد ورد القرآن بأن الحسنة في جميع أعمال البر بعشر أمثالها، واقتضت هذه الآية أن نفقة الجهاد

حَسَنَتَهَا بِسَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَبَيْنَ ذَلِكَ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ، وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَضَاعَفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ هِيَ مَبِينَةٌ وَمُؤَكَّدَةٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ ذِكْرِ السَّبْعِمِائَةِ. وَلَيْسَ ثَمَّةُ تَضْعِيفٍ فَوْقَ سَبْعِمِائَةٍ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: بَلْ هُوَ إِعْلَامٌ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَضَاعَفُ لِمَنْ يَشَاءُ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ. وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ التَضْعِيفَ يَنْتَهِي لِمَنْ شَاءَ اللَّهُ إِلَى أَلْفِي أَلْفٍ. وَلَيْسَ هَذَا بِثَابِتِ الْإِسْنَادِ عَنْهُ، وَقَالَ ابْنُ عَمْرٍو لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ «رَبِّ زِدْ أُمَّتِي». فَتَزَلَّتْ ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَقْرُضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيَضَاعِفُهُ لَهُ﴾ [الحديد: ١١]، فَقَالَ رَبِّ زِدْ أُمَّتِي، فَتَزَلَّتْ ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] و﴿سَنِبَلَةٌ﴾ فَنَعْلَةٌ مِنْ أَسْبَلِ الزَّرْعِ أَيْ أُرْسِلَ مَا فِيهِ كَمَا يَسْبِلُ الثَّوْبُ، وَالْجَمْعُ سَنَابِلٌ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِثْلَ الَّذِينَ﴾، حَذَفَ مِضَافٌ، تَقْدِيرُهُ مِثْلُ إِنْفَاقِ الَّذِينَ، أَوْ تَقْدَرُهُ كَمِثْلِ ذِي حَبَّةٍ، وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، إِنَّ قَوْلَهُ ﴿فِي كُلِّ سَنِبَلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾، مَعْنَاهُ إِنْ وَجَدَ ذَلِكَ وَإِلَّا فَعَلَى أَنَّ نَفَرَضَهُ ثُمَّ أَدْخَلَ عَنِ الضَّحَّاكِ أَنَّهُ قَالَ: ﴿فِي كُلِّ سَنِبَلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ مَعْنَاهُ كُلُّ سَنِبَلَةٍ أَنْبَتَتْ مِائَةَ حَبَّةٍ، فَجَعَلَ الطَّبْرِيُّ قَوْلَ الضَّحَّاكِ نَحْوَ مَا قَالَ هُوَ، وَذَلِكَ غَيْرُ لَازِمٍ مِنْ لَفْظِ الضَّحَّاكِ، قَالَ أَبُو عَمْرٍو الدَّانِي قَرَأَ بَعْضُهُمْ «مِائَةُ حَبَّةٍ» بِالنَّصَبِ عَلَى تَقْدِيرِ أَنْبَتَتْ مِائَةَ حَبَّةٍ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ الْآيَةُ، لَمَّا تَقَدَّمَ فِي الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَ هَذِهِ ذِكْرُ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَلَى الْعُمُومِ بَيَّنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ ذَلِكَ الْحُكْمَ إِنَّمَا هُوَ لِمَنْ لَمْ يَتَّبِعْ إِنْفَاقَهُ مَنًّا وَلَا أَدَى، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُنْفِقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّمَا يَكُونُ عَلَى أَحَدِ ثَلَاثَةِ أَوْجِهٍ، إِمَّا أَنْ يَرِيدَ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى وَيَرْجُو ثَوَابَهُ، فَهَذَا لَا يَرْجُو مِنَ الْمُنْفِقِ عَلَيْهِ شَيْئًا وَلَا يَنْظُرُ مِنْ أَحْوَالِهِ فِي حَالٍ سِوَى أَنْ يَرَاعِيَ اسْتِحْقَاقَهُ، وَإِمَّا أَنْ يَرِيدَ مِنَ الْمُنْفِقِ عَلَيْهِ جِزَاءَ بُوْجِهِ مِّنَ الْوُجُوهِ، فَهَذَا لَمْ يَرِدْ وَجْهَ اللَّهِ بَلْ نَظَرَ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ مِنَ الْمُنْفِقِ عَلَيْهِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي مَتَى أَخْلَفَ ظَنَّهُ مِنْ بَيِّنَاتِهِ وَأَدَى، وَإِمَّا أَنْ يَنْفِقَ مُضْطَرًّا دَافِعَ غَرَمٍ إِمَّا لِمَا تِلْكَ لِلْمُنْفِقِ عَلَيْهِ أَوْ قَرِينَةٍ أُخْرَى مِنْ اعْتِنَاءٍ مَعْتَنٍ وَنَحْوِهِ، فَهَذَا قَدْ نَظَرَ فِي حَالِ لَيْسَتْ لَوَجْهَ اللَّهِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي مَتَى تَوَبَّعَ وَحَرَجَ بُوْجِهِ مِنْ وَجْهِ الْحَرَجِ آدَى.

فَالْمَنْ وَالْأَدَى يَكْشِفَانِ مِمَّنْ ظَهَرَ مِنْهُ أَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْمَقَاصِدِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَخْلُصْ لَوَجْهِ اللَّهِ، فَلِهَذَا كَانَ الْمَنْ وَالْأَدَى مَبْطُلِينَ لِلصَّدَقَةِ، مِنْ حَيْثُ بَيْنَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ صَدَقَةً، وَذَكَرَ النِّقَاشُ أَنَّهُ قِيلَ إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي عَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقِيلَ فِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَالَ مَكِّي فِي عَثْمَانَ وَابْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: وَالْمَنْ ذَكَرَ النِّعْمَةَ عَلَى مَعْنَى التَّعْدِيدِ لَهَا وَالتَّقْرِيعَ بِهَا، وَالْأَدَى: السَّبُّ وَالتَّشْكِي، وَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الْمَنِّ، لِأَنَّ الْمَنْ جُزْءٌ مِنَ الْأَدَى لَكِنَّهُ نَصٌّ عَلَيْهِ لِكَثْرَةِ وَقُوعِهِ، وَذَهَبَ ابْنُ زَيْدٍ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ هِيَ فِي الَّذِينَ لَا يَخْرُجُونَ فِي الْجِهَادِ، بَلْ يَنْفَقُونَ وَهُمْ قُعُودٌ، وَأَنَّ الْأَوَّلَى الَّتِي قَبْلَهَا هِيَ فِي الَّذِينَ يَخْرُجُونَ بِأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ. قَالَ: وَلِذَلِكَ شَرَطَ عَلَى هَؤُلَاءِ وَلَمْ يَشْطَرِ عَلَى الْأَوَّلِينَ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْحَقِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَفِي هَذَا الْقَوْلِ نَظَرٌ، لِأَنَّ التَّحَكُّمَ فِيهِ بَادٍ، وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمٍ: لَئِنْ ظَنَنْتُ أَنَّ سَلَامَكَ يَثْقُلُ عَلَيَّ مِنْ أَنْفَقْتُ عَلَيْهِ تَرِيدَ وَجْهَ اللَّهِ فَلَا تَسْلَمُ عَلَيْهِ، وَقَالَتْ لَهَا امْرَأَةٌ: يَا أَبَا أَسَامَةَ دَلَّنِي عَلَى رَجُلٍ يَخْرُجُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَقًّا، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَخْرُجُونَ لِأَكْلُوا الْفَوَاكِهِ، فَإِنْ عِنْدِي أَسْهَمًا وَجَعْبَةً، فَقَالَ لَهَا لَا بَارَكَ اللَّهُ فِي أَسْهَمِكَ وَجَعْبَتِكَ، فَقَدْ آذَيْتَهُمْ قَبْلَ أَنْ تَعْطِيَهُمْ. وَضَمَّنَ اللَّهُ

الأجر للمنفق في سبيل الله، والأجر الجنة، ونفى عنه الخوف بعد موته لما يستقبل والحزن على ما سلف من دنياه، لأنه يغتبط بآخرته.

قوله عز وجل:

قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

هذا إخبار جزم من الله تعالى أن القول المعروف وهو الدعاء والتأنيس والترجية بما عند الله، خير من صدقة هي في ظاهرها صدقة، وفي باطنها لا شيء. لأن ذلك القول المعروف فيه أجر، وهذه لا أجر فيها. وقال المهدوي وغيره التقدير في إعرابه ﴿قول معروف﴾ أولى ﴿ومغفرة خير﴾.

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا ذهاب برونق المعنى، وإنما يكون المقدر كالظاهر، والمغفرة الستر للخلعة وسوء حالة المحتاج. ومن هذا قول الأعرابي، وقد سأل قوماً بكلام فصيح، فقال له قائل: ممن الرجل؟ فقال اللهم غفرأ، سوء الاكتساب يمنع من الانتساب، وقال النقاش: يقال معناه ومغفرة للسائل إن أغلظ أو جفا إذا حرم، ثم أخبر تعالى بغناه عن صدقة من هذه حاله وعاقبة أمره، وحمله عن يمكن أن يواقع هذا من عبيده وإمهالهم. وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى﴾ الآية، العقيدة أن السيئات لا تبطل الحسنات، فقال جمهور العلماء في هذه الآية: إن الصدقة التي يعلم الله في صاحبها أنه يمن أو يؤذي فإنها لا تتقبل صدقة، وقيل بل جعل الله للملك عليها أمانة فلا يكتبها.

قال القاضي أبو محمد: وهذا حسن، لأن ما نتلقى نحن عن المعقول من بني آدم فهو أن المن المؤذي ينص على نفسه أن نيته لم تكن لله عز وجل على ما ذكرناه قبل، فلم تترتب له صدقة، فهذا هو بطلان الصدقة باليمن والأذى، والمن والأذى في صدقة لا يبطل صدقة غيرها، إذ لم يكشف ذلك على النية في السليمة ولا قدم فيها، ثم مثل الله هذا الذي يمن ويؤذي بحسب مقدمة نيته بالذي ﴿ينفق رثاء﴾ لا لوجه الله، والرياء مصدر من فاعل من الرؤية. كأن الرياء تظاهر وتفاخر بين من لا خير فيه من الناس. قال المهدوي والتقدير كإبطال الذي ينفق رثاء، وقوله تعالى: ﴿ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ يحتمل أن يريد الكافر الظاهر الكفر، إذ قد ينفق ليقال جواد وليشئ عليه بأنواع الثناء ولغير ذلك. ويحتمل أن يريد المنافق الذي يظهر الإيمان. ثم مثل هذا المنفق رثاء بـ ﴿صفوان عليه تراب﴾ فيظنه الظان أرضاً منبثة طيبة كما يظن قوم أن صدقة هذا المرثي لها قدر أو معنى، فإذا أصاب الصفوان وابل من المطر انكشف ذلك التراب وبقي صلداً، فكذلك هذا المرثي إذا كان يوم القيامة وحصلت الأعمال انكشف سره وظهر أنه لا قدر لصدقته ولا معنى. فالمن والأذى والرياء يكشف عن النية. فيبطل الصدقة كما يكشف الوابل الصفا فيذهب ما ظن

أرضاً. وقرأ طلحة بن مصرف «رياء الناس» بغير همز. ورويت عن عاصم. والصفوان الحجر الكبير الأملس. قيل هو جمع واحدته صفوانة. وقال قوم واحدته صفواة، وقيل هو أفراد وجمعه صفى، وأنكره المبرد وقال: إنما هو جمع صفا، ومن هذا المعنى الصفواء والصفاء. قال امرؤ القيس: [الطويل]

كميت يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتنزل
وقال أبو ذؤيب: [الكامل]

حتى كأنني للحوادث مروءة بصفاء المشقّر كل يوم تقرع
وقرأ الزهري وابن المسيب «صفوان» بفتح الفاء، وهي لغة، والوابل الكثير القوي من المطر وهو الذي يسيل على وجه الأرض، والصلد من الحجارة الأملس الصلب الذي لا شيء فيه، ويستعار للرأس الذي لا شعر فيه، ومنه قول رؤبة: [الرجز]

برّاق أضداد الجبين الأجله

قال النقاش: الصلد الأجرد بلغة هذيل، وقوله تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ يريد به الذين ينفقون رثاء، أي لا يقدرّون على الانتفاع بثواب شيء من إنفاقهم ذلك وهو كسبهم، وجاءت العبارة بـ ﴿يَقْدِرُونَ﴾ على معنى الذي. وقد انحمل الكلام قبل على لفظ الذي، وهذا هو مبيع كلام العرب ولو انحمل أولاً على المعنى لقيح بعد أن يحمل على اللفظ، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ إما عموم يراد به الخصوص في الموافي على الكفر، وإما أن يراد به أنه لم يهديهم في كفرهم بل هو ضلال محض، وإما أن يريد أنه لا يهديهم في صدقاتهم وأعمالهم وهم على الكفر، وما ذكرته في هذه الآية من تفسير لغة وتقويم معنى فإنه مسند عن المفسرين وإن لم تجيء ألفاظهم ملخصة في تفسير إبطال المن والأذى للصدقة.

قوله عز وجل:

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ
بِرَبِّهِ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَثَاءَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿٦٦﴾

من أساليب فصاحة القرآن أنه يأتي فيه ذكر نقيض ما يتقدم ذكره لتبيين حال التضاد بعرضها على الذهن، فلما ذكر الله صدقات القوم الذين لا خلاق لصدقاتهم ونهى المؤمنين عن واقعة ما يشبه ذلك بوجه ما عقب في هذه الآية بذكر نفقات القوم الذين تزكو صدقاتهم وهي على وجهها في الشرع فضرب لها مثلاً، وتقدير الكلام ومثل نفقة الذين ينفقون كمثّل غراس جنة، لأن المراد بذكر الجنة غراسها أو تقدر الإضمار في آخر الكلام دون إضمار نفقة في أوله، كأنه قال: كمثّل غراس جنة، و﴿ابْتِغَاءً﴾ معناه طلب، وإعراجه النصب على المصدر في موضع الحال. وكان يتوجه فيه النصب على المفعول من أجله. لكن النصب على المصدر هو الصواب من جهة عطف المصدر الذي هو ﴿وَتَثْبِيتًا﴾ عليه. ولا يصح في ﴿تَثْبِيتًا﴾ أنه مفعول من أجله، لأن الإنفاق ليس من أجل التثبيت. وقال مكي في المشكل: كلاهما مفعول

من أجله وهو مردود بما بيناه، و ﴿مرضاة﴾ مصدر من رضي يرضى، وقال الشعبي والسدي وقتادة وابن زيد وأبو صالح: ﴿وتثببتاً﴾ معناه وتيقناً، أي إن نفوسهم لها بصائر متأكدة فهي تثبتهم على الإنفاق في طاعة الله تثببتاً، وقال مجاهد والحسن: معنى قوله: ﴿وتثببتاً﴾ أي إنهم يتثبتون أين يضعون صدقاتهم؟ وقال الحسن كأن الرجل إذا هم بصدقة تثبت، فإن كان ذلك لله أمضاه وإن خالطه شك أمسك، والقول الأول أصوب. لأن هذا المعنى الذي ذهب إليه مجاهد والحسن إنما عبارته وتثببتاً، فإن قال محتج إن هذا من المصادر التي خرجت على غير المصدر كقوله تعالى: ﴿وتبتل إليه تبتلاً﴾ [المزمل: ٨]، وكقوله: ﴿أنبتكم من الأرض نباتاً﴾ [نوح: ١٧] فالجواب لا يسوغ إلا مع ذكر المصدر والإفصاح بالفعل المتقدم للمصدر، وأما إذا لم يقع إفصاح بفعل فليس لك أن تأتي بمصدر في غير معناه ثم تقول أحمله على فعل كذا وكذا الفعل لم يتقدم له ذكر، هذا مهيع كلام العرب فيما علمت، وقال قتادة: ﴿وتثببتاً﴾ معناه وإحساناً من أنفسهم.

قال القاضي أبو محمد: وهذا نحو القول الأول، والجنة البستان وهي قطعة أرض نبتت فيها الأشجار حتى سترت الأرض، فهي من لفظ الجن والجنن والجنة وجن الليل، والربوة ما ارتفع من الأرض ارتفاعاً يسيراً معه في الأغلب كثافة التراب وطيبه وتعمقه، وما كان كذلك فنباته أحسن، ورياض الحزن ليس من هذا كما زعم الطبري، بل تلك هي الرياض المنسوبة إلى نجد لأنها خير من رياض تهامة ونبات نجد أعطر ونسيمه أبرد وأرق، ونجد يقال له الحزن، وقل ما يصلح هواء تهامة إلا بالليل، ولذلك قالت الأعرابية: زوجي قليل تهامة، وقال ابن عباس: الربوة المكان المرتفع الذي لا تجري فيه الأنهار.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وهذا إنما أراد به هذه الربوة المذكورة في كتاب الله، لأن قوله تعالى: ﴿أصابها وابل﴾ إلى آخر الآية يدل على أنها ليس فيها ماء جار، ولم يرد ابن عباس أن جنس الربا لا يجري فيها ماء، لأن الله تعالى قد ذكر ربوة ذات قرار ومعين، والمعروف في كلام العرب أن الربوة ما ارتفع عما جاوره سواء جرى فيها ماء أو لم يجر، وقال الحسن: الربوة الأرض المستوية التي لا تعلو فوق الماء، وهذا أيضاً أراد أنها ليست كالجبل والظرب ونحوه، قال الخليل أرض مرتفعة طيبة وخص الله بالذكر التي لا يجري فيها ماء من حيث هي العرف في بلاد العرب فمثل لهم بما يحسنونه كثيراً، وقال السدي ﴿بربوة﴾ أي برباوة وهو ما انخفض من الأرض، قال أبو محمد: وهذه عبارة قلقلة ولفظ الربوة هو مأخوذ من ربا يربو إذا زاد، يقال «ربوة» بضم الراء وبها قرأ ابن كثير وحزمة والكسائي ونافع وأبو عمرو. ويقال «ربوة» بفتح الراء وبها قرأ عاصم وابن عامر، وكذلك خلافهم في سورة المؤمنين، ويقال ربوة بكسر الراء وبها قرأ ابن عباس فيما حكى عنه. ويقال ربوة بفتح الراء والباء وألف بعدها، وبها قرأ أبو جعفر وأبو عبد الرحمن، ويقال ربوة بكسر الراء وبها قرأ الأشهب العجلي، ﴿وأتت﴾ معناه أعطت، و «الأكل» بضم الهمزة وسكون الكاف الثمر الذي يؤكل، والشيء المأكول من كل شيء يقال له أكل، وإضافته إلى الجنة إضافة اختصاص كسرج الدابة وباب الدار، وإلا فليس الثمر مما تأكله الجنة، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو «أكلها» بضم الهمزة وسكون الكاف، وكذلك كل مضاف إلى مؤنث وفارقهما أبو عمرو فيما أضيف إلى مذكر مثل أكله أو كان غير مضاف إلى مكنى مثل أكل خمط فنقل أبو عمرو ذلك، وخففاه، وقرأ عاصم وابن عامر وحزمة والكسائي في جميع ما ذكرناه بالتثنية. ويقال أكل

وأكل بمعنى، وهو من أكل بمنزلة الطعمة من طعم، أي الشيء الذي يطعم ويؤكل، و﴿ضعفين﴾ معناه: اثنين مما يظن بها ويحرز من مثلها، ثم أكد تعالى مدح هذه الربوة بأنها ﴿إن لم يصبها وابل﴾ فإن الطل يكفيها وينوب مناب الوابل، وذلك لكرم الأرض، والطل المستدق من القطر الخفيف، قاله ابن عباس وغيره، وهو مشهور اللغة، وقال قوم الطل الندى، وهذا تجوز وتشبيه، وقد روي ذلك عن ابن عباس. قال المبرد: تقديره ﴿فطل﴾ يكفيها. وقال غيره التقدير فالذي أصابهم طل، فشبه غوثفات هؤلاء المخلصين الذين يربي الله صدقاتهم كتربية الفلو والفصيل حسب الحديث بنمو نبات هذه الجنة بالربوة الموصوفة، وذلك كله بخلاف الصفوان الذي انكشف عنه تراهه فبقي صلداً، وفي قوله تعالى: ﴿والله بما تعملون بصير﴾ وعد ووعد، وقرأ الزهري يعملون بالياء كأنه يريد به الناس أجمع. أو يريد المنفقين فقط فهو وعد محض.

قوله عز وجل:

أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

حكى الطبري عن السدي أن هذه الآية مثل آخر لنفقة الرياء، ورجح هو هذا القول، وحكى عن ابن زيد أنه قرأ قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى﴾ [البقرة: ٢٦٤]، قال ثم ضرب في ذلك مثلاً فقال: ﴿أيود أحدكم﴾ الآية.

قال القاضي أبو محمد: وهذا أبين من الذي رجح الطبري، وليست هذه الآية بمثل آخر لنفقة الرياء، هذا هو مقتضى سياق الكلام، وأما بالمعنى في غير هذا السياق فتشبه حال كل منافق أو كافر عمل وهو يحسب أنه يحسن صنعاً، فلما جاء إلى وقت الحاجة لم يجد شيئاً، وقد سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فقالوا الله ورسوله أعلم، فقال وهو غاضب قولوا نعلم أو لا نعلم، فقال له ابن عباس هذا مثل ضربه الله كأنه قال: أيود أحدكم أن يعمل عمره بعمل أهل الخير، فإذا فني عمره واقترب أجله ختم ذلك بعمل من عمل أهل الشقاء، فرضي ذلك عمر، وروي ابن أبي مليكة أن عمر تلا هذه الآية: ﴿أيود أحدكم﴾، وقال: هذا مثل ضرب للإنسان يعمل عملاً صالحاً حتى إذا كان عند آخر عمره أحوج ما يكون إليه، عمل عمل السوء.

قال القاضي أبو محمد: فهذا نظر يحمل الآية على كل ما يدخل تحت ألفاظها، وقال بنحو هذا مجاهد وقتادة والربيع وغيرهم، وخص النخيل والأعناب بالذكر لشرفهما وفضلهما على سائر الشجر. وقرأ الحسن «جنات» بالجمع، وقوله ﴿من تحتها﴾ هو تحت بالنسبة إلى الشجر، والواو في قوله ﴿وأصابه﴾ واو الحال، وكذلك في قوله: ﴿وله﴾ و﴿ضعفاء﴾ جمع ضعيف وكذلك ضعاف، والـ ﴿إعصار﴾ الريح الشديدة العاصف التي فيها إحراق لكل ما مرت عليه، يكون ذلك في شدة الحر ويكون في شدة البرد وكل ذلك من فيج جهنم ونفسها كما تضمن قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة

فإن شدة الحر من فيح جهنم، وإن النار إشتكت إلى ربها»، الحديث بكماله، فإما أنه نار على حقيقته وإلا فهو نفسها يوجد عنه كثرها، قال السدي: الإعصار الريح، والنار السموم، وقال ابن عباس ريح فيها سموم شديدة، وقال ابن مسعود إن السموم التي خلق الله منها الجان جزء من سبعين جزءاً من النار.

قال القاضي أبو محمد: يريد من نار الآخرة، وقال الحسن بن أبي الحسن ﴿إعصار فيه نار﴾ ريح فيها صر، برد، وقاله الضحاك، وفي المثل: إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً، والريح إعصار لأنها تعصر السحاب، والسحاب معصرات إما أنها حوامل فهي كالمعصر من النساء وهي التي هي عرضة للحمل وإما لأنها تنعصر بالرياح، وبهذا فسر عبيد الله بن الحسن العنبري القاضي، وحكى ابن سيده أن المعصرات فسرهما قوم بالرياح لا بالسحاب، وقال الزجاج: الإعصار الريح الشديدة تصعد من الأرض إلى السماء وهي التي يقال لها الزوبعة، قال المهدوي: قيل لها ﴿إعصار﴾ لأنها تلتف كالثوب إذا عصر.

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف، والإشارة بذلك إلى هذه الأمثال المبينة، ﴿ولعلكم﴾ ترج في حق البشر، أي إذا تأمل من يبين له هذا البيان رجي له التفكير وكان أهلاً له. وقال ابن عباس ﴿تفكرون﴾ في زوال الدنيا وفنائها وإقبال الآخرة ويقائها.

قوله عز وجل:

يَتَّيْنُهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِكَافِرِينَ إِلَّا أَنْ تُغْنُوا فِيهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾

هذا الخطاب هو لجميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وهذه صيغة أمر من الإنفاق، واختلف المتأولون هل المراد بهذا الإنفاق، الزكاة المفروضة أو التطوع، فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعبيدة السلماني ومحمد بن سيرين: هي في الزكاة المفروضة. نهى الناس عن إنفاق الرديء فيها بدل الجيد، وأما التطوع فكما للمرء أن يتطوع بقليل فكذلك له أن يتطوع بنازل في القدر، ودرهم زائف خير من تمرة، فالأمر على هذا القول للوجوب، والظاهر من قول البراء بن عازب والحسن بن أبي الحسن وقتادة، أن الآية في التطوع، وروى البراء بن عازب، وعطاء بن أبي رباح ما معناه أن الأنصار كانوا أيام الجداد يعلقون أقناء التمر في حبل بين أسطوانتين في المسجد فيأكل من ذلك فقراء المهاجرين فعلق رجل حشفاً فراه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: بشما علق هذا، فنزلت الآية.

قال القاضي أبو محمد: والأمر على هذا القول على الندب، وكذلك ندبوا إلى أن لا يتطوعوا إلا بجيد مختار، والآية تعم الوجهين، لكن صاحب الزكاة يتلقاها على الوجوب وصاحب التطوع يتلقاها على الندب، وهؤلاء كلهم وجمهور المتأولين قالوا معنى ﴿من طيبات﴾ من جيد ومختار ﴿ما كسبتم﴾، وجعلوا ﴿الخبِيث﴾ بمعنى الرديء والردالة، وقال ابن زيد معناه: من حلال ما كسبتم، قال: وقوله: ﴿ولا تيمموا الخبيث﴾ أي الحرام.

قال القاضي أبو محمد: وقول ابن زيد ليس بالقوي من جهة نسق الآية لا من معناه في نفسه، وقوله:

﴿من طيبات ما كسبتم﴾ يحتمل أن لا يقصد به لا الجيد ولا الحلال، لكن يكون المعنى كأنه قال: أنفقوا مما كسبتم، فهو حض على الإنفاق فقط. ثم دخل ذكر الطيب تبييناً لصفة حسنة في المكسوب عاماً وتعديداً للنعمة كما تقول: أطعمت فلاناً من مشيع الخبز وسقيته من مروي الماء، والطيب على هذا الوجه يعم الجود والحل، ويؤيد هذا الاحتمال أن عبد الله بن مغفل قال: ليس في مال المؤمن خبيث، و﴿كسبتم﴾ معناه كانت لكم فيه سعاية، إما بتعب بدن أو مقاوله في تجارة، والموروث داخل في هذا لأن غير الوارث قد كسبه، إذ الضمير في ﴿كسبتم﴾ إنما هو لنوع الإنسان أو المؤمنين، ﴿ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾ النباتات والمعادن والركاز وما ضارع ذلك، و﴿تيمموا﴾ معناه تعمدوا وتقصدوا، يقال تيمم الرجل كذا وكذا إذا قصده، ومنه قول امرئ القيس: [الطويل]

تَيَمَّمَتِ الْعَيْنُ الَّتِي عِنْدَ ضَارِجٍ يَفِيءُ عَلَيْهَا الظِّلُّ عَرْمَضُهَا طَامٍ

ومنه قول الأعشى: [المتقارب]

تَيَمَّمْتُ قَيْسًا وَكَمْ دُونَهُ مِنْ الْأَرْضِ مِنْ مَهْمَةٍ ذِي شَرَنْ

ومنه التيمم الذي هو البدل من الوضوء عند عدم الماء، وهكذا قرأ جمهور الناس وروى البرقي عن ابن كثير تشديد التاء في أحد وثلاثين موضعاً أولها هذا الحرف، وحكى الطبري أن في قراءة عبد الله بن مسعود «ولا تؤموا الخبيث» من أمتت إذا قصدت، ومنه إمام البناء، والمعنى في القراءتين واحد، وقرأ الزهري ومسلم بن جندب «ولا تَيَمَّمُوا» بضم التاء وكسر الميم، وهذا على لغة من قال: يمت الشيء بمعنى قصده، وفي اللفظ لغات، منها أمتت الشيء خفيفة الميم الأولى وأمته بشدها ويمته وتيممته، وحكى أبو عمرو أن ابن مسعود قرأ «ولا تؤمموا» بهمزة بعد التاء، وهذه على لغة من قال أمتت مثقلة الميم، وقد مضى القول في معنى «الخبيث» وقال الجرجاني في كتاب نظم القرآن: قال فريق من الناس: إن الكلام تم في قوله: «الخبيث» ثم ابتداء خبراً آخر في وصف الخبيث فقال: «تنفقون» منه وأنتم لا تأخذونه إلا إذا أغمضتم أي ساهلتم.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: كأن هذا المعنى عتاب للناس وتقريع، والضمير في «منه» عائد على «الخبيث». قال الجرجاني وقال فريق آخر: بل الكلام متصل إلى قوله «فيه».

قال القاضي أبو محمد: فالضمير في «منه» عائد على «ما كسبتم»، ويجيء «تنفقون» كأنه في موضع نصب على الحال، وهو كقولك: إنما أخرج أجاهد في سبيل الله، واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى: «ولستم بأخذيه إلا أن تغمضوا فيه» فقال البراء بن عازب وابن عباس والضحاك وغيرهم: معناه ولستم بأخذيه في ديونكم وحقوقكم عند الناس إلا بأن تساهلوا في ذلك، وتتركون من حقوقكم وتكرهونه ولا ترضونه، أي فلا تفعلوا مع الله ما لا ترضونه لأنفسكم، وقال الحسن بن أبي الحسن معنى الآية: لستم بأخذيه لو وجدتموه في السوق يباع، إلا أن يهضم لكم من ثمنه، وروي نحوه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذان القولان يشبهان كون الآية في الزكاة الواجبة وقال البراء بن

عازب أيضاً : معناه ولستم بأخذيهِ لو أهدي إليكم ﴿إِلَّا أَنْ تَغْمُضُوا﴾ أي تستحيي من المهدي أن تقبل منه ما لا حاجة لك فيه ، ولا قدر له في نفسه .

قال القاضي أبو محمد : وهذا يشبه كون الآية في التطوع ، وقال ابن زيد معنى الآية : ولستم بأخذي الحرام إلا أن تغمضوا في مكروهه ، وقرأ جمهور الناس ﴿إِلَّا أَنْ تَغْمُضُوا﴾ بضم التاء وسكون الغين وكسر الميم . وقرأ الزهري بفتح التاء وكسر الميم مخففاً ، وروي عنه أيضاً «تَغْمُضُوا» بضم التاء وفتح الغين وكسر الميم مشددة ، وحكى مكي عن الحسن البصري «تَغْمُضُوا» مشددة الميم مفتوحة وبفتح التاء . وقرأ قتادة بضم التاء وسكون الغين وفتح الميم مخففاً قال أبو عمرو معناه : إلا أن يغمض لكم .

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه : هذه اللفظة تنتزع إما من قول العرب أغمض الرجل في أمر كذا إذا تساهل فيه ورضي ببعض حقه وتجاوز ، فمن ذلك قول الطرماح بن حكيم : [الخفيف]

لَمْ يَفْتِنَا بِالْوَتْرِ قَوْمٌ وَلِلدُّ لَأُنَاسٍ يَرْضَوْنَ بِالْإِغْمَاضِ

وإما أن تنتزع من تغميض العين لأن الذي يريد الصبر على مكروهه يغمض عنه عينيه ومنه قول الشاعر :

إلى كم وكم أشياء منكم تربيني أغمض عنها لست عنها بذي عمي

وهذا كالإغضاء عند المكروه ، وقد ذكر النقاش هذا المعنى في هذه الآية وأشار إليه مكي ، وإما من قول العرب أغمض الرجل إذا أتى غامضاً من الأمر كما تقول : أعمن إذا أتى عمان ، وأعرق إذا أتى العراق ، وأنجد ، وأغور ، إذا أتى نجداً والغور الذي هو تهامة ، ومنه قول الجارية : وإن دسر أغمض فقرأه الجمهور تخرج على التجاوز وعلى تغميض العين لأن أغمض بمنزلة غمض وعلى أنها بمعنى حتى تأتوا غامضاً من التأويل والنظر في أخذ ذلك إما لكونه حراماً على قول ابن زيد ، وإما لكونه مهدياً أو مأخوذاً في دين على قول غيره ، وأما قراءة الزهري الأولى فمعناها تهضموا سوماً من البائع منكم فيحطكم ، قال أبو عمرو معنى قراءتي الزهري حتى تأخذوا بنقصان .

قال القاضي أبو محمد : وأما قراءته الثانية فهذا مذهب أبي عمرو الداني فيها . ويحتمل أن تكون من تغميض العين . وأما قراءة قتادة فقد ذكرت تفسير أبي عمرو لها . وقال ابن جني : معناها توجدوا قد غمضتم في الأمر بتأولكم أو بتساهلكم وجريتم على غير السابق إلى النفوس ، وهذا كما تقول : أحمدت الرجل وجدته محموداً إلى غير ذلك من الأمثلة ، ثم نبه تعالى على صفة الغنى أي لا حاجة به إلى صدقاتكم ، فمن تقرب وطلب مثوبة فليفعل ذلك بما له قدر ، و﴿حميد﴾ معناه محمود في كل حال ، وهي صفة ذات .

قوله عز وجل :

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا

وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولَ الْأَلْبَابِ ﴿٣٦٨﴾

هذه الآية وما بعدها وإن لم تكن أمراً بالصدقة فهي جالبة للنفوس إلى الصدقة، بين عز وجل فيها نزغات الشيطان ووسوسته وعداوته، وذكر بثوابه هو لا رب غيره. وذكر بتفضله بالحكمة وأثنى عليها، ونبه أن أهل العقول هم المتذكرون الذين يقيمون بالحكمة قدر الإنفاق في طاعة الله عز وجل وغير ذلك، ثم ذكر علمه بكل نفقة ونذر. وفي ذلك وعد ووعيد. ثم بين الحكم في الإعلان والإخفاء وكذلك إلى آخر المعنى. والوعد في كلام العرب إذا أطلق فهو في الخير وإذا قيد بالموعود ما هو فقد يقيد بالخير وبالشر كالبشارة. فهذه الآية مما قيد الوعد فيها بمكروه وهو ﴿الفقر﴾ و﴿الفحشاء﴾ كل ما فحش وفحش ذكره، ومعاصي الله كلها فحشاء، وروى حيوة عن رجل من أهل الرباط أنه قرأ «الفقر» بضم الفاء، وهي لغة، وقال ابن عباس: في الآية اثنتان من الشيطان، واثنتان من الله تعالى، وروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن للشيطان لمة من ابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فيعاد بالشر وتكذيب بالحق، فمن وجد ذلك فليتعوذ، وأما لمة الملك فوعد بالحق وتصديق بالخير فمن وجد ذلك فليحمد الله، ثم قرأ عليه السلام ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم﴾ الآية، والمغفرة هي الستر على عباده في الدنيا والآخرة، والفضل هو الرزق في الدنيا والتوسعة فيه والتنعيم في الآخرة، وبكل قد وعد الله تعالى، وذكر النقاش أن بعض الناس تأنس بهذه الآية في أن الفقر أفضل من الغنى، لأن الشيطان إنما يبعد العبد من الخير وهو بتخويفه الفقر يبعد منه.

قال القاضي أبو محمد: وليس في الآية حجة قاطعة أما إن المعارضة بها قوية وروي أن في التوراة «عبدني أنفق من رزقي أبسط عليك فضلي، فإن يدي مبسوطة على كل يد مبسوطة» وفي القرآن مصداقه: وهو ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه﴾ وهو خير الرازقين [سبأ: ٣٩] و﴿واسع﴾ لأنه وسع كل شيء رحمة وعلماً، ثم أخبر تعالى عن نفسه أنه ﴿يؤتي الحكمة﴾ أي يعطيها لمن يشاء من عباده، واختلف التأولون في ﴿الحكمة﴾ في هذا الموضع فقال السدي: ﴿الحكمة﴾ النبوة، وقال ابن عباس: هي المعرفة بالقرآن فقهه ونسخه ومحكمه ومتشابهه وعربيته. وقال قتادة: ﴿الحكمة﴾ الفقه في القرآن، وقاله مجاهد: وقال مجاهد أيضاً: ﴿الحكمة﴾ الإصابة في القول والفعل، وقال ابن زيد وأبو زيد بن أسلم: ﴿الحكمة﴾ العقل في الدين، وقال مالك: ﴿الحكمة﴾ المعرفة في الدين والفقه فيه والاتباع له، وروى عنه ابن القاسم أنه قال: ﴿الحكمة﴾ التفكير في أمر الله والاتباع له، وقال أيضاً ﴿الحكمة﴾ طاعة الله والفقه في الدين والعمل به، وقال الربيع: ﴿الحكمة﴾ الخشية، ومنه قول النبي عليه السلام: «رأس كل شيء خشية الله تعالى»، وقال إبراهيم: ﴿الحكمة﴾ الفهم وقاله زيد بن أسلم، وقال الحسن: ﴿الحكمة﴾ الورع، وهذه الأقوال كلها ما عدا قول السدي قريب بعضها من بعض لأن الحكمة مصدر من الإحكام وهو الإتقان في عمل أو قول. وكتاب الله حكمة، وسنة نبيه حكمة. وكل ما ذكر فهو جزء من الحكمة التي هي الجنس. وقرأ الجمهور «من يؤت الحكمة» على بناء الفعل للمفعول. وقرأ الزهري ويعقوب «ومن يؤت» بكسر التاء على معنى ومن يؤت الله الحكمة ﴿فمن﴾ مفعول أول مقدم و﴿الحكمة﴾ مفعول ثان، وقرأ الأخفش: «ومن

يؤته الحكمة»، وقرأ الربيع بن خثيم «تؤتي الحكمة من تشاء» بالتاء في «تؤتي» و «تشاء» منقوطة من فوق، «ومن يؤت الحكمة» بالياء، وباقي الآية تذكرة بينة وإقامة لهمم الغفلة، والألباب العقول واحداها لب.

قوله عز وجل:

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧٠﴾
 إِنْ تَبَدُّوا لَصَّدَقَتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ
 وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿٢٧١﴾

كانت النذر من سيرة العرب تكثر منها، فذكر تعالى النوعين ما يفعله المرء متبرعاً وما يفعله بعد إلزامه لنفسه، ويقال: نذر الرجل كذا إذا التزم فعله «ينذر» بضم الذال «وينذر» بكسرهما، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ قال مجاهد: معناه يحصيه، وفي الآية وعد ووعد، أي من كان خالص النية فهو مثاب ومن أنفق رثاء أو لمعنى آخر مما يكشفه المن والأذى ونحو ذلك فهو ظالم يذهب فعله باطلاً ولا يجد ناصراً فيه، ووحد الضمير في ﴿يَعْلَمُهُ﴾ وقد ذكر شيئين من حيث أراد ما ذكر أو نص، وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا﴾ الصدقات الآية، ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية هي في صدقة التطوع، قال ابن عباس: جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها، يقال بسبعين ضعفاً، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها يقال بخمسة وعشرين ضعفاً، قال: وكذلك جميع الفرائض والنوافل في الأشياء كلها.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: ويقوي ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم «صلاة الرجل في بيته أفضل من صلاته في المسجد إلا المكتوبة، وذلك أن الفرائض لا يدخلها رياء والنوافل عرضة لذلك، وقال سفيان الثوري هذه الآية في التطوع، وقال يزيد بن أبي حبيب: إنما أنزلت هذه الآية في الصدقة على اليهود والنصارى، وكان يأمر بقسم الزكاة في السر، وهذا مردود لا سيما عند السلف الصالح، فقد قال الطبري: أجمع الناس على أن إظهار الواجب أفضل، قال المهدوي: وقيل المراد بالآية فرض الزكاة وما تطوع به، فكان الإخفاء فيهما أفضل في مدة النبي عليه السلام، ثم ساءت ظنون الناس بعد ذلك فاستحسن العلماء إظهار الفرض لئلا يظن بأحد المنع، قال أبو محمد: وهذا القول مخالف للآثار، ويشبه في زمننا أن يحسن التستر بصدقة الفرض، فقد كثر المنع لها وصار إخراجها عرضة للرياء، وقال النقاش: إن هذه الآية نسخها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة: ٢٧٤]، وقوله: ﴿فَنِعْمًا هِيَ﴾ ثناء على إبداء الصدقة، ثم حكم أن الإخفاء خير من ذلك الإبداء، واختلف القراء في قوله ﴿فَنِعْمًا هِيَ﴾، فقرأ نافع في غير رواية ورش، وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر والمفضل «فَنِعْمًا» بكسر النون وسكون «فَنِعْمًا» بكسر النون والعين، وقرأ ابن عامر وحزمة والكسائي «فَنِعْمًا» بفتح النون وكسر العين وكلهم شدد الميم، قال أبو علي من قرأ بسكون العين لم يستقم قوله، لأنه جمع بين ساكنين الأول منهما ليس بحرف مد ولين، وإنما يجوز ذلك عند النحويين إذا كان الأول حرف

مد، إذ المد يصير عوضاً من الحركة، وهذا نحو دابة وضوال وشبهه، ولعل أبا عمرو أخفى الحركة واختلسها كأخذه بالإخفاء في باريكم ويأمركم فظن السامع الإخفاء إسكاناً للطف، ذلك في السمع وخفائه، وأما من قرأ «نِعْمًا» بكسر النون والعين فحجته أن أصل الكلمة «نعم» بكسر الفاء من أجل حرف الحلق، ولا يجوز أن يكون ممن يقول «نعم» ألا ترى أن من يقول هذا قدم ملك فيدغم، لا يدغم، هؤلاء قوم ملك وجسم ماجد، قال سيبويه «نِعْمًا» بكسر النون والعين ليس على لغة من قال «نعم» فأسكن العين، ولكن على لغة من قال «نعم» فحرك العين، وحدثنا أبو الخطاب أنها لغة هذيل وكسرها كما قال لعب ولو كان الذي قال «نعمًا» ممن يقول نعم بسكون العين لم يجز الإدغام.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: يشبه أن هذا يمتنع لأنه يسوق إلى اجتماع ساكنين، قال أبو علي وأما من قرأ «نِعْمًا» بفتح النون وكسر العين فإنما جاء بالكلمة على أصلها وهو نعم ومنه قول الشاعر:

ما أَقَلَّتْ قَدَمَايَ أَنَّهُمْ نَعِمَ السَّاعُونَ فِي الْأَمْرِ الْمَبَرِّ

ولا يجوز أن يكون ممن يقول قبل الإدغام «نعم» بسكون العين، وقال المهدوي وذلك جائز محتمل، وتكسر العين بعد الإدغام لالتقاء الساكنين، قال أبو علي: وما من قوله «نِعْمًا» في موضع نصب، وقوله «هي» تفسير للفاعل المضمر قبل الذكر والتقدير: نعم شيئاً إبداءها. والإبداء هو المخصوص بالمدح. إلا أن المضاف حذف وأقيم المضاف إليه مقامه، ويدلك على هذا قوله «فهو خير لكم» أي الإخفاء خير، فكما أن الضمير هنا للإخفاء لا للصدقات، فكذلك أولاً الفاعل هو الإبداء، وهو الذي اتصل به الضمير، فحذف الإبداء وأقيم ضمير الصدقات مقامه، واختلف القراء في قوله تعالى: «ونكفر عنكم» فقرأ أبو عمرو وابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر: «ونكفر» بالنون ورفع الراء، وقرأ نافع وحزمة والكسائي: «ونكفر» بالنون والجزم في الراء، وروي مثل ذلك أيضاً عن عاصم، وقرأ ابن عامر: «ويكفر» بالياء ورفع الراء، وقرأ ابن عباس «ونكفر» بالتاء وكسر الفاء وجزم الراء، وقرأ عكرمة: «ونكفر» بالتاء وفتح الفاء وجزم الراء، وقرأ الحسن: «ويكفر» بالياء وجزم الراء، وروي عن الأعمش أنه قرأ: «ويكفر» بالياء ونصب الراء، وقال أبو حاتم: قرأ الأعمش: «يكفر» بالياء دون واو قبلها ويجزم الراء، وحكى المهدوي عن ابن هرمز أنه قرأ: «ونكفر» بالتاء ورفع الراء، وحكى عن عكرمة وشهر بن حوشب أنهما قرآها بتاء ونصب الراء.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: فما كان من هذه القراءات بالنون فهي نون العظمة، وما كان منها بالتاء فهي الصدقة فاعلة، إلا ما روي عن عكرمة من فتح الفاء فإن التاء في تلك القراءة إنما هي للسبب، وما كان منها بالياء فالله تعالى هو المكفر، والإعطاء في إخفاء هو المكفر، ذكره مكّي وأما رفع الراء فهو على وجهين: أحدهما أن يكون الفعل خبر ابتداء، تقدير ونحن نكفر، أو وهي تكفر، أعني الصدقة، أو والله يكفر، والثاني: القطع والاستثناف وأن لا تكون الواو العاطفة للاشتراك لكن لعطف جملة على جملة، وأما الجزم في الراء فإنه حمل للكلام على موضع قوله تعالى: «فهو خير» إذ هو في موضع

جزم جواباً للشرط، كأنه قال: وإن تخفوها يكن أعظم لأجركم، ثم عطفه على هذا الموضع كما جاء قراءة من قرأ: ﴿من يضل الله فلا هادي له ونذرهم﴾ [الأعراف: ١٨٦] بجزم الرأى وأمثلة هذا كثيرة، وأما نصب الرأى فعلى تقدير «إن» وتأمل، وقال المهدوي هو مشبه بالنصب في جواب الاستفهام، إذ الجزء يجب به الشيء لوجوب غيره كاستفهام. والجزم في الرأى أفصح هذه القراءات، لأنها تؤذن بدخول التكفير في الجزء وكونه مشروطاً إن وقع الإخفاء. وأما رفع الرأى فليس فيه هذا المعنى، و﴿من﴾ في قوله: ﴿من سيئاتكم﴾ للتبعض المحض، والمعنى في ذلك متمكن، وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: ﴿من﴾ زائدة في هذا الموضع وذلك منهم خطأ، وقوله: ﴿والله بما تعملون خبير﴾ وعد ووعد.

قوله عز وجل:

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا يُنْفِسُكُمْ
وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُّوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا
تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾

روي عن سعيد بن جبير في سبب هذه الآية أن المسلمين كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذمة فلما كثر فقراء المسلمين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم، فنزلت هذه الآية مبيحة للصدقة على من ليس من دين الإسلام، وذكر النقاش أن النبي عليه السلام أتى بصداقات فجاءه يهودي فقال: أعطني، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس لك في صدقة المسلمين من شيء»، فذهب اليهودي غير بعيد فنزلت الآية، «ليس عليك هداهم» فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاه، ثم نسخ الله ذلك بآية ﴿إنما الصدقات﴾ [التوبة: ٦٠] وروي عن ابن عباس أنه كان ناس من الأنصار لهم قرابات في بني قريظة والنضير، وكانوا لا يتصدقون عليهم رغبة منهم في أن يسلموا إذا احتاجوا، فنزلت الآية بسبب ذلك، وحكى بعض المفسرين أن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما أرادت أن تصل جدها أبا قحافة، ثم امتنعت من ذلك لكونه كافراً، فنزلت الآية في ذلك، وذكر الطبري أن مقصد النبي صلى الله عليه وسلم بمنع الصدقة إنما كان ليسلموا ويدخلوا في الدين، فقال الله: «ليس عليك هداهم» قال أبو محمد: وهذه الصدقة التي أبيحت عليهم حسبما تضمنته هذه الآثار إنما هي صدقة التطوع. وأما المفروضة فلا يجزي دفعها لكافر، وهذا الحكم متصور للمسلمين اليوم مع أهل ذمتهم ومع المسترقين من الحربين. قال ابن المنذر أجمع من أحفظ عنه من أهل العلم أن الذمي لا يعطى من زكاة الأموال شيئاً، ثم ذكر جماعة ممن نص على ذلك، ولم يذكر خلافاً، وقال المهدوي رخص للمسلمين أن يعطوا المشركين من قراباتهم من صدقة الفريضة بهذه الآية.

قال القاضي أبو محمد: وهذا مردود عندي، والهدى الذي ليس على محمد صلى الله عليه وسلم هو خلق الإيمان في قلوبهم، وأما الهدى الذي هو الدعاء فهو عليه، وليس بمراد في هذه الآية، ثم أخبر تعالى أنه هو: ﴿يهدي من يشاء﴾ أي يرشده، وفي هذا رد على القدرية وطوائف المعتزلة، ثم أخبر أن نفقة المرء

تأجراً إنما هي لنفسه فلا يراعى حيث وقعت، ثم بين تعالى أن النفقة المعتد بها المقبولة إنما هي ما كان ابتغاء وجه الله، هذا أحد التأويلات في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ وفيه تأويل آخر وهو أنها شهادة من الله تعالى للصحابه أنهم إنما ينفقون ابتغاء وجه الله، فهو خير منه لهم فيه تفضيل، وعلى التأويل الآخر هو اشتراط عليهم ويتناول الاشتراط غيرهم من الأمة، ونصب قوله ﴿ابتغاء﴾ هو على المفعول من أجله، ثم ذكر تعالى أن ثواب الإنفاق يوفى إلى المنفقين، والمعنى في الآخرة ولا يخسرون منه شيئاً، فيكون ذلك أبخس ظمناً لهم، وهذا هو بيان قوله: ﴿وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلْأَنْفُسِكُمْ﴾ والخير في هذه الآية المال لأنه اقترن بذكر الإنفاق، فهذه القرينة تدل على أنه المال، ومتى لم يقترن بما يدل على أنه المال فلا يلزم أن يكون بمعنى المال، نحو قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان: ٢٤] وقوله تعالى: ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧] إلى غير ذلك، وهذا الذي قلناه تحرز من قول عكرمة: كل خير في كتاب الله فهو المال. قوله عز وجل:

لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

هذه اللام في قوله ﴿للفقراء﴾ متعلقة بمحذوف مقدر، تقديره الإنفاق أو الصدقة للفقراء، وقال مجاهد والسدي وغيرهما: المراد بهؤلاء الفقراء فقراء المهاجرين من قريش وغيرهم، قال الفقيه أبو محمد: ثم تتناول الآية كل من دخل تحت صفة الفقر غابر الدهر، وإنما خص فقراء المهاجرين بالذكر لأنه لم يكن هناك سواهم، لأن الأنصار كانوا أهل أموال وتجارة في قطرهم، ثم بين تعالى من أحوال أولئك الفقراء المهاجرين ما يوجب الحنو عليهم، بقوله: ﴿الذين أحصروا في سبيل الله﴾ والمعنى حبسوا ومنعوا وذهب بعض اللغويين إلى أن أحصر وحصر بمعنى واحد من الحبس والمنع سواء كان ذلك بعدو أو بمرض ونحوه من الأعذار، حكاه ابن سيده وغيره، وفسر السدي هنا الإحصار بأنه بالعدو. وذهب بعضهم إلى أن أحصر إنما يكون بالمرض والأعذار. وحصر بالعدو. وعلى هذا فسر ابن زيد وقتادة ورجحه الطبري. وتناول في هذه الآية أنهم هم حابسو أنفسهم بربقة الدين وقصد الجهاد وخوف العدو إذا أحاط بهم الكفر، فصار خوف العدو عذراً أحصروا به.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: هذا متجه كان هذه الأعذار أحصرتهم أي جعلتهم ذوي حصر، كما قالوا قبره أدخله في قبره وأقبره جعله ذا قبر، فالعدو وكل محيط يحصر، والأعذار المانعة «تُحصِر» بضم التاء وكسر الصاد أي تجعل المرء كالمحاط به، وقوله: ﴿في سبيل الله﴾ يحتمل الجهاد ويحتمل الدخول في الإسلام، واللفظ يتناولهما، والضرب في الأرض هو التصرف في التجارة، وضرب الأرض هو المشي إلى حاجة الإنسان في البراز، وكانوا لا يستطيعون الضرب في الأرض لكون البلاد كلها كفرة مطبقاً، وهذا في صدر الهجرة، فقلتهم تمنع من الاكتساب بالجهاد. وإنكار الكفار عليهم إسلامهم

يمنع من التصرف في التجارة. فبقوا فقراء إلا أنهم من الانقباض وترك المسألة والتوكل على الله بحيث ﴿يحسبهم الجاهل﴾ بباطن أحوالهم ﴿أغنياء﴾ و ﴿التعفف﴾ تفعل، وهو بناء مبالغة من عف عن الشيء إذا أمسك عنه وتنزه عن طلبه. وبهذا المعنى فسر قتادة وغيره، وقرأ نافع وأبو عمرو والكسائي «يحسبهم» بكسر السين. وكذلك هذا الفعل في كل القرآن، وقرأ ابن عامر وعاصم وحزمة «يحسبهم» بفتح السين في كل القرآن، وهما لغتان في «يحسب» كعهد ويعهد بفتح الهاء وكسرها في حروف كثيرة أتت كذلك، قال أبو علي فتح السين في يحسب أقيس لأن العين من الماضي مكسورة فبابها أن تأتي في المضارع مفتوحة، والقراءة بالكسر حسنة بمجيء السمع به، وإن كان شاذاً عن القياس، و ﴿من﴾ في قوله: ﴿من التعفف﴾ لا ابتداء الغاية أي من تعففهم ابتدأت محسبته، وليست لبيان الجنس لأن الجاهل بهم لا يحسبهم أغنياء غناء تعفف، وإنما يحسبهم أغنياء غناء مال، ومحسبته من التعفف ناشئة، وهذا على أنهم متعففون عفة تامة عن المسألة، وهو الذي عليه جمهور المفسرين، لأنهم قالوا في تفسير قوله تعالى ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾: المعنى لا يسألون البتة. وتحتل الآية معنى آخر من فيه لبيان الجنس، سنذكره بعد والسيما مقصورة العلامة. وبعض العرب يقول: السيمياء بزيادة ياء وبالمد، ومنه قول الشاعر: [الطويل].

لَهُ سِيمِيَاءٌ لَا تَشُقُّ عَلَى الْبَصَرِ

واختلف المفسرون في تعيين هذه «السيما» التي يعرف بها هؤلاء المتعففون، فقال مجاهد: هي التخشع والتواضع، وقال السدي والربيع: هي جهد الحاجة وقصف الفقر في وجوههم وقلة النعمة، وقال ابن زيد: هي رثة الثياب، وقال قوم، وحكاها مكِّي: هي أثر السجود.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا حسن لأنهم كانوا متفرغين متوكلين لا شغل لهم في الأغلب إلا الصلاة، فكان أثر السجود عليهم أبداً، و «الإلحاف» والإلحاح بمعنى واحد، وقال قوم: هو مأخوذ من الحف الشيء إذا غطاه وغمه بالغطية، ومنه اللحاف، ومنه قول ابن الأحمر: [الوافر]

يَظَلُّ يَحْفُهُنَّ بِقَفْقَفِيهِ وَيُلْحِفُهُنَّ هَفْهَافاً تُخِينَا

يصف ذكر نعام يحضن بيضاً، فكان هذا السائل الملح يعم الناس بسؤاله فيلحفهم ذلك، وذهب الطبري والزجاج وغيرهما إلى أن المعنى لا يسألون البتة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والآية تحتل المعنيين نفي السؤال جملة ونفي الإلحاف فقط، أما الأولى فعلى أن يكون ﴿التعفف﴾ صفة ثابتة لهم، ويحسبهم الجاهل بفقهم لسبب تعففهم أغنياء من المال، وتكون ﴿من﴾ لا ابتداء الغاية ويكون قوله: ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾ لم يرد به أنهم يسألون غير إلحاف بل المراد به التنبيه على سوء حالة من يسأل إلحافاً من الناس، كما تقول: هذا رجل خير لا يقتل المسلمين. فقولك: «خير» قد تضمن أنه لا يقتل ولا يعصي بأقل من ذلك، ثم نهيت بقولك لا يقتل المسلمين على قبح فعل غيره ممن يقتل، وكثيراً ما يقال مثل هذا إذا كان المنبه عليه موجوداً في القضية مشاراً إليه في نفس المتكلم والسامع. وسؤال الإلحاف لم تخل منه مدة، وهو مما يكره، فلذلك نبه عليه.

وأما المعنى الثاني فعلى أن يكون ﴿التعفف﴾ داخلاً في المحسبة أي إنهم لا يظهر لهم سؤالاً، بل هو قليل.

وبإجمال فالجاهل به مع علمه بفقرهم يحسبهم أغنياء عفة، ف﴿من﴾ لبيان الجنس على هذا التأويل، ثم نفى عنهم سؤال الإلحاف وبقي غير الإلحاف مقررًا لهم حسبما يقتضيه دليل الخطاب، وهذا المعنى في نفي الإلحاف فقط هو الذي تقتضيه ألفاظ السدي، وقال الزجاج رحمه الله: المعنى لا يكون منهم سؤال فلا يكون إلحاف. وهذا كما قال امرؤ القيس: [الطويل]

عَلَى لَأَحِبِّ لَا يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ

أي ليس ثم منار فلا يكون اهتداء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: إن كان الزجاج أراد لا يكون منهم سؤال البتة فذلك لا تعطيه الألفاظ التي بعد لا، وإنما ينتفي السؤال إذا ضبط المعنى من أول الآية على ما قدمناه، وإن كان أراد لا يكون منهم سؤال إلحاف فذلك نص الآية، وأما تشبيهه الآية ببيت امرئ القيس فغير صحيح، وذلك أن قوله: على لأحب لا يهتدى بمناره وقوله الآخر: [البسيط].

قِفْ بِالطُّلُولِ الَّتِي لَمْ يَغْفُهَا الْقَدَمُ

وقول الشاعر: [المتقارب]

وَمَنْ خَفْتُ مِنْ جَوْرِهِ فِي الْقَضَا ءَ فَمَا خِفْتُ جَوْرَكَ يَا عَافِيَهُ

وما جرى مجراه ترتيب يسبق منه أنه لا يهتدى بالمنار، وإن كان المنار موجوداً، فلا ينتفي إلا المعنى الذي دخل عليه حرف النفي فقط، وكذلك ينتفي العفا وإن وجد القدم، وكذلك ينتفي الخوف وإن وجد الجور، وهذا لا يترتب في الآية، ويجوز أن يريد الشعراء أن الثاني معدوم فلذلك أدخلوا على الأول حرف النفي إذ لا يصح الأول إلا بوجود الثاني، أي ليس ثم منار، فإذا لا يكون اهتداء بمنار، وليس ثم قدم فإذا لا يكون عفا، وليس ثم جور فإذا لا يكون خوف، وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾، لا يترتب فيه شيء من هذا، لأن حرف النفي دخل على أمر عام للإلحاف وغيره، ثم خصص بقوله: ﴿إِلْحَافًا﴾ جزءاً من ذلك العام فليس بعدم الإلحاف ينتفي السؤال، وبيت الشعر ينتفي فيه الأول بعدم الثاني إذ دخل حرف النفي فيه على شيء متعلق وجوده بوجود الذي يراد أنه معدوم، والسؤال ليس هكذا مع الإلحاف، بل الأمر بالعكس إذ قد يعدم الإلحاف منهم ويبقى لهم سؤال لا إلحاف فيه، ولو كان الكلام لا يلحفون الناس سؤالاً لقرب الشبه بالآيات المتقدمة، وكذلك لو كان بعد لا يسألون شيء إذا عدم السؤال، كأنك قلت تكسباً أو نحوه لصح الشبه، والله المستعان وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ وعد محض أي يعلمه ويحصيه ليجازي عليه ويشيب.

قوله تعالى:

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْلِ وَالْتِهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ
وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٦﴾ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا

يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾

قال عبد الله بن عباس: نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب رضي الله عنه كانت له أربعة دراهم فتصدق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً وبدرهم سراً وبدرهم علانية، وقال ابن جريج: نزلت في رجل فعل ذلك ولم يسم علياً ولا غيره، وقال ابن عباس أيضاً نزلت هذه الآية في علف الخيل، وقاله عبد الله بن بشر الغافقي وأبو ذر وأبو أمامة والأوزاعي وأبو الدرداء قالوا: هي في علف الخيل والمرتبطة في السبيل، وقال قتادة هذه الآية في المنفقين في سبيل الله من غير تبذير ولا تقتير.

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه: والآية وإن كانت نزلت في علي رضي الله عنه، فمعناها يتناول كل من فعل فعله وكل مشاء بصدقته في الظلم إلى مظنة ذي الحاجة وأما علف الخيل والنفقة عليها فإن الفاظ الآية تتناولها تناولاً محكماً، وكذلك المنفق في الجهاد المباشر له إنما يجيء إنفاقه على رتب الآية. وقال ابن عباس رضي الله عنه: كان المؤمنون يعملون بهذه الآية من قوله: ﴿إِنْ تَبَدَّوْا الصَّدَقَاتُ﴾ [البقرة: ٢٧١] إلى قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤] فلما نزلت براءة بتفصيل الزكاة قصرُوا عليها، وقد تقدم القول على نفي الخوف والحزن، والفاء في قوله: ﴿فَلَهُمْ﴾ دخلت لما في ﴿الَّذِينَ﴾ من الإيهام، فهو يشبه بإيهامه الإيهام الذي في الشرط. فحسنت الفاء في جوابه كما تحسن في الشرط، وإنما يوجد الشبه إذا كان الذي موصولاً بفعل وإذا لم يدخل على ﴿الَّذِي﴾ عامل بغير معناه، فإن قلت: الذي أبوه زيد هو عمرو فلا تحسن الفاء في قولك فهو، بل تلبس المعنى، وإذا قلت لبيت الذي جاءك جاءني لم يكن للفاء مدخل في المعنى، وهذه الفاء المذكورة إنما تجيء مؤكدة للمعنى، وقد يستغنى عنها إذا لم يقصد التأكيد كقوله بعد: ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ وقوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ الآية، ﴿الرِّبَا﴾ هو الزيادة وهو مأخوذ من ربا يربو إذا نما وزاد على ما كان، وغالب ما كانت العرب تفعله من قولها للغريم أتقضي أم تربى؟ فكان الغريم يزيد في عدد المال، ويصبر الطالب عليه، ومن الربا البين التفاضل في النوع الواحد لأنها زيادة، وكذلك أكثر البيوع الممنوعة إنما تجد منعها لمعنى زيادة إما في عين مال، وإما في منفعة لأحدهما من تأخير ونحوه، ومن البيوع ما ليس فيه معنى الزيادة كبيع الثمرة قبل بدو صلاحها، وكالبيع ساعة النداء يوم الجمعة، فإن قيل لفاعلها: أكل ربا فبتجوز وتشبيهه، والربا من ذوات الواو، وتشبيته ربوان عند سيبويه، ويكتب بالالف. قال الكوفيون: يكتب ويشئ بالياء لأجل الكسرة التي في أوله. وكذلك يقولون في الثلاثية من ذوات الواو إذا انكسر الأول أو انضم، نحو ضحى، فإن كان مفتوحاً نحو صفا فكما قال البصري. ومعنى هذه الآية: الذين يكسبون الربا ويفعلونه، وقصد إلى لفظة الأكل لأنها أقوى مقاصد الإنسان في المال، ولأنها دالة على الجشع، فأقيم هذا البعض من توابع الكسب مقام الكسب كله، فاللباس والسكنى والادخار والإنفاق على العيال وغير ذلك داخل كله في قوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ﴾، وقال ابن عباس رضي الله

عنه ومجاهد وابن جبير وقتادة والربيع والضحاك والسدي وابن زيد: معنى قوله: ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ من قبورهم في البعث يوم القيامة، قال بعضهم: يجعل معه شيطان يخنقه، وقالوا كلهم يبعث كالمجنون عقوبة له وتمقيتاً عند جمع المحشر، ويقوي هذا التأويل المجمع عليه في أن في قراءة عبد الله بن مسعود «لَا يَقُومُونَ يوم القيامة إلا كما يقوم».

قال القاضي أبو محمد: وأما ألفاظ الآية فكانت تحتل تشبيه حال القائم بحرص وجشع إلى تجارة الربا بقيام المجنون، لأن الطمع والرغبة تستفز حتى تضطرب أعضاؤه، وهذا كما تقول لمسرع في مشيه، مخلط في هيئة حركاته، إما من فرع أو غيره، قد جن هذا، وقد شبه الأعشى ناقته في نشاطها بالجنون في قوله: [الطويل]

وَتُضْبِحُ مِنْ غَبِّ السُّرَى وَكَأَنَّمَا أَلَمَ بِهَا مِنْ طَائِفِ الْجِنِّ أُولَى

لكن ما جاءت به قراءة ابن مسعود وتظاهرت به أقوال المفسرين يضعف هذا التأويل ﴿ويخطئه﴾ «يتفعله» من خبط يخطب كما تقول: تملكه وتعبد وتحمله. و﴿المس﴾ الجنون، وكذلك الأولى والألس والروء، وقوله تعالى: ﴿ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا﴾ معناه عند جميع المتأولين في الكفار، وأنه قول تكذيب للشريعة ورد عليها.

والآية كلها في الكفار المربين نزلت ولهم قيل ﴿فله ما سلف﴾ ولا يقال ذلك لمؤمن عاص، ولكن يأخذ العصاة في الربا بطرف من وعيد هذه الآية، ثم جزم تعالى الخير في قوله: ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾ وقال بعض العلماء في قوله: ﴿وأحل الله البيع﴾ هذا من عموم القرآن، لأن العرب كانت تقدر على إنفاذه، لأن الأخذ والإعطاء عندها بيع، وكل ما عارض العموم فهو تخصيص منه، وقال بعضهم: هو من مجمل القرآن الذي فسر بالمحلل من البيع وبالمحرم، والقول الأول عندي أصح، قال جعفر بن محمد الصادق: حرم الله الربا ليتقارض الناس. وقال بعض العلماء: حرمه الله لأنه متلفة للأموال مهلكة للناس. وسقطت علامة التانيث في قوله: ﴿فمن جاءه﴾ لأن تانيث الموعظة غير حقيقي وهو بمعنى وعظ، وقرأ الحسن «فمن جاءته» بإثبات العلامة، وقوله: ﴿فله ما سلف﴾ أي من الربا لا تبعاعه عليه منه في الدنيا ولا في الآخرة قاله السدي وغيره، وهذا حكم من الله تعالى لمن أسلم من كفاز قريش وثقيف ومن كان يتجر هناك، و﴿سلف﴾ معناه تقدم في الزمن وانقضى.

وفي قوله تعالى: ﴿وأمره إلى الله﴾ أربع تأويلات: أحدها أن الضمير عائد على الربا بمعنى: وأمر الربا إلى الله في إمرار تحرجه أو غير ذلك. والثاني أن يكون الضمير عائداً على ﴿ما سلف﴾. أي أمره إلى الله في العفو عنه وإسقاط التبعة فيه. والثالث أن يكون الضمير عائداً على ذي الربا بمعنى أمره إلى الله في أن يشبه على الانتهاء أو يعيده إلى المعصية في الربا. والرابع أن يعود الضمير على المنتهي ولكن بمعنى التأنيس له وبسط أمله في الخير. كما تقول وأمره إلى طاعة وخير وموضع رجاء. وكما تقول وأمره في نمو أو إقبال إلى الله وإلى طاعته، ويجيء الأمر هاهنا ليس في الربا خاصة بل وجملة أموره. وقوله تعالى: ﴿ومن عاد﴾ يعني إلى فعل الربا والقول ﴿إنما البيع مثل الربا﴾ وإن قدرنا الآية في كافر فالخلود خلود تأييد

حقيقي، وإن لحظناها في مسلم عاصٍ فهذا خلود مستعار على معنى المبالغة، كما تتول العرب: ملك خالد، عبارة عن دوام ما لا على التأييد الحقيقي.

قوله عز وجل:

يَمَحِّقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾

﴿يُمَحِّقُ﴾ معناه: ينقص ويذهب، ومنه محاق القمر وهو انتقاصه، ﴿ويري الصدقات﴾ معناه ينميها ويزيد ثوابها تضاعفاً، تقول: ربت الصدقة وأرباها الله تعالى ورباها وذلك هو التضعيف لمن يشاء، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن صدقة أحدكم لتقع في يد الله فيرببها له كما يربي أحدكم فصيله، أو فله، حتى يجيء يوم القيامة وأن اللقمة لعلی قدر أحد».

قال القاضي أبو محمد: وقد جعل الله هذين الفعلين بعكس ما يظنه الحريص الجشع من بني آدم، يظن الربا يغنيه وهو في الحقيقة محقق، ويظن الصدقة تفقره وهي نماء في الدنيا والآخرة، وقرأ ابن الزبير: «يُمَحِّقُ الله» بضم اللام وكسر الحاء مشددة، «وَيُرِي» بفتح الراء وشد الباء، ورويت عن النبي صلى الله عليه وسلم كذلك.

وقوله تعالى: ﴿والله لا يحب كل كفار أثيم﴾ يقتضي أن الزجر في هذه الآيات للكفار المستحلين للربا القائلين على جهة التكذيب للشرع ﴿إنما البيع مثل الربا﴾ ووصف الكفار بـ ﴿أثيم﴾، إما مبالغة من حيث اختلف اللفظان، وإما ليذهب الاشتراك الذي في كفار، إذ قد يقع على الزارع الذي يستر الحب في الأرض. قاله ابن فورك قال ومعنى قوله: ﴿والله لا يحب﴾ أي لا يحب الكفار الأثيم.

قال القاضي أبو محمد: محسناً صالحاً بل يريده مسيئاً فاجراً، ويحتمل أن يريد والله لا يحب توفيق الكفار الأثيم.

وهذه تأويلات مستكرهة، أما الأول فأفرط في تعدية الفعل وحمله من المعنى ما لا يحتمله لفظه، وأما الثاني فغير صحيح المعنى، بل الله تعالى يحب التوفيق على العموم ويحبه، والمحب في الشاهد يكون منه ميل إلى المحبوب ولطف به، وحرص على حفظه، وتظهر دلائل ذلك، والله تعالى يريد وجود الكافر على ما هو عليه، وليس له عنده مزية الحب بأفعال تظهر عليه نحو ما ذكرناه في الشاهد، وتلك المزية موجودة للمؤمن، ولما انقضى ذكرهم عقب بذكر ضدهم ليبين ما بين الحالين.

فقال ﴿إن الذين آمنوا﴾ الآية، وقد تقدم تفسير مثل ألفاظ هذه الآية، وخص ﴿الصلاة﴾ و﴿الزكاة﴾ بالذكر وقد تضمنها عمل ﴿الصالحات﴾ تشريفاً لهما، وتنبهاً على قدرهما، إذ هما رأس الأعمال الصلاة في أعمال البدن، والزكاة في أعمال المال.

قوله عز وجل :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾

سبب هذه الآية أنه كان الربا بين الناس كثيراً في ذلك الوقت، وكان بين قريش وثقيف ربا، فكان لهؤلاء على هؤلاء. فلما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة قال في خطبته في اليوم الثاني من الفتح : «ألا كل ربا في الجاهلية موضوع، وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب»، فبدأ صلى الله عليه وسلم بعمه وأخص الناس به، وهذه من سنن العدل للإمام أن يفيض العدل على نفسه وخاصة، فيستفيض حينئذ في الناس، ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة واستعمل على مكة عتاب بن أسيد، فلما استنزل أهل الطائف بعد ذلك إلى الإسلام اشتروا شروطاً، منها ما أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنها ما لم يعطه، وكان في شروطهم أن كل ربا لهم على الناس فإنهم يأخذونه، وكل ربا عليهم فهو موضوع، فيروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرر لهم هذه ثم ردها الله بهذه الآية، كما رد صلحه لكفار قريش في رد النساء إليهم عام الحديبية.

وذكر النقاش رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن يكتب في أسفل الكتاب لثقيف لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم، فلما جاءت آجال رباهم بعثوا إلى مكة للاقتضاء، وكانت الديون لبني المغيرة وهم بنو عمرو بن عمير من ثقيف، وكانت لهم على بني المغيرة المخزوميين فقال بنو المغيرة لا تعطي شيئاً فإن الربا قد وضع، ورفعوا أمرهم إلى عتاب بن أسيد بمكة، فكتب به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية، وكتب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عتاب فعلمت بها ثقيف فكفت، هذا سبب الآية على اختصار مجموع مما روى ابن إسحاق وابن جريج والسدي وغيرهم.

فمعنى الآية، اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية بترككم ما بقي لكم من ربا وصفحكم عنه. وقوله : ﴿إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ شرط محض في ثقيف على بابه، لأنه كان في أول دخولهم في الإسلام وإذا قدرنا الآية فيمن تقرر إيمانه فهو شرط مجازي على جهة المبالغة، كما تقول لمن تريد إقامة نفسه : إن كنت رجلاً فافعل كذا، وحكى النقاش عن مقاتل بن سليمان أنه قال : ﴿إِن﴾ في هذه الآية بمعنى إذ.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه : وهذا مردود لا يعرف في اللغة، وقال ابن فورك : يحتمل أنه يريد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمن قبل محمد من الأنبياء، ﴿ذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بمحمد، إذ لا ينفع الأول إلا بهذا وهذا مردود بما روي في سبب الآية، ثم توعدهم تعالى إن لم يذروا الربا بحرب من الله ومن رسوله وأمه، والحرب داعية القتل، وروى ابن عباس أنه يقال يوم القيامة لأكل الربا : خذ سلاحك للحرب، وقال ابن عباس أيضاً : من كان مقيماً على الربا لا يتزع عنه فحق على إمام المسلمين أن يستنبيه، فإن نزح وإلا ضرب عنقه، وقال قتادة : أوعد الله أهل الربا بالقتل فجعلهم بهرجاً أينما ثقفوا، ثم ردهم تعالى مع التوبة إلى رؤوس أموالهم، وقال لهم : ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ في أخذ الربا ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾

في أن يتمسك بشيء من رؤوس أموالكم، فتذهب أموالكم. ويحتمل أن يكون لا تظلمون في مطل، لأن مطل الغني ظلم، كما قال صلى الله عليه وسلم.

فالمعنى أن يكون القضاء مع وضع الربا. وهكذا سنة الصلح، وهذا أشبه شيء بالصلح ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أشار على كعب بن مالك في دين ابن أبي حدرد بوضع الشطر، فقال كعب: نعم يا رسول الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للآخر: قم فاقضه، فتلقى العلماء أمره بالقضاء سنة في المصالحات، وقرأ الحسن «ما بقي» بكسر القاف وإسكان الياء، وهذا كما قال جرير: [البسيط]

هو الخليفةً فارضوا ما رَضِيَ لَكُمْ ماضي العزيمة ما في حُكْمِهِ جَنْفٌ

ووجهها أنه شبه الياء بالألف، فكما لا تصل الحركة إلى الألف فكذلك لم تصل هنا إلى الياء، وفي هذا نظر، وقرأ أبو السمال من «الرُّبُو» بكسر الراء المشددة وضم الباء وسكون الواو، وقال أبو الفتح: شذ هذا الحرف في أمرين:

أحدهما الخروج من الكسر إلى الضم بناء لازماً، والآخر وقوع الواو بعد الضمة في آخر الاسم، وهذا شيء لم يأت إلا في الفعل، نحو يغزو ويدعو وأما ذو الطائفة بمعنى الذي فشاذة جداً، ومنهم من يغير واوها إذا فارق الرفع، فيقول رأيت ذا قام، ووجه القراءة أنه فخم الألف انتحاء بها الواو التي الألف بدل منها على حد قولهم، الصلاة والزكاة وهي بالجملة قراءة شاذة، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر والكسائي: «فأذنوا» مقصورة مفتوحة الذال، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: «فأذنوا» ممدودة مكسورة الذال.

قال سيويه: أذنت أعلمت، وأذنت ناديت وصوت بالإعلام قال: وبعض يجري أذنت مجرى أذنت، قال أبو علي: من قال: «فأذنوا» فقصر، معناه فاعلموا الحرب من الله، قال ابن عباس وغيره من المفسرين: معناه فاستيقنوا الحرب من الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وهي عندي من الإذن، وإذا أذن المرء في شيء فقد قرره وبني مع نفسه عليه، فكانه قال لهم فقرروا الحرب بينكم وبين الله ورسوله، ملزمهم من لفظ الآية أنهم مستدعو الحرب والباغون بها، إذ هم الآذنون بها وفيها، ويندرج في هذا المعنى الذي ذكرته علمهم بأنهم حرب وتيقنهم لذلك، قال أبو علي: ومن قرأ «فأذنوا» فمد، فتقديره فاعلموا من لم ينته عن ذلك بحرب، والمفعول محذوف، وقد ثبت هذا المفعول في قوله تعالى: ﴿فقل أذنتكم على سواء﴾ [الأنبياء: ١٠٩] وإذا أمروا بإعلام غيرهم علموا هم لا محالة، قال: ففي إعلامهم علمهم، وليس في علمهم إعلامهم غيرهم، فقراءة المد أرجح، لأنها أبلغ وأكد قال الطبري: قراءة القصر أرجح لأنها تختص بهم، وإنما أمروا على قراءة المد بإعلام غيرهم.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: والقراءتان عندي سواء لأن المخاطب في الآية محذور بأنه كل من لم يذر ما بقي من الربا، فإن قيل لهم: «فأذنوا» فقد عمهم الأمر، وإن قيل لهم: «فأذنوا» بالمد فالمعنى أنفسكم وبعضكم بعضاً، وكأن هذه القراءة تقتضي فسحاً لهم في الارتياء

والثبوت أي فأعلموا نفوسكم هذا ثم انظروا في الأرجح لكم، ترك الربا أو الحرب، وقرأ جميع القراء «لا تظلمون» بفتح التاء و«لا تظلمون» بضمها وقد مضى تفسيره.

وروى المفضل عن عاصم: لا «تظلمون» بضم التاء في الأولى وفتحها في الثانية. قال أبو علي: وترجع قراءة الجماعة فإنها تناسب قوله «فإن تبتم» في إسناد الفعلين إلى الفاعل فيجيء «تظلمون» بفتح التاء أشكل بما قبله.

قوله عز وجل:

وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾
وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

حكم الله تعالى لأرباب الربا برؤوس الأموال عند الواجدين للمال، ثم حكم في ذي العسرة بالنظرة إلى حالة اليسر. قال المهدوي: وقال بعض العلماء هذه الآية ناسخة لما كان في الجاهلية من بيع من عسر بدين، وحكى مكي: أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر به في صدر الإسلام.

قال القاضي أبو محمد: فإن ثبت فعل النبي صلى الله عليه وسلم فهو نسخ، وإلا فليس بنسخ، و«العسرة» ضيق الحال من جهة عدم المال ومنه جيش العسرة، والنظرة التأخير، والميسرة مصدر بمعنى اليسر، وارتفع «ذو عسرة» بـ «كان» التامة التي هي بمعنى وجد وحدث. هذا قول سيويه وأبي علي وغيرهما، ومن هنا يظهر أن الأصل الغنى وفور الذمة، وأن العدم طارئ حادث يلزم أن يثبت. وقال بعض الكوفيين، حكاه الطبري: بل هي «كان» الناقصة والخبر محذوف، تقديره «وإن كان» من غمائمكم «ذو عسرة» وارتفع قوله: «فنظرة» على خبر ابتداء مقدر، تقديره فالواجب نظرة، أو فالحكم نظرة.

قال الطبري: وفي مصحف أبي بن كعب: «وإن كان ذو عسرة» على معنى وإن كان المطلوب، وقرأ الأعمش «وإن كان معسراً فنظرة».

قال أبو عمرو الداني عن أحمد بن موسى: وكذلك في مصحف أبي بن كعب، قال مكي والنقاش وعلى هذا يختص لفظ الآية بأهل الربا، وعلى من قرأ «وإن كان ذو عسرة» بالواو فهي عامة في جميع من عليه دين.

قال القاضي أبو محمد: وهذا غير لازم، وحكى المهدوي أن في مصحف عثمان، «فإن كان» بالفاء «ذو عسرة» بالواو، وقراءة الجماعة نظرة بكسر الظاء، وقرأ مجاهد وأبو رجاء والحسن: «فنظرة» بسكون الظاء، وكذلك قرأ الضحاك، وهي على تسكين الظاء من نظرة، وهي لغة تميمية، وهم الذين يقولون: كرم زيد بمعنى كرم، ويقولون: كبد في كبد، وكشف في كشف، وقرأ عطاء بن أبي رباح «فناظرة» على وزن فاعلة، وقال الزجاج: هي من أسماء المصادر، كقوله تعالى: «ليس لوقعها كاذبة» [الواقعة: ٢] وكقوله تعالى: «تظن أن يفعل بها فاقرة» [القيامة: ٢٥]، وكخائنة الأعين وغيره، وقرأ نافع

وحده «ميسرة» بضم السين، وقرأ باقي السبعة وجمهور الناس «ميسرة» بفتح السين على وزن مفعلة، وهذه القراءة أكثر في كلام العرب، لأن مفعلة بضم العين قليل.

قال أبو علي: قد قالوا: مسربة ومشربة، ولكن مفعلة بفتح العين أكثر في كلامهم، وقرأ عطاء بن أبي رباح أيضاً ومجاهد: «فناظره إلى ميسره» على الأمر في «ناظره» وجعلوا الهاء ضمير الغريم، وضما السين من «ميسره» وكسرا الراء وجعلوا الهاء ضمير الغريم، فأما ناظره ففاعله من التأخير، كما تقول: سامحه، وأما ميسر فشاذ، قال سيبويه: ليس في الكلام مفعل، قال أبو علي يريد في الأحاد، فأما في الجمع فقد جاء قول عدي بن زيد: [الرمل]

أُبْلِغِ النُّعْمَانَ عَنِّي مَالِكًا أَنَّهُ قَدْ طَالَ حَبْسِي وانتظار

وقول جميل: [الطويل]

بشئ الزمي - لا - إن - لا - إن لزمته على كثرة الواشين أي معون

فالأول جمع مالكة، والآخر جمع معونة، وقال ابن جني: إن عدياً أراد مالكة فحذف، وكذلك جميل أراد أي معونة، وكذلك قول الآخر: [الرجز]

«ليوم روع أو فِعال مَكْرَمٍ»

«أَرَادَ مَكْرُمَةً»، فحذف قال: ويحتمل أن تكون جموعاً كما قال أبو علي.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: فإن كان ميسر جمع ميسرة فيجري مجرى هذه الأمثلة، وإن كان قارئه أراد به الأفراد فذلك شاذ، وقد خطأه بعض الناس، وكلام سيبويه يرده، واختلف أهل العلم: هل هذا الحكم بالنظرة إلى الميسرة: واقف على أهل الربا أو هو منسحب على كل ذي دين حال؟

فقال ابن عباس وشريح: ذلك في الربا خاصة، وأما الديون وسائر الأمانات فليس فيها نظرة، بل تؤدي إلى أهلها، وكان هذا القول يترتب إذا لم يكن فقر مدقع وأما مع الفقر والعدم الصريح، فالحكم هي النظرة ضرورة، وقال جمهور العلماء النظرة إلى الميسرة حكم ثابت في المعسر سواء كان الدين ربا أو من تجارة في ذمة أو من أمانته، فسر الضحاك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ ابتداء وخبره ﴿خير﴾، وندب الله تعالى بهذه الألفاظ إلى الصدقة على المعسر وجعل ذلك خيراً من إنظاره، قاله السدي وابن زيد والضحاك وجمهور الناس. وقال الطبري وقال آخرون معنى الآية وأن تصدقوا على الغني والفقير خير لكم، ثم أدخل الطبري تحت هذه الترجمة أقوالاً لقنادة وإبراهيم النخعي لا يلزم منها ما تضمنته ترجمته، بل هي كقول جمهور الناس، وليس في الآية مدخل للغني، وقرأ جمهور القراء: «تَصَدَّقُوا» بتشديد الصاد على الإدغام من تتصدقوا. وقرأ عاصم «وَأَنْ تَصَدَّقُوا» بتخفيف الصاد وفي مصحف عبد الله بن مسعود: «وَأَنْ تَصَدَّقُوا» بفتح الإدغام.

وروى سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب أنه قال: كان آخر ما أنزل من القرآن آية الربا، وقبض

رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يفسرها لنا، فدعوا الربا والريبة. وقال ابن عباس: آخر ما نزل آية الربا.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: ومعنى هذا عندي أنها من آخر ما نزل، لأن جمهور الناس وابن عباس والسدي والضحاك وابن جريج وغيرهم، قال: آخر آية قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ وقال سعيد بن المسيب: بلغني أن أحدث القرآن بالعرش آية الدين، وروي أن قوله عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا﴾ نزلت قبل موت النبي صلى الله عليه وسلم بتسع ليال، ثم لم ينزل بعدها شيء، وروي بثلاث ليال، وروي أنها نزلت قبل موته بثلاث ساعات، وأنه قال عليه السلام اجعلوها بين آية الربا وآية الدين، وحكى مكي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال جاءني جبريل فقال اجعلها على رأس مائتين وثمانين آية، من البقرة.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ إلى آخر الآية، وعظ لجميع الناس وأمر يخصص كل إنسان، و﴿يَوْمًا﴾ منصوب على المفعول لا على الظرف. وقرأ أبو عمرو بن العلاء «تُرْجَعُونَ» بفتح التاء وكسر الجيم، وقرأ باقي السبعة «تُرْجَعُونَ» بضم التاء وفتح الجيم، فمثل قراءة أبي عمرو ﴿إِن إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥] ومثل قراءة الجماعة ﴿ثُمَّ رَدُوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٦٢] ﴿وَلَنُرْثِيَنَّهُمْ﴾ [الكهف: ٣٦] المخاطبة في القراءتين بالتاء على جهة المبالغة في الوعظ والتحذير، وقرأ الحسن «يُرْجَعُونَ» بالياء على معنى يرجع جميع الناس.

قال ابن جني كأن الله تعالى رفع بالمؤمنين على أن يواجههم بذكر الرجعة إذ هي مما تنفطر له القلوب. فقال لهم: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾، ثم رجع في ذكر الرجعة إلى الغيبة رفقا بهم، وقرأ أبي بن كعب «يَوْمًا تُرْثُونَ» بضم التاء، وجمهور العلماء على أن هذا اليوم المحذر منه هو يوم القيامة والحساب والثوبة، وقال قوم هو يوم الموت، والأول أصح بحكم الألفاظ في الآية، وفي قوله: ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ مضاف محذوف تقديره إلى حكم الله وفصل قضائه، وقوله ﴿وَهُمْ﴾ رد على معنى كل نفس لا على اللفظ إلا على قراءة الحسن «يرجعون»، فقوله: ﴿وَهُمْ﴾ رد على ضمير الجماعة في «يرجعون»، وفي هذه الآية نص على أن الثواب والعقاب متعلق بكسب الإنسان. وهذا رد على الجبرية.

قوله عز وجل:

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنُتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ

قال ابن عباس رضي الله عنه نزلت هذه الآية في السلم خاصة.

قال القاضي أبو محمد: معناه أن سلم أهل المدينة كان بسبب هذه الآية، ثم هي تتناول جميع المداينات إجماعاً، وبين تعالى بقوله: ﴿بدين﴾ ما في قوله: ﴿تداينتم﴾ من الاشتراك، إذ قد يقال في كلام العرب: تداينوا بمعنى جازى بعضهم بعضاً. ووصفه الأجل بمسمى دليل على أن المجهولة لا تجوز، فكان الآية رفضتها، وإذا لم تكن تسمية وحد فليس أجل، وذهب بعض الناس إلى أن كتب الديون واجب

على أربابها فرض بهذه الآية، وذهب الربيع إلى أن ذلك وجب بهذه الألفاظ، ثم خففه الله تعالى بقوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [البقرة: ٢٨٣]. وقال الشعبي: كانوا يرون أن قوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ﴾ ناسخ لأمره بالكتب، وحكى نحوه ابن جريج، وقاله ابن زيد، وروى عن أبي سعيد الخدري، وقال جمهور العلماء: الأمر بالكتب ندب إلى حفظ الأموال وإزالة الريب، وإذا كان الغريم تقياً فما يضره الكتاب وإن كان غير ذلك فالكتب ثقاف في دينه وحاجة صاحب الحق، وقال بعضهم: إن أشهدت فحزم، وإن اثمنت ففي حل وسعة، وهذا هو القول الصحيح، ولا يترتب نسخ في هذا لأن الله تعالى ندب إلى الكتب فيما للمرء أن يهبه ويتركه بإجماع، فندبه إنما هو على جهة الحيلة للناس، ثم علم تعالى أنه سيقع الائتمان فقال إن وقع ذلك ﴿فليؤد﴾ [البقرة: ٢٨٣] الآية، فهذه وصية للذين عليهم الديون، ولم يجزم تعالى الأمر نصاً بأن لا يكتب إذا وقع الائتمان، وأما الطبري رحمه الله فذهب إلى أن الأمر بالكتب فرض واجب وطول في الاحتجاج، وظاهر قوله أنه يعتقد الأوامر على الوجوب حتى يقوم دليل على غير ذلك.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿وليكذب بينكم﴾ فقال عطاء وغيره: واجب على الكاتب أن يكتب، وقال الشعبي وعطاء أيضاً: إذا لم يوجد كاتب سواه فواجب عليه أن يكتب، وقال السدي: هو واجب مع الفراغ، وقوله تعالى: ﴿بالعدل﴾ معناه بالحق والمعدلة، والباء متعلقة بقوله تعالى: ﴿وليكذب﴾، وليست متعلقة بـ ﴿كاتب﴾ لأنه كان يلزم أن لا يكتب وثيقة إلا العدل في نفسه، وقد يكتبها الصبي والعبد والمسخوط إذا أقاموا فقهها، أما أن المنتصين لكتبها لا يتجوز للولاة ما أن يتركوهم إلا عدولاً مرضيين، وقال مالك رحمه الله: لا يكتب الوثائق من الناس إلا عارف بها عدل في نفسه مأمون، لقوله تعالى ﴿وليكذب بينكم كاتب بالعدل﴾ ثم نهى الله تعالى الكاتب عن الإيابة، وأبى يابى شاذ لم يجيء إلا قلى يقلى وأبا يابى، ولا يجيء فعل يفعل بفتح العين في المضارع إلا إذا رده حرف حلق، قال الزجاج والقول في أبى أن الألف فيه أشبهت الهمزة فلذلك جاء مضارعه يفعل بفتح العين، وحكى المهدوي عن الربيع والضحاك أن قوله ﴿ولا ياب﴾ منسوخ بقوله ﴿لا يضار كاتب ولا شهيد﴾ [البقرة: ٢٨٢] والكاف في قوله ﴿كما علمه الله﴾ متعلقة بقوله: ﴿أن يكتب﴾ المعنى كتباً كما علمه الله، هذا قول بعضهم، ويحتمل أن تكون ﴿كما﴾ متعلقة بما في قوله ﴿ولا ياب﴾ من المعنى أي كما أنعم الله عليه بعلم الكتابة فلا ياب هو، وليفضل كما أفضل الله عليه، ويحتمل أن يكون الكلام على هذا المعنى تاماً عند قوله: ﴿أن يكتب﴾، ثم يكون قوله: ﴿كما علمه الله﴾ ابتداء كلام، وتكون الكاف متعلقة بقوله ﴿فليكتب﴾.

قال القاضي أبو محمد: وأما إذا أمكن الكتاب فليس يجب الكتب على معين، ولا وجوب النذب، بل له الامتناع إلا إن استأجره، وأما إذا عدم الكاتب فيتوجه وجوب النذب حينئذ على الحاضر، وأما الكتب في الجملة فندب كقوله تعالى: ﴿وافعلوا الخير﴾ [الحج: ٧٧] وهو من باب عون الضائع.

قوله عز وجل:

وَلْيُمْلَأِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا بَيَّخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ

سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْلَ هُوَ فَلْيَمْلَ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ

أمر الله تعالى الذي عليه الحق بالإملاء، لأن الشهادة إنما تكون بحسب إقراره، وإذا كتبت الوثيقة وأقر بها فهو كإملاء له. وأمره الله بالتقوى فيما يلي ونهي عن أن «يبخس» شيئاً من الحق، والبخس النقص بنوع من المخادعة والمدافعة، وهؤلاء الذين أمروا بالإملاء هم المالكون لأنفسهم إذا حضروا، ثم ذكر الله تعالى ثلاثة أنواع تقع نوازلهم في كل زمن.

فقال «فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً» وكون الحق يترتب في جهات سوى المعاملات كالموارث إذا قسمت وغير ذلك، والسفيه المهلهل الرأي في المال الذي لا يحسن الأخذ لنفسه ولا الإعطاء منها، مشبه بالثوب السفيه وهو الخفيف النسج، والسفه الخفة، ومنه قول الشاعر وهو ذو الرمة: [الطويل].

مَشَيْنَ كَمَا اهْتَزَّتْ رِمَاحٌ تَسْفَهُتْ أَعَالِيهَا مَرُّ الرِّيحِ النُّوَاسِمِ

وهذه الصفة في الشريعة لا تخلو من حجر أب أو وصي، وذلك هو وليه، ثم قال: «أو ضعيفاً» والضعيف هو المدخول في عقله الناقص الفطرة، وهذا أيضاً قد يكون وليه أباً أو وصياً، الذي لا يستطيع أن يمل هو الصغير، و«وليه» وصيه أو أبوه والغائب عن موضع الإشهاد إما لمرض أو لغير ذلك من العذر، و«وليه» وكيله، وأما الآخرس فيسوغ أن يكون من الضعفاء، والأولى أنه ممن لا يستطيع، فهذه أصناف تتميز ونجد من ينفرد بواحد واحد منها، وقد يجتمع منها اثنان في شخص واحد، وربما اجتمعت كلها في شخص، وهذا الترتيب ينتزع من قول مالك وغيره من العلماء الحذاق، وقال بعض الناس: السفيه الصبي الصغير، وهذا خطأ، وقال قوم الضعيف هو الكبير الأحق، وهذا قول حسن، وجاء الفعل مضاعفاً في قوله: «أن يمل» لأنه لو فك لتوالت حركات كثيرة، والفك في هذا الفعل لغة قريش. و«بالعدل» معناه بالحق وقصد الصواب، وذهب الطبري إلى أن الضمير في «وليه» عائد على «الحق»، وأسند في ذلك عن الربيع وعن ابن عباس.

قال القاضي أبو محمد: وهذا عندي شيء لا يصح عن ابن عباس، وكيف تشهد على البينة على شيء وتدخل مالا في ذمة السفيه بإملاء الذي له الدين؟ هذا شيء ليس في الشريعة، والقول ضعيف إلا أن يريد قائله أن الذي لا يستطيع «أن يمل» بمرضه إذا كان عاجزاً عن الإملاء فليمل صاحب الحق بالعدل ويسمع الذي عجز، فإذا كمل الإملاء أقر به، وهذا معنى لم تعن الآية إليه، ولا يصح هذا إلا فيمن لا يستطيع أن يمل بمرض.

قوله عز وجل:

وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى

الاستشهاد: طلب الشهادة وعبر ببناء مبالغة في «شهيدين» دلالة على من قد شهد وتكرر ذلك منه،

فكانها إشارة إلى العدالة: وقوله تعالى: ﴿من رجالكم﴾ نص في رفض الكفار والصبيان والنساء، وأما العبيد فاللفظ يتناولهم. واختلف العلماء فيهم فقال شريح وإسحاق بن راهويه وأحمد بن حنبل: شهادة العبد جائزة إذا كان عدلاً، وغلبوا لفظ الآية. وقال مالك والشافعي وأبو حنيفة وجمهور العلماء: لا تجوز شهادة العبد، وغلبوا نقص الرق، واسم كان الضمير الذي في قوله ﴿يكونا﴾.

والمعنى في قول الجمهور، فإن لم يكن المستشهد رجلين أي إن أغفل ذلك صاحب الحق أو قصده لعذر ما، وقال قوم: بل المعنى فإن لم يوجد رجلان، ولا يجوز استشهاد المرأتين إلا مع عدم الرجال، وهذا قول ضعيف، ولفظ الآية لا يعطيه بل الظاهر منه قول الجمهور، وقوله: ﴿فرجل وامرأتان﴾ مرتفع بأحد ثلاثة أشياء، إما أن تقدر فليستشهد رجل وامرأتان، وإما فليكن رجل وامرأتان ويصح أن تكون ﴿يكونا﴾ هذه التامة والناقصة، ولكن التامة أشبه، لأنه يقل الإضمار، وإما فرجل وامرأتان يشهدون، وعلى كل وجه فالمقدر هو العامل في قوله: ﴿أن تضل إحداهما﴾ وروى حميد بن عبد الرحمن عن بعض أهل مكة أنهم قرؤوا «وامرأتان» بهمز الألف ساكنة.

قال ابن جني: لا نظير لتسكين الهمزة المتحركة على غير قياس وإنما خففوا الهمزة فقربت من الساكن، ثم بالغوا في ذلك فصارت الهمزة ألفاً ساكنة كما قال الشاعر: [الطويل].

يقولون جهلاً ليسَ للشيخ عَيْلٌ لَعَمري لَقَدْ أَعْيَلَتْ وَأَنْ رَقُوبٌ

يريد «وأنا»، ثم بعد ذلك يدخلون الهمزة على هذه الألف كما هي. وهي ساكنة وفي هذا نظراً، ومنه قراءة ابن كثير «عن ساقبها» وقولهم يا ذواتم قال أبو الفتح: فإن قيل شبهت الهمزة بالألف في أنها ساوتها في الجهر والزيادة والبدل والحذف وقرب المخرج وفي الخفاء فقول مخشوب لا صنعة فيه، ولا يكاد يقنع بمثله، وقوله تعالى: ﴿ممن ترضون من الشهداء﴾ رفع في موضع الصفة لقوله عز وجل: ﴿فرجل وامرأتان﴾.

قال أبو علي: ولا يدخل في هذه الصفة قوله: ﴿شهيدين﴾ اختلاف الإعراب.

قال القاضي أبو محمد: وهذا حكم لفظي، وأما المعنى فالرضى شرط في الشهيدين كما هو في الرجل والمرأتين.

قال ابن بكير وغيره: قوله ﴿ممن ترضون﴾ مخاطبة للحكام.

قال القاضي أبو محمد: وهذا غير نبيل، إنما الخطاب لجميع الناس، لكن المتلبس بهذه القضية إنما هم الحكام، وهذا كثير في كتاب الله يعم الخطاب فيما يتلبس به البعض، وفي قوله: ﴿ممن ترضون﴾ دليل على أن في الشهود من لا يرضى، فيجيء من ذلك أن الناس ليسوا بمحمولين على العدالة حتى تثبت لهم. وقرأ حمزة وحده: «إِنْ تَضِلْ» بكسر الألف وفتح التاء وكسر الضاد «فَتَذَكَّرْ» بفتح الذال ورفع الراء وهي قراءة الأعمش. وقرأها الباقون «أَنْ تَضِلْ» بفتح الألف «فَتَذَكَّرْ» بنصب الراء. غير أن ابن كثير وأبا عمرو خففا الذال والكاف، وشدها الباقون، وقد تقدم القول فيما هو العامل في قوله: ﴿أن تضل﴾، و﴿أن﴾ مفعول من أجله والشهادة لم تقع لأن تضل إحداهما. وإنما وقع إشهاد امرأتين لأن تذكر

إحدهما إن ضلت الأخرى. قال سيبويه: وهذا كما تقول: أعددت هذه الخشبة أن يميل هذا الحائط فأدعمه.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: ولما كانت النفوس مستشرقة إلى معرفة أسباب الحوادث، قدم في هذه العبارة ذكر سبب الأمر المقصود أن يخبر به، وفي ذلك سبق النفوس إلى الإعلام بمرادها، وهذا من أنواع أبرع الفصاحة، إذ لو قال رجل لك: أعددت هذه الخشبة أن أدعم بها الحائط، لقال السامع: ولم تدعم حائطاً قائماً؟ فيجب ذكر السبب فيقال: إذا مال. فجاء في كلامهم تقديم السبب أخصر من هذه المحاورة. وقال أبو عبيد: معنى ﴿تضل﴾ تنسى.

قال القاضي أبو محمد: والضلال عن الشهادة إنما هو نسيان جزء منها وذكر جزء. ويبقى المرء بين ذلك حيران ضالاً، ومن نسي الشهادة جملة فليس يقال: ضل فيها، فأما قراءة حمزة فجعل ﴿أن﴾ الجزاء، والفاء في قوله ﴿فتذكر﴾ جواب الجزاء، وموضع الشرط وجوابه رفع بكونه صفة للمذكور، وهما المرأتان، وارتفع «تذكر» كما ارتفع قوله تعالى: ﴿ومن عاد فينتقم الله منه﴾ [المائدة: ٩٥] هذا قول سيبويه.

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا نظر، وأما نصب قوله «فتذكر» على قراءة الجماعة فعلى العطف على الفعل المنصوب بـ ﴿أن﴾، وتخفيف الكاف على قراءة أبي عمرو وابن كثير هو بمعنى تثقيله من الذكر، يقال: ذكرت وأذكرته تعدياً بالتضعيف أو بالهمز، وروي عن أبي عمرو بن العلاء وسفيان بن عيينة أنهما قالاً: معنى قوله: «فتذكر» بتخفيف الكاف أي تردها ذكراً في الشهادة، لأن شهادة امرأة تصف شهادة، فإذا شهدتا صار مجموعهما كشهادة ذكر، وهذا تأويل بعيد، غير فصيح، ولا يحسن في مقابلة الضلال إلا الذكر، وذكرت بشد الكاف يتعدى إلى مفعولين، وأحدهما في الآية محذوف، تقديره فتذكر إحدهما الأخرى «الشهادة»، التي ضلت عنها، وقرأ الجحدري وعيسى بن عمر: «أن تُضل» بضم التاء وفتح الضاد بمعنى تنسى، هكذا حكى عنهما أبو عمرو الداني، وحكى النقاش عن الجحدري ضم التاء وكسر الضاد بمعنى أن تضل الشهادة، تقول: أضللت الفرس والبعير إذا تلفا لك وذبحا فلم تجدهما، وقرأ حميد بن عبد الرحمن ومجاهد «فتذكر» بتخفيف الكاف المكسورة ورفع الراء، وتضمنت هذه الآية جواز شهادة امرأتين بشرط اقترانهما برجل، واختلف قول مالك في شهادتهما، فروى عنه ابن وهب أن شهادة النساء لا تجوز إلا حيث ذكرها الله في الدين، أو فيما لا يطلع عليه أحد إلا هن للضرورة إلى ذلك، وروى عنه ابن القاسم أنها تجوز في الأموال والوكالات على الأموال وكل ما جر إلى مال، وخالف في ذلك أشهب وغيره، وكذلك إذا شهدن على ما يؤدي إلى غير مال، ففيها قولان في المذهب.

قوله عز وجل:

وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكُنْ بُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ
عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا

قال قتادة والربيع وغيرهما: معنى الآية، إذا دعوا أن يشهدوا فيتقيد حق بشهادتهم، وفي هذا المعنى

نزلت، لأنه كان يطوف الرجل في القوم الكثير يطلب من يشهد له فيخرجون هم عن الشهادة فلا يقوم معه أحد، فنزلت الآية في ذلك، وقال الحسن بن أبي الحسن: الآية جمعت أمرين: لا تأب إذا دعيت إلى تحصيل الشهادة، ولا إذا دعيت إلى أدائها، وقال ابن عباس، وقال مجاهد: معنى الآية، لا تأب إذا دعيت إلى أداء شهادة قد حصلت عندك، وأسند النقاش إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه فسر الآية بهذا، قال مجاهد: فأما إذا دعيت لتشهد أولاً، فإن شئت فاذهب، وإن شئت فلا تذهب، وقاله لاحق بن حميد وعطاء وإبراهيم وابن جبير والسدي وابن زيد وغيرهم.

قال القاضي أبو محمد: والآية كما قال الحسن جمعت أمرين على جهة النذب، فالمسلمون مندوبون إلى معونة إخوانهم، فإذا كانت الفسحة لكثرة الشهود وإلا من تعطل الحق فالمدعو مندوب، وله أن يتخلف لأدنى عذر وإن تخلف لغير عذر فلا إثم عليه ولا ثواب له، وإذا كانت الضرورة وخيف تعطل الحق أدنى خوف قوي النذب وقرب من الوجوب، وإذا علم أن الحق يذهب ويتلف بتأخر الشاهد عن الشهادة فواجب عليه القيام بها، لا سيما إن كانت محصلة، وكان الدعاء إلى أدائها، فإن هذا الظرف أكد لأنها قلادة في العنق وأمانة تقتضي الأداء، ﴿وَلَا تَسْأَمُوا﴾ معناه تملوا، و﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ حالان من الضمير في ﴿تَكْتَبُوهُ﴾، وقدم الصغير اهتماماً به، وهذا النهي الذي جاء عن السأمة إنما جاء لتردد المداينة عندهم، فخيف عليهم أن يملوا الكتب و﴿أَقْسَطُ﴾ معناه أعدل. وهذا أفعل من الرباعي وفيه شذوذ، فانظر هل هو من قَسَطَ بضم السين؟ كما تقول: «أكرم» من «كُرُم» يقال: ﴿أَقْسَطُ﴾ بمعنى عدل وقسط بمعنى جار، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥] ومن قدر قوله تعالى: ﴿وَأَقْصَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾ بمعنى وأشد إقامة فذلك أيضاً أفعل من الرباعي، ومن قدرها من قام بمعنى اعتدل زال عن الشذوذ، ﴿وَأَدْنَى﴾ معناه أقرب، و﴿تَرْتَابُوا﴾ معناه، تشكوا وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: «يسأموا» و«يكتبوا» و«يرتابوا» كلها بالياء على الحكاية عن الغائب.

قوله عز وجل:

إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُقُوكُمْ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَ اللَّهُ مَا لِلَّهِ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

لما علم الله تعالى مشقة الكتاب عليهم نص على ترك ذلك ورفع الجناح فيه في كل مبايعة بنقد، وذلك في الأغلب إنما هو في قليل كالمطعم ونحوه لا في كثير كالأملاك ونحوها. وقال السدي والضحاك: هذا فيما كان يدا بيد تأخذ وتعطي، وأن في موضع نصب على الاستثناء المنقطع، وقوله تعالى: ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ يقتضي التفاضل والبيونة بالمقبوض، ولما كانت الرباع والأرض وكثير من الحيوان لا تقوى البيونة به ولا يعاب عليه حسن الكتب فيها ولحققت في ذلك بمبايعة الدين وقرأ عاصم وحده «تجارة» نصباً، وقرأ الباقون «تجارة» رفعاً، قال أبو علي وأشك في ابن عامر، وإذا أتت بمعنى حدث ووقع غنيت

عن خبر، وإذا خلع منها معنى الحدوث لزمها الخبر المنصوب، فحجة من رفع تجارة إن كان بمعنى حدث ووقع، وأما من نصب فعلى خبر كان، والاسم مقدر تقديره عند أبي علي إما المبايعة التي دلت الآيات المتقدمة عليها، وإما ﴿إلا أن تكون﴾ التجارة ﴿تجارة﴾، ويكون ذلك مثل قول الشاعر: [الطويل].

فدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي إذا كان يوماً ذا كواكب أشنعاً

أي إذا كان اليوم يوماً.

قال القاضي أبو محمد: هكذا أنشد أبو علي البيت، وكذلك أبو العباس المبرد، وأنشده الطبري:

[الطويل]

ولله قومي أي قوم لحرّة إذا كان يوماً ذا كواكب أشنعاً

وأنشده سيويه بالرفع إذا كان يوم ذو كواكب.

وقوله تعالى: ﴿وأشهدوا إذا تباعتم﴾ قال الطبري معناه وأشهدوا على صغير ذلك وكبيره، واختلف الناس هل ذلك على الوجوب أو على الندب؟ فقال الحسن والشعبي وغيرهما: ذلك على الندب، وقال ابن عمرو والضحاك: ذلك على الوجوب، وكان ابن عمر يفعل في قليل الأشياء وكثيرها، وقاله عطاء ورجح ذلك الطبري.

قال القاضي أبو محمد: والوجوب في ذلك قلق أما في الدقائق فصعب شاق وأما ما كثر فربما يقصد التاجر الاستيلاف بترك الإشهاد، وقد يكون عادة في بعض البلاد، وقد يستحيي من العالم والرجل الكبير الموقر فلا يشهد عليه، فيدخل ذلك كله في الائتمان، ويبقى الأمر بالإشهاد ندباً لما فيه من المصلحة في الأغلب ما لم يقع عذر يمنع منه كما ذكرنا.

وحكى المهدوي عن قوم أنهم قالوا: ﴿وأشهدوا إذا تباعتم﴾ منسوخ بقوله ﴿فإن أمن﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وذكره مكّي عن أبي سعيد الخدري.

واختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾. فقال الحسن وقتادة وطاوس وابن زيد وغيرهم: المعنى ولا يضار الكاتب بأن يكتب ما لم يمل عليه ولا يضار الشاهد بأن يزيد في الشهادة أو ينقص منها، وقال مثله ابن عباس ومجاهد وعطاء إلا أنهم قالوا: لا يضار الكاتب والشاهد بأن يمتنع.

قال القاضي أبو محمد: ولفظ الضرر يعم هذا والقول الأول، والأصل في يضار على هذين القولين «يضار» بكسر الراء ثم وقع الإدغام وفتحت الراء في الجزم لخفة الفتحة، وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد والضحاك والسدي وطاوس وغيرهم: معنى الآية ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ بأن يؤذيه طالب الكتبة أو الشهادة فيقول اكتب لي أو أشهد لي في وقت عذر أو شغل للكاتب أو الشاهد فإذا اعتذرا بعذرهما خرج وأذاهما، وقال خالفت أمر الله ونحو هذا من القول، ولفظ المضارة إذ هو من اثنين يقتضي هذه المعاني كلها، والكاتب والشهيد على القول الأول رفع بفعلهما وفي القول الثاني رفع على المفعول الذي لم يسم

فاعله، وأصل ﴿يُضَارُّ﴾ على القول الثاني «يُضَارَّرُ» بفتح الراء، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعن ابن مسعود ومجاهد أنهم كانوا يقرءون «ولا يضرَّار» بالفتح وفتح الراء الأولى، وهذا على معنى أن يبدأها بالضرر طالب الكتبة والشهادة، وذكر ذلك الطبري عنهم في ترجمة هذا القول وفسر القراءة بهذا المعنى فدل ذلك على أن الراء الأولى مفتوحة كما ذكرنا، وحكى أبو عمرو الداني عن عمر بن الخطاب وابن عباس وابن أبي إسحاق ومجاهد أن الراء الأولى مكسورة، وحكى عنهم أيضاً فتحها، وفك الفعل هي لغة أهل الحجاز والإدغام لغة تميم، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وعمرو بن عبيد «ولا يضرَّار» بجزم الراء، قال أبو الفتح: تسكين الراء مع التشديد فيه نظر، ولكن طريقه أجرى الوصل مجرى الوقف، وقرأ عكرمة «ولا يضرار» بكسر الراء الأولى «كاتباً ولا شهيداً» بالنصب أي لا يبدأها صاحب الحق بضرر، ووجه المضارة لا تنحصر، وروي مقسم عن عكرمة أنه قرأ «ولا يضرَّار» بالإدغام وكسر الراء للالتقاء، وقرأ ابن محيصن «ولا يضرَّار» برفع الراء مشددة، قال ابن مجاهد: ولا أدري ما هذه القراءة؟

قال أبو الفتح هذا الذي أنكره ابن مجاهد معروف، وذلك على أن تجعل ﴿لا﴾ نفيّاً أي ليس ينبغي أن يضر كما قال الشاعر: [الطويل]

عَلَى الْحَكَمِ الْمَأْتِي يَوْمًا إِذَا انْقَضَى قَضِيَّتُهُ أَنْ لَا يَجُوزَ وَيَقْصِدُ

فرغ ويقصد على إرادة وينبغي أن يقصد فكذلك يرتفع «ولا يضرَّار» على معنى وينبغي أن لا يضر، قال: وإن شئت كان لفظ خبر على معنى النهي.

قال القاضي أبو محمد: وهذا قريب من النظر الأول.

وقوله تعالى: ﴿وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم﴾ من جعل المضارة المنهي عنها زيادة الكاتب والشاهد فيما أملي عليها أو نقصهما منه فالفسوق على عرفه في الشرع وهو موقعة الكبائر، لأن هذا من الكذب المؤذي في الأموال والأبشار، وفيه إبطال الحق، ومن جعل المضارة المنهي عنها أذى الكاتب والشاهد بأن يقال لهما: أجيبا ولا تخالفا أمر الله أو جعلها امتناعهما إذا دعيا فالفسوق على أصله في اللغة الذي هو الخروج من شيء كما يقال فسقت الفأرة إذا خرجت من جحرها، وفسقت الرطبة فكان فاعل هذا فسق عن الصواب والحق في هذه النازلة، ومن حيث خالف أمر الله في هذه الآية فيقرب الأمر من الفسوق العرفي في الشرع، وقوله ﴿بكم﴾ تقديره فسوق حال بكم، وباقي الآية موعظة وتعيد نعمه والله المستعان والمفضل لا رب غيره، وقيل إن معنى الآية الوعد بأن من اتقى علم الخير وألهمه.

قوله عز وجل:

وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنْ مَقْبُوضَةً فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءِثْمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ

(٢٨٣)

لما ذكر الله تعالى الندب إلى الإشهاد والكتب لمصلحة حفظ الأموال والأديان عقب ذلك بذكر حال

الأعذار المانعة من الكتب وجعل لها الرهن ونص من أحوال العذر على السفر الذي هو الغالب من الأعذار لا سيما في ذلك الوقت لكثرة الغزو، ويدخل في ذلك بالمعنى كل عذر، فرب وقت يتعذر فيه الكاتب في الحضر كأوقات أشغال الناس وبالليل، وأيضاً فالخوف على خراب ذمة الغريم عذر يوجب طلب الرهن.

وقد رهن النبي صلى الله عليه وسلم درعه عند يهودي طلب منه سلف الشعير، فقال: إنما يريد محمد أن يذهب بمالي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم «كذب إني لأمين في الأرض أمين في السماء، ولو ائتمنتي لأديت، اذهبوا إليه بدرعي».

وقد قال جمهور من العلماء الرهن في السفر ثابت في القرآن، وفي الحضر ثابت في الحديث.

قال القاضي أبو محمد: وهذا حسن، إلا أنه لم يمعن فيه النظر في لفظ السفر في الآية، وإذا كان السفر في الآية مثلاً من الأعذار فالرهن في الحضر موجود في الآية بالمعنى، إذ قد ترتب الأعذار في الحضر، وذهب الضحاك ومجاهد إلى أن الرهن والائتمان إنما هو في السفر، وأما في الحضر فلا ينبغي شيء من ذلك، وضعف الطبري قولهما في الرهن بحسب الحديث الثابت الذي ذكرته، وقوي قولهما في الائتمان، والصحيح ضعف القول في الفصلين بل يقع الائتمان في الحضر كثيراً ويحسن، وقرأ جمهور القراء «كاتباً» بمعنى رجل يكتب، وقرأ أبي بن كعب وابن عباس «كتاباً» بكسر الكاف وتخفيف التاء وألف بعدها وهو مصدر، قال مكي: وقيل هو جمع كاتب كقائم وقيام.

قال القاضي أبو محمد: ومثله صاحب وصحاب، وقرأ بذلك مجاهد وأبو العالية وقالوا: المعنى وإن عدت الدواة والقلم أو الصحيفة، ونفي وجود الكتاب يكون بعدم أي آلة اتفق من الآلة، فنفي الكتاب يعمها، ونفي الكاتب أيضاً يقتضي نفي الكتاب فالقراءتان حسنتان إلا من جهة خط المصحف، وروي عن ابن عباس أنه قرأ «كُتَاباً» بضم الكاف على جمع كاتب، وهذا يحسن من حيث لكل نازلة كاتب، فقبل للجماعة ولم تجدوا كتاباً، وهذا هو الجنس الذي تدل عليه قراءة من قرأ «كاتباً»، وحكى المهدوي عن أبي العالية أنه قرأ «كتباً» وهذا جمع كتاب من حيث النوازل مختلفة، وهذا هو الجنس الذي تدل عليه قراءة من قرأ «كتاباً».

وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحزمة والكسائي وجمهور من العلماء «فرهان»، وقرأ أبو عمرو وابن كثير «فرهن» بضم الراء والهاء، وروي عنهما تخفيف الهاء. وقد قرأ بكل واحدة جماعة غيرهما.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: رهن الشيء في كلام العرب معناه: دام واستمر، يقال أرهن لهم الشراب وغيره قال ابن سيده: ورهنه أي أدامه، ومن رهن بمعنى دام قول الشاعر: [السريع]

اللحم والخبز لهن رهن وقهوة راووقها ساكب

أي دائم قال أبو علي ولما كان الرهن بمعنى الثبوت والدوام فمن ثم بطل الرهن عند الفقهاء إذا خرج من يد المرتهن إلى يد الراهن بوجه من الوجوه لأنه فارق ما جعل له، ويقال أرهن في السلعة إذا غالى فيها حتى أخذها بكثير الثمن، ومنه قول الشاعر في وصف ناقة: [البسيط]

يطوي ابن سلمى بها من راكب بُعْدًا عَيْدِيَّةً أُرْهَنْتَ فِيهَا الدُّنَايَا

العبد بطن من مهرة، وإبل مهرة موصوفة بالنجاسة، ويقال في معنى الرهن الذي هو التوثقة من الحق : أُرْهَنْتَ إِرْهَانًا فيما حكى بعضهم، وقال أبو علي يقال : أُرْهَنْتَ فِي الْمَغَالَاةِ، وأما في القرض والبيع فرهنت .

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه : ويقال بلا خلاف في البيع والقرض : رهنت رهناً، ثم سمي بهذا المصدر الشيء المدفوع، ونقل إلى التسمية، ولذلك كسر في الجمع كما تكسر الأسماء وكما تكسر المصادر التي يسمى بها وصار فعله ينصبه نصب المفعول به لا نصب المصدر، تقول : رهنت رهناً فذلك كما تقول رهنت ثوباً، لا كما تقول : رهنت الثوب رهناً وضربت ضرباً، قال أبو علي : وقد يقال في هذا المعنى أُرْهَنْتَ، وفعلت فيه أكثر، ومنه قول الشاعر : [الوافر]

يَرَاهُنِّي وَيُرْهِنِي بَيْنَهُ وَأُرْهِنُهُ بَنِيَّ بِمَا أَقُولُ

وقال الأعشى : [الكامل]

حَتَّى يُقَيِّدَكَ مِنْ بَيْنِهِ رَهِينَةً نَعَشُ وَيُرْهِنَكَ السَّمَاءَ الْفَرْقَدَا

فهذه رويت من رهن وأما أُرْهَنَ فمنه قول همام بن مرة : [المتقارب]

وَلَمَّا خَشِيتُ أَظَافِرَهُمْ نَجَوْتُ وَأُرْهَنْتُهُمْ مَالِكَا

قال الزجاج يقال في الرهن رهنت وأُرْهَنْتَ، وقاله ابن الأعرابي، ويقال رهنت لساني بكذا ولا يقال فيه أُرْهَنْتَ .

قال القاضي أبو محمد : فمن قرأ «فِرْهَان» فهو جمع رَهْن، كـ «كَبَش» و«كِبَاش»، و«كَعْب» و«كِعَاب»، وَنَعَلَ وَنَعَالٌ، وَبَغَلَ وَبَغَالٌ، ومن قرأ «فِرْهَنْ» بضم الراء والهاء فهو جمع رَهْن، كـ «سَقَف» و«سَقْف»، وأسَدَ وَأُسْدٌ، إِذْ فَعَلَ وَفُعِلَ يتقاربان في أحكامهما، ومن قرأ «فِرْهَنْ» بسكون الهاء فهو تخفيف رهن، وهي لغة في هذا الباب كله، كتف وفخذ وعضد وغير ذلك، قال أبو علي : وتكسير رهن على أقل العدد لم أعلمه جاء، ولو جاء لكان قياسه أفعَلَ ككَلَبَ وأَكَلَبَ، وكأنهم استغنوا بالكثير عن القليل في قولهم : ثلاثة شسوع، وكما استغني ببناء القليل عن بناء الكثير في رسن وأرسان، فَرَهْنٌ يَجْمَعُ عَلَى بَنَاءَيْنِ مِنْ أَبْنِيَةِ الْجُمُوعِ وهما فعل وفعلال، فمما جاء على «فُعَلَ» قول الأعشى : [الكامل]

أَلَيْتُ لَا أُعْطِيهِ مِنْ أَبْنَائِنَا رَهْنًا فَيُفْسِدَهُمْ كَمَنْ قَدْ أَفْسَدَا

قال الطبري : تأول قوم أن «رُهْنًا» بضم الراء والهاء جمع رهان، فهو جمع جمع، وحكاة الزجاج عن الفراء، ووجه أبو علي قياساً يقتضي أن يكون رهاناً جمع رهن بأن يقال يجمع فعل على فعال كما جمعوا فعلاً على فعال في قول ذي الرمة : [الطويل]

وَقَرَّبَيْنَ بِالزَّرْقِ الْجَمَائِلَ بَعْدَمَا تَقَوَّبَ عَنْ غِرْبَانٍ أَوْرَاكِهَا الْخَطَرُ

ثم ضعف أبو علي هذا القياس وقال إن سيويه لا يرى جمع الجمع مطرداً فينبغي أن لا يقدم عليه حتى يرد سماعاً.

وقوله عز وجل: ﴿مقبوضة﴾ يقتضي بينونة المرتهن بالرهن، وأجمع الناس على صحة قبض المرتهن، وكذلك على قبض وكيله فيما علمت.

واختلفوا في قبض عدل يوضع الرهن على يديه، فقال مالك وجميع أصحابه وجمهور العلماء قبض العدل قبض، وقال الحكم بن عتيبة وأبو الخطاب قتادة بن دعامة وغيرهما: ليس قبض العدل بقبض، وقول الجمهور أصح من جهة المعنى في الرهن.

وقوله تعالى: ﴿فإن أمن﴾ الآية، شرط ربط به وصية الذي عليه الحق بالأداء، وقوله ﴿فليؤد﴾ أمر بمعنى الوجوب بقرينة الإجماع على وجوب أداء الديون وثبوت حكم الحاكم به وجبره الغرماء عليه، وبقرينة الأحاديث الصحاح في تحريم مال الغير، وقوله ﴿أمانته﴾ مصدر سمي به الشيء الذي في الذمة، وأضافها إلى الذي عليه الدين من حيث لها إليه نسبة، ويحتمل أن يريد بالأمانة نفس المصدر، كأنه قال: فليحفظ مروءته، فيجيء التقدير: فليؤد ذا أمانته، وقرأ عاصم فيما روى عنه أبو بكر الذي أوتمن برفع الألف ويشير بالضم إلى الهمزة، قال أحمد بن موسى وهذه الترجمة غلط، وقرأ الباقون بالذال مكسورة وبعدها همزة ساكنة بغير إشمام، وهذا هو الصواب الذي لا يجوز غيره، وروى سليم عن حمزة إشمام الهمزة الضم، وهذا خطأ أيضاً لا يجوز، وصوب أبو علي هذا القول كله الذي لأحمد بن موسى واحتج له، وقرأ ابن محيصن «الذي ائتمن» بياء ساكنة مكان الهمزة، وكذلك ما كان مثله.

وقوله تعالى: ﴿ولا تكتموا الشهادة﴾ نهي على الوجوب بعدة قرائن، منها الوعيد وموضع النهي هو حيث يخاف الشاهد ضياع حق، وقال ابن عباس على الشاهد أن يشهد حيثما استشهد ويخبر حيثما استخبر، قال ولا تقل أخبر بها عند الأمير بل أخبره بها لعله يرجع ويرعوي.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وهذا عندي بحسب قرينة حال الشاهد والمشهود فيه والنازلة، لا سيما مع فساد الزمن وأرذال الناس ونفاق الحيلة وأعراض الدنيا عند الحكام، قرب شهادة إن صرح بها في غير موضع النفوذ كانت سبباً لتخدم باطلاً ينطمس به الحق، و﴿أثم﴾ معناه قد تعلق به الحكم اللاحق عن المعصية في كتمان الشهادة، وإعراجه أنه خبر «إن»، و﴿قلبه﴾ فاعل بـ﴿أثم﴾، ويجوز أن يكون ابتداء و﴿قلبه﴾ فاعل يسد مسد الخبر، والجملة خبر إن، ويجوز أن يكون ﴿قلبه﴾ بدلاً على بدل البعض من الكل.

ونخص الله تعالى ذكر القلب إذ الكتم من أفعاله، وإذ هو المضغة التي بصلاحتها يصلح الجسد كما قال عليه السلام، وقرأ ابن أبي عتبة «فإنه أثم قلبه» بنصب الباء، قال مكّي هو على التفسير ثم ضعفه من أجل أنه معرفة.

وفي قوله تعالى: ﴿والله بما تعملون عليم﴾ توعّد وإن كان لفظها يغم الوعيد والوعد.

قوله عز وجل:

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾

المعنى جميع ما في السموات وما في الأرض ملك الله وطاعة، لأنه الموجد المخترع لا رب غيره، وعبر بـ ﴿ما﴾ وإن كان ثم من يعقل لأن الغالب إنما هو جماد، ويقل من يعقل من حيث قلت أجناسه، إذ هي ثلاثة: ملائكة، وإنس، وجن، وأجناس الغير كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ معناه أن الأمر سواء، لا تنفع فيه المواراة والكتم، بل يعلمه ويحاسب عليه، وقوله: ﴿في أنفسكم﴾ تقتضي قوة اللفظ أنه ما تقرر في النفس واعتقد واستصحبت الفكرة فيه، وأما الخواطر التي لا يمكن دفعها فليست في النفس إلا على تجوز.

واختلف الناس في معنى هذه الآية، فقال ابن عباس وعكرمة والشعبي هي في معنى الشهادة التي نهى عن كتمها، ثم أعلم في هذه الآية أن الكاتب لها المخفي في نفسه محاسب، وقال ابن عباس أيضاً وأبو هريرة والشعبي وجماعة من الصحابة والتابعين إن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا هلكننا يا رسول الله إن حوسبنا بخواطر نفوسنا، وشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم لكنه قال لهم أتريدون أن تقولوا كما قالت بنو إسرائيل: سمعنا وعصينا؟! بل قولوا سمعنا وأطعنا، فقالوا، فأنزل الله بعد ذلك ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فكشف عنهم الكربة ونسخ الله بهذه الآية تلك، هذا معنى الحديث المروي، لأنه تطرق من جهات، واختلفت عباراته واستثبتت عبارة هؤلاء القائلين بلفظة النسخ في هذه النازلة. وقال سعيد بن مرجانة جثت عبد الله بن عمر فتلا هذه الآية، ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ ثم قال: والله لئن أخذنا بهذه الآية لنهلكن، ثم بكى حتى سألت دموعه، وسمع نشيجه، قال ابن مرجانة فقممت حتى جثت ابن عباس فأخبرته بما قال ابن عمر وبما فعل، فقال: يرحم الله أبا عبد الرحمن، لقد وجد المسلمون منها حين نزلت مثل ما وجد عبد الله بن عمر فأنزل الله ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ الآية فنسخت الوسوسة، وثبت القول والفعل، وقال الطبري وقال آخرون هذه الآية محكمة غير منسوخة، والله تعالى يحاسب خلقه على ما عملوا من عمل وعلى ما لم يعملوه مما ثبت في نفوسهم فأضمره ونووه وأرادوه، فيغفر للمؤمنين ويأخذ به أهل الكفر والنفاق، ثم أدخل عن ابن عباس ما يشبه هذا المعنى، وقال مجاهد الآية فيما يطرأ على النفوس من الشك واليقين، وقال الحسن الآية محكمة ليست بمنسوخة، قال الطبري وقال آخرون نحو هذا المعنى الذي ذكر عن ابن عباس، إلا أنهم قالوا إن العذاب الذي يكون جزاء لما خطر في النفس وصحبه الفكر هو بمصائب الدنيا وآلامها وسائر مكارهاها، ثم أسند عن عائشة رضي الله عنها نحو هذا المعنى، ورجح الطبري أن الآية محكمة غير منسوخة.

قال القاضي أبو محمد: وهذا هو الصواب، وذلك أن قوله تعالى: ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو

تخفوه ﴿ معناه مما هو في وسعكم وتحت كسبكم ، وذلك استصحاب المعتقد والفكر فيه ، فلما كان اللفظ مما يمكن أن تدخل فيه الخواطر أشفق الصحابة والنبي صلى الله عليه وسلم ، فبين الله تعالى لهم ما أراد بالآية الأولى وخصصها ، ونص على حكمه أنه ﴿ لا يكلف نفساً إلا وسعها ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ، والخواطر ليست هي ولا دفعها في الوسع ، بل هو أمر غالب ، وليست مما يكسب ولا يكتسب ، وكان في هذا البيان فرحهم وكشف كربهم ، وباقى الآية محكمة لا نسخ فيها .

ومما يدفع أمر النسخ أن الآية خبر ، والأخبار لا يدخلها النسخ ، فإن ذهب ذاهب إلى تقرير النسخ فإنما يترتب له في الحكم الذي لحق الصحابة حين فزعوا من الآية ، وذلك أن قول النبي صلى الله عليه وسلم لهم : «قولوا سمعنا وأطعنا» يجيء منه الأمر بأن يبنوا على هذا ويلتزموه ويتظروا لطف الله في الغفران ، فإذا قرر هذا الحكم فصحيح وقوع النسخ فيه ، وتشبه الآية حينئذ قوله عز وجل ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾ [الأنفال: ٦٥] فهذا لفظ الخبر ولكن معناه : التزموا هذا وابنوا عليه واصبروا بحسبه ، ثم نسخ ذلك بعد ذلك .

وأجمع الناس فيما علمت على أن هذه الآية في الجهاد منسوخة بصبر المائة للمائتين ، وهذه الآية في البقرة أشبه شيء بها ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي «فيغفر» ، «ويعذب» جزماً ، وقرأ ابن عامر وعاصم «فيغفر» و «يعذب» رفعاً ، فوجه الجزم أنه أتبعه ما قبله ولم يقطعه ، وهكذا تحسن المشاكلة في كلامهم ، ووجه الرفع أنه قطعه من الأول ، وقطعه على أحد وجهين ، إما أن تجعل الفعل خبراً لمبتدأ محذوف فيرتفع الفعل لوقوعه موقع خبر المبتدأ ، وإما أن تعطف جملة من فعل وفاعل على ما تقدمها ، وقرأ ابن عباس والأعرج وأبو حيو «فيغفر» و «يعذب» بالنصب على إضمار «أن» ، وهو معطوف على المعنى كما في قوله : ﴿فيضاعفه﴾ [البقرة: ١١] وقرأ الجعفي وخلاد وطلحة بن مصرف يغفر بغير فاء ، وروي أنها كذلك في مصحف ابن مسعود ، قال ابن جني هي على البدل من يحاسبكم فهي تفسير المحاسبة ، وهذا كقول الشاعر : [الطويل]

رويداً بني شيانَ بعضَ وعيدِكُمْ تُلاقُوا غداً خيليَ على سَفَوَانِ
تلاقوا جياداً لا تحيدُ عن الوَعَى إذا ما عَدَّتْ في المنازِقِ المتدانِ

فهذا على البدل ، وكرر الشاعر الفعل لأن الفائدة فيما يليه من القول .

وقوله تعالى : ﴿ويعذب من يشاء﴾ يعني من العصاة الذين ينفذ عليهم الوعيد ، قال النقاش يغفر لمن يشاء ، أي لمن ينزع عنه ، ﴿ويعذب من يشاء﴾ أي من أقام عليه ، وقال سيفان الثوري يغفر لمن يشاء العظيم ويعذب من يشاء على الصغير .

قال القاضي أبو محمد : وتعلق بهذه قوم ممن قال بجواز تكليف ما لا يطاق ، وقال إن الله قد كلفهم أمر الخواطر ، وذلك مما لا يطاق .

قال القاضي أبو محمد : وهذا غير بين ، وإنما كان أمر الخواطر تأويلاً تأوله أصحاب النبي صلى الله

عليه وسلم، ولم يثبت تكليفاً إلا على الوجه الذي ذكرنا من تقرير النبي صلى الله عليه وسلم إياهم على ذلك.

ومسألة تكليف ما لا يطاق، نتكلم عليها فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ولما ذكر المغفرة والتعذيب بحسب مشيئته تعالى أعقب ذلك بذكر القدرة على جميع الأشياء، إذ ما ذكر جزء منها.

قوله عز وجل:

﴿أَمَّا الرَّسُولُ فَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيَّتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (٢٨٥)

سبب هذه الآية أنه لما نزلت ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه﴾ الآية التي قبلها. وأشفق منها النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم، ثم تقرر الأمر على أن ﴿قالوا سمعنا وأطعنا﴾، فرجعوا إلى التضرع والاستكانة، مدحهم الله وأثنى عليهم في هذه الآية، وقدم ذلك بين يدي رفقته بهم وكشفه لذلك الكرب الذي أوجبه تأولهم فجمع لهم تعالى التشريف بالمدح والثناء ورفع المشقة في أمر الخواطر، وهذه ثمرة الطاعة والانقطاع إلى الله تعالى كما جرى لبني إسرائيل ضد ذلك من ذمهم وتحميلهم المشقات من المذلة والمسكنة والجلاء إذ قالوا سمعنا وعصينا، وهذه ثمرة العصيان والتمرد على الله عاذنا الله من نقمته، و﴿آمن﴾ معناه صدق، و﴿الرسول﴾ محمد صلى الله عليه وسلم، و﴿بما أنزل إليه من ربه﴾ هو القرآن وسائر ما أوحى إليه، من جملة ذلك هذه الآية التي تأولوها شديدة الحكم، ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت عليه قال: ويحق له أن يؤمن، وقرأ ابن مسعود «وآمن المؤمنون»، و﴿كل﴾ لفظة تصلح للإحاطة، وقد تستعمل غير محيطة على جهة التشبيه بالإحاطة والقرينة تبين ذلك في كل كلام، ولما وردت هنا بعد قوله ﴿والمؤمنون﴾ دل ذلك على إحاطتها بمن ذكر.

والإيمان بالله هو التصديق به وبصفاته ورفض الأصنام وكل معبود سواه.

والإيمان بملائكته هو اعتقادهم عباداً لله، ورفض معتقدات الجاهلية فيهم.

والإيمان بكتبه هو التصديق بكل ما أنزل على الأنبياء الذين تضمن ذكرهم كتاب الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، أو ما أخبر هو به، وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم في رواية أبي بكر وابن عامر «وكتبه» على الجمع، وقرأوا في التحريم و«كتابه» على التوحيد، وقرأ أبو عمرو هنا وفي التحريم «وكتبه» على الجمع، وقرأ حمزة والكسائي «وكتابه» على التوحيد فيهما، وروى حفص عن عاصم هاهنا وفي التحريم «وكتبه» مثل أبي عمرو، وروى خارجة عن نافع مثل ذلك، وبكل قراءة من هذه قرأ جمهور العلماء، فمن جمع أراد جمع كتاب، ومن أفرد أراد المصدر الذي يجمع كل مكتوب كان نزوله من عند الله تعالى، هذا قول بعضهم وقد وجهه أبو علي وهو كما قالوا: نسج اليمن، وقال أبو علي في صدر كلامه: أما الأفراد في

قول من قرأ «وكتابه» فليس كما تفرد المصادر وإن أريد بها الكثير، كقوله تعالى : ﴿وَادْعُوا نَسْرًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان : ١٤] ونحو ذلك، ولكن كما تفرد الأسماء التي يراد بها الكثرة، كقولهم : كثر الدينار والدرهم ونحو ذلك، فإن قلت هذه الأسماء التي يراد بها الكثرة إنما تجيء مفردة وهذه مضافة، قيل وقد جاء في المضاف ما يعني به الكثرة ففي التنزيل ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ [إبراهيم : ٣٤] وفي الحديث منعت العراق درهمها وقفيزها، فهذا يراد به الكثير كما يراد بما فيه لام التعريف، ومنه قول ابن الرقاق :

يَدْعُ الْحَيَّ بِالْعَشِيِّ رَعَامًا وَهُمْ عَنْ رَغِيْفِهِمْ أَغْنِيَاءَ

ومجيء أسماء الأجناس معرفة بالألف واللام أكثر من مجيئها مضافة، وقرأت الجماعة «ورسله» بضم السين، وكذلك «رسلنا» و«رسلكم» و«رسلك» إلا أبا عمرو فروي عنه تخفيف «رسلنا» و«رسلكم»، وروي عنه في «رسلك» التثنية والتخفيف، قال أبو علي من قرأ «على رسلك» بالتثنية فذلك أصل الكلمة، ومن خفف فكما يخفف في الأحاد مثل عتق وطنب، فإذا خفف في الأحاد فذلك أخرى في الجمع الذي هو أثقل، وقرأ يحيى بن يعمر «وكتبه ورسله» بسكون التاء والسين، وقرأ ابن مسعود «وكتابه ولفاته ورسله»، وقرأ جمهور الناس «لا نفرق» بالنون، والمعنى يقولون لا نفرق، وقرأ سعيد بن جبير ويحيى بن يعمر وأبو زرعة بن عمر بن جرير ويعقوب «لا يفرق» بالياء، وهذا على لفظ «كل»، قال هارون وهي في حرف ابن مسعود «لا يفرقون»، ومعنى هذه الآية أن المؤمنين ليسوا كاليهود والنصارى في أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض.

وقوله تعالى : ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ مدح يقتضي الحض على هذه المقالة وأن يكون المؤمن يمثلها غابر الدهر، والطاعة قبول الأوامر، و«غفرانك» مصدر كالغفران والخسران، وتصبه على جهة نصب المصادر، والعامل فيه فعل مقدر، قال الزجاج تقديره اغفر غفرانك، وقال غيره نطلب ونسأل غفرانك، ﴿وإليك المصير﴾ إقرار بالبعث والوقوف بين يدي الله تعالى .

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية قال له جبريل يا محمد إن الله قد أجل الثناء عليك وعلى أمتك، فسل تعطه، فسأل إلى آخر السورة.

قوله عز وجل :

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

قوله تعالى : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ خبر جزم نص على أنه لا يكلف العباد من وقت نزول الآية عبادة من أعمال القلوب والجوارح إلا وهي في وسع المكلف، وفي مقتضى إدراكه وبينته، وبهذا انكشفت الكربة عن المسلمين في تأولهم أمر الخواطر، وتأول من ينكر جواز تكليف ما لا يطاق هذه الآية بمعنى أنه لا يكلف ولا كلف وليس ذلك بنص في الآية ولا أيضاً يدفعه اللفظ، ولذلك ساغ الخلاف.

وهذا المعنى الذي ذكرناه في هذه الآية يجري مع معنى قوله تعالى ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ [البقرة: ١٨٥] وقوله تعالى: ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ [الحج: ٧٨] وقوله: ﴿واتقوا الله ما استطعتم﴾ [التغابن: ١٦].

واختلف الناس في جواز تكليف ما لا يطاق في الأحكام التي هي في الدنيا بعد اتفاقهم على أنه ليس واقعاً الآن في الشرع، وأن هذه الآية آذنت بعدمه، فقال أبو الحسن الأشعري وجماعة من المتكلمين تكليف ما لا يطاق جائز عقلاً ولا يحرم ذلك شيئاً من عقائد الشرع، ويكون ذلك أمانة على تعذيب المكلف قطعاً به.

قال القاضي أبو محمد: وينظر إلى هذا تكليف المصور أن يعقد شعيرة حسب الحديث.

واختلف القائلون بجوازه هل وقع في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم أم لا؟ فقالت فرقة وقع في نازلة أبي لهب لأنه حكم عليه بتب اليمين وصلي النار، وذلك مؤذن بأنه لا يؤمن، وتكليف الشرع له الإيمان راتب، فكأنه كلف أن يؤمن وأن يكون في إيمانه أنه لا يؤمن لأنه إذا آمن فلا محالة أنه يؤمن بسورة ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ [المسد: ١]، وقالت فرقة لم يقع قط، وقوله تعالى: ﴿سيعلى ناراً﴾ [المسد: ٣] إنما معناه إن وافى على كفره.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وما لا يطاق ينقسم أقساماً: فمنه المحال عقلاً كالجمع بين الضدين، ومنه المحال عادة، كرفع الإنسان جبلاً، ومنه ما لا يطاق من حيث هو مهلك كالاحتراق بالنار ونحوه، ومنه ما لا يطاق للاشتغال بغيره، وهذا إنما يقال فيه ما لا يطاق على تجوز كثير، و﴿يكلف﴾ يتعدى إلى مفعولين أحدهما محذوف تقديره «عبادة» أو شيئاً، وقرأ ابن أبي عتبة «إلا وسعها» بفتح الواو وكسر السين، وهذا فيه تجوز لأنه مقلوب، وكان وجه اللفظ إلا وسعته، كما قال ﴿وسع كرسية السموات والأرض﴾ [البقرة: ٢٥٥] وكما قال ﴿وسع كل شيء علماً﴾ [طه: ٩٨] ولكن يجيء هذا من باب أدخلت القلنسوة في رأسي، وفي في الحجر.

وقوله تعالى: ﴿لها ما كسبت﴾ يريد من الحسنات، و﴿عليها ما اكتسبت﴾ يريد من السيئات، قاله السدي وجماعة من المفسرين، لا خلاف في ذلك، والخواطر ونحوها ليس من كسب الإنسان. وجاءت العبارة في الحسنات بـ ﴿لها﴾ من حيث هي مما يفرح الإنسان بكسبه ويسر بها فتضاف إلى ملكه، وجاءت في السيئات بـ ﴿عليها﴾، من حيث هي أوزار وأثقال ومتحملات صعبة. وهذا كما تقول لي مال وعلي دين، وكما قال المتصدق باللقطة: اللهم عن فلان فإن أبي فلي وعلي، وكرر فعل الكسب فخالف بين التصريف حسناً لنمط الكلام. كما قال ﴿فمهمل الكافرين أمهلهم رويداً﴾ [الطلاق: ١٧] هذا وجه، والذي يظهر لي في هذا أن الحسنات هي مما يكسب دون تكلف، إذ كاسبها على جادة أمر الله ورسوم شرعه، والسيئات تكتسب ببناء المبالغة إذ كاسبها يتكلف في أمرها خرق حجاب نهي الله تعالى ويتخطاه إليها، فيحسن في الآية مجيء التصريفين إحرازاً لهذا المعنى، وقال المهدوي وغيره: وقيل معنى الآية لا يؤاخذ أحد بذنب أحد.

قال القاضي أبو محمد: وهذا صحيح في نفسه، لكن من غير هذه الآية.

وقوله تعالى : ﴿ربنا لا تؤاخذنا﴾ مغناه قولوا في دعائكم .

واختلف الناس في معنى قوله ﴿نسينا أو أخطأنا﴾ فذهب الطبري وغيره إلى أنه النسيان بمعنى الترك، أي إن تركنا شيئاً من طاعتك وأنه الخطأ المقصود . قالوا وأما النسيان الذي يغلب المرء والخطأ الذي هو عن اجتهاد فهو موضوع عن المرء، فليس بمأمور في الدعاء بأن لا يؤاخذ به، وذهب كثير من العلماء إلى أن الدعاء في هذه الآية إنما هو في النسيان الغالب والخطأ غير المقصود، وهذا هو الصحيح عندي . قال قتادة في تفسير الآية بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الله تجاوز لأمتي عن نسيانها وخطأها، وقال السدي لما نزلت هذه الآية فقالوها؛ قال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم : قد فعل الله ذلك يا محمد .

قال القاضي أبو محمد : فظاهر قوليهما ما صححته، وذلك أن المؤمنين لما كشف عنهم ما خافوه في قوله تعالى : ﴿يحاسبكم به الله﴾ [البقرة : ٢٨٤] أمروا بالدعاء في دفع ذلك النوع الذي ليس من طاقة الإنسان دفعه، وذلك في النسيان والخطأ، «والإصر» الثقل وما لا يطاق على أتم أنواعه، وهذه الآية على هذا القول تقضي بجواز تكليف ما لا يطاق، ولذلك أمر المؤمنون بالدعاء في أن لا يقع هذا الجائر الصعب . ومذهب الطبري والزجاج أن تكليف ما لا يطاق غير جائز، فالنسيان عندهم المتروك من الطاعات . والخطأ هو المقصود من العصيان، والإصر هي العبادات الثقيلة كتكاليف بني إسرائيل من قتل أنفسهم وقرض أبدانهم ومعاقباتهم على معاصيهم في أبدانهم حسبما كان يكتب على أبوابهم وتحملهم العهود الصعبة . وما لا طاقة للمرء به هو عندهم على تجوز، كما تقول لا طاقة لي على خصومة فلان، ولغير ذلك من الأمر تستصعبه وإن كنت في الحقيقة تطيقه أو يكون ذلك ﴿ما لا طاقة لنا به﴾ من حيث هو مهلك لنا كعذاب جهنم وغيره . وأما لفظة «أخطأ» فقد تحيى في القصد ومع الاجتهاد، قال قتادة : الإصر العهد والميثاق الغليظ . وقاله مجاهد وابن عباس والسدي وابن جريج والربيع وابن زيد وقال عطاء : الإصر المسخ قردة وخنازير . وقال ابن زيد أيضاً : الإصر الذنب لا كفارة فيه ولا توبة منه . وقال مالك رحمه الله : الإصر : الأمر الغليظ الصعب .

قال القاضي أبو محمد : والإصر في اللغة الأمر الرابط من ذمام أو قرابة أو عهد ونحوه، فهذه العبارات كلها تنحو نحوه، والإصر الحبل الذي تربط به الأحمال ونحوها، والقدر يضم عضدي الرجل يقال أصر يأصر أصراً والإصر بكسر الهمزة من ذلك، وفي هذا نظر . وروي عن عاصم أنه قرأ أصراً بضم الهمزة، ولا خلاف أن الذين من قبلنا يراود به اليهود . قال الضحاك : والنصارى، وأما عبارات المفسرين في قوله : ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ فقال قتادة لا تشدد علينا كما شددت على من كان قبلنا . وقال الضحاك : لا تحملنا من الأعمال ما لا نطيق، وقال نحوه ابن زيد، وقال ابن جريج : لا تمسخنا قردة وخنازير، وقال سلام بن سابور : الذي لا طاقة لنا به الغلظة، وحكاة النقاش عن مجاهد وعطاء وعن مكحول وروي أن أبا الدرداء كان يقول في دعائه : وأعوذ بك من غلظة ليس لها عدة، وقال السدي : هو التغليظ والأغلال التي كانت على بني إسرائيل من التحريم، ثم قال تعالى فيما أمر المؤمنين بقوله : ﴿واعف عنا﴾

أي فيما واقعناه وانكشف ﴿واغفر لنا﴾ أي استر علينا ما علمت منا ﴿وارحمنا﴾ أي تفضل مبتدئاً برحمة منك لنا.

قال القاضي أبو محمد: فهي مناجاة للدعاء متباعدة وإن كان الغرض المراد بكل واحد منها واحداً وهو دخول الجنة و﴿أنت مولانا﴾ مدح في ضمنه تقرب إليه وشكر على نعمه، ومولى هو من ولي فهو مفعول أي موضع الولاية، ثم ختمت الدعوة بطلب النصر على الكافرين الذي هو ملاك قيام الشرع وعلو الكلمة ووجود السبيل إلى أنواع الطاعات.

وروي أن جبريل عليه السلام أتى محمداً صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿قل ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾، فقالها فقال جبريل قد فعل، فقال: قل كذا وكذا فيقولها فيقول جبريل: قد فعل إلى آخر السورة، وتظاهرت بهذا المعنى أحاديث، وروي عن معاذ بن جبل أنه كان إذا فرغ من قراءة هذه السورة قال آمين.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: هذا يظن به أنه رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم، فإن كان ذلك فكمال، وإن كان بقياس على سورة الحمد من حيث هناك دعاء وهنا دعاء فحسن، وروى أبو مسعود عقبة بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: مَنْ قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليل كفته، يعني من قيام الليل، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما أظن أحداً عقل وأدرك الإسلام ينام حتى يقرأهما. وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أوتيت هؤلاء الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يؤتهن أحد قبلي».

كملت سورة البقرة والحمد لله كثيراً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وصلّى الله على محمد وعلى آله وسلم

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

هذه السورة مدنية بإجماع فيما علمت، وذكر النقاش أن اسم هذه السورة في التوراة طيبة.

قوله تعالى:

الْعَمَّ ۝١ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ
وَالْإِنْجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ۝٤ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۝٥ وَاللَّهُ
عَزِيزٌ ذُو نِقَامٍ ۝٦

قد تقدم ذكر اختلاف العلماء في الحروف التي في أوائل السور في أول سورة البقرة، ومن حيث جاء في هذه السورة ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ جملة قائمة بنفسها فتصور تلك الأقوال كلها في ﴿الْعَمَّ﴾ في هذه السورة، وذهب الجرجاني في النظم إلى أن أحسن الأقوال هنا أن يكون ﴿الْعَمَّ﴾ إشارة إلى حروف المعجم كأنه يقول: هذه الحروف كتابك أو نحو هذا، ويدل قوله ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب﴾ على ما ترك ذكره مما هو خبر عن الحروف قال: وذلك في نظمه مثل قوله تعالى: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ [الزمر: ٢١] وترك الجواب لدلالة قوله: ﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله﴾ [الزمر: ٢١] تقديره: كمن قسا قلبه. ومنه قول الشاعر: [الطويل]

فَلَا تَذْفِنُونِي إِنْ ذَفَنِي مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ خَامِرِي أُمِّ عَامِرٍ

قال: تقديره ولكن اتركوني للتي يقال لها خامري أم عامر.

قال القاضي رحمه الله: يحسن في هذا القول أن يكون ﴿نزل﴾ خبر قوله ﴿الله﴾ حتى يرتبط الكلام إلى هذا المعنى. وهذا الذي ذكره القاضي الجرجاني فيه نظر لأن مثله ليست صحيحة الشبه بالمعنى الذي نحا إليه وما قاله في الآية محتمل ولكن الأبرع في نظم الآية أن يكون ﴿الْعَمَّ﴾ لا يضم ما بعدها إلى نفسها في المعنى وأن يكون ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ كلاماً مبتدأ جزماً جملة رادة على نصارى نجران الذين وفدوا على رسول الله عليه السلام فحاجوه في عيسى ابن مريم وقالوا: إنه الله وذلك أن ابن إسحاق والربيع وغيرهما ممن ذكر السير رووا أن وفد نجران قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم نصارى ستون راكباً فيهم من أشرافهم أربعة عشر رجلاً في الأربعة عشر ثلاثة نفر إليه يرجع أمرهم، العاقب أمير القوم وذو رأيهم واسمه عبد المسيح، والسيد ثمالهم وصاحب مجتمعهم واسمه الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أسد

بني بكر بن وائل أسقفهم وعالمهم فدخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد إثر صلاة العصر عليهم جبب وأردية فقال أصحاب رسول الله عليه السلام: ما رأينا وفداً مثلهم جمالاً وجلالة، وحانت صلاتهم فقاموا فصلوا في مسجد رسول الله عليه السلام إلى المشرق فقال النبي عليه السلام: دعوهم ثم أقاموا بالمدينة أياماً يناظرون رسول الله عليه السلام في عيسى ويزعمون أنه الله إلى غير ذلك من أقوال بشعة مضطربة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يرد عليهم بالبراهين الساطعة وهم لا يبصرون، ونزل فيهم صدر هذه السورة إلى نيف وثمانين آية إلى أن آل أمرهم إلى أن دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الابتهاال وسيأتي تفسير ذلك.

وقرأ السبعة «آم الله» بفتح الميم والألف ساقطة، وروي عن عاصم أنه سكن الميم ثم قطع الألف، روى الأولى التي هي كالجماعة حفص وروى الثانية أبو بكر، وذكرها الفراء عن عاصم، وقرأ أبو جعفر الرؤاسي وأبو حيو بكسر الميم للالتقاء وذلك رديء لأن الباء تمنع من ذلك والصواب الفتح قراءة جمهور الناس. قال أبو علي: حروف التهجي مبنية على الوقف فالميم ساكنة واللام ساكنة فحركت الميم بالفتح كما حركت النون في قولك: «من الله ومن المسلمين» إلى غير ذلك.

قال أبو محمد: ومن قال بأن حركة الهمزة ألفت على الميم فذلك ضعيف لإجماعهم على أن الألف الموصولة في التعريف تسقط في الوصل فما يسقط فلا تلقى حركته، قاله أبو علي، وقد تقدم تفسير قوله: ﴿الحي القيوم﴾ في آية الكرسي، والآية هنالك إخبار لجميع الناس، وكررت هنا إخباراً لحجج هؤلاء النصارى، وللدرد عليهم أن هذه الصفات لا يمكنهم ادعاؤها لعيسى عليه السلام لأنهم إذ يقولون إنه صلب فذلك موت في معتقدهم لا محالة إذ من البين أنه ليس بقيوم، وقرأ جمهور القراء «القيوم» وزنه فيعول، وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعبد الله بن مسعود وعلقمة بن قيس «القيام» وزنه - فيعال - وروي عن علقمة أيضاً أنه قرأ «القيم» وزنه فيعل، وهذا كله من قام بالأمر يقوم به إذا اضطلع بحفظه وبجميع ما يحتاج إليه في وجوده، فالله تعالى القيام على كل شيء بما ينبغي له أو فيه أو عليه.

وتنزيل الله الكتاب بواسطة الملك جبريل عليه السلام، و﴿الكتاب﴾ في هذا الموضع القرآن باتفاق من المفسرين، وقرأ جمهور الناس «نزل عليك» بشد الزاي «الكتاب» بنصب الباء، وقرأ إبراهيم النخعي «نزل عليك الكتاب» بتخفيف الزاي ورفع الباء، وهذه الآية تقتضي أن قوله ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ جملة مستقلة منحازة، وقوله ﴿بالحق﴾ يحتمل معنيين: إحداهما أن يكون المعنى ضمن الحقائق من خيره وأمره ونهيه ومواعظه، فالباء على حدها في قوله: جاءني كتاب بخبر كذا وكذا أي ذلك الخبر مقتص فيه، والثاني: أن يكون المعنى أنه نزل الكتاب باستحقاق أن ينزل لما فيه من المصلحة الشاملة وليس ذلك على أنه واجب على الله تعالى أن يفعله، فالباء في هذا المعنى على حدها في قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام ﴿سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ [المائدة: ١١٦] وقال محمد بن جعفر بن الزبير: معنى قوله: ﴿بالحق﴾ أي مما يختلف فيه أهل الكتاب واضطرب فيه هؤلاء النصارى الوافدون، وهذا داخل في المعنى الأول، و﴿مصدقاً﴾ حال مؤكدة وهي راتبه غير منتقلة لأنه لا يمكن أن

يكون غير مصدق لما بين يديه من كتاب الله فهو كقول ابن دارة: [البسيط]

أنا ابنُ دارةٍ معروفٍ بها نسيي وهل يدارةٌ يا للناسِ من عارٍ؟

وما بين يديه هي التوراة والإنجيل وسائر كتب الله التي تلقيت من شرعنا كالزبور والصحف، وما بين اليد في هذه الحوادث هو المتقدم في الزمن.

و﴿التوراة والإنجيل﴾ اسمان أصلهما عبراني لكن النحاة وأهل اللسان حملوها على الاشتقاق العربي فقالوا في التوراة: إنها من وري الزناد يري إذا قذح وظهرت ناره يقال أوريته فوري، ومنه قوله تعالى: ﴿فالموريات﴾ [العاديات: ٢] وقوله: ﴿أفرأيتم النار التي تورون﴾ [الواقعة: ٧٠] قال أبو علي، فأما قولهم: وريت بك زنادي على وزن، فعلت فزعم أبو عثمان أنه استعمل في هذا الكلام فقط ولم يجاوز به غيره، وتوراة عند الخليل وسيبويه وسائر البصريين فوعلة كحوقلة وورية قلبت الواو الأولى تاء كما قلبت في تولج وأصله ولوج من: ولجت، وحكى الزجاج عن بعض الكوفيين: أن توراة أصلها تفعله بفتح العين، من: وريت بك زنادي، وإنما ينبغي أن تكون من: أوريت قال فهي توراة، وقال بعضهم: يصلح أن تكون تفعله بكسر العين مثل توصية ثم ردت إلى تفعله بفتح العين، قال الزجاج وكأنه يجيز في توصية توصأة وذلك غير مسموع، وعلى كل قول فالياء لما انفتح ما قبلها وتحركت هي انقلبت ألفاً فقل توراة، ورجح أبو علي قول البصريين وضعفه غيره، وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم «التوراة» مفتوحة الراء، وكان حمزة ونافع يلفظان بالراء بين اللفظين بين الفتح والكسر وكذلك فعلا في قوله ﴿من الأبرار﴾ و﴿من الأشرار﴾ [ص: ٦٢] و﴿قرار﴾ إذا كان الحرف مخفوضاً، وروى المسيبي عن نافع فتح الراء من التوراة، وروى ورش عنه كسرهما، وكان أبو عمرو والكسائي يكسران الراء من التوراة ويميلان من ﴿الأبرار﴾ وغيرها أشد من إمالة حمزة ونافع.

وقالوا في الإنجيل: إنه إفعيل من النجل وهو الماء الذي ينز من الأرض، قال الخليل: استنجلت الأرض وبها انجال إذا خرج منها الماء والنجل أيضاً الولد والنسل قاله الخليل وغيره، ونجله أبوه أي ولده، ومن ذلك قول الأعشى: [المنسرح]

أَنْجَبُ أَيَّامَ والداهِ بِهِ إِذْ نَجَلَاهُ فَنِعَمَ مَا نَجَلَا

قال ابن سيده عن أبي علي: معنى قوله أيام والداه به كما تقول: أنا بالله وبك، وقال أبو الفتح: معنى البيت، أنجب والداه به أيام إذ نجلاه فهو كقولك حينئذ ويومئذ لكنه حال بالفاعل بين المضاف الذي هو أيام وبين المضاف إليه الذي هو إذ. ويروى هذا البيت أنجب أيام والديه، والنجل الرمي بالشيء وذلك أيضاً من معنى الظهور وفراق شيء شيئاً، وحكى أبو القاسم الزجاجي في نوادره: أن الوالد يقال له، نجل وأن اللفظة من الأضداد، وأما بيت زهير فالرواية الصحيحة فيه:

وكل فحل له نجل

أي ولد كريم ونسل، وروى الأصمعي فيما حكى: وكل فرع له نجل. وهذا لا يتجه إلا على تسمية

الوالد نجلاً. وقال الزجاج: ﴿الإنجيل﴾ مأخوذ من النجل وهو الأصل فهذا ينحو إلى ما حكى أبو القاسم قال أبو الفتح: ف ﴿التوراة﴾ من وري الزناد، إذا ظهرت ناره، و ﴿الإنجيل﴾ من نجل إذا ظهر ولده، أو من ظهور الماء من الأرض فهو مستخرج إما من اللوح المحفوظ، وإما من التوراة، و ﴿الفرقان﴾ من الفرق بين الحق والباطل، فحرفوها مختلفة، والمعنى قريب بعضه من بعض، إذ كلها معناها، ظهور الحق، وبيان الشرع، وفصله من غيره من الأباطيل، وقرأ الحسن بن أبي الحسن «الأنجيل» بفتح الهمزة، وذلك لا يتجه في كلام العرب، ولكن يحمله مكان الحسن من الفصاحة، وإنه لا يقرأ إلا بما روى، وأراه نحا به نحو الأسماء الأعجمية.

وقوله تعالى: ﴿من قبل﴾ يعني من قبل القرآن، وقوله: ﴿هدى للناس﴾ معناه دعاء، والناس بنو إسرائيل في هذا الموضع، لأنهم المدعوون بهما لا غير، وإن أراد أنهما ﴿هدى﴾ في ذاتهما مدعو إليه فرعون وغيره، منصوب لمن اهتدى به، فالناس عام في كل من شاء حينئذ أن يستبصر.

قال القاضي رحمه الله: وقال هنا ﴿لنَّاسٍ﴾، وقال في القرآن ﴿هدى للمتقين﴾، وذلك عندي، لأن هذا خبر مجرد، وقوله: ﴿هدى للمتقين﴾ [البقرة: ٢] خبر مقترن به الاستدعاء والصرف إلى الإيمان، فحسنت الصفة، ليقع من السامع النشاط والبدار، وذكر الهدى الذي هو إيجاد الهداية في القلب، وهنا إنما ذكر الهدى الذي هو الدعاء، والهدى الذي هو في نفسه معد يهتدي به الناس، فسمي ﴿هدى﴾ لذلك، وقال ابن فورك: التقدير هنا هدى للناس المتقين، ويرد هذا العام إلى ذلك الخاص، وفي هذا نظر، و ﴿الفرقان﴾: القرآن، سمي بذلك لأنه فرق بين الحق والباطل، قال محمد بن جعفر، فرق بين الحق والباطل في أمر عيسى عليه السلام، الذي جادل فيه الوفد، وقال قتادة والربيع وغيرهما، فرق بين الحق والباطل في أحكام الشرائع، وفي الحلال والحرام ونحوه، و ﴿الفرقان﴾ يعم هذا كله، وقال بعض المفسرين، ﴿الفرقان﴾ هنا كل أمر فرق بين الحق والباطل، فيما قدم وحدث، فيدخل في هذا التأويل طوفان نوح، و فرق البحر لغرق فرعون، ويوم بدر، وسائر أفعال الله تعالى المفرقة بين الحق والباطل، فكانه تعالى ذكر الكتاب العزيز، ثم التوراة والإنجيل، ثم كل أفعاله ومخلوقاته التي فرق بين الحق والباطل، كما فعلت هذه الكتب، ثم توعده تعالى الكفار عموماً بالعذاب الشديد، وذلك يعم عذاب الدنيا بالسيف والغلبة، وعذاب الآخرة بالنار، والإشارة بهذا الوعيد إلى نصارى نجران، وقال النقاش: إلى اليهود، كعب بن الأشرف، وكعب بن أسد، وبني أخطب وغيرهم، و ﴿عزيز﴾، معناه غالب، وقد ذل له كل شيء، والنقمة والانتقام، معاقبة المذنب بمبالغة في ذلك.

قوله تعالى:

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ

هذه الآية خبر عن علم الله تعالى بالأشياء على التفصيل، وهذه صفة لم تكن لعيسى ولا لأحد من

المخلوقين، ثم أخبر عن تصويره للبشر في أرحام الأمهات، وهذا أمر لا ينكره عاقل، ولا ينكر أن عيسى وسائر البشر لا يقدرّون عليه، ولا ينكر أن عيسى عليه السلام من المصورين في الأرحام، فهذه الآية تعظيم لله تعالى في ضمنها الرد على نصارى نجران، وفي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾ وعيد ما لهم، فسر بنحو هذا محمد بن جعفر بن الزبير والربيع، وفي قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يَصَوِّرُكُمْ﴾ رد على أهل الطبيعة، إذ يجعلونها فاعلة مستبدة، وشرح النبي صلى الله عليه وسلم كيفية التصوير في الحديث الذي رواه ابن مسعود وغيره أن النطفة إذا وقعت في الرحم مكثت نقطة أربعين يوماً ثم تكون علقة أربعين يوماً ثم مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليها ملكاً فيقول: يا رب، أذكر أم أنثى؟ أشقي أم سعيد؟ الحديث بطوله على اختلاف ألفاظه، وفي مسند ابن سنجر حديث: إن الله يخلق عظام الجنين وغضاريفه من مني الرجل ولحمه وشحمه وسائر ذلك من مني المرأة، وصور بناء المبالغة من: صار يصور إذا أمال وثنى إلى حال ما، فلما كان التصوير إمالة إلى حال وإثباتاً فيها، جاء بناؤه على المبالغة، والرحم موضع نشأة الجنين، و﴿كيف يشاء﴾ يعني من طول وقصر ولون وسلامة وعاهة وغير ذلك من الاختلافات، و﴿العزیز﴾ الغالب و﴿الحكيم﴾ ذو الحكمة أو المحكم في مخلوقاته وهذا أخص بما ذكر من التصوير.

و﴿الكتاب﴾ في هذه الآية القرآن بإجماع من المتأولين، والمحكمات، المفصلات المبينات الثابتات الأحكام، والمتشابهات هي التي فيها نظر وتحتاج إلى تأويل ويظهر فيها ببادئ النظر إما تعارض مع أخرى أو مع العقل، إلى غير ذلك من أنواع التشابه، فهذا الشبه الذي من أجله توصف بـ﴿متشابهات﴾، إنما هو بينها وبين المعاني الفاسدة التي يظنها أهل الزيغ ومن لم يمعن النظر، وهذا نحو الحديث الصحيح، عن النبي عليه السلام، الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور متشابهات أي يكون الشيء حراماً في نفسه فيشبهه عند من لم يمعن النظر شيئاً حلالاً وكذلك الآية يكون لها في نفسها معنى صحيح فتشبهه عند من لم يمعن النظر أو عند الزائغ معنى آخر فاسداً فربما أراد الاعتراض به على كتاب الله، هذا عندي معنى الإحكام والتشابه في هذه الآية، ألا ترى أن نصارى نجران قالوا للنبي عليه السلام، أليس في كتابك أن عيسى كلمة وروح منه؟ قال نعم، قالوا: فحسبنا إذاً.

قال الفقيه الإمام أبو محمد: فهذا التشابه، واختلفت عبارة المفسرين في تعيين المحكم والمتشابه المراد بهذه الآية، فقال ابن عباس المحكمات هي قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١] إلى ثلاث آيات، وقوله في بني إسرائيل ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] وهذا عندي مثال أعطاه في المحكمات، وقال ابن عباس أيضاً: المحكمات ناسخه وحلاله وحرامه وما يؤمن به ويعمل، والمتشابه منسوخه ومقدمه ومؤخره وأمثاله وأقسامه وما يؤمن به ولا يعمل به، وقال ابن مسعود وغيره: المحكمات الناسخات، والمتشابهات المنسوخات.

قال الفقيه الإمام: وهذا عندي على جهة التمثيل أي يوجد الإحكام في هذا والتشابه في هذا، لا أنه وقف على هذا النوع من الآيات، وقال بهذا القول قتادة والربيع والضحاك، وقال مجاهد وعكرمة: المحكمات ما فيه الحلال والحرام، وما سوى ذلك فهو متشابه يصدق بعضه بعضاً، وذلك مثل قوله: ﴿وَمَا

يضل به إلا الفاسقين﴾ [البقرة: ٢٦] وقوله: ﴿كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾ [الأنعام: ١٢٥].

قال الفقيه أبو محمد: وهذه الأقوال وما ضارعاها يضعفها أن أهل الزيغ لا تعلق لهم بنوع مما ذكر دون سواه، وقال محمد بن جعفر بن الزبير: المحكمات هي التي فيهن حجة الرب وعصمة العباد ودفع الخصوم والباطل ليس لها تصريح ولا تحريف عما وضعن عليه، والمتشابهات لهن تصريح وتحريف وتأويل ابتلى الله فيهن العباد.

قال الفقيه الإمام أبو محمد: وهذا أحسن الأقوال في هذه الآية، وقال ابن زيد: المحكم ما أحكم فيه قصص الأنبياء والأمم وبين لمحمد وأمته، والمتشابه هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرير في السور بعضها باتفاق الألفاظ واختلاف المعاني، وبعضه بعكس ذلك نحو قوله: ﴿حية تسعى﴾ [طه: ٢٠] و﴿ثعبان مبين﴾ [الأعراف: ١٠٧] ونحو: اسلك يدك، وأدخل يدك، وقالت جماعة من العلماء منهم جابر بن عبد الله بن رثاب وهو مقتضى قول الشعبي وسفيان الثوري، وغيرهما: المحكمات من آي القرآن ما عرف العلماء تأويله وفهموا معناه وتفسيره والمتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر الله بعلمه دون خلقه قال بعضهم: وذلك مثل وقت قيام الساعة وخروج يأجوج ومأجوج والدجال ونزول عيسى ونحو الحروف المقطعة في أوائل السور.

قال القاضي رحمه الله: أما الغيوب التي تأتي فهي من المحكمات، لأن ما يعلم البشر منها محدود وما لا يعلمونه وهو تحديد الوقت محدود أيضاً، وأما أوائل السور فمن المتشابه لأنها معرضة للتأويلات ولذلك اتبعته اليهود وأرادوا أن يفهموا منه مدة أمة محمد عليه السلام، وفي بعض هذه العبارات التي ذكرنا للعلماء اعتراضات، وذلك أن التشابه الذي في هذه الآية مقيد بأنه مما لأهل الزيغ به تعلق، وفي بعض عبارات المفسرين تشابه لا يقتضي لأهل الزيغ تعلقاً.

وقوله تعالى: ﴿أم الكتاب﴾ فمعناه الإعلام بأنها معظم الكتاب وعمدة ما فيه إذ المحكم في آيات الله كثير قد فصل ولم يفرط في شيء منه، قال يحيى بن يعمر: هذا كما يقال لمكة - أم القرى - ولمرو أم خراسان، وكما يقال أم الرأس لمجتمع الشؤون إذ هو أخطر مكان، قال المهدي والنقاش: كل آية محكمة في كتاب الله يقال لها ﴿أم الكتاب﴾، وهذا مردود بل جميع المحكم هو ﴿أم الكتاب﴾، وقال النقاش: وذلك كما تقول: كلكم علي أسد ضار.

قال الفقيه أبو محمد: وهذا المثال غير محكم، وقال ابن زيد: ﴿أم الكتاب﴾ معناه جماع الكتاب، وحكى الطبري عن أبي فاختة أنه قال: ﴿هن أم الكتاب﴾ يراد به فواتح السور إذ منها يستخرج القرآن ﴿آلَمْ ذَلِكَ الكتاب﴾ منه استخرجت سورة البقرة ﴿آلَمْ الله لا إله إلا هو﴾ منه استخرجت سورة آل عمران، وهذا قول متداع للسقوط مضطرب لم ينظر قائله أول الآية وآخرها ومقصدها وإنما معنى الآية الإنحاء على أهل الزيغ والإشارة بذلك أولاً إلى نصارى نجران وإلى اليهود الذين كانوا معاصرين لمحمد عليه السلام فإنهم كانوا يعترضون معاني القرآن، ثم تعم بعد ذلك كل زائغ، فذكر الله تعالى أنه نزل الكتاب على محمد

إفضالاً منه ونعمة، وأن محكمه وبينه الذي لا اعتراض فيه هو معظمه والغالب عليه، وأن متشابهه الذي يحتمل التأويل ويحتاج إلى التفهم هو أقله. ثم إن أهل الزيغ يتركون المحكم الذي فيه غنيتهم ويتبعون المتشابه ابتغاء الفتنة وأن يفسدوا ذات البين ويردوا الناس إلى زيغهم، فهكذا تتوجه المذمة عليهم، و﴿آخر﴾ جمع أخرى لا يتصرف لأنه صفة، وعدل عن الألف واللام في أنه يشئ ويجمع، وصفات التفضيل كلها إذا عريت عن الألف واللام لم تثن ولم تجمع كأفضل وما جرى مجراه، ولا يفاضل بهذه الصفات بين شيئين إلا وهي منكرة، ومتى دخلت عليه الألف واللام زال معنى التفضيل بين أمرين، وليس عدل ﴿آخر﴾ عن الألف واللام مؤثراً في التعريف كما هو عدل - سحر - بل آخر نكرة، وأما سحر فعدل بأنه زالت الألف واللام وبقي معرفة في قوله، جئت يوم الجمعة سحر، وخلط المهدي في هذه المسألة وأفسد كلام سيبويه فتأمله.

قوله تعالى:

فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۚ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَمَنَّا بِهِ ۚ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾

قوله تعالى: ﴿الذين في قلوبهم زيغ﴾ يعم كل طائفة من كافر وزنديق وجاهل صاحب بدعة، والزيغ الميل، ومنه زاغت الشمس، وزاغت الأبصار، والإشارة بالآية في ذلك الوقت كانت إلى نصارى نجران لتعرضهم للقرآن في أمر عيسى عليه السلام، قاله الربيع، وإلى اليهود، ثم تنسحب على كل ذي بدعة أو كفر، وبالميل عن الهدى فسر الزيغ محمد بن جعفر بن الزبير وابن مسعود وجماعة من الصحابة ومجاهد وغيرهم، و﴿ما تشابه منه﴾ هو الموصوف أنفاً - بمتشابهات - وقال قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿وأما الذين في قلوبهم زيغ﴾: إن لم يكونوا الحرورية وأنواع الخوارج، فلا أدري من هم؟ وقالت عائشة: إذا رأيتم الذين يجادلون في القرآن فهم الذي عنى الله فاحذروهم، وقال الطبري: الأشبه أن تكون الآية في الذين جادلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مدته ومدة أمته بسبب حروف أوائل السور، وهؤلاء هم اليهود، و﴿ابتغاء﴾ نصب على المفعول من أجله، ومعناه طلب الفتنة، وقال الربيع: ﴿الفتنة﴾ هنا الشرك، وقال مجاهد: ﴿الفتنة﴾ الشبهات واللبس على المؤمنين، ثم قال: ﴿وابتغاء تأويله﴾ والتأويل هو مراد الكلام ومرجعه والشيء الذي يقف عليه من المعاني، وهو من آل يؤول، إذا رجع، فالمعنى وطلب تأويله على منازلهم الفاسدة. هذا فيما له تأويل حسن وإن كان مما لا يتأول بل يوقف فيه كالكلام في معنى الروح ونحوه، فنفس طلب تأويله هو اتباع ما تشابه. وقال ابن عباس: ابتغوا معرفة مدة محمد صلى الله عليه وسلم النبي عليه السلام وأمته، ثم قال: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ فهذا على الكمال والتوفية فيما لا يتأول ولا سبيل لأحد إليه كأمر الروح وتعرف وقت قيام الساعة وسائر الأحداث التي أنذر بها الشرع، وفيما يمكن أن يتأوله العلماء ويصح التطرق إليه، فمعنى الآية: وما يعلم تأويله على الكمال إلا الله.

واختلف العلماء في قوله تعالى: ﴿والراسخون في العلم﴾ فرأت فرقة، أن رفع ﴿والراسخون﴾ هو

بالمعطف على اسم الله عز وجل وأنهم داخلون في علم المتشابه في كتاب الله وأنهم مع علمهم به، ﴿يقولون آمنا به﴾ الآية. قال بهذا القول ابن عباس، وقال: أنا ممن يعلم تأويله، وقال مجاهد: والراسخون في العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به، وقاله الربيع ومحمد بن جعفر بن الزبير وغيرهم، و﴿يقولون﴾ على هذا التأويل نصب على الحال، وقالت طائفة أخرى: ﴿والراسخون﴾ رفع بالابتداء وهو مقطوع من الكلام الأول وخبره ﴿يقولون﴾، والمنفرد بعلم المتشابه هو الله وحده بحسب اللفظ في الآية وفعل الراسخين قولهم ﴿آمنا به﴾ قالته عائشة وابن عباس أيضاً، وقال عروة بن الزبير: إن الراسخين لا يعلمون تأويله ولكنهم يقولون، ﴿آمنا به﴾، وقال أبو نهيك الأسدي: إنكم تصلون هذه الآية وإنها مقطوعة وما انتهى علم الراسخين إلا إلى قولهم ﴿آمنا به كل من عند ربنا﴾ وقال مثل هذا عمر بن عبد العزيز، وحكى نحوه الطبري عن يونس عن أشهب عن مالك بن أنس.

قال القاضي رحمه الله: وهذه المسألة إذا تؤملت قرب الخلاف فيها من الاتفاق، وذلك أن الله تعالى قسم أي الكتاب قسمين: - محكماً ومتشابهاً - فالمحكم هو المتضح المعنى لكل من يفهم كلام العرب لا يحتاج فيه إلى نظر ولا يتعلق به شيء يلبس ويستوي في علمه الراسخ وغيره والمتشابه يتنوع، فمنه ما لا يعلم البتة، كأمر الروح، وآماد المغيبات التي قد أعلم الله بوقوعها إلى سائر ذلك، ومنه ما يحمل على وجوه في اللغة ومناح في كلام العرب، فيتأول تأويله المستقيم، ويزال ما فيه مما عسى أن يتعلق به من تأويل غير مستقيم كقوله في عيسى ﴿وروح منه﴾ [النساء: ١٧١] إلى غير ذلك، ولا يسمى أحد راسخاً إلا بأن يعلم من هذا النوع كثيراً بحسب ما قدر له، وإلا فمن لا يعلم سوى المحكم فليس يسمى راسخاً وقوله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله﴾ الضمير عائد على جميع متشابه القرآن، وهو نوعان كما ذكرنا، فقوله ﴿إلا الله﴾ مقتض ببيده العقل أنه يعلمه على الكمال والاستيفاء، يعلم نوعيه جميعاً، فإن جعلنا قوله: ﴿والراسخون﴾ عطفاً على اسم الله تعالى، فالمعنى إدخالهم في علم التأويل لا على الكمال، بل علمهم إنما هو في النوع الثاني من المتشابه، وبيده العقل تقضي بهذا، والكلام مستقيم على فصاحة العرب كما تقول: ما قام لنصرتي إلا فلان وفلان، وأحدهما قد نصرك بأن حارب معك، والآخر إنما أعانك بكلام فقط، إلى كثير من المثل، فالمعنى ﴿وما يعلم﴾ تأويل المتشابه إلا الله ﴿والراسخون﴾ كل بقدره، وما يصلح له، ﴿والراسخون﴾ بحال قول في جميعه ﴿آمنا به﴾، وإذا تحصل لهم في الذي لا يعلم ولا يتصور عليه تمييزه من غيره فذلك قدر من العلم بتأويله وإن جعلنا قوله: ﴿والراسخون﴾ رفعاً بالابتداء مقطوعاً مما قبله، فسميتهم راسخين يقتضي بأنهم يعلمون أكثر من المحكم الذي يستوي في علمه جميع من يفهم كلام العرب، وفي أي شيء هو رسوخهم، إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع، وما الرسوخ إلا المعرفة بتصاريف الكلام وموارد الأحكام، ومواقع المواضع، وذلك كله بقريحة معدة، فالمعنى ﴿وما يعلم تأويله﴾ على الاستيفاء إلى الله، والقوم الذين يعلمون منه ما يمكن أن يعلم يقولون في جميعه ﴿آمنا به كل من عند ربنا﴾ وهذا القدر هو الذي تعاطى ابن عباس رضي الله عنه، وهو ترجمان القرآن، ولا يتأول عليه أنه علم وقت الساعة وأمر الروح وما شاكله. فإعراب ﴿الراسخون﴾ يحتمل الوجهين، ولذلك قال ابن عباس بهما، والمعنى فيهما يتقارب بهذا النظر الذي سطرناه، فأما من يقول: إن المتشابه إنما هو ما لا سبيل لأحد إلى

علمه فيستقيم على قوله إخراج الراسخين من علم تأويله، لكن تخصيصه المتشابهات بهذا النوع غير صحيح، بل الصحيح في ذلك قول من قال: المحكم ما لا يحتمل إلا تأويلاً واحداً والمتشابه ما احتمل من التأويل أوجهاً، وهذا هو متبع أهل الزيف، وعلى ذلك يترتب النظر الذي ذكرته، ومن قال من العلماء الحذاق بأن الراسخين لا يعلمون تأويل المتشابه فإنما أرادوا هذا النوع وخافوا أن يظن أحد أن الله وصف الراسخين بعلم التأويل على الكمال، وكذلك ذهب الزجاج إلى أن الإشارة بما تشابه منه إنما هي إلى وقت البعث الذي أنكره، وفسر باقي الآية على ذلك، فهذا أيضاً تخصيص لا دليل عليه، وأما من يقول، إن المتشابه هو المنسوخ فيستقيم على قوله إدخال الراسخين في علم التأويل لكن تخصيصه المتشابهات بهذا النوع غير صحيح، ورجح ابن فورك أن الراسخين يعلمون التأويل وأطنب في ذلك، وقرأ أبي بن كعب وابن عباس: «إلا الله ويقول: الراسخون في العلم آمناء به»، وقرأ ابن مسعود: «وابتغاء تأويله» إن تأويله إلا عند الله، - «والراسخون في العلم» يقولون «آمناء به» - والرسوخ الثبوت في الشيء، وأصله في الأجرام أن يرسخ الجبل أو الشجر في الأرض وسئل النبي عليه السلام عن «الراسخين في العلم»، فقال: هو من برت يمينه وصدق لسانه واستقام، وقوله: «كل من عند ربنا» فيه ضمير عائد على كتاب الله، محكمه ومتشابهه، والتقدير، كله من عند ربنا، وحذف الضمير للدلالة لفظ كل عليه، إذ هي لفظة تقتضي الإضافة. ثم قال تعالى: «وما يذكر إلا أولو الألباب» أي ما يقول هذا ويؤمن به ويقف حيث وقف ويدع اتباع المتشابه إلا ذولب، وهو العقل، و«أولو» جمع ذو.

قوله تعالى:

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ
لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴿٩﴾

يحتمل أن تكون هذه الآية حكاية عن الراسخين في العلم، أنهم يقولون هذا مع قولهم «آمناء به» [آل عمران: ٧] ويحتمل أن يكون المعنى منقطعاً من الأول لما ذكر أهل الزيف وذكر نقيضهم، وظهر ما بين الحالتين عقب ذلك بأن علم عباده الدعاء إليه في أن لا يكونوا من الطائفة الذميمة التي ذكرت وهي أهل الزيف، وهذه الآية حجة على المعتزلة في قولهم، إن الله لا يضل العباد، ولو لم تكن الإزاعة من قبله لما جاز أن يدعي في دفع ما لا يجوز عليه فعله و«تزغ» معناه، تمل قلوبنا عن الهدى والحق، وقرأ أبو واقد، والجراح «ولا تزغ قلوبنا» بإسناد الفعل إلى القلوب، وهذه أيضاً رغبة إلى الله تعالى. وقال أبو الفتح: ظاهر هذا ونحوه الرغبة إلى القلوب وإنما المسؤول الله تعالى، وقوله الرغبة إلى القلوب غير متمكن، ومعنى الآية على القراءتين، أن لا يكن منك خلق الزيف فيها فتزغ هي. قال الزجاج: وقيل: إن معنى الآية لا تكلفنا عبادة ثقيلة تزغ منها قلوبنا.

قال الفقيه الإمام: وهذا قول فيه التحفظ من خلق الله تعالى الزيف والضلالة في قلب أحد من العباد، و«من لدنك» معناه: من عندك ومن قبلك، أي تكون فضلاً لا عن سبب منا ولا عمل، وفي هذا

استسلام وتطارح ، والمراد هب لنا نعيماً صادراً عن الرحمة لأن الرحمة راجعة إلى صفات الذات فلا تتصور فيها الهبة .

وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ ﴾ إقرار بالبعث ليوم القيامة ، قال الزجاج : هذا هو التأويل الذي علمه الراسخون فأقروا به ، وخالف الذين اتبعوا ما تشابه عليهم من أمر البعث حين أنكروه ، والريب : الشك ، والمعنى أنه في نفسه حق لا ريب فيه وإن وقع فيه ريب عند المكذبين به فذلك لا يعتد به إذ هو خطأ منهم ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ يحتمل أن يكون إخباراً منه محمداً عليه السلام وأمه ، ويحتمل أن يكون حكاية من قول الداعين ، ففي ذلك إقرار بصفة ذات الله تعالى ، و ﴿ الميعاد ﴾ مفعال من الوعد .

قوله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ
كَذَّابٌ ۖ أَلْ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ

هم الكفار الذين لا يقرون ببعث إنما هي على وجه الدهر وإلى يوم القيامة في زينة الدنيا وهي المال والبنون ، فأخبر الله تعالى في هذه الآية ، أن ذلك المتهم فيه لا يغني عن صاحبه شيئاً ولا يمنعه من عذاب الله وعقابه ، و ﴿ من ﴾ في قوله : ﴿ من الله ﴾ لا ابتداء الغاية ، والإشارة بالآية إلى معاصري النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يفخرون بأموالهم وأبنائهم ، وهي - بعد - متناولة كل كافر ، وقرأ أبو عبد الرحمن : « لن يغني » بالياء ، على تذكير العلامة ، والوقود بفتح الواو ما يحترق في النار من حطب ونحوه ، وكذلك هي قراءة جمهور الناس ، وقرأ الحسن ومجاهد وجماعة غيرهما ﴿ وَقُودٌ ﴾ بضم الواو وهذا على حذف مضاف تقديره ، حطب ﴿ وقود النار ﴾ ، والوقود بضم الواو المصدر ، وقدت النار تقد إذا اشتعلت ، والدأب والدأب ، بسكون الهمزة وفتحها ، مصدر دأب يدأب - إذا لازم فعل شيء ودام عليه مجتهداً فيه ، ويقال للعادة - دأب - فالمعنى في الآية ، تشبيه هؤلاء في لزومهم الكفر ودوامهم عليه بأولئك المتقدمين ، وآخر الآية يقتضي الوعيد بأن يصيب هؤلاء مثل ما أصاب أولئك من العقاب .

والكاف في قوله ﴿ كذأب ﴾ في موضع رفع ، التقدير : دأبهم ﴿ كذأب ﴾ ، ويصح أن يكون الكاف في موضع نصب ، قال الفراء : هونعت لمصدر محذوف تقديره كفراً ﴿ كذأب ﴾ ، فالعامل فيه ﴿ كفروا ﴾ ، ورد هذا القول الزجاج بأن الكاف خارجة من الصلة فلا يعمل فيها ما في الصلة .

قال القاضي رحمه الله : ويصح أن يعمل فيه فعل مقدر من لفظ « الوقود » ويكون التشبيه في نفس الاحتراق ، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ ادخلوا آل فرعون أشد العذاب ، النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ﴾ [غافر : ٤٦] ، والقول الأول أرجح الأقوال أن يكون الكاف في موضع رفع ، والهاء في ﴿ قبلهم ﴾ عائدة على ﴿ آل فرعون ﴾ ، ويحتمل أن تعود على معاصري رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكفار ، وقوله : ﴿ بآياتنا ﴾ يحتمل أن يريد بالآيات المتلوة ، ويحتمل أن يريد العلامات المنصوبة ، واختلفت عبارة

المفسرين، في تفسير الدأب، وذلك كله راجع إلى المعنى الذي ذكرناه.

قوله تعالى:

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ يَكُونُ لَهُمْ جَهَنَّمُ ذَاتَ الْبَابِ وَإِلَىٰ جَهَنَّمَ يُدْخَلُونَ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَهُمْ رَأَىٰ الْأَعْيُنَ وَاللَّهُ يُوَيِّدُ بَنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وابن عامر، «ستغلبون وتحشرون» بالتاء من فوق و «يرونهم» بالياء من تحت، وحكى أبان عن عاصم «ترونها» بالتاء من فوق مضمومة، وقرأ نافع ثلاثين بالتاء من فوق. وقرأ حمزة ثلاثين بالياء من تحت، وبكل قراءة من هذه قرأ جمهور من العلماء، وقرأ ابن عباس، وطلحة بن مصرف وأبو حيو، «يرونهم» بالياء المضمومة، وقرأ أبو عبد الرحمن، بالتاء من فوق مضمومة. واختلف من الذين أمر بالقول لهم من الكفار، فقليل هم جميع معاصريه من الكفار، أمر بأن يقول لهم هذا الذي فيه إعلام بغيب ووعيد، قد صدق بحمد الله غلب الكفر وصار من مات عليه إلى جهنم، ونحا إلى هذا أبو علي في - الحجة - وتظاهرت روايات بأن المراد يهود المدينة، قال ابن عباس وغيره: لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً يوم بدر، وقدم المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع فقال: يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً فقالوا يا محمد: لا يغرنك نفسك أن قتلت نفرًا من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس، فأنزل الله في قولهم هذه الآية، وروي حديث آخر ذكره النقاش، وهو أن النبي عليه السلام لما غلب قريشاً ببدر قالت اليهود: هذا هو النبي المبعوث الذي في كتابنا وهو الذي لا تهزم له راية، وكثرت فتنتهم بالأمر، فقال لهم رؤسائهم وشياطينهم: لا تعجلوا وأمهلوا حتى نرى أمره في وقعة أخرى، فلما وقعت أحد كفر جميعهم وبقوا على أولهم، وقالوا: ليس محمد بالنبي المنصور فنزلت الآية في ذلك، أي قل لهؤلاء اليهود سيغلبون يعني قريشاً، وهذا التأويل إنما يستقيم على قراءة «سيغلبون ويحشرون» بالياء من تحت، ومن قرأ بالتاء فمعنى الآية: قل للكفار جميعاً هذه الألفاظ، ومن قرأ بالياء من تحت، فالمعنى قل لهم كلاماً هذا معناه، ويحتمل قراءة التاء التأويل الذي ذكرناه آنفاً، أي قل لليهود ستغلب قريش، ورجح أبو علي قراءة التاء على المواجهة، وأن الذين كفروا يعم الفريقين، المشركين واليهود، وكل قد غلب بالسيف والجزية والذلة، والحشر: الجمع والإحضار، وقوله: ﴿وبئس المهاد﴾ يعني جهنم، هذا ظاهر الآية، وقال مجاهد: المعنى بئس ما مهدوا لأنفسهم، فكان المعنى، وبئس فعلهم الذي أداهم إلى جهنم.

وقوله تعالى: ﴿قد كان لكم آية في فئتين﴾ الآية تحتل أن يخاطب بها المؤمنون وأن يخاطب بها جميع الكفار وأن يخاطب بها يهود المدينة، وبكل احتمال منها قد قال قوم، فمن رأى أن الخطاب بها للمؤمنين فمعنى الآية تثبيت النفوس وتشجيعها، لأنه لما قال للكفار ما أمر به أمكن أن يستبعد ذلك المنافقون وبعض ضعفة المؤمنين، كما قال قائل يوم الخندق: يعدنا محمد أموال كسرى وقيصر، ونحن لا

نأمن على أنفسنا في المذهب، وكما قال عدي بن حاتم حين أخبره النبي عليه السلام بالأمنة التي تأتي، فقلت في نفسي: وأين دعار طيء الذين سعروا البلاد؟ الحديث بكماله، فنزلت الآية مقوية لنفوس المؤمنين ومبينة صحة ما أخبر به بالمثل الواقع، فمن قرأ «ترونها» بالتاء من فوق فهي مخاطبة لجميع المؤمنين إذ قد رأى ذلك جمهور منهم، والهاء والميم في «ترونها» تجمع المشركين، وفي «مثلهم» تجمع المؤمنين، ومن قرأ بالياء من تحت فالمعنى يرى الجمع من المؤمنين جمع الكفار مثلي جمع المؤمنين، ومن رأى أن الخطاب لجميع الكفار ومن رأى أنه لليهود فالآية عنده داخله فيما أمر محمد عليه السلام أن يقول لهم احتجاجاً عليهم، وتبييناً لصورة الوعيد المتقدم في أنهم سيغلبون، فمن قرأ بالياء من تحت، فالمعنى يرى الجمع من المؤمنين جمع الكفار مثلي جمع المؤمنين، ومن قرأ بالتاء فالمعنى لو حضرتم أو إن كنتم حضرتم وسأغت العبارة لوضوح الأمر في نفسه ووقوع اليقين به لكل إنسان في ذلك العصر، ومن قرأ بضم التاء أو الياء فكان المعنى، أن اعتقاد التضعيف في جميع الكفار إنما كان تخميناً وظناً لا يقيناً، فلذلك ترك في العبارة من الشك وذلك أن أرى بضم الهمزة تقولها فيما بقي عندك فيه نظر و- أرى - بفتح الهمزة تقولها فيما قد صح نظرك فيه، ونحنا هذا المنحى أبو الفتح وهو صحيح، قال أبو علي: والرؤية في هذه الآية عين، ولذلك تعدت إلى مفعول واحد، و﴿مثلهم﴾ نصب على الحال من الهاء والميم في «ترونها» وأجمع الناس على الفاعل بـ «ترونها» المؤمنون والضمير المتصل هو للكفار، إلا ما حكى الطبري عن قوم أنهم قالوا: بل كثر الله عدد المؤمنين في عيون الكفار حتى كانوا عندهم ضعفيهم، وضعف الطبري هذا القول، وكذلك هو مردود من جهات، بل قلل الله كل طائفة في عين الأخرى، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، فقلل الكفار في عيون المؤمنين ليقع التجاسر ويحتقر العدو، وهذا مع اعتقاد النبي وقوله، واعتقاد أولي الفهم من أصحابه أنهم من التسعمائة إلى الألف، لكن أذهب الله عنهم البهاء وانتشار العساكر وفخامة الترتيب، حتى قال ابن مسعود في بعض ما روي عنه: لقد قلت لرجل إلى جنبي أتراهم سبعين؟ فقال: أظنهم مائة، فلما أخذنا الأسرى أخبرونا أنهم كانوا ألفاً، وقلل الله المؤمنين في عيون الكفار ليغفروا ولا يحزموا، وتظاهرت الروايات أن جمع الكفار بيد كان نحو الألف فوق التسعمائة وأن جمع المؤمنين كان ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً وقيل وثلاثة عشر فكان الكفار ثلاثة من المؤمنين، لكن رجع بنو زهرة مع الأخنس بن شريق، ورجع طالب بن أبي طالب وأتباع وناس كثير حتى بقي للقتال من يقرب من المثلين، وقد ذكر النقاش نحواً من هذا فذكر الله تعالى المثلين، إذ أمرهما متيقن لم يدفعه قط أحد، وقد حكى الطبري عن ابن عباس: أن المشركين في قتال بدر كانوا ستمائة وستة وعشرين رجلاً، وقد ذهب الزجاج وبعض المفسرين، أنهم كانوا نحو الألف وأراهم الله للمؤمنين مثلهم فقط، قال: فهذا التقليل في الآية الأخرى، ثم نصرهم عليهم مع علمهم بأنهم مثلام في العدد، لأنه كان أعلم المسلمين أن المائة منهم تغلب المائتين من الكفار، وروى علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي عليه السلام أنه قال يوم بدر: القوم ألف، وقوله تعالى: ﴿لكم آية﴾ يريد علامة وأماراً ومعتبراً، والفئة: الجماعة من الناس سميت بذلك لأنها يفاء إليها، أي يرجع في وقت الشدة، وقال الزجاج: الفئة الفرقة، مأخوذة من فأوت رأسه بالسيف، ويقال: فأيته إذا فلقته، ولا خلاف أن الإشارة بهاتين الفئتين هي إلى يوم بدر، وقرأ جمهور الناس

«فئةٌ تقاتل» برفع «فئةٌ» على خبر ابتداء، تقديره إحداهما فئة، وقرأ مجاهد والحسن والزهري وحيد: «فئةٌ» بالخفض على البدل، ومنهم من رفع «كافرةٌ» ومنهم من خفضها على العطف، وقرأ ابن أبي عتبة: «فئةٌ» بالنصب وكذلك «كافرةٌ» قال الزجاج: يتجه ذلك على الحال كأنه قال: التقتا مؤمنة وكافرة، ويتجه أن يضمير فعل أعني ونحوه و﴿رأي العين﴾ نصب على المصدر، و﴿يؤيد﴾ معناه يقوي من الأيد وهو القوة. قوله تعالى:

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ
وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ
الْمِثْقَالِ ﴿١٤﴾

قرأ جمهور الناس «زُيِّنَ» على بناء الفعل للمفعول ورفع «حُبٌّ» على أنه مفعول لم يسم فاعله، وقرأ الضحاك ومجاهد «زُيِّنَ» على بناء الفعل للفاعل ونصب «حُبٌّ» على أنه المفعول، واختلف الناس من المزين؟ فقالت فرقة: الله زين ذلك وهو ظاهر قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأنه قال لما نزلت هذه الآية: قلت الآن يا رب حين زينتها لنا فنزلت: ﴿قل أؤنبئكم بخير من ذلكم﴾ [آل عمران: ١٥]، وقالت فرقة: المزين هو الشيطان، وهذا ظاهر قول الحسن بن أبي الحسن، فإنه قال من زينها؟ ما أحد أشد لها ذمًا من خالقها.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وإذا قيل زين الله، فمعناه بالإيجاد والتهيئة لانتفاع وإنشاء الجبلية عن الميل إلى هذه الأشياء، وإذا قيل زين الشيطان فمعناه بالسوسة والخديعة وتحسين أخذها من غير وجوها. والآية تحتل هذين النوعين من التزيين ولا يختلف مع هذا النظر. وهذه الآية على كلا الوجهين ابتداء وعظ لجميع الناس، وفي ضمن ذلك توضيح لمعاصري محمد عليه السلام من اليهود وغيرهم، و﴿الشهوات﴾ ذميمة واتباعها مردٍ وطاعتها مهلكة، وقد قال عليه السلام: «حفت النار بالشهوات وحفت الجنة بالمكاره» فحسبك أن النار حفت بها، فمن واقعها خلص إلى النار، و﴿القناطر﴾ جمع قنطار، وهو العقدة الكبيرة من المال، واختلف الناس في تحرير حده كم هو؟ فروى أبي بن كعب، عن النبي عليه السلام أنه قال: القنطار ألف ومائتا أوقية، وقال بذلك معاذ بن جبل وعبد الله بن عمر وأبو هريرة وعاصم بن أبي النجود وجماعة من العلماء، وهو أصح الأقوال، لكن القنطار على هذا يختلف باختلاف البلاد في قدر الأوقية، وقال ابن عباس والضحاك بن مزاحم والحسن بن أبي الحسن: القنطار ألف ومائتا مثقال، وروى الحسن ذلك مرفوعاً عن النبي عليه السلام، قال الضحاك وهو من ﴿الفضة﴾ ألف ومائتا مثقال، وروي عن ابن عباس أنه قال: القنطار من ﴿الفضة﴾ اثنا عشر ألف درهم، ومن ﴿الذهب﴾ ألف دينار، وروي ذلك عن الحسن والضحاك وقال سعيد بن المسيب: القنطار ثمانون ألفاً، وقال قتادة: القنطار مائة رطل من ﴿الذهب﴾ أو ثمانون ألف درهم من ﴿الفضة﴾، وقال السدي: القنطار ثمانية آلاف مثقال وهي مائة رطل، وقال مجاهد القنطار سبعون ألف دينار، وروي ذلك عن ابن عمر، وقال أبو نضرة: القنطار ملء مسك ثور ذهباً.

قال ابن سيده: هكذا هو بالسريانية، وقال الربيع بن أنس: القنطار المال الكثير بعضه على بعض، وحكى النقاش عن ابن الكلبي، أن القنطار بلغة الروم ملء مسك ثور ذهباً، وقال النقاش: ﴿القناطير﴾ ثلاثة، و﴿المقنطرة﴾ تسعة لأنه جمع الجمع، وهذا ضعف نظر وكلام غير صحيح، وقد حكى مكي نحوه عن ابن كيسان أنه قال: لا تكون ﴿المقنطرة﴾ أقل من تسعة وحكى المهدوي عنه وعن الفراء، لا تكون ﴿المقنطرة﴾ أكثر من تسعة، وهذا كله تحكم. قال أبو هريرة: القنطار اثنا عشر ألف أوقية، وحكى مكي قولاً إن القنطار أربعون أوقية ذهباً أو فضة، وقاله ابن سيده في المحكم، وقال: القنطار بلغة بربر ألف مثقال، وروى أنس بن مالك عن النبي عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا﴾ [النساء: ٢٠] قال ألف دينار ذكره الطبري، وحكى الزجاج أنه قيل: إن القنطار هو رطل ذهباً أو فضة وأظنها وهماً، وإن القول مائة رطل فسقطت مائة للناقل، والقنطار إنما هو اسم المعيار الذي يوزن به، كما هو الرطل والربع، ويقال لما بلغ ذلك الوزن هذا قنطار أي يعدل القنطار، والعرب تقول: قطر الرجل إذا بلغ ماله أن يوزن بالقنطار، وقال الزجاج: القنطار مأخوذ من عقد الشيء وأحكامه والقنطرة: المعقودة نحوه، فكان القنطار عقدة مال.

واختلف الناس في معنى قوله: ﴿المقنطرة﴾ فقال الطبري: معناه المضعفة، وكأن ﴿القناطير﴾ ثلاثة و﴿المقنطرة﴾ تسع، وقد تقدم ذكر هذا النظر، وقال الربيع: معناه المال الكثير بعضه فوق بعض، وقال السدي: معنى ﴿المقنطرة﴾، المضروبة حتى صارت دنانير أو دراهم، وقال مكي: ﴿المقنطرة﴾ المكملة، والذي أقول: إنها إشارة إلى حضور المال وكونه عتيداً، فذلك أشهى في أمره وذلك أنك تقول في رجل غني من الحيوان والأموال: فلان صاحب قناطير مال أي لو قومت أملاكه لاجتمع من ذلك ما يعدل قناطير، وتقول في صاحب المال الحاضر العتيد هو صاحب قناطير مقنطرة أي قد حصلت كذلك بالفعل بها، أي قنطرت فهي مقنطرة، وذلك أشهى للنفوس وأقرب للانتفاع وبلوغ الآمال. وقد قال مروان بن الحكم: ما المال إلا ما حازته العياب، وإذا كان هذا فسواء كان المال مسكوكاً، أو غير مسكوك، أما أن المسكوك أشهى لما ذكرناه، ولكن لا تعطي ذلك لفظة ﴿المقنطرة﴾.

﴿والخيل﴾: جمع خائل عند أبي عبيدة، سمي بذلك الفرس لأنه يختال في مشيه فهو كطائر وطيء، وقال غيره: هو اسم جمع لا واحد له من لفظه، واختلف المفسرون في معنى ﴿المسومة﴾ فقال سعيد بن جبير وابن عباس وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبزى والحسن والربيع ومجاهد، معناه الراعية في المروج والمسارح تقول: سامت الدابة أو الشاة إذا سرحت وأخذت سومها من الرعي أي غاية جهدها ولم تقصر عن حال دون حال، وأسمتها أنا إذا تركتها لذلك، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «في سائمة الغنم الزكاة» ومنه قوله عز وجل: ﴿فِيهِ تَسْمُونُ﴾ [النحل: ١٠] وروي عن مجاهد أنه قال: ﴿المسومة﴾ معناه المظهمة الحسان، وقاله عكرمة، سومها الحسن، وروي عن ابن عباس أنه قال: ﴿المسومة﴾ معناه المعلمة، شيات الخيل في وجوها وقاله قتادة، ويشهد لهذا القول بيت لبيد: [الكامل]

وَعَدَاةٌ قَاعِ الْقُرْتَيْنِ أَتَيْنَهُمْ رُجُلًا يَلُوحُ خِلَالَهَا التَّسْوِيمُ

وأما قول النابغة: [الوافر]:

بَسْمِرٍ كَالْقِدَاحِ مُسَوَّمَاتٍ عَلَيَّهَا مَعْشَرُ أَشْبَاهِ جَنَّ

فيحتمل أن يريد المطهمة الحسان، ويحتمل أن يريد المعلمة بالشيئات ويحتمل أن يريد المعدة، وقد فسر الناس قوله تعالى: ﴿مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [هود: ٨٣] بمعنى معدة، وقال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿وَالْخِيلَ الْمُسَوَّمَةَ﴾ معناه: المعدة للجهاد.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق: قوله: للجهاد ليس من تفسير اللفظة، ﴿وَالْأَنْعَامُ﴾ الأصناف الأربعة: الإبل والبقر والضأن والماعز ﴿وَالْحَرْثُ﴾ هنا اسم لكل ما يحرث، وهو مصدر سمي به، تقول: حرث الرجل إذا أثار الأرض لمعنى الفلاحة فيقع اسم الحرث على زرع الجبوب وعلى الجنات وغير ذلك من أنواع الفلاحة. وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ [الأنبياء: ٧٨] قال جمهور المفسرين، كان كرماً، والمتاع ما يستمتع به ويستمتع مدة ما منحصرة، و﴿الْمَأْبُ﴾ المرجع، تقول: أب الرجل يؤوب، ومنه قول الشاعر: [الوافر]

رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ

وقول الآخر [بشر بن أبي خازم]: [الوافر]

إِذَا مَا الْقَارِطُ الْعَزِيَّ أَبَا

وقول عبيد: [مخلع البسيط]

وَعَايِبُ الْمَوْتِ لَا يُؤُوبُ

وأصل مأب مأوب، نقلت حركة الواو إلى الهمزة وأبدل من الواو ألف، مثل مقال، فمعنى الآية تقليل أمر الدنيا وتحقيرها، والترغيب في حسن المرجع إلى الله تعالى في الآخرة، وفي قوله: ﴿زِينٌ لِلنَّاسِ﴾ تحسر ما على نحو ما في قول النبي عليه السلام: تتزوج المرأة لأربع - الحديث - وقوله تعالى: ﴿قُلْ أُوْنِيْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥] بمثابة قول النبي عليه السلام: «فاظفر بذات الدين».

قوله تعالى:

قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾

في هذه الآية تسلية عن الدنيا وتقوية لنفوس تاركها، وذكر تعالى حال الدنيا وكيف استقر تزيين شهواتها، ثم جاء الإنباء بخير من ذلك، هازأً للنفوس وجامعاً لها لتسمع هذا النبأ المستغرب النافع لمن عقل، وأنبيء: معناه أخبر، وذهبت فرقة من الناس إلى أن الكلام الذي أمر النبي عليه السلام بقوله تم في قوله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ و﴿جَنَّاتٍ﴾ على هذا مرتفع بالابتداء المضمر تقديره: ذلك جنات، وذهب آخرون إلى أن الكلام تم في قوله: ﴿مِّنْ ذَٰلِكُمْ﴾ وأن قوله ﴿لِلَّذِينَ﴾ خبر متقدم، و﴿جَنَّاتٍ﴾ رفع بالابتداء، وعلى التأويل الأول يجوز في ﴿جَنَّاتٍ﴾ الخفض بدلاً من خير، ولا يجوز ذلك على التأويل الثاني، والتأويلان

محتملان، وقوله ﴿من تحتها﴾ يعني من تحت أشجارها وعلوها من الغرف ونحوها و﴿خالدين﴾ نصب على الحال، وقوله: ﴿وأزواج﴾ عطف على الجنات وهو جمع زوج وهي امرأة الإنسان، وقد يقال زوجة، ولم يأت في القرآن، و﴿مطهرة﴾، معناه من المعهود في الدنيا من الأقدار والريب وكل ما يصم في الخلق والخلق، ويحتمل أن يكون الأزواج الأنواع والأشباه، والرضوان، مصدر من الرضى وفي الحديث عن النبي عليه السلام: أن أهل الجنة إذا استقروا فيها وحصل لكل واحد منهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال الله لهم: أتريدون أن أعطيكم ما هو أفضل من هذا؟ قالوا يا ربنا وأي شيء أفضل من هذا؟ فيقول الله تعالى: «أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً»، هذا سياق الحديث، وقد يجيء مختلف اللفاظ والمعنى قريب بعضه من بعض، وفي قوله تعالى: ﴿والله بصير بالعباد﴾ وعد ووعد.

قوله تعالى:

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَعْمَىٰ فَأَغْفِرْ لَنَا دُؤُنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ
وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

﴿الذين﴾ بدل من ﴿الذين اتقوا﴾ [آل عمران: ١٥]، فسر في هذه الآية أحوال المتقين الموعودين بالجنات، ويحتمل أن يكون إعراب قوله: ﴿الذين﴾ في هذه الآية رفعاً على القطع وإضمار الابتداء ومحتاج إلى القطع وإضمار فعل في قوله: ﴿الصابرين﴾ والخفض في ذلك كله على البدل أوجه. ويجوز في ﴿الذين﴾، وما بعده النصب على المدح؛ والصبر في هذه الآية معناه على الطاعات وعلى المعاصي والشهوات، والصدق معناه في الأقوال والأفعال، والقنوت، الطاعة والدعاء أيضاً وبكل ذلك يتصف المتقي، والإنفاق معناه في سبيل الله ومظان الأجر كالصلة للرحم وغيرها، ولا يختص هذا الإنفاق بالزكاة المفروضة، والاستغفار طلب المغفرة من الله تعالى، وخص تعالى السحر لما فسر النبي صلى الله عليه وسلم في قوله، ينزل ربنا عز وجل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول، من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر.

وروي في تفسير قول يعقوب عليه السلام: سوف أستغفر لكم ربي، أنه أخر الأمر إلى السحر، وروى إبراهيم بن حاطب عن أبيه قال: سمعت رجلاً في السحر في ناحية المسجد يقول: رب أمرتني فأطعتك، وهذا سحر فاغفر لي، فنظرت فإذا ابن مسعود، وقال أنس بن مالك: أمرنا أن نستغفر بالسحر سبعين استغفارة، وقال نافع: كان ابن عمر يحسي الليل صلاة ثم يقول: يا نافع أسحرنا؟ فأقول - لا - فيعاود الصلاة ثم يسأل، فإذا قلت نعم فقد يستغفر، فلفظ الآية إنما يعطي طلب المغفرة، وهكذا تأوله من ذكرناه من الصحابة، وقال قتادة: المراد بالآية المصلون بالسحر، وقال زيد بن أسلم: المراد بها الذين يصلون صلاة الصبح في جماعة وهذا كله يقترب به الاستغفار، والسحر والسحر، بفتح الحاء وسكونها آخر الليل، قال الزجاج وغيره: هو قبل طلوع الفجر، وهذا صحيح لأن ما بعده الفجر هو من اليوم لا من الليلة،

وقال بعض اللغويين: السحر من ثلث الليل الآخر إلى الفجر.

قال الفقيه الإمام: والحديث في التنزل وهذه الآية في الاستغفار يؤيدان هذا، وقد يجيء في أشعار العرب ما يقتضي أن حكم السحر يستمر فيما بعد الفجر نحو قول امرئ القيس: [المتقارب]
يَعْلُ بِهِ بَرْدٌ أَثْيَابُهَا إِذَا غَرَدَ الطَّائِرُ الْمُسْتَجِرُ
يقال: أسحر واستحر إذا دخل في السحر، وكذلك قولهم: نسيم السحر، يقع لما بعد الفجر، وكذلك قول الشاعر: [ربيع بن زياد]

تجدد النساء حواسراً يندبنه قد قمن قبل تبليج الأسحار

فقد قضى أن السحر يتبليج بطلوع الفجر، ولكن حقيقة السحر في هذه الأحكام الشرعية من الاستغفار المحمود، ومن سحور الصائم، ومن يمين لو وقعت إنما هي من ثلث الليل الباقي إلى السحر.
قوله تعالى:

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

أصل ﴿شَهِدَ﴾ في كلام العرب حضر، ومنه قوله تعالى: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ [البقرة: ١٨٥] ثم صرفت الكلمة حتى قيل في أداء ما تقرر علمه في النفس بأي وجه تقرر من حضور أو غيره: شهد يشهد فمعنى ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ أعلم عباده بهذا الأمر الحق وبينه، وقال أبو عبيدة: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ معناه، قضى الله وهذا مردود من جهات، وقرأ جميع القراء: ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ بفتح الألف من ﴿أَنَّهُ﴾ وبكسرهما من قوله: ﴿إِنْ الدِّينَ﴾ [آل عمران: ١٩] واستثناف الكلام، وقرأ الكسائي وحده «أن الدين» بفتح الألف، قال أبو علي: «أن» بدل من ﴿أَنَّهُ﴾ الأولى، وإن شئت جعلته من بدل الشيء من الشيء وهو هو، لأن الإسلام هو التوحيد والعدل، وإن شئت جعلته من بدل الاشتمال لأن الإسلام يشتمل على التوحيد والعدل، وإن شئت جعلته «إن الدين» بدلاً من القسط لأنه هو في المعنى، ووجه الطبري هذه القراءة، بأن قدر في الكلام واو عطف ثم حذفته وهي مرادة كأنه قال: ﴿وإن الدين﴾ [آل عمران: ١٩] وهذا ضعيف، وقرأ عبد الله بن عباس: «إنه لا إله إلا هو» بكسر الألف من «إنه»، وقرأ «أن الدين» بفتح الألف، فأعمل ﴿شَهِدَ﴾ في «أن الدين» وجاء قوله: «إنه لا إله إلا هو» اعتراضاً جميلاً في نفس الكلام المتصل، وتأول السدي الآية على نحو قراءة ابن عباس فقال: الله وملائكته والعلماء يشهدون: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ [آل عمران: ١٩] وقرأ أبو المهلب عم محارب بن دثار، «شهداء الله» على وزن فعلاء، وبالإضافة إلى المكتوبة، قال أبو الفتح، هو نصب على الحال من الضمير في ﴿المستغفرين﴾ [آل عمران: ١٧] وهو جمع شهيد أو جمع شاهد كعالم وعلماء، وروي عن أبي المهلب هذا أنه قرأ «شهد الله» برفع الشهداء، وروي عنه أنه قرأ «شُهِدَ الله» على وزن - فُعِلَ - بضم الفاء والعين ونصب شهداء على الحال، وحكى النقاش أنه قرأ «شُهِدَ

الله» بضم الشين والهاء، والإضافة إلى المكتوبة قال: فمنهم من نصب الدال ومنهم من رفعها، وأصوب هذه القراءات قراءة الجمهور، وإيقاع الشهادة على التوحيد، و﴿الملائكة وأولو العلم﴾ عطف على اسم الله تعالى، وعلى بعض ما ذكرناه من القراءات يجيء قوله: ﴿والملائكة وأولو العلم﴾ ابتداء وخبره مقدر، كأنه قال: ﴿والملائكة وأولو العلم﴾ يشهدون و﴿قائماً﴾ نصب على الحال من اسمه تعالى في قوله: ﴿شهد الله﴾ أو من قوله ﴿إلا هو﴾ وقرأ ابن مسعود «القائم بالقسط» والقسط العدل.

قوله تعالى:

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِثَايِتٍ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾

قد تقدم ذكر اختلاف القراء في كسر الألف من ﴿إن الدين﴾ وفتحها، و﴿الدين﴾ في هذه الآية الطاعة والملة، والمعنى: أن الدين المقبول أو النافع أو المقرر، و﴿الإسلام﴾ في هذه الآية هو الإيمان والطاعة، قاله أبو العالية وعليه جمهور المتكلمين، وعبر عنه قتادة ومحمد بن جعفر بن الزبير بالإيمان.

قال أبو محمد رحمه الله: ومرادهما، أنه مع الأعمال، و﴿الإسلام﴾ هو الذي سأل عنه جبريل النبي عليه السلام حين جاء يعلم الناس دينهم الحديث وجواب النبي له في الإيمان والإسلام يفسر ذلك، وكذلك تفسيره قوله عليه السلام: بني الإسلام على خمس، الحديث، وكل مؤمن بنبية ملتزم لطاعات شرعه فهو داخل تحت هذه الصفة، وفي قراءة ابن مسعود «إن الدين عند الله للإسلام» باللام ثم أخبر تعالى عن اختلاف أهل الكتاب، أنه كان على علم منهم بالحقائق، وأنه كان بغياً وطلباً للدنيا، قاله ابن عمر وغيره.

و﴿والذين أوتوا الكتاب﴾ لفظ يعم اليهود والنصارى، لكن الربيع بن أنس قال، المراد بهذه الآية اليهود، وذلك أن موسى عليه السلام، لما حضرته الوفاة، دعا سبعين حبراً من أحبار بني إسرائيل فاستودعهم التوراة، عند كل حبر جزء، واستخلف يوشع بن نون فلما مضت ثلاثة قرون، وقعت الفرقة بينهم، وقال محمد بن جعفر بن الزبير: المراد بهذه الآية النصارى، وهي توبيخ لنصارى نجران، و﴿بغياً﴾ نصب على المفعول من أجله أو على الحال من ﴿الذين﴾ ثم توعد عز وجل الكفار، وسرعة الحساب يحتمل أن يراد بها سرعة مجيء القيامة والحساب إذ هي متيقنة الوقوع، فكل آت قريب ويحتمل أن يراد بسرعة الحساب أن الله تعالى بإحاطته بكل شيء علماً لا يحتاج إلى عد ولا فكرة، قاله مجاهد.

قوله تعالى:

فَإِنْ حَاجَّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾

﴿حاجوك﴾ فاعلوك من الحجة والضمير في ﴿حاجوك﴾ لليهود ولنصارى نجران والمعنى: إن جادلوك وتعتوا بالأقاويل المزورة، والمغالطات فاسد إلى ما كلفت من الإيمان والتبليغ وعلى الله نصر،

وقوله ﴿وَجْهِي﴾ يحتمل أن يراد به المقصد كما تقول خرج فلان في وجه كذا فيكون معنى الآية: جعلت مقصدي الله، ويحتمل أن يكون معنى الآية، أسلمت شخصي وذاتي وكليتي وجعلت ذلك لله، وعبر بالوجه إذ الوجه أشرف أعضاء الشخص وأجمعها للحواس، وقد قال حذاق المتكلمين في قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧] أنها عبارة عن الذات، و﴿أسلمت﴾ في هذا الموضع بمعنى دفعت وأمضيت وليست بمعنى دخلت في السلم لأن تلك لا تتعدى، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ اتَّبَعْنِي﴾ في موضع رفع عطف على الضمير في ﴿أسلمت﴾ ويجوز أن يكون مبتدأ أي ﴿وَمَنْ اتَّبَعْنِي﴾ أسلم وجهه، وقال بعضهم: يحتمل أن يكون في موضع خفض عطفاً على اسم الله تعالى كأنه يقول: جعلت مقصدي الله بالإيمان به والطاعة له، ولمن اتبعن بالحفظ له والتحفي بتعليمه وصحبته لك في ﴿اتبعن﴾ حذف الياء وإثباتها وحذفها أحسن اتباعاً لخط المصحف، وهذه النون إنما هي لتسلم فتحة لام الفعل فهي مع الكسرة تغني عن الياء لاسيما إذا كانت رأس آية، فإنها تشبه قوافي الشعر كما قال الأعشى: [المتقارب]

وَهَلْ يَمْنَعُنْ ارْتِيَادَ الْبِلَا دِ مَنْ حَذَرَ الْمَوْتَ أَنْ يَأْتِيَنَّ

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿رَبِّي أَكْرَمُن﴾ [الفجر: ١٥] فإذا لم تكن نون إثبات الياء أحسن، لكنهم قد قالوا: هذا غلام قد جاء فاكتفوا بالكسرة دلالة على الياء، و﴿الذين أوتوا الكتاب﴾ في هذا الموضع يجمع اليهود والنصارى باتفاق، والأميون هم الذين لا يكتبون وهم العرب في هذه الآية، وهذه النسبة هي إلى الأم أو إلى الأمة أي كما هي الأم، أو على حال خروج الإنسان عن الأم أو على حال الأمة الساذجة قبل التعلم والتحذق، وقوله: ﴿أأسلمتم﴾ تقرير في ضمنه الأمر كذا قال الطبري وغيره، وذلك بين، وقال الزجاج ﴿أأسلمتم﴾ تهديد، وهذا حسن، لأن المعنى أأسلمتم أم لا؟ وقوله تعالى: ﴿فقد اهتدوا﴾ وجاءت العبارة بالماضي مبالغة في الإخبار بوقوع الهدى لهم وتحصله.

وقوله تعالى: ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ ذكر بعض الناس أنها آية موادة وأنها مما نسخته آية السيف.

قال أبو محمد: وهذا يحتاج أن يقتن به معرفة تاريخ نزولها، وأما على ظاهر نزول هذه الآية في وقت وفد نجران فإنما المعنى ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ بما فيه قتال وغيره، و﴿البلاغ﴾ مصلر بلغ بتخفيف عين الفعل، وفي قوله تعالى: ﴿والله بصير بالعباد﴾ وعد للمؤمنين ووعد للكافرين.

قوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ
بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾

قال محمد بن جعفر بن الزبير وغيره: إن هذه الآية في اليهود والنصارى.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وتعم كل من كان بهذه الحال، والآية توييح

للمعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمساوىء أسلافهم وبيقاتهم أنفسهم على فعل ما أمكنهم من تلك المساوىء لأنهم كانوا حرصى على قتل محمد عليه السلام، وروى أن بني إسرائيل قتلوا في يوم واحد سبعين نبياً وقامت سوق البقل بعد ذلك، وروى أبو عبيدة بن الجراح عن النبي عليه السلام: أنهم قتلوا ثلاثة وأربعين نبياً فاجتمع من خيارهم وأحبارهم مائة وعشرون ليغيروا وينكروا فقتلوا أجمعين كل ذلك في يوم واحد وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ﴾ وقوله تعالى: ﴿بَغْيِرَ حَقٍّ﴾ مبالغة في التحرير للذنب إذ في الإمكان أن يقتضي ذلك أمر الله تعالى بوجه ما من تكريمة نبي أو غير ذلك، وعلى هذا المعنى تجيء أفعال من كذا إذا كان فيها شياخ مثل أحب وخير وأفضل ونحوه مقولة من شئتين ظاهرهما الاشتراك بينهما.

وقرأ جمهور الناس: «ويقتلون الذين» وقرأ حمزة وجماعة من غير السبعة «ويقاتلون الذين» وفي مصحف ابن مسعود «وقاتلوا الذين»، وقرأها الأعمش، وكلها متوجهة وأبينها قراءة الجمهور، والقسط العدل، وجاءت البشارة بالعذاب من حيث نص عليه وإذا جاءت البشارة مطلقة فمجملةا فيما يستحسن، ودخلت الفاء في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ لما في الذي من معنى الشرط في هذا الموضع فذلك بمنزلة قولك: الذي يفعل كذا فله كذا إذا أردت أن ذلك إنما يكون له بسبب فعله الشيء الآخر فيكون الفعل في صلتها وتكون بحيث لم يدخل عليها عامل يغير معناها كليت ولعل، وهذا المعنى نص في كتاب سيبويه في باب ترجمة هذا باب الحروف التي تنزل منزلة الأمر والنهي لأن فيها معنى الأمر والنهي، و﴿حَبَطَ﴾ معناه: بطلت وسقط حكمها، وحبطها في الدنيا بقاء الدم واللعة عليهم، وحبطها في الآخرة كونها هباء منبثاً وتعذيبهم عليها، وقرأ ابن عباس وأبو السمال العدوي: «حَبَطَ» بفتح الباء وهي لغة، ثم نفى النصر عنهم في كلا الحالين.

قوله تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا ضَيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية بسبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل بيت المدراس على جماعة من يهود فدعاهم إلى الله فقال له نعيم بن عمرو والحرث بن زيد: على أي دين أنت يا محمد؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا على ملة إبراهيم» فقالا: فإن إبراهيم كان يهودياً، فقال لهما النبي عليه السلام: «فهلما إلى التوراة فهي بيننا وبينكم» فأبيا عليه فنزلت، وذكر النقاش: أنها نزلت لأن

جماعة من اليهود أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . فقال لهم نبي عليه السلام : «هلموا إلى التوراة ففيها صفتي» فأبوا .

قال القاضي أبو محمد : فالكتاب في قوله : ﴿من الكتاب﴾ هو اسم الجنس ، و﴿الكتاب﴾ في قوله : ﴿إلى كتاب الله﴾ هو التوراة ، وقال قتادة وابن جريج : ﴿الكتاب﴾ في قوله : ﴿إلى كتاب الله﴾ هو القرآن ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم إليه فكانوا يعرضون ، ورجح الطبري القول الأول ، وقال مكي : الكتاب الأول اللوح المحفوظ والثاني التوراة ، وقرأ جمهور الناس «ليحكم» بفتح الياء أي ليحكم الكتاب ، وقرأ الحسن وأبو جعفر وعاصم الجحدري «ليحكم» بضم الياء وبناء الفعل للمفعول ، وخص الله تعالى بالتولي فريقاً دون الكل لأن منهم من لم يتول كابن سلام وغيره ، وقوله تعالى : ﴿ذلك بأنهم﴾ الإشارة فيه إلى التولي والإعراض ، أي إنما تولوا وأعرضوا لاغترارهم بهذه الأقوال والافتراء الذي لهم في قولهم : ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ [المائدة : ١٨] إلى غير ذلك من هذا المعنى ، وكان من قول بني إسرائيل : إنهم لن تمسهم النار إلا أربعين يوماً عدد الأيام التي عبدوا فيها العجل ، قاله الربيع وقتادة ، وحكى الطبري أنهم قالوا : إن الله وعد أباهم يعقوب أن لا يدخل أحداً من ولده النار إلا تحلة القسم ، وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لليهود : من أول من يدخل النار؟ فقالوا نحن فترة سيرة ثم تخلفونا فيها فقال : كذبتم الحديث بطوله ، و﴿يفترون﴾ معناه ، يشققون ويختلقون من الأحاديث في مدح دينهم وأنفسهم وادعاء الفضائل لها ، ثم قال تعالى خطاباً لمحمد وأمه على جهة التوقيف والتعجب فكيف حال هؤلاء المغترين بالباطيل إذا حشروا يوم القيامة واضمحلت تلك الزخارف التي ادعوها في الدنيا وجوزوا بما اكتسبوه من كفرهم وأعمالهم القبيحة؟ قال النقاش : واليوم الوقت ، وكذلك قوله : ﴿في ستة أيام﴾ [الأعراف : ٥٤] [السجدة : ٤] إنما هي عبارة عن أوقات فإنها الأيام والليالي والصحيح في يوم القيامة أنه يوم لأن قبله ليلة وفيه شمس ، واللام في قوله تعالى : ﴿ليوم﴾ طالبة لمحذوف ، قال الطبري ، تقديره لما يحدث في يوم .

قوله تعالى :

قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبِيدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٦٧﴾

قال بعض العلماء : إن هذه الآية لباطل نصارى نجران في قولهم : إن عيسى هو الله وذلك أن هذه الأوصاف تبين لكل صحيح الفطرة أن عيسى عليه السلام ليس في شيء منها ، وقال قتادة : ذكر لنا أن النبي عليه السلام سأل ربه أن يجعل في أمته ملك فارس والروم فتزلت الآية في ذلك ، وقال مجاهد : ﴿الملوك﴾ في هذه الآية النبوة ، والصحيح أنه ﴿مالك الملوك﴾ كله مطلقاً في جميع أنواعه ، وأشرف ملك يؤتیه سعادة الآخرة وروي أن الآية نزلت بسبب أن النبي عليه السلام بشر أمته بفتح ملك فارس وغيره فقالت اليهود

والمنافقون: هيهات وكذبوا ذلك، واختلف النحويون في تركيب لفظة ﴿اللهم﴾ بعد إجماعهم على أنها مضمومة الهاء مشددة الميم المفتوحة وأنها منادى، ودليل ذلك أنها لا تأتي مستعملة في معنى خبر، فمذهب الخليل وسيبويه والبصريين، أن الأصل «يا الله» فلما استعملت الكلمة دون حرف النداء الذي هو - يا - جعلوا بدل حرف النداء هذه الميم المشددة، والضمّة في الهاء هي ضمة الاسم المنادى المفرد، وذهب حرفان فعوض بحرفين، ومذهب الفراء والكوفيين، أن أصل ﴿اللهم﴾ يا لله أم: أي أم بخير وأن ضمة الهاء هي ضمة الهمزة التي كانت في أم نقلت، ورد الزجاج على هذا القول وقال: محال أن يترك الضم الذي هو دليل على نداء المفرد وأن تجعل في اسم الله ضمة أم، هذا إلحاد في اسم الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد: وهذا غلو من الزجاج، وقال أيضاً: إن هذا الهمز الذي يطرح في الكلام فشأنه أن يؤتى به أحياناً كما قالوا: «ويلمه» في ويل أمه والأكثر إثبات الهمزة، وما سمع قط «يا الله أم» في هذا اللفظ، وقال أيضاً: ولا تقول العرب «يا اللهم»، وقال الكوفيون: إنه قد يدخل حرف النداء على ﴿اللهم﴾ وأنشدوا على ذلك: [الرجز]

وما عليك أن تقولي كلما سبحت أو هللت يا لله ما

اردّد علينا شيخنا مسلماً

قالوا: فلو كانت الميم عوضاً من حرف النداء لما اجتماعاً، قال الزجاج: وهذا شاذ لا يعرف قائله ولا يترك له ما في كتاب الله وفي جميع ديوان العرب، قال الكوفيون: وإنما تزداد الميم مخففة في «فم وابنم» ونحوه فأما ميم مشددة فلا تزداد، قال البصريون: لما ذهب حرفان عوض بحرفين، ومالك نصب على النداء، نص سيبويه ذلك في قوله تعالى: ﴿قل اللهم فاطر السماوات والأرض﴾ [الزمر: ٤٦] وقال: إن ﴿اللهم﴾ لا يوصف لأنه قد ضمت إليه الميم، قال الزجاج: ومالك عندي صفة لاسم الله تعالى وكذلك ﴿فاطر السماوات﴾ قال أبو علي: وهو مذهب أبي العباس، وما قال سيبويه أصوب وذلك أنه ليس في الأسماء الموصوفة شيء على حد ﴿اللهم﴾ لأنه اسم مفرد ضم إليه صوت والأصوات لا توصف نحو، غاق وما أشبهه، وكأن حكم الاسم المفرد أن لا يوصف وإن كانوا قد وصفوه في مواضع فلما ضم هنا ما لا يوصف إلى ما كان قياسه أن لا يوصف صار بمنزلة صوت ضم إلى صوت نحو، «حيهل» فلم يوصف، قال النضر بن شميل: من قال ﴿اللهم﴾ فقد دعا الله بجميع أسمائه كلها، وقال الحسن: ﴿اللهم﴾ مجمع الدعاء.

وخص الله تعالى: ﴿الخير﴾ بالذكر وهو تعالى بيده كل شيء، إذ الآية في معنى دعاء ورغبة فكان المعنى ﴿بيدك الخير﴾ فأجزل حظي منه، وقيل المراد ﴿بيدك الخير﴾ والشر فحذف للدلالة أحدهما على الآخر، كما قال ﴿تفكيكم الحر﴾ [النحل: ٨١] قال النقاش: ﴿بيدك الخير﴾ أي النصر والغنيمة فحذف للدلالة أحدهما، وقال ابن عباس ومجاهد والحسن وقادة والسدي وابن زيد في معنى قوله تعالى: ﴿تولج الليل في النهار﴾ الآية: أنه ما ينتقص من النهار فيزيد في الليل وما ينتقص من الليل فيزيد في النهار دأباً كل فصل من السنة، وتحتل ألفاظ الآية أن يدخل فيها تعاقب الليل والنهار كأن زوال أحدهما ولوج في الآخر.

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿وتخرج الحي من الميت﴾ الآية، فقال الحسن: معناه تخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، وروى نحوه عن سلمان الفارسي، وروى الزهري أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على بعض أزواجه فإذا بامرأة حسنة النعمة فقال: من هذه؟ قالت إحدى خالاتك فقال: إن خالاتي بهذه البلدة لغرائب، أي خالاتي هي؟ قالت: خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث فقال النبي عليه السلام: سبحان الذي يخرج الحي من الميت، وكانت امرأة صالحة وكان أبوها كافراً وهو أحد المستهزئين الذين كفيهم النبي عليه السلام.

قال أبو محمد: فالمراد على هذا القول موت قلب الكافر وحياة قلب المؤمن والحياة والموت مستعاران، وذهب جمهور كثير من العلماء إلى أن الحياة والموت في الآية إنما هو الحياة حقيقة والموت حقيقة لا باستعارة، ثم اختلفوا في المثل التي فسروا بها فقال عكرمة: هو إخراج الدجاجة وهي حية من البيضه وهي ميتة وإخراج البيضه وهي ميتة من الدجاجة وهي حية ولفظ الإخراج في هذا المثل وما ناسبه لفظ متمكن على عرف استعماله، وقال عبد الله بن مسعود في تفسير الآية: هي النطفة تخرج من الرجل وهي ميتة وهو حي ويخرج الرجل منها وهي ميتة.

قال القاضي أبو محمد: ولفظ الإخراج في تنقل النطفة حتى تكون رجلاً إنما هو عبارة عن تغير الحال كما تقول في صبي جيد البنية: يخرج من هذا رجل قوي، وهذا المعنى يسميه ابن جني: التجريد أي تجرد الشيء من حال إلى حال هو خروج. وقد يحتمل قوله تعالى: ﴿ويخرج الميت من الحي﴾ أن يراد به أن الحيوان كله يميته فهذا هو معنى التجريد بعينه وأنشد ابن جني على ذلك:

أَفَاءَتْ بُنُو مَرْوَانَ ظُلْمًا دِمَاءَنَا وفي الله - إن لم يُنْصَفُوا - حَكَمٌ عَدْلٌ

وروى السدي عن أبي مالك قال في تفسير الآية: هي الحبة تخرج من السنبلة والسنبلة تخرج من الحبة، والنواة تخرج من النخلة والنخلة تخرج من النواة والحياة في النخلة والسنبلة تشبيه، وقوله تعالى: ﴿بغير حساب﴾ قيل معناه بغير حساب منك لأنه تعالى لا يخاف أن تنتقص خزائنه، هذا قول الربيع وغيره، وقيل معنى ﴿بغير حساب﴾ أي من أحد لك، لأنه تعالى لا معقب لأمره، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر «الميت» بسكون الياء في جميع القرآن. وروى حفص عن عاصم «من الميت» بتشديد الياء، وقرأ نافع وحمة والكسائي «الميت» بتشديد الياء في هذه الآية، وفي قوله: ﴿بلبلد ميت﴾ [الأعراف: ٥٧] و﴿إلى بلد ميت﴾ [فاطر: ٩] وخفف حمزة والكسائي غير هذه الحروف، قال أبو علي: ﴿الميت﴾ هو الأصل والواو التي هي عين منه انقلبت ياء لإدغام الياء فيها وميت التخفيف محذوف منه عينه أعلت بالحذف كما أعلت بالقلب، والحذف حسن والإتمام حسن وما مات وما لم يموت في هذا الباب يستويان في الاستعمال.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وذهب قوم إلى أن «الميت» بالتخفيف إنما يستعمل فيما قد مات، وأما «الميت» بالتشديد فيستعمل فيما مات وفيما لم يموت بعد.

قوله تعالى :

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾

هذا النهي عن الاتخاذ إنما هو فيما يظهره المرء فأما أن يتخذه بقلبه ونيته فلا يفعل ذلك مؤمن، والمنهون هنا قد قرر لهم الإيمان، فالنهي إنما هو عبارة عن إظهار اللطف للكفار والميل إليهم، ولفظ الآية عام في جميع الأعصار، واختلف الناس في سبب هذه الآية، فقال ابن عباس: كان كعب بن الأشرف وابن أبي الحقيق وقيس بن زيد قد بطنوا بنفر من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم، فقال رفاعة بن المنذر بن زبير وعبد الله بن جبيرة وسعد بن خيثمة لأولئك النفر اجتنبوا هؤلاء اليهود واحذروا مبايحتهم فأبى أولئك النفر إلا موالاة اليهود فنزلت الآية في ذلك، وقال قوم: نزلت الآية في قصة حاطب بن أبي بلتعة وكتابه إلى أهل مكة، والآية عامة في جميع هذا ويدخل فيها فعل أبي لبابة في إشارته إلى حلقه حين بعثه النبي عليه السلام في استئزال بني قريظة، وأما تعذيب بني المغيرة لعمار فنزل فيما أباح النبي عليه السلام لعمار ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ [النحل: ١٠٦].

وقوله تعالى: ﴿من دون﴾ عبارة عن كون الشيء الذي تضاف إليه ﴿دون﴾ غائباً متنعياً ليس من الأمر الأول ﴿في شيء﴾، وفي المثل، وأمر دون عبادة الودم كأنه من غير أن ينتهي إلى الشيء الذي تضاف إليه، ورتبها الزجاج المضادة للشرف من الشيء الدون وفيما قاله نظر، قوله: ﴿فليس من الله في شيء﴾ معناه، في شيء مرضي على الكمال والصواب، وهذا كما قال النبي عليه السلام من غشنا فليس منا، وفي الكلام حذف مضاف تقديره، فليس من التقرب إلى الله أو التزلف ونحو هذا، وقوله ﴿في شيء﴾ هو في موضع نصب على الحال من الضمير الذي في قوله ﴿ليس من الله﴾ ثم أباح الله إظهار اتخاذهم بشرط الاتقاء، فأما إبطانه فلا يصح أن يتصف به مؤمن في حال، وقرأ جمهور الناس «تقاة» أصله وقية - على وزن فعلة - بضم الفاء وفتح العين أبدلوا من السواو تاء كتجاة وتكاة فصار تقية ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها فجاء «تقاة» قال أبو علي يجوز أن تكون «تقاة» مثل رماة حالاً من «تقوا» وهو جمع فاعل وإن كان لم يستعمل منه فاعل، ويجوز أن يكون جمع تقى وجعل فاعيل بمنزلة فاعل، وقرأ ابن عباس والحسن وحמיד بن قيس ويعقوب الحضرمي ومجاهد وقتادة والضحاك وأبو رجاء والجدري وأبو حيوة «تقية» بفتح التاء وشد الياء على وزن فعيلة وكذلك روى المفضل عن عاصم وأمال الكسائي القاف في «تقاة» في الموضعين، وأمال حمزة في هذه الآية ولم يمل في قوله: ﴿حق تقاته﴾ [آل عمران: ١٠٢] وفتح سائر القراء القاف إلا أن نافعاً كان يقرأها بين الفتح والكسر، وذهب قتادة إلى أن معنى الآية: ﴿إلا أن تقوا منهم تقاة﴾ من جهة صلة الرحم أي ملامة، فكأن الآية عنده مبيحة الإحسان إلى القرابة من الكفار، وذهب جمهور المفسرين إلى أن معنى الآية، إلا أن تخافوا منهم خوفاً وهذا هو معنى التقية.

واختلف العلماء في التقية ممن تكون؟ وبأي شيء تكون؟ وأي شيء تبيح؟ فأما الذي تكون منه التقية فكل قادر غالب مكره يخاف منه، فيدخل في ذلك الكفار إذا غلبوا وجورة الرؤساء والسلابة وأهل الجاه في الحواضر، قال مالك رحمه الله: وزوج المرأة قد يكره، وأما بأي شيء تكون التقية ويترتب حكمها فذلك بخوف القتل وبالخوف على الجوارح وبالضرب بالسوط وبسائر التعذيب، فإذا فعل بالإنسان شيء من هذا أو خافه خوفاً متمكناً فهو مكره وله حكم التقية، والسجن إكراه والتقييد إكراه والتهديد والوعيد إكراه وعداوة أهل الجاه الجورة تقية، وهذه كلها بحسب حال المكره وبحسب الشيء الذي يكره عليه، فكم من الناس ليس السجن فيهم بإكراه، وكذلك الرجل العظيم يكره بالسجن والضرب غير المتلف ليكفر فهذا لا تتصور تقيته من جهة عظم الشيء الذي طلب منه، ومساائل الإكراه هي من النوع الذي يدخله فقه الحال، وأما أي شيء تبيح فاتفق العلماء على إباحتها للأقوال باللسان من الكفر وما دونه ومن بيع وهبة وطلاق وإطلاق القول بهذا كله، ومن مداراة ومصانعة، وقال ابن مسعود: ما من كلام يدرأ عني سوطين من ذي سلطان، إلا كنت متكلماً به. واختلف الناس في الأفعال، فقال جماعة من أهل العلم منهم الحسن ومكحول ومسروق: يفعل المكره كل ما حمل عليه مما حرم الله فعله وينجي نفسه بذلك، وقال مسروق: فإن لم يفعل حتى مات دخل النار، وقال كثير من أهل العلم منهم سحنون: بل إن لم يفعل حتى مات فهو مأجور وتركه ذلك المباح أفضل من استعماله، وروي أن عمر بن الخطاب قال في رجل يقال له، نهيت بن الحارث، أخذته الفرس أسيراً، فعرض عليه شرب الخمر وأكل الخنزير وهدد بالنار، فلم يفعل فقتلوه فيها فبلغ ذلك عمر، فقال: وما كان عليّ نهيت أن يأكل، وقال جمع كثير من العلماء التقية إنما هي مبيحة للأقوال، فأما الأفعال فلا، روي ذلك عن ابن عباس والربيع والضحاك، وروي ذلك عن سحنون وقال الحسن في الرجل يقال له: اسجد لصنم وإلا قتلناك، قال، إذ كان الصنم مقابل القبلة فليسجد ويجعل نيته الله، فإن كان إلى غير القبلة فلا وإن قتلوه، قال ابن حبيب: وهذا قول حسن.

قال القاضي: وما يمنعه أن يجعل نيته لله وإن كان لغير قبلة، وفي كتاب الله ﴿فأين ما تولوا فثم وجه الله﴾ [البقرة: ١١٥] وفي الشرع إباحة التنقل للمسافر إلى غير القبلة، هذه قواعد مسألة التقية، وأما تشعب مسائلها فكثير لا يقتضي الإيجاز جمعه.

وقوله تعالى: ﴿ويحذركم الله﴾ إلى آخر الآية وعيد وتنبية ووعظ وتذكير بالآخرة، وقوله: ﴿نفسه﴾ نائبة عن إياه، وهذه مخاطبة على معهود ما يفهمه البشر، والنفس في مثل هذا راجع إلى الذات، وفي الكلام حذف مضاف لأن التحذير إنما هو من عقاب وتكيل ونحوه، فقال ابن عباس والحسن: ويحذركم الله عقابه.

قوله تعالى:

قُلْ إِنْ تَخْشَوْنَ مَا فِي صُورِكُمْ أَوْ تَبْذُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ

لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾

الضمير في ﴿تخفوا﴾ هو للمؤمنين الذين نهوا عن اتخاذ الكافرين أولياء، والمعنى أنكم إن أبطلتم الحرص على إظهار مولاتهم فإن الله يعلم ذلك ويكرهه منكم، وقوله تعالى: ﴿ويعلم ما في السموات وما في الأرض﴾، معناه على التفصيل، وقوله ﴿على كل شيء قدير﴾ عموم والشيء في كلام العرب الموجود.

و ﴿يوم﴾ نصب على الظرف، وقد اختلف في العامل فيه، فقال مكي بن أبي طالب، العامل فيه ﴿قدير﴾، وقال الطبري: العامل فيه قوله: ﴿وإلى الله المصير﴾ [آل عمران: ٢٨] وقال الزجاج، وقال أيضاً العامل فيه ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ [آل عمران: ٢٨] يوم ورجحه وقال مكي: حكاية العامل فيه فعل مضمر تقديره، «اذكر يوم»، و ﴿ما﴾ بمعنى الذي و ﴿محضراً﴾ قال قتادة: معناه موفراً، وهذا تفسير بالمعنى، والحضور أبين من أن يفسر بلفظ آخر، وقوله تعالى: ﴿ما عملت من سوء﴾ يحتمل أن تكون ﴿ما﴾ معطوفة على ﴿ما﴾ الأولى فهي في موضع نصب وتكون ﴿تود﴾ في موضع الحال، وإلى هذا العطف ذهب الطبري وغيره، ويحتمل أن تكون رفعاً بالابتداء ويكون الخبر في قوله: ﴿تود﴾ وما بعده كأنه قال: وعملها السيء مردود عندها أن بينها وبينه أمداً، وفي قراءة ابن مسعود «من سوء ودت» وكذلك قرأ ابن أبي عبله، ويجوز على هذه القراءة أن تكون ﴿ما﴾ شرطية ولا يجوز ذلك على قراءة «تود» لأن الفعل مستقبل مرفوع والشرط يقتضي جزمه اللهم إلا أن يقدر في الكلام محذوف «فهي تود» وفي ذلك ضعف، و «الأمد» الغاية المحدودة من المكان أو الزمان، قال النابغة: [البيسط]

سَبَقَ الْجَوَادِ إِذَا اسْتَوَلَى عَلَى الْأَمَدِ

فهذه غاية في المكان، وقال الطرماح: [الخفيف]

كُلُّ حَيٍّ مُسْتَكْمِلٌ عُدَّةَ الْعُمَرِ وَمُؤَدِّ إِذَا انْقَضَى أَمَدُهُ

فهذه غاية في الزمان، وقال الحسن في تفسير هذه الآية: يسر أحدهم أن لا يلقي عمله ذلك أبداً ذلك منه، وأما في الدنيا فقد كانت خطيئته يستلذها، وقوله: ﴿والله رؤوف بالعباد﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى التحذير لأن تحذيره وتنبيهه على النجاة رافة منه بعباده، ويحتمل أن يكون ابتداء إعلام بهذه الصفة فمقتضى ذلك التأنيس لئلا يفرط الوعيد على نفس مؤمن، وتجيء الآية على نحو قوله تعالى: ﴿إن ربك لشديد العقاب، وإنه لغفور رحيم﴾ [الأعراف: ٦١٧] لأن قوله: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ [آل عمران: ٢٨] والله محذور العقاب.

قوله تعالى:

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾

اختلف المفسرون فيمن أمر محمداً عليه السلام أن يقول له هذه المقالة، فقال الحسن بن أبي

الحسن وابن جريج: إن قوماً قالوا للنبي عليه السلام: يا محمد إنا نحب ربنا، فنزلت هذه الآية في قولهم، جعل الله فيها أتباع محمد علماً لحبه، وقال محمد بن جعفر بن الزبير: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول هذا القول لنصارى نجران، أي إن كان قولكم في عيسى وغلوكم في أمره خياً لله، ﴿فاتبعوني﴾ ويحتمل أن تكون الآية عامة لأهل الكتاب اليهود والنصارى لأنهم كانوا يدعون أنهم يحبون الله ويحبهم، ألا ترى أن جميعهم قالوا ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ [المائدة: ١٨] ولفظ أحباؤه إنما يعطي أن الله يحبهم لكن يعلم أن مرادهم «ومحبوه» فيحسن أن يقال لهم ﴿قل إن كنتم تحبون الله﴾ وقرأ الزهري «فاتبعوني» بتشديد النون، وقرأ أبو رجاء «يحبكم» بفتح الباء وضم الاء الأولى من «حب» وهي لغة، قال الزجاج: حبت قليلة في اللغة، وزعم الكسائي أنها لغة قد ماتت وعليها استعمل محبوب والمحبة إرادة يقترب بها إقبال من النفس وميل بالمعتقد، وقد تكون الإرادة المجردة فيما يكره المرید والله تعالى يريد وقوع الكفر ولا يحبه، ومحبة العبد لله تعالى يلزم عنها ولا بد أن يطيعه وتكون أعماله بحسب إقبال النفس، وقد تمثل بعض العلماء حين رأى الكعبة فأنشد [الخفيف]

هَذِهِ دَارُهُ وَأَنْتَ مُحِبٌّ مَا بَقَاءَ الدُّمُوعِ فِي الْأَمَاقِ

ومحبة الله للعبد أمارتها للمتأمل أن يرى العبد مهدياً مسدداً ذا قبول في الأرض، فلفظ الله بالعبد ورحمته إياه هي ثمرة محبته، وبهذا النظر يتفسر لفظ المحبة حيث وقعت من كتاب الله عز وجل، وذكر الزجاج: أن أبا عمرو قرأ «يغفر لكم» بإدغام الراء في اللام وخطأ القراء وغلط من رواها عن أبي عمرو فيما حسبت، وذهب الطبري إلى أن قوله: ﴿قل أطيعوا الله والرسول﴾ خطاب لنصارى نجران وفي قوله: ﴿فإن الله لا يحب الكافرين﴾ وعيد، ويحتمل أن يكون بعد الصدع بالقتال.

قوله تعالى:

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾

لما مضى صدر من محاجة نصارى نجران والرد عليهم وبيان فساد ما هم عليه جاءت هذه الآية معلمة بصورة الأمر الذي قد ضلوا فيه، ومنبئة عن حقيقته كيف كانت، فبدأ تعالى بذكر فضله على هذه الجملة إلى ﴿آل عمران﴾ منها ثم خص ﴿امراً عمران﴾ بالذكر لأن القصد وصف قصة القوم إلى أن يبين أمر عيسى عليه السلام وكيف كان و﴿اصطفى﴾ معناه: اختار صفو الناس فكان ذلك هؤلاء المذكورين وبقي الكفار كدراً، و﴿آدم﴾ هو أبونا عليه السلام اصطفاه الله تعالى بالإيجاد والرسالة إلى بنيه والنبوة والتكليم حسبما ورد في الحديث وحكى الزجاج عن قوم ﴿إن الله اصطفى آدم﴾ عليه السلام بالرسالة إلى الملائكة في قوله: ﴿أنبتهم بأسمائهم﴾ [البقرة: ٣٣] وهذا ضعيف، ونوح عليه السلام هو أبونا الأصغر في قول الجمهور هو أول نبي بعث إلى الكفار، وانصرف نوح مع عجمته وتعريفه لخفة الاسم، كهود ولوط، و﴿آل إبراهيم﴾

يعني بإبراهيم الخليل عليه السلام، والآل في اللغة، الأهل والقربة، ويقال للأتباع وأهل الطاعة آل، فمنه آل فرعون، ومنه قول الشاعر وهو أراكة الثقي في رثاء النبي عليه السلام وهو يعزي نفسه في أخيه عمرو: [الطويل]

فَلَا تَبْكُ مَيْتًا بَعْدَ مَيِّتٍ أَجْنَهُ عَلِيٌّ وَعَبَّاسٌ وَآلُ أَبِي بَكْرٍ

أراد جميع المؤمنين، و«الآل» في هذه الآية يحتمل الوجهين، فإذا قلنا أراد بالآل القربة والبيتية فالتقدير ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى﴾ هؤلاء على عالمي زمانهم أو على العالمين عاماً بأن يقدر محمداً عليه السلام من آل إبراهيم، وإن قلنا أراد بالآل الأتباع فيستقيم دخول أمة محمد في الآل لأنها على ملة إبراهيم، وذهب منذر بن سعيد وغيره إلى أن ذكر آدم يتضمن الإشارة إلى المؤمنين به من بنيه وكذلك ذكر نوح عليه السلام وأن «الآل» الأتباع فعمت الآية جميع مؤمني العالم فكان المعنى، أن الله اصطفى المؤمنين على الكافرين، وخص هؤلاء بالذكر تشريفاً لهم ولأن الكلام في قصة بعضهم، و﴿آل عمران﴾ أيضاً يحتمل من التأويل ما تقدم في ﴿آل إبراهيم﴾، وعمران هو رجل من بني إسرائيل من ولد سليمان بن داود فيما حكى الطبري، قال مكّي: هو عمران بن ماثال، وقال قتادة في تفسير هذه الآية: ذكر الله تعالى أهل بيتين صالحين ورجلين صالحين، ففضلهم على العالمين فكان محمد من آل إبراهيم، وقال ابن عباس: «اصطفى الله» هذه الجملة بالدين والنبوة والطاعة له.

وقوله تعالى: ﴿ذَرِيَّةٌ﴾ نصب على البدل، وقيل على الحال لأن معنى ﴿ذرية بعضها من بعض﴾ متشابهين في الدين والحال، وهذا أظهر من البدل، والذرية في عرف الاستعمال تقع لما تناسل من الأولاد سفلًا، واشتقاق اللفظة في اللغة يعطي أن تقع على جميع الناس أي كل أحد ذرية لغيره فالتناسل كلهم ذرية بعضهم لبعض، وهكذا استعملت الذرية في قوله تعالى: ﴿أَنَا حَمَلْنَا ذُرِيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١] أي ذرية هذا الجنس ولا يسوغ أن يقول في والد هذا ذرية لولده وإذ اللفظة من ذر إذا بث فهكذا يجيء معناها، وكذلك إن جعلناها من «ذرى» وكذلك إن جعلت من ذرأ أو من الذر الذي هو صغار النمل، قال أبو الفتح: الذرية يحتمل أن تكون مشتقة من هذه الحروف الأربعة، ثم طول أبو الفتح القول في وزنها على كل اشتقاق من هذه الأربعة الأحرف تطويلاً لا يقتضي هذا الإيجاز ذكره وذكرها أبو علي في الأعراف في ترجمة ﴿من ظهورهم ذرياتهم﴾ [الأعراف: ١٧٢] قال الزجاج: أصلها فعلية من الذر، لأن الله أخرج الخلق من صلب آدم كالذر، قال أبو الفتح: هذه نسبة إلى الذر غير أولها كما قالوا في النسبة إلى الحرم: حرمي بكسر الحاء وغير ذلك من تغيير النسب قال الزجاج: وقيل أصل ﴿ذرية﴾ ذرورة، وزنها فعולה فلما كثرت الرءاء أبعدوا من الأخيرة ياء فصارت ذرورية ثم أدغمت الواو في الياء فجاءت ﴿ذرية﴾.

قال القاضي فهذا اشتقاق من ذريذر، أو من ذرى، وإذا كانت من ذرأ فوزنها فعلية كمرقة أصلها ذرئة فالزمت البدل والتخفيف كما فعلوا في البرية في قول من رآها من برأ الله الخلق، وفي كوكب دري، في قول من رآه من - درأ - لأنه يدفع الظلمة بضوئه.

وقرأ جمهور الناس «ذُرية» بضم الذال وقرأ زيد بن ثابت والضحاك، «ذرية» بكسر الذال، وقوله

تعالى: ﴿بعضها من بعض﴾ أي في الإيمان والطاعة وإنعام الله عليهم بالنبوة.

واختلف الناس في العامل في قوله ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ فقال أبو عبيدة معمر: ﴿إِذْ﴾ زائدة، وهذا قول مردود، وقال المبرد والأخفش: العامل فعل مضمر تقديره، اذكر إذ وقال الزجاج: العامل معنى الاصطفاء، التقدير: واصطفى آل عمران إذ:

قال القاضي أبو محمد: وعلى هذا القول يخرج عمران من الاصطفاء، وقال الطبري ما معناه: إن العامل في ﴿إِذْ﴾ قوله ﴿سَمِيعٌ﴾ و﴿امْرَأَةُ عِمْرَانَ﴾ اسمها حنة بنت قاذوذ فيما ذكر الطبري عن ابن إسحاق، وهي أم مريم بنت عمران، ومعنى قوله: ﴿نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ أي جعلت نذراً أن يكون هذا الولد الذي في بطني حبيساً على خدمة بيتك محرراً من كل خدمة وشغل من أشغال الدنيا، أي عتيقاً من ذلك فهو من لفظ الحرية، ونصبه على الحال، قال مكي: فمن نصبه على النعت لمفعول محذوف يقدره، غلاماً محرراً، وفي هذا نظر، والبيت الذي نذرت له هو بيت المقدس.

قال ابن إسحاق: كان سبب نذر حنة لأنها كانت قد أمسك عنها الولد حتى أسنت فينما هي في ظل شجرة إذ رأت طائراً يزق فرخاً له فتحركت نفسها للولد فدعت الله أن يهب لها ولداً فحملت بمريم وهلك عمران، فلما علمت أن في بطنها جنيناً جعلته نذيرة لله، أن يخدم الكنيسة لا ينتفع به في شيء من أمر الدنيا، وقال مجاهد: ﴿مُحَرَّرًا﴾ معناه خادماً للكنيسة وقال مثله الشعبي وسعيد بن جبير، وكان هذا المعنى من التحرير للكنائس عرفاً في الذكور خاصة، وكان فرضاً على الأبناء التزام ذلك، فقالت ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾ ولم تنص على ذكوره لمكان الإشكال، ولكنها جزمت الدعوة رجاء منها أن يكون ذكراً، وتقبل الشيء وقبوله أخذه حيث يتصور الأخذ والرضى به في كل حال، فمعنى قولها ﴿فَتَقَبَّلَ مِنِّي﴾ أي ارض عني في ذلك واجعله فعلاً مقبولاً مجازى به، والسميع، إشارة إلى دعائها العليم إشارة إلى نيتها.

قوله تعالى:

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَ حَرْبِهَا قَالِ يَمْرُؤُا أَنَّىٰ لَكَ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

هذه الآية خطاب من الله تعالى لمحمد عليه السلام، والوضع الولادة، وأنت الضمير في ﴿وَضَعْتُهَا﴾، حملاً على الموجودة ورفعاً للفظ ﴿مَا﴾ التي في قولها ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾ [آل عمران: ٣٣] وقولها، ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ لفظ خبر في ضمنه التحسر والتلهف، وبين الله ذلك بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾. وقرأ جمهور الناس «وَضَعْتُ» بفتح العين وإسكان التاء، وقرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر «وَضَعْتُ»، بضم التاء وإسكان العين، وهذا أيضاً مخرج قولها، ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ من معنى الخبر إلى معنى

التلف، وإنما تلهفت لأنهم كانوا لا يحررون الإناث لخدمة الكنائس ولا يجوز ذلك عندهم، وكانت قد رجحت أن يكون ما في بطنها ذكراً فلما وضعت أنثى تلهفت على فوت الأمل وأفزعتها أن نذرت ما لا يجوز نذره، وقرأ ابن عباس «وضعت» بكسر التاء على الخطاب من الله لها، وقولها «وليس الذكر كالأنثى» تريد في امتناع نذره إذ الأنثى تحيض ولا تصلح لصحبة الرهبان قاله قتادة والربيع والسدي وعكرمة وغيرهم، وبدأت بذكر الأهم في نفسها وإلا فسياق قصتها يقتضي أن تقول: وليست الأنثى كالذكر فتضع حرف النفي مع الشيء الذي عندها وانتفت عنه صفات الكمال للغرض المراد، وفي قولها «وإني سميتها مريم» سنة تسمية الأطفال قرب الولادة ونحوه قول النبي صلى الله عليه وسلم: ولد لي الليلة مولود فسميته باسم أبي إبراهيم وقد روي عنه عليه السلام أن ذلك في يوم السابع يعق عن المولود ويسمى، قال مالك رحمه الله: ومن مات ولده قبل السابع فلا عقيقة عليه ولا تسمية، قال ابن حبيب: أحب إلي أن يسمى، وأن يسمى السقط لما روي من رجاء شفاعته، و«مريم»، لا ينصرف لعجمته وتعريفه وتأنينه، وباقي الآية إعادة، وورد في الحديث عن النبي عليه السلام من رواية أبي هريرة قال: كل مولود من بني آدم له طعنة من الشيطان وبها يستهل إلا ما كان من مريم ابنة عمران وابنها فإن أمها قالت حين وضعتها: «وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم» فضرب بينهما حجاب فطعن الشيطان في الحجاب، وقد اختلفت ألفاظ الحديث من طرق والمعنى واحد كما ذكرته.

وقوله تعالى: ﴿تَقْبِلْهَا﴾ إخبار لمحمد عليه السلام بأن الله رضي مريم لخدمة المسجد كما نذرت أمها وسنى لها الأمل في ذلك، والمعنى يقتضي أن الله أوحى إلى زكرياء ومن كان هنالك بأنه تقبلها، ولذلك جعلوها كما نذرت، وقوله ﴿يَقْبُولُ﴾ مصدر جاء على غير الصدر، وكذلك قوله ﴿نَبَاتًا﴾ بعد أنبت، وقوله ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾، عبارة عن حسن النشأة وسرعة الجودة فيها في خلقه وخلق، وقوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ معناه: ضمها إلى إنفاقه وحضنه، والكافل هو المربي الحاضن، قال ابن إسحاق: إن زكرياء كان زوج خالتها لأنه وعمران كانا سلفين على أختين، ولدت امرأة زكرياء يحيى وولدت امرأة عمران مريم، وقال السدي وغيره: إن زكرياء كان زوج ابنة أخرى لعمران، ويعضد هذا القول قول النبي صلى الله عليه وسلم في يحيى وعيسى: ابنا الخالة، قال مكى: وهو زكريا بن آذن، وذكر قتادة وغير واحد من أهل العلم: أنهم كانوا في ذلك الزمان يتشاحون في المحرر عند من يكون من القائمين بأمر المسجد فيتساهمون عليه، وأنهم فعلوا في مريم ذلك، فروي أنهم ألقوا أفلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة في النهر، وقيل أفلاماً بروها من عود كالسهم والقдах، وقيل عصياً لهم، وهذه كلها تقلم، وروي أنهم ألقوا ذلك في نهر الأردن، وروي أنهم ألقوه في عين، وروي أن قلم زكرياء صاعد الجرية، ومضت أفلام الآخرين مع الماء في جريته، وروي أن أفلام القوم عامت على الماء معروضة كما تفعل العيدان وبقي قلم زكرياء مرتكراً وافقاً كأنما ركز في طين فكفلها عليه السلام بهذا الاستهام، وحكى الطبري عن ابن إسحاق: أنها لما ترعرعت أصابت بني إسرائيل مجاعة فقال لهم زكرياء: إني قد عجزت عن إنفاق مريم فاقترعوا على من يكفلها ففعلوا فخرج السهم على رجل يقال له جريج فجعل ينفق عليها وحينئذ كان زكرياء يدخل عليها المحراب عند جريج فيجد عندها الرزق.

قال أبو محمد: وهذا الاستهام غير الأول، هذا المراد منه دفعها، والأول المراد منه أخذها، ومضمين هذه الرواية أن زكرياء كفّلها من لدن طفولتها دون استهام، لكن أمها هلكت وقد كان أبوها هلك وهي في بطن أمها فضمها زكرياء إلى نفسه لقربتها من امرأته، وهكذا قال ابن إسحاق، والذي عليه الناس أن زكرياء إنما كفّل بالاستهام لتشاحهم حينئذ فيمن يكفل المحرر، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر ﴿وكفّلها زكرياء﴾ مفتوحة الفاء، خفيفة «زكرياء» مرفوعاً ممدوداً، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر، وكفّلها مشددة الفاء ممدوداً منصوباً في جميع القرآن، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص، «كفّلها» مشددة الفاء مفتوحة، «زكريا» مقصوراً في جميع القرآن، وفي رواية أبي بن كعب، و«أكفّلها زكرياء» بفتح الفاء على التعدية بالهمزة، وقرأ مجاهد، «فتقبّلها» بسكون اللام على الدعاء «ربّها» بنصب الباء على النداء و«أبنتها» بكسر الباء على الدعاء، و«كفّلها» بكسر الفاء وشدها على الدعاء زكرياء منصوباً ممدوداً، وروي عن عبد الله بن كثير، وأبي عبد الله المزني، «وكفّلها» بكسر الفاء خفيفة وهي لغة يقال: كفّل يكفّل بضم العين في المضارع، وكفّل بكسر العين يكفّل بفتحها في المضارع، «زكرياء» اسم أعجمي يمد ويقصر، قال أبو علي: لما عرب صادق العربية في بنائه فهو كالهيجاء تمد وتقصر، قال الزجاج: فأما ترك صرفه فلأن فيه في المد ألفي تأنيث وفي القصر ألف التأنيث، قال أبو علي: ألف زكرياء ألف تأنيث ولا يجوز أن تكون ألف إلحاق، لأنه ليس في الأصول شيء على وزنه، ولا يجوز أن تكون منقلبة، ويقال في لغة زكري منون معرب، قال أبو علي: هاتان ياءا نسب ولو كانتا اللتين في «زكرياء» لوجب ألا ينصرف الاسم للعجمة والتعريف وإنما حذفت تلك وجلبت ياء النسب، وحكى أبو حاتم، زكري بغير صرف وهو غلط عند النحاة، ذكره مكّي.

وقوله تعالى: ﴿كلما﴾ ظرف والعامل فيه ﴿وجد﴾، و﴿المحراب﴾ المبنى الحسن كالغرف والعلالي ونحوه، ومحراب القصر أشرف ما فيه ولذلك قيل لأشرف ما في المصل وهو موقف الإمام محراب، وقال الشاعر: [وضح اليمن] [السريع]

رَبَّةٌ مَحْرَابٍ إِذَا جِئْتُهَا لَمْ أَلْقَهَا أَوْ أَرْتَقِي سُلَّمَا

ومثل قول الآخر: [عدي بن زيد] [الخفيف]

كَدَمَى الْعَاجِ فِي الْمَحَارِبِ أَوْ كَالْبَيْضِ فِي الرُّوضِ زَهْرُهُ مُسْتَبِيرٌ

وقوله تعالى: ﴿وجد عندها رزقاً﴾، معناه طعاماً تتغذى به ما لم يعهده ولا عرف كيف جلب إليها، وكانت فيما ذكر الربيع، تحت سبعة أبواب مغلقة وحكى مكّي أنها كانت في غرفة يطلع إليها بسلم، وقال ابن عباس: وجد عندها عنباً في مكتل في غير حينه، وقاله ابن جبير ومجاهد، وقال الضحاك ومجاهد أيضاً وقتادة: كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، وقال ابن عباس: كان يجد عندها ثمار الجنة: فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، وقال الحسن: كان يجد عندها رزقاً من السماء ليس عند الناس ولو أنه علم أن ذلك الرزق من عنده لم يسألها عنه، وقال ابن إسحاق: هذا الدخول الذي ذكر الله تعالى في قوله ﴿كلما دخل عليها﴾ إنما هو دخول زكرياء عليها وهي في كفالة جريج

أخيراً، وذلك أن جريجاً كان يأتيها بطعامها فيمنيه الله ويكثره، حتى إذا دخل عليها زكرياء عجب من كثرتة فقال: ﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا﴾ والذي عليه الناس أقوى مما ذكره ابن إسحاق، وقوله ﴿أَنَّى﴾ معناه كيف ومن أين؟ وقولها: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، دليل على أنه ليس من جلب بشر، وهكذا تلقى زكرياء المعنى وإلا فليس كان يقنع بهذا الجواب، قال الزجاج: وهذا من الآية التي قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا ابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١] وروي أنها لم تلقم ثدياً قط، وقولها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مِنْ يَشَاءِ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ تقرير لكون ذلك الرزق من عند الله، وذهب الطبري إلى أن ذلك ليس من قول مريم وأنه خبر من الله تعالى لمحمد عليه السلام، والله تعالى لا تنتقص خزائنه، فليس يحسب ما يخرج منها، وقد يعبر بهذه العبارة عن المكثرين من الناس أنهم ينفقون بغير حساب، وذلك مجاز وتشبيه، والحقيقة هي فيما ينتفق من خزائن الله تعالى.

قوله تعالى:

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٢٨﴾ فَدَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحَارِبِ أَنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِحَيٍّ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٩﴾

هناك في كلام العرب إشارة إلى مكان فيه بعد أو زمان، و﴿هنالك﴾ باللام أبلغ في الدلالة على البعد، ولا يعرب ﴿هنالك﴾ لأنه إشارة فأشبه الحروف التي جاءت لمعنى، ومعنى هذه الآية: أن في الوقت الذي رأى زكرياء رزق الله لمريم ومكانتها منه وفكر في أنها جاءت أمها بعد أن أسنت وأن الله تقبلها وجعلها من الصالحات تحرك أمله لطلب الولد وقوي رجاؤه وذلك منه على حال سن ووهن عظم واشتعال شيب وذلك لخوفه الموالي من ورائه حسبما يتفسر في سورة مريم إن شاء الله فدعا ربه أن يهب له ذرية طيبة، و«الذرية» اسم جنس يقع على واحد فصاعداً كما الولي يقع على اسم جنس كذلك، وقال الطبري: إنما أراد هنا بالذرية واحداً ودليل ذلك طلبه ولياً ولم يطلب أولياء، وأنث «الطيبة» حملاً على لفظ الذرية كما قال الشاعر: [الوافر]

أَبُوكَ خَلِيفَةٌ وَلَدَتْهُ أُخْرَى وَأَنْتَ خَلِيفَةُ ذَاكَ الْكَمَالِ

وكما قال الآخر:

فَمَا تَزْدُرِي مِنْ حَيَّةٍ جَبَلِيَّةٍ؟ سِكَاتٌ إِذَا مَا عَضُّ لَيْسَ بِأُذْرَدَا

وفيما قال الطبري تعقب وإنما الذرية والولي اسما جنس يقعان للواحد فما زاد، وهكذا كان طلب زكرياء عليه السلام، و﴿طيبة﴾ معناه سليمة في الخلق والدين نقية، و﴿سميع﴾ في هذه الآية بناء اسم فاعل.

ثم قال تعالى: ﴿فَدَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ وترك محذوف كثير دل ما ذكر عليه، تقديره فقبل الله دعاءه ووهبه

يحيى وبعث الملك أو الملائكة بذلك إليه فنادته، وذكر أنه كان بين دعائه والاستجابة له بالبشارة أربعون سنة، وذكر جمهور المفسرين: أن المنادي المخبر إنما كان جبريل وحده وهذا هو العرف في الوحي إلى الأنبياء، وقال قوم: بل نادت ملائكة كثيرة حسبما تقتضيه ألفاظ الآية، وقد وجدنا الله تعالى بعث ملائكة إلى لوط وإلى إبراهيم عليه السلام وفي غير ما قصة، وفي مصحف عبد الله بن مسعود وقراءته «فناداه جبريل وهو قائم يصلي»، وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر وأبو عمرو: «فنادته» بالتاء «الملائكة»، وقرأ حمزة والكسائي «فناداه الملائكة» بالالف وإمالة الدال، قال أبو علي: من قرأ بالتاء فلموضع الجماعة والجماعة ممن يعقل في جمع التكسير تجري مجرى ما لا يعقل، ألا ترى أنك تقول: هي الرجال كما تقول: هي الجدوع وهي الجمال، ومثله: ﴿قالت الأعراب﴾ [الحجرات: ١٤].

قال الفقيه الإمام: ففسر أبو علي على أن المنادي ملائكة كثيرة، والقراءة بالتاء على قول من يقول: المنادي جبريل وحده متجهة على مراعاة لفظ الملائكة، وعبر عن جبريل بالملائكة إذ هو منهم، فذكر اسم الجنس كما قال تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس﴾ [آل عمران: ١٧٣] قال أبو علي: ومن قرأ «فناداه الملائكة»، فهو كقوله تعالى: ﴿وقال نسوة في المدينة﴾ [يوسف: ٣٠].

قال القاضي: وهذا على أن المنادي كثير، ومن قال إنه جبريل وحده كالسدي وغيره فأفرد الفعل مراعاة للمعنى، وعبر عن جبريل عليه السلام بالملائكة إذ هو اسم جنسه، وقوله تعالى: ﴿فنادته﴾ عبارة تستعمل في التبشير وفيما ينبغي أن يسرع به وينهى إلى نفس السامع ليسر به فلم يكن هذا من الملائكة إخباراً على عرف الوحي بل نداء كما نادى الرجل الأنصاري كعب بن مالك من أعلى الجبل، وقوله تعالى: ﴿وهو قائم﴾ جملة في موضع الحال، و﴿يصلي﴾ صفة لقائم، و﴿المحراب﴾ في هذا الموضع موقف الإمام من المسجد، وقرأ ابن عامر وحمزة: «إن الله» بكسر الألف، قال أبو علي: وهذا على إضمار القول، كأنه قال «فنادته الملائكة» فقالت وهذا كقوله تعالى: ﴿فدعاربه أني مغلوب﴾ [القمر: ١٠] على قراءة من كسر الألف، وقال بعض النحاة: كسرت بعد النداء والدعاء لأن النداء والدعاء أقوال، وقرأ الباقر بفتح الألف من قوله: ﴿أن الله يشرك﴾ قال أبو علي: المعنى فنادته بأن الله فلما حذف الجار منها وصل الفعل إليها فنصبها، فد «أن» في موضع نصب، وعلى قياس قول الخليل في موضع جر، وفي قراءة عبد الله «في المحراب» يا زكرياء إن الله، قال أبو علي: فقلوه «يا زكرياء» في موضع نصب بوقوع النداء عليه، ولا يجوز فتح الألف في «إن» على هذه القراءة لأن نادته قد استوفت مفعولها أحدهما الضمير، والآخر المنادي، فإن فتحت «إن» لم يبق لها شيء متعلق به، قال أبو علي: وكلهم قرأ «في المحراب» بفتح الراء إلا ابن عامر فإنه أمالها، وأطلق ابن مجاهد القول في إمالة ابن عامر الألف من محراب ولم يخص به الجر من غيره، وقال غير ابن مجاهد: إنما زميله في الجر فقط.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «يشرك»، بضم الياء وفتح الباء والتشديد في كل القرآن إلا في «عسق» فإنهما قرأ «ذلك الذي ييشر الله عباده» [الشورى: ٢٣] بفتح الياء، وسكون الباء، وضم الشين، وقرأ نافع وعاصم وابن عامر، «يشرك» بشد الشين المكسورة في كل القرآن، وقرأ حمزة «يشر» خفيفاً بضم الشين

مما لم يقع في كل القرآن إلا قوله تعالى، ﴿فم تبشرون﴾ [الحجر: ٥٤] وقرأ الكسائي «ببشر» مخففة في خمسة مواضع في آل عمران في قصة زكرياء وقصة مريم وفي سورة بني إسرائيل والكهف، وببشر المؤمنين، وفي «عسق» «ببشر الله عباده»، قال غير واحد من اللغويين: في هذه اللفظة ثلاث لغات، بشر بشد الشين، وبشر بتخفيفها، وأبشر ببشر بإشعاراً، وهذه القراءات كلها متجهة فصيحة مروية، وفي قراءة عبد الله بن مسعود «يُبشرك» بضم الباء وتخفيف الشين المكسورة من - أبشر - وهكذا قرأ في كل القرآن.

و﴿يحيى﴾ اسم سماه الله به قبل أن يولد، قال أبو علي: هو اسم بالعبرانية صادف هذا البناء، والمعنى من العربية، قال الزجاج: لا ينصرف لأنه إن كان أعجمياً ففيه التعريف والعجمة، وإن كان عربياً فالتعريف ووزن الفعل، وقال قتادة: سماه الله يحيى لأنه أحياه بالإيمان و﴿مصدقاً﴾ نصب على الحال وهي مؤكدة بحسب حال هؤلاء الأنبياء عليهم السلام، وقوله تعالى: ﴿بكلمة من الله﴾، قال ابن عباس ومجاهد وقاتدة والحسن والسدي وغيرهم، «الكلمة» هنا يراد بها عيسى ابن مريم.

قال الفقيه الإمام أبو محمد: وسمى الله تعالى عيسى كلمة إذ صدر عن كلمة منه تعالى لا بسبب إنسان آخر كعرف البشر، وروى ابن عباس: أن امرأة زكرياء قالت لمريم وهما حاملتان: إني أجد ما في بطني يتحرك لما في بطنك، وفي بعض الروايات، يسجد لما في بطنك قال، فذلك تصديقه.

قال الفقيه أبو محمد: أي أول التصديق، وقال بعض الناس: ﴿بكلمة من الله﴾، معناه بكتاب من الله الإنجيل وغيره من كتب الله فأوقع المفرد موقع الجمع، فكلمة اسم جنس، وعلى هذا النظر سمت العرب القصيدة الطويلة كلمة، وقوله تعالى: ﴿وسيداً﴾ قال فيه قتادة: أي والله سيد في الحلم والعبادة والورع، وقال مرة: معناه في العلم والعبادة، وقال ابن جبير: ﴿وسيداً﴾ أي حليماً، وقال مرة: السيد التقى وقال الضحاك: ﴿وسيداً﴾ أي تقياً حليماً، وقال ابن زيد: السيد الشريف، وقال ابن المسيب: السيد الفقيه العالم، وقال ابن عباس: ﴿وسيداً﴾ يقول، تقياً حليماً، وقال عكرمة: السيد الذي لا يغلبه الغضب.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: كل من فسر من هؤلاء العلماء المذكورين السؤدد بالحلم فقد أحرز أكثر معنى السؤدد ومن جرد تفسيره بالعلم والتقى ونحوه فلم يفسر بحسب كلام العرب، وقد تحصل العلم ليحيى عليه السلام بقوله عز وجل ﴿مصدقاً بكلمة من الله﴾ وتحصل التقى بباقي الآية، وخصه الله بذكر السؤدد الذي هو الاحتمال في رضى الناس على أشرف الوجوه دون أن يوقع في باطل، هذا لفظ يعم السؤدد، وتفصيله أن يقال: بذل الندى، وهذا هو الكرم وكف الأذى، وهنا هي العفة بالفرج واليد واللسان واحتمال العظائم، وهنا هو الحلم وغيره من تحمل الغرامات وجبر الكسير والإفضال على المسترشد، والإنقاذ من الهلكات، وانظر أن النبي عليه السلام قال: أنا سيد ولد آدم ولا فخر يجمع الله الأولين والآخرين، وذكر حديث شفاعته في إطلاق الموقف، وذلك منه احتمال في رضى ولد آدم فهو سيدهم بذلك، وقد يوجد من الثقات العلماء من لا يبرز في هذه الخصال، وقد يوجد من يبرز في هذه فيسمى سيداً وإن قصر في كثير من الواجبات أعني واجبات النذب والمكافحة في الحق وقلة المبالاة باللائمة، وقد قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: ما رأيت أحداً أسود من معاوية بن أبي سفيان قيل له،

وأبو بكر وعمر؟ قال: هما خير من معاوية ومعاوية أسود منهما، فهذه إشارة إلى أن معاوية برز في هذه الخصال ما لم يواقع محذوراً، وأن أبا بكر وعمر كانا من الاستصلاح بالواجبات وتبع ذلك من أنفسهما وإقامة الحقائق على الناس بحيث كانا خيراً من معاوية ومع تتبع الحقائق وحمل الناس على الجادة وقلة المبالاة برضاهم والوزن بقسطاس الشريعة تحريراً ينخرم كثير من هذه الخصال التي هي السؤدد ويشغل الزمن عنها، والتقى والعلم والأخذ بالأشد أؤكد وأعلى من السؤدد، أما إنه يحسن بالتقي العالم أن يأخذ من السؤدد بكل ما لا يخل بعلمه وتقاه، وهكذا كان يحيى عليه السلام، وليس هذا الذي يحسن بواجب ولا بد، كما ليس التتبع والتحرير في الشدة بواجب ولا بد، وهما طرفا خير حقتهما الشريعة، فمن صائر إلى هذا ومن صائر إلى هذا، ومثال ذلك، حاكم صليب معبس فظ على من عنده أدنى عوج لا يعتني في حوائج الناس، وآخر بسط الوجه بسام يعتني فيما يجوز، ولا يتتبع ما لم يرفع إليه وينفذ الحكم مع رفق بالمحكوم عليه فهما طريقان حسان.

وقوله تعالى: ﴿وَحُصُورًا﴾ أصل هذه اللفظة الحبس والمنع، ومنه الحصر لأنه يحصر من جلس عليه ومنه سمي السجن حصيراً وجهنم حصيراً، ومنه حصر العدو وإحصار المرض والعذر، ومنه قيل للذي لا ينفق مع ندمائه حصور، قال الأخطل: [البسيط]

وشارِبٍ مُرْبِحٍ بِالْكَأْسِ نَادِمِي لَا بِالْحُصُورِ وَلَا فِيهَا بِسَوَارٍ

ويقال للذي يكتم السر حصور وحصر، قال جرير: [الكامل]

وَلَقَدْ تَسَاقَطَنِي الْوُشَاةُ فَصَادَفُوا حَصِرًا بِسَرِّكَ يَا أَمِيْمُ ضَمِينَا

وأجمع من يعتد بقوله من المفسرين على أن هذه الصفة ليحيى عليه السلام إنما هي الامتناع من وطء النساء إلا ما حكى مكي من قول من قال: إنه الحصور عن الذنوب أي لا يأتيها، وروى ابن المسيب عن ابن العاصي إما عبد الله وإما أبوه عن النبي عليه السلام، أنه قال: كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب إلا ما كان من يحيى بن زكرياء، قال: ثم دلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده إلى الأرض فأخذ عويداً صغيراً، ثم قال: وذلك أنه لم يكن له ما للرجال إلا مثل هذا العود، ولذلك سماه الله سيداً وحصوراً، وقال ابن مسعود «الحصور» العنين، وقال مجاهد وقتادة، «الحصور» الذي لا يأتي النساء، وقال ابن عباس والضحاك: الحصور الذي لا ينزل الماء.

قال القاضي: ذهب بعض العلماء إلى أن حصر يحيى عليه السلام كان لأنه لم يكن له إلا مثل الهدية، وذهب بعضهم إلى أن حصره كان لأنه كان عنيماً لا يأتي النساء وإن كانت خلقته غير ناقصة، وذهب بعضهم إلى أن حصره كان بأنه كان يمسك نفسه تقى وجلداً في طاعة الله وكانت به القدرة على جماع النساء، قالوا: وهذا أمدح له وليس له في التأويلين الأولين مدح، إلا بأن الله يسر له شيئاً لا تكسب له فيه، وباقي الآية بين، وروي من صلاحه عليه السلام أنه كان يعيش من العشب وأنه كان كثير البكاء من خشية الله حتى خدد الدمع في وجهه طرقاً وأخاديد.

قوله تعالى :

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾

اختلف المفسرون لم قال زكرياء ﴿رب أنى يكون لى غلام﴾ فقال عكرمة والسدي : إنه نودي بهذه البشارة، جاء الشيطان يكدر عليه نعمة ربه فقال هل تدري من ناداك؟ قال : نادتنى ملائكة ربي قال بل ذلك الشيطان ولو كان هذا من عند ربك لأخفاه لك كما أخفيت نداءك قال : فخالطت قلبه وسوسة وشك مكانه، فقال : ﴿أنى يكون لى غلام﴾ وذهب الطبري وغيره إلى أن زكرياء لما رأى حال نفسه وحال امرأته وأنها ليست بحال نسل سأل عن الوجه الذي به يكون الغلام، أتبدل المرأة خلقتها أم كيف يكون؟

قال الفقيه أبو محمد : وهذا تأويل حسن يليق بزكرياء عليه السلام وقال مكى : وقيل إنما سأل لأنه نسي دعاءه لطول المدة بين الدعاء والبشارة وذلك أربعون سنة .

قال الفقيه أبو محمد : وهذا قول ضعيف المعنى، و﴿أنى﴾ معناها كيف ومن أين، وقوله ﴿بلغني الكبر﴾ استعارة كأن الزمان طريق والحوادث تتساقق فيه فإذا التقى حادثان فكان كل واحد منهما قد بلغ صاحبه وحقيقة البلوغ في الأجرام أن ينتقل البالغ إلى المبلوغ إليه، وحسن في الآية : ﴿بلغني الكبر﴾ من حيث هي عبارة واهن منفعل وبلغت عبارة فاعل مستعمل، فتأمل ولا يعترض على هذا بقوله : ﴿وقد بلغت من الكبر عتياً﴾ [مریم: ٨] لأنه قد أفصح بضعف حاله في ذكر العتى، والعاقرة الإنسان الذي لا يلد، يقال ذلك للمرأة والرجل، قال عامر بن الطفيل :

لبس الفتى إن كنت أعور عاقراً جباناً فما عذري لدى كل مشهد؟

و«عاقرة» بناء فاعل وهو على النسب وليس بجار على الفعل، والإشارة بذلك في قوله : ﴿كذلك الله﴾، يحتمل أن تكون إلى هذه الغربية التي بشر بها أي كهذه القدرة المستغربة هي قدرة الله، ففي الكلام حذف مضاف، والكلام تام في قوله : ﴿كذلك الله﴾ وقوله : ﴿يفعل ما يشاء﴾ شرح الإبهام الذي في ذلك، ويحتمل أن تكون الإشارة بذلك إلى حال زكرياء وحال امرأته كأنه قال : رب على أي وجه يكون لنا غلام ونحن بحال كذا؟ فقال له : كما أنتما يكون لكما الغلام، والكلام تام على هذا التأويل في قوله : ﴿كذلك﴾ وقوله : ﴿الله يفعل ما يشاء﴾ جملة مبينة مقررة في النفس وقوع هذا الأمر المستغرب .

قوله تعالى :

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا وَذَكَرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٤١﴾

«الآية» العلامة، وقال الربيع والسدي وغيرهما : إن زكرياء قال : يارب إن كان ذلك الكلام من قبلك والبشارة حق، فاجعل لى علامة أعرف صحة ذلك بها، فعوقب على هذا الشك في أمر الله، بأن منع الكلام

ثلاثة أيام مع الناس، وقالت فرقة من المفسرين: لم يشك قط زكرياء وإنما سأل عن الجهة التي بها يكون الولد وتتم البشارة فلما قيل له ﴿كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ [آل عمران: ٤٠] سأل علامة على وقت الحمل ليعرف متى يحمل يوحى.

واختلف المفسرون هل كان منعه الكلام لأفة نزلت به أم كان ذلك لغير آفة فقال جبير بن نفير، ربا لسانه في فيه حتى ملأه ثم أطلقه الله بعد ثلاث، وقال الربيع وغيره: عوقب لأن الملائكة شافهته بالبشارة فسأل بعد ذلك علامة فأخذ الله عليه لسانه، فجعل لا يقدر على الكلام، وقال قوم من المفسرين: لم تكن آفة، ولكنه منع محاورة الناس فلم يقدر عليها، وكان يقدر على ذكر الله قاله الطبري، وذكر نحوه عن محمد بن كعب، ثم استثنى الرمز، وهو استثناء منقطع، وذهب الفقهاء في الإشارة ونحوها، إلى أنها في حكم الكلام في الإيمان ونحوها، فعلى هذا يجيء الاستثناء متصلاً، والكلام المراد بالآية إنما هو النطق باللسان لا الإعلام بما في النفس، فحقيقة هذا الاستثناء، أنه منقطع، وقرأ جمهور الناس ﴿رَمَزَآءُ﴾ بفتح الراء وسكون الميم، وقرأ علقمة بن قيس، ﴿رُمَزَآءُ﴾ بضمها، وقرأ الأعمش ﴿رَمَزَآءُ﴾ بفتحها، والرمز في اللغة حركة تعلم بما في نفس الرامز بأي شيء كانت الحركة من عين أو حاجب أو شفة أو يد أو عود أو غير ذلك، وقد قيل للكلام المحرف عن ظاهره رموز، لأنها علامات بغير اللفظ الموضوع للمعنى المقصود بالإعلام به، وقد يقال للتصويت الدال على معنى رمز، ومنه قول جوية بن عائذ: [الوافر]

وَكَاَنَ تَكَلُّمُ الْأَبْطَالِ رَمَزَآءُ وَغَمْغَمَةٌ لَهُمْ مِثْلَ الْهَدِيدِ

وأما المفسرون فخصص كل واحد منهم نوعاً من الرمز في تفسيره هذه الآية، فقال مجاهد: ﴿إلا رمزاً﴾ معناه إلا تحريكاً بالشفتين، وقال الضحاك: معناه إلا إشارة باليد والرأس، وبه قال السدي وعبد الله ابن كثير، وقال الحسن: أمسك لسانه فجعل يشير بيده إلى قومه، وقال قتادة: ﴿إلا رمزاً﴾، معناه إلا إيماء، وقرأ جمهور الناس: ﴿ألا تكلم الناس﴾ بنصب الفعل بأن، وقرأ ابن أبي عبله، ﴿ألا تكلم﴾ برفع الميم، وهذا على أن تكون «أن» مخففة من الثقيلة ويكون فيها ضمير الأمر والشأن التقدير آيتك أنه لا تكلم الناس، والقول بأن هذه الآية نسخها قول النبي عليه السلام: لا صمت يوماً إلى الليل قول ظاهر الفساد من جهات، وأمره تعالى بالذكر لربه كثيراً لأنه لم يحل بينه وبين ذكر الله، وهذا قاض بأنه لم تدركه آفة ولا علة في لسانه، وقال محمد بن كعب القرظي: لو كان الله رخص لأحد في ترك الذكر لرخص لزكرياء عليه السلام حيث قال: «آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً»، لكنه قال له: ﴿واذكر ربك كثيراً﴾، وقوله تعالى: ﴿وسبح﴾ معناه قل سبحان الله، وقال قوم معناه: صلّ والقول الأول أصوب لأنه يناسب الذكر ويستغرب مع امتناع الكلام مع الناس، و«العشي» في اللغة من زوال الشمس إلى مغيبها ومنه قول القاسم بن محمد: ما أدركت الناس إلا وهم يصلون الظهر بعشي، و«العشي» من حين يفيء الفيء، ومنه قول حميد بن ثور:

فلا الظل من برد الضحى تستطيعه ولا الفيء من برد العشي تذوق

و«العشي» اسم مفرد عند بعضهم، وجمع عشية عند بعضهم كسفينة وسفين و«الإبكار» مصدر أبكر

الرجل إذا بادر أمره من لدن طلوع الشمس، وتتمادى البكرة شيئاً بعد طلوع الشمس يقال أبكر الرجل وبكر فمن الأول قول ابن أبي ربيعة: [الطويل]

أَمِنْ آلِ نَعْمَى أَنْتَ غَادٍ فَمُبْكِرُ

ومن الثاني قول جرير: [الطويل]

أَلَا بَكَرَتْ سَلَمَى فَجَدَّ بُكُورُهَا وَشَقَّ الْعَصَا بَعْدَ اجْتِمَاعِ أُمِيرُهَا

وقال مجاهد في تفسير ﴿الإبكار﴾: أول الفجر، والعشي ميل الشمس حتى تغيب.

قوله تعالى:

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرِيئُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾
يَمْرِيئُ أَفَنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾

قال الطبري: العامل في ﴿إذ﴾ قوله ﴿سميع﴾ فهو عطف على قوله: ﴿إذ قالت امرأة عمران﴾ [آل عمران: ٣٥]، وقال كثير من النحاة: العامل في ﴿إذ﴾ في هذه الآية فعل مضمر تقديره «واذكر» وهذا هو الراجح لأن هذه الآيات كلها إنما هي إخبارات بغيب تدل على نبوة محمد عليه السلام، مقصد ذكرها هو الأظهر في حفظ رونق الكلام، وقرأ عبد الله بن عمر وابن مسعود، «وإذ قال الملائكة»، واختلف المفسرون هل المراد هنا بالملائكة جبريل وحده أو جمع من الملائكة؟ وقد تقدم القول على معنى مثلاً في قوله تعالى: ﴿فنادته الملائكة﴾ [آل عمران: ٣٩] و﴿اصطفاك﴾ مأخوذ من صفا يصفو وزنه - افتعل - وبدلت التاء طاء التناسب الصاد، فالمعنى تخييرك لطاعته وقوله تعالى: ﴿وطهرك﴾ معناه من كل ما يصم النساء في خلق أو خلق أو دين قاله مجاهد وغيره، وقال الزجاج: قد جاء في التفسير أن معناه طهرك من الحيض والنفاس.

قال الفقيه أبو محمد: وهذا يحتاج إلى سند قوي وما أحفظه.

وقوله تعالى: ﴿واصطفاك على نساء العالمين﴾ إن جعلنا ﴿العالمين﴾ عاماً فيمن تقدم وتأخر جعلنا الاصطفاء مخصوصاً في أمر عيسى عليه السلام وأنها اصطفت لتلد من غير فعل، وإن جعلنا الاصطفاء عاماً جعلنا قوله تعالى: ﴿العالمين﴾ مخصوصاً في عالم ذلك الزمان، قاله ابن جريج وغيره، وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «خير نساء الجنة مريم بنت عمران، وخير نساء الجنة، خديجة بنت خويلد» وروي عنه أنه قال: «خير نساءها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد» فذهب الطبري وغيره إلى أن الضمير في قوله - نسائها - يراد به الجنة، وذهب قوم إلى أنه يراد به الدنيا، أي كل امرأة في زمانها، وقال النبي عليه السلام، «خير نساء ركن الإبل، صالح نساء قريش، أحناء على ولد في صغره، وأرعاه إلى زوج في ذات يده»، وقال أبو هريرة راوي الحديث: ولم تركب مريم بنت عمران بغيراً قط، وهذه الزيادة فيها غيب، فلا يتأول أن أبا هريرة رضي الله عنه، قالها إلا عن سماع من النبي صلى الله

عليه وسلم، وروى أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال، «خير نساء العالمين أربع، مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد»، وقد أسند الطبري، أن النبي عليه السلام، قال لفاطمة بنته، «أنت سيدة نساء أهل الجنة، إلا مريم بنت عمران، البتول»، وأنه قال، «فضلت خديجة على نساء أمتي، كما فضلت مريم على نساء العالمين».

قال الفقيه الإمام أبو محمد: وإذا تأملت هذه الأحاديث وغيرها مما هو في معناها، وجدت مريم فيها متقدمة، فسائق أن يتأول عموم الاصطفاء على «العالمين» عموماً أيضاً، وقد قال بعض الناس، إن مريم نبيه، قال ابن إسحاق، كانت الملائكة تقبل على مريم فتقول، «يا مريم إن الله اصطفاك»، الآية، فيسمع ذلك زكريا فيقول، إن لمريم لشأنًا، فمن مخاطبة الملائكة لها، جعلها هذا القائل نبيه، وجمهور الناس على أنه لم تنبأ امرأة.

و«اقتني» معناه اعبدني وأطيعني، قاله قتادة والحسن، وروى أبو سعيد الخدري، عن النبي عليه السلام قال، كل قنوت في القرآن فهو بمعنى طاعة الله، ويحتمل أن يكون معناه، أطيلي القيام في الصلاة، وهذا هو قول الجمهور، وهو المناسب في المعنى لقوله، «واسجدني واركعي» وبه قال مجاهد، وابن جريج، والربيع، وروى مجاهد أنها لما خوطبت بهذا، قامت حتى ورمت قدميها، وروى الأوزاعي، أنها قامت حتى سال الدم والقيح من قدميها، وروي أن الطير كانت تنزل على رأسها، تظنها جماداً لسكونها في طول قيامها، وقال سعيد بن جبير، «اقتني لربك»، معناه أخلصي لربك، واختلف المتأولون، لم قدم السجود على الركوع؟ فقال قوم: كان ذلك في شرع زكرياء وغيره منهم وقال قوم: الواو لا تعطي رتبة، وإنما المعنى، افعلي هذا وهذا، وقد علم تقديم الركوع، وهذه الآية أكثر إشكالاً من قولنا، قام زيد وعمرو، لأن قيام زيد وعمرو ليس له رتبة معلومة، وهذه الآية قد علم أن السجود بعد الركوع، فكيف جاءت الواو بعكس ذلك، فالقول عندي في ذلك، أن مريم أمرت بفصلين ومعلمين من معالم الصلاة، وهما طول القيام والسجود، وخصاً بالذكر لشرفهما في أركان الصلاة، وإذا العبد يقرب في وقت سجوده من الله تعالى: وهذان يختصان بصلاتها مفردة، وإلا فمن يصلي وراء إمام، فليس يقال له أطل قيامك، ثم أمرت - بعد - بالصلاة في الجماعة، ف قيل لها، «واركعي مع الراكعين» وقصد هنا معلم من معالم الصلاة، لئلا يتكرر لفظ، ولم يرد بالآية السجود والركوع، الذي هو منتظم في ركعة واحدة والله أعلم.

قوله تعالى:

ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَمْ يَكُنْ لَكُمْ رَسُولٌ مِمَّنْ أَنْبَأَكُمْ بِمَا لَكُمْ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لِمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾

هذه المخاطبة لمحمد عليه السلام، والإشارة به «ذلك» إلى ما تقدم ذكره من القصص، والأنباء الأخبار،

و﴿الغيب﴾ ما غاب عن مدارك الإنسان، و﴿نوحه﴾ معناه تلقيه في نفسك في خفاء، وحد الوحي إلقاء المعنى في النفس في خفاء، ثم تختلف أنواعه، فمنه بالملك، ومنه بالإلهام، ومنه بالإشارة، ومنه بالكتاب، كما قال كعب بن زهير: [الطويل]

أتى العجم والأفراق منه قصائدٌ بقين بقاء الوحي في الحَجَرِ الأصمِّ

تقول العرب: أوحى، وتقول وحى، وفي هذه الآية بيان لنبوة محمد عليه السلام، إذ جاءهم بغيوب لا يعلمها إلا من شاهدها وهو لم يكن لديهم، أو من قرأها في كتب أهل الكتاب، ومحمد عليه السلام أمي من قوم أميين، أو من أعلمه الله بها وهو ذاك صلى الله عليه وسلم، ولديهم معناه عندهم ومعهم، وقد تقدم القول في الأقلام والكفل، وجمهور العلماء على أنه استهم لأخذها والمنافسة فيها، وقال ابن إسحاق: إنما كان استهمهم حين نالهم المجاعة دفعاً منها لتحمل مؤنتها، و﴿يختصمون﴾ معناه يراجعون القول الجهر في أمرها، وفي هذه الآية استعمال القرعة والقرعة سنة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سافر أقرع بين نسائه، وقال عليه السلام: لو يعلمون ما في الصف الأول لاستهموا عليه، وجمهور الأمة على تجويز القرعة إلا من شذ فظنها قماراً، وهذا كله فيما يصلح التراضي بكونه دون قرعة فكان القرعة محسنة لذلك الاختصاص، وأما حيث لا يجوز التراضي كعق العبيد في ثلث ميت فجوزها الجمهور ومنعها أبو حنيفة، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أقرع بين ستة أعبد، فأعق اثنين وأرق أربعة، وقوله: ﴿أيهم يكفل مريم﴾ ابتداء وخبر في موضع نصب بالفعل الذي تقديره، ينظرون، ﴿أيهم يكفل مريم﴾، والعامل في قوله ﴿إذ قالت الملائكة﴾ فعل مضمّر تقديره اذكر ﴿إذ قالت الملائكة﴾ وهكذا يطرد وصف الآية وتتوالى الإعلالات بهذه الغيوب، وقال الزجاج: العامل فيها ﴿يختصمون﴾، ويجوز أن يتعلق بقوله: ﴿وما كنت لديهم إذ قالت الملائكة﴾ وهذا كله يرده المعنى، لأن الاختصاص لم يكن عند قول الملائكة، وقرأ ابن مسعود وعبد الله بن عمر: ﴿إذ قال الملائكة﴾ واختلف المتأولون هل الملائكة هنا عبارة عن جبريل وحده أو عن جماعة من الملائكة؟ وقد تقدم معنى ذلك كله في قوله أنفأ، ﴿فنادته الملائكة﴾ [آل عمران: ٣٩] فتأمل، وتقدم ذكر القراءات في قوله ﴿ييشرك﴾.

واختلف المفسرون لم عبر عن عيسى عليه السلام ﴿بكلمة﴾؟ فقال قتادة: جعله «كلمة» إذ هو موجود بكلمة وهي قوله تعالى: لمрадته - كن - وهذا كما تقول في شيء حادث هذا قدر الله أي هو عند قدر الله وكذلك تقول هذا أمر الله، وترجم الطبري فقال: وقال آخرون: بل الكلمة اسم لعيسى سماه الله بها كما سمي سائر خلقه بما شاء من الأسماء، فمقتضى هذه الترجمة أن الكلمة اسم مرتجل لعيسى ثم أدخل الطبري تحت الترجمة عن ابن عباس أنه قال: «الكلمة» هي عيسى، وقول ابن عباس يحتمل أن يفسر بما قال قتادة وبغير ذلك مما سنذكره الآن وليس فيه شيء مما ادعى الطبري رحمه الله، وقال قوم من أهل العلم: سماه الله «كلمة» من حيث كان تقدم ذكره في توراة موسى وغيرها من كتب الله وأنه سيكون، فهذه كلمة سبقت فيه من الله، فمعنى الآية، أنت يا مريم مبشرة بأنك المخصوصة بولادة الإنسان الذي قد تكلم الله بأمره وأخبر به في ماضي كتبه المنزل على أنبيائه، و﴿اسمه﴾ في هذا الموضع، معناه تسميته، وجاء الضمير مذكراً من أجل المعنى، إذ «الكلمة» عبارة عن ولد.

واختلف الناس في اشتقاق لفظة ﴿المسيح﴾ فقال قوم، هو من ساح يسبح في الأرض، إذا ذهب ومشى أقطارها فوزنه مفعّل، وقال جمهور الناس: هو من - مسح - فوزنه - فاعل، واختلفوا - بعد - في صورة اشتقاقه من - مسح - فقال قوم من العلماء، سمي بذلك من مساحة الأرض لأنه مشاها فكأنه مسحها، وقال آخرون: سمي بذلك لأنه ما مسح بيده على ذي علة إلا برىء، فهو على هذين القولين - فاعل - بمعنى - فاعل - وقال ابن جبير: سمي بذلك لأنه مسح بالبركة، وقال آخرون: سمي بذلك لأنه مسح بدهن القدس فهو على هذين القولين - فاعل - بمعنى مفعول، وكذلك هو في قول من قال: مسحه الله، فطهره من الذنوب، قال إبراهيم النخعي: المسيح الصديق، وقال ابن جبير عن ابن عباس: ﴿المسيح﴾ الملك، وسمي بذلك لأنه ملك إحياء الموتى، وغير ذلك من الآيات، وهذا قول ضعيف لا يصح عن ابن عباس.

وقوله: ﴿عيسى﴾ يحتمل من الإعراب ثلاثة أوجه، البذل من ﴿المسيح﴾، وعطف البيان، وأن يكون خبراً بعد خبر، ومنع بعض النحاة أن يكون خبراً بعد خبر وقال: كان يلزم أن تكون أسماؤه على المعنى أو أسماؤها على اللفظ للكلمة، ويتجه أن يكون ﴿عيسى﴾ خبر ابتداء مضمّر، تقديره، هو عيسى ابن مريم، ويدعو إلى هذا كون قوله، ﴿ابن مريم﴾ صفة لـ ﴿عيسى﴾ إذ قد أجمع الناس على كنهه دون ألف، وأما على البذل أو عطف البيان فلا يجوز أن يكون ﴿ابن مريم﴾ صفة لـ ﴿عيسى﴾ لأن الاسم هنا لم يرد به الشخص، هذه النزعة لأبي علي، وفي صدر الكلام نظر، و﴿وجيهاً﴾، نصب على الحال وهو من الوجه، أي له وجه ومزلة عند الله والمعنى في الوجه أنه حيثما أقبل بوجهه، عظم وروعى أمره، وتقول العرب: فلان له وجه في الناس وله جاه، وهذا على قلب في اللفظة، يقولون جاهني بكذا أي واجهني به، وجاه عيسى عليه السلام في الدنيا نبوته وذكره، ورفع في الآخرة مكانته ونعيمه وشفاعته، ﴿ومن المقربين﴾، معناه من الله تعالى.

قوله تعالى:

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾

قوله: ﴿ويكلم﴾ نائب عن حال تقديرها ومكلاً وذلك معطوف على قوله: ﴿وجيهاً﴾ [آل عمران: ٤٥]، وجاء عطف الفعل المستقبل على اسم الفاعل لما بينهما من المضارعة كما جاز عطف اسم الفاعل على الفعل المستقبل في قوله الشاعر: [الرجز].

بَتْ أَعْشِيهَا بِعَضْبٍ بَاتِرٍ يَفْصِدُ فِي أَسْرُقِهَا وَجَائِرِ

وقوله: ﴿في المهد﴾ حال من الضمير في ﴿يكلم﴾، و﴿كهلاً﴾ حال معطوفة على قوله: ﴿في المهد﴾، وقوله: ﴿من الصالحين﴾، حال معطوفة على قوله، ﴿ويكلم﴾، وهذه الآية إخبار من الله تعالى لمريم بأن ابنها يتكلم في مهده مع الناس آية دالة على براءة أمه مما عسى أن يقذفها به متعسف ظان، و﴿المهد﴾ موضع اضطجاع الصبي وقت تربيته، وأخبر تعالى عنه أنه أيضاً يكلم الناس ﴿كهلاً﴾،

وفائدة ذلك إذ كلام الكهل عرف أنه إخبار لها بحياته إلى سن الكهولة، هذا قول الربيع وجماعة من المفسرين، وقال ابن زيد: فائدة قوله ﴿كهلاً﴾ الإخبار بنزوله عند قتله الدجال كهلاً، وقال جمهور الناس: الكهل الذي بلغ سن الكهولة، وقال مجاهد: الكهل الحليم، وهذا تفسير الكهولة بعرض مصاحب لها في الأغلب، واختلف الناس في حد الكهولة، فقليل: الكهل ابن أربعين سنة، وقيل: ابن خمس وثلاثين، وقيل، ابن ثلاث وثلاثين، وقيل: ابن اثنين وثلاثين، وهذا حد أولها. وأما آخرها فاثنتان وخمسون، ثم يدخل سن الشيخوخة.

وقول مريم: ﴿رَبِّ أُنَى يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ استفهام عن جهة حملها واستغراب للحمل على حال بكارتها، و﴿يمسني﴾، معناه يطأ ويجامع، والمسيس الجماع، ومريم لم تنف مسيس الأيدي، والإشارة بقوله: ﴿كذلك﴾، يحتمل أن تكون إلى هذه القدرة التي تتضمنها البشارة بالكلمة، ويحتمل أن تكون إلى حال مريم وبكارتها، وقد تقدم شرح هذين التأويلين في أمر زكرياء عليه السلام، وجاءت العبارة في أمر زكريا يفعل وجاءت هنا، ﴿يخلق﴾ من حيث أمر زكرياء داخل في الإمكان الذي يتعارف وإن قل وقصة مريم لا تتعارف البتة، فلفظ الخلق أقرب إلى الاختراع وأدل عليه، وروي أن عيسى عليه السلام، ولد لثمانية أشهر فلذلك لا يعيش من يولد من غيره لمثل ذلك، وقوله تعالى: ﴿إِذَا قُضِيَ﴾ معناه إذا أراد إيجاده، والأمر واحد الأمور وهو مصدر سمي به، والضمير في ﴿له﴾ عائذ على الأمر والقول على جهة المخاطبة، قال مكي: وقيل المعنى يقول لأجله، وهذا ينحو إلى ما نوره عن أبي علي بعد، وقرأ جمهور السبعة «فيكون» بالرفع، وقرأ ابن عامر وحده «فيكون» بالنصب، فوجه الرفع العطف على «يقول»، أو تقدير فهو يكون، وأما قراءة ابن عامر فغير متجهة لأن الأمر المتقدم خطاب للمقضي وقوله: ﴿فيكون﴾، خطاب للمخبر، فليس كقوله قم فأحسن إليك، لكن وجهها أنه راعى الشبه اللفظي في أن تقدم في الكلام لفظ أمر كما قال أبو الحسن الأخفش في نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: ٣١] أنه مجرى جواب الأمر، وإن لم يكن له جواباً في الحقيقة، فكذلك على قراءة ابن عامر يكون قوله، فيكون بمنزلة جواب الأمر وإن لم يكن جواباً، وذهب أبو علي في هذه المسألة إلى أن القول فيها ليس بالمخاطبة المحضة، وإنما هو قول مجازي كما قال: امتلأ الحوض وقال قطني وغير ذلك، قال: لأن المتفتي ليس بكائن فلا يخاطب كما لا يؤمر، وإنما المعنى فإنما يكونه فهو يكون، فهذه نزعة اعتزالية غفر الله له.

قوله تعالى :

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ طَيْرًا فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ

قرأ نافع وعاصم «ويعلمه» بالياء، وذلك عطف على «يبشرك بكلمة» [آل عمران: ٤٥] كذا قال أبو علي: ويحتمل أن يكون في موضع الحال عطفاً على «ويكلم» [آل عمران: ٤٦]، وقرأ الباقون، و«نعلمه» بالنون، وهي مثل قراءة الياء في المعنى لكن جاءت بنون العظمة، قال الطبري: قراءة الياء عطف

على قوله: ﴿يَخْلُقْ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٧]، وقراءة النون عطف على قوله: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٤٣]. قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وهذا الذي قاله خطأ في الوجهين مفسد للمعنى و﴿الكتاب﴾ هو الخط باليد فهو مصدر كتب يكتب، هذا قول ابن جريج وجماعة المفسرين، وقال بعضهم: هي إشارة إلى كتاب منزل لم يعين وهذه دعوى لا حجة عليها، وأما ﴿الحكمة﴾، فهي السنة التي يتكلم بها الأنبياء، في الشرعيات، والمواعظ، ونحو ذلك، مما لم يوح إليهم في كتاب ولا بملك، لكنهم يلهمون إليه وتقوى غرائزهم عليه، وقد عبر بعض العلماء عن ﴿الحكمة﴾ بأنها الإصابة في القول والعمل، فذكر الله تعالى في هذه الآية أنه يعلم عيسى عليه السلام الحكمة، والتعليم متمكن فيما كان من الحكمة بوحى أو مأثوراً عن عيسى من نبي وعالم، وأما ما كان من حكمة عيسى الخاصة به فإنما يقال فيها يعلمه على معنى يهيئ غريزته لها ويقدره ويجعله يتمرن في استخراجها ويجري ذهنه إلى ذلك، و﴿التوراة﴾ هي المنزلة على موسى عليه السلام، ويروى أن عيسى كان يستظهر التوراة وكان أعمل الناس بما فيها، ويروى أنه لم يحفظها عن ظهر قلب إلا أربعة، موسى ويوشع بن نون وعزير وعيسى عليهم السلام، وذكر ﴿الإنجيل﴾ لمريم وهو ينزل - بعد - لأنه كان كتاباً مذكوراً عند الأنبياء والعلماء وأنه سينزل. وقوله: ﴿وَرَسُولاً﴾ حال معطوفة على ﴿وَيَعْلَمُهُ﴾ إذ التقدير، ومعلماً الكتاب، فهذا كله عطف بالمعنى على قوله ﴿وَجِيهًا﴾ [آل عمران: ٤٥]، ويحتمل أن يكون التقدير، ويجعله رسلاً، وكانت رسالة عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل، مبيناً حكم التوراة ونادياً إلى العمل بها ومحلاً لأشياء مما حرم فيها، كالثروب ولحوم الإبل وأشياء من الحيتان والطير، ومن أول القول لمريم إلى قوله ﴿إِسْرَائِيلَ﴾ خطاب لمريم، ومن قوله، ﴿إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ﴾ إلى قوله ﴿مُسْتَقِيمَ﴾ يحتمل أن يكون خطاباً لمريم على معنى يكون من قوله لبني إسرائيل، كيت وكيت، ويكون في آخر الكلام متروك يدل عليه الظاهر تقديره، فجاء عيسى بني إسرائيل رسلاً فقال لهم ما تقدم ذكره فلما أحس ويحتمل أن يكون المتروك مقدراً في صدر الكلام بعد قوله، ﴿إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فيكون تقديره، فجاء عيسى كما بشر الله رسلاً إلى بني إسرائيل بأنني قد جئتكم، ويكون قوله: ﴿إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ﴾ ليس بخطاب لمريم، والأول أظهر، وقرأ جمهور الناس «أني قد جئتكم» بفتح الألف، تقديره بأنني وقرئ في الشاذ، «إني قد جئتكم»، وجمهور الناس قرؤوا بآية على الأفراد وفي مصحف ابن مسعود «بآيات» وكذلك في قوله بعد هذا «وَجِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ» واختلف القراء في فتح الألف وكسرها من قوله: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ﴾، فقرأ نافع وجماعة من العلماء، «إني» بكسر الألف، وقرأ باقي السبعة وجماعة من العلماء، «أني» بفتح الألف، فوجه قراءة نافع، إما القطع والاستثنا وإما أنه فسر الآية بقوله، «إني» كما فسر المثل في قوله كمثل آدم بقوله، خلقه من تراب إلى غير ذلك من الأمثلة ووجه قراءة الباقيين البدل من آية، كأنه قال: «وَجِئْتُكُمْ بِأَنِّي أَخْلُقُ»، وقيل: هي بدل من «أني» الأولى، وهذا كله يتقارب في المعنى و﴿أَخْلُقُ﴾ معناه، أقدر وأهيئ بيدي، ومن ذلك قول الشاعر [زهير بن أبي سلمى]:

[الكامل]:

وَلَأَنْتَ تُفَرِّي مَا خَلَقْتَ وَبَعْدَ ضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يُفَرِّي

وقوله ﴿لَكُمْ﴾ تقييد لقوله، ﴿أَخْلُقُ﴾ لأنه يدل دلالة ما، على أنه لم يرد الإيجاد من العدم، ويصرح

بذلك قوله ﴿يَا ذَنبُ اللَّهِ﴾ وحقيقة الخلق في الأجرام، ويستعمل في المعاني، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ أَفْكَاءَ﴾ [العنكبوت: ١٧] ومنه قول الشاعر: [مجزوء الكامل مرفل]

من كان يخلق ما يقو ل فحيلتي فيه قليله

وجمهور الناس قرأ «كهية» على وزن فعلة بفتح الفاء وهو مصدر من قولك، هاء الشيء بهاء هيئاً وهيئة، إذا ترتب واستقر على حال ما، وهو الذي تعديه فتقول: هيأت، وقرأ الزهري «كهية الطير»، بكسر الميم وياء مفتوحة مشددة، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، «كهية الطائر فأنفخ فيه فيكون طائراً» على الإفراد في الموضعين، فالأول اسم الجنس والثاني مفرد، أي يكون طائراً من الطيور، وقرأ نافع وحده، «كهية الطير فأنفخ فيه فيكون طائراً» بالإفراد في الأخير، وهكذا قرأ في المائدة الباقون «كهية الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً» بالجمع فيهما، وكذلك في سورة المائدة، ومعاني هذه القراءات بينة، و﴿الطير﴾ اسم جمع وليس من أبنية الجموع، وإنما البناء في جمع طائر أطيّار، وجمع الجمع طيور، وحكاه أبو علي عن أبي الحسن، وقوله ﴿فأنفخ فيه﴾ ذكر الضمير هنا لأنه يحتمل أن يعود على الطين المهيأ، ويحتمل أن يريد فأنفخ في المذكور، وأنث الضمير في سورة المائدة في قوله، ﴿فتنفخ فيها﴾ [المائدة: ١١٠] لأنه يحتمل أن يعود على الهيئة أو على تأنيث لفظ الجماعة في قوله ﴿الطير﴾ وكون عيسى عليه السلام خالقاً بيده ونافخاً بفيه إنما هو ليبين تلبسه بالمعجزة، وأنها جاءت من قبله، وأما الإيجاد من العدم وخلق الحياة في ذلك الطين فمن الله تعالى وحده لا شريك له.

وقوله ﴿يَا ذَنبُ اللَّهِ﴾، معناه بعلم منه تعالى أنني أفعل ذلك وتمكين منه لي، وحقيقة الإذن في الشيء هي العلم بأنه يفعل والتمكين من ذلك، فإن اقترن بذلك قول فذلك أمكن في الإذن وأبلغ، ويخرج من حد الإذن إلى حد الأمر ولكن تجده أبداً في قسم الإباحة، وتأمل قوله تعالى: ﴿فهزمومهم ياذن الله﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقول النبي عليه السلام، وإذنها صماتها، وروي في قصص هذه الآية، أن عيسى عليه السلام كان يقول لبني إسرائيل: أي الطير أشد خلقاً وأصعب أن يحكى؟ فيقولون: الخفاش، لأنه طائر لا ريش له، فكان يصنع من الطين خفافيش ثم ينفخ فيها فتطير، وكل ذلك بحضرة الناس ومعانتهم، فكانوا يقولون: هذا ساحر.

قوله تعالى:

وَأَبْرَأُ الْآكِمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْقِنُ يَأْذِنُ اللَّهُ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾

﴿أبرىء﴾، معناه أزيل المرض يقال برأ المريض وأبرأه غيره، ويقال: برىء المريض أيضاً كما يقال في الذنب والدين، واختلف المفسرون في ﴿الأكمة﴾ فقال مجاهد: ﴿الأكمة﴾ هو الذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل، وقال ابن عباس والحسن والسدي: ﴿الأكمة﴾ الأعمى على الإطلاق، وقال عكرمة: ﴿الأكمة﴾ الأعمش، وحكى النقاش قولاً: أن ﴿الأكمة﴾ هو الأبكم الذي لا يفهم ولا يفهم، الميت الفؤاد، وقال ابن

عباس أيضاً وقتادة: ﴿الأكمة﴾ الذي يولد أعمى مضموم العين.

قال القاضي: : وقد كان عيسى عليه السلام يبرئ بدعائه ومسح يده كل علة، ولكن الاحتجاج على بني إسرائيل في معنى النبوة لا يقوم إلا بالإبراء من العلل التي لا يبرئ منها طبيب بوجه، فليس يتخلص من هذه الأقوال في ﴿الأكمة﴾ إلا القول الأخير، إذ ﴿الأكمة﴾ في اللغة هو الأعمى، وكهنت العين عميت، ولولا ضبط اللغة لكان القول الذي حكى النقاش حسناً في معنى قيام الحجة به، ﴿والأبرص﴾ معروف، وهو داء لا يبرأ منه إذا تمكن، وروي في إحيائه الموتى، أنه كان يضرب بعصاه الميت أو القبر أو الجمجمة، فيحيي الإنسان ويكلمه، وروي أنه أحى سام بن نوح عليه السلام، وروي أن الذي كان يحييه كانت تدوم حياته، وروي أنه كان يعود لموته سريعاً، وفي قصص الإحياء أحاديث كثيرة لا يوقف على صحتها، وإحياء الموتى هي آيته المعجزة المعرضة للتحدي، وهي بالمعنى متحدى بها وإن كان لم ينص على التحدي بها، وآيات عيسى عليه السلام إنما تجري فيما يعارض الطب لأن علم الطب كان شرف الناس في ذلك الزمان وشغلهم وحينئذ أثرت فيه العجائب، فلما جاء عيسى عليه السلام بغرائب لا تقتضيها الأمزجة وأصول الطب، وذلك إحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص علمت الأطباء أن هذه القوة من عند الله، وهذا كآمر السحرة مع موسى، والفصحاء مع محمد عليه السلام.

ووقع في التواريخ المترجمة عن الأطباء أن جالينوس، كان في زمن عيسى عليه السلام وأنه رحل إليه من رومية إلى الشام ليلقاه فمات في طريقه ذلك.

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنْبِئْكُمْ﴾ الآية، فقال السدي وسعيد بن جبير وابن إسحاق ومجاهد وعطاء: كان عيسى من لدن طفولته وهو في الكتاب يخبر الصبيان بما يفعل آباؤهم في منازلهم وبما يؤكل من الطعام ويدخر حتى قال بنو إسرائيل لأبنائهم لا تخالطوا هذا الساحر، وكذلك إلى أن نبي، فكان يقول لكل من سألته عن هذا المعنى، أكلت البارحة كذا، وادخرت كذا، قال ابن إسحاق: وكان معلمه يريد أن يعلمه الشيء فيسبقه إليه عيسى فيتعجب معلمه من ذلك ويذكره للناس، وقال قتادة، معنى الآية إنما هو في نزول المائدة عليهم. وذلك أنها لما أنزلت أخذ عليهم عهداً أن يأكلوا ولا ينجس أحد شيئاً ولا يدخره ويحملة إلى بيته فخانوا وجعلوا يخبثون من ثمار الجنة وطعامها الذي كان ينزل على المائدة فكان عيسى عليه السلام يخبر كل أحد عما أكل وعما ادخر في بيته من ذلك وعوقبوا على ذلك، وما في قوله ﴿بِمَا تَأْكُلُونَ﴾ يحتمل أن تكون بمعنى الذي وتحتمل المصدرية وكذلك ﴿وما تدخرون﴾، وقرأ الجمهور، «تَدَخِرُونَ» بدال مشددة وخاء مكسورة، وهو تفتعلون من ذخرت أصله، «تدخرون» استثقل النطق بالذال والفاء، لتقاربهما في المخرج فأبدلت الفاء ذالاً وأدغمت الذال في الدال، كما صنع في مدكر، ومطلع، بمعنى مضطلع وغير ذلك نحو قول الشاعر: [زهير] البسيط

إِنَّ الْكَرِيمَ الَّذِي يُعْطِيكَ نَائِلُهُ عَفْوَاً وَيُظْلِمُ أَحْيَاناً فَيَظْلِمُ

بالطاء غير منقوطة، وقرأ الزهري ومجاهد وأيوب السخيتاني وأبو السمال «تَدَخِرُونَ» - بدال ساكنة وخاء مفتوحة، وقوله: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الإحياء والإبراء والإنباء، وفي مصحف ابن

مسعود «لآيات» على الجمع ، وقوله ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ، توقيف والمعنى ، لآيات نافعة هادية إن آمتم وأبصرتم وإلا فليست بنافعة ولا هادية ، فأما كونها آيات فعلى كل حال آمنوا أو كفروا ، هذا كله على أن المخاطبة لمن لم يؤمن - بعد - وهو ظاهر حاله مع بني إسرائيل ، وإن كان خطابه لمؤمنين ، أو كما كانوا مؤمنين بموسى ، فمعنى الآية التثبيت وهز النفس كما تقول لإنسان تقيم نفسه إلى شيء : ما أنت يا فلان يلزمك أن تفعل كذا وكذا إن كنت من الرجال .

قوله تعالى :

وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيَّنَّ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحْلَلْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

قوله : ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال معطوفة على قوله : ﴿إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ﴾ [آل عمران : ٤٩] ، لأن قوله ﴿بِآيَةٍ﴾ في موضع الحال ، وكان عيسى عليه السلام مُصَدِّقًا للتوراة متبعاً عاملاً بما فيها ، قال وهب بن منبه : كان يسبب ويستقبل بيت المقدس ، وقال قتادة في تفسير قوله : ﴿وَأَحْلَلْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ ، كان الذي جاء به عيسى ألين من الذي جاء به موسى ، وقال ابن جريج ، أحل لكم لحوم الإبل والشحوم ، قال الربيع : وأشياء من السمك ، وما لا صيصية له من الطير ، وكان في التوراة محرمات تركها شرع عيسى على حالها ، فلفظه «البعض» على هذا متمكنة ، وقال أبو عبيدة : «البعض» في هذه الآية بمعنى الكل ، وخطاه الناس في هذه المقالة وأنشد أبو عبيدة شاهداً على قوله بيت لبيد : [الكامل]

تَرَاكَ أُمْكِنَةً إِذَا لَمْ يَرْضَها أَوْ يَخْتَرْمَ بَعْضَ النَفُوسِ جَمَاهُها

وليس في البيت له حجة لأن لبيداً أراد نفسه فهو تبعيض صحيح ، وذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى : ﴿حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ إشارة إلى ما حرمه الأحبار بعد موسى وشرعوه ، فكان عيسى رد أحكام التوراة إلى حقائقها التي نزلت من عند الله تعالى ، وقال عكرمة : «حُرِّمَ عَلَيْكُمْ» بفتح الحاء والراء المشددة ، وإسناده الفعل إلى الله تعالى أو إلى موسى عليه السلام ، وقرأ الجمهور ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ﴾ وفي مصحف عبد الله بن مسعود ، «وجئتكم بآيات» من ربكم ، وقوله تعالى : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ تحذير ودعاء إلى الله تعالى .

وقرأ جمهور الناس ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ بكسر الألف على استئناف الخبر ، وقرأه قوم «أن الله ربي وربكم» بفتح الألف قال الطبري : «إِنْ» بدل من «آيَةٍ» ، في قوله ﴿جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ﴾ ، وفي هذا ضعف وإنما التقدير أطيعون ، لأن الله ربي وربكم ، أو يكون المعنى ، لأن الله ربي وربكم فاعبدوه ، وقوله ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ إشارة إلى قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فاعبدوه﴾ ، وهو لأن ألفاظه جمعت الإيمان والطاعات ، والصراط ، الطريق ، والمستقيم ، الذي لا اعوجاج فيه .

قوله تعالى :

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ

ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُؤًا مِمَّنْ كَرَأْتَهُ اللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيكِ ﴿٥٤﴾

قبل هذه الآية متروك به يتم اتساق الآيات، تقديره، فجاء عيسى عليه السلام كما بشر الله به فقال جميع ما ذكر لبني إسرائيل، ﴿فلما أحس﴾ ومعنى أحس، علم من جهة الحواس بما سمع من أقوالهم في تكذيبه ورأى من قرائن الأحوال وشدة العداوة والإعراض يقال أحسست بالشيء وحسيت به، أصله، حسست فأبدلت إحدى السينين ياء، ﴿والكفر﴾ هو التكذيب به، وروي أنه رأى منهم إرادة قتله، فحينئذ طلب النصر، والضمير في ﴿منهم﴾ لبني إسرائيل، وقوله تعالى: ﴿قال من أنصاري إلى الله﴾ عبارة عن حال عيسى في طلبه من يقوم بالدين ويؤمن بالشرع ويحميه، كما كان محمد عليه السلام يعرض نفسه على القبائل ويتعرض للأحياء في المواسم، وهذه الأفعال كلها وما فيها من أقوال يعبر عنها يقال ﴿من أنصاري إلى الله﴾، ولا شك أن هذه الألفاظ كانت في جملة أقواله للناس، والأنصار جمع نصير، كشهيد وأشهاد وغير ذلك، وقيل جمع ناصر، كصاحب وأصحاب وقوله: ﴿إلى الله﴾ يحتمل معنيين، أحدهما، من ينصرنني في السبيل إلى الله؟ فتكون ﴿إلى﴾ دالة على الغاية دلالة ظاهرة على بابها، والمعنى الثاني، أن يكون التقدير من يضيف نصرته إلى نصرته الله لي؟ فيكون بمنزلة قوله ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ [النساء: ١] فإذا تأملتها وجدت فيها معنى الغاية لأنها تضمنت إضافة شيء إلى شيء، وقد عبر عنها ابن جريج والسدي بأنها بمعنى مع ونعم، إن - مع - تسد في هذه المعاني مسد «إلى» لكن ليس يباح من هذا أن يقال إن ﴿إلى﴾ بمعنى مع حتى غلط في ذلك بعض الفقهاء في تأويل قوله تعالى: ﴿وأيدىكم إلى المرافق﴾ [المائدة: ٦] فقال ﴿إلى﴾ بمعنى مع وهذه عجمة بل ﴿إلى﴾ في هذه الآية، غاية مجردة، وينظر هل يدخل ما بعد إلى فيما قبلها من طريق آخر، و﴿الحواريون﴾، قوم مر بهم عيسى عليه السلام، فدعاهم إلى نصره، واتباع ملته، فأجابوه وقاموا بذلك خير قيام، وصبروا في ذات الله، وروي أنه مر بهم وهم يصطادون السمك، واختلف الناس لم قيل لهم ﴿الحواريون﴾؟ فقال سعيد بن جبير، سموا بذلك لبياض ثيابهم ونقاها، وقال أبو أرطاة، سموا بذلك لأنهم كانوا قصارين يحورون الثياب، أي يبيضونها، وقال قتادة، الحواريون أصفياء الأنبياء، الذين تصلح لهم الخلافة، وقال الضحاك نحوه.

قال الفقيه الإمام أبو محمد: وهذا تقرير حال القوم، وليس بتفسير اللفظة، وعلى هذا الحد شبه النبي عليه السلام، ابن عمته بهم في قوله: وحواري الزبير، والأقوال الأولى هي تفسير اللفظ، إذ هي من الحور، وهو البياض، حورت الثوب بيضته ومنه الحواري، وقد تسمي العرب النساء الساكنات في الأمصار، الحواريات، لغلبة البياض عليهن، ومنه قول أبي جلدة الإشكري:

فقل للحواريات يكيين غيرنسا ولا تبكنا إلا الكلاب النوايح

وحكى مكي: أن مريم دفعت عيسى عليه السلام في صغره في أعمال شتى، وكان آخر ما دفعته إلى الحواريين وهم الذين يقصرون الثياب ثم يصبغونها فأراهم آيات وصنع لهم ألواناً شتى من ماء واحد، وقرأ

جمهور الناس «الحواريون» بتشديد الياء، واجدهم - حوارِيّ - وليست بياء نسب وإنما هي كياء كرسي، وقرأ إبراهيم النخعي وأبو بكر الثقفي: «الحواريون» مخففة الياء في جميع القرآن، قال أبو الفتح: العرب تعاف ضمة الياء الخفيفة المكسور ما قبلها وتمتنع منها، ومتى جاءت في نحو قولهم، العاديون والقاضيون والساعيون أعلت بأن تستثقل الضمة فتسكن الياء وتنقل حركتها ثم تحذف لسكونها وسكون الواو بعدها فيجيء العاديون ونحوه، فكان يجب على هذا أن يقال، الحواريون، لكن وجه القراءة على ضعفها أن الياء خففت استئثالاً لتضعيفها وحملت الضمة دلالة على أن التشديد مراد، إذ التشديد محتمل للضمة، وهذا كما ذهب أبو الحسن في تخفيف يستهزئون إلى أن أخلص الهمزة ياء البتة وحملها الضمة تذكر الحال المرادة فيها.

وقول الحواريين: ﴿واشهد﴾ يحتمل أن يكون خطاباً لعيسى عليه السلام، أي اشهد لنا عند الله، ويحتمل أن يكون خطاباً لله تعالى كما تقول: أنا أشهد الله على كذا، إذا عزمتم وبالغت في الالتزام، ومنه قول النبي عليه السلام في حجة الوداع: اللهم اشهد، قال الطبري: وفي هذه الآية توبيخ لنصارى نجران، أي هذه مقالة الأسلاف المؤمنين بعيسى، لا ما تقولونه أنتم، يا من يدعي له الألوهية.

وقولهم: ﴿ربنا آتنا بما أنزلت﴾ يريدون الإنجيل وآيات عيسى، و﴿الرسول﴾ عيسى عليه السلام، وقولهم: ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ عبارة عن الرغبة في أن يكونوا عنده في عداد من شهد بالحق من مؤمني الأمم، ولما كان البشر يقيد ما يحتاج إلى علمه وتحقيقه في ثاني حال بالكتاب، عبروا عن فعل الله بهم ذلك وقال ابن عباس: قولهم ﴿مع الشاهدين﴾ معناه اجعلنا من أمة محمد عليه السلام في أن نكون ممن يشهد على الناس.

ثم أخبر تعالى عن بني إسرائيل الكافرين بعيسى فقال: ﴿ومكروا﴾ يريد تحيلهم في أخذ عيسى للقتل بزعمهم، ويروي أنهم تحيلوا له، وأذكوا عليه العيون حتى دخل هو والحواريون بيتاً فأخذوهم فيه، فهذا مكر بني إسرائيل، وجازاهم الله تعالى بأن طرح شبه عيسى على أحد الحواريين ورفع عيسى، وأعقب بني إسرائيل مذلة وهواناً في الدنيا والآخرة، فهذه العقوبة هي التي سماها الله مكرأ في قوله ﴿ومكر الله﴾ وهذا مهيع أن تسمى العقوبة باسم الذنب وإن لم تكن في معناه، وعلى هذا فسر جمهور المفسرين الآية، وعلى أن عيسى قال للحواريين: من يصبر فيلقى عليه شبيهي فيقتل وله الجنة؟ فقال أحدهم - أنا - فكان ذلك، وروى قوم أن بني إسرائيل دست يهودياً جاسوساً على عيسى حتى صاحبه ودلهم عليه ودخل معه لبيت فلما أحيط بهم ألقى الله شبه عيسى على ذلك الرجل اليهودي فأخذ وصلب، فهذا معنى قوله: ﴿ومكروا ومكر الله﴾ وهذه أيضاً تسمية عقوبة باسم الذنب، والمكر في اللغة، السعي على الإنسان دون أن يظهر له ذلك، بل أن يطن الماكر ضد ما يبدي، وقوله ﴿والله خير الماكرين﴾ معناه في أنه فاعل في حق ي ذلك، والماكر من البشر فاعل باطل في الأغلب، لأنه في الأباطيل يحتاج إلى التحيل، والله سبحانه شدد بطشاً وأنفذ إرادة، فهو خير من جهات لا تحصي، لا إله إلا هو، وذكر حصر عيسى عليه السلام، عدة أصحابه به وأمر الشبه وغير ذلك من أمره سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى :

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ارْفُاعِكِ إِلَىٰ وَطْئِكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُم بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾

قال الطبري : العامل في ﴿إِذْ﴾ قوله تعالى ﴿ومكر الله﴾ [آل عمران : ٥٤] وقال غيره من النحاة : العامل فعل مضمر تقديره اذكر .

قال القاضي أبو محمد : وهذا هو الأصوب ، وهذا القول هو بواسطة الملك لأن عيسى ليس بمكلم ، و﴿عيسى﴾ اسم أعجمي معرف فلذلك لا ينصرف وهو بالسريانية - يسوع - عدلته العرب إلى ﴿عيسى﴾ ، واختلف المفسرون في هذا التوفي ، فقال الربيع : هي وفاة نوم ، رفعه الله في منامه ، وقال الحسن وابن جريج ومطر الوراق ومحمد بن جعفر بن الزبير وجماعة من العلماء : المعنى أني قابضك من الأرض ، ومحضتك أني مميتك ، هذا لفظ ابن عباس ولم يفسر ، فقال وهب بن منبه : توفاه الله بالموت ثلاث ساعات ورفعته فيها ثم أحياه الله بعد ذلك ، عنده في السماء وفي بعض الكتب ، سبع ساعات ، وقال الفراء : هي وفاة موت ولكن المعنى ، ﴿إني متوفيك﴾ في آخر أمرك عند نزولك وقتلك الدجال ، ففي الكلام تقديم وتأخير ، وقال مالك في جامع العتبية : مات عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، ووقع في كتاب مكّي عن قوم : أن معنى ﴿متوفيك﴾ متقبل عملك ، وهذا ضعيف من جهة اللفظ .

قال القاضي أبو محمد : وأجمعت الأمة على ما تضمنه الحديث المتواتر من أن عيسى عليه السلام في السماء حي ، وأنه ينزل في آخر الزمان فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ويقتل الدجال ويفيض العدل ويظهر هذه الملة ملة محمد ويحج البيت ويعتمر ، ويبقى في الأرض أربعاً وعشرين سنة ، وقيل أربعين سنة ، ثم يميته الله تعالى .

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه : فقول ابن عباس رضي الله عنه : هي وفاة موت لا بد أن يتم ، إما على قول وهب بن منبه ، وإما على قول الفراء ، وقوله تعالى : ﴿ورافعلك إلي﴾ عبارة عن نقله إلى علو من سفلى وقوله ﴿إلي﴾ إضافة تشريف لما كانت سماه والجهة المكربة المعظمة المرجوة ، وإلا فمعلوم أن الله تعالى غير متحيز في جهة ، وقوله تعالى : ﴿ومطهرك﴾ حقيقة التطهير إنما هي من دنس ونحوه ، واستعمل ذلك في السب والدعوى والآثام وخطئة الشرار ومعاشرتهم ، تشبيهاً لذلك كله بالأدناس ، فطهر الله العظيم عيسى من دعوى الكفرة ومعاشرتهم القبيحة له ، وقوله تعالى : ﴿وجاعل﴾ اسم فاعل للاستقبال ، وحذف تنوينه تخفيفاً ، وهو متعد إلى مفعولين ، لأنه بمعنى مصير فاحدهما ﴿الذين﴾ والآخر في قوله : ﴿فوق الذين كفروا﴾ وقال ابن زيد : الذين اتبعوه هم النصارى والذين كفروا هم اليهود ، والآية

مخبرة عن إذلال اليهود وعقوبتهم بأن النصرارى فوقهم في جميع أقطار الأرض إلى يوم القيامة .

قال القاضي أبو محمد : فخصص ابن زيد المتبعين والكافرين وجعله حكماً دينياً لا فضيلة فيه للمتبعين الكفار منهم بل كونهم فوق اليهود عقوبة لليهود فقط ، وقال جمهور المفسرين بعموم اللفظ في المتبعين فيدخل في ذلك أمة محمد لأنها متبعة لعيسى ، نص على ذلك قتادة وغيره ، وكذلك قالوا بعموم اللفظ في الكافرين ، فمقتضى الآية إعلام عيسى عليه السلام أن أهل الإيمان به كما يجب هم فوق الذين كفروا بالحجة والبرهان وبالعزة والغلبة ، ويظهر من قول ابن جريج وغيره أن المراد المتبعون له في وقت استنصاره وهم الحواريون جعلهم الله فوق الكافرين لأنه شرفهم وأبقى لهم في الصالحين ذكراً ، فهم فوقهم بالحجة والبرهان ، وما ظهر عليهم من أمارات رضوان الله ، وقوله تعالى ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ الخطاب لعيسى ، والمراد الإخبار بالقيامة والحشر فلذلك جاء اللفظ عاماً من حيث الأمر في نفسه لا يخص عيسى وحده فكأنه قال له : ﴿ثُمَّ إِلَيَّ﴾ أي إلى حكمي وعدلي ، يرجع الناس ، فخاطبه كما تخاطب الجماعة إذ هو أحدها ، وإذ هي مرادة في المعنى ، وفي قوله تعالى : ﴿فَأَحْكُمْ﴾ إلى آخر الآية ، وعد لعيسى والمؤمنين ووعد للكافرين .

وقوله تعالى : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية ، إخبار بما يجعل عليه حالهم من أول أمرهم وليس بإخبار عما يفعل بعد يوم القيامة ، لأنه قد ذكر الدنيا وهي قبل ، وإنما المعنى ، فأما الكافرون فالصنع بهم أنهم يعذبون ﴿عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا﴾ بالأسر والقتل والحزبة والذل ، ولم ينله منهم فهو تحت خوفه إذ يعلم أن شرع الإسلام طالب له بذلك ، وقد أبرز الوجود هذا ، وفي ﴿الْآخِرَةِ﴾ معناه ، بعذاب النار ، ثم ذكر قسم الإيمان وقرن به الأعمال الصالحات تنبيهاً على درجة الكمال ودعاء إليها ، وقرأ حفص عن عاصم «فيوفيههم» بالياء على الغيبة ، والفعل مسند إلى الله تعالى ، وقرأ الباقون وأبو بكر عن عاصم «فوفيههم» بالنون ، وهي نون العظمة ، وتوفية الأجور هي قسم المنازل في الجنة فذلك هو بحسب الأعمال ، وأما نفس دخول الجنة فبرحمة الله وبفضله ، وتقدم نظير قوله ﴿وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ في قوله قبل ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنْ﴾ الله لا يحب الكافرين ﴿[آل عمران : ٣٢]﴾ .

قوله تعالى :

ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾

﴿ذلك﴾ رفع بالابتداء والإشارة به إلى ما تقدم من الأنباء ، و﴿نتلوه عليك﴾ خبر ابتداء وقوله ﴿من الآيات﴾ لبيان الجنس ، ويجوز أن تكون للتبويض ، ويصح أن يكون ﴿نتلوه عليك﴾ حالاً ويكون الخبر في

قوله ﴿من الآيات﴾ وعلى قول الكوفيين يكون قوله ﴿تتلوه﴾ صلة لذلك، على حد قولهم في بيت ابن مفرغ الحميري:

وهذا تحمليين طليق

ويكون الخبر في قوله: ﴿من الآيات﴾، وقول البصريين في البيت أن تحمليين حال التقدير، وهذا محمولاً، و﴿تتلوه﴾ معناه نسرده، و﴿من الآيات﴾ ظاهره آيات القرآن، ويحتمل أن يريد بقوله ﴿من الآيات﴾ من المعجزات والمستغربات أن تأتيهم بهذه الغيوب من قبلنا، وبسبب تلاوتنا وأنت أُمِّي لا تقرأ، ولست ممن أصحب أهل الكتاب، فالمعنى أنها آيات لنبوتك، وهذا الاحتمال إنما يتمكن مع كون ﴿تتلوه﴾ حالاً، و﴿الذكر﴾ ما ينزل من عند الله، و﴿الحكيم﴾ يجوز أن يتأول بمعنى المحكم، فهو فعيل بمعنى مفعول، ويصح أن يتأول بمعنى مصرح بالحكمة، فيكون بناء اسم الفاعل، قال ابن عباس، ﴿الذكر﴾ القرآن، و﴿الحكيم﴾ الذي قد كمل في حكمته.

وذكر ابن عباس وقتادة وعكرمة والسدي وغيرهم، قالوا سبب نزول قوله تعالى: ﴿إن مثل عيسى﴾ الآية أن وفد نصارى نجران جادلوا النبي صلى الله عليه وسلم في أمر عيسى، وقالوا بلغنا أنك تشتم صاحبنا وتقول هو عبد، فقال النبي عليه السلام، وما يضر ذلك عيسى، أجل هو عبد الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فقالوا فهل رأيت بشراً قط جاء من غير فعل أو سمعت به؟ وخرجوا من عند النبي فأنزل الله عليه هذه الآية. وقوله تعالى: ﴿إن مثل﴾ عبر عنه بعض الناس، بأن صفة عيسى وقرنوا ذلك بقوله تعالى: ﴿مثل الجنة﴾ [الرعد: ٣٥] قالوا: معناه صفة الجنة.

قال الإمام أبو محمد: وهذا عندي ضعيف في فهم معنى الكلام وإنما المعنى: «أن المثل» الذي تتصوره النفوس والعقول من عيسى هو كالتصور من آدم إذ الناس كلهم مجمعون على أن الله تعالى خلقه من تراب من غير فعل، وكذلك مثل الجنة عبارة عن المتصور منها، وفي هذه الآية صحة القياس، أي إذا تصوروا أمر آدم قيس عليه جواز أمر عيسى عليه السلام والكاف في قوله: ﴿كمثل﴾ اسم على ما ذكرناه من المعنى وقوله ﴿عند الله﴾ عبارة عن الحق في نفسه، أي هكذا هو الأمر فيما غاب عنكم، وقوله: ﴿خلقته من تراب﴾ تفسير لمثل آدم، الذي ينبغي أن يتصور، والمثل والمثال بمعنى واحد، ولا يجوز أن يكون ﴿خلقته﴾ صلة لآدم ولا حالاً منه، قال الزجاج: إذ الماضي لا يكون حالاً أنت فيها بل هو كلام مقطوع منه، مضمونه تفسير المثل، وقوله عز وجل: ﴿ثم قال﴾ ترتيب للأخبار لمحمد عليه السلام، المعنى خلقه من تراب ثم كان من أمره في الأزل أن قاله له ﴿كن﴾ وقت كذا، وعلى مذهب أبي علي الفارسي، في أن القول مجازي، مثل وقال قطبي، وأن هذه الآية عبارة عن التكوين، ف﴿ثم﴾ على بابها في ترتيب الأمرين المذكورين، وقراءة الجمهور «فيكون»، بالرفع على معنى فهو يكون، وقرأ ابن عامر «فيكون» بالنصب، وهي قراءة ضعيفة الوجه، وقد تقدم توجيهها آنفاً في مخاطبة مريم.

وقوله تعالى: ﴿الحق من ربك﴾، رفع على الابتداء وخبره فيما يتعلق به، قوله ﴿من ربك﴾، أو الحق ذلك، أو ما قلناه لك، ويجوز أن يكون خبر ابتداء، تقديره هذا الحق و﴿الممترين﴾ هم الشاكون، والمرية

الشك، ونهي النبي عليه السلام في عبارة اقتضت ذم الممترين، وهذا يدل على أن المراد بالامتراء غيره، ولو قيل: فلا تكن ممترًا لكانت هذه الدلالة أقل، ولو قيل فلا تمتر لكانت أقل ونهي النبي عليه السلام عن الامتراء مع بعده عنه على جهة التثبيت والدوام على حاله.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَكَ فِيهِ﴾ معناه جادلَكَ ونازعَكَ الحجة، والضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾ يحتمل أن يعود على ﴿عيسى﴾، ويحتمل أن يعود على ﴿الحق﴾، والعلم الذي أشير إليه بالمجيء هو ما تضمنته هذه الآيات المتقدمة من أمر عيسى وقوله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا﴾ الآية، استدعاء المباهلة و﴿تَعَالَوْا﴾ تفاعلوا من العلو، وهي كلمة قصد بها أولاً تحسين الأدب مع المدعو ثم اطردت حتى يقولها الإنسان لعدوه وللبيهمة ونحو ذلك و﴿نَبْتَهْلُ﴾ معناه نلتعن، ويقال عليهم بهلة الله بمعنى اللعنة، والابتهاال: الجد في الدعاء بالبهلة.

وروي في قصص هذه الآية: أنها نزلت بسبب محاجة نصارى نجران في عيسى عليه السلام وقولهم هو الله، وكانوا يكثرُونَ الجِدال وقد روى عبد الله بن الحارث بن جزء السوائي عن النبي عليه السلام أنه قال: ليت بيني وبين أهل نجران حجاباً فلا أراهم ولا يروني لشدة ما كانوا يمارون فلما قرأ النبي عليه السلام الآية دعاهم إلى ذلك، فروى الشعبي وغيره: أنهم وعدوه بالغد أن يلاعنوه فانطلقوا إلى السيد والعاقب فتابعاهم على أن يلاعنوا فانطلقوا إلى رجل آخر منهم عاقل فذكروا له ما صنعوا فذمهم وقال لهم: إن كان نبياً ثم دعا عليكم هلكنم، وإن كان ملكاً فظهر لم يبق عليكم، قالوا فكيف نصنع وقد واعدناه؟ قال: إذا غدوتم فدعاكم إلى ذلك فاستعيذوا بالله من ذلك فعسى أن يعفيكم فلما كان الغد غدا رسول الله صلى الله عليه وسلم محتضناً حسياً أخذاً بيد الحسن، وفاطمة تمشي خلفه، فدعاهم إلى الميعاد، فقالوا: نعوذ بالله فأعادوا التعوذ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فإن أبيتم فأسلموا فإن أبيتم فأعطوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون فإن أبيتم فإنني أبذل إليكم على سواء، قالوا: لا طاقة لنا بحرب العرب ولكننا نؤدي الجزية قال: فجعل عليهم كل سنة ألفي حلة ألفاً في رجب وألفاً في صفر وطلبوا منه رجلاً أميناً يحكم بينهم فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح وقال عليه السلام: لقد أتاني البشير بهلكة أهل نجران لو تموا على الملاعنة، وروى محمد بن جعفر بن الزبير وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دعاهم قالوا: دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نفعل فذهبوا إلى العاقب وهو ذورأبهم فقالوا: يا عبد المسيح ما ترى؟ فقال: يا معشر النصارى، والله لقد عرفتم أن محمداً لنبي مرسل ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ولقد علمتم ما لآعن قوم قط نبياً فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم وإنه الاستئصال إن فعلتم، فإن أبيتم إلا إلف دينكم وما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم حتى يريكم زمن رآيه، فأتوا النبي عليه السلام، فقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا ألا نلاعنك وأن نبقي على ديننا وصالحوه على أموال وقالوا له: ابعت معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم في أشياء قد اختلفنا فيها من أموالنا فإنكم عندنا رضى؟ وروى السدي وغيره أن النبي عليه السلام جاء هو وعلي وفاطمة والحسن والحسين ودعاهم فأبوا وجزعوا وقال لهم أحبارهم: إن فعلتم اضطرم الوادي عليكم ناراً فصالحوا النبي عليه السلام على ثمانين ألف درهم في العام فما عجزت عنه الدراهم ففي العروض، الحلة بأربعين وعلى أن عليهم ثلاثاً وثلاثين درعاً وثلاثة

وثلاثين بعيراً وأربعاً وثلاثين فرساً عارية كل سنة ورسول الله ضامن ذلك حتى يؤديها إليهم، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لولا عنا ولا استؤصلوا من جديد الأرض، وقال أيضاً: لو فعلوا لاضطرم عليهم الوادي نارا، وروى علباء بن أحر الشكري قال: لما نزلت هذه الآية أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى علي وفاطمة وابنيهما الحسن والحسين ودعا اليهود ليلاعنهم، فقال شاب من اليهود: ويحكم، أليس عهدكم بالأمس ياخوانكم الذين مسخوا قردة وخنازير؟ فلا تلاعنا فانتهوا، وفي هذه القصة اختلافات للرواة وعبارات تجري كلها في معنى ما ذكرناه لكننا قصدنا الإيجاز وفي ترك النصارى الملاعة لعلمهم بنبوته محمد شاهد عظيم على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم، وما روي من ذلك خير مما روى الشعبي من تقسيم ذلك الرجل العاقل فيهم أمر محمد بأنه إما نبي وإما ملك لأن هذا نظر دنيوي وما روى الرواة من أنهم تركوا الملاعة لعلمهم بنبوته أحج لنا على سائر الكفرة وأليق بحال محمد صلى الله عليه وسلم، ودعاء النساء والأنبياء للملاعة أهدى للنفوس وأدعى لرحمة الله أو لغضبه على المبطلين، وظاهر الأمر أن النبي عليه السلام جاءهم بما يخصه، ولو عزموا استدعى المؤمنين بأبنائهم ونسائهم، ويحتمل أنه كان يكتفي بنفسه وخاصته فقط.

قوله تعالى:

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾

﴿هذا﴾ خبر من الله تعالى جزم مؤكد فصل به بين المختصمين، والإشارة بـ ﴿هذا﴾ هي إلى ما تقدم في أمر عيسى عليه السلام، قاله ابن عباس وابن جريج وابن زيد وغيرهم: و﴿القصص﴾ معناه الأخبار، تقول: قص يقص، قصاً وقصصاً، إذا تتبع الأمر يخبر به شيئاً بعد شيء، قال قوم: هو مأخوذ من قص الأثر، وقوله ﴿هو﴾ يحتمل أن يكون فصلاً ويحتمل أن يكون ابتداء، و﴿من﴾ قوله ﴿من إله﴾ مؤكدة بعد النفي، وهي التي يتم الكلام دونها لكنها تعطي معنى التأكيد، وقوله تعالى: ﴿فإن الله عليم بالمفسدين﴾ وعيد.

واختلف المفسرون من المراد بقوله: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا﴾ فقال قتادة: ذكر لنا أن رسول الله عليه السلام دعا يهود المدينة إلى الكلمة السواء، وهم الذين حاجوا في إبراهيم، وقاله الربيع وابن جريج، وقال محمد بن جعفر بن الزبير: نزلت الآية في وفد نجران، وقاله السدي، وقال ابن زيد: لما أبى أهل نجران ما دعوا إليه من الملاعة، دعوا إلى أيسر من ذلك وهي «الكلمة السواء»، والذي يظهر لي أن الآية نزلت في وفد نجران، لكن لفظ ﴿أهل الكتاب﴾ يعممهم وسواهم من النصارى واليهود، فدعا النبي عليه السلام بعد ذلك يهود المدينة بالآية، وكذلك كتب بها إلى هرقل عظيم الروم، وكذلك ينبغي أن يدعى بها أهل الكتاب إلى يوم القيامة، وقرأ جمهور الناس «إلى كلمة» بفتح الكاف وكسر اللام، وروى أبو

النسمال: «كَلِمَةً» بفتح الكاف وسكون اللام، وروي عنه أنه قرأ «كَلِمَةً» بكسر الكاف وسكون اللام، وذلك على إلقاء حركة اللام على الكاف كما قالوا في كبد، كبد بكسر الكاف وسكون الباء، و«الكلمة» هنا عبارة عن الألفاظ التي تتضمن المعاني المدعو إليها، وهي ما فسر به بعد ذلك بقوله ﴿أَلَا نَعْبُدُ﴾ الآية وهذا كما تسمي العرب القصيدة كلمة، وجمهور المفسرين على أن الكلمة هي ما فسر به، وقال أبو العالية: «الكلمة السواء»، لا إله إلا الله.

قال الفقيه الإمام: وقوله ﴿سَوَاءٌ﴾ نعت للكلمة، قال قتادة والربيع وغيرهما: معناه إلى كلمة عدل، فهذا معنى «السواء»، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: «إلى كلمة عدل بيننا وبينكم»، كما فسر قتادة والربيع، وقال بعض المفسرين: معناه إلى كلمة قصد.

قال الفقيه الإمام أبو محمد: وهذا قريب في المعنى من الأول، والسواء والعدل والقصد مصادر وصف بها في هذه التقديرات كلها، والذي أقوله في لفظة ﴿سَوَاءٌ﴾ أنها ينبغي أن تفسر بتفسير خاص بها في هذا الموضع وهو أنه دعاهم إلى معان جميع الناس فيها مستوون، صغيرهم وكبيرهم، وقد كانت سيرة المدعويين أن يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً فلم يكونوا على استواء حال فدعاهم بهذه الآية إلى ما تألفه النفوس من حق لا يتفاضل الناس فيه، فـ ﴿سَوَاءٌ﴾ على هذا التأويل بمنزلة قولك لآخر: هذا شريك في مال سواء بيني وبينه. والفرق بين هذا التفسير وبين تفسير اللفظة بعدل، أنك لو دعوت أسيراً عندك إلى أن يسلم أو تضرب عنقه، لكنت قد دعوته إلى السواء الذي هو العدل، وعلى هذا الحد جاءت لفظة ﴿سَوَاءٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَانبِذ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] على بعض التأويلات، ولو دعوت أسيرك إلى أن يؤمن فيكون حراً مقاسماً لك في عيشك، لكنت قد دعوته إلى السواء، الذي هو استواء الحال على ما فسرته، واللفظة على كل تأويل فيها معنى العدل، ولكني لم أر لمتقدم أن يكون في اللفظة معنى قصد استواء الحال، وهو عندي حسن، لأن النفوس تألفه، والله الموفق للصواب برحمته.

وقوله ﴿أَلَا نَعْبُدُ﴾ يحتمل أن يكون في موضع خفض بمعنى، إلى ﴿أَلَا نَعْبُدُ﴾، فذلك على البدل من «كَلِمَةً» ويحتمل أن يكون في موضع رفع بمعنى، هي ﴿أَلَا نَعْبُدُ﴾ وما ذكره المهدوي وغيره من أن تكون مفسرة إلى غير ذلك من الجائزات التي يلزم عنها رفع ﴿نَعْبُدُ﴾ إكثار منهم فاختصرته، واتخاذ بعضهم بعضاً أرباباً هو على مراتب، أعلاها اعتقادهم فيهم الألوهية، وعبادتهم لهم على ذلك، كعزير وعيسى ابن مريم، وبهذا فسر عكرمة، وأدنى ذلك طاعتهم لأساقفتهم ورؤسائهم في كل ما أمروا به من الكفر والمعاصي والتزامهم طاعتهم شرعاً، وبهذا فسر ابن جريج، فجاءت الآية بالدعاء إلى ترك ذلك كله وأن يكون الممثل ما قاله الله تعالى على لسان نبيه عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أمر بتصريح مخالفتهم بمخاطبتهم ومواجهتهم بذلك، وإشهادهم على معنى التوبيخ والتهديد، أي سترون أنتم أيها المتولون عاقبة توليكم كيف تكون.

قوله تعالى:

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا

تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ ءِءَلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ ءِءَلْمٌ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية، فقال ابن عباس: اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند النبي عليه السلام فتنازعا عنده فقالت الأخبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى، ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله الآية، وقال السدي وقتادة: وحكى الطبري عن مجاهد وقتادة أيضاً: أنهما قالاً نزلت الآية بسبب دعوى اليهود أنه منهم وأنه مات يهودياً، وجعل هذا القول تحت ترجمة مفردة له، والصحيح أن جميع المتأولين إنما نحوه منحى واحداً، وأن الآية في اليهود والنصارى، وألفاظ الآية تعطي ذلك فكيف يدافع أحد الفريقين عن ذلك؟ وهذه الآية مبينة فساد هذه الدعاوى، التي لا تشبه لقيام الدليل القاطع على فسادها، لأنهم ادعوا لإبراهيم الخليل نحللاً لم تحدث في الأرض، ولا وجدت إلا بعد موته بمدة طويلة، ولما كان الدليل عقلياً قال الله تعالى لهم موبخاً ﴿أفلا تعقلون﴾؟

واختلف القراء في قوله ﴿ها أنتم﴾ في المد والهمز وتركه، فقرأ ابن كثير: «هأنتم»، في وزن هعتتم، وقرأ نافع وأبو عمرو «هانتم» استفهاماً بلا همز، وقرأ الباقون، «ها أنتم»، ممدوداً مهموزاً، ولم يختلفوا في مد ﴿هؤلاء﴾ وأولاء، فوجه قراءة ابن كثير، أنه أبدل من همزة الاستفهام الهاء، أراد «أنتم»، ووجه قراءة نافع وأبي عمرو أحد أمرين، يجوز أن تكون «ها» التي للتنبيه دخلت على «أنتم»، ويكون التنبيه داخلاً على الجملة، كما دخل على قولهم هلم وكما دخلت - يا - التي للتنبيه في قوله أيا اسجدوا، وفي قول الشاعر:

[البسيط]

يَا قَاتِلَ اللّٰهِ صَبِيانًا تَجِيءُ بِهِمْ أُمُّ الْهُنَيْدِ مِنْ رَنْدٍ لَهَا وَارِي

وقول الآخر: [البسيط]

يَا لَعْنَةَ اللّٰهِ وَالْأَقْوَامِ كُلِّهِمِ وَالصَّالِحِينَ عَلَى سِمْعَانَ مِنْ جَارِ

وخفت الهمزة من «أنتم» ولم تحقق بعد الألف، كما قالوا في هباء هباء، ويجوز أن تكون الهاء في ﴿هأنتم﴾ بدلاً من همزة الاستفهام، كوجه قراءة ابن كثير، وتكون الألف هي التي تدخل بين الهمزتين، لتفصل بينهما، ووجه قراءة الباقيين «ها أنتم» مهموز ممدود يحتمل الوجهين اللذين في قراءة نافع وأبي عمرو، وحققوا الهمزة التي بعد الألف، ولم يخففوها كما خففها أبو عمرو ونافع، ومن لم ير إلحاق الألف للفصل بين الهمزتين كما يراه أبو عمرو، فينبغي أن تكون «ها» في قوله للتنبيه ولا تكون بدلاً من همزة الاستفهام، وأما ﴿هؤلاء﴾ ففيه لغتان، المد والقصر، وقد جمعهما بيت الأعشى في بعض الروايات:

[الخفيف].

هَؤُلَاءِ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ قَدْ أُعْطِيَ نِعَالًا مَحْدُوءَةً يَنْعَالُ

وأما إعراب ﴿ها أنتم هؤلاء﴾ فابتداء وخبر، و﴿حاججتم﴾ في موضع الحال لا يستغنى عنها، وهي

بمنزلة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءُ تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥] ويحتمل أن يكون ﴿هَؤُلَاءُ﴾ بدلاً أو صفة ويكون الخبر ﴿حَاجَجْتُمْ﴾ وعلى مذهب الكوفيين ﴿حَاجَجْتُمْ﴾، صلة لأولاء والخبر في قوله: ﴿فَلَمْ تَحَاجُّوهُ﴾ ومعنى قوله تعالى: ﴿فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي على زعمكم، وإنما المعنى فيما تشبه فيه دعواكم، ويكون الدليل العقلي لا يرد عليكم وفسر الطبري هذا الموضع بأنه فيما لهم به علم من جهة كتبهم وأنبائهم مما أيقنوه وثبت عندهم صحته.

قال الفقيه الإمام: وذهب عنه رحمه الله أن ما كان هكذا فلا يحتاج معهم فيه إلى محاجة، لأنهم يجدونه عند محمد صلى الله عليه وسلم، كما كان هنالك على حقيقته، وباقي الآية بين.

قوله تعالى:

مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾
النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

أخبر الله تعالى في هذه الآية، عن حقيقة أمر إبراهيم، فنفي عنه اليهودية والنصرانية والإشراك الذي هو عبادة الأوثان، ودخل في ذلك الإشراك الذي تتضمنه اليهودية والنصرانية، وجاء ترتيب النفي على غاية الفصاحة، نفى نفس الملل وقرر الحالة الحسنة، ثم نفى نفيًا بين به أن تلك الملل فيها هذا الفساد الذي هو الشرك، وهذا كما تقول: ما أخذت لك مالا بل حفظته، وما كنت سارقا، فنفيت أقبح ما يكون في الأخذ.

ثم أخبر تعالى إخباراً مؤكداً أن أولى الناس بإبراهيم الخليل عليه السلام هم القوم الذين اتبعوه على ملته الحنيفية.

قال الفقيه الإمام أبو محمد: وهنا يدخل كل من اتبع الحنيفية في الفترات ﴿وهذا النبي﴾ محمد صلى الله عليه وسلم لأنه بعث بالحنيفية السمحة، ﴿والنبي﴾ في الإعراب نعت أو عطف بيان، أو بدل، وفي كونه بدلاً نظر، ﴿والذين آمنوا﴾ يعني بمحمد صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء على ما يجب دون المحرفين المبدلين، ثم أخبر أن الله تعالى ﴿ولي المؤمنين﴾، وعداً منه لهم بالنصر في الدنيا والنعيم في الآخرة، و«الحنيف» مأخوذ من الحنف، وهو الاستقامة وقيل هو الميل، ومنه قيل للمائل الرجل أحنف، فالحنيف من الاستقامة معناه المستقيم، ومن الميل معناه المائل عن معوج الأديان إلى طريق الحق، واختلفت عبارة المفسرين عن لفظة الحنيف، حتى قال بعضهم: الحنيف الحاج، وكلها عبارة عن الحنف بإجراء منه كالحج وغيره، وأسند الطبري عن عبد الله بن عمر عن أبيه، أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه، فلقي عالماً من اليهود، فسأله عن دينه، وقال له: إني أريد أن أكون على دينكم، فقال اليهودي: إنك لن تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله، قال زيد: ما أفر إلا من غضب الله ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً وأنا أستطيع، فهل تدلني على دين ليس فيه هذا؟ قال: ما أعلمه إلا أن تكون حنيفاً، قال وما الحنيف؟ قال دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً وكان لا يعبد إلا

الله، فخرج من عنده فلقى عالماً من النصارى، فقاوله بمثل مقالة اليهودي، إلا أن النصراني قال: بنصيبك من لعنة الله، فخرج من عنده وقد اتفقا له على دين إبراهيم فلم يزل رافعاً يديه إلى الله، وقال اللهم إني أشهدك أنني على دين إبراهيم، وروى عبد الله بن مسعود، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: لكل نبي ولادة من النبيين وإن وليي منهم أبي وخليل ربي إبراهيم، ثم قرأ ﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ﴾ الآية.

قوله تعالى:

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَتَّأَهَّلُ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تُشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَتَّأَهَّلُ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾

أخبر الله تعالى عن طائفة أنها تود وتشتهي أن تضل المسلمين، أي تلتفهم عن دينهم وتجعلهم في ضلال ثم فسر الطائفة بقوله: ﴿من أهل الكتاب﴾ فتحتمل ﴿من﴾ أن تكون للتبعض، وتكون الطائفة الرؤساء والأخبار الذين يسكن الناس إلى قولهم، ويحتمل أن تكون لبيان الجنس وتكون الطائفة جميع أهل الكتاب، وقال الطبري: ﴿يضلونكم﴾ معناه يهلكونكم، واستشهد بيت جرير:

كُنْتُ الْقَذَى فِي مَوْجٍ أَخْضَرَ مُزْبِدٍ قَذَفَ الْآتِي بِهِ فَضْلُ ضَلَالَا

وقول النابغة: [الطويل]

فَأَبْ مُضِلُّوهُ بِعَيْنٍ جَلِيلَةٍ

وهذا تفسير غير خاص باللفظة وإنما اطرده هذا الضلال في الآية وفي البيتين اقترن به هلاك، وأما أن تفسر لفظة الضلال بالهلاك فغير قويم، قوله تعالى: ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ إعلام بأن سوء فعلهم عائد عليهم، وأنهم يبعدهم عن الإسلام هم الضالون، ثم أعلم أنهم لا يشعرون أنهم لا يصلون إلى إضلالكم.

ثم وقفهم تعالى موبخاً لهم على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم، والمعنى: قل لهم يا محمد، لأي سبب تكفرون بآيات الله التي هي آية القرآن؟ وأنتم تشهدون أن أمره وصفة محمد الذي هو الآتي به في كتابكم، قال هذا المعنى قتادة وابن جريج والسدي، وتحتمل الآية أن يريد «بالآيات» ما ظهر على يدي محمد عليه السلام من تعجيز العرب والإعلام بالغيوب وتكلم الجماعات وغير ذلك و﴿تشهدون﴾ على هذا يكون بمعنى تحضرون وتعاينون، والتأويل الأول أقوى لأنه روي أن أهل الكتاب كانوا قبل ظهور محمد صلى الله عليه وسلم يخبرون بصفة النبي الخارج وحاله، فلما ظهر كفروا به حسداً، فإخبارهم المتقدم لظهوره هو الشهادة التي وقفوا عليها، قال مكي: وقيل إن هذه الآيات عني بها قريظة والنضير وبنو قينقاع ونصارى نجران.

قال الفقيه الإمام أبو محمد: ولما كانت الأحبار يظن بهم العلم وجودة النظر والاطلاع على الكتاب القديم، طمعوا أن تتخذ العرب بهذه النزعة ففعلوا ذلك، جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم بكرة، فقالوا: يا محمد أنت هو الموصوف في كتابنا، ولكن أمهلنا إلى العشي حتى ننظر في أمرنا، ثم رجعوا بالعشي، فقالوا: قد نظرنا ولست به ﴿وجهه﴾ على هذا التأويل منصوب بقوله ﴿آمنوا﴾ والمعنى أظهروا الإيمان في ﴿وجه النهار﴾، والضمير في قوله ﴿آخره﴾ عائد على ﴿النهار﴾، وقال ابن عباس ومجاهد وغيرهم: نزلت الآية، لأن اليهود ذهبت إلى المكر بالمؤمنين، فصلوا مع النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح، ثم رجعوا آخر النهار، فصلوا صلاتهم ليرى الناس أنهم بدت لهم منه ضلالة، بعد أن كانوا اتبعوه.

قال الفقيه الإمام: وهذا القول قريب من القول الأول، وقال جماعة من المفسرين: نزلت هذه الآية في أمر القبلة، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى صلاة الصبح إلى الشام، كما كان يصلي، ثم حولت القبلة، فصلى الظهر، وقيل العصر إلى مكة، فقالت الأحبار لتابعهم وللعرب: آمنوا بالذي أنزل في أول النهار واكفروا بهذه القبلة الأخيرة.

قال الفقيه الإمام: والعامل في قوله ﴿وجه النهار﴾ على هذا التأويل قوله: ﴿أنزل﴾ والضمير في قوله: ﴿آخره﴾ يحتمل أن يعود على ﴿النهار﴾ أو يعود على «الذي أنزل»، و﴿يرجعون﴾ في هذا التأويل، معناه عن مكة إلى قبلتنا التي هي الشام كذلك قال قائل هذا التأويل، و﴿وجه النهار﴾ أوله الذي يواجهه منه، تشبيهاً بوجه الإنسان، وكذلك تقول: صدر النهار وغرة العام والشهر، ومنه قول النبي عليه السلام أقتلته في غرة الإسلام؟ ومن هذا قول الربيع بن زياد العبسي: [الكامل]

من كان مسروراً بِمَقْتَلِ مالِكٍ فَلَيَاتِ نِسْوَتَنَا بِوَجْهِ نَهَارٍ
يَجِدُ النِّسَاءَ حَوَاسِرَآ يُنْدِبْنَهُ قَدْ قَمْنَ قَبْلَ تَبْلُجِ الْأَسْحَارِ

يقول هذا في مالك بن زهير بن جذيمة العبسي وكانوا قد أخذوا بثأره، وكان القتل عندهم لا يناح عليه ولا يندب إلا بعد أخذ ثأره، فالمعنى من سره مصابنا فيه فلينظر إلى ما يدل على أننا قد أدركنا ثأره، فيكمد لذلك ويغتم، ومن استعارة الوجه قولهم: فعلت كذا على وجه الدهر، أي في القديم.

وذكر الله تعالى عن هذه الطائفة من أهل الكتاب، أنهم قالوا: ﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾ ولا خلاف بين أهل التأويل أن هذا القول هو من كلام الطائفة، واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم﴾، فقال مجاهد وغيره من أهل التأويل: الكلام كله من قول الطائفة لأتباعهم، وقوله تعالى: ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾ اعترض بين الكلامين.

قال القاضي: والكلام على هذا التأويل يحتمل معاني: أحدها: ولا تصدقوا تصديقاً صحيحاً وتؤمنوا إلا لمن جاء بمثل دينكم كراهة أو مخافة أو حذاراً أن يؤتى أحد من النبوة والكرامة مثل ما أوتيتم، وحذراً أن يحاجوكم بتصديقكم إياهم عند ربكم إذا لم تستمروا عليه، وهذا القول على هذا المعنى ثمرة الحسد والكفر، مع المعرفة بصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ويحتمل أن يكون التقدير، أن لا يؤتى وحذفت - لا - لدلالة الكلام، ويحتمل الكلام أن يكون معناه: ولا تصدقوا وتؤمنوا بأن يؤتى أحد مثل ما

أوتيتم إلا لمن تبع دينكم وجاء بمثله وعاضداً له، فإن ذلك لا يؤتاه غيركم، ﴿أو يحاجوكم عند ربكم﴾، بمعنى: إلا أن يحاجوكم، كما تقول: أنا لا أتركك أو تقتضيني حقي، وهذا القول على هذا المعنى ثمرة التكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم على اعتقاد منهم أن النبوة لا تكون إلا في بني إسرائيل، ويحتمل الكلام أن يكون معناه: ولا تؤمنوا بمحمد وتقرؤا بنبوته، إذ قد علمتم صحتها، إلا لليهود الذين هم منكم، و﴿أن يؤق أحد مثل ما أوتيتم﴾، صفة لحال محمد فالمعنى، تستروا بإقراركم، أن قد أوتي أحد مثل ما أوتيتم، أو فإنهم يعنون العرب يحاجوكم بالإقرار عند ربكم، قال أبو علي و﴿تؤمنوا﴾ تعدى بالباء المقدرة في قوله ﴿أن يؤتى﴾ كما تعدى أول الآية في قوله، ﴿بالذي أنزل﴾، واللام في قوله، ﴿لمن اتبع﴾، لا يسهل أن تعلق بـ ﴿تؤمنوا﴾، وأنت قد أوصلته بالباء فتعلق بالفعل جارين، كما لا يستقيم أن تعديه إلى مفعولين إذا كان لا يتعدى إلا إلى واحد، وإنما يحمل أمر هذه اللام على المعنى، والمعنى: لا تقرؤا بأن الله يؤتى أحداً مثل ما أوتيتم إلا لمن، فهذا كما تقول: أقررت لزيد بألف فتكون اللام متعلقة بالمعنى ولا تكون زائدة على حد ﴿إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾ [يوسف: ٤٣] ولا تتعلق على حد المفعول، قال أبو علي: وقد تعدى «آمن» باللام في قوله ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية﴾ [يونس: ٨٣] وقوله ﴿آمنت له﴾ [طه: ٧١] [الشعراء: ٤٩] وقوله ﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾ [التوبة: ٦١] واحد، إنما دخل في هذا الكلام بسبب النفي الواقع في أوله، قوله: ﴿لا تؤمنوا﴾ كما دخلت - من - في قوله ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم﴾ [البقرة: ١٠٥] فكما دخلت - من - في صلة أن ينزل، لأنه مفعول النفي اللاحق لأول الكلام، فكذلك دخل ﴿أحد﴾ في صلة - أن - في قوله ﴿أن يؤتى أحد﴾ لدخول النفي في أول الكلام.

قال القاضي: وهذا لأن أحداً الذي فيه الشياخ، لا يجيء في واجب من الكلام، لأنه لا يفيد معنى، وقرأ ابن كثير وحده بين السبعة «أن يؤتى» بالمد على جهة الاستفهام الذي هو تقرير، وفسر أبو علي قراءة ابن كثير على أن الكلام كله من قول الطائفة، إلا الاعتراض الذي هو: ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾ فإنه لا يختلف أنه من قول الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم قال: فلا يجوز مع الاستفهام أن يحمل ﴿أن يؤتى﴾ على ما قبله من الفعل، لأن الاستفهام قاطع، فيجوز أن تكون - أن - في موضع رفع بالابتداء وخبره محذوف تقديره تصدقون به أو تعترفون، أو تذكرونه لغيركم، ونحو هذا مما يدل عليه الكلام ويكون ﴿يحاجوكم﴾ على هذا معطوفاً على ﴿أن يؤتى﴾ قال أبو علي: ويجوز أن يكون موضع - أن - منصوباً، فيكون المعنى: أتشيعون أو أتذكرون ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم﴾؟ ويكون ذلك بمعنى قوله تعالى عنهم ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ [البقرة: ٧٦] فعلى كلا الوجهين معنى الآية، توبيخ من الأخبار للاتباع على تصديقهم بأن محمداً نبي مبعوث، ويكون قوله تعالى: ﴿أو يحاجوكم﴾ في تأويل نصب أن أي أو تريدون أن يحاجوكم. قال أبو علي: و ﴿أحد﴾ على قراءة ابن كثير هو الذي يدل على الكثرة، وقد منع الاستفهام القاطع من أن يشفع لدخوله النفي الذي في أول الكلام، فلم يبق إلا أن يقدر أن أحداً الذي في قولك، أحد وعشرون وهو يقع في الإيجاب لأنه بمعنى واحد، وجمع ضميره في قوله ﴿أو يحاجوكم﴾ حملاً على المعنى، إذ لأحد المراد بمثل النبوة اتباع، فهو في معنى الكثرة، قال أبو علي: وهذا موضع

ينبغي أن ترجح فيه قراءة غير ابن كثير على قراءة ابن كثير، لأن الأسماء المفردة ليس بالمستمر أن تدل على الكثرة.

قال القاضي: إلا أن أحداً في مثل النبوة يدل عليها من حيث يقتضي الاتباع، وقرأ الأعمش، وشعيب بن أبي حمزة - «إن يؤتى» - بكسر الهمزة بمعنى، لم يعط أحد مثل ما أعطيت من الكرامة وهذه القراءة يحتمل بمعنى فليحاجوكم، وهذا على التصميم على أنه لا يؤتى أحد مثل ما أوتي، ويحتمل أن تكون بمعنى، إلا أن يحاجوكم، وهذا على تجويز أن تؤتى أحد ذلك إذا قامت الحجة له، فهذا ترتيب التفسير والقراءات على قول من قال: الكلام كله من قول الطائفة.

وقال السدي وغيره: الكلام كله من قوله ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾، إلى آخر الآية هو مما أمر به محمد عليه السلام أن يقوله لأمته، وحكى الزجاج وغيره أن المعنى: قل إن الهدى هو هذا الهدى، لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، وحكي عن بعض النحويين أن المعنى: أن لا يؤتى أحداً، وحذفت - لا - لأن في الكلام دليلاً عليها، كما في قوله تعالى: ﴿بين الله لكم أن تضلوا﴾ [النساء: ١٧٦] أي أن لا تضلوا، وحكي عن أبي العباس المبرد: لا تحذف لا، وإنما المعنى كراهة أن تضلوا، وكذلك هنا كراهة «أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم»، أي ممن خالف دين الإسلام، لأن الله لا يهدي من هو كاذب كفار، فهدى الله بعيد من غير المؤمنين.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق: وتبعد من هذا القول قراءة ابن كثير بالاستفهام والمد، وتحمل عليه قراءة الأعمش وابن أبي حمزة - «إن يؤتى» - بكسر الألف، كأنه عليه السلام يخبر أمته أن الله لا يعطي أحداً ولا أعطى فيما سلف مثل ما أعطى أمة محمد عليه السلام لكونها وسطاً ويكون قوله تعالى: ﴿أو يحاجوكم﴾ على هذه المعاني التي ترتبت في قول السدي، تحتمل معنيين أحدهما «أو فليحاجوكم عند ربكم»، يعني اليهود، فالمعنى لم يعط أحد مثل حظكم وإلا فليحاجوكم من ادعى سوى ذلك، والمعنى الثاني: أن يكون قوله، ﴿أو يحاجوكم﴾ بمعنى التقرير والإزراء باليهود، كأنه قال: أو هل لهم أن يحاجوكم أو يخاصموكم فيما وهبكم الله وفضلكم به؟ وقوله: ﴿هدى الله﴾ على جميع ما تقدم خبران.

وقال قتادة والربيع: الكلام من قوله ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾ إلى آخر الآية، هو مما أمر به محمد عليه السلام أن يقوله للطائفة التي قالت ﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾ وتتفق مع هذا القول قراءة ابن كثير بالاستفهام والمد، وتقدير الخبر المحذوف ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم﴾، حسدتم وكفرتم، ويكون قوله ﴿أو يحاجوكم﴾ محمولاً على المعنى، كأنه قال: أنحسدون أو تكفرون لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم؟ ﴿أو يحاجوكم﴾ على ما أوتوه فإنه يغلبونكم بالحجة، وأما على قراءة غير ابن كثير بغير المد، فيحتمل أن يكون بمعنى التقرير بغير حرف استفهام، وذلك هو الظاهر من لفظ قتادة فإنه قال: يقول لما أنزل الله كتاباً مثل كتابكم وبعث نبياً مثل نبيكم حسدتموهم على ذلك، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿أن يؤتى﴾ بدلاً من قوله ﴿هدى الله﴾ ويكون المعنى: قل إن الهدى هدى الله، وهو أن يؤتى أحد كالذي جاءنا نحن، ويكون قوله ﴿أو يحاجوكم﴾ بمعنى، أو فليحاجوكم، فإنه يغلبونكم، ويحتمل قوله، ﴿أن يؤتى﴾ خبر - «إن»

ويكون قوله ﴿هَدَى اللَّهُ﴾ بدلاً من الهدى، وهذا في المعنى قريب من الذي قبله، وقال ابن جريج: قوله تعالى: ﴿أَنْ يُؤْتِي﴾ هو من قول محمد صلى الله عليه وسلم لليهود، وتم الكلام في قوله ﴿أَوْتَيْتُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَحْجُوكُمْ﴾ متصل بقول الطائفة ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ ومنه، وهذا القول يفسر معانيه ما تقدم في قول غيره من التقسيم والله المستعان.

وقرأ ابن مسعود: «أَنْ يَحْجُوكُمْ» بدل ﴿أَوْ﴾، وهذه القراءة تلتئم مع بعض المعاني التي تقدمت ولا تلتئم مع بعضها، وقوله ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ يجيء في بعض المعاني على معنى عند ربكم في الآخرة، ويجيء في بعضها على معنى عند كتب ربكم، والعلم الذي جعل في العباد، فأضاف ذلك إلى الرب تشريفاً، وكأن المعنى أو يحاجوكم عند الحق، وقرأ الحسن «إِنْ يُؤْتِي» أحد بكسر الهمزة والتاء، على إسناد الفعل إلى ﴿أَحَدٍ﴾، والمعنى: أن إنعام الله لا يشبهه إنعام أحد من خلقه، وأظهر ما في القراءة أن يكون خطاباً من محمد عليه السلام لأمته، والمفعول محذوف تقديره إن يؤتي أحد أحدًا.

قوله تعالى:

قُلْ إِنْ أَلْفُ ضَلَّ يَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مِنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ يَخْصُصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٧﴾ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا

في قوله تعالى: «قُلْ إِنْ أَلْفُ ضَلَّ يَدِ اللَّهِ» إلى قوله ﴿العظيم﴾، تكذيب لليهود في قولهم: نبوة موسى مؤبدة، ولن يؤتي الله أحدًا مثل ما أتى بني إسرائيل من النبوة والشرف، وسائر ما في الآية من لفظة ﴿واسع﴾ وغير ذلك قد تقدم نظيره.

ثم أخبر تعالى عن أهل الكتاب أنهم قسمان في الأمانة، ومقصد الآية ذم الخونة منهم، والتنفيد لرأيهم وكذبهم على الله، في استحلالهم أموال العرب، وفي قراءة أبي بن كعب «تيمنه» بناء وياء في الحرفين وكذلك - تيمنا - في يوسف، قال أبو عمرو الداني: وهي لغة تميم.

قال القاضي: وما أراها إلا لغة قرشية، وهي كسر نون الجماعة كنستعين، وألف المتكلم كقول ابن عمر، لا إخاله، وتاء المخاطب كهذه الآية ولا يكسرون الباء في الغائب وبها قرأ أبي بن كعب في «تيمنا» وابن مسعود والأشهب العقيلي وابن وثاب، وقد تقدم القول في «القنطار» في صدر السورة وقرأ جمهور الناس، «يؤدو إليك» بكسر الهاء التي هي ضمير القنطار، وكذلك في الأخرى التي هي ضمير «الدينار»، واتفق أبو عمرو وحزمة وعاصم والأعمش على إسكان الهاء، وكذلك كل ما أشبهه في القرآن، نحو ﴿نصله جهنم﴾ [النساء: ١١٥] و﴿نؤته﴾ ﴿نوله﴾ إلا حرفاً حكى عن أبي عمرو أنه كسره، وهو قوله تعالى: ﴿فألقه إليهم﴾ [النمل: ٢٨] قال أبو إسحاق: وهذا الإسكان الذي روي عن هؤلاء غلط بين لأن الهاء لا ينبغي أن تجزم، وإذا لم تجزم فلا يجوز أن تسكن في الوصل، وأما أبو عمرو فأراه كان يختلس الكسرة فغلط

عليه، كما غلط عليه في بارئكم، وقد حكى عنه سيبويه، وهو ضابط لمثل هذا: أنه يكسر كسراً خفيفاً، و«القنطار» في هذه الآية: مثال للمال الكثير يدخل فيه أكثر من القنطار وأقل، وأما «الدينار» فيحتمل أن يكون كذلك، مثلاً لما قل، ويحتمل أن يريد طبقة لا تخون إلا في دينار فلما زاد، ولم يعن لذكر الخائنين في أقل إذ هم طغام حثالة، وقرأ جمهور الناس «دُمت» بضم الدال، وقرأ ابن وثاب والأعمش وأبو عبد الرحمن السلمي وابن أبي ليلى والفياض بن غزوان وغيرهم: «دِمت ودِمت»، بكسر الدال في جميع القرآن، قال أبو إسحاق: من قولهم: «دِمت»، تدام، نمت، تنام، وهي لغة، ودام معناه ثبت على حال ما، والتدويم على الشيء الاستدارة حول الشيء ومنه قول ذي الرمة: [البسيط]

والشمس خَيْرَى لَهَا فِي الْجَوِّ تَدْوِيمُ

والدوام، الدوار يأخذ في رأس الإنسان، فيرى الأشياء تدور له، وتدويم الطائر في السماء، هو ثبوته إذا صف واستدار والماء الدائم وغيره هو الذي كأنه يستدير حول مركزه، وقوله «قائماً» يحتمل معنيين قال الزجّاج وقتادة ومجاهد: معناه قائماً على اقتضاء دينك.

قال الفقيه الإمام أبو محمد: يريدون بأنواع الاقتضاء من الحفز والمرافعة إلى الحكام، فعلى هذا التأويل، لا تراعى هيئة هذا الدائم بل اللفظة من قيام المرء على أشغاله، أي اجتهاده فيها، وقال السدي وغيره: «قائماً» في هذه الآية معناه: قائماً على رأسه، على الهيئة المعروفة، وتلك نهاية الحفز، لأن معنى ذلك أنه في صدر شغل آخر، يريد أن يستقبله، وذهب إلى هذا التأويل جماعة من الفقهاء وانتزعوا من الآيات جواز السجن، لأن الذي يقوم عليه غريمه فهو يمنعه من تصرفاته في غير القضاء، ولا فرق بين المنع من التصرفات وبين السجن، وهذه الآية وما بعدها نزلت فيما روي، بسبب أن جماعة من العرب كانت لهم ديون في ذمم قوم من أهل الكتاب، فلما أسلم أولئك العرب قالت لهم اليهود: نحن لا نؤدي إليكم شيئاً حين فارقتم دينكم الذي كنتم عليه، فنزلت الآية في ذلك وروي أن بني إسرائيل كانوا يعتقدون استحلال أموال العرب لكونهم أهل أوثان، فلما جاء الإسلام وأسلم من أسلم من العرب بقي اليهود فيهم على ذلك المعتقد، فنزلت الآية حامية من ذلك، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا كل شيء من أمر الجاهلية فهو تحت قدمي، إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر».

قوله تعالى:

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾
بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا
قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

الإشارة بـ «ذلك» إلى كونهم لا يؤدون الأمانة في دينار فما فوقه، على أحد التأويلين، والضمير في،

﴿قالوا﴾، يعني به ليف بني إسرائيل، لأنهم كانوا يقولون: نحن أهل الكتاب، والعرب أميون أصحاب أوثان، فأموالهم لنأكل متى قدرنا على شيء منها لا حجة علينا في ذلك ولا سبيل لمعترض وناقد إلينا في ذلك، و«الأميون» القوم الذين لا يكتبون لأنهم لا يحسنون الكتابة، وقد مر في سورة البقرة اشتقاق اللفظ واستعارة السبيل، هنا في الحجة هو على نحو قول حميد بن ثور:

وهل أنا إن عللت نفسي بسرحة من السرح موجود عليّ طريق

وقوله تعالى: ﴿فأولئك ما عليهم من سبيل﴾ [الشورى: ٤١] هو من هذا المعنى، وهو كثير في القرآن وكلام العرب، وروي أن رجلاً قال لابن عباس: إنا نمر في الغزو بأموال أهل الذمة فنأخذ منها الشاة والدجاجة ونحوها قال: وتقولون ماذا؟ قال نقول: ليس علينا بأس، فقال ابن عباس: هذا كما قال أهل الكتاب: ﴿ليس علينا في الأمين سبيل﴾، إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم، وقوله تعالى: ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ ذم لبني إسرائيل بأنهم يكذبون على الله تعالى في غير ما شيء، وهم علماء بمواضع الصدق لو قصدوها، ومن أخطر ذلك أمر محمد صلى الله عليه وسلم، هذا قول جماعة من المتأولين، وروي عن السدي وابن جريج وغيرهما: أن طائفة من أهل الكتاب ادعت أن في التوراة إحلال الله لهم أموال الأمين كذباً منها وهي عالمة بكذبها في ذلك قالوا: والإشارة بهذه الآية إلى ذلك الكذب المخصوص في هذا الفصل.

ثم رد الله تعالى في صدر قوسه، ليس علينا بقوله ﴿بلى﴾ أي عليهم سبيل وحجة وتبعة، ثم أخبر على جهة الشرط أن ﴿من أوفى﴾ بالعهد ﴿واقى﴾ عقوبة الله في نقضه، فإنه محبوب عند الله، وتقول العرب: وفى بالعهد، وأوفى به بمعنى، وأوفى، هي لغة الحجاز وفسر الطبري وغيره، على أن الضمير في قوله، ﴿بعهده﴾ عائد على الله تعالى، وقال بعض المفسرين: هو عائد على ﴿من﴾.

قال الفقيه الإمام أبو محمد: والقولان يرجعان إلى معنى واحد، لأن أمر الله تعالى بالوفاء مقترن بعهد كل إنسان، وقال ابن عباس: ﴿اتقى﴾ في هذه الآية، معناه: اتقى الشرك، ثم خرج جواب الشرط على تعميم المتقين تشريفاً للتقوى وحضاً عليها.

وقوله تعالى: ﴿الذين يشترن به عهد الله﴾ الآية آية وعيد لمن فعل هذه الأفاعيل إلى يوم القيامة وهي آية يدخل فيها الكفر فما دونه من جحد الحقوق وختر الموائيق، وكل أحد يأخذ من وعيد الآية على قدر جريمته، واختلف المفسرون في سبب نزولها، فقال عكرمة: نزلت في أحبار اليهود، أبي رافع وكنانة بن أبي الحقيق وكعب بن الأشرف وحيي بن أخطب، تركوا عهد الله في التوراة للمكاسب والرياسة التي كانوا بسبيلها، وروي أنها نزلت بسبب خصومة الأشعث بن قيس مع رجل من اليهود في أرض فوجبت اليمين على اليهودي فقال الأشعث: إذن يحلف يا رسول الله ويذهب بمالي، فنزلت الآية، وروي أن الأشعث بن قيس اختصم في أرض مع رجل من قرابته فوجبت اليمين على الأشعث وكان في الحقيقة مبطلاً قد غصب تلك الأرض في جاهليته فنزلت الآية، فنكل الأشعث عن اليمين، وتخرج وأعطى الأرض وزاد من عنده أرضاً أخرى، وروي أن الآية نزلت بسبب خصومة لغير الأشعث بن قيس، وقال الشعبي: نزلت الآية في

رجل أقام سلعة في السوق من أول النهار، فلما كان في آخره جاء رجل فساومه فحلف حاثاً لقد منعها في أول النهار من كذا وكذا ولولا المساء ما باعها، فزلت الآية بسببه، وقال سعيد بن المسيب، اليمين الفاجرة من الكبائر، ثم تلا هذه الآية وقال ابن مسعود: كنا نرى ونحن مع نبينا أن من الذنب الذي لا يغفر يمين الصبر، إذا فجر فيها صاحبها، وقد جعل الله «الأيمن» في هذه الألفاظ، مشترة فهي مضمونة أيضاً، والخلاق: الحظ والنصيب والقدر، وهو مستعمل في المستحبات، وقال الطبري: ﴿ولا يكلمهم الله﴾ معناه بما يسرهم وقال غيره: نفى تعالى أن يكلمهم جملة لأنه يكلم عباده المؤمنين المتقين، وقال قوم من العلماء: وهي عبارة عن الغضب، المعنى لا يحفل بهم ولا يرضى عنهم ﴿ولا يذكهم﴾ يحتمل معنيين، أحدهما يظهرهم من الذنوب وأدرانها، والآخر ينمي أعمالهم، فهي تنمية لهم، والوجهان منفيان عنهم في الآخرة و﴿اليم﴾ فعيل بمعنى، مفعول، فالمعنى، مؤلم.

قوله تعالى:

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ

الضمير في ﴿منهم﴾، عائد على أهل الكتاب، و«الفریق»، الجماعة من الناس هي مأخوذة من فرق، إذا فصل وأبان شيئاً عن شيء، و«يلوون» معناه: يحرفون ويتحيلون بتبديل المعاني من جهة اشتباه الألفاظ واشتراكها وتشعب التأويلات فيها، ومثال ذلك قولهم: راعنا واسمع غير مسمع ونحو ذلك وليس التبديل المحض بلي، وحقيقة اللي في الثياب والحبال ونحوها، قتلها وإراغتها، ومنه لي العنق ثم استعمل ذلك في الحجج والخصومات والمجادلات تشبيهاً بتلك الإراغة التي في الأجرام فمنه قولهم، خصم ألقى ومنه قول الشاعر: [الطويل]

فَلَوْ كَانَ فِي لَيْلِي شَذَى مِنْ خُصُومَةٍ لَلَوْتُ أَعْنَاقَ الْخُصُومِ الْمَلَاوِيَا

وقال الآخر: [الرجز]

أَلْفَيْتَنِي الْوِي بَعِيداً مُسْتَمِر

وقرأ جمهور الناس، «يلوون»، مضارع لوى، على وزن فعل بتخفيف العين وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، وشيبة بن نصاح، «يلوون» بتشديد الواو وفتح اللام، من لوى، على وزن فَعَلَ بتشديد العين، وهو تضعيف مبالغة لا تضعيف تعدي، وقرأ حميد «يلوون» بضم اللام وسكون الواو، وهي في الأصل «يلون» مثل قراءة الجماعة، فهزمت الواو المضمومة لأنها عرفها في بعض اللغات، فجاء «يلوون» فنقلت ضمة الهمزة إلى اللام فجاء «يلون» و«الكتاب» في هذا الموضع التوراة، وضمير الفاعل في قوله ﴿لتحسبوه﴾ هو

للمسلمين وقوله ﴿وما هو من عند الله﴾ نفى أن يكون متزلاً كما ادعوا، وهو من عند الله بالخلق والاختراع والإيجاد ومنهم بالتكسب ولم تعن الآية إلا لمعنى التنزيل فبطل تعلق القدرية بظاهر قوله، وما هو من عند الله، وقد تقدم نظير قوله تعالى ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾.

وقوله تعالى: ﴿ما كان لبشر﴾ معناه لأحد من الناس، والبشر اسم جنس يقع للكثير والواحد ولا مفرد له من لفظه، وهذا الكلام لفظه النفي التام كقول أبي بكر رضي الله عنه: ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما يعلم مبلغها من النفي بقرينة الكلام الذي هي فيه، كقوله تعالى: ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله﴾ [آل عمران: ١٤٥] وقوله تعالى: ﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ [النحل: ٦٠] فهذا منتف عقلاً، وأما آيتنا هذه فإن النفي على الكمال لأننا نقطع أن الله تعالى لا يؤتي النبوة للكذبة والمدعين، و﴿الكتاب﴾ في هذه الآية اسم جنس، و﴿الحكم﴾ بمعنى الحكمة، ومنه قول النبي عليه السلام: إن من الشعر لحكماء، و﴿ثم﴾ في قوله تعالى: ﴿ثم يقول﴾ معطية تعظيم الذنب في القول، بعد مهلة من هذا الإنعام، وقوله ﴿عباداً﴾ هو جمع عبد، ومن جموعه عبيد وعبدى، قال بعض اللغويين، هذه الجموع بمعنى، وقال قوم، العباد لله، والعبيد والعبدى للبشر، وقال قوم: العبدى، إنما يقال في العبيد بني العبيد، وكأنه بناء مبالغة، تقتضي الإغراق في العبودية.

قال القاضي أبو محمد: والذي استقرت في لفظة العباد، أنه جمع عبد متى سبقت اللفظة في مضمار الترفع والدلالة على الطاعة دون أن يقترب بها معنى التحقير وتصغير الشأن وانظر قوله تعالى: ﴿والله رؤوف بالعباد﴾ [البقرة: ٢٠٧] [آل عمران: ٣٠] و﴿عباد مكرمون﴾ [الأنبياء: ٢٦] ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ [الزمر: ٥٣] وقول عيسى في معنى الشفاعة والتعريض لرحمة الله ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ [المائدة: ١١٨] فنهو بهم، وقال بعض اللغويين: إن نصارى الحيرة وهم عرب لما أطاعوا كسرى ودخلوا تحت أمره سمتهم العرب العباد فلم ينته بهم إلى اسم العبيد، وقال قوم بل هم قوم من العرب من قبائل شتى اجتمعوا وتنصروا وسموا أنفسهم العباد كأنه انتساب إلى عبادة الله، وأما العبيد فيستعمل في تحقير، ومنه قول امرئ القيس: [السريع].

قُولَا لِذُودَانِ عَبِيدِ الْعَصَى مَا غَرُّكُمْ بِالْأَسَدِ الْبَاسِلِ

ومنه قول حمزة بن عبد المطلب: وهل أنتم إلا عبيد ومنه قول الله تعالى: ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ [فصلت: ٤٦] لأنه مكان تشفيق وإعلام بقلّة انتصارهم ومقدرتهم، وأنه تعالى ليس بظلام لهم مع ذلك، ولما كانت لفظة العباد تقتضي الطاعة لم تقع هنا، ولذلك أنس بها في قوله تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ [الزمر: ٥٣]

قال الإمام أبو محمد: فهذا النوع من النظر يسلك به سبل العجائب في ميزة فصاحة القرآن العزيز على الطريقة العربية السليمة، ومعنى قوله: ﴿كونوا عباداً لي من دون الله﴾ اعبدوني واجعلوني إلهاً.

واختلف المفسرون إلى من هي الإشارة بقوله تعالى: ﴿ما كان لبشر﴾ فقال النقاش وغيره: الإشارة

إلى عيسى عليه السلام، والآية رادة على النصارى الذين قالوا: عيسى إله، وادعوا أن عبادته هي شرعة ومستندة إلى أوامره، وقال ابن عباس والربيع وابن جريج وجماعة من المفسرين: بل الإشارة إلى محمد عليه السلام، وسبب نزول الآية، أن أبا رافع القرظي، قال للنبي صلى الله عليه وسلم، حين اجتمعت الأحزاب من يهود والوفد من نصارى نجران: يا محمد إنما تريد أن نعبدك ونتخذك إلهاً كما عبدت النصارى عيسى، فقال الرئيس من نصارى نجران: أو ذلك تريد يا محمد وإليه تدعون؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: معاذ الله ما بذلك أمرت، ولا إليه دعوت، فنزلت الآية، في ذلك، قال بعض العلماء: أرادت الأحزاب أن تلزم هذا القول محمداً صلى الله عليه وسلم، لما تلا عليهم ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: ٣١] وإنما معنى الآية، فاتبعوني فيما أدعوكم إليه من طاعة الله، فحرفوها بتأويلهم، وهذا من نوع ليهم الكتاب بالسنتهم، وقرأ جمهور القراء «ثم يقول» بالنصب، وروي شبل عن ابن كثير ومحبوب عن أبي عمرو «ثم يقول» برفع اللام، وهذا على القطع وإضمار مبتدأ، وقرأ عيسى بن عمر، «عباداً لي» بتحريك الياء مفتوحة.

قوله تعالى:

وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآ أَتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ

المعنى ﴿ولكن﴾ يقول: ﴿كونوا ربانيين﴾ وهو جمع رباني، واختلف النحاة في هذه النسبة، فقال قوم: هو منسوب إلى الرب من حيث هو العالم ما علمه، العامل بطاعته، المعلم للناس ما أمر به، وزيدت الألف والنون مبالغة كما قالوا، لحياني وشعراني في النسبة إلى اللحية والشعر، وقال قوم الرباني منسوب إلى الربان وهو معلم الناس، وعالمهم السائس لأمرهم، مأخوذ من رب يرب إذا أصلح وربي، وزيدت فيه هذه النون كما زيدت في غضبان وعطشان، ثم نسب إليه رباني، واختلف العلماء في صفة من يستحق أن يقال له رباني، فقال أبو رزين: الرباني: الحكيم العالم، وقال مجاهد: الرباني الفقيه، وقال قتادة وغيره: الرباني العالم الحليم، وقال ابن عباس: هو الحكيم الفقيه، وقال الضحاك: هو الفقيه العالم، وقال ابن زيد: الرباني والي الأمر، يرب الناس أي يصلحهم، فالربانيون الولاة والأحبار والعلماء، وقال مجاهد: الرباني فوق الحبر لأن الحبر هو العالم والرباني هو الذي جمع إلى العلم والفقه البصر بالسياسة والتدبير والقيام بأمر الرعية وما يصلحهم في دينهم ودنياهم، وفي البخاري: الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره.

قال الفقيه أبو محمد: فجملة ما يقال في الرباني إنه العالم بالرب والشرع المصيب في التقدير من الأقوال والأفعال التي يحاولها في الناس، وقوله ﴿بما كنتم﴾ معناه: بسبب كونكم عالمين دارسين، فما

مصدرية، ولا يجوز أن تكون موصولة، لأن العائد الذي كان يلزم لم يكن بد أن يتضمنه: ﴿تَعْلَمُونَ﴾، ولا يصح شيء من ذلك لأن «كان» قد استوفت خبرها ظاهراً، وهو ﴿تَعْلَمُونَ﴾ وكذلك ﴿تَعْلَمُونَ﴾ قد استوفى مفعوله وهو ﴿الكتاب﴾ ظاهراً، فلم يبق إلا أن ﴿ما﴾ مصدرية، إذ لا يمكن عائد، و﴿تَعْلَمُونَ﴾ بمعنى تعرفون، فهي متعدية إلى مفعول واحد، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: «تَعْلَمُونَ» بسكون العين، وتخفيف اللام، وقرأ عاصم وابن عامر وحزمة والكسائي «تُعْلَمُونَ» مثقلاً، بضم التاء وكسر اللام، وهذا على تعدية الفعل بالتضعيف، والمفعول الثاني على هذه القراءة محذوف، تقديره: تعلمون الناس الكتاب.

قال الفقيه الإمام: والقراءتان متقاربتا المعنى، وقد رجحت قراءة التخفيف بتخفيفهم ﴿تَدْرُسُونَ﴾ وبأن العلم هو العلة التي توجب للموفق من الناس أن يكون ربانياً، وليس التعليم شرطاً في ذلك، ورجحت الأخرى بأن التعليم يتضمن العلم، والعلم لا يتضمن التعليم، فتجيء قراءة التثقيل أبلغ في المدح.

قال الفقيه الإمام: ومن حيث العالم بحال من يعلم، فالتعليم كأنه في ضمن العلم، وقراءة التخفيف عندي أرجح، وقرأ مجاهد والحسن «تُعْلَمُونَ» بفتح التاء والعين، وشد اللام المفتوحة، وقرأ جمهور الناس، «تَدْرُسُونَ» بضم الراء، من درس إذا أدمن قراءة الكتاب وكرره، وقرأ أبو حيوة «تَدْرُسُونَ» بكسر الراء، وهذا على أنه يقال في مضارع درس، يدرس ويدرس وروي عن أبي حيوة، أنه قرأ «تَدْرُسُونَ» بضم التاء، وكسر الراء وشدها، بمعنى تدرسون غيركم.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والكسائي: «ولا يأمرُكم» برفع الراء، وكان أبو عمرو يختلس حركة الراء تخفيفاً، وقرأ عاصم وابن عامر وحزمة: «ولا يأمرُكم نصباً»، ولا خلاف في الراء من قوله: «لا يأمرُكم» إلا اختلاس أبي عامر، فمن رفع قوله: «ولا يأمرُكم»، فهو على القطع، قال سيبويه: المعنى ولا يأمرُكم الله، وقال ابن جريج وغيره: المعنى ولا يأمرُكم هذا البشر الذي أوتي هذه النعم، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، وفي قراءة ابن مسعود: «ولن يأمرُكم»، فهذه قراءة تدل على القطع، وأما قراءة من نصب الراء، فهي عطف على قوله: «أَنْ يُؤْتِيَهُ» [آل عمران: ٧٩] والمعنى ولا له أن يأمرُكم، قاله أبو علي وغيره، وقال الطبري: قوله «ولا يأمرُكم» بالنصب، معطوف على قوله، «ثم يقول» [آل عمران: ٧٩].

قال الفقيه أبو محمد: وهذا خطأ لا يلتزم به المعنى، والأرباب في هذه الآية وقوله تعالى: «لا يأمرُكم بالكفر» تقرير على هذا المعنى الظاهر فساده.

وقوله تعالى: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ» الآية، المعنى واذكر يا محمد «إذ» ويحتمل أن يكون «أخذ» هذا الميثاق حين أخرج بني آدم من ظهر آدم نسماً، ويحتمل أن يكون هذا الأخذ على كل نبي في زمنه ووقت بعثه، ثم جمع اللفظ في حكاية الحال في هذه الآية، والمعنى: أن الله تعالى أخذ ميثاق كل نبي بأنه يلتزم هو ومن آمن به، الإيمان بمن أوتي بعده من الرسل، الظاهرة براهينهم والنصرة له، واختلف

المفسرون في العبارة عن مقتضى ألفاظ هذه الآية، فقال مجاهد والربيع: إنما أخذ ميثاق أهل الكتاب، لا ميثاق النبيين، وفي مصحف أبي بن كعب وابن مسعود: «وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب»، قال مجاهد: هكذا هو القرآن، وإثبات «النبيين» خطأ من الكتاب.

قال الفقيه الإمام: وهذا لفظ مردود بإجماع الصحابة على مصحف عثمان رضي الله عنه، وقال ابن عباس رضي الله عنه: إنما «أخذ الله ميثاق النبيين» على قومهم، فهو أخذ لميثاق الجميع، وقال طاوس: أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما بعث الله نبياً، آدم فمن بعده، إلا أخذ عليه العهد في محمد لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره بأخذه على قومه، ثم تلا هذه الآية، وقاله السدي: وروي عن طاوس أنه قال: صدر الآية أخذ الميثاق على النبيين وقوله: «ثم جاءكم» مخاطبة لأهل الكتاب بأخذ الميثاق عليهم.

قال الفقيه الإمام أبو محمد: حكاه الطبري وهو قول يفسده إعراب الآية، وهذه الأقوال كلها ترجع إلى ما قاله علي بن أبي طالب وابن عباس، لأن الأخذ على الأنبياء أخذ على الأمم.

وقرأ حمزة وغيره سوى السبعة: «لما» بكسر اللام، وهي لام الجر، والتقدير لأجل ما آتيناكم، إذ أنتم القادة والرؤوس، ومن كان بهذه الحال فهو الذي يؤخذ ميثاقه، و«ما» في هذه القراءة بمعنى الذي الموصولة، والعائد إليها من الصلة تقديره آتيناكموه، و«من» لبيان الجنس، وقوله، «ثم جاءكم» الآية، جملة معطوفة على الصلة، ولا بد في هذه الجملة من ضمير يعود على الموصول، فتقديره عند سيبويه: رسول به مصدق لما معكم، وحذف تخفيفاً كما حذف الذي في الصلة بعينها لطول الكلام، كما قال تعالى: «أهذا الذي بعث الله رسولا» [الفرقان: ٤١] والحذف من الصلات كثير جميل، وأما أبو الحسن الأخفش، فقال قوله تعالى: «لما معكم». هو العائد عنده على الموصول، إذ هو في المعنى بمنزلة الضمير الذي قدر سيبويه، وكذلك قال الأخفش في قوله تعالى: «إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين» [يوسف: ٩٠] لأن المعنى لا يضيع أجرهم، إذ المحسنون هم من يتقي ويصبر، وكذلك قوله تعالى: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً» [الكهف: ٣٠] وكذلك ما ضارع هذه الآيات، وسيبويه رحمه الله لا يرى أن يضع المظهر موقع المضمّر، كما يراه أبو الحسن، واللام في «لتؤمنن»، هي اللام المتعلقة للقسم الذي تضمنه أخذ الميثاق وفصل بين القسم والمقسم عليه بالجار والمجرور وذلك جائز.

وقرأ سائر السبعة: «لما» بفتح اللام، وذلك يتخرج على وجهين، أحدهما أن تكون «ما» موصولة في موضع رفع بالابتداء، واللام لام الابتداء، وهي متلقية لما أجري مجرى القسم من قوله تعالى: «وإذ أخذ الله ميثاق» وخبر الابتداء قوله «لتؤمنن»، و«لتؤمنن» متعلق بقسم محذوف، والمعنى والله لتؤمنن، هكذا قال أبو علي الفارسي، وفيه من جهة المعنى نظر، إذا تأملت على أي شيء وقع التحليف لكنه متوجه بأن الحلف يقع مرتين تأكيداً فتأمل، والعائد الذي في الصلة، والعائد الذي في الجملة المعطوفة على الصلة هنا في هذه القراءة هما على حد ما ذكرناهما في قراءة حمزة، أما أن هذا التأويل يقتضي عائداً من

الخبر الذي هو ﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ فهو قوله تعالى: ﴿يَه﴾ فالهاء من ﴿يَه﴾ عائدة على «ما»، ولا يجوز أن تعود على ﴿رسول﴾ فيبقى الموصول حينئذ غير عائد عليه من خبره ذكر، والوجه الثاني الذي تتخرج عليه قراءة القراء «لما» بفتح اللام، هو أن تكون «ما» للجزاء شرطاً، فتكون في موضع نصب بالفعل الذي بعدها وهو مجزوم و﴿جاءكم﴾ معطوف في موضع جزم، واللام الداخلة على «ما» ليست المتلقية للقسم، ولكنها الموطئة المؤذنة بمجيء لام القسم، فهي بمنزلة اللام في قوله تعالى: ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾ [الأحزاب: ٦٠] لأنها مؤذنة بمجيء المتلقية للقسم في قوله، لنغرينك بهم وكذلك هذه مؤذنة بمجيء المتلقية للقسم في قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ وهذه اللام الداخلة على «أن» لا يعتمد القسم عليها، فلذلك جاز حذفها تارة وإثباتها تارة، كما قال تعالى: ﴿وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ [المائدة: ٧٣]. قال الزجاج: لأن قولك، والله لئن جتني لأكرمك، إنما حلف على فعلك، لأن الشرط معلق به، فلذلك دخلت اللام على الشرط، وما في هذا الوجه من كونها جزءاً لا تحتاج إلى عائد لأنها مفعولة والمفعول لا يحتاج إلى ذكر عائد.

والضمير في قوله تعالى: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ يَه﴾ عائد على ﴿رسول﴾، وكذلك هو على قراءة من كسر اللام، وأما الضمير في قوله ﴿وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ فلا يحتمل بوجه إلا العود على رسول، قال أبو علي في الإغفال: وجزاء الشرط محذوف بدلالة قوله ﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ عليه، قال سيبويه: سألته، يعني الخليل عن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ﴾ فقال: «ما» هنا بمنزلة الذي ودخلتها اللام كما دخلت على إن، حين قلت: لئن فعلت لأفعلن، ثم استمر يفسر وجه الجزاء قال أبو علي: أراد الخليل بقوله: هي بمنزلة الذي، أنها اسم كما أن الذي اسم ولم يرد أنها موصولة كالذي، وإنما قر من أن تكون «ما» حرفاً كما جاءت حرفاً في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَلَّا لَمَا لِيَؤْفِقُنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [هود: ١١١] وفي قوله ﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٥]، والله المستعان، وحكى المهدوي ومكي عن سيبويه والخليل: أن خبر الابتداء فيمن جعل «ما» ابتداء على قراءة من فتح اللام هو في قوله: ﴿مَنْ كُتِبَ عَلَيْهِ حِكْمَةٌ﴾ ولا أعرف من أين حكيه لأنه مفسد لمعنى الآية لا يليق بسيبويه، والخليل، وإنما الخبر في قوله، ﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ كما قال أبو علي الفارسي ومن جرى مجراه كالزجاج وغيره، وقرأ الحسن: «لَمَّا آتَيْنَاكُمْ» بفتح اللام وشدها قال أبو إسحاق: أي لما آتاكم الكتاب والحكمة أخذ الميثاق، وتكون اللام تؤول إلى الجزاء، كما تقول لما جتني أكرمك.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: ويظهر أن «لما» هذه هي الظرفية أي لما كنتم بهذه الحال، رؤساء الناس وأماثلهم، أخذ عليكم الميثاق، إذ على القادة يؤخذ، فيجيء هذا المعنى كالمعنى في قراءة حمزة، وذهب ابن جني في «لما» في هذه الآية إلى أن أصلها «لمن ما»، وزيدت «من» في الواجب على مذهب الأخفش، ثم أدغمت، كما يجب في مثل هذا، فجاء لهما، فثقل اجتماع ثلاث ميمات فحذفت الميم الأولى فبقي «لما»، وتفسر هذه القراءة على هذا التوجيه المحلق تفسر «لما» بفتح الميم مخففة، وقد تقدم، وقرأ نافع وحده، «آتَيْنَاكُمْ» بالنون، وقرأ الباقون، «آتَيْنَاكُمْ» بالتاء، و﴿رسول﴾ في هذه الآية اسم جنس، وقال كثير من المفسرين: الإشارة بذلك إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وفي مصحف ابن مسعود: «مصدقاً» بالنصب على الحال.

قوله تعالى :

قَالَ أَقَرَّرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقَرَّرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾
فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ
مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

هذه الآية هي وصف توقيف الأنبياء على إقرارهم بهذا الميثاق والتزامهم له وأخذ عهد الله فيه ، وذلك
يحتمل موطن القسم ، ويحتمل أن يراد بهذه العبارة الجامعة وصف ما فعل مع كل نبي في زمنه ،
﴿وأخذتم﴾ في هذه الآية عبارة عما تحصل لهم من إتياء الكتاب والحكمة فمن حيث أخذ عليهم أخذوا
هم أيضاً وقال الطبري : ﴿أخذتم﴾ في هذه الآية معناه : قبلتم ، و«الإصر» : العهد ، لا تفسير له في هذا
الموضع إلا لذلك ، وقوله تعالى ﴿فاشهدوا﴾ يحتمل معنيين : أحدهما فاشهدوا على أمتكم المؤمنين بكم ،
وعلى أنفسكم بالتزام هذا العهد ، هذا قول الطبري وجماعة ، والمعنى الثاني ، بثوا الأمر عند أمتكم
واشهدوا به ، وشهادة الله تعالى هذا التأويل ، وفي التي في قوله ﴿وأنا معكم من الشاهدين﴾ هي إعطاء
المعجزات وإقرار نبوءاتهم ، هذا قول الزجاج وغيره .

قال القاضي أبو محمد : فتأمل أن القول الأول هو إيداع الشهادة واستحفاظها ، والقول الثاني هو الأمر
بأدائها ، وحكم الله تعالى بالفسق على من تولى من الأمم بعد هذا الميثاق ، قاله علي بن أبي طالب رضي
الله عنه وغيره ويحتمل أن يريد بعد الشهادة عند الأمم بهذا الميثاق على أن قوله ، ﴿فاشهدوا﴾ أمر بالأداء
وقرأ أبو عمرو : «يَبْغُونَ» بالياء مفتوحة ، و«تُرْجَعُونَ» بالتاء مضمومة ، وقرأ عاصم ، «يَبْغُونَ» و«يرجعون»
بالياء معجمة من تحت فيهما ، وقرأ الباقر بالتاء فيهما ، ووجه هذه القراءات لا تخفى بأدنى تأمل
و«تَبْغُونَ» معناه : تطلبون ، و«أَسْلَمَ» في هذه الآية بمعنى : استسلم عند جمهور المفسرين ، و«من» في
هذه الآية تعم الملائكة والنفوس ، واختلفوا في معنى قوله ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ فقال مجاهد : هذه الآية كقوله
تعالى : ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله﴾ [الزمر : ٣٨] فالمعنى أن إقرار كل كافر
بالصانع هو إسلام كرهاً .

قال الفقيه الإمام أبو محمد : فهذا عموم في لفظ الآية ، لأنه لا يبقى من لا يسلم على هذا التأويل
و«أَسْلَمَ» فيه بمعنى استسلم ، وقال بمثل هذا القول أبو العالية رفيع ، وعبارته رحمه الله : كل آدمي فقد أقر
على نفسه بأن الله ربي وأنا عبده ، فمن أشرك في عبادته فهذا الذي أسلم كرهاً ، ومن أخلص فهذا الذي
أسلم طوعاً ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : بل إسلام الكاره منهم كان حين أخذ الميثاق ، وروي عن
مجاهد أنه قال : الكره في هذه الآية هو بسجود ظل الكافر فيسجد المؤمن طوعاً ويسجد الكافر وهو كاره ،
وقال الشعبي : الآية عبارة عن استقادة جميع البشر لله وإذعانهم لقدرته وإن نسب بعضهم الألوهية إلى
غيره ، وذلك هو الذي يسجد كرهاً .

قال الفقيه الإمام : وهذا هو قول مجاهد وأبي العالية المتقدم وإن اختلفت العبارات ، وقال الحسن بن

أبي الحسن: معنى الآية: أنه أسلم قوم طوعاً، وأسلم قوم خوف السيف، وقال مطر الوراق: أسلمت الملائكة طوعاً، وكذلك الأنصار وبنو سليم وعبد القيس، وأسلم سائر الناس كرهاً حذر القتال والسيف.

قال الفقيه الإمام: وهذا قول الإسلام فيه هو الذي في ضمنه الإيمان، والآية ظاهرها العموم، ومعناها الخصوص، إذ من أهل الأرض من لم يسلم طوعاً ولا كرهاً على هذا الحد، وقال قتادة: الإسلام كرهاً هو إسلام الكافر عند الموت والمعاناة حيث لا ينفعه.

قال الفقيه الإمام: ويلزم على هذا أن كل كافر يفعل ذلك، وهذا غير موجود إلا في أفراد، والمعنى في هذه الآية، يفهم كل ناظر أن هذا القسم الذي هو الكره إنما هو في أهل الأرض خاصة، والتوقيف بقوله ﴿أَفْغِير﴾ إنما هو لمعاصري محمد صلى الله عليه وسلم من الأجبار والكفار، وقرأ أبو بكر عن عاصم، وأصري، «بضم الألف وهي لغة».

قوله تعالى:

قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ
مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾

المعنى: قل يا محمد أنت وأمتك: ﴿ءَامَنَّا بالله وما أنزل علينا﴾ وهو القرآن وأمر محمد صلى الله عليه وسلم والإنزال على نبي الأمة إنزال عليها، وقدم إسماعيل لسنة، وسائر الآية بين، ثم حكم تعالى في قوله ﴿ومن يتبع﴾ الآية بأنه لا يقبل من آدمي ديناً غير دين الإسلام، وهو الذي وافق في معتقاداته دين كل من سمي من الأنبياء، وهو الحنيفية السمحة، وقال عكرمة: لما نزلت قال أهل الملل للنبي صلى الله عليه وسلم: قد أسلمنا قبلك ونحن المسلمون، فقال الله له: فحجهم يا محمد وأنزل عليه ﴿والله على الناس حج البيت﴾ [آل عمران: ٩٧] فحج المسلمون وقعد الكفار، وأسند الطبري عن ابن عباس أنه قال: نزلت ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر﴾، إلى قوله ﴿ولا هم يحزنون﴾ [البقرة: ٦٢] فأنزل الله بعدها، ﴿ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ الآية.

قال الفقيه الإمام: فهذه إشارة إلى نسخ، وقوله ﴿في الآخرة﴾ متعلق بمقدر، تقديره خاسر في الآخرة لأن الألف واللام في ﴿الخاسرين﴾ في معنى الموصول، وقال بعض المفسرين: إن قوله ﴿ومن يتبع﴾ الآية، نزلت في الحارث بن سويد، ولم يذكر ذلك الطبري.

قوله تعالى:

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ

أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآيات من قوله: ﴿كيف يهدي الله﴾ نزلت في الحارث بن سويد الأنصاري، كان مسلماً ثم ارتد ولحق بالشرك، ثم ندم فأرسل إلى قومه أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم هل لي من توبة؟

قال: فنزلت ﴿كيف يهدي الله﴾ الآيات، إلى قوله ﴿إلا الذين تابوا﴾ فأرسل إليه قومه فأسلم، وقال مجاهد: حمل الآيات إليه رجل من قومه فقرأها عليه، فقال له الحارث: إنك والله لما علمت لصدوق، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصدق منك، وإن الله لأصدق الثلاثة، قال: فرجع الحارث فأسلم وحسن إسلامه، وقال السدي: نسخ الله تعالى، بقوله: ﴿إلا الذين تابوا﴾ قوله ﴿أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله﴾.

قال الفقيه أبو محمد: وفي هذه العبارة تجوز كثير، وليس هذا بموضع نسخ، وقال عكرمة: نزلت هذه الآية في أبي عامر الراهب والحارث بن سويد بن الصامت ووحوش بن الأسلت في اثني عشر رجلاً، رجعوا عن الإسلام ولحقوا بقريش ثم كتبوا إلى أهلهم هل لنا من توبة؟ فنزلت هذه الآيات وقال ابن عباس أيضاً والحسن بن أبي الحسن: إن هذه الآيات نزلت في اليهود والنصارى، شهدوا بنعت الرسول صلى الله عليه وسلم وآمنوا به، فلما جاء من العرب حسدوه، وكفروا به ورجح الطبري هذا القول، وقال النقاش: نزلت هذه الآيات في طعيمة بن أبيرق.

وقال الفقيه القاضي: وكل من ذكر فالفاظ الآية تعممه.

وقوله تعالى: ﴿كيف﴾ سؤال عن حال لكنه سؤال توقيف على جهة الاستبعاد للأمر كما قال عليه السلام: كيف تفلح أمة أدمت وجه نبيها؟ فالمعنى أنهم لشدة هذه الجرائم يبعد أن يهديهم الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿وشهدوا﴾ عطف على ﴿كفروا﴾ بحكم اللفظ، والمعنى مفهوم أن الشهادة قبل الكفر، والواو لا ترتب، وقال قوم: معنى قوله ﴿بعد إيمانهم﴾ بعد أن آمنوا، فقوله ﴿وشهدوا﴾ عطف على هذا التقدير، وقوله تعالى ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ عموم معناه الخصوص فيمن حتم كفره وموافاته عليه، ويحتمل أن يريد الإخبار عن أن الظالم في ظلمه ليس على هدى من الله، فتجيء الآية عامة تامة العموم، و«اللجنة» الإبعاد وعدم الرحمة والعطف، وذلك مع قرينة الكفر زعيم بتخليدهم في النار، ولعنة الملائكة قول، و«الناس»: بنو آدم، ويظهر من كلام أبي علي الفارسي في بعض تعاليقه، أن الجن يدخلون في لفظة الناس، وأنشد على ذلك: [الوافر]

فَقُلْتُ إِلَى الطَّعَامِ فَقَالَ مِنْهُمْ أَنْسَ يَحْسُدُ الْأَنْسَ الطَّعَامَا

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: والذي يظهر، أن لفظة «الناس» إذا جاءت مطلقة، فإنما هي في كلام العرب بنو آدم لا غير، فإذا جاءت مقيدة بالجن، فذلك على طريقة الاستعارة، إذ هي

جماعة كجماعة، وكذلك ﴿برجال من الجن﴾ [الجن: ٦] وكذلك ﴿نفر من الجن﴾ [الجن: ١]، ولقطة نفر أقرب إلى الاشتراك من رجال وناس، وقوله تعالى: ﴿من الجنة والناس﴾ [الناس: ٦] قاض بتباين الصنفين، وقوله تعالى: ﴿والناس أجمعين﴾ إما يكون لمعنى الخصوص في المؤمنين ويلعن بعضهم بعضاً، فيجيء من هذا في كل شخص منهم أن لعنة جميع الناس، وإما أن يريد أن هذه اللعنة تقع في الدنيا من جميع الناس على من هذه صفته، وكل من هذه صفته - وقد أغواه الشيطان - يلعن صاحب الصفات ولا يشعر من نفسه أنه متصف بها، فيجيء من هذا أنهم يلعنهم جميع الناس في الدنيا حتى أنهم ليلعنون أنفسهم، لكن على غير تعيين، والضمير في قوله، ﴿خالدين فيها﴾ قال الطبري: يعود على عقوبة الله التي يتضمنها معنى اللعنة، وقال قوم من المفسرين: الضمير عائد على اللعنة.

قال الفقيه الإمام أبو محمد: وقرائن الآية تقتضي أن هذه اللعنة مخلدة لهم في جهنم، فالضمير عائد على النار، وإن كان لم يجر لها ذكر، لأن المعنى يفهمها في هذا الموضع كما يفهم قوله تعالى: ﴿كل من عليها فان﴾ [الرحمن: ٢٦] أنها الأرض، وقد قال بعض الخراسانيين في قوله تعالى: ﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾ [النازعات: ٤٥] إن الضمير عائد على النار و﴿ينظرون﴾ في هذه الآية، بمعنى يؤخرون، ولا راحة إلا في التخفيف أو التأخير فهما مرتفعان عنهم، ولا يجوز أن يكون ﴿ينظرون﴾ هنا من نظر العين إلا على توجيه غير فصيح لا يليق بكتاب الله تعالى وقوله جل وعز ﴿إلا الذين تابوا﴾ استثناء متصل يبين ذلك قوله تعالى: ﴿من بعد ذلك﴾ التوبة: الرجوع، والإصلاح عام في القول والعمل، وقوله تعالى: ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ وعد، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: «والناس أجمعون».

قوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾
 إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ
 أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٩١﴾

اختلف المتأولون في كيف يترتب كفر بعد إيمان، ثم زيادة كفر، فقال الحسن وقتادة وغيرهما: الآية في اليهود كفروا بعبسى بعد الإيمان بموسى ثم ﴿ازدادوا كفراً﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم.

قال الإمام أبو محمد: وفي هذا القول اضطراب، لأن الذي كفر بعبسى بعد الإيمان بموسى ليس بالذي كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم، فالآية على هذا التأويل تخلط الأسلاف بالمخاطبين، وقال أبو العالية رفيع: الآية في اليهود، كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد إيمانهم بصفاته وإقرارهم أنها في التوراة، ثم ازدادوا كفراً بالذنوب التي أصابوها في خلاف النبي صلى الله عليه وسلم، من الافتراء والبهت والسعي على الإسلام وغير ذلك.

قال الإمام أبو محمد: وعلى هذا الترتيب يدخل في الآية المرتدون اللاحقون بقريش وغيرهم، وقال

مجاهد: معنى قوله ﴿ثم ازدادوا كفراً﴾ أي تموا على كفرهم وبلغوا الموت به، فدخل في هذا القول اليهود والمتردون، وقال السدي نحوه، ثم أخبر تعالى أن توبة هؤلاء لن تقبل، وقد قررت الشريعة أن توبة كل كافر تقبل، سواء كفر بعد إيمان وازداد كفراً، أو كان كافراً من أول أمره، فلا بد في هذه الآية من تخصيص تحمل عليه ويصح به نفي قبول التوبة فقال الحسن وقتادة ومجاهد والسدي: نفي قبول توبتهم مختص بوقت الحشرجة والغرغة والمعانية، فالمعنى ﴿لن تقبل توبتهم﴾ عند المعانية، وقال أبو العالية: معنى الآية: لن تقبل توبتهم من تلك الذنوب التي أصابوها مع إقامتهم على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم، فإنهم كانوا يقولون في بعض الأحيان: نحن نتوب من هذه الأفعال، وهم مقيمون على كفرهم، فأخبر الله تعالى، أنه لا يقبل تلك التوبة.

قال الفقيه الإمام: وتحتل الآية عندي أن تكون إشارة إلى قوم بأعيانهم من المرتدين ختم الله عليهم بالكفر، وجعل ذلك جزاء لجريمتهم ونكايتهم في الدين، وهم الذين أشار إليهم بقوله ﴿كيف يهدي الله قوماً﴾ [آل عمران: ٨٦] فأخبر عنهم أنهم لا تكون لهم توبة فيتصور قبولها، فتجيء الآية بمنزلة قول الشاعر:

(على لاحب لا يهتدى بمناره)

أي قد جعلهم الله من سخطه في حيز من لا تقبل له توبة إذ ليست لهم، فهم لا محالة يموتون على الكفر، ولذلك بين حكم الذين يموتون كفاراً بعقب الآية، فبانت منزلة هؤلاء، فكانه أخبر عن هؤلاء المعينين، أنهم يموتون كفاراً، ثم أخبر الناس عن حكم من يموت كافراً و﴿الضالون﴾ المخطئون الطريق القويم في الأقوال والأفعال، وقرأ عكرمة: «لن تقبل» بنون العظمة «توبتهم» بنصب التاء.

وقوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار﴾ الآية، جزم للحكم على كل مواف على الكفر إلى يوم القيامة، وقرأ عكرمة: «فلن تقبل» بنون العظمة «ملء الأرض» بالنصب، و«الملء» ما شحن به الوعاء، فهو بكسر الميم الاسم وفتحتها المصدر، تقول ملأت الشيء أملؤه ملأً والملء اسم ما ملأت به، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وأبو السمال: «مل» دون همزة، ورويت عن نافع و«ذهباً» نصب على التمييز، وقرأ ابن أبي عبله: «ذهباً لو افتدى» به، دون واو، واختلف الناس في هذه الآية في قوله ﴿ولو افتدى﴾ فقال الطبري: هي متعلقة بمحذوف في آخر الكلام دل عليه دخول الواو، كما دخلت في قوله ﴿وليكون من الموقنين﴾ [الأنعام: ٧٥] لمتروك من الكلام، تقديره وليكون من الموقنين أربناء ملكوت السماوات والأرض.

قال الفقيه الإمام: وفي هذا التمثيل نظر فتأمله، وقال الزجاج: المعنى: لن يقبل من أحدهم إنفاقه وتقرباته في الدنيا «ولو أنفق ملء الأرض ذهباً ولو افتدى» أيضاً به في الآخرة لم يقبل منه، قال: فأعلم الله أنه لا يشيهم على أعمالهم من الخير، ولا يقبل منهم الافتداء من العذاب.

قال الفقيه الإمام أبو محمد: وهذا قول حسن، وقال قوم: الواو زائدة وهذا قول مردود، ويحتمل أن

يكون المعنى نفي القبول جملة على كل الوجه، ثم خص من تلك الوجوه أليقها وأحراها بالقبول، كما تقول: أنا لا أفعل لك كذا بوجه، ولورغبت إلي، وباقي الآية وعيد بين قوله تعالى:

لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ الْتَّورَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّورَةِ فَأْتَلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾

ذهب بعض الناس إلى أن يصل معاني هذه الآيات بعضها ببعض، من حيث أخبر تعالى: أنه لا يقبل من المواقف على الكفر ﴿ملء الأرض ذهباً﴾ [آل عمران: ٩١] وقد بان أنه يقبل من المؤمن القليل والكثير، فحضر على الإنفاق من المحبوب المرغوب فيه، ثم ذكر تقرب إسرائيل عليه السلام، بتحريم ما كان يجب على نفسه، ليدل تعالى على أن جميع التقربات تدخل بالمعنى في جملة الإنفاق من المحبوب، وفسر جمهور المفسرين هذه الآيات، على أنها معان منجزة، نظمتها الفصاحة المعجزة أجمل نظم، وقوله تعالى ﴿لَنْ تَنَالُوا﴾ الآية، خطاب لجميع المؤمنين، وقال السدي وعمر بن ميمون: ﴿البر﴾ الجنة.

قال الفقيه الإمام: وهذا تفسير بالمعنى، وإنما الخاص باللفظة أنه ما يفعله البر من أفعال الخير، فتحتمل الآية أن يريد: لن تنالوا بر الله تعالى بكم، أي رحمته ولطفه، ويحتمل أن يريد: لن تنالوا درجة الكمال من فعل البر حتى تكونوا أبراراً، إلا بالإنفاق المنضاف إلى سائر أعمالكم، وبسبب نزول هذه الآية، تصدق أبو طلحة بجائته، المسمى ببراء، وتصدق زيد بن حارثة بفرس كان يحبها، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة ابنه، فكان زيداً شق عليه فقال له النبي: أما إن الله قد قبل صدقتك، وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري أن يشتري له جارية من سبي جلواء وقت فتح مدائن كسرى على يدي سعد بن أبي وقاص فسيقت إليه وأحبها فدعا بها يوماً وقال: إن الله يقول ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، فأعتقها.

قال الفقيه الإمام أبو محمد: فهذا كله حمل للآية على أن قوله تعالى: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي من رغائب الأموال التي يرضى بها، ويُفسر بقول النبي صلى الله عليه وسلم: خير الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى - الحديث - وذهب قوم من العلماء إلى أن ما يجب من المطعمات على جهة الاشتهاه يدخل في الآية، فكان عبد الله بن عمر، يشتهي أكل السكر بالوز فكان يشتري ذلك ويتصدق به ويتلو الآية.

قال الفقيه الإمام أبو محمد: وإذا تأملت جميع الطاعات، وجدتها إنفاقاً مما يحب الإنسان، إما من ماله، وإما من صحته، وإما من دعوته وترفعه، وهذه كلها محبوبات، وسأل رجل أبا ذر الغفاري رضي الله عنه، أي الأعمال أفضل؟ فقال: الصلاة عماد الإسلام، والجهد سنام العمل، والصدقة شيء عجيب، فقال

له الرجل: أراك تركت شيئاً وهو أوثقها في نفسي الصيام، فقال أبو ذر: قرينة وليس هناك، ثم تلا ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ﴾ الآية، وقوله تعالى ﴿وَمَا تَنفَقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ شرط وجواب فيه وعد، أي عليم مجاز به وإن قل.

قوله تعالى: ﴿كُلِ الطَّعَامِ﴾ الآية، إخبار بمغيب عن محمد صلى الله عليه وسلم وجميع الأميين لا يعلمه إلا الله وعلماء أهل الكتاب، وذهب كثير من المفسرين إلى أن معنى الآية: الرد على اليهود في قولهم في كل ما حرموه على أنفسهم من الأشياء: إنها محرمة عليهم بأمر الله في التوراة، فأكذبهم الله بهذه الآية، وأخبر أن جميع الطعام كان حلالاً لهم، إلا ما حرم إسرائيل على نفسه خاصة، ولم يرد به ولده، فلما استنوا هم به جاءت التوراة بتحريم ذلك عليهم، وليس من التوراة شيء من الزوائد التي يدعون أن الله حرمها، وإلى هذا تنحو ألفاظ السدي، وقال: إن الله تعالى حرم ذلك عليهم في التوراة عقوبة لاستنائهم في تحريم شيء إنما فعله يعقوب خاصة لنفسه، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿بِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: والظاهر في لفظة ظلم أنها مختصة بتحريم ونحوه، يدل على ذلك أن العقوبة وقعت بذلك النوع، وذهب قوم من العلماء إلى أن معنى الآية: الرد على قوم من اليهود قالوا: إن ما نحرمة الآن على أنفسنا من الأشياء التي لم تذكر في التوراة كان علينا حراماً في ملة أبينا إبراهيم، فأكذبهم الله وأخبر أن الطعام كله كان حلالاً لهم قبل التوراة ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ﴾ في خاصته، ثم جاءت التوراة بتحريم ما نصت عليه، وبقيت هذه الزوائد في حيز افتراءهم وكذبهم، وإلى هذا تنحو ألفاظ ابن عباس رضي الله عنهما وترجم الطبري في تفسير هذه الآية بتراجم، وأدخل تحتها أقوالاً توافق تراجمه، وحمل ألفاظ الضحاك أن الاستثناء منقطع وكان المعنى: كل الطعام كان حلالاً لهم قبل نزول التوراة وبعد نزولها.

قال الفقيه الإمام أبو محمد: فيرجع المعنى إلى القول الأول الذي حكيناه، وحمل الطبري قول الضحاك إن معناه: لكن إسرائيل حرم على نفسه خاصة ولم يحرم الله على بني إسرائيل في تورا ولا غيرها.

قال الفقيه الإمام: وهذا تحمیل يرد عليه قوله تعالى: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٦] وقوله صلى الله عليه وسلم: حرمت عليهم الشحوم إلى غير ذلك من الشواهد، وقوله تعالى: ﴿حَلَالٌ﴾ معناه: حلالاً، و﴿إِسْرَائِيلُ﴾ هو يعقوب، وانتزع من هذه الآية أن للأنبياء أن يحرموا باجتهادهم على أنفسهم ما اقتضاه النظر لمصلحة أو قرينة أو زهد، ومن هذا على جهة المصلحة تحريم النبي صلى الله عليه وسلم جاريته، فعاتبه الله تعالى في ذلك ولم يعاتب يعقوب، فقيل: إن ذلك لحق آدمي ترتب في نازلة نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم وقيل: إن هذا تحريم تقرب وزهد، وتحريم الجارية تحريم غضب ومصلحة نفوس، واختلف الناس في الشيء الذي حرمه يعقوب على نفسه فقال يوسف بن ماهك: جاء أعرابي إلى ابن عباس فقال له: إنه جعل امرأته عليه حراماً، فقال ابن عباس: إنها ليست عليك بحرام، فقال الأعرابي: ولم؟

والله تعالى يقول في كتابه ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلَ عَلَى نَفْسِهِ﴾ فضحك ابن عباس وقال: وما يدريك ما حرم إسرائيل؟ ثم أقبل على القوم يحدثهم، فقال: إن إسرائيل عرضت له الأنساء فأضتته فجعل الله أن شفاه من ذلك أن لا يطعم عرقاً، قال: فلذلك اليهود تنزع العروق من اللحم، وقال بمثل هذا القول قتادة وأبو مجلز وغيرهم، وقال ابن عباس والحسن بن أبي الحسن وعبد الله بن كثير ومجاهد أيضاً: إن الذي حرم إسرائيل هو لحوم الإبل وألبانها، ولم يختلف فيما علمت أن سبب التحريم هو بمرض أصابه، فجعل تحريم ذلك شكراً لله تعالى إن شفي، وقيل: هو وجع عرق النساء، وفي حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أن عصابة من بني إسرائيل قالوا له: يا محمد ما الذي حرم إسرائيل على نفسه؟ فقال لهم: أنشدكم بالله هل تعلمون أن يعقوب مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه فنذر الله نذراً إن عافاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحوم الإبل وألبانها؟ قالوا: اللهم نعم، وظاهر الأحاديث والتفاسير في هذه الأمر أن يعقوب عليه السلام حرم لحوم الإبل وألبانها، وهو يحبها، تقريباً إلى الله بذلك، إذ ترك الترفه والتنعم من القرب، وهذا هو الزهد في الدنيا، وإليه نحا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله: إياكم وهذه المجازر فإن لها ضراوة كضراوة الخمر ومن ذلك قول أبي حازم الزاهد، وقد مر بسوق الفاكهة فرأى محاسنها فقال: موعدك الجنة إن شاء الله، وحرم يعقوب عليه السلام أيضاً العروق، لكن بغضة لها لما كان امتحن بها، وهذا شيء يعتري نفوس البشر في غير ما شيء وليس في تحريم العروق قرينة فيما يظهر، والله أعلم، وقد روي عن ابن عباس: أن يعقوب حرم العروق ولحوم الإبل، وأمر الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يأمرهم بالإتيان بالتوراة، حتى يبين منها كيف الأمر، المعنى: فإنه أيها اليهود، كما أنزل الله عليّ لا كما تدعون أنتم، قال الزجاج: وفي هذا تعجيز لهم وإقامة الحجة عليهم، وهي كقصّة المباهلة مع نصارى نجران.

قوله تعالى:

فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾

قوله: ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ تحتل الإشارة - بذلك - أن تكون إلى ثلاثة أشياء: أحدها: أن تكون إلى التلاوة إذ مضمونها بيان المذهب وقيام الحجة، أي فمن كذب منا على الله تعالى أو نسب إلى كتب الله ما ليس فيها فهو ظالم واضح الشيء غير موضعه، والآخر: أن تكون الإشارة إلى استقرار التحريم في التوراة، لأن معنى الآية: ﴿كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه﴾ [آل عمران: ٩٣]، ثم حرّمته التوراة عليهم عقوبة لهم، ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾، وزاد في المحرمات فهو الظالم، والثالث: أن تكون الإشارة إلى الحال بعد تحريم إسرائيل على نفسه، وقبل نزول التوراة، أي من تسنن بيعقوب وشرع ذلك دون إذن من الله، ومن حرم شيئاً ونسبه إلى ملة إبراهيم فهو

الظالم، ويؤيد هذا الاحتمال الأخير، قوله تعالى ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾ [النساء: ١٦٠] فنص على أنه كان لهم ظلم في معنى التحليل والتحریم، وكانوا يشددون فسد الله عليهم، كما فعلوا في أمر البقرة، وبخلاف هذه السيرة جاء الإسلام في قوله صلى الله عليه وسلم: يسروا ولا تعسروا، وقوله: دين الله يسر وقوله: بعثت بالحنيفية، ثم أمر الله تعالى نبيه أن يصدع بالخلاف والجدال مع الأحزاب بقوله ﴿قل صدق الله﴾ أي الأمر كما وصف لا كما تكذبون أنتم، فإن كنتم تعتزون بإبراهيم فاتبعوا ملته على ما ذكر الله، وقرأ أبان بن تغلب: «قل صدق»، بإدغام اللام في الصاد، وكذلك: قل سيروا، قرأها بإدغام اللام في السين، قال أبو الفتح: علة جواز ذلك فشوا هذين الحرفين في الفم وانتشار الصدى المنبث عنها فقاربا بذلك مخرج اللام، فجاز إدغامها فيهما، وقرأ جمهور الناس: «وُضِع» على بناء الفعل للمفعول على معنى وضعه الله، فالآية على هذا ابتداء معنى منقطع من الكلام الأول، وقرأ عكرمة، «وَضِع» بفتح الواو والضاد، فيحتمل أن يريد: وضع الله، فيكون المعنى منقطعاً كما هو في قراءة الجمهور، ويحتمل أن يريد وضع إبراهيم عليه السلام، فيكون المعنى متصلاً بالذي قبله، وتكون هذه الآية استدعاء لهم إلى ملته، في الحج وغيره على ما روى عكرمة: أنه لما نزلت ﴿ومن يتبع غير الإسلام ديناً﴾ الآية، قال اليهود: نحن على الإسلام فقرئت، ﴿ولله على الناس حج البيت﴾ [آل عمران: ٩٧] قيل له: أحجهم يا محمد، إن كانوا على ملة إبراهيم التي هي الإسلام.

قال القاضي أبو محمد: ويؤيد هذا التأويل ما قال أبو ذر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أي مسجد وضع أول؟ قال: المسجد الحرام، قلت ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال أربعون سنة، فيظهر من هذا أنهما من وضع إبراهيم جميعاً، ويضعف ما قال الزجاج: من أن بيت المقدس من بناء سليمان بن داود، اللهم إلا أن يكون جده، وأين مدة سليمان من مدة إبراهيم؟ ولا مرية في أن إبراهيم وضع بيت مكة، وإنما الخلاف هل وضع بدءاً أو وضع تجديد؟ واختلف المفسرون في معنى هذه الآية التي في قوله: ﴿إن أول﴾ فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: معنى الآية أن أول بيت وضع مباركاً وهدى هذا البيت الذي ببكة وقد كانت قبله بيوت لم توضع وضعه من البركة والهدى، وقال قوم: بل هو أول بيت خلق الله تعالى ومن تحته دحيث الأرض.

قال الفقيه القاضي أبو محمد: ورويت في هذا أقاصيص من نزول آدم به من الجنة ومن تحديد ما بين خلقه ودحو الأرض، ونحو ما قال الزجاج: من أنه البيت المعمور أسانيداً ضعافاً فلذلك تركتها، وعلى هذا القول يجيء رفع إبراهيم القواعد تجديدياً، قال قتادة: ذكر لنا أن البيت أهبط مع آدم ورفع وقت الطوفان، واختلف الناس في «بكة»، فقال الضحاك وجماعة من العلماء: «بكة» هي مكة، فكأن هذا من إبدال الباء بالميم، على لغة مازن وغيرهم، وقال ابن جبير وابن شهاب وجماعة كثيرة من العلماء مكة الحرم كله، و«بكة» مزدحم الناس حيث يتباكون، وهو المسجد وما حول البيت، وقال مالك في سماع ابن القاسم من العتبية: «بكة» موضع البيت، ومكة غيره من المواضع، قال ابن القاسم: يريد القرية، قال الطبري: ما خرج عن موضع الطواف فهو مكة لا بكة، وقال قوم: «بكة»، ما بين الجبلين ومكة، الحرم كله، و«مباركاً» نصب على الحال، والعامل فيه على قول علي بن أبي طالب إنه أول بيت وضع بهذه الحال،

قوله: ﴿وَضَعُ﴾ والعامل فيه على القول الآخر الفعل الذي تتعلق به باء الجر في قوله ﴿بَيْكَةً﴾ تقديره: استقر بَيْكَةً مباركاً، وفي وصف البيت بـ ﴿هَدًى﴾ مجازية بليغة، لأنه مقوم مصلح، فهو مرشد، وفيه إرشاد، فجاء قوله، ﴿وَهَدًى﴾ بمعنى وذا هدى، ويحتمل أن يكون ﴿هَدًى﴾ في هذه الآية، بمعنى الدعاء، أي من حيث دعي العالمون إليه.

قوله تعالى:

فِيهِ ءَايَاتٌ يُبَيِّنُ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾

الضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾ عائد على البيت، وساغ ذلك مع كون «الآيات» خارجة عنه لأن البيت إنما وضع بحرمة وجميع فضائله، فهي فيه وإن لم تكن داخل جدرانه، وقرأ جمهور الناس: «آيات بينات» بالجمع، وقرأ أبي بن كعب وعمر وابن عباس: «آية بينة» على الإفراد، قال الطبري: يريد علامة واحدة المقام وحده، وحكي ذلك عن مجاهد.

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل أن يراد بالآية اسم الجنس فيقرب من معنى القراءة الأولى، واختلف عبارة المفسرين عن «الآيات البينات» فقال ابن عباس: من الآيات المقام، يريد الحجر المعروف والمشعر وغير ذلك.

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه: وهذا يدل على أن قراءته «آية» بالإفراد إنما يراد بها اسم الجنس، وقال الحسن بن أبي الحسن: «الآيات البينات» مقام إبراهيم، وإن من دخله كان آمناً، وقال مجاهد: المقام الآية، وقوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ كلام آخر.

قال القاضي أبو محمد: فرغ «مقام» على قول الحسن ومجاهد على البذل من ﴿آيات﴾، أو على خبر ابتداء تقديره من مقام إبراهيم، وعلى قول ابن عباس ومن نحا نحوه: هو مرتفع بالابتداء وخبره محذوف مقدم تقديره: منهن ﴿مقام إبراهيم﴾.

قال القاضي: والمترجح عندي أن المقام وأمن الداخل جعلاً مثلاً مما في حرم الله من الآيات، وخصاً بالذكر لعظمهما، وأنهما تقوم بهما الحجة على الكفار، إذ هم مدركون لهاتين الآيتين بحواسهم، ومن آيات الحرم والبيت التي تقوم بها الحجة على الكفار أمر الفيل، ورمي طير الله عنه بحجارة السجيل، وذلك أمر لم تختلف كافة العرب في نقله وصحته إلى أن أنزله الله في كتابه، ومن آياته كف الجبابة عنه على وجه الدهر، ومن آياته الحجر الأسود، وما روي فيه أنه من الجنة وما أشربت قلوب العالم من تعظيمه قبل الإسلام، ومن آياته حجر المقام، وذلك أنه قام عليه إبراهيم عليه السلام، وقت رفعه القواعد من البيت، لما طال له البناء فكلما علا الجدار، ارتفع الحجر به في الهواء، فما زال يبني وهو قائم عليه وإسماعيل يناوله الحجارة والطين حتى أكمل الجدار، ثم إن الله تعالى، لما أراد إبقاء ذلك آية للعالمين لئلا يفسد الحجر، فغرت فيه قدما إبراهيم عليه السلام كأنها في طين، فذلك الأثر العظيم باق في الحجر إلى اليوم، وقد نقلت كافة العرب ذلك في الجاهلية على مرور الأعصار، وقال أبو طالب: [الطويل]

وَمَوْطِيءٍ إِبرَاهِيمَ فِي الصَّخْرِ رَطْبَةً عَلَى قَدَمَيْهِ حَافِيًا غَيْرَ نَاعِلٍ

فما حفظ أن أحداً من الناس نازع في هذا القول، ومن آياته البينات زمزم في نبعها لهاجر بهمز جبريل عليه السلام الأرض بعقبه، وفي حفر عبد المطلب لها آخراً بعد دثورها بتلك الرؤيا المشهورة، وبما نبع من الماء تحت خف ناقته في سفره، إلى منافرة قریش ومخاصمتها في أمر زمزم، ذكر ذلك ابن إسحاق مستوعباً، ومن آيات البيت نفع ماء زمزم لما شرب له، وأنه يعظم ماؤها في الموسم، ويكثر كثرة خارقة للعادة في الآبار، ومن آياته، الأمانة الثابتة فيه على قديم الدهر، وأن العرب كانت تغير بعضها على بعض ويتخطف الناس بالقتل، وأخذ الأموال وأنواع الظلم إلا في الحرم، وتركب على هذا أمن الحيوان فيه، وسلامة الشجر، وذلك كله للبركة التي خصه الله بها، والدعوة من الخليل عليه السلام في قوله، اجعل هذا بلداً آمناً، وإذعان نفوس العرب وغيرهم قاطبة لتوقيع هذه البقعة دون ناه، ولا زاجر، آية عظمى تقوم بها الحجة، وهي التي فسرت بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمناً﴾ ومن آياته كونه بواد غير ذي زرع، والأرزاق من كل قطر تجيء إليه عن قرب وعن بعد، ومن آياته، ما ذكر ابن القاسم العتقي رحمه الله، قال في النوادر وغيرها: سمعت أن الحرم يعرف بأن لا يجيء سيل من الحل فيدخل الحرم.

قال القاضي أبو محمد: هذا والله أعلم، لأن الله تعالى جعله ربوة أو في حكمها ليكون أصون له، والحرم فيما حكى ابن أبي زيد في الحج الثاني من النوادر. مما يلي المدينة نحو من أربعة أميال إلى منتهى التنعيم، ومما يلي العراق نحو من ثمانية أميال إلى مكان يقال له المقطع، ومما يلي عرفة تسعة أميال، ومما يلي طريق اليمن سبعة أميال، إلى موضع يقال له أضاة، ومما يلي جدة عشرة أميال إلى منتهى الحديبية، قال مالك في العتبية: والحديبية في الحرم، ومن آياته فيما ذكر مكى وغيره، أن الطير لا تعلوه، وإن علاه طائر فإنما ذلك لمرض به، فهو يستشفى بالبيت، وهذا كله عندي ضعيف، والطير تعاین تعلوه، وقد علته العقاب التي أخذت الحية المشرفة على جداره، وتلك كانت من آياته ومن آياته فيما ذكر الناس قديماً وحديثاً، أنه إذا عمه المطر من جوانبه الأربعة في العام الواحد، أخضبت آفاق الأرض، وإن لم يصب جانباً منه لم يخضب ذلك الأفق الذي يليه ذلك العام، واختلف الناس في ﴿مقام إبراهيم﴾، فقال الجمهور: هو الحجر المعروف، وقال قوم: البيت كله مقام إبراهيم لأنه بناه وقام في جميع أقطاره، وقال قوم من العلماء مكة كلها مقام إبراهيم، وقال قوم: الحرم كله مقام إبراهيم، والضمير في قوله، ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ﴾ عائذ على الحرم في قول من قال: مقام إبراهيم هو الحرم، وعائذ على البيت في قول الجمهور، إذ لم يتقدم ذكر غيره، إلا أن المعنى يفهم منه أن من دخل الحرم فهو في الأمن، إذ الحرم جزء من البيت، إذ هو بسببه ولحرمته.

واختلف الناس في معنى قوله ﴿كَانَ آمناً﴾ فقال الحسن وقتادة وعطاء ومجاهد وغيرهم: هذه وصف حال كانت في الجاهلية أن الذي يجز جريرة ثم يدخل الحرم، فإنه كان لا يتناول ولا يطلب فأما في الإسلام وأمن جميع الأقطار، فإن الحرم لا يمنع من حد من حدود الله، من سرق فيه قطع، ومن زنى رجم، ومن قتل قتل، واستحسن كثير ممن قال هذا القول أن يخرج من وجب عليه القتل إلى الحل فيقتل

هنالك، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: من أحدث حدثاً ثم استجار بالبيت فهو آمن، وإن الأمن في الإسلام كما كان في الجاهلية، والإسلام زاد البيت شرفاً وتوقيراً، فلا يعرض أحد بمكة لقاتل وليه، إلا أنه يجب على المسلمين ألا يبيعوا ذلك الجاني ولا يكلموه ولا يؤوه حتى يتبرم فيخرج من الحرم فيقام عليه الحد، وقال بمثل هذا عبيد بن عمير والشعبي وعطاء بن أبي رباح والسدي وغيرهم، إلا أن أكثرهم قالوا هذا فيمن يقتل خارج الحرم ثم يعوذ بالحرم، فأما من يقتل في الحرم، فإنه يقام عليه الحد في الحرم.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وإذا تؤمل أمر هذا الذي لا يكلم ولا يباع، فليس بآمن، وقال يحيى بن جعدة: معنى الآية ومن دخل البيت كان آمناً من النار، وحكى النقاش عن بعض العباد قال: كنت أطوف حول الكعبة ليلاً فقلت: يا رب إنك قلت: ﴿ومن دخله كان آمناً﴾، فمن ماذا هو آمن يا رب؟ فسمعت مكلماً يكلمني وهو يقول: من النار، فنظرت وتأملت فما كان في المكان أحد.

وقوله تعالى: ﴿والله على الناس حج البيت﴾ الآية، هو فرض الحج في كتاب الله بإجماع، وقال مالك رحمه الله: الحج كله في كتاب الله، فأما الصلاة والزكاة فهي من جملة الذي فسره النبي عليه السلام، والحج من دعائم الإسلام التي بني عليها حسب الحديث، وشروط وجوبه خمسة، البلوغ، والعقل، والحرية، والإسلام، واستطاعة السبيل، والحج في اللغة: القصد لكنه في بيت الله مخصص بأعمال وأقوال، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: «حج البيت» بكسر الحاء، وقرأ الباقون: «حج البيت» بفتحها، قال سيبويه: حج حجاً مثل ذكر ذكراً، قال أبو علي: فحج على هذا مصدر، وقال سيبويه أيضاً: قالوا غزاة فأرادوا عمل وجه واحد، كما قيل حجة.

قال القاضي: بكسر الحاء يريدون عمل سنة واحدة، ولم يجيئوا به على الأصل لكنه اسم له، قال أبو علي: قوله لم يجيئوا به على الأصل يريد على الفتح الذي هو الدفعة من الفعل، ولكن كسروه فجعلوه اسماً لهذا المعنى، كما أن غزاة كذلك، ولم تجيء فيه الغزوة وكان القياس.

قال القاضي: وأكثر ما التزم كسر الحاء في قولهم ذو الحجة، وأما قولهم حجة الوداع ونحوه فإنها على الأصل، وقال الزجاج وغيره، «الحج»: بفتح الحاء المصدر، وبكسرهما اسم العمل، وقال الطبري: هما لغتان الكسر لغة نجد، والفتح لغة أهل العالية.

وقوله تعالى: ﴿من استطاع إليه سبيلاً﴾، ﴿من﴾ في موضع خفض بدل من ﴿الناس﴾، وهو بدل البعض من الكل وقال الكسائي وغيره: هي شرط في موضع رفع بالابتداء، والجواب محذوف تقديره: من استطاع فعله الحج، وبدل عليه عطف الشرط الآخر بعده في قوله: ﴿ومن كفر﴾، وقال بعض البصريين: ﴿من﴾ رفع على أنه فاعل بالمصدر الذي هو ﴿حج البيت﴾ ويكون المصدر مضافاً إلى المفعول، واختلف الناس في حال مستطيع السبيل كيف هي؟ فقال عمر بن الخطاب وابن عباس وعطاء وسعيد بن جبير: هي حال الذي يجد زاداً وراحلة، وروى الطبري عن الحسن من طريق إبراهيم بن يزيد الخوزي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فقال له رجل: يا رسول الله ما السبيل؟ قال: الزاد والراحلة، وأسند الطبري إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من ملك زاداً وراحلة

فلم يحج فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً، وروى عبد الرزاق وسفيان عن إبراهيم بن يزيد الخوزي عن محمد بن عباد بن جعفر عن ابن عمر قال: قام رجل إلى النبي عليه السلام، فقال: ما السبيل؟ قال: الزاد والراحلة.

قال القاضي: وضعف قوم هذا الحديث، لأن إبراهيم بن يزيد الخوزي تكلم فيه ابن معين وغيره، والحديث مستغن عن طريق إبراهيم، وقال بعض البغداديين: هذا الحديث مشير إلى أن الحج لا يجب مشياً.

قال القاضي: والذي أقول: إن هذا الحديث إنما خرج على الغالب من أحوال الناس وهو البعد عن مكة واستصعاب المشي على القدم كثيراً، فأما القريب الدار فلا يدخل في الحديث، لأن القرب أغناه عن زاد وراحلة، وأما الذي يستطيع المشي من الأقطار البعيدة، فالراحلة عنده بالمعنى والقوة التي وهب، وقد ذكره الله تعالى في قوله: ﴿يَأْتُوكَ رَجَالاً﴾ [الحج: ٢٧] وكذلك أيضاً معنى الحديث: الزاد والراحلة لمن لم يكن له عذر في بدنه، من مرض أو خوف على أفسامه أو استحقاق بأجرة أو دين وهو يحاول الأداء ويطمع فيه بتصرفه في مال بين يديه، وأما العديم فله أن يحج إذا تكلف واستطاع، فمقصد الحديث: أن يتحدد موضع الوجوب على البعيد الدار، وأما المشاة وأصحاب الأعذار فكثير منهم من يتكلف السفر، وإن كان الحج غير واجب عليه، ثم يؤديه ذلك التكلف إلى موضع يجب فيه الحج عليه، وهذه مبالغة في طلب الأجر ونيله إن شاء الله تعالى، وذهبت فرقة من العلماء إلى قوله تعالى: ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ كلام عام لا يتفسر بزاد وراحلة ولا غير ذلك، بل إذا كان مستطيعاً غير شاق على نفسه فقد وجب عليه الحج، قال ذلك ابن الزبير والضحاك، وقال الحسن: من وجد شيئاً يبلغه فقد استطاع إليه سبيلاً، وقال عكرمة: استطاعة السبيل الصحة، وقال ابن عباس: من ملك ثلاثمائة درهم فهو السبيل إليه، وقال مالك بن أنس رضي الله عنه، في سماع أشهب من العتبية، وفي كتاب محمد، وقد قيل له: أتقول إن السبيل الزاد والراحلة؟ فقال: لا والله، قد يجد زاداً وراحلة ولا يقدر على سير، وآخر يقدر أن يمشي راجلاً، ورب صغير أجلد من كبير فلا صفة في هذا أبين مما قال الله تعالى.

قال القاضي: وهذا أنبل كلام، وجميع ما حكى عن العلماء لا يخالف بعضه بعضاً، الزاد والراحلة على الأغلب من أمر الناس في البعد، وأنهم أصحاب غير مستطيعين للمشي على الأقدام، والاستطاعة - متى تحصلت - عامة في ذلك وغيره، فإذا فرضنا رجلاً مستطيعاً للسفر ماشياً معتاداً لذلك، وهو ممن يسأل الناس في إقامته ويعيش من خدمتهم وسؤالهم ووجد صحابة، فالحج عليه واجب دون زاد ولا راحلة، وهذه من الأمور التي يتصرف فيها فقه الحال، وكان الشافعي يقول: الاستطاعة على وجهين: بنفسه أولاً، فمن منعه مرض أو عذر وله مال فعليه أن يجعل من يحج عنه وهو مستطيع لذلك.

واختلف الناس هل وجوب الحج على الفور أو على التراخي؟ على قولين، ولمالك رحمه الله مسائل تقتضي القولين، قال في المجموعة فيمن أراد الحج ومنعه أبواه: لا يعجل عليهما في حجة الفريضة وليستأذنهما العام والعامين، فهذا على التراخي، وقال في كتاب ابن الموزان: لا يحج أحد إلا بإذن أبويه إلا

الفريضة، فليخرج وليدعهما، فهذا على الفور، وقال مالك في المرأة يموت عنها زوجها فتريد الخروج إلى الحج: لا تخرج في أيام عدتها، قال الشيخ أبو الحسن اللخمي: فجعله على التراخي.

قال القاضي: وهذا استقراء فيه نظر، واختلف قول مالك رحمه الله فيمن يخرج إلى الحج على أن يسأل الناس جائياً وذاهباً ممن ليست تلك عادته في إقامته، فروى عنه ابن وهب أنه قال: لا بأس بذلك، قيل له فإن مات في الطريق قال: حسابه على الله، وروى عنه ابن القاسم أنه قال: لا أرى للذين لا يجدون ما ينفقون أن يخرجوا إلى الحج والغزو، ويسألوا وإنني لأكره ذلك، لقول الله سبحانه، ﴿ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج﴾ [التوبة: ٩١] قال ابن القاسم: وكره مالك أن يحج النساء في البحر لأنها كشفة، وكره أن يحج أحد في البحر إلا مثل أهل الأندلس الذين لا يجدون منه بداً، وقال في كتاب محمد وغيره: قال الله تعالى: ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾ [الحج: ٢٧] وما أسمع للبحر ذكراً.

قال الفقيه القاضي: وهذا تأنيس من مالك رحمه الله لسقوط لفظة البحر، وليس تقتضي الآية سقوط البحر، وسيأتي تفسير ذلك في موضعه إن شاء الله، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ناس من أمتي عرضوا عليّ ملوكاً على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة، يركبون ثبج هذا البحر الأخضر غزاة في سبيل الله.

قال القاضي أبو محمد: ولا فرق بين الغزو والحج، واختلف في حج النساء ماشيات مع القدرة على ذلك، فقال في المدونة في المرأة تنذر مشياً فتمشي وتعجز في بعض الطريق: إنها تعود ثانية، قال: والرجال والنساء في ذلك سواء، فعلى هذا، يجب الحج إذا كانت قادرة على المشي لأن حجة الفريضة أكد من النذر، وقال في كتاب محمد: لا أرى على المرأة الحج ماشية وإن قويت عليه، لأن مشيهن عورة، إلا أن يكون المكان القريب من مكة.

قال القاضي: وهذا ينظر بفقهاء الحال من رائحة ومتجالة، ولا حج على المرأة إلا إذا كان معها ذو محرم، واختلف إذا عدمته، هل يجب الحج بما هو في معناه من نساء ثقات يصطحبن في القافلة أو رجال ثقات؟ فقال الحسن البصري وإبراهيم النخعي وابن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبو حنيفة وأصحابه: المحرم من السبيل، ولا حج عليها إلا مع ذي محرم.

قال القاضي: وهذا وقوف مع لفظ الحديث، وقال مالك: تخرج مع جماعة نساء، وقال الشافعي: تخرج مع حرة ثقة مسلمة، وقال ابن سيرين: تخرج مع رجل ثقة من المسلمين، وقال الأوزاعي: تخرج مع قوم عدول وتتخذ سلماً تصعد عليه وتنزل ولا يقربها رجل.

قال القاضي: وهذه الأقوال راعت معنى الحديث، وجمهور الأمة على أن للمرأة أن تحج الفريضة وإن كره زوجها وليس له منعها، واضطرب قول الشافعي في ذلك، واختلف الناس في وجوب الحج مع وجود المكوس والغرامة، فقال سفيان الثوري: إذا كان المكس ولو درهماً سقط فرض الحج عن الناس، وقال عبد الوهاب: إذا كانت الغرامة كثيرة مجحفة سقط الفرض، فظاهر هذا أنها إذا كانت كثيرة غير

مصحفة لسعة الحال أن الفرض لا يسقط، وعلى هذا المنزع جماعة أهل العلم وعليه مضت الأعصار، وهذه نبذة من فقه الاستطاعة، وليس هذا الجمع بموضع لتقصي ذلك والله المستعان.

والسبيل - تذكر وتؤنث، والأغلب والأفصح التأنيث، قال الله تعالى: ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [آل عمران: ٩٩] وقال: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ [يوسف: ١٠٨] ومن التذكير قول كعب بن مالك.

قضى يوم بدر أن تسلاقي معشراً بغوا وسبيل البغي بالناس جائز

والضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾، عائد على البيت، ويحتمل أن يعود على الحج، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ قال ابن عباس: المعنى، من زعم أن الحج ليس بفرض عليه، وقال مثله الضحاك وعطاء وعمران القطان والحسن ومجاهد، وروي عن النبي عليه السلام أنه قرأ الآية، فقال له رجل من هذيل: يا رسول الله من تركه كفر، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم من تركه لا يخاف عقوبته، ومن حجه لا يرجو ثوابه فهو ذلك وقال بمعنى هذا الحديث ابن عباس ومجاهد أيضاً، وهذا والذي قبله يرجع إلى كفر الجحد والخروج عن الملة، وقال ابن عمر وجماعة من العلماء معنى الآية، من كفر بالله واليوم الآخر وهذا قريب من الأول، وقال ابن زيد: معنى الآية من كفر بهذه الآيات التي في البيت، وقال السدي وجماعة من أهل العلم: معنى الآية: ومن كفر بأن وجد ما يحج به ثم لم يحج، قال السدي: من كان بهذه الحال فهو كافر.

قال القاضي أبو محمد: فهذا كفر معصية، كقوله عليه السلام: من ترك الصلاة فقد كفر وقوله: لا ترجعوا بعدي كفاراً، يضرب بعضهم رقاب بعض، على أظهر احتملات هذا الحديث. وبين أن من أنعم الله عليه بمال وصحة ولم يحج فقد كفر النعمة، ومعنى قوله تعالى: ﴿غَنِيٌ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ الوعيد لمن كفر، والقصد بالكلام، فإن الله غني عنهم، ولكن عمم اللفظ ليبرع المعنى، ويتنبه الفكر على قدرة الله وسلطانه واستغناؤه من جميع الوجوه حتى ليس به افتقار إلى شيء، لا رب سواه.

قوله تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٨) ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٩)

هذه الآيات توبيخ لليهود المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم و﴿الكتاب﴾ التوراة، وجعلهم أهله بحسب زعمهم ونسبهم، وإلا فأهله على الحقيقة هم المؤمنون، و«آيات الله» يحتمل أن يريد بها القرآن، ويحتمل أن يراد بالآيات العلامات الظاهرة على يدي محمد صلى الله عليه وسلم، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ وعيد محض: أي يجازيكم به ويعاقبكم، قال الطبري: هاتان الآيتان قوله، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ وما بعدهما، إلى قوله ﴿أَوَّلُكُمْ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، نزلت بسبب رجل من يهود، حاول الإغواء بين الأوس والخزرج، قال ابن إسحاق: حدثني الثقة عن زيد بن أسلم، قال شاش ابن قيس اليهودي، وكان شيخاً قد عسى في الجاهلية، عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين، والحسد

لهم، على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج، وهم في مجلس يتحدثون، فغاضه ما رأى من جماعتهم، وصلاح ذات بينهم، بعد ما كان بينهم من العداوة فقال: قد اجتمع ملا بني قيلة بهذه البلاد، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شاباً من يهود، فقال أمد إليهم، واجلس معهم، وذكرهم يوم بعث، وما كان قبله من أيام حربهم، وأنشدهم ما قالوه من الشعر في ذلك، ففعل الفتى، فتكلم القوم عند ذلك فتفاخروا وتنازعوا، حتى تواتب رجلان من الحيين على الركب، أوس بن قيطي، أحد بني حارثة بن الحارث من الأوس، وجبار بن صخر من الخزرج، فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتُم والله رددناها الآن جذعة، فغضب الفريقان: وقالوا: قد فعلنا السلاح، موعدكم الظاهرة، يريدون الحرة، فخرجوا إليها، وتحاوز الناس على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية، وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين، فقال: يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، ووعظهم فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، فألقوا السلاح وبكوا وعانق الناس بعضهم بعضاً من الأوس والخزرج، وانصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، سامعين مطيعين فأنزل الله في شاس بن قيس وما صنع هذه الآيات، وقال الحسن وقتادة والسدي: إن هذه الآيات نزلت في أجبار اليهود الذين كانوا يصدون المسلمين عن الإسلام، بأن يقولوا لهم، إن محمداً ليس بالموصوف في كتابنا.

قال الفقيه الإمام: ولا شك في وقوع هذين السببين وما شاكلهما من أفعال اليهود وأقوالهم، فنزلت الآيات في جميع ذلك و«صد» معناه: أعرض عن الشيء وانصرف عنه، وهو فعل يقف ويتعدى بلفظ واحد، تقول: صددت عن كذا، وصددت غيري عنه، فالذي في هذه الآية هو الفعل المتعدي، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: «تُصدون» بضم التاء وكسر الصاد، وهذا هو الفعل الواقف، نقل بالهمزة فعدي، و«سبيل الله» في هذه الآية، هو الإسلام الذي هو طريق إلى رضى الله وجنته، و«من» مفعولة بـ «تصدون» والضمير في «تبغونها» عائد على السبيل، ومعنى «تبغون» على ما فسر الزجاج والطبري وغيرهما: تطلبون فالمعنى تطلبون لها العوج، أي الاعوجاج والانفساد، تقول العرب: أبغني كذا بألف موصولة، بمعنى اطلبه لي، فإذا أرادوا أعني على طلبه واطلبه معي، قطعوا الألف مفتوحة وقيل: إن تبغون هنا، من البغي الذي هو التعدي، أي تبغون عليها، ويكون، «عوجاً» على هذا التأويل نصبه على الحال من الضمير في «تبغون» أي «عوجاً» منكم وعدم استقامة، والعوج بكسر العين: ما كان في الأمور والحجج غير الأجرام، والعوج بفتح العين، ما كان في الأجرام، كالجدار والعصا ونحو ذلك، قال ابن قتيبة: والأرض خاصة من الأجرام يقال فيها: عوج بكسر العين، ومنه قول الله تعالى: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً﴾ [طه: ١٠٧] قال بعض اللغويين هما لغتان بمعنى واحد، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾، يريد جمع شاهد، على ما في التوراة من صفة محمد وصدقه، وباقي الآية وعيد.

قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ

تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

الخطاب بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عام في المؤمنين، والإشارة بذلك - وقت نزوله - إلى الأوس والخزرج بسبب نائرة شاس بن قيس، و«الفريق» - الجماعة من الناس والمراد بها هنا الأخبار والرؤوس، و﴿يردوكم﴾ معناه: بالإضلال والتشكيك والمخادعة وإظهار الغش في معرض النصح، ثم وقف تعالى المؤمنين على هذا الأمر المستبعد المستثنى الذي يريده بهم اليهود، فقال ﴿وكيف تكفرون وأنتم﴾ بهذه الأحوال الموصوفة؟ و﴿كيف﴾ في موضع نصب على الحال، كما هي في قوله تعالى: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم﴾ [البقرة: ٢٨] والمعنى أجاهدين تكفرون؟ أجاهلين أمستخفين أمرتدين؟ ونحو هذا من التقدير والواو في قوله: ﴿وكيف تكفرون﴾ عاطفة جملة كلام على جملة كلام، ولا يجوز أن تكون ﴿كيف﴾ في هذه الآية كما هي في قولك: كيف تفعل كذا، وأنت تسأل عن شيء ثابت الوقوع متحصلة، لأنه كان يلزم أن يكون كفر المؤمنين مقرراً مثبت الوقوع، وتأمل معنى ﴿كيف﴾ إذا وليها فعل، ومعناها إذا وليها اسم، وقرأ جمهور الناس «تتلى» بالياء من فوق، وقرأ الحسن: «تتلى» بالياء إذ الآيات هي القرآن، وقوله تعالى: ﴿وفيكلم﴾ هي ظرفية الحضور والمشاركة لشخصه عليه السلام، وهو في أمته إلى يوم القيامة، بأقواله وآثاره، و﴿يعتصم﴾ معناه: يتمسك ويستدري، وعصم الشيء إذا منع وحمي، ومنه قوله ﴿يعصمني من الماء﴾ [هود: ٤٣] والعصم الأسباب التي يمت بها، ويعتصم من الخيبة في الغرض المطلوب، وقال الأعشى: [المتقارب]

إِلَى الْمَرْءِ قَيْسٌ أَطِيلُ السُّرَى وَأَخُذُ مِنْ كُلِّ حَيٍّ عِصْمٍ
وتصرف اللفظة كثير جداً، وباقي الآية بين، والله المستعان.

قوله تعالى:

يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ۖ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ

الخطاب بهذه الآية يعم جميع المؤمنين، والمقصود به وقت نزولها الأوس والخزرج الذين شجر بينهم بسعاية شاس بن قيس ما شجر، و«تقاة» مصدر وزنه فعلة، أصله تقية، وقد تقدم قوله: إلا أن تتقوا منهم تقاة، ويصح أن تكون التقاة في هذه الآية جمع فاعل وإن كان لم يتصرف منه فيكون كرامة ورام، أو يكون جمع تقي إذ فاعل وفاعل بمنزلة، والمعنى على هذا: اتقوا الله كما يحق أن يكون متقوه المختصون به، ولذلك أضيفوا إلى ضمير الله تعالى، واختلف العلماء في قوله: ﴿حق تقاته﴾ فقالت فرقة: نزلت الآية على عموم لفظها، وألزمت الأمة أن تتقي الله غاية التقوى حتى لا يقع إخلال في شيء من الأشياء، ثم إن الله نسخ ذلك عن الأمة بقوله تعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ [التغابن: ١٦] ويقول: ﴿لا يكلف الله

نفساً إلا وسعها» [البقرة: ٢٨٦] قال ذلك قتادة والسدي والربيع بن أنس وابن زيد وغيرهم، وقالت جماعة من أهل العلم: لا نسخ في شيء من هذا، وهذه الآيات متفقات، فمعنى هذه: اتقوا الله حقَّ تقاته فيما استطعتم، وذلك أن ﴿حقَّ تقاته﴾ هو بحسب أوامره ونواهيه، وقد جعل تعالى الدين يسراً، وهذا هو القول الصحيح، وألا يعصي ابن آدم جملة لا في صغيرة ولا في كبيرة، وألا يفتر في العبادة أمر متعذر في جملة البشر، ولو كلف الله هذا لكان تكليف ما لا يطاق، ولم يلتزم ذلك أحد في تأويل هذه الآية، وإنما عبروا في تفسير هذه الآية بأن قال ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿حقَّ تقاته﴾: هو أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى، وكذلك عبر الربيع بن خيثم وقاتدة والحسن، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معنى قوله، ﴿واتقوا الله حقَّ تقاته﴾: جاهدوا في الله حقَّ جهاده ولا نسخ في الآية، وقال طاوس في معنى قوله تعالى: ﴿اتقوا الله حقَّ تقاته﴾: يقول تعالى، إن لم تتقوه ولم تستطيعوا ذلك فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون، وقوله تعالى: ﴿ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ معناه: دوموا على الإسلام حتى يوافيكم الموت وأنتم عليه. هكذا هو وجه الأمر في المعنى، وجاءت العبارة على هذا النظم الرائق الوجيز، ونظيره ما حكى سيبويه من قولهم: لا أرينك هاهنا، وإنما المراد: لا تكن هاهنا فتكون رؤيتي لك، و﴿مسلمون﴾ في هذه الآية، هو المعنى الجامع التصديق والأعمال، وهو الدين عند الله وهو الذي بني على خمس.

وقوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً﴾ معناه تمنعوا وتحصنوا به، فقد يكون الاعتصام بالتمسك باليد، وبارتقاء القنن، وبغير ذلك مما هو منعة، ومنه الأعصم في الجبل، ومنه عصمة النكاح، و«الحبل» في هذه الآية مستعار لما كان السبب الذي يعتصم به، وصلة ممتدة بين العاصم والمعصوم، ونسبة بينهما، شبه ذلك بالحبل الذي شأنه أن يصل شيئاً بشيء، وتسمى العهود والمواثيق حبالاً، ومنه قول الأعشى:

وَإِذَا تَجَوَّزَهَا جِبَالُ قَبِيلَةٍ أَخَذَتْ مِنَ الْأَدْنَىٰ إِلَيْكَ جِبَالَهَا

ومنه قول الآخر: [الكامل]

(إني بحبلِك واصلٌ حبلِي)

ومنه قول الله تعالى: ﴿الا بحبل من الله وحبل من الناس﴾ [آل عمران: ١١٢] واختلفت عبارة المفسرين في المراد في هذه الآية ﴿بحبل الله﴾، فقال ابن مسعود: «حبل الله» الجماعة، وروى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن بني إسرائيل افرقوا على إحدى وسبعين فرقة، وإن أمتي ستفرق على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة قال فليل يا رسول الله: وما هذه الواحدة؟ قال فقبض يده وقال: الجماعة وقرأ، ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً﴾، وقال ابن مسعود في خطبة: عليكم جميعاً بالطاعة والجماعة فإنها حبل الله الذي أمر به، وقال قتادة رحمه الله: «حبل الله» الذي أمر بالاعتصام به هو القرآن، وقال السدي: «حبل الله» كتاب الله، وقاله أيضاً ابن مسعود والضحاك، وروى أبو سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض، وقال أبو العالية: «حبل الله» في هذه الآية هو الإخلاص في التوحيد وقال ابن زيد: «حبل الله» هو الإسلام.

قال القاضي أبو محمد: وقيل غير هذا مما هو كله قريب بعضه من بعض، وقوله تعالى: ﴿جميعاً﴾ حال من الضمير في قوله، ﴿اعتصموا﴾، فالمعنى: كونوا في اعتصامكم مجتمعين. ﴿ولا تفرقوا﴾ يريد التفرق الذي لا يتأتى معه الائتلاف على الجهاد وحماية الدين وكلمة الله تعالى، وهذا هو الافتراق بالفتن والافتراق في العقائد، وأما الافتراق في مسائل الفروع والفقه فليس يدخل في هذه الآية، بل ذلك، هو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: خلاف أمتي رحمة، وقد اختلف الصحابة في الفروع أشد اختلاف، وهم يد واحدة على كل كافر، وأما الفتنة على علي بن أبي طالب رضي الله عنه فمن التفرق المنهي عنه، أما أن التأويل هو الذي أدخل في ذلك أكثر من دخله من الصحابة رضي الله عن جميعهم. قوله تعالى:

وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

هذه الآية تدل على أن الخطاب بهذه الآية إنما هو للأوس والخزرج، وذلك أن العرب وإن كان هذا اللفظ يصلح في جميعها فإنها لم تكن في وقت نزول هذه الآية اجتمعت على الإسلام ولا تألفت قلوبها، وإنما كانت في قصة شاس بن قيس في صدر الهجرة، وحينئذ نزلت هذه الآية، فهي في الأوس والخزرج، كانت بينهم عداوة وحروب، منها يوم بعث وغيره، وكانت تلك الحروب والعداوة قد دامت بين الحيين مائة وعشرين سنة، حتى رفعها الله بالإسلام، فجاء النفر الستة من الأنصار إلى مكة حجاجاً، ففرض رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه عليهم، وتلا عليهم القرآن، كما كان يصنع مع قبائل العرب، فأمّنوا به وأراد الخروج معهم، فقالوا يا رسول الله: إن قدمت بلادنا على ما بيننا من العداوة والحرب، خفنا أن لا يتم ما نريده منك، ولكن نمضي نحن ونشيع أمرك، ونداخل الناس، وموعدا وإياك العام القابل، فمضوا وفعلوا، وجاءت الأنصار في العام القابل، فكانت العقبة الثانية وكانوا اثني عشر رجلاً، فيهم خمسة من الستة الأولين، ثم جاؤوا من العام الثالث، فكانت بيعة العقبة الكبرى، حضرها سبعون وفيهم اثنا عشر نقيباً، ووصف هذه القصة مستوعب في سيرة ابن هشام، ويسر الله تعالى الأنصار للإسلام بوجهين، أحدهما أن بني إسرائيل كانوا مجاورين لهم وكانوا يقولون لمن يتعدونه من العرب، يبعث لنا نبي الآن تقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما رأى النفر من الأنصار محمداً صلى الله عليه وسلم، قال بعضهم لبعض: هذا والله النبي الذي تذكره بنو إسرائيل فلا تسبقن إليه، والوجه الآخر، الحرب التي كانت ضرتهم وأفتت سراتهم، فرجوا أن يجمع الله به كلمتهم كالذي كان، فعدد الله تعالى عليهم نعمته في تأليفهم بعد العداوة، وذكرهم بها، وقوله تعالى: ﴿فأصبحتم﴾ عبارة عن الاستمرار وإن كانت اللفظة مخصوصة بوقت ما، وإنما خصت هذه اللفظة بهذا المعنى من حيث هي مبدأ النهار، وفيها مبدأ الأعمال، فالحال التي يحسها المرء من نفسه فيها هي حاله التي يستمر عليها يومه في الأغلب، ومنه قول الربيع بن ضبع: [المنسرح]

أصبحت لا أحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرنا

و «الإخوان» جمع أخ، ويجمع إخوة، وهذان أشهر الجمع فيه، على أن سيئويه رحمه الله يرى أن إخوة اسم جمع، وليس ببناء جمع لأن فعلاً لا يجمع على فعلة، قال بعض الناس: الأخ في الدين يجمع إخواناً، والأخ في النسب يجمع إخوة: هكذا كثر استعمالهم.

قال القاضي أبو محمد. وفي كتاب الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ الحجرات: ١٠ وفيه، ﴿أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِمْ﴾ [النور: ٣١]، فالصحيح أنها يقالان في النسب، ويقالان في الدين، و «الشفاء» حرف كل جرم له مهوى، كالحفرة والبئر والجرف والسقف والجدار ونحوه، ويضاف في الاستعمال إلى الأعلى، كقوله ﴿شفاء جرف﴾ [التوبة: ١٠٩] وإلى الأسفل كقوله ﴿شفاء حفرة﴾، ويشئ شفوان، فشبه تعالى كفرهم الذي كانوا عليه وحربهم المدنية من الموت بالشفاء، لأنهم كانوا يسقطون في جهنم دأباً، فأنقذهم الله بالإسلام، والضمير في ﴿منها﴾ عائذ على النار، أو على «الحفرة»، والعود على الأقرب أحسن، وقال بعض الناس حكاه الطبري: إن الضمير عائذ على «الشفاء»، وأنث الضمير من حيث كان الشفاء مضافاً إلى مؤنث، فالآية كقول جرير:

رَأَتْ مَرَّ السَّنِينَ أَخَذَنْ مَنِي كَمَا أَخَذَ السَّرَارُ مِنَ الْهَلَالِ
إلى غير ذلك من الأمثلة.

قال القاضي: وليس الأمر كما ذكر، والآية لا يحتاج فيها إلى هذه الصناعة، إلا لو لم تجد معاداً للضمير إلا «الشفاء»، وأما ومعنا لفظ مؤنث يعود الضمير عليه، ويعضده المعنى المتكلم فيه، فلا يحتاج إلى تلك الصناعة وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ إشارة إلى ما بين في هذه الآيات، أي فكذلك يبين لكم غيرها، وقوله، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ترجّ في حق البشر، أي من تأمل منكم الحال رجا الاهتداء. قوله تعالى:

وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾

قرأ الحسن والزهري وأبو عبد الرحمن وعيسى بن عمر وأبو حيوة: «ولتكن» بكسر اللام على الأصل، إذ أصلها الكسر، وكذلك قرؤوا لام الأمر في جميع القرآن، قال الضحاك والطبري وغيرهما: أمر المؤمنون أن تكون منهم جماعة بهذه الصفة، فهم خاصة أصحاب الرسول، وهم خاصة الرواة.

قال القاضي: فعل هذا القول «من» للتبعيض، وأمر الله الأمة بأن يكون منها علماء يفعلون هذه الأفعال على وجوهها ويحفظون قوانينها على الكمال، ويكون سائر الأمة متبعين لأولئك، إذ هذه الأفعال لا تكون إلا بعلم واسع، وقد علم تعالى أن الكل لا يكون عالماً، وذهب الزجاج وغير واحد من المفسرين، إلى أن المعنى: ولتكونوا كلكم أمة يدعون، «ومن» لبيان الجنس قال: ومثله من كتاب الله، ﴿فاجتنبوا الرجس من

الأوثان ﴿الحج: ٣٠﴾ ومثله من الشعر قول القائل: [البسيط]

أخو رَغَائِبٍ يُعْطِيهَا وَيَسْأَلُهَا يَا بَئِى الظَّلَامَةِ مِنْهُ النُّوْفَلُ الزَّفْرُ

قال القاضي: وهذه الآية على هذا التأويل إنما هي عندي بمنزلة قولك: ليكن منك رجل صالح، ففيها المعنى الذي يسميه النحويون، التجريد، وانظر أن المعنى الذي هو ابتداء الغاية يدخلها، وكذلك يدخل قوله تعالى: ﴿من الأوثان﴾ ذاتها ولا تجده يدخل قول الشاعر: منه النوفل الزفر، ولا تجده يدخل في «من» التي هي صريح بيان الجنس، كقولك ثوب من خز، وخاتم من فضة، بل هذه يعارضها معنى التبعض، ومعنى الآية على هذا التأويل: أمر الأمة بأن يكونوا يدعون جميع العالم إلى الخير، الكفار إلى الإسلام، والعصاة إلى الطاعة، ويكون كل واحد من هذه الأمور على منزلته من العلم والقدرة، قال أهل العلم: وفرض الله بهذه الآية، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو من فروض الكفاية إذا قام به قائم سقط عن الغير، وللزوم الأمر بالمعروف شروط، منها أن يكون بمعروف لا بتخرق، فقد قال صلى الله عليه وسلم: من كان آمراً بمعروف، فليكن أمره ذلك بمعروف، ومنها أن لا يخاف الأمر أذى بصيبه، فإن فعل مع ذلك فهو أعظم لأجره، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان.

قال القاضي: والناس في تغيير المنكر والأمر بالمعروف على مراتب، ففرض العلماء فيه تنبيه الحكام والولاة، وحملهم على جادة العلم، وفرض الولاة تغييره بقوتهم وسلطانهم، ولهم هي اليد، وفرض سائر الناس رفعه إلى الحكام والولاة بعد النهي عنه قولاً، وهذا في المنكر الذي له دوام، وأما إن رأى أحد نازلة بديهة من المنكر، كالسلب والزنى ونحوه، فيغيرها بنفسه بحسب الحال والقدرة، ويحسن لكل مؤمن أن يحتمل في تغيير المنكر، وإن ناله بعض الأذى، ويؤيد هذا المنزع أن في قراءة عثمان بن عفان وابن مسعود وابن الزبير «يأمرؤن بالمعروف وينهون عن المنكر، ويستعينون بالله على ما أصابهم»، فهذا وإن كان لم يثبت في المصحف، ففيه إشارة إلى التعرض لما يصيب عقب الأمر والنهي، كما هي في قوله تعالى: ﴿وأمر بالمعروف وانه عن المنكر، واصبر على ما أصابك﴾ [لقمان: ١٧] وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ [المائدة: ١٠٥] معناه إذا لم يقبل منكم ولم تقدرُوا على تغيير منكروه، وقال بعض العلماء: «المعروف» التوحيد، و«المنكر» الكفر، والآية نزلت في الجهاد.

قال الفقيه القاضي: ولا محالة أن التوحيد والكفر هما رأس الأمرين، ولكن ما نزل عن قدر التوحيد والكفر، يدخل في الآية ولا بد، «المفلحون» الظافرون ببيغيتهم، وهذا وعد كريم.

ثم نهى الله تعالى هذه الأمة عن أن يكونوا كالمترفين من الأمم، واختلفت عبارة المفسرين في المشار إليهم، فقال ابن عباس: هي إشارة إلى كل من افترق في الأمم في الدين فأهلكهم الافتراق، وقال الحسن: هي إشارة إلى اليهود والنصارى، وقال الزجاج: يحتمل أن تكون الإشارة أيضاً إلى فرق اليهود وفرق النصارى، ومجيء «البيّنات» هو بيعث الرسل، وإنزال الكتب، وأسند الفعل دون علامة إلى «البيّنات»، من حيث نزلت منزلة البيان، ومن حيث لا حقيقة لتأنيثها، وباقي الآية وعيد، وقوله: ﴿عذاب عظيم﴾ يعني أنه أعظم من سواه، ويتفاضل هذان العرضان بأن أحدهما يتخلله فتور، وأما الجزء الفرد من

هذا وذلك فسواء، هذا تحرير مذهب أصحابنا الأصوليين رحمهم الله .

قوله تعالى :

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾

والعامل في قوله ﴿يَوْمَ﴾ الفعل الذي تتعلق به اللام ، في قوله ﴿ولهم عذاب عظيم﴾

[آل عمران : ١٠٥] قال الزجاج : تقديره ويثبت لهم عذاب عظيم .

قال القاضي : وذلك ضعيف من جهة المعنى ، لأنه يقتضي أن عظم العذاب في ذلك اليوم ، ولا يجوز أن يكون العامل قوله عذاب ، لأنه مصدر قد وصف ، «وبياض الوجوه» : عبارة عن إشراقها واستنارتها وبشرها برحمة الله ، قال الزجاج - وغيره - : ويحتمل عندي أن يكون ذلك من آثار الوضوء كما قال النبي عليه السلام ، أتمم الغر المحجلون من آثار الوضوء ، وأما «سواد الوجوه» ، فقال المفسرون هي عبارة عن اربدادها وإظلامها بغم العذاب ، ويحتمل أن يكون ذلك تسويداً ينزله الله بهم على جهة التشويه والتمثيل بهم ، على نحو حشرهم زرقاً وهذه أقبح طلعة ، ومن ذلك قول بشار : [البسيط]

وَلْيَبْخِلِ عَلَى أَمْوَالِهِ عِلْلٌ زُرْقُ الْعُيُونِ عَلَيْهَا أَوْجُهُ سُودُ

وقرأ يحيى بن وثاب ، «تبيض وتسود» بكسر التاء ، وقرأ الزهري ، «تبياض» وجوه ، و«تسواد» وجوه بألف ، وهي لغة ، ولما كان صدر هذه الآية ، إخباراً عن حال لا تخص أحداً معيناً ، بدى بذكر البياض لشرفه ، وأنه الحالة المثلى ، فلما فهم المعنى ، وتعين له «الكفار والمؤمنون» ، بدى بذكر الذين اسودت وجوههم للاهتمام بالتحذير من حالهم ، وقوله تعالى : ﴿أكفرتم﴾ تقرير وتوبيخ ، متعلق بمحذوف ، تقديره ، فيقال لهم : أكفرتم؟ وفي هذا المحذوف هو جواب «أما» ، وهذا هو فحوى الخطاب ، وهو أن يكون في الكلام شيء مقدر لا يستغني المعنى عنه ، كقوله تعالى : ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة﴾ [البقرة : ١٨٤] المعنى فأفطر فعدة وقوله تعالى : ﴿بعد إيمانكم﴾ يقتضي أن لهؤلاء المؤمنين إيماناً متقدماً ، فاختلف أهل التأويل في تعيينهم ، فقال أبي بن كعب : الموقفون جميع الكفار ، والإيمان الذي قيل لهم بسببه ﴿بعد إيمانكم﴾ هو الإيمان الذي أقروا به يوم قيل لهم - ألسن بربكم؟ قالوا بلى - وقال أكثر المتأولين : إنما عني بالتوقيف في هذه الآية أهل القبلة من هذه الأمة ، ثم اختلفوا ، فقال الحسن : الآية في المنافقين ، يؤمنون بالسنتهم ويكفرون بقلوبهم ، فيقال لهم : ﴿أكفرتم بعد إيمانكم﴾؟ أي ذلك الإيمان بالسنتهم ، وقال السدي : هي فيمن كفر من أهل القبلة حين اقتتلوا ، وقال أبو أمامة : الآية في الخوارج وقال قتادة : الآية في أهل الردة ، ومنه الحديث : ليردن عليّ الحوض رجال من أصحابي حتى إذا رفعوا إليّ اختلجوا فأقول : أصحابي أصحابي ، فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول : فسحقاً فسحقاً ، وفي بعض طرقه : فأناديهم : ألا هلم ، ألا هلم ، وذكر النحاس قولاً : إن الآية في اليهود ، وذلك أنهم آمنوا بصفة محمد واستفتحوا به ، فلما جاءهم من غيرهم كفروا ، فهذا كفر بعد إيمان ، وروي عن مالك أنه قال : الآية في أهل الأهواء .

قال القاضي: إن كان هذا ففي المجملين منهم القائلين ما هو كفر، وروي حديث: أن الآية في القدرة وقال أبو أمامة: سمعنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنها في الحرورية، وقد تقدم عنه أنها في الخوارج وهو قول واحد، وما في قوله ﴿بِمَا كُتِّمَ﴾ مصدرية وقوله تعالى: ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ أي في النعيم الذي هو موجب رحمة الله وقوله بعد ذلك ﴿هُمْ فِيهَا﴾ تأكيد بجملتين، إذ كان الكلام يقوم دونها. قوله تعالى:

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾

الإشارة بتلك إلى هذه الآيات المتقدمة المتضمنة تعذيب الكفار وتنعيم المؤمنين، ولما كان فيها ذكر التعذيب، أخبر تعالى: أنه لا يريد أن يقع منه ظلم لأحد من العباد، وإذا لم يرد ذلك فلا يوجد البتة، لأنه لا يقع من شيء إلا ما يريد تعالى، وقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ معناه: بالإخبار الحق، ويحتمل أن يكون المعنى: ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ مضمنة الأفاعيل التي هي «حق» في أنفسها، من كرامة قوم، وتعذيب آخرين، وقرأ أبو نهيك: «يتلوها» بالياء، وجاء الإعلام بأنه تعالى لا يريد ظلماً في حكمه، فإذا لا يوجد.

ولما كان للذهن أن يقف هنا في الوجه الذي به خص الله قوماً بعمل يرحمهم من أجله، وآخرين بعمل يعذبهم عليه، ذكر تعالى الحجة القاطعة في ملكه جميع المخلوقات، وأن «الحق» لا يعترض عليه، وذلك في قوله، ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية، وقال: ﴿مَا﴾ ولم يقل «من» من حيث هي جمل وأجناس، وذكر الطبري: أن بعض البصريين نظر قوله تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ﴾ فأظهر الاسم، ولم يقل إليه بقول الشاعر:

لا أرى الموتَ يسبقُ الموتَ شيءٌ نَغْصَ الموتِ ذا الغنى والفَقِيرِ

وما جرى مجراه، وقاله الزجاج، وحكي أن العرب تفعل ذلك إرادة تفخيم الكلام والتنبيه على عظم المعنى.

قال القاضي أبو محمد: والآية تشبه البيت في قصد فخامة النظم، وتفاقره من حيث الآية جملتان مفترقتان في المعنى، فلو تكررت جمل كثيرة على هذا الحد لحسن فيها كلها إظهار الاسم، وليس التعرض بالضمير في ذلك بعرف، وأما البيت وما أشبهه فالضمير فيه هو العرف، إذ الكلام في معنى واحد، ولا يجوز إظهار الاسم إلا في المعاني الفخمة في النفوس من التي يؤمن فيها اللبس على السامع، وقرأ بعض السبعة، «تُرْجَعُ الْأُمُورُ» بفتح التاء على بناء الفعل للفاعل، وقد تقدم ذكر ذلك.

واختلف المتأولون في معنى قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ فقال عمر بن الخطاب: هذه

لأولنا، ولا تكون لآخرنا وقال عكرمة: نزلت في ابن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل.

قال القاضي أبو محمد: يريد ومن شاكلهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة.

قال القاضي: فهذا كله قول واحد، مقتضاه أن الآية نزلت في الصحابة، قيل لهم ﴿كنتم خير أمة﴾، للإشارة بقوله ﴿أمة﴾ إلى أمة محمد معينة، فإن هؤلاء هم خيرها، وقال الحسن بن أبي الحسن وجماعة من أهل العلم: معنى الآية، خطاب الأمة بأنهم ﴿خير أمة أخرجت للناس﴾، فلفظ ﴿أمة﴾، على هذا التأويل اسم جنس كأنه قيل لهم كنتم خير الأمم، ويؤيد هذا التأويل كونهم شهداء على الناس، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: نحن الآخرون السابقون الحديث. وروى بهز بن حكيم عن أبيه عن جده: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوماً وهو مسند ظهره إلى الكعبة، نحن نكمل يوم القيامة سبعين أمة نحن آخرها وخيرها قال مجاهد: معنى الآية «كنتم خير الناس» - وقال الحسن: نحن آخرها وأكرمها على الله تعالى، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: معنى الآية كنتم للناس خير الناس.

قال القاضي أبو محمد: ﴿فأمة﴾ على هذا التأويل، اسم جنس، قال أبو هريرة: يجيئون بالكفار في السلاسل فيدخلونهم في الإسلام.

قال القاضي: ولم يبعث نبي إلى الأمم كافة إلا محمد صلى الله عليه وسلم، فهو وأمته يدعون إلى الإيمان ويقاثلون العالم عليه، فهم خير الناس للناس، وليس يلزم على هذا التأويل أنها أفضل الأمم من نفس لفظ الآية، لكن يعلم هذا من لفظ آخر، وهي كقوله صلى الله عليه وسلم: أرأف أمتي بأمتي أبو بكر، فليس يقتضي هذا اللفظ أن أبا بكر أرأف الناس على الإطلاق، في مؤمن وكافر.

قال القاضي: والرأفة على الإطلاق ليست بجارية مع الشرع كما يجب، وأما قوله، ﴿كنتم﴾ على صيغة الماضي، فإنها التي بمعنى الدوام، كما قال: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ [النساء: ٩٦ - ٩٩ - ١٠٠ - ١٥٢، الفرقان: ٧٠، الأحزاب: ٥ - ٥٠ - ٥٩ - ٧٣، الفتح: ١٤]، إلى غير هذا من الأمثلة، وقال قوم: المعنى كنتم في علم الله، وقيل: في اللوح المحفوظ، وقيل فيما أخبر به الأمم قديماً عنكم و﴿خير﴾ على هذه الأقوال كلها خبر كان، ويحتمل أن تكون كان التامة، ويكون ﴿خير أمة﴾ نصباً على الحال، وهذا يتجه على بعض التأويلات التي ذكرناها دون بعض.

قال القاضي: وهذه الخيرية التي فرضها الله لهذه الأمة إنما يأخذ بحظه منها من عمل هذه الشروط من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله، وقوله: ﴿تأمرون بالمعروف﴾ وما بعده، أحوال في موضع نصب، ثم أخبر تعالى عن أهل الكتاب على جهة التوبيخ المقرون بالنصح، أنهم لو آمنوا لنجوا أنفسهم من عذاب الله، وجاءت لفظة ﴿خير﴾ في هذه الآية وهي صيغة تفضيل، ولا مشاركة بين كفرهم وإيمانهم في الخير، وإنما جاز ذلك لما في لفظة ﴿خير﴾ من الشيعاء وتشعب الوجوه، وكذلك هي لفظة أفضل وأحب وما جرى مجراها، وقد بين هذا المعنى في غير هذا الموضع بأوعب من هذا، وقوله تعالى:

﴿منهم المؤمنون﴾ تنبيه على حال عبد الله بن سلام وأخيه وثعلبة بن سعية وغيرهم ممن آمن، ثم حكم الله على أكثرهم بالفسق في كفره لأنهم حرفوا وبدلوا وعاندوا بعد معرفتهم بحقيقة أمر محمد صلى الله عليه وسلم، فهم كفار فسقة في الكفر قد جمعوا المذمتين.

قوله تعالى:

لَنْ يَضُرَّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ أَلَاذِبَارٌ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّهُوا إِلَّا لِجَحَلٍ مِنَ اللَّهِ وَجَحَلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءَ وَبَغَضٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرَّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ معناه: لن يصيبكم منهم ضرر في الأبدان ولا في الأموال، وإنما هو أذى بالألسنة، فالاستثناء متصل، وقال الحسن، وقتادة وغيرهما: «الأذى» هو تحريفهم أمر محمد صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم إياه.

قال القاضي أبو محمد: وتنقصهم المؤمنين وطعنهم عليهم جملة وأفراداً، وهذا كله عظيم مقلق وبسببه استحقوا القتل والإجلاء، وضرب الجزية، لكن أراد الله تعالى بهذه الآية أن يلحظهم المؤمنون بعين الاحتقار حتى لا يصدوا أحداً عن دينه ولا يشغلوه عن عبادة ربه، وهكذا هي فصاحة العرب، ومن هذا المعنى في التحقير قول ثمامة بن أثال: يا محمد إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكرك، وإن شئت المال فاسأل منه ما شئت، فقوله: ذا دم، روي بالذال منقوطة، وبالذال غير منقوطة، فذم بفتح الذال وبكسرها أراد بها الذمام، وأما الدال غير منقوطة، فيحتمل أنه أراد التعظيم لأمر نفسه، وذلك بأحد وجهين: إما أن يريد الوعيد، أي تقتل ذا دم مطلوب بثأره له حماة فاحذر عاقبة ذلك، وإما أن يريد تقتل ملكاً يستشفى بدمه، كما كانت العرب تعتقد في دماء الملوك، فهذا استعطاف لا وعيد، أي لا ينبغي ذلك أن تفسد مثلي، وهذا كما استعطف الأشعث بن قيس أبا بكر رضي الله عنه بهذا المعنى، ويحتمل كلام ثمامة، أنه أراد تحقير أمر نفسه وليذهب عن نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم المسرة بنيل مثل هذا الأمر العظيم، ويجري ذلك مجرى قول أبي جهل لعبد الله بن مسعود: وهل أعمد من رجل قتلتموه؟ ومثله قول الأسير لعمر بن عبد العزيز، حين قال له: لأقتلك، قال: إن ذلك لا ينقص من عدد الخزر شيئاً فكان ثمامة أراد: إن تقتلني تقتل حيواناً حقيراً شأنه، كما يقتل كل ذي دم فما بالك تفعل ذلك وتدع الإنعام علي؟ فالآية تنظر إلى هذا المعنى من جهة أنه حقر عند المؤمنين ما هو عظيم في نفسه تنبيهاً لهم، وأخبر الله تعالى في قوله: ﴿وإن يقاتلوكم﴾ الآية، بخبر غيب صححه الوجود، فهي من آيات محمد صلى الله عليه وسلم، وفائدة الخبر هي في قوله: ﴿ثم لا ينصرون﴾ أي لا تكون حربهم معكم سجلاً وخصاً ﴿الأدبار﴾ بالذكر دون الظاهر تخسيساً للفار، وهكذا هو حيث تصرف.

وقوله: ﴿ضربت﴾ معناه: أثبتت بشدة والتزام مؤكد، وهذا وصف حال تقررت على اليهود في أقطار

الأرض قبل مجيء الإسلام، قال الحسن: جاء الإسلام وإن المجوس لتجبيهم الجزية، وما كانت لهم عزة ومنعة إلا ببشر وخبير وتلك الأرض فازالها الله بالإسلام، ولم تبق لهم راية أصلاً في الأرض، و﴿الذلة﴾ فعلته من الذل ﴿ثقفوا﴾ معناه أخذوا وهم بحال المذنب المستحق الإهلاك، ومنه قوله تعالى: ﴿فإما تثقفنهم في الحرب﴾ [الأنفال: ٥٧] ﴿فاقتلوا المشركين حيث تثقفوهم﴾ [التوبة: ٥] واللفظة مأخوذة من الثقاف، ومنه قول الشاعر:

تدعو ثقيفاً وَقَدْ عَصَّ الحديدُ بها عَصَّ الثَّقَافِ على صَمِّ الأنابيبِ

وقوله تعالى: ﴿إلا بحبل﴾ استثناء منقطع، وهو نظير قوله تعالى: ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ﴾ [النساء: ٩٢] لأن بادي الرأي يعطي أن له أن يقتل خطأً، وأن الحبل من الله ومن الناس يزيل ضرب الذلة، وليس الأمر كذلك، وإنما الكلام محذوف، يدركه فهم السامع الناظر في الأمر، وتقديره في آياتنا فلا نجاة من الموت ﴿إلا بحبل﴾، وقوله تعالى: ﴿ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا﴾ كأنه بالمعنى هلكوا واستؤصلوا، فلذلك حسن أن يجيء بعده ﴿إلا بحبل﴾، وقرب فهم ذلك للسامع، قال الزجاج: المعنى ضربت عليهم الذلة إلا أنهم يعتصمون بالعهد إذا أعطوه، و«الحبل» العهد، شبه به لأنه يصل قوماً يقوم كما يفعل الحبل في الأجرام، و﴿ياؤوا﴾ معناه مضوا متحملين لهذا الحكم، و«غضب الله عليهم»، بما دلت عليه هذه الأمور التي أوقع بهم، وأفعال بني إسرائيل على وجه الدهر من التعنت والعصيان توجب الغضب، فلذلك خصوا به، والنصارى إنما ضلوا فقط، و﴿المسكنة﴾ التذلل والضعفة، وهي حالة الطواف الملتمس للقمة واللقميتين المضارع المفارق لحالة التعفف والتعزز به، فليس أحد من اليهود وإن كان غنياً إلا وهو بهذه الحال، وقوله تعالى: ﴿ذلك﴾ إشارة إلى الغضب وضرب الذلة والمسكنة، فعاقبهم الله على كفرهم وقتلهم الأنبياء بذلك، و﴿آيات الله﴾: يحتمل أن يراد بها التلوة، ويحتمل أن يريد العبر التي عرضت عليهم، وقوله: ﴿بغير حق﴾ تأكيد ومبالغة وقطع لما عسى أن يكون في وهم إنسان ممكناً بوجه ما، وقوله تعالى: ﴿ذلك بما عصوا﴾ حمله المفسرون على أن الإشارة بذلك إلى الشيء الذي أشير إليه بذلك الأول، قاله الطبري والزجاج وغيرهما. والذي أقول: إن الإشارة بـ ﴿ذلك﴾ الأخير إنما هي إلى كفرهم وقتلهم، وذلك أن الله تعالى، استدرجهم فعاقبهم على العصيان والاعتداء بالمصير إلى الكفر وقتل الأنبياء، وهو الذي يقول أهل العلم: إن الله تعالى يعاقب على المعصية بالإيقاع في معصية، ويجازي على الطاعة بالتوفيق إلى طاعة، وذلك موجود في الناس إذا تامل، وعصيان بني إسرائيل واعتداؤهم في السبت وغيره مقرر في غير ما موضع من كتاب الله، وقال قتادة رحمه الله عندما فسر هذه الآية: اجتنبوا المعصية والعدوان فإن بها أهلك من كان قبلكم من الناس.

قوله تعالى:

لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٢﴾
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ

فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾

لما مضت الضمائر في الكفر والقتل والعصيان والاعتداء عامة في جميع أهل الكتاب، عقب ذلك بتخصيص الذين هم على خير وإيمان، وذلك أن أهل الكتاب لم يزل فيهم من هو على استقامة، فمنهم من مات قبل أن يدرك الشرائع فذلك من الصالحين، ومنهم من أدرك الإسلام فدخل فيه.

قال القاضي أبو محمد: ويعترض هذا النظر أن جميع اليهود على عوج من وقت عيسى، وتجيء الآية إشارة إلى من أسلم فقط، أو يكون اليهود في معنى الأمة القائمة إلى وقت عيسى، ثم ينتقل الحكم في النصارى، ولفظ ﴿أهل الكتاب﴾ يعم الجميع، والضمير في ﴿ليسوا﴾ لمن تقدم ذكره في قوله ﴿منهم﴾ المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴿[آل عمران: ١١٠] وما قال أبو عبيدة من أن الآية نظيرة قول العرب أكلوني البراغيث خطأ مردود، وكذلك أيضاً ما حكى عن الفراء أن ﴿أمة﴾ مرتفعة بـ ﴿سواء﴾ على أنها فاعلة كأنه قال: لا تستوي أمة كذا وإن في آخر الكلام محذوفاً معادلاً تقديره وأمة كافرة، فأغنى القسم الأول عن ذكرها ودل عليه كما قال أبو ذؤيب:

عَصَيْتُ إِلَيْهَا الْقَلْبَ إِنِّي لِأَمْرِهَا سَمِيعٌ فَمَا أَدْرِي أَرَشَدُ طَلَبُهَا؟

المعنى أم غي، فاقصر لدلالة ما ذكر عليه.

قال القاضي أبو محمد: وإنما الوجه أن الضمير في ﴿ليسوا﴾ يراد به من تقدم ذكره، و﴿سواء﴾ خبر ليس، و﴿من أهل الكتاب﴾ مجرور فيه خبر مقدم، و﴿أمة﴾ رفع بالابتداء قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما أسلم عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وأسد بن عبيد ومن أسلم من اليهود، معهم، قال الكفار من أحبار اليهود ما آمن بمحمد إلا شرارنا ولو كانوا خياراً ما تركوا دين آبائهم، فأنزل الله تعالى في ذلك ﴿ليسوا سواء﴾ الآية، وقال مثله قتادة وابن جريج.

قال القاضي أبو محمد: وهو أصح التأويلات، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: معنى الآية: ليس اليهود وأمة محمد سواء، وقاله السدي.

قال القاضي أبو محمد: فمن حيث تقدم ذكر هذه الأمة في قوله ﴿كنتم خير أمة﴾ [آل عمران: ١١٠] وذكر أيضاً اليهود قال الله لنبية ﴿ليسوا سواء﴾ و﴿الكتاب﴾ على هذا جنس كتب الله وليس بالمعهود من التوراة والإنجيل فقط، والمعنى: ﴿من أهل الكتاب﴾ وهم أهل القرآن أمة قائمة، واختلف عبارة المفسرين في قوله ﴿قائمة﴾ فقال مجاهد: معناه عادلة، وقال قتادة والربيع وابن عباس: معناه قائمة على كتاب الله وحدوده مهتدية، وقال السدي: القائمة القائمة المطيعة.

قال القاضي أبو محمد: وهذا كله يرجع إلى معنى واحد من الاعتدال على أمر الله، ومنه قيل للدنانير أو الدراهم الموازنة قائمة وهذه الآية تحتل هذا المعنى وأن لا تنظر اللفظة إلى هيئة الأشخاص وقت تلاوة آيات الله، ويحتل أن يراد بـ ﴿قائمة﴾ وصف حال التالين في ﴿آناء الليل﴾، ومن كانت هذه حاله فلا محالة أنه معتدل على أمر الله، وهذه الآية في هذين الاحتمالين مثل ما تقدم في قوله ﴿إلا ما دمت عليه قائماً﴾

[آل عمران: ٧٥] و﴿يتلون﴾ معناه: يسردون، و﴿آيات الله﴾ في هذه الآية هي كتبه، و«الأناء»: الساعات واحدها «إني» بكسر الهمزة وسكون النون، ويقال فيه «أني» بفتح الهمزة، ويقال «إني» بكسر الهمزة وفتح النون والقصر، ويقال فيه «أني» بفتح الهمزة ويقال «إنو» بكسر الهمزة وسكون النون وبواو مضمومة ومنه قول الهذيلي: [البسيط]

حُلُوٌّ وَمُرٌّ كَعَطْفِ الْقَدَحِ مِرَّتُهُ فِي كُلِّ إِنِّي قَضَاءُ اللَّيْلِ يَنْتَعِلُ

وحكم هذه الآية لا يتفق في شخص بأن يكون كل واحد يصلي جميع ساعات الليل وإنما يقوم هذا الحكم من جماعة الأمة، إذ بعض الناس يقوم أول الليل، وبعضهم آخره، وبعضهم بعد هجعة ثم يعود إلى نومه، فيأتي من مجموع ذلك في المدن والجماعات عبارة ﴿آناء الليل﴾ بالقيام، وهكذا كان صدر هذه الأمة، وعرف الناس القيام في أول الثلث الآخر من الليل أو قبله بشيء، وحيث كان يقوم الأكثر، والقيام طول الليل قليل وقد كان في الصالحين من يلتزمه، وقد ذكر الله تعالى القصد من ذلك في سورة المزمل، وقيام الليل لقراءة العلم المبتغى به وجه الله داخل في هذه الآية، وهو أفضل من التنفل لمن يرجى انتفاع المسلمين بعلمه، وأما عبارة المفسرين في ﴿آناء الليل﴾، فقال الربيع وقتادة وغيرهما: ﴿آناء الليل﴾ ساعات الليل، وقال عبد الله بن كثير: سمعنا العرب تقول ﴿آناء الليل﴾ ساعات الليل، وقال السدي: ﴿آناء الليل﴾ جوف الليل.

قال القاضي أبو محمد: وهذا قلق، أما ان جوف الليل جزء من الأناء، وقال ابن مسعود: نزلت هذه الآية بسبب أن النبي صلى الله عليه وسلم احتبس عنا ليلة عن صلاة العشاء وكان عند بعض نسائه فلم يأت حتى مضى ليل، فجاء ومنا المصلي ومنا المضطجع، فقال: أبشروا فإنه ليس أحد من أهل الكتاب يصلي هذه الصلاة، فأنزل الله تعالى: ﴿ليسوا سواء﴾ الآية، فالمراد بقوله: ﴿يتلون آيات الله آناء الليل﴾ صلاة العشاء، وروى سفيان الثوري عن منصور أنه قال: بلغني أن هذه الآية نزلت في المصلين بين العشاءين وقوله تعالى: ﴿وهم يسجدون﴾ ذهب بعض الناس إلى أن السجود هنا عبارة عن الصلاة، سماها بجزء شريف منها كما تسمى في كثير من المواضع ركوعاً، فهي على هذا جملة في موضع الحال، كأنه قال: يتلون آيات الله آناء الليل مصلين، وذهب الطبري وغيره إلى أنها جملة مقطوعة من الكلام الأول، أخبر عنهم أنهم أيضاً أهل سجود.

قال القاضي أبو محمد: ويحسن هذا من جهة أن التلاوة آناء الليل قد يعتقد السامع أن ذلك في غير الصلاة، وأيضاً فالقيام في قراءة العلم يخرج من الآية على التأويل الأول، وثبت فيها على هذا الثاني ف﴿هم يسجدون﴾ على هذا نعت عدد بواو العطف، كما تقول: جاءني زيد الكريم والعافل.

و﴿يؤمنون﴾ معناه: يصدقون، وفي الإيمان باليوم الآخر إيمان بالأنبياء، لأنه من جائزات العقل التي أثبتها السمع من الأنبياء، وقوله تعالى: ﴿ويسارعون في الخيرات﴾ وصف بأنهم متى دعوا إلى خير من نصر مظلوم وإغاثة مكروب وجبر مهيض وعبادة الله أجابوا، ومنه فعل مالك رضي الله عنه في ركعتي المسجد، وقال: دعوتني إلى خير فأجبت إليه، ومما يدخل في ضمن قوله تعالى: ﴿ويسارعون في

الخيرات ﴿ أن يكون المرء مغتتماً للخمس، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: اغتتم خمساً قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل مماتك، وغناك قبل فقرك، فيكون متى أراد أن يصنع خيراً بادر إليه ولم يسوف نفسه بالأمل، فهذه أيضاً مسارعة في الخيرات، وذكر بعض الناس قال: دخلت مع بعض الصالحين في مركب فقلت له: ما تقول أصلحك الله في الصوم في السفر؟ فقال لي: إنها المبادرة يا ابن أخي، قال المحدث: فجاءني والله بجواب ليس من أجوبة الفقهاء، ثم وصف الله تعالى من تحصلت له هذه الصفات، بأنه من جملة الصالحين، و﴿من﴾ يحسن أن تكون للتبعيض، ويحسن أن تكون لبيان الجنس.

قوله تعالى:

وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

قرأ ابن كثير ونافع وعاصم في رواية أبي بكر وابن عامر «تفعلوا وتكفروه» بالناء على مخاطبة هذه الأمة، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بالياء فيهما، على مشابهة ما تقدم من «يتلون ويؤمنون» وما بعدهما، وكان أبو عمرو يقرأ بالوجهين، و﴿تكفروه﴾ معناه: يعطى دونكم فلا تثابون عليه، ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم: من أزلت إليه نعمة فليذكرها فإن ذكرها فقد شكرها، فإن لم يفعل فقد كفرها، ومنه قول الشاعر: [عترة]: [الكامل]:

(وَالْكَفْرُ مَخْبَةٌ لِنَفْسِ الْمُتَّقِينَ)

وفي قوله تعالى: ﴿والله عليم بالمتقين﴾ وعد ووعد.

ثم عقب تعالى ذكر هذا الصنف الصالح بذكر حال الكفار، ليبين الفرق، وخص الله تعالى «الأموال والأولاد» بالذكر لوجوه. منها أنها زينة الحياة الدنيا، وعظم ما تجري إليه الآمال، ومنها أنها ألصق النصره بالإنسان وأيسرها، ومنها أن الكفار يفخرون بالآخرة لا همة لهم إلا فيها هي عندهم غاية المرء وبها كانوا يفخرون على المؤمنين، فذكر الله أن هذين اللذين هما بهذه الأوصاف لا غناء فيهما من عقاب الله في الآخرة، فإذا لم تغن هذه فغيرها من الأمور البعيدة أخرى أن لا يغني وقوله تعالى: ﴿أصحابه﴾ إضافة تخصيص ما، تقتضي ثبوت ذلك لهم ودوامه.

وقوله تعالى: ﴿مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا﴾ الآية، معناه: المثل القائم في النفوس من إنفاقهم الذي يعدونه قربة وحسبة وتحشاً ومن حبطه يوم القيامة وكونه هباء منثوراً، وذهابه كالمثال القائم في النفوس من زرع قوم نبت واخضر وقوي الأمل فيه فهبت عليه «ريح فيها صر» محرق فأهلكته، فوقع

التشبيه بين شيئين وشيئين، ذكر الله عز وجل أحد الشئيين المشبهين وترك ذكر الآخر ثم ذكر أحد الشئيين المشبه بهما وليس الذي يوازي المذكور الأول، وترك ذكر الآخر، ودل المذكور أن على المتروكين، وهذه غاية البلاغة والإيجاز، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع﴾ [البقرة: ١٧١]، وقرأ عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، «تنفقون» بالثاء على معنى قل لهم يا محمد، و﴿مثل﴾ رفع بالابتداء وخبره في محذوف به تتعلق الكاف من قوله ﴿كمثل﴾، و﴿ما﴾ بمعنى الذي وجمهور المفسرين على أن ﴿ينفقون﴾ يراد به الأموال التي كانوا ينفقونها في التحنث وفي عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك عندهم قرابة، وقال السدي: ﴿ينفقون﴾ معناه من أقوالهم التي يبتغون ضدها.

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف، لأنه يقتضي أن الآية في منافقين والآية إنما هي في كفار يعلنون مثل ما يبتغون، وذهب بعض المفسرين إلى أن ﴿ينفقون﴾ يراد به أعمالهم من الكفر ونحوه، أي هي «كالريح التي فيها صر»، فتبطل كل ما لهم من صلة رحم وتحنث بعق ونحوه، كما تبطل الريح الزرع، وهذا قول حسن لولا بعد الاستعارة في الإنفاق، و«الصر» البرد الشديد، المحرق لكل ما يهب عليه وهو معروف قال ابن عباس وجمهور المفسرين: «الصر» البرد، وتسميه العرب الضريب، وذهب الزجاج وغيره: إلى أن اللفظة من التصويت، من قولهم صر الشيء، ومنه الريح الصرصر، قال الزجاج: فالصر صوت النار التي في الريح.

قال القاضي: «الصر» هو نفس جهنم الذي في الزمهرير يحرق نحواً مما تحرق النار، و«الحرث» شامل للزرع والثمار، لأن الجميع مما يصدر عن إثارة الأرض، وهي حقيقة الحرث، ومنه الحديث لا زكاة إلا في عين أو حرث أو ماشية، وقال عز وجل: ﴿ظلموا أنفسهم﴾ فما بال هذا التخصيص والمثل صحيح، وإن كان الحرث لمن لم يظلم نفسه؟ فالجواب أن ظلم النفس في هذه الآية تأوله جمهور المفسرين بأنه ظلم بمعاصي الله، فعلى هذا وقع التشبيه بحرث من هذه صفته، إذ عقوبته أوحى وأخذ الله له أشد والنقمة إليه أسرع وفيه أقوى، كما روي في جوف العير وغيره، وأيضاً فمن أهل العلم من يرى أن كل مصائب الدنيا فإنما هي بمعاصي العبيد، ويتنزع ذلك من غير ما آية في القرآن، فيستقيم على قوله: إن كل حرث تحرقه ريح فإنما هو لمن قد ظلم نفسه، وذهب بعض الناس ونحا إليه المهدوي: إلى أن قوله تعالى: ﴿حرث قوم ظلموا أنفسهم﴾ معناه زرعوا في غير أوان الزراعة.

قال أبو محمد: وينبغي أن يقال في هذا: ﴿ظلموا أنفسهم﴾ بأن وضعوا أفعال الفلاحة غير موضعها من وقت أو هيئة عمل، ويخص هؤلاء بالذكر لأن الحرق فيما جرى هذا المجرى أو عب وأشد تمكناً، وهذا المنزع يشبهه من جهة ما قول امرئ القيس: [المتقارب]

وسالفة كسحوق اللّيا ن أضرمَ فيها الغويّ السعُرُ

فخصص الغويّ لأنه يلقي النار في النخلة الخضراء الحسنة التي لا ينبغي أن تحرق، فتطفئ النار عن نفسها رطوبتها بعد أن تشذب وتسود، فيجيء الشبه حسناً، والرشيذ لا يضرم النار إلا فيما ييس واستحق فهو يذهب ولا يبقى منه ما يشبه به، والضمير في ﴿ظلمهم﴾ للكفار الذين تقدم ضميرهم في ﴿ينفقون﴾

وليس هو للقوم ذوي الحرث لأنهم لم يذكروا ليرد عليهم، ولا ليبين ظلمهم وأيضاً فقلوه: ﴿ولكن أنفسهم يظلمون﴾، يدل على فعل الحال في حاضرين.

قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخَفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾

نهى الله تعالى المؤمنين بهذه الآية عن أن يتخذوا من الكفار واليهود أخلاء يأمنون بهم في الباطن من أمورهم ويفاوضونهم في الآراء ويستنيمون إليهم، وقوله: ﴿من دونكم﴾ يعني من دون المؤمنين، ولفظة «دون» تقتضي فيما أضيف إليه أنه معدوم من القصة التي فيها الكلام، فشبّه الأخلاء بما يلي بطن الإنسان من ثوبه، ومن هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: ما من خليفة ولا ذي إمرة إلا وله بطانتان، بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه والمعصوم من عصم الله، وقوله: ﴿لا يألونكم خبالاً﴾ معناه لا يقصرون لكم فيما فيه الفساد عليكم، تقول: ما ألوت في كذا أي ما قصرت بل اجتهدت ومنه قول زهير:

جرى بعدهم قوم لكي يلحقوهم فلم يلحقوا ولم يليموا ولم يألوا

أي لم يقصروا، والخبل والخبال: الفساد، وقال ابن عباس: كان رجال من المؤمنين يواصلون رجالاً من اليهود للجوار والحلف الذي كان بينهم في الجاهلية، فنزلت الآية في ذلك، وقال أيضاً ابن عباس وقتادة والربيع والسدي: نزلت في المنافقين: نهى الله المؤمنين عنهم، وروى أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا تستضيئوا بنار المشركين ولا تنقشوا في خواتيمكم عريباً فسرّه الحسن بن أبي الحسن، فقال أراد عليه السلام، لا تستشيروا المشركين في شيء من أموركم ولا تنقشوا في خواتيمكم (محمداً).

قال القاضي: ويدخل في هذه الآية استكتاب أهل الذمة وتصريفهم في البيع والشراء والاستئمانه إليهم، وروي أن أبا موسى الأشعري استكتب ذمياً فكتب إليه عمر يعنفه، وتلا عليه هذه الآية، وقيل لعمر: إن هاهنا رجلاً من نصارى الحيرة لا أحد أكتب منه ولا أخط بقلم، أفلا يكتب عنك؟ فقال: إذا أتخذ بطانة من دون المؤمنين، و﴿ما﴾ في قوله، ﴿ما عتّم﴾ مصدرية، فالمعنى: ﴿ودوا﴾ عنتكم، و«العنت»: المشقة والمكروه يلقاه المرء وعقبة عنوت: أي شاقة، وقوله تعالى: ﴿ذلك لمن خشي العنت﴾ [النساء: ٣٥] معناه المشقة إما في الزنا وإما في ملك الإرب قال السدي: معناه «ودوا» ما ضللتهم، وقال ابن جريج: المعنى «ودوا» أن تعنتوا في دينكم ويقال عنت الرجل يعنت بكسر النون في الماضي، وقوله تعالى: ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم﴾ يعني بالأقوال، فهم فوق المستر الذي تبدو البغضاء في عينه وخص تعالى الأفواه بالذكر دون الألسنة إشارة إلى شدقهم وثرثرتهم في أقوالهم هذه، ويشبه هذا الذي قلناه ما في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يتشحى الرجل في عرض أخيه، معناه: أن يفتح فاه به يقال شحى الحمار فاه

بالنهيق وشحى اللجام في الفرس، والنهي في أن يأخذ أحد عرض أخيه همساً راتب، فذكر التشحي إنما هو إشارة إلى التشدق والانبساط، وقوله: ﴿وما تخفي صدورهم أكبر﴾ إعلام بأنهم يظنون من البغضاء أكثر مما يظهرون بأفواههم، وفي قراءة عبد الله بن مسعود: «قد بدا البغضاء» بتذكير الفعل، لما كانت ﴿البغضاء﴾ بمعنى البغض، ثم قال تعالى للمؤمنين، ﴿قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾ تحذيراً وتنبيهاً، وقد علم تعالى أنهم عقلاء ولكن هذا هز للنفوس كما تقول: إن كنت رجلاً فافعل كذا وكذا. قوله تعالى:

هَآأَنْتُمْ أَوْلَآءُ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَآبِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا يَعِظُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾

تقدم إعراب نظير هذه الآية وقراءتها في قوله تعالى آنفاً: ﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم﴾ [آل عمران: ٦٦] والضمير في ﴿تحبونهم﴾ لمنافقي اليهود الذين تقدم ذكرهم في قوله: ﴿بطانة من دونكم﴾ [آل عمران: ١١٨] والضمير في هذه الآية اسم للجنس، أي تؤمنون بجميع الكتب وهم لا يؤمنون بقرآنكم، وإنما وقف الله تعالى المؤمنين بهذه الآية على هذه الأحوال الموجبة لبغض المؤمنين لمنافقي اليهود واطراحهم إياهم، فمن تلك الأحوال أنهم لا يحبون المؤمنين وأنهم يكفرون بكتابهم وأنهم ينافقون عليهم ويستخفون بهم ويغتazon ويتربصون الدوائر عليهم، وقوله تعالى: ﴿عضوا عليكم الأنامل﴾ عبارة عن شدة الغيظ مع عدم القدرة على إنفاذه ومنه قول أبي طالب: [الطويل]

(يعضون غيظاً خلفنا بالأنامل)

ومنه قول الآخر [الفرزدق]:

وَقَدْ شَهِدْتُ قَيْسُ فَمَا كَانَ نَضْرُهَا قُتِيبَةً إِلَّا عَضُّهَا بِالْأَبَاهِمِ

وهذا العض هو بالأسنان، وهي هيئة في بدن الإنسان تتبع هيئة النفس الغائظة، كما أن عض اليد على اليد يتبع هيئة النفس النادمة فقط، إلى غير ذلك من عد الحصى والخط في الأرض للمهموم ونحوه، ويكتب هذا العض بالضاد، ويكتب عظ الزمان بالطاء المشالة وواحد «الأنامل» أنملة بضم الميم، ويقال بفتحها والضم أشهر، ولا نظير لهذا الاسم في بنائه إلا أشد، له نظائر في الجموع، وقوله ﴿وتؤمنون بالكتاب كله﴾ يقتضي أن الآية في منافقي اليهود لا في منافقي العرب، ويعترضها أن منافقي اليهود لم يحفظ عنهم أنهم كانوا يؤمنون في الظاهر إيماناً مطلقاً ويكفرون في الباطن، كما كان المنافقون من العرب يفعلون، إلا ما روي من أمر زيد بن الصيت القيناعي فلم يبق إلا أن قولهم: ﴿آمنّا﴾ معناه: صدقنا أنه نبي مبعوث إليكم، أي فكفونا على دينكم ونحن أولياؤكم وإخوانكم ولا نضمر لكم إلا المودة، ولهذا كان بعض المؤمنين يتخذهم بطانة، وهذا متزع قد حفظ أن كثيراً من اليهود كان يذهب إليه، ويدل على هذا التأويل أن المعادل لقولهم ﴿آمنّا﴾، «عض الأنامل من الغيظ»، وليس هو ما يقتضي الارتداد كما هو في قوله

تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤] بل هو ما يقتضي البغض وعدم المودة، وكان أبو الجوزاء إذا تلا هذه الآية قال: هم الإباضية.

قال القاضي أبو محمد: وهذه الصفة قد تترتب في أهل بدع من الناس إلى يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَوْتُوا بِغِيظِكُمْ﴾، قال فيه الطبري وكثير من المفسرين: هو دعاء عليهم.

قال القاضي أبو محمد: فعلى هذا يتجه أن يدعى عليهم بهذا مواجهة وغير مواجهة، قال قوم: بل أمر النبي صلى الله عليه وسلم وأمرته أن يواجهوهم بهذا.

قال القاضي أبو محمد: فعلى هذا زال معنى الدعاء وبقي معنى التقريع والإغاظة، ويجري المعنى مع قول مسافر بن أبي عمرو:

وننمي في ارومتنا ونفقاً عين من حسدا

وينظر إلى هذا المعنى في قوله، ﴿مَوْتُوا بِغِيظِكُمْ﴾ قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ [الحج: ١٥]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وعيد يواجهون به على هذا التأويل الأخير في ﴿مَوْتُوا بِغِيظِكُمْ﴾ و«ذات الصدور»: ما تنطوي عليه، والإشارة هنا إلى المعتقدات ومن هذا قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: إنما هو ذو بطن بنت خارجة، ومنه قولهم: الذيب مغبوط بذئ بطنه، والـ«ذات»: لفظ مشترك في معان لا يدخل منها في هذه الآية إلا ما ذكرناه.

قوله تعالى:

إِنْ تَمَسَّسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوءُهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

«الحسنة والسيئة» في هذه الآية لفظ عام في كل ما يحسن ويسوء، وما ذكر المفسرون من الخصب والجذب واجتماع المؤمنين ودخول الفرقة بينهم وغير ذلك من الأقوال، فإنما هي أمثلة وليس ذلك باختلاف وذكر تعالى «المس في الحسنة» ليبين أن بأدنى طروء الحسنة تقع المساءة بنفوس هؤلاء المبغضين، ثم عادل ذلك بالسيئة بلفظ الإصابة وهي عبارة عن التمكن، لأن الشيء المصيب لشيء فهو متمكن منه أو فيه، فدل هذا المتزع البليغ على شدة العداوة، إذ هو حقد لا يذهب عند الشدائد، بل يفرحون بتزول الشدائد بالمؤمنين، وهكذا هي عداوة الحسد في الأغلب، ولا سيما في مثل هذا الأمر الجسيم الذي هو ملك الدنيا والآخرة وقد قال الشاعر: [البسيط]

كُلُّ الْعَدَاوَةِ قَدْ تُرْجَى إِزَالَتُهَا إِلَّا عَدَاوَةَ مَنْ عَاذَكَ مِنْ حَسَدِ

ولما قرر تعالى هذا الحال لهؤلاء المذكورين، وأوجبت الآية أن يعتقدهم المؤمنون بهذه الصفة، جاء قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ تسلياً للمؤمنين وتقوية لنفوسهم، وشرط ذلك بالصبر والتقوى، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع: «لا يضرُّكم» بكسر الضاد وجزم الراء وهو من ضار يضير

بمعنى ضر يضر وهي لغة فصيحة، وحكى الكسائي: ضر يضر، ولم يقرأ على هذه اللغة، ومن ضر يضير في كتاب الله ﴿لا يضير﴾ [الشعراء: ٥٠] ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي:

فَقِيلَ نَحْمِلُ فَوْقَ طَوِّكَ إِنِّهَا مُطَبَّعَةٌ مَنْ يَأْتِيهَا لَا يَضِيرُهَا

يصف مدينة، والمعنى فليس يضيرها، وفي هذا النفي المقدر بالفاء هو جواب الشرط، ومن اللفظ قول توبة بن الحمير:

وَقَالَ أَنَسٌ لَا يُضِيرُكَ نَأْيُهَا بَلَى كُلُّ مَا شَقَّ النَّفْسَ يَضِيرُهَا

وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي: «لا يضرُّكم» بضم الضاد والراء والتشديد في الراء، وهذا من ضر يضر، وروي عن حمزة مثل قراءة أبي عمرو، وأما إعراب هذه القراءة فجزم، وضمت الراء للالتقاء، وهو اختيار سيبويه في مثل هذا اتباعاً لضمة الضاد، ويجوز فتح الراء وكسرها مع إرادة الجزم، فأما الكسر فلا أعرفها قراءة، وعبرة الزجاج في هذا متجوز فيها، إذ يظهر من درج كلامه أنها قراءة، وأما فتح الراء من قوله «لا يضرُّكم» فقرأ به عاصم فيما رواه أبو زيد عن المفضل عنه، ويجوز أيضاً أن يكون إعراب قوله، «لا يضركم»، رفعا إما على تقدير، فليس يضركم، على نحو تقدم في بيت أبي ذؤيب، وإما على نية التقدم على «وإن تصبروا» كما قال [جرير بن عبد الله]: [الرجز]

يَا أَقْرَعُ بَنَ حَاسٍ يَا أَقْرَعُ إِنَّكَ إِنْ يَضُرَّعَ أَخُوكَ تُضَرَّعُ

المراد أنك تصرع، وقرأ أبي بن كعب: «لا يضرركم» براءين وذلك على فك الإدغام وهي لغة أهل الحجاز وعليها قوله تعالى في الآية ﴿إِنْ تَمْسِكُمْ﴾ ولغة سائر العرب الإدغام في مثل هذا كله، و«الكيد» الاحتيال بالأباطيل وقوله تعالى: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدَ﴾ [الطارق: ١٦] إنما هي تسمية العقوبة باسم الذنب، وقوله تعالى: ﴿إِنْ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ وعيد، والمعنى محيط جزاؤه وعقابه وبالقدرة والسلطان، وقرأ الحسن: «بما يعملون» بالياء، وهذا إما على تواعد المؤمنين في اتخاذ هؤلاء بطانة، وإما على تواعد هؤلاء المنافقين بتقدير: قل لهم يا محمد.

قوله تعالى:

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾
طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾

ذهب الطبري رحمه الله إلى أن هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدمها من الآيات والظاهر أنها استقبال أمر آخر، لأن تلك مقالة في شأن منافقي اليهود، وهذا ابتداء عتب المؤمنين في أمر أحد، فالعامل في ﴿إِذْ﴾ فعل مضمّر تقديره واذكر، وقال الحسن: هذا الغدو المذكور في هذه الآية «لتبويء المؤمنين» الذي كان في غزوة الأحزاب.

قال القاضي أبو محمد: وخالفه الناس، والجمهور على أن ذلك كان في غزوة أحد، وفيها نزلت هذه

الآيات كلها، وكان من أمر غزوة أحد أن المشركين اجتمعوا في ثلاثة آلاف رجل، وقصدوا المدينة ليأخذوا بثأرهم في يوم بدر، فزلوا عند أحد يوم الأربعاء الثاني عشر من شوال سنة ثلاث من الهجرة، على رأس أحد وثلاثين شهراً من الهجرة، وأقاموا هنالك يوم الخميس، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة يدبر وينتظر أمر الله تعالى، فلما كان في صبيحة يوم الجمعة جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس واستشارهم وأخبرهم أنه كان يرى بقرة تذبح وتلماً في ذباب سيفه، وأنه يدخل يده في درع حصينه، وأنه تأولها المدينة، وقال لهم، أرى أن لا نخرج إلى هؤلاء الكفار، فقال له عبد الله بن أبي ابن سلول: أقم يا رسول الله ولا تخرج إليهم بالناس، فإن هم أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن انصرفوا مضوا خائبين، وإن جاؤنا إلى المدينة قاتلناهم في الأفنية ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من الأطام، فوالله ما حاربنا قط عدواً في هذه المدينة إلا غلبناه، ولا خرجنا منها إلى عدو إلا غلبنا، فوافق هذا الرأي رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورأي جماعة عظيمة من المهاجرين والأنصار، وقال قوم من صلحاء المؤمنين ممن كان فاتته بدر: يا رسول الله اخرج بنا إلى عدونا، وشجعوا الناس ودعوا إلى الحرب، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى بالناس صلاة الجمعة وقد جشمه هؤلاء الداعون إلى الحرب، فدخل إثر صلاته بيته ولبس سلاحه، فندم أولئك القوم وقالوا: أكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما خرج عليهم النبي صلى الله عليه وسلم في سلاحه، قالوا: يا رسول الله أقم إن شئت، فإننا لا نريد أن نكرهك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما ينبغي لنبي إذا لبس سلاحه أن يضعها حتى يقاتل ثم يخرج بالناس، وسار حتى قرب من عسكر المشركين هناك وبات تلك الليلة، وقد غضب عبد الله بن أبي ابن سلول وقال: أطاعهم وعصاني، فلما كان في صبيحة يوم السبت، اعتزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على السير إلى مناجزة المشركين، فنهض وهو في ألف رجل، فانعزل عنه عند ذلك عبد الله بن أبي ابن سلول بثلاثمائة رجل من الناس، من منافق ومتبع، وقالوا: نظن أنكم لا تلقون قتالاً، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم، في سبعمائة، فهتت عند ذلك بنو حارثة من الأوس وبنو سلمة من الخزرج بالانصراف، ورأوا كثافة المشركين وقلة المسلمين، وكادوا أن يجبنوا ويفشلوا فعصمهم الله تعالى، وذم بعضهم بعضاً، ونهضوا مع النبي صلى الله عليه وسلم، فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أطل على المشركين، فتصافى الناس، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر على الرماة عبد الله بن جبير، وكانوا خمسين رجلاً، وجعلهم يحمون الجبل وراء المسلمين، وأسند هو إلى الجبل، فلما أضرمت الحرب انكشف المشركون وانهزموا، وجعل نساء المشركين تبدو خلاخلهن وهن يسندن في صفح جبل، فلما رأى الرماة ذلك قالوا: الغنيمة الغنيمة أيها المسلمون، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال لهم: لا تبرحوا من هنا ولو رأيتمونا تتخطفنا الطير، فقال لهم عبد الله بن جبير وقوم منهم: اتقوا الله واثبتوا كما أمركم نبيكم، فعصوا وخالفوا وزالوا متبعين، وكان خالد بن الوليد قد تجرد في جريدة خيل وجاء من خلف المسلمين حيث كان الرماة، فحمل على الناس ووقع التخاذل وصيح في المسلمين من مقدمتهم ومن ساقتهم، وصرخ صارخ: قتل محمد، فتخاذل الناس واستشهد من المسلمين نيف على سبعين، قال مكي: قال مالك رحمه الله: قتل من المهاجرين يوم أحد أربعة، ومن الأنصار سبعون وتحيز رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى الجبل

وتجاوز الناس، هذا مختصر من القصة يتركب عليه تفسير الآية، وأمر «أحد» بطوله وما تخلله من الأفعال والأقوال، مستوعب في كتب السير، وليس هذا التعليق مما يقتضي ذكره وحكى مكي عن السدي ما يظهر منه أن القتال كان يوم الجمعة، وحكى عنه الطبري، أن نزول أبي سفيان بأحد كان في الثالث من شوال، وذلك كله ضعيف، وقال النقاش: وقعة «أحد» في الحادي عشر من شوال، وذلك خطأ، قال الطبري وغيره: فغذو رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة إلى التدبير مع الناس واستشارتهم هو الذي عبر عنه بقوله تعالى: ﴿تَبَوَّءَ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾.

قال القاضي: ولا سيما أن غزو النبي صلى الله عليه وسلم إنما كان ورأيه أن لا يخرج الناس، فكان لا يشك في نفسه أن يقسم أقطار المدينة على قبائل الأنصار، وقال غير الطبري: بل نهوض النبي صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة بعد الصلاة، هو غدوه، وبوأ المؤمنين في وقت حضور القتال، وقيل ذلك في ليلته، وسماه «غدواً» إذ كان قد اعتزم التدبير، والشروع في الأمر من وقت الغدو.

قال القاضي أبو محمد: ولا سيما أن صلاة الجمعة ربما كانت قبل الزوال، حسبما وردت بذلك أحاديث، فيجىء لفظ الغدو متمكناً، وقيل إن «الغدو» المذكور هو «غدوة» يوم السبت إلى القتال، ومن حيث لم يكن في تلك الليلة موافقاً للغدو فهو كأنه كان في أهله وبوأ المسلمين بأمره الرماة وبغير ذلك من تدبيره مصاف الناس و﴿تَبَوَّءَ﴾ معناه: تعين لهم مقاعد يتمكنون فيها ويشبثون تقول: تبوأ مكان كذا، إذا حللته حلولاً متمكناً ثبت فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿تَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٧٤] ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار، ومنه قول الشاعر: [مجزوء الكامل مرفل]

كَمْ صَاحِبٍ لِي صَالِحٍ بَوَّأَتْهُ بِيَدِي لِحَدَا

ومنه قول الأعشى: [الطويل]

وَمَا بَوَّأَ السَّرْحَمَنُ بَيْتَكَ مَنْزَلاً بِشَرْقِيٍّ أَجْيَادِ الصُّفَا وَالْمَحْرَمِ

وقوله تعالى: ﴿مَقَاعِدَ﴾ جمع مقعد وهو مكان القعود، وهذا بمنزلة قولك مواقف، ولكن لفظة القعود أدل على الثبوت، ولا سيما أن الرماة إنما كانوا قعوداً، وكذلك كانت صفوف المسلمين أولاً، والمبارزة والسرعان يجولون، وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي ما تقول ويقال لك وقت المشاورة وغيره.

و﴿إِذْ﴾ الثانية بدل من الأولى، و﴿هَمَّتْ﴾ معناه أرادت ولم تفعل، والفشل في هذا الموضع هو الجبن الذي كاد يلحق بني سلمة وبني حارثة و«الفشل» في البدن هو الإعياء والتبليغ، و«الفشل» في الرأي هو العجز والحيرة وفساد العزم، وقال جابر بن عبد الله: ما ودنا أنها لم تنزل، لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾، وقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فليتوكل المؤمنون﴾ أمر في ضمنه التغيبط للمؤمنين بمثل ما فعله بنو حارثة وبنو سلمة من المسير مع النبي صلى الله عليه وسلم، وقرأ عبد الله بن مسعود، «تَبَوَّءَ لِلْمُؤْمِنِينَ» بلام الجر، وقرأ «وَاللَّهُ وَلِيَهُم» على معنى الطائفتين لا على اللفظ.

قوله تعالى :

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزَوِّجِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾

لما أمر الله تعالى بالتوكل عليه، ذكر بأمر «بدر» الذي كان ثمرة التوكل على الله والثقة به، فمن قال من المفسرين إن قول النبي صلى الله عليه وسلم للمؤمنين: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾. كان في غزوة بدر، فيجيء التذكير بأمر «بدر» وبأمر الملائكة وقتالهم فيه مع المؤمنين، محرضاً على الجِد والتوكل على الله، ومن قال: إن قول النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾ الآية، إنما كان في غزوة أحد، كان قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ إلى ﴿تَشْكُرُونَ﴾ اعتراضاً بين الكلام جميلًا، والنصر ببدر هو المشهور الذي قتل فيه صناديد قريش، وعلى ذلك اليوم انبنى الإسلام، وكانت «بدر» يوم سبعة عشر من رمضان يوم جمعة لثمانية عشر شهراً من الهجرة، و«بدر» ماء هنالك سمي به الموضع، وقال الشعبي: كان ذلك الماء لرجل من جهينة يسمى بدرأ فبه سمي، قال الواقدي: فذكرت هذا لعبد الله بن جعفر ومحمد بن صالح فأنكراه وقالوا: بأي شيء سميت الصفراء والجار وغير ذلك من المواضع؟ قال وذكر ذلك ليحيى بن النعمان الغفاري فقال: سمعت شيوخاً من بني غفار يقولون: هو ماؤنا ومنزلنا وما ملكه أحد قط يقال له بدر، وما هو من بلاد جهينة إنما هي بلاد غفار، قال الواقدي: فهذا المعروف عندنا، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ معناه قليلون، وذلك أنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر أو أربعة عشر رجلاً، وكان عدوهم ما بين التسعمائة إلى الألف، و﴿أَذِلَّةٌ﴾ جمع ذليل، واسم الذل في هذا الموضع مستعار، ولم يكونوا في أنفسهم إلا أعزة، ولكن نسبتهم إلى عدوهم وإلى جميع الكفار في أقطار الأرض يقتضي عند التأمل ذلتهم، وأنهم مغلوبون، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك اليوم: اللهم إن تهلك هذه العصابة لم تعبد، وهذه الاستعارة كاستعارة الكذب في قوله في الموطأ، كذب كعب، وكفوله كذب أبو محمد، وكاستعارة المسكنة لأصحاب السفينة على بعض الأقوال، إذ كانت مسكنتهم بالنسبة إلى الملك القادر الغاصب، ثم أمر تعالى المؤمنين بالتقوى، ورجاهم بالإنعام الذي يوجب الشكر، ويحتمل أن يكون المعنى: اتقوا الله عسى أن يكون تقواكم شكراً على النعمة في نصره ببدر.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ﴾ العامل في ﴿إِذْ﴾ فعل مضمر، ويحتمل أن يكون العامل ﴿نَصَرَكُمُ﴾ وهذا على قول الجمهور: إن هذا القول من النبي صلى الله عليه وسلم كان ببدر قال الشعبي والحسن بن أبي الحسن وغيرهما إن هذا كان ببدر، قال الشعبي بلغ المؤمنين أن كرز بن جابر بن حسل المحاربي مجارب فهر، قد جاء في مدد للمشركين، فغم ذلك المؤمنين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم للمؤمنين عن أمر الله تعالى، هذه المقالة فصبر المؤمنون واتقوا، وهزم المشركون وبلغت الهزيمة كرزاً ومن معه فانصرفوا ولم يأتوا من فورهم، ولم يمد المؤمنين بالملائكة، وكانت الملائكة بعد ذلك تحضر حروب النبي صلى الله

عليه وسلم مدداً، وهي تحضر حروب المسلمين إلى يوم القيامة.

قال القاضي: وخالف الناس الشعبي في هذه المقالة، وتظاهرت الروايات بأن الملائكة حضرت بدرًا وقالت، ومن ذلك قول أبي أسيد مالك بن ربيعة، لو كنت معكم الآن بيدر ومعني بصري لأريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة، لا أشك ولا أتمارى، ومنه حديث الغفاري وابن عمه اللذين سمعا من الصحابة، أقدم حيزوم فانكشف قناع قلب أحدهما فمات مكانه، وتماسك الآخر، وقال ابن عباس: لم تقاتل الملائكة في يوم من الأيام إلا يوم بدر، وكانوا يكونون في سائر الأيام عدداً ومدداً لا يضرّبون، ومن ذلك قول أبي سفيان بن الحارث لأبي لهب: ما هو إلا أن لقينا القوم فمحنناهم أكتافنا يقتلون ويأسرون، وعلى ذلك فوالله ما لمت الناس، لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض ما تليق شيئاً ولا يقوم لها شيء، ومن ذلك أن أبا اليسر كعب بن عمرو الأنصاري أحد بني سلمة أسر يوم بدر العباس بن عبد المطلب وكان أبو اليسر رجلاً مجموعاً وكان العباس رجلاً طويلاً جسيماً فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لقد أعانك عليه ملك كريم، الحديث بطوله، وقد قال بعض الصحابة: كنت يوم بدر أتبع رجلاً من المشركين لأضربه بسيفي فلما دنوت منه وقع رأسه قبل أن يصل سيفي إليه فعلمت أن ملكاً قتله، وقال قتادة ابن دعامه: أمد الله المؤمنين يوم بدر بخمسة آلاف من الملائكة، قال الطبري: وقال آخرون: إن الله وعد المؤمنين يوم بدر أن يمدّهم في حروبهم كلها إن صبروا واتقوا، فلم يفعلوا ذلك إلا في يوم الأحزاب، فأمدّهم حين حاصروا قريظة، ثم أدخل تحت هذه الترجمة عن عبد الله بن أبي أوفى أنه قال: حاصرنا قريظة مدة فلم يفتح علينا فرجعنا، فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعا بغسل يريد أن يغسل رأسه، إذ جاءه جبريل عليه السلام فقال: وضعت أسلحتكم ولم تضع الملائكة أوزارها فلف رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه بخرقه ولم يغسله، ونادى فينا فقمنا كالين متعيين، حتى أتينا قريظة والنضير، فيومئذ أمدنا الله بالملائكة بثلاثة آلاف، وفتح لنا فتحاً يسيراً، فانقلبنا بنعمة من الله وفضل، وقال عكرمة: كان الوعد يوم بدر، فلم يصبروا يوم أحد ولا اتقوا، فلم يمدوا ولو مدوا لم يهزموا، وقال الضحاك: كان هذا الوعد والمقالة للمؤمنين يوم أحد، ففر الناس وولوا مدبرين فلم يمدّهم الله، وإنما مدوا يوم بدر بألف من الملائكة مردفين، وقال ابن زيد: قال المسلمون لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وهم ينتظرون المشركين: يا رسول الله أليس يمدنا الله كما أمدنا يوم بدر؟ فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ألن يكفيكم﴾ الآية وإنما أمدّهم يوم بدر بألف قال ابن زيد: فلم يصبروا، وقوله تعالى: ﴿ألن يكفيكم﴾ تقرير على اعتقادهم الكفاية في هذا العدد من الملائكة، ومن حيث كان الأمر بيناً في نفسه أن الملائكة كافية، بادر المتكلم إلى الجواب ليبي ما يستأنف من قوله عليه فقال: ﴿بلى﴾ وهي جواب المقررين، وهذا يحسن في الأمور البينة التي لا محيد في جوابها، ونحوه قوله تعالى: ﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله﴾ [الأنعام: ١٩] وفي مصحف أبي بن كعب، «ألا يكفيكم» وقد مضى القول في قوله: ﴿ويمدّهم في طغيانهم﴾ [البقرة: ١٥] وقرأ الحسن بن أبي الحسن: «بثلاثة آلاف»، يقف على الهاء، وكذلك «بخمسة آلاف»، ووجه هذه القراءة ضعيف، لأن المضاف والمضاف إليه يقتضيان الاتصال، إذ هما كالاسم الواحد، وإنما الثاني كمال للأول، والهاء إنما هي أمانة وقف، فيقلق الوقف في موضع إنما هو للاتصال، لكن قد جاء نحو هذا

للعرب في مواضع، فمن ذلك ما حكاه الفراء أنهم يقولون: أكلت لحماً، شاة، يريدون لحم شاة فمطلوا الفتحة حتى نشأت عنها ألف، كما قالوا في الوقف، قالوا: يريدون قال: ثم مطلوا الفتحة في القوافي ونحوها من مواضع الروية والتثبت، ومن ذلك في الشعر قول الشاعر: [عترة]: [الرجز]:

يَنْبَأُ مِنْ ذَفَرَى غُضُوبٍ جَسْرَةَ

يريد ينبع فمطل ومنه قول الآخر: [الرجز]

أَقُولُ إِذْ جَرَّتْ عَلَى الْكَلْكَالِ يَا نَاقَتَا مَا جُلَّتْ مِنْ مَجَالِ

يريد على الكلكل، فمطل ومنه قول الآخر: [لابن هرمه]: [الوافر]

فَأَنْتَ مِنَ الْغَوَائِلِ حِينَ تَرْمِي وَمِنْ ذُمِّ الرِّجَالِ بِمُتَّزِحِ

يريد بمتزح، قال أبو الفتح: فإذا جاز أن يعترض هذا التماضي بين أثناء الكلمة الواحدة، جاز التماضي والثاني بين المضاف والمضاف إليه إذ هما في الحقيقة اثنان، وقرأ ابن عامر وحده: «منزّلين» بفتح النون والزاي مشددة، وقرأ الباقيون: منزلين بسكون النون وفتح الزاي مخففة، وقرأ ابن أبي عبله: «منزّلين» بفتح النون وكسر الزاي مشددة، معناها: ينزلون النصر، وحكى النحاس قراءة ولم ينسبها: «منزّلين» بسكون النون وكسر الزاي خفيفة، وفسرها بأنهم ينزلون النصر.

و﴿بلى﴾ - جواب للنفي الذي في ﴿ألن﴾ وقد تقدم معناها، ثم ذكر تعالى الشرط الذي معه يقع الإمداد وهو الصبر، والتقى. و«الفور»: النهوض المسرع إلى الشيء مأخوذ من فور القدر والماء ونحوه، ومنه قوله تعالى: ﴿وفار التنور﴾ [هود: ٤٠] فالمعنى ويأتوكم في نهضتكم هذه، قال ابن عباس: ﴿ومن فورهم هذا﴾: معناه من سفرهم هذا، قال الحسن والسدي: معناه، من وجههم هذا، وقاله قتادة، وقال مجاهد وعكرمة وأبو صالح مولى أم هانئ: من غضبهم هذا.

قال القاضي: وهذا تفسير لا يخص اللفظة قد يكون «الفور» لغضب ولطمع ولرغبة في أجر، ومنه الفور في الحج والوضوء، وقرأ أبو عمرو وابن كثير وعاصم: «مسومين»، بكسر الواو، وقرأ الباقيون: «مسومين» بفتح الواو، فأما من قرأ بفتح الواو فمعناه: معلمين بعلامات، قال أبو زيد الأنصاري: «السومة» العلامة تكون على الشاة وغيرها يجعل عليها لون يخالف لونها لتعرف، وروي أن الملائكة أعلمت يومئذ بعمائم بيض، حكاه المهدوي عن الزجاج، إلا جبريل عليه السلام فإنه كان بعمامة صفراء على مثال عمامة الزبير بن العوام، وقاله ابن إسحاق، وقال مجاهد: كانت خيلهم مجزوزة الأذنان والأعراف معلمة النواصي والأذنان بالصوف والعهن، وقال الربيع: كانت سيماهم أنهم كانوا على خيل بلق، وقال عباد بن حمزة بن عبد الله بن الزبير: نزلت الملائكة في سيما الزبير عليهم عمائم صفراء، وقال ذلك عروة وعبد الله ابنا الزبير: وقال عبد الله: كانت ملاة صفراء فاعتم الزبير بها، ومن قرأ: «مسومين» بكسر الواو، فيحتمل من المعنى مثل ما تقدم، أي هم قد أعلموا أنفسهم بعلامة وأعلموا خيلهم، ورجح الطبري وغيره هذه القراءة، بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال للمسلمين يوم بدر: سَوْمُوا فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ قَدْ سَوَّمَتْ، فهم على

هذا مسومون، وقال كثير من أهل التفسير: إن معنى «مسومين» بكسر الواو أي هم قد سوموا خيلهم: أي أعطوها سومها من الجري والقتال والإحضار فهي سائمة، ومنه سائمة الماشية، لأنها تركت وسومها من الرعي، وذكر المهدوي هذا المعنى في «مسومين» بفتح الواو أي أرسلوا وسومهم.

قال القاضي: وهذا قلق: وقد قاله ابن فورك أيضاً.

قوله تعالى:

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنَطْمِئَنَ قُلُوبُكُمْ بِهِ. وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾
لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُهُمْ فِتْنَةٌ يُخَالِفِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ
عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ
وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

الضمير في ﴿جعله الله﴾ عائد على الإنزال والإمداد، و«البشرى» مصدر واللام في ﴿ولنطمئن﴾ متعلقة بفعل مضمر يدل عليه جعله، ومعنى الآية: وما كان هذا الإمداد إلا لتستبشروا به وتطمئن به قلوبكم وتروا حفاية الله بكم، وإلا فالكثرة لا تغني شيئاً إلا أن ينصر الله، وقوله: ﴿وما النصر﴾ يريد للمؤمنين، وكذلك أيضاً هي الإدالة للكفار من عند الله.

واللام في قوله: ﴿ليقطع﴾ متعلقة بقوله ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ وعلى هذا لا يكون قطع الطرف مختصاً بيوم، اللهم إلا أن تكون الألف واللام في «النصر» للعهد، وقيل: العامل فيه «ولقد نصركم» حكاه ابن فورك وهو قلق، لأن قوله: ﴿أو يكتسبهم﴾ لا يترتب عليه، وقد يحتمل أن تكون اللام في قوله ﴿ليقطع﴾ متعلقة بـ ﴿جعله﴾، فيكون قطع الطرف إشارة إلى من قتل بيدر، على ما قال الحسن وابن إسحاق وغيرهم، أو إلى من قتل بأحد على ما قال السدي، وقتل من المشركين بيدر سبعون، وقتل منهم يوم أحد اثنان وعشرون رجلاً، وقال السدي: قتل منهم ثمانية عشر والأول أصح، و«الطرف» الفريق، ومتى قتل المسلمون كفاراً في حرب فقد قطعوا «طرفاً»، لأنه الذي وليهم من الكفار فكان جميع الكفار رقعة وهؤلاء المقتولون طرف منها أي حاشية، ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿ليقطع طرفاً﴾ بمنزلة ليقطع دابراً وقوله: ﴿أو يكتسبهم﴾ معناه: أو يخزيهم، والكبت الصرع للبدن، وقال النقاش وغيره: التاء بدل من دال كبته أصله كبده أي فعل به يؤذي كبده، وإذا نصر الله على أمة كافرة فلا بد من أحد هذين الوجهين، إما أن يقتل منهم أو يخيبوا، فذلك نوع من الهزم.

وقوله تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ توقيف على أن الأمر كله لله، وهذا التوقيف يقتضي أنه كان بسبب من جهة النبي صلى الله عليه وسلم وروي في ذلك أنه لما هزم أصحابه وشج في وجهه، حتى دخلت بعض حلق الدرع في خده وكسرت ربايعته وارثت بالحجارة حتى صرع لجنبه، تحيز عن الملحمة، وجعل يمسح الدم من وجهه ويقول: لا يفلح قوم فعلوا هذا بنبينهم، هكذا لفظ الحديث من طريق أنس بن

مالك، وفي بعض الطرق، وكيف يفلح؟ وفي بعضها أن سالماً مولى أبي حذيفة كان يغسل الدم عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فأفاق وهو يقول: كيف يقوم فعلوا هذا بنبينهم وهو يدعوهم إلى الله؟ فنزلت الآية، بسبب هذه المقالة.

قال القاضي: وكان النبي صلى الله عليه وسلم لحقه في تلك الحال يأس من فلاح كفار قريش، فمالت نفسه إلى أن يستأصلهم الله ويريح منهم، فروي أنه دعا عليهم أو أستاذن في أن يدعو عليهم، وروى ابن عمر وغيره: أنه دعا على أبي سفيان والحارث بن هشام وصفوان بن أمية باللعنة، إلى غير هذا من معناه، فقليل له بسبب ذلك، ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ أي عواقب الأمور بيد الله، فامض أنت لشأنك ودم على الدعاء إلى ربك، قال الطبري وغيره من المفسرين: قوله: ﴿أو يتوب عليهم﴾ عطف على ﴿يكتبهم﴾.

قال القاضي: فقوله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ اعتراض أثناء الكلام، وقوله: ﴿أو يتوب﴾ معناه: فيسلمون، وقوله: ﴿أو يعذبهم﴾ معناه: في الآخرة بأن يوافوا على الكفر، قال الطبري وغيره: ويحتمل أن يكون قوله ﴿أو يتوب﴾ بمعنى حتى يتوب أو إلى أن يتوب فيجيء بمنزلة قولك: لا أفارقك أو تقضيني حقي، وكما تقول: لا يتم هذا الأمر أو يجيء فلان، وقوله تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ ليس باعتراض على هذا التأويل، وإنما المعنى الإخبار لمحمد عليه السلام أنه ليس يتحصل له من أمر هؤلاء الكفار شيء يؤمله إلا أن يتوب الله عليهم فيسلموا، فيرى محمد عليه السلام أحد أمله فيهم، أو يعذبهم الله بقتل في الدنيا، أو بنار في الآخرة أو بهما، فيرى محمد صلى الله عليه وسلم الأمل الآخر، وعلى هذا التأويل فليس في قوله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ ردع كما هو في التأويل الأول، وذلك التأويل الأول أقوى، وقرأ أبي بن كعب، «أو يتوب أو يعذب» برفع الباء فيهما، المعنى: أو هو يتوب، ثم قرر تعالى ظلم هؤلاء الكفار.

ثم أكد معنى قوله ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ بالقول العام وذكر الحجة الساطعة في ذلك وهي ملكة الأشياء، إذ ذلك مقتض أن يفعل بحق ملكه ما شاء، لا اعتراض عليه ولا معقب لحكمه، وذكر أن الغفران أو التعذيب إنما هو بمشيئته وحسب السابق في علمه، ثم رجا في آخر ذلك تأنيساً للنفوس وجلباً لها إلى طاعته، وذلك كله في قوله تعالى: ﴿ولله ما في السماوات وما في الأرض، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، والله غفور رحيم﴾ و ﴿ما﴾ في قوله ﴿ما في السماوات وما في الأرض﴾، إشارة إلى جملة العالم فلذلك حسنت ﴿ما﴾، وما ذكر في هذه الآية من أن هذه الآية ناسخة لدعاء النبي صلى الله عليه وسلم على المشركين كلام ضعيف كله، وليس هذا من مواضع الناسخ والمنسوخ.

قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بَاطِلًا وَتَعْلَمُونَ أَنَّهَا بِاطِلٌ لَكُمْ وَلَكِنْ تَتَوَلَّوْنَ ۚ
وَأَتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۚ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

هذا النهي عن أكل الربا اعتراض أثناء قصة «أحد»، ولا أحفظ سبباً في ذلك مروياً، والربا الزيادة،

وقد تقدم ذكر مثل هذه الآية وأحكام الربا في سورة البقرة، وقوله ﴿أضعافاً﴾ نصب في موضع الحال، ومعناه: الربا الذي كانت العرب تضعف فيه الدين، فكان الطالب يقول: أنقضي أم تربى؟ وقوله: ﴿مضاعفة﴾ إشارة إلى تكرار التضعيف عاماً بعد عام، كما كانوا يصنعون، فدلّت هذه العبارة المؤكدة على شناعة فعلهم وقبحه، ولذلك ذكرت حال التضعيف خاصة، وقد حرم الله جميع أنواع الربا، فهذا هو مفهوم الخطاب إذ المسكوت عنه من الربا في حكم المذكور، وأيضاً فإن الربا يدخل جميع أنواعه التضعيف والزيادة على وجوه مختلفة من العين أو من التأخير ونحوه.

و﴿النار﴾ في قوله: ﴿واتقوا النار﴾ هي اسم الجنس، ويحتمل أن تكون للعهد، ثم ذكر أنها ﴿أعدت للكافرين﴾، أي إنهم هم المقصود والمراد الأول، وقد يدخلها سواهم من العصاة، فشنع أمر النار بذكر الكفر، وحسن للمؤمن أن يحذرهما ويبعد بطاعة الله عنها وهذا كما قال في الجنة: أعدت للمتقين، أي هم المقصود، وإن كان يدخلها غيرهم من صبي ومجنون ونحوه ممن لا يكلف ولا يوصف بتقوى، هذا مذهب أهل العلم في هذه الآية، وحكى الماوردي وغيره، عن قوم أنهم ذهبوا إلى أن أكلة الربا إنما توعدهم الله بنار الكفرة، إذ النار سبع طبقات، العليا منها وهي جهنم للعصاة، والخمس للكفار والدرك الأسفل للمنافقين، قالوا: فأكلة الربا إنما يعذبون يوم القيامة بنار الكفرة لا بنار العصاة، وبذلك توعدوا، فالألف واللام على هذا في قوله ﴿واتقوا النار﴾ إنما هي للعهد.

ثم أمر تعالى بطاعته وطاعة رسوله، والطاعة هي موافقة الأمر الجاري عند المأمور مع مراد الأمر وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني ومن عصى الأمير فقد عصاني، وقال محمد بن إسحاق إن هذه الآية من قوله تعالى: ﴿وأطيعوا الله﴾ هي ابتداء المعاتبة في أمر أحد، وانتهزام من فر وزوال الرماة عن مراكزهم.

قوله تعالى:

يَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾
الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾

قرأ نافع وابن عامر: «سارعوا» بغير واو، وكذلك هي في مصاحف أهل المدينة وأهل الشام، وقرأ في السبعة بالواو، قال أبو علي: كلا الأمرين شائع مستقيم، فمن قرأ بالواو فلائه عطف الجملة على جملة، ومن ترك الواو فلاّن الجملة الثانية ملتبسة بالأولى مستغنية بذلك عن العطف بالواو، وأمال كسائي الألف من قوله ﴿سارعوا﴾ ومن قوله ﴿يسارعون في الخيرات﴾ [المؤمنون: ٦١] و﴿يسارع لهم في الخيرات﴾ [المؤمنون: ٥٦] في كل ذلك، قال أبو علي: والإمالة هنا حسنة لوقوع الراء المكسورة بعدها، والمسارة المبادرة وهي مفاعلة، إذ الناس كأن كل واحد يسرع ليصل قبل غيره، فبينهم في ذلك ناعلة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ [المائدة: ٤٨] وقوله ﴿إلى مغفرة﴾ معناه: سارعوا

بالتقوى والطاعة والتقرب إلى ربكم إلى حال يغفر الله لكم فيها، أي يستر ذنوبكم بعفوه عنها وإزالة حكمها، ويدخلكم الجنة، قال أنس بن مالك ومكحول في تفسير ﴿سارعوا إلى مغفرة﴾، معناه: إلى تكبيرة الإحرام مع الإمام.

قال الفقيه القاضي: هذا مثال حسن يحتذى عليه في كل طاعة، وقوله تعالى: ﴿عرضها السماوات والأرض﴾ تقديره: كعرض السماوات والأرض، وهذا كقوله تعالى: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ [لقمان: ٢٨] أي كخلق نفس واحدة وبعثها، فجاء هذا الاقتضاب المفهوم الفصيح، ومنه قول الشاعر: [ذو الخرق الطهوي]: [الوافر]:

حسبتُ بغامَ راحلتي عناقاً وما هيَ وَبَّ غَيْرِكَ بالعنقِ

ومنه قول الآخر:

كَأَنَّ غَدِيرَهُمْ بِجُنُوبِ سَلْيٍ نَعَامٌ فَاقَ فِي بَلَدٍ قِفَارٍ

التقدير صوت عناق وغدير نعام.

وأما معنى قوله تعالى: ﴿عرضها السماوات والأرض﴾ فاختلف العلماء في ذلك على ثلاثة مذاهب، فروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: تقرن السماوات والأرضون بعضها إلى بعض كما يسط الثوب، فذلك عرض الجنة ولا يعلم طولها إلا الله، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: أن بين المصراعين من أبواب الجنة مسيرة أربعين سنة، وسيأتي عليها يوم يزدحم الناس فيها كما تزدحم الإبل إذا وردت خمصاً ظمأ وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: أن في الجنة شجرة يسير الراكب المجد في ظلها مائة عام لا يقطعها فهذا كله يقوي قول ابن عباس وهو قول الجمهور، إن الجنة أكبر من هذه المخلوقات المذكورة وهي ممتدة عن السماء حيث شاء الله تعالى، وذلك لا ينكر، فإن في حديث النبي عليه السلام: ما السماوات السبع والأرضون السبع في الكرسي إلا كدراهم ألقيت في فلاة من الأرض، وما الكرسي في العرش إلا كحلقة في فلاة من الأرض، فهذه مخلوقات أعظم بكثير جداً من السماوات والأرض، وقدرة الله تعالى أعظم من ذلك كله، وروى يعلى بن أبي مرة قال: لقيت التنوخي رسول هرقل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمص، شيخاً كبيراً قد فند فقال قدمت على النبي عليه السلام، بكتاب هرقل، فناول الصحيفة رجلاً عن يساره فقلت: من صاحبكم الذي يقرأ؟ قالوا: معاوية، فإذا كتاب هرقل: إنك كتبت إليّ تدعوني إلى ﴿جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾، فآين النار؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سبحان الله، فأين الليل إذا جاء النهار؟ وروى قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال: جاء رجلان من اليهود من نجران إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال أحدهما: تقولون ﴿جنة عرضها السماوات والأرض﴾، أين تكون النار؟ فقال عمر رضي الله عنه أرايت النهار إذا جاء أين يكون الليل؟ والليل إذا جاء أين يكون النهار؟ فقال اليهودي: إنه لمثلها في التوراة فقال له صاحبه: لم أخبرته؟ دعه إنه بكل موقن.

قال القاضي أبو محمد: فهذه الآثار كلها هي في طريق واحد، من أن قدرة الله تتسع لهذا كله،

وخص العرض بالذكر لأنه يدل متى ذكر على الطول، والطول إذا ذكر لا يدل على قدر العرض، بل قد يكون الطويل يسير العرض كالخيط ونحوه، ومن ذلك قول العرب بلاد عريضة، وفلاة عريضة، وقال قوم: قوله تعالى: ﴿عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ معناه: كعرض السماوات والأرض، كما هي طباقاً، لا بأن تقرن كبسط الثياب، فالجنة في السماء، وعرضها كعرضها وعرض ما وراءها من الأرضين إلى السابعة، وهذه الدلالة على العظم أغنت عن ذكر الطول، وقال قوم: الكلام جار على مقطع العرب من الاستعارة، فلما كانت الجنة من الاتساع والانفساح في غاية قصوى، حسنت العبارة عنها بعرضها السماوات والأرض، كما تقول لرجل: هذا بحر، ولشخص كبير من الحيوان: هذا جبل، ولم تقصد الآية تحديد العرض.

قال القاضي أبو محمد: وجلب مكي هذا القول غير ملخص، وأدخل حجة عليه قول العرب: أرض عريضة وليس قولهم، أرض عريضة، مثل قوله: ﴿عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ إلا في دلالة ذكر العرض على الطول فقط، وكذلك فعل النقاش وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للفارين يوم أحد: لقد ذهبت فيها عريضة، وقال ابن فورك: الجنة في السماء، ويزاد فيها يوم القيامة.

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا متعلق لمنذر بن سعيد وغيره ممن قال: إن الجنة لم تخلق بعد، وكذلك النار، وهو قول ضعيف، وجمهور العلماء على أنهما قد خلقتا، وهو ظاهر كتاب الله تعالى في قوله، ﴿أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ و﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] وغير ذلك، وهو نص في الأحاديث كحديث الإسراء وغيره، مما يقتضي أن ثم جنة قد خلقت، وأما من يقول: يزداد فيهما فلا ترد عليه الأحاديث، لكنه يحتاج إلى سند يقطع العذر، و﴿أَعَدَّتْ﴾ معناه: يسرت وانتظروا بها.

ثم وصف تعالى المتقين الذين أعدت لهم الجنة بقوله: ﴿الَّذِينَ يَنْفِقُونَ﴾ الآية، وظاهر هذه الآية أنها مدح بفعل المندوب إليه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿في السراء والضراء﴾، معناه: في العسر واليسر.

قال القاضي: إذ الأغلب أن مع اليسر النشاط وسرور النفس، ومع العسر الكراهية وضر النفس، وكظم الغيظ رده في الجوف إذا كاد أن يخرج من كثرته، فضبطه ومنعه كظم له، والكظام: السير الذي يشد به فم الزق والقربة، وكظم البعير جرت: إذا ردها في جوفه، وقد يقال لحبسه الجرة قبل أن يرسلها إلى فيه، كظم، حكاه الزجاج، فقال: كظم البعير والناقة إذا لم يجترا ومنه قول الراعي: [الكامل]

فَأَفْضَنْ بَعْدَ كُظْمِهِنَّ بِجَرَّةٍ من ذي الأباطح أذرعين حقيلاً

و﴿الغيظ﴾: أصل الغضب، وكثيراً ما يتلازمان، ولذلك فسر بعض الناس ﴿الغيظ﴾ بالغضب وليس تحرير الأمر كذلك، بل ﴿الغيظ﴾ فعل النفس لا يظهر على الجوارح، والغضب حال لها معه ظهور في الجوارح وفعل ما ولا بد، ولهذا جاز إسناد الغضب إلى الله تعالى، إذ هو عبارة عن أفعاله في المغضوب عليهم، ولا يسند إليه تعالى غيظ، وخط ابن فورك في هذه اللفظة، ووردت في كظم الغيظ وملك النفس عند الغضب أحاديث، وذلك من أعظم العبادة وجهاد النفس، ومنه قول عليه السلام: ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب، ومنه قول النبي عليه السلام: ما من جرعة يتجرعها

العبد خير له وأعظم أجراً من جرعة غيظ في الله، وروى أبو هريرة أن النبي عليه السلام قال: من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه، ملأه الله أمانة وإيماناً، والعفو عن الناس من أجل ضروب فعل الخير، وهذا حيث يجوز للإنسان ألا يعفو، وحيث يتجه حقه، وقال أبو العالية: ﴿والعافين عن الناس﴾، يريد المماليك.

قال القاضي أبو محمد: وهذا حسن على جهة المثال، إذ هم الخدمة، فهم مذنبون كثيراً، والقدرة عليهم متيسرة، وإنفاذ العقوبة سهل، فلذلك مثل هذا المفسر به، وذكر تعالى بعد ذلك أنه ﴿يحب المحسنين﴾، فعم هذه الوجوه وسواها من البر، وهذا يدل على أن الآية في المندوب إليه، ألا ترى إلى سؤال جبريل عليه السلام، فقال: ما الإيمان؟ ثم قال ما الإسلام؟ فذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم المفروضات، ثم قال له: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، الحديث.

قوله تعالى:

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ
الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهم مَّغْفِرَةٌ مِّن
رَّبِّهِمْ وَجَنَّتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ ﴿١٣٦﴾

ذكر الله تعالى في هذه الآية صنفًا دون الصنف الأول، فالحقهم بهم برحمته ومنه، فهؤلاء هم التوابون، وروي في سبب هاتين الآيتين: أن الصحابة قالوا: يا رسول الله، كانت بنو إسرائيل أكرم على الله منا حين كان المذنب منهم يصبح وعقوبته مكتوبة على باب داره، فأنزل الله هذه الآية توسعة ورحمة وعوضاً من ذلك الفعل ببني إسرائيل، ويروى أن إبليس بكى حين نزلت هذه الآية، وروى أبو بكر الصديق رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما من عبد يذنب ذنباً ثم يقوم فيتطهر ويصلي ركعتين ويستغفر إلا غفر له، وقوله ﴿والذين﴾ عطف جملة ناس على جملة أخرى، وليس ﴿الذين﴾ بنعت كرر معه واو العطف، لأن تلك الطبقة الأولى تنزه عن الوقوع في الفواحش، و«الفاحشة» هنا صفة لمحذوف أقيمت الصفة مقامه، التقدير: فعلوا فعلة فاحشة، وهولفظ يعم جميع المعاصي، وقد كثر اختصاصه بالزنا، حتى فسر السدي هذه الآية بالزنا، وقال جابر بن عبد الله لما قرأها: زنى القوم ورب الكعبة، وقال إبراهيم النخعي: الفاحشة من الظلم، والظلم من الفاحشة وقال قوم: الفاحشة في هذه الآية إشارة إلى الكبائر، وظلم النفس إشارة إلى الصغائر، و﴿ذكروا الله﴾ معناه: بالخوف من عقابه والحياء منه، إذ هو المنعم المتطول ومن هذا قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: رحم الله صهيياً لو لم يخف الله لم يعصه، و﴿استغفروا﴾ معناه: طلبوا الغفران، واللام معناها: لأجل «ذنوبهم»، ثم اعترض أثناء الكلام قوله تعالى: ﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾، اعتراضاً موقفاً للنفس، داعياً إلى الله، مرجياً في عفو، إذا رجع إليه، وجاء اسم ﴿الله﴾ مرفوعاً بعد الاستثناء والكلام موجب، حملاً على المعنى، إذ هو بمعنى وما يغفر الذنوب إلا الله، وقوله تعالى: ﴿ولم يصروا﴾ الإصرار معناه: اعتزام الدوام على الأمر، وترك الإقلاع عنه، ومنه صر الدنانير: أي الربط عليها، ومنه قول أبي السمال قنعب العدوي: «علم الله أنها مني صرى».

يريد: عزيمة. فالإصرار اعتزام البقاء على الذنب، ومنه قول النبي عليه السلام: لا توبة مع إصرار، وقال أيضاً: ما أصبر من استغفر، واختلفت عبارة المفسرين في الإصرار، فقال قتادة: هو الذي يمضي قدماً في الذنب لا تنهيه مخافة الله. وقال الحسن: إتيان العبد الذنب هو الإصرار حتى يتوب، وقال مجاهد: ﴿لَمْ يَصْرُوا﴾ معناه: لم يمسحوا وقال السدي: «الإصرار» هو ترك الاستغفار، والسكوت عنه مع الذنب، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قال السدي: معناه وهم يعلمون أنهم قد أذنبوا، وقال ابن إسحاق: معناه، وهم يعلمون بما حرمت عليهم، وقال آخرون: معناه، وهم يعلمون أن باب التوبة مفتوح لهم وقيل: المعنى، وهم يعلمون أنني أعاقب على الإصرار.

ثم شرك تعالى الطائفتين المذكورتين في قوله ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ﴾ الآية، وهذه تؤذن بأن الله تعالى أوجب على نفسه بهذا الخبر الصادق قبول توبة التائب، وليس يجب عليه تعالى من جهة العقل شيء، بل هو بحكم الملك لا معقب لأمره، وقوله: ﴿وَنَعَمْ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ بمنزلة قوله: ونعم الأجر، لأن نعم وبش تطلب الأجناس المعرفة أو ما أضيف إليها وليست هذه الآية بمنزلة قوله تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلُ الْقَوْمِ﴾ [الأعراف: ١٧٧] لأن المثل هنا أضيف إلى معهود لا إلى جنس، فلذلك قدره أبو علي: ساء المثل مثل القوم، ويحتمل أن يكون مثل القوم مرتفعاً «بساء» ولا يضم شيء. قوله تعالى:

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَنْهَوُا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ

الخطاب بقوله تعالى: ﴿قد خلت﴾ للمؤمنين، والمعنى: لا يذهب بكم إن ظهر الكفار المكذوبون عليكم بأحد «فإن العاقبة للمتقين» وقديماً أدال الله المكذبين على المؤمنين، ولكن انظروا كيف هلك المكذبون بعد ذلك، فكذا تكون عاقبة هؤلاء، وقال النقاش: الخطاب بـ ﴿قد خلت﴾ للكفار.

قال الفقيه القاضي أبو محمد: وذلك قلق، و﴿خلت﴾ معناه: مضت وسلفت، قال الزجاج: التقدير أهل سنن، و«السنن»: الطرائق من السير والشرائع والملك والفتن ونحو ذلك، وسنة الإنسان: الشيء الذي يعمل به ويواليه، ومن ذلك قول خلد الهذلي، لأبي ذؤيب:

فَأُولُ رَاضٍ سُنَّةً مَنْ يَسِيرُهَا فَلَا تَجْزَعَنَّ مِنْ سُنَّةِ أَنْتَ سِيرْتَهَا
وقال سليمان بن قتة:

وَأَنَّ الْأُلَى بِالطُّفِّ مِنْ آلِ هَاشِمٍ تَأَسَّوْا فَسَنُوا لِلْكَرَامِ التَّأَسِّيَا
وقال لبید:

مِنْ مَعْشَرٍ سَنَتْ لَهُمْ آبَاؤُهُمْ وَلِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإِمَامُهَا

وقال ابن زيد: ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ معناه: أمثال.

قال الفقيه الإمام: هذا تفسير لا يخص اللفظة، وقال تعالى: ﴿فسيروا﴾ وهذا الأمر قد يدرك بالإخبار دون السير لأن الإخبار إنما يكون ممن سار وعان، إذ هو مما يدرك بحاسة البصر وعن ذلك يتقل خبره، فأحالهم الله تعالى على الوجه الأكمل، وقوله: ﴿فانظروا﴾، هو عند الجمهور من نظر العين، وقال قوم: هو بالفكر.

وقوله تعالى: ﴿هذا بيان للناس﴾ قال الحسن: الإشارة إلى القرآن، وقال قتادة في تفسير الآية: هو هذا القرآن جعله الله بياناً للناس عامة وهدى وموعظة للمتقين خاصة، وقال بمثله ابن جريج والربيع.

قال القاضي: كونه بياناً للناس ظاهر، وهو في ذاته أيضاً هدى منصوب وموعظة، لكن من عمي بالكفر وضل وقسا قلبه لا يحسن أن يضاف إليه القرآن، وتحسن إضافته إلى «المتقين» الذين فيهم نفع وإياهم هدى، وقال ابن إسحاق والطبري وجماعة: الإشارة بـ ﴿هذا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ الآية، قال ابن إسحاق: المعنى هذا تفسير للناس إن قبلوه، قال الشعبي: المعنى، هذا بيان للناس من العمى.

ثم نهى عز وجل المؤمنين عن الوهن لما أصابهم بأحد، والحزن على من فقد، وعلى مذمة الهزيمة، وأنسهم بأنهم ﴿الأعلون﴾ أصحاب العاقبة، والوهن: الضعف، واللين والبلى، ومنه: ﴿وهن العظم مني﴾ [مريم: ٤] ومنه قول زهير: [البسيط]

فَأَصْبَحَ الْحَبْلُ مِنْهَا وَهِنًا خَلَقًا

ومن كرم الخلق ألا يهن الإنسان في حربه وخصامه، ولا يلين إذا كان محققاً، وأن يتقصى جميع قدرته ولا يضرع ولو مات، وإنما يحسن اللين في السلم والرضى، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «المؤمن هين لين، والمؤمنون هينون لينون» ومنه قول الشاعر: [المنخل الهذلي]: [المتقارب].

لَعَمْرُكَ مَا إِنَّ أَبُو مَالِكٍ بِسَوَاهٍ وَلَا بِضَعِيفٍ قَوَاهِ
إِذَا سُدَّتْهُ سُدَّتْ مِطْوَاعَةٌ وَمَهُمَا وَكَلَّتْ إِلَيْهِ كَفَاهِ

وفي هذا الأسلوب الذي ذكرته يجري قول النابغة: ولا تقعد على ضمد

إِلَّا لِمِثْلِكَ أَوْ مَنْ أَنْتَ سَابِقُهُ

وفيه يجري قول العرب: إذا لم تغلب اخلب، على من تأوله من المخلب، أي حارب ولو بالأظافر، وهذا هو فعل عبد الله بن طارق وهو من أصحاب عاصم بن عدي حين نزع يده من القرآن وقاتل حتى قتل، وفعل المنذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجلاح في يوم بئر معونة، ومن رآه من معنى الخلب والخلابة الذي هو الخديعة والمكر، فهو رأي دهاء العرب، وليس برأي جمهورها، ومنه فعل عمرو بن سعيد الأشدق مع عبد الملك بن مروان عند قتله إياه، والأمثلة في ذلك كثيرة، وأيضاً فليس المكر والخديعة بذل محض، ولذلك رآه بعضهم، وأما قولهم إذا عز أخوك فهن، فالرواية الصحيحة المعنى فيه بكسر الهاء بمعنى: لن

واضعف ضعف المطواع، وأما الرواية بضم الهاء فهي أمر بالهوان، وما أعرف ذلك في شيء من مقاطع العرب، وأما الشرع فقد قال النبي عليه السلام: لا ينبغي لمؤمن أن يذل نفسه، ورأيت لعاصم أن المثل على ضم الهاء إنما هو من الهون الذي هو الرفق، وليس من الهوان، قال منذر بن سعيد: يجب بهذه الآية أن لا يوادع العدو ما كانت للمسلمين قوة، فإن كانوا في قطر ما على غير ذلك فينظر الإمام لهم بالأصلح، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ إخبار بعلو كلمة الإسلام.

هذا قول الجمهور وظاهر اللفظ، وقاله ابن إسحاق: وروي عن ابن عباس وابن جريج: إنما قال الله لهم ذلك بسبب علوهم في الجبل، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انحاز في نفر يسير من أصحابه إلى الجبل، فبينما هو كذلك إذ علا خالد بن الوليد عليهم الجبل فقال رسول الله عليه السلام: اللهم لا يعلنونا، ثم قام وقام من معه فقاتل أصحابه وقاتل حينئذ عمر بن الخطاب حتى أزالوا المشركين عن رأس الجبل، وصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيه، فأنزل الله تعالى عليه، ﴿وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يحتمل أن يتعلق الشرط بقوله ﴿وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ فيكون المقصد هز النفوس وإقامتها، ويحتمل أن يتعلق بقوله ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ فيكون الشرط على بابه دون تجوز، ويترتب من ذلك الطعن على من نجم نفاقه في ذلك اليوم، وعلى من تأود إيمانه واضطرب يقينه، ألا لا يتحصل الوعد إلا بالإيمان، فالزموه.

ثم قال تعالى، تسلياً للمؤمنين: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ والأسوة مسلاة للبشر، ومنه قول الخنساء: [الوافر]

وَلَوْ لَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ أَعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأْسِي

والسلو بالتأسي هو النفع الذي يجره إلى نفسه الشاهد المحدود، فلذلك ردت شهادته فيما حد فيه وإن تاب وحسنت حاله، و«القرح»: القتل والجراح، قاله مجاهد والحسن والربيع وقتادة وغيرهم، والمعنى: إن مسكم في أحد فقد مس كفار قريش بيدربأيديكم، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية حفص: «قَرْحٌ» بفتح القاف، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر: «قُرْحٌ» بضم القاف، وكلهم سكن الراء، قال أبو علي: هما لغتان كالضَّعْف والضَّعْف والكُره والكُره، والفتح أولى، لأنها لغة أهل الحجاز والأخذ بها أوجب لأن القرآن عليها نزل.

قال القاضي أبو محمد: هذه القراءات لا يظن إلا أنها مروية عن النبي عليه السلام: وبجميعها عارض جبريل عليه السلام مع طول السنين توسعة على هذه الأمة، وتكملة للسبعة الأحرف حسب ما بيناه في صدر هذا التعليق، وعلى هذا لا يقال: هذه أولى من جهة نزول القرآن بها، وإن رجحت قراءة فبوجه غير وجه النزول، قال أبو الحسن الأخفش: «الْقَرْحُ» و«الْقُرْحُ» مصدران بمعنى واحد، ومن قال الْقَرْح بالفتح الجراحات بأعيانها، والقَرْح بضم القاف ألم الجراحات قبل منه إذا أتى برواية، لأن هذا مما لا يعلم بقياس، وقال بهذا التفسير الطبري، وقرأ الأعمش «إِنْ تَمْسَسْكُمْ» بالتاء من فوق، «قُرُوحٌ» بالجمع، «فقد

مس القوم قرح مثله»، وقرأ محمد بن السميع اليماني «قَرَح» بفتح القاف والراء، قال أبو الفتح: هي لغة في القرح كالشلل والشلل والطرود والطرود. هذا مذهب البصريين، وليس هذا عندهم من تأثير حرف الحلق، وأنا أميل في هذا إلى قول أصحابنا البغداديين، في أن لحرف الحلق في مثل هذا أثراً معتمداً، وقد سمعت بعض بني عقيل يقول: نحوه بفتح الحاء، يريد نحوه، ولو كانت الكلمة مبنية على فتح الحاء لأعلت الواو وكعصاة وفتاة، وسمعت غيره يقول: أنا محموم بفتح الحاء قال ابن جني: ولا قرابة بيني وبين البصريين ولكنها بيني وبين الحق، والحمد لله.

قوله تعالى:

وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾

أخبر تعالى على جهة التسلية أن ﴿الأيام﴾ على قديم الدهر وغايه أيضاً إنما جعلها دولاً بين البشر، أي: فلا تنكروا أن يدال عليكم الكفار، وقال تعالى: ﴿نداولها﴾ فهي مفاعلة من جهة واحدة، وإنما ساغ ذلك لأن المداولة منه تعالى هي بين شيئين، فلما كان ذلك الفريقان يتداولان حسن ذلك، و«الدولة» بضم الدال المصدر، و«الدولة» بفتح الدال الفعل الواحدة من ذلك، فلذلك يقال في دولة فلان لأنها مرة في الدهر، وسمع بعض العرب الأقحاح قارئاً يقرأ هذه الآية، فقال: إنما هو، «وتلك الأيام نداولها بين العرب»، فقليل له: إنما هو «بين الناس» فقال: إنا لله، ذهب ملك العرب ورب الكعبة، وقوله تعالى: ﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ دخلت الواو لتؤذن أن اللام متعلقة بمقدر في آخر الكلام، تقديره: وليعلم الله الذين آمنوا، فعل ذلك، وقوله تعالى: ﴿وليعلم﴾ معناه: ليظهر في الوجود إيمان الذين قد علم أزل أنهم يؤمنون، وليساقو علمه إيمانهم ووجودهم، وإلا فقد علمهم في الأول، وعلمه تعالى لا يطرأ عليه التغيير ونحو هذا: أن يضرب حاكم أحداً ثم يبين سبب الضرب ويقول: فعلت هذا التبيين لأضرب مستحقاً، معناه: ليظهر أن فعلي وافق استحقاقه، وقوله تعالى: ﴿ويتخذ منكم شهداء﴾، معناه: أهل فوز في سبيله حسبما ورد في فضائل الشهيد.

ثم أخبر تعالى: أن إدالته الكفار على المؤمنين إنما هي ﴿ليمحص﴾ المؤمنين، وأن إدالة المؤمنين على الكفار إنما هي لمحق الكفار، هذا مقتضى ألفاظ الآية، وقد قال ابن عباس وغيره: جعل الله الدولة لرسوله يوم بدر، وعليه يوم أحد وذهب كثير من أهل العلم إلى العبارة عن إدالة المؤمنين بالنصر، وعن إدالة الكفار بالإدالة، وروي في ذلك عن النبي عليه السلام حديث: إنهم يدالون كما تنصرون، و«التمحيص»: التنقية. قال الخليل: التمحيص من العيب يقال: محص الحبل إذا زال عنه بكثرة مره على اليد زئيره وأملس هكذا ساق الزجاج اللفظة «الحبل» ورواها النقاش محص الجمل: إذا زال عنه وبره وأملس، وقال حنيف الحناتم، وقد ورد ماء يقال له طويلع: إنك لمحص الرشاء، بعيد المستقى، مطلق على الأعداء، فالمعنى: إنه لبعده يلمس حبله بالطين الحر ومد الأيدي، فمعنى الآية: أن الله يمحص المؤمنين إذا أدال

عليهم، بأنه ينقي المشهدين من ذنوبهم، وينقي الأحياء من منافقهم إذ يميزهم، وأنه ﴿يحق الكافرين﴾ إذا نصر عليهم أي ينقصهم والمحق: الذهاب شيئاً شيئاً، ومنه محاق القمر.

قوله تعالى :

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

﴿أم﴾ هي بمعنى الإضراب عن الكلام الأول والترك له، وفيها لازم معنى الاستفهام، فلذلك قدرها سيبويه بيل وألف الاستفهام، و﴿حسبتم﴾ معناه ظننتم. وهذه الآية وما بعدها تقريع وعتب لطوائف المؤمنين الذين وقعت منهم الهفوات المشهورة في يوم واحد، وقوله: ﴿ولما يعلم﴾ نفي مؤكد وهو معادل لقول القائل: قد كان كذا، فلما أكد هذا الخبر الموجب، بقى، أكد النفي المعادل له بلما، وإذا قال القائل: كان كذا، فمعادله لم يكن دون تأكيد في الوجهين، قاله سيبويه: وقرأ جمهور الناس: بكسر الميم للالتقاء في قوله: ﴿ولما يعلم﴾ وقرأ يحيى بن وثاب وإبراهيم النخعي: ﴿ولما يعلم﴾ بفتح الميم إتباعاً لفتحة اللام، وقرأ الجمهور «ويعلم» على النصب بإضمار - أن - عند البصريين، وبواو الصرف عند الكوفيين وروي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قرأ: «ويعلم» بالرفع على استئناف الفعل، وقرأ الحسن بن أبي الحسن ويحيى بن يعمر وأبو حيوه وعمرو بن عبيد: «ويعلم» بكسر الميم جزماً معطوفاً على قوله ﴿ولما يعلم﴾.

ثم خاطب المؤمنين بقوله: ﴿ولقد كنتم تمنون الموت﴾ والسبب في ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج في غزوة بدر يريد غير قريش مبادراً فلم يوجب الناس معه، إذ كان الظن أنه لا يلقى حرباً، فلما قضى الله ببدر ما قضى وفاز حاضروها بالمنزلة الرفيعة، كان المتخلفون من المؤمنين عنها يتمنون حضور قتال الكفار مع النبي صلى الله عليه وسلم ليكون منهم في ذلك غناء يلحقهم عند ربهم ونيبهم بمنزلة أهل بدر، ولأنس بن النضر في ذلك كلام محفوظ، فلما جاء أمر أحد - وحضر القتال لم يصدق كل المؤمنين، فعاتبهم الله بهذه الآية وألزمهم تعالى تمنى الموت من حيث تمنوا لقاء الرجال بالحديد ومضاربتهم به، وهي حال في ضمنها في الأغلب الموت، ولا يتمناها إلا من طابت نفسه بالموت، فصار الموت كأنه المتمنى، وإلا ففسد قتل المشرك للمسلم لا يجوز أن يتمنى من حيث هو قتل، وإنما تمنى لواحقه من الشهادة والتنعيم، وقرأ الجمهور: «من قبل أن تلقوه»، وقرأ الزهري وإبراهيم النخعي «من قبل أن تلاقوه» وهذه الأولى في المعنى سواء من حيث - لقي - معناه يتضمن أنه من اثنين وإن لم يكن على وزن فاعل، وقرأ مجاهد «من قبل» بضم اللام وترك الإضافة، وجعل ﴿أن تلقوه﴾ بدلاً من ﴿الموت﴾، وقوله تعالى: ﴿فقد رأيتموه﴾ يريد رأيتم أسبابه وهي الحرب المشتعلة والرجال بأيديهم السيوف، وهذا كما قال عمير بن وهب يوم بدر: رأيت البلايا، تحمل المنايا، وكما قال الحارث بن هشام: [الكامل]

وَوَجَدْتُ رِيحَ الْمَوْتِ مِنْ تَلْقَائِهِمْ فِي مَازِقِ وَالْخَيْلِ لَمْ تَتَبَدَّدْ

يريد لقرب الأمر، ونحو هذا قول عامر بن فهيرة:

لقد رأيت الموت قبل ذوقه

يريد لما اشتد به المرض، وقرأ طلحة بن مصرف «فلقد رأيتموه»، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ يحتمل ثلاثة معان: أحدها التأكيد للرؤية وإخراجها من الاشتراك الذي بين رؤية القلب ورؤية العين في اللفظ، والآخر أن يكون المعنى وأنتم تنظرون في أسباب النجاة والفرار وفي أمر محمد عليه السلام هل قتل أم لا؟ وذلك كله نقض لما كنتم عاهدتم الله عليه، وحكى مكي عن قوم أنهم قالوا: المعنى: وأنتم تنظرون إلى محمد، وهذا قول ضعيف، إلا أن ينحى به إلى هذا القول الذي ذكرته أنه النظر في أمره هل قتل؟ والاضطراب بحسب ذلك، والمعنى الثالث أن يكون قد وقفهم على تمنيههم ومعاهدتهم، وعلى أنهم رأوا ذلك الذي تمنوا، ثم قال على جهة التوبيخ والعتب: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ في فعلكم الآن بعد انقضاء الحرب هل وفيتم أم خالفتم؟ كانه قال: وأنتم حسباء أنفسكم، فتأملوا قبيح فعلكم وفي هذا التوبيخ على هذا الوجه ضرب جميل من الإبقاء والصون والاستدعاء، قال ابن فورك: المعنى وأنتم تتأملون الحال في ذلك وتفكرون فيها كيف هي؟ وهذا نحو ما تقدم.

قوله تعالى:

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كُنْتُمْ مُوْجِلًا

هذا استمرار في عتبهم، وإقامة لحجة الله عليهم، المعنى: أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول كسائر الرسل، قد بلغ كما بلغوا، ولزمكم أيها المؤمنون العمل بمضمون الرسالة وليست حياة الرسول وبقاؤه بين أظهركم شرطاً في ذلك، لأن الرسول يموت كما مات الرسل قبله، و﴿خلت﴾ معناه مضت وسلفت، وصارت إلى الخلاء من الأرض. وقرأ جمهور الناس «الرسل» بالتعريف، وفي مصحف ابن مسعود «رسل» دون تعريف، وهي قراءة حطان بن عبد الله، فوجه الأولى تفخيم ذكر الرسل، والتنويه بهم على مقتضى حالهم من الله تعالى، ووجه الثانية أنه موضع تيسير لأمر النبي عليه السلام في معنى الحياة، ومكان تسوية بينه وبين البشر في ذلك، فجيء تنكير «الرسل» جارياً في مضمار هذا الاقتصاد به صلى الله عليه وسلم، وهكذا يفعل في مواضع الاقتصاد بالشيء، فمنه قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣] وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْسَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] إلى غير ذلك من الأمثلة، ذكر ذلك أبو الفتح، والقراءة بتعريف «الرسل» أوجه في الكلام، وقوله تعالى: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ﴾ الآية، دخلت ألف الاستفهام على جملة الكلام على الحد الذي يخبر به ملتزمه، لأن أقبح الأحوال أن يقولوا: إن مات محمد أو قتل انقلبنا، فلما كان فعلهم ينحو هذا المنحى وقفوا على الحد الذي به يقع الإخبار، وقال كثير من

المفسرين: ألف الاستفهام دخلت في غير موضعها، لأن الغرض إنما هو: أتقبلون على أعقابكم إن مات محمد؟ فالسؤال إنما هو عن جواب الشرط.

قال الفقيه القاضي أبو محمد: وبذلك النظر الذي قدمته بين وجه فصاحة دخول الألف على الشرط، وذلك شبه بدخول ألف التقريب في قوله: ﴿أولو كان آباؤهم﴾ [البقرة: ١٧٠، المائدة: ١٠٤] ونحوه من الكلام، كأنك أدخلت التقرير على ما ألزمت المخاطب أنه يقوله، والانقلاب على العقب يقتضي التولي عن المنقلب عنه، ثم توعد تعالى المنقلب على عقبه بقوله تعالى: ﴿فلن يضر الله شيئاً﴾ لأن المعنى فإنما يضر نفسه وإياها يوبق، ثم وعد الشاكرين وهم الذين صدقوا وصبروا ولم يتقلب منهم أحد على عقبه بل مضى على دينه قدماً حتى مات، فمنهم سعد بن الربيع وتقضي بذلك وصيته إلى الأنصار، ومنهم أنس بن النضر، ومنهم الأنصاري الذي ذكر الطبري عنه بسند أنه مر عليه رجل من المهاجرين، والأنصاري يتشحط في دمه، فقال: يا فلان أشعرت أن محمداً قد قتل، فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قتل فإنه قد بلغ، فقاتلوا عن دينكم.

قال الفقيه أبو محمد: فهؤلاء أصحاب النازلة يومئذ صدق فعلهم قولهم. ثم يدخل في الآية الشاكرون إلى يوم القيامة، قال ابن إسحاق معنى ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾ أي من أطاعه وعمل بأمره، وذكر الطبري بسند عن علي بن أبي طالب وذكر غيره: أنه قال في تفسير هذه الآية: «الشاكرون»: الثابتون على دينهم، أبو بكر وأصحابه وكان يقول: أبو بكر أمير الشاكرين، وهذه عبارة من علي بن أبي طالب رضي الله عنه إنما هي إلى صدق أبي بكر رضي الله عنه بهذه الآية في يوم موت النبي عليه السلام وثبوته في ذلك الموطن، وثبوته في أمر الردة، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قبض وشاع موته، هاج المنافقون وتكلموا، وهموا بالاجتماع والمكاشفة، أوقع الله تعالى في نفس عمر رضي الله عنه أن النبي لم يقبض فقام بخطبته المشهورة المخوفة للمنافقين برجوع النبي عليه السلام، ففت ذلك في أعضاء المنافقين وتفرقت كلمتهم ثم جاء أبو بكر بعد أن نظر إلى النبي عليه السلام فسمع كلام عمر فقال له: اسكت، فاستمر عمر في كلامه فتشهد أبو بكر فأصغى الناس إليه، فقال: أما بعد فإنه من كان يعبد الله تعالى، فإن الله حي لا يموت ومن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾، وتلا الآية كلها، فبكى الناس ولم يبق أحد إلا قرأ الآية كأن الناس ما سمعوها قبل ذلك اليوم، قالت عائشة رضي الله عنها في البخاري: فنفخ الله بخطبة عمر، ثم بخطبة أبي بكر.

قال الفقيه الإمام أبو محمد: فهذا من المواطن التي ظهر فيها شكر أبي بكر وشكر الناس بسببه.

ثم أخبر تعالى عن النفوس أنها إنما تموت بأجل مكتوب محتوم واحد عند الله تعالى، أي فالجبن لا يزيد فيه، والشجاعة والإقدام لا تنقص منه، وفي هذه الآية تقوية النفوس للجهاد، قال ابن فورك: وفيها تسلية في موت النبي عليه السلام، والعبارة بقوله: ﴿وما كان﴾ قد تجيء فيما هو ممكن قريب نحو قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله، وقد تقع في الممتنع عقلاً نحو قوله: ﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ [النمل: ٦٠] فهي عبارة لا صيغة لها ولا تتضمن نهياً كما

يقول بعض المفسرين، وإنما يفهم قدر معناها من قرائن الكلام الذي تجيء العبارة فيه، و«نفس» في هذه الآية: اسم الجنس، و«الإذن» التمكين من الشيء مع العلم بالشيء المأذون فيه، فإن انضاف إلى ذلك قول فهو الأمر، وقوله: ﴿كِتَابًا﴾ نصب على التمييز و﴿مُوجِلًا﴾ صفة. وهذه الآية ردّ على المعتزلة في قولهم بالأجلين، وأما الانفصال عن تعلقهم بقوله تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٤] ونحو هذا من الآيات، فسيجيء في مواضعه إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى:

وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾
وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾

قوله تعالى: ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ مشروط بالمشيئة، أي نؤت من شئنا منها ما قدر له، بين ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨]، وقرينة الكلام تقتضي أنه لا يؤتى شيئاً من الآخرة لأن من كانت نيته من عمله مقصورة على طلب الدنيا، فلا نصيب له في الآخرة، والأعمال بالنيات، وقرينة الكلام في قوله: ﴿وَمَنْ يَرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ لا تمنع أن يؤتى نصيباً من الدنيا، وقرأ جمهور الناس «نؤته ونؤته وسنجزى». كلها بنون العظمة، وقرأ الأعمش بالياء في الثلاثة، وذلك على حذف الفاعل لدلالة الكلام عليه، قال ابن فورك: في قول الله تعالى: ﴿وسنجزى الشاكرين﴾ إشارة إلى أنه ينعمهم بنعيم الدنيا لا أنهم يقصرون على الآخرة.

ثم ضرب تعالى المثل للمؤمنين بمن سلف من صالحى الأمم الذين لم يشتهم عن دينهم قتل الكفار لأنبيائهم فقال: ﴿وكأين من نبي﴾ الآية، وفي ﴿كأين﴾ أربع لغات: «كأين» على وزن كعين بفتح العين، و«كأين»، على وزن كاعن و«كأين» على وزن كعين بسكون العين وكان على وزن كعن بكسر العين، وأكثر ما استعملت العرب في أشعارها التي على وزن كاعن، فمن ذلك قول الشاعر: [الطويل]

وَكَايْنُ رَدَدْنَا عَنْكُمْ مِنْ مُدَجِّجٍ يَجِيءُ أَمَامَ الْقَوْمِ يَرْدِي مُقْتَعَا

وقال جرير: [الطويل]

وَكَايْنُ بِالْأَبَاطِحِ مِنْ صَدِيقٍ يَرَانِي لَوْ أَصِيبْتُ هُوَ الْمُصَابَا

وقال آخر: [زهير]: [الطويل]:

وَكَايْنُ تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجِبٍ زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِي التَّكَلُّمِ

وقد جاء في اللغة التي ذكرتها أولاً قول الشاعر: [الوافر]

كَأَيْنُ فِي الْمَعَاشِرِ مِنْ أَنَاسٍ أَخْوَهُمْ فَوْقَهُمْ وَهُمْ كِرَامُ

وهذه اللغة هي أصل هذه اللفظة، لأنها كاف التشبيه دخلت على «أي» كما دخلت على «ذا» في قولك لفلان كذا وكذا، وكما دخلت على «أن» في قولك كأن زيداً أسد، لكن بقي لها معنى التشبيه في كأن وزال عنها ذلك في كذا وكذا، وفي «كأين»، وصرفت العرب «كأين» في معنى «كم» التي هي للتكثير، وكثر استعمالهم للفظه حتى لعب فيها لسان العرب على اللغات الأربع التي ذكرت، وهذا كما لعب في قولهم: لعمرى حتى قالوا: وعملي، وكما قالوا: أطيب وأيطب، وكما قالوا: طيبخ في بطيخ، فعوملت الكاف «وأي» معاملة ما هو شيء واحد، فأما اعتلال لغة من قال: «كأين» على وزن فاعل، فإنهم أخذوا الأصل الذي هو «كأين» فقبلوا الياء قبل الهمزة ونقلت حركة كل واحد منهما إلى آخرتها، فجاء «كيا» على وزن كيع، فحذفوا الياء الثانية المفتوحة تخفيفاً، كما حذفوا الياء من ميت وهين ولين فقالوا: ميت وهين ولين، وكما حذفوا الياء الثانية من «أي» تخفيفاً ومنه قول الفرزدق بن غالب التميمي:

تنظرت نصراً والسماكين أيهما عليّ من الغيث استهلت مواطره؟

فجاء «كيا» على وزن كيع، فأبدلت هذه الياء الساكنة ألفاً مراعاة للفتحة التي قبلها، كما قالوا: في يوجل يأجل، وكما أبدلوا الياء ألفاً في «طاي» وكما أبدلت في آية عند سيبويه، إذ أصلها عنده آية على وزن فعلة بسكون العين، فجاء «كاء» ثم كتب هذا التنوين نوناً في المصحف، فأما قياس اللغة فحذفه في الوقف، فكما يقولون: مررت بزيد فكذلك يقولون كأى، ووقف عليه أبو عمرو بياء دون نون، وكذلك روى سورة بن المبارك عن الكسائي، ووقف سائر القراء بإثبات النون مراعاة لخط المصحف، قال أبو علي: ولو قيل إنه لما تصرف في الكلمة بالقلب صارت بمنزلة النون التي من نفس الكلمة وصارت بمنزلة لام فاعل فأقرت في الوقف، لكان قولاً، ويقوي ذلك أنهم لما حذفوا الكلام من قولهم أما لا، جعلوها بالحذف ككلمة واحدة، فأجازوا الإمالة في ألف «لا» كما تجوز في التي من نفس الكلمة في الأسماء والأفعال، فيوقف على «كأين» بالنون ولا يتوقف على النون إذا لم تقلب، كما لا تميل الألف من «لا» إذا لم يحذف فعلها.

قال الفقيه أبو محمد: وبهذه اللغة التي فيها هذا القلب قرأ ابن كثير وحده، وقرأ سائر السبعة باللغة التي هي الأصل «كأين»، وذهب يونس بن حبيب في «كأين» إلى أنه فاعل من الكون، وقوله مردود، إذ يلزم عنه إعراب الكلمة ولم يعربها أحد من العرب، وأما اللغة التي هي «كأين» على وزن كعين فهي قراءة ابن محيصن والأشهب العقيلي، وتعليل هذه اللغة أنه علل الأصل الذي هو «كأين» بالتعليل المتقدم، فلما جاء «كيا» على وزن كيعن، ترك هؤلاء إبدال الياء الساكنة ألفاً كما تقدم في التعليل الأول، وقبلوا الكلمة فجعلوها «كأين» على وزن كعين، وحسن هذا من وجهين: أحدهما أن التلعب والتصرف في هذه الكلمة مهيح، والثاني أنهم راجعوا الأصل الذي هو تقديم الهمزة على الياء، وأما اللغة التي هي كان على وزن كع فهي قراءة ابن محيصن أيضاً، حكاها عنه أبو عمرو الداني، وقرأها الحسن بن أبي الحسن، إلا أنه سهل الهمزة بياء، فقرأ كي في جميع القرآن، وتعليل هذه اللغة أنهم حذفوا الألف من «كاء» الممدودة على وزن كاعن بعد ذلك التصرف كله تخفيفاً، وهذا كما قالوا: أم والله، يريدون: أما، وكما قالوا على لسان الضب [المجتث]:

لا أشتهي أن أردّا إلّا عراداً عردّا
وصلياناً بردّا وعنكشا ملتبدّا

أرادوا: عارداً وبادراً، فحذفوا تخفيفاً، وهذا كثير في كلامهم، ﴿وكأين﴾ في هذه الآية في موضع رفع بالابتداء، وهي بمنزلة «كم» وبمعناها تعطي في الأغلب التكثير، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع: «قُتِلَ»، بضم القاف وكسر التاء مخففة، وقرأ الباقر «قاتل معه» بألف بين القاف والتاء، وقرأ قتادة «قُتِلَ» بضم القاف وكسر التاء مشددة على التكثير، وقوله تعالى: ﴿قُتِلَ﴾ قال فيه جماعة من المفسرين منهم الطبري: إنه مستند إلى ضمير «نبي»، والمعنى عندهم أن النبي قتل، قال ابن عباس في قوله: ﴿وما كان لنبي أن يغفل﴾ [آل عمران: ١٦١] النبي يقتل، فكيف لا يخان، وإذا كان هذا فـ ﴿رييون﴾ مرتفع بالظرف بلا خلاف، وقوله: ﴿معه رييون﴾ على هذا التأويل يجوز أن يكون صفة لـ «نبي»، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير الذي أسند إليه «قُتِلَ» فإن جعلته صفة أضمرت للمبتدأ الذي هو «كأين» خبراً تقديره في آخر الكلام: مضى أو ذهب أو فقد: ﴿فما وهنوا﴾ وإن جعلت «معه رييون» حالاً من الضمير فخير المبتدأ في قوله: ﴿قُتِلَ﴾ وإذا جعلته صفة فالضمير في «معه» عائد على «النبي»، وإذا جعلته حالاً فالضمير في «معه» عائد على الضمير ذي الحال، وعلى كلا الوجهين من الصفة أو الحال فـ «معه رييون» متعلق في الأصل بمحذوف، وليس متعلقاً بـ «قُتِلَ»، وقال الحسن بن أبي الحسن وجماعة معه: إن «قُتِلَ» إنما هو مستند إلى قوله: ﴿رييون﴾ وهم المقتولون قال الحسن وسعيد بن جبير: لم يقتل نبي في حرب قط.

قال القاضي أبو محمد: فعلى هذا القول يتعلق قوله: ﴿معه﴾ بـ «قُتِلَ» - وهذه الجملة - «قُتِلَ معه رييون»، هي الابتداء ويتصور في قراءة من قرأ «قاتل» جميع ما ذكرته من التقديرات في قراءة «قُتِلَ»، وأما قراءة قتادة «قُتِلَ» فقال أبو الفتح: لا يحسن أن يسند الفعل إلا إلى الربيين، لما فيه من معنى التكثير الذي لا يجوز أن يستعمل في قتل شخص واحد، فإن قيل: يستند إلى نبي مراعاة لمعنى «كم» فالجواب أن اللفظ قد مشى على جهة الأفراد في قوله «من نبي» ودل الضمير المفرد في «معه» على أن المراد إنما هو التمثيل بواحد واحد، فخرج الكلام على معنى «كم» قال أبو الفتح: وهذه القراءة تقوي قول من قال من السبعة: إن «قُتِلَ» - بتخفيف التاء أو «قاتل» إنما يستند إلى الربيين، ورجح الطبري استناد «قُتِلَ» إلى «النبي» بدلالة نازلة محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك أن المؤمنين إنما تخاذلوا لما قيل قتل محمد - فضرب المثل بنبي قتل.

قال القاضي أبو محمد: وإذا لم يسند الفعل إلى «نبي» فإنما يجيء معنى الآية: تثبيت المؤمنين بعد من قتل منهم فقط، وترجيح الطبري حسن، ويؤيد ذلك ما تقدم من قوله تعالى: ﴿أفإن مات أو قُتِلَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وحجة من قرأ «قاتل» أنها أعم في المدح لأنه يدخلها فيها من قتل ومن بقي.

قال الفقيه أبو محمد: ويحسن عندي على هذه القراءة إسناد الفعل إلى الربيين، وعلى قراءة «قُتِلَ» إسناده إلى نبي، وأجمع السبعة وجماعة من الناس على كسر الراء من «رييون» وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن مسعود وابن عباس وعكرمة والحسن وأبو رجاء وعمرو بن عبيد وعطاء بن السائب: «رُيُونَ» بضم الراء، وروى قتادة عن ابن عباس «رُيُونَ» بفتح الراء، قال ابن جني: الفتح في الراء لغة تميم وكلها لغات، واختلف الناس في معنى «رييون» فقال ابن مسعود: الرُيُونَ الألف من الناس والجمع الكثير، وقال ابن عباس: «رييون» جموع كثير، وقاله الحسن وقاتدة وعكرمة ولقول عبد الله بن مسعود وابن

عباس: إنهم الألوف، قال بعض المفسرين: هم عشرة آلاف فصاعداً، أخذ ذلك من بناء الجمع الكثير في قولهما: هم الألوف وهذا في الربيين أنهم الجماعات الكثيرة هو من الربة بكسر الراء وهي الجماعة الكثيرة، قاله يونس بن حبيب، وقال: إن قوله تعالى: ﴿قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونًا﴾ منسوبون إليها، قال قطرب: جماعة العلماء على قول يونس، وقال الزجاج: يقال: إن الربة عشرة آلاف، وروي عن ابن عباس وعن الحسن بن أبي الحسن وغيرهما أنهم قالوا: ﴿رَبِّيُونًا﴾ معناه علماء، وقال الحسن: فقهاء علماء، قال أيضاً: علماء صبر، وهذا القول هو على النسبة إلى الرب، إما لأنهم مطيعون له، أو من حيث هم علماء بما شرع، ويقوي هذا القول في قراءة من قرأ ﴿رَبِّيُونًا﴾ بفتح الراء وأما في ضم الراء وكسرها فيجيء على تغيير النسب، كما قالوا في النسبة إلى الحرم: جرمي بكسر الحاء، وإلى البصرة، بصري بكسر الباء، وفي هذا نظر، وقال ابن زيد: «الربانيون»: الولاة، والربيون الرعية الأتباع للولاة.

قال الفقيه أبو محمد: كان هذا من حيث هم مربوبون، وقال النقاش: اشتقاق ربي من ربا الشيء يربو إذا كثر، فسمي بذلك الكثير العلم.

قال الفقيه أبو محمد: وهذا ضعيف، وقال مكي: ربي بكسر الراء منسوب إلى الرب لكن كسرت راؤه إبتاعاً للكسرة والياء اللتين بعد الراء، وروي بضم الراء كذلك لكنهم ضموها كما قيل: دُهرى بضم الدال في النسب إلى الدهر، وقرأ جمهور الناس «فما وهنوا» بفتح الهاء، وقرأ الأعمش والحسن وأبو السمال «وهنوا» بكسر الهاء، وهما لغتان بمعنى، يقال: وهن بكسر الهاء يوهن ووهن بفتح الهاء يهن، وقرأ عكرمة وأبو السمال أيضاً «وهنوا» بإسكان الهاء، وهذا الوهن في قوله آنفاً ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ [آل عمران: ١٣٩] والضمير في قوله: ﴿فما وهنوا﴾ عائد على جميع الربيين في قول من أسند قتل إلى نبي، ومن أسنده إلى الربيين قال في هذا الضمير إنه يعود على من بقي منهم، إذ المعنى يفهم نفسه، وقوله تعالى: ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ معناه لم يتكسبوا من العجز والإلقاء باليد ما ينبي عن ضعفهم، وقوله تعالى: ﴿وَمَا اسْتَكْنَوْا﴾ ذهب طائفة من النحاة إلى أنه من السكون فوزنه افتعلوا استكنوا، فمطلت فتحة الكاف فحدث من مطلقها ألف، وذهبت طائفة إلى أنه مأخوذ من كان يكون فوزنه على هذا الاشتقاق استفعلوا أصله استكونوا، نقلت حركة الواو إلى الكاف، وقلت ألفاً، كما فعلوا في قولك: استعانوا واستقاموا، والمعنى: أنهم لم يضعفوا ولا كانوا قريباً من ذلك، كما تقول: ما فعلت كذا ولا كدت، فتحذف لأن الكلام يدل على أن المراد، وما كدت أن أفعل، ومحبة الله تعالى للصابرين ما يظهر عليهم من نصره وتعيمه.

قوله تعالى:

وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَانْتَهَمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

هذه الآية في ذكر الربيين، أي هذا كان قولهم، لا ما قاله بعضكم يا أصحاب محمد، من قول من قال: نأخذ أماناً من أبي سفيان ومن قول من قال: نرجع إلى ديننا الأول، ومن قول من فر، فلا شك أن قوله

مناسب لفعله ولو بعض المناسبة، إلى غير ذلك مما اقتضته تلك الحال من الأقوال، وقرأ السبعة وجمهور الناس «قولهم» بالنصب، ويكون الاسم فيما بعد ﴿إلا﴾ وقرأ جماعة من القراء «قولهم» بالرفع وجعلوا الخبر فيما بعد ﴿إلا﴾ وروى ذلك حماد بن سلمة عن ابن كثير، وأبو بكر عن عاصم، ذكره المهدوي، واستغفار هؤلاء القوم المدوحين في هذا الموطن ينحو إلى أنهم رأوا ما نزل من مصائب الدنيا إنما هو بذنوب من البشر وقوله تعالى: ﴿ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا﴾ عبارتان عن معنى قريب بعضه من بعض، جاء ذلك للتأكيد ولتعم مناحي الذنوب، وكذلك فسر ابن عباس وغيره، وقال الضحاك: الذنوب عام، والإسراف في الأمر أريد به الكبائر خاصة، وقولهم: ﴿وثبت أقدامنا﴾ يحتمل أن يجري مع ما قبله من معنى الاستغفار، فيكون المعنى: اجعلنا دائبين على طاعتك والإيمان بك، وتثبيت القدم على هذا: استعارة، ويحتمل أن يكون في معنى ما بعده من قوله: ﴿وانصرونا على القوم الكافرين﴾ فيراد ثبوت القدم حقيقة في مواقف الحرب، قال ابن فورك: في هذا الدعاء رد على القدريّة، لقولهم: إن الله لا يخلق أفعال العبد، ولو كان ذلك لم يسغ أن يدعي فيما لا يفعله.

و﴿ثواب الدنيا﴾ في هذه الآية: الظهور على عدوهم، قاله ابن إسحاق وقتادة وغيرهما، وقال ابن جريج: الظفر والغنيمة، وفسر بهذا جماعة من المؤلفين في التفسير، قال النقاش: ليس إلا الظفر والغلبة فقط، لأن الغنيمة لم تحلل إلا لهذه الأمة.

قال الفقيه الإمام: وهذا اعتراض صحيح، ﴿وحسن ثواب الآخرة﴾ الجنة بلا خلاف، وعبر بلفظة «حسن» زيادة في الترغيب وباقي الآية بين.

قوله تعالى:

يَتَّيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَآوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾

الإشارة بقوله: ﴿الذين كفروا﴾ إلى المنافقين الذين جنبوا المسلمين وقالوا في أمر - أحد - لو كان محمد نبياً لم يهزم، والذين قالوا: قد قتل محمد فلنرجع إلى ديننا الأول، إلى نحو هذه الأقوال، ثم اللفظ يقتضي كل كافر كان في ذلك الوقت ويكون إلى يوم القيامة، نهى الله المؤمنين عن طاعتهم.

و﴿بل﴾ ترك للكلام الأول ودخول في غيره، وقرأ جمهور الناس «بل الله مولاكم» على الابتداء والخبر، وهذا تثبيت، وقرأ الحسن بن أبي الحسن «بل الله» بالنصب على معنى: بل أطيعوا الله.

وقوله تعالى: ﴿سنلقي﴾ استعارة، إذ حقيقة الإلقاء إنما هي في الأجرام، وهذا مثل قوله تعالى:

﴿والذين يرمون المحصنات﴾ [النور: ٤] ونحوه قول الفرزدق: [الطويل]

هَما نَفْشا في فَيٍّ مَن قَمَرَتَهُما عَلَى النَّابِجِ الْعَاوِي أَشَدَّ رِجَامٍ

وقرأ جمهور الناس «سنلقي» بنون العظمة، وقرأ أيوب السخيتاني «سيلقي» بالياء على معنى هو، وقرأ ابن عامر والكسائي «الرَّعْب» بضم العين حيث وقع، وقرأ الباقون «الرَّعْب» بسكون العين، وهذا كقولهم: عُنُقٌ وَعُنُقٌ وكلاهما حسن فصيح، وسبب هذه الآية: أنه لما ارتحل أبو سفيان بالكفار بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وقال: انظر القوم، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وركبوا الإبل فهم متشمرون إلى مكة، وإن كانوا على الخيل فهم عائدون إلى المدينة، فمضى علي فرأهم قد جنبوا الخيل فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسر وسر المسلمون، ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فتجهز واتبع المشركين يريهم الجلد، فبلغ حمراء الأسد وأن أبا سفيان قال له كفار قريش: أحين قتلناهم وهزمناهم ولم يبق إلا الفل والطريد ننصرف عنهم؟ ارجع بنا إليهم حتى نستأصلهم فعزموا على ذلك، وكان معبد بن أبي معبد الخزاعي قد جاء إلى رسول الله عليه السلام وهو على كفره، إلا أن خزاعة كلها كانت تميل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له: والله يا محمد لقد ساءنا ما أصابك، ولوددنا أنك لم ترزأ في أصحابك، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس بما عازمت عليه قريش من الانصراف، اشتد ذلك عليهم، فسخر الله ذلك الرجل معبد بن أبي معبد، وألقى بسببه الرعب في قلوب الكفار، وذلك أنه لما سمع الخبر، ركب حتى لحق بأبي سفيان بالروحاء، وقريش قد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فلما رأى أبو سفيان معبداً قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم، قد اجتمع إليه من كان تخلف عنه، وندموا على ما صنعوا، قال: ويلك ما تقول؟ قال والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل، قال: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم، قال: فإني أنهاك عن ذلك، والله لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيه شعراً قال وما قلت؟ قال قلت: [البسيط]

كَادَتْ تُهَدُّ مِنَ الْأَصْوَاتِ رَاحَتِي إِذْ سَالَتْ الْأَرْضُ بِالْجُرْدِ الْأَبَابِيلِ
تَرْدِي بِأَسَدٍ كِرَامٍ لَا تَنَابِلَةٍ عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِيلٍ مَعَاذِلِ
فَظَلْتُ عَدُوًّا أَظُنُّ الْأَرْضَ مَائِلَةً لَمَّا سَمَوُا بِرئيسٍ غَيْرِ مَخْذُولِ

إلى آخر الشعر، فوقع الرعب في قلوب الكفار، وقال صفوان بن أمية: لا ترجعوا فإني أرى أنه سيكون للقوم قتال غير الذي كان، فنزلت هذه الآية في هذا الإلقاء، وهي بعد متناولة كل كافر، ويجري معها قول النبي عليه السلام: نصرت بالرعب مسيرة شهر، ويظهر أن هذه الفضيلة إنما أعلم عليه السلام بها بعد هذه الأحوال كلها حين امتد ظل الإسلام، قال بعض أهل العلم: إنه لما أمر الله المؤمن بالصبر، ووعد النصر، وأخبره أن الرعب ملقى في قلوب الكفار، نقص الرعب من كل كافر جزءاً مع زيادة شجاعة المؤمن، إذ قد وعد النصر فلذلك كلف المؤمن الوقوف للكافرين، وقوله تعالى: ﴿بِمَا أَشْرَكُوا﴾ هذه باء السبب، والمعنى: أن المشرك بالله نفسه مقسمة في الدنيا وليس له بالله تعالى ثقة، فهو يكره الموت ويستشعر الرعب منه، و«السلطان»: الحجة والبرهان، ثم أخبر تعالى بعاقبة الكفار في الآخرة،

و «الماوى»: مفعول من أويت إلى المكان إذا دخلته وسكنت فيه، و «المثوى»، مفعول من: ثويت، والتقدير: وبش مثوى الظالمين هي.

قوله تعالى:

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا أَرْبَبَكُمْ مَا تُحِبُّونَ ۖ مِنْكُمْ مَن يُرِيدُ اللَّهُ لِيَكُونَ مِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۖ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۖ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾

جاءت المخاطبة في هذه الآيات بجمع ضمير المؤمنين، وإن كانت الأمور التي عاتبهم الله تعالى عليها لم يقع فيها جميعهم، ولذلك وجوه من الفصاحة: منها وعظ الجميع وزجره، إذ من لم يفعل معد أن يفعل إن لم يزجر، ومنها الستر والإبقاء على من فعل، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وعد المؤمنين النصر يومئذ على خبر الله تعالى - إن صبروا وجدوا - فصدق الله الوعد أولاً، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صاف المسلمين يومئذ ورتب الرماة على ما قد ذكرناه في صدر تفسير هذه الآيات في قصة أحد، فبارز علي بن أبي طالب أبا سعد بن أبي طلحة وهو صاحب لواء المشركين، وحمل الزبير وأبو دجانة فهزما عسكر المشركين، ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس، فأبلى حمزة بن عبد المطلب وعاصم بن أبي الأفلح، وانهزم المشركون وقتل منهم اثنان وعشرون رجلاً فهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ والحس: القتل الدريع، يقال حسهم إذا استأصلهم قتلاً، وحس البرد النبات وقال رؤبة: [الرجز]

إِذَا تَشَكُّوْا سُنَّةَ حَسُوْسَا تَأْكُلُ بَعْدَ الْأَخْضَرِ الْيَبِيْسَا

قال بعض الناس: هو مأخوذ من الحاسة، والمعنى في حس: أفسد الحواس.

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف، و «الإذن»: التمكين مع العلم بالممكن منه، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ يحتمل أن تكون ﴿حَتَّىٰ﴾ غاية مجردة، كأنه قال: إلى أن فشلتُم، ويقوي هذا أن ﴿إِذَا﴾ بمعنى «إِذ» لأن الأمر قد كان تقضى، وإنما هي حكاية حال، فتستغني ﴿إِذَا﴾ على هذا النظر عن جواب، والأظهر الأقوى أن ﴿إِذَا﴾ على بابها تحتاج إلى الجواب، وتكون حتى كأنها حرف ابتداء على نحو دخولها على الجمل، واختلف النحاة في جواب ﴿إِذَا﴾ فذهبت فرقة إلى أن الجواب قوله ﴿تَنَزَّعْتُمْ﴾، والوازائدة، وحكى المهدوي عن أبي علي أنه قال: الجواب قوله: ﴿صَرَفَكُمْ﴾ و «ثم» زائدة.

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول لا يشبه نظر أبي علي وسيبويه والخليل وفرسان الصناعة، إن الجواب محذوف مقدر، يدل عليه المعنى، تقديره: انهزمت ونحوه، و «الفضل» - استشعار العجز وترك الجد، وهذا مما فعله يومئذ قوم، و «التنازع» هو الذي وقع بين الرماة، فقال بعضهم: الغنيمة

الغنيمة، الحق بنا بالمسلمين، وقال بعضهم: بل ثبت كما أمرنا ﴿وعصيتكم﴾ عبارة عن ذهاب من ذهب من الرماة حتى تمكن خالد بن الوليد من غرة المسلمين، وقوله تعالى: ﴿من بعد ما أراكم ما تحبون﴾ يعني من هزم القوم، قال الزبير بن العوام: والله لقد رأيته أنظر إلى خدام هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هاربات ما دون أخذهن قليل ولا كثير، إذ مالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه يريدون النهب وخلوا ظهورنا للخليل، فأتينا من أدارنا، وصرخ صارخ: ألا إن محمداً قد قتل، فانكفأنا وانكفأ علينا القوم، وقوله تعالى: ﴿منكم من يريد الدنيا﴾ إخبار عن الذين حرصوا على الغنيمة وكان المال همهم، قاله ابن عباس وسائر المفسرين، وقال عبد الله بن مسعود: ما كنت أرى أن أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا حتى نزل فينا يوم أحد ﴿منكم من يريد الدنيا﴾ وقوله تعالى: ﴿ومنكم من يريد الآخرة﴾ إخبار عن ثبوت من الرماة مع عبد الله بن جبير امتثالاً للأمر حتى قتلوا، ويدخل في هذا أنس بن النضر وكل من جد ولم يضطرب من المؤمنين، وقوله تعالى: ﴿ليتليكم﴾ معناه: لينزل بكم ذلك البلاء من القتل والتمحيص، وقوله تعالى: ﴿ولقد عفا عنكم﴾ إعلام بأن الذنب كان يستحق أكثر مما نزل، وهذا تحذير، والمعنى «ولقد عفا عنكم» بأن لم يستأصلوكم، فهو بمنزلة: ولقد أبقي عليكم، ويحتمل أن يكون إخباراً بأنه عفا عن ذنوبهم في قصة أحد، فيكون بمنزلة العفو المذكور بعد، وبالتفسير الأول قال ابن جريج وابن إسحاق وجماعة من المفسرين، وقال الحسن بن أبي الحسن: قتل منهم سبعون، وقتل عم النبي عليه السلام وشج في وجهه وكسرت ربايته وإنما العفو أن لم يستأصلهم، هؤلاء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي سبيل الله غضاب الله، يقاتلون أعداء الله، نهوا عن شيء فضيعوه، فوالله ما تركوا حتى غموا بهذا الغم، فأفسق الفاسقين اليوم يجترم كل كبيرة، ويركب كل داهية، ويسحب عليها ثيابه، ويزعم أن لا بأس عليه فسوف يعلم.

قوله تعالى:

إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَلَوْنَهَا عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَابِكُمْ فَأَتَيْتُكُم
عَمَّا يَغْمُرُ لِكَيْلًا تَحَرَّوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ
أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ

العامل في ﴿إذ﴾ قوله: ﴿عفا﴾ [آل عمران: ١٥٢] وقرأ جمهور الناس بضم التاء وكسر العين من «أصعد» ومعناه: ذهب في الأرض، وفي قراءة أبي بن كعب، «إذ تصعدون في الوادي».

قال القاضي أبو محمد: والصعيد وجه الأرض، وصعدة اسم من أسماء الأرض، فأصعد معناه: دخل في الصعيد، كما أصبح دخل في الصباح إلى غير ذلك، والعرب تقول أصعدنا من مكة وغيرها، إذا استقبلوا سفراً بعيداً وأنشد أبو عبيدة لحادي الإبل: [الرجز]

قَدْ كُنْتُ تَبْكِينَ عَلَى الْإِضْعَادِ فَالآنَ صَرَحْتَ وَصَاحَ الْحَادِي

وقرأ الحسن بن أبي الحسن وأبو عبد الرحمن واليزيد ومجاهد وقتادة «إِذْ تَصْعَدُونَ» بفتح التاء والعين، من صعد إذا علا، والمعنى بهذا صعود من صعد في الجبل والقراءة الأولى أكثر، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلَوُّونَ﴾ مبالغة في صفة الانهزام وهو كما قال دريد:

وهل يرد المنهزم شيء؟

وهذا أشد من قول امرئ القيس: [الطويل]

أخو الجَهْدِ لَا يُلَوِّي عَلَى مَنْ تَعَدَّرَا

وقرأ ابن محيصن وابن كثير في رواية شبل «إِذْ يَصْعَدُونَ وَلَا يُلَوُّونَ» بالياء فيهما على ذكر الغيب، وقرأ بعض القراء «وَلَا تُلَوُّونَ» بهمز الواو المضمومة، وهذه لغة، وقرأ بعضهم «وَلَا تُلُونِ» بضم اللام وواو واحدة، وهي قراءة متركبة على لغة من همز الواو المضمومة، ثم نقلت حركة الهمزة إلى اللام وحذفت إحدى الواوين الساكتين، وقرأ الأعمش وعاصم في رواية أبي بكر «تُلَوُّونَ» بضم التاء من ألوى وهي لغة، وقرأ حميد بن قيس «عَلَى أَحَدٍ» بضم الألف والحاء، يريد الجبل، والمعنى بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه كان على الجبل، والقراءة الشهيرة أقوى لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن على الجبل إلا بعد ما فر الناس عنه، وهذه الحال من إصعادهم إنما كانت وهو يدعوهم، وروي أنه كان ينادي: «إِلَى عِبَادِ اللَّهِ، وَالنَّاسُ يَفْرُونَ». وفي قوله تعالى: ﴿فِي أَخْرَاكُمْ﴾ مدح للنبي عليه السلام فإن ذلك هو موقف الأبطال في أعقاب الناس، ومنه قول الزبير بن باطا ما فعل مقدمتنا إذ حملنا وحاميتنا إذ فررنا، وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشجع الناس، ومنه قول سلمة بن الأكوع كنا إذا احمر البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم، وقوله تعالى: ﴿فَأَثَابَكُمْ﴾ معناه: جازاكم على صنعكم، وسمي الغم ثواباً على معنى أنه القائم في هذه النازلة مقام الثواب، وهذا كقوله: [الوافر]

تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ

وكقول الآخر: [الفرزدق]: [الطويل]

أَخَافُ زِيَاداً أَنْ يَكُونَ عَطَاؤُهُ أَذَاهِمَ سُوداً أَوْ مُحَذَّرَجَةً سُمُوراً

فجعل القيود والسياط عطاء، ومحذرجة: بمعنى مدرجة، واختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿غَمًّا بَغْمًا﴾ فقال قوم: المعنى «أثابكم غمًّا» بسبب الغم الذي أدخلتموه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر المؤمنين، بفشلكم وتنازعكم وعصيانكم.

قال القاضي أبو محمد: فالباء على هذا باء السبب، وقال قوم: ﴿أثابكم غمًّا بغمًّا﴾، الذي أوقع على أيديكم بالكفار يوم بدر.

قال القاضي أبو محمد: فالباء باء معادلة، كما قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر والحرب سجال، وقالت جماعة كبيرة من المتأولين: المعنى أثابكم غمًّا على غم، أو غمًّا مع غم، وهذه باء الجر المجرد، واختلفوا في ترتيب هذين الغمين فقال قتادة ومجاهد: الغم الأول أن سمعوا: ألا إن محمداً قد قتل، والثاني، القتل

والجراح الواقعة فيهم، وقال الربيع وقتادة أيضاً بعكس هذا الترتيب، وقال السدي ومجاهد أيضاً وغيرهما: بل الغم الأول هو قتلهم وجراحهم وكل ما جرى في ذلك المأزق، والغم الثاني هو إشراف أبي سفيان على النبي ومن كان معه، ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يومئذ يدعو الناس حتى انتهى إلى قوم من أصحابه قد علوا صخرة في سفح الجبل فمشى نحوهم فأهوى إليه رجل بسهم ليرميه، فقال: أنا رسول الله، ففرحوا بذلك، وفرح هو عليه السلام إذ رأى من أصحابه الامتناع، ثم أخذوا يتأسفون على ما فاتهم من الظفر، وعلى من مات من أصحابهم فبينما هم كذلك إذ أشرف عليهم أبو سفيان من علو في خيل كثيرة، فنسوا ما نزل بهم أولاً، وأهمهم أمر أبي سفيان، فقال رسول الله عليه السلام: ليس لهم أن يعلونا، اللهم إن تقتل هذه العصابة لا تعبد، ثم ندب أصحابه فرموهم بالحجارة، وأغنى هنالك عمر بن الخطاب حتى أنزلوهم. واختلفت الروايات في هذه القصة من هزيمة - أحد - اختلافاً كثيراً، وذلك أن الأمر هول، فكل أحد وصف ما رأى وسمع، قال كعب بن مالك: أول من ميز رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا، رأيت عينيه تهران تحت المغفر، وروي أن الخيل المستعلية إنما كانت حملة خالد بن الوليد، وأن أبا سفيان إنما دنا، والنبي عليه السلام في عرعة الجبل، ولأبي سفيان في ذلك الموقف قول كثير، ولعمر معه مراجعة محفوظة اختصرتها إذ لا تخص الآية، وقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ معناه: من الغنيمه ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ﴾ معناه: من القتل والجرح وذل الانهزام وما نيل من نبيكم.

قال القاضي أبو محمد: واللام من قوله: ﴿لِكَيْلَا﴾ متعلقة بأثابكم، المعنى: لتعلموا أن ما وقع بكم إنما هو بجنايتكم، فأنتم آذيتم أنفسكم، وعادة البشر أن جاني الذنب يصبر للعقوبة، وأكثر قلق المعاق وحزنه إنما هو مع ظنه البراءة بنفسه وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ توعده.

ثم ذكر الله تعالى أمر النعاس الذي أمن به المؤمنین، فغشي أهل الإخلاص، وذلك أنه لما ارتحل أبو سفيان من موضع الحرب، قال النبي عليه السلام لعلي بحضرة أصحابه المتحيزين في تلك الساعة إليه: اذهب فانظر إلى القوم، فإن جنبوا الخيل فهم ناهضون إلى مكة، وإن كانوا على خيلهم فهم عامدون إلى المدينة، فاتقوا الله واصبروا، ووطنهم على القتال، فمضى علي ثم رجع، فأخبر أنهم جنبوا الخيل وقعدوا على أثقالهم عجالاً، فأمن الموقنون المصدقون رسول الله صلى الله عليه وسلم، وألقى الله عليهم النعاس، وبقي المنافقون والذين في قلوبهم مرض لا يصدقون، بل كان ظنهم أن أبا سفيان يؤم المدينة ولا بد، فلم يقع على أحد منهم نوم، وإنما كان همهم في أحوالهم الدنيوية، قال أبو طلحة: لقد نمت في ذلك اليوم حتى سقط سيفي من يدي مراراً، وقال الزبير بن العوام: لقد رفعت رأسي يوم أحد من النوم فجعلت أنظر إلى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فما منهم أحد إلا وهو يميل تحت جحفته، وقال ابن مسعود: نعسنا يوم - أحد - والنعاس في الحرب أمانة من الله، والنعاس في الصلاة من الشيطان، وقرأ جمهور الناس «أمانة» بفتح الميم، وقرأ ابن محيصن والنخعي «أمنة» بسكون الميم، وهما بمعنى الأمن، وفتح الميم أنصح، وقوله: ﴿نِعَاساً﴾ بدل، وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو وابن عامر «يغشي» بالياء حملاً على لفظ النعاس بإسناد الفعل إلى ضمير البدل، وقرأ حمزة والكسائي «تغشى» بالتاء حملاً على لفظ - الأمانة - بإسناد الفعل إلى ضمير المبدل منه، والواو في قوله تعالى: ﴿وَوَطَافَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ﴾ هي واو

الحال كما تقول : جئت وزيد قائم ، قاله سيبويه وغيره قال الزجاج : وجائز أن يكون خبر قوله ﴿وطائفة﴾ قوله - يظنون - ويكون قد أهتمهم صفة للطائفة ، وقوله تعالى : ﴿قد أهتمهم أنفسهم﴾ ذهب أكثر المفسرين قتادة والربيع وابن إسحاق وغيرهم : إلى أن اللفظة من الهم الذي هو بمعنى الغم والحزن ، والمعنى : أن نفوسهم المريضة وظنونهم السيئة ، قد جلبت إليهم الهم خوف القتل وذهاب الأموال ، تقول العرب : أهتمني الشيء إذا جلب الهم ، وذكر بعض المفسرين : أن اللفظة من قولك : هم بالشيء بهم إذا أراد فعله .

قال القاضي أبو محمد : أهتمهم أنفسهم المكاشفة . ونبذ الدين ، وهذا قول من قال : قد قتل محمد ، فلنرجع إلى ديننا الأول ونحو هذا من الأقوال .

قوله تعالى :

يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ أَلَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَاتَلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي يُبُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿غير الحق﴾ معناه : يظنون أن الإسلام ليس بحق وأن أمر محمد عليه السلام يضمحل ويذهب ، وقوله : ﴿ظن الجاهلية﴾ ذهب جمهور الناس إلى أن المراد مدة الجاهلية القديمة قبل الإسلام ، وهذا كما قال : ﴿حماية الجاهلية﴾ [الفتح : ٢٦] و﴿تبرج الجاهلية﴾ [الأحزاب : ٣٣] ، وكما تقول شعر الجاهلية ، وكما قال ابن عباس : سمعت أبي في الجاهلية يقول : اسقنا كأساً دهاقاً ، وذهب بعض المفسرين إلى أنه أراد في هذه الآية ظن الفرقة الجاهلية ، والإشارة إلى أبي سفيان ومن معه ، والأمر محتمل ، وقد نحا هذا المنحى قتادة والطبري ، وقوله تعالى : ﴿يقولون هل لنا من الأمر من شيء﴾ حكاية كلام قالوه ، قال قتادة وابن جريج : قيل لعبد الله بن أبي ابن سلول : قتل بنو الخزرج فقال : «وهل لنا من الأمر من شيء»؟ يريد أن الرأي ليس لنا ، ولو كان لنا منه شيء لسمع من رأينا فلم يخرج فلم يقتل أحد منا ، وهذا منهم قول بأجلين ، وكأن كلامهم يحتمل الكفر والنفاق ، على معنى : ليس لنا من أمر الله شيء ، ولا نحن على حق في اتباع محمد ، ذكره المهدوي وابن فورك ، لكن يضعف ذلك أن الرد عليهم إنما جاء على أن كلامهم في معنى سوء الرأي في الخروج ، وأنه لو لم يخرج لم يقتل أحد ، وقوله تعالى : ﴿قل إن الأمر كله لله﴾ اعتراض أثناء الكلام فصيح ، وقرأ جمهور القراء «كله» - بالنصب على تأكيد الأمر ، لأن «كله» بمعنى أجمع ، وقرأ أبو عمرو بن العلاء «كله لله» برفع كل على الابتداء والخبر ، ورجح الناس قراءة الجمهور لأن التأكيد أملك بلفظة «كل» ، وقوله تعالى : ﴿يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك﴾ يحتمل أن يكون إخباراً عن تسترهم بمثل هذه الأقوال التي ليست بمحض كفر ، بل هي جهالة ، ويحتمل أن يكون إخباراً عما يخفونه من الكفر الذي لا يقدر أن يظهر منه أكثر من هذه النزعات ، وأخبر تعالى عنهم على

الجملة دون تعيين، وهذه كانت سنته في المنافقين، لا إله إلا هو، وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَتَلْنَا هَاهُنَا﴾ هي مقالة سمعت من معتب بن قشير المغموص عليه بالنفاق، وقال الزبير بن العوام فيما أسند الطبري عنه: والله لكأنني أسمع قول معتب بن قشير أخي بني عمرو بن عوف، والنعاس يغشاني، ما أسمعته إلا كالحلم حين قال ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَتَلْنَا هَاهُنَا﴾.

قال القاضي أبو محمد: وكلام معتب يحتمل من المعنى ما احتمل كلام عبد الله بن أبي، ومعتب هذا ممن شهد بدرًا، ذكر ذلك ابن إسحاق وغيره، وقال ابن عبد البر: إنه شهد العقبة، وذلك وهم، والصحيح أنه لم يشهد عقبة، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ الآية رد على الأقوال، وإعلام بأن أجل كل امرئ إنما هو واحد، فمن لم يقتل فهو يموت لذلك الأجل على الوجه الذي قدر الله تعالى، وإذا قتل فذلك هو الذي كان في سابق الأزل، وقرأ جمهور الناس «في بُيُوتِكُمْ» بضم الباء، وقرأ بعض القراء وهي بعض طرق السبعة «في بُيُوتِكُمْ»، بكسر الباء، وقرأ جمهور الناس «لَبُرَّزَ» بفتح الراء والباء على معنى: صاروا في البراز من الأرض، وقرأ أبو حيو «لَبُرَّزَ» بضم الباء وكسر الراء وشدها، وقرأ جمهور الناس: «عليهم القتل» أي كتب عليهم في قضاء الله وتقديره، وقرأ الحسن والزهري: «عليهم القتال» وتحتمل هذه القراءة معنى الاستغناء عن المنافقين، أي لو تخلفتم أنتم لبرز المؤمنون الموفون المطيعون في القتال المكتوب عليهم، وقوله تعالى: ﴿وَلِيَتْلِيَّ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ الآية، اللام في قوله تعالى: ﴿وَلِيَتْلِيَّ﴾ متعلقة بفعل متأخر تقديره وليتلي وليمحص فعل هذه الأمور الواقعة والابتلاء هنا هو الاختبار، والتمحيص: تخليص الشيء من غيره، والمعنى ليختبره فيعلمه علماً مساوفاً لوجوده وقد كان متقدراً قبل وجود الابتلاء أزلاً، و﴿ذات الصدور﴾ ما تنطوي عليه من المعتقدات، هذا هو المراد في هذه الآية.

قوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾

اختلف المتأولون في من المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ فقال الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه: المراد بها جميع من تولى ذلك اليوم عن العدو.

قال القاضي أبو محمد: يريد على جميع أنحاء التولي الذي لم يكن تحرفاً لقتال، وأسند الطبري رحمه الله قال: خطب عمر رضي الله عنه يوم الجمعة فقرأ آل عمران، وكان يعجبه إذا خطب أن يقرأها، فلما انتهى إلى قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾، قال: لما كان يوم - أحد - هزماً ففررت حتى صعدت الجبل، فلقد رأيتني أنزو كأنني أروى، والناس يقولون قتل محمد، فقلت: لا أجد أحداً يقول: قتل محمد إلا قتلته، حتى اجتمعنا على الجبل فنزلت هذه الآية كلها، قال قتادة: هذه الآية في كل من فر بتخويف الشيطان وخدعه، وعفا الله عنهم هذه الزلة، قال ابن فورك: لم يبق مع النبي يومئذ إلا ثلاثة

عشر رجلاً، أبو بكر، وعلي، وطلحة، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وسائرهم من الأنصار أبو طلحة وغيره وقال السدي وغيره: إنه لما انصرف المسلمون عن حملة المشركين عليهم سعد قوم الجبل، وفر آخرون حتى أتوا المدينة، فذكر الله في هذه الآية الذين فروا إلى المدينة خاصة.

قال القاضي: جعل الفرار إلى الجبل تحييزاً إلى فئة، وقال عكرمة: نزلت هذه الآية فيمن فر من المؤمنين فراراً كثيراً، منهم رافع بن المعلى، وأبو حذيفة بن عتبة ورجل آخر، قال ابن إسحاق: فر عثمان بن عفان، وعقبة بن عثمان وأخوه سعد، ورجلان من الأنصار زريقان، حتى بلغوا الجعلب، جبل بناحية المدينة مما يلي الأعوص، فأقاموا به ثلاثة أيام، ثم رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لهم: لقد ذهبت فيها عريضة، قال ابن زيد: فلا أدري هل عفا عن هذه الطائفة خاصة؟ أم على المؤمنين جميعاً؟ و«استزل» - معناه طلب منهم أن يزلوا، لأن ذلك هو مقتضى وسوسته وتخويفه، وقوله تعالى: ﴿بِئْسَ مَا كَسَبُوا﴾ ظاهره عند جمهور المفسرين: أنه كانت لهم ذنوب عاقبهم الله عليها بتمكين الشيطان من استزلالهم، ويخلق ما اكتسبوه أيضاً هم من الفرار، وذهب الزجاج وغيره: إلى أن المعنى، أن الشيطان ذكرهم بذنوب لهم متقدمة، فكروها الموت قبل التوبة منها والإقلاع عنها، قال المهدوي: بما اكتسبوا من حب الغنيمة والحرص على الحياة.

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل لفظ الآية أن تكون الإشارة في قوله: ﴿بِئْسَ مَا كَسَبُوا﴾ إلى هذه العبرة، أي كان للشيطان في هذا الفعل الذي اكتسبوه استزلال لهم، فهو شريك في بعضه، ثم أخبر تعالى بعفوه عنهم، فتأوله جمهور العلماء على حط التبعة في الدنيا والآخرة، وكذلك تأوله عثمان بن عفان في حديثه مع عبيد الله بن عدي بن الخيار، وكذلك تأوله ابن عمر في حديثه مع الرجل العراقي، وقال ابن جريج: معنى الآية، ﴿عفا الله عنهم﴾ إذ لم يعاقبهم، والفرار من الزحف كبيرة من الكبائر بإجماع فيما علمت، وعدّها رسول الله صلى الله عليه وسلم في الموبقات مع الشرك وقتل النفس وغيرها.

قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرًى
لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾

نهى الله تعالى المؤمنين عن الكون مثل الكفار والمنافقين في هذا المعتقد الفاسد، الذي هو أن من سافر في تجارة ونحوها ومن قاتل فقتل لو قعد في بيته لعاش ولم يمت في ذلك الوقت الذي عرض فيه نفسه للسفر أو للقتال، وهذا هو معتقد المعتزلة في القول بالأجلين، وهو نحو منه، وقوله تعالى: ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ هي أخوة نسب، لأن قتلى - أحد - كانوا من الأنصار، أكثرهم من الخزرج، ولم يكن فيهم من المهاجرين إلا أربعة، وصرح بهذه المقالة فيما ذكر السدي ومجاهد وغيرهما، عبد الله بن أبي المنافق وأصحابه، وقيل: بل قالها جميع المنافقين، ودخلت ﴿إذا﴾ في هذه الآية وهي حرف استقبال، من حيث

﴿الذين﴾ اسم فيه إبهام يعم من قال في الماضي، ومن يقول في المستقبل، ومن حيث هذه النازلة تتصور في مستقبل الزمان، ويطرد النهي للمؤمنين فيها، فوضعت ﴿إذا﴾ لتدل على اطراد الأمر في مستقبل الزمان، وهذه فائدة وضع المستقبل موضع الماضي، كما قال تعالى: ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾ [يونس: ٢٥] إلى نحوها من الآيات وكما قالت:

وفينا نبي يعلم ما في غد

كما أن فائدة وضعهم الماضي موضع المستقبل للدلالة على ثبوت الأمر، لأن صيغة الماضي متحركة الوقوع، فمن ذلك قول الشاعر:

وَإِنِّي لَأَتِيكُمْ تَشْكُرَ مَا مَضَى مِنْ الْأَمْرِ وَاسْتِجَابَ مَا كَانَ فِي غَدٍ

ومنه قول الربيع:

أُضْبِحْتُ لَا أُمْلِكُ السِّلَاحَ وَلَا أُمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَفَرَا

و«الضرب في الأرض»: الإبعاد في السير، ومنه ضرب الدهر ضربانه: إذا بعدت المدة، وضرب الأرض: هو الذهاب فيها لحاجة الإنسان خاصة بسقوط «في» وقال السدي وغيره: في هذه الآية، الضرب في الأرض: السير في التجارة، وقال ابن إسحاق وغيره: بل هو السير في جميع طاعات الله ورسوله، والضرب في الأرض يعم القولين، و«غزى»: جمع غاز، وزنه - فعل - بضم الفاء وشد العين المفتوحة كشاهد وشهد وقائل وقول، وينشد بيت رؤبة: [الرجز]

فَالآنَ قَدْ نَهْنَهْنِي تَنْهِيهِ وَقَوْلُ جُلْمٍ لَيْسَ بِالْمُسْفَهِ

(وقول، الاده فلاده)

يريد إن لم تتب الآن فلا تتوب أبداً، وهو مثل معناه: إن لم تكن كذا فلا تكن كذا، وقد روي، وقولهم الأده فلاده، قال سيويه وغيره: لا يدخل «غزى» الجر ولا الرفع، وقرأته عامة القراء بتشديد الزاي، وقرأ الحسن بن أبي الحسن والزهري: «غزى» مخففة الزاي، ووجهه إما أن يريد غزاة، فحذف الهاء إخلاداً إلى لغة من يقول «غزى» بالتشديد، وهذا الحرف كثير في كلامهم، قول الشاعر يمدح الكسائي: [الطويل]

أَبَى الذَّمُّ أَخْلَاقَ الْكِسَائِيِّ وَأَتَمَّى بِهِ الْمَجْدُ أَخْلَاقَ الْأَبُو السَّوَابِقِ

يريد الأبوة جمع أب، كما أن العمومة جمع عم، والبنوة جمع ابن وقد قالوا: ابن وبنو، وتحتمل قراءتهما أن تكون تخفيفاً للزاي من «غزى»، ونظيره قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ﴿وكذبوا بآياتنا كذاباً﴾ [النبا: ٢٨] في قول من قال: إنه تخفيف، وقد قيل: إنه مصدر جرى على غير المصدر، وقرأ الحسن «وما قتلوا» مشددة التاء، وقوله تعالى: ﴿ليجعل الله ذلك﴾ قال مجاهد: معناه يحزنهم قوله ولا ينفعهم.

قال القاضي: فالإشارة في ذلك إلى هذا المعتقد الذي لهم، جعل الله ذلك حسرة، لأن الذي يتيقن

أن كل موت وقتل فبأجل سابق، يجد برد اليأس والتسليم لله تعالى على قلبه، والذي يعتقد أن حميمه لو قعد في بيته لم يمت، يتحسر ويتلهف، وعلى هذا التأويل مشى التأولون، وهو أظهر ما في الآية، وقال قوم: الإشارة بذلك إلى انتهاء المؤمنين ومخالفتهم الكافرين في هذا المعتقد، فيكون خلافهم لهم حسرة في قلوبهم، وقال قوم: الإشارة بذلك إلى نفس نهي الله تعالى عن الكون مثل الكافرين في هذا المعتقد لأنهم إذا رأوا أن الله تعالى قد سمهم بمعتقد وأمر بخلافهم كان ذلك حسرة في قلوبهم، ويحتمل عندي أن تكون الإشارة إلى النهي والانتفاء معاً، فتأمل «والحسرة»: التلهف على الشيء والغم به، ثم أخبر تعالى خيراً جزماً أنه الذي ﴿يحيي ويميت﴾ بقضاء حتم، لا كما يعتقد هؤلاء، وقرأ ابن كثير وحزمة والكسائي: «والله بما يعملون» بالياء، فهذا وعيد للمنافقين، وقرأ الباقون «تعملون» بالياء على مخاطبة المؤمنين، فهذا تأكيد للنهي في قوله ﴿لا تكونوا﴾ ووعد لمن خالفه ووعد لمن امتثله.

قوله تعالى:

وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لِمَغْفِرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَيْنَ مِّمَّا أُوتِيتُمْ لِيُؤْتِيَنَّكُمْ اللَّهُ شُحُورًا ﴿١٥٨﴾ فِيمَا رَحِمَهُ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتُمْ فَظًا غَلِيظَ الْقُلُوبِ لَا نَفْضُوا مِن حَوْلِكَ

اللام في قوله تعالى: ﴿ولئن قتلتم﴾ هي المؤذنة بمجيء القسم، واللام في قوله: ﴿لمغفرة﴾ هي المتلقية للقسم، والتقدير: والله لمغفرة، وترتب الموت قبل القتل في قوله ﴿وما ماتوا وما قتلوا﴾ [آل عمران: ١٥٦] مراعاة لرتبة الضرب في الأرض والغزو فقدم الموت الذي هو بإزاء المتقدم الذكر وهو الضرب، وقدم القتل في قوله تعالى: ﴿ولئن قتلتم﴾ لأنه ابتداء إخبار، فقدم الأشرف الأهم، والمعنى: أو متم في سبيل الله، فوقع أجركم على الله، ثم قدم الموت في قوله تعالى: ﴿ولئن متم أو قتلتم﴾ لأنها آية وعظ بالأخرة والحشر، وآية ترهيد في الدنيا والحياة، والموت المذكور فيها هو موت على الإطلاق في السبيل وفي المنزل وكيف كان، فقدم لعمومه وأنه الأغلب في الناس من القتل، وقرأ نافع وحزمة والكسائي «متم» بكسر الميم و«متنا» و«مت» بالكسر في جميع القرآن وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: بضم الميم في جميع القرآن، وروى أبو بكر عن عاصم ضم الميم في جميع القرآن، وروى عنه حفص ضم الميم في هذين الموضعين «أو متم ولئن متم» فقط، وكسر الميم حيث ما وقعت في جميع القرآن، قال أبو علي: ضم الميم هو الأشهر والأقيس، مت تموت مثل: قلت تقول وطففت تطوف، والكسر شاذ في القياس وإن كان قد استعمل كثيراً، وليس كما شذ قياساً واستعمالاً كشذوذ اليجدع ونحوه، ونظير مت تموت بكسر الميم فضل بكسر الضاد يفضل في الصحيح وأنشدوا:

ذكرت ابن عباس بباب ابن عامر وما مر من عمري ذكرت وما فضل

وقوله تعالى: ﴿لمغفرة﴾ رفع بالابتداء «ورحمة»، عطف على المغفرة و﴿خير﴾ خبر الابتداء، والمعنى: المغفرة والرحمة اللاحقة عن القتل أو الموت في سبيل الله خير، فجاء لفظ المغفرة غير معرف

إشارة بليغة إلى أن أيسر جزء منها خير من الدنيا، وأنه كاف في فوز العبد المؤمن، وتحتمل الآية أن يكون قوله ﴿لمغفرة﴾ إشارة إلى القتل أو الموت في سبيل الله، سمي ذلك مغفرة ورحمة إذ هما مقترنان به ويجيء التقدير: لذلك مغفرة ورحمة وترتفع المغفرة على خبر الابتداء المقدر، وقوله ﴿خير﴾ صفة لخبر الابتداء، وقرأ جمهور الناس «تجمعون» بالتاء على المخاطبة وهي أشكل بالكلام، وقرأ قوم منهم عاصم فيما روى عن حفص «يجمعون» بالياء، والمعنى مما يجمعه المنافقون وغيرهم.

ثم ذكر تعالى الحشر إليه، وأنه غاية لكل أحد قتل أو مات، وفي الآية تحقير لأمر الدنيا وحض على طلب الشهادة، أي إذا كان الحشر في كلا الأمرين فالمضي إليه في حال الشهادة أولى.

وقوله تعالى: ﴿فبما رحمة من الله﴾، معناه: فبرحمة من الله «وما» قد جرد عنها معنى النفي ودخلت للتأكيد وليست بزائدة على الإطلاق لا معنى لها، وأطلق عليها سبويه اسم الزيادة من حيث زال عملها، وهذه بمنزلة قوله تعالى: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ [النساء: ١٥٥] قال الزجاج: الباء بإجماع من النحويين صلة وفيها معنى التأكيد، ومعنى الآية: التقريع لجميع من أحل يوم - أحد - بمركزه، أي كانوا يستحقون الملام منك، وأن لا تلين لهم، ولكن رحم الله جميعكم، أنت يا محمد بأن جعلك الله على خلق عظيم، وبعتك لتتم محاسن الأخلاق، وهم بأن لينك لهم وجعلت بهذه الصفات لما علم تعالى في ذلك من صلاحهم وأنت ﴿لو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾، وتفرقوا عنك، والفظ: الجافي في منطق ومقاطعه، وفي صفة النبي عليه السلام في الكتب المنزلة: ليس بفظ ولا غليظ ولا صحاب في الأسواق، وقال الجواربي لعمر بن الخطاب: أنت أفظ وأغلظ من رسول الله؛ الحديث، وفظاظة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إنما كانت مستعملة منه آلة لعصد الحق والشدة في الدين، والفظاظة: الجفوة في المعاشرة قولاً وفعلًا ومنه قول الشاعر: [البسيط]

أَخْشَى فُظَاظَةً عَمٍّ أَوْ جَفَاءَ أَخٍ وَكُنْتُ أَخْشَى عَلَيْهَا مِنْ أَدَى الْكَلِمِ

وغلظ القلب: عبارة عن تجهم الوجه وقلة الانفعال في الرغائب وقلة الإشفاق والرحمة ومن ذلك قول الشاعر: [البسيط]

يُبْكِي عَلَيْنَا وَلَا نَبْكِي عَلَى أَحَدٍ لَنَحْنُ أَغْلَظُ أَكْبَادًا مِنَ الْإِبْلِ

والانفضاض: افتراق الجموع ومنه فض الخاتم.

قوله تعالى:

فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾
 إِنَّ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُ لَكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾

أمر الله تعالى رسوله بهذه الأوامر التي هي بتدرج بليغ، وذلك أنه أمره بأن يعفو عليه السلام عنهم ما

له في خاصته عليهم من تبعة وحق، فإذا صاروا في هذه الدرجة، أمره أن يستغفر لهم فيما الله عليهم من تبعة، فإذا صاروا في هذه الدرجة كانوا أهلاً للاستشارة في الأمور والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، هذا ما لا خلاف فيه، وقد مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَأمرهم شورى بينهم﴾ [الشورى: ٣٨] وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما خاب من استخار ولا ندم من استشار، وقال عليه السلام: المستشار مؤتمن، وصفة المستشار في الأحكام أن يكون عالماً ديناً، وقل ما يكون ذلك إلا في عاقل، فقد قال الحسن بن أبي الحسن: ما كمل دين امرئ لم يكمل عقله، وصفة المستشار في أمور الدنيا أن يكون عاقلاً مجرباً واداً في المستشار، والشورى بركة، وقد جعل عمر بن الخطاب الخلافة - وهي أعظم النوازل - شورى، وقال الحسن: والله ما تشاور قوم بينهم إلا هداهم الله لأفضل ما بحضرتهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه، وقد قال في غزوة بدر: أشيروا علي أيها الناس، في اليوم الذي تكلم فيه المقداد، ثم سعد بن عباد، ومشاورته عليه السلام إنما هي في أمور الحروب والبعوث ونحوه من أشخاص النوازل، وأما في حلال أو حرام أو حد فتلك قوانين شرع. ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ [الأنعام: ٣٨] وكان الآية نزلت مؤسسة للمؤمنين، إذ كان تغلبهم على الرأي في قصة - أحد - يقتضي أن يعاقبوا بأن لا يشاوروا في المستأنف، وقرأ ابن عباس «وشاورهم في بعض الأمر» وقراءة الجمهور إنما هي باسم الجنس الذي يقع للبعض وللكل، ولا محالة أن اللفظ خاص بما ليس من تحليل وتحريم، والشورى مبينة على اختلاف الآراء، والمستشير ينظر في ذلك الخلاف ويتخير، فإذا أرشده الله تعالى إلى ما شاء منه، عزم عليه وأنفذه متوكلاً على الله، إذ هي غاية الاجتهاد المطلوب منه، وبهذا أمر تعالى نبيه في هذه الآية، وقرأ جابر بن زيد وأبو نهيك وجعفر بن محمد وعكرمة «عزمت» - بضم التاء سمي الله تعالى إرشاده وتسديده عزماً منه، وهذا في المعنى نحو قوله تعالى: ﴿لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ [النساء: ١٠٥] ونحو قوله تعالى: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ [الأنفال: ١٧] فجعل تعالى هزمه المشركين بحنين وتشويه وجوههم رمياً، إذ كان ذلك متصلاً برمي محمد عليه السلام بالحصباء. وقد قالت أم سلمة ثم عزم الله لي، والتوكل على الله تعالى من فروض الإيمان وفصوله، ولكنه مقترن بالجد في الطاعة والتشمير والحزامة بغاية الجهد: وليس الإلقاء باليد وما أشبهه بتوكل، وإنما هو كما قال عليه السلام: قيدها وتوكل.

ثم ثبت تعالى المؤمنين بقوله: ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾ أي فالزموا الأمور التي أمركم بها ووعدكم النصر معها، و«الخذل» هو الترك في مواطن الاحتياج إلى التارك، وأصله من خذل الطباء، وبهذا قيل لها: خاذل إذ تركتها أمها، وهذا على النسب أي ذات خذل لأن المتروكة هي الخاذل بمعنى مخذولة، وقوله تعالى: ﴿فمن ذا الذي ينصركم﴾ تقدير جوابه: لا من - والضمير في «بعده» يحتمل العودة على المكتوبة، ويحتمل العودة على الخذل الذي تضمنه قوله ﴿إن يخذلكم﴾.

قوله تعالى:

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ

لَا يَظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمِنْ أَتْبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا وَهَّ جَهَنَّمَ وَيُسَّ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾

تقدم القول في صيغة: وما كان لكذا أن يكون كذا، في قوله تعالى: ﴿وما كان لنفس أن تموت﴾ [آل عمران: ١٤٥] وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم «يُغَل» بفتح الياء وضم الغين، وبها قرأ ابن عباس وجماعة من العلماء، وقرأ باقي السبعة «أن يُغَل» بضم الياء وفتح الغين، وبها قرأ ابن مسعود وجماعة من العلماء، واللفظة بمعنى الخيانة في خفاء، قال بعض اللغويين هي مأخوذة من الغلل وهو الماء الجاري في أصول الشجر والدوح، قال أبو عمرو: تقول العرب: أغل الرجل يغل إغلالاً: إذا خان، ولم يؤد الأمانة، ومنه قول النمر بن تولب: [الطويل]

جزى الله عني جَمْرَةَ ابْنَةٍ نَوَفَلٍ جزاء مُغِلٍّ بالأمانة كاذبٍ

وقال شريح: ليس على المستعير غير المغل ضمان، قال أبو علي: وتقول من الغل الذي هو الضغن: غل يغل بكسر الغين، ويقولون في الغلول من الغنيمة: غل يغل بضم الغين، والحجة لمن قرأ يغل أن ما جاء من هذا النحو في التنزيل أسند الفعل فيه إلى الفاعل على نحو ﴿وما كان لنا أن نشرك بالله من شيء﴾ [يوسف: ٣٨] ﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾ [يوسف: ٧٦] ﴿وما كان لنفس أن تموت﴾ [آل عمران: ١٤٥] ﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد أن هداهم﴾ [التوبة: ١١٥] ﴿وما كان الله ليطلعهكم على الغيب﴾ [آل عمران: ١٧٩] ولا يكاد يجيء: ما كان زيد ليضرب، فيسند الفعل فيه إلى المفعول به، وفي هذا الاحتجاج نظر، وروي عن ابن عباس أنه قرأ «يُغَل» بضم الغين، فقيل له: إن ابن مسعود قرأ «يُغَل» بفتح الغين، فقال ابن عباس: بلى والله ويقتل، واختلف المفسرون في السبب الذي أوجب أن ينفي الله تعالى عن النبي أن يكون غالاً على هذه القراءة - التي هي بفتح الياء وضم الغين، فقال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم: نزلت بسبب قطيفة حمراء فقدت من المغانم يوم بدر، فقال بعض من كان مع النبي صلى الله عليه وسلم: لعل رسول الله أخذها فنزلت الآية.

قال القاضي أبو محمد: قيل: كانت هذه المقالة من مؤمنين لم يظنوا أن في ذلك حرجاً، وقيل كانت من منافقين، وقد روي أن المفقود إنما كان سيفاً، قال النقاش: ويقال: إنما نزلت لأن الرماة قالوا يوم أحد: الغنيمة الغنيمة أيها الناس، إنما نخشى أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم: من أخذ شيئاً فهو له، فلما ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، قال: خشيتم أن نغل؟ ونزلت هذه الآية، وقال الضحاك: بل السبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث طلائع في بعض غزواته ثم غنم قبل مجيئهم، فقسم للناس ولم يقسم للطلائع، فأنزل الله تعالى عليه عتاباً، ﴿وما كان لنبي أن يغل﴾ أي يقسم لبعض ويترك بعضاً، وروي نحو هذا القول عن ابن عباس، ويتجه على هذا أن تكون الآية إعلالاً بعدل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقسمه للغنائم، ورداً على الأعراب الذين صاحوا به: اقسم علينا غنائمنا يا محمد، وازدحموا حتى اضطروه إلى السمرة التي أخذت رداءه، ونحا إليه الزجاج، وقال ابن إسحاق: الآية إنما نزلت إعلالاً بأن النبي عليه السلام لم يكتف شيئاً مما أمر بتبليغه.

قال القاضي: وكان الآية على هذا في قصة - أحد - لما نزل عليه: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ [آل عمران: ١٥٩] إلى غير ذلك مما استحسونه بعد إساءتهم من العفو عنهم ونحوه، وبالجمله فهو تأويل ضعيف، وكان يجب أن يكون «يُغَل» بضم الياء وكسر الغين، لأنه من الإغلال في الأمانة، وأما قراءة من قرأ «أن يُغَل» بضم الياء وفتح الغين، فمعناها عند جمهور من أهل العلم: أن ليس لأحد أن يغله: أي يخونه في الغنيمة، فالآية في معنى نهى الناس عن الغلول في المغانم والتوعد عليه، وخص النبي بالذكر وإن كان ذلك محظوراً مع الأمراء لشنعة الحال مع النبي صلى الله عليه وسلم، لأن المعاصي تعظم مع حضرته لتعين توقيره، والولاء هم عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم، فلهم حفظهم من التوقير، وقال بعض الناس: معنى «أن يغَل» أن يوجد غالاً، كما تقول: أحمدت الرجل وجدته محموداً، فهذه القراءة على هذا التأويل ترجع إلى معنى «يُغَل» بفتح الياء وضم الغين، وقال أبو علي الفارسي: معنى «يُغَل» بضم الياء وفتح الغين يقال له: غللت وينسب إلى ذلك، كما تقول أسقيته، إذا قلت: سقاك الله كما قال ذو الرمة: [الطويل]

وَأُسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أُبْتُه تَكَلَّمُنِي أَحْجَارُهُ وَمَلَاغِيْهَ

وهذا التأويل مقرر للنبي عليه السلام، ونحوه في الكلام: أكفرت الرجل إذا نسبته إلى الكفر، وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا أكل سمناً حتى يحيا الناس من أول ما يحيون: أي يدخلون في الحيا وقوله تعالى: ﴿ومن يغلل يأتي بما غل يوم القيامة﴾ وعيد لمن يغل من الغنيمة، أو في زكاته، فيجحدتها ويمسكها، فالفضيحة يوم القيامة بأن يأتي على رؤوس الأشهاد بالشيء الذي غل في الدنيا، وروي أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب فقال: ألا يخشى رجل منكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء، يقول: يا رسول الله أغثنني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتكم، ثم ذكر ذلك عليه السلام في بقرة لها خوار وجمل له رغاء، وفرس له حمحمة، وروى نحو هذا الحديث ابن عباس، قال النبي صلى الله عليه وسلم: لا أعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء، الحديث بطوله، وروى نحوه أبو حميد الساعدي وعمر بن الخطاب وعبد الله بن أنيس، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أدوا الخياط والمخيط، فقام رجل فجاء بشراك أو شراكين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: شراك أو شراكان من نار، وقال في مدغم، إن الشملة التي غل من المغانم يوم خيبر لتشتعل عليه ناراً.

قال القاضي: وهذه الفضيحة التي يوقع الله بالغال، هي نظيرة الفضيحة التي توقع بالغاдр، في أن ينصب له لواء بغدرته حسب قوله عليه السلام، وجعل الله هذه المعاقبات حسبما يعهده البشر ويفهمونه، ألا ترى إلى قول الحارث: [الكامل]

أُسْمِي وَيَحْكُ هَلْ سَمِعْتَ بِغَدْرَةٍ رَفَعَ اللَّوَاءَ لَنَا بِهَا فِي الْمَجْمَعِ

وكانت العرب ترفع للغادر لواء، وكذلك يطاف بالجاني مع جنائته، وقد تقدم القول في نظير، ﴿ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ [البقرة: ٢٨١].

وقوله تعالى: ﴿أفمن اتبع رضوان الله﴾ الآية، توقيف على تباين المنزلتين وافتراق الحاليتين،

والرضوان: مصدر، وقرأه عاصم - فيما روي عنه - بضم الراء - وقرأ جميعهم بكسرهما، وحكى أبو عمرو الداني عن الأعمش، أنه قرأها - بكسر الراء وضم الضاد، وهذا كله بمعنى واحد مصدر من الرضى، والمعنى، اتبعوا الطاعة الكفيلة برضوان الله، ففي الكلام حذف مضاف، و﴿بَاءً بِسَخَطٍ﴾ - معناه: مضى متحماً له، والسخط: صفة فعل، وقد تتردد متى لحظ فيها معنى الإرادة، وقال الضحاك: إن هذه الآية مشيرة إلى أن من لم يغفل واتقى فله الرضوان، وإلى أن من غل وعصى فله السخط، وقال غيره: هي مشيرة إلى أن من استشهد - بأحد - فله الرضوان، وإلى المنافقين الراجعين عن النبي صلى الله عليه وسلم فلهم السخط، وباقي الآية بين.

واختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ﴾ من المراد بذلك؟ فقال ابن إسحاق وغيره: المراد بذلك الجمعان المذكوران، أهل الرضوان وأصحاب السخط، أي لكل صنف منهم تباين في نفسه في منازل الجنة، وفي أطباق النار أيضاً، وقال مجاهد والسدي ما ظاهره: إن المراد بقوله ﴿هُمْ﴾ إنما هو لمتبعي الرضوان، أي لهم درجات كريمة عند ربهم، وفي الكلام حذف مضاف تقديره «هم درجات» والدرجات المنازل بعضها أعلى من بعض في المسافة أو في التكرمة، أو العذاب، وقرأ إبراهيم النخعي «هم درجة» بالإنفراد، وباقي الآية وعيد ووعد.

قوله تعالى:

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٥﴾ أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

اللام في ﴿لَقَدْ﴾ لام القسم، و﴿مِّنْ﴾ في هذه الآية معناه: تطول وتفضل، وقد يقال: مِّنْ بمعنى: كدر معروفة بالذكر فهي لفظة مشتركة.

وقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ معناه في الجنس واللسان والمجاورة فكونه من الجنس يوجب الأنس به وقلة الاستيحاش منه، وكونه بلسانهم يوجب حسن التفهم وقرب الفهم، وكونه جاراً وربياً يوجب التصديق والطمأنينة، إذ قد خبروه وعرفوا صدقه وأمانته فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسب قومه، وكذلك الرسل، قال النقاش: ليس في العرب قبيلة إلا وقد ولدت رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل أمهاتهم إلا بني تغلب لنصرانيتها، والآيات في هذه الآية، يحتمل أن يراد بها القرآن ويحتمل أن يراد بها العلامات، والأول أظهر، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ معناه: يطهرهم من دنس الكفر والمعاصي، قال بعض المفسرين: معناه يأخذ منهم الزكاة، وهذا ضعيف، و﴿الْكِتَابَ﴾: القرآن، و﴿الْحِكْمَةَ﴾، السنة المتعلمة من لسانه عليه السلام، ثم ذكر حالتهم الأولى من الضلال ليظهر الفرق بتجاور الضدين - وقيل: لفظة مبنية لما تضمنت الإضافة، فأشبهت الحروف في تضمن المعاني فبنيت.

ثم وقف تعالى المؤمنين على الخطأ في قلقهم للمصيبة التي نزلت بهم وإعراضهم عما نزل بالكفار، وعرفهم أن ذلك لسبب أنفسهم، والواو في قوله: ﴿أولم﴾ عطف جملة على جملة دخلت عليها ألف التقرير على معنى إلزام المؤمنين هذه المقالة في هذه الحال، والمصيبة التي نالت المؤمنين هي: قصد - أحد - وقتل سبعين منهم، واختلف في المثلين اللذين أصاب المؤمنين فقال قتادة والربيع: وابن عباس وجمهور المتأولين: ذلك في يوم بدر، قتل المؤمنون من كفار قريش سبعين، وأسروا سبعين، وقال الزجاج: أحد المثلين: هو قتل السبعين يوم بدر، والثاني: هو قتل اثنين وعشرين من الكفار يوم - أحد - فهو قتل بقتل، ولا مدخل للأسرى في هذه الآية، هذا معنى كلامه، لأن أسارى بدر أسروا ثم فدوا، فلا مماثلة بين حالهم وبين قتل سبعين من المؤمنين، و﴿أنى﴾ - معناها: كيف ومن أين؟ ثم أمر تعالى نبيه عليه السلام أن يقول لهم: ﴿هو من عند أنفسكم﴾، واختلف الناس كيف هو من عند أنفسهم ولأي سبب؟ فقال الجمهور من المفسرين: لأنهم خالفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرأي حين رأى أن يقيم بالمدينة ويترك كفار قريش بشر محبس فأبوا إلا الخروج حتى جرت القصة، وقالت طائفة: قوله تعالى: ﴿من عند أنفسكم﴾ إشارة إلى عصيان الرماة وتسببهم الهزيمة على المؤمنين. وقال الحسن وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما: بل ذلك لما قبلوا الفداء يوم بدر، وذلك أن علياً بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما فرغت هزيمة المشركين ببدر جاء جبريل عليه السلام إلى النبي عليه السلام فقال: يا محمد إن الله قد كره ما يصنع قومك في أخذ الأسارى، وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين: أن يقدموا الأسارى فتضرب أعناقهم، أو يأخذوا الفداء، على أن يقتل من أصحابك عدة هؤلاء الأسارى، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس فذكر ذلك لهم فقالوا: يا رسول الله، عفاً ربنا وإخواننا، بل نأخذ فداءهم فتتقوى به على قتال عدونا ويستشهد منا عدتهم، فليس في ذلك ما نكره، قال: فقتل منهم يوم أحد - سبعون رجلاً.

قوله تعالى:

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَا ذُنَّ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْ فَنُقِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَكُمُ هُمْ لِلْكَافِرِينَ يَوْمِ بَدْرٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾

الخطاب بقوله تعالى: ﴿وما أصابكم﴾ للمؤمنين، و﴿الجمعان﴾ هما عسكر النبي صلى الله عليه وسلم وعسكر قريش يوم - أحد - ودخلت الفاء في قوله: ﴿فياذن الله﴾ رابطة مشددة، وذلك للإيهام الذي في ﴿ما﴾ فأشبه الكلام الشرط، وهذا كما قال سيوبه: الذي قام فله درهمان، فيحسن دخول الفاء إذا كان القيام سبب الإعطاء، وكذلك ترتيب هذه الآية، فالمعنى إنما هو، وما أذن الله فيه فهو الذي أصاب، لكن قدم الأهم في نفوسهم والأقرب إلى حسهم، والإذن: التمكين من الشيء مع العلم به، وقوله تعالى: ﴿وليعلم﴾ معناه: ليكون العلم مع وجود المؤمنين والمنافقين، أي مساوئين للعلم الذي لم يزل ولا يزال واللام في قوله: ﴿ليعلم﴾ متعلقة بفعل مقدر في آخر الكلام، والإشارة بقوله: ﴿نافقوا﴾ وقيل لهم هي إلى

عبد الله بن أبي وأصحابه الذين انصرفوا معه عن النبي صلى الله عليه وسلم يوم - أحد - وذلك أنه كان من رأي عبد الله بن أبي أن لا يخرج إلى كفار قريش، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس على الوجه الذي قد ذكرناه، قال عبد الله بن أبي: أطاعهم وعصاني، فأنخذل بنحو ثلث الناس، فمشى في أثرهم عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري أبو جابر بن عبد الله فقال لهم: اتقوا الله ولا تتركوا نبيكم وقاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، أو نحو هذا من القول، فقال له ابن أبي: ما أرى أن يكون قتال، ولو علمنا أن يكون قتال لكننا معكم، فلما يش منهم عبد الله قال: اذهبوا أعداء الله، فسيغني الله رسوله عنكم، ومضى مع النبي صلى الله عليه وسلم فاستشهد، واختلف الناس في معنى قوله: ﴿أو ادفعوا﴾ فقال السدي وابن جريج وغيرهما معناه: كثروا السواد وإن لم تقاتلوا، فيندفع القوم لكثرتكم، وقال أبو عون الأنصاري: معناه رابطوا، وهذا قريب من الأول، ولا محالة أن المرباط مدافع، لأنه لولا مكان المرباطين في الثغور لجاءها العدو، والمكثر للسواد مدافع، وقال أنس بن مالك: رأيت يوم القادسية عبد الله ابن أم مكتوم الأعمى، وعليه درع يجر أطرافها ويده راية سوداء، فقيل له: أليس قد أنزل الله عذرَكَ؟ قال: بلى، ولكنني أكثر المسلمين بنفسي، وروي أنه قال: فكيف بسواي في سبيل الله، وذهب بعض المفسرين إلى أن قول عبد الله بن عمرو: ﴿أو ادفعوا﴾، إنما هو استدعاء القتال حمية، لأنه دعاهم إلى القتال في سبيل الله، وهو أن تكون كلمة الله هي العليا، فلما رأى أنهم ليسوا أهل ذلك، عرض عليهم الوجه الذي يحشمهم ويبعث الأنفة، أي أو قاتلوا دفاعاً عن الحوزة، ألا ترى أن قرمان قال: والله ما قاتلت إلا على أحساب قومي، وألا ترى أن بعض الأنصار قال يوم - أحد - لما رأى قريشاً قد أرسلت الظهر في زروع قناة قال: أترعى زروع بني قيلة ولما نضارب؟ وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أمر أن لا يقاتل أحد حتى يأمره بالقتال، فكان عبد الله بن عمرو بن حرام دعاهم إلى هذا المقطع العربي الخارج عن الدين والقتال في سبيل الله، وذهب جمهور المفسرين إلى أن قوله: ﴿أقرب﴾ مأخوذ من القرب ضد البعد، وسدت - اللام - في قوله: ﴿للكفر﴾، و﴿للإيمان﴾ - مسد إلى، وحكى النقاش: أن قوله ﴿أقرب﴾ مأخوذ من القرب بفتح القاف والراء وهو الطلب، والقارب طالب الماء، وليلة القرب ليلة الورد، فاللفظة بمعنى أطلب، واللام متمكنة على هذا القول، وقوله: ﴿بأفواههم﴾ تأكيد، مثل يطير بجناحيه، وقوله: ﴿ما ليس في قلوبهم﴾ يريد ما يظهرون من الكلمة الحاقنة لدمائهم، ثم فضحهم تعالى بقوله: ﴿والله أعلم بما يكتمون﴾ أي من الكفر وعداوة الدين وفي الكلام توعدهم لهم.

قوله تعالى:

الَّذِينَ قَالُوا لَا إِخْوَانَهُمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

﴿الذين﴾ بدل من «الذين» المتقدم، و«إخوانهم» المقتولون من الخزرج وهي أخوة نسب ومجاورة،

وقوله تعالى: ﴿لَا إِخْوَانَهُمْ﴾ معناه لأجل إخوانهم وفي شأن إخوانهم، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿لَا إِخْوَانَهُمْ﴾ للأحياء من المنافقين، ويكون الضمير في ﴿أطاعونا﴾ هو للمقتولين، وقوله: ﴿وقعدوا﴾ جملة في موضع الحال وهي حالة معترضة أثناء الكلام، وقوله: ﴿لو أطاعونا﴾ يريد في أن لا يخرجوا إلى قريش، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: «ما قتلوا» بشد التاء، وهذا هو القول بالأجلين، فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿قل فادرؤوا﴾ الآية، والدرء الدفع ومنه قول دغفل النسابة: [الرجز]

صَادَفَ ذَرَّةَ السَّيْلِ دَرَاءً يَذْفَعُهُ وَالْعِبَاءُ لَا تَعْرِفُهُ أَوْ تَرْفَعُهُ

ولزوم هذه الحجة هو أنكم أيها القائلون: إن التوقي واستعمال النظر يدفع الموت، فتوقوا وانظروا في الذي يغشاكم منه ختف أنوفكم، فادفعوه إن كان قولكم صدقاً، أي إنما هي آجال مضروبة عند الله.

وقرأ جمهور القراء: «ولا تحسبن» بالتاء مخاطبة للنبي عليه السلام، وقرأ حميد بن قيس، «ولا يحسبن» بالياء على ذكر الغائب، ورويت عن ابن عمر وذكره أبو عمرو وكان الفاعل مقدر: ولا يحسبن أحد أو حاسب، وأرى هذه القراءة بضم الباء فالمعنى: ولا يحسب الناس، ويحسبن، معناه يظن، وقرأ الحسن: «الذين قتلوا»، بشد التاء، وابن عامر من السبعة، وروي عن عاصم أنه قرأ: «الذين قاتلوا» بألف بين القاف والتاء، وأخبر الله تعالى في هذه الآية عن الشهداء: أنهم في الجنة يرزقون، هذا موضع الفائدة، ولا محالة أنهم ماتوا وأن أجسادهم في التراب وأرواحهم حية كأرواح سائر المؤمنين وفضلوا بالرزق في الجنة من وقت القتل، حتى كأن حياة الدنيا دائمة لهم، قال الحسن بن أبي الحسن: ما زال ابن آدم يتحمد حتى صار حياً لا يموت بالشهادة في سبيل الله، فقوله: ﴿بل أحياء﴾ مقدمة لقوله: ﴿يرزقون﴾ إذ لا يرزق إلا حي، وهذا كما تقول لمن ذم رجلاً: بل هو رجل فاضل، فتجيء باسم الجنس الذي تركب عليه الوصف بالفضل، وقرأ جمهور الناس: «بل أحياء» بالرفع على خبر ابتداء مضمر، أي هم أحياء، وقرأ ابن أبي عبله، «بل أحياء» بالنصب، قال الزجاج: ويجوز النصب على معنى بل أحسبهم أحياء، قال أبو علي في الاغفال: ذلك لا يجوز لأن الأمر يقين فلا يجوز أن يؤمر فيه بمحسبة، ولا يصح أن يضم له إلا فعل المحسبة.

قال القاضي: فوجه قراءة ابن أبي عبله أن تضمراً فعلاً غير المحسبة، اعتقدتهم أو اجعلهم وذلك ضعيف إذ لا دلالة في الكلام على ما يضم، وقوله ﴿عند ربهم﴾ فيه حذف مضاف تقديره: عند كرامة ربهم، لأن ﴿عند﴾ تقتضي غاية القرب، ولذلك لم تصغر قاله سيويه، وورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: أرواح الشهداء على نهر بباب الجنة يقال له بارق، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً، وروي عنه عليه السلام أنه قال: أرواح الشهداء في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها.

قال القاضي رحمه الله: وهؤلاء طبقات وأحوال مختلفة، يجمعها أنهم يرزقون، وقاله عليه السلام: إنما نسمة المؤمن طير تعلق في ثمار الجنة، ويروى يعلق بفتح اللام وبالياء، والحديث معناه في الشهداء خاصة، لأن أرواح المؤمنين غير الشهداء، إنما ترى مقاعدها من الجنة دون أن تدخلها، وأيضاً فإنها لا ترزق، وتعلق معناه: تصيب العلقة من الطعام، وفتح اللام هو من التعلق، وقد رواه القراء في إصابة

العلفة، وروي عن النبي عليه السلام أنه قال: إن الله تعالى يطلع إلى الشهداء فيقول: يا عبادي ما تشتهون فأزيدكم؟ فيقولون يا ربنا لا فوق ما أعطيتنا، هذه الجنة نأكل منها حيث نشاء، لكننا نريد أن تردنا إلى الدنيا فنقاتل في سبيلك فنقتل مرة أخرى، فيقول تعالى: قد سبق أنكم لا تردون، وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجابر بن عبد الله: ألا أبشرك يا جابر؟ قال جابر: قلت بلى يا رسول الله، قال: إن أباك حيث أصيب - بأحد - أحياء الله، ثم قال: ما تحب يا عبد الله بن عمرو أن أفعل بك؟ قال: يا رب أحب أن تردني إلى الدنيا فأقاتل فيك فأقتل مرة أخرى، وقال قتادة رحمه الله: ذكر لنا أن رجالاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: ليتنا نعلم ما فعل إخواننا الذين أصيبوا - بأحد - فنزلت هذه الآية وقال محمد بن قيس بن مخزومة في حديث: إن الشهداء قالوا يا ربنا ألا رسول يخبر نبينا عنا بما أعطيتنا؟ فقال الله تعالى: أنا رسولكم، فنزل جبريل بهذه الآية وكثرت هذه الأحاديث في هذا المعنى، واختلفت الروايات وجميع ذلك جائز على ما اقتضته من هذه المعاني وقوله تعالى: ﴿فرحين﴾ نصب في موضع الحال وهو من الفرح بمعنى السرور، و«الفضل» في هذه الآية: التنعيم المذكور.

قوله تعالى:

وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾
يَنْعَمَ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾
بَعْدَ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ ﴿١٧٢﴾

﴿يستبشرون﴾ معناه: يسرون ويفرحون، وليست استفعل في هذا الموضع بمعنى طلب البشارة، بل هي بمعنى استغنى الله واستمجد المرخ والعفار، وذهب قتادة والربيع وابن جريج وغيرهم: إلى أن هذا الاستبشار إنما هو بأنهم يقولون: إخواننا الذين تركناهم خلفنا في الدنيا يقاتلون في سبيل الله مع نبيهم فيستشهدون فينالون من الكرامة مثل ما نحن فيه فيسرون لهم بذلك، إذ يحصلون لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وذهب فريق من العلماء وأشار إليه الزجاج وابن فورك: إلى أن الإشارة في قوله: ﴿بالذين لم يلحقوا﴾ إلى جميع المؤمنين، أي لم يلحقوا بهم في فضل الشهادة لكن الشهداء لما عاينوا ثواب الله، وقع اليقين بأن دين الإسلام هو الحق الذي يثيب الله عليه، فهم فرحون لأنفسهم بما آتاهم الله من فضله، ﴿ويستبشرون﴾ للمؤمنين بأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، و﴿ألا﴾ مفعول من أجله، التقدير، بأن لا خوف، ويجوز أن يكون في موضع خفض بدل اشتمال.

ثم أكد تعالى استبشارهم بقوله: ﴿يستبشرون بنعمة﴾ ثم بين تعالى بقوله: ﴿وفضل﴾ فوق إدخاله إياهم الجنة الذي هو فضل منه لا بعمل أحد، وأما النعمة في الجنة والدرجات فقد أخبر أنها على قدر الأعمال، وقرأ الكسائي وجماعة من أهل العلم: «وإن الله» - بكسر الألف من «أن»، وقرأ باقي السبعة وجمهور العلماء: «وأن الله» - بفتح الألف، فمن قرأ بالفتح فذلك داخل فيما يستبشر به، المعنى، بنعمة وبأن الله، ومن قرأ بالكسر فهو إخبار مستأنف، وقرأ عبد الله «وفضل والله لا يضيع».

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ يحتمل أن تكون ﴿الذين﴾ صفة للمؤمنين على قراءة من كسر الألف من «إن»، والأظهر أن ﴿الذين﴾ ابتداء وخبره في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ الآية، فهذه الجملة هي خبر الابتداء الأول، والمستجيبون لله والرسول هم الذين خرجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى حمراء الأسد في طلب قريش وانتظارهم لهم وذلك أنه لما كان في يوم الأحد وهو الثاني من يوم أحد نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس باتباع المشركين، وقال: لا يخرجن معنا إلا من شاهدنا بالأمس، وكانت بالناس جراحة وقرح عظيم، ولكن تجلدوا ونهض معه مائتا رجل من المؤمنين حتى بلغ حمراء الأسد، وهي على ثمانية أميال من المدينة، وأقام بها ثلاثة أيام، وجرت قصبة معبد بن أبي معبد التي ذكرناها، ومرت قريش وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فأنزل الله تعالى في شأن أولئك المستجيبين هذه الآية، ومدحهم لصبرهم، وروي أنه خرج في الناس أخوان وبهما جراحة شديدة وكان أحدهما قد ضعف، فكان أخوه يحمله عقبة ويمشي هو عقبة، ورغب جابر بن عبد الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم في الخروج معه فأذن له، وأخبرهم تعالى أن الأجر العظيم قد تحصل لهم بهذه الفعل، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنها غزوة.

قوله تعالى:

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾

﴿الذين﴾ صفة للمحسنين المذكورين، وهذا القول هو الذي قاله الركب من عبد القيس لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، حين حملهم أبو سفيان ذلك، وقد ذكرته قبل، ف﴿الناس﴾ الأول ركب عبد القيس و﴿الناس﴾ الثاني عسكر قريش، وقوله تعالى: ﴿فزادهم إيماناً﴾، أي ثبوتاً واستعداداً، فزيادة الإيمان في هذا هي في الأعمال، وأطلق العلماء عبارة: أن الإيمان يزيد وينقص، والعقيدة في هذا أن نفس الإيمان الذي هو تصديق واحد بشيء ما، إنما هو معنى فرد لا تدخله زيادة إذا حصل، ولا يبقى منه شيء إذا زال، فلم يبق إلا أن تكون الزيادة والنقص في متعلقاته دون ذاته، فذهب بعض العلماء إلى أنه يقال: يزيد وينقص من حيث تزيد الأعمال الصادرة عنه وتنقص، لا سيما أن كثيراً من العلماء يوقعون اسم الإيمان على الطاعات، وذهب قوم: إلى أن الزيادة في الإيمان إنما هي بنزول الفروض والإخبار في مدة النبي صلى الله عليه وسلم، وفي المعرفة بها بعد الجهل غابر الدهر وهذا إنما زيادة إيمان إلى إيمان، فالقول فيه إن الإيمان يزيد وينقص قول مجازي ولا يتصور النقص فيه على هذا الحد وإنما يتصور الانقص بالإضافة إلى الأعلم، وذهب قوم من العلماء: إلى أن زيادة الإيمان ونقصه إنما هي من طريق الأدلة، فتزيد الأدلة عند واحد، فيقال في ذلك: إنها زيادة في الإيمان، وهذا كما يقال في الكسوة، إنها زيادة في الإيمان، وذهب أبو المعالي في الإرشاد: إلى أن زيادة الإيمان ونقصانه إنما هو

بشوت المعتقد وتعاوره دائماً، قال: وذلك أن الإيمان عرض وهو لا يثبت زمانين فهو للنبي صلى الله عليه وسلم وللصلحاء متعاقب متوال، وللناسق والغافل غير متوال، يصحبه حيناً ويفارقه حيناً في الفترة، فذلك الآخر أكثر إيماناً، فهذه هي الزيادة والنقص وفي هذا القول نظر، وقوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ لا يتصور أن يكون من جهة الأدلة، ويتصور في الآية الجهات الآخر الثلاث، وروى أنه لما أخبر الوفد من عبد القيس رسول الله صلى الله عليه وسلم بما حملهم أبو سفيان، وأنه ينصرف إليهم بالناس ليستأصلهم، وأخبر بذلك أيضاً أعرابي، شق ذلك على المسلمين فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: قولوا ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ فقالوا واستمرت عزائمهم على الصبر ودفع الله عنهم كل سوء، وألقى الرعب في قلوب الكفار فمروا.

وقوله تعالى: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ يريد في السلامة والظهور في اتباع العدو وحماية الحوزة، وبفضل في الأجر الذي حازوه والفضل الذي تجلوه، وباقي الآية بين قد مضت نظائره، هذا هو تفسير الجمهور لهذه الآية، وأنها غزوة - أحد - في الخرجة إلى حمراء الأسد وشذ مجاهد رحمه الله فقال: إن هذه الآية من قوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ إلى قوله: ﴿فَضْلٌ عَظِيمٌ﴾ إنما نزلت في خروج النبي عليه السلام إلى بدر الصغرى، وذلك أنه خرج لميعاد أبي سفيان في - أحد - إذ قال: موعداً بدر من العام المقبل، فقال النبي عليه السلام: قولوا نعم: فخرج رسول الله قبل بدر وكان بها سوق عظيم، فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه دراهم وقرب من بدر فجاءه نعيم بن مسعود الأشجعي فأخبره أن قريشاً قد اجتمعت وأقبلت لحربه هي ومن انضاف إليها، فأشفق المسلمون من ذلك لكنهم قالوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، وصمموا حتى أتوا بدرأ فلم يجدوا عدواً ووجدوا السوق فاشترؤا بدراهمهم أدماً وتجارة وانقلبوا ولم يلقوا كيداً وربحوا في تجارتهم، فذلك قوله تعالى: ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أي فضل في تلك التجارة، والصواب ما قاله الجمهور: إن هذه الآية نزلت في غزوة حمراء الأسد، وما قال ابن قتبية وغيره: من أن لفظة ﴿الناس﴾ على رجل واحد من هذه الآية، فقول ضعيف.

قوله تعالى:

إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطْلًا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾

مقتضى ﴿إنما﴾ في اللغة الحصر، هذا مترع المتكلم بها من العرب، ثم إذا نظر مقتضاها - عقلاً - وهذا هو نظر الأصوليين - فهي تصلح للحصر وللتأكيد الذي يستعار له لفظ الحصر، وهي في هذه الآية حاصرة، والإشارة بـ ﴿ذلكم﴾ إلى جميع ما جرى من أخبار الركب العبدية، عن رسالة أبي سفيان ومن تحميل أبي سفيان ذلك الكلام، ومن جزع من ذلك الخبر من مؤمن أو متردد، و﴿ذلكم﴾ في الإعراب ابتداء، و﴿الشيطان﴾ مبتدأ آخر، و﴿يخوف أولياءه﴾ خبر عن الشيطان، والجملة خبر الابتداء

الأول، وهذا الإعراب خير في تناسق المعنى من أن يكون ﴿الشيطان﴾ خبر ﴿ذلكم﴾ لأنه يجيء في المعنى استعارة بعيدة، و﴿يخوف﴾ فعل يتعدى إلى مفعولين، لكن يجوز الاقتصار على أحدهما إذ الآخر مفهوم من بنية هذا الفعل، لأنك إذا قلت: خوفت زيداً، فمعلوم ضرورة أنك خوفته شيئاً حقه أن يخاف، وقرأ جمهور الناس ﴿يخوف أولياءه﴾ فقال قوم المعنى: يخوفكم أيها المؤمنون أولياءه الذين هم كفار قريش، فحذف المفعول الأول وقال قوم: المعنى يخوف المنافقين ومن في قلبه مرض وهم أولياؤه، فإذا لا يعمل فيكم أيها المؤمنون تخوفه، إذ لستم بأوليائه، والمعنى: يخوفهم كفار قريش، فحذف هنا المفعول الثاني واقتصر على الأول، وقرأ ابن عباس فيما حكى أبو عمرو الداني «يخوفكم أولياءه» المعنى يخوفكم قريش ومن معهم، وذلك بإضلال الشيطان لهم وذلك كله مضمحل، وبذلك قرأ النخعي وحكى أبو الفتح بن جني عن ابن عباس أنه قرأ «يخوفكم أولياءه» فهذه قراءة ظهر فيها المفعولان، وفسرت قراءة الجماعة «يخوف أولياءه» قراءة أبي بن كعب «يخوفكم بأوليائه» والضمير في قوله ﴿فلا تخافوهم﴾ لكفار قريش وغيرهم من أولياء الشيطان، حقر الله شأنه وقوى نفوس المؤمنين عليهم، وأمرهم بخوفه هو تعالى وامثال أمره، من الصبر والجلد، ثم قرر بقوله تعالى ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ كما تقول: إن كنت رجلاً فافعل كذا.

وقرأ نافع وحده «يُحزنك» بضم الياء من أحزن، وكذلك قرأ في جميع القرآن، إلا في سورة الأنبياء ﴿لا يحزنهم الفرع الأكبر﴾ [الأنبياء: ١٠٣] فإنه فتح الياء، وقرأ الباقون «يحزنك» بفتح الياء من قولك حزنت الرجل، قال سيبويه: يقال حزن الرجل وفتن إذا أصابه الحزن والفتنة، وحزنته وفتنته، إذا جعلت فيه وعنده حزناً وفتنة، كما تقول: دهنت وكحلت، إذا جعلت دهناً وكحلاً، وأحزنته وأفنتته إذا جعلته حزينا وفتناً، كما تقول: أدخلته وأسمعته، هذا معنى قول سيبويه والمسارة في الكفر هي المبادرة إلى أقواله وأفعاله والجد في ذلك، وقرأ الحر النحوي «يسرعون» في كل القرآن وقراءة الجماعة أبلغ، لأن من يسارع غيره أشد اجتهداً من الذي يسرع وحده، ولذلك قالوا كل مجر بالخلاء يسر، وسأل الله نبيه بهذه الآية عن حال المنافقين والمجاهدين إذ كلهم مسارع، وقوله تعالى: ﴿إنهم لن يضروا الله شيئاً﴾ خبر في ضمنه وعيد لهم أي: إنما يضرون أنفسهم، والحظ إذا لم يقيد فإنما يستعمل في الخير، ألا ترى قوله تعالى: ﴿وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ [فصلت: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿إن الذين اشتروا﴾ أطلق عليهم الشراء من حيث كانوا متمكنين من قبول هذا وهذا فجاء أخذهم للواحد وتركهم للآخر كأنه ترك لما قد أخذ وحصل، إذ كانوا متمكنين منه، ولما لك رحمه الله متعلق بهذه الآية في مسألة شراء ما تختلف آحاد جنسه مما لا يجوز التفاضل فيه، في أن منع الشراء على أن يختار المبتاع، وباقي الآية وعيد كالمقدم.

قوله تعالى:

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرًا لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَظَلُّوا فِي أَثْمَارِهِمْ وَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٦﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ

لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيْ مِنْ رُّسُلِهِ مَنْ يَّشَاءُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٨﴾

﴿نملي﴾ معناه: نمهل ونمد في العمر، والملاوة: المدة من الدهر والملوان الليل والنهار وتقول: ملاك الله النعمة أي منحها عمراً طويلاً، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع: «يحسبن» بالياء من أسفل وكسر السين وفتح الباء، وقرأ ابن عامر كذلك إلا في السين فإنه فتحها وقرأ حمزة تحسبن. بالياء من فوق الباء، وقرأ ابن عامر كذلك إلا في - السين - فإنه فتحها، وقرأ حمزة «تحسبن» بالياء من فوق وفتح السين، وقرأ عاصم والكسائي، كل ما في هذه السورة بالياء من فوق إلا حرفين، قوله ﴿ولا يحسبن الذين كفروا﴾ في هذه الآية وبعدها ﴿ولا يحسبن الذين يبيخلون﴾ فأما من قرأ «ولا يحسبن» بالياء من أسفل فإن ﴿الذين﴾ فاعل وقوله «أنما نملي لهم خير» بفتح الألف من «أنما» ساد مسد مفعولي حسب، وذلك أن «حسب» وما جرى مجراها تتعدى إلى مفعولين أو إلى مفعول يسد مسد مفعولين، وذلك إذا جرى في صلة ما تتعدى إليه ذكر الحديث والمحدث عنه، قال أبو علي: وكسر «إن» في قول من قرأ «يحسبن» بالياء لا ينبغي، وقد قرئ فيما حكاه غير أحمد بن موسى وفي غير السبع، ووجه ذلك أن يتلقى بها القسم كما يتلقى بلام الابتداء، ويدخلان على الابتداء والخبر، أعني - اللام - وإن فعلق عن «إنما» عمل الحسبان كما تعلق عن اللام في قولك: حسبت لزيد قائم، فيعلق الفعل عن العمل لفظاً، وأما بالمعنى فما بعد «أن أو اللام» ففي موضع مفعولي «حسب»، وما يحتمل أن تكون بمعنى الذي، ففي ﴿نملي﴾ عائد مستكن، ويحتمل أن تكون مصدرية فلا تحتاج إلى تقدير عائد وأما من قرأ «ولا تحسبن» بالياء فالذين مفعول أول للحسبان، قال أبو علي: وينبغي أن تكون الألف من «إنما» مكسورة في هذه القراءة، وتكون «إن» وما دخلت عليه في موضع المفعول الثاني لتحسبن، ولا يجوز فتح الألف من «إنما» لأنها تكون المفعول الثاني، والمفعول الثاني في هذا الباب هو المفعول الأول بالمعنى، والإملاء لا يكون إياهم، قال مكى في مشكله: ما علمت أحداً قرأ «تحسبن» بالياء من فوق وكسر الألف من «إنما» وجوز الزجاج هذه القراءة «تحسبن» بالياء و«أنما» بفتح الألف، وظاهر كلامه أنها تنصب خيراً، قال وقد قرأ بها خلق كثير وساق عليها مثلاً قول الشاعر: [الطويل]

(فما كان قيسَ هُلكَ هُلكَ هُلكَ واحدٍ)

بنصب هلك الثاني على أن الأول بدل، فكذلك يكون «إنما نملي» بدلاً من «الذين كفروا» كقوله تعالى: ﴿وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره﴾ [الكهف: ٦٣] وقوله ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم﴾ [الأنفال: ٧] ويكون «خيراً» المفعول الثاني قال أبو علي: لم يقرأ هذه القراءة أحد، وقد سألت أحمد بن موسى عنها فزعم أنه لم يقرأ بها أحد، ويظهر من كلام أبي علي أن أبا إسحاق إنما جوز المسألة مع قراءة «خير» بالرفع، وأبو علي أعلم لمشاهدته أبا إسحاق، وذكر قوم أن هذه القراءة تجوز على حذف مضاف تقديره: ولا تحسبن شأن الذين كفروا أنما نملي لهم، فهذا كقوله تعالى: ﴿واسأل القرية﴾ [يوسف: ٨٢] وغير ذلك ويذهب الأستاذ أبو الحسن بن الباذش: إلى أنها تجوز على بدل أن من الذين وحذف المفعول لحسب، إذ الكلام يدل عليه.

قال القاضي: والمسألة جائزة إذ المعنى لا تحسبن إملأنا للذين كفروا خيراً لهم أو نحو هذا ومعنى هذه الآية: الرد على الكفار في قولهم: إن كوننا ظاهرين ممولين أصحّة دليل على رضى الله بحالنا واستقامة طريقتنا عنده، فأخبر الله أن ذلك التأخير والإمهال إنما هو إملاء واستدراج، ليكتسبوا الأثام، وقال عبد الله بن مسعود: ما من نفس برة ولا فاجرة إلا والموت خير لها، أما البرة فلتسرع إلى رحمة الله، وقرأ ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾ [آل عمران: ١٩٨] وأما الفاجرة فلتلا تزاد إثماً، وقرأ هذه الآية ووصف العذاب بالمهين معناه: التخصيس لهم، فقد يعذب من لا يهان، وذلك إذا اعتقدت إقالة عشرته يوماً ما.

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿ما كان الله ليذر﴾ فقال مجاهد وابن جريج وابن إسحاق وغيرهم: الخطاب للمؤمنين، والمعنى: ما كان الله ليدع المؤمنين مختلطين بالمنافقين مشكلاً أمرهم، يجري المنافق مجرى المؤمن، ولكنهم ميز بعضهم من بعض، بما ظهر من هؤلاء وهؤلاء في أحد من الأفعال والأقوال، وقال قتادة والسدي: الخطاب للكفار، والمعنى: حتى يميز المؤمنين من الكافرين بالإيمان والهجرة، وقال السدي وغيره: قال الكفار في بعض جدلهم: أنت يا محمد تزعم في الرجل منا أنه من أهل النار، وأنه إذا اتبعك من أهل الجنة، فكيف يصح هذا؟ ولكن أخبرنا بمن يؤمن منا وبمن يبقى على كفره، فنزلت الآية، فقيل لهم: لا بد من التمييز ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾ فيمن يؤمن ولا فيمن يبقى كافراً ولكن هذا رسول مجتبي فآمنوا به. فإن آمنتُم نجوتُم وكان لكم أجر، وأما مجاهد وابن جريج وأهل القول، فقولهم في تأويل قوله تعالى: ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾ أنه في أمر «أحد» أي ما كان الله ليطلعكم على أنكم تهزمون، فكنتم تكعون عن هذا. وأيضاً فما كان ليطلعكم على المنافقين تصريحاً بهم وتسمية لهم، ولكن هذا بقرائن أفعالهم وأقوالهم في مثل هذا الموطن، وحتى - في قوله: ﴿حتى يميز﴾ غاية مجردة، لأن الكلام قبلها معناه: الله يخلص ما بينكم بابتلائه وامتحانه حتى يميز، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم: «حتى يميز» - بفتح الياء وكسر الميم وتخفيف الياء، وكذلك «ليميز»، وقرأ حمزة والكسائي: «حتى يُميز» و«ليميز الله» بضم الياء والتشديد، قال يعقوب بن السكيت: مزت وميزت، لغتان بمعنى واحد، قال أبو علي: وليس ميزت بمنقول من مزت، بدليل أن ميزت لا يتعدى إلى مفعولين وإنما يتعدى إلى مفعول واحد كمزت، كما أن «ألقيت» ليس بمنقول من لقي، إنما هو بمعنى أسقطت، والغيب هنا: ما غاب عن البشر مما هو في علم الله من الحوادث التي تحدث ومن الأسرار التي في قلوب المنافقين، ومن الأقوال التي يقولونها إذا غابوا عن الناس، قال الزجاج وغيره: روي أن بعض الكفار قال: لم لا يكون جميعنا أنبياء؟ فنزلت هذه الآية، و«يجتبي» - معناه: يختار ويصطفى، وهي من جبيت الماء والمال، وباقي الآية بين والله المستعان.

قوله تعالى:

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَاءِ أَنفُسِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿١٧٨﴾ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ

قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ

القراءات في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ كالتي تقدمت آنفاً في قوله ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ سواء، وقال السدي وجماعة من المتأولين: الآية نزلت في البخل بالمال والإنفاق في سبيل الله وأداء الزكاة المفروضة ونحو ذلك، قالوا: ومعنى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا﴾ هو الذي ورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ما من ذي رحم يأتي ذا رحمه فيسأله عن فضل ما عنده فيبخل به عليه إلا خرج له يوم القيامة شجاع أقرع من الناس يتلمظ حتى يطوقه. والأحاديث في مثل هذا من منع الزكاة واكتناز المال كثيرة صحيحة. وقال ابن عباس: الآية إنما نزلت في أهل الكتاب وبخلهم ببيان ما علمهم الله من أمر محمد صلى الله عليه وسلم، وقال ذلك مجاهد وجماعة من أهل التفسير، وقوله تعالى ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ على هذا التأويل معناه سيعملون عقاب ما بخلوا به، فهو من الطاقة كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يَطِيقُونَهُ﴾ [البقرة: ١٨٤] وليس من التطويق، وقال إبراهيم النخعي: ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ سيجعل لهم يوم القيامة طوق من نار، وهذا يجري مع التأويل الأول الذي ذكرته للسدي وغيره، وقال مجاهد: سيعكفون أن يأتوا بمثل ما بخلوا به يوم القيامة، وهذا يضرب مع قوله: إن البخل هو بالعلم الذي تفضل الله عليهم بأن علمهم إياه وإعراب قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ رفع في قراءة من قرأ «يَحْسِبَنَّ» بالياء من أسفل والمفعول الأول مقدر بالصلة تقديره «وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بما آتاهم من فضله بخلهم هو خيراً»، والمفعول الثاني خيراً، وهو فاصلة وهي العماد عند الكوفيين، ودل قوله: ﴿يَبْخُلُونَ﴾ على هذا البخل المقدر كما دل السفه على السفه في قول الشاعر: [الوافر]

إِذَا نُهِِيَ السَّفِيهُ جَرَى إِلَيْهِ وَخَالَفَ، وَالسَّفِيهُ إِلَى خِلَافٍ

فالمعنى جرى إلى السفه، وأما من قرأ «يَحْسِبَنَّ» بالتاء من فوق ففي الكلام حذف مضاف هو المفعول الأول، تقديره ولا تحسبن يا محمد بخل الذين يبخلون خيراً لهم، قال الزجاج: وهي مثل ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ﴾ خطاب على ما يفعله البشر دال على فناء الجميع وأنه لا يبقى مالك إلا الله تعالى وإن كان ملكه تعالى على كل شيء لم يزل، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «وَاللَّهُ بما يعملون» بالياء من أسفل على ذكر الذين يبخلون ويطوقون، وقرأ الباقر بالتاء من فوق، وذلك على الرجوع من الغيبة إلى المخاطبة لأنه قد تقدم ﴿وَأِنْ تَوَمَّنَا وَتَقَوَّا﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ الآية، قال ابن عباس: نزلت بسبب فنحاص اليهودي وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه إلى بيت المدراس ليدعوهم فوجد فيه جماعة من اليهود قد اجتمعوا على فنحاص - وهو جبرهم - فقال أبو بكر له: يا فنحاص اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة، فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة وإنه إلينا لفقير وإننا عنه لأغنياء، ولو كان غنياً لما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم، في كلام طويل غضب أبو بكر منه، فرفع يده فلطم وجه فنحاص وسبه وهمم بقتله، ثم منعه من ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: لا تحدث شيئاً حتى تنصرف إليّ، ثم

ذهب فنحاص إلى النبي صلى الله عليه وسلم فشكا فعل أبي بكر، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر: ما حملك على ما صنعت؟ قال يا رسول الله: إنه قال قولاً عظيماً فلم أملك نفسي أن صنعت ما صنعت، فنزلت الآية في ذلك وقال قتادة: نزلت الآية في حيي بن أخطب، وذلك أنه لما نزلت ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ [البقرة: ٢٤٥] قال: يستقرضنا ربنا؟ إنما يستقرض الفقير الغني، وقال الحسن بن أبي الحسن ومعمر وقتادة أيضاً وغيرهم: لما نزلت ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، قالت اليهود: إنما يستقرض الفقير من الغني، ولا محالة أن هذا قول صادر أولاً عن فنحاص وحيي وأشباههما من الأحرار ثم نقولها اليهود، وهو قول يغلط به الأتباع ومن لا علم عنده بمقاصد الكلام، وهذا تحريف اليهود التأويل على نحو ما صنعوا في توراتهم وقوله تعالى: ﴿قول الذين كفروا﴾ دال على أنهم جماعة.

قوله تعالى:

سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نؤمنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ

قرأ حمزة وحده «سكتب» بالياء من أسفل على بناء الفعل للمفعول و«قتلهم» برفع اللام عطفاً على المفعول الذي لم يسم فاعله، و«يقول» بالياء من أسفل، وقرأ الباقون بنون الجفع، فإما أنها نون العظمة، وإما هي للملائكة و﴿ما﴾ على هذه القراءة مفعولة بها، و«قتلهم» بنصب اللام عطفاً على ﴿ما﴾ و«ونقول» بالنون على نحو «سكتب» والمعنى في هاتين القراءتين قريب بعضه من بعض، قال الكسائي: وفي قراءة عبد الله بن مسعود «ويقال ذوقوا» وقال أبو معاذ النحوي في حرف ابن مسعود: «سكتب ما يقولون ويقال لهم ذوقوا» وقرأ طلحة بن مصرف «سكتب ما يقولون» وحكى أبو عمرو عنه أيضاً أنه قرأ «سكتب» بناء مرفوعة ﴿ما قالوا﴾، بمعنى: سكتب مقالته، وهذه الآية وعيد لهم، أي سيحصى عليهم قولهم، والكتب فيما قال كثير من العلماء هو في صحف تقيده الملائكة فيها، وتلك الصحف المكتوبة هي التي توزن وفيها يخلق الله الثقل والخفة بحسب العمل المكتوب فيها، وذهب قوم إلى أن الكتب عبارة عن الإحصاء وعدم الإهمال، فعبر عن ذلك بما تفهم العرب منه غاية الضبط والتقييد، فمعنى الآية: أن أقوال هؤلاء تكتب وأعمالهم، ويتصل ذلك بأفعال آبائهم من قتل الأنبياء بغير حق ونحوه، ثم يقال لجميعهم ﴿ذوقوا عذاب الحريق﴾ وخلطت الآية الآباء مع الأبناء في الضمائر، إذ الآباء هم الذين طوقوا لأبنائهم الكفر وإذا الأبناء راضون بأفعال الآباء متبعون لهم، والذوق مع العذاب مستعار، عبارة عن المباشرة، إذ الذوق من أبلغ أنواعها وحاسته مميزة جداً، و﴿الحريق﴾ معناه: المحرق فعيل بمعنى مفعول وقيل: ﴿الحريق﴾ طبقة من طبقات جهنم.

وقوله تعالى: ﴿ذلك بما قدمت أيديكم﴾ توبيخ وتوقيف داخل فيما يقال لهم يوم القيامة، ويحتمل أن

يكون خطاباً لمعاصري النبي عليه السلام، يوم نزول الآية، ونسب هذا التقديم إلى اليد إذ هي الكاسبة للأعمال في غالب أمر الإنسان، فأضيف كل كسب إليها، ثم بين تعالى: أنه يفعل هذا بعدل منه فيهم ووضع الشيء موضعه، والتقدير: وبأن الله ﴿ليس بظلام للعبيد﴾ وجمع «عبدًا» في هذه الآية على عبيد، لأنه مكان تشفيق وتنجية من ظلم.

وقوله تعالى: ﴿الذين قالوا إن الله عهد إلينا﴾ صفة راجعة إلى قوله: ﴿الذين قالوا إن الله فقير﴾ وقال الزجاج: ﴿الذين﴾ صفة للعبيد، وهذا مفسد للمعنى والرصف، وهذه المقالة قالتها أجبار يهود مدافعة لأمر النبي صلى الله عليه وسلم أي إنك لا تأتي بنار فنحن قد عهد إلينا أن لا نؤمن لك، و﴿عهد﴾ معناه: أمر والعهد: أخص من الأمر، وذلك أنه في كل ما يتناول أمره ويبقى في غابر الزمان، وتعدى «آمن» في هذه الآية باللام والباء في ضمن ذلك، «وقربان» مصدر سمي به الشيء الذي يقرب كالرهن، وكان أمر القربان حكماً قديماً في الأنبياء، ألا ترى أن ابني آدم قربا قرباناً، وذلك أنهم كانوا إذا أرادوا معرفة قبول الله تعالى لصدقة إنسان أو عمله أو صدق قوله، قرب قرباناً شاة أو بقرة ذبيحة أو بعض ذلك وجعله في مكان للهواء وانتظر به ساعة، فتزل نار من السماء فتحرق ذلك الشيء، فهذه علامة القبول، وإذا لم تنزل النار فليس ذلك العمل بمقبول، ثم كان هذا الحكم في أنبياء بني إسرائيل، وكانت هذه النار أيضاً تنزل لأموال الغنائم فتحرقها، حتى أحلت الغنائم لمحمد صلى الله عليه وسلم حسب الحديث وروي عن عيسى بن عمر، أنه كان يقرأ «بقربان» بضم الراء وذلك للإتباع لضممة القاف وليست بلغة، لأنه ليس في الكلام فعلان بضم الفاء والعين، وقد حكى سيبويه: السلطان بضم اللام، وقال: إن ذلك على الإتباع.

قوله تعالى:

قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾
 فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾

هذا رد عليهم في مقاتلهم وتبيين لإبطالهم، أي: ﴿قد جاءكم رسل﴾ بالآيات الباهرة البينة، وفي جملتها ما قلتم من أمر القربان فلم قتلتموهم يا بني إسرائيل المعنى بل هذا منكم تعلل وتعت، ولو أتيتكم بالقربان لتعللتم بغير ذلك، والاقتراح لا غاية له، ولا يجاب كل مقترح، ولم يجب الله مقترحاً إلا وقد أراد تعذيبه وأن لا يمهله، كقوم صالح وغيرهم، وكذلك قيل لمحمد في اقتراح قريش فأبى، وقال: بل أدعوهم وأعالجهم.

ثم أنس تعالى نبيه بالأسوة والقذوة فيمن تقدم من الأنبياء أي: فلا يعظم عليك ذلك، وقرأ ابن عامر: و«بالزبر» بإعادة باء الجر، وسقوطها على قراءة الجمهور متجه، لأن الواو شربت الزبر في الباء الأولى فاستغني عن إعادة الباء، وإعادتها أيضاً متجهة لأجل التأكيد، وكذلك ثبتت في مصاحف أهل الشام، وروي أيضاً عن ابن عامر إعادة الباء في قوله: «وبالكتاب المنير» و«الزبر»: الكتاب المكتوب يقال: زبرت الكتاب إذا كتبت، وزبرته إذا قرأته، والشاهد لأنه الكتاب قول امرئ القيس: [الطويل]

لِمَنْ طَلَّلَ أَبْصَرْتُهُ فَشَجَّانِي كَخَطِّ زَبُورٍ فِي عَسِيبٍ يَمَانِي؟

وقال الزجاج: زبرت كتبت، وذبرت بالذال: قرأت، و «المنير»: وزنه مفعول من النور أي منقطع نوره.

قوله تعالى:

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتَعٌ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾

والمعنى: كل نفس مخلوقة حية، والدوق هنا: استعارة ﴿وإنما﴾ حاضرة على التوفية التي هي أعلى الكمال، لأن من قضى له بالجنة فهو ما لم يدخلها غير موفى، وخص تعالى ذكر «الأجور» لشرفها وإشارة مغفرته لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته، ولا محالة أن المعنى: أن يوم القيامة تقع توفية الأجور وتوفية العقاب، و ﴿زحرج﴾ معناه: أبعد، والمكان الزحرج: البعيد، وفاز معناه: نجا من خطره وخوفه، و ﴿الغرور﴾، الخدع والترجية بالباطل، والحياة الدنيا وكل ما فيها من الأموال فهي متاع قليل تخدع المرء وتمنيه الأباطيل وعلى هذا فسر الآية جمهور من المفسرين، قال عبد الرحمن بن سابط: ﴿متاع الغرور﴾ كزاد الراعي يزود الكف من التمر أو الشيء من الدقيق يشرب عليه اللبن، قال الطبري: ذهب إلى أن متاع الدنيا قليل لا يكفي من تمتع به ولا يبلغه سفره.

قال القاضي: و ﴿الغرور﴾ في هذا المعنى مستعمل في كلام العرب، ومنه قولهم في المثل: عَشَّ وَلَا تَغْتَر، أي لا تحترجا لا يكفيك، وقال عكرمة: ﴿متاع الغرور﴾، القوارير أي لا بد لها من الانكسار والفساد، فكذلك أمر الحياة الدنيا كله، وهذا تشبيه من عكرمة، وقرأ عبد الله بن عمر «الغُرور» بفتح الغين، وقرأ أبو حيوة والأعمش: ﴿ذائقة﴾ بالتنوين ﴿الموت﴾ بالنصب، وقال النبي صلى الله عليه وسلم، لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها، ثم تلا هذه الآية.

قوله تعالى:

تَتَّبَلُّونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلِتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا فِئْسَ مَا يَشْتُرُونَ ﴿١٨٧﴾

هذا الخطاب للنبي عليه السلام وأمته، والمعنى: لتختبرن ولتمتحنن في أموالكم بالمصائب والأرزاء، وبالإفناق في سبيل الله، وفي سائر تكاليف الشرع، والابتلاء في الأنفس بالموت والأمراض، وفقد الأحبة بالموت، واختلف المفسرون في سبب قوله تعالى: ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ فقال عكرمة وغيره: السبب في ذلك قول فطحل: إن الله فقير ونحن أغنياء، وقوله: يد الله مغلولة

إلى غير ذلك، وقال الزهري وغيره: نزلت هذه الآية بسبب كعب بن الأشرف، فإنه كان يهجو النبي صلى الله عليه وسلم، وأصحابه ويشب ببناء المسلمين، حتى بعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتله القتلة المشهورة في السيرة، و«الأذى»: اسم جامع في معنى الضرر وهو هنا يشمل أقوالهم فيما يخص النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من سبهم وأقوالهم في جهة الله تعالى وأنبيائه، وندب الله تعالى عباده إلى الصبر والتقوى، وأخبر أنه من عزم الأمور، أي من أشدها وأحسنها، و«العزم»: إمضاء الأمر المروي المنفح، وليس ركوب الأمر دون روية عزمًا إلا على مقطع المشيحين من فتاك العرب كما قال:

إِذَا هُمْ الْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمُهُ وَنَكَبَ عَنْ ذِكْرِ الْحَوَادِثِ جَانِبًا

وقال النقاش: العزم والحزم بمعنى واحد، الحاء مبدلة من العين.

قال القاضي: وهذا خطأ، والحزم: جودة النظر في الأمور وتنقيحه والحذر من الخطأ فيه، و«العزم»: قصد الإمضاء، والله تعالى يقول: ﴿وشاورهم في الأمر، فإذا عزمتم﴾ [آل عمران: ١٥٩] فالمشاورة وما كان في معناها هو الحزم، والعرب تقول: قد أحزم لو أعزم.

وقوله تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب﴾ الآية، تويخ لمعاصري النبي صلى الله عليه وسلم، ثم هو مع ذلك خبر عام لهم ولغيرهم. والعامل في ﴿إذ﴾ فعل مقدر تقديره اذكر، وأخذ هذا الميثاق وهو على السنة الأنبياء أمة بعد أمة، وقال ابن عباس والسدي وابن جريج: الآية في اليهود خاصة، أخذ الله عليهم الميثاق في أمر محمد فكتموه ونبدوه، قال مسلم البطين: سأل الحجاج بن يوسف جلساءه عن تفسير هذه الآية فقام رجل إلى سعيد بن جبير فسأله فقال له: نزلت في يهود أخذ الميثاق عليهم في أمر محمد فكتموه، وروي عن ابن عباس أنه قرأ ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لتبينه﴾ فيجيء قوله ﴿فنبذوه﴾ عائداً على الناس الذين بين الأنبياء لهم، وقال قوم من المفسرين: الآية في اليهود والنصارى، وقال جمهور من العلماء: الآية عامة في كل من علمه الله علماً، وعلماء هذه الأمة داخلون في هذا الميثاق، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار، وقد قال أبو هريرة: إني لأحدثكم حديثاً، ولولا آية في كتاب الله ما حدثتكموه ثم تلا ﴿إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب﴾ [البقرة: ١٧٤] وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر: «ليبينه للناس ولا يكتُمونه»، بالياء من أسفل فيهما، وقرأ الباقر وحفص وعاصم بالتاء من فوق فيهما، وكلا القراءتين متجه، والضمير في الفصلين عائداً على الكتاب، وفي قراءة ابن مسعود «لتبينونه» دون النون الثقيلة، وقد لا تلزم هذه النون لام القسم، قاله سيبويه، و«النبد»: الطرح، وقوله تعالى: ﴿وراء ظهورهم﴾، استعارة لما يبالغ في اطراحه، ومنه ﴿واتخذتموه وراءكم ظهرياً﴾ [هود: ٩٢]، ومنه قول الفرزدق: [الطويل]

تَمِيمُ بْنُ مُرٍّ لَا تَكُونَنَّ حَاجَتِي بِظَهْرِ فَلَا يَعْنِي عَلَيَّ جَوَابُهَا

ومنه بالمعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: لا تجعلوني كقدح الراكب. أراد عليه السلام، لا

تجعلوا ذكري وطاعتي خلف أظهوركم، وهو موضع القدح ومنه قول حسان: [الطويل]

(كَمَا نِيْطُ خَلْفَ الرَّايِبِ الْقَدْحُ الْفَرْدُ)

والتشبيه بالقدح إنما هو في هيئته لا في معناه، لأن الراكب يحتاجه، ومحلّه من محلات الراكب جليل، والثمن القليل: هو مكسب الدنيا. وباقي الآية بين.

قال أبو محمد: والظاهر في هذه الآية أنها نزلت في اليهود، وهم المعنيون ثم إن كل كاتم من هذه الأمة يأخذ بحظه من هذه المذمة ويتصف بها.

قوله تعالى:

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾

اختلف المفسرون في المراد بقوله تعالى: ﴿الذين يفرحون﴾ فقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه وابن زيد وجماعة: الآية نزلت في المنافقين، وذلك أنهم كانوا إذا خرج النبي صلى الله عليه وسلم للغزو تخلفوا عنه، فإذا جاء اعتذروا إليه وقالوا: كانت لنا أشغال ونحو هذا، فيظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم القبول ويستغفر لهم، ففضحهم الله تعالى بهذه الآية، فكانوا يفرحون بما يأتونه ويفعلونه من التخلف والاعتذار، ويحبون أن يقال لهم: إنهم في حكم المجاهدين لكن العذر حسهم، وقالت جماعة كثيرة من المفسرين إنما نزلت الآية في أهل الكتاب أحرار اليهود ثم اختلفوا فيما هو الذي أتوه وكيف أحبوا المحمّدة فقال ابن عباس رضي الله عنه: أتوا إضلال أتباعهم عن الإيمان بمحمد وفرحوا بذلك لديموم رياستهم الدنيوية، وأحبوا أن يقال عنهم: إنهم علماء بكتاب الله ومتقدم رسالاته، وقال ابن عباس أيضاً والضحّاك والسدي: أتوا أنهم تعاقدوا وتكاتبوا من كل قطر بالارتباط إلى تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم والدفع في صدر نبوته، وأحبوا أن يقال عنهم: إنهم أهل صلاة وصيام وعبادة، وقالوا هم ذلك عن أنفسهم، وقال مجاهد: فرحوا بإعجاب أتباعهم بتبديلهم تأويل التوراة، وأحبوا حمدهم إياهم على ذلك، وهم في الحقيقة لم يفعلوا شيئاً نافعاً ولا صحيحاً بل الحق أبلج، وقال سعيد بن جبير: الآية في اليهود، فرحوا بما أعطى الله آل إبراهيم من النبوة والكتاب، فهم يقولون: نحن على طريقهم ويحبون أن يحمّدوا بذلك وهم ليسوا على طريقتهم، وقراءة سعيد بن جبير: «أوتوا» بمعنى أعطوا بضم الهمزة والتاء، وعلى قراءته يستقيم المعنى الذي قال. وقال ابن عباس أيضاً: إن الآية نزلت في قوم سألهم النبي عليه السلام عن شيء فكنتموه الحق وقالوا له غير ذلك، فرحوا بما فعلوا وأحبوا أن يحمّدوا بما أجابوا، وظنوا أن ذلك قد قنع به واعتقدت صحته، وقال قتادة: إن الآية في يهود خيبر، نافقوا على النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين مرة، وقالوا: نحن معكم وعلى رأيكم وردد لكم وهم يعتقدون خلاف ذلك، فأحبوا الحمد على ما أظهروا وفرحوا بذلك، وقال الزجاج: نزلت الآية في قوم من اليهود، دخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم وكلموه في أشياء ثم خرجوا، فقالوا لمن لقوا من المسلمين: إن النبي أخبرهم بأشياء قد عرفوها فحمدهم المسلمون على ذلك وطمعوا بإسلامهم وكانوا قد أبطنوا خلاف ما أظهروا

للمسلمين وتمادوا على كفرهم، فنزلت الآية فيهم وقرأ جمهور الناس: «أتوا» بمعنى فعلوا، كما تقول أتيت أمر كذا، وقرأ مروان بن الحكم وإبراهيم النخعي: «آتوا» بالمد، بمعنى أعطوا بفتح الهمزة والطاء.

قال أبو محمد: وهي قراءة تستقيم على بعض المعاني التي تقدمت، وقرأ سعيد بن جبيرة وأبو عبد الرحمن السلمي، «أوتوا» بمعنى أعطوا، وقد تقدمت مع معناها وقرأ أبو عمرو وابن كثير، ﴿لا يحسن الذين يفرحون﴾ «فلا يحسبنهم» بالياء من تحت فيهما وبكسر السين ورفع الباء في يحسبنهم، قال أبو علي: ﴿الذين﴾ رفع بأنه فاعل «يحسب»، ولم تقع «يحسن» على شيء، وقد تجيء هذه الأفعال لغواً لا في حكم الجمل المفيدة نحو قول الشاعر: [الطويل]

وما خلت أبقي بيننا من مودة عراض المذاكي المسنفات القلائصا

وقال الخليل: العرب تقول: ما رأيته يقول ذلك إلا زيد، وما ظننته يقول ذلك إلا زيد فتتجه القراءة بكون قوله: «فلا تحسبنهم» بدلاً من الأول وقد عدي إلى مفعولييه وهما الضمير، وقوله ﴿بمفازة﴾ فاستغني بذلك عن تعدية الأول إليها كما استغني في قول الشاعر: [الطويل]

بأي كتاب أو بأية سنة ترى جبههم عاراً عليّ وتحسب؟

فاستغني بتعدية أحد الفعلين عن تعدية الآخر، والفاء في قوله ﴿فلا تحسبنهم﴾ زائدة، ولذلك حسن البديل، إذ لا يتمكن أن تكون فاء عطف ولا فاء جزاء، فلم يبق إلا أن تكون زائدة لا يقبح وجودها بين البديل والمبدل منه، وقوله على هذه القراءة «فلا يحسبنهم»، فيه تعدي فعل الفاعل إلى ضمير نفسه، نحو ظننتني أخاه، ورأيتني الليلة عند الكعبة، ووجدتني رجعت من الإصغاء، وذلك أن هذه الأفعال وما كان في معناها لما كانت تدخل على الابتداء والخبر أشبهت «أن» وأخواتها، فكما تقول: إني ذاهب، فكذلك تقول: ظننتني ذاهباً، ولو قلت: أظن نفسي أفعل كذا لم يحسن، كما يحسن: أظنني فاعلاً، قرأ نافع وابن عامر: «لا يحسن الذين» بالياء من تحت وفتح الباء، وكسر نافع السين، وفتحها ابن عامر «فلا تحسبنهم» بالتاء من فوق، وفتح الباء، والمفعولان اللذان يقتضيها قوله «لا يحسن الذين» محذوفان لدلالة ما ذكر بعده، والكلام في ذلك كما تقدم في قراءة ابن كثير، إلا أنه لا يجوز في هذا البديل الذي ذكره في قراءة ابن كثير وأبي عمرو لاختلاف الفعلين واختلاف فعليهما، وقرأ حمزة «لا تحسبن» بالتاء من فوق وكسر السين «فلا تحسبنهم» بالتاء من فوق وكسر السين وفتح الباء فـ ﴿الذين﴾ على هذه القراءة مفعول أول «لتحسبن»، والمفعول الثاني محذوف لدلالة ما يجيء بعد عليه، كما قيل آنفاً في المفعولين، وحسن تكرار الفعل في قوله «فلا تحسبنهم» لطول الكلام، وهي عادة العرب وذلك تقريب لذهن المخاطب، وقرأ الضحاك بن مزاحم «فلا تحسبنهم» بالتاء من فوق وفتح السين وضم الباء، و«المفازة»: مفعلة من فاز يفوز إذا نجا فهي بمعنى منجاة، وسمي موضع المخاف مفازة على جهة التفاؤل، قاله الأصمعي وقيل: لأنها موضع تفويض ومظنة هلاك، تقول العرب: فوز الرجل إذا مات قال ثعلب: حكيت لابن الأعرابي قول الأصمعي فقال: أخطأ، قال لي أبو المكارم: إنما سميت «مفازة» لأن من قطعها فاز، وقال الأصمعي: سمي اللديغ سليماً تفاؤلاً، قال ابن الأعرابي: بل لأنه مستسلم لما أصابه، وبعد أن نهى أن يحسبوا ناجين أخبر أن لهم عذاباً.

ثم استفتح القول بذكر قدرة الله تعالى وملكوته فقال: ﴿وَلِلَّهِ الْمُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية، قال بعض المفسرين: الآية رد على الذين قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. قال القاضي ابن الطيب وغيره: ظاهره العموم، ومعناه الخصوص لأن الله تعالى لا يوصف بالقدرة على المحالات هو الموجود في مقتضى كلام العرب.

ثم دل على مواضع النظر والعبرة، حيث يقع الاستدلال على الصانع بوجود السماوات والأرضين والمخلوقات دال على العلم، ومحال أن يكون موجود عالم مريد غير حي، فثبت بالنظر في هذه الآية عظم الصفات واختلاف الليل والنهار هو تعاقبهما، إذ جعلهما الله خلفه، ويدخل تحت لفظة الاختلاف كونهما يقصر هذا ويطول الآخر وبالعكس، ويدخل في ذلك اختلافهما بالنور والظلام، و«الآيات»: العلامات و«الألباب» في هذه الآية: هي ألباب التكليف لا ألباب التجربة، لأن كل من له علوم ضرورية يدركها فإنه يعلم ضرورة ما قلناه من صفات الله تعالى.

قوله تعالى:

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾

﴿الذين﴾ في موضع خفض صفة ﴿لأولي الألباب﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وهذا وصف ظاهره استعمال التمجيد والتلهيل والتكبير ونحوه من ذكر الله، وأن يحصر القلب اللسان، وذلك من أعظم وجوه العبادات، والأحاديث في ذلك كثيرة، وابن آدم منتقل في هذه الثلاث الهيئات لا يخلو في غالب أمره منها فكأنها تحصر زمنه، وكذلك جرت عائشة رضي الله عنها إلى حصر الزمن في قولها، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله على كل أحيانه، فدخل في ذلك كونه على الخلاء وغير ذلك، وذهبت جماعة من المفسرين إلى أن قوله: ﴿الذين يذكرون الله﴾، إنما هو عبارة عن الصلاة، أي لا يضيعونها ففي حال العبر يصلونها قعوداً وعلى جنوبهم، قال بعضهم وهي كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٠٣]، هذا تأويل من تأول هنالك قضيت بمعنى أدبتم، لأن بعض الناس يقول قضيت هنالك بمعنى فرغتم منها، فإذا كانت هذه الآية في الصلاة ففقهها أن الإنسان يصلي قائماً، فإن لم يستطع فقاعداً، ظاهر المدونة متربعا، وروي عن مالك وبعض أصحابه أنه يصلي كما يجلس بين السجدين، فإن لم يستطع القعود صلى على جنبه أو ظهره على التخيير، هذا مذهب المدونة، وحكى ابن حبيب عن ابن القاسم يصلي على ظهره، فإن لم يستطع فعلى جنبه الأيمن، ثم على الأيسر، وفي كتاب ابن المواز، يصلي على جنبه الأيمن، وإلا فعلى الأيسر، وإلا فعلى الظهر، وقال سحنون يصلي على الأيمن كما يجعل في لحدته، وإلا فعلى ظهره، وإلا فعلى الأيسر، وحسن عطف قوله ﴿وعلى جنوبهم﴾، على قوله: ﴿قياماً وقعوداً﴾ لأنه في معنى مضطجعين، ثم عطف على هذه العبادة التي هي ذكر الله باللسان أو الصلاة فرضها ومندوبها بعبادة أخرى

عظيمة، وهي الفكرة في قدرة الله تعالى ومخلوقاته، والعبر التي بث: [المتقارب]

وفي كل شيء له آيةٌ تدُلُّ على أنه واحدٌ

ومر النبي صلى الله عليه وسلم على قوم يتفكرون في الله فقال: تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق، فإنكم لا تقدرون قدره، وهذا هو قصد الآية: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وقال بعض العلماء: المتفكر في ذات الله تعالى كالناظر في عين الشمس، لأنه تعالى ليس كمثله شيء، وإنما التفكير وانسباط الذهن في المخلوقات، وفي مخاوف الآخرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا عبادة كتفكر، وقال الحسن بن أبي الحسن: الفكرة مرآة المؤمن، ينظر فيها إلى حسناته وسيئاته، وقال ابن عباس وأبو الدرداء: فكرة ساعة خير من قيام ليلة، وقال سري السقطي: فكرة ساعة خير من عبادة سنة، ما هو إلا أن تحل أطناب خيمتك فتجعلها في الآخرة، وأخذ أبو سليمان الداراني قدح الماء ليتوضأ لصلاة الليل وعنده ضيف، فرآه لما أدخل أصبعه في أذن القدح أقام كذلك مفكراً حتى طلع الفجر، فقال له ما هذا يا أبا سليمان؟ فقال: إني لما طرحت أصبعي في أذن القدح تذكرت قول الله جل وتعالى: ﴿إِذْ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ﴾ [غافر: ٧١]، ففكرت في حالي، وكيف أتلقى الغل إن طرح في عنقي يوم القيامة، فما زلت في ذلك حتى أصبحت.

قال القاضي: فهذه نهاية الخوف، وخير الأمور أوسطها، وليس علماء الأمة الذين هم الحجة على هذا المنهاج، وقراءة علم كتاب الله ومعاني سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن يفهم ويرجى نفعه أفضل من هذا، لكنه يحسن أن لا تخلو البلاد من مثل هذا، وحدثني أبي رضي الله عنه عن بعض علماء المشرق قال: كنت باثناً في مسجد الأقدام بمصر، فضليت العشاء فرأيت رجلاً قد اضطجع في كساء له مسجى بكسائه حتى أصبح، وصلينا نحن تلك الليلة وسهرنا، فلما أقيمت صلاة الصبح قام ذلك الرجل فاستقبل القبلة فصلى مع الناس، فاستعظمت جراته في الصلاة بغير وضوء، فلما فرغت الصلاة خرج فتبعته لأعظه فلما دنوت منه سمعته يشد: [المنسرح]

مُنْشَقُّ الْجِسْمِ غَائِبٌ حَاضِرٌ مُنْتَبِهُ الْقَلْبِ صَامِتٌ ذَاكِرٌ
مُنْقَبِضٌ فِي الْغُيُوبِ مُنْبَسِطٌ كَذَاكَ مَنْ كَانَ عَارِفاً ذَاكِراً
يَبِيتُ فِي لَيْلِهِ أَخَا فِكْرٍ فَهُوَ مَدَى اللَّيْلِ نَائِمٌ سَاهِرٌ

قال فعلمت أنه ممن يعبد بالفكرة وانصرفت عنه، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾ معناه يقولون ربنا على النداء، ما خلقت هذا باطلاً، يريد لغیر غاية منصوبة بل خلقتة البشر لينظر فيه فتوح وتعبد، فمن فعل ذلك نعمته ومن ضل عن ذلك عذبه لكفره وقوله عليك ما لا يليق بك، ولهذا المعنى الذي تعطيه قوة اللفظ حسن قولهم: ﴿سبحانك﴾: أي تنزيهاً لك عما يقول المبطلون وحسن قولهم: ﴿فقتنا عذاب النار﴾ إذ نحن المسبحون المتزهون لك الموحدون.

وقولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مِنْ تَدَخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾، استجارة واستعاذة، أي فلا تفعل بنا ذلك ولا نجعلنا ممن يعمل عملها، والخزي: الفضيحة المخجلة الهادمة لقدر المرء، خزي الرجل يخزي خزيّاً إذا

افتضح، وخزاية إذا استحيى، الفعل واحد والمصدر مختلف، وقال أنس بن مالك والحسن بن أبي الحسن وابن جريج وغيرهم: هذه إشارة إلى من يخلد في النار، ومن يخرج منها بالشفاعة والإيمان فليس بمخزي، وقال جابر بن عبد الله وغيره: كل من دخل النار فهو مخزي وإن خرج منها، وإن في ذلك لحزياً.

قال القاضي: : أما إنه خزي دون خزي وليس خزي من يخرج منها بفضيحة هادمة لقدره، وإنما الخزي التام للكفار وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ هو من قول الداعين، وبذلك يتسق وصف الآية.

قوله تعالى:

رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

هذه الآيات حكاية عن أولي الألباب أنهم يقولون: ﴿ربنا﴾ قال أبو الدرداء: يرحم الله المؤمنين ما زالوا يقولون: «ربنا ربنا» حتى استجيب لهم، واختلف المتأولون في المنادي، فقال ابن جريج وابن زيد وغيرهما: المنادي محمد صلى الله عليه وسلم، وقال محمد بن كعب القرظي: المنادي كتاب الله وليس كلهم رأى النبي صلى الله عليه وسلم وسمعه، ولما كانت ﴿ينادي﴾ بمنزلة يدعو، حسن وصولها باللام بمعنى «إلى الإيمان»، وقوله: ﴿أن آمنوا﴾ «أن» مفسرة لا موضع لها من الإعراب، وغفران الذنوب وتكفير السيئات أمر قريب بعضه من بعض، لكنه كرر للتأكيد ولأنها مناح من الستر، وإزالة حكم الذنب بعد حصوله، و﴿الأبرار﴾ جمع بر، أصله برر على وزن فعل، أدغمت الراء في الراء، وقيل: هو جمع بار كصاحب وأصحاب، والمعنى: توفنا معهم في كل أحكامهم وأفعالهم.

وقوله: ﴿ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك﴾ معناه: على السنة رسلك، وقرأ الأعمش «رسلك» بسكون السين، وطلبوا من الله تعالى إنجاز الوعد، وهو تعالى من لا يجوز عليه خلفه من حيث في طلبه الرغبة أن يكونوا ممن يستحقه، فالطلبة والتخوف إنما هو في جهتهم لا في جهة الله تعالى لأن هذا الدعاء إنما هو في الدنيا، فمعنى قول المرء: اللهم أنجز لي وعدك، إنما معناه: اجعلني ممن يستحق إنجاز الوعد، وقيل: معنى دعائهم الاستعجال مع ثقتهم بأن الوعد منجز، وقال الطبري وغيره: معنى الآية ما وعدتنا على السنة رسلك من النصر على الأعداء فكان الدعوة إنما هي في حكم الدنيا، وقولهم: ﴿ولا نخزننا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد﴾، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه﴾ [التحريم: ٨] فهذا وعده تعالى وهو دال على أن المخزي إنما هو مع الخلود.

قوله تعالى:

فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَتِي بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَأَلَّزِينَ

هَاجِرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْدُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ
وَلَا ذُخِّلَتْ لَهُمْ جَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

﴿استجاب﴾ استفعل بمعنى أجاب، فليس استفعل على بابهِ من طلب الشيء بل هو كما قال الشاعر: [الطويل]

وداعٍ دَعَا يا مَنْ يُجِيبُ إلى الندى فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبٌ

أي لم يجبه، وقوله: ﴿أني﴾ يجوز أن تكون «أن» مفسرة ويمكن أن تكون بمعنى «أني»، وقرأ عيسى بن عمر: «إني» بكسر الهمزة، وهذه آية وعد من الله تعالى: أي هذا فعله مع الذين يتصفون بما ذكر، وروي أن أم سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، قد ذكر الله تعالى الرجال في الهجرة ولم يذكر النساء في شيء من ذلك، فنزلت الآية، ونزلت آيات في معناها فيها ذكر النساء، وقوله: ﴿من ذكر﴾ تبيين للجنس العامل، وقال قوم: ﴿من﴾ زائدة لتقدم النفي من الكلام وقوله تعالى: ﴿بعضكم من بعض﴾ يعني في الأجر وتقبل العمل، أي إن الرجال والنساء في ذلك على حد واحد، ويبين تعالى حال المهاجرين، ثم الآية بعد تنسحب على كل من أودى في الله تعالى وهاجر أيضاً إلى الله تعالى وإن كان اسم الهجرة وفصلها الخاص بها قد انقطع بعد الفتح، فالمعنى باق إلى يوم القيامة، ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾ [البقرة: ٢٦١] و«هاجر» مفاعلة من اثنين، وذلك أن الذي يهجر وطنه وقربته في الله كان الوطن والقربة يهجرونه أيضاً فهي مهاجرة، وقوله تعالى: ﴿وأخرجوا من ديارهم﴾ عبارة إلزام ذنب للكفار، وذلك أن المهاجرين إنما أخرجهم سوء العشرة وقبيح الأفعال فخرجوا باختيارهم فإذا جاء الكلام في مضمار إلزام الذنب، للكفار قيل أخرجوا من ديارهم، وإخراج أهله منه أكبر عند الله، إلى غير ذلك من الأمثلة، وإذا جاء الكلام في مضمار الفخر والقوة على الأعداء، تمسك بالوجه الآخر من أنهم خرجوا برأيهم، فمن ذلك إنكار النبي صلى الله عليه وسلم على أبي سفيان بن الحارث حين أنشده: [الطويل]

(وردني . . . إلى الله من طردت كل مطرد)

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنت طردتني كل مطرد؟ إنكاراً عليه ومن ذلك قول كعب بن

زهير: [البسيط]

في عصبَةٍ مِنْ قَرِيشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ
بِطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُؤَلُوا
زَالُوا فَمَا زَالَ أَتْكَاسٌ وَلَا كُشْفٌ
عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِيلٌ مَعَاذِلُ

وقرأ نافع وعاصم وأبو عمرو: «وقاتلوا وقتلوا» بتخفيف التاء وضم القاف، ومعنى هذه القراءة بين، وقرأ ابن كثير: «وقاتلوا وقتلوا» بتشديد التاء وهي في المعنى كالأولى في المبالغة في القتل، وقرأ حمزة والكسائي: «وقتلوا وقاتلوا» بيد أن بالفعل المبني للمفعول به، وكذلك اختلافهم في سورة التوبة، غير أن ابن كثير وابن عامر يشددان في التوبة، ومعنى قراءة حمزة هذه: إما أن لا تعطى الواو رتبة لأن المعطوف بالواو يجوز أن يكون أولاً في المعنى وليس كذلك العطف بالفاء، ويجوز أن يكون المعنى وقتلوا وقتلوا

بأقبحهم فتشبه الآية قوله تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُوا لَمَا أَصَابَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٦] على تأويل من رأى أن القتل وقع بالربيبين، وقرأ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: و«قَتَلُوا» بفتح القاف والتاء من غير ألف، و«قَتَلُوا» بضم القاف وكسر التاء خفيفة، وهي قراءة حسنة المعنى مستوفية للفضلين على الترتيب المتعارف، وقرأ محارب بن دثار: «وَقَتَلُوا» بفتح القاف «وَقَاتَلُوا»، وقرأ طلحة بن مصرف: «وَقَتَلُوا» بضم القاف وشد التاء «وَقَاتَلُوا» وهذه يدخلها إما رفض رتبة الواو، وإما أنه قاتل من بقي، واللام في قوله: ﴿لَا كُفْرَنَ﴾ لام القسم و«ثَوَابًا» مصدر مؤكد مثل قوله: ﴿صَنَعَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٨] و«كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ» [النساء: ٢٤] وباقى الآية بين قوله تعالى:

لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيُبْسَ الْهَاهُنَا ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾

نزلت ﴿لا يغرنك﴾ في هذه الآية، منزلة: لا تظن أن حال الكفار حسنة فتهم لذلك، وذلك أن المغتر فارح بالشيء الذي يغتر به، فالكفار مغترون بتقليبهم والمؤمنون مهتمون به، لكنه ربما يقع في نفس مؤمن أن هذا الإملاء للكفار إنما هو لخير لهم، فيجيء هذا جنوحاً إلى خالهم ونوعاً من الاغترار فلذلك حسنت ﴿لا يغرنك﴾ ونظيره قول عمر لحفصة: لا يغرنك إن كانت جارتك أوصاً منك وأحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، المعنى: لا تغتري بما يتم لتلك من الإدلال فتقعي فيه فيطلقك النبي صلى الله عليه وسلم، والخطاب للنبي عليه السلام، والمراد أمته وللکفار في ذلك حظ، أي لا يغرنكم تقلبهم، وقرأ ابن أبي إسحاق ويعقوب: «لا يغرنك» بسكون النون خفيفة، وكذلك «لا يصدنك ولا يصدنكم ولا يغرنكم» - وشبهه، و«التقلب»: التصرف في التجارات والأرباح والحروب وسائر الأعمال، ثم أخبر تعالى عن قلة ذلك المتاع، لأنه منقوض صائر إلى ذل وقل وعذاب.

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: «لكن الذين»، بشد النون، وعلى أن «الذين» في موضع نصب اسماً لـ «لكن»، و«نزلًا»: معناه تكرمة، ونصبه على المصدر المؤكد، وقرأ الحسن: «نزلًا» ساكنة الزاي، وقوله تعالى: ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾ يحتمل أن يريد: خير مما هوّلاء فيه من التقلب والتنعم، ويحتمل أن يريد: خير مما هم فيه في الدنيا، وإلى هذا ذهب ابن مسعود فإنه قال: ما من مؤمن ولا كافر إلا والموت خير له، أما الكافر فلثلاً يزداد إثماً، وأما المؤمن فلأن ما عند الله خير للأبرار.

قال أبو محمد: وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فقال القاضي ابن الطيب: هذا هو بالإضافة إلى ما يصير إليه كل واحد منهما في الآخرة، فالدنيا على المؤمن المنعم سجن بالإضافة إلى الجنة، والدنيا للكافر الفقير المضيق عليه في حاله وصحته جنة بالإضافة إلى جهنم، وقيل: المعنى أنها سجن المؤمن لأنها موضع تبعه في المطاعات وصومه وقيامه، فهو فيها كالمعنت المنكل، ويتنظر الثواب في الأخرى التي هي جنته، والدنيا جنة الكافر، لأنها موضع ثوابه على ما

عسى أن يعمل من خير، وليس ينتظر في الآخرة ثواباً، فهذه جنته، وهذا القول عندي كالتفسير والشرح للأول.

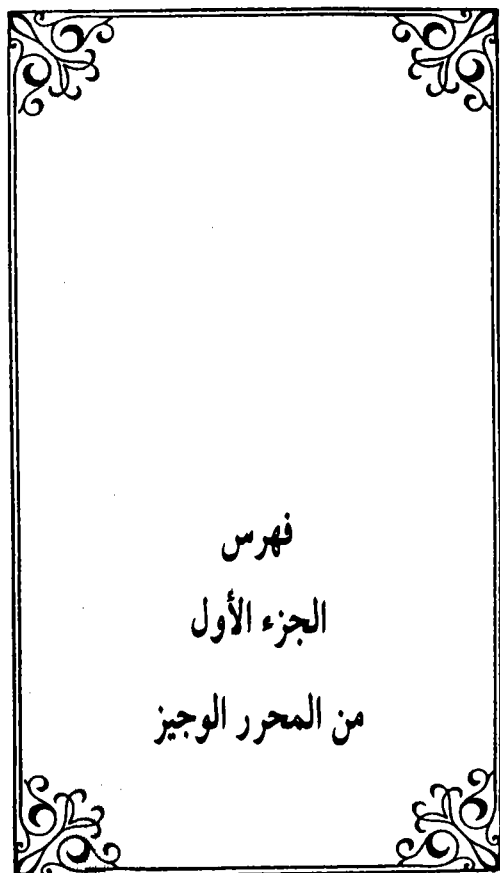
قوله تعالى:

وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

اختلف المتأولون فيمن عنى بهذه الآية، فقال جابر بن عبد الله وابن جريج وقتادة وغيرهم: نزلت بسبب أصحمة النجاشي سلطان الحبشة، وذلك أنه كان مؤمناً بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم، فلما مات عرف بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك اليوم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: اخرجوا فصلوا على أخ لكم، فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس، فكبر أربعاً، وفي بعض الحديث: أنه كشف لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن نعشه في الساعة التي قرب منها للدفن، فكان يراه من موضعه بالمدينة، فلما صلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم قال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلي على علج نصراني لم يره قط، فنزلت هذه الآية، وكان أصحمة النجاشي نصرانياً، وأصحمة تفسيره بالعربية عطية، قاله سفيان بن عيينة وغيره، وروي أن المنافقين قالوا بعد ذلك: فإنه لم يصل القبلة فنزلت ﴿والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ [البقرة: ١١٥] وقال قوم: نزلت في عبد الله بن سلام، وقال ابن زيد ومجاهد: نزلت في جميع من آمن من أهل الكتاب، و﴿خاشعين﴾ حال من الضمير في ﴿يؤمن﴾، ورد ﴿خاشعين﴾ على المعنى في ﴿من﴾ لأنه جمع لا على لفظ ﴿من﴾ لأنه أفراد، وقوله تعالى: ﴿لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً﴾ مدح لهم وذم لسائر كفار أهل الكتاب لتبديلهم وإيثارهم كسب الدنيا الذي هو ثمن قليل على آخرتهم وعلى آيات الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿إن الله سريع الحساب﴾ قيل معناه: سريع إتيان بيوم القيامة، وهو يوم الحساب، فالحساب إذاً سريع إذ كل آت قريب، وقال قوم: ﴿سريع الحساب﴾ أي إحصاء أعمال العباد وأجورهم وآثامهم، إذ ذلك كله في عمله لا يحتاج فيه إلى عد وروية ونظر كما يحتاج البشر.

ثم ختم الله تعالى السورة بهذه الوصاة التي جمعت الظهور في الدنيا على الأعداء، والفوز بنعيم الآخرة، فحض على الصبر على الطاعات وعن الشهوات، وأمر بالمصابرة فليل: معناه مصابرة الأعداء، قاله زيد بن أسلم، وقيل معناه: مصابرة وعد الله في النصر، قاله محمد بن كعب القرظي: أي لا تسأموا وانتظروا الفرج، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: انتظار الفرج بالصبر عبادة، وكذلك اختلف المتأولون في معنى قوله ﴿ورابطوا﴾ فقال جمهور الأمة معناه: رابطوا أعداءكم الخيل، أي ارتبطوها كما

يرتبطها أعداؤكم، ومنه قوله عز وجل: ﴿ومن رباط الخيل﴾ [الأنفال: ٨]، وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة، وقد كتب إليه يذكر جموع الروم، فكتب إليه عمر: أما بعد، فإنه مهما نزل بعبد مؤمن شدة، جعل الله بعدها فرجاً، ولن يغلب عسر يسرين، وأن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا﴾ الآية، وقد قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: هذه الآية هي في انتظار الصلاة بعد الصلاة، ولم يكن في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزو يربط فيه، واحتج بحديث علي بن أبي طالب وجابر بن عبد الله وأبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ألا أدلكم على ما يحط الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط، والقول الصحيح هو أن الرباط هو الملازمة في سبيل الله أصلها من ربط الخيل، ثم سمي كل ملازم لثغر من ثغور الإسلام مرابطاً، فارساً كان أو راجلاً، واللفظة مأخوذة من الربط، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: فذلك الرباط إنما هو تشبيه بالرباط في سبيل الله، إذ انتظار الصلاة إنما هو سبيل من السبل المنجية، والرباط اللغوي هو الأول، وهذا كقوله: ليس الشديد بالصرعة، كقوله: ليس المسكين بهذا الطواف إلى غير ذلك من الأمثلة، والمرباط في سبيل الله عند الفقهاء: هو الذي يشخص إلى ثغر من الثغور ليرابط فيه مدة ما، قاله ابن المواز ورواه، فأما سكان الثغور دائماً بأهلهم الذين يعتمرون ويكتسبون هنالك، فهم وإن كانوا حماة فليسوا بمرباطين، وقوله: ﴿لعلكم تفلحون﴾ ترج في حق البشر.



فهرس المحتويات

٨٣	 الآية: ٢	٣	 مقدمة المحرر الوجيز
٨٤	 الآية: ٣	٢٦	 الترجمة
٨٥	 الأيتان: ٤، ٥	٢٨	 مصنفاته
٨٦	 الأيتان: ٦، ٧	٣٠	 صور المخطوط
٨٩	 الأيتان: ٨، ٩	٣٣	 مقدمة
٩٢	 الايات: ١٠ - ١٢		باب ما ورد عن النبي وعن الصحابة، وعن
٩٤	 الأيتان: ١٣، ١٤	٣٦	 نبهاء العلماء في فضل القرآن المجيد
٩٧	 الأيتان: ١٥، ١٦	٤٠	 باب في فضل تفسير القرآن
٩٨	 الأيتان: ١٧، ١٨	٤١	 باب ما قيل في الكلام في تفسير القرآن
١٠١	 الأيتان: ١٩، ٢٠		باب معنى قول النبي ﷺ إن هذا القرآن أنزل على
١٠٤	 الأيتان: ٢١، ٢٢	٤٣	 سبعة أحرف فاقروا ما تيسر منه
١٠٦	 الأيتان: ٢٣، ٢٤	٤٩	 باب ذكر جمع القرآن
١٠٨	 الآية: ٢٥		باب في ذكر الألفاظ التي في كتاب الله
١١٠	 الآية: ٢٦	٥١	 وللغات العجم بها تعلق
١١٢	 الآية: ٢٧ - ٢٩	٥٢	 نبذة مما قال العلماء في إعجاز القرآن
١١٦	 الآية: ٣٠ - ٣٢		باب في الألفاظ التي يقتضي الإيجاز استعمالها
١٢٢	 الأيتان: ٣٣، ٣٤	٥٤	 في تفسير كتاب الله تعالى
١٢٦	 الأيتان: ٣٥، ٣٦		باب في تفسير أسماء القرآن
١٣٠	 الآيات: ٣٧ - ٣٩	٥٦	 وذكر السورة والآية
١٣٢	 الآيات: ٤٠ - ٤١	٥٨	 باب القول في الاستعاذة
١٣٥	 الآيات: ٤٢ - ٤٦	٦٠	 لقول في تفسير بسم الله الرحمن الرحمن
١٣٨	 الآيات: ٤٧ - ٤٩		تفسير سورة الفاتحة
١٤١	 الآيات: ٥٠ - ٥٣		لايات: ١ - ٧
١٤٥	 الأيتان: ٥٤، ٥٥	٦٥	 لقول في أمين
١٤٨	 الآيات: ٥٦ - ٥٨	٧٩	 تفسير سورة البقرة
١٥١	 الأيتان: ٥٩، ٦٠		لاية: ١
١٥٢	 الآية: ٦١	٨١	

٢٣١	 الآيات : ١٦٤ - ١٦١	١٥٦	 الآيات : ٦٤ - ٦٢
٢٣٤	 الآيات : ١٦٧ - ١٦٥	١٥٩	 الآيات : ٦٧ - ٦٥
٢٣٦	 الآيات : ١٧١ - ١٦٨	١٦٢	 الآيات : ٧٠ - ٦٨
٢٣٩	 الآيات : ١٧٤ - ١٧٢	١٦٣	 الآيات : ٧٣ - ٧١
٢٤١	 الآيات : ١٧٧ - ١٧٥	١٦٥	 الآيتان : ٧٥ ، ٧٤
٢٤٤	 الآيات : ١٨٠ - ١٧٨	١٦٨	 الآيات : ٧٨ - ٧٦
٢٤٨	 الآيات : ١٨٤ - ١٨١	١٧٠	 الآيات : ٨٢ - ٧٩
٢٥٣	 الآيتان : ١٨٦ ، ١٨٥	١٧١	 الآيتان : ٨٤ ، ٨٣
٢٥٦	 الآية : ١٨٧	١٧٤	 الآية : ٨٥
٢٦٠	 الآيات : ١٩٠ - ١٨٨	١٧٦	 الآيات : ٨٨ - ٨٦
٢٦٢	 الآيات : ١٩٤ - ١٩١	١٧٧	 الآيات : ٩١ - ٨٩
٢٦٤	 الآيتان : ١٩٦ ، ١٩٥	١٨٠	 الآيات : ٩٥ - ٩٢
٢٦٩	 الآيات : ١٩٨ - ١٩٦	١٨٢	 الآيات : ٩٩ - ٩٦
٢٧٥	 الآيات : ٢٠٣ - ١٩٩	١٨٤	 الآيات : ١٠٢ - ١٠٠
٢٧٨	 الآيات : ٢٠٨ - ٢٠٤	١٨٨	 الآيات : ١٠٤ - ١٠٢
٢٨٣	 الآيات : ٢١٢ - ٢٠٩	١٩٠	 الآيتان : ١٠٦ ، ١٠٥
٢٨٥	 الآيتان : ٢١٤ ، ٢١٣	١٩٤	 الآيات : ١٠٩ - ١٠٧
٢٨٨	 الآيات : ٢١٧ - ٢١٥	١٩٧	 الآيات : ١١٢ - ١١٠
٢٩٠	 الآيات : ٢٢٠ - ٢١٧	١٩٨	 الآيات : ١١٥ - ١١٣
٢٩٥	 الآيتان : ٢٢١ ، ٢٢٠	٢٠١	 الآيات : ١١٨ - ١١٦
٢٩٧	 الآيات : ٢٢٤ - ٢٢٢	٢٠٣	 الآيات : ١٢١ - ١١٩
٣٠١	 الآيات : ٢٢٧ - ٢٢٥	٢٠٥	 الآيات : ١٢٤ - ١٢٢
٣٠٤	 الآية : ٢٢٨	٢٠٧	 الآيتان : ١٢٦ ، ١٢٥
٣٠٦	 الآية : ٢٢٩	٢١٠	 الآيات : ١٢٩ - ١٢٧
٣٠٨	 الآيتان : ٢٣١ ، ٢٣٠	٢١٢	 الآيات : ١٣٢ - ١٣٠
٣٠٩	 الآيتان : ٢٣٢ ، ٢٣١	٢١٣	 الآيات : ١٣٥ - ١٣٣
٣١٢ ، ٣١٠	 الآية : ٢٣٣	٢١٥	 الآيات : ١٣٨ - ١٣٦
٣١٤ ، ٣١٣	 الآية : ٢٣٤	٢١٦	 الآيات : ١٤١ - ١٣٩
٣١٧ ، ٣١٥	 الآية : ٢٣٥	٢١٧	 الآيتان : ١٤٣ ، ١٤٢
٣١٨	 الآية : ٢٣٦	٢٢١	 الآيتان : ١٤٥ ، ١٤٤
٣٢٠	 الآية : ٢٣٧	٢٢٣	 الآيات : ١٤٩ - ١٤٦
٣٢٢	 الآية : ٢٣٨	٢٢٥	 الآيتان : ١٥١ ، ١٥٠
٣٢٤	 الآية : ٢٣٩	٢٢٦	 الآيات : ١٥٧ - ١٥٢
٣٢٥	 الآية : ٢٤٠	٢٢٨	 الآيات : ١٦٠ - ١٥٨

٣٩١	 الآية : ٢٨٥	٣٢٦	 الآية : ٢٤٢ ، ٢٤١
٣٩٢	 الآية : ٢٨٦	٣٢٧	 الآية : ٢٤٣
	تفسير سورة آل عمران	٣٢٨	 الآية : ٢٤٤ ، ٢٤٥
٣٩٦	 الآيات : ١ - ٤	٣٣١ ، ٣٣٠	 الآية : ٢٤٦
٣٩٩	 الآيات : ٥ - ٧	٣٣١	 الآية : ٢٤٧
٤٠٢	 الآية : ٧	٣٣٢	 الآية : ٢٤٨ ، ٢٤٧
٤٠٤	 الآية : ٨ ، ٩	٣٣٣	 الآية : ٢٤٨
٤٠٥	 الآية : ١٠ - ١١	٣٣٥ ، ٣٣٤	 الآية : ٢٤٩
٤٠٦	 الآية : ١٢ ، ١٣	٣٣٦	 الآية : ٢٥٠ ، ٢٥١
٤٠٨	 الآية : ١٤	٣٣٧	 الآية : ٢٥١ ، ٢٥٢
٤١٠	 الآية : ١٥	٣٣٩ ، ٣٣٨	 الآية : ٢٥٣
٤١١	 الآية : ١٦ ، ١٧	٣٣٩	 الآية : ٢٥٤
٤١٢	 الآية : ١٨	٣٤١ ، ٣٤٠	 الآية : ٢٥٥
٤١٣	 الآية : ١٩	٣٤٢	 الآية : ٢٥٦
٤١٣	 الآية : ٢٠	٣٤٤	 الآية : ٢٥٧
٤١٤	 الآية : ٢١ ، ٢٢	٣٤٥	 الآية : ٢٥٨
٤١٥	 الآية : ٢٣ - ٢٥	٣٤٩ ، ٣٤٧	 الآية : ٢٥٩
٤١٦	 الآية : ٢٦ ، ٢٧	٣٥٢	 الآية : ٢٦٠
٤١٩	 الآية : ٢٨	٣٥٥	 الآية : ٢٦١ ، ٢٦٢
٤٢٠	 الآية : ٢٩ ، ٣٠	٣٥٧	 الآية : ٢٦٣ ، ٢٦٤
٤٢١	 الآية : ٣١ ، ٣٢	٣٥٨	 الآية : ٢٦٥
٤٢٢	 الآية : ٣٣ - ٣٥	٣٦٠	 الآية : ٢٦٦
٤٢٤	 الآية : ٣٦ ، ٣٧	٣٦١	 الآية : ٢٦٧
٤٢٧	 الآية : ٣٨ ، ٣٩	٣٦٣	 الآية : ٢٦٨ ، ٢٦٩
٤٣١	 الآية : ٤٠	٣٦٥	 الآية : ٢٧٠ ، ٢٧١
٤٣١	 الآية : ٤١	٣٦٧	 الآية : ٢٧٢
٤٣٣	 الآية : ٤٢ ، ٤٣	٣٦٨	 الآية : ٢٧٣
٤٣٤	 الآية : ٤٤ ، ٤٥	٣٧٠	 الآية : ٢٧٤ ، ٢٧٥
٤٣٦	 الآية : ٤٦ ، ٤٧	٣٧٣	 الآية : ٢٧٦ ، ٢٧٧
٤٣٧	 الآية : ٤٨ ، ٤٩	٣٧٤	 الآية : ٢٧٨ ، ٢٧٩
٤٣٩	 الآية : ٤٩	٣٧٦	 الآية : ٢٨٠ ، ٢٨١
٤٤١	 الآية : ٥٠ ، ٥١	٣٨٣ ، ٣٨٢ ، ٣٧٩ ، ٣٧٨	 الآية : ٢٨٢
٤٤٢	 الآية : ٥٢ - ٥٤	٣٨٥	 الآية : ٢٨٣
		٣٨٩	 الآية : ٢٨٤

٥٠٧		الآيتان : ١٣٤ ، ١٣٣	٤٤٤		الآيات : ٥٥ - ٥٧
٥١٠		الآيتان : ١٣٦ ، ١٣٥	٤٤٥		الآيات : ٥٨ - ٦١
٥١١		الآيات : ١٣٧ - ١٤٠	٤٤٨		الآيات : ٦٢ - ٦٤
٥١٤		الآيتان : ١٤٢ ، ١٤١	٤٤٩		الآيتان : ٦٥ ، ٦٦
٥١٥		الآيتان : ١٤٣ ، ١٤٢	٤٥١		الآيتان : ٦٧ ، ٦٨
٥١٦		الآيتان : ١٤٤ ، ١٤٥	٤٥٢		الآيات : ٦٩ - ٧١
٥١٨		الآيتان : ١٤٦ ، ١٤٥	٤٥٣		الآيتان : ٧٢ ، ٧٣
٥٢١		الآيتان : ١٤٧ ، ١٤٨	٤٥٧		الآيات : ٧٣ - ٧٥
٥٢٢		الآيات : ١٤٩ - ١٥١	٤٥٨		الآيات : ٧٥ - ٧٧
٥٢٤		الآية : ١٥٢	٤٦٠		الآيتان : ٧٨ ، ٧٩
٥٢٥		الآيتان : ١٥٣ ، ١٥٤	٤٦٢		الآيات : ٧٩ - ٨١
٥٢٨		الآية : ١٥٤	٤٦٦		الآيات : ٨١ - ٨٣
٥٢٩		الآية : ١٥٥	٤٦٧		الآيتان : ٨٤ ، ٨٥
٥٣٠		الآية : ١٥٦	٤٦٧		الآيات : ٨٦ - ٨٩
٥٣٢		الآيات : ١٥٧ - ١٥٩	٤٦٩		الآيتان : ٩٠ ، ٩١
٥٣٣		الآيتان : ١٥٩ ، ١٦٠	٤٧١		الآيتان : ٩٢ ، ٩٣
٥٣٤		الآيات : ١٦١ - ١٦٣	٤٧٣		الآيات : ٩٤ - ٩٦
٥٣٧		الآيتان : ١٦٤ ، ١٦٥	٤٧٥		الآية : ٩٧
٥٣٨		الآيتان : ١٦٦ ، ١٦٧	٤٨٠		الآيتان : ٩٨ ، ٩٩
٥٣٩		الآيات : ١٦٨ - ١٧٠	٤٨١		الآيتان : ١٠٠ ، ١٠١
٥٤١		الآيات : ١٧٠ - ١٧٢	٤٨٢		الآيتان : ١٠٢ ، ١٠٣
٥٤٢		الآيتان : ١٧٣ ، ١٧٤	٤٨٤		الآية : ١٠٣
٥٤٣		الآيات : ١٧٥ - ١٧٧	٤٨٥		الآيتان : ١٠٤ ، ١٠٥
٥٤٥		الآيتان : ١٧٨ ، ١٧٩	٤٨٧		الآيتان : ١٠٦ ، ١٠٧
٥٤٦		الآيتان : ١٨٠ ، ١٨١	٤٨٨		الآيات : ١٠٨ - ١١٠
٥٤٨		الآيات : ١٨١ - ١٨٣	٤٩٠		الآيتان : ١١١ ، ١١٢
٥٤٩		الآيتان : ١٨٣ ، ١٨٤	٤٩٢		الآيتان : ١١٣ ، ١١٤
٥٥٠		الآية : ١٨٥	٤٩٤		الآيات : ١١٥ - ١١٧
٥٥٠		الآيتان : ١٨٦ ، ١٨٧	٤٩٦		الآية : ١١٨
٥٥٢		الآيات : ١٨٨ - ١٩٠	٤٩٧		الآية : ١١٩
٥٥٤		الآيتان : ١٩١ ، ١٩٢	٤٩٨		الآية : ١٢٠
٥٥٦		الآيتان : ١٩٣ ، ١٩٤	٤٩٩		الآيتان : ١٢١ ، ١٢٢
٥٥٦		الآية : ١٩٥	٥٠٢		الآيات : ١٢٣ - ١٢٥
٥٥٨		الآيات : ١٩٦ - ١٩٨	٥٠٥		الآيات : ١٢٦ - ١٢٩
٥٥٩		الآيتان : ١٩٩ - ٢٠٠	٥٠٦		الآيات : ١٣٠ - ١٣٢

المحذر الوجيز

في

تفسير الكتاب العزيز

للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي

المتوفى سنة ٥٤٦ هـ

تحقيق

عبد السلام عبد الشافي محمد

طبعة محققة عن نسخة آيا صوفيا - استانبول ، رقم (١١٩)
المحفظة صورتها في مكتبة مرعشي نجفي - قم

المجلد الخامس

منشورات

محمد علي بيضون

لشركت السنة والجماعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان



جميع الحقوق محفوظة

Copyright ©
All rights reserved
Tous droits réservés

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة
لدار الكتب العلمية - بيروت - لبنان
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة
تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على
أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو
برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة
الناشر خطياً.

Exclusive Rights by

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be
translated, reproduced, distributed in any
form or by any means, or stored in a data
base or retrieval system, without the
prior written permission of the publisher.

Droits Exclusifs à

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beyrouth - Liban

Il est interdit à toute personne individuelle
ou morale d'éditer, de traduire, de
photocopier, d'enregistrer sur cassette,
disquette, C.D, ordinateur toute
production écrite, entière ou partielle,
sans l'autorisation signée de l'éditeur.

الطبعة الأولى

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
هاتف وفاكس : ٣٦١١٣٥ - ٣٦١٣٩٨ - ٣٧٨٥٤٢ (٩٦١ ١)
صندوق بريد : ٩٤٢٤ - ١١ - بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Beirut - Lebanon

Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Beyrouth - Liban

Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ère Étage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3211-3



9782745132116

<http://www.al-ilmiyah.com/>

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ فَصَّلَاتٍ

هذه السورة مكية بإجماع من المفسرين، ويروى أن عتبة بن ربيعة ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبين عليه أمر مخالفته لقومه وليحتج عليه فيما بينه وبينه وليبعد ما جاء به، فلما تكلم عتبة، قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿حم﴾ ومروى في صدر هذه السورة حتى انتهى إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادَ وَثُمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] فأرعد الشيخ وقف شعره وأمسك على فم رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده وناشده بالرحم أن يمسك، وقال حين فارقه: والله لقد سمعت شيئاً ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، ولقد ظننت أن صاعقة العذاب على رأسي.

قوله عز وجل:

حَمَّ ۝ (١) تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيءَاذَانَا وَقُرْءَانٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ جَبَابٌ فَأَعْمَلْنَا مَا نَعْمَلُونَ ۝ (٥) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدًا فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۚ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝ (٧)

تقدم القول في أوائل السور مما يختص به الحواميم، وأمال الأعمش ﴿حم﴾ [فصلت: ١]، الشورى: ١، الدخان: ١، الزخرف: ١، الجاثية: ١، الأحقاف: ١ في كلها. و: ﴿تنزيل﴾ خبر الابتداء، إما على أن يقدر الابتداء، إما على أن يقدر الابتداء في: ﴿حم﴾ على ما تقتضيه بعض الأقوال إذا جعلت اسماً للسورة أو للقرآن أو إشارة إلى حروف المعجم، وإما على أن يكون التقدير: هذا تنزيل، ويجوز أن يكون ﴿تنزيل﴾ ابتداء وخبره في قوله: ﴿كتاب فصلت﴾ على معنى ذو تنزيل. و: ﴿الرحمن الرحيم﴾ صفتا رجاء ورحمة لله تعالى. و: ﴿فصلت﴾ معناه بينت آياته، أي فسرت معانيه ففصل بين حلاله وحرامه وزجره وأمره ووعدته ووعيدته، وقيل ﴿فصلت﴾ في التنزيل، أي نزل نجوماً، لم ينزل مرة واحدة، وقيل ﴿فصلت﴾ بالمواقف وأنواع أواخر الآي، ولم يكن يرجع إلى قافية ونحوها كالشعر والسجع. و: ﴿قرآنًا﴾ نصب على الحال عند قوم، وهي مؤكدة، لأن هذه الحال ليست مما تنتقل. وقالت فرقة: هو

نصب على المصدر، وقالت فرقة: ﴿قرآنًا﴾ توطئة للحال. و: ﴿عريبًا﴾ حال. وقالت فرقة: ﴿قرآنًا﴾ نصب على المدح وهو قول ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿لقوم يعلمون﴾ قالت فرقة: معناه يعلمون الأشياء ويعقلون الدلائل وينظرون على طريق نظر، فكان القرآن فصلت آياته لهؤلاء، إذ هم أهل الانتفاع بها، فخصوا بالذكر تشريفًا، ومن لم ينتفع بالتفصيل فكأنه لم يفصل له. وقالت فرقة: ﴿يعلمون﴾ متعلق في المعنى بقوله: ﴿عريبًا﴾ أي جعلناه بكلام العرب لقوم يعلمون ألفاظه ويتحققون أنها لم يخرج شيء منها عن كلام العرب، وكان الآية رادة على من زعم أن في كتاب الله ما ليس في كلام العرب، فالعلم على هذا التأويل أخص من العلم على التأويل الأول، والأول أشرف معنى، وبين أنه ليس في القرآن إلا ما هو من كلام العرب إما من أصل لغتها وإما عربته من لغة غيرها ثم ذكر في القرآن وهو معرب مستعمل.

وقوله: ﴿بشيرًا ونذيرًا﴾ نعت للقرآن، أي يبشر من آمن بالجنة، وينذر من كفر بالنار. والضمير في: ﴿أكثرهم﴾ عائد على القوم المذكورين.

وقوله: ﴿فهم لا يسمعون﴾ نفى لسمعهم النافع الذي يعتد به سمعًا، ثم حكى عنهم مقالتهم التي باعدوا فيها كل المباحدة وأرادوا أن يؤسوه من قبولهم دينهم وهي ﴿قلوبنا في أكنة﴾ جمع كنان وهو باب فعال وأفعله. والكنان: ما يجمع الشيء ويضمه ويحول بينه وبين غيره، ومنه: الكن ومنه: كنانة النبل، وبها فسر مجاهد هذه الآية. و«من» في قوله: ﴿مما﴾ لابتداء الغاية وكذلك هي في قوله: ﴿ومن بيننا﴾ مؤكدة ولابتداء الغاية. والوقر: الثقل في الأذن الذي يمنع السمع.

وقرأ ابن مصرف: «وقر» بكسر الواو.

والحجاب: الذي أشاروا إليه: هو مخالفته إياهم ودعوته إلى الله دون أصنامهم، أي هذا أمر يحجبنا عنك، وهذه مقالة تحتل أن تكون معها قرينة الجد في المحاورة وتتضمن المباحدة، ويحتمل أن تكون معها قرينة الهزل والاستخفاف، وكذلك قوله: ﴿فاعمل إننا عاملون﴾ يحتمل أن يكون القول تهديدًا، ويحتمل أن يكون متاركة محضة.

وقرأ الجمهور: «قل إنما» على الأمر لمحمد صلى الله عليه وسلم. وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش: «قل إنما» على الماضي والخبر عنه، وهذا هو الصدع بالتوحيد والرسالة.

وقوله: ﴿قل إنما أنا بشر﴾ قال الحسن: علمه الله تعالى التواضع، و«إن» في قوله: ﴿إنما﴾ رفع على المفعول الذي لم يسم فاعله.

وقوله: ﴿فاستقيموا﴾ أي على محجة الهدى وطريق الشرع والتوحيد، وهذا المعنى مضمن قوله: ﴿إليه﴾. والويل: الحزن والشور، وفسره الطبري وغيره في هذه الآية بقبح أهل النار وما يسيل منهم.

وقوله تعالى: ﴿الذين لا يؤتون الزكاة﴾ قال الحسن وقتادة وغيره: هي زكاة المال. وروي: الزكاة قنطرة الإسلام، من قطعها نجا، ومن جانبها هلك. واحتج لهذا التأويل بقول أبي بكر في الزكاة وقت

الردة. وقال ابن عباس والجمهور: ﴿الزكاة﴾ في هذه الآية: لا إله إلا الله التوحيد كما قال موسى لفرعون: ﴿هل لك إلى أن تزكى﴾ [النازعات: ١٨] ويرجع هذا التأويل أن الآية من أول المكي، وزكاة المال إنما نزلت بالمدينة، وإنما هذه زكاة القلب والبدن، أي تطهيره من الشرك والمعاصي، وقاله مجاهد والربيع. وقال الضحاك ومقاتل: معنى ﴿الزكاة﴾ هنا: النفقة في الطاعة، وأعاد الضمير في قوله: ﴿هم كفارون﴾ تأكيداً.

قوله عز وجل:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ قُلْ أَيْتَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَىٰ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيُنْذِرَ ﴿١٠﴾

ذكر عز وجل حالة الذين آمنوا معادلاً بذلك حالة الكافرين المذكورين لبيان الفرق.

وقوله: ﴿غير ممنون﴾ قال ابن عباس معناه: غير منقوص. وقالت فرقة معناه: غير مقطوع، يقال مننت الحبل: إذا قطعته. وقال مجاهد معناه: غير محسوب، لأن كل محسوب محصور، فهو معد لأن يمن به، فيظهر في الآية أنه وصفه بعدم المن والأذى من حيث هو من جهة الله تعالى، فهو شريف لا من فيه، وأعطيات البشر هي التي يدخلها المن. وقال السدي: نزلت هذه الآية من المرضى والزمنى، إذا عجزوا عن إكمال الطاعات كتب لهم من الأجر كأصح ما كانوا يعملون، ثم أمر تعالى نبيه أن يوقفهم موبخاً على كفرهم بخالق الأرض والسموات ومخترعها، ووصف صورة خلقها ومدته، والحكمة في خلقه هذه المخلوقات في مدة ممتدة مع قدرة الله على إيجادها في حين واحد. وهي إظهار القدرة في ذلك حسب شرف الإيجاد أولاً أولاً. قال قوم: وليعلم عباده التأني في الأمور والمهل، وقد تقدم القول غير مرة في نظير قوله: ﴿أننكم﴾.

واختلف رواية الحديث في اليوم الذي ابتدأ الله تعالى فيه خلق الأرض، فروي عن ابن عباس وغيره: أن أول يوم هو الأحد، وأن الله تعالى خلق فيه وفي الاثنين: الأرض، ثم خلق الجبال ونحوها يوم الثلاثاء. قال ابن عباس فمن هنا قيل: هو يوم ثقيل. ثم خلق الشجر والثمار والأنهار يوم الأربعاء، ومن هنا قيل: هو يوم راحة وتفكر في هذه التي خلقت فيه. ثم خلق السموات وما فيها يوم الخميس ويوم الجمعة، وفي آخر ساعة من يوم الجمعة: خلق آدم. وقال السدي: وسمي يوم الجمعة لاجتماع المخلوقات فيه وتكاملها، فهذه رواية فيها أحاديث مشهورة. ولما لم يخلق تعالى في يوم السبت شيئاً امتنع فيه بنو إسرائيل عن الشغل. ووقع في كتاب مسلم بن الحجاج: أن أول يوم خلق الله فيه التربة يوم السبت، ثم رتب المخلوقات على ستة أيام، وجعل الجمعة عارياً من المخلوقات على ستة أيام إلا من آدم وحده. والظاهر من القصص في طينة آدم أن الجمعة التي خلق فيها آدم قد تقدمتها أيام وجمع كثيرة، وأن هذه الأيام التي خلق الله فيها هذه

المخلوقات هي أول الأيام، لأن بإيجاد الأرض والسماء والشمس وجد اليوم، وقد يحتمل أن يجعل تعالى قوله: ﴿يَوْمِينَ﴾ على التقدير، وإن لم تكن الشمس خلقت بعد، وكان تفصيل الوقت يعطي أنها الأحد ويوم الاثنين كما ذكر. والأنداد: الأشباه والأمثال، وهذه إشارة إلى كل ما عبد من الملائكة والأصنام وغير ذلك. قال السدي: أكفاء من الرجال تطيعونهم. والرواسي: هي الجبال الثابتة، رسا الجبل إذا ثبت.

وقوله تعالى: ﴿وَبَارِكْ فِيهَا﴾ أي جعلها منبئة للطيبات والأطعمة، وجعلها طهوراً إلى غير ذلك من وجوه البركة. وفي قراءة ابن مسعود: «وقسم فيها أقواتها». وفي مصحف عثمان رضي الله عنه: «وقدر» واختلف الناس في معنى قوله: ﴿أَقْوَاتُهَا﴾ فقال السدي: هي أقوات البشر وأرزاقهم، وأضافها إلى الأرض من حيث هي فيها وعنهما. وقال قتادة: هي أقوات الأرض من الجبال والأنهار والأشجار والصخور والمعادن والأشياء التي بها قوام الأرض ومصلحتها. وروى ابن عباس رضي الله عنه في هذا المعنى حديثاً مرفوعاً: فشبهها بالقوت الذي به قوام الحيوان. وقال مجاهد: أراد ﴿أَقْوَاتُهَا﴾ من المطر والمياه. وقال عكرمة والضحاك ومجاهد أيضاً: أراد بقوله: ﴿أَقْوَاتُهَا﴾ خصائصها التي قسمها في البلاد، فجعل في اليمن أشياء ليست في غيره، وكذلك في العراق والشام والأندلس وغيرها من الأقطار ليجتاح بعضها إلى بعض ويتقوت من هذه في هذه الملابس والمطعوم، وهذا نحو القول الأول، إلا أنه بوجه أعم منه.

وقوله تعالى: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ يريد باليومين الأولين، وهذا كما تقول: بنيت جدارداري في يوم وأكملت جميعها في يومين، أي بالأول.

وقرأ الحسن البصري وأبو جعفر وجمهور الناس: «سواء» بالنصب على الحال، أي سواء هي وما انقضى فيها. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: «سواء» بالرفع، أي هي سواء. وقرأ الحسن وعيسى وابن أبي إسحاق وعمر بن عبید: «سواء» بالخفض على نعت الأيام.

واختلف المتأولون في معنى: ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾ فقال قتادة والسدي معناه: سواء لمن سأل عن الأمر واستفهم عن حقيقة وقوعه وأراد العبرة فيه فإنه يجده كما قال عز وجل. وقال ابن زيد وجماعة معناه: مستو مهياً أمر هذه المخلوقات ونفعها للمحتاجين إليها من البشر، فعبر عنهم بـ «السائِلِينَ» بمعنى الطالبين، لأنهم من شأنهم ولا بد طلب ما ينتفعون به، فهم في حكم من سأل هذه الأشياء إذ هم أهل حاجة إليها، ولفظة «سواء» تجري مجرى عدل وزور في أن ترد على المفرد والمذكر والمؤنث.

قوله عز وجل:

ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

﴿استوى إلى السماء﴾ معناه بقدرته واختراعه أي إلى خلق السماء وإيجادها.

وقوله تعالى: ﴿وَهِيَ دَخَانٌ﴾ روي أنها كانت جسماً رخواً كالدخان أو البخار، وروي أنه مما أمره الله أن يصعد من الماء، وهنا لفظ متروك ويدل عليه الظاهر، وتقديره: فأوجدها وأتقنها وأكمل أمرها، وحينئذ قيل لها وللأرض ﴿اثْنِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾.

وقرأ الجمهور: «إثنيّا» من أتى يأتي «قالتا أثنيّا» على وزن فعلنا، وذلك بمعنى إثنيّا وإرادتي فيكما، وقرأ ابن عباس وابن جبير ومجاهد: «آثنيّا» من أتى يؤتى «قالتا آثنيّا» على وزن أفعلنا، وذلك بمعنى أعطيا من أنفسكما من الطاعة ما أردته منكما، والإشارة بهذا كله إلى تسخيرهما وما قدره الله من أعمالهما.

وقوله: ﴿أَوْ كَرْهاً﴾ فيه محذوف ومقتضب، والتقدير: ﴿اثْنِيَا طَوْعاً﴾ وإلا أثنيّا ﴿كَرْهاً﴾. وقوله: ﴿قالتا﴾ أراد الفرقتين المذكورتين، وجعل السماوات سماء والأرضين أرضاً، ونحو هذا قول الشاعر: [الوافر]

ألم يحزنك أن جبال قومي وقومك قد تباينت انقطاعاً
جعلها فرقتين، وعبر عنها بـ ﴿اثنيّا﴾.

وقوله: ﴿طائعين﴾ لما كانت ممن يقول وهي حالة عقل جرى الضمير في ﴿طائعين﴾ ذلك المجرى، وهذا كقوله: ﴿رأيتهم لي ساجدين﴾ [يوسف: ٤] ونحوه.

واختلف الناس في هذه المقالة من السماء والأرض، فقالت فرقة: نطق حقيقه، وجعل الله تعالى لها حياة وإدراكاً يقتضي نطقها. وقالت فرقة: هذا مجاز، وإنما المعنى أنها ظهر منها من اختيار الطاعة والخضوع والتذلل ما هو بمنزلة القول ﴿أثنيّا طائعين﴾ والقول الأول أحسن، لأنه لا شيء يدفعه وإنما العبرة به أتم والقدرة فيه أظهر.

وقوله تعالى: ﴿ففضاهن﴾ معناه: صنعهن وأوجدهن، ومنه قول أبي ذؤيب: [الكامل]

وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو صنع السوابع تبع

وقوله تعالى: ﴿وأوحى في كل سماء أمرها﴾ قال مجاهد وقتادة: أوحى إلى سكانها وعمرتها من الملائكة وإليها هي في نفسها ما شاء تعالى من الأمور التي بها قوامها وصلاحتها. قال السدي وقتادة: ومن الأمور التي هي لغيرها مثل ما فيها من جبال البرد ونحوه، وأضاف الأمر إليها من حيث هو فيها، ثم أخبر تعالى أن الكواكب زين بها السماء الدنيا، وذلك ظاهر اللفظ وهو بحسب ما يقتضيه حسن البصر.

وقوله تعالى: ﴿وحفظاً﴾ منصوب بإضمار فعل، أي وحفظناها حفظاً.

وقوله: ﴿ذلك﴾ إشارة إلى جميع ما ذكر، أو أوجده، بقدرته وعزته، وأحكمه بعلمه.

قوله عز وجل:

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٢﴾ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ

وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾
فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ
هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾

المعنى: فإن أعرضت قريش والعرب الذين دعوتهم إلى الله عن هذه الآيات البينة، فأعلمهم بأنك تحذرهم أن يصيبهم من العذاب الذي أصاب الأمم التي كذبت كما تكذب هي الآن.

وقرأ جمهور الناس: «صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود» قرأ النخعي وأبو عبد الرحمن وابن محيصن «صعقة مثل صعقة»، فأما هذه القراءة الأخيرة فبينة المعنى، لأن الصعقة: الهلاك يكون معها في الأحيان قطعة نار، فشبهت هنا وقعة العذاب بها، لأن عاداً لم تعذب إلا بريح، وإنما هذا تشبيه واستعارة، وبالوقعة فسر هنا «الصاعقة»، قاله قتادة وغيره. وخص عاداً وثمود بالذكر لوقوف قريش على بلادها في اليمن وفي الحجر في طريق الشام.

وقوله: ﴿من بين أيديهم﴾ أي قد تقدموا في الزمن واتصلت نذارتهم إلى أعمار عاد وثمود، وبهذا الاتصال قامت الحجة.

وقوله: ﴿من خلفهم﴾ أي جاءهم رسول بعد اكتمال أعمارهم وبعد تقدم وجودهم في الزمن، فلذلك قال: ﴿ومن خلفهم﴾ وجاء من مجموع العبارة إقامة الحجة عليهم في أن الرسالة والنذارة عمتهم خبراً ومباشرة، ولا يتوجه أن يجعل ﴿ومن خلفهم﴾ عبارة عما أتى بعدهم في الزمن، لأن ذلك لا يلحقهم منه تقصير، وأما الطبري فقال: الضمير في قوله: ﴿ومن خلفهم﴾ عائد على الرسل، والضمير في قوله: ﴿من بين أيديهم﴾ على الأمم، وتابعه الثعلبي، وهذا غير قوي لأنه يفرق الضمائر ويشعب المعنى. و﴿أن﴾ في قوله: ﴿ألا تعبدوا﴾ نصب على إسقاط الخافض، التقدير: «بأن». و﴿تعبدوا﴾ مجزوم على النهي، ويتوجه أن يكون منصوباً على أن تكون ﴿لا﴾ نافية، وفيه بعد. وكان من تلك الأمم إنكار بعثة البشر واستدعاء الملائكة، وهذه أيضاً كانت من مقالات قريش.

وقوله: ﴿فإنما بما أرسلتم به﴾ ليس على جهة الإقرار بأنهم أرسلوا بشيء، وإنما معناه على زعمكم ودعواكم. ثم وصف حالة القوم، وأن عاداً طلبوا التكبر ووضعوا أنفسهم فيه بغير حق، بل بالكفر والمعاصي وغوتهم قوتهم وعظم أبدانهم والنعم فقالوا على جهة التقرير: ﴿من أشد منا قوة﴾ فعرض الله تعالى موضع النظر بقوله: ﴿أو لم يروا﴾ الآية، وهذا بين في العقل، فإن للشيء المخترع له المذهب متى شاء هو أقوى منه، وأخبر تعالى عنهم بجحودهم بآياته المنصوبة للنظر والمنزلة من عنده، إذ لفظ الآيات يعم ذلك كله في المعنى.

قوله عز وجل:

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدْرِقَهُمْ عَذَابَ الْخَزْيِ فِي الْيَوْمِ الَّذِي لَعَنَّا

الْآخِرَةَ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ
صَبْعَةُ الْعَذَابِ لَهْمُونَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَبَحَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿١٨﴾

روي في الحديث أن الله تعالى أمر خزنة الريح ففتحوا على عاد منها مقدار حلقة الخاتم، ولو فتحوا مقدار منخر الثور لهلكت الدنيا: وروي أن الريح كانت ترفع العير بأوقارها فتطيرها حتى تطرحها في البحر. وقال جابر بن عبد الله والتميمي: حبس عنهم المطر ثلاثة أعوام، وإذا أراد الله بقوم شراً حبس عنهم المطر وأرسل عليهم الريح.

واختلف الناس في الصرصر، فقال قتادة والسدي والضحاك: هو مأخوذ من الصر، وهو البرد، والمعنى: ريحاً باردة لها صوت. وقال مجاهد: صرصر: شديدة السموم. وقال الطبري وجماعة من المفسرين: هو من صر يصر إذا صوت صوتاً يشبه الصاد والراء، وكذلك يجيء صوت الريح في كثير من الأوقات بحسب ما تلقى.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والأعرج وعيسى والنخعي: بسكون الحاء وهو جمع نحس، يقال يوم نحس، فهو مصدر يوصف به أحياناً وعلى الصفة به جمع في هذه الآية، واحتج أبو عمرو لهذه القراءة بقوله: ﴿يوم نحس مستمر﴾ [القمر: ١٩]. وقال النخعي: ﴿نحسات﴾ وليست بـ «نحسات» بكسر. وقرأ الباقون وأبو جعفر وشيبة وأبو رجاء وقاتدة والجحدري والأعشى: «نحسات» بكسر الحاء، وهي جمع لنحس على وزن حذر، فهو صفة لليوم مأخوذ من النحس. وقال الطبري: نحس ونحس لغتان، وليس كذلك، بل اللغة الواحدة تجمعهما، أحدهما مصدر، والآخر من أمثلة اسم الفاعل، وأنشد الفراء: [البسيط]

أبلغ جذاماً ولخماً أن إخوتهم طياً وبهراء قوم نصرهم نحس

وقالت فرقة: إن «نحسات» بالسكون مخفف من «نحسات» بالكسر، والمعنى في هذه اللفظة مشاييم من النحس المعروف، قاله مجاهد وقاتدة والسدي: وقال الضحاك معناه: شديدة، أي شديدة البرد حتى كان البرد عذاباً لهم. قال أبو علي: وأنشد الأصمعي في النحس بمعنى البرد:

كأن سلافة عرضت بنحس يحيل شفيفها الماء الزلالا

وقال ابن عباس: ﴿نحسات﴾ معناه: متتابعات، وكانت آخر شوال من الأربعاء إلى الأربعاء وعذاب الخزي في الدنيا هو العذاب بسبب الكفر ومخالفة أمر الله، ولا خزي أعظم من هذا إلا ما في الآخرة من الخلود في النار.

وقرأ جمهور الناس: «ثمود» بغير حرف، وهذا على إرادة القبيلة. وقرأ يحيى بن وثاب والأعشى وبكر بن حبيب: «ثمود» بالتنوين والإجراء، وهذا على إرادة الحي، وبالصرف كان الأعشى يقرأ في جميع القرآن إلا في قوله: ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مَبْصُورَةً﴾ [الإسراء: ٥٩] لأنه في المصحف بغير ألف. وقرأ ابن أبي إسحاق والأعرج بخلاف، والأعشى وعاصم «ثمود» بالنصب، وهذا على إضمار فعل يدل عليه قوله:

﴿فهديناهم﴾، وتقديره عند سيبويه: مهما يكن من شيء فهدينا ثمود هديناهم، والرفع عنده أوجه، وروي عن ابن أبي إسحاق والأعمش: «ثموداً» منونة منصوبة، وروى الفضل عن عاصم الوجهين.

وقوله تعالى: ﴿فهديناهم﴾ معناه: بينّا لهم، قاله ابن عباس وقتادة وابن زيد، وليس الهدى هنا بمعنى الإرشاد، وهذا كما هي الآن شريعة الإسلام مبينة لليهود والنصارى المختلطين لنا ولكنهم يعرضون ويستغلون بالصد، فذلك استحباب العمى على الهدى.

وقوله تعالى: ﴿فاستحيوا﴾ عبارة عن تكسبهم في العمى، وإلا فهو بالاختراع لله تعالى، ويدل ذلك على أنها إشارة إلى تكسبهم قوله تعالى: ﴿بما كانوا يكسبون﴾.

وقوله تعالى: ﴿العذاب الهون﴾ وصف بالمصدر، والمعنى الذي معه هوان وإذلال، ثم قرن تعالى بذكرهم ذكر من آمن واتقى ونجاته ليبين الفرق.

قوله عز وجل:

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لَئِنْ لَمْ نَشْهَدْكُمْ عَيْنًا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿ويوم﴾ نصب بإضمار فعل تقديره: واذكر يوم.

وقرأ نافع وحده والأعرج وأهل المدينة: «نحشر» بالنون «أعداء» بالنصب، إلا أن الأعرج كسر الشين. وقرأ الباقون: «يُحْشَرُ» بالياء المرفوعة، «أعداء» رفعاً، وهي قراءة الأعمش والحسن وأبي رجاء وأبي جعفر وقتادة وعيسى وطلحة ونافع فيما روي عنه، وحجتها «يوزعون»، و: ﴿أعداء الله﴾ هم الكفار المخالفون لأمره.

و: ﴿يوزعون﴾ قال قتادة والسدي وأهل اللغة، معناه: يكف أولهم حبساً على آخرتهم، وفي حديث أبي قحافة يوم الفتح: ذلك الوازع. وقال الحسن البصري: لا بد للقاضي من وزعة. وقال أبو بكر: إني لا أقيّد من وزعة الله تعالى. و: ﴿حتى﴾ غاية لهذا الحشر المذكور، وهذا وصف حال من أحوالهم في بعض أوقات القيامة، وذلك عند وصولهم إلى جهنم فإن الله تعالى يستقرهم عند ذلك على أنفسهم ويسألون سؤالاً توبيخ عن كفرهم فينكرون ذلك ويحسبون أن لا شاهد عليهم، ويظنون السؤال سؤال استفهام واستخبار، فينطق الله تعالى جوارحهم بالشهادة عليهم، فروي عن النبي عليه السلام أن أول ما ينطق من الإنسان فخذة الأيسر ثم تنطق الجوارح، فيقول الكافر: تباً لك أيها الأعضاء، فعنك كنت أدافع. وفي حديث آخر:

يجيئون يوم القيامة على أفواههم الفدام فيتكلم الفخذ والكف. ثم ذكر الله تعالى محاورتهم لجلودهم في قولهم: ﴿لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ أي وعذابنا عذاب لكم.

واختلف الناس ما المراد بالجلود؟ فقال جمهور الناس: هي الجلود المعروفة. وقال عبد الله بن أبي جعفر: كنى بالجلود عن الفروج، وإياها أراد. وأخبر تعالى أن الجلود ترد جوابهم بأن الله الخالق المبدئ المعيد هو الذي أنطقهم.

وقوله: ﴿أَنْطَقْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يريد كل ناطق مما هي فيه عادة أو خرق عادة.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ يحتمل أن يكون من كلام الجلود ومحاورتها، ويحتمل أن يكون من كلام الله عز وجل لهم، أو من كلام ملك يأمره تعالى. وأما المعنى فيحتمل وجهين أحدهما أن يريد: وما كنتم تتصاونون وتحجزون أنفسكم عن المعاصي والكفر خوف أن يشهد، أو لأجل أن يشهد، ولكن ظننتم أن الله لا يعلم فانهملتم وجاهرتهم، وهذا هو منحى مجاهد. والستر قد يتصرف على هذا المعنى ونحوه، ومنه قول الشاعر: [الكامل]

والستر دون الفاحشات وما يلقاك دون الخير من ستر

والمعنى الثاني أن يريد: وما كنتم تمتنعون ولا يمكنكم ولا يسعكم الاختفاء عن أعضائكم والاستتار عنها بكفركم ومعاصيكم، ولا تظنون أنها تصل بكم إلى هذا الحد، وهذا هو منحى السدي، كأن المعنى: وما كنتم تدفعون بالاختفاء والستر أن يشهد، لأن الجوارح لزيمة لكم، وفي إلزامه إياهم الظن بأن الله تعالى لا يعلم، هو إلزامهم الكفر والجهل بالله، وهذا المعتقد يؤدي بصاحبه إلى تكذيب أمر الرسل واحتقار قدرة الإله، لا رب غيره. وفي مصحف ابن مسعود: «ولكن زعتم أن الله». وحكى الطبري عن قتادة أنه عبر عن ﴿تَسْتَتِرُونَ﴾ بـ «تَبْطِنُونَ»، وذلك تفسير لم ينظر فيه إلى اللفظ ولا ارتباط فيه معه. وذكر الطبري وغيره حديثاً عن عبد الله بن مسعود قال: إني لمستتر بأستار الكعبة إذ دخل ثلاثة نفر قرشيان وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، قليل فقه قلوبهم، كثير شحم بطونهم، فتحدثوا بحديث، فقال أحدهم: أترى الله يسمع ما قلنا؟ قال الآخر إنه يسمع إذا رفعنا، ولا يسمع إذا أخفينا. وقال الآخر: إن كان يسمع منه شيئاً فإنه يسمعه كله، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بذلك، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ الآية، فقرأ حتى بلغ: ﴿وَأَنْ تَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٨]. وذكر النقاش أن الثلاثة: صفوان بن أمية وفرقد بن ثمامة وأبو فاطمة. وذكر الثعلبي أن الثقفي: عبد ياليل، والقرشيان: خنتاه ربعة وصفوان ابنا أمية بن خلف، ويشبه أن يكون هذا بعد فتح مكة فالآية مدنية، ويشبه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ الآية متمثلاً بها عند إخبار عبد الله إياه، والله أعلم.

قوله عز وجل:

وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُصَبِّحْتُمْ مِنَ الْخُسْرَيْنِ ﴿٢٢﴾ فَإِنْ يَصِيرُوا قَالَنَارُ مَوْتُوا لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٣﴾ وَفِيضْنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ فَزَيَّنَّا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

وَمَا خَلَفُهُمْ وَهَاقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ ﴿٢٦﴾

﴿ذلكم﴾ رفع بالابتداء، والإشارة به إلى قوله: ﴿ولكن ظننتم أن الله لا يعلم﴾ [فصلت: ٢٢] قال قتادة: الظن ظنان: ظن منج، وظن مهلك.

قال القاضي أبو محمد: فالمنجي: هو أن يظن الموحد العارف بربه أن الله يرحمه والمهلك: ظنون الكفرة الجاهلين على اختلافها، وفي هذا المعنى ليحيى بن أكثم رؤيا حسنة مؤنسة. و﴿ظنكم﴾ خبر ابتداء.

وقوله: ﴿أرداكم﴾ يصح أن يكون خبراً بعد خبر، وجوز الكوفيون أن يكون في موضع الحال، والبصريون لا يجيزون وقوع الماضي حالاً إذا اقترن بـ «قد»، تقول رأيت زيداً قد قام، وقد يجوز تقديرها عندهم وإن لم تظهر. ومعنى: ﴿أرداكم﴾ أهلككم. والردى: الهلاك.

وقوله تعالى: ﴿فإن يصبروا﴾ مخاطبة لمحمد عليه السلام، والمعنى: فإن يصبروا أو لا يصبروا، واقتصر لدلالة الظاهر على ما ترك. والمثوى: موضع الإقامة.

وقرأ جمهور الناس: «وإن يستعتبوا» بفتح الياء وكسر التاء الأخيرة على إسناد الفعل إليهم. «فما هم من المعتبين» بفتح التاء على معنى: وإن طلبوا العتبي وهي الرضى فما هم ممن يعطوها ويستوجبها. وقرأ الحسن وعمر بن عبيد وموسى الأسواري: «وإن يُستعتبوا» بضم الياء وفتح التاء. «فما هم من المعتبين» بكسر التاء على معنى: وإن طلب منهم خير أو إصلاح فما هم ممن يوجد عنده، لأنهم قد فارقوا الدنيا دار الأعمال كما قال عليه السلام: «ليس بعد الموت مستعتب» ويحتمل أن تكون هذه القراءة بمعنى: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ [الأنعام: ٢٨].

ثم وصف عز وجل حالهم في الدنيا وما أصابهم به حين أعرضوا، فحتم عليهم فقال: ﴿وقيضنا لهم قرناء﴾ أي يسرنا لهم ﴿قرناء﴾ سوء من الشياطين وغواة الإنس.

وقوله: ﴿فزينوا لهم ما بين أيديهم﴾ أي علموهم وقرروا في نفوسهم معتقدات سوء في الأمور التي تقدمتهم من أمر الرسل والنبوات، ومدح عبادة الأصنام واتباع فعل الآباء إلى غير ذلك مما يقال إنه بين أيديهم، وذلك كل ما تقدمهم في الزمان واتصل إليهم أثره أو خبره، وكذلك أعطوهم معتقدات سوء فيما خلفهم وهو كل ما يأتي بعدهم من القيامة والبعث ونحو ذلك مما يقال فيه إنه خلف الإنسان، فزينوا لهم في هذين كل ما يريدهم ويفضي بهم إلى عذاب جهنم.

وقوله: ﴿وحق عليهم القول﴾ أي سبق القضاء الحتم، وأمر الله بتعذيبهم في جملة أمم معذبين كفار ﴿من الجن والإنس﴾ وقالت فرقة: ﴿في﴾ بمعنى: مع، أي مع أمم، والمعنى يتأدى بالحرفين، ولا نحتاج أن نجعل حرفاً بمعنى حرف إذ قد أبى ذلك رؤساء البصريين.

قوله عز وجل: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾.

حكاية لما فعله بعض قريش كأبي جهل، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ القرآن في المسجد الحرام ويصغي إليه الناس من مؤمن وكافر، فخشي الكفار استمالة القلوب بذلك، فقالوا: متى قرأ محمد فلنلغظ نحن بالمكاء والصفير والصياح وإنشاد الشعر والإرجاز حتى يخفى صوته ولا يقع الاستماع منه، وهذا الفعل منهم هو اللغو. وقال أبو العالية أرادوا: قعوا فيه وعبوه. واللغو في اللغة: سقط القول الذي لا معنى له، وهو من الخساسة والبطول في حكم لا معنى له.

وقرأ جمهور الناس: «والغوا» بفتح الغين وجزم الواو. وقرأ بكر بن حبيب السهمي: «الغوا» بضم الغين وسكون الواو، ورويت عن عيسى وابن أبي إسحاق بخلاف عنهما وهما لغتان، يقال لغا يلغو، ويقال لغى يلغى، ويقال أيضاً لغى يلغى، أصله يفعل بكسر العين، فرده حرف الحلق إلى الفتح، فالقراءة الأولى من يلغى، والقراءة الثانية من يلغو، قاله الأخفش.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أي تطمسون أمر محمد عليه السلام وتميتون ذكره وتصرفون القلوب عنه، فهذه الغاية التي تمنوها.

قوله عز وجل:

فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ إِمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَاتُحْتَ أَقْدَامَنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾

وقوله تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ﴾ الفاء دخلت على لام القسم، وهي آية وعيد لقريش. والعذاب الشديد: هو عذاب الدنيا في بدر وغيرها. والجزاء بأشوأ أعمالهم: هو عذاب الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الجزاء المتقدم. و: ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ خبر الابتداء. و: ﴿النَّارُ﴾ بدل من قوله: ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ﴾ ويجوز أن يكون: ﴿ذَلِكَ﴾ خبر ابتداء تقديره: الأمر ذلك، ويكون قوله: ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ﴾ ابتداء، و: ﴿النَّارُ﴾ خبره.

وقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ أي موضع البقاء ومسكن العذاب الدائم، فالظرفية في قوله: ﴿فِيهَا﴾ متمكنة على هذا التأويل، ويحتمل أن يكون المعنى: هب لهم دار الخلد، ففي قوله: ﴿فِيهَا﴾ معنى التجريد كما قال الشاعر:

وفي الله إن لم ينصفوا حكم عدل

وفي قراءة عبد الله بن مسعود: «ذلك جزاء أعداء الله النار دار الخلد»، وسقط ﴿لهم فيها﴾ وجحودهم بآيات الله مطرد في علاماته المنصوبة لخلقه وفي آيات كتابه المنزلة على نبيه.

ثم ذكر عز وجل مقالة كفار يوم القيامة إذا دخلوا النار فإنهم يرون عظيم ما حل بهم وسوء منقلبهم فتجول أفكارهم فيمن كان سبب غوايتهم وبادي ضلالتهم فيعظم غيظهم وحنقهم عليه ويودون أن يحصل في أشد عذاب فحينئذ يقولون ﴿ربنا أرنا اللذين أضلانا﴾، وظاهر اللفظ يقتضي أن الذي في قولهم: ﴿اللذين﴾ إنما هو للجنس، أي ﴿أرنا﴾ كل مغر ومضل ﴿من الجن والإنس﴾، وهذا قول جماعة من المفسرين. وقال علي بن أبي طالب وقتادة. وطلبوا ولد آدم الذي سن القتل والمعصية من البشر وإبليس الأبالسة من الجن.

قال القاضي أبو محمد: وتأمل هل يصح هذا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لأن ولد آدم مؤمن عاص، وهؤلاء إنما طلبوا المضلين بالكفر المؤدي إلى الخلود، وإنما القوي أنهم طلبوا النوعين، وقد أصلح بعضهم هذا القول بأن قال: يطلب ولد آدم كل عاص دخل النار من أهل الكبائر، ويطلب إبليس كل كافر، ولفظ الآية يزحم هذا التأويل، لأنه يقتضي أن الكفرة إنما طلبوا اللذين أضلوا.

وقرأ نافع وحزمة والكسائي: «أرنا» بكسر الراء، وهي رؤية عين، ولذلك فهو فعل يتعدى إلى مفعولين. وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر عن عاصم: «أرنا» بسكون الراء، فقال هشام بن عمار: هو خطأ. وقال أبو علي: هي مخففة من: ﴿أرنا﴾ كما قالوا: ضحك وفخذ. وقرأ أبو عمرو: بإشمام الراء الكسر، ورويت عن أهل مكة.

وقوله: ﴿نجعلهما تحت أقدامنا﴾ يريدون في أسفل طبقة من النار، وهي أشد عذاباً. وهي درك المنافقين.

وقوله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ آية وعده للمؤمنين، قال سفيان بن عبد الله الثقفي، قلت للنبي عليه السلام: أخبرني بأمر أعتصم به، فقال: قل ربي الله ثم استقم، قلت فما أخوف ما تخاف علي؟ فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسان نفسه فقال: هذا.

واختلف الناس في مقتضى قوله: ﴿ثم استقاموا﴾ فذهب الحسن وقتادة وجماعة إلى أن معناه: استقاموا بالطاعات واجتنب المعاصي، وتلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية على المنبر ثم قال: استقاموا والله لله بطاعته، ولم يروغوا ووغان الثعالب.

قال القاضي أبو محمد: ذهب رضي الله عنه إلى حمل الناس على الأتم الأفضل، وإلا فلزم على هذا التأويل من دليل الخطاب ألا تنزل الملائكة عند الموت على غير مستقيم على الطاعة وذهب أبو بكر الصديق رضي الله عنه وجماعة معه إلى أن المعنى ﴿ثم استقاموا﴾ على قولهم: ﴿ربنا الله﴾، فلم يختل توحيدهم ولا اضطرب إيمانهم. وروى أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وقال: قد قالها الناس ثم كفر أكثرهم، فمن مات عليها فهو ممن استقام. المعنى فهو في أول درجات الاستقامة من الخلود، فهذا كقوله عليه السلام: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»، وهذا هو

المعتقد إن شاء الله، وذلك أن العصاة من أمة محمد عليه السلام وغيرها فرقتان: فأما من قضى الله بالمغفرة له وترك تعذيبه، فلا محالة ممن تنزل عليه الملائكة بالبشارة، وهو إنما استقام على توحيده فقط، وأما من قضى الله بتعذيبه مرة ثم بإدخاله الجنة، فلا محالة أنه يلقي جميع ذلك عند موته ويعلمه، وليس يصح أن يكون حاله كحالة الكافر اليبأس من رحمة الله، وإذ قد كان هذا فقد حصلت له بشارة بأن لا يخاف الخلود ولا يحزن منه وبأنه يصير آخرأ إلى الخلود في الجنة، وهل العصاة المؤمنون إلا تحت الوعد بالجنة، فهم داخلون فيمن يقال لهم: ﴿أبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ ومع هذا كله فلا يختلف أن الموحد المستقيم على الطاعة أتم حالاً وأكمل بشارة، وهو مقصد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعلى نحو ذلك قال سفيان: ﴿استقاموا﴾، عملوا بنحو ما قالوا، وقال الربيع: أعرضوا عما سوى الله. وقال الفضيل زهدوا في الفانية ورغبوا في الباقية، وبالجمله فكلما كان المرء أشد استعداداً كان أسرع فوزاً بفضل الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ألا تخافوا ولا تحزنوا﴾ أمانة عامة في كل هم مستأنف، وتسلية تامة عن كل فائت ماض. وقال مجاهد: المعنى لا تخافون ما تقدمون عليه، ولا تحزنوا على ما خلفتم من دنياكم. وفي قراءة ابن مسعود: «الملائكة لا تخافوا» بإسقاط الألف، بمعنى يقولون لا تخافوا.

قوله عز وجل:

نَحْنُ أَوْلَىٰ أَوْكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُوحَضِلٍ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾

المتكلم بـ ﴿نحن أولياؤكم﴾ هم الملائكة القائلون: «لا تخافوا ولا تحزنوا» أي يقولون للمؤمنين عند الموت وعند مشاهدة الحق نحن كنا أولياءكم في الدنيا ونحن هم في الآخرة. قال السدي المعنى: نحن حفظتكم في الدنيا وأولياؤكم في الآخرة، والضمير في قوله: ﴿فيها﴾ عائذ على الآخرة. و: ﴿تدعون﴾ معناه: تطلبون. و: ﴿نزلنا﴾ نصب على المصدر. وقراءة الجمهور: بضم الواو. وقرأ أبو حية: بإسكانها.

وقوله تعالى: ﴿ومن أحسن قولاً﴾ الآية ابتداء توصية محمد عليه السلام، وهو لفظ يعم كل من دعا قديماً وحديثاً إلى الله تعالى وإلى طاعته من الأنبياء والمؤمنين، والمعنى: لا أحد أحسن قولاً ممن هذه حاله، وإلى العموم ذهب الحسن ومقاتل وجماعة، وبين أن حالة محمد عليه السلام كانت كذلك مبرزة إلى تخصيصه بالآية ذهب السدي وابن زيد وابن سيرين. وقال قيس بن أبي حازم وعائشة أم المؤمنين وعكرمة: نزلت هذه الآية في المؤذنين. قال قيس: ﴿وعمل صالحاً﴾ هو الصلاة بين الأذان والإقامة. وذكر النقاش

ذلك عن ابن عباس، ومعنى القول بأنها في المؤذنين أنهم داخلون فيها، وأما نزولها فيمكة بلا خلاف ولم يكن بمكة أذان وإنما ترتب بالمدينة، وأن الأذان لمن الدعاء إلى الله تعالى ولكنه جزء منه. والدعاء إلى الله بقوة كجهاد الكفار وردع الطغاة وكف الظلمة وغيره أعظم غناء من تولى الأذان إذ لا مشقة فيه والأصوب أن يعتقد أن الآية نزلت عامة. قال زيد بن علي المعنى: دعا إلى الله بالسيف.

وقرأ الجمهور: «إنني» بنونين. وقرأ ابن أبي عبله: «إني» بنون واحدة. وقال فضيل بن ربيعة: كنت مؤذناً في أصحاب ابن مسعود، فقال لي عاصم بن هبيرة: إذا أكملت الأذان فقل: «إنني من المسلمين» ثم تلا هذه الآية.

ثم وعظ تعالى نبيه عليه السلام ونبيه على أحسن مخاطبة، فقرر أن الحسنة والسيئة لا تستوي، أي فالحسنة أفضل، وكرر في قوله: «ولا السيئة» تأكيداً ليدل على أن المراد: ولا تستوي الحسنة والسيئة ولا السيئة والحسنة، فحذف اختصاراً ودلت «لا» على هذا الحذف.

وقوله تعالى: «ادفع بالتي هي أحسن» آية جمعت مكارم الأخلاق وأنواع الحلم، والمعنى: ادفع أمورك وما يعرضك مع الناس ومخالطتك لهم بالفعل أو بالسيرة التي هي أحسن السير والفعالات، فمن ذلك بذل السلام، وحسن الأدب، وكظم الغيظ، والسماحة في القضاء والاقتضاء وغير ذلك. قال ابن عباس: إذا فعل المؤمن هذه الفضائل عصمه الله من الشيطان وخضع له عدوه، وفسر مجاهد وعطاء هذه الآية بالسلام عند اللقاء، ولا شك أن السلام هو مبدأ الدفع بالتي هي أحسن وهو جزء منه، ثم قال تعالى: «كأنه ولي حميم» فدخل كاف التشبيه لأن الذي عنده عداوة لا يعود ولياً حميماً، وإنما يحسن ظاهره فيشبه بذلك الولي الحميم. والحميم: هو القريب الذي يحتمل للإنسان. والضمير في قوله: «يلقاها» عائذ على هذه الخلق التي يتضمنها قوله: «ادفع بالتي هي أحسن». وقالت فرقة: المراد: وما يلقي لا إله إلا الله، وهذا تفسير لا يقتضيه اللفظ.

وقوله: «إلا الذين صبروا» مدح بليغ للصبر، وذلك بين للمتأمل، لأن الصبر للطاعات وعن الشهوات جامع لخصال الخير كلها. والحظ العظيم: يحتمل أن يريد من العقل والفضل، فتكون الآية مدحاً. وروي أن رجلاً شتم أبا بكر الصديق بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم فسكت أبو بكر ساعة، ثم جاش به الغضب فرد على الرجل، فقام النبي عليه السلام فاتبعه أبو بكر وقال: يا رسول الله قمت حين انتصرت، فقال إنه كان يرد عنك ملك، فلما قربت تنتصر، ذهب الملك وجاء الشيطان، فما كنت لأجالسه، ويحتمل أن يريد: «ذو حظ عظيم» من الجنة وثواب الآخرة، فتكون الآية وعداً، وبالجنة فسر فتادة الحظ هنا.

قوله عز وجل:

وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣١﴾ وَمَنْ أَيْتَهُ إِلِيلٌ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ

إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ أَيْنِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُخْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

﴿إما﴾ شرط، وجواب الشرط قوله: ﴿فاستعذ﴾. والنزغ: فعل الشيطان في قلب أويد من إلقاء غضب وحقد أو بطش في اليد، فمن الغضب هذه الآية، ومن الحقد، قوله: ﴿نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي﴾ [يوسف: ١٠٠]، ومن البطش قول النبي عليه السلام: «لا يشر أحدكم على أخيه بالسلاح لا ينزغ الشيطان في يده فيلقيه في حفرة من حفر النار».

ونذب تعالى في هذه الآية المتقدمة إلى مكارم الخلق في الدفع بالتي هي أحسن، ثم أثنى على من لقيها ووعده، وعلم أن خلقة البشر تغلب أحياناً وتثور بهم سورة الغضب ونزغ الشيطان فدلهم على مذهب ذلك وهي الاستعاذة به عز وجل.

ثم عدد آياته لتعبر فيها من صدق عن التوحيد بذكر ﴿الليل والنهار﴾، وذكرهما يتضمن ما فيهما من القصر والطول والتداخل والاستواء في مواضع وسائر عبرهما، وكذلك الشمس والقمر متضمن عجائبهما وحكمة الله فيهما ونفعه عباده بهما. ثم قال تعالى: ﴿لا تسجدوا﴾ لهذه المخلوقات وإن كانت تنفعكم، لأن النفع منهما إنما هو بتسخير الله إياهما، فهو الذي ينبغي أن يسجد له. والضمير في: ﴿خلقهن﴾ قالت فرقة: هو عائد على الأيام المتقدم ذكرها. وقالت فرقة: الضمير عائد على الشمس والقمر، والاثنان جمع، وجمع ما لا يعقل يؤنث، فلذلك قال: ﴿خلقهن﴾.

قال القاضي أبو محمد: ومن حيث يقال شمس وأقمار لاختلافهما بالأيام، ساغ أن يعود الضمير مجموعاً.

وقالت فرقة: هو عائد على الأربعة المذكورة، وشأن ضمير ما لا يعقل إذا كان العدد أقل من العشرة أن يجيء هكذا، فإذا زاد أفرد مؤنثاً، تقول الأجذاع انكسرن، والجذوع انكسرت، ومنه: ﴿إن عدة الشهور﴾ [التوبة: ٣٦]، ومنه قول حسان بن ثابت:

وأسيافنا يقطرون من نجدة دما

وقال السموأل: [الطويل]

ولا عيب فينا غير أن سيوفنا بها من قراع الدارعين فلول

وهذا كثير مهيع وإن كان الأمر يوجد متداخلاً بعضه على بعض، ثم خاطب تعالى بما يتضمن وعيدهم وحقارة أمرهم، وأن الله تعالى غير محتاج إلى عبادتهم بقوله: ﴿فإن استكبروا﴾ الآية.

وقوله: ﴿فَالَّذِينَ﴾ يعني بهم الملائكة هم صافون يسبحون. و: ﴿عند﴾ في هذه الآية ليست بظرف مكان وإنما هي بمعنى المنزل والقربة، كما تقول زيد عند الملك جليل وفي نفسه رفيع. ويروى أن تسبيح الملائكة قد صار لهم كالنفس لابن آدم. و: ﴿يسثمون﴾ معناه: يميلون ثم ذكر تعالى آية منضوية ليعتبر بها في أمر البعث من القبور، ويستدل بما شوهد من هذه على ما لم يشاهد بعد من تلك، وهي آية يراها عياناً كل مفطور على عقل. وخشوع الأرض هو ما يظهر عليها من استكانة وشعث بالجذب وصليم السموم فهي عابسة كما الخاشع عابس يكاد يبكي، والماء المنزل: هو المطر، واهتزاز الأرض: هو تخلخل أجزائها بالماء وتشققها للنبات. وربوها: هو انتفاخها بالماء وعلو سطحها به.

وقرأ الجمهور: «وربت». وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: «وربات»: بألف مهموزة، ورواها الرؤاسي عن أبي عمرو، وهو أيضاً بمعنى: علت وارتفعت، ومنه الربيثة، وهو الذي يرتفع حتى يرصد للقوم ثم ذكر تعالى بالأمر الذي ينبغي أن يقاس على هذه الآية والعبرة، وذلك إحياء الموتى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عموم، والشئ في اللغة: الموجود.
قوله عز وجل:

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَعْيُنِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَّ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاِبِتٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يُأْنِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدِّقِلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾

هذه آية وعيد. والإلحاد: الميل، وهو هاهنا عن الحق، ومن الإلحاد: لحد الميت، لأنه في جانب، يقال لحد الرجل وألحد بمعنى.

وقرأ الجمهور: «يلحدون» بضم الياء من ألحد. وقرأ ابن وثاب وطلحة والأعمش: «يلحدون» بفتح الياء والحاء من لحد.

واختلف المفسرون في الإلحاد الذي أشير إليه ما هو؟ فقال قتادة وغيره: الإلحاد بالكذب. وقال مجاهد وغيره: الإلحاد بالمكاء والصفير واللغو الذي ذهبوا إليه. وقال ابن عباس: إلحادهم هو أن يوضع الكلام غير موضعه، ولفظة الإلحاد تعم هذا كله.

وقوله: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ أي فنحن بالمرصاد لهم وسنعذبهم، ثم قرر على هذين القسمين أنهما خير، وهذا التقرير هم المراد به، أي فقل لهم يا محمد ﴿أفمن﴾. قال مقاتل: نزلت هذه الآية في أبي جهل وعثمان بن عفان، وقيل في عمار بن ياسر، وحسن التفضيل هنا بين الإلقاء في النار والأمن يوم القيامة وإن كانا لا يشتركان في صفة الخير من حيث كان الكلام تقريراً لا مجرد خبر، لأن المقرر قد يقرر خصمه

على قسمين : أحدهما بين الفساد حتى يرى جوابه، فعساه يقع في الفاسد المعنى فيبين جهله، وقد تقدم نظير هذه الآية واستيعاب القول في هذا المعنى، ولا يتجه هنا أن يقال خاطب على معتقدهم كما يتجه ذلك في قوله : ﴿خير مستقرأ﴾ [الفرقان : ٢٤] فتأمل.

وقوله تعالى : ﴿اعملوا ما شئتم﴾ وعيد في صيغة الأمر بإجماع من أهل العلم، ودليل الوعيد ومبينه قوله : ﴿إنه بما تعملون بصير﴾.

ثم قال تعالى : ﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم﴾ . يريد قريشاً . و«الذكر» : القرآن بإجماع . واختلف الناس في الخبر عنهم أين هو ؟ فقالت فرقة : هو في قوله : ﴿أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ [فصلت : ٤٤] ذكر النقاش أن بلال بن أبي بردة سأل عن هذا في مجلسه وقال : لم أجد لها نفاذاً ، فقال له أبو عمرو بن العلاء : إنه منك لقريب ﴿أولئك ينادون﴾ [فصلت : ٤٤] . ويرد هذا النظر كثرة الحائل، وإن هنالك قوماً قد ذكروا بحسن رد قوله : ﴿أولئك ينادون﴾ [فصلت : ٤٤] عليهم . وقالت فرقة : الخبر مضمّر تقديره : ﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم﴾ هلكوا أو ضلوا . وقال بعض نحوي الكوفة الجواب في قوله : ﴿وإنه لكتاب عزيز﴾ حكى ذلك الطبري، وهو ضعيف لا يتجه، وسأل عيسى بن عمر عمرو بن عبيد عن هذا، فقال عمرو معناه في التفسير : ﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم﴾ كفروا به ﴿وإنه لكتاب﴾، فقال عيسى بن عمر : أجدت يا أبا عثمان .

قال القاضي أبو محمد : والذي يحسن في هذا هو إضمار الخبر، ولكنه عند قوم في غير هذا الموضع الذي قدره هؤلاء فيه، وإنما هو بعد ﴿حكيم حميد﴾ وهو أشد إظهاراً لمذمة الكفار به، وذلك أن قوله : ﴿وإنه لكتاب﴾ داخل في صفة الذكر المكذب به، فلم يتم ذكر المخبر عنه إلا بعد استيفاء وصفه، وهذا كما تقول : تخالف زيداً وهو العالم الودود الذي من شأنه ومن أمره، فهذه كلها أوصاف .

ووصف تعالى الكتاب بالعزة، لأنه بصحة معانيه ممتنع الطعن فيه والإزراء عليه، وهو محفوظ من الله تعالى، قال ابن عباس : معناه كريم على الله تعالى، قال مقاتل : منيع من الشيطان . قال السدي : غير مخلوق .

وقوله : ﴿لا يأتيه الباطل﴾ قال قتادة والسدي : يريد الشيطان، وظاهر اللفظ يعم الشيطان وأن يجيء أمر يبطل منه شيئاً .

وقوله : ﴿من بين يديه﴾ معناه ليس فيما تقدمه من الكتب ما يبطل شيئاً منه . وقوله : ﴿ولا من خلفه﴾ أي ليس يأتي بعده من نظر ناظر وفكرة عاقل ما يبطل أشياء منه، والمراد باللفظ على الجملة : لا يأتيه الباطل من جهة من الجهات . وقوله : ﴿تنزيل﴾ خبر ابتداء، أي هو تنزيل .

وقوله : ﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾ يحتمل معنيين : أحدهما أن يكون تسلياً للنبي عليه السلام عن مقالات قومه، أي ما تلقى يا محمد من المكروه منهم، ولا يقولون لك من الأقوال المؤلمة إلا ما قد قيل ولقي به من تقدمك من الرسل، فلتتأس بهم ولتمض لأمر الله ولا يهمنك شأنهم . والمعنى

الثاني : أن تكون الآية تخليصاً لمعاني الشرع ، أي ما يقال لك من الوحي وتخطب به من جهة الله تعالى إلا ما قد قيل للرسول من قبلك ، ثم فسر ذلك الذي قيل لجميعهم وهو ﴿إِنْ رَبُّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ للطائعين ﴿وَذُو عِقَابٍ﴾ للكافرين . وفي هذه الكلمات جماع النهي والزجر الموعظة ، وإليها يرجع كل نظر .

قوله عز وجل :

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْءَانُهُمْ وَهُمْ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يَنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

الأعجمي : هو الذي لا يفصح عربياً كان أو غير عربي ، والعجمي : الذي ليس من العرب فصيحاً كان أو غير فصيح ، وهذه الآية نزلت بسبب تخليط كان من قريش في أقوالهم من أجل الحروف التي وقعت في القرآن ، وهي مما عرّب من كلام العجم : كالسجين والاستبرق ونحوه ، فقال عز وجل : ولو جعلنا هذا القرآن أعجمياً لا يبين لقالوا واعترضوا لولا بينت آياته .

واختلف القراء في قوله : ﴿اعجمي وعربي﴾ فقراءة الجمهور على الاستفهام وهمزة ممدودة قبل الألف . وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم والأعمش : «أعجمي» بهمزتين ، وكأنهم كانوا ينكرون ذلك فيقولون : لولا بين أعجمي وعربي مختلط هذا لا يحسن ، وتأول ابن جبير أن معنى قولهم : أتجيئنا عجمة ونحن عرب؟ ما لنا وللعجمة؟ وقرأ الحسن البصري وأبو الأسود والجحدري وسلام والضحاك وابن عباس وابن عامر بخلاف عنهما : «أعجمي وعربي» دون استفهام وبسكون العين ، كأنهم قالوا عجمة وإعراب ، إن هذا لشاذ ، أو كأنهم قالوا لولا فصل فصلين ، فكان بعضه أعجمياً يفهمه العجم ، وبعضه عربياً يفهمه العرب ، وهذا تأويل لابن جبير أيضاً . وقرأ عمرو بن ميمون : «أعجمي» بهمزة واحدة دون مد وبفتح العين ، فأخبر الله تعالى عنهم أنه لو كان على أي وجه تخيل لكان لهم قول واعتراض فاسد ، هذا مقصد الكلام .

وأمر الله تعالى نبيه عليه السلام أن يقول لهم : إن القرآن ﴿هدى وشفاء﴾ للمؤمنين المبصرين للحقائق ، وأنه على الذين لا يؤمنون ولا يصرفون نظرهم وحواسهم في المصنوعات عمي ، لأنهم ﴿في آذانهم وقر﴾ وعلى قلوبهم أظفار وعلى أعينهم غشاوة .

واختلف الناس في قوله : ﴿وهو عليهم﴾ فقالت فرقة : يريد بـ ﴿هو﴾ القرآن . وقالت فرقة : ﴿وهو﴾ يريد به الوقر . والوقر : الثقل في الأذن المانع من السمع ، وهذه كلها استعارات ، أي هم لما لم يفهموا ولا حصلوا كالأعمى وصاحب الوقر .

وقرأ ابن عباس ومعاوية وعمرو بن العاصي: «وهو عليهم عم» بكسر الميم وتنوينه. وقال يعقوب: لا أدري أنونوا أم فتحوا الياء على الفعل الماضي؟ وبغير ياء رواها عمرو بن دينار وسليمان بن قته عن ابن عباس.

وهذه القراءة أيضاً فيها استعارة، وكذلك قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ ينادون﴾ يحتمل معنيين، وكلاهما مفعول للمفسرين: أحدهما أنها استعارة لقلة فهمهم، شبههم بالرجل ينادى على بعد يسمع منه الصوت ولا يفهم تفاصيله ولا معانيه، وهذا تأويل مجاهد، والآخر أن الكلام على الحقيقة وأن معناه أنهم يوم القيامة ينادون بكفرهم وقبح أعمالهم من بعد حتى يسمع ذلك أهل الموقف، فتعظم السمعة عليهم ويحل المصائب، وهذا تأويل الضحاك بن مزاحم. ثم ضرب تعالى أمر موسى مثلاً للنبي عليه السلام ولقريش، أي فعل أولئك كأفعال هؤلاء حين جاءهم مثل ما جاء هؤلاء، والكلمة السابقة هي: حتم الله تعالى بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة، والضمير في قولهم: ﴿لني شك منه﴾ يحتمل أن يعود على موسى أو على كتابه.

وقوله تعالى: ﴿من عمل صالحاً﴾ الآية نصيحة بينة للعالم وتحذير وترجية وصدع بين الله تعالى لا يجعل شيئاً من عقوبات عبيده في غير موضعها، بل هو العادل المتفضل الذي يجازي كل عبد بتكسبه. قوله عز وجل:

إِلَيْهِ يُرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أَنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ
وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَدْذَنْكَ مَا مَنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ
مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ حَيٍّ ﴿٤٨﴾ لَا يَسْتَمِعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَوْسُ
قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَدْخَلْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّاهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا إِلَى وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً
وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ
عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾

المعنى: أن وقت علم الساعة ومجيئها يرده كل مؤمن متكلم فيه إلى الله عز وجل. وذكر تعالى الثمار وخروجها من الأكمام وحمل الإناث مثلاً لجميع الأشياء، إذ كل شيء خفي فهو في حكم هذين.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحزمة والكسائي والحسن وطلحة والأعمش: «من ثمرة» بالافراد على أنه اسم جنس. وقرأ نافع وابن عامر: «ثمرات» بالجمع، واختلف عن عاصم وهي قراءة أبي جعفر وشيبة والأعرج والحسن بخلاف، وفي مصحف عبد الله: «في ثمرة من أكمامها». والأكمام: جمع كم، وهو غلاف التمر قبل ظهوره.

وقوله تعالى: ﴿ويوم يناديهم﴾ تقديره: واذكر يوم يناديهم والضمير في: ﴿يناديهم﴾ ظاهره والأسبق فيه أنه يريد به الكفار عبدة الأوثان. ويحتمل أن يريد به كل من عبد من دون الله من إنسان وغيره، وفي هذا

ضعف، وإنما الضمير في قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ فلا احتمال لعودته إلا على الكفار. و: ﴿أَئْذَكَ﴾ قال ابن عباس وغيره معناه: أعلمناك ﴿مَا مَنَا مِنْ شَهِيدٍ﴾ ولا من يشهد بأن لك شريكاً. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي نسوا ما كانوا يقولون في الدنيا ويدعون من الآلهة والأصنام، ويحتمل أن يريد: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ الأصنام، أي تلفت لهم فلم يجدوا منها نصراً وتلاشى لهم أمرها.

وقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ يحتمل أن يكون متصلاً بما قبله ويكون الوقف عليه، ويكون قوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ نَجَاةٍ﴾ استئناف نفى أن يكون لهم منجى أو موضع روغان، يقول: حاص الرجل: إذا راغ يطلب النجاة من شيء، ومنه الحديث: فحاصوا حيصه حمر الوحش إلى الأبواب، ويكون الظن على هذا التأويل على بابه، أي ظنوا أن هذه المقالة: ﴿مَا مَنَا مِنْ شَهِيدٍ﴾ منجاة لهم، أو أمر يموهون به، ويحتمل أن يكون الوقف في قوله: ﴿مَنْ قَبْلُ﴾، ويكون: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ متصلاً بقوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ نَجَاةٍ﴾ أي ظنوا ذلك، ويكون الظن على هذا التأويل بمعنى اليقين وبه فسر السدي، وهذه عبارة يطلقها أهل اللسان على الظن، ولست تجد ذلك إلا فيما علم علماً قوياً وتقرر في النفس ولم يتلبس به بعد، وإلا فمتى تلبس بالشيء وحصل تحت إدراك الحواس فلست تجدهم يوقعون عليه لفظة الظن.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمُ الْإِنْسَانُ﴾ آيات نزلت في كفار قريش، قيل في الوليد بن المغيرة، وقيل في عتبة بن ربيعة، وجل الآية يعطي أنها نزلت في كفار وإن كان أولها يتضمن خلقاً ربما شارك فيه بعض المؤمنين. و: ﴿دَعَاءُ الْخَيْرِ﴾ إضافته المصدر إلى المفعول، والفاعل محذوف تقديره: من دعاء الخير هو. وفي مصحف ابن مسعود: «من دعاء بالخير». و ﴿الْخَيْرِ﴾ في هذه الآية: المال والصحة، وبذلك تليق الآية بالكافر، وإن قدرناه خير الآخرة فهي للمؤمن، وأما اليأس والقنوط على الإطلاق فمن صفة الكافر وحده.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ هَذَا لِي﴾ أي بعلمي وبما سمعيت، ولا يرى أن النعم إنما هي بتفضل من الله تعالى: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ قول بين فيه الجحد والكفر. ثم يقول هذا الكافر، ولئن كان ثم رجوع كما تقولون، لتكون لي حال ترضيني من غنى ومال وبينين، فتوعدهم الله تعالى بأنه سيعرفهم بأعمالهم الخبيثة مع إذاقتهم العذاب عليها، فهذا عذاب وخزي. وغلظ العذاب شدته وصعوبته. وقال الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: للكافر أمانتان، أما في دنياه فهذه: ﴿إِنْ لِي عِنْدَهُ لِلْحَسَنِ﴾. وأما في آخرته: ﴿فِيَا لَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا﴾ [النبا: ٤٠].

قال القاضي أبو محمد: والأمانتي على الله تعالى وترك الجد في الطاعة مذموم لكل أحد، فقد قال عليه السلام: الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله. قوله عز وجل:

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسِ إِبْرَاهِيمَ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُودَعَاً عَرِيضاً ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ
إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ، مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَرَّيْهِمْ

ءَايَتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۖ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدٌ ﴿٥٢﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ مِّنَ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۖ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٣﴾

ذكر الله تعالى الخلق الذميمة من الإنسان جملة، وهي في الكفار بينه متمكنة، وأما المؤمن في الأغلب فيشكر عند النعمة، وكثيراً ما يصبر عند الشدة.

وقرأ جمهور والناس: «ونأى بجانبه» الهمزة عين الفعل. وقرأ ابن عامر: «وناء» الهمزة لام الفعل، وهي قراءة أبي جعفر، والمعنى فيهما واحد. قال أبو علي: ناء قلب ابن آدم فعل فلغ، ومنه قول الشاعر [كثير]: [الطويل]

وكل خليل رائي فهو قائل من اجلك هذا هامة اليوم أو غد

ومنه قول الآخر: [الطويل]

وقد شأني أهل السباق وأمعنوا

﴿ونأى﴾ معناه: بعد ولم يمل إلى شكر ولا طاعة.

وقوله: ﴿فذو دعاء عريض﴾ أي طويل أيضاً، فاستغنى بالصفة الواحدة عن لزيمتها، إذ العرض يقتضي الطول ويتضمنه، ولم يقل طويل، لأن الطويل قد لا يكون عريضاً، فـ ﴿عريض﴾ أدل على الكثرة. ثم أمر تعالى نبيه أن يقف قريشاً على هذا الاحتجاج وموضع تغريهم بأنفسهم فقال: ﴿أرأيتم إن كان﴾ هذا الشرع ﴿من عند الله﴾ وبأمره وخالفتموه أنتم، أستم على هلكة من قبل الله تعالى، فمن أضل ممن يبقى على مثل هذا الغرر مع الله، وهذا هو الشقاق، ثم وعد تعالى نبيه عليه السلام بأنه سيرى الكفار آياته.

واختلف المتأولون في معنى قوله: ﴿في الأفاق وفي أنفسهم﴾ فقال المنهال والسدي وجماعة: هو وعد بما يفتحه الله تعالى على رسوله من الأقطار حول مكة، وفي غير ذلك من الأرض كخيبر ونحوها. ﴿وفي أنفسهم﴾ أراد به فتح مكة.

قال القاضي أبو محمد: وهذا تأويل حسن ينتظم الإعلام بغيب ظهر وجوده بعد كذلك ويجري معه لفظ الاستثاف الذي في الفعل.

وقال الضحاك وقتادة: ﴿سنريهم آياتنا في الأفاق﴾ هو ما أصاب الأمم المكذبة في أقطار الأرض قديماً ﴿وفي أنفسهم﴾ يوم بدر، وقال ابن زيد وعطاء: ﴿الأفاق﴾: آفاق السماء. وأراد: الآيات: في الشمس والقمر والرياح وغير ذلك. ﴿وفي أنفسهم﴾ عبرة الإنسان بجسمه وحواسه وغريب خلقته وتدرجه في البطن ونحو ذلك، وهذه آيات قد كانت مرئية، فليس هذا المعنى يجري مع قوله: ﴿سنري﴾ والتأويل الأول أرجحها، والله أعلم. والضمير في قوله تعالى: ﴿أنه الحق﴾ عائد على الشرع والقرآن، فيأظهار الله إياه وفتح البلاد عليه تبين لهم أنه الحق.

ثم قال تعالى وعداً لنبيه عليه السلام: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ والتقدير: أو لم يكف ربك، والباء زائدة للتأكيد، وأنه يحتمل أن يكون في موضع رفع على البدل من الموضع، إذ التقدير: أو لم يكف ربك، ويحتمل أن يكون في موضع خفض على البدل من اللفظ، وهذا كله بدل الاشتمال، ويصح أن يكون في موضع نصب على إسقاط حرف الجر، أي لأنه على كل شيء شهيد.

وقرأ الجمهور: «أنه» بفتح الألف، وقرأ بعض الناس «إنه» بكسرها على الاعتراض أثناء القول. وقوله: ﴿أَلَا﴾ استفتاح يقتضي إقبال السامع على ما يقال له، فاستفتح الإخبار على أنهم في شك وريب وضلال أداهم إلى الشك في البعث.

وقرأ جمهور الناس: «في مريم» بكسر الميم. وقرأ أبو عبد الرحمن والحسن: «في مريم» بضم الميم، والمعنى واحد، ثم استفتح الإخبار بإحاطته بكل شيء على معنى الوعيد لهم، وإحاطته تعالى هي بالقدرة والسلطان، لا إله إلا هو، العزيز الحكيم.

نجز تفسير سورة ﴿حم﴾ السجدة، والحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الشُّورَى

هذه السورة مكية بإجماع من أكثر المفسرين، وقال قتادة: فيها مدني: ﴿ذلك الذي يبشر الله عباده﴾ [الشورى: ٢٣] إلى: ﴿الصدور﴾ [الشورى: ٢٤] وقوله: ﴿والذين إذا أصابهم البغي﴾ [الشورى: ٣٩] إلى قوله: ﴿من سبيل﴾ [الشورى: ٤١]. وقال ابن عباس في كتاب الثعلبي: إن ﴿حم عسق﴾ هذه الحروف بأعيانها نزلت في كل كتب الله تعالى المنزلة على كل نبي أنزل عليه الكتاب، ولذلك قال تعالى: ﴿كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك﴾.

قوله عز وجل:

حَمْدٌ ۝١ عَسَقٌ ۝٢ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٥

فصلت: ﴿حم﴾ من: ﴿عسق﴾، ولم يفعل ذلك بـ ﴿كهيعص﴾ [مريم: ١] لتجري هذه مجرى الحواميم أخواتها.

وقرأ الجمهور: «حم عسق». وقرأ ابن مسعود وابن عباس: «حم سق» بسقوط عين، والأقوال في هذه الأقوال في أوائل السور. وروى حذيفة في هذا حديثاً مضمناً: أنه سيكون في هذه الأمة مدينتان يشقهما نهر بالشرق، تهلك إحداهما ليلاً ثم تصبح الأخرى سالمة، فيجتمع فيها جبابرة المدينتين متعجبين من سلامتها، فتهلك من الليلة القابلة، وأن ﴿حم﴾ معناه: حم هذه الأمر. وعين: معناه عدلاً من الله. وسين: سيكون ذلك. وقاف: معناه يقع ذلك بهم. وروي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان يستفيد علم الفتن والحروب من هذه الأحرف التي في أوائل السور. والكاف في قوله: ﴿كذلك﴾ نعت لمصدر محذوف، والإشارة بذلك تختلف بحسب الأقوال في الحروف.

وقرأ جمهور القراء: «يُوحَى» بالياء على إسناد الفعل إلى الله تعالى، وهي قراءة الحسن والأعرج وأبي جعفر والجحدري وعيسى وطلحة والأعمش. وقرأ أبو حيوة والأعشى عن أبي بكر عن عاصم: «نوحى»: بنون العظمة، ويكون قوله: ﴿الله﴾ ابتداء وخبره: ﴿العزیز﴾ ويحتمل أن يكون خبره: ﴿له ما في

السموات». وقرأ ابن كثير وحده: «يوحى» بالياء وفتح الحاء على بناء الفعل للمفعول، وهي قراءة مجاهد، والتقدير: يوحى إليك القرآن يوحيه الله، وكما قال الشاعر:

لييك يزيد ضارع لخصومة

ومع قوله تعالى: ﴿يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال﴾ [النور: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وإلى الذين من قبلك﴾ يريد من الأنبياء الذين نزلت عليهم الكتب.

وقوله تعالى: ﴿له ما فى السماوات﴾ أى الملك والخلق والاختراع. و: ﴿العلى﴾ من علو القدر والسلطان. و: ﴿العظيم﴾ كذلك، وليس بعلو مسافة ولا عظم جرم، تعالى الله عن ذلك وقرأ نافع والكسائي: «يكاد» بالياء. وقرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة وأبو عمرو وعاصم: «تكاد» بالتاء. وقرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي ونافع وابن عباس وأبو جعفر وشيبة وقتادة: «يتفطرون» من التفطر، وهو مطاوع فطرت. وقرأ أبو عمرو وعاصم والحسن والأعرج وأبو رجاء والجحدري: «ينفطرون» من الإفطار وهو مطاوع فطر، والمعنى فيهما: يتصدعن ويتشققن من سرعة جريهن خضوعاً وخشية من سلطان الله تعالى وتعظيماً له وطاعة، وما وقع للمفسرين هنا من ذكر الثقل ونحوه مردود، لأن الله تعالى لا يوصف به.

وقوله: ﴿من فوقهن﴾ أى من أعلاهن. وقال الأخفش علي بن سليمان: الضمير للكفار.

قال القاضي أبو محمد: المعنى من فوق الفرق والجماعات الملحدة التي من أجل أقوالها تكاد السماوات يتفطرن، فهذه الآية على هذا كالأية التي في: ﴿كهيعص﴾ [مريم: ١]. وقالت فرقة معناه: من فوق الأرضين، إذ قد جرى ذكر الأرض، وذكر الزجاج أنه قرء «يتفطرن ممن فوقهن».

وقوله تعالى: ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾ قيل معناه: يقولون سبحان الله، وقيل معناه: يصلون لربهم.

وقوله تعالى: ﴿ويستغفرون لمن فى الأرض﴾ قالت فرقة: هذا منسوخ بقوله تعالى: ﴿فى آية أخرى: ﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾ [غافر: ٧] وهذا قول ضعيف، لأن النسخ فى الإخبار لا يتصور. وقال السدي ما معناه: إن ظاهر الآية العموم ومعناها الخصوص فى المؤمن، فكانه قال: ﴿ويستغفرون لمن فى الأرض﴾ من المؤمنين، إذ الكفار عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. وقالت فرقة: بل هى على عمومها، لكن استغفار الملائكة ليس بطلب غفران الله تعالى للكفرة على أن يبقوا كفرة، وإنما استغفارهم لهم بمعنى طلب الهداية التى تؤدى إلى الغفران لهم، وكأن الملائكة تقول: اللهم اهد أهل الأرض واغفر لهم. ويؤيد هذا التأويل تأكيده صفة الغفران والرحمة لنفسه بالاستفتاح، وذلك قوله: ﴿ألا إن الله هو الغفور الرحيم﴾ أى لما كان الاستغفار لجميع من فى الأرض يبعد أن يجاب، رجا عز وجل بأن استفتح الكلام تهية لنفس السامع فقال: ﴿ألا إن الله﴾ هو الذى يطلب هذا منه، إذ هذه أوصافه، وهو أهل المغفرة.

قوله عز وجل:

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ

قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مِنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾

هذه آية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ووعد للكفار وإزالة عن النبي صلى الله عليه وسلم جميع الكلف سوى التبليغ فقط، لثلاثيهم بعدم إيمان قريش وغيرهم، فقال تعالى لنيه: إن الذين اتخذوا الأصنام والأوثان أولياء من دون الله، الله هو الحفيظ عليهم كفرهم، المحصي لأعمالهم، المجازي لهم عليها بعذاب الآخرة، وأنت فلست بوكيل عليهم ولا ملازم لأمرهم حتى يؤمنوا. والوكيل: المقيم على الأمر، وما في هذا اللفظ من موادة فهو منسوخ بآية السيف، ثم قال تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك﴾ أي وكما قضينا أمرك هكذا وأمضيناه في هذه الصورة، كذلك أوحينا إليك قرآنًا عربيًّا مبينًا لهم، لا يحتاجون معه إلى آخر سواء ولا محتج غيره، إذ فهمه متأت لهم ولم يكلفك إلا إنذاراً من ذكر. و: ﴿أم القرى﴾ مكة، والمراد أهل مكة، ولذلك عطف ﴿من﴾، وهي في الأغلب لمن يعقل. و: ﴿يوم الجمع﴾ هو يوم القيامة، واقتصر في ﴿تنذر﴾ على المفعول الأول، لأن المعنى: وتنذر أهل أم القرى العذاب، وتنذر الناس يوم الجمع، أي تخوفهم إياه لما فيه من عذاب من كفر، وسمي ﴿يوم الجمع﴾ لاجتماع أهل الأرض فيه بأهل السماء، أو لاجتماع بني آدم للعرض.

وقوله: ﴿لا ريب فيه﴾ أي في نفسه وذاته، وارتباب الكفار به: لا يعتد به.

وقوله: ﴿فريق﴾ مرتفع على خبر الابتداء المضمّر، كأنه قال: هم فريق في الجنة، وفريق في السعير. ثم قوى تعالى تسلية نبيه عليه السلام بأن عرفه أن الأمر موقوف على مشيئة الله من إيمانهم أو كفرهم، وأنه لو أراد كونهم أمة واحدة لجمعهم عليه، ولكنه يدخل من سبقت له السعادة عنده في رحمته، ويسره في الدنيا لعمل أهل السعادة، وأن الظالمين بالكفر الميسرين لعمل الشقوة ما لهم من وليٍّ ولا نصير.

وقوله: ﴿أم اتخذوا﴾ كلام منقطع مما قبله، وليست معادلة، ولكن الكلام: كأنه أضرب عن حجة لهم أو مقالة مقررة فقال: «بل اتخذوا» هذا مشهور قول النحويين في مثل هذا، وذهب بعضهم إلى أن ﴿أم﴾ هذه هي بمنزلة ألف الاستفهام دون تقدير إضراب، ثم أثبت الحكم بأنه عز وجل هو الولي الذي تنفع ولايته، وأنه هو الذي يحيي الموتى ويحشرهم إلى الآخرة ويبعثهم من قبورهم، وأن قدرته على كل شيء تعطي هذا وتقتضيه.

قوله عز وجل:

وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾

فَاطَرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُكُمْ فِيهِ
لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ
لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

المعنى: قل لهم يا محمد: ﴿وما اختلفتم فيه﴾ أيها الناس من تكذيب وتصديق وإيمان وكفر وغير ذلك، فالحكم فيه والمجازاة عليه ليست إلي ولا بيدي، وإنما ذلك ﴿إلى الله﴾ الذي صفاته ما ذكر من إحياء الموتى والقدرة على كل شيء، ثم قال: ذلكم الله ربي وعليه توكلني وإليه إنايتي ورجوعي، وهو ﴿فاطر السماوات والأرض﴾، أي مخترعها وخالقها شق بعضها من بعض.

وقوله تعالى: ﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ يريد: زوج الإنسان الأنثى، وبهذه النعمة اتفق الذرء، وليست الأزواج هاهنا الأنواع، وأما الأزواج المذكورة مع الأنعام، فالظاهر أيضاً والمتسق: أنه يريد: إناث الذكران، ويحتمل أن يريد الأنواع، والأول أظهر.

وقوله: ﴿يذُرُكُمْ﴾ أي يخلقكم نسلاً بعد نسل وقرناً بعد قرن، قاله مجاهد والناس، فلفظة ذرأ: تزيد على لفظة: خلق معنى آخر ليس في خلق، وهو توالي الطبقات على مر الزمان.

وقوله: ﴿فيه﴾ الضمير عائد على الجعل الذي يتضمنه قوله: ﴿جعل لكم﴾، وهذا كما تقول: كلمت زيداً كلاماً أكرمته فيه. وقال القتيبي: الضمير للتزويج، ولفظة: «في» مشتركة على معان، وإن كان أصلها الوعاء وإليه يردها النظر في كل وجه.

وقوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾ الكاف مؤكدة للتشبيه، فبقي التشبيه أوكد ما يكون، وذلك أنك تقول: زيد كعمرو، وزيد مثل عمرو، فإذا أردت المبالغة التامة قلت: زيد كمثل عمرو، ومن هذا قول أوس بن حجر: [المقارب]

وقتلى كمثل جذوع النخيل ل يغشاهم سيل منهمر

ومنه قول الآخر: [البسيط]

سعد بن زيد إذا أبصرت فضلهم ما إن كمثلهم في الناس من أحد

فجرت الآية في هذا الموضع على عرف كلام العرب، وتفترق الآية مع هذه الشواهد متى أردت أن تتبع بذهنك هذا اللفظ فتقدر للجزوع مثلاً موجوداً وتشبه القتل بذلك المثل أمكنك أو لا يمكنك هذا في جهة الله تعالى إلا أن تجعل المثل ما يتحصل في الذهن من العلم بالله تعالى، إذ المثل والمثال واحد، وذهب الطبري وغيره إلى أن المعنى: ليس كهوشيء. وقالوا لفظه مثل في الآية تأكيد أو واقعة موقع هو.

قال القاضي أبو محمد: ومما يؤيد دخول الكاف تأكيداً أنها قد تدخل على الكاف نفسها، وأنشد

سيبويه:

وصاليات ككما يؤثفين

والمقاليد: المفاتيح، قاله ابن عباس والحسن، وقال مجاهد: أصلها بالفارسية، وهي هاهنا استعارة لوقع كل أمر تحت قدرته. وقال السدي: المقاليد: الخزائن، وفي العبارة على هذا حذف مضاف، قال قتادة: من ملك مقاليد خزائن، فالخزائن في ملكه، ويسط الرزق وقدره بين، وقد مضى تفسيره.

قوله عز وجل:

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْيَا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِّ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾

المعنى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ﴾ وبين من المعتقدات والتوحيد ﴿مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ قبل.

وقوله: ﴿وَالَّذِي﴾ عطف على ﴿مَا﴾، وكذلك ما ذكر بعد من إقامة الدين مشروع اتفقت النبوات فيه، وذلك في المعتقدات أو في جملة أمرها من أن كل نبوة فإنما مضمونها معتقدات وأحكام، فيجبيء المعنى على هذا: شرع لكم شرعة هي كشرعة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام في أنها ذات المعتقدات المشهورة التي هي في كل نبوة وذات أحكام كما كانت تلك كلها، وعلى هذا يخرج ما حكاه الطبري عن قتادة قال: ﴿مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ يريد الحلال والحرام، وعليه روي أن نوحاً أول من أتى بتحريم البنات والأمهات. وأما الأحكام بانفرادها فهي في الشرائع مختلفة، وهي المراد في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]

و﴿أَنْ﴾ في قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا﴾ يجوز أن تكون في موضع نصب بدلاً من ﴿مَا﴾، ويجوز في موضع خفض بدلاً من الضمير في ﴿بِهِ﴾، وفي موضع رفع على خبر ابتداء تقديره: ذلك أن، و﴿أَنْ﴾ تكون مفسرة بمعنى: أي، لا موضع لها من الإعراب، وإقامة الدين هو توحيد الله تعالى ورفض سواه.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾ نهي عن المهلك من تفرق الأنحاء والمذاهب، والخير كله في الإلفة واجتماع الكلمة. ثم أخبر تعالى نبيه بصعوبة موقع هذه الدعوة إلى إقامة الدين على المشركين بالله العابدين الأصنام. قال قتادة: كبرت عليهم: لا إله إلا الله، وأبى الله إلا نصرها، ثم سلاه عنهم بقوله: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي﴾ أي يختار ويصطفى، قاله مجاهد وغيره: و﴿يُنِيبُ﴾ معناه يرجع عن الكفر ويحرص على الخير ويطلبه.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾ عبارة يجمع خطابها كفار العرب واليهود والنصارى وكل مدعو إلى الإسلام، فلذلك حسن أن يقال: ما تفرقوا، يعني بذلك أوائل اليهود والنصارى. والعلم الذي جاءهم: هو

ما كان حصل في نفوسهم من علم كتب الله تعالى فبغى بعضهم على بعض، أداهم ذلك إلى اختلاف الرأي وافتراق الكلمة والكلمة السابئة: قال المفسرون: هي حتمه تعالى القضاء بأن مجازاتهم إنما تقع في الآخرة، فلولا ذلك لفصل بينهم في الدنيا وغلب المحق على المبطل.

وقوله تعالى: ﴿وإن الذين أورثوا الكتاب﴾ إشارة إلى معاصري محمد صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى، وقيل هي إشارة إلى العرب. و﴿الكتاب﴾: هو القرآن. والضمير في قوله: ﴿لفي شك﴾ يحتمل أن يعود على ﴿الكتاب﴾، أو على محمد، أو على الأجل المسمى، أي في شك من البعث على قول من رأى الإشارة إلى العرب، ووصف الشك بـ﴿مريب﴾ مبالغة فيه.

قوله عز وجل:

فَلِذَلِكَ فَادَّعِ وَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَأُحْجِبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يَحْمِلُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جَحَنَّهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾

اللام في قوله: ﴿فلذلك﴾ قالت فرقة: هي بمنزلة إلى، كما قال تعالى: ﴿بأن ربك أوحى لها﴾ [الزلزلة: ٥] أي إليها، كأنه قال: فإلى ما وصى به الأنبياء من التوحيد ﴿فادع﴾، وقالت فرقة: بل هي بمعنى من أجل كأنه قال: فمن أجل أن الأمر كذا ولا يكونه تذا ﴿فادع﴾ أنت إلى ربك وبلغ ما أرسلت به. وخوطب عليه السلام بأمر الاستقامة، وقد كان مستقيماً، بمعنى: دم على استقامتك، وهكذا الشأن في كل مأمور بشيء هو متلبس به إنما معناه الدوام، وهذه الآية ونحوها كانت نصب عين النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت شديدة الموقع من نفسه، أعني قوله تعالى: ﴿فاستقم كما أمرت﴾ [هود: ١١٢] لأنها جملة تحتها جميع الطاعات وتكاليف النبوة، وفي هذا المعنى قال عليه السلام: شيتني هود وأخواتها، فليل له: لم ذلك؟ فقال: لأن فيها ﴿فاستقم كما أمرت﴾ [هود: ١١٢] وهذا الخطاب له عليه السلام بحسب قوته في أمر الله تعالى وقال هو لأتمته بحسب ضعفهم استقيموا.

وقوله تعالى: ﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ يعني قريشاً فيما كانوا يهودونه من أن يعظم آلهتهم وغير ذلك، ثم أمره تعالى أن يؤمن بالكتب المنزلة قبله من عند الله، وهو أمر يعم سائر أمته.

وقوله تعالى: ﴿وأمرت لأعدل بينكم﴾ قالت فرقة: اللام في ﴿لأعدل﴾ بمعنى: أن، التقدير: بأن أعدل بينكم. وقالت فرقة المعنى: وأمرت بما أمرت به من التبليغ والشرع لكي أعدل بينكم، فحذف من الكلام ما يدل الظاهر عليه.

وقوله: ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ إلى آخر الآية منسوخ ما فيه من موادة بآية السيف.

وقوله: ﴿لَا حِجَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي لا جدال ولا مناظرة، قد وضع الحق وأنتم تعاندون، وفي قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ وعيد.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَحَاجُونَ فِي اللَّهِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد إنها نزلت في طائفة من بني إسرائيل همت برد الناس عن الإسلام وإضلالهم ومجادلتهم بأن قالوا: كتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، فديننا أفضل، فنزلت الآية في ذلك، وقيل بل نزلت في قريش لأنها كانت أبداً تحاول هذا المعنى وتطمع في رد الجاهلية و: ﴿يَحَاجُونَ فِي اللَّهِ﴾ معناه في توحيد الله، أي يحاجون فيه بالإبطال والإلحاد وما أشبه، والضمير في: ﴿لَهُ﴾ يحتمل أن يعود على ﴿اللَّهُ﴾ تعالى، أي بعد ما دخل في دينه، ويحتمل أن يعود على الدين والشرع، ويحتمل أن يعود على محمد عليه السلام. و: ﴿دَاحِضَةٌ﴾ معناه: زاهقة. والدحض: الزلق، وباقي الآية بين.

قوله عز وجل:

اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٨﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٩﴾ مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿١٠﴾

لما أنحى القول على الذين يحاجون في توحيد الله ويرومون إطفاء نوره، صدع في هذه الآية بصفة من أنزل الكتاب الهادي للناس. و: ﴿الكتاب﴾ هنا اسم جنس يعم جميع الكتب المنزلة.

وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ يحتمل أن يكون المعنى بأن كان ذلك حقاً واجباً للمصلحة والهدى، ويحتمل أن يكون المعنى مضمناً الحق، أي بالحق في أحكامه وأوامره. و﴿الميزان﴾ هنا العدل، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والناس. وحكى الثعلبي عن مجاهد أنه قال: هو هذا الميزان الذي بأيدي الناس.

قال القاضي أبو محمد: ولا شك أنه داخل في العدل وجزء منه وكل شيء من الأمور، فالعدل فيه إنما هو بوزن وتقدير مستقيم، فيحتاج في الأجرام إلى آلة، وهي العمود والكفتان التي بأيدي البشر، ويحتاج في المعاني إلى هيئات في النفوس وفهوم توازن بين الأشياء.

وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ، لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ وعيد للمشركين، أي فانظر في أي غور هم وجاء لفظ: ﴿قَرِيبٌ﴾ مذكراً من حيث تأنيث الساعة غير حقيقي، وإذ هي بمعنى الوقت.

ثم وصف تعالى حال الجهلة الكاذبين بها، فهم لذلك يستعجلون بها، أي يطلبون تعجيلها ليبين العجز ممن يحققها، فالمصدق بها مشفق خائف، والمكذب مستعجل مقيم لحجته على تكذيبه بذلك

المستعجل به . ثم استفتح الإخبار عن الممارين في الساعة بأنهم في ضلال قد بعد بهم ، أفرجوعهم عنه صعب متعذر ، وفي هذا الاستفتاح مبالغة وتأکید وتهئية لنفس السامع ، ثم رجي تبارك وتعالى عباده بقوله : ﴿الله لطيف بعباده﴾ ، و : ﴿لطيف﴾ هنا بمعنى : رفيق متحف ، والعباد هنا : المؤمنون ومن سبق له الخلود في الجنة ، وذلك أن الأعمال بخواتمها ، ولا لطف إلا ما آل إلى الرحمة ، وأما الإنعام على الكافرين في الدنيا فليس بلطف بهم ، بل هو إملاء واستدراج . وقال الجنيد : لطف بأوليائه حتى عرفوه ولو لطف بالكفار لما جحدوه ، وقيل : ﴿لطيف﴾ معناه في أن نشر عنهم المناقب ، وستر عليهم المثالب . وقيل هو الذي لا يخاف إلا عدله ، ولا يرجي إلا فضله .

وقوله : ﴿من كان يريد﴾ معناه : إرادة مستعد عامل عارف ، لا إرادة متمن لم يدر نفسه . والحرث في هذه الآية : عبارة عن السعي والتكسب والإعداد .

ولما كان حرث الأرض أصلاً من أصول المكاسب استعير لكل متكسب ، ومنه قول ابن عمر : احرث لديك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً .

وقوله تعالى : ﴿نزد في حرثه﴾ وعد منتجز .

وقوله في : ﴿حرث الدنيا نؤته منها﴾ معناه : ما شئنا ولمن شئنا ، قرب ممتحن مضيق عليه حريص على حرث الدنيا يريد له لا يحس بغيره ، نعوذ بالله من ذلك ، وهذا الذي لا يعقل غير الدنيا هو الذي نفى أن يكون له نصيب في الآخرة .

وقرأ سلام : «نؤته» برفع الهاء وهي لغة لأهل الحجاز ، ومثله قراءتهم : ﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾ [القصص : ٨١] برفع الهاء فيها .

قوله عز وجل :

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾

﴿أم﴾ هذه هي منقطة لا معادلة ، وهي بتقدير بل وألف الاستفهام . والشركاء في هذه الآية : يحتمل أن يكون المراد بهم الشياطين والمغوين من أسلافهم ، ويكون الضمير في ﴿لهم﴾ للكفار المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم ، أي شرع الشركاء لهم ما لم يأذن به الله ، فلاشتركاها هنا هو في الكفر

والغواية، وليس بشركة الإشراك بالله، ويحتمل أن يكون المراد بـ «الشركاء»: الأصنام والأوثان على معنى: أم لهم أصنام جعلوها شركاء لله في ألوهيته، ويكون الضمير: في «شرعوا» لهؤلاء المعاصرين من الكفار ولآبائهم. والضمير في: «لهم» للأصنام الشركاء، أي شرع هؤلاء الكفار لأصنامهم وأوثانهم ما لم يأذن به الله، و: «شرعوا» معناه: أثبتوا ونهجوا ورسوموا. و«الدين» هنا العوائد والأحكام والسيرة، ويدخل في ذلك أيضاً المعتقدات، لأنهم في جميع ذلك وضعوا أوضاعاً، فأما في المعتقدات فقولهم إن الأصنام آلهة، وقولهم إنهم يعبدون الأصنام زلفى وغير ذلك، وأما في الأحكام فكالبحيرة والوصيلة والحامي وغير ذلك من السوائب ونحوها، والإذن في هذه الآية الأمر. و«كلمة الفصل»: هي ما سبق من قضاء الله تعالى بأنه يؤخر عقابهم إلى الآخرة والقضاء بينهم: هو عذابهم في الدنيا ومجازاتهم.

وقرأ جمهور الناس: «وإن الظالمين» بسكر الهمزة على القطع والاستئناف. وقرأ مسلم بن جندب «وأن الظالمين» بفتح الهمزة، وهي في موضع رفع عطف على: «كلمة» المعنى: وأن الظالمين لهم في الآخرة عذاب.

وقوله: «ترى الظالمين» هي رؤية بصر، و«الظالمين» مفعول، و: «مشفقين» حال وليس لهم في هذا الإشفاق مدح، لأنهم إنما أشفقوا حين نزل بهم ووقع، وليسوا كالمؤمنين الذين هم في الدنيا مشفقون من الساعة كما تقدم.

وقوله تعالى: «وهو واقع بهم» جملة في موضع الحال. والروضات: المواضع المؤنفة النظرة، وهي مرتفعة في الأغلب من الاستعمال، وهي الممدوحة عند العرب وغيرهم، ومن ذلك قوله تعالى «كمثل جنة بربرة» [البقرة: ٢٦٥] ومن ذلك تفضيلهم روضات الحزن لجودة هوائها. قال الطبري: ولا تقول العرب لموضع الأشجار رياض.

وقوله تعالى: «ذلك الذي يبشر الله عباده» إشارة إلى قوله تعالى في الآية الأخرى: «وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً» [الأحزاب: ٤٧].

وقرأ جمهور الناس: «يُبشِّرهم» بضم الياء وفتح الباء وشد الشين المكسورة، وذلك على التعدية بالتضعيف. وقرأ مجاهد وحמיד: «يُبشِّر» بضم الياء وسكون الباء وكسر الشين على التعدية بالهمزة. قرأ ابن مسعود وابن يعمر وابن أبي إسحاق والجحدري والأعمش وطلحة: «يُبشِّر» بفتح الياء وضم الشين، ورويت عن ابن كثير. وقال الجحدري في تفسيرها: ترى النظرة في الوجه.

وقوله تعالى: «قل لا أسألكم عليه إلا المودة في القربى» اختلف الناس في معناه، فقال له ابن عباس وغيره: هي آية مكية نزلت في صدر الإسلام ومعناها استكفاف شر الكفار ودفع أذاهم أي ما أسألكم على القرآن والدين والدعاء إلى الله إلا أن تودوني لقربة هي بيني وبينكم فتكفوا عني أذاكم. قال ابن عباس وابن إسحاق وقتادة: ولم يكن في قريش بطن إلا ولرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه نسب أو صهر، فالآية على هذا هي استعطاف ما، ودفع أذى وطلب سلامة منهم، وذلك كله منسوخ بآية السيف، ويحتمل على هذا التأويل أن يكون معنى الكلام استدعاء نصرهم، أي لا أسألكم غرامة ولا شيئاً إلا أن

تودوني لقرايتي منكم وأن تكونوا أولى بي من غيركم. وقال مجاهد: المعنى إلا أن تصلوا رحمي باتباعي. وقال ابن عباس أيضاً ما يقتضي أنها مدنية، وسببها أن قوماً من شباب الأنصار فاخروا المهاجرين ومالوا بالقول على قريش، فنزلت الآية في ذلك على معنى إلا أن تودوني فتراعوني في قرايتي وتحفظونني فيهم، وقال بهذا المعنى في الآية علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، واستشهد بالآية حين سيق إلى الشام أسيراً، وهو تأويل ابن جبير وعمرو بن شعيب، وعلى هذا التأويل قال ابن عباس، قيل يا رسول الله، من قرابتك الذين أمرنا بمودتهم؟ فقال: علي وفاطمة وابناهما، وقيل هو ولد عبد المطلب.

قال القاضي أبو محمد: وقريش كلها عندي قريبي وإن كانت تتفاضل، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من مات على حب آل محمد مات شهيداً، ومن مات على بعضهم لم يشم رائحة الجنة» وقال ابن عباس في كتاب الثعلبي: سبب هذه الآية أن الأنصار جمعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم مالا وساقته إليه فرده عليهم ونزلت الآية في ذلك. وقال ابن عباس أيضاً، معنى الآية: من قريبي الطاعة والتزلف إلى الله تعالى: كأنه قال: إلا أن تودوني، لأنني أقربكم من الله، وأريد هدايتكم وأدعوكم إليها. وقال الحسن بن أبي الحسن معناه: إلا أن تتوددوا إلى الله بالتقرب إليه. وقال عبد الله بن القاسم في كتاب الطبري معنى الآية: إلا أن تتوددوا بعضهم إلى بعض وتصلوا قراباتكم، فالآية على هذا أمر بصلة الرحم. وذكر النقاش عن ابن عباس ومقاتل والكلبي والسدي أن الآية منسوخة بقوله تعالى في سورة سبأ ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ [سبأ: ٤٧] والصواب أنها محكمة، وعلى كل قول فالاستثناء منقطع، و: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى: لكن. و: ﴿يُقْتَرَفُ﴾ معناه يكتسب، ورجل قرفة: إذا كان محتالاً كسوباً.

وقرأت فرقة «يزد» على إسناد الفعل إلى الله تعالى، وقرأ جمهور الناس: «نزد» على نون العظمة، وزيادة الحسن هو التضعيف الذي وعد الله تعالى به مؤمني عباده، قاله الحسن بن أبي الحسن. و: ﴿غُفُورٌ﴾ معناه: سائر عيوب عبده. و: ﴿شُكُورٌ﴾ معناه: مجاز على الدقيقة من الخير لا يضيع عنده لعامل عمل.

قوله عز وجل:

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَوِّدُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُمْ
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٦٧﴾
وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٦٨﴾
وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٦٩﴾

﴿أم﴾ هذه أيضاً منقطعة مضمنة إضراباً عن كلام متقدم وتقريراً على هذه المقالة منهم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ﴾ معناه في قول قتادة وفرقة من المفسرين: ينسبك القرآن، والمراد الرد على مقالة الكفار وبيان إبطالها، وذلك كأنه يقول: وكيف يصح أن تكون مفترية وأنت من الله بمرأى

ومسمع، وهو قادر لو شاء على أن يختم على قلبك فلا تعقل ولا تنطق ولا يستمر افتراؤك، فمقصد اللفظ هذا المعنى وحذف ما يدل عليه الظاهر اختصاراً واقتصاراً. وقال مجاهد في كتاب الثعلبي وغيره، المعنى: ﴿فإن يشأ الله يختم على قلبك﴾ بالصبر لأذى الكفار ويربط عليه بالجلد، فهذا تأويل لا يتضمن الرد على مقاتلهم.

وقوله تعالى: ﴿ويمح﴾ فعل مستقبل خبر من الله أنه يمحو الباطل ولا بد إما في الدنيا وإما في الآخرة، وهذا بحسب نازلة. وكتبت ﴿ويمح﴾ في المصحف بحاء مرسلة كما كتبوا: ﴿ويدع الإنسان﴾ [الإسراء: ١١] إلى غير ذلك مما ذهبوا فيه إلى الحذف والاختصار.

وقوله: ﴿بكلماته﴾ معناه: بما سبق في قديم علمه وإرادته من كون الأشياء بالكلمات المعاني القائمة التي لا تبديل لها.

وقوله تعالى: ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ خبر مضمنه وعيد. ثم ذكر النعمة في تفضله بقبول التوبة عن عباده، وقبول التوبة فيما يستأنف العبد من زمنه وأعماله مقطوع به بهذه الآية، وأما ما سلف من أعماله فينقسم: فأما التوبة من الكفر فمأخوذة كل ما تقدمها من مظالم العباد الفانية، وأما التوبة من المعاصي فلاهل السنة قولان، هل تذهب المعاصي السالفة للعبد بينه وبين خالقه؟ فقالت فرقة: هي مذهبة لها، وقالت فرقة: هي في مشيئة الله تعالى، وأجمعوا على أنها لا تذهب مظالم العباد.

وحقيقة التوبة: الإقلاع عن المعاصي والإقبال والرجوع إلى الطاعات، ويلزمها الندم على ما فات، والعزم على ملازمة الخيرات. وقال سري السقطي: والتوبة: العزم على ترك الذنوب، والإقبال بالقلب إلى علام الغيوب. وقال يحيى بن معاذ: التائب من كسر شبابه على رأسه وكسر الدنيا على رأس الشيطان ولزم الفطام حتى أتاه الحمام.

وقوله تعالى: ﴿عن عباده﴾ بمعنى: من عباده، وكأنه قال: التوبة الصادرة عن عباده.

وقرأ جمهور القراء والأعرج وأبو جعفر والجحدري وقتادة: «يفعلون» بالياء على الكناية عن غائب. وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وابن مسعود وعلقمة: «تفعلون» بالياء على المخاطبة، وفي الآية تواعد.

وقوله تعالى: ﴿ويستجيب﴾ قال الزجاج وغيره معناه: يجيب، والعرب تقول: أجاب واستجاب بمعنى ومنه قول الشاعر [كعب بن سعد الغنوي]: [الطويل]

وداع دعا يا من يجيب النداء فلم يستجبه عندذاك مجيب

و: ﴿الذين﴾ على هذا القول مفعول بـ ﴿يستجيب﴾، وروي هذا المعنى عن معاذ بن جبل ونحوه عن ابن عباس، وقالت فرقة المعنى: ويستدعي الذين آمنوا الإجابة من ربهم بالأعمال الصالحة.

ودل قوله: ﴿ويزيدهم من فضله﴾ على أن المعنى فيجيبهم، وحملت هذه الفرقة استجابه على المعهود من باب استعمل، أي طلب الشيء. و: ﴿الذين﴾ على هذا القول فاعل بـ ﴿يستجيب﴾. وقالت

فرقة: المعنى ويجب المؤمنون ربهم، ف﴿الذين﴾: فاعل بمعنى يجيئون دعوة شرعه ورسالته. والزيادة من فضله: هي تضعيف الحسنات، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: هي قبول الشفعات في المذنبين والرضوان.

وقوله تعالى: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾ قال عمرو بن حريث وغيره إنها نزلت لأن قومًا من أهل الصفة طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغنيهم الله ويبسط لهم الأموال والأرزاق، فأعلمهم الله تعالى أنه لو جاء الرزق على اختيار البشر واقتراحهم لكان سبب بغيتهم وإفسادهم، ولكنه تعالى أعلم بالمصلحة في كل أحد، وله بعبده خبرة وبصر بأخلاقهم ومصالحهم، فهو ينزل لهم من الرزق القدر الذي به صلاحهم، فرب إنسان لا يصلح وتكتف عاديته إلا بالفقر وآخر بالغنى. وروي أنس بن مالك في هذا المعنى التقسم حديثًا عن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال أنس: اللهم إني من عبادك الذين لا يصلحهم إلا الغنى، فلا تفقرني. وقال خباب بن الأرت: فينا نزلت: ﴿ولو بسط الله الرزق﴾ الآية، لأننا نظرنا إلى أموال بني قريظة وبني النضير وبني قينقاع فتمنيهاها فنزلت الآية.

قوله عز وجل:

وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَابَثَ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾

هذه تعديد نعمة الله تعالى الدالة على وحدانيته، وأنه الإله الذي يستحق أن يعبد دون سواه من الأنداد.

وقرأ «يُنَزِّلُ» مثقلة بجمهور القراء، وقرأها «يُنَزَّلُ» مخففة ابن وثاب والأعمش، ورويت عن أبي عمرو، ورجحها أبو حاتم، وقرأ جمهور الناس: «قَنَطُوا» بفتح النون، وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش: بكسر النون، وقد تقدم ذكرها وهما لغتان: قَنَطَ، وَقَنَطَ، وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قيل له: أجذبت الأرض وقنط الناس، فقال: مطروا إذاً، بمعنى أن الفرج عند الشدة، واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿وينشر رحمته﴾ فقالت فرقة: أراد بالرحمة المطر، وعدد النعمة بعينها بلفظتين: الثاني منهما يؤكد الأول. وقالت فرقة: الرحمة في هذا الموضع الشمس، فذلك تعديد نعمة غير الأولى، وذلك أن المطر إذا ألم بعد القنط حسن موقعه، فإذا دام ستم، فتجيء الشمس بعده عظيمة الموضع.

وقوله تعالى: ﴿وهو الولي الحميد﴾ أي من هذه أفعاله فهو الذي ينفع إذا والى وتحمد أفعاله ونعمه،

لا كالذي لا يضر ولا ينفع من أوثانكم. ثم ذكر تعالى الآية الكبرى، الصنعة الدالة على الصانع، وذلك ﴿خلق السماوات والأرض﴾.

وقوله تعالى: ﴿وما بث فيهما﴾ يتخرج على وجوه، منها أن يريد إحداهما فيذكر الاثنين كما قال: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ [الرحمن: ٢٢] وذلك إنما يخرج من الملح وحده، ومنها أن يكون تعالى قد خلق السماوات وبث دواب لا نعلمها نحن، ومنها أن يريد الحيوانات التي توجد في السحاب، وقد يقع أحياناً كالضفادع ونحوها، فإن السحاب داخل في اسم السماء. وحكى الطبري عن مجاهد أنه قال في تفسير: ﴿وما بث فيهما من دابة﴾ هم الناس والملائكة، ويعيد غير جار على عرف اللغة أن تقع الدابة على الملائكة.

وقوله تعالى: ﴿وهو على جمعهم﴾ يريد القيامة عند الحشر من القبور وقوله تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة﴾ قرأ جمهور القراء: «فما» بفاء، وكذلك هي في جل المصاحف. وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر وشيبة: «بما» دون فاء. وحكى الزجاج أن أبا جعفر وحده من المدنيين أثبت الفاء. قال أبو علي الفارسي: «أصاب»، من قوله: «وما أصاب» يحتمل أن يكون في موضع جزم، وتكون ﴿ما﴾ شرطية، وعلى هذا لا يجوز حذف الفاء عند سيويه، وجوز حذفها أبو الحسن الأخفش وبعض البغداديين على أنها مرادة في المعنى، ويحتمل أن يكون «أصاب» صلة لما، وتكون ﴿ما﴾ بمعنى الذي، وعلى هذا يتجه حذف الفاء وثبوتها، لكن معنى الكلام مع ثبوتها التلازم، أي لولا كسبكم ما أصابتكم مصيبة، والمصيبة إنما هي بسبب كسب الأيدي، ومعنى الكلام مع حذفها يجوز أن يكون التلازم، ويجوز أن يعرى منه، وأما في هذه الآية فالتلازم مطرد مع الثبوت والحذف.

وأما معنى الآية فاختلف الناس فيه، فقالت فرقة: هي إخبار من الله تعالى بأن الرزايا والمصائب في الدنيا إنما هي مجازاة من الله تعالى على ذنوب المرء وخطاياها، وأن الله تعالى يعفو عن كثير فلا يعاقب عليه بمصيبة، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يصيب ابن آدم خدش عود أو عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو عنه أكثر»، وقال عمران بن حصين وقد سئل عن مرضه إن أحبه إلي أحبه إلى الله، وهذا بما كسبت يداي، وعفو ربي كثير. وقال مرة الهمداني: رأيت على ظهر كف شريح قرحة فقلت ما هذا؟ قال هذا بما كسبت يدي ﴿ويعفو عن كثير﴾، وقيل لأبي سليمان الداراني: ما بال الفضلاء لا يلومون من أساء إليهم؟ فقال لأنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي ابتلاهم بذنوبهم. وروي عن علي بن أبي طالب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله أكرم من أن يثني على عبده العقوبة إذا أصابته في الدنيا بما كسبت يده». وقال الحسن بن أبي الحسن، معنى الآية في الحدود: أي ما أصابكم من حد من حدود الله، وتلك مصائب تنزل بشخص الإنسان ونفسه، فإنما هي بكسب أيديكم ﴿ويعفو عن كثير﴾، فستره على العبد حتى لا يحد عليه. ثم أخبر عن قصور ابن آدم وضعفه وأنه في قبضة القدرة، لا يعجز طلب ربه، ولا يمكنه الفرار منه و﴿الجواري﴾ جمع جارية، وهي السفينة.

وقرأ: «الجواري» بالياء نافع وعاصم وأبو عمرو وأبو جعفر وشيبة، ومنهم من أثبتها في الوصل ووقف

على الرءاء. وقرأ أيضاً عاصم بحذف الياء في وصل ووقف. وقال أبو حاتم: نحن نثبتها في كل حال.

و: «الأعلام» الجبال، ومنه قول الخنساء: [البسيط]

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

ومنه المثل: إذا قطعن علماً بدا علم فجري السفن في الماء آية عظيمة، وتسخير الريح لذلك نعمة منه تعالى، وهو تعالى لو شاء أن يديم سكون الريح عنها لركدت أي أقامت وقرت ولم يتم منها غرض.

وقرأ أبو عمرو وعاصم «الريح» واحدة. وقرأ: «الرياح» نافع وابن كثير والحسن.

وقرأ الجمهور: «فيظللن» بفتح اللام. وقرأ قتادة: «فيظللن» بكسر اللام.

وباقى الآية فيه الموعظة وتشريف الصبار الشكور بالتخصيص، والصبر والشكر فيهما الخير كله، ولا يكونان إلا في عالم.

قوله عز وجل:

أَوْ يُوقِعَهُنَّ يَمًا كَسْبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيءَ آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّخِصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمُنَّعَ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ كِبِيرَ الْأَيْتَامِ وَالْفُلُوحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾

أوقعت الرجل إذا أنشبهته في أمر يهلك فيه، فالإيقاق في السفن هو تغريقها، والضمير في: «كسبوا» هو لركابها من البشر، أي بذنوب البشر. ثم ذكر تعالى ثانية: «ويعف عن كثير» مبالغة وإيضاحاً.

وقرأ نافع وابن عامر والأعرج وأبو جعفر وشيبة: «ويعلم» بالرفع على القطع والاستثنا، وحسن ذلك إذا جاء بعد الجزاء. وقرأ الباقون والجمهور: «ويعلم» بالنصب على تقدير: أن، وهذه الواو نحو التي يسميها الكوفيون واو الصرف، لأن حقيقة واو الصرف هي التي يريد بها عطف فعل على اسم، فيقدر أن لتكون مع الفعل بتأويل المصدر فيحسن عطفه على اسم، وذلك نحو قول الشاعر: [الطويل]

تقضي لبانات ويسأم سائم

فكانه أراد: وسامة سائم، فقدّر: وأن يسأم لتكون ذلك بتأويل المصدر الذي هو سامة قال أبو علي: حسن النصب إذ كان قبله شرط وجزاء، وكل واحد منهما غير واجب وقوله تعالى: «ما لهم من مَخِصٍ» هو معلومهم الذي أراد أن يعلمه المجادلون في آياته عز وجل. والمخيص: المنجي وموضوع الروغان، يقال حاص إذا راغ، وفي حديث هرقل: فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب، ثم وعظ تعالى عباده

وحقر عندهم أمر الدنيا وشأنها ورغبهم فيما عنده من نعيمهم والمنزلة الرفيعة لديه، وعظم قدر ذلك في قوله: ﴿فَمَا أَوْتِيتُمْ﴾ الآية.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ عطف على قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾. وقرأ جمهور الناس: «كباثر» على الجمع. قال الحسن: هي كل ما توعد فيه بالنار. وقال الضحاك: أو كان فيه حد من الحدود. وقال ابن مسعود: الكباثر من أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية. وقال علي وابن عباس: هي كل ما ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم: «كبير» على الأفراد الذي هو اسم الجنس. وقال ابن عباس: كبير الإثم: هو الشرك. ﴿وَالْفَوَاحِشُ﴾ قال السدي: الزنا. وقال مقاتل: موجبات الحدود، ويحتمل أن يكون كبير اسم جنس بمعنى كباثر، فتدخل موبات السبع على ما قد تفسر من أمرها في غير هذه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ حض على كسر الغضب والتدرب في إطفائه، إذ هو جمهرة من جهنم وباب من أبوابها، وقال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: أوصني، قال: لا تغضب، قال: زدني، قال: لا تغضب. قال: زدني: قال: لا تغضب ومن جاهد هذا العارض من نفسه حتى غلبه فقد كفي همًا عظيمًا في دنياه وآخرته.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ مدح لكل من آمن بالله وقبل شرعه، ومدح تعالى القوم الذين أمرهم شورى بينهم، لأن في ذلك اجتماع الكلمة والتحاب واتصال الأيدي والتعااضد على الخير، وفي الحديث: «ما تشاور قوم إلا هدوا لأحسن ما بحضرتهم».

وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ معناه في سبيل الله وبرسم الشرع وعلى حدوده، وفي القوام الذي مدحه تعالى في غير هذه الآية. وقال ابن زيد قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ الآية نزلت في الأنصار، والظاهر أن الله تعالى مدح كل من اتصف بهذه الصفة كائنًا من كان، وهل حصل الأنصار في هذه الصفة إلا بعد سبق المهاجرين لها رضي الله تعالى عن جميعهم بمنه.

قوله عز وجل:

وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ اتَّصَرَ بِعَدُوِّهِ فَلَهُ جُزَاءٌ أَوْ لِيكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾

مدح الله تعالى في هذه الآية قومًا بالانتصار من البغي، ورجح ذلك قوم من العلماء وقالوا: الانتصار بالواجب تغيير منكر، ومن لم ينتصر مع إمكان الانتصار فقد ترك تغيير المنكر واختلف الناس في المراد بالآية بعد اتفاقهم على أن من بغى عليه وظلم فجازله أن ينتصر بيد الحق وحاكم المسلمين، فقال مقاتل: الآية في المجروح ينتصف من الجارح بالقصاص. وقالت فرقة: إنها نزلت في بغى المشرك على المؤمن، فأباح الله لهم الانتصار منهم دون تعدٍّ، وجعل العفو والإصلاح مقرونًا بأجر، ثم نسخ ذلك بآية السيف،

وقالت هذه الفرقة وهي الجمهور؛ إن المؤمن إذا بغى على مؤمن وظلمه، فلا يجوز للآخر أن ينتصف منه بنفسه ويجازيه على ظلمه، مثال ذلك: أن يخون الإنسان آخر ثم يتمكن الإنسان من خيانتة، فمذهب مالك رحمه الله أن لا يفعل، وهو مذهب جماعة عظيمة معه، ولم يروا هذه الآية من هذا المعنى، واحتجوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك». وهذا القول أنزه وأقرب إلى الله تعالى. وقالت طائفة من أهل العلم: هذه الآية عامة في المشركين والمؤمنين، ومن بغى عليه وظلم فجائز له أن ينتصف لنفسه ويخون من خانه في المال حتى ينتصر منه، وقالوا إن الحديث: «ولا تخن من خانك»، إنما هو في رجل سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم هل يزني بحرمة من زنا بحرمتها؟ فقال له النبي عليه السلام: ذلك يريد به الزنا، وكذلك ورد الحديث في معنى الزنا، ذكر ذلك الرواة، أما أن عمومها ينسحب في كل شيء.

وقوله تعالى: ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ﴾ قال الزجاج: سمي العقوبة باسم الذنب.

قال القاضي أبو محمد: وهذا إذا أخذنا السيئة في حق الله تعالى بمعنى المعصية، وذلك أن المجازاة من الله تعالى ليست سيئة إلا بأن سميت باسم موجبها، وأما إن أخذنا السيئة بمعنى المعصية في حق البشر، أي يسوء هذا هذا ويسوء الآخر، فلسنا نحتاج إلى أن نقول سمي العقوبة باسم الذنب، بل الفعل الأول والآخر ﴿سيئة﴾ وقال ابن أبي نجيج والسدي معنى الآية: أن الرجل إذا شتم بشتمه فله أن يردها بعينها دون أن يتعدى. قال الحسن بن أبي الحسن: ما لم يكن حداً أو عوراء جداً واللام في قوله: ﴿لمن انتصر﴾ لام التقاء القسم.

وقوله: ﴿من سبيل﴾ يريد ﴿من سبيل﴾ حرج ولا سبيل حكم، وهذا إِبلاغ في إباحة الانتصار، والخلاف فيه هل هو بين المؤمن والمشرک، أو بين المؤمنين على ما تقدم.

قوله عز وجل:

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾
وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَمُومٍ وَلِي مِّنْ بَعْدِهِ وَتَرَى
الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَنَّهُمْ يُخَرِّضُونَ عَلَيْهَا
جَحَاشِينَ مِّنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِّن طَرَفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا
أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾

المعنى إنما سبيل الحكم والإثم ﴿على الذين يظلمون الناس﴾، أي الذين يضعون الأشياء غير مواضعها من القتل وأخذ المال والأذى باليد وباللسان. والبغي بغير الحق وهو نوع من أنواع الظلم، خصه بالذكر تنبيهاً على شدته وسوء حال صاحبه، ثم توعدهم تعالى بالعذاب الأليم في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾. وقوله: ﴿أَلَيْمٌ﴾ اعتراض بين الكلامين، ثم عاد في قوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ إلى الكلام الأول، كأنه قال: ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ولمن صبر وغفر. واللام في قوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ يصح أن تكون لام القسم، ويصح أن تكون لام الابتداء. و«من» ابتداء. وخبره في قوله: ﴿إِن ذَلِكَ﴾. و: ﴿عَزَمَ الْأُمُورَ﴾ محكمها ومتقنها والحمد العاقبة منها. ومن رأى أن هذه الآية هي فيما بين المؤمنين والمشركين وأن الضمير للمشركين كان أفضل، قال إن الآية نسخت بآية السيف، ومن رأى أن الآية إنما هي بين المؤمنين، قال هي محكمة، والصبر والغفران أفضل إجماعاً، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد، من كان له على الله أجر فليقم، فيقوم عنق من الناس كثير، فيقال ما أجركم؟ فيقولون: نحن الذين عفونا ظلمنا في الدنيا».

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَضِللِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ﴾ تحقير لأمر الكفرة فلا يبال بهم أحد من المؤمنين، فقد أضرهم كفرهم وإضلال الله إياهم إلى ما لا فلاح لهم معه. ثم وصف تعالى لنبيه عليه السلام حالهم في القيامة عند رؤيتهم العذاب فاجتزى من صفتهم وصفة حالتهم بأنهم يقولون ﴿هَلْ إِلَى مَرَدٍ مِّن سَبِيلٍ﴾، وهذه المقالة تدل على سوء ما أطلعوا عليه، والمراد موضوع الرد إلى الدنيا، والمعنى الذي قصدوه أن يكون رد فيكون منهم استدراك للعمل والإيمان. والرؤية في هذه الآية: رؤية عين. والضمير في قوله: ﴿عَلَيْهَا﴾ عائذ على النار، وعاد الضمير مع أنها لم يتقدم لها ذكر من حيث دل عليها قوله: ﴿رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ وقوله: ﴿مِنَ الذَّلِّ﴾ يحتمل أن يتعلق بـ ﴿خَاشِعِينَ﴾ ويحتمل أن يتعلق بما بعده من قوله: ﴿يَنْظُرُونَ﴾.

وقرأ طلحة بن مصرف: «من الذل» بكسر الذال.

والخشوع: الاستكانة، وقد يكون محموداً، وما يخرج به إلى حالة الذم قوله: ﴿مِنَ الذَّلِّ﴾ فيقوى على هذا تعلق: ﴿مِنَ﴾ بـ: ﴿خَاشِعِينَ﴾.

وقوله: ﴿مِنَ طَرَفٍ خَفِيٍّ﴾ يحتمل ثلاثة معان. قال ابن عباس: خفي ذليل.

قال القاضي أبو محمد: لما كان نظرهم ضعيفاً ولحظهم بمهانة وصفه بالخفاء، ومن هذا المعنى قول الشاعر [جرير بن عطية]:

فغض الطرف إنك من نمير

وقال قوم فيما حكى الطبري: لما كانوا يحشرون عمياً وكان نظرهم بعيون قلوبهم جعله طرفاً خفياً، أي لا يبدو نظرهم، وفي هذا التأويل تكلف. وقال قتادة والسدي: المعنى يسارقون النظر لما كانوا من الهم وسوء الحال لا يستطيعون النظر بجميع العين، وإنما ينظرون من بعضها. قال: ﴿مِنَ طَرَفٍ خَفِيٍّ﴾ أي قليل. فـ «الطرف» هنا على هذا التأويل يحتمل أن يكون مصدراً، أي يطرف طرفاً خفياً. وقول: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هو في يوم القيامة عندما عاينوا حال الكفار وسوء منقلبهم. وخسران الأهلين: يحتمل أن يراد به أهلهم الذين كانوا في الدنيا، ويحتمل أن يراد به أهلهم الذين كانوا يكونون لهم في الجنة أن لو دخلوها.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ يحتمل أن يكون من قول المؤمنين يومئذ حكاية الله عنهم، ويحتمل أن يكون استئنافاً من قول الله تعالى وإخباره لمحمد عليه السلام.
قوله عز وجل:

وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا إِنْ إِلَهُكَ إِلَّا الْبَلَعُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَبًا وَإِنْ نُصِيبَهُمْ سَيْئَةً يَمُوتُوا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ إنحاء على الأصنام والأوثان التي أظهر الكفار ولايتها واعتقدت ذلك ديناً، المعنى: فما بالهم يوالون هذه التي لا تضر ولا تنفع، ولكن من يضل الله ﴿فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ هدى ونجاة، ثم أمر تعالى نبيه أن يأمرهم بالاستجابة لدعوة الله وشريعته، وحذرهم إتيان يوم القيامة الذي لا يرد أحد بعده إلى عمل، والذي لا ملجأ ولا منجى لأحد فيه إلا إلى العلم بالله تعالى والعمل الصالح في الدنيا، فأخبرهم أنه لا ملجأ لهم ولا نكير. والنكير مصدر بمعنى الإنكار وهو بمنزلة عديد الحي ونحوه من المصادر، ويحتمل أن يكون من أبنية اسم الفاعل من نكر، وإن كان المعنى يبعد به، لأن نكر إنما معناه لم يميز وظن الأمر غير ما عهده.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا﴾ تأنيس لمحمد عليه السلام وإزالة لهم بهم، وأعلمه أنه ليس عليه إلا البلاغ وتوصيل الحجة، ثم جاءت عبارة في باقي الآية هي بمنزلة ما يقول، والقوم قوم عتو وتناقض أخلاق واضطراب، إذا أذيقوا رحمة فرحوا بها ويطروا، وإن أصابت سيئة أي مصيبة تسوءهم في أجسامهم أي في نفوسهم، وذلك بذنوبهم وقبيح فعلهم فإنهم كفر عند ذلك غير صبر. وعبر بـ ﴿الإنسان﴾ الذي هو اسم عام ليدخل في الآية والمذمة جميع الكفرة من المجاورين يومئذ ومن غيرهم، وجمع الضمير في قوله: ﴿تصيبهم﴾ وهو عائد على لفظ ﴿الإنسان﴾ من حيث هو اسم جنس يعم كثيراً.
قوله عز وجل:

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ بُرْءً وَجْهَهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِشَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَمَا كَانَ إِشْرَافُ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ عَلَى حَكِيمٍ ﴿٥١﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ

جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ لَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

الآية الأولى آية اعتبار دال على القدرة والملك المحيط بالجميع، وأن مشيئته تبارك وتعالى نافذة في جميع خلقه وفي كل أمرهم، وهذا لا مدخل لصنم فيه، فإن الذي يخلق ما يشاء ويخترع، فإنما هو الله تبارك وتعالى، وهو الذي يقسم الخلق فيهب الإناث لمن يشاء، أي يجعل بنيه نساء، ويهب الذكور لمن يشاء على هذا الحد، أو ينوعهم مرة يهب ذكراً ويهب أنثى، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يزوجهم﴾. وقال محمد بن الحنفية: يريد بقوله تعالى: ﴿أَوْ يزوجهم﴾ التوأم، أي يجعل في بطن زوجاً من الذرية ذكراً وأنثى. والعقيم: الذي لا يولد له، وهذا كله مدبر بالعلم والقدرة، وهذه الآية تقضي بفساد وجود الخنثى المشكل. وبدء في هذه الآية بذكر الإناث تأنيساً بهن وتشريفاً لهن ليهتم بصونهن والإحسان إليهن، وقال النبي عليه السلام: «من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كن له حجاً من النار». وقال واثلة بن الأسقع: من يمن المرأة بتكبرها بالأنثى قبل الذكر، لأن الله تعالى بدأ بالإناث، حكاه الثعلبي. وقال إسحاق بن بشر: نزلت هذه الآية في الأنبياء ثم عمت، فلو ط أبو البنات لم يولد له ذكر، وإبراهيم ضده، ومحمد عليه السلام ولد له الصنفان، ويحيى بن زكرياء عقيم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ﴾ الآية نزلت بسبب خوض كان للكفار في معنى تكليم الله موسى ونحو ذلك، ذهبت قريش واليهود في ذلك إلى تجسيم ونحوه، فنزلت الآية مبينة صورة تكليم الله عباده كيف هو، فبين الله أنه لا يكون لأحد من الأنبياء ولا ينبغي له ولا يمكن فيه أن يكلمه الله إلا بأن يوحى إليه أحد وجوه الوحي من الإلهام. قال مجاهد، والنفس في القلب. وقال النقاش: أو وحي في منام؟ قال إبراهيم النخعي: كان من الأنبياء من يخط له في الأرض ونحو هذا، أو بأن يسمعه كلامه دون أن يعرف هو للمتكلم جهة ولا حيزاً كموسى عليه السلام، وهذا معنى: ﴿من وراء حجاب﴾ أي من خفاء عن المتكلم لا يحده ولا يتصور بذهنه عليه، وليس كالحجاب في الشاهد، أو بأن يرسل إليه ملكاً يشافهه بوحى الله تعالى. وقرأ جمهور القراء والناس: «أو يرسل» بالنصب «فيوحي» بالنصب أيضاً. وقرأ نافع وابن عامر وأهل المدينة: «أو يرسل» بالرفع «فيوحي» بسكون الياء ورفع الفعل. فأما القراءة الأولى فقال سيبويه: سألت الخليل عنها فقال: هي محمولة على «أن» غير التي في قوله: ﴿أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ﴾ لأن المعنى كان يفسد لو عطف على هذه، وإنما التقدير في قوله: ﴿وَحْيًا﴾ إلا أن يوحى وحياً.

وقوله: ﴿من وراء حجاب﴾، ﴿من﴾ متعلقة بفعل يدل ظاهر الكلام عليه، تقديره: أو يكلمه من وراء حجاب، ثم عطف: «أو يرسل» على هذا الفعل المقدر.

وأما القراءة الثانية فعلى أن «يرسل» في موضع الحال أو على القطع، كأنه قال: أو هو يرسل، وكذلك يكون قوله: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ مصدر في موضع الحال، كما تقول: أتيتك ركضاً وعدواً، وكذلك قوله: ﴿من وراء حجاب﴾ في موضع الحال كما هو قوله: ﴿ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين﴾ [آل

عمران: ٤٦] في موضع الحال، فكذلك ﴿من﴾ [آل عمران: ٤٦] وما عملت فيه هذه الآية أيضاً، ثم عطف قوله: «أو يرسل» على هذه الحال المتقدمة. وفي هذه الآية دليل على أن الرسالة من أنواع التكليم، وأن الحالف المرسل حاث إذا حلف أن لا يكلم إنساناً فأرسل إليه وهو لم ينو المشافهة وقت يمينه.

وقوله تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك﴾ المعنى وبهذه الطرق ومن هذا الجنس أوحينا إليك أو بالرسل. والروح في هذه الآية: القرآن وهدى الشريعة سماه ﴿روحاً﴾ من حيث يحيي به البشر والعالم، كما يحيي الجسد بالروح، فهذا على جهة التشبيه.

وقوله تعالى: ﴿من أمرنا﴾ أي واحد من أمورنا، ويحتمل أن يكون الأمر بمعنى الكلام، و﴿من﴾ لا ابتداء الغاية.

وقوله تعالى: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾ توقيف على مقدار النعمة. والضمير في: ﴿جعلناه﴾ عائد على الكتاب، و. ﴿يهدي﴾ بمعنى يرشد.

وقرأ جمهور الناس: «وانك لتُهدي» بفتح التاء وكسر الدال. وقرأ حوشب: «تُهدى» بضم التاء وفتح الدال على بناء الفعل للمفعول، وفي حرف أبي: «لتدعو»، وهي تعضد قراءة الجمهور. وقرأ ابن السميع وعاصم والجحدري: «لتُهدي» بضم التاء وكسر الدال...

وقوله: ﴿صراط الله﴾ يعني صراط شرع الله ورحمته وجنته، فبهذا الوجه ونحوه من التقدير أضيف الصراط إلى الله تعالى. واستفتح القول في الإخبار بصيرورة الأمور إلى الله تعالى مبالغة وتحقيقاً وتشبيهاً، والأمور صائرة على الدوام إلى الله تعالى، ولكن جاءت هذه العبارة مستقبلة تقريباً لمن في ذهنه أن شيئاً من الأمور إلى البشر. وقال سهيل بن أبي الجعد: احترق مصحف فلم يبق منه إلا قوله: ﴿ألا إلى الله تصير الأمور﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الزَّخْرَفِ

هذه السورة مكية بإجماع من أهل العلم.

قوله عز وجل:

حَمَّ ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ② إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ③ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ
الْكِتَابِ لَدَيْنَا عَلَى حَكِيمٌ ④ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا
مُتْسِرِفِينَ ⑤ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ⑥ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ
⑦ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ⑧ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ①

تقدم القول في الحروف في أوائل السور.

وقوله: ﴿وَالْكِتَابِ﴾ خفض بواو القسم. و: ﴿الْمُبِينِ﴾ يحتمل أن يكون من أبان الذي هو بمعنى بان، أي ظهر، فلا يحتاج إلى مفعول، ويحتمل أن يكون معدى من بان، فهذا لا بد من مفعول تقديره: المبين الهدى أو الشرع ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾ معناه: سميناه وصيرناه، وهو إخبار عليه وقع القسم، والضمير في: ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ عائد على: ﴿الْكِتَابِ﴾، و: ﴿عَرَبِيًّا﴾ معناه: بلسانكم لئلا يبقى لكم عذر.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ترج بحسب معتقد البشر، أي إذا أبصر المبصر من البشر هذا الفعل منا ترجى منه أن يعقل الكلام ويفهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ﴾ عطف على قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾ وهذا الإخبار الثاني واقع أيضاً تحت القسم. و: ﴿أَمْ الْكِتَابِ﴾ اللوح المحفوظ، وهذا فيه تشريف للقرآن وترفع.

واختلف المتأولون كيف هو في ﴿أَمْ الْكِتَابِ﴾، فقال عكرمة وقتادة والسدي وعطية بن سعيد: القرآن بأجمعه فيه منسوخ، ومنه كان جبريل عليه السلام ينزل، وهنالك هو علي حكيم. وقال جمهور الناس: إنما في اللوح المحفوظ ذكره ودرجته ومكانته من العلو والحكمة.

وقرأ جمهور الناس: «في أم» بضم الهمزة، وقرأها بكسر الهمزة يوسف والي العراق وعيسى بن عمر.

وقوله: ﴿أفنضرب﴾ بمعنى: أفترك، تقول العرب أضربت عن كذا وضربت إذا أعرضت وتركته. و: ﴿الذكر﴾ هنا الدعاء إلى الله والتذكير بعذابه والتخويف من عقابه، وقال أبو صالح: ﴿الذكر﴾ هنا هو العذاب نفسه، وقال الضحاك ومجاهد: ﴿الذكر﴾ القرآن.

وقوله تعالى: ﴿صفحاً﴾ انتصابه كانتصاب ﴿صنع الله﴾ [النمل: ٨٨]، فيحتمل أن يكون بمعنى العفو والغفر للذنوب، فكأنه يقول: أفترك تذكيركم وتخويفكم عفواً عنكم وغفراً لإجرامكم إذ كنتم أو من أجل أن كنتم قوماً مسرفين، أي هذا لا يصلح، وهذا قول ابن عباس ومجاهد، ويحتمل قوله: ﴿صفحاً﴾ أن يكون بمعنى مغفولاً عنه، أي نتركه يمر لا تؤخذون بقبوله ولا بتدبر ولا تنهون عليه، وهذا المعنى نظير قول الشاعر: [الطويل]

تمر الصبا صفحاً بساكن ذي الغضا ويصدع قلبي إن يهب هبوبها

أي تمر مغفولاً عنها، فكأن هذا المعنى: أفترككم سدى، وهذا هو منجى قتادة وغيره، ومن اللفظة قول كثير: [الطويل]

صفوحاً فما تلقاك إلا بخيلة فمن ملّ منها ذلك الوصل ملّت

وقرأ السميّط بن عمرو السدوسي: «صفحاً» بضم الصاد. وقرأ نافع وحزمة والكسائي: «إن كنتم» بكسر الألف، وهو جزء دل ما تقدم على جوابه. وقرأ الباقر والأعرج وقتادة: «أن كنتم» بفتح الألف. بمعنى من أجل أن، وفي قراءة ابن مسعود: «إذ كنتم». والإسراف في الآية: هو الكفر والضلال البعيد في عبادة غير الله عز وجل والتشريك به.

وقوله تعالى: ﴿وكم أرسلنا من نبيء في الأولين﴾ الآيات تسليّة لمحمد عليه السلام، وذكر إسوة له ووعد لهم وتهديد بأن يصيبهم ما أصاب من هو أشدّ بطشاً. والأولون: هم الأمم الماضية كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، والضمير في قوله: ﴿كانوا يستهزئون﴾ ظاهره العموم والمراد به الخصوص فيمن استهزأ، وإلا فقد كان في الأولين من لم يستهزئ، والضمير في: ﴿منهم﴾ عائذ على قریش.

وقوله تعالى: ﴿ومضى مثل الأولين﴾ أي سلف أمرهم وستهم، وصاروا عبرة عابر الدهر.

وقوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم﴾ الآية ابتداء احتجاج على قریش يوجب عليهم التناقض في أمرهم، وذلك أنهم يقرون أن الخالق الموجد لهم وللسموات والأرض هو الله تعالى، وهم مع ذلك يعبدون أصناماً ويدعونها آلهتهم، ومقتضى جواب قریش أن يقولوا «خلقهن الله» فلما ذكر تعالى المعنى جاءت العبارة عن الله بـ ﴿العزیز العليم﴾ ليكون ذلك توطئة لما عدد بعد من أوصافه التي ابتدأ الإخبار بها وقطعها من الكلام الذي حكى معناه عن قریش.

قوله عز وجل:

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَابَهُ بَلَدَةً مَّيْتًا ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ
كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ
إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا
لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

هذه أوصاف فعل، وهي نعم من الله تعالى على البشر، تقوم بها الحجة على كل كافر مشرك بالله تعالى.

وقوله: ﴿الذي جعل لكم﴾ ليس من قول المسؤولين، بل هو ابتداء إخبار من الله تعالى.
وقرأ جمهور الناس: «مهاداً» وقرأ ابن مسعود وطلحة والأعمش: «مهدياً»، والمعنى واحد، أي يتمهد
ويتصرف فيها.

والسبل: الطرق. و: «تهتدون» معناه في المقاصد من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر، ويحتمل أن
يريد: «تهتدون» بالنظر والاعتبار.

وقوله تعالى: ﴿من السماء﴾ هو المطر بإجماع، واختلف المتأولون في معنى قوله: ﴿يقدر﴾ فقالت
فرقة معناه: بقضاء وحتم في الأزل. وقال آخرون المعنى: يقدر في الكفاية للصالح لا إكثار فيفسد ولا قلة
فيقصر، بل غيثاً مغيثاً سبيلاً نافعاً. وقالت فرقة معناه: بتقدير وتحرير، أي قدراً معلوماً، ثم اختلف قائلو
هذه المقالة، فقال بعضهم: ينزل كل عام ماء قدراً واحداً لا يفضل عام عاماً، لكن يكثر مرة هنا ومرة
هاهنا. وقالت فرقة: بل ينزل الله تقديراً ما في عام، وينزل في آخر تقدير آخر بحسب ما سبق به قضاؤه،
لا إله غيره. و: «أنشرناباً» معناه: أحيينا، يقال: نشر الميت، وأنشره الله. و: «بلدة» اسم جنس،
ووصفها بـ «ميتاً» دون ضمير من حيث هي واقعة موقع قطر ونحوه، إذ التأنيت فيها غير حقيقي.

وقرأ الجمهور: «ميتاً» بسكون الياء. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: «ميتاً» بياء مكسورة مشددة، وهي
قراءة عيسى بن عمر، والأول أرجح لشبه لفظها: بزور، وعدل، فحسن وصف المؤنث بها.

وقرأ أكثر السبعة والأعرج وأبو جعفر: «كذلك تُخْرِجُونَ» بضم التاء وفتح الراء. وقرأ حمزة والكسائي
وابن وثاب وعبد الله بن جبير المصباح: «وكذلك تُخْرِجُونَ» بفتح التاء وضم الراء.

و: ﴿الأزواج﴾ الأنواع من كل شيء، و﴿من﴾ في قوله: ﴿من الفلك﴾ للتبعيض، وذلك أنه لا
يركب من الأنعام غير الإبل، وتدخل الخيل والبغال والحمير فيما يركب بالمعنى. والسلام في قوله:
﴿لتستووا﴾ لام الأمر، ويحتمل أن تكون لام كي، و﴿ما﴾ في قوله: ﴿ما تتركبون﴾ واقعة على النوع

المركوب، والضمير في: ﴿ظهوره﴾ عائد على النوع الذي وقعت عليه ﴿ما﴾.

وقد بينت آية ما يقال عند ركوب الفلك، وهو: ﴿باسم الله مجراها ومرساها، إن ربي لغفور رحيم﴾ [هود: ٤١] وإنما هذه خاصة فيما يركب من الحيوان، ويقال (-) عند النزول منها: اللهم أنزلنا منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين. والسنة للراكب إذا ركب أن يقول: الحمد لله على نعمة الإسلام، أو على النعمة بمحمد صلى الله عليه وسلم، أو على النعمة في كل حال، وقد روي هذا اللفظ عن علي بن أبي طالب عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿سبحان الذي﴾ الآية، وركب أبو مجلز لاحق بن حميد وقال: «سبحان الله» الآية، ولم يذكر نعمة، وسمعه الحسن بن علي رضي الله عنهما فقال: ما هكذا أمرتم، قال أبو مجلز، فقلت له: كيف أقول؟ قال: قل الحمد لله الذي هدانا للإسلام، أو نحو هذا، ثم تقول بعد ذلك: ﴿سبحان الذي﴾ الآية، وكان طاوس إذا ركب قال: اللهم هذا من منك وفضلك، ثم يقول: ﴿سبحان الذي﴾ الآية، وإن قدرنا أن ذكر النعمة هو بالقلب والتذكير بدأ الراكب: بـ ﴿سبحان الذي سخر﴾، وهو يرى نعمة الله في ذلك وفي سواه. والمقرن: الغالب الضابط المستولي على الأمر المطبق له. وروي أن بعض الأعراب ركب جملاً فقيل له قل: ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾ فقال: أما والله إني لمقرن تياه، فضرب به الجمل فوقصه فقتله.

وقوله: ﴿وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ أمر بالإقرار بالبعث وترداد القول به، وذلك داعية إلى استئثار النظر فيه، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الإنسان إذا ركب ولم يقل هذه الآية جاءه الشيطان فقال: «تغنه، فإن كان يحسن غنى، وإلا قال له تمنه، فيتمنى الأباطيل ويقطع زمنه بذلك».

قوله عز وجل:

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَ كُ
بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾
أَوْ مِنْ يَنْشُرُ فِي الْحُلِيِّ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ
الرَّحْمَنِ أَنْثَىٰ وَخَلَقَهُمْ سَتَكُنَّ شُهَدَاءَهُمْ فَيَسْأَلُونَ ﴿١٩﴾

الضمير في: ﴿جعلوا﴾ لكفار قريش والعرب، والضمير في: ﴿له﴾ الله تعالى. والجزء: القطع من الشيء، وهو بعض الكل، فكأنهم جعلوا جزءاً من عباده نصيباً له وحظاً، وذلك في قول كثير من المتأولين قول العرب: الملائكة بنات الله، وقال بعض أهل اللغة الجزء: الإناث، يقال أجزأت المرأة إذا ولدت أنثى، ومنه قول الشاعر: [البسيط]

إن أجزأت حرة يوماً فلا عجب قد تجزىء المرأة المذكار أحياناً

وقد قيل في هذا البيت إنه بيت موضوع. وقال قتادة: المراد بالجزء: الأصنام وفرعون وغيره ممن عبد

من دون الله، أي جزءاً ندأ، فعلى هذا التأويل فتعقيب الكفرة في فصلين في أمر الأصنام وفي أمر الملائكة، وعلى هذا التأويل الأول فالآية كلها في أمر الملائكة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكَفُورٍ﴾ أي بلفظ الجنس العام، والمراد بعض الإنسان، وهو هؤلاء الجاعلون ومن أشبههم. و: ﴿مبين﴾ في هذا الموضع غير متعد.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذَ﴾ إضراب وتقرير، وهذه حجة بالغة عليهم. إذ المحمود من الأولاد والمحبوب قد خوله الله بني آدم، فكيف يتخذ هو لنفسه النصيب الأدنى. ﴿وأصفاكم﴾ معناه: خصكم وجعل ذلك صفوة لكم، ثم قامت الحجة عليهم في هذا المعنى وبانت بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَشَرْ﴾ الآية. و: ﴿مسوداً﴾ خبر: ﴿ظل﴾. والكظيم: الممتلىء غيظاً الذي قد رد غيظه إلى جوفه، فهو يتجرعه ويروم رده، وهذا محسوس عند الغيظ، ثم زاد توبيخهم وإفساد رأيهم بقوله: ﴿أَوْ مِنْ يَنْشَأُ﴾. و: ﴿مَنْ﴾ في موضع نصب بفعل يدل عليه: ﴿جعلوا﴾ كأنه قال: أو من ينشأ في الحلية وهو الذي خصصتم به الله ونحو هذا، والمراد به: ﴿مَنْ﴾ النساء، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي، و: ﴿يَنْشَأُ﴾ معناه: ينبت ويكبر.

وقرأ جمهور القراء: «يَنْشَأُ» بفتح الياء. وقرأ ابن عباس وقتادة: «يُنْشِئُ» بضم الياء على تعدي الفعل بالهمزة. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص: «يُنْشَأُ» بضم الياء وفتح الشين على تعدي الفعل بالتضعيف، وهي قراءة ابن عباس أيضاً والحسن ومجاهد، وفي مصحف ابن مسعود: «أَوْ مِنْ لَا يَنْشَأُ إِلَّا فِي الْحَلِيَّةِ».

و: ﴿الحلية﴾ الحلي من الذهب والفضة والأحجار. و: ﴿الخصام﴾ المحاجة ومجاذبة المحاوراة، وقل ما تجد امرأة إلا تفسد الكلام وتخلط المعاني، وفي مصحف ابن مسعود: «وهو في الكلام غير مبين». و: ﴿مبين﴾ في هذه الآية متعد، والتقدير: ﴿غير مبين﴾ غرضاً أو منزعاً ونحو هذا. وقال ابن زيد: المراد ب: ﴿مَنْ يَنْشَأُ فِي الْحَلِيَّةِ﴾ الآية: الأصنام والأوثان، لأنهم كانوا يتخذون كثيراً منها من الذهب والفضة، وكانوا يجعلون الحلي على كثير منها.

ولما فرغ تعنيفهم على ما أتوا في جهة الله تعالى بقولهم: الملائكة بنات الله، بين تعالى فساداً في مقالاتهم يعينها من جهة أخرى من الفساد، وذلك شنيع قولهم في عباد الله مختصين مقربين أنهم إناث.

وقرأ أكثر السبعة وابن عباس وابن مسعود وابن جبير وعلقمة: «عباد الرحمن إناثاً». وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر والحسن وأبو رجاء وأبو جعفر والأعرج وشيبة وقتادة وعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «عند الرحمن إناثاً» وهذه القراءة أدل على رفع المنزلة وقربها في التكرمة كما قيل: ملك مقرب، وقد يتصرف المعنيان في كتاب الله تعالى في وصف الملائكة في غير هذه الآية فقال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، وقال تعالى في أخرى: ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [فصلت: ٣٨]، وفي مصحف ابن مسعود: «وجعلوا الملائكة عبد الرحمن إناثاً».

وقرأ نافع وحده «أشهدوا» بالهمزتين وبلا مد بينهما، وفتح الأولى وضم الثانية وتسهيلها بين الهمزة

والواو، ورواها المفضل عن عاصم بتحقيق الهمزتين: وقرأ المسيبي عن نافع بمد بين الهمزتين. وقرأ أبو عمرو ونافع أيضاً وعلي بن أبي طالب وابن عباس ومجاهد: «أ. شهدوا» بتسهيل الثانية بلا مد. وقرأ جماعة من القراء بالتسهيل في الثانية ومدة بينهما. وقرأ آخرون: «أشهدوا» بهمزة واحدة بغير استفهام، وهي قراءة الزهري، وهي صفة لإناث، أي مشهداً خلقهم.

ومعنى الآية: التوبيخ وإظهار فساد عقولهم، وادعائهم وأنها مجردة من الحجة، وهذا نظير الآية الرادة على المنجمين وأهل الطبائع، وهي قوله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدْتُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١] الآية.

وقرأ جمهور الناس: «سُكِّتْ شهادتهم» برفع الشهادة وبناء الفعل للمفعول. وقرأ الأعرج وابن عباس وأبو جعفر وأبو حيو: «سكتب» بنون الجمع «شهادتهم» بالنصب. وقرأت فرقة: «سيكتب» بالياء على معنى: سيكتب الله «شهادتهم» بالنصب. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: «سُكِّتْ شهاداتهم» على بناء الفعل للمفعول وجمع الشهادات.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَ﴾ وعيد مفصح. و: ﴿أشهدوا﴾ في هذه الآية معناه: أحضروا وليس ذلك من شهادة تحمل المعاني التي تطلب أن تؤدي. قوله عز وجل:

وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَالَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ أَنْتُمْ عَلَيْهِمْ كِتَابٌ مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أُولَٰئِكَ تُكْسَرُ بِهِمْ لَبِئْسَ مَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِمْ آيَاتٍ إِلَّا تَكْفُرُ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٢٥﴾

ذكر الله تعالى احتجاج الكفار لمذهبهم ليبين فساد متزعمهم، وذلك أنهم جعلوا إمهال الله لهم وإنعامه عليهم وهم يعبدون الأصنام، دليلاً على أنه يرضى عبادة الأصنام ديناً، وأن ذلك كالأمر به، فنفى الله عن الكفرة أن يكون لهم علم بهذا وليس عندهم كتاب منزل يقتضي ذلك، وإنما هم يظنون و﴿يخْرصون﴾ ويخمنون، وهذا هو الخرص والتخرص.

وقرأ جمهور الناس: «على أمة» بضم الهمزة، وهي بمعنى الملة والديانة، والآية على هذا تعيب عليهم التقليد. وقرأ مجاهد والعبدي وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «على إمة» بكسر الهمزة وهي بمعنى النعمة، ومنه قول الأعشى:

ولا الملك النعمان يوم لقيته بأمته يعطي القطوط ويافق

ومنه قول عدي بن زيد: [الخفيف]

ثم بعد الفلاح والملك والإمّة وارتهم هناك القبور

فالأية على هذا استمرار في احتجاجهم، لأنهم يقولون: وجدنا آباءنا في نعمة من الله وهم يعبدون الأصنام، فذلك دليل رضاه عنهم، وكذلك اهتدينا نحن بذلك ﴿على آثارهم﴾. وذكر الطبري عن قوم: أن الأمة الطريقة، مصدر من قولك: أمتت كذا أمة ثم ضرب تعالى المثل لنبيه محمد عليه السلام وجعل له الإسوة فيمن مضى من النذر والرسول، وذلك أن المترفين من قومهم وهم أهل التمتع والمال قد قابلوهم بمثل هذه المقالة.

وقرأ جمهور القراء: «قل أو لو» والمعنى: فقلنا للنذير قل. وقرأ ابن عامر وحفص عن عاصم: «قال أو لو»، ففي «قال» ضمير يعود على النذير. وباقي الآية يدل على أن: «قل» في قراءة من قرأها ليست بأمر لمحمد عليه السلام، وإنما هي حكاية لما أمر به النذير.

وقوله تعالى: ﴿أو لو﴾ هي ألف الاستفهام دخلت على واو عطف جملة كلام على جملة متقدمة، و﴿لو﴾ في هذا الموضع كأنها شرطية بمعنى أن، كأن معنى الآية: وإن جئتم بأبين وأوضح مما كان آبؤكم عليه فيصح لجأكم وتقليدكم، فأجاب الكفار حينئذ لرسولهم: ﴿إنا بما أرسلتم به كافرون﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿فانتقمنا منهم﴾ الآية وعيد لقريش وضرب مثل بمن سلف من الأمم المعذبة المكذبة بأنبيائها كما كذبت هي بمحمد عليه السلام.

وقرأ جمهور الناس: «أو لو جئكم» وقرأ أبو جعفر وأبو شيخ وخالد: «أو لو جئناكم». وقرأ الأعمش: «أو لو أتيتم».

قوله عز وجل:

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾
وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ
وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾

المعنى: واذكر إذا قال إبراهيم، ولما ضرب تعالى المثل لمحمد صلى الله عليه وسلم بالنذر وجعلهم إسوة له، خص إبراهيم بالذكر لعظم منزلته، وذكر محمداً صلى الله عليه وسلم بمنازلة إبراهيم عليه السلام لقومه، أي فافعل أنت فعله وتجلد جلده. و: ﴿براء﴾ صفة تجري على الواحد والاثنيين والجميع كعدل وزور.

وقرأ جمهور الناس: «براء» بفتح الباء. وقرأت فرقة: «براء» بضم الباء. وفي مصحف عبد الله وقراءة الأعمش: «إني» بنون واحدة «بريء» قال القراء: ومن الناس من يكتب شكل الهمزة المخففة ألفاً في كل

موضع، ولا يراعي حركة ما قبلها، قال: فربما كان خط مصحف عبد الله بألف كما في مصحف الجماعة، لكن كان يلفظ بها: «برىء» بكسر الراء.

وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ قالت فرقة: الاستثناء متصل، وكانوا يعرفون الله ويعظمونه، إلا أنهم كانوا يشركون معه أصنامهم، فكان إبراهيم قال لهم: أنا لا أوافقكم إلا على عبادة الله الفاطر. وقالت فرقة: الاستثناء منقطع، والمعنى: لكن الذي فطرني معبودي، وعلى هذا فلم يكونوا يعبدون الله إلا قليلاً ولا كثيراً، وعلل إبراهيم لقومه عبادته بأنه الهادي المنجي من العذاب، وفي هذا استدعاء لهم وترغيب في الله وتطبيع برحمته، والضمير في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً﴾ قالت فرقة: ذلك عائد على كلمته بالتوحيد في قوله: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ﴾ وقال مجاهد وقتادة والسدي، ذلك مراد به: لا إله إلا الله، وعاد الضمير عليها وإن كانت لم يجر لها ذكر، لأن اللفظ يتضمنها. وقال ابن زيد: المراد بذلك: الإسلام ولفظته، وذلك قوله عليه السلام: ﴿وَمَنْ ذَرَيْتَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلَمْ﴾ قال أسلمت لرب العالمين ﴿[البقرة: ١٣١] وقول الله تعالى ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]. والعقب: الذرية وولد الولد ما امتد فرعهم.

قوله عز وجل: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ﴾ الآية، كلام متصل بما قبله، لأنه لما قال في عقبه، وكانت قریش من عقبه، اقتضى الكلام أن يقدر فيه لكن هؤلاء ليسوا ممن بقيت الكلمة فيهم بل متعتهم. والمعنى في الآية: بل أمهلت هؤلاء وامتعتهم بالنعمة مع كفرهم حتى جاءهم الحق والرسول، وذلك هو شرع الإسلام. والرسول: محمد عليه السلام.

و: «متعت» بضم التاء هي قراءة الجمهور. وقرأ قتادة: «متعت» بفتح التاء الأخيرة على معنى: قل يا رب متعت، ورواها يعقوب عن نافع. وقرأ الأعمش: «بل متعنا»، وهي تعضد قراءة الجمهور. و: «مبين» في هذه الآية يحتمل التعدي وترك التعدي.

ثم أخبر تعالى عنهم على جهة التقریع بأنهم ﴿قَالُوا﴾ للقرآن: ﴿هَذَا سِحْرٌ﴾ وأنهم كفروا به، وإنما جعلوه بزعمهم سحراً من حيث كان عندهم يفرق بين المرء وولده وزوجه، فجعلوه لذلك كالسحر، ولم ينظروا إلى الفرق في أن المفارق بالقرآن يفارق عن بصيرة في الدين، والمفارق بالسحر يفارق عن خلل في ذهنه.

قوله عز وجل:

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا

عَلَيْهَا يَكُونُ ﴿٣١﴾ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

الضمير في: ﴿قالوا﴾ لقريش، وذلك أنهم استبعدوا أولاً أن يرسل الله بشراً، فلما تقرر أمر موسى وعيسى وإبراهيم ولم يكن لهم في ذلك مدفع، رجعوا يناقضون فيما يخض محمدٌ عليه السلام بعينه، فقالوا: لم كان محمد ولم يكن نزول الشرع ﴿على رجل﴾ من إحدى الفرقتين ﴿عظيم﴾، وقدر المبرد قولهم على رجل من رجلين من القريتين، والقريتان: مكة والطائف، ورجل مكة الذي أشاروا إليه: قال ابن عباس وقتادة هو: الوليد بن المغيرة المخزومي. وقال مجاهد هو: عتبة بن ربيعة. وقال قتادة: بلغنا أنه لم يبق فخذ من قريش إلا ادعاه. ورجل الطائف قال قتادة هو: عروة بن مسعود. وقال ابن عباس: حبيب بن عبد بن عمير. وقال مجاهد: كنانة بن عبد ياليل.

قال القاضي أبو محمد: وإنما قصدوا إلى من عظم ذكره بالسن والقدم، وإلا فرسول الله صلى الله عليه وسلم كان حينئذ أعظم من هؤلاء، لكن لما عظم أولئك قبل مدة النبي وفي صباه استمر ذلك لهم. ثم وقف على جهة التوبيخ لهم بقوله: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾ المعنى على اختيارهم وإرادتهم تنقسم الفضائل والمكانة عند الله. والرحمة: اسم يعم جميع هذا. ثم أخبر تعالى خيراً جازماً بأنه قاسم المعاش والدرجات في الدنيا ليسخر بعض الناس بعضاً، المعنى: فإذا كان اهتمامنا بهم أن نقسم هذا الحقير الفاني، فأحرى أن نقسم الأهم الخطير.

وفي قوله تعالى: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم﴾ تزهيد في السعائيات، وعون على التوكل على الله تعالى، والله در القائل: [الرجز]

لما أتى نحن قسمنا بينهم زال المرا

وقرأ الجمهور: «معيشتهم». وقرأ ابن مسعود والأعمش: «معاشتهم».

وقرأ جمهور الناس «سُخْرِيّاً» بضم السين. وقرأ أبو رجاء وابن محيصن: «سِخْرِيّاً» بكسر السين، وهما لغتان في معنى التسخير، ولا مدخل لمعنى الهزء في هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾ قال قتادة والسدي: يعني الجنة.

قال القاضي أبو محمد: لا شك أن الجنة هي الغاية، ورحمة الله في الدنيا بالهداية، والإيمان خير من كل مال، وهذا اللفظ تحقير للدنيا، ثم استمر القول في تحقيرها بقوله: ﴿ولولا أن يكون الناس﴾ الآية، وذلك أن معنى الآية: أن الله تعالى أبقي على عبده وأنعم بمراعاة بقاء الخير والإيمان وشاء حفظه على طائفة منهم بقية الدهر، ولولا كراهية أن يكون الناس كفاراً كلهم وأهل حب في الدنيا وتجرد لها لوسع على الكفار غاية التوسعة ومكنهم من الدنيا، إذ حقارتهم عنده تقتضي ذلك، لأنها لا قدر لها ولا وزن لفنائها وذهاب رسومها، فقوله: ﴿أمة واحدة﴾ معناه: في الكفر، قاله ابن عباس والحسن وقتادة والسدي، ومن

هذا المعنى قول النبي عليه السلام: «لو كانت الدنيا وزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء» ثم يتركب معنى الآية على معنى هذا الحديث. واللام في قوله: ﴿لَكِنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ﴾ لام الملك. واللام في قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ لام تخصيص، كما تقول: هذا الكساء لزيد لدابته، أي هو لدابته جلس ولزيد ملك. قال المهدوي: ودلت هذه الآية على أن السقف لرب البيت الأسفل لا لصاحب العلو، إذ هو منسوب إلى البيوت، وهذا تفقه واهن.

وقرأ جمهور القراء: «سَقَفًا» بضم السين والقاف. وقرأ مجاهد: «سَقْفًا» بضم السين وسكون القاف على الأفراد.

والمعارج: الأدراج التي يطلع عليها، قاله ابن عباس وقتادة والناس. وقرأ طلحة: «معارج» بزيادة ياء. و: ﴿يُظْهِرُونَ﴾ معناه يعلون، ومنه حديث عائشة رضي الله عنها: والشمس في حجرتها لم تظهر. والسرر: جمع سرير.

واختلف الناس في الزخرف، فقال ابن عباس والحسن وقتادة والسدي: الزخرف: الذهب نفسه وروي عن النبي عليه السلام أنه قال: «ياكم والحمرة فإنها من أحب الزينة إلى الشيطان». قال القاضي أبو محمد: الحسن أحمر، والشهوات تتبعه.

وقال ابن زيد: الزخرف: أثاث البيت وما يتخذ له من الستور والتمارق ونحوه. وقالت فرقة: الزخرف: التزاويق والنقش ونحوه من التزيين وشاهد هذا القول: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ﴾ [يونس: ٢٤].

وقرأ جمهور القراء: «وإن كل ذلك لَمَّا» بتخفيف الميم من «لَمَّا» ف «إن» مخففة من الثقيلة، واللام في: «لَمَّا» داخلة لتفصل بين النفي والإيجاب. وقرأ عاصم وحزمة وهشام بخلاف عنه، والحسن وطلحة والأعمش وعيسى: «لَمَّا متاع» بتشديد الميم من «لَمَّا» فإن «لَمَّا» نافية بمعنى ما. و «لَمَّا»: بمعنى: إلا، وقد حكى سيبويه نشدتك الله لما فعلت، وحمله على إلا. وفي مصحف أبي بن كعب: «وما ذلك إلا متاع الحياة الدنيا». وقرأ أبو رجاء: «لَمَّا» بكسر اللام وتخفيف، الميم، ف «ما» بمعنى الذي، والعائد عليها محذوف، والتقدير: وإن كل ذلك للذي هو متاع الحياة الدنيا.

وفي قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وعد كريم وتحريض على التقوى، إذ في الآخرة هو الثباين في المنازل.

قوله عز وجل:

وَمَنْ يَعْمَلْ عِثْرَ الرِّجَالِ يُفَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لِقَائِهِ يُعْزِزُ ﴿٣٦﴾ وَإِنْهُمْ لَيَصَّدَّقُونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيُحَسِّبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَ نَاقَالُ يَلَيْتُ بَنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَلْسُ الْقُرَيْنِ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ يَوْمَئِذٍ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَتْكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾

﴿من﴾ في قوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ عِثْرَ الرِّجَالِ﴾ شرطية، وعشى يعشو، معناه: قل الإبصار منه كالذي يعتري في

الليل، وكذلك هو الأعشى من الرجال، ويقال أيضاً: عشى الرجل يعشي عشاء إذا فسد بصره فلم ير، أو لم ير إلا قليلاً.

وقرأ قتادة ويحيى بن سلام البصري: «ومن يعش» بفتح الشين، وهي من قولهم: عشى يعشي، والأكثر عشى يعشو، ومنه قول الشاعر [الحطيفة]: [الطويل]

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد

وفي شعر آخر [عبد الله بن الحر]:

تجد حطباً جزلاً وجرماً تأججا

وقرأ الأعمش: «ومن يعش عن الرحمن»، وسقط: ﴿ذكر﴾.

فالمعنى في الآية: ومن يقل نظره في شرع الله ويغمض جفونه عن النظر في ذكر الرحمن، أي فيما ذكر به عباده، فالمصدر إلى الفاعل، «نقيض له شيطناً» أي ينسر له ونعد، وهذا هو العقاب على الكفر بالحثم وعدم الفلاح، وهذا كما يقال: إن الله يعاقب على المعصية بالتزديد في المعاصي، ويجازي على الحسنة بالتزديد من الحسنات، وقد روي هذا المعنى مرفوعاً.

وقرأ الجمهور: «نقيض» بالنون. وقرأ الأعمش: «يقيض»، بالياء «شيطناً»، أي يقيض الله. وقرأ ابن عباس: «يُقيِّض له شيطاناً»، بفتح الياء الثانية وشدها ورفع النون من «شيطاناً».

والضمير في قوله: ﴿وإنهم﴾ عائداً على الشياطين. وفي: ﴿يصدونهم﴾ على الكفار. و: ﴿السبيل﴾ هي سبيل الهدى والفوز. والضمير في: ﴿يحسبون﴾ للكفار.

وقرأ نافع وابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر، وابن عامر وأبو جعفر وشيبة وقاتدة والزهري والجحدري: «حتى إذا جاءنا» على التثنية، يريد العاشي والقرين، قاله سعيد الجبري وقاتدة. وقرأ أبو عمرو والحسن وابن محيصن والأعرج وعيسى والأعمش وعاصم وحزمة والكسائي: «جاءنا» يريد العاشي وحده. وفاعل: ﴿قال﴾ هو العاشي.

وقوله: ﴿بعد المشرقين﴾ يحتمل ثلاثة معان، أحدهما: أن يريد بعد المشرق من المغرب، فسامهما مشرقين، كما يقال: القمران والعمران، قال الفرزدق:

لما قمراها والنجوم الطوالع

والثاني: أن يريد مشرق الشمس في أطول يوم، ومشرقها في أقصر يوم، فكأنه أخذ نهايتي المشارق. والثالث: أن يريد ﴿بعد المشرقين﴾ من المغربين، فاكتفى بذكر ﴿المشرقين﴾.

وقوله تعالى: ﴿ولن ينفعكم اليوم﴾ الآية حكاية عن مقالة تقال لهم يوم القيامة، وهي مقالة موحشة حرمتهم روح التأسّي، لأنه يوقفهم بها على أنهم لا ينفعهم التأسّي، وذلك لعظم المصيبة وطول العذاب واستمرار مدته، إذ التأسّي راحة كل شيء في الدنيا في الأغلب، ألا ترى إلى قول الخنساء: [الوافر]

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما سيكون مثل أخي ولكن أعزي النفس عنه بالتأسي

فهذا التأسي قد كافها مؤونة قتل النفس، فنفى الله تعالى عنهم الانتفاع بالتأسي، وفي ذلك تعذيب لهم ويأس من كل خير، وفاعل قوله: ﴿ينفعكم﴾ الاشتراك.

وقرأ جمهور القراء: «أنكم» بفتح الألف. وقرأ ابن عامر وحده: «إنكم» بكسر الألف، وقد يجوز أن يكون الفاعل ﴿ينفعكم﴾ التبري الذي يدل عليه قوله: «يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين» وعلى هذا يكون «أنكم» في موضع نصب على المفعول من أجله، وتخرج الآية على معنى نفى الأسوة.
قوله عز وجل:

أَفَأَنْتُمْ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّا نَذْهَبُ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ أَوْسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسَأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

لما ذكر تعالى حال الكفرة في الآخرة وما يقال لهم وهم في العذاب، اقتضى ذلك أن تشفق النفوس، وأن ينظر كل سامع لنفسه ويسعى في خلاصها، فلما كانت قريش مع هذا الذي سمعت لم تزل عن عتوها وإعراضها عن أمر الله، رجعت المخاطبة إلى محمد عليه السلام على جهة التسلية له عنهم وشبههم بـ ﴿الصم﴾ و ﴿العمي﴾، إذ كانت حواسهم لا تفيد شيئاً.

وقوله: ﴿ومن كان في ضلال مبين﴾ يريد بذلك قريشاً بأنفسهم، ولذلك لم يقل: «من كان» بل جاء بالواو العاطفة، كأنه يقول: وهؤلاء، ويؤيد ذلك أيضاً عود الضمير عليهم في قوله: ﴿فإننا منهم﴾ ولم يجز لهم ذكر إلا في قوله: ﴿ومن كان﴾.

وقوله تعالى: ﴿فإنما نذهب بك﴾ الآية تتضمن وعيداً واقعاً، وذهب جمهور العلماء إلى أن المتوعدين هم الكفار، وأن الله تعالى أرى نبيه الذي توعدهم في بدر والفتح وغير ذلك، وذهب الحسن وقتادة إلى أن المتوعدين هم في هذه الأمة، وأن الله تعالى أكرم نبيه على أن ينتقم منهم بحضرته وفي حياته، ف وقعت النعمة منهم بعد أن ذهب به، وذلك في الفتن الحادثة في صدر الإسلام مع الخوارج وغيرهم، قال الحسن وقتادة: أكرم الله نبيه على أن يرى في أمته ما يكره كما رأى الأنبياء، فكانت بعد ذهابه صلى الله عليه وسلم، وقد روي حديث عن جابر بن عبد الله أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ: ﴿فإننا منهم منتقمون﴾ فقال: بعلي بن أبي طالب والقول الأول من توعد الكفار أكثر، ثم أمر تعالى نبيه بالتمسك بما جاء من عند الله من الوحي المتلو وغيره. والصراط: الطريق.

وقرأ الجمهور: «أوحى» على بناء الفعل للمفعول. وقرأ الضحاك: «أوحى» على الفعل المبني للفاعل، أي أوحى الله.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ﴾ يحتمل أن يريد وإنه لشرف وحمد في الدنيا. والقوم: على هذا قرئش ثم العرب، وهذا قول ابن عباس وقتادة ومجاهد والسدي وابن زيد. قال ابن عباس: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل، فإذا قالوا له: فلمن يكون الأمر بعدك؟ سكت حتى نزلت هذه الآية، فكان إذا سئل بعد ذلك، قال لقرئش، فكانت العرب لا تقبل على ذلك حتى قبلته الأنصار وروى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يزال الأمر في قرئش ما بقي منهم اثنان» وروى أبو موسى الأشعري عنه صلى الله عليه وسلم: «لا يزال الأمر في قرئش ما زالوا، إذا حكموا عدلوا، وإذا استرحموا رحموا، وإذا عاهدوا ففوا، فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين». وروى معاوية أنه عليه السلام قال: «لا يزال هذا الأمر في قرئش ما أقاموا الدين». ويحتمل أن يريد وإنه لتذكرة وموعظة، فـ «القوم» على هذا أمة بآجمعها، وهذا قول الحسن بن أبي الحسن، وقوله: ﴿وَسَوْفَ تَسْتَثْلُونَ﴾ قال ابن عباس وغيره معناه: عن أوامر القرآن ونواهيها: وقال الحسن بن أبي الحسن معناه: عن شكر النعمة فيه، واللفظ يحتمل هذا كله ويعمه.

واختلف المفسرون في المراد بالسؤال في قوله: ﴿وَسْئَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا﴾ فقالت فرقة، أراد: أن أسأل جبريل، ذكر ذلك النقاش، وفيه بعد. وقال ابن زيد وابن جبير والزهري، أراد: وأسأل الرسل إذا لقيتهم ليلة الإسراء، أما أن النبي عليه السلام لم يسأل الرسل ليلة الإسراء عن هذا، لأنه كان أثبت يقيناً من ذلك ولم يكن في شك. وقالت فرقة، أراد: وأسألني، أو وأسألنا عمن أرسلنا، والأولى على هذا التأويل أن يكون: ﴿مَنْ أَرْسَلْنَا﴾ استفهاماً أمره أن يسأل له، كأن سؤاله: يا رب من أرسلت قبلي من رسلك؟ أجعلت في رسالته الأمر بالهة يعبدون؟ ثم ساق السؤال محكي المعنى، فرد المخاطبة إلى محمد عليه السلام في قوله: ﴿مَنْ قَبْلِكَ﴾. وقال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والسدي وعطاء، أراد: وسل تباع من أرسلنا وحملة شرائعهم، لأن المفهوم أنه لا سبيل إلى سؤاله الرسل إلا بالنظر في آثارهم وكتبهم وسؤال من حفظها.

وفي قراءة ابن مسعود وأبي بن كعب: «وسئل الذين أرسلنا إليهم رسلنا»، فهذه القراءة تؤيد هذا المعنى، وكذلك قوله: ﴿وَسْئَلُ الْقُرْيَةِ﴾ [يوسف: ٨٢] مفهوم إنه لا يسأل إلا أهلها، ومما ينظر إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] مفهوماً أن الرد إنما هو إلى كتاب الله وسنة رسوله، وأن المحاور في ذلك إنما هم تبعاهم وحفظه الشرع.

وقوله: ﴿يَعْبُدُونَ﴾ أخرج ضميرهم على حد من يعقل مراعاة للفظ الآلهة.
قوله عز وجل:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرِ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾

هذه آية ضرب مثل وإسوة لمحمد عليه السلام بموسى عليه السلام ولكفار قريش بفرعون ﴿وملائه﴾. والآيات التي أرسل بها موسى وهي التسع المذكورة وغير ذلك مما جاءت به الروايات، وخص الملائ بالذكر لأنهم يسدون مسد جميع الناس، ثم وصفهم تعالى بالضحك من آيات موسى، كما كانت قريش تضحك وتسخر من أخبار محمد عليه السلام، ثم وصف تعالى صورة عرض الآيات عليهم وإنما كانت شيئاً بعد شيء.

وقوله: ﴿إلا هي أكبر من أختها﴾ عبارة عن شدة موقعها في نفوسهم بحدة أمرها وحدوثه، وذلك أن أول آية عرض موسى هي: العصا واليد، وكانت أكبر آياته، ثم كل آية بعد ذلك كانت تقع فيعظم عندهم لحينها وتكبر، لأنهم قد كانوا أنسوا التي قبلها، فهذا كما قال الشاعر: [الطويل]

على أنها تغفو الكلوم وإنما توكل بالأدنى وإن جل ما يقضى

وذهب الطبري إلى أن الآيات هي الحجج والبيّنات. ثم ذكر تعالى أخذهم بالعذاب في العمل والصفادع والدم وغير ذلك، وهذا كما أخذ قريش بالسنين والدخان.

وقوله: ﴿لعلهم﴾ ترج بحسب معتقد البشر وظنهم. و: ﴿يرجعون﴾ معناه: يتوبون ويقبلعون. وقوله تعالى: ﴿وقالوا يا أيه الساحر﴾ جائز أن يكون قائل ذلك من أعلمهم بكفر السحر فيقول: قوله استهزاء وهو يعلم قدر السحر وانحطاط منزلته، ويكون قوله: ﴿عندك﴾ بمعنى: في زعمك وعلى قولك، ويحتمل أن يكون القائل ليس من المتمردين الحذاق ويطلق لفظة الساحر لأحد وجهين، إما لأن السحر كان عند عامتهم علم الوقت، فكانه قال: يا أيه العالم، وإما لأن هذه الاسمية قد كانت انطلقت عندهم على موسى لأول ظهورها، فاستصحبها هذا القائل في مخاطبة قلة تحرير وغباوة، ويكون القول على هذا التأويل جداً من القائل، ويكون قوله: ﴿إنا لمهتدون﴾ بمعنى إن نفعتنا دعوتك، وهذا التأويل أرجح، أعني أن كلام هذا القائل مقترن بالجد.

وقرأ ابن عامر وحده: «يا أي» بياء مضمومة فقط.

ثم أخبر عنهم أنه لما كشف عنهم العذاب نكثوا، ولو كان الكلام هزلاً من أوله لما وقع نكث.

قوله عز وجل:

وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِّمَّا يَصْرَوْهُ وَهَٰذَا الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مِثِّي وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا الْبَقَىٰ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِّنْ

ذَهَبٍ أَوْجَاءَ مَعَهُ الْمَلِكُ مُقْتَرَيْنِ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَدْسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾

نداء فرعون يحتمل أن يكون بلسانه في ناديه، ويحتمل أن يكون بأن أمر من ينادي في الناس، ومعنى هذه الحجة التي نادى بها أنه أراد أن يبين فضله على موسى، إذ هو ملك مصر، وصاحب الأنهار والنعم، وموسى خامل متقلل لا دنياه له، قال: فلو أن إله موسى يكون حقاً كما يزعم، لما ترك الأمر هكذا. و: ﴿مصر﴾ من بحر الإسكندرية إلى أسوان بطول النيل. و: ﴿الأنهار﴾ التي أشار إليها هي الخلدجان الكبار الخارجة من النيل وعظمها نهر الإسكندرية وتيس ودمياط ونهر طولون.

وقوله: ﴿أما أنا خير﴾ قال سيويه: ﴿أم﴾ هذه المعادلة، والمعنى: أم أنتم لا تبصرون، فوضع موضع قوله: أم تبصرون الأمر الذي هو حقيق أن يبصر عنده، وهو أنه خير من موسى. و: ﴿لا﴾ على هذا النظر نافية. وقالت فرقة: ﴿أفلا تبصرون﴾ أم لا تبصرون، ثم اقتصر على ﴿أم﴾ لدلالة ظاهر الكلام على المحذوف منه، وابتدأ قوله: ﴿أنا خير﴾ إخباراً منه، فقوله: ﴿أفلا﴾ على هذا النظر بمنزلة: هلا ولولا على معنى التخصيص. وقالت فرقة: ﴿أ﴾ بمعنى بل.

وقرأ بعض الناس: «أما أنا خير»، حكاه الفراء، وكان مجاهد يقف على ﴿أم﴾ ثم يبتدىء: ﴿أنا خير﴾. قال قتادة: وفي مصحف أبي بن كعب: «أم أنا خير أم هذا». و: ﴿مهين﴾ معناه ضعيف وقوله: ﴿ولا يكاد يبين﴾ إشارة إلى ما بقي في لسان موسى من أثر الجمرة، وذلك أنها كانت أحدثت في لسانه عقدة، فلما دعا في أن تحل ليفقه قوله، أجيبته دعوته، لكنه بقي أثر كان البيان يقع منه، لكن فرعون غير به. وقوله: ﴿ولا يكاد يبين﴾ يقتضي أنه كان يبين.

وقرأ أبو جعفر بن علي: «ييين» بفتح الياء الأولى.

وقوله: ﴿فلولا ألقي عليه﴾ يريد من السماء على معنى التكرمة.

وقراءة الجمهور: «ألقي» على بناء الفعل للمفعول. وقرأ الضحاك: «ألقي» بفتح الهمزة والقاف على بناءه للفاعل «أساور» نصباً.

وقرأ جمهور القراء: «أساور» وقرأ حفص عن عاصم: «أسورة»، وهي قراءة الحسن والأعرج وقاتدة وأبي رجا ومجاهد. وقرأ أبي بن كعب: «أساور». وفي مصحف ابن مسعود: «أساور»، ويقال سوار وأسوار لما يجعل في الذراع من الحلي، حكى أبو زيد اللغتين وأبو عمرو بن العلاء، وهو كالقلب، قاله ابن عباس، وكانت عادة الرجال يومئذ حبس ذلك والتزيي به. و: ﴿أساور﴾ جمع أسوار، ويجوز أن يكون جمع أسورة، كأسقية وأساقى، وكذلك: أساور، جمع أسوار. والهاء في: ﴿أساور﴾ عوض من الياء المحذوفة، لأن الجمع إنما هو أساور كما في مصحف ابن مسعود، فحذفوا الياء وجعلوا الهاء عوضاً منها،

كما فعلوا ذلك في زنادقة وبطارقة وغير ذلك، وأساوره: جمع سوار.

وقوله: ﴿مقترنين﴾ أي يحمونه ويشهدون له ويقيمون حجته. ثم أخبر تعالى عن فرعون أنه استخف قومه بهذه المقالة، أي طلب خفتهم وإجابتهم إلى غرضه، فأجابوه إلى ذلك وأطاعوه في الكفر لفسقهم ولما كانوا بسبيله من الفساد. و: ﴿أسفونا﴾ معناه: أغضبونا بلا خلاف، وإغضاب الله تعالى هو أن تعمل الأعمال الخبيثة التي تظهر من أجلها أفعاله الدالة على إرادة السوء بمن شاء. والغضب على هذا صفة فعل، وهو مما يتردد، فإذا كان بمعنى ما يظهر من الأفعال، فهو صفة فعل، وإذا رد إلى الإرادة فهو صفة ذات، وفي هذا نظر.

وقرأ جمهور القراء: «سُلفاً» بفتح السين واللام جمع سالف، كحارس وحرس. والسلف: هو الفارط من الأمم المتقدم، أي جعلناهم متقدمين للأمم الكافرة عظة ومثلاً لهم يعتبرون بهم، أو يقعون فيما وقعوا فيه، ومن هذه اللفظة قول النبي عليه السلام: «يذهب الصالحون أسلافاً»، وقوله في ولده إبراهيم: «ندفنه عند سلفنا الصالح عثمان بن مظعون». وقرأ حميد الأعرج وحمزة والكسائي: «سُلفاً» بضم السين واللام، وهي قراءة عبد الله وأصحابه وسعد بن عياض وابن كثير، وهو جمع: سليف. وذكر الطبري عن القاسم بن معن أنه سمع العرب تقول: مضى سلف من الناس، بمعنى السلف. وقرأ علي بن أبي طالب وحميد الأعرج أيضاً: «سُلفاً» بضم السين وفتح اللام، كأنه جمع سلفة، بمعنى الأمة والقطعة. والآخر: هو من يأتي من البشر إلى يوم القيامة.

قوله عز وجل:

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ لَكِثَّةً فِي الْأَرْضِ يَافُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلْسَّاعَةِ فَلَا تَمُوتُ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٢﴾

روي عن ابن عباس وغيره في تفسير هذه الآية، أنه لما نزلت: ﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ﴾ خلقه من تراب ثم قال له كن، فيكون ﴿[آل عمران: ٥٩] ونزل مع ذلك ذكر عيسى وحاله وكيف خلق من غير فحل، قالت فرقة: ما يريد محمد من ذكر عيسى إلا أن نعبده نحن كما عبدت النصارى عيسى، فهذا كان صدورهم من ضربه مثلاً.

وقرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبو جعفر والأعرج والنخعي وأبو رجاء وابن وثاب: «يصدون» بضم الصاد، بمعنى: يعرضون. وقرأ الباقون وابن عباس وابن جبيرة والحسن وعكرمة: «يصدون» بكسر الصاد، بمعنى يضحكون، وأنكر ابن عباس ضم الصاد، ورويت عن علي بن أبي طالب، وقال الكسائي: هما لغتان بمعنى واحد، مثل «يعرشون ويعرشون».

وقوله تعالى: ﴿آلهتنا﴾ ابتداء معنى ثان، وذلك أنه لما نزلت ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ [الأنبياء: ٩٨] جاء عبد الله بن الزعبري ونظراؤه فقالوا: نحن نخصم محمداً: آلهتنا خير أم عيسى؟ وعلموا أن الجواب أن يقال عيسى، قالوا، وهذه آية الحصب لنا أو لكل الأمم من الكفار فقال النبي عليه السلام: بل لكل من تقدم أو تأخر من الكفار، فقالوا نحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى، إذ هو خير منها، وإذا قد عبد فهو من الحصب إذاً، فقال: ﴿ما ضربوه لك إلا جدلاً﴾ أي ما مثلوا هذا التمثيل إلا جدلاً منهم ومغالطة، ونسوا أن عيسى لم يعبد برضى منه ولا عن إرادة، ولا له في ذلك ذنب.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «آلهتنا» بهمزة استفهام وهمزة بعدها بين وبين ألف بعدها. وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي: بهمزتين مخففتين بعد الثانية ألف. وقرأ ورش عن نافع: بغير استفهام: «آلهتنا» على مثال الخبر. وقرأ قالون عن نافع: «آلهتنا» على الاستفهام بهمزة واحدة بعدها مدة. وفي مصحف أبي بن كعب: «خير أم هذا»، فالإشارة إلى محمد، وخرجت هذه القراءة على التأويل الأول الذي فسرناه، وكذلك قالت فرقة ممن قرأ: ﴿أم هو﴾ إن الإرادة محمد عليه السلام، وهو قول قتادة. وقال ابن زيد والسدي المراد بـ ﴿هو﴾ عيسى، هذا هو المترجح.

والجدال عند العرب: المحاوراة بمغالطة أو تحقيق أو ما اتفق من القول إنما المقصد به أن يغلب صاحبه في الظاهر إلا أن يتطلب الحق في نفسه، وروى أبو أمامة عن النبي عليه السلام أنه قال: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»، ثم قرأ: ﴿ما ضربوه لك إلا جدلاً﴾ قال أبو أمامة: ورأى عليه السلام قوماً يتنازعون، فغضب حتى كأنما صب في وجهه الخل، وقال: «لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، فما ضل قوم إلا أوتوا الجدل» ثم أخبر تعالى عنهم أنهم أهل خصام ولدد، وأخبر عن عيسى أنه عبد أنعم الله عليه بالنبوة والمنزلة العالية، وجعله مثلاً لبني إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿ولو نشاء﴾ الآية، أي لا تستغربوا أن يخلق عيسى من غير فعل، فإن القدرة تقضي ذلك وأكثر منه.

وقوله: ﴿لجعلنا منكم﴾ معناه: لجعلنا بدلاً منكم، أي لو شاء الله لجعل بدلاً من بني آدم ملائكة يسكنون الأرض ويخلفون بني آدم فيها. وقال مجاهد وابن عباس: يخلف بعضهم بعضاً. والضمير في قوله: ﴿وإنه لعلم﴾ قال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والسدي والضحاك وابن زيد: الإشارة به إلى عيسى. وقالت فرقة: إلى محمد عليه السلام. وقال الحسن أيضاً وقتادة: إلى القرآن.

وقرأ جمهور الناس: «لَعَلَّم» بكسر العين وسكون اللام. وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة وأبو هند الغفاري ومجاهد وأبو نضرة ومالك بن دينار والضحاك: «لَعَلَّم» بفتح العين واللام، وقرأ عكرمة مولى ابن عباس: «لَلْعَلَم» بلامين، الأولى مفتوحة. وقرأ أبي بن كعب: «لَذَكَرَ لِلْسَّاعَةِ».

فمن قال إن الإشارة إلى عيسى حسن مع تأويله علم وعلم أي هو إشعار بالساعة وشرط من أشراتها،

يعني خروجه في آخر الزمان، وكذلك من قال: الإشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم، أي هو آخر الأنبياء، فقد تميزت الساعة به نوعاً وقدرأ من التمييز، وبقي التحديد التام الذي انفرد الله بعلمه، ومن قال: الإشارة إلى القرآن، حسن قوله في قراءة من قرأ: «لَعَلَّم» بكسر العين وسكون اللام، أي يعلمكم بها وبأهوالها وصفاتها، وفي قراءة من قرأ: «الذكر».

وقوله: ﴿فَلَا تَمْتَرْنَ﴾ أي قل لهم يا محمد لا تشكون فيها. وقوله: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ إشارة إلى الشرع، ثم أمره بتحذير العباد من الشيطان وإغوائه ونبههم على عداوته.
قوله عز وجل:

وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلَأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ٦٣ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ٦٤ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ ٦٥ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٦٦ الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ٦٧ يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ٦٨

«البيّنات» التي جاء بها عيسى عليه السلام هي: إحياء الموتى وإبراء الأكهم والأبرص، إلى غير ذلك. وقال قتادة: الإنجيل. والحكمة: النبوة قاله السدي وغيره.

وقوله: ﴿وَلَأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ قال أبو عبيدة: «بعض» بمعنى كل، وهذا ضعيف ترده اللغة، ولا حجة له من قول لبيد:

أو يعلّق بعض النفوس حمامها

لأنه أراد نفسه ونفس من معه، وذلك بعض النفوس، وإنما المعنى الذي ذهب إليه الجمهور، أن الاختلاف بين الناس هو في أمور كثيرة لا تحصى عدداً، منها أمور أخروية ودينية، ومنها ما لا مدخل له في الدين، فكل نبي فإنما يبعث ليبين أمر الأديان والآخرة، فذلك بعض ما يختلف فيه.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ حكاية عن عيسى عليه السلام إذ أشار إلى شرعه.
و: ﴿الْأَحْزَابُ﴾ المذكورون: قال جمهور المفسرين أراد: اختلف بنو إسرائيل وتحزبوا، فمنهم من آمن به، وهو قليل، وكفر الغير، وهذا إذا كان معهم حاضراً. وقال قتادة: ﴿الْأَحْزَابُ﴾ هم الأربعة الذين كان الرأي والمناظرة صرفت إليهم في أمر عيسى عليه السلام. وقال ابن حبيب وغيره: ﴿الْأَحْزَابُ﴾ النصارى اختلفت مذاهبهم فيه بعد رفعه عليه السلام، فقالت فرقة: هو الله، وهم اليعقوبية قال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]. وقالت فرقة: هو ابن الله، وهم النسطورية قال الله تعالى فيهم: ﴿وَقَالَتِ الْنَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقالت فرقة: هو ثالث ثلاثة، وهم

الملكانية قال الله تعالى فيهم: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ [المائدة: ٧٣].

وقوله تعالى: ﴿من بينهم﴾ بمعنى من تلقائهم ومن أنفسهم ثار شرهم، ولم يدخل عليهم الاختلاف من غيرهم. والضمير في: ﴿ينظرون﴾ لقريش، والمعنى: ينتظرون. و: ﴿بغته﴾ معناه: فجأة دون مقدمة ولا إنذار بها.

ثم صرف تعالى بعض حال القيامة، وإنها لهول مطلعها والخوف المطبق بالناس فيها يتعادي وتباغض كل خليل كان في الدنيا على غير تقى، لأنه يرى أن الضرر دخل عليه من قبل خليله، وأما المتقون فيرون أن النفع دخل بهم من بعضهم على بعض، هذا معنى كلام علي رضي الله عنه.

وقوله: ﴿يا عبادي﴾ المعنى يقال لهم، أي للمتقين.

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: «يا عبادي» بفتح الياء، وهذا هو الأصل. وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر: «يا عبادي» بسكون الياء. وقرأ ابن كثير وحزمة والكسائي وحفص عن عاصم «يا عباد» بحذف الياء. قال أبو علي: وحذفها أحسن، لأنه في موضع تنوين وهي قد عاقبت، فكما يحذف التنوين في الاسم المنادى المفرد، كذلك تحذف الياء هنا لكونها على حرف، كما أن التنوين كذلك، ولأنها لا تنفصل من المضاف كما لا ينفصل التنوين من المنون.

وذكر الطبري عن المعتمر عن أبيه أنه قال: سمعت أن الناس حين يبعثون ليس منهم أحد إلا فزع، فينادي مناد: ﴿لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾ فيرجوها الناس كلهم، قال فيتبعها. ﴿الذين آمنوا﴾ بآياتنا وكانوا مسلمين [الزخرف: ٦٩] قال: فيأس منها جميع الكفار.

وقرأ الحسن والزهري وابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر ويعقوب: «لا خوف» بنصب الفاء من غير تنوين. وقرأ ابن محيصن برفع الفاء من غير تنوين.

قوله عز وجل:

الَّذِينَ آمَنُوا بَيِّنَاتٍ وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

﴿الذين﴾ نعت للعباد في قوله: ﴿يا عبادي﴾ [الزخرف: ٦٨]. ثم ذكر أمره إياهم بدخول الجنة هم وأزواجهم. و: ﴿تحبرون﴾ معناه: تنعمون وتسرون. والحبرة: السرور. والأكواب: ضرب من الأواني كالأباريق، إلا أنها لا آذان لها ولا مقابض.

وقرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم وأبو جعفر وشيبة: «ما تشتهيه» بإثبات الهاء الأخيرة وكذلك

في مصحف المدينة ومصحف الشام، وقرأ الباقون وأبو بكر عن عاصم والجمهور: «ما تشتهي» بحذف الهاء، وكذلك وقع في أكثر المصاحف وحذفها من الصلة لطول القول حسن، وكذلك كثر في التنزيل كقوله تعالى: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ﴾ [الفرقان: ٤١] وفي قوله: ﴿وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٨] وغير ذلك، وفي مصحف ابن مسعود: «ما تشتهي النفس وتلذه الأعين».

وقوله تعالى: ﴿أَوَرَّثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ليس المعنى أن الأعمال أوجبت على الله إدخالهم الجنة، وإنما المعنى: أن حظوظهم منها على قدر أعمالهم، وأما نفس دخول الجنة وأن يكون من أهلها ففضل الله وهداه.

قوله عز وجل:

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٧٤﴾ لَا يَفْتَرَعْنَهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَاؤُا يَمْلِكُ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ ﴿٨١﴾

لما ذكر تعالى حال أهل الجنة وما يقال لهم، عقب ذلك بذكر حال الكفرة من الخلود في النار ولتوضح الأمور التي منها النذارة، والمجرمون في هذه الآية: الكفار، بدليل الخلود وما تتضمنه الألفاظ من مخاطبة مالك وغيره. والمبلس: المبعد اليأس من الخيرة، قاله قتادة وغيره.

وقرأ ابن مسعود: «وهم مبلسون» أي في جهنم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ أي ما وضعنا العذاب فيمن لا يستحقه، ولكن هم ظلموا في أن وضعوا العبادة فيمن لا يستوجبها وضعفوا الكفر والتفريط في جنب الله تعالى.

وقرأ الجمهور: «كانوا هم الظالمين» على الفصل. وقرأ ابن مسعود: «هم الظالمون» على الابتداء والخبر، وأن تكون الجملة خبر «كان».

ثم ذكر تعالى عن أهل النار أنهم ينادون مالكا خازن النار، فيقولون على معنى الرغبة التي هي في صيغة الأمر ﴿لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي ليمتنا مرة حتى يتكرر عذابنا.

وقرأ النبي عليه السلام على المنبر: «يا مالك» بالكاف، وهي قراءة الجمهور. وقرأ ابن مسعود ويحيى والأعمش: «يا مال» بالترخيم، ورويت عن علي بن أبي طالب، ورواها أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم.

والقضاء في هذه الآية بمعنى الموت، كما قال تعالى: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥] وروي في تفسير هذه الآية عن ابن عباس أن مالكا يقيم بعد سؤالهم ألف سنة، وقال

نوف: مائة سنة، وقيل: ثمانين سنة. وقال عبد الله بن عمر: وأربعين سنة، ثم حينئذ يقول لهم: ﴿إنكم ماكثون﴾.

وقوله: ﴿لقد جئناكم﴾ الآية، يحتمل أن يكون من قول مالك لأهل النار، ويكون قوله: ﴿جئناكم﴾ (على حد ما يدخل أحد جملة الرئيس كناية عن نفسه في فعل الرئيس فيقول غلبناكم وفعلنا بكم ونحو هذا، ثم ينقطع كلام مالك في قوله: ﴿كارهون﴾ ويحتمل أن يكون قوله: ﴿جئناكم﴾ من قول الله تعالى لقريش بعقب حكاية أمر الكفار مع مالك، وفي هذا توعده وتخويف فصيح، بمعنى انظروا كيف تكون حالكم، ثم تتصل الآية على هذا بما بعدها من أمر قريش.

وقوله تعالى: ﴿أم أبرموا أمراً﴾ من أمور كفرهم وتديبرهم على عهد محمد صلى الله عليه وسلم كما فعلوا في اجتماعهم على قتله في دار الندوة إلى غير ذلك، و: ﴿أم﴾ في هذه الآية: المنقطعة.

وقوله: ﴿فإننا مبرمون﴾ أي فإننا محكمو نصره وحمايته. والإبرام: أن تجمع خيطين ثم تفتلها فتلاً متقناً. والبريم: خيط فيه لوان.

وقوله تعالى: ﴿أم يحسبون﴾ الآية، قال محمد بن كعب القرظي: نزلت لأن كثيراً من العرب كانوا يعتقدون أن الله تعالى لا يسمع السر، ومنه حديث الثقيفي والقرشيين الذين سمعهم ابن مسعود يقولون عند الكعبة: أترى الله يسمعنا؟ فقال أحدهم: يسمع إذا جهرنا ولا يسمع إذا أخفينا الحديث، فأخبر الله تعالى في هذه الآية أنه يسمع، أي يدرك السر والنجوى، وأن رسله الحفظة من الملائكة يكتبون أعمال البشر مع ذلك، وتعد للجزاء يوم القيامة.

واختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿قل إن كان للرحمن ولد، فأنا أول العابدين﴾ فقالت فرقة: العابدون: هو من العبادة، ثم اختلفوا في معنى الآية بعد ذلك، فقال قتادة والسدي والطبري، المعنى:

﴿قل﴾ لهم ﴿إن كان للرحمن ولد﴾ كما تقولون فأنا أول من يعبد على ذلك، ولكن ليس به شيء من ذلك تعالى وجل. قال الطبري: فهذا الطاف في الخطاب، ونحوه قوله: ﴿وإننا أول العابدين﴾ [سبأ: ٢٤].

قال القاضي أبو محمد: وقوله تعالى: في مخاطبة الكفار: ﴿أين شركائي﴾ [النحل: ٢٧، القصص: ٦٢ - ٧٢، فصلت: ٤٧].

وقال مجاهد المعنى: إن كان لله ولد في قولكم فأنا أول من عبد الله وحده وكذبكم. وقال قتادة أيضاً وزهير بن محمد وابن زيد: ﴿إن﴾ نافية بمعنى: ما، فكأنه قال: ما كان للرحمن ولد. وهنا هو الوقف على هذا التأويل، ثم يبتدئ قوله: ﴿فأنا أول العابدين﴾ قاله أبو حاتم. وقالت فرقة: العابدون في الآية: من عبد الرجل إذا أنف وأنكر الشيء، ومنه قول الشاعر:

متى يشأ ذو الود يصرم خليله ويعبد عليه لا محالة ظالما

ومنه حديث عثمان وعلي في المرجومة حين قال علي: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾

[الأحقاف: ١٥] قال: فما عبد عثمان أن بعث إليها لترد. والمعنى: إن جعلتم للرحمن ولداً وكان ذلك في قولكم فأنأ أول الأنفين المنكرين لذلك.

وقرأ الجمهور: «وُلِدَ» بفتح الواو واللام. وقرأ ابن مسعود وابن وثاب وطلحة والأعمش: «وُلِدَ» بضم الواو وسكون اللام.

وقرأ أبو عبد الرحمن: «فأنأ أول العابدين» وهي على هذا المعنى، قال أبو حاتم: العبد بكسر الباء: الشديد الغضب. وقال أبو عبيدة معناه: أول الجاحدين، والعرب تقول: عبدني حقي، أي جحدني. قوله عز وجل:

سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾

لما قال تعالى: ﴿فأنأ أول العابدين﴾ [الزخرف: ٨١] نزه الرب تعالى عن هذه المقالة التي قالوها. و: ﴿سبحان﴾ تنزيه. وخص ﴿السموات والأرض﴾ و﴿العرش﴾ لأنها عظم المخلوقات.

وقوله تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا﴾ مهادة ما وترك، وهي مما نسخت بآية السيف وقرأ الجمهور: «يلاقوا» وقرأ أبو جعفر وابن محيصة: «حتى يلقوا». وقال جمهور اليوم الذي توعدهم به هو القيامة. وقال عكرمة وغيره: هو يوم بدر.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ﴾ الآية آية حكم بعظمته وإخبار بالوحيته، أي هو النافذ أمره. وقرأ عمر بن الخطاب وجابر بن زيد وأبو شيخ والحكم بن أبي العاصي وبلال بن أبي بردة وابن مسعود ويحيى بن يعمر وأبي بن كعب وابن السميع: «وهو الذي في السماء الله وفي الأرض الله». و: ﴿الحكيم﴾ المحكم. ﴿وتبارك﴾ تفاعل من البركة، أي تزيدت بركاته. و: ﴿السموات والأرض وما بينهما﴾ حصر لجميع الموجودات المحسوسات. و: ﴿علم الساعة﴾ معناه: علم تحديد قيامها والوقف على تعيينه، وهذا هو الذي استأثر الله بعلمه، وإلا فنحن عندنا علم الساعة، أي إنها واقعة، وإنها ذات أهوال وبصفت ما، والمصدر في قوله: ﴿علم الساعة﴾ مضاف إلى المفعول.

وقرأ أكثر القراء: «وإليه يرجعون» بالياء من تحت. وقرأ نافع وأبو عمرو: «ترجعون» بالتاء من فوق مضمومة.

قوله عز وجل:

وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِنْ

سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلَ لَهُ رَبِّ إِنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿ولا يملك﴾ الآية مخاطبة لمحمد عليه السلام . و : ﴿الذين﴾ هم المعبودون ، والضمير في : ﴿يدعون﴾ هو للكفار الذين عبدوا غير الله عز وجل ، فأعلم تعالى أن من عبد من دون الله فإنه لا يملك شفاعته عند الله يوم القيامة .

وقرأ الجمهور : «يدعون» بالياء من تحت . وقرأ ابن وثاب : «تدعون» ، بالتاء من فوق ، ثم استثنى تعالى من هذه الأخبار ، واختلف الناس في المستثنى ، فقال قتادة : استثنى ممن عبد من دون الله : عيسى وعزيراً والملائكة ، والمعنى فإنهم يملكون شفاعته ، بأن يملكها الله إياهم ، إذ هم ممن شهد بالحق وهم يعلمونه في كل أحوالهم ، فلا استثناء على هذا التأويل متصل وقال مجاهد وغيره : استثنى من في المشفوع فيهم ، فكأنه قال : لا يشفع هؤلاء الملائكة وعزير وعيسى إلا فيمن شهد بالحق وهو يعلمه ، أي هو بالتوحيد ، فلا استثناء على هذا التأويل منفصل ، كأنه قال : لكن من يشهد بالحق يشفع فيهم هؤلاء ، والتأويل الأول أصوب ، والله أعلم . ثم أظهر تعالى عليهم الحجة من أقوالهم وإقرارهم بأن الله هو خالقهم وموجدهم بعد العدم ، ثم وقفهم على جهة التقرير والتوبيخ بقوله : ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي فلاي جهة يصرفون .

وقرأ جمهور القراء بالنصب ، وهو مصدر كالقول ، والضمير فيه لمحمد عليه السلام ، وحكى مكي قولاً أنه لعيسى وهو ضعيف ، واختلف الناس في الناصب ، فقالت فرقة هو معطوف على قوله : ﴿سرهم ونجواهم﴾ [الزخرف : ٨٠] . وقالت فرقة العامل فيه ﴿يكتبون﴾ [الزخرف : ٨٠] أي أقوالهم من أفعالهم . ﴿وقيله﴾ . وقالت فرقة : الناصب له ما في قوله : ﴿وعند علم الساعة﴾ [الزخرف : ٨٥] من قوة الفعل ، أي ويعلم قيله ، ونزل قوله تعالى : ﴿وقيله يا رب﴾ بمنزلة وشكوى محمد واسغاثته من كفرهم وعتوهم . وقرأ عاصم وحمزة وابن وثاب والأعمش : و «قيله» بالخفض عطفاً على ﴿الساعة﴾ [الزخرف : ٨٥] . وقرأ الأعرج وأبو قلابة ومجاهد : «وقيله» بالرفع على الابتداء . وخبره في قوله : ﴿يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾ أي قيله هذا القول ، أو يكون التقدير : وقيله يا رب مسموع ومتقبل ، ف ﴿يا رب﴾ على هذا منصوب الموضع بـ «قيله» وقرأ أبو قلابة : «يا رب» بفتح الباء المشددة ، وأراد يا رب على لغة من يقول : يا غلاماً ، ثم حذف الألف تخفيفاً واتباعاً لخط المصحف .

وقوله : ﴿فاصفح عنهم﴾ مودعة منسوخة بآيات السيف .

وقوله : ﴿سلام﴾ تقديره : قل أمري سلام ، أي مسالمة . (وقالت فرقة) المعنى : قل سلام عليكم على جهة المودعة والملاينة ، والنسخ قد أتى على هذا السلام ، فسواء كان تحية أو عبارة عن المودعة .

وقرأ جمهور القراء : «يعلمون» بالياء . وقرأ نافع وابن عامر في رواية هشام عنه والحسن والأعرج وأبو جعفر : «تعلمون» بالتاء من فوق .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الذُّخْرَانِ

هذه السورة مكية لا أحفظ خلافاً في شيء منها.

قوله عز وجل:

حَمِّ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ ۝٣ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ۝٤ فِيهَا يُفْرَقُ ۝٥ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٦ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٧ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٨ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۝٩ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۝١٠ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝١١ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝١٢ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۝١٣

تقدم القول في: ﴿حَم﴾. وقوله: ﴿والكتاب المبين﴾ قسم أقسم الله تعالى به. و: ﴿المبين﴾ يحتمل أن يكون من الفعل المتعدي، أي يبين الهدى والشرع ونحوه، ويحتمل أن يكون من غير المتعدي، أي هو مبين في نفسه.

وقوله تعالى: ﴿إنا أنزلناه﴾ يحتمل أن يقع القسم عليه، ويحتمل أن يكون: ﴿إنا أنزلناه﴾ من وصف الكتاب فلا يحسن وقوع القسم عليه، وهذا اعتراض يتضمن تفخيم الكتاب ويحسن القسم به، ويكون الذي وقع القسم عليه: ﴿إنا كنا منذرين﴾.

واختلف الناس في تعيين الليلة المباركة، فقال قتادة والحسن: هي ليلة القدر، وقالوا: إن كتب الله كلها إنما نزلت في رمضان: التوراة في أوله، والإنجيل في وسطه، والزبور في نحو ذلك ونزل القرآن في آخره في ليلة القدر، ومعنى هذا النزول: أن ابتداء النزول كان في ليلة القدر، وهذا قول الجمهور. وقالت فرقة: بل أنزله الله جملة ليلة القدر إلى البيت المعمور، ومن هنالك كان جبريل يتلقاه. وقال عكرمة وغيره: الليلة المباركة هي النصف من شعبان.

وقوله: ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾ أمر من عندنا معناه: يفصل من غيره ويتخلص، وروي عن عكرمة في تفسير هذه الآية أن الله تعالى يفصل للملائكة في ليلة النصف من شعبان، وقال الحسن وعمير مولى غفرة ومجاهد وقتادة: في ليلة القدر كل ما في العام المقبل من الأقدار والأجال والأرزاق وغير ذلك،

ويكتب ذلك لهم إلى مثلها من العام المقبل. قال هلال بن يساف كان يقال: انتظروا الفضاء في شهر رمضان. وروي في بعض الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم «إن الرجل يتزوج ويعرس وقد خرج اسمه في الموتى، لأن الأجل تقطع في شعبان».

وقرأ الحسن والأعرج والأعمش: «يَفْرُق» بفتح الياء وضم الراء. و: ﴿حَكِيم﴾ بمعنى محكم.

وقوله: ﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا﴾ نصب على المصدر. وقوله: ﴿مَنْ عِنْدَنَا﴾ صفة لقوله: ﴿أَمْرًا﴾.

وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مَرْسَلِينَ﴾ يحتمل أن يريد الرسل والأنبياء، ويحتمل أن يريد الرحمة التي ذكر بعد، وعلى التأويل الأول نصب قوله: ﴿رَحْمَةً﴾ على المصدر، ويحتمل أن يكون نصبها على الحال.

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مَوْقِنِينَ﴾ تقرير وتثبيت، أي إن كنت موقناً بهذا يكون يقينك، كما تقول لإنسان تقيم نفسه: العلم غرضك إن كنت رجلاً.

وقوله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾ أي مالكم ومالك آبائكم الأولين.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر: «رُبُّ السماوات» بالرفع على القطع والاستئناف، وهي قراءة الأعرج وابن أبي إسحاق وأبي جعفر وشيبة. وقرأ عاصم وحزمة والكسائي بالكسر على البدل ﴿مَنْ رَبُّكَ﴾ المتقدم، وهي قراءة ابن محيصن والأعمش. وأما قوله تعالى: «رَبُّكُمْ وَرَبُّ» فالجمهور على رفع الباء. وقرأ الحسن بالكسر، رواها أبو موسى عن الكسائي.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ إضراب قبله نفي مقدر، كأنه يقول: ليس هؤلاء ممن يؤمن ولا ممن يتبع وصاة، بل هم في شك يلعبون في أقوالهم وأعمالهم.

واختلف الناس في الدخان الذي أمر الله تعالى بارتقاؤه، فقالت فرقة منها علي بن أبي طالب وزيد بن علي وابن عمر وابن عباس والحسن بن أبي الحسن وأبو سعيد الخدري: هو دخان يجيء قبل يوم القيامة يصيب المؤمن منه مثل الزكام، وينضج رؤوس الكافرين والمنافقين حتى تكون كأنها مصلية حنيدة. وقالت فرقة منها عبد الله بن مسعود وأبو العالية وإبراهيم النخعي: هو الدخان الذي رآه قريش حين دعا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم بسبع كسبع يوسف، فكان الرجل يرى من الجذب والجوع دخاناً بينه وبين السماء، وما يأتي من الآيات يقوي هذا التأويل. وقال ابن مسعود: خمس قد مضين، الدخان والالزام والبطشة والقمر والروم وذكر الطبري حديثاً عن حذيفة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن أول آيات الساعة الدخان، ونزول عيسى ابن مريم، ونار تخرج من قعر عدن»، وضعف الطبري سند هذا الحديث، واختار قول ابن مسعود رضي الله عنه في الدخان قال: ويحتمل إن صح حديث حذيفة أن يكون قد مر دخان ويأتي دخان.

قوله عز وجل:

يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَتَىٰ لَهُمُ الدَّكْرَىٰ

وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَذْوَا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾

﴿يفشى﴾ معناه: يغطي.

وقوله تعالى: ﴿هذا عذاب أليم﴾ يحتمل أن يكون إخباراً من الله تعالى، كأنه يعجب منه على نحو من قوله تعالى لما وصف قصة الذبح: ﴿إن هذا لهو البلاء المبين﴾ [الصافات: ١٠٦]، ويحتمل أن يكون ﴿هذا عذاب أليم﴾ من قول الناس، كأن تقدير الكلام: يقولون هذا عذاب أليم، ويؤيد هذا التأويل سياقه حكاية عنهم أنهم يقولون ﴿ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون﴾، وعلم الله تعالى أن قولهم في حال الشدة ﴿إنا مؤمنون﴾ إنما هو عن غير حقيقة منهم، فدل على ذلك بقوله: ﴿أنى لهم الذكرى﴾، أي من أين لهم أن يتذكروا وهم قد تركوا الذكرى وراء ظهورهم بأن جاءهم رسول مبين، وهو محمد عليه السلام فكفروا به. و﴿تولوا عنه﴾ أي أعرضوا، وقالوا إنه يعلم هذا الكلام الذي يتلو وأنه ﴿مجنون﴾، وإخباره تعالى بأنه يكشف عنهم ﴿العذاب قليلاً﴾ إخبار عن إقامة الحجة عليهم ومبالغة في الإملاء لهم، ثم أخبرهم بأنهم عائدون إلى الكفر. وقال قتادة: هو توعدهم بمعاد الآخرة، ثم أخبرهم بأنه ينتقم منهم بسبب هذا كله في يوم البطشة، وقدم اليوم وذكره على الذي عمل فيه تهمماً به وتخويفاً منه، والعامل فيه ﴿منتقمون﴾، وقد ضعف البصريون هذا من حيث هو خبر إن، وأبعدوا أن يعمل خبرها فيما قبلها، وقالوا العامل فعل مضمر يدل عليه ﴿منتقمون﴾.

واختلف الناس في يوم ﴿البطشة الكبرى﴾، فقال ابن عباس والحسن وعكرمة وقاتدة: هو يوم القيامة وقال عبد الله بن مسعود وابن عباس أيضاً وأبي بن كعب ومجاهد: هو يوم بدر.

وقرأ جمهور الناس: ﴿نَبْطِشُ﴾ بفتح النون وكسر الطاء. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: بضم الطاء. وقرأ الحسن أيضاً وأبورجاء وطلحة بن مصرف: بضم النون وكسر الطاء، ومعناها: نسلط عليهم من يبطش بهم، ثم ذكر تعالى قوم فرعون على جهة المثال لقريش.

و: ﴿فتنا﴾ معناه: امتحنا واختبرنا. والرسول الكريم: قال قتادة: هو موسى عليه السلام، ومعنى الآية يعطي ذلك بلا خلاف وهنا متروك يدل عليه الظاهر، تقديره قال لهم: ﴿أدوا﴾ هذا، مأخوذ من الأداء، كأنه يقول: أن ادفعوا إلي وأعطوني ومكنوني.

واختلف المتأولون في الشيء المؤدى في هذه الآية ما هو؟ فقال مجاهد وابن زيد وقاتدة: طلب منهم أن يؤدوا إليه بني إسرائيل وإياهم أراد بقوله: ﴿عباد الله﴾ وقال ابن عباس المعنى: اتبعوني إلى ما أَدْعُوكُم إليه من الحق، فقوله: ﴿عباد الله﴾ منادى مضاف، والمؤدى هي الطاعة والإيمان والأعمال.

قال القاضي أبو محمد: والظاهر من شرع موسى عليه السلام أنه بعث إلى دعاء فرعون إلى الإيمان،

وأن يرسل بني إسرائيل، فلما أبى أن يؤمن، ثبتت المكافحة في أن يرسل بني إسرائيل، وفي إرسالهم هو قوله: ﴿أَنْ أَدُوا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ﴾ أي بني إسرائيل، ويقوي ذلك قوله بعد: ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُون﴾ [الدخان: ٢١]، وهذا قريب نص في أنه إنما يطلب بني إسرائيل فقط، ويؤيد ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿فَاسْرِ عِبَادِي﴾ فيظهر أنه إياهم أراد موسى بقوله: ﴿عِبَادِ اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿رَسُولَ آمِينَ﴾ معناه على وحي الله تعالى أؤديه إلى عباده.

قوله عز وجل:

وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عَذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَتُولَاءِ قَوْمُ تُجْرُمُونَ ﴿٢٢﴾ فَاسْرِ عِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَأَتْرُكُ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّعْرِفُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾

المعنى كانت رسالته وقوله: ﴿أَنْ أَدُوا﴾ [الدخان: ١٨] ﴿وَأَنْ تَعْلُوا﴾ وعبر بالعلو عن الطغيان والعتو على الله تعالى وعلى شرعه وعلى رسوله.

وقرأ الجمهور: «إني آتيكم» بكسر الألف على الإخبار المؤكد، والسلطان: الحجة، فكأنه قال: لا تكفروا، فإن الدليل المؤدي إلى الإيمان بين. وقرأت فرقة: «أني آتيكم» بفتح الألف. و«أَنْ» في موضع نصب بمعنى: لا تكفروا من أجل أني آتيكم بسلطان مبين، فكان مقصد هذا الكلام التوبيخ، كما تقول لإنسان: لا تغضب، لأن الحق قيل لك.

وقوله: ﴿وَإِنِّي عَذْتُ﴾ الآية، كلام قاله موسى عليه السلام لخوف لحقه من فرعون وملئه و: ﴿عَذْتُ﴾ معناه: استجرت وتحملت. وأدغم الدال في التاء الأعرج وأبو عمرو.

واختلف الناس في قوله: ﴿أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ فقال قتادة وغيره: أراد الرجم بالحجارة المؤدي إلى القتل. وقال ابن عباس وأبو صالح: أراد الرجم بالقول من السباب والمخالفة ونحوه، والأول أظهر، لأنه أعيد منه ولم يعذ من الآخر، بل قيل فيه عليه السلام وله.

وقوله: ﴿تُؤْمِنُوا لِي﴾ بمعنى: تؤمنوا بي. والمعنى: تصدقوا. وقوله: ﴿فَاعْتَزِلُونِ﴾ مشاركة صريحة. قال قتادة: أراد خلّوا سبيلي.

وقوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ قبله محذوف من الكلام، تقديره: فما كفوا عنه، بل تطرقوا إليه وعتوا عليه وعلى دعوته ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾.

وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق وعيسى «إِنْ هَؤُلَاءِ» بكسر الألف من «إِنْ» على معنى «قال إن»، وقرأ جمهور الناس والحسن أيضاً: «أَنْ هَؤُلَاءِ» بفتح الألف، والقراءتان حسنتان.

وحكم عليهم بالإجرام المضمن للكفر حين يش منكم، وهنا أيضاً محذوف من الكلام تقديره: فقال الله له: ﴿فاسر بعبادي﴾ وهذا هو الأمر الذي أنفذه الله إلى موسى بالخروج من ديار مصر ببني إسرائيل، وقد تقدم شرحه وقصصه في سورة الأنبياء وغيرها.

وقرأ جمهور الناس: «فاسر» موصولة الألف. وقرأ: «فاسر» بقطع الألف: الحسن وعيسى، ورويت عن أبي عمرو. وأعلمه تعالى بأنهم ﴿متبعون﴾، أي يتبعهم فرعون وجنوده.

واختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿واترك البحر رهوا﴾ متى قالها لموسى؟ فقالت فرقة: هو كلام متصل ﴿إنكم متبعون واترك البحر﴾ إذا انفرد لك ﴿رهوا﴾. وقال قتادة وغيره: خوطب به بعد ما اجتاز البحر وخشي أن يدخل فرعون وقومه وراءه، وأن يخرجوا من المسالك التي خرج منها بنو إسرائيل، فهم موسى أن يضرب البحر عسى أن يلتئم ويرجع إلى حاله، ففيل له عند ذلك: ﴿واترك البحر رهوا﴾.

واختلفت عبارة المفسرين في تفسير الرهو، فقال مجاهد وعكرمة معناه: يساً من قوله تعالى: ﴿فاضرب لهم طريقاً في البحر يساً﴾ [طه: ٧٧]. وقال الضحاك بن مزاحم معناه: دمثاً ليناً. وقال عكرمة أيضاً: جرداً. وقال ابن زيد: سهلاً. وقال ابن عباس معناه: ساكناً، أي كما جزته، وهذا القول الأخير هو الذي تؤيده اللغة، فإن العيش الواهي هو الذي هو في خفض ودعة وسكون، حكاه المبرد وغيره. والرهو في اللغة هو هذا المعنى، ومنه قول عمرو بن شبيب القطامي:

يمشون رهواً فلا الأعجاز خاذلة ولا الصدور على الأعجاز تتكل

فإنما معناه: يمشون اتثاداً وسكوناً وتماهلاً. ومنه قول الآخر:

وأمة خرجت رهواً إلى عيد

أي خرجوا في سكون وتماهل، ففيل لموسى عليه السلام: اترك البحر ساكناً على حاله من الانفراق ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. والرهو: من أسماء الكركي الطائر، ولا مدخل له في تفسير هذه الآية، وشبهه عندي أن سمي رهواً لسكونه، وأنه أبداً على تماهل.

وقوله: ﴿كم تركوا﴾ الآية، قبله محذوف تقديره: فغرقوا وقطع الله دابرهم، ثم أخذ يعجب من كثرة ما تركوا من الأمور الرفيعة الغبيطة في الدنيا، و: ﴿كم﴾ خبر للتكثير. والجنات والعيون: روي أنها كانت متصلة ضفتي النيل جميعاً من رشيد إلى أسوان. وأما العيون فيحتمل أنه أراد الخلجان الخارجة من النيل فشبهها بالعيون، ويحتمل أنه كانت ثم عيون ونضبت كما يعتري في كثير من بقاع الأرض.

وقرأ قتادة ومحمد بن السميع اليماني ونافع في رواية خارجة عنه: «ومقام» بضم الميم، أي موضع إقامة. وكذلك قرأ اليماني في كل القرآن إلا في مريم ﴿خير مقاماً﴾ [مريم: ٧٣] فكأن المعنى: ﴿كم تركوا﴾ من موضع حسن كريم في قدره ونفعه. وقرأ جمهور الناس ونافع: «ومقام» بفتح الميم، أي موضع قيام، فعلى هذه القراءة قال ابن عباس ومجاهد وابن جبير: أراد المنابر. وعلى ضم الميم في: «مقام» قال قتادة: أراد المواضع الحسان من المساكن وغيرها، والقول بالمنابر بهي جداً.

والنَّعْمَةُ بفتح النون: غضارة العيش ولذاذة الحياة، والنَّعْمَةُ بكسر النون أعم من هذا، لأن النعمة بالفتح هي من جملة النعم بالكسر، وقد تكون الأمراض والآلام والمصائب نعماً، ولا يقال فيها نعمة بالفتح. وقرأ أبو رجاء: «ونعمة» بالنصب.

وقرأ جمهور الناس: «فاكهين» بمعنى: ناعمين. والفاكهة: الطيب النفس: أو يكون بمعنى أصحاب فاكهة كلابن وتامر. وقرأ أبو رجاء والحسن بخلاف عنه، وابن القعقاع: «فكهين»، ومعناه قريب من الأول، لأن الفكه يستعمل كثيراً في المستخف المستهزئ، فكأنه هنا يقول: كانوا في هذه النعمة مستخفين بشكرها والمعرفة بقدرها.

وقوله: ﴿كَذٰلِكَ وَاُورِثْنَاهَا﴾ معناه الأمر كذلك، وسماها وراثته من حيث كانت أشياء أناس وصلت إلى قوم آخرين من بعد موت الأولين، وهذه حقيقة الميراث في اللغة وربطها الشرع بالنسب وغيره من أسباب الميراث، والآخرون من ملك مصر بعد القبط. وقال قتادة: القوم الآخرون، هم بنو إسرائيل، وهذا ضعيف، لأنه لم يرو أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر في شيء من ذلك الزمان ولا ملكوها قط، إلا أن يريد قتادة أنهم ورثوا نوعها في بلاد الشام، وقد ذكر الثعلبي عن الحسن أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون.

قوله عز وجل:

فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا ابْنَ إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآيَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِن هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَتَوْنَا بَابَنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾

نفث هذه الآية أن تكون السماء والأرض بكث على قوم فرعون، فاقضى أن للسماء والأرض بكاء. واختلف المتأولون في معنى ذلك فقال علي بن أبي طالب وابن عباس ومجاهد وابن جبير: إن الرجل المؤمن إذا مات بكى عليه من الأرض موضع عبادته أربعين صباحاً، وبكى عليه من السماء موضع صعود عمله، قالوا فلم يكن في قوم فرعون من هذه حاله، فهذا معنى الآية. وقال السدي وعطاء: بكاء السماء: حمرة أطرافها. وقالوا إن السماء احمرت يوم قتل الحسين بن علي، وكان ذلك بكاء عليه، وهذا هو معنى الآية.

قال القاضي أبو محمد: والمعنى الجيد في الآية أنها استعارة باهية فصيحة تتضمن تحقير أمرهم، وأنهم لم يتغير عن هلاكهم شيء، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لِلتَّزْوِلِ﴾ [إبراهيم: ٤٦] على قراءة من قرأ «لتزول» بكسر اللام ونصب الفعل وجعل ﴿إِنْ﴾ [إبراهيم: ٤٦] نافية، ومثل هذا المعنى قول النبي عليه السلام: «لا ينتطح فيها عتران» فإنه يتضمن التحقير، لكن هذه الألفاظ هي بحسب ما قيلت فيه،

وهو قتل المرأة الكافرة التي كانت تؤذي النبي عليه السلام. وعظم قصة فرعون وقومه يجيء بحسبها جمال الوصف وبهاء العبارة في قوله: ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾ ومن نحو هذا أن يعكس قول جرير: [الكامل]

لما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشع

فيقال في تحقير: مات فلان فما خشعت الجبال، ونحو هذا، وفي الحديث عن النبي عليه السلام أنه قال: «ما مات مؤمن في غربة غاب عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض»، ثم قرأ هذه الآية، وقال: «إنهما لا يبكيان على كافر». ومن التفتيح بكاء المخلوقات العظام قول يزيد بن مفرغ [مجزوء الكامل]:

الريح تبكي شجوه والبرق يلمع في غمامه

وقول الفرزدق:

فالشمس طالعة ليست بكاسفة تبكي عليك نجوم الليل والقمر

و: ﴿منظرين﴾ معناه: مؤخرين وممهلين.

ثم ذكر تعالى نعمته على بني إسرائيل في إنجائهم من فرعون وقومه، و﴿العذاب المهين﴾ هو ذبح الأبناء والتسخير في المهن كالبنيان والحفر وغيره.

وفي قراءة ابن مسعود: «من عذاب المهين»، بسقوط التعريف بالآلف واللام من العذاب.

وقوله: ﴿من فرعون﴾ بدل من قوله: ﴿من العذاب﴾. و: «من» بكسر الميم هي قراءة الجمهور. وروى قتادة أن ابن عباس كان يقرأها «من» بفتح الميم «فرعون» برفع النون.

وقوله: ﴿على علم﴾ أي على شيء سبق عندنا فيهم وثبت في علمنا أنه سينفذ. وقوله: ﴿على العالمين﴾ يريد على جميع الناس، هذا على التأويل المتقدم في العلم. والمعنى: لقد اخترناها لهذا الإنجاء وهذه النعم على سابق علم لنا فيهم وخصصناهم بذلك دون العالم، ويحتمل قوله: ﴿على علم﴾ أن يكون معناه: على علم وفضائل فيهم، والمعنى: اخترناهم للنبوءات والرسالات، فيكون قوله: ﴿على العالمين﴾ في هذا التأويل، معناه: على عالم زمانهم، وذلك بدليل فضل أمة محمد لهم وعليهم، وأن أمة محمد خير أمة أخرجت للناس.

وقوله تعالى: ﴿وآتيناهم من الآيات﴾ لفظ جامع لمعجزات موسى وللعبر التي ظهرت في قوم فرعون من الجراد والقمل والضفادع وغير ذلك، ولما أنعم به على بني إسرائيل من تظليل الغمام والمن والسلوى وغير ذلك، فإن لفظ ﴿الآيات﴾ يعم جميع هذا. والبلاء في هذا الموضع: الامتحان والاختبار، وهذا كما قال تعالى: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾ [الأنبياء: ٣٥] و: ﴿مبين﴾ بمعنى بين.

ثم ذكر تعالى قريشاً وحكى عنهم على جهة الإنكار لقولهم حين أنكروا فيه ما هو جائز في العقل

فقال: ﴿إِنْ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى﴾ أي ما آخر أمرنا ومتهى وجودنا إلا عند موتنا، وما نحن بمبعوثين من القبور، يقال أنشر الله الميت فنشر هو، وقول قریش: ﴿فَأَتُوا﴾ مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم، إلا أنه من حيث كان النبي عليه السلام مسنداً في أقواله وأفعاله إلى الله تعالى وبواسطة ملك خاطبوه كما تخاطب الجماعة، وهم يريدونه وربهم وملائكته. واستدعاء الكفار في هذه الآية أن يحیی لهم بعض آبائهم وسموا قصياً لكي يسألوهم عما رأوا في آخرتهم، ولم يستقص في هذه الآية الرد عليهم لبيان، ولأنه مبثوث في غير ما آية من كتاب الله، فإن الله تعالى قد جزم البعث من القبور في أجل مسمى لا يتعداه أحد، وقد بينت الأمثلة من الأرض الميتة وحال النبات أمر البعث من القبور.

قوله عز وجل:

أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَجَبٍ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يَغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ الآية تقرير فيه وعيد، و: ﴿تُبَّعٍ﴾ ملك حميري، وكان يقال لكل ملك منهم: ﴿تُبَّعٍ﴾، إلا أن المشار إليه في هذه الآية رجل صالح من التبابعة. قال كعب الأحبار: ذم الله تعالى قومه ولم يذمه، ونهى العلماء عن سبه، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم من طريق سهل بن سعد: أن تبعاً هذا أسلم وآمن بالله، وروي أن ذلك كان على يد أهل كتاب كانوا بحضرته. وقال ابن عباس: كان ﴿تُبَّعٍ﴾ نبياً. وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ما أدري أكان ﴿تُبَّعٍ﴾ نبياً أم غير نبى؟. وقال ابن جبير: هو الذي كسا الكعبة، وقد ذكره ابن إسحاق في السيرة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ يريد بالكفر. وقرأت فرقة: «أنهم» بفتح الألف. وقرأ الجمهور بكسرها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ يريد بالواجب المقتضي للخيرات وفيض الهبات. و: ﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ هو يوم القيامة، وهذا هو الإخبار بالبعث، وهو أمر جوزه العقل وأثبتته الشرع بهذه الآية وغيرها. والمولى في هذه الآية: يعم جميع الموالى من القربات وموالى العتق وموالى الصداقة.

وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ إن كان الضمير يراد به العالم، فيصح أن يكون من قوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ موضع نصب على الاستثناء المتصل، وإن كان الضمير يراد به الكفار فلا استثناء منقطع، ويصح أن يكون في موضع رفع علة الابتداء والخبر تقديره: فإنه يغني بعضهم عن بعض في الشفاعة ونحوها، أو يكون تقديره: فإن الله ينصره.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ روي عن ابن زيد ﴿الأثيم﴾ المشار إليه: أبو جهل، ثم هي بالمعنى تتناول كل أثيم، وهو كل فاجر يكتسب الإثم، وروي عن ابن زيد أن أبا الدرداء أقرأ أعرابياً فكان يقول: «طعام اليتيم»، فرد عليه أبو الدرداء مراراً فلم يلقن، فقال له: قل «طعام الفاجر»، فقرئت كذلك، وإنما هي على التفسير. و: ﴿شَجَرَةُ الزَّقُومِ﴾ هي الشجرة الملعونة في القرآن، وهي تنبت في أصل الجحيم، وهي التي طلعتها كأنه رؤوس الشياطين.

وروي أن أبا جهل لما نزلت هذه الآية فيه، وأشار الناس بها إليه، جمع عجوة بزيد ودعا إليها ناساً وقال لهم: «تزقموا»، فإن الزقوم هو عجوة يثرب بالزبد، وهو طعامي الذي حدث به محمد، وإنما قصد بذلك ضرباً من المغالطة والتلبيس على الجهلة.

قوله عز وجل:

كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَهُمْ عَذَابِ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضَلَا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَرْثِيهِ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

قال ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهما: «المهل»: «الزيت وعكره». وقال ابن مسعود وابن عباس أيضاً: «المهل» ما ذاب من ذهب أو فضة أو حديد أو رصاص ونحوه. قال الحسن: كان ابن مسعود على بيت المال لعمر بالكوفة، فأذاب يوماً فضة مكسرة، فلما انماعت، قال: يدخل من الباب، فدخلوا، فقال لهم: هذا أشبه ما رأينا في الدنيا بالمهل. والمعنى أن هذه الشجرة إذا طعمها الكافر في جهنم صارت في جوفه تفعل كما يفعل المهمل السخن من الإحراق والإفساد.

وقرأ نافع وأبو عمرو وحزمة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر: «تغلي» بالتاء على معنى: تغلي الشجرة، وهي قراءة عمرو بن ميمون وأبي رزين والحسن والأعرج وابن محيصن وطلحة. وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم في رواية حفص: «يغلي» على معنى: يغلي الطعام، وهي قراءة مجاهد وقتادة والحسن بخلاف عنه. و: ﴿الحميم﴾: الماء الساخن الذي يتطاير من غليانه.

وقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ﴾ الآية، معناه: يقال يومئذ للملائكة عن هذا الأثيم ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾.

والعتل: السُّوق بعنف وإهانة ودفع قوي متصل، كما يساق أبدأ مرتكب الجرائم، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر: بضم التاء، والباقون بكسرهما، وقد روي الضم عن أبي عمرو، وكذلك روي الوجهان عن الحسن وقتادة والأعرج.

والسواء: الوسط، وقيل المعظم وذلك متلازم في العظم أبدأ من مثل هذا إنما هو في الوسط، وفي الآية ما يقتضي أن الكافر يصب على رأسه من حميم جهنم، وهو ما يغلى فيها من ذوب، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿يصب من فوق رؤوسهم الحميم﴾ [الحج: ١٩] وإلى هذا نظر بعض ولاية المدينة فإنه كان يصب الخمر على رأس الذي شربها أو توجد عنده عقوبة له وأدباً، ذكر ذلك ابن حبيب في الواضحة.

وقوله تعالى: ﴿ذق، إنك أنت العزيز الكريم﴾ مخاطبة على معنى هذا التقرع، ويروى عن قتادة أن أبا جهل لما نزلت: ﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٤] قال أيتها دني محمد وأنا ما بين جبليها أعزمني وأكرم، فنزلت هذه الآيات، وفي آخرها: ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ أي على قولك، وهذا كما قال جرير:

ألم يكن في وسوم قد وسمت بها من خان موعظة يا زهرة اليمن

يقولها للشاعر الذي سمى نفسه به، وذلك في قوله:

أبلغ كلياً وأبلغ عنك شاعرها أني الأعز وأنّي زهرة اليمن

فجاء بيت جرير على هذا الهزء.

وقرأ الجمهور: «إنك» بكسر الهمزة. وقرأ الكسائي وحده: «أنك» بفتح الألف، والمعنى واحد في المقصد وإن اختلف المؤخذ إليه، وبالفتح قرأها على المنبر الحسين بن علي بن أبي طالب أسنده إليه الكسائي وأتبعه فيها.

وقوله تعالى: ﴿إن هذا ما كنتم به تمترون﴾ عبارة عن قول يقال للكفرة عند عذابهم، أي هذه الآخرة وجهنم التي كنتم تشكون فيها. ثم ذكر تعالى حالة المتقين بعقب ذكر حالة الكافر ليبين الفرق.

وقرأ نافع وابن عامر: «في مقام» بضم الميم، وهي قراءة أبي جعفر وشيبة وقتادة وعبد الله بن عمر بن الخطاب والحسن والأعرج. وقرأ الباكون: «في مقام» بفتحها، وهي قراءة أبي رجاء وعيسى ويحيى والأعمش.

و: ﴿أمين﴾ يؤمن فيه الغير، فكأنه فعيل بمعنى مفعول، أي مأمون فيه. وكسر عاصم العين من «عيون». قال أبو حاتم: وذلك مردود عند العلماء، ومثله شيوخ وبيوت، بكسر الشين والباء. والسندس: رقيق الحرير. والاستبرق: خشيته.

وقرأ ابن محصن: «واستبرق» بالوصل وفتح القاف.

وقوله: ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ وصف لمجالس أهل الجنة، لأن بعضهم لا يستدبر بعضاً في المجالس، وقوله: ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ﴾ تقديره: والأمر كذلك.

وقرأ الجمهور: «عين» وهو جمع عيناء. وقرأ ابن مسعود: «عيس»، وهو جمع عيساء، وهي أيضاً البيضاء، وكذلك هي من النوق. وقرأ عكرمة: «بحور عين» على ترك التنوين في «حور» وأضافها إلى «عين». قال أبو الفتح: الإضافة هنا تفيد ما تفيد الصفة، وروى أبو قرصافة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إخراج القمامة من المسجد من مهور الحور العين.

وقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ أَمْنِينَ﴾ معناه: يدعون الخدمة والمتصرفين.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ قدر قوم ﴿إِلَّا﴾ بسوى، وضعف ذلك الطبري، وقدرها ببعد، وليس تضعيفه بصحيح، بل يصح المعنى بسوى ويتسق، وأما معنى الآية: فبين أنه نفى عنهم ذوق الموت، وأنه لا ينالهم من غير ذلك ما تقدم في الدنيا، والضمير في قوله: ﴿يَسْرَنَاهُ﴾ عائذ على القرآن. وقوله: ﴿بِلِسَانِكَ﴾ معناه بلغة العرب ولم يرد الجارحة.

وقوله: ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ معناه: ﴿فَارْتَقِبْ﴾ نصرنا لك، ﴿إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ فيما يظنون الدوائر عليك، وفي هذه الآية وعد له، ووعد لهم، وفيها متاركة، وهذا وما جرى منسوخ بآية السيف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

هذه السورة مكية لا خلاف في ذلك .
قوله عز وجل :

حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تَكَءِيتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

تقدم القول في الحروف المقطعة في أوائل السور . و: ﴿تنزيل﴾ رفع بالابتداء أو على خبر ابتداء مضمر . و: ﴿العزیز﴾ معناه عام في شدة أخذه إذا انتقم، ودفاعه إذا حمي ونصر وغير ذلك . و: ﴿الحكيم﴾ المحكم للأشياء .

وذكر تبارك الآيات التي في السماوات والأرض مجملة غير مفصلة، فكأنها إحالة على غوامض تثيرها الفكر، ويخبر بكثير منها الشرع، فلذلك جعلها للمؤمنين، إذ في ضمن الإيمان العقل والتصديق . ثم ذكر تعالى خلق البشر والحيوان، وكأنه أغمض مما أحال عليه أولاً وأكثر تلخيصاً، فجعله للموقنين الذين لهم نظر يؤديهم إلى اليقين في معتقداتهم . ثم ذكر تعالى اختلاف الليل والنهار والعبارة بالمطر والرياح، فجعل ذلك ﴿لقوم يعقلون﴾، إذ كل عاقل يحصل هذه ويفهم قدرها، وإن كان هذا النظر ليس بلازم ولا بد فإن اللفظ يعطيه . و: ﴿يتكأيت﴾ معناه: ينشر في الأرض . والدابة: كل حيوان يدب، أو يمكن فيه أن يدب، يدخل في ذلك الطير والحوت، وشاهد الطير قول الشاعر: [الطويل]

صواعقها لطيرهن ديب

وقول الآخر: [الطويل]

ديب قطا البطحاء في كل منهل

وشاهد الحوت قول أبي موسى : وقد ألقى البحر دابة مثل الطرب ودواب البحر لفظ مشهور في

اللغة .

وقرأ حمزة والكسائي: «آيات» بالنصب في الموضعين الآخرين. وقرأ الباقون والجمهور: «آيات» بالرفع فيهما، فأما من قرأ بالنصب فحمل «آيات» في الموضعين على نصب ﴿إن﴾ في قوله ﴿إن في السماوات والأرض آيات للمؤمنين﴾ ولا يعرض في ذلك العطف على عاملين الذي لا يجيزه سبويه وكثير من النحويين، لأننا نقدر ﴿في﴾ معادة في قوله: ﴿واختلاف﴾ وكذلك هي في مصحف ابن مسعود: «وفي اختلاف»، فكأنه قال على قراءة الجمهور: «وفي اختلاف الليل»، وذلك أن ذكرها قد تقدم في قوله: ﴿وفي خلقكم﴾ فلما تقدم ذكر الجار جاز حذفه من الثاني، ويقدر مثبتاً كما قدر سبويه في قول الشاعر [أبو دؤاد الأيادي]: [المتقارب]

أكل امرئ تحسبن امرأً ونار توقد بالليل نارا

أي وكل نار، وكما قال الآخر: [الرجز]

أوصيت من برة قلباً حراً بالكلب خيراً والحمة شراً

أي وبالحمة، وهذا الاعتراض كله إنما هو في ﴿آيات﴾ الثاني، لأن الأول قبله حرف الجر ظاهر. وفي قراءة أبي بن كعب وابن مسعود في الثلاثة المواضع: «لآيات». قال أبو علي: وهذا يدل على أن الكلام محمول على أن في قراءة من أسقط اللامات في الاثنين الآخرين، وأما من رفع «آيات» في الموضعين فوجهه العطف على موضع ﴿إن﴾ وما عملت فيه، لأن موضعها رفع بالابتداء، ووجه آخر وهو أن يكون قوله: ﴿وفي خلقكم وما يث﴾ مستأنفاً، ويكون الكلام جملة معطوفة على جملة، وقال بعض الناس: يجوز أن يكون جملة في موضع الحال فلا تكون غريبة على هذا.

﴿واختلاف الليل والنهار﴾ إما بالنور والظلام، وإما بكونهما خلفه. والرزق المنزل من السماء: هو المطر، سماه رزقاً بماله، لأن جميع ما يرتزق فغن المطر هو. ﴿وتصريف الرياح﴾ هو بكونها صباً ودبوراً وجنوباً وشمالاً، وأيضاً بكونها مرة رحمة ومرة عذاباً، قاله قتادة، وأيضاً بليتها وشدتها وبردها وحرها.

وقرأ طلحة وعيسى: «وتصريف الريح» بالافراد، وكذلك في جميع القرآن إلا ما كان فيه مبشرات وخالف عيسى في الحجر فقرأ: ﴿الرياح لواقح﴾ [الحجر: ٢٢].

وقوله: ﴿تلك آيات الله﴾ إشارة إلى ما ذكر. وقوله: ﴿نتلوها﴾ فيه حذف مضاف، أي يتلو شأنها وتفسيرها وشرح العبرة لها، ويحتمل أن يريد بـ ﴿آيات الله﴾ القرآن المنزل في هذه المعاني فلا يكون في ﴿نتلوها﴾ حذف مضاف. وقوله: ﴿بالحق﴾ معناه: بالصدق والإعلام بحقائق الأمور في أنفسها. وقوله: ﴿فبأي حديث﴾ الآية توبيخ وتقريع، وفيه قوة التهديد.

وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو وأبو جعفر والأعرج وشيبة وقاتدة: «يؤمنون» بالياء من تحت. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم أيضاً والأعشى «تؤمنون» بالتاء على مخاطبة الكفار. وقرأ طلحة بن مصرف: «توقنون» بالتاء من فوق من اليقين.

قوله عز وجل:

وَبَلِّغْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنْزِلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةٌ بِعَذَابِ إِلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا مِزْوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن رَّوَابِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزِ إِلِيمٍ ﴿١١﴾

الويل في كلام العرب: المصائب والحزن والشدة من هذه المعاني، وهي لفظة تستعمل في الدعاء على الإنسان. وروي في بعض الآثار أن في جهنم وادياً اسمه: ﴿ويل﴾، وذهب الطبري إلى أنه المراد بالآية، ومقتضى اللغة أنه الدعاء على أهل الإفك والإثم بالمعاني المتقدمة. والأفاك: الكذاب الذي يقع منه الإفك مراراً. والأثيم: بناء مبالغة، اسم فاعل من أثم يأثم.

وروي أن سبب هذه الآية أبو جهل، وقيل النضر بن الحارث، والصواب أن سببها ما كان المذكوران وغيرهما يفعل، وأنها تعم كل من دخل تحت الأوصاف المذكورة إلى يوم القيامة: و: ﴿يصر﴾ معناه: يثبت على عقيدته من الكفر.

وقوله: ﴿فبشره بعذاب﴾ حسن ذلك لما أفصح عن العذاب، ولو كانت البشارة غير مقيدة بشيء لما حصلت إلا على المحاب.

وقرأ جمهور الناس: «وَإِذَا عَلِمَ» بفتح العين وتخفيف اللام، والمعنى: وإذا أخبر بشيء ﴿من آياتنا﴾ فعلم نفس الخبر لا المعنى الذي تضمنه الخبر ولو علم المعاني التي تضمنها إخبار الشرع وعرف حقائقها لكان مؤمناً. وقرأ قتادة ومطر الوراق «عَلَّمَ» بضم العين وشد اللام.

وقوله: ﴿أولئك﴾ رد على لفظ كل أفَّاكٍ، لأنه اسم جنس له الصفات المذكورة بعد قوله: ﴿من ورائهم جهنم﴾ قال فيه بعض المفسرين معناه: من أمامهم، وهذا نحو الخلاف الذي في قوله تعالى: ﴿وكان وراءهم ملك﴾ [الكهف: ٧٩] ولحظ قائل هذه المقالة الأمر من حيث تأول أن الإنسان كأنه من عمره يسير إلى جنة أو نار، فهما أمامه، وليس لفظ وراء في اللغة كذلك، وإنما هو ما يأتي خلف الإنسان، وإذا اعتبر الأمر بالتقدم أو التأخر في الوجود، على أن الزمان كالطريق للأشياء استقام الأمر، فما يأتي بعد الشيء في الزمان فهو وراءه، فكان الملك وأخذه السفينة وراء ركوب أولئك إياها، وجهنم وإحراقها للكفرة يأتي بعد كفرهم وأفعالهم، وهذا كما تقول: افعل كذا وأنا من ورائك عضداً، وكما تقول ذلك على التهديد، أنا من وراء التقصي عليك، ونحو هذا. وقوله تعالى: ﴿ولا ما اتخذوا﴾ يعني بذلك الأوثان.

وقوله تعالى: ﴿هذا هدى﴾ إشارة إلى القرآن.

وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية حفص: «أليم» على النعت لـ ﴿عذاب﴾ وهي قراءة ابن محيصن وابن مصرف وأهل مكة. وقرأ الباقون: «أليم» على النعت لـ ﴿رجز﴾ وهي قراءة الحسن وأبي جعفر وشيبة وعيسى والأعمش. والرجز: أشد العذاب.

وقوله: ﴿لهم عذاب﴾ بمنزلة قولك: لهم حظ، فمن هذه الجهة ومن جهة تغاير اللفظتين حسن قوله: ﴿عذاب من رجز﴾ إذ الرجز هو العذاب.

قوله عز وجل:

اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرِيَ فِيهِ فُلُكٌ بِأَمْرِهِ ۖ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾

هذه آية عبرة في جريان السفينة في البحر، وذلك أن الله تعالى سخر هذا المخلوق العظيم لهذا المخلوق الحقيق الضعيف.

وقوله: ﴿بأمره﴾ أقام القدرة والإذن مناب أن يأمر البحر والناس بذلك. والابتغاء من فضل الله: هو بالتجارة في الأغلب، وكذلك مقاصد البر من حج أو جهاد هي أيضاً ابتغاء فضل، والتصير فيه هو ابتغاء فضل. وتسخير ﴿ما في السماوات﴾: هو تسخير الشمس والقمر والنجوم والسحاب والرياح والهواء والملائكة الموكلة بهذا كله، ويروى أن بعض الأحبار نزل به ضيف فقدم إليه رغيماً، فكان الضيف احتقره فقال له المضيف: لا تحتقره فإنه لم يستدر حتى تسخر فيه من المخلوقات والملائكة ثلاثمائة وستون بين ما ذكرنا من مخلوقات السماء وبين الملائكة وبين صنائع بني آدم الموصلين إلى استدارة الرغيغ، وتسخير ما في الأرض هو تسخير البهائم والمياه والأودية والجبال وغير ذلك. ومعنى قوله: ﴿جميعاً منه﴾ قال ابن عباس: كل إنعام فهو من الله تعالى.

وقرأ جمهور الناس: «منه» وهو وقف جيد. وقرأ مسلمة بن محارب: «منه» بفتح الميم وشد النون المضمومة بتقدير: هو منه. وقرأ ابن عباس: بكسر الميم وفتح النون المشددة ونصب التاء على المصدر. قال أبو حاتم: سند هذه القراءة إلى ابن عباس مظلم، وحكاها أبو الفتح عن ابن عباس وعبد الله بن عمر والجحدري وعبد الله بن عبيد بن عمير. وقرأ مسلمة بن محارب أيضاً: «منه» بكسر الميم وبالرفع في التاء.

وقوله تعالى: ﴿قل للذين آمنوا يغفروا﴾ الآية، آية نزلت في صدر الإسلام، أمر الله المؤمنين فيها أن يتجاوزوا عن الكفار وأن لا يعاقبواهم بذنب، بل يأخذون أنفسهم بالصبر، قاله محمد بن كعب القرظي والسدي. قال أكثر الناس: وهذه آية منسوخة بآية القتال وقالت فرقة: الآية محكمة، والآية تتضمن الغفران عموماً، فينبغي أن يقال: إن الأمور العظام كالقتل والكفر مجاهرة ونحو ذلك قد نسخ غفرانه آية السيف

والجزية وما أحكمه الشرع لا محالة، وإن الأمور المحقرة كالجفاء في القول ونحو ذلك يحتمل أن يتقى محكمه، وأن يكون العفو عنها أقرب إلى التقوى. وقال ابن عباس لما نزلت: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ [البقرة: ٢٤٥] قال فنحاص اليهودي. احتاج رب محمد، فأخذ عمر سيفه وممر ليقتله، فرده رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «إن ربك يقول: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية، فهذا احتجاج بها مع قدم نزولها. وقد ذكر مكى وغيره أنها نزلت بمكة في عمر رضي الله عنه لما أراد أن يبطش بمشرك شتمه. وأما الجزم في قوله: ﴿يَغْفِرُوا﴾ فهو جواب شرط مقدر تقديره: قل اغفروا فإن يجيبوا يغفروا. وأخصر عندي من هذا أن ﴿قُلْ﴾ هي بمثابة: أئدب المؤمنين إلى الغفر.

وقوله: ﴿أَيَّامَ اللَّهِ﴾ قالت فرقة معناه: أيام إنعامه ونصره وتنعيمه في الجنة وغير ذلك، ف﴿يرجون﴾ على هذا هو من بابه. وقال مجاهد: ﴿أَيَّامَ اللَّهِ﴾ تعالى هي أيام نقمه وعذابه، ف﴿يرجون﴾ على هذا هي التي تنزل منزلة يخافون، وإنما تنزل منزلتها من حيث الرجاء والخوف متلازمان لا تجدد أحدهما إلا والآخر معه مقترن، وقد تقدم شرح هذا غير مرة، وقرأ جمهور القراء «ليجزي» بالياء على معنى: ليجزي الله. وقرأ ابن عامر وحزمة والكسائي والأعمش وأبو عبد الرحمن وابن وثاب: «لنجزى» بالنون. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع بخلاف عنه «لِيُجْزَى» على بناء الفعل للمفعول «قوماً»، وهذا على أن يكون التقدير: ليجزي الجزاء قوماً، وباقي الآية وعيد.

قوله عز وجل:

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُم بِبَنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْضًا يَبِينُهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾

لما تقرر في التي قبل هذه أن الله يجزي قوماً بكسبهم ويعاقبهم بذنوبهم واجترامهم، أكد ذلك بقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾.

وقوله: ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ هي لام الحظ، لأن الحظوظ والمحاب إنما يستعمل فيها اللام التي هي كلام الملك، تقول الأمور لزيد متأتية، وتستعمل في ضد ذلك على، فتقول: الأمور على فلان مستصعبة، وتقول: لزيد مال وعليه دين، وكذلك جاء العمل الصالح في هذه الآية باللام والإشارة بـ «على».

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ معناه إلى قضائه وحكمه، و﴿الكتاب﴾ في قوله: ﴿آتَيْنَا بني إسرائيل الكتاب﴾ هو التوراة. و﴿الحكم﴾ هو السنة والفقه، فيقال إنه لم يتسع فقه الأحكام على لسان نبي ما اتسع على لسان موسى عليه السلام: ﴿والنُّبُوَّةُ﴾ هي ما تكرر فيهم من الأنبياء.

وقوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعني المستلذات الحلال، وبهذين تتم النعمة ويحسن

تعيددها، وهذه إشارة إلى المن والسلوى، وطيبات الشام بعد، إذ هي الأرض المباركة، وقد تقدم القول في معنى ﴿الطيبات﴾، وتلخيص قول مالك والشافعي في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿على العالمين﴾ يريد على عالم زمانهم. والبينات من الأمر: هو الوحي الذي فصلت لهم به الأمور.

ثم أوضح تعالى خطأهم وعظمه بقوله: ﴿فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾ وذلك أنهم لو اختلفوا اجتهداداً في طلب صواب لكان لهم عذر في الاختلاف، وإنما اختلفوا بغياً وقد تبينوا الحقائق، ثم توعدهم تعالى بوقف أمرهم على قضائه بينهم يوم القيامة.

قوله عز وجل:

ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا
عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ
وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ أَجْرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾

المعنى: ﴿ثم جعلناك على شريعة﴾، فلا محالة أنه سيختلف عليك كما تقدم لبني إسرائيل فاتبع شريعتك، والشريعة في كلام العرب: الموضع الذي يرد فيه الناس في الأنهار والمياه ومنه قول الشاعر: [البسيط].

وفي الشرائع من جلان مقتنص رث الثياب خفي الشخص منسرب

فشريعة الدين هي من ذلك، كأنها من حيث يرد الناس أمر الحدود ورحمته والقرب منه. وقال قتادة: الشريعة: الفرائض والحدود والأمر والنهي.

وقوله: ﴿من الأمر﴾ يحتمل أن يكون واحد الأمور أي من دون الله ونبواته التي بثها في سالف الزمان، ويحتمل أن يكون مصدرًا من أمر يأمر، أي على شريعة من الأوامر والنواهي، قسمي جميع ذلك أمراً. و﴿الذين لا يعلمون﴾ هم الكفار الذين كانوا يريدون صرف محمد صلى الله عليه وسلم إلى إرادتهم. و: ﴿يغنون﴾ من الغناء، أي لن يكون لهم عك دفاع. ثم حقر تعالى شأن الظالمين مشيراً بذلك إلى كفار قريش، ووجه التحقير أنه قال: هؤلاء يتولى بعضهم بعضاً، والمتقون يتولاهم الله، فخرجوا عن ولاية الله وتبرأت منهم، ووكلمهم الله بعضهم إلى بعض.

وقوله تعالى: ﴿هذا بصائر﴾ يريد القرآن. والبصائر جمع بصيرة، وهي المعتقد الوثيق في الشيء، كأنه مصدر من إبصار القلب، فالقرآن فيه بيانات ينبغي أن تكون بصائر. والبصيرة في كلام العرب: الطريقة من الدم، ومنه قول الشاعر يصف جده في طلب الثار وتواني غيره: [الكامل]

راحوا بصائرهم على أكتافهم وبصيرتي يعدو بها عتد وأى

وفسر الناس هذا البيت بطريقة الدم إذ كانت عادة طالب الدم عندهم أن يجعل طريقة من دم خلف ظهره ليعلم بذلك أنه لم يدرك ثأره وأنه يطلبه، ويظهر فيه أنه يريد بصيرة القلب، أي قد اطرح هؤلاء بصائرهم وراء ظهورهم.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ الآية قول يقتضي أنه نزل بسبب افتخار كان للكفار على المؤمنين قالوا لئن كانت آخرة كما تزعمون لنفضلن عليكم فيها كما فضلنا في الدنيا. و: ﴿أَمْ﴾ هذه ليست بمعادلة، وهي بمعنى بل مع ألف الاستفهام. و: ﴿اجترحوا﴾ معناه: اكتسبوا، ومنه جوارح الإنسان، ومنه الجوارح في الصيد، وتقول العرب: فلان جارحة أهله، أي كاسبهم.

وقرأ أكثر القراء: «سواء» بالرفع «محياهم ومماتهم» بالرفع، وهذا على أن «سواء» رفع بالابتداء «ومحياهم ومماتهم» خبره. و: ﴿كالذين﴾ في موضع المفعول الثاني لـ «نجعل»، وهذا على أحد معنيين: إما أن يكون الضمير في «محياهم» يختص بالكفار المجترحين، فتكون الجملة خبراً عن أن حالهم في الزميين حال سوء. والمعنى الثاني: أن يكون الضمير في «محياهم» يعم الفريقين، والمعنى: أن محيا هؤلاء ومماتهم سواء، وهو كريم، ومحيا الكفار ومماتهم سواء، وهو غير كريم، ويكون اللفظ قد لف هذا المعنى وذهن السامع يفرقه، إذ تقدم أبعاد أن يجعل الله هؤلاء كهؤلاء. قال مجاهد: المؤمن يموت مؤمناً ويبعث مؤمناً، والكافر يموت كافراً ويبعث كافراً.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: مقتضى هذا الكلام أن لفظ الآية خبر، ويظهر لي أن قوله: ﴿سواء محياهم ومماتهم﴾ داخل في المحسبة المنكرة السيئة، وهذا احتمال، والأول أيضاً جيد.

وقرأ طلحة وعيسى بخلاف عنه: «سواء» بالنصب، «محياهم ومماتهم» بالرفع، وهذا يحتمل وجهين أحدهما أن يكون قوله: ﴿كالذين﴾ في موضع المفعول الثاني لـ «جعل» كما هو في قراءة الرفع، وينصب قوله: «سواء» على الحال من الضمير في: ﴿نجعلهم﴾. والوجه الثاني أن يكون قوله: ﴿كالذين﴾ في نية التأخير، ويكون قوله: «سواء» مفعولاً ثانياً لـ «جعل»، وعلى كلا الوجهين: «محياهم ومماتهم» مرتفع بـ «سواء» على أنه فاعل. وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم والأعمش «سواء» بالنصب «محياهم ومماتهم» بالنصب وذلك على الظرف أو على أن يكون «محياهم» بدلاً من الضمير في: ﴿نجعلهم﴾ أي نجعل محياهم ومماتهم سواء، وهذه الآية متناولة بلفظها حال العصاة من حال أهل التقوى، وهي موقف للعارفين فيكون عنده فيه، وروي عن الربيع بن خيثم أنه كان يردد لها ليلة جمعة، وكذلك عن الفضيل بن عياض، وكان يقول لنفسه: ليت شعري من أي الفريقين أنت، وقال الثعلبي: كانت هذه الآية تسمى مبكاة العابدين.

قال القاضي أبو محمد: وأما لفظها فيعطي أنه اجترح الكفر بدليل معادلته بالإيمان، ويحتمل أن تكون المعادلة بين الاجترach وعمل الصالحات، ويكون الإيمان في الفريقين، ولهذا ما بكى الخائفون رضوان الله عليهم، وإما مفعولاً ﴿حسب﴾ فقولهم ﴿أن نجعلهم﴾ يسد مسد المفعولين. وقوله: ﴿سواء﴾

يحكمون»، ﴿ما﴾ مصدرية، والتقدير: ساء الحكم حكمهم.

قوله عز وجل:

وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾
أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يَهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾

﴿وخلق الله السماوات والأرض بالحق﴾ معناه: بأن خلقها حق واجب متأكد في نفسه لما فيه من فيض الخيرات وتدل عليه ولتكون صنعة حاكمة لصانع وقيل لبعض الحكماء: لم خلق الله السماوات والأرض؟ قال ليظهر جوده. واللام في قوله: ﴿لتجزي﴾ يظهر أن تكون لام كي، فكان الجزء من أسباب خلق السماوات، ويحتمل أن تكون لام الصيرورة أي صار الأمر فيها من حيث اهتدى بها قوم وضل عنها آخرون لأن يجازى كل أحد بعلمه وبما اكتسب من خير أو شر.

وقوله تعالى: ﴿أفرايت﴾ سهل بعض القراء الهمزة وخففها قوم، وكذلك هي في مصحف ابن مسعود مخففة، وفي مصحف أبي بن كعب: «أفرايت» دون همز. وهذا الآية تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم عن المعرضين عن الإيمان، أي لا تعجل بهم ولا تهتم بأمرهم، فليس فيهم حيلة لبشر، لأن الله تعالى أضلهم. وقال ابن جبير: قوله: ﴿إلهه هواه﴾ إشارة إلى الأصنام إذ كانوا يعبدون ما يهونون من الحجارة. وقال قتادة المعنى: لا يهوى شيئاً إلا ركب، لا يخاف الله، وهذا كما يقال: الهوى إله معبود.

وقرأ الأعرج وابن جبير: «آلهة هواه» على التانيث في «آلهة».

وهذه الآية وإن كانت نزلت في هوى الكفر فهي متناولة لجميع هوى النفس الأمارة، قال ابن عباس: ما ذكر الله هوى إلا ذمة. وقال الشعبي: سمي هوى لهوى بصاحبه. وقال النبي عليه السلام: والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله وقال سهل التستري: هواك داؤك، فإن خالفته فداؤك. وقال سهل: إذا شككت في خير أمرين، فانظر أبعدهما من هواك فاته. ومن حكمة الشعر في هذا قول القائل:

إذا أنت لم تعص الهوى قaddock الـ هوى إلى كل ما فيه عليك مقال

وقوله تعالى: ﴿على علم﴾ قال ابن عباس المعنى: على علم من الله تعالى سابق. وقالت فرقة: أي على علم من هذا الضال بأن الحق هو الذي يترك ويعرض عنه، فتكون الآية على هذا من آيات العناد من نحو قوله: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾ [النمل: ١٤] وعلى كلا التأويلين: ف ﴿على علم﴾، حال.

وقوله تعالى: ﴿وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة﴾ استعارات كلها، إذ هو الضال لا ينفعه ما يسمع ولا ما يفهم ولا ما يرى، فكأنه بهذه الأوصاف المذكورة، وهذه الآية لا حجة للجبرية فيها،

لأن التكسب فيها منصوص عليه في قوله: ﴿اتخذ﴾ وفي قوله: ﴿على علم﴾ على التأويل الأخير فيه، ولو لم ينص على الاكتساب لكان مراداً في المعنى.

وقرأ أكثر القراء «غشاوة» بكسر الغين. وقرأ عبد الله بن مسعود: «غشاوة» بفتح الغين وهي لغة ربيعة، وحكي عن الحسن وعكرمة: «غشاوة» بضم الغين وهي لغة عكل، وقرأ حمزة والكسائي: «غشوة» بفتح الغين وإسكان الشين. وقرأ الأعمش وابن مصرف بكسر الغين دون ألف.

وقوله: ﴿من بعد الله﴾ فيه حذف مضاف تقديره: من بعد إضلال الله إياه.

وقرأ عاصم وأراه الجحدري: «تذكرون» بتخفيف الذال. وقرأ جمهور الناس: «تذكرون» على الخطاب أيضاً بتشديد الذال. وقرأ الأعمش: «تذكرون» بتاءين.

وقوله تعالى: ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا﴾ الآية حكاية مقالة بعض قريش، وهذه صنيعة دهرية من كفار العرب. ومعنى قولهم: ما في الوجود إلا هذه الحياة التي نحن فيها وليست ثم آخرة ولا بعث.

واختلف المفسرون في معنى قولهم: ﴿نموت ونحيا﴾ فقالت فرقة المعنى: نحن موق قبل أن نوجد، ثم نحيا في وقت وجودنا. وقالت فرقة: المعنى: ﴿نموت﴾ حين نحن نطف ودم، ثم ﴿نحيا﴾ بالأرواح فينا، وهذا قول قريب من الأول، ويسقط على القولين ذكر الموت المعروف الذي هو خروج الروح من الجسد، وهو الأهم في الذكر. وقالت فرقة المعنى نحيا ونموت، فوقع في اللفظ تقديم وتأخير. وقالت فرقة: الغرض من اللفظ العبارة عن حال النوع، فكأن النوع بجملته يقول: إنما نحن نموت طائفة ونحيا طائفة دأباً.

وقولهم: ﴿وما يهلكنا إلا الدهر﴾ أي طول الزمان هو المهلك، لأن الآفات تستوي فيه كمالاتها، فنفى الله تعالى علمهم بهذا وأعلم أنها ظنون وتخرص تفضي بهم إلى الإشراك بالله تعالى. و﴿الدهر﴾ والزمان تستعمله العرب بمعنى واحد. وفي قراءة ابن مسعود: «وما يهلكنا إلا دهر يمر». وقال مجاهد: ﴿الدهر﴾ هنا الزمان، وروى أبو هريرة عن النبي عليه السلام أنه قال: كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، ويفارق هذا الاستعمال قول النبي عليه السلام: «لا تسبوا الدهر، فإن الله تعالى هو الدهر» وفي حديث آخر: «قال الله تعالى يسب ابن آدم الدهر، وأنا الدهر بيدي الليل والنهار»، ومعنى هذا الحديث: فإن الله تعالى يفعل ما تسبونه إلى الدهر وتسبونه بسبه. وإذا تأملت مثالات هذا في الكلام ظهرت إن شاء الله تعالى.

قوله عز وجل:

وَإِذَا نُنَادِيهِمْ ءَاتَيْنَا نِينَتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبِعُوا بَنَاءَ بَنَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُخَبِّرُكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْحِرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى

كِتَابَهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾

الضمير في: ﴿عليهم﴾ عائد على كفار قريش. والآيات: هي آيات القرآن وحروفه بقرينة قوله: ﴿تتلى﴾ وعابت هذه الآية سوء مقاولتهم، وأنهم جعلوا بدل الحجة التمني المتشطط والطلب لما قد حتم الله أن لا يكون إلا إلى أجل مسمى.

وقرأ الحسن وعمر بن عبد الوكيل وابن عامر فيما روى عنه عبد الحميد، وعاصم فيما روى هارون وحسين عن أبي بكر عنه «حجبتهم» بالرفع على اسم «كان» والخبر في «أن». وقرأ جمهور الناس «حجبتهم» بالنصب على مقدم واسم «كان» في «أن».

وكان بعض قريش قد قال: أحي لنا قصياً فإنه كان شيخ صدق حتى نسأله، إلى غير ذلك من هذا النحو، فنزلت الآية في ذلك، وقالوا لمحمد عليه السلام: ﴿أتأتوا﴾ من حيث المخاطبة له، والمراد هو وإلهه والملك الوسيط الذي ذكر هولهم، فجاء من ذلك جملة قيل لها ﴿أتأتوا﴾ و﴿إن كنتم﴾.

ثم أمر تعالى نبيه أن يخبرهم بالحال السالفة في علم الله التي لا تبدل، وهي أنه يحيي المخلوق ويميتهم بعد ذلك ويحشرهم بعد إماتتهم ﴿إلى يوم القيامة﴾.

وقوله: ﴿لا ريب فيه﴾ أي في نفسه وذاته. والأكثر الذي لا يعلم هم الكفار والأكثر هنا على بابه.

وقوله تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة﴾ قالت فرقة: العامل في: ﴿يوم﴾ قوله: ﴿يخسر﴾ وجاء قوله: ﴿يومئذ﴾ بدلاً مؤكداً. وقالت فرقة: العامل في: ﴿يوم﴾ فعل يدل عليه الملك، وذلك أن يوم القيامة حال ثلاثة ليست بالسماء ولا بالأرض، لأن ذلك يتبدل، فكانه قال: ﴿وقه ملك السماوات والأرض﴾ والملك يوم القيامة، وينفرد ﴿يخسر﴾ بالعمل في قوله: ﴿يومئذ﴾ و: ﴿المبطلون﴾ الداخلون في الباطل.

وقوله تعالى: ﴿وترى كل أمة جاثية كل أمة﴾ وصف حال القيامة وهولها. والأمة: الجماعة العظيمة من الناس التي قد جمعها معنى أو وصف شامل لها. وقال مجاهد: الأمة: الواحد من الناس، وهذا قلق في اللغة، وإن قيل في إبراهيم عليه السلام أمة، وقالها النبي عليه السلام في قس بن ساعدة فذلك تجوز على جهة التشريف والتشبيه. و: ﴿جاثية﴾ معناه على الركب، قاله مجاهد والضحاك، وهي هيئة المذنب الخائف المعظم، وفي الحديث: «فجئنا عمر على ركبته». وقال سلمان: في القيامة ساعة قدر عشر سنين يخسر الجميع فيها جثاة على الركب.

وقرأ جمهور الناس: «كل أمة» بالرفع على الابتداء. وقرأ يعقوب الحضرمي: «كل أمة تدعى» بالنصب على البدل من «كل» الأولى، إذ في «كل» الثانية إيضاح موجب الجنو. وقرأ الأعمش: «وترى كل أمة جاثية تدعى» بإسقاط «كل أمة» الثاني.

واختلف المتأولون في قوله: ﴿إلى كتابها﴾ فقالت فرقة: أراد ﴿إلى كتابها﴾ المنزل عليها فتحاكم

إليه هل وافقته أو خالفته. وقالت فرقة: أراد ﴿إلى كتابها﴾ الذي كتبه الحفظة على كل واحد من الأمة، فاجتماع ذلك قيل له ﴿كتابها﴾، وهنا محذوف يدل عليه الظاهر تقديره: يقال لهم اليوم تجزون.

وقوله تعالى: ﴿هذا كتابنا﴾ يحتمل أن تكون الإشارة إلى الكتب المنزلة أو إلى اللوح المحفوظ، قال مجاهد ومقاتل: يشهد بما سبق فيه من سعادة أو شقاء، أو تكون الكتب الحفظة وقال ابن قتيبة: هي إلى القرآن.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿نستنسخ﴾ فقالت فرقة معناه: نكتب وحقيقة النسخ وإن كانت أن تنقل خط من أصل ينظر فيه، فإن أعمال العباد هي في هذا التأويل كالأصل، فالمعنى: إنا كنا نقيد كل ما عملتم. قال الحسن: هو كتب الحفظة على بني آدم. وروى ابن عباس وغيره حديثاً أن الله تعالى يأمر بعرض أعمال العباد كل يوم خميس فينقل من الصحف التي رفع الحفظة كل ما هو معد أن يكون عليه ثواب أو عقاب ويلغى الباقي. قالت هذه الفرقة: فهذا هو النسخ من أصل. وقال ابن عباس أيضاً: معنى الآية أن الله تعالى يجعل الحفظة تنسخ من اللوح المحفوظ كل ما يفعل العباد ثم يسكونه عندهم، فتأتي أفعال العباد على نحو ذلك فتقيد أيضاً، فذلك هو الاستنساخ.. وكان ابن عباس يقول: أستم عرباً؟ وهل يكون الاستنساخ إلا من أصل.

قوله عز وجل:

فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرُوا وَكُنْتُمْ قَوْمًا تُجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ أَقِيلُ إِن وَعَدَ اللَّهُ حَقُُّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَأَهُم مَّسِيَّاتٌ مَّا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾

ذكر الله تعالى حال الطائفتين من المؤمنين والكافرين، وقرن بينهم في الذكر ليبين الأمر في نفس السامع، فإن الأشياء تتبين بذكر أضدادها، و﴿الفوز﴾: هو نيل البغية.

وقوله تعالى: ﴿وأما الذين كفروا أفلم تكن﴾ فإن التقدير ﴿وأما الذين كفروا﴾ فيقال لهم ﴿أفلم تكن﴾، فحذف يقال اختصاراً وبقيت الفاء دالة على الجواب الذي تطلبه ﴿أما﴾، ثم قدم عليها ألف الاستفهام من حيث له صدر القول على كل حالة ووقف الله تعالى الكفار على الاستكبار لأنه من شر الخلال.

وقرأ حمزة وحده: «والساعة» بالنصب عطفاً على قوله: ﴿وعد الله﴾ ورويت عن أبي عمرو وعيسى والأعمش. وقرأ ابن مسعود: «حق وأن الساعة لا ريب فيها»، وكذلك قرأ أيضاً الأعمش. وقرأ الباقون: «والساعة» رفعاً، ولذلك وجهان: أحدهما الابتداء والاستئناف، والآخر العطف على موضع ﴿إن﴾ وما

عملت فيه ، لأن التقدير : وعد الله حق ، قاله أبو علي في الحجة . وقال بعض النحاة : لا يعطف على موضع ﴿إن﴾ ، إلا إذا كان العامل الذي عطلته ﴿إن﴾ باقياً ، وكذلك هي على موضع الباء في قوله : فلسنا بالجبال ولا الحديد ، فلما كانت ليس باقية ، جاز العطف على الموضع قبل دخول الباء ، ويظهر نحو هذا النظر من كتاب سيبويه ، ولكن قد ذكرنا ما حكى أبو علي وهو القدوة .

وقولهم : ﴿إن نظن إلا ظناً﴾ معناه : ﴿إن نظن﴾ بعد قبول خبركم ﴿إلا ظناً﴾ وليس يعطينا خبراً . وقوله تعالى : ﴿وبدا لهم﴾ الآية حكاية حال يوم القيامة . ﴿وحاق﴾ معناه : نزل وأحاط وهي مستعملة في المكروه ، وفي قوله : ﴿ما كانوا﴾ حذف مضاف تقديره : جزاء ما كانوا ، أي عقاب كونهم ﴿يستهنون﴾ .

قوله عز وجل :

وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكُمْ كَمَا نَفْسِفُ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَخَذُوا عَاقِبَةَ الْأَعْيُنِ وَأَنْعَمُوا وَاللَّهُ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

﴿ننساكم﴾ معناه : نترككم كما تركتم لقاء يومكم هذا ، فلم يقع منكم استعداد له ولا تاهب ، فسميت العقوبة في هذه الآية باسم الذنب . والمأوى : الموضع الذي يسكنه الإنسان ويكون فيه عامة أوقاته أو كلها أجمع . و : ﴿آيات الله﴾ لفظ جامع لآيات القرآن وللأدلة التي نصبها الله تعالى لينظر فيها العباد . وقرأ أكثر القراء : «لا يُخْرِجون» بضم الياء المنقوطة من تحت وفتح الراء . وقرأ حمزة والكسائي وابن وثاب والأعمش والحسن : «يُخْرِجون» بإسناد الفعل إليهم بفتح الياء وضم الراء . و : ﴿يستعبدون﴾ تطلب منهم مراجعة إلى عمل صالح .

وقوله تعالى : ﴿فلله الحمد﴾ إلى آخر السورة ، تحميد لله تعالى وتحقيق لألوهيته ، وفي ذلك كسر لأمر الأصنام والأنصاب .

وقراءة الناس : «رَبِّ» بالخفض في الثلاثة على الصفة . وقرأ ابن محيصن : بالرفع فيها على معنى هو رَبُّ .

و : ﴿الكبرياء﴾ بناء مبالغة ، وفي الحديث : يقول الله تعالى : الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني منهما شيئاً قصمته .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْأَحْقَافِ

هذه السورة مكية لم يختلف منها إلا في آيتين، وهي قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [الأحقاف: ١٠] وقوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] الآية، فقال بعض المفسرين: هاتان آيتان مدينتان وضعتا في سورة مكية.

قوله عز وجل:

حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذَرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنُوفِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾

تقدم القول في الحروف المقطعة التي في أوائل السور. و﴿تنزيل﴾ رفع بالابتداء أو خبر ابتداء مضمرة. و: ﴿الكتاب﴾ القرآن. والعزة والإحكام: صفتان مقتضيتان أن من هي له غالب كل من حادّه.

وقوله: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ﴾ الآية موعظة وزجر، أي فانتبهوا أيها الناس وانظروا ما يراد بكم ولم خلقتم. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ معناه بالواجب الحسن الذي قد حق أن يكون، وب﴿أجل مسمى﴾: وقتناه وجعلناه موعداً لفساد هذه البنية وذلك هو يوم القيامة. وقوله تعالى: ﴿عَمَّا أُنذَرُوا﴾ «ما» مصدرية، والمعنى عن الإنذار، ويحتمل أن تكون «ما» بمعنى الذي، والتقدير: عن ذكر الذي أُنذروا به والتحفظ منه أو نحوه هذا.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ يحتمل ﴿أرأيتُمْ﴾ وجهين: أحدهما أن تكون متعدية، و﴿ما﴾ مفعولة بها، ويحتمل أن تكون منبهة لا تتعدى، وتكون ﴿ما﴾ استفهاماً على معنى التوبيخ. و﴿تدعون﴾ معناه: تعبدون. قال الفراء: وفي قراءة عبد الله بن مسعود: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَنْ تَدْعُونَ». وقوله: ﴿مَنْ الْأَرْضِ﴾، ﴿مَنْ﴾، للتبعيض، لأن كل ما على وجه الأرض من حيوان ونحوه فهو من الأرض.

ثم وقفهم على السماوات هل لهم فيها شرك، ثم استدعى منهم كتاباً منزلاً قبل القرآن يتضمن عبادة صنم.

وقوله: ﴿أو أثارة﴾ معناه: أو بقية قديمة من علم أحد العلماء يقتضي عبادة الأصنام. وقرأ جمهور الناس: «أو أثارة» على المصدر، كالشجاعة والسماحة، وهي البقية من الشيء كأنها أثره.

وقال الحسن بن أبي الحسن: المعنى من علم تستخرجونه فثيرونه. وقال مجاهد: المعنى هل من أحد يأثر علماً في ذلك. وقال القرظي: هو الإسناد، ومن هذا المعنى قول الأعشى: [السريع]

إن الذي فيه تماريتما بيِّنٌ للسامع والآثر

آثراً أي للسند عن غيره، ومنه قول عمر رضي الله عنه: فما خلفنا بها ذاكراً ولا آثراً. وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن وقتادة: المعنى وخاصة من علم، فاشتقاقها من الأثرة، كأنها قد آثر الله بها من هي عنده، وقال عبد الله بن العباس: المراد بـ «الأثارة»: الخط في التراب، وذلك شيء كانت العرب تفعله وتتكهن به وترجر، وهذا من البقية والآثر، وروي أن النبي عليه السلام سئل عن ذلك فقال: «كان نبي من الأنبياء يخطه، فمن وافق خطه فذاك»، وظاهر الحديث تقوية أمر الخط في التراب، وأنه شيء له وجه إذا وفق أحد إليه، وهكذا تأوله كثير من العلماء. وقالت فرقة: بل معناه الإنكار، أي أنه كان من فعل نبي قد ذهب، وذهب الوحي إليه والإلهام في ذلك، ثم قال: فمن وافق خطه على جهة الإبعاد، أي أن ذلك لا يمكن ممن ليس بنبي ميسر لذلك، وهذا كما يسألك أحد فيقول: أيطير الإنسان؟ فتقول: إنما يطير الطائر، فمن كان له من الناس جناحان طار، أي أن ذلك لا يكون. والأثارة تستعمل في بقية الشرف فيقال: لبني فلان أثارة من شرف، إذا كانت عندهم شواهد قديمة، وتستعمل في غير ذلك، ومنه قول الراعي: [الوافر]

وذات أثارة أكلت عليه نباتاً في أكمتها قصارى

يريد: الأثارة من الشحم، أي البقية وقرأ عبد الرحمن السلمي فيما حكى الطبري: «أو أثرة» بفتح الهمزة والثاء والراء دون ألف، وحكاها أبو الفتح عن ابن عباس وقتادة وعكرمة وعمرو بن ميمون والأعمش، وهي واحدة جمعها: أثر كقتره وقتر. وحكى الثعلبي أن عكرمة قرأ: «أو ميراث من علم». وقرأ علي بن أبي طالب والسلمي فيما حكى أبو الفتح بسكون الثاء وهي الفعلة الواحدة مما يؤثر، أي قد قنعت لكم حجة بخبر واحد أو أثر واحد يشهد بصحة قولكم. وقرأت فرقة: «أثرة» بضم الهمزة وسكون الثاء، وهذه كلها بمعنى: هل عندكم شيء خصكم الله به من علم وآثركم به.

وقوله تعالى: ﴿ومن أضل﴾ الآية توبيخ لعبدة الأصنام، أي لا أحد أضل ممن هذه صبغته، وجاءت الكنايات في هذه الآية عن الأصنام كما تجيء عن من يعقل، وذلك أن الكفار قد أنزلوها منزلة الآلهة وبالمحل الذي دونه البشر، فخطبوا على نحو معتقدهم فيها، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: «ما لا يستجيب». والضمير في قوله: ﴿ومن هم عن دعائهم غافلون﴾ هو للأصنام في قول جماعة، ووصف الأصنام بالغفلة من حيث عاملهم معاملة من يعقل، ويحتمل أن يكون الضمير في قوله: ﴿وهم﴾ وفي:

﴿غَافِلُونَ﴾ للكفار، أي ضلالهم بأنهم يدعون من لا يستجيب فلا يتأملون ما عليهم في دعاء من هذه صفته.

وقوله تعالى: ﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ﴾ وصف لما يكون يوم القيامة بين الكفار وأصنامهم من التبري والمناكرة، وقد بين ذلك في غير هذه الآية. وذلك قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿تَبَرَأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣].
قوله عز وجل:

وَإِذَا نُنَادِيَنَّهُمْ أَيْنَ نُبْنِيَنَّاتِ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَقُّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنْ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٩﴾

الآيات المذكورة هي آيات القرآن، بدليل قوله: ﴿تُنَادِي﴾ ويقول الكفار: ﴿هذا سحر﴾ وإنما قالوا ذلك عن القرآن من حيث قالوا: هو يفرق بين المرء وبين ولده، وبينه وبين زوجته، إلى نحو هذا مما يوجد مثله للسحر بالوجه الأخرس.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾، ﴿أَمْ﴾ مقطوعة مقدرة بـ ﴿يل﴾ وألف الاستفهام. و: ﴿افتراه﴾ معناه: اشتقه واختلقه، فأمره الله تعالى أن يقول: ﴿إِنْ افتريته﴾ فالله حسبي في ذلك، وهو كان يعاقبني ولا يمهلني. ثم رجع القول إلى الاستسلام إلى الله تعالى والاستنصار به عليهم وانتظار ما يقتضيه علمه ﴿بِمَا يُفِيضُونَ فِيهِ﴾ من الباطل ومرادة الحق، وذلك يقتضي معاقبتهم، ففي اللفظة تهديد. والضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾ يحتمل أن يعود على القرآن، ويحتمل العودة على ﴿بِمَا﴾. والضمير في: ﴿بِهِ﴾ عائد على الله تعالى. و: ﴿بِهِ﴾ في موضع رفع، وأفاض الرجل في الحديث والسب ونحوه: إذا خاض فيه واستمر.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ترجمة واستدعاء إلى التوبة، لأنه في خلال تهديده إياهم بالله تعالى جاءت هاتان الصفتان. ثم أمره تعالى أن يحتج عليهم بأنه لم يكن ﴿بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾، أي قد جاء غيري قبلي، قاله ابن عباس والحسن وقتادة. والبديع والبديع من الأشياء ما لم ير مثله، ومنه قول ترجمة عدي بن زيد: [الطويل]

فما أنا بدع من حوادث تعتري رجالاً عرت من بعد بؤسى وأسعد

وقرأ عكرمة وابن أبي عبلة وأبو حيوة: «بدعاً» بفتح الدال. قال أبو الفتح، التقدير: ذا بدع فحذف المضاف كما قال [الناطقة الجعدي]: [المقارب]

وكيف تواصل من أصبحت خلالتة كأبي مرحب

واختلف الناس في قوله: ﴿مَا أَدْرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾، فقال ابن عباس وأنس بن مالك والحسن وقتادة وعكرمة: معناه: في الآخرة، وكان هذا في صدر الإسلام، ثم بعد ذلك عرفه الله تعالى بأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وبأن المؤمنين لهم من الله فضل كبير وهو الجنة، وبأن الكافرين في نار جهنم، والحديث الذي وقع في جنازة عثمان بن مظعون يؤيده هذا وهو قوله: «فوالله ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل بي»، وفي بعض الرواية: «به»، ولا حجة في الحديث على رواية «به»، والمعنى عندي في هذا القول أنه لم تكشف له الخاتمة فقال لا أدرى؟ وأما أن من وافى على الإيمان فقد أعلم بنجاته من أول الرسالة وإلا فكان للكفار أن يقولوا: وكيف تدعوننا إلى ما لا تدري له عاقبة، وقال الحسن أيضاً وجماعة: معنى الآية: ﴿مَا أَدْرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ في الدنيا من أن أنصر عليكم أو من أن تمكنوا مني، ونحو هذا من المعنى. وقالت فرقة: معنى الآية: ﴿مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ من الأوامر والنواهي وما تلزم الشريعة من أعراضها. وحكى الطبري عن بعضهم أنه قال: نزلت الآية في أمر كان النبي صلى الله عليه وسلم ينتظره من الله في غير الثواب والعقاب، وروي عن ابن عباس أنه لما تأخر خروج النبي عليه السلام من مكة حين رأى في النوم أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وسبخة، قلق المسلمون لتأخر ذلك، فنزلت هذه الآية.

وقوله: ﴿إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ معناه: الاستسلام والتبري من علم المغيبات والوقوف مع النذارة من عذاب الله عز وجل.

قوله عز وجل:

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَتَآمَنُوا وَاسْتَكْبَرْتُمْ
إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ
وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسَحُوا بِرُءُوسِهِمْ ﴿١١﴾

هذه الآية توقيف على الخطر العظيم الذي هم بسبيله في أن يكذبوا بأمر نافع لهم منج من العذاب دون حجة ولا دليل لهم على التكذيب، فالمعنى كيف حالكم مع الله، وماذا تنتظرون منه وأنتم قد كفرتم بما جاء من عنده، وجواب هذا التوقيف محذوف تقديره: أليس قد ظلمتم، ودل على هذا المقدر قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ و: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ في هذه الآية يحتمل أن تكون منبهة، فهي لفظ موضوع للسؤال لا يقتضي مفعولاً، ويحتمل أن تكون الجملة ﴿كَانَ﴾ وما عملت فيه تسد مسد مفعولها.

واختلف الناس في المراد بـ ﴿الشاهد﴾ فقال الحسن ومجاهد وابن سيرين: هذه الآية مدنية، والشاهد عبد الله بن سلام. وقوله: ﴿على مثله﴾ الضمير فيه عائد على قول محمد عليه السلام في القرآن إنه من عند الله. وقال الشعبي: الشاهد رجل من بني إسرائيل غير عبد الله بن سلام كان بمكة، والآية مكية. وقال سعد بن أبي وقاص ومجاهد وفرقة: الآية مكية، والشاهد عبد الله بن سلام، وهي من الآيات التي تضمنت غيباً أبرزه الوجود، وقد روي عن عبد الله بن سلام أنه قال: «في نزلت. وقال مسروق بن الأجدع والجمهور: الشاهد موسى بن عمران عليه السلام، والآية مكية، ورجحه الطبري.

وقوله: ﴿على مثله﴾ يريد بالمثل: التوراة، والضمير عائد في هذا التأويل على القرآن، أي جاء شاهد من بني إسرائيل بمثله وشهد أنه من عند الله تعالى.

وقوله: ﴿فأمن﴾ على هذا التأويل، يعني به تصديق موسى بأمر محمد وتبشير به، فذلك إيمان به، وأما من قال: الشاهد عبد الله بن سلام، فإيمانه بين، وكذلك إيمان الإسرائيلي الذي كان بمكة في قول من قاله، وحكى بعضهم أن الفاعل بـ «أمن»، هو محمد عليه السلام، وهذا من القائلين بأن الشاهد هو موسى بن عمران عليه السلام، وإنما اضطر إلى هذا لأنه لم ير وجه إيمان موسى عليه السلام، ثم قرر تعالى استكبارهم وكفرهم بإيمان هذا المذكور، فبان ذنبهم وخطوئهم.

وقوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾ قال قتادة: هي مقالة قريش، يريدون عمراً وصهيياً وبلالاً ونحوهم ممن أسلم وآمن بالنبي عليه السلام. وقال الزجاج والكلبي وغيره: هي مقالة كنانة وعامر وسائر قبائل العرب المجاورة، قالت ذلك حين أسلمت غفار ومزينة وجهينة. وقال الثعلبي: هي مقالة اليهود حين أسلم ابن سلام وغيره منهم. والإفك: الكذب، ووصفوه بالقدم، بمعنى أنه في أمور متقدمة، وهذا كما تقول لرجل حدثك عن أخبار كسرى وقيصر، هذا حديث قديم، ويحتمل أن يريدوا أنه إفك قيل قديماً.

قوله عز وجل:

وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيٍّ لِّبَشِيرِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً لِّمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلَحْ لِي فِي دُرِّيَّتِي إِنَّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾

الضمير في قوله: ﴿ومن قبله﴾ للقرآن، و: ﴿كتاب موسى﴾ هو التوراة. وقرأ الكلبي: «كتاب موسى» بنصب الباء على إضمار أنزل الله أو نحو ذلك. والإمام: خيط البناء، وكل ما يهتدى ويقتدى به فهو إمام. ونصب ﴿إماماً﴾ على الحال، ﴿ورحمة﴾ عطف على إمام، والإشارة بقوله: ﴿وهذا كتاب﴾ إلى القرآن. و: ﴿مصدق﴾ معناه للتوراة التي تضمنت خبره وأمر محمد، فجاء هو مصدقاً لذلك الإخبار، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: «مصدق لما بين يديه لساناً»، واختلف الناس في نصب قوله: ﴿لساناً﴾ فقالت فرقة من النحاة، هو منصوب على الحال، وقالت فرقة: ﴿لساناً﴾ توطئة مؤكدة. و: ﴿عريباً﴾ حال، وقالت فرقة: ﴿لساناً﴾ مفعول بـ ﴿مصدق﴾، والمراد على هذا القول باللسان: محمد رسول الله ولسانه،

فكان القرآن بإعجازه وأحواله البارة يصدق الذي جاء به، وهذا قول صحيح المعنى جيد وغيره مما قدمناه متجه.

وقرأ نافع وابن عامر وابن كثير فيما روي عنه، وأبو جعفر والأعرج وشيبة وأبو رجاء والناس: «لتنذر» بالتاء، أي أنت يا محمد، ورجحها أبو حاتم، وقرأ الباقر والأعمش «لينذر» أي القرآن و: «الذين ظلموا» هم الكفار الذين جعلوا العبادة في غير موضعها في جهة الأصنام والأوثان.

وقوله: «وبشرى» يجوز أن تكون في موضع رفع عطفاً على قوله: «مصدق»، ويجوز أن تكون في موضع نصب، واقعة موقع فعل عطفاً على «لتنذر» أي وتبشر المحسنين، ولما عبر عن الكفار بـ «الذين ظلموا»، عبر عن المؤمنين بـ «المحسنين» لتناسب لفظ الإحسان في مقابلة الظلم. ثم أخبر تعالى عن حسن حال المسلمين المستقيمين ورفع الظلم. ثم أخبر تعالى عن حسن حال المسلمين المستقيمين ورفع عنهم الخوف والحزن، وذهب كثير من الناس إلى أن معنى الآية: «ثم استقاموا» بالطاعات والأعمال الصالحات. وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه المعنى: «ثم استقاموا» بالدوام على الإيمان وترك الانحراف عنه.

قال القاضي أبو محمد: وهذا القول أعم رجاء وأوسع، وإن كان في الجملة المؤمنة من يعذب وينفذ عليه الوعيد، فهو ممن يخلد في الجنة وينتفي عنه الخوف والحزن الحال بالكفرة، والخوف هو الهم لما يستقبل، والحزن هو الهم بما مضى، وقد يستعمل فيما يستقبل استعارة، لأنه حزن لخوف أمر ما. وقرأ ابن السميع: «فلا خوف» دون تنوين.

وقوله: «جزاء بما كانوا يعملون»، «ما» واقعة على الجزء الذي هو اكتساب العبد، وقد جعل الله الأعمال أمارات على صبور العبد، لا أنها توجب على الله شيئاً.

وقوله تعالى: «ووصينا الإنسان بوالديه» يريد النوع، أي هكذا مضت شرائع وكتبي لأنبيائي، فهي وصية من الله في عباده.

وقرأ جمهور القراء: «حَسَنًا» بضم الحاء وسكون السين، ونصبه على تقدير وصيناه ليفعل أمراً ذا حسن، فكان الفعل تسلط عليه مفعولاً ثانياً. وقرأ علي بن أبي طالب وأبو عبد الرحمن وعيسى: «حَسَنًا» بفتح الحاء والسين، وهذا كالأول ومحتمل كونهما مصدرين كالبخل والبخل، ومحتمل، أن يكون هذا الثاني اسماً لا مصدرًا، أي ألزمناه بهما فعلاً حسناً. وقرأ عاصم وحزمة والكسائي «إحسانًا»، ونصب هذا على المصدر الصريح والمفعول الثاني في المجرور، والباء متعلقة بـ «وصينا» أو بقوله: «إحسانًا».

وبر الوالدين واجب بهذه الآية وغيرها، وعقوقهما كبيرة، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: كل شيء بينه وبين الله حجاب إلا شهادة أن لا إله إلا الله ودعوة الوالدين.

قال القاضي أبو محمد: ولن يدعوا إلا إذا ظلمهما الولد، فهذا الحديث في عموم قوله عليه السلام: «اتقوا دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب».

ثم عدد تعالى على الأبناء من الأمهات وذكر الأم في هذه الآيات في أربع مراتب، والأب في واحدة، جمعهما الذكر في قوله: ﴿بوالديه﴾، ثم ذكر الحمل للأم ثم الوضع لها ثم الرضاع الذي عبر عنه بالفصال، فهذا يناسب ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جعل للأم ثلاثة أرباع البر، والرابع للأب، وذلك إذ قال له رجل: يا رسول الله من أبر؟ قال: أمك، قال ثم من؟ قال: ثم أمك، قال ثم من؟ قال: ثم أمك، قال: أباك وقوله: ﴿كرهاً﴾ معناه في ثاني استمرار الحمل حين تتوقع حوادثه، ويحتمل أن يريد في وقت الحمل، إذ لا تدبير لها في حملة ولا تركه، وقال مجاهد والحسن وقتادة: المعنى حملته مشقة ووضعت مشقة.

وقرأ أكثر القراء: ﴿كرهاً﴾ يضم الكاف. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وأبو جعفر وشيبة والأعرج: ﴿كرهاً﴾ بفتح الكاف، وقرأ بهما معاً مجاهد وأبو رجاء وعيسى. قال أبو علي وغيره: هما بمعنى، الضم الاسم، والفتح المصدر. وقالت فرقة: الكره بالضم: المشقة، والكره بالفتح هو الغلبة والقهر، وضعفوا على هذا قراءة الفتح. قال بعضهم: لو كان ﴿كرهاً﴾ لرمت به عن نفسها، إذ الكره القهر والغلبة، والقول الذي قدمناه أصوب.

وقرأ جمهور الناس: «وفصالة» وذلك أنها مفاعلة من اثنين، كأنه فاصل أمه وفاصلته. وقرأ الحسن بن أبي الحسن وأبو رجاء وقتادة والجحدري: «وفصله»، كأن الأم هي التي فصلته.

وقوله: ﴿ثلاثون شهراً﴾ يقتضي أن مدة الحمل والرضاع هذه المدة، لأن في القول حذف مضاف تقديره: ومدة حملة وفصاله، وهذا لا يكون إلا بأن يكون أحد الطرفين ناقصاً، وذلك إما بأن تلد المرأة لسته أشهر وترضع عامين، وإما بأن تلد لتسعة على العرف وترضع عامين غير ربيع العام، فإن زادت مدة الحمل نقصت مدة الرضاع، وبالعكس فيترتب من هذا أن أقل مدة الحمل ستة أشهر. وأقل ما يرضع الطفل عام وتسعة أشهر، وإكمال العامين هو لمن أراد أن يتم الرضاعة، وهذا في أمر الحمل هو مذهب علي بن أبي طالب رضي الله عنه وجماعة من الصحابة ومذهب مالك رحمه الله.

واختلف الناس في الأشد: فقال الشعبي وزيد بن أسلم: البلوغ إذا كتبت عليه السيئات وله الحسنات. وقال ابن إسحاق: ثمانية عشر عاماً، وقيل عشرون عاماً، وقال ابن عباس وقتادة: ثلاثة وثلاثون عاماً، وقال الجمهور من النظار: ثلاثة وثلاثون. وقال هلال بن يساف وغيره: أربعون، وأقوى الأقوال ستة وثلاثون، ومن قال بالأربعين قال في الآية إنه أكد وفسر الأشد بقوله: ﴿وبلغ أربعين سنة﴾.

قال القاضي أبو محمد: وإنما ذكر تعالى الأربعين، لأنها حد للإنسان في فلاحه ونجاته، وفي الحديث: «إن الشيطان يجري من وجهه من زاد على الأربعين ولم يتب فيقول: بأبي وجه لا يفلح» وقال أيمن بن خريم الأسدي: [الطويل]

إذا المرء وقى الأربعين ولم يكن له دون ما يأتي حياء ولا ستر
فدعه ولا تنفس عليه الذي ارتأى وإن جر أسباب الحياة له العمر

وفي مصحف ابن مسعود: «حتى إذا استوى أشده وبلغ أربعين سنة» وقوله: ﴿أوزعني﴾ معناه:

ادفعني عن الموانع وازجرني عن القواطع لأجل أن أشكر نعمتك، ويحتمل أن يكون ﴿أوزعني﴾ بمعنى اجعل حظي ونصيبي، وهذا من التوزيع والقوم الأوزاع، ومن قوله توزعوا المال، فـ «أن» على هذا مفعول صريح. وقال ابن عباس ﴿نعمتك﴾ في التوحيد. و: ﴿صالحاً ترضاه﴾ الصلوات. والإصلاح في الذنوب كونهم أهل طاعة وخيرية، وهذه الآية معناها أن هكذا ينبغي للإنسان أن يفعل، وهذه وصية الله للإنسان في كل الشرائع.

وقال الطبري: وذكر أن هذه الآية من أولها نزلت في شأن أبي بكر الصديق، ثم هي تتناول من بعده، وكان رضي الله عنه قد أسلم أبواه، فلذلك قال: ﴿وعلى والدي﴾، وفي هذا القول اعتراض بأن هذه الآية نزلت بمكة لا خلاف في ذلك، وأبو قحافة أسلم عام الفتح وإنما يتجه هذا التأويل على أن أبا بكر كان يطمع بإيمان أبويه ويرى مخايل ذلك فيهما، فكانت هذه نعمة عليهما أن ليسا ممن عسا في الكفر ولج وحم عليه ثم ظهر إيمانهما بعد، والقول بأنها عامة في نوع الإنسان لم يقصد بها أبو بكر ولا غيره أصح، وباقي الآية بين إلى قوله: ﴿من المسلمين﴾.

قوله عز وجل:

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَقَبِلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّٰدِقُ الَّذِي كَانُوا يَعِدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي قَالَ لَوْلَا إِلَٰهِي لَمَّا عِدَانِيَّ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءِمِنْ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا اٰسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿أولئك﴾ دليل على أن الإشارة بقوله: ﴿ووصينا الإنسان﴾ [الأحقاف: ١٥] إنما أراد الجنس.

وقرأ جمهور القراء: «يُنْقَبِلُ» بالياء على بناء الفعل للمفعول وكذلك «يُتَجَاوَزُ». وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم فيهما بالنون التي للعظمة «نَقَبِلُ» «أَحْسَنُ» بالنصب «ونَتَجَاوَزُ» وهي قراءة طلحة وابن وثاب وابن جبير والأعمش بخلاف عنه. وقرأ الحسن «يُنْقَبِلُ» بياء مفتوحة «ويَتَجَاوَزُ» كذلك، أي الله تعالى وقوله: ﴿في أصحاب الجنة﴾ يريد الذين سبقت لهم رحمة الله. وقوله: ﴿وَعَدَ الصَّٰدِقُ﴾ نصب على المصدر المؤكد لما قبله.

وقوله تعالى: ﴿والذي قال لولا إلهي لَمَا عِدَانِيَّ أَنْ أُخْرَجَ﴾ والذي به الجنس على حد العموم الذي في الآية التي قبلها في قوله: ﴿ووصينا الإنسان﴾ [الأحقاف: ١٥] هذا قول الحسن وجماعة، ويشبه أن لها سبباً من رجل قال ذلك لأبويه. فلما فرغ من ذكر الموفق عقب بذكر هذا العاق. وقال ابن عباس في كتاب الطبري: هذه الآية نزلت في ابن لآبي بكر ولم يسمه.

وقال مروان بن الحكم: نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقاله قتادة، وذلك أنه كان أكبر ولد أبي بكر وشهد بدرأ وأخذاً مع الكفار، وقال لأبيه في الحرب:

لم يبق إلا شكة ويعبوب وصارم يقتل ضلال الشيب

ودعاه إلى المبارزة فكان بمكة على نحو هذه الخلق، فقليل إن هذه الآية نزلت فيه. وروي أن مروان بن الحكم خطب وهو أمير المدينة فدعا الناس إلى بيعة يزيد، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: جعلتموها هرقلية، كلما مات هرقل ولي هرقل، وكلما مات قيصر ولي قيصر، فقال مروان بن الحكم: خذوه، فدخل عبد الرحمن بيت عائشة أخته أم المؤمنين، فقال مروان: إن هذا هو الذي قال الله فيه: ﴿والذي قال لوالديه أف لكما﴾ فسمعتة عائشة، فأنكرت ذلك عليه، وسبت مروان، وقالت له: والله ما نزل في آل أبي بكر من القرآن غير براءتي، وإني لأعرف فيمن نزلت هذه الآية. وذكر ابن عبد البر أن الذي خطب هو معاوية، وذلك وهم، والأصوب أن تكون عامة في أهل هذه الصفات ولم يقصد بها عبد الرحمن ولا غيره من المؤمنين والدليل القاطع على ذلك قوله: ﴿أولئك الذين حق عليهم القول في أمم﴾ وكان عبد الرحمن رحمه الله من أفضل الصحابة ومن الأبطال، وممن له في الإسلام غناء يوم اليمامة وغيره.

وقرأ أبو عمرو وحزمة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وطلحة بن مصرف: «أف» بكسر الفاء بغير تنوين، وذلك فيها علامة تعريف. وقرأ ابن كثير وابن عامر وابن محيصن وشبل وعمرو بن عبيد: «أف» بالفتح، وهي لغة الكسر والفتح. وقرأ نافع وحفص عن عاصم وأبو جعفر وشيبة والحسن والأعرج: «أف» بالكسر والتنوين، وذلك علامة تنكير، وهي كصه وغاق، وكما تستطعم رجلاً حديثاً غير معين فتقول «إيه» منونة، فإن كان حديثاً مشاراً إليه قلت «إيه» بغير تنوين. و«أف»: أصلها في الأقدار، كانت العرب إذا رأت قدراً قالت: «أف» ثم صيره الاستعمال يقال في كل ما يكره من الأفعال والأقوال.

وقرأ هشام عن ابن عامر وعاصم وأبو عمرو: «أتعداني»، وقرأ أبو عمرو ونافع وشيبة والأعرج والحسن وأبو جعفر وقاتدة وجمهور القراء «أتعداني» بنونين، والقراءة الأولى هي بإدغام النون في النون. وقرأ نافع أيضاً وجماعة: «أتعداني» بنون واحدة وإظهار الياء.

وقرأ نافع وأبو عمرو وعاصم وأبو جعفر والأعرج وشيبة وقاتدة وأبو رجاء وابن وثاب وجمهور الناس: «أن أخرج» بضم الهمزة وفتح الراء. وقرأ الحسن وابن يعمر والأعمش وابن مصرف والضحاك: «أن أخرج» بفتح الهمزة وضم الراء. والمعنى أن أخرج من القبر للحشر والمعاد، وهذا القول منه استفهام بمعنى الهزء والاستبعاد.

وقوله: ﴿وقد خلت القرون من قبلي﴾ معناه: هلكت ومضت ولم يخرج منهم أحد. وقوله: ﴿وهما﴾ يعني الوالدين، ويقال استغثت الله واستغثت بالله بمعنى واحد. و: ﴿ويلك﴾ دعاء يقال هنا لمن يحفز ويحرك لأمر ما يستعجل إليه.

وقرأ الأعرج «أن وعد الله» بفتح الهمزة، والناس على كسرها.

وقوله: ﴿ما هذا إلا أساطير﴾ أي ما هذا القول الذي يتضمن البعث من القبور إلا شيء قد سطره

الأولون في كتبهم، يعني الشرائع، وظاهر ألفاظ هذه الآية أنها نزلت في مشار إليه قال وقيل له، فنعى الله أقواله تحذيراً من الوقوع في مثلها.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ ظاهره أنها إشارة إلى جنس يتضمنه قوله: ﴿والذي قال﴾، ويحتمل إن كانت الآية في مشار إليه أن يكون قوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ بمعنى صنف هذا المذكور وجنسهم ﴿الذين حق عليهم القول﴾، أي قول الله إنه يعذبهم.

وقوله: ﴿قد خلت من قبلهم من الجن والإنس﴾ يقتضي أن ﴿الجن﴾ يموتون كما يموت البشر قرناً بعد قرن، وقد جاء حديث يقتضي ذلك. وقال الحسن بن أبي الحسن في بعض مجالسه: إن الجن لا يموتون، فاعترضه فتادة بهذه الآية فسكت.

وقوله تعالى: ﴿ولكل درجات﴾ يعني المحسنين والمسيئين. قال ابن زيد: ودرجات المحسنين تذهب علواً، ودرجات المسيئين تذهب سفلاً.

وقرأ أبو عبد الرحمن: «ولتوفيههم» بالتاء من فوق، أي الدرجات. وقرأ جمهور الناس: «وليوفيههم» بالياء. وقرأ نافع بخلاف عنه، وأبو جعفر وشيبة والأعرج وطلحة والأعمش: «ولتوفيههم» بالنون: قال اللؤلؤي في حرف أبي بن كعب وابن مسعود: «ولتوفيههم» بنون أولى ونون ثانية مشددة، وكل امرئ يجني ثمرة عمله من خير أو شر ولا يظلم في مجازاته، بل يوضع كل أمر موضعه من ثواب أو عقاب.

قوله عز وجل:

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا فَإِنَّا بِمَا تَعِدُّنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾

المعنى: واذكر يوم يعرض، وهذا العرض هو بالباشرة، كما تقول عرضت العود على النار والجاني على السوط، والمعنى: يقال لهم ﴿أذهبت طيباتكم﴾.

وقرأ جمهور القراء: «أذهبت» على الخبر، حسنت الفاء بعد ذلك. وقرأ ابن كثير والحسن والأعرج وأبو جعفر ومجاهد وابن وثاب. «أذهبت» بهمزة مطولة على التوبيخ والتقرير الذي هو في لفظ الاستفهام. وقرأ ابن عامر «أذهبت» بهمزتين تقريراً.

والتقرير والتوبيخ إخبار بالمعنى، ولذلك حسنت الفاء وإلا فهي لا تحسن في جواب على حد هذه مع الاستفهام المحض.

والطيات: الملاذ، وهذه الآية وإن كانت في الكفار فهي رادعة لأولي النهي من المؤمنين عن

الشهوات واستعمال الطيبات، ومن ذلك قول عمر رضي الله عنه: أتظنون أنا لا نعرف طيب الطعام، ذلك لباب البر بصغار المعزى، ولكني رأيت الله تعالى نعى على قوم أنهم أذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا، ذكر هذا في كلامه مع الربيع بن زياد. وقال أيضاً نحو هذا لخالد بن الوليد حين دخل الشام فقدم إليه طعام طيب، فقال عمر: هذا لنا، فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا ولم يشبعوا من خبز الشعير؟ فقال خالد: لهم الجنة، فبكى عمر وقال: لئن كان حظنا في الحطام وذهبوا بالجنة لقد باينونا بونا بعيداً. وقال جابر بن عبد الله: اشتريت لحماً بدرهم فرآني عمر، فقال: أو كلما اشتهى أحدكم شيئاً اشتراه فأكله؟ أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية، وتلا: ﴿أذهبتم﴾ الآية.

و ﴿عذاب الهون﴾: العذاب الذي اقترن به هوان، وهذا هو عذاب العصاة الواقعين ما قد نهوا عنه، وهذا بين في عذاب الدنيا، فعذاب المحدود في معصية كالحراية ونحوها مقترن بهون، وعذاب المقتول في حرب لا هون معه، فالهون والهوان بمعنى؟!.

ثم أمر تعالى نبيه بذكر هود وقومه عاد على جهة المثال لقريش، وهذه الأخوة هي أخوة القرابة، لأن هوداً كان من أشرف القبيلة التي هي عاد.

واختلف الناس في هذه «الأحقاف» أين كانت؟ فقال ابن عباس والضحاك: هي جبل بالشام، وقيل كانت بلاد نخيل، وقيل هي الرمال بين مهرة وعدن. وقال ابن عباس أيضاً: بين عمان ومهرة. وقال قتادة: هي بلاد الشحر الموصلة للبحر اليماني. وقال ابن إسحاق: هي بين حضرموت وعمان، والصحيح من الأقوال: أن بلاد عاد كانت باليمن ولهم كانت إرم ذات العماد. و «الأحقاف»: جمع حقف، وهو الجبل المستطيل والمعوج من الرمل. (قال الخليل: هي الرمال الأحقاف) وكثيراً ما تحدث هذه الأحقاف في بلاد الرمل في الصحارى، لأن الريح تصنع ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه﴾ اعتراض مؤكد مقيم للحجة أثناء قصة هود، لأن قوله: ﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾ هو من نذارة هود. و: ﴿خلت﴾ معناه: مضت إلى الخلاء ومرت أزمانها. وفي مصحف عبد الله: ﴿وقد خلت النذر من قبله وبعده﴾. وروي أن فيه: «وقد خلت النذر من بين يديه ومن بعده». و ﴿النذر﴾: جمع نذير بناء اسم فاعل. وقولهم: ﴿لتأفكنا﴾ معناه: لتصرفنا. وقولهم: ﴿فأتينا بما تعدنا﴾ تصميم على التكذيب وتعجيز منهم له في زعمهم.

قوله عز وجل:

قَالَ إِنَّمَا إِلَهُمُ الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالَ لَوْ هَذَا عَارِضٌ مِّمَّنْ طَرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا أَسَاسُ كُنُوزِهِمْ كَذَلِكَ نُجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَنَّاهُمْ فِيهَا إِنَّمَا مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَفُؤَادَةً فَأَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ

وَلَا أَفْعِدُهُمْ مِّنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٦﴾

المعنى قال لهم هود: إن هذا الوعيد ليس من قبلي، وإنما الأمر إلى الله وعلم وقته عنده، وإنما عليّ أن أبلغ فقط.

وقرأ جمهور الناس: «وأبلغكم» بفتح الباء وشد اللام. قال أبو حاتم: وقرأ أبو عمرو في كل القرآن بسكون الباء وتخفيف اللام.

و: ﴿أراكم تجهلون﴾ أي مثل هذا من أمر الله تعالى وتجهلون خلق أنفسكم. والضمير في: ﴿رأوه﴾ يحتمل أن يعود على العذاب، ويحتمل أن يعود على الشيء المرئي الطاري عليهم، وهو الذي فسره قوله: ﴿عارضاً﴾، والعارض ما يعرض في الجو من السحاب الممطر، ومنه قول الأعشى: يا من رأى عارضاً قد بت أرمقه كأنما البرق في حافاته الشعل

وقال أبو عبيدة: العارض الذي في أقطار السماء عشياً ثم يصبح من الغد قد استوى. وروي في معنى قوله: ﴿مستقبل أوديتهم﴾ أن هؤلاء القوم كانوا قد قحطوا مدة فطلع هذا العارض على الهيئة والجهة التي يمطرون بها أبداً، جاءهم من قبل واد لهم يسمونه المغيث. قال ابن عباس: ففرحوا به و﴿قالوا هذا عارض ممطرنا﴾، وقد كذب هود فيما أوعده به، فقال لهم هود عليه السلام: ليس الأمر كما رأيتم، ﴿بل هو ما استعجلتم به﴾ في قولكم: ﴿فأتنا بما تعدنا﴾ [الأحقاف: ٢٢] ثم قال: ﴿ريح فيها عذاب أليم﴾.

وفي قراءة ابن مسعود: «قال هود بل هو» بإظهار المقدر، لأن قراءة الجمهور هي كقوله تعالى ﴿يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم﴾ [الرعد: ٢٣] أي يقولون سلام: قال الزجاج وقرأ قوم: «ما استعجلتم» بضم التاء الأولى وكسر الجيم. و: ﴿ريح﴾ بدل من المبتدأ في قوله: ﴿هو ما﴾. و: ﴿ممطرنا﴾ هو نعت لـ ﴿عارض﴾ وهو نكرة إضافته غير محضة، لأن التقدير ممطر لنا في المستقبل، فهو في حكم الانفصال.

وقد مضى في غير هذه السورة قصص الريح التي هبت عليهم، وأنها كانت تحمل الطعنة كجرادة. و: ﴿تدمر﴾ معناه: تهلك. والدمار: الهلاك، ومنه قول جرير: [الوافر]

وكان لهم كبكر ثمود لما رغا دهرأ فدمرهم دمارا

وقوله: ﴿كل شيء﴾ ظاهره العموم ومعناه الخصوص في كل ما أمرت بتدميره، وروي أن هذه الريح رمتهم أجمعين في البحر.

وقرأ جمهور القراء: «لا ترى» أيها المخاطب. وقرأ عاصم وحزمة: «لا يرى» بالياء على بناء المفعول للمفعول «مساكئهم» رفعاً. التقدير: لا يرى شيء منهم، وهذه قراءة ابن مسعود وعمرو بن ميمون والحسن بخلاف عنه، ومجاهد وعيسى وطلحة. وقرأ الحسن بن أبي الحسن والجحدري وقتادة وعمرو بن ميمون والأعمش وابن أبي إسحاق وأبو رجاء ومالك بن دينار بغير خلاف عنهما خاصة ممن ذكر: «لا ترى» بالتاء

منقوطة من فوق مضمومة «مساكنهم» رفعاً، ورويت عن ابن عامر، وهذا نحو قول ذي الرمة: [البسيط]

كأنه جمل وهم وما بقيت إلا النجيزة والألواح والعصب

ونحو قوله: [الطويل]

فما بقيت إلا الضلوع الجراشع

وفي هذه القراءة استكراه. وقرأ الأعمش وعيسى الهمداني: «إلا مسكنهم» على الأفراد الذي هو اسم الجنس، والجمهور على الجمع في اللفظة، ووجه الأفراد تصغير الشأن وتقريبه كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ [غافر: ٦٧].

ثم خاطب تعالى قريشاً على جهة الموعظة بقوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي مَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ﴾ فـ ﴿مَا﴾، بمعنى الذي، وـ ﴿إِنْ﴾ نافية وقعت مكان ﴿مَا﴾ ليختلف اللفظ، ولا تتصل ﴿مَا﴾ بـ ﴿مَا﴾، لأن الكلام كأن قال: في الذي ما مكناكم فيه. ومعنى الآية: ولقد أعطيناكم من القوة والغنى والبسط في الأموال والأجسام ما لم نعظكم، ونالهم بسبب كفرهم هذا العذاب، فأنتم أحرى بذلك إذا كفرتم. وقالت فرقة: ﴿إِنْ﴾ شرطية، والجواب محذوف تقديره: في الذي إن مكناكم فيه طغيتم، وهذا تنطع في التأويل.

ثم عدد تعالى عليهم نعم الحواس والإدراك، وأخبر أنها لم تغن حين لم تستعمل على ما يجب. وـ ﴿مَا﴾: نافية في قوله: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ﴾ ويقوي ذلك دخول ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مَنْ شَاءَ﴾.

وقالت فرقة: «ما» في قوله: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ﴾ استفهام بمعنى التقرير، وـ ﴿مَنْ شَاءَ﴾ على هذا تأكيد، وهذا على غير مذهب سيبويه في دخول من في الواجب. ﴿وَحَاقَ﴾ معناه: وجب ولزم، وهو مستعمل في المكارة، والمعنى جزاء ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

قوله عز وجل:

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَةَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكِ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ﴾ مخاطبة لقريش على جهة التمثيل لهم بمأرب وسدوم وحجر نمود. وقوله: ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾ يعني لهذه القرى المهلكة.

وقوله: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمْ﴾ الآية يعني هلا نصرتهم أصنامهم التي اتخذوها. وـ ﴿قُرْبَانًا﴾ إما أن يكون المفعول الثاني بـ ﴿اتَّخَذُوا﴾ وـ ﴿آلِهَةً﴾ بدل منه، وإما أن يكون حالاً. وـ ﴿آلِهَةً﴾ المفعول الثاني، والمفعول الأول هو الضمير العائد على: ﴿الَّذِينَ﴾ التقدير: اتخذوهم. وقوله تعالى: ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾

معناه: انتلقوا لهم حتى لم يجدوهم في وقت حاجة.

وقوله: ﴿وَذَلِكَ﴾ الإشارة به تختلف بحسب اختلاف القراءات في قوله: ﴿إفْكُهُمْ﴾ فقرأ جمهور القراء «إفْكُهُمْ» بكسر الهمزة وسكون الفاء وضم الكاف، فالإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ على هذه القراءة إلى قولهم في الأصنام إنها آلهة، وذلك هو اتخاذهم إياها، وكذلك هي الإشارة في قراءة من قرأ: «أفْكُهُمْ» بفتح الهمزة، وهي لغة في الإفك، وهما بمعنى الكذب، وكذلك هي الإشارة في قراءة من قرأ: «أفْكُهُمْ» بفتح الهمزة: والفاء على الفعل الماضي، بمعنى صرفهم، وهي قراءة ابن عباس وأبي عياض وعكرمة وحظظة بن النعمان. وقرأ أبو عياض أيضاً وعكرمة فيما حكى الثعلبي: «أفْكُهُمْ» بشد الفاء وفتح الهمزة والكاف، وذلك على تعدية الفعل بالتضعيف. وقرأ عبد الله بن الزبير: «أفْكُهُمْ» بالمد وفتح الفاء والكاف على التعدية بالهمزة. قال الزجاج: معناه جعلهم يأفكون كما يقال أكفروهم. وقرأ ابن عباس فيما روى قطرب: «أفْكُهُمْ» بفتح الهمزة والمد وكسر الفاء وضم الكاف على وزن فاعل، بمعنى: صارفهم.

وحكى القراء أنه يقرأ: «أفْكُهُمْ» بفتح الهمزة والفاء وضم الكاف، وهي لغة في الإفك، والإشارة بـ ﴿وَذَلِكَ﴾ على هذه القراءة التي ليست مصدرأً-يحتمل أن تكون إلى الأصنام. وقولنه: ﴿وَمَا كُنَّا نُوَفِّقُ﴾ ويفترون، ويحتمل أن تكون ﴿مَا﴾ مصدرية فلا يحتاج إلى عائذ، ويحتمل أن تكون بمعنى الذي، فهناك عائذ محذوف تقديره: يفترونه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾ ابتداء قصة الجن ووفادتهم على النبي صلى الله عليه وسلم. و: ﴿صَرَفْنَا﴾ معناه: رددناهم عن حال ما، يَحْتَمِلُ أنها الاستماع في السماء، ويحتمل أن يكون كفرهم قبل الوفاة وهذا بحسب الاختلاف هنا هل هم الوفد أو المتجسسون، وروي أن الجن كانت قبل مبعث النبي عليه السلام تسترق السمع من السماء، فلما بعث محمد عليه السلام حرست بالشهب الراجمة، فضاعت الجن ذرعاً بذلك، فاجتمعت وأتى رأي ملئهم على الافتراق في أقطار الأرض وطلب السبب الموجب لهذا الرجم والمنع من استراق السمع ففعلوا ذلك. واختلف الرواة بعد فقالت فرقة: جاءت طائفة من الجن إلى النبي عليه السلام وهو لا يشعر، فسمعوا القرآن وولوا إلى قومهم متلذذين، ولم يعرف النبي بشيء من ذلك حتى عرفه الله بذلك كله، وكان سماعهم لقرآنه وهو بنخلة عند سوق عكاظ، وهو يقرأ في صلاة الفجر. وقالت فرقة: بل أشعره الله بوفادة الجن عليه واستعد لذلك، ووفد عليه أهل نصيبين منهم.

قال القاضي أبو محمد: والتحرير في هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءه جن دون أن يعرف بهم، وهم المتفرون من أجل الرجم، وهذا هو قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ﴾ [الجن: ١] ثم بعد ذلك وفد عليه وفد، وهو المذكور صرفه في هذه الآية. قال قتادة: صرفوا إليه من ينوون، أشعر به قبل وروده. وقال الحسن: لم يشعر.

واختلف في عددهم اختلافاً متباعداً فاختصرته لعدم الصحة في ذلك، أما أن ابن عباس رضي الله عنه قال: كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين وقال زر كانوا تسعة: فيهم زويدة، وروي في ذلك أحاديث عن

عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إني خارج إلى وفد الجن، فمن شاء يتبعني»، فسكت أصحابه، فقالها ثانية، فسكتوا، فقال عبد الله أنا أتبعك، قال فخرجت معه حتى جاء شعب الحجون، فأدار لي دائرة وقال لي: لا تخرج منها، ثم ذهب عني، فسمعت لفظاً ودويّاً كدوي النصور الكاسرة. ثم في آخر الليل جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن قرأ عليهم القرآن وعلمهم وأعطاهم زاداً في كل عظم وروثة، فقال: يا عبد الله، ما رأيت؟ فأخبرته، فقال: لقد كنت أخشى أن تخرج فيخطفك بعضهم، قلت يا رسول الله، سمعت لهم لفظاً، فقال: إنهم تدارأوا في قتل لهم، فحكمت بالحق. واضطربت الروايات عن عبد الله بن مسعود، وروي عنه ما ذكرنا. وذكر عنه أنه رأى رجلاً من الجن وبهم شبه رجال الزط السود الطوال حين رآهم بالكوفة. وروي عنه أنه قال: ما شاهد أحد منا ليلة الجن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاختصرت هذه الروايات وتطولها لعدم صحتها.

وقوله: ﴿نفراً﴾ يقتضي أن المصروفين رجالاً لا أنثى فيهم. والنفر والرهط: القوم الذين لا أنثى فيهم.

وقوله تعالى: ﴿فلما حضروه قالوا أنصتوا﴾ فيه تأدب مع العلم وتعليم كيف يتعلم وقرأ جمهور الناس: «قضي» على بناء الفعل للمفعول. . وقرأ حبيب بن عبد الله بن الزبير وأبو مجلز: «قضى» على بناء الفعل للفاعل، أي قضى محمد القراءة.

وقال ابن عمر وجابر بن عبد الله: قرأ عليهم سورة [الرحمن] فكان إذا قال: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ [الرحمن: ٣] قالوا: لا بشيء من آلائك نكذب، ربنا لك الحمد، ولما ولت هذه الجملة تفرقت على البلاد منذرة للجن. قال قتادة: ما أسرع ما عقل القوم.

قال القاضي أبو محمد: فهناك وقعت قصة سواد وشصار وخنافر وأشباههم صلى الله عليه وسلم على محمد عبده ورسوله.

قوله عز وجل:

قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَنْقُومُنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَدَاعِيَ إِنسِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ وَيُجْزِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يُخَيِّقَ أَلَمْ يَكُنْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾

المعنى: قال هؤلاء المنذرون لما بلغوا قومهم ﴿يا قومنا إنا سمعنا كتاباً﴾ وهو القرآن العظيم، وخصصوا ﴿موسى﴾ عليه السلام لأحد أمرين: إما لأن هذه الطائفة كانت تدين بدين اليهود، وإما لأنهم

كانوا يعرفون أن موسى قد ذكر محمداً وبشر به، فأشاروا إلى موسى من حيث كان هذا الأمر مذكوراً في توراته. قال ابن عباس في كتاب الثعلبي: لم يكونوا علموا أمر عيسى عليه السلام، فلذلك قالوا ﴿من بعد موسى﴾. وقولهم: ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ يؤيد هذا. و: ﴿ما بين يديه﴾ هي التوراة والإنجيل. و﴿الحق﴾ و﴿الطريق المستقيم﴾ هنا بمعنى يتقارب لكن من حيث اختلف اللفظ، وربما كان ﴿الحق﴾ أعم، وكان أحدهما قد يقع في مواضع لا يقع فيها الآخر حسن التكرار. و: ﴿داعي الله﴾ هو محمد عليه السلام، والضمير في: ﴿به﴾ عائد على الله تعالى.

وقوله: ﴿يغفر﴾ معناه: يغفر الله. ﴿ويجركم﴾ معناه: يمنعكم ويجعل دونكم جوار حفظه حتى لا ينالكم عذاب.

وقوله تعالى: ﴿ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز﴾ الآية، يحتمل أن يكون من كلام المنذرين، ويحتمل أن يكون من كلام الله تعالى لمحمد عليه السلام، والمراد بها إسماع الكفار وتعلق اللفظ إلى هذا المعنى من قول الجن: ﴿أجيبوا داعي الله﴾ فلما حكى ذلك قيل ومن لا يفعل هذا فهو بحال كذا، والمعجز الذاهب في الأرض الذي يبدي عجز طالبه ولا يقدر عليه، وروي عن ابن عامر: «وليس لهم من دونه بزيادة ميم».

وقوله تعالى: ﴿أو لم يروا﴾ الضمير لقريش، وهذه آية مثل واحتجاج، لأنهم قالوا إن الأجساد لا يمكن أن تبعث ولا تعاد، وهم مع ذلك معترفون بأن الله تعالى خلق السماوات والأرض فأقيمت عليهم الحجة من أقوالهم. والرؤية في قوله: ﴿أو لم يروا﴾ رؤية القلب.

وقرأ جمهور الناس: «ولم يعي» بسكون العين وفتح الباء الأخيرة. وقرأ الحسن بن أبي الحسن «يع» بكسر العين وسكون الباء وذلك على حذف.

والباء في قوله: ﴿بقادر﴾ زائدة مؤكدة، ومن حيث تقدم نفي في صدر الكلام حسن التأكيد بالباء وإن لم يكن المنفي ما دخلت على عليه كما هي في قولك: ما زيد بقائم كان بدل ﴿أو لم يروا﴾ أوليس الذي خلق.

وقرأ ابن عباس وجمهور الناس: «بقادر» وقرأ الجحدري والأعرج وعيسى وعمرو بن عبيد: «يقدر» بالياء على فعل مستقبل، ورجحها أبو حاتم وغلط قراءة الجمهور لقلق الباء عليه. وفي مصحف عبيد الله بن مسعود «بخلقهن قادر».

و: ﴿بلى﴾ جواب بعد النفي المتقدم، فهي إيجاب لما نفي، والمعنى: بلى رأوا ذلك أن لو نفعهم ووقع في قلوبهم، ثم استأنف اللفظ الإخبار المؤكد بقوله: ﴿إنه على كل شيء قدير﴾. قوله عز وجل:

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ

تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمَّا يَلْبِثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلِّغْ فَمَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾

المعنى: واذكر يوم، وهذا وعيد للكفار من قريش وسواهم. والعرض في هذه الآية، عرض مباشرة، كما تقولون عرضت الجاني على السوط. والمعنى يقال لهم أليس هذا العذاب حقاً وقد كنتم تكذبون به؟ فيجيبون: ﴿بلى وربنا﴾، وذلك تصديق حيث لا ينفع، وروي عن الحسن أنه قال: إنهم ليعذبون في النار وهم راضون بذلك لأنفسهم يعترفون أنه العدل، فيقول لهم المحاور من الملائكة عند ذلك ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ أي بسبب كفركم.

وقوله تعالى: ﴿فاصبر﴾ الفاء عاطفة هذه الجملة من الوصاة على هذه الجملة من الإخبار عن حال الكفرة في الآخرة، والمعنى بينهما مرتبط، أي هذه حالهم مع الله، فلا تستعجل أنت فيما حملته واصر له ولا تخف في الله أحداً.

وقوله: ﴿من الرسل﴾ ﴿من﴾ للتبويض، والمراد من حفظت له مع قومه شدة ومجاهدة كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم صلى الله عليهم، هذا قول عطاء الخراساني وغيره. وقال ابن زيد ما معناه: إن ﴿من﴾ لبيان الجنس. قال: والرسل كلهم ﴿أولو العزم﴾، ولكن قوله: ﴿كما صبر أولو العزم﴾ يتضمن رسلاً وغيرهم، فبين بعد ذلك جنس الرسل خاصة تعظيماً لهم، ولتكون القدوة المضروبة لمحمد عليه السلام أشرف، وذكر الثعلبي هذا القول عن علي بن مهدي الطبري. وحكي عن أبي القاسم الحكيم أنه قال: الرسل كلهم أولو عزم إلا يونس عليه السلام وقال الحسن بن الفضل: هم الثمانية عشر المذكورين في سورة الأنعام، لأنه قال بعقب ذكرهم ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ [الأنعام: ٩٠]. وقال مقاتل هم ستة: نوح صبر على أذى قومه طويلاً، وإبراهيم صبر للناس، وإسحاق صبر نفسه للذبح، ويعقوب صبر على الفقد لولده وعمي بصره وقال: ﴿فصبر جميل﴾ [يوسف: ٨٣]، ويوسف على السجن وفي البشر، وأيوب صبر على البلاء.

قال القاضي أبو محمد: وانظر أن النبي عليه السلام قال في موسى: «يرحم الله موسى، أودى بأكثر من هذا فصبر»، ولا محالة أن لكل نبي ورسول عزمًا وصبراً.

وقوله: ﴿ولا تستعجل لهم﴾ معناه لا تستعجل لهم عذاباً، فإنهم إليهم صائرون، ولا تستطل تعميرهم في هذه النعمة، فإنهم يوم يرون العذاب كأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة لاحتقارهم ذلك، لأن المنقضي من الزمان إنما يصير عدماً، فكثيره الذي ساءت عاقبته كالقليل.

وقرأ أبي بن كعب «ساعة من النهار». وقرأ جمهور القراء والناس: «بلاغ» وذلك يحتمل معاني، أحدها: أن يكون خبر ابتداء، المعنى: هذا بلاغ، وتكون الإشارة بهذا إلى القرآن والشرع، أي هذا إنذار وتبليغ، وإما إلى المدة التي تكون كساعة كأنه قال: ﴿لم يلبثوا إلا ساعة﴾ كانت بلاغهم، وهذا كما تقول: متاع قليل ونحوه من المعنى. والثاني: أن يكون ابتداء والخبر محذوف. والثالث: ما قاله أبو مجلز

فإنه كان يقف على قوله: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ﴾ ويقول: «بلاغ» ابتداء وخبره متقدم في قوله: ﴿إِلَهُمَّ﴾ وقدح الناس في هذا القول بكثرة الحائل. وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وعيسى: «بلاغاً»، وهي قراءة تحتمل المعنيين اللذين في قراءة الرفع، وليس يدخلها قول أبي مجلز ونصبها بفعل مضمر. وقرأ أبو مجلز وأبو سراج الهذلي: «بلغ»، على الأمر. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: «بلاغ» بالخفض نعتاً لـ ﴿نَهَارٌ﴾. وقرأ جمهور الناس:

«فَهْلُ يَهْلِكُ» على بناء الفعل للمفعول. وقرأ بعضهم فيما حكى هارون: «فَهْلُ يَهْلِكُ» ببناء الفعل للفاعل وكسر اللام، وحكاها أبو عمرو عن الحسن وابن محيصن: «يَهْلِكُ» بفتح الياء واللام. قال أبو الفتح: وهي مرغوب عنها. وروى زيد بن ثابت عن النبي عليه السلام: «فَهْلُ يَهْلِكُ» بضم الياء وكسر اللام «إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» بالنصب.

وفي هذه الألفاظ وعيد محض وإنذار بين، وذلك أن الله تعالى جعل الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها، وأمر بالطاعة ووعد عليها بالجنة، ونهى عن الكفر وأوعد عليه بالنار، فلن يهلك على الله إلا هالك كما قال صلى الله عليه وسلم. قال الثعلبي: يقال إن قوله: ﴿فَهْلُ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ أرجى آية في كتاب الله تعالى للمؤمنين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

هذه السورة مدنية بإجماع، غير أن بعض الناس قال في قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ﴾ [محمد: ١٣] إنها نزلت بمكة في وقت دخول النبي فيها عام الفتح أو سنة الحديبية، وما كان مثل هذا فهو معدود في المدني، لأن المراعى في ذلك إنما هو ما كان قبل الهجرة أو بعدها.

قوله عز وجل:

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴿٣﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، إشارة إلى أهل مكة الذين أخرجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية إشارة إلى الأنصار أهل المدينة الذين آووه، وفي الطائفتين نزلت الآيتان، قاله ابن عباس ومجاهد، ثم هي بعد تعم كل من دخل تحت ألفاظها. وقوله: ﴿وَصَدُّوا﴾ يحتمل أن يريد الفعل المجاوز، فيكون المعنى: ﴿وَصَدُّوا﴾ غيرهم، ويحتمل أن يكون الفعل غير متعد، فيكون المعنى: ﴿وَصَدُّوا﴾ أنفسهم. و: ﴿سَبِيلَ اللَّهِ﴾ شرعه وطريقه الذي دعا إليه.

وقوله: ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي أتلفها، لم يجعل لها غاية خير ولا نفعاً، وروي أن هذه الآية نزلت بعد بدر، وأن الإشارة بقوله: ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ هي إلى الإنفاق الذي أنفقوه في سفرتهم إلى بدر، وقيل المراد بالأعمال: أعمالهم البرة في الجاهلية من صلة رحم ونحوه، واللفظ يعم ذلك.

وقرأ الناس: «نُزِّلَ» بضم النون وشد الزاي. وقرأ الأعمش: «أُنْزِلَ» معدي بالهمزة وقوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ قال قتادة معناه: وأصلح حالهم. وقرأ ابن عباس «أمرهم». وقال مجاهد: شأنهم.

وتحرير التفسير في اللفظة أنها بمعنى الفكر والموضع الذي فيه نظر الإنسان وهو القلب، فإذا صلح ذلك صلحت حاله، فكان اللفظة مشيرة إلى صلاح عقيدتهم وغير ذلك من الحال تابع، فقولك: خطر في

بالي كذا، وقولك: أصلح الله بالك: المراد بهما واحد، ذكره المبرد. والبال: مصدر كالحال والشأن، ولا يستعمل منها فعل، وكذلك عرفه أن لا يثنى ولا يجمع، وقد جاء مجموعاً لكنه شاذ، فإنهم قالوا بالالت.

وقوله تعالى: ﴿ذلك بأن الذين كفروا﴾ الإشارة إلى هذه الأفعال التي ذكر الله أنه فعلها بالكفار وبالمؤمنين. و: ﴿الباطل﴾ الشيطان وكل ما يأمر به، قاله مجاهد. و: ﴿الحق﴾ هنا هو الشرع ومحمد عليه السلام.

وقوله: ﴿كذلك﴾ يبين أمر كل فرقة ويجعل لها ضربها من القول وصفها. وضرب المثل مأخوذ من الضريب والضرب الذي هو بمعنى النوع.

قوله عز وجل:

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَنتَصَّرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّبَلَّوْا بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قِيلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن لَّنتَصَّرُوا اللَّهُ نَتَصَّرُكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَّاهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾

قال ابن عباس وقتادة وابن جريج والسدي: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف التي في براءة: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ [التوبة: ٥] وإن الأسر والمن والفداء مرفوع، فمتى وقع أسر فإنما معه القتل ولا بد، وروي نحوه عن أبي بكر الصديق. وقال ابن عمر وعمر بن عبد العزيز وعطاء ما معناه: إن هذه الآية محكمة مبينة لتلك، والمن والفداء ثابت، وقد من رسول الله صلى الله عليه وسلم على ثمامة بن أثال، وفادى أسرى بدر، وقاله الحسن، وقال: لا يقتل الأسير إلا في الحرب، يهيب بذلك على العدو. وكان عمر بن عبد العزيز يفادي رجلاً برجل، ومنع الحسن أن يفادوا بالمال. وقيد أمر عمر بن عبد العزيز بقتل أسير من الترك ذكر له أنه قتل مسلمين. وقالت فرقة: هذه الآية خصصت من الأخرى أهل الكتاب فقط، ففيهم المن والفداء، وعباد الأوثان ليس فيهم إلا القتل. وعلى قول أكثر العلماء الآيتان محكمتان. وقوله هنا: ﴿فضرب الرقاب﴾ بمثابة قوله هناك: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ [التوبة: ٥] وصرح هنا بذكر المن والفداء، ولم يصرح به هنالك، وهو مراد متقرر، وهذا هو القول القوي.

وقوله: ﴿فضرب الرقاب﴾ مصدر بمعنى الفعل، أي فاضربوا رقابهم وعين من أنواع القتل أشهره وأعرفه فذكره، والمراد: اقتلوهم بأي وجه أمكن، وقد زادت آية: ﴿واضربوا منهم كل بنان﴾ [الأنفال: ١٢] وهي من أنكى ضربات الحرب، لأنها تعطل من المضروب جميع جسده، إذ البنان أعظم آلة المقاتل وأصلها. و: ﴿أثختموهم﴾ معناه: بالقتل. والإثخان في القوم: أن يكثروا فيهم القتلى والجرحى، والمعنى: فشددوا الوثاق بمن لم يقتل ولم يترتب عليه إلا الأسر. و: ﴿منأ﴾ و: ﴿فداء﴾

مصدران منصوبان بفعلين مضميرين. وقرأ جمهور الناس: «فداء». وقرأ شبل عن ابن كثير: «فدى» مقصوراً.

وإمام المسلمين مخير في أسراه في خمسة أوجه: القتل، أو الاسترقاق، أو ضرب الجزية، أو الفداء، أو المن. ويترجح النظر في أسير أسر بحسب حاله من إذاية المسلمين أو ضد ذلك.

وقوله تعالى: ﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾ معناه: حتى تذهب وتزول أثقالها. والأوزار: الأثقال فيها والآلات لها، ومنه قول الشاعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي: [المقارب]

وأعددت للحرب أوزارها رماحاً طوالاً وخيلاً ذكورا

وقال الثعلبي: وقيل الأوزار في هذه الآية: الآثام، جمع وزر، لأن الحرب لا بد أن يكون فيها آثام في أحد الجانبين.

واختلف المتأولون في الغاية التي عندها ﴿تضع الحرب أوزارها﴾، فقال قتادة: حتى يسلم الجميع فتضع الحرب أوزارها. وقال حذاق أهل النظر: حتى تغلبوهم وتقتلوهم.

وقال مجاهد حتى ينزل عيسى ابن مريم.

قال القاضي أبو محمد: وظاهر الآية أنها استعارة يراد لها التزام الأمر أبداً، وذلك أن الحرب بين المؤمنين والكافرين لا تضع أوزارها، فجاء هذا كما تقول: أنا أفعل كذا إلى يوم القيامة، فإنما تريد: إنك تفعله دائماً.

وقوله تعالى: ﴿ذلك﴾ تقديره: الأمر ذلك. ثم قال: ﴿ولو يشاء الله لانتصر منهم﴾ أي بعذاب من عنده يهلكهم به في حين واحد، ولكنه تعالى أراد اختبار المؤمنين وأن يبلو بعض الناس ببعض.

وقرأ جمهور الناس: «قاتلوا» وقرأ عاصم الجحدري بخلاف عنه: «قَتَلُوا» بفتح القاف والتاء. وقرأ أبو عمرو وحفص عن عاصم والأعرج وقاتدة والأعمش: «قُتِلُوا» بضم القاف وكسر التاء. وقرأ زيد بن ثابت والحسن والجحدري وأبو رجاء: «قُتِلُوا» بضم القاف وكسر التاء وشدها، والقراءة الأولى أعمها وأوضحها معنى. وقال قتادة: نزلت هذه الآية فيمن قتل يوم أحد من المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿سيهديهم﴾ أي إلى طريق الجنة، وقد تقدم القول في إصلاح البال. وروى عباس بن المفضل عن أبي عمرو: «ويدخلهم» بسكون اللام. وفي سورة [التغابن] ﴿يوم يجمعكم﴾ [التغابن: ٩] وفي سورة [الإنسان] ﴿إنما نطعمكم﴾ [الإنسان: ٩] بسكون العين والميم.

وقوله تعالى: ﴿عرفها لهم﴾ قال أبو سعيد الخدري وقاتدة ومجاهد معناه: بينها لهم، أي جعلهم يعرفون منازلهم منها، وفي نحو هذا المعنى هو قول النبي عليه السلام: لأحدكم بمنزله في الجنة أعرف منه بمنزله في الدنيا. وقالت فرقة معناه: سماها لهم ورسمها، كل منزل باسم صاحبه، فهذا نحو من التعريف. وقالت فرقة معناه: شرفها لهم ورفعها وعلاها، وهذا من الأعراف التي هي الجبال وما أشبهها، ومنه أعراف

الخييل. وقال مؤرج وغيره معناه: طيبها مأخوذ من العرف، ومنه طعام معرف، أي مطيب. وعرفت القدير: طيبتها بالملح والتابل.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ﴾ فيه حذف مضاف، أي دين الله ورسوله، والمعنى: تنصروه بجدكم واتباعكم وإيمانكم ﴿يَنْصَرِكُمْ﴾ بخلق القوة لكم والجرأة وغير ذلك من المعاون.

وقرأ جمهور الناس: «ويُثَبَّت» بفتح التاء المثلثة وشد الباء. وقرأ المفضل عن عاصم: «ويُثَبَّت» بسكون التاء وتخفيف الباء، وهذا التثيبت هو في مواطن الحرب على الإسلام، وقيل على الصراط في القيامة.

وقوله تعالى: ﴿فَتَعَسَّأَ لَهُمْ﴾ معناه: عثاراً وهلاكاً فيه، وهي لفظة تقال للعائر إذا أريد به الشر، ومنه قول الشاعر: [المنسرح]

يا سيدي إن عثرت خذ بيدي ولا تقل: لا، ولا تقل تعسا

وقال الأعشى: [البسيط]

بذات لوت عفرناة إذا عثرت فالتعس أدنى لها من أن أقول لعا

ومنه قول أم مسطح لما عثرت في مرطها: تعس مسطح. قال ابن السكيت: التعس أن يخر على وجهه. و: ﴿تَعَسَّأَ﴾ مصدر نصبه فعل مضمَر.

وقوله تعالى: ﴿كَرَهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ يريد القرآن. وقوله: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ يقتضي أن أعمالهم في كفرهم التي هي بر مقيدة محفوظة، ولا خلاف أن الكافر له حفظة يكتبون سيئاته. واختلف الناس في حسناتهم، فقالت فرقة: هي ملغاة يثابون عليها بنعم الدنيا فقط. وقالت فرقة: هي محصاة من أجل ثواب الدنيا، ومن أجل أنه قد يسلم فيضاف ذلك إلى حسناته في الإسلام، وهذا أحد التأويلين في قول النبي عليه السلام لحكيم بن حزام: «أسلمت على ما سلف لك من خير». فقوم قالوا تأويله: أسلمت على أن يعد لك ما سلف من خير، وهذا هو التأويل الذي أشرنا إليه. وقالت فرقة معناه: أسلمت على إسقاط ما سلف لك من خير، إذ قد ثوبت عليه بنعم دنياك. وذكر الطبري أن أعمالهم التي أخبر في هذه الآية بحبطها: عبادتهم الأصنام وكفرهم. ومعنى: ﴿أَحْبَطَ﴾ جعلها من العمل الذي لا يزكو ولا يعتد به، فهي لذلك كالذي أحبط.

قوله عز وجل:

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَشْوَى لَهُمْ ﴿١٢﴾

وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا تَأْصِرْ لَهُمْ ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿أفلم يسيرا﴾ توقيف لقريش وتوبيخ. و: ﴿الذين من قبلهم﴾ يريد: ثمود وقوم لوط وقوم شعيب وأهل السد وغيرهم. والدمار: الإفساد وهدم البناء وإذهاب العمران.

وقوله: ﴿دمر الله عليهم﴾ من ذلك. والضمير في قوله: ﴿أمثالها﴾ يصح أن يعود على العاقبة المذكورة، ويصح أن يعود على الفعل التي يتضمنها قوله: ﴿دمر الله عليهم﴾. وقولهم: ﴿ذلك بأن﴾ ابتداء وخبر في «أن» وما عملت فيه. والمولى: الناصر الموالي، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: «ذلك بأن الله ولي الذين آمنوا». وقال قتادة: إن هذه الآية نزلت يوم أحد ومنها انتزع رسول الله صلى الله عليه وسلم رده على أبي سفيان حين قال له: «قولوا الله مولانا ولا مولى لكم».

وقوله تعالى: ﴿ويأكلون كما تاكل الأنعام﴾ أي أكلاً مجرداً من فكرة ونظر، فالتشبيه بالمعنى إنما وقع فيما عدا الأكل من قلة الفكر وعدم النظر، فقوله: ﴿كما﴾ في موضع الحال، وهذا كما تقول لجاهل: يعيش كما تعيش البهيمة، فأما بمقتضى اللفظ فالجاهل والعالم والبهيمة من حيث لهم عيش فهم سواء، ولكن معنى كلامك يعيش عديم النظر والفهم كما تعيش البهيمة. والمثوى: موضع الإقامة، وقد تقدم القول غير مرة في قوله: ﴿وكاين﴾. وضرب الله تعالى لمكة مثلاً بالقرى المهلكة على عظمها، كقرية قوم عاد وغيرها. و: ﴿أخرجتك﴾ معناها: وقت الهجرة. ونسب الإخراج إلى القرية حملاً على اللفظ. وقال: ﴿أهلكناهم﴾ حملاً على المعنى. ويقال: إن هذه الآية نزلت إثر خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة في طريق المدينة. وقيل: نزلت بالمدينة. وقيل: نزلت بمكة عام دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الحديبية. وقيل نزلت: عام الفتح وهو مقبل إليها. وهذا كله حكمه حكم المدني.

قوله عز وجل:

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٤﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنهْرٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَرٌ مِّن خَمْرٍ لَّذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَرٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَن هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا وَلَيْتِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿أفمن كان﴾ الآية توقيف وتقرير على شيء متفق عليه وهي معادلة بين هذين الفريقين. وقال قتادة: الإشارة بهذه الآية إلى محمد عليه السلام في أنه الذي هو على بينة وإلى كفار قريش في أنهم الذين زين لهم سوء أعمالهم.

قال القاضي أبو محمد: وبقي اللفظ عاماً لأهل هاتين الصفتين غابر الدهر وقوله: ﴿على بينة﴾ معناه

على قصة واضحة وعقيدة نيرة بينة، ويحتمل أن يكون المعنى على أمر بين ودين بين، والحق الهاء للمبالغة: كعلامة ونسابة. والذي يسند إليه قوله: ﴿زين﴾ الشيطان. واتباع الأهواء: طاعتها كأنها تذهب إلى ناحية والمرء يذهب معها.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿مثل الجنة﴾ الآية، فقال النضر بن شميل وغيره: ﴿مثل﴾ معناه صفة، كأنه قال صفة الجنة ما تسمعون فيها كذا وكذا، وقال سيبويه: المعنى فيما يتلى عليكم مثل الجنة. ثم فسر ذلك الذي يتلى بقوله: فيها كذا وكذا.

قال القاضي أبو محمد: والذي ساق أن يجعل ﴿مثل﴾ بمثابة صفة هو أن الممثل به ليس في الآية، ويظهر أن القصد في التمثيل هو إلى الشيء الذي يتخيله المرء عند سماعه فيها كذا وكذا فإنه يتصور عند ذلك بقاء على هذه الصورة وذلك هي ﴿مثل الجنة﴾ ومثالها، وفي الكلام حذف يقتضيه الظاهر، كأنه يقول: ﴿مثل الجنة﴾ ظاهر في نفس من وعى هذه الأوصاف. وقرأ علي بن أبي طالب: «مثال الجنة». وقرأ علي بن أبي طالب أيضاً وابن عباس: «أمثال الجنة». وعلى هذه التأويلات كلها ففي قوله: ﴿كمن هو خالد﴾ حذف تقديره: أساكن هذه، أو تقديره: أهؤلاء إشارة إلى المتقين، ويحتمل عندي أيضاً أن يكون الحذف في صدر الآية. كأنه قال: أمثل أهل الجنة ﴿كمن هو خالد﴾، ويكون قوله: ﴿مثل﴾ مستفهماً عنه بغير ألف الاستفهام، فالمعنى: أمثل أهل الجنة، وهي بهذه الأوصاف ﴿كمن هو خالد في النار﴾ فتكون الكاف في قوله: ﴿كمن﴾ مؤكدة في التشبيه، ويجيء قوله: ﴿فيها أنهار﴾ في موضع الحال على هذا التأويل. «وماء غير أسن» معناه غير متغير، قاله ابن عباس وقتادة، وسواء: أثن أو لم يتن، يقال: أسن الماء: بفتح السين، وأسن بكسرها.

وقرأ جمهور القراء: «آسن» على وزن فاعل. وقرأ ابن كثير: «أسن»، على وزن فعل، وهي قراءة أهل مكة، والأسن أيضاً هو الذي يخشى عليه من ريح منتنة من ماء، ومنه قول الشاعر:

التارك القرن مصرأ أنامله يميل في الرمح ميل المائح الأسن

وقال الأخفش: «آسن» لغة: والمعنى الإخبار به عن الحال، ومن قال: «آسن» على وزن فاعل، فهو يريد به أن يكون كذلك في المستقبل فنفي ذلك في الآية. وقرأت فرقة: «غير يسن»، بالياء. قال أبو علي: وذلك على تخفيف الهمزة، قال أبو حاتم عن عوف: كذلك كانت في المصحف: «يسن»، فغيرها الحجاج.

وقوله: في اللبن ﴿لم يتغير طعمه﴾ نفي لجميع وجوه الفساد في اللبن وقوله: ﴿لذة للشاربين﴾ جمعت طيب المطعم وزوال الآفات من الصداق وغيره و﴿لذة﴾ نعت على النسب، أي ذات اللذة. ولصفية العسل مذهبة لمومه وضرره. وقوله: ﴿من كل الثمرات﴾ أي من هذه الأنواع، لكنها بعيدة الشبه، إذ تلك لا عيب فيها ولا تمب بوجه. وقوله: ﴿ومغفرة من ربهم﴾ معناه: وتنعيم أعطته المغفرة وسببته، فالمغفرة إنما هي قبل الجنة، وقوله: ﴿وسقوا﴾ الضمير عائد على «مَن» لأن المراد به جمع.

وقوله تعالى: ﴿ومنهم من يستمع إليك﴾. يعني بذلك المنافقين من أهل المدينة، وذلك أنهم كانوا

يحضرون عند النبي عليه السلام فيسمعون كلامه وتلاوته، فإذا خرجوا قال بعضهم لمن شاء من المؤمنين الذين عملوا وانتفعوا ﴿ماذا قال أنفأ﴾ فكان منهم من يقول هذا استخفافاً، أي ما معنى ما قال وما نفعه وما قدره؟ ومنهم من كان يقول ذلك جهالة ونسياناً، لأنه كان في وقت الكلام مقبلاً على فكرته في أمر دنياه وفي كفره، فكان القول يمر صفحاً، فإذا خرج قال: ﴿ماذا قال أنفأ﴾، وهذا أيضاً فيه ضرب من الاستخفاف، لأنه كان يصرح أنه كان يقصد الإعراض وقت الكلام، ولو لم يكن ذلك بقصد لم يبعد أن يجري على بعض المؤمنين. وروي أن عبد الله بن مسعود وابن عباس ممن سئل هذا السؤال، حكاه الطبري عن ابن عباس.

وقرأ الجمهور: «أنفأ» على وزن فاعل، وقرأ ابن كثير وحده: «أنفأ» على وزن فعل، وهما اسما فاعل من ائتنف، وجرياً على غير فعلهما، وهذا كما جرى فقير على افتقر ولم يستعمل فقر، وهذا كثير، والمفسرون يقولون: «أنفأ» معناه: الساعة الماضية القريبة منا، وهذا تفسير بالمعنى.

ثم أخبر تعالى أنه ﴿طبع﴾ على قلوب هؤلاء المنافقين الفاعلين لهذا، وهذا الطبع يحتمل أن يكون حقيقة، ويحتمل أن يكون استعارة وقد تقدم القول فيه.
قوله عز وجل:

وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴿١٨﴾ فَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُونَ لَكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ وَمُسْتَوَكِّكُمْ ﴿١٩﴾

لما ذكر تعالى المنافقين بما هم أهل من قوله: ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم﴾ [محمد: ١٦] عقب ذلك بذكر المؤمنين ليبين الفرق، وشرفهم بإسناد فعل الاهتداء إليهم وهي إشارة إلى تكسبهم.

وقوله تعالى: ﴿زادهم هدى﴾ يحتمل أن يكون الفاعل في ﴿زادهم﴾ الله تعالى، والزيادة في هذا المعنى تكون إما بزيادة التفهم والأدلة، وإما بورود الشرائع والنواهي والأخبار فيزيد الاهتداء لتزيد علم ذلك كله والإيمان به وذلك بفضل الله تعالى، ويحتمل أن يكون الفاعل في: ﴿زادهم﴾ قول المنافقين واضطرابهم، لأن ذلك مما يتعجب المؤمن منه ويحمد الله على إيمانه، ويتزيد بصيرة في دينه، فكانه قال: المهتدون والمؤمنون زادهم فعل هؤلاء المنافقين هدى، أي كانت الزيادة بسببه، فأسند الفعل إليه، وقالت فرقة: إن هذه الآية نزلت في قوم من النصارى، آمنوا بمحمد فالفاعل في: ﴿زادهم﴾ محمد عليه السلام كان سبب الزيادة فأسند الفعل إليه. وقوله على هذا القول: ﴿اهتدوا﴾ يريد في إيمانهم بعيسى عليه السلام ثم ﴿زادهم﴾ محمد ﴿هدى﴾ حين آمنوا به. والفاعل في ﴿آتاهم﴾ يتصرف بحسب التأويلات المذكورة، وأقواها أن الفاعل الله تعالى. ﴿وآتاهم﴾ معناه: أعطاهم، أي جعلهم متقين له، فالتقدير: تقواهم إياه.

وقرأ الأعمش: «وأنطاهم تقواهم»، وهي بمعنى أعطاهم، ورواها محمد بن طلحة عن أبيه. وهي في مصحف عبد الله.

وقوله تعالى: ﴿فَهِلْ يَنْظُرُونَ﴾ يريد المنافقين، والمعنى: ﴿فَهِلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي هكذا هو الأمر في نفسه وإن كانوا هم في أنفسهم ينتظرون غير ذلك، فإن ما في أنفسهم غير مراعى، لأنه باطل.

وقرأ جمهور الناس: «أن تأتيهم» فـ ﴿أَنْ﴾ بدل من ﴿السَّاعَةِ﴾. وقوله تعالى على هذه القراءة: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ إخبار مستأنف والفاء عاطفة جملة من الكلام على جملة. وقرأ أهل مكة فيما روي الرؤاسي «إن تأتيهم» بكسر الألف وجزم الفعل على الشرط، والفاء في قوله: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ جواب الشرط وليست بعاطفة على القراءة الأولى فثم نحو من معنى الشرط. و: ﴿بَغْتَةً﴾ معناه: فجأة، وروي عن أبي عمرو «بَغْتَةً» بفتح الغين وشد التاء. وقوله: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ على القراءتين معناه: فينبغي أن يقع الاستعداد والخوف منها لمن جزم ونظر لنفسه. والذي جاء من أشراط الساعة محمد عليه السلام لأنه آخر الأنبياء، فقد بان من أمر الساعة قدر ما، وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «أنا من أشراط الساعة وقد بعثت أنا والساعة كهاتين وكفرسي رهان». ويقال شرط وشرط: بسكون الراء وتخفيفها، وأشراط الرجل نفسه: ألزمها أمورا. وقال أوس بن حجر: [الطويل]

فأشراط فيها نفسه وهو معصم وألقى بأسباب له وتوكل

وقوله تعالى: ﴿فَأَنى لَهُمْ﴾ الآية، يحتمل أن يكون المعنى: ﴿فَأَنى لَهُمْ﴾ الخلاص أو النجاة ﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ﴾ الذكرى بما كانوا يخبرون به في الدنيا فيكذبون به وجاءهم العذاب مع ذلك. ويحتمل أن يكون المعنى: فأنى لهم ذكراهم وعملهم بحسبها إذا جاءتهم الساعة، وهذا تأويل قتادة، نظيره: ﴿وَأَنى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبا: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ الآية إضراب عن أمر هؤلاء المنافقين وذكر الأهم، والمعنى: دم على علمك، وهذا هو القانون في كل أمر بشيء هو متلبس به، وهذا خطاب للنبي عليه السلام، وكل واحد من الأمة داخل معه فيه. واحتج بهذه الآية من قال من أهل السنة: إن العلم والنظر قبل القول، والإقرار في مسألة أول الواجبات. وبوب البخاري رحمه الله العلم قبل القول والعمل لقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ الآية، وواجب على كل مؤمن أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، فإنها صدقة. وقال الطبري وغيره: ﴿مُتَقَلِّبِكُمْ﴾ تصرفكم في يقظتكم. ﴿وَمُتَوَاكُمُ﴾ منامكم. وقال ابن عباس: ﴿مُتَقَلِّبِكُمْ﴾ تصرفكم في حياتكم الدنيا. ﴿وَمُتَوَاكُمُ﴾ في قبوركم وفي آخرتكم.

قوله عز وجل:

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نُظْرَ الْمُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ

مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْصِدْقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٢٣﴾

هذا ابتداء وصف حال المؤمنين في جدهم في دين الله وحرصهم على ظهوره وحال المنافقين من الكسل والفشل والحرص على فساد دين الله وأهله، وذلك أن المؤمنين كان حرصهم يبعثهم على تمني الظهور وتمني قتال العدو وفضيحة المنافقين ونحو ذلك مما هو ظهور للإسلام، فكانوا يأمنون بالوحي ويستوحشون إذا أبطأ، والله تعالى قد جعل ذلك بآماد مضروية وأوقات لا تتعدى، فمدح الله المؤمنين بحرصهم. وقولهم: ﴿لولا نزلت سورة﴾ معناه: تتضمن إظهارنا وأمرنا بمجاهدة العدو ونحوه. ثم أخبر تعالى عن حال المنافقين عند نزول أمر القتال.

وقوله: ﴿محكمة﴾ معناه: لا يقع فيها نسخ، وبهذا الوجه خصص السورة بالأحكام، وأما الإحكام الذي هو بمعنى الإتيان، فالقرآن فيه كله سواء. وقال قتادة: كل سورة فيها القتال فهي محكمة، وهو أشد القرآن على المنافقين.

قال القاضي أبو محمد: وهذا أمر استقرأه قتادة من القرآن، وليس من تفسير هذه الآية في شيء. وفي مصحف ابن مسعود: «سورة محدثة». والمرض الذي في القلوب: استعارة لفساد المعتقد وحقيقة الصحة والمرض في الأجسام، وتستعار للمعاني، ونظر الخائف الموله قريب من نظر «المغشي عليه»، وخسبهم هذا الوصف والتشبيه.

وقوله تعالى: ﴿فأولى لهم﴾ الآية، «أولى»: وزنه أفعّل، من وليك الشيء يليك. وقالت فرقة وزنه: أفعّل، وفيه قلب، لأنه مشتق من الويل، والمشهور من استعمال «أولى»: أنك تقول: هذا أولى بك من هذا، أي أحق، وقد تستعمل «أولى» فقط على جهة الحذف والاختصار لما معها من القول، فتقول على جهة الزجر والتوعد: أولى لك يا فلان، وهذه الآية من هذا الباب، ومنه قوله تعالى: ﴿أولى لك فأولى﴾ [القيامة: ٣٤ - ٣٥]، ومنه قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه للحسن: أولى لك. وقالت فرقة من المفسرين: «أولى» رفع بالابتداء. و: ﴿طاعة﴾ خبره.

قال القاضي أبو محمد: فهذا هو المشهور من استعمال «أولى».

وقالت فرقة من المفسرين: ﴿أولى لهم﴾ ابتداء وخبر، معناه: الزجر والتوعد. ثم اختلفت هذه الفرقة في معنى قوله: ﴿طاعة وقول معروف﴾ فقال بعضها، التقدير: ﴿طاعة وقول معروف﴾ أمثل، وهذا هو تأويل مجاهد ومذهب الخليل وسيبويه، وحسن الابتداء بالنكرة لأنها مخصصة، ففيها بعض التعريف. وقال بعضها التقدير: الأمر ﴿طاعة وقول معروف﴾، أي الأمر المرضي لله تعالى. وقال بعضها التقدير قولهم لك يا محمد على جهة الهزاء والخديعة ﴿طاعة وقول معروف﴾ فإذا عزم الأمر كرهوه، ونحو هذا من التقدير قاله قتادة. وقال أيضاً ما معناه: إن تمام الكلام الذي معناه الزجر والتوعد بـ «أولى». وقوله ﴿لهم﴾

ابتداء كلام، ف﴿طاعة﴾ على هذا القول: ابتداء، وخبره: ﴿لهم﴾ والمعنى أن ذلك منهم على جهة الخديعة، فإذا عزم الأمر ناقضوا وتعاصوا.
وقوله: ﴿عزم الأمر﴾ استعارة كما قال:

قد جدت الحرب بكم فجدوا

ومن هذا الباب: نام ليلك ونحوه.

وقوله: ﴿صدقوا الله﴾ يحتمل أن يكون من الصدق الذي هو ضد الكذب، ويحتمل أن يكون من قولك عود صدق، والمعنى متقارب.

وقوله تعالى: ﴿فهل عسيتم﴾ مخاطبة لهؤلاء ﴿الذين في قلوبهم مرض﴾ أي قل لهم يا محمد.

وقرأ نافع وأهل المدينة «عسيتم» بكسر السين. وقرأ أبو عمرو والحسن وعاصم وأبو جعفر وشيبة: «عسيتم» بفتح السين، والفتح أفصح، لأنه من عسى التي تصحبها «أن». والمعنى: فهل عسى أن تفعلوا ﴿إن توليتهم﴾ غير ﴿أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾، وكأن الاستفهام الداخِل على عسى غير معناها بعض التغيير كما يغير الاستفهام قولك: أو لو كان كذا وكذا. وقوله: ﴿إن توليتهم﴾ معناه: إن أعرضتم عن الحق. وقال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله ألم يسفكوا الدم الحرام وقطعوا الأرحام وعصوا الرحمن.

وقرأ جمهور القراء: «إن توليتهم» والمعنى: إن أعرضتم عن الإسلام. وقال كعب الأحمري ومحمد بن كعب القرظي المعنى: إن توليتهم أمور الناس من الولاية، وعلى هذا قيل إنها نزلت في بني هاشم وبني أمية، ذكره الثعلبي. وروى عبد الله بن مغفل عن النبي عليه السلام: «إن وليتم» بواو مضمومة ولام مكسورة. قرأ علي بن أبي طالب: «إن توليتهم» بضم التاء والواو وكسر اللام المشددة على معنى: إن وليتكم ولاية الجور فملتكم إلى دنياهم دون إمام العدل، أو على معنى: إن توليتهم بالتعذيب والتكليف وأفعال العرب في جاهليتها وسيرتها من الغارات والسياء، فإنما كانت ثمرتها الإفساد في الأرض وقطيعة الرحم، وقيل معناها: إن توليتكم الناس ووكلكم الله إليهم.

وقرأ جمهور الناس: «وتقطعوا» بضم التاء وشد الطاء المكسورة. وقرأ أبو عمرو: «وتقطعوا» بفتح التاء والطاء المخففة، وهي قراءة سلام ويعقوب.

وقوله تعالى: ﴿أولئك الذين لعنهم الله﴾ إشارة إلى مرضى القلوب المذكورين. و: ﴿لعنهم﴾ معناه: أبعدهم. وقوله: ﴿فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾ استعارة لعدم سمعهم فكانهم عمي وصم. قوله عز وجل:

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرِّاتِ أَمَرَ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا

نَزَلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ توقيف وتوبيخ، وتدبر القرآن: زعيم بالتبيين والهدى. و: ﴿أَمْ﴾ منقطعة وهي المقدره بيل وألف الاستفهام.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا﴾ استعارة للرين الذي منعهم الإيمان. وروي أن وفد اليمن وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وفيهم شاب، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية، فقال الفتى عليها أقفالها حتى يفتحها الله ويفرجها، قال عمر: فعظم في عيني، فما زالت في نفس عمر رضي الله عنه حتى ولي الخلافة فاستعان بذلك الفتى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدَوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ﴾ الآية، قال قتادة: إنها نزلت في قوم من اليهود كانوا قد عرفوا من التوراة أمر محمد عليه السلام وتبين لهم الهدى بهذا الوجه، فلما باشروا أمره حسدوه فارتدوا عن ذلك القدر من الهدى. وقال ابن عباس وغيره: نزلت في منافقين كانوا أسلموا ثم نافقت قلوبهم. والآية تعم كل من دخل في ضمن لفظها غابر الدهر. و: ﴿سُولٌ﴾ معناه: أرجاهم سولهم وأمانهم، وقال أبو الفتح عن أبي علي أنه بمعنى: دلاهم، مأخوذ من السؤل: وهو الاسترخاء والتدلي.

وقرأ جمهور القراء: «وأملئ لهم» وأمال ابن كثير وشبل وابن مصرف: «أملئ». وفاعل ﴿أملئ﴾ هنا: قال الحسن: هو ﴿الشيطان﴾ جعل وعده الكاذب بالبقاء كالإملاء، وذلك أن الإملاء هو الإبقاء ملاوة من الدهر، يقال ملاوة وملاوة وملاوة بضم الميم وفتحها وكسرها، وهي القطعة من الزمن، ومنه الملوآن الليل والنهار، فإذا أملئ الشيطان إملاء لا صحة له إلا بطمعهم الكاذب، ويحتمل أن يكون الفاعل في ﴿أملئ﴾ الله عز وجل، كأنه قال: الشيطان سول لهم وأملئ الله لهم. وحقيقة الإملاء إنما هو بيد الله عز وجل، وهذا هو الأرجح. وقرأ الأعرج ومجاهد والجحدري والأعمش: «وأملئ لهم» بضم الهمزة وكسر اللام وإرسال ياء المتكلم، ورواها الخفاف عن أبي عمرو «وأملئ» بفتح الباء على بناء الفعل للمفعول، وهي قراءة شبيهة وابن سيرين والجحدري وعيسى البصري وعيسى الهمذاني، وهذا يحتمل فاعله من الخلاف ما في القراءة الأولى.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ الآية، قيل إنها نزلت في بني إسرائيل الذين تقدم ذكرهم في تفسير قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدَوْا﴾ وروي أن قوماً من قريظة والنضير كانوا يعدون المنافقين في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلاف عليه بنصر وموازة، وذلك قولهم ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾.

وقرأ جمهور القراء «أسرارهم» بفتح الهمزة، وذلك على جمع سر، لأن أسرارهم كانت كثيرة. وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم «إسرارهم» بكسر الهمزة، وهي قراءة ابن وثاب وطلحة والأعمش، وهو مصدر اسم الجنس.

وقوله تعالى: ﴿فكيف إذا توفتهم﴾ الآية، يحتمل أن يتعدوا به على معينين: أحدهما هذا هلهم وجزعهم لفرض القتال وفراع الأعداء، ﴿فكيف﴾ فزعهم وجزعهم ﴿إذا توفتهم الملائكة؟﴾ والثاني أن يريد: هذه معاصيهم وعنادهم وكفرهم، ﴿فكيف﴾ تكون حالهم مع الله ﴿إذا توفتهم الملائكة؟﴾ وقال الطبري: المعنى ﴿والله يعلم أسرارهم فكيف﴾ علمه بها ﴿إذا توفتهم الملائكة﴾. و﴿الملائكة﴾ هنا: ملك الموت والمصرفون معه. والضمير في: ﴿يضربون﴾ لـ ﴿الملائكة﴾، وفي نحو هذا أحاديث تقتضي صفة الحال ومن قال إن الضمير في: ﴿يضربون﴾ للكفار الذين يتوفون، فذلك ضعيف. و: ﴿ما أسخط الله﴾ هو الكفر. والرضوان هنا: الشرع والحق المؤدي إلى رضوان، وقد تقدم القول في تفسير قوله: ﴿أحبط أعمالهم﴾.

وقرأ الأعمش: «فكيف إذا توفاهم الملائكة».

قوله عز وجل:

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعْرِفْنَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفْنَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَالُهُمْ ﴿٣٢﴾

هذه الآية توبيخ للمنافقين وفضح لهم.

وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ توقيف وهي ﴿أَمْ﴾ المنقطعة، وتقدم تفسير مرض القلب. وقوله: ﴿أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ﴾ أي ييديها من مكانها في نفوسهم. والاضغن: الحقد. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ﴾ مقاربة في شهرتهم، ولكنه تعالى لم يعينهم قط بالأسماء والتعريف التام إبقاء عليهم وعلى قرابتهم، وإن كانوا قد عرفوا بـ ﴿لحن القول﴾ وكانوا في الاشتهار على مراتب كعبد الله بن أبي والجد بن قيس وغيرهم ممن دونهم في الشهرة. والسيما: العلامة التي كان تعالى يجعل لهم لو أراد التعريف التام بهم. وقال ابن عباس والضحاك: إن الله تعالى قد عرفه بهم في سورة براءة. في قوله: ﴿وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٤] وفي قوله: ﴿قُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٣].

قال القاضي أبو محمد: وهذا في الحقيقة ليس بتعريف تام، بل هو لفظ يشير إليهم على الإجمال لا أنه سمى أحداً. وأعظم ما روي في اشتهارهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر يوماً فأخرجت منهم جماعة من المسجد كأنه وسهم بهذا لكنهم أقاموا على التبري من ذلك وتمسكوا بلا إله إلا الله فحقت دماؤهم. وروي عن حذيفة ما يقتضي أن النبي عليه السلام عرفه بهم أو ببعضهم، وله في ذلك كلام مع عمر رضي الله عنه. ثم أخبر تعالى أنه سيعرفهم ﴿فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾، ومعناه في مذهب القول ومنحاه

ومقصده، وهذا هو كما يقول لك إنسان معتقده وتفهم أنت من مقاطع كلامه وهيته وقرائن أمره أنه على خلاف ما يقول، وهذا معنى قوله: ﴿ففي لحن القول﴾ ومن هذا المعنى قول النبي عليه السلام: «فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض»، الحديث أي أذهب بها في جهات الكلام، وقد يكون هذا اللحن متفقاً عليه: أن يقول الإنسان قولاً يفهم السامعون منه معنى، ويفهم الذي اتفق مع المتكلم معنى آخر، ومنه الحديث الذي قال سعد بن معاذ وابن رواحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: عضل والقارة وفي هذا المعنى قول الشاعر [مالك بن أسماء]: [الخفيف]

وخير الحديث ما كان لحنا

أي ما فهمه عنك صاحبك وخفي على غيره، فأخبر الله محمداً رسوله عليه السلام أن أقوالهم المحرفة التي هي على خلاف عقدهم ستبين له فيعرفهم بها، واحتج بهذه الآية من جعل في التعريض بالقذف.

وقوله تعالى: ﴿والله يعلم أعمالكم﴾ مخاطبة للجميع من مؤمن وكافر.

وقرأ جمهور القراء: «ولنبلونكم» بالنون، وكذلك «نعلم» وكذلك «نبلو»، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: «وليلونكم الله»، وكذلك «يعلم» «ويبلو». وروى رويس عن يعقوب: «ويبلو» بالرفع على القطع والإعلام بأن ابتلاءه دائم. وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى، وقال: اللهم لا تبتلنا، فإنك إن ابتليتنا فضحتنا وهتكت أستاننا.

وقوله تعالى: ﴿حتى نعلم المجاهدين﴾ أي حتى يعلمهم مجاهدين قد خرج جهادهم إلى الوجود وبأن تكسبهم الذي به يتعلق ثوابهم، وعلم الله بالمجاهدين قديم أزلي، وإنما المعنى ما ذكرناه.

وقوله تعالى: ﴿وصدوا﴾ يحتمل أن يكون المعنى: ﴿وصدوا﴾ غيرهم، ويحتمل أن يكون غير متعد، بمعنى: وصدوهم في أنفسهم.

وقوله: ﴿وشاقوا الرسول﴾ معناه: خالفوه، فكانوا في شق وهو في شق. وقوله: ﴿من بعد ما تبين لهم الهدى﴾ قالت فرقة: نزلت في قوم من بني إسرائيل فعلوا هذه الأفاعيل بعد تبينهم لأمر محمد عليه السلام من التوراة. وقالت فرقة: نزلت في قوم من المنافقين حدث النفاق في نفوسهم بعد ما كان الإيمان داخلها. وقال ابن عباس: نزلت في المطعمين سفرة بدر، و: «تبين الهدى» هو وجوده عند الداعي إليه. وقالت فرقة: بل هي عامة في كل كافر، وألزمهم أنه قد ﴿تبين لهم الهدى﴾ من حيث كان الهدى بيناً في نفسه، وهذا كما تقول لإنسان يخالفك في احتجاج على معنى التوبيخ له: أنت تخالف في شيء لا خفاء به عليك، بمعنى أنه هكذا هو في نفسه. وقوله: ﴿لن يضروا الله﴾ تحقير لهم.

وقوله: ﴿وسيحبط أعمالهم﴾ إما على قول من يرى أن أعمالهم الصالحة من صلة رحم ونحوه تكتب فيجيء هذا الإحباط فيها متمكناً، وإما على قول من لا يرى ذلك، فمعنى ﴿وسيحبط أعمالهم﴾ أنها عبارة عن إعدامه أعمالهم وإفسادها، وأنها لا توجد شيئاً منتفعاً به، فذلك إحباط على تشبيه واستعارة.

قوله عز وجل:

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ لَا أَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرُكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾

روي أن هذه الآية نزلت في بني أسد من العرب، وذلك أنهم أسلموا وقالوا لرسول الله عليه السلام: نحن قد أثرتناك على كل شيء وجئناك بنفوسنا وأهلنا، كأنهم منوا بذلك، فنزل فيهم: ﴿يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ [الحجرات: ١٧] ونزلت فيهم هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد: فإن كان هذا فالإبطال الذي نهوا عنه ليس بمعنى الإفساد التام، لأن الإفساد التام لا يكون إلا بالكفر، وإلا فالحسنات لا تبطلها المعاصي، وإن كانت الآية عامة على ظاهرها نهى الناس عن إبطال أعمالهم بالكفر، والإبطال هو الإفساد التام.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ روي أنها نزلت بسبب عدي بن حاتم قال: يا رسول الله إن حاتمًا كانت له أفعال ير فما حاله؟ فقال رسوله الله صلى الله عليه وسلم «هو في النار»، فبكى عدي وولى، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: أبي وأبوك وأبو إبراهيم خليل الرحمن في النار ونزلت هذه الآية في ذلك، وظاهر الآية العموم في كل ما تناولته الصفة.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ معناه: فلا تضعفوا، من وهن الرجل إذا ضعف.

وقرأ جمهور الناس: «وتدعوا» وقرأ أبو عبد الرحمن: «وتدعوا» بشد الدال. وقرأ جمهور القراء: «إلى السلم» بفتح السين. وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم: «إلى السلم» بكسر السين. وهي قراءة الحسن وأبي رجاء والأعمش وعيسى وطلحة وهو بمعنى المسالمة. وقال الحسن بن أبي الحسن وفرقة ممن كسر السين إنه بمعنى إلى الإسلام، أي لا تهنوا وتكونوا داعين إلى الإسلام فقط دون مقاتلين بسببه. وقال قتادة معنى الآية: لا تكونوا أول الطائفتين ضرعت للأخرى.

قال القاضي أبو محمد: وهذا حسن ملتئم مع قوله: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ [الأنفال: ٦١].

وقوله: ﴿وأنتم الأعلون﴾ يحتمل موضعين أحدهما: أن يكون في موضع الحال، المعنى: لا تهنوا وأنتم في هذه الحال. والمعنى الثاني: أن يكون إخباراً بنصره ومعونته. و«يتر»، معناه ينقص ويذهب، ومنه قوله عليه السلام: «من ترك صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله» أي ذهب بجميع ذلك على جهة التغلب والقهر، والمعنى: لن يترككم ثواب أعمالكم جزاء أعمالكم. واللفظة مأخوذة من الوتر الذي هو الدحل، وذهب قوم إلى أنه مأخوذ من الوتر الذي هو الفرد، المعنى لن يفردكم من ثواب أعمالكم، والأول أصح، وفسر ابن عباس وأصحابه «يترككم» بيزللكم.

قوله عز وجل :

إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَنَفَّقُوا يُوْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِنْ يَسْأَلُكُمْ مَوَاهِفَ فِي حَفِّكُمْ تَبْخُلُوا وَتُخْرِجُ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَآأَنْتُمْ هَآؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ﴾ تحقير لأمر الدنيا، أي فلا تنهوا في الجهاد بسببها، ووصفها باللعب واللهو هو على أنها وما فيها مما يختص بها لعب، وإلا ففي الدنيا ما ليس بلعب ولا لهو، وهو الطاعة وأمر الآخرة وما جرى مجراه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَنَفَّقُوا يُوْتِكُمْ أَجُورَكُمْ﴾ معناه هذا هو المطلوب منكم لا غيره، لا تسألون أموالكم أن تنفقوها في سبيل الله. وقال سفيان بن عيينة: لا يسألكم كثيراً من أموالكم إحصاء إنما يسألكم غيضاً من فيض ربع العشر فطيبوا أنفسكم، ثم قال تعالى منبهاً على خلق ابن آدم ﴿إِنْ يَسْأَلُكُمْ مَوَاهِفَ فِي حَفِّكُمْ تَبْخُلُوا﴾ والإحصاء هو أشد السؤال وهو المخجل المخرج ما عند المسؤول كرهاً، ومنه حفاء الرجل. والتحفي من البحث عن الشيء. وقوله: ﴿تَبْخُلُوا﴾ جزم على جواب شرط.

وقرأ جمهور القراء: «ويخرج» جزماً على «تَبْخُلُوا». وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو: «ويخرج» بالرفع على القطع، بمعنى هو يخرج، وحكاها أبو حاتم عن عيسى وقرأت فرقة: ﴿و﴾ بالنصب على معنى: يكن بخل وإخراج، فلما جاءت العبارة بفعل دل على أن التي مع الفعل بتأويل المصدر الذي هو الإخراج، والفاعل في قوله: ﴿ويخرج﴾ على كل الاختلافات يحتمل أن يكون الله، ويحتمل أن يكون البخل الذي تضمنه اللفظ، ويحتمل أن يكون السؤال الذي يتضمنه اللفظ أيضاً. وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن سيرين وابن محيصن وأيوب: «يخرج» بفتح الياء «أضغانكم» رفعاً على أنها فاعلة وروي عنهم: «وتُخْرِجُ» بضم التاء وفتح الراء على ما لم يسم فاعله.

وقرأ يعقوب: «وتُخْرِجُ» بضم النون وكسر الراء «أضغانكم» نصباً. والأضغان كما قلنا معتقدات السوء، وهذا الذي كان يخاف أن يعتري المسلمين هو الذي تقرب به محمد بن مسلمة إلى كعب بن الأشرف حين قال له: إن هذا الرجل قد أكثر علينا وطلب منا الأموال ثم وقف تعالى عباده المؤمنين على جهة التوبيخ لبعضهم ﴿ها أنتم هؤلاء﴾ وكرهاء التنبيه تأكيداً.

وقوله: ﴿عن نفسه﴾ يحتمل معنيين، أحدهما: فإنما يبخل عن شح نفسه، والآخر أن يكون بمنزلة على، لأنك تقول: بخلت عليك وبخلت عنك، بمعنى: أمسكت عنك.

وقوله تعالى: ﴿والله الغني وأنتم الفقراء﴾ معنى مطرد في قليل الأشياء وكثيرها.

وقوله تعالى : ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ قيل الخطاب لقريش ، والقوم الغير هم أهل المدينة . وقال عبد الرحمن بن جبير وشريح بن عبيد : الخطاب لمن حضر المدينة . والقوم الغير : فارس . وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن هذا وكان سلمان إلى جنبه فوضع يده على فخذه وقال : قوم هذا ، لو كان الدين بالشرا لناله رجال من أهل فارس .

وقوله : ﴿أَمْثَالَكُمْ﴾ معناه في الخلاف والتولي والبخل بالأموال ونحو هذا ، وحكى الثعلبي أن القوم الغير : هم الملائكة .

نجز تفسير سورة القتال ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْفَتْحِ

هذه السورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم منصرفه من الحديبية، وفي ذلك أحاديث كثيرة عن أنس وابن مسعود وغيرهما تقتضي صحته وهي بهذا في حكم المدني. وقال الزهراوي عن مجاهد وعن ابن عباس: إنها نزلت بالمدينة، والأول أصح، ويشبه أن منها بعضاً نزل بالمدينة، وأما صدر السورة ومعظمها فكما قلنا، ويقضي بذلك قول النبي عليه السلام لعمر وهما في تلك السفرة: «لقد نزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليّ من الدنيا وما فيها».

قال القاضي أبو محمد: ذكر مكّي هنا أن المعنى بشرط أن تبقى الدنيا ولا تغنى، وفي هذا نظر. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج في تلك الوجهة ليعتمر بمكة، فصدّه المشركون، القصة المشهورة سنة ست من الهجرة.

قوله عز وجل:

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾

قال قوم قميما حكى الزهراوي ﴿فتحننا لك﴾ يريد به فتح مكة، وحكاها الثعلبي أيضاً، ونسبه النقاش إلى الكلبي. وأخبره تعالى به على معنى: قضينا به. والفتح: القاضي بلغة اليمن، وقيل المراد: ﴿إنا فتحننا لك﴾ بأن هديناك إلى الإسلام ليغفر. وقال جمهور الناس: والصحيح الذي تعضده قصة الحديبية أن قوله: ﴿إنا فتحننا لك﴾ إنما معناه: إن ما يسر الله لك في تلك الخرجة فتح مبين تستقبله، ونزلت السورة مؤنسة للمؤمنين، لأنهم كانوا استوحشوا من رد قريش لهم ومن تلك المهادنة التي هادتهم النبي عليه السلام فنزلت السورة مؤنسة لهم في صدهم عن البيت ومذهبه: ما كان في قلوبهم، ومنه حديث عمر الشهير وما قاله للنبي عليه السلام ولأبي بكر واستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك السفرة أنه هادن عدوه ريثما يتقوى هو، وظهرت على يديه آية الماء في بئر الحديبية حيث وضع فيه سهمه وثاب الماء حتى كفى الجيش، واتفقت بيعة الرضوان وهي الفتح الأعظم، قاله جابر بن عبد الله والبراء بن عازب. وبلغ هديه محله، قاله الشعبي واستقبل فتح خيبر، وامتألت أيدي المؤمنين خيراً، ولم يفتحها إلا أهل الحديبية ولم يشركهم فيها أحد.

قال القاضي أبو محمد: وفيه نظر، لأن أصحاب السفينة مع جعفر بن أبي طالب شاركوهم في القسم، فينبغي أن يقال لم يشاركهم أحد من المتخلفين عن الحديبية، واتفقت في ذلك الوقت ملحمة عظيمة بين الروم وفارس ظهرت فيها الروم، فكانت من جملة الفتح على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسر بها هو والمؤمنون لظهور أهل الكتاب على المجوس وانخضاد الشوكة العظمى من الكفر.

ثم عظم الله أمر نبيه بأن نبأه أنه غفر له ﴿مَا تَقْدُمُ﴾ من ذنبه ﴿وَمَا تَأْخُرُ﴾، فقلوه: ﴿لِيُغْفَرَ﴾ هي لام كي، لكنها تخالفها في المعنى والمراد هنا أن الله فتح لك لكي يجعل ذلك أمانة وعلامة لغفرانه لك، فكانها لام صيرورة، ولهذا قال عليه السلام: «لقد أنزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليّ من الدنيا». وقال الطبري وابن كيسان المعنى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ فسبح بحمد ربك واستغفره ليغفر لك، وبنينا هذه الآية مع قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] السورة إلى آخرها.

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف من وجهين أحدهما: أن سورة، ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] إنما نزلت من آخر مدة النبي عليه السلام ناعية له نفسه حسبما قال ابن عباس عندما سأل عمر عن ذلك. والآخر: أن تخصيص النبي عليه السلام بالتشريف كان يذهب، لأن كل أحد من المؤمنين هو مخاطب بهذا الذي قال الطبري، أي سبح واستغفر لكي يغفر الله، ولا يتضمن هذا أن الغفران قد وقع، وما قدمناه أولاً يقتضي وقوع الغفران للنبي عليه السلام، ويدل على ذلك قول الصحابة له حين قام حتى تورمت قدماه: أتفعل هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً» فهذا نص في أن الغفران قد وقع. وقال منذر بن سعيد المعنى: مجاهدتك بالله المقترنة بالفتح هي ليغفر. وحكى الثعلبي عن الحسن بن الفضل أن المعنى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ فاستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴿لِيُغْفَرَ لَكَ﴾ الآية، وهذا نحو قول الطبري.

وقوله: ﴿مَا تَقْدُمُ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخُرُ﴾ قال سفيان الثوري: ﴿مَا تَقْدُمُ﴾ يريد قبل النبوة. ﴿وَمَا تَأْخُرُ﴾ كل شيء لم تعلمه وهذا ضعيف، وإنما المعنى التشريف بهذا الحكم ولو لم تكن له ذنوب البتة، وأجمع العلماء على عصمة الأنبياء عليهم السلام من الكبائر ومن الصغائر التي هي رذائل، وجوز بعضهم الصغائر التي ليست برذائل، واختلفوا هل وقع ذلك من محمد عليه السلام أو لم يقع، وحكى الثعلبي عن عطاء الخراساني أنه قال: ﴿مَا تَقْدُمُ﴾ هو ذنب آدم وحواء، أي بربكتك ﴿وَمَا تَأْخُرُ﴾ هي ذنوب أمتك بدعائك. قال الثعلبي: الإمامية لا تجوز الصغائر على النبي ولا على الإمام، والآية ترد عليهم. وقال بعضهم: ﴿وَمَا تَقْدُمُ﴾ هو قوله يوم بدر: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد». ﴿وَمَا تَأْخُرُ﴾ هو قوله يوم حنين: «لن تغلب اليوم من قلة».

قال القاضي أبو محمد: وإتمام النعمة عليه، هو إظهاره وتغلبه على عدوه والرضوان في الآخرة. وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ معناه: إلى صراط، فحذف الجار فتعدي الفعل، وقد يتعدى هذا بغير حرف جر، والنصر العزيز: هو الذي معه غلبة العدو والظهور عليه، والنصر غير العزيز: هو الذي مضمونه الحماية ودفع العدو فقط. وإنزال السكينة في قلوب المؤمنين: وهي فعلية من السكون هو

تسكينها لتلك الهدنة مع قريش حتى اطمأنت، وعلموا أن وعد الله على لسان رسوله حق فازدادوا بذلك إيماناً إلى إيمانهم الأول وكثر تصديقهم. قال ابن عباس: لما آمنوا بالتوحيد زادهم العبادات شيئاً شيئاً. فكانوا يزيدون إيماناً حتى قال لهم: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ [المائدة: ٣] فمنحهم أكمل إيمان أهل السماوات والأرض لا إله إلا الله. وفسر ابن عباس ﴿السكينة﴾ بالرحمة.

وقوله: ﴿والله جنود السماوات والأرض﴾ إشارة إلى تسكين النفوس أيضاً وأن تكون مسلمة، لأنه ينصر متى شاء وعلى أي صورة شاء مما لا يدبره البشر، ومن جنده: ﴿السكينة﴾ التي أنزلها في قلوب أصحاب محمد فثبت بصائرهم.

وقوله تعالى: ﴿وكان الله﴾ أي كان ويكون، فهي دالة على الوجود بهذه الصفة لا معينة وقتاً ماضياً. والعلم والإحكام: صفتان مقتضيتان عزة النصر لمن أراد الموصوف بهما نصره.

قوله عز وجل:

لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُتَفَقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَعَظِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾

قوله تعالى: ﴿ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾ [الفتح: ٤] معناه: فازدادوا وتلقوا ذلك. فتمكن بعد ذلك قوله: ﴿ليدخل المؤمنون﴾ أي بتكسبهم القبول لما أنزل الله عليهم. ويروى في معنى هذه الآية أنه لما نزلت: ﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ [الحقاف: ٩] تكلم فيها أهل الكتاب وقالوا: كيف نتبع من لا يدري ما يفعل به وبالناس معه؟ فبين الله في هذه السورة ما يفعل به بقوله: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ [الفتح: ٢] فلما سمعها المؤمنون، قالوا: هنيئاً مريئاً، هذا لك يا رسول الله، فما لنا؟ فنزلت هذه الآية: ﴿ليدخل المؤمنون والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ إلى قوله: ﴿وساءت مصيراً﴾ فعرفه الله تعالى ما يفعل به وبالمؤمنين والكافرين. وذكر النقاش أن رجلاً من عك قال: هذه لك يا رسول الله، فما لنا؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «هي لي ولأمتي كهاتين»، وجمع بين أصبعيه.

وقوله: ﴿ويكفر عنهم سيئاتهم﴾ فيه ترتيب الجمل في السرد لا ترتيب وقوع معانيها، لأن تكفير السيئات قبل إدخالهم الجنة.

وقوله: ﴿الظالمين بالله ظن السوء﴾ قيل معناه من قولهم: ﴿لن ينقلب الرسول﴾ [الفتح: ١٢]، فكانهم ظنوا بالله ظن السوء في جهة الرسول المؤمنين، وقيل: ظنوا بالله ظن سوء، إذ هم يعتقدونه بغير صفاته، فهي ظنون سوء من حيث هي كاذبة مؤدية إلى عذابهم في نار جهنم.

وقوله تعالى: ﴿عليهم دائرة السوء﴾ كأنه يقوي التأويل الآخر، أي أصابهم ما أرادوه بكم، وقرأ

جمهور القراء: «دائرة السوء» كالأول، ورجحها الفراء، وقال: قل ما تضمم العرب السين. قال أبو هلي: هما متقاربان، والفتح أشد مطابقة في اللفظ. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «ظن السوء» بفتح السين. و: «دائرة السوء» بضم السين، وهو اسم، أي «دائرة السوء» الذي أرادوه بكم في ظنهم السوء. وقرأ الحسن: بضم السين في الموضعين، وروى ذلك عن أبي عمرو ومجاهد، وسمى المصيبة التي دعا بها عليهم: «دائرة»، من حيث يقال في الزمان إنه يستدير، ألا ترى أن السنة والشهر كأنها مستديرات، تذهب على ترتيب، وتجيء من حيث هي تقديرات للحركة العظمى، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض» فيقال الأقدار والحوادث التي هي في طي الزمان دائرة، لأنها تدور بدوران الزمان، كأنك تقول: إن أمراً كذا يكون في يوم كذا من سنة كذا، فمن حيث يدور ذلك اليوم حتى يبرز إلى الوجود تدور هي أيضاً فيه، وقد قالوا: أربعاء لا تدور، ومن هذا قول الشاعر:

[الرجز]

ودائرات الدهر قد تدور

ومنه قول الآخر: [الطويل]

ويعلم أن النابتات تدور

وهذا كثير ويحسن أن تسمى المصيبة دائرة من حيث كمالها أن تخطيط بصاحبها كما يحيط شكل الدائرة على السواء من النقطة، وقد أشار النقاش إلى هذا المعنى «وغضب الله» تعالى متى قصد به الإرادة فهو صفة ذات، ومتى قصد به ما يظهر من الأفعال على المغضوب عليه فهي صفة فعل. «ولعنهم» معناه: أبعدهم من رحمته، وقال تعالى في هذه «وكان الله عزيزاً حكيماً» فذكر صفة العزة من حيث تقدم الانتقام من الكفار، وفي التي قبل قرن بالحكمة والعلم من حيث وعده بمغيبات، وقرن باللفظتين ذكر جنود الله تعالى التي منها السكينة ومنها نقمة من المنافقين والمشركين، فلكل لفظ وجه من المعنى، وقال ابن المبارك في كتاب النقاش: جنود الله في السماء، الملائكة، وفي الأرض الغزاة في سبيل الله. قال عبد الحق: وهذا بعض من كل.

قوله عز وجل:

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَ سِيؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

من جعل الشاهد محصل الشهادة من يوم يحصلها، فقله: «شاهدًا» حال واقعة. ومن جعل الشاهد مؤدي الشهادة، فهي حال مستقبلية. وهي التي يسميها النحاة المقدرة، المعنى: «شاهدًا» على الناس بأعمالهم وأقوالهم حين بلغت إليهم الشرع «ومبشراً» معناه: أهل الطاعة برحمة الله «ونذيراً» معناه: أهل الكفر تنذرهم من عذاب الله.

وقرأ جمهور الناس في كل الأمصار: «لتؤمنوا بالله» على مخاطبة الناس، على معنى قل لهم، وكذلك الأفعال الثلاثة بعد، وقرأ أبو عمرو بن العلاء وابن كثير وأبو جعفر: «ليؤمنوا» بالياء على استمرار خطاب محمد عليه السلام، وكذلك الأفعال الثلاثة بعد. وقرأ الجحدري: «وتَعَزُّروه» بفتح التاء وسكون العين وضم الزاي. وقرأ محمد بن السميع اليماني وابن عباس: «وتعزروه» بزاءين، من العزة. وقرأ جعفر بن محمد: «وتَعَزُّروه» بفتح التاء وسكون العين وكسر الزاي ومعنى: ﴿تعزروه﴾ تعظموه وتكبروه، قاله ابن عباس: وقال قتادة معناه: تنصروه بالقتال وقال بعض المتأولين: الضمائر في قوله: ﴿وتعزروه وتوقروه وتسبحوه﴾ هي كلها لله تعالى. وقال الجمهور: ﴿تعزروه وتوقروه﴾ هما للنبي عليه السلام، ﴿وتسبحوه﴾ هي لله، وهي صلاة البردين.

وقرأ عمر بن الخطاب: «وتسبحوا الله»، وفي بعض ما حكى أبو حاتم: «وتسبحون الله»، بالنون، وقرأ ابن عباس: «ولتسبحوا الله». والبكرة: الغدو. والأصيل: العشي.

وقوله تعالى: ﴿إن الذين يبايعونك﴾ يريد في بيعة الرضوان، وهي بيعة الشجرة حين أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الأهبة لقتال قريش لما بلغه قتل عثمان بن عفان رسوله إليهم، وذلك قبل أن ينصرف من الحديبية، وكان في ألف وأربعمائة رجل. قال النقاش: وقيل كان في ألف وثمانمائة، وقيل وسبعمائة، وقيل وستمائة، وقيل ومائتين.

قال القاضي أبو محمد: وبايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصبر المتناهي في قتال العدو إلى أقصى الجهد، حتى قال سلمة بن الأكوع وغيره: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الموت، وقال عبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا نفر.

والمبايعة في هذه الآية مفاعلة من البيع، لأن الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وبقي اسم البيعة بعد معاودة الخلفاء والملوك، وعلى هذا سمت الخوارج أنفسهم الشراة، أي اشترؤا بزعمهم الجنة بأنفسهم. ومعنى: ﴿إنما يبايعون الله﴾ أن صفقتهم إنما يمضيها ويمنح ثمنها الله تعالى.

وقرأ تمام بن العباس بن عبد المطلب: ﴿إنما يبايعون الله﴾. قال أبو الفتح: ذلك على حذف المفعول لدلالة الأول عليه وقربه منه.

وقوله تعالى: ﴿يد الله﴾ قال جمهور المتأولين: اليد، بمعنى: النعمة، أي نعمة الله في نفس هذه المبايعة لما يستقبل من محاسنها. ﴿فوق أيديهم﴾ التي مدوها لبيعتك. وقال آخرون: ﴿يد الله﴾ هنا، بمعنى: قوة الله فوق قواهم، أي في نصرك ونصرهم، فالآية على هذا تعديد نعمة عليهم مستقبلة مخبر بها، وعلى التأويل الأول تعديد نعمة حاصلة تشرف بها الأمر. قال النقاش ﴿يد الله﴾ في الثواب.

وقوله: ﴿فمن نكث﴾ أي فمن نقض هذا العهد فإنما يجني على نفسه وإياها يهلك، فنكثه عليه لا له.

وقرأ جمهور القراء: «بما عاهد عليه الله» بالنصب على التعظيم. وقرأ ابن أبي إسحاق: «ومن أوفى

بما عاهد عليه الله بالرفع، على أن الله هو المعاهد. وقرأ حفص عن عاصم: «عليه» مضمومة الهاء، وروي ذلك عن ابن أبي إسحاق. والأجر العظيم: الجنة، لا يقنى نعيمها ولا ينقضي أمرها. وقرأ عاصم وأبو عمرو وحزمة والكسائي والعاملة: «فسيؤتيه» بالياء. وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر: «فسيؤتيه» بالنون. وفي مصحف ابن مسعود: «فسيؤتيه الله».

وقوله عز وجل:

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْنَا يَقُولُونَ بِالسِّنَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنَ السَّوءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾

«المخلفون من الأعراب» قال مجاهد وغيره: هم جبهة ومزينة ومن كان حول المدينة من القبائل، فإنهم في خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمرته عام الحديبية رأوا أنه يستقبل عدواً عظيماً من قريش وثقيف وكنانة والقبائل المجاورة لمكة، وهم الأحابيش، ولم يكن تمكن إيمان أولئك الأعراب المجاورين للمدينة ففقدوا عن النبي عليه السلام وتخلفوا، وقالوا لن يرجع محمد ولا أصحابه من هذه السفرة، ففضحهم الله في هذه الآية، وأعلم محمد بقولهم واعتذارهم قبل أن يصل إليهم، فكان كذلك، قالوا: شغلنا الأموال والأهلون فاستغفر لنا، وهذا منهم خبث وإسقاط، فلذلك قال تعالى: «يقولون بالسنة ما ليس في قلوبهم» قال الرماني: لا يقال أعرابي إلا لأهل البوادي خاصة، ثم قال لنبه عليه السلام «قل» لهم: «فمن يملك لكم من الله شيئاً» أي من يحمي منه أموالكم وأهلكم إن أراد بكم فيها سوءاً.

وقرأ جمهور القراء: «إن أراد بكم ضراً» بفتح الضاد. وقرأ حمزة والكسائي: «ضراً» بالضم، ورجحها أبو علي وهما لغتان. وفي مصحف ابن مسعود: «إن أراد بكم سوءاً». ثم رد عليهم بقوله: «بل كان الله بما تعملون خبيراً»، ثم فسر لهم العلة التي تخلفوا من أجلها بقوله: «بل ظننتم» الآية، وفي قراءة عبد الله: «إلى أهلهم» بغير ياء. و: «بوراً» معناه: فاسدين هلكت بسبب فسادهم. والبوار: الهلاك. وبارت السلعة، مأخوذ من هذا. وبور: يوصف به الجمع والإفراد، ومنه قول ابن الزبير: [الخفيف]

يا رسول الملوك إن لسانى راتق ما فتقت إذ أنسا بور

والبور في لغة أزد عمان: الفاسد، ومنه قول أبي الدرداء: فأصبح ما جمعوا بوراً، أي فاسداً ذاهباً، ومنه قول حسان بن ثابت:

لا ينفع الطول من نوك القلوب وقد يهدي الإله سبيل المعشر البور

وقال الطبري في قوله تعالى: «يقولون بالسنة ما ليس في قلوبهم» يعني به قولهم: «فاستغفر

لأنهم قالوا ذلك مصانعة من غير توبة ولا ندم، قال وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ﴾ الآية، معناه: وما ينفعكم استغفاري، وهل أملك لكم شيئاً والله قد أراد ضرركم بسبب معصيتكم كما لا أملك إن أراد بكم النفع في أموالكم وأهلكم.

قوله عز وجل:

وَمَنْ لَمْ يُؤْمَرْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لَنَا خُذُوا هَازِرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَّنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

لما قال لهم: ﴿وكنتم قوماً بوراً﴾ [الفتح: ١٢] توعدهم بعد ذلك بقوله: ﴿ومن لم يؤمن بالله ورسوله﴾ الآية، وأنتم هكذا فأنتم ممن أعدت لهم السعير، وهي النار المؤججة. والمسعر: ما يحرك به النار، ومنه قوله عليه السلام: «ويل من مسعر حرب». ثم رعى بقوله تعالى: ﴿والله ملك السماوات والأرض﴾، الآية: لأن القوم لم يكونوا مجاهدين بالكفر، فلذلك جاء وعيدهم وتوبيخهم ممزوجاً فيه بعض الإمهال والترجئة، لأن الله تعالى قد كان علم منهم أنهم سيؤمنون، ثم إن الله تعالى أمر نبيه على ما روي بغزو خيبر ووعدته بفتحها، وأعلمه أن المخلفين إذا رأوا مسير رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يهود وهم عدو مستضعف، طلبوا الكون معه رغبة في عرض الدنيا والغنيمة فكان كذلك.

وقوله تعالى: ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ معناه: يريدون أن يغيروا وعده لأهل الحديبية بغنيمة خيبر. وقال عبد الله بن زيد بن أسلم ﴿كلام الله﴾ قوله تعالى: ﴿قل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدوا﴾ [التوبة: ٨٣] وهذا قول ضعيف، لأن هذه الآية نزلت في رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك، وهذا في آخر عمره، وآية هذه السورة نزلت سنة الحديبية، وأيضاً فقد غزت جهينة ومزينة بعد هذه المدة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد فضلهم رسول الله بعد ذلك على تميم وغطفان وغيرهم من العرب، الحديث المشهور فأمره الله تعالى أن يقول لهم في هذه الغزوة إلى خيبر: ﴿لن تتبعونا﴾ وخص الله بها أهل الحديبية.

وقوله تعالى: ﴿كذلك قال الله من قبل﴾ يريد وعده قبل باختصاصهم بها، وقول الأعراب: ﴿بل تحسدوننا﴾ معناه: بل يعز عليكم أن نصيب مغنماً ومالاً، فرد الله على هذه المقالة بقوله: ﴿بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً﴾ أي لا يفقهون من الأمور مواضع الرشد، وذلك هو الذي خلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان ذلك سبباً إلى منعه من غزوة خيبر.

وقرأ أبو حيو: «تحسدوننا» بكسر السين. وقرأ الجمهور من القراء: «كلام» قال أبو علي: هو أخص بما كان مفيداً حديثاً. وقرأ الكسائي وحمزة وابن مسعود وطلحة وابن وثاب: «كلم» والمعنى فيها متقارب.

قوله عز وجل:

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَىٰ بِأَسْ شَدِيدٍ يُقْتَلُونَهُمْ أَوْ يَسْلَمُونَ فإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾

أمر الله نبيه عليه السلام بالتقدمة إلى هؤلاء المخلفين بأنهم سيؤمرون بقتال عدو بئيس، وهذا يدل على أنهم كانوا يظهرون الإسلام، وإلا فلم يكونوا أهلاً لهذا الأمر، واختلف الناس من القوم المشار إليهم في قوله: ﴿إِلَى قَوْمٍ أُولَىٰ بِأَسْ شَدِيدٍ﴾ فقال عكرمة وابن جبير وقتادة: هم هوازن ومن حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حنين.

قال القاضي أبو محمد: ويندرج في هذا القول عندي من حورب وغلب في فتح مكة.

وقال كعب: هم الروم الذين خرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عام تبوك والذين بعث إليهم في غزوة مؤتة. وقال الزهري والكلبي: هم أهل الردة وبنو حنيفة باليمامة.

وقال منذر بن سعيد: يتركب على هذا القول أن الآية مؤذنة بخلافة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، يريد لما كشف الغيب أنهما دعوا إلى قتال أهل الردة. وحكى الثعلبي عن رافع بن خديج أنه قال: والله لقد كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى ولا نعلم من هم، حتى دعا أبو بكر إلى قتال بني حنيفة فعملنا أنهم أريدوا. وقال ابن عباس وابن أبي ليلى: هم الفرس. وقال الحسن: هم فارس والروم. وقال أبو هريرة: هم قوم لم يأتوا بعد، والقولان الأولان حسنان، لأنهما الذي كشف الغيب وباقيهما ضعيف. وقال منذر بن سعيد: رفع الله في هذه الجزية، وليس إلا القتال أو الإسلام، وهذا لا يوجد إلا في أهل الردة.

قال القاضي أبو محمد: وهو من حورب في فتح مكة.

وقرأ الجمهور من القراء: «أو يسلمون» على القطع، أي أو هم يسلمون دون حرب. وقرأ أبي بن كعب فيما حكى الكسائي: «أو يسلموا» بنصب الفعل على تقدير: أو يكون أن يسلموا، ومثله من الشعر قول امرئ القيس: [الطويل]

فقلت له لا تبك عيناك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنعدرا

يرى: «نموت» بالنصب. و«نموت» بالرفع، فالنصب على تقدير: أو يكون أن نموت، والرفع على القطع، أو نحن نموت.

وقوله: ﴿فإِنْ تَطِيعُوا﴾ معناه: فيما تدعون إليه، والعذاب الذي توعدهم: يحتمل أن يريد به عذاب الدنيا، وأما عذاب الآخرة فبين فيه.

وقوله عز وجل:

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَْعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾

لما بالغ عز وجل في عتب هؤلاء المتخلفين من القبائل المجاورة للمدينة لجهينة ومزينة وغفار وأسلم وأشجع، عقب ذلك بأن عذر أهل الأعدار من العرج والعمى والمرض جملة ورفع الحرج عنهم والضيقة والمأثم، وهذا حكم هؤلاء المعاذير في كل جهاد إلى يوم القيامة، إلا أن يحزب حازب في حضرة ما، فالفرض متوجه بحسب الوسع، ومع ارتفاع الحرج فجائز لهم الغزو وأجرهم فيه مضاعف، لأن الأعرج أخرى الناس بالصبر وأن لا يفر، وقد غزا ابن أم مكتوم، وكان يمسك الراية في بعض حروب القادسية، وقد خرج النسائي هذا المعنى وذكر ابن أم مكتوم رحمه الله.

وقرأ الجمهور من القراء: «يدخله» بالياء. وقرأ ابن عامر ونافع وأبو جعفر والأعرج والحسن وشيبة وقتادة: «ندخله» بالنون، وكذلك «نعدبه» و: «يعذبه».

وقوله تعالى: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾ تشريف وإعلام برضاه عنهم حين البيعة، وبهذا سميت بيعة الرضوان. والرضى بمعنى الإرادة، فهو صفة ذات. ومن جعل ﴿إذ﴾ مسببة بمعنى لأنهم بايعوا تحت الشجرة، جاز أن يجعل ﴿رضي﴾ بمعنى إظهار النعم عليهم بسبب بيعتهم، فالرضى على هذا صفة فعل، وقد تقدم القول في المبايعة ومعناها.

وكان سبب هذه المبايعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يبعث إلى مكة رجلاً يبين على قريش أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يريد حرباً، وإنما جاء معتمراً، فبعث إليهم خراش بن أمية الخزاعي وحمله على جمل يقال له الثعلب، فلما كلمهم، عقروا الجمل، وأرادوا قتل خراش، فمنعه الأحابيش، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد بعث عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله أنا قد علمت فظاظتي على قريش وهم يبغيضوني، وليس هناك من بني عدي بن كعب من يحميني، ولكن ابعث عثمان بن عفان، فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذهب فلقية أبان بن سعيد بن العاصي، فنزل عن دابته فحمله عليها وأجاره، حتى إذا جاء قريشاً فأخبرهم، فقالوا له: إن شئت يا عثمان أن تطوف بالبيت فطف، وأما دخولكم علينا فلا سبيل إليه، فقال عثمان: ما كنت لأطوف به حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم إن بني سعيد بن العاصي حبسوا عثمان على جهة المبرة، فأبطلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت الحديبية من مكة على عشرة أميال، فصرخ صارخ من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحمى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون، وقالوا: لا نبرح إن كان هذا حتى نلقى القوم، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البيعة، ونادى مناديه: أيها الناس، البيعة البيعة، نزل روح القدس، فما تخلف عن البيعة أحد ممن شهد الحديبية إلا الجد بن قيس المنافق،

وحينئذ جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على يده وقال: هذه يد لعثمان، وهي خير من يد عثمان ثم جاء عثمان بعد ذلك سالماً.

و ﴿الشجرة﴾ سمرة كانت هنالك، ذهبت بعد سنين، فمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته فاختلف أصحابه في موضعها، فقال عمر سيروا هذا التكلف.

وقوله تعالى: ﴿فعلّم ما في قلوبهم﴾ قال قوم معناه: من كراهة البيعة على الموت ونحوه وهذا ضعيف، فيه مذمة للصحابة. وقال الطبري ومنذر بن سعيد معناه: من الإيمان وصحته والحب في الدين والحرص عليه، وهذا قول حسن، لكنه من كانت هذه حاله فلا يحتاج إلى نزول ما يسكنه، أما أنه يحتمل أن يجازى بـ ﴿السكينة﴾ والفتح القريب والمغانم.

وقال آخرون معناه: من الهم بالانصراف عن المشركين والأنفة في ذلك على نحو ما خاطب فيه عمر وغيره، وهذا تأويل حسن يترتب معه نزول ﴿السكينة﴾ والتعريض بالفتح القريب. و ﴿السكينة﴾ هنا تقرير قلوبهم وتذليلها لقبول أمر الله تعالى والصبر له.

وقرأ الناس: «وأنابهم» قال هارون وقد قرئت: «وأنابهم» بالياء بنقطتين والفتح القريب: خير، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف بالمؤمنين إلى المدينة وقد وعده الله بخير وخرج إليها لم يلبث، قال أبو جعفر النحاس، وقد قيل: الفتح القريب: فتح مكة، والمغانم الكثيرة: فتح خير.

وقرأ يعقوب في رواية رويس: «تأخذونها» على مخاطبتهم بالياء من فوق. وقرأ الجمهور: «ياخذونها» على الغيبة.

واختلف في عدة المبايعين فقيل: ألف وخمسمائة، قاله قتادة، وقيل: وأربعمائة قاله جابر بن عبد الله، وقيل: وخمسمائة وخمسة وعشرون، قاله ابن عباس، وقيل: وثلاثمائة قاله ابن أبي أوفى، وقيل غير هذا مما ذكرناه من قبل، وأول من بايع في ذلك رجل من بني أسد يقال له أبو سنان بن وهب قاله الشعبي.

قوله عز وجل:

وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً
لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَتَلْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْوَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُوا وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا
﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ
عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿وعدكم الله﴾ الآية مخاطبة للمؤمنين ووعد بجميع المغانم التي أخذها المسلمون وياخذونها إلى يوم القيامة، قاله مجاهد وغيره.

وقوله: ﴿فمجل لكم هذه﴾ يريد خير، وقال زيد بن أسلم وابنه، المغانم الكثيرة: خير، و: ﴿هذه﴾ إشارة إلى البيعة والتخلص من أمر قريش، وقاله ابن عباس: وقوله ﴿وكف أيدي الناس عنكم﴾ يريد من ولي عورة المدينة بعد خروج النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين منها، وذلك أنه كان من أحياء العرب ومن اليهود من يعادي وكانت قد أمكتهم فرصة فكفهم الله عن ذراري المسلمين وأموالهم، وهذه للمؤمنين العلامة على أن الله ينصرهم ويلطف لهم، قاله قتادة. وحكى الثعلبي أنه قال: كف الله غطفان ومن معها عن النبي صلى الله عليه وسلم حين جاؤوا لنصر أهل خير، وذكره النقاش وقال الثعلبي أيضاً عن بعضهم إنه أراد كف قريش.

وقوله: ﴿وأخرى لم تقدروا عليها﴾ قال عبد الله بن عباس: الإشارة إلى بلاد فارس والروم. وقال الضحاك: الإشارة إلى خير. وقال قتادة والحسن: الإشارة إلى مكة، وهذا هو القول الذي يتسق معه المعنى ويتأيد.

وقوله: ﴿قد أحاط الله بها﴾ معناه بالقدرة والقهر لأهلها، أي قد سبق في علمه ذلك وظهر فيها أنهم لم يقدرُوا عليها.

وقوله: ﴿ولمقاتلكم الذين كفروا لولوا الأذبار﴾ إشارة إلى قريش ومن والاه في تلك السنة، قاله قتادة، وفي هذا تقوية لنفوس المؤمنين، وقال بعض المفسرين: أراد الروم وفارس.

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف، وإنما الإشارة إلى العدو الأحضر.

وقوله: ﴿سنة الله﴾ إشارة إلى وقعة بدر، وقيل إشارة إلى عادة الله من نصر الأنبياء قديماً، ونصب ﴿سنة﴾ على المصدر، ويجوز الرفع ولم يقرأ به.

وقوله تعالى: ﴿وهو الذي كف أيديهم﴾ الآية، روي في سببها أن قريشاً جمعت جماعة من فتيانها وجعلوهم مع عكرمة بن أبي جهل وخرجوا يطلبون غرة في عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، واختلف الناس في عدد هؤلاء اختلافاً متفاوتاً، فلذلك اختصرته فلما أحس بهم المسلمون بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في أثرهم خالد بن الوليد وسماه حينئذ سيف الله في جملة من المسلمين، ففروا أمامهم حتى أدخلوهم بيوت مكة وأسروا منهم جملة، فسيقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن عليهم وأطلقهم، فهذا هو أن كف الله أيديهم عن المسلمين بالرعب وكف أيدي المسلمين عنهم بالنهي في بيوت مكة وغيرها وذلك هو «بطن مكة». وقال قتادة: أسر النبي صلى الله عليه وسلم هذه الجملة بالحديبية عند عسكره ومن عليهم، وذلك هو «بطن مكة». قال النقاش: الحرام كله «مكة»، والظفر عليهم هو أسر من أسر منهم، وباقي الآية تحريض على العمل الصالح، لأن من استشعر أن الله يبصر عمله أصلحه.

وقرأ الجمهور من القراء: «بما تعملون» بالتاء على الخطاب. وقرأ أبو عمرو وحده: «بما يعملون» بالياء على ذكر الكفار وتهديدهم.

قوله عز وجل:

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّاتَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَو تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

يريد بقوله تعالى: ﴿هم الذين كفروا﴾ أهل مكة الذين تقدم ذكرهم. وقوله ﴿وصدوكم عن المسجد الحرام﴾ هو منعهم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من العمرة عام الحديبية، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من المدينة في ذي القعدة سنة ست من الهجرة يريد العمرة وتعظيم البيت، وخرج معه بمائة بدنة، قاله النقاش، وقيل بسبعين، قاله المسور بن مخزومة ومروان بن الحكم، فلما دنا من مكة، قال أهل مكة هذا محمد الذي قد حاربنا وقتل فينا، يريد أن يدخل مكة مراغمة لنا، والله لا تركناه حتى نموت دون ذلك، فاجتمعوا لحربه، واستجدوا بقبائل من العرب وهم الأحابيش وبعثوا فغفروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم المياه التي تقرب من مكة، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل على بشر الحديبية، وحينئذ وضع سهمه في الماء فجرى غمراً حتى كفى الجيش، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى مكة عثمان، وبعث أهل مكة إليه رجالاً منهم: عروة بن مسعود، وبديل بن ورقاء، وتوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم هناك أياماً حتى سفر سهيل بن عمرو، وبه انعقد الصلح على أن ينصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم ويعتمر من العام القادم، فهذا كان صدهم إياه وهو مستوعب في كتب السير، فلذلك اختصرناه.

وقرأ الجمهور: «والهذي» بسكون الدال.. وقرأ الأعرج والحسن بن أبي الحسن: «والهذي» بكسر الدال وشد الياء، وهما لغتان، وهو معطوف على الضمير في قوله: ﴿وصدوكم﴾ أي وصدوا الهدي. و: ﴿معكوفاً﴾ حال، ومعناه: محبوساً، تقول: عكفت الرجل عن حاجته إذا حبسته، وقد قال أبو علي: إن عكف لا يعرفه متعبداً، وحكى ابن سيده وغيره: تعديه، وهذا العكف الذي وقع للهذي كان من قبل المشركين بصددهم، ومن قبل المسلمين لرؤيتهم ونظرهم في أمرهم فحبسوا هديهم. و: ﴿أن﴾ في قوله: ﴿أن يبلغ﴾ يحتمل أن يعمل فيها الصد، كأنه قال: وصدوا الهدي كراهة أن أو عن أن، ويحتمل أن يعمل فيها العكف فتكون مفعولاً من أجله، أي الهدي المحبوس لأجل ﴿أن يبلغ محله﴾، و: ﴿محله﴾ مكة.

وذكر الله تعالى العلة في أن صرف المسلمين ولم يمكنهم من دخول مكة في تلك الوجهة، وهو أنه كان بمكة مؤمنون من رجال ونساء خفي إيمانهم، فلو استباح المسلمون بيضتها أهلكتهم أولئك المؤمنين. قال قتادة: فدفع الله عن المشركين ببركة أولئك المؤمنين، وقد يدفع بالمؤمنين عن الكفار.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ صفة للمذكورين. وقوله: ﴿أَنْ تَطَّوُّوهُمْ﴾ يحتمل أن تكون ﴿أَنْ﴾ بدلاً من ﴿رَجَالٌ﴾، كأنه قال: ولولا قوم مؤمنون أن تطَّوُّوهم، أي لولا وطئكم قوماً مؤمنين، فهو على هذا في موضع رفع، ويحتمل أن تكون في موضع نصب بدلاً من الضمير في قوله: ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ كأنه قال: لم تعلموا وطأهم أنه وطء المؤمنين، والوطء هنا: الإهلاك بالسيف وغيره على وجه التشبيه، ومنه قول الشاعر [زهير]: [الكامل]

ووطئتنا وطئاً على حنق وطء المقيد ثابت الهرم

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم اشدد وطأتك على مضر»، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم «إن آخر وطأة الرب يوم وج بالطائف» لأنها كانت آخر وقعة للنبي صلى الله عليه وسلم، فيها ذكر هذا المعنى النقاش: و«المعرة» السوء والمكروه اللاصق، مأخوذ من العر والعرة وهي الجرب الصعب اللازم. واختلف الناس في تعيين هذه المعرة، فقال ابن زيد: هي المأثم وقال ابن إسحاق: هي الدية. قال القاضي أبو محمد: وهذان ضعيفان، لأنه لا إثم ولا دية في قتل مؤمن مستور الإيمان من أهل الحرب.

وقال الطبري حكاه الثعلبي: هي الكفارة. وقال منذر: المعرة: أن يعيهم الكفار ويقولوا قتلوا أهل دينهم. وقال بعض المفسرين: هي الملام والقول في ذلك، وتألم النفس منه في باقي الزمن. قال القاضي أبو محمد: وهذه أقوال حسان. وجواب ﴿لَوْلا﴾ محذوف تقديره: لمكانكم من دخول مكة وأيدناكم عليهم.

وقرأ الأعمش: «فتنالكم منه معرة».

واللام في قوله: ﴿لِيَدْخُلَ﴾ يحتمل أن يتعلق بمحذوف من القول، تقديره: لولا هؤلاء لدخلتم مكة، لكن شرفنا هؤلاء المؤمنين بأن رحمتهم ودفعنا بسببهم عن مكة ﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ﴾: أي ليبين لناظر أن الله تعالى يدخل من يشاء في رحمته، أو ليقع دخولهم في رحمة الله ودفعه عنهم، ويحتمل أن تتعلق بالإيمان المتقدم الذكر، فكانه قال: ولولا قوم مؤمنون آمنوا ليدخل الله من يشاء في رحمته، وهذا مذكور، لكنه ضعيف، لأن قوله: ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ يضعف هذا التأويل.

ثم قال تعالى: ﴿لَوْ تَزِيلُوا﴾ أي لو ذهبوا عن مكة، تقول: أزلت زيداً عن موضعه إزالة، أي أذهبته، وليس هذا الفعل من زال يزول، وقد قيل هو منه.

وقرأ أبو حيوة وقتادة: بألف بعد الزاي، أي «لو تزيلوا»، أي ذهب هؤلاء عن هؤلاء وهؤلاء عن هؤلاء.

وقوله: ﴿مَنْهُمْ﴾ لبيان الجنس إذا كان الضمير في ﴿تَزِيلُوا﴾ للجميع من المؤمنين والكافرين وقال النحاس: وقد قيل إن قوله: ﴿وَلَوْلا رَجَالٌ مُؤْمِنُونَ﴾ الآية. يريد من في أصلاب الكافرين من سيؤمن في غابر الدهر، وحكاه الثعلبي والنقاش عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم

مرفوعاً. والعامل في قوله: ﴿إِذْ جَعَلَ﴾ قوله: ﴿لَعَذَابُنَا﴾ ويحتمل أن يكون المعنى: أذكر إذا جعلنا. و: ﴿الْحَمِيَّةُ﴾ التي جعلوها هي حمية أهل مكة في الصد، قال الزهري: وحمية سهيل ومن شاهد عقد الصلح في أن منعوا أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم، ولجوا حتى كتب باسمك اللهم، وكذلك منعوا أن يثبت: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله. ولجوا حتى قال صلى الله عليه وسلم لعلي: امح واكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله الحديث وجعلها تعالى «حمية جاهلية»، لأنها كانت بغير حجة وفي غير موضعها، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو جاءهم محارباً لعذرهم في حميتهم، وإنما جاء معظماً للبيت لا يريد حرباً، فكانت حميتهم جاهلية صرفاً. والسكينة هي الطمأنينة إلى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم والثقة بوعده الله والطاعة وزوال الأنفة التي لحقت عمر وغيره.

و: ﴿كَلِمَةُ التَّقْوَى﴾ قال الجمهور: هي لا إله إلا الله، وروي ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم. وقال عطاء بن أبي رباح: هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. وقال أبو هريرة وعطاء الخراساني: هي لا إله إلا الله محمد رسول الله. وقال علي بن أبي طالب: هي لا إله إلا الله والله أكبر، وحكاها الثعلبي عن ابن عمر.

قال القاضي أبو محمد: وهذه كلها أقوال متقاربة حسان، لأن هذه الكلمة بقي النار، فهي ﴿كَلِمَةُ التَّقْوَى﴾.

وقال الزهري عن المسور ومروان: ﴿كَلِمَةُ التَّقْوَى﴾ المشار إليها هي بسم الله الرحمن الرحيم وهي التي أباهها كفار قریش، فالزمها الله المؤمنين وجعلهم ﴿أَحَقَّ بِهَا﴾.

قال القاضي أبو محمد: ولا إله إلا الله أحق باسم: ﴿كَلِمَةُ التَّقْوَى﴾. من: بسم الله الرحمن الرحيم.

وفي مصحف ابن مسعود: «وكانوا أهلها وأحق بها». والمعنى: كانوا أهلها على الإطلاق في علم الله وسابق قضائه لهم، وقيل ﴿أَحَقَّ بِهَا﴾ من اليهود والنصارى في الدنيا، وقيل أهلها في الآخرة بالثواب.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ إشارة إلى علمه بالمؤمنين الذين دفع عن كفار قریش بسببهم وإلى علمه بوجه المصلحة في صلح الحديبية، فيروى أنه لما انعقد، أمن الناس في تلك المدة الحرب والفتنة، وامتزجوا، وعلت دعوة الإسلام، وانقاد إليه كل من كان له فهم من العرب، وزاد عدد الإسلام أضعاف ما كان قبل ذلك.

قال القاضي أبو محمد: ويقتضي ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في عام الحديبية في أربع عشرة مائة، ثم سار إلى مكة بعد ذلك بعامين في عشرة آلاف فارس صلى الله عليه وسلم.

قوله عز وجل:

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ

رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَعَجَلْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحَاقِرِيبًا ﴿٢٧﴾
 هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾
 تَحْمَدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْعًا سَجْدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ
 وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهمُ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ
 أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوَاقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ
 الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

روي في تفسير هذه الآية، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في منامه عند خروجه إلى العمرة أنه يطوف بالبيت هو وأصحابه، بعضهم محلقون وبعضهم مقصرون. وقال مجاهد: أرى ذلك بالحديبية، فأخبر الناس بهذه «الرؤيا»، ووثق الجميع بأن ذلك يكون في وجهتهم تلك، وقد كان سبق في علم الله تعالى أن ذلك يكون. لكن ليس في تلك الجهة. وروي أن رؤياه إنما كانت أن ملكاً جاءه فقال له: «لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمين محلقين رؤوسكم ومقصرين»، وإنه بهذا أعلم الناس فلما قضى الله في الحديبية بأمر الصلح، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصد، وقال المنافقون: وأين الرؤيا؟ ووقع في نفوس المسلمين شيء من ذلك، فأنزل الله تعالى: «لقد صدق الله ورسوله الرؤيا بالحق». و: «صدق» هذه تتعدى إلى مفعولين، تقول صدقت زيداً الحديث: واللام في: «لتدخلن» لام القسم الذي تقتضيه «صدق» لأنها من قبيل تبين وتحقق، ونحوها مما يعطي القسم.

واختلف الناس في معنى الاستثناء في هذه الآية، فقال بعض المتأولين هو استثناء من الملك المخبر للنبي عليه السلام في نومه، فذكر الله تعالى مقالته كما وقعت، وقال آخرون هو أخذ من الله تعالى عباده بأدبه في استعماله في كل فعل يوجب وقوعه، كان ذلك مما يكون ولا بد، أو كان مما قد يكون وقد لا يكون، وقال بعض العلماء: إنما استثنى من حيث كل واحد من الناس متى رد هذا الوعد إلى نفسه أمكن أن يتم الوعد فيه وأن لا يتم، إذ قد يموت الإنسان أو يمرض أو يغيب، وكل واحد في ذاته محتاج إلى الاستثناء، فلذلك استثنى عز وجل في الجملة، إذ فيهم ولا بد من يموت أو يمرض. وقال آخرون: استثنى لأجل قوله: «آمين» لأجل إعلامه بالدخول، فكان الاستثناء مؤخر عن موضعه، ولا فرق بين الاستثناء من أجل الأمن أو من أجل الدخول، لأن الله تعالى قد أخبر بهما ووقت الثقة بالأميرين، فالاستثناء من أيهما كان فهو استثناء من واجب. وقال قوم: «إن» بمعنى إذ فكانه قال: إذ شاء الله.

قال القاضي أبو محمد: وهذا حسن في معناه، ولكن كون «إن» بمعنى إذ غير موجود في لسان العرب، وللناس بعد في هذا الاستثناء أقوال مخلطة غير هذه، اختصرت ذكرها، لأنها لا طائل فيها.

وقرأ ابن مسعود: «إن شاء الله لا تخافون» بدل «آمين».

ولما نزلت هذه الآية، علم المسلمون أن تلك الرؤيا فيما يستأنفون من الزمن، واطمأنت قلوبهم

بذلك وسكنت، وخرجت في العام المقبل، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة في ذي القعدة سنة سبع، ودخلها ثلاثة أيام هو وأصحابه، وصدقت رؤياه صلى الله عليه وسلم.

وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ يريد ما قدره من ظهور الإسلام في تلك المدة ودخول الناس فيه، وما كان أيضاً بمكة من المؤمنين دفع الله بهم. وقوله تعالى: ﴿مَنْ دُونِ ذَلِكَ﴾، أي من قبل ذلك وفيما يدنو إليكم.

واختلف الناس في الفتح القريب، فقال كثير من الصحابة: هو بيعة الرضوان وروي عن مجاهد وابن إسحاق. أنه الصلح بالحديبية. وقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أو فتح هو يا رسول الله؟ قال: نعم. وقال ابن زيد: الفتح القريب: خير حسبا تقدم من ذكر انصراف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فتحها. وقال قوم: الفتح القريب: فتح مكة، وهذا ضعيف، لأن فتح مكة لم يكن من دون دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكة، بل كان بعد ذلك بعام، لأن الفتح كان سنة ثمان من الهجرة ويحسن أن يكون الفتح هنا اسم جنس يعبر كل ما وقع مما للنبي صلى الله عليه وسلم فيه ظهور وفتح عليه. وقد حكى مكى في ترتيب أعوام هذه الأخبار عن قطرب قولاً خطأ جعل فيه الفتح سنة عشر، وجعل حج أبي بكر قبل الفتح، وذلك كله تخليط وخوض فيما لم يثبته معرفة.

وقوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ الآية تعظيم لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وإعلام بأنه يظهره على جميع الأديان. ورأى بعض الناس لفظة: ﴿ليظهره﴾ تقتضي نحو غيره به، فلذلك قالوا: إن هذا الخبر يظهر للوجود عند نزول عيسى ابن مريم عليه السلام، فإنه لا يبقى في وقته غير دين الإسلام وهو قول الطبري والثعلبي. ورأى قوم أن الإظهار هو الإعلاء وإن بقي من الدين الآخر أجزاء، وهذا موجود الآن في دين الإسلام، فإنه قد عم أكثر الأرض وظهر على كل دين.

وقوله تعالى: ﴿وَكُفِيَ بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ معناه: شاهدأ، وذلك يحتمل معنيين: أحدهما شاهدأ عندكم بهذا الخبر ومعلماً به. والثاني: شاهدأ على هؤلاء الكفار المنكرين أمر محمد الرادين في صدره ومعاقباً لهم بحكم الشهادة، والآية على هذا وعيد للكفار الذين شاحوا في أن يكتب محمد رسول الله، فرد عليهم بهذه الآية كلها.

وقوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ قال جمهور الناس: هو ابتداء وخبر استوفي فيه تعظيم منزلة النبي صلى الله عليه وسلم. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ ابتداء وخبره: ﴿أَشْدَاءُ﴾ و﴿رَحْمَاءُ﴾ خبر ثان. وقال قوم من المتأولين: ﴿مُحَمَّدٌ﴾ «ابتداء» و: ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ صفة له «والذين» عطف عليه. و: ﴿أَشْدَاءُ﴾ خبر عن الجميع. و: ﴿رَحْمَاءُ﴾ خبر بعد خبر، ففي القول الأول اختص النبي صلى الله عليه وسلم بوصفه وهؤلاء بوصفهم، وفي القول الثاني اشترك الجميع في الشدة والرحمة.

قال القاضي أبو محمد: والأول عندي أرجح، لأنه خبر مضاد لقول الكفار لا نكتب محمد رسول الله.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ إشارة إلى جميع الصحابة عند الجمهور، وحكى الثعلبي عن ابن عباس أن

الإشارة إلى من شهد الحديبية: بـ ﴿الذين معه﴾. و: ﴿أشداء﴾ جمع شديد، أصله: أشدءاء، أدغم لاجتماع المثلين.

وقرأ الجمهور: «أشداء» «رحماء» بالرفع، وروى قرعة عن الحسن: «أشداء» «رحماء» بنصبهما قال أبو حاتم: ذلك على الحال والخبر: ﴿تراهم﴾. قال أبو الفتح: وإن شئت نصبت «أشداء» على المدح. وقوله: ﴿تراهم ركعاً سجداً﴾، أي ترى هاتين الحالتين كثيراً فيهم. و: ﴿يبتغون﴾ معناه يطلبون. وقرأ عمر وابن عبيد: «ورضواناً» بضم الراء.

وقوله: ﴿سيماهم﴾ معناه: علامتهم. واختلف الناس في تعيين هذه السیما، فقال مالك بن أنس: كانت جباههم متربة من كثرة السجود في التراب، كان يبقى على المسح أثره، وقاله عكرمة. وقال أبو العالية: يسجدون على التراب لا على الأتواب. وقال ابن عباس وخالد الحنفي وعطية: هو وعد بحالهم يوم القيامة من أن الله تعالى يجعل لهم نوراً ﴿من أثر السجود﴾.

قال القاضي أبو محمد: كما يجعل غرة من أثر الوضوء الحديث، ويؤيد هذا التأويل اتصال القول بقوله: ﴿فضلاً من الله ورضواناً﴾ كأنه قال: علامتهم في تحصيلهم الرضوان يوم القيامة: ﴿سيماهم﴾ في وجوههم من أثر السجود. ويحتمل أن تكون السیما بدلاً من قوله: ﴿فضلاً﴾. وقال ابن عباس: السميت الحسن: هو السیما، وهو الخشوع خشوع يبدو على الوجه.

قال القاضي أبو محمد: وهذه حالة مكثري الصلاة، لأنها تنهاهم عن الفحشاء والمنكر، وتقل الضحك وترد النفس بحالة تخشع معها الأعضاء.

وقال الحسن بن أبي الحسن وشمر بن عطية: السیما: بياض وصفرة وبهيج يعتري الوجوه من السهر. وقال منصور: سألت مجاهداً: أهذه السیما هي الأثر يكون بين عيني الرجل؟ فقال: لا، وقد تكون مثل ركة البعير، وهو أفسى قلباً من الحجارة. وقال عطاء بن أبي رباح والربيع بن أنس: السیما: حسن يعتري وجوه المصلين.

قال القاضي أبو محمد: وذلك لأن الله تعالى يجعل لها في عين الرأي حسناً تابعاً للإجلال الذي في نفسه، ومتى أجل الإنسان أمراً حسن عنده منظره، ومن هذا الحديث الذي في الشهاب: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار».

قال القاضي أبو محمد: وهذا حديث غلط فيه ثابت بن موسى الزاهد، سمع شريك بن عبد الله يقول: حدثنا الأعمش عن أبي سفيان عن جابر ثم نزع شريك لما رأى ثابت الزاهد فقال: يعنيه من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار، فظن ثابت أن هذا الكلام متركب على السند المذكور فحدث به عن شريك.

وقرأ الأعرج: «من إثر» بسكون الثاء وكسر الهمزة. قال أبو حاتم هما بمعنى. وقرأ قتادة: «من آثار»، جمعاً.

وقوله تعالى: ﴿ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل﴾ الآية، المثل هنا الوصف أو الصفة. وقال بعض المتأولين: التقدير الأمر ﴿ذلك﴾ وتم الكلام. ثم قال: ﴿مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع﴾. وقال مجاهد وجماعة من المتأولين: المعنى ﴿ذلك﴾ الوصف هو ﴿مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل﴾ وتم القول، و: ﴿كزرع﴾ ابتداء تمثيل يختص بالقرآن. وقال الطبري وحكاياه عن الضحاك المعنى: ﴿ذلك﴾ الوصف هو ﴿مثلهم في التوراة﴾ وتم القول، ثم ابتداء ﴿ومثلهم في الإنجيل كزرع﴾. وقال آخرون: المثلان جميعاً هي في التوراة وهي في الإنجيل.

وقوله تعالى: ﴿كزرع﴾، هو على كل الأقوال وفي أي كتاب منزل: فرض مثل للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، في أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث وحده، فكان كالزرع حبة واحدة، ثم كثر المسلمون فهم كالشطاء: وهو فراخ السنبلة التي تثبت حول الأصل، يقال: أشطأت الشجرة إذا خرجت غصونها، وأشطأ الزرع: إذا خرج شطأه.

وقرأ ابن كثير وابن ذكوان عن ابن عامر: «شطأ» بفتح الطاء والهمز دون مد، وقرأ الباقر بسكون الطاء، وقرأ عيسى بن عمر: «شطاه» بفتح الطاء دون همز، وقرأ أبو جعفر: «شطه» رمى بالهمزة وفتح الطاء، ورويت عن نافع وشيبة. وروي عن عيسى: «شطاه» بالمد والهمز، وقرأ الجحدري: «شطوه» بالواو. قال أبو الفتح هي لغة أو بدل من الهمزة، ولا يكون الشطواً إلا في البر والشعير، وهذه كلها لغات. وحكى النقاش عن ابن عباس أنه قال: الزرع: النبي صلى الله عليه وسلم، ﴿فأزره﴾. علي بن أبي طالب رضي الله عنه ﴿فاستغلظ﴾ بأبي بكر، ﴿فاستوى على سوقه﴾: بعمر بن الخطاب.

وقوله تعالى: ﴿فأزره﴾ وزنه: أفعله، أبو الحسن ورجحه أبو علي. وقرأ ابن ذكوان عن ابن عامر: «فأزره» على وزن: فعله دون مد، ولذلك كله معنيان: أحدهما ساواه طولاً، ومنه قول امرئ القيس: [الطويل]

بمحنة قد آزر الضال نبتها بجر جيوش غانمين وخيب

أي هو موضع لم يزرع فكمّل نبتة حتى ساوى شجر الضال، فالفاعل على هذا المعنى: الشطاء والمعنى الثاني: إن أزره وأزره بمعنى: أعانه وقواه، مأخوذ ذلك من الأزر وشده، فيحتمل أن يكون الفاعل الشطاء، ويحتمل أن يكون الفاعل الزرع، لأن كل واحد منهما يقوي صاحبه وقال ابن مجاهد وغيره «أزره» وزنه: فاعله، والأول أصوب أن وزنه: أفعله، ويدل ذلك على قول الشاعر: [المنسرح]

لا مال إلا العطاف تؤزره أم ثلاثين وابنة الجبل

وقرأ ابن كثير: «على سوقه» بالهمز، وهي لغة ضعيفة، يهزون الواو التي قبلها ضمة ومنه قول الشاعر [جرير]:

وجعدة إذا أضاءهما الوقود

و: ﴿يعجب الزراع﴾ جملة في موضع الحال، وإذا أعجب ﴿الزراع﴾، فهو أخرى أن يعجب غيرهم

لأنه لا عيب فيه، إذ قد أعجب العارفين بالعيوب ولو كان معيباً لم يعجبهم، وهنا تم المثل.

وقوله تعالى: ﴿لِيُغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ ابتداء كلام قبله محذوف تقديره: جعلهم الله بهذه الصفة ﴿لِيُغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾، و﴿الْكُفَّارَ﴾ هنا المشركون. قال الحسن: من غيظ الكفار قول عمر بمكة: لا عبد الله سرأ بعد اليوم.

وقوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ﴾ هي لبيان الجنس وليست للتبعض، لأنه وعد مرج للجميع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْحَجَرَاتِ

وهي مدنية بإجماع من أهل التأويل رضي الله عنهم .

قوله عز وجل :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَانْفُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾

كانت عادة العرب وهي إلى الآن الاشتراك في الآراء وأن يتكلم كل بما شاء ويفعل ما أحب، فمشى بعض الناس ممن لم تتمرن نفسه مع النبي صلى الله عليه وسلم على بعض ذلك، قال قتادة: فربما قال قوم: لو نزل كذا وكذا في معنى كذا وكذا وينبغي أن يكون كذا، وأيضاً فإن قوماً ذبحوا ضحاياهم قبل النبي صلى الله عليه وسلم، حكاة الحسن بن أبي الحسن، وقوماً فعلوا في بعض حروبه وغزواته أشياء بآرائهم، فنزلت هذه الآية ناهية عن جميع ذلك، وحكى الثعلبي عن مسروق أنه قال: دخلت على عائشة في يوم الشك فقالت للجارية: اسقه عسلاً، فقلت: إني صائم، فقالت: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صيام هذا اليوم، وفيه نزلت: ﴿لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾. وقال ابن زيد: معنى ﴿لَا تَقْدِمُوا﴾ لا تمشوا ﴿بين يدي رسول الله﴾، وكذلك بين يدي العلماء فإنهم ورثة الأنبياء. وتقول العرب: تقدمت في كذا وكذا وتقدمت فيه: إذا قلت فيه.

وقرأ الجمهور من القراء: «تَقْدِمُوا» بضم التاء وكسر الدال. وقرأ ابن عباس والضحاك ويعقوب بفتح التاء والدال على معنى: لا تتقدموا، وعلى هذا يعجيء تأويل ابن زيد في المشي. والمعنى على ضم التاء ﴿بين يدي﴾ قول الله ورسوله.

وروي أن سبب هذه الآية هو أن وفد بني تميم لما قدم قال أبو بكر الصديق: يا رسول الله لو أمرت الأقرع بن حابس. وقال عمر بن الخطاب: لا يا رسول الله، بل أمر القعقاع بن معبد، فقال له أبو بكر: ما أردت إلى خلافي، ويروى إلا خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافي، وارتفعت أصواتهما فنزلت الآية في ذلك. وذهب بعض قائل هذه المقالة إلى أن قوله: ﴿لَا تَقْدِمُوا﴾ معناه: ﴿لَا تَقْدِمُوا﴾ ولاة، فهو من تقديم

الأمراء، وعموم اللفظ أحسن، أي اجعلوه مبدأً في الأقوال والأفعال. و: ﴿سميع﴾ معناه: لأقوالكم. ﴿عليم﴾ معناه: بأفعالكم ومقتضى أقوالكم.

وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا﴾ الآية هي أيضاً في ذلك الفن المتقدم، وروى حيح أنها نزلت بسبب عادة الأعراب من الجفاء وعلو الصوت والعنجهية، وكان ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه في صوته جهارة، فلما نزلت هذه الآية اهتم وخاف على نفسه وجلس في بيته لم يخرج، وهو كئيب حزين حتى عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره فبعث فيه فأنسه وقال له: «امش في الأرض بسطاً فإنك من أهل الجنة». وقال له مرة: «أما ترضى أن تعيش حميداً وتموت شهيدياً»، فعاش كذلك، ثم قتل باليامة يوم مسيلم. وفي قراءة ابن مسعود: «لا ترفعوا بأصواتكم» بزيادة الباء.

وقوله: ﴿كجهر بعضهم لبعض﴾ أي كحال جهركم في جفائه وكونه مخاطبة بالأسماء والألقاب، وكانوا يدعون النبي صلى الله عليه وسلم. يا محمد يا محمد، قاله ابن عباس وغيره، فأمرهم الله بتوقيره، وأن يدعوه بالرسالة والنبوة والكلام اللين، فتلك حالة الموقر، وكره العلماء رفع الصوت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم. وبحضرة العالم وفي المساجد، وفي هذه كلها آثار.

وقوله تعالى: ﴿أن تحبط﴾ مفعول من أجله، أي مخافة ﴿أن تحبط﴾، والحبط: إفساد العمل بعد تقرر، يقال حبط بكسر الباء وأحبطه الله، وهذا الحبط إن كانت الآية معرضة بمن يفعل ذلك استخفافاً واستحقاراً وجرأة فذلك كفر. والحبط معه على حقيقته، وإن كان التعريض للمؤمن الفاضل الذي يفعل ذلك غفلة وجرياً على طبعه، فإنما يحبط عمله البر في توقير النبي صلى الله عليه وسلم وغض الصوت عنده أن لو فعل ذلك، فكأنه قال: أن تحبط الأعمال التي هي معدة أن تعملوها فتؤجروا عليها. ويحتمل أن يكون المعنى: أن تأثموا ويكون ذلك سبباً إلى الوحشة في نفوسكم، فلا تزال معتقداتكم تتجدد القهقري حتى يؤول ذلك إلى الكفر فتحبط الأعمال حقيقة. وظاهر الآية أنها مخاطبة لفضلاء المؤمنين الذين لا يفعلون ذلك احتقاراً، وذلك أنه لا يقال لمنافق يعمل ذلك جرأة وأنت لا تشعر، لأنه ليس له عمل يعتقده هو عملاً. وفي قراءة عبد الله بن مسعود: «فتحبط أعمالكم».

ثم مدح الصنف المخالف لمن تقدم ذكره، وهم ﴿الذين يفضون أصواتهم﴾ عند النبي صلى الله عليه وسلم. وغض الصوت: خفضه وكسره، وكذلك البصر، ومنه قول جرير: [الوافر]

فغض الطرف إنك من نمير

وروي أن أبا بكر وعمر كانا بعد ذلك لا يكلمان رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا كأخي السرار، وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحتاج مع عمر بعد ذلك إلى استعادة اللفظ، لأنه كان لا يسمعه من إخفائه إياه. و: ﴿امتحن الله﴾ معناه اختبر وظهر كما يمتحن الذهب بالنار فيسرهما وهياها للتقوى. وقال عمر بن الخطاب: امتحن للتقوى أذهب عنها الشهوات.

قال القاضي أبو محمد: من غلب شهوته وغضبه، فذلك الذي ﴿امتحن الله﴾ قلبه للتقوى، وبذلك تكون الاستقامة.

قوله عز وجل:

إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنَ وراءِ الحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ يَتَأْتُوا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجْهَلَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَنَخِفَّ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَّاهُمُ اللَّهُ وَنِعْمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿٨﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادونك﴾ إلى قوله ﴿رحيم﴾ نزلت في وفد بني تميم حيث كان الأقرع بن حابس والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم وغيرهم، وذلك أنهم وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخلوا المسجد ودنوا من حجر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وهي تسعة، فجعلوا ولم ينتظروا، فنادوا بجملتهم: يا محمد اخرج إلينا يا محمد اخرج إلينا فكان في فعلهم ذلك جفاء وبداءة وقلة توقير، فتربص رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج إليهم، فقال له الأقرع بن حابس: يا محمد، إن مدحي زين وذمي شين، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ويلك، ذلك الله تعالى» واجتمع الناس في المسجد، فقام خطيبهم وفخر، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت بن قيس بن شماس فخطب وذكر الله والإسلام، فأربى على خطيبهم، ثم قام شاعرهم فأنشد مفتخرًا، فقام حسان بن ثابت ففخر بالله وبالرسول وبالسالة، فكان أشعر من شاعرهم، فقال بعضهم لبعض: والله إن هذا الرجل لمؤتى له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ثم نزلت فيهم هذه الآية.

هذا تلخيص ما تظاهرت به الروايات في هذه الآية، وقد رواه موسى بن عقبة عن أبي سلمة عن الأقرع بن حابس، وفي مصحف ابن مسعود: «أكثرهم بنو تميم لا يعقلون»، و: ﴿الحجرات﴾: جمع حجرة.

وقرأ جمهور القراء: «الحُجُرَات» بضم الحاء والجيم، وقرأ أبو جعفر القاري وحده: «الحُجَرَات» بضم الحاء وفتح الجيم.

وقوله تعالى: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ يعني في الثواب عند الله وفي انبساط نفس النبي صلى الله عليه وسلم وقضائه لحوائجهم ووده لهم، وذلك كله خير، لا محالة أن بعضه ازوي بسبب جفائهم.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ترجية لهم وإعلام بقبوله توبة التائب وغفرانه ورحمته لمن أناب ورجع.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾ سببها أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق مصدقًا، فروي أنه كان معاديًا لهم فأراد إذايتهم، فرجع من

بعض طريقه وكذب عليهم، قاله الضحاك، وقال للنبي صلى الله عليه وسلم: إنهم منعوني الصدقة وطرودوني وارتدوا، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم بغزوهم، ونظر في ذلك، وبعث خالد بن الوليد إليهم، فورده وفدهم منكبين لذلك، وروي عن أم سلمة وابن عباس أن الوليد بن عقبة لما قرب منهم خرجوا إليه متلقين له، فرآهم على بعد، ففزع منهم، وظن بهم الشر وانصرف، فقال ما ذكرناه، وروي أنه لما قرب منهم بلغه عنهم أنهم قالوا: لا نعطيهم الصدقة ولا نعطيهم، فعمل على صحة هذا الخبر وانصرف، فقال ما ذكرناه فنزلت الآية بهذا السبب، والوليد على ما ذكر مجاهد هو المشار إليه بالفاسق وحكى الزهراوي قالت أم سلمة: هو الوليد بن عقبة.

قال القاضي أبو محمد: ثم هي باقية فيمن اتصف بهذه الصفة غاب الدهر.

والفسق: الخروج عن نهج الحق، وهو مراتب متباينة، كلها مظنة للكذب وموضع تثبت وتبين، وتأس القائلون بقبول خبر الواحد بما يقتضيه دليل خطاب هذه الآية، لأنه يقتضي أن غير الفاسق إذا جاء نبيا أن يعمل بحسبه، وهذا ليس باستدلال قوي وليس هذا موضع الكلام على مسألة خبر الواحد.

وقرأ الجمهور من القراء: «فتبينوا» من التبين. وقرأ الحسن وابن وثاب وطلحة والأعمش وعيسى: «فتثبتوا».

﴿وَأَنْ﴾ في قوله: ﴿أَنْ تَصِيْبُوا﴾ مفعول من أجله، كأنه قال: مخافة ﴿أَنْ تَصِيْبُوا﴾. قال قتادة: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما نزلت هذه الآية: التثبت من الله والعجلة من الشيطان. قال منذر بن سعيد هذه الآية ترد على من قال: إن المسلمين كلهم عدول حتى تثبت الجرحه، لأن الله تعالى أمر بالتبين قبل القبول.

قال القاضي أبو محمد: فالمجهول الحال يخشى أن يكون فاسقا والاحتياط لازم. قال النقاش «تبينوا» أبلغ، لأنه قد يثبت من لا يتبين.

وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ توبيخ للكذبة ووعيد للفضيحة، أي فليفكر الكاذب في أن الله عز وجل يفضحه على لسان رسوله؛ ثم قال: ﴿لَوْ يَطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾ أي لشقيتم وهلكتم، والعنت: المشقة، أي لو يطيعكم أيها المؤمنون في كثير مما ترونه باجتهادكم وتقدمكم بين يديه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ﴾ الآية، كأنه قال: ولكن الله أنعم بكذا وكذا، وفي ذلك كفاية وأمر لا تقومون بشكره فلا تتقدموا في الأمور، واقنعوا بإنعام الله عليكم، وحجب الله تعالى الإيمان وزينه بأن خلق في قلوب المؤمنين حبه وحسنه، وكذلك تكره الكفر والفسق والعصيان، وحكى الرماني عن الحسن أنه قال: حبيب الإيمان بما وصف من الثواب عليه وكره الثلاثة المقابلة للإيمان بما وصف من العقاب عليها.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ رجوع من الخطاب إلى ذكر الغيب، كأنه قال: ومن فعل هذا وقبله وشكر عليه فأولئك هم الراشدون.

وقوله تعالى: ﴿فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ مصدر مؤكد لنفسه، لأن ما قبله هو بمعناه، إن التحبيب والتزيين هو نفس الفضل، وقد يجيء المصدر مؤكداً لما قبله إذا لم يكن هو نفس ما قبله، كقولك جاءني زيد حقاً ونحوه وكان قتادة رحمه الله يقول: قد قال الله تعالى لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعِتِمَ﴾، وأنتم والله أسخف الناس رأياً، وأطيش أحلاماً، فليتهم رجل نفسه، وليتصح كتاب الله تعالى.

قوله عز وجل:

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَجَنِّبُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١١﴾

﴿طائفتان﴾ مرفوع بإضمار فعل. والطائفة: الجماعة. وقد تقع على الواحد، واحتج لذلك بقوله تعالى: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ [التوبة: ١٢٢]. ورأى بعض الناس أن يشهد حداً لزنا رجل واحد. فهذه الآية الحكم فيها في الأفراد وفي الجماعات واحد.

واختلف الناس في سبب هذه الآية. فقال أنس بن مالك والجمهور سببها: ما وقع بين المسلمين والمتحزبين منهم مع عبد الله بن أبي ابن سلول حين مر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوجه إلى زيارة سعد بن عباد في مرضه. فقال عبد الله بن أبي لما غشيه حمار رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تغبروا علينا ولقد أذانا نتن حمارك. فرد عليه عبد الله بن رواحة الحديث بطوله. فتلاحي الناس حتى وقع بينهم ضرب بالجريد، ويروى بالحديد. وقال أبو مالك والحسن سببها: أن فرقتين من الأنصار وقع بينهما قتال. فأصلحه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد جهد ونزلت الآية في ذلك وقال السدي: كانت بالمدينة امرأة من الأنصار يقال لها أم بدر ولها زوج من غيرهم. فوقع بينهما شيء أوجب أن يأنف لها قومها وله قومه. فوقع قتال نزلت الآية بسببه.

و: ﴿بغت﴾ معناه: طلبت العلو بغير الحق، ومدافعة الفئة الباغية متوجه في كل حال وأما التهيؤ لقتالها فمع الولاة. وقيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: أمشركون أهل صفين والجميل؟ قال: لا. من الشرك فروا. قيل أمنافقون؟ قال: لا. لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً. قيل فما حالهم؟ قال: إخواننا بغوا علينا. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: حكم الله في الفئة الباغية أن لا يجهز على جريح. ولا يطلب هارب. ولا يقتل أسير. و: ﴿تفيء﴾ معناه: ترجع. والإقسط: الحكم بالعدل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ يريد إخوة الدين. وقرأ الجمهور من القراء: «بين أخويكم» وذلك رعاية لحال أقل عدد يقع فيه القتال والتشاجر والجماعة متى فصل الإصلاح فإنما هو بين رجلين رجلين. وقرأ ابن عامر والحسن بخلاف عنه: «بين إخوانكم».

وقرأ ابن سيرين وزيد بن ثابت وابن مسعود والحسن وعاصم الجحدري وحمام بن سلمة: «بين إخوانكم». وهي حسنة. لأن الأكثر من جمع الأخ في الدين ونحوه من النسب إخوان. والأكثر في جمعه من النسب إخوة وإخاء. قال الشاعر: [الطويل]

وجدتم أحاكم دوننا إذ نسيتم وأي بني الإخاء تنبو مناسبة

وقد تتداخل هذه الجموع في كتاب الله. فمنه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أو بيوت إخوانكم فهذا جاء على الأقل من الاستعمال.

قوله عز وجل:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرَكُم مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّقَبِّ بِئْسَ الْأَسْمُ الْقُسُوفُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُم الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحْسَبُوا

وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ

تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

هذه الآيات والتي بعدها نزلت في خلق أهل الجاهلية. وذلك لأنهم كانوا يجرون مع الشهوات نفوسهم لم يقومهم أمر من الله ولا نهى. فكان الرجل يسطو ويهمز ويلمز وينبز بالألقاب ويظن الظنون. فيتكلم بها. ويغتاب ويفتخر بنسبه إلى غير ذلك من أخلاق النفوس البطالة. فنزلت هذه الآية تأديباً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم. وذكر بعض الناس لهذه الآيات أسباباً. فمما قيل: إن هذه الآية: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ﴾ نزلت بسبب عكرمة بن أبي جهل وذلك أنه كان يمشي بالمدينة مسلماً، فقال له قوم: هذا ابن فرعون هذه الأمة، فعز ذلك عليه وشكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال القاضي أبو محمد: والقوي عندي أن هذه الآية نزلت تقويماً كسائر أمر الشرع ولو تتبعنا الأسباب لكانت أكثر من أن تحصى.

و: ﴿يسخر﴾ معناه: يستهزئ. والهزاء إنما يترتب متى ضعف امرؤ إما لصغر وإما لعلة حادثة، أو لرزية أو لنقيصة يأتيها، فنهى المؤمنون عن الاستهزاء في هذه الأمور وغيرها نهياً عاماً، فقد يكون ذلك المستهزأ به خيراً من الساخر، والقوم في كلام العرب: واقع على الذكران، وهو من أسماء الجمع: كالرھط والنفر. وقول من قال: إنه من القيام أو جمع قائم ضعيف، ومنه قول الشاعر وهو زهير: [الوافر]

وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء

وهذه الآية أيضاً تقتضي اختصاص القوم بالذكران، وقد يكون مع الذكران نساء فيقال لهم قوم على تغليب حال الذكور، ثم نهى تعالى النساء عما نهى عنه الرجال من ذلك.

وقرأ أبي بن كعب وابن مسعود: «عسوا أن يكونوا»، «وعسين أن يكن».

و: ﴿تلمزوا﴾، معناه: يطعن بعضكم على بعض بذكر النقائص ونحوه، وقد يكون اللمز بالقول وبالإشارة ونحوه مما يفهمه آخر، والهمز لا يكون إلا باللسان، وهو مشبه بالهمز بالعود ونحوه مما يقتضي المماسه، قال الشاعر [رؤية]:

ومن همزنا عزه تبركنا

وقيل لأعرابي: أتهمز الفأرة؟ فقال الهر يهمزها. وحكى الثعلبي أن اللمز ما كان في المشهد والهمز ما كان في المغيب. وحكى الزهراوي عن علي بن سليمان عكّه من ذلك فقال: الهمز أن يعيب حضرة واللمز في الغيبة. ومنه قوله تعالى: ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾ [الهمزة: ١] ومنه قوله تعالى: ﴿ومنهم من يلزمك في الصدقات﴾ [التوبة: ٥٨].

وقرأ الجمهور: «تلمزوا» بكسر الميم. وقرأ الأعرج والحسن: «تلمزوا» بضم الميم. قال أبو عمرو بن العلاء: هي عربية. قراءتنا بالضم وأحياناً بالكسر.

وقوله تعالى: ﴿أنفسكم﴾ معناه: بعضكم بعضاً كما قال: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ [النساء: ٢٩] كان المؤمنين كنفس واحدة إذ هم إخوة. فهم كما قال صلى الله عليه وسلم: «كالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى سائرته بالسهر والحمى» وهم كما قال أيضاً: «كالبنان يشد بعضه بعضاً». والتنازع: التلقب والتبذير واللقب واحد. أو اللقب: هو ما يعرف به الإنسان من الأسماء التي يكره سماعها. وروي أن بني سلمة كانوا قد كثرت فيهم الألقاب، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً منهم فقال له: يا فلان، فقيل له: إنه يغضب من هذا الاسم، ثم دعا آخر كذلك. فنزلت الآية في هذا. وليس من هذا قول المحدثين سليمان الأعمش. وواصل الأحمد. ونحوه ما تدعو الضرورة إليه وليس فيه قصد استخفاف وأذى. وقد قال عبد الله بن مسعود لعلقمة: وتقول أنت ذلك يا أعور. وأسند النقاش إلى عطاء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كنوا أولادكم؟ قال عطاء: مخافة الألقاب. وقال ابن زيد. معنى: ﴿ولا تنازعوا بالألقاب﴾ أي لا يترل أحد لأحد: يا يهودي بعد إسلامه. ولا يا فاسق بعد توبته. ونحو هذا. وحكى النقاش أن كعب بن مالك وابن أبي حدرد تلاحيا، فقال له كعب: يا أعرابي. يريد أن يبعده من الهجرة. فقال له الآخر: يا يهودي. يريد لمخالطة الأنصار اليهود في يثرب. فنزلت الآية.

وقوله تعالى: ﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: بئس اسم تكتسبونه بعصيانكم وبزكم بالألقاب فتكونون فساقاً بالمعصية بعد إيمانكم. والثاني: بئس ما يقول الرجل لأخيه: يا فاسق بعد إيمانه. وقال الرماني: هذه الآية تدل على أنه لا يجتمع الفسق والإيمان.

قال القاضي أبو محمد: وهذه نزعة اعتزالية

ثم شدد تعالى عليهم النهي. بأن حكم بظلم من لم يتب ويقطع عن هذه الأشياء التي نهى عنها. ثم أمر تعالى المؤمنين باجتنب كثير من الظن. وأن لا يعملوا ولا يتكلموا بحسبه، لما في ذلك وفي التجسس

من التقاطع والتدابير. وحكم على بعضه بأنه ﴿إثم﴾: إذ بعضه ليس بإثم.. ولا يلزم اجتنابه وهو ظن الخير بالناس وحسنه بالله تعالى. والمظنون من شهادات الشهود والمظنون به من أهل الشر. فإن ذلك سقوط عدالته وغير ذلك هي من حكم الظن به. وظن الخير بالمؤمن محمود والظن المنهي عنه: هو أن تظن سوءاً برجل ظاهره الصلاح. بل الواجب تنزيل الظن وحكمه وتأول الخير. وقال بعض الناس: ﴿إثم﴾ معناه: كذب. ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث. وقال بعض الناس: معنى: ﴿إن بعض الظن إثم﴾ أي إذا تكلم الظان إثم. وما لم يتكلم فهو في فسحة. لأنه لا يقدر على دفع الخواطر التي يبيحها قول النبي صلى الله عليه وسلم: «الحزم سوء الظن».

قال القاضي أبو محمد: وما زال أولو العلم يحترسون من سوء الظن ويسدون ذرائعه. قال سلمان الفارسي: إني لأعد غراف قُدري مخافة الظن. وذكر النقاش عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: احترسوا من الناس بسوء الظن. وكان أبو العالية يختم على بقية طعامه مخافة سوء الظن بخادمه.

وقال ابن مسعود: الأمانة خير من الخاتم. والخاتم خير من ظن السوء.

وقوله: ﴿ولا تجسسوا﴾ أي لا تبحثوا على مخبآت أمور الناس وادفعوا بالتي هي أحسن. واجتروا بالظواهر الحسنة.

وقرأ الحسن وأبو رجاء وابن سيرين والزهديون: «لا تحسسوا» بالحاء غير منقوطة. وقال بعض الناس: التجسس بالجيم في الشر. والتحسس بالحاء في الخير. وهكذا ورد القرآن، ولكن قد يتداخلان في الاستعمال. وقال أبو عمرو بن العلاء: التجسس: ما كان من وراء وراء. والتحسس بالحاء: الدخول والاستعلام. وصح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً». وذكر الثعلبي حديث حراسة عمرو بن عوف ووجودهما الشرب في بيت ربيعة بن أمية بن خلف. وذكر أيضاً حديثه في ذلك مع أبي محجن الثقفي. وقال زيد بن وهب. قيل لابن مسعود: هل لك في الوليد بن عقبة تقطر لحيته خمرأ؟ فقال: إنا نهينا عن التحسس. فإن يظهر لنا شيء أخذنا به.

﴿ولا يغتب﴾ معناه: ولا يذكر أحدكم من أخيه شيئاً هو فيه يكره سماعه. وروي أن عائشة قالت عن امرأة: ما رأيت أجمل منها إلا أنها قصيرة، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: «اغتبها، نظرت إلى أسوأ ما فيها فذكرته» وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا ذكرت ما في أخيك فقد اغتبته. وإذا ذكرت ما ليس فيه فقد بهته». وفي حديث آخر: «الغيبة أن تذكر المؤمن بما يكره». قيل: وإن كان حقاً. قال: إذا قلت باطلاً فذلك هو البهتان». وقال معاوية بن قرة وأبو إسحاق السبيعي: إذا مر بك رجل أقطع. فقلت: ذلك الأقطع، كان ذلك غيب. وحكى الزهراوي عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الغيبة أشد من الزنا، لأن الزاني يتوب فيتوب الله عليه. والذي يغتاب يتوب فلا يتاب عليه حتى يستحل».

قال القاضي أبو محمد: وقد يموت من اغتیب، أو يأبى.

وروي أن رجلاً قال لابن سيرين: إني قد اغتبتك فحللني. فقال له ابن سيرين إني لا أحل ما حرم

الله. والغيبة مشتقة من غاب يغيب. وهي القول في الغائب واستعملت في المنكروه. ولم يبح في هذا المعنى إلا ما تدعو الضرورة إليه من تجريح في الشهود وفي التعريف لمن استنصح في الخطاب ونحوهم لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «أما معاوية فصعلوك لا مال له». وما يقال في الفسقة أيضاً وفي ولاية الجور ويقصد به التحذير منه. ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أعن الفاجر ترعون؟ اذكروا الفاجر بما فيه حتى يعرفه الناس إذا لم تذكروه» ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «بئس ابن العشيرة». ثم مثل تعالى الغيبة بأكل لحم ابن آدم الميت، والعرب تشبه الغيبة بأكل اللحم. فمثله قول الشاعر [سويد بن أبي كاهل اليشكري]: [الرملة]

فإذا لاقيته عظمني وإذا يخلو له لحمي رجع

ويروى فيحيني إذا لاقيته.

ومنه قول الآخر: [المقنع الكندي].

وإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

فوقفهم الله تعالى على جهة التوبيخ بقوله: ﴿أُحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ فالجواب عن هذا: لا. وهم في حكم من يقولها. فخطبوا على أنهم قالوا لا. فقيل لهم: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ وبعد هذا مقدر تقديره: فكذلك فأكروها الغيبة التي هي نظير ذلك. وعلى هذا المقدر يعطف قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ قاله أبو علي الفارسي. وقال الرماني: كراهية هذا اللحم يدعو إليها الطبع. وكراهية الغيبة يدعو إليها العقل. وهو أحق أن يجاب. لأنه بصير عالم. والطبع أعمى جاهل.

وقرأ الجمهور: «مَيْتًا» بسكون الياء. وقرأ نافع وابن القعقاع وشيبة ومجاهد: «مَيْتًا» بكسرها والشد. وقرأ أبو حيوة: «فَكَرِهْتُمُوهُ» بضم الكاف وشد الراء.

ورواها أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم. ثم أعلم بأنه ﴿تَوَابٌ رَحِيمٌ﴾ إبقاء منه تعالى وإمهالاً وتمكيناً من التوبة.

قوله عز وجل:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿من ذكر وأنثى﴾ يحتمل أن يريد آدم وحواء. فكانه قال: إنا خلقنا جميعكم من آدم وحواء. ويحتمل أن يريد الذكر والأنثى اسم الجنس. فكانه قال: إنا خلقنا كل واحد منكم من ماء ذكر وماء أنثى. وقصد هذه الآية التسوية بين الناس. ثم قال تعالى: ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾ أي لئلا تفاخروا ويريد بعضكم أن يكون أكرم من بعض. فإن الطريق إلى الكرم غير هذا: ﴿إن أكرمكم عند الله اتقاكم﴾ وروى أبو بكره: قيل يا رسول الله: من خير الناس؟ قال: «من طال عمره وحسن عمله». وفي

حديث آخر من خير الناس؟ قال: «أمرهم بالمعروف. وأنهاهم عن المنكر. وأوصلهم للرحم وأتقاهم». وحكى الزهراوي أن سبب هذه الآية غضب الحارث بن هشام وعتاب بن أسيد حين أذن بلال يوم فتح مكة على الكعبة، وحكى الثعلبي عن ابن عباس أن سببها قول ثابت بن قيس لرجل لم يفسح عند النبي صلى الله عليه وسلم: يا ابن فلانة، فوبخه النبي صلى الله عليه وسلم، وقال له: «إنك لا تفضل أحداً إلا في الدين والتقوى»، فنزلت هذه الآية ونزل الأمر بالتفصح في ذلك أيضاً، والشعوب: جمع شعب وهو أعظم ما يوجد من جماعات الناس مرتبطاً بنسب واحد، ويتلوه القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الأسرة والفصيلة: وهما قرابة الرجل الأذنون فمضر وربيعه وحمير شعوب، وقيس وتميم ومذحج ومراد قبائل مشبهة بقبائل الرأس، «لأنها قطع تقابلت» وقريش ومحارب وسليم عمارات، وبنو قصي وبنو مخزوم بطون، وبنو هاشم وبنو أمية أفخاذ، وبنو عبد المطلب أسرة وفصيلة، وقال ابن جبير: الشعوب: الأفخاذ. وروي عن ابن عباس الشعوب: البطون، وهذا غير ما تمالأ عليه اللغويون. قال الثعلبي، وقيل: الشعوب في العجم والقبائل في العرب، والأسباط في بني إسرائيل. وأما الشعب الذي هو في همدان الذي ينسب إليه الشعبي فهو بطن يقال له الشعب.

قال القاضي أبو محمد: وقيل للأمم التي ليست بعرب: شعوبية، نسبة إلى الشعوب، وذلك أن تفصيل أنسابها خفي فلم يعرف أحد منهم إلا بأن يقال: فارسي تركي رومي زناتي. فعرفوا بشعوبهم وهي أعم ما يعبر به عن جماعتهم، ويقال لهم الشعوبية بفتح الشين، وهذا من تغيير النسب، وقد قيل فيهم غير ما ذكرت، وهذا أولى عندي.

وقرأ الأعمش: «لتعارفوا» وقرأ عبد الله بن عباس: «لتعرفوا أن»، على وزن تفعلوا بكسر العين وفتح الألف من «أن»، ويأعمال «لتعرفوا» فيها، ويحتمل على هذه القراءة أن تكون اللام في قوله: «لتعرفوا» لام كي، ويضطرب معنى الآية مع ذلك، ويحتمل أن تكون لام الأمر، وهو أجود في المعنى، ويحتمل أن يكون المفعول محذوفاً تقديره: الحق، وإذا كانت لام كي فكأنه قال: يا أيها الناس أنتم سواء من حيث أنتم مخلوقون لأن تتعارفوا ولأن تعرفوا الحقائق، وأما الشرف والكرم فهو بتقوى الله تعالى وسلامة القلوب. وقرأ ابن مسعود: «لتعارفوا بينكم وخيركم عند الله أتقاكم». وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من سره أن يكون أكرم الناس، فليتق الله». ثم نبه تعالى على الحذر بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي بالمتقي الذي يستحق رتبة الكرم في الإيمان، أي لم تصدقوا بقلوبكم ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾. والإسلام يقال بمعنيين، أحدهما: الدين يعم الإيمان والأعمال، وهو الذي في قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] والذي في قوله صلى الله عليه وسلم: «بني الإسلام على خمس» والذي في تعليم النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل حين قال له: ما الإسلام؟ قال: بأن تعبد الله وحده ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان، والذي في قوله لسعد بن أبي وقاص: «أو مسلماً، إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه» الحديث، فهذا الإسلام ليس هو في قوله: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ والمعنى الثاني للفظ الإسلام: هو الاستسلام والإظهار الذي يستعصم به ويحقق الدم، وهذا هو الإسلام في قوله: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾، و﴿الإيمان﴾ الذي هو التصديق أحسن من الأول وأعم بوجه، ثم صرح لهم بأن

﴿الإيمان﴾ لم يدخل قلوبهم ثم فتح لهم باب التوبة بقوله: ﴿وإن تطيعوا الله﴾ الآية، وطاعة الله ورسوله في ضمنها الإيمان والأعمال.

وقرأ جمهور القراء: «لا يلتكم» من لات يليت إذا نقص، يقال: لاته حقه إذا نقصه منه، ولت السلطان إذا لم يصدقه فيما سأل عنه. وقرأ أبو عمرو والأعرج والحسن وعمر: «لا يالتكم» من ألت يالت وهو بمعنى: لات، وكذلك يقال: ألت بكسر اللام يالت، ويقال أيضاً في معنى لات، ألت يولت ولم يقرأ بهذه اللغة وباقي الآية ترجية.

قوله عز وجل:

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿إنما﴾ في هذه الآية حاصرة يعطي ذلك المعنى. وقوله تعالى: ﴿ثم لم يرتابوا﴾ أي لم يشكوا في إيمانهم ولم يداخلهم ريب ﴿وهم الصادقون﴾، إذ جاء فعلهم مصدقاً لقولهم، ثم أمره تعالى بتوبيخهم بقوله: ﴿قل أتعلمون الله بدينكم﴾، أي بقولكم: ﴿آمناء﴾ [الحجرات: ١٤] وهو يعلم منكم خلاف ذلك، لأنه العليم بكل شيء.

وقوله: ﴿يؤمنون عليك أن أسلموا﴾ نزلت في بني أسد أيضاً، وذلك أنهم قالوا في بعض الأوقات للنبي صلى الله عليه وسلم: إنا آمناء بك واتبعناك ولم نحاربك كما فعلت محارب خصفه وهوازن غطفان وغيرهم، فنزلت هذه الآية، حكاية الطبري وغيره. وقرأ ابن مسعود: «يؤمنون عليك إسلامهم». وقوله يحتمل أن يكون مفعولاً صريحاً. ويحتمل أن يكون مفعولاً من أجله.

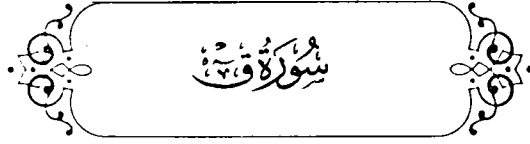
وقوله: ﴿بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان﴾ بزعمكم إذ تقولون آمنا، فقد لزمكم أن الله مان عليكم، ويدلك على هذا المعنى قوله: ﴿إن كنتم صادقين﴾ فتعلق عليهم الحكمان هم ممنون عليهم على الصدق وأهل أن يقولوا أسلمنا من حيث هم كذبة.

وقرأ ابن مسعود: «إذ هداكم».

وقوله تعالى: ﴿يمن عليكم﴾ يحتمل أن يكون بمعنى: ينعم كما تقول: من الله عليك، ويحتمل أن يكون بمعنى: يذكر إحسانه فيجيء معادلاً لـ ﴿يؤمنون عليك﴾، وقال الناس قديماً: إذا كفرت النعمة حسنت المنة. وإنما المنة المبطلة للصدقة المكروهة ما وقع دون كفر النعمة.

وقرأ أبو جعفر ونافع وشيبة وقتادة وابن وثاب: «تعملون» بالتاء على الخطاب. وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية أبان: «يعملون» بالياء من تحت على ذكر الغيب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



وهي مكية بإجماع من المتأولين، روى أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من قرأ سورة «ق» هون الله عليه الموت وسكراته».

قوله عز وجل:

قَالَ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاثِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَمْ ذَا مِتْنَا وَكُنَّا نُرَآبِئَ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةٌ وَذِكْرٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾

قال ابن عباس: ﴿ق﴾ اسم من أسماء القرآن. وقال أيضاً اسم من أسماء الله تعالى. وقال قتادة والشعبي: هو اسم السورة، وقال يزيد وعكرمة ومجاهد والضحاك: هم اسم الجبل المحيط بالدنيا، وهو فيما يزعمون من زمردة خضراء، منها خضرة السماء وخضرة البحر. و﴿المجيد﴾ الكريم في أوصافه الذي جمع كل معلومة.

و: ﴿ق﴾ على هذه الأقوال: مقسم به و﴿القرآن المجيد﴾، وجواب القسم منتظر. واختلف الناس فيه، فقال ابن كيسان جوابه: ﴿ما يلفظ من قول﴾ [ق: ١٨]، وقيل الجواب: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾ [ق: ٣٧] وقال الزهراوي عن سعيد الأخفش الجواب: ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم﴾ وضعفه النحاس، وقال الكوفيون من النحاة الجواب: ﴿بل عجبوا﴾، والمعنى: لقد عجبوا. قال منذر بن سعيد: إن جواب القسم في قوله: ﴿ما يبدل القول لدي﴾ [ق: ٢٩]، وفي هذه الأقوال تكلف وتحكم على اللسان.

وقال الزجاج والمبرد والأخفش: الجواب مقدر تقديره: ﴿ق﴾، و﴿القرآن المجيد﴾ لتبعث، وهذا قول حسن وأحسن منه: أن يكون الجواب الذي يقع عنه الإضراب بـ ﴿بل﴾، كأنه قال: ﴿ق﴾ و﴿القرآن المجيد﴾ ما ردوا أمرك بحجة، أو ما كذبوك ببرهان، ونحو هذا مما لا بد لك من تقديره بعد الذي قدر

الزجاج، لأنك إذا قلت الجواب: لتبعثن فلا بد بعد ذلك أن يقدر خبر عنه يقع الإضراب، وهذا الذي جعلناه جواباً وجاء المقدر أخصر. وقال جماعة من المفسرين في قوله: ﴿ق﴾ إنه حرف دال على الكلمة، على نحو قول الشاعر [الوليد بن المغيرة]: [الرجز]

قلت لها قفي فقالت قاف

واختلفوا بعد، فقال القرطبي: هو دال على أسماء الله تعالى هي: قادر، وقاهر، وقريب، وقاض، وقابض، وقيل المعنى: قضي الأمر من رسالتك ونحوه، ﴿والقرآن المجيد﴾، فجواب القسم في الكلام الذي يدل عليه قاف. وقال قوم المعنى: قف عند أمرنا. وقيل المعنى: قهر هؤلاء الكفرة، وهذا أيضاً وقع عليه القسم ويحتمل أن يكون المعنى: قيامهم من القبور حق، ﴿والقرآن المجيد﴾، فيكون أول السورة من المعنى الذي اطرده بعد، وعلى هذه الأقوال فثم كلام مضمرة عنه وقع الإضراب، كأنه قال: ما كذبوك ببرهان، ونحو هذا مما يليق مظهراً.

وقرأ جمهور من القراء ﴿ق﴾ بسكون الفاء. قال أبو حاتم: ولا يجوز غيرها إلا جواز سوء. قال القاضي أبو محمد: وهذه القراءة تحسن مع أن يكون ﴿ق﴾ حرفاً دالاً على كلمة. وقرأ الثقفى وعيسى: قاف بفتح الفاء، وهذه تحسن مع القول بأنها اسم للقرآن أو لله تعالى، وكذلك قرأ الحسن وابن أبي إسحاق بكسر الفاء، وهي التي في رتبة التي قبلها في أن الحركة للالتقاء وفي أنها اسم للقرآن. و﴿المجيد﴾ الكريم الأوصاف الكثير الخير.

واختلف الناس في الضمير في: ﴿عجبوا﴾ لمن هو فقال جمهور المتأولين: هو لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم لأن كل مفطور عجب من بعثة بشر رسول الله، لكن المؤمنون نظروا واهتدوا، والكافرون بقوا في عمايتهم وصموا وحاجوا بذلك العجب، ولذلك قال تعالى: ﴿فقال الكافرون هذا شيء عجب﴾. وقال آخرون بل الضمير في ﴿عجبوا﴾ للكافرين، وكرر الكلام تأكيداً ومبالغة. والإشارة بهذا يحتمل أن تكون إلى نفس مجيء البشر.

ويحتمل أن تكون إلى القول الذي يتضمنه الإنذار، وهو الخبر بالبعث، ويؤيد هذا القول ما يأتي بعد. وقرأ الأعرج وشيبة وأبو جعفر «إذا» على الخبر دون استفهام، والعامل ﴿رجع بعيد﴾، قال ابن جني ويحتمل أن يكون المعنى «إذا متنا بعد رجعتنا»، فيدل: ذلك ﴿رجع بعيد﴾ على هذا الفعل الذي هو بعد ويحل محل الجواب لقولهم: «إذا». والرجع: مصدر رجعت. وقوله ﴿بعيد﴾ في الأوهام والفكر كونه فأخبر الله تعالى رداً على قولهم بأنه يعلم ما تأكل الأرض من ابن آدم وما تبقى منه، وإن ذلك في الكتاب، وكذلك يعود في الحشر معلوماً ذلك كله.

و«الحفيظ»: الجامع الذي لم يفته شيء. وقال الرماني: ﴿حفيظ﴾ متبع أن يذهب بيلي ودروس، وروي في الخبر الثابت: أن الأرض تأكل ابن آدم إلا عجب الذنب، وهو عظم كالخردلة، فمنه يركب ابن آدم، وحفظ ما تنقص الأرض إنما هو ليعود بعينه يوم القيامة، وهذا هو «الحق». وذهب بعض الأصوليين إلى أن الأجساد المبعثرة المبعوثة يجوز أن تكون غير هذه، وهذا عندي خلاف لظاهر كتاب الله ولو كانت

غيرها فكيف كانت تشهد الأيدي والأرجل على الكفرة إلى غير ذلك مما يقتضي أن أجساد الدنيا هي التي تعود. وقال ابن عباس ومجاهد والجمهور، المعنى: ما تنقص من لحومهم وأبشارهم وعظامهم. وقال السدي معنى قوله: ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم﴾ أي ما يحصل في بطنها من موتاهم، وهذا قول حسن مضمنه الوعيد.

وقال ابن عباس أيضاً في ما حكى الثعلبي، معناه: قد علمنا ما تنقص أرض الإيمان من الكفرة الذين يدخلون في الإيمان، وهذا قول أجنبي من المعنى الذي قبل وبعده، وقبل قوله: ﴿بل كذبوا﴾ مضمراً، عنه وقع الإضراب تقديره: ما أجادوا النظر أو نحو هذا، والذي يقع عنه الإضراب بـ ﴿بل﴾، الأغلب فيه أنه منفي تقضي ﴿بل﴾ بفساده، وقد يكون أمراً موجباً تقضي ﴿بل﴾ بترك القول فيه لا بفساده، وقرأ الجمهور: ﴿لَمَّا﴾ بفتح اللام وشد الميم. وقرأ الجحدري: ﴿لَمَّا﴾ بكسر اللام وتخفيف الميم، قال أبو الفتح: هي كقولهم: أعطيته لما سألت، وكما في التاريخ: لخمس خلون، ونحو هذا، ومنه قوله تعالى: ﴿لا يجليها لوقتها﴾ [الأعراف: ١٨٧] ومنه قول الشاعر: [الوافر]

إذا هبت لقاربها الرياح

و: «المريج»: معناه: المختلط، قاله ابن زيد، أي بعضهم يقول ساحر، وبعضهم كاهن، وبعضهم شاعر إلى غير ذلك من تخليطهم، وكذلك عادت فكرة كل واحد منهم مختلطة في نفسها، قال ابن عباس: المريج: المنكر. وقال مجاهد: الملبس، والمريج المضطرب أيضاً، وهو قريب من الأول، ومنه الحديث: مرجت عهود الناس ومنه ﴿مرج البحرين﴾ [الفرقان: ٥٣، الرحمن: ١٩] وقال الشاعر [أبو دؤاد]:

مرج الدين فأعددت له مشرف الحارك محبوبك الكند

ثم دل تعالى على العبرة بقوله: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء﴾ الآية، ﴿وزيناها﴾ معناه: بالنجوم. و«الفروج» الفطور والشقوق خلالها وأثناءها، قاله مجاهد وغيره، وحكى النقاش أن هذه الآية تعطي أن السماء مستديرة، وليس الأمر كما حكى، إذا تدبر اللفظ وما يقتضي. و«الرواسي»: الجبال. و«الزوج»: النوع. و«البهيج» قال ابن عباس وقتادة وابن زيد هو: الحسن المنظر، وقوله عز وجل: ﴿تبصرة وذكرى﴾ منصوب على المصدّر بفعل مضمّر. و: «المنيب» الراجع إلى الحق عن فكرة ونظر. قال قتادة: هو المقبل بقلبه إلى الله وخص هذه الصنيفة بالذكر تشريفاً من حيث هي المنتفعة بالتبصرة والذكرى، وإلا فهذه المخلوقات هي تبصرة وذكرى لكل بشر. وقال بعض النحويين: ﴿تبصرة وذكرى﴾ مفعولان من أجله، وهذا يحتمل الأول أرجح.

قوله عز وجل:

وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ

الرَّسِّ وَشَمُودَ ﴿١٣﴾ وَعَادَ وَفِرْعَوْنَ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٤﴾ وَأَصْحَابُ الْآيَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٥﴾ أَفَعِيبَتِ الْخَلْقِ الْأَوَّلُ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿ماء مبارك﴾ قيل يعني جميع المطر، كله يتصف بالبركة وإن ضر بعضه أحياناً، ففيه مع ذلك الضر الخاص البركة العامة. وقال أبو هريرة: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا جاء المطر فسالت الميازيب قال: «لا محل عليكم العام» وقال بعض المفسرين: ﴿ماء مبارك﴾ يريد به ماء مخصوصاً خالصاً للبركة ينزله الله كل سنة، وليس كل المطر يتصف بذلك. ﴿وحب الحصيد﴾ الخنطة. و: ﴿باسقات﴾ مغناة: طويلات ذاهبات في السماء، ومنه قول ابن نوفل في ابن هبيرة: [مجزوء الكامل مرفل] يا ابن الذين لمجدهم بسقت على قيس فزاره.

وروى قطبة بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ: «باسقات» بالصاد، قال أبو الفتح الأصل: السين وإنما الصاد بدل منه، لاستعلاء القاف. و«الطلع» أول ظهور التمر في الكفري وهو أبيض منضد كحب الرمان. فما دام ملتصقاً ببعضه ببعض فهو «نضيد»، فإذا خرج من الكفري تفرق فليس بنضيد. و: ﴿رزقاً﴾ نصب على المصدر والضمير في: ﴿به﴾ عائد على المطر. ووصف البلدة بـ «ميت» على تقدير القطر والبلد.

وقرأ الناس «ميتاً» مخففاً، وقرأ أبو جعفر وخالد «ميتاً» بالثقل.

ثم بين تعالى موضع الشبه فقال: ﴿كذلك الخروج﴾، هذه الآيات كلها إنما هي أمثلة وأدلة على البعث. و«الخروج» يريد به من القبور، «وأصحاب الرس» قوم كان لهم بئر عظيمة وهي «الرس»، وكل ما لم يطو من بئر أو معدن أو نحوه فهو رس. وأنشد أبو عبيدة للنابغة الجعدي:

سبقت إلى قرطبا هل تنالبة يحفرون الرساسا

وجاءهم نبي يسمى حنظلة بن صفوان فيما روي فجعلوه في «الرس» وردموا عليه. فاهلكهم الله، وقال كعب الأحبار في كتاب الزهراوي: «أصحاب الرس» هم أصحاب الأخدود وهذا ضعيف. لأن أصحاب الأخدود لم يكذبوا نبياً، إنما هو ملك أحرق قوماً. وقال الضحاك «الرس»: بئر قتل فيها صاحب ياسين، قال منذر وروي عن ابن عباس أنهم قوم عاد.

و«الأيكة»: الشجر الملتف، وهم قوم شعيب، والألف واللام من «الأيكة» غير معرفة، لأن «أيكة» اسم علم كطلحة يقال أيكة وليكة، فهي كالألف واللام في الشمس والقمر وفي الصفات الغالبة وفي هذا نظر. وقرأ «الأيكة» بالهمز أبو جعفر ونافع وشيبة وطلحة.

﴿وقوم تبع﴾ هم حمير و«تبع» - سم فيهم، يذهب تبع ويحيى تبع ككسرى في الفرس وقيصري في الروم، وكان أسعد أبو كرب أحد التابعة رجلاً صالحاً صخب حبرين فتعلم منهما دين موسى عليه السلام ثم إن قومه أنكروا ذلك عليه فندبهم إلى محاجة الحبرين، ف وقعت بينهم مجادلة، وانفقوا على أن يدخلوا

جميعهم النار التي في القربان، فمن أكلته فهو المبطل، فدخلوها فاحترق ﴿قوم تبع﴾، وخرج الجبران تعرق جباههما، فهلك القوم المخالفون وآمن سائر ﴿قوم تبع﴾ بدين الحبرين. وفي الحديث اختلاف كثير. أثبت أصح ذلك على ما في سير ابن هشام. وذكر الطبري عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تلعنوا تبعاً، فإنه كان قد أسلم» وحكى الثعلبي عن ابن عباس أن تبعاً كان نبياً.

وقوله تعالى: ﴿كل كذب الرسل﴾ قال سيبويه، التقدير: كلهم وحذف لدلالة كل عليه إيجازاً. و«الوعيد» الذي حق: هو ما سبق به القضاء من تعذيب الكفرة وإهلاك الأمم المكذبة، ففي هذا تخويف من كذب محمداً صلى الله عليه وسلم.

وقوله تعالى: ﴿أفعمينا﴾ توقيف للكفار وتوبيخ وإقامة للحجة الواضحة عليهم، وذلك أن جوابهم على هذا التوقيف هو لم يقع عي، ثم هم مع ذلك في لبس من الإعادة. وهذا تناقض، ويقال عي يعيى إذا عجز عن الأمر ويلج به، ويدغم هذا الفعل الماضي من هذا الفعل ولا يدغم المستقبل منه فيقال عي، ومنه قول الشاعر [عبيد بن الأبرص]:

عيوا بأمرهم كما عيت ببيضتها الحمامه

و«الخلق الأول» إنشاء الإنسان من نقطة على التدرج المعلوم، وقال الحسن: «الخلق الأول» آدم عليه السلام، حكاه الرماني، واللبس: الشك والريب واختلاط النظر. والخلق الجديد: البعث في القبور. قوله عز وجل:

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَنْتَلَقِي الْمَتَلَقِيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾

هذه آيات فيها إقامة حجج على الكفار في إنكارهم البعث والجزاء. والخلق: إنشاء الشيء على ترتيب وتقدير حكمي. و: ﴿الإنسان﴾ اسم الجنس. قال بعض المفسرين ﴿الإنسان﴾ هنا آدم عليه السلام و﴿توسوس﴾ معناه: تتحدث في فكرتها، وسمي صوت الحلي وسواساً لخفائه، والوسوسة إنما تستعمل في غير الخير، وقوله تعالى: ﴿نحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ عبارة عن قدرة الله على العبد، وكون العبد في قبضة القدرة، والعلم قد أحيط به، فالقرب هو بالقدرة والسلطان، إذ لا ينحجب عن علم الله باطن ولا ظاهر، وكل قريب من الأجرام بينه وبين قلب الإنسان حجب. و: ﴿الوريد﴾ عرق كبير في العنق، يقال: إنهما وريدان عن يمين وشمال. قال الفراء: هو ما بين الحلقوم والعلباوين وقال الحسن: ﴿الوريد﴾ الوتين.

قال الأثرم: هونهر الجسد هو في القلب الوتين، وفي الظهر الأبهري، وفي الذراع والفخذ: الأكلح والنسا وفي الخنصر: إلا سليم، و«الحبل»: اسم مشترك فخصصه بالإضافة إلى ﴿الوريد﴾، وليس هذا

بإضافة الشيء إلى نفسه بل هي كإضافة الجنس إلى نوعه كما تقول: لا يجوز حي الطير بلحمه.

وأما قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِيَانِ﴾ فقال المفسرون العامل في: ﴿إِذْ﴾، ﴿أَقْرَبَ﴾، ويحتمل عندي أن يكون العامل فيه فعلاً مضمرّاً تقديره: اذكر ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِيَانِ﴾، ويحسن هذا المعنى، لأنه أخبر خبراً مجرداً بالخلق والعلم بخطرات الأنفس والقرب بالقدرة والملك، فلما تم الإخبار، أخبر بذكر الأحوال التي تصدق هذا الخبر وتبين وروده عند السامع، فمنها ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِيَانِ﴾، ومنها مجيء سكرة الموت، ومنها النفخ في الصور ومنها مجيء كل نفس، و﴿المتلقيان﴾: الملكان الموكلان بكل إنسان: ملك اليمين الذي يكتب الحسنات، وملك الشمال الذي يكتب السيئات. قال الحسن: الحفظة: أربعة، اثنان بالنهار واثنان بالليل.

قال القاضي أبو محمد: ويؤيد ذلك الحديث، «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار» الحديث بكامله. ويروى أن ملك اليمين أمير على ملك الشمال، وأن العبد إذا أذنب يقول ملك اليمين للآخر ثبت لعله يتوب رواه إبراهيم التيمي وسفيان الثوري.

و﴿قعيد﴾ معناه: قاعد، وقال قوم هو بمنزلة أكيل، فهو بمعنى مقاعد وقال الكوفيون: أراد قعوداً فجعل الواحد موضع الجنس، والأول أصوب لأن المقاعد إنما يكون مع قعود الإنسان، وقال مجاهد: ﴿قعيد﴾: رصد ومذهب سيبويه أن التقدير عن اليمين قعيد، فاكتمى بذكر الآخر عن ذكر الأول ومثله عنده قول الشاعر [كثير عزة]: [الطويل]

وعزة ممطول معنى غريمها

ومثله قول الفرزدق: [الكامل]

إني ضمنت لمن أتاني ما جنى وأبى وكان وكنت غير غدور

وهذه الأمثلة كثيرة، ومذهب المبرد: أن التقدير عن اليمين ﴿قعيد﴾ وعن الشمال فأخر ﴿قعيد﴾ عن مكانه ومذهب الفراء أن لفظ ﴿قعيد﴾ يدل على الاثنين والجمع فلا يحتاج إلى تقدير غير الظاهر وقوله تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ قال الحسن بن أبي الحسن وقتادة: يكتب الملكان الكلام فيثبت الله من ذلك الحسنات، والسيئات، ويمحو غير ذلك، وهذا هو ظاهر الآية، قال أبو الجوزاء ومجاهد: يكتبان عليه كل شيء حتى أنه في مرضه، وقال عكرمة: المعنى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ خير أو شر، وأما ما خرج من هذا فإنه لا يكتب والأول أصوب، وروي أن رجلاً قال لجملة: حل، فقال ملك اليمين لا أكتبها، وقال ملك الشمال لا أكتبها، فأوحى الله إلى ملك الشمال أن اكتب ما ترك ملك اليمين، وروي نحوه عن هشام الحمصي وهذه اللفظة إذا اعتبرت فهي بحسب مشيه بغيره، فإن كان في طاعة فحل حسنة، وإن كان في معصية فهي سيئة والمتوسط بين هذين عسير الوجود ولا بد أن يقترن بكل أحوال المرء قرائن تخلصها للخير أو لخلافه. وحكى الثعلبي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن مقعد الملكين على الثنيتين، قلمهما اللسان، ومدادهما الريق» وقال الضحّاك والحسن: مقعدهما تحت الشعر، وكان الحسن يحب أن ينظف غفقه لذلك قال الحسن: حتى إذا مات طويت صحيفته وقيل له يوم

القيامة: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ [الإسراء: ١٤] عدل والله عليه من جعله حسيب نفسه. والرقيب: المراقب. والعتيد: الحاضر وقوله: ﴿وجاءت﴾ عطف عندي على قوله: ﴿إذ يتلقى﴾ فالتقدير: وإذ تجيء سكرة الموت، وجعل الماضي في موضع المستقبل تحقيقاً وثبتيّاً للأمر، وهذا أحث على الاستعداد واستشعار القرب، وهذه طريقة العرب في ذلك، ويبين هذا في قوله: ﴿ونفخ في الصور﴾ ﴿وجاءت كل نفس﴾ فإنها ضرورة بمعنى الاستقبال. وقرأ أبو عمرو: ﴿وجاءت سكرة﴾ بإدغام التاء في السين. و﴿سكرة الموت﴾: ما يعتري الإنسان عند نزاعه والناس فيها مختلفة أحوالهم، لكن لكل واحد سكرة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في نزاعه يقول: «إن للموت لسكرات».

وقوله: ﴿بالحق﴾ معناه: بقاء الله وفقد الحياة الدنيا. وفي مصحف عبد الله بن مسعود: «وجاءت سكرة الحق بالموت». وقرأها ابن جبير وطلحة، ويروى أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قالها كذلك لابنته عائشة وذلك أنها قعدت عند رأسه وهو ينازع فقالت: [الطويل]

لعمرك ما يغني الشراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

ففتح أبو بكر رضي الله عنه عينه فقال: لا نقولي هكذا، وقولي: «وجاءت سكرة الحق بالموت» ذلك ما كنت منه تحيد. وقد روي هذا الحديث على مشهور القراءة ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق﴾ فقال أبو الفتح: إن شئت علقت الباء بـ ﴿جاءت﴾، كما تقول: جئت بزيد، وإن شئت كانت بتقدير: ومعها الموت.

واختلف المتأولون في معنى: «وجاءت سكرة الحق بالموت» فقال الطبري وحكاه الثعلبي: «الحق» الله تعالى، وفي إضافة السكرة إلى اسم الله تعالى بعد وإن كان ذلك سائغاً من حيث هي خلق له، ولكن فصاحة القرآن وورصفه لا يأتي فيه هذا. وقال بعض المتأولين المعنى: وجاءت سكرة فراق الحياة بالموت وفراق الحياة حق يعرفه الإنسان ويحيد منه بأمله. ومعنى هذا الحيد: أنه يقول: أعيش كذا وكذا، فمتى فكر في قرب الموت حاد بذهنه وأمله إلى مسافة بعيدة من الزمن، وأيضاً فحذر الموت وتحركاته ونحو هذا حيد كله. وقد تقدم القول في النفخ في الصور مراراً. و: ﴿يوم الوعيد﴾ هو يوم القيامة وأضافه إلى الوعيد تخويفاً.

وقوله تعالى: ﴿وجاءت كل نفس معها﴾ وقرأ طلحة بن مصرف: «مَحَّها» بالحاء المثقلة. والسائق: الحاث على السير.

واختلف الناس في السائق والشهيد، فقال عثمان بن عفان ومجاهد وغيره: ملكان موكلان بكل إنسان أحدهما يسوقه والآخر من حفظته يشهد عليه. وقال أبو هريرة: السائق ملك، والشهيد: العمل وقال منذر بن سعيد: السائق: الملك والشهيد: النبي صلى الله عليه وسلم، قال وقيل: الشهيد: الكتاب الذي يلقاه منشوراً. وقال بعض النظار: ﴿سائق﴾، اسم جنس، و﴿شهيد﴾ كذلك، فالسائق للناس ملائكة يوكلون بذلك، والشهداء: الحفظة في الدنيا وكل ما يشهد.

وقال ابن عباس والضحاك: السائق ملك، والشهيد: جوارح الإنسان، وهذا يبعد على ابن عباس، لأن الجوارح إنما تشهد بالمعاصي.

وقوله تعالى: ﴿كل نفس﴾ يعم الصالحين، فإنما معناه: وشهيد بخيره، وشره، ويقوى في: ﴿شهيد﴾ اسم الجنس، فتشهد بالخير الملائكة والباقاع، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يسمع مدى صوت المؤذن إنس ولا جن ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة». وكذلك يشهد بالشر الملائكة والباقاع والجوارح. وقال أبو هريرة: السائق: ملك، والشهيد: العمل. وقال ابن مسلم: السائق: شيطان. حكاه عنه الثعلبي والقول في كتاب منذر بن سعيد وهو ضعيف.

قوله عز وجل:

لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي
﴿٢٣﴾ أَلَيْفَا فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كَفَّارٍ عَيْنِي ﴿٢٤﴾ مَتَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مَّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ
فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْصِمُوهُ لَدَىٰ وَقَدْ
قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾

قرأ الجحدري: «لقد كنت» على مخاطبة النفس وكذلك كسر الكافات بعد.

وقال صالح بن كيسان والضحاك وابن عباس معنى قوله: ﴿لقد كنت﴾ أي يقال للكافر الغافل من ذوي النفس التي معها السائق والشهيد إذا حصل بين يدي الرحمن وعاین الحقائق التي كان لا يصدق بها في الدنيا ويتغافل عن النظر فيها، ﴿لقد كنت في غفلة من هذا﴾، فلما كشف الغطاء عنك الآن احتد بصرك أي بصيرتك وهذا كما تقول: فلان حديد الذهن والفؤاد ونحوه، وقال مجاهد: هو بصر العين إذا احتد التفاته إلى ميزانه وغير ذلك من أهوال القيامة.

وقال زيد بن أسلم قوله تعالى: ﴿ذلك ما كنت منه تحيد﴾ [ق: ١٩] وقوله تعالى: ﴿لقد كنت﴾ الآية، مخاطبة لمحمد صلى الله عليه وسلم، والمعنى أنه خوطب بهذا في الدنيا، أي لقد كنت يا محمد في غفلة من معرفة هذا القصص والغيب حتى أرسلناك وأنعمنا عليك وعلمناك، ﴿فبصرك اليوم حديد﴾، وهذا التأويل يضعف من وجوه، أحدها أن الغفلة إنما تنسب أبداً إلى مقصر، ومحمد صلى الله عليه وسلم لا تقصير له قبل بعثته ولا بعده وثان: أن قوله: بعد هذا: ﴿وقال قرينه﴾ يقتضي أن الضمير إنما يعود على أقرب مذكور، وهو الذي يقال له ﴿فبصرك اليوم حديد﴾ وإن جعلناه عائداً على ذي النفس في الآية المتقدمة جاء هذا الاعتراض لمحمد صلى الله عليه وسلم بين الكلامين غير متمكن فتأمل: وثالث: أن معنى توقيف الكافر وتوبيخه على حاله في الدنيا يسقط، وهو أخرى بالآية وأولى بالرصف، والوجه عندي ما قاله الحسن وسالم بن عبد الله إنها مخاطبة للإنسان ذي النفس المذكورة من مؤمن وكافر.

و: ﴿فكشفنا عنك غطاءك﴾، قال ابن عباس: هي الحياة بعد الموت، وينظر إلى معنى كشف

الغطاء قول النبي صلى الله عليه وسلم: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا».

وقوله تعالى: ﴿وقال قرينه هذا ما لدي عتيد﴾، قال جماعة من المفسرين: ﴿قرينه﴾ من زبانية جهنم، أي قال هذا العذاب الذي لدي لهذا الإنسان الكافر حاضر عتيد، ففي هذا تحريض على الكافر واستعجال به. وقال قتادة وابن زيد: ﴿قرينه﴾ الملك الموكل بسوقه، فكأنه قال: هذا الكافر الذي جعل إلى سوقه، فهو لدي حاضر. وقال الزهراوي وقيل: ﴿قرينه﴾ شيطانه.

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف، وإنما أوقع فيه أن القرين في قوله: ﴿قال قرينه ربنا ما أطغيته﴾ هو شيطانه في الدنيا ومغويه بلا خلاف.

ولفظ القرين: اسم جنس، فسائقه قرين، وصاحبه من الزبانية قرين، وكاتب سيئاته في الدنيا قرين وتحتمله هذه الآية، أي هذا الذي أحصيته عليه عتيد لدي، وهو موجب عذابه، ومماشي الإنسان في طريقه قرين، وقال الشاعر [عدي بن زيد العبادي]: [الطويل]

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

والقرين الذي في هذه الآية، غير القرين الذي في قوله: ﴿قال قرينه ربنا ما أطغيته﴾ إذ المقارنة تكون على أنواع، وقال بعض العلماء: ﴿قرينه﴾ في هذه الآية: عمله قلباً وجارحاً، وقوله عز وجل: ﴿ألقيا في جهنم﴾ معناه: يقال ﴿ألقيا في جهنم﴾. واختلف الناس لم يقال ذلك؟ فقال جماعة من المفسرين: هو قول الملكين من ملائكة العذاب. وقال عبد الرحمن بن زيد في كتاب الزهراوي: هو قول للسائق والشهيد، وحكى الزهراوي أن المأمور بإلقاء الكافر في النار اثنان، وعلى هذين القولين لا نظر في قوله: ﴿ألقيا﴾. وقال مجاهد وجماعة من المتأولين: هو قول للقرين: إما السائق، وإما الذي هو من الزبانية حسبما تقدم واختلف أهل هذه المقالة في معنى قوله: ﴿ألقيا﴾ وهو مخاطبة لواحد، فقال المبرد معناه: القى القى، وإنما أراد تشية الأمر بمبالغة وتأكيده، فرد التشية إلى الضمير اختصاراً كما قال [امرؤ القيس]:

لفتك الأمين على نابل

يريد ارم ارم. وقال بعض المتأولين: «ألقين» فعوض من النون ألف كما تعوض من التنوين. وقال جماعة من أهل العلم بكلام العرب: هذا جرى على عادة العرب، وذلك أنها كان الغالب عندها أن تترافق في الأسفار ونحوها ثلاثة، فكل واحد منهم يخاطب اثنين، فكثر ذلك في أشعارها وكلامها حتى صار عرفاً في المخاطبة، فاستعمل في الواحد، ومن هذا قولهم في الأشعار: خليلي، وصاحبي، وقفانبك ونحوه، وقد جرى المحدثون على هذا الرسم، فيقول الواحد: حدثنا، وإن كان سمع وحده، ونظير هذه الآية في هذا القول قول الزجاج: يا حارسي اضربا عنقه، وهو دليل على عادة العرب، ومنه قول الشاعر [سويد بن كراع العكلي]: [الطويل]

فإن تزجراني بآبن عفان أنزجر وإن تدعاني أحم عرضاً ممنعا

وقرأ الحسن بن أبي الحسن: «ألقين» بتنوين الباء و: «كفار» مبالغة. و: «عنيد» معناه: غانده عن الحق أي منحرف عنه.

وقوله تعالى: «مناع للخير» لفظ عام للمال والكلام الحسن والمعاون على الأشياء. وقال قتادة ومجاهد وعكرمة، معناه: الزكاة المفروضة، وهذا التخصيص ضعيف، و: «معتد» معناه: بلسانه ويده. و: «مريب» معناه: متلبس بما يرتاب به، أراب الرجل: إذا أتى بريئة ودخل فيها. قال الثعلبي قيل نزلت في الوليد بن المغيرة.

وقال الحسن: «مريب» شك في الله تعالى ودينه.

وقوله تعالى: «الذي جعل» الآية يحتمل أن يكون «الذي» بدلاً من «كفار» ويحتمل أن يكون صفة له من حيث تخصص «كفار» بالأوصاف المذكورة فجاز وصفه بهذه المعرفة، ويحتمل أن يكون «الذي» ابتداء وخبره قوله: «فألقياه» ودخلت الفاء في قوله: «فألقياه» للإبهام الذي في «الذي»، فحصل الشبه بالشرط وفي هذا نظر.

قال القاضي أبو محمد: ويقوى عندي أن يكون «الذي» ابتداء، ويتضمن القول حينئذ بني آدم والشياطين المغوين لهم في الدنيا، ولذلك تحرك القرين الشيطان المغوي في الدنيا، فرام أن يبرىء نفسه ويخلصها بقوله: «ربنا ما أظغيته» لأنه كذب من نفي الإطغاء عن نفس جملة، والحقيقة أنه أطغاه بالسوسة والتزين، وأطغاه الله بالخلق، والاختراع حسب سابق قضائه الذي هو عدل منه، لا رب غيره، وبوصف الضلال بالبعيد مبالغة، أي لتعذر رجوعه إلى الهدى.

وقوله تعالى: «لا تختصموا لدي» معناه: قال الله: «لا تختصموا لدي» بهذا النوع من المفاولة التي لا تفيد شيئاً إذ قد استوجب جميعكم النار، وقد أخبر بأنه تقع الخصومة لديه في الظلمات ونحوها مما فيه اختصاص. واقتضاء فائدة بقوله تعالى: «ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون» [الزمر: ٣١]، وجمع الضمير في قوله: «لا تختصموا» يريد بذلك مخاطبة جميع القرناء، إذ هو أمر شائع لا يقف على اثنين فقط، وهذا كما يقول الحاكم لخصمين: لا تغلطوا علي، يريد الخصمين ومن هو في حكمهما. وتقدمته إلى الناس بالوعيد هو ما جاءت به الرسل والكتب من تعظيم الكفرة.

قوله عز وجل:

مَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأَزْلَفَتْ
الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ﴿٣٢﴾ مَن خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ
مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

المعنى: قدمت بالوعيد أني أعذب الكفار في ناري، فلا يبدل قلبي ولا ينقص ما أبرمه كلامي، ثم أزال عز وجل موضع الاعتراض بقوله: «وما أنا بظلام للعبيد» أي هذا عدل فيهم، لأنني أعذرت وأمهلت

وأنعمت بالإدراكات وهديت السبيل والنجدين وبعثت الرسل وقال الفراء معنى قوله: ﴿ما يسدل القول لدي﴾ ما يكذب لدي، لعلمي بجميع الأمور.

قال القاضي أبو محمد: فتكون الإشارة على هذا إلى كذب الذي قال: ﴿ما أطيغته﴾ [ق: ٢٧] وقوله تعالى: ﴿يوم يقول﴾ يجوز أن يعمل في الظرف قوله: ﴿بظلام﴾ ويجوز أن يعمل فيه فعل مضمّر.

وقرأ جمهور من القراء وحفص عن عاصم: «نقول» بالنون، وهي قراءة الحسن وأبي رجاء وأبي جعفر والأعمش ورجحها أبو علي بما تقدم من قوله: «قدمت وما أنا» وقرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر: «يقول» على معنى يقول الله، وهي قراءة الأعرج وشيبة وأهل المدينة، وقرأ ابن مسعود والحسن والأعمش أيضاً: «يقال» على بناء الفعل للمفعول.

وقوله: ﴿هل امتلأت﴾ تقرير وتوقيف، واختلف الناس هل وقع هذا التقرير؟ وهي قد امتلأت أو هي لم تمتلئ فقال بكل وجه جماعة من المتأولين وبحسب ذلك تأولوا قولها: ﴿هل من مزيد﴾. فمن قال إنها كانت مملأة جعل قولها: ﴿هل من مزيد﴾ على معنى التقرير ونفي المزيد، أي هل عندي موضع يزد فيه شيء ونحو هذا التأويل قول النبي صلى الله عليه وسلم: «وهل ترك لنا عقيل منزلاً»، وهو تأويل الحسن وعمرو وواصل، ومن قال: إنها كانت غير مملأة جعل قولها: ﴿هل من مزيد﴾ على معنى السؤال والرغبة في الزيادة. قال الرماني وقيل المعنى: وتقول خزنتها، والقول إنها القائلة أظهر.

واختلف الناس أيضاً في قول جهنم هل هو حقيقة أو مجاز؟ أي حالها حال من لو نطق لقال كذا وكذا فيجري هذا مجرى: شكا إلي جملي طول السرى، ومجرى قول ذي الرمة: تكلمني أحجاره وملاعبه.

والذي يترجح في قول جهنم: ﴿هل من مزيد﴾ أنها حقيقة وأنها قالت ذلك وهي غير مملأة وهو قول أنس بن مالك، وبين ذلك الحديث الصحيح المتواتر قول النبي صلى الله عليه وسلم: «يقول الله لجهنم هل امتلأت؟ وتقول: ﴿هل من مزيد﴾ حتى يضع الجبار فيها قدمه، فتقول قط قط، ويتزوي بعضها إلى بعض» واضطرب الناس في معنى هذا الحديث، وذهبت جماعة من المتكلمين، إلى أن الجبار اسم جنس، وأنه يريد المتجبرين من بني آدم، وروي أن الله تعالى يعد من الجبابرة طائفة يملأ بهم جهنم آخرأ. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إن جلدة الكافر يصير في غلظها أربعون ذراعاً» ويعظم بدنه على هذه النسبة، وهذا كله من ملء جهنم وذهب الجمهور إلى أن الجبار اسم الله تعالى، وهذا هو الصحيح، فإن في الحديث الصحيح: «يفض رب العالمين فيها قدمه» وتأويل هذا: أن القدم لها من خلقه وجعلهم في علمه ساكنيها، ومنه قول الله تعالى: ﴿وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ [يونس: ٢] فالقدم هنا ما قدم من شيء ومنه قول الشاعر [الوضاح الخصي]: [المنسرح]

صل لربك واتخذ قدماً ينجيك يوم العثار والزلل

ومنه قول العجاج: [الرميل]

وسنى الملك لملك ذي قدم

أي ذي شرف متقدم، وهذا التأويل مروى عن ابن المبارك وعن النضر بن شميل، وهو قول الأصوليين. وفي كتاب مسلم بن الحجاج: فيضع الجبار فيها رجله، ومعناه: الجمع الذي أعد لها يقال للجمع الكثير من الناس: رجل تشبيهاً برجل الجراد، قال الشاعر:

فمر بها رجل من الناس وانزوى إليها من الحي اليماني أرجل.

وملاك النظر في هذا الحديث: أن الجارحة والتشبيه وما جرى مجراه منتف كل ذلك فلم يبق إلا إخراج ألفاظ على هذه الوجوه السابقة في كلام العرب. و: ﴿أزلقت﴾ معناه: قربت، و: ﴿غير بعيد﴾ تأكيد وبيان أن هذا التقدير هو في المسافة، لأن قربت كان يحتمل أن معناه: بالوعد والإخبار، فرفع الاحتمال بقوله: ﴿غير بعيد﴾.

وقوله تعالى: ﴿هذا ما توعدون﴾ الآية، يحتمل أن يكون معناه: يقال لهم في الآخرة عند إزلاف الجنة هذا هو الذي كنتم توعدون في الدنيا، ويحتمل أن يكون المعنى خطاب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، أي هذا الذي توعدون به أيها الناس ﴿لكل أبواب حفيظ﴾. والأواب: الرجاء إلى الطاعة وإلى مرآشد نفسه. وقال ابن عباس وعطاء: الأواب: المسبح لقوله: ﴿يا جبال أوبي معه﴾ [سبأ: ١٠]. وقال الشعبي ومجاهد: هو الذي يذكر ذنوبه فيستغفر. وقال المحاسبي: هو الراجح بقلبه إلى ربه. وقال عبيد بن عمير: كنا نحدث أنه الذي إذا قام من مجلسه استغفر الله مما جرى في ذلك المجلس وكذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل. والحفيظ معناه: بأوامر الله فيمثلها، أو لنواهيه فيتركها. وقال ابن عباس: ﴿حفيظ﴾ لذنوبه حتى يرجع عنها.

وقوله تعالى: ﴿من خشي﴾ يحتمل أن يكون ﴿من﴾ نعت الأواب أو بدلاً. ويحتمل أن يكون رفعاً بالابتداء والخبر يقال لهم ﴿ادخلوها﴾، ويحتمل أن تكون شرطية فيكون الجواب يقال لهم ادخلوها. وقوله: ﴿بالغيب﴾ أي غير مشاهد له إنما يصدق رسوله ويسمع كلامه وجاء معناه يوم القيامة. والمنيب الراجع إلى الخير المائل إليه. وقوله تعالى: ﴿ادخلوها﴾ تقديره يقال لهم على ما تقدم. و﴿بسلام﴾ معناه بأمن وسلامة من جميع الآفات. وقوله تعالى: ﴿ذلك يوم الخلود﴾ معادل لقوله قبل في الكفار ﴿ذلك يوم الوعيد﴾ [ق: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد﴾ خبر بأنهم يعطون آمالهم أجمع. ثم أبهم تعالى الزيادة التي عنده للمؤمنين المنعمين، وكذلك هي مبهمة في قوله تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ [السجدة: ١٧] وقد فسر ذلك الحديث الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم: «يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بل ما أطلعتهم عليه». وقد ذكر الطبري وغيره في تعيين هذا المزيد أحاديث مطولة وأشياء ضعيفة، لأن الله تعالى يقول: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم﴾ [السجدة: ١٧] وهم يعينونها تكلفاً وتعسفاً. وروى عن جابر بن عبد الله وأنس بن مالك أن المزيد: النظر إلى وجه الله تعالى بلا كيف.

قوله عز وجل:

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾

﴿كم﴾ للتكثير وهي خبرية، المعنى كثيراً ﴿أهلكنا قبلهم﴾. والقرن: الأمة من الناس الذين يمر عليهم قدر من الزمن. واختلف الناس في ذلك القدر، فقال الجمهور: مائة سنة، وقيل غير هذا، وقد تقدم القول فيه غير مرة. وشدة البطش: هي كثرة القوة والأموال والملك والصحة والأدهان إلى غير ذلك.

وقرأ جمهور من الناس: «فَنَقَّبُوا» بشد القاف المفتوحة على إسناد الفعل إلى القرون الماضية، والمعنى: ولجوا البلاد من أنقابها! وفي الحديث: «أن على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال». والمراد تطوفوا ومشوا طماعين في النجاة من الهلكة ومنه قول الشاعر [امرؤ القيس]: [الوافر]

وقد نقتب في الأفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

ومنه قول الحارث بن حلزة: [الخفيف]

نقبوا في البلاد من حذر الموت وجالوا في الأرض كل مجال

وقرأ ابن يعمر وابن عباس ونصر بن سيار وأبو العالية: «فَنَقَّبُوا» بشد القاف المكسورة على الأمر لهؤلاء الحاضرين.

و: ﴿هل من محيص﴾ توقيف وتقرير، أي لا محيص، والمحيص: المعدل موضع الحيص وهو الروغان والحياد، قال قتادة: حاص الكفرة فوجدوا أمر الله منيعاً مدركاً، وفي صدر البخاري فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب. وقال ابن عبد شمس في وصف ناقته: [الوافر]

إذا حاص الدليل رأيت منها جنوحاً للطريق على اتساق

وقرأ أبو عمرو في رواية عبيد عنه: «فَنَقَّبُوا» بفتح القاف وتخفيفها هي بمعنى التشديد، واللفظة أيضاً قد تقال بمعنى البحث والطلب، تقول: نقب عن كذا أي استقصى عنه، ومنه نقيب القوم لأنه الذي يبحث عن أمورهم ويباحث عنها، وهذا عندي تشبيه بالدخول من الأنقاب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ يعني إهلاك من مضى، والذكرى: التذكرة، والقلب: عبارة عن العقل إذ هو محله. والمعنى: ﴿لمن كان له قلب﴾ واع ينتفع به. وقال الشبلي معناه: قلب حاضر مع الله لا يغفل عنه طرفه عين.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَأْتِ السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ معناه: صرف سمعه إلى هذه الأنباء الواعظة وأثبتته في سماعها، فذلك إلقاء له عليها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ [طه: ٣٩] أي أثبتتها عليك، وقال بعض الناس قوله تعالى: ﴿أَلْقَى السَّمْعَ﴾، وقوله: ﴿ضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ [الكهف: ١١] وقوله: ﴿سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٤٩] هي كلها مما قل استعمالها الآن وبعدت معانيها.

قال القاضي أبو محمد: وقول هذا القائل ضعيف، بل هي بينة المعاني، وقد تقدمت في موضعها.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ قال بعض المتأولين: معناه: وهو مشاهد مقبل على الأمر غير معرض ولا منكر في غير ما يسمع. وقال قتادة: هي إشارة إلى أهل الكتاب، فكانه قال: إن هذه العبرة التذكرة لمن له فهم فيتدبر الأمر أو لمن سمعها من أهل الكتاب فيشهد بصحتها لعلمه بها من كتابه التوراة وسائر كتب بني إسرائيل: فـ ﴿شَهِيدٌ﴾ على التأويل الأول من المشاهدة، وعلى التأويل الثاني من الشهادة.

وقرأ السدي: «ألقى السمع» قال ابن جني ألقى السمع منه حكى أبو عمرو الداني أن قراءة السدي ذكرت لعاصم فمقت السدي وقال: أليس الله يقول: ﴿يَلْقَوْنَ السَّمْعَ﴾ [الشعراء: ٢٢٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الآية خير مضمينه الرد على اليهود الذين قالوا إن الله خلق الأشياء كلها في ستة أيام ثم استراح يوم السبت فنزلت: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ واللغوب: الإعياء والنصب والسأم، يقال لغب الرجل يلغب إذا أعى.

وقرأ السلمي وطلحة: «لغوب» بفتح اللام. وتظاهرت الأحاديث بأن خلق الأشياء كان يوم الأحد وفي كتاب مسلم وفي الدلائل ثابت حديث مضمينه: أن ذلك كان يوم السبت وعلى كل قول فأجمعوا على أن آدم خلق يوم الجمعة. فمن قال إن البداءة يوم السبت جعل خلق آدم كخلق بنيه لا يعد مع الجملة الأولى وجعل اليوم الذي كملت المخلوقات عنده يوم الجمعة.

وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ قال بعض المفسرين: أراد أهل الكتاب لقولهم، ثم استراح يوم السبت.

قال القاضي أبو محمد: وهذه المقالات من أهل الكتاب كانت بمكة قبل الهجرة.

وقال النظار من المفسرين قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ يراد به أهل الكتاب وغيرهم من الكفرة، وعم بذلك جميع الأقوال الزائغة من قریش وغيرهم، وعلى هذا التأويل يجيء قول من قال: الآية منسوخة بآية السيف. ﴿وَسَبِّحْ﴾ معناه: صل بإجماع من المتأولين وقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ الباء للاقتران أي سبح سبحة يكون معها حمد ومثله «تنبت بالدهن» على بعض الأقوال فيها و: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ هي الصبح ﴿وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ هي العصر قاله قتادة وابن زيد والناس، وقال ابن عباس: ﴿قَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ هي العصر والظهر ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ هي صلاة العشاءين وقال ابن زيد هي العشاء فقط.

وقال مجاهد: هي صلاة الليل وقوله: ﴿وَإِدْبَارِ السُّجُودِ﴾ قال عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما وأبو هريرة والحسن والشعبي وإبراهيم، ومجاهد والأوزاعي: هي الركعتان بعد المغرب

وأسنده الطبري عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم كأنه روعي إدبار صلاة النهار كما روعي إدبار النجوم في صلاة الليل، فقيل هي الركعتان مع الفجر. وروي عن ابن عباس أن ﴿إدبار السجود﴾: الوتر، حكاه الثعلبي وقال ابن زيد وابن عباس أيضاً ومجاهد: هي النوافل إثر الصلوات وهذا جار مع لفظ الآية، وقال بعض العلماء العارفين: هي صلاة الليل، قال الثعلبي: وقال بعض العلماء في قوله: ﴿قبل طلوع الشمس﴾ هي ركعتا الفجر ﴿وقبل الغروب﴾ الركعتان قبل المغرب وقال بعض التابعين: رأيت أصحاب محمد يهون إليها كما يهون إلى المكتوبة، وقال قتادة: ما أدركت أحداً يصلي الركعتين قبل المغرب إلا أنساً وأباً برزة.

وقرأ ابن كثير ونافع وحزمة وابن عباس وأبو جعفر وشيبة وعيسى وشبل وطلحة والأعمش «وإدبار» بكسر الالف وهي مصدر أضيف إليه وقت، ثم حذف الوقت، كما قالوا: جئتكم مقدم الحاج وخفوق النجم ونحوه، وقرأ الباقون والحسن والأعرج، «وأدبار» بفتح الهمزة وهو جمع دبر كطنب وأطناب، أي وفي «أدبار السجود» أي في أعقابها وقال أوس بن حجر: [الطويل]

على دبر الشهر الحرام بأرضنا وما حولها جذب سنون تلمع

قوله عز وجل:

وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشْقَى الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرُ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى: ﴿واسمع﴾ بمزلة، وانتظر، وذلك أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بأن يستمع في يوم النداء، لأن كل من فيه يستمع وإنما الآية في معنى الوعيد للكفار، وقيل لمحمد تحسس وتسمع هذا اليوم وارتقبه، وهذا كما تقول لمن تعدد بورود فتح استمع كذا وكذا، أي كن منتظراً له مستمعاً، وعلى هذا فنصب ﴿يوم﴾ إنما هو على المفعول الصريح.

وقرأ ابن كثير: «المنادي» بالياء في الوصل والوقف على الأصل الذي هو ثبوته، إذ الكلام غير تام وإنما الحذف أبداً في الفواصل، والكلام التام تشبيهاً بالفواصل. وقرأ أبو عمرو ونافع، بالوقف بغير ياء لأن الوقف موضع تغيير، ألا ترى أنها تبدل من التاء فيه الهاء في نحو طلحة وحزمة، وببدل من التنوين الالف ويضعف فيه الحرف كقولك هذا فرج، ويحذف فيه الحرف في القوافي، وقرأ الباقون وطلحة والأعمش وعيسى بحذف الياء في الوصل والوقف جميعاً وذلك اتباع لخط المصحف، وأيضاً فإن الياء تحذف مع التنوين فوجب أن تحذف مع معاقب التنوين وهي الالف واللام.

وقوله تعالى: ﴿من مكان قريب﴾ قيل وصفه بالقرب من حيث يسمع جميع الخلق. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أن ملكاً ينادي من السماء: أيتها الأجسام الهامدة والعظام البالية والرعم الذاهبة، هلم إلى الحساب الوقوف بين يدي الله». وقال كعب الأحبار وقتادة وغيرهما: المكان صخرة بيت المقدس

واختلفوا في معنى صفته بالقرب فقال قوم: وصفها بذلك لقربها من النبي صلى الله عليه وسلم أي من مكة. وقال كعب الأحبار: وصفه بالقرب من السماء، وروي أنها أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً، وهذا الخبر إن كان بوحى، وألا سبيل للوقوف على صحته. و: «الصيحة» هي صيحة المنادي و: «الخروج» هو من القبور، و: «يومه» هو يوم القيامة، و«يوم الخروج» في الدنيا هو يوم العيد قال حسان بن ثابت: [الكامل]

ولأنت أحسن إذ برزت لنا يوم الخروج بساحة القصر
من درة أغلى الملوك بها مما ترَّب حائر البحر

وقوله تعالى: «يوم تشقق» العامل في «يوم»، «المصير». وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر: «تشقق» بتشديد الشين. وقرأ الباقون: «تشقق» بتخفيف الشين و: «سراعاً» حال قال بعض النحويين وهي من الضمير في قوله: «عنهم» والعامل في الحال «تشقق» وقال بعضهم التقدير: «يوم تشقق الأرض عنهم» يخرجون «سراعاً» فالحال من الضمير في: «يخرجون»، والعامل «يخرجون».

وقوله تعالى: «ذلك حشر علينا يسير» كلام معادل لقول الكفرة: «ذلك رجع بعيد» [ق: ٣]. وقوله تعالى: «نحن أعلم بما يقولون» وعيد محض للكفرة. واختلف الناس في معنى قوله: «وما أنت عليهم بجبار». فقال قتادة: نهى الله عن التجبر وتقدم فيه، فمعناه: وما أنت عليهم بمتعظم من الجبروت. وقال الطبري وغيره معناه: وما أنت عليهم بمسلط تجبرهم على الإيمان، ويقال جبرته على كذا، أي قسوته فـ«جبار» بناء مبالغة من جبر وأنشد المفضل: [الوافر]

عصينا عزيمة الجبار حتى صحبنا الخوف إلفاً معلميننا

قال: أراد بـ«الجبار» النعمان بن المنذر لولايته، ويحتمل أن نصب عزيمة على المصدر وأراد عصينا مقدمين عزيمة جبار، فمدح نفسه وقومه بالعتو والاستعلاء أخلاق الجاهلية والحياة الدنيا، وروي ابن عباس أن المؤمنين قالوا: يا رسول الله لو خوفتنا، فنزلت: «فذكر بالقرآن من يخاف وعيد».

قال القاضي أبو محمد: ولو لم يكن هذا سبباً فإنه لما أعلمه أنه ليس بمسلط على جبرهم، أمره بالاعتصار على تذكير الخائفين من الناس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

وهي مكية بإجماع من المفسرين.

قوله عز وجل:

وَالذَّارِيَاتُ ذُرُوءًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتُ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَتُ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسَّمَتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْعُوهُ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَعَلَى قَوْلٍ مُتَخَلِفٍ ﴿٨﴾ يُوَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أَفَكٌ ﴿٩﴾ قُلْ الْخَرَصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنُّونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَاءً آنَسَهُمْ رِيحُهُمْ إِيَّاهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾

أقسم الله تعالى بهذه المخلوقات تنبيهاً عليها وتشريعاً لها ودلالة على الاعتبار فيها حتى يصير الناظر فيها إلى توحيد الله تعالى.

﴿والذاريات﴾ الرياح بإجماع من المتأولين، يقال: ذرت الريح وأذرت بمعنى: وفي الرياح معتبر من شدتها حيناً، ولينها حيناً وكونها مرة رحمة ومرة عذاباً إلى غير ذلك.

و﴿ذرؤاً﴾ نصب على المصدر. و: ﴿الحاملات وقرأ﴾ قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه هي السحاب الموقرة بالماء. وقال ابن عباس وغيره هي السفن الموقرة بالناس وأمتاعهم. وقال جماعة من العلماء هي أيضاً مع هذا جميع الحيوان الحامل، وفي جميع ذلك معتبر. و: ﴿وقرأ﴾ مفعول صريح، و: ﴿الجاريات يسراً﴾ قال علي بن أبي طالب وغيره: هي السفن في البحر وقال آخرون: هي السحاب بالريح وقال آخرون: هي الجواري من الكواكب، واللفظ يقتضي جميع هذا. و﴿يسراً﴾ نعت لمصدر محذوف وصفات المصادر المحذوفة تعود أحوالاً، و: ﴿يسراً﴾ معناه: بسهولة وقلة تكلف، و: ﴿المقسمات أمراً﴾ الملائكة والأمر هنا اسم الجنس، فكأنه قال: والجماعات التي تقسم أمور الملكوت من الأرزاق والآجال والخلق في الأرحام وأمر الرياح والجبال وغير ذلك، لأن كل هذا إنما هو بملائكة تخدمه، فالآية تتضمن جميع الملائكة لأنهم كلهم في أمور مختلفة، وأنث ﴿المقسمات﴾ من حيث أراد الجماعات.

وقال أبو طفيل عامر بن وائلة كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه على المنبر فقال: لا تسألوني عن آية من كتاب الله أو سنة ماضية إلا قلت، فقام إليه ابن الكواء فسأله عن هذه، فقال: ﴿الذاريات﴾ الرياح.

و﴿الحاملات﴾ السحاب، و﴿الجاريات﴾ السفن، و﴿المقسمات﴾ الملائكة. ثم قال له سل سؤال تعلم ولا تسأل سؤال تعنت وهذا القسم واقع على قوله: ﴿إنما توعدون لصادق﴾، و﴿توعدون﴾ يحتمل أن يكون من الإيعاد، ويحتمل أن يكون من الوعد، وأيها كان فالوصف له بالصدق صحيح و: ﴿صادق﴾ هنا موضوع بدل صدق، ووضع الاسم موضع المصدر. و: ﴿الدين﴾ الجزاء. وقال مجاهد الحساب، والأظهر في الآية أنها للكفار وأنها وعيد محض بيوم القيامة.

ثم أقسم تعالى بمخلوق آخر فقال: ﴿والسما ذات الحكب﴾ فظاهر لفظة ﴿السما﴾ أنها لجميع السماوات، وقال عبد الله بن عمرو بن العاصي: هي السماء السابعة. و: ﴿الحُكْبُ﴾ بضم الحاء والباء: الطرائق التي هي على نظام في الأجرام، فحكب الرمان والماء: الطرائق التي تصنع فيها البرج الهابة عليها، ومنه قول زهير:

مكمل بعميم النبت تنسجه ريح خريف لضاحي مائه حكب

وحكب الدرع: الطرائق المتصلة في موضع اتصال الحلق بعضها ببعض، وفي بعض أجنحة الطير حكب على نحو هذا، ويقال لتكسر الشعر حكب، وفي الحديث: «أن من ورائكم الكذاب المضل، وأن من ورائه حبكاً حبكاً» يعني جعودة شعره فهو يكسره، ويظهر في المنسوجات من الأكسية وغيرها طرائق في موضع تداخل الخيوط هي حكب، ويقال نسج الثوب فأجاد حبكه، فهذه هي الحكب في اللغة. وقال منذر بن سعيد: إن في السماء في تألق جرمها هي هكذا لها حكب، وذلك لجودة خلقتها وإتقان صنعتها، ولذلك عبر ابن عباس في تفسير قوله ﴿والسما ذات الحكب﴾ بأن قال: حبكها حسن خلقتها، وقال ابن جبير: ﴿الحكب﴾: الزينة. وقال الحسن: حبكها كواكبها، وقال ابن زيد: ﴿الحكب﴾: الشدة، وحبكت شدت، وقرأ ﴿سبعاً شداداً﴾ [النبا: ١٢] وقال ابن جني: ﴿الحكب﴾ طرائق الغيم ونحو هذا، وواحد ﴿الحكب﴾: حباك، ويقال للظفيرة التي يشد بها حظار القصب ونحوه، وهي مستطيلة تمنع في ترجيب الغرسات المصطفة حباك وقد يكون واحد ﴿الحكب﴾ حبيكة، وقال الرازي: [الوافر]

كأنما جللها الحواك، طنفسة في وشيها حباك

وقرأ جمهور الناس: ﴿الحُكْبُ﴾ بضم الحاء والباء. وقرأ الحسن بن أبي الحسن وأبو مالك الغفاري بضم الحاء وسكون الباء تخفيفاً، وهي لغة بني تميم كرسل في رسل، وهي قراءة أبي حيوة وأبي السمال. وقرأ الحسن أيضاً وأبو مالك الغفاري: ﴿الحِكْبُ﴾ بكسر الحاء والباء على أنها لغة كابل وإطل.

وقرأ الحسن أيضاً فيما روي عنه: ﴿الحِكْبُ﴾ بكسر الحاء وسكون الباء كما قالوا على جهة التخفيف: إبل وإطل بسكون الباء والطاء. وقرأ ابن عباس: ﴿الحِكْبُ﴾ بفتح الحاء والباء. وقرأ الحسن أيضاً فيما روي عنه «الحِكْبُ» بكسر الحاء وضم الباء وهي لغة شاذة غير متوجهة، وكأنه أراد كسرهما ثم توهم «الحِكْبُ» قراءة الضم بعد أن كسر الحاء فضم الباء، وهذا على تداخل اللغات وليس في كلام العرب هذا البناء. وقرأ

عكرمة «الحَبْكُ» بضم الحاء وفتح الباء جمع حبكة، وهذه كلها لغات والمعنى ما ذكرناه. والفرس المحبوك الشديد الخلقة الذي له حبك في مواضع من منابت شعره، وذلك دليل على حسن بنيته.

وقوله تعالى ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلَفٍ﴾، يحتمل أن يكون خطاباً لجميع الناس مؤمن وكافر، أي اختلفتم بأن قال فريق منكم: آمنا بمحمد وكتابه، وقال فريق آخر: كفرنا، وهذا قول قتادة. ويحتمل أن يكون خطاباً للكفرة فقط، أي: أنتم في جنس من الأقوال مختلف في نفسه، قوم منكم يقولون: ساحر، وقوم: كاهن، وقوم: شاعر، وقوم: مجنون إلى غير ذلك، وهذا قول ابن زيد والضمير في: ﴿عنه﴾ قال الحسن وقاتدة: هو عائذ على محمد أو كتابه وشعره. و: ﴿يُؤْفَكُ﴾ معناه: يصرف، فالمعنى: يصرف عن كتاب الله من صرف ممن غلبت شقاوته، وكان قتادة يقول: المأفوك منا اليوم عن كتاب الله كثيراً، ويحتمل أن يعود الضمير على القول، أي: يصرف بسببه من أراد الإسلام، بأن يقال له هو ساحر، هو كهانة؛ وهذا حكاية الزهراوي. ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿عنه﴾ على القول، أي يصرف عنه بتوفيق الله إلى الإسلام من غلبت سعادته، وهذا على أن يكون قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلَفٍ﴾ للكفار فقط.

قال القاضي أبو محمد: وهذا وجه حسن لا يُخِلُّ به، إلا أن عُرف الاستعمال في «أفك»، إنما هو في الصرف من خير إلى شر، وتأمل ذلك تجدها أبداً في المصروفين المذمومين، وحكى أبو عمرو عن قتادة أنه قرأ «من أفك» بفتح الهمزة والفاء.

وقوله تعالى: ﴿قَتَلَ الْخُرَاصُونَ﴾ دعاء عليهم، كما تقول: قاتلك الله وقتلك الله، وعقرى حلقي ونحوه، وقال بعض المفسرين معناه: لعن الخراسون، وهذا تفسير لا تعطيه اللفظة. والخراس: المخمن القائل بظنه فتحته الكاهن والمرتاب وغيره ممن لا يقين له، والإشارة إلى مكذبي محمد على كل جهة من طروقهم. والغمرة: ما يغشى الإنسان ويغطيه كغمرة الماء، والمعنى في غمرة من الجهالة. و: ﴿ساهون﴾ معناه عن أنهم ﴿في غمرة﴾ وعن غير ذلك من وجوه النظر.

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ﴾ معناه: يقولون متى يوم الدين؟ على معنى التكذيب، وجائز أن يقرن بذلك من بعضهم هزة وأن لا يقرن.

وقرأ السلمي والأعمش: «إَيَّانَ» بكسر الهمزة وفتح الياء المخففة.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ قال الزجاج: نصبوا ﴿يَوْمَ﴾ على الظرف من مقدر تقديره: هو كائن ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ﴾ ونحو هذا، وقال الخليل وسيبويه: نصبه على البناء لما أضيف إلى غير متمكن. قال بعض النحاة: وهو في موضع رفع على البدل من ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾. و: ﴿يُفْتَنُونَ﴾ معناه: يحرقون ويعذبون في النار، قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة والجميع، ومنه قيل للحر: فتن، كأن الشمس أحرقت حجارته.

ومنه قول كعب بن مالك:

معاطي تهوى إليها الحقو ق يحسبها من وراءها الفتينا

وفتنت الذهب أحرقتة، ولما كان لا يحرق إلا لمعنى الاختبار قليل لكل اختبار فتنة، واستعملوا: فتن، بمعنى اختبر، وعلى هنا موصلة إلى معنى في، وفي قوله تعالى: ﴿ذوقوا فتنتكم﴾ معناه: يقال لهم ذوقوا حرقكم وعذابكم، قاله قتادة وغيره، والذوق: هنا استعارة، وهذا إشارة إلى حرقهم واستعجالهم: هو قولهم: ﴿أيان يوم الدين﴾ وغير ذلك من الآيات التي تقتضي استعجالهم على جهة التكذيب منهم. ولما ذكر تعالى حالة الكفرة وما يلقون من عذاب الله، عقب ذلك بذكر المتقين وما يلقون من النعيم ليبين الفرق ويتبع الناس طريق الهدى، والجنات والعيون معروف. والمتقي في الآية مطلق في اتقاء الكفر والمعاصي.

وقوله تعالى: ﴿آخذين﴾ نصب على الحال. وقرأ ابن أبي عبلة: «آخذون» بواو. وقال ابن عباس المعنى: ﴿آخذين﴾ في دنياهن ﴿ما آتاهن ربهن﴾ من أوامره ونواهيه وفرائضه وشرعه، فالحال على هذا محكية وهي متقدمة في الزمان على كذبهم في جنات وعيون. وقال جماعة من المفسرين معنى قوله: ﴿آخذين ما آتاهن ربهن﴾ أي محصلين لنعم الله التي أعطاهن من جنته ورضوانه، وهذه حال متصلة في المعنى بكونهم في الجنات. وهذا التأويل أرجح عندي لاستقامة الكلام به. وقوله: ﴿قبل ذلك﴾ يريد في الدنيا محسنين بالطاعة والعمل الصالح.

قوله عز وجل:

كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصَرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَنتَكَ حَدِيثٌ ضَافٍ إِبْرَاهِيمَ الْمَكْرُمِ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾

معنى قوله عز وجل: ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾ أن نومهم كان قليلاً لا يشتغلهم بالصلاة والعبادة، فالمراد من كل ليلة، والهجوم: النوم.

وقال الأحنف بن قيس: لست من أهل هذه الآية، وهذا إنصاف منه. وقيل لبعض التابعين مدح الله قوماً ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾، ونحن قليل من الليل ما نقوم، فقال رحم الله عبداً رقد، إذا نعس، وأطاع ربه إذا استيقظ. وفسر أنس بن مالك هذه الآية بأنهم كانوا يتنفلون بين المغرب والعشاء، وقال الربيع بن خيثم، المعنى: كانوا يصيبون من الليل حظاً. وقال مطرف بن عبد الله، المعنى: قل ليلة أتت عليهم هجوعها كله، وقاله ابن أبي نجيج ومجاهد، فالمراد عند هؤلاء بقوله: ﴿من الليل﴾ أي من الليالي. وظاهر الآية عندي أنهم كانوا يقومون الأكثر من ليلهم، أي من كل ليلة وقد قال الحسن في تفسير هذه الآية: كابدوا قيام الليل لا ينامون منه إلا قليلاً.

وأما إعراب الآية: فقال الضحاك في كتاب الطبري ما يقتضي أن المعنى ﴿كانوا قليلاً﴾ في عددهم

وتم خير كان، ثم ابتدأ ﴿من الليل ما يهجمون﴾ ف ﴿ما﴾ : نافية. و ﴿قليلاً﴾ وقف حسن.

وقال بعض النحاة: ﴿ما﴾ زائدة، و ﴿قليلاً﴾ مفعول مقدم بـ ﴿يهجمون﴾. وقال جمهور النحويين ﴿ما﴾ مصدرية و ﴿قليلاً﴾ خبر «كان»، والمعنى كانوا قليلاً من الليل هجوعهم. والهجوم مرتفع بـ «قليل» على أنه فاعل، وعلى هذا الإعراب يجيء قول الحسن وغيره، وهو الظاهر عندي أن المراد كان هجوعهم من الليل قليلاً. وفسر ابن عمر والضحاك «يستغفرون» بـ «يصلون». وقال الحسن معناه: يدعون في طلب المغفرة، و «الأسحار» مظنة الاستغفار. ويروى أن أبواب الجنة تفتح سحر كل يوم. وفي قصة يعقوب عليه السلام في قوله: ﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾ [يوسف: ٩٨] قال آخر الاستغفار لهم إلى السحر. قال ابن زيد في كتاب الطبري: السحر: السدس الآخر من الليل.

وقوله تعالى: ﴿وفي أموالهم حق﴾ الصحيح أنها محكمة، وأن هذا الحق هو على وجه الندب، لا على وجه الفرض، و: ﴿معلوم﴾ يراد به متعارف، وكذلك قيام الليل الذي مدح به ليس من الفرائض، وأكثر ما تقع الفريضة بفعل المندوبات، وقال منذر بن سعيد: هي الزكاة المفروضة وهذا ضعيف، لأن السورة مكية وفرض الزكاة بالمدينة. وقال قوم من المتأولين: كان هذا ثم نسخ بالزكاة، وهذا غير قوي وما شرع الله عز وجل بمكة قبل الهجرة شيئاً من أخذ الأموال.

واختلف الناس في ﴿المحروم﴾ اختلافاً، هو عندي تخليط من المتأخرين، إذ المعنى واحد، وإنما عبر علماء السلف في ذلك بعبارات على جهة المثالات فجعلها المتأخرون أقوالاً وحصرها مكى ثمانية. و: ﴿المحروم﴾ هو الذي تبعد عنه إمكانات الرزق بعد قربها منه فيناله حرمان وفاقة، وهو مع ذلك لا يسأل، فهذا هو الذي له حق في أموال الأغنياء كما للسائل حق، قال الشعبي: أعياني أن أعلم ما ﴿المحروم﴾؟ وقال ابن عباس: ﴿المحروم﴾: المعارف الذي ليس له في الإسلام سهم مال، فهو ذو الحرفة المحدود. وقال أبو قلابة: جاء سيل باليمامة فذهب بمال رجل، فقال رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: هذا ﴿المحروم﴾. وقال زيد بن أسلم: هو الذي أجicht ثمرته من المحرومين، والمعنى الجامع لهذه الأقوال أنه الذي لا مال له لحرمان أصابه، وإلا فالذي أجicht ثمرته وله مال كثير غيرها فليس في هذه الآية بإجماع، وبعد هذا مقدر من الكلام تقديره: فكونوا مثلهم أيها الناس وعلى طريقتهم فإن النظر المؤدي إلى ذلك متوجه، فـ ﴿في الأرض آيات﴾ لمن اعتبر وأيقن.

قال القاضي أبو محمد: وهذه إشارة إلى لطائف الحكمة وعجائب الخلقة التي في الأرضين والجبال والمعادن والعيون وغير ذلك. وقرأ قتادة: «آية» على الإفراد.

وقوله تعالى: ﴿وفي أنفسكم﴾ إحالة على النظر في شخص الإنسان فإنه أكثر المخلوقات التي لدينا عبرة لما جعل الله فيه مع كونه من تراب من لطائف الحواس ومن أمر النفس وجهاتها ونطقها، واتصال هذا الجزء منها بالعقل، ومن هيئة الأعضاء واستعدادها لتتفع أو تجمل أو تعين. قال ابن زيد: إنما القلب مضغة في جوف ابن آدم جعل الله فيه العقل، أفيدري أحد ما ذاك العقل؟ وما صفته؟ وكيف هو؟ وقال الرماني: النفس خاصة: الشيء التي لو بطل ما سواها مما ليست مضمنة به لم تبطل، وهذا تعمق لا أحمد. وقوله: ﴿أفلا تبصرون﴾ توقيف وتوبيخ.

وقوله تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم﴾. قال الضحاك وابن جبير: أراد المطر والثلج. وقال واصل الأحذب ومجاهد: أراد القضاء والقدر، أي الرزق عند الله يأتي به كيف يشاء، لا رب غيره. وقرأ ابن محيصن «وفي السماء رازقكم».

و: ﴿توعدون﴾ يحتمل أن يكون من الوعد، ويحتمل أن يكون من الوعيد، والكل في السماء. قال الضحاك المراد: من الجنة والنار. وقال مجاهد المراد: الخير والشر. وقال ابن سيرين المراد: الساعة.

ثم أقسم تعالى بنفسه على صحة هذا القول والخبر وشبهه في اليقين به بالنطق من الإنسان، وهو عنده في غاية الوضوح، ولا يمكن أن يقع فيه من اللبس ما يقع في الرؤية والسمع، بل النطق أشد تخلصاً من هذه واختلاف القراء في قوله: ﴿مثل ما﴾، فقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر «مثل» بالرفع، ورويت عن الحسن وابن أبي إسحاق والأعمش بخلاف عنهم. وقرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر وأهل المدينة وجل الناس: «مثل» بالنصب، فوجه الأولى الرفع على النعت، وجاز نعت النكرة بهذا الذي قد أضيف إلى المعرفة من حيث كان لفظ مثل شائعاً عاماً لوجوه كثيرة، فهو لا تعرفه الإضافة إلى معرفة، لأنك إذا قلت: رأيت مثل زيد فلم تعرف شيئاً، لأن وجوه المماثلة كثيرة، فلما بقي الشياخ جرى عليه حكم النكرة فنعتت به النكرة. و﴿ما﴾ زائدة تعطي تأكيداً، وإضافة «مثل» هي إلى قوله: ﴿إنكم﴾. ووجه قراءة النصب أحد ثلاثة وجوه: إما أن يكون مثل قد بني لما أضيف إلى غير متمكن وهو في موضع رفع على الصفة ﴿لحق﴾ ولحقه البناء، لأن المضاف إليه قد يكسب المضاف بعض صفته كالتأنيث في قوله: شرقت صدر القناة. ونحوه، وكالتعريف في غلام زيد إلى غير ذلك، ويجري «مثل» حينئذ مجرى ﴿عذاب يومئذ﴾ [المعارج: ١١] على قراءة من فتح الميم، ومنه قول الشاعر [الناطقة الذبياني]: [الطويل]

على حين عاتبت المشيب على الصبا

ومنه قول الآخر: [البسيط]

لم يمنع الشرب منها غير أن هتفت

فـ «غير» فاعلة ولكنه فتحها. والوجه الثاني وهو قول المازني إن «مثل» بني لكونه مع ﴿ما﴾ شيئاً واحداً، وتجيء على هذا في مضمار ويحما وأينما، ومنه قول حميد بن ثور: [الطويل]

ألا هيما مما لقيت وهيما وويهاً لمن لم يدر ما هن ويحما

فلولا البناء وجب أن يكون منوناً، وكذلك قول الشاعر [حسان بن ثابت]: [الطويل]

فأكرم بنا أمأ وأكرم بنا ابن ما

والوجه الثالث: أن تنصب «مثل» على الحال من قوله: ﴿لحق﴾ وهي حال من نكرة وفيه خلاف لكن جوز ذلك الجرمي، وأما غيره فإراه حالاً من الذكر المرفوع في قوله ﴿لحق﴾ لأن التقدير ﴿لحق﴾ هو، وفي هذا نظر. والنطق في هذه الآية: الكلام بالحروف والأصوات في ترتيب المعاني. وروي أن بعض الأعراب الفصحاء سمع هذه الآية فقال: من أحوج الكريم إلى أن يحلف؟ والحكاية وقعت في كتاب الثعلبي وسبل

الخيرات متممة عن الأصمعي، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قاتل الله قوماً أقسم لهم ربهم بنفسه فلم يصدقوه»، وروى أبو سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لو فر أحدكم من رزقه لتبعه كما يتبع الموت»، وأحاديث الرزق والأشعار فيه كثيرة.

وقوله: ﴿هل أتاك﴾ تقرير لتجتمع نفس المخاطب، وهذا كما تبدأ المرء إذا أردت أن تحدثه بعجيب فتقرره هل سمع منك أم لا؟ فكأنه تقتضي منه أن يقول لا ويستطعمك الحديث. و: ﴿ضيف﴾ اسم جنس يقع للجميع والواحد. وروي أن أضياف إبراهيم هؤلاء: جبريل ومكائيل وإسرافيل وأتباع لهم من الملائكة. وجعلهم تعالى «مكرمين» إما لأنهم عنده كذلك، وهذا قول الحسن. وإما من حيث أكرمهم إبراهيم وخدمهم هو وسارة. وذبح لهم العجل. وقيل من حيث رفع مجالسهم و: ﴿سلاماً﴾ منصوب على المصدر كأنهم قالوا: تسلم سلاماً: أو سلمت سلاماً، ويتجه فيه أن يعمل فيه ﴿قالوا﴾ على أن نجعل ﴿سلاماً﴾ بمنزلة قولاً. ويكون المعنى حينئذ أنهم قالوا تحية وقولاً معناه: ﴿سلاماً﴾، وهذا قول مجاهد.

وقوله: ﴿سلام﴾ مرتفع على خبر ابتداء. أي أمر ﴿سلام﴾. أو واجب لكم ﴿سلام﴾، أو على الابتداء والخبر محذوف، كأنه قال: سلام عليكم وإبراهيم عليه السلام قد حيا بأحسن لأن قولهم دعاء وقوله واجب قد تحصل لهم.

وقرأ ابن وثاب والنخعي وحزمة والكسائي وطلحة وابن جبير قال: «سَلِمَ» بكسر السين وسكون اللام. والمعنى نحن سلم وأنتم سلم.

وقوله: ﴿قوم منكرون﴾ معناه: لا نميزهم ولا عهد لنا بهم. وهذا أيضاً على تقدير: أنتم ﴿قوم منكرون﴾ وقال أبو العالية: أنكر سلامهم في تلك الأرض وفي ذلك الزمن و: «راغ» معناه مضى إثر حديثه مخفياً زواله مستعجلاً. كأنه لم يرد أن يفارقهم فمضى إلى ناحية من داره مستعجلاً ورجع من حينه. وهذا تشبيه بالروغان المعروف، لأن الرائغ يوهم أنه لم يزل. والعجل: هو الذي حنذه، والقصة قد مضت مستوعبة في غير هذه السورة، وروي عن قتادة أن أكثر مال إبراهيم كان البقر وكان مضيافاً. وحسبك أنه أوقف للضيافة أوقافاً تمضيها الأمم على اختلاف أديانها وأجناسها.

قوله عز وجل:

فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ أُمُّرَاتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَاحْطَبُكُمُ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَ مَنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾

المعنى ﴿فقربه إليهم﴾ فأمسكوا عنه فقال: ﴿ألا تأكلون﴾ فيروى في الحديث أنهم قالوا: لا

ناكل إلا ما أدينا ثمنه. فقال إبراهيم وأنا لا أبيحه لكم إلا بثلثين. قالوا: وما هو؟ قال: أن تسموا الله تعالى عند الابتداء وتحمدوه عند الفراغ من الأكل. فقال بعضهم لبعض: بحق اتخذه الله خليلاً. فلما استمروا على ترك الأكل ﴿أوجس منهم خيفة﴾. والوجس تحسيس النفس وخوارها في الحذر. وذلك أن أكل الضيف أمانة ودليل على انبساط نفسه والطعام حرمة وذمام. والامتناع منه وحشة. فخشي إبراهيم عليه السلام أن امتناعهم من أكل طعامه إنما هو لشر يريدونه، فقالوا له: ﴿لا تخف﴾ وعرفوه أنهم ملائكة، ﴿وبشروه﴾ وبشروا سارة معه ﴿بغلام عليم﴾. أي عالم في حال تكليفه وتحصيله، أي سيكون عليمًا و: ﴿عليم﴾ بناءً مبالغة. وجمهور الناس على أن الغلام هنا إسحاق الذي ذكرت البشارة به في غير موضع. وقال مجاهد، هذا الغلام هو إسماعيل. والأول أرجح، وهذا وهم. ويروى أنه إنما عرف كونهم ملائكة استدلالاً من بشارتهم إياه بغيب.

وقوله تعالى: ﴿فأقبلت امرأته﴾ يحتمل أن يكون قربت إليهم من ناحية من نواحي المنزل، ويحتمل أن يكون هذا الإقبال كما تقول: أقبل فلان يشتمني، أو يفعل كذا إذا جد في ذلك وتلبس به، والصرة: الصيحة، كذا فسره ابن عباس ومجاهد وسفيان والضحاك، والمصطر الذي يصيح وقال قتادة معناه: في رقة. وقال الطبري قال بعضهم أوه بصياح وتعجب. قال النحاس: وقيل: ﴿في صرة﴾ في جماعة نسوة يتبادرن نظراً إلى الملائكة.

وقوله: ﴿فصكت وجهها﴾، معناه: ضربت وجهها، قال ابن عباس: لطمت، وهذا مما يفعله الذي يرد عليه أمر يستهوله. وقال سفيان والسدي ومجاهد معناه: ضربت بكفها جبهتها وهذا مستعمل في الناس حتى الآن. وقولها: ﴿عجوز عقيم﴾، إما أن يكون تقديره: أنا ﴿عجوز عقيم﴾ فكيف ألد؟ وإما أن يكون التقدير: ﴿عجوز عقيم﴾ تكون منها ولادة، وقدره الطبري: أتلد ﴿عجوز عقيم﴾. ويروى أنها كانت لم تلد قط. والعقيم من النساء التي لا تلد، ومن الرياح التي لا تلقح شجراً، فهي لا بركة فيها، وقولهم: ﴿كذلك قال ربك﴾ أي كقولنا الذي أخبرناك قال ربك أن يكون. و: ﴿الحكيم﴾ ذو الحكمة. و: ﴿العليم﴾ معناه بالمصالح وغير ذلك من العلوم ثم قال إبراهيم عليه السلام للملائكة: ﴿فما خطبكم﴾ والخطب: الأمر المهم، وقل ما يعبر به إلا عن الشدائد والمكاره حتى قالوا: خطوط الزمان ونحو هذا، فكأنه يقول لهم: ما هذه الطامة التي جئتم لها؟ فأخبروه حينئذ أنهم أرسلوا إلى سدوم قرية لوط بإهلاك أهلها الكفرة العاصين المجرمين. والمجرم: فاعل الجرائم، وهي صعاب المعاصي: كفر ونحوه واحداً جريماً. وقولهم: ﴿لنرسل عليهم﴾ أي لنهلكهم بهذه الحجارة. ومتى اتصلت «أرسل» بـ «على»: فهي بمعنى المبالغة في المباشرة والعذاب. ومتى اتصلت بـ «إلى»، فهي أخف. وانظر ذلك تجده مطرداً.

وقوله تعالى: ﴿حجارة من طين﴾ بيان يخرج عن معتاد حجارة البرد التي هي من ماء. ويروى أنه طين طبخ في نار جهنم حتى صار حجارة كالآجر. و: ﴿مسومة﴾ نعت لـ ﴿حجارة﴾، وقيل معناه متروكة وسومها من الإهلاك والانصباب. وقيل معناه: معلمة بعلامتها من السيمة والسومي وهي العلامة، أي إنها ليست من حجارة الدنيا، وقال الزهراوي والرماني، وقيل معناه: على كل حجر اسم المضروب به. وقال

الرماني وقيل كان عليها أمثال الخواتم. وقال ابن عباس: تسويمها إن كان في الحجارة السود نقط بيض وفي البيض سود. ويحتمل أن يكون المعنى: أنها بجملتها معلومة عند ربك لهذا المعنى معلمة له. لا أن كل واحد منها له علامة خاصة به. والمسرف: الذي يتعدى الطور، فإذا جاء مطابقاً فهو لأبعد الغايات الكفر فما دونه.

ثم أخبر تعالى أنه أخرج بأمره من كان في قرية لوط ﴿من المؤمنين﴾ منجياً لهم. وأعاد الضمير على القرية. ولم يصرح لها قبل ذلك بذكر لشهرة أمرها. ولأن القوم المجرمين معلوم أنهم في قرية ولا بد. قال المفسرون: ولا فرق بين تقدم ذكر المؤمنين وتأخره، وإنما هما وصفان ذكرهم أولاً بأحدهما ثم آخر بالثاني. قال الرماني: الآية دالة على أن الإيمان هو الإسلام.

قال القاضي أبو محمد: ويظهر إليّ أن في المعنى زيادة تحسن التقديم للإيمان، وذلك أنه ذكره مع الإخراج من القرية، كأنه يقول: نفذ أمرنا بإخراج كل مؤمن، ولا يشترط فيه أن يكون عاملاً بالطاعات. بل التصديق بالله فقط.

ثم لما ذكر حال الموحدين ذكرهم بالصفة التي كانوا عليها، وهي الكاملة التصديق والأعمال، والبيت من المسلمين: هو بيت لوط، وكان هو وابنته، وقيل وبنته. وفي كتاب الثعلبي: وقيل لوط وأهل بيته ثلاثة عشر، وهلكت امرأته فيمن هلك، وهذه القصة بجملتها ذكرت على جهة المثال لقريش. أي أنهم إذا كفروا وأصابهم مثل ما أصاب هؤلاء المذكورين.

قوله عز وجل:

وَتَرَكْنَاهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ رُكُوبَهُ وَقَالَ لِسَحَرٍ أَوْ كَيْفَتُومٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْتُهُمْ وَخَوَذَهُمُ فَيْدَتُهُمْ فِي الْأَيْمِ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُونَ شَيْءً أَلَّا تَعْلِيَهُ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّيْمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمُ تَمَنَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذْتُهُمُ الصَّيْغَةَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾

المعنى: ﴿وتركناها﴾ في القرية المذكورة، وهي سدوم أثراً من العذاب باقياً مؤرخاً لا يفنى ذكره فهو: ﴿آية﴾ أي علامة على قدرة الله وانتقامه من الكفرة. ويحتمل أن يكون. والمعنى: ﴿وتركناها﴾ في أمرها كما قال: ﴿لقد كان في يوسف﴾ [يوسف: ٧] وقال ابن جريج: ترك فيها حجراً منضوداً كثيراً جداً. و: ﴿للذين يخافون العذاب﴾ هم العارفون بالله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وفي موسى﴾ يحتمل أن يكون عطفاً على قوله ﴿فيها﴾ أي وتركناها في موسى وقصته أثراً أيضاً هو آية. ويحتمل أن يكون عطفاً على قوله قيل: ﴿وفي الأرض آيات﴾ [الذاريات: ٢٠]، ﴿وفي موسى﴾. و: ﴿فرعون﴾ هو صاحب مصر. والسلطان في هذه الآية الحجة و: ﴿تولى﴾ معناه: فأعرض وأدبر عن أمر الله و: ﴿بركته﴾ بسلطانه وجنده وشدة أمره. وهو الأمر الذي يركن فرعون إليه ويسند في

شدائده. قال ابن زيد: ﴿بركته﴾ بجموعه قال قتادة: بقومه. وقول فرعون في موسى ﴿ساحر أو مجنون﴾ هو تقسيم ظن أن موسى لا بد أن يكون أحد هذين. وقال أبو عبيدة: ﴿أو﴾ هنا بمعنى الواو. واستشهد بيت جرير: [الوافر]

أثعلبة الفوارس أو رياحاً عدلت بهم طهية والخشابا

والخشاب: بيوت في بني تميم، وقول أبي عبيدة ضعيف لا داعية إليه في هذا الموضع. و: ﴿نبذناهم﴾ معناه: طرحناهم و: ﴿اليم﴾ البحر. وفي مصحف ابن مسعود: «فنبذناه»، و «المليم»: الذي أتى من المعاصي ونحوها ما يلام عليه وقال أمية بن أبي الصلت: [الواقر]

ومن يخذل أخاه فقد ألاما

وقوله: ﴿وفي عاد﴾ عطف على قوله: ﴿وفي موسى﴾، و ﴿عاد﴾ هي قبيلة هود النبي عليه السلام. و ﴿العقيم﴾ التي لا بركة فيها ولا تلقح شجراً ولا تسوق مطراً. وقال سعيد بن المسيب: كانت ريح الجنوب. وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: كانت نكباء. وهذا عندي لا يصح عن علي رضي الله عنه لأنه مردود بقوله صلى الله عليه وسلم: «نصرت بالصبا وأهلك عاد بالذبور» و: ﴿تذر﴾ معناه: تدع. وقوله تعالى: ﴿من شيء أتت عليه﴾ يعني مما أذن لها في إهلاكه. و: ﴿الريم﴾ الفاني المتقطع ييسأ أو قدماً من الأشجار والورق والحبال والعظام، ومنه قوله تعالى ﴿من يحيي العظام وهي رميم﴾ [يس: ٧٨] أي في قوام الرمال وروي أن تلك الريح كانت تهب على الناس فيهم العادي وغيره، فتنتزع العادي من بين الناس وتذهب به.

وقوله تعالى: ﴿وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين﴾ يحتمل أن يريد إذ قيل لهم في أول بعث صالح آمنوا وأطيعوا فتمتعوا متاعاً حسناً إلى آجالكم، وهو الحين على هذا التأويل وهو قول الحسن حكاة عن الرماني، ويجيء قوله تعالى: ﴿فمعتوا﴾ مرتباً لفظاً في الآية ومعنى في الوجود متأخراً عن القول لهم ﴿تمتعوا﴾، ويحتمل أن يريد: إذ قيل لهم بعد عقر الناقة: ﴿تمتعوا﴾ في داركم ثلاثة، وهي الحين على هذا التأويل وهو قول الفراء، ويجيء قوله: ﴿فمعتوا﴾ غير مرتب المعنى في وجوده، لأن عتوهم كان قبل أن يقال لهم ﴿تمتعوا﴾ وكان المعنى فكان من أمرهم قبل هذه المقالة أن عتوا وهو السبب في أن قيل لهم ذلك وعذبوا.

وقرأ جمهور القراء: «الصاعقة» وقرأ الكسائي وهي قراءة عمر وعثمان «الصعقة»، وهي على القراءتين الصيحة العظيمة، ومنه يقال للوقعة الشديدة من الرعد: صاعقة. وهي التي تكون معها النار التي يروى في الحديث أنها من المخراق الذي بيد ملك يسوق السحاب.

وقوله: ﴿وهم ينظرون﴾ يحتمل أن يريد فجأة وهم يبصرون بعيونهم حالهم، وهذا قول الطبري ويحتمل أن يريد: ﴿وهم ينظرون﴾ ذلك في تلك الأيام الثلاثة التي أعلموا به فيها ورأوا علاماته في تلونه، وهذا قول مجاهد حسبما تقدم تفسيره، وانتظارهم العذاب هو أشد من العذاب.

قوله عز وجل :

فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمٌ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهْدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفَرُّوْا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٥٢﴾

قال بعض المفسرين : ﴿من قيام﴾ معناه : ما استطاعوا أن يقوموا من مصارعهم . وقال قتادة وغيره معناه : ما قيام بالأمر ودفعه كما تقول : ما ان له بكذا وكذا قيام ، أي استضلاع وانتهاض .

وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم : «وقوم نوح» بالنصب ، وهو عطف إما على الضمير في قوله : ﴿فأخذتهم﴾ [الذاريات : ٤٤] إذ هو بمنزلة أهلكتناهم ، وإما على الضمير في قوله : ﴿فنبذناهم﴾ [الذاريات : ٤٠] ، وقرأ أبو عمرو فيما روى عنه عبد الوارث : «وقوم نوح» بالرفع وذلك على الابتداء وإضمار الخبر وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي : «وقوم» بالخفض عطفاً على ما تقدم من قوله : ﴿وفي ثمود﴾ [الذاريات : ٤٣] وقد روي النصب عن أبي عمرو .

وقوله : ﴿والسما﴾ نصب بإضمار فعل تقديره : وبنينا السماء بنيانها . والأيد : القوة قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ، ووقعت في المصحف بياءين وذلك على تخفيف الهمز ، وفي هذا نظر .

وقوله : ﴿لموسعون﴾ يحتمل أن يريد : إنا نوسع الأشياء قوة وقدرة كما قال تعالى : ﴿على الموسع قدره﴾ [البقرة : ٢٣٦] أي الذي يوسع أهله إنفاقاً ، ويحتمل أن يريد : ﴿لموسعون﴾ في بناء السماء ، أي جعلناها واسعة وهذا تأويل ابن زيد وقال الحسن : أوسع الرزق بمطر السماء و«الماهد» المهييء الموطىء للموضع الذي يتمهد ويفترش .

وقوله تعالى : ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾ أي مصطحبين ومتلازمين ، فقال مجاهد معناه أن هذه إشارة إلى المتضادات والمقابلات من الأشياء كالليل والنهار والشقوة والسعادة والهدى والضلالة والأرض والسماء والسواد واللباىض والصحة والمرض والكفر والإيمان ونحو هذا ، ورجحه الطبري بأنه دل على القدرة التي توجد الضدين ، بخلاف ما يفعل بطبعه فعلاً واحداً كالنسخين والتبريد . وقال ابن زيد وغيره : هي إشارة إلى الأنثى والذكر من كل حيوان والترجي الذي في قوله : ﴿لعلكم﴾ هو بحسب خلق البشر وعرفها . وقرأ الجمهور «تذكرون» بشد الذال والإدغام . وقرأ أبي بن كعب : «تذكرون» بتاءين وخفة الذال .

وقوله : ﴿ففروا﴾ أمر بالدخول في الإيمان وطاعة الله ، وجعل الأمر بذلك بلفظ الفرار لينبه على أن وراء الناس عقاباً وعداباً وأمرأ حقه أن يفر منه ، فجتمعت لفظة «فروا» بين التحذير والاستدعاء ، وينظر إلى هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : «لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك» الحديث ، قال الحسن بن الفضل : من فر إلى غير الله .

وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ﴾ الآية نهي عن عبادة الأصنام والشياطين وكل مدعو من دون الله وفائدة تكرار قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ الإبلاغ وهز النفس وتحكيم التحذير وإعادة الألفاظ بعينها في هذه المعاني بليغة بقرينة شدة الصوت.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ تقديره: سيرة الأمم كذلك، أو الأمر في القديم كذلك. وقوله: ﴿إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُونٌ﴾ معناه: إلا قال بعض: هذا وبعض: هذا وبعض: الجميع ألا ترى أن قوم نوح لم يقولوا قط: ﴿سَاحِرٌ﴾ وإنما قالوا: ﴿بِهِ جَنَّةٌ﴾ [سبأ: ٨] فلما اختلف الفرق جعل الخبر عن ذلك بإدخال أو بين الصفتين، وليس المعنى أن كل أمة قالت عن نبيها إنه ساحر أو هو مجنون، فليست هذه كالمقدمة في فرعون، بل هذه كأنه قال: إلا قالوا هو ساحر وهو مجنون.

قوله عز وجل:

أَتَوْاصُوا بِهٖ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَٰغُوْنَ ﴿٥٣﴾ فَنُوحِلَهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكَرْنَا لِلذِّكْرِى نَفْعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوْنَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِّثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُوْنَ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿أَتَوْاصُوا بِهِ﴾ توقيف وتعجيب من توارد نفوس الكفرة في تكذيب الأنبياء على تفرق أزمانهم أي أنهم لم يتواصوا، لكنهم فعلوا فعل من يتواصى.

والعلة في ذلك أن جميعهم طاغ، والطاغي: المستعلي في الأرض المفسد العاتي على الله.

وقوله تعالى: ﴿فَنُوحِلَهُمْ﴾ أي عن الحرص المفرط عليهم، وذهاب النفس حسرات، ويحتمل أن يراد: فقول عن التعب المفرط في دعائهم وضمهم إلى الإسلام فليست بمسيطر عليهم وليست ﴿بِمَلُومٍ﴾ إذ قد بلغت، فتح نفسك عن الحزن عليهم، وذكر فقط، فإن الذكرى نافعة للمؤمنين وللمن قضى له أن يكون منهم في ثاني حال، وعلى هذا التأويل: فلا نسخ في الآية. إلا في معنى المواعدة التي فيها، إن آية السيف نسخت جميع المواعدات.

وروى قتادة وذكره الطبري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه لما نزلت ﴿فَنُوحِلَهُمْ﴾ فما أنت بمعلوم ﴿حزن المسلمون وظنوا أنه مر بالتوالي عن الجميع وأن الوحي قد انقطع حتى نزلت: ﴿وَذَكَرْنَا لِلذِّكْرِى نَفْعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فسروا بذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ اختلف الناس في معناه مع إجماع أهل السنة على أن الله تعالى لم يرد أن تقع العبادة من الجميع، لأنه لو أراد ذلك لم يصح وقوع الأمر بخلاف إرادته، فقال ابن عباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما المعنى: ما خلقت الجن والإنس إلا لأمرهم بعبادتي، وليقروا لي بالعبودية فعبير عن ذلك بقوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ إذ العبادة هي مضمن الأمر، وقال زيد بن

أسلم وسفيان: المعنى خاص، والمراد: ﴿وما خلقت﴾ الطائعين من ﴿الجن والإنس﴾ إلا لعبادتي، ويؤيد هذا التأويل أن ابن عباس روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ: «وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدوني»، وقال ابن عباس أيضاً معنى: ﴿ليعبدون﴾ أي ليتذللوا لي ولقدرتي، وإن لم يكن ذلك على قوانين الشرع.

قال القاضي أبو محمد: وعلى هذا التأويل فجميع الجن والإنس عابد متذلل والكفار كذلك، ألا تراهم عند القحط والأمراض وغير ذلك. وتحتل الآفة، أن يكون المعنى: ما خلقت الجن والإنس إلا معدين ليعبدون، وكأن الآية تعدد نعمة، أي خلقت لهم حواس وعقلاً وأجساماً منقادة نحو العبادة، وهذا كما تقول: البقر مخلوقة للحرث، والخيل للحرب، وقد يكون منها ما لا يحارب به أصلاً، فالمعنى أن الإعداد في خلق هؤلاء إنما هو للعبادة، لكن بعضهم تكسب صرف نفسه عن ذلك، ويؤيد هذا المنزع قول النبي صلى الله عليه وسلم: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له». وقوله: «كل مولود يولد على الفطرة» والحديث، وقوله: ﴿من رزق﴾ أي أن يرزقوا أنفسهم ولا غيرهم.

وقوله: ﴿أن يطعمون﴾ إما أن يكون المعنى أن يطعموا خلقي فأضيف ذلك إلى الضمير على جهة التجوز، وهذا قول ابن عباد. وإما أن يكون الإطعام هنا بمعنى النفع على العموم، كما تقول: أعطيت فلاناً كذا وكذا طعمة، وأنت قد أعطيته عرضاً أو بلداً يحييه، ونحو هذا فكأنه قال: ولا أريد أن ينفعوني، فذكر جزءاً من المنافع وجعله دالاً على الجميع.

وقرأ الجميع: «إن الله هو الرزاق». وروى أبو إسحاق السبيعي عن عبد الله بن يزيد، قال أبو عمرو الداني عن ابن مسعود قال: أقراني رسول الله صلى الله عليه وسلم «إني أنا الرزاق» وقرأ الجمهور: «إن الله هو الرزاق» وقرأ ابن محيصن «هو الرزاق»

وقرأ جمهور القراء: «المتين» بالرفع إما على أنه خبر بعد خبر، أو صفة لـ ﴿الرزاق﴾. وقرأ يحيى بن وثاب، والأعمش «المتين» بالخفض على النعت لـ ﴿القوة﴾، وجاز ذلك من حيث تأنيث ﴿القوة﴾ غير حقيقي. فكأنه قال: ذو الأيد، أو ذو الحبل ونحوه ﴿فمن جاءه موعظة﴾ [البقرة: ٢٧٥] وجوز أبو الفتح أن يكون خفض «المتين» على الجواز و: ﴿المتين﴾: الشديد.

وقوله تعالى: ﴿فإن للذين ظلموا﴾ يريد أهل مكة، وهذه آية وعيد صراح، وقرأ الأعمش «فإن للذين كفروا». والذنوب: الحظ والنصيب، وأصله من الدلو، وذلك أن الذنوب هو ملء الدلو من الماء، وقيل الذنوب: الدلو العظيمة، ومنه قول الشاعر: [الرجز]

إننا إذا نازلنا غريباً له ذنوب ولنا ذنوب

فإن أبيتم فلنا القليب

وهو السجل، ومنه قول علقمة بن عبدة: [الطويل]

وفي كل حي قد خبطت بنعمة فحق لشأس من نذاك ذنوب

فيروى أن الملك لما سمع هذا البيت قال نعم وأذنبه، ومنه قول حسان: [الطويل]

لا يبعدن ربعة بن مكدم وسقى الغوادي قبره بذنوب

و﴿أصحابهم﴾ يريد به من تقدم من الأمم المعذبة. وقوله: ﴿فلا يستعجلون﴾ تحقيق للأمر، بمعنى هو نازل بهم لا محالة في وقته المحتوم، فلا يستعجلوه، وقرأ يحيى بن وثاب: «فلا تستعجلون» بالتاء من فوق.

ثم أوجب تعالى لهم الويل من يومهم الذي يأتي فيه عذابهم. والويل: الشقاء والهزم، وروي أن في جهنم وادياً يسمى: ويلاً. والطبري يذهب أبداً إلى أن التوعد إنما هو به، وذلك في هذا الموضع قلق، لأن هذا الويل إنما هو ﴿من يومهم﴾ الذي هو في الدنيا، و: ﴿من﴾ لابتداء الغاية. وقال جمهور المفسرين: هذا التوعد هو بيوم القيامة. وقال آخرون ذكره الثعلبي هو يوم بدر. وفي: ﴿يوعدون﴾ ضمير عائذ، التقدير: يوعدون به، أو يوعدونه.

نجز تفسير سورة «الذاريات» والحمد لله رب العالمين كثيراً، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين وعن جميع تابعيه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الطُّورِ

وهي مكية بإجماع من المفسرين والرواة.

قوله تعالى :

وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾
وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَورًا ﴿٩﴾
وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ
يُدْعَوْنَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَا ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾

هذه مخلوقات أقسم الله بها تنبيهاً منها وتشريفاً، وليكون ذلك سبب النظر فيها والاعتبار بها، وذلك يؤول إلى التوحيد والمعرفة بحقوق الله.

﴿والطور﴾ قال بعض أهل اللغة: كل جبل: طور، فكأنه أقسم بالجبال، إذ هو اسم جنس وقال آخرون: «الطور» كل جبل أجرد لا ينبت شجراً. وقال مجاهد في كتاب الطبري: «الطور» الجبل بالسرانية، وهذا ضعيف، لأن ما حكاه في العربية يقضي على هذا، ولا خلاف أن في الشام جبلاً يسمى بـ «الطور»، وهو طور سيناء. وقال نوف البكالي: إنه الذي أقسم الله به لفضله على الجبال. إذ قد روي أن الله تعالى أوحى إلى الجبال إني مهبط على أحدكم أمري. يريد رسالة موسى عليه السلام، فتناولت كلها إلا الطور فإنه استكان لأمر الله وقال حسبي الله، فأهبط الله الأمر عليه. ويقال إنه بمدين. وقال مقاتل بن حيان هما طوران. والكتاب المسطور: معناه بإجماع: المكتوب أسطراً.

واختلف الناس في هذا المكتوب المقسم به، فقال بعض المفسرين: هو الكتاب المنتسخ من اللوح المحفوظ للملائكة لتعرف منه ما تفعله وتصرفه في العالم.

وقال آخرون: بل أقسم الله تعالى بالقرآن، فإنه قد كان علم أنه يتخلد ﴿في رق منشور﴾.

وقال آخرون: أقسم بالكتب القديمة المنزلة: الإنجيل والتوراة والزبور. وقال الفراء فيما حكى الرمانى: أقسم بالصحف التي تعطى وتتخذ يوم القيامة بالإيمان والشمال. وقال قوم: أقسم بالكتاب الذي فيه أعمال الخلق، وهو الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

وكتب بعض الناس، «مضطوراً» بالصاد. والقصد بذلك تشابه النطق بالحروف، والجمهور على السين. والرق: الورق المعدة للكتب وهي مرققة فلذلك سميت رقاً، وقد غلب الاستعمال على هذا الذي هو من جلود الحيوان. والمنشور: خلاف المطوي، وقد يحتمل أن يكون نشره بمعنى بشره وترقيقه وصنعتة. وقرأ أبو السمال: «في رق» بكسر الراء.

واختلف الناس في ﴿البيت المعمور﴾ فقال الحسن بن أبي الحسن البصري: هي الكعبة. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن عباس وعكرمة: هو بيت في السماء يقال له الضراح، وهو بحيال الكعبة، ويقال الضريح، ذكر ذلك الطبري وهو الذي ذكر في حديث الإسراء. قال جبريل عليه السلام: هذا البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما عليهم وبهذا عمارته. ويروى أنه في السماء السابعة. وقيل في السادسة وقيل إنه مقابل الكعبة لو خر لسقط عليها. وقال مجاهد وقتادة وابن زيد: في كل سماء بيت معمور، وفي كل أرض كذلك. وهي كلها على خط مع الكعبة. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿والسقف المرفوع﴾: السماء ﴿والسقف﴾ طول في انحناء، ومنه أسقف النصراري، ومنه السقف، لأن الجدار وسقفه فيهما طول في انحناء.

واختلف الناس في معنى: ﴿المسجور﴾ فقال مجاهد وشمر بن عطية معناه: الموقد ناراً. وروي أن البحر هو جهنم. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ليهودي: أين جهنم؟ فقال هي البحر، فقال علي: ما أظنه إلا صادقاً، وقرأ: ﴿والبحر المسجور﴾، ومنه ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم «أن البحر طبق جهنم». قال الثعلبي: وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يركبن البحر إلا حاج أو معتمر أو مجاهد فإن تحت البحر ناراً».

وفي حديث آخر: «إن البحر نار في نار». وقال قتادة: ﴿المسجور﴾ المملوء. وهذا معروف في اللغة. ورجحه الطبري بوجود نار البحر كذلك، وإلى هذا يعود القول الأول لأن قولهم: سجرت التنور معناه: ملأها بما يحترق ويتقد و: ﴿البحر المسجور﴾ المملوء ماء، وهكذا هو معرض للعبارة، ومن هذا قول النمر بن تولب: [المتقارب]

إذا شاء طالع مسجورة ترى حولها النبع والسماسم
سقتها رواعد من صيف وإن من خريف فلن يعدما

يصف ثوراً أو عيناً مملوءة ماء، وقال ابن عباس: هو الذي ذهب ماؤه فـ ﴿المسجور﴾: الفارغ، ويروى أن البحار يذهب ماؤها يوم القيامة وقيل يوقد البحر ناراً يوم القيامة فذلك هو سجره. وقال ابن عباس أيضاً: ﴿المسجور﴾: المحبوس، ومنه ساجور الكلب: وهو القلادة من عود أو حديد التي تمسكه، وكذلك لولا أن البحر يمسك لفاض على الأرض. وقال علي بن أبي طالب أيضاً: وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: البحر المقسم به هو في السماء تحت العرش، والجمهور على أنه بحر الدنيا، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وإذا البحار سجرت﴾ [التكوير: ٦].

وقال منذر بن سعيد: إن المعنى هو القسم بجهنم وسماها بحراً لسعتها وتموجها كما قال صلى الله عليه وسلم في الفرس: «وإن وجدناه لبحر» والقسم واقع على قوله: «إن عذاب ربك لواقع» ويريد عذاب الآخرة للكفار. قال قتادة: والعامل في: «يوم» «واقع» ويجوز أن يكون العامل فيه «دافع»، والأول أبين. وقال مكي: لا يعمل فيه «دافع». و: «تمور» معناه: تذهب وتجيء بالرياح متقطعة متفتتة، والغبار الموار: الذي يجتمع ويذهب ويجيء بالريح، ثم هو كله إلى الذهاب، ومنه قول الأعرابي:

وغادرت التراب مورا

يصف سنة قحط. وأنشد معمر بن المثنى بيت الأعشى: [البسيط]

مور السحابة لا ريث ولا عجل

أراد مضيها، وقال الضحاك: «تمور» تموج. وقال مجاهد: تدور. وقال ابن عباس: تشقق، وهذه كلها تفاسير بالمعنى، لأن السماء العلوي يعترها هذا كله، وسير الجبال هو في أول الأمر، ثم تنفتت أثناء السير حتى تصير آخراً كالعهن المنفوش والفاء في قوله: «فويل» عاطفة جملة على جملة وهي تتضمن ربط المعنى وتأكيده وإثبات الويل للمكذبين. والويل: السوء والمشقة والهيم الأطول، ويروى أن في جهنم وادياً يسمى: ويلاً والخوض التخطي في الأباطيل، يشبه بخوض الماء، ومنه قوله تعالى: «وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا» [الأنعام: ٦٨] و: «يوم» الثاني بدل من: «يومئذ» و: «يدعون» قال ابن عباس معناه: يدفعون في أعناقهم بشدة وإهانة وتعتة، ومنه قوله تعالى: «يدع اليتيم» [الماعون: ٢] وفي الكلام محذوف مختصر تقديره: يقال لهم هذه النار، وإخبارهم بهذا على جهة التوبيخ والتقريع وقرأ أبو رجاء العطاردي: «يوم يدعون إلى نار جهنم» من الدعاء بسكون الدال وفتح العين.

قوله عز وجل:

أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا بُصُرُوتَ ﴿١٥﴾ أَصَلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَكِهِينَ بِمَاءٍ أُنْهِمَ رَبُّهُمْ وَوَقْنَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَكِينِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾

لما قيل لهم هذه النار، وقفوا بعد ذلك على الجهتين التي يمكن منها دخول الشك في أنها النار وهي إما أن يكون ثم سحر يلبس ذات المرء، وإما أن يكون في بصر الناظر اختلال، وأمرهم بصليها على جهة التقريع، ثم قيل لهم على جهة قطع رجائهم: «اصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم» أي عذابكم حتم، فسواء جزعكم وصبركم لا بد من جزاء أعمالكم. وقوله تعالى: «إن المتقين في جنات» الآية يحتمل أن يكون خطاب أهل النار، فيكون إخبارهم بذلك زيادة في غمهم وسوء حالهم، ويحتمل وهو الأظهر أن يكون إخباراً لمحمد صلى الله عليه وسلم ومعاصريه لما فرغ من ذكر عذاب الكفار عقب ذلك بنعيم

المتقين لبيان الفرق ويقع التحريض على الإيمان. والمتقون هنا: متقو الشرك. لأنهم لا بد من مصيرهم إلى الجنات، وكلما زادت الدرجة في التقوى قوي الحصول في حكم الآية، حتى أن المتقين على الإطلاق هم في حكم الآية قطعاً على الله بحكم خبره الصادق.

وقرأ الجمهور: «فاكهين» ومعناه: فرحين مسرورين. وقال أبو عبيدة: هو من باب لابن وتامر أي لهم فاكهة.

قال القاضي أبو محمد: والمعنى الأول أبرع.

وقرأ خالد فيما حكى أبو حاتم «فاكهين» والفكه والفاكه: المسرور المتنعم.

وقوله: ﴿بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾: أي من إنعامه ورضاه عنهم وقوله: ﴿وَوَقَّاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ هذا متمكن ومتقي المعاصي الذي لا يدخل النار ويكون متقي الشرك الذي ينفذ عليه الوعيد بمعنى: ووقاهم ربهم عذاب الخلود في الجحيم. ويحتمل أن يكون ﴿الجحيم﴾ من طبقات جهنم ليست بمأوى للعصاة المؤمنين، بل هي مختصة بالكفرة فهم وإن عذبوا في نار فليسوا في عذاب الجحيم.

وقرأ جمهور الناس: «ووقاهم» بتخفيف القاف. وقرأ أبو حية: «ووقاهم» بتشديدها على المبالغة، وذلك كله مشتق من الوقاية، وهي الحائل بين الشيء وما يضره والمعنى: يقال لهم ﴿كلوا واشربوا﴾. وقوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَعْمَالُكُمْ﴾ معناه: أن رتب الجنة ونعيمها هو بحسب الأعمال وأما نفس دخولها فهو برحمة الله وتغمدته، والأكل والشرب والتعني ليس من الدخول في شيء، وأعمال العباد الصالحة لا توجب على الله التنعيم إيجاباً، لكنه قد جعلها أمانة على من سبق تنعيمه، وعلق الثواب والعقاب بالتكسب الذي في الأعمال. وقوله تعالى: ﴿مُتَكَبِّرِينَ﴾ نصب على الحال على حد قوله: ﴿فاكهين﴾ والعامل في هاتين الحالتين الفعل المقدر في قوله: ﴿في جنات﴾ ويجوز غير هذا، وفي ذلك نظر، وقرأ أبو السمال: «على سرر» بفتح الراء الأولى. و: ﴿وزوجناهم﴾ معناه: جعلنا لكل فرد منهم زوجاً، والحدود: جمع حوراء، وهي البيضاء القوية بياض العين وسواد سوادها، و«العين» جمع عيناء وهي الكبيرة العينين مع جمالها. وفي قراءة ابن مسعود وإبراهيم النخعي: «وزوجناهم بعيث عين»، قال أبو الفتح: العيساء البيضاء. وقرأ عكرمة: «وزوجناهم حوراً عيناً». وحكى أبو عمرو عن عكرمة أنه قرأ «بعيث عين» على إضافة «عين» إلى «عين».

قوله عز وجل:

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَآلَبَعَثَهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ فِيكَهَّةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْنَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَنْتَرَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْسٍ ﴿٢٣﴾ وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ غُلَمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنْ أَلَّهَ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ

قَبْلَ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾

وقرأ ابن كثير وعاصم وحزمة والكسائي وابن مسعود وابن عباس ومجاهد وطلحة والحسن وقتادة وأهل مكة: «واتبعهم ذريتهم» «بهم ذريتهم». وقرأ نافع وأبو جعفر وابن مسعود بخلاف عنه وشيبة والجاحدي وعيسى، «واتبعناهم ذريتهم» «بهم ذرياتهم». وروى خارجة عنه مثل قراءة حمزة. وقرأ ابن عامر وابن عباس وعكرمة وابن جبير والضحاك: «واتبعهم ذريتهم» «بهم ذريتهم». وقرأ أبو عمرو والأعرج وأبو رجاء والشعبي وابن جبير والضحاك: «واتبعناهم ذريتهم» «بهم ذريتهم». فكون الذرية جمعاً في نفسه حسن الأفراد في هذه القراءات، وكون المعنى يقتضي انتشار أو كثرة حسن جمع الذرية في قراءة «ذرياتهم».

واختلف الناس في معنى الآية، قال ابن عباس وابن جبير والجمهور: أخبر الله تعالى أن المؤمنين تتبعهم ذريتهم في الإيمان. فيكونون مؤمنين كأبائهم. وإن لم يكونوا في التقوى والأعمال كالآباء، فإنه يلحق الأبناء بمراتب أولئك الآباء كرامة للآباء.

وقد ورد في هذا المعنى حديث النبي صلى الله عليه وسلم فجعلوا الحديث تفسير الآية وكذلك وردت أحاديث تقتضي «أن الله تعالى يرحم الآباء رعيًا للأبناء الصالحين». وذهب بعض الناس إلى إخراج هذا المعنى من هذه الآية، وذلك لا يترتب إلا بأن يجعل اسم الذرية بمثابة نوعهم على نحو قوله تعالى ﴿أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١] وفي هذا نظر. وقال ابن عباس أيضاً والضحاك معنى هذه الآية: أن الله تعالى يلحق الأبناء الصغار بأحكام الآباء المؤمنين. يعني في الوراثة والدفن في قبور الإسلام وفي أحكام الآخرة في الجنة. وحكى أبو حاتم عن الحسن أنه قال: الآية في الكبار من الذرية وليس فيها من الصغار شيء. وقال منذر بن سعيد هي في الصغار لا في الكبار. وحكى الطبري قولاً معناه أن الضمير في قوله: ﴿بِهِمْ﴾ عائد على ذرية، والضمير الذي بعده في: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ عائد على ﴿الَّذِينَ﴾ أي اتبعهم الكبار وألحقنا نحن الكبار الصغار. وهذا قول مستكره.

وقوله: ﴿بِإِيمَانٍ﴾ هو في موضع الحال. فمن رأى أن الآية في الأبناء الصغار. فالحال من الضمير في قوله: ﴿اتَّبَعْتَهُمْ﴾ فهو من المفعولين، ومن رأى أن الآية في الأبناء الكبار فيحتمل أن تكون الحال من المفعولين، ويحتمل أن تكون من المتبعين الفاعلين، وأرجح الأقوال في هذه الآية القول الأول. لأن الآيات كلها في صفة إحسان الله تعالى إلى أهل الجنة فذكر من جملة إحسانه أنه يرعى المحسن في المسيء. ولفظة ﴿أَلْحَقْنَا﴾ تقتضي أن للملحق بعض التقصير في الأعمال.

وقرأ جمهور القراء: «ألتناهم» بفتح الألف من ألت. وقرأ ابن كثير وأبو يحيى وشبل: «ألتناهم» من ألت بكسر اللام. وقرأ الأعرج: «ألتناهم» على وزن أفعلناهم. وقرأ أبي بن كعب وابن مسعود: «لتناهم» من لات، وهي قراءة ابن مصرف. ورواها القواس عن ابن كثير، وتحتمل قراءة من قرأ: «ألتناهم» بالفتح أن تكون من آلات، فإنه قال: آلات يليت إلاتة. ولات يليت ليتاً. وألت يولت إيلاتاً، وألت يألت. وولت يلت ولتاً. وكلها بمعنى نقص ومعنى هذه الآية: أن الله يلحق المقصر بالمحسن، ولا ينقص المحسن من أجره شيئاً وهذا تأويل ابن عباس وابن جبير والجمهور، ويحتمل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ

شيء» بأن يريد من عملهم المحسن والقيح، ويكون الضمير في ﴿عملهم﴾ عائداً على الأبناء، وهذا تأويل ابن زيد، ويحسن هذا الاحتمال قوله تعالى: ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾، والرهين المرتهن، وفي هذه الألفاظ وعيد.

وحكى أبو حاتم عن الأعمش أنه قرأ: «وما لتناهم» بغير ألف وفتح اللام. قال أبو حاتم: لا تجوز هذه القراءة على وجه من الوجوه. وأمدت الشي: إذا سربت إليه شيئاً آخر يكثره أو يكثر لديه. وقوله: ﴿مما يشتهون﴾ إشارة إلى ما روي من أن المنعم إذا انتهى لحماً نزل ذلك الحيوان بين يديه على الهيئة التي اشتهاه فيها، وليس يكون في الجنة لحم يخزن ولا يتكلف فيه الذبح والسلخ والطبخ. وبالجمل: لا كلفة في الجنة، و: ﴿يتنازعون﴾ معناه: يتعاطون، ومنه قول الأخطل: [البسيط]

نازعت طيب الراح الشمول وقد صاح الدجاج وحانت وقعة الساري

والكأس: الإناء وفيه الشراب. ولا يقال في فارغ كأس، قاله الزجاج:

وقرأ جمهور من السبعة وغيرهم «لا لغو» بالرفع «ولا تأثيم» كذلك. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والحسن: «لا لغو ولا تأثيم» بالنصب على التبرية وعلى الوجهين. فقوله ﴿فيها﴾ هو في موضع الخبر، وأغنى خبر الأولين عن ذكر خبر الثاني. واللغو: السقط من القول. والتأثيم: يلحق خمر الدنيا في نفس شربها وفي الأفعال التي تكون من شربها، وذلك كله مرتفع في الآخرة. و: «اللؤلؤ المكنون» أجمل اللؤلؤ لأن الصون والكن يحسنه. وقال ابن جبير: أراد أنه الذي في الصدف لم تنله الأيدي، وقيل للنبى صلى الله عليه وسلم: إذا كان الغلمان كاللؤلؤ المكنون، فكيف المخدومون؟ قال: «هم كالقمر ليلة البدر». ثم وصف عنهم أنهم في جملة تنعمهم يتساءلون عن أحوالهم وما قال كل أحد منهم، وأنهم يتذكرون حال الدنيا وخشيتهم فيها عذاب الآخرة. وحكى الطبري عن ابن عباس قال: تسألهم إذا بعثوا في النفخة الثانية. والإشفاق أشد الخشية ورقة القلب.

وقرأ أبو حيوة: «ووقانا» بشد القاف. وقراءة الجمهور بتخفيفها. وأمال عيسى الثقفي: «ووقانا» بتخفيف القاف.

و: ﴿السموم﴾ الحار. قال الرماني: هو الذي يبلغ مسام الإنسان، وهو النار في هذه الآية. وقد يقال في حر الشمس وفي الريح سموم. وقال الحسن: ﴿السموم﴾ اسم من أساء جهنم و: ﴿ندعوه﴾ يحتل أن يريد نعبده، ويحسن هذا على قراءة من قرأ: «أنه» بفتح الألف. وهي قراءة نافع. بخلاف والكسائي وأبي جعفر والحسن وأبي نوفل أي من أجل أنه. وقرأ باقي السبعة والأعرج وجماعة «أنه» على القطع والاستئناف، ويحسن مع هذه القراءة أن يكون ﴿ندعوه﴾ بمعنى نعبده. أو بمعنى الدعاء نفسه، ومن رأى: ﴿ندعوه﴾ بمعنى الدعاء نفسه فيحتمل أن يجعل قوله: «أنه» بالفتح هو نفس الدعاء الذي كان في الدنيا. و: ﴿البر﴾ هو الذي يبر ويحسن، ومنه قول ذي الرمة: [البسيط]

جاءت من البيض زعر لا لباس لها إلا الدهاس وأم برة وأب

قوله عز وجل :

فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْقِنُونَ ﴿٣٦﴾

هذا أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعاء إلى الله ومتابعة نشر الرسالة، ثم قال مؤنساً له : ﴿فما أنت﴾ بإنعام الله عليك أو لطفه بك ﴿بكاهن ولا مجنون﴾ . وكانت العرب قد عهدت ملابسة الجن والإنس بهذين الوجهين، فنسبت محمداً صلى الله عليه وسلم إلى ذلك فنفى الله تعالى عنه ذلك .

وقوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ الآية، روي أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة فكثرت آراؤهم في محمد صلى الله عليه وسلم حتى قال قائل منهم : ﴿تربصوا به ريب المنون﴾ فإنه شاعر سيهلك كما هلك زهير والنابعة والأعشى وغيرهم، فافترقوا على هذه المقالة فزلت الآية في ذلك، والتربص : الانتظار ومنه قول الشاعر : [الطويل]

تربص بها ريب المنون لعلها تطلق يوماً أو يموت حليلها

وأنشد الطبري : [الطويل]

لعلها سيهلك عنها زوجها أو ستجنح

وقوله تعالى : ﴿قل تربصوا﴾ وعيد في صيغة أمر، و : ﴿المنون﴾ من أسماء الموت، وبه فسر ابن عباس، ومن أسماء الدهر أيضاً، وبه فسر مجاهد وقال الأصمعي : ﴿المنون﴾ واحد لا جمع له وقال الأخفش : هو جمع لا واحد له .

قال القاضي أبو محمد : والريب هنا : الحوادث والمصائب، لأنها تريب من نزلت به ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في أمر ابنته فاطمة حين ذكر أن علياً يتزوج بنت أبي جهل : «إنما فاطمة بضعة مني، يريني ما أرابها» . يقال أراب ورا ب، ومنه : [الطويل]

فقد رابني منها الغداة سفورها

وقول الآخر : [المتقارب]

وقد رابني قولها يا هناء

وأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بتوعدهم بقوله : ﴿قل تربصوا فإنني معكم من المتربصين﴾ وقوله تعالى : ﴿بهذا﴾ يحتمل أن يشير إلى هذه المقالة : هو شاعر، ويحتمل أن يشير إلى ما هم عليه من

الكفر وعبادة الأصنام. والأحلام: العقول. و: ﴿أَمْ﴾ المتكررة في هذه الآية قدرها بعض النحاة بألف الاستفهام، وقدرها مجاهد بـ «بل». والنظر المحرر في ذلك أن منها ما يتقدر بـ «بل»، والهمزة على حد قول سيبويه في قولهم: إنها لا بل أم شاء، ومنها ما هي معادلة، وذلك قوله: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَافُونَ﴾.

وقرأ مجاهد: «بل هم قوم طافون» وهو معنى قراءة الناس، إلا أن العبارة بـ ﴿أَمْ﴾ خرجت مخرج التوقيف والتوبيخ. وحكى الثعلبي عن الخليل أنه قال: ما في سورة «الطور» من ﴿أَمْ﴾ كله استفهام وليست بعطف. و: ﴿تَقُولُ﴾ معناه: قال عن الغير إنه قاله. فهي عبارة عن كذب مخصوص. ثم عجزهم تعالى بقوله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ والمماثلة المطلوبة منهم هي في النظم والرصف والإيجاز.

واختلف الناس هل كانت العرب قادرة على الإتيان بمثل القرآن قبل مجيء محمد صلى الله عليه وسلم، فقال شداد: يسمون أهل الصرفة كانت قادرة وصرفت، وقال الجمهور: لم تكن قط قادرة ولا في قدرة البشر أن يأتي بمثله. لأن البشر لا يفارقه النسيان والسهو والجهل والله تعالى محيط علمه بكل شيء. فإذا ترتبت اللفظة في القرآن، علم بالإحاطة التي يصلح أن تليها ويحسن معها المعنى. وذلك متعذر في البشر، والهاء في ﴿مِثْلِهِ﴾ عائدة على القرآن.

وقرأ الجحدري «بحديث مثله» بإضافة الحديث إلى مثل. فالهاء على هذا عائدة على محمد صلى الله عليه وسلم.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ قال الطبري معناه: أم خلقوا خلق الجماد من غير حي فهم لا يؤمرون ولا ينهون كما هي الجمادات عليه. وقال آخرون معناه: خلقوا لغير علة ولا لغير عقاب ولا ثواب. فهم لذلك لا يسمعون ولا يتشرعون. وهذا كما تقول: فعلت كذا وكذا من غير علة، أي لغير علة. ثم وقفهم على جهة التوبيخ على أنفسهم: أهم الذين خلقوا الأشياء؟ فهم لذلك يتكبرون، ثم خصص من الأشياء «السموات والأرض» لعظمها وشرفها في المخلوقات، ثم حكم عليهم بأنهم «لا يوقنون» ولا ينظرون نظراً يؤدبهم إلى اليقين.

قوله عز وجل:

أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ هُمْ سَامِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ نَسْتُلْهُمْ أَجْرَافَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ بمنزلة قوله: أم عندهم الاستغناء عن الله في جميع الأمور، لأن المال والصحة والقوة وغير ذلك من الأشياء كلها من خزائن الله كلها. قال الزهراوي وقيل يريد بـ «الخزائن»: العلم، وهذا قول حسن إذا تأمل وبسط. وقال الرماني: خزائنه تعالى: مقدوراته،

و: «المصيطر» المسلط القاهر، وبذلك فسر ابن عباس وأصله السين، ولكن كتبه بعض الناس. وقرأه بالصاد مراعاة للطاء ليتناسب النطق. وحكى أبو عبيدة: تسيطر علي إذا اتخذتني خولاً. والسلم: السبب الذي يصعد به كان ما كان من خشب أو بناء أو جبال. ومنه قول ابن مقبل: [البسيط]

لا تحرز المرء أحجاء البلاد ولا تبني له في السماوات السلالم

وحكى الرماني قال: لا يقال سلم لما يبنى من الأدراج، وإنما السلم المشبك، وبيت الشعر يرد عليه، والمعنى: ألهم ﴿سلم﴾ إلى السماء ﴿يستمعون فيه﴾ أي عليه ومنه، وهذه حروف يسد بعضها مسد بعض، والمعنى: يستمعون الخبر بصحة ما يدعونه فليأتوا بالحجة المبينة في ذلك وقوله تعالى: ﴿أم له البنات﴾ الآية، معناه: أم هم أهل الفضيلة علينا فيلزم لذلك انتخاؤهم وتكبرهم، ثم قال تعالى: ﴿أم تسألهم﴾ يا محمد على الإيمان بالله وشرعه أجرة يثقلهم غرمها فهم لذلك يكرهون الدخول فيما يوجب غرامتهم ثم قال تعالى: ﴿أم عندهم﴾ علم ﴿الغيب﴾ فهم يبينون ذلك للناس سنناً وشرعاً يكتبونه وذلك عبادة الأوثان وتسيب السوائب وغير ذلك من سيرهم. وقيل المعنى: فهم يعلمون متى يموت محمد الذي يتربصون به، و: ﴿يكتبون﴾ بمعنى يحكمون، وقال ابن عباس: يعني أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون به. ثم قال تعالى: ﴿أم يريدون كيداً﴾ بك وبالشرع، ثم جزم الخبر بأنهم ﴿هم المكيدون﴾، أي المغلوبون، فسمى غلبتهم ﴿كيداً﴾ إذ كانت عقوبة الكيد. ثم قال تعالى: ﴿أم لهم إله غير الله﴾ يعصمهم ويمنعهم منهم ويدفع في صدر إهلاكهم. ثم نزه تعالى نفسه ﴿عما يشركون﴾ به من الأصنام والأوثان، وهذه الأشياء التي وقفهم تعالى عليها حصرت جميع المعاني التي توجب الانتخاء والتكبر والبعد من الائتثار، فوقفهم تعالى عليها أي ليست لهم ولا بقي شيء يوجب ذلك إلا أنهم قوم طاغون. وهذه صفة فيها تكسبهم وإثارهم فيتعلق بذلك عقابهم. ثم وصفهم تعالى بأنهم على الغاية من العتو والتمسك بالأقوال الباطلة في قوله: ﴿وإن يروا كسفاً﴾ الآية، وذلك أن قريشاً كان في جملة ما اقترحت به أن تنزل من السماء عليها كسف وهي القطع، واحداها كسفة، وتجمع أيضاً على كسف كثمرة وتمر، قال الرماني: هي التي تكون بقدر ما يكسف ضوء الشمس. فأخبر الله عنهم في هذه الآية أنهم لو رأوا كسفاً ﴿ساقطاً﴾ حسب اقتراحهم لبلغ بهم العتو والجهل والبعد عن الحق أن يغالطوا أنفسهم وغيرهم ويقولوا هذا ﴿سحاب مركوم﴾. أي كثيف قد تراكم بعضه فوق بعض، ولهذه الآية نظائر في آيات أخر.

قوله عز وجل:

فَذَرَّهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الْجُورِ ﴿٤٩﴾

قوله: ﴿فذرهم﴾ وما جرى مجراه من المواعدة منسوخ بآية السيف.

وقرأ أبو جعفر وأبو عمرو بخلاف عنه «يلقوا»، والجمهور على «يلاقوا».

واختلف الناس في اليوم الذي توعدوا به، فقال بعض المتأولين: هو موتهم واحداً واحداً وهذا على تجوز، والصعق: التعذب في الجملة وإن كان الاستعمال قد كثر فيه فيما يصيب الإنسان من الصيحة المفردة ونحوه. ويحتمل أن يكون اليوم الذي توعدوا به يوم بدر، لأنهم عذبوا فيه، وقال الجمهور: التوعد بيوم القيامة، لأن فيه صعقة تعم جميع الخلائق، لكن لا محالة أن بين صعقة المؤمن وصعقة الكافر فرقاً.

وقرأ جمهور القراء: «يُصْعَقُونَ» من صعق الرجل بكسر العين. وقرأ أبو عبد الرحمن: «يُصْعِقُونَ» بفتح الياء وكسر العين. وقرأ عاصم وابن عامر وأهل مكة في قول شبل: «يُصْعِقُونَ» بضم الياء، وذلك من أصعق الرجل غيره. وحكى الأخفش: صُعِقَ الرجل بضم الصاد وكسر العين.

قال أبو علي: فجائز أن يكون منه فهو مثل يضربون، قال أبو حاتم: وفتح أهل مكة الياء في قول إسماعيل. و: «يَغْنِي» يكون منه غناء ودفاع.

ثم أخبر تعالى بأنهم لهم دون هذا اليوم، أي قبله عذاب، واختلف الناس في تعيينه، فقال ابن عباس وغيره: هو بدر والفتح ونحوه. وقال مجاهد: هو الجوع الذي أصاب قريشاً. وقال البراء بن عازب وابن عباس أيضاً: هو عذاب القبر، ونزع ابن عباس وجود عذاب القبر بهذه الآية. وقال ابن زيد: هو مصائب الدنيا في الأجسام وفي الأحبة وفي الأموال، هي للمؤمنين رحمة وللكافرين عذاب، وفي قراءة ابن مسعود: دون ذلك قريباً «ولكن» «لا يعلمون». ثم أمر تعالى نبيه بالصبر لحكم الله والمضي على نذارته ووعدته بقوله: «فإنك بأعيننا»، ومعناه بإدراكنا وأعين حفظنا وحيطتنا كما تقول: فلان يرعاه الملك بعين، وهذه الآية ينبغي أن يقررها كل مؤمن في نفسه، فإنها تفسح مضائق الدنيا. وقرأ أبو السمال: «بأعيننا» بنون واحدة مشددة.

واختلف الناس في قوله: «وسبح بحمد ربك» فقال أبو الأحوص عوف بن مالك: هو التسبيح المعروف، أن يقول في كل قيام له سبحانه الله وبحمده. وقال عطاء: المعنى: حين تقوم من كل مجلس. وقال ابن زيد: التسبيح هنا هو صلاة النوافل. وقال الضحاك وابن زيد: هذه إشارات إلى الصلاة المفروضة؛ فـ «حين تقوم»: الظهر والعصر، أي «حين تقوم» من نوم القائلة. «ومن الليل» المغرب والعشاء. «وإدبار النجوم» الصبح. ومن قال هي النوافل جعل «إدبارهم النجوم»: ركعتي الفجر، وعلى هذا القول جماعة كثيرة، منهم عمر وعلي بن أبي طالب وأبو هريرة والحسن رضي الله عنهم. وقد روي مرفوعاً ومن جعله التسبيح المعروف، جعل قوله: «حين تقوم» مثلاً، أي حين تقوم وحين تقعد وفي كل تصرفك. وحكى منذر عن الضحاك أن المعنى: «حين تقوم» في الصلاة بعد تكبيرة الإحرام فقل: «سبحانك اللهم وبحمدك، تبارك اسمك، وتعالى جدك، الحديث».

وقرأ سالم بن أبي الجعد ويعقوب: «وإدبار» بفتح الهمزة بمعنى: وأعقاب، ومنه قول الشاعر

[قيس بن الملوح]: [الطويل]

فأصبحت من ليلي الغداة كناظر مع الصبح في أعقاب نجم مغرب

وقرأ جمهور الناس: «وإدبار» بكسر الهمزة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ النَّجْمِ

وهي مكية بإجماع من المتأولين وهي أول سورة أعلن بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهه بقراءتها في الحرم والمشركون يستمعون، وفيها سجد وسجد معه المؤمنون والمشركون والجن والإنس غير أبي لهب فإنه رفع حفنة من تراب إلى جبهته وقال يكفيني هذا وسبب هذه السورة أن المشركين قالوا إن محمداً يتقول القرآن ويخلق أقواله فنزلت السورة في ذلك.

قوله عز وجل:

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾

أقسم الله تعالى بهذا المخلوق تشريفاً له وتنبهها منه ليكون معتبراً فيه حتى تولى العبرة إلى معرفة الله تعالى. وقال الزهري، المعنى: ورب النجم، وفي هذا قلق مع لفظ الآية. واختلف المتأولون في تعيين النجم المقسم به فقال ابن عباس ومجاهد والفراء، وبينه منذر بن سعيد هو الجملة من القرآن إذا تنزلت، وذلك أنه روي أن القرآن نزل على محمد صلى الله عليه وسلم نجوماً أي أقداراً مقدرة في أوقات ما، ويجيء ﴿هوى﴾ على هذا التأويل بمعنى: نزل، وفي هذا الهوى بعد وتحامل على اللغة، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ [الواقعة: ٧٥] والخلاف في هذا كالخلاف في تلك، وقال الحسن ومعمربن المثنى وغيرهما: ﴿النجم﴾ هنا اسم جنس، أرادوا النجوم إذا هوت، واختلف قائلو هذه المقالة في معنى: ﴿هوى﴾ فقال جمهور المفسرين: ﴿هوى﴾ إلى الغروب، وهذا هو السابق إلى الفهم من كلام العرب، وقال الحسن بن أبي الحسن وأبو حمزة الثمالي ﴿هوى﴾ عند الإنكدار في القيامة فهي بمعنى: قوله: ﴿وإذا الكواكب انتشرت﴾. [الانفطار: ٢] وقال ابن عباس في كتاب الثعلبي هو في الانقضااض في أثر العفوية وهي رجوم الشياطين، وهذا القول تسعده اللغة، والتأويلات في ﴿هوى﴾ محتملة، كلها قوية ومن الشاهد في النجم الذي هو اسم الجنس قول الراعي:

فتافت تعد النجم في مستحيرة سريع بأيدي الأكلين جمودها

يصف إهالة صافية، والمستحيرة: القدر التي يطبخ فيها، قاله الزجاج. وقال الرماني وغيره: هي

شحمة صافية حين ذابت، وقال مجاهد وسفيان: ﴿النجم﴾ في قسم الآية الثريا، وسقوطها مع الفجر هو هوبها والعرب لا تقول النجم مطلقاً إلا للثريا، ومنه قول العرب [مجزوء الرمل]

طلع النجم عشاء فابتغى الراعي كساء
طلع النجم غدية فابتغى الراعي شكية

و﴿هوى﴾ على هذا القول يحتمل الغروب ويحتمل الانكدار، و﴿هوى﴾ في اللغة معناه: خرق الهوى ومقصده السفل أو مسيره إن لم يقصده إليه، ومنه قول الشاعر: [مجزوء الكامل]

هوى ابني شفا جبل فزلت رجله ويده

وقول الشاعر: [الطويل]

وإن كلام المرء في غير كنهه لك النبل تهوي ليس فيها نصالها

وقول زهير:

هوى الدلو أسلمها الرشاء

ومنه قولهم للجراد: الهاوي، ومنه هوى العقاب.

والقسم واقع على قوله: ﴿ما ضل صاحبكم وما غوى﴾ والضلal أبدأ يكون من غير قصد من الإنسان إليه. والغى كأنه شيء يكتسبه الإنسان ويريده، نفى الله تعالى عن نبيه هذين الحالين، و﴿غوى﴾: الرجل يغوي إذا سلك سبيل الفساد والعوج، ونفى الله تعالى عن نبيه أن يكون ضل في هذه السبيل التي أسلكه الله إياها، وأثبت له تعالى في الضحى أنه قد كان قبل النبوة ضالاً بالإضافة إلى حاله من الرشد بعدها.

وقوله تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ يريد محمداً صلى الله عليه وسلم أنه ليس يستكلم عن هواه، أي بهواه وشهوته. وقال بعض العلماء: المعنى: وما ينطق القرآن المنزل عن هوى وشهوة، ونسب النطق إليه من حيث تفهم عنه الأمور كما قال: ﴿هذا كتابنا ينطق﴾ [الجاثية: ٢٩] وأسند الفعل إلى القرآن ولم يتقدم له ذكر لدلالة المعنى عليه.

وقوله: ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾ يراد به القرآن بإجماع، والوحي: إلقاء المعنى في خفاء، وهذه عبارة تعم الملك والإلهام والإشارة وكل ما يحفظ من معاني الوحي.

والضمير في قوله: ﴿علمه﴾ يحتمل أن يكون للقرآن، والأظهر أنه لمحمد صلى الله عليه وسلم. وأما المعلم فقال قتادة والربيع وابن عباس: هو جبريل عليه السلام، أي علم محمداً القرآن. وقال الحسن المعلم الشديد القوى هو الله تعالى. و﴿القوى﴾ جمع قوة، وهذا في جبريل مكتمن، ويؤيده قوله تعالى: ﴿ذي قوة عند ذي العرش مكين﴾ [التكوير: ٢٠]. و﴿ذو مرة﴾ معناه: ذو قوة، قاله قتادة وابن زيد والربيع، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي». وأصل المرة

من مرائر الجبل، وهي فتله وإحكام عمله، ومنه قول امرئ القيس: [الطويل]

بكل ممر القتل شد يذبيل

وقال قوم ممن قال إن ذا المرة جبريل. معنى: ﴿ذو مرة﴾ ذو هيئة حسنة وقال آخرون: بل معناه ذو جسم طويل حسن.

قال القاضي أبو محمد: وهذا كله ضعيف.

و ﴿استوى﴾ مستند إلى الله تعالى في قول الحسن الذي قال: إنه لمتصف: بـ ﴿شديد القوى﴾، وكذلك يجيء قوله: ﴿وهو بالأفق الأعلى﴾ صفة الله تعالى على معنى وعظمته وقدرته وسلطانه تتلقى نحو «الأفق الأعلى»، ويجيء المعنى نحو قوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [طه: ٥]، ومن قال إن المتصف بـ ﴿شديد القوى﴾ هو جبريل عليه السلام قال: إن ﴿استوى﴾ مستند إلى جبريل، واختلفوا بعد ذلك، فقال الربيع والزجاج: المعنى: ﴿فاستوى﴾ جبريل في الجو، وهو إذ ذاك، ﴿بالأفق الأعلى﴾ إذ رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم بحراء قد سد الأفق، له ستمائة جناح، وحينئذ دنا من محمد حتى كان ﴿قاب قوسين﴾، وكذلك هو المراد في هذا القول النزلة الأخرى في صفته العظيمة له ستمائة جناح عند السدرة وقال الطبري والفراء المعنى: ﴿فاستوى﴾ جبريل.

وقوله: ﴿وهو﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم، وقد تقدم ذكره في الضمير في ﴿علمه﴾. وفي هذا التأويل العطف على المضمرة المرفوعة دون أن يؤكد، وذلك عند النحاة مستقيح، وأنشد الفراء على قوله: [الطويل]

ألم تر أن النبع يصلب عوده ولا يستوي والخروج المتقص

وقد ينعكس هذا الترتيب فيكون «استوى» لمحمد وهو لجبريل عليه السلام، وأما «الأعلى» فهو عندي لقمة الرأس وما جرى معه. وقال الحسن وقتادة: هو أفق مشرق الشمس وهذا التخصيص لا دليل عليه. واختلف الناس إلى من استند قوله. ﴿ثم دنا فتدلى﴾ فقال الجمهور: استند إلى جبريل عليه السلام، أي دنا إلى محمد في الأرض عند حراء. وقال ابن عباس وأنس في حديث الإسراء ما يقتضي أنه يستند إلى الله تعالى، ثم اختلف المتأولون، فقال مجاهد: كان الدنو إلى جبريل. وقال بعضهم: كان إلى محمد. و: ﴿دنا فتدلى﴾ على هذا القول معه حذف مضاف. أي دنا سلطانه ووحيه وقدره لا الانتقال، وهذه الأوصاف متنتية في حق الله تعالى. والصحيح عندي أن جميع ما في هذه الآيات هو مع جبريل، بدليل قوله: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ [النجم: ١٣] فإن ذلك يقضي بنزلة متقدمة، وما روي قط أن محمداً رأى ربه قبل ليلة الإسراء، أما أن الرؤية بالقلب لا تمنع بحال و ﴿دنا﴾ أعم من: «تدلى»، فبين تعالى بقوله: ﴿فتدلى﴾ هيئة الدنو كيف كانت، و: ﴿قاب﴾ معناه: قدر. وقال قتادة وغيره: معناه من طرف العود إلى طرفه الآخر. وقال الحسن ومجاهد: من الوتر إلى العود في وسط القوس عند المقبض.

وقرأ محمد بن السميع اليماني: «فكان قيس قوسين»، والمعنى قريب من ﴿قاب﴾، ومن هذه

اللفظة قول النبي عليه السلام: «لقاب قوس أحدكم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها» وفي حديث آخر: «لقاب قوس أحدكم في الجنة».

وقوله: ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ معناه: على مقتضى نظر البشر، أي لو رآه أحدكم لقال في ذلك قوسان أو أدنى من ذلك، وقال أبو زيد ليست بهذه القوس، ولكن قدر الذراعين أو أدنى، وحكى الزهراوي عن ابن عباس أن القوس في هذه الآية ذراع تقاس به الأطوال، وذكره الثعلبي وأنه من لغة الحجاز.

وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾، قال ابن عباس المعنى: ﴿فَأَوْحَىٰ﴾ الله ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِ﴾ جبريل ﴿مَا أَوْحَىٰ﴾. وفي قوله: ﴿مَا أَوْحَىٰ﴾ إيهام على جهة التفضيم والتعظيم، والذي عرف من ذلك فرض الصلاة، وقال الحسن المعنى: فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحى كالأولى في الإيهام، وقال ابن زيد المعنى: فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحى الله إلى جبريل.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ قرأ جمهور القراء بتخفيف الذال على معنى لم يكذب قلب محمد الشيء الذي رأى، بل صدقه وتحققه نظراً، و﴿كَذَبَ﴾ يتعدى، وقال أهل التأويل ومنهم ابن عباس وأبو صالح: رأى محمد الله تعالى بفؤاده. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «جعل الله نور بصري في فؤادي، فنظرت إليه بفؤادي». وقال آخرون من المتأولين المعنى: ما رأى بعينه لم يكذب ذلك قلبه، بل صدقه وتحققه، ويحتمل أن يكون التقدير فيما رأى، وقال ابن عباس فيما روي عنه وعكرمة وكعب الأحبار إن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعيني رأسه. وبسط الزهراوي هذا الكلام عنهم وأبت ذلك عائشة، وقالت: أنا سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآيات، فقال لي: «هو جبريل فيها كلها». وقال الحسن المعنى: ما رأى من مقدورات الله وملكوته. وسأل أبو ذر رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل رأيت ربك؟ قال: هو نور إني أراه، وهذا قول الجمهور، وحديث عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم عليه وسلم قاطع بكل تأويل في اللفظ، لأن قول غيرها إنما هو منتزع من ألفاظ القرآن. وقرأ ابن عامر فيما روى عنه هشام: «ما كَذَبَ» بشد الذال، وهي قراءة أبي رجاء وأبي جعفر وقتادة والجحدري وخالد، ومعناه بين على بعض ما قلناه، وقال كعب الأحبار: إن الله تعالى قسم الكلام والرؤية بين موسى ومحمد، فكلم موسى مرتين، وراه محمد مرتين، وقالت عائشة رضي الله عنها: لقد وقف شعري من سماع هذا وتلت: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ، وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. وذهبت هي وابن مسعود وقتادة وجمهور العلماء إلى أن المرثي هو جبريل عليه السلام في المرتين: في الأرض وعند سدرة المنتهى ليلة الإسراء، وقد ذكرتها في سورة «سبحان» وهي مشهورة في الكتب الصحاح.

وقرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر هذه السورة كلها بفتح أو آخر آيها وأمال عاصم في رواية أبي بكر: «رأى». وقرأ نافع وأبو عمرو بين الفتح. وأمال حمزة والكسائي جميع ما في السورة، وأمال أبو عمرو فيما روى عنه عبيد: «الأعلى» و: «تدلى».

قوله عز وجل:

أَقَمُّرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَ هَاجَةِ الْمَآوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ

يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿أفتمارونه﴾ خطاب لقريش، وهو من الصراء والمعنى أتجادلونه في شيء رآه وأبصره، وهذه قراءة الجمهور وأهل المدينة، وقرأ علي بن أبي طالب وابن عباس وابن مسعود وحمزة والكسائي: «أفتمرونه» بفتح التاء دون ألف بعد الميم، والمعنى: أفتجدونه؟ وذلك أن قريشاً لما أخبرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمره في الإسراء مستقصى، كذبوا واستخفوا حتى وصف لهم بيت المقدس وأمر غيرهم وغير ذلك مما هو في حديث الإسراء مستقصى، ورواها سعيد عن النخعي: «أفتمرونه» بضم التاء، قال أبو حاتم: وذلك غلط من سعيد. وقوله: ﴿يرى﴾ مستقبلاً والرؤية قد مضت عبارة تعم جميع ما مضى وتشير إلى ما يمكن أن يقع بعد، وفي هذا نظر.

واختلف الناس في الضمير في قوله: ﴿ولقد رآه﴾ حسبما قدمناه، فقال ابن عباس وكعب الأحبار: هو عائذ على الله، وقال ابن مسعود وعائشة ومجاهد والربيع: هو عائذ على جبريل. و: ﴿نزلة﴾ معناه: مرة، ونصبه على المصدر في موضع الحال. و: ﴿سدره المنتهى﴾ هي شجرة نبق، قال كعب: هي في السماء السابعة، وروى ذلك مالك بن صعصعة عن النبي صلى الله عليه وسلم. وقال ابن مسعود: في السماء السادسة. وقيل لها: ﴿سدره المنتهى﴾ لأنها إليها ينتهي علم كل عالم، ولا يعلم ما وراءها صعوداً إلا الله تعالى. وقيل سميت بذلك لأنها إليها ينتهي من مات على سنة النبي صلى الله عليه وسلم.

قال القاضي أبو محمد: هم المؤمنون حقاً من كل جيل.

وقيل سميت بذلك، لأن ما نزل من أمر الله فعندها يتلقى ولا يتجاوزها ملائكة العلو، وما صعد من الأرض فعندها يتلقى ولا يتجاوزها ملائكة السفلى. وروي عن النبي عليه السلام أن الأمة من الأمم تستظل بظل الفن منها، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رفعت لي ﴿سدره المنتهى﴾، فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة».

وقوله تعالى: ﴿عندها جنة المأوى﴾ قال الجمهور: أراد أن يعظم مكان السدره ويشرفه بأن ﴿جنة المأوى﴾ عندها. قال الحسن: وهي الجنة التي وعد بها العالم المؤمن. وقال قتادة وابن عباس بخلاف هي جنة يأوي إليها أرواح الشهداء والمؤمنين، وليست بالجنة التي وعد بها المؤمنون جنة النعيم، وهذا يحتاج إلى سند وما أراه يصح عن ابن عباس.

وقرأ علي بن أبي طالب وابن الزبير بخلاف، وأنس بن مالك بخلاف، وأبو الدرداء وزر بن حبيش وقاتدة ومحمد بن كعب: «جنة المأوى» بالهاء في جنة، وهو ضمير محمد صلى الله عليه وسلم، والمعنى: ستره وضمه إيواء الله تعالى وجميل صنعه به، يقال: جنة وأجنه، وردت عائشة وصحابة معها هذه القراءة وقالوا: أجن الله من قرأها. والجمهور قرأ: «جنة» كالأية الأخرى: ﴿فلهم جنات المأوى نزلاً﴾ [السجدة: ١٩] وحكى الثعلبي أن معنى «جنة المأوى»: ضمه المبيت والليل.

وقوله: ﴿إذ يغشى السدره ما يغشى﴾ التعامل في: ﴿إذ﴾، ﴿رآه﴾. المعنى: رآه في هذه الحال.

و﴿ما يغشى﴾ معناه من قدرة الله، وأنواع الصفات التي يخلقها لها، وذلك منهم على جهة التفضيم والتعظيم، وقال مجاهد تبدل أغصانها درأً وياقوتاً ونحوه. وقال ابن مسعود ومسروق ومجاهد: ذلك جراد من ذهب كان يغشاها. وروى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «رأيتها ثم حال دونها فراش الذهب». وقال الربيع وأبو هريرة: كان تغشاها الملائكة كما تغشى الطير الشجر، وقيل غير هذا مما هو تكلف في الآية، لأن الله تعالى أبهم ذلك وهم يريدون شرحه، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فغشها ألوان لا أدري ما هي؟» وقوله تعالى: ﴿ما زاغ الصبر﴾ قال ابن عباس معناه: ما جال هكذا ولا هكذا. وقوله: ﴿وما طغى﴾ معناه: ولا تجاوز المرئي، بل وقع عليه وقوعاً صحيحاً، وهذا تحقيق للأمر ونفي لوجود الريب عنه.

وقوله تعالى: ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ قال جماعة من أهل التأويل معناه: رأى الكبرى من آيات ربه، والمعنى ﴿من آيات ربه﴾ التي يمكن أن يراها البشر، ف﴿الكبرى﴾ على هذا مفعول بـ﴿رأى﴾. وقال آخرون المعنى: ﴿لقد رأى﴾ بعضاً ﴿من آيات ربه الكبرى﴾، ف﴿الكبرى﴾ على هذا وصف للآيات، والجمع مما لا يعقل في المؤنث يوصف أبداً على حد وصف الواحدة. وقال ابن عباس وابن مسعود: رأى رفرفاً أخضر من الجنة قد سد الأفق. وقال ابن زيد: رأى جبريل في صورته التي هو بها في السماوات.

قوله عز وجل:

أَفَرَأَيْتُمُ اللَّتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذْ قَسَمَٰ ضَيْزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَعَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَرُمَ مَلِكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى: ﴿أفرأيتم﴾ مخاطبة لقریش، وهي من رؤية العين، لأنه أحال على أجرام مرئية، ولو كانت: أرأيت: التي هي استفتاء لم تتعد. ولما فرغ من ذكر عظمة الله وقدرته، قال على جهة التوقيف: أرأيتم هذه الأوثان وحقارتها وبعدها عن هذه القدرة والصفات العلية و: ﴿اللّات﴾ اسم صنم كانت العرب تعظمه، قال أبو عبيدة وغيره: كان في الكعبة، وقال قتادة: كان بالطائف. وقال ابن زيد: كان بنخلة عند سوق عكاظ، وقول قتادة أرجح يؤيده قول الشاعر: [المقارب]

وفرّت ثقيف إلى لاتها بمنقلب الخائب الخاسر

والنّاء في: ﴿اللّات﴾ لام فعل كالباء من باب، وقال قوم هي تاء تأنيث، والتصريف يأبى ذلك، وقرأ ابن عباس ومجاهد وأبو صالح: ﴿اللّات﴾ بشد النّاء، وقالوا: كان هذا الصنم حجراً وكان عنده رجل من بهز يلت سويق الحاج على ذلك الحجر ويخدم الأصنام، فلما مات عبدوا الحجر الذي كان عنده إجلالاً لذلك الرجل وسموه باسمه، ورويت هذه القراءة عن ابن كثير وابن عامر، ﴿والعزى﴾: صخرة بيضاء

كانت العرب تعبدها وتعظمها، قاله سعيد بن جبير وقال ابن مجاهد: كانت شجيرات تعبد ثم يبلاها انتقل أمرها إلى صخرة. و«عزى» مؤنثة عزيز ككبرى وعظمى، وكانت هذه الأوثان تعظم الوثن منها قبيلة وتعبدها، ويحيى كل من عز من العرب فيعظمها بتعظيم حاضرها. وقال أبو عبيدة معمر: كانت «العزى» «ومناة» في الكعبة، وقال ابن زيد: وكانت «العزى» بالطائف، وقال قتادة: كانت بنخلة وأما «مناة» فكانت بالمشلل من قديد، وذلك بين مكة والمدينة، وكانت أعظم هذه الأوثان قدراً وأكثرها عابداً، وكانت الأوس والخزرج تهل لها، ولذلك قال تعالى: «الثالثة الأخرى» فأكدتها بهاتين الصفتين، كما تقول رأيت فلاناً وفلاناً ثم تذكر ثالثاً أجل منهما، فتقول وفلاناً الآخر الذي من أمره وشأنه.

ولفظه آخر وأخرى يوصف به الثالث من المعدودات، وذلك نص في الآية، ومنه قول ربعة بن مكرم: [الكامل]

ولقد شفعتهما بآخر ثالث

وهو التأويل الصحيح في قول الشاعر [عبيد بن الأبرص]: [مجزوء الكامل]

جعلت لها عودين من نشم وآخر من ثمامه

وقرأ ابن كثير وحده: «ومناة» بالهمز والمد وهي لغة فيها، والأول أشهر وهي قراءة الناس، ومنها قول جرير: [الوافر]

أزيد مناة توعد بابن تيم تأمل أين تاه بك الوعيد

ووقف تعالى الكفار على هذه الأوثان وعلى قولهم فيها، لأنهم كانوا يقولون: هي بنات الله، فكأنه قال: أرايتم هذه الأوثان وقولكم هي بنات الله «ألكم الذكر وله الأنثى»، أي النوع المستحسن المحبوب هو لكم وموجود فيكم؟ والمذموم المستقل عندكم هو له بزعمكم، ثم قال تعالى على جهة الإنكار: «تلك إذا قسمة ضيزى» أي عوجاء، قاله مجاهد، وقيل «ضيزى» معناه: جائرة، قاله ابن عباس وقاتدة، وقال سفيان معناه: منقوصة، وقال ابن زيد معناه: مخالفة، والعرب تقول: ضزته حقه أضيژه، بمعنى: منعت منه وظلمته فيه، و: «ضيزى» من هذا التصريف وأصلها فعلى بضم الفاء ضوزى لأنه القياس، إذ لا يوجد في الصفات فعلى بكسر الفاء، كذا قال سيبويه وغيره، فإذا كان هذا فهي ضوزى: كسر أولها كما كسر أول عين وبيض طلباً للتخفيف، إذ الكسرة والياء أخف من الضمة والواو كما قالوا بيوت وعصى هي في الأصل فعول بضم الفاء، وتقول العرب: ضزته أضوزه فكان يلزم على هذا التصريف أن يكون ضوزى فعلى، وفي جميع هذا نظر. وقرأ ابن كثير: «ضيزى» بالهمز على أنه مصدر كذكرى، وقرأ الجمهور بغير همز.

ثم قال تعالى: «إن هي إلا أسماء» يعني أن هذه الأوصاف من أنها إناث وأنها تعبد آلهة ونحو هذا إلا أسماء، أي تسميات اخترعتموها «أنتم وأباؤكم» لا حقيقة لها ولا أنزل الله تعالى بها برهاناً ولا حجة، وقرأ عيسى بن عمر: «سلطان» بضم اللام، وقرأ هو وابن مسعود وابن عباس وابن وثاب وطلحة والأعمش «إن تبعون» بالتاء على المخاطبة، وقرأ أبو عمرو وعاصم ونافع والأعمش أيضاً والجمهور: «يتبعون» بالياء

على الحكاية عن الغائب و﴿الظن﴾: ميل النفس إلى أحد معتقدين متخالفين دون أن يكون ميلها بحجة ولا برهان وهوى الأنفس: هو إرادتها المملدة لها وإنما تجد هوى النفس أبداً فيترك الأفضل، لأنها مجبولة بطبعها على حب الملد، وإنما يردعها ويسوقها إلى حسن العاقبة العقل والشرع.

وقوله تعالى: ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ اعتراض بين الكلام فيه توبيخ لهم، لأن سرد القول إنما هو يتبعون ولا ﴿الظن وما تهوى الأنفس﴾، ﴿أم للإنسان ما تمنى﴾، وقف على جهة التوبيخ والإنكار لحالهم ورأيهم، ثم اعترض بعد قوله: ﴿وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ جملة في موضع الحال، والهدى المشار إليه، محمد وشرعه.

وقرأ ابن مسعود وابن عباس: «ولقد جاءكم من ربكم» بالكاف فيهما، وقال الضحاك إنهما قرأ «ولقد جاءكم من ربك».

و«الإنسان» في قوله: ﴿أم للإنسان﴾، اسم الجنس، كأنه يقول ليست الأشياء بالتمني والشهوات، إنما الأمر كله لله والأعمال جارية على قانون أمره ونهيه فليس لكم، أيها الكفرة مرادكم في قولكم هذه آلهتنا وهي تنفعنا وتقربنا زلفى ونحو هذا. وقال ابن زيد والطبري: «الإنسان» هنا: محمد، بمعنى أنه لم ينل كرامتنا بتأميل، بل بفضل الله أو بمعنى بل إنه تمنى كرامتنا فنالها، إذ الكل لله يهب ما شاء، وهذا لا تقتضيه الآيات، وإن كان اللفظ يعمه. و: ﴿الآخرة والأولى﴾ الداران، أي له كل أمرهما ملكاً ومقدوراً وتحت سلطانه.

وقوله تعالى: ﴿وكم من ملك﴾ الآية، رد على قريش في قولهم: الأوثان شفعاؤنا، كأنه يقول: هذه حال الملائكة الكرام، فكيف بأوثانكم، و﴿كم﴾ للتكثير وهي في موضع رفع بالابتداء والخبر: ﴿ولا تنفي﴾ والغناء جلب النفع ودفع الضر بحسب الأمر الذي يكون فيه الغناء وجمع الضمير في ﴿شفاعتهم﴾ على معنى: ﴿كم﴾ ومعنى الآية: ﴿أن يأذن الله﴾ في أن يشفع لشخص ما ويرضى عنه كما أذن في قوله: ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله﴾ [غافر: ٧].

قوله عز وجل:

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَى ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾

﴿الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ هم كفار العرب، وقوله: ﴿لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ﴾ معناه: ليصفون الملائكة بأوصاف الأنوثة وأخبر تعالى عنهم أنهم لا علم لهم بذلك، وإنما هي ظنون منهم لا حجة لهم عليها وقرأ ابن مسعود: «من علم إلا اتباع الظن».

وقوله: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنَىٰ مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أي في المعتقدات المواضع التي يريد الإنسان أن يحرر ما يعقل ويعتقد فإنها مواضع حقائق لا تنفع الظنون فيها، وأما في الأحكام وظواهرها فيجتزى فيها بالظنونات، ثم سلى تعالى نبيه وأمره بالإعراض عن هؤلاء الكفرة، وما في الآية من موادعتهم منسوخ بآية السيف.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَرِدْ إِلَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ معناه لا يصدق بغيرها، فسعيه كله وعمله إنما هو لدنياه.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمُ مِنَ الْعِلْمِ﴾ معناه هنا انتهى تحصيلهم من المعلومات، وذلك أن المعلومات منها ما هي معقولات نافعة في الآخرة، ومنها ما هي أمور فانية وأشخاص بادية كالفلاحة وكثير من الصنائع وطلب الرئاسة على الناس بالخرقة، فكلها معلومات ولها علم ومبلغ الكفرة إنما هو في هذه الدنياويات.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ الآية تصل بمعنى التسلية في قوله: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا﴾، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ الآية، ووعد للكفار ووعد للمؤمنين، وأسند الضلالة والهدى إليهم بكسبهم وإن كان الجميع خلقاً له واختراعاً، واللام في قوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ متعلقة بقوله: ﴿ضَلَّ﴾ وبقوله: ﴿اهْتَدَىٰ﴾ فكأنه قال: لبصير أمرهم جميعاً إلى أن يجزى.

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ اعتراض بين الكلام بليغ، وقال بعض النحويين اللام متعلقة بما في المعنى من التقدير، لأن تقديره: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴿لِيَجْزِيَ﴾ والنظر الأول أقل تكلفاً من هذا الإضمار. وقال قوم: اللام متعلقة في أول السورة: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيَ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤] وهذا بعيد، و: ﴿الْحَسَنَىٰ﴾ هي الجنة ولا حسنى دونها.

وقوله عز وجل:

الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾ أَعِنْدُ عِلْمٍ الْغَيْبِ فَهُوَ يُرَىٰ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَا نَزَرُ وَأَنْزَرُ وَزُرْخَرَىٰ ﴿٣٨﴾

قوله: ﴿الَّذِينَ﴾ نعت لـ ﴿الَّذِينَ﴾ [النجم: ٣١] المتقدم قبله، و: ﴿يَجْتَنِبُونَ﴾ معناه: يدعون جانباً. وقرأ جمهور القراء والناس: «كبائر الإثم» وقرأ ابن وثاب وطلحة والأعمش وعيسى وحزمة والكسائي: «كبير الإثم» على الأفراد الذي يراد به الجمع وهذا كقوله: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠]، وكقوله: ﴿وَحَسَنَ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] ونحو هذا.

واختلف الناس في الكبائر ما هي؟ فذهب الجمهور إلى أنها السبع الموبقات التي وردت في

الأحاديث وقد مضى القول في ذكرها واختلاف الأحاديث فيها في سورة النساء. وتحرير القول في الكباير أنها كل معصية يوجد فيها حد في الدنيا، أو توعده بنار في الآخرة، أو لعنة ونحو هذا خاصاً بهما فهي كثيرة العدد، ولهذا قال ابن عباس حين قيل له أسبع هي؟ فقال: هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع. وقال زيد بن أسلم: «كبير الإثم» هنا يراد به: الكفر. و﴿الفواحش﴾ هي المعاصي المذكورة.

وقوله: ﴿إلا اللمم﴾ هو استثناء يصح أن يكون متصلاً، وإن قدرته منقطعاً ساغ ذلك، واختلف في معنى ﴿اللمم﴾ فقال ابن عباس وابن زيد معناه: ما ألموا به من الشرك والمعاصي في الجاهلية قبل الإسلام. قال الثعلبي عن ابن عباس وزيد بن ثابت وزيد بن أسلم وابنه: إن سبب الآية أن الكفار قالوا للمسلمين: قد كنتم بالأمس تعملون أعمالنا، فنزلت الآية وهي مثل قوله تعالى: ﴿وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف﴾ [النساء: ٢٣] وقال ابن عباس وغيره: ما ألموا من المعاصي الفلانة والسقطة دون دوام ثم يتوبون منه، ذكر الطبري عن الحسن أنه قال في اللمة: من الزنا والسرقة والخمر ثم لا يعود.

قال القاضي أبو محمد: وهذا كالذي قبله، فكأن هذا التأويل يقتضي الفرق بالناس في إدخالهم في الوعد بالحسنى، إذ الغالب في المؤمنين واقعة المعاصي، وعلى هذا أنشدوا وقد تمثل به النبي صلى الله عليه وسلم: [الرجز]

إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك لا ألما

وقال أبو هريرة وابن عباس والشعبي وغيرهم: ﴿اللمم﴾ صغار الذنوب التي بين الحدين البدنية والآخرة وهي ما لا حد فيه ولا وعيد مختصاً بها مذكوراً لها، وإنما يقال صغار بالإضافة إلى غيرها، وإلا فهي بالإضافة إلى الناهي عنها كباير كلها، ويعضد هذا القول، قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله كتب على ابن آدم حظاً من الزنا لا محالة، فزنى العين: النظر، وزنى اللسان: المنطق، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه فإن تقدم فرجه فهو زان، وإلا فهو اللمم». وروي أن هذه الآية نزلت في نيهان التمار فالناس لا يتخلصون من واقعة هذه الصغائر ولهم مع ذلك الحسنى إذا اجتنبوا التي هي في نفسها كباير. وتظاهر العلماء في هذا القول، وكثر المائل إليه. وذكر الطبري عن عبد الله بن عمرو بن العاصي أنه قال: ﴿اللمم﴾ ما دون الشرك، وهذا عندي لا يصح عن عبد الله بن عمرو. وذكر المهدوي عن ابن عباس والشعبي: ﴿اللمم﴾ ما دون الزنا. وقال نفطوية: ﴿اللمم﴾ ما ليس بمعتاد. وقال الروماني: ﴿اللمم﴾ الهم بالذنب وحديث النفس به دون أن يواقع. وحكى الثعلبي عن سعيد بن المسيب: أنه ما خطر على القلب، وذلك هو لمة الشيطان. قال الزهراوي وقرئ: ﴿اللمم﴾ نظرة الفجأة، وقاله الحسين بن الفضل. ثم أنس تعالى بعد هذا بقوله: ﴿إن ربك واسع المغفرة﴾.

وقوله تعالى: ﴿هو أعلم بكم﴾ الآية، روي عن عائشة أنها نزلت بسبب قوم من اليهود كانوا يعظمون أنفسهم ويقولون للطفل إذا مات لهم هذا صديق عند الله، ونحو هذا من الأقاويل المتوهمة، فنزلت الآية فيهم، ثم هي بالمعنى عامة لجميع البشر، وحكى الثعلبي عن الكلبي ومقاتل أنها نزلت في قوم من المؤمنين فخرؤا بأعمالهم، وقوله: ﴿أعلم بكم﴾ قال مكي بن أبي طالب في المشكل معناه: هو عالم بكم. وقال

جمهور أهل المعاني: بل هو التفضيل بالإطلاق، أي هو أعلم من الموجودين جملة، والعامل في ﴿إذ﴾ **﴿أعلم﴾**، وقال بعض النحاة العامل فيه فعل مضمر تقديره: اذكروا إذ، والمعنى الأول أبين، لأن تقديره: فإذا كان علمه قد أحاط بكم وأنتم في هذه الأحوال فأحرى أن يقع بكم وأنتم تعقلون وتجترحون، والإنشاء من الأرض: يراد به خلق آدم عليه السلام، ويحتمل أن يراد به إنشاء الغذاء. و: **﴿أجنة﴾** جمع جنين.

وقوله: **﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾** ظاهره النهي عن أن يزكي نفسه، ويحتمل أن يكون نهياً عن أن يزكي بعض الناس بعضاً وإذا كان هذا فإنما ينهى عن تزكية السمعة والمدح للدنيا والقطع بالتزكية، ومن ذلك الحديث في عثمان بن مظعون عند موته. وأما تزكية الإمام والقدرة أحداً ليؤتم به أوليتهم الناس بالخير فجائز، وقد زكى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه أبا بكر وغيره، وكذلك تزكية الشهود في الحقوق جائزة للضرورة إليها، وأصل التزكية إنما هو التقوى، والله تعالى هو أعلم بتقوى الناس منكم.

وقوله تعالى: **﴿أفرأيت الذي تولى﴾** الآية، قال مجاهد وابن زيد وغيرهما نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي وذلك أنه سمع قراءة النبي صلى الله عليه وسلم وجلس إليه ووعظه رسول الله، فقرب من الإسلام، وطمع النبي عليه السلام فيه، ثم إنه عاتبه رجل من المشركين وقال له: أتترك ملة آبائك؟ أرجع إلى دينك واثبت عليه وأنا أتحمّل لك بكل شيء تخافه في الآخرة، لكن على أن تعطيني كذا وكذا من المال، فوافقه الوليد على ذلك، ورجع عما هم به من الإسلام وضل ضلالاً بعيداً، وأعطى بعض ذلك المال لذلك الرجل ثم أمسك عنه وشح، فنزلت الآية فيه. وذكر الثعلبي عن قوم أنها نزلت في عثمان بن عفان في قصة جرت له مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح وذلك كله عندي باطل، وعثمان رضي الله عنه منزّه عن مثله، وقال السدي: نزلت في العاصي بن وائل، فقوله: **﴿وأعطى قليلاً وأكدى﴾**، وعلى هذا القول في المال، وقال مقاتل بن حيان في كتاب الثعلبي المعنى: وأعطى من نفسه قليلاً من قربه من الإيمان ثم **﴿أكدى﴾** أي انقطع ما أعطى، وهذا بين من اللفظ، والآخر يحتاج إلى رواية. و: **﴿تولى﴾** معناه: أدبر وأعرض ومعناه عن أمر الله. **﴿وأكدى﴾** معناه: انقطع عطاؤه وهو مشبه بالحافر في الأرض، فإذا انتهى إلى كدية، وهي ما صلب من الأرض وقف وانقطع حفره، وكذلك أجبل الحافر إذ انتهى إلى جبل، ثم قيل لمن انقطع عمله: أكدى وأجبل.

وقوله تعالى: **﴿أعنده علم الغيب فهو يرى﴾** معناه: أعلم من الغيب أن من تحمّل ذنوب آخر فإن المتحمّل عنه ينتفع بذلك، فهو لهذا الذي علمه يرى الحق وهو له فيه بصيرة أم هو جاهل لم ينبأ أي يعلم ما في صحف موسى وهي التوراة وفي صحف إبراهيم وهي كتب نزلت عليه من السماء من أنه لا تزر وازرة وزر أخرى، أي لا تحمّل حاملة حمل أخرى، وإنما يؤخذ كل واحد بذنوب نفسه، أي فلما كان جاهلاً بهذا وقع في عطاء ماله للذي قال له: إني أتحمّل عنك درك الآخرة.

واختلف المفسرون في معنى قوله: **﴿وفى﴾** ما هو الموفى؟ فقال ابن عباس: كانوا قبل إبراهيم يأخذون الولي بالولي في القتل ونحوه فوفى إبراهيم وبلغ هذا الحكم من أنه **﴿لا تزر وازرة وزر أخرى﴾**، وقال ابن عباس أيضاً والربيع: وفى طاعة الله في أمر ذبح ابنه. وقال الحسن وابن جبير وقتادة وغيره، وفى

تبليغ رسالته والظاهر في ذات ربه، وقال عكرمة، وفي هذه العشر الآيات، ﴿أَلَا تَزِرُ﴾ وما بعدها، وقال ابن عباس وقتادة وغيره ﴿وَفِي﴾ ما افترض عليه من الطاعات على وجهها وتكلمت له شعب الإيمان والإسلام فأعطاه الله براءته من النار. قال ابن عباس: وفي شرائع الإسلام ثلاثين سهماً. وقال أبو أمامة ورفعه إلى النبي عليه السلام ﴿وَفِي﴾ أربع صلوات في كل يوم، والأقوى من هذه الأقوال كلها القول العام لجميع الطاعات المستوفية لدين الإسلام، فروي أنها لم تفرض على أحد مكملة فوقها الأعلى وإبراهيم ومحمد عليهما السلام ومن الحجة لذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وقرأ ابن جبير وأبو مالك وابن السميع: «وفى» مخففة الفاء، والخلاف لهما وفى به كالخلاف فيما وفاه على القراءة الأولى التي فسرنا، ورويت القراءة عن النبي عليه السلام، وقرأها أبو أمامة.

والوزر: الثقل، وأنت الوزرة إما لأنه أراد النفس وإما أراد المبالغة كعلامة ونسابة وما جرى مجراها و«أن» في قوله: ﴿أَلَا تَزِرُ﴾ مخففة من الثقيلة، وتقديرها أنه لا تزر، وحسن الحائل بينها وبين الفعل أن بقي الفعل مرتفعاً، فهي كقوله: ﴿أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى﴾ [المزمل: ٢٠] ونحوه، و«أن» في موضع رفع أو خفض، كلاهما مرتب.

قوله عز وجل:

وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۖ (٣٩) وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يَرَىٰ ۖ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَىٰ ۖ (٤١) وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ۖ (٤٢) وَأَنْتَ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۖ (٤٣) وَأَنْتَ هُوَ آمَاتٌ وَأَحْيَا ۖ (٤٤) وَأَنْتَ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۖ (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تَمَنَّىٰ ۖ (٤٦) وَأَنْ عَلَيْهِ النَّشْأَةُ الْآخِرَىٰ ۖ (٤٧) وَأَنْتَ هُوَ اعْنِي وَاقْنَىٰ ۖ (٤٨) وَأَنْتَ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَىٰ ۖ (٤٩) وَأَنْتَ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ۖ (٥٠) وَتَمُودًا فَمَا أَبْقَىٰ ۖ (٥١)

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ﴾ وقوله بعد ذلك ﴿وَأَنْتَ﴾، ﴿وَأَنْتَ﴾ معطوف كل ذلك على أن المقدره أولاً في قوله: «أنه لا تزر» وهي كلها بفتح الألف في قراءة الجمهور. وقرأ أبو السيمال قعنب «وإن إلى ربك» بكسر الهمزة فيهما وفيما بعدها وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أن قوله: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ منسوخ بقوله: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم﴾ [الطور: ٢١] وهذا لا يصح عندي على ابن عباس، لأنه خبر لا ينسخ، ولأن شروط النسخ ليست هنا، اللهم إلا أن يتجاوز في لفظة النسخ ليفهم سائلاً، وقال عكرمة: كان هذا الحكم في قوم إبراهيم وموسى، وأما هذه الأمة فلها سعي غيرها، والدليل حديث سعد بن عباد قال: يا رسول الله هل لأمي إن تطوعت عنها؟ قال: نعم. وقال الربيع بن أنس: «الإنسان» الذي في هذه الآية هو الكافر وأما المؤمن فله ما سعى وما سعى له غيره. وسأل عبد الله بن طاهر بن الحسين والي خراسان الحسين بن الفضل عن هذه الآية مع قوله: ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾ [البقرة: ٢٦١] فقال ليس له بالعدل إلا ما سعى، وله بفضل الله ما شاء الله، فقبل عبد الله رأس الحسين. وقال الجمهور: الآية محكمة. والتحرير عندي في هذه الآية أن ملاك المعنى هو

في اللام من قوله: ﴿لِلْإِنْسَانِ﴾ فإذا حققت الشيء الذي هو حق الإنسان يقول فيه لي كذا لم يجده إلا سعيه، وما بعد من رحمة ثم شفاعة أو رعاية أب صالح أو ابن صالح أو تضعيف حسنات أو تغمد بفضل ورحمة دون هذا كله فليس هو للإنسان ولا يسعه أن يقول لي كذا إلا على تجوز وإلحاق بما هو له حقيقة. واحتج بهذه الآية من يرى أنه لا يعمل أحد عن أحد بعد موته بيدن ولا مال. وفرق بعض العلماء بين البدن والمال، وهي عندي كلها فضائل للعامل وحسنات تذكر للمعمول عنه، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم سعداً بالصدقة عن أمه، والسعي: التكسب.

وقوله: ﴿يُرَى﴾ فاعله حاضر والقيامة، أي يراه الله ومن شاهد الأمر، وفي عرض الأعمال على الجميع تشريف للمحسنين وتوبيخ للمسيئين، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من سمع بأخيه فيما يكره سمع الله به سامع خلقه يوم القيامة». وفي قوله: ﴿ثُمَّ يَجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى﴾ وعيد للكافرين ووعد للمؤمنين. و: ﴿الْمُنْتَهَى﴾ يحتمل أن يريد به الحشر، والمصير بعد الموت فهو منتهى بالإضافة إلى الدنيا وإن كان بعده منتهى آخر وهو الجنة أو النار، ويحتمل أن يريد بـ ﴿الْمُنْتَهَى﴾: الجنة أو النار، فهو منتهى على الإطلاق، لكن في الكلام حذف مضاف إلى عذاب ربك أو رحمته. وقال أبي بن كعب قال النبي عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ لا فكرة في الرب. وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا ذكر الرب فانتهوا». وقال أبو هريرة: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً إلى أصحابه فقال: «فيم أنتم؟» قالوا: نتفكر في الخالق، فقال: «تفكروا في الخلق، لا تتفكروا في الخالق، فإنه لا تحيط به الفكرة» الحديث، وذكر الضحك والبكاء لأنهما صفتان تجمعان أصنافاً كثيرة من الناس، إذ الواحدة دليل السرور، والأخرى دليل الحزن في الدنيا والآخرة، فبه تعالى على هاتين الخاصتين اللتين هما للإنسان وحده، وقال مجاهد المعنى: ﴿أضحك﴾ الله أهل الجنة ﴿وأبكى﴾ أهل النار. وحكى الثعلبي في هذا أقوالاً استعارية كمن قال ﴿أضحك﴾ الأرض بالنبات، ﴿وأبكى﴾ السماء بالمطر، ونحوه: ﴿أمات وأحيا﴾. وحكى الثعلبي قولاً إنه أحيا بالإيمان وأمات بالكفر. و﴿الزوجين﴾ في هذه الآية يريد به المصطحبين من الناس من الرجل والمرأة وما ضارح من الحيوان، والخشنى متميز ولا بد لأحد الجهتين. والنظفة في اللغة: القطعة من الماء كانت يسيرة أو كثيرة. ويراد بها هاهنا ماء الذكران.

وقوله: ﴿تَمْنَى﴾ يحتمل أن يكون من قولك: أمني الرجل: إذا خرج منه المني، ويحتمل أن يكون من قولك منى الله الشيء: إذا خلقه، فكأنه قال: إذا تخلق وتقدر، و: ﴿النشأة الأخرى﴾ هي إعادة الأجسام إلى الحشر بعد البلي في التراب. وقرأ الناس: «النشأة» بسكون الشين والهمز والقصر، وقرأ أبو عمرو والأعرج: «النشأة» ممدودة.

﴿وَأَقْنَى﴾ معناه: أكسب، يقال: قنيت المال، أي كسبته، ثم يعدى بعد ذلك بالهمزة، وقد يعدى بالتضعيف، ومنه قول الشاعر: [البسيط]

كم من غني أصاب الدهر ثروته ومن فقير يقنَى بعد إقلالٍ

وعبر المفسرون عن ﴿أَقْنَى﴾ بعبارات مختلفة. وقال بعضهم: ﴿أَقْنَى﴾ معناه: أكسب ما يقنني،

وقال مجاهد معناه: أغنى وأرضى. وقال حضرمي معناه: أغنى عن نفسه ﴿وأنتى﴾ أفقر عباده إليه. وقال الأخفش: ﴿أنتى﴾ أفقر، وهذه عبارات لا تقتضيها اللفظة، والوجه فيها بحسب اللغة أكسب ما يقتني. وقال ابن عباس: ﴿أنتى﴾ قنع. والقناعة خير قنية، والغنى عرض زائل، فلهذا ابن عباس: ﴿الشعري﴾ نجم في السماء، قال مجاهد وابن زيد: هو من زمر الجوزاء وهما شعريان، إحداهما: الغميصاء، والأخرى العبور، لأنها عبرت المجرة، وكانت خزاعة ممن يعبد هذه ﴿الشعري﴾، ومنهم أبو كبشة، ذكره الزهراوي واسمه عبد العزى، فلذلك خصت بالذكر، أي وهو رب هذا المعبود الذي لكم.

وعاد: هم قوم هود، واختلف في معنى وصفها بـ ﴿الأولى﴾، فقال ابن زيد والجمهور: ذلك لأنها في وجه الدهر وقديمه، فهي أولى بالإضافة إلى الأمم المتأخرة، وقال الطبري: سميت أولى، لأن ثم عاداً أخيرة وهي قبيلة كانت بمكة مع العماليق وهم بنو لقيم بن هزال.

قال القاضي أبو محمد: والقول الأول أبين، لأن هذا الأخير لم يصح. وقال المبرد عاداً الأخيرة هي ثمود، والدليل قول زهير: [الطويل]

كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم

ذكره الزهراوي، وقيل الأخيرة: الجبارون.

وقرأ ابن كثير وعاصم، وابن عامر وحمزة، والكسائي «عاد الأولى» منونة وبهمز. وقرأ نافع فيما روي عنه: «عادا الأولى» بإزالة التنوين والهمز. وهذا كقراءة من قرأ «أحد الله» وكقول الشاعر [أبو الأسود الدؤلي]: [المتقارب]

ولا ذاكر الله إلا قليلا

وقرأ قوم: ﴿عاداً الأولى﴾ والنطق بها «عادن الأولى». واجتمع سكون نون التنوين وسكون لام التعريف فكسرت النون للالتقاء، ولا فرق بينهما وبين قراءة الجمهور ولا ترك الهمز. وقرأ نافع أيضاً وأبو عمرو بالوصل والإدغام «عاد الولي» بإدغام النون في اللام ونقل حركة الهمزة إلى اللام. وعاب أبو عثمان المازني والمبرد هذه القراءة، وقال: إن هذا النقل لا يخرج اللام عن حد السكون وحذف ألف الوصل أن تبقى كما تقول العرب إذا نقلت الهمزة من قولهم الأحمر فإنهم يقولون الأحمر جاء فكذلك يقال هاهنا «عاداً الولي»، قال أبو علي: والقراءة سائغة، وأيضاً فمن العرب من يقول: لحمر جاء فيحذف الألف مع النقل ويعتد بحركة اللام ولا يراها في حكم السكون، وقرأ نافع فيما روي عنه «عاداً الأولى» بهمز الواو، ووجه ذلك أنه لما لم يكن بين الواو والضممة حائل تخيل الضمة عليها فهمزها كما تهمز الواو المضمومة، وكذلك فعل من قرأ: «على سؤقه»، وكما قال الشاعر [جرير]: [الوافر]

لحب المؤقدان إلي موسى

وهي لغة. وقرأ الجمهور: «وثموداً» بالنصب عطفاً على عاد. وقرأ عاصم وحمزة والحسن وعصمة «وثمود» بغير صرف، وهي في مصحف ابن مسعود بغير ألف بعد الدال.

وقوله: ﴿فَمَا أَبْقَى﴾ ظاهره: ﴿فَمَا أَبْقَى﴾ عليهم، وتأول ذلك بعضهم ﴿فَمَا أَبْقَى﴾ منهم عينا تطرف، وقد قال ذلك الحجاج حين سمع قول من يقول إن ثقيفاً من ثمود فأنكر ذلك وقال: إن الله تعالى قال: ﴿وَتُموذاً فَمَا أَبْقَى﴾. وهؤلاء يقولون بقي منهم باقية.

قوله عز وجل:

وَقَوْمٌ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴿٥٣﴾ فَفَشَلُهَا مَا وَعَشَى ﴿٥٤﴾ فَيَايَ
ءَآلَاءِ رَبِّكَ لَتَمَارَى ﴿٥٥﴾ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِرِ الْأُولَى ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْأَرْفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾
أَفِينَ هَذَا الْحَدِيثِ تَعَجُّبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ
وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾

نصب ﴿قوم نوح﴾ عطفًا على «ثمود» وقوله: ﴿من قبل﴾ لأنهم كانوا أول أمة كذبت من أهل الأرض، و﴿نوح﴾ أول الرسل، وجعلهم ﴿أظلم وأطغى﴾: لأنهم سبقوا إلى التكذيب دون اقتداء بأحد قبلهم، وأيضاً فإنهم كانوا في غاية من العتو، وكان عمر نوح قد طال في دعائهم، فكان الرجل يأتي إليه مع ابنه فيقول: أحذرك من هذا الرجل فإنه كذاب، ولقد حذرني منه أبي وأخبرني أن جدي حذره منه، فمشت على ذلك أخلافهم ألفاً إلا خمسين عاماً.

و﴿المؤتفكة﴾ قرية قوم لوط بإجماع من المفسرين، ومعنى ﴿المؤتفكة﴾: المنقلبة لأنها أفكت فائتفكت، ومنه الإفك، لأنه قلب الحق كذباً، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: «والمؤتفكات أهوى» على الجمع. و﴿أهوى﴾ معناه: طرحها من هواء عال إلى أسفل، هذا ما روي من أن جبريل عليه السلام اقتلعها بجناحه حتى بلغ بها قرب السماء ثم حولها قلبها فهبط الجميع واتبعوا حجارة وهي التي غشاها الله تعالى.

وقوله: ﴿فَيَايَ آلاء ربك تمارى﴾ مخاطبة للإنسان الكافر، كأنه قيل له: هذا هو الله الذي له هذه الأفاعيل، وهو خالقك المنعم عليك بكل النعم، ففي أيها تشك. و﴿تمارى﴾ معناه: تتشكك. وقرأ يعقوب «ربك تمارى» بناء واحدة مشددة. وقال أبو مالك الغفاري إن قوله: ﴿ألا تزر﴾ [النجم: ٣٨] إلى قوله: ﴿تمارى﴾ هو في صحف إبراهيم وموسى.

وقوله: ﴿هذا نذير﴾ يحتمل أن يشير إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا قول قتادة وأبي جعفر ومحمد بن كعب القرظي، ويحتمل أن يشير إلى القرآن، وهو تأويل قوم، وقال أبو مالك: الإشارة بهذا النذير إلى ما سلف من الأخبار عن الأمم. و﴿نذير﴾ يحتمل أن يكون بناء اسم فاعل، ويحتمل أن يكون مصدرًا، ونذر جمع نذير. وقال ﴿الأولى﴾ بمعنى أنه في الرتبة والمنزلة والأوصاف من تلك المتقدمة، والأشبه أن تكون الإشارة إلى محمد.

وقوله: ﴿أزفت﴾ معناه: قربت القرية. و﴿الأزفة﴾ عبارة عن القيامة بإجماع من المفسرين.

وأزف معناه: قرب جداً، قال كعب بن زهير: [البسيط]

بان الشباب وأمسى الشيب قد أزفا ولا أرى لشباب ذاهب خلفا

وقوله: ﴿كاشفة﴾ يحتمل أن يكون صفة لمؤنث، التقدير: حالة ﴿كاشفة﴾، أو مئة ﴿كاشفة﴾. قال الرماني أو جماعة، ويحتمل أن يكون مصدرًا كالعاقبة و﴿خائنة الأعين﴾ [غافر: ١٩]. ويحتمل أن يكون بمعنى كاشف، والهاء للمبالغة، كما قال: ﴿فهل ترى لهم من باقية﴾ [الحاقة: ٨] وأما معنى ﴿كاشفة﴾ فقال الطبري والزجاج: هو من كشف السر، أي ليس من دون الله من يكشف وقتها ويعلمه. وقال الزهراوي عن منذر بن سعيد: هو من كشف الضر ودفعه، أي ليس من يكشف خطبها وهولها.

وقرأ طلحة: ﴿ليس لها﴾ مما تدعون ﴿من دون الله كاشفة﴾ وهي على الظالمين سوءات الغاشية، وهذا الحديث هو القرآن.

وقوله: ﴿أفمن﴾ توقيف وتوبيخ. وفي حرف أبي وابن مسعود: «تعجبون» «تضحكون» بغير واو العطف، وفي قوله عز وجل: ﴿ولا تبكون﴾ حض على البكاء عند سماع القرآن. وروى سعد بن أبي وقاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن هذا القرآن أنزل يخوف، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتابكوا» ذكره الثعلبي، والسامد: اللاعب اللاهي، وبهذا فسر ابن عباس وغيره من المفسرين. وقال الشاعر [هذيلة بنت بكر]: [مجزوء الكامل]

قيل قم فانظر إليهم ثم دع عنك السمود

وسمد بلغة حمير غنى، وهو معنى كله قريب من بعض، وأسند الطبري عن أبي خالد الوالي قال: خرج علينا علي ونحن قيام ننتظر الصلاة فقال: ما لي أراكم سامدين.

قال القاضي أبو محمد: يشبه أنه رأيهم في أحاديث ونحوه مما يظن أنه غفلة ما. وقد قال إبراهيم كانوا يكرهون أن ينتظروا خروج الإمام قياماً، وفي الحديث: «إذا أقيمت الصلاة فلا تقوموا حتى تروني».

ثم أمر تعالى بالسجود وعبادة الله تحذيراً وتخويفاً، وهاهنا سجدة في قول كثير من أهل العلم، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وردت بها أحاديث صحاح، وليس يراها مالك رحمه الله، وقال زيد بن وثاب إنه قرأ بها عند النبي صلى الله عليه وسلم فلم يسجد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْقَمَرِ

وهي مكية بإجماع إلا آية واحدة اختلف فيها، فقال جمهور الناس هي مكية، وقال قوم هي مما نزل ببدر، وقيل بالمدينة وهي: ﴿سيهزم الجمع﴾ [القمر: ٤٥] الآية وسيأتي القول في ذلك.
قوله عز وجل:

أَقْرَبَ السَّاعَةِ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۖ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ۚ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۚ حَكَمَةٌ بَلَّغَةٌ ۚ فَمَا تُغْنِ التُّذُرُ ۚ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ يُومٌ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ ۚ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ۚ مَهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۚ

﴿اقتربت﴾ معناه: قربت إلا أنه أبلغ، كما أن اقتدر أبلغ من قدر. و: ﴿الساعة﴾ القيامة وأمرها مجهول التحديد لم يعلم، إلا أنها قربت دون تحديد، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، وأشار بالسبابة والوسطى. وقال أنس: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كادت الشمس تغيب فقال: «ما بقي من الدنيا فيما مضى إلا كمثل ما بقي من هذا اليوم».

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إني لأرجو أن يؤخر الله أمتي نصف يوم»، وهذا منه على جهة الرجاء والظن لم يجزم به خبراً، فأناج الله به على أمله وآخر أمته أكثر من رجائه، وكل ما يروى عن عمر الدنيا من التحديد فضعيف واهن.

وقوله: ﴿انشق القمر﴾ إخبار عما وقع في ذلك، وذكر الثعلبي أنه قيل إن المعنى ينشق القمر يوم القيامة، وهذا ضعيف الأمة على خلافه، وذلك أن قريشاً سألت رسول الله آية ف قيل مجملة، وهذا قول الجمهور، وقيل بل عاينوا شق القمر، ذكره الثعلبي عن ابن عباس فأراهم الله انشقاق القمر، فراه رسول الله وجماعة من المسلمين والكفار، فقال رسول الله «أشهدوا»، وممن قال من الصحابة رأيت: عبد الله بن مسعود وجبير بن مطعم وأخبر به عبد الله بن عمر وأنس وابن عباس وحذيفة بن اليمان، وقال المشركون عند ذلك: سحرنا محمد. وقال بعضهم: سحر القمر وقالت قريش استخبروا المسافرين القادمين عليكم، فما

ورد أحد إلا أخبر بانشقاقه وقال ابن مسعود: رأيته انشق فذهبت فرقة وراء جبل حراء، وقال ابن زيد: كان يرى نصفه على قيعقان والآخر على أبي قبيس. وقرأ حذيفة: «اقتربت الساعة وقد انشق القمر»، وذكر الثعلبي عنه أن قراءته: «اقتربت الساعة انشق القمر» دون واو.

وقوله: ﴿وإن يروا﴾ جاء اللفظ مستقبلاً ليتنظم ما مضى وما يأتي، فهو إخبار بأن حالهم هكذا، واختلفت الناس في معنى: ﴿مستمر﴾ فقال الزجاج قيل معناه: دائم متماد. وقال قتادة ومجاهد والكسائي والفراء معناه: مار ذاهب عن قريب يزول. وقال أبو العالية والضحاك معناه: مشدود من مرائير الحبل كأنه سحر قد أمر، أي أحكم. ومنه قول الشاعر [لقيط بن زرارة]: [البسيط]

حتى استمرت على شزر مريرتي صدق العزيمة لا رتاً ولا ضرعاً

ثم أخبر تعالى بأنهم كذبوا واتبعوا شهواتهم وما يهونون من الأمور لا بدليل ولا بثبت، ثم قال على جهة الخبر الجزم، ﴿وكل أمر مستقر﴾ يقول: وكل شيء إلى غاية فالحق يستقر ظاهراً ثابتاً، والباطل يستقر زاهقاً ذاهباً.

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع «وكل مستقر» بجر «مستقر»، يعني بذلك أشرافها. والجمهور على كسر القاف من «مستقر» وقرأ نافع وابن نصاح بفتحها، قال أبو حاتم: لا وجه لفتح القاف.

و: ﴿الأنباء﴾ جمع نبأ، ويدخل في هذا جميع ما جاء به القرآن من المواعظ والقصص ومثلات الأمم الكافرة، و: ﴿مزدجر﴾ معناه: موضع زجر وانتهاء، وأصله: مزجر، قلبت التاء دالاً ليناسب مخرجها مخرج الزاي، وكذلك تبدل تاء افتعل من كل فعل أوله زاي كازدلف وازداد ونحوه.

وقوله: ﴿حكمة﴾ مرتفع إما على البدل من ﴿ما﴾ في قوله: ﴿ما فيه﴾، وإما على خبر ابتداء تقديره: هذه حكمة و: ﴿بالغة﴾ معناه: يبلغ المقصد بها من وعظ النفوس والبيان لمن له عقل. وقوله: ﴿فما تغني النذر﴾، يحتمل أن تكون ﴿ما﴾ نافية، أي ليس تغني مع عتو هؤلاء الناس، ويحتمل أن تكون ﴿ما﴾ استفهاماً بمعنى التقرير، أي فما غناء النذر مع هؤلاء الكفرة، ثم سلى نبيه بقوله: ﴿فتول عنهم﴾ أي لا تذهب نفسك عليهم حسرات، وتم القول في قوله: ﴿عنهم﴾ ثم ابتدأ وعيدهم، والعامل في ﴿يوم﴾ قوله: ﴿يخرجون﴾، و: ﴿خشعاً﴾ حال من الضمير في ﴿يخرجون﴾ وتصرف الفعل يقتضي تقدم الحال، قال المهدوي: ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في ﴿عنهم﴾. قال الرماني المعنى: ﴿فتول عنهم﴾ واذكر ﴿يوم﴾. وقال الحسن المعنى: ﴿فتول عنهم﴾ إلى ﴿يوم﴾، وانحذفت الواو من ﴿يدع﴾ لأن كنية المصحف اتبعوا اللفظ لا ما يقتضيه الهجاء، وأما حذف الياء من: ﴿الداع﴾ ونحوه، فقال سيويه: حذفوه تخفيفاً. وقال أبو علي: حذف مع الألف واللام إذ هي تحذف مع معاقبهما وهو التنوين.

وقرأ جمهور الناس: «نكّر» بضم الكاف. وقرأ ابن كثير وشبل والحسن: «نكّر» بكسر الكاف، وقرأ مجاهد والجمحدري وأبو قلابة: «نكّر» بكسر الكاف وفتح الراء على أنه فعل مبني للمفعول، والمعنى في ذلك كله

أنه منكور غير معروف ولا مرئي مثله. قال الخليل: النكر: نعت للأمر الشديد والرجل الداهية. وقال مالك بن عوف النصري: [الرجز].

أقدم محاج إنه يوم نكر مثلي على مثلك يحمي ويكر

ونكر فعل وهو صفة، وذلك قليل في الصفات، ومنه مشية سجع وقال الشاعر [حسان بن ثابت الأنصاري]: [البسيط]

دعوا التخاجز وامشوا مشية سجعاً إن الرجال ذوو عصب وتذكير
ومنه رجل شلل وناقاة أجد.

وقرأ جمهور القراء: «خشعاً» وهي قراءة الأعرج وأبي جعفر وشيبة والحسن وقتادة. وقرأ أبو عمرو وحزمة والكسائي: «خاشعاً»، وهي قراءة ابن عباس وابن جبير ومجاهد والجحدري، وهو إفراد بمعنى الجمع، ونظيره قول الشاعر [الحارث بن أوس الإيادي]: [الرمل]

وشباب حسن أوجههم من إباد بن نزار بن معد

ورجح أبو حاتم هذه القراءة وذكر أن رجلاً من المتطوعة قال قبل أن يستشهد: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فسألته عن «خشعاً وخاشعاً» فقال: «خاشعاً» بالالف، وفي مصحف أبي بن كعب وعبد الله: «خاشعة».

وخص الأبصار بالخشوع لأنه فيها أظهر منه في سائر الجوارح، وكذلك سائر ما في نفس الإنسان من حياء أو صلف أو خوف ونحوه إنما يظهر في البصر. و: ﴿الأحداث﴾ جمع حدث وهو القبر، وشبههم بالجراد المنتشر، وقد شبههم في أخرى بـ ﴿الفراش المبتوث﴾ [القارعة: ٤]، وفيهم من كل هذا شبه، وذهب بعض المفسرين إلى أنهم أولاً كالفراش حين يموجون بعض في بعض ثم في رتبة أخرى كالجراد إذا توجهوا نحو المحشر والداعي، وفي الحديث: إن مريم بنت عمران دعت للجراد فقالت: اللهم اعشها بغير رضاع وتابع بينها بغير شباع.

والمهطع: المسرع في مشيه نحو الشيء مع هز ورهق ومد بصر نحو المقصد، إما لخوف أو طمع أو نحوه، و﴿يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾ لما يرون من مخايل هوله وعلامات مشقته.

قوله عز وجل:

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَحْجُونٌ وَازْدَجَرٌ ۖ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَعْلُوبٌ فَأَنصِرْ ۖ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۖ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَفَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ ۖ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوُجْهِ وَدُسِرَ ۖ ﴿١٣﴾ تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءُ لِمَن كَانَ كُفِرَ ۖ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهُ آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ۖ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۖ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ۖ ﴿١٧﴾

سوق هذه القصة وعيد لقريش وضرب مثل لهم، وقوله: ﴿وازدجر﴾ إخبار من الله أنهم زجروا نوحاً

بالسب والنجه والتخويف، قاله ابن زيد وقرأ: ﴿لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين﴾ [الشعراء: ١١٦]، وذهب مجاهد إلى أن ﴿وازدجر﴾ من كلام ﴿قوم نوح﴾، كأنهم قالوا ﴿مجنون وازدجر﴾، والمعنى: استطير جنوناً واستعر جنوناً، وهذا قول فيه تعسف وتحكم.

وقرأ نافع وأبو عمرو وعاصم والأعرج والحسن «أني» بفتح الألف، أي «بأنه» كأن دعاءه كان هذا المعنى. وقرأ عاصم أيضاً وابن أبي إسحاق وعيسى «إني» بكسر الألف كأن دعاءه كان هذا اللفظ. قال سيبويه: المعنى قال إني.

وذهب جمهور المفسرين إلى أن المعنى أني قد غلبني الكفار بتكذيبهم وتخويقهم، انتصر لي منهم بأن تهلكهم، ويحتمل أن يريد: فانتصر لنفسك إذ كذبوا رسولك. ويؤيده قول ابن عباس إن المراد بقوله: لمن كان كفر الله تعالى، فوقعت الإجابة على نحو ما دعا نوح عليه السلام، وذهبت المتصوفة إلى أن المعنى: إني قد غلبتني نفسي في إفراطي في الدعاء على قومي فانتصر مني يا رب بمعاينة إن شئت. والقول الأول هو الحق إن شاء الله يدل على ذلك اتصال قوله: ﴿ففتحن﴾ الآية، وذلك هو الانتصار من الكفار.

وقرأ جمهور القراء: «ففتحن» بتخفيف التاء. وقرأ ابن عامر وأبو جعفر والأعرج: «ففتحن» بشدها على المبالغة ورجحها أبو حاتم لقوله تعالى: ﴿مفتحة لهم الأبواب﴾ [ص: ٥٠]، قال النقاش: يعني بالأبواب المجرة وهي شرح السماء كشرح العيبة، وقال قوم من أهل التأويل: الأبواب حقيقة فتحت في السماء أبواب جرى منها الماء. وقال جمهور المفسرين: بل هو مجاز وتشبيه، لأن المطر أكثر كأنه من أبواب. والمنهمر الشديد الوقوع الغزير. قال امرؤ القيس: [الرمل]

راح تمريره الصبا ثم انتحي فيه شؤبوب جنوب منهمر

وقرأ الجمهور: «وفجرتنا» بشد الجيم. وقرأ ابن مسعود وأصحابه وأبو حيوة عن عاصم: «وفجرتنا» بتخفيفها. وقرأ الجمهور: «فالتقى الماء» على اسم الجنس الذي يعم ماء السماء وماء العيون. وقرأ الحسن وعلي بن أبي طالب وعاصم الجحدري: «فالتقى الماء» ويروي عن الحسن: «فالتقى الماء».

وقوله: ﴿على أمر قد قدر﴾ قال فيه الجمهور على رتبة وحالة قد قدرت في الأزل وقضيت. وقال جمهور من المتأولين المعنى: على مقادير قد قدرت وربت وقت التقائه، ورووا أن ماء الأرض علا سبعة عشر ذراعاً وكان ماء السماء ينزل عليه بقية أربعين ذراعاً أو نحو هذا لأنه مما اختلفت فيه الروايات ولا خبر يقطع العذر في شيء من هذا التحرير. وقرأ أبو حيوة: «قدّر» بشد الدال. وذات الألواح والدرس: هي السفينة قيل كانت ألواحها وخشبها من ساج، والدرس: المسامير، واحدها: دسار، وهذا هو قول الجمهور، وهو عندي من الدفع المتتابع، لأن المسامير يدفع أبداً حتى يستوي. وقال الحسن وابن عباس أيضاً: الدرس: مقدم السفينة، لأنها تدرس الماء أي تدفعه. والدرس: الدفع. وقال مجاهد وغيره: نطق السفينة. وقال أيضاً: هو أرض السفينة. وقال أيضاً: أضلاع السفينة، وقد تقدم القول في شرح قصة السفينة مستوعباً، وجمهور الناس على أنها كانت على هيئة السفن اليوم كجؤجؤ الطائر، وورد في بعض الكتب أنها

كانت مربعة، طويلة في السماء، واسعة السفلى، ضيقة العلوى، وكان أعلاها مفتوحاً للهواء والتنفس، قال: لأن الغرض منها إنما كانت السلامة حتى ينزل الماء، ولم يكن طلب الجري وقصد المواضع المعينة، ومع هذه الهيئة فلها مجرى ومرسى، والله أعلم كيف كانت، والكل محتمل.

وقوله: ﴿بَاعَيْنَا﴾ قال الجمهور معناه: بحفظنا وحفائتنا وتحت نظرنا لأهلها، فسمى هذه الأشياء أعياناً تشبيهاً، إذ الحافظ المتحفي من البشر إنما يكون ذلك الأمر نصب عينه، وقيل المراد من حفظها من الملائكة سماهم عيوناً، وقال الرماني وقيل إن قوله: ﴿بَاعَيْنَا﴾ يريد العيون المفجرة من الأرض.

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف.

وقرأ أبو السمال: «بَاعَيْنَا» مدغمة. وقرأ جمهور الناس: «كُفِّر» بضم الكاف وكسر الفاء، واختلفوا في المعنى فقال ابن عباس ومجاهد: «من»، يراد بها الله تعالى كأنه قال: غضباً وانتصاراً لله، أي انتصر لنفسه فأنجى المؤمنين وأغرق الكافرين. وقال مكي وقيل «من»، يراد بها نوح والمؤمنين، لأنهم كفروا من حيث كفر بهم فجازاهم الله بالنجاة. وقرأ يزيد بن رومان وعيسى وقاتدة: «كُفِّر» بفتح الكاف والفاء، والضمير في: ﴿تَرَكْنَاهَا﴾ قال مكي بن أبي طالب هو عائد على هذه الفعلة والقصة. وقال قتادة والنقاش وغيره: هو عائد على هذه السفينة، قالوا وإن الله تعالى أرسلها على الجودي حين تناولت الجبال وتواضع وهو جليل بالجزيرة بموضع يقال له باقردي، وأبقى خشبها هنالك حتى رأت بعضه أوائل هذه الأمة. وقال قتادة: وكم من سفينة كانت بعدها صارت رصوداً و: ﴿مَذْكُر﴾ أصله: مذكر، أبدلوا من التاء ذالاً ليناسب الدال في النطق، ثم أدغموا الدال في الدال، وهي قراءة الناس، قال أبو حاتم: رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد صحيح وقرأ قتادة: «مَذْكُر» بالذال على إدغام الثاني في الأول، قال أبو حاتم: وذلك رديء ويلزمه أن يقرأ واذكر بعد أمة وتذخرون في بيوتكم.

وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ توقيف لقريش وتوبيخ، والنذر: هنا جمع نذير، المصدر بمعنى كان عاقبة إنذارى لمن لم يجعل به كأنتم أيها القوم. و: ﴿يَسْرُنَا الْقُرْآن﴾ معناه: سهلناه وقربناه و«الذكر»: الحفظ عن ظهر قلب، قال ابن جبير: لم يستظهر من كتب الله سوى القرآن.

قال القاضي أبو محمد: يسر بما فيه من حسن النظم وشرف المعاني فله لوعة بالقلوب، وامتزاج بالعقول السليمة.

وقوله: ﴿فَهَلْ مِنْ مَذْكُرٍ﴾ استدعاء وحض على ذكره وحفظه لتكون زواجره وعلومه وهداياته حاضرة في النفس. قال مطرف في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِنْ مَذْكُرٍ﴾ هل من طالب علم فيعان عليه.

قال القاضي أبو محمد: الآية تعديد نعمة في أن الله يسر الهدى ولا بخل من قبله، فله در من قبل وهدى. وقد تقدم تعليل: ﴿مَذْكُرٍ﴾.

قوله عز وجل:

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ

النَّاسَ كَانَتْهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَبْتَ ثُمَّودُ بِالنُّذْرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِمَّا وَجَدْنَا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَهَلْفَى الذِّكْرِ عَلَيْهِ مِنْ يَسِّنَابِلٍ هُوَ كَذَّابٌ أَشْرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ الْكَذَّابِ الْأَشْرِ ﴿٢٦﴾

﴿عاد﴾ قبيلة وقد تقدم قصصها. وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾، «كَيْفَ» نصب إما على خبر ﴿كَانَ﴾ وإما على الحال. و: ﴿كَانَ﴾ بمعنى وجد ووقع في هذا الوجه. ﴿ونذري﴾ جمع نذير وهو المصدر. وقرأ ورش وحده: «ونذري» بالياء، وقرأ الباقون «ونذر» بغير ياء على خط المصحف. و: «الصرصر» قال ابن عباس وقتادة معناه الباردة وهو الصر. وقال جماعة من المفسرين معناه: المصوطة نحو هذين الحرفين مأخوذ من صوت الريح إذا هبت دفعا، كأنها تنطق بهذين الحرفين، الصاد والراء، وضوعف الفعل كما قالوا: كبكب وكفكف من كب وكب، وهذا كثير، ولم يختلف القراء في سكون الحاء من «نحس» وإضافة اليوم إليه إلا ما روي عن الحسن أنه قرأ: «في يوم» بالتثنية و: «نحس» بكسر الحاء. و﴿مستمر﴾ معناه: متتابع، قال قتادة: استمر بهم ذلك النحس حتى بلغهم جهنم. قال الضحاك في كتاب الثعلبي المعنى كان مرأ عليهم، وذكره النقاش عن الحسن، وروي أن ذلك اليوم الذي كان لهم فيه ﴿نحس مستمر﴾ كان يوم أربعاء، وورد في بعض الأحاديث في تفسير هذه الآية: ﴿يوم نحس مستمر﴾: يوم الأربعاء، فتأول في ذلك بعض الناس أنه يصحب في الزمن كله، وهذا عندي ضعيف وإن كان الدولابي أبو بشر قد ذكر حديثاً رواه أبو جعفر المنصور عن أبيه محمد عن أبيه علي عن أبيه عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «آخر أربعاء من الشهر يوم نحس مستمر»، ويوجد نحو هذا في كلام الفرس والأعاجم، وقد وجد ذكر الأربعاء التي لا تدور في شعر لبعض الخراسانيين المولدين، وذكر الثعلبي عن زر بن حبيش في تفسير هذا اليوم لعاد أنه كل يوم أربعاء لا تدور، وذكره النقاش عن جعفر بن محمد وقال: كان القمر منحوساً بزحل وهذه نزعة سوء عياداً بالله أن تصح عن جعفر بن محمد.

وقوله: ﴿تنزع الناس﴾ معناه: تنقلهم من مواضعهم نزعا فطرحهم. وروي عن مجاهد: أنها كانت تلقي الرجل على رأسه فيفتت رأسه وعنقه وما يلي ذلك من بدنه فلذلك حسن التشبيه بـ «أعجاز» النخل وذلك أن المنقرع هو الذي ينقلب من قعره. فذلك التشعث والشعب التي لأعجاز النخل، كان يشبهها ما تقطع وتشعث من شخص الإنسان، وقال قوم: إنما شبههم بـ «أعجاز النخل» لأنهم كانوا يحفرون حفراً ليمتنعوا فيها من الريح، فكانه شبه تلك الحفر بعد النزح بحفر أعجاز النخل، والنخل يذكر ويؤنث فلذلك قال هنا: ﴿منقرع﴾ وفي غير هذه السورة: ﴿خاوية﴾ [الحاقة: ٧] والكاف في قوله: ﴿كانهم أعجاز﴾ في موضع الحال، قاله الزجاج، وما روي من خبر الخلجان وغيره وقوتهم ضعيف كله، وفائدة تكرار قوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ التخويف وهز الأنفس قال الرماني: لما كان الإنذار أنواعاً، كرر التذكير والتنبيه، وفائدة تكرار قوله: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ التأكيد والتحريض وتنبيه الأنفس. وهذا موجود في تكرار الكلام، مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم: «ألا هل بلغت، ألا هل بلغت». ومثل

قوله: «ألا وقول الزور، ألا وقول الزور، ألا وقول الزور». وكان صلى الله عليه وسلم إذا سلم على قوم سلم عليهم ثلاثاً، فهذا كله نحو واحد وإن تنوع، و: ﴿ثمود﴾ قبيلة صالح عليه السلام وهم أهل الحجر.

وقرأ الجمهور: «أبشراً منا واحداً» ونصب قوله «بشراً» بإضمار «فهل» يدل عليه قوله: ﴿تنبه﴾، و: «واحداً» نعت لـ «بشراً». وقرأ أبو السمال: «أبشراً منا واحداً تنبه» ورفع إضمار فعل مبني للمفعول، التقدير: أينما بشر، وإما على الابتداء والخبر في قوله ﴿تنبه﴾ و: «واحداً» على هذه القراءة إما من الضمير في: ﴿تنبه﴾ وإما عن المقدر مع: ﴿منا﴾ كأنه يقول: أبشركائن منا واحداً، وفي هذا نظر. وحكى أبو عمر والداني قراءة أبي السمال: «أبشراً منا واحد» بالرفع فيهما.

وهذه المقالة من ثمود حسد منهم واستبعاد منهم أن يكون نوع المبشر يفضل بعضه بعضاً هذا الفضل فقالوا: أنكون جمعاً وتنبع واحداً، ولم يعلموا أن الفضل بيد الله، يؤتيه من يشاء، ويفيض نور الهدى من رضىه.

وقوله: ﴿في ضلال﴾ معناه: في أمر متلف مهلك بالإنلاف، و﴿وسعر﴾ معناه: في احتراق أنفس واستعارها حقناً وهماً باتباعه، وقيل في السعر: العناء، وقاله قتادة. وقيل الجنون، ومنه قولهم ناقة بمعنى مسعورة، إذا كانت تفرط في سيرها، ثم زادوا في التوقي بقولهم: ﴿ألقي الذكر عليه من بيننا﴾، و﴿ألقي﴾ بمعنى أنزل، وكأنه يتضمن عجلة في الفعل، والعرب تستعمل هذا الفعل، ومنه قوله تعالى: ﴿وألقيت عليك محبة مني﴾ [طه: ٣٩] ومنه قوله: ﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقیلاً﴾ [المزمل: ٥]، و﴿الذكر﴾ هنا: الرسالة وما يمكن أن جاءهم به من الحكمة والموعظة، ثم قالوا: ﴿بل هو كذاب أشر﴾ أي ليس الأمر كما يزعم، والأشر: البطر والمرح، فكأنهم رموه بأنه «أشر»، فأراد العلو عليهم وأن يقتادهم ويتملك طاعتهم فقال الله تعالى لصالح: ﴿سيعلمون غداً﴾ وهذه بالياء من تحت قراءة علي بن أبي طالب وجمهور الناس. وقرأ ابن عامر وحزمة وحفص عن عاصم وابن وثاب وطلحة والأعمش «ستعلمون» بالتاء على معنى قل لهم يا صالح.

وقوله: ﴿غداً﴾ تقريب يريد به الزمان المستقبل، لا يوماً بعينه، ونحو المثل: مع اليوم غد.

وقرأ جمهور الناس: «الأشر» بكسر السين كحذر بكسر الذال. وقرأ مجاهد فيما ذكر عنه الكسائي: «الأشر» بضم الشين كحذر بضم الذال، وهما بناءان من اسم الفاعل. وقرأ أبو حيوة: «الأشر» بفتح الشين، كأنه وصف بالمصدر. وقرأ أبو قلابه: «الأشر» بفتح الشين وشد الراء، وهو الأفعال، ولا يستعمل بالألف واللام وهو كان الأصل لكنه رفض تخفيفاً وكثرة استعمال.

قوله عز وجل:

إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فَنَنَّا لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّخَضَّرٌ ﴿٢٨﴾ فَادَّوْا صَاحِبَهُمْ فَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيِّحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا

كَهَشِيمٍ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي إِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَهُمْ بِسِحْرِ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةٍ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾

هذه «الناقة» التي اقترحوها أن تخرج لهم من صخرة صماء من الجبل، وقد تقدم قصصها، فأخبر الله تعالى صالحاً على جهة التأنيس أنه يخرج لهم الناقة ابتلاء واختباراً، ثم أمره بارتقاب الفرج وبالضبر. «واصطبر» أصله: اصتبر. افعل، أبدلت التاء طاء لتناسب الصاد. ثم أمره بأن يخبر ثمود «أن الماء قسمة بينهم»: و «الماء»: هو ماء البئر التي كانت لهم، واختلف المتأولون في معنى هذه القسمة، فقال جمهور منهم «قسمة بينهم»: يتواسونه في اليوم الذي لا تردده الناقة وذلك فيما روي أن الناقة كانت ترد البئر غباً، وتحتاج جميع مائه يومها، فنهاهم الله عن أن يستأثر أهل اليوم الذي لا ترد الناقة فيه بيومهم، وأمرهم بالتواصي مع الذين ترد الناقة في يومهم. وقال آخرون معناه: الماء بين جميعهم وبين الناقة قسمة. و: «محتضر» معناه: محضور مشهود متواسي فيه، وقال مجاهد المعنى: «كل شرب» أي من الماء يوماً ومن لبن الناقة يوماً «محتضر» لهم، فكانه أنباهم الله عليهم في ذلك. و: «صاحبهم» هو قدار بن سالف، وبسبه سمي الجزار القدار لشبهه في الفعل، قال الشاعر [عدي بن ربيعة]: [الكامل]

إنا لنضرب بالسيوف رؤوسهم ضرب القدار نقيعة القدام

وقد تقدم شرح أمر قدار بن سالف. و: «تعاطى» مطاوع عاطى، فكان هذه الفعلة تدافعها الناس وأعطاه بعضهم بعضاً، فتعاطاها هو وتناول العقر بيده، قاله ابن عباس، ويقال للرجل الذي يدخل نفسه في تحمل الأمور الثقيل متعاط على الوجه الذي ذكرناه، والأصل عطا يعطو، إذا تناول، ثم يقال: عاطى، وهو كما تقول: جرى وجارى وتجارى وهذا كثير، ويروى أنه كان مع شرب وهم التسعة الرهط، فاحتاجوا ماء فلم يجدوه بسبب ورد الناقة، فحملة أصحابه على عقرها. ويروى أن ملا القبيل اجتمع على أن يعقرها، ورويت أسباب غير هذين، وقد تقدم ذلك.

والصريحة: يروى أن جبريل عليه السلام صاحبها في طرف من منازلهم فتفتتوا وهمدوا «فكأنوا كهشيم المحتظر». والهشيم: ما تفتت وتهشم من الأشياء.

وقرأ جمهور الناس: «كهشيم المحتظر» بكسر الظاء، ومعناه: الذي يصنع حظيرة من الرعاء ونحوهم قاله أبو إسحاق السبيعي والضحاك وابن زيد، وهي مأخوذة من الحظر وهو المنع، والعرب وأهل البوادي يصنعونها للمواشي وللسكنى أيضاً من الأغصان والشجر المورق والقصب ونحوه، وهذا كله هشيم يتفتت إما في أول الصنعة، وإما عند بلى الحظيرة وتساقط أجزائها. وحكى الطبري عن ابن عباس وقتادة أن «المحتظر» معناه: المحترق. قال قتادة: كهشيم محرق. وقرأ الحسن بن أبي الحسن وأبو رجاء: «المحتظر» بفتح الظاء، ومعناه: الموضع الذي احتظر، فهو مفعول من الحظر، أو الشيء الذي احتظر به. وقد روي عن سعيد بن جبير أنه فسر: «كهشيم المحتظر» بأن قال: هو التراب الذي سقط من الحائط البالي، وهذا متوجه، لأن الحائط حظيرة، والساقط هشيم. وقال أيضاً هو وغيره: «المحتظر»، معناه: المحرق بالنار،

كأنه ما في الموضع المحظَر بالنار، وما ذكرناه عن ابن عباس وقتادة هو على قراءة كسر الظاء، وفي هذا التأويل بعض البعد. وقال قوم: «المحظَر» بالفتح الهشيم نفسه وهو مفتعل، وهو كمسجد الجامع وشبهه.

وقد تقدم قصص قوم لوط. والحاصب: السحاب الرامي بالبرد وغيره، وشبه تلك الحجارة التي رمى بها قوم لوط به بالكثرة والتوالي، وهو مأخوذ من الحصباء، كان السحاب يحصب مقصده، ومنه قول الفرزدق: [البيط]

مستقبلين شمال الشام تحصبهم بحاصب كنديف القطن منشور

وقال ابن المسيب: سمعت عمر بن الخطاب يقول لأهل المدينة: مصروف، لأنه نكرة لم يرد به يوم بعينه. وقوله: ﴿نعمة﴾ نصب على المصدر، أي فعلنا ذلك إنعاماً على القوم الذين نجيناهم، وهذا هو جزاؤنا لمن شكر نعمنا وآمن وأطاع.

قوله عز وجل:

وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَدَدْنَاهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقَدِّرٍ ﴿٤٢﴾ أَكْفَارًا كُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَ أَنْ أَمْلَأَكُمْ بَرَاءَةً فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾

المعنى: ولقد أنذر لوط قومه أخذنا إياهم، و: ﴿بطشتنا﴾ بهم، أي عذابنا لهم. و: ﴿تماروا﴾ معناه: تشككوا وأهدى بعضهم الشك إلى بعض بتعاطيهم الشبه والضلال. و: ﴿النذر﴾ جمع نذير. وهو المصدر، ويحتمل أن يراد «بالنذر» هنا وفي قوله: ﴿كذبت قوم لوط بالنذر﴾ [القمر: ٣٣] جمع نذير، الذي هو اسم الفاعل والضيف: يقع للواحد والجميع، وقد تقدم ذكر أضيافه وقصصهم مستوعباً.

وقوله: ﴿فطمسنا أعينهم﴾ قال قتادة: هي حقيقة، جر جبريل شيئاً من جناحه على أعينهم فاستوت مع وجوههم. قال أبو عبيدة: مطموسة بجلد كالوجه. وقال ابن عباس والضحاك: هي استعارة وإنما حجب إدراكهم فدخلوا المنزل ولم يروا شيئاً، فجعل ذلك كالطمس.

وقوله تعالى: ﴿بكرة﴾ قيل: كان ذلك عند طلوع الفجر، وأدغم ابن محيصن الدال في الصاد من قوله: ﴿ولقد صبحهم﴾ والجمهور على غير الإدغام. ﴿بكرة﴾ نكرة، فلذلك صرفت. وقوله: ﴿فذوقوا عذابي﴾ يحتمل أن يكون من قول الله تعالى لهم، ويحتمل أن يكون من قول الملائكة، ﴿ونذر﴾ جمع المصدر، أي وعاقبة نذري التي كذبت بها، وقوله: ﴿مستقر﴾ في صفة العذاب، لأنه لم يكشف عنهم كاشف، بل اتصل ذلك بموتهم، وهم مدة موتهم تحت الأرض معذبون بانتظار جهنم، ثم يتصل ذلك بعذاب النار، فهو أمر متصل مستقر، وكرر ﴿فذوقوا عذابي ونذر﴾ تأكيداً وتوبيخاً، وروى ورش عن نافع: «نذري» بياء.

و﴿آل فرعون﴾: قومه وأتباعه ومنه قول الشاعر [أراكة الثقفي]: [الطويل]

فلا تبك ميتاً بعد ميت أجنه علي وعباس وآل أبي بكر

يريد: المسلمين في مواراة النبي عليه السلام، ويحتمل أن يريد بـ﴿آل فرعون﴾: قرابته على عرف الآن، وخصصهم بالذكر، لأنهم عمدة القوم وكبرأؤهم.

وقوله: ﴿كذبوا بآياتنا﴾ يحتمل أن يريد ﴿آل فرعون﴾ المذكورين. و: ﴿أخذناهم﴾ كذلك يريد بهم بالضمير، لأن ذلك الإغراق الذي كان في البحر، كان بالعزة والقدرة، ويكون قوله: ﴿بآياتنا﴾ يريد بها: التسع، ثم أكد بكلمها، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿ولقد جاء آل فرعون النذر﴾ كلاماً تاماً، ثم يكون قوله: ﴿كذبوا بآياتنا كلها﴾ يعود الضمير في ﴿كلها﴾ على جميع من ذكر من الأمم المذكورة.

وقوله تعالى: ﴿أكفركم﴾ الآية خطاب لقريش، وفهم على جهة التوبيخ. أثم خصلة من المال أو قوة أبدان وبسطة أو عقول أو غير ذلك ممنا يقتضي أنكم خير من هؤلاء المعذبين لما كذبوا، فيرجى لكم بذلك الفضل النجاء من العذاب حين كذبتم رسولكم؟ ﴿أم لكم﴾ في كتب الله المنزل ﴿براءة﴾ من العذاب؟ قاله الضحاك وابن زيد وعكرمة، ثم قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم: ﴿أم يقولون﴾ نحن واثقون بجماعتنا منتصرون بقوتنا على جهة الإعجاب والتعاطي؟ سيهزمون، فلا ينفع جمعهم. وقرأ أبو حيوة «أم تقولون» بالتاء من فوق.

قوله عز وجل:

سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرٌ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْجَنُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَّدَكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ﴿٥٥﴾

هذه عدة من الله تعالى لرسوله أن جمع قريش سيهزم نصرة له، والجمهور على أن الآية مكية، وروي عن عمر بن الخطاب أنه قال: كنت أقول في نفسي أي جمع يهزم؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثبت في الدرع ويقول ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾.

قال القاضي أبو محمد: فإنما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بدر مستشهداً بالايه. وقال

قوم: إن الآية نزلت يوم بدر.

وقال أبو حاتم: وقرأ بعض القراء: «سيهزم» بفتح الياء وكسر الزاي «الجمع» نصباً، قال أبو عمرو الداني قرأ أبو حيوة: «سنهزم» بالنون وكسر الزاي «الجمع» نصباً. «وتولون» بالتاء من فوق، ثم تركت هذه

الأقوال، وأضرب عنها تهماً بأمر الساعة التي عذابها أشد عليهم من كل هزيمة وقتل فقال: ﴿بل الساعة موعدهم﴾. و: ﴿أدهى﴾ أفعل من الداهية: وهي الرزية العظمى تنزل بالمرء. ﴿وأمر﴾ من الممرارة، واللفظة ليست هنا مستعارة، لأنها ليست فيما يذاق.

ثم أخبر تعالى عن المجرمين أنهم في الدنيا في حيرة وإتلاف وفقد هدى وفي الآخرة في احتراق وتسعر من حيث هم صائرون إليه، قال ابن عباس المعنى: في خسران وجنون، والسعر الجنون. وأكثر المفسرين على أن ﴿المجرمين﴾ هنا يراد بهم الكفار. وقال قوم المراد بـ ﴿المجرمين﴾: القدرية الذين يقولون إن أفعال العباد ليست بقدر من الله، وهم المتوعدون بالسحب في جهنم، والسحب: الجر. وفي قراءة ابن مسعود: «إلى النار».

وقوله تعالى: ﴿ذوقوا مس﴾ استعارات، والمعنى: يقال لهم على جهة التوبيخ.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾، فقرأ جمهور الناس: «إنا كل» بالنصب، والمعنى: خلقنا كل شيء خلقناه بقدر، وليست ﴿خلقناه﴾ في موضع الصفة لشيء، بل هو فعل دال على الفعل المضمر، وهذا المعنى يقتضي أن كل شيء مخلوق، إلا ما قام دليل العقل على أنه ليس بمخلوق كالقرآن والصفات. وقرأ أبو السمال ورجحه أبو الفتح: «إنا كل» بالرفع على الابتداء، والخبر: ﴿خلقناه بقدر﴾.

قال أبو حاتم: هذا هو الوجه في العربية، وقراءتنا بالنصب مع جماعة، وقرأها قوم من أهل السنة بالرفع، والمعنى عندهم على نحو ما عند الأولى أن كل شيء فهو مخلوق بقدر سابق، و: ﴿خلقناه﴾ على هذا ليست صفة لشيء، وهذا مذهب أهل السنة، ولهم احتجاج قوي بالآية على هذين القولين، وقالت القدرية وهم الذين يقولون: لا قدر، والمرء فاعل وحده أفعاله. القراءة «إنا كل شيء خلقناه» برفع «كل»: و﴿خلقناه﴾ في موضع الصفة بـ «كل»، أي أن أمرنا وشأننا كل شيء خلقناه فهو بقدر وعلى حد ما في هيئته وزمنه وغير ذلك، فيزيلون بهذا التأويل موضع الحجة عليهم بالآية.

وقال ابن عباس: إني أجد في كتاب الله قوماً ﴿يسحبون في النار على وجوههم﴾ لأنهم كانوا يكذبون بالقدر، ويقولون: المرء يخلق أفعاله، وإني لا أراهم، فلا أدري أشيء مضى قبلنا أم شيء بقي؟.

وقال أبو هريرة: خاصمت قريش رسول الله في القدر فنزلت هذه الآية، قال أبو عبد الرحمن السلمي: فقال رجل يا رسول الله فقيم العمل؟ أفي شيء نستأنفه؟ أم في شيء قد فرغ منه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اعملوا، فكل ميسر لما خلق له، سنيسره لليسرى وسنيسره للعسرى»، وقال أنس بن مالك: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «القدرية يقولون الخير والشر بأيدينا، ليس لهم في شفاعتي نصيب ولا أنا منهم ولا هم مني».

وقوله: ﴿إلا واحدة﴾، أي: إلا قوله واحدة وهي: كن. وقوله: ﴿كلمح بالبصر﴾ تفهيم للناس بأعجل ما يحسون وفي أشياء أمر الله تعالى أوحى من لمح البصر. والأشياء: الفرق المتشابهة في مذهب ودين، ونحوه الأول شيعة للأخر، الآخر شيعة للأول.

ثم أخبر تعالى أن كل أفعال الأمم المهلكة مكتوب محفوظ عليهم إلى يوم الحساب، قاله ابن عباس وقتادة والضحاك وابن زيد. و: ﴿مستطر﴾ مفتعل من السطر، تقول سطرت واستطرت بمعنى، وروي عن عاصم شد الرءاء في «مستطر»، قال أبو عمرو: وهذا لا يكون إلا عند الوقف لغة معروفة.

وقرأ جمهور الناس: «ونَهَر» بفتح الهاء والنون، على أنه اسم الجنس، يريد به الأنهار، أو على أنه بمعنى: وسعة في الأرزاق والمنازل، ومنه قول قيس بن الخطيم: [الطويل]

ملكك بها كفي فأنهـرت فتقها يرى قائم من دونها ما وراءها

فقوله: «أنهـرت» معناه: جعلت فتقها كنهر. وقرأ زهير الفرقي والأعمش: «ونَهَر» بضم النون والهاء، على أنه جمع نهار، إذ لا ليل في الجنة، وهذا سائغ في اللفظ قلق في المعنى، ويحتمل أن يكون جمع نهر. وقرأ مجاهد وحמיד وأبو السمال والفياض بن غزوان: «نَهَر» ساكنة الهاء على الإفراد.

وقوله تعالى: ﴿مقعد صدق﴾ يحتمل أن يريد به الصدق الذي هو ضد الكذب، أي في المقعد الذي صدقوا في الخبر به، ويحتمل أن يكون من قولك: عود صدق، أي جيد، وزجل صدق، أي خبير وخلال حسان.

وقرأ جمهور الناس: «في مقعد» على اسم الجنس. وقرأ عثمان البتي: «في مقاعد» على الجمع. والمليك المقتدر: الله تعالى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

وهي مكية فيما قال الجمهور من الصحابة والتابعين. وقال نافع بن أبي نعيم وعطاء وقتادة وكريب وعطاء الخراساني عن ابن عباس: هي مدنية، نزلت عند إباية سهيل بن عمرو وغيره أن يكتب في الصلح بسم الله الرحمن الرحيم، والأول أصح، وإنما نزلت حين قالت قريش بمكة: وما الرحمن؟ أنسجد لما تأمرنا؟ وفي السيرة أن ابن مسعود جهر بقراءتها في المسجد حتى قامت إليه أندية قريش فضربوه، وذلك قبل الهجرة. قوله عز وجل:

الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾

﴿الرحمن﴾ بناء مبالغة من الرحمة، وهو اسم اختص الله تعالى بالانصاف به، وحكى ابن فورك عن قوم أنهم يجعلون ﴿الرحمن﴾ آية تامة، كأن التقدير: ﴿الرحمن﴾ ربنا، قاله الرماني أو أن التقدير: الله ﴿الرحمن﴾. وقال الجمهور إنما الآية: ﴿الرحمن علم القرآن﴾ فهو جزء آية.

وقوله: ﴿علم القرآن﴾ تعديد نعمة أي هو من به وعلمه الناس، وخص حفاظه وفهمته بالفضل. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه». ومن الدليل على أن القرآن غير مخلوق: أن الله تعالى ذكر ﴿القرآن﴾ في كتابه في أربعة وخمسين موضعاً ما فيها موضع صرح فيه بلفظ الخلق ولا أشار إليه، وذكر ﴿الإنسان﴾ على الثلث من ذلك في ثمانية عشر موضعاً، كلها نصت على خلقه، وقد اقترن ذكرهما في هذه السورة على هذا النحو، و: ﴿الإنسان﴾ اسم الجنس، حكاه الزهراوي وغيره. و: ﴿البيان﴾ النطق والفهم والإبانة عن ذلك بقول قاله ابن زيد والجمهور، وذلك هو الذي فضل الإنسان من سائر الحيوان، وقال قتادة: هو بيان الحلال والحرام والشرائع، وهذا جزء من ﴿البيان﴾ العام، وقال قتادة: ﴿الإنسان﴾ آدم. وقال ابن كيسان: ﴿الإنسان﴾: محمد صلى الله عليه وسلم.

قال القاضي أبو محمد: وهذا التخصيص لا دليل عليه، وكل المعلومات داخلية في البيان الذي علمه الإنسان، فكأنه قال من ذلك البيان وفيه معتبر كون ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ فحذف هذا كله، ورفع ﴿الشمس﴾ بالابتداء، وهذا ابتداء تعديد نعم.

واختلف الناس في قوله: ﴿بحسبان﴾ فقال مكي والزهرائي عن قتادة: هو مصدر كالحساب في المعنى وكالغفران والطغيان في الوزن. وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى والضحاك: هو جمع حساب، كشهداب وشهبان، والمعنى أن هذين لهما في طلوعهما وغروبهما وقطعهما البروج وغير ذلك حسابات شتى، وهذا مذهب ابن عباس وأبي مالك وقاتدة. وقال ابن زيد لولا الليل والنهار لم يدر أحد كيف يحسب شيئاً، يريد من مقادير الزمان. وقال مجاهد: «الحسبان» الفلك المستدير، شبه بحسبان الرحي، وهو العود المستدير الذي باستدارته تدور المطحنة.

وقوله: ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ قال ابن عباس والسدي وسفيان: ﴿النجم﴾. النبات الذي لا ساق له، وسمي نجماً لأنه نجم، أي ظهر وطلع، وهو مناسب للشجر نسبة بينة. وقال مجاهد وقاتدة والحسن: ﴿النجم﴾ اسم الجنس من نجوم السماء، والنسبة التي لها من السماء هي التي للشجر من الأرض، لأنها في ظاهرهما. وسمي ﴿الشجر﴾ من اشتجار غصونه وهو تداخلها.

واختلف الناس في هذا السجود، فقال مجاهد: ذلك في النجم بالغروب ونحوه، وفي الشجر بالظل واستدارته، وكذلك في النجم على القول الآخر. وقال مجاهد أيضاً ما معناه: أن السجود في هذا كله تجوز، وهو عبارة عن الخضوع والتذلل، ونحوه قول الشاعر [زيد الخيل]: [الطويل]

ترى الأكمل فيها سجداً للحوافر

وقال: ﴿يسجدان﴾ وهما جمعان، لأنه راعى اللفظ، إذ هو مفرد اسم للنوع وهذا كقول الشاعر [عمير بن شبيب القطامي]: [الوافر]

ألم يحزنك أن حبال قومي وقومك قد تباينت انقطاعاً

وقرأ الجمهور: «والسماء رفعها» بالنصب عطفاً على الجملة الصغيرة وهي ﴿يسجدان﴾ لأن هذه الجملة من فعل وفاعل وهذه كذلك. وقرأ أبو السمال: «والسماء» بالرفع عطفاً على الجملة الكبيرة وهي قوله: ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ لأن هذه الجملة من ابتداء وخبر، والأخرى كذلك.

وفي مصحف ابن مسعود: «وخفض الميزان». ومعنى: ﴿وضع﴾ أفر وأثبت، و﴿الميزان﴾: العدل فيما قال الطبري ومجاهد وأكثر الناس. وقال ابن عباس والحسن وقاتدة: إنه الميزان المعروف.

قال القاضي أبو محمد: والميزان المعروف جزء من ﴿الميزان﴾ الذي يعبر به عن العدل. ويظهر عندي أن قوله: ﴿وضع الميزان﴾ يريد به العدل.

وقوله: ﴿ألا تظفوا في الميزان﴾ وقوله: ﴿وأقيموا الوزن﴾ وقوله: ﴿ولا تخسروا الميزان﴾ يريد به الميزان المعروف، وكل ما قيل محتمل سائغ.

وقوله: ﴿أَلَا تَطْفَؤُا﴾ نهي عن التعمد الذي هو طغيان بالميزان. وأما ما لا يقدر البشر عليه من التحرير بالميزان فذلك موضوع عن الناس. «وأن لا» هو بتقدير لئلا، أو مفعول من أجله. و: ﴿تَطْفَؤُا﴾ نصب، ويحتمل أن تكون «أن» مفسرة، فيكون ﴿تَطْفَؤُا﴾ جزمًا بالنهي، وفي مصحف ابن مسعود: «لا تطفؤا في الميزان» بغير أن.

وقرأ جمهور الناس: «ولا تُخسروا» من أخسر، أي نقص وأفسد، وقال بلال بن أبي بردة «تُخسِرُوا» بفتح التاء وكسر السين من خسر، ويقال خسر وأخسر بمعنى: نقص وأفسد، كجبر وأجبر. وقرأ بلال أيضاً فيما حكى ابن جني: «تُخسِرُوا»، بفتح التاء والسين من خسر: بكسر السين.

واختلف الناس في: «الأنام» فقال ابن عباس فيما روي عنه هم بنو آدم فقط. وقال الحسن بن أبي الحسن: هم الثقلان: الجن والإنس. وقال ابن عباس أيضاً وقتادة وابن زيد والشعبي: هم الحيوان كله. و﴿الأكمام﴾ في «النخل» موجودة في الموضعين، فجملة فروع النخلة في أكمام من ليفها، وطلع النخل في كم من جفه. وقال قتادة: أكمام النخيل رقابها. والكم من النبات: كل ما التف شيء وستره، ومنه كمائم الزهر وبه شبه كم الثوب. و﴿والحب ذو العصف﴾ هو البر والشعير وما جرى مجراه من الحب الذي له سنبل وأوراق متشعبة على ساقه وهي العصيفة إذا يبست، ومنه قول علقمة بن عبدة: [البسيط]

تسقى مذائب قد مالت عصيفتها حدورها من أتى الماء مطموم

قال ابن عباس ﴿العصف﴾ التبن، وتقول العرب: خرجنا نتعصف، أي يستعجلون عصيفة الزرع.

وقرأ ابن عامر وأبو البرهسم: «والحب» بالنصب عطفاً على «الأرض» «ذا العصف والريحان» إلا أن البرهسم خفض النون.

واختلفوا في «الريحان»، فقال ابن عباس ومجاهد والضحاك معناه: الرزق، ومنه قول الشاعر وهو النمر بن تولب: [المتقارب]

سلام الإله وريحانه وجنته وسماء درر

وقال الحسن: هو ريحانكم هذا. وقال ابن جبير: هو كل ما قام على ساق، وقال ابن زيد وقتادة: «الريحان» هو كل مشموم طيب الريح من النبات. وفي هذا النوع نعمة عظيمة. ففيه الأزهار والمنديل والعقاقير وغير ذلك. وقال الفراء: «العصف» فيما يؤكل، و«الريحان» كل ما لا يؤكل.

وقرأ جمهور الناس: «والحب» بالرفع «ذو العصف والريحان» وهذه قراءة في المعنى كالأولى في الإعراب حسنة الاتساق عطفاً على «فاكهة». وقرأ حمزة والكسائي وابن محيصن: «والحب» بالرفع «ذو العصف والريحان» بخفض «الريحان» عطفاً على «العصف»، كأن الحب هما له على أن «العصف» منه الورق. وكل ما يعصف باليد وبالريح فهو رزق البهائم، «والريحان» منه الحب فهو رزق الناس، «والريحان» على هذه القراءة: الرزق: لا يدخل فيه المشموم بتكلف.

﴿والريحان﴾ هو من ذوات الواو. قال أبو علي: إما أن يكون ريحان اسماً ووضع موضع المصدر،

وإما أن يكون مصدراً على وزن فعلان، كالليان وما جرى مجراه أصله: روحان، أبدلت الواو ياء كما بدلوا الواو ياء في أشاوى وإما أن يكون مصدراً شاذاً في المعتل كما شذ كينونة وبينونة، فاصله: يوحان، قلبت الواو ياء، وأدغمت الياء في الياء، فجاء ربحان، فخفض كما قالوا ميت وميت وهين وهين.

والآلاء: النعم، واحدها إلى مثل معنى وإلى مثل قفا، حكى هذين أبو عبيدة، وأبي مثل أمر وإلى مثل حصن، حكى هذين الزهراوي. والضمير في قوله: ﴿ربكما﴾ للجن والإنس، وساع ذلك ولم يصرح لهما بذكر على أحد وجهين إما أنهما قد ذكرا في قوله: ﴿للأنام﴾ على ما تقدم من أن المراد به الثقلان، وإما على أن أمرهما مفسر في قوله: ﴿خلق الإنسان﴾ [الرحمن: ١٤] و﴿خلق الجن﴾ [الرحمن: ١٥] فساع تقديمهما في الضمير اتساعاً. وقال الطبري: يحتمل أن يقال هذا من باب ألفيا في جهنم ويا غلام اضربا عنقه. وقال منذر بن سعيد خوطب من يعقل لأنه المخاطبة بالقرآن كله هي للإنس والجن، ويروى أن هذه الآية لما قرأها النبي صلى الله عليه وسلم سكنت أصحابه فقال: «إن جواب الحق خير من سكونكم، أي لما قرأتها على الجن قالوا: لا، بأيها نكذب يا ربنا».

قوله عز وجل:

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾

قال كثير من المفسرين: ﴿الإنسان﴾ آدم. وقال آخرون: أراد اسم الجنس، وساع ذلك من حيث أبوهم مخلوق من الصلصال.

واختلف الناس في اشتقاق الصلصال، فقال مكي فيما حكى النقاش: هو من صل اللحم وغيره إذا نتن، فهي إشارة إلى الحمأة. وقال الطبري وجمهور المفسرين: هو من صل إذا صوت، وذلك في الطين لكرمته وجودته، فهي إشارة إلى ما كان من تربة آدم من الطين الحر، وذلك أن الله تعالى خلقه من طيب وخبيث ومختلف اللون، فمرة ذكر في خلقه هذا، ومرة هذا، وكل ما في القرآن في ذلك صفات تردت على التراب الذي خلق منه، و﴿الفخار﴾: الطين الطيب إذا مسه الماء فخر أي ربا وعظم.

و: ﴿الجان﴾ اسم جنس، كالجنة. و: «المارج» اللهب المضطرب من النار. قال ابن عباس: وهو أحسن النار المختلط من ألوان شتى. وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر: «كيف بك إذا كنت في حثالة من الناس قد مرجت عهودهم وأماناتهم».

وكرر قوله: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ تأكيداً أو تنبيهاً لنفوس وتحريكا لها، وهذه طريقة من الفصاحة معروفة، وهي من كتاب الله في مواضع، وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم، وفي كلام العرب وذهب قوم منهم ابن قتبية وغيره إلى أن هذا التكرار إنما هو لما اختلفت النعم المذكورة ككرر التوقيف مع كل واحدة منها، وهذا حسن. قال الحسين بن الفضل: التكرار لطرد الغفلة ولا تأكيد.

وخص ذكر ﴿المشرقين والمغربين﴾ بالتشريف في إضافة الرب إليهما لعظمهما في المخلوقات وأنهما طرفا آية عظيمة وعبرة وهي الشمس وجريها. وحكى النقاش أن ﴿المشرقين﴾ مشرقا الشمس والقمر، ﴿والمغربين﴾ كذلك على ما في ذلك من العبر، وكل متجه، ومتى وقع ذكر المشرق والمغرب فهي إشارة إلى الناحيتين بجملتهما، ومتى وقع ذكر المشرق والمغرب فهي إشارة إلى تفصيل مشرق كل يوم ومغربه، ومتى ذكر المشرق والمغربان، فهي إشارة إلى نهايتي المشرق والمغرب، لأن ذكر نهايتي الشيء ذكر لجميعه. قال مجاهد: هو مشرق الصيف ومغربه، ومشرق الشتاء ومغربه.

قوله عز وجل:

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ يَنْهَمَا بَرَزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَيَأْتِيَا الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْزُ وَالْمَرْجَاتُ ﴿٢٢﴾ فَيَأْتِيَا الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ ﴿٢٤﴾ فَيَأْتِيَا الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلٌّ مِّنْ عَالِيَانِ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَيَأْتِيَا الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾

﴿مرج البحرين﴾ معناه: أرسلهما إرسالاً غير منحاز بعضهما من بعض، ومنه مرجت الدابة، ومنه الأمر المريج، أي المختلط الذي لم يتحصل منه شيء، ومنه من ﴿مارج من نار﴾ [الرحمن: ١٥].

واختلف الناس في ﴿البحرين﴾ فقال الحسن وقتادة: بحر فارس وبحر الروم. وقال الحسن أيضاً: بحر القلزم واليمن وبحر الشام. وقال ابن عباس وابن جبير: هو بحر في السماء وبحر في الأرض. وقال ابن عباس أيضاً هو مطر السماء سماه بحراً وبحر الأرض. والظاهر عندي أن قوله تعالى: ﴿البحرين﴾ يريد بهما نوعي الماء العذب. والأجاج: أي خلطهما في الأرض وأرسلهما متداخلين في وضعهما في الأرض قريب بعضهما من بعض ولا بغي، والعبرة في هذا التأويل منيرة، وأنشد منذر بن سعيد: [الطويل]

وممزوجة الأمواه لا العذب غالب على الملح طيباً لا ولا الملح يعذب

أما قوله: ﴿يلتقيان﴾ فعلى التأويل الأولين معناه: هما معدان للالتقاء، وحققهما أن يلتقيا لولا البرزخ، وعلى القول الثالث روي أنهما يلتقيان كل سنة مرة، فمن ذهب إلى أنه بحر يجتمع في السماء فهو قول ضعيف وإنما يتوجه الالتقاء فيه. وفي القول الرابع ينزل المطر، وفي القول الخامس بالأنهار في البحر وبالعيون قرب البحر. والبرزخ: الحاجز في كل شيء، فهو في بعض هذه الأقوال أجرام الأرض، قاله قتادة. وفي بعضها القدرة والبرزخ أيضاً: المدة التي بين الدنيا والآخرة للموتى، فهي حاجز، وقد قال بعض الناس: إن ماء الأنهار لا يختلط بالماء الملح، بل هو بذاته باق فيه، وهذا يحتاج إلى دليل أو حديث صحيح، وإلا فالبيان لا يقتضيه. وذكر الثعلبي في: ﴿مرج البحرين﴾ الغاراً وأقوالاً باطنة لا يجب أن يلتفت إلى شيء منها.

واختلف الناس في قوله: ﴿لا يبغيان﴾ فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة معناه: لا يبغي واحد منهما

على الآخر. وقال قتادة أيضاً والحسن: ﴿لا يبغيان﴾ على الناس والعمران. وهذان القولان على أن اللفظة من البغي. وقال بعض المتأولين هي من قولك: بغي إذا طلب، فمعناه: ﴿لا يبغيان﴾ حالاً غير حالهما التي خلقا وسخرا لها. وقال ابن عباس وقاتدة والضحاك: ﴿اللؤلؤ﴾: كبار الجواهر. والمرجان: صغاره. وقال ابن عباس أيضاً ومرة الهمداني عكس هذا، والوصف بالصغر وهو الصواب في ﴿اللؤلؤ﴾. وقال ابن مسعود وغيره: ﴿المرجان﴾: حجر أحمر، وهذا هو الصواب في ﴿المرجان﴾ و﴿اللؤلؤ﴾: بناء غريب لا يحفظ منه في كلام العرب أكثر من خمسة: اللؤلؤ والجوهر والدودو واليؤر وهو طائر، واليؤر وهو الأصل. واختلف الناس في قوله: ﴿منهما﴾ فقال أبو الحسن الأخفش في كتابه الحجة، وزعم قوم أنه قد ينفرج ﴿اللؤلؤ والمرجان﴾ من الملح ومن العذب.

قال القاضي أبو محمد: ورد الناس على هذا القول، لأن الحس يخالفه ولا يخرج ذلك إلا من الملح وقد رد الناس على الشاعر في قوله: [الطويل]

فجاء بها ما شيت من لطمية على وجهها ماء الفترات يموج

وقال جمهور من المتأولين: إنما يخرج ذلك من الأجاج في المواضع التي تقع فيها الأنهار والمياه العذبة، فلذلك قال: ﴿منهما﴾ وهذا مشهور عند الغواصين. وقال ابن عباس وعكرمة: إنما تتكون هذه الأشياء في البحر بنزول المطر، لأن الصدف وغيرها تفتح أجوافها للمطر، فلذلك قال: ﴿منهما﴾ وقال أبو عبيدة ما معناه: إن خروج هذه الأشياء إنما هي من الملح، لكنه قال: ﴿منهما﴾ تجوزاً كما قال الشاعر [عبد الله بن الزبيري]: [مجزوء الكامل مرفل]

متقلداً سيفاً ورمحا

وكما قال الآخر:

علفتها تيناً وماءً بارداً.

فمن حيث هما نوع واحد، فخرج هذه الأشياء إنما هي منهما وإن كانت تختص عند التفصيل المبالغ بأحدهما، وهذا كما قال تعالى: ﴿سبع سماوات طباقاً وجعل القمر فيهن﴾ [نوح: ١٥-١٦]، وإنما هو في إحداهن وهي الدنيا إلى الأرض. قال الرماني: العذب فيهما كاللقاح للملح فهو كما يقال: الولد يخرج من الذكر والأنثى.

وقرأ نافع وأبو عمرو وأهل المدينة: «يُخْرِج» بضم الياء وفتح الراء: «اللؤلؤ» رفعاً. وقرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر وحزمة والكسائي: «يَخْرِج» بفتح الياء وضم الراء على بناء الفعل للفاعل، وهي قراءة الحسن وأبي جعفر. وقرأ أبو عمرو في رواية حسين الجعفي عنه: «يُخْرِج» بضم الياء وكسر الراء على إسناده إلى الله تعالى، أي بتمكينه وقدرته، «اللؤلؤ» نصباً، ورواها أيضاً عنه بالنون مضمومة وكسر الراء: و﴿الجواري﴾ جمع جارية، وهي السفن. وقرأ الحسن والنخعي بإثبات الياء. وقرأ الجمهور وأبو جعفر وشيبة بحذفها.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر والكسائي: «المنشآت» بفتح الشين أي أنشأها الله والناس.

وقرأ حمزة وأبو بكر بخلاف: «المنشآت» بكسر الشين، أي تنشيء هي السير إقبالاً وإدباراً، و«الأعلام» الجبال وما جرى مجراها من الطراب والأكام. وقال مجاهد: ما له شراع فهو من «المنشآت»، وما لم يرفع له شراع فليس من «المنشآت»

وقوله: «كالأعلام» هو الذي يقتضي هذا الفرق، وأما لفظة «المنشآت» فيعم الكبير والصغير، والضمير في قوله «كل من عليها» للأرض، وكنت عنها، ولم يتقدم لها ذكر لوضوح المعنى كما قال تعالى: «حتى توارت بالحجاب» [ص: ٣٢] إلى غير ذلك من الشواهد، والإشارة بالفناء إلى جميع الموجودات على الأرض من حيوان وغيره، فغلب عبارة من يعقل، فلذلك قال: «من». والوجه عبارة عن الذات. لأن الجارحة منفية في حق الله تعالى: وهذا كما تقول: هذا وجه القول والأمر، أي حقيقته وذاته. وقرأ جمهور الناس: «ذو الجلال» على صفة لفظة الوجه. وقرأ عبد الله بن مسعود وأبي: «ذي الجلال» على صفات الرب.

قوله عز وجل:

يَسْأَلُهُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَيَأْتِيَهُمْ آيَ رَبِّكَمُ تُكَذِّبُونَ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَيَأْتِيَهُمْ آيَ رَبِّكَمُ تُكَذِّبُونَ ﴿٣٢﴾ يَمَعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَيَأْتِيَهُمْ آيَ رَبِّكَمُ تُكَذِّبُونَ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئُ مِّنْ نَّارٍ وَنَحَاسٌ فَلَا تَنْصِرُونَ ﴿٣٥﴾ فَيَأْتِيَهُمْ آيَ رَبِّكَمُ تُكَذِّبُونَ ﴿٣٦﴾

قوله: «يسأله» يحتمل أن يكون في موضع الحال من الوجه، والعامل فيه «يبقى» [الرحمن: ٢٧] أي هو دائم في هذه الحال، ويحتمل أن يكون فعلاً مستأنفاً إخباراً مجرداً. والمعنى أن كل مخلوق من الأشياء فهو في قوامه وتماسكه ورزقه إن كان مما يرزق بحال حاجة إلى الله تعالى، فمن كان يسأل بنطق فالأمر فيه بين، ومن كان من غير ذلك فحالته تقتضي السؤال، فأسند فعل السؤال إليه.

وقوله: «كل يوم هو في شأن» أي يظهر شأن من قدرته التي قد سبقت في الأزل في ميقاته من الزمن من إحياء وإماتة ورفعة وخفض، وغير ذلك من الأمور التي لا يعلم نهايتها إلا هو تعالى. والشأن: اسم جنس للأمور. قال الحسين بن الفضل: معنى الآية، سوق المقادير إلى المواقيت. وورد في بعض الأحاديث، «إن الله تعالى له كل يوم في اللوح المحفوظ ثلاثمائة وستون نظرة، يعز فيها ويدل، ويحيي ويميت، ويغني ويعدم إلى غير ذلك من الأشياء، لا إله إلا هو». وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فقليل له ما هذا الشأن يا رسول الله؟ قال: يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع ويضع.

وذكر النقاش أن سبب هذه الآية قول اليهود: إن الله استراح يوم السبت، فلا ينفذ فيه شيئاً.

وقوله تعالى: «سنفرغ لكم أبها الثقلان» عبارة عن إتيان الوقت الذي قدر فيه وقضى أن ينظر في أمور عباده وذلك يوم القيامة، وليس المعنى: أن ثم شغلاً يتفرغ منه، وإنما هي إشارة وعيد، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لأزب العقبة لأفرغن لك يا خبيث» والتفرغ من كل آدمي حقيقة.

وفي قوله تعالى : ﴿سَنُفِرْغُ لَكُمْ﴾ جرى على استعمال العرب، ويحتمل أن يكون التوعد بعذاب في الدنيا والأول أبين.

وقرأ نافع وابن كثير وعاصم وأبو عمرو وابن عامر: «سَنُفِرْغُ» بضم الراء وبالنون. وقرأ الأعرج وقتادة: ذلك بفتح الراء والنون، ورويت عن عاصم، ويقال فرغ بفتح الراء وفرغ بكسرهما. ويصح منهما جميعاً أن يقال يفرغ بفتح الراء وقرأ عيسى بفتح النون وكسر الراء. وقال أبو حاتم: هي لغة سفلى مضرو، وقرأ أبو عمرو وحزمة والكسائي: بالياء المفتوحة، قرأ حمزة والكسائي: بضم الراء. وقرأ أبو عمرو: بفتحها. وقرأ الأعمش بخلاف، وأبو حيوة: «سَيُفِرْغُ» بضم الياء وفتح الراء وبناء الفعل للمفعول. وقرأ عيسى بن عمر أيضاً: «سَنُفِرْغُ»، بفتح النون وكسر الراء. وفي مصحف عبد الله بن مسعود: «سَنُفِرْغُ لَكُمْ أَيُّهَا».

و﴿الثقلان﴾ الإنس والجن، ويقال لكل ما يعظم أمره ثقل، ومنه: ﴿أَخْرَجْتَ الْأَرْضَ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢]. وقال النبي عليه السلام: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي». ويقال لبنيض الثعام ثقل. وقال لبيد: [الكامل]

فَتَذَكَّرْنَا ثِقْلًا رَثِيْدًا بَعْدَ مَا أَلْقَيْتَ ذِكَاءَ يَمِينِهَا فِي كَافِرٍ

وقال جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه: سمي الإنس والجن ثقلين، لأنهما ثقلًا بالذنوب وهذا بارع ينظر إلى خلقهما من طين ونار.

وقرأ ابن عامر: «أَيُّهُ الثقلان» بضم الهاء.

واختلف الناس في معنى قوله: ﴿إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا﴾ الآية، فقال الطبري، قال قوم: في الكلام محذوف وتقديره: يقال لكم ﴿يَا مَعْشَرَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ﴾، قالوا وهذه حكاية عن حال يوم القيامة في ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ [غافر: ٣٢] على قراءة من شدد الدال. قال الضحاك: وذلك أنه يفر الناس في أقطار الأرض، والجن كذلك، لما يرون من هول يوم القيامة، فيجدون سبعة صفوف من الملائكة قد أحاطت بالأرض، فيرجعون من حيث جاؤوا، فحينئذ يقال لهم: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ﴾. وقال بعض المفسرين: بل هي مخاطبة في الدنيا. والمعنى: ﴿إِنْ اسْتَطَعْتُمْ﴾ الفرار من الموت بـ ﴿أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. وقال ابن عباس المعنى: إن استطعتم بأذهانكم وفكركم أن تنفذوا فتعلموا علم أقطار السماوات والأرض. والأقطار: الجهات.

وقوله: ﴿فَانْفُذُوا﴾ صيغة الأمر ومعناه التعجيز، والسلطان هنا القوة على غرض الإنسان، ولا يستعمل إلا في الأعظم من الأمر والحجج أبداً من القوي في الأمور، ولذلك يعبر كثير من المفسرين عن السلطان بأنه الحجة. وقال قتادة: السلطان هنا الملك، وليس لهم ملك، والشواظ: لهب النار. قاله ابن عباس وغيره. وقال أبو عمرو بن العلاء: لا يكون الشواظ إلا من النار وشيء معها، وكذلك النار كلها لا تحس إلا شيء معها. وقال مجاهد: الشواظ، هو اللهب الأخضر المتقطع، ويؤيد هذا القول قول حسان بن ثابت يهجو أمية بن أبي الصلت:

هَجَوْتُكَ فَاخْتَضَعْتَ حَلِيفًا ذُلَّ بِقَاقِيَةِ تُرْجِجُ كَالشَّوَاظِ

وقال الضحاك: هو الدخان الذي يخرج من اللهب وليس بدخان الحطب.

وقرأ الجمهور: «شواظ» بضم الشين. وقرأ ابن كثير وحده وشبل وعيسى: «شواظ» بكسر الشين وهما لغتان.

وقال ابن عباس وابن جبير: النحاس الدخان، ومنه قول الأعشى: [المتقارب]

تضيء كضوء سراج السليط لم يجعل الله فيه نحاسا

السليط دهن السراج. في النسخ التي بأيدينا دهن الشيرج.

وقرأ جمهور القراء: «ونحاس» بالرفع عطفاً على «شواظ»، فمن قال إن النحاس: هو المعروف، وهو قول مجاهد وابن عباس أيضاً قال يرسل عليهما نحاس: أي يذاب ويرسل عليهما. ومن قال هو الدخان، قال ويعذبون بدخان يرسل عليهما. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والنخعي وابن أبي إسحاق: «ونحاس» بالخفض عطفاً على «نار»، وهذا مستقيم على ما حكيناه عن أبي عمرو بن العلاء. ومن رأى الشواظ يختص بالنار قدر هنا: وشيء من نحاس. وحكى أبو حاتم عن مجاهد أنه قرأ: «ونحاس» بكسر النون والجر. وعن عبد الرحمن بن أبي بكرة أنه قرأ: «ونحس» بفتح النون وضم الحاء والسين المشددة، كأنه يقول: ونقتل بالعذاب. وعن أبي جندب أنه قرأ: «ونحس»، كما تقول: يوم نحس، ونكى أبو عمرو مثل قراءة مجاهد عن طلحة بن مصرف، وذلك لغة في نحاس، وقيل هو جمع نحس.

ومعنى الآية: مستمر في تعذيب الجن والإنس، أي أنتما بحال من يرسل عليه هذا فلا يتتصر.

قوله عز وجل:

فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَإِذَا رَأَوْا آيَاتِ رَبِّكَمُ اتَّكَذَّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُشْعِلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ ﴿٣٩﴾ فَإِذَا رَأَوْا آيَاتِ رَبِّكَمُ اتَّكَذَّبَانِ ﴿٤٠﴾ يَعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ سِمْلَهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَإِذَا رَأَوْا آيَاتِ رَبِّكَمُ اتَّكَذَّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمَجْرُمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ ﴿٤٤﴾ فَإِذَا رَأَوْا آيَاتِ رَبِّكَمُ اتَّكَذَّبَانِ ﴿٤٥﴾

جواب «إذا» محذوف مقصود به الإبهام، كأنه يقول: «فإذا انشقت السماء» فما أعظم الهول، وانشقاق السماء انقطاعها عند القيامة. وقال قتادة: السماء اليوم خضراء وهي يوم القيامة حمراء، فمعنى قوله: «وردة» أي محمرة كالوردة وهي النوار المعروف. وهذا قول الزجاج والرماني. وقال ابن عباس وأبو صالح والضحاك: هي من لون الفرس الورد، فأنث لكون «السماء» مؤنثة.

واختلف الناس في قوله: «كالدَّهَانِ» فقال مجاهد والضحاك: هو جمع دهن، قالوا وذلك أن السماء يعترها يوم القيامة ذوب وتميع من شدة الهول. وقال بعضهم: شبه لمعانها بلمعان الدهن. وقال جماعة من المتأولين الدهان: الجلد الأحمر، وبه شبهها، وأنشد منذر بن سعيد: [الطويل]

يعن الدهان الحمر كل عشية بموسم بدر أو بسوق عكاظ

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ﴾ نفي للسؤال. وفي القرآن آيات تقضي أن في القيامة سؤالاً، وآيات تقضي نفيه كهذه وغيرها، فقال بعض الناس ذلك في مواطن دون مواطن، وهو قول قتادة وعكرمة. وقال ابن عباس وهو الأظهر في ذلك أن السؤال متى أثبت فهو بمعنى التوبيخ والتقريع، ومتى نفي فهو بمعنى الاستخبار المحض والاستعلام، لأن الله تعالى عليم بكل شيء. وقال الحسن ومجاهد: لا يسأل الملائكة عنهم، لأنهم يعرفونهم بالسيما، والسيما التي يعرف بها ﴿المجرمون﴾ هي سواد الوجوه وزرق العيون في الكفرة، قاله الحسن. ويحتمل أن يكون غير هذا من التشويهاة.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿فِيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾. فقال ابن عباس: يؤخذ كل كافر بناصيته وقدميه فيطوى ويجمع كالخطب ويلقى كذلك في النار. وقال النقاش: روي أن هذا الطي على ناحية الصلب قعساً وقاله الضحاك. وقال آخرون: بل على ناحية الوجه، قالوا فهذا معنى: ﴿فِيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾. وقال قوم في كتاب الثعلبي: إنما يسحب الكفرة سحباً، فبعضهم يجز بقدميه، وبعضهم بناصيته، فأخبر في هذه الآية أن الأخذ يكون ﴿بِالنَّوَاصِي﴾ ويكون بـ ﴿الْأَقْدَامِ﴾.

وقوله: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ﴾ قبله محذوف تقديره: يقال لهم على جهة التقريع والتوبيخ وفي مصحف ابن مسعود: «هذه جهنم التي كنتما بها تكذبان تصليانها لا تموتان فيها ولا تحيان».

وقرأ جمهور الناس: «يُطَوَّفُونَ» بفتح الياء وضم الطاء وسكون الواو. وقرأ طلحة بن مصرف: «يُطَوَّفُونَ» بضم الياء وفتح الطاء وشد الواو. وقرأ أبو عبد الرحمن: «يطافون»، وهي قراءة علي بن أبي طالب. والمعنى في هذا كله أنهم يترددون بين نار جهنم وجمرها ﴿وبين حميم﴾ وهو ما غلي في جهنم من مائع عذابها. والحميم: الماء السخن. وقال قتادة: إن العذاب الذي هو الحميم يغلي منذ خلق الله جهنم. وأنى الشيء: حضر، وأنى اللحم أو ما يطبخ أو يغلي: نضج وتناهى جره والمراد منه. ويحتمل قوله: ﴿أَنْ﴾ أن يكون من هذا ومن هذا. وكونه من الثاني أبين، ومنه قوله تعالى: ﴿وغير ناظرين إنا﴾ [الأحزاب: ٥٣] ومن المعنى الآخر قول الشاعر [عمرو بن حسان الشيباني]: [الواقف]

أنى ولكل حامله تمام

ويشبه أن يكون الأمر في المعنيين قريباً بعضه من بعض، والأول أعم من الثاني.

قوله عز وجل:

وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ ﴿٤٦﴾ فَيَأْتِيهِمْ فِيهَا الْآيَةُ ۖ رَبِّكَ مَا تُكْذِبُ ۖ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ۖ ﴿٤٨﴾ فَيَأْتِيهِمْ الْآيَةُ ۖ رَبِّكَ مَا تُكْذِبُ ۖ ﴿٤٩﴾ فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۖ ﴿٥٠﴾ فَيَأْتِيهِمْ الْآيَةُ ۖ رَبِّكَ مَا تُكْذِبُ ۖ ﴿٥١﴾ فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ رَوْحَانٌ ۖ ﴿٥٢﴾ فَيَأْتِيهِمْ الْآيَةُ ۖ رَبِّكَ مَا تُكْذِبُ ۖ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۖ وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۖ ﴿٥٤﴾ فَيَأْتِيهِمْ الْآيَةُ ۖ رَبِّكَ مَا تُكْذِبُ ۖ ﴿٥٥﴾

تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْطَّرَفِ لَمْ يَطْمِئُنْ إِنْشَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾

«من» في قوله تعالى: ﴿ولمن﴾ يحتمل أن تقع على جميع المتصفين بالخوف الزاجر عن معاصي الله تعالى، ويحتمل أن تقع لواحد منهم ويحسب هذا قال بعض الناس في هذه الآية: إن كل خائف له ﴿جنتان﴾. وقال بعضهم: جميع الخائفين لهم ﴿جنتان﴾. والمقام هو وقوف العبد بين يدي ربه يفسره: ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ [المطففين: ٦] وأضاف المقام إلى الله من حيث هو بين يديه. قال الثعلبي وقيل: ﴿مقام ربه﴾ قيامه على العبد، بيبانه: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ [الرعد: ٢٣] وحكى الزهراوي هذا المعنى عن مجاهد. وفي هذه الإضافة تنبيه على صعوبة الموقف وتحريض على الخوف الذي هو أسرع المطايا إلى الله عز وجل. وقال قوم: أراد جنة واحدة، وثنى على نحو قوله: ﴿ألقيا في جهنم﴾ [ق: ٢٤] وقول الحجاج: يا غلام اضربا عنقه.

وقال أبو محمد: هذا ضعيف، لأن معنى التثنية متوجه فلا وجه للفرار إلى هذه الشاذة، ويؤيد التثنية قوله: ﴿ذواتا أفنان﴾ وهي تثنية ذات على الأصل. لأن أصل ذات: ذوات.

والأفنان يحتمل أن يكون جمع فنن، وهو فنن الغصن، وهذا قول مجاهد، فكأنه مدحها بظلالها وتكايف أغصانها ويحتمل أن يكون جمع فن، وهو قول ابن عباس، فكأنه مدحها بكثرة أنواع فواكهها ونعيمها.

و: ﴿زوجان﴾ معناه: نوعان. و: ﴿متكئين﴾ حال إما من محذوف تقديره يتنعمون ﴿متكئين﴾. وإما من قوله: ﴿ولمن خاف﴾. والاتكاء جلسة المتنعم المتمتع.

وقرأ جمهور الناس: «فرش» بضم الراء. وقرأ أبو حيوة: «فرش» بسكون الراء، وروي في الحديث أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هذه البطائن ﴿من استبرق﴾ فكيف الظواهر؟ قال: «هي من نور يتلألأ».

والاستبرق ما خشن وحسن من الديباج. والسندس: ما رق منه. وقد تقدم القول في لفظة الاستبرق. وقرأ ابن محيصن «من استبرق» على أنه فعل والألف وصل.

والضمير في قوله: ﴿فيهن﴾ للفرش، وقيل للجنات، إذ الجنتان جنات في المعنى. والجنى ما يجتنى من الثمار، ووصفه بالدنو، لأنه فيما روي في الحديث يتناوله المرء على أي حالة كان من قيام أو جلوس أو اضطجاع لأنه يدنو إلى مشتهيه. و: ﴿قاصرات الطرف﴾ هي الحور العين، قصرن الحافظهن على أزواجهن.

وقرأ أبو عمرو عن الكسائي وحده وطلحة وعيسى وأصحاب علي وابن مسعود: «يطمئنهن» بضم الميم. وقرأ جمهور القراء: «يطمئنهن» بكسر الميم. والمعنى: لم يفتضهن لأن الطمث دم الفرج، فيقال

لدم الحيض طمث، ولدم الافتضاخ طمث، فإذا نفى الافتضاخ، فقد نفى القرب منهم بجهة الوطء. قال الفراء: لا يقال طمث إلا إذا افتض. قال غيره: طمث، معناه: جامع بكراً أو غيرها.

واختلف الناس في قوله: ﴿وَلَا جَانٌ﴾ فقال مجاهد: الجن قد ت جامع نساء البشر مع أزواجهن، إذا لم يذكر الزوج الله تعالى، فتنفى هذه الآية جميع المجامعات. وقال ضمرة بن حبيب: الجن لهم ﴿قاصرات الطرف﴾ من الجن نوعهم، فنفى في هذه الآية الافتضاخ عن البشريات والجننيات.

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل اللفظ أن يكون مبالغة وتأكيذاً، كأنه قال: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ شَيْءٌ﴾ أراد العموم التام، لكنه صرح من ذلك بالذي يعقل منه أن يطمث. وقال أبو عبيدة والطبري: إن من العرب من يقول: ما طمث هذا البعير جبل قط، أي ما مسه.

قال القاضي أبو محمد: فإن كان هذا المعنى ما أدماه جبل، فهو يقرب من الأول. وإلا فهو معنى آخر غير الذي قدمناه.

وقرأ الحسن وعمر بن عبيد: «ولا جان» بالهمز.

وقوله عز وجل:

كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾

﴿الياقوت والمرجان﴾: هي من الأشياء التي قد برع حسنهما واستشعرت النفوس جلالتهما، فوقع التشبيه بها لا في جميع الأوصاف لكن فيما يشبه ويحسن بهذه المشبهات، ف﴿الياقوت﴾ في إملاسه وشفوفه، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في صفة المرأة من نساء أهل الجنة: «يرى مخ ساقها من وراء العظم». ﴿والمرجان﴾ في إملاسه وجمال منظره، وبهذا النحو من النظر سمت العرب النساء بهذه الأشياء كدرة بنت أبي لهب. ومرجانة أم سعيد وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ آية، وعد وبسط للنفوس جميع المؤمنين لأنها عامة. قال ابن المنكدر وابن زيد وجماعة من أهل العلم: هي للبر والفاجر. والمعنى أن جزاء من أحسن بالطاعة أن يحسن إليه بالتنعيم. وحكى النقاش أن النبي صلى الله عليه وسلم فسر هذه الآية: «ها جزاء التوحيد إلا الجنة».

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ اختلف الناس في معنى: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا﴾، فقال ابن زيد وغيره معناه: أن هذين دون تينك في المنزلة والقدرة، والأوليان جنتا السابقين، والأخريان جنتا أصحاب اليمين.

قال الرماني قال ابن عباس: الجنات الأربع للخائف ﴿مقام ربه﴾ [الرحمن: ٤٦]. وقال الحسن الأوليان للسابقين والآخرين للتابعين. وقال ابن عباس، المعنى: هما دونهما في القرب إلى المنعمين وهاتان المؤخرتان في الذكر أفضل من الأولين، يدل على ذلك أنه وصف عيني هذه بالنضج والآخرين بالجري فقط، وجعل هاتين مدهامتين من شدة النعمة، والأولين ذواتي أفنان، وكل جنة ذات أفنان وإن لم تكن مدهامة.

قال القاضي أبو محمد: وأكثر الناس على التأويل الأول، وهذه استدلالات ليست بقواطع. وروي عن أبي موسى الأشعري أنه قال: جنتان للمقربين من ذهب، وجنتان لأهل اليمين من فضة مما دون الأولين.

و: ﴿مدهامتان﴾ معناه قد علا لونهما دهمة وسواد في النضرة والخضرة، كذا فسره ابن الزبير على المنبر، ومنه قوله تعالى: ﴿الذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى﴾ [الأعلى: ٥]، والنضاجة الفوارة التي يهيج ماؤها. وقال ابن جبير المعنى: ﴿نضاختان﴾ بأنواع الفواكه، وهذا ضعيف. وكرر النخل والرمان لأنهما ليسا من الفواكه. وقال يونس بن حبيب وغيره: كررهما وهما من أفضل الفاكهة تشريفاً لهما وإشادة بهما كما قال تعالى: ﴿وجبريل وميكال﴾ [البقرة: ٩٨].

قوله تعالى:

فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنٌ ﴿٧٠﴾ فَإِيَّاءَ الْآءِ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْبَیِّمِ ﴿٧٢﴾ فَإِيَّاءَ الْآءِ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّ عَنْ قَلْبِهِمْ وَلَا جَانٌ ﴿٧٤﴾ فَإِيَّاءَ الْآءِ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حَسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَإِيَّاءَ الْآءِ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ نَبْرًا أَسْمَرَ يَتَذَكَّرُ فِيهَا مَنُ الْعَالَمِينَ ﴿٧٨﴾

﴿خيرات﴾ جمع خيرة، وهي أفضل النساء، ومنه قول الشاعر [أنشده الطبري]: [الكامل]

ربلات هند خيرة الملكات

وقالت أم سلمة: قلت يا رسول الله: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿خيرات حسان﴾ قال: «﴿خيرات﴾ الأخلاق ﴿حسان﴾ الوجوه».

وقرأ أبو بكر بن حبيب السهمي: «خيرات حسان» بشد الياء المكسورة. وقرأ أبو عمرو بفتح الياء. وقوله: ﴿مقصورات﴾ أي محجوبات. وكانت العرب تمدح النساء بملازمة البيوت، ومنه قول الشاعر [أبو قيس بن الأسلت]: [الطويل]

وتعتل في إتيانهن فتعذر

يصف أن جارتها يزورها ولا تزورها. ويروى أن بيت الأعشى قد ذم وهو قوله: [البسيط]

كَأَن مَشِيَّتَهَا مِنْ بَيْنِ جَارَتَيْهَا مَرَّ السَّحَابَةِ لَا رَيْثَ وَلَا عَجَلَ

فَقِيلَ فِي ذِمَّةٍ :

هذه جولة خراجة ولاجة، ومن مدح القصر قول كثير: [الطويل]

وَأَنْتِ الَّتِي حَبِيتِ كُلَّ قَصِيرَةٍ إِلَيَّ وَلَمْ تَشْعُرْ بِذَلِكَ الْقَصَائِرِ

أُرِيدَ قَصِيرَاتِ الْحِجَالِ وَلَمْ أَرِدْ قَصَارَ الْخَطَى شَرَّ النِّسَاءِ الْبَحَارِ

قال الحسن: «مقصورات في الخيام» ليس بطوافات في الطرق، و«الخيام»: البيوت من الخشب والشمام وسائر الحشيش، وهي بيوت المرتحلين من العرب، وخيام الجنة بيوت اللؤلؤ. وقال عمر بن الخطاب: هي در مجوف. ورواه ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم، وإذا كان بيت المسكين عند العرب من شعر فهو بيت، ولا يقال له خيمة، ومن هذا قول جرير: [الوافر]

مَتَى كَانَ الْخِيَامُ بِذِي طُلُوحٍ سَقَيْتِ الْغَيْثَ أَيْتَهَا الْخِيَامُ

ومنه قول امرئ القيس: [المتقارب]

أَمْرَخَ خِيَامَهُمْ أُمَّ عَشْرٍ

يستفهم هل هم منجدون أم غاثرون لأن العشر مما لا ينبت إلا في تهامة، والمرخ مما لا ينبت إلا في نجد.

والرurf: ما تدلى من الأسرة من غالي الثياب والبسط: وكذلك قال ابن عباس وغيره: إنها فضول المحابيس والبسط، وقال ابن جبير، الرurf: رياض الجنة.

قال القاضي أبو محمد: والأول أصوب وأبين، ووجه قول ابن جبير: إنه من رف البيت، إذا تنعم وحسن، وما تدلى حول الخباء من الخرقة الهفافة يسمى رurfاً، وكذلك يسميه الناس اليوم. وقال الحسن ابن أبي الحسن، الرurf: المرافق، والعبري: بسط حسان فيها صور وغير ذلك، تصنع بعقر، وهو موضع يعمل فيه الوشي والديباج ونحوه قال ابن عباس: العبري: الزرابي. وقال ابن زيد: هي الطنافس. وقال مجاهد: هي الديباج الغليظ.

وقرأ زهير الفرقي: «رفارف» بالجمع وترك الصرف. وقرأ أبو طمعة المدني: «وعاصم في بعض ما روي عنه «رفارف» بالصرف، وكذلك قرأ عثمان بن عفان: «رفارف» وعباقر» بالجمع والصرف، ورويت عن النبي صلى الله عليه وسلم وغلط الزجاج والرماني هذه القراءة. وقرأ أيضاً عثمان في بعض ما روي عنه: «عباقر»: بفتح القاف والباء، وهذا على أن اسم الموضع «عباقر» بفتح القاف، والصحيح في اسم الموضع: «عبر»، قال الشاعر [امرؤ القيس]: [الطويل]

كَأَن صَلِيلَ الْمَرْوَحِينَ تَشْذُهُ صَلِيلَ الزِّيُوفِ بِنْتَقَدْنَ بَعْبَقِرَا

قال الخليل والأصمعي: إذا استحسنت شيئاً واستجاءته قالت «عبري».

قال القاضي أبو محمد: ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: فلم أر عبقرياً من الناس يفري فريه وقال عبد الله بن عمر: العبقرى سيد القوم وعينهم. وقال زهير: [الطويل]

بخيل عليها جنة عبقرية جديرون يوماً أن ينالوا فيستعلوا

ويقال عبقر: مسكن للجن. وقال ذو الرمة: [البسيط]

حتى كأن رياض القف ألسها من وشي عبقر تجليل وتنجيد

وقرأ الأعرج: «خضُر» بضم الضاد. وقرأ جمهور الناس: «ذي الجلال» على اتباع الرب. وقرأ ابن عامر وأهل الشام. «ذو» على اتباع الاسم، وكذلك في الأول، وفي حرف أبيّ وابن مسعود، «ذي الجلال» في الموضعين، وهذا الموضع مما أريد فيه بالاسم مسماه.

والدعاء بهاتين الكلمتين حسن مرجو الإجابة، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام».

نجز تفسير سورة الرحمن: وصلى الله على مولانا محمد سيد ولد عدنان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

وهي مكية بإجماع ممن يعتد بقوله من المفسرين. وقيل إن فيها آيات مدنية، أو مما نزل في السفر. وهذا كله غير ثابت. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من داوم على سورة الواقعة لم يفتقر أبداً». ودعا عثمان بن مسعود إلى عطائه، فأبى أن يأخذ. فقيل له: خذ للعليا، فقال: إنهم يقرؤون سورة الواقعة، سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «من قرأها لم يفتقر أبداً».

قال القاضي أبو محمد: فيها ذكر القيامة، وحظوظ النفس في الآخرة، وفهم ذلك غنى لا فقر معه، ومن فهمه شغل بالاستعداد.

قوله عز وجل:

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لَوْعْنِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿٦﴾ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَبُ الْمِئْمَنَةِ مَا أَصْحَبُ الْمِئْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَبُ الشِّمْعَةِ مَا أَصْحَبُ الشِّمْعَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّيْقُوتِ السَّقِيتُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾

﴿الواقعة﴾: اسم من أسماء القيامة كـ ﴿الصاعقة﴾ [البقرة: ٥٥، النساء: ١٥٣] و﴿الأزفة﴾ [غافر: ١٨، النجم: ٥٧] و﴿الطامة﴾ [النازعات: ٣٤] قاله ابن عباس، وهذه كلها أسماء تقتضي تعظيمها وتشنيع أمرها. وقال الضحاك: ﴿الواقعة﴾: الصيحة وهي النفخة في الصور. وقال بعض المفسرين: ﴿الواقعة﴾: صخرة بيت المقدس، تقع عند القيامة، فهذه كلها معان لأجل القيامة. و: ﴿كاذبة﴾ يحتمل أن يكون مصدرًا كالعاقبة والعافية وخاتمة الأعين. فالمعنى ليس لها تكذيب ولا رد مشنوية، وهذا قول قتادة والحسن ويحتمل أن يكون صفة لمقدر، كأنه قال: ﴿ليس لوقعتها﴾ حال ﴿كاذبة﴾، ويحتمل الكلام على هذا معنيين: أحدهما ﴿كاذبة﴾، أي مكذوب فيما أخبر به عنها فسمّاها ﴿كاذبة﴾ بهذا، كما تقول هذه قصة كاذبة أي مكذوب فيها، والثاني حالة كاذبة أي لا يمضي وقوعها، كما تقول: فلان إذا حمل لم يكذب.

وقوله: ﴿خافضة رافعة﴾ رفع على خبر ابتداء، أي هي ﴿خافضة رافعة﴾.

وقرأ الحسن وعيسى الثقفي وأبو حيو: «خافضة رافعة» بالنصب على الحال بعد الحال التي هي ﴿لوقعتها كاذبة﴾ ولك أن تتابع الأحوال. كما لك أن تتابع أخبار المبتدأ، والقراءة الأولى أشهر وأبرع معنى، وذلك أن موقع الحال من الكلام موقع ما لم يذكر لاستغني عنه وموقع الجمل التي يجزم الخبر بها موقع ما يتهمم به.

واختلف الناس في معنى هذا الخفض والرفع في هذه الآية، فقال قتادة وعثمان بن عبد الله بن سراقه: القيامة تخفض أقواماً إلى النار، وترفع أقواماً إلى النار، وترفع أقواماً إلى الجنة. وقال ابن عباس وعكرمة والضحاك: الصيحة تخفض قوتها لتسمع الأدنى وترفعها لتسمع الأقصى. وقال جمهور من المتأولين: القيامة بتفطر السماء والأرض والجبال انهدام هذه البنية، ترفع طائفة من الأجرام وتخفض أخرى، فكانها عبارة عن شدة الهول والاضطراب، والعامل في قوله: ﴿إذا رجت﴾، ﴿وقعت﴾، لأن ﴿إذا﴾ هذه بدل من ﴿إذا﴾ الأولى، وقد قالوا: إن ﴿وقعت﴾ هو العامل في الأولى، وذلك لأن معنى الشرط فيها قوي، فهي كـ «من» و «ما» في الشرط، يعمل فيها ما بعدها من الأفعال، وقد قيل إن ﴿إذا﴾ مضافة إلى ﴿وقعت﴾ فلا يصح أن يعمل فيها، وإنما العامل فيها فعل مقدر. ومعنى: ﴿رجت﴾ زلزلت وحركت بعنف، قاله ابن عباس، ومنه ارتج السهم في الغرض إذا اضطرب بعد وقوعه، والرجة في الناس الأمر المحرك.

واختلف اللغويون في معنى: ﴿بست﴾ فقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة معناه: فتنت، كما تبس البسيصة وهي السوق، ويقال بسست الدقيق إذا ثريته بالماء وبقي مفتتاً، وأنشد الطبري في هذا: [الرجز]
لا تخبزاً خبزاً وبساً بساً

وقال هذا قول لص أعجله الخوف عن العجين، فقال لصاحبه هذا. وقال بعض اللغويين: ﴿بست﴾ معناه سيرت قالوا والخبز سير الشديد وضرب الأرض بالأيدي، والبس: السير الرفيق، وأنشد البيت: [الرجز]

لا تخبزاً خبزاً وبساً بساً وجنبهاها نهشلاً وعبساً

ولا تطيلاً بمناخ حبساً

ذكر هذا أبو عثمان اللغوي في كتابه في الأفعال.

و «الهباء»: ما يتطاير في الهواء من الأجزاء الدقيقة، ولا يكاد يرى إلا في الشمس إذا دخلت من كوة، قاله ابن عباس ومجاهد. وقال قتادة: الهباء: ما تطاير من ييس النبات. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه الهباء: ما تطاير من حوافر الخيل والدواب. وقال ابن عباس أيضاً، الهباء: ما تطاير من شرر النار، فإذا طفي لم يوجد شيئاً. والمنبث: البتاء المثلثة، الشائع في جميع الهواء.

وقرأ النخعي: «منبتاً» بالياء بنقطتين، أي متقطعاً، ذكر ذلك الثعلبي.

قال القاضي أبو محمد: والقول الأول في هباء أحسن الأقوال.

والخطاب في قوله: ﴿وَكُنتُمْ﴾ لجميع العالم، لأن الموصوفين من ﴿أَصْحَابِ الْمَشْأَمَةِ﴾ ليسوا في أمة محمد، والأزواج: الأنواع والضروب. قال قتادة: هذه منازل الناس يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْحَابِ الْمَيْمَنَةِ﴾ ابتداء، و: ﴿مَا﴾ ابتداء ثان. و: ﴿أَصْحَابِ الْمَيْمَنَةِ﴾ خبرها، والجملة خبر الابتداء الأول، وفي الكلام معنى التعظيم، كما تقول زيد ما زيد، ونظير هذا في القرآن كثير، و﴿الْمَيْمَنَةِ﴾: أظهر ما في اشتقاقها أنها من ناحية اليمين، وقيل من اليمن، وكذلك ﴿الْمَشْأَمَةِ﴾ إما أن تكون من اليد الشؤمي، وإما أن تكون من الشؤم، وقد فسرت هذه الآية بهذين المعنيين، إذ ﴿أَصْحَابِ الْمَيْمَنَةِ﴾ الميامين على أنفسهم، قاله الحسن والربيع، ويشبه أن اليمن والشؤم إنما اشتقا من اليمنى والشؤمي وذلك على طريقهم في السانح والبارح، وكذلك اليمن والشؤم اشتقا من اليمنى والشؤمي.

وقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ﴾ ابتداء و: ﴿السَّابِقُونَ﴾ الثاني. قال بعض النحويين: هونعت للأول، ومذهب سيبويه أنه خبر الابتداء، وهذا كما تقول العرب: الناس الناس، وأنت أنت، وهذا على معنى تفخيم أمر وتعظيمه، ومعنى الصفة هو أن تقول: ﴿وَالسَّابِقُونَ﴾ إلى الإيمان ﴿السَّابِقُونَ﴾ إلى الجنة والرحمة ﴿أُولَئِكَ﴾، ويتجه هذا المعنى على الابتداء والخبر.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ابتداء وخبر، وهو في موضع الخبر على قول من قال: ﴿السَّابِقُونَ﴾ الثاني صفة، و: ﴿المقربون﴾ معناه من الله في جنة عدن. قال جماعة من أهل العلم: وهذه الآية متضمنة أن العالم يوم القيامة على ثلاثة أصناف: مؤمنون، هم على يمين العرش، وهنالك هي الجنة، وكافرون، هم على شؤمي العرش، وهنالك هي النار. والقول في يمين العرش وشماله نحو من الذي هو في سورة الكهف في اليمين والشمال. وقد قيل في ﴿أَصْحَابِ الْمَيْمَنَةِ﴾ واليمين: إنهم من أخذ كتابه بيمينه، وفي ﴿أَصْحَابِ الْمَشْأَمَةِ﴾ والشمال: إنهم من أخذه بشماله، فعلى هذا ليست نسبة اليمين والشمال إلى العرش. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أصحاب اليمين أطفال المؤمنين، وقيل المراد ميمنة آدم ومشامته المذكورتان في حديث الإسراء في الأسود.

و: ﴿السَّابِقُونَ﴾ معناه: قد سبقت لهم السعادة، وكانت أعمالهم في الدنيا سبقا إلى أعمال البر وإلى ترك المعاصي، فهذا عموم في جميع الناس. وخصص المفسرون في هذا أشياء، فقال عثمان بن أبي سودة: هم ﴿السَّابِقُونَ﴾ إلى المساجد. وقال ابن سيرين: هم الذين صلوا القبليتين. وقال كعب: هم أهل القرآن، وقيل غير هذا مما هو جزء من الأعمال الصالحة، وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم وسئل عن السابقين، فقال: «هم الذين إذا أعطوا الحق قبلوه، وإذا سئلوا بذلوه، وحكموا للناس بحكمهم لأنفسهم».

وقرأ طلحة بن مصرف: «في جنة النعيم» على الأفراد. و: ﴿المقربون﴾ عبارة عن أعلى منازل البشر في الآخرة، وقيل لعامر بن عبد قيس في يوم حلبة من سبق فقال ﴿المقربون﴾.

قوله عز وجل:

ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِفِينَ عَلَيْهَا مُتَقَبِّلِينَ ﴿١٦﴾

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنَزَفُونَ ﴿١٩﴾
وَفِي كَهَمِهِ مَمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلِحِمِطٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَخُورُ عَيْنٍ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْمَكُونِ ﴿٢٣﴾
جَزَاءً لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾

الثلة: الجماعة والفرقة، وهو يقع للقليل والكثير، واللفظ في هذا الموضوع يعطي أن الجملة ﴿من الأولين﴾ أكثر من الجملة ﴿من الآخرين﴾، وهي التي عبر عنها بالقليل.

واختلف المتأولون في معنى ذلك، فقال قوم حكى قولهم مكي: المراد بذلك الأنبياء، لأنهم كانوا في صدر الدنيا أكثر عدداً، وقال الحسن بن أبي الحسن وغيره: المراد السابقون من الأمم والسابقون من الأمة، وذلك إما أن يقترن أصحاب الأنبياء بجموعهم إلى أصحاب محمد، فأولئك أكثر لا محالة، وإما أن يقترن أصحاب الأنبياء ومن سبق في أثناء الأمم إلى السابقين من جميع هذه الأمة فأولئك أكثر. وروي أن الصحابة حزنوا لقلة سابق هذه الأمة على هذا التأويل فنزلت: ﴿ثلة من الأولين وثلة من الآخرين﴾ [الواقعة: ٣٩ - ٤٠] فرضوا. وروي عن عائشة أنها تأولت أن الفرقتين في أمة كل نبي وهي في الصدر ﴿ثلة﴾ وفي آخر الأمة ﴿قليل﴾. وقال النبي صلى الله عليه وسلم فيما روي عنه: «الفرقتان في أمتي فسابق أول الأمة ﴿ثلة﴾ وسابق سائرهما إلى يوم القيامة ﴿قليل﴾».

وقرأ الجمهور: «سُرر» بضم الراء. وقرأ أبو السمال: «سُرر» بفتح الراء.

والموضونة: المنسوجة بتركيب بعض أجزائها على بعض كحلف الدرع، فإن الدرع موضونة، ومنه قول الأعشى: [المتقارب]

ومن نسج داود موضونة تسير مع الحي عيراً غيراً

وكذلك سفيفة الخوص ونحوه ﴿موضونة﴾، ومنه وضين الناقة وهو حزامها، لأنه موضون، فهو كقتيل وجريح، ومنه قول الشاعر: [الرجز]

إليك تعدو قلقاً وضينها معترضاً في بطنها جينها

مخالفاً دين النصارى دينها

قال ابن عباس: هذه السرر الموضونة هي المرمولة بالذهب، وقال عكرمة: هي مشبكة بالدر والياقوت. و: ﴿متكئين﴾ و: ﴿مقابلين﴾ حالان فيهما ضمير مرفوع، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: ﴿متكئين عليها ناعمين﴾. والولدان: صغار الخدم، عبارة عن أنهم صغار الأسنان، ووصفهم بالخلد وإن كان جميع ما في الجنة كذلك إشارة إلى أنهم في حال الولدان ﴿مخلدون﴾ لا تكبر بهم سن. وقال مجاهد: لا يموتون. قال الفراء: ﴿مخلدون﴾ معناه مقرطون بالخلدات، وهي ضرب من الأقراط، والأول أصوب، لأن العرب تقول للذي كبر ولم يشب: إنه لمخلد. والأكواب: ما كان من أواني الشرب لا أذن له ولا خرطوم، قال ابن عباس: هي جرار من فضة. وقال أبو صالح: مستديرة أفواهاها. وقال قتادة والضحاك:

ليست لها عرى، والإبريق ما له خرطوم، وقال مجاهد وأذن، وهو من أواني الخمر عند العرب، ومنه قول عدي بن زيد: [الخفيف]

وتداعوا إلى الصبح فقامت قينة في يمينها إبريق

والكأس: الأنية المعدة للشرب بها بشريطة أن يكون فيها خمر أو نبيذ أو ما هو سبيل ذلك، ومتى كان فارغاً فينسب إلى جنسه زجاجاً كان أو غيره، ولا يقال الأنية فيها ماء ولبن كأس.

وقوله: ﴿من معين﴾ قال ابن عباس معناه: من خمر سائلة جارية معينة. ولفظه ﴿معين﴾ يحتمل أن يكون من معن الماء إذا غزر، فوزنها فاعيل ويحتمل أن تكون من العين الجارية أو من الباصرة، فوزنها مفعول أصلها معيون، وهذا تأويل قتادة.

وقوله: ﴿لا يصدعون عنها﴾ ذهب أكثر المفسرين إلى أن المعنى: لا يلحق رؤوسهم الصداع الذي يلحق من خمر الدنيا، وقال قوم معناه: لا يفرقون عنها، بمعنى لا تقطع عنهم لذتهم بسبب من الأسباب كما يفرق أهل خمر الدنيا بأنواع من التفريق، وهذا كما قال: «فتصدع السحاب عن المدينة» الحديث. وقوله: ﴿ولا ينزفون﴾ قال مجاهد وقاتدة وابن جبير والضحاك معناه: لا تذهب عقولهم سكرًا، والتزيف: السكران، ومنه قول الشاعر: [الكامل]

شرب التزيف يبرد ماء الحشرج

وقرأ ابن أبي إسحاق: «ولا ينزفون» بكسر الزاي وفتح الياء، من نزع البئر إذا استقى ماءها، فهي بمعنى تم خمرهم ونفدت، هكذا قال أبو الفتح. وحكى أبو حاتم عن ابن أبي إسحاق والجحدري والأعمش وطلحة وابن مسعود وأبي عبد الرحمن وعيسى: بضم الياء وكسر الزاي. قال معناه: لا يفني شرابهم، والعرب تقول: أنزف الرجل عبرته، وتقول أيضاً، أنزف: إذا سكر، ومنه قول الأبيرد: [الطويل]

لعمري لئن أنزفتم أو صحوتم ليس الندامي أنتم آل أبجرا

وعطف الفاكهة على الكأس والأباريق.

وقوله: ﴿مما يشتهون﴾ روي فيه أن العبد يرى الطائر يطير فيشتهيه فينزل له كما اشتهاه، وربما أكل منه ألواناً بحسب تصرف شهوته، إلى كثير مما روي في هذا المعنى.

وقرأ حمزة والكسائي والمفضل عن عاصم: «وحوِرَ عَيْنٌ» بالخفض، وهي قراءة الحسن وأبي عبد الرحمن والأعمش وأبي القعقاع وعمرو بن عبيد. وقرأ أبي بن كعب وابن مسعود: «وحوراً عيناً» بالنصب. وقرأ الباقون من السبعة: «وحوِرَ عَيْنٌ» بالرفع، وكل هذه القراءات محمولة الإعراب على المعنى لا على اللفظ. كان المعنى قبل ينعمون بهذا كله وبـ «حوِرَ عَيْنٌ»، وهذا المعنى في قراءة النصب ويعطون هذا كله «وحوراً عيناً»، وكان المعنى في الرفع: لهم هذا كله «وحوِرَ عَيْنٌ»، ويجوز أن يعطف: ﴿وحوِرَ عَيْنٌ﴾ على الضمير في: ﴿متكئين﴾. قال أبو علي: ولم يؤكد لكون الكلام بدلاً من التأكيد، ويجوز أن يعطف

على الولدان وإن كان طواف الحور يقلت، ويجوز أن يعطف على الضمير المقدر في قوله: ﴿على سرر﴾ وفي هذا كله نظر، وقد تقدم معنى: ﴿حور عين﴾.

وقرأ إبراهيم النخعي: «وحير عين».

وخص ﴿المكنون﴾ من ﴿اللؤلؤ﴾ لأنه أصفى لونا وأبعد عن الغير، وسألت أم سلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا التشبيه فقال: «صفاؤه كصفاء الدر في الأصداف الذي لا تمسه الأيدي». و: ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ أي هذه الرتب والنعم هي لهم بحسب أعمالهم، لأنه روي أن المنازل والقسم في الجنة، هي مقسمة على قدر الأعمال، ونفس دخول الجنة هو برحمة الله وفضله لا بعمل عامل، فأما هذا الفضل الأخير أن دخولها ليس بعمل عامل، ففيه حديث صحيح، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل أحد الجنة بعمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة».

واللغو: سقط القول من فحش وغيره. والتأنيب: مصدر، بمعنى: لا يؤثم أحد هناك غيره ولا نفسه بقول. فكان يسمع ويتألم بسماعه. و: ﴿قليلاً﴾ مستثنى، والاستثناء متصل، وقال قوم: هو منقطع. و: ﴿سلاماً﴾ نعت للقليل، كأنه قال: إلا ﴿قليلاً﴾ سالماً من هذه العيوب وغيرها. وقال أبو إسحاق الزجاج أيضاً: ﴿سلاماً﴾ مصدر، وناصبه ﴿قليلاً﴾ كأنه يذكر أنهم يقول بعضهم لبعض ﴿سلاماً سلاماً﴾. وقال بعض النحاة ﴿سلاماً﴾ منتصب بفعل مضمّر تقديره: أسلموا سلاماً.

قوله عز وجل:

وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ (٢٩) وَظِلِّ مَمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفُكْهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفَرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنِشَاءً (٣٥) فَعَلَّنَهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) غُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (٤٠)

السدر: شجر معروف، وهو الذي يقال له شجر أم غيلان، وهو من العضاه، له شوك، وفي الجنة شجر على خلقته، له ثمر كقلال هجر، طيب الطعم والريح، وصفه تعالى بأنه ﴿مخضود﴾، أي مقطوع الشوك، لا أذى فيه، وقال أمية بن أبي الصلت:

إن الحداثق في الجنان ظليلة فيها الكواعب سدرها مخضود

وعبر بعض المفسرين عن ﴿مخضود﴾ بأنه الموقر حملاً، وقال بعضهم: هو قطع الشوك، وهو الصواب، أما إن وقره هو كرمه، وروي عن الضحاك أن بعض الصحابة أعجبهم سدروج فقالوا: ليتنا في الآخرة في مثل هذا، فنزلت الآية.

قال القاضي أبو محمد: ولأهل تحرير النظر هنا إشارة في أن هذا الخضد بإزاء أعمالهم التي سلموا

منها، إذ أهل اليمين توابون لهم سلام وليسوا بسابقين. والطلع كذلك من العضاء شجر عظام كثير الشوك وشبهه في الجنة على صفات مباينة لحال الدنيا. و: ﴿منضود﴾ معناه مركب ثمره بعضه على بعض من أرضه إلى أعلاه.

وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه وجعفر بن محمد وغيره: «طلع منضود»، فقليل لعلي إنما هو: ﴿طلع﴾. فقال: ما للطلع وللجنة؟ فقليل له أنصلحها في المصحف فقال: إن المصحف اليوم لا يهاج ولا يغير. وقال علي بن أبي طالب وابن عباس: الطلع: الموز، وقاله مجاهد وعطاء. وقال الحسن: ليس بالموز، ولكنه شجر ظله بارد رطب. والظل الممدود، معناه: الذي لا تنسخه شمس، وتفسير ذلك في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر في ظلها مائة سنة لا يقطعها، واقرؤوا إن شئتم: ﴿وظل عمدود﴾» إلى غير هذا من الأحاديث في هذا المعنى. وقال مجاهد: هذا الظل هو من طلحها وسدرها.

وقوله تعالى: ﴿وماء مسكوب﴾ أي جار في غير أخايد، قاله سفيان وغيره، وقيل المعنى: يناسب. لا تعب فيه بسانية ولا رشاء.

وقوله تعالى: ﴿لا مقطوعة﴾ أي بزوال الإبان، كحال فاكهة الدنيا، ﴿ولا ممنوعة﴾ ببعد التناول ولا بشوك يؤذي في شجراتها ولا بوجه من الوجوه التي تمتنع بها فاكهة الدنيا.

وقرأ جمهور الناس: «وفرش» بضم الراء. وقرأ أبو حية: «وفرش» بسكونها، والفرش: الأسرة، وروي من طريق أبي سعيد الخدري: أن في ارتفاع السرير منها خمسمائة سنة.

قال القاضي أبو محمد: وهذا والله أعلم لا يثبت، وإن قدر فمتأولاً خارجاً عن ظاهره. وقال أبو عبيدة وغيره: أراد بالفرش النساء.

و: ﴿مرفوعة﴾ معناه: في الأقدار والمنازل، ومن هذا المعنى قول الشاعر [عمرو بن الأهمم التيمي]: [البسيط]

ظللت مفترش الهلباء تشتمني عند الرسول فلم تصدق ولم تصب

ومنه قول الآخر في تعديد على صهره:

وأفرشتك كريمي

وقوله تعالى: ﴿إنا أنشأناهم إنشاء﴾ قال قتادة: الضمير عائد على الحور العين المذكورات قبل وهذا فيه بعد، لأن تلك القصة قد انقضت جملة. وقال أبو عبيدة معمر: قد ذكرهن في قوله: ﴿فرش﴾ فلذلك رد الضمير وإن لم يتقدم ذكر لدلالة المعنى على المقصد، وهذا كقوله تعالى: ﴿حتى توارت بالحجاب﴾ [ص: ٣٢] ونحوه: و: ﴿أنشأناهم﴾ معناه: خلقناهم شيئاً بعد شيء. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في تفسير هذه الآية: «عجائزكن في الدنيا عماشاً رمصاً»، وقال لعجوز: «إن الجنة لا يدخلها العجز»، فحزنت، فقال: «إنك إذا دخلت الجنة أنشئت خلقاً آخر».

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ قيل معناه: دائمات البكارة متى عاود الواطيء وجدها بكرًا. والعرب جمع عروب، وهي المتحبة إلى زوجها بإظهار محبته، قاله ابن عباس والحسن، وعبر عنهم ابن عباس أيضاً بالعواشق، ومنه قول لبيد:

وفي الحدوج عروب غير فاحشة ربا الروادف يعشى دونها البصر

وقال ابن زيد العروب: الحسنة الكلام، وقد تجيء العروب صفة ذم على غير هذا المعنى وهي الفاسدة الأخلاق كأنها عربت ومنه قول الشاعر [ابن الأعرابي]: [الطويل]

وما بدل من أم عثمان سلفع من السود ورهاء العنان عروب

وقرأ ابن كثير وابن عامر والكسائي: «عرباً» بضم الراء. وقرأ حمزة والحسن والأعمش: «عرباً» بسكونها وهي لغة بني تميم، واختلف عن نافع وأبي عمرو وعاصم.

وقوله: ﴿أَتْرَابًا﴾ معناه في الشكل والقدر حتى يقول الرائي هم أتراب، والتراب هو الذي مس التراب مع تربه في وقت واحد. قال قتادة: ﴿أَتْرَابًا﴾ يعني سنًا واحدة، ويروى أن أهل الجنة على قد ابن أربعة عشر عاماً في الشباب والنضرة، وقيل على مثال أبناء ثلاث وثلاثين سنة مردأً بيضاً مكحلين.

واختلف الناس في قوله: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ فقال الحسن بن أبي الحسن وغيره، الأولون: سالف الأمم، منهم جماعة عظيمة أصحاب يمين، والآخرين: هم هذه الأمة، منهم جماعة عظيمة أهل يمين.

قال القاضي أبو محمد: بل جميعهم إلا من كان من السابقين. وقال قوم من المتأولين: هاتان الفرقتان في أمة محمد، وروى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الثلاثان من أمتي» فعلى هذا التابعون بإحسان ومن جرى مجراهم ثلثة أولى، وسائر الأمة ثلثة أخرى في آخر الزمان. وقوله عز وجل:

وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾
إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُوا أَإِذَا مِتْنَا
وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذًا نَأْتِىُ الْمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَّابًا أَوْنَا أَلَوُّونَ ﴿٤٨﴾ قُلِ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾
لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿٥٠﴾

إعراب قوله: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ قد تقدم نظيره. وفي الكلام هنا معنى الإنحاء عليهم وتعظيم مصابهم. والسموم: أشد ما يكون من الحر اليابس الذي لا بلل معه. والحميم: السخن جداً من المائع الذي في جهنم، والعرب تقول للماء السخن حميماً. واليحموم: الأسود وهو بناء مبالغة.

واختلف الناس في هذا الشيء الأسود الذي يظل أهل النار ما هو فقال ابن عباس وعجّاهد وأبو مالك وابن زيد هو الدخان، وهذا قول الجمهور. وقال ابن عباس أيضاً: هو سراق النار المحيط بأهلها، فإنه يرتفع من كل ناحية حتى يظلمهم، وحكى النقاش، أن اليموم: اسم من أسماء جهنم، وقاله ابن كيسان، وقال ابن بريدة وابن زيد أيضاً في كتاب الثعلبي: هو جبل من نار أسود يفرج أهل النار إلى ذراه فيجدونه أشد شيء وأمره.

وقوله: ﴿ولا كريم﴾ قال الطبري وغيره معناه: ليس له صفة مدح في الظلال، وهذا كما تقول: ثوب كريم ونسب كريم، يعني بذلك أن له صفات مدح.

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل أن يصفه بعدم الكرم على معنى: ألا كرامة لهم، وذلك أن المرء في الدنيا قد يصبر على سوء الموضوع لقرينة إكرام يناله فيه من أحد، فجمع هذا الظل في النار أنه سىء الصفة وهم فيه مهانون. والمترف: المنعم في سرف وتخوض.

و﴿يصرون﴾ معناه: يعتقدون اعتقاداً لا ينوون عنه إقلاعاً، قال ابن زيد: لا يثوبون ولا يستغفرون. و﴿الحنث﴾: الإثم ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من مات له ثلاث من الولد لم يبلغوا الحنث». الحديث، أراد: لم يبلغوا الحلم فتعلق بهم الآثام. وقال الخطابي: ﴿الحنث﴾ في كلام العرب العدل الثقيل، شبه الإثم به.

واختلف المفسرون في المراد بهذا الإثم هنا، فقال قتادة والضحاك وابن زيد: هو الشرك، وهذا هو الظاهر. وقال قوم في ما ذكر مكي: هو الحنث في قسمهم الذي يتضمنه قوله تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ [الأنعام: ١٠٩، النحل: ٣٨، النور: ٥٣، فاطر: ٤٢] الآية في التكذيب بالبعث، وهذا أيضاً يتضمن الكفر، فالقول به على عمومته أولى. وقال الشعبي: ﴿الحنث العظيم﴾: اليمين الغموس.

وقد تقدم ذكر اختلاف القراء في قوله: ﴿أئذا﴾، و﴿إنّا﴾، ويختص من ذلك بهذا الموضع أن ابن عامر يخالف فيه أصله فيقرأ هذا: «أئذا». «أئنا» بتحقيق الهمزتين فيهما على الاستفهام، ورواه أبو بكر عن عاصم في قوله: ﴿إنّا لمبعوثون﴾ والعامل في قوله: ﴿أئذا﴾ فعل مضمر ينال عليه قوله: ﴿لمبعوثون﴾ تقديره: أنبعث أو نحشر، ولا يعمل فيه ما بعده لأنه مضاف إليه.

وقرأ عيسى الثقفي: «مُتنا» بضم الميم، وقرأ جمهور الناس: «مِتنا» بكسرها وهذا على لغة من يقول: مت أموت على وزن فعل بكسر العين يفعل بضمها، ولم يحك منها عن العرب إلا هذه اللفظة وأخرى هو فضل يفضل.

وقرأ بعض القراء: «أو» بسكون الواو ومعنى الآية استبعاد أن يبعثوا هم وآباؤهم على حد واحد من الاستبعاد وقرأ الجمهور: «أو آباؤنا» بتجريك الواو على أنها واو العطف دخل عليها ألف الاستفهام، ومعناها: شدة الاستبعاد في الآباء، كأنهم استبعدوا أن يبعثوا، ثم أتوا بذكر من البعث فيهم أبعد وهذا بين لأهل العلم بلسان العرب.

ثم أمر الله تعالى نبيه أن يعلمهم بأن العالم محشور مبعوث لـ ﴿يوم معلوم﴾ موقت و﴿ميقات﴾: مفعال من الوقت، كميعاد من الوعد.

وقوله عز وجل:

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمَكِيدُونَ ﴿٥١﴾ لَا كُؤُنَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ ﴿٥٢﴾ فَإِلَوْنَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَرِبُوا شَرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نَزَلْنَاهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ ؕ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَنْ نُبْدِلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

وقوله: ﴿ثم إنكم﴾ مخاطبة لكفار قريش ومن كان في حالهم، و﴿من﴾ في قوله: ﴿من شجر﴾ يحتمل أن تكون للتبعض ويحتمل أن تكون لابتداء الغاية، و﴿من﴾ في قوله: ﴿من زقوم﴾ لبيان الجنس، والضمير في: ﴿منها﴾ عائد على الشجر، و﴿من﴾ للتبعض أو لابتداء الغاية، والضمير في: ﴿عليه﴾ عائد على المأكول أو على الأكل. وفي قراءة ابن مسعود «لاكلون من شجر» على الإفراد.

و: ﴿الهِيم﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك: هو جمع أهيم، وهو الجمل الذي أصابه الهيام، بضم الهاء، وهو داء معطش يشرب معه الجمل حتى يموت أو يسقهم سقماً شديداً، والأنثى: هيماء. وقال بعضهم: هو جمع هيماء كبيض وعين، وقال قوم آخرون: هو جمع هائم وهائمة، وهذا أيضاً من هذا المعنى، لأن الجمل إذا أصابه ذلك الداء هام على وجهه وذهب، وقال سفيان الثوري وابن عباس: ﴿الهِيم﴾ هنا الرمال التي لا تروى من الماء، وذلك أن الهيام بفتح الهاء هو الرمل الدق الغمر المتراكم، وقال ثعلب. الهُيام: بضم الهاء: الرمل الذي لا يتماسك.

وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو والكسائي: «شرب» بفتح الشين، وهي قراءة الأعرج وابن المسيب وشعيب بن الحبحاب ومالك بن دينار وابن جريج، ولا خلاف أنه مصدر، وقرأ مجاهد: «شرب» بكسر الشين، ولا خلاف أنه اسم، وقرأ أهل المدينة وباقي السبعة: «شرب»، بضم الشين، واختلف فيه، فقال قوم وهو مصدر، وقال آخرون هم اسم لما يشرب.

والنزل: أول ما يأكل الضيف. وقرأ عمرو في رواية عباس: «نزلهم» ساكنة الزاي، وقرأ الباقون واليزيدي عن أبي عمرو بضم الزاي وهما لمعنى كالشغل والشغل. و: ﴿الدين﴾ الجزاء.

ثم أخبر تعالى أنه الخالق، وحضض على التصديق على وجه التقريع ثم ساق الحجة الموجبة للتصديق، كان معترضاً من الكفار قال: ولم أصدق؟ ف قيل له: أفأريت كذا وكذا الآيات، وليس يوجد مفسطور يخفى عنه أن المني الذي يخرج منه ليس له فيه عمل ولا إرادة ولا قدرة. و﴿أم﴾ في قوله: ﴿أم نحن﴾ ليست المعادلة عند سيبويه، لأن الفعل قد تكرر، وإنما المعادلة عنده: أقام زيد أم عمرو، وهذه

التي في هذه الآية معادلة عند قوم من النحاة، وأما إذا تغاير الفعلان فليست بمعادلة إجماعاً.

وقرأ الجمهور: «تُمنون» بضم التاء، وقرأ ابن عباس وأبو السمال «تَمْنون» بفتح التاء، ويقال أمني الرجل ومنى بمعنى واحد.

وقرأ جمهور القراء: «قَدَرْنَا» بشد الدال. وقرأ كثير وحده: «قَدَرْنَا» بتخفيفها. والمعنى فيها يحتمل أن يكون بمعنى قضينا وأثبتنا، ويحتمل أن يكون بمعنى سوينا، وعدلنا التقدم والتأخر، أي جعلنا الموت رتباً، ليس يموت العالم دفعة واحدة» بل بترتيب لا يعدهو أحد.

وقال الطبري معنى الآية: «قدرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم» أي تموت طائفة ونبدلها بطائفة، هكذا قرناً بعد قرن.

وقوله: ﴿وما نحن بمسبوقين﴾ على تبدلکم إن أردناه وإن نشئکم بأوصاف لا يصلها عملکم ولا يحيط بها كفرکم. قال الحسن: من كونكم قردة وخنازير.

قال القاضي أبو محمد: تأول الحسن هذا، لأن الآية تنحو إلى الوعيد، وجاءت لفظة «السبق» هنا على نحو قوله عليه السلام: «فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا لا تفوتنكم».

وقرأ جمهور الناس: النشأة بسكون الشين. وقرأ قتادة وأبو الأشهب وأبو عمرو بخلاف «النشأة» بفتح الشين والمد. وقال أكثر المفسرين: أشار إلى خلق آدم ووقف عليه، لأنه لا تجد أحداً ينكر أنه من ولد آدم وأنه من طين. وقال بعضهم: أراد بـ «النشأة الأولى» نشأة إنسان إنسان في طفوليته فيعلم المرء نشأته كيف كانت بما يرى من نشأة غيره، ثم حضض على التذكر والنظر المؤدي إلى الإيمان.

وقرأ الجمهور: «تَذْكُرُونَ» مشددة الذال. وقرأ طلحة: «تَذْكُرُونَ» بسكون الذال وضم الكاف، وهذه الآية نص في استعمال القياس والحض عليه.

قوله عز وجل:

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ءَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُعْرِضُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَمْحَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمْ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

وقف تعالى الكفار على أمر الزرع الذي هو قوام العيش، وبين لكل مفطور أن الحراث الذي يثير الأرض ويفرق الحب ليس يفعل في نبات الزرع شيء، وقد يسمى الإنسان زارعاً، ومنه قوله عز وجل:

﴿يعجب الزراع﴾ [الفتح: ٢٩] لكن معنى هذه الآية: ﴿أأنتم تزرعونوه﴾ زرعاً يتم ﴿أم نحن﴾. وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تقولن زرعت، ولكن قل حرثت»، ثم تلا أبو هريرة هذه الآية.

والحطام: اليابس المتفتت من النبات الصائر إلى ذهاب، وبه شبه حطام الدنيا. وقيل المعنى: نباتاً لا قمح فيه و: ﴿تفكهون﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة معناه: تعجبون، وقال عكرمة: تلامون. وقال الحسن معناه: تندمون وقال ابن زيد: تفكهون، وهذا كله تفسير لا يخص اللفظة، والذي يخص اللفظ، هو: تطرحون الفاكهة عن أنفسكم وهي المسرة والجدل، ورجل فكه إذا كان منبسط النفس غير مكترث بالشيء، وتفكه من أخوات تحرج وتحوب.

وقرأ الجمهور: «فطلتم» بفتح الطاء، وروى سفيان الثوري في قراءة عبد الله كسر الطاء. قال أبو حاتم: طرحت عليها حركة اللام المجزومة، وذلك رديء في القياس، وهي قراءة أبو حيوة. وروى أحمد بن موسى: «فطللتم» بلامين، الأولى مفتوحة عن الجحدري، ورويت عن ابن مسعود، بكسر اللام الأولى.

وقوله: ﴿إنا لمغرمون﴾ قبله حذف تقديره: يقولون.

وقرأ الأعمش وعاصم الجحدري: «إنا لمغرمون» بهمزتين على الاستفهام، والمعنى يحتمل أن يكون إنا لمعذبون من الغرام وهو أشد العذاب ومنه قوله تعالى: ﴿إن عذابها كان غراماً﴾ [الفرقان: ٦٥] ومنه قول الأعشى: [الخفيف]

إن يعذب يكن غراماً وإن يُعْ طِ جزيلاً فإنه لا يبالي

ويحتمل أن يكون: إنا لمحملون الغرم أي غرماً في النفقة وذهب زرعنا، تقول: غرم الرجل وأغرمته فهو مغرم. وقد تقدم تفسير المحروم وأنه المحدود والمحارب. و: ﴿المزن﴾ السحاب بلا خلاف، ومنه قول الشاعر [السموأل بن عادي اليهودي]: [الطويل]

ونحن كماء المزن ما في نصابنا كهام ولا فينا يعد بخيل

والأجاج: أشد المياه ملوحة، وهو ماء البحر الأخضر. و: ﴿تورون﴾ معناه: تقتدحون من الأزند، تقول أوريت النار من الزناد. وروى الزناد نفسه، والزناد قد يكون من حجرين ومن حجر وحديدة ومن شجر، لا سيما في بلاد العرب، ولا سيما في الشجر الرخو كالمرخ والعفار والكلع وما أشبهه، ولعادة العرب في أزنادهم من شجر، قال تعالى: ﴿أأنتم أنشأتم شجرتها﴾ وقال بعض أهل النظر: أراد بالشجرة نفس النار، وكأنه يقول نوعها أو جنسها فاستعار الشجرة لذلك.

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول فيه تكلف.

وقرأ الجمهور: «أنتم» بالمد، وروي عن أبي عمرو وعيسى: «أنتم» بغير مد، وضعفها أبو حاتم. و: ﴿تذكرة﴾ معناه: تذكر نار جهنم، قاله مجاهد وقتادة. والمتاع: ما ينتفع به. والمقوي في هذه

الآية: الكائن في الأرض القواء وهي الفياضي، وعبر الناس في تفسير ﴿المقوين﴾ بأشياء ضعيفة، كقول ابن زيد للجائعين ونحوه.

ولا يقوى منها ما ذكرناه، ومن قال معناه: للمسافرين، فهو نحو ما قلناه، وهي عبارة ابن عباس رضي الله عنه تقول: أصبح الرجل، دخل في الصباح. وأصبح: دخل في الصحراء، وأقوى دخل في الأرض القواء، ومنه أقوت الدار، وأقوى الطلل: أي صار قواء، ومنه قول النابغة: [البسيط]

أقوت وطال عليها سالف الأبد

وقول الآخر: [الكامل]

أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

والفقير والغني إذا أقوى سواء في الحاجة إلى النار، ولا شيء يغني غناها في الصرد، ومن قال: إن أقوى من الأضداد من حيث يقال: أقوى الرجل إذا قويت دابته فقد أخطأ وذلك فعل آخر كأترب إذا أترب، ثم أمر نبيه بتنزيه ربه تعالى وتبرئة أسمائه العلى عما يقوله الكفرة الذين حجوا في هذه الآيات.

قوله عز وجل:

فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّتَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْءٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفِيهِذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَّظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾

اختلف الناس في: «لا»، من قوله: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ فقال بعض النحويين: هي زائدة والمعنى فأقسم، وزيادتها في بعض المواضع معروف كقوله تعالى: ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾ [الحديد: ٢٩] وغير ذلك، وقال سعيد بن جبير وبعض النحويين: هي نافية، كأنه قال: ﴿فلا﴾ ضحة لما يقوله الكفار، ثم ابتداء ﴿أقسم بمواقع النجوم﴾. وقال بعض المتأولين هي مؤكدة تعطي في القسم مبالغة ما، وهي كاستفتاح كلام مثبه في القسم ألا في شائع الكلام القسم وغيره، ومن هذا قول الشاعر:

[الطويل]

«فلا وأبي أعدائها لا أخونها»

والمعنى: فوأي أعدائها، ولهذا نظائر.

وقرأ الحسن والثقفى: «فلا أقسم» بغير ألف، قال أبو الفتح، التقدير: فلأنا أقسم.

وقرأ الجمهور من القراء «بمواقع» على الجمع، وقرأ عمر بن الخطاب وابن عباس وابن مسعود وأهل

الكوفة وحمزة والكسائي: «بموقع» على الأفراد، وهو مراد به الجمع، ونظير هذا كثير، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتَ لَصُوتِ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩] جمع من حيث لكل حمار صوت مختص وأفرد من حيث الأصوات كلها نوع.

واختلف الناس في: ﴿النجوم﴾ هنا، فقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغيرهم: هي نجوم القرآن التي نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك أنه روي أن القرآن نزل من عند الله في ليلة القدر إلى السماء الدنيا، وقيل إلى البيت المعمور جملة واحدة، ثم نزل بعد ذلك على محمد نجوماً مقطعة في مدة من عشرين سنة.

قال القاضي أبو محمد: ويؤيد هذا القول عود الضمير على القرآن في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾، وذلك أن ذكره لم يتقدم إلا على هذا التأويل، ومن لا يتأول بهذا التأويل يقول: إن الضمير يعود على القرآن وإن لم يتقدم ذكر لشهرة الأمر ووضوح المعنى كقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢]، و﴿كُلِّ مِنْ عَلَيْهَا فَانْ﴾ [الرحمن: ٢٦] وغير ذلك. وقال جمهور كثير من المفسرين: ﴿النجوم﴾ هنا: الكواكب المعروفة. واختلف في موقعها، فقال مجاهد وأبو عبيدة هي: مواقعها عند غروبها وطلوعها، وقال قتادة: مواقعها مواضعها من السماء، وقيل: مواقعها عند الانقضاء إثر العفاريت، وقال الحسن: مواقعها عند الانكدار يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ﴾ تأكيد للأمر وتنبيه من المقسم به، وليس هذا باعتراض بين الكلامين، بل هذا معنى قصد التهم به، وإنما الاعتراض قوله: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ وقد قال قوم: إن قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ﴾ اعتراض، وإن ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ اعتراض في اعتراض، والتحرير هو الذي ذكرناه.

وقوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ﴾ هو الذي وقع القسم عليه، ووصفه بالكرم على معنى إثبات صفات المدح له ودفع صفات الحطية عنه.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ بعد اتفاقهم على أن المكنون: المصون، فقال ابن عباس ومجاهد: أراد الكتاب الذي في السماء. وقال عكرمة: أراد التوراة والإنجيل، كأنه قال: إنه لكتاب كريم، ذكر كرمه وشرفه ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾.

قال القاضي أبو محمد: فمعنى الآية على هذا الاستشهاد بالكتب المنزلة، وهذا كقوله عز وجل: ﴿إِنْ عَدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٦]. وقال بعض المتأولين: أراد مصاحف المسلمين، وكانت يوم نزلت الآية لم تكن، فهي على هذا إخبار بغيب، وكذلك هو في كتاب مضمون إلى يوم القيامة، ويؤيد هذا لفظة المس، فإنها تشير إلى المصاحف أو هي استعارة في مس الملائكة.

واختلف الناس في معنى قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ وفي حكمه فقال من قال: إن الكتاب المكنون هو الذي في السماء. ﴿المطهرون﴾ هنا الملائكة قال قتادة: فأما عندكم فيمسه المشرك المنجس والمنافق قال الطبري: ﴿المطهرون﴾: الملائكة والأنبياء ومن لا ذنب له، وليس في الآية على هذا القول

حكم مس المصحف لسائر بني آدم، ومن قال بأنها مصاحف المسلمين، قال إن قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ﴾ إخبار مضمّن النهي، وضمة السين على هذا ضمة إعراب، وقال بعض هذه القرقة: بل الكلام نهى، وضمة السين ضمة بناء، قال جميعهم: فلا يمس المصحف من جميع بني آدم إلا الطاهر من الكفر والجنابة والحدث الأصغر. قال مالك: لا يحمله غير طاهر بعلاقته ولا على وسادة. وفي كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن حزم: «ولا يمس المصحف إلا الطاهر»، وقد رخص أبو حنيفة وقوم بأن يمسه الجنب والحائض على حائل غلاف ونحوه، ورخص بعض العلماء في مسه بالحدث الأصغر، وفي قراءته عن ظهر قلب، منهم ابن عباس وعامر الشعبي، ولا سيما للمعلم والصبيان، وقد رخص بعضهم للجنب في قراءته، وهذا الترخيص كله مبني على القول الذي ذكرناه من أن المطهرين هم الملائكة أو على مراعاة لفظ اللمس فقد قال سليمان: لا أمس المصحف ولكن أقرأ القرآن.

وقرأ جمهور الناس: «المطهرون» بفتح الطاء والهاء المشددة. وقرأ نافع وأبو عمرو بخلاف عنهما «المطهرون» بسكون الطاء وفتح الهاء خفيفة، وهي قراءة عيسى الثقفي. وقرأ سلمان الفارسي: «المطهرون» بفتح الطاء خفيفة وكسر الهاء وشدها على معنى الذين يطهرون أنفسهم، ورويت عنه بشد الطاء والهاء. وقرأ الحسن وعبد الله بن عون وسليمان الفارسي بخلاف عنه: «المطهرون» بشد الطاء بمعنى المتطهرون.

قال القاضي أبو محمد: والقول بأن ﴿لَا يَمَسُّهُ﴾ نهى قول فيه ضعف وذلك أنه إذا كان خبراً فهو في موضع الصفة، وقوله بعد ذلك: ﴿تَنْزِيلٌ﴾: صفة أيضاً، فإذا جعلناه نهياً جاء معنى أجنبياً معترضاً بين الصفات، وذلك لا يحسن في رصف الكلام فتدبره. وفي حرف ابن مسعود: «ما يمس» وهذا يقوي ما رجحته من الخبر الذي معناه: حقه وقدره أن لا يمسه إلا طاهر.

وقوله عز وجل: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾ مخاطبة للكفار، و«الحديث» المشار إليه هو القرآن المتضمن البعث، وإن الله تعالى خالق الكل وإن ابن آدم مصرف بقدره وقضائه وغير ذلك و: «مدهنون» معناه: يلائن بعضكم بعضاً ويتبعه في الكفر، مأخوذ من الدهن للينه وإملاسه. وقال أبو قيس بن الأسلت: الحزم والقوة خير من الإدهان والفهة والهاع وقال ابن عباس: هو المهاودة فيما لا يحل. والمداراة هي المهاودة فيما يحل، وقال ابن عباس: «مدهنون» مكذبون.

وقوله عز وجل: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ مُكْذِبُونَ﴾ أجمع المفسرون على أن الآية توبيخ للقائلين في المطر الذي ينزله الله للعباد هذا بنوء كذا وكذا وهذا بـ «عثنان» الأسد، وهذا بنوء الجوزاء وغير ذلك. والمعنى: وتجعلون شكر رزقكم، كما تقول لرجل: جعلت يا فلان إحساني إليك أن تشتمني المعنى: جعلت شكر إحساني. وحكى الهيثم بن عدي أن من لغة أزد شنوء: ما رزق فلان؟ بمعنى ما شكره. وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقرؤها: «وتجعلون شكركم إنكم تكذبون»، وكذلك قرأ ابن عباس، ورويت عن النبي صلى الله عليه وسلم، إلا أن ابن عباس ضم التاء وفتح الكاف، وعلي رضي الله عنه: فتح التاء وسكن الكاف وخفف الذال، ومن هذا المعنى قول الشاعر: [السريع]

وكان شكر القوم عند المنى كي الصحيحات وفقء الأعين

وقد أخبر الله تعالى أنه أنزل من السماء ماء مباركا فأنبت به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد فهذا معنى قوله: ﴿إنكم تكذبون﴾، أي بهذا الخبر.

وقرأ عاصم في رواية المفضل عنه: «تَكْذِبُونَ» بفتح التاء وسكون الكاف وتخفيف الدال كقراءة علي بن أبي طالب. وكذبهم في مقاتلهم بين، لأنهم يقولون هذا بنوء كذا وذلك كذب منهم وتخرص، وذكر الطبري أن النبي عليه السلام سمع رجلاً يقول: مطرنا ببعض عثانين الأسد، فقال له: «كذبت، بل هو رزق الله».

قال القاضي أبو محمد: والنهي عنه المكروه هو أن يعتقد أن اللطالع من النجوم تأثيراً في المطر، وأما مراعاة بعض الطوائع على مقتضى العادة، فقد قال عمر للعباس وهما في الاستسقاء: يا عباس، يا عم النبي عليه السلام كم بقي من نوء الثريا، فقال العباس: العلماء يقولون إنها تتعرض في الأفق بعد سقوطها سبعا. قال ابن المسيب: فما مضت سبع حتى مطروا.

وقوله تعالى: ﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم﴾ توقف على موضع عجز يقتضي النظر فيه أن الله تعالى ملك كل شيء، والضمير في: ﴿بلغت﴾ لنفس الإنسان والمعنى يقتضيها وإن لم يتقدم لها ذكر. و: ﴿الحلقوم﴾ مجرى الطعام، وهذه الحال هي نزاع المرء للموت.

وقوله: ﴿وأنتم﴾ إشارة إلى جميع البشر، وهذا من الاقتضاب كقوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ [النساء: ٢٩].

وقرأ عيسى بن عمر: «حيثئذ» بكسر النون. و: ﴿تنظرون﴾ معناه إلى المنازع في الموت. وقوله تعالى: ﴿ونحن أقرب إليه منكم﴾ يحتمل أن يريد ملائكته ورسله، ويحتمل أن يريد بقدرتنا وغلبتنا، فعلى الاحتمال الأول يجيء قوله: ﴿ولكن لا تبصرون﴾ من البصر بالعين، وعلى التأويل الثاني يجيء من البصر بالقلب. وقال عامر بن عبد قيس: ما نظرت إلى شيء إلا رأيت الله أقرب إليه مني، ثم عاد التوقيف والتقرير ثانية بلفظ التحضيض، والمدين: المملوك هذا أصح ما يقال في معنى اللفظة هنا، ومن عبر عنها بمجازي أو بمحاسب فذلك هنا قلق والمملوك يقلب كيف يشاء المالك، ومن هذا الملك قول الأخطل: [الطويل]

رب وربا في حجرها ابن مدينة تراه على مسحاته يتركل

أراد ابن أمة مملوكة وهو عبد يخدم الكرم، وقد قيل في معنى هذا البيت: أراد أكاراً حضرياً لأن الأعراب في البادية لا يعرفون الفلاحة وعمل الكرم، فنسبه إلى المدينة لما كان من أهلها، فبمعنى الآية فلولا ترجعون النفس البالغة الحلقوم إن كنتم غير مملوكين مقهورين ودين الملك حكمه وسلطانه، وقد نحا إلى هذا المعنى الفراء، وذكره مستوعباً النقاش.

وقوله: ﴿ترجعونها﴾ سدت مسد الأجوبة والبيانات التي يقتضيها التحضيضات، و: ﴿إذا﴾ من قوله:

﴿فَلَوْلَا إِذَا﴾ و﴿إِنْ﴾ المتكررة وحمل بعض القول بعضاً إيجازاً واقتضاباً.

قوله عز وجل :

فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجِئَتْ نَجِيمٌ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَمٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمٌ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهَوْ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

ذكر الله تعالى في هذه الآية حال الأزواج الثلاثة المذكورين في أول السورة وحال كل امرئ منهم ، فاما المرء من السابقين المقربين فيلقى عند موته روحاً وريحاناً ، والروح : الرحمة والسعة والفرح ، ومنه ﴿روح الله﴾ [يوسف : ٨٧] والريحان وهو دليل النعيم ، وقال مجاهد ، الريحان : الرزق . وقال أبو العالية وقتادة والحسن ، الريحان : هذا الشجر المعروف في الدنيا يلقى المقربين ريحاناً من الجنة . وقرأ الحسن وابن عباس وجماعة كثيرة «فروح» بضم الراء . وقال الحسن ومعناه : روحه يخرج في ريحانه وقال الضحاك ، الريحان : الاستراحة .

قال القاضي أبو محمد : الريحان ، ما تنبسط إليه النفوس . وقال الخليل : هو طرف كل بقلة طيبة فيها أوائل النور ، وقد قال عليه السلام في الحسن والحسين : «هما ريحانتي من الدنيا» ، وقال الثمر بن تولب : [المقارب]

سلام الإله وريحانه ورحمته وسماء در

وقالت عائشة رضي الله عنها : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ : «فروح» بضم الراء .

وقوله تعالى : ﴿فسلام لك من أصحاب اليمين﴾ عبارة تقتضي جملة مدح وصفة تخلص وحصول عال من المراتب ليس في أمرهم إلا السلام والنجاة من العذاب ، وهذا كما تقول في مدح رجل : أما فلان فناهيك به ، أو فحسبك أمره ، فهذا يقتضي جملة غير مفصلة من مدحه ، وقد اضطربت عبارات المتأولين في قوله تعالى : ﴿فسلام لك﴾ فقال قوم : المعنى : فيقال له مسلم لك إنك من أصحاب اليمين ، وقال الطبري المعنى : ﴿فسلام لك﴾ أنت «من أصحاب اليمين» ، وقيل المعنى ﴿فسلام لك﴾ يا محمد ، أي لا ترى فيهم إلا المسالمة من العذاب ، فهذه الكاف في ذلك إما أن تكون للنبي عليه السلام وهو الأظهر ، ثم لكل معشر فيها من أمته وإما أن تكون لمن يتخاطب من أصحاب اليمين ، وغير هذا مما قيل تكلف .

و«المكذبون الضالون» : هم الكفار أصحاب الشمال والمشامة ، و«النزل» : أول شيء يقدم للضعيف ، والتصلية : أن يباشر بهم النار وحيث تراكمها ، ولما كمل تقسيم أحوالهم وانقضى الخبر بذلك ، أكد تعالى الاخبار بأن قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم مخاطبة تدخل معه أمته فيها ، إن هذا الذي أخبرنا به ﴿لهو حق اليقين﴾ . وإضافة الحق إلى ﴿اليقين﴾ عبارة فيها مبالغة ، لأنهما بمعنى واحد ، فذهب بعض الناس إلى أنه من باب دار الآخرة ومسجد الجامع ، وذهبت فرقة من الحذاق إلى أنه كما تقول في أمر تؤكده : هذا

يقين اليقين أو صواب الصواب، بمعنى أنه نهاية الصواب، وهذا أحسن ما قيل فيه، وذلك لأن دار الآخرة وما أشبهها يحتمل أن تقدر شيئاً أضفت الدار إليه وصفته بالآخرة ثم حذفت وأقامت الصفة مقامه، كأنك قلت: دار الرجعة أو النشأة أو الخلقة، وهنا لا يتجه هذا، وإنما هي عبارة مبالغة وتأكيد معناه أن هذا الخبر هو نفس اليقين وحقيقته.

وقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ عبارة تقتضي الأمر بالإعراض عن أقوال الكفار وسائر أمور الدنيا المختصة بها وبالإقبال على أمور الآخرة وعبادة الله تعالى والدعاء إليه. وروى عقبه بن عامر أنه لما نزل ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال النبي صلى الله عليه وسلم: اجعلوها في ركوعكم، فلما نزلت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] قال: اجعلوها في سجودكم. ويحتمل أن يكون المعنى: سبِّح الله بذكر أسمائه العلى، والاسم هنا بمعنى الجنس، أي بأسماء ربك. و: ﴿الْعَظِيمِ﴾ صفة للرب، وقد يحتمل أن يكون الاسم هنا واحداً مقصوداً، ويكون ﴿الْعَظِيمِ﴾ صفة له، فكأنه أمره أن يسبحه باسمه الأعظم وإن كان لم ينص عليه، ويؤيد هذا ويشير إليه إيصال سورة الحديد أولها ففيه التسبيح وجملة من أسماء الله تعالى، وقد قال ابن عباس: اسم الله الأعظم موجود في ست آيات من أول سورة الحديد، فتأمل هذا فإنه من دقيق النظر، والله تعالى في كتابه العزيز غوامض لا تكاد الأذهان تدركها.

كمل تفسير سورة الواقعة والحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْحَدِيدِ

وهي مدنية فيما قال النقاش وغيره بإجماع من المفسرين، وقال غيره مكية.

قال القاضي أبو محمد: ولا خلاف أن فيها قرآناً مدنياً، لكن يشبه صدرها أن يكون مكياً والله أعلم، وقد ذكرنا قول ابن عباس إن اسم الله الأعظم هو في ست آيات من أول سورة الحديد، وروي أن الدعاء مستجاب بعد قراءتها.

قوله عز وجل:

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾

قال أكثر المفسرين: التسييح هنا هو التنزيه المعروف في قولهم: سبحان الله، وهذا عندهم إخبار بصيغة الماضي مضمته الدوام أن التسييح مما ذكر دائم مستمر، واختلفوا هل هذا التسييح حقيقة أو مجاز على معنى أن أثر الصنعة فيها تنبه الرائي على التسييح، فقال الزجاج وغيره: والقول بالحقيقة أحسن، وقد تقدم القول فيه غير مرة، وهذا كله في الجمادات، وأما ما يمكن التسييح منه فقول واحد إن تسييحهم حقيقة، وقال قوم من المفسرين: التسييح في هذه السورة: الصلاة، وهذا قول متكلف، فأما فيمن يمكن منه ذلك فسائق، وأما سجود ظلال الكفار هي صلاتهم، وأما في الجمادات فيقلق، وذلك أن خضوعها وخشوع هيئاتها قد يسمى في اللغة سجوداً أو استعارة كما قال الشاعر [زيد الخيل]: [الطويل]

ترى الأكمل فيها سُجَّداً للحوافر

ويبعد أن تسمى تلك صلاة الأعلى تحامل.

وقوله: ﴿ما في السماوات والأرض﴾ عام في جميع المخلوقات، وقال بعض النحاة، التقدير: ما في السماوات وما في الأرض، فـ«ما» نكرة موصوفة حذفها وأقام الصفة مقامها، ﴿وهو العزيز﴾ بقدرته وسلطانها، ﴿الحكيم﴾ بلطفه وتدبيره وحكمته. و﴿ملك السماوات والأرض﴾ هو سلطانها الحقيقي الدائم، لأن ملك البشر مجاز فان.

وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي على كل شيء مقدور، ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ الذي ليس لوجوده بداية مفتتحة. ﴿وَالْآخِرُ﴾ الدائم الذي ليس له نهاية منقضية. قال أبو بكر الوراق ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ بالأزلية، ﴿وَالْآخِرُ﴾ بالأبدية، و﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ بالوجود، إذ كل موجود فبعده وبه. ﴿وَالْآخِرُ﴾ إذا ترقى العقل في الموجودات حتى يكون إليه منتهاها، قال عز وجل : ﴿وَأَن إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم : ٤٢]. ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ معناه بالأدلة ونظر العقول في صناعته. ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ بلطفه وغوامض حكمته وباهر صفاته التي لا يصل إلى معرفتها على ما هي عليه الأوهام.

ويحتمل أن يريد بقوله : ﴿الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ أي الذي بهر وملك فيما ظهر للعقول وفيما خفي عنها فليس في الظاهر غيره حسب قيام الأدلة، وليس في باطن الأمر وفيما خفي عن النظرة مما عسى أن يتوهم غيره.

وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ عام في الأشياء عموماً تاماً. وقد تقدم القول في خلق السماوات والأرض. وأكثر الناس على أن بداية الخلق هي في يوم الأحد، ووقع في مسلم : أن البداية في يوم السبت، وقال بعض المفسرين : الأيام الستة من أيام القيامة. وقال الجمهور : بل من أيام الدنيا.

قال القاضي أبو محمد : وهو الأصوب.

والاستواء على العرش هو بالغلبة والقهر المستمرين بالقدرة، وليس في ذلك ما في قهر العباد من المحاولة والتعب. وقد تقدم القول في مسألة الاستواء مستوعباً في : «طه» وغيرها.

و : ﴿مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ﴾ هو المطر والأموات وغير ذلك، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ النبات والمعادن وغير ذلك. ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ الملائكة والرحمة والعذاب وغير ذلك. ﴿وَمَا يَرْجِعُ الْأَعْمَالُ صَالِحُهَا وَسَيِّئُهَا وَالْمَلَائِكَةُ وَغَيْرَ ذَلِكَ﴾.

وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾ معناه بقدرته وعلمه وإحاطته. وهذه آية أجمعت الأمة على هذا التأويل فيها، وأنها مخرجة عن معنى لفظها المعهود، ودخل في الإجماع من يقول بأن المشبه كله ينبغي أن يمر ويؤمن به ولا يفسر فقد أجمعوا على تأويل هذه لبيان وجوب إخراجها عن ظاهرها. قال سفيان الثوري معناه : علمه معكم، وتأولهم هذه حجة عليهم في غيرها.

وقوله عز وجل :

لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِنُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَلَى عَبْدِهِ ؎ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٩﴾

وقوله تعالى : ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ خبر يعم جميع الموجودات، و﴿الأمور﴾ هنا ليست جمع

المصدر بل هي جميع الموجودات ، لأن الأمر والشيء والوجود أسماء شائعة في جميع الموجودات أعراضها وجوهرها .

وقرأ الجمهور : «ترجع» بضم التاء ، وقرأ الأعرج والحسن وابن أبي إسحاق : «ترجع» بفتح التاء . وقوله تعالى : ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ﴾ الآية تنبيه على العبرة فيما يتجاذبه الليل والنهار من الطول والقصر ، وذلك متشعب مختلف حسب اختلاف الأقطار والأزمان الأربعة ، وذلك بحر من بحار الفكرة لمن تأمله . ﴿ويُولِجُ﴾ معناه : يدخل . و : ﴿ذات الصدور﴾ ما فيها من الأسرار والمعتقدات ، وذلك أغمض ما يكون . وهذا كما قالوا : الذئب مغبوط بذئ بطنه ، وكما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : إنما هو ذو بطن بنت خارجة .

قوله تعالى : ﴿آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية أمر للمؤمنين بالثبوت على الإيمان والنفقة في سبيل الله ، ويروى أن هذه الآية نزلت في غزوة العسرة وهي غزوة تبوك ، قاله الضحاك ، وقال : الإشارة بقوله : ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَأَنْفَقُوا﴾ إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وحكمها باق يندب إلى هذه الأفعال بقية الدهر .

وقوله : ﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ﴾ تزهيد وتنبيه على أن الأموال إنما تصير إلى الإنسان من غيره ويتركها لغيره ، وليس له من ذلك إلا ما تضمنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم : «يقول ابن آدم مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت أو لبست فألبيت ، أو تصدقت فأمضيت» ويروى أن رجلاً مر بأعرابي له إبل ، فقال له : يا أعرابي ، لمن هذه الإبل ؟ فقال : هي لله عندي . فهذا موقف مصيب إن كان ممن صحب قوله عمله .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ الآية توطئة لدعائهم وإيجاب لأنهم أهل هذه الرتبة الرفيعة فإذا تقرر ذلك فلا مانع من الإيمان ، وهذا كما تريد أن تندب رجلاً إلى عطاء فتقول له : أنت يا فلان من قوم أجواد فينبغي أن تكرم ، وهذا مطرد في جميع الأمور إذا أردت من أحد فعلاً خلقته بخلق أهل ذلك الفعل وجعلت له ربتهم ، فإذا تقرر في هؤلاء أن الرسول يدعو وأنهم ممن أخذ الله ميثاقهم فكيف يمتنعون من الإيمان .

وقرأ جمهور القراء : «وقد أخذ» على بناء الفعل للفاعل . وقرأ أبو عمرو : «قد أخذ» على بناء الفعل للمفعول والأخذ على كل قول هو الله تعالى ، وهو الأخذ حين الإخراج من ظهر آدم على ما مضى في غير هذه السورة ، والمخاطبة ببناء الفعل للمفعول أشد غلظة على المخاطب ، ونحوه قوله تعالى : ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ﴾ [هود : ١١٢] وكما تقول لأمريء : افعل كما قيل لك ، فهو أبلغ من قولك : افعل ما قلت لك .

وقوله : ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قال الطبري المعنى : إن كنتم مؤمنين في حال من الأحوال فالآن . قال القاضي أبو محمد : وهذا معنى ليس في ألفاظ الآية وفيه إضمار كثير ، وإنما المعنى عندي أن قوله : وإن الرسول «يدعوكم لتؤمنوا بربكم» وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين ، يقتضي أن يقدر بآثره : فأنتم في رتب شريفة وأقدار رفيعة إن كنتم مؤمنين ، أي إن دتمت على ما بدأت به .

وقرأ بعض السبعة: «ينزل» مثقلة. وقرأ بعضهم: «ينزل» مخففة. وقرأ الحسن وعيسى بالوجهين. وقرأ الأعمش: «أنزل». والعبد في قوله: ﴿على عبده﴾ محمد رسوله. والآيات: آيات القرآن. و﴿الظلمات﴾: الكفر و﴿النور﴾: الإيمان، وباقي الآية وعد وتأنيس مؤكد.

قوله عز وجل:

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ وَأُولَٰئِكَ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

والمعنى: ﴿وما لكم لا تنفقوا في سبيل الله﴾ وأنتم تموتون وتركون أموالكم، فتاب مناب هذا القول قوله: ﴿ولله ميراث السماوات والأرض﴾، وفيه زيادة تذكير بالله وعبرة، وعنه يلزم القول الذي قدرناه.

وقوله تعالى: ﴿لا يستوي منكم﴾ الآية، روي أنها نزلت بسبب أن جماعة من الصحابة أنفقت نفقات كثيرة حتى قال ناس: هؤلاء أعظم أجراً من كل من أنفق قديماً، فنزلت الآية مبينة أن النفقة قبل الفتح أعظم أجراً.

وهذا التأويل على أن الآية نزلت بعد الفتح، وقد قيل إنها نزلت قبل الفتح تحريضاً على الإنفاق، والأول أشهر وحكى الثعلبي أنها نزلت في أبي بكر الصديق ونفقته، وفي معناه قول النبي عليه السلام لخالد بن الوليد: «اتركوا لي أصحابي، فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».

واختلف الناس في ﴿الفتح﴾ المشار إليه في هذه الآية. فقال أبو سعيد الخدري والشعبي: هو فتح الحديبية. وقد تقدم في سورة «الفتح» تقرير كونه فتحاً، ورفع أبو سعيد الخدري إلى النبي عليه السلام أن أفضل ما بين الهجرتين فتح الحديبية. وقال قتادة ومجاهد وزيد بن أسلم: هو فتح مكة الذي أزال الهجرة.

قال القاضي أبو محمد: وهذا هو المشهور الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية. وقال له رجل بعد فتح مكة: أبابك على الهجرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الهجرة قد ذهبت بما فيها». وإن الهجرة شأنها شديد، ولكن أبابك على الجهاد وحكم الآية باق غابر الدهر من أنفق في وقت حاجة السبيل أعظم أجراً ممن أنفق مع استغناء السبيل.

وأكثر المفسرين على أن قوله: ﴿يستوي﴾ مسند إلى ﴿من﴾، وترك ذكر المعادل الذي لا يستوي معه، لأن قوله تعالى: ﴿من الذين أنفقوا من بعد﴾ قد فسره وبينه. ويحتمل أن يكون فاعل ﴿يستوي﴾ محذوفاً تقديره: لا يستوي منكم الإنفاق، ويؤيد ذلك أن ذكره قد تقدم في قوله: ﴿وما لكم ألا تنفقوا﴾ ويكون قوله: ﴿من﴾ ابتداء وخبره الجملة الآتية بعد.

وقرأ جمهور السبعة: «وكلاً وعد الله الحسنى». وهي الوجه، لأن وعد الله ليس يعوقه عائق على أن ينصب المفعول المقدم. وقرأ ابن عامر: «وكل وعد الله الحسنى»، فأما سيبويه رحمه الله فقدّر الفعل خبر

الابتداء، وفيه ضمير عائد وحذفه عنده قبيح لا يجري إلا في شعر ونحوه، ومنه قول الشاعر [جرير بن عطية]: [الرجز]

قد أصبحت أم الخيار تدعي عليّ ذنباً كله لم أصنع

قال: ولكن حملوا الخبر على الصفات كقول جرير: [الوافر]

وما شيء حميت بمستباح

وعلى الصلوات كقوله تعالى: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١] وذهب غير سيبويه إلى أن ﴿وَعَدَ﴾ في موضع الصفة، كأنه قال: «أولئك كل وعد الله الحسنی»، وصاحب هذا المذهب حصل في هذا التعسف في المعنى فراراً من حذف الضمير في خبر المبتدأ. و: ﴿الحسنی﴾ الجنة، قاله مجاهد وقتادة، والوعد يتضمن ما قبل الجنة من نصر وغنيمة.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ قول فيه وعد ووعيد.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ الآية، قال بعض النحويين: ﴿مَنْ﴾ ابتداء و: ﴿ذَا﴾ خبر، و﴿الذي﴾ صفة، وقال آخرون منهم: ﴿مَنْ﴾ ابتداء و: ﴿ذَا﴾ زائد مع الذي، و﴿الذي﴾ خبر الابتداء، وقال الحسن: نزلت هذه الآية في التطوع في جميع أمر الدين. والقرض: السلف ونحوه أن يعطي الإنسان شيئاً ينتظر جزاءه، والتضعيف من الله هو في الحسنات، يضاعف الله لمن يشاء من عشرة إلى سبعمائة، وقد ورد أن التضعيف يربى على سبعمائة، وقد مر ذكر ذلك في سورة البقرة بوجوه من التأويل.

وقرأ أبو عمرو ونافع وحزمة والكسائي: «فيضاعفهُ» بالرفع على العطف أو على القطع والاستئناف. وقرأ عاصم: «فيضاعفهُ» بالنصب في الفاء في جواب الاستفهام، وفي ذلك قلق. قال أبو علي: لأن السؤال لم يقع عن القرض، وإنما يقع السؤال عن فاعل القرض، وإنما تنصب الفاء فعلاً مردوداً على فعل مستفهم عنه، لكن هذه الفرقة حملت ذلك على المعنى، كأن قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض﴾ بمنزلة أن لو قال: أيقرض الله أحداً فيضاعفه؟ وقرأ ابن كثير «فيضعفهُ» مشددة العين مضمومة الفاء. وقرأ ذلك ابن عامر، إلا أنه فتح الفاء.

والأجر الكريم الذي يقرض به رضى وإقبال، وهذا معنى الدعاء: يا كريم العفو، أي أن مع عفوه رضى وتنعيماً وعفو البشر ليس كذلك.

وقوله عز وجل:

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكَمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَسِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُمْ بَابٌ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ

مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُوهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾

العامل في: ﴿يوم﴾ قوله ﴿وله أجر كريم﴾ [الحديد: ١١]. والرؤية في هذه الآية رؤية عين. والنور: قال الضحاك بن مزاحم: هي استعارة، عبارة عن الهدى والرضوان الذي هم فيه. وقال الجمهور: بل هو نور حقيقة، وروي في هذا عن ابن عباس وغيره آثار مضمونها: أن كل مؤمن ومظهر للإيمان يعطى يوم القيامة نوراً فيطفأ نور كل منافق ويبقى نور المؤمنين. حتى أن منهم من نوره يضيء كما بين مكة وصنعاء، رفعه قتادة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ومنهم من نوره كالنخلة السحوق. ومنهم من نوره يضيء ما بين قرب من قدميه، قال ابن مسعود: ومنهم من يهم بالانطفاء مرة ويتبين مرة على قدر المنازل في الطاعة والمعصية. وخص تعالى بين الأيدي بالذكر لأنه موضع حاجة الإنسان إلى النور.

واختلف الناس في قوله: ﴿وبأيامانهم﴾ فقال بعض المتأولين المعنى: وعن أيامانهم، فكأنه خص ذكر جهة اليمين تشريفاً، وناب ذلك مناب أن يقول: وفي جميع جهاتهم، وقال آخرون منهم، المعنى: ﴿وبأيامانهم﴾ كتبهم بالرحمة. وقال جمهور المفسرين، المعنى: يسعى نورهم بين أيديهم، يريد الضوء المنبسط من أصل النور. ﴿وبأيامانهم﴾ أصله، والشيء الذي هو متقد فيه.

قال القاضي أبو محمد: فضمن هذا القول أنهم يحملون الأنوار، وكونهم غير حاملين أكرم، ألا ترى أن فضيلة عباد بن بشر وأسيد بن حضير إنما كانت بنور لا يحملانه. هذا في الدنيا فكيف في الآخرة، ومن هذه الآية انتزع حمل المعتق للشعلة.

وقرأ الناس: «بأيامانهم» جمع يمين. وقرأ سهل بن سعد وأبو حيو: «بأيامانهم» بكسر الألف، وهو معطوف على قوله: ﴿بين أيديهم﴾ كأنه قال: كائناً بين أيديهم، وكائناً بسبب إيمانهم.

وقوله تعالى: ﴿بشراكم﴾ معناه، يقال لهم: بشراكم جنات، أي دخول جنات، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه.

وقوله تعالى: ﴿خالدين فيها﴾ إلى آخر الآية، مخاطبة لمحمد صلى الله عليه وسلم وقرأ ابن مسعود: «ذلك الفوز العظيم» بغير هو.

وقوله تعالى: ﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات﴾ قال بعض النحاة: ﴿يوم﴾ بدل من الأول وقال آخرون منهم العامل فيه فعل مضمَر تقديره: اذكر.

قال القاضي أبو محمد: ويظهر لي أن العامل فيه قوله تعالى: ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ ويجيء معنى «الفوز» أفخم، كأنه يقول: إن المؤمنين يفوزون بالرحمة يوم يعتري المنافقين كذا وكذا، لأن ظهور المرء يوم خمولى عدوه ومضاده أبدع وأفخم، وقول المنافقين هذه المقالة الممكنة هو عند انطفاء أنوارهم كما ذكرنا قبل.

وقولهم: ﴿انظرونا﴾ معناه: انتظرونا، ومنه قول الحطيئة: [البسيط]

وقد نظرتكم أبناء عائشة للخمس طال بها حبسي وتبساني

وقرأ حمزة وحده وابن وثاب وطلحة والأعمش: «أنظرونا» بقطع الألف وكسر الظاء على وزن أكرم.

ومنه قول عمرو بن كلثوم: [الوافر]

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقيناً

ومعناه: أخرجونا، ومنه النظرة إلى الميسرة، وقول النبي عليه السلام: «من أنظر معسراً» الحديث، ومعنى قولهم: أخرجونا، أخرجوا مشيكم لنا حتى نلحق ف ﴿نقتبس من نوركم﴾، واقتبس الرجل واستقبس أخذ من نور غيره قبساً. وقوله تعالى: ﴿قيل ارجعوا وراءكم﴾ يحتمل أن يكون من قول المؤمنين، ويحتمل أن يكون من قول الملائكة.

وقوله: ﴿وراءكم﴾ حكى المهدوي وغيره من المفسرين أنه لا موضع له من الإعراب، وأنه كما لو قال ارجعوا ارجعوا، وأنه على نحو قول أبي الأسود الدؤلي للسائل: وراءك أوسع لك.

قال القاضي أبو محمد: ولست أعرف مانعاً يمنع من أن يكون العامل فيه ﴿ارجعوا﴾، والقول لهم: ﴿فالتمسوا نوراً﴾ هو على معنى التوبيخ لهم، أي أنكم لا تجدونه.

ثم أعلم عز وجل أنه يضرب بينهم في هذه الحال ﴿بسور﴾ حاجز، فيبقى المنافقون في ظلمة ويأخذهم العذاب من الله، وحكي عن ابن زيد أن هذا السور هو الأعراف المذكور في سورة «الأعراف» وقد حكاه المهدوي، وقيل هو حاجز آخر غير ذلك، وقال عبد الله بن عمر وكعب الأحبار وعبادة بن الصامت وابن عباس: هو الجدار الشرقي في مسجد بيت المقدس. وقال زياد بن أبي سودة: قام عبادة على السور الشرقي من بيت المقدس فبكى وقال: من هاهنا أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أنه رأى جهنم.

قال القاضي أبو محمد: وفيه باب يسمى باب الرحمة، سماه في تفسير هذه الآية عبادة وكعب. وفي الشرق من الجدار المذكور واد يقال له: وادي جهنم، سماه في تفسير هذه الآية عبد الله بن عمر وابن عباس، وهذا القول في السور بعيد، والله أعلم وقال قتادة وابن زيد، ﴿الرحمة﴾: الجنة. و﴿العذاب﴾: جهنم.

والسور في اللغة الحجى الذي للمدن وهو مذكور. والسور أيضاً جمع سورة، وهي القطعة من البناء ينضاف بعضها إلى بعض حتى يتم الجدار، فهذا اسم جمع يسوغ تذكيره وتأنيثه، وهذا الجمع هو الذي أراد جرير في قوله: [الكامل]

لما أتى خبر الزبير تضععت سور المدينة والجبال الخشع

وذلك أن المدينة لم يكن لها قط حجي، وأيضاً فإن وصفه أن جميع ما في المدينة من بناء تواضع

أبلغ، ومن رأى أنه قصد قصد السور الذي هو الحجي، قال: إن ذلك إذا تواضع فغيره من المباني أخرى بالتواضع.

قال القاضي أبو محمد: فإذا كان السور في البيت محتملاً للوجهين فليس هو في قوة مر الرياح وصدر القناة وغير ذلك مما هو مذكر محض استفاد التأنيث مما أضيف إليه.

وقوله تعالى: ﴿باطنه فيه الرحمة﴾ أي جهة المؤمنين، ﴿وظاهره﴾ جهة المنافقين، والظاهر هنا البادي، ومنه قول: من ظاهر مدينة كذا، وقوله تعالى: ﴿ينادونهم﴾ معناه: ينادي المنافقون المؤمنين ﴿ألم نكن معكم﴾ في الدنيا؟ فيرد المؤمنون عليهم: ﴿بلى﴾ كتم معنا، ولكنكم عرضتم أنفسكم للفتنة، وهو حب العاجل والقتال عليه، قال مجاهد: ﴿فتتم أنفسكم﴾ بالنفاق. ﴿وتربصتم﴾ معناه هنا: بأمانكم ﴿فأبطأتم﴾ به حتى متم. وقال قتادة معناه: تربصتم بنا وبمحمد عليه السلام الدوائر وشككتكم في أمر الله. والارتياب: التشكك. و: ﴿الأماني﴾ التي غرتهم هي قولهم: سيهلك محمد هذا العام ستهزمه قريش، ستأخذ الأحزاب، إلى غير ذلك من أمانيهم، وطول الأمل غرار لكل أحد، و﴿أمر الله﴾ الذي ﴿جاء﴾ هو الفتح وظهور الإسلام، وقيل هو موت المنافقين وموافاتهم على هذه الحال الموجبة للعذاب و: ﴿الغرور﴾ الشيطان بإجماع من المتأولين.

وقرأ سماك بن حرب بضم الغين، وأبو حيوة. وينبغي لكل مؤمن أن يعتبر هذه الآية في نفسه وتسويفه في توبته.

قوله عز وجل:

فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَتْكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿١٦﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿فاليوم لا يؤخذ﴾ استمرار في مخاطبة المنافقين. قاله قتادة وغيره: وروي في معنى قوله: ﴿ولا من الذين كفروا﴾ حديث، وهو أن الله تعالى يقرر الكافرين فيقول له: أرايتك لو كان لك أضعاف الدنيا أكنت تفندي بجميع ذلك من عذاب النار؟ فيقول: نعم يا رب، فيقول الله تعالى: قد سألتك ما هو أيسر من هذا وأنت في صلب أبيك آدم أن لا تشرك بي فأبيت إلا الشرك.

وقرأ جمهور القراء والناس: «يؤخذ» بالياء من تحت. وقرأ أبو جعفر القاري: «تؤخذ» بالياء من فوق، وهي قراءة ابن عامر في رواية هشام عنه، وهي قراءة الحسن وابن أبي إسحاق والأعرج

وقوله: ﴿هي مولاكم﴾ قال المفسرون معناه: هي أولى بكم، وهذا تفسير بالمعنى، وإنما هي

استعارة، لأنها من حيث تضمنهم وتباشرهم هي تواليهم وتكون لهم مكان النولى، وهذا نحو قول الشاعر [عمرو بن معد يكرب]: [الوافر]

تحية بينهم ضرب وجميع

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ الآية ابتداء معنى مستأنف، وروي أنه كثر المزاح والضحك في بعض تلك المدة في قوم من شبان المسلمين فنزلت هذه الآية. وقال ابن مسعود: مل الصحابة ملة فنزلت الآية. ومعنى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ ألم يحن، ويقال: أنى الشيء يأتي، إذا حان ومنه قول الشاعر: [الوافر]

تمخضت المنون له بيوم أنى ولكل حاملة تمام

وقرأ الحسن بن أبي الحسن: «ألما يأن». وروي عنه أنه قرأ «ألم بين».

وهذه الآية على معنى الحض والتقريع، قال ابن عباس: عوتب المؤمنون بهذه الآية بعد ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن، وسمع الفضل بن موسى قارئاً يقرأ هذه الآية، والفضل يحاول معصية، فكانت الآية سبب توبته. وحكى الثعلبي عن ابن المبارك أنه في صباه حرك العود ليضربه، فإذا به قد نطق بهذه الآية، فتاب ابن المبارك وكسر العود وجاء التوفيق. والخشوع: الإخبات والتطامن، وهي هيئة تظهر في الجوارح متى كانت في القلب، فلذلك خص تعالى القلب بالذكر. وروى شداد بن أوس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أول ما يرفع من الناس الخشوع».

وقوله تعالى: ﴿لَذِكْرُ اللَّهِ﴾ أي لأجل ذكر الله ووحيه الذي بين أظهرهم، ويحتمل أن يكون المعنى: لأجل تذكير الله إياهم وأوامره فيهم.

وقرأ عاصم في رواية حفص ونافع: «وما نزل» مخفف الزاي. وقرأ الباقر وأبو بكر عن عاصم: «نزل» بشد الزاي على معنى: نزل الله من الحق. وقرأ أبو عمرو في رواية عباس وهي قراءة الجحدري وابن القعقاع: «نزل» بكسر الزاي وشدها. وقرأ نافع وأبو عمرو والأعرج وأبو جعفر: «ولا يكونوا» بالياء على ذكر الغيب. وقرأ حمزة فيما روى عنه سليم: «ولا تكونوا» بالياء على مخاطبة الحضور.

والإشارة في قوله: ﴿أَوْتُوا الْكِتَابَ﴾ إلى بني إسرائيل المعاصرين لموسى عليه السلام، وذلك قال: ﴿مَنْ قَبْلَ﴾ وإنما شبه أهل عصر نبي بأهل عصر نبي. و: ﴿الْأُمْدُ﴾ قيل معناه: أمد انتظار الفتح، وقيل أمد انتظار القيامة وقيل أمد الحياة. و: ﴿قَسَتْ﴾ معناه: صلبت وقل خيرها وانفعالها للطاعات وسكنت إلى معاصي الله، ففعلوا من العصيان والمخالفة ما هو ماثور عنهم.

وقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ الآية مخاطبة لهؤلاء المؤمنين الذين ندبوا إلى الخشوع، وهذا ضرب مثل واستدعاء إلى الخير، رقيق وتقريب بليغ، أي لا يبعد عنكم أيها التاركون للخشوع رجوعكم إليه وتلبسكم به، «فإن الله يحيي الأرض بعد موتها»، فكذلك يفعل بالقلوب، يردها إلى الخشوع بعد بعدها عنه، وترجع هي إليه إذا وقعت الإنابة والتكسب من العبد بعد نفورها منه كما تحيي الأرض بعد أن كانت ميتة غبراء. وباقي الآية بين جداً.

قوله عز وجل:

إِنَّ الْمُصْذِقِينَ وَالْمُصْذِقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَعُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾
وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾

قرأ جمهور القراء: «إن المصدقين» بشد الصاد المفتوحة على معنى المتصدقين، وفي مصحف أبي بن كعب: «إن المتصدقين»، فهذا يؤيد هذه القراءة، وأيضاً فيجيء قوله تعالى: ﴿وأقرضوا الله قرضاً حسناً﴾ ملائمةً في الكلام للصدقة. وقرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم «إن المصدقين» بتخفيف الصاد على معنى: إن الذين صدقوا رسول الله فيما بلغ عن الله وآمنوا به، ويؤيد هذه القراءة أنها أكثر تناولاً، لأن كثيراً ممن لا يتصدق يعمله اللفظ في التصديق. ثم إن تقييدهم بقوله: ﴿وأقرضوا﴾ يرد مقصد القراءتين قريباً بعضه من بعض.

وقوله: ﴿أقرضوا﴾ معطوف على المعنى، لأن معنى قوله: ﴿إن المصدقين والمصدقات﴾ إن الذين تصدقوا، ولا يصح هنا عطف لفظي، قاله أبو علي في الحجة. وقد تقدم معنى القرض، ومعنى المضاعفة التي وعد الله بها هذه الأمة. وقد تقدم معنى وصف الأجر بالكريم، كل ذلك في هذه السورة.

قال القاضي أبو محمد: ويؤيد عندي قراءة من قرأ: «إن المصدقين» بشد الصاد. إن الله تعالى حض في هذه الآية على الإنفاق وفي سبيل الله تعالى. ثم ذكر في هذه أهل الصدقة ووعدهم، ثم ذكر أهل الإيمان والتصديق في قوله: ﴿والذين آمنوا بالله ورسوله﴾ وعلى قراءة من قرأ: «إن المصدقين» بتخفيف الصاد فذكر المؤمنين مكرر في اللفظ، وكون الأصناف منفردة بأحكامها من الوعد أبين.

والإيمان بمحمد يقتضي الإيمان بجميع الرسل، فلذلك قال: ﴿ورسله﴾. و﴿الصاديقون﴾ بناء مبالغة من الصدق أو من التصديق على ما ذكر الزجاج، وفعل لا يكون فيما أحفظ إلا من فعل ثلاثي، وقد أشار بعض الناس إلى أنه يجيء من غير الثلاثي. وقال: مسيك من أمسك، وأقول إنه يقال: مسك الرجل وقد حكى مسك الشيء، وفي هذا نظر.

وقوله تعالى: ﴿والشهداء عند ربهم﴾ اختلف الناس في تأويل ذلك، فقال ابن مسعود ومجاهد وجماعة: ﴿والشهداء﴾ معطوف على قوله: ﴿الصاديقون﴾ والكلام متصل. ثم اختلفت هذه الفرقة في معنى هذا الاتصال، فقال بعضها: وصف الله المؤمنين بأنهم صديقون وشهداء، فكل مؤمن شهيد، قاله مجاهد. وروى البراء بن عازب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مؤمنو أمتي شهداء»، وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية، وإنما خص رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الشهداء السبعة تشريفاً، ولأنهم في أعلى رتب الشهادة، ألا ترى أن المقتول في سبيل الله مخصوص أيضاً من السبعة بتشريف ينفرده به. وقال بعضها: وصف الله تعالى المؤمنين بأنهم صديقون وشهداء لكن من معنى الشاهد لا من معنى الشهيد، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾ [البقرة: ١٤٣] فكأنه قال في هذه الآية: هم أهل

الصدق والشهادة على الأمم عند ربهم، وقال ابن عباس ومسروق والضحاك: الكلام تام في قوله: ﴿الصدّيقون﴾.

وقوله: ﴿والشهداء﴾ ابتداء مستأنف.

ثم اختلفت هذه الفرقة في معنى هذا الاستئناف، فقال بعضها معنى الآية: ﴿والشهداء﴾ بأنهم صدّيقون حاضرون ﴿عند ربهم﴾. وعن ب ﴿الشهداء﴾: الأنبياء عليهم السلام، فكان الأنبياء يشهدون للمؤمنين بأنهم صدّيقون، وهذا يفسره قوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ [النساء: ٤١]. وقال بعضها قوله: ﴿والشهداء﴾ ابتداء يريد به الشهداء في سبيل الله، واستأنف الخبر عنهم بأنهم: ﴿عند ربهم لهم أجرهم ونورهم﴾ فكانه جعلهم صنفًا مذكورًا وحده، وفي الحديث: «إن أهل الجنة العليا ليراهم من دونهم كما ترون الكوكب الدري، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعم».

وقوله تعالى: ﴿لهم أجرهم ونورهم﴾ خبر عن الشهداء فقط على الأخير من الأقوال، وهو خبر عن المؤمنين المذكورين في أول الآية على الأقوال الثلاثة.

وقوله تعالى: ﴿ونورهم﴾ قال جمهور المفسرين: هو حقيقة حسبما زوي مما تقدم ذكره في هذه السورة. وقال مجاهد وغيره: هو مجاز عبارة عن الهدى والكرامة والبشرى التي حصلوا فيها.

ولما فرع ذكر المؤمنين وأهل الكرامة، عقب ذكر الكفرة المكذبين لبيان الفرق، فذكرهم تعالى بأنهم ﴿أصحاب الجحيم﴾ وسكانه.

وقوله تعالى:

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌّ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوَّلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَعَةٌ الْفُورِ ﴿٢٠﴾

هذه الآية وعظ وتبيين لأمر الدنيا وضعة منزلتها و: ﴿إنما﴾ سادة مسد المفعولين للعلم بأنها تدخل على اثنين وهي وإن كفت عن العمل، فالجملة بعدها باقية. و: ﴿الحياة الدنيا﴾ في هذه الآية عبارة عن الأشغال والتصرفات والفكر التي هي مختصة بالحياة الدنيا، وأما ما كان من ذلك في طاعة الله وسبيله وما كان من الضرورات التي تقيم الأود وتعين على الطاعات فلا مدخل له في هذه الآية. وتأمل حال الملوك بعد فقرهم بين لك أن جميع نزوتهم ﴿لعب ولهو﴾. والزينة: التحسين الذي هو خارج من ذات الشيء، والتفاخر: هو بالأنساب والأموال وغير ذلك والتكاثر: هو الرغبة في الدنيا، وعددها لتكون العزة للكبار على المذهب الجاهلي.

ثم ضرب تعالى مثل الدنيا، فالكاف في قوله: ﴿كمثل﴾ في رفع صفة لما تقدم، وصورة هذا المثال: أن الإنسان ينشأ في حجر مملكة فما دون ذلك فيشب ويقوى ويكسب المال والولد ويغشاه الناس،

ثم يأخذ بعد ذلك في انحطاط، فيشيب ويضعف ويسقم، وتصيبه النواذب في ماله وذريته، ويموت ويضمحل أمره، وتصير أمواله لغيره، وتغير رسومه، فأمره مثل مطر أصاب أرضاً فنبت عن ذلك الغيث نبات معجب أنيق. ثم هاج: أي ييس واصفر، ثم تحطم، ثم تفرق بالرياح واضمحل.

واختلف المتأولون في لفظة ﴿الكفار﴾ هنا، فقال بعض أهل التأويل: هو من الكفر بالله، وذلك لأنهم أشد تعظيماً للدنيا وأشد إعجاباً بمحاسنها. وقال آخرون منهم: هو من كفر الحب، أي ستره في الأرض، فهم الزراع وخصهم بالذكر، لأنهم أهل البصر بالنبات والفلاحة فلا يعجبهم إلا المعجب حقيقة، الذي لا عيب له.

وهاج الزرع: معناه: ييس واصفر، وحطام: بناء مبالغة، يقال حطيم وحطام بمعنى محطوم، أو متحطم، كعجيب وعجاب، بمعنى معجب ومتعجب منه. ثم قال تعالى: ﴿وفي الآخرة﴾ كأنه قال: والحقيقة هاهنا، ثم ذكر العذاب أولاً تهمة به من حيث الحذر في الإنسان ينبغي أن يكون أولاً، فإذا تحرر من المخاوف مد حيثئذ أمله. فذكر الله تعالى ما يحذر قبل ما يطمع فيه وهو المغفرة والرضوان. وروي عن عاصم: ضم الراء من: «رضوان». و: ﴿متاع الغرور﴾ معناه: الشيء الذي لا يعظم الاستمتاع به إلا مغتر. وقال عكرمة وغيره: ﴿متاع الغرور﴾ القوارير، لأن الفساد والآفات تسرع إليها، فالدنيا كذلك أو هي أشد.

قوله عز وجل:

سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ
وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي
الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾
لَّكِنَّا تَأْسَوْنَ عَلَى مَفَاتِكُمْ وَلَا تَقْرَحُونَ أَيْمَانَكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾

لما ذكر تعالى المغفرة التي في الآخرة، ندب في هذه الآية إلى المسارعة إليها والمسابقة، وهذه الآية حجة عند جميع العلماء في الندب إلى الطاعات، وقد استدل بها بعضهم على أن أول أوقات الصلوات أفضل، لأنه يقتضي المسارعة والمسابقة، وقد ذكر بعضهم في تفسير هذه الآية أشياء هي على جهة المثال، فقال قوم من العلماء منهم ابن مسعود: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم﴾ معناه: كونوا في أول صف في القتال. وقال آخرون، منهم أنس بن مالك معناه: اشهدوا تكبيرة الإحرام مع الإمام، وقال آخرون منهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كن أول داخل في المسجد، وآخر خارج منه، وهذا كله على جهة المثال. وذكر العرض من الجنة، إذ المعهود أنه أقل من الطول، وقال قوم من أهل المعاني: عبر عن الساحة بالعرض ولم يقصد أن طولها أقل ولا أكثر. وقد ورد في الحديث: «إن سقف الجنة العرش». وورد في الحديث: «إن السماوات السبع في الكرسي كالدرهم في الفلاة، وإن الكرسي في العرش كالدرهم في الفلاة».

وقوله تعالى: ﴿أَعَدْتُ﴾ ظاهرة أنها مخلوقة الآن معدة، ونص عليه الحسن في كتاب النقاش.
 وقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ قال ابن زيد وغيره المعنى: ما حدث من حادث خير وشر، فهذا على معنى لفظ: ﴿أَصَابَ﴾ لا على عرف المصيبة، فإن عرفها في الشر. وقال ابن عباس ما معناه: أنه أراد عرف المصيبة وخصها بالذكر، لأنها أهم على البشر، وهي بعض من الحوادث تدل على أن جميع الحوادث خيرها وشرها كذلك.

وقوله تعالى: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يعني بالقحوط والزلازل وغير ذلك. وقوله: ﴿فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ يريد بالموت والأمراض وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ معناه: إلا والمصيبة في كتاب. و: ﴿نَبْرَاهَا﴾ معناه: نخلقها، يقال: برأ الله الخلق: أي خلقهم، والضمير عائد على المصيبة، وقيل: على ﴿الْأَرْضِ﴾، وقيل: على الأنفس، قاله ابن عباس وقتادة وجماعة وذكر المهدوي جواز عود الضمير على جميع ما ذكر، وهي كلها معانٍ صحاح، لأن الكتاب السابق أزلي قبل هذه كلها.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يريد تحصيل الأشياء كلها في الكتاب. وقوله تعالى: ﴿لَكِي لَا تَأْسَوْا﴾ معناه: فعل الله ذلك كله وأعلمكم به ليكون سبب تسليمكم وقلة اكتراثكم بأمر الدنيا، فلا تحزنوا على ما فات، ولا تفرحوا الفرح المبطر بما آتاكم منها. قال ابن عباس: ليس أحد إلا يفرح ويحزن، ولكن من أصابته مصيبة يجعلها صبراً، من أصاب خيراً يجعله شكراً.

وقرأ أبو عمرو وحده: «أتاكم» على وزن مضى، وهذا ملائم لقوله: ﴿فَاتِكُمْ﴾. وقرأ الباقون من السبعة: «أتاكم»، على وزن أعطاكم، بمعنى آتاكم الله تعالى، وهي قراءة الحسن والأعرج وأهل مكة. وقرأ ابن مسعود: «أوتيتهم»، وهي تؤيد قراءة الجمهور.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ يدل على أن الفرح المنهي عنه إنما هو ما أدى إلى الاختيال، والفخر بنعم الله المقترن بالشكر والتواضع فأمر لا يستطيع أحد دفعه عن نفسه ولا حرج فيه.

قوله عز وجل:

الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَصْرِفُ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾

اختلف النحاة في إعراب: ﴿الَّذِينَ﴾ فقال بعضهم: هم في موضع رفع على الابتداء، والخبر عنهم

محذوف معناه الوعيد والذم، وحذفه على جهة الإبهام كتحذف الجواب في قوله تعالى: ﴿ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض﴾ [الرعد: ٣٢] الآية، وقال بعضهم هم رفع على خبر الابتداء تقديره هم الذين ﴿يبيخلون﴾. وقال بعضهم في موضع نصب صفة لـ ﴿كل﴾ [الحديد: ٢٣]، لأن كلاً وإن كان نكرة فهو يخصص نوعاً ما فيسوغ لذلك وصفه بالمعرفة، وهذا مذهب الأخفش. و: ﴿يبيخلون﴾ معناه: بأموالهم وأفعالهم الحسنة من إيمانهم وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ويأمرون الناس﴾ يحتمل أن يصفهم بحقيقة الأمر بالاستتهم، ويحتمل أن يريد أنهم يقتدى بهم في البخل فهم لذلك كأنهم يأمرون.

وقرأ الحسن: «بالْبَخْل» بفتح الباء والحاء. وقرأ جمهور القراء وأهل العراق: «فإن الله هو الغني الحميد» بإثبات: «هو»، وكذلك في «إمامهم». وقرأ نافع وابن عامر: «فإن الله الغني الحميد» بترك «هو»، وهي قراءة أهل المدينة، وكذلك في «إمامهم»، وهذا لم يثبت قراءة إلا وقد قرئ على النبي صلى الله عليه وسلم بالوجهين. قال أبو علي، فـ «هو» في القراءة التي ثبت فيها يحسن أن يكون ابتداء، لأن حذف الابتداء غير سائغ. و: «الكتاب» اسم جنس لجميع الكتب المتزلة. «والميزان»: العدل في تأويل أكثر المتأولين. وقال ابن زيد وغيره من المتأولين: أراد الموازين المصرفة بين الناس، وهذا جزء من القول الأول.

وقوله: ﴿ليقوم الناس بالقسط﴾ يقوي القول الأول.

وقوله تعالى: ﴿وأنزلنا الحديد﴾ عبر عن خلقه وإيجاده بالإنزال كما قال في الثمانية الأزواج من الأنعام، وأيضاً فإن الأمر بكون الأشياء لما تلقى من السماء، جعل الكل نزولاً منها. وقال جمهور كثير من المفسرين: «الحديد» هنا: أراد به جنسه من المعادن وغيرها. وقال ابن عباس: نزل آدم من الجنة ومعه السندان والكلبتان والميقعة، قال حذاق من المفسرين: أراد به السلاح، ويترتب معنى الآية بأن الله أخبر أنه أرسل رسله وأنزل كتباً وعدلاً مشروعاً وسلاحاً يحارب به من عند ولم يهتد بهدي الله فلم يبق عذر، وفي الآية على هذا التأويل حض على القتال وترغيب فيه.

وقوله: ﴿وليعلم الله من ينصره﴾ يقوي هذا التأويل، ومعنى قوله: ﴿ليعلم﴾ أي ليعلمه موجوداً فالتغير ليس في علم الله، بل في هذا الحدث الذي خرج من العدم إلى الوجود.

وقوله: ﴿بالغيب﴾ معناه: بما سمع من الأوصاف الغائبة فأمن بها لقيام الأدلة عليها.

ثم وصف تعالى نفسه بالقوة والعزة ليبين أنه لا حاجة به إلى النصرة، لكنها نافعة من عصم بها نفسه من الناس. ثم ذكر تعالى رسالة «نوح وإبراهيم» تشريفاً لهما بالذكر، ولأنهما من أول الرسل. ثم ذكر تعالى نعمه على ﴿ذرئتهما﴾. وقوله تعالى: ﴿والكتاب﴾ يعني الكتب الأربعة، فإنها جميعاً في ذرية إبراهيم عليه السلام. وذكر أنهم مع ذلك منهم من فسق وعند، وكذلك بل أخرى جميع الناس، ولذلك يسر السلاح للقتال.

قوله عز وجل:

ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَارَعُوهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَآتَقُوا اللَّهَ وَءَامَنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِيكُمُ كَفَالَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾

﴿قفينا﴾ معناه: جئنا بهم بعد الأولين، وهو مأخوذ من القفا، أي جاء بالثاني في قفا الأول، فيجيء الأول بين يدي الثاني، ومنه القوافي التي تأتي أواخر أبيات الشعر، ثم ذكر «عيسى» عليه السلام تشريفا وتخصيصا.

وقرأ الحسين: «الأنجيل» بفتح الهمزة، قال أبو الفتح: هذا مما لا نظير له. و: «رأفة ورحمة ورهبانية» مفعولات «جعلنا». والجعل في هذه الآية بمعنى: الخلق. وقوله: «ابتدعوها» صفة لـ «رهبانية» وخصها بأنها ابتدعت، لأن الرأفة والرحمة في القلب لا تكسب للإنسان فيها، وأما الرهبانية فهي أفعال بدن مع شيء في القلب ففيها موضع للتكسب. قال قتادة: الرأفة والرحمة من الله تعالى. والرهبانية هم ابتدعوها، والمراد بالرأفة والرحمة: حب بعضهم في بعض وتوادهم، والمراد بالرهبانية: رفض النساء، واتخاذ الصوامع، والمعتزلة تعرب «رهبانية» أنها نصب بإضمار فعل يفسره «ابتدعوها» وليست بمعطوفة على الرأفة والرحمة ويذهبون في ذلك إلى أن الإنسان يخلق أفعاله فيعربون الآية على مذهبهم، وكذلك أعربها أبو علي. وروي في ابتداعهم الرهبانية أنهم افترقوا ثلاث فرق، ففرقة قاتلت الملوك على الدين، فقتلت وغلبت. وفرقة قعدت في المدن يدعون إلى الدين ويبينونه، فأخذتها الملوك ونشرتها بالمناسخ وقتلوا، وفرقة خرجت إلى الفياضي وبنيت الصوامع والديارات، وطلبت أن تسلم على أن تعتزل فتركت وتسموا بالربان، واسمهم مأخوذ من الرهب، وهو الخوف، فهذا هو ابتداعهم ولم يفرض الله ذلك عليهم، لكنهم فعلوا ذلك «ابتغاء رضوان الله»، هذا تأويل أبي أمامة وجماعة، وقال مجاهد: «كتبناها عليهم» «ابتغاء رضوان الله». ف«كتب» على هذا بمعنى: قضى، ويحتمل اللفظ أن يكون المعنى: ما كتبناها عليهم إلا في عموم المندوبات، لأن ابتغاء مرضاة الله بالقرب والتوافل مكتوب على كل أمة فالاستثناء على هذا احتمال متصل.

واختلف الناس في الضمير الذي في قوله: «فما رعوها» من المراد به؟ فقيل إن الذين ابتدعوا الرهبانية بأنفسهم لم يدوموا على ذلك ولا وفوه حقه، بل غيروا وبدلوا، قاله ابن زيد وغيره، والكلام سائغ وإن كان فيهم من رعى: أي لم يرعوها بأجمعهم، وفي هذا التأويل لزوم الإتمام لكل من بدأ بتطوع ونفل أنه يلزمه أن يرعاه حق رعيه. قال ابن عباس وغيره: الضمير للملوك الذين حاربوهم وأجلوهم وقال الضحاك وغيره: الضمير للأخلاف الذين جاؤوا بعد المبتدعين لها، وباقي الآية بين. وقرأ ابن مسعود: «ما كتبناها عليهم لكن ابتدعوها».

وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ اختلف الناس في المخاطب بهذا، فقالت فرقة من المتأولين خوطب بهذا أهل الكتاب، فالمعنى: يا أيها الذين آمنوا ببعيسى اتقوا الله وآمنوا بمحمد، ويؤيد هذا المعنى الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة يؤتيهم الله أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي»، الحديث وقال آخرون المخاطبة للمؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم قيل لهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾، أي اثبتوا على ذلك ودوموا عليه، وهذا هو معنى الأمر أبداً لمن هو متلبس بما يؤمر به.

وقوله: ﴿كفّلين﴾ أي نصيبين بالإضافة إلى ما كان الأمم قبل يعطونه، قال أبو موسى الأشعري: ﴿كفّلين﴾ ضعفين بلسان الحبشة، وروي أن عمر بن الخطاب قال لبعض الأحرار: كم كان التضعيف للحسنات فيكم؟ فقال ثلاثمائة وخمسون، فقال عمر: الحمد لله الذي ضاعف لنا إلى سبعمائة، ويؤيد هذا المعنى الحديث الصحيح الذي يقتضي أن اليهود عملت إلى نصف النهار على قيراط، والنصارى من الظهر إلى العصر على قيراط، وهذه الأمة من العصر إلى الليل على قيراطين، فلما احتجت اليهود والنصارى على ذلك وقالوا نحن أكثر عملاً وأقل أجراً، قال الله تعالى: «هل نقصتم من أجركم شيئاً، قالوا: لا، قال: فإنه فضلي أوتيته من أشياء». والكفل: الحظ والنصيب. والنور: هنا إما أن يكون وعداً بالنور الذي يسعى بين الأيدي يوم القيامة، وإما أن يكون استعارة للهدى الذي يمشي به في طاعة الله.

قوله عز وجل:

لَّا يَلْعَلُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ
وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

روي أنه لما نزل هذا الوعد للمؤمنين بحسد أهل الكتاب على ذلك، وكانت اليهود تعظم دينها وأنفسها وتزعم أنها أحباء الله وأهل رضوانه، فنزلت هذه الآية معلمة أن الله تعالى فعل ذلك وأعلم به ليعلم أهل الكتاب أنهم ليسوا كما يزعمون، و«لا» في قوله: ﴿لثلاثاً﴾ زائدة كما هي في قوله تعالى: ﴿وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون﴾ [الأنبياء: ٩٥] على بعض التأويلات.

وقرأ ابن عباس «ليعلم أهل الكتاب»، وروى إبراهيم التيمي عن ابن عباس: «كي يعلم»، وروي عن ابن عباس: «لكي لا يعلم». وروي عن حطان الرقاشي أنه قرأ: «لأي يعلم». وقرأ ابن مسعود وابن جبير وعكرمة: «لكي يعلم أهل الكتاب»، وقرأ الحسن فيما روى ابن مجاهد: «لئلا يعلم» بفتح اللام وسكون الياء. فأما فتح اللام فلغة في لام الجر مشهورة وأصل هذه القراءة «لأن لا»، استغني عن الهمزة بلام الجر فحذفت فجاء «لأن لا»، أدغمت النون في اللام للتشابه فجاء «للا»، اجتمعت أمثلة فقلبت اللام الواحدة ياء. وقرأ الحسن فيما روى قطرب: «لئلا» بكسر اللام وسكون الياء وتعليلها كالتي تقدم.

وقوله تعالى: ﴿ألا يقدرُونَ﴾ معناه: أنهم لا يملكون فضل الله ويدخل تحت قدرهم، وقرأ ابن مسعود: «ألا يقدرُوا» بغير نون، وباقي الآية بين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْمُجَادَلَةِ

وهي مدنية بإجماع، إلا أن النقاش حكى أن قوله تعالى ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾ [المجادلة: ٧] مكي، وروى أبي بن كعب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من قرأ سورة المجادلة كتب من حزب الله».

قوله عز وجل:

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ
الَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِّنْ نِّسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿١﴾

﴿سمع الله﴾ عبارة عن إدراكه المسموعات على ما هي ما عليه بأكمل وجوه ذلك دون جارحة ولا محادة ولا تكيف ولا تحديد تعالى الله عن ذلك.

وقرأ الجمهور: ﴿قد سمع﴾ بالبيان: وقرأ ابن محيصن: ﴿قد سمع﴾ بالإدغام، وفي قراءة ابن مسعود: «قد يسمع الله قول التي»، وفيها: «والله قد يسمع تحاوركما».

واختلف الناس في اسم التي تجادل، فقال قتادة هي خويلة بنت ثعلبة، وقيل عن عمر بن الخطاب أنه قال: هي خولة بنت حكيم. وقال بعض الرواة وأبو العالية هي خويلة بنت دليج، وقال المهدي، وقيل: خولة بنت دليج، وقالت عائشة: هي خميلة. وقال ابن إسحاق: هي خولة بنت الصامت. وقال ابن عباس فيها: خولة بنت خويلد، وقال محمد بن كعب القرظي ومنذر بن سعيد: هي خولة بنت ثعلبة، قال ابن سلام: «تجادل» معناه تقاتل في القول، وأصل الجدل القتل، وأكثر الرواة على أن الزوج في هذه النازلة: أوس بن الصامت أو عبادة بن الصامت. وحكى النقاش وهو في المصنفات حديثاً عن سلمة بن صخر البياضي أنه ظاهر من امرأته أن واقعها مدة شهر رمضان فواقعها ليلة فسأل قومه أن يسألوا له رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبوا وهابوا ذلك وعظموا عليه، فذهب هو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه وسأله واسترشدوه فنزلت الآية. وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أتعتق رقبة؟» فقال له والله ما أملك رقبة غير رقبتي، فقال: «أتصوم شهرين متتابعين؟»، فقال يا رسول الله وهل أتيت إلا في الصوم، فقال: «أتطعم ستين مسكيناً؟» فقال: لا أجد، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقات قومه فكفر بها فرجع سلمة

إلى قومه فقال: إني وجدت عندكم الشدة والغلظة، ووجدت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم الرخصة والرفق وقد أعطاني صدقاتكم.

وأما ما رواه الجمهور في شأن أوس بن الصامت، فاختصاره: أن أوساً ظاهر من امرأته خولة بنت خويلد، وكان الظهار في الجاهلية يوجب عندهم فرقة مؤبدة، قاله أبو قلابة وغيره، فلما فعل ذلك أوس، جاءت زوجته رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، إن أوساً أكل شباي، ونثرت له بطني فلما كبرت ومات أهلي، ظاهر مني، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أراك إلا قد حرمت عليه»، فقالت يا رسول الله: لا تفعل فإني وحيدة ليس لي أهل سواه، فراجعها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل مقالته، فراجعته، فهذا هو جدالها، وكانت في خلال جدالها تقول: اللهم إليك أشكو حالي وفقري وانفرادي إليه، وروي أنها كانت تقول: اللهم إن لي منه صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلي جاعوا، فهذا هو اشتكاؤها إلى الله، فنزل الوحي عند جدالها على رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الآيات.

وكانت عائشة حاضرة لهذه القصة كلها فكانت تقول: سبحان من وسع سمعه الأصوات، لقد كنت حاضرة وكان بعض كلام خولة يخفى علي، وسمع الله جدالها، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في أوس فقال له: أتعتق رقية؟ فقال والله ما أملكها، فقال أتصوم شهرين متتابعين؟ فقال: والله ما أقدر أن أصبر إلا على أكالات ثلاث في اليوم، ومتى لم أفعل ذلك غشي بصري فقال له: أتطعم؟ فقال له لا أجد إلا أن تعينني يا رسول الله بمعونة وصلاة يريد الدعاء، فأعانه رسول الله بخمسة عشر صاعاً ودعا له، وقيل بثلاثين صاعاً، فكفر بالإطعام وأمسك أهله.

وفي مصحف عبد الله بن مسعود: «تحاورك في زوجها»، والمحاوره مراجعة القول ومعاطاته. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: «يظهرون»، وقرأ أبي بن كعب بخلاف عنه: «يتظهرون». وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي: «يظاهرون». وقرأ أبي بن كعب أيضاً: «يتظاهرون». وقرأ عاصم والحسن وأبو جعفر وقتادة: «يُظاهرون» بضم الباء من قولك فاعل، وهذه مستعملة جداً وقولهم الظهار دليل عليها، والمراد بهذا كله قول الرجل لزوجته: أنت علي كظهر أمي، يريد في التحريم كأنها إشارة إلى الركوب، إذ عرفه في ظهور الحيوان، وكان أهل الجاهلية يفعلون ذلك، فرد الله بهذه الآية فعلهم، وأخبر بالحقيقة من أن الأم هي الوالدة، وأما الزوجة فلا يكون حكمها حكم الأم.

وقرأ جمهور الناس: «أمهاتهم» بنصب الأمهات، وقرأ عاصم في رواية المفضل عنه: «أمهاتهم» بالرفع وهذا على اللغتين في «ما» لغة الحجاز ولغة تميم، وقرأ ابن مسعود «ما هنّ بأمهاتهم» بزيادة باء الجر، وجعل الله تعالى القول بالظهار «منكراً» و«وزوراً»، فهو محرم، لكنه، إذا وقع لزوم، هكذا قال فيه أهل العلم، لكن تحريمه تحريم المكروهات جداً، وقد رجي الله تعالى بعده بأنه «لغفو غفور» مع الكفارة.

قوله عز وجل:

وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿٣﴾ مِّن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾

اختلف الناس في معنى قوله عز وجل: ﴿ثم يعودون لما قالوا﴾ فقال قوم: المعنى ﴿والذين يظاهرون من نسائهم﴾ في الجاهلية، كانه قال: والذين كان الظهار عاداتهم ثم يعودون إلى ذلك في الإسلام، وقاله القتيبي وقال أهل الظاهر المعنى: والذين يظاهرون ثم يظاهرون ثم ثانية فلا يلزم عندهم كفارة إلا بأن يعيد الرجل الظهار، قاله منذر بن سعيد، وحينئذ هو عائد إلى القول الذي هو منكر وزور.

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول ضعيف، وإن كان القشيري قد حكاه عن بكير بن عبد الله بن الأشج وقال بعض الناس في هذه الآية تقديم وتأخير، وتقديرها: «فتحير رقة لما قالوا»، وهذا أيضاً قول يفسد نظر الآية، وحكي عن الأخفش، لكنه غير قوي. وقال قتادة وطاوس ومالك والزهري وجماعة كثيرة من أهل العلم معنى: ﴿ثم يعودون لما قالوا﴾ أي للوطء فالمعنى ثم يعودون لما قالوا إنهم لا يعودون فإذا ظاهر الرجل ثم وطئ فحينئذ تلزمه الكفارة في ذمته وإن طلق أو مات امرأته. وقال الشافعي وأبو حنيفة ومالك أيضاً وفريق ﴿يعودون﴾ معناه: بالعموم على إمساك الزوجة ووطئها والتزام التكفير لذلك، فمتى وقع من المظاهر هذا العزم لزمته الكفارة ذمته، طلق أو مات المرأة.

قال القاضي أبو محمد: وهذان القولان في مذهب مالك رحمه الله وهما حسانان لزمته الكفارة فيهما بشرطين: ظهار وعود.

واختلفا في العود ما هو؟ وقال الشافعي العود الموجب للكفارة: أن يمسك عن طلاقها بعد الظهار ويمضي بعد الظهار ما يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق، والرقبة في الظهار لا تكون عند مالك إلا مؤمنة، رد هذا: إلى المقيد الذي في كفارة القتل الخطأ.

واختلف والناس في قوله تعالى: ﴿من قبل أن يتماسا﴾ فقال الحسن والثوري وجماعة من قبل الوطء، وجعلت المسيس هاهنا الوطء، فأباحث للمظاهر التقبيل والمضاجعة والاستمتاع بأعلى المرأة كالحائض. وقال جمهور أهل العلم قوله: ﴿من قبل أن يتماسا﴾ عام في نوع المسيس الوطء والمباشرة، فلا يجوز لمظاهر أن يطأ ولا يقبل ولا يلمس بيده، ولا يفعل شيئاً من هذا النوع إلا بعد الكفارة، وهذا قول مالك رحمه الله.

وقوله تعالى: ﴿ذلك﴾ إشارة إلى التحرير أي فعل عظة لكم لتنتهوا عن الظهار، والتابع في الشهرين صيامهما ولا بين أيامهما، وجائز أن يصومهما الرجل بالعدد، فيصوم ستين يوماً تبعاً، وجائز أن يصومهما

بالأهلة، يبدأ مع الهلال ويفطر مع الهلال، وإن جاء أحد شهره ناقصاً، وذلك مجزئ عنه، وجائز إن بدأ صومه في وسط الشهر أن يبعث الشهر الأول فيصوم إلى الهلال ثم يصوم شهراً بالهلال ثم يتم الشهر الأول بالعدد. ولا خلاف أحفظه من أهل العلم أن الصائم في الظهار إن أفسد التابع باختياره أنه يتبدأ صومها. واختلف الناس إذا أفسده لعذر غالب: كالمرض والنسيان ونحوه، فقال أصحاب الرأي والشافعي في أحد قولي والنخعي وابن جبير والحكم بن عيينة والثوري: يتبدى، وقال مالك والشافعي وغيره: يبنى. وأجمعوا على الحائض وأنها تبني في صومها التابع.

وإطعام المساكين في الظهار هو بالمد الهاشمي عند مالك، وهو مد وثلاث بمد النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل مدان غير ثلاث. وروى عنه ابن وهب أنه يطعم كل مسكين مدين بمد النبي عليه السلام وفي العلماء من يرى إطعام الظهار مداً بمد النبي عليه السلام، ولا يجزئ في إطعام الظهار إلا إكمال عدد المساكين، ولا يجوز أن يطعم ثلاثين مرتين ولا ما أشبهه، والطعام عو غالب قوت البلد. قال مالك رحمه الله وعطاء وغيره: إطعام المساكين أيضاً هو قبل التماس حملاً على العتق والصوم. وقال أبو حنيفة وجمهور من أهل العلم لم ينص الله على الشرط هنا، فنحن نلتزمه، فجاز للمظاهر إذا كان من أهل الإطعام أن يطأ قبل الكفارة ويستمتع.

وقوله: ﴿ذَلِكَ لَتُؤْمِنُوا﴾ إشارة إلى الرخصة والتسهيل في النقل من التحرير إلى الصوم، والإطعام ثم شدد تعالى بقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي فالتزموها وقفوا عندها، ثم توعد الكافرين بهذا الحديث والحكم الشرعي.

قوله عز وجل:

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كُنْتُمْ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ مُهِينٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنُسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

هذه الآيات نزلت في منافقين وقوم من اليهود كانوا في المدينة يتمرسون برسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، ويتربصون بهم الدوائر، ويدبرون عليهم ويتمنون فيهم المكروه ويتناجون بذلك، فنزلت هذه الآيات إلى آخر أمر النجوى فيهم، والمحاددة: أن يعطي الإنسان صاحبه حد قوله أو سلاحه وسائر أفعاله. وقال قوم: هو أن يكون الإنسان في حد، وصاحبه في حد مخالف. و: كبت الرجل: إذا بقي خزيان يبصر ما يكره ولا يقدر على دفعه. وقال قوم منهم أبو عبيدة أصله كبدوا، أي أصابهم داء في أكبادهم، فأبدلت الدال تاء.

قال القاضي أبو محمد: وهذا غير قوي .

و: ﴿الذين من قبلهم﴾ سابقو الأمم الماضية الذين حادوا الرسل قديماً .

وقوله تعالى: ﴿وقد أنزلنا آيات بينات﴾ يريد في هذا القرآن، فليس هؤلاء المنافقون بأعذر من المتقدمين .

وقوله تعالى: ﴿يوم يبعثهم الله﴾ العامل في: ﴿يوم﴾ قوله: ﴿مهيين﴾، ويحتمل أن يكون فعلاً مضمرّاً تقديره: اذكر. وقوله: ﴿ونسوه﴾ نسيان على بابه، لأن الكافر لا يحفظ تفاصيل أعماله ولما أخبر تعالى أنه ﴿على كل شيء شهيد﴾ وقف محمد عليه السلام توقيفاً تشاركه فيه أمته .

وقوله تعالى: ﴿من نجوى ثلاثة﴾، يحتمل ﴿من نجوى﴾ أن يكون مصدراً مضافاً إلى ﴿ثلاثة﴾، كأنه قال: من سرار ثلاثة، ويحتمل ﴿نجوى﴾ أن يكون المراد به جمعاً من الناس مسمى بالمصدر كما قال في آية أخرى: ﴿وإذ هم نجوى﴾ [الإسراء: ٤٧] أي أولو نجوى، فيكون قوله تعالى: ﴿ثلاثة﴾ على هذا بدلاً ﴿من نجوى﴾ وفي هذا نظر .

وقوله تعالى: ﴿إلا هو رابعهم﴾ أي بعلمه وإحاطته ومقدرته .

وقرأ جمهور الناس: «ما يكون» وقرأ أبو جعفر القاريء وأبو جيوه: «ما تكون» بالتاء منقوطة من فوق . وفي مصحف ابن مسعود: «ولا أربعة إلا الله خامسهم»، وكذلك: «إلا الله رابعهم»، و: «إلا الله سادسهم» .

وقرأ جمهور القراء: «ولا أكثر» عطفاً على اللفظ المخفوض، وقرأ الأعمش والحسن وابن أبي إسحاق: «ولا أكثر» بالرفع عطفاً على الموضع، لأن التقدير ما يكون نجوى، ومن جعل النجوى مصدراً محضاً قدر قبل ﴿أدنى﴾ فعلاً تقديره: ولا يكون أدنى . وقرأ الخليل بن أحمد: «ولا أكبر»، بالباء واحدة من تحت، وباقي الآية بين .

قوله عز وجل:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْآثِمِ وَالْعُدْوَنَ وَمَعْصِيَتِ
الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُكُمْ
جَهَنَّمُ يَصَلَوْنَهَا فَيَنْشَأُ الْمَصِيرُ

هذه الآية نزلت في قوم من اليهود نهاهم رسول الله عن التناجي بحضرة المؤمنين وإظهار ما يستراب منه من ذلك فلم ينتهوا، فنزلت هذه الآية، قاله مجاهد وقتادة . وقال ابن عباس نزلت في اليهود والمنافقين .

وقرأ جمهور القراء والناس: «ويتناجون» على وزن يتفاعلون، وقرأ حمزة والأعمش وطلحة وابن وثاب «ويتنجون» على وزن يفتعلون وهما بمعنى واحد كيقتلون ويتقاتلون وفي مصحف عبد الله بن مسعود: «وعصيان الرسول» .

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوكَ﴾ الآية، يريد بذلك ما كانت اليهود تفعله من قولهم في التحية السام عليك يا محمد، وذلك أنه روي أن اليهود كانت تأتي فتقول: السام عليك يا محمد، والسام: الموت، وإياه كانوا يريدون، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «وعليكم»، فسمعتهم عائشة يوماً فقالت: بل عليكم السام واللعنة، فقال رسول الله: «مهلاً يا عائشة إن الله يكره الفحش والتفحش»، قالت: أما سمعت ما قالوا؟ قال: «أما سمعت ما قلت لهم؟ إني قلت وعليكم». ثم كشف الله تعالى خبث طويتهم والحجة التي إليها يستروحون، وذلك أنهم كانوا يقولون: نحن الآن نلقى محمداً بهذه الأمور التي تسوؤه ولا يصيبنا سوء، ولا يعاقبنا الله بذلك، ولو كان نبياً لهلكنا بهذه الأقوال، وجعلوا أن أمرهم مؤخر إلى عذاب جهنم، فأخبر الله بذلك وأنها كافيتهم. وقال ابن عباس: هذه الآية كلها في منافقين، ويشبه أن من المنافقين من تخلق في هذا كله بصفة اليهود.

قوله عز وجل:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجُّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجُّوْا بِالْبِرِّ وَالنَّقْوَىٰ
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُبَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ
شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

وصى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بأن لا يكون لهم تناج في مكروه، وذلك عام في جميع الناس إلى يوم القيامة. وخص «الإثم» بالذكر لعمومه ﴿والعدوان﴾ لعظمته في نفسه، إذ هي ظلمات العباد، وكذلك ﴿معصية الرسول﴾ ذكرها طعناً على المنافقين إذ كان تناجيهم في ذلك.

وقرأ جمهور الناس: «فلا تتناجوا» على وزن تتفاعلوا، وقرأ ابن محيصن «تناجوا» بحذف التاء الواحدة. وقرأ بعض القراء: «فلا تناجوا» بشد التاء لأنها أدغمت التاء في التاء، وقرأ الأعمش وأهل الكوفة: «فلا تنتجوا» على وزن تفتعلوا. والناس: على ضم العين من «العدوان». وقرأها أبو حيوة بكسر العين حيث وقع. وقرأ الضحاك وغيره: «ومعصيات الرسول» على الجمع فيهما.

ثم أمر بالتناجي ﴿بالبر والتقوى﴾، وذكر بالحشر الذي معه الحساب ودخول أحد الدارين وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى﴾، ليست ﴿إنما﴾ للحصر ولكنها لتأكيد الخبر.

واختلف الناس في ﴿النجوى﴾ التي هي ﴿من الشيطان﴾ التي أخبر عنها في هذه الآية، فقال جماعة من المفسرين أراد: ﴿إنما النجوى﴾ في الإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴿من الشيطان﴾، وقال قتادة وغيره: الإشارة إلى نجوى المنافقين واليهود، وقال عبد الله بن زيد بن أسلم: الإشارة إلى نجوى قوم من المسلمين كانوا يقصدون مناجاة النبي عليه السلام، وليس لهم حاجة ولا ضرورة إلى ذلك، وإنما كانوا يريدون التبجح بذلك، وكان المسلمون يظنون أن تلك النجوى في أخبار بعد وقاصد أو نحوه.

قال القاضي أبو محمد: وهذان القولان يعضدهما ما يأتي من ألفاظ الآية، ولا يعضد القول الأول.

وقال عطية العوفي في هذه الآية: نزلت في المنامات التي يراها المؤمن فتسوءه، وما يراه النائم فكأنه نجوى يناجى بها.

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول أجنبي من المعنى الذي قبله والذي بعده.

وقرأ نافع وأهل المدينة: «لِيُحْزَنَ» بضم الياء وكسر الزاي، والفعل مسند إلى «الشيطان»، وقرأ أبو عمرو والحسن وعاصم وغيرهم: «لِيُحْزَنَ» بفتح الياء وضم الزاي، تقول حُزِنْتَ قلب الرجل: إذا جعلت فيه حزناً، فهو كقولك كحلت العين، وهو ضرب من التعدي، كأن المفعول ظرف. وقد ذكر سيبويه رحمه الله هذا النوع من تعدي الأفعال، وقرأ بعض الناس: «لِيُحْزَنَ» بفتح الياء والزاي. و: «الذين» على هذه القراءة رفع بإسناد الفعل إليهم، يقال حَزِنَ الرجل بكسر الزاي.

ثم أخبر تعالى أن الشيطان أو التجاني الذي هو منه ليس بضار أحداً إلا أن يكون ضريراً بإذن الله أي بأمره وقدره. ثم أمر بتوكل المؤمنين عليه تبارك وتعالى: وهذا كله يقوي أن التجاني الذي من الشيطان إنما هو الذي وقع منه للمؤمنين خوف، وللخوف اللاحق للقلوب في هذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يتناجى اثنان دون الثالث».

قوله عز وجل:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَادْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوٰتِكُمْ صَدَقَةٌ ذٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرٌ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

قرأ جمهور الناس: «تفسحوا»، وقرأ الحسن وداود بن أبي هند: «تفاسحوا»، وقرأ جمهور القراء: «في المجالس»، وقرأ عاصم وحده وقتادة وعيسى: «في المجالس». واختلف الناس في سبب الآية والمقصود بها، فقال ابن عباس ومجاهد والحسن: نزلت في مقاعد الحرب والقتال.

وقال زيد بن أسلم وقتادة: نزلت بسبب تضايق الناس في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك أنهم كانوا يتنافسون في القرب منه وسماع كلامه والنظر إليه، فيأتي الرجل الذي له الحق والسن والقدم في الإسلام فلا يجد مكاناً، فنزلت بسبب ذلك. وقال مقاتل: أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً ليجلس أشياخ من أهل بدر ونحو ذلك فنزلت الآية، وروى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يقيم أحد من مجلسه ثم يجلس فيه الرجل ولكن تفسحوا يفسح الله لكم»، وقال بعض الناس: إنما الآية مخصوصة في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم في سائر المجالس، ويدل على ذلك قراءة من قرأ: «في المجلس»، ومن قرأ «في المجالس» فذلك مراده أيضاً لأن لكل أحد مجلساً في بيت النبي صلى الله عليه وسلم وموضعه فتجمع لذلك، وقال جمهور أهل العلم: السبب مجلس النبي عليه السلام، والحكم

في سائر المجالس التي هي للطاعات، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أحبكم إلى الله أليكنم مناكب في الصلاة وركباً في المجالس»، وهذا قول مالك رحمه الله وقال: ما أرى الحكم إلا يطرد في مجالس العلم ونحوها غابر الدهر، ويؤيد هذا القول قراءة من قرأ: «في المجالس»، ومن قرأ: «في المجلس» فذلك على هذا التأويل اسم جنس فالسنة المندوب إليها هي التفسح والقيام منه في حديث النبي صلى الله عليه وسلم حيث نهى أن يقوم الرجل فيجلس الآخر مكانه، فأما القيام إجلالاً فجائز بالحديث قوله عليه السلام حين أقبل سعد بن معاذ: «قوموا إلى سيدكم»، وواجب على معظم ألا يحب ذلك ويأخذ الناس به لقوله عليه السلام: «من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار».

وقوله تعالى: ﴿يَفْسَحُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ معناه: في رحمته وجنته، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوا﴾ معناه: إذا قيل لكم ارتفعوا وقوموا فافعلوا ذلك، ومنه نشوز العظام أي نباتها، والنشز من الأرض المرتفع، واختلف الناس في هذا النشوز الذي أمروا بامتثاله إذا دعوا إليه. فقال الحسن وقتادة والضحاك معناه: إذا دعوا إلى قتال أو طاعة أو صلاة ونحوه، وقال آخرون معناه: إذا دعوا إلى القيام عن النبي عليه السلام لأنه كان أحياناً يحب الانفراد في أمر الإسلام فربما جلس قوم وأراد كل واحد أن يكون آخر الناس عهداً بالنبي عليه السلام، فنزلت الآية أمرة بالقيام عنه متى فهم ذلك بقول أو فعل، وقال آخرون معناه: ﴿انْشُزُوا﴾ في المجلس بمعنى التفسح لأن الذي يريد التوسعة يرتفع إلى فوق في الهواء فإذا فعل ذلك جملة اتسع الموضع، فيجيء ﴿انْشُزُوا﴾ في غرض واحد مع قوله ﴿تَفْسَحُوا﴾، وقرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم: «انْشُزُوا» برفع الشين وهي قراءة أبي جعفر وشيبة والأعرج. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي بكسر السين فيهما، وهي قراءة الحسن والأعمش وطلحة. يقال: نشز ينشز كحشر يحشر ويحشر وعكف يعكف ويعكف. وقوله ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ﴾ جواب الأمر، واختلف الناس في ترتيب قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ فقال جماعة من المتأولين المعنى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ﴾ المؤمنين العلماء منكم ﴿دَرَجَاتٍ﴾، فلذلك أمر بالتفسح من أجلهم، ويجيء على هذا قوله: ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ بمنزلة قولك جاءني العاقل والكريم والشجاع، وأنت تريد بذلك رجلاً واحداً، وقال آخرون المعنى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ﴾ المؤمنين والعلماء الصنفين جميعاً ﴿دَرَجَاتٍ﴾ لكننا نعلم تفاضلهم في الدرجات من مواضع أخرى ولذلك جاء الأمر بالتفسح عاماً للعلماء وغيرهم، وقال عبد الله بن مسعود وغيره: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ وتم القول، ثم ابتدأ بتخصيص العلماء بالدرجات ونصبهم بإضمار فعل، فالمؤمنون رفع على هذا التأويل وللعلماء درجات، وعلى هذا التأويل قال مطرف بن عبد الله بن الشخير: فضل العلم أحب إلي من فضل العبادة وخير دينكم الورع، ثم توعده تعالى وحذر بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ﴾ الآية. روي عن ابن عباس وقتادة في سببها أن قوماً من شباب المؤمنين وأغفالهم كثرت مناجاتهم للنبي صلى الله عليه وسلم في غير حاجة إلا لتظهر منزلتهم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سمحاً لا يرد أحداً فنزلت هذه الآية مشددة عليهم أمر المناجاة، وقال مقاتل: نزلت في الأغنياء لأنهم غلبوا الفقراء على مناجاة النبي صلى الله عليه وسلم. وقال جماعة من الرواة: لم يعمل بهذه الآية بل نسخت قبل العمل لكن استقر حكمها بالعزم عليه كأمير إبراهيم عليه السلام في ذبح ابنه، وصح

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: ما عمل بها أحد غيري وأنا كنت سبب الرخصة والتخفيف عن المسلمين وذلك أنني أردت مناجاة النبي صلى الله عليه وسلم في أمر ضروري فصرفت ديناراً بعشرة دراهم، ثم ناجيته عشر مرار أقدم في كل مرة درهماً، وروي عنه أنه تصدق في كل مرة بدينار فقال علي ثم فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن هذه العبادة قد شقت على الناس فقال لي يا علي: كم ترى أن يكون حد هذه الصدقة، أترأه ديناراً؟ قلت: لا، قال نصف دينار، قلت: لا، قال فكم: قلت حبة من شعير قال إنك لزهيد، فأنزل الله الرخصة.

قال القاضي أبو محمد: يريد للواجد وأما من لا يجد فالرخصة له ثابتة أولاً بقوله تعالى: ﴿فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم﴾. وقال مقاتل: بقي هذا الحكم عشرة أيام، وقال قتادة: بقي ساعة من نهار، وقرأ جمهور من الناس: «صدقة» بالإنفراد، وقرأ بعض القراء «صدقات» بالجمع.

قوله عز وجل:

ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُوحِكُمْ صَدَقْتُمْ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ يِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾

الإشفاق: الفرع من العجز عن الشيء المتصدق به أو من ذهب المال في الصدقة وله وجوه كثيرة يقال فيها الإشفاق، لكنه في هذا الموضع كما ذكرت، ﴿وتاب الله عليكم﴾ معناه: رجع بكم، وقوله ﴿فأقيموا الصلاة﴾ الآية المعنى دوموا على هذه الأعمال التي هي قواعد شرعكم ومن قال إن هذه الصدقة منسوخة بآية الزكاة، فقله ضعيف لا يحصل كيف النسخ، وما ذكر في نحو هذا عن ابن عباس لا يصح عنه والله أعلم، وقوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين تولوا﴾ نزلت في قوم من المنافقين تولوا قوماً من اليهود وهم المغضوب عليهم، وقال الطبري: ﴿ما هم﴾ يريد به المنافقين و﴿منكم﴾ يريد به المؤمنين و﴿منهم﴾ يريد به اليهود.

قال القاضي أبو محمد: وهذا التأويل يجري مع قوله تعالى: ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾ [النساء: ١٤٣]، ومع قوله عليه السلام: «مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين الغنمين لأنه مع المؤمنين بقوله ومع الكافرين بقلبه»، ولكن هذه الآية تحتمل تأويلاً آخر وهو أن يكون قوله ﴿ما هم﴾ يريد به اليهود، وقوله: ﴿ولا منهم﴾ يريد به المنافقين فيجاء فعل المنافقين على هذا التأويل أحسن لأنهم تولوا قوماً مغضوباً عليهم ليسوا من أنفسهم فيلزمهم ذمامهم ولا من القوم المحققين فتكون الموالاة صواباً. وقوله ﴿يحلفون﴾ يعني المنافقين لأنهم كانوا إذا وقفوا على ما يأتون به من بغض النبي صلى الله عليه وسلم وشتمه وموالاة عدوه حلفوا أنهم لا يفعلون ذلك واستسهلوا الحنث، ورويت من هذا نوازل كثيرة اختصرتها إيجازاً وإذا تتبعنا في المصنفات وجدت كقول ابن أبي لثن رجعنا إلى المدينة وحلفه على أنه لم يقل وغير

ذلك، والعذاب الشديد هو عذاب الآخرة. وقرأ جمهور الناس: «أيمانهم» جمع يمين. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: «إيمانهم»، أي ظهوره من الإيمان والجنة: ما يستر به ويتقي المحذور، ومنه المجن: وهو الترس: وقوله ﴿فصدوا عن سبيل الله﴾ يحتمل أن يكون الفعل غير متعد كما تقول صد زيد، أي صدوا هم أنفسهم عن سبيل الله والإيمان برسوله، ويحتمل أن يكون متعداً أي صدوا غيرهم من الناس عن الإيمان ممن اقتدى بهم وجرى في مضمارهم، ويحتمل أن يكون المعنى ﴿فصدوا﴾ المسلمين عن قتلهم، وتلك ﴿سبيل الله﴾ فيهم لكن ما أظهوره من الإيمان صدوا به المسلمين عن ذلك، والمهين: المذل من الهوان. قوله عز وجل:

لَنْ نُنْفِىَ عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾
يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُحْطَفُونَ لِكُمَا يَاحْتَسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ أَسْتَحْذَرُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَاذْنَبْتُهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْآذِلِينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾

روي أن المنافقين فخرُوا بكثرة أموالهم وأولادهم وأظهروا السرور بذلك، فنزلت الآية معلمة أن ذلك لا غناء له عنهم ولا مدفع بسببه. والعامل في قوله ﴿يوم يبعثهم﴾، «أصحاب» على تقدير فعل، وأخبر الله تعالى عنهم في هذه الآية أنه ستكون لهم أيمان يوم القيامة وبين يدي الله يخيل إليهم بجهلهم أنها تنفعهم وتقبل منهم، وهذا هو حسابهم ﴿أنهم على شيء﴾، أي على فعل نافع لهم، وقال ابن عباس في كتاب الثعلبي: قال النبي عليه السلام: «ينادي مناد يوم القيامة: أين خصماء الله، فتأتي القدرية مسودة وجوههم زرقة أعينهم، فيقولون والله ما عبدنا شمساً ولا قمراً ولا صنماً ولا اتخذنا من دونك ولياً»، قال ابن عباس: صدقوا والله ولكن أتاهم الإشراك من حيث لا يعلمون، ثم تلا ابن عباس هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿استحذو عليهم الشيطان﴾ معناه: تملكنهم من كل جهة وغلب على نفوسهم، وهذا الفعل مما استعمل على الأصل فإن قياس التعليل يقتضي أن يقال: استحاذ، وحكى الفراء في كتاب اللغات أن عمر رضي الله عنه قرأ: «استحاذ». و ﴿يحادون﴾ معناه: يعطون الحد من الأفعال والأقوال، وقال بعض أهل المعاني: معناه يكونون في حد غير الحد الذي شرع الله تعالى، ثم قضى تعالى على محاده بالذل وأخبر أنه كتب فيما أمضاه من قضائه وقدره في الأزل أنه يغلب هو ورسله كل من حاد الله والرسول. وقرأ نافع وابن عامر: «ورسلي» بفتح الياء. وقرأ الباقر بسكونها. وقال الحسن وغيره: ما أمر الله تعالى قط رسلاً بالقتال إلا وغلبه، وظفره بقوته وعزته لا رب سواه، وقال غيره: ومن لم يؤمر بقتال فهو غالب بالحجة.

قوله عز وجل:

لَا يَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا

ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ
وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

نفث هذه الآية أن يوجد من يؤمن بالله تعالى حق الإيمان ويلتزم شعبه على الكمال يواد كافرأ أو منافقأ. ومعنى يواد: يكون بينهما من اللطف بحيث يود كل واحد منهما صاحبه، وعلى هذا التأويل قال بعض الصحابة: اللهم لا تجعل لمشرك قبلي يداً فتكون سبباً للمودة فإنك تقول وتلا هذه الآية، وتحتمل الآية أن يريد بها لا يوجد من يؤمن بالله والبعث يواد ﴿من حاد الله﴾ من حيث هو محاد لأنه حينئذ يواد المحادة، وذلك يوجب أن لا يكون مؤمناً.

ويروى أن هذه الآية نزلت في شأن حاطب بن أبي بلتعة ومخاطبته أهل مكة، وظاهر هذه الآيات، أنها متصلة المعنى، وأن هذا في معنى الذم للمنافقين الموالين لليهود، وإذا قلنا إنها في أمر حاطب جاء ذلك أجنبياً في أمر المنافقين، وإن كان شبيهاً به، والإخوان هنا إخوة النسب، كما عرف الإخوة أنه في النسب، وقد يكون مستعملاً في إيحاء الود، و﴿كتب في قلوبهم الإيمان﴾ معناه: أثبتته. وخلقه بالإيجاد، وذهب أبو علي الفارسي وغيره من المعتزلة، إلى أن المعنى جعل في قلوبهم علامات تعرف الملائكة بها أنهم مؤمنون، وذلك لأنهم يرون العبد يخلق إيمانه، وقد صرح النقاش بهذا المذهب، وما أراه إلا قاله غير محصل لما قال. وأما أبو علي فعن بصيرته، وقرأ جمهور القراء «كُتِبَ» على بناء الفعل للفاعل، «والإيمان» بالنصب، وقرأ أبو حنيفة وعاصم في رواية المفضل عنه «كُتِبَ» على بناء الفعل للمفعول، «والإيمان» بالرفع، وقوله ﴿أولئك﴾ إشارة إلى المؤمنين الذين يقتضيه معنى الآية، لأن المعنى لكنك تجدهم لا يوادون من حاد الله، وقوله تعالى: ﴿بروح منه﴾ معناه: بهدى ولطف ونور وتوفيق إلهي ينقذ من القرآن، وكلام النبي عليه السلام، وقيل: المعنى بالقرآن لأنه روح، قيل: المعنى بجبريل عليه السلام، والحزب الطريق الذي يجمعه مذهب واحد، والمفلح: الفائز ببغيته، وباقي الآية بين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْحَشْرِ

هذه السورة مدنية باتفاق من أهل العلم، وهي سورة بني النضير، وذلك أن رسول الله كان عاهد بني النضير على سلم، وهم يرون أنه لا تردد له راية، فلما جرت هزيمة أحد ارتابوا وداخلوا قريشاً وغدروا، فلما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من أحد تبين له معتقد بني النضير، وغدرهم بعهده، وموالاتهم للكفرة، فجمع إليهم وحاصرهم وعاهدهم على أن يجلبهم عن أرضهم، فارتحلوا إلى بلاد مختلفة: خيبر والشام وغير ذلك من البلاد، ثم كان أمر بني قريظة مرجعه من الأحزاب.

قوله عز وجل:

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾

قد تقدم القول في تسبيح الجمادات التي يتناولها عموم ما في السماوات والأرض وأن أهل العلم اختلفوا في ذلك. فقال قوم: ذلك على الحقيقة، وقال آخرون: ذلك مجاز أي آثار الصنعة فيها والإيجاد لها كالسبيح وداعية إلى التسبيح ممن له أن يسبح، قال مكي ﴿سبح﴾ معناه: صلى وسجد فهذا كله بمعنى الخضوع والطوع، و﴿العزیز الحكيم﴾ صفتان مناسبتان لما يأتي بعد من قصة العدو الذي أخرجهم من ديارهم، و﴿الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ هم بنو النضير، وكانت قبيلة عظيمة من بني إسرائيل موازية في القدر والمنزلة لبني قريظة، وكان يقال للقبيلتين الكاهنان، لأنهما من ولد الكاهن بن هارون، وكانت أرضهم وحصونهم قريبة من المدينة، ولهم نخل وأموال عظيمة، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحد خرج إلى بني النضير فحاصرهم وأجلاهم على أن يحملوا من أموالهم ما أقلته إبلهم حاشى الحلقة وهي جميع السلاح، فخرجوا إلى بلاد مختلفة فذلك قوله تعالى: ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر﴾. وقوله تعالى: ﴿لأول الحشر﴾ اختلف الناس في معنى ذلك بعد اتفاقهم على أن ﴿الحشر﴾: الجمع والتوجيه إلى ناحية ما. فقال الحسن بن أبي الحسن وغيره: أراد حشر القيامة أي هذا أوله، والقيام من القبور آخره، وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم: «امضوا هذا

أول الحشر وإنا على الأثر». وقال عكرمة والزهري وغيرهما: المعنى ﴿الاول﴾ موضع ﴿الحشر﴾ وهو الشام، وذلك أن أكثر بني النضير جاءت إلى الشام، وقد روي أن حشر القيامة هو إلى بلد الشام وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبني النضير «اخرجوا»، قالوا: إلى أين؟ قال: «إلى أرض المحشر»، وقال قوم في كتاب المهدي: المراد ﴿الحشر﴾ في الدنيا الذي هو الجلاء والإخراج، فهذا الذي فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ببني النضير أوله، والذي فعل عمر بن الخطاب بأهل خيبر آخره، وأخبرت الآية بمغيب وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بجلاء أهل خيبر، ويحتمل أن يكون آخر الحشر في قول النبي عليه السلام في مرضه: «لا يبقين دينان في جزيرة العرب»، فإن ذلك يتضمن إجماع بقاياهم قال الخليل في ما حكى الزجاج: سميت جزيرة لأنه أحاط بها بحر الحيشة وبحر فارس ودجلة والفرات، وفي هذه الإحاطة نظر. وقوله تعالى: ﴿ما ظننتم أن يخرجوا﴾ معناه: لمنعتهم وكثرة عددهم، فلم تكن آمالكم وظنونكم تنتهي إلى أنهم يخرجون ويدعون أموالهم لكم، وبحسب ذلك من المنعة والعدد والتحصن ظنوا هم أن لن يقدر عليهم وقوله تعالى: ﴿من الله﴾ يريد: من جند الله حزب الله وقوله تعالى: ﴿فأتاهم الله﴾ عبارة عن إظهاره تعالى المسلمين عليهم وإلقائهم في حيز الهزم والذل. وقرأ الجمهور: «الرغب» بسكون العين، وقرأ أبو جعفر وشيبة، بضم العين، واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى: ﴿يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين﴾، فقال الضحاك والزجاج وغيره: كلما هدم المسلمون من حصنهم في القتال هدموا هم من البيوت وخربوا الحصون دأباً فهذا معنى تخريبهم. وقال الزهراوي وغيره كانوا لما أبيع لهم ما تستقل به الإبل لا يدعون خشبة حسنة ولا نجافاً ولا سارية إلا قلعوه وخربوا البيوت عنه، وقوله تعالى: ﴿وأيدي المؤمنين﴾ من حيث فعلهم، وكفرهم داعية إلى تخريب المؤمنين بيوتهم، فكانهم قد خربوها هم بأيدي المؤمنين. وقال جماعة من المفسرين: إنهم لما أزمعوا الجلاء شحوا على ترك البيوت سليمة للمؤمنين فهدموا وخربوا لمعنى الإفساد على من يأتي. قال قتادة: خرب المؤمنون من خارج ليدخلوا وخربوهم من داخل. وقرأ جمهور القراء: «يخربون» بسكون الخاء وتخفيف الراء. وقرأ أبو عمرو وحده والحسن بخلاف عنه وقاتدة وعيسى بفتح الخاء وشد الراء. فقال فريق من العلماء اللغويين القراءتان بمعنى واحد وقال أبو عمرو بن العلاء: خرب، معناه: هدم وأفسد وأخرب معناه ترك الموضع خراباً وذبح عنه، ثم نبه تعالى المؤمنين وغيرهم ممن له أن ينظر على نصرة رسوله وصنعه له فيمن حاده وناواه بقوله تعالى: ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ أي العيون والأفهام.

قوله عز وجل:

وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِّنْ لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَا آفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِن خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه كتب على بني إسرائيل جلاء، وكانت بنو النضير ممن حل بالحجاز

بعد موت موسى عليه السلام بيسير، لأنهم كانوا من الجيش الذي رجع وقد عصوا في أن لم يقتلوا الغلام ابن ملك العماليق لجماله وعقله، وقد كان موسى عليه السلام قال لهم لا تستحيوا أحداً، فلما رجع ذلك الجيش إلى بني إسرائيل بالشام وجدوا موسى ميتاً، وقال لهم بنو إسرائيل أنتم عصاة والله لا دخلتم علينا بلادنا، فقال أهل ذلك الجيش عند ذلك ليس لنا أحب من البلاد التي غلبنا أهلها، فانصرفوا إلى الحجاز، فكانوا فيه فلم يجز عليهم الجلاء الذي أجراه باختصر على أهل الشام، وقد كان الله تعالى كتب في الأزل على بني إسرائيل جلاء فأنهم هذا ﴿الجللاء﴾ على يدي محمد صلى الله عليه وسلم، ولولا ذلك ﴿لعذبهم﴾ الله ﴿في الدنيا﴾ بالسيف والقتل كأهل بدر وغيرهم. ويقال: جلا الرجل وأجلاه غيره، وقد يقال: أجلى الرجل نفسه بمعنى جلا، والمشاقة كون الإنسان في شق ومخالفه في شق، وقوله: ﴿ما قطعتم من لينة﴾ سببها أن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وضعوا أيديهم في نخل بني النضير يقطعون ويحرقون، فقال بنو النضير: ما هذا الإفساد يا محمد وأنت تنهى عن الفساد فكف عن ذلك بعض الصحابة وذلك في صدر الحرب معهم، فنزلت الآية معلمة أن جميع ما جرى من قطع أو إمساك ﴿فبإذن الله﴾، وردت الآية على قول بني النضير، إن محمداً ينهى عن الفساد وما هو ذا يفسد فأعلم الله تعالى أن ذلك بإذنه ﴿ليخزي به الفاسقين﴾ من بني النضير، واختلف الناس في اللينة، فقال الحسن ومجاهد وابن زيد وعمرو بن ميمون: اللينة النخلة اسمان بمعنى واحد وجمعها لين وليان، قال الشاعر [امرؤ القيس]: [المقارب]

وسالفة كسحوق الليان أضرم فيها الغوي السعير

وقال الآخر [ذو الرمة]:

طراق الخوافي واقع فوق لينة ندى ليله في ريشه يتفرق

وقال ابن عباس وجماعة من اللغويين: اللينة من النخل ما لم يكن عجوة. وقال سفيان بن سعيد الثوري: اللينة الكريمة من النخل، وقال أبو عبيدة فيما روي عنه وسفيان: اللينة: ما تمرها لون وهو نوع من التمر، يقال له اللون، قال سفيان، هو شديد الصفرة يشف عن نواة من التمر فيرى من خارج وأصلها لونة فأبدلت لموافقة الكسرة، وقال أيضاً أبو عبيدة اللين: ألوان النخل المختلطة التي ليس فيها عجوة ولا برني. وقرأ ابن مسعود والأعمش: «أو تركتموها قوماء على أصولها»، وقوله تعالى: ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم﴾ الآية. إعلام إنما أخذ لبني النضير ومن فذك فهو خاص للنبي صلى الله عليه وسلم وليس على حكم الغنيمة التي يوجف عليها ويقاتل فيها بل على حكم خمس الغنائم، وذلك أن بني النضير لم يوجف عليها، ولا قوتلت كبير قتال، فأخذ منها رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه قوت عياله وقسم سائرهما في المهاجرين، ولم يعط منها الأنصار شيئاً، غير أن أبا دجاجة سماك بن خرشة وسهل بن حنيف شكيا عظيمة فأعطاهما، هذا قول جماعة من العلماء، وفي ذلك قول عمر بن الخطاب: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله عليه مما لم يوجف عليه المسلمون بـ ﴿خيلاً ولا ركاباً﴾ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفق منها على أهله نفقة سنة وما بقي منها جعله في السلاح والكراع عدة في سبيل الله. قال بعض العلماء: وكذلك كل ما فتح على الأئمة مما لم يوجف عليه فهو لهم خاصة والوجيف: دون

التضريب، يقال وجف الفرس وأوجفه الراكب والإيجاف: سرعة السير والاجتهاد فيه.

قوله عز وجل:

مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ
كُنْ لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا
اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ
فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾

﴿أهل القرى﴾ المذكورون في هذه الآية هم أهل الصفراء والبنوع ووادي القرى، وما هنالك من قرى العرب التي تسمى قرى عربية، وحكمها مخالف لبني النضير، ولم يجس من هذه رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه شيئاً بل أمضاها لغيره، وذلك أنها في ذلك الوقت فتحت، واختلف الناس في صفة فتحها ف قيل: عن لها رسول الله صلى الله عليه وسلم. وبعث بعثاً إلى كل مكان فطاع وأعطاه أهله فكان مما لم يوجف عليه، وكان حكمه حكم خمس الغنائم، وليس في الآية نسخ على هذا التأويل، وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع ذلك للمهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئاً. وقال قتادة وزيد بن رومان: كانت هذه القرى قد أوجف عليها، ولكن هذا حكم ما يوجف عليه، ثم نسخ الله تعالى هذا الحكم بآية الأنفال فجعل فيها الخمس لهذه الأصناف وبقيت الأربعة الأخماس للمقاتلة، وآية هذه السورة لم يكن فيها للمقاتلة شيء، وهذا القول يضعف، لأن آية الأنفال نزلت إثر بدر وقبل بني النضير وقبل أمر هذه القرى بسنة ونيف. و﴿القربى﴾ في هذه الآية قرابة النبي صلى الله عليه وسلم منعوا الصدقة وعوضوا من الفيء.

وقوله تعالى: ﴿كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾ مخاطبة للأنصار لأنه لم يكن في المهاجرين في ذلك الوقت غني، وقرأ جمهور الناس «يكون» بالياء، وقرأ أبو جعفر وابن مسعود وهشام عن ابن عامر: بالتاء وهي كان التامة. وقرأ جمهور الناس: «دولة» بضم الدال ونصب الهاء. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: «دولة» بفتح الدال ونصب الهاء. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وهشام عن ابن عامر: «دولة» بضم الدال والهاء. وقال عيسى بن عمرهما بمعنى واحد. وقال الكسائي وحذاق النظرة الفتح في الملوك: بضم الميم لأنها الفعل في الدهر والضم في الملوك بكسر الميم. والمعنى أنها كالعوارى في تداول ذلك المال الأغنياء بتصرفاتهم ويبقى المساكين بلا شيء ولا حظ في شيء من هذه الأموال ليتيم غني ولا لابن سبيل حاضر المال، وقد مضى القول في الغنائم في سورة الأنفال، وروي: أن قوماً من الأنصار تكلموا في هذه القرى المفتحة وقالوا: لنا منها سهمنا فنزل قوله تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه﴾ الآية، مؤدباً في ذلك وزاجراً ثم اطرده بعد معنى الآية في أوامر النبي صلى الله عليه وسلم ونواهيته حتى قال قوم إن الخمر محرمة في كتاب الله بهذه الآية، وانتزع منها ابن مسعود: لعنة الواشمة والمستوشمة الحديث. ورأى محرماً في ثيابه المخيطه. فقال له: اطرح هذا عنك، فقال له الرجل: أنقرأ علي بذلك آية من كتاب الله تعالى فقال ابن مسعود: نعم، وتلا هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿للفقراء المهاجرين﴾ بيان لقوله: ﴿والمساكين وابن

السبيل ﴿ فكرر لام الجر لما كانت الأولى مجرورة باللام ليبين أن البدل إنما هو منها، ثم وصفهم تعالى بالصفة التي تقتضي فقرهم وتوجب الإشفاق عليهم وهي إخراجهم من ديارهم وأموالهم، وجميع المهاجرين إما أخرجهم الكفار وإما أحوال الكفار وظهورهم، وفرض الهجرة في ذلك الوقت، ووصفهم بالفقر وإن كان لهم بعض أحوال وهي حال للفقر في اللغة، وقد مضى بيان هذا في سورة الكهف. وقوله ﴿يَتَفَنُونَ﴾ في موضع الحال، و﴿الفضل والرضوان﴾ يراد به الآخرة والجنة، و﴿نصر الله﴾ تعالى هو نصر شرعه ونبيه، و﴿الصادقون﴾ في هذه الآية يجمع صدق اللسان وصدق الأفعال، لأن أفعالهم في أمر هجرتهم إنما كانت وفق أقوالهم.

قوله عز وجل:

وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخْجَبُونَ مِنْ هَاجِرِ الْبَيْتِ وَلَا يُجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾

﴿الذين تبوءوا﴾ هم الأنصار، والضمير في ﴿قبلهم﴾ للمهاجرين، و﴿الدار﴾ هي المدينة، والمعنى: تبوءوا الدار مع الإيمان معاً، وبهذا الاقتران يصح معنى قوله: ﴿من قبلهم﴾ فتأمله، و﴿والإيمان﴾ لا يتبوأ لأنه ليس مكاناً ولكن هذا من بليغ الكلام ويتخرج على وجه كلها جميل حسن. وأثنى الله تعالى في هذه الآية على الأنصار بأنهم ﴿يحبون﴾ المهاجرين، وبأنهم ﴿يؤثرون على أنفسهم﴾ وبأنهم قد وقوا شح أنفسهم لأن مقتضى قوله: ﴿ومن يوق شح نفسه﴾ الآية. أن هؤلاء الممدوحين قد وقوا الشح، والحاجة: الحسد في هذا الموضع، قاله الحسن وتعم بعد جميع الوجوه التي هي بخلاف ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم في إعطاء المهاجرين أموال بني النضير والقرى، و﴿أوتوا﴾ معناه: أعطوا، والضمير المرفوع بأن لم يسم فاعله هو للمهاجرين، وقوله تعالى: ﴿ويؤثرون﴾ الآية، صفة للأنصار. وقد روي من غير ما طريق، أنها نزلت بسبب رجل من الأنصار، قال أبو المتوكل: هو ثابت بن قيس، وقال أبي هريرة في كتاب مكي: كنية هذا الرجل أبو طلحة، وخلط المهدي في ذكر هذا الرجل ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: والله ما عندنا إلا قوت الصبية، فقال: نومي صبيتك وأطفئي السراج وقدمي ما عندك للضيف ونوهمه نحن أنا نأكل، ففعلاً ذلك فلما غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: عجب الله من فعلكما البارحة، ونزلت الآية في ذلك، والإيثار على النفس أكرم خلق، وقال حذيفة العدوي: طلبت يوم اليرموك ابن عم لي في الجرحى ومعني شيء من ماء، فوجدته، فقلت: أسيتك؟ فأشار أن نعم، فإذا رجل يصيح آه، فأشار ابن عمي أن انطلق إليه فجنته فإذا هو هشام بن العاصي، فقلت: اشرب فإذا آخر يقول: آه، فأشار هشام أن انطلق إليه، فجنته، فإذا به قد فاضت نفسه، فرجعت إلى هشام، فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات، فعجبت من إيثارهم رحمهم الله وقال أبو زيد البسطامي:

قدم علينا شاب من بلخ حاجاً فقال: ما حد الزهد عنكم؟ فقلت: إذا وجدنا أكلنا وإذا فقدنا صبرنا، فقال: هكذا عندنا كلاب بلخ، فقلت له: فما هو عنكم، فقال: إذا فقدنا صبرنا وإذا وجدنا أثرنا وروي: أن سبب هذه الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قسم هذه القرى في المهاجرين قال للأَنْصار: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم أمسكنم أموالكم وتركتم لهم هذه»، فقالوا: بل نقسم لهم من أموالنا ونترك لهم هذه الغنيمة، فنزلت هذه الآية. والخصاصة: الفاقة والحاجة، وهو مأخوذ من خصائص البيت وهو ما يبقى بين عيدانه من الفرج والفتوح فكان حال الفقير هي كذلك يتخللها النقص والاحتياج، و«شح النفس» هو كثرة منعها وضبطها على المال والرغبة فيه وامتداد الأمل هذا جماع شح النفس وهو داعية كل خلق سوء، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أدى الزكاة المفروضة وقرى الضيف وأعطى في النائة فقد برىء من الشح»، واختلف الناس بعد هذا الذي قلنا، فذهب الجمهور والعارفون بالكلام إلى هذا وعلى هذا التأويل، كان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يطوف ويقول: اللهم فني شح نفسي، لا يزيد على ذلك، ف قيل له في ذلك فقال إذا وقته لم أفعل سوءاً.

قال القاضي أبو محمد: «شح النفس» فقر لا يذهب غنى المال بل يزيده وينصب به، وقال ابن زيد وابن جبير وجماعة: من لم يأخذ شيئاً نهاه الله تعالى عنه ولم يمنع الزكاة المفروضة فقد برىء من شح النفس. وقال ابن مسعود رحمه الله «شح النفس»: هو أكل مال الغير بالباطل، وأما منع الإنسان ماله فهو بخل وهو قبيح، ولكنه ليس بالشح. وقرأ عبد الله بن عمر: «شح» بكسر السين، ويوقى وزنه: يفعل من وقى يقي مثل وزن يزن. وقرأ أبو حيو: «يوق» بفتح الواو وشد القاف و«المفلحون»: الفائزون ببغيتهم. واختلف الناس في قوله تعالى: «والذين جاؤوا من بعدهم» فقال الفراء: أراد الفرقة الثالثة من الصحابة وهي من آمن أو كبر في آخر مدة النبي صلى الله عليه وسلم. وقال جمهور العلماء: أراد من يجيء من التابعين وغيرهم إلى يوم القيامة، فوصف الله تعالى القول الذي ينبغي أن يلتزمه كل من لم يكن من الصدر الأول وإعراب «الذين» رفع عطفاً على «هم» أو على «الذين» أو رفع بالابتداء. وقوله تعالى: «يقولون» حال فيها الفائدة والمراد: والذين جاؤوا قائلون كذا أو يكون يقولون صفة، ولهذا الآية قال مالك وغيره: إنه من كان له في أحد من الصحابة قول سوء أو بغض فلا حظ له في الغنيمة أدباً له، وجاء عراقيون إلى علي بن الحسين فسبوا أبا بكر وعمر وعثمان فقال لهم: أمن المهاجرين الأولين أنتم؟ فقالوا: لا، أفمن «الذين تبوءوا الدار والإيمان»؟ قالوا: لا، قال فقد تبرأتم من هذين الفريقين، وأنا أشهد أنكم لستم من الذين قال الله تعالى فيهم: «والذين جاؤوا من بعدهم» الآية. قوموا فعل الله بكم وفعل، وقال الحسن أدركت ثلاثمائة من الصحابة منهم سبعون بدرياً كلهم يحدثني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربة الإسلام من عنقه. فالجماعة أن لا تسبوا الصحابة ولا تماروا في دين الله ولا تكفروا أحداً من أهل التوحيد بذنب». والغل: الحقد والاعتقاد الرديء، وقرأ الأعمش: «في قلوبنا غمراً للذين» والغمر: الحقد، وقد تقدم الاختلاف في قراءة «رؤوف».

قوله عز وجل:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ

لَنُخْرِجَنَّكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾
لَيْنُخْرِجُوهُ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَيْنَ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيَأْكُلُنَّ الْأَدْبْرَتَ لَا
يُنْصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾

هذه الآية نزلت في عبد الله بن أبي ابن سلول ورفاعة بن الثابت، وقوم من منافقي الأنصار كانوا بعثوا إلى بني النضير وقالوا لهم، أثبتوا في معاقلكم فإننا معكم حيثما تقلبت حالكم، وإنما أرادوا بذلك أن تقوى نفوسهم عسى أن يثبتوا حتى لا يقدر محمد عليهم فيتم لهم مرادهم وكانوا كذبة فيما قالوا من ذلك، ولذلك لم يخرجوا حين أخرج بني النضير بل قعدوا في ديارهم.

وقوله عز وجل: ﴿لئن نصروهم﴾ معناه: ولئن حاولوا ذلك فإنهم يهزمون، ثم لا ينصر الله تعالى منهم أحداً، وجاءت الأفعال غير مجزومة في قوله: ﴿لا يخرجون﴾ و: ﴿لا ينصرونهم﴾ لأنها راجعة على حكم القسم لا على حكم الشرط، وفي هذا نظر، ثم خاطب تعالى أمة محمد مخبراً أن اليهود والمنافقين أشد خوفاً من المؤمنين منهم من الله تعالى، لأنهم يتوقعون عاجل الشر من المؤمنين، ولا يؤمنون بأجل العذاب من الله تعالى وذلك لقلّة فهمهم بالأمور وفقهم بالحق.

قوله عز وجل:

لَا يُقْبِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاتُوا
وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ
جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾

الضمير في قوله تعالى: ﴿لا يقاتلونكم﴾ لبني النضير وجميع اليهود، وهذا قول جماعة المفسرين، ويحتمل أن يريد بذلك: اليهود والمنافقين، لأن دخول المنافقين في قوله تعالى: ﴿بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾ متمكن بين. ومعنى الآية: ﴿لا يقاتلونكم﴾ في جيش مفحص، والقرى المدن. قال الفراء هذا جمع شاذ. قال الزجاج: ما في القرآن فليس بشاذ وهو مثل ضيعة وضع. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وكثير من المكيين «جدار» على معنى الجنس. وقرأ كثير من المكيين وهارون عن ابن كثير: «جُدُر» بفتح الجيم وسكون الدال ومعناه أصل بنيان كالسور ونحوه، وقرأ الباقر من القراء «جُدُر» بضم الجيم والدال وهو جمع جدار، وقرأ أبو رجاء وأبو حيوة «جُدُر» بضم الجيم وسكون الدال وهو تخفيف في جمع جدار، ويحتمل أن يكون من جذر النخل أي من وراء نخلمهم إذ هي مما يتقى به عند المضايقة، وقوله تعالى: ﴿بأسهم بينهم شديد﴾ أي في عائلتهم وأحبّتهم، وفي قراءة عبد الله بن مسعود «تحسبهم جميعاً

وفي قلوبهم أشتات»، وهذه حال الجماعات المتخاذلة وهي المغلوبة أبداً فيما يحاول، واللفظة مأخوذة من الشتات وهو التفرق ونحوه، وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ معناه مثلهم ﴿كَمَثَلِ﴾، و﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، قال ابن عباس: هم بنو قينقاع، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أجلاهم عن المدينة قبل بني النضير وكانوا مثلاً لهم، وقال قتادة ومجاهد: ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أهل بدر الكفار فإنهم قبلهم ومثل لهم في أن غلبوا وقهروا، وقال بعض المتأولين: الضمير في قوله ﴿قَبْلِهِمْ﴾ للمنافقين، و﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ هم منافقو الأمم المتقدمة وذلك أنهم غلبوا ونالتهم الذلة على وجه الدهر فهم مثل لهؤلاء، ولكن قوله ﴿قريباً﴾ إما أن يكون في زمن موسى وإلا فالتأويل المذكور يضعف، إلا أن تجعل ﴿قريباً﴾ ظرفاً للذوق، فيكون التقدير ﴿ذاقوا وبال أمرهم﴾ ﴿قريباً﴾ من عصيانهم وبحدثانه، ولا يكون المعنى أن المثل قريب في الزمن من الممثل له، وعلى كل تأويل فـ ﴿قريباً﴾ ظرف أو نعت لظرف والوبال: الشدة والمكروه وعاقبة السوء، و«العذاب الأليم»: هو في الآخرة، وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ﴾ معناه مثل هاتين الفرقتين من المنافقين وبني النضير ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ﴾ والإنسان، فالمنافقون مثلهم الشيطان وبني النضير مثلهم الإنسان، وذهب مجاهد وجمهور من المتأولين إلى أن ﴿الشَّيْطَانِ﴾ و«الإنسان» في هذه الآية أسماء جنس لأن العرف أن يعمل هذا شياطين بناس كما يغوي الشيطان الإنسان ثم يفر منه بعد أن يورطه، كذلك أغوى المنافقون بني النضير وحرصوهم على الثبوت ووعدوهم النصر، فلما نشب بنو النضير وكشفوا عن وجوههم تركهم المنافقون في أسوأ حال، وذهب قوم من رواة القصص أن هذا شيطان مخصوص مع عابد من العباد مخصوص، وذكر الزجاج أن اسمه برصيص، قالوا إنه استودع امرأة وقيل سبقت إليه ليشفيها بدعائه من الجنون فسول له الشيطان الوقوع عليها فحملت، فخشي الفضيحة، فسول له قتلها ودفنها، ففعل ثم شهره، فلما استخرجت المرأة وحمل العابد شر حمل وهو قد قال: إنها قد ماتت فقامت عليها ودفنتها، فلما وجدت مقتولة علموا كذبه فتعرض له الشيطان فقال له: اكفر واسجد لي وأنجيك، ففعل وتركه عند ذلك. وقال ﴿إني بريء منك﴾، وهذا كله حديث ضعيف، والتأويل الأول هو وجه الكلام وقول الشيطان: ﴿إني أخاف الله﴾، رياء من قوله وليست على ذلك عقيدته، ولا يعرف الله حق معرفته ولا يحجزه خوفه عن سوء يوقع فيه ابن آدم من أول إلا آخر، وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا﴾ الآية، يحتمل الضمير أن يعود على المخصوصين المذكورين، ويحتمل أن يعود على اسمي الجنس أي هذا هو عاقبة كل شيطان وإنسان يكون أمرهما هكذا، وقرأ الحسن وعمر بن عبيد: «عاقبتهما» بالرفع، وقرأ جمهور الناس: «عاقبتهما» بالنصب وموضع أن يخالف إعراب المعاقبة في القراءتين إن شاء الله تعالى، وقرأ الأعمش وابن مسعود: «خالدان» بالرفع على أنه خبر «أن»، والظرف ملغى، ويلحق هذه الآية من الاعتراض إلغاء الظرف مرتين قاله الفراء، وذلك جائز عند سيبويه على التأكيد.

قوله عز وجل:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ

﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾

هذه آية وعظ وتذكير وتقريب للآخرة، وتحذير ممن لا تخفى عليه خافية.

وقرأ جمهور الناس: «ولنتظر» بسكون اللام وحزم الراء على الأمر، وقرأ يحيى بن الحارث وأبو حيوه وفرقة كذلك بالأمر إلا أنها كسرت اللام على أصل لام الأمر، وقرأ الحسن بن أبي الحسن فيما روي عنه: «ولنتظر» بنصب الراء على لام كي كأنه قال وأمرنا بالتقوى لنتظروا، كأنه قال: ﴿اتقوا الله﴾ ولتكن تقواكم «لنتظر»، وقوله تعالى: ﴿لغد﴾ يريد يوم القيامة، قال قتادة: قرب الله القيامة حتى جعلها غداً، وذلك أنها آية لا محالة وكل آت قريب، ويحتمل أن يريد بقوله ﴿لغد﴾: ليوم الموت، لأنه لكل إنسان كغده ومعنى الآية: ما قدمت من الأعمال، فإذا نظرها الإنسان تريد من الصالحات، وكف عن السيئات، وقال مجاهد وابن زيد: الأمس: الدنيا، وغد: الآخرة، وقرأ الجمهور: «ولا تكونوا» بالتاء من فوق على مخاطبة جميع الذين آمنوا، وقرأ أبو حيوه «يكونوا» بالياء من تحت كناية عن النفس التي هي اسم الجنس، و﴿الذين نسوا الله﴾ هم الكفار، والمعنى: تركوا الله وغفلوا عنه، حتى كانوا كالتاسين، وعبر عما حفيهم به من الضلالة بـ﴿فأنساهم أنفسهم﴾ سمي عقوبتهم باسم ذنبهم بوجه ما، وهذا أيضاً هو الجزاء على الذنب بالذنب تكسبهم نسيان جهة الله فعاقبهم الله تعالى بأن جعلهم ينسون أنفسهم، قال سفيان: المعنى حظ أنفسهم، ويعطي لفظ هذه الآية، أن من عرف نفسه ولم ينسها عرف ربه تعالى، وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: اعرف نفسك تعرف ربك، وروي عنه أنه قال أيضاً: من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه. وقرأ ابن مسعود: «ولا أصحاب الجنة» بزيادة لا. وقوله تعالى: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن﴾ الآية، موعظة للإنسان أو ذم لأخلاقه في غفلته وإعراضه عن داعي الله تعالى، وذلك أن القرآن نزل عليهم وفهموه وأعرضوا عنه، وهو لو نزل على جبل وفهم الجبل منه ما فهم الإنسان لخشع واستكان وتصدع خشية الله تعالى، وإذا كان الجبل على عظمه وقوته يفعل هذا فما عسى أن يحتاج ابن آدم يفعل؟ لكنه يعرض ويصد على حقارته وضعفه، وضرب الله تعالى هذا المثل ليتفكر فيه العاقل ويخشع ويلين قلبه، وقرأ طلحة بن مصرف «مصدعاً» على إدغام التاء في الصاد.

قوله عز وجل:

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقَدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهِمُّ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ

سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى
يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٣﴾

لما قال تعالى: ﴿من خشية الله﴾ [الحشر: ٢١] جاء بالأوصاف التي توجب لمخلوقاته هذه الخشية، و﴿الغيب﴾ ما غاب عن المخلوقين، و﴿الشهادة﴾ ما شاهده. وقال حرب المكي ﴿الغيب﴾: الآخرة و﴿الشهادة﴾: الدنيا. وقرأ جمهور الناس: «القدوس» بضم القاف، وهو فعول من تقديس إذا تطهر، وحظيرة القدس الجنة، لأنها طاهرة، ومنه روح القدس، ومنه الأرض المقدسة بيت المقدس، وروي عن أبي ذر أنه قرأ: «القدوس» بفتح القاف وهي لغة، و﴿السلام﴾ معناه: الذي سلم من جوره، وهذا اسم على حذف مضاف أي ذو ﴿السلام﴾، لأن الإيمان به وتوحيده وأفعاله هي لمن آمن سلام كلها، و﴿المؤمن﴾ اسم فاعل من آمن بمعنى آمن. قال أحمد بن يحيى ثعلب معناه: المصدق للمؤمنين في أنهم آمنوا. قال النحاس: أو في شهادتهم على الناس في القيامة. وقال ناس من المتأولين معناه: المصدق نفسه في أقواله الأزلية: لا إله غيره و﴿المهيمن﴾ معناه: الأمين والحفيظ. قاله ابن عباس وقال مؤرج: ﴿المهيمن﴾: الشاهد بلغة قريش، وهذا بناء لم يجر منه في الصفات إلا مهيمن ومسيطر ومبقر ومبيطر، جاء منه في الأسماء مجيمر: وهو اسم واد ومدير. و: ﴿العزیز﴾ الذي لا يغلب والقاهر الذي لا يقهر يقال عزيز إذا غلب برفع العين في المستقبل. قال الله تعالى: ﴿وعزني في الخطاب﴾ [ص: ٢٣] أي غلبني، وفي المثل من عز بَرَّ أي من غلب سلب، و﴿الجبار﴾ هو الذي لا يدانيه شيء ولا يلحق رتبته، ومنه نخلة جبارة إذا لم تلحق وأنشد الزهراوي: [الطويل]

أطافت به جيلان عند قطاعه وردت إليه الماء حتى تجبراً

و﴿المتكبر﴾ معناه الذي له التكبر حقاً، ثم نزه الله تعالى نفسه عن إشراك الكفار به الأصنام التي ليس لها شيء من هذه الصفات، و: ﴿البارئ﴾ بمعنى ﴿الخالق﴾، برأ الله الخلق أي أوجدهم، و: ﴿المصور﴾ هو الذي يوجد الصور، وقرأ علي بن أبي طالب: «المصور» بنصب الواو والراء على إعمال ﴿البارئ﴾ به، وهي حسنة يراد بها الجنس في الصور، وقال قوم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه إنه قرأ: «المصور» بفتح الواو وكسر الراء على قولهم الحسن الوجه وقوله تعالى: ﴿له الأسماء الحسنى﴾ أي ذات الحسن في معانيها القائمة بذاته لا إله إلا هو، وهذه الأسماء هي التي حصرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: «إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة»، وقد ذكرها الترمذي وغيره مسندة، واختلف في بعضها ولم يصح فيها شيء إلا إحصاؤها دون تعيين، وباقى الآية بين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْمُؤْتَحَنَةِ

وهي مدنية بإجماع المفسرين .

قوله عز وجل :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُوَافِقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهْدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾

العدو اسم يقع للجمع والمفرد والمراد به هاهنا كفار قريش ، وهذه الآية نزلت بسبب حاطب بن أبي بلتعة ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد الخروج إلى مكة عام الحديبية فوري عن ذلك بخبير ، فشق في الناس أنه خارج إلى خيبر ، وأخبر هو جماعة من كبار أصحابه بقصده ، منهم حاطب بن أبي بلتعة فكتب حاطب إلى قوم من كفار مكة يخبرهم بقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم فجاء الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعث علياً والزبير وثالثاً هو المقداد ، وقيل أبو مرثد ، وقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين ، فانطلقوا حتى وجدوا المرأة واسمها سارة مولاة لقوم من قريش ، وقيل بل كانت امرأة من مزينة ولم تكن سارة ، فقالوا لها : أخرجي الكتاب . قالت : ما معي كتاب ، ففتشوا جميع رحلها فما وجدوا شيئاً ، فقال بعضهم : ما معها كتاب ، فقال علي : ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تكذبي والله لتخرجن الكتاب أو لنجردنك . قالت : أعرضوا عني فحلته من قرون رأسها ، وقيل : أخرجته من حجزتها ، فجاءوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لحاطب : من كتب هذا؟ فقال : أنا يا رسول الله ولكن لا تعجل علي فوالله ما فعلت ذلك ارتداداً عن ديني ولا رغبة عنه ولكني كنت أمراً ملصقاً في قريش ولم أكن من أنفسها فأحببت أن تكون لي عندهم يد يرفعوني بها في قرابتي . فقال عمر بن الخطاب : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق حاطب إنه من أهل بدر وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر . فقال : «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، ولا تقولوا لحاطب إلا خيراً» ، فنزلت الآية بهذا السبب ، وروي أن حاطباً كتب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوكم في مثل الليل ، والسيل ، وأقسم بالله لو غزاكم وحده لنصر عليكم فكيف وهو في جمع كثير ، و «تلقون» في موضع الصفة لـ «أولياء» ، وألقيت يتعدى

بحرف الجر، وبغير حرف جر، فدخل الباء وزوالها سواء، وهذا نظير قوله عز وجل: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةَ مِنِّي﴾ [طه: ٣٩] وقوله تعالى: ﴿سَنَلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [آل عمران: ١٥١] وروى ابن المعلق عن عاصم أنه قرأ: «وقد كفروا لما» بلام...

وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ﴾ في موضع الحال من الضمير في ﴿كَفَرُوا﴾ والمعنى: يخرجون الرسول ويخرجونكم، وهي حال موصوفة، فلذلك ساق الفعل مستقبلاً والإخراج قد مر، وتضييق الكفار على النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إخراج إذ كان مؤدياً إلى الخروج، وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَوَمَّنَا﴾ مفعول من أجله أي اخرجوا لأجل أن آمنتم بربكم، وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ شرط جوابه متقدم في معنى ما قبله، وجاز ذلك لما لم يظهر عمل الشرط، والتقدير: «إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي، فَلَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ» و﴿جِهَاداً﴾ نصب على المصدر وكذلك ﴿ابْتِغَاءَ﴾، ويجوز أن يكون ذلك مفعولاً من أجله، و«المرضاة» مصدر كالرضى، و﴿تَسْرُونَ﴾ بدل من ﴿تَلْقُونَ﴾، ويجوز أن تكون في موضع خبر ابتداء، كأنه قال أنتم ﴿تَسْرُونَ﴾، ويصح أن تكون فعلاً مرسلأً ابتدئ به القول والإلقاء بالمودة معنى ما، والإسرار بها معنى زائد على الإلقاء، فيترجح بهذا أن ﴿تَسْرُونَ﴾ فعل ابتدئ به القول أي تفعلون ذلك وأنا أعلم، وقوله تعالى: ﴿أَعْلَمُ﴾ يحتمل أن يكون أفعل، ويحتمل أن يكون فعلاً، لأنك تقول علمت بكذا فتدخل الباء وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ﴾ الآية، جملة في موضع الحال، وقرأ أهل المدينة «وأنا» بإشباع الألف في الإدراج، وقرأ غيرهم «وأنا» بطرح الألف في الإدراج، والضمير في ﴿يَفْعَلُهُ﴾ عائد على الاتخاذ المذكور، ويجوز أن تكون ﴿سَوَاءٌ﴾ مفعولاً بـ ﴿ضَلَّ﴾ وذلك على بعد، وذلك على تعدي ﴿ضَلَّ﴾، ويجوز أن يكون ظرفاً على غير التعدي لأنه يجيء بالوجهين الأول أحسن في المعنى، والسواء الوسط وذلك لأنه تتساوى نسبته إلى أطراف الشيء والسبيل هنا شرع الله وطريق دينه.

قوله عز وجل:

إِنْ يَتَّقِفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿١﴾ لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامَكُم وَلَا أَوْلَادَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا الْقَوْمِ هُمْ إِنَّا بَرَاءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا تُغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾

أخبر الله تعالى أن مداراة هؤلاء الكفار غير نافعة في الدنيا وأنها ضارة في الآخرة ليبين فساد رأي مصانعهم فقال تعالى: ﴿إِنْ يَتَّقِفُوكُمْ﴾ أي إن يتمكنوا منكم وتحصلوا في ثقافتهم، ظهرت العداوة وانبسطت أيديهم بضرركم وقتلكم وألستهم بسبكم، وهذا هو السوء، وأشد من هذا كله أنهم إنما يقنعهم منكم أن تكفروا وهذا هو ودهم، ثم أخبر تعالى أن هذه الأرحام التي رغبتم في وصلها ليست بنافعة يوم القيامة فالعامل في ﴿يَوْمٍ﴾ قوله ﴿تَنْفَعَكُمْ﴾، وقال بعض النحاة في كتاب الزهراوي، العامل فيه ﴿يَفْصَلُ﴾ وهو

مما بعده لا مما قبله، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والعامّة: «يُفْصَل» بضم الياء وسكون الفاء وتخفيف الصاد مفتوحة، وقرأ ابن عامر والأعرج وعيسى: «يُفْصَل» بضم الياء وفتح الفاء وشد الصاد منصوبة، واختلف على هاتين القراءتين في إعراب قوله: ﴿يَبْنِيكُمْ﴾ ف قيل: نصب على الظرفية، وقيل رفع على ما لم يسم فاعله إلا أن لفظه بقي منصوباً لأنه كذلك كثر استعماله، وقرأ عاصم والحسن والأعمش: «يُفْصَل» بفتح الياء وسكون الفاء وكسر الصاد خفيفة، وقرأ حمزة والكسائي وابن وثاب: «يُفْصَل» بضم الياء وفتح الفاء وشد الصاد المكسورة، وإسناد الفعل في هاتين القراءتين إلى الله تعالى، وقرأ النخعي وطلحة بن مصرف: «نُفْصَلُ» بنون العظمة مرفوعة وفتح الفاء وشد الصاد المكسورة، وقرأ بعض الناس: «نُفْصَل» بنون العظمة مفتوحة وسكون الفاء، وقرأ أبو حيوة، بضم الياء وسكون الفاء وكسر الصاد خفيفة من: «أفصل» وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وعيد وتحذير، وقرأ جمهور السبعة: «إِسْوَ» بكسر الهمزة، وقرأ عاصم وحده: «أَسْوَ» بضمها وهما لغتان، والمعنى: قدوة وإمام ومثال، و﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ هو خليل الرحمن، واختلف الناس في ﴿الَّذِينَ مَعَهُ﴾، فقال قوم من المتأولين أراد من آمن به من الناس، وقال الطبري وغيره: أراد الأنبياء الذين كانوا في عصره وقريباً من عصره، وهذا القول أرجح لأنه لم يُرو أن إبراهيم كان له أتباع مؤمنون في مكافحته نمروداً، وفي البخاري أنه قال لسارة حين رحل بها إلى الشام مهاجراً من بلد النمروود: ما على الأرض من يعبد الله غيري وغيرك، وهذه الأسوة مقيدة في التبري عن الإشراك وهو مطرد في كل ملة، وفي نبينا عليه السلام أسوة حسنة على الإطلاق لأنها في العقائد وفي أحكام الشرع كلها، وقرأ جمهور الناس «براء» على وزن فعلاء الهمزة الأولى لام الفعل، وقرأ عيسى الثقفي: «براء»، على وزن فعال، بكسر الباء ككريم وكرام، وقرأ يزيد بن القعقاع: «براء» على وزن فعال، بضم الفاء كنوام، وقد رويت عن عيسى قراءة، قال أبو حاتم: زعموا أنه عيسى الهمداني ويجوز: «براء» على المصدر بفتح الباء يوصف به الجمع والأفراد، وقوله: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي كذبناكم في أقوالكم ولم نؤمن بشيء منها، ونظير هذا قوله عليه السلام حكاية عن قول الله عز وجل: ﴿فَهُوَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكِبِ وَلَمْ تَلْحَقِ الْعَلَامَةُ فِي: ﴿بَدَا﴾ لَأَنْ تَأْنِيثُ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ﴾ غير حقيقي، ثم استثنى تعالى استغفار إبراهيم لأبيه، وذكر أنه كان عن موعدة وقد تفسر ذلك في موضعه، وهذا استثناء ليس من الأول، والمعنى عند مجاهد وقتادة وعطاء الخراساني وغيرهم: أن الأسوة لكم في هذا الوجه، لا في هذا الآخر لأنه كان في علة ليست في نازل لكم، ويحتمل أن يكون استثناء من التبري والقطيعة التي ذكرت أي لم تبق صلة إلا كذا، وقوله تعالى: ﴿وَرَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ الآية، حكاية عن قول إبراهيم والذين معه إنه هكذا كان.

قوله عز وجل:

رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْزِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا﴾ الآية، حكاية عن إبراهيم ومن معه والمعنى: لا تغلبهم علينا، فتكون

لهم فتنة وسبب ضلالة، لأنهم يتمسكون بكفرهم ويقولون إنما غلبناهم لأننا على الحق وهم على الباطل، نحا هذا المنحى قتادة وأبو مجلز، وقال ابن عباس المعنى : لا تسلطهم علينا فيفتنوننا عن أدياننا فكأنه قال : لا تجعلنا مفتونين فعبر عن ذلك بالمصدر وهذا أرجح الأقوال لأنهم إنما دعوا لأنفسهم، وعلى منحى قتادة إنما دعوا للكفار. أما أن مقصدهم إنما هو أن يندفع عنهم ظهور الكفار الذي يسببه فتن الكفار فجاء في المعنى تحليل بليغ، ونحوه قول النبي صلى الله عليه وسلم : «بش الميت سعد - ليهود - لأنهم يقولون لو كان محمد نبياً لم يمت صاحبه»، وقوله تعالى : «لقد كان لكم» الآية خطاب لامة محمد صلى الله عليه وسلم وقوله : «لمن» بدل من قوله «لكم» وكرر حرف الجر ليتحقق البدل وذلك عرف هذه المبدلات، ومنه قوله تعالى «للفقراء المهاجرين» [الحشر : ٨] وهو في القرآن كثير وأكثر ما يلزم من الحروف في اللام، ثم أعلم تعالى باستغنائه عن العباد وأنه «الحميد» في ذاته وأفعاله لا ينقص ذلك كفر كافر ولا نفاق منافق. وروي أن هذه الآيات لما نزلت وأزعج المؤمنون امثال أمرها وصرم حبال الكفرة وإظهار عداوتهم لحقهم تأسف على قرباتهم وهم من أن لم يؤمنوا ولم يهتدوا حتى يكون بينهم الود والتواصل فنزلت : «عسى الله» الآية مؤنسة في ذلك ومرجحة أن يقع موقع ذلك بإسلامهم في الفتح وصار الجميع إخواناً، ومن ذكر أن هذه المودة تزويج النبي صلى الله عليه وسلم أم حبيبة بنت أبي سفيان، وأنها كانت بعد الفتح، فقد أخطأ لأن النبي صلى الله عليه وسلم تزوجها وقت هجرة الحبشة، وهذه الآيات نزلت سنة ست من الهجرة، ولا يصح ذلك عن ابن عباس إلا أن يسوقه مثلاً وإن كان متقدماً لهذه الآية، لأنه استمر بعد الفتح كسائر ما نشأ من المودات، و«عسى» من الله واجبة الوقوع إن شاء الله تعالى.

قوله عز وجل :

لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مِنْهُمْ جَرَّاتٍ فَأَمْسِكُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ

اختلف الناس في هؤلاء الذين لم يبه عنهم أن يبروا من هم . فقال مجاهد : هم المؤمنون من أهل مكة الذين آمنوا ولم يهاجروا وكانوا لذلك في رتبة سوء لتركهم فرض الهجرة وقال آخرون : أراد المؤمنين التاركين للهجرة كانوا من أهل مكة ومن غيرها . وقال الحسن وأبو صالح : أراد خزاعة وبني الحارث بن كعب، وقبائل من العرب كفار إلا أنهم كانوا مظاهرين للنبي صلى الله عليه وسلم محبين فيه وفي ظهوره، ومنهم كنانة وبنو الحارث بن عبد مناة ومزينة، وقال قوم : أراد من كفار قريش من لم يقاتل : ولا أخرج ولا أظهر سوءاً، وعلى هذين القولين فالآية منسوخة بالقتال، وقال عبد الله بن الزبير : أراد النساء والصبيان من الكفرة، وقال إن الآية نزلت بسبب أم أسماء حين استأذنت النبي صلى الله عليه وسلم في برها وصلتها فأذن

لها، وكانت المرأة خالتها فيما روي فسمتها في حديثها أمّا، وقال أبو جعفر بن النحاس والثعلبي: أراد المستضعفين من المؤمنين الذين لم يستطيعوا الهجرة، وهذا قول ضعيف. وقال مرة الهمداني وعطية العوفي: نزلت في قوم من بني هاشم، منهم العباس، قال وقتادة نسختها ﴿فأقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ [التوبة: ٥]. وقوله تعالى: ﴿أن تبرؤهم﴾ بدل، وهذا هو بدل الاشتمال، والإقسط: العدل، و﴿ظاهرًا﴾ معناه: عاونوا، و﴿الذين قاتلوا في الدين وأخرجوا﴾ هم مرءة قريش وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات﴾ الآية نزلت إثر صلح الحديبية، وذلك أن الصلح تضمن أن يرد المؤمنون إلى الكفار كل من جاء مسلماً من رجل وامرأة فنقض الله تعالى من ذلك أمر النساء بهذه الآية، وحكم أن المهاجرة لا ترد إلى الكفار بل تبقى تستبرئ وتزوج ويعطى زوجها الكافر الصداق الذي أنفق، وأمر أيضاً المؤمنين بطلب صداق من فرت امرأته من المؤمنين، وحكم تعالى بهذا في النازلة وسماهم مؤمنات قبل أن يتيقن ذلك إذ هو ظاهر أمرهن، و﴿مهاجرات﴾ نصب على الحال، ﴿فامتحانهن﴾ معناه: جربوهن واستخبروا حقيقة ما عندهن. واختلف الناس في هذا الامتحان كيف هو، فقال ابن عباس وقتادة ومجاهد وعكرمة: كان بأن تستحلف المرأة أنها ما هاجرت لبغض زوجها ولا لجريرة جرت ولا لسبب من أعراض الدنيا سوى حب الله ورسوله والدار الآخرة. قال ابن عباس: الامتحان أن تطلب بأن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلت ذلك لم ترد، فقال فريق منهم عائشة أم المؤمنين: الامتحان هو أن تعرض عليها الشروط التي في الآية بعد هذا من ترك الزنا والسرقة والبهتان والعصيان، فإذا أقرت بذلك فهو امتحان، وقيل: إن هذه الآية نزلت في أميمة بنت بشر امرأة حسان بن الدحداحة وفي كتاب الثعلبي أنها نزلت في سبيعة بنت الحارث، وقوله تعالى: ﴿الله أعلم بإيمانهم﴾ إشارة إلى الاسترابة ببعضهن وحض على امتحانهن، وذكر تعالى العلة في أن لا يرد النساء إلى الكفار وهي امتناع اللوط وحرمة، وقرأ طلحة: «لا هن يحللن لهم».

قوله عز وجل:

وَأَتَوْهُمْ مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكَوَافِرِ
وَسَلُّوا مَّا أَنفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ
أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَابَقْتُمْ فَانُؤُاْ الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَّا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ
مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

أمر الله تعالى أن يؤتى الكفار مهور نسائهم اللاتي هاجرن مؤمنات ورفع الجناح في أن يتزوجن بصداقات هي أجورهن، وأمر المسلمين بفراق الكافرات وأن لا يمسكوا بعصمهن، ف قيل: الآيات في عابدات الأوثان ومن لا يجوز نكاحها، ابتداء، وقيل: هي عامة نسخ منها نساء أهل الكتاب، والعصم: جمع عصمة: وهي أسباب الصحبة والبقاء في الزوجية، وكذلك العصمة في كل شيء، السبب الذي يعتصم به، ويعتمد عليه، وقرأ جمهور السبعة والناس: «تُمْسِكُوا» بضم التاء وكسر السين وتخفيفها من

أمسك، وقرأ أبو عمرو وحده وابن جبير ومجاهد والأعرج والحسن بخلاف «ولا تمسكوا» من مسك، بالشد في السين، وقرأ الحسن وابن أبي ليلى وابن عامر في رواية عبد المجيد: «تَمَسَّكُوا» بفتح التاء والميم، وفتح السين وشدّها، وقرأ الحسن: «تَمَسَّكُوا» بفتح التاء وسكون الميم وكسر السين مخففة.

ورأيت لأبي علي الفارسي أنه قال: سمعت الفقيه أبا الحسن الكرخي يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَسَّكُوا بَعْضُ الْكُوفَرِ﴾، إنه في الرجال والنساء، فقلت له: النحويون لا يرون هذا إلا في النساء، لأن كوافر: جمع كافرة، فقال وايش يمنع من هذا أليس الناس يقولون: طائفة كافرة، وفرقة كافرة، فبهت، وقلت هذا تأييد، وأمر تعالى أن يسأل أيضاً الكافرون أن يدفعوا الصدقات التي أعطاهم المؤمنون لمن فر من أزواجهم إلى الكفار، وقرر الحكم بذلك على الجميع، فروي عن ابن شهاب أن قريشاً قالت: نحن لا نرضى هذا الحكم ولا نلتزمه ولا ندفع لأحد صداقاً فنزلت بسبب ذلك هذه الآية الأخرى: ﴿وَأِنْ فَاتَكُمْ﴾ الآية، فأمر الله تعالى المؤمنين أن يدفعوا إلى من فرت زوجته ففادت بنفسها إلى الكفار صداقه الذي أنفق، قال ابن عباس في كتاب الثعلبي: خمس نسوة من نساء المهاجرين رجعن عن الإسلام ولحقن بالمشركين: أم الحكم بنت أبي سفيان كانت تحت عياض بن شداد، وفاطمة بنت أبي أمية أخت أم سلمة، كانت تحت عمر بن الخطاب، وعبدية بنت عبد العزى كانت تحت هشام بن العاص، وأم كلثوم بنت جرول كانت تحت عمر، فأعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم مهور نسائهم من الغنيمة. واختلف الناس في أي مال يدفع إليه الصداق، فقال محمد بن شهاب الزهري: يدفع إليه من الصدقات التي كانت تدفع إلى الكفار بسبب من هاجر من أزواجهم، وأزال الله تعالى دفعها إليهم حين لم يرضوا حكمه حسباً ذكرناه، وهذا قول صحيح يقتضيه قوله تعالى: ﴿فَعَاقِبْتُمْ﴾ وسنين ذلك في تفسير اللفظة إن شاء الله تعالى. وقال مجاهد وقتادة: يدفع إليه من غنائم المغازي، وقال هؤلاء التعقيب بالغزو والمغنم وتأولوا اللفظة بهذا المعنى، وقال الزهري أيضاً: يدفع إليه من أي وجوه الفية أمكن، والعاقبة في هذه الآية، ليست بمعنى مجازاة السوء بالسوء لكنها بمعنى فصرتم منهم إلى الحال التي صاروا إليها منكم وذلك بأن يفوت إليكم شيء من أزواجكم، وهكذا هو التعقيب على الجمل والدواب أن يركب هذا عقبة ويركب هذا عقبة. وقرأ ابن مسعود: ﴿وَأِنْ فَاتَكُمْ أَحَدٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ ويقال عاقب الرجل صاحبه في كذا، أي جاء فعل كل واحد منها بعقب فعل الآخر، ومنه قول الشاعر [الكميت]:

وحاردت النكد الجلال ولم يكن لعقبة قدر المستعيرين معقب

ويقال: «عَقَبَ» بشد القاف، أي أصاب عقبي، والتعقيب: غزو إثر غزو، ويقال «عَقَبَ» بتخفيفها، ويقال: «عَقَبَ» بكسرهما كل ذلك بمعنى: يقرب بعضه من بعض ويجمع ذلك قرىء، قرأ جمهور الناس: «عَاقِبْتُمْ» وقرأ الأعرج ومجاهد والزهري وعكرمة وحמיד: «عَقَّبْتُمْ» بالتشديد في القاف، وقرأ الأعرج أيضاً وأبو حيوة والزهري أيضاً: «عَقَّبْتُمْ» بفتح القاف خفيفة، وقرأ النخعي والزهري أيضاً: «عَقِبْتُمْ» بكسر القاف وكلها بمعنى: غنمتم، وروي عن مجاهد: «أَعَقِبْتُمْ» بألف مقطوعة قبل العين، وهذه الآية كلها قد ارتفع حكمها، ثم ندب تعالى إلى التقوى وأوجبها، وذكر العلة التي بها يجب التقوى وهي الإيمان بالله والتصدق بوحدايته وصفاته وعقابه وإنعامه.

قوله عز وجل :

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لهنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسْؤُونَ مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبْشِرُ الْكَفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾

هذه بيعة النساء في ثاني يوم الفتح على جبل الصفا وهي كانت في المعنى بيعة الرجال قبل فرض القتال، وسماهم ﴿المؤمنات﴾ بحسب الظاهر من أمرهن، ورفض الاشتراك هو محض الإيمان، وقتل الأولاد وهو من خوف الفقر، وكانت العرب تفعل ذلك. وقرأ الحسن وأبو عبد الرحمن: «يُقْتَلْنَ» بضم الياء وفتح القاف وكسر التاء المشددة، و«الإتيان بالبهتان»، قال أكثر المفسرين معناه أن تنسب إلى زوجها ولداً ليس هو له واللفظ أعم من هذا التخصيص، فإن القرية بالقول على أحد من الناس بعضها لمن هذا، وإن الكذب فيما ائتمن فيه من الحمل والحيض لفرية بهتان، وبعض أقوى من بعض وذلك أن بعض الناس قال ﴿بين أيديهن﴾ يراد به اللسان والفم في الكلام والقبلة ونحوه، «وبين الأرجل» يراد به الفروج وولد الإلحاق ونحوه، والمعروف الذي نهى عن العصيان فيه، قال أنس وابن عباس، وزيد بن أسلم: هو النوح، وشق الجيوب ووشم الوجوه ووصل الشعر وغير ذلك من أوامر الشريعة، فرضها وندها. ويروى أن جماعة نساء فيهن هند بنت عتبة بايعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ عليهن الآي، فلما قرهن على أن لا يشركن قالت هند: وكيف نطمع أن تقبل منا ما لم تقبله من الرجال؟ بمعنى أن هذا بين لزومه، فلما وقف على السرقة، قالت: والله إني لأصيب الهنة من مال أبي سفيان لا أدري أحل لي ذلك، فقال أبو سفيان: ذلك لك حلال فيما مضى وبقي، وقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كلي وولديك بالمعروف».

وقدر تكرر هذا المعنى في الحديث الآخر قولها إن أبا سفيان رجل مسيك فلما وقف على الزنا قالت: يا رسول الله وهل تزني الحرة؟ قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا ما تزني الحرة»، وذلك أن الزنا في قريش إنما كان في الإماء في أغلب الأمر، وفيما تعرف مثل هند وإلا فالبغايا قد كن أحراراً، فلما وقف على قتل الأولاد، قالت: نحن ربناهم صغاراً وقتلتهم أنت بيدركباراً، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما وقف على العصيان بالمعروف، قالت: ما جلسنا هذا المجلس وفي أنفسنا أن نعصيك، ويروى أن جماعة نساء بايعن النبي صلى الله عليه وسلم فقلن: يا رسول الله نبايعك على كذا وكذا الآية، فلما فرغن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فيما استطعتن وأطلقتن»، فقلن الله ورسوله أرحم بنا منا بأنفسنا.

وقوله تعالى: ﴿فبايعهن﴾ امض معهن صفقة الإيمان بأن يعطين ذلك من أنفسهن ويعطين عليه الجنة، واختلفت هيئات مبايعة رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء بعد الإجماع على أنه لم تمس يده يد

امراً أجنبية قط، فروي عن عائشة وغيرها أنه بايع باللسان قولاً، وقال: «إنما قلتي لمائة امرأة كقولتي لامرأة واحدة»، وقالت أسماء بنت يزيد: كنت في النسوة المبايعات فقلت: يا رسول الله ابسط يدك نبايعك، فقال لي عليه السلام: «إني لا أصافح النساء لكن آخذ عليهن ما أخذ الله عليهن»، وذكر النقاش حديثاً أن النبي صلى الله عليه وسلم مد يده من خارج بيت ومد نساء من الأنصار أيديهن من داخله فبايعهن وما قدمته أثبت، وروي عن الشعبي أنه لف ثوباً كثيفاً قطرياً على يده وجاء نسوة فلمسن يده كذلك، وروي عن الكلبي: أنه قدم عمر بن الخطاب فلمس نساء يده وهو خارج من بيت وهن فيه بحيث لا يراهن، وذكر النقاش وغيره: أن النبي صلى الله عليه وسلم بايعه النساء على الصفا بمكة وعمر بن الخطاب يصافجهن، وروي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ورفع النقاش عن ابن عباس وعن عروة بن مسعود الثقفي: أنه عليه السلام غمس يده في إناء فيه ماء ثم دفعه إلى النساء فغمسن أيديهن فيه. ثم أمره تعالى بالاستغفار لهن ورجاهن في غفرانه ورحمته بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ قال ابن زيد والحسن ومنذر بن سعيد هم اليهود لأن غضب الله قد صار عرفاً لهم، وقال ابن عباس: هم في هذه الآية كفار قريش لأن كل كافر فعليه غضب من الله لا يرد بذلك ثبوت الغضب على اليهود.

قال القاضي أبو محمد: ولا سيما في المردة ككفار قريش إذ أعمالهم مغضبة ليست بمجرد ضلال بل فيها شرارات مقصودة، وفي الكلام في التشبيه الذي في قوله: ﴿كَمَا يَشْسُ﴾ يتبين الاحتياج إلى هذا الخلاف وذلك أن اليأس من الآخرة إما أن يكون بالكذب بها، وهذا هو يأس كفار مكة، قال معنى قوله: ﴿كَمَا يَشْسُ الْكَافِرُ﴾ كما يشس الكافر من صاحب قبر لأنه إذا مات له حميم قال: هذا آخر العهد به لن يبعث أبداً، فمعنى الآية: أن اعتقاد أهل مكة في الآخرة كاعتقاد الكافر في البعث ولقاء موته، وهذا هو تأويل ابن عباس والحسن وقتادة في معنى قوله تعالى: ﴿كَمَا يَشْسُ الْكَافِرُ﴾، ومن قال إن القوم المشار إليهم هم اليهود، قال معنى قوله: ﴿يَشْسُ الْكَافِرُ﴾ أي كما يشس الكافر من الرحمة إذا مات وكان صاحب قبر، وذلك أنه يروى أن الكافر إذا كان في قبره عرض عليه مقعده في الجنة أن لو كان مؤمناً ثم يعرض عليه مقعده من النار الذي يصير إليه فهو يائس من رحمة الله مع علمه بها ويقينه، وهذا تأويل مجاهد وابن جبير وابن زيد في قوله: ﴿كَمَا يَشْسُ الْكَافِرُ﴾ فمعنى الآية: أن يأس اليهود من رحمة الله في الآخرة مع علمهم بها كيأس ذلك الكافر في قبره وذلك لأنهم قد رين على قلوبهم وحملهم الحسد على ترك الإيمان وغلب على ظنونهم أنهم معذبون، وهذه كانت صفة كثير من معاصري النبي صلى الله عليه وسلم، و﴿من﴾ في قوله ﴿من أصحاب﴾ على القول الأول هي لابتداء الغاية، وفي القول الثاني هي لبيان الجنس والتبعض يتوجهان فيها وبيان الجنس أظهر.

نجز تفسير سورة الممتحنة والحمد لله على ذلك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الصَّفِّ

وهي مدنية في قول الجمهور، وقال مكي عن ابن عباس والمهدوي عن عطاء ومجاهد إنها مكية والأول أصح لأن معاني السورة تعضده ويشبه أن يكون فيها المكي والمدني .
قوله عز وجل :

سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَيْنَ مَرْصُوصٍ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِلِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾

قد تقدم القول غير مرة في تسبيح الجمادات، و ﴿العزیز﴾ في سلطانه وقدرته، و ﴿الحكيم﴾ في أفعاله وتدييره، واختلف الناس في السبب الذي نزلت فيه : ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ فقال ابن عباس وأبو صالح : نزلت بسبب أن جماعة قالوا : لوددنا أن نعرف أحب الأعمال إلى ربنا حتى نفنى فيه، ففرض الله الجهاد وأعلمهم بفضله لديه وأنه يحب المقاتلين في سبيله كالبنيان المرصوص، وكان إذ فرض قد تكرهه قوم منهم، وفر من فر يوم أحد فعاتبهم الله بهذه الآية بسبب أن جماعة من شباب المسلمين كانوا يتحدثون عن أنفسهم في الغزو بما لم يفعلوا ويقولون فعلنا وصنعنا وذلك كذب، فنزلت الآية في ذلك . وقال ابن زيد : نزلت في المنافقين لأن جملة منهم كانوا يقولون للمؤمنين نحن منكم ومعكم ثم يظهر من أفعالهم خلاف ذلك، فنزلت الآية عتاباً لهم، وحكم هذه الآية باق غابر الدهر، وكل من يقول ما لا يفعل، فهو ممقوت مذق الكلام، والقول الآخر في المنافقين إنما يتوجه بأن يكونوا غير مجلحين بالنفاق فلذلك خطبوا بالمؤمنين أي في زعمكم وما تظهرون، والقول الأول يترجح بما يأتي بعد من أمر الجهاد والقتال . و «المقت» : البغض من أجل ذنب أو ريبة أو دناءة يصنعها الممقوت، وهذا حد المقت فتأمله، و «مقتاً» نصب على التمييز، والتقدير ﴿كبر﴾ فعلكم ﴿مقتاً﴾، والمراد كبر مقت فعلكم فحذف المضاف إليه ونصب المضاف على التمييز، وهذا كما تريد تفقاً شحم بطنك فتقول : تفقاً بطنك شحماً، و ﴿أن تقولوا﴾، يحتمل أن يكون بدلاً من المقدر، ويحتمل أن يكون فاعلاً بـ ﴿كبر﴾، وقول المرء ما لا يفعل

موجب مقت الله تعالى ، ولذلك فر كثير من العلماء عن الوعظ والتذكير وآثروا السكوت ، ثم وكد تعالى الإخبار بمحبته للمقاتلين ﴿صفا﴾ ، ومحبة الله تعالى هي ما يظهر عليهم من نصره وكرامته وهي صفة فعل وليست بمعنى الإرادة ، لأن الإرادة لا يصح أن يقع ما يخالفها ، ونحن نجد المقاتلين على غير هذه الصفة كثيراً ، وقال بعض الناس : قتال الرجال أفضل من قتال الفرسان لأن التراص فيه يتمكن ، وهذا ضعيف خفي على قائله مقصد الآية ، وليس المراد نفي التصاف وإنما المقصد الجد في كل أوطان القتال وأحواله ، وقصد بالذكر أشد الأحوال وهي الحالة التي تحوج إلى القتال ﴿صفا﴾ متراصاً ، ونابت هذه الحال المذكورة مناب جميع الأحوال ، وقضت الآية بأن الذين يبلغ جدهم إلى هذه الحال حريون بأن لا يقصروا عن حال ، و﴿المرصوص﴾ المصفوف المتضام ، وقال أبو بحرية رحمه الله : إذا رأيتموني ألتفت في الصف فجبوا فؤادي ومنه قول الشاعر [ابن أبي العنيس الثقفي] : [مجزوء الكامل]

وبالشعب بين صفائح صم ترصص بالجنوب

وقال منذر بن سعيد والبراء وغيره : ﴿المرصوص﴾ المعقود بالرصاص ، وهذا يحتمل أن يكون أصل اللفظة ، ثم ذكر الله تعالى مقالة موسى وذلك ضرب مثل للمؤمنين الذين يقولون ما لا يفعلون ذكرهم الله تعالى بقوم آذوا نبيهم على علم منهم بنبوته و﴿زاغوا﴾ ف﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ ، أي فاحذروا أيها المؤمنون أن يصيركم العصيان ، وقول الباطل إلى مثل حالهم ، وقال أبو أمامة : هم الخوارج ، وقال سعد بن أبي وقاص : هم الحرورية ، المعنى : أنهم أشباههم في أنهم لما ﴿زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ ، وقوله ﴿لم تؤذوني﴾ تقرير ، والمعنى ﴿تؤذوني﴾ بتعنيتم وعصيانكم واقتراحاتكم ، وهذه كانت أفعال بني إسرائيل ، وانظر إنه تعالى أسند الزيغ إليهم لكونه فعل حطيطة ، كما قال الله تعالى : ﴿نسوا الله فأنساهم﴾ [الحشر : ١٩] وهذا يخالف قوله تعالى : ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾ [التوبة : ١١٨] فأسند التوبة إلى نفسه لكونها فعل رفعة ومنه قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام : ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ [الشعراء : ٨٠] ، و﴿زاغ﴾ معناه : مال ، وصار عرفها في الميل عن الحق ، و﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ معناه : طبع عليها وختم وكثر ميلها عن الحق ، وهذه العقوبة على الذنب بالذنب ، وأمال ابن أبي إسحاق : ﴿زاغوا﴾ .

قوله عز وجل :

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعِ إِسْرَءِيلَ إِلَيَّ رَسُولَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾

المعنى : «واذكر يا محمد إذ قال عيسى» ، وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى لكفار قريش ، وحكي عن موسى أنه قال : ﴿يا قوم﴾ [الصف : ٥] وعن عيسى أنه قال : ﴿يا بني إسرائيل﴾ من حيث لم يكن له فيهم

أب، و﴿مصدقاً﴾، حال مؤكدة، ﴿ومبشراً﴾ عطف عليه، وقوله تعالى: ﴿يأتي من بعدي﴾، وقوله: ﴿اسمه أحمد﴾ جملتان كل واحدة منهما في موضع خفض على الصفة لرسول، و﴿أحمد﴾ فعل سمي به، ويحتمل أن يكون أفعّل كأسود، وهو في هذه الآية الكلمة لا الشخص، وليست على حد قولك جاءنا أحمد لأنك ها هنا أوقعت الاسم على مسماه، وفي الآية إنما أراد: اسمه هذه الكلمة، وذكر أبو علي هذا الغرض ومنه ينفك إعراب قوله تعالى ﴿يقال له إبراهيم﴾ [الأنبياء: ٦٠]، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر: «بعدي» بفتح الياء، وقوله تعالى: ﴿فلما جاءهم بالبينات﴾، الآية يحتمل أن يريد ﴿عيسى﴾، وتكون الآية وما بعدها تمثيلاً بأولئك المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم، ويحتمل أن يكون التمثيل قد فرغ عند قوله: ﴿اسمه أحمد﴾، ثم خرج إلى ذكر ﴿أحمد﴾ لما تطرق ذكره، فقال مخاطبة للمؤمنين، ﴿فلما جاء﴾ أحمد هؤلاء الكفار ﴿قالوا هذا سحر مبين﴾، و«البينات» هي الآيات والعلامات، وقرأ جمهور الناس: «هذا ساحر» إشارة إلى ما جاء به، وقرأ ابن مسعود وطلحة والأعمش وابن وثاب: «هذا سحر» إشارة إليه بنفسه، وقوله تعالى: ﴿ومن أظلم﴾ تعجيب وتقدير أي لا أحد أظلم منه، و«افتراء الكذب» هو قولهم: ﴿هذا سحر﴾، وما جرى مجرى هذا من الأقوال التي هي اختلاق وبغير دليل، وقرأ الجمهور: «يُدعى» على بناء الفعل للمفعول، وقرأ طلحة بن مصرف «يدعي» بمعنى يتنمي ويتنسب ومن ذلك قول الشاعر [ساعدة بن عجلان الهذلي]: [الكامل]

فرميت فوق ملاءة مجبوكة وأبنت للأشهاد حزة أدعي

والمعنى على هذه القراءة إنما هو إشارة إلى الأنبياء عليهم السلام لما حكي عن الكفار أنهم قالوا: «هذا ساحر»، بين بعد ذلك أن العقل لا يقبله، أي وهل أظلم من هذا الذي يزعم أنه نبي ويدعي إلى الإسلام وهو مع ذلك مفتر على ربه وهذا دليل واضح لأن مسالك أهل الافتراء والمخرقة إنما هي دون هذا وفي أمور خسيصة، وضبط النقاش هذه القراءة «يُدعى» بضم الياء وفتح الدال المشددة على ما لم يسم فاعله، والضمير في ﴿يريدون﴾ للكفار، واللام في قوله: ﴿ليطفثوا﴾ لام مؤكدة، دخلت على المفعول لأن التقدير: «يريدون أن يطفثوا» وأن مع الفعل بتأويل المصدر فكأنه قال: يريدون إطفاء، وأكثر ما تلتزم هذه اللام المفعول إذا تقدم تقول لزيد: ضربت ولرؤيتك قصدت، و﴿نور الله﴾ هو شرعه وبراهينه.

وقوله تعالى: ﴿بأفواههم﴾ إشارة إلى الأقوال أي بقولهم: سحر وشعر وتكهن وغير ذلك، وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم وابن محيصن والحسن وطلحة والأعرج: «والله متم» بالتثنية، «نوره» بالنصب، وقرأ ابن كثير وحزمة والكسائي وحفص عن عاصم والأعمش: «متم نوره» بالإضافة وهي في معنى الانفصال وفي هذا نظر.

قوله عز وجل:

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَحْرِيرَةِ نَجِيحِكُمْ مِّنْ عَذَابِ إِلَهِمُ ﴿٢﴾ تَوَمَّنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ

ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾

هذا تأكيد لأمر الرسالة وشد لأزرها كما يقول الإنسان لأمر يشبهه ويقويه أنا فعلته، أي فمن يقدر على معارضته فليعارض، والرسول المشار إليه محمد صلى الله عليه وسلم، وقوله تعالى: ﴿على الدين كله﴾ لفظ يصلح للعموم وأن يكون المعنى أو لا يبقى موضع فيه دين غير الإسلام، وهذا لا يكون إلا عند نزول عيسى ابن مريم، قاله مجاهد وأبو هريرة، ويحتمل أن يكون المعنى أن يظهره حتى لا يوجد دين إلا الإسلام أظهر منه، وهذا قد كان ووجد، ثم ندب تعالى المؤمنين وحضهم على الجهاد بهذه التجارة التي بينها، وهي أن يعطي المرء نفسه وماله، ويأخذ ثمنًا جنة الخلد. وقرأ جمهور القراء والناس: «تُنَجِّيْكُمْ» بتخفيف النون وكسر الجيم دون شد، وقرأ ابن عامر وحده والحسن والأعرج وابن أبي إسحاق: «تُنَجِّيْكُمْ» بفتح النون وشد الجيم، وقوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ لفظه الخبر ومعناه الأمر أي آمنوا، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: «أليم آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا»، وقوله ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ فعل مرفوع تقديره ذلك أنه تؤمنون، وقال الأخفش: هو عطف بيان على ﴿تجارة﴾، قال المبرد: هو بمعنى آمنوا على الأمر ولذلك جاء ﴿يغفر﴾ مجزومًا، وقوله تعالى: ﴿ذلكم﴾ أشار إلى الجهاد والإيمان، و﴿خير﴾ هنا يحتمل أن يكون للتفضيل، فالمعنى من كل عمل، ويحتمل أن يكون إخبارًا، أن هذا خير في ذاته ونفسه، وانجزم قوله ﴿يغفر﴾ على الجواب للأمر المقدر في ﴿تؤمنون﴾، أو على ما يتضمنه قوله: ﴿هل أدلكم﴾ من الحض والأمر وإلى نحو هذا ذهب الفراء، وروي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قرأ: «يغفلكم» بإدغام الراء في اللام ولا يجيز ذلك سيبويه وقوله تعالى: ﴿ومساكن﴾ عطف على ﴿جنان﴾، وطيب المساكن سعتها وجمالها، وقيل طيبها المعرفة بدوام أمرها، وهذا هو الصحيح، وأي طيب مع الفناء والموت.

قوله عز وجل:

وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِثِ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِثُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَمَا نَمْنَعُ طَآئِفَةً مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَقَدْ تَآيَفَتْ طَآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عُدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾

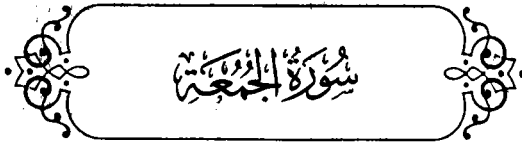
قوله تعالى: ﴿وأخرى﴾ قال الأخفش هي في موضع خفض على ﴿تجارة﴾ [الصف: ١٠]، وهذا قول قلق، قد رد عليه ناس، واحتج له آخرون، والصحيح ضعفه، لأن هذه «الأخرى» ليست مما دل عليه إنما هي مما أعطى ثمنًا جزاء على الإيمان والجهاد بالنفس والمال، وقال الفراء: ﴿وأخرى﴾ في موضع رفع، وقال قوم: إن ﴿أخرى﴾، في موضع نصب بإضمار فعل، كأنه قال: ﴿يغفر ذنوبكم ويدخلكم جنات﴾ [الصف: ١٢] ويمنحكم أخرى، وهي النصر والفتح القريب، وقرأ ابن أبي عتبة «نصرًا من الله وفتحًا»، بالنصب فيهما، ووصفها تعالى بأن النفوس تحبها من حيث هي عاجلة في الدنيا، وقد وكلت

النفس لحب العاجل، ففي هذا تحريض، ثم قواه تعالى بقوله: ﴿وبشر المؤمنين﴾ وهذه الألفاظ في غاية الإيجاز، وبراعة المعنى، ثم ندب تعالى المؤمنين إلى النصر، ووضع لهم هذا الاسم، وإن كان العرف قد خص به الأوس والخزرج، وسماهم الله تعالى به، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والأعرج وعيسى: «أنصاراً»، بتنوين الأنصار، وقرأ الباقون والحسن والجحدري «أنصارَ الله»، بالإضافة، وفي حرف عبد الله: «أنتم أنصار الله»، ثم ضرب تعالى لهم المثل بقوم بادروا حين دعوا، وهم «الحواريون»: خلصان الأنبياء، سموا بذلك لأنه ردد اختبارهم وتصفيتهم، وكذلك رد تخيل الحواري: فاللفظتان في الحور، وقيل: «الحواريون» سموا بذلك لبياض ثيابهم، وكانوا غسالين، نصروا عيسى، واستعمل اسمهم حتى قيل للناصر العاضد حواري، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «حواريي الزبير»، واقتراق طوائف بني إسرائيل هو في أمر عيسى عليه السلام، قال قتادة: والطائفة الكافرة ثلاث فرق: اليعقوبية: وهم قالوا هو الله، والإسرائيلية: وهم قالوا ابن الله، والنسطورية: وهم قالوا هو إله، وأمه إله والله ثالثهما، تعالى الله عن أقوالهم علواً كبيراً.

وقوله تعالى: ﴿فأيدينا الذين آمنوا على عدوهم﴾ قيل ذلك قبل محمد صلى الله عليه وسلم، وبعد فترة من رفع عيسى عليه السلام، رد الله تعالى الكرة لمن آمن به، فغلبوا الكافرين الذين قتلوا صاحبه الذي ألقى عليه الشبه، وقيل ذلك بمحمد صلى الله عليه وسلم، أصبح المؤمن بعيسى ظاهراً لإيمانه بمحمد صلى الله عليه وسلم، وذلك أنه لا يؤمن أحد حق الإيمان بعيسى، إلا وفي ضمن ذلك الإيمان بمحمد لأنه بشر به، وحرص عليه، وقيل كان المؤمنون به قديماً ﴿ظاهرين﴾ بالحجة، وإن كانوا مفرقين في البلاد، مغلوبين في ظاهر الحياة الدنيا، وقرأ مجاهد وحמיד والأعرج وابن محيصن: «فأيدينا» مخففة الياء ممدودة الألف.

نجز تفسير سورة الصف والله الحمد كثيراً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



وهي مدنية وذكر النقاش قولاً إنها مكية، وذلك خطأ ممن قاله، لأن أمر اليهود لم يكن إلا بالمدينة، وكذلك أمر الجمعة لم يكن قط بمكة، أعني إقامتها وصلاتها، وأما أمر الانقضاء فلا مرية في كونه بالمدينة، وذكر النقاش عن أبي هريرة قال: كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت سورة الجمعة وهذا أيضاً ضعيف لأن أبا هريرة إنما أسلم أيام خيبر.

قوله عز وجل:

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾

تقدم القول في لفظ الآية الأولى، واختلفت القراءة في إعراب الصفات في آخرها.

فقرأ جمهور الناس: «الملك» بالخفض نعتاً ﴿الله﴾، وكذلك ما بعده، وقرأ أبو وائل شقيق بن سلمة وأبو الدينار: «الملك» بالرفع على القطع، وفتح أبو الدينار القاف من «القدوس»، و﴿الأمين﴾: يراد بهم العرب، والامي في اللغة الذي لا يكتب ولا يقرأ كتاباً، قيل هو منسوب إلى الأم، أي هو على الخلقة الأولى في بطن أمه، وقيل هو منسوب إلى الأمة، أي على سليقة البشر دون تعلم، وقيل منسوب إلى أم القرى وهي مكة وهذا ضعيف، لأن الوصف بـ﴿الأمين﴾ على هذا يقف على قریش، وإنما المراد جميع العرب، وفيهم قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنا أمة أمية لا نحسب ولا نكتب الشهر هكذا وهكذا».

وهذه الآية تعديد نعمة الله عندهم فيما أولاهم، والآية المتلو: القرآن ﴿يزكّيهم﴾ معناه: يطهرهم من الشرك وينمي الخير فيهم، و﴿الكتاب﴾: الوحي المتلو، و﴿والحكمة﴾: السنة التي هي لسانه عليه السلام، ثم أظهر تعالى تأكيد النعمة بذكر حالهم التي كانت في الضد من الهداية، وذلك في قوله تعالى: ﴿وإن كانوا من قبل لفی ضلال مبين﴾، و﴿آخرين﴾ في موضع خفض عطفاً على ﴿الأمين﴾ وفي موضع نصب عطفاً على الضمائر المتقدمة.

واختلف الناس في المعنيين بقوله: ﴿وآخرين﴾ من هم؟ فقال أبو هريرة وغيره: أراد فارساً، وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: من الآخرون؟ فأخذ بيد سلمان وقال: «لو كان الدين في الثريا لناله رجال من هؤلاء». أخرجه مسلم. وقال سعيد بن جبير ومجاهد: أراد الروم والعجم، فقوله تعالى: ﴿منهم﴾ على هذين القولين: إنما يريد في البشرية والإيمان أنه قال: وفي آخرين من الناس: وقال مجاهد وعكرمة ومقاتل: أراد التابعين من أبناء العرب، فقوله: ﴿منهم﴾ يريد به النسب والإيمان، وقال ابن زيد ومجاهد والضحاك وابن حبان: أراد بقوله: ﴿وآخرين﴾ جميع طوائف الناس، ويكون منهم في البشرية والإيمان على ما قلناه وذلك أنا نجد بعثه عليه السلام إلى جميع الخلائق، وقال ابن عمر لأهل اليمن: أنتم هم، وقوله تعالى: ﴿لما يلحقوا﴾ نفي لما قرب من الحال، والمعنى أنهم مزعمون أن يلحقوا فهي «لم» زيدت عليها «ما» تأكيداً. قال سيويه «لما» نفي قولك قد فعل، و«لن» قولك فعل دون قد، وقوله تعالى: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ الآية، تبين لموقع النعمة، وتخصيصه إياهم بها.

قوله عز وجل:

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْفِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

﴿الذين حملوا التوراة﴾ هم بنو إسرائيل الأحرار المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم، و﴿حملوا﴾ معناه: كلفوا القيام بأوامرها ونواهيها، فهذا كمال حمل الإنسان الأمانة، وليس ذلك من الحمل على الظهر، وإن كان مشتقاً منه، وذكر تعالى أنهم ﴿لم يحملوها﴾، أي لم يطيعوا أمرها، ويقفوا عند حدها حين كذبوا بمحمد عليه الصلاة والسلام، و﴿التوراة﴾ تنطق بنبوته، فكان كل حبر لم ينتفع بما حمل كمثل حمار عليه أسفار، فهي عنده والزبل وغير ذلك بمنزلة واحدة، وقرأ يحيى بن يعمر: «حَمَلُوا» بفتح الحاء والميم مخففة، وقرأ المأمون العباسي: «يُحْمَلُ أسفاراً» بضم الياء وفتح الحاء وشد الميم مفتوحة، وفي مصحف ابن مسعود: «كمثل حمار» بغير تعريف، والسفر: الكتاب المجتمع الأوراق منصودة، ثم بين حال مثلهم وفساده بقوله تعالى: ﴿بئس مثل القوم﴾ وقوله تعالى: ﴿قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتكم﴾ الآية، روي أنها نزلت بسبب أن يهود المدينة لما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم خاطبوا يهود خيبر في أمره، وذكروا لهم نبوته، وقالوا: إن رأيتم اتباعه أطعناكم وإن رأيتم خلافه خالفناه معكم، فجاءهم جواب أهل خيبر يقولون: نحن أبناء إبراهيم خليل الرحمن، وأبناء عَزْرَ بن الله ومنا الأنبياء ومثي كانت النبوة في العرب، نحن أحق بالنبوة من محمد، ولا سبيل إلى اتباعه، فنزلت الآية بمعنى: أنكم إذا

كنتم من الله تعالى بهذه المنزلة فقربه وفراق هذه الحياة الحسية أحب إليكم ﴿فتمنوا الموت﴾ إن كنتم تعتقدون في أنفسكم هذه المنزلة، أخبر تعالى عنهم بأنهم لا يتمنون ولا يلقونه إلا كرهاً لعلمهم بسوء حالهم عند الله وبعدهم منه. هذا هو المعنى اللازم من ألفاظ الآية، وروى كثير من المفسرين أن الله تعالى جعل هذه الآية معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم فيهم، وآية باهرة، وأعلمه أنه إن تمنى أحد منهم الموت في أيام معدودة مات وفارق الدنيا، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تمنوا الموت» على جهة التعجيز وإظهار الآية، فما تمناه أحد خوفاً من الموت، وثقة بصدق محمد صلى الله عليه وسلم، ثم توعدهم تعالى بالموت الذي لا محيد لهم عنه، ثم بما بعده من الرد إلى الله تعالى، وقرأ ابن مسعود: «منه ملائكتكم» بإسقاط ﴿فإنه﴾، وقوله تعالى: ﴿فينبئكم﴾ أي إنباء معاقب مجاز عليه بالتعذيب، وقرأ ابن أبي إسحاق «فتمنوا الموت» بكسر الواو وكذلك يحيى بن يعمر.

قوله عز وجل:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾

«النداء بالجمعة» هو في ناحية من المسجد، وكان على الجدار في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال السائب بن يزيد: كان للنبي صلى الله عليه وسلم مؤذن واحد على باب المسجد، وفي مصنف أبي داود: كان بين يديه وهو على منبر أذان، وهو الذي استعمل بنو أمية، وبقي بقرطبة إلى الآن، ثم زاد عثمان النداء على الزوراء لسمع الناس، فقوم عبروا عن زيادة عثمان بالثاني، كأنهم لم يعتدوا الذي كان بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، وقوم عبروا عنه بالثالث، وقرأ الأعمش وابن الزبير: «الجمعة» بإسكان الميم وهي لغة، والمأمور بالسعي هو المؤمن الصحيح البالغ الحر الذكر، ولا جمعة على مسافر في طاعة، فإن حضرها أحسن، وأجزأته.

واختلف الناس في الحد الذي يلزم منه السعي، فقال مالك: ثلاثة أميال.

قال القاضي أبو محمد: من منزل الساعي إلى المنادي، وقال فريق: من منزل الساعي إلى أول المدينة التي فيها النداء، وقال أصحاب الرأي: يلزم أهل المدينة كلها السعي من سمع النداء ومن لم يسمع، وإن كانت أقطارها فوق ثلاثة أميال. قال أبو حنيفة: ولا من منزله خارج المدينة كزرارة من الكوفة، وإنما بينهما مجرى نهر، ولا يجوز لهم إقامتها لأن من شروطها الجامع والسلطان القاهر، والسوق القائمة، وقال بعض أهل العلم: يلزم السعي من خمسة أميال، وقال الزهري: من ستة أميال، وقال أيضاً: من أربعة

أميال وقاله ابن المنكدر، وقال ابن عمر وابن المسيب وابن حنبل: إنما يلزم السعي من سمع النداء، وفي هذا نظر. والسعي في الآية: ليس الإسراع في المشي كالسعي بين الصفا والمروة، وإنما هو بمعنى قوله: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩]، فالقيام والوضوء ولبس الثوب والمشى سعي كله إلى ذكر الله تعالى، قال الحسن وقتادة ومالك وغيرهم: إنما تؤتى الصلاة بالسكينة، فالسعي هو بالنية والإرادة، والعمل والذكر هو وعظ الخطبة قاله ابن المسيب، ويؤيد ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الملائكة على باب المسجد يوم الجمعة يكتبون الأول فالأول إذا خرج الإمام طويت الصحف وجلست الملائكة يستمعون الذكر»، والخطبة عند جمهور العلماء شرط في انعقاد الجمعة، وقال الحسن: وهي مستحبة، وقرأ عمر بن الخطاب، وعلي وأبي وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وابن الزبير، وجماعة من التابعين: «فامضوا إلى ذكر الله»، وقال ابن مسعود: لو قرأت «فاسعوا» لأسرعت حتى يقع ردائي.

واختلف الناس في: ﴿البيع﴾ في الوقت المنهي عنه إذا وقع ما الحكم فيه بعد إجماعهم على وجوب امتناعه بدءاً، فقال الشافعي: يمضي، وقال مرة: يفسخ ما لم يفت فإن فات صح بالقيمة، واختلف في وقت التقويم، فقيل: وقت القبض، وقيل: وقت الحكم، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى السعي وترك البيع، وقوله: ﴿فَانْتَشَرُوا﴾ أجمع الناس على أن مقتضى هذا الأمر الإباحة، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أنه الإباحة في طلب المعاش، وأن ذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُلِلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢] إلا ما روي عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ذلك الفضل المبتغى هو عيادة مريض أو صلة صديق أو اتباع جنازة».

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا ينبغي أن يكون المرء بقية يوم الجمعة، ويكون نحوه صبيحة يوم السبت، قاله جعفر بن محمد الصادق، وقال مكحول: الفضل المبتغى العلم، فينبغي أن يطلب إثر الجمعة، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا﴾ الآية نزلت بسبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قائماً على المنبر يخطب يوم الجمعة، فأقبلت غير من الشام تحمل ميرة وصاحب أمرها دحية بن خليفة الكلبي، قال مجاهد: وكان من عرفهم أن يدخل غير الميرة بالطبل والمعازف والصياح سروراً بها، فدخلت العير بمثل ذلك، فانفض أهل المسجد إلى رؤية ذلك وسماعه وتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً على المنبر ولم يبق معه غير اثني عشر رجلاً. قال جابر بن عبد الله: أنا أحدهم.

قال القاضي أبو محمد: ولم تمر بي تسميتهم في ديوان فيما أذكر الآن، إلا إني سمعت أبي رضي الله عنه يقول: هم العشرة المشهود لهم بالجنة، واختلف في الحادي عشر، فقيل: عمار بن ياسر، وقيل: عبد الله بن مسعود، وقال ابن عباس في كتاب الثعلبي: بقي معه ثمانية نفر، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لولا هؤلاء لقد كانت الحجارة سومت على المنفضين من السماء»، وفي حديث آخر: «والذي نفس محمد بيده، ولو تابعتهم حتى لا يبقى منكم أحد، أسأل عليكم الوادي ناراً». وقال قتادة: بلغنا أنهم فعلوا ذلك ثلاث مرات، لأن قدوم العير كان يوافق يوم الجمعة يشبه أن المراحل كانت تعطي

ذلك. وقال تعالى: ﴿إِلَيْهَا﴾ ولم يقل تهماً بالأهم، إذ هي كانت سبب اللهو ولم يكن اللهو سببها، وفي مصحف ابن مسعود: «ومن التجارة للذين اتقوا والله خير الرازقين». وتأمل إن قدمت التجارة مع الرؤية لأنها أهم وأخرت مع التفضيل لتقع النفس أولاً على الأبين، وهذه الآية، قيام الخطيب، وأول من استراح في الخطبة عثمان، وأول من جلس معاوية وخطب جالساً، والرازق صفة فعل، وقد يتصف بها بعض البشر تجوزاً إذا كان سبب رزق الحيوان، ﴿والله﴾ تعالى ﴿خير الرازقين﴾.

نجز تفسير سورة الجمعة والحمد لله كثيراً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ

وهي مدنية بإجماع، وذلك أنها نزلت في غزوة بني المصطلق بسبب أن عبد الله بن أبي بن سلول، كانت منه في تلك الغزوة أقوال، وكان له أتباع يقولون قوله، فنزلت السورة كلها بسبب ذلك، ذكر الله تعالى فيها ما تقدم من المنافقين من خلفهم وشهادتهم في الظاهر بالإيمان وأنهم كذبة، وذكر فيها ما تأخر منهم ووقع في تلك الغزوة، وسيأتي بيان ذلك فصلاً فصلاً عند تفسير الآيات إن شاء الله.

قوله عز وجل:

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ
لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ
وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسْنَدَةٌ يُحْسِبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَتَلْنَاهُمْ
وَاللَّهُ أَنَّى يُوَفِّكُونَ ﴿٤﴾

فضح الله تعالى بهذه الآية سريرة المنافقين، وذلك أنهم كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿نشهد أنك لرسول الله﴾، وهم في إخبارهم هذا كاذبون، لأن حقيقة الكذب أن يخبر الإنسان بضد ما في قلبه، وكسرت الألف من «إن» في الثلاثة، لدخول اللام المؤكدة في الخبر، وذلك لا يكون مع المفتوحة، وقوله: ﴿نشهد﴾ وما جرى مجراها من أفعال اليقين، والعلم يجاب بما يجاب به القسم، وهي بمنزلة القسم، وقرأ الناس: «أيمانهم» جميع يمين، وقرأ الحسن بن أبي الحسن بخلاف «إيمانهم»، بكسر الألف، أي هذا الذي تظهرون، وهذا على حذف مضاف، تقديره: إظهار إيمانهم، والجنة: ما يستتر به في الأجرام والمعاني، وقوله تعالى: ﴿فصدوا﴾ يحتمل أن يكون غير متعد تقول: صد زيد، ويحتمل أن يكون متعدياً كما قال:

صددت الكأس عنا أم عمرو

والمعنى: صدوا غيرهم ممن كان يريد الإيمان أو من المؤمنين في أن يقاتلوهم وينكروا عليهم،

وتلك سبيل الله فيهم، وقد تقدم تفسير نظير هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿ذلك﴾ إشارة إلى فعل الله تعالى في فضيحتهم وتوبيخهم، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى سوء ما عملوا، فالمعنى ساء عملهم أن كفروا بعد إيمانهم، وقوله تعالى: ﴿آمنوا ثم كفروا﴾ إما أن يريد به منهم من كان آمن ثم نافق بعد صحة من إيمانه، وقد كان هذا موجوداً، وإما أن يريدهم كلهم، فالمعنى ذلك أنهم أظهروا الإيمان ثم كفروا في الباطن أمرهم فسمى ذلك الإظهار إيماناً، وقرأ بعض القراء: «فطبع» على بناء الفعل للفاعل، وقرأ جمهور القراء: «فطُبع» بضم الطاء على بناءه للمفعول بغير إدغام. وأدغم أبو عمرو، وقرأ الأعمش: «فطبع الله»، وعبر بالطبع عما خلق في قلوبهم من الريب والشك وختم عليهم به من الكفر والمصير إلى النار، وقوله تعالى: ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، وإن يقولوا تسمع لقولهم﴾ توبيخ لهم لأنهم كانوا رجالاً أجمل شيء وأفصحه، فكان نظرهم يروق وقولهم يخيب، ولكن الله تعالى جعلهم «كالخشب المسندة»، وإنما هي أجرام لا عقول لها، معتمدة على غيرها، لا تثبت بأنفسها، ومنه قولهم: تساند القوم إذا اصطفوا وتقابلوا للقتال، وقد يحتمل أن يشبه اصطفاهم في الأندية باصطفاف الخشب المسندة وخلوهم من الأفهام الثاقمة لخلو الخشب من ذلك، وقال رجل لابن سيرين: رأيتني في النوم محتضناً خشبة، فقال ابن سيرين: أظنك من أهل هذه الآية وتلا: ﴿كأنهم خشب مسندة﴾. وقرأ عكرمة وعطية: «يُسمع» مضمومة بالياء، وقرأ نافع وابن عامر وحزمة وعاصم: «خُشْب» بضم الخاء والشين، وقرأ قبل وأبو عمرو والكسائي: «خُشْب» بضم الخاء وإسكان الشين وهي قراءة البراء بن عازب واختيار ابن عبيد. وقرأ سعيد بن جبيرة وسعيد بن المسيب: «خُشْب» بفتح الخاء والشين، وذلك كله جمع خشبة بفتح الخاء والشين، فالقراءتان أولاً كما تقول: بُدنة وبُدن وبُدن: قاله سيبويه، والأخيرة على الباب في تمر.

وكان عبد الله بن أبي من أبهى المنافقين وأطولهم، ويدل على ذلك أنه لم يوجد قميص يكسو العباس غير قميصه، وقد تقدم في سورة البقرة تحرير أمر المنافقين وكيف سترهم الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿يحسبون كل صيحة عليهم﴾، فضح أيضاً لما كانوا يسرونه من الخوف، وذلك أنهم كانوا يتوقعون أن يأمر النبي صلى الله عليه وسلم عن الله بقتلهم، وقال مقاتل: فكانوا متى سمعوا نشدان ضالة أو صياحاً بأي وجه كان أو أخبروا بنزول وحي طارت عقولهم حتى يسكن ذلك. ويكون في غير شأنهم، وجرى هذا اللفظ مثلاً في الخائف، ونحو قول الشاعر [بشار بن برد العقيلي]: [الوافر]

يروِّعه السرار بكل أرض مخافة أن يكون به السرار

وقول جرير: [الكامل]

ما زلت تحسب كل شيء بعدهم خيلاً تكر عليهم ورجالا

ثم أخبر تعالى بأنهم ﴿العدو﴾ وحذر منهم، و﴿العدو﴾ يقع للواحد والجمع، وقوله تعالى: ﴿قاتلهم الله﴾ دعاء يتضمن الإقصاء والمنازعة، وتمني الشر لهم، وقوله تعالى: ﴿أنى يؤفكون﴾ معناه: كيف يصرفون، ويحتمل أن يكون ﴿أنى﴾ استفهاماً، كأنه قال كيف يصرفون أو لأي سبب لا يرون

أنفسهم، ويحتمل أن يكون: ﴿أَنْتَى﴾ ظرفاً لـ ﴿قَاتِلْهُمْ﴾ كأنه قال ﴿قَاتِلْهُمْ﴾، كيف انصرفوا أو صرفوا، فلا يكون في القول استفهام على هذا.

قوله عز وجل:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَارِءُ وُسْمٍ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ
 ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
 الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا
 وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى
 الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ
 الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

كان أمر عبد الله بن أبي ابن سلول، أنه خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بني المصطلق، فبلغ الناس إلى ماء سبق إليه المهاجرون وكأنهم غلبوا الأنصار عليه بعض الغلبة، فقال عبد الله بن أبي لأصحابه: قد كنت قلت لكم في هؤلاء الجلابيب ما قلت فلم تسمعوا مني، وكان المنافقون ومن لا يتحرى يسمى المهاجرين الجلابيب ومنه قول حسان بن ثابت: [البيسط]

أرى الجلابيب قد عزوا وقد كثروا وابن القريرة أمسى بيضة البلد

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أتحضر علينا يا حسان»، ثم إن الجهجاه الغفاري كان أجيراً لعمر بن الخطاب ورد الماء بفرس لعمر، فازدحم هو وسان بن وبرة الجهني وكان حليفاً للأوس فكسع الجهجاه سناناً، فغضب سنان فتأثروا، ودعا الجهجاه: يا للمهاجرين، ودعا سنان: يا للأنصار، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «ما بال دعوى الجاهلية»، فلما أخبر بالقصة، قال: «دعوها فإنها منتنة». واجتمع في الأمر عبد الله بن أبي في قوم من المنافقين، وكان معهم زيد بن أرقم فتى صغيراً لم يتحفظ منه، فقال عبد الله بن أبي: أوقد تداعوا علينا فوالله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، وقال لهم: ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل﴾، وقال لهم: إنما يقيم هؤلاء المهاجرون مع محمد بسبب معونتك وإنفاقكم عليهم، ولو قطعتم ذلك عنهم لفروا، فذهب زيد بن أرقم إلى عمه وكان في حجره وأخبره، فأتى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا زيد، غضبت على الرجل أو لعلك وهمت»، فأقسم زيد ما كان شيء من ذلك، ولقد سمع من عبد الله بن أبي ما حكى، فعاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي عند رجال من الأنصار، فبلغه ذلك، فجاء وحلف ما قال، وكذب زيداً، وحلف معه قوم من المنافقين، فكذب رسول الله صلى الله عليه وسلم زيداً، وصدق عبد الله بن أبي، فبقي زيد في منزله لا يتصرف حياء من الناس،

فنزلت هذه السورة عند ذلك، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في زيد وقال له: «لقد صدقك الله يا زيد ووفت أذنك»، فخزي عند ذلك عبد الله بن أبي ابن سلول، ومقتة الناس، ولامه المؤمنون من قومه وقال بعضهم: امض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، واعترف بذنبك يستغفر لك، فلوى رأسه إنكاراً لهذا الرأي، وقال لهم: لقد أشرتم عليّ بأن أعطي زكاة من مالي ففعلت، ولم يبق لكم إلا أن تأمروني بالسجود لمحمد.

قال القاضي أبو محمد: فهذا هو قصص هذه السورة موجزاً، و«تعالى» نداء يقتضي لفظه أنه دعاء الأعلى للأسفل، ثم استعمل لكل داع لما فيه من حسن الأدب. وقرأ نافع والمفضل عن عاصم «لوا» بتخفيف الواو، وهي قراءة الحسن بخلاف ومجاهد، وأهل المدينة، وقرأ الباقون وأبو جعفر والأعمش: «لوا» بشد الواو على تضعيف المبالغة، وهي قراءة طلحة وعيسى وأبي رجاء وزر والأعرج، وقرأ بعض القراء هنا: «يصدون» بكسر الصاد، والجمهور بضمها، وقوله تعالى: ﴿سواء عليهم﴾ الآية، روي أنه لما نزلت: ﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر لهم﴾ [التوبة: ٨٠]، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لأزيدن على السبعين»، وفي حديث آخر: «لو علمت أنني إن زدت على السبعين غفر لهم لزدت»، فكانه عليه السلام رجا أن هذا الحد ليس على جهة الحتم جملة، بل على أن ما يجاوزه يخرج عن حكمه، فلما فعل ابن أبي وأصحابه ما فعلوا شدد الله تعالى عليهم في هذه السورة، وأعلم أنه لن يغفر لهم دون حد في الاستغفار، وفي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو أعلم أنني إن زدت غفر لهم» نص على رفض دليل الخطاب.

وقرأ جمهور الناس: «استغفرت» بالقطع وألف الاستفهام، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: «استغفرت» بمد على الهمزة وهي ألف التسوية، وقرأ أيضاً: بوصل الألف دون همز على الخبر، وفي هذا كله ضعف لأنه في الأولى: أثبت همزة الوصل، وقد أغنت عنها همزة الاستفهام، وفي الثانية: حذف همزة الاستفهام وهو يريد بها وهذا مما لا يستعمل إلا في الشعر.

وقوله تعالى: ﴿هم الذين﴾ أشار عبد الله بن أبي ومن قال بقوله، قاله علي بن سليمان ثم سفه أحلامهم في أن ظنوا إنفاقهم هو سبب رزق المهاجرين ونسوا أن جريان الرزق بيد الله تعالى، إذا انسد باب انفتح غيره، وقرأ الفضل بن عيسى الرقاشي: «حتى يُنفِضُوا» بضم الياء وتخفيف الفاء، يقال: «أنفَضَ» الرجل إذا فني طعامه فنفض وعاءه والخزائن موضع الإعداد، ونجد القرآن قد نطق في غير موضع بالخزائن ونجد في الحديث: «خزنة الريح» وفي القرآن: ﴿من جبال فيها من برد﴾ [النور: ٤٣]، فجائز أن تكون هذه عبارة عن القدرة وأن هذه الأشياء إيجادها عند ظهورها جائز. وهو الأظهر: إن منها أشياء مخلوقة موجودة يصرفها الله تعالى حيث شاء، وظواهر ألفاظ الشريعة تعطي هذا. ومعناه في التفسير قال عنت على الخزان، وفي الحديث: «ما انفتح من خزائن الريح على قوم عاد إلا قدر حلقة الخاتم، ولو انفتح مقدار منخر الثور لهلكت الدنيا»، وقال رجل لحاتم الأصم: من أين تأكل، فقرأ: ﴿ولله خزائن السماوات والأرض﴾، وقال الجنيد: ﴿خزائن﴾ السماء: الغيوب، و﴿خزائن﴾ الأرض: القلوب. وقرأ الجمهور:

«لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزَّ» بضم الياء وكسر الراء بمعنى أن العزيز يخرج الدليل ويبيعه، وقال أبو حاتم: وقرئ «لَنُخْرِجَنَّ» بنون الجماعة مفتوحة، وضم الراء، «الْأَعَزُّ» نصباً منها، «الْأَذَلُّ» أيضاً نصباً على الحال، وذكرها أبو عمر الداني عن الحسن، ورويت هذه القراءة: «لَنُخْرِجَنَّ» بضم النون وكسر الراء، وقرأ قوم فيما حكى الفراء والكسائي، وذكرها المهدوي: «لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزَّ مِنْهَا الْأَذَلُّ» بفتح الياء وضم الراء. ونصب «الْأَذَلُّ» على الحال بمعنى: أن نحن الذين كنا أعزة سنخرج أذلاء، وجاءت هذه الحال معرفة، وفيها شذوذ، وحكى سيبويه: أدخلوا الأول فالأول، ثم أعلم تعالى أن العزة لله وللرسول وللمؤمنين، وفي ذلك وعيد، وروي أن عبد الله بن عبد الله بن أبي، وكان رجلاً صالحاً لما سمع الآية، جاء إلى أبيه فقال له: أنت والله يا أبت الدليل، ورسول الله العزيز، فلما وصل الناس إلى المدينة، وقف عبد الله بن عبد الله على باب السكة التي يسلكها أبوه، وجرد السيف ومنعه الدخول، وقال: والله لا دخلت إلى منزلك إلا أن يأذن في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعبد الله بن أبي في أذل الرجال، وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعث إليه أن خله يمض إلى منزله، فقال: أما الآن فنعم، فمضى إلى منزله.

قوله عز وجل:

يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ آمَنُوا وَلَا أُولَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنْفَقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

الإلهاء الإشغال بملذذ وشهوة، و﴿ذكر الله﴾ هنا عام في الصلاة والتوحيد والدعاء، وغير ذلك من فرض ومندوب، وهذا قول الحسن وجماعة من المفسرين، وقال الضحاك وعطاء وأصحابه: المراد بالذكر: الصلاة المكتوبة، والأول أظهر، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾، قال جمهور من المتأولين: المراد الزكاة، وقال آخرون: ذلك عام في مفروض ومندوب. وقوله: ﴿يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي علاماته، وأوائل أمره وقوله: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، طلب للكرة والإمهال، وفي مصحف أبي بن كعب: «أخترت» بغير ياء، وسماه قريباً لأنه آت، وأيضاً فإنما يتمنى ذلك ليقضي فيه العمل الصالح فقط، وليس يتسع الأمل حينئذ لطلب العيش ونضرت، وفي مصحف أبي: «فأتصدق»، وقوله: ﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ظاهره العموم، فقال ابن عباس هو الحج، وروي عنه أنه قال في مجلسه يوماً: ما من رجل لا يؤدي الزكاة ولا يحج إلا طلب الكرة عند موته فقال له رجل: أما تتقي الله المؤمن بطلب الكرة؟ فقال له ابن عباس: نعم، وقرأ الآية، وقرأ جمهور السبعة والناس: «وَأَكُنْ» بالجزم عطفًا على الموضع، لأن التقدير: «إن تؤخرني أصدق، وأكن»، هذا مذهب أبي علي، فأما ما حكاه سيبويه عن الخليل فهو غير هذا وهو جزم «أكن» على توهم الشرط الذي يدل عليه التمني، ولا موضع هنا، لأن الشرط ليس بظاهر، وإنما يعطف

على الوضع حيث يظهر الشرط كقوله تعالى: ﴿من يضل الله فلا هادي به﴾ [الأعراف: ١٨٦]، ونذرهم، فمن قرأ بالجزم عطف على موضع ﴿فلا هادي له﴾ [الأعراف: ١٨٦]، لأنه وقع هنالك فعل كان مجزوماً، وكذلك من قرأ: «ونكفر» بالجزم عطفاً على موضع فهو خير لكم، وقرأها أبو عمرو وأبو رجاء والحسن وابن أبي إسحاق، ومالك بن دينار وابن محيصن والأعمش وابن جبير وعبيد الله بن الحسن العنبري، قال أبو حاتم، وكان من العلماء الفصحاء: «وأكون» بالنصب عطفاً على ﴿فأصدق﴾، وقال أبو حاتم في كتبها في المصحف بغير واو، وإنهم حذفوا الواو كما حذفوها من «أبجد» وغيره، ورجحها أبو علي، وفي مصحف أبي بن كعب وابن مسعود: «فأتصدق وأكن» وفي قوله تعالى: ﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾، حض على المبادرة ومساابقة الأجل بالعمل الصالح، وقرأ السبعة والجمهور: «تعملون» بالتاء على المخاطبة لجميع الناس، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: «بما يعملون» بالياء على تخصيص الكفار بالوعيد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ التَّغَابُنِ

قال بعض المفسرين : هي مدنية ، وقال آخرون : هي مكية ، إلا من قوله عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن أَزْوَاجَكُم وَأَوْلَادَكُم...﴾ [التغابن : ١٤] إلى آخر السورة فإنه مدني . وذكر الثعلبي عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما من مولود يولد إلا في تشابيك رأسه خمس آيات من فاتحة سورة التغابن .

قوله عز وجل :

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ عموم معناه التنبيه ، والشيء : الموجود ، وقوله : ﴿هو الذي خلقكم﴾ تعديد نعمة ، والمعنى ﴿فمنكم كافر﴾ لنعمته في الإيجاد حين لم يوجد كافر لجهله بالله تعالى ، ﴿ومنكم مؤمن﴾ بالله ، والإيمان به شكر لنعمته ، فالإشارة في هذا التأويل في الإيمان والكفر هي إلى اكتساب العبد ، هذا قول جماعة من المتأولين ، وحجتهم قول النبي صلى الله عليه وسلم : «كل مولود يولد على الفطرة» ، وقوله تعالى : ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ [الروم : ٣٠] ، وكأن العبارة في قوله تعالى : ﴿فمنكم﴾ تعطي هذا ، وكذلك يقويه قوله : ﴿والله بما تعملون بصير﴾ . وقيل : المعنى «خلقكم منكم مؤمن ومنكم كافر» في أصل الخلق فهي جملة في موضع الحال ، فالإشارة على هذا في الإيمان والكفر هي إلى اختراع الله تعالى وخلقته ، وهذا تأويل ابن مسعود وأبي ذر ، ويجري مع هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : «إن أحدكم يكون في بطن أمه نطفة أربعين يوماً ، ثم علقه أربعين يوماً ، ثم مضغه أربعين يوماً ، ثم يجيء الملك فيقول يا رب : أذكر أم أنثى ؟ أشقي أم سعيد ؟ فما الرزق فما الأجل ؟ فيكتب ذلك في بطن أمه» ، فقله في الحديث : «أشقي أم سعيد» هو في هذه الآية : ﴿فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ ويجري مع هذا المعنى قوله في الغلام الذي قتله الخضر : إنه طبع يوم طبع كافرًا ، وما روى ابن مسعود أنه عليه السلام قال : «خلق الله فرعون في البطن كافرًا وخلق يحيى بن زكرياء مؤمنًا» وقال عطاء بن

أبي رباح: فمعنى الآية: ﴿فمنكم كافر﴾ بالله ﴿مؤمن﴾ بالكوكب، ومؤمن بالله كافر بالكوكب، وقدم الكافر لأنه أعرف من جهة الكثرة، وقوله تعالى: ﴿بالحق﴾ أي حين كان خلقها محقوقاً في نفسه ليست عبثاً ولا لغير معنى.

وقرأ جمهور الناس: «صوركهم» بضم الصاد، وقرأ أبو رزين: «صوركم» بكسرهما، وهذا تعديد النعمة في حسن الخلقة، لأن أعضاء ابن آدم متصرفة لجميع ما تتصرف به أعضاء الحيوان، وزيادات كثيرة فضل بها ثم هو مفضل بحسن الوجه، وجمال الجوارح، وحجة هذا قوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ [التين: ٤]، وقال بعض العلماء: النعمة المعددة هنا إنما هي صورة الإنسان من حيث هو إنسان مدرك عاقل، فهذا هو الذي حسن له حتى لحق ذلك كمالات كثيرة.

قال القاضي أبو محمد: والقول الأول أحرى في لغة العرب، لأنها لا تعرف الصور إلا الشكل، وذكر تعالى علمه بما في السماوات والأرض، فعم عظام المخلوقات، ثم تدرج القول إلى أخفى من ذلك وهو جميع ما يقوله الناس في سر وفي علن، ثم تدرج إلى ما هو أخفى، وهو ما يهجس بالخواطر، وذات الصدور: ما فيها من خطرات واعتقادات كما يقال: الذئب مغبوط بذئ بطنه، كما قال أبو بكر رضي الله عنه: إنما هو ذو بطن بنت خارجة، و﴿الصدور﴾ هنا عبارة عن القلب، إذ القلب في الصدر.

قوله عز وجل:

الْمَ يَا تَكُمُ نَبُؤُا الَّذِيْنَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُغْنَى عَنْهُمْ قُلُوبُ وَرِيٌّ لَنْبَعُشْنُمْ لَنْبَعُونَ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾

﴿يأتكم﴾ جزم وأصله «يأتكم» قال سيويه: واعلم أن الآخر إذا كان يسكن في الرفع حذف في الجزم، والخطاب في هذه الآية لقريش، ذكروا بما حل بعاد وثمود وقوم إبراهيم وغيرهم ممن سمعت قريش أخبارهم، و«وبال الأمر»: مكروهه، وما يسوء منه، وقوله تعالى: ﴿ذلك بأنه﴾ إشارة إلى ذوق الوبال، وكون عذاب الآخرة لهم، ثم ذكر تعالى من مقالة أولئك الماضين ما هو مشبه لقول كفار قريش من استبعاد بعث الله للبشر، ونبوة أحد من بني آدم، وحسد الشخص المبعوث، وقوله: ﴿أبشرو﴾ رفع بالابتداء، وجمع الضمير في قوله: ﴿يهدوننا﴾ من حيث كان البشر اسم هذا النوع الآدمي، كأنهم قالوا أناس هداة؟ وقوله تعالى: ﴿استغنى الله﴾ عبارة عما ظهر من هلاكهم، وأنهم لن يضرروا الله شيئاً، فبان أنه كان غنياً أولاً وبسبب ظهور هلاكهم بعد أن لم يكن ظاهراً ساغ استعمال هذا البناء مسنداً إلى اسم الله تعالى، لأن بناء استغنى إنما هو لطلب الشيء وتحصيله بالطلب، وقوله تعالى: ﴿زعم الذين كفروا﴾

يريد قريشاً ثم هي بعد تعم كل كافر بالبعث، وقال عبد الله بن عمر: الزعم: كنية الكذب، وقال عليه السلام: بش مطية الرجل زعموا، ولا توجد «زعم» مستعملة في فصح من الكلام إلا عبارة عن الكذب، أو قول انفرد به قائله فيريد ناقله أن يبقى عهده على الزاعم، ففي ذلك ما ينحو إلى تضعيف الزعم، وقول سيبويه: زعم الخليل إنما يجيء فيما انفرد الخليل به، ثم أمره تعالى أن يجيب نفهم بما يقتضي الرد عليه إيجاب البعث وأن يؤكد ذلك بالقسم، ثم توعدهم تعالى في آخر الآية بأنهم يخبرون بأعمالهم على جهة التوقيف والتوبيخ، المؤدي إلى العقاب.

قوله عز وجل:

فَتَأْمُرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورَ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ
التَّغَابُنِ وَمَنْ يَأْمُرْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبَشَ الْأَمْصِيرُ ﴿١٠﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ
يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾

هذا دعاء إلى الله تعالى وتبليغ وتحذير من يوم القيامة، و﴿النور﴾ القرآن ومعانيه، والعامل في قوله ﴿يوم يجمعكم﴾ يحتمل أن تكون ﴿لتنبؤ﴾ [التغابن: ٧]، ويحتمل أن تكون ﴿خبير﴾، وهو تعالى خبير في كل يوم، ولكن يخص ذلك اليوم، لأنه يوم تضرهم فيه خبرة الله تعالى بأموهم، وقرأ جمهور السبعة: «يجمعكم» بضم العين، وقرأ أبو عمر بسكونها، وروي عنه أنه أشمها الضم وهذا على جواز تسكين الحركة وإن كانت لإعراب، كما قال جرير: ولا تعرفكم العرب، وقرأ سلام ويعقوب: «نجمعكم» بالنون وضم العين، و: ﴿يوم الجمع﴾ هو يوم القيامة، وهو ﴿يوم التغابن﴾، وذلك أن كل واحد ينبعث من قبره وهو يرجو حظاً ومزلة، فإذا وقع الجزاء غبن المؤمنون الكافرين لأنهم يحوزون الجنة ويحصل الكفار في النار، نحا هذا المنحى مجاهد وغيره، وليس هذا الفعل من التغابن من اثنين، بل كتواضع وتحامل، وقرأ نافع وابن عامر والمفضل عن عاصم: «نكفر عنه» بنون وكذلك: «ندخله»، وهي قراءة الأعرج وأبي جعفر وشيبة والحسن بخلاف وطلحة، وقرأ الباقر والأعمش وعيسى والحسن في الموضعين بالياء على معنى يكفر الله، والأول هو نون العظمة وقوله تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة﴾ يحتمل أن يريد المصائب التي هي رزايا وخصها بالذكر بأنها الأهم على الناس والأبين أثراً في أنفسهم، ويحتمل أن يريد جميع الحوادث من خير وشر، وذلك أن الحكم واحد في أنها ﴿ياذن الله﴾، والإذن في هذا الموضع عبارة عن العلم والإرادة وتمكين الوقوع، وقوله تعالى: ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾ قال فيه المفسرون المعنى: ومن آمن وعرف أن كل شيء بقضاء الله وقدره، وعلمه، هانت عليه مصيبته وسلم الأمر لله تعالى. وقرأ سعيد بن جبيرة وطلحة بن مصرف: «نهد» بالنون، وقرأ الضحاك: «يهد قلبه» برفع الياء. وقرأ عكرمة

وعمر بن دينار: «يهدأ» برفع القلب، وروي عن عكرمة أنه سكن بدل الهمزة ألفاً، على معنى أن صاحب المصيبة يسلم فتسكن نفسه، ويرشد الله المؤمن به إلى الصواب في الأمور. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ عموم مطلق على ظاهره.

قوله عز وجل:

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ يَعُدُّوكمَ عَدُوًّا لَّكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ فَإِن تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغَفَّرُوا فَإِنَ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا﴾ عطف على ﴿فَأَمْنُوا﴾ [التغابن: ٨]، وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ...﴾ إلى آخر الآية. وعيد وترية لمحمد صلى الله عليه وسلم إذا بلغ، وفي قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ تحريض للمؤمنين على مكافحة الكفار والصبر على دين الله، وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ...﴾ إلى آخر السورة قرآن مدني، اختلف الناس في سببه، فقال عطاء بن أبي رباح: إنه نزل في عوف بن مالك الأشجعي، وذلك أنه أراد غزواً مع النبي صلى الله عليه وسلم، فاجتمع أهله وأولاده فبطوه وتشكوا إليه فراقه، فرق ولم يغز، ثم إنه نلهم وهم بمعاقبتهم، فنزلت الآية بسببه محذرة من الأزواج والأولاد وفتنتهم، ثم صرفه تعالى عن معاقبتهم بقوله: ﴿وإن تعفوا وتصفحوا﴾ وقال بعض المفسرين سبب الآية: إن قوماً آمنوا بالله وبطهم أزواجهم وأولادهم عن الهجرة فلم يهاجروا إلا بعد مدة، فوجدوا غيرهم قد تفقه في الدين، فندموا وأسفوا وهموا بمعاقبة أزواجهم وأولادهم، ثم أخبر تعالى أن الأموال والأولاد ﴿فتنة﴾ تشغل المرء عن مرأشه وتحمله من الرغبة في الدنيا على ما لا يحمد في آخرته، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «الولد مجنة» (مبخله)، وخرج أبو داود حديثاً في مصنفه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يخطب يوم الجمعة على المنبر حتى جاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يجرانها يعثران ويقومان، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنبر حتى أخذهما وصعد بهما، ثم قرأ: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ الآية، وقال إنني رأيت هذين فلم أصبر، ثم أخذ في خطبته.

قال القاضي أبو محمد: وهذه ونحوها هي فتنة الفضلاء، فأما فتنة الجهال والفسقة، فمؤدية إلى كل فعل مهلك، وقال ابن مسعود: لا يقول أحدكم اللهم اعصمني عن الفتنة فإنه ليس يرجع أحد إلى أهل ومال إلا وهو مشتمل على فتنة، ولكن ليقول: اللهم إني أعوذ بك من مضلات الفتن. وقال عمر لحذيفة: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت أحب الفتنة وأكره الحق، فقال عمر: ما هذا؟ فقال: أحب ولدي وأكره الموت. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ترهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة.

قوله عز وجل:

فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ تَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضْعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

قال قتادة وفريق من الناس: إن قوله: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ ناسخ لقوله: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وروي أن الأمر بحق التقاة نزل، فشق ذلك على الناس حتى نزل: ﴿ما استطعتم﴾، وذهبت فرقة منهم أبو جعفر النحاس إلى أنه لا نسخ في الآيتين، وأن قوله: ﴿حق تقاته﴾ [آل عمران: ١٠٢] مقصده «فيما استطعتم»، ولا يعقل أن يطيع أحد فوق طاقته واستطاعته، فهذه على هذا التأويل مبينة لتلك، وتحتمل هذه الآية أن يكون: ﴿فاتقوا الله﴾ مدة استطاعتكم التقوى، وتكون: ﴿ما﴾ ظرفاً للزمان كله كأنه يقول: حياتكم وما دام العمل ممكناً، وقوله: ﴿خيراً﴾ ذهب بعض النحاة إلى أنه نصب على الحال وفي ذلك ضعف، وذهب آخرون منهم إلى أنه نصب بقوله: ﴿وأنفقوا﴾ قالوا والخير هنا: المال، وذهب فريق منهم إلى أنه نعت لمصدر محذوف، تقديره: إنفاقاً ﴿خيراً﴾، ومذهب سيبويه: أنه نصب بإضمار فعل يدل عليه ﴿أنفقوا﴾.

وقرأ أبو حيوة: «يوق» بفتح الواو وشد القاف، وقرأ أبو عمرو «شح» بكسر الشين، وقد تقدم القول في: ﴿شح﴾ النفس ما هو في سورة الحشر. وقال الحسن: نظرك لامرأة لا تملكها شح، وقيل: يا رسول الله: ما يدخل العبد النار؟ قال: «شح مطاع، وهوى متبع، وجبن هالع، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخويصة نفسك».

وقرأ جمهور السبعة: «تضاعفه» وقرأ ابن كثير وابن عامر: «يضاعفه»، وذهب بعض العلماء إلى أن هذا الحض هو على أداء الزكاة المفروضة، وذهب آخرون منهم إلى أن الآية، في المندوب إليه وهو الأصح إن شاء الله.

وقوله تعالى: ﴿والله شكور﴾ إخبار بمجرد شكره تعالى على الشيء اليسير، وأنه قد يحط به عن من يشاء الحوب العظيم لارب غيره.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الطَّلَاقِ

وهي مدنية بإجماع أهل التفسير.

قوله عز وجل:

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ كُنْ يُوَعِّظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾

الطلاق على الجملة مكروه، لأنه تبديد شمل في الإسلام، وروى أبو موسى الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تطلقوا النساء إلا من رغبة، فإن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات». وروى أنس أنه عليه السلام قال: «ما حلف بالطلاق ولا استحلف به إلا منافق». واختلف في ندائه النبي. ثم قوله تعالى بعد ذلك: ﴿طلقتكم﴾، فقال بعض النحويين حكاه الزهراوي، في ذلك خروج من مخاطبة أفراد إلى مخاطبة جماعة، وهذا موجود، وقال آخرون منهم في نداء النبي صلى الله عليه وسلم: أريدت أمته معه، فلذلك قال: ﴿إذا طلقتم﴾، وقال آخرون منهم إن المعنى: ﴿يا أيها النبي﴾ قل لهم ﴿إذا طلقتم﴾، وقال آخرون إنه من حيث يقول الرجل العظيم فعلنا وصنعنا خوطب النبي صلى الله عليه وسلم بـ ﴿طلقتكم﴾ إظهاراً لتعظيمه، وهذا على نحو قوله تعالى في عبد الله بن أبي: ﴿هم الذين يقولون﴾ [المنافقون: ٧] إذا كان قوله مما يقوله جماعة، فكذاك النبي في هذه ما يخاطب به فهو خطاب الجماعة.

قال القاضي أبو محمد: والذي يظهر لي في هذا أنهما خطابان مفترقان، خوطب النبي على معنى تنبيهه لسماع القول وتلقي الأمر ثم قيل له: ﴿إذا طلقتم﴾، أي أنت وأمتك، فقوله: ﴿إذا طلقتم﴾، ابتداء كلام لو ابتدأ السورة به، وطلاق النساء: حل عصمتهم وصورة ذلك وتنويعه مما لا يختص بالتفسير، وقوله

تعالى: ﴿فَطْلُقُوهُنَّ لَعَدْتُهُنَّ﴾ أي لاستقبال عدتهن وقوامها وتقريبها عليهن، وقرأ عثمان وابن عباس وأبي بن كعب وجابر بن عبد الله ومجاهد وعلي بن الحسين وزيد بن علي وجعفر بن محمد: «فَطْلُقُوهُنَّ فِي قَبْلِ عَدْتُهُنَّ»، وروي عن بعضهم وعن ابن عمر «لَقَبْلِ طَهْرُهُنَّ»، ومعنى هذه الآية، أن لا يطلق أحد امرأته إلا في طهر لم يمسه فيها، هذا على مذهب مالك وغيره ممن قال: بأن الإقراء الاطهار فيطلق عندهم المطلق في طهر لم يمسه فيه وتعتد به المرأة، ثم تحيض حيضتين تعتد بالطهر الذي بينهما، ثم يقيم في الطهر الثالث معتدة به، فإذا رأت أول الحيضة الثالثة حلت، ومن قال: بأن الإقراء الحيض وهم العراقيون قال: ﴿لَعَدْتُهُنَّ﴾، معناه أن تطلق طاهراً، فتستقبل ثلاث حيض كوامل، فإذا رأت الطهر بعد الثالثة حلت ويخف عند هؤلاء مس في طهر الطلاق أو لم يمسه، وكذلك مالك يقول: إن طلق في طهر قد مس فيه معنى الطلاق، ولا يجوز طلاق الحائض، لأنها تطول العدة عليها، وقيل بل ذلك تعبد ولو علل بالتطويل لا ينبغي أن يجوز إذا رضيته، والأصل في ذلك حديث عبد الله بن عمر قال: طلقت امرأتي وهي حائض، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لعمر: «مره فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم يطلقها إن شاء، فتلك العدة التي أمر الله تعالى أن يطلق لها النساء». وروى حذيفة أنه عليه السلام قال: «طلقوا المرأة في قبل طهرها»، ثم أمره تعالى بإحصاء العدة لما يلحق ذلك من أحكام الرجعة والسكنى والميراث وغير ذلك، ثم أخبر تعالى بأنهن أحق بسكنى بيوتهن التي طلقن فيها، فنهى عن إخراجهن وعن خروجهن، وسنة ذلك أن لا تبين المرأة المطلقة عن بيتها ولا تغيب عنه نهائراً إلا في ضرورة، ومما لا خطب له من جائز التصرف وذلك لحفظ النسب والتحرز بالنساء، فإن كان البيت ملكاً للزوج أو بكراء منه فهذا حكمه، فإن كان لها فعليه الكراء، فإن كان قد أمتعته طول الزوجية ففي لزوم خروج العدة له قولان في المذهب اللزوم رعاية لانفصال مكارمة النكاح، والسقوط من أجل العدة من سبب النكاح، واختلف الناس في معنى قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ﴾ فقال قتادة والحسن ومجاهد: ذلك الزنا فيخرجن للحد، وهذا قول الشعبي وزيد بن أسلم وحمام والليث، وقال ابن عباس: ذلك النداء على الإحماء، فتخرج ويسقط حقها من السكنى وتلزم الإقامة في مسكن يتخذها حفظاً للنسب. وفي مصحف أبي بن كعب «إِلَّا أَنْ يَفْحَشَنَّ عَلَيْكُمْ»، وقال ابن عباس أيضاً الفاحشة جميع المعاصي، فمن سرقت أو قذفت أو زنت أو أرتب في تجارة وغير ذلك فقد سقط حقها في السكنى، وقال السدي وابن عمر: الفاحشة الخروج عن البيت، خروج انتقال، فمتى فعلت ذلك، فقد سقط حقها في السكنى، وقال قتادة أيضاً: المعنى ﴿أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ﴾ في نشوز عن الزوج فيطلق بسبب ذلك، فلا يكون عليه سكنى. وقال بعض الناس الفاحشة متى وردت معرفة فهي الزنا، ومتى جاءت منكراً فهي المعاصي يراد بها سوء عشرة الزوج ومرة غير ذلك، وقرأ عاصم: «مَبِينَةٍ» بفتح الباء المشددة تقول: بان الأمر وبينته أنا على تضعيف التعدية، وقرأ الجمهور: «مَبِينَةٍ» بكسر الباء، تقول بان الشيء وبين بمعنى واحد، إلا أن التضعيف للمبالغة، ومن ذلك قولهم قد بين الصبح لذي عينين وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ إشارة إلى جميع أوامره في هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾، قال قتادة وغيره: يريد به الرجعة، أي أحصوا العدة وامثلوا هذه الأوامر المتفقة لنسائكم

الحافظة لأنسابكم، وطلقوا على السنة تجدوا المخلص إن ندمتم فإنكم لا تدورن لعل الرجعة تكون بعد، والإحداث في هذه الآية بين التوجه عبارة عما يوجد من التراجع، وجوز قوم أن يكون المعنى «أمرأ» من النسخ، وفي ذلك بعد، وقوله تعالى: «فلذا بلغن أجلهن» يريد به آخر القروء، و«الإمسك بالمعروف»: هو حسن العشرة في الإنفاق وغير ذلك، و«المفارقة بالمعروف»: هو أداء المهر والتمتع ودفع جميع الحقوق والوفاء بالشروط وغير ذلك حسب نازلة، وقوله تعالى: «وأشهدوا ذوي عدل منكم» يريد على الرجعة، وذلك شرط في صحة الرجعة، وللمرأة منع الزوج من نفسها حتى يشهد، وقال ابن عباس المراد على الرجعة، والطلاق، لأن الإشهاد يرفع من النوازل إشكالات كثيرة، وتقييد تاريخ الإشهاد من الإشهاد، وقال النخعي: العدل: من لم تظهر منه ريبة، وهذا قول الفقهاء، والعدل حقيقة الذي لا يخاف إلا الله، وقوله تعالى: «أقيموا الشهادة لله» أمر للشهود، وقوله تعالى: «ذلكم يوعظ به» إشارة إلى إقامة الشهادة، وذلك أن جميع فصول الأحكام والأمور فإنما تدور على إقامة الشهادة، وقوله تعالى: «ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب». قال علي بن أبي طالب وكثير من المتأولين نفي من معنى الطلاق، أي ومن لا يتعدى في الطلاق السنة إلى طلاق الثلاث وغير ذلك يجعل الله له مخرجاً إن ندم بالرجعة المباحة ويرزقه ما يطعم أهله ويوسع عليه، ومن لا يتق الله فربما طلق وبث وندم، فلم يكن له مخرج وزال عليه رزق زوجته. وقد فسر ابن عباس نحو هذا فقال للمطلق ثلاثاً: أنت لم تتق الله فبانت منك امرأتك ولا أرى لك مخرجاً. وقال ابن عباس أيضاً معنى: «يجعل له مخرجاً» يخلصه من كرب الدنيا والآخرة، واختلف في ألفاظ رواية هذه القصة، قال ابن عباس للمطلق، لكن هذا هو المعنى، وقال بعض رواة الآثار: نزلت هذه الآية في عوف بن مالك الأشجعي وذلك أنه أسر ولده وقدر عليه رزقه، فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمر بالتقوى، فقيل: لم يلبث أن تفلت ولده وأخذ قطيع غنم للقوم الذين أسروه، وجاء أباه، فسأل عوف رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتطيب له تلك الغنم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم. ونزلت الآية في ذلك. وقوله تعالى: «ومن يتوكل على الله فهو حسبه»، الآيات كلها عظة لجميع الناس، والحسب: الكافي المرضي، وقال ابن مسعود هذه أكثر الآيات حصصاً على التفويض، وروي أن رجلاً قال لعمر: ولني مما ولاك الله، فقال له عمر: أتقرأ القرآن؟ قال: لا. قال: فأنا لا أولي من لا يقرأ القرآن. فتعلم الرجل رجاء الولاية، فلما حفظ كثيراً من القرآن تخلف عن عمر فلقبه يوماً فقال له عمر ما أبطأ بك؟ قال له تعلمت القرآن، فأغنانني الله تعالى عن عمر وعن بابه. ثم قرأ هذه الآيات من هذه السورة. وقوله تعالى: «إن الله بالغ أمره» بيان وحض على التوكل، أي لا بد من نفوذ أمر الله توكلت أيها المرء أو لم تتوكل قاله مسروق. فإن توكلت كفأك وتمجلت الراحة والبركة، وإن لم تتوكل وكلك إلى عجزك وتسخطك، وأمره في الوجهين نافذ، وقرأ داود بن هند ورويت عن أبي عمرو «بالغ أمره» برفع الأمر وحذف مفعول تقدير: بالغ أمره ما شاء، وقرأ جمهور السبعة: «بالغ أمره» بنصب الأمر وقرأ حفص والمفضل عن عاصم: «بالغ أمره» على الإضافة وترك التنوين في: «بالغ»، ورويت عن أبي عمرو، والأعمش، وهي قراءة طلحة بن مصرف، وقرأ جمهور الناس: «قدراً» بسكون الدال، وقرأ بعض القراء: «قدراً» بفتح الدال وهذا كله حض على التوكل.

قوله عز وجل:

وَالَّتِي يَسِّنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَتْ
الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ
إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾ اسْكُنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ
وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمِلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ
فَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا نَيْتَكُمْ مَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُم فَاَسْرَضْهُنَّ لَكُمْ أُخْرَى ﴿٦﴾ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن
سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا أَلَاءَ مَا أَنهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ
عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾

﴿اللاتي﴾: هو جمع ذات في ما حكى أبو عبيدة وهو ضعيف، والذي عليه الناس أنه: جمع التي، وقد يجيء جمعاً للذي، واليائسات من المحيض على مراتب، فيائسة هو أول يأسها، فهذه ترفع إلى السنة، وبقية الاحتياط على حكم من ليست بيائسة، لأننا لا ندري لعل الدم يعود، ويائسة قد انقطع عنها الدم لأنها طعنت في السن ثم طلقت، وقد مرت عاداتها بانقطاع الدم، إلا أنها مما يخاف أن تحمل نادراً فهذه التي في الآية على أحد التأولين في قوله: ﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾ وهو قول من يجعل الارتباب بأمر الحمل وهو الأظهر، ويائسة قد هربت حتى تتيقن أنها لا تحمل، فهذه ليست في الآية، لأنها لا يرتاب بحملها، لكنها في حكم الأشهر الثلاثة إجماعاً فيما علمت، وهي في الآية على تأويل من يرى قوله: ﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾ معناه في حكم اليائسات، وذلك أنه روى إسماعيل بن أبي خالد أن قوماً منهم أبي بن كعب وخلاد بن النعمان لما سمعوا قول الله عز وجل: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ [البقرة: ٢٢٨] قالوا يا رسول الله: فما عدة من لا قرء لها من صغر أو كبر؟ فنزلت الآية، فقال قائل منهم: فما عدة الحامل؟ فنزلت: ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾، وقد تقدم ذكر الخلاف في تأويل: ﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾، ﴿وأولات﴾ جمع ذات، وأكثر أهل العلم على أن هذه الآية تعم الحوامل المطلقات والمعتدات من الوفاة والحجة حديث سبيعة الأسلمية قالت: كنت تحت سعد بن خولة فتوفي في حجة الوداع، ووضعت حملها قبل أربعة أشهر، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: «قد حللت» وأمرها أن تتزوج، وقال ابن مسعود: نزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى، يعني أن قوله تعالى: ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾ نزلت بعد قوله تعالى: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وقال ابن عباس وعلي بن أبي طالب: إنما هذه في المطلقات، وأما في الوفاة فعدة الحامل آخر الأجلين إن وضعت قبل أربعة أشهر وعشر تمادت إلى آخرها، والقول الأول أشهر، وعليه الفقهاء، وقرأ الضحاك: «أحمالهن» على الجمع، وأمر الله تعالى بإسكان المطلقات ولا خلاف في ذلك في التي لم تبت. وأما المبتوتة، فمالك رحمه الله يرى لها السكنى لمكان حفظ النسب، ولا يرى لها نفقة،

لأن النفقة بإزاء الاستمتاع، وهو قول الأوزاعي والشافعي وابن أبي ليلى وابن عبيد وابن المسيب والحسن وعطاء والشعبي وسليمان بن يسار، وقال أصحاب الرأي والثوري: لها السكنى والنفقة، وقال جماعة من العلماء: ليس لها السكنى ولا نفقة. والوجد: السعة في المال، وضم الواو وفتحها وكسرها، هي كلها بمعنى واحد، وقرأ الجمهور: «وَجِدْكُمْ» بضم الواو بمعنى سعة الحال، وقرأ الأعرج فيما ذكر عصمة «وَجِدْكُمْ» بفتح الواو، وذكرها أبو عمرو عن الحسن وأبي حيو، وقرأ الفياض بن غزوان ويعقوب: بكسر الواو وذكرها المهدي عن الأعرج وعمرو بن ميمون، وأما الحامل فلا خلاف في وجوب سكنائها ونفقتها بت أو لم تبت لأنها مبينة في الآية، واختلفوا في نفقة الحامل المتوفى عنها زوجها على قولين لعلماء الأمة، فمنعها قوم وأوجبها في التركة قوم، وكذلك النفقة على المرضع واجبة وهي الأجر مع الكسوة وسائر المؤن التي بسطها في كتب الفقه، وقوله تعالى: ﴿وَائْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي ليأمر كل واحد صاحبه بخير، ولا شك أن من أمر بخير فهو أسرع إلى فعل ذلك الخير وليقبل كل واحد ما أمر به من المعروف، والقبول والامتثال هو الائتمار، وقال الكسائي: ﴿ائْتَمِرُوا﴾ معناه: تشاوروا، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ الْمَلَائِكَةُ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠]، ومنه قول امرئ القيس:

ويعدو على المرء ما ياتمر

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَاَسَرْتَمْ﴾ أي تشططت المرأة في الحد الذي يكون أجره على الرضاع، فللزوج أن يسترضع أخرى بما فيه رفقته إلا أن لا يقبل المولود غير أمه فتجبر حينئذ على رضاعه بأجرة مثلها ومثل الزوج في حالهما وغناهما، ثم حض تعالى أهل الجدة على الإنفاق وأهل الإقتار على التوسط بقدر حاله. وهذا هو العدل بينهم لثلاث تضيع هي ولا يكلف هو ما لا يطيق. واختلف العلماء في الذي يعجز عن نفقة امرأته، فقال مالك والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو هريرة وابن المسيب والحسن: يفرق بينهما، وقال أصحاب الرأي وعمر بن عبد العزيز وجماعة: لا يفرق بينهما، ثم رجع تعالى باليسر تسهلاً على النفوس وتطيئاً لها، وقرأ الجمهور: «يعظم» بالياء، وقرأ الأعمش: «نعظم» بالنون واختلف عنه.

قوله عز وجل:

وَكَايْنٍ مِّنْ قَرِيْبَةٍ عَنَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيْدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نَّكَرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيْدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأْوَلِي الْأَلْبَابُ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوْرِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لِرُزْقًا ﴿١١﴾

﴿كَايْنٍ﴾: هي كاف الجر دخلت على أي، وهذه قراءة الجمهور، وقرأ ابن كثير وعبيد عن أبي

عمرو: «وكائن» ممدود مهموز، كما قال الشاعر:

وكائن بالأباطح من صديق

وقرأ بعض القراء: ﴿وكأين﴾ بتسهيل الهمزة، وفي هذين الوجهين قلب لأن الياء قبل الألفات، وقوله تعالى: ﴿فحاسبتها﴾ قال بعض المتأولين: الآية في الآخرة، أي ثم هو الحساب والتعذيب والذوق وخسار العاقبة. وقال آخرون: ذلك في الدنيا، ومعنى: ﴿فحاسبتها حساباً شديداً﴾ أي لم تغتفر لها زلة بل أخذت بالدقائق من الذنوب، وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكران: «نكراً» بضم الكاف، وقرأ الباقر: «نكراً» بسكون الكاف وهي قراءة عيسى، وقوله تعالى: ﴿أعد الله لهم عذاباً شديداً﴾ يظهر منه أنه بيان لوجه خسران عاقبتهم، فيتأبد بذلك أن تكون المحاسبة والتعذيب والذوق في الدنيا، ثم ندب تعالى ﴿أولي الألباب﴾ إلى التقوى تحذيراً، وقوله تعالى: ﴿الذين آمنوا﴾ صفة لـ ﴿أولي الألباب﴾، وقرأ نافع وابن عامر: «صالحاً ندخله» بالنون، وكذلك روى المفضل عن عاصم، وقرأ الباقر: «يدخله» بالياء، وقوله تعالى: ﴿قد أنزل الله إليكم رسولا﴾ اختلف الناس في تقدير ذلك، فقال قوم من المتأولين: المراد بالاسمين القرآن، فـ «رسول» يعني رسالة، وذلك موجود في كلام العرب، وقال آخرون: ﴿رسولاً﴾ نعت أو كالنعت للذكر، فالمعنى ذكر ذا رسول، وقيل الرسول: ترجمة عن الذكر كأنه بدل منه، وقال آخرون: المراد بهما جميعاً محمد وأصحابه، المعنى: ذا ذكر رسولاً، وقال بعض حذاق المتأولين الذكر: اسم من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم: واحتج بهذا القاضي ابن الباقلاني في تأويل قوله تعالى: ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث﴾ [الأنبياء: ٢]، وقال بعض النحاة معنى الآية ﴿ذكر﴾ بعث ﴿رسولاً﴾ فهو منصوب بإضمار فعل، وقال أبو علي الفارسي: يجوز أن يكون ﴿رسولاً﴾ معمولاً للمصدر الذي هو الذكر.

قال القاضي أبو محمد: وأبين الأقوال عندي معنى أن يكون الذكر للقرآن والرسول محمد، والمعنى بعث رسولاً، لكن الإيجاز اقتضى اختصار الفعل الناصب للرسول ونحاً هذا المنحى السدي، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر: «مبينات» بفتح الياء، وقرأها بكسر الياء ابن عامر وحفص وحزمة والكسائي والحسن والأعمش وعيسى، وسائر الآية بين، والرزق المشار إليه رزق الجنة لدوامه ودروره.

قوله عز وجل:

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً ﴿١٢﴾

لا خلاف بين العلماء أن السموات سبع، لأن الله تعالى قال: ﴿سبعاً طباقاً﴾ [الملك: ٣، نوح: ١٥] وقد فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهن في حديث الإسراء، وقال لسعد: «حكمت بحكم الملك من فوق سبع أرقعة»، ونطقت بذلك الشريعة في غير ما موضع، وأما ﴿الأرض﴾ فالجمهور

على أنها سبع أرضين، وهو ظاهر هذه الآية، وأن المماثلة إنما هي في العدد، ويستدل بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من غصب شبراً من أرض طوقه من سبع أرضين»، إلى غير هذا مما وردت به روايات، وروي عن قوم من العلماء أنهم قالوا: الأرض واحدة، وهي مماثلة لكل سماء بانفرادها في ارتفاع جرمها، وقر أن فيها عالماً يعبد كما في كل سماء عالم يعبد، وقرأ الجمهور: «مثلهن» بالنصب، وقرأ عاصم: «مثلهن» برفع اللام، و﴿الأمر﴾ هنا الوحي وجميع ما يأمر به تعالى من يعقل ومن لا يعقل، فإن الرياح والسحاب وغير ذلك مأمور كلها، وباقي السورة وعظ، وحض على توحيد الله عز وجل، وقوله تعالى: ﴿على كل شيء قدير﴾ عموم معناه الخصوص في المقدورات، وقوله ﴿بكل شيء﴾ عموم على إطلاقه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

وهي مدنية بإجماع من أهل العلم بلا خلاف.
قوله عز وجل:

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْلَغْ مَرَضَاتِ زَوْجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذَا أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ زَوْجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾

روي في الحديث عن زيد بن أسلم والشعبي وغيرهما ما معناه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أهدى المقوقس مارية القبطية اتخذها سرية، فلما كان في بعض الأيام وهو يوم حفصة بنت عمر، وقيل بل كان في يوم عائشة، جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت حفصة فوجدها قد مرت إلى زيارة أبيها، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في جاريته فقال معها، فجاءت حفصة فوجدتها فأقامت خارج البيت حتى أخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مارية وذهبت، فدخلت حفصة غير متغيرة اللون فقالت: يا رسول الله أما كان في نسائك أهون عليك مني؟ أفي بيتي وعلى فراشي؟ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم مترضياً لها: أيرضيك أن أحرمها قالت: نعم، فقال: إني قد حرمتها. قال ابن عباس، وقال مع ذلك والله لا أطؤها أبداً، ثم قال لها: لا تخبري بهذا أحداً، فمن قال إن ذلك كان في يوم عائشة، قال استكتمها خوفاً من غضب عائشة وحسن عشرتها، ومن قال: كان في يوم حفصة، قال استكتمتها لنفس الأمر، ثم إن حفصة رضي الله عنها قرعت الجدار الذي بينها وبين عائشة، وأخبرتها لتسرهما بالأمر، ولم ترض إفساءه إليها حرجاً واستكتمتها، فأوحى الله بذلك إلى نبيه، ونزلت الآية. وروي عن عكرمة أن هذا نزل بسبب شريك التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم، وذكر النقاش نحوه عن ابن عباس، وروى عبد بن عمير عن عائشة أن هذا التحريم المذكور في الآية، إنما هو بسبب شراب العسل الذي شربه صلى الله عليه وسلم عند زينب بنت جحش، فتمالأت عائشة وحفصة وسودة على أن تقول له: من دنا منها، أكلت مغافير، والمغافير صمغ العرفط، وهو حلو ثقيل الريح، ففعلن ذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ولكنني شربت عسلاً»، فقلن: جرت نحلته العرفط، فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا أشربه أبداً» وكان يكره أن توجد منه رائحة ثقيلة، فدخل بعد ذلك على زينب، فقالت: ألا نسقيك من ذلك العسل؟ قال: «لا حاجة لي به»، قالت عائشة: تقول سودة حين بلغها امتناعه والله لقد حرمتاه. قلت لها: اسكتي.

قال القاضي أبو محمد: والقول الأول إن الآية نزلت بسبب مارية أصح وأوضح، وعليه تفقه الناس في الآية، ومتى حرم رجل مالاً أو جارية دون أن يعتق أو يشترط عتقاً أو نحو ذلك، فليس تحريمه بشيء، واختلف العلماء إذ حرم زوجته بأن يقول لها: أنت علي حرام، والحلال علي حرام، ولا يستثنى زوجته، فقال مالك رحمه الله: هي ثلاث في المدخول بها، وينوي في غير المدخول بها فهو ما أراد من الواحدة أو الاثنين أو الثلاث، وقال عبد الملك بن الماجشون: هي ثلاث في الوجهين ولا ينوي في شيء. وقال أبو المصعب وغيره.

وروي ابن خويز مندد عن مالك: أنها واحدة بائنة في المدخول بها وغير المدخول بها، وروي عن عبد العزيز بن الماجشون، أنه كان يحملها على واحدة رجعية، وقال غير واحد من أهل العلم: التحريم لا شيء، وإنما عاتب الله رسوله صلى الله عليه وسلم فيه ودله على تحلة اليمين المبينة في المائدة لقوله: «قد حرمتها والله لا أطؤها أبداً»، وقال مسروق: ما أبالي أحرمتها أو قصعة من ثريد. وكذلك قال الشعبي ليس التحريم بشيء، قال تعالى: ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام﴾ [النحل: ١١٦] وقال: ﴿لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ [المائدة: ٨٧]، ومحرم زوجته مسم حراماً ما جعله حلالاً، ومحرم ما أحل الله له، وقال أبو بكر الصديق وعمر الفاروق وابن مسعود وابن عباس وعائشة وابن المسيب وعطاء وطاوس وسليمان بن يسار وابن جبير وقتادة وأبو ثور والأوزاعي والحسن وجماعة: «التحريم» يلزم فيه تكفير يمين بالله، والتحلة إنما هي من جهة التحريم ولم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والله لا أطؤها»، وقال أبو قلابة: التحريم ظاهر، وقال أبو حنيفة وسفيان والكوفيون: هو ما أراد من الطلاق، فإن لم يرد بذلك طلاقاً فهو لا شيء. وقال: هو ما أراد من الطلاق، فإن لم يرد طلاقاً فهو يمين، فدعا الله تعالى نبيه باسم النبوة الذي هو دال على شرف منزلته وعلى فضيلته التي خصه بها دون البشر، وقرره كالمعاتب على سبب تحريمه على نفسه ما أحل الله له، وقوله: ﴿تبتغي﴾ جملة في موضع الحال من الضمير الذي في ﴿تحرم﴾، و«المرضاة» مصدر كالرضى، ثم غفر له تعالى ما عاتبه فيه ورحمه، وقوله: ﴿قد فرض الله﴾ أي بين وأثبت، وقال قوم من أهل العلم: هذه إشارة إلى تكفير التحريم، وقال آخرون: هي إشارة إلى تكفير اليمين المقترنة بالتحريم. والتحلة: مصدر ووزنها تفعلة وأدغم لاجتماع المثلين، وأحال في هذه الآية على الآية التي فسر فيها الإطعام في كفارة اليمين بالله والمولى الموالى الناصر العاضد، وقوله تعالى: ﴿وإذ أسر النبي﴾ الآية معناه اذكر يا محمد ذلك، على وجه التأنيب والعتب لهن، وقال الجمهور الحديث هو قوله في أمر مارية، وقال آخرون: بل هو قوله: «إنما شربت عسلاً»، وبعض أزواجه هي حفصة، و﴿تبات﴾ معناه: أخبرت، وهذه قراءة الجمهور، وقرأ طلحة: «أنبات» وكان إخبارها لعائشة، وهذا ونحوه هو التظاهر الذي عوتبتا فيه، وقال ميمون بن مهران: الحديث الذي أسر إلى حفصة، أنه قال لها: «وأبشري بأن أبا بكر وعمر يملكان أمر أمتي بعدي خلافة»، وتعدت «نبأ» في هذه

الآية مرة إلى مفعولين ومرة إلى مفعول واحد، لأن ذلك يجوز في أنباء ونبأ إذا كان دخولها على غير الابتداء والخبر، فمتى دخلت على الجملة تعدت إلى ثلاثة مفاعيل، ولا يجوز الاختصار. وقوله تعالى: ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي أطلعه، وقرأ الكسائي وحده وأبو عبد الرحمن وطلحة وأبو عمرو بخلاف والحسن وقتادة: «عَرَفَ» بتخفيف الراء، وقرأ الباقر وجمهور الناس: «عَرَفَ» بشدها، والمعنى في اللفظة مع التخفيف جازى بالعتب واللوم، كما تقول لإنسان يؤذيك: قد عرفت لك هذا ولأعرفن لك هذا بمعنى لأجازينك عليه، ونحوه في المعنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ، فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٣]، فعلم الله زعيم بمجازاتهم، وكذلك معرفة النبي صلى الله عليه وسلم، والمعنى مع الشدة في الراء علم به وأنب عليه، وقوله تعالى: ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ أي تكرمًا وحياء وحسن عشرة، قال الحسن: ما استقصى كريم قط، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق حينئذ حفصة، ثم إن الله تعالى أمره بمراجعتها، وروي أنه عاتبها ولم يطلقها، فلما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حفصة بالخبر، وأنها أفشته إلى عائشة، ظنت أن عائشة فضحتّها، فقالت: من أنباك هذا؟ على جهة التثيت، فلما أخبرها أن الله تعالى أخبره، سكنت وسلمت.

قوله عز وجل:

إِنْ تَوْبًا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمَلَائِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَأْيُكَ إِنْ طَلَّقْنَا أَنْ يَبْدَلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسْلِمَاتٍ
مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَيَبَّتْ عَنَدَاتٍ سَخَّحَتْ ثَيْبَاتٍ وَابْتَكَارًا ﴿٥﴾

المخاطبة بقوله تعالى: ﴿إِنْ تَوْبًا﴾ هي لحفصة وعائشة، وفي حديث البخاري وغيره عن ابن عباس قال: قلت لعمر بن الخطاب: من اللتان تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال حفصة وعائشة، وقوله تعالى: ﴿صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ معناه مالت أي عن المعدلة والصواب، والصفا: الميل، ومنه صياغة الرجل وهم حواشيته الذين يميلون إليه، ومنه أصغى إليه بسمعه، وأصغى الإناء، وفي قراءة عبد الله بن مسعود «فقد زاغت قلوبكما»، والزيف الميل وعرفه في خلاف الحق، قال مجاهد: كما نرى صغت شيئاً حيناً حتى سمعنا قراءة ابن مسعود: «زاغت»، وجمع القلوب من حيث الإنسان جمع ومن حيث لا لبس في اللفظ، وهذا نظير قول الشاعر [حطام المجاشعي]: [الرجز]

ظاهراهما مثل ظهور الترسين

ومعنى الآية، إن تبتما فقد كان منكما ما ينبغي أن يتاب منه، وهذا الجواب الذي للشرط هو متقدم في المعنى، وإنما ترتب جواباً في اللفظ، ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا﴾ معناه: تعاونا، وقرأ جمهور الناس والسبعة «تظاهرا» وأصله تظاهرا، فادغم التاء في الظاء بعد البدل، وقرأ عكرمة مولى ابن عباس: «إِنْ تَظَاهَرَا» بتاءين على الأصل، وقرأ نافع بخلاف عنه وعاصم وطلحة وأبورجاء والحسن: «تظاهرا» بتخفيف الظاء على

حذف التاء الواحدة، وروي عن ابن عمر أنه قرأ: «تَظَهَّرَا» بشد الظاء والهاء دون ألف، والمولى: الناصر المعين، وقوله «وجبريل وصالح المؤمنين» يحتمل أن يكون عطفًا على اسم الله تعالى في قوله: «هو»، فيكون «جبريل وصالح المؤمنين» في الولاية، ويحتمل أن يكون «جبريل» رفعاً بالابتداء، وما بعده عطف عليه، و«ظهير» الخبر فيكون حينئذ من الظهراء لا في الولاية ويختص بأنه مولى الله تعالى، واختلف الناس في «صالح المؤمنين»، فقال الطبري وغيره من العلماء: ذلك على العموم، ويدخل في ذلك كل صالح، وقال الضحاك وابن جبير وعكرمة: المراد أبو بكر وعمر. ورواه ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقال مجاهد نحوه، وقال أيضاً: وعلي، وروى علي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «صالح المؤمنين»، علي بن أبي طالب ذكره الثعلبي. وقال قتادة والعلاء بن زياد وغيره: هم الأنبياء، وإنما يترتب ذلك بأن تكون مظاهرتهم أنهم قدوة وأسوة فهم عون بهذا، وقوله تعالى: «وصالح» يحتمل أن يكون اسم جنس مفرداً، ويحتمل أن يريد «وصالحو» فحذفت الواو في خط المصحف، كما حذفوها في قوله: «سندع الزبانية» [العلق: ١٨] وغير ذلك. وروى عن أنس بن مالك أن عمر بن الخطاب قال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، لا تكثر بأمر نسائك والله معك وجبريل معك وأبو بكر معك، وأنا معك. فنزلت الآية موافقة نحو أمر قول عمر، قال المهدوي: وهذه الآية نزلت على لسان عمر، وكذا روي أن عمر بن الخطاب قال لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم: «عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن». فنزلت الآية على نحو قوله، وقال عمر رضي الله عنه: قالت لي أم سلمة: يا ابن الخطاب، أدخلت نفسك في كل شيء حتى دخلت بين رسول الله وبين نسائه، فأخذتني أخذاً كسرني به، وقالت لي زينب بنت جحش: يا عمر، أما يقدر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعظ نساءه حتى تعظهن أنت، وقرأ الجمهور: «طلقكن» بفتح القاف وإظهاره، وقرأ أبو عمرو في رواية ابن عباس عنه: «طلقكن» بشد الكاف وإدغام القاف فيها، وقال أبو علي: وإدغام القاف في الكاف حسن، وقرأ ابن كثير وابن عامر والكوفيون والحسن وأبو رجاء وابن محيصن: «أن يبدله» بسكون الباء وتخفيف الدال، وقرأ نافع والأعرج وأبو جعفر: «أن يبدله» بفتح الباء وشد الدال، وهذه لغة القرآن في هذا الفعل، وكرر الله تعالى الصفات مبالغة، وإن كان بعضها يتضمن بعضاً، فالإسلام إشارة إلى التصديق، والعمل والإيمان: تخصيص للإخلاص وتنبية على شرف موقعه، «وقائتات» معناه: مطيعات، والسائحات قيل معناه: صائمات، قاله أبو هريرة وابن عباس وقتادة والضحاك. وذكر الزجاج أن النبي صلى الله عليه وسلم قاله، وقيل معناه هاجرات قاله زيد بن أسلم، وقال ابن زيد: ليس في الإسلام سياحة إلا الهجرة، وقيل: معناه ذاهبات في طاعة الله، وشبه الصائم بالسائح من حيث ينهمل السائح ولا ينظر في زاد ولا مطعم، وكذلك الصائم يمسك عن ذلك فيستوي هو والسائح في الامتناع وشظف العيش لفقد الطعام، وقوله تعالى: «ثيبات وأبكاراً» تقسيم لكل واحدة من الصفات المتقدمة، وليست هذه الواو مما يمكن أن يقال فيها: واو الثمانية لأنها هنا ضرورية، ولو سقطت لاختل هذا المعنى.

قوله عز وجل:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ

لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُعَذِّدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تَجَزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾

قوله تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ﴾ معناه: اجعلوا وقاية بينكم وبين النار، وقد تقدم غير مرة تعليل اللفظة، وقوله تعالى: ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ معناه: بالوصية لهم والتقويم والحمد على طاعة الله تعالى، وفي حديث: «لا تزن فيزني أهلك»، وفي حديث آخر: «رحم الله رجلاً قال: يا أهلاه، صلاتكم، صيامكم، مسكينكم، يتيمكم»، وقرأ الجمهور: «وقودها» بفتح الواو، وقرأ مجاهد والحسن وطلحة وعيسى والفياض بن غزوان وأبو حيوه بضمهما، وقيل هما بمعنى، وقيل الضم مصدر والفتح اسم، ويروى أن ﴿الحجارة﴾: هي حجارة الكبريت، وقد تقدم القول في ذلك في سورة البقرة. ويروى أنها جميع أنواع الحجارة، وفي بعض الحديث أن عيسى ابن مريم سمع أنبياً في فلاة من الأرض فتبعه حتى بلغ إلى حجر يش ويحزن، فقال له: ما بالك أيها الحجر؟ فقال: يا روح الله، إني سمعت الله يقول: ﴿وقودها الناس والحجارة﴾، فخفت أن أكون من تلك الحجارة، فعجب منه عيسى وانصرف، ويشبه أن يكون هذا المعنى في التوراة أو في الإنجيل، فذلك الذي سمع الحجر إذا عبر عنه بالعربية كان هذا اللفظ، ووصف الملائكة بالغلظة معناه في القلوب والبطش الشديد والفظاظة، كما قال تعالى لنبيه: ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ [آل عمران: ١٥٩] والشدة القوة، وقيل المراد شدتهم على الكفار، فهي بمعنى الغلظ، ووصفهم تعالى بالطوعية لربهم، وكرر المعنى تأكيداً بقوله تعالى: ﴿ويفعلون ما يؤمرون﴾، وفي قوله تعالى: ﴿ويفعلون ما يؤمرون﴾ ما يقتضي أنهم يدخلون الكفار النار بجذ واختيار، ويغلظون عليهم، فكانه قال بعد تقرير هذا المعنى، فيقال للكفار: ﴿لا تعتذروا اليوم﴾: أي إن المَعذرة لا تنفعكم، وإنما تجزون بأعمالكم فلا تلوّموا إلا أنفسكم، ثم أمر عباده بالتوبة، والتوبة فرض على كل مسلم، وتاب معناه: رجع فتوبة العبد: رجوعه من المعصية إلى الطاعة، وتوبة الله تعالى على العبد إظهار صلاحه ونعمته عليه في الهداية إلى الطاعة، وقبول توبة الكفار يقطع بها على الله إجماعاً من الأمة، واختلف الناس في توبة العاصي، فجمهور أهل السنة على أنه لا يقطع بقبولها ولا ذلك على الله بواجب، والدليل على ذلك دعاء كل واحد من المذنبين في قبول التوبة ولو كانت مقطوعاً بها لما كان معنى للدعاء في قبولها، وظواهر القرآن في ذلك هي كلها بمعنى المشيئة، وروي عن أبي الحسن الأشعري أنه قال: التوبة إذا توفرت شروطها قطع على الله بقبولها لأنه تعالى أخبر بذلك.

قال القاضي أبو محمد: وهذا المسك بظواهر القرآن، وعلى هذا القول أطبقت المعتزلة، والتوبة الندم على فارط المعصية والعزم على ترك مثلها في المستقبل، وهذا من المتمكن، وأما غير المتمكن كالمجبوب في الزنا فالندم وحده يكفيه، والتوبة عبادة كالصلاة ونحوها، فإذا تاب العبد وحصلت توبته بشروطها وقبِلت ثم عاود الذنب، فتوبته الأولى لا تفسدها عودة بل هي كسائر ما تحصل من العبادات، والنصح بناء مبالغه من النصيح إلى توبة نصحت صاحبها وأرشدته، وقرأ الجمهور: «نُصوحاً» بفتح النون، وقرأ أبو بكر عن عاصم وخارجة عن نافع والحسن والأعرج وعيسى: «نُصوحاً» بضم النون، وهو مصدر، يقال: نصح، ينصح، نصيحة، ونصاحه قاله الزجاج، فوصف التوبة بالمصدر كالعدل والزور وغيره، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: التوبة النصوح، هي أن يتوب ثم لا يعود، وقال أبو بكر الوراق: هي أن تضيق عليك الأرض بما رحبت كتوبة الذين خلفوا، وقوله تعالى: ﴿عسى ربكم﴾ الآية، ترجية، وقد روي أن ﴿عسى﴾ من الله واجبة، والعامل في ﴿يوم﴾ قوله: ﴿يدخلكم﴾، وروي في معنى قوله تعالى: ﴿يوم لا يخزي الله النبي﴾، أن محمداً صلى الله عليه وسلم تضرع في أمر أمته فأوحى الله إليه: إن شئت جعلت حسابهم إليك، فقال: «يا رب أنت أرحم بهم»، فقال الله تعالى: إذا لا أخزيك فيهم، فهذا معنى قوله: ﴿يوم لا يخزي الله النبي﴾، والخزي المكروه الذي يترك الإنسان حيران خجلاً مهموماً بأن يرى نقصه، أو سوء منزلته، وقوله تعالى: ﴿والذين آمنوا معه﴾ يحتمل أن يكون معطوفاً على ﴿النبي﴾ فيخرج المؤمنون من الخزي، ويحتمل أن يكون ابتداء، و﴿نورهم يسعى﴾ جملة هي خبره، ويبقى النبي صلى الله عليه وسلم مخصوصاً مفضلاً بأنه لا يخزي، وقد تقدم القول في نظير قوله: ﴿يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم﴾ [التحريم: ٨]، وقرأ سهل بن سعد: «وبأيمانهم»، بكسر الهمزة، وقوله تعالى: ﴿ربنا أتمم لنا نورنا﴾، قال الحسن بن أبي الحسن هو عندما يرون من انطفاء نور المنافقين حسبما تقدم تفسيره، وقيل يقول من أعطي من النور بقدر ما يرى قدميه فقط.

قوله عز وجل:

يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ وَمَا وَدَّهْمُ جَهَنَّمَ وَيُسَّ الْمَصِيرُ ۝
ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا أُمَرَاتَ نُوحٍ وَأُمَرَاتَ لُوطٍ كَاتَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا
صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ۝

هذه الآية تأكيد لأمر الجهاد وفضله المتقدم، والمعنى دم على جهاد الكافرين بالسيف، وجاهد المنافقين بنجهم وإقامة الحدود عليهم وضربهم في كل جرائمهم، وعند قوة الظن بهم، ولم يعين الله تعالى لرسوله منافقاً يقع القطع بنفاقه، لأن التشهد الذي كانوا يظهرون كان ملبساً لأمرهم مشبهاً لهم بالعصاة من الأمة. والغلظة عليهم هي فظاظة القلب والانتهاز وقلة الرفق بهم، وقرأ الضحاك: «وأغلظ»

يسكر اللام وقطع الألف، وهذان المثالان اللذان للكفار والمؤمنين معناهما: أن من كفر لا يغني عنه شيء ولا ينفعه وزر ولو كان متعلقاً بأقوى الأسباب، وأن من آمن لا يدفعه دافع عن رضوان الله تعالى ولو كان في أسوأ منشأ وأخسر حال. وقال بعض الناس: إن في المثليين عبرة لزوجات النبي محمد عليه السلام، حين تقدم عتابهن، وفي هذا بعد لأن النص أنه للكفار يبعد هذا.

واختلف الناس في خيانة هاتين المرأتين، فقال ابن عباس وغيره: خانتا في الكفر، وفي أن امرأة نوح كانت تقول للناس: إنه مجنون، وأن امرأة لوط كانت تتم إلى قومه متى ورده ضيف فتخبر به، وقال ابن عباس: وما بغت زوجة نبي قط، ولا ابتلي الأنبياء في نسايتهم بهذا، وقال الحسن في كتاب النقاش: خانتاهما بالكفر والزنا وغيره، وقرأ الجمهور: «يغنيا» بالياء، وقرأ مبشر بن عبيد: «تغنيا» بالتاء من فوق.

قوله عز وجل:

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ
وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ
فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ فِيهَا الْفَنِينَ ﴿١٢﴾

﴿امرأة فرعون﴾ اسمها آسية وقولها: ﴿وعمله﴾ معناه وكفره، وما هو عليه من الضلالة، وهذا قول كافة المفسرين، وقال جمهور من المفسرين: معناه من ظلمه وعقابه وتعذيبه لي، وروي في هذا أن فرعون اتصل به إيمانها بموسى، وأنها تحب أن يغلب، فبعث إليها قوماً، وقال: إن رأيتم منها ذلك فابطحوها في الأرض ووتدوا يديها ورجليها وألقوا عليها أعظم حجر، وإن لم تروا ذلك فهي امرأتي. قال، فذهب القوم فلما أحسست بالشر منهم دعت بهذه الدعوات فقبض الله روحها وصنع أولئك أمر الحجر بشخص لا روح فيه، وروي في قصصها غير هذا مما يطول ذكره، فاختصر: لعدم صحته. وقال آخرون في كتاب النقاش: ﴿وعمله﴾ كناية عن الوطء والمضاجعة. وهذا ضعيف.

واختلف الناس في الفرج الذي أحصنت مريم، فقال الجمهور: هو فرج الدرع الذي كان عليها، وأنها كانت صينة، وأن جبريل عليه السلام: نفخ فيها الروح من جيب الدرع، وقال قوم من المتأولين: هو الفرج الجارحة، فلفظة ﴿أحصنت﴾: إذا كان فرج الجارحة متمكناً حقيقة، والإحصان: صونه، وفيه هي مستعملة، وإذا قدرنا فرج الدرع فلفظ ﴿أحصنت﴾ فيه مستعارة من حيث صانته، ومن حيث صار مسلماً لولدها، وقوله تعالى: ﴿فنفخنا﴾ عبارة عن فعل جبريل حقيقة، وإن ذهب ذاهب إلى أن النفخ فعل الله تعالى، فهو عبارة عن خلقه واختراعه الولد في بطنها، وشبه ذلك بالنفخ الذي من شأنه أن يسير في الشيء برفق ولطف. وقوله تعالى: ﴿من روحنا﴾ إضافة المخلوق إلى خالق ومملوك إلى مالك كما تقول: بيت الله وناقة الله، وكذلك الروح الجنس كله هو روح الله. وقرأ الجمهور: «وصدقت» بشد الدال، وقرأ أبو مجلز:

بتخفيفها، وقرأ جمهور الناس: «بكلمات» على الجمع، وقرأ الجحدري: «بكلمة» على الأفراد، فأما الأفراد فيقوي: أن يريد أمر عيسى ويحتمل أن يريد أنه اسم جنس في التوراة، ومن قرأ على الجمع فيقوي أنه يريد التوراة، ويحتمل أن يريد أمر عيسى. وقرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ونافع: «وكتبه» على الوحيد، وقرأ أبو عمرو وحفص عن عاصم، وخارجة عن نافع: «وكتبه» بضم التاء والجمع، وقرأ أبو رجاء بسكون التاء «وكتبه»، وذلك كله مراد به التوراة والإنجيل، والقانتون: العابدون، والمعنى كانت من القوم «القانتين» في عبادتها وحال دينها.

(نجز تفسير سورة التحريم والحمد لله كثيراً).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْمَلِكِ

وهي مكية بإجماع، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها كل ليلة عند أخذ مضجعه. رواه جماعة مرفوعاً إلى جابر بن عبد الله، ويروى عنه أنه قال: «إنها لتنجي من عذاب القبر وتجادل عن حافظها حتى لا يعذب»، ويروى أن في التوراة سورة الملك، من قرأها في ليلة فقد أجاد وطيب، وروي عن ابن عباس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «وددت أن سورة ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾ [الملك: ١] في قلب كل مؤمن».

قوله عز وجل:

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَإِنْ رَاجِعَ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ أَرْجِعَ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾

﴿تبارك﴾ تفاعل من البركة، وهي التزيد في الخيرات، ولم يستعمل ببيتبارك ولا متبارك، وقوله: ﴿بيده﴾ عبارة عن تحقيق ﴿الملك﴾، وذلك أن اليد في عرف الأدمين هي آلة التملك فهي مستعرة، و﴿الملك﴾ على الإطلاق هو الذي لا يبيد ولا يخل منه شيء، وذلك هو ملك الله تعالى، وقيل المراد في هذه الآية: ملك الملوك، فهو بمنزلة قوله: ﴿اللهم مالك الملك﴾ [آل عمران: ٢٦]، عن ابن عباس رضي الله عنه. وقوله تعالى: ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ عموم، والشيء معناه في اللغة الموجود، و﴿الموت والحياة﴾ معنيان يتعاقبان جسم الحيوان يرتفع أحدهما بحلول الآخر، وما في الحديث من قوله صلى الله عليه وسلم: «يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح على الصراط»، فقال أهل العلم: ذلك تمثال كبش يوقع الله عليه العلم الضروري لأهل الدارين، إنه الموت الذي ذاقوه في الدنيا، ويكون ذلك التمثال حاملاً للموت على أنه يحل الموت فيه، فتذهب عنه حياة، ثم يقرن الله تعالى بذبح ذلك التمثال إعدام الموت. وقوله تعالى: ﴿خلق الموت والحياة ليبلوكم﴾ أي ليختبركم في حال الحياة، ويجازيكم بعد الموت، وقال أبو قتادة نحوه عن ابن عمر: قلت يا رسول الله: ما معنى قوله تعالى: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ فقال: «يقول: أيكم أحسن عقلاً، وأشدكم لله خوفاً، وأحسنكم في أمره ونهيه، نظراً وإن كانوا أقلكم تطوعاً». وقال ابن عباس وسفيان الثوري والحسن بن أبي الحسن: ﴿أيكم

أحسن عملاً ﴿٥﴾ أزهلكم في الدنيا. وقوله تعالى: ﴿لِيلِيُو﴾ دال على فعل تقديره: فينظر أو فيعلم أيكم، وقال جماعة من المتأولين: الموت والحياة، عبارة عن الدنيا والآخرة، سمي هذه موتاً من حيث إن فيها الموت، وسمى تلك الحياة من حيث لا موت فيها، فوصفهما بالمصدرين على تقدير حذف المضاف، كعدل وزور، وقدم ﴿الموت﴾ في اللفظ، لأنه متقدم في النفس هيبه وغلظة، و﴿طباقاً﴾ قال الزجاج: هو مصدر، وقيل: هو جمع طبقة أو جمع طبق مثل: رجة ورحاب، أو جمل وجمال، والمعنى بعضها فوق بعض، وقال أبان بن ثعلب: سمعت أعرابياً يذم رجلاً، فقال: «شره طباق، خيره غير باق»، وما ذكر بعض المفسرين في السماوات من أن بعضها من ذهب وفضة وياقوت ونحو هذا ضعيف كله، ولم يثبت بذلك حديث، ولا يعلم أحد من البشر حقيقة لهذا. وقوله تعالى: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ معناه من قلة تناسب، ومن خروج عن إتقان، والأمر المتفاوت، هو الذي يجاوز الحدود التي توجب له زيادة أو نقصاناً، وقرأ جمهور القراء: «من تفاوت»، وقرأ حمزة والكسائي وابن مسعود وعلقمة والأسود وابن جبير وطلحة والأعمش: «من تفوت» وهما بمعنى واحد، وقال بعض العلماء: ﴿في خلق الرحمن﴾ يعني به السماوات فقط، وهي التي تتضمن اللفظ، وإياها أراد بقوله: ﴿هل ترى من فطور﴾، وإياها أراد بقوله: ﴿ينقلب إليك البصر﴾ الآية، قالوا وإلا ففي الأرض فطور، وقال آخرون: ﴿في خلق الرحمن﴾ يعني به جميع ما في خلق الله تعالى من الأشياء، فإنها لا تفاوت فيها ولا فطور، جارية على غير إتقان، ومتى كانت فطور لا تفسد الشيء المخلوق من حيث هو ذلك الشيء، بل هي إتقان فيه، فليست تلك المرادة في الآية، وقال منذر بن سعيد: أمر الله تعالى بالنظر إلى السماء وخلقها ثم أمر بالتكرير في النظر، وكذلك جميع المخلوقات متى نظرها ناظر، ليرى فيها خللاً أو نقصاً، فإن بصره ينقلب ﴿خاسئاً﴾ حسيراً، ورجع البصر ترديده في الشيء المبصر. وقوله: ﴿كرتين﴾ معناه مرتين، ونصبه على المصدر، والخاسئ المبعد بذل عن شيء أراده وحرص عليه، ومنه الكلب الخاسئ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لابن صياد: «اخسأ فلن تعد وقدرك»، ومنه قوله تعالى للكفار الحريصين على الخروج من جهنم: ﴿اخسؤا فيها﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، وكذلك هنا البصر يحرص على روية فطور أو تفاوت فلا يجد ذلك، فينقلب ﴿خاسئاً﴾، والحسير العيى الكال، ومنه قول الشاعر: [الطويل]

لهن الوجال لم كن عوناً على النوى ولا زال منها طالسح وحسير

قوله عز وجل:

وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾

أخبر تعالى أنه زين السماء الدنيا التي تليها بمصابيح وهي النجوم، فإن كانت جميع النجوم في

السماء الدنيا فهذا اللفظ عام للكواكب ، وإن كان في سائر السماوات كواكب ، فإما أن يريد كواكب سماء الدنيا فقط ، وإما أن يريد الجميع على أن ما في غيرها لما كانت هي تشق عنه ، ويظهر منها ، فقد زينت به بوجه ما ، ومن تكلف القول بمواضع الكواكب وفي أي سماء هي ، فقوله ليس من الشريعة . وقوله تعالى : ﴿ وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ معناه وجعلناها منها ، وهذا كما تقول : أكرمت بني فلان وصنعت بهم وأنت إنما فعلت ذلك ببعضهم دون بعض ، ويوجب هذا التأويل في الآية أن الكواكب الثابتة والبروج ، وكل ما يهتدى به في البر والبحر فليست براجم ، وهذا نص في حديث السير ، وقال قتادة رحمه الله : خلق الله تعالى النجوم زينة للسماء ورجوماً للشياطين وليهتدى بها في البر والبحر ، فمن قال غير هذه الخصال الثلاث فقد تكلف وأذهب حظه من الآخرة . ﴿ وأعدنا ﴾ معنا : أعددنا والضمير في : ﴿ لهم ﴾ عائد على الشياطين ، وقرأ جمهور الناس : « وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم » بالرفع على الابتداء والخبر في المجرور المتقدم ، وقرأ الحسن في رواية هارون عنه : « عذاب » بالنصب على معنى « وأعدنا للذين كفروا عذاب جهنم » ، قالوا : وعاطفة فعل على فعل ، وتضمنت هذه الآية ، أن عذاب جهنم للكافرين المخلدين ، وقد جاء في الأثر أنه يمر على جهنم زمن تخفق أبوابها قد أخلتها الشفاعة ، فالذي قال في هذا إن ﴿ جهنم ﴾ اسم تختص به الطبقة العليا من النار ثم قد تسمى الطبقات كلها جهنم باسم بعضها ، وهكذا كما يقال النجم للثريا ، ثم يقال ذلك للكواكب اسم جنس فالذي في هذه الآية هي جهنم بأسرها ، أي جميع الطبقات ، والتي في الأثر هي الطبقة العليا ، لأنها مقر العصاة ، والشهيق : أقيح ما يكون من صوت الجمار ، فاحتدام النار وغليلانها بصوت مثل ذلك ، قوله تعالى : ﴿ تكاد تميز من الغيظ ﴾ أي يزايل بعضها بعضاً لشدة الاضطراب كما قال الشاعر في صفة الكلب المحتدم في جربه : [الرجز] :

يكاد أن يخرج عن إهابه

وقرأ الضحاك : « تمايز » بألف ، وقرأ طلحة : « تتميز » بتاءين ، وقرأ الجمهور : « تكاد تميز » بضم الدال وفتح التاء مخففة ، وقرأ البزي : « تكاد » بضم الدال وشد التاء أنها « تتميز » وأدغم إحدى التاءين في الأخرى .

وقرأ أبو عمرو بن العلاء : ﴿ تكاد تميز ﴾ بإدغام الدال في التاء ، وهذا فيه إدغام الأقوى في الأضعف ، وقوله تعالى : ﴿ من الغيظ ﴾ معناه على الكفرة بالله ، وقوله تعالى : ﴿ كلما ألقى فيها فوج ﴾ ، الفوج : الفريق من الناس ، ومنه قوله تعالى : ﴿ في دين الله أفواجاً ﴾ [النصر : ٢] الآية ، تقتضي أنه لا يلقى فيها أحد إلا سئل على جهة التوبيخ عن النذر فأقر بأنهم جاؤوا وكذبوهم ، وقوله : ﴿ كلما ﴾ حصر . فإذا الآية تقتضي في الأطفال من أولاد المشركين وغيرهم ، وفيمن تقدره صاحب فترة أنهم لا يدخلون النار لأنهم لم يأتهم نذير ، واختلف الناس في أمر الأطفال ، فأجمعت الأمة على أن أولاد الأنبياء في الجنة ، واختلفوا في أولاد المؤمنين ، فقال الجمهور : هم في الجنة ، وقال قوم هم في المشيئة ، واختلفوا في أولاد المشركين ، فقالت فرقة : هم في النار ، واحتجوا بحديث روي من آبائهم ، وتأول مخالف هذا الحديث ، أنهم في أحكام الدنيا ، وقال : هم في المشيئة ، وقال فريق : هم في الجنة ، واحتج هذا الفريق بهذه الآية في مساءلة

الخزنة، وبحديث وقع في صحيح البخاري في كتاب التفسير، يتضمن أنهم في الجنة. ويقول عليه السلام: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، فالأطفال لم يبلغوا أن يصنع بهم شيء من هذا». وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ يحتمل أن يكون من قول الملائكة للكفار حين أخبروا عن أنفسهم أنهم كذبوا النذر، ويحتمل أن يكون من كلام الكفار للنذر.

قوله عز وجل:

وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَأَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَنَسَحُوا لَهَا تَسْحَقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّكُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾

المعنى وقال الكفار للخنزعة في محاورتهم: ﴿لو كنا نسمع أو نعقل﴾ سمعاً أو عقلاً ينتفع به ويغني شيئاً لأمنّا ولم نستوجب الخلود في السعير، ثم أخبر تعالى محمداً أنهم اعترفوا بذنوبهم في وقت لا ينفع فيه الاعتراف، وقوله تعالى: ﴿فَسَحَقًا﴾ نصب على جهة الدعاء عليهم وجاز ذلك فيه، وهو من قبل الله تعالى من حيث هذا القول مستقراً فيهم أزلاً ووجوده لم يقع ولا يقع إلا في الآخرة، فكانه لذلك في حيز المتوقع الذي يدعى فيه، كما تقول: سحقاً لزيد وبعداً، والنصب في هذا كله بإضمار فعل، وأما ما وقع وثبت، فالوجه فيه الرفع كما قال تعالى: ﴿ويل للمطففين﴾ [المطففين: ١]، و﴿سلام عليكم﴾ [الأنعام: ٥٤]، [الأعراف: ٤٦]، [الرعد: ٢٤]، [القصص: ٥٥]، [الزمر: ٧٣]، وغير هذا من الأمثلة، وقرأ الجمهور: «فَسَحَقًا» بسكون الحاء، وقرأ الكسائي: «فَسَحَقًا» بضم الحاء وهما لغتان، ثم وصف تعالى أهل الإيمان، وهم ﴿الذين يخشون ربهم﴾، وقوله تعالى: ﴿بالغيب﴾ يحتمل معنيين، أحدهما: ﴿بالغيب﴾ الذي أخبروا به من الحشر والصراط والميزان والجنة والنار، فآمنوا بذلك، وخشوا ربهم فيه، ونحا إلى هذا قتادة والمعنى الثاني: أنهم يخشون ربهم إذا غابوا عن أعين الناس، أي في خلواتهم، ومنه تقول العرب: فلان سالم الغيب، أي لا يضر، فالمعنى يعملون بحسب الخشية في صلاتهم وعباداتهم، وانفرادهم، فالاحتمال الأول: مدح بالإخلاص والإيمان، والثاني: مدح بالأعمال الصالحة في الخلوات، وذلك أخرى أن يعملوها علانية، وقوله تعالى: ﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به﴾ مخاطبة لجميع الخلق.

قال ابن عباس: سببها أن المشركين قال بعضهم لبعض: أسروا قولكم لا يسمعكم إله محمد، فالمعنى أن الأمر سواء عند الله لأنه يعلم ما هجس في الصدور دون أن ينطق به، فكيف إذا ينطق به سرّاً أو جهراً، و﴿ذات الصدور﴾، ما فيها، وهذا كما قال: الذئب مغبوط بذئ بطنه، وقد تقدم تفسيره غير ما مرة. وقوله تعالى: ﴿ألا يعلم من خلق﴾ اختلف الناس في إعراب: ﴿من﴾، فقال بعض النحاة: إعرابها رفع، كأنه قال: ألا يعلم الخالق خلقه؟ فالمفعول على هذا محذوف، وقال قوم: إعرابها نصب، كأنه قال: ألا

يعلم الله من خلق؟ قال مكي: وتعلق أهل الزيف بهذا التأويل لأنه يعطي أن الذين خلقهم الله هم العباد من حيث قال: ﴿من﴾ فتخرج الأعمال عن ذلك، لأن المعتزلة تقول: العباد يخلقون أعمالهم.

قال القاضي أبو محمد: وتعلقهم بهذا التأويل ضعيف، والكلام مع المعتزلة في مسألة خلق الأعمال مأخذه غير هذا، لأن هذه الآية حجة فيها لهم ولا عليهم، والدلول فعول بمعنى مفعول أي مذلول. فهي كركوب وحلوب، يقال: ذلول، بين الذل بضم الذال، واختلف المفسرون في معنى: المناكب، فقال ابن عباس: أطرافها وهي الجبال، وقال الفراء ومنذرين سعيد: جوانبها، وهي النواحي، وقال مجاهد: هي الطرف والفجاج، وهذا قول جار مع اللغة، لأنها تنكب يمنة ويسرة، وينكب الماشي فيها، في مناكب. وهذه الآية تعيد نعم في تقرب التصرف للناس، وفي التمتع فقي رزق الله تعالى، و﴿النشور﴾: الحياة بعد الموت.

قوله عز وجل:

أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾

قرأ عاصم وحزمة والكسائي وابن عامر: «أأمتم» بهزتين مخففتين دون مد، وقرأ أبو عمرو ونافع: «النشور أأمتم» بمد وهزمة، وقرأ ابن كثير: «النشور وأمتم» ببذل الهمزة واواً لكونها بعد ضمة وهو بعد الواو. وقوله تعالى: ﴿من في السماء﴾ جار على عرف تلقى البشر أوامر الله تعالى، ونزول القدر بحوادثه ونعمه ونقمه وآياته من تلك الجهة، وعلى ذلك صار رفع الأيدي والوجوه في الدعاء إلى تلك الناحية. وخسف الأرض: أن تذهب سفلاً، و﴿تمور﴾ معناه: تذهب وتتموج كما يذهب التراب الموار وكما يذهب الدم الموار. ومنه قول الأعرابي: وغادرت التراب موراً، والحاصب: البرد وما جرى مجراه لأنه في اللغة الريح ترمي بالحصباء، ومنه قول الفرزدق: [البسيط]

مستقبلين شمال الريح ترجمهم بحاصب كنديف القطن منشور

وقرأ جمهور السبعة: «فستعلمون» بالياء، وقرأ الكسائي وحده: «فسيعلمون» بالياء، وقرأ السبعة وغيرهم: «نذير» بغير ياء على طريقهم في الفواصل المشبهة بالقوافي، وقرأ نافع في رواية ورش وحده: «نذيري» بالياء على الأصل، وكذلك في «نكيري» والنكير: مصدر بمعنى الإنكار، والنذير كذلك. ومنه قول حسان بن ثابت: [الوافر]

فأنذر مثلها نصحاً قريشاً من الرحمن ان قلبت نذيري

ثم أحال على العبرة في أمر ﴿الطير﴾، وما أحكم من خلقتها وذلك بين عجز الأصنام والأوثان عنه، و: ﴿صافات﴾ جمع صافة، وهي التي تبسط جناحيها وتصفهما حتى كأنها ساكنة، وقبض الجناح: ضمه إلى الجثة ومنه قول أبي خراش: [الطويل]

يحث الجناح بالتبسط والقبض

وهاتان حالان للطائر يستريح من إحداهما للآخرى. وقوله تعالى: ﴿ويقبضن﴾ عطف المضارع على اسم الفاعل وذلك جائز كما عطف اسم الفاعل على المضارع في قول الشاعر: [الرجز]

بات يغشيها بعضب باتر يقصد في أسوقها وجائر

وقرأ طلحة بن مصرف: «أمن» بتخفيف الميم في هذه، وقرأ التي بعدها مثقلة كالجماعة والجنود أعوان الرجل على مذهبه، وقوله تعالى: ﴿إن الكافرون إلا في غرور﴾ خطاب لمحمد بعد تقرير، قل لهم يا محمد ﴿أمن هذا﴾.

قوله عز وجل:

أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَمَّنْ يَمْشِي مَكْبًا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾

هذا أيضاً توقيف على أمر لا مدخل للأصنام فيه، والإشارة بالرزق إلى المطر، لأنه عظم الأرزاق، ثم أخبر تعالى عنهم أنهم: ﴿لجوا﴾ وتمادوا في التمتع عن طاعة الله، وهو العتو في نفور، أي بعد عن الحق بسرعة ومبادرة، يقال: نفر عن الأمر نفوراً، وإلى الأمر نفيراً، ونفرت الدابة نفاراً.

واختلف أهل التأويل في سبب قوله: ﴿أفمن يمشي مكباً﴾ الآية، فقال جماعة من رواة الأسباب: نزلت مثلاً لأبي جهل بن هشام وحمزة بن عبد المطلب، وقال ابن عباس وابن الكلبي وغيره: نزلت مثلاً لأبي جهل بن هشام ومحمد صلى الله عليه وسلم، وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد والضحاك: نزلت مثلاً للمؤمنين والكافرين على العموم، وقال قتادة: نزلت مخبرة عن حال القيامة، وإن الكفار يمشون فيها على وجوههم، والمؤمنون يمشون على استقامة، وقيل للنبي: كيف يمشي الكافر على وجهه؟ قال: «إن الذي أمشاه في الدنيا على رجله قادر على أن يمشيه في الآخرة على وجهه».

قال القاضي أبو محمد: فوقف الكفار على هاتين الحالتين حينئذ، ففي الأقوال الثلاثة الأول المشي مجاز يتخيل، وفي القول الرابع هو حقيقة يقع يوم القيامة ويقال: أكب الرجل، إذا رد وجهه إلى الأرض، وكبه: غيره، قال عليه السلام: «وهل يكب الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم»، فهذا الفعل

خلاف للباب: أفعّل لا يتعدى وفعل يتعدى، ونظيره قشعت الريح فأقشع، و﴿أهدى﴾ في هذه الآية أفعّل من الهدى، وقرأ طلحة: «أمن يمشي» بتخفيف الميم، وإفراد ﴿السمع﴾ لأنه اسم جنس يقع للكثير و﴿قليلًا﴾ نصب بفعل مضمر، و﴿ما﴾: مصدرية، وهي في موضع رفع، وقوله: ﴿قليلًا ما تشكرون﴾ يقتضي ظاهره أنهم يشكرون قليلًا، فهذا إما أن يريد به ما عسى أن يكون للكافر من شكر وهو قليل غير نافع، وإما أن يريد جملة فعبر بالقلّة كما تقول العرب: هذه أرض قل ما تنبت كذا، وهي لا تنبت بته، ومن شكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذه النعمة أنه كان يقول في سجوده: «سجد وجهي للذي خلقه وشق سمعه وبصره»، و«ذراكم» معناه: بشكم والحشر المشار إليه، هو بعث القيامة، وإليه أشار بقوله: ﴿هذا الوعد﴾ فأخبر تعالى أنهم يستعجلون أمر القيامة، ويوقفون على الصدق، في الإخبار بذلك. قوله عز وجل:

قُلْ إِنَّمَا أَلْغِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٣٠﴾

أمر الله تعالى نبيه أن يخبرهم بأن علم القيامة والوعد الصدق هو مما تفرد الله به، وأن محمداً إنما هو نذير يعلم ما علم ويخبر بما أمر أن يخبر به، وقوله: ﴿فلما رأوه﴾ الضمير للعذاب الذي تضمنه الوعد، وهذه حكاية حال تأتي المعنى: ﴿فإذا رأوه﴾ و: ﴿زلفة﴾ معناه قريباً. قال الحسن: عياناً. وقال ابن زيد: حاضراً، و: ﴿سيئت﴾ معناه: ظهر فيها السوء، وقرأ جمهور الناس: «سيئت» بكسر السين، وقرأ أبو جعفر الحسن ونافع أيضاً وابن كثير وأبو رجاء وشيبة وابن وثاب وطلحة: بالإشمام بين الضم والكسر. وقرأ جمهور الناس ونافع بخلاف عنه: «تدعون» بفتح الدال وشدها، على وزن: تفتعلون، أي تداعون أمره بينكم، وقال الحسن: يدعون أنه لا جنة ولا نار، وقرأ أبو رجاء والحسن والضحاك وقتادة وابن يسار وسلام: «يدعون» بسكون الدال على معنى: يستعجلون، كقولهم: عجل لنا قطنا، وأمطر علينا حجارة وغير ذلك، وروي في تأويل قوله: ﴿قل أريتكم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمتنا﴾ الآية، أنهم كانوا يدعون على محمد وأصحابه بالهلاك، وقيل بل كانوا يترامون بينهم بأن يهلكوه بالقتل ونحوه فقال الله تعالى: قل لهم أريتكم إن كان هذا الذي تريدون بنا وتم ذلك فينا، أو أريتكم إن رحمتنا الله فنصرنا ولم يهلكنا من يجيركم من العذاب الذي يوجهه كفركم على كل حال؟ وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص، وعن عاصم: «إن أهلكني الله ومن معي» بنصب الياءين، وأسكن الكسائي وعاصم في رواية أبي بكر الياء في: «معي» وقرأ حمزة: بإسكان الياءين، وروى المسيب عن نافع أنه أسكن ياء: «أهلكني»، قال أبو علي التحريك في الياءين حسن وهو الأصل، والإسكان كراهية الحركة في حرف اللين، يتجانس ذلك، وقرأ

الكسائي وحده: «فسيعلمون» بالياء، وقرأ الباقر بالتاء على المخاطبة، ثم وقفهم تعالى على مياهم التي يعيشون منها إن غارت أي ذهبت في الأرض، ومن يجيئهم بماء كثير واف، والغور: مصدر يوصف به على معنى المبالغة، ومنه قول الأعرابي: وغادرت التراب مورا والماء غورا.

والمعين: فاعل من معنى الماء إذا كثر أو مفعول من العين، أي جار كالعين، أصله معيون، وقيل هو من العين، لكن من حيث يرى بعين الإنسان، لا من حيث يشبه بالعين الجارية، وقال ابن عباس: ﴿معين﴾ عذب وعنه في كتاب الثعلبي: ﴿معين﴾ جار، وفي كتاب النقاش: ﴿معين﴾ ظاهر، وقال بعض المفسرين وابن الكلبي: أشير في هذا الماء إلى بئر زمزم، وبئر ميمون، ويشبه أن تكون هاتان عظماء مكة، وإلا فكانت فيها بئار كثيرة كخم والجفر وغيرهما. والله المستعان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْقَلَمِ

وهي مكية، ولا خلاف فيها بين أحد من أهل التأويل.

قوله عز وجل:

ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتَبْصِرُ وَتُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تَطَّعَ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ يُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تَطَّعَ كُلُّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾

﴿ن﴾ حرف مقطع في قول الجمهور من المفسرين، فيدخله من الخلاف ما يدخل أوائل السور، ويختص هذا الموضع من الأقوال بأن قال مجاهد وابن عباس: نون، اسم الحوت الأعظم الذي عليه الأرضون السبع فيما يروى. وقال ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك: النون اسم للدواة، فهذا إما أن يكون لغة لبعض العرب، أو تكون لفظة أعجمية عربت، قال الشاعر: [الوافر]

إذا ما الشوق برح بي إليهم ألفت النون بالدمع السجوم

فمن قال إنه اسم الحوت جعل ﴿القلم﴾ الذي خلقه الله تعالى وأمره فكتب الكائنات وجعل الضمير في ﴿يسطرون﴾ للملائكة، ومن قال بأن «نون» اسم للدواة، جعل ﴿القلم﴾ هذا المتعارف بأيدي الناس. نص ذلك ابن عباس وجعل الضمير في ﴿يسطرون﴾ للناس، فجاء القسم على هذا بمجموع أم الكتاب الذي هو قوام للعلوم والمعارف وأمور الدنيا والآخرة، فإن القلم أخ اللسان، ومطية الفطنة، ونعمة من الله عامة. وروى معاوية بن قرة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ﴿ن﴾ لوح من نور، وقال ابن عباس وغيره: هو حرف من حروف الرحمن، وقالوا إنه تقطع في القرآن: ﴿الر﴾ [يونس: ١، هود: ١، يوسف: ١، إبراهيم: ١، الحجر: ١] و﴿حم﴾ [غافر: ١، فصلت: ١، الشورى: ١، الزخرف: ١، الدخان: ١، الجاثية: ١، الأحقاف: ١]، و﴿ن﴾، وقرأ عيسى بن عمر بخلاف «نون» بالنصب، والمعنى: اذكر نون، وهذا يقوى مع أن يكون اسماً للسورة، فهو مؤنث سمي به مؤنث، ففيه تأنيث وتعريف، ولذلك لم ينصرف، وانصرف نوح، لأن الخفة بكونه على ثلاثة أحرف غلبت على العجمة، وقرأ

ابن عباس وابن أبي إسحاق والحسن: «نون» بكسر النون، وهذا كما تقول في القسم بالله، وكما تقول: «جبر» وقيل كسرت لاجتماع الساكنين، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم: «نون» بسكون النون، وهذا على أنه حرف منفصل فحقه الوقوف عليه، وقرأ قوم، منهم الكسائي: ﴿ن والقلم﴾ بالإدغام دون غنة، وقرأ آخرون بالإدغام وبغنة، وقرأ الكسائي ويعقوب عن نافع وأبو بكر عن عاصم بالإخفاء بين الإدغام والإظهار. و﴿يسطرون﴾ معناه: يكتبون سطوراً، فإن أراد الملائكة فهو كتب الأعمال وما يؤمرون به، وإن أراد بني آدم، فهي الكتب المنزلة والعلوم وما جرى مجراها، وقوله: ﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ هو جواب القسم و﴿ما﴾ هنا عاملة لها اسم وخبر، وكذلك هي حيث دخلت الباء في الخبر، وقوله: ﴿بنعمة ربك﴾ اعتراض، كما يقول الإنسان: أنت بحمد الله فاضل.

وسبب هذه الآية، أن قريشاً رمت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنون، وهو ستر العقول، بمعنى أن كلامه خطأ ككلام المجنون، فنفى الله تعالى ذلك عنه وأخبره بأن له الأجر، وأنه على الخلق العظيم، تشريفاً له ومديحاً.

واختلف الناس في معنى: ﴿ممنون﴾ فقال أكثر المفسرين هو الواهن المنقطع، يقال: حبل منين، أي ضعيف. وقال آخرون: معناه ﴿غير ممنون﴾ عليك أي لا يكدره من به. وقال مجاهد: معناه غير مصرد ولا محسوب محصل أي بغير حساب، وسئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: خلقه القرآن أدبه وأوامره، وقال علي رضي الله عنه: الخلق العظيم أدب القرآن، وعبر ابن عباس عن الخلق بالدين والشرع وذلك لا محالة رأس الخلق ووكيده، أما أن الظاهر من الآية أن الخلق هي التي تضاد مقصد الكفار في قولهم مجنون، أي غير محصل لما يقول، وإنما مدحه تعالى بكرم السجدة وبراعة القريحة والملكة الجميلة وجودة الضرائب، ومنه قوله عليه السلام: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». وقال جنيد: سمي خلقه عظيماً، إذ لم تكن له همة سوى الله تعالى، عاشر الخلق بخلقهم وزايلهم بقلبه، فكان ظاهره مع الخلق وباطنه مع الحق، وفي وصية بعض الحكماء عليك بالخلق مع الخلق وبالصدق مع الحق، وحسن الخلق خير كله. وقال صلى الله عليه وسلم: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة، قائم الليل وصائم النهار». وقال: «ما شيء أثقل في الميزان من خلق حسن»، وقال: «أحبكم إلى الله أحسنكم أخلاقاً»، والعدل والإحسان والعفو والصلة من الخلق. وقوله تعالى: ﴿فستبصر﴾ أي أنت وأمتك، و﴿يبصرون﴾ أي هم. واختلف الناس في معنى قوله: ﴿بأيكم المفتون﴾. فقال أبو عثمان المازني: الكلام تام في قوله: ﴿يبصرون﴾، ثم استأنف قوله: ﴿بأيكم المفتون﴾، وقال الأخفش بل الإبصار عامل في الجملة المستفهم عنها في معناها، وأما الباء فقال أبو عبيدة معمر وقتادة: هي زائدة، والمعنى: أيكم المفتون. وقال الحسن والضحاك: ﴿المفتون﴾ بمعنى الفتنة، كما قالوا: ما له معقول، أي عقل، وكما قالوا: اقبل ميسوره ودع معسوره، فالمعنى: ﴿بأيكم﴾ هي الفتنة والفساد الذي سموه جنوناً، وقال آخرون: ﴿بأيكم﴾ فتن ﴿المفتون﴾ وقال الأخفش، المعنى: ﴿بأيكم﴾ فتنة ﴿المفتون﴾، ثم حذف المضاف وأقيم ما أضيف إليه مقامه، وقال مجاهد والفراء: الباء بمعنى: في أي، في أي فريق منكم النوع المفتون.

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول حسن قليل التكلف، ولا نقول إن حرفاً بمعنى حرف بل نقول إن هذا المعنى يتوصل إليه بـ «في» وبالباء أيضاً، وقرأ ابن عجلة «في أيكم المفتون». وقوله تعالى: ﴿إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ﴾ الآية، وعيد، والعامل في قوله: ﴿بِمَنْ ضَلَّ﴾، ﴿أَعْلَمُ﴾ وقد قواه حرف الجر فلا يحتاج إلى إضمار فعل. وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَطْعَمُ الْمَكْذِبِينَ﴾ يريد قريشاً، وذلك أنهم قالوا في بعض الأوقات لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لو عبدت آلهتنا وعظمتها لعبدنا إلهك وعظمتنا، وودوا أن يداهنهم النبي صلى الله عليه وسلم ويميل إلى ما قالوا فيميلوا هم أيضاً إلى قوله ودينه، والادهان: الملاينة فيما لا يحل، والمداراة الملاينة فيما يحل وقوله تعالى: ﴿فَيَذْهَبُونَ﴾ معطوف وليس بجواب، لأنه كان ينصب. والحلاف: المردد لحلقه الذي قد كثر منه، والمهين: الضعيف الرأي والعقل، قاله مجاهد، وهو من مهن إذا ضعف. الميم فاء الفعل، وقال ابن عباس المهين: الكذاب، والهماز: الذي يقع في الناس، وأصل الهمز في اللغة: الضرب طعناً باليد أو بالعصا أو نحوه، ثم استعير للذي ينال بلسانه، قال المنذر بن سعيد: وبعينه وإشارته، وسميت الهمزة، لأن في النطق بها حدة، وعجلة، فأشبهت الهمز باليد. وقيل لبعض العرب: أتهمز الفأرة؟ قال: الهرة تهمزها، وقيل لآخر أتهمز إسرائيل: فقال: إني إذا لرجل سوء. والنميم: مصدر كالنميمة. وهو نقل ما يسمع مما يسوء ويحشر النفوس. وروى حذيفة أن النبي قال: «لا يدخل الجنة قتات»، وهو النمام، وذهب كثير من المفسرين إلى أن هذه الأوصاف هي أجناس لم يرد بها رجل بعينه، وقالت طائفة: بل نزلت في معين، واختلف فيه، فقال بعضها: هو الوليد بن المغيرة، ويؤيد ذلك غناه، وأنه أشهرهم بالمال والبنين، وقال الشعبي وغيره: هو الأخنس بن شريق، ويؤيد ذلك أنه كانت له هنة في حلقه كزئمة الشاة، وأيضاً فكان من ثقيف ملصقاً في قريش، وقال ابن عباس في كتاب الثعلبي: هو أبو جهل، وذكر النقاش: عتبة بن ربيعة، وقال مجاهد: هو الأسود بن عبد يغوث، وظاهر اللفظ عموم من هذه صفته، والمخاطبة بهذا المعنى مستمرة باقي الزمن، لا سيما لولاة الأمور.

قوله عز وجل:

مَتَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِمٍ ۖ عَتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ ۚ (١٢) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۖ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۚ (١٣) سَنَسِفُهُ عَلَىٰ الْحَرُوطِ ۚ (١٤) إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۚ (١٥) وَلَا يَسْتَنْوُونَ ۚ (١٦) فَطَافَ عَلَيْهِمُ طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُنَّا بِهٖمُونَ ۚ (١٧) أَصَبَحْتَ كَالْصَّرِيمِ ۚ (١٨)

قال كثير من المفسرين: الخبر هنا المال، فوصفه بالشح، وقال آخرون: بل هو على عمومه في المال والأفعال الصالحة، ومن يمنع إيمانه وطاعته لله تعالى فقد منع الخير، والمعتدي: المتجاوز لحدود الأشياء. والأثيم: فاعيل من الإثم، بمعنى: أثم، وذلك من حيث أعماله قبيحة تكسب الإثم، والعتل: القوي البنية الغليظ الأعضاء المصحح القاسي القلب، البعيد الفهم، الأكل الشروب، الذي هو بالليل جيفة وبالنهار حمار، فكل ما عبر به المفسرون عنه من خلال النقص فعن هذه التي ذكرت بصدر، وقد ذكر النقاش، أن النبي صلى الله عليه وسلم: فسر العتل بنحو هذا، وهذه الصفات كثيرة التلازم، والعتل:

الدفع بشدة، ومنه العتلة، وقوله: ﴿بعد ذلك﴾ معناه، بعدما وصفناه به، فهذا الترتيب إنما هو في قول الواصف، لا في حصول تلك الصفات في الموصوف وإلا فكونه عتلاً، هو قبل كونه صاحب خير يمنعه، والزنيم: في كلام العرب، الملتصق في القوم وليس منهم، وقد فسر به ابن عباس هذه الآية، وقال مرة الهمداني: إنما ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة سنة، يعني الذي نزلت فيه هذه الآية، ومن ذلك قول حسان بن ثابت: [الطويل]

وأنت زنيم نيط في آل هاشم كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

ومنه قول حسان بن ثابت أيضاً: [الطويل]

زنيم تداعاه الرجال زيادة كما زيد في عرض الأديم الأكارع

فقال كثير من المفسرين: هذا هو المراد في الآية. وذلك أن الأخنس بن شريق كان من ثقيف، حليفاً لقريش. وقال ابن عباس: أراد بـ«الزنيم» أن له زمة في عتقه كزمنة الشاة، وهي الهنة التي تعلق في عتقها، وما كنا نعرف المشار إليه، حتى نزلت فعرفناه بزمنته. قال أبو عبيدة: يقال للئيس زنيم إذا له زمتان، ومنه قول الأعرابي في صفة شاته: كأن زمنتها نتوا قليسية. وروي أن الأخنس بن شريق كان بهذه الصفة كان له زمة. وروي ابن عباس أنه قال: لما نزلت هذه الصفة، لم يعرف صاحبها حتى نزلت «زنيم» فعرف بزمنته. وقال بعض المفسرين: الزنيم: المريب، القبيح الأفعال. واختلفت القراءة في قوله: ﴿أن كان ذا مال﴾. فقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والكسائي وحفص عن عاصم وأهل المدينة: «أن كان» على الخبر، وقرأ حمزة: «أن كان» بهمزتين محققتين على الاستفهام، وقرأ ابن عامر والحسن وابن أبي إسحاق وعاصم وأبو جعفر: «أن كان» على الاستفهام بتسهيل الهمزة الثانية، والعامل في «أن كان» فعل مضمّر تقديره: كفر أو جحد أو عند، وتفسير هذا الفعل، قوله: ﴿إذا تتلى عليه﴾ الآية، وجاز أن يعمل المعنى وهو متأخر من حيث كان قوله «أن كان» في منزلة الظرف، إذ يقدر باللام، أي لأن كان، وقد قال فيه بعض النحاة: إنه في موضع خفض باللام، كما لو ظهرت، فكما يعمل المعنى في الظرف المتقدم فكذلك يعمل في هذا، ومنه قوله تعالى: ﴿ينبئكم إذا مزمتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد﴾ [سبأ: ٧]. فالعامل في: ﴿إذا﴾ [سبأ: ٧]، معنى قوله: ﴿إنكم لفي خلق جديد﴾ [سبأ: ٧]، أي تبعثون، ونحوه من التقدير، ولا يجوز أن يعمل: ﴿تتلى﴾ في «إذا» لأنه مضاف إليه وقد أضيف «إذا» إلى الجملة ولا يجوز أن يعمل في «أن»، قال لأنها جواب «إذا» ولا تعمل فيما قبلها. وأجاز أبو علي أن يعمل فيه «عتل» وإن كان قد وصف، ويصح على هذا النظر أن يعمل فيه «زنيم» لا سيما على قول من يفسره بالقبيح الأفعال، ويصح أن يعمل في «أن كان»، تطيعه التي يقتضيه قوله: ﴿ولا تطع﴾ [القلم: ١٠]. وهذا على قراءة الاستفهام يبعد وإنما يتجه لا تطعه لأجل كونه كذا، و«أن كان»، على كل وجه، مفعول من أجله وتأمل. وقد تقدم القول في الأساطير في غير ما موضع. وقوله تعالى: ﴿سنسمه على الخرطوم﴾ معناه على الأنف قاله المبرد، وذلك أن «الخرطوم» يستعار في أنف الإنسان. وحقيقته في مخاطم السباع، ولم يقع التوعد في هذه الآية، بأن

يوسم هذا الإنسان على أنفه بسمه حقيقة، بل هذه عبارة عن فعل يشبه الوسم على الأنف. واختلف الناس في ذلك الفعل، فقال ابن عباس: هو الضرب بالسيف أي يضرب في وجهه، وعلى أنفه فيجيء ذلك الوسم على الأنف، وحل ذلك به يوم بدر. وقال محمد بن يزيد المبرد: ذلك في عذاب الآخرة في جهنم، وهو تعذيب بنار على أنوفهم. وقال آخرون ذلك في يوم القيامة، أي يوسم على أنفه بسمه يعرف بها كفره وانحطاط قدره. وقال قتادة وغيره معناه: سنفعل به في الدنيا من الذم له والمقت والإشهار بالشر ما يبقى فيه ولا يخفى به فيكون ذلك كالوسم على الأنف ثابتاً بيناً، وهذا المعنى كما تقول: سأطوقك طوق الحمامة، أي أثبت لك الأمر بيناً فيك، ونحو هذا أراد جرير بقوله: [الكامل]

لما وضعت على الفرزدق ميسي

وفي الوسم على الأنف تشويه، فجاءت استعارته في المذمات بليغة جداً. وإذا تأملت حال أبي جهل ونظرائه وما ثبت لهم في الدنيا من سوء الأحداث رأيت أنهم قد وسموا على الخراطيم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ يريد قريشاً، أي امتحانهم، و﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ فيما ذكر قوم إخوة كان لأبيهم جنة وحرث مغل فكان يمسك منه قوته، ويتصدق على المساكين بباقيه، وقيل بل كان يحمل المساكين معه في وقت حصاده وجده، فيجذبهم منه فمات الشيخ، فقال ولده: نحن جماعة وفعل أبنينا كان خطأ، فلنذهب إلى جنتنا ولا يدخلها علينا مسكين، ولا نعطي منها شيئاً، قال: فبيتوا أمرهم وعزمهم على هذا، فبعث الله عليها بالليل طائفاً من نار أو غير ذلك، فاحترقت، فقيل: أصبحت سوداء، وقيل: بيضاء كالزرع اليابس المحصود، فلما أصبحوا إلى جنتهم لم يروها فحسبوا أنهم قد أخطؤوا الطريق، ثم تبينوا فعلوا أن الله تعالى أصابهم فيها، فتأبوا حينئذ وأتابوا وكانوا مؤمنين من أهل الكتاب، فشبّه الله تعالى قريشاً بهم، في أنهم امتحنهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وهذاه كما امتحن أولئك بفعل أبيهم وبأوامر شرعهم، فكما حل بأولئك العقاب في جنتهم كذلك يحل بهؤلاء في جميع دنياهم وفي حياتهم، ثم التوبة معرضة لمن بقي منهم كما تاب أولئك. وقال كثير من المفسرين: السنين السبع التي أصابت قريشاً هي بمثابة ما أصاب أولئك في جنتهم. وقوله تعالى: ﴿لِيَصْرِمْنَهَا﴾ أي ليجدنها، وصرام النخل: جد ثمره وكذلك في كل شجرة، و﴿مُصْبِحِينَ﴾ معناه: إذا دخلوا في الصباح، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَنْتُونَ﴾ ولا يتوقفون في ذلك، أو ولا ينتشون عن رأي منع المساكين، وقال مجاهد معناه: لا يقولون إن شاء الله، بل عزموا على ذلك عزم من يملك أمره، والطائف: الأمر الذي يأتي بالليل، ذكر هذا التخصيص الفراء، ويرده قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهِمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، والصريم: قال الفراء ومنذر وجماعة: أراد به الليل من حيث اسودت جنتهم. وقال آخرون: أراد به الصبح من حيث ابيضت كالحصيد، قاله سفيان الثوري: والصريم، يقال لليل والنهار من حيث كل واحد منهما ينصرم من صاحبه، وقال ابن عباس: الصريم، الرماد الأسود بلغة جذيمة، وقال ابن عباس أيضاً وغيره: الصريم، رملة باليمن معروفة لا تنبت فشبّه جنتهم بها.

قوله عز وجل:

فَنَادَا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ أَغْدُوا عَلَىٰ حَرِّكُمَا إِنْ كُنْتُمْ صَرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَوْنَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ

عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٩﴾ وَعَدُوا عَلَىٰ حَرْدٍ قَدِيرِينَ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٣١﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٣٢﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٣٣﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣٤﴾

﴿تنادوا﴾ معناه: دعا بعضهم بعضاً إلى المضي لميعادهم، وقرأ بعض السبعة: «أُنْ اغدوا» بضم النون وبعضهم بكسرهما، وقد تقدم هذا مراراً. وقولهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ﴾، يحتمل أن يكون من صرام النخل، ويحتمل أن يريد إن كنتم من أهل عزم وإقدام على آرائكم من قولك سيف صارم، و﴿يَتَخَفَتُونَ﴾ معناه: يتكلمون كلاماً خفياً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَافَتْ بَهَا﴾ [الإسراء: ١١٠]، وكان هذا التخافت خوفاً من أن يشعر بهم المساكين، وكان لفظهم الذي ﴿يَتَخَفَتُونَ﴾ به أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين. وقرأ ابن مسعود وابن أبي عتبة: «لا يدخلنها» بسقوط أن، وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ يحتمل أن يريد على منع من قولهم: حاردت الإبل، إذا قلت ألبانها فمنعته، وحاردت السنة، إذا كانت شهباء لا غلة لها، ومنه قول الشاعر [الكُميت]: [الطويل]

وحاردت النكد الجلال فلم يكن لعقبة قدر المستعيرين معقب

ويحتمل أن يريد بالحرد القصد، وبذلك فسر بعض اللغويين، وأُنشد عليه [القرطبي]: [الرجز]

أقبل سيل جاء من أمر الله يحرد حرد الحبة المغلة

أي يقصد قصدها، ويحتمل أن يريد بالحرد، الغضب، يقال: حرد الرجل حرداً إذا غضب، ومنه قول الأشهب بن رميلة: [الطويل]

أسود شرى لاقت أسوداً خفية تساقوا على حرد دماء الأساود

وقوله تعالى: ﴿قَادِرِينَ﴾ يحتمل أن يكون من القدرة، أي هم قادرون في زعمهم، ويحتمل أن يكون من التقدير كأنهم قد قدروا على المساكين، أي ضيقوا عليهم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ [الطلاق: ٧]، وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أي محترقة حسبوا أنهم قد ضلوا الطريق، وأنها ليست تلك، فلما تحققوها علموا أنها أصيبت، فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾، أي قد حرمتنا غلتها وبركتها، فقال لهم أعدلهم قولاً وخلقاً وعقلاً وهو الأوسط، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمَّةٌ وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] أي عدولاً خياراً، و﴿تَسْبِحُونَ﴾، قيل هي عبارة عن طاعة الله وتعظيمه، والعمل بطاعته. وقال مجاهد وأبو صالح: هي كانت لفظة، الاستثناء عندهم.

قال القاضي أبو محمد: وهذا يرد عليه قولهم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ فبادر القوم عند ذلك وتابوا وسبحوا واعترفوا بظلمهم في اعتقادهم منع الفقراء.

قوله عز وجل:

فَاقْبَلْ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتْلَوْمُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا نُونُ لَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣٦﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا

رَغَبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾

﴿يتلاومون﴾ معناه: يجعل كل واحد اللوم في حيز صاحبه، ويرى نفسه، ثم أجمعوا على أنهم طغوا، أي تعدوا ما يلزم من مواساة المساكين، ثم انصرفوا إلى رجاء الله تعالى، وانتظار الفرج من لدنه في أن يبدلهم بسبب توبتهم خيراً من تلك الجنة. وقرأ: «يبدلنا» بسكون الباء وتخفيف الدال، جمهور القراء والحسن وابن محيصن والأعمش، وقرأ نافع وأبو عمرو: بالثقل وفتح الباء، وقوله تعالى: ﴿كذلك العذاب﴾ ابتداء مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم في أمر قريش، والإشارة بذلك إلى العذاب الذي نزل بالجنة، أي ذلك العذاب، هو العذاب الذي ينزل بقريش بغتة، ثم عذاب الآخرة بعد ذلك أشد عليهم من عذاب الدنيا، وقال كثير من المفسرين: العذاب النازل بقريش المماثل لأمر الجنة هو الجذب الذي أصابهم سبع سنين، حتى رأوا الدخان وأكلوا الجلود، ثم أخبر تعالى: ﴿إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم﴾، فروي أنه لما نزلت هذه قالت قريش: إن كانت ثم جنات نعيم، فلنا فيها أكبر الحظ، فنزلت: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين﴾، وهذا على جهة التوقيف والتوبيخ. وقوله تعالى: ﴿ما لكم﴾ توبيخ آخر ابتداء وخبر جملة منحازة، وقوله تعالى: ﴿كيف تحكمون﴾ جملة منحازة كذلك، و﴿كيف﴾ في موضع نصب بـ ﴿تحكمون﴾، وقوله تعالى: ﴿أم﴾ هي المقدرة ببل وألف الاستفهام، و: ﴿كتاب﴾ معناه: منزل من عند الله، وقوله تعالى: ﴿إن لكم فيه لما تخيرون﴾. قال بعض المتأولين: هذا استئناف قول على معنى: إن كان لكم كتاب، فلكم فيه متخير، وقال آخرون: ﴿إن﴾ معمولة لـ ﴿تدرسون﴾، أي تدرسون في الكتاب إن لكم ما تختارون من النعيم، وكسرت الألف من ﴿إن﴾ لدخول اللام في الخبر، وهي في معنى: «أن» بفتح الألف. وقرأ طلحة والضحاك: «أن لكم» بفتح الألف. وقرأ الأعرج «أن لكم فيه» على الاستفهام.

قوله عز وجل:

أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَشَعَتِ أَبْصَارُهُمْ تَرَاهُمْ رَهَاقَهُمْ ذَلَةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ هَذَا الْحَدِيثَ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى: ﴿أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة﴾ مخاطبة للكفار، كأنه يقول: هل أقسمنا لكم قسماً فهو عهد لكم بأننا ننعمةكم في يوم القيامة وما بعده؟ وقرأ جمهور الناس بالرفع على الصفة لأيمان،

وقرأ الحسن بن أبي الحسن «بالغة» بالنصب على الحال وهي حال من النكرة، لأنها نكرة مخصصة بقوله ﴿علينا﴾، وقرأ الأعرج: «إن لكم لما تحكمون» وكذلك في التي تقدمت في قوله: «إن لكم فيه لما تخيرون»، ثم أمر تعالى نبيه محمداً على وجه إقامة الحجة، أن يسألهم عن الزعيم لهم بذلك من هو؟ والزعيم: الضامن للأمر والقائم به، ثم وقفهم على أمر الشركاء، عسى أن يظنوا أنهم ينفعونهم في شيء من هذا. وقرأ ابن أبي عبله وابن مسعود: «أم لهم شركاء فليأتوا بشركهم» بكسر الشين دون ألف، والمراد بذلك على القراءتين الأصنام، وقوله تعالى: ﴿فليأتوا بشركهم﴾ قيل هو استدعاء وتوقيف في الدنيا، أي ليحضرهم حتى يرى هل هم بحال من يضر وينفع أم لا، وقيل هو استدعاء وتوقيف على أن يأتوا بهم يوم القيامة، ﴿يوم يكشف عن ساق﴾. وقوله تعالى: ﴿يوم يكشف عن ساق﴾، قال مجاهد: هي أول ساعة من يوم القيامة، وهي أظفها، وتظاهر حديث من النبي صلى الله عليه وسلم: «أنه ينادي مناد يوم القيامة ليتبع كل أحد ما كان يعبد»، قال: «فتتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، وكذلك كل عابد لكل معبود ثم تبقى هذه الأمة وغبرات أهل الكتاب، معهم منافقوهم وكثير من الكفرة، فيقال لهم: ما شأنكم لم تقفون، وقد ذهب الناس فيقولون ننتظر ربنا فيجيئهم الله تعالى في غير الصورة التي عرفوه بها، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، قال فيقول: أتعرفونه بعلامة ترونها فيقولون: نعم، فيكشف لهم عن ساق، فيقولون: نعم أنت ربنا، ويخرون للسجود فيسجد كل مؤمن وتصير أصلاب المنافقين والكفار كصياصي البقر عظماً واحداً، فلا يستطيعون سجوداً».

قال القاضي أبو محمد: هكذا هو الحديث وإن اختلفت منه ألفاظ بزيادة ونقصان، وعلى كل وجه فما ذكر فيه من كشف الساق وما في الآية أيضاً من ذلك، فإنما هو عبارة عن شدة الهول وعظم القدرة التي يرى الله تعالى ذلك اليوم حتى يقع العلم أن تلك القدرة إنما هي الله تعالى وحده، ومن هذا المعنى قول الشاعر في صفة الحرب [جد طرفه]: مجزوء الكامل]

كشفت لهم عن ساقها وبدا عن الشر البواح

ومنه قول الراجز: [الرجز]

وشمرت عن ساقها فشدوا

وقول الآخر: [الرجز]

في سنة قد كشفت عن ساقها حمراء تبري اللحم عن عراقها

وأصل ذلك أنه من أراد الجد في أمر يحاوله فإنه يكشف عن ساقه تشميراً وجداً، وقد مدح الشعراء بهذا المعنى فمنه قول دريد: [الطويل]

كميش الإزار خارج نصف ساقه صبور على الضراء طلاع أنجد

وعلى هذا من إرادة الجد والتشمير في طاعة الله تعالى، قال صلى الله عليه وسلم: «أزره المؤمن إلى أنصاف ساقه». وقرأ جمهور الناس: «يُكشَف عن ساق» بضم الياء على بناء الفعل للمفعول، وقرأ ابن

مسعود: «يُكْشِفُ» بفتح الياء وكسر الشين على معنى يكشف الله، وقرأ ابن عباس: «تُكْشِفُ» بضم التاء على معنى تكشف القيامة والشدة والحال الحاضرة، وقرأ ابن عباس أيضاً: «تُكْشِفُ» بفتح التاء على أن القيامة هي الكاشفة، وحكى الأخفش عنه أنه قرأ: «تُكْشِفُ» بالنون مفتوحة وكسر الشين، ورويت عن ابن مسعود. وقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَ﴾ ظاهره أن ثم دعاء إلى السجود، وهذا يردّه ما قد تقرر في الشرع من أن الآخرة ليست بدار عمل وأنها لا تكليف فيها، فإذا كان هذا فإنما الداعي ما يرويه من سجد المؤمن فيريدون هم أن يسجدوا عند ذلك فلا يستطيعونه. وقد ذهب بعض العلماء إلى أنهم يدعون إلى السجود على جهة التوبيخ، وخرج بعض الناس من قوله: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أنهم كانوا يستطيعونه قبل ذلك، وذلك غير لازم. وعقيدة الأشعري: أن الاستطاعة إنما تكون مع التلبس بالفعل لما قبله، وهذا القدر كاف من هذه المسألة هاهنا. و: ﴿خَاشِعَةً﴾ نصب على الحال وجوارحهم كلها خاشعة، أي ذليلة ولكنه خص الأبصار بالذكر لأن الخشوع فيها أبين منه في كل جارحة. وقوله تعالى: ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي ترعج نفوسهم وتظهر عليهم ظهوراً يخزيهم، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ﴾ يريد في دار الدنيا وهم سالمون مما نال عظام ظهورهم من الاتصال والعتو، وقال بعض المتأولين: ﴿السُّجُودِ﴾ هنا عبارة عن جميع الطاعات، وخص ﴿السُّجُودِ﴾ بالذكر من حيث هو عظم الطاعات، ومن حيث به وقع امتحانهم في الآخرة، وقال إبراهيم التيمي والشعبي: أراد بـ ﴿السُّجُودِ﴾ الصلوات المكتوبة، وقال ابن جبير: المعنى كانوا يسمعون النداء للصلاة: وحي على الفلاح فلا يجيبون، وفلج الربيع بن خيثم: فكان يهادي بين رجلين إلى المسجد، فقيل له: إنك لمعدور، فقال: من سمع حي على الفلاح، فليجب ولو حبواً، وقيل لابن المسيب: إن طارقاً يريد قتلك فاجلس في بيتك، فقال: أسمع حي على الفلاح فلا أجيب؟ والله لا فعلت. وهذا كله قريب بعضه من بعض، وقوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ وعيد ولم يكن ثم مانع، ولكنه كما تقول: دعني مع فلان، أي سأعاقبه، ﴿وَمَنْ﴾ في موضع نصب عطفاً على الضمير في: ﴿ذَرْنِي﴾ أو نصباً على المفعول معه، و﴿الحديث﴾ المشار إليه هو القرآن المخبر بهذه الغيوب، والاستدراج هو: الحمل من رتبة إلى رتبة، حتى يصير المحمول إلى شر وإنما يستعمل الاستدراج في الشر، وهو مأخوذ من الدرج، قال سفيان الثوري: نسبغ عليهم النعم، ويمنعون الشكر، وقال غيره: كلما زادوا ذنباً زادوا نعمة، وفي معنى الاستدراج قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَمُهِلُ الظَّالِمَ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ». وقال الحسن: كم من مستدرج بالإحسان إليه ومغرور بالستر عليه. ﴿وَأَمْلِي لَهُمْ﴾ معناه: أؤخرهم ملاوة من الزمن، وهي البرهة والقطعة، يقال: مُلاوةٌ بضم الميم وبفتحها وبكسرهما، والكيد: عبارة عن العقوبة التي تحل بالكفار من حيث هي: على كيد منهم، فسمى العقوبة باسم الذنب، والمتمين: القوي الذي له متانة، ومنه المتن الظاهر.

قوله عز وجل:

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَنْ تَدْرِكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْنِبْ

رَبُّهُ فَجَعَلَهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

هذه ﴿أم﴾ التي تتضمن الإضراب عن الكلام الأول لا على جهة الرقص له، لكن على جهة الترك والإقبال على سواه، وهذا التوقيف لمحمد صلى الله عليه وسلم، والمراد به توبيخ الكفار لأنه لو سألهم أجراً فأنقلبهم غرم ذلك لكان لهم بعض العذر في إعراضهم وقرارهم، وقوله تعالى: ﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾ معناه: هل لهم علم بما يكون فيدعون مع ذلك أن الأمر على اختيارهم جار، ثم أمر تعالى نبيه بالصبر لحكمه، وأن يمضي لما أمر به من التبليغ واحتمال الأذى والمشقة، ونهى عن الضجر والعجلة التي وقع فيها يونس صلى الله عليه وسلم، ثم اقتضت القصة، وذكر ما وقع في آخرها من ندائه من بطن الخوت ﴿وهو مكظوم﴾، أي غيظه في صدره. وحقيقة الكظم: هو الغيظ والحزن والندم فحمل المكظوم عليه تجوزاً، وهو في الحقيقة كاظم، ونحو هذا قول ذي الرمة: [البسيط]

وأنت من حب مني مضمهر حزناً عاني الفؤاد قريح القلب مكظوم

وقال النقاش: المكظوم، الذي أخذ بكظمه وهو مجاري القلب، ومنه سميت الكاظمة وهي القناة في جوف الأرض. وقرأ جمهور الناس: «لولا أن تداركه» أسند الفعل دون علامة تأنيث، لأن تأنيث النعمة غير حقيقي وقرأ أبي بن كعب وابن مسعود وابن عباس: «تداركته» على إظهار العلامة، وقرأ ابن هرمز والحسن: «تداركه» بشد الدال على معنى: تداركه وهي حكاية حال تام، فلذلك جاء الفعل مستقبلاً بمعنى: «لولا أن»، يقال فيه تداركه نعمة من ربه ونحوه، قوله تعالى: ﴿فوجد فيها رجلين يقتتلان﴾ فهذا وجه القراءة، ثم أدغمت التاء في الدال، والنعمة: هي الصفح والتوب، والاجتباء: الذي سبق له عنده، والعراء: الأرض الواسعة التي ليس فيها شيء يوارى من بناء ولا نبات ولا غيره من جبل ونحوه، ومنه قول الشاعر [أبو الخراش الهذلي]: [الكامل]

رفعت رجلاً لا أخاف عشارها ونبتت بالأرض العراء ثيابي

وقد نبذ يونس عليه السلام «بالعراء» ولكن غير مذموم، و«واجتباء» معناه: اختاره واصطفاه. ثم أخبر تعالى نبيه بحال نظر الكفار إليهم، وأنهم يكادون من الغيظ والعداوة، يزلقونه فيذهبون قدمه من مكانها ويسقطونه. وقرأ جمهور القراء: «يزلقونك» بضم الياء من أزلق، وقرأ نافع وحده: «يزلقونك». بفتح الياء من زلقت الرجل، يقال: زلق الرجل بكسر اللام وزلقته بفتحها مثل: حزن وحزنته وشترت العين بكسر التاء وشترتها، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: «ليزهقونك» بالهاء، وروى النخعي أن في قراءة ابن مسعود: «لينفدونك»، وفي هذا المعنى الذي في نظرهم من الغيظ والعداوة قول الشاعر: [الكامل]

يتقارضون إذا التقوا في مجلس نظراً يزيل مواطن الأقدام

وذهب قوم من المفسرين إلى أن المعنى: يأخذونك بالعين، وذكر أن الدفع بالعين كان في بني

أسد، قال ابن الكلبي : كان رجل يتجوع ثلاثة أيام لا يتكلم على شيء إلا أصابه بالعين، فسأله الكفار أن يصيب النبي عليه السلام، فأجابهم إلى ذلك، ولكن عصم الله تعالى نبيه، قال الزجاج : كانت العرب إذا أراد أحدهم أن يعتان شيئاً، تجوع ثلاثة أيام، وقال الحسن : دواء من أصابه العين أن يقرأ هذه الآية، ﴿الذكر﴾ في الآية القرآن، ثم قرر تعالى أن هذا القرآن العزيز ﴿ذكر للعالمين﴾ من الجن والإنس، ووعظ لهم وحجة عليهم، فالحمد لله الذي أنعم علينا به وجعلنا أهله وحماته لا رب غيره.

نجز تفسير سورة «ن والقلم» بحمد الله تعالى وعونه وصلى الله على محمد وآله وسلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْحَاقَّةِ

وهي مكية بالإجماع، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: خرجت يوماً بمكة متعرضاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجدته قد سبقني للمسجد الحرام، فجئت فوقفت وراءه، فافتتح سورة الحاقة، فلما سمعت سرد القرآن، قلت في نفسي إنه لشاعر، كما تقول قريش حتى بلغ إلى قوله ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، وما هو بقول شاعر، قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون، تنزيل من رب العالمين﴾ [الحاقة: ٤٠ - ٤١ - ٤٢ - ٤٣]. ثم مر حتى انتهى إلى آخر السورة، فأدخل الله تعالى في قلبي الإسلام.

قوله عز وجل:

الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهُ إِذِ ابْتَدَىٰ قَارِعَةً ﴿٤﴾ فَامَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا ﴿٥﴾ وَالطَّاغِيَةُ ﴿٦﴾ وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٧﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ مُخْلِ خَاوِيَةٍ ﴿٨﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٩﴾

﴿الحاقة﴾ اسم فاعل، من حق الشيء يحق إذا كان صحيح الوجود، ومنه ﴿حقّت كلمة العذاب﴾ [الزمر: ٧١]، والمراد به القيامة والبعث، قاله ابن عباس وقتادة، لأنها حقّت لكل عامل عمله. وقال بعض المفسرين: ﴿الحاقة﴾ مصدر كالعاقبة والعافية، فكأنه قال: ذات الحق. وقال ابن عباس وغيره: سميت القيامة حاقة، لأنها تبدي حقائق الأشياء واللفظة رفع بالابتداء، و﴿ما﴾ رفع بالابتداء أيضاً، و﴿الحاقة﴾ الثانية: خبر ﴿ما﴾، والجملة خبر الأول، وهذا كما تقول: زيد ما زيد، على معنى التعظيم له والإبهام في التعظيم أيضاً، ليتخيل السامع أقصى جهده. وقوله تعالى: ﴿وما أدراك ما الحاقة﴾ مبالغة في هذا المعنى: أي أن فيها ما لم تدره من أهوالها، وتفصيل صفاتها. و﴿وما﴾ تقرير وتوبيخ. وقوله تعالى: ﴿ما الحاقة﴾ ابتداء وخبر في موضع نصب بـ ﴿أدراك﴾، و﴿ما﴾ الأولى، ابتداء وخبرها ﴿أدراك ما الحاقة﴾، وفي ﴿أدراك﴾ ضمير عائد على ﴿ما﴾ هو ضمير الفاعل. ثم ذكر تعالى تكذيب ﴿ثمود وعاد﴾ بهذا الأمر الذي هو حق مشيراً إلى أن من كذب بذلك ينزل عليه مثل ما نزل بأولئك. و﴿القارعة﴾ من أسماء القيامة أيضاً، لأنها تقرع القلوب بصدمتها، و﴿ثمود﴾ اسم عربي معرفة، فإذا أريد به القبيلة لم ينصرف، وإذا أريد به الحي انصرف، وأما ﴿عاد﴾: فكونه على ثلاثة أحرف ساكن الوسط دفع في صدر كل علة فهو مصروف. و﴿الطاغية﴾ قال قتادة: معناه الصبيحة التي خرجت عن حد كل صبيحة، وقال قوم: المراد

بسبب الفئة الطاغية، وقال آخرون منهم مجاهد وابن زيد: المعنى بسبب الفعلة الطاغية التي فعلوها. وقال ابن زيد: ما معناه: ﴿الطاغية﴾ مصدر كالعاقبة فكأنه قال بطغيانهم، وقاله أبو عبيدة ويقوي هذا ﴿كذبت ثمود بطغواها﴾ [الشمس: ١١] وأولى الأقوال وأصوبها الأول لأنه مناسب لما ذكر في عاد، إذ ذكر فيها الوجه الذي وقع به الهلاك، وعلى سائر الأقوال لا يتناسب الأمران لأن طغيان ثمود سبب والريح لا يناسب ذلك لأنها ليست سبب الإهلاك، بل هي آلة كما في الصيحة، و: «الصرصر» يحتمل أن يكون من الصر أي البرد، وهو قول قتادة، ويحتمل أن يكون من صر الشيء إذا صوت، فقال قوم: صوت الريح ﴿صرصر﴾، كأنه يحكي هذين الحرفين. و«العاتية» معناه: الشديدة المخالفة، فكانت الريح عتت على الخزان بخلافها وعتت على قوم عاد بشدتها. وروي عن علي بن أبي طالب وابن عباس أنهما قالوا: إنه لم ينزل من السماء قطرة ماء إلا بمكيال على يد ملك ولا هبت ريح إلا كذلك إلا ما كان من طوفان نوح وريح عاد، فإن الله أذن لهما في الخروج دون إذن الخزان. والتسخير: استعمال الشيء باقتدار عليه. وروي أن الريح بدأت بهم صباح يوم الأربعاء لثمان بقين لشوال، وتمادت بهم إلى آخر يوم الأربعاء تكملة الشهر. و﴿حسوماً﴾، قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقاتدة وأبو عبيدة معناه: كاملة تباعاً لم يتخللها غير ذلك، وهذه كما تقول العرب ما لقيته حولاً محرماً، قال الشاعر [طفيل الغنوي]: [الطويل]

عواذب لم تسمع نبوح مقامة ولم تر ناراً ثم حول محرم

وقال الخليل: ﴿حسوماً﴾، أي شؤماً ونحساً، وقال ابن زيد: ﴿حسوماً﴾ جمع حاسم كجالس وقاعد، ومعناه أن تلك الأيتام قطعهم بالإهلاك، ومنه حسم العلل ومنه الحسام. والضمير في قوله ﴿فيها صرعى﴾ يحتمل أن يعود على دارهم وحلتهم لأن معنى الكلام يقتضيها وإن لم يلفظ بها. قال الثعلبي، وقيل يعود على الريح، وقد تقدم القول في التشبيه بـ «أعجاز النخل» في سورة (اقتربت الساعة). والخواوية: الساقطة التي قد خلت أعجازها بلىً وفساداً. ثم وقف تعالى على أمرهم توقيف اعتبار ووعظ بقوله: ﴿هل ترى لهم من باقية﴾ اختلف المتأولون في: ﴿باقية﴾، فقال قوم منهم ابن الأنباري: هي هاء مبالغة كعلامة ونسابة والمعنى من باق. وقال ابن الأنباري أيضاً معناه: من فئة باقية وقال آخرون: ﴿باقية﴾ مصدر فالمعنى من بقاء.

قوله عز وجل:

وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ۖ فَنصَوَّرَ سُلُوفَهُمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ۚ إِنَّا لَمَاطِفَا
الْمَاءِ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ۚ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أذُنٌ وَعِيَةٌ ۚ فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةً وَاحِدَةً ۚ
وَحَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّنَا ذَكَّةً وَاحِدَةً ۚ فَيَوْمَ يَذُوقُونَ الْعِقَابَ ۚ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ
وَاهِيَةٌ ۚ وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ۚ

وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر وحزمة وأبو جعفر وشيبة وأبو عبد الرحمن والناس: «من قبله»

بفتح القاف وسكون الباء أي الأمم الكافرة التي كانت قبله، ويؤيد ذلك ذكره قصة نوح في طغيان الماء لأن قوله: ﴿من قبله﴾، قد تضمنه فحسن اقتضاب أمرهم بعد ذلك دون تصريح. وقال أبو عمرو والكسائي وعاصم في رواية أبان والحسن بخلاف عنه وأبورجاء والجحدري وطلحة: «ومن قبله»، بكسر المقافه وفتح الباء أي أجناده وأهل طاعته ويؤيد ذلك أن في مصحف أبي بن كعب: «وجاء فرعون ومن معه»، وفي حرف أبي موسى: «ومن تلقاء». وقرأ طلحة بن مصرف: «ومن حوله». وقبل الإنسان: ما يليه في المكان وكثر استعمالها حتى صارت بمنزلة عندي وفي ذمتي وما يليني بأي وجه وليني. و: ﴿المؤتفكات﴾ قرى قوم لوط، وكانت أربعاً فيما روي، واثنتفكت: قلبت وصرفت عاليها سافلها فاثنتفكت هي فهي مؤتفكة، وقرأ الحسن هنا: «والمؤتفكة» على الأفراد، و: ﴿الخاطئة﴾: إما أن تكون صفة لمحنوف كأنه قال بالفعل الخاطئة، وإما أن يريد المصدر، أي بالخطأ في كفرهم وعصيانهم. وقوله تعالى: ﴿فقصوا رسول ربهم﴾ يحتمل أن يكون الرسول: اسم جنس كأنه قال: فعصا هؤلاء الأقوام والفرق أنبياء الله الذين أرسلهم إليهم، ويحتمل أن يكون الرسول بمعنى: الرسالة، وقال الكلبي: يعني موسى، وقال غيره في كتاب الثعلبي: يعني لوطاً والرابية: النامية التي قد عظمت جداً، ومنه ربا المال، ومنه الربا، ومنه اهترت وربت، ثم عدد تعالى على الناس نعمته في قوله: ﴿إنا لما طغيا الماء﴾ الآية، والمراد: ﴿طغيا الماء﴾ في وقت الطوفان الذي كان على قوم نوح. والطغيان: الزيادة على الحدود المتعارفة في الأشياء، ومعناه طغى على خزانة في خروجه وعلى البشر في أن أغرقهم، قال قتادة: علا على كل شيء خمسة عشر ذراعاً، و: ﴿الجارية﴾: السفينة، والضمير في ﴿لنجعلها﴾ عائذ على الفعلة أي من يذكرها ازدجر، ويحتمل أن يعود على ﴿الجارية﴾، أي من سمعها اعتبر. و: ﴿الجارية﴾ يراد بها سفينة نوح قاله منذر، وقال المهدوي: المعنى في السفن الجارية، وقال قتادة: أبقي الله تعالى تلك السفينة حتى رأى بعض عيدانها أوائل هذه الأمة وغيرها من السفن التي صنعت بعدها قد صارت رموداً. وقوله تعالى: ﴿وتبها أذن واعية﴾ عبارة عن الرجل الفهم المنور القلب، الذي يسمع القول فيتلقاه بفهم وتدبر. قال أبو عمران الجوني: ﴿واعية﴾ عقلت عن الله عز وجل. ويروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «إني دعوت الله تعالى أن يجعلها أذنك يا علي». قال علي: فما سمعت بعد ذلك شيئاً فنسيته. وقرأ الجمهور: «تعيها» بكسر العين على وزن تليها. وقرأ ابن كثير في رواية الحلواني وقنبل وابن مصرف: «وتعيها» بسكون العين جعل التاء التي هي علامة في المضارع بمنزلة الكاف من كتف إذ حرف المضارع لا يفارق الفعل فسكن تخفيفاً كما يقال: كتف ونحو هذا قول الشاعر:

قالت سليمي اشتراً لنا سويقاً

على أن هذا البيت منفصل، فهو أبعد لكن ضرورة الشعر تسامح به، ثم ذكر تعالى أمر القيامة، و: ﴿الصور﴾: القرن الذي ينفخ فيه، قال سليمان بن أرقم: بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن ﴿الصور﴾ فقال: «هو قرن من نور فمه أوسع من السماوات»، والنفخة المشار إليها في هذه الآية، نفخة القيامة التي للفرع ومعها يكون الصعق، ثم نفخة البعث، وقيل: هي نفخات ثلاثة: نفخة الفرع ونفخة الصعق ثم نفخة البعث، والإشارة بآياتنا هذه إلى نفخة الفرع، لأن حمل الجبال هو بعدها. وقرأ

الجمهور: «نفخة» بالرفع، لما نعت صح رفعه، وقرأ أبو السمال: «نفخة واحدة» بالنصب. وقرأ جمهور القراء: «وحملت» بتخفيف الميم بمعنى حملتها الرياح والقدرة، وقرأ ابن عباس فيما روي عنه: «وحملت» بشد الميم، وذلك يحتمل معنيين أحدهما أنها حاملة حملت قدرة وعنفاً وشدة نفثها فهي محملة حاملة. والآخر أن يكون محمولة حملت ملائكة أو قدرة. وقوله تعالى: ﴿فدكتنا﴾ وقد ذكر جمعاً ساغ، ذلك لأن المذكور فرقتان وهذا كما قال الشاعر [القطامي]: [الوافر]

ألم يحزنك أن حبال قومي وقومك قد تباينت انقطاعا

ومنه قوله تعالى: ﴿كانتا رتقا﴾ [الأنبياء: ٣٠] و﴿دكتنا﴾ معناه: سوى جميعها كما يقال: ناقة دكا: إذا ضعفت فاستوت حذبتها مع ظهرها، و﴿الواقعة﴾: القيامة والطامة الكبرى، وقال بعض الناس: هي إشارة إلى صخرة بيت المقدس وهذا ضعيف، وانشقاق السماء هو تفتيرها وتمييز بعضها عن بعض وذلك هو الوهي الذي ينالها كما يقال في الجدارات البالية المتشققة واهية، ﴿والملك﴾ اسم الجنس يريد به الملائكة، وقال جمهور المفسرين: الضمير في ﴿أرجائها﴾ عائد على ﴿السماء﴾ أي الملائكة على نواحيها وما لم يه منها والرجا: الجانب من الحائط والبئر ونحوه ومنه قول الشاعر [المرادي]: [الطويل]

كأن لم تري قبلي أسيراً مقيداً ولا رجلاً يرعى به الرجوان

أي يلقي في بئر فهو لا يجد ما يتمسك به. وقال الضحاك أيضاً وابن جبير: الضمير في ﴿أرجائها﴾ عائد على الأرض وإن كان لم يتقدم لها ذكر قريب لأن القصة واللفظ يقتضي إفهام ذلك، وفسر هذه الآية بما روي أن الله تعالى يأمر ملائكة سماء الدنيا فيقفون صفاً على حافات الأرض ثم يأمر ملائكة السماء الثانية فيصفون خلفهم ثم كذلك ملائكة كل سماء، فكلما فر أحد من الجن والإنس وجد الأرض قد أحيط بها، قالوا فهذا تفسير هذه الآيات، وهو أيضاً معنى قوله تعالى: ﴿وجاء ربك والملك صفّاً صفّاً﴾ [الفجر: ٢٢] وهو أيضاً تفسير قوله ﴿يوم التناد يوم تولون مدبرين﴾ [غافر: ٣٢ - ٣٣] على قراءة من شد الدال، وهو تفسير قوله: ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا﴾ [الرحمن: ٣٣]، واختلف الناس في الثمانية الحاملين للعرش، فقال ابن عباس: هي ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم أحد عدتهم. وقال ابن زيد: هم ثمانية أملاك على هيئة الوعول، وقال جماعة من المفسرين: هم على هيئة الناس، أرجلهم تحت الأرض السفلى ورؤوسهم وكواهلهم فوق السماء السابعة. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «هم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة قواهم الله بأربعة سواهم». والضمير في قوله: ﴿فوقهم﴾ للملائكة الحاملة، وقيل للعالم كله وكل قدرة كيفما تصورت فإنما هي بحول الله وقوته.

قوله عز وجل:

يَوْمَ إِذْ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَ كَتَبَتْ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَمْرَأَةٌ وَأَكْنِيَةٌ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسْبَاءٌ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا

وَأَشْرُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أَوْقَ كَتَبَ شِمَالَهُ فَقَوْلُ يَلْتَنِى لَمَّا أَوْتِ كِتَابَهُ
﴿٢٥﴾ وَلَمْ يَرَأْ مَا حَسَابِيَّةٌ ﴿٢٦﴾ يَلْتَنِى كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْ مَالِهِ ﴿٢٨﴾ هَلَاكَ عَنْ سُلْطَانِيَّةٍ ﴿٢٩﴾

الخطاب في قوله تعالى: ﴿تعرضون﴾ لجميع العالم، وروي عن أبي موسى الأشعري وابن مسعود أن في القيامة عرضتين فيهما معاذير وتوقيف وخصومات وجدال، ثم تكون عرضة ثالثة تتطايير فيها الصحف بالآيمان والشكائل. وقرأ حمزة والكسائي: «لا يخفى»، بآلباء وهي قراءة علي بن أبي طالب وابن وثاب وطلحة والأعمش وعيسى، وقرأ الباقون: بالتاء على مراعاة تأنيث ﴿خافية﴾ وهي قراءة الجمهور، وقوله تعالى: ﴿خافية﴾ معناه ضمير ولا معتقد، والذين يعطون كتبهم بأيمانهم هم المخلدون في الجنة أهل الإيمان. واختلف العلماء في الفرقة التي ينفذ فيها الوعيد من أهل المعاصي متى تأخذ كتبها، فقال بعضهم الأظهر أنها تأخذها مع الناس، وذلك يؤنسها مدة العذاب، قال الحسن: فإذا أعطى كتابه يمينه لم يقرأه حتى يأذن الله تعالى له، فإذا أذن له قال: ﴿هاؤم اقرؤوا كتابيه﴾، وقال آخرون: الأظهر أنه إذا أخرجوا من النار والإيمان يؤنسهم وقت العذاب.

قال القاضي أبو محمد: وهذا ظاهر هذه الآية، لأن من يسير إلى النار فكيف يقول ﴿هاؤم اقرؤوا كتابيه﴾؟ وأما قوله ﴿هاؤم﴾، فقال قوم: أصله هاوموا، ثم نقله التخفيف والاستعمال، وقرأ آخرون هذه الميم ضمير الجماعة، وفي هذا كله نظر. والمعنى على كل تعالوا، فهو استدعاء إلى الفعل المأمور به، وقوله تعالى: ﴿اقرؤوا كتابيه﴾ هو استبشار وسرور، وقوله: ﴿ظننت﴾ الآية، عبارة عن إيمانه بالبعث وغيره، قال قتادة: ظن هذا ظناً يقيناً فنفعه، وقوم ظنوا ظن الشك فشقوا به، و﴿ظننت﴾ هنا واقعة موقع تيقنت وهي في متيقن لم يقع بعد ولا خرج إلى الحس، وهذا هو باب الظن الذي يوقع موقع اليقين، وقرأ بعض القراء: «كتابيه» و«حسابيه» و«ماليه» و«سلطانيه» بالهاء في الوصل والوقف اقتداء بخط المصحف، وهي في الوصل بينة الوقوف لأنها هاء السكت، فلا معنى لها في الوصل، وطرخ الهاءات في الوصل لا في الوقف الأعمش وابن أبي إسحاق، قال أبو حاتم: قراءتنا إثبات في الوقف وطرخ في الوصل، وبذلك قرأ ابن محيصة وسلام، وقال الزهراوي في إثبات الهاء في الوصل لحن لا يجوز عنه أحد علمته، و﴿راضية﴾ معناه: ذات رضى فهو بمعنى مرضية، وليست بناء اسم فاعل، و﴿عالية﴾ معناه في المكان والقدر وجميع وجوه العلو، و«القطوف»: جمع قطف وهو يجتنى من الثمار ويقطف، ودنوها: هو أنها تأتي طوع المتمنى فيأكلها القائم والقاعد والمضطجع فيه من شجرتها، و«أسلقتم» معناه: قدتمتم: و«الأيام»: هي أيام الدنيا لأنها في الآخرة قد خلت وذهبت. وقال وكيع وابن جبير وعبد العزيز بن رفيع: المراد ﴿بما أسلقتم﴾ من الصوم وعمومها في كل الأعمال أولى وأحسن، والذين يؤتون كتابهم بشمائلهم: هم المخلدون في النار أهل الكفر فيتمنون أن لو كانوا معدومين لا يجري عليهم شيء، وقوله تعالى: ﴿يا ليتها كانت القاضية﴾ إشارة إلى مودة الدنيا، أي ليتها لم يكن بعدها رجوع ولا حياة، وقوله تعالى: ﴿ما أغنى﴾ يحتمل أن يريد الاستفهام على معنى التقرير لنفسه والتوبيخ، ويحتمل أن يريد النفي المحض، و«السلطان» في الآية: الحجة على قول عكرمة ومجاهد، قال بعضهم ونحا إليه ابن زيد ينطق بذلك ملوك الدنيا الكفرة، والظاهرة

عندي أن سلطان كل أحد حاله في الدنيا من عدد وعدد، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن الرجل في سلطانه ولا يجلس على تكرمته إلا بإذنه».

قوله عز وجل:

خُذْوه فُغْلُوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلَّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسِيلٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِثُونَ ﴿٣٧﴾ فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تَبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾

المعنى يقول الله تعالى: أو الملك بأمره للزبانية، خذوه واجعلوا على عنقه غلاً، قال ابن جرير: نزلت في أبي جهل، و﴿ذرعها﴾ معناه مبلغ أذرع كيلها، وقد جعل الله تعالى السبعمئة والسبعين والسبعة موافق ونهايات لأشياء عظام، فذلك مشي البشر: العرب وغيرهم على أن يجعلوها نهايات، وهذه السلسلة من الأشياء التي جعل فيها السبعين نهاية. وقرأ السدي: «ذرعها سبعين» بالياء، وهذا على حذف خبر الابتداء، واختلف الناس في قدر هذا الذرع، فقال محمد بن المنكدر وابن جرير وابن عباس: هو بذراع الملك، وقال نوف البكالي وغيره: الذراع سبعون باعاً في كل باع كما بين الكوفة ومكة، وهذا يحتاج إلى سند، وقال حذاق من المفسرين: هي بالذراع المعروفة هنا، وإنما خوطبنا بما نعرفه ونحصله، وقال الحسن: الله أعلم بأي ذراع هي: وقال السويد بن نجيع في كتاب الثعلبي: إن جميع أهل النار في تلك السلسلة، وقال ابن عباس: لو وضع حلقة منها على جبل لذاب كالرصاص، وقوله تعالى: ﴿فاسلكوه﴾ معناه: ادخلوه، ومنه قول أبي وجزة السعدي يصف حمر وحش: [البسيط]

حتى سلكن الشوى منهن في مسك من نسل جوابة الآفاق مهداج

وروي أن هذه السلسلة تدخل في فم الكافر وتخرج من دبره فهي في الحقيقة التي سلك فيها لكن الكلام جرى مجرى قولهم: أدخلت فمي في الحجر والقلنسوة في رأسي، وروي أن هذه السلسلة تلوى حول الكافر حتى تغمه وتضغطه، فالكلام على هذا على وجهه وهو المسلك، وقوله تعالى: ﴿ولا يحض على طعام المسكين﴾ المراد به: ﴿ولا يحض على﴾ إطعام ﴿طعام المسكين﴾، وأضاف «الطعام» إلى ﴿المسكين﴾ من حيث له إليه نسبة ما وخصت هذه الخلعة من خلال الكافر بالذكر لأنها من أضر الخلال في البشر إذا كثرت في قوم هلك مساكنهم، واختلف المتأولون في قوله: ﴿حميم﴾، فقال جمهور من المفسرين: هو الصديق اللطيف المودة، فنفى الله تعالى أن يكون للكافر هنالك من يواليه، ونفى أن يكون له طعام ﴿إلا من غسيل﴾، وقال محمد بن المستنير: «الحميم» الماء السخن، فكأنه تعالى أخبر أن الكافر ليس له ماء ولا شيء مائع ﴿ولا طعام إلا من غسيل﴾، و«الغسلين» فيما قال اللغويون: ما يجري من الجراح إذا غسلت، وقال ابن عباس: هو صديد أهل النار. وقال قتادة وابن زيد: الغسلين والزقوم أخبث شيء وأبشعه، وقال الضحاك والربيع: هو شجر يأكله أهل النار، وقال بعض المفسرين: هو شيء من ضريع

النار، لأن الله تعالى قد أخبر أنهم ليس لهم طعام ﴿إلا من غسيلين﴾، وقال في أخرى: ﴿من ضريع﴾ [الغاشية: ٦] فهما شيء واحد أو اثنان متداخلان، ويحتمل أن يكون الإخبار هنا عن طائفة وهناك عن طائفة، ويكون الغسيل والضريع متباينين على ما يفهم منها في لسان العرب وخبر ليس في به، قال المهدي: ولا يصح أن يكون هاهنا.

قال القاضي أبو محمد: وقد يصح أن يكون هنا ذلك إن شاء الله، والخطأ: الذي يفعل ضد الصواب متعمداً والمخطيء الذي يفعله غير متعمد، وقرأ الحسن والزهري «الخاطيون» بالياء دون همز، وقرأ طلحة وأبو جعفر وشيبة ونافع بخلاف عنه: «الخاطون» بضم الطاء دون همز، وقوله تعالى: ﴿فلا أقسم﴾، قال بعض النحاة «لا» زائدة والمعنى: فأقسم، وقال آخرون منهم: «لا» رد لما تقدم من أقوال الكفار، والبداءة ﴿أقسم﴾ وقرأ الحسن بن أبي الحسن: «فلا أقسم»، لام القسم معها ألف أقسم، وقوله تعالى: ﴿بما تبصرون وما لا تبصرون﴾. قال قتادة بن دعام: أراد الله تعالى أن يعمم في هذا القسم جميع مخلوقاته. وقال غيره: أراد الأجساد والأرواح. وهذا قول حسن عام، وقال ابن عطاء: «ما تبصرون»، من آثار القدرة ﴿وما لا تبصرون﴾ من أسرار القدرة، وقال قوم: أراد بقوله: ﴿وما لا تبصرون﴾ الملائكة والرسول الكريم جبريل في تأويل جماعة من العلماء، ومحمد صلى الله عليه وسلم في قول آخرين وأضيف القول إليه من حيث تلاه وبلغه.

قوله عز وجل:

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ ﴿٤٢﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِيثَاقَهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا يَمْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِرِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَنَذْكُرُهُ لِلْمُنْفِقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

نفى الله تعالى أن يكون القرآن من «قول شاعر» كما زعمت قريش، ونصب ﴿قليلًا﴾ بفعل مضمر يدل عليه ﴿تؤمنون﴾، و﴿ما﴾ يحتمل أن تكون نافية فيستفي إيمانهم البتة، ويحتمل أن تكون مصدرية ويتصف بالقلّة، إما الإيمان وإما العدد الذي يؤمنون، فعلى اتصاف إيمانهم بالقلّة فهم الإيمان اللغوي لأنهم قد صدقوا بأشياء يسيرة لا تغني عنهم شيئاً إذ كانوا يصدقون أن الخير والصلة والعفاف الذي كان يأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم هو حق صواب، ثم نفى تعالى أن يكون «قوله كاهن» كما زعم بعضهم، وقرأ ابن كثير وابن عامر والحسن والجحدري: «قليلًا ما يؤمنون وقليلًا ما يذكرون» بالياء جميعاً، وقرأ الباقر: بالتاء من فوق، ورجح أبو عامر قراءة التاء بقوله تعالى: ﴿فمما مكنكم من أحد﴾ وفي مصحف أبي بن كعب «ما تذكرون» بتاءين، و﴿تنزيل﴾ رفع بالابتداء، أي هو «تنزيل»، ثم أخبر تعالى أن محمداً لو تقول عليه شيئاً لعاقبه بما ذكر، والتقول: أن يقول الإنسان عن آخر أنه قال شيئاً لم يقله. وقرأ ذكوان

وابنه محمد: «ولو يقول» بالياء وضم القاف، وهذه القراءة معرضة بما صرحت به قراءة الجمهور، وبين التعريض قوله ﴿علينا بعض الأقاويل﴾، وقوله تعالى: ﴿لأخذنا منه باليمين﴾ اختلف في معناه، فقال ابن عباس: ﴿باليمين﴾، بالقوة ومعناه: لنلنا منه عقابه بقوة منا، أو يكون المعنى: لتزعنا قوته، وقال آخرون: هي عبارة عن الهوان، كما يقال لمن يسجن أو يقام لعقوبة قد أخذ بيده وييمينه، و﴿الوتين﴾: نياط القلب، قاله ابن عباس وهو عرق غليظ تصادفه شفرة الناحر، ومنه قول الشماخ: [الوافر]

إذا بلغتني وحملت رحلي عرادة فاشرقى بدم الوتين

فمعنى الآية لأذهبنا حياته معجلاً، والحاجز: المانع، وجمع ﴿حاجزين﴾ على معنى ﴿أحد﴾ لأنه يقع على الجميع، ونحوه قوله عليه السلام: «ولم تل الغنائم لأحد سوى الرؤوس قبلكم». والضمير في قوله تعالى: ﴿وإنه لتذكرة﴾ عائد على القرآن، وقيل على محمد صلى الله عليه وسلم، وفي قوله تعالى: ﴿وإننا لنعلم أن منكم مكذبين﴾ وعيد وكونه ﴿لحسرة على الكافرين﴾ هو من حيث كفروا ويرون من آمن به ينعم وهم يعذبون، وقوله تعالى: ﴿لحق اليقين﴾ ذهب الكوفيون إلى أنها إضافة الشيء إلى نفسه كدار الآخرة ومسجد الجامع. وذهب البصريون والحدائق إلى أن الحق مضاف إلى الأبلغ من وجوهه، وقال المبرد: إنما هو كقولك عين اليقين ومحض اليقين. ثم أمر تعالى نبيه بالتسبيح باسمه العظيم. وفي ضمن ذلك الاستمرار على رسالته والمضي لأدائها وإبلاغها، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت هذه الآية: «اجعلوها في ركوعكم» واستحب التزام ذلك جماعة من العلماء، وكره مالك لزوم ذلك لثلاث يحد واجباً فرضاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْمَعَارِجِ

وهي مكية لا خلاف بين الرواة في ذلك .

قوله عز وجل :

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ
وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَأَصْبَرَ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾
وَنَرْنَهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْئَلُ حِمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾
وَيَصْرَوْنَهُمْ ﴿١١﴾

قرأ جمهور السبعة : «سأل» بهمزة مخففة، قالوا والمعنى : دعا داع، والإشارة إلى من قال من قريش :
«اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء» [الأنفال: ٣٢]. وروي أن قائل
ذلك النضر بن الحارث، وإلى من قال : «ربنا عجل لنا قطنًا» [ص: ١٦]، ونحو هذا، وقال بعضهم
المعنى : بحث باحث، واستفهم مستفهم، قالوا والإشارة إلى قول قريش : متى هذا الوعد؟ وما جرى
مجراه قاله الحسن وقتادة، فأما من قال استفهم مستفهم فالباء توصل توصيل عن، كأنه قال عن عذاب،
وهذا كقول علقمة بن عبدة : [الطويل]

فإن تسألوني بالنساء فإنني بصير بأدواء النساء طيب

وقرأ نافع بن عامر : «سال سائل» ساكنة الألف، واختلفت القراءة بها، فقال بعضهم : هي «سأل»
المهموزة، إلا أن الهمزة سهلت كما قال لا هناك المرتع ونحو ذلك . وقال بعض هي لغة من يقول سلت
أسأل، ويتسألون، وهي بلغة مشهورة حكاها سيبويه، فتجيء الألف منقلبة من الواو التي هي عين كقال
وحاق، وأما قول الشاعر [حسان بن ثابت] : [البسيط]

سالت هذيل رسول الله فاحشة ضلّت هذيل بما سالت ولم تصب

فإن سيبويه قال : هو على لغة تسهيل الهمزة . وقال غيره : هو على لغة من قال : سلت، وقال بعضهم
في الآية : هو من سال يسيل : إذا جرى وليست من معنى السؤال، قال زيد بن ثابت : في جهنم واد يسمى
سايلاً، والخبار هاهنا عنه .

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل إن لم يصح أمر الوادي أن يكون الإخبار عن نفوذ القدر بذلك العذاب قد استعير له لفظ السيل لما عهد من نفوذ السيل وتصميمه، وقرأ ابن عباس: «سال سيل» بسكون الياء، وقرأ أبي بن كعب وابن مسعود: «سال سال» مثل قال قال، ألقى الياء من الخط تخفيفاً، والمراد «سائل». وسؤال الكفار عن العذاب حسب قراءة الجماعة إنما كان على أنه كذب. فوصفه الله تعالى بأنه ﴿واقع﴾ وعيداً لهم. وقوله تعالى: ﴿للكافرين﴾. قال بعض النحويين: اللام توصل المعنى توصيل «على». وروي أنه في مصحف أبي بن كعب: «على الكافرين»، وقال قتادة والحسن المعنى: كان قائلاً قال لمن هذا العذاب الواقع؟ فقيل ﴿للكافرين﴾. و﴿المعارج﴾ في اللغة الدرج في الأجرام، وهي هنا مستعارة في الرتب والفواضل والصفات الحميدة، قاله قتادة وابن عباس. وقال ابن عباس: ﴿المعارج﴾ السماوات تخرج فيها الملائكة من سماء إلى سماء. وقال الحسن: هي المراقي إلى السماء، وقوله: ﴿تخرج الملائكة﴾ معناه: تصعد على أصل اللفظة في اللغة. ﴿والروح﴾ عند جمهور العلماء: هو جبريل عليه السلام خصصه بالذكر تشريفاً. وقال مجاهد: ﴿الروح﴾ ملائكة حفظة للملائكة الحافظين لبني آدم لا تراهم الملائكة كما لا نرى نحن الملائكة. وقال بعض المفسرين: هو اسم الجنس في أرواح الحيوان. واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾. فقال منذر بن سعيد وجماعة من الحذاق: المعنى ﴿تخرج الملائكة والروح إليه في يوم﴾ من أيامكم هذه مقدار المسافة أن لو عرجها آدمي خمسون ألف سنة، وقاله ابن إسحاق فمن جعل ﴿الروح﴾ جبريل أو نوعاً من الملائكة قال: المسافة هي من قعر الأرض السابعة إلى العرش، قاله مجاهد. ومن جعل ﴿الروح﴾ جنس الحيوان قال المسافة من وجه هذه الأرض إلى منتهى العرش علواً، قاله وهب بن منبه. وقال قوم المعنى: ﴿تخرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره﴾ في نفسه ﴿خمسين ألف سنة﴾ من أيامكم، ثم اختلفوا في تعيين ذلك اليوم، فقال عكرمة والحكم: أراد مدة الدنيا فإنها خمسون ألف سنة، لا يدري أحد ما مضى منها ولا ما بقي، فالمعنى ﴿تخرج الملائكة والروح إليه﴾ في مدة الدنيا، وبقاء هذه البنية ويتمكن على هذا في ﴿الروح﴾ أن يكون جنس أرواح الحيوان، وقال ابن عباس وغيره: بل اليوم المشار إليه يوم القيامة ثم اختلفوا، فقال بعضهم قدره في الطول قدر خمسين ألف سنة، وهذا هو ظاهر قول النبي صلى الله عليه وسلم: «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل له صفائح من نار يوم القيامة، تكوى بها جبهته وظهره وجنباه في يوم كان مقداره ألف سنة». وقال ابن عباس وأبو سعيد الخدري: بل قدره في هوله وشدته ورزايه للكفار قدر ﴿خمسين ألف سنة﴾. وهذا كما تقول في اليوم العصيب، إنه كسنة ونحو هذا قال أبو سعيد، قيل يا رسول الله ما أطول يوماً مقداره خمسون ألف سنة، فقال: «والذي نفسي بيده ليخف على المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة»، وقال عكرمة: المعنى كان مقدار ما ينقضي فيه من القضايا والحساب قدر ما ينقضي بالعدل في ﴿خمسين ألف سنة﴾ من أيام الدنيا. وقد ورد في يوم القيامة أنه كآلف سنة وهذا يشبه أن يكون في طوائف دون طوائف. والعامل في قوله ﴿في يوم﴾ على قول من قال إنه يوم القيامة قوله ﴿دافع﴾ وعلى سائر الأقوال ﴿تخرج﴾، وقرأ جمهور القراء: «تخرج» بالتاء من فوق، وقرأ الكسائي وحده: «يعرج» بالياء لأن التانيث بالياء غير حقيقي، وبالياء من تحت قرأ ابن مسعود لأنه كان يذكر الملائكة وهي قراءة

الأمعش، ثم أمر تعالى نبيه بالصبر الجميل، وهو الذي لا يلحقه عيب من فيثل ولا تشكك ولا قلة رضى ولا غير ذلك. والأمر بالصبر الجميل محكم في كل حالة، وقد نزلت هذه الآية قبل الأمر بالقتال. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً﴾ يعني يوم القيامة لأنهم يكذبون به، فهو في غاية البعد عندهم، والله تعالى يراه ﴿قريباً﴾ من حيث هو واقع وآت وكل آت قريب. وقال بعض المفسرين: الضمير في ﴿يَرَوْنَهُ﴾ عائد على العذاب. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ﴾ نصب بإضمار فعل أو على البدل من الضمير المنصوب. و«المهل»: عكر الزيت قاله ابن عباس وغيره، فهي لسوادها وانكدار أنوارها تشبه ذلك. والمهل أيضاً: ماء أذيب من فضة ونحوها قاله ابن مسعود وغيره: فيجيء له ألوان وتميع مختلط، والسماء أيضاً - للأهوال التي تدركها - تصير مثل ذلك، و«العهن»: الصوف دون تقييد. وقد قال بعض اللغويين: هو الصوف المصبوغ ألواناً، وقيل المصبوغ أي لون كان، وقال الحسن: هو الأحمر، واستدل من قال إنه المصبوغ ألواناً بقول زهير: [الطويل]

كَانَ فَتَاتِ الْعَهْنِ فِي كُلِّ مَنَزَلٍ نَزَلْنَ بِهِ حُبَّ الْفَنَاءِ لَمْ يَحْطُمْ

وحب الفناء هو عنب الثعلب، وكذلك هو عند طيبة، وقبل تحطمه ألوان بعضه أخضر، وبعضه أصفر، وبعضه أحمر، لاختلافه في النضج، وتشبه «الجبال» به على هذا القول لأنها جدد بيض وحمرة وسود فيجيء التشبيه من وجهين في الألوان وفي الانتفاش. ومن قال إن العهن: الصوف دون تقييد، وجعل التشبيه في الانتفاش وتخلخل الأجزاء فقط. قال الحسن: والجبال يوم القيامة تسير بالرياح ثم يشتد الأمر فتنهذ ثم يشتد الأمر بها فتصير هباء منبثاً. وقرأ السبعة والحسن والمدنيون وطلحة والناس: «وَلَا يُسَالُ» على بناء الفعل للفاعل، والحميم في هذا الموضع: القريب والوالي، والمعنى لا يسأله نصرة ولا منفعة لعلمه أنه لا يجدها عنده، قال قتادة: المعنى لا يسأله عن حاله لأنها ظاهرة قد بصر كل أحد حالة الجميع، وشغل بنفسه. وقرأ ابن كثير من طريق البري وأبو جعفر وشيبة بخلاف عنهما وأبو حيوة «لَا يُسَالُ» على بناء الفعل للمفعول. فالمعنى: ولا يسأل إحضاره لأن كل مجرم له سيما يعرف بها، وكذلك كل مؤمن له سيما خير. وقيل المعنى: لا يسأل عن ذنبه وأعماله ليؤخذ بها وليزر وزره. و«يَبْصُرُونَهُمْ» على هذه القراءة قيل معناه في النار. وقال ابن عباس في المحشر يبصر بالحميم حميمه ثم يفر عنه لشغله بنفسه. وتقول: بصر فلان بالشيء، وبصرته به أريته إياه ومنه قول الشاعر: [الوافر]

إِذَا بَصَّرْتُكَ الْبَيْدَاءَ فَاسْرِي وَأَمَّا الْآنَ فَاقْتَصِدْ يَ وَقِيلِي

وقرأ قتادة بسكون الباء وكسر الصاد خفيفة، فقال مجاهد: «يَبْصُرُونَهُمْ» معناه يبصر المؤمنون الكفار في النار، وقال ابن زيد: يبصر الكفار من أضلهم في النار عبرة وانتقاماً عليهم وخزياً لهم. قوله عز وجل:

يَوْمَ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَحْبِهِ أَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَبَعُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْلَى ﴿١٥﴾ نَزَاعَةً لِلشَّوَى ﴿١٦﴾ تَدْعُوا مِنْ أَدْبُرٍ وَتَوَلَّى ﴿١٧﴾ وَجَمْعٌ فَأَوْعَى

﴿١٨﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصْلِينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾

﴿المعجم﴾ في هذه الآية الكافر بدليل شدة الوعد وذكر ﴿لظى﴾ وقد يدخل مجرم المعاصي فيما ذكر من الافتداء، وقرأ جمهور الناس: «يومئذ» بكسر الميم، وقرأ الأعرج بفتحها، ومن حيث أضيف إلى غير متمكن جاز فيه الوجهان. وقرأ أبو حيو «من عذاب» منوناً «يومئذ» مفتوح الميم، والصاحبة: هنا الزوجة، والفصيصة في هذه الآية قرابة الرجل الأدنون، مثال ذلك بنو هاشم مع النبي صلى الله عليه وسلم، والفصيصة في كلام العرب: أيضاً الزوجة، ولكن ذكر الصاحبة في هذه الآية لم يبق في معنى الفصيصة إلا الوجه الذي ذكرناه. وقوله ﴿ثم ينجيهِ﴾ الفاعل هو الفداء الذي تضمنه قوله ﴿لو يفتدي﴾ فهو المتقدم الذكر. وقرأ الزهري «تؤيِّه» و«تنجيهِ» برفع الهاءين، وقوله تعالى: ﴿كلا إنها لظى﴾ رد لقولهم وما ودوه أي ليس الأمر كذلك، ثم ابتداء الإخبار عن ﴿لظى﴾ وهي طبقة من طبقات جهنم، وفي هذا اللفظ تعظيم لأمرها وهولها. وقرأ السبعة والحسن وأبو جعفر والناس: «نزاعة» بالرفع، وقرأ حفص عن عاصم: «نزاعة» بالنصب، فالرفع على أن تكون ﴿لظى﴾ بدلاً من الضمير المنصوب، «ونزاعة» خبر «إن» أو على إضمار مبتدأ، أي هي نزاعة أو على أن يكون الضمير في «إنها» للقصة، و﴿لظى﴾ ابتداء و«نزاعة» خبره، أو على أن تكون ﴿لظى﴾ خبر و«نزاعة» بدل من ﴿لظى﴾، أو على أن تكون ﴿لظى﴾ خبراً و«نزاعة» خبراً بعد خبر. وقال الزجاج: «نزاعة»، رفع بمعنى المدح.

قال القاضي أبو محمد: وهذا هو القول بأنها خبر ابتداء تقديره هي نزاعة، لأنه إذا تضمن الكلام معنى المدح أو الذم جاز لك القطع رفعاً بإضمار مبتدأ أو نصباً بإضمار فعل. ومن قرأ بالنصب فذلك إما على مدح ﴿لظى﴾ كما قلنا، وإما على الحال من ﴿لظى﴾ لما فيها من معنى التلطي، كأنه قال: كلا إنها النار التي تلتطي نزاعة، قال الزجاج: فهي حال مؤكدة و: «الشوى» جلد الإنسان، وقيل جلد الرأس والهامة، قاله الحسن. ومنه قول الأعشى: [مجزوء الكامل]

قالت قتيلة ماله قد جللت شيباً شواته

ورواه أبو عمرو بن العلاء سراته فلا شاهد في البيت على هذه الرواية. قال أبو عبيدة: سمعت أعرابياً يقول اقشعرت شواتي، و«الشوى» أيضاً: قوائم الحيوان، ومنه عبل الشوى، و«الشوى» أيضاً: كل عضو ليس بمقتل، ومنه رمى فأشوى إذا لم يصب المقتل، وقال ابن جرير: «الشوى» العصب والعقب، فنار لظى تذهب هذا من ابن آدم وتنزعه. وقوله تعالى: ﴿تدعو من أدبر وتولى﴾ يريد الكفار، واختلف الناس في دعائها، فقال ابن عباس وغيره: هو حقيقة تدعوهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، وقال الخليل بن أحمد هي عبارة عن حرصها عليهم واستدنائها لهم، وما توقعه من عذابها، وقال ثعلب: ﴿تدعو﴾، معناه: تهلك، تقول العرب: دعاك الله أي أهلكك، وحكاها الخليل عن العرب، و﴿أوعى﴾ معناه: جعلها في الأوعية تقول: وعيت العلم وأوعيت المال والمتاع، ومنه قول الشاعر [عبيد بن الأبرص]: [البسيط]

الخير يبقى وإن طال الزمان به والشر أحيث ما أوعيت من زاد

وهذه إشارة إلى كفار أغنياء جعلوا جمع المال أوكد أمرهم، ومعنى حياتهم فجمعوه من غير حل ومنعوه من حقوق الله، وكان عبد الله بن عكيم لا يربط كيسه، ويقول: سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَجَمْعُ فَاوَعِي﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ عموم لاسم الجنس، لكن الإشارة هنا إلى الكفار، لأن الأمر فيهم وكيد كثير، والهلع جزع واضطراب يعتري الإنسان عند المخاوف وعند المطامع ونحوه قوله عليه السلام: «شر ما في الإنسان شح هالع». وقوله ﴿إِذَا مَسَّهُ﴾ الآية، مفسر للهلع، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَصْلِينَ﴾ أي إلا المؤمنين الذين أمر الآخرة أوكد عليهم من أمر الدنيا، والمعنى أن هذا المعنى فيهم يقل لأنهم يجاهدون بالتقوى، وقرأ الجمهور: «على صلاتهم» بالافراد، وقرأ الحسن: «صلواتهم» بالجمع. وقوله تعالى: ﴿دَائِمُونَ﴾ قال الجمهور المعنى: مواظبون قائمون لا يملون في وقت من الأوقات فيتركونها وهذا في المكتوب، وأما النافلة فالدوام عليها الإكثار منها بحسب الطاقة، وقد قال عليه السلام: «أحب العمل إلى الله ما دوام عليه صاحبه». وقال ابن مسعود: الدوام صلاتها لوقتها، وتركها كفر، وقال عقبه بن عامر: ﴿دَائِمُونَ﴾ يقرؤون في صلاتهم ولا يلتفتون يمينا ولا شمالاً. ومنه الماء الدائم.

قوله عز وجل:

وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مِّمَّا لِلنَّاسِ مِنَ الْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ انْبَغَىٰ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾

قال قتادة والضحاك: «الحق المعلوم» هي الزكاة المفروضة، وقال الحسن ومجاهد وابن عباس: هذه الآية في الحقوق التي في المال سوى الزكاة وهي ما نذبت الشريعة إليه من المواساة، وقد قال ابن عمر ومجاهد والشعبي وكثير من أهل العلم: إن في المال حقاً سوى الزكاة وهذا هو الأصح في هذه الآية لأن السورة مكية، وفرض الزكاة وبيانها إنما كان بالمدينة. و«السائل»: المتكفف، و«المحروم»: المحارف الذي قد ثبت فقره ولم تنجح سعياته لدنياه، قالت عائشة: هو الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه. وقال بعض أهل العلم، «المحروم»: من احترق زرعه، وقال بعضهم «المحروم»: من مات ماشيته، وهذه أنواع الحرمان لأن الاسم يستلزم هذا خاصة، وقال عمر بن عبد العزيز «المحروم»: الكلب أراد، والله أعلم أن يعطي مثلاً من الحيوان ذي الكبد الرطبة لما فيه من الأجر حسب الحديث المأثور، وقال الشعبي: أعاني أن أعلم ما المحروم. وحكى عنه النقاش أنه قال: وهو ابن سبعين سنة سألت عنه وأنا غلام فما وجدت شفاء.

قال القاضي أبو محمد: يرحم الله الشعبي فإنه في هذه المسألة محروم، ولو أخذه اسم جنس فيمن عسرت مطالبه بان له، وإنما كان يطلبه نوعاً مخصوصاً كالسائل، و«يوم الدين» هو يوم القيامة، سمي

بذلك لأنه يوم المجازاة، و﴿الدين﴾: الجزاء كما تقول العرب:

كما تدين تدان

ومنه قول الفند الزماني: [الهج]

ولم يبق سوى العدوا ن دناهم كما دانوا

والإشفاق من أمر يتوقع، لأن نيل عذاب الله للمؤمنين متوقع، والأكثر ناج بحمد الله، لكن عذاب الله لا يأمنه إلا من لا بصيرة له، والفروج في هذه الآية: هي الفروج المعروفة، والمعنى من الزنى، وقال الحسن بن أبي الحسن أراد فروج الثياب وإلى معنى الوطء يعود. ثم استثنى تعالى الوطء الذي أباحه الشرع في الزوجة والمملوكات. وقوله تعالى: ﴿إلا على أزواجهم﴾ وحسن دخول ﴿على﴾ في هذا الموضوع قوله: ﴿غير ملومين﴾، فكأنه قال: إلا أنهم غير ملومين على أزواجهم أو ما ملكت أيماهم. وقوله تعالى: ﴿ابتغى﴾ معناه: طلب، وقوله: ﴿وراء ذلك﴾ معناه: سوى ما ذكر، كأنه أمر قد حد فيه حد، فمن طلب بغيته وراء الحد فهو كمستقبل حد في الأجرام وهو يتعدى، وراءه: أي خلفه، و﴿العادون﴾: الذين يتجاوزون حدود الأشياء التي لها حدود كان ذلك في الأجرام أو في المعنى.

قوله عز وجل:

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾
أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيُطْمَعُ
كُلُّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

الأمانات: جمع أمانة، وجمعها لأنها تكون متنوعة من حيث هي في الأموال وفي الأسرار فيما بين العبد وربّه فيما أمره ونهاه عنه، قال الحسن: الدين كله أمانة. وقرأ ابن كثير وحده من السبعة: «لأمانتهم» بالإنفراد، والعهد: كل ما تقلده الإنسان من قول أو فعل أو مودة، إذا كانت هذه الأشياء على طريق البر، فهو عهد ينبغي رعيه وحفظه، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «حسن العهد من الإيمان» و: «راعون» جمع راع أي حافظ، وقوله تعالى: ﴿والذين هم بشهادتهم قائمون﴾ معناه في قول جماعة من المفسرين: أنهم يحفظون ما يشهدون فيه، ويتيقنونه ويقومون بمعانيه حتى لا يكون لهم فيه تقصير، وهذا هو وصف من تمثيل قول النبي صلى الله عليه وسلم: «على مثل الشمس فاشهد». وقال آخرون معناه الذين إذا كانت عندهم شهادة ورأوا حقاً يدرس أو حرمة لله تنتهك قاموا بشهادتهم، وقال ابن عباس: شهادتهم في هذه الآية: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له». وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «خير الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها»، واختلف الناس في معنى هذا الحديث بحسب المعنيين اللذين ذكرت في الآية، إحداهما: أن يكون يحفظهما متقنة فيأتي بها ولا يحتاج أن يستفهم عن شيء منها ولا أن يعارض. والثاني: إذا رأى حقاً يعمل بخلافه وعنده في إحياء الحق شهادة. وروي أيضاً عن النبي صلى الله

عليه وسلم أنه قال: «سيأتي قوم يخونون ولا يؤمنون، ويشهدون ولا يستشهدون، ويظهر فيهم السم». واختلف الناس في معنى هذا الحديث، فقال بعض العلماء: هم قوم مؤمنون يتعرضون ويحرصون على وضع أسمائهم في وثائق الناس، وينصبون لذلك الحبال من زي وهيئة وهم غير عدول في أنفسهم فيغرون بذلك ويضرون.

قال القاضي أبو محمد: فهذا في ابتداء الشهادة لا في أدائها، ويجيء قوله عليه السلام: «ولا يستشهدون»، أي وهم غير أهل لذلك، وقال آخرون من العلماء: هم شهود الزور، لأنهم يؤدونها والحال لم تشهدهم ولا المشهود عليه، وقرأ حفص عن عاصم: «بشهاداتهم» على الجمع وهي قراءة عبد الرحمن، والباقون «بشهادتهم» على الأفراد الذي هو اسم الجنس. والمتحافضة على الصلاة إقامتها في أوقاتها بشروط صحتها وكمالها، وقال ابن جريج: يدخل في هذه الآية التطوع. وقوله تعالى: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مَهْطَعِينَ﴾ الآية نزلت بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي عند الكعبة أحياناً ويقرأ القرآن، فكان كثير من الكفار يقومون من مجالسهم مسرعين إليه يتسمعون قراءته ويقول بعضهم لبعض: شاعر وكاهن ومفتى وغير ذلك. و﴿قَبْلَكَ﴾ معناه فيما يليك، و: «المهطع» الذي يمشي مسرعاً إلى شيء قد أقبل عليه ببصره. وقال ابن زيد: لا يطرف، و: ﴿عَزِينَ﴾ جمع عزة، قال بعض النحاة أصلها عزوة، وقال آخرون منهم: أصلها عزه، وجمعت بالواو والنون عوضاً مما انحذف منها نحو سنة وسنون، ومعنى العزة: الجمع اليسير فكانهم كانوا ثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة ومنه قول الراعي: [الكامل]

أخليفة الرحمن إن عشيرتي أمسى سوامهم عزين فلولا

وقال أبو هريرة: خرج النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم حلق متفرقون فقال: «ما لي أراكم عزين» وقوله تعالى: ﴿أَيُطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ نزلت لأن بعض الكفار قال: إن كانت ثم آخرة وجنة فنحن أهلها وفيها، لأن الله تعالى لم ينعم علينا في الدنيا بالمال والبنين وغير ذلك إلا لرضاه عنا. وقرأ السبعة والحسن وطلحة: «يُدْخَلَ» بضم الياء وفتح الخاء على بناء الفعل للمفعول، وقرأ المفضل عن عاصم وابن يعمر والحسن وأبو رجاء وطلحة: «يُدْخَلَ»، بفتحها وضم الخاء على بناء الفعل للفاعل. وقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ رد لقولهم وطمعهم: أي ليس الأمر كذلك، ثم أخبر عن خلقهم من نطفة قدرة، فأحال في العبارة عنها إلى علم الناس أي فمن خلق من ذلك فليس بنفس خلقه يعطى الجنة، بل بالأعمال الصالحة إن كانت. وقال قتادة في تفسيرها: إنما خلقت من قدر با ابن آدم فائق الله، وقال أنس كان أبو بكر إذا خطبنا ذكر مناتي ابن آدم ومروره من مجرى البول مرتين وكونه نطفة في الرحم ثم علقه ثم مضغه إلى أن يخرج فيتلوث في نجساته طفلاً فلا يقلع أبو بكر حتى يقدر أحدنا نفسه.

قوله عز وجل:

فَلَا أَقْسِمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرَ امْنِئِهِمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرَهُمْ مَحْضُوضًا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُؤْفُضُونَ ﴿٤٣﴾ خَشَعَةً

أَبْصُرْهُمْ تَرْهَقَهُمْ ذَلَّةُ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

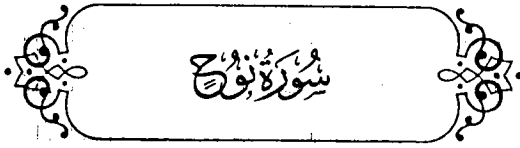
قرأ الجمهور: «فلا أقسم» وذلك على أن تكون «لا» زائدة، أو تكون ردأً لفعل الكفار وقولهم ثم يقع الابتداء بالقسم. وقرأ قوم من القراء «فلا أقسم» دون ألف مفردة، و﴿المشارق والمغارب﴾ هي مطالع الشمس والقمر وسائر الكواكب وحيث تغرب، لأنها مختلفة عند التفضيل فلذلك جمع، وقرأ عبد الله بن مسلم وابن محيصن: «برب المشرق والمغرب» على الأفراد، ومتى ورد «المشرق والمغرب»، وهي عبارة عن موضع الشروق وموضع الغروب بجملته وإن كان يتفصل بالصاد، ومتى ورد المشرقان والمغربان فهي عبارة عن طرفي مواضع الشروق وطرفي موضع الغروب. وأقسم الله تعالى في هذه الآية بمخلوقاته على إيجاب قدرته على أن يبدل خيراً من ذلك العالم، وأنه لا يسبقه شيء إلى إرادته. وقوله تعالى: ﴿فذرهم يخوضوا﴾ الآية وعيد وما فيه من معنى المهادنة فمنسوخ بآية السيف. وروي عن ابن كثير أنه قرأ: «يلقوا» بغير ألف، وهي قراءة أبي جعفر وابن محيصن. و﴿يوم يخرجون﴾ بدل من قولهم ﴿يومهم﴾. وقرأ الجمهور: «يُخْرَجُونَ» بفتح الياء وضم الراء. وروى أبو بكر عن عاصم: ضم الياء وفتح الراء. و: ﴿الأجداث﴾ القبور، والنصب: ما نصب للإنسان فهو يقصد مسرعاً إليه من علم أو بناء أو صنم لأهل الأصنام. وقد كثر استعمال هذا الاسم في الأصنام حتى قيل لها الأنصاب، ويقال لشبكة الصائد نصب. وقال أبو العالية ﴿إلى نصب يوفضون﴾ معناه: إلى غايات يستبقون. وقرأ جمهور السبعة وأبو بكر عن عاصم «نُصِب» بفتح النون، وهي قراءة أبي جعفر ومجاهد وشيبة وابن وثاب والأعرج، وقرأ الحسن وقتادة بخلاف عنهما: «نُصِب» بضم النون. وقرأ ابن عامر وحفص عن عاصم: «نُصِب» بضم النون والصاد وهي قراءة الحسن أيضاً وأبي العالية وزيد بن ثابت وأبي رجاء وقرأ مجاهد وأبو عمران الجوني «إلى نُصِب» بفتح النون والصاد و﴿يوفضون﴾ معناه: يسرعون ومنه قول الراجز: [الرجز]

لأنعتن نعامة ميفاضا خرجاء ظلت تطلب الاضاضا

و﴿خاشعة﴾ نصب على الحال، ومعناه ذليلة منكسرة، و﴿ترهقهم﴾ معناه: تظهر عليهم وتلح وتضيق نفوسهم، ومن هذه اللفظة المرهق من السادة بحوائج الناس، والمرهق بالدين، وخلق فيها رهق أي إسراع إلى الناس وسيف فلان فيه رهق، ومنه مراهة الاحتلام، وإرهاق الصلاة أي مزاحمة وقتها.

نجز تفسير «سورة المعارج» والحمد لله كثيراً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



وهي مكية بإجماع من المتأولين. قال أبي بن كعب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ سورة نوح كان من المؤمنين الذين تدركهم دعوة نوح.
قوله عز وجل:

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَوِّضَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

«نوح» عليه السلام هو نوح بن لامك، وقد مر ذكره وذكر عمره صلى الله عليه وسلم، وصرف نوح مع عجمته وتعريفه لخفته وسكون الوسط من حروفه، وقوله: «أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ» يحتمل أن تكون «أَنْ»: مفسرة لا موضع لها من الإعراب، ويحتمل أن يكون التقدير «بأن أنذر قومك» وهي على هذا في موضع نصب عند قوم من النحاة، وفي موضع خفض عند آخرين، وفي مصحف عبد الله بن مسعود «إلى قومه أنذر قومك» دون «أَنْ»، والعذاب الذي توعدوا به: يحتمل أن يكون عذاب الدنيا وهو الأظهر والأليق بما يأتي بعد، ويحتمل أن يكون عذاب الآخرة. وقرأ جمهور السبعة: «أَنْ أَعْبُدُوا»، بضم النون من «أَنْ» إبتاعاً لضمة الباء وتركاً لمراعاة الحائل لخفة السكون، فهو كأن ليس ثم حائل. وقرأ عاصم وحزمة وأبو عمرو، وفي رواية عبد الوارث «أَنْ أَعْبُدُوا»، بكسر النون وهذا هو الأصل في التقاء الساكنين من كلمتين. و«يغفر» جواب الأمر وقوله تعالى: «مَنْ ذُنُوبِكُمْ» قال قوم «مَنْ» زائدة، وهذا نحو كوفي، وأما الخليل وسيبويه فلا يجوز عندهم زيادتها في الواجب، وقال قوم: هي لبيان الجنس، وهذا ضعيف لأنه ليس هنا جنس يبين، وقال آخرون هي بمعنى «عن». وهذا غير معروف في أحكام «مَنْ»، وقال آخرون: هي لابتداء الغاية وهذا قول يتجه كأنه يقول يتبدى الغفران من هذه الذنوب العظام التي لهم. وقال آخرون: هي للتبعض، وهذا عندي أبين الأقوال، وذلك أنه لو قال: «يغفر لكم ذنوبكم» لعم هذا اللفظ ما تقدم من الذنوب وما تأخر عن إيمانهم، والإسلام إنما يجب ما قبله، فهي بعض من ذنوبهم، فالمعنى يغفر لكم ذنوبكم، وقال بعض المفسرين: أراد «يغفر لكم من ذنوبكم» المهم الموبق الكبير لأنه أهم عليهم، وبه ربما كان اليأس عن الله قد وقع لهم وهذا قول مضمناه أن «مَنْ» للتبعض والله تعالى الموفق. وقرأ أبو

عمرو: ﴿يغفر لكم﴾ بالإدغام، ولا يجيز ذلك الخليل وسيبويه، لأن الراء حرف مكرر، فإذا أدغم في اللام ذهب التكرير واختل المسموع. وقوله تعالى: ﴿ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾ مما تعلق المعتزلة به في قولهم: إن للإنسان أجلين، وذلك أنهم قالوا: لو كان واحداً محدوداً لما صح التأخير، إن كان الحد قد بلغ ولا المعالجة إن كان الحد لم يبلغ.

قال القاضي أبو محمد: وليس لهم في الآية تعلق، لأن المعنى أن نوحاً عليه السلام، لم يعلم هل هم ممن يؤخر أو ممن يعاجل؟ ولا قال لهم: إنكم تؤخرون عن أجل قد حان لكم، لكن قد سبق في الأزل أنهم إما ممن قضى لهم بالإيمان والتأخير وإما ممن قضى عليه بالكفر والمعالجة، فكان نوحاً عليه السلام قال لهم: آمنوا يبين لكم أنكم ممن قضى لهم بالإيمان والتأخير، وإن بقيتم فسيبين لكم أنكم ممن قضى عليه بالكفر والمعالجة ثم تشدد هذا المعنى ولاح بقوله: ﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر﴾. وقد حكى مكي القول بالأجلين ولم يقدره قدره، وجواب ﴿لم﴾، مقدر يقتضيه اللفظ كأنه قال: فما كان أحزكم أو أسرعكم إلى التوبة ﴿لو كنتم تعلمون﴾.

قوله عز وجل:

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْأَعَهُمْ فِيءَ إِذَا نَهُمْ وَاسْتَفْسَحُوا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾

هذه المقالة قالها نوح عليه السلام بعد أن طال عمره وتحقق اليأس عن قومه، وقوله: ﴿ليلاً ونهاراً﴾ عبارة عن استمرار دعائه، وأنه لم ين فيه قط، ويروى عن قتادة أن نوحاً عليه السلام كان يجيئه الرجل من قومه بابه فيقول: احذر هذا الرجل فإن أبي حذرني إياه، ويقول له إنه مجنون. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر: «دعائي» إلا بالهمز وفتح الياء، وقرأ عاصم وحمة والكسائي: «دعائي» بسكون الياء دون همز، وروى شبل عن ابن كثير: بنصب الياء دون همز مثل هداي، وقرأ عاصم أيضاً وسلام ويعقوب: بهمز وياء ساكنة. وقوله: ﴿وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم﴾ معناه: ليؤمنوا فيكون ذلك سبب الغفران. وقوله تعالى: ﴿جعلوا أصابعهم في آذانهم﴾ يحتمل أن يكون حقيقة، ويحتمل أن يكون عبارة عن إعراضهم، وشدة رفضهم لأقواله، وكذلك قوله: ﴿استغشوا ثيابهم﴾ معناه: جعلوها أغشية على رؤوسهم، والإصرار الثبوت على معتقدهما، وأكثر استعماله في الذنوب، ثم كرر عليه السلام صفة دعائه لهم بياناً وتأكيذاً وجهاً يريد علانية في المحافل، والإصرار ما كان من دعاء الأفراد بينه وبينهم على انفراد، وهذا غاية الجد. وقوله تعالى: ﴿استغفروا ربكم يرسل السماء﴾ يقتضي أن الاستغفار سبب لنزول المطر في كل أمة. وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه استسقى بالناس فلم يزد على أن استغفر ساعة ثم

انصرف فقال له قوم: ما رأيك استسقيت يا أمير المؤمنين، فقال: والله لقد استنزلت المطر بمجادح السماء، ثم قرأ الآية، وسقى رضي الله عنه، وشكى رجل إلى الحسن الجرب فقال له: استغفر الله، وشكى إليه آخر الفقر، فقال: استغفر إليه، وقال له آخر: ادع الله أن يرزقني ولداً، فقال له استغفر الله، فقبل له في ذلك، فترع بهذه الآية.

قال القاضي أبو محمد: والاستغفار الذي أحال عليه الحسن ليس هو عندي لفظ الاستغفار فقط، بل الإخلاص والصدق في الأعمال والأقوال، فكَذلك كان استغفار عمر رضي الله عنه، وروي أن قوم نوح كانوا قد أصابهم قحوط وأزمة، فلذلك بدأهم في وعده بأمر المطر ثم ثنى بالأموال والبنين. قال قتادة: لأنهم كانوا أهل حب للدنيا وتعظيم لأمرها فاستدعاهم إلى الآخرة من الطريق التي يحبونها، و«مبارار»: مفعال من الدر، كمذكّار ومثناة، وهذا البناء لا تلحقه التأنيث.

قوله عز وجل:

وَيَمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٣﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٤﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٥﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٦﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٧﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٨﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿٢٠﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢١﴾

وعدهم بالأموال والبنين والجنت والآنهار لمكان حبهم للدنيا، واختلف الناس في معنى قوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾ فقال أبو عبيدة وغيره: ﴿ترجون﴾ معناه تخافون، ومنه قول الشاعر [أبو ذؤيب الهذلي]: [الطويل]

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وحالفها في بيت تنوب عواسل

قالوا والوقار: العظمة والسلطان، فكأن الكلام على هذا وعيد وتخويف، وقال بعض العلماء ﴿ترجون﴾ على بابها في الرجاء وكأنه قال: ما لكم لا تجعلون رجاءكم لله وتلقاه وقاراً، ويكون على هذا التأويل منهم كأنه يقول: تؤدة منكم وتمكناً في النظر لأن الكفر مضمّن الخفة والطيش وركوب الرأس، وقوله تعالى: ﴿وقد خلقكم أطواراً﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هي إشارة إلى التدرج الذي للإنسان في بطن أمه من النطفة والعلقة والمضغة، وقال جماعة من أهل التأويل هي إشارة إلى العبرة في اختلاف ألوان الناس وخلقهم وخلقهم ومللهم، والأطوار: الأحوال المختلفة. ومنه قول النابغة: [البيسط]

فإن أفاق فقد طارت عمايته والمرء يخلق طوراً بعد أطوار

وقرأ «ألم تروا» وقرأ «ألم يروا» على فعل الغائب و﴿طباقاً﴾ قيل هو مصدر أي مطابقة أي جعل كل واحدة طبقاً للآخرى ونحو قول امرئ القيس: [الرملي]

طبق الأرض تجري وتدر

وقيل هو جمع طبق، وهو نعت لسبع، وقرأ ابن أبي عبة، «طباقي» بالخفض على النعت لـ ﴿سَمَوَاتٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ﴾ ساغ ذلك لأن القمر من حيث هو في إحداها فهو في الجميع، ويروى أن القمر في السماء الدنيا، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن العباس: إن الشمس والقمر أقفارهما إلى الأرض وإقبال نورهما وارتفاعه في السماء، وهو الذي تقتضيه لفظة السراج، وقيل إن الشمس في السماء الخامسة، وقيل في الرابعة، وقال عبد الله بن عمر: هي في الشتاء في الرابعة وفي الصيف في السابعة. وقوله تعالى: ﴿أُنَبِّئُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ استعارة من حيث أخذ آدم عليه السلام من الأرض ثم صار الجميع ﴿نَبَاتًا﴾ منه، وقوله تعالى: ﴿نَبَاتًا﴾ مصدر جار على غير المصدر، التقدير فنبتم ﴿نَبَاتًا﴾، والإعادة فيها: هي بالدفن فيها الذي هو عرف البشر، والإخراج: هو البعث يوم القيامة لموقف العرض والجزاء، وقوله تعالى: ﴿بَسَاطًا﴾ يقتضي ظاهره أن الأرض بسيطة كروية واعتقاد أحد الأمرين غير قاذح في نفسه اللهم إلا أن يتركب على القول بالكروية نظر فاسد، وأما اعتقاد كونها بسيطة فهو ظاهر كتاب الله تعالى، وهو الذي لا يلحق عنه فساد البتة. واستدل ابن مجاهد على صحة ذلك بماء البحر المحيط بالمعمور، فقال: لو كانت الأرض كروية لما استقر الماء عليها. والسبل: الطرق والفجاج: الواسعة.

قوله عز وجل:

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي هُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَنْزِرْ الْهَٰكِمَ وَلَا تَنْزِرْ وَدًّا وَلَا سَوَاعَا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِمَّا خَطَبْتَنَّهُمْ أَغْرَقُوا فَأَدْخُلُونَا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾

المعنى فلما لم يطيعوا ونس نوح من إيمانهم قال نوح: ﴿رب إنهم عصوني﴾ واتبعوا أشرافهم وغواتهم، فعبر عنهم بأن أموالهم وأولادهم زادتهم ﴿خسارًا﴾ أي خسارًا، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي ونافع في رواية خارجة عنه «وولده» بضم الواو وسكون اللام، وهي قراءة ابن الزبير والحسن والأعرج والنخعي ومجاهد، وقرأ نافع وعاصم وابن عامر «وولده» بفتح اللام والواو وهما يمعن واحد كبُخل وبُخل وهي قراءة أبي عبد الرحمن والحسن وأبي رجاء وابن وثاب وأبي جعفر وشيبة، وقرأ «وولده» بكسر الواو والجحدري وزر والحسن وقتادة وابن أبي إسحاق وطلحة، وقال أبو عمرو: «ولده» بضم الواو وسكون اللام العشيرة والقوم، وقال أبو حاتم يمكن أن يكون الولد بضم الواو جمع الولد وذلك كخشب وخشب، وقد قال حسان بن ثابت: [الكامل]

ما بكر أمانة المبارك بكرها من ولد محصنة بسعد الأسعد

وقرأ جمهور الناس: «كَبَارًا» بشد الباء وهو بناء مبالغة، نحو حسان. قال عيسى: وهي لغة يمانية وعليها قول الشاعر [أبو صدقة الدبيري]: [الكامل]

والمرء يلحقه بفتيان الندى خلق الكريم وليس بالوصاء

بضم الواو، وقرأ ابن محيصن وعيسى ابن عمر «كبار» بتخفيف الباء وهو بناء مبالغة إلا أنه دون الأول، وقرأ ابن محيصن فيما روى عنه أبو الأخریط وهب بن واضح بكسر الكاف، وقال ابن الأنباري جمع كبير فكانه جعل المكر مكان ذنوب أفاعل ونحوه. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ إخبار عن توصيهم بأصنامهم على العموم، وما كان منها مشهور المكانة، وما كان منها يختص بواحد من الناس، ثم أخذوا ينصون على المشهور من الأصنام، وهذه الأصنام روي أنها أسماء رجال صالحين كانوا في صدر الدنيا، فلما ماتوا صورهم أهل ذلك العصر من الحجر، وقالوا: ننظر إليها فنذكر أفعالهم فهلك ذلك الجيل وكثر تعظيم الآخر لتلك الحجارة، ثم كذلك حتى عبدت ثم انتقلت تلك الأصنام بأعيانها، وقيل بل الأسماء فقط إلى قبائل من العرب، فكانت «ود» في كلب بدومة الجندل، وكانت «سواع» في هذيل، وكانت «يعقوب» في مراد، وكانت «يعقوب» في همدان، وكانت «نسر» في ذي الكلاع من حمير. وقرأ نافع وحده ورويت عن عاصم بضم الواو. وقرأ الباقون والأعمش والحسن وطلحة وشيبة وأبو جعفر: بخلاف عن الثلاثة «ودأ» بفتح الواو، وقال الشاعر: [البسيط]

حياك ود فإننا لا يحل لنا لهر النساء وإن الدين قد عزمنا

فيقال إنه أراد بذلك الصنم، وقال آخر [الخطيئة]: [الطويل]

فحياك ود ما هداك لفتينة وخص بأعلى ذي فضالة هجد

يروى البيتان بضم الواو، وقرأ الأعمش: «ولا يعقوثا ويعوقا» بالصرف، وذلك وهم، لأن التعريف لازم ووزن الفعل. وقوله: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ هو إخبار نوح عنهم وهو منقطع مما حكاه عنهم. والمعنى وقد أضل هؤلاء القائلون كثيراً من الناس الأتباع والعوام، ثم دعا عليهم إلى الله تعالى بأن لا يزيدهم إلا ضلالاً، وذكر «الظالمين» لتعم الدعوة كل من جرى مجراهم. وقال الحسن في كتاب النقاش: أراد بقوله ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا﴾، الأصنام المذكورة وعبر عنها بضمير من يعقل من حيث يعاملها جمهور أهلها معاملة من يعقل، ويسند إليها أفعال العقل. وقوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ﴾ ابتداء إخبار من الله تعالى لمحمد عليه السلام، أي أن دعوة نوح أجيب قال أمرهم إلى هذا، و«ما» الظاهرة: في قوله ﴿مِمَّا﴾ زائدة فكانه قال: من خطيئاتهم أغرقوا وهي لا ابتداء الغاية، وقرأ «مما خطيئتهم» على الأفراد الجحدري والحسن، وقرأ أبو عمرو وحده والحسن وعيسى والأعرج وقتادة بخلاف عنهم «مما خطاياهم» على تكسير الجمع. وقال: ﴿فَادْخُلُوا نَارًا﴾ يعني جهنم، وعبر عن ذلك بفعل الماضي من حيث الأمر متحقق. وقيل أراد عرضهم على النار غدواً وعشياً عبر عنهم بالإدخال. وقوله: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا﴾ أي لم يجد المغرقون أحداً سوى الله ينصرهم ويصرف عنهم بأس الله تعالى.

قوله عز وجل:

وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٦١﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا

فَاجْرَأْ كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا
تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

روى محمد بن كعب والربيع وابن زيد، أن نوحاً عليه السلام لم يدع بهذه الدعوة إلا بعد أخرج الله تعالى كل مؤمن من أصلابهم وأعقم أرحام النساء قبل العذاب بسبعين سنة، قال قتادة: وبعد أن أوحى الله تعالى إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن. وقد كان قبل ذلك طامعاً حذباً عليهم. وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم «أنه ربما ضربه ناس منهم أحياناً حتى يغشى عليه، فإذا أفاق قال: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». و﴿دياراً﴾ أصله ديواراً وهو فيعال من الدوران أي من يجيء ويذهب يقال منه دوار وزنه فيعال أصله ديوار، وهذا كالقوام والقيام. وقرأ جمهور الناس: «ولوالدي» وقرأ أبي بن كعب «ولأبوي»، وقرأ سعيد بن جبيرة «ولوالدي» بكسر الدال يخص أباه بالدعوة. وقال ابن عباس: لم يكفر بنوح ما بينه وبين آدم عليه السلام، وقرأ يحيى بن يعمر والجحدري: «ولولدي» بفتح اللام وشد الياء المفتوحة وهي قراءة النخعي يخص بالدعاء ابنه، وبيته: المسجد فيما قال ابن عباس وجمهور المفسرين. وقال ابن عباس أيضاً: بيته: شريعته ودينه استعار لها بيتاً كما يقال: قبة الإسلام، وفسطاط الدين. وقيل أراد سفينته، وقيل داره. وقوله: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ تعميم بالدعاء لمؤمني كل أمة، وقال بعض العلماء: إن الذي استجاب لنوح عليه السلام فأغرق بدعوته أهل الأرض الكفار لجدير أن يستجيب له فيرحم بدعوته المؤمنين. و: «التبار» الهلاك وذهاب الرسم، وقرأ حفص عن عاصم وهشام وأبو قرعة عن نافع: «بيتي» بتحريك الياء، وقرأ الباقر بسكونها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْجِنِّ

وهي مكية بإجماع من المفسرين.

قوله عز وجل:

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَاظَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾

قرأ جمهور الناس «قل أوحى إلي» من أوحى يوحى. وقرأ أبو أناس جوية بن عائذ: «قل أوحى إلي»، من وحى يحيى ووحى وأوحى، بمعنى واحد، وقال المعاج: «وحى لها القرار فاستقرت». وقرأ أيضاً جوية فيما روى عنه الكسائي، «قل أحي» أبدلت الواو همزة كما أبدلوها في وسادة وإسادة، وغير ذلك. وكذلك قرأ ابن أبي عتبة، وحكى الطبري عن عاصم أنه كان يكسر كل ألف في السورة من «أن» و«إن» إلا قوله تعالى: ﴿وَأَن الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨]. وحكى عن أبي عمرو أنه يكسر من أولها إلى قوله ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ [الجن: ١٦] فإنه كان يفتح همزة وما بعدها إلى آخر السورة. فعلى ما حكى يلزم أن تكون الهمزة مكسورة في قوله «إنه استمع»، وليس ما ذكر بثابت. وذكر أبو علي الفارسي أن ابن كثير وأبا عمرو فتحا أربعة أحرف من السورة وكسرا غير ذلك ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾، ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا﴾ [الجن: ١٦]، ﴿وَأَن الْمَسَاجِدَ﴾ [الجن: ١٨]، ﴿وَأَن لَّمَّا قَامَ﴾ [الجن: ١٩]، وأن نافعاً وعاصماً في رواية أبي بكر والمفضل وافقا في الثلاثة وكسرا ﴿وَأَن لَّمَّا قَامَ﴾ [الجن: ١٩] مع سائر ما في السورة. وذكر أن ابن عامر وحمزة والكسائي كانوا يقرأون كل ما في السورة بالفتح إلا ما جاء بعد قول أو فاء جزاء، وكذلك حفص عن عاصم، فترتب إجماع القراء على فتح الألف من ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾ و﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا﴾ و﴿وَأَن الْمَسَاجِدَ﴾. وذكر الزهراوي عن علقمة أنه كان يفتح الألف في السورة كلها. واختلف الناس في الفتح من هذه الألفات وفي الكسر اختلافاً كثيراً يطول ذكره وحصره وتقصي معانيه. قال أبو حاتم: أما الفتح فعلى ﴿أَوْحَى﴾، فهو نله في موضع رفع على ما لم يسم فاعله. وأما الكسر فحكاية وابتداء وبعد القول. وهؤلاء النفر من الجن هم الذين صادفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ ببطن نخلة في صلاة الصبح وهو يريد عكاظ. وقد تقدم قصصهم في سورة الأحقاف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

وقول الجن: ﴿إنا سمعنا﴾ الآيات، هو خطاب منهم لقومهم الذين ولوا إليهم منذرين، و﴿قرآناً عجباً﴾ معناه ذا عجب، لأن العجب مصدر يقع من سامع القرآن لبراعته وفصاحته ومضمّناته، وليس نفس القرآن هو العجب. وقرأ جمهور الناس «إلى الرُّشد» بضم الراء وسكون الشين. وقرأ عيسى الثقفي «إلى الرُّشد» بفتح الراء والشين. وقرأ عيسى «إلى الرُّشد» ومن كسر الألف من قوله «وإنه تعالى» فعلى القطع ويعطف الجملة على قوله ﴿إنا سمعنا﴾، ومن فتح الألف من قوله «وأنه تعالى» اختلفوا في تأويل ذلك، فقال بعضهم هي عطف على ﴿أنه استمع﴾، فيجيء على هذا قوله ﴿تعالى﴾ مما أمر أن يقول إنه أوحى إليه وليس يكون من كلام الجن، وفي هذا قلق. وقال بعضهم بل هي عطف على الضمير في ﴿به﴾ فكأنه يقول فأما به وبأنه تعالى. وهذا القول ليس في المعنى، لكن فيه من جهة النحو العطف على الضمير المخفوض دون إعادة الخافض وذلك لا يحسن. وقرأ جمهور الناس «جُدُّ ربنا» بفتح الجيم وضم الدال وإضافته إلى الرب، وقال جمهور المفسرين معناه عظّمته.

وروي عن أنس أنه قال: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران، جد في أعيننا أي عظم. وقال أنس بن مالك والحسن: ﴿جد ربنا﴾ معناه، فهذا هو من الجد الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: «ولا ينفع ذا الجد منك الجد»، وقال مجاهد: ذكره كله متجه لأن الجد هو حظ المجدود من الخيرات والأوصاف الجميلة، فجد الله تعالى هو الحظ الأكمل من السلطان الباهر والصفات العلية والعظمة، ومن هذا قول اليهودي حين قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة: «يا بني قيلة هذا جدكم الذي تنتظرون» أي حظكم من الخيرات وبختكم. وقال علي بن الحسين رضي الله عنه وأبو جعفر الباقر وابنه جعفر والربيع بن أنس ليس لله جد، وهذه مقالة قوم جهلة من الجن، جعلوا الله جِداً أبا أب. قال كثير من المفسرين هذا قول ضعيف. وقوله: ﴿ولن نشرك بربنا أحداً﴾ يدفعه، وكونهم فيما روي على شريعة متقدمة وفهمهم للقرآن. وقرأ محمد بن السميع اليماني «جِد ربنا» وهو من الجد والنفع. وقرأ عكرمة «جُدُّ ربنا» بفتح الجيم وضم الدال وتنوينه ورفع الرب كأنه يقول تعالى عظيم هو ربنا ف «ربنا» بدل والجد العظيم في اللغة. وقرأ حميد بن قيس «جُد ربنا» بضم الجيم. ومعناه ربنا العظيم حكاه سيويه وبإضافته إلى الرب فكأنه قال عظيم، وهذه إضافة تجديد يوقع النحاة هذا الاسم إذا أضيفت الصفة إلى الموصوف، كما تقول جاءني كريم زيد تريد زيدا الكريم ويجري مجرى هذا عند بعضهم.

قول المتنبي [البسيط]

عظيم الملك في المقل

أراد الملك العظيم قال بعض النحاة، وهذا المشال يعترض بأنه أضاف إلى جنس فيه العظيم والحقير، وقرأ عكرمة أيضاً «جِداً ربنا» بفتح الجيم والدال وتنوينها ورفع الرب ونصب «جِداً» على التمييز كما تقول تفقات شحماً وتصببت عرقاً، وقرأ قتادة «جِداً ربنا» بكسر الجيم ورفع الباء وشد الدال، فنصب جِداً على الحال ومعناه تعالى حقيقة و متمكناً. وهذا معنى غير الأول، وقرأ أبو الدرداء «تعالى ذكر ربنا»، وروي عنه «تعالى جلال ربنا». وقوله تعالى: ﴿وإنه كان يقول﴾ لا خلاف أن هذا من قول الجن، وكسر

الألف فيه أبين وفتحها لا وجه له إلا اتباع العطف على الضمير. كأنهم قالوا: «الآن بأن» ﴿سفيها﴾ كان قوله ﴿شططاً﴾. والسفيه المذكور قال جميع المفسرين هو إبليس لعنه الله. وقال آخرون هو اسم جنس لكل سفيه منهم. ولا محالة أن إبليس صدر في السفهاء وهذا القول أحسن. والشطط: التعدي وتجاوز الحد بقول أو فعل ومنه قول الأعشى: [البسيط]

انتتهون ولا ينهى ذوي شطط كالطعن يذهب فيه الزيت والقتل

وقوله تعالى: ﴿وإنا ظننا﴾ هو كلام أولئك النفس لا يحتمل غير ذلك، وكسر الألف فيه أبين. والمعنى: إنا كنا نظن قبل إيماننا أن الأقوال التي تسمع من إبليس وغواة الجن والإنس في جهة الآلهة وما يتعلق بذلك حق وليست بكذب، لأننا كنا نظن بهم أنهم لا يكذبون على الله ولا يرضون ذلك. وقرأ جمهور الناس «تقول». وقرأ الحسن والجحدري وابن أبي بكرة ويعقوب «تقول» بفتح القاف والواو وشد الواو، والتقول خاص بالكذب، والقول عام له وللصدق، ولكن قولهم ﴿كذباً﴾ يرد القول هنا معنى القول. قوله عز وجل:

وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمِيعِ فَمَن يَسْمَعُ آلَانَ يَجِدْ لَهُ شُهَبًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾

هذه الألف من ﴿أنه﴾ كان مما اختلف في فتحها وكسرها والكسر أوجه. والمعنى في الآية ما كانت العرب تفعله في أسفارها وتعزبها في الرعي وغيره، فإن جمهور المفسرين روي أن الرجل كان إذا أراد المبيت أو الحلول في واد، صاح بأعلى صوته يا عزيز هذا الرادي، إني أعوذ بك من السفهاء الذين في طاعتك فيعتقد بذلك أن الجني الذي بالوادي يمنعه ويحميه، فروي أن الجن كانت عند ذلك تقول: ما نملك لكم ولأنفسنا من الله شيئاً. قال مقاتل: أول من تعوذ بالجن قوم من أهل اليمن ثم بنو حنيفة ثم فشا ذلك في العرب. وروي عن قتادة أن الجن لذلك كانت تحتقر بني آدم وتزدرهم لما ترى من جهلهم، فكانوا يزيدونهم مخافة ويتعرضون للتخيل لهم بمتهى طاقاتهم ويغفونهم في إرادتهم لما رأوا رقة أحلامهم، فهذا هو الرهق الذي زاده الجن ببني آدم. وقال مجاهد والنخعي وعبيد بن عمير: بنو آدم زادوا الجن ﴿رهقاً﴾ وهي الجرأة والانتخاء عليهم والطغيان وغشيان المحارم والإعجاب، لأنهم قالوا سدنا الجن والإنس، وقد فسر قوم الرهق بالإثم وأنشد الطبري في ذلك بيت الأعشى: [البسيط]

لا شيء ينفعني من دون رؤيتها لا يشتفي وامق ما لم يصب رهقاً

قال معناه ما لم يغش محرماً فالمعنى زادت الإنس والجن مأثماً لأنهم عظموهم فزادوهم استحقاقاً لمحارم الله. وقوله ﴿وأنهم ظنوا كما ظننتم﴾ يريد به بني آدم الكفار. وقوله ﴿كما ظننتم﴾، مخاطبة

لقومهم من الجن. وقولهم ﴿أَنْ لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾، يحتمل معنيين أحدهما: بعث الحشر من القبور، والآخر بعث آدمي رسولاً. و﴿أَنْ﴾ في قوله ﴿أَنْ لَّنْ﴾ مخففة من «أَنْ» الثقيلة وهي تسد مسد المفعولين. وذكر المهدوي تأويلًا أن المعنى وأن الجن ظنوا كما ظننتم أيها الإنس فهي مخاطبة من الله تعالى. وقولهم ﴿وَأَنَا لَهُ سِنَا﴾ قال معناه التمسنا ويظهر بمقتضى كلام العرب أنها استعارة لتجربتهم أمرها وتعرضهم لها فسمي ذلك لمساً إذ كان اللبس غاية غرضهم ونحو هذا قول المتنبي: [الطويل]

تعد القرى والمس بنا الجيش لمسة نبادرُ إلى ما تشتهي يدك اليمنى

فعبّر عن صدم الجيش بالجيش وحرّبه باللمس، وهذا كما تقول المس فلاناً في أمر كذا، أي جرب مذهبه فيه، و﴿ملئت﴾ إما أن يكون في موضع المفعول الثاني لـ «وجدنا»، وإما أن يقصر الفعل على مفعول واحد ويكون ﴿ملئت﴾ في موضع الحال، وكان الأعرج يقرأ «مليت» لا يهمز، والشهب: كواكب الرجم، والحرس: يحتمل أن يريد الرمي بالشهب. وكرر المعنى بلفظ مختلف، ويحتمل أن يريد الملائكة، و﴿مقاعد﴾ جمع مقعد، وقد فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة قعود الجن أنهم كانوا واحداً فوق واحد، فمتى أحرق الأعلى طلع الذي تحته مكانه، فكانوا يسترقون الكلمة فيلقونها إلى الكهان ويزيدون معها ثم يزيد الكهان بالكلمة مائة كذبة، وقوله: ﴿فَمَنْ يَسْمَعُ الْإِنَّ﴾ الآية قطع على أن كل من استمع الآن أحرقه شهاب. فليس هنا بعد سمع، إنما الإحراق عند الاستماع، وهذا يقتضي أن الرجم كان في الجاهلية. ولكنه لم يكن يستأصل وكان الحرس ولكنه لم يكن شديداً، فلما جاء الإسلام اشتد الأمر حتى لم يكن فيه ولا يسير سماحة، ويدل على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه وقد رأى كوكباً راجماً: «ماذا كنتم تقولون لهذا في الجاهلية؟ قالوا كنا نقول: ولد ملك، مات ملك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ليس الأمر كذلك، ثم وصف صورة قعود الجن». وقد قال عوف بن الجزع وهو جاهلي: [الكامل]

فانقض كالدرى يتبعه نقع يشورُ تخاله طنباً

وهذا في أشعارهم كثير، و﴿رصداً﴾ نعت لشهاب ووصفه بالمصدر، وقوله: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية، معناه لا ندري أيؤمن الناس بهذا النبي فيرشدون، أم يكفرون به فينزل بهم الشر. قوله عز وجل:

وَأَنَّا مَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنِ نُعْجِزَهُمْ حَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَدْيَيْنِ آمَنَابِهِنَّ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِمَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾

وقولهم ﴿ومنا دون ذلك﴾، أي غير الصالحين كأنه قال: ومنا قوم أوفرقه دون صالحين، وهي لفظة

تقع أحياناً موقع غير. والطرائق: السير المختلفة، والقدد كذلك هي الأشياء المخالفة، كأنه قد قد بعضها من بعض وفصل. قال ابن عباس وعكرمة وقتادة: ﴿طرائق قدداء﴾ أهواء مختلفة. قال غيره فرق مختلفون. قال الكميت: [البسيط]

جمعت بالرأي منهم كل رافضة إذ هم طرائق في أهوائهم قدد

وقولهم ﴿وأننا ظننا أن لن نعجز﴾ الظن هنا بمعنى العلم. وهذا إخبار منهم عن حالهم بعد إيمانهم بما سمعوا من محمد صلى الله عليه وسلم، و﴿الهدى﴾، يريد القرآن، سموه هدى من حيث هو سبب الهدى، والبخس: النقص، والرهق: تحميل ما لا يطاق وما ينقل من الأثكاد ويقرح. قال ابن عباس: البخس: نقص الحسنات، والرهق: الزيادة في السيئات. وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب «فلا يخف» بالجزم دون ألف، وقسم الله تعالى بعد ذلك حال الناس في الآخرة على نحو ما قسم قائل الجن، فقوله: ﴿وأننا منا المسلمون ومنا القاسطون﴾ والقاسط: الظالم، قاله مجاهد وقتادة والناس، ومنه قول الشاعر: [الكامل]

قوم هم قتلوا ابن هند عنوة عمراً وهم قسطوا على النعمان

والمقسط: العادل، وإنما هذا التقسيم ليذكر حال الطريقين من النجاة والهلكة، ويرغب في الإسلام من لم يدخل فيه، فالوجه أن يكون ﴿فمن أسلم﴾، مخاطبة من الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم، ويؤيده ما بعده من الآيات، و﴿تحروا﴾: معناه طلبوا باجتهادهم، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تتحروا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها».

وقوله تعالى: ﴿لجنهم خطباً﴾ نظير قوله تعالى: ﴿وقودها الناس والحجارة﴾ [البقرة: ٢٤، التحريم: ٦].

قوله عز وجل:

وَالْوِاسْطَقُمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لَنَفْنَنَّهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّيَّ سَلَكَهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾

الضمير في قوله ﴿استقاموا﴾ قال أبو مجلز والفراء والربيع بن أنس وزيد بن أسلم والضحاك بخلاف عنه: الضمير عائد على قوله ﴿من أسلم﴾ [الجن: ١٤]، و﴿الطريقة﴾ طريقة الكفر، لو كفر من أسلم من الناس ﴿لأسقيناهم﴾ إملاء لهم واستدراجاً. وقال قتادة وابن جبير وابن عباس ومجاهد الضمير عائد على «القاسطين». والمعنى على طريقة الإسلام والحق لأنعمنا عليهم، وهذا المعنى نحو قوله: ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم﴾ [المائدة: ٦٥]، وقوله ﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾

[المائدة: ٦٦]. وهذا قول أبين لأن استعارة الاستقامة للكفر قلقة. وقرأ الأعمش وابن وثاب «وأن لو» بضم الواو. وقال أبو الفتح هذا تشبيه بواو الجماعة اشتروا الضلالة، والماء الغدق: هو الماء الكثير. وقرأ جمهور الناس «غذقا» بفتح الدال، وقرأ عاصم في رواية الأعشى عنه بكسرهما. وقوله تعالى: ﴿لَنُفْتَنَهُمْ﴾ إن كان المسلمون فمعناه لنختبرهم، وإن كان القاسطون فمعناه لنمتحنهم ونستدرجهم، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حيث يكون الماء فثم المال، وحيث يكون المال فثم الفتنة، ونزع بهذه الآية، وقال الحسن وابن المسيب وجماعة من التابعين: كانت الصحابة سامعين مطيعين، فلما فتحت كنوز كسرى وقيصر وثب بعثمان فقتل وثار الفتن. و﴿يسلكه﴾ معناه يدخله، وقرأ عاصم وحزمة والكسائي بفتح الياء أي «يسلكه» الله، وقرأ بعض التابعين «يسلكه» بضم الياء من أسلك وهما بمعنى، وقرأ باقي السبعة «يسلكه» بنون العظمة، وقرأ ابن جبير «يسلكه» بنون مضمومة ولام مكسورة. و﴿صعداً﴾ معناه شاقاً، تقول فلان في صعد من أمره أي في مشقة، وهذا أمر يتصعدني، وقال عمر: ما تصعدني شيء كما تصعدني خطبة النكاح، وقال أبو سعيد الخدري وابن عباس: صعد جبل في النار، وقرأ قوم «صُعُوداً» بضم الصاد والعين، وقرأ الجمهور بفتح الصاد والعين، وقرأ ابن عباس والحسن بضم الصاد وفتح العين، وقال الحسن: معناه لا راحة فيه، ومن فتح الألف من «أن المساجد لله» جعلها عطفاً على قوله «قل أوحى إلي أنه» [الجن: ١]، ذكره سيويه، و﴿المساجد﴾ قيل أراد بها البيوت التي هي للعبادة والصلاة في كل ملة.

وقال الحسن: أراد كل موضع سجد فيه كان مخصوصاً لذلك أو لم يكن، إذ الأرض كلها مسجد لهذه الأمة. وروي أن هذه الآية نزلت بسبب تغلب قريش على الكعبة، حينئذ فقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم: المواضع كلها لله فاعبدوا حيث كان وقال ابن عطاء: ﴿المساجد﴾: الأرباب التي يسجد عليها، واحدها مسجد بفتح الجيم، وقال سعيد بن جبير: نزلت الآية لأن الجن قالت يا رسول الله: كيف نشهد الصلاة معك على ثأينا عنك: فنزلت الآية يخاطبهم بها على معنى أن عبادتكم حيث كنتم مقبولة. وقال الخليل بن أحمد: معنى الآية، ولأن ﴿المساجد لله فلا تدعوا﴾ أي لهذا السبب، وكذلك عنده ﴿لإيلاف قريش﴾ [قريش: ١] ﴿فليعبدوا﴾ [قريش: ٣] وكذلك عنده ﴿وأن هذه أمتكم أمة﴾ [الأنبياء: ٩٢]، المؤمنون: ٥٢]. و﴿المساجد﴾ المخصوصة بينة التمكن في كونها لله تعالى فيصح أن تفرد للصلاة والدعاء وقراءة العلم، وكل ما هو خالص لله تعالى، وأن لا يتحدث بها في أمور الدنيا. ولا يتخذ طريقاً، ولا يجعل فيها لغير الله نصيب، ولقد قعدت للقضاء بين المسلمين في المسجد الجامع بالمرية مدة، ثم رأيت فيه من سوء المتخاصمين وأيمانهم وفجور الخصام وعائلته ودخول النسوان ما رأيت تنزيه البيت عنه فقطعت القعود للأحكام فيه. وقوله عز وجل: ﴿وأنه لما قام عبد الله﴾ يحتمل أن يكون خطاباً من الله تعالى، ويحتمل أن يكون إخباراً عن الجن، وقرأ بعض القراء على ما تقدم «وأنه» بفتح الألف، وهذا عطف على قوله «أنه استمع» [الجن: ١]، والعبد على هذه القراءة قال قوم: هو نوح، والضمير في ﴿كادوا﴾ لكفار قومه، وقال آخرون، هو محمد، والضمير في ﴿كادوا﴾ للجن. المعنى أنهم ﴿كادوا﴾ يتصفون عليه لاستماع القرآن، وقرأ آخرون منهم «وإنه لما قام» بكسر الألف، والعبد محمد عليه السلام، والضمير في ﴿كادوا﴾ يحتمل أن يكون للجن الذي ذكرناه، ويحتمل أن يكون لكفار قومه

وللعرب في اجتماعهم على رد أمره، ولا يتجه أن يكون العبد نوحاً إلا على تحامل في تأويل نسق الآية، وقال ابن جبير: معنى الآية، إنما قول الجن لقومهم يحكون، والعبد محمد صلى الله عليه وسلم.

والضمير في ﴿كادوا﴾ لأصحابه الذين يطعون له ويقتدون به في الصلاة، فهم عليه لبد. واللبد الجماعات شبت بالشيء المتلبد بعضه فوق بعض، ومنه قول عبد بن مناف بن ربيع: [البسيط]

صافوا بستة أبيات وأربعة حتى كأن عليهم جانياً لبداً

يريد الجراد سماه جانياً لأنه يجني كل شيء، ويروى جانباً بالباء لأنه يجني الأشياء بأكله، وقرأ جمهور السبعة وابن عباس: «لبدأ» بكسر اللام جمع لبد، وقال ابن عباس: أعواناً. وقرأ ابن عامر بخلاف عنه وابن مجاهد وابن محيصن: «لُبدأ» بضم اللام وتخفيف الباء المفتوحة وهو جمع أيضاً. وروي عن الجحدري: «لُبدأ» بضم اللام والباء. وقرأ أبو رجاء: «لبدأ» بكسر اللام، وهو جمع لبد فإن قدرنا الضمير للجن فتقصهم عليه لاستماع الذكر، وهذا تأويل الحسن وقتادة و﴿أدعو﴾ معناه أعبد، وقرأ جمهور السبعة وعلي بن أبي طالب: «قال إنما»، وهذه قراءة تؤيد أن العبد نوح، وقرأ عاصم وحزمة بخلاف عنه: «قال إنما» وهذه تؤيد بأنه محمد عليه السلام وإن كان الاحتمال باقياً من كليهما. واختلف القراء في فتح الياء من ﴿ربي﴾ وفي سكونها. ثم أمر تعالى محمداً نبيه عليه السلام بالتبري من القدرة وأنه لا يملك لأحد ﴿ضراً ولا رشداً﴾، بل الأمر كله لله. وقرأ الأعرج «رُشدأ» بضم الراء والشين، وقرأ أبي بن كعب «لكم غياً ولا رشداً». وقولهم ﴿من دونه﴾ أي من عند سواه. و«الملتحد»: الملجأ الذي يمال إليه ويُركن، ومنه الإلحاد الميل، ومنه اللحد الذي يمال به إلى أحد شقي القبر.

قوله عز وجل:

إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً. وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْئَلُونَ مَن أُضْعِفَ نَاصِرًا وَأَقْلُعًا عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِن أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لِرَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَن أَرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدِ ابْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

اختلف الناس في تأويل قوله ﴿إلا بلاغاً﴾: فقال الحسن ما معناه أنه استثناء منقطع، والمعنى لن يجبرني من الله أحد ﴿إلا بلاغاً﴾، فإني إن بلغت رحماني بذلك، والإجارة: للبلاغ مستعارة إذ هو سبب إجارة الله تعالى ورحمته، وقال بعض النحاة على هذا المعنى هو استثناء متضلل. والمعنى لن أجد ملتحداً ﴿إلا بلاغاً﴾، أي شيئاً أميل إليه وأعتصم به إلا أن أبلغ وأطيع، فيجبرني الله. وقال قتادة: التقدير لا أملك ﴿إلا بلاغاً﴾ إليكم، فإما الإيمان أو الكفر فلا أملكه. وقال بعض المتأولين ﴿إلا﴾ بتقدير الانفصال، و«إن»

شرط و «لا» نافية كأنه يقول: ولن أجد ملتحداً إن لم أبلغ من الله ورسالته، و «من» في قوله «من الله» لابتداء الغاية. وقوله تعالى: «ومن يعص الله» يريد الكفر بدليل الخلود المذكور. وقرأ طلحة وابن مصرف، «فإن له» على معنى فجزأؤه أن له، وقوله «حتى إذا رأوا»، ساق الفعل في صيغة الماضي تحقيقاً لوقوعه. وقوله تعالى: «من أضعف» يحتمل أن تكون «من» في موضع رفع على الاستفهام والابتداء و «أضعف» خبرها، ويحتمل أن تكون في موضع نصب بـ «سيعلمون»، و «أضعف» خبر ابتداء مضمر، ثم أمره تعالى بالتبري من معرفة الغيب في وقت عذابهم الذي وعدوا به، والأمد: المدة والغاية، و «عالم» يحتمل أن يكون بدلاً من «ربي» [الجن: ٢٠] ويحتمل أن يكون خبر ابتداء مضمر على القطع، وقرأ السدي: «عالم الغيب» على الفعل الماضي ونصب الباء، وقرأ الحسن: «فلا يَظْهَر» بفتح الياء والهاء «أحد» بالرفع. وقوله تعالى: «إلا من ارتضى من رسول» معناه فإنه يظهره على ما شاء مما هو قليل من كثير، ثم بيث تعالى حول ذلك الملك الرسول حفظة «رصداً» لإبليس وحزبه من الجن والإنس، وقوله تعالى: «ليعلم» قال قتادة معناه «ليعلم» محمد أن الرسل «قد أبلغوا رسالات ربهم» وحفظوا ومنع منهم. وقال سعيد بن جبير: معناه يعلم محمد أن الملائكة الحفظة، الرصد النازلين بين يديه جبريل وخلفه «قد أبلغوا رسالات ربهم». وقال مجاهد «ليعلم» من كذب وأشرك أن الرسل قد بلغت.

قال القاضي أبو محمد: وهذا العلم لا يقع لهم إلا في الآخرة، وقيل معناه «ليعلم» الله رسالته مبلغة خارجة إلى الوجود لأن علمه بكل شيء قد تقدم، وقرأ الجمهور: «ليعلم» بفتح الياء أي الله تعالى. وقرأ ابن عباس: «ليعلم» بضم الياء، وقرأ أبو حية: «رسالة ربهم» على التوحيد، وقرأ ابن أبي عبة: «وأحيط» على ما لم يسم فاعله، وقوله تعالى: «وأحصى كل شيء» معناه كل شيء معدود، وقوله تعالى: «ليعلم» الآية، مضمته أنه تعالى قد علم ذلك، فعلى هذا الفعل المضمر انعطف «وأحاط»، «وأحصى» والله المرشد للصواب بمنه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْمَزْمَلِ

وهي مكية كلها في قول المهدوي وجماعة، وقال الجمهور: هي مكية إلا قوله تعالى: ﴿إِنْ رَبُّكَ يَعْلَمُ﴾ [الزمل: ٢٠] إلى آخر السورة، فإن ذلك نزل بالمدينة.
قوله عز وجل:

يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ ﴿١﴾ قُلِ اللَّيْلُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفُهُ أَوِ انْقُصَ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ أَنْ قَرَيْتَ لَا ﴿٤﴾
إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا
طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا
﴿٩﴾ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ﴾ نداء للنبي صلى الله عليه وسلم، واختلف الناس لم نودي بهذا، فقالت عائشة والنخعي وجماعة: لأنه كان وقت نزول الآية مترملاً بكساء، والتزم: الالتفاف في الثياب بضم وتشمير، ومنه قول امرئ القيس: [الطويل]

كَأَن أَبَانَا فِي أَفَانِينَ وَدَقَّةٍ كَبِيرِ أَنْسَافٍ فِي بَجَادٍ مَزْمَلٍ

أي ملفوف، وخفض مزمل في هذا البيت هو على الجوار، وإنما هو نعت لكبير، فهو عليه السلام على قول هؤلاء، إنما دعي بهيئة في لباسه. وقال قتادة، كان تزمّل في ثيابه للصلاة واستعد فنودي على معنى يا أيها المستعد للعبادة المتمزمل لها، وهذا القول مدح له صلى الله عليه وسلم. وقال عكرمة معناه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ﴾ للنبوة وأعبائها، أي المتشمر المجّد. وقال جمهور المفسرين والزهري بما في البخاري من أنه عليه السلام لما جاءه الملك في غار حراء وحاوره بما حاوره رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خديجة فقال: زملوني زملوني: فتزلت ﴿يَا أَيُّهَا الْمَذْثَرُ﴾ [المذثر: ١]، وعلى هذا نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ﴾. وفي مصحف ابن مسعود وأبي بن كعب «يا أيها المتمزمل». وقرأ بعض السلف «يا أيها المَزْمَلُ» بفتح الزاي وتخفيفها وفتح الميم وشدها، والمعنى الذي زمله أهله أو زمل للنبوة. وقرأ عكرمة «يا أيها المَزْمَلُ» بكسر الميم المشددة وتخفيف الزاي أي المزمّل نفسه، واختلف الناس في هذا الأمر بقيام الليل كيف كان؟ فقال جمهور أهل العلم: هو أمر على جهة النذب مذ كان لم يفرض قط، ويؤيد هذا: الحديث

الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام ليلة في رمضان خلف حصير احتجره فصلى وصلى بصلاته ناس ثم كثروا من الليلة القابلة ثم غص المسجد بهم في الثالثة أو الرابعة فلم يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فحصبوا بابه فخرج مغضباً وقال: «إني إنما تركت الخروج لأنني خفت أن يفرض عليكم». وقيل إنه لم يكلمهم إلا بعد الصبح. وقال آخرون: كان فرضاً في وقت نزول هذه الآية. واختلف هؤلاء فقال بعضهم: كان فرضاً على النبي صلى الله عليه وسلم خاصة، وبقي كذلك حتى توفي عليه السلام، وقيل: بل نسخ عنه ولم يمت إلا والقيام تطوع، وقال بعضهم: كان فرضاً على الجميع ودام الأمر على ما قال سعيد بن جبيرة عشر سنين، وقالت عائشة وابن عباس دام عاماً، وروي عنها أيضاً ثمانية أشهر ثم رحمهم الله تعالى. فنزلت: ﴿إِنْ رِبْكَ يَعْلَمُ أَنْكَ تَقُومُ﴾ [المزمل: ٢٠] فخفف عنهم. وقال قتادة بقي عاماً أو عامين. وقرأ أبو السمال «قُمُ الليل» بضم الميم لاجتماع الساكنين، والكسر في كلام العرب أكثر كما قرأ الناس، وقوله تعالى: ﴿نصفه﴾ يحتمل أن يكون بدلاً من قوله ﴿قليلًا﴾، وكيف ما تقلب المعنى، فإنه أمر بقيام نصف الليل أو أكثر شيء أو أقل شيء، فالأكثر عند العلماء لا يزيد على الثلثين، والأقل لا ينحط عن الثلث ويقوي هذا حديث ابن عباس في بيت ميمونة قال: فلما انتصف الليل أو قبله بقليل قام رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويلزم على هذا الذي ذكرناه أن يكون نصف الليل قد وقع عليه الوصف بقليل، وقد يحتمل عندي قوله ﴿إلا قليلاً﴾، أن يكون استثناء من القيام، فيجعل الليل اسم جنس، ثم قال ﴿إلا قليلاً﴾، أي الليالي التي تخل بقيامها عند العذر البين. وهذا النظر يحسن مع القول مع الندب جداً. وقد تكلم الجرجاني رحمه الله في نظمه في هذه الآية بتطويل وتدقيق غير مفيد أكثره غير صحيح. وقرأ الجمهور: «أو انقص» بضم الواو، وقرأ الحسن وعاصم وحمزة بكسر الواو، وقرأ عيسى بالوجهين، والضمير في ﴿منه﴾ و﴿عليه﴾ عائدان على النصف، وقوله تعالى: ﴿ورتل القرآن﴾ معناه في اللغة تمهل وفرق بين الحروف لتبين. والمقصد أن يجد الفكر فسحة للنظر وفهم المعاني، وبذلك يرق القلب ويفيض عليه النور والرحمة. قال ابن كيسان: المراد تفهمه تالياً له ومنه الثغر الرتل الذي بينه فسخ وفتوح. وروي أن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت بينة مترسلة لو شاء أحد أن يعد الحروف لعدّها. والقول الثقيل: هو القرآن. واختلف الناس لم سماه ﴿ثقيلاً﴾، فقالت جماعة من المفسرين: لما كان يحل في رسول الله من ثقل الجسم حتى أنه كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته بركت به، وحتى كادت فخذته أن ترض فخذ زيد بن ثابت رحمه الله. وقال أبو العالية والقرطبي: بل سماه ﴿ثقيلاً﴾ لثقله على الكفار والمنافقين بإعجازه ووعيده ونحو ذلك. وقال حذاق العلماء: معناه ثقل المعاني من الأمر بالطاعات والتكاليف الشرعية من الجهاد ومزاولة الأعمال الصالحة دائمة، قال الحسن: إن الهذ خفيف ولكن العمل ثقيل. وقوله تعالى: ﴿إِنْ نَاشِئَةُ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾، قال ابن جبيرة وابن زيد هي لفظة حبشية نشأ الرجل إذا قام من الليل، فـ ﴿ناشئة﴾ على هذا، جمع ناشئ، أي قائم، و﴿أشد وطئًا﴾ معناه ثبوتاً واستقلالاً بالقيام، و﴿وأقوم قِيلاً﴾، أي بخلو أفكارهم وإقبالهم على ما يقرأونه.

وقال ابن عمر وأنس بن مالك وعلي بن الحسين: ﴿ناشئة الليل﴾ ما بين المغرب والعشاء، وقالت عائشة ومجاهد: القيام بعد النوم، ومن قام أول الليل قبل النوم فلم يقم ناشئة، وقال ابن جبيرة وابن زيد

وجماعة: ﴿ناشئة الليل﴾ ساعاته كلها لأنها تنشأ شيئاً بعد شيء. وقال أبو مجلز وابن عباس وابن الزبير والحسن: ما كان بعد العشاء فهو ﴿ناشئة﴾، وما كان قبلها فليس به ﴿ناشئة﴾، قال ابن عباس: كانت صلاتهم أول الليل فهي ﴿أشد وطئاً﴾ أي أجدر أن يحصوا ما فرض الله عليكم من القيام لأن الإنسان إذا نام لا يدري متى يستيقظ؟ وقال الكسائي: ﴿ناشئة الليل﴾ أوله، وقال ابن عباس وابن الزبير: الليل كله ﴿ناشئة﴾ و﴿أشد وطئاً﴾، على هذا يحتمل أن يكون أشد ثبوتاً فيكون نسب الثبوت إليها من حيث هو القائم فيها. ويحتمل أن يريد أنها صعبة القيام لمنعها النوم كما قال «اللهم اشدد وطأتك على مضر» فذكرها تعالى بالصعوبة ليعلم عظم الأجر فيها كما وعد على الوضوء على المكاره والمشي في الظلام إلى المساجد ونحوه. وقرأ الجمهور: «وطئاً» بفتح الواو وسكون الطاء، وقرأ أبو عمرو ومجاهد وابن الزبير وابن عباس: «وطاء» على وزن فعال، والمعنى موافقة لأنه يخلو البال من أشغال النهار وأشغابه، فيوافق قلب المرء لسانه، وفكره عبارته فهذه مواطاة صحيحة، وبهذا المعنى فسر اللفظ مجاهد وغيره، وقرأ قتادة في رواية حسين: «وطاء» بكسر الواو وسكون الطاء والهمزة مقصورة، وقرأ أنس «وأصوب قليلاً»، فقليل له إنما هو ﴿أقوم﴾، فقال: أقوم وأصوب وأهياً واحداً. وقوله تعالى: ﴿إن لك في النهار سبحةً طويلاً﴾ أي تصرفاً وتردداً في أمورك كما يتردد السائح في الماء. ومنه سمي الفرس سابحاً لشيئه واضطرابه، وقال قوم من أهل العلم إنما معنى الآية التنبيه على أنه إن فات حزب الليل بنوم أو عذر فليخلف بالنهار فإن فيه ﴿سبحةً طويلاً﴾، وقرأ يحيى بن يعمر وعكرمة: «سبحةً طويلاً» بالخاء منقوطة، ومعناه خفة لك من التكاليف، والتسبيح التخفيف، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «ولا تسبخي عنه» لعائشة في السارق الذي سرقها، فكانت تدعو عليه، معناه لا تخففي عنه. قال أبو حاتم: فسر يحيى السبح بالنوم.

وقال سهل: ﴿واذكر اسم ربك﴾ يراد اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم في ابتداء صلاتك، ﴿وتبتل﴾ معناه: انقطع من كل شيء إلا منه وافرج إليه. قال زيد بن أسلم: التبتل رفض الدنيا ومنه تبتل الحبل، وقولهم في الهبات ونحوها بتلة، ومنه البتول، و﴿تبتلاً﴾ مصدر على غير المصدر، وقرأ حمزة والكسائي وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر: «ربُّ المشرق» بالخفض على البدل من ﴿ربك﴾، وقرأ الباقون وحفص عن عاصم: «ربُّ» على القطع أي هورب أو على الابتداء والخبر ﴿لا إله إلا هو﴾. وقرأ ابن عباس وأصحاب عبد الله: «رب المشارق والمغارب» بالجمع. والوكيل: القائم بالأمر الذي يوكل إليه الأشياء، وقوله تعالى: ﴿واصبر على ما يقولون﴾ الآية، قيل هي موادة منسوخة بأية السيف، والمراد بالآية قریش. وقال بعض العلماء: قوله ﴿واهجرهم هجرًا جميلاً﴾ منسوخ، وأما الصبر على ما يقولون فقد يتوجه أحياناً ويبقى حكمه، وفيما يتوجه من الهجر الجميل من المسلمين، قال أبو الدرداء: إنا لنكشر في وجوه قوم وإن قلوبنا لتقليهم. والقول الأول أظهر لأن الآية إنما هي في كفر قریش وردهم رسالته وإعلانهم بذلك لا يمكن أن يكون الحكم في هذه المعاني باقياً.

قوله عز وجل:

وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا

إِلَيْمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وذرنى والمكذبين﴾ وعيد لهم، ولم يتعرض أحد لمنعه منهم، لكنه إبلاغ بمعنى لا تشغل بهم فكرياً، وكلهم إلي. و﴿النعمة﴾ غضارة العيش وكثرة المال. والمشار إليهم كفار قريش أصحاب القلب بيدر. ويروى أنه لم يكن بين نزول الآية وبين بدر إلا مدة يسيرة نحو عام وليس الأمر كذلك، والتقدير الذي يعضده الدليل من إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتضي أن بين الأمرين نحو العشرة الأعوام، ولكن ذلك قليل أمهلوه، و﴿لدينا﴾ بمنزلة عندنا، و«الأنكال» جمع نكل، وهو القيد من الحديد، ويروى أنها قيود سود من نار، و«الطعام ذو الغصة»، شجرة الزقوم قاله مجاهد وغيره، وقيل شوكة من نار وتعرض في حلوقهم لا تخرج ولا تنزل قاله ابن عباس، وكل مطعموم هنالك فهو ذو غصة، وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فصعق، والعامل في قوله ﴿يوم ترجف﴾، الفعل الذي تضمنه قوله ﴿إن لدينا﴾، وهو استقرار أو ثبوت، والرجفان: الاهتزاز والاضطراب من فرع وهول، و«المهيل» اللين الرخو الذي يذهب بالريح ويحيى مهيلة. والأصل مهيول استثقلت الضمة على الياء فسكنت واجتمع ساكنان فحذفت الواو وكسرت الهاء بسبب الياء. وقوله تعالى: ﴿إننا أرسلنا إليكم﴾ الآية خطاب للعالم، لكن المواجهون قريش، وقوله ﴿شاهداً عليكم﴾ نحو قوله ﴿وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ [النساء: ٤١]، وتمثيلة لهم أمرهم بفرعون وعيد كأنه يقول: فحالهم من العذاب والعقاب إن كفروا سائرة إلى مثل حال فرعون، وقوله تعالى: ﴿فصلى فرعون الرسول﴾ يريد موسى عليه السلام، والألف واللام للعهد. والويليل: الشديد الرديء العقبي، ويقال: كلاً وبيل ومستوبل إذا كان ضاراً لما يربعا. وقوله تعالى: ﴿فكيف تتقون﴾ معناه تجعلون لأنفسكم، و﴿يوماً﴾ مفعول بـ ﴿تتقون﴾، وقيل هو مفعول بـ ﴿كفرتم﴾ على أن يجعله بمنزلة جحدتم، فـ ﴿تتقون﴾ على هذا من التقوى، أي ﴿تتقون﴾ عقاب الله ﴿يوم﴾، و﴿يجعل﴾ يصح أن يكون مسنداً إلى اسم الله تعالى، ويصح أن يكون مسنداً إلى اليوم. وقوله تعالى: ﴿الولدان شيباً﴾ يريد صغار الأطفال، وقال قوم هذه حقيقة تشيب رؤوسهم من شدة الهول كما قد ترى الشيب في الدنيا من الهم المفرط كهول البحر ونحوه. وقال آخرون من المتأولين: هو تجوز وإبلاغ في وصف هول ذلك اليوم. وواحد ﴿الولدان﴾ وليد، وواحد الشيب أشيب. وقوله تعالى: ﴿السماء منفطر به﴾ قيل هذا على النسب أي ذات انفطار كامرة حاض وطالق، وقيل السماء تذكر وتؤنث، وينشد في التذكير: [الوافر]

فلو رفع السماء إليه قوماً لحقنا بالسماء مع السحاب

وقيل من حيث لم يكن تأنيهاً حقيقياً، جاز أن تسقط علامة التأنيث لها، وقيل لم يرد اللفظ قصد السماء بعينها وإنما أراد ما علا من مخلوقات الله كأنه قصد السقف فذكر على هذا المعنى، قاله منذر بن

سعيد وأبو عبدة معمر والكسائي: ﴿الانفطار﴾ التصدع والانشقاق على غير نظام، بقصد، والضمير في ﴿به﴾، قال المنذر وغيره: هو عائذ على اليوم، وقال مجاهد: هو عائذ على الله تعالى، وهذا نظير قوله ﴿يوم تشقق السماء بالغمام﴾ [الفرقان: ٢٥] الذي هو ظل يأتي الله فيها. والمعنى يأتي أمره وقدرته، وكذلك هنا ﴿منفطر به﴾ أي بأمره وسلطانه، والضمير في قوله ﴿وعده﴾ ظاهر أنه الله تعالى. ويحتمل أن يكون لليوم لأنه يضاف إليه من حيث هو منه.

قوله عز وجل:

إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ أَخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِ إِلَالٍ وَنِصْفَهُمْ
وَلَثَلَاثُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّنْ نَّحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ
الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ
يُقِيمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاَقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَقَرِّضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَرِّمُوا
لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ مِّثْلُ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

الإشارة بـ ﴿هذه﴾ يحتمل أن تكون إلى ما ذكر من الأنكال والجحيم والأخذ الويل ونحوه. ويحتمل أن تكون إلى السورة بأجمعها ويحتمل أن تكون إلى القرآن، أي أن هذه الأقوال المنصوصة، فيه، ﴿تذكرة﴾، والتذكرة مصدر كالذكر. وقوله تعالى: ﴿فمن شاء﴾ الآية، ليس معناه إباحة الأمر وضده، بل يتضمن معنى الوعد والوعيد. والسبيل هنا: سبيل الخير والطاعة. وقوله تعالى: ﴿إن ربك يعلم﴾ الآية نزلت تخفيفاً لما كان استمرار استعماله من قيام الليل إما على الوجوب أو على الندب حسب الخلاف الذي ذكرناه، ومعنى الآية: أن الله تعالى يعلم أنك تقوم أنت وغيرك من أمتك قياماً مختلفاً فيه، مرة يكثُر ومرة يقل، ومرة أدنى من الثلاثين، ومرة أدنى من الثلث، وذلك لعدم تحصيل البشر لمقادير الزمن مع عدم النوم، وتتنير الزمان حقيقة إنما هو لله تعالى، وأما البشر فلا يحصي ذلك فتاب الله عليهم، أي رجع بهم من الثقل إلى الجنة وأمرهم بقراءة ﴿ما تيسر﴾، ونحو هذا يعطي عبارة الفراء ومنذر فإنهما قالا ﴿تحصوه﴾ تحفظوه، وهذا التأويل هو على قراءة من قرأ «ونصفه وثلاث» بالخفض عطفاً على الثلاثين، وهي قراءة أبي عمرو ونافع وابن عامر. وأما من قرأ «ونصفه وثلاثه» بالنصب عطفاً على «أدنى» وهي قراءة باقي السبعة، فالمعنى عنده آخر، وذلك أن الله تعالى قرر أنهم يقدرون الزمان على نحو ما أمر به في قوله ﴿نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه﴾ [المزمل: ٣ - ٤]، فلم يبق إلا أن يكون قوله ﴿لن تحصوه﴾ لن تستطيعوا قيامه لكثرتِه وشدته فخفف الله عنكم فضلاً منه لا لقله جهلهم بالتقدير وإحصاء الوقت، ونحو هذا تعطي عبارة الحسن وابن جبير ﴿تحصوه﴾ تطيعوه، وقرأ جمهور القراء والناس «وثلاثه» بضم اللام، وقرأ ابن كثير في رواية شبل عنه: «وثلاثه» بسكون اللام. وقوله تعالى: ﴿فاقرأوا ما تيسر من القرآن﴾ إباحة، هذا قول الجمهور، وقال ابن جبير وجماعة هو فرض لا بد منه ولو خمسين آية، وقال الحسن وابن سيرين قيام الليل فرض، ولو قدر

حلب شاة، إلا أن الحسن قال: من قرأ مائة آية لم يحاجه القرآن، واستحسن هذا جماعة من العلماء، قال بعضهم: والركعتان بعد العتمة مع الوتر مدخلتان في حكم امتثال هذا الأمر، ومن زاد زاده الله ثواباً. و﴿أن﴾ في قوله تعالى: ﴿علم أن﴾ مخففة من الثقيلة. والتقدير أنه يكون، فجاءت السين عوضاً من المحذوف، وكذلك جاءت لا في قول أبي محجن: [الطويل]

ولا تدفنني بالفلاة فإنني أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها

والضرب في الأرض: هو السفر للتجارة، وضرب الأرض هو المشي للتمرير والغائط. فذكر الله تعالى أعذار بني آدم التي هي حائلة بينهم وبين قيام الليل وهي المرض والسفر في تجارة أو غزو، فخفف عنه القيام لها. وفي هذه الآية فضيلة الضرب في الأرض بل تجارة وسوق لها مع سفر الجهاد، وقال عبد الله بن عمر: أحب الموت إليّ بعد القتل في سبيل الله أن أموت بين شعبي رحلي أضرب في الأرض أبتغي من فضل الله، ثم كرر الأمر. بقراءة ما تيسر منه تأكيداً و﴿الصلاة﴾ و﴿الزكاة﴾ هما المفروضتان، ومن قال إن القيام بالليل غير واجب قال معنى الآية خذوا من هذا الثقل بما تيسر وحافظوا على فرائضكم، ومن قال إن شيئاً من القيام واجب قال: قرنه الله بالفرائض لأنه فرض. وإقراض الله تعالى: هو إسلاف العمل الصالح عنده. وقرأ جمهور الناس «هو خيراً» على أن يكون هو فصلاً، وقرأ محمد بن السميع وأبو السمال «هو خير» بالرفع على أن يكون ﴿هو﴾ ابتداء، و«خير» خبره والجملة تسد مسد المفعول الثاني لـ ﴿تجدوه﴾. ثم أمر تعالى بالاستغفار وأوجب لنفسه صفة الغفران لا إله غيره، قال بعض العلماء فلاستغفار بعد الصلاة مستنبط من هذه الآية ومن قوله تعالى: ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأصباح هم يستغفرون﴾ [الذاريات: ١٧].

قال القاضي أبو محمد: وعهدت أبي رحمه الله يستغفر إثر كل مكتوبة ثلاثاً بعقب السلام ويأثر في ذلك حديثاً، فكان هذا الاستغفار من التقصير وتفلت الفكر أثناء الصلاة، وكان السلف الصالح يصلون إلى طلوع الفجر ثم يجلسون للاستغفار إلى صلاة الصبح.

نجز تفسير سورة «المزمل» بحمد الله وعونه وصلى الله على محمد وآله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْمَدْثُرِ

وهي مكية بإجماع من أهل التأويل.

قوله عز وجل:

يَا أَيُّهَا الْمَدْثُرُ ﴿١﴾ قُمْ فَانْذَرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكْبِرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمٌ مَّيْذَنُومٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾

اختلف القراء في ﴿المدثر﴾ على نحو ما ذكرناه في ﴿المزمل﴾ [المزمل: ١]، وفي حرف أبي بن كعب ﴿المدثر﴾ ومعناه المتدثر بشيابه، و«الدثار»، ما يغطي الإنسان به من الثياب، واختلف الناس لم ناداه بـ ﴿المدثر﴾، فقال جمهور المفسرين بما ورد في البخاري من أنه لما فرغ من رؤية جبريل على كرسي بين السماء والأرض فرعب منه ورجع إلى خديجة فقال: زملوني زملوني نزلت ﴿يا أيها المدثر﴾، وقال النخعي وقتادة وعائشة نوذي وهو في حال تدثر فدعي بحال من أحواله. وروي أنه كان يدثر في قطيفة. وقال آخرون: معناه أيها النائم. وقال عكرمة معناه ﴿يا أيها المدثر﴾ للنبوة وأثقالها، واختلف الناس في أول ما نزل من كتاب الله تعالى فقال جابر بن عبد الله وأبو سلمة والنخعي ومجاهد هو ﴿يا أيها المدثر﴾ الآيات. وقال الزهري والجمهور هو ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ [العلق: ١] وهذا هو الأصح. وحديث صدر كتاب البخاري نص في ذلك. وقوله تعالى: ﴿قم فانذر﴾ بعثة عامة إلى جميع الخلق. قال قتادة، المعنى أنذر عذاب الله وقائعته بالأمم، وقوله تعالى: ﴿وربك فكبر﴾ معناه عظمه بالعبادة وبث شرعه. وروي عن أبي هريرة أن بعض المؤمنين قال: بم نفتتح صلاتنا؟ فنزلت ﴿وربك فكبر﴾. واختلف المتأولون في معنى قوله ﴿وثيابك فطهر﴾، فقال ابن سيرين وابن زيد بن أسلم والشافعي وجماعة: هو أمر بتطهير الثياب حقيقة، وذهب الشافعي وغيره من هذه الآية إلى وجوب غسل النجاسات من الثياب، وقال الجمهور: هذه الألفاظ استعارة في تنقية الأفعال والنفس والعرض، وهذا كما تقول فلان طاهر الثوب، ويقال للفاجر دنس الثوب، ومنه قول الشاعر [غيلان بن سلمة الثقفي]: [الطويل]

وإني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من خزبة أتقنع

وقال الآخر: [الرجز]

لاهم إن عامر ابن جهم أودم حجاً في ثياب دهم

أي دنسه . وقال ابن عباس والضحاك وغيره ، المعنى لا تلبسها على غدره ولا فجور ، وقال ابن عباس : المعنى لا تلبسها من مكسب خبيث ، وقال النخعي : المعنى طهرها من الذنوب ، وهذا كله معنى قريب بعضه من بعض ، وقال طاوس : المعنى قصرها وشمرها ، فذلك طهارة للثياب . وقرأ جمهور الناس «والرُّجْزُ» بكسر الراء ، وقرأ حفص عن عاصم والحسن ومجاهد وأبو جعفر وشيبة وأبو عبد الرحمن والنخعي وابن وثاب وقتادة وابن أبي إسحاق والأعرج : و «الرُّجْزُ» بضم الراء . فقيل هما بمعنى يراد بهما الأصنام والأوثان ، وقيل هما لمعنيين الكسر للنتن والتقايض وفجور الكفار والضم لصنمين : «إساف ونائلة» ، قاله قتادة . وقيل للأصنام عموماً ، قاله مجاهد وعكرمة والزهري . وقال ابن عباس «الرجز» السخط ، فالمعنى اهجر ما يؤدي إليه ويوجبه ، وقال الحسن : كل معصية رجز ، وروى جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم فسر هذه الآية بالأوثان . واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى : ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ . فقال ابن عباس وجماعة معه : لا تعط عطاء لتعطى أكثر منه ، فكانه من قولهم ، من إذا أعطى ، قال الضحاك ، وهذا خاص بالنبي عليه السلام ، ومباح لأمنته لكن لا أجر لهم فيه . قال مكي : وهذا معنى قوله تعالى : ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبَا لِيَرْبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الروم : ٣٩] ، وهذا معنى أجني من معنى هذه السورة . وحكى النقاش عن ابن عباس أنه قال : ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ لا تقل دعوت فلم أجب وروى قتادة أن المعنى لا تدل بعملك ، ففي هذا التأويل تحريض على الجد وتخويف ، وقال ابن زيد : معناه ﴿وَلَا تَمْنُنْ﴾ على الناس بنبوءتك ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾ بأجر أو بكسب تطلبه منهم . وقال الحسن بن أبي الحسن : معناه ﴿وَلَا تَمْنُنْ﴾ على الله بجدك ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾ أعمالك ويقع لك بها إعجاب ، فهذه كلها من المن الذي هو تعديد اليد وذكرها . وقال مجاهد : معناه ولا تضعف ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾ ما حملنك من أعباء الرسالة وتستكثر من الخير ، فهذه من قولهم جبل منين أي ضعيف ، وفي قراءة ابن مسعود : «وَلَا تَمْنُنْ أَنْ تَسْتَكْثِرُ» ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن : «تَسْتَكْثِرُ» بجزم الراء ، وذلك كأنه قال لا تستكثر ، وقرأ الأعمش : «تَسْتَكْثِرُ» بنصب الراء ، وذلك على تقدير أن مضمرة وضعف أبو حاتم الجزم ، وقرأ ابن أبي غيلة : «وَلَا تَمْنُنْ فَتَسْتَكْثِرُ» بالفاء العاطفة والجزم ، وقرأ أبو السمال : «وَلَا تَمْنُنْ» بنون واحدة مشددة . ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ ، أي لوجه ربك وطلب رضاه كما تقول فعلت لله تعالى ، والمعنى على الأدنى من الكفار وعلى العبادة وعن السهوات وعلى تكاليف النبوة ، قال ابن زيد وعلى حرب الأحمر والأسود لقد حمل أمراً عظيماً . و«الناقور» الذي ينفخ فيه وهو الصور ، قاله ابن عباس وعكرمة . وقال خفاف بن ثدبة : [الوافر]

إذا ناقورهم يوماً تبدى أجاب الناس من غرب وشرق

وهو فاعول من النقر ، وقال أبو حبيب :

أما زرارة بن أوفى فلما بلغ في الناقر خر ميتاً .

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقمه وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر بالنفخ» ففرغ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : كيف نقول يا رسول الله؟ قال : «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا» . و«يوم عسير» معناه في عسر في الأمور الجارية على

الكفار فوصف اليوم بالعسر لكونه ظرف زمان له. وكذلك تجيء صفته باليسر. وقرأ الحسن «عسر» بغير ياء.

قوله عز وجل:

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَا لَا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾
ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَتَنَبَّأُونَ عِندَنَا ﴿١٦﴾ سَاءَ رُفْقَهُمْ صُعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُمْ فَكَّرُوا فَذَرَّ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَرُ
﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ
﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ وعيد محض، المعنى أنا أكفي عقابه وشأنه كله. ولا خلاف بين المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي، فروي أنه كان يلقب الوحيد، أي لأنه لا نظير له في ماله وشرفه في بيته، فذكر الوحيد في الآية في جملة النعمة التي أعطي وإن لم يثبت هذا، فقوله تعالى: ﴿خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ معناه منفرداً قليلاً ذليلاً، فجعلت له المال والبنين، فجاء ذكر الوحدة مقدمة حسن معها وقوع المال والبنين، وقيل المعنى خلقتني وحدي لم يشركني فيه أحد، فـ ﴿وَحِيدًا﴾ حال من التاء في ﴿خَلَقْتُ﴾، والمال الممدود: قال مجاهد وابن جبير هو ألف دينار، وقال سفيان: بلغني أنه أربعة آلاف دينار وقاله قتادة، وقيل: عشرة آلاف دينار، فهذا مد في العدد، وقال النعمان بن بشير هي الأرض لأنها مدت، وقال عمر بن الخطاب: المال الممدود الربع المستغل مشاهرة، فهو مد في الزمان لا ينقطع، و﴿شُهُودًا﴾ معناه حضوراً متلاحقين، قال مجاهد وقاتدة: كان له عشرة من الولد، وقال ابن جبير: ثلاثة عشر، والتمهيد: التوطئة والتهيئة، قال سفيان: المعنى بسطت له العيش بسطاً. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ وصفه بجشع الوليد وعتبه في الازدياد من الدنيا، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ زجر ورد على أمانة هذا المذكور، ثم أخبر عنه أنه كان معانداً مخالفاً لآيات الله وعبره، يقال بعير عنود للذي يمشي مخالفاً للإبل. ويحتمل أن يريد بالآيات آيات القرآن وهو الأصح في التأويل سبب كلام الوليد في القرآن بأنه سحر، و﴿أَرْهَقَهُ﴾ معناه أكلفه بمشقة وعسر، و﴿صُعُودًا﴾: عقبة في جهنم، روى ذلك أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم كلما وضع عليها شيء من الإنسان ذاب، والصعود في اللغة: العقبة الشاقة. وقوله تعالى مخبراً عن الوليد: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ الآية، روى جمهور المفسرين أن الوليد سمع من القرآن ما أعجبه ومدحه، ثم سمع كذلك مراراً حتى كاد أن يقارب الإسلام، ودخل إلى أبي بكر الصديق مراراً، فجاءه أبو جهل فقال: يا وليد، أشعرت أن قريشاً قد ذمتك بدخولك إلى ابن أبي قحافة وزعمت أنك إنما تقصد أن تأكل طعامه، فقد أبغضتك لمقاربتك أمر محمد، وما يخلصك عندهم إلا أن تقول في هذا الكلام قولاً يرضيهم، ففتنه أبو جهل فافتتن، وقال: افعل ذلك ثم فكر فيما عسى أن يقول في القرآن، فقال: أقول شعراً ما هو بشعر، أقول

هو كاهن؟ ما هو بكاهن، أقول هو ﴿سحر يؤثر﴾ هو قول البشر، أي لبس منزل من عند الله قال أكثر المفسرين، فقلوه تعالى: ﴿فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر﴾ هو دعاء عليه وتقبيح لحاله أي أنه ممن يستحق ذلك. وروي عن الزهري وجماعة غيره أن الوليد حاج أبا جهل وجماعة من قريش في أمر القرآن وقال: والله إن له لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لحياة وإنه ليحطم ما تحته وإنه ليعلو ولا يعلى ونحو هذا من الكلام فخالقوه فقالوا له: هو شعر، فقال والله ما هو بشعر، ولقد عرفنا الشعر هزجه وبسيطه، قالوا: فهو كاهن، قال والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان وزممتهم، قالوا: هو مجنون، قال: والله ما هو بمجنون، ولقد رأينا المجنون وخنقه، قالوا: هو سحر، قال أما هذا فيشبه أنه سحر ويقول أقوال نفسه.

قال القاضي أبو محمد: فيحتمل قوله تعالى: ﴿فقتل كيف قدر﴾ أن يكون دعاء عليه على معنى تقبيح حاله، ويحتمل أن يكون دعاء مقتضاه استحسان منزعه الأول ومدحه القرآن، وفي نفيه الشعر والكهانة والجنون عنه فيجري هذا مجرى قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي جندل بن سهيل: «ويل أمه مسعر حرب»، ومجرى قول عبد الملك بن مروان: قاتل الله كثيراً كأنه رآنا حين قال كذا، وهذا معنى مشهور في كلام العرب، ثم وصف تعالى إدياره واستكباره وأنه ضل عند ذلك وكفر، وإذا قلنا إن ذلك دعاء على مستحسن فعله فيجيء قوله تعالى: ﴿ثم نظر﴾، معناه نظر فيما احتج به القرآن فرأى ما فيه من علو مرتبة محمد عليه السلام ف ﴿عبس﴾ لذلك ﴿وبسر﴾ أي قطب وقبض ما بين عينيه وأربد وجهه حسداً له فادبر واستكبر، أي ارتكس في ضلاله وزال إقباله أولاً ليهتدي ولحقته الكبرياء، وقال هذا سحر، و ﴿ويؤثر﴾ معناه يروى ويحمل، أي يحمله محمد عن غيره، وعلى التأويل أن الدعاء عليه دعاء على مستقبح فعله يجيء قوله ﴿ثم نظر﴾ معناه معاداً بعينه لأن ﴿فكر وقدر﴾ يقتضيه لكنه إخبار بترديده النظر في الأمر، وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا الوليد فقال له: انظر وفكر فلما فكر قال ما تقدم.

قوله عز وجل:

سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ ﴿٦٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴿٦٧﴾ لَا بُقْيَ وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوْاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۖ

﴿سقر﴾ هو الدرك السادس من جهنم على ما روي، و ﴿أصلية﴾ معناه أجعله فيها مباشراً لنارها، وقوله تعالى: ﴿وما أدراك ما سقر﴾ هو على معنى التعجب من عظم أمرها وعذابها ثم بين ذلك بقوله ﴿لا تبقي ولا تذر﴾ المعنى: ﴿لا تبقي﴾ على من ألقى فيها، ﴿ولا تذر﴾ غاية من العذاب إلا وصلته إليها، وقوله تعالى: ﴿لواحة للبشر﴾، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وأبو رزين وجمهور الناس: معناه، مغيرة للبشرات، محرقة للجلود مسودة لها، و «البشر» جمع بشرة، وتقول العرب: لاحت النار الشيء إذا أحرقتة وسودته، وقال الشاعر [الأعشى]: [الخفيف]

لاحة الصيف والغيار وإشفا ق على سقبة كقوس الضال

وأشدد أبو عبيدة: [الرجز]

يا بنت عمي لاحني الهواجر

وقال الحسن وابن كيسان: ﴿لواحة﴾ بناء مبالغة من لاح يلوح إذا ظهر، والمعنى أنها تظهر للناس وهم البشر من مسيرة خمسمائة عام، وذلك لعظمها وهولها وزفيرها. وقرأ عطية العوفي «لواحة» بالنصب، وقوله تعالى: ﴿عليها تسعة عشر﴾ ابتداء وخبره مقدم في المجرور، ولا خلاف بين العلماء أنهم خزنة جهنم المحيطون بأمرها الذين إليهم جماع أمر زبانيتهما، وقد قال بعض الناس: إنهم على عدد حروف بسم الله الرحمن الرحيم لأن بها تقووا، وروي أن قريشاً لما سمعت هذا كثر إلغاطهم فيه وقالوا: لو كان هذا حقاً، فإن هذا العدد قليل، فقال أبو جهل: هؤلاء تسعة عشر، وأنتم الدهم، أفيعجز عشرة منا عن رجل منهم، وقال أبو الأشدي الجمحي: أنا أجهضهم على النار، إلى غير هذا من أقوالهم السخيفة، فنزلت في أبي جهل: ﴿أولى لك فأولى﴾ [القيامة: ٣٤ - ٣٥] الآية، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وطلحة بن شبيل «تسعة عشر» بسكون العين، وذلك لتوالي الحركات، وقرأ أنس بن مالك وأبو حيو «تسعة عشر» برفع التاء، وروي عن أنس بن مالك أنه قرأ «تسعة أعشر»، وضعفها أبو حاتم، وقوله تعالى: ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة﴾ تبين لفساد أقوال قريش، أي إن جعلناهم خلقاً لا قبل لأحد من الناس بهم وجعلنا عدتهم هذا القدر فتنة للكفار ليقع منهم من التعاطي والطمع في المبالغة ما وقع و﴿ليستيقن﴾ أهل الكتاب: التوراة والإنجيل أن هذا القرآن من عند الله، إذ هم يجدوه هذه العدة في كتبهم المنزلة التي لم يقرأها محمد صلى الله عليه وسلم ولا هو من أهلها، ولكن كتابه يصدق ما بين يديه من كتب الأنبياء إذ جميع ذلك حق يتعاضد منزل من عند الله، قال هذا المعنى ابن عباس ومجاهد وغيرهم، وبورود الحقائق من عند الله عز وجل يزداد كل ذي إيمان إيماناً ويزول الريب عن المصدقين من أهل الكتاب ومن المؤمنين، وقوله تعالى: ﴿وليقول الذين في قلوبهم مرض﴾ الآية، نوع من الفتنة لهذا الصنف المنافق أو الكافر، أي جاروا وضلوا ولم يهتدوا لقصد الحق فجعلوا يستفهم بعضهم بعضاً عن مراد الله تعالى بهذا المثل استبعاداً أن يكون هذا من عند الله، قال الحسين بن الفضل: السورة مكية ولم يكن بمكة تفاق وإنما المرض في هذه الآية الاضطراب وضعف الإيمان.

قوله عز وجل:

كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾
وَاللَّيْلِ إِذَا دُبِرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرٌ لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَتَّقَدَّمَ أَوْ
يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا
سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى: ﴿كذلك يضل الله من يشاء﴾ أي بهذه الصفة وهذا الرين على القلوب يضل، ثم أخبر

تعالى أنه ﴿يهدي من يشاء﴾ من المؤمنين لما ورد بذلك لعلمهم بالقدره ووقوف عقولهم على كنه سلطان الله تعالى، فهم موقنون متصورون صحة ما أخبرت به الأنبياء وكتب الله تعالى، ثم قال: ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ إعلاماً بأن الأمر فوق ما يتوهم وأن الخير إنما هو عن بعض القدرة لا عن كلها، والسماء كلها عامرة بأنواع من الملائكة كلهم في عبادة متصلة وخشوع داسم وطاعة لا فترة في شيء من ذلك ولا دقيقة واحدة. وقوله تعالى: ﴿وما هي إلا ذكرى للبشر﴾ قال مجاهد الضمير في قوله ﴿وما هي﴾ للنار المذكورة، أي يذكرها البشر فيخافونها فيطيعون الله تعالى. وقال بعض الخذاق: قوله تعالى: ﴿وما هي﴾ يراد بها الحال والمخاطبة والندارة، قال الثعلبي: وقيل ﴿وما هي﴾، يراد نار الدنيا، أي إن هذه تذكرة للبشر بنار الآخرة، وقوله عز وجل: ﴿كلا﴾ رد على الكافرين وأنواع الطاغين على الحق، ثم أقسم بـ ﴿القمر﴾، تخصيص تشريف وتنبيه على النظر في عجائبه وقدرة الله تعالى في حركاته المختلفة التي هي مع كثرتها واختلافها على نظام واحد لا يختل، وكذلك هو القسم بـ ﴿الليل﴾ وبـ ﴿الصبح﴾، فيعود التعظيم في آخر الفكرة وتحصيل المعرفة إلى الله تعالى مالك الكل وقوام الوجود ونور السماء والأرض، لا إله إلا هو العزيز القهار. وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو والكسائي وأبو بكر عن عاصم: «إذ أدبر» بفتح الدال والباء، وهي قراءة ابن عباس وابن المسيب وابن الزبير ومجاهد وعطاء ويحيى بن يعمر وأبي جعفر وشيبة وأبي الزناد وقتادة وعمر بن عبد العزيز والحسن وطلحة. وقرأ نافع وحمة وحفص عن عاصم، «إذا أدبر» بسكون الدال وبفعل رباعي، وهي قراءة سعيد بن جبيرة وأبي عبد الرحمن والحسن بخلاف عنهم والأعرج وأبي شيخ وابن محيصن وابن سيرين، قال يونس بن حبيب: «دبر» معناه انقضى و«أدبر» معناه تولى. وفي مصحف ابن مسعود وأبي بن كعب «إذ أدبر» بفتح الدال وألف وبفعل رباعي وهي قراءة الحسن وأبي رزين وأبي رجاء ويحيى بن يعمر. وسأل مجاهد ابن عباس عن دبر الليل فتركه حتى إذا سمع المنادي الأول للصبح قال له: يا مجاهد، هذا حين دبر الليل، وقال قتادة: دبر الليل ولي. قال الشاعر [الأصمعي]: [الكامل]

وأبي الذي ترك الملوك وجمعهم بهضاب هامة كأمس الدابر

والعرب تقول في كلامها كأمس المدير، قال أبو علي الفارسي: فالقراءتان جميعاً حسنتان و«أسفر الصبح» أضاء وانتشروضه قبل طلوع الشمس بكثير والإسفار رتب أول ووسط وآخر، ومن هذه اللفظة السَّفر، والسفر بفتح السين، والسفير وسفرت المرأة عن وجهها كلها ترجع إلى معنى الظهور والانجلاء، وقرأ عيسى بن الفضيل وابن السميع: «إذا أسفر»، فكان المعنى طرح الظلمة عن وجهه وضعفها أبو حاتم، وقوله تعالى: ﴿إنها لإحدى الكبرى﴾ قال قتادة وأبو رزين وغيره: الضمير لجهنم، ويحتمل أن يكون الضمير للندارة، وأمر الآخرة فهو للحال والقصة، وتكون هذه الآية مثل قوله عز وجل ﴿قل هو نأ عظيم أنتم عنه معرضون﴾ [ص: ٦٨]، و﴿الكبر﴾، جمع كبيرة، وقرأ جمهور القراء «لإحدى» بهمزة في ألف إحدى، وروي عن ابن كثير أنه قرأ «لأحدى» دون همزة، وهي قراءة نصر بن عاصم، قال أبو علي: التخفيف في «لإحدى الكبرى»، أن تجعل الهمزة فيها بين بين، فأما حذف الهمزة فليس بقياس وقد جاء حذفها. قال أبو الأسود الدؤلي: [الكامل]

يا أبا المغيرة رب أمر معضل فرجته بالنكر مني والدَّها

وأنشد ثعلب: [الكامل]

إن لم أقاتل فالبسوني برقعاً وفتحات في اليدين أربعا

وقوله تعالى: ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ قال الحسن بن أبي الحسن: لا نذير إذ هي من النار. وهذا القول يقتضي أن ﴿نَذِيرًا﴾ حال من الضمير في ﴿إِنَّهَا﴾. أو من قوله ﴿لِأَحَدٍ﴾، وكذلك أيضاً على الاحتمال في أن تكون ﴿إِنَّهَا﴾ يراد بها قصة الآخرة وحال العالم، وقال أبو رزين: الله جل ذكره هو النذير، فهذا القول يقتضي أن ﴿نَذِيرًا﴾ معمول الفعل تقديره: ليس نذيراً للبشر أو ادعوا نذيراً للبشر، وقال ابن زيد محمد عليه السلام هو النذير: فهذا القول يقتضي أن ﴿نَذِيرًا﴾ معمول لفعل. وهذا اختيار الخليل في هذه الآية ذكره الثعلبي قال: ولذلك يوصف به المؤنث، وقرأ ابن أبي عبلة «نذير» بالرفع على إضمار هو، وقوله تعالى: ﴿لَمَنْ يَشَاءُ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾، قال الحسن هو وعيد نحو قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ [الحجر: ٢٤].

قال القاضي أبو محمد: هو بيان في النذارة وإعلام أن كل أحد يسلك طريق الهدى والحق إذا حقق النظر، أي هو بعينه يتأخر عن هذه الرتبة بغفلته وسوء نظره ثم قوي هذا المعنى بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ إذ ألزم بهذا القول أن المقصر مرتتهن بسوء عمله. وقال الضحاك: المعنى كل نفس حقت عليها كلمة العذاب، ولا يرتتهن تعالى أحداً من أهل الجنة إن شاء الله، والهاء في ﴿رَهِينَةٌ﴾ للمبالغة، أو على تأنيث اللفظ لا على معنى الإنسان وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾، استثناء ظاهر الانفصال، وتقديره لكن أصحاب اليمين، وذلك لأنهم لم يكتسبوا ما هم به مرتتهنون، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ في هذه الآية، أطفال المسلمين، وقال ابن عباس: هم الملائكة، وقال الضحاك: هم الذين سبقت لهم من الله الحسنى، وقال الحسن وابن كيسان: هم المسلمون المخلصون وليسوا بمرتتهنين، ثم ذكر تعالى حال ﴿أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ وأنهم في جنات يسأل بعضهم بعضاً عما غاب من معارفه، فإذا علموا أنهم مجرمون في النار، قالوا لهم أو قالت الملائكة: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ؟﴾ وسلك معناه: أدخل، ومنه قول أبي وجزة السعدي:

حتى سلكن الشوى منهن في مسك من نسل جوابة الأفاق مهداج

قوله عز وجل:

قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿١٣﴾ وَلَمْ نَكُ نَطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿١٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿١٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ
يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿١٧﴾ فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفِيعَةُ الشَّفِيعِينَ ﴿١٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ ﴿١٩﴾
كَانَهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٢٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٢١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَفَّرَةً ﴿٢٢﴾ كَلَّا
بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢٣﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ تَذْكِرَةٌ ﴿٢٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرُوهُ ﴿٢٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ

اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النَّفْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

هذا هو اعتراف الكفار على أنفسهم وفي نفى الصلاة يدخل الإيمان بالله والمعرفة به والخشوع والعبادة. والصلاة تنتظم على عظم الدين وأوامر الله تعالى وواجبات العقائد، وإطعام المساكين ينتظم الصدقة فرضاً وطواعية، وكل إجمال ندبت إليه الشريعة بقول أو فعل والخوض ﴿مع الخافضين﴾ عرفه في الباطل، قال قتادة: المعنى كلما غوى غاوا غووا معه، والتكذيب ﴿بيوم الدين﴾ كفر صراح وجهل بالله تعالى، و﴿اليقين﴾ معناه عندي صحة ما كانوا يكذبون به من الرجوع إلى الله تعالى والدار الآخرة، وقال المفسرون: ﴿اليقين﴾ الموت، وذلك عندي هنا متعقب لأن نفس الموت يقين عند الكافر وهو حي، فإنما ﴿اليقين﴾ الذي عنوا في هذه الآية الشيء الذي كانوا يكذبون به وهم أحياء في الدنيا فتيقنوه بعد الموت. وإنما يتفسر اليقين بالموت في قوله تعالى: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ [الحجر: ٩٩]. ثم أخبر تعالى أن ﴿شفاعة الشافعين﴾ لا تنفعهم فتقرر من ذلك أن ثم شافعين، وفي صحة هذا المعنى أحاديث: قال صلى الله عليه وسلم: «يشفع الملائكة ثم النبيون ثم العلماء ثم الشهداء ثم الصالحون، ثم يقول الله تعالى: شفع عبادي وبقيت شفاعة أرحم الراحمين، فلا يبقى في النار من كان له إيمان»، وروى الحسن أن الله تعالى يدخل الجنة بشفاعة رجل من هذه الأمة مثل ربيعة ومضر وفي رواية أبي قلابة أكثر من بني تميم، وقال الحسن كنا نتحدث أن الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته، ثم قال عز وجل: ﴿فما لهم عن التذكرة معرضين﴾ أي والحال المنتظرة هي هذه الموصوفة، وقوله تعالى في صفة الكفار المعرضين بتول واجتهاد في نفور ﴿كانهم حمر مستنفرة﴾ إثبات لجهالتهم لأن الحمر من جاهل الحيوان جداً، وقرأ الأعمش: «حمر» بإسكان الميم، وفي حرف ابن مسعود «حمر نافرة»، وقرأ نافع وابن عامر والمفضل عن عاصم: «مستنفرة» بفتح الفاء، وقرأ الباقون بكسرهما، واختلف عن نافع وعن الحسن والأعرج ومجاهد، فأما فتح الفاء فمعناها استنفرتها فزعها من القسورة، وأما كسر الفاء فعلى أن نفر واستنفر بمعنى واحد مثل عجب واستعجب وسخر واستسخر فكأنها نفرت هي، ويقوي ذلك قوله تعالى ﴿فرت﴾ وبذلك رجح أبو علي قراءة كسر الفاء، واختلف المفسرون في معنى القسورة فقال ابن عباس وأبو موسى الأشعري وقاتادة وعكرمة: «القسورة» الرماة، وقال ابن عباس أيضاً وأبو هريرة وجمهور من اللغويين: «القسورة» الأسد، ومنه قول الشاعر: [الرجز]

مضمّر تحذره الأبطال كأنه القسورة الرئبال

وقال ابن جبير: «القسورة»: رجال القنص، وقاله ابن عباس أيضاً، وقيل: «القسورة» ركز الناس، وقيل: «القسورة» الرجال الشداد، قال ليبيد:

إذا ما هتفنا هتفة في ندينا أانا الرجال العاندون القساور

وقال ثعلب: «القسورة» سواد أول الليل خاصة لآخره أو اللفظة مأخوذة من القسر الذي هو الغلبة والقهر، وقوله تعالى: ﴿بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة﴾ معناه من هؤلاء المعارضين، أي يريد كل إنسان منهم أن ينزل عليه كتاب من الله، وكان هذا من قول عبد الله بن أبي أمية وغيره. وروي أن

بعضهم قال إن كان يكتب في صحف ما يعمل كل إنسان فلتعرض ذلك الصحف علينا فنزلت الآية، ﴿منشرة﴾: معناه منشورة غير مطوية، وقرأ سعيد بن جبير «صحفاً» بسكون الحاء وهي لغة يمانية، وقرأ: «منشرة» بسكون النون وتخفيف الشين، وهذا على أن يشبه نشرت الثوب بأنشر الله الميت إذا لطي كالموت، وقد عكس التيمي التشبيه في قوله: [الكامل]

ردت صنائعه عليه حياته فكأنه من نشرها منشور

ولا يقال في الميت يحيى منشور إلا على تشبيه بالثوب وأما محفوظ اللغة فنشرت الصحيفة وأنشر الله الميت، وقد جاء عنهم نشر الله الميت، وقوله تعالى: ﴿كلا﴾ رد على إرادتهم أي ليس الأمر كذلك، ثم قال: ﴿بل لا يخافون الآخرة﴾ المعنى هذه العلة والسبب في إعراضهم فكان جهلهم بالآخرة سبب امتناعهم للهدى حتى هلكوا، وقرأ أبو حية: «تخافون» بالتاء من فوق رويت عن ابن عامر، ثم أعاد الرد والزجر بقوله تعالى: ﴿كلا﴾ وأخبر أن هذا القول والبيان وهذه المحاوراة بجملتها «تذكرة»، ﴿فمن شاء﴾ وفقه الله تعالى لذلك ذكر معاده فعمل له، ثم أخبر تعالى أن ذكر الإنسان معاده وجريه إلى فلاحه إنما هو كله بمشيئة الله تعالى وليس يكون شيء إلا بها، وقرأ نافع وأهل المدينة وسلام ويعقوب: «تذكرون» بالتاء من فوق، وقرأ أبو جعفر وعاصم وأبو عمرو والأعمش وطلحة وابن كثير وعيسى والأعرج: «يذكرون» بالياء من تحت، وروي عن أبي جعفر بالتاء من فوق وشد الذال كأنه تتذكرون فادغم، وقوله تعالى: ﴿هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾ خبر جزم معناه: أن الله تعالى أهل بصفاته العلى ونعمه التي لا تحصى ونقمه التي لا تدفع لأن يتقى ويطاع ويحذر عصيانه وخلاف أمره، وأنه بفضله وكرمه أهل أن يغفر لعباده إذا اتقوه، وروي أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم فسر هذه الآية فقال: يقول ربكم جلت قدرته وعظمته: أنا أهل أن اتقى فلا يجعل معي إله غيري ومن اتقى أن يجعل معي إلهاً غيري فانا أغفر له، وقال قتادة: معنى الآية هو أهل أن يتقى محارمه وأهل أن يغفر الذنوب.

نجز تفسير سورة المدثر والحمد لله كثيراً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْقِيَمَةِ

وهي مكية بإجماع من المفسرين وأهل التأويل، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: من سأل عن القيامة أو أراد أن يعرف حقيقة وقوعها، فليقرأ هذه السورة، وقال المغيرة بن شعبة: يقول الناس القيامة القيامة، وإنما قيامة المرء موته، وروي أيضاً عن ابن جبير أنه حضر جنازة رجل فقال: أما هذا فقد قامت قيامته. ويروى مثله عن علقمة، وذكره الثعلبي.

قال القاضي أبو محمد: وقيامه الرجل في خاصته ليست بالقيامه الجامعة لجميع الخلق بعد البعث. لكن المغيرة رضي الله عنه كأنه قال: هذا لمن يستبعد قيام الآخرة، ويظن طول الأمد بينه وبينها فتوعده بقيام نفسه.

قوله عز وجل:

لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ (١) وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَدَرِينَ عَلَى أَنْ سُؤِيَ بَنَانُهُ (٤) بَلْ يَرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجَرَأَمَامَهُ (٥) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ (٦) فَإِذَا بَرَأَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لَا وَرَرْ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنْبَأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِرَهُ (١٥)

قرأ جمهور السبعة: «لا أقسم بيوم القيامة. ولا أقسم بالنفس اللوامة» وقرأ ابن كثير والحسن بخلاف عنه والأعرج «لأقسم بيوم القيامة ولأقسم بالنفس»، فأما القراءة الأولى فاختلفت في تأويلها فقال ابن جبير: «لا» استفتاح كلام بمنزلة ألا وأنشدوا على ذلك [المتقارب]

فلا وأبيك ابنة العامري لا يعلم القوم أني أفر

وقال أبو علي الفارسي: «لا» صلة زائدة كما زيدت في قوله ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾ [الحديد: ٢٩] ويعترض هذا بأن هذه في ابتداء كلام. ولا تزداد «لا» وما نحوها من الحروف إلا في تضاعيف كلام. فينفصل عن هذا بأن القرآن كله كالسورة الواحدة وهو في معنى الاتصال فجاز فيه هذا، وقال الفراء: «لا» نفى لكلام الكفار وزجر لهم ورد عليهم، ثم استأنف على هذه الأقوال الثلاثة قوله: ﴿أقسم﴾، ويوم القيامة أقسم الله به تنبيهاً منه لعظمه وهوله. وقوله تعالى: «ولا أقسم بالنفس اللوامة» القول في «لا» على نحو ما

تقدم، وأما القراءة الثانية فتحتمل أمرين. إما أن تكون اللام دخلت على فعل الحال. التقدير لأننا أقسم فلا تلحق لأن النون نون التوكيد إنما تدخل في الأكثر لتفريق بين فعل الحال والفعل المستقبل فهي تلزم المستقبل في الأكثر، وإما أن يكون الفعل خالصاً للاستقبال فكأن الوجه والأكثر أن تلحق النون إما الخفيفة وإما الثقيلة، لكن قد ذكر سيبويه أن النون قد تسقط مع إرادة الاستقبال وتغني اللام عنها. كما تسقط اللام وتغني النون عنها وذلك في قول الشاعر: [الكامل]

وقتيل مرة أثارن فإنه فرغ وإن قتيلهم لم يثار

المراد لأثارن، وأما قوله «ولا أقسم بالنفس اللوامة» فقيل «لا» نافية، وإن الله تعالى أقسم بيوم القيامة، ونفى أن يقسم بالنفس اللوامة نص عليه الحسن، وقد ذهب هذا المذهب قوم ممن قرأ «لا أقسم ولا أقسم»، وذلك قلق وهو في القراءة الثانية أمكن وجمهور المتأولين على أن الله تعالى أقسم بالأمرين، واختلف الناس في «النفس اللوامة» ما معناه، فقال الحسن هي «اللوامة» لصاحبها في ترك الطاعة ونحوه، فهي على هذا ممدوحة، ولذلك أقسم الله تعالى بها، وقال ابن عباس: هي الفاجرة الجشعة «اللوامة» لصاحبها على ما فاته من سعي الدنيا وأعراضها فهي على هذا ذميمة وعلى هذا التأويل يحسن نفي القسم بها والنفس في الآية اسم جنس لنفوس البشر، وقال ابن جبير ما معناه: إن القسم بها هي اسم الجنس لأنها تلوم على الخير وعلى الشر، وقيل المراد نفس آدم لأنها لم تنزل اللائمة له على فعله الذي أخرجه من الجنة.

قال القاضي أبو محمد: وكل نفس متوسطة ليست بالمطمئنة ولا بالأمرة بالسوء، فإنها لوامة في الطرفين مرة تلوم على ترك الطاعة، ومرة تلوم على فوت ما تشتهي، فإذا اطمأنت خلصت وصفت. وقوله تعالى: «أیحسب الإنسان» تقرير وتوبيخ، و«الإنسان» اسم جنس وهذه أقوال كانت لكفار قریش فعلیها هو الرد، وقرأ جمهور الناس: «نجمع عظامه» بالنون ونصب الميم من العظام، وقرأ قتادة «أن لن يجمع عظامه» بالياء ورفع الميم من العظام، ومعنى ذلك في القيامة وبعد البعث من القبور، وقرأ أبو عمرو بإدغام العين ثم قال تعالى: «بلى» وهي إيجاب ما نفي، وبأها أن تأتي بعد النفي والمعنى بل يجمعها «قادرين» بنصب «قادرين» على الحال. وقرأ ابن أبي عبلة «قادرون» بالرفع، وقال إلیقبي: «نسوي بنانه» معناه نتقنها سوية، والبنان: الأصابع، فكأن الكفار لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والإرمام، قيل لهم إنما تجمع ويسوى أكثرها تفرقاً وأدقها أجزاء وهي عظام الأنامل ومفاصلها، وهذا كله عند البعث، وقال ابن عباس وجمهور المفسرين: «نسوي بنانه» معناه نجعلها في حياته هذه بضعة أو عظماً واحداً كخف البعير لا تفريق فيه، فكأن المعنى قادرين لأن في الدنيا على أن نجعلها دون تفرق، فتقل منفعة بيده، فكأن التقدير «بلى» نحن أهل أن نجمعها «قادرين» على إزالة منفعة بيده، ففي هذا توعد ما، والقول الأول أحرى مع رصف الكلام، ولكن على هذا القول جمهور العلماء، وقوله تعالى: «بل يريد الإنسان ليفجر أمامه» قال بعض المتأولين: الضمير في «أمامه» عائد على «الإنسان»، ومعنى الآية أن الإنسان إنما يريد شهواته ومعاصيه ليمضي فيها أبداً قدماً ركب رأسه ومطيع أملة ومسوفاً بتوبته، قاله مجاهد والخسن وعكرمة وابن جبير والضحاك والسدي، وقال السدي: المعنى ليظلم على قدر طاقته، وقال الضحاك

المعنى يركب رأسه في طلب الدنيا دائماً، وقوله تعالى: ﴿ليفجر أمامه﴾ تقديره لكن يفجر، وقال ابن عباس ما يقتضي أن الضمير في ﴿أمامه﴾ عائد على ﴿يوم القيامة﴾، والمعنى أن الإنسان هو في زمن وجوده أمام يوم القيامة وبين يديه، ويوم القيامة خلفه فهو يريد شهواته ليفجر في تكذيبه بالبعث وغير ذلك بين يدي يوم القيامة، وهو لا يعرف قدر الضرر الذي هو فيه، ونظيره قوله تعالى: ﴿ليفجر﴾ قول قيس بن سعد أردت لكيما يعرف الناس أنها سراويل قيس والوفود شهود).

و﴿بل﴾ في أول الآية هي إضراب على معنى الترك لا على معنى إبطال الكلام الأول، وقد تجيء بل لإبطال القول الذي قبلها، وسؤال الكافر ﴿أيان يوم القيامة﴾ هو على معنى التكذيب والهزاء كما تقول لمحدث بأمر تكذبه متى يكون هذا؟ و﴿أيان﴾ لفظة بمعنى متى، وهي مبنية لتضمنها معنى الاستفهام فأشبهت الحروف المتضمنة للمعاني. وكان حقها أن تبنى على السكون، لكن فتحت النون لالتقاء الساكنين الألف وهي قرأ أبو عمرو والحسن ومجاهد وقتادة والجحدري وعاصم والأعمش وأبو جعفر وشيبة «برق البصر» بكسر الراء بمعنى شخص وشق وحار. وقرأ نافع وعاصم بخلاف، وعبد الله بن أبي إسحاق وزيد بن ثابت ونصر بن عاصم «برق» بفتح الراء، بمعنى لمع وصار له بريق وحار عند الموت، والمعنى متقارب في القراءتين، وقال أبو عبيدة «برق» بالفتح شق، وقال مجاهد هذا عند الموت، وقال الحسن هذا في يوم القيامة، وقرأ جمهور الناس: «وخسف القمر» على أنه فاعل، وقرأ أبو حيوة: «خُسف» بضم الخاء وكسر السين و«القمر» مفعول لما يسم فاعله. يقال خسف القمر وخسفه الله، وكذلك الشمس، وقال أبو عبيدة وجماعة من اللغويين الخسوف والكسوف بمعنى واحد، قال ابن أبي أويس: الكسوف ذهاب بعض الضوء والخسوف ذهاب جميعه، وروي عن عروة وسفيان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تقولوا كسفت الشمس ولكن قولوا خسفت». وقوله تعالى: ﴿وجمع الشمس والقمر﴾ غلب عليه التذكير على التأنيث، وقيل ذلك لأن تأنيث الشمس غير حقيقي، وقيل المراد بين الشمس والقمر، وكذلك قرأ ابن أبي عبل. واختلف المتأولون في معنى الجمع بينهما فقال عطاء بن يسار: يجمعان فيقذفان في النار، وقيل في البحر، فتصير نار الله العظمى، وقيل يجمع الضوءان فيذهب بهما، وقرأ جمهور الناس «أين المَفر» بفتح الميم والفاء على المصدر أي أين الفرار، وقرأ ابن عباس والحسن وعكرمة وأيوب السخيتاني وكلثوم بن عياض ومجاهد ويحيى بن يعمر وحماة بن سلمة وأبو رجاء وعيسى وابن أبي إسحاق: «أين المَفر» بفتح الميم وكسر الفاء على معنى أين موضع الفرار، وقرأ الزهري: «أين المَفر» بكسر الميم وفتح الفاء بمعنى أين الجيد الفرار، و﴿كلا﴾ زجر يقال للإنسان يومئذ ثم يعلن أنه ﴿لا وزر﴾ له أي ملجأ، وعبر المفسرون عن الوزر بالجل، قال مطرف بن الشخير وغيره، وهو كان وزر فرار العرب في بلادهم، فلذلك استعمل، والحقيقة أنه الملجأ كان جبلاً أو حصناً أو سلاحاً أو رجلاً أو غيره. وقوله تعالى: ﴿إلى ربك يومئذ المستقر﴾ معناه إلى حكم ربك أو نحوه من التقدير و﴿المستقر﴾ رفع بالابتداء وخبره في المقدر الذي يتعلق به المجرور المتقدم. تقدير الكلام المستقر ثابت أو كائن إلى ربك يومئذ، و﴿المستقر﴾: موضع الاستقرار، وقوله تعالى: ﴿بما قدم وأخر﴾ قسمة تستوي في كل عمل، أي يعلم بكل ما فعل ويجده محصلاً، قال ابن عباس وابن مسعود المعنى ﴿بما قدم﴾ في حياته و﴿وأخر﴾ من سنة يعمل بها بعده، وقال ابن عباس أيضاً:

﴿بما قدم﴾ من المعاصي ﴿وأخر﴾ من الطاعات، وقال زيد بن أسلم: ﴿بما قدم﴾ لنفسه من ماله وبما أخر منه للوارث، وقوله تعالى: ﴿بل الإنسان﴾ إضراب بمعنى الترك لا على معنى إبطال القول الأول، و﴿بصيرة﴾ يحتمل أن يكون خبراً عن الإنسان ولحقته هاء التانيث كما لحقت علامة ونسابة، والمعنى فيه وفي عقله وفطرته حجة وطلبة وشاهد مبصر على نفسه، والهاء للتانيث، ويراد به «البصيرة» جوارحه أو الملائكة الحفظة وهذا تأويل ابن عباس، و«المعاذير» هنا قال الجمهور: هي الأعذار جمع معذرة، وقال السدي والضحاك: هي الستور بلغة اليمن يقولون للستر المعذار، وقال الحسن: المعنى ﴿بل الإنسان على نفسه﴾ بلية ومحنة، كانه ذهب إلى البصيرة التي هي طريقة الدم وداعية طلب الثار وفي هذا نظر.

قوله عز وجل:

لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْبَلَ بِهِ ۚ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُمْ وَقُرْءَانَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَهَبَاظِرَّةٍ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾

الضمير في ﴿به﴾ عائد على كتاب الله تعالى ولم يجر له ذكر، ولكن القرائن تبينه، فهذا كقوله تعالى: ﴿توارت بالحجاب﴾ [ص: ٣٢]، وكقوله تعالى: ﴿كلا إذا بلغت التراقي﴾ يعني النفس، واختلف المتأولون في السبب الموجب أن يؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر، فقال الشعبي: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لحرصه على أداء الرسالة والاجتهاد في ذات الله تعالى ربما أراد النطق ببعض ما أوحى إليه قبل كمال إيراد الوحي، فأمر أن لا يعجل بالقرآن من قبل أن يفضى إليه وحيه. وجاءت هذه الآية في هذا المعنى. وقال الضحاك: كان سببها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخاف أن ينسى القرآن فكان يدرسه حتى غلب ذلك عليه وشق، فنزلت الآية في ذلك، وقال كثير من المفسرين وهو في صحيح البخاري عن ابن عباس: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة، وكان مما يحرك شفتيه مخافة أن يذهب عنه ما يوحى إليه، فنزلت الآية بسبب ذلك وأعلمه الله تعالى أنه يجمعه له في صدره، ﴿وقرأته﴾ يحتمل أن يريد به وقراءته أي تقرأه أنت يا محمد، والقرآن مصدر كالقراءة ومنه قول الشاعر [حسان بن ثابت] في عثمان رضي الله عنه وأرضاه: [البيسط]

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحاً وقرأنا

ويحتمل أن يريد ﴿إن علينا جمعه﴾ وتأليفه في صدر صدرك فهو مصدر من قولك قرأت أي جمعت، ومنه قولهم في المرأة التي لم تلد ما قرأت سلاقط، ومنه قول الشاعر [عمرو بن كلثوم]: [الوافر] ذراعي عيطل أدماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنينا

وقوله تعالى: ﴿فإذا قرأناه فاتبع قرأه﴾ أي قراءة الملك الرسول عنا. وقوله تعالى: ﴿فاتبع﴾ يحتمل

أن يريد بذهنك وفكرك، أي فاستمع قراءته وقاله ابن عباس، ويحتمل أن يريد ﴿فاتبع﴾ في الأوامر والنواهي، قاله ابن عباس أيضاً وقتادة والضحاك. وقرأ أبو العالية: «قرته»، «فإذا قرّته فاتبع قرّته» بفتح القاف والراء والتاء من غير همز ولا ألف في الثالثة، وقوله تعالى: ﴿ثم إن علينا بيانه﴾، قال قتادة وجماعة معه: معناه أن نبينه لك ونحفظكه، وقال كثير من المتأولين معناه أن تبينه أنت، وقال قتادة أيضاً وغيره معناه أن نبين حلاله وحرامه ومجمله ومفسره، وقوله تعالى: ﴿كلا بل تحبون العاجلة﴾ رجوع إلى مخاطبة قريش، فرد عليهم وعلى أقوالهم في رد الشريعة بقوله: ﴿كلا﴾ ليس ذلك كما تقولون. وإنما أنتم قوم قد غلبتكم الدنيا بشهواتها، فأنتم تحبونها حباً تتركون معه الآخرة والنظر في أمرها. وقرأ الجمهور «تحبون» بالتاء على المخاطبة، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والحسن ومجاهد والجحدري وقتادة «يحبون» بالياء على ذكر الغائب وكذلك «يذرون». ولما ذكر الآخرة أخبر بشيء من حال أهلها بقوله: ﴿وجوه﴾ رفع بالابتداء وابتداء بالكرة لأنها تخصصت بقوله ﴿يومئذ﴾ و﴿ناصرة﴾ خبر ﴿وجوه﴾. وقوله تعالى: ﴿إلى ربها ناظرة﴾ جملة هي في موضع خبر بعد خبر، وقال بعض النحويين: ﴿ناصرة﴾ نعت لـ ﴿وجوه﴾، و﴿إلى ربها ناظرة﴾ خبر عن ﴿وجوه﴾، فعلى هذا كثر تخصص الوجوه فحسن الابتداء بها. و﴿ناصرة﴾ معناه ناعمة، والنصرة النعمة وجمال البشرية، قال الحسن: وحق لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق، وقوله تعالى: ﴿إلى ربها ناظرة﴾ حمل هذه الآية أهل السنة على أنها متضمنة رؤية المؤمنين لله تعالى، وهي رؤية دون محاذاة ولا تكييف ولا تحديد كما هو معلوم، موجود لا يشبه الموجودات كذلك هو لا يشبه المراتبات في شيء، فإنه ليس كمثله شيء لا إله إلا هو، وروى عبادة بن الصامت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «حدثكم عن الدجال أنه أعور وأن ربكم ليس بأعور وأنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا»، وقال صلى الله عليه وسلم: «إنكم ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته»، وقال الحسن: تنظرون إلى الله تعالى بلا إحاطة، وأما المعتزلة الذين ينفون رؤية الله تعالى، فذهبوا في هذه الآية إلى أن المعنى إلى رحمة ربها ناظرة أو إلى ثوابه أو ملكه، فقدروا مضافاً محذوفاً، وهذا وجه سائغ في العربية كما تقول، فلان ناظر إليك في كذا، أي إلى صنعك في كذا. والرواية إنما تثبتها بأدلة قاطعة غير هذه الآية، فإذا ثبت حسن تأويل أهل السنة في هذه الآية وقوي، وذهب بعض المعتزلة في هذه الآية إلى أن قوله ﴿إلى﴾ ليست بحرف الجر وإنما هي إلى واحد الآلاء فكأنه قال نعمة ربها منتظرة، أو ﴿ناظرة﴾ من النظر بالعين، ويقال نظرتك بمعنى انتظرتك، ومنه قول الحطيئة: [البسيط]

وقد نظرتكم أبناء عائشة للخمس طال بها حبسي وتبساني

والتبساس أن يقال للناقة بس بس لتدر على الحالب، وفسر أبو عبيدة في غريبه هذا البيت على رواية أخرى وهي: طال بها حوزي وتنسائي بالنون وهو السير الشديد فتأمله، و«الباسرة» العابسة المغمومة النفوس. والبسور أشد العبوس، وإنما ذكر تعالى الوجوه لأنه فيها يظهر ما في النفس من سرور أو غم، والمراد أصحاب الوجوه، وقوله تعالى: ﴿تظن أن يفعل﴾ إن جعلناه بمعنى توقن فهو لم يقع بعد على ما بيناه وإن جعلنا الظن هنا على غلبته، فذلك محتمل، و«الفارقة»: المصيبة التي تكسر فقار الإنسان، قال ابن المسيب: هي قاصمة الظهر، وقال أبو عبيدة: هي من فقرت البعير إذا وسمت أنفه بالنار، وقوله

تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغْتَ﴾ زجر آخر لقريش وتذكير لهم بموطن من مواطن الهول وأمر الله تعالى الذي لا محيد لبشر عنه وهي حالة الموت والمنازعة التي كتبها الله على كل حيوان، و﴿بَلَغْتَ﴾ يريد النفس، و﴿الترافي﴾ ترقوة وهي عظام أعلى الصدر، ولكل أحد ترقوتان، لكن من حيث هذا الأمر في كثير من جمع، إذ النفس المرادة اسم جنس، و﴿الترافي﴾ هي موازية للحلّاقيم، فالأمر كله كناية عن حال الحشرة ونزاع الموت، يسره الله علينا بمنه، واختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿مَنْ رَأَى﴾ فقال ابن عباس والضحاك وقتادة وأبو قلابة: معناه من يرقى ويطب ويشفى ونحو هذا مما يتمناه أهل المريض، وقال ابن عباس أيضاً وسليمان التيمي ومقاتل وابن سليمان: هذا القول للملائكة: والمعنى من يرقى بروحه، أي يصعد إلى السماء أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ وقرأ حفص عن عاصم بالوقف على ﴿مَنْ﴾ وابتدئ ب﴿رَأَى﴾. وأدغم الجمهور، قال أبو علي: لا أعرف وجه قراءة عاصم، وكذلك قرأ «بل ران»، وقوله تعالى: ﴿وُظِنَ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ يريد ويتقن المريض أنه فراق الأحبة والأهل والمال والحياة، وهذا يقين فيما لم يقع بعد ولذلك استعملت فيه لفظة الظن، وقرأ ابن عباس «أيقن أنه الفراق»، وقال في تفسيره ذهب الظن واختلف في معنى قوله ﴿والتفت الساق بالساق﴾، فقال ابن عباس والحسن والربيع بن أنس وإسماعيل بن أبي خالد هذه استعارة لشدة كرب الدنيا في آخر يوم منها وشدة كرب الآخرة في أول يوم منها لأنه بين الحالين قد اختلطا له، وهذا كما تقول شمرت الحرب عن ساق، وعلى بعض التأويلات في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكْشِفُ عَنِ سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢] وقال ابن المسيب والحسن: هي حقيقة، والمراد ساق الميت عند تكفينه أي لفهما الكفن. وقال الشعبي وأبو مالك وقتادة: هو التفافهما بشدة المرض لأنه يقبض ويبسط ويركب هذا على هذا، وقال الضحاك: المراد أسوق حاضريه من الإنس والملائكة لأن هؤلاء يجهزون روحه إلى السماء وهؤلاء بدنه إلى قبره، وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ معناه إلى حكم ربك وعدله، فلما إلى جنة وإما إلى نار، و﴿المساق﴾ مصدر من السوق.

قوله عز وجل:

فَلَا أَقُولُ وَلَوْلَا ﴿٣١﴾ وَلَكِنْ كَذِبٌ وَقَوْلِي ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴿٣٣﴾ أَوَلَيْكَ فَالُوكِ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوَلَيْكَ فَالُوكِ ﴿٣٥﴾ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُنْ نَظْفَةً مِّنْ مَّيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ لِّجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُخَيِّقَ الْمَوْتَ ﴿٤٠﴾

قال جمهور المتأولين: هذه الآية كلها إنما نزلت في أبي جهل بن هشام.

قال القاضي أبو محمد: ثم كادت هذه الآية أن تصرح له في قوله تعالى: ﴿يَتَمَطَّى﴾ فإنها كانت مشية بني مخزوم، وكان أبو جهل يكثر منها، وقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ تقديره فلم يصدق ولم يصل، وهذا نحو قول الشاعر [طرفة بن العبد]: [الطويل]

فأي خميس فإننا لا نهابه وأسيفنا يقطرون من كبشه دما

وقول الآخر [أبي خيرا ش الهذلي]: [الرجز]

إن تغفر اللهم تغفر جمًا وأي عبد لك لا ألما

﴿فلا﴾ في الآية عاطفة، و﴿صدق﴾ معناه برسالة الله ودينه، وذهب قوم إلى أنه من الصدقة، والأول أصوب، و﴿يتمطى﴾ معناه يمشي المبطى وهي مشية بتبختر قال زيد بن أسلم: كانت مشية بني مخزوم، وهي مأخوذة من المطا وهو الظهر لأنه يتثنى فيها، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا مشت أمتي المبطى وخدمتهم الروم وفارس سلط بعضهم على بعض». وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أبي جهل... وقوله تعالى: ﴿أولى لك﴾ وعيد ثان ثم كرر ذلك تأكيداً، والمعنى ﴿أولى لك﴾ الازدجار والانتهاه وهو مأخوذ من ولي، والعرب تستعمل هذه الكلمة زجراً، ومنه قوله تعالى: ﴿فأولى لهم طاعة﴾ [محمد: ٢٠]، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبب أبا جهل يوماً في البطحاء وقال له: «إن الله يقول لك ﴿أولى لك فأولى﴾»، فنزل القرآن على نحوها. وفي شعر الخنساء: [المتقارب]

سئمت بنفسي كل الهموم فأولى لنفسي أولى لها

وقوله تعالى: ﴿أيحسب﴾ توقيف وتوبيخ، و﴿سدى﴾ معناه مهملاً لا يؤمر ولا ينهى، ثم قرر تعالى على أحوال ابن آدم في بدايته التي إذا تؤملت لم ينكر معها جواز البعث من القبور عاقل. وقرأ الجمهور: «ألم يك» بالياء من تحت، وقرأ الحسن: «ألم تك» بالتاء من فوق، و«النفطة»: القطعة من الماء. يقال ذلك للقليل والكثير، و«المني» معروف، وقرأ ابن عامر وحفص عن عاصم وأبو عمرو بخلاف وابن محيصن والجحدري وسلام ويعقوب: «يمنى» بالياء، يراد بذلك المنى، ويحتمل أن يكون يمنى من قولك أمني الرجل، ويحتمل أن يكون من قولك منى الله الخلق، فكأنه قال: من منى تخلق، وقرأ جمهور السبعة والناس. «تمنى» بالتاء، يراد بذلك النفطة، و«تمنى» يحتمل الوجهين اللذين ذكرت، و«العلاقة»: القطعة من الدم، لأن الدم هو العلق، وقوله تعالى: ﴿فخلق فسوى﴾ معناه فخلق الله منه بشراً مركباً من أشياء مختلفة فسواه شخصاً مستقلاً، وفي مصحف ابن مسعود «يخلق» بالياء فعلاً مستقبلاً، و﴿الزوجين﴾: النوعين، ويحتمل أن يريد المزدوجين من البشر، ثم وقف تعالى توقيف التوبيخ وإقامة الحجة بقوله: ﴿أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾ وقرأ الجمهور بفتح الياء الأخيرة من «يحيي»، وقرأ طلحة بن مصرف وسليمان والفياض بن غزوان بسكونها، وهي تحذف من اللفظ لسكون اللام من «الموتى»، ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية قال: «سبحانك اللهم وبحمدك وبلى»، ويروى أنه كان يقول: «بلى» فقط.

نجز تفسير سورة ﴿القيامة﴾ والحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْإِنْسَانِ

قال بعض المفسرين هي مكية كلها، وحكى النقاش والثعلبي عن مجاهد وقتادة أنها مدنية، وقال الحسن وعكرمة: منها آية مكية وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْعَمُ مِنْهُمْ أَثْمًا أَوْ كُفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]، والباقي مدني، وأنها نزلت في صنيع علي بن أبي طالب في إطعامه عشائه وعشاء أهله وولده لمسكين ليلة، ثم ليتيم ليلة، ثم لأسير ليلة متواليات، وقيل نزلت في صنيع ابن الدحداح والله أعلم.

قوله عز وجل:

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَلَنا وَسْعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾

﴿هل﴾ في كلام العرب قد يجيء بمعنى «قد». حكاه سيويه. لكنها لا تخلو من تقرير وبابها المشهور الاستفهام المحض والتقرير أحياناً. فقال ابن عباس وقتادة هي هنا بمعنى «قد»، و﴿الإنسان﴾ يراد به آدم عليه السلام، و«الحين»: هي المدة التي بقي طيناً قبل أن ينفخ فيه الروح؛ أي أنه شيء ولم يكن مذكوراً منوهاً به في العالم وفي حالة العدم المحض قبل ﴿لم يكن شيئاً﴾ ولا ﴿مذكوراً﴾، وقال أكثر المتأولين: ﴿هل﴾ تقرير، و﴿الإنسان﴾ اسم الجنس، أي إذا تأمل كل إنسان نفسه علم بأنه قد مر ﴿حين من الدهر﴾ عظيم ﴿لم يكن﴾ هو فيه ﴿شيئاً مذكوراً﴾، أي لم يكن موجوداً، وقد يسمى الموجود ﴿شيئاً﴾ فهو مذكور بهذا الوجه، و«الحين» هنا: المدة من الزمن غير محدودة تقع للقليل والكثير، وإنما تحتاج إلى تحديد الحين في الإيمان، فمن حلف أن لا يكلم أخاه حيناً، فذهب بعض الفقهاء إلى أن الحين سنة، وقال بعضهم: ستة أشهر، والقوي في هذا أن ﴿الإنسان﴾ اسم جنس وأن الآية جعلت عبرة لكل أحد من الناس ليعلم أن الصانع له قادر على إعادته.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ هو هنا اسم الجنس بلا خلاف. لأن آدم لم يخلق ﴿من نطفة﴾، و﴿أمشاج﴾ معناه أخلاط واحدها مشج بفتح الميم والشين قاله ابن السكيت وغيره، وقيل: مشج مثل عدل

وأعدال، وقيل: مشيخ مثل شريف وأشراف، واختلف في المقصود من الخلط، فقيل هو ﴿أمشاج﴾ ماء الرجل بماء المرأة، وأسند الطبري حديثاً وهو أيضاً في بعض المصنفات «إن عظام ابن آدم وعصبة من ماء الرجل، ولحمه وشحمه من ماء المرأة». وقيل هو اختلاط أمر الجنين بالنقلة من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى غير ذلك. فهو أمر مختلط، وقيل هو اختلاط الدم والبلغم والصفراء والسوداء فيه، و﴿نبتليه﴾ معناه نختبره بالإيجاد والكون في الدنيا هو حال من الضمير في ﴿خلقنا﴾ كأنه قال: مختبرين له بذلك، وقوله تعالى: ﴿فجعلناه﴾ عطف جملة تعم على جملة تعم، وقال بعض النحويين إنما المعنى فنبتليه جعلناه ﴿سميعاً بصيراً﴾، ثم ترتب اللفظ موجزاً متداخلاً كأنه قال ﴿نبتليه﴾ فلذلك جعلناه، والابتلاء على هذا إنما هو بالإسماع والإبصار لا بالإيجاب وليس ﴿نبتليه﴾ حالاً، وقوله تعالى: ﴿إنا هديناه السبيل﴾ يحتمل أن يريد ﴿السبيل﴾ العامة للمؤمن والكافر فذلك يخلق الحواس وموهبة الفطرة ونصب الصنعة الدالة على الصانع، ف﴿هديناه﴾ على هذا بمعنى أرشدناه كما يرشد الإنسان إلى الطريق ويوقف عليه، ويحتمل أن يريد ﴿السبيل﴾ اسم الجنس، أي هدى المؤمن لإيمانه والكافر لكفره ف﴿هديناه﴾ على هذا معناه أريناه وليس الهدى في هذه الآية بمعنى خلق الهدى والإيمان، وقوله تعالى: ﴿إما شاكراً وإما كفوراً﴾. حالان وقسمتهما ﴿إما﴾، قاله أبو عمرو الداني، وقرأ أبو العجاج «إما شاكراً وإما كفوراً» وأبو العجاج كثير بن عبد الله السلمي شامي ولي البصرة لهشام بن عبد الملك، و﴿أعتدنا﴾ معناه أعيدناه، وقرأ نافع والكسائي وأبو بكر عن عاصم «سلاسلًا» بالصرف وهذا على ما حكاه الأخفش من لغة من يصرف كل ما لا يصرف إلا أفعل وهي لغة الشعراء. ثم كثر حتى جرى في كلامهم، وقد علل بعة وهي أنه لما كان هذا الضرب من الجموع يجمع لشبه الآحاد فصرف، وذلك من شبه الآحاد موجود في قولهم صواحب وصاحبات وفي قول الشاعر [الفرزدق]: [الكامل]

نواكسي الأبصار

بالباء جمع نواكس، وهذا الإجراء في «سلاسلًا وقواريرًا» أثبت في مصحف ابن مسعود ومصحف أبي بن كعب ومصحف المدينة ومكة والكوفة والبصرة، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمة: «سلاسل»، على ترك الصرف في الوقف والوصل، وهي قراءة طلحة وعمرو بن عبيد، وقرأ أبو عمرو وحمة فيما روي عنهما: «سلاسل» في الوصل و«سلاسلًا» دون تنوين في الوقف، ورواه هشام عن ابن عامر لأن العرب من يقول رأيت عمراً يقف بألف، وأيضاً فالوقوف، بالألف «سلاسلًا» اتباع لخط المصحف، و﴿الأبرار﴾ جمع بار كشاهد وأشهد، وقال الحسن هم الذين لا يؤذون الذر، ولا يرضون الشر، و«الكأس»: ما فيه نبيذ ونحوه مما يشرب به، قال ابن كيسان: ولا يقال الكأس إلا لما فيه نبيذ ونحوه، ولا يقال طعينة إلا إذا كان عليها امرأة ولا مائدة إلا وعليها طعام وإلا فهي خوان. والمزاج: ما يمزج به الخمر ونحوها، وهي أيضاً مزاج له لأنهما تمازجا مزاجاً، قال بعض الناس: «المزاج» نفس الكافور، وقال قتادة نعم قوم يمزج لهم بالكافور ويختم لهم بالمسك، وقال الفراء: يقال إنه في الجنة عين تسمى ﴿كافوراً﴾. وقال بعض المتأولين إنما أراد ﴿كافوراً﴾ في النكهة والعرف كما تقول إذا مزجت طعاماً هذا الطعام مسك. وقوله تعالى: ﴿عيناً﴾ هو بدل من قوله ﴿كافوراً﴾، وقيل هو مفعول بقوله ﴿يشربون﴾، أي ﴿يشربون﴾ ماء هذه العين من كأس

عطرة كالكاפור، وقيل نصب ﴿عَيْنًا﴾ على المدح أو بإضمار أعني، وقوله ﴿يشرب بها﴾ بمنزلة يشربها. فالباء زائدة، وقال الهذلي: شربن بماء البحر. أي شربن ماء البحر، وقرأ ابن أبي عتبة: ﴿يشربها عباد الله﴾، و﴿عباد الله﴾ هنا خصوص في المؤمنين الناعمين لأن جميع الخلق عباده، و﴿يفجرونها﴾ معناه ييثقونها بعود قصب ونحوه حيث شاؤوا، فهي تجري عند كل أحد منهم، هكذا ورد الأثر، وقال الثعلبي: وقيل هي عين في دار النبي صلى الله عليه وسلم تفجر إلى دور الأنبياء والمؤمنين، وهذا قول حسن.

قوله عز وجل:

يُوفُونَ بِالْأَنْذَرِ وَيَخَافُونَ يَوْمَ مَا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَيْثُ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعَهُمْ نَصْرَهُ وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَّيْنَهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾

وصف الله تعالى حال الأبرار أنهم كانوا ﴿يُوفُونَ بِالْأَنْذَرِ﴾، أي بكل ما نذروه وأعطوا به عهداً. يقال وفي الرجل وأوفى، و«اليوم» المشار إليه يوم القيامة، و﴿مُسْتَطِيرًا﴾ معناه متصلاً شائعاً كاستطارة الفجر والصدع في الزجاجية. وبه شبه في القلب، ومن ذلك قول الأعشى: [المتقارب]

فبانت وقد أسارت في الفؤاد صدعاً على نايها مستطيراً

وقول ذي الرمة: [الوافر]

أراد الظاعنون لحيزنوني فهاجوا صدع قلبي فاستطاروا

وقوله تعالى: ﴿على حبه﴾ يحتمل أن يعود الضمير على الطعام، أي وهو محبوب للفاقة والحاجة. وهذا قول ابن عباس ومجاهد. ويحتمل أن يعود على الله تعالى أي لوجهه وابتغاء مرضاته، قاله أبو سليمان الدراني. والأول أمدح لهم لأن فيه الإيثار على النفس. وعلى الاحتمال الثاني فقد يفعله الأغنياء أكثر. وقال الحسين بن الفضل: الضمير عائد على الإطعام، أي محبين في فعلهم ذلك لا رياء فيه ولا تكلف، و«المسكين» الطواف المتكشف في السؤال، و«اليتيم» الصبي الذي لا أب له من الناس. والذي لا أم له من البهائم وهي صفة قبل البلوغ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يتم بعد حلم». و«الأسير» معروف. فقال قتادة: أراد أسرى الكفار وإن كانوا على غير الإسلام، وقال الحسن: ما كان أسراهم إلا مشركين، لأن كل كبد رطبة ففيها أجر. وقال بعض العلماء: هذا إما نسخ بآية السيف وإما أنه محكم لتحفظ حياة الأسير إلى أن يرى الإمام فيه ما يرى، وقال مجاهد وابن جبير: وعطاء: أراد المسجونين من الناس. ولهذا يحض على صدقة السجن، فهذا تشبيه، ومن قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا يؤسر أحد في الإسلام بغير العدول. وروى الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قسر الأسير هنا بالملوك والمسجون. وقال: أراد أسرى المسلمين الذين تركوا في بلاد الحرب رهائن وخرجوا في طلب الفداء،

وقال أبو حمزة الثمالي: الأسير هنا المرأة، ودليله قوله صلى الله عليه وسلم: «استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوانٍ عندكم»، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لَوْحَهُ﴾ المعنى يقولون لهم عند الإطعام، وهذا إما أن يكون المطعم يقول ذلك نصاً فحكي ذلك. وإما أن يكون ذلك مما يقال في الأنفس وبالنسبة فمدح بذلك، هذا هو تأويل ابن مجاهد وابن جبير، وقرأ أبو عمرو في رواية عباس بجزم الميم من «نطعمكم»، قال أبو علي أسكن تخفيفاً، و«الشكور»: مصدر الشكر، ووصف اليوم يعبوس هو على التجوز، كما تقول ليل نائم أي فيه نوم، و«القمطرير» والقماطر: هو في معنى العبوس والارتداد، تقول اقمطر الرجل إذا جمع ما بين عينيه غضباً، ومنه قول الشاعر [القرطبي]: [الطويل]

بني عنما هل تذكرون بلاءنا عليكم إذا ما كان يوم قماطر
وقال آخرون:

ففروا إذا ما الحرب ثار غبارها ولج بها اليوم العبوس القماطر

وقال ابن عباس: يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من بين عينيه مثل القطران. وعبر ابن عباس عن «القمطرير» بالطويل. وعبر عنه ابن الكلبي بالشديد، وذلك كله قريب في المعنى. وقرأ الجمهور «فوقاهم» بتخفيف القاف. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع «فوقاهم» بشد القاف. و«النضرة»: جمال البشرة، وذلك لا يكون إلا مع فرح النفس وقرة العين. وقرأ علي بن أبي طالب «وجازاهم» بألف، وقوله ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾، عام عن الشهوات وعلى الطاعات والشدائد، ففي هذا يدخل كل ما خصص الناس من صوم وفقر ونحوه. و﴿متكئين﴾ حال من الضمير المنصوب في ﴿جزاهم﴾ وهو الهاء والميم، وقرأ أبو جعفر وشيبة «متكئين» بغير همز، و﴿الأرائك﴾ السرر المستورة بالحجال، هذا شرط لبعض اللغويين، وقال بعض اللغويين: كل ما يتوسد ويفترش مما له حشو فهو أريكة وإن لم يكن في حجلة، وقوله تعالى: ﴿لَا يَرُونَ فِيهَا﴾ الآية عبارة عن اعتدال مس هوائها وذهاب ضرري الحر والقر عنها، وكون هوائها ساجساً كما في الحديث المأثور ومس الشمس وهو أشد الحر، و«الزمهري»: هو أشد البرد، وقال ثعلب: «الزمهري» بلغة طيء القمر.

قوله عز وجل:

وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَدِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِثَانِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَرُهَا وَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾

اختلف النحويون في إعراب قوله تعالى: ﴿ودانية﴾، فقال الزجاج وغيره: هو حال عطفاً على ﴿متكئين﴾ [الإنسان: ١٣]، وقال أيضاً: ويجوز أن يكون صفة للجنة، فالمعنى وجزاهم جنة دانية. وقرأ جمهور الناس «دانية». وقرأ الأعمش «ودانياً عليهم». وقرأ أبو جعفر «ودانية» بالرفع. وقرأ أبي بن كعب

«ودان» مفرد مرفوع في الإعراب، ودنو الظلال بتوسط أنعم لها، لأن الشيء المظل إذا بعد فترة ظله لا سيما من الأشجار والتدليل أن تطيب الثمرة فتتدلى وتنعكس نحو الأرض، و«التدليل» في الجنة هو بحسب إرادة ساكنيها. قال قتادة ومجاهد وسفيان: إن كان الإنسان قائماً تناول الثمر دون كلفة وإن كان قاعداً فكذلك. وإن كان مضطجعاً فكذلك. فهذا تدليلها لا يرد اليد عنها بعد ولا شوك. ومن اللفظة قول امرئ القيس: [الطويل]

كأنبوب السقي المذل

ومنه قول الأنصاري: والنخل قد ذلت فهي مطوقة بثمرها. و«القطوف»: جمع قطف وهو العنقود من النخل والعنب ونحوه. و«آنية» جمع إناء. و«الكوب» ما لا عروة له ولا أذن من الأواني. وهي معروفة الشكل في تلك البلاد. وهو الذي تقول له العامة القب، لكنها تسمى بذلك ما له عروة. وذلك خطأ أيضاً. وقال قتادة: الكوب القدح. والقوارير: الزجاج. واختلف القراء فقراً نافع والكسائي وأبو بكر عن عاصم «قواريراً قواريراً» بالإجراء فيهما على ما قد تقدم في قوله «سلاسلاً»، وقرأ ابن عامر وحزمة والكسائي «قوارير قوارير» بترك الإجراء فيهما. وقرأ ابن كثير «قواريراً» بالإجراء في الأول، «قوارير» بترك الإجراء في الثاني، وقرأ أبو عمرو «قواريرا»، ووقف بألف دون تنوين «قوارير» بترك الإجراء في الثاني. وقوله تعالى: ﴿من فضة﴾ يقتضي أنها من زجاج ومن فضة وذلك متمكن لكونه من زجاج في شفوئه و﴿من فضة﴾ في جوهره، وكذلك فضة الجنة شفافه. وقال أبو علي جعلها ﴿من فضة﴾ لصفائها وملازمتها لتلك الصفة وليست من فضة في حقيقة أمرها. وإنما هذا كما قال الشاعر [البعيث]: [الطويل]

ألا أصبحت أسماء جاذمة الوصل وضنت عليها والضمين من البخل

وقوله تعالى: ﴿قدروها﴾ يحتمل أن يكون الضمير للملائكة، ويحتمل أن يكون للظانفين، ويحتمل أن يكون للمنعمين، والتقدير إما أن يكون على قدر الأكف قاله الربيع، أو على قدر الري قاله مجاهد، وهذا كله على قراءة من قرأ «قدروها» بتخفيف القاف، وقرأ ابن أبيزى وعثي والجحدري وابن عباس والشعبي وقاتدة: «قدروها» بضم القاف وكسر الدال، قال أبو علي: كأن اللفظ قدروا عليها، وفي المعنى قلب لأن حقيقة المعنى أن يقال: قدرت عليهم فهي مثل قوله: ﴿ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة﴾ [القصص: ٧٦]، ومثل قول العرب: إذا طلعت الجوزاء، ألقى العود على الحرباء، حكاه أبو علي، وكون الزنجبيل مزاجها هو على ما ذكرناه في العرف ولذع اللسان. وذلك من لذات المشروب، و«الزنجبيل»: طيب حار، وقال الشاعر [الأعشى]: [الرجز]

كأن جنياً من الزنجبيل بات بفيها وأرياً مشورا

وقال المسيب بن علس: [الكامل]

وكأن طعم الزنجبيل به إذ ذقته وسلافة الخمر

وقال قتادة: «الزنجبيل»، اسم لعين في الجنة يشرب منها المقربون صرفاً، وتمزج لسائر أهل

الجنة، و﴿عَيْنًا﴾ بدل من كأس أو من عين على القول الثاني، و﴿سلسيلًا﴾ قيل هو اسم بمعنى السلس المتقاد الجرية، وقال مجاهد: حديدة الجرية، وقيل: هي عبارة عن حسن إيساغها، قال ابن الأعرابي: لم أسمع هذه اللفظة إلا في القرآن، وقال آخرون: ﴿سلسيلًا﴾ صفة لقوله ﴿عَيْنًا﴾. وتسمى بمعنى توصف وتشهر وكونه مصروفًا مما يؤكد كونه صفة للعين لا اسمًا، وقال بعض المقرئين والتصحيح من الألوسي: ﴿سلسيلًا﴾ أمر للنبي صلى الله عليه وسلم ولأتمته بسؤال السبيل إليها. وهذا قول ضعيف لأن براءة القرآن وفصاحته لا تجيء هكذا، واللفظة معروفة في اللسان وأن السلسل والسلسيل، بمعنى واحد ومتقارب. و﴿مخلدون﴾ قال جمهور الناس: معناه باقون من الخلود، وجعلهم ولدانًا لأنهم في هيئة الولدان في السن لا يتغيرون عن تلك الحال، وقال أبو عبيدة وغيره ﴿مخلدون﴾ معناه مقرطون، والمخلدات حلي يعلق في الآذان، ومنه قول الشاعر: [الكامل]

ومخلدات باللجين كأنما أعجازهن أقاوب الكشبان

وشهرة هذه اللغة في حمير، وشبههم بـ«اللؤلؤ المنثور» في بياضهم وانتشارهم في المساكن يجيئون ويذهبون وفي جمالهم، ومنه سميت المرأة درة وجوهرة، ثم كرر ذكر الرؤية مبالغة، و﴿ثم﴾ ظرف والعامل فيه ﴿رأيت﴾ أو معناه؟ وقال الفراء التقدير: ﴿رأيت﴾ ما ﴿ثم﴾ وحذفت ما، وقرأ حميد الأعرج «ثم» بضم الثاء، و«النعيم»: ما هم فيه من حسن عيش، و«الملك الكبير»: قال سفيان: هو استئذان الملائكة وتسليمهم عليهم وتعظيمهم لهم، فهم في ذلك كالملوك، وقال أكثر المفسرين: «الملك الكبير» اتساع مواضعهم، فروي عن عبد الله بن عمر أنه قال: ما من أهل الجنة من أحد إلا يسعى عليه ألف غلام كلهم مختلف شغله من شغل أصحابه، وأدنى أهل الجنة منزلة من ينظر من ملكه في مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه.

قوله عز وجل:

عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آيْمًا أَوْ كُفُورًا ﴿٢٤﴾ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾

قرأ نافع وحزمة وأبان عن عاصم: «عالِيهم» على الرفع بالابتداء وهي قراءة الأعرج وأبي جعفر وشيبة وابن محيصن وابن عباس بخلاف عنه، وقرأ الباقون وعاصم «عالِيهم» بالنصب على الحال، والعامل فيه ﴿لقاهم﴾ [الإنسان: ١١] أو ﴿جزاهم﴾ [الإنسان: ١٢]، وهي قراءة عمر بن الخطاب وابن عباس والحسن ومجاهد والجدري وأهل مكة، وقرأ الأعمش وطلحة: «عالِيهم»، وكذلك هي في مصحف عبد الله، وقرأ أيضاً الأعمش «عالِيهم» بالنصب على الحال، وقد يجوز في النصب في القراءتين أن يكون

على الظرف لأنه بمعنى فوقهم، وقرأت عائشة رضي الله عنها «علتهم» بناء فعل ماض، وقرأ مجاهد وقتادة وابن سيرين وأبو حيوه «عليهم»، و«السندس»: رقيق الديباج والمرتفع منه، وقيل «السندس»: الحرير الأخضر، و«الاستبرق» والدمقس هو الأبيض، والأرجوان هو الأحمر، وقرأ حمزة والكسائي «خضر واستبرق» بالكسر فيهما وهي قراءة الأعمش وطلحة، ورويت عن الحسن وابن عمر بخلاف عنه على أن «خضر» نعت للسندس، وجائز جمع صفة الجنس إذا كان اسماً مفرداً كما قالوا: أهلك الناس الدينار الصفر والدرهم الأبيض، وفي هذا قبح، والعرب تفرد اسم الجنس وهو جمع أحياناً فيقولون: حصي أبيض، وفي القرآن ﴿الشجر الأخضر﴾ [يس: ٨٠] و﴿نخل منقعر﴾ [القمر: ٢٠] فكيف بأن لا يفرد هذا الذي هو صفة لواحد في معنى جمع. «واستبرق» في هذه القراءة عطف على «سندس»، وقرأ نافع وحفص عن عاصم والحسن وعيسى «خضر واستبرق» بالرفع فيهما، «خضر» نعت لـ «ثياب»، و«استبرق» عطف على الثياب. وقرأ أبو عمرو وابن عامر «خضر» بالرفع صفة لـ «ثياب»، «واستبرق» خفضاً، عطف على «سندس»، وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر «خضر» خفضاً «واستبرق» رفعاً فخفض «خضر» على ما تقدم أولاً. «واستبرق» على الثياب. والاستبراق غليظ الديباج، وقرأ ابن محيصن: «واستبرق» موصولة الألف مفتوحة القاف كأنه مثال الماضي من برق واستبرق وتعجب واستعجب، قال أبو حاتم: لا يجوز، والصواب أنه اسم جنس لا ينبغي أن يحمل ضميراً، ويؤيد ذلك دخول اللام المعرفة عليه، والصواب فيه الألف وإجراؤه على قراءة الجماعة، وقرأ أبو حيوه «عليهم ثياب» بالرفع «سندس خضر واستبرق» رفعاً في الثلاثة، وقوله تعالى: ﴿وحلوا﴾ أي جعل لهم حلي، و﴿أساور﴾ جمع أسورة وأسورة جمع سوار وهي من حلي الذراع، وقوله تعالى: ﴿شراباً طهوراً﴾ قال أبو قلابه والنخعي معناه لا يصير بولاً بل يكون رشحاً من الأبدان أطيب من المسك، وهنا محذوف يقتضيه القول تقديره يقول الله لهم والملائكة عنه: ﴿إن هذا كان لكم جزاء﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا﴾ الآية تثبت لمحمد عليه السلام وتقوية لنفسه على أفعال قريش وأقوالهم وحكم ربه هو أن يبلغ ويكافح ويتحمل المشقة ويصبر على الأذى ليعذر الله إليهم، وقوله تعالى: ﴿آثماً أو كفوراً﴾ هو تخيير في أن يعرف الذي ينبغي أن لا يطيعه بأي وصف كان من هذين لأن كل واحد منهم فهو آثم وهو كفور، ولم تكن الأمة حينئذ من الكثرة بحيث يقع الإثم على العاصي.

قال القاضي أبو محمد: واللفظ أيضاً يقتضي نهى الإمام عن طاعة آثم من العصاة أو كفور من المشركين، وقال أبو عبيدة: ﴿أو﴾ بمعنى الواو وليس في هذا تخيير، ثم أمره تعالى بذكر ربه دائماً ﴿بكرة وأصيلاً﴾ ومن الليل بالسجود والتسبيح الذي هو الصلاة، ويحتمل أن يريد قول سبحان الله، وذهب قوم من أهل العلم إلى أن هذه الآية إشارة إلى الصلوات الخمس منهم ابن حبيب وغيره. فالبكرة: صلاة الصبح، والأصيل: الظهر والعصر ﴿ومن الليل﴾: المغرب والعشاء، وقال ابن زيد وغيره كان هذا فرضاً ونسخ فلا فرض إلا الخمس، وقال قوم هو محكوم على وجه الندب.

قوله عز وجل:

إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ

وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

الإشارة بـ ﴿هؤلاء﴾ إلى كفار قريش، و﴿العاجلة﴾ الدنيا وحبهم لها، لأنهم لا يعتقدون غيرها، ويذرون وراءهم ﴿معناه فيما يأتي من الزمن بعد موتهم، وقال لبيد: [الطويل] ليس ورائي إن تراخت منيتي أدب مع الولدان إن خف كالنسر

ووصف اليوم بالثقل على جهة النسب، أي: ذا ثقل من حيث الثقل فيه على الكفار، فهو كليل نائم، ثم عدد النعمة على عباده في خلقهم وإيجادهم وإتقان بنيتهم وشد خلقتهم، والأسر: الخلقة واتساع الأعضاء والمفاصل، وقد قال أبو هريرة والحسن والربيع الأسر: المفاصل والأوصال، وقال بعضهم الأسر: القوة، ومنه قل الشاعر: [الوافر]

فأنجاه غداة الموت مني شديد الأسر عض على اللجام

وقول آخر [الأخطل]: [الكامل]

من كل محتذب شديد أسره سلس القياد تخاله مختالا

قال الطبري ومنه قول العامة: خذه بأسره يريدون خذه كله.

قال القاضي أبو محمد: وأصل هذا في ما له شد ورباط كالعظم ونحوه، وليس هذا مما يختص بالعامة بل هو من فصيح كلام العرب. اللهم إلا أن يريد بالعامة جمهور العرب ومن اللفظة الإِسَار وهو القيد الذي يشد به الأسير، ثم توعد تعالى بالتبديل واجتمع من القولين تعديد النعمة والوعيد بالتبديل احتجاجاً على منكري البعث، أي من هذا الإيجاد والتبديل إذا شاء في قدرته، فكيف تتعذر عليه الإعادة، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ يحتمل أن يشير إلى هذه الآية أو إلى السورة بأسرها أو إلى الشريعة بجملتها. وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ﴾ ليس على جهة التخيير بل فيه قرينة التحذير، والحض على اتخاذ السبيل، و«السبيل» هنا: ليس النجاة، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ نفى لقدرتهم على الاختراع وإيجاد المعاني في نفوسهم، ولا يرد هذا وجود ما لهم من الاكتساب والميل إلى الكفر.

وقرأ عبد الله «وما تَشَاءُونَ إلا ما شاء الله». وقرأ يحيى بن وثاب «تَشَاءُونَ» بكسر التاء. وقوله تعالى: ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ معناه يعلم ما ينبغي أن يسر عبده إليه، وفي ذلك حكمة لا يعلمها إلا هو. ﴿وَالظَّالِمِينَ﴾ نصب بإضمار فعل تقديره ويعذب الظالمين أعد لهم، وفي قراءة ابن مسعود «وللظالمين أعد لهم» بتكرير اللام، وقرأ جمهور السبعة «وما تَشَاءُونَ» بالتاء على المخاطبة. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «يَشَاءُونَ» بالياء، وقرأ ابن الزبير وأبان بن عثمان وابن أبي عتبة «والظالمون» بالرفع، قال أبو الفتح: وذلك على ارتجال جملة مستأنفة. (انتهى).

نجز تفسير سورة ﴿الإنسان﴾ بحمد الله وعونه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ

وهي مكية في قول جمهور المفسرين، وحكى النقاش أنه قيل إن فيها من المدني قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨] على قول من قال إنها حكاية عن حال المنافقين في القيامة، وإنها بمعنى قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢] وقال ابن مسعود: نزلت هذه السورة ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بحراء، الحديث بطوله.

قوله عز وجل:

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَأَلْصَقْنَ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالتَّشْرِيتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَأَلْفَرَقْنَ فَرَاقًا ﴿٤﴾ فَأَلْمَلَقَيْنِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عَذْرًا أَوْ نَذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرَّسُلُ أُنْذِنَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَلِيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾

قال كثير من المفسرين: ﴿المرسلات﴾، الرسل إلى الناس من الأنبياء كأنه قال: والجماعات المرسلات، وقال أبو صالح ومقاتل وابن مسعود: ﴿المرسلات﴾ الملائكة المرسلة بالوحي، وبالتعاقب على العباد طرفي النهار، وقال ابن مسعود أيضاً وابن عباس ومجاهد وقتادة: ﴿المرسلات﴾، الرياح، وقال الحسن بن أبي الحسن: ﴿المرسلات﴾ السحاب. و﴿عرفاً﴾ معناه على القول الأول ﴿عرفاً﴾ من الله وإفضالاً على عباده ببعثة الرسل.

ومنه قول الشاعر [الحطيطي]: [البسيط]

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

ويحتمل أن يريد بقوله ﴿عرفاً﴾ أي متابعة على التشبيه بتتابع عرف الفرس وأعراف الجبال ونحو ذلك، والعرب تقول: الناس إلى فلان عرف واحد إذا توجهوا إليه، ويحتمل أن يريد بالعرف أي بالحق، والأمر بالمعروف، وهذه الأقوال في عرف تتجه في قول من قال في ﴿المرسلات﴾ إنها الملائكة، ومن قال إن ﴿المرسلات﴾ الرياح اتجه في العرف القول الأول على تخصيص الرياح التي هي نعمة وبها الأرزاق والنجاة في البحر وغير ذلك مما لا فقه فيه، ويكون الصنف الآخر من الرياح في قوله ﴿فألملقت﴾

عصفاً»، ويحتمل أن يكون بمعنى «والمرسلات» الرياح التي يعرفها الناس ويعهدونها، ثم عقب بذكر الصنف المستنكر الضار وهي «العاصفات»، ويحتمل أن يريد بالعرف مع الرياح التابع كعرف الفرس ونحوه، وتقول العرب هب عرف من ريح، والقول في العرف مع أن «المرسلات» هي الرياح يطرد على أن «المرسلات» السحاب، وقرأ عيسى «عرفاً» بضم الراء، و«العاصفات» من الريح الشديدة العاصفة للشجر وغيره، واختلف الناس في قولهم «والناشرات»، فقال مقاتل والسدي هي الملائكة تنشر صحف العباد بالأعمال، وقال ابن مسعود والحسن ومجاهد وقتادة هي الرياح تنشر رحمة الله ومطره، وقال بعض المتأولين: «الناشرات» الرمم الناشرات في بعث يوم القيامة يقال نشرت الميت، ومنه قول الأعشى: [السريع]

يا عجباً للميت الناشر

وقال آخرون: «الناشرات» التي تجيء بالأمطار تشبه بالميت ينشر، وقال أبو صالح: «الناشرات» الأمطار التي تحيي الأرض، وقال بعض المتأولين: «الناشرات» طوائف الملائكة التي تبشر إخراج الموتى من قبورهم للبعث فكأنهم يحيونهم، و«الفارقات» قال ابن عباس وابن مسعود وأبو صالح ومجاهد والضحاك: هي الملائكة تفرق بين الحق والباطل والحلال والحرام. وقال قتادة والحسن وابن كيسان: «الفارقات»، آيات القرآن، وأما «الملقيات ذكراً» فهي في قول الجمهور الملائكة. قال مقاتل جبريل وقال آخرون هي الرسل، وقرأ جمهور الناس: «فالمَلَقِيَّات» بسكون اللام أي تلقيه من عند الله أو بأمره إلى الرسل.

وقرأ ابن عباس فيما ذكر المهدوي، «فالمَلَقِيَّات» بفتح اللام والقاف وشدها، أي تلقيه من قبل الله تعالى، وقرأ ابن عباس أيضاً «فالمَلَقِيَّات» بفتح اللام وشد القاف وكسرها، أي تلقيه هي الرسل، و«الذكر» الكتب المنزلّة والشرائع ومضمناتها. واختلف القراء في قوله تعالى: «عذراً أو نذراً»، فقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر وأبو جعفر وشيبة بسكون الذال في «عذر» وضمها في «نذر»، وقرأ أبو عمرو وحزمة والكسائي وحفص عن عاصم وإبراهيم التيمي بسكون الذال فيهما، وقرأ طلحة وعيسى والحسن بخلاف، وزيد بن ثابت وأبو جعفر وأبو حيوة والأعمش عن أبي بكر عن عاصم بضمها فيهما. فإسكان الذال على أنهما مصدران يقال عذر وعذير ونذر ونذير كنكر ونكير، وضم الذال يصح معه المصدر، ويصح أن يكون جمعاً لنذير وعاذر للذين هما اسم فاعل، والمعنى أن الذكر يلقي بإعذار وإنذار أو يلقيه معذورون ومنذرون، وأما النصب في قوله «عذراً أو نذراً» فيصح إذا كانا مصدرين أن يكون ذلك على البدل من الذكر، ويصح أن يكون على المفعول للذكر كأنه قال «فالمَلَقِيَّات» أن يذكر «عذراً»، ويصح أن يكون «عذراً» مفعولاً لأجله أي يلقي الذكر من أجل الإعذار، وأما إذا كان «عذراً أو نذراً» جمعاً فالنصب على الحال. وقرأ إبراهيم التيمي «عذراً ونذراً» بواو بدل «أو». وقوله تعالى: «إن ما توعدون لواقع» هو الذي وقع عليه القسم والإشارة إلى البعث، و«طمس النجوم»: إزالة ضوئها واستوائها مع سائر جرم السماء، و«فرج السماء»: هو بانفطارها حتى يحدث فيها فروج، و«نسف

الجبال»: هو بعد التسيير وقيل كونها هباء وهو تفريقها بالريح. وقرأ جمهور القراء: «أقنت» بالهمز، وشد القاف، وقرأ بتخفيف القاف مع الهمزة عيسى وخالد، وقرأ أبو عمرو وحده «وقتت» بالواو، وأبو الأشهب وعيسى وعمرو بن عبيد، قال عيسى هي لغة سغلى مضر، وقرأ أبو جعفر بواو واحدة خفيفة القاف وهي قراءة ابن مسعود والحسن، وقرأ الحسن بن أبي الحسن «ووقت» بواوين على وزن فوعلت، والمعنى نجعل لها وقت منتظر فجاء وحان. والواو في هذا كله الأصل والهمزة بدل. وقوله تعالى: ﴿لَا يَوْمَ أَجِلَّتْ﴾ تعجيب على عظم ذلك اليوم وهوله، ثم فسر تعالى ذلك الذي عجب منه بقوله ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ يعني بين الخلق في منازلهم وحسابهم ومنازلهم من جنة أو نار، وفي هذه الآية انتزع القضاء الآجال في الأحكام ليقع فصل القضاء عند تمامها ثم عظم تعالى يوم الفصل بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ على نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ٢] وغير ذلك، ثم أثبت الويل ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ في ذلك اليوم، والمعنى ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ به في الدنيا وبسائر فصول الشرع، و«الويل»: هو الحرب والحزن على نوائب تحدث بالمرء، ويروى عن النعمان بن بشير وعمار بن ياسر أن وادياً في جهنم اسمه «ويل».

قوله عز وجل:

الْمُنْهَلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نَبْتُعُهُمْ الْأَخْرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيَلَّيْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيَلَّيْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوْاسِيَّ شِمَخَاتٍ ﴿٢٧﴾ وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٨﴾ وَيَلَّيْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٩﴾

قرأ جمهور القراء «ثم نبتعهم» بضم العين على استئناف الخبر، وقرأ أبو عمرو وفيما روي عنه «ثم نبتعهم» بجزم العين عطفاً على «نهلك» وهي قراءة الأعرج وبحسب هاتين القراءتين يجيء التأويل في «الأولين»، فمن قرأ الأولى جعل «الأولين» الأمم التي قدمت قريشاً بأجمعها، ثم أخبر أنه يتبع «الآخرين» من قريش وغيرهم سنن أولئك إذا كفروا وسلخوا سبلهم. ومن قرأ الثانية جعل «الأولين» قوم نوح وإبراهيم ومن كان معهم، و«الآخرين» قوم فرعون وكل من تأخر وقرب من مدة محمد صلى الله عليه وسلم. وفي حرف عبد الله «وستنبعهم» ثم قال «كذلك نفعل بالمجرمين» أي في المستقبل فتدخل هنا قريش وغيرها من الكفار، وأما تكرار «ويل يومئذ للمكذبين» في هذه السورة فليل إن ذلك لمعنى التأكيد فقط، وقيل بل في كل آية منها ما يقتضي التصديق، فجاء الوعد على التكذيب بذلك الذي في الآية. ثم وقف تعالى على أصل الخلقة الذي يقتضي النظر فيها تجويز البعث. و«الماء المهين»: معناه الضعيف وهو المني من الرجل والمرأة. و«القرار المكين»: الرحم أو بطن المرأة، و«القدر المعلوم»: وقت الولادة ومعلوم عند الله في شخص، فأما عند آدميين فيختلف، فليس بمعلوم قدر شخص بعينه. وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ونافع والكسائي «فقدَرنا» بشد الدال، وقرأ الباقر «فقدَرنا» بتخفيف الدال، وهما بمعنى من القدرة، والقدر من التقدير والتوقيف. وقوله «القادرُونَ» يرجح قراءة الجماعة: أما أن ابن

مسعود روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه فسر القادرين بالمقدرين . وقدر ابن أبي عبله «فقدَرنا» بشد الدال «فنعم المققدرون»، و «الكفات»: الستر والوعاء الجامع للشيء بإجماع، تقول كفت الرجل شعره إذا جمعه بخزقة، فالأرض تكفت الأحياء على ظهرها، وتكفت الأموات في بطنها و ﴿أحياء﴾ على هذا التأويل معمول لقوله ﴿كفاتاً﴾ لأنه مصدر . وقال بعض المتأولين ﴿أحياء وأمواتاً﴾، إنما هو بمعنى أن الأرض فيها أقطار أحياء وأقطار أموات يراد ما ينبت وما لا ينبت، فنصب ﴿أحياء﴾ على هذا إنما هو على الحال من ﴿الأرض﴾، والتأويل الأول أقوى .

وقال بنان خرجنا مع الشعبي إلى جنازة فنظر إلى الجبانة فقال: هذه كفات الموتى، ثم نظر إلى البيوت فقال: هذه كفات الأحياء، وكانت العرب تسمي بقيع الغرقد كفتة لأنها مقبرة تضم الموتى، وفي الحديث «خمرُوا آيتكم وأوكثُوا أسقيتكم واكفثُوا صبيانكم وأجفثُوا أبوابكم وأطفثُوا مصابيحكم». ودفن ابن مسعود قملة في المسجد ثم قرأ ﴿ألم نجعل الأرض كفاتاً﴾ .

قال القاضي أبو محمد: ولما كان القبر ﴿كفاتاً﴾ كالبيت قطع من سرق منه . و «الرواسي»: الجبال، لأنها رست أي ثبتت، و «الشامخ»: المرتفع، ومنه شمع بأنفه أي ارتفع واستعلى شبه المعنى بالشخص، و «أسقى» معناه: جعله سقياً للغلات والمنافع، وسقى معناه للشفة خاصة، هذا قول جماعة من أهل اللغة . وقال آخرون هما بمعنى واحد . و «الفرات»: الصافي العذب، ولا يقال للملح فرات وهي لفظة تجمع ماء المطر ومياه الأنهار وخص النهر المشهور بهذا تشريفاً له وهو نهر الكوفة، وسيحان هو نهر بلخ، وجيحان هو دجلة، والنيل نهر مصر . وحكي عن عكرمة أن كل ماء في الأرض فهو من هذه، وفي هذا بعد والله أعلم .

قوله عز وجل:

أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظِلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جُمُلَتُ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْبُدُونَ ﴿٣٦﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾

الضمير في قوله ﴿انطلقوا﴾، هو ﴿للمكذبين﴾ [الإنسان: ١٩ - ٢٤] الذين لهم الويل يقال لهم ﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون﴾ من عذاب الآخرة، ولا خلاف في كسر اللام من قوله ﴿انطلقوا﴾ في هذا الأمر الأول، وقرأ يعقوب في رواية رويس «انطلقوا إلى ظل» بفتح اللام على معنى الخبر، وقرأ جمهور الناس «انطلقوا» بكسر اللام على معنى تكرار، الأمر الأول وبيان المنطلق إليه، وقال عطاء الظل الذي له ﴿ثلاث شعب﴾ هو دخان جهنم، وروي أنه يعلو من ثلاثة مواضع يراه الكفار فيظنون أنه مغن فيهرعون إليه فيجدونه على أسوأ وصف . وقال ابن عباس: المخاطبة إنما تقال يومئذ لعبد الصليب إذا اتبع كل واحد ما كان يعبد فيكون المؤمنون في ظل الله ولا ظل إلا ظله، ويقال لعبد الصليب ﴿انطلقوا إلى ظل﴾ معبودكم

وهو الصليب وله ﴿ثلاث شعب﴾، والشعب تفرق الجسم الواحد فرقاً ثم نفى عنه تعالى محاسن الظل، والضمير في ﴿إنها﴾ لجهنم، وقرأ عيسى بن عمر «بشرار» بألف جمع شرارة وهي لغة تميم، و«القصر» في قول ابن عباس وجماعة من المفسرين اسم نوع القصور وهو إلا دوراً لكبار مشيدة، وقد شبهت العرب بها النوق ومن المعنى قول الأخطل: [البسيط]

كانها برج رومي يشيده لز بجص وأجر وجيار

وقال ابن عباس أيضاً: «القصر»: خشب كان في الجاهلية يقطع من جزل الحطب من النخل وغيره على قدر الذراع وفوقه ودونه يستعد به للشتاء يسمى «القَصْر» واحده قصرة وهو المراد في الآية، وإنما سمي القَصْر لأنه يخبط بالقصرة، وقال مجاهد: «القصر» حزم الحطب. وهذه قراءة الجمهور، وقرأ ابن عباس وابن جبير «القَصْر» جمع قصرة وهي أعناق النخل والإبل وكذلك أيضاً هي في الناس، وقال ابن عباس جذور النخل، وقرأ ابن جبير أيضاً والحسن: «كالقَصْر» بكسر القاف وفتح الصاد، وهي جمع قصرة كحلقة وحلق من الحديد، واختلف الناس في «الجماليات»، فقال جمهور من المفسرين: هو جمع جمال على تصحيح البناء كرجال ورجالات، وقال آخرون أرادب «الصفرة» السود، وأنشد على ذلك بيت الأعشى: [الخفيف]

تلك خيلي منه، وتلك ركابي هن صفر أولادها كالزبيب

وقال جمهور الناس: بل «الصفرة» الفاقعة لأنها أشبه بلون الشرر بالجماليات، وقرأ الحسن «صُفْر» بضم الصاد والفاء، وقال ابن عباس وابن جبير: «الجماليات» قلوس من السفن وهي حبالها العظام إذا جمعت مستديرة بعضها إلى بعض جاء منها أجرام عظام، وقال ابن عباس: «الجماليات» قطع النحاس الكبار وكان اشتقاق هذه من اسم الجملة، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم «جمالة» بكسر الجيم لحقت التاء جمالاً لتأنيث الجمع فهي كحجر وحجارة، وقرأ ابن عباس وأبو عبد الرحمن والأعمش: «جُمالة» بضم الجيم، وقرأ باقي السبعة والجمهور وعمر بن الخطاب «جماليات» على ما تفسر بكسر الجيم، وقرأ ابن عباس أيضاً وقتادة وابن جبير والحسن وأبو رجاء بخلاف عنهم «جُمالات» بضم الجيم، واختلف عن نافع وأبي جعفر وشيبة وكان ضم الجيم فيهما من الجملة لا من الجمل وكسرها من الجمل لا من الجملة. ولما ذكر تعالى المكذبين قال مخاطباً لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿هذا يوم لا ينطقون﴾ أي يوم القيامة أسكتتهم الهيبة وذل الكفر، و﴿هذا﴾ في موطن قاض بأنهم ﴿لا ينطقون﴾ فيه إذ قد نطق القرآن بنطقهم ربنا أخرجنا، ربنا أمتنا. فهي مواطن. و﴿يوم﴾ مضاف إلى قوله ﴿لا ينطقون﴾. وقرأ الأعرج والأعمش وأبو حيوة «هذا يوم» بالنصب لما أضيف إلى غير متمكن بناءه فهي فتحة بناء وهو في موضع رفع، ويحتمل أن يكون ظرفاً وتكون الإشارة بـ ﴿هذا﴾ إلى ربها ﴿بشر كالقصر﴾، وقوله ﴿فيعتذرون﴾ معطوف على ﴿يؤذن﴾ ولم ينصب في جواب النفي لتشابه رؤوس الآي، والوجهان جائزان، وقوله تعالى: ﴿هذا يوم الفصل جمعناكم﴾ مخاطبة للكفار يومئذ. و«الأولون» المشار إليهم قوم نوح وغيرهم

ممن جاء في صدر الدنيا وعلى وجه الدهر، ثم وقف تعالى عبيده الكفار المستوجبين عقابه بقوله: ﴿فإن كان لكم كيد فكيدون﴾ أي إن كان لكم حيلة أو مكيدة تنجيكم فافعلوها.

قوله عز وجل:

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوْكَه مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْحَسَنِينَ ﴿٤٤﴾ وَبَلْ يُؤْمِدُ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ ﴿٤٦﴾ وَبَلْ يُؤْمِدُ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَبَلْ يُؤْمِدُ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

ذكر تعالى حالة ﴿المتقين﴾ بعقب ذكر حالة أهل النار ليعين الفرق، و«الظلال» في الجنة عبارة عن تكاثف الأشجار وجودة المباني وإلا فلا شمس تؤذي هنالك حتى يكون ظل يجير من حرها. وقرأ الجمهور «في ظلال»، وقرأ الأعرج والأعمش «في ظُلل» بضم الظاء، و«العيون»: الماء النافع، وقوله تعالى: ﴿مما يشتهون﴾ إعلام بأن المأكول والمشرب هنالك إنما يكون برسم شهواتهم بخلاف ما هي الدنيا عليه، فإن ذلك فيه شاذ ونادر، والعرف أن المرء يرد شهوته إلى ما يقتضيه وجدته. وهنا محذوف يدل عليه اللفظ تقديره يقال لهم ﴿كلوا﴾ و﴿هنيئاً﴾ نصب على الحال، ويجوز أن يكون نصبه على جهة الدعاء، والكاف في قوله ﴿إنا كذلك﴾ كاف تشبيه، والإشارة بذلك إلى ما ذكره من تنعيم أهل الجنة، وقوله تعالى: ﴿كلوا وتمتعوا﴾ مخاطبة لقريش على معنى قل لهم يا محمد، وهذه صيغة أمر معناها التهديد والوعيد، وقد بين ذلك قوله ﴿قليلاً﴾، ثم قرر لهم الإجماع الموجب لتعذيبهم، وقال من جعل السورة كلها مكية: إن هذه الآية نزلت في المنافقين، وقال مقاتل: نزلت في ثقيف لأنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: حط عنا الصلاة فإننا لا ننحني فإنها سبة، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «لا خير في دين لا صلاة فيه». وقوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون﴾ قيل هي حكاية عن حال المنافقين في الآخرة إذا سجد الناس فأرادوا هم السجود فانصرفت أصلابهم إلى الأرض وصارت فقاراتهم كصياصي البقر، قاله ابن عباس وغيره. وقال قتادة في آخرين هذه حال كفار قريش في الدنيا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم وهم لا يجيبون، وذكر الركوع عبارة عن جميع الصلاة، هذا قول الجمهور، وقال بعض المتأولين عني بالركوع التواضع كما قال الشاعر: [الطويل]

ترى الأكمل فيها سجداً للحوافر

أي متذللة، وتناول قتادة الآية قاصدة الركوع نفسه. وقال: عليكم بحسن الركوع، والذي أقول إن ذكر الركوع هنا وتخصيصه من بين سائر أحوال العبادة إنما كان لأن كثيراً من العرب كان يأنف من الركوع والسجود ويراهما هيئة منكورة لما كان في أخلاقهم من العجرفة، ألا ترى أن بعضهم قد سئل فقيل له: كيف

تقول؟ استخذأت أو استخذيت؟ فقال: كل لا أقول. فقليل له لم؟ قال: لأن العرب لا تستخذي، فظن أنه سئل عن المعنى ولم يفهم أنه سئل عن اللفظ. وفي كتاب السير عن بعض العرب أنه استعفى متكلماً عن قومه ونفسه رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة فلم يجبه رسول الله صلى الله عليه وسلم بل قال له: «لا بد من الصلاة»، فقال عند ذلك سنؤتيكها، وإن كانت دناءة، وقوله تعالى: ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ يؤيد أن الآية كلها في قریش، والحديث الذي يقتضيه الضمير هو القرآن، وهذا توقيف وتوبيخ، وروي عن يعقوب أنه قرأ «تؤمنون» بالتاء من فوق على المواجهة ورويت عن ابن عامر. (انتهى).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّؤُوفِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ النَّبَاِ

وهي مكية بإجماع، وليس فيها نسخ ولا حكم إلا ما قاله بعض الناس في قوله تعالى: ﴿لَا بَشِيرَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ [النبأ: ٢٣] من أنه منسوخ وهو قول خلف لأن الأخبار لا تنسخ وإنما ذكرنا هذا القول تنبيهاً على فساده.

قوله عز وجل:

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا أَيْلًا لِّبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾

أصل ﴿عم﴾ «عن ما»، ثم أدغمت النون بعد قلبها فبقي «عما» في الخبر والاستفهام، ثم حذفوا الألف في الاستفهام فرقا بينه وبين الخبر، ثم من العرب من يخفف الميم تخفيفاً فيقول: «عم»، وهذا الاستفهام بـ ﴿عم﴾ هو استفهام توقيف وتعجب منهم، وقرأ أبي بن كعب وابن مسعود وعكرمة وعيسى: «عما» بالألف، وقرأ الضحاك: «عمه» بهاء، وهذا إنما يكون عند الوقف. و﴿النبا العظيم﴾ قال ابن عباس وقتادة هو الشرع الذي جاء به محمد، وقال مجاهد وقتادة: هو القرآن خاصة، وقال قتادة أيضاً: هو البعث من القبور، ويحتمل الضمير في ﴿يتساءلون﴾ أن يريد جميع العالم فيكون الاختلاف حينئذ يراد به تصديق المؤمنين وتكذيب الكافرين ونزغات الملحدين. ويحتمل أن يراد بالضمير الكفار من قريش، فيكون الاختلاف شك بعض وتكذيب بعض. وقولهم سحر وكهانة وشعر وجنون وغير ذلك. وقال أكثر النحاة قوله: ﴿عن النبا العظيم﴾، متعلق بـ ﴿يتساءلون﴾ الظاهر كأنه قال: لم يتساءلون عن هذا النبأ، وقال الزجاج: الكلام تام في قوله: ﴿عم يتساءلون﴾ ثم كان مقتضى القول أن يجيب مجيب فيقول: يتساءلون ﴿عن النبا العظيم﴾، فاقضى إيجاز القرآن وبلاغته أن يبادر المحتج بالجواب الذي تقتضيه الحال والمجاورة اقتضاباً للحجة وإسراعاً إلى موضع قطعهم، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد﴾ [الأنعام: ١٩] وأمثلة كثيرة، وقد وقع التنبيه عليها في مواضعها. وقرأ السبعة والحسن وأبو جعفر وشيبة والأعمش: «كلا سيعلمون» بالياء في الموضعين على ذكر الغائب، فظاهر الكلام أنه رد على

الكفار في تكذيبهم وعيد لهم في المستقبل وكرر الزجر تأكيداً، وقال الضحاك المعنى: ﴿كلا سيعلمون﴾ يعني الكفار على جهة الوعيد، ﴿ثم كلا سيعلمون﴾: يعني المؤمنين على جهة الوعد. وقرأ ابن عامر فيما روى عنه مالك بن دينار والحسن بخلاف: «كلا ستعلمون» بالتاء في الموضعين على مخاطبة الحاضر كأنه تعالى يقول: قل لهم يا محمد وكرر عليهم الزجر والوعيد تأكيداً وكل تأويل في هذه القراءة غير هذا فمتعسف وقرأ... «كلا سيعلمون» بالياء على جهة الرد والوعيد للكفار، ﴿ثم كلا ستعلمون» بالتاء من فوق على جهة الرد على الكفار والوعد للمؤمنين. والعلم في هذه الآية بمعنى ستعرفون، فلذلك لم يتعد، ثم وقفهم تعالى على آياته وغرائب مخلوقاته وقدرته التي يوجب النظر فيها الإقرار بالبعث والإيمان بالله تعالى. و«المهاد»: الفراش الممهد الوطيء وكذلك الأرض لبينتها، وقرأ مجاهد وعيسى وبعض الكوفيين «مهداً»، والمعنى نحو الأول، وشبه ﴿الجبال﴾ بـ «الأوتاد» لأنها تمسك وتثقل وتمنع الأرض أن تמיד، و«أزواجاً» معناه أنواعاً في ألوانكم وصوركم وألستكم، وقال الزجاج وغيره معناه مزدوجين ذكراً وأنثى، و«السبات»: السكون، وسبت الرجل معناه استراح واتدع وترك الشغل، ومنه السبات وهي علة معروفة سميت بذلك لأن السكون والسكوت أفرط على الإنسان حتى صار ضاراً قاتلاً، والنوم شبيه به إلا في الضرر، وقال أبو عبيدة: «سباتاً» قطعاً للأعمال والتصرف، والسبت: القطع ومنه سبت الرجل رأسه إذا قطع شعره، ومنه النعال السبئية وهي التي قطع عنها الشعر، و«لباساً» مصدر: وكان الميل كذلك من حيث يغشي الأشخاص، فهي تلبسه وتتدرعه، وقال بعض المتأولين: جعله «لباساً» لأنه يطمس نور الأبصار، ويلبس عليها الأشياء والتصريف يضعف هذا القول، لأنه كان يجب أن يكون ملابساً، ولا يقال «لباساً» إلا من لبس الثياب «والنهار معاشاً» على حذف مضاف أو على النسب، وهذا كما تقول ليل نائم، و«السبع الشداد»: السموات. والأفصح في لفظة السماء التأنيث ووصفها بالشدة، لأنه لا يسرع إليها فساد لو شاققتها، و«السراج»: الشمس، و«الوهاج»: الحار المضطرم الاتقاد المتعالي اللهب، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: إن الشمس في السماء الرابعة إلينا طهرها ولهبها مضطرم علواً. واختلف الناس في «المعصرات»، فقال الحسن بن أبي الحسن وأبي بن كعب وابن جبير وزيد بن أسلم ومقاتل وقتادة: هي السموات. وقال ابن عباس وأبو العالية والربيع والضحاك: «المعصرات» السحاب القاطرة، وهو مأخوذ من العصر، لأن السحاب ينصرف فيخرج منه الماء وهذا قول الجمهور وبه فسر عبيد الله بن الحسن بن محمد العنبري القاضي بيت حسان: [الكامل]

كلتاها حلب العصير

وقال بعض من سميت هي السحاب التي فيها الماء تمطر كالمرأة المعصر وهي التي دنا حيضها ولم تحض بعد، وقال ابن الكيسان: قيل للسحاب معصرات من حيث تغيث فهي من المعصرة ومنه قوله تعالى: ﴿وفيه يعصرون﴾ [يوسف: ٤٩]. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: «المعصرات» الرياح، لأنها تعصر السحاب، وقرأ ابن الزبير وابن عباس والفضل بن عباس وقتادة وعكرمة: «وأنزلنا بالمعصرات»، فهذا يقوي أنه أراد الرياح، و«الثجاج»: السريع الاندفاع كما يندفع الدم عن عروق الذبيحة، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم وقد قيل له: ما أفضل الحج؟ قال: «العج والثج» أراد التضرع إلى الله بالدعاء الجهير

وذبح الهدى، و«الحب»: جنس الحبوب الذي ينتفع به الحيوان، و«النبات»: العشب الذي يستعمل رطباً للإنسان أو بهيمة، فذكر الله تعالى موضع المنفعتين و«ألفافاً» جمع لف بضم اللام، ولف جمع لفاء. والمعنى ملتفات الأغصان والأوراق، وذلك موجود مع النظرة والري، وقال جمهور اللغويين «ألفافاً» جمع لف بكسر اللام، واللف: الجنة الملتفة بالأغصان، وقال الكسائي: «ألفافاً»، جمع ليف. وقد قال الشاعر: [الطويل]

أحايش ألفاف تباين فرعهم وجذهم عن نسبة المتقرب

قوله عز وجل:

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُفْعَفُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَنَابًا ﴿٢٢﴾ لِيَبْثِثَ فِيهَا أَهْقَابًا ﴿٢٣﴾

﴿يوم الفصل﴾ هو يوم القيامة، لأن الله تعالى يفصل فيه بين المؤمنين والكافرين، وبين الحق والباطل. و«الموقات» مفعال من الوقت، كميعاد من الوعد، وقوله: «يوم ينفخ» بدل من اليوم الأول، و«الصور»: القرن الذي ينفخ فيه لبعث الناس. هذا قول الجمهور، ويحتمل هذا الموضع أن يكون «الصور» فيه جمع صورة أي يوم يرد الله فيه الأرواح إلى الأبدان، هذا قول بعضهم في «الصور» وجوزه أبو حاتم، والأول أشهر وبه تظاهرت الآثار، وهو ظاهر كتاب الله تعالى في قوله «ثم نفخ فيه أخرى» [الزمر: ٦٨].

وقرأ أبو عياض «في الصور» بفتح الواو، و«الأفواج»: الجماعات يتلو بعضها بعضاً، واحدها فوج، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر وشيبة والحسن: «وفتحت»، بشد التاء على المبالغة، وقرأ عاصم وحزمة والكسائي: «وفتحت» دون شد. وقوله تعالى: «فكانت أبواباً» قيل معناه: تنفطر وتنشق حتى يكون فيها فتوح كالأبواب في الجدارات، وقال آخرون فيما حكى مكي بن أبي طالب: الأبواب هنا فلق الخشب التي تجعل أبواباً لفتوح الجدارات أي تنقطع السماء قطعاً صغيراً حتى تكون كألواح الأبواب.

والقول الأول أحسن، وقال بعض أهل العلم: تفتتح في السماء أبواب للملائكة من حيث يصعدون وينزلون. وقوله تعالى: «فكانت سراباً» عبارة عن تلاشيها وفنائها بعد كونها هباء منبثاً، ولم يرد أن الجبال تعود تشبه الماء على بعد من الناظر إليها، و«مرصاداً»: موضع الرصد، ومنه قوله تعالى: «إن ربك لبالمرصاد» [الفجر: ١٤]، وقد روي عن الحسن بن أبي الحسن أنه قال: «لا يدخل أحد الجنة حتى يجوز على جهنم، فمن كانت عنده أسباب نجا وإلا هلك». وقال قتادة: تعلمن أنه لا سبيل إلى الجنة حتى تقطع النار، وفي الحديث الصحيح: «إن الصراط جسر ينصب على متن جهنم ثم يجوز عليه الناس فجاج ومكردس»، وقال بعض المتأولين: «مرصاداً» مفعال بمعنى راصد، وقرأ أبو معمر المنقري: «أن جهنم» بفتح الألف والجمهور: على كسرهما، و«الطاغون»: الكافرون، و«المآب»: المرجع،

و «الأحقاب»: جمع حقب بفتح القاف، وحِقب: بكسر الحاء، وحَقَب: بضم القاف، وهو جمع حقبه ومنه قول متمم: [الطويل]

وكنا كندماني جذيمة حقبه من الدهر حتى قيل لن تصدعا

وهي المدة الطويلة من الدهر غير محدودة، ويقال للسنة أيضاً حقبه، وقال بشر بن كعب: خذها على ما ورد في الكتب المنزلة ثلاثمائة سنة، وقال هلال الهجري: ثمانون سنة قالاً في كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً، كل يوم من ألف سنة. وقال ابن عباس وابن عمر: الحقب ستون ألف سنة، وقال الحسن: الحقب سبعون ألف سنة، وقيل: خمسون ألف سنة، وقال أبو أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم: إنه ثلاثون ألف سنة وكثر الناس في هذا اللازم أن الله تعالى أخبر عن الكفار أنهم يلبثون ﴿أحقاباً﴾ كلما مر حقب جاء غيره إلى ما لا نهاية، قال الحسن: ليس لها عدة إلا الخلود في النار، ومن الناس من ظن لذكر الأحقاب أن مدة العذاب تنحصر وتتم فطلبوا التأويل لذلك، فقال مقاتل بن حيان: الحقب سبعة عشر ألف سنة، وهي منسوخة بقوله تعالى: ﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾ [النبأ: ٣٠]، وقد ذكرنا فساد هذا القول، وقال آخرون الموصوفون باللبث ﴿أحقاباً﴾ عصاة المؤمنين، وهذا أيضاً ضعيف ما بعده في السورة يدل عليه، وقال آخرون: إنما المعنى: ﴿لابثين فيها أحقاباً﴾ غير ذائقين برداً ولا شراباً، فهذه الحال يلبثون أحقاباً ثم يبقى العذاب سرمداً وهم يشربون أشربة جهنم، وقرأ الجمهور «لابثين»، وقرأ حمزة وحده وابن مسعود وعلقمة وابن وثاب وعمر بن ميمون وعمر بن شرحبيل وابن جبير: «لبثن» جمع لبث، وهي قراءة معترضة لأن فعلاً إنما يكون فيما صار خلقاً كحذر وفرق، وقد جاء شاذاً فيما ليس بخلق وأنشد الطبري وغيره في ذلك بيت لبيد: [الكامل]

أو مسحل عمل عضادة سمحج بسراته ندب له وكلوم

قال المعترض في القراءة: لا حجة في هذا البيت لأن عملاً قد صار كالخلق الذي واظب على العمل به حتى أنه ليسمى به في وقت لا يعمل فيه كما تقول كاتب لمن كانت له صناعة وإن لم يكتب أكثر أحيانه، قال المحتج لها: شبه لبث بدوامه بالخلق لما صار اللبث من شأنه.

قوله عز وجل:

لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حِمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ أَخْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾

قال أبو عبيدة والكسائي والفضل بن خالد ومعاذ النحوي: «البرد» في هذه الآية: النوم، والعرب

نسمه بذلك لأنه يبرد سؤر العطش، ومن كلامهم منع البرد البرد، وقال جمهور الناس: «البرد» في الآية: مسر الهواء البارد وهو القر، أي لا يمسهم منه ما يستلذ ويكسر غرب الحر، فالذوق على هذين القولين مستعار، وقال ابن عباس: «البرد»: الشراب المستلذ، ومنه قول حسان بن ثابت: [الكامل]

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

ومنه قول الآخر: [الطويل]

أماني من سعدى حسان كأنما سقتني بها سعدى على ظمأ بردا

ثم قال تعالى: ﴿ولا شرباً إلا حميماً﴾ فالاستثناء متصل و«الحميم»: الحار الذائب وأكثر استعماله في الماء السخن والعرق ومنه الحمام، وقال ابن زيد: «الحميم»: دموع أعينهم، وقال النقاش: ويقال «الحميم»: الصفر المذاب المتناهي الحر، واختلف الناس في «الغساق»، فقال قتادة والنخعي وجماعة: هو ما يسيل من أجسام أهل النار من صديد ونحوه، يقال: غسق الجرح: إذا سال منه قيح ودم، وغسقت العين: إذا دمعت وإذا خرج قذاها، وقال ابن عباس ومجاهد: «الغساق»: مشروب لهم مفرط الزمهرير، كأنه في الطرف الثاني من الحميم يشوي الوجه ببرده. وقال عبد الله بن بريدة: «الغساق»: المتنن، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر وعاصم وجماعة من الجمهور: «غساقاً»، بتخفيف السين وهو اسم على ما قدمناه، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وابن أبي إسحاق السبيعي والحكم بن عتبة وقاتدة وابن وثاب: «غساقاً» مشددة السين وهي صفة أقيمت مقام الموصوف، كأنه قال ومشروب غساق أي سائل من أبدانهم، وقوله تعالى: ﴿وفاقاً﴾ معناه لأعمالهم وكفرهم أي هو جزاؤهم الجدير بهم الموافق مع التحذير لأعمالهم فهي كفر، و«الجزاء»: نار، و«يرجون» قال أبو عبيدة وغيره: معناه: يخافون، وقال غيره: الرجاء هنا على بابه، ولا رجاء إلا وهو مقترن بخوف ولا خوف إلا وهو مقترن برجاء، فذكر أحد القسمين لأن المقصد العبارة عن تكذيبهم كأنه قال: إنهم كانوا لا يصدقون بالحساب، فلذلك لا يرجونه ولا يخافونه، وقرأ جمهور الناس: «كُذَّاباً» بشد الذال وكسر الكاف وهو مصدر بلغة بعض العرب، وهي يمانية ومنه قول أحدهم وهو يستفتي:

ألحلق أحب إليك أم القصار؟

ومنه قول الشاعر: [الطويل]

لقد طال ما ثبطتني عن صحابي وعن حاجة قضاؤها من شفائيا

وهذا عندهم مصدر من فقل، وقال الطبري: لم يختلف القراء في هذا الموضع في «كُذَّاباً».

قال القاضي أبو محمد: وأراه أراد السبعة، وأما في الشاذ، فقرأ علي بن أبي طالب وعوف الأعرابي وعيسى والأعمش وأبو رجاء: «كُذَّاباً» بكسر الكاف وبخفيف الذال، وقرأ عبد الله بن عمر بن عبد العزيز: «كُذَّاباً» بضم الكاف وشد الذال على أنه جمع كاذب ونصبه على الحال قاله أبو حاتم. وقوله تعالى: ﴿وكل شيء أحصيناه﴾، يريد كل شيء شأنه أن يحضر في هذا الخبر وربط لآخر القصة بأولها أي هم مكذبون

وكافرون، ونحن قد أحصينا، فالقول لهم في الآخرة ﴿ذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾ رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولما ذكر تعالى أمر أهل النار عقب بذكر أهل الجنة لبيان الفرق. و«المفاز»: موضع الفوز لأنهم زحزحوا عن النار وأدخلوا الجنة. و«الحداث»: البساتين التي عليها حلق وجدارات وحظائر. و«أتراباً» معناه: على سن واحدة، والتربان هما اللذان مسا التراب في وقت واحد، و«الدهاق»: المترعة فيما قال الجمهور، وقال ابن جبير معناه: المتتابعة وهي من الدهق، وقال عكرمة: هي الصفية، وفي البخاري قال ابن عباس: سمعت أبي في الجاهلية يقول للساقى: اسقنا كأساً دهاقاً، و«اللغو»: سقط الكلام وهو ضروب، وقد تقدم القول في ﴿كذاباً﴾ إلا أن الكسائي من السبعة قرأ في هذا الموضع «كذاباً» بالتخفيف وهو مصدر، ومنه قول الأعشى: [مجزوء الكامل]

فصدقتها وكذبتها والمرء ينفعه كذابه

واختلف المتأولون: في قوله: ﴿حساباً﴾، فقال جمهور المفسرين واللغويين معناه: محسباً، كافياً في قولهم أحسبني هذا الأمر أي كفاني، ومنه حسبي الله، وقال مجاهد معناه: إن ﴿حساباً﴾ معناه بتقسط على الأعمال لأن نفس دخول الجنة برحمة الله وتفضله لا بعمل، والدرجات فيها والنعيم على قدر الأعمال، فإذا ضاعف الله لقوم حسناتهم بسبعمئة مثلاً ومنهم الكثير من الأعمال والمقل أخذ كل واحد سبعمئة بحسب عمله وكذلك في كل تضعيف، فالحساب ها هو موازنة أعمال القوم. وقرأ الجمهور «جِسَاباً»: بكسر الحاء وتخفيف السين المفتوحة، وقرأ ابن قطب «حَسَاباً»: بفتح الحاء وشد السين، قال أبو الفتح جاء بالاسم من أفعل على فعال، كما قالوا أدرك فهو: دراك، فقرأ ابن عباس وسراج: «عطاء حسناً» بالنون من الحسن وحكى عنه المهدوي أنه قرأ «حَسْباً» بفتح الحاء وسكون السين وبالياء، وقرأ شريح بن يزيد الحمصي: «جِسَاباً» بكسر الحاء وشد السين المفتوحة، وقرأ نافع وأبو عمرو والأعرج وأبو جعفر وشيبة وأهل الحرمين: «رَبُّ» بالرفع، وكذلك «الرحمن»، وقرأ ابن عامر وعاصم وابن مسعود وابن أبي إسحاق وابن محيصن والأعمش «رب» وكذلك «الرحمن» وقرأ حمزة والكسائي «رَبُّ»: بالخفض و«الرحمن» بالرفع وهي قراءة الحسين وابن وثاب وابن محيصن بخلاف عنه ووجوه هذه القراءات بينة، وقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ الضمير للكفار أي ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ من أفضاله وأجماله أن يخاطبوه بمعذرة ولا غيرها، وهذا في موطن خاص.

قوله عز وجل:

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَتَابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا ﴿٤٠﴾

اختلف الناس في ﴿الروح﴾ المذكورة في هذا الموضع، فقال الشعبي والضحاك: هو جبريل عليه السلام ذكره خاصة من بين الملائكة تشريقاً، وقال ابن مسعود: هو ملك كريم أكبر الملائكة خلقه يسمى

ب ﴿الروح﴾، وقال ابن زيد: كان أبي يقول هو القرآن، وقد قال الله تعالى: ﴿أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ [الشورى: ٥٢] أي من أمرنا.

قال القاضي أبو محمد: فالقيام فيه مستعار يراد ظهوره ومثول آثاره، والأشياء الكائنة عن تصديقه أو تكذيبه ومع هذا ففي القول قلق، وقال مجاهد: ﴿الروح﴾ خلق على صورة بني آدم يأكلون ويشربون، وقال ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم: «الروح خلق غير الملائكة لهم حفظة للملائكة كما الملائكة حفظة لنا»، وقال ابن عباس والحسن وقتادة: ﴿الروح﴾ هنا اسم جنس: يراد به أرواح بني آدم والمعنى يوم تقوم الروح في أجسادها إثر البعث والنشأة الآخرة، ويكون الجميع من الإنس والملائكة ﴿صفاً﴾ ولا يتكلم أحد هيبه وفزعاً ﴿إلا من أذن له الرحمن﴾ من ملك أو نبي وكان أهلاً أن يقول ﴿صواباً﴾ في ذلك الموطن، وقال ابن عباس: الضمير في ﴿يتكلمون﴾ عائذ على الناس خاصة و«الصواب» المشار إليه لا إله إلا الله، قال عكرمة أي قالها في الدنيا. وقوله تعالى: ﴿ذلك اليوم الحق﴾ أي الحق كونه ووجوده، وفي قوله: ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه﴾ مكاناً وعد ووعد وتحريض، و«المآب»: المرجع وموضع الأوبة، والضمير الذي هو الكاف والميم في ﴿أنذركم﴾ هو لجميع العالم وإن كانت المخاطبة لمن حضر النبي صلى الله عليه وسلم من الكفار، و«العذاب القريب»: عذاب الآخرة، ووصفه بالقرب لتحقق وقوعه وأنه آت وكل آت قريب والجميع داخل في النذارة منه، ونظر المرء إلى ﴿ما قدمت يداه﴾ من عمل قيام الحجة عليه، وقال ابن عباس: ﴿المرء﴾ هنا المؤمن، وقرأ ابن أبي إسحق: «المرء» بضم الميم وضعفها أبو حاتم، وقوله تعالى: ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾ قيل إن هذا تمن أن يكون شيئاً حقيراً لا يحاسب ولا يلتفت إليه، وهذا قد نجاه في الخائفين من المؤمنين فقد قال عمر بن الخطاب: ليتني كنت بكرة، وقال أبو هريرة وعبد الله بن عمر: إن الله تعالى يحضر البهائم يوم القيامة فيقتص لبعضها من بعض ثم يقول لها من بعد ذلك: كوني تراباً، فيعود جميعها تراباً، فإذا رأى الكافر ذلك تمنى مثله، قال أبو القاسم بن حبيب: رأيت في بعض التفاسير أن ﴿الكافر﴾ هنا إبليس إذا رأى ما حصل للمؤمنين من بني آدم من الثواب قال: ﴿يا ليتني كنت تراباً﴾، أي كآدم الذي خلق من تراب واحتقره هو أولاً.

نجز تفسير سورة ﴿النبأ﴾ والحمد لله حق حمده.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

وهي مكية بإجماع من المتأولين.

قوله عز وجل:

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّشِيطَاتِ شُطًّا ﴿٢﴾ وَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّيِّدَاتِ سَبَقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَيْنَا الْمَرْدُودُونَ فِي الْخَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَيْنَا ذَا كُنَّا عِظْمًا فَنُحْرَةً ﴿١١﴾

قال ابن مسعود وابن عباس: ﴿النازعات﴾، الملائكة تنزع نفوس بني آدم، و﴿غرقًا﴾ على هذا القول إما أن يكون مصدر بمعنى الإغراق والمبالغة في الفعل، وإما أن يكون كما قال علي وابن عباس: تغرق نفوس الكفرة في نار جهنم، وقال السدي وجماعة: ﴿النازعات﴾: النفوس تنزع بالموت إلى ربها، و﴿غرقًا﴾ هنا بمعنى الإغراق أي تغرق في الصدر، وقال عطاء فيما روي عنه: ﴿النازعات﴾، الجماعات النازعات بالقسي، و﴿غرقًا﴾ بمعنى الإغراق، وقال الحسن وقتادة وأبو عبيدة وابن كيسان والأخفش: ﴿النازعات﴾: النجوم لأنها تنزع من أفق إلى أفق، وقال قتادة: ﴿النازعات﴾، النفوس التي تحن إلى أوطانها وتنزع إلى مذهبها ولها نزاع عند الموت، وقال مجاهد: ﴿النازعات﴾ المنايا لأنها تنزع نفوس الحيوان، وقال عطاء وعكرمة: ﴿النازعات﴾ القسي أنفسها لأنها تنزع بالسهم. واختلف المتأولون في ﴿الناشطات﴾، فقال ابن عباس ومجاهد: هي الملائكة لأنها تنشط النفوس عند الموت، أي تحلها كحل العقال وتنشط بأمر الله أي حيث كان، وقال مجاهد: ﴿الناشطات﴾: المنايا، وقال ابن عباس أيضاً وقتادة والأخفش والحسن: ﴿الناشطات﴾ النجوم لأنها تنشط من أفق إلى أفق، أي تذهب وتسير بسرعة، ومن ذلك قبل البقر الوحش الناشط لأنهم يذهبن بسرعة من موضع إلى آخر، وقال عطاء: ﴿الناشطات﴾ في الآية: البقرة الوحشية وما جرى مجراها من الحيوان الذي ينشط من قطر إلى قطر، ومن هذا المعنى قول الشاعر [همان بن قحافة]: [الرجز]

أرى همومي تنشط المناشط الشام بي طوراً وطوراً واسطاً

وكأن هذه اللفظة في هذا التأويل مأخوذة من النشاط، وقال عطاء أيضاً وعكرمة: ﴿الناشطات﴾ الأوهان. ويقال: نشطت البعير والإنسان إذا ربطته ونشطته: إذا حللته، وحكاه الفراء وخولف فيه ومنه

الحديث «كأنما أنشط من عقال»، وقال ابن عباس أيضاً: ﴿الناشطات﴾ النفوس المؤمنة تنشط عند الموت للخروج، و«السبح»: العوم في الماء، وقد يستعمل مجازاً في خرق الهواء والتقلب فيه، واختلف في ﴿السابحات﴾ في الآية، فقال قتادة والحسن: هي النجوم لأنها تسبح في فلك، وقال مجاهد وعلي رضي الله عنه: هي الملائكة لأنها تتصرف في الآفاق بأمر الله تجيء وتذهب، وقال أبو روق: ﴿السابحات﴾: الشمس والقمر والليل والنهار، وقال بعض المتأولين: ﴿السابحات﴾: السماوات، لأنها كالعائمة في الهواء، وقال عطاء وجماعة: ﴿السابحات﴾: الخيل، ويقال للفرس: سابح، وقال آخرون: ﴿السابحات﴾ الحيتان، دواب البحر فما دونها وذلك من عظيم المخلوقات، فروي أن الله تعالى بث في الدنيا ألف نوع من الحيوان، منها أربعمائة في البر وستمائة في البحر، وقال عطاء أيضاً: ﴿السابحات﴾: السفن، وقال مجاهد أيضاً: ﴿السابحات﴾: المنيا تسبح في نفوس الحيوان. واختلف الناس في ﴿السابحات﴾، فقال مجاهد: هي الملائكة، وقيل الرياح، وقال عطاء هي الخيل، وقيل: النجوم، وقيل المنيا تسبق الآمال، وقال الشاعر [عدي بن زيد]: [الخفيف]

لا أرى الموت يسبق الموت شيء

وأما ﴿المدبرات﴾، فلا أحفظ خلافاً أنها الملائكة ومعناه أنها تدبر الأمور التي سخرها الله تعالى وصرفها فيها كالرياح والسحاب وسائر المخلوقات، وقال ابن زيد: ﴿الراجعة﴾: الأرض تهتز بأهلها لنفخة الصور الأولى، وقيل ﴿الراجعة﴾: النفخة نفسها، و﴿الرادفة﴾: النفخة الأخرى، ويروى أن بينهما أربعين سنة، وقال عطاء: الراجعة: القيامة نفسها، و﴿الرادفة﴾: البعث، وقال ابن زيد: ﴿الراجعة﴾: الموت، و﴿الرادفة﴾: الساعة. وقال أبي بن كعب: كان النبي صلى الله عليه وسلم الله عليه وسلم إذا ذهب ربيع الليل قام وقال: «يا أيها الناس اذكروا الله، جاءت الراجعة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه»، ثم أخبر تعالى عن قلوب تجف ذلك اليوم، أي ترتعد خوفاً وفرقا من العذاب، ووجيف القلب يكون من الفزع ويكون من الإشفاق، ومنه قول الشاعر قيس بن الحظيم: [المنسرح]

إن بني جحجما وأسرتهم أكبادنا من ورائهم تجف

ورفع ﴿قلوب﴾ بالابتداء وجاز ذلك وهي نكرة لأنها قد تخصصت بقوله: ﴿يومئذ﴾، واختلف الناس في جواب القسم أي هو، فقال الفراء والزجاج: هو محذوف دل الظاهر عليه تقديره: لتبعثن أو لتعاقبن يوم القيامة، وقال بعض النحاة: هو في قوله تعالى: ﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾ [النازعات: ٢٦]، وهذا ضعيف لبعد القول ولأن المعنى هالك يستحق ابن، وقال آخرون: هو في قوله ﴿يوم﴾ على تقدير حذف اللام كأنه قال ليوم، وقال آخرون: وهو موجود في جملة قوله تعالى: ﴿يوم ترجف الراجعة قلوب يومئذ راجفة﴾ كأنه قال: لتجفن قلوب يوم كذا، ولما دلت على أصحابها ذكر بعد ذلك أبصارها، وخشوعها ذلها، وما يظهر فيها من الهم بالحال، وقوله تعالى: ﴿يقولون﴾ هي حكاية حالهم في الدنيا، معناه: هم الذين يقولون وقولهم ﴿أئنا﴾ هو على جهة الاستخفاف والعجب والتكذيب، وقرأ ابن أبي إسحاق وابن يعمر: «أئنا» بهمزة ممدودة على الاستفهام، وقرأ جمهور القراء: «أئنا» باستفهام وهمزة

واحدة، و﴿الحافرة﴾ لفظة توقعها العرب على أول أمر رجع إليه من آخره، يقال: عاد فلان في الحافرة، إذا ارتكس في حال من الأحوال ومنه قول الشاعر: [الوافر]

أحافرة على صلح وشيب معاذ الله من سفه وعار

والمعنى: ﴿أثنا لمردودون﴾ إلى الحياة بعد مفارقتها بالموت، وقال مجاهد والخليل: ﴿الحافرة﴾: الأرض فاعلة بمعنى محفورة، وقيل بل هو على النسب أي ذات حفر، والمراد: القبور لأنها حفرت للموتى، فالمعنى: ﴿أثنا لمردودون﴾ أحياء في قبورنا، وقال زيد بن أسلم: ﴿الحافرة﴾ في النار، وقرأ أبو حيوة «في الحفرة» بغير ألف، فقيل: هو بمعنى ﴿الحافرة﴾، وقيل هي الأرض الممتنة المتغيرة بأجساد موتاهم من قولهم حفرت أسنانه إذا تأكلت وتغير ريحها، و«الناخرة»: المصوتة بالريح المجوفة، ومنه قول الشاعر: [الطويل]

وأخليتها من مخها فكأنها قوارير في أجوافها الريح تنخر

ويروى تصفر وناخرة، هي قراءة حمزة وعاصم في رواية أبي بكر وعمر بن الخطاب وابن مسعود وأبي بن كعب وابن عباس وابن الزبير ومسروق ومجاهد وجماعة سواهم، وقرأ الباقر وحفص عن عاصم وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وابن مسعود والحسن والأعرج وأبو رجاء وجعفر وشيبة وأبو عبد الرحمن وابن جبير وأهل مكة وشبل وقتادة وأيوب والنخعي: «نخرة»، دون ألف بعد النون، ومعناه: بالية متعفنة قد صارت رميمًا، يقال: نخر العود والعظم: إذا بلي وصارت يفتت، وحكي عن أبي عبيدة وأبي حاتم والفراء وغيرهم أن الناخرة والنخرة بمعنى واحد كطامع وطمع وحاذر وحذر، والأكثر من الناس على ما قدمناه. قال أبو عمرو بن العلاء: «الناخرة» التي لم تنخر بعد والنخرة التي قد بليت.

قوله عز وجل:

قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَنتَكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَرْكَأَ ﴿١٨﴾ وَاهْدِيكَ إِلَىٰ رِيكِ فَخْشٍ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ سَعًى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَارُبُكُمْ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾

ذكر الله تعالى عنهم قولهم: ﴿تلك إذا كرة خاسرة﴾ وذلك أنهم لتكذيبهم بالبعث، وإنكارهم، قالوا: لو كان هذا حقًا، لكانت كرتنا ورجعتنا خاسرة وذلك لهم إذ هي النار، وقال الحسن: ﴿خاسرة﴾ معناه: كاذبة أي ليست بكائنة، وروي أن بعض صناديد مكة قال ذلك، ثم أخبر الله تعالى عن حال القيامة، فقال ﴿فإنما هي زجرة واحدة﴾، أي نفخة في الصور فإذا الناس قد نشروا وصاروا أحياء على وجه الأرض، وفي قراءة عبد الله «فإنما هي رقة واحدة»، و﴿الساهرة﴾: وجه الأرض، ومنه قول أمية بن أبي الصلت: [الوافر]

وفيها لحم ساهرة وبحر وما فاهوا به فلهم مقيم

وقال وهب بن منبه: ﴿الساهرة﴾: جبل بالشام يمدّه الله لحشر الناس يوم القيامة كيف شاء، وقال أبو العالية وسفيان: ﴿الساهرة﴾: أرض قرية من بيت المقدس، وقال قتادة: ﴿الساهرة﴾: جهنم، لأنه لا نوم لمن فيها وقال ابن عباس: ﴿الساهرة﴾: أرض مكة، وقال الزهري: ﴿الساهرة﴾: الأرض كلها، ثم وقف تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم على جهة جمع النفس لتلقي الحديث، فقال: ﴿هل أتاك حديث موسى﴾ الآية، و«الوادي المقدس»: واد بالشام، قال منذر بن سعيد: هو بين المدينة ومصر، وقرأ الحسن بن أبي الحسن والأعمش وابن إسحاق: «طوى» بكسر الطاء منونة، ورويت عن عاصم، وقرأ الجمهور: «طوى» بضمها، وأجرى بعض القراء «طوى» وترك إجراءه ابن كثير وأبو عمرو ونافع وجماعة، وقد تقدم شرح اللفظة في سورة طه. وقوله تعالى: ﴿أذهب إلى فرعون﴾ تفسير النداء الذي ناداه به، ويحتمل أن يكون المعنى قال ﴿أذهب﴾ وفي هذه الألفاظ استدعاء حسن، وذلك أنه أمر أن يقول به: ﴿هل لك أن تزكى﴾، وهذا قول جواب كل عاقل عنده نعم أريد أن أتزكى، والتزكى هو التطهر من النقائص، والتلبس بالفضائل، وفسر بعضهم: ﴿تزكى﴾ بتسلم وفسرها بقول: لا إله إلا الله، وهذا تخصيص وما ذكرناه يعم جميع هذا، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بخلاف عنه: «تزكى» بشد الزاي، وقرأ الباقون: «تزكى» بتخفيف الزاي، ثم أمر موسى أن يفسر له التزكى الذي دعاه إليه بقوله: ﴿وأهديك إلى ربك فتخشى﴾، والعلم تابع للهدى والخشية تابعة للعلم، ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ [فاطر: ٢٨]، و﴿الآية الكبرى﴾: العصا واليد، قاله مجاهد وغيره، وهما نصب موسى للتحدى فوقعت المعارضة في الواحدة وانقلب فيها فريق الباطل. وقال بعض المفسرين: ﴿أدبر يسمي﴾ حقيقة قام من موضعه مولياً فأراً بنفسه عن مجالسة موسى عليه السلام، وقال مجاهد: ﴿أدبر﴾ كناية عن إعراضه عن الإيمان، و﴿يسمي﴾ معناه: يتحذم حل أمر موسى عليه السلام والرد في وجه شرعه، وقوله ﴿فحشر﴾ معناه: جمع أهل مملكته ثم ناداهم بقوله: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾. وروي عن ابن عباس أنه قال: المعنى: فنادى فحشر، وقوله: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ نهاية في المخرفة ونحوها باق في ملوك مصر وأتباعهم.

قوله عز وجل:

فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٢٦﴾ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ حَقْلًا أَمِ السَّمَاءُ بَنُنَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَعَاكُمْ فَبَسُوهُنَّهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مِّنْعَالِكُمْ لِأَنْتُمْ كُرُّ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَنْذَكُرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٥﴾ وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى ﴿٣٦﴾

﴿نكال﴾ منصوب على المصدر، قال قوم ﴿الآخرة﴾ قوله: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ [القصص: ٣٨]، و﴿الأولى﴾ قوله: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ [النازعات: ٢٤]، وروي أنه مكث بعد قوله:

﴿أنا ربكم الأعلى﴾ [النازعات: ٢٤] أربعين سنة، وقيل هذه المدة بين الكلمتين، وقال ابن عباس: ﴿الأولى﴾ قوله: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ [القصص: ٣٨]، و﴿الآخرة﴾ قوله: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ [النازعات: ٢٤]. وقال أبو زيد: ﴿الأولى﴾ كفره وعصيانه، و﴿الآخرة﴾ قوله: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ [النازعات: ٢٤] وقال ابن زيد: ﴿الأولى﴾ الدنيا، و﴿الآخرة﴾: الدار الآخرة، أي أخذه الله بعذاب جهنم وبالعرق في الدنيا، وقال مجاهد: عبارة عن أول معاصيه وكفره وآخرها أي نكل بالجميع، و﴿نكال﴾ نصب على المصدر، والعامل فيه على رأي سيبويه «أخذ» لأنه في معناه، وعلى رأي أبي العباس المبرد فعل مضمّر من لفظ ﴿نكال﴾، ثم وقف تعالى على موضع العبرة بحال فرعون وتعذيبه، وفي الكلام وعيد للكفار المخطئين برسالة محمد عليه السلام، ثم وقفهم مخاطبة منه تعالى للعالم والمقصد الكفار، ويحتمل أن يكون المعنى: قل لهم يا محمد ﴿أنتم أشد خلقاً﴾ الآية، وفي هذه الآية دليل على أن بعث الأجساد من القبور لا يتعذر على قدرة الله تعالى، و﴿السمك﴾: الارتفاع الذي بين سطح السماء الأسفل الذي يلينا وسطحها الأعلى الذي يلي ما فوقها، وقوله تعالى: ﴿فسواها﴾ يحتمل أن يريد جعلها ملساء مستوية ليس فيها مرتفع ومنخفض، ويحتمل أن يكون عبارة عن إتقان خلقها ولا يقصد معنى إملاس سطحها والله تعالى أعلم كيف هي. و﴿وأغطش﴾ معناه: أظلم، والأغطش الأعمى ومنه قول الشاعر [الأعشى]: [المتقارب]

نحرت لهم موهناً ناقتي وليلهم مدلهم غطش

ونسب الليل والضحي إلهها من حيث هما ظاهران منها وفيها، وقوله تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ متوجه على أن الله تعالى خلق الأرض ولم يدحها، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فخلقها وبنهاها، ثم دحا الأرض بعد ذلك، وقرأ مجاهد: و«الأرض مع ذلك»، وقال قوم: إن «بعد ذلك» معناه مع ذلك، والذي قلناه ترتب عليه آيات القرآن كلها، ونسب الماء والمرعى إلى الأرض حيث هما يظهران فيها، ودحو الأرض بسطها ومنه قول أمية بن أبي الصلت: [الكامل]

دار دحاها ثم أسكننا بها وأقام بالأخرى التي هي أمجد

وقرأ الجمهور: «والأرض» نصباً، وقرأ الحسن وعيسى: و«الأرض» بالرفع، وقرأ الجمهور: و«الجبال» نصباً، وقرأ الحسن وعمر بن عبيد: و«الجبال» رفعاً، و«أرساها» معناه: أثبتها، وجمع هذه النعم إذا تدبرت فهي متاع للناس، و«الأنعام» يتمتعون فيها وبها، وقرأ الجمهور: «متاعاً» بالنصب، وقرأ ابن أبي عبلة: «متاع» بالرفع، و«الطامة الكبرى» هي القيامة، قاله ابن عباس والضحاك، وقال الحسن وابن عباس أيضاً: النفخة الثانية، وقوله: ﴿ما سعى﴾ معناه: ما عمل من سائر عمله، ويتذكر ذلك بما يرى من جزائه، وقرأ جمهور الناس: «ووبرزت» بضم الباء وشد الراء المكسورة، وقرأ عكرمة ومالك بن دينار وعائشة: «ووبرزت» بفتح الباء والراء، وقرأ جمهور الناس: «لمن يرى» بالياء أي لمن يبصر ويحصل، وقرأ عكرمة ومالك بن دينار وعائشة: «لمن ترى» بالتاء أي تراه أنت، فالإشارة إلى كفار مكة أو إشارة إلى الناس، والمقصد كفار مكة، ويحتمل أن يكون المعنى: لمن تراه الجحيم كما قال تعالى: ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد﴾ [الفرقان: ١٢] وقرأ ابن مسعود: «لمن رأى» على فعل ماض.

قوله عز وجل :

فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ
عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ
رَبِّكَ مُنْهَنَهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَهَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوِضَّحَهَا ﴿٤٦﴾

﴿طغى﴾ معناه : تجاوز الحدود التي ينبغي للإنسان أن يقف عندها بأن كفر وآثر الحياة الدنيا على الآخرة لتكذيبه بالآخرة. و﴿المأوى﴾ والمسكن حيث يأوي المرء ويلزم، و﴿مقام ربه﴾ هو القيامة، وإنما المراد مقامه بين يدي ربه، فأضاف المقام إلى الله عز وجل من حيث بين يديه وفي ذلك تفخيم للمقام وتعظيم لهوله وموقعه من النفوس، قال ابن عباس : المعنى خافه عند المعصية فأنتهى عنها، و﴿الهوى﴾ هو شهوات النفس وما جرى مجراها، وأكثر استعماله إنما هو في غير المحمود، قال سهل التستري : لا يسلم من الهوى إلا الأنبياء وبعض الصديقين، وقال بعض الحكماء : إذا أردت الصواب فانظر هواك فخالفه، وقال الفضيل : أفضل الأعمال خلاف الهوى، وقوله تعالى : ﴿يسألونك عن الساعة﴾ الآية نزلت بسبب أن قريشاً كانت تلح في البعث عن وقت الساعة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرهم بها ويتوعدهم بها ويكثر من ذلك، و : ﴿أيان مرساها﴾ معناه : متى ثبوتها ووقت رسوها أي ثبوتها كأنه يسر إلى غاية ما ثم يقف كما تفعل السفينة التي ترسو. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي : «إيان» بكسر الألف. ثم قال لنبيه عليه السلام على جهة التوقيف ﴿فيم أنت من ذكرها﴾ أي من ذكر تحديدها ووقتها أي لست من ذلك في شيء ﴿إنما أنت منذر﴾، وقالت عائشة رضي الله عنها : كان النبي صلى الله عليه وسلم يسأل عن الساعة كثيراً، فلما نزلت هذه الآية انتهى. وقرأ أبو جعفر وعمر بن عبد العزيز وأبو عمرو بخلاف، وابن محيصن والأعرج وطلحة وعيسى : «منذر» بتنوين الراء، وقرأ جمهور القراء : «منذر» بإضافة «منذر» إلى ﴿من﴾، ثم قرب تعالى أمر الساعة بإخباره أن الإنسان عند رؤيته إياها لم يلبث إلا عشية يوم أو بكرة، فأضاف الضحى إلى العشية من حيث هما طرفان للنهار، وقد بدأ بذكر أحدهما فأضاف الآخر إليه تجوزاً وإيجازاً.

نجز تفسير ﴿النازعات﴾ والحمد لله كثيراً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ عَبَسَ

وهي مكية بإجماع المفسرين، قصص هذه السورة التي لا تتفهم السورة إلا به أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد الحرص على إسلام قريش وأشرافهم، وكان يتحفي بدعائهم إلى الله تعالى، فبينما هو يوماً مع رجل من عظمائهم قيل الوليد بن المغيرة المخزومي، وقيل عتبة بن ربيعة، وقيل شبة وقيل العباس، وقيل أمية بن خلف، وقال ابن عباس: كان في جمع منهم فيهم عتبة والعباس وأبو جهل إذ أقبل عبد الله بن أم مكتوم القرشي الفهري من بني عامر بن لؤي وهو رجل أعمى يقوده رجل آخر فأومأ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قائده أن يؤخر عنه ففعل فدفعه عبد الله نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: استدني يا محمد، علمني مما علمك الله، وكان في ذلك كله قطع لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الرجل المذكور من قريش، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قرأ عليه القرآن، ثم قال له: أترى بما أقول بأساً، فكان ذلك الرجل يقول: لا والدمى يعني الأصنام، ويروي: لا والدماء، يعني الذبائح للأصنام، فلما شغب عليه أمر عبد الله بن أم مكتوم عبس وأعرض عنه، وذهب ذلك الرجل فروي أن النبي صلى الله عليه وسلم انصرف إلى بيته فلوى رأسه وشخص بصره، وأنزلت عليه هذه السورة. قال سفيان الثوري: فكان بعد ذلك إذا رأى ابن أم مكتوم بسط له رداءه، وقال له أنس بن مالك: رأيته يوم القادسية وعليه درع ومعه راية سوداء، واستخلفه النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة مرتين.

قوله عز وجل:

عَبَسَ وَنَوَى^١ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى^٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّكَ يُبْرَى^٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعُكَ الذِّكْرَى^٤ أَمَّا مَنْ اسْتَعْجَلَ^٥ فَأَنْتَ لَمْ تَصْدَى^٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَا يَنْزِي^٧ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى^٨ وَهُوَ يَخْشَى^٩ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى^{١٠} كَلَّا إِنَّهَا لَذِكْرَةٌ^{١١} فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ^{١٢} فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ^{١٣} مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ^{١٤} بِأَيْدِي سَفَرَةٍ^{١٥} كِرَامٍ بَرَرَةٍ^{١٦} قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَادْعُهُ^{١٧}

«العبس»: تقطب الوجه واربده عند كراهية أمر، وفي مخاطبته بلفظ ذكر الغائب مبالغة في العتب لأن في ذلك بعض الإعراض، وقال كثير من العلماء وابن زيد وعائشة وغيرها من الصحابة: لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً من الوحي، لكتّم هذه الآيات، وآيات قصة زيد وزينب بنت جحش،

و«التولي»: هنا الإعراض، و«أن»: مفعول من أجله، وقرأ الحسن «أن جاءه» بمدة تقرير وتوقيف والوقف مع هذه القراءة على «تولى» وهي قراءة عيسى. وذكر الله تعالى ابن مكتوم بصفة العمى ليظهر المعنى الذي شأن البشر احتقاره، وبين أمره بذكر ضده من غنى ذلك الكافر، وفي ذلك دليل على أن ذكر هذه العاهات متى كانت المنفعة أو لأن شهرتها تعرف السامع صاحبها دون لبس جائز، ومنه قول المحدثين سلمان الأعمش وعبد الرحمن الأعرج وسالم الأفتس ونحو هذا.

ومتى ذكرت هذه الأشياء على جهة التنقيص فتلك الغيبة، وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة تذكر امرأة، فقالت: إنها القصيرة. فقال لها: لقد قلت كلمة لو مزجت بالبحر لمزجته ثم خاطب تعالى نبيه فقال: «وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنتغه الذكرى» أي وما يطالعك على أمره وعقبى حاله، ثم ابتدأ القول: «لعله يزكى» أي تنمو بركته وتطهره الله وينفعه إيمانه، وأصل «يزكى»: يتزكى، فأدغم التاء في الزاي وكذلك «يذكر»، وقرأ الأعرج: «يذكر» بسكون الذاك وضم الكاف، ورويت عن عاصم، وقرأ جمهور السبعة: «فتنتغه» بضم العين على العطف، وقرأ عاصم وحده والأعرج: «فتنتغه» بالنصب في جواب التمني، لأن قوله «أو يذكر» في حكم قوله: «لعله يزكى»، ثم أكد تعالى عتب نبيه عليه السلام بقوله: «أما من استغنى» أي بماله، و: «تصدى» معناه: تتعرض بنفسك، وقرأ ابن كثير ونافع: «تصدى» بشد الصاد على إدغام التاء، وقرأ الباقر والأعرج والحسن وأبو رجاء وقتادة وعيسى والأعمش: «تصدى» بتخفيف الصاد على حذف التاء وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: «تصدى»، بضم التاء وتخفيف الصاد على بناء الفعل للمجهول، أي تصديق حرصك على هؤلاء الكفار أن يسلموا، تقول: تصدى الرجل وصديته، كما تقول: تكسب وكسبته، ثم قال تعالى محتقراً لشأن الكفار: «وما عليك ألا يزكى» وما يضرك ألا يفلح، فهذا حض على الإعراض عن أمرهم، وترك الاكتراث بهم، ثم قال مبالغاً في العتب: «وأما من جاءك يسعى» أي يمشي، وقيل المعنى: «يسعى» في شؤونه وأمر دينه وتقربه منك، وهو يخشى الله تعالى، «فأنت عنه تلهى»، أي تشتغل، تقول لهيت عن الشيء ألهى إذا اشتغلت وليس من اللهو الذي هو من ذوات الواو، وإما أن المعنى يتداخل، وقرأ الجمهور من القراء: «تلهى» بفتح التاء على حذف التاء الواحدة، وقرأ ابن كثير فيما روي عنه، «تلهى» بالإدغام، وقرأ طلحة بن مصرف: «تلهى» بتاءين، وروي عنه «تلهى» بفتح التاء وسكون اللام وتخفيف الهاء المفتوحة، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: «تلهى» بضم التاء وسكون اللام أي يلهيك حرصك على أولئك الكفار، وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «وما استأثر الله به فآله عنه»، وقوله تعالى في هاتين: «وأما من» فالسبب ما ذكر من كفار قريش وعبد الله بن أم مكتوم، ثم هي بعد تناول من شركهم في هذه الأوصاف، فحمله الشرع والعلم مخاطبون في تقريب الضعيف من أهل الخير وتقديمه على الشريف العاري من الخير، بمثل ما خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم في هذه السورة، ثم قال: «كلا» يا محمد أي ليس الأمر في حقه كما فعلت إن هذه السورة والقراءة التي كنت فيها مع ذلك الكافر «تذكرك» لجميع العالم لا يؤثر فيها أحد دون أحد، وقيل المعنى أن هذه المعتبة تذكرة لك يا محمد ففي هذا التأويل إجلال لمحمد صلى الله عليه وسلم وتأنيس له، وقوله تعالى: «فمن شاء ذكره» يتضمن وعداً ووعيداً على نحو قوله تعالى: «فمن شاء اتخذ

إلى ربه ومآباً ﴿[النبا: ٣٩] وقوله تعالى: ﴿في صحف﴾ يتعلق بقوله: ﴿إنها تذكرة﴾، وهذا يؤيد أن التذكرة يراد بها جميع القرآن، وقال بعض المتأولين: الصحف هنا اللوح المحفوظ، وقيل: صحف الأنبياء المنزل، وقيل: مصاحف المسلمين، واختلف الناس في «السفرة»، فقال ابن عباس: هم الملائكة لأنهم كتبه يقال: سفرت أي كتبت، ومنه السفر، وقال ابن عباس أيضاً: الملائكة سفرة لأنهم يسفرون بين الله تعالى وبين أنبيائه، وقال قتادة: هم القراء وواحد السفرة سافر، وقال وهب بن منبه: هم الصحابة لأنهم بعضهم يسفر إلى بعض في الخبر والتعلم، والقول الأول أرجح، ومن اللفظة قول الشاعر: [الوافر].

وما أدع السفارة بين قسومي وما أسعى بغش إن مشيت

و«الصحف» على هذا صحف عند الملائكة أو اللوح، وعلى القول الآخر هي المصاحف، وقوله تعالى: ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾ دعاء على اسم الجنس وهو عموم يراد به الخصوص، والمعنى: قتل الإنسان الكافر، ومعنى «قتل» أي هو أهل أن يدعى عليه بهذا، وقال مجاهد: «قتل» بمعنى لعن، وهذا تحكم، وقوله تعالى: ﴿ما أكفره﴾ يحتمل معنى التعجب، ويحتمل معنى الاستفهام توقيفاً أي أي شيء «أكفره» أي جعله كافراً، وقيل إن هذه الآية نزلت في عتبة بن أبي لهب، وذلك أنه غاضب أباه فأتى النبي صلى الله عليه وسلم ثم إن أباه استصلحه وأعطاه مالا وجهزه إلى الشام، فبعث عتبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: إني كافر برب النجم إذا هوى، فيروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اللهم ابعث عليه كلبك حتى يأكله»، ويروى أنه قال: «ما يخاف أن يرسل الله عليك كلبه»، ثم إن عتبة خرج في سفرة فجاء الأسد فأكله بين الرفقة.

قوله عز وجل:

مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرُمْ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَانَةً وَأَقْبَرُمْ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرُمْ ﴿٢٢﴾
كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُمُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾
فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَيْنًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَكْهَةً وَأَبَاً ﴿٣١﴾ مَتَّعَلِكُمْ ﴿٣٢﴾ وَلَا نَعْمِكُمْ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿من أي شيء خلقه﴾ استفهام على معنى التقرير على تفاهة الشيء الذي خلق الإنسان منه، وهي عبارة تصلح للتحقير والتعظيم والقرينة تبين الغرض، وهذا نظير قوله: ﴿لأي يوم أجلت ليوم الفصل﴾ [المرسلات: ١٣] واللفظ المشار إليه ماء الرجل وماء المرأة، وقرأ جمهور الناس: «فقدّره» بشد الدال، وقرأ بعض القراء: «فقدّره» بتخفيفها، والمعنى جعله بقدر واحد معلوم من الأعضاء والخلق والأجل وغير ذلك من أنحائه حسب إرادته تعالى في إنسان إنسان، واختلف المتأولون في معنى قوله: ﴿ثم السبيل يسره﴾ فقال ابن عباس وقتادة وأبو صالح والسدي: هي سبيل الخروج من بطن المرأة ورحمها، وقال الحسن ما معناه: إن «السبيل» هي سبيل النظر القويم المؤدي إلى الإيمان، وتيسره له هو هبة العقل، وقال

مجاهد: أراد ﴿السبيل﴾ عامة اسم الجنس في هدى وضلال أي يسر قوماً لهذا كقوله تعالى: ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾ [الإنسان: ٣]، وقوله تعالى: ﴿وهديناه النجدين﴾ [البلد: ١٠] وقوله تعالى: ﴿فأقبره﴾ معناه أمر أن يجعل له قبر، وفي ذلك تكريم لئلا يطرح كسائر الحيوان، والقابر هو الذي يتناول جعل الميت في قبره، والمقبر الذي يأمر بقبر الميت، ويقرره، و﴿أنشره﴾ معناه: أحياء، يقال: نشر الميت وأنشره الله، وقوله: ﴿إذا شاء﴾ يريد إذا بلغ الوقت الذي شاء وهو يوم القيامة، وقرأ بعض القراء: ﴿شاء أنشره﴾ بتحقيق الهمزتين، وقرأ جمهور الناس: ﴿شاء أنشره﴾ بمد وتسهيل الهمزة الأولى، وقرأ شعيب بن أبي حمزة: «شاء نشره»، وقرأ الأعمش: «شاء أنشره» بهمزة واحدة، وقوله تعالى: ﴿كلا لما يقض ما أمره﴾ رد لما عسى أن للكفار من الاعتراضات في هذه الأقوال المسرودة ونفي مؤكدا لطاعة الإنسان لربه وإثبات أنه ترك حق الله تعالى، ولم يقض ما أمره، قال مجاهد: لا يقضي أحد أبداً ما افترض عليه، ثم أمر تعالى الإنسان بالعبرة والنظر إلى طعامه والدليل فيه، وذهب أبي بن كعب وابن عباس والحسن ومجاهد وغيره إلى أن المراد ﴿إلى طعامه﴾ إذا صار رجيحاً ليتأمل حيث تصير عاقبة الدنيا، وعلى أي شيء يتفانى أهلها وتستدير رحاها، وهذا نظير ما روي عن ابن عمر: أن الإنسان إذا أحدث فإن ملكاً يأخذ بناصيته عند فراغه فيرد بصره إلى نحوه موقفاً له ومعجباً فينفع ذلك من له عقل، وذهب الجمهور إلى أن معنى الآية: فليتنظر إلى مطعموماته وكيف يسرها الله تعالى له بهذه الوسائط المذكورة من صب الماء وشق الأرض، ويروى أن رجلاً أضافه عابد فقدم إليه رغيماً فقاراً فكان الرجل استخشنه فقال له: كله فإن الله تعالى لم ينعم به وكمله حتى سخر فيه ثلاثمائة وستين عاملاً الماء والريح والشمس ثلاثة من ذلك، وقرأ عاصم وحزمة والكسائي: «أنا صبيناً» بفتح الألف على البدل وهي قراءة الأعرج وابن وثاب والأعمش، ورد على هذا الإعراب قوم بأن الثاني ليس الأول وليس كما ردوا لأن المعنى: ﴿فليتنظر الإنسان﴾ إلى إنعامنا في طعامه فترتب البدل وصح، «وأنا» في موضع خفض، وقرأ الجمهور: «إنا» بكسر الألف على استئناف تفسير الطعام، وقرأ بعض القراء: «أنى» بمعنى كيف ذكرها أبو حاتم، و«صب الماء»: هو المطر، و«شق الأرض»: هو بالنبات، و«الحب»: جمع حبة بفتح الحاء وهو كل ما يتخذه الناس ويربونه كالقمح والشعير ونحوه، والحبة بكسر الحاء كل ما ينبت من البزور ولا يحفل به ولا هو بمتخذ، و«القضب» قال بعض اللغويين: هي الفصافص، وهذا عندي ضعيف، لأن الفصافص هي للبهايم فهي دخل في الأب، وقال أبو عبيدة: «القضب» الرطبة، قال ثعلب: لأنه يقضب كل يوم. والذي أقوله إن «القضب» هنا هو كل ما يقضب ليأكله ابن آدم، وغضاً من النبات كالبقول والهلثيون ونحوه، فإنه من المطعوم جزء عظيم ولا ذكر له في الآية إلا في هذه اللفظة، والغلب الغلاظ الناعمة، و«الحديقة» الشجر الذي قد أحرق بجدار أو نحوه، و«الأب»: المرعى قاله ابن عباس ومجاهد وابن زيد وقتادة، وقال الضحاك: «الأب»: التبن، وفي اللفظة غرابة وقد توقف في تفسيرها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، و﴿متاعاً﴾ نصب على المصدر، والمعنى تتمتعون به أنتم وأنعامكم، فابن آدم في السبعة المذكورة والأنعام في الأب.

قوله عز وجل:

فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَحْبِهِ وَبَيْنِهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاغِرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قِظَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)

﴿الصاخة﴾: اسم من أسماء القيامة، واللفظة في حقيقتها إنما هي لنفخة الصور التي تصخ الأذان أي تصمها، ويستعمل هذا اللفظ في الداهية التي يصم نبؤها الأذان لصعوبته، وهذه استعارة وكذلك في الصيحة المفرطة التي يصعب وقعها على الأذن، ثم ذكر تعالى فرار المرء من القوم الذين معهودهم أن لا يفرونهم في الشدائد، ثم رتبهم تعالى الأول فالأول محبة وحنواً، وقرأ أبو أناس جوية «من أخيه وأمه وأبيه» بضم الهاء في كلها، وقال منذر بن سعيد وغيره: «هذا الفرار هو خوف من أن يتبع بعضهم بعضاً بتبعات إذ الملابس تعلق المطالبة، وقال جمهور الناس: إنما ذلك لشدة الهول على نحو ما روي أن الرسل يقول يومئذ نفسي نفسي لا أسألك غيري، و«الشأن الذي يغنيه»: هو فكرة في سيئاته وخوفه على نفسه من التخليد في النار، والمعنى «يغنيه» عن اللقاء مع غيره والفكرة في أمره، قال قتادة: أفضى كل إنسان إلى ما يشغله عن غيره. وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة: «لا يضرك في القيامة كان عليك ثياب أم لا»، وقرأ هذه الآية وقال نحوه: لسودة، وقد قالتا: واسواتاه ينظر بعض الناس إلى بعض يوم القيامة، وقرأ جمهور الناس: «يغنيه» بالغين منقوطة وضم الياء على ما فسرناه، وقرأ ابن محيصن والزهري وابن السميع: «يغنيه» بفتح الياء والعين غير منقوطة من قولك عناني الأمر أي قصدني وأردني. ثم ذكر تعالى اختلاف الوجوه من المؤمنين الواقفين برحمة الله حين بدت لهم تبشيرها من الكفار، و«مسفرة»: معناه: نيرة باد ضوؤها وسرورها، و«ترهقها» معناه تلح عليها، و: «الفترة» الغبار و«الغبرة» الأولى إنما هي العبوس والهم كما يرى على وجه المهموم والميت والمريض شبه الغبار، وأما «الفترة»: فغبار الأرض ويقال إن ذلك يغشاها من التراب الذي تعود البهائم، ثم فسر تعالى أصحاب هذه الوجوه المغيرة بأنهم الكفرة قريش يومئذ ومن جرى مجراهم قديماً وحديثاً.

نجز تفسير سورة ﴿عبس﴾ والحمد لله كثيراً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ التَّكْوِينِ

وهي مكية بإجماع من المتأولين.

قوله عز وجل:

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾
وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّلَتْ ﴿٨﴾
إِلَّا بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا
الْحَنَةُ أُرْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرْتَ ﴿١٤﴾

هذه كلها أوصاف يوم القيامة، و«تكوين الشمس»: هو أن تدار ويذهب بها إلى حيث شاء الله كما يدار كور العمامة، وعبر المفسرون عن ذلك بعبارات، فمنهم من قال: ذهب نورها قاله قتادة، ومنهم من قال: رمي بها، قاله الربيع بن خيثم وغير ذلك مما هو أشياء توابع لتكوينها، و«انكدار النجوم»: هو انقضاؤها وهبوطها من مواضعها، ومنه قول الرازي [العجاج]: [الرجز]

أبصر خربان فلاة فانكدر تقضي البازي إذا البازي كسر

وقال ابن عباس: «انكدرت»: تغيرت، من قولهم: ماء كدر، أي متغير اللون، وتسير الجبال هو قبل نسفها، وإنما ذلك في صدر هول القيامة، و: «العشار» جمع عشاء وهي الناقة التي قد مر لحملها عشرة أشهر، وهي أنفس ما عند العرب وتهمهم بها عظيم للرغبة في نسلها، فإنها تعطل عند أشد الأهوال، وقرأ مضر عن اليزيدي: «عطلت» بتخفيف الطاء، و«حشر الوحوش»: جمعها، واختلف الناس في هذا الجمع ما هو؟ فقال ابن عباس: «حشرت» بالموت لا تبعث في القيامة ولا يحضر في القيامة غير الثقلين، وقال قتادة وجماعة: «حشرت» للجمع يوم القيامة، ويقتصر للجماء من القرناء فجعلوا ألفاظ هذا الحديث حقيقة لا مجازاً مثلاً في العدل. وقال أبي بن كعب: «حشرت» في الدنيا في أول هول يوم القيامة فإنها تفر في الأرض وتجتمع إلى بني آدم تأنيساً بهم، وقرأ الحسن: «حشرت» بشد الشين على المبالغة، و«تسجير البحار»، قال قتادة والضحاك معناه: فرغت من مائها وذهب حيث شاء الله وقال الحسن: ييست، وقال الربيع بن خيثم معناه: ملئت، وفاضت وفجرت من أعاليها، وقال أبي بن كعب وابن عباس وسفيان

ووهب وابن زيد: معناه: أضرمت ناراً كما يسجر التنور، وقال ابن عباس: جهنم في البحر الأخضر، ويحتمل أن يكون المعنى ملكت، وقيد اضطرابها حتى لا تخرج على الأرض بسبب الهول فتكون اللفظة مأخوذة من ساجور الكلب، وقيل: هذه مجاز في جهنم، تسجر يوم القيامة وقد تقدم نظير هذه الأقوال منصوبة لأهل العلم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦]. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «سجرت» بتخفيف الجيم، وقرأ الباقون: بشدها، وهي مترجمة بكون البحار جميعاً كما قال ﴿كُتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣]، وكما قال: ﴿صَحْفًا مَّنْشُورًا﴾ [المائدة: ٥٢]، ومثله ﴿قَصْرَ مَشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥] و﴿بُورِجٍ مَّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، لأنها جماعة، وذهب قوم من الملحدين إلى أن هذه الأشياء المذكورة استعارات في كل ابن آدم وأحواله عند موته، والشمس نفسه والنجوم عيناه وحواسه، والعشار ساقاه، وهذا قول سوء وخيم غث ذاهب إلى إثبات الرموز في كتاب الله تعالى، و«تزيوج النفوس»: هو تنويعها، لأن الأزواج هي الأنواع والمعنى: جعل الكافر مع الكافر والمؤمن مع المؤمن وكل شكل مع شكله، رواه النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقاله عمر بن الخطاب وابن عباس، وقال: هذا نظير قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [الواقعة: ٧] وفي الآية على هذا حض على خليل الخبر، فقد قال عليه السلام: «المرء مع من أحب»، وقال: «فلينظر أحدكم من يخال»، وقال الله تعالى: ﴿الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقال مقاتل بن سليمان: زوجت نفوس المؤمنين بزوجاتهم من الحور وغيرهن. وقال عكرمة والضحاك والشعبي: زوجت الأرواح الأجساد، وقرأ عاصم: «زوجت» غير مدغم، و﴿الموءودة﴾: اسم معناه المثلث عليها، ومنه: ﴿وَلَا يُؤْوَدُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ومنه أتاد، أي توقد، وأثقل وعرف هذا الاسم في البنات اللواتي كان قوم من العرب يدفنونهن أحياء يحفر الرجل شبه البر أو القبر ثم يسوق ابنته فيلقبها فيها، وإذا كانت صغيرة جداً أخذ لها في الأرض ودفنها، وبعضهم: كان يفعل ذلك خشية الإملاق وعدم المال، وبعضهم: غيرة وكراهية للبنات وجهالة. وقرأ الجمهور: «الموءودة» بالهمز من وأد في حرف ابن مسعود: «وإذا الموءودة»، وقرأ البزي: «الموءودة» بضم الواو الأولى وتسهيل الهمزة، وقرأ الأعمش: «الموءودة» بسكون الواو على وزن: الفعل، وقرأ بعض السلف: «الموءودة» بفتح الواو والبدال المشددة، جعل البنت موءودة، وقرأ جمهور الناس: «سئلت»، وهذا على جهة التوبيخ للعرب الفاعلين ذلك، لأنها تسأل ليصير الأمر إلى سؤال الفاعل، ويحتمل أن تكون مسؤولة عنها مطلوباً الجواب منهم. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، وكما يسأل التراث والحقوق.

وقرأ ابن عباس وأبي بن كعب وجابر بن زيد وأبو الضحى ومجاهد وجماعة كثيرة منهم ابن مسعود والربيع بن خيثم: «سألت»، ثم اختلف هؤلاء فقرأ أكثرهم: «قَتَلْتُ» بفتح التاء وسكون اللام، وقرأ أبو جعفر: «قَتَلْتُ» بشد التاء على المبالغة، وقرأ ابن عباس وجابر وأبو الضحى ومجاهد: «قَتَلْتُ» بسكون اللام وضم التاء، وقرأ الأعرج والحسن: «سئلت» بكسر السين وفتح اللام دون همز، واستدل ابن عباس بهذه الآية في أن أولاد المشركين في الجنة لأن الله تعالى قد انتصر لهم من ظلمهم، و«الصحف المنشورة»: قيل هي صحف الأعمال تنشر ليقرأ كل امرئ كتابه، وقيل هي

الصحف التي تتطير بالآيمان، والشمال بالجزاء، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر وشيبة والأعرج والحسن وأبو رجاء وقتادة: «نشرت» بتخفيف الشين المكسورة، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحزمة والكسائي: «نشرت» بشد الشين على المبالغة، و«الكشط»: التقشير، وذلك كما يكشط جلد الشاة حين تسليخ، و«كشط السماء»: هو طيها كطي السجل، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: «قشطت» بالقاف وهما بمعنى واحد، و«سعرت» معناه: أضمرت نارها، وقرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم: «سعرت» بشد العين، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحزمة والكسائي وأبو بكر عن عاصم: بتخفيفها وهي قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وقال قتادة: سورها غضب الله تعالى وذنوب بني آدم و«أزلت» الجنة معناه: قربت ليدخلها المؤمنون، وقرأ عمر بن الخطاب وجماعة من المفسرين إلى هذين، انتهى الحديث وذلك أن الغرض المقصود بقوله «وإذا» «وإذا» في جميع ما ذكر إما تم بقوله: «علمت نفس ما أحضرت»، أي ما أحضرت من شر فدخلت به جهنم أو من خير فدخلت به الجنة، و«نفس» هنا اسم جنس، أي عملت النفوس ووقع الأفراد لتنبه الذهن على حقارة المرء الواحد وقلة دفاعه عن نفسه.

قوله عز وجل:

فَلَا أَقْسِمُ بِالْخُنُسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنُسِ ﴿١٦﴾ وَأَلِيلَ إِذَا عَسَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحَ إِذَا انْفَسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ يُطَّلِعُ ثُمَّ آمِينَ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَتَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى: «فلا» إما أم تكون «لا» زائدة، وإما أن يكون رد القول قريش في تكذيبهم بنبوة محمد عليه السلام، وقولهم إنه ساحر وكاهن ونحو ذلك، ثم أقسم الله تعالى «بالخنس الجوار الكنس» فقال جمهور المفسرين: إن ذلك الدراري السبعة: الشمس والقمر وزحل وعطارد والمريخ والزهرة والمشتري، وقال علي بن أبي طالب: المراد الخمسة دون الشمس والقمر. وذلك أن هذه الكواكب تخنس في جريها أي تتقهقر فيما ترى العين، وهو جوار في السماء، وأثبت يعقوب الياء في «الجواري» في الوقف وحذفها الباقون وهي تكنس في أبراجها أي تستتر، وقال علي بن أبي طالب أيضاً والحسن وقتادة: المراد النجوم كلها لأنها تخنس بالنهار حين تختفي، وقال عبد الله بن مسعود والنخعي وجابر بن زيد وجماعة من المفسرين: المراد «بالخنس الجوار الكنس»: بقر الوحش لأنها تفعل هذه الأفعال في كناسها وهي المواضع التي تأوي إليها من الشجر والغيان ونحوه، وقال ابن عباس وابن جبير والضحاك: هي الطباء، وذهب هؤلاء في الخنس إلى أنه من صفة الأنوف لأنها يلزمها الخنس، وكذلك هي بقر الوحش أيضاً ومن ذلك قول الشاعر [الطويل]

سوى نار بض أو غزال صريمة أغن من الخنس المناخر توأم

«وعسعس الليل» في اللغة: إذا كان غير مستحكم الإظلام، وقال الحسن بن أبي الحسن: ذلك في وقت إقباله وبه وقع القسم، وقال زيد بن أسلم وابن عباس ومجاهد وقتادة: ذلك عند إدباره وبه وقع القسم، ويرجح هذا قوله بعد: ﴿والصبح إذا تنفس﴾، فكأنهما حالان متصلتان ويشهد له قول علقمة بن قرط: [الرجز]

حتى إذا الصبح لها تنفساً وانجاب عنها ليلها وعسعسا

وقال المبرد أبو العباس: أقسم بإقباله وإدباره، قال الخليل: يقال عسعس الليل وسعسع إذا أقبل وأدبر، و«تنفس الصبح»: استطار واتسع ضوؤه، وقال علوان بن قس: [الطويل]

وليل دجوجي تنفس فجره لهم بعد أن خالوه لن يتنفسا

والضمير في ﴿إنه﴾ للقرآن، و«الرسول الكريم» في قول جمهور المتأولين: جبريل عليه السلام، وقال آخرون: هو محمد عليه السلام في الآية، والقول الأول أصح، و«كريم» في هذه الآية يقتضي رفع المذام، ثم وصفه بقوة منحه الله إياها، واختلف الناس في تعليق: ﴿عند ذي العرش﴾، فذهب بعض المتأولين إلى تعلقه بقوله: ﴿ذي قوة﴾، وذهب آخرون إلى أن الكلام تم في قوله: ﴿ذي قوة﴾ وتعلق الظرف: بـ ﴿مكين﴾، و«مكين» معناه: له مكانة ورفعة، وقوله تعالى: ﴿مطاع ثم أمين﴾ أي مقبول القول مصدق بقوله مؤتمن على ما يرسل به، ويؤدي من وحي وامثال أمر، وقرأ أبو جعفر: «ثم أمين» بضم الثاء، وذكر الله تعالى نفسه بالإضافة إلى عرشه تنبيهاً على عظم ملكوته، وأجمع المفسرون على أن قوله: ﴿وما صاحبكم﴾ يراد به محمد صلى الله عليه وسلم، والضمير في ﴿رآه﴾: جبريل عليه السلام، وهذه الرؤية التي كانت بعد أمر غار حراء حين رآه على كرسي بين السماء والأرض. وقيل هذه الرؤيا التي رآه عند سدره المنتهى في الإسراء، وسمى ذلك الموضع أفقاً مجازاً، وقد كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم رؤية ثانية بالمدينة، وليست هذه، ووصف الأفق بـ ﴿المبين﴾، لأنه كان بالشرق من حيث تطلع الشمس، قاله قتادة، وأيضاً فكل أفق فهو في غاية البيان، وقوله تعالى: ﴿وما هو على الغيب بضين﴾ بالضاد بمعنى: بخيل أي يشح به، ولا يبلغ ما قيل له، ويبخل كما يفعل الكاهن حتى يعطى حلوانه، وبالضاد هي خطوط المصاحف كلها، فيما قاله الطبري وهي قراءة نافع وعاصم وابن عامر وحمزة وعثمان بن عفان وابن عباس والحسن وأبي رجاء والأعرج وأبي جعفر وشيبة وجماعة وافرة. وقرأ ابن كثير وعمرو والكسائي وابن مسعود وابن عباس وزيد بن ثابت وابن عمر وابن الزبير وعائشة وعمر بن عبد العزيز وابن جبير وعروة بن الزبير ومسلم وابن جندب ومجاهد وغيرهم: «بظنين»، بالطاء أي بمتهم، وهذا في المعنى نظير وصفه بـ ﴿أمين﴾، وقيل معناه: بضعف القوة عن التبليغ من قولهم: بثر ظنون إذا كانت قليلة الماء، ورجح أبو عبيد قراءة: الطاء مشالة لأن قريشاً لم تبخل محمداً صلى الله عليه وسلم فيما يأتي به وإنما كذبت، فقيل ما هو بمتهم، ثم نفى تعالى عن القرآن أن يكون كلام شيطان على ما قالت قريش: إن محمداً كاهن، و«رجيم» معناه: مرجوم مبعد بالكواكب واللعنة وغير ذلك، وقوله تعالى: ﴿فأين

تذهبون» توقيف وتقرير على معنى: أين المذهب لأحد عن هذه الحقائق، و«الذكر» هنا: مصدر بمعنى التذكرة، ثم خصص تعالى من شاء الاستقامة بالذكر تشريفاً وتنبهاً وذكراً لتكسبهم أفعال الاستقامة، ثم بين تعالى أن تكسب المرء على العموم في استقامة وغيرها إنما يكون مع خلق الله تعالى واختراعه الإيمان في صدر المرء، وروى أنه نزل قوله تعالى: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ فقال أبو جهل: هذا أمر قد وكل إلينا، فإن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم، فنزلت ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ يقول الله تعالى: يا ابن آدم: تريد وأريد فتتعب فيما تريد ولا يكون إلا ما أريد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْإِنْفِطَارِ

وهي مكية بإجماع.

قوله عز وجل:

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشَرتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثِرَتْ ﴿٤﴾
عِلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ
فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكْذِبُونَ بِالَّذِينَ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾
كِرَامًا كَنِينِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾

هذه أوصاف يوم القيامة، و«انفطار السماء»: تشققها على غير نظام مقصود إنما هو انشقاق لتزول
بنيتها وانتثار الكواكب سقوطها من مواضعها التي هي فيها كنظام، و«تفجير البحار»: يحتمل أن يكون من
امتلائها فتفجر من أعاليها وتفيض على ما وليها، ويحتمل أن يكون تفجير تفريع، ويحتمل أن يكون
فيضانها، فيذهب الله ماءها حيث شاء، وقيل: فجر بعضها إلى بعض فاختلط العذب بالملح وصارت
واحدًا، وهذا نحو الاختلاف في ﴿سجرت﴾ [التكوير: ٦] في السورة التي قبل، وقرأ مجاهد والربيع بن
خيثم: «فُجِرَتْ» بتخفيف الجيم، و«بعثرة القبور»: نبشها عن الموتى الذين فيها، وقوله تعالى: ﴿عِلِمَتْ
نَفْسٌ﴾ هو جواب ﴿إِذَا﴾، و﴿نَفْسٌ﴾ هنا اسم الجنس وإفرادها لتبين لذهن السامع حقارتها وقتلتها وضعفها
عن منفعة ذاتها إلا من رحم الله تعالى، وقال كثير من المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿مَّا قَدَّمَتْ
وَأَخَّرَتْ﴾ إنها عبارة عن جميع الأعمال لأن هذا التقسيم يعم الطاعات المعمولة والمتروكة وكذلك
المعاصي. وقال ابن عباس والقرظي محمد بن كعب: ﴿مَّا قَدَّمَتْ﴾ في حياتها وما ﴿أَخَّرَتْ﴾ مما سنته
فعمل به بعد موتها، ثم خاطب تعالى جنس ابن آدم على جهة التوبيخ والتنبيه على أي شيء أوجب أن يغتر
بربه الكريم فيعصيه ويجعل له نداءً وغير ذلك من أنواع الكفر وهو الخالق الموجد بعد العدم، وروي أن
النبي صلى الله عليه وسلم قرأ: «جهله» وقاله عمر وقرأ ﴿انه كان ظلوماً جهولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وقال
قتادة: عدوه المسلط عليه، وقال بعض العلماء: غره ستر الله عليه، وقال غيره: غره كرم الله، ولفظة

الكريم تلقن هذا الجواب، فهذا من لطف الله تعالى لعباده العصاة من المؤمنين، وقرأ ابن جبير والأعمش: «ما أغرك» على وزن أفعلك، والمعنى ما دعاك إلى الاغترار أن يكون المعنى تعجباً محضاً، وقرأ الجمهور: «فعدلك» بتشديد الدال، وكان صلى الله عليه وسلم: إذا نظر إلى الهلال، قال: «أمنت بالذي خلقك فسواك فعدلك» لم يختلف الرواة في شد الدال، وقرأ الكوفيون والحسن وأبو جعفر وطلحة والأعمش وأبو رجاء وعيسى بن عبيد: «فعدلك» بتخفيف الدال، والمعنى عدل أعضائك بعضها ببعض أي وازن بينها، وقوله تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكِبَكَ﴾، ذهب الجمهور إلى أن ﴿فِي﴾ متعلقة بـ ﴿رَكِبَكَ﴾، أي في قبيحة أو حسنة أو مشوهة أو سليمة ونحو هذا، وذهب بعض المتأولين إلى أن المعنى ﴿فعدلك﴾، ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ﴾ بمعنى إلى أي صورة حتى قال بعضهم: المعنى: لم يجعلك في صورة خنزير ولا حمار، وذهب بعض المتأولين إلى أن المعنى: الوعيد والتهديد، أي الذي إن شاء ركبك في صورة حمار أو خنزير أو غيره، و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا شَاءَ﴾، زائدة فيها معنى التأكيد، والتركيب والتأليف وجمع الشيء إلى شيء، وروى خارجة عن نافع: «ركبك كلا» بإدغام الكاف في الكاف، ثم رد على سائر أقوالهم ورد عنها بقوله: ﴿كَلَّا﴾، ثم أثبت لهم تكذيبهم بالدين، وهذا الخطاب عام ومعناه الخصوص في الكفار، وقرأ جمهور الناس: «تكذبون» بالتاء من فوق، وقرأ الحسن وأبو جعفر: «يكذبون» بالياء، و﴿الدين﴾ هنا يحتمل أن يريد الشرع، ويحتمل أن يريد الجزاء والحساب. و«الحافظون»: هم الملائكة الذين يكتبون أعمال ابن آدم، وقد وصفهم بالكرم الذي هو نفي المذام. و﴿يعلمون﴾ ما يفعل ابن آدم لمشاهدتهم حاله، وقد روي حديث ذكره سفيان: يقتضي أن العبد إذا عمل سيئة مما لا ترى ولا تسمع، مثل الخواطر المستصحبة ونحوها أن الملك يجد ريح تلك الخطرة الخفية بإدراك قد خلقه الله لهم.

قوله عز وجل:

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَ يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَأْتُهُمُ عَنْهَا بَغَائِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾

﴿الأبرار﴾: جمع بر وهو الذي قد اطرد بره عموماً فيروته في طاعته إياه، وبر أبويه وبر الناس في دفع ضره عنهم وجلب ما استطاع الخير إليهم، وبر الحيوان وغير ذلك في أن لم يفسد شيئاً منها عبثاً ولغير منفعة مباحة، و﴿الفجار﴾: الكفار، و«يصلون» معناه: يباشرون حرّها بأبدانهم، و﴿يوم الدين﴾ هو يوم الجزاء، وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بَغَائِينَ﴾ قال بعض المتأولين: هذا تأكد في الإخبار عن أنهم يصلونها، وأنهم لا يمكنهم الغيب عنها يومئذ، وقال آخرون: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بَغَائِينَ﴾ في البرزخ، كأنه تعالى لما أخبر عن صليهم إياها يوم الدين وذلك أنهم يرون مقاعدهم من النار غدوة وعشية فهم مشاهدون لها، ثم عظم تعالى قدر هول يوم القيامة بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾، ثم ما أدراك ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو

عمرو وابن أبي إسحاق وعيسى وابن جندب: «يومٌ لا تملك» برفع الميم من «يومٌ» على معنى هو يوم، وقرأ الباقر والحسن وأبو جعفر وشيبة والأعرج: «يومٌ» بالنصب على الظرف، والمعنى: الجزاء يوم فهو ظرف في معنى خبر الابتداء، ثم أخبر تعالى بضعف الناس يومئذ وأنه لا يغني بعضهم عن بعض وأن الأمر له تبارك وتعالى، وقال قتادة كذلك: هو اليوم ولكنه هنالك لا ينازعه أحد ولا يمكن هو أحداً من شيء منه كما يمكنه في الدنيا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

وهي مكية في قول جماعة من المفسرين، واحتجوا لذكر الأساطير، وهذا على أن هذا تطفيف الكيل والوزن كان بمكة حسبما هو في كل أمة لا سيما مع كفرهم، وقال ابن عباس والسدي والنقاش وغيره: السورة مدنية، قال السدي: كان بالمدينة رجل يكنى أبا جهينة له مكيالان يأخذ بالأوفى ويعطي بالأنقص، فنزلت السورة فيه، يقال إنها أول سورة نزلت بالمدينة، وقال ابن عباس أيضاً فيما روي عنه: نزل بعضها بمكة ونزل أمر التطفيف بالمدينة، لأنهم كانوا أشد الناس فساداً في هذا المعنى فأصلحهم الله تعالى بهذه السورة، وقال آخرون: نزلت السورة بين مكة والمدينة، وذلك ليصلح الله تعالى أمرهم قبل ورود رسوله عليهم.

قال القاضي أبو محمد: وأمر الكيل والوزن وكيد جداً، وتصرفه في المدن ضروري في الأموال التي هي حرام بغير حق والفساد فيه كبير لا تنفع فيما وقع منه التوبة، ولا يخلص إلا رد المظلمة إلى صاحبها، وقال مالك بن دينار: احتضر جار لي فجعل يقول: جبلان من نار، فقلت له ما هذا؟ فقال لي: يا أخي، كان لي مكيالان، أخذ بالوافي وأعطى بالناقص، وقال عكرمة: أشهد على كل كيال أو وزان أنه في النار، وقال بعض العرب: لا تلتمسوا المروءة ممن مروءته في رؤوس المكايل وألسنة الموازين.

قوله عز وجل:

وَبَلِّغِ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾

﴿ويل﴾ معناه: الثبور والحزن والشقاء الأبد، وقد روي عن ابن مسعود وغيره أن وادياً في جهنم يسمى «ويلاً»، ورفع ﴿ويل﴾ على الابتداء، ورفع على معنى ثبت لهم واستقر وما كان في حيز الدعاء والترقب فهو منصوب نحو قولهم: رعيًا وسقيًا، و«المطفف»: الذي ينقص الناس حقوقهم، والتطفيف: النقصان أصله في الشيء الطفيف وهو الزر، والمطفف إنما يأخذ بالميزان شيئاً طفيفاً، وقال سلمان: الصلاة مكيال، فمن أوفى وفي له، ومن طفف فقد علمتم ما قال الله في المطففين، وقال بعض العلماء: يدخل التطفيف في كل قول وعمل، ومنه قول عمر طففت، ومعناه: نقصت الأجر والعمل وكذا قال مالك رحمه الله: يقال لكل شيء وفاء وتطفيف فقد جاء بالنقيضين، وقد ذهب بعض الناس إلى أن التطفيف هو

تجاوز الحد في وفاء ونقصان، والمعنى والقرائن بحسب قول قول تبين المراد وهذا عندي جد صحيح، وقد بين تعالى أن التطفيف إنما أراد به أمر الوزن والكيل، و﴿اكتالوا على الناس﴾ معناه: قبضوا منهم و﴿كالوهم﴾ معناه: قبضوهم، يقال: كلت منك واكتلت عليك، ويقال: وكلت لك فلما حذف اللام تعدى الفعل، قال الفراء والأخفش.

وأشدد أبو زيد: [الكامل]

ولقد جنتك أكمؤاً وعساقلأ ولقد نهيتك عن بنات الأوبر

وعلى هذا المعنى هي قراءة الجمهور، وكان عيسى بن عمر يجعلها حرفين ويقف على «كالوا» و«وزنوا» بمعنى: هم يخسرون إذا كالوا ووزنوا. ورويت عن حمزة، فقوله: «هم» تأكيد للضمير، وظاهر هذه الآية يقتضي أن الكيل والوزن على البائع وليس ذلك بالجلي، وصدر الآية هو في المشتريين، فذمهم بأنهم «يستوفون» ويشاحون في ذلك، إذ لا تمكنهم الزيادة على الاستيفاء لأن البائع يحفظ نفسه، فهذا مبلغ قدرتهم في ترك الفضيلة والسماحة المندوب إليها، ثم ذكر أنه إذا باعوا أمكنهم من الظلم والتطفيف أن يخسروا لأنهم يتولون الكيل للمشتري منهم وذلك بحالة من يخسر البائع إن قدر، و«يخسرون» معدى بالهمزة يقال: خسر الرجل وأخسره غيره، والمفعول لـ «كالوهم» محذوف، ثم وقفهم تعالى على أمر القيامة وذكرهم بها وهذا مما يؤيد أنها نزلت بالمدينة في قوم من المؤمنين وأريد بها مع ذلك من غير من الأمة، و«يظن» هنا بمعنى: يعلم ويتحقق، و«اليوم العظيم»: يوم القيامة، و«يوم» ظرف عمل فيه فعل مقدر يبعثون ونحوه، وقال الفراء: هو بدل من «ليوم عظيم»، لكنه بني وبأبى ذلك البصريون، لأنه مضاف إلى معرب، وقام الناس فيه «لرب العالمين» يختلف الناس فيه بحسب منازلهم، فروى عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يقام فيه خمسين ألف سنة». وهذا بتقدير شدته، وقيل: ثلاثمائة سنة، قاله النبي صلى الله عليه وسلم، وقال ابن عمر: مائة سنة وقيل ثمانون سنة، وقال ابن مسعود: أربعون سنة رافعي رؤوسهم إلى السماء لا يؤمرون ولا يكلمون، وقيل غير هذا، ومن هذا كله آثار مروية ومعناها: إن لكل قوم مدة ما تقتضي حالهم وشدة أمرهم ذلك. وروي أن القيام فيه على المؤمن على قدر ما بين الظهر إلى العصر، وروي عن بعض الناس: على قدر صلاة، وفي هذا القيام هو إلجام العرق للناس، وهو أيضاً مختلف، ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم من طريق عقبة بن عامر: «أنه يلجم الكافر إلجاماً»، ويروى أن بعض الناس يكون فيه إلى أنصاف ساقيه وبعضهم إلى فوق، وبعضهم إلى أسفل.

قوله عز وجل:

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينَ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينَ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَلَيْلٌ يُؤْمِدُ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ

رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّحَجُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهٖ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾

هذه الآية وما بعدها يظهر أنها من نمط المكي، وهذا أحد الأقوال التي ذكرناها قبل، و﴿كَلَّا﴾ يجوز أن يكون ردّاً لأقوال قريش، ويحتمل أن يكون استفتاحاً بمنزلة «ألا»، وهذا قول أبي حاتم واختياره، و﴿الفجار﴾ الكفار، وكتابهم يراد فيه الذي فيه تحصيل أمرهم وأفعالهم، ويحتمل عندي أن يكون المعنى وعدادهم وكتاب كونهم هو في سجين، أي هنالك كتبوا في الأزل، وقرأ أبو عمرو والأعرج وعيسى: ﴿الفجار﴾ بالإمالة و﴿الأبرار﴾ [المطففين: ١٨] بالفتح قاله أبو حاتم، واختلف الناس في: ﴿سَجِينَ﴾ ما هو؟ فقال الجمهور: هو فعيل من السجن كسكير وشريب أي في موضع ساجن، فجاء بناء مبالغة، قال مجاهد: وذلك في صخرة تحت الأرض السابعة، وقال كعب حاكياً عن التوراة وأبي بن كعب: هو في شجرة سوداء هنالك، وقيل عن النبي صلى الله عليه وسلم: في بر: هنالك وقيل تحت خد إبليس، وقال عطاء الخراساني: هي الأرض السفلى، وقاله البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال عكرمة: ﴿سَجِينَ﴾، عبارة عن الخسران والهوان، كما نقول: بلغ فلان الحضيض إذا صار في غاية الخمول، وقال قوم من اللغويين: ﴿سَجِينَ﴾ نونه بدل من لام هو بدل من «السجيل». وقوله تعالى: ﴿وما أدراك ما سَجِينَ﴾ تعظيم لأمر هذا السجين وتعجب منه، ويحتمل أن يكون تقرير استفهام، أي هذا مما لم يكن يعرفه قبل الوحي. وقوله تعالى: ﴿كتاب مرقوم﴾ من قال بالقول الأول في ﴿سَجِينَ﴾ ف﴿كتاب﴾ مرتفع عنده على خبر ﴿إن﴾، والظرف الذي هو: ﴿لفي سَجِينَ﴾ ملغى، ومن قال في ﴿سَجِينَ﴾ بالقول الثاني ف﴿كتاب﴾ مرتفع على خبر ابتداء مضمر، والتقدير هو كتاب مرقوم، ويكون هذا الكلام مفسر في السجين ما هو؟ و﴿مرقوم﴾ معناه: مكتوب، رقم لهم بشر، ثم أثبتة تعالى ﴿للمكذبين﴾ بيوم الحساب والدين بالويل، وقوله: ﴿يومئذ﴾، إشارة إلى ما يتضمنه المعنى في قوله ﴿كتاب مرقوم﴾، وذلك أنه يتضمن أنه يرتفع ليوم عرض وجزاء، وبهذا يتم الوعيد ويتجه معناه و«المتعدي»: الذي يتجاوز حدود الأشياء، و﴿الأنيم﴾: بناء مبالغة في آثم، وقرأ الجمهور: «تتلى»، بالتاء، وقرأ أبو حية: «يتلى»، بالياء من تحت، و﴿الأساطير﴾: جمع أسطورة وهي الحكايات التي سطرت قديماً، وقيل هو جمع: أسطار، وأسطار: جمع سطر، ويروى أن هاه الآية نزلت بمكة في النضرين الحارث بن كلدة وهو الذي كان يقول: ﴿أساطير الأولين﴾، وكان هو قد كتب بالحيرة أحاديث رستم واسبنذاذ، وكان يحدث بها أهل مكة، ويقول أنا أحسن حديثاً من محمد، فإنما يحدثكم بـ ﴿أساطير الأولين﴾، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ زجر ورد لقولهم: ﴿أساطير الأولين﴾، ثم أوجب أن ما كسبوا من الكفر والطغيان والعتو، قد ﴿ران على قلوبهم﴾، أي غطى عليها وغلب فهم مع ذلك لا يبصرون رشداً ولا يخلص إلى قلوبهم خير، ويقال: رانت الخمر على عقل شاربها وران الغش على قلب المريض، وكذلك الموت، ومنه قول الشاعر: [الخفيف]

ثم لما رآه رانت به الخمر وإن لا يرينه بانتقاء

والبيت لأبي زيد، وقال الحسن وقتادة: الرين الذنب على الذنب حتى يموت القلب، ويروى عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الرجل إذا أذنب صارت نقطة سوداء على قلبه ثم كذلك حتى يغطي» فذلك الرين الذي قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: ﴿بَلْ رَانَ﴾ بإدغام في الراء، وقرأ نافع: ﴿بَلْ رَانَ﴾ غير مدغمة، وقرأ عاصم: ﴿بَلْ﴾ ويقف ثم يتدّى ﴿رَانَ﴾، وقرأ حمزة والكسائي: بالإدغام وبالإمالة في ﴿رَانَ﴾، وقرأ نافع أيضاً: بالإدغام والإمالة، قال أبو حاتم: القراءة بالفتح والإدغام، وعلق اللوم بهم فيما كسبوه وإن كان ذلك بخلق منه واختراع لأن الثواب والعقاب متعلق بكسب العبد، و﴿كَلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَصْلَحُ فِيهَا الْوُجْهَانِ اللَّذَانِ تَقْدُمُ ذِكْرَهُمَا، وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ﴾ هُوَ لِلْكَفَّارِ، قَالَ بِالرُّؤْيَةِ وَهُوَ قَوْلُ أَهْلِ السَّنَةِ، قَالَ إِنْ هَؤُلَاءِ لَا يَرُونَ رَبَّهُمْ فَهُمْ مُحْجَبُونَ عَنْهُ، وَاحْتِجَ بِهَذِهِ آيَةِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ مَسْأَلَةِ الرُّؤْيَةِ مِنْ جِهَةِ دَلِيلِ الْخُطَابِ وَإِلَّا فَلَوْ حُجِبَ الْكُلُّ لَمَا أَغْنَى هَذَا التَّخْصُّصُ، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: لَمَا حُجِبَ قَوْمٌ بِالسَّخَطِ دَلَّ عَلَى أَنَّ قَوْمًا يَرُونَهُ بِالرَّضَى، وَمَنْ قَالَ بَأْنَ لَا رُؤْيَةَ وَهُوَ قَوْلُ الْمُعْتَزَلَةِ، قَالَ فِي هَذِهِ آيَةِ: إِنَّهُمْ مُحْجَبُونَ عَنْ رَحْمَةِ رَبِّهِمْ وَغَفْرَانِهِ، وَصَلَّى الْجَحِيمُ مَبَاشَرَةً حَرَّ النَّارِ دُونَ حَائِلٍ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي﴾، عَلَى مَعْنَى التَّوْبِخِ لَهُمْ وَالتَّقْرِيعِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾، مَفْعُولٌ لَمْ يَسْمَعْ فَاعِلُهُ لِأَنَّهُ قَوْلُ بَنِي لَهْ الْفِعْلُ الَّذِي يُقَالُ، وَقَوْلُهُ: ﴿هَذَا﴾، إِشَارَةٌ إِلَى تَعْذِيبِهِمْ وَكَوْنِهِمْ فِي الْجَحِيمِ.

قوله عز وجل:

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كَتَبَ تَرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ شَهَادَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَاكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَمُهُمْ مَسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِنْ أَرْجَائِهِمْ تَسْنِيمٌ ﴿٢٧﴾ عَيْنَايَا شَرِبَ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾

لما ذكر تعالى أمر ﴿كتاب الفجار﴾ [المطففين: ٧]، عقب بذكر كتاب ضدهم ليبين الفرق، و﴿الأبرار﴾ جمع بر، وقرأ ابن عامر: «الأبرار» بكسر الراء، وقرأ نافع وابن كثير بفتحها، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي: بإمالتها، و﴿عليون﴾ قيل هو جمع على وزن فعل بناء مبالغة يريد بذلك الملائكة، فلذلك أعرب بالواو والنون، وقيل يريد المواضع العلية لأنه علو فوق علو، فلما كان هذا الاسم على هذا الوزن لا واحد له أشبه عشرين فأعرب بإعراب الجموع إذ أشبهها، وهذا أيضاً كقنشرين فإنك تقول طابقت قنشرين ودخلت قنشرين، واختلف الناس في الموضع المعروف، بـ ﴿عليين﴾ ما هو؟ فقال قتادة: قائمة العرش اليمنى، وقال ابن عباس: السماء السابعة تحت العرش، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم. وقال الضحاك: هو عند سدة المنتهى، وقال ابن عباس: ﴿عليون﴾: الجنة، وقال مكى: هو في السماء

الرابعة، وقال الفراء عن بعض العلماء: في السماء الدنيا، والمعنى أن كتابهم الذي فيه أعمالهم هنالك تهمماً بها وترفعاً لها، وأعمال الفجار في سجين في أسفل سافلين، لأنه روي عن أبي بن كعب وابن عباس: أن أعمالهم يصعد بها إلى السماء فتأبأها، ثم ترد إلى الأرض فتأبأها أرض بعد أرض حتى تستقر في سجن تحت الأرض السابعة، و﴿كتاب مرقوم﴾ في هذه الآية خبر ﴿إن﴾ والظرف ملغى، و﴿المقربون﴾ في هذه الآية: الملائكة المقربون عند الله تعالى أهل كل سماء، قاله ابن عباس وغيره، و﴿الأرائك﴾: جمع أريكة وهي السرر في الحجال، و﴿ينظرون﴾ معناه إلى ما عندهم من النعيم، ويحتمل أن يريد ينظر بعضهم إلى بعض، وقيل عن النبي صلى الله عليه وسلم: «ينظرون إلى أعدائهم في النار كيف يعذبون»، وقرأ جمهور الناس «تُعرف» على مخاطبة محمد صلى الله عليه وسلم بفتح التاء وكسر الراء، «نضرة» نصباً. وقرأ أبو جعفر وابن أبي إسحاق وطلحة ويعقوب: «تُعرف» بضم التاء وفتح الراء، «نضرة» رفعاً، وقرأ «يعرف» بالياء، لأن تأنيث النضرة ليس بحقيقي والنضرة النعمة والرونق و«الرحيق»: الخمر الصافية، ومنه قول حسان: [الكامل]

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

و﴿مختوم﴾، يحتمل أن يختم على كؤوسه التي يشرب بها تهمماً وتنظيفاً، والأظهر أنه مختوم شرابه بالرائحة المسكية حسبما فسر قوله تعالى: ﴿ختامه مسك﴾، واختلف المتأولون في قوله: ﴿ختامه مسك﴾ فقال علقمة وابن مسعود معناه: خلطه ومزاجه، فقال ابن عباس والحسن وابن جبير معناه: خاتمته أن يجد الرائحة عند خاتمته. الشرب رائحة المسك، وقال أبو علي: المراد لذادة المقطع وذكاء الرائحة مع طيب الطعم، وكذلك قوله: ﴿كان مزاجها كافوراً﴾ [الإنسان: ٥]، وقوله تعالى: ﴿زنجبيلاً﴾ [الإنسان: ١٧] أي يحذي اللسان، وقد قال ابن مقبل: [اليسيط]

مما يفتق في الحانوت ناطقها بالفلفل الجوز والرمان مختوم

قال مجاهد معناه: طينه الذي يختم به مسك بدل الطين الذي في الدنيا، وهذا إنما يكون في الكؤوس لأن خمر الآخرة ليست في دنان إنما هي في أنهار، وقرأ الجمهور: «ختامه»، وقرأ الكسائي وعلي بن أبي طالب والضحاك والنخعي: «ختامه»، وهذه بينة المعنى: أنه يراد بها الطبع على الرحيق، وروي عنهم أيضاً كسر التاء، ثم حرض تعالى على الجنة بقوله: ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾، والتنافس في الشيء المغالاة فيه وأن يتبعه كل واحد نفسه، فكان نفسيهما يتباريان فيه، وقيل هو من قولك شيء نفسي، فكان هذا يعظمه ثم يعظمه الآخر ويستبقان إليه، و«المزاج»: الخلط، والضمير عائد على الرحيق، واختلف الناس في ﴿تسنيم﴾، فقال ابن عباس وابن مسعود: ﴿تسنيم﴾ أشرف شراب في الجنة وهو اسم مذكر لماء عين في الجنة وهي عين يشربها المقربون صرفاً. ويمزج رحيق الأبرار بها، قاله ابن مسعود وابن عباس والحسن وأبو صالح وغيرهم، وقال مجاهد ما معناه: إن تسنيماً مصدر من سمت إذا عليت ومنه السنام، فكانها عين قد عليت على أهل الجنة فهي تنحدر،

وذهب قوم إلى أن ﴿الأبرار﴾ و«المقربين» في هذه الآية لمعنى واحد، يقال: لكل من نعم في الجنة، وذهب الجمهور من المتأولين إلى أن منزلة الأبرار دون المقربين، وأن ﴿الأبرار﴾: هم أصحاب اليمين. وأن المقربين هم السابقون، و﴿عيناً﴾ منصوب إما على المدح، وإما أن يعمل فيه ﴿تسليم﴾ على رأي من رآه مصدرأ، أو ينتصب على الحال من ﴿تسليم﴾ أو ﴿يسقون﴾، قاله الأخفش وفيه بعد، وقوله تعالى: ﴿يشرب بها﴾ معناه: يشربها كقول الشاعر [أبو ذؤيب الهذلي]: [الطويل]

شربن بماء البحر ثم تصعدت متى لجج خضر لهن نثيج

ثم ذكر تعالى أن الأمر الذي ﴿أجرموا﴾ بالكفر أي كسبه كانوا في دنياهم ﴿يضحكون﴾ من المؤمنين ويستخفون بهم ويتخذونهم هزواً، وزوي أن هذه الآية نزلت في صناديد قريش وضعفة المؤمنين، وروي أنها نزلت بسبب أن علي بن أبي طالب وجمعاً معه مروا بجمع من كفار مكة، فضحكوا منهم واستخفوا بهم عبثاً ونقصان عقل، فنزلت الآية في ذلك.

قوله عز وجل:

وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثَوْبَ الْكُفَّارِ مَا كَانَُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

الضمير في ﴿مروا﴾ للمؤمنين، ويحتمل أن يكون للكفار، وأما الضمير في ﴿يتغامزون﴾ فهو للكفار لا يحتمل غير ذلك، وكذلك في قوله: ﴿انقلبوا فاكهين﴾ معناه: أصحاب فاكهة ومزج ونشاط وسرور باستخفافهم بالمؤمنين يقال: رجل فاكه كلابن وتامر هكذا باللف، وهي قراءة الجمهور، ويقال: رجل فكه من هذا المعنى. وقرأ عاصم في رواية حفص: «فكهين» بغير ألف، وهي قراءة أبي جعفر وأبي رجاء والحسن وعكرمة، وأما الضمير في: ﴿رأوا﴾ وفي ﴿قالوا﴾: قال الطبري وغيره: هو للكفار، والمعنى أنهم يرمون المؤمنين بالضلال. والكفار لم يرسلوا على المؤمنين حفظة لهم، وقال بعض علماء التأويل: بل المعنى بالعكس، وإن معنى الآية: وإذا رأى المؤمنون الكفار قالوا إنهم لضالون وهو الحق فيهم، ولكن ذلك يثير الكلام بينهم، فكأن في الآية حضاً على الموادة، أي أن المؤمنين لم يرسلوا حافظين على الكفار، وهذا كله منسوخ على هذا التأويل بآية السيف، ولما كانت الآيات المتقدمة قد نطقت بيوم القيامة، وأن الويل يومئذ للمكذبين ساغ أن يقول: ﴿اليوم﴾ على حكاية ما يقال يومئذ وما يكون، و﴿الذين﴾ رفع بالابتداء، وقوله تعالى: ﴿على الأرائك ينظرون﴾ معناه: إلى عذابهم في النار، قال كعب: لأهل الجنة كوى ينظرون منها، وقال غيره بينهم جسم عظيم شفاف يرون معه حالهم، و﴿هل

تُوبُ الكفار؟ تقرير وتوقيف لمحمد عليه السلام وأمته، ويحتمل أن يريد: ﴿ينظرون هل ثوب﴾، والمعنى هل جوزي، ويحتمل أن يكون المعنى يقول بعضهم لبعض، وقرأ ابن محيصن وأبو عمرو وحمزة والكسائي: «هتوب» بإدغام اللام في التاء، قال سيبويه: وذلك حسن وإن كان دون إدغام في الراء لتقاربهما في المخرج، وقرأ الباقر: «هل ثوب» لا يدغمون، وفي قوله تعالى: ﴿ما كانوا﴾، حذف تقديره جزاء ما كانوا أو عقاب ما كانوا يفعلون.

نجز تفسير سورة ﴿المطففين﴾ بحمد الله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْاِنْشِقَاقِ

وهي مكية بلا خلاف بين المتأولين .

قوله عز وجل :

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا حَافِلٌ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوْفٍ كَتَبَهُ يَمِينُهُ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَنُقَلِّبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْفٍ كَتَبَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُ لَنْ يَحْجُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾

هذه أوصاف يوم القيامة، و«انشقاق السماء»: هو تفتيرها لهول يوم القيامة، كما قال: ﴿وانشقت السماء فهي يومئذ واهية﴾ [الحاقة: ١٦]، وقال الفراء والزجاج وغيره: هو تشققها بالغمام، وقال قوم: تشققها تفتحها أبواباً لتزول الملائكة وصعودهم في هول يوم القيامة، وقرأ أبو عمرو: «انشقت» يقف على التاء كأنه يشمها شيئاً من الجر، وكذلك في أخواتها، قال أبو حاتم: سمعت إعراباً فصيحاً في بلاد قيس بكسر هذه التاءات، وهي لغة، ﴿وأذنت﴾ معناه: استمعت، وسمعت، أي أمره ونهيه، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن»، ومنه قول الشاعر [قعب بن أم صاحب]: [البسيط]

صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به وإن ذكرتُ بشرٍ عندهم أذنوا

وقوله تعالى: ﴿وحقت﴾، قال ابن عباس وابن جبير معناه: وحق لها أن تسمع وتطيع، ويحتمل أن يريد: وحق لها أن تنشق لشدة الهول وخوف الله تعالى، و«مد الأرض»: هو إزالة جبالها حتى لا يبقى فيها عوج ولا أمت فذلك مدها، وفي الحديث: «إن الله تعالى يمد الأرض يوم القيامة مد الأديم العكاظي». ﴿وألقت ما فيها﴾: يريد الموتى قاله الجمهور، وقال الزجاج: ومن الكنوز، وهذا ضعيف لأن ذلك يكون وقت خروج الدجال، وإنما تلقي يوم القيامة الموتى، ﴿وتخلت﴾ معناه: خلعت عما كان فيها أي لم تتمسك منهم بشيء، وقوله تعالى: ﴿يا أيها الإنسان﴾ مخاطبة للجنس، و«الكادح»: العامل بشدة وسرعة واجتهاد

مؤثر، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من سأل وله ما يغنيه حاءت مسألته خدوشاً أو كدوحاً في وجهه يوم القيامة»، والمعنى أنك عامل خيراً أو شراً وأنت لا محالة في ذلك سائر إلى ربك، لأن الزمن يطير بعمر الإنسان، فإنما هو مدة عمره في سير حيث إلى ربه، وهذه آية وعظ وتذكير، أي فكر على حذر من هذه الحال واعمل عملاً صالحاً تجده، وقرأ طلحة: بإدغام كاف كادح ومن هذه اللفظة قول الشاعر: [الوافر]

وما الإنسان إلا ذو اغترار طوال الدهر يكدح في سفال

وقال قتادة: من استطاع أن يكون كدحه في طاعة الله فليفعل، وقوله تعالى: ﴿فملاقية﴾ معناه: فملاقى عذابه أو تنعيمه، واختلف النحاة في العامل: في ﴿إذا﴾، فقال بعض النحاة العامل: ﴿انشقت﴾، وأبى ذلك كثير من أئمتهم، لأن ﴿إذا﴾: مضافة إلى ﴿انشقت﴾ ومن يجز ذلك تضعف عنده الإضافة، ويقوى معنى الجزاء، وقال آخرون منهم: العامل ﴿فملاقية﴾، وقال بعض حذاقهم: العامل فعل مضمر، وكذلك اختلفوا في جواب ﴿إذا﴾، فقال كثير من النحاة: هو محذوف لعلم السامع به، وقال أبو العباس المبرد والأخفش: هو في قوله: ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقية﴾، إذا انشقت السماء، انشقت فأنت ملاقي الله، وقيل التقدير فيا أيها الإنسان، وجواب ﴿إذا﴾ في الفاء المقدرة، وقال الفراء عن بعض النحاة: هو ﴿أأنت﴾ على زيادة تقدير الواو، وأما الضمير ﴿فملاقية﴾، فقال جمهور المتأولين هو عائد على الرب، فالفاء على هذا عاطفة ملاق على كادح، وقال بعض الناس: هو عائد على الكدح، فالفاء على هذا عاطفة جملة على التي قبلها، والتقدير فأنت ملاقيه، والمعنى ملاقي جزائه خيراً كان أو شراً، ثم قسم تعالى الناس إلى: المؤمن والكافر، فالمؤمنون يعطون كتبهم بأيمانهم ومن ينفذ عليه الوعيد من عصاتهم فإنه يعطى كتابه عند خروجه من النار، وقد جوز قوم أن يعطاه أولاً قبل دخوله النار، وهذه الآية ترد على هذا القول، و«الحساب اليسير»: هو العرض: وأما من نوقش الحساب، فإنه يهلك ويعذب، كذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من حوسب عذب» فقالت عائشة: ألم يقل الله ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾ الآية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما ذلك العرض، وأما من نوقش الحساب فيهلك» وفي الحديث من طريق ابن عمر: «إن الله تعالى يذني العبد حتى يضع عليه كنفه، فيقول: ألم أفعل بك كذا وكذا يعدد عليه نعمه ثم يقول له: فلم فعلت كذا وكذا لمعاصيه، فيقف العبد حزناً فيقول الله تعالى: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»، وقالت عائشة: سمعت رسول النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «اللهم حاسبني حساباً يسيراً». قلت يا رسول الله: وما هو؟ فقال: «أن يتجاوز عن السيئات»، وروي عن عمر، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من حاسب نفسه في الدنيا، هون الله تعالى حسابه يوم القيامة»، وقوله تعالى: ﴿إلى أهله﴾ أي الذين أعد الله له في الجنة، إما من نساء الدنيا، وإما من الحور العين وإما من الجميع، والكافر يؤتى كتابه من ورائه لأن يديه مغلولتان، وروي أن يده تدخل من صدره حتى تخرج من وراء ظهره، فيأخذ كتابه بها، ويقال إن هاتين الآيتين نزلتا في أبي سلمة بن عبد الأسد، وكان أبو سلمة من أفضل المؤمنين، وأخوه من عتاة الكافرين، ﴿ويدعو ثوراً﴾ معناه: يصيح متحجباً، واثبوره، واخزيه، ونحو هذا مما معناه: هذا وقتك، وزمانك أي احضرنى، والنبور، اسم جامع للمكاره كالويل، وقرأ ابن كثير ونافع، وابن عامر

والكسائي والحسن وعمر بن عبد العزيز والجحدري وأبو السناء والأعرج: «وُصِّلَى» بشد اللام وضم الياء على المبالغة، وقرأ نافع أيضاً وعاصم في رواية أبان: بضم الياء وتخفيف اللام، وهي قراءة أبي الأشهب وعيسى وهارون عن أبي عمرو، وقرأ عاصم وأبو عمرو وحزمة وأبو جعفر وقتادة وعيسى وطلحة والأعمش: بفتح الياء على بناء الفعل للفاعل، وفي مصحف ابن مسعود: «وسِصِّلَى»، وقوله تعالى: ﴿فِي أَهْلِهِ﴾، يريد في الدنيا أي تملكه ذلك لا يدري إلا السرور بأهله دون معرفة الله والمؤمن إن سر بأهله لا حرج عليه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾، معناه: لن يرجع إلى الله تعالى مبعوثاً محشوراً، قال ابن عباس: لم أعلم ما معنى «ويحور»، حتى سمعت أعرابية تقول لبنية لها: حوري، أي ارجعي، والظن هنا على بابه، و﴿أَنْ﴾ وما بعدها تسد مسد مفعولي ظن وهي «أَنْ» المخففة من الثقيلة، والحدود: الرجوع على الأدراج، ومنه: اللهم إني أعوذ بك من الحور بعد الكور. ثم رد تعالى على ظن هذا الكافر بقوله: ﴿بَلَى﴾، أي يحور ويرجع، ثم أعلمهم أن الله تعالى لم يزل «بصيراً» بهم لا تخفى عليه أفعال أحد منهم، وفي هذا وعيد.

قوله عز وجل:

فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبِقِ ﴿١٩﴾
فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ﴿٢٢﴾
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

«لا» زائدة، والتقدير فأقسم، وقيل: «لا» راد على أقوال الكفار وابتداء القول «أقسم»، وقسم الله تعالى بمخلوقاته هو على جهة التشريف لها، وتعريضها للعبارة، إذ القسم بها منه منها، و﴿الشفق﴾: الحمرة التي تعقب غيوبة الشمس مع البياض التابع لها في الأغلب، وقيل «الشفق» هنا النهار كله قاله مجاهد، وهذا قول ضعيف، وقال أبو هريرة وعمر بن عبد العزيز: «الشفق»: البياض الذي تتلوه الحمرة، و﴿وسق﴾: معناه جمع وضم، ومنه الوسق أي الأصوع المجموعة، والليل يسق الحيوان جملة أي يجمعها في نفسه ويضمها، وكذلك جميع المخلوقات التي في أرض والهواء من البحار والجبال والرياح وغير ذلك، و«اتساق القمر»: كماله وتمامه بدرأ، فالمعنى امتلاً من النور، وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وابن عباس وعمر بخلاف عنهما، وأبو جعفر والحسن والأعمش وقتادة وابن جبير: «لَتَرْكَبُنَّ» بضم الباء على مخاطبة الناس، والمعنى «لتركبن» الشدائد: الموت والبعث والحساب حالاً بعد حال أه تكون من النطفة إلى الهرم كما تقول طبقة بعد طبقة و﴿عن﴾ تجيء في معنى بعد كما يقال: ورث المجد كبراً عن كابر وقيل المعنى «لتركبن» هذه الأحوال أمة بعد أمة، ومنه قول العباس بن عبد المطلب عن النبي عليه السلام:

وأنت لما بعثت أشرققت الأَرْضَ وضاءت بنورك الطرق
تنقل من صالِب إلى رحِمِ إذا مضى علم بدا طبق
أي قرن من الناس لأنه طبق الأرض، وقال الأقرع بن حابس: [البسيط]

إني امرؤ قد حابت الدهر أشطره وساقني طبق منه إلى طبق

أي حال بعد حال، وقيل المعنى: «لتركين» الآخرة بعد الأولى، وقرأ عمر بن الخطاب أيضاً: «ليركين» على أنهم غيب، والمعنى على نحو ما تقدم، وقال أبو عبيدة ومكحول: المعنى «لتركين» سنن من قبلكم.

قال القاضي أبو محمد: كما جاء في الحديث: شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، فهذا هو «طبق» عن طبق، ويلتئم هذا المعنى مع هذه القراءة التي ذكرنا عن عمر بن الخطاب، ويحسن مع القراءة الأولى، وقرأ ابن كثير وحمة والكسائي وعمرو بن مسعود ومجاهد والأسود وابن جبير ومسروق والشعبي وأبو العالية وابن وثاب وعيسى: «لتركين»، بفتح الباء على معنى: أنت يا محمد، وقيل المعنى: حال بعد حال من معالجة الكفار، وقال ابن عباس المعنى: سماء بعد سماء في الإسراء، وقيل هي عدة بالنصر، أي «لتركين» العرب قبلاً بعد قبيل، وفتحاً بعد فتح كما كان ووجد بعد ذلك، قال ابن مسعود: المعنى: «لتركين» السماء في أهوال القيامة، حالاً بعد حال تكون كالمهل وكالدهان وتتفطر وتشقق، فالسماء هي الفاعلة، وقرأ ابن عباس أيضاً وعمر رضي الله عنهما: «ليركين» بالياء على ذكر الغائب، فلما أن يراد محمد صلى الله عليه وسلم على المعاني المتقدمة، وقاله ابن عباس يعني: نبيكم صلى الله عليه وسلم، وإما ما قال الناس في كتاب النقاش من أن المراد: القمر، لأنه يتغير أحوالاً من سرار واستهلال وإبدار، ثم وقف تعالى نبيه، والمراد أولئك الكفار بقوله: «فما لهم لا يؤمنون»، أي من حجتهم مع هذه البراهين الساطعة، وقرأ الجمهور: «يُكذَّبون» بضم الياء وشد الذال، وقرأ الضحاك: بفتح الباء وتخفيف الذال وإسكان الكاف، و«يوعون» معناه: يجمعون من الأعمال والتكذيب والكفر، كأنهم يجعلونها في أوعية، تقول: وعيت العلم وأوعيت المتاع، وجعل البشارة في العذاب لما صرح له، وإذا جاءت مطلقة، فإنما هي من الخبر، ثم استثنى تعالى من كفار قريش القوم الذين كان سبق لهم الإيمان في قضاائه، و«ممنون» معناه: مقطوع من قولهم: حبل منين أي مقطوع، ومنه قول الحارث بن حلزة الشكري: [الخفيف]

فترى خلفهن من شدة الرجوع منيناً كأنني أهباء

يريد غباراً متقطعاً، وقال ابن عباس: «ممنون»، بمعنى: معدود عليهم محسوب منقص بالمن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْبُرُوجِ

وهي مكية بإجماع من المتأولين لا خلاف في ذلك.

قوله عز وجل :

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قِيلَ أَضْحَبُ الْأَخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾

اختلف الناس في «البروج»، فقال الضحاك وقتادة: هي القصور، ومنه قول الأخطل: [البسيط]

كأنها برج رومي يشيده لز بجص وأجر وأحجار

وقال ابن عباس: «البروج»: النجوم، لأنها تتبرج بنورها، والتبرج: التظاهر والتبدي، وقال الجمهور وابن عباس أيضاً: «البروج» هي المنازل التي عرفتها العرب وهي اثنا عشر على ما قسمته العرب وهي التي تقطعها الشمس في سنة، والقمر في ثمانية وعشرين يوماً، وقال قتادة معناه: ذات الرمل، والسماء يريد أنها مبنية في السماء، وهذا قول ضعيف، «واليوم الموعود» هو يوم القيامة باتفاق، قاله النبي صلى الله عليه وسلم، ومعناه: الموعود به، وقوله: «ومشهد» معناه: عليه أو له أو فيه، وهذا يترتب بحسب الحساب في تعيين المراد بـ «شاهد ومشاهد»، فقد اختلف الناس في المشار إليه بهما فقال ابن عباس: الشاهد الله تعالى، والمشهود يوم القيامة، وقال ابن عباس والحسن بن علي وعكرمة: الشاهد محمد صلى الله عليه وسلم، والمشهود يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، الفتح: ٨، وقال في يوم القيامة ﴿وذلك يوم مشهود﴾ [هود: ١٠٣]، وقال مجاهد وعكرمة أيضاً: الشاهد آدم وجميع ذريته، والمشهود يوم القيامة، فـ «شاهد» اسم جنس على هذا، وقال بعض من بسط قول مجاهد وعكرمة: «شاهد» أراد به رجل مفرد أو نسمة من النسم، ففي هذا تذكير بحقارة المسكين ابن آدم، والمشهود يوم القيامة، وقال الحسن بن أبي الحسن وابن عباس أيضاً: الشاهد يوم عرفة، ويوم الجمعة، والمشهود يوم القيامة، وقال ابن عباس وعلي وأبو هريرة والحسن وابن المسيب وقتادة: «شاهد» يوم الجمعة، «ومشهد» يوم عرفة، وقال ابن عمر: «شاهد» يوم الجمعة، «ومشهد» يوم النحر، وقال جابر: «شاهد» يوم الجمعة، «ومشهد» الناس، وقال محمد بن كعب:

الشاهد أنت يا ابن آدم، والمشهود الله تعالى، وقال ابن جبير بالعكس، وتلا: ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ [النساء: ٧٩-١٦٦، الفتح: ٢٨]، وقال أبو مالك: الشاهد عيسى، والمشهود أمته، قال الله تعالى: ﴿وكنتم عليهم شهداء﴾ [المائدة: ١١٧] قال ابن المسيب: ﴿شاهد﴾ يوم التروية، ﴿ومشهود﴾ يوم عرفة، وقال بعض الناس في كتاب النقاش: الشاهد يوم الاثنين والمشهود يوم الجمعة، وذكره الثعلبي، وقال علي بن أبي طالب: الشاهد يوم عرفة، والمشهود يوم النحر، وعنه أيضاً: ﴿شاهد﴾ يوم القيامة ﴿ومشهود﴾ يوم عرفة. وقال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿شاهد﴾ يوم الجمعة ﴿ومشهود﴾ يوم عرفة. قاله علي وأبو هريرة والحسن، وقال إبراهيم النخعي: الشاهد يوم الأضحى والمشهود يوم عرفة.

قال القاضي أبو محمد: ووصف هذه الأيام بـ ﴿شاهد﴾ لأنها تشهد لحاضريها بالأعمال، والمشهود فيما مضى من الأقوال بمعنى المشاهد بفتح الهاء وقال الترمذي: الشاهد الملائكة الحفظة، والمشهود عليهم الناس، وقال عبد العزيز بن يحيى عند الثعلبي: الشاهد محمد، والمشهود عليهم أمته نحو قوله تعالى: ﴿وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ [النساء: ٤١] أي شاهداً، قال: الشاهد الأنبياء: والمشهود عليهم أممهم، وقال الحسن بن الفضل: الشاهد أمة محمد، والمشهود عليهم قوم نوح، وسائر الأمم حسب الحديث المقصود في ذلك، وقال ابن جبير أيضاً: الشاهد، الجوارح التي تنطق يوم القيامة فتشهد على أصحابها، والمشهود عليهم أصحابها، وقال بعض العلماء: الشاهد الملائكة المتعاقبون في الأمة، والمشهود قرآن الفجر، وتفسيره قول الله تعالى: ﴿إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ [الإسراء: ٨٧]. وقال بعض العلماء: الشاهد، النجم، والمشهود عليه الليل والنهار، أي يشهد النجم بإقبال هذا وتمام هذا، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: حتى يطلع الشاهد، والشاهد النجم، وقال بعض العلماء: الشاهد الله تعالى والملائكة وأولو العلم، والمشهود به الوحدانية وأن الدين عند الله الإسلام، وقيل الشاهد: مخلوقات الله تعالى، والمشهود به وحدانيته، وأنشد الثعلبي في هذا المعنى قول الشاعر [أبو العتاهية]: [المتقارب]

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وقيل المعنى: فعل الله بهم ذلك لأنهم أهل له، فهو على جهة الدعاء بحسب البشر، لا أن الله يدعو على أحد، وقيل عن ابن عباس معناه: لعن، وهذا تفسير بالمعنى، وقيل هو إخبار بأن النار قتلتهم، قاله الربيع بن أنس، وسيأتي بيانه، واختلف الناس في ﴿أصحاب الأخدود﴾، فقيل: هو قوم كانوا على دين كان لهم ملك فزنى بأخته، ثم حملة بعض نسائه على أن يسن في الناس نكاح البنات والأخوات، فحمل الناس على ذلك فأطاعه كثير وعصته فرقة فخذ لهم أخاديد، وهي حفائر طويلة كالخنادق، وأضرهم لهم ناراً وطرحهم فيها، ثم استمرت المجوسية في مطيعيه، وقال علي بن أبي طالب: ﴿الأخدود﴾، ملك حمير، كان بمزارع من اليمن، أقتل هو والكفار مع المؤمنين، ثم غلب في آخر الأمر فحرقهم على دينهم إذ أبوا دينه، وفيهم كانت المرأة ذات الطفل التي تلتكأت، فقال لها الطفل: امضي في النار فإنك على الحق، وحكى النقاش عن علي رضي الله عنه، أن نبي ﴿أصحاب الأخدود﴾ كان حبشياً، وأن الحبشة بقية

﴿أصحاب الأخدود﴾، وقيل: ﴿أصحاب الأخدود﴾ ذو نواس في قصة عبد الله بن التامر التي وقعت في السير، وقيل: كان ﴿أصحاب الأخدود﴾ في بني إسرائيل.

قال القاضي أبو محمد: ورأيت في بعض الكتب أن ﴿أصحاب الأخدود﴾ هو محرق وآله الذي حرق من بني تميم المائة، ويعترض هذا القول بقوله تعالى: ﴿وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود﴾، فينفصل عن هذا الاعتراض بأن هذا الكلام من قصة ﴿أصحاب الأخدود﴾، وأن المراد بقوله: ﴿وهم﴾ قريش الذين كانوا يفتنون المؤمنين والمؤمنات، واختلف الناس في جواب القسم، فقال بعض النحاة: هو محذوف لعلم السامع به، وقال آخرون: هو في قوله تعالى: ﴿قتل﴾، والتقدير لقتل، وقال قتادة: هو في قوله: ﴿إن بطش ربك لشديد﴾ [البروج: ١٢]. وقال آخرون: هو في قوله: ﴿إن الذين فتنوا المؤمنين﴾ [البروج: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿النار﴾، بدل من ﴿الأخدود﴾، وهو بدل اشتمال، وهي قراءة الجمهور: «النار» بخفض الراء، وقرأ قوم «النار ذات» بالرفع على معنى: قتلهم النار، و«الوقود» بالضم مصدر من وقدت النار إذا اضطرمت، و«الوقود»: بفتح الواو، ما توقد به، وقرأ الجمهور: بفتح الواو، وقرأ الحسن وأبو رجاء وأبو حيو: بضمها، وكان من قصة هؤلاء أن الكفار قعدوا وضم المؤمنين، وعرض عليهم الكفر، فمن أبى رمي في أخدود النار فاحترق، فروي أنه أحرق عشرين ألفاً، وقال الربيع بن أنس وأصحابه وابن إسحاق وأبو العالية: بعث الله تعالى على المؤمنين ريحاً فقبضت أرواحهم أو نحو هذا، وخرجت النار فأحرقت الكافرين الذين كانوا على جانبي الأخدود، وعلى هذا يجيء ﴿قتل﴾ خبر الادعاء، وقال قتادة: ﴿إذ هم عليها قعود﴾، يعني المؤمنين، و«نقموا» معناه: اعتدوا، وقرأ جمهور الناس: «نقموا»، بفتح القاف، وقرأ أبو حيو وابن أبي عتبة: «نقموا» بكسر القاف.

قوله عز وجل:

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ هُوبِدُوا وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَالٌ لَمَّازٍ يُدْ

﴿فتنوا﴾ معناه: أحرقوا، وفتنت الذهب والفضة في النار أحرقتهما، والفتن حجارة الحرة السود لأن الشمس كأنها أحرقتها، ومن قال إن هذه الآيات الأواخر في قريش جعل الفتنة الامتحان والتعذيب، ويقوي هذا التأويل بعض التقوية قوله تعالى: ﴿ثم لم يتوبوا﴾ لأن هذا اللفظ في قريش أحكم منه في أولئك الذين قد علم أنهم ماتوا على كفرهم، وأما قريش فكان فيهم وقت نزول الآية من تاب بعد ذلك وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم، و﴿جهنم﴾ و﴿الحرق﴾ طبعتان من النار، ومن قال إن النار خرجت وأحرقت الكافرين القعود، جعل ﴿الحريق﴾ في الدنيا، و«البطش»: الأخذ بقوة وشرعة، و﴿يبدىء ويعيد﴾، قال الضحاك وابن زيد معناه: ﴿يبدىء﴾ الخلق بالإنشاء و﴿يعيد﴾ بالحشر، وقال ابن عباس ما معناه: إن ذلك عام في جميع الأشياء، فهي عبارة عن أنه يفعل كل شيء إنه ﴿يبدىء ويعيد﴾ كلما يتعاد، وهذان قسمان

مستوفيان جميع الأشياء، وقال الطبري معناه: ﴿يبدىء﴾ العذاب، ويعيده على الكفار، و﴿الغفور الودود﴾ صفتا فعل، الأولى ستر على عباده، والثانية لطف بهم وإحسان إليهم، وخصص ﴿العرش﴾ بإضافة نفسه إليه تشريفاً، وتنبهاً على أنه أعظم المخلوقات، وقرأ حمزة والكسائي والمفضل عن عاصم والحسن وابن وثاب والأعمش وعمرو بن عبيد: «المجيد» بخفض الدال صفة للعرش، وهذا على أن المجد والتمجيد قد يوصف به كثير من الجمادات، وقد قالوا مجدت الدابة إذا سمت، وأمجدتها إذا أحسنت علفها، وقالوا: في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار: كثرت نارهما، وقرأ الباقر والجمهور: «ذو العرش»، وروى ابن عباس: «ذو العرش»، نعتاً لقوله ﴿إن بطش ربك﴾.

قوله عز وجل:

هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾
بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾

هذا توقيف للنبي صلى الله عليه وسلم وتقرير بمعنى: لجعل هؤلاء الكفرة الذين يخالفونك وراء ظهرك ولا تهتم بهم، فقد انتقم الله من أولئك الأقوياء الشداد، فكيف هؤلاء و﴿الجنود﴾ الجموع المعدة للقتال، والبحري نحو غرض واحد، وناب ﴿فرعون﴾ في الذكر مناب قومه وآله، إذ كان رأسهم، و﴿فرعون وثمود﴾ في موضع خفض على البدل من ﴿الجنود﴾، ثم ترك القول بحاله، وأضرب عنه إلى الإخبار بأن هؤلاء الكفار بمحمد عليه السلام وشرعه، لا حجة لهم عليه ولا برهان بل هو تكذيب مجرد سببه الحسد، ثم توعدهم بقوله: ﴿والله من ورائهم محيط﴾، أي وعذاب الله ونقمته، وقوله: ﴿من ورائهم﴾، معناه: ما يأتي بعد كفرهم وعصيانهم، ثم أعرض عن تكذيبهم مبطلاً له ورداً عليه، أنه: ﴿قرآن مجيد﴾ أي مدامة فيه، وهذا مما تقدم من وصف الله تعالى بالمجد والتمجد، وقرأ ابن السميع اليماني «قرآن مجيد» على الإضافة، وأن يكون الله تعالى، هو المجيد، و«اللوح»: هو اللوح المحفوظ الذي فيه جميع الأشياء، وقرأ خفض القراءة: «في لوح محفوظ» بالخفض صفة لـ ﴿لوح﴾ المشهور بهذه الصفة، وقرأ نافع وحده بخلاف عنه وابن محيصن والأعرج: «محفوظ» بالرفع صفة القرآن على نحو قوله تعالى: ﴿وإننا له لحافظون﴾ [الحجر: ٩]، أي هو محفوظ في القلوب، لا يدركه الخطأ والتعديل، وقال أنس: إن اللوح المحفوظ هو في جبهة إسرافيل، وقيل: هو من درة بيضاء قاله ابن عباس، وهذا كله مما قصرت به الأسانيد، وقرأ ابن السميع: «في لوح» بضم اللام.

نجز تفسير سورة ﴿البروج﴾ والحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الطَّارِقِ

وهي مكية لا خلاف بين المفسرين في ذلك.

قوله عز وجل:

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنْهُمْ عَلَى رُجْعِهِ لِمُقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُمْ قُوَّةٌ وَلَا نَاصِرٌ ﴿١٠﴾

أقسم الله تعالى بـ ﴿السَّمَاءِ﴾ المعروفة في قول جمهور المتأولين، وقال قوم: ﴿السَّمَاءِ﴾ هنا، المطر، والعرب تسميه سماء، لما كان من السماء، وتسمي السحاب سماء، ومن ذلك قول الشاعر [جرير]: [الوافر]

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

وقول النابغة: [الكامل]

كالأقحوان غداة غب سماءه

﴿والطارق﴾ الذي يأتي ليلاً، وهو اسم جنس لكل ما يظهر ويأتي ليلاً، ومنه نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس من أسفارهم أن يأتي الرجل أهله طروقاً، ومنه طروق الخيال، وقال الشاعر: [البسيط]

يا نائم الليل مغترأ بأوله إن الحوادث قد تطرقن أسحارا

ثم بين الله تعالى الجنس المذكور بأنه ﴿النجم الثاقب﴾، وقيل بل معنى الآية: ﴿والسَّمَاءِ﴾ وجميع ما يطرق فيها من الأمور والمخلوقات، ثم ذكر تعالى بعد ذلك على جهة التنبيه أجل الطارقات قدراً وهو ﴿النجم الثاقب﴾، فكانه قال: ﴿وما أدراك ما الطارق﴾، وحق الطارق، واختلف المتأولون في ﴿النجم الثاقب﴾، فقال الحسن بن أبي الحسن ما معناه: إنه اسم للجنس، لأنها كلها ثاقبة، أي ظاهرة الضوء، يقال ثقب النجم إذا أضاء، وثقبت النار، كذلك، وثقبت الرائحة إذا سطعت، ويقال للموقد اثقب نارك، أي أضئها، وقال ابن زيد: أراد نجماً مخصوصاً: وهو زحل، ووصفه بالثقوب، لأنه مبرز على الكواكب في

ذلك، وقال ابن عباس: أراد الجدي، وقال بعض هؤلاء يقال: ثقب النجم، إذا ارتفع فإنما وصف زحلاً بالثقب لأنه أرفع الكواكب مكاناً. وقال ابن زيد وغيره: ﴿النجم الثاقب﴾: الثريا، وهو الذي يطلق عليه اسم النجم معروفاً، وجواب القسم في قوله: ﴿إن كل نفس﴾ الآية، وقرأ جمهور الناس: «لما»، مخففة الميم، قال الحذاق من النحويين وهم البصريون: مخففة من الثقيلة، واللام: لام التأكيد الداخلة على الخبر، وقال الكوفيون: ﴿إن﴾، بمعنى: ما النافية، واللام بمعنى: إلا، فالتقدير ما كان نفس إلا ﴿عليها حافظ﴾، وقرأ عاصم وابن عامر وحزمة والكسائي والحسن والأعرج وأبو عمرو ونافع بخلاف عنهما وقاتدة: «لما» بتشديد الميم، وقال أبو الحسن الأخفش: «لما» بمعنى: إلا، لغة مشهورة في هذيل وغيرهم، يقال: أقسمت عليك لما فعلت كذا، أي إلا فعلت كذا، ومعنى هذه الآية فيما قال قاتدة وابن سيرين وغيرهما: إن كل نفس مكلفة فعليها حافظ يحصي أعمالها ويعدّها للجزاء عليها، وبهذا الوجه تدخل الآية في الوعيد الزاجر، وقال الفراء، المعنى: ﴿عليها حافظ﴾ يحفظها حتى يسلمها إلى القدر، وهذا قول فاسد المعنى لأن مدة الحفظ إنما هي بقدر، وقال أبو أمامة: قال النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير هذه الآية إن لكل نفس حفظة من الله تعالى يذبون عنها كما يذب عن العسل، ولو وكل المرء إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الطير والشياطين، وقوله تعالى: ﴿فلينظر الإنسان مم خلق﴾، توقيف لمنكري البعث على أصل الخلقة، أي أن البعث جائز ممكن، ثم بادر اللفظ إلى الجواب اقتضاباً وإسراعاً إلى إقامة الحجة، إذ لا جواب لأحد إلا هذا، و﴿دافق﴾، قال كثير: هو بمعنى: مدفوق، وقال الخليل وسيبويه: هو على النسب أي ذي دفق، والدفق: دفق الماء بعضه إلى بعض، تدفق الوادي والسيول، إذا جاء يركب بعضه بعضاً، ويصح أن يكون الماء دافقاً، لأن بعضه يدفع بعضاً، فمنه ﴿دافق﴾ ومنه مدفوق. وقوله تعالى: ﴿يخرج من بين الصلب والترائب﴾، قال قاتدة والحسن وغيره: معناه من بين صلب كل واحد من الرجل والمرأة وراثته، وقال سفيان وقاتدة أيضاً وجماعة: من بين صلب الرجل وراثته والمرأة، والضمير في ﴿يخرج﴾ يحتمل أن يكون للإنسان، ويحتمل أن يكون للماء، وقرأ الجمهور: «الصلب»، وقرأ أهل مكة وعيسى: «الصلب» بضم اللام على الجميع، والترية من الإنسان: ما بين الترقوة إلى الثدي، وقال أبو عبيدة: معلق الحلي على الصدر، وجمع ذلك: ترائب ومنه قول الشاعر [المثقب العبدى]: [الوافر]

ومن ذهب يسن على تريب كلون العاج ليس بذى غضون

وقال امرؤ القيس: [الطويل]

ترائبها مصقولة كالسجنجل

فجمع الترية وما حولها فجعل ذلك ترائب، وقال مكي عن ابن عباس: إن الترب أطراف المرء ورجلاه ويدها وعيناه، وقال معمر: ﴿الترائب﴾، جمع تريبة، وهي عصارة القلب، ومنها يكون الولد، وفي هذه الأقوال تحكّم على اللغة، وقال ابن عباس: ﴿الترائب﴾ موضع القلادة، وقال أيضاً: هي ما بين ثدي المرأة، وقال ابن جبير: هي أضلاع الرجل التي أسفل الصلب، وقال مجاهد: هي الصدر، وقال هي التراقي، وقيل هي ما بين المنكبين والصدر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ الضمير في ﴿إِنَّهُ﴾ لله تعالى، واختلف المفسرون في الضمير في ﴿رَجْعِهِ﴾، فقال قتادة وابن عباس: هو على ﴿الإنسان﴾ أي على رده حياً بعد موته، وقال الضحاك: هو عائذ على ﴿الإنسان﴾ لكن المعنى يرجعه ماء كما كان أولاً، وقال الضحاك أيضاً: يرد من الكبر إلى الشباب، وقال عكرمة ومجاهد: هو عائذ على الماء، أي يرده في الإحليل، وقيل في الصلب، والعامل في ﴿يَوْمٍ﴾ على هذين القولين الأخيرين فعل مضمر تقديره اذكر ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾، وعلى القول الأول، وهو أظهر الأقوال وأبينها، اختلفوا في العامل في ﴿يَوْمٍ﴾، فقيل: العامل ﴿فَاصِرٌ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَلَا نَاصِرٌ﴾، وقيل العامل الرجوع في قوله تعالى: ﴿عَلَى رَجْعِهِ﴾، قالوا وفي المصدر من القوة بحيث يعمل وإن حال خبر إن بينه وبين معموله، وقال الحذاق العامل فعل مضمر تقديره: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾، فرجعه ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾، وكل هذه الفرق فسرت من أن يكون العامل «قادر»، لأن ذلك يظهر منه تخصيص القدرة في ذلك اليوم وحده، وإذا تؤمل المعنى وما يقتضيه فصيح كلام العرب، جاز أن يكون العامل «قادر»، وذلك أنه قال: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾، أي على الإطلاق أولاً وآخرأ وفي كل وقت، ثم ذكر تعالى وخصص من الأوقات الوقت الأهم على الكفار لأنه وقت الجزاء والوصل إلى العذاب ليجتمع الناس إلى حذرهِ والخوف منه، و﴿تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ معناه: تختبر وتكشف بواطنها، وروى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم: أن «السَّرَائِرُ» التي يتليها الله تعالى من العباد: التوحيد والصلاة والزكاة والغسل من الجنابة.

قال القاضي أبو محمد: هذه عظم الأمر، وقال قتادة: الوجه في الآية، العموم في جميع السرائر، وليس يمتنع في الدنيا من المكاره إلا بأحد الوجهين: إما بقوة في ذات الإنسان، وإما بناصر خارج عن ذاته، فأخبره الله تعالى عن الإنسان أنه يعدمها يوم القيامة، فلا يعصمه من أمر الله شيء.

قوله عز وجل:

وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الرَّجْعِ ۖ وَالْأَرْضَ ذَاتَ الصَّدْعِ ۚ إِنَّهُ لَفَوْضٌ ۖ فَصْلٌ ۚ وَمَا هُوَ بِأَهْزَلُ ۚ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۚ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۚ فَمِهلَ الْكَافِرِينَ أَهْمُ لَهُمْ مَوْئِدًا ۚ

﴿السَّمَاءَ﴾ في هذا القسم يحتمل أن تكون المعروفة، ويحتمل أن تكون السحاب، و﴿الرَّجْعِ﴾ المطر وماؤه، ومنه قول الهذلي: [السريع]

أبيض كالرجع رسوب إذا ما شاخ من محتفل يختلي

وقال ابن عباس: ﴿الرَّجْعِ﴾، السحاب فيه المطر، قال الحسن: لأنه يرجع بالرزق كل عام، قال غيره لأنه يرجع إلى الأرض، وقال ابن زيد: ﴿الرَّجْعِ﴾ مصدر رجوع الشمس والقمر والكواكب من حال إلى حال، ومنه منزلة تذهب وترجع، و﴿الصَّدْعِ﴾: النبات، لأن الأرض تتصدع عنه، وهذا قول من قال: إن «الرَّجْعِ» المطر، وقال مجاهد: ﴿الصَّدْعِ﴾: ما في الأرض من شعاب ولصاب وخندق وتشقق

بحرث وغيره، وهي أمور فيها معتبر، وهذا قول يناسب القول الثاني في ﴿الرجع﴾، والضمير في ﴿إنه﴾ للقرآن ولم يتقدم له ذكر، من حيث القول في جزء منه والحال تقتضيه، و﴿فصل﴾: معناه جزم فصل الحقائق من الأباطيل، و«الهزل»: اللعب الباطل، ثم أخبر تعالى عن قريش ﴿إنهم يكيدون﴾ في أفعالهم وأقوالهم وتمرسهم بالنبي صلى الله عليه وسلم وتدبرهم رد أمره، ثم قوى ذلك بالمصدر وأكده وأخبر عن أنه يفعل بهم عقاباً سماه ﴿كيداً﴾ على العرف في تسمية العقوبة باسم الذنب، ثم ظهر من قوله تعالى: ﴿فمهل الكافرين﴾ أن عقابه لهم الذي سماه: ﴿كيداً﴾، متأخر حتى ظهر بيد وغيره، وقرأ جمهور الناس: «أمهلهم»، وقرأ ابن عباس: «مهلهم»، وفي هذه الآية موادة نسختها آية السيف، وقوله تعالى: ﴿رويداً﴾ معناه: قليلاً، قاله قتادة، وهذه حال هذه اللفظة إذا تقدمها شيء تصفه كقولك سر رويداً وتقدمها فعل يعمل فيها كهذه الآية، وأما إذا ابتدأت بها فقلت: رويداً يا فلان، فهي بمعنى الأمر بالتماهل يجري مجرى قولهم: صبراً يا زيد، وقليلاً يا عمرو.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



وهي مكية في قول الجمهور، وحكى النقاش عن الضحاك أنها مدنية، وذلك ضعيف، وإنما دعا إليه قول من قال: إن ذكر صلاة العيد فيها.
قوله عز وجل:

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً
أَخْوَى ﴿٥﴾ سَتُفْرِثُكَ فَلَا تَنسَى ﴿٦﴾ إَلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴿٧﴾ وَنُيْسِرُكَ لِلْيَمِينِ ﴿٨﴾ فذَكَرْ
إِنْ نَفَعْتَ الذِّكْرَى ﴿٩﴾ سِيِّدَ كَرَمٍ يَخْشَى ﴿١٠﴾ وَيَجْنِبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا
يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿١٣﴾

﴿سبح﴾ في هذه الآية، بمعنى نزه وقُدس وقل سبحانه عن النقائص والغير جمعاً وما يقول المشركون، والاسم الذي هو: ألف، سين، ميم، يأتي في مواضع من الكلام الفصيح يراد به المسمى، ويأتي في مواضع يراد به التسمية نحو قوله عليه السلام: «إن لله تسعة وتسعين اسماً» وغير ذلك، ومتى أريد به المسمى فإنما هو صلة كالزائد كأنه قال في هذه الآية: سبح ربك، أي نزهه، وإذا كان الاسم واحداً من الأسماء كزيد وعمر، فيجيء في الكلام على ما قلت، تقول زيد قائد تريد المسمى، وتقول: زيد ثلاثة أحرف تريد به التسمية، وهذه الآية تحتل هذا الوجه الأول، وتحتل أن يراد بالاسم التسمية نفسها على معنى نزه اسم ربك عن أن يسمى به صنم أو وثن، فيقال له إله ورب ونحو ذلك، و﴿الأعلى﴾ يصح أن يكون صفة للاسم، ويحتمل أن يكون صفة للرب، وذكر الطبري أن ابن عمر وعلياً قرأ هذه السورة: «سبحان ربي الأعلى» قال وهي في مصحف أبي بن كعب كذلك، وهي قراءة أبي موسى الأشعري وابن الزبير ومالك بن أبي دينار، وروى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية قال: «سبحان ربي الأعلى»، وكان ابن مسعود وابن عامر وابن الزبير يفعلون ذلك، ولما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم: «اجعلوها في سجودكم»، وقال قوم: معنى ﴿سبح اسم ربك﴾ نزه اسم ربك تعالى عن أن تذكره إلا وأنت خاشع، وقال ابن عباس معنى الآية: صلّ باسم ربك الأعلى كما تقول ابداً باسم الله، وحذف حرف الجر، و«سوى» معناه عدل وأتقن حتى صارت الأمور مستوية دالة على قدرته ووحدانيته، وقرأ جمهور القراء «قَدَّرَ» بشد الدال فيحتمل أن يكون من القدر والقضاء، ويحتمل أن يكون

من التقدير والموازنة، وقوله تعالى: ﴿فَهْدَى﴾ عام لوجوه الهدايات فقال الفراء: معناه هدى وأضل، واكتفى بالواحدة لدلالاتها على الأخرى، وقال مقاتل والكلبي: هدى الحيوان إلى وطء الذكور الإناث، وقيل هدى المولود عند وضعه إلى مص الثدي، وقال مجاهد: هدى الناس للخير والشر، والبهايم للمراتع.

قال القاضي أبو محمد: وهذه الأقوال مثالات، والعموم في الآية أصوب في كل تقدير وفي كل هداية، و﴿المرعى﴾: النبات، وهو أصل في قيام المعاش إذ هو غذاء الأنعام ومنه ما ينتفع به الناس في ذواتهم، و﴿الغذاء﴾ ما ييس وجف وتحطم من النبات، وهو الذي يحمله السيل، وبه يشبه الناس الذين لا قدر لهم. و﴿الأحوى﴾: قيل هو الأخضر الذي عليه سواد من شدة الخضرة والغضارة، وقيل هو الأسود سواداً يضرب إلى الخضرة ومنه قول ذي الرمة: [البسيط]

لمياء في شفتيها حوّة لعس وفي اللثات وفي أنيابها شنب

قال قتادة: تقدير هذه الآية ﴿أخرج المرعى﴾، ﴿أحوى﴾ أسود من خضرته ونضارته، ﴿فجعلته غشاء﴾ عند يسه، ف﴿أحوى﴾ حال، وقال ابن عباس: المعنى ﴿فجعل غشاء أحوى﴾ أي أسود، لأن الغشاء إذا قدم وأصابته الأمطار اسود وتعفن فصار ﴿أحوى﴾ بهذه الصفة. وقوله تعالى: ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾، قال الحسن وقتادة ومالك بن أنس: هذه الآية في معنى قوله تعالى: ﴿لا تحرك به لسانك﴾ [القيامة: ١٦] الآية، وعد الله أن يقرئه وأخبره أنه لا ينسى نسياناً لا يكون بعده ذكر، فتذهب الآية، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحرك شفثيه مبادرة خوفاً منه أن ينسى، وفي هذا التأويل آية النبي صلى الله عليه وسلم في أنه أمي، وحفظ الله تعالى عليه الوحي، وأمنه من نسيانه. وقال آخرون: ليست هذه الآية في معنى تلك، وإنما هذه وعد بإقرار الشرع والسور، وأمره أن لا ينسى على معنى التثبيت والتأكيد، وقد علم أن ترك النسيان ليس في قدرته، فقد نهى عن إغفال التعاهد، وأثبت الياء في «تنسى» لتعديل رؤوس الآي، وقال الجنيد: معنى ﴿فلا تنسى﴾، لا ترك العمل بما تضمن من أمر ونهي، وقوله تعالى: ﴿إلا ما شاء الله﴾، قال الحسن وقتادة وغيره مما قضى الله تعالى بنسخه، وأن ترفع تلاوته وحكمه. وقال الفراء وجماعة من أهل المعاني: هو استثناء صلة في الكلام على سنة الله تعالى في الاستثناء، وليس ثم شيء أبيح نسيانه، وقال ابن عباس: ﴿إلا ما شاء الله﴾ أن ينسيكه لتسن به على نحو قوله عليه السلام: «إني لأنسى أو أنسى لأمن»، وقال بعض المتأولين: ﴿إلا ما شاء الله﴾ أن يغلبك النسيان عليه ثم يذكر بك به بعد، ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم حين سمع قراءة عباد بن بشر يرحمه الله: «لقد أذكرني كذا في سورة كذا وكذا».

قال القاضي أبو محمد: ونسيان النبي صلى الله عليه وسلم ممتنع فيما أمر بتبليغه، إذ هو معصوم فإذا بلغه ووعي عنه، فالنسيان جائز على أن يتذكر بعد ذلك وعلى أن يسن، أو على النسخ، ثم أخبر تعالى ﴿إنه يعلم الجهر﴾ من الأشياء، ﴿وما يخفى﴾ منها، وذلك لإحاطته بكل شيء علماً، وبهذا يصح الخبر بأنه لا ينسى شيئاً إلا ذكره الله تعالى به. وقوله تعالى: ﴿ونيسرك لليسرى﴾ معناه: نذهب بك نحو الأمور المستحسنة في دنياك وأخراك من النصر والظفر وعلو الرسالة والمنزلة يوم القيامة، والرفعة في الجنة، ثم

أمره تعالى بالتذكير، واختلف الناس في معنى قوله تعالى ﴿إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ فقال الفراء والزهرائي معناه: وإن لم تنفع، فاقصر على القسم الواحد لدلالته على الثاني، وقال بعض الحذاق: إنما قوله ﴿إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾، اعتراض بين الكلامين على جهة التوبيخ لقريش، أي ﴿إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾، في هؤلاء الطغاة العتاة، وهذا نحو قول الشاعر: [الوافر]

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

وهذا كله كما تقول لرجل قل لفلان وأعد له إن سمعك، إنما هو توبيخ للمشار إليه، ثم أخبر تعالى أنه ﴿سَيَذَكَّرُ مِنْ يَخْشَى﴾ الله والدار الآخرة، وهم العلماء والمؤمنون كل بقدر ما وفق، ويتجنب الذكرى ونفعها من سبقت له الشقاوة، فكفر ووجب له صلي النار، وقال الحسن: ﴿النار الكبرى﴾ نار الآخرة، والصغرى نار الدنيا، وقال بعض المفسرين: إن نار جميع الآخرة وإن كانت شديدة فهي تفاضل، ففيها شيء أكبر من شيء، وقال الفراء: ﴿الكبرى﴾ هي السفلى من أطباق النار، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ معناه: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ موتاً مريحاً، ﴿وَلَا يَحْيَى﴾ حياة هنية فهو لا محالة حي، وقد ورد في خبر: إن العصاة في النار موتى.

قال القاضي أبو محمد: وأراه على التشبيه لأنه كالسبات والركود والهمول فجعله موتاً.

قوله عز وجل:

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ۖ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ۝ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۖ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ۖ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ۖ

﴿أفْلح﴾ في هذه الآية معناه: فاز ببغيته، ﴿وتزكى﴾ معناه: طهر نفسه ونماها إلى الخير. قال ابن عباس: قال لا إله إلا الله فتطهر من الشرك، وقال الحسن: من كان عمله زاكياً، وقال أبو الأحوص: من رضى من ماله وزكاه، وقوله ﴿وذکر اسم ربه﴾ معناه: وحّده وصلى له الصلوات التي فرضت عليه، وتنفل أيضاً بما أمكنه من صلاة وبر، وقال أبو سعيد الخدري وابن عمر وابن المسيب: هذه الآية في صبيحة يوم الفطر فتزكى، أدى زكاة الفطر، ﴿وذکر اسم ربه﴾، هو ذكر الله في طريق المصلى إلى أن يخرج الإمام، والصلاة هي صلاة العيد، وقد روي هذا التفسير عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقال قتادة وكثير من المتأولين: ﴿تزكى﴾: أدى زكاة ماله، و«صلى» معناه صلى الخمس، ثم أخبر تعالى الناس أنهم يؤثرون ﴿الحياة الدنيا﴾، فالكافر يؤثرها إثثار كفر يرى أن لا آخرة، والمؤمن يؤثرها إثثار معصية وغلبة نفس إلا من عصم الله، وقرأ أبو عمرو وحده «يؤثرون» بالياء، وقال: يعني الأشقيين، وهي قراءة ابن مسعود والحسن وأبي رجاء والجحدري، وقرأ الباقون والناس: «تؤثرون» بالتاء على المخاطبة، وفي حرف أبي بن كعب «بل أنتم تؤثرون»، وسبب الإيثار حب العاجل والجهل ببقاء الآخرة، وقال عمر: ما في الدنيا في الآخرة إلا كفخة أرنب. وقوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا﴾ قال الضحاك: أراد القرآن، وروي أن القرآن انتسخ من ﴿الصحف

الأولى ﴿١﴾، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: الإشارة إلى معاني السورة، وقال ابن زيد: الإشارة إلى هذين الخبرين «إفلاح من تزكى» وإيثار الناس للدنيا مع فضل الآخرة عليها، وهذا هو الأرجح لقرب المشار إليه بهذا. وقوله تعالى: ﴿لفي الصحف الأولى﴾ أي لم ينسخ هذا قط في شرع من الشرائع فهو في الأولى وفي الأخيرات، ونظير هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: «إذا لم تستحي فاصنع ما شئت» أي أنه مما جاءت به الأولى واستمر في الغي، وقرأ الجمهور «الصحف» مضمومة الحاء، وروى هارون عن أبي عمرو بسكون الحاء، وهي قراءة الأعمش، وقرأ أبو رجاء: ﴿إبراهيم﴾ بغير الياء ولا ألف، وقرأ ابن الزبير «إبراهيم» في كل القرآن، وكذلك أبو موسى الأشعري، وقرأ عبد الرحمن بن أبي بكرة «إبراهيم» بكسر الهاء وبغير ياء في جميع القرآن وروي أن ﴿صحف إبراهيم﴾ نزلت في أول ليلة من رمضان، والتوراة في السادسة من رمضان والزبور في اثني عشرة منه والإنجيل في ثمان عشرة منه والقرآن في أربع عشرة.

نجز تفسير سورة ﴿الأعلى﴾ والحمد لله كثيراً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

وهي مكية لا خلاف في ذلك بين أهل التأويل .
قوله عز وجل :

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وَجُوهٌُ يُومَذُ خَشَعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ أَنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾ وَجُوهٌُ يُومَذُ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿١١﴾

قال بعض المفسرين : ﴿هل﴾ بمعنى قد ، وقال الحذاق : هي على بابها توقيف ، فائدته تحريك نفس السامع إلى تلقي الخبر ، وقيل المعنى هل كان هذا من علمك لولا ما علمناك ، ففي هذا التأويل تعديد النعمة . و ﴿الغاشية﴾ : القيامة لأنها تغشى العالم كله بهولها وتغييرها لبنيتها ، قاله سفيان وجمهور من المتأولين ، وقال ابن جبير ومحمد بن كعب : ﴿الغاشية﴾ ، النار ، وقد قال تعالى : ﴿وتغشى وجوههم النار﴾ [إبراهيم : ٥٠] ، وقال : ﴿ومن فوقهم غواش﴾ [الأعراف : ٤١] فهي تغشى سكانها والقول الأول يؤيده قوله تعالى : ﴿وجوه يومئذ﴾ ، والوجوه الخاشعة ، وجوه الكفار وخشوعها ذلها وتغييرها بالعذاب ، واختلف الناس في قوله تعالى : ﴿عاملة ناصبة﴾ فيها والنصب ، التعب ، لأنها تكبرت عن العمل لله في الدنيا فأعملها في الآخرة في ناره . وقال عكرمة والسدي : المعنى : ﴿عاملة﴾ في الدنيا ﴿ناصبه﴾ يوم القيامة ، فالعمل على هذا هو مساعي الدنيا . وقال ابن عباس وزيد بن أسلم وابن جبير : المعنى : هي ﴿عاملة﴾ في الدنيا ﴿ناصبه﴾ فيها لأنها على غير هدى ، فلا ثمرة لعملها إلا النصب وخاتمته النار . قالوا : والآية في القيسيين وعبد الأوثان وكل مجتهد في كفر ، وقد ذهب هذا المذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تأويل الآية ، وبكى رحمة لراهب نصراني رآه مجتهداً ، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر القدرية فبكى ، وقال إن فيهم المجتهد . وقرأ ابن كثير في رواية شبل وابن محيصن : «عاملة ناصبة» بالنصب على الذم ، والناصب فعل مضمر تقديره أذم أو أعني ونحو هذا ، وقرأ الستة وحفص عن عاصم والأعرج وطلحة وأبو جعفر والحسن : «تصلى» بفتح التاء وسكون الصاد على بناء الفعل للفاعل ، أي الوجوه ، وقرأ أبو بكر عن عاصم وأبو عمرو بخلاف عنه وأبو رجاء وأبو عبد الرحمن وابن محيصن ، واختلف عن نافع وعن الأعرج «تصلى» بضم التاء وسكون الصاد ، وذلك يحتمل أن يكون من صليته النار على معنى أصلية ،

فيكون كتضرب، ويحتمل أن يكون من أصليت، فتكون كتكرم، وقرأ بعض الناس: «تُصَلَّى» بضم التاء وفتح الصاد وشد اللام على التعدية بالتضعيف، حكاها أبو عمرو بن العلاء، و«الحامية»، المتوقدة المتوهجة، و«الآنية»: التي قد انتهى حرها كما قال تعالى: ﴿وبين حميم أن﴾ [الرحمن: ٤٤]، قاله ابن عباس والحسن ومجاهد، وقال ابن زيد: معنى ﴿آنية﴾: حاضرة لهم من قولك آن الشيء إذا حضر، واختلف الناس في «الضريع»، فقال الحسن وجماعة من المفسرين: هو الزقوم، لأن الله تعالى قد أخبر في هذه الآية أن الكفار لا طعام لهم ﴿إلا من ضريع﴾، وقد أخبر أن الزقوم طعام الأثيم، فذلك يقتضي أن الضريع الزقوم، وقال سعيد بن جبير «الضريع»: الحجارة. وقال مجاهد وابن عباس وقتادة وعكرمة: «الضريع» شبرق النار، وقال أبو حنيفة: «الضريع» الشبرق وهو مرعى سوء لا تعقد السائمة عليه شحماً ولا لحماً، ومنه قول أبي عيزارة الهذلي: [الطويل].

وحبسن في هزم الضريع فكلها جرباء دامية اليدين حرود

وقال أبو ذؤيب:

رعى الشبرق الريان حتى إذا ذوى وعاد ضريعاً بان منه الخائض

وقيل «الضريع»: العشوق. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «الضريع»: شوك في النار، وقال بعض اللغويين: «الضريع» ييس العرفج إذا تحطم، وقال آخرون: هو رطب العرفج، وقال الزجاج: هو نبت كالعوسج، وقال بعض المفسرين: «الضريع» نبت في البحر أخضر منتن مجوف مستطيل له بوقية كثيرة، وقال ابن عباس: «الضريع»: شجر من نار. وكل من ذكر شيئاً مما ذكرناه فإنما يعني أن ذلك من نار ولا بد، وكل ما في النار فهو نار. وقال قوم: ﴿ضريع﴾ واد في جهنم، وقال جماعة من المتأولين: «الضريع» طعام أهل النار ولم يرد أن يخص شيئاً مما ذكرنا، وقال بعض اللغويين: وهذا لا تعرفه العرب، وقيل: «الضريع»: الجلد التي على العظم تحت اللحم، ولا أعرف من تأول الآية بهذا، وأهل هذه الأقاويل يقولون الزقوم لطائفة والضريع لطائفة والغسلين لطائفة، واختلف في المعنى الذي سمي ضريعاً فقليل هو ضريع بمعنى مضرع أي مضعف للبدن مهزل. ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في ولد جعفر بن أبي طالب: «ما لي أراهما ضارعين»؟ يريد هزيلين، ومن فعيل بمعنى مفعول قول عمرو بن معد يكرب: [الوافر]

أمن ريحانة الداعي السميع يؤرقني وأصحابي هجوع

يريد السمع، وقيل ﴿ضريع﴾ فعيل من المضارعة، أي الاشتباه لأنه يشبه المرعى الجيد ويضارعه في الظاهر وليس به. ولما ذكر تعالى وجوه أهل النار، عقب ذلك بذكره وجوه أهل الجنة ليبين الفرق، وقوله تعالى: ﴿لسعيها﴾ يريد لعملها في الدنيا وطاعتها، والمعنى لثواب سعيها والتنعيم عليه، ووصف الجنة بالعالو وذلك يصح من جهة المسافة والمكان ومن جهة المكان والمنزلة أيضاً، وقرأ نافع وحده وابن كثير وأبو عمرو بخلاف عنهما والأعرج وأهل مكة والمدينة «لا تسمع فيها لاغية» أي ذات لغو، فهي على النسب، وفسر بعضهم على معنى لا تسمع فيها فئة أو جماعة لاغية ناطقة بسوء. قال أبو عبيدة:

﴿لاغية﴾؛ مصدر كالعاقبة والخائنة، وقرأ الجحدري «لا تُسمع» بضم التاء، «لاغية» بالنصب، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «لا يُسمع» بالياء من تحت مضمومة «لاغية» بالرفع، وهي قراءة ابن محيصن وعيسى والجحدري أيضاً. إلا أنه قرأ «لاغية» بالنصب على معنى لا يسمع أحد كلمة لاغية من قولك أسمعت زيدا. وقرأ الباقون ونافع في رواية خارجة والحسن وأبو رجاء وأبو جعفر وقتادة وابن سيرين وأبو عمرو بخلاف عنه «لا تُسمع» بفتح التاء ونصب «لاغية»، والمعنى إما على الكلمة وإما على الفتحة، والفاعل به «تسمع» إما الوجوه وإما محمد صلى الله عليه وسلم قاله الحسن وإنما أنت أيها المخاطب عموماً، واللغو سقط القول، فذلك يجمع الفحش وسائر الكلام السفساف الناقص وليس في الجنة نقصان ولا عيب في فعل ولا قول، والحمد لله ولي النعمة.

قوله عز وجل:

فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٦﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٧﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٨﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٩﴾ وَزَرَارٍ مَبْثُوثَةٌ ﴿٢٠﴾ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٢١﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿٢٢﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٢٣﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٤﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢٥﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٧﴾ فَعَذَابُ اللَّهِ أَلْأَكْبَرُ ﴿٢٨﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٩﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٣٠﴾

﴿عين﴾ في هذه الآية اسم جنس، ويحتمل أن تكون عيناً مخصوصة ذكرت على جهة التشريف لها. و «رفع السرر» أشرف لها، و «أكواب» أوان كالأباريق لا عرى لها ولا أذان ولا خراطيم، وشكلها عند العرب معروف. و «موضوعة» معناه بأشربتها معدة و «النمرقة» الوسادة، ويقال نمرقة بكسر النون والراء وقال زهير: [الطويل]

كهولاً وشباناً حساناً وجوهمهم على سرر مصفوفةٍ ونمارق

و «الزراي» واحدتها زريبة، ويقال بفتح الزاي وهي كالطنافس لها حمل، قاله الفراء وهي ملونات، و «مبثوثة» معناه كثيرة متفرقة، ثم أقام تعالى الحجة على منكري قدرته على بعث الأجساد بأن وقفهم على موضع العبرة في مخلوقاته، و «الإبل» في هذه الآية هي الجمال المعروفة، هذا قول جمهور المتأولين، وفي الجمل آيات وعبر لمن تأمل ليس في الحيوان ما يقوم من البروك بحمله سواء وهو على قوته غاية في الانقياد. قال الثعلبي في بعض التفاسير: إن فارة جرت بزمام ناقة فتبعها حتى دخلت الحجر فبركت الناقة وأذنت رأسها من فم الحجر، وكان سريح القاضي يقول لأصحابه: اخرجوا بنا إلى الكناسة حتى نضر إلى الإبل كيف خلقت، وقال أبو العباس المبرد «الإبل» هنا السحاب، لأن العرب قد تسميها بذلك إذ تأتيها أرسالاً كالإبل وتزجي كما تزجي الإبل في هيئتها أحياناً تشبه الإبل والنعام، ومنه قول الشاعر:

[المتقارب]

كَأَن السَّحَابَ دُوَيْنَ السَّمَاءِ نَعَامَ تَعْلُقُ بِالْأَرْجُلِ

وقرأ أبو عمرو بخلاف وعيسى «الإيل» بشد اللام وهي السحاب فيما ذكر قوم من اللغويين والنقاش، وقرأ الجمهور «خُلِقَتْ» بفتح القاف وضم الخاء، وقرأ علي بن أبي طالب «خَلِقَتْ» بفتح الخاء وسكون القاف على فعل التكلم، وكذلك رفعت ونصبت «وسطحت»، وقرأ أبو حيو «رَفَعَتْ» و«نَصَبَتْ» و«سَطَحَتْ» بالتشديد فيها، و«نصبت» معناه: أثبتت قائمة في الهواء لا تنتطح، وقرأ الجمهور «سَطَحَتْ»، وقرأ هارون الرشيد «سَطَحَتْ» بشد الطاء على المبالغة، وهي قراءة الحسن، وظاهر هذه الآية أن الأرض سطح لا كرة، وهو الذي عليه أهل العلم، والقول بكريتها وإن كان لا ينقص ركناً من أركان الشرع، فهو قول لا يثبت علماء الشرع، ثم أمر تعالى نبيه بالتذكير بهذه الآية ونحوها، ثم نفى أن يكون مصيطراً على الناس، أي قاهراً جاهداً لهم مع تكبر تسلطاً عليهم، يقال تسيطر علينا فلان، وقرأ بعض الناس «بمسيطر» بالسين وبعضهم بالصاد، وقد تقدم وقرأ هارون «بمصيطر» بفتح الطاء وهي لغة تميم وليس في كلام العرب على هذا البناء غير مسيطر ومبيطر ومبيقر ومهيمن. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ قال بعض المتأولين الاستثناء متصل والمعنى ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى﴾ فإنك مصيطر عليه فالآية على هذا لا نسخ فيها وقال آخرون منهم: الاستثناء منفصل، والمعنى ﴿لست عليهم بمصيطر﴾ وتم الكلام. وهي آية مودعة منسوخة بالسيف ثم قال ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ﴾، وهذا هو القول الصحيح لأن السورة مكية، والقتال إنما نزل بالمدينة، و﴿مَنْ﴾ بمعنى الذي. وقرأ ابن عباس وزيد بن أسلم وقتادة وزيد بن علي «أَلَا مَنْ تَوَلَّى» بفتح الهمزة على معنى: استفتاح الكلام، و﴿مَنْ﴾ على هذه القراءة شرطية، و﴿العذاب الأكبر﴾ عذاب الآخرة لأنهم قد عذبوا في الدنيا بالجوع والقتل وغيره، وقرأ ابن مسعود «فإنه يعذبه الله» وقرأ الجمهور «إيأبهم» مصدر من آب يؤوب إذا رجع، وهو الحشر، والمراد إلى الله، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع «إيأبهم» بشد الياء على وزن فعال بكسر الفاء أصله فيعال من أيب فعل أصله فيعل، ويصح أن يكون أوب فيجيء إيواباً، وسهلت الهمزة وكان اللازم في الإدغام يردھا أواباً، لكن استحسن في الياء على غير قياس. (انتهى).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْفَجْرِ

وهي مكية عند جمهور المفسرين، وحكى أبو عمرو الداني في كتابه المؤلف في تنزيل القرآن عن بعض العلماء أنه قال: هي مدنية، والأول أشهر وأصح.
قوله عز وجل:

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَالْإِلَهِ إِذَا سَرَّ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حَجْرِ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَاكْتَرَوْا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾

قال جمهور من المتأولين: ﴿الفجر﴾ هنا المشهور الطالع كل يوم، قال ابن عباس: ﴿الفجر﴾ النهار كله، وقال ابن عباس أيضاً وزيد بن أسلم: ﴿الفجر﴾ الذي أقسم الله به، صلاة الصبح، وقراءتها هو قرآن الفجر، وقال مجاهد: إنما أراد فجر يوم النحر، وقال الضحاك: المراد فجر ذي الحجة، وقال مقاتل: المراد فجر ليلة جمع، وقال ابن عباس: أيضاً: المراد فجر أول يوم من المحرم، لأنه فجر السنة، وقيل المراد فجر العيون من الصخور وغيرها. وقال عكرمة: المراد فجر يوم الجمعة. واختلف الناس في «الليالي العشر» فقال بعض الرواة: هي العشر الأولى من رمضان، وقال الضحاك وابن عباس: هي العشر الأواخر من رمضان، وقال بنان وجماعة من المتأولين: هي العشر الأولى من المحرم، وفيه يوم عاشوراء، وقال مجاهد وقتادة والضحاك والسدي وعطية العوفي وابن الزبير رضي الله عنه: هي عشر ذي الحجة، وقال مجاهد: هي عشر موسى التي أتمها الله له، وقرأ الجمهور «وليلٍ»، وقرأ بعض القراء «وليلي عشر» بالإضافة وكان هذا على أن العشر مشار إليه معين بالعلم به، ثم وقع القسم بلياليه فكان العشر اسم لزمه حتى عومل معاملة الفرد، ثم وصف ومن راعى فيه الليالي قال العشر الوسط، واختلف الناس في ﴿الشفع والوتر﴾ فقال جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿الشفع﴾ يوم النحر ﴿والوتر﴾ يوم عرفة وروى أيوب عنه صلى الله عليه وسلم قال: «الشفع يوم عرفة ويوم الأضحى، والوتر ليلة النحر»، وروى عمران بن حصين عنه عليه السلام أنه قال: «هي الصلوات منها الشفع ومنها الوتر»، وقال ابن الزبير وغيره: ﴿الشفع﴾ اليومان من أيام التشريق، ﴿والوتر﴾، اليوم الثالث، وقال آخرون: ﴿الشفع﴾، العالم

﴿والتوتر﴾، الله إذ هو الواحد محضاً وسواه ليس كذلك، وقال بعض المتأولين: ﴿الشفع﴾ آدم وحواء، و﴿التوتر﴾ الله، وقال ابن سيرين ومسروق وأبو صالح: ﴿الشفع والتوتر﴾ شائعان الخلق كله، الإيمان والكفر والإنس والجن وما اطرده على نحو هذا فهي أضداد أو كالأضداد، وتوترها الله تعالى فرد أحد. وقيل ﴿الشفع﴾: الصفا والمروة، و﴿والتوتر﴾ البيت، وقال الحسن بن الفضل: ﴿الشفع﴾ أبواب الجنة لأنها ثمانية أبواب، و﴿والتوتر﴾ أبواب النار لأنها سبعة أبواب، وقال مقاتل: ﴿الشفع﴾ الأيام والليالي، و﴿والتوتر﴾ يوم القيامة لأنه لا ليل بعده، و﴿والتوتر﴾ اتحاد صفات الله تعالى، عز محض وكرم محض ونحوه، وقيل: ﴿الشفع﴾، قرآن الحج والعمرة، و﴿والتوتر﴾ الأفراد في الحج، وقال الحسن: أقسم الله تعالى بالعدد لأنه إما شفع وإما وتر، وقال بعض المفسرين: ﴿الشفع﴾ حواء و﴿والتوتر﴾ آدم عليه السلام. وقال ابن عباس ومجاهد: ﴿التوتر﴾ صلاة المغرب و﴿الشفع﴾ صلاة الصبح، وقال أبو العالية: ﴿الشفع﴾ الركعتان من المغرب و﴿والتوتر﴾ الركعة الأخيرة. وقال بعض العلماء: ﴿الشفع﴾ تنفل الليل مثنى مثنى و﴿والتوتر﴾ الركعة الأخيرة المعروفة. وقرأ جمهور القراء والناس «والتوتر» بفتح الواو، وهي لغة قريش وأهل الحجاز، وقرأ حمزة والكسائي والحسن بخلاف وأبو رجاء وابن وثاب وطلحة والأعمش وقتادة: «والتوتر» بكسر الواو، وهي لغة تميم وبكر بن وائل، وذكر الزهراوي أن الأغر رواها عن ابن عباس وهما لغتان في الفرد، وأما الدخول فإنما هو وتر بالكسر لا غير، وقد ذكر الزهراوي أن الأصمعي حكى فيه اللغتين الفتح والكسر، وسرى الليل ذهابه وانقراضه، هذا قول الجمهور، وقال ابن قتيبة والأخفش وغيره: المعنى «إذا يسري» فيه فيخرج هذا الكلام مخرج ليل نائم ونهار بطل. وقال مجاهد وعكرمة والكلبي: أراد بهذا ليلة جمع لأنه يسرى فيها، وقرأ الجمهور: «يسر» دون ياء في وصل ووقف، وقرأ ابن كثير: «يسري» بالياء في وصل ووقف، وقرأ نافع وأبو عمرو بخلاف عنه «يسري» بياء في الوصل ودونها في الوقف وحذفها تخفيف لاعتدال رؤوس الآي إذ هي فواصل كالقوافي، قال اليزيدي: الوصل في هذا وما أشبهه بالياء، والوقف بغير ياء على خط المصحف. ووقف تعالى على هذه الأقسام العظام هل فيها مقنع وحسب لذي عقل. و﴿الحجر﴾ العقل والنية، والمعنى فيزجر ذو الحجر وينظر في آيات الله تعالى، ثم وقف تعالى على مصانع الأمم الخالية الكافرة وما فعل ربك من التعذيب والإهلاك، والمراد بذلك توعده قريش ونصب المثل لها. و﴿عاد﴾ قبيلة لا خلاف في ذلك، واختلف الناس في ﴿إرم﴾ فقال مجاهد وقتادة: هي القبيلة بعينها، وهذا على قول ابن الرقيات: [المنسرح]

مجداً تليداً بناه أوله أدرك عاداً وقبله إرم

وقال زهير: [البسيط]

وآخرين ترى الماذي عدتهم من نسج داود أو ما أورثت إرم

قال ابن إسحاق: ﴿إرم﴾ هو أبو عاد كلها، وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، وقال: هو أحد أجدادها، وقال جمهور المفسرين: ﴿إرم﴾ مدينة لهم عظيمة كانت على وجه الدهر باليمن، وقال محمد بن كعب: هي «الإسكندرية»، وقال سعيد بن المسيب والمقري: هي دمشق، وهذان القولان

ضعيفان، وقال مجاهد ﴿إرم﴾ معناه القديمة، وقرأ الجمهور «بعاد إرم» فصرفوا «عاداً» على إرادة الحي ونعت بـ ﴿إرم﴾ بكسر الهمزة على أنها القبيلة بعينها، ويؤيد هذا قول اليهود للعرب: سيخرج فينا نبي تتبعه نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فهذا يقتضي أنها قبيلة، وعلى هذه القراءة يتجه أن يكون ﴿إرم﴾ أباً لعاد أو جداً غلب اسمه على القبيل، وقرأ الحسن بن أبي الحسن «بعاد إرم» بترك الصرف في «عاد» وإضافتها إلى ﴿إرم﴾، وهذا يتجه على أن يكون ﴿إرم﴾ أباً أو جداً وعلى أن تكون مدينة، وقرأ الضحاك «بعاد أرم» بفتح الدال والهمزة من «أرم» وفتح الراء والميم على ترك الصرف في «عاد» والإضافة، وقرأ ابن عباس والضحاك «بعاد إرم» بشد الميم على الفعل الماضي بمعنى بلي وصار رميمًا، يقال أرم العظم وأرم وأرمه الله تعدية رم بالهمزة، وقرأ ابن عباس أيضاً: «أرم ذات» بالنصب في التاء على إيقاع الإرمام عليها، أي أبلأها ربك وجعلها رميمًا، وقرأ ابن الزبير: «أرم ذات العماد» بفتح الهمزة وكسر الراء، وهي لغة في المدينة، وقرأ الضحاك بن مزاحم «أرم» بسكون الراء وفتح الهمزة وهو تخفيف في «أرم» كفخذة وفخذ، واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿ذات العماد﴾ فمن قال ﴿إرم﴾ مدينة، قال العماد أعمدة الحجارة التي بنيت بها، وقيل القصور العالية والأبراج يقال لها عماد، ومن قال ﴿إرم﴾ قبيلة قال ﴿العماد﴾ إما أعمدة بنيانهم وإما أعمدة بيوتهم التي يرحلون بها لأنهم كانوا أهل عمود ينتجعون البلاد، قاله مقاتل وجماعة. وقال ابن عباس: هي كناية عن طول أبدانهم، وقرأ الجمهور: «يُخْلَقُ» بضم الياء وفتح اللام «مثلها» رفعاً، وقرأ ابن الزبير «يُخْلَقُ» بفتح الياء وضم اللام «ومثلها» نصباً، وذكر أبو عمرو الداني عنه أنه قرأ «نخلق» بالنون وضم اللام «مثلها» نصباً، وذكر التي قبل هذه عن عكرمة، والضمير في «مثلها» يعود إما على المدينة وإما على القبيلة، وقرأ يحيى بن وثاب «وثموداً» بتنوين الدال، و﴿جأبوا الصخر﴾ معناه خرّقه ونحتوه، وكانوا في أوديتهم قد نحتوا بيوتهم في حجارة، و «الوادي» ما بين الجبلين وإن لم يكن فيه ماء، هذا قول كثير من المفسرين في معنى ﴿جأبوا الصخر بالواد﴾. وقال الثعلبي: يريد بوادي القرى، وقال قوم: المعنى جأبوا وادبهم وجلبوا ماءهم في صخر شقوه، وهذا فعل ذوي القوة والآمال، وقرأ ابن كثير «بالوادي» بياء، وقرأ أكثر السبعة «بالواد» دون ياء واختلف في ذلك نافع، وقد تقدم هذا، و﴿وفرعون﴾ هو فرعون موسى، واختلف الناس في أوتاده فقيل أبنيته العالية العظيمة، قاله محمد بن كعب، وقيل جنوده الذين بهم يثبت ملكه وقيل المراد أوتاد أخبية عساكره وذكرت لكثرتها ودلالاتها على غزواته وطوفه في البلاد، قاله ابن عباس ومنه قول الأسود بن يعفر:

في ظل ملك ثابت الأوتاد

وقال قتادة: كان له أوتاد يلعب عليها الرجال بين يديه وهو مشرف عليهم، وقال مجاهد: كان يوتد الناس بأوتاد الحديد يقتلهم بذلك يضربها في أبدانهم حتى تنفذ إلى الأرض، وقيل إنما فعل ذلك بزوجه آسية، وقيل إنما فعل بماشطة ابنته لأنها كانت آمنت بموسى، والطغيان تجاوز الحدود، والصب يستعمل في السوط لأنه يقتضي سرعة في النزول، ومنه قول الشاعر في المحدودين في الإفك:

فصبت عليهم محصرات كأنها شأبيب ليست من سحاب ولا قطر

ومن ذلك قول المتأخر في صفة الخيل:

صَبِينَا عَلَيْهَا ظَالِمِينَ سَيَاطِنَا فَطَارَتْ بِهَا أَيْدٍ سَرَاعٍ وَأَرْجُلُ

وإنما خص «السوط» بأن يستعار للعذاب لأنه يقتضي من التكرار والترداد ما لا يقتضيه السيف ولا غيره، وقال بعض اللغويين: «السوط» هنا مصدر من ساط يسوط إذا اختلط فكأنه قال خلط عذاب، و«المرصاد» موضع الرصد، قاله اللغويون، أي أنه عند لسان كل قائل، ومرصد لكل فاعل، وعلى هذا التأويل في المرصاد جواب عامر بن عبد قيس لعثمان حين قال له: أين ربك يا أعرابي؟ قال بالمرصاد، ويحتمل أن يكون «المرصاد» في الآية اسم فاعل كأنه قال لبالرصد فعبر بالمبالغة، وروي في بعض الحديث أن على جسر جهنم ثلاث قناطر على إحداها الأمانة وعلى إحداها [الرحم] وعلى الأخيرة الرب تبارك وتعالى، فذلك قوله ﴿بِالْمُرْصَادِ﴾.

قوله عز وجل:

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾

ذكر الله تعالى في هذه الآية: ما كانت قريش تقول تستدل به على إكرام الله تعالى وإهانتة لعبده، وذلك أنهم كانوا يرون أن من عنده الغنى والثروة والأولاد فهو المكرم، وبضده المهان، ومن حيث كان هذا المقطع غالباً على كثيرين من الكفار، جاء التوبيخ في هذه الآية لاسم الجنس، إذ يقع بعض المؤمنين في شيء من هذا المتزع، ومن ذلك حديث الأعراب الذين كانوا يقدمون المدينة على النبي صلى الله عليه وسلم، فمن نال خيراً قال هذا دين حسن، ومن ناله شراً قال هذا دين سوء، و﴿ابتلاه﴾ معناه: اختبره، و﴿نعمه﴾ معناه: جعله ذا نعمة، وقرأ ابن كثير «أكرمني» بالياء في وصل ووقف وحذفها عاصم وابن عامر وحمة والكسائي في الوجهين، وقرأ نافع بالياء في الوصل وحذفها في الوقف، وكذلك «أهانني»، وخير في الوجهين أبو عمرو، وقرأ جمهور الناس: «فقدّر» بتخفيف الدال، بمعنى ضيق، وقرأ الحسن بخلاف وأبو جعفر وعيسى «قدّر» بمعنى: جعله على قدر، وهما بمعنى واحد في معنى التضييق لأنه ضعف قدر مبالغة لا تعدية، ويقتضي ذلك قول الإنسان ﴿أهانني﴾، لأن «قدر» معدى إنما معناه أعطاه ما يكفيه ولا إهانة مع ذلك. ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾ ردّاً على قولهم ومعتقدهم، أي ليس إكرام الله تعالى وإهانتة، في ذلك، وإنما ذلك ابتلاء فحق من ابتلي بالغنى أن يشكر ويطيع، ومن ابتلي بالفقر أن يشكر ويصبر، وأما إكرام الله تعالى فهو بالتقوى، وإهانتة فبالمعصية، ثم أخبرهم بأعمالهم من أنهم لا يكرمون اليتيم وهو من بني آدم الذي فقد أباه وكان غير بالغ. ومن البهائم ما فقد أمه، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أَحَبُّ الْبَيْتِ إِلَى اللَّهِ، بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ مَكْرُمٌ»، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر «يحضون» بمعنى: يحض بعضهم بعضاً أو

تحضون أنفسكم، وقرأ عاصم وحمة والكسائي «تحاضون» بفتح التاء بمعنى تتحاضون، أي يحض قوم قوماً، وقرأ أبو عمرو و«يحضون» بياء من تحت مفتوحة وبغير ألف، وقرأ عبد الله بن المبارك «تحاضون» بضم التاء على وزن تقاتلون، أي أنفسكم، أي بعضكم بعضاً ورواها الشيرازي عن الكسائي، وقد يجيء فاعلت بمعنى فعلت وهذا منه، وإلى هذا ذهب أبو علي وأنشد:

تحاسنت به الوشي قرات الرياح وخوزها

أي حسنت وأنشد أيضاً: [لرجز]

إذا تخازرت وما بي من خزر

ويحتمل أن تكون مفاعلة، ويتجه ذلك على زحف ما فتأمله، وقرأ الأعمش «تحاضون» بتاءين، و«طعام» في هذه الآية بمعنى إ طعام، وقال قوم: أراد نفس طعامه الذي يأكل، ففي الكلام حذف تقديره على بدل «طعام المسكين»، وقد تقدم القول في (سورة براءة) في المسكين والفقير بمعنى يغني عن إعادته، وعدد عليهم جدهم في أكل التراث لأنهم لا يورثون النساء ولا صغار الأولاد إنما كان يأخذ المال من يقاتل ويحمي الحوزة. و«اللم»: الجمع واللف. قال الحسن: هو أن يأخذ في الميراث حظه وحظ غيره، وقال أبو عبيدة: لملت ما على الخوان إذا أكلت جميع ما عليه بأسره، ومنه لم الشعث، ومنه قول النابغة: [الطويل]

ولست بمستبق أخاً لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب

والجم: الكثير الشديد، ومنه قول الشاعر [أبو خراش الهذلي]: [الرجز]

إن تغفر اللهم تغفر جمّاً وأي عبد لك لا ألما

ومنه «الجم» من الناس، ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾ رداً على أفعالهم هذه وتوطئة للوعيد، أي سيزون أفعالهم ليس على قوم ﴿إِذَا دَكَتِ الْأَرْضُ﴾، ودك الأرض تسويتها بذهاب جبالها، والناقة الدكاء التي لا سمن لها، وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ﴾ معناه: وجاء قدره وسلطانه وقضاؤه، قال منذر بن سعيد: معناه: ظهوره للخلق هنالك ليس مجيء نقلة وكذلك مجيء الصاخة ومجيء الطامة، و«الملك» اسم جنس: يريد جميع الملائكة، وروي أن ملائكة كل سماء تكون «صفاً» حول الأرض في يوم القيامة، وذكر الطبري في ذلك حديثاً طويلاً اختصرته، وبهذا المعنى يفسر قوله تعالى: ﴿يَوْمَ النَّادِ﴾ [غافر: ٣٢] على قراءة من شد الدال. وقوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا﴾ [الرحمن: ٣٣] الآية. وقرأ ابن كثير وعاصم ونافع وابن عامر وحمة والكسائي في هذه الآية «تكرمون» بالتاء، وكذلك سائر الأفعال بعدها على الخطاب، وقرأ أبو عمرو والحسن ومجاهد وأبو رجاء وقتادة والجمحدري «يكرمون» في جميعها على ذكر الغائب إذ قد تقدم اسم جنس الإنسان.

قوله عز وجل:

وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذَعُ عَنَّا الْأَشْنَءُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَبَاتِي ﴿٢٢﴾

﴿٢٣﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَا يُوثِقُ وِثْقُهُ أَحَدًا ﴿٢٥﴾ يَتَأَيَّئُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٦﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٧﴾ فَأَدْخِلِي فِي عَبْدِي ﴿٢٨﴾ وَأَدْخِلِي جَنِّي ﴿٢٩﴾

روي في قوله تعالى: ﴿وجيء يومئذ بجهنم﴾ أنها تساق إلى الحشر بسبعين ألف زمام، يمسك كل زمام سبعون ألف ملك فيخرج منها عتق فينتقي الجابرة من الكفار في حديث طويل مختلف اللفاظ، و«جهنم» هنا: هي النار بجملتها، وروي أنه لما نزلت ﴿وجيء يومئذ بجهنم﴾ تغير لون النبي صلى الله عليه وسلم، وقوله تعالى: ﴿يتذكر الإنسان﴾ معناه: يتذكر عصيانه وطغيانه، وينظر ما فاتته من العمل الصالح. ثم قال تعالى: ﴿وأنى له الذكرى﴾ ثم ذكر عنه أنه يقول: ﴿يا ليتني قدمت لحياتي﴾، واختلف في معنى قوله: ﴿لحياتي﴾ فقال جمهور المتأولين معناه: ﴿لحياتي﴾ الباقية يريد في الآخرة، وقال قوم من المتأولين: المعنى ﴿لحياتي﴾ في قبري عند بعثي الذي كنت أكذب به وأعتقد أنني لن أعود حياً. وقال آخرون: ﴿لحياتي﴾ هنا مجاز، أي ﴿ليتني قدمت﴾ عملاً صالحاً لأنعم به اليوم وأحيا حياة طيبة، فهذا كما يقول الإنسان أحييني في هذا الأمر، وقال بعض المتأولين لوقت أولمدة حياتي الماضية في الدنيا، وهذا كما تقول جئت لطلوع الشمس ولتاريخ كذا ونحوه. وقرأ جمهور القراء وعلي بن أبي طالب وابن عباس وأبو عبد الرحمن: «يعذب» و«يوثق» بكسر الذال التاء، وعلى هذه القراءة، فالضمير عائد في عذابه ووثاقه لله تعالى، والمصدر مضاف إلى الفاعل ولذلك معنيان: أحدهما أن الله تعالى لا يكل عذاب الكفار يومئذ إلى أحد، والآخر أن عذابه من الشدة في حيز لم يعذب قط أحد بمثله، ويحتمل أن يكون الضمير للكفار والمصدر مضاف إلى المفعول، وقرأ الكسائي وابن سيرين وابن أبي إسحاق وسوار القاضي «يعذب» و«يوثق» بفتح الذال والتاء ورويت كثيراً عن النبي صلى الله عليه وسلم، فالضميران على هذا للكافر الذي هو بمنزلة جنسه كله والمصدر مضاف إلى المفعول ووضع عذاب موضع تعذيب كما قال [القرطبي]: [الوافر]

وبعض عطائك المائة الرتاعا

ويحتمل أن يكون الضميران في هذه القراءة لله تعالى، كأنه قال: لا يعذب أحد قط في الدنيا عذاب الله للكفار، فالمصدر مضاف إلى الفاعل، وفي هذا التأويل تحامل، وقرأ الخليل بن أحمد «وثاقه» بكسر الواو. ولما فرغ ذكر هؤلاء المعذبين عقب تعالى بذكر نفوس المؤمنين وحالهم فقال: ﴿يا أيها النفس المطمئنة﴾ الآية، و«المطمئنة» معناه: الموقنة غاية اليقين، ألا ترى أن إبراهيم عليه السلام قال: ﴿ولكن ليطمئن قلبي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فهي درجة زائدة على الإيمان، وهي أن لا يبقى على النفس في يقينها مطلب يحركها إلى تحصيله، واختلف الناس في هذا النداء متى يقع فقال ابن زيد وغيره: هو عند خروج نفس المؤمن من جسده في الدنيا. وروي أن أبا بكر الصديق سأل عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: «إن الملك سيقولها لك يا أبا بكر عند موتك»، ومعنى ﴿ارجعي إلى ربك﴾ على هذا التأويل، ﴿ارجعي﴾ بالموت، وقال: وقوله ﴿في عبادي﴾ أي في أعداد عبادي الصالحين، وهذه قراءة الجمهور

بجمع «عبادي»، وقال قوم: النداء عند قيام الأجساد من القبور، فقلوه: ﴿ارجعي إلى ربك﴾ معناه بالبعث من موتك ارجعي إلى الله. وقيل الرب هنا الإنسان ذو النفس، أي ﴿ادخلي﴾ في الأجساد، و﴿النفس﴾ اسم جنس، وقال بعض العلماء: هذا النداء هو الآن للمؤمنين لما ذكر حال الكفار قال يا مؤمنون دوموا وجدوا حتى ترجعوا راضين مرضيين، ف﴿النفس﴾ على هذا اسم الجنس، وقرأ ابن عباس وعكرمة وأبو شيخ والضحاك واليماني ومجاهد وأبو جعفر: «فادخلي في عبدي»، و﴿النفس﴾ على هذا ليست باسم الجنس، وإنما خاطب مفردة. قال أبو شيخ: الروح يدخل في البدن، وفي مصحف أبي بن كعب: «يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة إيتي ربك راضية مرضية فارجعي في عبدي»، وقرأ سالم بن عبد الله «فادخلي في عبادي ولحي جنتي»، وتحتمل قراءة «عبدي» أن يكون العبد اسم جنس جعل عباده كالشيء الواحد دلالة على الالتحام كما قال عليه السلام وهم يد على من سواهم وقال آخرون: إنما هو في الموقف عندما يتطلق بأهل النار إلى النار، فنداء النفوس على هذا إنما هو نداء أرباب النفوس، ومعنى ﴿ارجعي إلى ربك﴾ على هذا إلى رحمة ربك، والعباد هنا الصالحون المنعمون.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْبَلَدِ

وهي مكية في قول جمهور المفسرين ، وقال قوم هي مدنية .

قوله عز وجل :

لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾
أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ
لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾

قرأ الحسن بن أبي الحسن «لأقسم» دون ألف، وقرأ الجمهور: «لا أقسم»، واختلفوا فقال الزجاج وغيره: «لا» صلة زائدة مؤكدة، واستأنف قوله ﴿أقسم﴾، وقال مجاهد ﴿لا﴾ رد للكلام متقدم للكفار، ثم استأنف قوله ﴿أقسم﴾، وقال بعض المتأولين ﴿لا﴾ نفى للقسم بالبلد، أخبر الله تعالى أنه لا يقسم به، ولا خلاف بين المفسرين أن ﴿البلد﴾ المذكور هو مكة، واختلف في معنى قوله ﴿وأنت حل بهذا البلد﴾ فقال ابن عباس وجماعة: معناه وأنت حلال بهذا البلد يحل لك فيه قتل من شئت، وكان هذا يوم فتح مكة، وعلى هذا يتركب قول من قال السورة مدنية نزلت عام الفتح، ويتركب على التأويل قول من قال: ﴿لا﴾ نافية أي إن هذا البلد لا يقسم الله به، وقد جاء أهله بأعمال توجب إحلال حرمة، ويتجه أيضاً أن تكون ﴿لا﴾ غير نافية. وقال بعض المتأولين: ﴿وأنت حل بهذا البلد﴾ معناه: حال ساكن بهذا البلد، وعلى هذا يجيء قول من قال هي مكية، والمعنى على إيجاب القسم بين وعلى نفية أيضاً يتجه على معنى القسم ببلد أنت ساكنه على أذى هؤلاء القوم وكفرهم، وذكر الثعلبي عن شرحبيل بن سعد أن معنى ﴿وأنت حل﴾ أي قد جعلوك حلالاً مستحل الأذى والإخراج والقتل لك لو قدروا، وإعراب ﴿البلد﴾ عطف بيان، وقوله تعالى: ﴿ووالد وما ولد﴾ قسم مستأنف على قول من قال ﴿لا﴾ نافية، ومعطوف على قول من رأى ﴿لا﴾ غير نافية، واختلف الناس في معنى قوله: ﴿ووالد وما ولد﴾، فقال مجاهد: هو آدم وجميع ولده، وقال بعض رواة التفسير: هو نوح وجميع ولده، وقال أبو عمران الجوني: هو إبراهيم وجميع ولده، وقال ابن عباس ما معناه: أن الوالد والولد هنا على العموم فهي أسماء جنس يدخل فيها جميع الحيوان، وقال ابن عباس وابن جبير وعكرمة: ﴿ووالد﴾ معناه: كل من ولد وأنسل، وقوله ﴿وما ولد﴾: لم يبق تحته إلا العاقر الذي ليس بوالد البتة، والقسم واقع على قوله: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾، واختلف الناس في

«الكبد»، فقال جمهور الناس: ﴿الإنسان﴾ اسم الجنس كله، و«الكبد» المشقة والمكابدة، أي يكابد أمر الدنيا والآخرة، ومن ذلك قول لبيد: [المنسرح]

يا عين هلا بكيت أريد إذ قمنا وقام الخصوم في كبد

وقول ذي الإصبع: [البيسط]

لي ابن عم لو ان الناس في كبد لظل محتجراً بالنبل يرميني

وبالمشقة في أنواع أحوال الإنسان فسره الجمهور، وقال الحسن: لم يخلق الله خلقاً يكابد ما يكابد ابن آدم، وقال ابن عباس وعبد الله بن شداد وأبو صالح والضحاك ومجاهد ﴿في كبد﴾ معناه: منتصف القامة واقفاً، وقال ابن زيد: ﴿الإنسان﴾: آدم عليه السلام، و﴿في كبد﴾ معناه: في السماء سماها كبداً، وهذان قولان قد ضعفا والقول الأول هو الصحيح، وروي أن سبب الآية وما بعدها هو أبو الأشدين رجل من قريش شديد القوة، اسمه أسيد بن كلدة الجمحي، كان يحسب أن أحداً لا يقدر عليه، ويقال بل نزلت في عمرو بن ود، ذكره النقاش، وهو الذي اقتحم الخندق بالمدينة وقتله علي بن أبي طالب خلف الخندق، وقال مقاتل: نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل، أذنب فاستفتى النبي صلى الله عليه وسلم فأمره بالكفارة فقال: لقد ﴿أهلكت مالا﴾ في الكفارات والنفقات مذ تبعت محمداً، وكان كل واحد منهم قد ادعى أنه أنفق مالا كثيراً على إفساد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أو في الكفارات على ما تقدم، فوقف القرآن على جهة التوبيخ للمذكور، وعلى جهة التوبيخ لاسم الجنس كله. و﴿يقدر﴾ نصب بـ ﴿لن﴾ و﴿أن﴾ مخففة من الثقيلة، وكان قول هذا الكافر: ﴿أهلكت مالا لبداً﴾ كذباً منه، فلذلك قال: ﴿أيحسب أن لم يره أحد﴾ أي أنه رُئي وأُحصي فعله فما باله يكذب؟ ومن قال إن المراد اسم الجنس غير مفرد، جعل قوله تعالى: ﴿أيحسب أن لم يره أحد﴾ بمعنى أظن الإنسان أن ليس عليه حفظة يرون أعماله ويحصونها إلى يوم الجزاء، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه وجسمه فيما أبلاه وماله من أين كسبه وأين أنفقه»، واختلف القراء في قوله «لبداً»، فقرأ جمهور القراء بضم اللام وفتح الباء، وقرأ مجاهد «لبداً» بضمهمما وذلك جمع لبدة أو جمع لبود بفتح اللام، وقرأ أبو جعفر يزيد «لبداً» بضم اللام وفتح الباء وشدها فيكون مفرداً نحو «زمل» ويكون جمع لابد، وقد روي عن أبي جعفر «لبداً» بسكون الباء، والمعنى في هذه القراءات كلها مالا كثيراً متلبداً بعضه فوق بعض من التكاثر والكثرة، وقرأ الأعمش: «لم يره» بسكون الراء لتوالي الحركات، ثم عدد تعالى على الإنسان نعمه التي بها تقوم الحجة، وهي جوارحه. وقرن تعالى «الشفقتين» باللسان لأن نعمة العبارة والكلام، لا يصح إلا بالجميع. وفي الحديث: يقول الله تعالى: «ابن آدم إن نازعك لسانك إلى ما لا يحل، فقد أعتكك عليه بشفتين فأطبقهما عليه». واختلف الناس في ﴿النجدين﴾ فقال ابن مسعود وابن عباس والناس: طريقا الخير والشر، أي عرضنا عليه طريقهما، وليست الهداية هنا بمعنى الإرشاد. وقال ابن عباس أيضاً والضحاك: «النجدان»: ثديا الأم وهذا مثال، والنجد: الطريق المرتفع، وأنشد الأصمعي: [الطويل]

كميش الإزار خارج نصف ساقه صبور على الأرزاء طلاع أنجد

قوله عز وجل:

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَصَّوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمُنْمَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَتَيْنَانَهُمُ أَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ ﴿٢٠﴾

في هذه الآية على عرف كلام العرب، استعارة لهذا العمل الشاق على النفس من حيث هو بذل مال تشبيه بعقبة الجبل، وهي ما صعب منه وكان صعوداً، و﴿اقتحم﴾ معناه: دخلها وجاوزها بسرعة وضغط وشدة، وأما المفسرون فرأوا أن ﴿العقبة﴾ يراد بها جبل في جهنم، لا ينجي منه إلا هذه الأعمال ونحوها، قاله ابن عباس وقتادة، وقال الحسن: ﴿العقبة﴾ جهنم، قال هو وقتادة فاقتحموها بطاعة الله، وفي الحديث: «إن اقتحامها للمؤمن كما بين صلاة العصر إلى العشاء»، واختلف الناس في قوله ﴿فلا﴾ فقال جمهور المتأولين: هو تحضيض بمعنى «فلا»، وقال آخرون وهو دعاء بمعنى أنه ممن يستحق أن يدعى عليه بأن لا يفعل خيراً، وقيل هي نفي، أي «فما اقتحم»، وقال أبو عبيدة والزجاج وهذا نحو قوله تعالى: ﴿فلا صدق ولا صلى﴾ [القيامة: ٣١] فهو نفي محض كأنه قال: وهبنا له الجوارح ودللناه على السبيل فما فعل خيراً، ثم عظم الله تعالى أمر العقبة في النفوس بقوله: ﴿وما أدراك ما العقبة؟﴾ ثم فسر اقتحام العقبة بقوله ﴿فك رقة﴾ وذلك أن التقدير وما أدراك ما اقتحام العقبة؟ هذا على قراءة من قرأ ﴿فك رقة﴾ بالرفع على المصدر، وأما من قرأ ﴿فك﴾ على الفعل الماضي ونصب الرقة، فليس يحتاج أن يقدر ﴿وما أدراك﴾ ما اقتحام، بل يكون التعظيم للعقبة نفسها، ويجيء «فك» بدلاً من ﴿اقتحم﴾ ومبيناً. وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحزمة «فك رقة أو إطعام»، وقرأ أبو عمرو «فك رقة» بالنصب، «أو أطعم»، وقرأ بعض التابعين «فك رقة» بالخفض، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو أيضاً والكسائي «فك رقة» بالنصب «أو إطعام». وترتيب هذه القراءات ووجوهها بينة، وفك الرقة معناه: بالعتق من ربة الأسر أو الرق، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: «من أعتق نسمة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضواً منه من النار». وقال أعرابي للنبي صلى الله عليه وسلم: دلني على عمل أنجو به، فقال: «لئن قصرت القول لقد عرضت المسألة فك رقة، وأعتق النسمة»، فقال الأعرابي: أليس هما واحداً؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا أعتق النسمة أن تنفرد بعقتها، وفك الرقة أن تعين في ثمنها».

قال القاضي أبو محمد: وكذلك فك الأسير إن شاء الله، وفداؤه أن ينفرد الفادي به، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم للأعرابي: «وأبق على ذي الرحم الظالم، فإن لم تطق هذا كله، فكف لسانك إلا من خير»، و«المسغبة»: المجاعة. والساغب: الجائع. وقرأ جمهور الناس «ذي مسغبة» على نعت «يوم»، وقرأ علي بن أبي طالب والحسن وأبو رجاء «ذا مسغبة» على أن يعمل فيها «أطعم» أو «إطعام» على القراءتين المذكورتين، وفي هذا حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه، لأن التقدير إنساناً ذا مسغبة ووصفت الصفة لما قامت مقام موصوفها المحذوف، وأشبهت الأسماء، و«المسغبة»: الجوع العام، وقد

يقال في الخاص: سغب الرجل إذا جاع. وقوله تعالى: ﴿ذَا مَقْرِبَةٌ﴾ معناه: ذا مقربة. لتجتمع الصدقة والصلة، وهذا نحو ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزَيْنَب امرأة عبد الله بن مسعود: «تصدقي على زوجك فهي صدقة لك وصلة»، و﴿أَوْ﴾ في قوله ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَقْرِبَةٍ﴾ فيها معنى الإباحة ومعنى التخيير، لأن الكلام يتضمن معنى الحض والأمر فيها أيضاً معنى التفضيل المجرد، لأن الكلام يجري مجرى الخبر الذي لا تكون ﴿أَوْ﴾ فيه إلا منفصلة، وأما معنى الشك أو الإبهام فلا مدخل لها في هذه الآية، والإبهام نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ يَآكُم﴾ [سبأ: ٢٤]، وقول أبي الأسود: [الوافر]

أحب محمداً حباً شديداً وعباساً وحمزة أو علياً

و﴿ذَا مَقْرِبَةٍ﴾ معناه: مدقعا قد لصق بالتراب وهذا مما ينحو إلى أن المسكين أشد فاقة من الفقير، قال سفيان: هم المطروحون على ظهر الطريق قعوداً على التراب لا بيوت لهم. وقال ابن عباس هو الذي يخرج من بيته ثم يقلب وجهه إلى بيته مستيقناً أنه ليس فيه إلا التراب، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ معطوف على قوله ﴿اقتحم﴾ وتوجه فيه معاني، ﴿فلا اقتحم﴾ المذكورة من النفي والتخصيص والدعاء، ورجح أبو عمرو بن العلاء قراءته ﴿فك﴾ بقوله ﴿ثُمَّ كَانَ﴾، ومعنى قوله ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ أي كان وقت اقتحامه العقبة ﴿من الذين آمنوا﴾ وليس المعنى أنه يقتحم، ثم يكون بعد ذلك لأن الاقتحام كان يقع من غير مؤمن وذلك غير نافع.

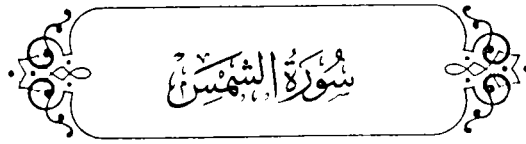
وقوله تعالى: ﴿وتواصوا بالصبر﴾ معناه: على طاعة الله وبلائه وقضائه وعن الشهوات والمعاصي. و﴿بالرحمة﴾، قال ابن عباس: كل ما يؤدي إلى رحمة الله تعالى. وقال آخرون: هو التراحم وعطف بعض من الناس على بعض، وفي ذلك قوام الناس ولو لم يتراحموا جملة هلكوا، و﴿الميمنة﴾ مفعلة، وهي فيما روي عن يمين العرش، وهو موضع الجنة ومكان المرحومين من الناس، و﴿المشأمة﴾ الجانب الأثام وهو الأيسر، وفيه جهنم، وهو طريق المعذبين يؤخذ بهم ذات الشمال، وهذا مأخوذ من اليمن والشام للواقف بباب الكعبة متوجهاً إلى مطلع الشمس، واليد الشؤمي هي اليسرى، وذهب الزجاج وقوم إلى ذلك من اليمن والشؤم، وقرأ ابن كثير وابن عامر ونافع والكسائي وأبو بكر عن عاصم «موصدة» على وزن موعة وكذلك في سورة الهمة، وقرأ أبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم «مؤصدة» بهمز الواو في السورتين، ومعناها جميعاً، مطبقة معلقة. يقال: أوصدت وأصدت، بمعنى أطبقت وأغلقت، فهي «موصدة» دون همز من أوصدت، وقد يحتمل أن يهزم من يراها من أوصدت من حيث قبل الواو حرف مضموم على لغة من قرأ بالسوق، ومنه قول الشاعر [جرير]:

أحب المؤقدان إليّ مؤسى

بالحمز فيهما، و«مؤصدة» من أصدت، ويحتمل أن تسهل الهمزة فتجيء «موصدة» من أصدت ومن اللفظة الوصيد. وقال الشاعر [الأعشى]: [الكامل]

قوماً يعالج قملاً أبناؤهم وسلاسل حلقاً وباباً موصداً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



وهي مكية.

قوله عز وجل:

وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَغُتُّوا فَذَمُّ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَحَسَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

أقسم الله تعالى بـ ﴿الشمس﴾ إما على التنبيه منها وإما على تقدير ورب الشمس، و«الضحى» بضم الضاد والقصر: ارتفاع الضوء وكماله، وبهذا فسر مجاهد. وقال قتادة: هو النهار كله، وقال مقاتل: «ضحاهها» حرها كقوله تعالى في سورة (طه) ﴿ولا تضحى﴾ [طه: ١١٩]، و«الضحاء» بفتح الضاد والمد ما فوق ذلك إلى الزوال، ﴿والقمر﴾ يتلو الشمس من أول الشهر إلى نصفه في الغروب تغرب هي ثم يغرب هو ويتلوها في النصف الآخر بنحو وآخر، وهي أن تغرب هي فيطلع هو، وقال الحسن بن أبي الحسن: ﴿تلاها﴾ معناه: تبعها دأباً في كل وقت لأنه يستضيء منها فهو يتلوها لذلك.

قال القاضي أبو محمد: فهذا اتباع لا يختص بنصف أول من الشهر ولا بآخره، وقاله الفراء أيضاً، وقال الزجاج وغيره: ﴿تلاها﴾: معناه امتلاً واستدار، فكان لها تابعاً في المنزل والضياء والقدر، لأنه ليس في الكواكب شيء يتلو الشمس في هذا المعنى غير القمر، قال قتادة: وإنما ذلك ليلة البدر تغيب هي فيطلع هو.

﴿والنهار﴾ ظاهر هذه السورة والتي بعدها أنه من طلوع الشمس، وكذلك قال الزجاج في كتاب «الأنواء» وغيره: واليوم من طلوع الفجر، ولا يختلف أن نهايتهما مغيب الشمس، والضمير في ﴿جلاها﴾ يحتمل أن يعود على ﴿الشمس﴾ ويحتمل أن يعود على الأرض أو على الظلمة وإن كان لم يجر له ذكر فالمعنى يقتضيه، قاله الزجاج. و«جلى» معناه كشف وضوى، والفاعل بجلى على هذا التأويلات

﴿النهار﴾، ويحتمل أن يكون الفاعل الله تعالى كأنه قال: والنهار إذا جلى الله الشمس، فأقسم بالنهار في أكمل حالاته، ويغشى معناه: يغطي: والضمير للشمس على تجوز في المعنى أو للأرض، وقوله تعالى: ﴿وما بناها﴾ وكل ما بعده من نظائره في السورة، يحتمل أن يكون ما فيه بمعنى الذي قال أبو عبيدة: أي ومن بناها، وهو قول الحسن ومجاهد، لأن ﴿ما﴾، تقع عامة لمن يعقل ولما لا يعقل، فيجيء القسم بنفسه تعالى، ويحتمل أن تكون ﴿ما﴾ في جميع ذلك مصدرية، قاله قتادة والمبرد والزجاج كأنه قال والسماء وبنائها، و«طحا» بمعنى «دحا» و«طحا» أيضاً في اللغة بمعنى ذهب كل مذهب، ومنه قول علقمة بن عبدة: [الطويل]

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عمر حان مشيب

والنفس التي أقسم بها، اسم الجنس، وتسويتها إكمال عقلها ونظرها، ولذلك ربط الكلام بقوله تعالى: ﴿فألهمها﴾ الآية، فالفاء تعطي أن التسوية هي هذا الإلهام، ومعنى قوله تعالى: ﴿فجورها وتقواها﴾ أي عرفها طرق ذلك وجعل لها قوة يصح معها اكتساب الفجور أو اكتساب التقوى، وجواب القسم في قوله ﴿قد أفلح﴾، التقدير: لقد أفلح، والفاعل بـ زكى يحتمل أن يكون الله تعالى، وقاله ابن عباس وغيره كأنه قال: قد أفلحت الفرقة أو الطائفة التي زكاها الله تعالى، و﴿من﴾: تقع على جمع وإفراد، ويحتمل أن يكون الفاعل بـ زكى الإنسان وعليه تقع ﴿من﴾ وقاله الحسن وغيره، كأنه قال: ﴿قد أفلح﴾ من زكى نفسه أي اكتسب الزكاء الذي قد خلقه الله، و﴿زكاها﴾ معناه: طهرها ونماها بالخيرات، و﴿دساها﴾ معناه: أخفاها وحقرها أي وصغر قدرها بالمعاصي والبخل بما يجب، يقال دسا يدسو ودسى يشد السين يدسى وأصله دسس، ومنه قول الشاعر: [الطويل]

ودسست عمراً في التراب فأصبحت حلاله يبيكين للفقد ضعفاً

ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية قال: «اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها»، هذا الحديث يقوي أن المزكي هو الله تعالى، وقال ثعلب معنى الآية ﴿وقد خاب من دساها﴾ في أهل الخير بالرياء وليس منهم في حقيقته، ولما ذكر تعالى خيبة من دسى نفسه، ذكر فرقة فعلت ذلك يعتبر بهم وينتهى عن مثل فعلهم، و«الطغوى» مصدر، وقرأ الحسن وحمام بن سليمان «بطغواها» بضم الطاء مصدر كالعقبى والرجعى، وقال ابن عباس: «الطغوى» هنا العذاب كذبوا به حتى نزل بهم، ويؤيد هذا التأويل قوله تعالى: ﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾ [الحاقة: ٥]، وقال جمهور التأولين الباء سببية، والمعنى كذبت ثمود بنبيها بسبب طغيانها وكفرها، و﴿انبعث﴾ عبارة عن خروجه إلى عقر الناقة بنشاط وحرص، و﴿أشقاها﴾ هو قد أربى سالف وهو أحد التسعة الرهط المفسدين، ويحتمل أن يقع ﴿أشقاها﴾ على جماعة حاولت العقر، ويروى أنه لم يفعل فعله بالناقة حتى ماله عليه جميع الحي، فلذلك قال تعالى: ﴿ففعروها﴾ لكونهم متفقين على ذلك ورسول الله صالح عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿ناقة الله وسقياها﴾ نصب بفعل مضمّر تقديره احفظوا أو ذروا أو احذروا على معنى: احذروا الإخلاص بحق ذلك، وقد تقدم أمر الناقة والسقيا في غير هذه السورة بما أغنى عن إعادتها، وقدم تعالى التوبيخ على العقر لأنه

كان سبب العقرب، ويروى أنهم كانوا قد أسلموا قبل ذلك وتابَعُوا صالحاً مدة ثم كذبوا وعثروا، والجمهور من المفسرين على أنهم كانوا على كفرهم، و﴿دمدم﴾ معناه: أنزل العقاب مقلقاً لهم مكرراً ذلك وهي الدممة، وفي بعض المصاحف «فدهدم» وهي قراءة ابن الزبير بالهاء بين الدالين، وفي بعضهم «فدمر»، وفي مصحف ابن مسعود «فدماها عليهم»، وقوله تعالى: ﴿بذنبهم﴾ أي بسبب ذنبهم، وقوله تعالى: ﴿فسواها﴾، معناه: فسوى القبيلة في الهلاك لم ينج منهم أحد، وقرأ نافع وابن عامر والأعرج وأهل الحجاز وأبي بن كعب: «فلا يخاف» بالفاء وكذلك في مصاحف أهل المدينة والشام، وقرأ الباقر «ولا» بالواو وكذلك في مصاحفهم، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه «ولم يخف عقباها»، والفاعل بـ ﴿يخاف﴾ على قراءة من قرأ بالفاء يحتمل أن يكون الله تعالى، والمعنى فلا درك على الله في فعله بهم لا يسأل عما يفعل، وهذا قول ابن عباس والحسن، وفي هذا المعنى احتقار للقوم وتعفية لأثرهم، ويحتمل أن يكون صالحاً عليه السلام، أي لا يخاف عقبي هذه الفعلة بهم إذ كان قد أنذرهم وحذرهم، ومن قرأ «ولا يخاف» بالواو فيحتمل الوجهين اللذين ذكرنا، ويحتمل أن يكون الفاعل بـ ﴿يخاف﴾ ﴿أشقاها﴾ المنبعث، قاله الزجاج وأبو علي، وهو قول السدي والضحاك ومقاتل، وتكون الواو واو الحال كأنه قال انبعث لعقربا وهو لا يخاف عقبي فعله لكفره وطغيانه، والعقبى: جزاء المسيء وخاتمته وما يجيء من الأمور بعقبه، واختلف القراء في ألفات هذه السورة والتي بعدها ففتحها ابن كثير وعاصم وابن عامر، وقرأ الكسائي ذلك كله بالإضجاع، وقرأ نافع ذلك كله بين الفتح والإمالة، وقرأ حمزة «ضحاهها» مكسورة و«تليها وضحاها» مفتوحتين وكسر سائر ذلك، واختلف عن أبي عمرو فمرة كسر الجميع ومرة كقراءة نافع، قال الزجاج سمى الناس الإمالة كسراً وليس بكسر صحيح، والخليل وأبو عمرو يقولان إمالة. (انتهى).

نجز تفسيرها والحمد لله كثيراً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ اللَّيْلِ

وهي مكية في قول الجمهور، وقال المهدوي وقيل هي مدنية وقيل فيها مدني وعددها عشرون آية بإجماع.
قوله عز وجل:

وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ﴿١﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴿١٣﴾ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُمْ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢١﴾

أقسم الله بـ ﴿الليل إذا يغشى﴾ الأرض وجميع ما فيها وبـ ﴿النهار إذا تجلى﴾، أي ظهر وضوى الأفاق، ومنه قول الشاعر: [الطويل]

تجلى السرى من وجهه عن صحيفة على السير مشراق كريم شجونها

وقوله تعالى: ﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾ يحتمل أن تكون بمعنى الذي كما قالت العرب في سبحان ما سبح الرعد بحمده، وقال أبو عمرو وأهل مكة يقولون للرعد سبحان ما سبحت له، ويحتمل أن تكون ﴿ما﴾ مصدرية، وهو مذهب الزجاج. وقرأ جمهور الصحابة «وما خلق الذكر»، وقرأ علي بن أبي طالب وابن عباس وعبد الله بن مسعود وأبو الدرداء وسمعها من النبي صلى الله عليه وسلم وعلقمة وأصحاب عبد الله: «والذكر والأنثى» وسقط عندهم ﴿وما خلق﴾. وذكر ثعلب أن من السلف من قرأ «وما خلق الذكر والأنثى» بخفض «الذكر» على البدل من ﴿ما﴾ على أن التقدير وما خلق الله وقراءة علي ومن ذكر تشهد لهذه، وقال الحسن: المراد هنا بـ ﴿الذكر والأنثى﴾ آدم وحواء، وقال غيره عام، و«السعي» العمل. فأخبر تعالى مقسماً أن أعمال العباد شتى، أي مفترقة جداً بعضها في رضى الله وبعضها في سخطه، ثم قسم تعالى الساعين فذكر أن من أعطى وظاهر ذلك إعطاء المال، وهي أيضاً تتناول إعطاء الحق في كل شيء، قول وفعل، وكذلك البخل المذكور بعد أن يكون بالإيمان وغيره من الأقوال التي حق الشريعة أن لا يبخل

بها، ويروى أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق، وذلك أنه كان يعتق ضعفة العبيد الذين أسلموا وكان ينفق في رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ماله، وكان الكفار بضد ذلك، وهذا قول من قال السورة كلها مكية، قال عبد الله بن أبي أوفى: نزلت هذه السورة في أبي بكر الصديق وأبي سفيان بن حرب، وقال مقاتل: مر أبو بكر على أبي سفيان وهو يعذب بلالاً فاشتراه منه، وقال السدي: نزلت هذه الآية بسبب أبي الدحداح الأنصاري، وذلك أن نخلة لبعض المنافقين كانت مطلة على دار امرأة من المسلمين لها أيتام فكانت التمر تسقط عليهم فيأكلونه فمنعهم المنافق من ذلك، واشتد عليهم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بعنيها بنخلة في الجنة»، فقال: لا أفعل، فبلغ ذلك أبا الدحداح فذهب إليه واشترى منه النخلة بحائط له، وجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله: أنا أشتري النخلة في الجنة بهذه، ففعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر على الحائط الذي أعطى أبو الدحداح وقد تعلقت أقناؤه فيقول: «وكم قنوا معلق لأبي الدحداح في الجنة»، وفي البخاري أن هذا اللفظ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله في الأقناء التي كان أبو الدحداح يعلقها في المسجد صدقة، وهذا كله قول من يقول بعض السورة مدني. واختلف الناس في ﴿الحسنى﴾ ما هي في هذه السورة، فقال أبو عبد الرحمن السلمي وغيره: هي لا إله إلا الله، وقال ابن عباس وعكرمة وجماعة: هي الخلف الذي وعد الله تعالى به، وذلك نص في حديث الملكين إذ يقول أحدهما: اللهم اعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً. وقال مجاهد والحسن وجماعة: ﴿الحسنى﴾: الجنة. وقال كثير من المفسرين ﴿الحسنى﴾: الأجر والثواب مجملاً. وقوله تعالى: ﴿فسنيسره لليسرى﴾، ومعناه: سيظهر تيسيرنا إياه يتدرج فيه من أعمال الخير وختم بتيسير قد كان في علم الله أولاً، و«اليسرى»: الحال الحسنة المرضية في الدنيا والآخرة، و«العسرى»: الحال السيئة في الدنيا والآخرة ولا بد ومن جعل بخل في المال خاصة جعل استغنى في المال أيضاً لتعظم المذمة، ومن جعل البخل عاماً في جميع ما ينبغي أن يبذل من قول وفعل قال استغنى عن الله ورحمته بزعمه، ثم وقف تعالى على موضع غناء ماله عنه وقت ترديه، وهذا يدل على أن الإعطاء والبخل المذكورين إنما هما في المال، واختلف الناس في معنى ﴿تردى﴾: فقال قتادة وأبو صالح معناه ﴿تردى﴾ في جهنم، أي سقط من حافاتها، وقال مجاهد: ﴿تردى﴾ معناه هلك من الردى، وقال قوم معناه ﴿تردى﴾ بأكفانه من الرداء، ومنه قول مالك بن الربيب: [الطويل]

ورداً على عيني فضل ردايا وخطاً بأطراف الأسنة مضجعي

ومنه قول الآخر: [الطويل]

نصيبك مما تجمع الدهر كله رداء ان تسلى فيهما وحنوط

ثم أخبر تعالى أن عليه هدى الناس جميعاً، أي تعريفهم بالسبل كلها ومنحهم الإدراك، كما قال تعالى: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ [النحل: ٩] ثم كل أحد بعد يتكسب ما قدر له، وليست هذه الهداية بالإرشاد إلى الإيمان، ولو كان كذلك لم يوجد كافر. ثم أخبر تعالى أن «الآخرة والأولى» أي الدارين.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتَكُمْ﴾ إما مخاطبة منه وإما على معنى قل لهم يا محمد، وقرأ جمهور السبعة «تلظى» بتخفيف التاء، وقرأ البزي عن ابن كثير بشد التاء وإدغام الراء فيها. وقرأها كذلك عبيد بن عمير، وروي أيضاً عنه «تلظى» بتاءين وكذلك قرأ ابن الزبير وطلحة، وقوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ أي ﴿لَا يَصْلَاهَا﴾ صلي خلود، ومن هنا ضلت المرجئة لأنها أخذت نفي الصلي مطلقاً في قليله وكثيره، و﴿الْأَشْقَى﴾ هنا، الكافر بدليل قوله الذي كذب، والعرب تجعل أفعال في موضع فاعل مبالغة كما قال طرفة: [الطويل]

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فلك سبيل لست فيها بأوحد

ولم يختلف أهل التأويل أن المراد بـ ﴿الْأَتَقَى﴾ إلى آخر السورة أبو بكر الصديق، ثم هي تتناول كل من دخل في هذه الصفات، وقوله تعالى: ﴿يَتَزَكَّى﴾ معناه: يتطهر ويتمي وظاهر هذه الآية أنه في المندوبات، وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ﴾ الآية، المعنى: وليس إعطاؤه ليجزي نعماً قد أزلت إليه، بل هو مبتدئ ابتغاء وجه الله تعالى، وروي في سبب هذا أن قريشاً قالوا لما أعتق أبو بكر بلالاً كانت لبلال عنده يد، وذهب الطبري إلى أن المعنى وليس يعطي ليث نعماً يجزي بها يوماً ما وينتظر ثوابها، وحوم في هذا المعنى وحلق بتطويل غير مغنٍ ويتجه المعنى الذي أراد بأيسر من قوله وذلك أن التقدير ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ﴾ إعطاء ليقع عليه من ذلك لأحد جزاء بل هو لمجرد ثواب الله تعالى وجزائه، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءً﴾ نصب بالاستثناء المنقطع وفيه نظر والابتغاء الطلب، ثم وعده تعالى بالرضى في الآخرة، وهذه عدة لأبي بكر رضي الله عنه، وقرأ «يرضى» بضم الياء على بناء الفعل للمفعول، وهذه الآية تشبه الرضى في قوله تعالى: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَُّرْضِيَةً﴾ [الفجر: ٣١] الآية. انتهى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الضُّحَى

وهي مكية لا خلاف في ذلك بين الرواة.

قوله عز وجل:

وَالضُّحَى ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَاقَلَى ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

تقدم تفسير ﴿الضحى﴾ بأنه سطوع الضوء وعظمه، وقال قتادة: ﴿الضحى﴾ هنا، النهار كله، و﴿سجى﴾ معناه سكن واستقر ليلاً تاماً. وقال بعض المفسرين ﴿سجى﴾ معناه أقبل، وقال آخرون: معناه أدبر والأول أصح، ومنه قول الشاعر [الحارثي]: [الرجز]

يا حبذا القمرء والليل الساج وطرق مثل ملء النساج

ويقال بحر ساج أي ساكن ومنه قول الأعشى: [الطويل]

وما ذنبنا إن جاش بحر ابن عمكم وبحرك ساج لا يوارى الدعامصا

وطرف ساج إذا كان ساكناً غير مضطرب النظر، وقرأ جمهور الناس «ودَّعَكَ» بشد الدال من التوديع، وقرأ عروة بن الزبير وابنه هشام «ودَّعَكَ» بتخفيف الدال من التوديع، وقرأ عروة بن الزبير وابنه هشام «ودَّعَكَ» بتخفيف الدال بمعنى ترك، و﴿قلَى﴾ معناه: أبغض. واختلف في سبب هذه الآية فقال ابن عباس وغيره: أبطل الوحي مرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة مدة اختلفت في حدها الروايات حتى شق ذلك عليه فجاءت امرأة من الكفار هي أم جميل امرأة أبي لهب، فقالت: يا محمد: ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فنزلت الآية بسبب ذلك. وقال ابن وهب عن رجال عن عروة بن الزبير أن خديجة قالت له: ما أرى الله إلا قد خلاك لإفراط جزعك لبطء الوحي عنك، فنزلت الآية بسبب ذلك، وقال زيد بن أسلم: إنما احتبس عنه جبريل لجرو كلب كان في بيته، وقوله تعالى: ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ يحتمل أن يريد الدارين الدنيا والآخرة، وهذا تأويل ابن إسحاق وغيره، ويحتمل أن يريد حاله في الدنيا قبل نزول السورة

وبعدها فوعده الله تعالى على هذا التأويل بالنصر والظهور، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ الآية، قال جمهور الناس: ذلك في الآخرة، وقال بعضهم من أهل البيت هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرضى وأحد من أمته في النار، وروي أنه عليه السلام لما نزلت قال: «إِذَا لَا أَرْضِي وَأَحَدٌ مِنْ أُمَّتِي فِي النَّارِ»، وقال ابن عباس: رضاه أن لا يدخل أحد من أهل بيته في النار، وقال ابن عباس أيضاً: رضاه أن الله تعالى وعده بألف قصر في الجنة بما يحتاج إليه من النعم والخدم، وقال بعض العلماء رضاه في الدنيا بفتح مكة وغيره، وفي مصحف ابن مسعود: «وَلَسَيُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى»، ثم وقفه تعالى على المراتب التي رجه عنها بإنعامه ويتمه، كان فقد أبيه وكونه في كنف عمه أبي طالب، وقيل لجعفر بن محمد الصادق لم يتم النبي عليه السلام من أبويه، فقال لثلاثين يكون عليه حق لمخلوق، وقرأ الأشهب العقيلي «فأوى» بالقصر بمعنى رحم، تقول أويت لفلان أي رحمته، وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ أي وجده إنعامه بالنبوة والرسالة على غير الطريقة التي هو عليها في نبوته، وهذا قول الحسن والضحاك وفرقة، والضلال يختلف، فمنه القريب ومنه البعيد، فالبعيد ضلال الكفار الذين يعبدون الأصنام ويحتجون لذلك ويعتبطون به، وكان هذا الضلال الذي ذكره الله تعالى لنبیه عليه السلام أقرب ضلال وهو الكون واقعاً لا يميز المهيع لا أنه تمسك بطريق أحد بل كان يرتاد وينظر، وقال السدي: أقام على أمر قومه أربعين سنة، وقيل معنى ﴿وَجَدَكَ ضَالًّا﴾ أي تنسب إلى الضلال، وقال الكلبي ووجدك في قوم ضلال فكأنك واحد منهم.

قال القاضي أبو محمد: ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعبد صنماً قط، ولكنه أكل ذبائحهم حسب حديث زيد بن عمرو في أسفل بارح وجرى على يسير من أمرهم وهو مع ذلك ينظر خطأ ما هم فيه ودفع من عرفات وخالفهم في أشياء كثيرة، وقال ابن عباس هو ضلاله وهو صغير في شعاب مكة، ثم رده الله تعالى إلى جده عبد المطلب، وقيل هو ضلاله من حليلة مرضعته، وقال الترمذي وعبد العزيز بن يحيى: ﴿ضَالًّا﴾ معناه خامل الذكر لا يعرفك الناس فهذه إليك ربك، والصواب أنه ضلال من توقف لا يدري كما قال عز وجل: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢] قال ثعلب قال أهل السنة: هو تزويجه بنته في الجاهلية ونحوه، والغائل الفقير، وقرأ اليماني «عِيَالًا» بشد الياء المكسورة ومنه قول الشاعر [أحيحة]: [الوافر]

وما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيل

وأعال: كثر عياله، وعال: افتقر، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عِيْلَةً﴾ [التوبة: ٢٨] وقوله تعالى: ﴿فَأَغْنِي﴾ قال مقاتل معناه رضاك بما أعطاك من الرزق، وقيل فقيراً إليه فأغناك به، والجمهور على أنه فقر المال وغناه، والمعنى في النبي صلى الله عليه وسلم أنه أغني بالقناعة والصبر وحباً إليه فقر الحال وغناه، وقيل أغني بالكفاف لتصرفه في مال خديجة ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم قط كثير المال ورفع الله عن ذلك، وقال: «ليس الغنى عن كثرة العرض ولكنه غنى النفس». وكما عدد الله عليه هذه النعم الثلاث وصاه بثلاث وصايا في كل نعمة وصية مناسبة لها، فبإزاء قوله ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ قوله

﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾، وبإزاء قوله ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ قوله ﴿وأما السائل فلا تنهر﴾، هذا عليه قول من قال إن ﴿السائل﴾ هنا هو السائل عن العلم والدين وليس بسائل المال، وهو قول أبي الدرداء والحسن وغيره، وبإزاء قوله ﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾ قوله ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾. ومن قال إن ﴿السائل﴾ هو سائل المحتاج وهو قول الفراء عن جماعة، ومعنى ﴿فلا تنهر﴾ جعلها بإزاء قوله ﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾، وجعل قوله ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ بإزاء قوله ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾، وقال إبراهيم بن أدهم نعم القول السؤال يجملون زادنا إلى الآخرة، ﴿فلا تنهر﴾، معناه: فرد رداً جميلاً إما بعتاء وإما بقول حسن، وفي مصحف ابن مسعود «ووجدك عديماً فأغنى»، وقرأ ابن مسعود والشعبي وإبراهيم التيمي، «فأما اليتيم فلا تكهر» بالكاف، قال الأخفش هي بمعنى القهر، ومنه قول الأعرابي: وقاكم الله سطوة القادر ومملكة الكاهر، وقال أبو حاتم لا أظنها بمعنى القهر لأنه قد قال الأعرابي الذي بال في المسجد: فأكهرني النبي صلى الله عليه وسلم فإنها هي بمعنى الإشهار وأمره الله تعالى بالتحدث بالنعمة، فقال مجاهد والكسائي: معناه: بث القرآن وبلغ ما أرسلت به، وقال آخرون بل هو عموم في جميع النعم، وكان بعض الصالحين يقول: لقد أعطاني الله كذا وكذا، ولقد صليت البارحة كذا وذكرته الله كذا، ف قيل له: إن مثلك لا يقول هذا، فقال إن الله تعالى يقول: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾، وأنتم تقولون لا تحدث، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «التحدث بالنعمة شكر»، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من أسديت إليه نعمة فذكرها فقد شكرها ومن سترها فقد كفرها»، ونصب ﴿اليتيم﴾ بـ ﴿تقهر﴾ والتقدير مهما يكن من شيء فلا تقهر اليتيم.

نجز تفسيرها والحمد لله كثيراً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الشَّرْحِ

وهي مكية بإجماع من المفسرين لا خلاف بينهم في ذلك.

قوله عز وجل:

الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٢﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾
فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾

عدد الله على نبيه صلى الله عليه وسلم نعمه عليه في أن شرح صدره للنبوّة وهباً لها، وذهب الجمهور إلى أن شرح الصدر المذكور هو تنويره بالحكمة وتوسيعه لتلقي ما يوحى إليه، وقال ابن عباس وجماعة: هذه إشارة إلى شرحه بشق جبريل عنه في وقت صغره، وفي وقت الإسرائاء إذ التشرّيح شق اللحم. وقرأ أبو جعفر المنصور «ألم نشرح» بنصب الحاء على نحو قول الشاعر [طرفة]: [المنسرح]

أضرب عنك الهموم طارقتها ضربك بالسيف قونس الفرس

ومثله في نوادر أبي زيد: [الرجز]

من أي يومي من الموت أفر أيوم لم يقدر أم يوم قدر

كأنه قال: «ألم نشرحن» ثم أبدل من النون ألفاً ثم حذفها تخفيفاً، وهي قراءة مردودة، و«الوزر» الذي وضعه الله عنه هو عند بعض المتأولين الثقل الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وحيرته قبل المبعث إذ كان يرى سوء ما قريش فيه من عبادة الأصنام. وكان لم يتجه له من الله تعالى أمر واضح، فوضع الله تعالى عنه ذلك الثقل بنبوته وإرساله. وقال أبو عبيدة وغيره المعنى: خففنا عليك أثقال النبوّة وأعناك على الناس، وقال قتادة وابن زيد والحسن وجمهور من المفسرين: الوزر هنا، الذنوب. وأصله الثقل، فشبهت الذنوب به، وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجاهلية قبل النبوّة وزره صحبة قومه وأكله من ذبائحهم ونحو هذا، وقال الضحاك: وفي كتاب النقاش حضوره مع قومه المشاهد التي لا يحبها الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد: وهذه كلها ضمها المنشأ كشهوده حرب الفجار ينبل على أعماله وقلبه، وفي ذلك كله منيب إلى الصواب، وأما عبادة الأصنام فلم يلتبس بها قط، وقرأ أنس بن مالك «وحططنا عنك وزرك»، وفي حرف ابن مسعود «وحللنا عنك وقرك». وفي حرف أبي «وحططنا عنك وقرك»، وذكر أبو عمرو أن النبي صلى الله عليه وسلم صوب جميعها، وقال المحاسبي: إنما وصفت ذنوب الأنبياء بالثقل، وهي صفات مغفورة لهم بها وتحسرهم عليها، و«أنقض» معناه جعله نقضاً، أي هزلاً معيياً من الثقل، وقيل معناه أسمع له نقيضاً وهو الصوت. وهو مثل نقض السفن وكل ما حملته ثقلاً فإنه ينتقض تحته، وقال عباس بن مرداس: [الطويل]

وأنقض ظهري ما تطوقت مضهم وكنت عليهم مشفقاً متحنناً

وقوله تعالى: «ورفعنا لك ذكرك» معناه، نوهنا باسمك، وذهبنا به كل مذهب في الأرض، وهذا ورسول الله بمكة، وقال أبو سعيد الخدري والحسن ومجاهد وقتادة: معنى قوله «ورفعنا لك ذكرك» أي قرنا اسمك باسمنا في الأذان والخطب. وروي في هذا الحديث «إن الله تعالى قال: إذا ذكرت معي». وهذا متجه إلى أن الآية نزلت بمكة قديماً. والأذان شرع بالمدينة، ورفع الذكر نعمة على الرسول، وكذلك هو جميل حسن للقائمين بأمور الناس، وخمول الاسم والذكر حسن للمنفردين للعبادة، وقد جعل الله تعالى النعم أقساماً بحسب ما يصلح لشخص شخص، وفي الحديث: «إن الله تعالى يوقف عبداً يوم القيامة فيقول له: ألم أفعل بك كذا وكذا؟ يعدد عليه نعمه، ويقول في جملتها: ألم أحمل ذكرك في الناس»، والمعنى في هذا التعديد الذي على النبي صلى الله عليه وسلم أي يا محمد؛ قد فعلنا بك جميع هذا فلا تكثر بأذى قريش، فإن الذي فعل بك هذه النعم سيظفرك بهم وينصرك عليهم ثم قوى رجاءه بقوله: «فإن مع العسر يسراً»، أي ما تراه من الأذى فرج يأتي، وكرر تعالى ذلك مبالغة وتثبيتاً للخير، فقال بعض الناس: المعنى «إن مع العسر يسراً» في الدنيا، وإن مع العسر يسراً في الآخرة، وذهب كثير من العلماء إلى أن مع كل عسر يسرين بهذه الآية من حيث العسر معروف للعهد واليسر منكر، فالأول غير الثاني، وقد روي في هذا التأويل حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لن يغلب عسر يسرين». وأما قول عمر به فنص في الموطأ في رسالته إلى أبي عبيدة بن الجراح. وقرأ عيسى ويحيى بن وثاب وأبو جعفر: «العُسْر واليسر» بضميتين، وقرأ ابن مسعود: «فإن مع العسر يسراً» واحداً غير مكرر، ثم أمر تعالى نبيه إذا فرغ من شغل من أشغال النبوة والعبادة أن ينصب في آخر، والنصب التعب، فالمعنى أن يرأب على ما أمر به ولا يفتّر، وقال ابن عباس: المعنى «فإذا فرغت» من فرضك «فانصب» في النفل عبادة لربك، وقال ابن مسعود: «فانصب» في قيام الليل، وعن مجاهد، «فإذا فرغت» من شغل دنياك «فانصب» في عبادة ربك، وقيل المعنى إذا فرغت من الركعات فاجلس في التشهد وانصب في الدعاء، وقال ابن عباس وقتادة: معنى الكلام «فإذا فرغت» من العبادة «فانصب» في الدعاء. وقال الحسن بن أبي الحسن: المعنى «فإذا فرغت» من الجهاد «فانصب» في العبادة، ويعترض هذا التأويل بأن الجهاد فرض بالمدينة، وقرأ أبو السمال «فرغت» بكسر الراء وهي لغة، وقرأ قوم «فانصب» بشد الباء وفتحها، ومعناه إذا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ التِّينِ

قوله عز وجل:

وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

اختلف الناس في معنى ﴿التين والزيتون﴾ اللذين أقسم الله تعالى بهما، فقال ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وإبراهيم وعطاء وجابر بن زيد ومقاتل: هو ﴿التين﴾ الذي يؤكل ﴿والزيتون﴾ الذي يعصر، وأكل النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه تيناً أهدي إليه، فقال: «لو قلت إن فاكهة أنزلت من الجنة لقلت هذه، لأن فاكهة الجنة بلا عجم، فكلوا فإنه يقطع البواسير وينفع من النقرس»، وقال عليه السلام: «نعم السواك سواك الزيتون ومن الشجرة المباركة هي سواكي وسواك الأنبياء قبلي»، وقال كعب وعكرمة: القسم بمنابتها، وذلك أن ﴿التين﴾ بنبت بدمشق، و﴿الزيتون﴾ بنبت بإيلياء فأقسم الله تعالى بالأرضين، وقال قتادة: هما جبلان بالشام، على أحدهما دمشق، وعلى الآخر بيت المقدس، وقال ابن زيد: ﴿التين﴾ مسجد دمشق، و﴿الزيتون﴾ مسجد إيلياء، وقال ابن عباس وغيره: ﴿التين﴾ مسجد نوح و﴿الزيتون﴾ مسجد إبراهيم، وقيل ﴿التين والزيتون وطور سينين﴾، ثلاثة مساجد بالشام، وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿التين﴾ مسجد أصحاب الكهف، و﴿الزيتون﴾ مسجد إيلياء، وأما ﴿طور سينين﴾، فلم يختلف أنه جبل بالشام كلم الله عليه موسى، ومنه نودي، وفيه مسجد موسى فهو الطور، واختلف في قوله ﴿سينين﴾، فقال مجاهد وعكرمة: معناه حسن مبارك، وقيل معناه ذو الشجر، وقرأ الجمهور بكسر السين «سينين»، وقرأ ابن أبي إسحاق وأبورجاء بفتح السين وهي لغة بكر وتميم «سينين»، وقرأ عمر بن الخطاب وطلحة والحسن وابن مسعود: «سيناء» بكسر السين، وقرأ أيضاً عمر بن الخطاب: «سيناء» بالفتح، و﴿البلد الأمين﴾ مكة بلا خلاف، وقيل معنى ﴿سينين﴾: المبارك، وقيل معنى ﴿سينين﴾: شجر واحدتها سينية، قاله الأخفش سعيد بن مسعدة و«أمين»: فعيل من الأمن بمعنى آمن أي آمن من فيه ومن دخله وما فيه من طير وحيوان، والقسم واقع على قوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ ينبغي له، ولا يدفع هذا أن يكون غيره من المخلوقات كالشمس وغيرها أحسن تقويماً منه بالمناسبة، وقال بعض العلماء بالعموم أي ﴿الإنسان﴾ أحسن المخلوقات تقويماً، ولم ير قوم الحنث على من حلف بالطلاق أن زوجته

أحسن من الشمس، واحتجوا بهذه الآية، واختلف الناس في تقويم الإنسان ما هو؟ فقال النخعي ومجاهد وقتادة: حسن صورته وحواسه، وقال بعضهم: هو انتصاب قامته، وقال أبو بكر بن طاهر في كتاب الثعلبي: هو عقله وإدراكه اللذان زيناه بالتمييز، وقال عكرمة: هو الشباب والقوة، والصواب أن جميع هذا هو حسن التقويم إلا قول عكرمة، إذ قوله يفضل فيه بعض الحيوان، و«الإنسان» هنا اسم الجنس. وتقدير الكلام في تقويم «أحسن تقويم»، لأن «أحسن» صفة لا بد أن تجري على موصوف، واختلف الناس في معنى قوله تعالى: «ثم رددناه أسفل سافلين»، فقال عكرمة وقتادة والضحاك والنخعي: معناه بالهم وذهول العقل وتقلت الفكر حتى يصير لا يعلم شيئاً، أما إن المؤمن مرفوع عنه القلم، والاستثناء على هذا منقطع، وهذا قول حسن وليس المعنى أن كل إنسان يعتريه هذا بل في الجنس من يعتريه ذلك وهذه عبرة منصوبة، وقرأ ابن مسعود: «السافلين» بالالف واللام، ثم أخبر أن «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» وإن نال بعضهم هذا في الدنيا «فلهم» في الآخرة «أجر غير ممنون»، وقال الحسن ومجاهد وقتادة وابن زيد وأبو العالية: المعنى «رددناه أسفل سافلين» في النار على كفره ثم استثنى «الذين آمنوا» استثناء منفصلاً، فهم على هذا ليس فيهم من يرد أسفل سافلين في النار على كفره، وفي حديث عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا بلغ المؤمن خمسين سنة خفف الله تعالى حسابه، فإذا بلغ ستين رزقه الإنابة، فإذا بلغ السبعين أحبه أهل السماء، فإذا بلغ الثمانين كتبت حسناته وتجاوز الله عن سيئاته، فإذا بلغ تسعين غفرت ذنوبه وشفع في أهل بيته وكان أسير الله في أرضه، فإذا بلغ مائة ولم يعمل شيئاً كتب الله له ما كان يعمل في صحته ولم تكتب عليه سيئة». وفي حديث «إن المؤمن إذا رد إلى أرذل العمر كتب الله له خير ما كان يعمل في قوته، وذلك أجر غير ممنون». و«ممنون» معناه: محسوب مصرّد يمن عليهم، قاله مجاهد وغيره، وقال كثير من المفسرين معناه مقطوع من قولهم جبل منين، أي ضعيف منقطع، واختلف في المخاطب بقوله تعالى: «فما يكذبك بعد بالدين» فقال قتادة والفراء والأخفش: هو محمد عليه السلام، قال الله له: فماذا الذي يكذبك فيما تخبر به من الجزاء والبعث وهو الدين بعد هذه العبر التي يوجب النظر فيها صحة ما قلت، ويحتمل أن يكون «الدين» على هذا التأويل جميع دينه وشرعه، وقال جمهور من المتأولين: المخاطب الإنسان الكافر، أي ما الذي يجعلك كذاباً بالدين، تجعل له أنداداً، وترغم أن لا بعث بعد هذه الدلائل، وقال منصور قلت لمجاهد: قوله تعالى: «فما يكذبك» يريد به النبي صلى الله عليه وسلم قال معاذ الله يعني به الشاك، ثم وقف تعالى جميع خلقه على أنه «أحكم الحاكمين» على جهة التقرير، وروي عن قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه السورة قال: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْعَلَقِ

وهي مكية بإجماع . وهي أول ما نزل من كتاب الله تعالى ، نزل صدرها في غار حراء حسبما ثبت في صحيح البخاري وغيره ، وروي من طريق جابر بن عبد الله أن أول ما نزل : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ ﴾ [المدثر: ١] وقال أبو ميسرة عمرو بن شرحبيل : أول ما نزل فاتحة الكتاب ، والقول الأول أصح ، والترتيب في أخبار النبي صلى الله عليه وسلم يقتضي ذلك .

قوله عز وجل :

أَفَرَأَيْتُمُ اللَّادِيَّ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَفَرَأَوْ رَبَّكَ الْأَكْرَمَ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ طَغْيَى ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَى ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿٩﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ﴿١٠﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١١﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٢﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٣﴾ كَلَّا لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٤﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٥﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٦﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانَةَ ﴿١٧﴾ كَلَّا لَا نُطِيعُهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿١٨﴾ ﴿١٩﴾

في صحيح البخاري في حديث عائشة رضي الله عنها ، قال : أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حجب إليه التحنث في غار حراء ، فكان يخلو فيه فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد ثم ينصرف حتى جاءه الملك وهو في غار حراء ، فقال له : ﴿ اقرأ ﴾ ، فقال : ما أنا بقارئ ، قال : فأخذني فغطني ثم كذلك ثلاث مرات ، فقال له في الثالثة : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ﴾ إلى قوله ﴿ ما لم يعلم ﴾ ، قال فرجع بها رسول ترجف بوادره الحديث بطوله ، ومعنى هذه الآية ، ﴿ اقرأ ﴾ هذا القرآن ﴿ باسم ربك ﴾ ، أي ابدأ فعلك بذكر اسم ربك ، كما قال : ﴿ اركبوا فيها بسم الله ﴾ [هود: ٤١] هذا وجه . ووجه آخر في كتاب الثعلبي أن المعنى : ﴿ اقرأ ﴾ في أول كل سورة ، وقراءة بسم الله الرحمن الرحيم وجه آخر أن يكون المقروء الذي أمر بقراءته هو ﴿ باسم ربك الذي خلق ﴾ ، كأنه قال له : ﴿ اقرأ ﴾ هذا اللفظ ، ولما ذكر الرب وكانت العرب في الجاهلية تسمي الأصنام أرباباً جاءه بالصفة التي لا شركة للأصنام فيها ، وهي قوله تعالى : ﴿ الذي خلق ﴾ ، ثم مثل لهم من المخلوقات ما لا مدافعة فيه ، وما يجده كل مفطور في نفسه ، فقال : ﴿ خلق الإنسان من

علق ﴿، وخلقة الإنسان من أعظم العبر حتى أنه ليس في المخلوقات التي لدينا أكثر عبراً منه في عقله وإدراكه ورباطات بدنه وعظامه، والعلق جمع علقه، وهي القطعة اليسيرة من الدم، و﴿الإنسان﴾ هنا: اسم الجنس، ويمشي الذهن معه إلى جميع الحيوان، وليست الإشارة إلى آدم، لأنه مخلوق من طين، ولم يكن ذلك متقررًا عند الكفار المخاطبين بهذه الآية، فلذلك ترك أصل الخلقة وسبق لهم الفرع الذي هم به مقرون تقريباً لأفهامهم، ثم قال تعالى: ﴿اقرأ وربك الأكرم﴾ على جهة التأليس، كأنه يقول: امض لما أمرت به وربك ليس كهذه الأرباب، بل هو الأكرم الذي لا يلحقه نقص، فهو ينصرك ويظهرك، ثم عدد تعالى نعمة الكتاب ﴿بالقلم﴾ على الناس وهي موضع عبرة وأعظم منفعة في المخاطبات وتخليد المعارف، وقوله تعالى: ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾ قيل: المراد محمد عليه السلام، وقيل: اسم الجنس وهو الأظهر، وعدد نعمته اكتساب المعارف بعد جهله بها، وقوله تعالى: ﴿كلا إن الإنسان ليطغى﴾ الآية نزلت بعد مدة من شأن أبي جهل بن هشام، وذلك أنه طغى لغناه وكثرة من يغشى ناديه من الناس، فناصره رسول الله صلى الله عليه وسلم العداوة ونهاه عن الصلاة في المسجد، ويروى أنه قال: لئن رأيت محمداً يسجد عند الكعبة لأطأن على عنقه، فيروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رد عليه القول وانتهره وتوعده، فقال أبو جهل: أيتوعدني، وما والي بالوادي أعظم ندياً مني، ويروى أيضاً أنه جاء والنبي صلى الله عليه وسلم يصلي فهم بأن يصل إليه ويمنعه من الصلاة، ثم كع عنه وانصرف، فقيل له: ما هذا؟ فقال: لقد اعترض بيني وبينه خندق من نار، وهول وأجنحة، ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لو دنا مني لأخذته الملائكة عياناً»، فهذه السورة من قوله: ﴿كلا﴾ إلى آخرها نزلت في أبي جهل، و﴿كلا﴾: هي رد على أقوال أبي جهل وأفعاله، ويتجه أن تكون بمعنى: حقاً، فهي تثبت لما بعدها من القول والطغيان: تجاوز الحدود الجميلة، والغني: مطغ إلا من عصم الله والضمير في ﴿رأه﴾ للإنسان المذكور، كأنه قال: أن رأى نفسه غنياً، وهي رؤية قلب تقرب من العلم، ولذلك جاز أن يعمل فعل الفاعل في نفسه، كما تقول: وجدنتي وطننتي ولا يجوز أن تقول: ضربتني، وقرأ الجمهور: «أن رأه»، بالمد على وزن رعا، واختلفوا في الإمالة وتركها، وقرأ ابن كثير من طريق قنبل: «أن رأه»، على وزن رعه، على حذف لام الفعل وذلك تخفيف، ثم حقر غنى هذا الإنسان وما له بقوله: ﴿إن إلى ربك الرجعى﴾ أي الحشر والبعث يوم القيامة، و﴿الرجعى﴾: مصدر كالرجوع، وهو على وزن: العقبى ونحوه، وفي هذا الخبر: وعيد للطاغين من الناس، ثم صرح بذكر الناهي لمحمد عليه السلام، ولم يختلف أحد من المفسرين في أن الناهي: أبو جهل، وأن العبد المصلي محمد صلى الله عليه وسلم، وقوله تعالى: ﴿أرأيت﴾ توقيف وهو فعل لا يتعدى إلى مفعولين على حد الرؤية من العلم بل يقتصر به، وقوله تعالى: ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾ إكمال للتوبيخ والوعيد بحسب التوقيفات الثلاث يصلح مع كل واحد منهما فجاء بها في نسق ثم جاء بالوعيد الكافي لجميعها اختصاراً واقتضاباً، ومع كل تقرير من الثلاثة تكملة مقدرة تتسع العبارات فيها، وقوله: ﴿ألم يعلم﴾ دال عليها مغن، وقوله تعالى: ﴿إن كان﴾ يعني العبد المصلي، وقوله: ﴿إن كذب وتولى﴾، يعني الإنسان الذي ينهى، ونسب الرؤية إلى الله تعالى بمعنى يدرك أعمال الجميع بإدراك: سماه رؤية، والله منزّه عن الجارحة وغير ذلك من المماثلات المحدثات، ثم توعد تعالى

إن لم ينته بأن يؤخذ بناصيته فيجر إلى جهنم ذليلاً، تقول العرب: سفعت بيدي ناصية الفرس، والرجل إذا جذبتها مذللاً له، قال عمرو بن معد يكرب: [الكامل]

قوم إذا سمعوا الصباح رأيتهم ما بين ملجم مهره أو سافع

فالآية على نحو قوله: ﴿فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ [الرحمن: ٤١] وقال بعض العلماء بالتفسير: ﴿لنسفعاً﴾ معناه: لنحرقن من قولهم سفعته النار إذا أحرقته، واكتفى بذكر الناصية لدلالاتها على الوجه، وجاء ﴿لنسفعاً﴾ في خط المصحف بألف بدل النون، وقرأ أبو عمرو في رواية هارون: «لنسفعن» مثقلة النون، وفي مصحف ابن مسعود: «لأسفعن» بالناصية ناصية كاذبة فاجرة، وقرأ أبو حيوة: «ناصية كاذبة خاطئة» بالنصب في الثلاثة، وروي عن الكسائي أنه قرأ بالرفع فيها كلها، والناصية مقدم شعر الرأس، ثم أبدل النكرة من المعرفة في قوله: ﴿ناصية كاذبة﴾ ووصفها بالكذب والخطأ من حيث صفة لصاحبها، كما تقول: يد سارقة، وقوله: ﴿فليدع ناديه﴾ إشارة إلى قول أبي جهل، وما بالوادي أكثر نادياً مني، والنادي والندی المجلس ومنه دار الندوة ومنه قول زهير: [الكامل]

وفيهم مقامات حسان وجوههم وأندية يتابها القول والفعل

ومنه قول الأعرابية: سيد ناديه، وثمان عافية، و﴿الزبانية﴾ ملائكة العذاب واحد هم زبينة، وقال الكسائي زبني، وقال عيسى بن عمر والأخفش: زابن وهم الذين يدفعون الناس في النار، والزبن الدفع، ومنه حرب زبون أي تدفع الناس عن نفسها، ومنه قول الشاعر: [الطويل]

ومستعجب مما يرى من أناتنا ولو زبنته الحرب لم يترمرم

ومنه قول عتبة بن أبي سفيان: وقد زبنتنا الحرب وزبناها فنحن بنوها وهي أمنا، ومنه قول الشاعر:

[الوافر]

عدتني عن زيارتك الأعادي وحالت بيننا حرب زبون

وحذف الواو من ﴿سندع﴾ في خط المصحف اختصاراً وتحقيقاً، والمعنى: ﴿سندع الزبانية﴾ لعذاب هذا الذي يدعوا ناديه، وقرأ ابن مسعود: «فليدع إلى ناديه»، ثم قال تعالى لمحمد عليه السلام: ﴿كلا﴾ ردأ على قول هذا الكافر وأفعاله ﴿لا تطعه﴾ أي لا تلتفت إلى نهية وكلامه، واسجد لربك واقترب إليه بسجودك وبالطاعة والأعمال الصالحة، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه إذا سجد، فأكثروا من الدعاء في السجود فقمين أن يستجاب لكم». وقال مجاهد: ثم قال ألم تسمعوا: ﴿واسجد واقترب﴾، وروى ابن وهب عن جماعة من أهل العلم أن قوله تعالى: ﴿واسجد﴾ خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم، وأن ﴿اقترب﴾ خطاب لأبي جهل، أي إن كنت تجترىء حتى ترى كيف تهلك، وهذه السورة فيها سجدة عند جماعة من أهل العلم، منهم في مذهب مالك ابن وهب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْقَدْرِ

اختلف الناس في موضع نزول هذه السورة، فقال قتادة: هي مكة، وقال ابن عباس وغيره: هي مدينة.

قوله عز وجل:

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ نَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

الضمير في ﴿أنزلناه﴾ للقرآن وإن لم يتقدم ذكره لدلالة المعنى عليه، فقال ابن عباس وغيره: أنزله الله تعالى ﴿ليلة القدر﴾ إلى السماء الدنيا جملة، ثم نجمه على محمد صلى الله عليه وسلم في عشرين سنة، وقال الشعبي وغيره: ﴿إننا﴾ ابتدأنا إنزال هذا القرآن إليك ﴿في ليلة القدر﴾، وقد روي أن نزول الملك في حراء كان في العشر الأواخر من رمضان، فيستقيم هذا التأويل وقد روي أنه قد نزل في الرابع عشر من رمضان، فلا يستقيم هذا التأويل إلا على قول من يقول إن ليلة القدر تستدير الشهر كله ولا تختص بالعشر الأواخر، وهو قول ضعيف، حديث النبي صلى الله عليه وسلم يردّه في قوله: «فالتمسوها في العشر الأواخر من رمضان» وقال جماعة من المتأولين معنى قوله: ﴿إننا أنزلناه في ليلة القدر﴾، إننا أنزلنا هذه السورة في شأن ليلة القدر وفي فضلها. وإذا كانت السورة من القرآن جاء الضمير للقرآن تفخيماً وتحسيناً، فقوله تعالى: ﴿في ليلة﴾ هو قول عمر بن الخطاب: لقد خشيت أن ينزل في قرآن ليلة نزول سورة الفتح، ونحو قول عائشة في حديث الإفك: لأنا أحقر في نفسي من أن ينزل في قرآن، و﴿ليلة القدر﴾: هي ليلة خصها الله تعالى بفضل عظيم وجعلها أفضل ﴿من ألف أشهر﴾، لا ليلة قدر فيها، قاله مجاهد وغيره، وخصت هذه الأمة بهذه الفضيلة لما رأى محمد عليه السلام أعمال أمته فتقاصرها، وقوله تعالى: ﴿وما أدراك ما ليلة القدر﴾ ليلة القدر عبارة عن تفخيم لها، ثم أداره تعالى بعد قوله: ﴿ليلة القدر خير﴾، قال ابن عيينة في صحيح البخاري ما كان في القرآن: ﴿وما أدراك﴾ فقد أعلمه، وما قال: «وما يدريك» فإنه لم يعلم، وذكر ابن عباس وقتادة وغيره: أنها سميت ليلة القدر، لأن الله تعالى يقدر فيها الآجال والأرزاق وحوادث العالم كلها ويدفع ذلك إلى الملائكة لتمثله، وقد روي مثل هذا في ليلة النصف من شعبان، ولهذا ظواهر من كتاب الله عز وجل على نحو قوله تعالى: ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾ [الدخان: ٤]، وأما

الصحة المقطوع بها فغير موجودة، وقال الزهري معناه: ليلة القدر العظيم والشرف الشأن من قولك: رجل له قدر، وقال أبو بكر الوراق: سميت ليلة القدر لأنها تكسب من أحيائها قدراً عظيماً لم يكن من قبل، وترده عظيماً عند الله تعالى، وقيل سميت بذلك لأن كل العمل فيها له قدر خطير، وليلة القدر مستديرة في أوتار العشر الأواخر من رمضان، هذا هو الصحيح المعول عليه، وهي في الأوتار بحسب الكمال والنقصان في الشهر، فينبغي لمرتقبها أن يرتقبها من ليلة عشرين في كل ليلة إلى آخر الشهر، لأن الأوتار مع كمال الشهر، ليست الأوتار مع نقصانه، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الثالثة تبقى لخامسة تبقى، لسابعة تبقى»، وقال: «التمسوها في الثالثة والخامسة والسابعة والتاسعة»، وقال مالك: يريد بالتاسعة ليلة إحدى وعشرين، وقال ابن حبيب: يريد مالك إذا كان الشهر ناقصاً، فظاهر هذا أنه عليه السلام احتاط في كمال شهر ونقصانه، وهذا لا تتحصل معه الليلة إلا بعمارة العشر كله، وروي عن أبي حنيفة وقوم: أن ليلة القدر رفعت، وهذا قول مردود، وإنما رفع تعيينها، وقال ابن مسعود: من يقيم السنة كلها يصحبها، وقال أبو رزين هي أول ليلة من شهر رمضان، وقال الحسن: هي ليلة سبع عشرة، وهي التي كانت في صبيحتها وقعة بدر، وقال كثير من العلماء: هي ليلة ثلاث وعشرين، وهي رواية عبد الله بن أنيس الجهني، وقاله ابن عباس، وقال أيضاً هو وجماعة من الصحابة: هي ليلة سبع وعشرين، واستدل ابن عباس على قوله بأن الإنسان خلق من سبع وجعل رزقه في سبع، واستحسن ذلك عمر رضي الله عنه، وقال زيد بن ثابت وبلال: هي ليلة أربع وعشرين، وقال بعض العلماء: أخفاها الله تعالى عن عباده ليجدوا في العمل ولا يتكلموا على فضلها ويقصروا في غيرها، ثم عظم تعالى أمر ليلة القدر على نحو قوله: ﴿وما أدراك ما الحاققة﴾ [الحاقة: ٢] وغير ذلك، ثم أخبر أنها أفضل لمن عمل فيها عملاً ﴿من ألف شهر﴾، وهي ثمانون سنة وثلاثة أعوام وثلاث عام. وروي عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما أنه قال حين عوتب في تسليمه الأمر للمعاوية: إن الله تعالى أرى نبيه في المنام بني أمية ينزون على منبره نزو القردة، فاهتم لذلك فأعطاه الله ليلة القدر، وهي خير من مدة ملك بني أمية، وأعلمه أنهم يملكون الناس هذا القدر من الزمان.

قال القاضي أبو محمد: ثم كشف الغيب أن كان من سنة الجماعة إلى قتل مروان الجعدي هذا القدر من الزمان بعينه مع أن القول يعارضه أنه قد ملك بنو أمية في غرب الأرض مدة غير هذه، وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه». و﴿الروح﴾ هو جبريل وقيل: هم صنف حفظة الملائكة وقوله تعالى: ﴿بإذن ربهم من كل أمر﴾ اختلف الناس في معناه، فمن قال إن في هذه الليلة تقدر الأمور للملائكة قال: إن هذا التنزل لذلك، و﴿من﴾ لا ابتداء الغاية أي نزولهم من أجل هذه الأمور المقدرة وسببها، ويجيء ﴿سلام﴾ خبراً ببناء مستأنفاً أي سلام هذه الليلة إلى أول يومها، وهذا قول نافع المقرئ والفراء وأبي العالية، وقال بعضهم ﴿من﴾ بمعنى الباء أي بكل أمر، ومن لم يقل بقدر الأمور في تلك الليلة قال معنى الآية ﴿تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم﴾ بالرحمة والغفران والفواضل، ثم جعل قوله ﴿من كل أمر﴾ متعلقاً بقوله: ﴿سلام هي﴾ أي من كل أمر مخوف ينبغي أن يسلم منه فهي سلام، وقال مجاهد: لا يصيب أحداً فيها داء. وقال الشعبي ومنصور: ﴿سلام﴾ بمعنى

التحية أي تسلم الملائكة على المؤمنين، وقرأ ابن عباس وعكرمة والكلبي: «من كل امرئ» أي يسلم فيها من كل امرئ سوء، فهذا على أن سلاماً بمعنى سلامة، وروي عنه أن سلاماً بمعنى تحية، «وكل امرئ» يراد بهم الملائكة أي من كل ملك تحية على المؤمنين، وهذا للعاملين فيها بالعبادة. «وذهب من يقول بانتهاء الكلام في قوله: ﴿سلام﴾ إلى أن قوله ﴿هي﴾ إنما هذا إشارة إلى أنها ليلة سبع وعشرين من الشهر، إذ هذه الكلمة هي السابعة والعشرون من كلمات السورة، وذكر هذا الغرض ابن بكير وأبو بكر الوراق والنقاش عن ابن عباس، وقرأ جمهور السبعة: «حتى مطلع الفجر» بفتح اللام، وقرأ الكسائي والأعمش وأبو رجاء وابن محيصن وطلحة: «حتى مطلع» بكسر اللام، فقليل هما بمعنى مصدران في لغة بني تميم، وقيل الفتح المصدر والكسر موضع الطلوع عند أهل الحجاز، والقراءة بالفتح أوجه على هذا القول، والأخرى تتخرج على تجوز كان الوقت ينحصر في ذلك الموضع ويتم فيه، ويتجه الكسر على وجه آخر، وهو أنه قد شذ من هذه المصادر ما كسر كالمعجزة، وقولهم علاه المكبر بفتح الميم وكسر الباء، ومنه المحيض فيجري المطلع مصدراً مجرى ما شذ، وفي حرف أبي بن كعب رضي الله عنه: «سلام هي إلى مطلع الفجر».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْبَيِّنَةِ

وهي مكية في قول جمهور المفسرين، وقال ابن الزبير وعطاء بن يسار إنها مدنية والأول أشهر.
قوله عز وجل:

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَلْأُوْا صُحُفًا مَّطْهُرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا نَفَرَكَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿٥﴾

وفي حرف أبي بن كعب: «ما كان الدين»، وفي حرف ابن مسعود: «لم يكن المشركين وأهل الكتاب منفكين». وقوله تعالى: ﴿منفكين﴾ معناه منفصلين متفرقين، تقول انفك الشيء عن الشيء إذا انفصل عنه، وما انفك التي هي من أخوات كان لا مدخل بها في هذه الآية، ونفى في هذه الآية أن تكون هذه الصنيعة منفكة، واختلف الناس عماذا، فقال مجاهد وغيره: لم يكونوا ﴿منفكين﴾ عن الكفر والضلال حتى جاءتهم البينة، وأوقع المستقبل موضع الماضي في ﴿تأتيهم﴾، لأن باقي الآية وعظمها لم يردده بعد، وقال الفراء وغيره: لم يكونوا ﴿منفكين﴾ عن معرفة صحة نبوة محمد عليه السلام، والتوقف لأمره حتى جاءتهم البينة تفرقوا عند ذلك، وذهب بعض النحويين إلى هذا النفي المتقدم مع ﴿منفكين﴾ يجعلها تلك التي هي مع كان، ويرى التقدير في خبرها عارفين أمر محمد أو نحو هذا، ويتجه في معنى الآية قول ثالث بارع المعنى، وذلك أن يكون المراد لم يكن هؤلاء القوم ﴿منفكين﴾ من أمر الله تعالى وقدرته ونظره لهم حتى يبعث إليهم رسولا منذرا تقوم عليهم به الحجة، وتم على من آمن النعمة، فكانه قال: ما كانوا ليتروا سدى وبهذا المعنى نظائر في كتاب الله تعالى، وقرأ بعض الناس: «والمشركون» بالرفع، وقرأ الجمهور: «والمشركين» بالخفض ومعناها بين، و﴿البينة﴾ معناه: القصة البينة والجلية، والمراد محمد عليه السلام، وقرأ الجمهور: «رسول الله» بالرفع وقرأ أبي: «رسولا» بالنصب على الحال، والصحف المطهرة: القرآن في صحفه، قاله الضحاك وقادة، وقال الحسن الصحف المطهرة في السماء، وقوله عز وجل: ﴿فيها كتب قيمة﴾ فيه حذف مضاف تقديره فيها أحكام كتب وقيمة: معناه قائمة معتدلة آخذة للناس

بالعدل وهو بناء مبالغة، فألى ﴿قيمة﴾ هو ذكر من آمن من الطائفتين، ثم ذكر تعالى مذمة من لم يؤمن من أهل الكتاب من بني إسرائيل من أنهم لم يتفرقوا في أمر محمد إلا من بعد ما رأوا الآيات الواضحة، وكانوا من قبل مصفقين على نبوته وصفته، فلما جاء من العرب حسدوه، وقرأ جمهور الناس: «مخلصين» بكسر اللام، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: «مخلصين» بفتح اللام، وكان ﴿الدين﴾ على هذه القراءة منصوب بـ ﴿بعد﴾ أو بمعنى يدل عليه أنه كالظرف أو الحال، وفي هذا نظر، وقيل لعيسى عليه السلام: من المخلص لله؟ قال الذي يعمل العمل لله ولا يحب أن يحمد الناس عليه، و﴿حنفاء﴾: جمع حنيف وهو المستقيم المائل إلى طرق الخير، قال ابن جبير: لا تسمي العرب حنيفاً إلا من حج واختن، وقال ابن عباس: ﴿حنفاء﴾: حجاجاً مسلمين، و﴿حنفاء﴾ نصب على الحال، وكون ﴿الصلاة﴾ مع ﴿الزكاة﴾ في هذه الآية مع ذكر بني إسرائيل فيها يقوي من قول السورة مدنية، لأن ﴿الزكاة﴾ فرضت بالمدينة، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما دفع لمناقضة أهل الكتاب بالمدينة، وقرأ الجمهور: «وذلك دين القيمة» على معنى الجماعة القيمة أو الفرقة القيمة، وقال محمد بن الأشعث الطالقاني: هنا الكتب التي جرى ذكرها، وقرأ بعض الناس: «وذلك الدين القيمة»، فالهاء في «القيمة» على هذه القراءة كعلامة ونسابة، ويتجه ذلك أيضاً على أن يجعل ﴿الدين﴾ بمنزلة الملة.

قوله عز وجل:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾

حكم الله في هذه الآية بتخليد الكافرين من ﴿أهل الكتاب والمشركين﴾ وهم عبدة الأوثان في النار وبأنهم ﴿شر البرية﴾، و﴿البرية﴾ جميع الخلق لأن الله تعالى برأهم أو أوجدتهم بعد العدم، وقرأ نافع وابن عامر والأعرج: «البرية» بالهمز من برأ، وقرأ الباقون والجمهور: «البرية» بشد الياء بغير همز على التسهيل، والقياس الهمز إلا أن هذا مما ترك همزه كالنبي والذرية، وقرأ بعض النحويين: «البرية» مأخوذ من البراء وهو التراب، وهذا الاشتقاق يجعل الهمز خطأ وغلطاً وهو اشتقاق غير مرضي، و﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ شروط جميع أمة محمد، ومن آمن بنبيه من الأمم الماضية، وقرأ بعض الناس «خير». وقرأ بعض قراء مكة: «خيار» بالألف، وروي حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ هذه الآية: «أولئك هم خير البرية».

ثم قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه «أنت يا علي وشيعتك من خير البرية»، ذكره الطبري، وفي الحديث: أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم: «يا خير البرية»، فقال له: ذلك إبراهيم عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيه حذف مضاف تقديره سكنى

﴿جَنّاتِ عَدْنٍ﴾ أو دخول ﴿جَنّاتِ عَدْنٍ﴾، والعدن الإقامة والدوام، عدن بالموضع أقام فيه، ومنه المعدن لأنه رأس ثابت، وقال ابن مسعود: ﴿جَنّاتِ عَدْنٍ﴾ بطنان الجنة أي سوطها، وقوله: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ قيل ذلك في الدنيا، فرضاه عنهم هو ما أظهره عليهم من أمارات رحمته وغفرانه، ورضاهم عنه: هو رضاهم بجميع ما قسم لهم من جميع الأرزاق والأقدار. قال بعض الصالحين: رضى العباد عن الله رضاهم بما يرد من أحكامه، ورضاه عنهم أن يوقفهم للرضى عنه، وقال أبو بكر بن طاهر: الرضى عن الله خروج الكراهية عن القلب حتى لا يكون إلا فرح وسرور، وقال السري السقطي: إذا كنت لا ترضى عن الله فكيف تطلب منه الرضا عنك؟ وقيل ذلك في الآخرة، فرضاهم عنه رضاهم بما من به عليهم من النعم، ورضاهم عنه هو ما روي أن الله تعالى يقول لأهل الجنة: هل رضيتم بما أعطيتكم؟ فيقولون: نعم ربنا وكيف لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين، فيقول: أنا أعطيتكم أفضل من كل ما أعطيتكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً، وخص الله بالذكر أهل الخشية لأنها رأس كل بركة الناهية عن المعاصي الأمرة بالمعروف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

وهي مكية، قاله ابن عباس وغيره. وقال قتادة ومقاتل: هي مدنية، لأن آخرها نزل بسبب رجلين كانا بالمدينة.

قوله عز وجل:

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ يَا نَرَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

العامل في: ﴿إذا﴾ على قول جمهور النحاة، وهو الذي يقتضيه القياس فعل مضمر يقتضيه المعنى وتقديره: تحشرون أو تجازون، ونحو هذا، ويمتنع أن يعمل فيه ﴿زلزلت﴾ لأن ﴿إذا﴾ مضافة إلى ﴿زلزلت﴾، ومعنى الشرط فيها ضعيف وقال بعض النحويين: يجوز أن يعمل فيها ﴿زلزلت﴾، لأن معنى الشرط لا يفارقها، وقد تقدمت نظائرها في غير سورة، و﴿زلزلت﴾ معناه: حركت بعنف، ومنه الزلزال، وقوله تعالى: ﴿زلزالها﴾ أبلغ من قوله: زلزال، دون إضافة إليها، وذلك أن المصدر غير مضاف يقع على كل قدر من الزلزال وإن قل، وإذا أضيفت إليها وجب أن يكون على قدر ما يستحقه ويستوجب جرمها وعظمها، وهكذا كما تقول: أكرمت زيدا كرامة فذلك يقع على كل كرامة وإن قلت بحسب زيد، فإذا قلت كرامته أوجبت أنك قد وفيت حقه، وقرأ الجمهور: ﴿زلزالها﴾ بكسر الزاي الأولى، وقرأ بفتحها عاصم الجحدري، وهو أيضاً مصدر كالوسواس وغيره. و«الأنقال»: الموتى الذين في بطنها قاله ابن عباس، وهذه إشارة إلى البعث، وقال قوم من المفسرين منهم منذر بن سعيد الزجاج والنقاش: أخرجت موتاهها وكنوزها.

قال القاضي أبو محمد: وليست القيامة موطناً لإخراج الكنوز، وإنما تخرج كنوزها وقت الدجال. و«قول الإنسان ما لها» هو قول على معنى التعجب من هول ما يرى، قال جمهور المفسرين: ﴿الإنسان﴾ هنا يراد به الكافر، وهذا متمكن لأنه يرى ما لم يظن به قط ولا صدقه، وقال بعض المتأولين هو عام في المؤمن والكافر، فالكافر على ما قدمناه، والمؤمن وإن كان قد آمن بالبعث فإنه استهول المرأى، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «ليس الخبر كالمعاينة». و«أخبار الأرض» قال ابن مسعود والثوري وغيره: هو

شهادتهما بما عمل عليها من عمل صالح أو فاسد، فالحديث على هذا حقيقة، والكلام بإدراك وحياة يخلقها الله تعالى، وأضاف الأخبار إليها من حيث وعثها وحصلتها، وانتزع بعض العلماء من قوله تعالى: ﴿تحدث أخبارها﴾ أن قول المحدث: حدثنا وأخبرنا سواء، وقال الطبري وقوم: التحديث في الآية مجاز، والمعنى أن ما تفعله بأمر الله من إخراج أثقالها وتفتت أجزائها وسائر أحوالها هو بمنزلة التحديث بأنبائها وأخبارها، ويؤيد القول الأول قول النبي صلى الله عليه وسلم: «فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة»، وقرأ عبد الله بن مسعود: «تنبىء أخبارها»، وقرأ سعيد بن جبیر: «تبين» وقوله تعالى: ﴿بأن ربك أوحى لها﴾ الباء باء السبب، وقال ابن عباس وابن زيد والقرظي المعنى: ﴿أوحى لها﴾، وهذا الوحي على هذا التأويل يحتمل أن يكون وحي إلهام، ويحتمل أن يكون وحياً برسول من الملائكة، وقد قال الشاعر:

أوحى لها القرار فاستقرت وشدها بالراسيات الثبت

والوحي في كلام العرب إلقاء المعنى إلقاء خفياً، وقال بعض المتأولين: ﴿أوحى لها﴾ معناه: ﴿أوحى﴾ إلى ملائكته المصرفين أن تفعل في الأرض تلك الأفعال، وقوله تعالى: ﴿لها﴾ بمعنى: من أجلها ومن حيث الأفعال فيها فهي لها، وقوله تعالى: ﴿يومئذ يصدر الناس أشتاتاً﴾ بمعنى: يتصرفون موضع وردهم مختلفي الأحوال وواحد الأشتات: شت، فقال جمهور الناس: الورد، هو الكون في الأرض بالموت والدفن، والصدر: هو القيام للبعث، و ﴿أشتاتاً﴾: معناه: قوم مؤمنون وقوم كافرون، وقوم عصاة مؤمنون، والكل سائر إلى العرض ليرى عمله، ويقف عليه، وقال النقاش: الورد هو ورد المحشر، والصدر ﴿أشتاتاً﴾: هو صدر قوم إلى الجنة، وقوم إلى النار، وقوله تعالى: ﴿ليروا أعمالهم﴾ إما أن يكون معناه جزاء أعمالهم يراه أهل الجنة من نعيم وأهل النار بالعذاب، وإما أن يكون قوله تعالى: ﴿ليروا أعمالهم﴾ متعلقاً بقوله: ﴿بأن ربك أوحى لها﴾، ويكون قوله: ﴿يومئذ يصدر الناس أشتاتاً﴾ اعتراضاً بين أثناء الكلام، وقرأ جمهور الناس: «ليروا»، بضم الياء على بناء الفاعل للمفعول، وقرأ الحسن والأعرج وحماد بن سلمة والزهري وأبو حنيفة: «ليروا» بفتح الياء على بناءه للفاعل، ثم أخبر تعالى أنه من عمل عملاً رآه قليلاً كان أو كثيراً، فخرجت العبارة عن ذلك بمثال التقليل، وهذا هو الذي يسميه أهل الكلام مفهوم الخطاب، وهو أن يكون المذكور والمسكوت عنه في حكم واحد، ومنه قوله تعالى: ﴿فلا تقل لهما أف﴾ [الإسراء: ٢٣]، وهذا كثير، وقال ابن عباس وبعض المفسرين: رؤية هذه الأعمال هي في الآخرة، وذلك لازم من لفظ السورة وسردها، فيرى الخير كله من كان مؤمناً، والكافر لا يرى في الآخرة خيراً، لأن خيره قد عجل له في الدنيا، وكذلك المؤمن أيضاً تعجل له سيئاته الصغار في دنياه في المصائب والأمراض ونحوها فيجيء من مجموع هذا أن من عمل من المؤمنين ﴿مثقال ذرة﴾ من خير أو شر رآه، ويخرج من ذلك أن لا يرى الكافر خيراً في الآخرة. ومنه حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: قلت يا رسول الله: أرايت ما كان عبد الله بن جدعان يفعل من البر وصلة الرحم وإطعام الطعام، أله في ذلك أجر؟ قال: «لا، لأنه لم يقل قط رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين». وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يسمي هذه الآية الجامعة الفادة، وقد نص على ذلك حين سئل عن الحمر الحديث، وأعطى

سعد بن أبي وقاص سائلاً ثمرتين فقبض السائل يده فقال له سعد: ما هذا؟ إن الله تعالى قبل منا مثاقيل الذر وفعلت نحو هذا عائشة في حبة عنب وسمع هذه الآية صعصعة بن عقال التيمي عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: حسبي لا أبالي أن لا أسمع غيرها، وسمعتها رجل عند الحسن، فقال: انتهت الموعظة، فقال الحسن: فقه الرجل، وقرأ هشام عن ابن عامر وأبو بكر عن عاصم: «يره»، بسكون الهاء في الأولى والأخيرة، وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم وحمزة والكسائي ونافع فيما روى عنه ورش والحلواني عن قالون عنه في الأولى «ير هو»، وأما الأخيرة فإنه سكون وقف، وأما من أسكن الأولى فهي على لغة من يخفف أمثال هذا ومنه قول الشاعر:

ونضوي مشتاقان له أرقان

وهذه على لغة لم يحكها سيبويه، لكن حكاها الأخفش، وقرأ أبو عمرو: «يره» بضم الهاء فيهما مشبعتان، وقرأ أبان عن عاصم وابن عباس وأبو حيوة وحميد بن الربيع عن الكسائي: «يره»، بضم الياء، وهي رؤية بصره بمعنى: يجعل يدركه بصره، والمعنى: يرى جزاءه وثوابه، لأن الأعمال الماضية لا ترى بعين أبداً، وهذا الفعل كله هو من رأيت بمعنى أدركت ببصري، فتعديده إنما هو إلى مفعول واحد، وقرأ عكرمة: «خيرأ يراه» و«شرأ يراه»، وقال النقاش: ليست برؤية بصر، وإنما المعنى يصيبه ويناله، ويروى أن هذه السورة نزلت وأبو بكر يأكل مع النبي صلى الله عليه وسلم، فترك أبو بكر الأكل وبكى، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما يبكيك، فقال: يا رسول الله: أوأسأل عن مثاقيل الذر؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا بكر: ما رأيت في الدنيا مما تكره، فمثاقيل ذر الشر ويدخر الله لك مثاقيل ذر الخير إلى الآخرة، و«الذرة» نملة صغيرة حمراء رقيقة لا يرجح لها ميزان، ويقال إنها تجري إذا مضى لها حول، وقد تؤول ذلك في قول امرئ القيس: [الطويل]

من القاصرات الطرف لودب محول من الذر فوق الإتب منها لأثرا

وحكى النقاش أنهم قالوا: كان بالمدينة رجلان، أحدهما لا يبالي عن الصغائر يرتكبها، وكان الآخر: يريد أن يتصدق فلا يجد إلا اليسير فيستحيي من الصدقة، فنزلت الآية فيهما، كأنه يقال لأحدهما: تصدق باليسير، فإن مثقال ذرة الخير ترى، وقيل للآخر: كف عن الصغائر فإن مقادير ذر الشر ترى. نجز تفسيرها والحمد لله كثيراً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْعَادِيَاتِ

وهي مكية في قول جماعة من أهل العلم، وقال المهدوي عن أنس بن مالك: وهي مدنية.
قوله عز وجل:

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّمَا عَلَىٰ ذَٰلِكِ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّمَا لِحَبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

اختلف الناس في المراد بـ ﴿العاديات﴾، فقال ابن عباس وقتادة ومجاهد وعكرمة: أراد الخيل لأنها تعدو بالفرسان وتضج بأصواتها، قال بعضهم: وسببها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث خيلاً إلى بني كنانة سرية فأبطأ أمرها عليه حتى أرحف بهم بعض المنافقين، فنزلت الآية معلمة أن خيله عليه السلام قد فعلت جميع ما في الآية، وقال آخرون: القسم هو بالخيال جملة لأنها تعدو ضابحة قديماً وحديثاً، وهي حاضرة البلاد وهادمة الممالك، وفي نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وقال علي بن أبي طالب وابن مسعود وإبراهيم وعبيد بن عمير: ﴿العاديات﴾ في هذه الآية: الإبل لأنها تضج في عدوها، قال علي: والقسم بالإبل العاديات من عرفة ومن مزدلفة إذا وقع الحاج وبابل غزوة بدر فإنه لم يكن في الغزوة غير فرسين: فرس المقداد وفرس الزبير بن العوام، والضجج: تصويت جهير عند العدو الشديد ليس بصهيل ولا رغاء ولا نباح، بل هو غير المعتاد من صوت الحيوان الذي يضجج. وحكي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: ليس يضجج من الحيوان غير الخيل والكلاب، وهذا عندي لا يصح عن ابن عباس رضي الله عنه، وذلك أن الإبل تضجج والأسود من الحيات والبوم والصدى والأرنب والثعلب، والقوس هذه كلها قد استعملت لها العرب الضجج، وأنشد أبو حنيفة في صفة قوس: [الرجز]

حنانة من نشم أو تالب تضجج في الكف ضباح الثعلب

والظاهر في الآية، أن القسم بالخيال أو بالإبل أو بهما، قوله تعالى: ﴿فالموريات قدحاً﴾ قال علي بن أبي طالب وابن مسعود: هي الإبل، وذلك أنها في عدوها ترجم الحصى بالحصى فيطير منه النار فذلك القدح. قال ابن عباس: هي الخيل، وذلك بحوافرها في الحجارة وذلك معروف. وقال عكرمة:

﴿الموريات قدحاً﴾: هي الألسن، فهذا على الاستعارة أي بيانها تقدح الحجج وتظهرها. وقال مجاهد: ﴿الموريات قدحاً﴾، يريد به مكر الرجال، وقال قتادة: ﴿الموريات﴾، الخيل تشعل الحرب، فهذا أيضاً على الاستعارة البينة، وقال ابن عباس أيضاً وجماعة من العلماء: الكلام عام يدخل في القسم كل من يظهر بقدره ناراً، وذلك شائع في الأمم طول الدهر وهو نفع عظيم من الله تعالى، وقد وقف عليه في قوله تعالى: ﴿أفرايتم النار التي تورون﴾ [الواقعة: ٧١] معناه: تظهرون بالقدر، قال عدي بن زيد: [الخفيف]

فقدحنا زناداً وورينا فوق جرثومة من الأرض نار

وقوله تعالى: ﴿فالمغيرات صبحاً﴾ قال علي وابن مسعود: هي الإبل من مزدلفة إلى منى أو في بدر، والعرب تقول: أغار إذا عدا جرياً ونحوه، وقال ابن عباس وجماعة كثيرة: هي الخيل واللفظة من الغارة في سبيل الله وغير ذلك من سير الأمم، وعرف الغارات أنها مع الصباح لأنها تسري ليلة الغارة والنقع: الغبار الساطع المثار، وقرأ أبو حيو: «فأثرن» بشد الثاء، والضمير في: ﴿به﴾ ظاهر أنه للصبح المذكور، ويحتمل أن يكون للمكان والموضع الذي يقتضيه المعنى وإن كان لم يجز له ذكر، ولهذا أمثلة كثيرة، ومشهورة إثارة النقع هو للخيل ومنه قول الشاعر [البسيط]

يخرجن من مستطير النقع دامية كأن أذانهما أطراف أقلام

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: هو هنا الإبل تثير النقع بأخفافها، وقوله تعالى: ﴿فوسطن به جميعاً﴾ قال ابن عباس وعلي: هي الإبل، و﴿جمعاً﴾: هي المزدلفة، وقال ابن عباس: هي الخيل، والمراد جمع من الناس هم المغيرون، وقرأ علي بن أبي طالب وقاتدة وابن أبي ليلى: «فوسطن» بشد السين. وقال بشر بن أبي حازم: [الكامل]

فوسطن جمعهم وأفلت حاجب تحت العجاجة في الغبار الأتم

وذكر الطبري عن زيد بن أسلم: أنه كان يكره تفسير هذه الألفاظ، ويقول: هو قسم أقسم الله به، وجمهور الأمة وعلمائها مفسرون لها كما ذكرنا، والقسم واقع على قوله: ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أتدرون ما الكنود؟ قالوا لا يا رسول الله، قال: هو الكفور الذي يأكل وحده ويمنع رفته، ويضرب عبده». وقد يكون من المؤمنين الكفور بالنعمة، فتقدير الآية: إن الإنسان لنعمة ربه لكنود، وأرض كنود لا تنبت شيئاً، وقال الحسن بن أبي الحسن: الكنود اللائم لربه الذي يعد السيئات وينسى الحسنات، والكنود العاصي بلغة كندة، ويقال للخيل كنود، وقال أبو زيد: [الخفيف]

إن تفتني فلم أطب بك نفساً غير أني أمني بدهر كنود

وقال الفضيل: الكنود الذي تنسيه سيئة واحدة حسنات كثيرة ويعامل الله على عقد عوض، وقوله تعالى: ﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾ يحتمل الضمير أن يعود على الله تعالى، وقاله قتادة: أي ورثه شاهد عليه، وتفسير هذا الخبر يقتضي الشهادة بذلك، ويحتمل أن يعود على ﴿الإنسان﴾ أي أفعاله وأقواله وحاله

المعلومة من هذه الأخلاق تشهد عليه، فهو شاهد على نفسه بذلك، وهذا قول الحسن ومجاهد، والضمير في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَحَبُّ الْخَيْرِ﴾ عائد على ﴿الإنسان﴾ لا غير، والمعنى من أجل حب الخير إنه ﴿لشديد﴾، أي بخيل بالمال ضابط له، ومنه قول الشاعر [طرفة بن العبد]: [الطويل]

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد

و﴿الخير﴾ المال على عرف ذلك في كتاب الله تعالى، قال عكرمة: ﴿الخير﴾ حيث وقع في القرآن فهو المال، ويحتمل أن يراد هنا الخير الدنياوي من مال وصحة وجاه عند الملوك ونحوه، لأن الكفار والجهال لا يعرفون غير ذلك، فأما المحب في خير الآخرة فممدوح له مرجو له الفوز وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾، توقيف على المال والمصير أي أفلا يعلم ماله فيستعد له، و«بعثرة ما في القبور»: تقصيه مما يستره والبحث عنه، وهذه عبارة عن البحث، وفي مصحف ابن مسعود: «بحث ما في القبور»، وفي حرف أبي: «وبحثت القبور»، و«تحصيل ما في الصدور»: تمييزه وكشفه ليقع الجزاء عليه من إيمان وكفر ونية، ويفسره قول النبي صلى الله عليه وسلم: «يبعث الناس يوم القيامة على نياتهم»، وقرأ يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم: بفتح الحاء والصاد، ثم استؤنف في الخبر الصادق، الجزم بأن الله تعالى خبير بهم ﴿يومئذ﴾، لكن خصص ﴿يومئذ﴾ لأنه يوم المجازاة، فإليه طمحت النفوس، وهذا وعيد مصرح.

نجز تفسير سورة «العاديات».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْقَارِعَةِ

وهي مكية بلا خلاف .

قوله عز وجل :

الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ﴿١٠﴾ نَارُ حَامِيَةٍ ﴿١١﴾

قرأ: «القارعة ما القارعة» بالنصب عيسى، قال جمهور المفسرين: «القارعة» يوم القيامة نفسها لأنها تفرع القلوب بهولها، وقال قوم من المتأولين: «القارعة»: صيحة النفخة في الصور، لأنها تفرع الأسماع، وفي ضمن ذلك القلوب، وفي قوله تعالى: «وما أدراك» تعظيم لأمرها، وقد تقدم مثله، و«يوم»: ظرف، والعامل فيه «القارعة». وأمال أبو عمرو: «القارعة»، و«الفراش»: طير دقيق يتساقط في النار ويقصدها، ولا يزال يقتحم على المصباح ونحوه حتى يحترق، ومنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «أنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تقتحمون فيها تقاحم الفرash والجنادب»، وقال الفراء: «الفرash» في الآية: غوغاء الجراد وهو صغيره الذي ينتشر في الأرض والهواء، و«المبثوث»: هنا معناه: المتفرق، جمعه وجملته موجودة متصلة، وقال بعض العلماء: الناس أول قيامهم من القبور «كالفرash المبثوث»، لأنهم يجيئون ويذهبون على غير نظام، يدعوه الداعي فيتوجهون إلى ناحية المحشر فهم حينئذ كالجراد المنتشر، لأن الجراد إنما توجهه إلى ناحية مقصودة، واختلف اللغويون في: «العهن»، فقال أكثرهم: هو الصوف عاماً، وقال آخرون: وهو الصوف الأحمر، وقال آخرون: هو الصوف الملون ألواناً، واحتج بقول زهير:

كَأَنَّ فَنَاتِ الْعِهْنِ فِي كُلِّ مَنَزَلٍ نَزَلْنَ بِهِ حُبَّ الْفَنَاءِ لَمْ يَحْطَمِ

والفنا: عنب الثعلب، وحبه قبل التحطم منه الأخضر والأحمر والأصفر، وكذلك الجبال جدد بيض وحممر وسود وصفر، فجاء التشبيه ملائماً، وكون «الجبال كالعهن»، إنما هو وقت التفتيت قبل النسف

ومصيرها هباء، وهي درجات، والنفش: خلخلة الأجزاء وتفريقها عن تراصها، وفي قراءة ابن مسعود وابن جبير: «كالصوف المنفوش»، و«الموازين»: هي التي في القيامة، فقال جمهور العلماء والفقهاء والسحدين: ميزان القيامة بعمود ليين الله أمر العباد بما عهدوه وتيقنوه، وقال مجاهد: ليس تم ميزان إنما هو العدل مثل ذكره بالميزان إذ هو أعدل ما يدري الناس، وجمعت الموازين للإنسان لما كانت له موزونات كثيرة متغايرة، وثقل هذا الميزان هو بالإيمان والأعمال، وخفته بعدمها وقلتها، ولن يخف خفة موبقة ميزان مؤمن. و«عيشة راضية» معناه: ذات رضى على النسب، وهذا قول الخليل وسيبويه، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّهُ هَاوِيَةً﴾ قال كثير من المفسرين: المراد بالأم نفس الهاوية، وهي درك من أدراك النار، وهذا كما يقال للأرض: أم الناس لأنها تؤويهم، وكما قال عتبة بن أبي سفيان في الحرب: فنحن بنوها وهي أمنا، فجعل الله الهاوية أم الكافر لما كانت مأواه، وقال آخرون: هو تفاؤل بشر فيه تجوز في أم الولاد، كما قالوا: أمه تاكل وخوى نجمه وهوى نجمه ونحو هذا، وقال أبو صالح وغيره: المراد أم رأسه لأنهم يهوون على رؤوسهم، وقرأ طلحة: «فَأَمَّهُ» بكسر الهمزة وضم الميم مشددة، ثم قرر تعالى نبيه على دراية أمرها وتعظيمه ثم أخبره أنها «نار حامية»، وقرأ: «ما هي» بطرح الهاء في الوصل ابن إسحاق والأعمش، وروى المبرد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لرجل: لا أم لك، فقال: يا رسول الله، أتمدعوني إلى الهدى وتقول: لا أم لك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما أردت لا نار لك، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّهُ هَاوِيَةً﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

وهي مكية لا أعلم فيها خلافاً.

قوله عز وجل:

الْهَنَـكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوِ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِيْنِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيْمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِيْنِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيْمِ ﴿٨﴾

«الهي» معناه: شغل بلذاته، ومنه لهو الحديث والأصوات واللهو بالنساء، وهذا خبر فيه تفرغ وتوبيخ وتحسر، وقرأ ابن عباس وعمران الجوني وأبو صالح: «ألهاكم» على الاستفهام، و«التكاثر» هي المفاخرة بالأموال والأولاد والعدد جملة، وهذا هجيري أبناء الدنيا: العرب وغيرهم لا يتخلص منهم إلا العلماء المتقون، وقد قال الأعشى: [السريع]

ولست بالأكثر منهم حصي وإنما العزة للكثار

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفريت أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»، واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى: «حتى زرتم المقابر»، فقال قوم: حتى ذكرتم الموت في تفاخركم بالآباء والسلف، وتكثرتم بالعظام الرمام، وقال المعنى: حتى متم وزرتم بأجسادكم مقابرها أي قطعتم بالتكاثر أعماركم، وعلى هذا التأويل روي أن أعرابياً سمع هذه الآية فقال: بعث القوم للقيامة ورب الكعبة، فإن الزائر منصرف لا مقيم، وحكى النقاش هذه النزعة من عمر بن عبد العزيز، وقال آخرون: هذا تأنيب على الإكثار من زيارة القبور أي حتى جعلتم أشغالكم القاطعة بكم عن العبادة والتعلم زيارة القبور تكثرأ بمن سلف وإشادة بذكره، وقال ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزورها ولا تقولوا هجراً» فكان نهيه عليه السلام في معنى الآية، ثم أباح بعد لمعنى الاعتاز لا لمعنى المباهاة والتفاخر كما يصنع الناس في ملازمتها وتسليمها بالحجارة والرخام وتلوينها شرفاً وبنیان النواويس عليها، وقوله تعالى: «كلا سوف تعلمون» زجر ووعيد ثم كرر تأكيداً، ويأخذ كل إنسان من الزجر والوعيد المكررين على قدر حظه من التوغل فيما يكره، هذا تأويل

جمهور الناس، وقال علي بن أبي طالب: «كلا ستعلمون في القبور ثم كلا ستعلمون في البعث»، وقال الضحاك: الزجر الأول وعيده هو للكفار والثاني للمؤمنين، وقرأ مالك بن دينار: «كلا ستعلمون» فيهما، وقوله تعالى: ﴿كلا لو تعلمون علم اليقين﴾ جواب ﴿لو﴾ محذوف مقدر في القول أي لازدجرتم وبادرتم إنقاذ أنفسكم من الهلكة، و﴿اليقين﴾ أعلى مراتب العلم، ثم أخبر تعالى الناس أنهم يرون الجحيم، وقرأ ابن عامر والكسائي: «لُتْرُونَ» بضم التاء، وقرأ الباقر بفتحها وهي الأرجح، وكذلك في الثانية، وقرأ علي بن أبي طالب بفتح التاء الأولى وضمها في الثانية، وروي ضمها عن ابن كثير وعاصم، و«تُرُونَ» أصله ترأيون نقلت حركة الهمزة إلى الراء وقلبت الياء ألفاً لحركتها بعد مفتوح، ثم حذفت الألف لسكونها. وسكون الواو بعدها ثم جلبت النون المشددة فحركات الواو بالضم لسكونها وسكون النون الأولى من المشددة إذ قد حذفت نون الإعراب للبناء، وقال ابن عباس: هذا خطاب للمشركين، فالمعنى على هذا أنها رؤية دخول. وصلي وهو ﴿عين اليقين﴾، وقال آخرون: الخطاب للناس كلهم، فهي كقوله تعالى: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ [مريم: ٧١]، فالمعنى أن الجميع يراها، ويجوز الناجي ويتكردس فيها الكافر، وقوله تعالى: ﴿ثم لترونها عين اليقين﴾ تأكيداً في الخبر، و﴿عين اليقين﴾ حقيقته وغايته، وروي عن الحسن وأبي عمرو أنهما همزا «لُتْرُونَ» ولُتْرُونَهَا بخلاف عنهما، وروي ابن كثير: «ثم لُتْرُونَهَا» بضم التاء، ثم أخبر تعالى أن الناس مسؤولون يومئذ عن نعيمهم في الدنيا كيف نالوه ولم آثروه وتتوجه في هذا أسئلة كثيرة بحسب شخص شخص من منقادة لمن أعطي فهما في كتاب الله تعالى، وقال ابن مسعود والشعبي وسفيان ومجاهد: ﴿النعيم﴾ هو الأمن والصحة، وقال ابن عباس: هو البدن والحواس يسأل المرء فيما استعملها، وقال ابن جبير: هو كل ما يتلذذ به من طعام وشراب، وأكل رسول الله عليه السلام هو وبعض أصحابه رطباً وشربوا عليها ماء فقال لهم: «هذا من النعيم الذي تسألون عنه» ومضى يوماً عليه السلام هو وأبو بكر وعمر وقد جاؤوا إلى منزل أبي الهيثم بن التيهان فذبح لهم شاة وأطعمهم خبزاً ورطباً واستعذب لهم ماء وكانوا في ظل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده لتسألن عن نعيم هذا اليوم»، وروي عنه عليه السلام أنه قال: «النعيم المسؤول عنه كسرة تقوته وماء يرويه وثوب يواريه»، وروي أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم «أن النعيم المسؤول عنه الماء البارد في الصيف»، وقال عليه السلام: «من أكل خبز البر وشرب الماء البارد فذلك النعيم الذي يسأل عنه»، وقال عليه السلام: «بيت يكنك وخرقة تواريك وكسرة تشد قلبك، وما سوى ذلك فهو نعيم». وقال النبي عليه السلام: «كل نعيم فهو مسؤول عنه إلا نعيم في سبيل الله عز وجل».

نجز تفسير سورة ﴿التكاثر﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْعَصْرِ

وهي مكية.

قوله عز وجل:

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

قال ابن عباس: ﴿العصر﴾: الدهر، يقال فيه عصر وعصر بضم العين والصاد، وقال امرؤ القيس:

وهل يعمن من كان في العصر الخالي

وقال قتادة: ﴿العصر﴾ العشي، وقال أبي بن كعب: سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن العصر فقال: «أقسم ربكم بآخر النهار»، وقال بعض العلماء: وذكره أبو علي ﴿العصر﴾: اليوم، ﴿والعصر﴾: الليلة ومنه قول حميد: [الطويل]

ولن يلبث العصران يسوم وليلة إذا طلبا أن يدركا ما تيمما

وقال بعض العلماء: ﴿العصر﴾: بكرة والعصر: عشية وهما الأبردان، وقال مقاتل: ﴿العصر﴾ هي الصلاة الوسطى أقسم بها، و﴿الإنسان﴾ اسم الجنس، و﴿الخسر﴾: النقصان وسوء الحال، وذلك بين غاية البيان في الكافر لأنه خسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين، وأما المؤمن وإن كان في خسر دنياه في هزمه وما يقاسيه من شقاء هذه الدار فذلك معفو عنه في جنب فلاحه في الآخرة وربحه الذي لا يفنى، ومن كان في مدة عمره في التواصي بالحق والصبر والعمل بحسب الوصاة فلا خسر معه، وقد جمع له الخير كله، وقرأ علي بن أبي طالب: «والعصر ونواب الدهر إن الإنسان»، وفي مصحف عبد الله: «والعصر لقد خلقنا الإنسان في خسر» وروي عن علي بن أبي طالب أنه قرأ «إن الإنسان لفي خسر وإنه فيه إلى آخر الدهر إلا الذين»، وقرأ عاصم والأعرج: «لفي خسر» بضم السين، وقرأ سلام أبو المنذر: «والعصر» بكسر الصاد «وبالصبر» بكسر الباء، وهذا لا يجوز إلا في الوقف على نقل الحركة، وروي عن أبي عمرو: «بالصبر» بكسر الباء إشماماً، وهذا أيضاً لا يكون إلا في الوقف.

نجز تفسير سورة ﴿العصر﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْهُمَزَةِ

وهي مكية بلا خلاف.

قوله عز وجل:

وَبَلِّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةً ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَا لَا وَعَدَدَ لَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُبَدِّلَنَّا فِي الْحُطْمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْنَدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾

﴿ويل﴾ لفظ يجمع الشر والحزن، وقيل ﴿ويل﴾: واد في جهنم، و«الهمة» الذي يهزم الناس بلسانه أي يعيهم، ويغتلبهم، وقال ابن عباس: هو المشاء بالنميم.

قال القاضي أبو محمد: ليس به لكنهما صفتان تتلازم، قال الله تعالى: ﴿هماز مشاء بنميم﴾ [القلم: ١١]، وقال مجاهد: «الهمة» الذي يأكل لحوم الناس، وقيل لأعرابي: أتهمز إسرائيل فقال: إني إذا لرجل سوء، حسب أنه يقال له أتقع في سبه، و«اللمزة» قريب من المعنى في الهمزة، قال الله تعالى: ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾ [الحجرات: ١١]، وقرأ ابن مسعود والأعمش والحسن: «ويل الهمزة لللمزة»، وهذا البناء الذي هو فعلة يقتضي المبالغة في معناه، قال أبو العالية والحسن: الهمز بالحضور واللمز بالمغيب، وقال مقاتل ضد هذا، وقال مرة: هما سواء، وقال ابن أبي نجيح: الهمز باليد والعين، واللمز باللسان، وقال تعالى: ﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات﴾ [التوبة: ٥٨] وقيل نزلت هذه الآية في الأخنس بن شريق وقيل في جميل بن عامر الجمحي ثم هي تتناول كل من اتصف بهذه الصفات، وقرأ ابن عامر وحمة والكسائي والحسن وأبو جعفر: «جمع» بشدة الميم، والباقون بالتخفيف، وقوله ﴿وعده﴾ معناه: أحصاه وحافظ على عدده وأن لا ينتقص، فمنعه من الخيرات ونفقة البر، وقال مقاتل: المعنى استعده وذخره وقرأ الحسن: ﴿وعده﴾ بتخفيف الدالين، فقيل المعنى جمع مالا وعدداً من عشرة، وقيل أراد عدداً مشدداً فحل التضعيف، وهذا قلق، وقوله: ﴿يحسب أن ماله أخلده﴾ معناه: يحسب أن ماله هو معنى حياته وقوامها، وأنه حفظه مدة عمره ويحفظه، ثم رد على هذه الحسبة وأخبر إخباراً مؤكداً أنه ينبذ ﴿في الحطمة﴾ أي التي

تحطم ما فيها وتلتهمه، وقرأ: «يَحْسَبُ» بفتح السين الأعرج وأبو جعفر وشيبة، وقرأ ابن محيصن والحسن بخلاف عنه: «لينبذان» بنون مكسورة مشددة قبلها ألف، يعني هو ماله، وروي عنه ضم الذال على نبذ جماعة هو ماله وعدده، أو يريد جماعة الهمزات ثم عظم شأنها وأخير أنها ﴿نَارُ اللَّهِ الموقدة﴾ التي يبلغ إحراقها القلوب ولا يحمد، والفؤاد القلب، ويحتمل أن يكون المعنى أنها لا يتجاوزها أحد حتى تأخذه بواجب عقيدة قلبه ونيته فكانها متطلعة على القلوب باطلاع الله تعالى إياها، ثم أخبر بأنها عليهم موصدة ومعناه مطبقة أو مغلقة، قال علي بن أبي طالب: أبواب النار بعضها فوق بعض، وقوله تعالى: ﴿فِي عَمَدٍ﴾ هو جمع عمود كأديم وأدم، وهي عند سيبويه أسماء جمع لا جموع جارية على الفعل، وقرأ ابن مسعود: «موصدة بعمد ممددة»، وقال ابن زيد: المعنى في عمد حديد مغلولين بها والكل من ناز، وقال أبو صالح: هذه النار هي في قبورهم، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر وحزمة والكسائي: «عُمَدٌ» بضم العين والميم، وقرأ الباقر وحفص عن عاصم بفتحهما، وقرأ الجمهور: «ممددة» بالخفض على نعت العمد، وقرأ عاصم: «ممددة» بالرفع على اتباع ﴿موصدة﴾.

نجز تفسيرها بحمد الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْفِيلِ

وهي مكية بإجماع الرواة.

قوله عز وجل:

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

﴿كيف﴾ نصب بفعل والجمهور على أنه فيل واحد، وقال الضحاك: ثمانية، فهو اسم الجنس وقوله مردود، وحكى النقاش: ثلاثة عشر، وهذه السورة تنبيه على الاعتبار في أخذ الله تعالى لأبرهة ملك الحبشة ولجيشه حين أم به الكعبة ليهدمها، وكان صاحب فيل يركبه، وقصته مشروحة في السير الطويلة، واختصاره أنه بنى في اليمن بيتاً وأراد أن يرد إليه حج العرب، فذهب أعرابي فأحدث في البيت الذي بنى أبرهة فغضب لذلك واحتفل في جموعه وركب الفيل وقصد مكة، وغلب من تعرضه في طريقه من قبائل العرب، فلما وصل ظاهر مكة وفر عبد المطلب وقرش إلى الجبال والشعاب، وأسلموا له البلد، وغلب طغيانه، ولم يكن للبيت من البشر من يعصمه ويقوم دونه، جاءت قدرة الواحد القهار وأخذ العزيز المقتدر، فأصبح أبرهة ليدخل مكة ويهدم الكعبة فبرك فيله بذي الغميس ولم يتوجه قبل مكة فبضعوه بالحديد فلم يمش إلى ناحية مكة وكان إذا وجهوه إلى غيرها هرول، فبينما هم كذلك في أمر الفيل بعث الله ﴿عليهم طيراً﴾ جماعات جماعات سوداً من البحر وقيل خضراً، عند كل طائر ثلاثة أحجار في منقاره ورجليه وكل حجر فوق العدسة ودون الحمصة فرمته بتلك الحجارة، فكان الحجر منها يقتل المرمي وتتهرى لحومهم جذرياً، وأسقماً، فانصرف أبرهة بمن معه يريد اليمن فماتوا في طريقهم متفرقين في كل مرحلة، وتقطع أبرهة أنملة أنملة حتى مات وحمى الله بيته المرفع، فنزلت الآية منبهة على الاعتبار بهذه القصة، ليعلم الكل أن الأمر كله لله، ويستسلموا للإله الذي ظهرت في ذلك قدرته، حين لم تغن الأصنام شيئاً فـ ﴿أصحاب الفيل﴾: أبرهة الملك ورجاله، وقرأ أبو عبد الرحمن: «ألم تر» بسكون الراء، و«التضليل» الخسار والتلف، و«الأبابيل»: جماعات تجيء شيئاً بعد شيء، قال أبو عبيدة: لا واحد له من لفظه وهذا هو الصحيح لا ما تكلفه بعض النحاة وقال [معبد بن أبي معبد الخزاعي]: [البسيط]

كادت تهد من الأصوات راحلتي إذ سارت الأرض بالجرد الأبابيل

وقد تقدم تفسير «حجارة السجيل» غير مرة، وهي من سنج وكل أي ماء وطنين، كأنها الأجر ونحوه مما طبخ، وهي المسومة عند الله تعالى للكفرة الظالمين و«العصف»: ورق الحنطة وتبنه ومنه قول علقمة بن عبدة: [البسيط]

تسقى مذائب قد مالت عصيفتها حدورها من أتى الهباء مطموم

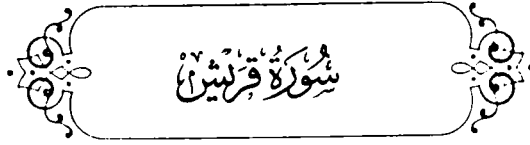
والمعنى صاروا طيناً ذاهباً كورق حنطة أكلته الدواب وراثته فجمع المهانة والخسة وأتلف، وقرأ أبو الخليل الهذلي «فتركهم كعصف»، قال أبو حاتم، وقرأ بعضهم: «فجعلتهم» يعنون الطير بفتح اللام وتاء ساكنة، وقال عكرمة: العصف حب البر إذا أكل فصار أجوف، وقال الفراء: هو أطراف الزرع قبل أن يسنبِل، وهذه السورة متصلة في مصحف أبي بن كعب بسورة «لأيلاف قريش» لا فصل بينهما، وقال سفيان بن عيينة: كان لنا إمام يقرأ بهما متصلة سورة واحدة.

وقد تقدم تفسير «حجارة السجيل» غير مرة، وهي من سنج وكل أي ماء وطنين، كأنها الأجر ونحوه مما طبخ، وهي المسومة عند الله تعالى للكفرة الظالمين و«العصف»: ورق الحنطة وتبنه ومنه قول علقمة بن عبدة: [البسيط]

تسقى مذائب قد مالت عصيفتها حدورها من أتى الهباء مطموم

والمعنى صاروا طيناً ذاهباً كورق حنطة أكلته الدواب وراثته فجمع المهانة والخسة وأتلف، وقرأ أبو الخليل الهذلي «فتركهم كعصف»، قال أبو حاتم، وقرأ بعضهم: «فجعلتهم» يعنون الطير بفتح اللام وتاء ساكنة، وقال عكرمة: العصف حب البر إذا أكل فصار أجوف، وقال الفراء: هو أطراف الزرع قبل أن يسنبِل، وهذه السورة متصلة في مصحف أبي بن كعب بسورة «لأيلاف قريش» لا فصل بينهما، وقال سفيان بن عيينة: كان لنا إمام يقرأ بهما متصلة سورة واحدة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



وهي مكية بلا خلاف.

قوله عز وجل:

لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ ۖ (١) إِلَّا لَهُمْ رَحَلَةُ الشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۖ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ (٣)
الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۖ (٤)

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحفص عن عاصم وحزمة والكسائي: ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ إِلَّا لَهُمْ﴾ على إفعال والهمزة الثانية ياء، وقرأ ابن عامر «لألف» على فعال ﴿إِلَّا لَهُمْ﴾ على أفعال بياء في الثانية، وقرأ أبو بكر عن عاصم: بهمزتين فيهما الثانية ساكنة، قال أبو علي: وتحقيق عاصم هاتين الهمزتين لا وجه له، وقرأ أبو جعفر: «إلفهم» بلام ساكنة، و﴿قُرَيْشٍ﴾ ولد النضر بن كنانة، والقرش: التكسب، وتقول ألف الرجل الأمر وآلفه غيره، فالله عز وجل ألف قريشاً أي جعلهم يألفون رحلتين في العام، رحلة في الشتاء وأخرى في الصيف. ويقال أيضاً ألف بمعنى ألف، وأنشد أبو زيد: [الطويل]

من المؤلفات الرمل أدماء حرة شعاع الضحى في جيدها يتوضح

فألف وإلاف مصدر ألف، و«إيلاف» مصدر ألف، قال بعض الناس: كانت الرحلتان إلى الشام في التجارة، وقيل الأرباح، ومنه قول الشاعر: [الكامل]

سفرين بينهما له ولغيره سفر الشتاء ورحلة الأصياف

وقال ابن عباس: كانت ﴿رحلة الشتاء﴾ إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى بصرى من أرض الشام. قال أبو صالح: كانتا جميعاً إلى الشام، وقال ابن عباس أيضاً: كانوا يرحلون في الصيف إلى الطائف حيث الماء والظل، ويرحلون في الشتاء إلى مكة للتجارة وسائر أغراضهم، فهاتان رحلتا الشتاء والصيف، قال الخليل بن أحمد فمعنى الآية: لأن فعل الله بقريش هذا ومكنهم من الفهم هذه النعمة ﴿فليعبدوا رب هذا البيت﴾.

قال القاضي أبو محمد: وذكر البيت هنا متمكن لتقدم حمد الله في السورة التي قبل، وقال الأخفش، وغيره: ﴿لَا يَلْفُ﴾، متعلقة بقوله: ﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾ [الفيل: ٥]، أي ليفعل بقريش هذه

الأفاعيل الجميلة، وقال بعض المفسرين معنى الآية: أعجبوا ﴿لإيلاف قريش﴾، هذه الأسفار وإعراضهم عن عبادة الله، ثم أمرهم بالعبادة بعد وأعلمهم أن الله تعالى هو الذي ﴿أطعمهم﴾ و﴿آمنهم﴾ لا سفرهم، المعنى: فليعبدوا الذي أطعمهم بدعوة إبراهيم حيث قال: وارزقهم من الثمرات، وآمنهم بدعوته حيث قال: ﴿رب اجعل هذا البلد آمناً﴾ [إبراهيم: ٣٥] ولا يشتغلوا بالأسفار التي إنما هي طلب كسب وعرض دنيا، وقال النقاش: كانت لهم أربع رحل، وهذا قول مردود، وقال عكرمة: معنى الآية كما ألفوا هاتين الرحلتين لديناهم ﴿فليعبدوا رب هذا البيت﴾ لأخرتهم، وقال قتادة: إنما عدت عليهم الرحلتان لأنهم كانوا يأمنون الناس في سفرتهم، والناس يغير بعضهم على بعض، ولا يمكن قبلاً من العرب أن يرحل آمناً، كما تفعل قريش، فالمعنى فليعبدوا الذي خصهم بهذه الحال فأطعمهم وآمنهم، وقوله تعالى: ﴿من جوع﴾ معناه أن أهل مكة قاطنون بواد غير ذي زرع عرضة للجوع والجذب لولا لطف الله تعالى، وأن جعلها بدعوة إبراهيم تجبى إليها ثمرات كل شيء، وقوله تعالى: ﴿من خوف﴾ أي جعلهم لحرمة البيت مفضلين عند العرب يأمنون والناس خائفون، ولولا فضل الله تعالى في ذلك لكانوا بمدارج المخاوف. وقال ابن عباس والضحاك: ﴿من خوف﴾ معناه من الجذام فلا ترى بمكة مجذوماً.

وقوله تعالى: ﴿لأنهم كانوا يأمنون الناس في سفرتهم﴾ أي لأنهم كانوا يأمنون الناس في سفرتهم، والناس يغير بعضهم على بعض، ولا يمكن قبلاً من العرب أن يرحل آمناً، كما تفعل قريش، فالمعنى فليعبدوا الذي خصهم بهذه الحال فأطعمهم وآمنهم، وقوله تعالى: ﴿من جوع﴾ معناه أن أهل مكة قاطنون بواد غير ذي زرع عرضة للجوع والجذب لولا لطف الله تعالى، وأن جعلها بدعوة إبراهيم تجبى إليها ثمرات كل شيء، وقوله تعالى: ﴿من خوف﴾ أي جعلهم لحرمة البيت مفضلين عند العرب يأمنون والناس خائفون، ولولا فضل الله تعالى في ذلك لكانوا بمدارج المخاوف. وقال ابن عباس والضحاك: ﴿من خوف﴾ معناه من الجذام فلا ترى بمكة مجذوماً.

وقوله تعالى: ﴿لأنهم كانوا يأمنون الناس في سفرتهم﴾ أي لأنهم كانوا يأمنون الناس في سفرتهم، والناس يغير بعضهم على بعض، ولا يمكن قبلاً من العرب أن يرحل آمناً، كما تفعل قريش، فالمعنى فليعبدوا الذي خصهم بهذه الحال فأطعمهم وآمنهم، وقوله تعالى: ﴿من جوع﴾ معناه أن أهل مكة قاطنون بواد غير ذي زرع عرضة للجوع والجذب لولا لطف الله تعالى، وأن جعلها بدعوة إبراهيم تجبى إليها ثمرات كل شيء، وقوله تعالى: ﴿من خوف﴾ أي جعلهم لحرمة البيت مفضلين عند العرب يأمنون والناس خائفون، ولولا فضل الله تعالى في ذلك لكانوا بمدارج المخاوف. وقال ابن عباس والضحاك: ﴿من خوف﴾ معناه من الجذام فلا ترى بمكة مجذوماً.

وقوله تعالى: ﴿لأنهم كانوا يأمنون الناس في سفرتهم﴾ أي لأنهم كانوا يأمنون الناس في سفرتهم، والناس يغير بعضهم على بعض، ولا يمكن قبلاً من العرب أن يرحل آمناً، كما تفعل قريش، فالمعنى فليعبدوا الذي خصهم بهذه الحال فأطعمهم وآمنهم، وقوله تعالى: ﴿من جوع﴾ معناه أن أهل مكة قاطنون بواد غير ذي زرع عرضة للجوع والجذب لولا لطف الله تعالى، وأن جعلها بدعوة إبراهيم تجبى إليها ثمرات كل شيء، وقوله تعالى: ﴿من خوف﴾ أي جعلهم لحرمة البيت مفضلين عند العرب يأمنون والناس خائفون، ولولا فضل الله تعالى في ذلك لكانوا بمدارج المخاوف. وقال ابن عباس والضحاك: ﴿من خوف﴾ معناه من الجذام فلا ترى بمكة مجذوماً.

وقوله تعالى: ﴿لأنهم كانوا يأمنون الناس في سفرتهم﴾ أي لأنهم كانوا يأمنون الناس في سفرتهم، والناس يغير بعضهم على بعض، ولا يمكن قبلاً من العرب أن يرحل آمناً، كما تفعل قريش، فالمعنى فليعبدوا الذي خصهم بهذه الحال فأطعمهم وآمنهم، وقوله تعالى: ﴿من جوع﴾ معناه أن أهل مكة قاطنون بواد غير ذي زرع عرضة للجوع والجذب لولا لطف الله تعالى، وأن جعلها بدعوة إبراهيم تجبى إليها ثمرات كل شيء، وقوله تعالى: ﴿من خوف﴾ أي جعلهم لحرمة البيت مفضلين عند العرب يأمنون والناس خائفون، ولولا فضل الله تعالى في ذلك لكانوا بمدارج المخاوف. وقال ابن عباس والضحاك: ﴿من خوف﴾ معناه من الجذام فلا ترى بمكة مجذوماً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْمَاعُونِ

وهي مكية بلا خلاف علمته، وقال الثعلبي: هي مدنية.

قوله عز وجل:

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾

هذا توقيف وتنبية لتتذكر نفس السامع كل من يعرفه بهذه الصفة، وهمز أبو عمرو: «أرأيت» بخلاف عنه ولم يهملها نافع وغيره، و﴿الدين﴾ الجزاء ثواباً وعقاباً، والحساب هنا قريب من الجزاء ثم قال تعالى: ﴿فذلك الذي يدعُ اليتيم﴾ أي أرقب فيه هذه الخلال السيئة تجدها، ودع اليتيم: دفعه بعنف، وذلك إما أن يكون المعنى عن إطعامه والإحسان إليه، وإما أن يكون عن حقه وماله، فهذا أشد، وقرأ أبو رجاء: «يدع»، بفتح الدال خفيف بمعنى لا يحسن إليه، وقوله تعالى: ﴿ولا يحض على طعام المسكين﴾ أي لا يأمر بصدقة ولا يرى ذلك صواباً، ويروى أن هذه السورة نزلت في بعض المضطرين في الإسلام بمكة الذين لم يحققوا فيه وفتنوا فافتنوا، وكانوا على هذه الخلق من الغشم وغلظ العشرة والفظاظة على المسلمين، وربما كان بعضهم يصلي أحياناً مع المسلمين مدافعة وحيرة فقال تعالى فيهم: ﴿فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾. قال ابن جريج: كان أبو سفيان ينحر كل أسبوع جزوراً فجاءه يتيماً، فقرعه بعضاً فنزلت السورة فيه، قال سعد بن أبي وقاص: سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾، فقال: هم الذين يؤخرونها عن وقتها، يريد والله أعلم تأخير ترك وإهمال، وإلى هذا نحا مجاهد، وقال قتادة ﴿ساهون﴾، هو الترك لها وهم الغافلون الذين لا يبالي أحدهم صلى أو لم يصل، وقال عطاء بن يسار: الحمد لله الذي قال ﴿عن صلاتهم﴾ ولم يقل في صلاتهم، وفي قراءة ابن مسعود: ﴿لا هون﴾ بدل ﴿ساهون﴾، وقوله تعالى: ﴿الذين هم يراؤون﴾ بيان أن صلاة هؤلاء ليست لله تعالى بينة إيمان، وإنما هي رياء للبشر فلا قبول لها، وقرأ ابن أبي إسحاق وأبو الأشهب: «يروؤن» مهموزة مقصورة مشددة الهمزة، وروي عن ابن أبي إسحاق: «يروؤون» بغير شد في الهمزة، وقوله تعالى:

﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ وصف لهم بقلة النفع لعباد الله، وتلك شرخلة، وقال علي بن أبي طالب وابن عمر: ﴿الماعون﴾، الزكاة، وقال الراعي: [الكامل]

قوم على الإسلام لما يمنعون ماعونهم ويضيعوا التهليلا

وقال ابن مسعود: هو ما يتعاطاه الناس بينهم كالفأس والدلو والآنية والمقص ونحوه، وقاله الحسن وقتادة وابن الحنفية وابن زيد والضحاك وابن عباس، وقال ابن المسيب: ﴿الماعون﴾ بلغة قريش: المال، وسئل النبي صلى الله عليه وسلم: ما الشيء الذي لا يحل منعه؟ قال: «الماء والنار والملح»، روته عائشة رضي الله عنها، وفي بعض الطرق زيادة الإبرة والخمير، وحكى الفراء عن بعض العرب أن ﴿الماعون﴾: الماء: وقال ابن مسعود: كنا نعد ﴿الماعون﴾ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم عارية القدر والدلو ونحوها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْكَوْثَرِ

وهي مكية

قوله عز وجل:

إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

قرأ الحسن: «إنا أنطينك»، وهي لغة في أعطى، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «واليد المنطية خير من السفلى»، وقال الأعشى: [المتقارب]

جِادُكَ خَيْرُ جِيَادِ الْمُلُوكِ تَصَانُ الْجَلَالِ وَتَنْطَى الشَّعِيرِ

قال أنس وابن عمر وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين: ﴿الكوثر﴾: نهر في الجنة، حافته قباب من در مجوف وطينه مسك وحصاؤه ياقوت، ونحو هذا من صفاته، وإن اختلفت ألفاظ الرواة، وقال ابن عباس أيضاً: ﴿الكوثر﴾: الخير الكثير.

قال القاضي أبو محمد: كوثر: بناء مبالغة من الكثرة، ولا مجال أن الذي أعطى الله محمداً عليه السلام من النبوة والحكمة والعلم بربه والفوز برضوانه والشرف على عباده هو أكثر الأشياء وأعظمها كأنه يقول في هذه الآية: ﴿إنا أعطيناك﴾ الحظ الأعظم، قال سعيد بن جبیر: النهر الذي في الجنة هو من الخير الذي أعطاه الله إياه، فنعم ما ذهب إليه ابن عباس، ونعم ما تمم ابن جبیر رضي الله عنهم، وأمر النهر ثابت في الآثار في حديث الإسراء وغيره صلى الله عليه وسلم، ونفعنا بما منحنا من الهداية. قال الحسن: ﴿الكوثر﴾، القرآن، وقال أبو بكر بن عياش: هو كثرة الأصحاب والأتباع، وقال جعفر الصادق: نور في قلبه دله عليه وقطعه عما سواه، وقال أيضاً: هو الشفاعة، وقال هلال بن يساف: هو التوحيد، وقوله تعالى: ﴿فصلّ لربك وانحر﴾ أمر بالصلاة على العموم، ففيه المكتوبات بشروطها والنوافل على نديها، والنحر: نحر البدن والنسك في الضحايا في قول جمهور الناس، فكأنه قال: ليكن شغلك هذين، ولم يكن في ذلك الوقت جهاد، وقال أنس بن مالك: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم: ينحر يوم الأضحى قبل الصلاة، فأمر أن يصلي وينحر وقاله قتادة، والقرطبي وغيره في الآية طعن على كفار مكة، أي إنهم يصلون لغير الله مكاء وتصدية، وينحرون للأصنام ونحوه، فافعل أنت هذين لربك تكن على صراط مستقيم، وقال ابن جبیر: نزلت هذه الآية يوم الحديبية وقت صلح قريش قبل لمحمد صلى الله عليه وسلم: اصل وانحر الهدى،

وعلى هذا تكون الآية من المدني، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: معنى الآية: صل لربك وضع يمينك على شمالك عند نحرك في الصلاة، فالتحر على هذين ليس بمصدر نحرب بل هو الصدر، وقال آخرون المعنى: ارفع يدك في استفتاح صلاتك عند نحرك، وقوله تعالى: ﴿إِنْ شِئْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ مِثْلَ مَا أَنْعَمْتُ عَلَيْكَ فَلَا عِلْمَ لَكَ بِمَا أَنْعَمْتُ عَلَيْكَ إِلَّا مَا تُرِيدُ﴾ رد على مقالة كان كثير من سفهاء قريش يقولها لما لم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولد فكانوا يقولون: هو أبتري يموت فنستريح منه ويموت أمره بموته، فقال الله تعالى وقوله الحق: ﴿إِنْ شِئْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ مِثْلَ مَا أَنْعَمْتُ عَلَيْكَ فَلَا عِلْمَ لَكَ بِمَا أَنْعَمْتُ عَلَيْكَ إِلَّا مَا تُرِيدُ﴾، أي المقطوع المبتور من رحمة الله تعالى ولو كان له بنون فهم غير نافعیه، «والشأنی»: المبغض، وقال قتادة ﴿الأبتري﴾ هنا يراد به الحقير الذليل، وقال عكرمة: مات ابن للنبي صلى الله عليه وسلم فخرج أبو جهل يقول: بتر محمد، فنزلت السورة. وقال ابن عباس: نزلت في العاصي بن وائل سمي النبي صلى الله عليه وسلم حين مات ابنه عبد الله أبتري.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْكَافِرُونَ

وهي مكية إجماعاً.

قوله عز وجل:

قُلْ يَتَّيْبُهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

قرأ أبي بن كعب وابن مسعود: «قل للذين كفروا»، وروي في سبب نزول هذه السورة عن ابن عباس وغيره أن جماعة من عتاة قريش ورجالها قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: دع ما أنت فيه ونحن نمولك ونزوجه من شئت من كرائمتنا وعلقتك علينا، وإن لم تفعل هذا فلتعبد آلهتنا ولنعبد إلهك حتى نشترك، فحيث كان الخير لئلا جميعاً، هذا معنى قولهم ولفظهم، لكن للرواة زيادة ونقص، وروي أن هذه الجماعة المذكورة الوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل والأسود بن المطلب وأمّية بن خلف وأبو جهل وابنا الحجاج ونظراؤهم ممن لم يسلم بعد، ولرسول الله صلى الله عليه وسلم معهم في هذه المعاني مقامات نزلت السورة في إحداها بسبب قولهم هلم نشترك في عبادة إلهك وآلهتنا، وروي أنهم قالوا: اعبد آلهتنا عاماً، ونعبد إلهك عاماً، فأخبرهم عن أمره عز وجل أن لا يعبد ما يعبدون وأنهم غير عابدين ما يعبد، فلما كان قوله: ﴿لَا أَعْبُدُ﴾ محتملاً أن يراد به الآن ويبقى المستأنف منتظراً ما يكون فيه من عبادته جاء البيان بقوله: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾، أي أبداً وما حييت، ثم جاء قوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَّا أَعْبُدُ﴾ الثاني حتماً عليهم أنهم لا يؤمنون به أبداً كالذي كشف الغيب، فهذا كما قيل لنوح صلى الله عليه وسلم: إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، وأما أن هذا في معنيين وقوم نوح عموماً بذلك، فهذا، معنى التردد الذي في السورة وهو بارع الفصاحة وليس بتكرار فقط، بل فيه ما ذكرته مع التأكيد والإبلاغ، وزاد الأمر بياناً وتبريماً منهم، وقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ وفي هذا المعنى الذي عرضت قريش نزل أيضاً: ﴿قُلْ أَفْغِيرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤] وقرأ أبو عمر: «ولي ديني» ساكنة الياء، من لي ونصبها الباقون بخلاف كل واحد منهم، والقراءتان حسستان، وقرأ أبو عمرو: «عابد» و«عابدون»، والباقون: بفتح العين وهاتان حسستان أيضاً، ولم تختلف السبعة في حذف الياء من دين، وقرأ سلام ويعقوب: «ديني» بياء في الوصل والوقف، وقال بعض العلماء في هذه الألفاظ مهادة ما وهي منسوخة بآية القتال.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ النَّصْرِ

وهي مدنية بإجماع.

قوله عز وجل:

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

قرأ ابن عباس: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، وسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه جمعا من الصحابة الأشياخ وبالحضرة لابن عباس عن معنى هذه السورة وسببها، فقالوا: كلهم بمقتضى ظاهر الفاظها، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر عند الفتح التي فتحت عليه مكة وغيرها بأن يسبح ربه ويحمده ويستغفره، فقال لابن عباس: ما تقول أنت يا عبد الله؟ فقال: هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله بقربه إذا رأى هذه الأشياء، فقال عمر ما أعلم منها إلا ما ذكرت، وهذا المنزع الذي ذكره ابن عباس ذكره ابن مسعود وأصحابه ومجاهد وقتادة والضحاك، وروت معناه عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم وأنه عليه السلام لما فتحت مكة وأسلمت العرب جعل يكثر أن يقول «سبحان الله وبحمده، اللهم إني أستغفرك» يتأول القرآن في هذه السورة، وقال لها مرة: «ما أراه إلا حضور أجلي»، وتأوله عمر والعباس بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصدقهما. و«النصر» الذي رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غلبته لقريش ولهوازن وغير ذلك، ﴿والفتح﴾: هو فتح مكة والطائف ومدن الحجاز وكثير من اليمن ودخول الناس في الإسلام ﴿أفواجا﴾، كان بين فتح مكة إلى موته صلى الله عليه وسلم، قال أبو عمر بن عبد البر النمري رحمه الله في كتاب الاستيعاب في الصحابة في باب أبي خراش الهذلي: لم يمض رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي العرب رجل كافر، بل دخل الكل في الإسلام بعد حنين والطائف، منهم من قدم ومنهم من قدم وفده، ثم كان بعده من الردة ما كان ورجعوا كلهم إلى الدين.

قال القاضي أبو محمد: والمراد والله أعلم عرب عبدة الأوثان، وأما نصارى بني تغلب فما أراهم أسلموا قط في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن أعطوا الجزية، والأفواج: الجماعة إثر الجماعة، كما قال تعالى: ﴿ألقي فيها فوج﴾ [الملك: ٨] وقال مقاتل: المراد بالناس أهل اليمن وفد منهم سبعمائة رجل، وقاله عكرمة، وقال الجمهور: المراد جميع وفود العرب لأنهم قالوا: إذا فتح الحرم لمحمد عليه

السلام وقد حماه الله من الحبشة وغيرهم فليس لكم به يدان، وذكر جابر بن عبد الله فرقة الصحابة فبكى وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «دخل الناس في الدين أفواجاً وسيخرجون منه أفواجاً» وقوله: ﴿إِنَّه كَانَ تَوَاباً﴾ يعقب ترجية عظيمة للمستغفرين، جعلنا الله منهم، وحكى النقاش عن ابن عباس أن «النصر» صلح الحديبية، وأن ﴿الفتح﴾ فتح مكة، وقال ابن عمر: نزلت هذه السورة على النبي صلى الله عليه وسلم بمنى في وسط أيام التشريق في حجة الوداع وعاش بعدها ثمانين يوماً أو نحوها صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

وهي مكية بإجماع.

قوله عز وجل:

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝ (٥)

روي في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت عليه: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ [الشعراء: ٢١٤] قال: «يا صفية بنت عبد المطلب، ويا فاطمة بنت محمد لا أملك لكما من الله شيئاً سلاني من مالي ما شئتما»، ثم صعد الصفا فنادى بطون قريش: «يا بني فلان، يا بني فلان»، وروي أنه صاح بأعلى صوته: «يا صباحاه» فاجتمعوا إليه من كل وجه، فقال لهم: «أرايتم لو قلت لكم إني أنذركم خيلاً بسفح هذا الجبل أكتتم مصدقي؟ قالوا: نعم، قال: فإني نذير بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فافترقوا عنه ونزلت السورة، و﴿تبت﴾ معناه: خسرت، والتباب: الخسار والدمار، وأسند ذلك إلى اليمين من حيث اليد موضع الكسب والريح وضم ما يملك، ثم أوجب عليه أنه قد تب أي حتم ذلك عليه، ففي قراءة عبد الله بن مسعود: «تبت يدا أبي لهب وقد تب»، و«أبو لهب»: هو عبد العزى بن عبد المطلب، وهو عم النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن سبقت له الشقاوة، وقرأ ابن كثير وابن محيصن: «أبي لهب» بسكون الهاء، وقرأ الباقر: بتحريك الهاء، ولم يختلفوا في فتحها في ﴿ذات لهب﴾، وقوله تعالى: ﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ يحتمل أن تكون ﴿ما﴾ نافية، ويكون الكلام خبراً عن أن جميع أحواله الدنياوية لم تغن عنه شيئاً حين حتم عذابه بعد موته، ويحتمل أن تكون ﴿ما﴾ استفهاماً على وجه التقرير أي أين الغناء الذي لماله ولكسبه؟ ﴿وما كسب﴾: يراد به عرض الدنيا من عقار ونحوه، أو ليكون الكلام دالاً على أنه أتعب فيه نفسه لم يجته عفواً لا بميراث وهبة ونحوه، وقال كثير من المفسرين: المراد بـ ﴿ما كسب﴾ بنوه، فكأنه قال: ﴿ما أغنى عنه ماله﴾ وولده، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خير ما كسب الرجل من عمل يده وإن ولد الرجل من كسبه»، وروي أن أولاد أبي لهب اختصموا عند ابن عباس فتنازعوا وتدافعوا، فقام ابن عباس ليحجز بينهم، فدفعه أحدهم، فوقع على فراشه، وكان قد كف بصره فغضب وصاح: أخرجوا عني الكسب الخبيث، وقرأ الأعمش وأبي بن كعب: «وما اكتسب» وقوله: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ حتم عليه بالنار وإعلام بأنه يوافي على

كفره، وانتزع أهل الأصول من هذه الآية تكليف ما لا يطاق، وأنه موجود في قصة أبي لهب، وذلك أنه مخاطب مكلف أن يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم، ومكلف أن يؤمن بهذه السورة وصحتها، فكأنه قد كلف أن يؤمن، وأن يؤمن أنه لا يؤمن، قال الأصوليون ومتى ورد تكليف ما لا يطاق فهي أمانة من الله تعالى أنه قد حتم عذاب ذلك المكلف كقصة ﴿أبي لهب﴾، وقرأ الجمهور «سَيَصْلَى» بفتح الياء، وقرأ ابن كثير والحسن وابن مسعود بضمها، وقوله تعالى: ﴿وامرأته حمالة الحطب﴾ هي أم جميل أخت أبي سفيان بن حرب عمة معاوية بن أبي سفيان، وعطف قوله ﴿وامرأته﴾ على المضمرة المرفوعة دون أن يؤكد الضمير بسبب الحائل الذي ناب مناب التأكيد، وكانت أم جميل هذه مؤذية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بلسانها وغاية قدرتها، وقال ابن عباس: كانت تجيء بالشوك فتطرعه في طريق النبي صلى الله عليه وسلم وطريق أصحابه ليعقرهم، فلذلك سميت ﴿حمالة الحطب﴾، وعلى هذا التأويل، فـ ﴿حمالة﴾ معرفة يراد به الماضي، وقيل إن قوله ﴿حمالة الحطب﴾ استعارة لذنوبها التي تحطبها على نفسها لأخترتها، فـ ﴿حمالة﴾ على هذا نكرة، يراد بها الاستقبال، وقيل هي استعارة لسعيها على الدين والمؤمنين، كما تقول: فلان يحطب على فلان وفي جبل فلان، فكانت هي تحطب على المؤمنين وفي جبل المشركين، وقال الشاعر: [الرجز]

إن بني الأدرم حمالو الحطب هم الوشاة في الرضى وفي الغضب

وقرأ ابن مسعود: «ومرياته»، وقرأ الجمهور: «حمالة» بالرفع، وقرأ عاصم: «حمالة» بالنصب على الذم، وهي قراءة الحسن والأعرج وابن محيصن، وقرأ ابن مسعود: «حمالة للحطب» بالرفع ولام الجر، وقرأ أبو قلابة: «حاملة» الميم بعد الألف، وقوله: ﴿في جيدها جبل من مسد﴾، قال ابن عباس والضحاك والسدي وابن زيد: الإشارة إلى الجبل حقيقة الذي ربطت به الشوك وحطبه، قال السدي: «المسد» الليف، وقيل: ليف المقل ذكره أبو الفتح وغيره، وقال ابن زيد: هو شجر باليمن يسمى المسد، تصنع منه الجبال، وقال النابغة: [البيسط]

مقدوفة بدخيس النحض بازلهما له صريف صريف القعو بالمسد

القعو: البكرة، والمسد: الجبل، وقال عروة بن الزبير وسفيان ومجاهد وغيرهم: هذا الكلام استعارة والمراد سلسلة من حديد في جهنم ذرعها سبعون ذراعاً، ونحو هذا من العبارات، وقال قتادة: ﴿جبل من مسد﴾، قلادة من ودع، قال ابن المسيب: كان لها قلادة فاخرة فقالت: لأنفقها على عداوة محمد.

قال القاضي أبو محمد: فإنما عبر عن قلادتها بـ ﴿جبل من مسد﴾ على جهة التفاؤل لها، وذكر تبرجها في هذا السعي الخيث، وروي في هذا الحديث أن هذه السورة لما نزلت وقرئت، بلغت أم جميل فجاءت أبا بكر وهو مع النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد، فقالت: يا أبا بكر: بلغني أن صاحبك هجاني ولأفعلن وأفعلن وإني شاعرة وقد قلت فيه: [الرجز]

مذمماً قلىنا ودينه أبينا

فسكت أبو بكر ومضت هي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد حجبني عنها ملائكة فما رأني وكفى الله شرها».

الذي سأله، وقال ابن عباس: تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد: لأن الأفهام تقف دون ذلك حسيرة، والمؤمنون يعرفون الله تعالى بواجب وجوده وافتقار كل شيء إليه واستغنائه عن كل شيء وينفي العقل عنه كل ما لا يليق به تبارك وتعالى، وأن ليس كمثله شيء، وكل ما ذكرته فهو في ضمن هذه السورة الوجيزة البليغة، وقوله تعالى: ﴿ولم يكن له كفؤاً أحد﴾ معناه: ليس له ضد ولا ند ولا شبيه، والكفاؤ والكفو والكفاء النظير، وقرأ: «كُفؤاً» بضم الكاف وهمز مسهل نافع والأعرج وأبو جعفر وشيبة، وقرأ بالهمز عاصم وأبو عمرو بخلاف عنه، وقرأ حمزة: «كُفؤاً» بالهمز وإسكان الفاء وروي عن نافع «كفأ» بفتح الفاء وبغير همز. وقرأ سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس: «ولم يكن له كفاء أحد»، بكسر الكاف وفتح الفاء، والمد، و﴿كُفؤاً﴾: خبر كان واسمها ﴿أحد﴾، والظرف ملغى، وسيبويه رحمه الله يستحسن أن يكون الظرف إذا تقدم خبراً، ولكن قد يجيء ملغى في أماكن يقتضيها المعنى كهذه الآية، وكما قال الشاعر:

ما دام فيهن فصيل حيا

ويحتمل أن يكون: ﴿كُفؤاً﴾، حالاً لما قدم من كونه وصفاً للنكرة، كما قال: لعزة موحشاً طلل، قال سيبويه: وهذا يقل في الكلام، وبابه الشعر، وقال صلى الله عليه وسلم: «إن ﴿قل هو الله أحد﴾ تعدل ثلث القرآن».

قال القاضي أبو محمد: بما فيها من التوحيد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْفَلَقِ

هذه السورة قال ابن عباس هي مدنية، وقال قتادة: هي مكية.

قوله عز وجل:

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ
النَّفَّاثِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد هو آحاد أمته، وقال ابن عباس وابن جبير والحسن والقرظي وقاتدة ومجاهد وابن زيد: ﴿الفلق﴾: الصبح، كقوله تعالى: ﴿فَالْقَاصِحُ﴾ [الأنعام: ٩٦] وقال ابن عباس أيضاً وجماعة من الصحابة والتابعين وغيرهم: ﴿الفلق﴾: جب في جهنم ورواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقوله: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ يعم كل موجود له شر، وقرأ عمرو بن عبيد وبعض المعتزلة القائلين: بأن الله لم يخلق الشر «مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ» على النفي وهي قراءة مردودة مبنية على مذهب باطل، الله خالق كل شيء، واختلف الناس في: «الغاسق إذا وقب» فقال ابن عباس ومجاهد والحسن: «الغاسق»: الليل و«وقب» معناه: أظلم ودخل على الناس، وقال الشاعر [ابن قيس الرقيات]: [المديد]

إن هذا الليل قد غسقاً واشتكت الهم والأرقا

وقال محمد بن كعب: «الغاسق إذا وقب»، النهار دخل في الليل، وقال ابن زيد عن العرب، «الغاسق» سقوط الثريا، وكانت الأسقام والطاعون تهيج عنده، وقال عليه السلام: النجم هو الغاسق فيحتمل أن يريد الثريا، وقال لعائشة وقد نظر إلى القمر: «تعوذ بالله ﴿مِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾، فهذا هو»، وقال القتبي وغيره: هو البدر إذا دخل في ساهوره فحسف، قال الزهري في «الغاسق إذا وقب»: الشمس إذا غربت، و«وقب» في كلام العرب: دخل، وقد قال ابن عباس في كتاب النقاش: «الغاسق إذا وقب»: ذكر الرجل، فهذا التعوذ في هذا التأويل نحو قوله عليه السلام وهو يعلم السائل التعوذ: «قل أعوذ بالله من شر سمعي وشر قلبي وشر بصري وشر لساني وشر منيبي»، ذكر الحديث جماعة و«النفاثات» في العقد السواحر، ويقال إن الإشارة أولاً إلى بنات لبيد بن الأعصم اليهودي كن ساحرات وهن اللواتي سحرن مع أبيهم النبي صلى الله عليه وسلم وعقدن له إحدى عشرة عقدة، فأنزل الله تعالى إحدى عشرة آية

بعد العقد، هي المعوذتان، فشفى الله النبي صلى الله عليه وسلم، والنفت شبه النفخ دون نفل ريق، وهذا النفت هو على عقد تعقد في خيوط ونحوها على اسم المسحور فيؤذى بذلك، وهذا الشأن في زمننا موجود شائع في صحراء المغرب، وحدثني ثقة أنه رأى عند بعضهم خيطاً أحمر قد عقد فيه عقد على فصلان فمنعت بذلك رضاع أمهاتها، فكان إذا حل جرى ذلك الفصيل إلى أمه في الحين فوضع أعادنا الله من شر السحر والسحرة بقدرته، وقرأ عبد الله بن القاسم والحسن وابن عمر: «النافثات في العقد»، وقوله تعالى: ﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾ قال قتادة: من شر عينه ونفسه، يريد بالنفس السعي الخبيث والإذابة كيف قدر لأنه عدو مجد ممتحن، وقال الشاعر:

كل عداوة قد ترجى إفاقتها إلا عداوة من عاداك من حسد

وعين الحاسد في الأغلب لاقعة نعوذ بالله من شرها ولا أعدمنا الله حسدة. [الكامل]

وإذا إراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

والحسد: في الاثنتين اللتين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حسد مستحسن غير ضار»، وإنما هو باعث على خير، وهذه السورة خمس آيات فقال بعض الحذاق: وهي مراد الناس بقولهم للحاسد إذا نظر إليهم: الخمس على عينيك، وقد غلظت العامة في هذا فيشيرون في ذلك بالأصابع لكونها خمسة، وأمال أبو عمرو ﴿حاسد﴾، والباقون بفتح الحاء وقال الحسن بن الفضل: ذكر الله تعالى الشر في هذه السورة ثم ختمها بالحسد ليظهر أنه أخس طبع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ النَّاسِ

قال ابن عباس وغيره: هي مدنية، وقال قتادة: هي مكية.

قوله عز وجل:

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾

﴿الوسواس﴾ اسم من أسماء الشيطان، وهو أيضاً ما توسوس به شهوات النفس وتسوله، وذلك هو الهواء الذي نهى المرء عن اتباعه وأمر بمعصيته والغضب الذي وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بطرحه وتركه حين قال له رجل أوصني، فقال: لا تغضب، قال زدني، قال: لا تغضب، وقوله: ﴿الخناس﴾ معناه: على عقبه المستتر أحياناً وذلك في الشيطان متمكن إذا ذكر العبد وتعوذ وتذكر فأبصر كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، وإذا فرضنا ذلك في الشهوات والغضب ونحوه فهو يخنس بتذكير النفس اللوامة بلمة الملك وبأن الحياة يردع والإيمان يردع بقوة فتخنس تلك العوارض المتحركة وتنقمع عند من أعين بتوفيق. وقد اندرج هذان المعنيان من الوسواس في قوله تعالى: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ أي من الشياطين ونفس الإنسان، ويظهر أيضاً أن يكون قوله: ﴿وَالنَّاسِ﴾، يراد به من يوسوس بخدعه من البشر، ويدعو إلى الباطل، فهو في ذلك كالشيطان، وكلهم قرأ ﴿الناس﴾ غير مماله، وروى الدوري عن الكسائي أنه أمال النون من ﴿الناس﴾ في حال الخفض ولا يميل في الرفع والنصب، وقالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوى إلى فراشه جمع كفيه ونفث فيهما وقرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾ [الإخلاص: ١] والمعوذتين، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، فيبدأ برأسه ووجهه وما أقبل من جسده، ففعل ذلك ثلاثاً، وقال قتادة رحمه الله: إن من الناس شياطين ومن الجن شياطين، فتعوذوا بالله من شياطين الإنس والجن.

فهرس
الجزء الخامس
من المحرر الوجيز

فهرس المحتويات

٣٩		الآيات : ٣٩ - ٤١	تفسير سورة فصلت	٣		الآيات : ١ - ٧
٤٠		الآيات : ٤٢ - ٤٥		٥		الآيات : ٨ - ١٠
٤٢		الآيات : ٤٦ - ٤٨		٦		الآيتان : ١١ ، ١٢
٤٢		الآيات : ٤٩ - ٥٣		٧		الآيات : ١٣ - ١٥
		تفسير سورة الزخرف		٨		الآيات : ١٦ - ١٨
٤٥		الآيات : ١ - ٩		١٠		الآيات : ١٩ - ٢٢
٤٧		الآيات : ١٠ - ١٤		١١		الآيات : ٢٣ - ٢٦
٤٨		الآيات : ١٥ - ١٩		١٣		الآيات : ٢٧ - ٣٠
٥٠		الآيات : ٢٠ - ٢٥		١٥		الآيات : ٣١ - ٣٥
٥١		الآيات : ٢٦ - ٣٠		١٦		الآيات : ٣٦ - ٣٩
٥٢		الآيات : ٣١ - ٣٥		١٨		الآيات : ٤٠ - ٤٣
٥٤		الآيات : ٣٦ - ٣٩		٢٠		الآيات : ٤٤ - ٤٦
٥٦		الآيات : ٤٠ - ٤٥		٢١		الآيات : ٤٧ - ٥٠
٥٧		الآيات : ٤٦ - ٥٠		٢٢		الآيات : ٥١ - ٥٤
٥٨		الآيات : ٥١ - ٥٦				تفسير سورة الشورى
٦٠		الآيات : ٥٧ - ٦٢		٢٥		الآيات : ١ - ٥
٦٢		الآيات : ٦٣ - ٦٨		٢٦		الآيات : ٦ - ٩
٦٣		الآيات : ٦٩ - ٧٣		٢٧		الآيات : ١٠ - ١٢
٦٤		الآيات : ٧٤ - ٨١		٢٩		الآيتان : ١٣ ، ١٤
٦٦		الآيات : ٨٢ - ٨٥		٣٠		الآيتان : ١٥ ، ١٦
٦٧		الآيات : ٨٦ - ٨٩		٣١		الآيات : ١٧ - ٢٠
		تفسير سورة الدخان		٣٢		الآيات : ٢١ - ٢٣
٦٨		الآيات : ١ - ١٠		٣٤		الآيات : ٢٤ - ٢٧
٦٩		الآيات : ١١ - ١٨		٣٦		الآيات : ٢٨ - ٣٣
٧١		الآيات : ١٩ - ٢٨		٣٨		الآيات : ٣٤ - ٣٨
٧٣		الآيات : ٢٩ - ٣٦				

١٢٣ الآيات: ٣٦ - ٣٨

تفسير سورة الفتح

١٢٥ الآيات: ١ - ٤

١٢٧ الآيات: ٥ - ٧

١٢٨ الآيات: ٨ - ١٠

١٣٠ الآيتان: ١١ ، ١٢

١٣١ الآيات: ١٣ - ١٥

١٣٢ الآية: ١٦

١٣٣ الآيات: ١٧ - ١٩

١٣٤ الآيات: ٢٠ - ٢٤

١٣٦ الآيتان: ٢٥ ، ٢٦

١٣٨ الآيات: ٢٧ - ٢٩

تفسير سورة الحجرات

١٤٤ الآيات: ١ - ٣

١٤٦ الآيات: ٤ - ٨

١٤٨ الآيتان: ٩ ، ١٠

١٤٩ الآيتان: ١١ ، ١٢

١٥٢ الآيتان: ١٣ ، ١٤

١٥٤ الآيات: ١٥ - ١٨

تفسير سورة ق

١٥٥ الآيات: ١ - ٨

١٥٧ الآيات: ٩ - ١٥

١٥٩ الآيات: ١٦ - ٢١

١٦٢ الآيات: ٢٢ - ٢٨

١٦٤ الآيات: ٢٩ - ٣٥

١٦٧ الآيات: ٣٦ - ٤٠

١٦٩ الآيات: ٤١ - ٤٥

تفسير سورة الذاريات

١٧١ الآيات: ١ - ١٦

١٧٤ الآيات: ١٧ - ٢٦

١٧٧ الآيات: ٢٧ - ٣٦

١٧٩ الآيات: ٣٧ - ٤٤

١٨١ الآيات: ٤٥ - ٥٢

٧٥ الآيات: ٣٧ - ٤٤

٧٦ الآيات: ٤٥ - ٥٩

تفسير سورة الجاثية

٧٩ الآيات: ١ - ٦

٨١ الآيات: ٧ - ١١

٨٢ الآيات: ١٢ - ١٤

٨٣ الآيات: ١٥ - ١٧

٨٤ الآيات: ١٨ - ٢١

٨٦ الآيات: ٢٢ - ٢٤

٨٧ الآيات: ٢٥ - ٢٩

٨٩ الآيات: ٣٠ - ٣٣

٩٠ الآيات: ٣٤ - ٣٧

تفسير سورة الأحقاف

٩١ الآيات: ١ - ٦

٩٣ الآيات: ٧ - ٩

٩٤ الآيتان: ١٠ ، ١١

٩٥ الآيات: ١٢ - ١٥

٩٨ الآيات: ١٦ - ١٩

١٠٠ الآيات: ٢٠ - ٢٢

١٠١ الآيات: ٢٣ - ٢٦

١٠٣ الآيات: ٢٧ - ٢٩

١٠٥ الآيات: ٣٠ - ٣٣

١٠٦ الآيتان: ٣٤ - ٣٥

تفسير سورة محمد

١٠٩ الآيات: ١ - ٣

١١٠ الآيات: ٤ - ٩

١١٢ الآيات: ١٠ - ١٣

١١٣ الآيات: ١٤ - ١٦

١١٥ الآيات: ١٧ - ١٩

١١٦ الآيات: ٢٠ - ٢٣

١١٨ الآيات: ٢٤ - ٢٨

١٢٠ الآيات: ٢٩ - ٣٢

١٢٢ الآيات: ٣٣ - ٣٥

تفسير سورة الواقعة

٢٣٨		الآيات: ١ - ١٢
٢٤٠		الآيات: ١٣ - ٢٦
٢٤٣		الآيات: ٢٧ - ٤٠
٢٤٥		الآيات: ٤١ - ٥٠
٢٤٧		الآيات: ٥١ - ٦٢
٢٤٨		الآيات: ٦٣ - ٧٤
٢٥٠		الآيات: ٧٥ - ٨٧
٢٥٤		الآيات: ٨٨ - ٩٦

تفسير سورة الحديد

٢٥٦		الآيات: ١ - ٤
٢٥٧		الآيات: ٥ - ٩
٢٥٩		الآيتان: ١٠ ، ١١
٢٦٠		الآيات: ١٢ - ١٤
٢٦٣		الآيات: ١٥ - ١٧
٢٦٥		الآيتان: ١٨ ، ١٩
٢٦٦		الآية: ٢٠
٢٦٧		الآيات: ٢١ - ٢٣
٢٦٨		الآيات: ٢٤ - ٢٦
٢٧٠		الآيتان: ٢٧ ، ٢٨
٢٧١		الآية: ٢٩

تفسير سورة المجادلة

٢٧٢		الآيتان: ١ ، ٢
٢٧٤		الآيتان: ٣ ، ٤
٢٧٥		الآيات: ٥ - ٧
٢٧٦		الآية: ٨
٢٧٧		الآيتان: ٩ ، ١٠
٢٧٨		الآيتان: ١١ ، ١٢
٢٨٠		الآيات: ١٣ - ١٦
٢٨١		الآيات: ١٧ - ٢١
٢٨١		الآية: ٢٢

تفسير سورة الحشر

٢٨٣		الآيتان: ١ ، ٢
-----	-------	----------------

١٨٢		الآيات: ٥٣ - ٦٠
-----	-------	-----------------

تفسير سورة الطور

١٨٥		الآيات: ١ - ١٤
١٨٧		الآيات: ١٥ - ٢٠
١٨٩		الآيات: ٢١ - ٢٨
١٩١		الآيات: ٢٩ - ٣٦
١٩٢		الآيات: ٣٧ - ٤٤
١٩٣		الآيات: ٤٥ - ٤٩

تفسير سورة النجم

١٩٥		الآيات: ١ - ١١
١٩٨		الآيات: ١٢ - ١٨
٢٠٠		الآيات: ١٩ - ٢٦
٢٠٢		الآيات: ٢٧ - ٣١
٢٠٣		الآيات: ٣٢ - ٣٨
٢٠٦		الآيات: ٣٩ - ٥١
٢٠٩		الآيات: ٥٢ - ٦٢

تفسير سورة القمر

٢١١		الآيات: ١ - ٨
٢١٣		الآيات: ٩ - ١٧
٢١٥		الآيات: ١٨ - ٢٦
٢١٧		الآيات: ٢٧ - ٣٥
٢١٩		الآيات: ٣٦ - ٤٤
٢٢٠		الآيات: ٤٥ - ٥٥

تفسير سورة الرحمن

٢٢٣		الآيات: ١ - ١٣
٢٢٦		الآيات: ١٤ - ١٨
٢٢٧		الآيات: ١٩ - ٢٨
٢٢٩		الآيات: ٢٩ - ٣٦
٢٣١		الآيات: ٣٧ - ٤٥
٢٣٢		الآيات: ٤٦ - ٥٧
٢٣٤		الآيات: ٥٨ - ٦٩
٢٣٥		الآيات: ٧٠ - ٧٨

٣٢١ الآيات : ١٦ - ١٨

تفسير سورة الطلاق

٣٢٢ الآيات : ١ - ٣

٣٢٥ الآيات : ٤ - ٧

٣٢٦ الآيات : ٨ - ١١

٣٢٧ الآية : ١٢

تفسير سورة التحريم

٣٢٩ الآيات : ١ - ٣

٣٣١ الآيات : ٤ ، ٥

٣٣٢ الآيات : ٦ - ٨

٣٣٤ الآيات : ٩ ، ١٠

٣٣٥ الآيات : ١١ ، ١٢

تفسير سورة الملك

٣٣٧ الآيات : ١ - ٤

٣٣٨ الآيات : ٥ - ٩

٣٤٠ الآيات : ١٠ - ١٥

٣٤١ الآيات : ١٦ - ٢٠

٣٤٢ الآيات : ٢١ - ٢٥

٣٤٣ الآيات : ٢٦ - ٣٠

تفسير سورة القلم

٣٤٥ الآيات : ١ - ١١

٣٤٧ الآيات : ١٢ - ٢٠

٣٤٩ الآيات : ٢١ - ٢٩

٣٥٠ الآيات : ٣٠ - ٣٨

٣٥١ الآيات : ٣٩ - ٤٥

٣٥٣ الآيات : ٤٦ - ٥٢

تفسير سورة الحاقة

٣٥٦ الآيات : ١ - ٨

٣٥٧ الآيات : ٩ - ١٧

٣٥٩ الآيات : ١٨ - ٢٩

٣٦١ الآيات : ٣٠ - ٤٠

٣٦٢ الآيات : ٤١ - ٥٢

٢٨٤ الآيات : ٣ - ٦

٢٨٦ الآيات : ٧ ، ٨

٢٨٧ الآيات : ٩ ، ١٠

٢٨٨ الآيات : ١١ - ١٣

٢٨٩ الآيات : ١٤ - ١٧

٢٩٠ الآيات : ١٨ - ٢١

٢٩١ الآيات : ٢٢ - ٢٤

تفسير سورة الممتحنة

٢٩٣ الآية : ١

٢٩٤ الآيات : ٢ - ٤

٢٩٥ الآيات : ٥ - ٧

٢٩٦ الآيات : ٨ - ١٠

٢٩٧ الآيات : ١٠ ، ١١

٢٩٩ الآيات : ١٢ ، ١٣

تفسير سورة الصف

٣٠١ الآيات : ١ - ٥

٣٠٢ الآيات : ٦ - ٨

٣٠٣ الآيات : ٩ - ١٢

٣٠٤ الآيات : ١٣ ، ١٤

تفسير سورة الجمعة

٣٠٦ الآيات : ١ - ٤

٣٠٧ الآيات : ٥ - ٨

٣٠٨ الآيات : ٩ - ١١

تفسير سورة المنافقون

٣١١ الآيات : ١ - ٤

٣١٣ الآيات : ٥ - ٨

٣١٥ الآيات : ٩ - ١١

تفسير سورة التغابن

٣١٧ الآيات : ١ - ٤

٣١٨ الآيات : ٥ - ٧

٣١٩ الآيات : ٨ - ١١

٣٢٠ الآيات : ١٢ - ١٥

تفسير سورة المعارج

الآيات : ١ - ١١	٣٦٤	الآيات : ١ - ٦	٤٠٨
الآيات : ١١ - ٢٣	٣٦٦	الآيات : ٧ - ١٣	٤١٠
الآيات : ٢٤ - ٣١	٣٦٨	الآيات : ١٤ - ٢٠	٤١١
الآيات : ٣٢ - ٣٩	٣٦٩	الآيات : ٢١ - ٢٦	٤١٣
الآيات : ٤٠ - ٤٤	٣٧٠	الآيات : ٢٧ - ٣١	٤١٤

تفسير سورة نوح

الآيات : ١ - ٤	٣٧٢	الآيات : ١ - ١٥	٤١٦
الآيات : ٥ - ١١	٣٧٣	الآيات : ١٦ - ٢٨	٤١٨
الآيات : ١٢ - ٢٠	٣٧٤	الآيات : ٢٩ - ٤٠	٤١٩
الآيات : ٢١ - ٢٥	٣٧٥	الآيات : ٤١ - ٥٠	٤٢١
الآيات : ٢٦ - ٢٨	٣٧٦		

تفسير سورة الجن

الآيات : ١ - ٥	٣٧٨	الآيات : ١ - ١٦	٤٢٣
الآيات : ٦ - ١٠	٣٨٠	الآيات : ١٧ - ٢٣	٤٢٥
الآيات : ١١ - ١٥	٣٨١	الآيات : ٢٤ - ٣٧	٤٢٦
الآيات : ١٦ - ٢٢	٣٨٢	الآيات : ٣٨ - ٤٠	٤٢٨
الآيات : ٢٣ - ٢٨	٣٨٤		

تفسير سورة المزمل

الآيات : ١ - ١٠	٣٨٦	الآيات : ١ - ١١	٤٣٠
الآيات : ١١ - ١٨	٣٨٨	الآيات : ١٢ - ٢٤	٤٣٢
الآيات : ١٩ - ٢٠	٣٩٠	الآيات : ٢٥ - ٣٦	٤٣٣
		الآيات : ٣٧ - ٤٦	٤٣٥

تفسير سورة المدثر

الآيات : ١ - ١٠	٣٩٢	الآيات : ١ - ١٧	٤٣٦
الآيات : ١١ - ٢٥	٣٩٤	الآيات : ١٨ - ٣٢	٤٣٨
الآيات : ٢٦ - ٣١	٣٩٥	الآيات : ٣٣ - ٤٢	٤٤٠
الآيات : ٣١ - ٤٢	٣٩٦		
الآيات : ٤٣ - ٥٦	٣٩٨		

تفسير سورة القيامة

الآيات : ١ - ١٥	٤٠١	الآيات : ١ - ١٢	٤٤٦
الآيات : ١٦ - ٣٠	٤٠٤	الآيات : ١٣ - ١٩	٤٤٧
الآيات : ٣١ - ٤٠	٤٠٦		

تفسير سورة الإنسان

تفسير سورة المرسلات

تفسير سورة النبأ

تفسير سورة النازعات

تفسير سورة عبس

تفسير سورة التكويد

تفسير سورة الانفطار

تفسير سورة المطففين		تفسير سورة الليل	
الآيات: ١ - ٦	٤٤٩	الآيات: ١ - ٢١	٤٩٠
الآيات: ٧ - ١٧	٤٥٠	تفسير سورة الضحى	
الآيات: ١٨ - ٢٩	٤٥٢	الآيات: ١ - ١١	٤٩٣
الآيات: ٣٠ - ٣٦	٤٥٤	تفسير سورة الشرح	
تفسير سورة الانشقاق		الآيات: ١ - ٨	٤٩٦
الآيات: ١ - ١٥	٤٥٦	تفسير سورة التين	
الآيات: ١٦ - ٢٥	٤٥٨	الآيات: ١ - ٨	٤٩٩
تفسير سورة البروج		تفسير سورة العلق	
الآيات: ١ - ٩	٤٦٠	الآيات: ١ - ١٩	٥٠١
الآيات: ١٠ - ١٦	٤٦٢	تفسير سورة القدر	
الآيات: ١٧ - ٢٢	٤٦٣	الآيات: ١ - ٥	٥٠٤
تفسير سورة الطلاق		تفسير سورة البينة	
الآيات: ١ - ١٠	٤٦٤	الآيات: ١ - ٥	٥٠٧
الآيات: ١١ - ١٧	٤٦٦	الآيات: ٦ - ٨	٥٠٨
تفسير سورة الأعلى		تفسير سورة الزلزلة	
الآيات: ١ - ١٣	٤٦٨	الآيات: ١ - ٨	٥١٠
الآيات: ١٤ - ١٩	٤٧٠	تفسير سورة العاديات	
تفسير سورة الغاشية		الآيات: ١ - ١١	٥١٣
الآيات: ١ - ١١	٤٧٢	تفسير سورة القارعة	
الآيات: ١٢ - ٢٦	٤٧٤	الآيات: ١ - ١١	٥١٦
تفسير سورة الفجر		تفسير سورة التكاثر	
الآيات: ١ - ١٤	٤٧٦	الآيات: ١ - ٨	٥١٨
الآيات: ١٥ - ٢٢	٤٧٩	تفسير سورة العصر	
الآيات: ٢٣ - ٣٠	٤٨٠	الآيات: ١ - ٣	٥٢٠
تفسير سورة البلد		تفسير سورة الهمزة	
الآيات: ١ - ١٠	٤٨٣	الآيات: ١ - ٩	٥٢١
الآيات: ١١ - ٢٠	٤٨٥	تفسير سورة الفيل	
تفسير سورة الشمس		الآيات: ١ - ٥	٥٢٣
الآيات: ١ - ١٥	٤٨٧		

تفسير سورة النصر	الآيات : ١ - ٣	٥٣٢	تفسير سورة قريش	الآيات : ١ - ٤	٥٢٥
تفسير سورة المسد	الآيات : ١ - ٥	٥٣٤	تفسير سورة الماعون	الآيات : ١ - ٧	٥٢٧
تفسير سورة الإخلاص	الآيات : ١ - ٤	٥٣٦	تفسير سورة الكوثر	الآيات : ١ - ٣	٥٢٩
تفسير سورة الفلق	الآيات : ١ - ٥	٥٣٨	تفسير سورة الكافرون	الآيات : ١ - ٦	٥٣١
تفسير سورة الناس	الآيات : ١ - ٦	٥٤٠			